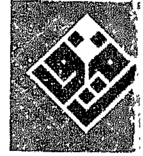
أثينة السوداء

الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية

الجزء الأول : تلفيق بلاد الإغريق ١٧٨٥-١٩٨٥



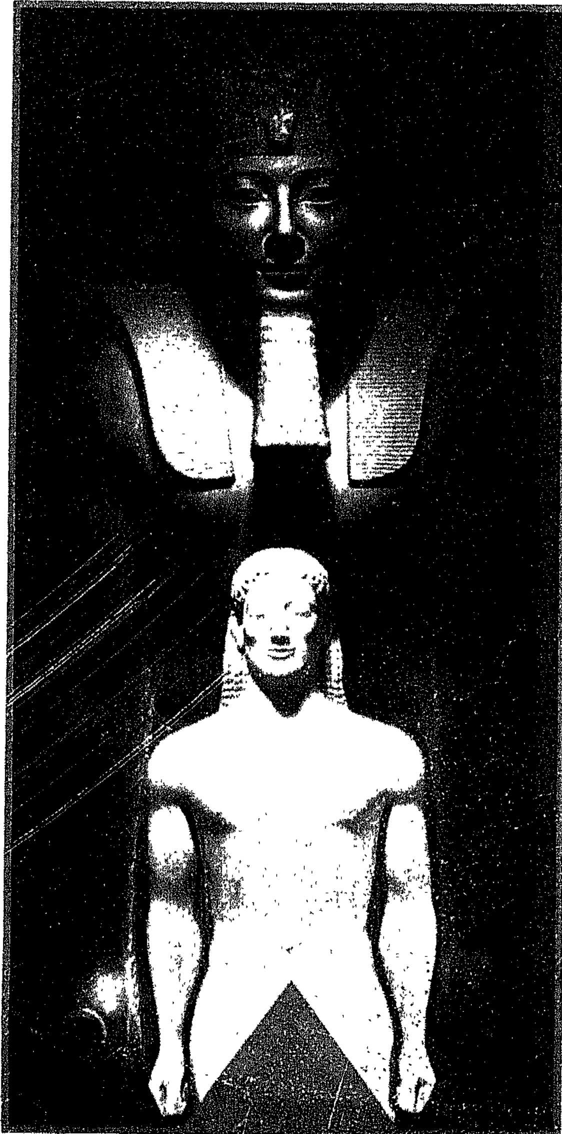


المشروع القومي للترجمة

تأليف :

مارتن برنال





تحرير ومراجعة وتقديم :

د. أحمد عتمان

ترجمة :

د. لطفي عبد الوهاب يحيى
د. فاروق القاضي
د. حسين الشيخ
د. منيرة كروان
د. عبد الوهاب علوب

16

المشروع القومي للترجمة

أثينة السوداء

الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية

الجزء الأول

تلفيق بلاد الإغريق (١٧٨٥-١٩٨٥)

تأليف: مارتن برنال

تحرير ومراجعة وتقديم: د. أحمد عتمان

ترجمة: د. لطفي عبد الوهاب يحى — د. فاروق القاضى

د. حسين الشيخ — د. منيرة كروان

د. عبد الوهاب علوب.

العنوان الأصلي للكتاب

Black Athena

The Afroasiatic Roots

of Classical Civilization

VOLUME 1

The Fabrication of Ancient Greece 1785-1985

Martin Bernal

Rutgers University Press

New Brunswick, New Jersey 1987

المحتـــــويات

الموضوع الصفحة

مقدمة الترجمة: أثينة المصرية ليست زنجية ولا عنصرية

بقلم د. أحمد عتمان

مقدمة المؤلف

ترجمة د. لطفى عبد الوهاب يحى

الباب الأول

لنموذج القديم فى العصور القديمة

ترجمة د. لطفي عبد الوهاب يحى

الباب الثانى

المعارف المصرية وإنتقال اليونان من عصور الظلام إلى عصر النهضة

ترجمة د. حسين الشيخ

الباب الثالث

إنتصار مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

ترجمة د. فاروق القاضى

الباب الرابع

العداء لمصر فى القرن الثامن عشر

ترجمة د. فاروق القاضى

الباب الخامس

اللغويات الرومانسية: نهضة الهند وسقوط مصر ١٧٤٠-١٨٨٠م

ترجمة د. عبد الوهاب علوب

الباب السادس

الهوس الهيلليني -١- (١٧٩٠ - ١٨٣٠)

ترجمة د. منيرة كروان

الباب السابع

الهوس الهيلليني -٢- إنتقال العلم الجديد إلى إنجلترا وظهور النموذج الآرى (١٧٩٠-١٨٣٠)

ترجمة د. منيرة كروان

الباب الثامن

صعود الفينيقيين وسقوطهم (١٨٣٠ - ١٨٨٥)

ترجمة د. منيرة كروان

الباب التاسع

الحل الأخير للمشكلة الفينيقية (١٨٨٥ - ١٩٤٥)

ترجمة د. منيرة كروان

الباب العاشر

الموقف فيما بعد الحرب

ترجمة د. فاروق القاضي

مقــدمة الترجمة

أثينة المصرية ليست زنجية ولا عنصرية

بقلم: د. أحــمد عتمان

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا الترجمة ؟

شئنا أم لم نشأ كان لا مفر من ترجمة هذا الكتاب. كانت أول مرة أعلم بأمر هذا الكتاب بعد صدوره بثلاثة أعوام أى صيف عام ١٩٩٠م، حيث كانت أحدى قنوات التلفزيون البريطانى قد طلبت منا إبداءُ الرأى فيه، فأرسلت لنا الكتاب وتركت لنا فرصة أسبوعين أو ثلاثة تقريباً. وبالفعل أبدينا الرأى بعد هذه القراءة المتعجلة يوم ١٩٩٠/٨/٢٢م. بعد ذلك تحدثنا عنه فى معرض الكتاب ثم نشرنا ثلاثة مقالات فى الأهرام المسائى (ديسمبر ١٩٩٢ - يناير ١٩٩٣) بالعناوين التالية:

- "الإقتراب من أثينة السوداء فى معرض الكتاب".
- "أثينة السوداء والمصادر الشرقية للمعجزة الإغريقية".
- "فيلم وتحفظات جادة حول كتاب مهم أغفلناه"[1].

وجاء فى هذه المقالات ما يلى:

"هذا مع العلم بأن لنا تحفظات جادة حول هذا الكتاب وصاحبه، وسنحاول الآن أن نتناول البعض منها وفى عجالة لا يسمح بغيرها المقام. يربط المؤلف بين إسم الفلسطين، Philistines ساكنى فلسطين فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد واسم سكان بلاد اليونان الأوائل أى "البلاسجيون" Pelasgoi. فهو يعقد صلة لغوية بين اللفظين ويقول إن الفلسطينيين أتوا إلى فلسطين من كريت. ويحاول المؤلف أن يربط لغوياً كل أسماء الأعلام الإغريقية من مدن وقرى وجبال ووديان وأنهار ... ألخ. بأسماء مصرية قديمة، فهو مثلاً يربط الأعمدة التى على هيئة

---

(١) جاء هذا الفيلم المشار إليه فى حضم موجة رد الفعل - والترويج - لهذا الكتاب. ومن الملاحظ أن هذا الفيلم لم ينتشر كثيراً ولم يجد شيوعاً. ولكن وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية روجت لهذا الكتاب كثيراً.

نساء في معبد الإريختيون على صخرة الأكروبول في أثينا وأسمها باليونانية **Karyatides** بأصل مصرى شرقى هو "كاريات أو قيرة أو كيرة". ومن ثم فإن كل الأعلام التي بها مقطع "كار – **KAR**" في اللغة اليونانية من أصل مصرى شرقى مثل قرطاجة وكورنثة وهاليكارناسوس وغيرها. وهو يقول إن كادموس (أو قادموس) من أصل سامى هو "قدم" ويعنى الشرق أو "الشروق". أما أوروبا **Europa** فمن أصلها السامي الشرقي تعني "الغرب" أو "المساء".

ومن المعروف أن طيبة المصرية تسمى عند هوميروس "ذات المائة باب" وهى مدينة الأقصر الحديثة. أما طيبة الإغريقية فهى "ذات السبعة أبواب". وفى السبعينيات قام عالم الآثار اليونانى سبيرو بولوس **T.Spyropoulos** بحفريات حول طيبة اليونانية – مدينة أوديب – فاكتشف بعض المقابر هرمية الشكل، وتوصل إلى نتيجة فحواها أن طيبة اليونانية هى مستعمرة مصرية قديمة تعود للقرن ٢١ق.م. تقريباً.[١]

طيبة إذن مصرية وكذلك اسبرطة ومدينة أثينا نفسها، لأن مؤسسها كيكروبس من أصل مصرى هو سنوسرت، هكذا يقول برنال. وهو يقول إن مدينة أثينا والربة التي سميت باسمها وهى أثينة من أصل مصرى هو **Athanait**. أما الملك المصرى مين **Min** مؤسس عبادة العجل أبيس فى ممفيس فهو أصل أسطورة "المينوتوروس" **Minotaurus** فى كريت وهو المخلوق الذى نصفه بشرى ونصفه الآخر ثور واشتق نصف أسمه الأول من أسم ملك كريت مينوس.

ولقد حول المتحمسون لبرنال كتابه كتاب "أثينة السوداء الأصول الأفرو-أسيوية للحضارة الكلاسيكية" إلى فيلم وبنفس العنوان "أثينة السوداء". ويقولون عن هذا الفيلم إنه خير مقدمة لكتاب أستاذ علم السياسة فى جامعة كورنل أى مارتن برنال

---

(١) كان كاتب هذه السطور يقيم فى أثينا وقت نشر التقريرات الأولى عن هذه الحفريات حيث قامت ضجة اعلامية حولها أنظر:

Spyropoulos, T.(1972) 'Αιγυπτιακος 'Εποικισμος εν Βοιωτιαι', 'Αρχαιολογικα 'Αναλεκτα εξ 'Αθηνων 5: 16-27.

Idem: (1973) 'Εισαγωγη εις την Μελετην του Κωπαικου Χωρου', Αρχαιολογικα 'Αναλεκτα εξ 'Αθηνων 6 201 14.

المؤلف. ويعتبرونه صاحب نظرية تحطم الأصنام الفكرية، فهو القائل بأن إفريقيا هى أصل الحضارة الغربية. ويقدم الفيلم – كما يقولون – موجزاً للبراهين الأثرية واللغوية والأدبية حول التأثيرات المصرية على الحضارة الإغريقية، وهى التأثيرات التى أهملتها الدراسات الكلاسيكية الأوروبية بصفة منظمة واصرار متعمد.

ولقد اعترف بأهمية هذا الكتاب أساتذة كلاسيكيون كبار نذكر منهم السير جون بوردمان **Sir John Boardman** وريتشارد جانكينز **Richard Jenkins** وكلاهما من جامعة أكسفورد العريقة. ولكن جون رى **John Ray** من كامبريدج وسارة موريس **Sarah Morris** – التى سيرد ذكرها فيما بعد – أجابا بأن إتجاه مارتن برنال نحو مناهضة العنصرية قد أوقعته فى المبالغة وهو يبرز التأثيرات الأفرو–أسيوية على الحضارة الإغريقية، مما جعله غير قادر على تقييم جانب الأصالة فى هذه الحضارة، وهى أصالة شهدت بها أجيال عدة من الدارسين والعلماء والمؤرخين والفلاسفة ومنذ عدة قرون.

وكل تلك الآراء المؤيدة أو المناهضة لكتاب برنال "أثينة السوداء" استغله الفيلم الذى يحمل نفس العنوان. وقالوا إن هذا الفيلم يطلق العنان لحوار لا نهاية له، كما أنه يقنع الدارس بأن الإطلاع على الكلاسيكيات يمكن أن يزوّد المرء برؤية نفاذة تسبر أغوار مايجرى حولنا فى هذه الدنيا".[1]

فى السطور السابقة إستعرضنا مجمل انطباعنا الأولى عن هذا الكتاب الذى نحيناه جانباً بعض الوقت حتى كلفتنى لجنة الترجمة فى المجلس الأعلى للثقافة بكتابة تقرير عن الكتاب يبرر إقتراح الترجمة الذى قدمه للجنة الأستاذ شوقى جلال. والغريب حقاً أن الأفكار البسيطة التى طرحتها فى هذا التقرير وفى تلك المقالات والتى خرجت بها من المطالعة الأولى للكتاب لم تتغير فى جوهرها عما خرجت به من القراءة المتأنية والدرس المعمق أثناء مراجعة الترجمة وكتابة هذه المقدمة. كل ما حدث أننى توسعت فى الموضوع وعدت لبعض المراجع وتمكنت من توثيق آرائى. وكانت النقاط الرئيسية التى خرجت بها من المطالعة الأولى هى:

---

(١) هنا ينتهى موجز ما سبق أن نشرناه عن الكتاب فى "الأهرام المسائى".

- ليس برنال مؤلف "أثينة السوداء" هو أول من طرح فكرة الأصول الشرقية للحضارة الإغريقية. وهذا بناء على ماجاء في الكتاب نفسه ولاسيما ما يسميه "النموذج القديم"
- هناك قدر عالٍ من الحدة تصل إلى المبالغة أو الشطط في طرح القضايا مما يثير الإستفزاز.
- هناك ميل نحو اليهودية أو السامية، أو بصراحة أكثر مجاراة الحركة الصهيونية التي تزعم بأن اليهود هم بناة الحضارة الانسانية فإليهم يعود الفضل في كل شيئ. فالهدف ليس هو انصاف مصر وحضارتها كما هو معلن.

وتواكب شروعنا في الترجمة مع عقد المؤتمر الدولي "قضايا الأدب المقارن في الوطن العربي" الذي نظمه مركز الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة بكلية الآداب جامعة القاهرة في الفترة من ١٧-١٩ ديسمبر ١٩٩٥م ومن ثم فكرنا في دعوة برنال لهذا المؤتمر لكي تسنح الفرصة للحوار معه.

ولقد كان حضور برنال في المؤتمر ذا فائدة قصوى حقاً، حيث ألقى محاضرة عامة في بداية المؤتمر، ثم شارك في المائدة المستديرة حول الدراسات اللغوية المقارنة مع كوكبة من خيرة علماء اللغويات في مصر والعالم العربي. ولكن على المستوى الثقافي العام شعرنا بأن دعوته لزيارة مصر جاءت قبل الآوان، إذ إكتشفنا من خلال اللقاءات مع المثقفين المصريين أن ردود فعلهم لم تكن ناضجة. بل إن البعض منهم شارك في الحوار دون أن يكون قد استعد لذلك بطريقة كافية. بل إن بعضاً ممن نسميهم "المتخصصين" تعجل في دخول معركة إعلامية - ولا نقول ثقافية - حول "أثينة السوداء". قال أحدهم إن برنال ليس متخصصاً وكلامه يدخل في باب المعلومات من الدرجة الثانية second information. وقال آخر إن كتابه مجرد "دروشة"، ويعني أنها ضرب من الهلوسة، كما حدث في حالة مجانين الإسكندر الأكبر الباحثين عن قبره سواء في الاسكندرية أو سيوه أو بلاد الوقواق.

خلاصة القول في هذه النقطة إننا نشعر بالخجل إزاء ردود الأفعال السطحية، ونحمل أنفسنا المسئولية، لأننا تعجلنا في إثارة الموضوع قبل أن نستعد له. ولعلنا بتقديم هذه الترجمة التي بين أيدينا للقارئ العربي والتي أنجزها نخبة من خيرة الأساتذة المتخصصين في الجامعات المصرية نصلح هذا الخطأ ونبدأ الحوار البداية الصحيحة فالوقت ليس متأخراً قط.

أما عن مدى الجدية فى كتاب برنال فإننا نستشهد برأى إديث هول Edith Hall وفحواه "إن التحدى الذى يقدمه كتاب برنال مهم جداً. إنه جدل مفعم بالإيديولوجية وهو كذلك جدل سياسى يشمل فنوناً كثيرة منها الصحافة والأدب. وينبغى أن نقرأ هذا الكتاب وأن نراجع كل مفاهيمنا الموروثة أو المكتسبة عن العالم القديم وحضارته. وفى نفس الوقت علينا أن نفهم أنفسنا أولاً بوصفنا علماء أكاديميين نمثل جزءً من الإيديولوجية الثقافية وغير الثقافية المحيطة بنا وبوصفنا أيضاً المسؤلين عن إعادة صياغة هذه الإيديولوجية"[1].

وتضيف هذه الباحثة نفسها قائلة إن المعيار هو القدرة التنافسية على الإقناع وليس الدليل بالإدانة أو التبرئة. فالوضعية الأثرية archaeological positivism التى يتحدثون عنها لا يملكها برنال ولا يملك الدليل على صحتها، فتفسير المكتشفات الأثرية ليس مقدساً. بل إن التراث الشفوى والحكايات والحواديت المتداولة، وكذا أسماء الأماكن والجبال والأنهار والمدن لها نفس الأهمية". ثم تضيف إديث هول قولها "لقد أثار (هذا الكتاب) من الجدل أكثر مما أثاره أى كتاب آخر فى التراث الإغريقى الرومانى ظهر فى النصف الثانى من القرن العشرين"[2].

ولقد أجهدتنا عملية الترجمة فى جميع مراحلها من ترجمة النص الأصلى إلى المراجعة والتدقيق والتعليق والتقديم والتعقيب. لقد أجهدتنا ونحن عصبة فما بالكم بالمؤلف نفسه ؟ كان هذا السؤال يساورنا دائماً أثناء العمل، ولم نجد له جواباً سوى أن هذا الكتاب ربما يكون تأليفاً جماعياً، أى ليس من نتاج قلم واحد. فهو يحتاج إلى جيش من المتخصصين، كما أنه بالفعل يعكس روح الفريق. ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك على نحو قاطع، فقلنا لأنفسنا إنه كتاب من نتاج عصر الكومبيوتر والانترنت وانفجار بركان المعلومات. والمشكلة الأخطر أنه كتاب لا يمكن أن

---

(١) Edith Hall, "When is a Myth not a Myth? Bernal's Ancient Model". Arethusa, vol. 25, no.1(Winter 1992) p. 183.

وراجع كتابها:

Eadem, Inventing the Barbarian: Greek Self-definition through Tragedy. Oxford 1989.

(٢) Eadem, Arethusa, vol. 25, no. 1, (Winter 1992), p. 181.

ترفضه أو أن تقبله جملة وتفصيلاً وبشكل مطلق. لدى المؤلف مشروع ضخم صدر منه حتى الآن مجلدان، والمجلد الأول هو الذى بين أيدينا، تلاه المجلد الثاني بهذا العنوان: Volume II. The Archaeological and Documentary Evidence. Free Association Books, London 1991. (الجزء الثاني: الدليل الأثرى والوثائقى، لندن ١٩٩١). أما الجزء الثالث فعلي وشك الصدور، والرابع هو الذى لا زال في ذهن المؤلف. يقع كل مجلد فى حوالى ستمائة صفحة. ومجرد هذه الضخامة، وإن كانت من عيوب الكتاب، إلا أنها تضع علامة استفهام ضخمة أيضاً وموحية أمام أسماء أولئك الذين قالوا عن هذا العمل إنه "دروشة" أو "سطحية" فارغة. لأن نجاح المجلد الأول هو الذى شجع على إصدار المجلد الثانى وهكذا. وسنأتى على ردود الأفعال الجادة فى ثنايا هذه المقدمة[1]. ولقد كتب فرمولى E.Vermeule حول رد الفعل على صدور هذا الكتاب فقال "لقد إنقلب العالم (الأكاديمى) رأساً على عقب "The World turned upside down"[2].

وآخر ماوصلنا من أصداء لأثينة السوداء أن مؤلفة يهودية أخرى هى مارى ليفكوفيتس M.Lefkowitz من جامعة ويلليزلى Wellesly College فى أمريكا نشرت كتاباً فى غضون هذا العام ١٩٩٧ بعنوان "Not Out of Africa" أى "ليس انطلاقاً من إفريقيا". وهى ترد بهذا الكتاب على دعاة المركزية الإفريقية وفى مقدمتهم بالطبع مارتن برنال. وقد ترجم هذا الكتاب على الفور إلى اللغة اليونانية الحديثة ناسوس كيريازوبولوس تحت عنوان "أثينة السوداء" أساطير وحقيقة" وعنوان جانبى "الشطط فى حركة المركزية الأفريقية". حيث فرح به اليونانيون

---

(١) بالطبع لا نستطيع أن نورد هنا قائمة بكافة الندوات والمقالات التى جاءت أصداء" لهذا الكتاب ونكتفى بالإشارة السريعة إلى بعض الأرقام:
عام ١٩٨٩م عقدت عشرة ندوات فى الجامعات الأمريكية والأوروبية، عام ١٩٩٠م عقدت خمسة عشر ندوة، عام ١٩٩١م سبعة عشر، عام ١٩٩٢م ستة عشر، عام ١٩٩٣م إحدى وعشرون، عام ١٩٩٤م إحدى عشر، ١٩٩٥ تسع ندوات. وتراوحت هذه الندوات من حلقات البحث المحلية (Seminars) إلى المؤتمرات الدولية. ونشرت بعض هذه الندوات فى كتيبات أو دوريات وبعضها لم ينشر بعد. أما المعروض فى الصحافة والتعليقات فى وسائل الإعلام فلا يمكن حصرها بدقة.

(٢) E.Vermeule The New York Review of Books, March. 26, 1992

لأنه يقلل من شأن التأثير المصرى والشرقى على حضارتهم القديمة[1]

ولنسأل أنفسنا سؤالاً بسيطاً ومحدداً هو ماهي متطلبات البحث في هذا المجال الـذى يـدور حوله الكتاب؟ والإجابة مخيفة جداً. فالمفروض أن يتسلح الباحث في هـذا المجـال باللغـات القديمـة الأساسية سواء اللغة المصرية القديمة واللغـات السـامية واليونانيـة واللاتينيـة عـلاوة على اللغـات الحديثة. وعلى الباحث في هذا المجال أن يلم باللغويات المقارنة، والأنثروبولوجيا، والآثار والتاريخ والديانات ... ألخ. ويتطلب مثل هذا البحث فيما يتطلب دراسة مسار الحضارة الأوروبية الحديثـة وتاريخ الدراسات الكلاسيكية بكافة فروعها. وفوق هذا وذاك يتطلب هذا البحـث القـدرة علـى التمييز والتحليل والمقارنة وقراءة ما بين السطور. ومن المدهش في هذا الكتاب أنك وأنت تقلـب صفحاته لا يغيب عنها وعنك أى اسم من أسماء مشاهير العـالم القديـم والحديـث سـواء فـي مجـال التاريخ أو الفلسفة، الشعر أو النثر، السياسة أو الإقتصاد وهكذا. فلا تعجب إذا إلتقيت في هـذا الكتاب بنابوليون بونابارت وماوتسى تونج وهتلر وهرتزل وماركس وستالين وغيرهم.

من النادر ألا تجد هذا الكتاب يشير إلى أهم المصادر والمراجع الرئيسية المتخصصة وأمهـات الدراسات الجادة في هذا الفرع أو ذاك من ذلك الموضوع الشاسع الذى يتعـرض لـه، بـل وتجـده يستغل هذه المصادر والمراجع أفضل إستغلال مما يشي بأنه اسـتوعبها، وقـد مكنـه هـذا مـن نقدهـا وتجاوزها في بعض الحالات. وبوصفى متخصصاً في الدراسـات اليونانيـة واللاتينية لم يصبنـي قـط الإحباط عندما كنت أتطلع – أثناء القـراءة – إلى هـذا النـص العمـدة أو ذاك المرجـع الأساسـي، فعلى الفور كنت أطالعه في المتن أو في الحواشي. لقد زين المؤلف صفحـات كتابـه بـأعلام الفكـر العالمى والإنسانى.

وكانت هذه الضخامة والإستطرادات المطولة مصدر إنتقاد مرير من قبل الكثيرين. فها هـو

---

(1) ΜΑΙΡΗΣ ΛΕΦΚΩΒΙΤΣ, Η, ΜΑΥΡΗ ΑΘΗΝΑ, Μυθοι και πραγματικότητα, η, οι παραποιησεις του "αφροκεντρισμου", Μεταφραση, ΝΑΣΟΥ ΚΥΡΙΑΖΟΠ-ΟΥΛΟΥ δ.φ., ΚΑΚΤΟΣ · 1997.

أنظر مجلة Klik اليونانيـة عـدد مـايو ١٩٩٧ ص١٢-١٣ وجريـدة To Vema عـدد ١٣ يوليـو ١٩٩٧ ص٣٠ (الملحـق الأدبـي)

الدكتور حسن حنفي – صاحب الكتب المطولة – يتحدث عن عيوب هذا المشروع فيقول "يئن الكتاب من وطأة التفصيلات والجزئيات والتحليلات المتناهية في الصغر بحيث تطغى المادة العلمية و "الفيشات" المنقولة المجمعة على القضية ذاتها والإفتراض المطلوب إثباته ... وتصل درجة الإسهاب إلى حد الصعوبة في القراءة والملل منه... حتى لينوه القارئ أو يتهم المؤلف بالتعالم أو الرغبة في إخفاء شئ وراء هذا الكم الضخم من المعلومات التاريخية عن الحضارات القديمة ... ". ومع ذلك يعترف حسن حنفي نفسه بمزايا هذا الكتاب فيقول "يكشف الكتاب عن قدرة فائقة على الدراسة والإستيعاب والتحليل واستخلاص النتائج وبناء التصورات والخيال العلمي الواسع خاصة أنه دراسة على دراسة، وكلام على كلام وقراءة لأعمال الآخرين، تبين أخطاء المؤرخين وتضع أسساً لفن كتابة التاريخ القديم كما فعل ابن خلدون في نقد أخطاء المؤرخين السابقين عليه. وبه قدرة على المراجعة والنقد بحيث يتخلق الموضوع من خلالها، ويتم اكتشافه من بين السطور، وهو صورة علمية أو إفتراض علمي قابل للتحقيق خاصة إذا كان الميدان دراسة ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد"[1].

ولاتفوتنا هنا الإشارة إلى أن حسن حنفي بملاحظاته القيمة هذه قد ردّ رداً مفحماً على أولئك الذين سخروا من برنال وقالوا إنه "درويش" غير متخصص وهاو لا يفهم شيئاً. بل إن البعض دعا إلى تجاهله وعدم ترجمة كتابه إلى العربية. فكانت آراؤهم تلك في الواقع مثار السخرية من قبل العلماء الجادين. فقد لا نقبل بآراء برنال المغرضة، وقد نرفض الكثير من تفسيراته غير المقنعة. ولكن من المكابرة والعناد بجهالة أن ينكر أحد أنه في كل حال قد أثار من التساؤلات ما هو جدير بالتفكير وإعادة النظر مرة بعد أخرى.

في خضم القضايا الشائكة

يقول برنال نفسه إن الهدف الجدير بالصفة العلمية من موضوع "حل لغز أبي الهول" هو نفسه المرصود للمجلدين الآخرين، أي أن أفتح مساحات جديدة للبحث أمام نساء ورجال

---

[1] د. حسن حنفي، "أثينا السوداء، أثينا المصرية"، مجلة القاهرة العدد ١٥٦ (نوفمبر ١٩٩٥، ص. ١٨٠-١٩٩ ولاسيما ص١٩٦-١٩٨.

يملكون مؤهلات أفضل بكثير مما أملكه. أما الهدف السياسي من "أتينة السوداء" فهو بالطبع التقليل من الغطرسة الثقافية الأوروبية"[١]

إن نقد العقلية الأوروبية – التي فسرت الحضارة الإنسانية على أنها أوروبية خالصة – قد يفيدنا في دعم رؤيتنا التأصيلية التي تسلط الضوء على الدور المصرى والشرقي عموماً ثم الدور العربي الإسلامىبعد ذلك. بل إن هذا الكتاب يحضنا حضاً على إعادة قراءة التاريخ الإنساني، ولاسيما تاريخنا القومي الذى كتبه – أو لفّقه – لنا الآخرون أى الأوروبيون. وقد يساعدنا هذا الكتاب فى رد الإعتبار للشرق سواء شرقنا الأدنى أو الأوسط وكذلك الشرق الأقصى فى اليابان والصين وكوريا والهند وإيران وأواسط آسيا. إنه إذن "مانيفستو" ضد المركزية الأوروبية، بل وضد فكرة الإسترقاق القائمة على أساس أن بعض الشعوب خلقت لتكون لها السيادة وأخرى للعبودية والتبعية. فهكذا ظن الإغريق والرومان واستمر الفكر السياسى يساند هذه الفكرة من أرسطو[٢] إلى منظرى حركة الاستعمار الأوروبى. وظهرت ثمار هذه الفكرة الإستعمارية فى أسلوب معاملة السود الأفارقة والهنود الحمر.

وبرغم الضخامة والتشعب وتعدد الثقافات والمناهج المطلوبة لتأليف الكتاب الذى بين أيدينا لم يقع صاحبه فى أى خطأ جوهرى، بل نجده على دراية واسعة بأمور كثيرة متنوعة، وهو أمر يحسد عليه ولاسيما إلمامه بالكثير من اللغات القديمة والحديثة التى يندر أن يلم بها شخص واحد. ولذلك لم يجرؤ الذين خالفوه الرأى على إتهامه بالجهل أو إدعاء العلم. وشكره الكثيرون على تعرية النزعة الأوروبية المركزية والعنصرية المتأصلة فى الثقافة الغربية بصفة عامة: ولعل من الثمار الظاهرة التى يمكن الإفادة منها الآن أن هذا الكتاب أظهر أهمية اللغة المصرية القديمة واللغات الشرقية الأخرى لفهم الحضارة الإغريقية، ومن ثم أصول الحضارة الغربية عموماً. وفى المقابل أظهرت "أثينة السوداء" أهمية اللغات اليونانية واللاتينية لفهم الحضارات الشرقية القديمة

---

(١) راجع متن هذا الكتاب فى صفحات متفرقة.

(٢) Ahmed Etman, “Foreigners in Greek Tragedy”. Proceedings of the 12th Congress of the International Comparative Literature Association (ICLA) 1988, Published Munich 1990, vol. 2, pp. 546-552.

وفي مقدمتها الحضارة المصرية، أى أن المنافع متبادلة[١]. وهـذا كلـه يقودنـا إلى أهميـة الدراسـات اللغوية المقارنة التى بدونها لا يمكن الخوض فى هذا الموضوع.

ومن أصعب الأمور التى تواجه القارئ المدقق لهذا الكتـاب تصنيفه. فمـن الخطأ اعتبـاره كتاباً فى الحضارة المصرية القديمة أو فى الحضارة الكلاسيكية، مـع أنـه ضـالع فـى هذيـن المجـالين ومؤثر فيهما أكبر التأثير. ثم إن الكتاب قد صيغ بأسلوب فيه الكثير مـن الدهـاء والمراوغـة، فهـو ينفق عشرات الصفحات حول تفريعات وخلفيات لقضية ما، ثم يصدر الحكـم فـى عبـارة عـابرة. وهو يفعل ذلك بصفة خاصة عندما يتناول فضل العبرانيين على الحضارة الإنسانية. وفى كثـير مـن الحالات تجد عباراته عائمة غائمة لايمكن الامســاك بهـا أو الإسـتناد إليهـا فـى توجيـه الإنتقـاد إلى صاحبها مثلاً. هذه العبارات الزئبقية شديدة الإيحاء والإلتواء، فإذا قلت له أنت تقول كـذا وكـذا لكان من السهل عليه الرد: أنا لا أعنى ذلك. بل هذا ما فهمته أنت!

وما أكثر القضايا الشائكة والمثارة فى هذا الكتاب!. ولكن هناك قضايا رئيسية تحتل مركـز الصدارة أو حتى الخلفية العامة، ونعنى الرد على حركـة "معـاداة السـامية" فـى الأوسـاط العلميـة والثقافية بالغرب. وبالطبع تحتل النازية هنا الموقع الأهم من حيث توجيه الضربات القاتلـة. ولكـن الكتاب بصفة عامة يدخل فى بـاب التـاريخ السـرى للفكـر الأوروبـى أو سوسـيولوجيا الحضـارة الغربيـة. فيفسـح الكـاتب المجـال للقيـل والقـال وأدب الفضـائح والمعـارك الأدبيـة وغـير الأدبيـة، والحركات الدينية السرية والعلنية. وفى الظاهر يدافع المؤلف عن "المصرية" فى مواجهة ما يسـميه "النموذج الآرى المتطرف". ولكنه فى الظاهر والباطن معا يعلى من شـأن "السـامية" فـى مواجهـة الطرفين السابقين. وبذلك وضع المؤلف نفسه بين طرفين فى الواقع لا ثلاثة. وهو يسـمو بالسـامية على "النموذج الآرى المتطرف" و "المصرية" وهو بذلك يضع نفسه إلى حد مـا فـى صـف أولئـك الذين يرون فى "السامية" أساس الحضارة الإنسانية ووصل بهم الأمر إلى حد الزعم بأن اليهود هم بناة الأهرامات. وفى نفس الوقت يصرح برنال فى لقـاء صحفـى أجرتـه جريـدة الأهـرام ويكلـى

---

[١] سبق لنـا أن تحدثنـا فـى سلسـلة من أحـاديث السـهرة بالإذاعـة عـن "تبـادل المنـافع بـين اللغـات" ثـم تناولنـا هـذا الموضـوع فـى سلسـلة مقـالات نشـرت بجريـدة الرايـة القطريـة والأهـرام المسـانى وجـارى إعداد هـذه المقـالات وتوثيقهـا تمهيـداً لنشـرها فـى كتـاب.

٢١-٢٧ ديسمبر ١٩٩٥م (ص١٣)، أى أيام إنعقاد مؤتمر "قضايا الأدب المقارن فى الوطن العربى" فيقول: (*The term Semitic is a linguistic term and not an ethnic or racial term*) "إن لفظ "سامى" مجرد مصطلح لغوى وليس مصطلحاً قومياً أو عرقياً".

ومعروف للجميع أن مصطلح "سامى" هو مصطلح لغوى أكثر من أن يكون قوميا أو سلاليا، إذ أنه يطلق على الشعوب التى كانت تتكلم اللغات السامية وهذه اللغات كانت تنتشر فى العراق والشام والجزيرة العربية وتتسم بسمات مشتركة فى الأصوات والمفردات والنحو والصرف. وتشترك معها فى بعض هذه السمات لغتنا العربية الفصحى، مما يدل على أن هذه اللغات جميعا تنتمى لأصل واحد مشترك يطلق عليه علماء الدراسات السامية "اللغة السامية الأم"، التى نشأت فى الجزيرة العربية وانتقلت مع الهجرات منها إلى المناطق الخصبة المحيطة بها كالعراق والشام وأصبح هؤلاء المهاجرون يحملون أسماء المدن أو المناطق التى استقروا فيها أو التى اتخذوها عواصم لهم كالأكاديين والبابليين فى العراق والكنعانيين فى الشام، وأن هذه اللغة السامية الأم انحدرت منها فى الجزيرة العربية فى نفس الوقت لغات متعددة آخرها اللغة العربية الفصحى، التى أخذت تتضح ملامحها فى النقوش النبطية فى الحجاز قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون ونصف القرن تقريبا. وقد قسم علماء اللغات الشرقية تفرعات اللغة السامية الأم وفقاً لما حدث فى هذه الهجرات وانتشارها وتطورها فى العراق والشام.

ومن المعروف إذن أن اللغة السامية الأم فى الجزيرة العربية إنحدرت منها ثلاثة فروع الأولى هو السامية الشمالية الشرقية (الأكادية - البابلية الأشورية). والفرع الثانى هو اللغة السامية الجنوبية (العربية فى الحجاز والعربية فى اليمن. ومن عربية الحجاز جاءت العربية الفصحى). أما الفرع الثالث فهو السامية الشمالية الغربية (الكنعانية والآرامية ومن الأولى جاءت العبرية والفينيقية ومن الثانية الآرامية والسريانية والنبطية)[1]

---

(١) وردت آراء برنال المعبرة عن اعتقاده بأن الفينيقية هى العبرية فى صفحات متفرقة من الكتاب الذى بين أيدينا ونشير هنا بصفة خاصة إلى الباب الثالث حاشية ٢٤ والباب الثامن حاشية ٥٢. قارن د. عبدالمنعم عبد الحليم، أخبار الأدب، عدد ٢٠، يوليو ١٩٩٧. ص٢٨.

إن فكرة السامية باعتبارها أساس الحضارة الإنسانية ماثلة فى كل صفحة من صفحات الكتاب. فالمستعمرون القدامى الذين يتحدث عنهم برنال فى البحر المتوسط هم فى الغالب ساميون ويتحدثون بلسان سامى مع ميل لاعتبار السامية تتمثل فقط فى، التراث العبرى. ومع ذلك فمن الخطأ والخطر أن نترك هذا الكتاب ولا نترجمه ودون أن ندرسه ونمحصه ونرد عليه إذا استطعنا. يزعم بوشار Bochart أن العبرية والفينيقية لغة واحدة دخلت منها مفردات كثيرة جداً إلى اليونالية واللاتينية، ومن ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة. أين الدراسات الشرقية فى مصر والعالم العربى للتصدى لهذه المسألة الحضارية ؟

يقول برنال إن الفينيقيين هم يهود العالم القديم، وإن معاداة السامية فى الأوساط العلمية والثقافية قد إمتدت إلى معاداة الفينيقية ويستشهد برواية فلوبير التاريخية "سلامبو" Salammbo التى تتضمن وصفاً مطولاً لتدهور قرطاجة الفينيقية.

ولقد سبق أن نشر كل من جوردون C.Gordon وآستور M.C.Astour [1] دراسات عدة تؤكد أن الأساطير السامية هى أصل الأساطير الإغريقية، وأن مستوطنات سامية قد زرعت فى جزر بحرإيجة وأراضى اليونان القارية، ولاسيما بيوتيا وعاصمتها طيبة. ولم يستقبل العلماء والمتخصصون دراسات جوردون وآستور على النحو اللائق برأى برنال، الذى يقول

---

(1) راجع: C.H.Gordon: Homer and Bible. New York. 1955.

Idem: Before the Bible, the Common Background of Greek and Hebrew Civilizations. 2nd.ed. New York, 1965.

Idem: Ugaritic Textbook, Analecta Oriéntalia 18: Rome: Pontificum Institutum Biblicum. 1965.

Idem: "North West Semtic texts in Latin and Greek Letters", Journal of the American Oriental Society 88, (1968), pp. 285-6.

Idem: "The Semitic Language of Minoan Crete" in Arbeitsnan and Bombard (1982) pp. 761-782.

M.C.Astour, Hellenosemitica: An Ethnic and Cultural Study in West Semitic Impact on Mycenaean Greek. Leiden-Brill. 1967.

Idem: "The Problem of Semitic in Ancient Crete" Journal of the American Oriental Society 87, (1967). pp. 290-295.

Idem: "Some recent works on Ancient Syria and the Sea People", Journal of the American Oriental Society 92.3 (1972). pp. 447-459.

"كان جوردون وآستور يهوديين، ولذلك لم تلق دعوتهما أذناً صاغية، أما أنـا – يضيف برنـال – فكما قال جوناثان ميللر – مستهود (أو ذو نزعة يهودية أو ميـال لليهوديـة Jewish)، ولسـت يهودياً خالصاً Jew"[1]. وأخطر من ذلك ما يقوله برنال فى الصفحـة التاليـة مـن خطابـه المشـار إليه، وكان قد خـاطب بـه العلمـاء المشـاركين معه فـى نـدوة APA ينـاير ١٩٨٩ فـى بلتيمـور بالولايات المتحدة الأمريكية ونصه "إننى أعتقد تماماً أن جوردون وآستور لو شرعا يبشـان آرائهمـا عام ١٩٨٩م (أى بعد نشر الجزء الأول من كتابه "أثينة السوداء") لكان استقبالهما أفضـل بكثـير (مما حـدث لهما فـى السـتينيات) ويرجـع هـذا إلى إنحسـار حركـة معـاداة السـامية فـى الأوسـاط الأكاديمية الغربية وإلى التغييرات التى طرأت فى الدراسات الكلاسيكية"[2]. وهذا معناه أن كتـاب "أثينة السوداء". هو إنعكاس للتطورات السياسية التى طرأت على الشرق الأوسط والعالم كله فى النصف الثانى من القرن العشرين[3]

فحتى لو إقتصرت أهمية هـذا الكتـاب علـى دق نـاقوس الخطر بالنسـبة لتاريخنا القومى المصرى والعربى الذى يتعرض لمحاولات التجنى والإجحاف، لاحتل هـذا الكتـاب وترجمتـه مكانـة الأهمية القصوى بالنسبة للقارئ العربى.

الإزدراء الآرى لمصر وحضارتها !

إذا كان يحسب لبرنال أنه عرى المركزيـة الأوروبيـة وفضـح إنحيازهـا وتعصبهـا، فإنـه لممـا يؤخذ عليه إنحيازه التام وتعصبه الملمـوس للتأثـير العـبرى علـى الحضـارة المصريـة والهيللينيـة معـا. فإنحيازه هنا لا يقل عن إنحياز الأوروبيين. كما أنه يحاول بشتى الطرق الإيحاء بـأن مصـر هـى التـى تأثرت بالتراث الكنعانى العبرى وليس العكـس كمـا هـو سـاند ومقبـول. ومما يؤخـذ عليـه أيضـا إهمال الدور العربى الإسلامى فى إحيـاء الدراسـات الكلاسـيكية مـن ناحيـة وفـى بعـث النهضـة

---

(١) Martin Bernal, "Black Athena and the APA" Arethusa, vol. 22 (1989) p.19-20.

(٢) ibidem

(٣) Martin Hengel: Jews, Greeks and Barbarians. Aspects of the Hellenization of Judaism in the Pre-christian period. SCM Press LTD. (Translfrom German) London 1980.

الأوروبية من ناحية أخرى[1]. إنه لا يكاد يذكر شيئاً عن ذلك.

وبأسلوب الدهاء المعتاد فى الكتاب يربط برنال بين "الهوس بمصر" والماسونية. فهو يقول إن الماسونية إعتبرت الديانة المصرية القديمة المثل والقدوة فنسجت على منوالها. ولقد كانت الماسونية حركة مناهضة للتنوير العقلى فى القرن الثامن عشر. وكانت تريد الهيمنة على العالم روحاً وثقافة، إقتصاداً وسياسةً تحت شعار "وحدة الأديان" لذلك ارتبطت الماسونية بالصهيونية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. ونحن نعرف أن تنظيماتها ممنوعة ومحرّمة فى العالم العربى والإسلامى.

ومن منطلق الدفاع عن مصر وحضارتها يقول برنال إن إزدراء مصر بلغ ذروته بعد الإحتلال الإنجليزى لها عام ١٨٨٢م، إذ كانت النزعة الإمبريالية الإنجليزية - والأوروبية - تغذى النعرة العنصرية فى الدراسات الكلاسيكية والمصريات وتدعم "النموذج الآرى" الذى يميز بين الشعوب على أساس العنصر والسلالة واللون. فالجنس الآرى الأبيض أو الهندو-أوروبى أو الهندو-جرمانى هو الأسمى والأفضل، ولا يمكن أن يتلقى التأثير من الجنس الأدنى مثل مصر الإفريقية السوداء. وهكذا تم نفى التأثير المصرى على الحضارة الإغريقية تماماً. وشارك فى هذا الإتجاه علماء الكلاسيكيات والمصريات على حد سواء. فحتى واليس بدج **Wallis Budge** عالم المصريات الإنجليزى الأشهر يكتب عام ١٩٠٤م فيقول: "إن المصريين وهم فى الأصل شعب أفريقى يتصفون بكل مما تتصف به أجناس الشمال الأفريقى عامة من فضائل ورذائل، ولا سبيل

---

(١) سنعود لهذا الموضوع فى الصفحات الأخيرة من هذه المقدمة وراجع أحمد عتمان: "من اليونانية إلى اللاتينية عبر اللغة العربية. دراسة حول تبادل الثقافات بين العرب وأوروبا عبر الأندلس وصقلية" مجلة "أوراق كلاسيكية" العدد الثانى (القاهرة: ١٩٩٢) ص٧-٣٥، نفس المؤلف "دور العرب فى النهضة الأوروبية الحديثة" محاضرة طبعت فى أعمال الموسم التاسع للمجمع الثقافى بأبى ظبى (١٩٩٢-١٩٩٣) ص٤١-٧٩.

Ahmed Etman, "Greek into Latin through Arabic" Actes du Séminaire Inter-national (UNESCO) "L'Elaboration du Savoir du IXe au XIVe siécle: Experiences dans les monde Arabe et Italien" 4-5 Decembre 1992 Palermo - Italy. (Published in Rome 1994), pp. 137-144.

للظن ولو لبرهة بأن أى شعب أفريقى يمكن أن يصبح ميتافيزيقياً بالمعنى الحديث للكلمة. فما من لغة إفريقية تتواءم مع التعبير عن التأملات اللاهوتية والفلسفية، وحتى الكاهن المصرى حين يبلغ أرقى مدارج الفكر يظل عاجزاً عن ترجمة مقالة لأرسطو إلى لغة يفهمها رفاقه من الكهنة دون تعلم. فبنية اللغة وحدها تجعل ذلك مستحيلاً، ناهيك عن أفكار الفيلسوف الإغريقى العظيم الذى تنتمى إلى مجال من الفكر والحضارة يعد غريباً تماماً على المجال المصرى"[1].

وبالطبع لم يكن الإزدراء الأوروبى الآرى مقصوراً على مصر وحضارتها بل إمتد إلى اللون الأصفر والأسود كلية لصالح اللون الأبيض. حتى إن أغنية شعبية إزدهرت فى أوروبا فى منتصف القرن ١٩ وتتحدث عن الصُفر قائلة:

"ولد جون الصينى تافهاً
يزدرى قوانين الحقيقة
وكان جون الصينى بربرياً متوحشاً
ثقيلاً على الأرض.
حتى القس نفسه لا يستطيع أن يرفع عنه اللعنة.
بما يضفيه على جون الصينى من صفات البشر... ألخ".

ويقول العالم العنصرى كونت دى جوبينو Gobineau عن قبائل الصُفر" تتميز بضعف النشاط البدنى والميل إلى اللامبالاة ... وفتور الرغبات والإرادة العنيدة دون تطرف... ولديهم قدرة كافية على فهم الأمور التى لا تتسم بالسمو أو العمق ... ألخ".

ولقد أثبتت التجربة على مر السنين أن غور آسيا الصُفر قد تفوقوا على البيض فى أوروبا والغرب فى كثير من المجالات، ولاسيما التطور التكنولوجى والإقتصادى.

أما عن السود فيقول البارون كوفير Baron Cuvier: "ويتميز العنصر الزنجى... بالبشرة السوداء والشعر الأجعد والجمجمة المضغوطة والأنف الأفطس،

---

(١) W.Budge, The Gods of the Egyptians: or Studies in Ancient Egyptian Mythology, I. 1, The Open Court Publishing Company, Chicago & Methuen London 1904, (reprint Dover 1969). p.68.

وبروز الأجزاء السفلية من الوجه وغلظة الشفتين مما يجعلهم أقرب إلى قبيلة القردة، فقد ظلت القبيلة التى تجمعهم فى أقصى حالات البربرية دوما". أما جوبينو سالف الذكر فيكمل الصورة قائلاً" إن الجنس الأسود هو الأدنى مرتبة ومكانة فى قاع سلم الأجناس ... وهو محصور فى أضيق نطاق من الإدراك العقلى".

وعن المصريين بالتحديد قال عالم الأنثروبولوجيا ويلز W.C.Wells عام ١٨١٨م إن المصريين القدامى كانوا من السود وابيضت وجوههم مع تقدم حضارتهم ! فهناك علاقة بين اللون ودرجة التحضر "(١)

لغز الحروف الفينيقية

يقول شاعر الاسكندرية اليونانى كافافيس:

"عندما تشرع عائدا إلى إيثاكى لا تتعجل...
تمن أن تكون الرحلة طويلة...
مليئة بالمغامرات، غنية بالمعلومات...
فمثل هذه المخاوف لن تصادف في طريق العودة قط...
مادامت أفكارك سامية،
ومادامت المشاعر التى تحرك جسدك وروحك صافية...
تمهل ... تمن أن تكون رحلة العودة طويلة،
وأن تتكرر كثيراً ساعات الصبح الباكر، أيام الشموس الصيفية،
فكم سيكون السرور والحبور عندما يبزغ النور،
وأنت تدخل موانئ تراها لأول مرة...
تريث وتوقف عند تجار فينيقيا...
ثم اقترب من مدن مصرية كثيرة...
وهناك أطلب العلم، أطلبه من أرباب العلم" !!

---

(١) يمكن الإطلاع على تفاصيل هذه الآراء من قبل أقطاب مايسميه برنال "النموذج الآرى المتطرف" فى ثنايا المتن وفى أماكن متفرقة.

لا يشك أحد الآن – بل ومنذ زمن بعيد – فى أن الإغريق أخذوا الألفبائية من الفينيقيين. فحتى شكل الحروف الإغريقية نفسه يدل دلالة واضحة على ذلك الأصل. زد على ذلك ترتيب الألفبائية الإغريقية ومعانيها. فالمعانى فينيقية، ولا تعنى شيئاً فى الإغريقية. فالألفا **alpha** من الفينيقية ألف **Aliph** وتعنى قرن الثور. وبيتا **beta** من الفينيقية **beth** أى البيت، والحرف جاما **gamma** يعنى فى الفينيقية **gimel** أى جمل، وهكذا مع بقية الحروف.

ويقول برنال إن ٢٥٪ من اللغة الإغريقية ذو أصل سامى و ٢٠–٢٥٪ من أصل مصرى و ٤٠–٥٠٪ هندو–أوروبى. وأورد قائمة طويلة بهذه الإشتقاقات. وتلقاها علماء اللغويات بخلاف واسع فى الرأى. فبعضهم رفضها وقال عنها إنها ضعيفة، مجنونة، سيئة وما شابه. أما المتحمسون لبرنال فبعضهم رحب بهذه الإشتقاقات وزكاها بعضهم الآخر وتوسع فى هذا الاتجاه.

وأول من قال بالأصل الفينيقى للغة الإغريقية هو هيرودوتوس الذى قال **(V,58-59)** "علّم الفينيقيون الإغريق أشياء كثيرة من بينها وفى مقدمتها الحروف **grammata**". ويضيف هيرودوتوس أن الفينيقيين كانوا يستوطنون بويوتيا وأن الأيونيين تعلموا منهم فن كتابة الحروف وبذلك يعتبر هيرودوتوس رائد ما يسميه برنال "النموذج القديم" حيث أجمع الإغريق والرومان على أن الشرق عامة ومصر خاصة هى منبع الحضارة. ونظراً لأهمية هذه الفقرة من هيرودوتوس فإننا نوردها بنصها الأصلى مع ترجمة عربية على النحو التالى:

58. Οἱ δὲ Φοίνικες οὗτοι οἱ σὺν Κάδμῳ ἀπικόμενοι, τῶν ἦσαν οἱ Γεφυραῖοι, ἄλλα τε πολλὰ οἰκήσαντες ταύτην τὴν χώρην ἐσήγαγον διδασκάλια ἐς τοὺς Ἕλληνας καὶ δὴ καὶ γράμματα, οὐκ ἐόντα πρὶν Ἕλλησι ὡς ἐμοὶ δοκέειν, πρῶτα μὲν τοῖσι καὶ ἅπαντες χρέωνται Φοίνικες· μετὰ δὲ χρόνου προβαίνοντος ἅμα τῇ φωνῇ μετέβαλλον καὶ τὸν ῥυθμὸν τῶν γραμμάτων. περιοίκεον δὲ σφέας τὰ πολλὰ τῶν χώρων τοῦτον τὸν χρόνον Ἑλλήνων Ἴωνες, οἳ παραλαβόντες διδαχῇ παρὰ τῶν Φοινίκων τὰ γράμματα, μεταρρυθμίσαντες σφέων ὀλίγα ἐχρέωντο, χρεώμενοι δὲ ἐφάτισαν, ὥσπερ καὶ τὸ δίκαιον ἔφερε, ἐσαγαγόντων Φοινίκων ἐς τὴν Ἑλλάδα, Φοινικήια κεκλῆσθαι.

. . . .

59. Εἶδον δὲ καὶ αὐτὸς Καδμήια γράμματα ἐν τῷ ἱρῷ τοῦ Ἀπόλλωνος τοῦ Ἰσμηνίου ἐν Θήβῃσι τῇσι Βοιωτῶν, ἐπὶ τρίποσι τισὶ ἐγκεκολαμμένα, τὰ πολλὰ ὅμοια ἐόντα τοῖσι Ἰωνικοῖσι. ὁ μὲν δὴ . . . .

"إن الفينيقيين الذين قدموا مع كادموس (أو قادموس) واستقروا في هذه الأرض أحضروا معهم بين أشياء أخرى كثيرة علموها اليونان الحروف التي لم تك معروفة لدى الإغريق من قبل فيما أعلم. فهم ويدينون بهذه المعرفة للفينيقيين. وبمضي الوقت أدخل الإغريق بعض التعديلات على شكل الحروف وأصواتها. وكان آنذاك الأيونيون من بين الإغريق هم الذين يقطنون حولهم فتعلم الأيونيون الحروف من الفينيقيين واستخدموها بعد أن أدخلوا عليها بعض التعديلات في الشكل. وأعطوا لهذه الحروف اسم الحروف الفينيقية Φοινικηια (وهو اسم على مايسمى إذ رأينا أن الفينيقيين أحضروها وأدخلوها إلى اليونان)... ولقد رأيت بنفسي الحروف الكادمية (الفينيقية) Καδμηια γραμματα في معبد أبوللو الإسميني Ismenios في طيبة ببيوتيا محفورة على بعض المقاعد الثلاثية المقدسة وهي في الغالب تشبه الحروف الأيونية".

على أن مشكلة الكتابة عند الإغريق تعد من القضايا المستعصية على الحل والمثيرة للجدل باستمرار. ومن ثم فهي المدخل الرئيسي لفهم الحضارة الإغريقية سواء في مجال الآثار والعمارة وسائر الفنون التشكيلية أم في فنون القول والفكر. وأهم الأسئلة المطروحة في هذه القضية هي: متى عرف الإغريق الكتابة ؟ ما هي أصول اللغة الإغريقية ؟[1]. وتعد المشكلة الهوميرية إحدى تجليات هذه القضية.

الرأى السائد أن انتقال الحروف من فينيقيا إلى بلاد الإغريق قد وقع حول عام ٧٠٠ ق.م. ولكن إدوار ماير E.Meyer جعل هذا الإنتقال حول ٩٠٠ ق.م. وأيده في ذلك كيرشوف Kirchhoff. أما جيركي Gercke فقد أرّخه بعد عام ٩٠٠ ق.م. بقليل. وجاء بيلوخ Beloch فتحدث عن القرن التاسع أو العاشر ق.م وإعترف السيرفريدريك كينيون Kenyon بأن الأبجدية الإغريقية موجودة منذ القرن العاشر ق.م. وفي موسوعة باولي فيزوفا PaulyWissowa الألمانية وتحت عنوان Alphabet يتحدث زانتو Szanto عن القرن

---

(١) أحمد عتمان: الأدب الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً. الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٨٧. ص١٧-٨٥ حيث جاء عنوان الجزء الأول كما يلي "المصادر الشرقية والمشكلة الهوميرية".

وراجع:

P.Helm, Greeks in the Neo-Assyrian Levant and Assyria in Early Greek Writers. University of Pennsylvania Ph.D. Thesis 1980.

العاشر ق.م. أما موللر Müller فيرى أن النقل قد حدث فى القرن الحادى عشر ق.م. وفى الموسوعة البريطانية يرجع كاتب المقال Alphabet النقل إلى الفترة من القرن الخامس عشر إلى الثالث عشر ق.م. مع الإقرار بأن الآخيين كانوا قد عرفوا نوعاً من الكتابة خاصاً بهم وليس فينيقياً وربما إشتق من خط الكتابة الكريتية[1].

ولقد عثر في قبرص على إناء Bowl برنزى فى حفريات تمت فى تلال الساحل الجنوبى للجزيرة (شكل رقم ٢). وهذا النقش محفوظ بمتحف المكتبة الأهلية بباريس ويقول نصه:

"حاكم المدينة الجديدة، والى حيرام ملك أهل صيدا قدم هذا (الإناء) إلى بعل لبنان"

والمدينة الجديدة المذكورة فى النقش هى قرثاداشت Qarthadasht أى كيتيون القبرصية. أما لقب "ملك أهل صيدا" فهو يعنى ملك كل الفينيقيين، فهذا الملك نفسه هو ملك صور الذى دفع الجزية للملك الآشورى تيجلاتبيليسر عام ٧٣٨ ق.م. والحروف التى تظهر على هذا الإناء القبرصى تشبه إلى حد بعيد الشكل البدائى للحروف الإغريقية (أنظر الأشكال من ١-٧) ويرى ليدز بارسكى Lidzbarski المتخصص فى الساميات أن هذا الشكل قريب الشبه كذلك من الحروف السامية الموجودة على حجر ميشا. ويؤرخ عملية إنتقال الحروف إلى بلاد الإغريق بعام ١٠٠٠ ق.م[2].

وعندما جاء المرتزقة الإغريق ليخدموا فى قوات الملك أبسماتيك فى القرن السادس ق.م. حفروا أسماءهم على رجلى تمثال رمسيس فى معبد أبى سمبل بالنوبة حوالى عام ٥٨٩ ق.م. وكان يرافقهم فى هذه الخدمة أحد الفينيقيين فحفر اسمه إلى جوار أسمائهم ولكن بلغته الأصلية. هذه

---

(١) عن مجمل هذه الآراء ومناقشتها بالتفصيل، راجع المقالين المهمين اللذين كتبهما كاربنتر فى الثلاثينيات من هذا القرن.

R.Carpenter "The Antiquity of the Greek Alphabet", American Journal of Archeology XXXVII (1933). pp. 8-29.

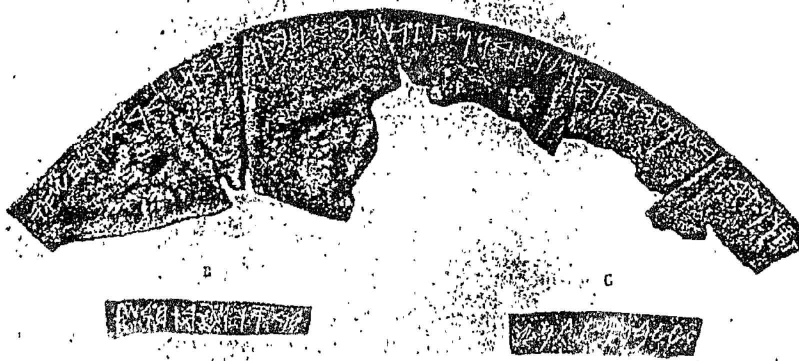
Idem: "The Greek Alphabet Again", AJA XLII (1938) pp. 58-69.

أحمد عتمان: تاريخ قبرص، جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، القاهرة ١٩٩٧، ص٣١-٣٧.

(٢) Lidzbarski, Handbuch der nordsemitischen Epigraphik p.176.



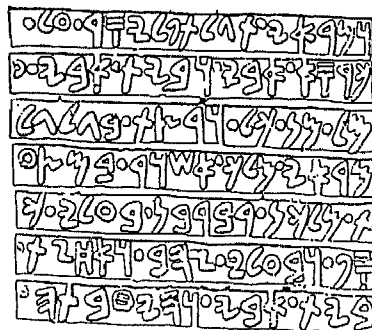
شكل رقم (١) شذرة من حجر أو نقش ميشا



شكل رقم (٢) الإناء المكتشف فى قبرص

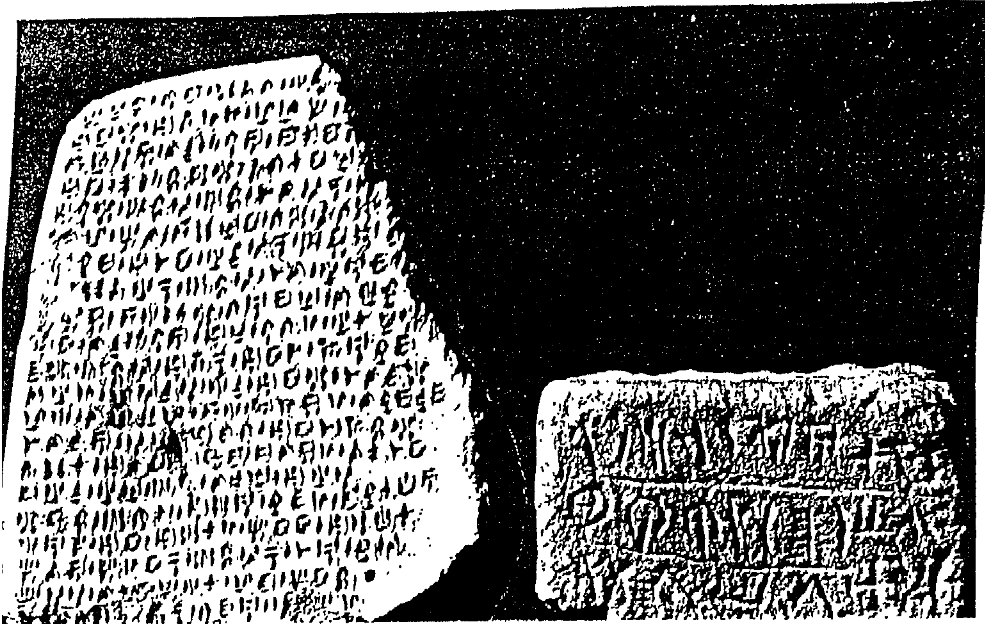
شكل رقم (٣) خربشات أو نقوش باليونانية والفينيقية على رجل تمثال فى أبوسمبل

شكل رقم (٥)
الألفبائية السامية المبكرة.



شكل رقم (٤) نقوش
آرامية معاصرة لإناء قبرص شكل رقم (٢)

الهيروغليفية											
خط الكتابة A											
خط الكتابة B											
القبرصية المينوية											
القبرصية الكلاسيكية											



شكل رقم (٦)

لم يتم بعد فك طلاسم اللغة القبرصية فيما قبل التاريخ وهى كتابة مقطعية تختلف عن نظام الكتابة المينوية. وهناك تفسيرات مختلفة فى أصولها وأعلاه تبيان بتطور اللغة القبرصية من الهيروغليفية حتى الأبجدية القبرصية الكلاسيكية وأسفله لوحتان إكتشفتا فى إنكومى وعليهما الكتابة القبرصية القديمة الأولى تعود للقرن الرابع عشر ق.م. والثانية تعود إلى ١٤٠٠-١٢٣٠ ق.م. وهما محفوظتان بمتحف قبرص —

الهيروغليفية	خط الكتابة A	خط الكتابة B	الهيروغليفية	خط الكتابة A	خط الكتابة B

الوحدات	= 5
العشرات	= 50
المئات	= 400
الآلاف	= 4000
عشرات الآلاف	= 40000
مثل	14268

شكل رقم (٧)

كان إفانس أول من كشف النقاب عن الألواح التي عثر عليها في كنوسوس وبها خط الكتابة في البحر الإيجي. وهنا قائمة مقارنة حيث نجد الهيروغليفية، وخط الكتابة A وخط الكتابة B. وتحتها نظام الأرقام في خط الكتابة B

الخربشات الإغريقية هي بالقطع أقدم ما وصلنا عن صورة الحروف الاغريقية (أنظر الشكل رقم (٣). ذلك أننا – كما يقول كاربنتر Carpenter – لا نستطيع أن نرجع بالألفبائية الإغريقية إلى مابعد النصف الأول من القرن السابع ق.م. وأقدم صورة للحروف الإغريقية تتشبه إلى حد بعيد الحروف السامية أى الفينيقية – الآرامية فى القرن الثامن ق.م. وهذا التشابه والتقابل لا مثيل لهما فى الفترات السابقة أو اللاحقة. ومن ثم فإن عام ٧٠٠ ق.م. هو أصلح تاريخ تقريبى لإنتقال الحروف السامية إلى بلاد الإغريق. ولأن هوميروس كان لا يمكن أن يكون قد عاش بعد القرن التاسع ق.م. فإن ذلك – برأى كينيون – يعنى أن الإغريق كانوا قد عرفوا الكتابة والألفبائية قبل ذلك وقبل أن ينقلوها عن الفينيقيين بكثير، ولكنهم استخدموها فى أغراض أخرى غير الأدب[١].

أما علماء الساميات مثل ليدز بارسكى فقد أرخ إنتقال الحروف السامية إلى بلاد الإغريق بالألف الثانية ق.م. ثم جاء كوك G.A.Cooke عام ١٩٠٣م بكتابه Textbook of North Semitic Inscriptions وفيه أعلن أن عملية إنتقال الحروف لابد وأن تكون قد حدثت فيما بعد القرن العاشر ق.م.

وبالنسبة للعلاقات بين مصر وبلاد الإغريق فهى تعود إلى الألف الثالثة ق.م. ويقول السير آرثر إفانس A.Evans "إن دين كريت لعصر ما قبل الأسرات المتأخر وأوائل عصر الأسرات فى مصر قد تم إثباته بكم هائل من الدلائل الأثرية"[٢]. بل إن الحضارة المصرية قد أثرت على حضارة بحرإيجة فى الألف الثالثة ق.م. مما يعنى أن المفردات المصرية وأسماء الأعلام والأماكن كان يمكن أن تتسرب إلى حياة سكان بحرإيجة منذ ألفى عام قبل أول دليل يصلنا من النصوص الإغريقية وبالتحديد وثائق الخط الكتابى Linear B.

ونحن نعتقد أن حسم المشكلة لن يتم إلا بدراسة مدى تأثير اللغة المصرية القديمة فى

---

(١) F.G.Kenyon, Books and Readers in Ancient Greece and Rome. Oxford at the Clarendon Press 1932.

وراجع: E.A.Havelock, The Literate Revolution in Greece. 1982.

وراجع أعلاه ص٣٠ حاشية رقم ١.

(٢) A.Evans, The Palace of Minos. London, (1921-1935). Macmillan. vol. 2, p. 28.

اللغات السامية ولاسيما الفينيقية. ومن الواضح أن اللغة المصرية القديمة هى الأقدم فى التأثير على خطوط الكتابة المكتشفة عند الإغريق. لكن بعض هذه التأثيرات والموجات التى تليهـا ربما تكـون قد وصلت من مصر عبر فينيقيا. ولكن بعض علماء الساميات يتخذون الطريق المعاكس ويركزون جهودهم فى البحث عن التأثيرات السامية ولاسيما العبرية على اللغة المصرية القديمة! [1].

تلفيق المعجزة الهيللينية

يقول إدوارد ماير Eduard Meyer – آخر مؤرخى الإغريق والرومان فى القرن التاسع عشر – "ينبغى أن نعطى المؤرخ كافة حقوق الفنان المبدع". والتاريخ القديم كما نفهمه الآن هو من صنع الحاضر، والتأريخ مثل سائر فنون القَوْل، نحن المتلقين نستقبله ونبدعه مرة أخرى، فنحن إذن المبدعون فى القراءة التاريخية. ونحن المتلقين لأخبار الماضى نشكل صورة إجمالية أو حتى تفصيلية للأحداث والشخصيات ونؤمن أنها الحقيقة التى كـانت[2]. ولقد فرض كتاب "أثينة السوداء" نفسه فى هذا المجال، بحيث لا مفر من أن تؤيده أو تعارضه جزئياً على الأقل ولا مكان للحياد السلبى. وفى كل الحالات ينبغى أن ندرسه لكى نحصل على البراهين الدامغة التى تقف إلى جواره أو تدحض آراءه. هذا الكتاب لا يقدم لنا فقط التاريخ السياسى والإجتماعى للفكر الكلاسيكى الأوروبى، وإنما هو يقدم أيضاً تحدياً سافراً لهذه الدراسات بحيث يمكن القول إن هذا الكتاب – غير المتخصص – قد وضع الدراسات الكلاسيكية المتخصصة فى مأزق. نحن بالفعل نعيش فترة حرجة فى هذه الدراسات، ولاسيما أنها تواكب الآن تحولات جذرية ضخمة فى نظم المعلومات وتكنولوجيا المعرفة، مما قلب الموازين رأساً على عقب.

---

(١) من بين الدراسات الكثيرة التى تسعى إلى تثبيت فكرة تأثير العبرية على اللغة المصرية القديمة نشير إلى مايلى:

W.A.Ward, "Some Effects of Varrying Phonetic Conditions on Semitic Loan Words in Egyptian" Journal of the American Oriental Society 80 (1960) pp. 322 - 327.

Idem: "Some Egypto-Semitic Roots". Orientalia 31 (1962). pp. 397-412.

Idem: "Notes on Some Semitic Loan Words and Personal Names in Late Egyptian" Or ientalia 32 (1963) pp. 413-436.

(٢) راجع آلبان. ج. ويدجرى (ترجمة– عبد العزيز توفيق جاويد): التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢.

وكان مما أثار الكلاسيكيين إلى حد الغضب استخدام برنال فى عنوان الجزء الأول من كتابه عبارة "تلفيق بلاد الإغريق ١٧٨٥-١٩٨٥م (The Fabrication of Ancient Greece 1785-1985). فهو بذلك يدمغ الدراسات الكلاسيكية الأوروبية في تلك الفترة. ويزعم أنها "لفّقت" تلك الصورة المتداولة عن "المعجزة الإغريقية"، وفحواها أن الإغريق هم صانعو الحضارة الإنسانية ووصلوا إلى ما لم يصل إليه شعب من الشعوب القديمة. ومن ثم فليست لحضارتهم أصول شرقية قط. ويسمى برنال ذلك الإتجاه "النموذج الآرى" الذى وصل إلى حد أن أصبح "النموذج الآرى المتطرف" الذى يؤمن بتفوق سلالة بشرية على أخرى بيولوجياً وذهنياً وفكرياً. ومن ثم ينبغي الحفاظ على سلالة الإغريق - أصل الحضارة الأوروبية - خالية من شوائب أية سلالة أخرى مصرية أو غير مصرية.

لقد كنا نتصور أن مسألة إنكار الأصول الشرقية للحضارة الإغريقية قد نشأت عن جهل وعدم دراية، ولكننا اكتشفنا من قراءة "أثينة السوداء" أنها تمثل تياراً أصيلاً فى العقلية الأوروبية، حيث يعتبرون الإغريق - أجدادهم الروحيين - من جنس خاص وله معايير غير عادية بفضل التفوق العنصرى.

ويظن برنال أن كافة الكتاب الإغريق والرومان قد إعترفوا بفضل مصر والفينيقيين على الحضارة الإغريقية الرومانية، وهذا مايسميه "النموذج القديم". ومن السهل أن نضع أيدينا على الخطأ الرئيسى فى هذا "النموذج القديم" كما قدمه برنال. إذ كيف يجمع هوميروس وهيسيودوس (الشعر الملحمى والتعليمى) مع سافو وبنداروس وباكخيليديس (الشعر الغنائى)، مع شعراء الدراما الإغريقية والمؤرخين والفلاسفة ألخ؟. كيف يجمع كل هؤلاء فى سلة واحدة إسمها "النموذج القديم"؟. ذلك أن فنون الأدب الإغريقى والتجليات الفكرية المختلفة - ومن ثم نظرة الإغريق للآخر - قد مرت جميعاً بتطورات وتغيرات مستمرة وهائلة لم يعمل حسابها برنال[1].
لقد طبق المنهج السوسيولوجى على تاريخ الفكر الكلاسيكى الأوروبى، ونسى أن يفعل الشئ نفسه وهو يتحدث عن الكتاب الإغريق والرومان. تقول تمارا جرين T.Green، وهى مؤرخة

---

(١) راجع: أحمد عتمان، الأدب الإغريقى، صفحات متفرقة.

للفكر، إنه ينبغي أن تخضع المصادر القديمة أيضاً للمنهج الذى يرى فيها بُنى إجتماعية تحاول خلق عالم رمزى هو مانعتبره الآن حقيقة. وتضيف قائلة: "إن أية محاولة للبرهنة على أن أى نموذج يعد أكثر تاريخية من الآخر إنما هى محاولة دون كيشوتية"(١).

ذلك أن موقف الإغريق (والرومان) من مصر متناقض ومليئ بالتداخلات والملابسات، وهو موقف يجمع بين العجز عن الإستيعاب مع التقديس والإعجاب من ناحية، والكراهية والحقد والإحتقار من ناحية أخرى. فالغيرة من مصر بوصفها صاحبة الحضارة الأقدم موجودة، على أساس الفكرة السائدة بأن الأقدم هو الأفضل.

وذهب بعض كتاب "العصر الهيللنستى" إلى حد القول بأن الإغريق هم الذين قادوا مصر إلى التحضر، مما دفع كاتباً محدثاً مثل أولدفاذر Oldfather مترجم ديودوروس الصقلى إلى الرد بأن هذه الدعاوى لا تتم إلا عن "تبجح أجوف".

ولفظ "الهيللينستية" نفسه – وهو من اختراع واشتقاق النموذج الآرى – يحتاج إلى وقفة. نرى أنه من المفيد أن نشرح أولا: معنى كلمة "الهيللنستية" وهى كلمة نحتها أحد العلماء الألمان (Hellenismus) من أصلها الإغريقى القديم ونعنى كلمة Hellen أى "الهيلليني" (أو الإغريقى) نسبة إلى هيلاس Hellas وهو الاسم الصحيح لما نعنيه نحن بكلمة "الاغريق" أو "اليونان". المهم أن هذه الكلمة الجديدة المنحوتة من الفعل hellenizo تعنى "هلنّة" أو كما هو شائع فى اللغات الأوروبية وأخذناها عنهم "أغرقة". أى خلع الطابع الهيلينى أو الإغريقى على هذا أو ذاك من الأشياء والأحياء. ولذلك يسمى بعض المؤرخين العرب المحدثين العصر الهيللنستى بـ "العصر المتأغرق" ويتحدثون عن الشرق المتأغرق.

وأطلق مصطلح "الحضارة الهيللنستية" على حضارة عصر ما بعد فتوحات الاسكندر الأكبر فى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م. وبتحديد أكثر دقة يمكن القول إن العصر الهيللنستى

---

(١) Tamara M.Green, "Black Athena and Classical Historiography: Other Approaches Other Views". Arethusa 22 (1989) pp.55-65.

يشمل القرون الثلاثة الأولى قبل الميلاد وينتهى بموقعة أكتيوم عام ٣١ ق.م. حيث هزمت كليوباترا وأنطونيوس على يد أوكتافيانوس وضمت مصر إلى الامبراطورية الرومانية.

هكذا عرف علماء الغرب العصر الهيللنستى بأنه أغرقة أو هلنة الشرق أى تحويله إلى أن يكون هيللينى أو إغريقى الطابع. ومن الواضح أن هذه وجهة نظر امبريالية فى شرح التاريخ. تذكرنا بسياسة فرنّسة الجزائر وغيرها. ومع أننا لا نملك الآن أن نغير هذا المصطلح "الهيللنستى" لصالح أهل الشرق بعد أن استقر وصار من الشائع الذى لا يقبل التغيير. إلا أننا نملك الكثير إزاء تعديل مدلول هذا المصطلح. فالاسكندر الأكبر نفسه وهو الفاتح جاء ليحج إلى معبد سيوة ويطلب من كهنة أمون هناك العون، ولبوا دعوته ولقبوه "إبن الإله". وفى هذه الحقيقة ما يدل على سيطرة حضارة الشرق ومعتقداته على عقلية أكبر فاتح عرفه التاريخ الإغريقى أو حتى العالمى أنذاك.

وبكل موضوعية وبعيدا عن أية نعرة قومية نحن نؤمن بأن العصر الهيللنستى هو عصر إمتزاج الحضارة الإغريقية بحضارات الشرق القديم ولاسيما حضارة مصر. ونؤمن كذلك بأن مصر لعبت الدور الأساسى فى بناء هذه الحضارة الجديدة التى جمعت بين الشرق والغرب وصهرت كل المنجزات الحضارية القديمة فى بوتقة واحدة تألقت شعلتها فى الاسكندرية، حيث بنى فنارها هاديا للسفن وهى تمخر عباب اليّم، وحيث أنشئت مكتبتها مضيئة للأذهان وحافظة للتراث الإنسانى الشرقى والغربى.

وأهم المنجزات الثقافية والفكرية والأدبية للعصر الهيللنستى لم تزدهر إلا فى مصر. وسطرت على أوراق البردى التى لم تعرف خارج مصر والتى مازالت كنوزها تتدفق يوميا من بين حبات الرمال فتضيئ هذا الجانب أو ذاك فى تاريخ الحضارة البشرية سواء أكانت مصرية أم إغريقية أم رومانية.[1]

---

(١) أحمد عتمان: "كنوز البردى" مجلة القاهرة عدد ٢٧-٣٢، ١٩٨٥.
نفس المؤلف: "مكتبة الاسكندرية ودورها الحضارى فى حفظ التراث الكلاسيكى وإنعاش الدراسات الأدبية" مجلة "البيان" الكويتية ، عدد ١٧٥، نوفمبر ١٩٨٠.

مصر وحضارات الشرق القديم كلها إذن شريكة في صنع الحضارة الهيللستية أما فيما بتعلق بنظرة الإغريق للآخر فبعد الحروب الفارسية وانتصار الإغريق على الامبراطورية الضخمة والملك العظيم في ماراثون ٤٩٠ ق.م. وسلاميس ٤٨٠ ق.م. انطلق الكُتاب الإغريق يسجلون هذا الإنتصار ويتدارسون أسبابه. فهناك في فكر هيرودوتوس وأيسخولوس وثوكيديديس وغيرهم قلق ما تجاه التفوق الأجنبي ولاسيما المصرى والفينيقي والشرقي عموماً. دفعت هزيمة الفرس المنكرة وغير المتوقعة الأثينيين لإعادة إكتشاف تاريخهم وقراءة ماضيهم للإجابة عن السؤال: كيف تهزم قوة صغيرة مبتدئة وهي أثينا أكبر امبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت؟ وهذا ما قادهم إلى فكرة "الهيللينية" في مقابل "البربرية". وحتى "الحروف الفينيقية" Phoinika gramaita = Φοινικηια γραμματα بدأوا يفسرونها تفسيرا جديدا. وقالوا إن الملك أكتايون من نسل كيكروبس سما هذه الحروف وهكذا تخليداً لاسم ابنته فوينيكي Phoinike[(١)] إذن فموقف الغرب المحدث من الشرق ليس أمرا جديدا بل له جذوره القديمة. وهده الجذور هي التي سمحت للنموذج الآرى أن ينمو ويترعرع. بعبارة أخرى وكما تقول سارة موريس Sarah Morris هناك تناقض ثقافي إغريقي، لقد هزم الإغريق الشرق واحتقروه في مجال السياسة والحرب وفي العلن، ولكنهم في السر داخل أنفسهم معجبون بالشرق ويقلدونهم في ذوقهم الخاص ونشاطهم الفكرى[(٢)]. وتقول إديت هول "علينا أن نرفض النموذج الآرى وندفنه في التراب للأبد وبدرجة عالية من الإحتقار... على ألا تحل محل هذه الأسطورة أسطورة جديدة تتحدث عن أصول عرقية (للإغريق) مصرية وفينيقية"[(٣)].

مصر إفريقية ... وكليوباترا زنجية ؟

في الآونة الأخيرة حدث هجوم مضاد وعنيف على المركزية الأوروبية، وتعالت الأصوات تهتف بأفضال هذا الجنس أو ذاك على أوروبا نفسها. ومن بين هذه الأصوات

---

(١) Photius, s.v. Phoinike.

(٢) Sarah P. Morris, "Daidalos and Kadmos: Classicism and Orientalism", Arethusa vol. 22 (1989) pp. 39-54. esp. 41, 50.

(٣) Edith Hall, Arethusa 25 (1992), p. 198.

"الصوت الأسود"، ناهيك عن "الصوت الأصفر" الذى قرن قوله بالفعل. مايهمنا فى هذا السياق أن بعض السود أخذوا يبحثون عن أمجاد الأفارقة فى العصور القديمة. وبدأوا بمصر على إعتبار أنها صاحبة أقدم حضارة معروفة، فقالوا إن المصريين سوداً وأن شمال إفريقيا هو أصل البلاسجيين أول سكان نعرفهم فى بلاد الإغريق. ووصلوا إلى حد القول بأن هوميروس وسقراط وإقليدس وكليوباترا من الأفارقة السود. وبلغ الأمر حد نشوء ما يشبه المركزية الإفريقية بوصفها رد فعل أو خط دفاع هجومى لمواجهة المركزية الأوروبية.

ومن أبرز هؤلاء الدارسين السود جيمس James الذى يصف إراتوسثينيس أمين مكتبة الاسكندرية المولود فى قورينه (الشحات) بليبيا بأنه أفريقي أسود. ووافقت آراء جيمس آراء ديوب Diop وبرنال[1] . وبينما تصور العملة البطلمية كليوباترا السابعة على أنها بيضاء ذات أنف مقدونية فإن بعض الدارسين يعتبرونها إفريقية – زنجية سوداء مما قد يشي بأن أنفها أفطس ! هاهو فان سيرتيما Van Sertima وجون هنريك كلارك John Henrik Clarke يؤكدان ذلك. والأخير كتب فصلاً بعنوان "الملكات الإفريقيات المحاربات" ويقول في ثناياه "لقد كتب هراء كثير عن كليوباترا اكثر بكثير مما كتب عن غيرها من الملكات الإفريقيات. وفي الغالب يعود السبب إلى رغبة هؤلاء الكتاب الجامحة فى أن يرسموا لها صورة إمرأة بيضاء وهى لم تك كذلك قط ... إذ لم تظهر صورة كليوباترا البيضاء إلا بعد سيادة فكرة تفوق العنصر الأبيض. وفيما قبل ذلك كانت كليوباترا ترسم بوضوح على أنها إمرأة إفريقية سوداء"[2]

---

(١) G.G.M. James, Stolen Legacy. The Greeks were not the authors of Greek Philosophy, but the people of North Africa, Commonly called the Egyptians. New York: Philosophical Library 1954.

أنظر الترجمة العربية لهذا الكتاب وقارن:

D.O' Connar, Ancient Egypt and Black Africa: Early contacts. Expedition 14. (1971). pp.2-9.

(٢) C.A.Diop, The African Origin of Civilization: Myth or Reality ? M.Cook, trans. Westport, Conn.: L. Hill 1974.

Idem: "Origin of the Ancient Egyptians" pp. 27-51 in: G. Mokhtar, ed.: General History of Africa II Ancient Civilization of Africa. Berkeley 1981. =

وفي مسرحية شكسبير الخالدة "أنطوني وكليوباترا" تقول كليوباترا نفسها بأن أنطونيوس كان يسميها "أفعى النيل العتيق" وتقول أيضاً إن "إله الشمس نفسه فويبوس (أبوللو) يعشقها، وإلا لما جعل قرصاته تحول بشرتها إلى الإسمرار (فصل ١ مشهد ٥ بيت ٢٨). ولقد استند بعض الدارسين الأفارقة على هذه الفقرة لإثبات أن كليوباترا إفريقية سوداء مع أنها – أى هذه الفقرة نفسها – شديدة الوضوح والدلالة على أن كليوباترا بيضاء البشرة تميل إلى الإسمرار عند تعرضها للشمس المصرية الساطعة. كما أن فى الوصف التفصيلى الذى جاء على لسان إينوباربوس – فى نفس المسرحية فصل ٢ مشهد ٢ بيت ١٨٨–٢٢٦ للقاء الأول بين كليوباترا وأنطونيوس على ضفاف نهر كيدنوس (الاسكندرونة) ما يؤكد رأينا. إذ وقف غلمان وفتيات بمراوحهم حول كليوباترا المضطجعة على أريكة فوق زورقها وبدلاً من أن تبرد وجنات كليوباترا بفضل التهوية بالمراوح إزدادت إحمراراً وتوهجاً"[1]

وعند لقائنا مع برنال فى القاهرة صرح لنا أنه لم يك يفضل صفة "السوداء" فى عنوان كتابه "أثينة السوداء" وكان يميل نحو صفة "إفريقية"، ولكن الناشر أصر على "السوداء" سعياً وراء الرواج. وبمرور الوقت وبمزيد من الإطلاع تبين لنا أن هذه الصفة "السوداء" قد أثارت زوبعة بين علماء الكلاسيكيات أكثر من أية نقطة أخرى فى الكتاب. وفارس هذه المعركة الأدبية هو سنودن F.M.S. Snowden الذى كان قد كرس معظم سنى حياته الأكاديمية (=نصف قرن) "للون" ومشكلاته فى العالم الإغريقى الرومانى. وتركزت معظم أبحاثه عن مكانة السود ودورهم فى هذه الحضارة. وتبين لنا أن القدامى كانوا بارعين فى التعبير عن التفرقة فيما بين ألوان

= John Henric Clarke, "African Warrior Queens" pp. 123-134 in: I.Van Sertima, ed.: Black Women in Antiquity. New Brunswick, New Jersey 1984.

Idem, ed.: African Presence in Early Europe. New Brunswick. New Jersey 1985.

(١) أحمد عتمان: كليوباترا وأنطونيوس دراسة فى فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقى. الطبعة الثانية. أيجيبتوس القاهرة ١٩٩٠ ص٢٩٥–٢٩٩. ولنفس المؤلف: "الجمال والحب والشعر فى اللقاء الأول بين كليوباترا وأنطونيوس" مجلة "صوت داهش" (يونيو ١٩٩٧) ص٦٩–٧٤. وراجع:
Ahmed Etman, "Cleopatra ed Antonio, Cleopatra VII: La sua figura nella storia e nella letteratura", Osiris vol.2, (Agosto 1992) pp. 37-46.

الشعوب، إذ كانت التفرقة حادة فى الكتابات الإغريقية واللاتينية. وفى العمل المنسـوب إلى أمـير الشعر اللاتينى فرجيليوس ويحمل عنوان Moretum [1]. نجد وصفـاً دقيقـاً (أبيـات ٣١–٣٥) لإمرأة سوداء. ففى خمسة أبيات فقط وضع الشاعر أيدينا على دقائق هذا الجنس الأسود ويقول:

"إفريقيـة السـلالة، شـكلها نفسـه دليـل موطنهـا
شـعرها مجعـد أشـد التجعيـد وشـفاهها غليظـة
لونهـا أسـود وصدرهـا عريـض
يتـدلى منـه ثديـان نـافران
خصرها نحيل إلى حد ما وساقاها ممتلئتان وقدماها مفرطحان"

ومعنى ذلك أن الإغريق والرومان ما كانوا ليخلطـوا بـين الأفارقـة الزنـوج وغـيرهم، وإذا كان فرجيليوس معـاصراً لكليوبـاترا السـابعة... فهـل يمكـن اعتبـار كليوبـاترا لديـه سـوداء بهـذا الشكل! ؟ وفـى الشـعر اللاتينـى الأوغسـطى – المعـاصر لكليوبـاترا – لم تـرد فيـه أيـة إشـارة إلى "كليوباترا السوداء" (٢) .

لقـد اعتمـد برنـال بالنسـبة للـون المصريـين الأسـود علـى فقـرة وردت عنـد هيرودوتوس (II 104)، وهى كما يلى

καὶ ὅτι μελάγχροες εἰσὶ καὶ οὐλότριχες.

يقـول إن المصريـن سـود ومجعـدوا الشـعر.

والصفـة المسـتخدمة melachroes هـى التـى يسـتخدمها أيسـخولوس أيضـاً فـى

---

(١) عن معنى هذا العنوان راجع أحمد عتمان: الأدب اللاتينى ودوره الحضارى حتى نهاية العصر الذهبى. دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٩٥ ص٢٤٦–٢٤٧.

(٢) أحمد عتمان: كليوباترا وأنطونيوس، ص١٥٥–١٧٣ وراجع:

Ahmed Etman, "Cleopatra and Egypt in the Augustan Poetry "Atti del I Congresso Internazionale Italo-Egiziano (Cairo 1989) Istituto Poligrafico e Zecca dello Stato Libreria dello stato (Roma 1992) pp. 161-175.

"المستجيرات" بيت ٧١٩ وصفاً للمصريين[1]. كما جاء عند هيرودوتوس (II 57) كلمة أسود melainan.

μέλαιναν δὲ λέγοντες εἶναι τὴν πελειάδα σημαίνουσι ὅτι Αἰγυπτίη ἡ γυνὴ ἦν.

تقول القصة إن الطائر (الحمام) كان أسود اللون وذلك يعنى أن المرأة كانت مصريه.

ويصف بنداروس أهل كولخيس (Pyth. IV 212) بالصفة melainopessi.

وبالنسبة للإغريق فإن الإثيوبيين هم الأشد سواداً بين البشر جميعاً، أو كما جاء عند أرسطو "ذوو بشرة سوداء أو هى الأسود بين الجميع" (Problemata x.66.898b) .

ولكن سنودن يعترض بشدة على إستناد برنال على فقرة هيرودوتوس – المشار إليها سلفاً – للتأكيد بأن المصريين كانوا من الأفارقة السود أو الزنوج. يقول سنودن إن كل الدلائل المستمدة من هيرودوتوس وغيره من الإغريق والرومان تنفى ذلك. يرى سنودن أن التمييز بين الشعوب قديماً لم يكن عنصرياً قائماً على لون البشرة. بل كانت التفرقة ثقافية لغوية أكثر من أى شئ آخر. فهم يتحدثون عن الفروق فى العادات والتقاليد والمأكل والمشرب وطقوس الزواج وما شابه. ولا يعنى ذلك أن القدامى قد أغمضوا أعينهم عن الفروق اللونية بين الشعوب والسلالات. على النقيض من ذلك كانوا يعتبرون كلمة "إثيوبى" مرادفة للون الأسود القاتم. وأتخذوا منهم معياراً بالنسبة لقياس درجات الأسود، ولكن ليس بالمفهوم العصرى أو العنصرى للكلمة. هيرودوتوس نفسه لا يمكن أن يصدق برنال فيما ذهب إليه من أن المصريين سود وزنج. كل ما قاله إن لون بشرتهم أكثر سواداً من لون بشرة بنى جلدته أى الإغريق. أما أن نسقط مفهومنا العصرى والعنصرى لكلمة "أسود" بأبعادها المقيتة على النصوص الإغريقية واللاتينية فهذا سوء فهم وخطأ فادح. إنها قراءة إيديولوجية إنفعالية. ومن ثم فإن عنوان الكتاب "أثينة السوداء" تسمية خاطئة[2] وربما كان من الأفضل أن يحل محله

---

(١) Ahmed Etman, "Foreigners in Greek Tragedy" op. cit., passim.

(٢) Frank M.Snowden, Jr., "Bernal's Blacks, Herodotus and Other Classical Evidence". Arethusa vol.22 (1989) pp. 83-95.

عنوان آخر مثل "أثينة المصرية" أو "أثينة السمراء".

ولقد اشتبك كيتا S.O.Y.Keita في هذه المعركة الأدبية حول لون المصريين القدامى فكتب مقالاً بعنوان: "أثينة السوداء: السلالة بين برنال وسنودن"[1]. ويصل كيتا إلى النتيجة "إن الجدل حول السلالة والأفريكانية بالنسبة للمصريين القدامى كان جدلاً حول نوع الشعب ونظمه الثقافية. ذلك أن كلمة سلالة تمثل مشكلة من حيث المفهوم، فهو مفهوم غير مستقر وتعسفي ولا يقدم كثيراً ويسئ إلى التعددية البشرية. كما أنه من غير المقبول القول بأن الإغريق والرومان لم تكن لديهم أية مفاهيم عن السلالة. فبعض ما خلفوه من تراث أدبي ومادي يتناول موضوع "السلالة". ولكنها تقتصر على تقديم الإختلافات القومية والسلالية والفردية، ولا تقدم السلالة بمعنى العنصر كما هو مفهوم الآن والذى تلعب فيه الإختلافات والتشابهات البيولوجية المكانة الأولى. فهذا بالضبط مالا نجده في النصوص الإغريقية واللاتينية أى لا توجد تفرقة عنصرية[2].

يقول مانيليوس "الإثيوبيون يمثلون بقعة في العالم ويمثلون سلالة متوغلة في السواد. أما مواطنو الهند فهم أقل إحتراقاً بأشعة الشمس اللافحة من الإثيوبيين. ويفيض النيل على أرض مصر فيلون بشرة المصريين بإسوداد أخف وطأة (= الإسمرار) بفضل فيضان النيل في الحقول. إنها بلد قريب منا وذات مناخ معتدل وتمثل نغمة معتدلة ومتوسطة (في الكون). ويجفف إله الشمس بالرمال القبائل الإفريقية في وسط الصحراء. أما المغاربة (الموريون) فيستمدون اسمهم من لون وجوههم، ويتم التعرف على هويتهم من لون جلودهم"[3].

Idem: Blacks in Antiquity: Ethiopians in the Greco-Roman Experience. Cambridge Mass & London 1970.

Idem: Before Color Prejudice: The Ancient View of Black. Mass & London 1983.

(1) S.O.Y Keita, "Black Athena, Bernal and Snowden", Arethusa 26 no. 3 (1993) pp. 295-314.

(2) ibidem.

(3) Manilius Astronomica IV 722-730 (Transl. G.P. Goold), Cambridge Mass & London. 1977.

التنافس بين مصر واليونان فى العقلية الأوروبية

إن القارئ لكتاب "أثينة السوداء" بتمعن يدرك أن هناك معركة حقيقية قد دارت فى العقلية الأوروبية بين الحضارة المصرية والحضارة الإغريقية. فالإغريق (والرومان) بوجه عام أعجبوا بمصر واعتبروها الأنموذج، وإن تخلل ذلك الإتجاه بعض الإستثناء

ات. ولقد ورث الأوروبيون هذا "الهوس بمصر"، ويسوُد الحضارة الغربية بوجه عام إعجاب شديد بحضارة مصر. ولكن هذا الإعجاب تشوبه نعرة الغيرة على تراث الأجداد أى الإغريق. ولذلك ظهر تيار قوى لإعلاء شأن الإغريق على حساب مصر. ولم يكتب النصر النهائى حتى الآن لأى من الطرفين، وإن كانت كفة مصر فى الآونة الأخيرة هى الراجحة مما يعرضها هذه الأيام لحملات متكررة من التشكيك وبذر البذور الخبيثة عن بناة الأهرام وأصل اللغة المصرية القديمة وما إلى ذلك.

كان هيرودوتوس هو أول من أعلن صراحة أن أصل أسماء جميع الآلهة الإغريق مصرى إذ يقول (II 50-53):

> Σχεδὸν δὲ καὶ πάντων τὰ οὐνόματα τῶν θεῶν ἐξ Αἰγύπτου ἐλήλυθε ἐς τὴν Ἑλλάδα. διότι μὲν γὰρ ἐκ τῶν βαρβάρων ἥκει, πυνθανόμενος οὕτω εὑρίσκω ἐόν· δοκέω δ᾽ ὦν μάλιστα ἀπ᾽ Αἰγύπτου ἀπῖχθαι.
>
> ἔπειτα δὲ χρόνου πολλοῦ διεξελθόντος ἐπύθοντο ἐκ τῆς Αἰγύπτου ἀπικόμενα τὰ οὐνόματα τῶν θεῶν τῶν ἄλλων

"فى الواقع نجد أن معظم أسماء آلهة الإغريق جاءت بلاد الإغريق من مصر. ذلك أننى عن طريق التحرى تأكدت من أن هذه الأسماء جاءت من بلاد أجنبية وإنى لأعتقد أنها جاءت بصفة أساسية من مصر....

فبعد وقت طويل تعلموا (أى الإغريق) أولاً بقية أسماء الآلهة التى جاءتهم من مصر..."

ولكن هيرودوتوس تعرض للهجوم من قبل أقرانه فى الأجيال التالية، إذ وصفوه بأنه "محب للأجانب" **barbarophilos**، واتهمه بلوتارخوس بالخبث. بيد أن هيرودوتوس لم يكن وحيداً فى الإعتراف بفضل مصر على الحضارة الإغريقية. إذ تلاه فى ذلك الكثيرون ومنهم أفلاطون

الذى أعجب بإسبرطة لأن أسبرطة أكثر "مصرية" من أثينا. وهو الذى أورد فى محاورة "تيمايوس" الحوار بين سولون وأحد الكهنة المصريين الذى قال للمشرع الأثينى "إن اليونانيين لازالوا أطفالاً فى مضمار الحضارة"[1]. وفى العصر الحديث تم التركيز على تأثير مصر على بلاد الإغريق فيما بين ٢١٠٠-١١٠٠ ق.م رغم أحتمال وجود تأثيرات أسبق، لكن هذه الفترة هى فترة التكوين بالنسبة للحضارة الإغريقية.

وفى المقابل وصل الأمر ببعض أقطاب "النموذج الآرى" كما يسميه برنال مثل الفرنسى رادل الصغير Petit Rradel أن حاول قلب الحقائق ليظهر أن الإغريق أسبق فى مضمار العمارة مثلاً. فقال إن الأسوار الكيكلوبية[2] أقدم من العمارة المصرية. وذهب مولر نفس المذهب وقال إن الثقافة القرغية (غرب البحر الأسود) كان أهلها يتحدثون باللسان الهندو-أوروبى، إنتشرت لغتهم ثانية فى البلقان وبلاد الإغريق بين سكان يتكلمون لغة هندو-حيثية كانت قد انتقلت من قبل إلى هناك. فأصول اللغة الإغريقية إذن غير مصرية ولا شرقية البتة. وهذا فى مقابل علماء آخرين مثل ديبوى C.F.Dupuis المتخصص فى الأساطير الإغريقية وصاحب كتاب "أصل كل العقائد أو الدين العالمى"[3]. (Origine de tous les cultes ou la religion

---

(١) Plato, Timaios, 22B, 23A.

(٢) الأسوار الكيكلوبية نسبة إلى الكيكلوبس Cyclops المخلوق الخرافى ذى العين الواحدة المستديرة فى منتصف الجبهة كما ورد وصفه فى الأوديسيا عند هوميروس. وسميت أقدم الأسوار فى المدن الاغريقية بهذا الاسم تعبيراً عن ضخامتها وقدمها.

(٣) يمكن تأصيل هذه الفكرة فيما يقوله بلوتارخوس فى مقاله "عن إيزيس وأوزوريس" (De Is. et. Os. 57, 377F): "نحن لا نعتبر الآلهة مختلفة فيما بين الشعوب فليس بينهم البربرى (الأجنبى) والإغريقى، الجنوبى والشمالى. ولكن الآلهة مثل الشمس والقمر والسماء والأرض والبحر عامة للجميع. ومع أن الآلهة تعطى أسماء مختلفة لدى مختلف الشعوب فإنها تتحد بفضل المنطق الواحد (logos) الذى ينتظم هذه الأشياء والعناية الواحدة التى تظلها جميعاً ... تقدم لهذه الآلهة تكريمات متباينة ويتوجه إليها الخطاب بطرائق مختلفة بإختلاف عادات الشعوب... ويرمز إليها برموز مختلفة بعضها غامض وبعضها الآخر واضح ...". راجع:

universelle) والـذى صـدر عـام ١٧٩٥ (١٨٢٢) فـى بـاريس. وكـان ديبـوى الشخصية البارزة أثناء الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية علـى مصـر. ولقـد قـال "يمكـن إرجاع كل الميثولوجيا والأديان إلى مصدر واحد هو مصر". ولقد أثـار كتابـه هـذا قلـق المسيحيين وكان بمثابة ثورة ثقافية تضاهي الثورة السياسية. كما ضايق هذا الكتاب محبـي الهيللينية وأقلق مضجعهم. وسحب البساط من تحت أقدامهم قوله "يمكن اعتبار مصر أماً لكل ما ورد فى أشجار أنساب الآلهة ... وهى مصدر كل الحكايات التى تلقاها الإغريق ووشّوها بالزخارف، لأن الذى يظهر أنهم لم يبتدعوا شيئاً كثيراً". لقد جعل ديبوى الإغريق وحضارتهم حاشية أو تذييلاً فى كتاب الحضارة المصرية. وقد يبدو برنال فـى "أثينة السوداء" صورة مكررة من ديبوى الذى سبق أن قال: "إن مصر تشبه شجرة قديمة قدم العالم، قد رفعت رأسها الشامخ من عماء الأبدية، وأثرت كل أجزاء العالم بمنتجاتها، وضربت بجذورها فى عمق أجيال البشر، متخذة صوراً مختلفة ومظاهر شتى، لكنه جوهر دائم يصعد مرتقياً إلينا متمثلاً فى دينها وفضيلتها وعلمها"[1].

من هيرودوتوس إلى ديبوى ومن ديبوى إلى برنال نجد خطاً متصلاً من فكرة أن الأساطير المصرية هى أصل الأساطير الإغريقية وأن المسيحية أحست بالخطر من تأثير الديانة المصرية وسحرها. ومن ثم فإن كتاب "وصف مصر" الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية على مصر ليس إلا ثمرة ثلاثة قرون من محاولة فهم هذا البلد العجيب وكذا إستيعاب وأصول الحضارة العالمية.وفى الفترة من ١٤٠٠-١٧٠٠م ظهر حوالى مائتين وخمسين كتاباً فى "وصف مصر".

Ahmed Etman, "Isis in the Greco-Roman. World with a Special Reference to Plutarch's Treatise "De Iside et Osiride" Journal of Oriéntal and African Studies (JOAS) vol. 2 (Athens 1990) pp. 11-21.

وراجع:

B.C.Dietrich, The Origins of Greek Religion 1974.
W. Burkert, "Oriental Myth and Literature in the "Iliad", pp. 51-56 in.
R. Hägg, ed.: The Greek Renaissance of the Eighth Century B.C. Tradition and Innovation, Stockholm 1983.

(1) ترد تفاصيل هذه المعركة فى ثنايا متن هذا الكتاب الذى بين أيدينا ولاسيما من الفصل الثالث وما يليه.

ويقول زكي حبشي في كتابه الشائق عن أخناتون والتقاليد الرياضية إن المملكة الوسطى في مصر (من الأسرة الحادية عشر حتى الثامنة عشر ٢١٤٣-١٢٩٣ق.م.) كانت فترة فتوحات وتوسع تجارى، وكانت من عدة جوانب أروع فترات التاريخ المصرى القديم من حيث التطور الأدبى والفكرى والأخلاقى[١]. وأتعجب من الذين اعترضوا على مقولة برنال بأن المصريين اسسوا مستوطنات لهم في بلاد الإغريق. وقد تكون الإعتراضات الأكاديمية الجادة قابلة للنقاش في هذا المجال، لكن وجه التعجب أن البعض يعتبر فكرة المستوطنات المصرية في حوض البحر المتوسط الشرقى لا تتواءم مع طبيعة الحضارة المصرية اللا إمبريالية!. إذ من المعروف تاريخياً أن مصر بعد أن تعرضت لموجات من الغزو الخارجي أيقنت أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، فاحتلت بعض المواقع في حوض البحر المتوسط الشرقى وعلى شواطئه. وحدث ذلك بالتحديد في الأسرة الثامنة عشر[٢]. ولقد أثبت زكى حبشى أن التقاليد المصرية في مجال الرياضة البدنية كانت الأنموذج الذى يحتذى بالنسبة للإغريق الذين نقلوا عن مصر المصارعة وألعاب الكرة ولاسيما الهوكى والمقلاع والنبلة وما إلى ذلك[٣].

ولقد تحدث هيرودوتوس عن مستوطنات مصرية في شبه جزيرة البلوبونسيوس فقال: (VI.55).

55. Καὶ ταῦτα μέν νυν περὶ τούτων εἰρήσθω. ὅ τι δὲ ἐόντες Αἰγύπτιοι καὶ ὅ τι ἀποδεξάμενοι ἔλαβον τὰς Δωριέων βασιληίας, ἄλλοισι γὰρ περὶ αὐτῶν εἴρηται, ἐάσομεν αὐτά· τὰ δὲ ἄλλοι οὐ κατελάβοντο, τούτων μνήμην ποιήσομαι.

"والآن عن كيف أن هؤلاء القوم – أى المصريين – حققوا هذه الأمجاد واستولوا

---

(١) Zaki El Habashi, Tutankhamum and the Sporting Traditions. Peter Lang, New York. 1992.

(٢) Ib. p. 75.

(٣) ib. passim.

على ممالك الدوريين فقد تحدث عنه آخرون فلا داعى لتكرار ما قالوه وسنتناول شئون أخرى لم يتطرق إليها أحد من قبل".

ولقد جمع برنال الكثير من النصوص الإغريقية ليوضح أن المصريين أقاموا مستعمراتٍ فى بلاد الإغريق. واعتمد فى ذلك على أسطورة داناؤوس والتى صاغها أيسخولوس فى مسرحية بعنوان "المستجيرات" Hiketides. وربط برنال بين "الهيكسوس" و Hikesios "الضارع"، وكذا عنوان المسرحية باللغة الإغريقية. وفسر ذلك بأن المسرحية تتحدث عن الغزو المصرى لبلاد الإغريق فيما بين القرنين ١٨ و ١٧ ق.م. وقد قوبل هذا التفسير بالرفض القاطع من قبل الكلاسيكيين وفى مقدمتهم إديث هول[١]. وفى الواقع نحن لنخالف برنال فى وضعه "المستجيرات" ضمن مرحلة النضوج فى أعمال أيسخولوس التى وصلت إلينا سليمة. ومع ذلك فمن غير المنطقى أن نرفض وجهة نظر برنال تماماً، وإنما نضعها على مائدة البحث والتمحيص. فوجهة نظره تستند إلى الخلفية السياسية للتراجيديا الإغريقية من حيث أنها مناهضة للنفوذ الأجنبى وتتوافق مع معطيات "الفرس" لنفس الشاعر. وإن كان قد سبق لنا أن أشدنا بالموقف الحضارى لأيسخولوس الذى يحتفى بالنصر الإغريقى المبين على الفرس دون أن ينزلق إلى أوحال الشماتة أو العجرفة أو حتى الإستهانة بالملك العظيم المنهزم إكسركسيس، بل خلق منه شخصية مأساوية جديرة بالخوف والشفقة[٢].

وهيرودوتوس نفسه يقول (III 38): "إذا خير الناس بين "أعرافهم" nomoi وأعراف الآخرين، فبعد الفحص والتمحيص سيختار كل فريق أعرافه هو، لأن كل إمرئ يعتد بأعرافه ويعتبرها الأفضل". وتلك قاعدة مهمة فى "النظرة للآخر"، لا ينفرد بها شعب من الشعوب بل تكاد تكون هى القاعدة العامة والغالبة.

ويقول برنال نفسه "إن الحاجة إلى برهان قاطع بإعتباره نقيض الإقناع بالمناقشة أمر لا يمكن

---

(١) Edith Hall, Arethusa 25 (1992), p. 192.

(٢) أحمد عتمان، الأدب الإغريقى، ص٢٠٩-٢٥٥.

الركون إليه فى كافة فروع المعرفة، ولكنه يصبح ضرباً من العبث فى مجال يلفه الغموض مثل مجال أصول الأساطير الإغريقية". وفى هذه الكلمات إحساس مسبق بما سيواجهه كتاب "أثينة السوداء" من رفض فيما يتصل بجانبه الأسطورى. ذلك أن برنال يستخدم أساطير الاستيطان مثل كادموس وداناؤوس لتحديد الهوية القومية وكدليل على الأصول العرقية، وهو منهج لا يمكن القبول به ولا التسليم بنتائجه مهما كانت مغرية. فالأساطير منذ القدم تحّور وتُستغل لأداء وظائف جديدة ولخدمة أغراض معينة، سياسية وغير سياسية. ولعل أفضل نموذج لهذه النزعة فى العالم الإغريقى الرومانى ذلك الذى قدمه فرجيليوس فى "الإينيادة". فمن أجل تمجيد أوغسطس وروما أنشأ أسطورة تربط بينهما وبين طروادة وفينوس. ونجح فرجيليوس فى مسعاه نجاحاً منقطع النظير[1].

لكن يستفاد من ذلك أن الأسطورة على وجه العموم تعاد صياغتها ويعاد تفسيرها، وتعطى مفهوماً جديداً فى كل عصر وتلبية لاحتياجات معينة. فهل بوسعنا أن نستند على الأساطير فى تحديد القوميات والأجناس ؟ لقد أُخذ على برنال أنه عوّل كثيراً على أسطورة كادموس وداناؤوس باعتبارهما شرقيين استقرا فى بلاد الإغريق، وأقاما المستوطنات. وأهمل برنال أسطورة بيلوبس الليدى أو الفريجى والذى استوطن البلوبونيسوس والتى اشتق اسمها من اسمه. لقد أهمل برنال هذه الأسطورة لأنها لا تتواءم مع أغراضه. إنها تتحدث عن مستوطن من الساحل الشمالى الغربى لآسيا الصغرى ولا علاقة له بالشرق الأدنى، لا بالمصريين ولا بالفينيقيين.

ولكننا إذا كنا نأخذ على برنال ذلك فلا ننسى الشطط الذى وقع فيه أتباع النموذج الآرى المتطرف والرافض لكل تأثير شرقى على بلاد الإغريق. ونضرب لذلك مثلاً بمقال جوم A.W.Gomme الذى نشره عام ١٩١٣م وخلص فيه إلى النتيجة أن "كادموس قد تأشرق" (orientalised) فى القرن الخامس ق.م. بمعنى أن موضوع استيطان كادموس فى بلاد الإغريق قد ابتدعها المؤرخون العقلانيون فى النصف الأول من القرن الخامس ق.م. وهى الفترة

---

(١) أحمد عتمان، الأدب اللاتينى ودوره الحضارى فى نهاية العصر الذهبى، ص ٢٤٤-٢٨٠.

السابقة لهيرودوتوس مباشرة[١] . بل هناك من يشكك فـي أن كلمـة ploenix تعنـى فينيقـى. ومن ثم فإن الشذرة الواردة من قصيدة "المثيلات" المنسوبة إلى هيسيودوس وتتحدث عـن يوروبـا (= أوروبا) "بنت فوينيكس النبيل" ليس من الضرورى ترجمتها "بنت الأمير الفينيقى"[٢]

يقول برنال إن غالبية الشواهد الأثرية واللغوية التى تثبت نظريته ستزد فـى الجـزء الثانى، والذى نشر بالفعل عام ١٩٩١ كمـا أسـلفنا. وكـانت سـارة موريس Sarah Morris عالمة الآثـار المخضرمـة هـى التـى تولـت هـذا الجـانب فـى المنتـدى Forum الـذى نظمتـه الجمعيـة الفيلولوجية الأمريكية APA فى بلتيمور عام ١٩٨٩م تحت عنوان "تحدى أثينة السوداء: رد فعل الكلاسيكيين". وكان حواراً فيمـا بـين التخصصـات المختلفة interdisciplinary. ونشـرت أعمال المنتدى فى عدد خاص مـن مجلـة "أريثوسـا" Arethusa فـى نفـس العـام. وقـالت سـارة موريس فى هذا المنتدى إن معظم الإكتشافات الأثرية فى الآونة الأخيرة تؤكد علـى إتسـاع رقعة التأثير الشرقى على الإغريق فيما قبل التاريخ. وهذه الآثار تذهب إلى ما وراء ما وصل إليه برنـال نفسه على الأقل فى الجزء الأول من مشروعه. وتدعو سارة موريس الكلاسيكيين إلى التفكير على نحو أعمق فى القضايا التى أثارها كتـاب "أثينـة السـوداء". ولكنهـا غـير مقتنعـة باسـتخدام أسمـاء الأماكن وما شابه للدلالة على تأثير مصرى أو فينيقى علـى بـلاد الإغريق. وينبغـى الـتركيز علـى الشواهد الأثرية حيث لدينا منهـا الكثـير الـذى يؤكـد علـى أن التأثـيرات الشـرقية وصلـت بـلاد الإغريـق منــذ الألــف الثانيــة ق.م. وأمــا مــا اســتخدمه برنــال مــن الشــواهد الأثريــة فهــو

---

[١] A.W.Gomme. "The Legend of Cadmus and the Logographi" JHS. 33 (1913) pp. 53-72. 223-245.

وقارن:

R.Edwards, Kadmos the Phoenician. A Study in Greek Legend and the Mycenaean Age. Amsterdam 1975.

F.Vian, Les origines des Thebes: Cadmus et les Spartes. Études et Commentaires No.48. Paris 1963.

B.Dombrowski. Der Name Europa auf seinem griechischen und altsyrischen Hintergrund. Amsterdam 1984.

Edith Hall, Arethusa 25 (1992) p.186.

R. Merkelbach - M.L. West, Hesiod. Fragm. (Oxford 1967) 141.

قليل من كثير[١]

وفي نفس "المنتدى" المشار إليه تحدث رندسبرج Gary A.Rendsburg المتخصص في المصريات والساميات، فقال إن معظم الشواهد اللغوية التى أوردها برنال فى "أثينة السوداء" الجزء الأول سبقه إليها علماء آخرون. فهو ليس الأول كما يزعم فى مقدمة هذا الجزء (صفحة xiv من النص الإنجليزى). وأكبر دليل على ذلك هو ما يرد فى ثنايا الكتاب نفسه وحتى العنوان الجانبى "تلفيق بلاد الإغريق" هو اعتراف ضمنى بذلك لأنه يرد على النموذج الآرى (المتطرف) بإحياء النموذج القديم (المعدل). المهم أن رندسبرج يقول إن من المفيد إيضاح أنه أصبح من المتفق عليه الآن أن اللغات الهندو-أوروبية والأفرو-أسيوية هى أعضاء فى نفس القبيلة أو العشيرة phylum المسماة Nostratic. على أية حال يخلص رندسبرج إلى القول بأن معظم إشتقاقات برنال المقترحة تصمد أمام التحليل اللغوى. بيد أن مجال الإشتقاقات قد سبق وأخطأ فيه الرواد مؤسسو هذا العلم أنفسهم، فليس من المستبعد أو المستغرب إذن أن يكون برنال قد وقع فى بعض الأخطاء، ولكن من المستحسن النظر للفوائد أكثر من الحملقة فى الأخطاء[٢] إن موضوع أصل اللغات - مثل أصل الأساطير - معضلة ولا يوجد حل علمى مقنع وحاسم بصفة نهائية بالنسبة لقضاياه المعقدة. ولذلك عندما يتحدث برنال عما قبل اللغات الهندية - الأوروبية

---

(١) Sarah P. Morris, op. cit., p.39.

(٢) Gary A.Rendesburg "Black Athena: An Etymological Response" Arethusa 22 (1989) pp.67-82.

ومن الدراسات والموسوعات فى علم الإشتقاقات التى ظهرت قبل برنال نشير إلى ما يلى:

J.J. Barthelemy, Réflections générales sur les rapports des langues égyptienne phénecienne et grecque. Recueils des Mémoires de l'Academie des Inscriptions 1763, 32, 212-233.

H. Frisk, Griechisches etymologisches Wörterbuch. 3 Vols. Heidelberg 1954-1972.

P. Chantraine, Dictionaire étymologique de la larngue grecque. 4 Vols. Paris, 1968-1975.

ولوحظ فى هذه الدراسات والقواميس ترديد عبارة ohne etymologie بالألمانية و ignorée و obscure بالفرنسية والإنجليزية وما شابه ذلك عند التصدى لإشتقاق بعض الكلمات اليونانية وكلها تعنى أنها مجهولة الأصل مما يسمح باللجوء إلى الأصول الأفرو-آسيوية أى يبرر محاولات برنال.

Proto-Indo-European نشعر بأنه مغامر يدخل في عالم المحال .. فهل فهمنا أصلاً اللغات الهندية الأوروبية وتوصلنا للحلول المرْضية بشأنها حتى نفكر فيما قبلها؟

وفيما يتعلق بالمنهج السوسيولوجي الذى اتبعه برنال سنلجأ لرأى العالم المبرز في هذا المجال بيتر برجر Peter Berger الذى حذا حذو النماذج التحليلية لإميل دوركايم Emile Durkheim وماكس فيبر Max Weber أفضل. يقول بيرجر: إن تحديد أو تعريف الحقيقة في ثقافة ما هو ما إصطلح عليه أفراد المجتمع على أنه الحقيقة. الحقيقة إذن هي حصيلة إجتماعية تأخذ طابع الوجود الموضوعي، ويتم التعبير عنها في شكل من أشكال المؤسسات الإجتماعية، فتأخذ وضعاً مستقلاً ومنفصلاً عن خالقيها. يخلق الإنسان عالماً فكرياً ثم ينفصل عنه بإعتباره شيئاً آخر غير النتاج البشرى فيقدسه[1] .

أما فرانك تيرز Frank Turner المتخصص في التاريخ الفكرى البريطاني فيصدق على كثير من آراء برنال بالنسبة لتاريخ الفكر الأوروبي ولاسيما في الكلاسيكيات. ولكنه يضع برنال نفسه في معسكر فقهاء هذه الدراسات المتورطين في خضم الصراعات السياسية والإيديولوجية. فالتاريخ عموماً هو من صنع المتطلبات الإيديولوجية للمؤرخ وجمهوره[2] . أى أن التاريخ الذى نقرأه الآن هو من صنع إيديولوجية الحاضر، ونفس الشئ ينطبق على برنال. ولقد سبق لنا أن أكدنا هذا المعنى عندما قلنا بعد دراسة مستفيضة حول موضوع كليوباترا في التاريخ الإغريقي الروماني والصورة الفنية الموروثة والمتداولة حتى الآن، قلنا إن التاريخ يكتبه المنتصرون[3] . إذن هي ليست مسألة "تلفيق بلاد الإغريق" بل هي "تلفيق التاريخ البشرى" برمته.

---

(1) Peter Berger - T. Luckmann, The Social Constitution of of Reality. New York, 1967 passim.

(2) Frank M. Turner, Martin Bernal's Black Athena: A Dissent", Arethusa 22 (1989) pp. 97-110.

(3) أحمد عتمان، كليوباترا وأنطونيوس، في أماكن متفرقة.

لقد دفع كتاب "أثينة السوداء" الكلاسيكيين في أنحاء العالم إلى إعادة النظر في تخصصهم من حيث منهج هذه الدراسات، ومسارها، والفائدة المرجوة منها ومستقبلها. حتى أن ليفين M.M.Levine قد نشر مقالاً بعنوان: "التعددية الثقافية والكلاسيكيات". وخلاصة ما يدعو إليه ليفين هي ضرورة التوسع في الدراسات الكلاسيكية بحيث لا تقتصر على الدراسات اليونانية واللاتينية بل تمتد إلى دراسات البحر المتوسط باعتباره وحدة ثقافية متكاملة[1] .

وقد يبدو للبعض أن هذه دعوة جديدة لم يسبق لأحد أن سمع بها من قبل. وقد يقال إننا نحن المصريين – والعرب – لا ناقة لنا ولا جمل في هذه التيارات الجديدة بالدراسات الكلاسيكية. والواقع غير ذلك تماماً. كل ما هنالك أن هذه الضجة التي أثارها كتاب "أثينة السوداء" قد أكدت لنا ما سبق أن رددناه مراراً وتكراراً في كل كتاباتنا وفحواه أن المدرسة الكلاسيكية في مصر تقدم أنموذجاً فريداً في هذا المجال ويعد مثلاً يحتذى به[2] .

إذ ترتبط مصر بفكرة التعددية الثقافية منذ الأزل. ومن أوليات تراثنا القومي حضارتنا المصرية القديمة التي نسميها الفرعونية. فهذه الحضارة بكل مفرداتها من لغة وأدب وآثار وعلوم وفنون وعمارة تجد العناية كل العناية في الدنيا كلها من أقصاها، إلى أقصاها وهي بعد عندنا تكاد

---

(١) M.M. Levine, "Multiculturalism and the Classics", Arethusa 25 (1992) pp. 215-220.

(٢) راجع على سبيل المثال: د. أحمد عتمان: المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم. دراسة مقارنة. الطبعة الأولى. الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨. والطبعة الثانية لونجمان ١٩٩٣. (المقدمة).

نفس المؤلف: "طه حسين ومستقبل الثقافة الكلاسيكية في مصر "مجلة الكاتب عدد ٤٩ أكتوبر ١٩٧٧.

نفس المؤلف: "مستقبل الثقافة الكلاسيكية في مصر" مجلة الكاتب عدد ٢٠٣ عدد فبراير ١٩٧٨.

وراجع:

Ahmed Etman: "Classical Studies and their influence upon Creative Literature in Egypt and the Arab World, "The 11th Congress of the International Comparative Literature Association (ICLA) Paris-Sorbonne 20-25 August 1985. Revised and Published in "Osiris". Rivista di studi Italo-Egiziani, Anno I vol.1 Agosto (1991/1992) pp.68-74.

تكون حبيسة بضعة معاهد ومتاحف ومخازن. العالم من حولنا يقول لنا إن هذه الحضارة، هى أصل كل الحضارة وإن هذه اللغة المصرية القديمة وخطها الهيروغليفى هما أصل اللغات وفن الكتابة ولنسأل أنفسنا كم عدد المصريين الذين يتقنون هذه اللغة ؟ ماذا يحدث لأثارنا المصرية القديمة ؟ وما إلى ذلك من أسئلة يطرحها هذا الكتاب الذى نقدم لترجمته.

إن الحرف الأول فى مشروع النهضة المصرية لابد وأن يكون إحياء التراث المصرى القديم (الفرعونى)، ونشره وإستلهامه فى حياتنا اليومية وفى فنوننا كلها سواء القولية أو التشكيلية. وهنا نتساءل ما دور اللغة اليونانية واللاتينية فى هذا البند الأساسى من نهضتنا. ومنذ البداية أبادر بالقول بأن هذا مجال واسع للغاية ويدخل طبعا فى دائرة الأدب المقارن. ولكننا لا نستطيع الاحاطة بكل جزئياته ونكتفى فقط بالإشارة العابرة ونلخص ذلك فى النقاط التالية:

- مصر بحضارتها ولغتها كانت الأصل والنموذج الذى حذا حذوه الإغريق ومن بعدهم الرومان.
- ولكى نفهم هذا البعد لاغنى عن دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية بحثا عن مصادرهما المصرية القديمة.
- تعلم المؤرخون والشعراء والفلاسفة والعلماء الإغريق والرومان فى مصر ونهلوا الكثير من معارفها، ولكن كتاباتهم فى اللغتين اليونانية واللاتينية صارت المصدر الأدبى الرئيسى لكل من يسعى لفهم الحضارة المصرية القديمة. بل كانت هذه الكتابات المصدر الوحيد قبل فك طلاسم حجر رشيد واللغة المصرية القديمة. ونضرب لذلك مثلا واحدا ونعنى مقال بلوتارخوس "عن إيزيس وأوزوريس" الذى لا يمكن الإستغناء عنه – حتى يومنا هذا – فى أية محاولة لدراسة الديانة المصرية القديمة. وهذا المقال الفلسفى – الدينى اليونانى يعد صدى لسيمفونية اللقاء الحضارى بين مصر واليونان[1]

صفوة القول إن اللغتين اليونانية واللاتينية تمثلان أداة من أهم الأدوات فى علم المصريات.

---

[1] أحمد عتمان: المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم. الطبعة الثانية، لونجمان ١٩٩٣، ص١٤١-١٩٢

ومن ثم فإن المتخصصين فى هاتين اللغتين يستحسن أن يلموا باللغة المصرية القديمة لكى يوظفوا معارفهم الكلاسيكية لخدمة تراثنا القومى. وللأسف لا يوجد لدينا حتى الآن مثل هذا الباحث الملم بهذين الجانبين اللذين يخدمان بعضهما بعضاً.

وإذا مضينا للأمام فى التاريخ لوجدنا أن مصر عاشت ألف سنة من تاريخها (٣٠٠ ق.م. ٦٤١م) فى خضم الحضارة اليونانية والرومانية. وهى فترة إختلاط حضارى واسع المدى وكانت الإسكندرية فيه هى بؤرة النشاط الثقافى. وفى تلك الآونة إنتشرت المسيحية. وفى إيجاز شديد نقول إنه لا فهم صحيح للمسيحية بدون العودة للأصول اليونانية واللاتينية لكتابات آباء الكنيسة الآوائل أمثال القديس جيروم والقديس أوغسطين. هؤلاء كتبوا باليونانية واللاتينية وحاكوا كبار الكتاب الإغريق والرومان رغم مهاجمتهم بإعتبارهم وثنيين. إذن لا فهم صحيح للحضارة القبطية بدون هاتين اللغتين.

تستهدف الدراسات الكلاسيكية فى مصر خدمة تراثنا القومى والتراث العالمى الإنسانى وتنظم علاقتنا بالحضارة الأوروبية الحديثة. وفى البداية علينا أن نوضح كيف أن معرفة العرب بالتراث اليونانى هى التى مكنتهم من ممارسة أكبر قدر من التأثير على العقلية الأوروبية التى كانت تغط فى سبات عميق إبان العصور الوسطى فأيقظها ذلك الشعاع التنويرى العربى القادم من المشرق فأضاء الدنيا فى المغرب.

وقبل أن نمضى فى الحديث نتوقف قليلا عند مفهوم النهضة الأوروبية الحديثة. فليست الحضارة الغربية الحديثة إلا استمراراً للحضارة الأم حضارة الإغريق والرومان. لأن النهضة الأوروبية الحديثة لم تك فى جانبها الروحى سوى إحياء للقديم ونفض التراب المتراكم بحكم الزمن على التراث الإغريقى والرومانى وإعادة إكتشاف كنوزه المدفونة. بالطبع لا يمكن أن ندعى أن عالمنا المعاصر إستمرار لحياة الإغريق والرومان، إذا كنا نعنى الجانب المادى أى الصناعة والعلوم التطبيقية كالطب والفيزياء والكيمياء إلخ. لأن الثورة الصناعية إبان عصر النهضة كانت طفرة قلبت كل الموازين وغيرت كل المعايير وفتحت أفاقاً جديدة لم يسبق للعالم عهد بها. أما إذا كان حديثنا يدور حول الجانب الروحى والفكرى فى حياة الأوروبيين المحدثين فسنجد أنهم ليسوا

سوى أحفاد الإغريق والرومان وورثتهم.

وكان للعرب الفضل الأكبر في تعريف الأوروبيين بتراث أجدادهم. فهم الذين ترجموا أمهات الكتب الإغريقية وأضافوا إليها ما فاضت به قريحتهم من إبداع وابتكار. إذ طوروا بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق وشكلوه تشكيلا جديداً. فالعرب في الواقع هم مؤسسو طريقة البحث العلمي التجريبي. نعم فلم يقتصر دورهم على إنقاذ التراث الإغريقي وترتيبه وتنظيمه ثم إهدائه إلى الغرب بل إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجغرافيا والحيولوجيا وعلم الإجتماع.

لقد فعل العرب بالتراث الإعريقي ما كان قد فعله الإغريق بالتراث المصرى القديم وحضارات الشرق. إذ أن بذور الفنون والعلوم الشرقية هي التي أثمرت في الأرض الإغريقية فترعرعت الفلسفة والدراما والنقد الأدبي وما إلى ذلك.

كانت الأندلس وصقلية وإيطاليا هي المكان الذى انصهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية وما بها من ثمار التراث الإغريقي بالحضارة اللاتينية المسيحية الغربية. ونشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية هناك. وفي هذا الصدد ينبغي أن نتذكر أن النهضة الأوروبية بصفة عامة هي أكثر لاتينية وأقل أغريقية في بداياتها الأولى. ولكنها لن تصل إلى مرحلة النضج والإكتمال إلا بعد أن يلتئم شمل التراث الأوروبي القديم بشطريه الإغريقي واللاتيني. وكان لسقوط القسطنطينية في يد المسلمين عام ١٥٥٣ أثر واضح في هجرة علماء اليونان وفقهائهم من هذه المدينة – وإسمها الأقدم كما هو معروف "بيزنطة" – إلى روما عاصمة الغرب اللاتيني. وهذا النزوح اليوناني الحضارى ناحية الغرب اللاتيني جاء ليدعم ما كان العرب قد أحدثوه في إسبانيا عندما قدموا وأسسوا دولتهم في الأندلس ومعهم ثمار الحضارات القديمة كلها ولاسيما الترجمات العربية عن اليونانية. فالعرب إذن هم الذين لعبوا الدور الرائد في لم شمل طرفي التراث الأوروبي القديم أي اليوناني واللاتيني. وتلك هي البداية الحقيقية للنهضة الأوروبية الحديثة.

لقد انطلق الأوروبيون إلى مدن إسبانيا وخلجان إيطاليا وجزرها ولاسيما صقلية سعياً وراء المعارف العربية. وكان إهتمام فردريك الأول بعلم الفلك العربي هو الذى حدا به إلى إنتزاع

جيرارد من قلب مدينته الوفية كريمونا وإرساله إلى إسبانيا، وقد أوصاه بضرورة جلب المجسطي لبطليموس من مدارس المترجمين في طليطلة. ولكن جيرارد الكريموني استقر في قلعة الفكر العربي طليطلة ووقع أسير كنوز المعرفة العربية فأقام فيها زهاء عشرين عاماً ونقل أكثر من ٨٠ مخطوطاً عربياً إلى اللاتينية وعاد بها إلى وطنه ومات في عام ١١٨٧.

ومن بين مترجمات جيرارد الكريموني مؤلفات أبو قراط وجالينوس التي كان قد ترجمها حنين بن اسحق وعلق عليها ابن رضوان في المشرق العربي. وعاد جيرارد الكريموني من طليطلة أيضاً بمؤلفات الرازي وأبي القاسم وابن سينا وجدير بالملاحظة أن معظم الترجمات من العربية إلى اللاتينية تمت فيما بين ١١٤٠ و ١١٦٠م وأن مؤلفات أرسطو وصلت إلى باريس في ترجمات لاتينية مأخوذة عن الترجمات العربية فيما بين ١١٦٠ و ١٢٠٠ وقد يزداد فهمنا لقيمة الدور العربي في حفظ التراث اليوناني وقيام النهضة الأوروبية لو علمنا أن دانتي وهو من آباء النهضة صاحب "الكوميديا الإلهية" لم يكن يعرف أكثر من كلمة أو اثنتين من اللغة اليونانية.

وفي طليطلة كان قد عاش استاذ دانتي الليجيري. ولقد تم مؤخراً إكتشاف ثلاثة نصوص بالقشتالية والفرنسية القديمة واللاتينية لقصة المعراج. فصار من المؤكد أن أستاذ دانتي قد إطلع عليها وربما إطلع تلميذه على جانب منها أو حكاها كلها له. ولذلك لم يعد هناك شك في أن دانتي استقى معلوماته عن الحياة الأخروية من مصادر عربية. وبالطبع كانت له مصادر إغريقية غير مباشرة ورثها من الكتابات اللاتينية. ولقد ثبت بالدليل القاطع أنه تأثر بالتراث العربي في الأخرويات أي صورة العالم الآخر[1].

وعلينا ألا نعجب إذا كتب أسقف قرطبة عام ١٤٩٢. "إن الشباب النابه منصرف الآن إلى تعلم اللغة والأدب العربيين باللهول لقد نسوا حتى لغتهم، ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية، بينما تجد منهم عدداً كبيراً

---

(١) راجع:

Ahmed Etman, "The Nature of Dante's Islamic Sources in *Divina Comedia*" Conference L'Egitto in Italia dall' Antichità al Medioevo. Roma, Nov. 1995 (under publication).

لا يحصى ولا يعد يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم".

لقد دخلت اللغة العربية إذن فى نسيج العقلية الأوروبية مستعينة على ذلك بإنجازاتها فى الترجمة عن اليونانية. وعلينا فى نفس الوقت أن نعترف عن طيب خاطر بالفوائد التى جنتها اللغة العربية من اللغات الأخرى. فالدرس المستفاد من النهضة الأوروبية أنها قامت على أساس متين من إحياء التراث القديم أى الإغريقى واللاتينى. ومن ثم فإننا لن نستوعب هذه النهضة بدون العودة لأصولها أى التراث الكلاسيكى. ومعنى ذلك أننا لن نفهم الحضارة الأوروبية الحديثة بأدابها وعلومها ولغاتها بدون اللغتين اليونانية واللاتينية.

ولليونانية واللاتينية قصة طويلة مع الحضارة العربية والإسلامية. وخطوطها العريضة كما يلى:

أ. هناك فجوة فى الدراسات العربية لتاريخ ما قبل الإسلام. فلا نعرف من اللغة والأدب فيما قبل الإسلام معرفة يقينية أو شبه يقينية إلا حوالى مائتى سنة أى منذ القرن الخامس الميلادى فقط. فى حين تمدنا المصادر الإغريقية واللاتينية بوافر المعلومات عن العرب وحضارتهم منذ القرن السابع قبل الميلاد[1] .

ب. الحضارة العربية الإسلامية هى التى حفظت التراث الإغريقى من الضياع، إذ إقتنت مخطوطاته وترجمتها وعلقت عليها وشرحتها ولخصتها وأفادت منها ثم أضافت إليها. وهناك نصوص إغريقية مهمة للغاية ضاعت أصولها وبقيت ترجمتها العربية.

ج. هذا المنجز العربى الذى تم فى المشرق نقل بعد ذلك إلى المغرب أى إلى الأندلس وصقلية. وهناك كان قد وقع اختلاط وامتزاج بين التراث العربى والتراث اللاتينى، حتى إن بعض الموشحات وقصائد الشعر تجمع بين اللغتين العربية واللاتينية. فلما نقل المنجز العربى المشرقى المشبع بالتراث الإغريقى إلى المغرب العربى المختلط بالتراث اللاتينى قامت حركة ترجمة واسعة من العربية إلى اللاتينية لصالح أوروبا المتعطشة للعلوم العربية وللفلسفة الإسلامية ولتراث الإغريق الكامن فيها. إذن لعب العرب دور همزة الوصل بين التراث

---

(1) أنظر على سبيل المثال مايقوله هيرودوتوس عن العرب، راجع أحمد عتمان: كليوباترا وأنطونيوس، ص٣٥٤-٣٨٧.

الإغريقى واللاتينى، وكانا قد انفصلا وتبادلا مشاعر العداء منذ إنقسام الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية الشرق فى بيزنطة الإغريقية وامبراطورية الغرب فى روما اللاتينية.

إذن للعرب دور رئيسى فى بعث النهضة الأوروبية وهو دور حضارى ما زال شبه مجهول، ولا سبيل إلى استيعابه دون درس اللغة الإغريقية واللاتينية. فهناك آلاف المخطوطات غير المنشورة والمهملة والتى ربما تكشف الكثير من جوانب عظمة أجدادنا العرب المسلمين فى المشرق والمغرب. وكل ذلك يحتاج إلى المتخصصين فى اللغتين لإغريقية واللاتينية.

وفى عز الإسلام كانت الكتب والمخطوطات تدخل فى المفاوضات بين المتحاربين، فالمسلمون يطلبونها ويأخذونها فى مقابل الإفراج عن الأسرى. وفى حضن الإسلام ترعرع أدباء وشعراء ومترجمون من الفرس والروم ومن المسيحيين واليهود ومن اللون الأبيض، والأصفر والأسود. ولذلك بلغت الدولة الإسلامية ذروة المجد، ووصلت الدعوة الإسلامية من أقصى الأرض المعروفة آنذاك إلى أقصاها شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً. وإذا كان أبناء النهضة الأوروبية الحديثة يفخرون بتأسيس الدراسات الإنسانية فى جامعاتهم ويزعمون أن أساس هذه النزعة الإنسانية يقوم على التراث الكلاسيكى أى اليونانى واللاتينى، فنحن لا ننكر عليهم ذلك وإنما ندعو إلى تسليط الضوء على الدور العربى.

ونعنى بصفة خاصة دور الترجمات العربية من اليونانية فى بناء الحضارة الإنسانية الحديثة والمعاصرة. لقد بدأ الإهتمام بذلك مؤخراً ولكن التقدم فى هذا المجال يمشى ببطء شديد لقلة النصوص العربية المحققة تحقيقاً جيداً والمنشورة فى طبعات يعتمد عليها، ولندرة العلماء المتخصصين فى تحقيق النصوص العربية واليونانية معاً. فالتعاون بين علماء الكلاسيكيات والمستشرقين لا يمكن – كما يقول فالسر – أن يحل محل المنهج الضالع فى هذين التخصصين معا approach ambidexterous لأن النتائج التى

تمخضت عنها تجربة التعاون بين الكلاسيكيين والمستشرقين لم تكن مشجعة[1]

ومعنى ذلك أننا بحاجة إلى تبادل المنافع بين اللغات ولاسيما بين العربية واليونانية واللاتينية ويمكن أن نضيف إليها السوريانية. وفي الواقع هناك دائرة لغوية كبرى. لابد من إكتمالها بالنسبة لمن يريد العمل في هذا المجال. تبدأ هذه الدائرة بدائرة أصغر هي تلك التي تضم اليونانية والسوريانية والعربية. إذ تمت حركة الترجمة العربية من اليونانية في إطار هذه الدائرة مما يلزم الدارس المتخصص بالإلمام بها جميعاً. لقد ترجمت بعض نصوص أرسطو مثل "فن الشعر" ومؤلفات جالينوس إلى السوريانية أولا ومنها إلى العربية فكيف ندرس هذا الموضوع دون إتقان هذه اللغات الثلاث ؟

ثم إنتقلت هذه الدائرة ومنجزاتها إلى دائرة أخرى عندما شرع الأوروبيون في ترجمة المترجمات العربية إلى اللغة اللاتينية. وأدوات هذه الدائرة إذن العربية واليونانية واللاتينية. وإذا أراد أحد أن يدرس موضوع تأثير العرب في أوروبا الناهضة لا يمكنه أن يستغني عن دراسة العربية واليونانية واللاتينية، وهذا كله يؤكد فكرة الضلوع في منهج الدراسات اللغوية المقارنة الكفيل بتفسير الكثير من الأشياء في كل تلك اللغات وتبادل المنافع فيما بينها. ونحن نأخذ على مؤلف "أثينة السوداء" أنه لم يضع في الحسبان تأثير العرب وترجماتهم على أوروبا وهو يؤرخ للدراسات الكلاسيكية الأوروبية. ونحن نعتقد أنه ليس هناك أقدر من برنال على وضع كتاب ضخم بعنوان "النهضة الأوروبية عربية سمراء" إذا شاء ذلك!.

على أن الترجمات العربية لم تكن مجرد نقل علوم وأفكار من اليونانية، ولكنها تعدت ذلك إلى مرحلة الإنصهار الحضارى والهضم الواعى لثقافات الآخرين. وبفضل هذه الترجمات أصبحت العربية تحتل مكانا فريداً، لأنها أصبحت صاحبة فضل على التراث القديم الذى حفظته من ناحية، وعلى المحدثين الذين أخذوا من العرب ثمار هذا الجهد العلمى المنظم من ناحية أخرى. ويخبرنا حنين بن إسحق نفسه إنه كان من الممكن جمع مخطوطات النصوص اليونانية من كافة أقطار وأمصار

(1) R.Walzer, Greek into Arabic. Essays on Islamic Philosophy. University of south Carolina. Press Columbia 1962, pp. 33-34.
وقارن أحمد عتمان، "من اليونانية إلى اللاتينية عبر العربية"، سبقت الإشارة إليه.

الأمة الإسلامية التى ضمت جاليات يونانية أى رومية متعلمة. ومن ثم كان يمكن لطالب العلم أن يتعلم اليونانية على أيدى أبنائها وأصحابها، دون أن يضطر إلى السفر إلى بيزنطة مثلا. ويقول حنين إنه بحث عن المخطوطات اليونانية فى بلدان ما بين النهرين وسوريا وفلسطين ومصر ويذكر بالتحديد الاسكندرية ودمشق وحلب وحران[1] . وكان حنين يعرف ١٢٩ عملاً لجالينوس ترجم منها حوالى المائة. وعن ترجمته لأحد أعمال جالينوس يقول حنين: "كان وضع جالينوس لهذه المقالة وهو شاب من أبناء ثلاثين سنة أو أكثر قليلا عند أول دخوله رومية، وقد كان ترجمه قبلى إلى السريانى: رجل يقال له ابن سهدا من أهل الكرخ، وكان ضعيفاً فى الترجمة. ثم أنى ترجمته وأنا حدث من أبناء عشرين سنة أو أكثر قليلاً لمتطبب من أهل "جندى سابور" يقال له "شيريشوع بن قطرب"، من نسخة يونانية كثيرة الأسقاط، ثم سألنى بعد ذلك وأنا من أبناء أربعين سنة أو نحوها "حبيش" تلميذى إصلاحه بعد أن كانت قد اجتمعت له عندى عدة نسخ يونانية، فقابلت تلك بعضها ببعض حتى صححت منها نسخة واحدة ثم قابلت بتلك النسخة السريانى وصححته، وكذلك من عادتى أن أفعل فى جميع ما أترجمه. ثم ترجمته من بعد سنيات إلى العربية "لأبى جعفر محمد بن موسى"[2] .

وواضح من كلام حنين أنه يعمل فى إطار الدائرة الأولى التى أشرنا إليها والتى تجمع بين العربية والسوريانية واليونانية. والأهم من ذلك أن نتساءل: أليس أسلوب حنين فى الترجمة يجمع بين التحقيق والتدقيق ؟ ثم نضيف سؤالاً آخر أكثر أهمية وهو: أليس حنين بذلك جديراً بأن نعده من مؤسسى الدراسات الكلاسيكية الآوائل فى العالم؟ ألسنا محقين إذن فى زعمنا بأن العرب القدامى كانوا من رواد هذه الدراسات التى إزدهرت بعد ذلك فى أوروبا الناهضة والحديثة باسم الدراسات الإنسانية أو حتى الدراسات الكلاسيكية ؟ لقد تم تحقيق النصوص اليونانية فى بغداد وغيرها من المراكز الثقافية العربية فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تعتبر هذا التراث اليونانى من

---

(١) من أحدث الرسائل التى أجريت فى جامعة القاهرة حول الموضوع نشير إلى:
إيمان حامد: دراسة مقارنة لفكر جالينوس الأخلاقى فى المصادر اليونانية والترجمات العربية. رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب – جامعة القاهرة. وأجيزت فى ١٩٩٧/٧/٣١.

(٢) رسالة حنين: ص ٤–٥.

بقايا الوثنية المنبوذة، وتكفّر كل من يعمل فى هذا المجال.

لقد نجح العرب فى ربط أطراف الأرض ببعضها البعض حضاريا. لقد سبق أن أخذوا بعض الصناعات والأفكار من الهند والصين وفارس، ولقد لعب اليهود دوراً حيويا فى الإتصالات بين الشرق المسلم والغرب المسيحى فعملوا تجاراً كباراً ومبعوثين بين هذا الطرف وذاك. وكانوا يتقنون الفارسية والرومية والعربية والفرنجية والإسبانية والسلافية. ولعب العرب كذلك دور همزة الوصل بين التراث الإغريقى الشرقى والغرب اللاتينى. ومن المعروف أن العرب بحكم الموقع الجغرافى والوقائع التاريخية كانوا أقرب إلى التراث الإغريقى من اللاتينى وكانوا يعرفون عن الإغريق مالا يعرفونه عن الرومان. ومن النادر أن تجد عربياً من المشرق يعرف اللاتينية. ومن الأمثلة النادرة أبو زكريا يحيى بن البطريق وكان أبوه المتوفى عام ٨٠٠م من أوائل المترجمين. وروى أنه كان يعرف اللاتينية بالإضافة إلى الإغريقية واستخدمه الخليفة المنصور. ولما أرسل قاطنو البسفور إلى الناصر - أى عبد الرحمن الثالث (٩٣١-٩٦١م) أمير أمراء بنى أمية فى قرطبة - حقيبة ملأى بالمخطوطات الإغريقية ومن بينها مخطوطات ديوسكوريديس استرضاء له استعان بمترجمين من المشرق العربى.

فالعرب إذن هم الذين بنوا جسور الإتصال بين الشرق الأوروبى الإغريقى والغرب الأوروبى اللاتينى. ولعبت اللغة العربية دور همزة الوصل بين الإغريقية واللاتينية وهو دور لم يلق بعد حظه الواجب من العناية والدرس فى مجال اللغويات المقارنة.

بدأت حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية فى وقت مبكر إبان حكم الأمويين عام ٦٨٧م حين أقصى عن العرش الأمير الأموى خالد بن يزيد واستغرق فى الكتب قراءة ودرسا ودعا العلماء من الإغريق والعرب فى الأسكندرية وغيرها، وعهد إليهم بترجمة الأعمال المصرية واليونانية إلى العربية. هذا بالطبع جهد فردى وغير منظم إنها البداية فقط ثم تطورت حركة الترجمة فى العصر العباسى وأخذت أبعاداً جديدة موجزها فيما يلى:

١- كانت حركة الترجمة واسعة ومنظمة ولها مدارسها ومؤسساتها ويرعاها الحكام وتجد إقبالاً من الناس. إنها إذن جزء أساسى من الحياة الثقافية أنذاك وليست تياراً ثانوياً.

٢- نُقِل الفكر الإغريقى الرومانى إلى العربية فتمثل المسلمون هذا الفكر وهضموا ذلك التراث ثم أضافوا إليه الكثير والكثير.

٣- يدل النقل عن أقطاب الحضارة الإغريقية والرومانية فى الشعر والفلسفة والعلوم على روح الإنفتاح والتسامح والتطلع لأفاق المستقبل عند العرب المسلمين.

٤- لم تقتصر هذه الترجمات العربية فى فوائدها على الحضارة العربية الإسلامية بل إمتدت إلى الحضارة الأوروبية نفسها.

أخذت أوروبا هذه الترجمات العربية من اليونانية وترجمتها إلى اللاتينية فى الأندلس وصقلية، واعتمدت عليها فى إحياء تراثها الكلاسيكى وتأسيس الدراسات الإنسانية. وهذا الفضل العربى على التراث الكلاسيكى جاء ليضيف بعداً جديداً إلى ماسبق أن ذكرنا عن فضل مصر القديمة والشرق القديم على بناء الحضارة الإغريقية الرومانية.

دخلت التأثيرات العربية إلى أوروبا عبر ترجمات لاتينية من اللغة العربية تمت فى الأندلس وصقلية وسالرنو وغيرها: وكانت هذه البلاد كما هو معروف وريثة التراث اللاتينى فلما دخلها الإسلام صارت تحمل التراثين اللاتينى والإسلامى الذى تمثل وهضم كافة الحضارات السابقة. فالحضارة الأندلسية والصقلية تعد بمثابة بوتقة إنصهرت فيها كل الحضارات، وهذا ما سهل على الأوروبيين استيعاب المنجز الحضارى الأندلسى والصقلى بوجه خاص والعربى الإسلامى بوجه عام.

وعندما وضع العلامة ريتشارد فالسر كتابه بعنوان "من الإغريقية إلى العربية دراسات فى الفلسفة الإسلامية" جاء فى مقدمته "إن أهم هدف من دراستى هذه أن أذكر القارئ بمرحلة مهمة من مراحل تاريخ الدراسات الكلاسيكية. ومع أنه يحدث بعض التحسن فى معرفتنا بها إلا أنها تفتقد إلى الإعتراف الكامل بها، وما زال المدافعون عنها محصورين فى عدد ضئيل. ولم تلق هذه المرحلة العربية فى الدراسات الكلاسيكية العناية الكافية".(١)

---

(١) Walzer, op.cit., p.33-34.

ويضيف فالسر قوله "عليّ إذن أن أؤكد أهمية هذه الترجمات العربيـة للوصـول إلى صـورة أكثر إكتمالاً للفلسفة الإغريقية وتطورها. بل إن الأمر يتعدى ذلك بحيث أصبح من الضرورى ان نصل إلى جمع معجم إغريقى عربى على أساس مـن الترجمـات العربيـة لأعمـال أرسـطو وجـالينوس والأفلاطونية. ومثـل هـذا المعجـم سيكون مفيـداً للغايـة بالنسـبة للمتخصـص فـى الكلاسيكيات ودارس العصور الوسطى ومؤرخى الفلسـفة بصفـة عامـة ودارسـى الفلسـفة اليونانيـة والإسـلامية بصفة خاصة".[1]

ولعلـه مـن المهـم هنـا الإشـارة إلى أن الترجمـات العربيـة هـى الكفيلـة بحـل بعـض المشـكلات فـى اللغـة اليونانيـة. فـالمعروف أن اليونـانيين المعـاصرين ينطقـون لغتهـم القديمـة كمـا ينطقـون لغتهـم الحديثـة المتداولـة فـى حيـاتهم اليوميـة وعلـى نحـو مـا يفعـل الإيطـاليون بالنسـبة للاتينيـة. ولكـن العلمـاء فـى سـائر العـالم ينطقـون اللغـة اليونانيـة القديمـة علـى نحـو مختلـف وهـو مـا يسـمى النطـق الإرازمـى نسـبة نسـبة إلى الفقيـه الهولنـدى إرازمـوس Erasmus. ويتجلى هـذا الإختـلاف فـى ثلاثـة حـروف هـى جامـا التـى ينطقهـا اليونـانيون الآن غامـا ودلتـا وينطقونهـا ذلتـا. والعلامـة الهائيـة علـى الحـروف المتحركـة فـى بدايـة الكلمـات مثـل هومـيروس فاليونـانيون المحدثـون يهملـون هـذه العلامـة الهائيـة ويقولـون أو ميروس. فـإذا رجعنـا إلى الترجمـات العربيـة وجدناهـا تؤكـد وجهـة نظـر اليونـانيين المحدثـين فـالعرب يقولـون تراغوذيـا لا تراجوديـا. وكوموذيـا لا كوموديـا وأومـيروس لا هومـيروس.

وهـذا يـدل علـى أن العـرب نقلـوا النطـق البيزنطى، ومـن ثـم فلربّمـا كـان هـو النطـق الكلاسـيكى أيضـا. صفـوة القـول إن الترجمـات العربيـة توفـر الكثـير مـن الحلـول للمشـكلات الصوتيـة فـى اللغـة اليونانيـة، بالإضافـة إلى تحقيـق النصـوص ولاسـيما الشـعرية.

لقـد سـبق أن بينّـا مغـزى قولنـا إن الدراسـات الكلاسـيكية فـى مصـر تعـد دمـاً جديـداً ورافداً أصيـلاً يضـاف إلى تيـار هـذه الدراسـات العـالمى. فنحـن نقيـم دراسـاتنا علـى أسـاس مـن تراثنـا القومـى المصـرى القديـم والشـرقى والعربـى الإسـلامى. ولقـد اتضـح ذلـك تمامـاً منـذ تأسـيس قسـم الدراسـات اليونانيـة واللاتينيـة فـى كليـة الآداب – جامعـة القـاهرة عـام

Ib., pp. 114, cf 30, 80, 117.

١٩٢٥م على يد الرائد المؤسس طه حسين[1] . ثم كتب طه حسين رؤيته بوضوح في "مستقبل الثقافة في مصر" حيث قال "إن حضارة مصر تنتمي إلى البحر المتوسط، ولابد من دراستها في هذه المنظومة. قال ذلك وهو يدرك تأثير مصر القديمة على حضارة الإغريق والرومان من ناحية، ودور العرب المسلمين في الحفاظ على التراث الإغريقي وتسليمه لأوروبا في عصر النهضة. إذن سبقت المدرسة الكلاسيكية في مصر منذ نشأتها نظيراتها الأوروبيات في هذا الإتجاه. وعندما نسمع الآن عن اتجاه قوى نحو "التعددية الثقافية" و "المتوسطية" نقول نحن الأسبق في الدعوة إلى ذلك. يقول طه حسين:

"إن تبادل المنافع بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة قد كان شيئا يشرف به اليونان، ويتمدحون به فيما يقولون من شعر، وفيما يكتبون من نثر. فمصر مذكورة أحسن الذكر فى شعر القصاص اليونانيين (ويعنى شعراء الملاحم)، وهى مذكورة أحسن الذكر فى شعر الممثلين اليونانيين (أى شعراء المسرح)، ثم هى مذكورة أحسن الذكر عند هيرودوتوس وممن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة.

وكان اليونان فى عصورهم الراقية، كما كانوا فى عصورهم الأولى، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص.

ثم جاء التاريخ فلم يكذب شيئا من هذا ولم يضعفه، بل أيده وقواه. فالتأثير المصرى فى فنون العمارة والنحت والتصوير عند اليونان شئ لا يجحد ولا يمارى فيه. والتأثير المصرى يتجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تمس الفنون التطبيقية، وتمس الحياة العملية اليومية، وقد تمس السياسة أيضا.

ومن الحق أن نعترف بأن مصر لم تنفرد بالتأثير فى حياة اليونان، ولا فى تكوين

---

(١) أحمد عتمان: "تفاعل الآداب العالمية فى تراث طه حسين. الآداب الأوروبية القديمة. الأدب اليونانى والأدب اللاتينى ص٢٢٥-٢٧٦ فى كتاب فكر "طه حسين ومائة عام من النهوض العربى فى الذكرى المئوية لمولده". دار الفكر عدد ١٤ القاهرة ١٩٨٩.

الحضارة اليونانية والعقل اليوناني، وإنما شاركتها في ذلك أمم شرقية أخرى. كان لها حظ موفور من الحضارة والرقي وهي هذه الأمم التي كانت تعمر هذا الشرق القريب. (= مانسميه الآن الشرق الأدنى).

هذه الأمم التي كانت كمصر مهدا للحضارة في حوض البحر الأبيض المتوسط. وكما أن اليونان يعرفون الفضل لمصر في تكوين حضارتهم. فهم يعرفون الفضل للكلدانيين وغيرهم من هذه الشعوب الآسيوية التي تأثرت بالبحر الأبيض المتوسط"[1].

أما الذين يحتاجون إلى مزيد من الإقناع حتى يقبلوا بوجهة نظرنا – أي أن المدرسة الكلاسيكية المصرية تعد نموذجاً يحتذى – فإننا نحيلهم إلى بعض ما صدر في مصر من الدراسات الكلاسيكية، فكلها يؤكد هذا المعنى. إننا نحيل هؤلاء إلى أعداد مجلة "أوراق كلاسيكية" ولاسيما العدد الرابع الذي يحمل عنوان "الرواد ومائة عام في الدراسات الكلاسيكية". ونحيلهم كذلك إلى الكتاب السنوي للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية الذي صدر منه حتى الآن عددان ويعد الثالث الآن للصدور. حيث يمكن أن نلاحظ اتجاه الدراسات الأكاديمية الكلاسيكية في مصر إلى خلق تيار قوي لتأصيل هذه الدراسات على أسس سليمة تربط بين تراثنا القومي وحوض البحر المتوسط وتستشرق المستقبل. والتيار السائد في المدرسة الكلاسيكية المصرية هو تطوير علمي مدروس لاتجاه طه حسين المؤسس، أي التركيز على تفاعل الحضارات وتبادل الثقافات.

لكننا في نفس الوقت لا نغمض أعيننا عن أوجه القصور أو الفجوات في مسار الدراسات الكلاسيكية في مصر. فأول ما ينقصنا هو خلق تيار التكامل المنهجي أو ما نسميه تضافر التخصصات المختلفة interdisciplinary research. فنحن في أمس الحاجة لتضافر المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية مع علماء المصريات لغة

---

(1) طه حسين: مستقبل الثقافة (المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد التاسع، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت ١٩٨٢) ص٢٢-٢٣.

وآثاراً وتاريخاً وأدباً وعلماً. نحن فى أمس الحاجة لتضافر الجهود بين الكلاسيكيين وعلماء اللغات الشرقية الإسلامية والسامية. نحن فى أمس الحاجة لتضافر الجهود بين الكلاسيكيين وأقطاب الدراسات العربية. بل إننا فى أمس الحاجة لتضافر الجهود بين الكلاسيكيين والمتخصصين فى اللغات الأوروبية الحديثة.

بقيت نقطة أخيرة فى هذا الصدد وهو ضرورة زرع الوعى لدى الناس بأن الدراسات اليونانية واللاتينية تسهم كذلك فى خدمة قضايانا السياسية المعاصرة، ولاسيما أننا بالفعل دخلنا مرحلة الصراع الحضارى الحاسم. نضرب على ذلك مثلاً بالمزاعم الوهمية غير المسئولة السائرة والقائلة إفتراءً بأن اليهود هم بناة الأهرام وأن اللغة العبرية صاحبة التأثير الأكبر على اللغة المصرية القديمة وما إلى ذلك. كيف السبيل إلى مواجهة هذا المخطط إن لم نهتم بدراسة تراثنا القومى وعلاقته بالشعوب الأخرى ؟ إن غيابنا عن هذه الساحة ليس معناه فقدان ماضينا العريق فحسب، بل ضياع حاضرنا السياسى أيضاً. فاسرائيل نفسها قد قامت على أساس من دراسات فى الأساطير والتاريخ والآثار منذ آلاف السنين. وعالم مثل سيروس جوردون اليهودى يعد من ألمع الدارسين فى الساميات وله كتاب رائد عن "نحو اللغة الأوجاريتية" يعد المرجع العمدة حتى الآن. وكانت أوجاريت قد اكتشفت عام ١٩٢٩م ولغتها هى أول لغة سامية تضم إلى حصيلة معرفتنا باللغات السامية. وقد ربط جوردون بين أوجاريت وكريت وهذا معناه فتح ثقافى جديد يضاف إلى السامية ويدعم السياسة التوسعية.

ليس لنا أن نفرح كل الفرح بإنصاف برنال للحضارة المصرية فهو انصاف منقوص، كما أنه ليس أول من قال بتأثير مصر على الإغريق. وبعد بضعة عقود من الزمن قد يتصدى له من هو أكثر منه حماساً وعنفواناً، وقد يعودون إلى التجنى على مصر وإزدراء حضارتها، فهذا المد والجزر قد تكرر كثيراً فى التاريخ. المهم هو أن ننهض نحن المصريين ونعرف حضارتنا لغة وتاريخاً وآثاراً علماً وأدباً وديناً وفلسفة. وذلك إنقاذاً للماضى المجنى عليه والحاضر المنهوب والمستقبل الذى يخططون لإفساده.

على أننا نعترف بأن هذه المقدمة التى نختمها الآن محدودة الهدف، ولا تأمل فى الرد على كل التساؤلات، ولا فى شرح كل نقاط الغموض والخلاف. إنها تسعى فقط إلى تمهيد الطريق أمام القارئ الحصيف وهو يتعامل مع هذا الكتاب المثير. أما الرد على صاحب الكتاب والتصدى لكافة المشكلات المطروحة فهو أمر متروك لدراسات تخصصية مستفيضة نأمل فى ظهورها بالمكتبة العربية إن آجلاً أو عاجلاً.

والله ولى التوفيق

أحمد عتمان

القاهرة: يوليو ١٩٩٧م.



مقدمة المؤلف

ترجمة د. لطفى عبد الوهاب يحى

"إن الذين يحققون الإبتكارات الأساسية فى النظام الجذرى السائد فى مجال ما، كانوا فى الأغلب الأعم من بين الأصغر سناً أو الأحدث تعاملا مع المجال الذى يغيّرون تكوينه الجذرى".

(توماس كون Thomas Kuhn: بنية الثورات العلمية، ص٩٠).

أحاول بهذا الإقتباس من توماس كون أن أبرز إجترائى، بصفتى أحد المتمرسين فى "التاريخ الصينى" أن أكتب فى مواضيع تبتعد كثيرا عن المجال الأصلى الذى أعمل فيه. وذلك لأن ماسوف أحاول أن أثبته هو أنه: رغم أن ما سأقدمه من وجهات النظر المغايرة لا تمس النظام الجذرى بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أنها تشكل رغم ذلك، تغييرات أساسية.

إن أجزاء هذا الكتاب تهتم بنموذجين من كتابة تاريخ الإغريق: أحدهما ينظر إلى بلاد الإغريق على أنها أوروبية وآريّة فى المقام الأول، بينما يعتبرها النموذج الآخر مشرقية Levantine تقع على حافة المنطقة التى تسودها ثقافة مصر والساميين، وسأطلق على هذين النموذجين تسميتى "النموذج الآرى" و "النموذج القديم". وقد كان "النموذج القديم" يشكل المنظور التقليدى فى العصرين الكلاسيكى والمتأغرق*. وتبعا لهذا المنظور فإن الثقافة الإغريقية قد ظهرت نتيجة لنشاط إستيطانى أو إستعمارى قام به المصريون والفينيقيون حوالى ١٥٠٠ ق.م. ووضعوا (من خلاله) أبناء المنطقة الإغريقية على طريق التحضر، وقد إستمر الإغريق بعد ذلك فى نقلهم عن ثقافات الشرق الأدنى بشكل موسع.

ومن هنا فإن الغالبية (بين أولئك الذين يتعاملون مع تاريخ الإغريق) يصابون بالدهشة حين ينمو إلى علمهم أن "النموذج الآرى"، الذى شب معظمنا على الإيمان به، لم يظهر إلاّ فى غضون

---

* "العصر الكلاسيكى" يطلق عادة على تاريخ الإغريق منذ أوائل القرن الخامس حتى فتوح الاسكندر الأكبر فى الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م.، بينما يطلق "العصر المتأغرق (أو الهللنستى)"، على القرون الثلاثة التى تمتد بين قيام الدول المتأغرقة (أو الهيللينستية) على أثر تقسيم امبراطورية الاسكندر بعد وفاته وبين فتح الرومان لمصر، عام ٣٠ق.م. (المترجم)

النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد أنكر هذا النموذج الجديد، في خطوطه العريضة التي واكبت صورته المبكرة، حقيقة المستوطنات المصرية (المذكورة) كما شكك في المستوطنات الفينيقية. بل إن ما دعوه بالنموذج الآرى "المتطرف" - الذى ازدهر مع توصل الحركة "اللاسامية"، إلى قمتيها فى التسعينيات من القرن التاسع عشر والعشرينيات من القرن العشرين - قد وصل إلى حدّ إنكار التأثير الثقافى الفينيقى ذاته. ويرى أنصار "النموذج الآرى" أنه كان هناك غزو من الشمال - وهو مالم تذكره الروايات القديمة - غمر الثقافة "الإيجية"، وهى تلك التى سبقت الثقافة "الهلينية" (ثقافة هؤلاء الغزاة). ومن هنا فإن الحضارة الإغريقية يُنظر إليها على أنها نتاج لإختلاط الهيلليين الذين كانوا يتكلمون لغة هندو-أوروبية، برعاياهم من أبناء البلاد الأصليين. وإنطلاقا من تكوين هذا النموذج الآرى، جاءت تسميتى لهذا المجلد من كتابى "تلفيق بلاد الإغريق القديمة، ١٧٨٥-١٩٨٥م).

وفى اعتقادى أنه من الخير أن نعود إلى "النموذج القديم" مع بعض التعديلات. ومن هنا فإن التسمية التى أطلقها على ما اتبنى الدعوة إليه فى المجلد الثانى من "أثينه السوداء" هى "النموذج القديم المعدّل". وهذا النموذج يقبل بوجود أساس حقيقى للأخبار (القديمة) التى تتحدث عن استيطان مصرى وفينيقى والتى يتضمنها "النموذج القديم". على أن هذا النموذج "المعدل" يفترض بداية مبكرة بعض الشئ لهذا الاستيطان ويرد هذه البداية إلى النصف الأول من الألف الثانية ق.م. كذلك فإنه يتفق مع هذا الأخير (النموذج القديم) فى أن الحضارة الإغريقية إنما هى نتاج للاختلاطات الثقافية التى أدت إليها هذه الموجات الاستيطانية أو الاستعمارية، ولما اقتبسته هذه الحضارة من المناطق الواقعة عبر القسم الشرقى للبحر المتوسط. هذا، ومن الجانب الآخر، فإن هذا النموذج يتقبل، وإن كان ذلك بصورة غير نهائية، الفرضية التى يقدمها "النموذج الآرى" والتى تخص حدوث غزوات - أو تسربات - أتت من الشمال وقام بها أناس يتكلمون لغة هندو-أوروبية فى فترة تقع فى الألف الرابعة أو الألف الثالثة ق.م. ومع ذلك فإن "النموذج القديم المعدل" (الذى أدعو إليه) يزعم أن السكان السابقين (لهذه الغزوات إن ثبتت) كانوا يتكلمون لغة تتصل باللغة الهندية - الحيثية التى لم تترك سوى أثر ضئيل فى اللغة الإغريقية. وعلى أى الأحوال فإن هذا الأثر الضئيل لا يمكن استخدامه لتفسير العناصر غير الأوروبية التى ظهرت فى اللغة الإغريقية فى وقت متأخر.

وإذا كنت قد أصبت فيما أحث عليه من إسقاط "النموذج الآرى" وإحلال "النموذج القديم المعدل" بدلا منه، فإنّه سيصبح من الضرورى ألا نقتصر على إعادة التفكير في أساسيات الحضارة الغربية، بل سيتوجّب علينا كذلك أن نعترف باختراق العنصرية والشوفينية* الأوروبية لطريقتنا أو فلسفتنا في كتابة التاريخ. إن "النموذج القديم" لم تكن فيه إختلالات داخلية كبيرة، كما لم تكن فيه نقاط ضعف في قوة التفسير. وإنما تم إسقاطه لأسباب خارجية. والسبب في ذلك هو أن الرومانسيين والعنصريين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانوا، بكل بساطة، لايتحملون أن تكون بلاد الإغريق نتاجاً لخليط من أبناء البلاد الأصليين ومستعمرين أو مستوطنين من الأفارقة أو الساميين- وهي البلاد التي كانوا (الرومانسيون والعنصريون) ينظرون إليها على أنها خلاصة أوروبه وصورتها المصغرة، بل مرحلة الطفولة الخالصة لهذه القارة. وهكذا كان لابد من إسقاط "النموذج القديم" وإحلال شئ (نموذج) آخر مكانه يكون أكثر قبولا لديهم.

والآن، ماذا نعنى بلفظتي "النموذج" model والنظام الجذرى السائد، paradigm. إن تعريف مثل هذه الألفاظ، يحدّ من قيمته أننا نستخدمها بطريقة فضفاضة بالضرورة، كما يحدّ من هذه القيمة أن الألفاظ لا يمكن تعريفها إلا بألفاظ أخرى، وهذه لا تقدم أرضا صلبة تصلح لأن نبني فوقها. ومع ذلك فإن قدرا من الإشارة إلى المعنى المقصود من هاتين اللفظتين هو شئ لابد منه. وفيما يخص لفظة "نموذج" فإنى أعنى به بشكل عام تصميماً مصغراً ومبسطاً لحقيقة معقدة. ومع ذلك فإن نقل المعنى بهذا الشكل يشوه الصورة دائما، فكما يقول المثل الإيطالى السائر "المترجم خائن (للحقيقة)" traduttore traditore. ولكن، رغم ذلك، فإن النماذج، شأنها شأن الكلمات ذاتها، ضرورية لكل ألوان الفكر والكلام تقريبا. على أننا ينبغى أن نتذكر دائما أن النماذج مصطنعة أو مبتسرة بطريقة أو بأخرى. وفوق ذلك فكما أن خير طريق لتفسير الجوانب أو المنظورات المختلفة للضوء هو أن نعتبرها موجات أو جزئيات، فإن الظواهر الأخرى كذلك يمكن أن نراها بشكل مثمر بطريقتين مختلفتين أو أكثر، وبعبارة أخرى: عن طريق استخدام نموذجين مختلفين أو أكثر. ومع ذلك فإنه من المعتاد أن يكون أحد النماذج أفضل أو أسوأ من النموذج الآخر في قدرته على شرح ملامح "الحقيقة" التي نحن بصددها - وهكذا يضحى من

---

* الشوفينية هى المرحلة التعصبية الاستعلائية من الوطنية أو القومية أو العنصرية (المترجم)

المفيد أن نفكر على أساس من المفاضلة بين النماذج. أما عن لفظة **paradigm** أو النظام الجذرى السائد، فإنى أعنى بها ببساطة: النماذج المعممة للفكر، التى تنطبق على عدد كبير من جوانب الحقيقة، أو على كل هذه الجوانب، كما يراها الفرد أو كما تراها الجماعة.

إن التحديات الأساسية للنظم تأتى عادة من الخارج. ذلك أن الوضع المتبع هو أن يجرى تقديم الدارسين إلى مجالات دراستهم بصورة تدريجية تتفتح من خلالها خبايا هذه المجالات. ومن ثم، فحين يأتى الوقت الذى يرون فيه الموضوع الذى يدرسونه كوحدة متكاملة، يكونون قد تشربوا الأفكار المتصورة سلفا ونماذج الفكر (التى تسوده)، بحيث يصبح الشك فى فرضياته الأولية أمرا بعيد الإحتمال إلى أقصى حدود الإبتعاد. ويظهر هذا النوع من عدم المقدرة (على الفكاك من هذه الفرضيات) بشكل خاص فى الأنظمة (الفكرية والدراسية) التى تتصل بالتاريخ القديم. ويبدو أن أحد الأسباب التى أدت إلى ذلك هو أن دراسة التاريخ القديم تسيطر عليها الحاجة الدائمة إلى تعلم لغات صعبة – وهى عملية تسلطية لا تخضع بطبيعتها للنقاش: إذ ليس من الجائز أن يسأل الدارس عن سبب منطقى يتعلق بفعل شاذ يخالف القاعدة أو بوظيفة أداة. وفى الوقت ذاته فإن المعلمين حين يُرسون القواعد اللغوية (فى ذهن الدارس) فإنهم يقدمون كذلك معلومات اجتماعية وتاريخية عادة مايجرى تقديمها (من جانبهم) وتلقيها (من جانب الدراسين) فى الإطار الذهنى ذاته. هذا ويزيد من السلبية الذهنية لدى الدارس أن هذه اللغات كثيرا ما يكون الدارس قد بدأ فى دراستها فى سن الطفولة. إن هذا الأمر إذا كان من شأنه أن يؤدى إلى سهولة التعلم وأن يعطى الدارس الذى يتعلم بهذه الطريقة حسّاً لا يضاهى باللغة الإغريقية أو اللغة العبرية، فإن مثل هؤلاء الدارسين والدارسات يصبح من المعتاد لديهم أن يتقبلوا تصوراً أو فكرة أو شكلاً على أساس أنه إغريقى أو عبرى فى صورته النموذجية دون أن يطلبوا تفسيراً عن وظيفته المحددة أو أصله المحدد.

أما السبب الثانى للتوقف دون المرونة فى هذا الصدد. فهو الشعور بما يقترب من القدسية، إن لم تكن القدسية ذاتها، التى يحسها الدارس حين يقدم على التعامل مع الثقافتين الكلاسيكية واليهودية اللتين ينظر إليهما على أنهما ينبوع الحضارة "الغربية"، وهكذا يصبح هناك نوع من التردد فى تدعيم دراستهم باستخدام نماذج بهدف القياس أو المقارنة يكون من شأنها أن تبتعد عن هذه القدسية. والإستثناء الكبير فى هذا الصدد كان فى مجال "الفولكلور" أو التراث الشعبى

وعلم الأساطير. حيث كان هناك قدر كبير من الدراسات المقارنة منذ الوقت الذى ظهر فيه كل من جيمس فريزر James Frazer وجين هاريسون Jane Harrison فى مطلع القرن التاسع عشر. على أن هذا (العمل فى مجال الدراسات المقارنة) كله تقريبا بقى ضمن الإطار الذى حدده فى عشرينيات القرن التاسع عشر، الرجل الذى حطم "النموذج القديم" وهو كارل أوتفريد موللر Karl Otfried Müller. لقد حث موللر الدارسين على دراسة الأساطير الإغريقية من حيث علاقتها بالثقافة الإنسانية بوجه عام، ولكنه عارض بصلابة الإعتراف بأن تكون هذه الأساطير قد أخذت أى شئ محدد عن الشرق[1]. أما حين كان الأمر يتصل بالثقافة العليا، فإن معارضته لأى تشابه دقيق بين الطرفين كانت أكثر تشددا. على أن هذا الموقف المعارض وصل إلى ذروته فى مجال اللغات والأسماء. فمنذ أربعينيات القرن التاسع عشر كان فقه اللغات الهندو-أوروبية أو دراسة العلاقات بين هذه اللغات، ولا يزال فى قلب "النموذج الآرى". وهنا نجد أن المتخصصين فى اللغات الهندو-أوروبية وفقهاء اللغة الإغريقية فى ذلك الوقت، كما لايزال الأمر فى الآونة الحالية، قد قاوموا بشكل غير عادى الإعتراف بأية علاقة بين اللغة الإغريقية من جانب وبين اللغة المصرية واللغة السامية، وهما اللغتان الرئيسيتان غير اللغات الهندو-أوروبية بين اللغات السائدة فى منطقة شرقى البحر المتوسط قديما، من الجانب الآخر. وفى هذا الصدد فإنى لعلى يقين أنه لو كانت اللغات المصرية والسامية الغربية والإغريقية لغات لثلاث قبائل هامة متجاورة فى العالم الثالث الحديث، لقامت دراسات مقارنة موسّعة ولتوصّل علماء اللغة على أثرها إلى نتيجة تشير إلى إحتمال إنتماء هذه اللغات إلى أصل واحد مهما كان هذا الأصل بعيداً، ولأعلنوا أنه من المرجّح وجود اقتباسات لغويّة متبادلة، إلى جانب اقتباسات متبادلة أخرى، بين هذه الشعوب الثلاثة. ولكن فى ظل الشعور بالاحترام العميق للّغتين الإغريقية والعبرية *. فإن هذا اللون من العمل المقارن الفجّ يصبح (فى نظرهم) أمرا غير مناسب.

إن غير المتخصصين ليس فى وسعهم أن يسيطروا على التفاصيل التى حصل عليها أهل التخصص فى كثير من البطء والمشقة. ومن هنا فإنهم، من حيث إفتقارهم إلى تفهم كامل للتعقيدات الموجودة فى خلفية (مجال التخصص)، كثيرا ما يرون علاقات تتسم بالسذاجة بين التشابهات السطحية. على أن هذا لا يعنى فى حدّ ذاته أن غير المتخصصين هم على خطأ

* هكذا فى الأصل (المترجم)

بالضرورة. وفى هذا الصدد فإن هاينرخ شليمان Heinrich Schliemann، الألمانى الواسع الثراء الذى كان أول من قام بحفائر فى طرواده وموكينى* فى سبعينيات القرن التاسع عشر أقدم على الربط بشكل ساذج ولكنه مثمر بين الحكايات الشعبية التراثية وبين الوثائق التاريخية والطوبوغرافية، مظهرا بذلك أن الأمر الواضح للجميع لا يشكل خطأ فى كل الأحوال، وذلك رغم أن الأكاديميين يودّون إلى حدّ كبير أن يكون الأمر على غير هذا النحو.

كذلك فإن المحترفين (المتخصّصين) كثيرا مايخلطون بين ما أميل إلى تسميته بأخلاقيات الموقف وبين الحقيقة. وهكذا فبينما يمكن أن نقول إنه من العدل أن يكون المتخصص الخبير الذى قضى حياته يحاول أن يسيطر على موضوع ما، هو الذى ينبغى أن يعرف عنه أكثر من أى شخص آخر حديث عهد بالموضوع ومن ثم متسرّع ومندفع (فى تعامله معه)، إلا أن الأمر ليس دائما على هذه الحال. فالأخير تكون له فى بعض الأحيانَ ميزة المنظور المجسد أو القدرة على أن يرى الموضوع ككل وأن يربط بينه وبين الأمثلة الأخرى المشابهة. وهنا يكمن الوضع المتناقض الذى نجد فيه أن الهواة إذا كانوا لا يستطيعون فى المعتاد أن يساعدوا على التقدم العلمى فى إطار نموذج أو نظام أساسى. إلا أنهم يكونون فى أغلب الأحوال خير من يتحدّاه. وفى هذا الصدد فإن أهم عملين اخترقا الوضع القائم فى الدراسات الهيللينية** منذ عام ١٨٥٠، وهما الإكتشاف الأثرى الذى يخص الميكينيين، وفك رموز الكتابة التخطيطية ب Linear B– قام بهما اثنان من الهواة هما: شليمان الذى أسلفت الإشارة إليه منذ لحظة، وميخائيل فنتريس Michael Ventris، وكان مهندسا معماريا من دم إنجليزى – إغريقى مختلط.

ومع ذلك فإن ورود المحاولات الجديدة الأساسية من الخارج فى أحوال كثيرة لا يعنى، بكل تأكيد، أن كل المحاولات التى من هذا النوع سليمة أو أنها تساعد (فى مجالها). إن أغلبها (فى الواقع) ليس كذلك ويتم رفضه بحق على أنه من قبيل النزق أو الطيش. وفى هذا الصدد فإن التمييز بين الأنماط المختلفة للتحدى الجذرى يطرح مشكلتين على جانب من الصعوبة، هما: من

---

* تقع مدينة موكينى Mycenae فى شبه جزيرة البلوبونيسوس (فى جنوب بلاد اليونان)، وتقع طرواده فى شمال غرب آسيا الصغرى. (المترجم).

** تستخدم صفة "الهيللينية" عادة بمعنى الإغريقية، ولكنها ترتبط بمرحلة زمنية أحيانا، حسب النص الذى ترد فيه (المترجم).

الذى ينبغى أن يقوم بالتغيير، وكيف ينبغى القيام به. ومن الطبيعى أن يكون الأخصائيون هم الذين تتم استشارتهم فى هذا الشأن، فهم الذين يملكون المعرفة اللازمة لتقويم الأفكار الجديدة من حيث مدى جدارتها بالقبول ومدى منفعتها. فإذا كان أغلب الأخصائيين يقبلون أحدهما، كما حدث فى حالة فك فنتريس لرموز الكتابة التخطيطية "ب"، فإنه يصبح من الحمق أن نتحدى مااتفق عليه حكمهم. ومع ذلك فإن رأيهم المعارض لا يمكن أن ننظر إليه بنفس التبجيل الذى يعلو به فوق النقاش. والسبب فى ذلك هو أنهم، رغم امتلاكهم للمهارات اللازمة لإصدار الأحكام، إلا أن لهم مصلحة مباشرة فى الأمر، فهم القائمون على رعاية الوضع الأكاديمى الراهن status quo وهم يسهمون فيه ذهنياً وعاطفيا. بل إن العلماء يدافعون فى بعض الأحيان عن وضعهم وذلك بأن يزعموا أن العصر الذهبى للهواة، الذى كان لازما فى ميدانهم فى وقت مَن الأوقات، قد أنقضى. وعلى ذلك فإن النظام العلمى الذى يرعاه هؤلاء العلماء، رغم أن بدايته كانت على يد غير المتخصصين. إلاّ أن هؤلاء الأخيرين لم يعد فى وسعهم أن يسهموا فيه بعد الآن. ذلك أن فكرة غير المتخصص، مهما كانت معقولة وجديرة بالقبول، إلا أنها (فى نظرهم) بحكم طبيعتها لا يمكن أن تكون صادقة.

وعلى غرار التوجهات التى تقول "ان الحرب أمر من الخطورة بمكان بحيث ينبغى ألا يترك للعسكريين وحدهم" فإن رأى أصحاب المعرفة (من غير المتخصصين)، إلى جانب رأى أصحاب التخصص، أمر ضرورى لتقويم صحة التحديات الجديدة التى تكون قد تعرضت للرفض من جانب العلماء القائمين على الموضوع. ذلك أنه رغم أن الأخيرين يعرفون بوجه عام أكثر من عامة (المثقفين)، إلا أنه كانت هناك حالات أثبتت عكس ذلك. ولنأخذ، على سبيل المثال، قضية تزحزح القارات، Continental Drift التى اقترحها، لأول مرة، الأستاذ أ.ل. ويجينر A.L. Wegener فى أواخر القرن التاسع عشر. فخلال القسم الأكبر من أوائل القرن العشرين نجد أن أغلب الجيولوجيين كانوا ينكرون مغزى "التكامل" الواضح بين (شواطئ) إفريقية وأمريكا الجنوبية، وبين جانبى البحر الأحمر وبين شواطئ أخرى عديدة. أما الآن، فعلى النقيض من ذلك، فإن هناك قبولاً على مستوى العالم للنظرية التى تقول إن القارات قد طفت بعيداً عن بعضها. كذلك فإن مادعا إليه أعضاء حزب الشعب الأمريكى American Populists فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر من ترك التعامل على أساس "قاعدة الذهب"، قد

شجبه علماء الاقتصاد آنذاك على أنه لا يمكن التعامل على أساسه إطلاقاً. إن مثل هذه الحالات يمكن أن نتبين منها أن الجمهور كان على صواب بينما كان الأكاديميون على خطأ. وهكذا، فإن الرأى المتخصص، رغم أنه ينبغى أن يدرس بعناية وأن يتم التعامل معه باحترام، إلا أنه لا ينبغى أن يشكل الكلمة الأخيرة فى كل الأحوال.

وإذن فكيف ينبغى للشخص المثقف من غير المتخصصين أن يميز بين مجدد حقيقى من خارج دائرة التخصص وبين مجرد شخص مهووس تسيطر عليه فكرة، بين شخص مثل فنتريس الذى فك رموز الكتابة المقطعية الكريتية، وشخص مثل فليكوفسكى Velikowsky الذى كتب تسلسلا للأحداث والكوارث يختلف تماما عن كل بناء تاريخى آخر ؟ إذ فى النهاية لابد أن يعتمد الذين يصدرون الأحكام من غير المتخصصين على أحكامهم الذاتية أو الجمالية. (وهنا نقول) إن هناك وسائل تساعد على الإجابة على هذا التساؤل. إن المهووس – وهو الشخص الذى لديه شرح متكامل ولكن فرضياته لا تجتذب بسرعة اهتمام المؤسسات الأكاديمية – من شأنه عادة أن يضيف إلى نظرياتهم عوامل غير معروفة ومن غير الممكن التوصل إلى معرفتها مثل: رجال من الفضاء الخارجى، إرتطامات بين الكواكب، وهكذا. وبطبيعة الحال فإن هذا الطراز من الفرضيات قد يتم إثباته بشكل ساطع عن طريق إكتشاف (لاحق) للعوامل غير المعروفة التى نادى بها صاحب الفرضية. وعلى سبيل المثال فإن "المعاملات" coefficients التى افترضها العالم السويسرى العظيم سوسّير Saussure لنفسر على أساسها أمثلة الخروج على القاعدة المعروفة anomalies فى حروف العلة الهندو-أوروبية، وُجدت فى الأصوات الحلقية فى اللغة الحيثية، رغم أن النظرية بقيت، طوال الفترة السابقة لذلك، غير قابلة للإختبار، ومن ثم غير مثيرة للاهتمام.

وعلى العكس من ذلك فإن المجددين الذين لا يتمتعون بنفس القدر من الخيال، يتجهون عادة إلى إزالة العوامل بدلا من إضافتها. وفى هذا المجال فإن فنتريس استبعد اللغة الإيجية غير المعروفة التى كان يفترض استخدامها فى الكتابة التخطيطية "ب"، وقد أدى ذلك إلى إيجاد تجاور مباشر بين تكوينين قائمين بذاتها، هما اللغة الإغريقية التى استخدمها هو ميروس وتلك التى سادت العصر الكلاسيكى وبين مجموعة الألواح التى كتبت بالكتابة التخطيطية "ب"، وبذلك

خلق فى التوّ حقلا أكاديميا كاملا وجديدا.

وأزعم فى هذا الصدد أن إحياء "النموذج القديم" للتاريخ الإغريقى، وهو الذى اقترحه فى هذه المجلدات، ينتمى إلى هذه الفئة الثانية من الفرضيات. إن فرضيتى لا تضيف عوامل جديدة غير معروفة أو من غير الممكن التوصل إلى معرفتها. ولكنها، بدلا من ذلك، تستبعد عاملين قدمهما أنصار "النموذج الآرى" وهما: الشعوب السابقة للهيلليين، من غير المتحدثين بالهندو- أوروبية والذين أُقحِم عليهم كل مالم يمكن تفسيره من جوانب الثقافة الإغريقية، ثم هذه الأدواء أو الأمراض الغامضة، مثل الهيام بكل ماهو مصرى Egyptomania وحب البرابرة، Barbarophilia و"التفسير الإغريقى" interpretatio graeca، وهى الأدواء التى يزعم أصحاب "النموذج الآرى" أنها ضللت عددا كبيرا من الأذكياء المتزنين العارفين بالأمور من بين الإغريق القدماء، فجعلتهم يعتقدون أن المصريين والفينيقيين قاموا بدور أساسى فى تكوين الثقافة الإغريقية. (وفى الواقع) فإن هذا "الوهم" يلفت النظر بقدر أكبر لأن ضحاياه لم يكسبوا من ورائه إرضاء لنزعة عرقية. وفى هذا الصدد فإن استبعاد العاملين المذكورين وإحياء أو انبعاث "النموذج القديم" أمر كفيل بأن يترك الثقافات الإغريقية والسامية الغربية والمصرية فى مواجهة مباشرة، مولّداً بذلك مئات إن لم يكن آلافاً من الفرضيات – التنبؤات القابلة للإختبار والتى من شأنها أن تؤدى إلى وضع إذا وردت معه كلمة أو مفهوم "أ" فى ثقافة "ب" فإن المرء ينبغى أن ينتظر مماثلا لها فى ثقافة (ج). إن هذه الفرضيات أو التنبّؤات يمكن أن تسلط ضوءاً على جوانب من الحضارات الثلا ثة، ولكن هذا ينطبق بشكل خاص على تلك المساحات من الثقافة الإغريقية التى لا يمكن أن نجد لها تفسيراً من منظور "النموذج الآرى".

وفى هذا المجال فإن "النموذج القديم" يشترك مع "النموذج الآرى" و "النموذج القديم المعدّل" فى نظام جذرى واحد، وهو إمكان انتشار اللغة أو الثقافة عن طريق الفتح (الغزو). ومن المثير للاهتمام أن هذا التصور يقف فى مجابهة الإتجاه السائد فى مجال الآثار فى الآونة الحالية، إذ يؤكّد هذا الإتجاه على التطور المحلى الذى يتم من داخل المنطقة. ويتمثل هذا الأخير، فى فترة ما قبل التاريخ فى بلاد الإغريق، فى ذلك النموذج الذى تم اقتراحه مؤخرا، وهو "نموذج الأصل النابع من الموطن ذاته" autochthonous origin [٢]. على أن دراسة "أثينه السوداء" Black Athena ستركز على التنافس بين "النموذج الآرى" و "النموذج القديم".

إن القرنين التاسع عشر والعشرين سادتهما نظم جذرية فى مجال التقدم والتعليم. ففى إطار التعليم كان هناك الاعتقاد أن أغلب النظم التعليمية تقوم بقفزة من حيث الكم quantum نحو "التحديث" أو "العلم الحقيقى"، يتبعها قدر من التقدم التراكمى ذى الصفة العلمية. ففى عملية التأريخ لمنطقة القسم الشرقى للبحر المتوسط فى عصرها القديم نُظِر إلى هذه القفزات على أنها تمت فى القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء يميلون إلى أن عملهم كان من الناحية النوعية أفضل من أى عمل قام به الآخرون قبل ذلك. وقد أكد النشاط العلمى الملموس للعلم الطبيعى آنذاك هذا الاعتقاد، إلا أن توسيع دائرة هذه المقولة لتشمل التأريخ (كتابة التاريخ) لم تحظ بنفس القدر من هذا الأساس الثابت. ومع ذلك فإن الذين هدموا "النموذج القديم" وأقاموا "النموذج الآرى" كانوا على إقتناع بأنهم يتبعون منهجاً علمياً. فقد رأى هؤلاء العلماء الألمان والبريطانيون أن قصص استعمار المصريين لبلاد الإغريق ونشر الحضارة فيها قد هتكت حرمة علم الأجناس بنفس الفظاعة التى هتكت بها الحكايات التراثية لساحرات البحر وكائنات الكنتور* قوانين العلم الطبيعى. وهكذا كان نصيب كل هذه المجالات هو أن أسقط هؤلاء (العلماء) عنها كل مصداقية فى حقيقتها وتم استبعادها.

هذا، وقد زعم المؤرخون فى السنوات المائة والخمسين الأخيرة أن لديهم "منهجاً" method يشبه تلك المناهج المستخدمة فى العلم الطبيعى. وفى الحقيقة فإن الطرق أو الوسائل التى يختلف فيها المؤرخون الحديثون عن مؤرخى عصر ما قبل المنهج العلمى هى أقل رسوخا بكثير (من مناهج العلم الطبيعى). إن المتميزين من بين الكتاب (المؤرخين) السابقين كانوا يشعرون بدورهم وكانوا يعتمدون محك المعقولية (فيما يؤرخون له) ومدى التوافق الداخلى فيما يكتبونه. وفوق ذلك فقد كانوا يشيرون إلى مصادرهم ويقومون تلك المصادر. وفى مقابل ذلك فإن مؤرخى القرنين التاسع عشر والعشرين لم يكن بمقدورهم أن يقدموا مايُظهر "البرهان" على ما يكتبون أو أن يقيموا قوانين تاريخية راسخة. وفوق ذلك فنحن نجد فى الوقت الحالى أن إتهام "المنهج الخاطئ" لا يقتصر استخدامه على الحكم بعدم صلاحية الأعمال التى لا تتسم بالكفاءة، وإنما

---

* الكنتور Centauros كائن نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان – ظهر فى الأساطير الإغريقية. (المترجم).

يتجاوز ذلك إلى الأعمال التى لا تلقى ترحيباً (من جانب الذين يصدرون هذا الإتهام).
وفى رأيي أن هذا إتهام باطل لأنه تضمن، بشكل مغلوط، وجود دراسات تسير على نهج سليم نستطيع أن نتخذ منها مقياساً مرجعيا لسلامة الأعمال المذكورة.

إن إعتبارات من هذا النوع هى التى أدت إلى قضية المذهب الوضعى positivism الذى يتطلب وجود "دليل" (على أى حكم). وإذا كان التوصل إلى دليل قاطع أمر من الصعوبة بمكان حتى فى العلوم التجريبية أو التاريخ الذى يعتمد على الوثائق، فهو فى المجالات التى تتصل بالعمل الحالى أمر غير وارد بالمرة. وكل ما يمكن أن نأمل فى تحقيقه فى هذا الصدد هو قدر متفاوت من الإقناع. وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك بألفاظ أخرى، فإن النظر إلى النقاش العلمى على أنه أمر مناظر لقانون العقوبات (على سبيل المثال) ينطوى على قدر من الخروج عن القصد. ففيما يخص قانون العقوبات تصر المحاكم، ومعها كل الحق، على طلب دليل "لايشوبه – فى حدود المعقول – أى شك" قبل إصدار حكم بالإدانة. وذلك من حيث أن إدانة شخص برئ هى أسوأ بكثير من تبرئة شخص مذنب. وهنا نجد أن أياً من المعرفة التقليدية أو الوضع الأكاديمى الراهن لا يملك من سند الحقوق الأخلاقية (الحق الأدبى) ما يملكه الشخص المذنب (فى مجال قانون العقوبات). **وهكذا فإن أية مناقشات أو مناظرات فى المجالات المذكورة لاينبغى أن نحكم فيها على أساس من الدليل، وإنما ينبغى أن يتم ذلك على أساس من المقدرة التنافسية على الإقناع competitive plausibility (أو المفاضلة فى مدى القدرة على الإقناع). وفى المجلدات التى تشتمل عليها الدراسة الحالية لن أستطيع أن أقدم الدليل على خطأ "النموذج الآرى" ومن ثم لن أحاول ذلك. وكل ما سأحاول أن أقوم به هو أن أظهر أنه لا يحتوى فى صدد القدرة على الإقناع أو مبررات القبول على القدر الذى يحتوى عليه "النموذج القديم المعدّل"، وأن هذا الأخير يقدم إطاراً لأبحاث المستقبل من شأنه أن يؤدى إلى نتائج أوفر.**

(وفى الحقيقة) فإن المحاولات التى تمت فى غضون القرن العشرين قد أفسدها أحد أشكال البحث عن الدليل، وهو شكل سأطلق عليه تسمية "الوضعية الآثارية، archaeological positivism. والمغالطة التى ينطوى عليها هذا الشكل هى (الاعتقاد) بأن التعامل مع "اللُقى الأثرية" يشكل "هدفا" واحدا، أى الاعتقاد بأن

التفسيرات التى تعطى للشواهد الأثرية لها من الصلابة والرسوخ ما للقى الأثرية ذاتها. إن الإيمان بهذه المقولة يرقى بالفرضيات التى تقوم على الآثار إلى مستوى "علمى"، بينما يقلل من شأن المعلومات التى نحصلها عن الماضى من مصادر أخرى مثل: الحكايات التراثية، أسماء الأماكن، العقائد الدينية، وتوزيع لهجات اللغة وطرق كتابتها. وسأحاول أن أؤكد فى المجلدات التى تحتوى عليها الدراسة الحالية على أن هذه المصادر لابد أن تعالج بحرص شديد، ولكنى سأحاول التأكيد كذلك على أن الشواهد التى نحصل عليها من هذه المصادر هى من حيث المبدأ ليست أقل فى دلالتها من تلك التى نحصل عليها من الآثار.

إن الأداة المفضلة لدى "الوضعيين الآثاريين" هى "الحجة الناتجة عن الصمت" argument from silence: أى الاعتقاد بأننا إذا لم نعثر على شئ ما، فإنه لا يمكن أن يكون قد وجد بكميات ذات قيمة. ويبدو هذا الاعتقاد مفيدا فى الأحوال البالغة فى قلتها التى يكون فيها الآثاريون قد أخفقوا فى العثور على ماينبئ بوجوده النظام السائد فى منطقة محددة قاموا فيها بقدر كاف من الحفائر. وعلى سبيل المثال فقد ساد الاعتقاد خلال السنوات الخمسين الماضية أن الثورة البركانية فى ثيرا Thera قد اندلعت خلال الفترة الخزفية ceramic period فى العصر المينوى المتأخر (أب) Late Minoan IB. ولكن رغم القيام بالحفر على نطاق واسع فى هذه الجزيرة إلا أنه لم يمكن العثور على شقفة واحدة من هذا النوع من الخزف تحت بقايا الحمم البركانية. إن هذا يشير إلى أنه من المفيد أن نعاود النظر فى هذه النظرية. ومع ذلك فحتى هنا يمكن أن يظهر عدد من الأوانى من هذا النوع، كما أن التساؤل عن تعريف أساليب الصناعة الخزفية يظل واردا فى كل الأحوال. ومؤدى هذا هو أنه يكاد يكون من المستحيل فى علم الآثار – تماما كما فى العلوم الطبيعية – أن نقدم الدليل على غياب (الشواهد).

وهنا قد يورد البعض حجة مؤداها أن الهجوم على هذه النظرية هو من قبيل الهجوم على أشخاص وهميين straw men أو على أشخاص من الموتى على أقل تقدير، وذلك على أساس أن "الآثاريين المحدثين على قدر من الحنكة العلمية لا يجعلهم

يُقبلون على المذهب الوضعى المبالغ فيه، وأنه "لا يوجد اليوم عالم جاد يؤمن بوجود "الأجناس"* ، دع جانبا أهميتها". إن هاتين المقولتين قد تكونا صحيحتين، ولكن الذى أزعمه هنا هو أن الآثاريين المحدثين ومؤرخى التاريخ القديم فى هذه المنطقة لايزالون يقومون بعملهم على أساس من نماذج أقامها "وضعيون" و مؤمنون "بالأجناس" بشكل فج وغير مصقول. وهكذا يصبح مما يجافي المعقول إلى حد كبير أن نفترض أن النماذج التاريخية لم تتأثر بهذه الأفكار. (حقيقة) إن هذا، فى حد ذاته لا يلغى مصداقية هذه النماذج، ولكن فى ظل ما نراه الآن من الظروف الباعثة على الشك فيما يخص التوصل إليها، ينبغى أن نخضعها للتدقيق والتحقيق، كما ينبغى أن تؤخذ فى الإعتبار إمكانية وجود بدائل مساوية لها فى الجودة أو حتى خير منها. وبوجه خاص فإنه إذا كان من الممكن أن نبين أن "النموذج القديم" قد تم إسقاطه نتيجة لإعتبارات تخرج عن نطاق البحث التاريخى ذاته، فإن طغيان "النموذج الآرى" لايمكن ردّه إلى تفوق يمكن توضيحه فى هذا النموذج (الآرى). وهكذا يصبح من المشروع فى هذه الحال أن نضع كلا من النموذجين فى مضاهاة تفاضلية مع الآخر، أو أن نحاول التوفيق بينهما.

وعند هذه النقطة يبدو من المفيد أن أقدم الخطوط العامة لبقية هذا التقديم. ذلك أن تقديم موجزات للحجج (التى سأوردها) إلى جانب بعض الشواهد التى تساندها، قد يساعد فى تحقيق مشروع فى حجم ذلك الذى أحاول تنفيذه هنا. وقد كان هذا هو الدافع وراء ما قمت به من تقديم عرض عام يتضمن الخطوط العريضة للأبواب التى تشكل فى مجموعها هذا الكتاب. وفى هذا الصدد فإن المشاكل التى تتصل بمحاولتى لتفسير الحجج التى أقدمها، يدخل فيها، بالضرورة عامل مؤداه: أن آرائى حول الإطار الأكبر الذى تدور داخله نقاط الحديث فى "أثينه السوداء" تختلف فى بعض الأحيان عن الآراء التقليدية. وقد دفعنى هذا إلى كتابة خلفية تاريخية تخطيطية تشير بشكل سريع إلى ملامح العالم الغربى القديم فى الإثنتى عشر ألف سنة الأخيرة قبل الميلاد - وهى الفترة التى تتصل إلى حد كبير بموضوع "أثينه السوداء".

---

* حسبما يبدو من سياق الحديث أعتقد أن الكاتب يقصد بذلك وجود أجناس نقية، أو وجود إختلاف فى مستوى الأجناس. (المترجم).

بعـد ذلـك يـأتي ملخـص لمـا أسميتـه "تلفيـق بـلاد الإغريـق القديمـة" نفسـها The Fabrication of Ancient Greece، يعقبـه عـرض على قـدر أكـبر مـن التفصيـل لمحتويـات المجلديـن الآخريـن مـن السلسـلة. وقـد جعلـت المخطـط العـام للمجلـد الثـانى يتضمـن موضوعـا عـن "بـلاد الإغريـق، أوروبيـة أم مشـرقية ؟ Greece European or Levantine? *، لأتبـين أن "النمـوذج القديـم" يمكـن أن تقـوم لـه قضيـة قويـة إذا تسنى لنـا إحياؤه مـن جديـد على أسـاس مـن الشـواهد الموجـودة، سـواء أكـانت آثاريـة أم لغويـة أم غيرهـا. كذلـك فقـد كتبـت وصفـا أكـثر إيجـازا لمحتويـات المجلـد الثـالث الـذى يحمـل اسـم "حـل اللغـز الـذى تطرحـه أم الهـول"** solving the riddle of the sphinx، حتـى أبـين النتـائج المثيرة لاهتمامنـا والتـى يمكـن للمـرء أن يصـل إليهـا إذا طبقنـا "النمـوذج القديـم المعـدل" علـى مشـاكل فـى الميثولوجيـة الإغريقيـة لم يكـن مـن الممكـن تفسيرها مـن قبـل.

---

* تطلق كلمة المشرق فى الكتابات الأوروبية على المنطقة المطلة على الركن الشرقى للبحر المتوسط الـذى يشـتمل على بلاد الشام. (المترجم).

** أخترت اسم "أم الهول" (فى تقابل مع أبى الهول المصرى)، للكائن الأسطورى المركب sphinx الذى كان لـه رأس امرأة وجسم لبؤة وجناحا طائر. وكانت هذه تقيم عند باب مدينة طيبة الإغريقية وتلقى علـى مـن يريـد الدخول إلى المدينة سؤالاً ولغزاً (سيرد ذكره فى المتن أدناه) إن لم يعـرف الإجابـة عليـه قتلتـه. وقـد ترجـم اسـم sphinx فى حالة هذه المرأة المركبة بأسماء متعددة غير مقنعة من بينها "الساحرة". واخترت لها اسم "أم الهـول" فى محاولة تقريبية لاسم مقبول عربيا ويوحي بالمعنى فى الوقت ذاته. (المترجم).

خلفـــية

قبل أن أقدم تخطيطا موجزاً للقضايا التى عرضتها فى هذه المجلدات. ربما يكـون مـن المفيد أن أقـدم انطباعـاً لآرائـى حـول خلفيتهـا التاريخيـة، وبخاصـة حيـث تختلـف هـذه الآراء مـع الآراء التقليدية الشائعة. وأعتقد هنا، شأنى شأن أغلب الدارسين، أنه مـن غـير المسـتطاع أن نفصـل فـى الخلاف القائم بين النظريات التى تنـادى بـالأصل الواحـد monogenesis للغـات الإنسـانية وتلك التى يتبنى أصحابها فكرة الأصول المتعددة polygenesis لهذه اللغات، وإن كنت أميل إلى نظريات الفـئة الأولى. ومن الجهة الأخرى فقد أقنعتنى الدراسات التى توفر عليها عدد قليـل ولكنه متزايد من العلماء، أن هناك علاقة وراثية تطورية genetic بين اللغـات الهنـدو-أوروبيـة وبين اللغات الأفرو-أسيوية التى تمثل عائلة لغوية أكثر شمـولا superfamily[٣]. وفـوق ذلـك فإنى أتبنى الرأى التقليدى (الذى لايزال مثارا للخلاف) الذى ينادى أصحابه بأن العائلـة اللغويـة تنحدر من لهجة واحدة. وعلى هذا فإنى على يقين من أنه كانت هناك مجموعة من النـاس تكلمـوا اللغـة الأفـرو-أسـيوية - الهنـدو-أوروبيـة فـى أصولهـا الأولى Proto-Afroasiatic-Indo European. على أن مثل هذه اللغة لابد أنها تفككت وأندثرت هى والثقافة المرتبطة بهـا منـذ أمد بعيد فى أغوار المـاضى، وآخـر إمكانيـة فـى هـذا الصـدد يحتمـل أن تكـون الحقبـة الموسـتيرية Mousterian period، التى ترجع إلى مـابين ٥٠,٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ سنة قبـل الفـترة الحالية، وربما كانت أكثر قدما من ذلك بكثير. وفى هذا الصدد، فإن الخط الزمنـى الـذى يشـكل نهاية لذلك terminus ante quem، إنما تحـدده الخلافـات بـين مجموعتـى اللغـات الهنـدو-أوروبية واللغات الأفرو-آسيوية والتى تفوق بكثير تلك التى توجد فيما بين لغـات كـل مجموعـة. وفى اعتقادى أن ظهور هذه الخلافات الأخيرة يمكن التأريخ له بالألف التاسعة ق.م.

إن رأيى هو أن انتشار اللغة الأفرو-آسيوية - التى كـانت قائمـة لفـترة طويلـة فـى وادى الصدع الإفريقى الشرقى East African Rift Valley - قـد تم فـى نهايـة العصـر الثلجـى الأخير خلال الألف العاشرة والألـف التاسـعة ق.م. ففـى العصـور الثلجيـة كـانت المياه لا تـزال حبيسـة التكوينات الجليدية القطبية، وكان تسـاقط الأمطـار أقـل بكثـير ممـا هـو عليـه فـى الوقـت الحاضر. كذلك كانت الصحراء الكبرى والصحـارى العربيـة أكـثر امتـداداً وأكـثر امتناعـاً علـى الحياة مما هى عليه الآن. على أنه فى فترة ازدياد الحرارة وتزايد سقوط الأمطار خلال القرون التى

تلت ذلك، تحول قسم من هذه الامتدادات إلى مناطق سافانا savanna* إندفعت إليها المجموعات السكّانية المجاورة، وكان أنجح هؤلاء في اعتقادى هم المتحدثون باللغة الأم لمجموعة اللغات الأفرو-آسيوية الذين أتوا من وادى الصدع. وسبب هذا النجاح هو أن هذه المجموعة لم تقتصر مقدرة أفرادها على التقنيات المؤثرة التى كانوا يملكونها لصيد فرس البحر بالحراب الطويلة. ولكنها شملت كذلك امتلاكهم للحيوانات المدجّنة (المستأنسة) وزراعتهم للمحاصيل الغذائية. وهكذا توغل المتحدثون باللغة التشادية في السافانا حتى وصلوا إلى بحيرة تشاد، وكذلك فعل البربر حتى وصلوا إلى المغرب، كما وصلت الأصول الأولى للمصريين Proto-Egyptians إلى مصر العليا. أما الذين كانوا يتكلمون الأصول الأولى للغة السامية Proto-Semitic فقد استقروا فى أثيوبية ثم واصلوا توغلهم حتى السافانا الغربية (خريطة ١).

هذا، وقد واكبت فترة الجفاف الطويل الأمد الذى خيّم على الصحراء الكبرى في أثناء الألفين السابعة والسادسة ق.م.، تحركات إلى وادى النيل المصرى من الغرب ومن الشرق وكذلك من السودان. وإلى جانب ذلك فإن رأيِي الذى أتمسك به - وإن كنت ضمن الأقلية هنا - هو أن هجرات مماثلة تمت من السافانا العربية إلى القسم الجنوبى من وادى الرافدين. إن أغلب الدارسين يعتقدون أن هذه المنطقة قد قطنها فى البداية السومريون والأقوام التى تشكل الأصول السومرية الأولى Proto-Sumerians، وإن تسربات من الساميين رشحت إليها من الصحراء في فترة لا تتجاوز بدايتها الألف الثالثة (ق.م.). وردّى على أصحاب هذا الرأى هو أن الألف السادسة ق.م. شهدت انتشار اللسان السامى مع انتشار الفخار العُبَيْدى إلى آشور وسورية، لكى يسود، على وجه التقريب، الإقليم الجنوبى الغربى من آسية حيث يتحدث السكان باللسان السامى فى الفترة الحالية (خريطة ٢). إنى أرى أن السومريين قد وصلوا إلى وادى الرافدين من الشمال الشرقى مع بداية الألف الرابعة ق.م.، وعلى أى الأحوال فإننا نعرف الآن من أقدم النصوص التى أمكن قراءتها - وهى نصوص الوركاء Uruk التى ترجع إلى حوالى ٣٠٠٠ ق.م. - أن الأزدواجية اللغوية فى اللغة السامية - السومرية كانت قد استقرت قبل ذلك تماما[٤].

إن قلة من العلماء هم الذين يعارضون الفكرة التى مؤداها: أن الكيان الذى نطلق عليه

* السافانا مناطق معشوشبه تنمو فيها كذلك أشجار متناثره. (المترجم).

تسمية "الحضارة" قد تم تجميعه للمرة الأولى في وادى النهرين. حقيقة أنه، باستثناء الكتابة – وهو استثناء وارد . فإن كل المقومات التى تتشكل منها الحضارة قد وجدت قبل ذلك في مناطق أخرى، سواء أتمثلت في قيام المدن، أم في الرى الزراعى أم في الأعمال المعدنية أم في استخدام الحجر في العمارة، أم في استخدام العجلة لأغراض النقل وصناعة الفخار. ولكن من المقومات إذا تم تتويجه بالكتابة، فإنه يسمح بتراكم إقتصادى وسياسى يمكن أن ننظر إليه بشكل لا يخلو من فائدة على أنه بداية الحضارة.

(و لكن) قبل مناقشة ظهور وانتشار هذه الحضارة قد يكون من الخير أن ننظر في أمر تفتت المجموعة اللغوية الهندو–أوروبية إلى لغات منفصلة ونمو كل منها على حده. وفي هذا الصدد فإن الاعتقاد الذى كان سائدا في النصف الأول من القرن التاسع عشر هو أن اللسان الهندو–أوروبى يرجع أصله إلى إحدى المناطق الجبلية الآسيوية. على أنه بمرور الوقت في ذلك القرن تزحزح هذا الموطن الأصلى Urheimat (في فكر الدارسين) نحو الغرب، ووصل هؤلاء إلى إتفاق عام مؤداه أن أصول اللغة الهندو–أوروبية كانت تتحدث بها أقوام رحّل في منطقة ما شمالى البحر الأسود. وقد تم الربط، في خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بين هذه المنطقة وبين ما أسموه بالثقافة القرغية Kurgan culture التى أمكن إثبات وجودها في هذا الأقليم في الألفين الرابعة والثالثة ق.م. ويبدو أن الذين كانوا ينتمون إلى هذه الثقافة المادية انتشروا إلى غرب أوروبا، كما انتشروا إلى الجنوب الشرقى في إيران والهند، وإلى الجنوب في البلقان وبلاد الإغريق.

وقد تم التوصل إلى الفكرة العامة التى تتناول التوسع من وسط آسيا أو منطقة السّهوب Steppes قبل فك رموز اللغة الحيثية واكتشاف كونها لغة هندو–أوروبية "بدائية" وإلى جانب ذلك، التعرف على وجود عائلة لغوية أناضولية كاملة. هذا وينبغى أن أذكر هنا أن اللغات الأناضولية لاتضم، من وجهة نظر اللغويين، لغات مثل اللغة الفريجية أو الأرمنية اللتين تنتميان إلى المجموعة الهندو–أوروبية رغم التحدث بهاتين اللغتين في الأناضول (في الفترة موضوع الدراسة). وفي هذا الصدد فإن اللغات الأناضولية الحقيقية: الحيثية Hittite والبالائية Palaic واللوفية Luvian والليقية Lycian والليدية Lydian والإترورية Etruscan احتمالا، والكاريّة Carian إمكاناً، تمثل عددا من المشاكل بالنسبة لوجهة النظر التقليدية التى تتصل بأصول

اللغات الهندو-أوروبية (خريطة ٣). إن هؤلاء اللغويين يسلمون بوجه عام أن لغة الأصل الأناضولية قد انسلخت عن لغة الأصل الهندو-أوروبية قبل أن تندثر هذه الأخيرة. ومع ذلك فإنه من غير الممكن أن نعرف المسافة الزمنية بين الحدثين- وهى مسافة يمكن أن تنسحب على أى امتداد بين خمسمائة عام وعشرة آلاف عام. وفى كل الأحوال فإن الفرق الزمنى كاف ليجعل عددا من اللغويين يفرقون بين اللغة الهندو-أوروبية- التى تتضمن اللغات الأناضولية -وبين اللسان الهندو - حيثى Indo-Hittite الذى يضم كلا من هاتين العائلتين اللغويتين.

وإذا كان الأمر، كما يفترض معظم اللغويين المؤرخين، هو أن اللسان الهندو-أوربى لم يكن وحده الذى ابتدأ فى شمالى البحر الأسود، وإنما شاركه فى ذلك اللسان الهندو-حيثى، فكيف ومتى دخل المتحدثون باللغات الأناضولية إلى الأناضول ؟ إن بعض الثقات يحاولون أن يبرهنوا على أن هذا قد تم فى أثناء الشطر الأخير من الألف الثالثة (ق.م.)، حين وفدت غزوات بربرية إلى وادى الرافدين حسبما تشير مصادر هذه المنطقة. والإحتمال الأكبر هو أن هذه الغزوات هى تلك التى قام بها الفريجيون وأولئك الذين كانوا يتكلمون أصول اللغة الأرمنية، إذ من المستبعد أن تسمح فترة لا تزيد عن قرون قليلة، قبل ظهور اللغتين الحيثية والبالا ئية بشكل يمكن التثبت منه، بالتفريق الكبير بين عائلتى اللغات الهندو-أوروبية واللغات الأناضولية، وكذلك بين اللغات الداخلة فى إطار هذه العائلة الأخيرة. وفى هذا الصدد فإن سجّل النشاط الآثارى للألف الثالثة ق.م. تبدو النتائج فيه كالبقع المتناثرة إلى حد كبير. ولكن مع ذلك فإنه لا يوجد إنقطاع يسترعى النظر فى الثقافة المادية التى يمكن أن تحتوى مثل هذه النقلة اللغوية الكبيرة. ولكننا بالرغم من ذلك ينبغى ألا نركن كثيرا إلى "حجّة الصمت" (التى سبق ذكرها)، كما أن تدفقا للثقافة الأناضولية خلال الألفين الخامسة والرابعة ق.م. أمر لا يمكن إستبعاده.

على أن هناك أمرا وارداً من شأنه أن يجذب اهتمامنا أكثر من غيره، وهو ذلك الذى يخص الخطة التى اقترحها الأستاذان جيورجييف Georgiev ورنفريو Renferew(٥). وحسب هذه الخطة فإن مجموعة اللغات الهندو-أوروبية - أنا أفضل تسمية الهندو-حيثية - كانت هى المستخدمة فى القسم الجنوبى من الأناضول من جانب أصحاب الثقافات الحجرية الحديثة Neolithic الذين ينتمون إلى الألفين الثامنة والسابعة ق.م.، بما فى ذلك الثقافة الشهيرة فى

ساتال هويوك Catal Hüyük فـى سـهل قونيـه Konia. إن جيورجييـف ورنفريـو أن (هـده) يفترضان أن اللغة إنتقلت إلى بلاد الإغريق وكريت مع انتشار الزراعة حوالى ٧٠٠٠ ق.م. حيث تشير الآثار إلى إنقطاع كبير فى الثقافة المادية هناك. وهكذا فمن الممكـن أن تكـون لهجـة هنـدو– حيثية هى التى شكلت لغة "الحضارات" الحجرية الحديثة فى بلاد الإغريق والبلقان خـلال الألفـين الخامسـة والرابعـة ق.م. وهنـا يبـدو مـن المناسـب أن نتقبـل اقـتراح الأسـتاذ الأمـيركى جوديـنف Goodenough. ومفاده أن ثقافة القرغيين الرحّل كانت مشتقة من النظـام الزراعـى المختلـط لهذه الثقافات البلقانية، ومن هنا اشتقت لغتها منها[٦]. وبهذه الطريقة نستطيع أن نوفق بين نظريـة جيورجييف ورنفريو وبين أصحاب النموذج الآرى الصرف، وذلك بأن نسلم بأن الثقافة القرغيـة التى يتحدث أبناؤها اللسان الهندو–أوزوبى، انتشرت ثانية فى البلقان وبلاد الإغريـق بـين سـكان يتكلمون لغة هندو–حيثية.

إن الانتشار الإفتراضى للغة الأفـرو–آسـيوية مـع التوسـع الزراعـى الإفريقـى فـى الألفـين التاسعة والثامنة ق.م.، وانتشار اللغات الهندو–حيثية مع تلك الموجودة فى جنوب غربى آسية فى الألفين الثامنة والتاسعة، قد يفسر مايبدو أنه اختلافات أساسية بـين الشـواطئ الشـمالية والجنوبيـة للبحر المتوسط. فقد استخدمت هـذه الهجـرات الطريـق البريـة إلى حـد كبـير، وذلـك لأن النقـل البرى، رغم أنه كان ممكنـا منـذ الألـف التاسـعة ق.م. علـى الأقـل، إلا أنـه كـان لا يـزال محفوفـا بالمخاطر والصعاب. وقد تحول الأمر فى هذا المجال إلى الوضع المعاكس بسبب ما طرأ على الملاحـة من تحسن فى خلال الألفين الخامسة والرابعة ق.م. ورغم أن الأقوام الرحّل استمروا فى هجراتهم عن طريق البر، وبخاصة عبر السهول، إلا أن وسائل الإتصال والانتقال المائية ظلت أسهل من تلك التى كانت تتم عن طريق البر، وذلك منذ الألف الرابعـة ق.م. حتـى التطـور الـذى شـهد ظهـور السكك الحديدية فى القرن التاسع عشر. ففى خلال هذه الفترة الطويلـة كـانت الأنهـار والبحـار تشكل حلقات إتصال بينما كانت الصحارى التى لا أنهار فيها والجبال تحول دون التواصـل فيمـا بين المناطق البرية. إن مثل هذا النموذج من التعاقب التاريخى، البر ثم البحر، من الممكن أن يفسـر المتناقضة المبدئية العامة التى تعنى بها الدراسة الحالية: وهى التنـاقض الظـاهرى بـين نقـاط التشـابه اللافتـة للنظـر والموجـودة بـين المجموعـات السـكانية المحيطـة بـالبحر المتوسـط مـن جميـع جهاتـه، والإنقسام اللغوى والثقافى الأساسى بين الشعوب التى تقطن شواطئه الجنوبية والشمالية[٧]

لقد انتشرت الحضارة من وادى الرافدين بسرعة فائقة بدءاً من الألف الرابعة ق.م. ففكرة الكتابة يبدو أن شعوب الهند وعدد من أقسام المنطقة الشرقية للبحر المتوسط قد تبنوها حتى قبل أن تنتظم فى شكل اللغة المسمارية فى موطنها الأصلى. فنحن نعرف أن الكتابة الهيروغليفية قد ظهرت فى وادى النيل بحلول الربع الثالث من الألف (الرابعة) ذاتها، ورغم عدم توفر الأدلة، إلا أنه يبدو أن الكتابة التصويرية الحيثية والأصول الأولى للكتابات المقطعية فى المشرق وقبرص والأناضول كان قد أمكن التوصل إليها، قبل أن تجد الحضارة السومرية – السامية التى كانت قد وصلت إلى أوجها، ومعها الخط المسمارى فى صورته المعروفة، وذلك قرب أوائل الألف الثالثة ق.م.

كذلك فيما يخص الحضارة المصرية. (فحقيقة) أنه من الأمور الواضحة أنها قامت على أساس من الثقافات الغنية التى ظهرت فى مصر العليا والنوبة فى فترة ماقبل الأسرات والتى لا نزاع حول أصلها الإفريقي. ولكن، مع ذلك، فإن التأثير الرافديني الواسع النطاق والذى يتضح من مخلفات الفترة المتأخرة من عصر ما قبل الأسرات ومخلفات الأسرة الأولى، لا يترك مجالا كبيرا للشكّ فى أن نقطة الإنطلاق التى انتهت بتوحيد البلاد وقيام عصر الأسرات تكمن فى التطورات التى حدثت إلى شرقى المنطقة. هذا، ممّا زاد من تعقيد الخليط الثقافى، الصلات اللغوية الأساسية وكذلك الصلات الحضارية التى أزعم وجودها – وهى صلات قامت بين مصر والمقوم السامى الأساسى لحضارة مابين الرافدين.

إن الألف الرابعة (ق.م.) التى تشكل معجزة حضارية، تلتها الألف الثالثة بما فيها من أزدهار. وفى هذا الصدد فإن الأرشيفات التى تم اكتشافها حديثا فى إلبه Elba فى بلاد الشام، والتى يرجع تاريخها إلى حوالى ٢٥٠٠ ق.م. تصور لنا منظومة من الدول الغنية التى توصلت إلى الكتابة وعرفت الطرق المتحضرة، تمتد من كردستان إلى قبرص. ولحن نعرف من الآثار أن الحضارة كانت تصل فى انتشارها آنذاك إلى مسافة أبعد – إلى ثقافة الهارابيين Harrapan culture التى كانت تغطى الرقعة مابين نهر السند وأفغانستان، كما نعرف عن وجود ثقافات تعامل أصحابها مع صناعة المعادن حول بحر الخزر والبحر الأسود وبحر إيجه. وقد ارتبطت الحضارات السامية – السومرية التى قامت فى وادى الرافدين فيما بينها بروابط وثيقة مشتركة من الكتابة والثقافة، أما

تلك الحضارات التى قامت فى المنطقة المتاخمة لها فرغم أنها على نفس القدر من "التحضر" إلا أن كلا منها احتفظت بلغتها وطريقة كتابتها وشخصيتها الثقافية. وعلى سبيل المثال كان فى كريت، على مايبدو، تدفق ثقافى كبير من المشرق فى بداية العصر الخزفى فى العصر المينوى الأول Minoan I عند منعطف الألف الثالثة ق.م.، ومع ذلك فإن الخط المسمارى لم يصبح هو الخط السائد هناك، كما أن كريت لم تنتظم ضمن الإطار الحضارى الذى يجمع بين بلاد الشام ووادى الرافدين. وتكمن أقوى الأسباب المقبولة فى هذا الصدد، إلى جانب عنصر المسافة المكانية فى حدّ ذاتها، فى مرونة الثقافة المحلية. هذا فضلا عن أن جزيرة كريت كانت تقع، من الناحية الثقافية، ضمن مجالى التأثير السامى والمصرى.

وتتضح هذه العلاقة (الحضارية) المزدوجة مع كل من المشرق وإفريقية، من خلال المكتشفات الأثرية، وهى مكتشفات تمثلت فىَ قدر كبير من اللُّقى الأثرية التى ترجع إلى تلك الفترة والتى تم العثور عليها فى جزيرة كريت ومناطق أخرى من بحرإيجه. وكما حدث فى الشرق الأدنى، فقد بدأ مزج النحاس بالزرنيخ بهدف إنتاج البرونز حوالى ٣٠٠٠ ق.م. كما بدأ صنع الأوانى الفخارية على عجلة صانع الفخار. كما أن هناك نقاط تشابه لافتة للنظر بين نظم التحصين فى جزر الكيكلاديس وتلك التى وجدت فى فلسطين فى الفترة ذاتها. (وفى هذا الصدد) فإن عالمى الآثار، الأستاذ بيتر وارن Peter Warren فى برستول Bristol والأستاذ كولن رنفريو Colin Renfrew فى كيمبردج Cambridge يطلبان إلينا أن نصدق أن هذه التطورات قد تمت (كل مجموعة منها فى منطقتها) بشكل مستقل، وذلك دون أن يتأثر (هذان العالمان) بحقيقة ثابتة وهى أن التغيرات ذاتها قد حدثت فى الشرق الأدنى فى فترة مبكرة نسبياً وكان سببها هو الصلات التى لا شك فيها بين الإقليمين[٨] وفى رأيى أن ما ذهب إليه العالمان يفتقر إلى حد كبير إلى ما يبرره، وإنما الذى يبدو أكثر احتمالا هو أن التطورات الإيجية كانت نتيجة للصلات التى تمت عن طريق التجارة المشرقية والاستيطان والمبادرات المحلية التى أدت إليها تلك المؤثرات الحافزة.

إننا نعرف أن أغلب شعوب المنطقة التى كانت تستخدم البرونز فى الألف

الثالثة، كانت قد توصلت إلى معرفة الكتابة سواء أكانت الكتابة المستخدمة هى المسمارية أم الكتابات المحلية. ومع ذلك فليس هناك أى أثر للكتابة فى منطقة بحرإيجه فى تلك الفترة. فإلى أى مدى ينبغى أن نعتمد على "حجّة الصمت" بشكل جاد فى هذه الحالة. إن هناك عدداً من النقاط المقنعة يمكن أن نشرعه فى وجه هذه الحجة الصامتة. ففى المقام الأول هناك الأحوال المناخية فى بلاد الإغريق وفى الأناضول، وهى أقل بدرجة كبيرة فى مدى ملاءمتها لحفظ الألواح الطينية وأوراق البردى من تلك السائدة فى الشرق الأوسط أو فى المنطقة الشمالية الغربية من الهند. وحتى فى هذه الأقاليم الجافه فإن العثور على الشواهد أمر يصعب مناله فى كثير من الحالات. (وعلى سبيل المثال) فقبل العثور على ألواح "إلبه" فى ١٩٧٥، لم يكن لدينا أى شاهد على الإطلاق على معرفة الكتابة فى بلاد الشام فى الألف الثالثة ق.م. هذا، بينما نعرف الآن أن بلاد الشام كانت تضم بين سكانها طبقة مثقفة ملمة بالكتابة، وأن رجالا كانوا يسافرون من وادى الرافدين لكى يدرسوا فى مدارس إلبه.

كذلك هناك نقطة أخرى تشير إلى أن الكتابة قد وجدت فى منطقة بحرإيجه فى العصر البرونزى المبكر. ولكن رغم أن الكتابة التخطيطية "أ" و "ب" Linear A and B والكتابة المقطعية القبرصية، واللتين تم العثور على نماذج منهما، ترجع إلى الألف الثانية ق.م. – رغم أنها تشترك، على مايبدو، فى أصول لغوية واحدة – إلا أنها تختلف فيما بينها فى مواطن كثيرة. وهى اختلافات لابد أنها احتاجت إلى قرون عديدة لكى تظهر وتتحدد ملامحها، وذلك بالقياس إلى ما نلاحظه فى التطور التاريخى للخطوط. وهكذا يبدو أن الشواهد التى تعتمد على (ما يمكن أن نسميه) "لهجات" الخطوط، تشير إلى أن الشكل الأصلى وجد فى الألف الثالثة وأنها تعطى مجالا لتطورها (من صورتها الأولية) فى الألف الرابعة، واعتمادا على الأسس المذكورة أعلاه فإنه من الممكن أن تكون هذه فترة مقبولة لكى يتم هذا التطور. وأخيرا فإنى قد حاولت فى مكان آخر أن أبرهن على أن آخر فترة يمكن أن تكون الكتابة قد وصلت خلالها إلى منطقة بحرإيجه هى أواسط الألف الثانية[٩]. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يبدو من المقنع أن نفترض أن استمرار بقاء المقاطع يدل على أنها كانت قد ضربت جذورا لها فى المنطقة فعلا. وهكذا

تشير الدلائل، من خلال هذه الوسيلة كذلك، إلى وجود الكتابة (في منطقة بحرإيجه) في الألف الثالثة ق.م.

لقد سقطت الحضارة البرونزية المبكرة في القرن الثالث والعشرين ق.م. ففي مصر تطابق ذلك مع فترة الأضمحلال الأولى* ، وفي وادى الرافدين كان هناك الغزو الجوتي Gutian من الشمال. إن كل العالم المتحضر (آنذاك) قد تعرض لغزو البرابرة وللثورة الإجتماعية، ومن الممكن أن يكون تدهور الأحوال المناخية بشكل مفاجئ هو الذى أدى إلى ذلك. (وعلى كل الأحوال) فإن هذه السنين هي التي شهدت تعرض الأناضول للغزو من جانب مجموعات أرى أنه ينبغي أن نطابق بينها وبين الفريجيين والمجموعات التي كانت تتحدث باللغة الأرمنية المبكرة. أما في بلاد الإغريق الأساسية** فقد انتشر الدمار على نطاق واسع في نهاية الفترة الخزفية المواكب للفترة المبكرة من العصر الهلاّدى الثانى Early Helladic II، وهو العصر الذى تم الربط بشكل مقبول بينه وبين غزو آرى أو "هيلليني" لبلاد الإغريق، ولكن من الممكن أن تكون قد أدت إلى ذلك غارات ومستوطنات مصرية في بداية الدولة الوسطى. هذا، وبعد ذلك بثلاثة قرون كانت هناك نوبة تخريب أخرى ولكنها أقل تدميرا، وقد واكب هذا التدمير آخر الفترة المبكرة من العصر الهلاّدى الثالث حوالي ١٩٠٠ ق.م.، ومن الممكن أن نقرن بينه وبين غزو مصرى في عهد الملك سنوسرت الأول Senwosret I الذى عرفه الإغريق تحت اسم سيزوستريس Sesostris.

إننا إذا سلمنا بهذه الدرجة من العلاقة بين منطقة بحرإيجه وبين الشرق الأدنى في الألف الثالثة ق.م. فإنه يصبح من المحتمل أن بعض الألفاظ وأسماء الأماكن والعقائد التي ترجع إلى أصول مصرية وسامية، والتي ناقشتها في العمل الحالى، تكون قد وجدت طريقها في ذلك الوقت إلى بحرإيجه. أما في بلاد الإغريق القارية فيبدو أقل احتمالا أن

---

* تقع بين حوالى ٢٣٠٠ و ٢٠٦٥ ق.م. (المترجم).

** سأستخدم هذا الوصف أو وصف "الأوروبية" أو "القارّية" لوصف ذلك الجزء من بلاد الإغريق الذى يقع في القارة الأوروبية، تمييزاً له عن القسم الآخر وهو الجزر الإغريقية التي تقع في بحرإيجه، والقسم الثالث الذى استوطنه الإغريق على الساحل الغربى لآسيا الصغرى. (المترجم).

تكون هذه التأثيرات قد أستمر وجودها في أعقاب فترة الإضطرابات العنيفة التي مثلتها الغزوات والتسرّبات البشرية القادمة من الشمال. ومع ذلك. ففي مناطق جزيرة كريت وجزر الكيكلاديس* التي لم تتأثر بهذه الإضطرابات والتي ربما كان اللسان السامي منتشرا فيها على نطاق واسع، فإن استمرار هذه العناصر الثقافية يكون أكثر احتمالا.

وهنا أرى لزاما عليّ أن أكرر أن الخطة المذكورة أعلاه ليست هي موضوع المجلدات الحالية ولكنها تمثل تصوري لخلفيتها. وهكذا، فرغم أني سأناقش عدداً كبيراً من القضايا اللغوية في المجلد الثاني (من هذه الدراسة)، ورغم أني كتبت في أماكن أخرى حول عدد من الجوانب الأخرى، إلا أني لا أستطيع أن أوفر هنا كل الشواهد اللازمة لدعم هذه الآراء التي أدعو إليها(١٠).

الخطوط التاريخية العامة المقترحة

إن دراسة "أثينه السوداء" تركز الاهتمام على الاقتباسات الثقافية الإغريقية من مصر والمشرق في الألف الثانية ق.م.، أو خلال الألف سنة التي تمتد من ٢١٠٠ إلى ١١٠٠ ق.م. إذا أردنا أن نكون أكثر تحديدا. وقد تكون بعض هذه الاقتباسات أكثر قدما، كما أني سأُدخل في الإعتبار عدداً قليلاً من عناصر التبادل الثقافي التي تنتمي للفترة التالية. أما الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الامتداد الزمني بالتحديد فهي تتمثل: أولا: في أنه يشكل الفترة التي يبدو أنها شهدت تكوين الثقافة الإغريقية، وثانيا: أني وجدت من المستحيل أن اكتشف مؤشرات لأية اقتباسات ترجع إلى فترة أقدم من هذه الفترة، سواء من جانب الشرق الأدنى أو من الشواهد المتصلة بالحكايات التراثية سواء تلك المتعلقة بالقصائد الدينية أو التي تتعلق بالتأصيلات اللغوية.

والخطة التي أقدمها (في هذه الدراسة) مُفادها أنه: بينما يبدو أنه كان هناك تأثير مستمر، بشكل أو بآخر، من الشرق الأدنى على منطقة بحر إيجه على امتداد هذه السنوات الألف، إلا أن هذا التأثير تفاوت إلى حد كبير من فترة لأخرى. والذروة الأولى (في مجال هذا التأثير) التي نملك أي دليل على وجودها ترجع إلى القرن الحادي والعشرين ق.م. ففي ذلك الوقت كانت مصر قد

---

* في بحر إيجه، بين بلاد اليونان القارّية غربا وآسيه الصغرى شرقا. (المترجم).

تجاوزت التدهور الذى أصابها فى الفترة الإنتقالية الأولى وقامت الأسرة الحادية عشر بتأسيس مايسمى بالدولة الوسطى. إن هذه الأسرة لم يقتصر نشاطها على إعادة توحيد مصر، ولكنها هاجمت منطقة المشرق، كما نعرف من الشواهد الأثرية أنها أقامت علاقات على مجال واسع فى مناطق أبعد منها، شملت كريت على وجه التأكيد، ومن المحتمل أنها إمتدت كذلك إلى بلاد الإغريق القارية. إن هؤلاء الفراعنة ذوى البشرة السمراء الذين أتوا من مصر العليا يشتركون فى اسم "منحوتبه" Menhotpe وكان راعيهم الالهى هو الصقر والاله الثور منطو Mentw أو مونت Mont. وفي خلال القرن ذاته بدأ بناء القصور الكريتية، وعلى جدران هذه القصور تظهر (الصور التى تمثل) عبادة الثور التى شغلت موقعا مركزيا فى الأساطير الإغريقية التى دارت حول الملك مينوس وجزيرة كريت. وعلى هذا فيبدو من المعقول أن تكون التطورات الكريتية قد عكست ظهور الدولة المصرية الوسطى بشكل مباشر أو غير مباشر.

كذلك فإنه يوجد على التخوم الشمالية لمدينة طيبة الإغريقية مرتفع كبير يسمى، حسب التقاليد، بمقبرة أمفيون Amphion وزيثوس Zethos. ويصف عالم الآثار المتميز ت. سبيروبولس T.Spyropoulos – وهو أحد الذين قاموا بحفائر هناك فى المدة الأخيرة – هذه المقبرة بأنها تتخذ شكل هرم مدرج من الطين أعلاه مبنى من الطابوق (قوالب الطوب) وبداخله مقبرة هائلة، وإن كانت محتوياتها قد تعرضت للسرقة. وهو يرجع تاريخ اللُقى الفخارية وبعض المجوهرات التى تم العثور عليها قرب المقبرة إلى الفترة الخزفية المواكبة للشطر المبكر من العصر الهلاّدى الثالث – وهى الفترة التى يتفق أغلب الدارسين على أنها ترجع إلى حوالى القرن ٢١ ق.م. وعلى هذا الأساس، وكذلك على أساس من تجفيف بحيرة كوبياس Kopias المجاورة، الذى تم بشكل فيه قدر كبير من البراعة والأناقة والذى يبدو أنه تم حوالى ذلك الوقت، وفى ضوء المعلومات التى أمدنا بها الأدب الكلاسيكى على نطاق واسع، والذى يربط هذه المنطقة بمصر – بناء على هذا كله يسلم سبيروبولس بوجود مستوطنة مصرية فى بويوتيا Boiotia (التى تمثل طيبة مركزها) فى تلك الفترة[١١]. وهناك شواهد أخرى تدعم افتراضه، وهى شواهد سأذكرها فى المجلدات الأخيرة لدراسة "أثينه السوداء".

ومن المثير للاهتمام فى هذا الصدد أن هوميروس يشير إلى رواية تذكر أن أفيون وزيثوس هما اللذان أسسا طيبة للمرة الأولى، أما المؤسس الآخر لها، وهو كادموس Kadmos، فقد أتى

من الشرق الأدنى بعد أن كانت مدينتهم قد دمرت بفترة طويلة. كذلك فقد اقترنت مقبرة أمفيون وزيثوس بالشمس على نسق ماكان عليه الأمر في حالة الأهرام المصرية. كما كانت لطيبة الإغريقية صلة وطيدة بالمخلوق الأسطورى المركب أبي الهول Sphinx* ، وفوق ذلك فإن هذه المدينة كانت مرتبطة، بشكل أو بآخر، ببرج الثور Taurus. هذا إلى جانب القدر الكبير من المضاهاة التي قام بها العلماء بين عبادتي الثور في كل من طيبة وكريت. ويضاف إلى ذلك الشواهد القوية المبنية على الظروف والتي تربط بين بناء المقبرة المذكورة وتأسيس طيبة لأول مرة وبين الأسرة الحادية عشرة المصرية بشكل مباشر أو غير مباشر.

هذا، وبينما أبقت كريت على عبادة الثور كعقيدة مركزية على مدى ستة قرون، فإن مصر تركت عبادة مونت الملكية مع قيام الأسرة الثانية عشرة بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. بفترة قصيرة. وقد اتخذت الأسرة الحاكمة المصرية الجديد آمون، الاله الكبش الذى ينتمى إلى مصر العليا، راعيا لها. وفي اعتقادى أن أغلب عبادات الكبش التي وجدت في منطقة بحرإيجه والتي كانت ترتبط بالاله زيوس Zeus جاءت نتيجة لتأثيرات تلك الفترة، وكانت مشتقة من (عقيدة آمون، هي وعقيدة الكبش / العنز منديس Mendês، التي كانت توجد في مصر السفلى.

(وفي هذا المجال) فإن هيرودوتوس وكتّاباً آخرين من بعده، كتبوا بتفصيل كبير عن الفتوحات الواسعة التي قام بها فرعون أسماه سيزوستريس Sesostris. وهو اسم تمت المطابقة بينه وبين اسم س–ن–وسرت S-n-Wsrt أو سنوسرت Senwosert، الذى تسمى به عدد من فراعين الأسرة الثانية عشر. على أن ما زعمه هيرودوتوس قوبل بالإستخفاف بصفة خاصة، كما تعرضت للمعاملة ذاتها الحكايات التراثية المتصلة بالحملات الواسعة المدى التي قام بها الأمير الإثيوبي أو المصرى ممنون Memnôn، وهو اسم يرجح أن يكون مشتقا من 'Imn-m-hɔt (أو امينيميس Ammenemes، حسبما كتبه المؤرخون الإغريق المتأخرون)، وهو الاسم الذى اتخذه عدد آخر من الفراعنة الهامين في الأسرة الثانية عشر. ومع ذلك فيبدو أن هناك مايثبت مصداقية هاتين الحلقتين من الحكايات التراثية، وذلك من خلال قراءة حديثة لنقش من منف، يذكر بالتفصيل فتوحات عن طريق البر والبحر لإثنين من فراعنة الأسرة الثانية عشر، هما سنوسرت الأول ومينيمينيس الثاني. هذا، إلى وجود تشابه يدعو للتأمل بين حبرك ر ع Hpr k3

* راجع تسمية "أم الهول" التي أطقتها على هذا المخلوق في حالة طيبة (الإغريقية) في الحاشية أعلاه. (المترجم).

R^c وهو اسم بديل لاسم سنوسرت – وبين كيكروبس Kekrops، مؤسس أثينا حسبما تذكر الحكايات التراثية. وقد ذكرت بعض المصادر القديمة أنه كان مصريا[١٢].

والموجة الثانية من التأثير (على الثقافة الإغريقية)، التى جاءت الرواية عنها محددة بشكل أكثر دقة. ترجع إلى فترة الهكسوس Hyksos. وقد كان الهكسوس، الذين يأتى اسمهم من التسمية المصرية $HK_3\ H_3st$، غزاة من الشمال، فتحوا وحكموا مصر السفلى على الأقل بين ١٧٢٠ و ١٥٧٥ ق.م. ورغم أن عناصر أخرى، ربما كانت من أصل حورى، قد اشتركت فى هذا الغزو، إلا أن الهكسوس كانوا فى أغلبيتهم الساحقة من المتحدثين بالسامية.

وفى هذا الصدد فإن أول ما أود لأنصار "النموذج القديم" إن يقوموا بتعديله، هو أن يقبلوا فكرة وجود غزوات أو تسربات لبلاد الإغريق قام بها متحدثون باللسان الهندو-أوروبى من الشمال. أما التعديل الثانى الذى أوده فهو أن نضع قدوم داناؤس Danaos إلى بلاد الإغريق فى بداية فترة الهكسوس حوالى ١٧٢٠ ق.م.، وليس فى نهاية تلك الفترة من ١٥٧٥ ق.م. أو بعد ذلك – كما تضعها الحوليات القديمة. لقد رأى الكتاب بشكل متواتر صلات بين السجلات المصرية حول طرد الهكسوس الممقوتين على يد الأسرة المصرية الثامنة عشرة، والرواية التى أوردتها التوراة عن خروج الإسرائيليين من مصر بعد الفترة التى قضوها هناك، والحكايات التراثية الإغريقية حول وصول داناؤس إلى أرجوس. وحسبما تذكر الرواية الإغريقية فإن داناؤس كان مصريا أو من بلاد الشام، ولكنه وصل بكل تأكيد من مصر بعد صراعه مع شقيقه التوأم أيجبتوس Aigyptos – الذى يبدو أصله واضحا من اسمه – أو فى أثناء ذلك الصراع. إن هذه العلاقة ذات الشعب الثلاث تبدو جديرة بالتصديق، وقد قام عدد من الثقات بالتوفيق بينها وبين الشواهد الأثرية. ومع ذلك فإن التطورات التى تمت مؤخرا فى مجال التأريخ بطريقة الراديوكاربون Radiocarbon وطريقة الدندروكرونولوجى dendrochronology *، تجعل من المستحيل أن نرد قيام المستوطنات الجديدة فى بلاد الإغريق إلى نهاية فترة الهكسوس. هذا، ومن ناحية أخرى، فإن هذه الشواهد، بالإضافة إلى الشواهد الآثارية من كريت، يمكن أن تتسق إتساقاً كبيراً مع فكرة هبوط جماعات (من المستوطنين) على الشواطئ الإغريقية فى القسم

---

* هى طريقة تعتمد على قراءة علمية للحلقات التى نراها فى المقطع العرضى عند قطع جذع شجرة بهدف التأريخ الدقيق لعمر هذه الشجرة. (المترجم).

الأخير من القرن الثامن عشر عند بداية الفترة المذكورة.

(وفى هذا الصدد) فقد تفاوت القدماء من كتاب الحوليات فى توقيتهم لوصول كادموس وتأسيسه لطيبة "للمرة الثانية". ومن ناحيتى فإنى أميل إلى الربط بين هذه الحكايات التراثية وبين الهكسوس، رغم أن هذه الحكايات قد تشير إلى فترات متأخرة عن ذلك. إن الرواية الإغريقية تقرن داناؤس بإدخال الزراعة، كما تقرن كادموس بإدخال أنواع من الأسلحة. إلى جانب إدخال الأبجدية وعدد من الشعائر الدينية. ويبدو، حسب "النموذج القديم المعدل" أن الزراعة وصلت (إلى بلاد الإغريق) مع موجة مبكرة (من المستوطنين)، أما الاقتباسات الأخرى - بما فيها العجلة الحربية والسيف - وكلاهما دخل مصر فى عهد الهكسوس - فيرجع وصولها إلى منطقة بحرإيجه إلى مابعد ذلك. وفيما يخص مجال الدين، فيبدو أن العقائد التى تم إدخالها فى تلك المرحلة تركزت فى عقائد الاله بوسيدون Poseidon والآهه أثينه Athena. وفى رأيى أننا يمكن أن نقرن الأول بالاله ست Seth، الاله المصرى للقفر والبحر الذى أخلص الهكسوس فى عبادته، كما يمكن أن نقرنه كذلك بالالهين الساميين يم Yam (البحر) ويهوه Yahwe. أما الآلهه أثينه فقد كانت هى الآلهة المصرية نيئيت Néit، وقد تكون كذلك عنات، الآلهة السامية التى يبدو أن الهكسوس كانوا يعبدونها. و (إن كان) هذا لا يعنى أننا ننكر أن عبادات أخرى لالهة مثل أفروديتى Aphrodite وأرتميس Artemis قد أدخلت على امتداد تلك الفترة.

(هذا) ومن المتفق عليه بوجه عام أن اللغة الإغريقية قد تكونت فى أثناء القرنين السابع عشر والسادس عشر ق.م. و (فى هذا لصدد) فإن تركيبها الهندو-أوروبى وكذلك معجمها الأساسى (مجموع مفرداتها الأساسية)، تصحبهما مفردات على مستوى رفيع من لسان مختلف عن اللسان الهندو-أوروبى. وإنى لعلى إقتناع بأن قدراً كبيراً من هذه المفردات يمكن أن يشتق بشكل مقنع من اللغة المصرية واللغة السامية الغربية. وهذا يتوافق بشكل جيد إلى حد كبير مع (افتراض) فترة طويلة من السيطرة لفاتحين مصريين وساميين.

لقد أسست الأسرة المصرية الثامنة عشر فى أواسط القرن الخامس عشر ق.م. أمبراطورية قوية فى المشرق وحصلت على جزية من منطقة بحرايجه - وهذا أمر يشير إليه عدد من اللقى الأثرية التى تنتمى لتلك الأسرة والتى تم العثور عليها فى ذلك الإقليم. وفى اعتقادى أن هذا يمثل

مدًا ثانيا عاليا للتأثير المصرى، وأنه من المحتمل أن تكون عبادة ديونيسوس Dionysos، التى يعتبر ظهورها متأخرا فى توقيته حسب الروايات التقليدية، قد دخلت بلاد اليونان فى تلك الفترة. وعلى وجه التخصيص فإنى أقبل الرواية القديمة التى تفيد أن الشعائر السرية الإليوسينية للالهة ديميتر Demeter قد أرسيت فى تلك الفترة(١٣)، كما أعتقد كذلك أن القرن الرابع عشر ق.م. شهد غزواً آخر لبلاد الإغريق، وهو غزو البيلوبيين سلالة بيلوبس Pelops والآخيين الذين قدموا من الأناضول والذين قدموا أساليب جديدة فى بناء الحصول وربما كذلك فى سباق العجلات الحربية. ولكن هذا لا يمس مشروعى بشكل مباشر.

(وبالمقارنة بتلك الفترة) فإن القرن الثانى عشر شهد فترة أكثر تعرضا للعوامل التى تمزق المسار التاريخى. ذلك أن ما نطلق عليه الآن تسمية "غزو العناصر الدُّورية" كان يُعرف فى العصور القديمة، بشكل أكثر تواترا، تحت اسم أبناء "سلالة" هرقل. إن الذين دخلوا المنْطقة أتوا دون شك من التخوم الشمالية الشرقية لبلاد الإغريق، وهى المناطق التى لم تتعرض إلا قليلاً لثقافة الشرق الأوسط التى مثلتها (فى بلاد الإغريق) القصور الميكينية التى دمرها هؤلاء الغزاه. وكذلك فإن تسمية أبناء (سلالة) هرقل التى اتخذوها لأنفسهم هى تسمية آسره (تستوقف الدارس)، ذلك لأنها لم تقتصر على دعوى من جانبهم بأنهم ينحدرون من أصل إلهى ينتهى بهم إلى هرقل Herakles، وإنما تجعلهم هذه التسمية ينحدرون كذلك من الجدود المصريين والفينيقيين الأسر المالكة التى حل محلها أبناء "سلالة" بيلوبس. (وفى ضوء ذلك) فإنه لا مجال للشك فى أن ذرية هؤلاء الفاتحين، وهم الملوك الدوريون حسب تسمية العصرين الكلاسيكى والمتأغرق، كانوا يعتقدون أنهم من ذرية المصريين والفينيقيين(١٤).

هذا، وسأنظر فى المجلد الثانى فيما أرى أنه "تمصير" Egyptianizing للمجتمع الأسبرطى بين ٨٠٠ و ٥٠٠ ق.م. أما المجلد الثالث فسوف أناقش فيه كذلك إدخال المعتقدات الأورفية المصرية (إلى بلاد الإغريق) فى القرن السادس ق.م. أما الأصل الفينيقى لنظام "دولة المدنية" Polis وكذلك "مجتمع العبيد" حسب الرؤية الماركسية، فى القرنين التاسع والثامن ق.م.، فقد كتبت عنهما بشكل شمولى فى مكان آخر. هذا وآمل أن أبحث فى وقت لاحق موضوع إنتقال العلم والفلسفة والنظرية السياسية يد طريق "المؤسسين" الإغريق لهذه التخصصات، الذين درس أغلبهم فى مصر أو فينيقية. على أن الاهتمام الأساسى الذى تدور

حوله دراسة "أثينه السوداء"، هو الدور المصرى والسامى فى تكوين بلاد الإغريق فى الفترتين المبكرة والوسطى من العصر البرونزى.

أثينة السوداء: الجزء الأول: موجز للقضية

المحور الذى يدور حوله المجلد الأول من "أثينه السوداء" هو تطور النموذجين "القديم" و "الآرى". والباب الأول فيه، وهو الذى يخص "النموذج القديم" فى العصور القديمة" يتتبع مواقف الإغريق فى الفترتين الكلاسيكية والمتأغرقة إلى ماضيها البعيد. إنه يعنى بكتابات الكتّاب الذين دعموا "النموذج القديم"، فأشاروا إلى المستوطنات المصرية فى طيبة (الإغريقية) وأثينه وقدموا تفاصيل عن الغزو المصرى لمنطقة أرجوس Argolis وعن تأسيس الفينيقيين لمدينة طيبة. وأناقش فى هذا المجلد كذلك ما زعمه عدد من "نقاد المصادر" فى القرنين التاسع عشر والعشرين من أن "النموذج القديم" إنما هو "تلفيق" تم القيام به لأول مرة فى القرن الخامس ق.م.، كما سأورد فى هذا الصدد شواهد من الصور ومن الكتابات المرجعية التى تعود إلى ماقبل ذلك (القرن) بعدة قرون.

وفى الباب الأول (من هذا المجلد) سيتركز اهتمامى بوجه خاص حول مسرحية "المستجيرات" أو "الضارعات" لأيسخيلوس Aeschylos * التى تصف وصول داناؤس وبناته إلى أرجوس. إن القضية هنا، حسبما يذكر عدد من المختصين بالتأصيل اللغوى للألفاظ، هى وجود قدر هائل من الشواهد على التأثير المصرى فى المفردات اللغوية التى ترد فى المسرحية، تدل على أن إيسخيلوس كان على صلة (معرفية) بتقاليد موغلة فى القدم. (وفى هذا الصدد) فإنى أجد على وجه التخصيص أن هناك تورية بين لفظة hikes(ios) بمعنى الضارع ولفظة هكسوس، بينما يمكن، على مستوى آخر، أن ننظر إلى فكرة أن المستوطنين الذين أتوا من مصر إلى ارجوس إنما أتوا إليها ضارعين، على أنها نوع من تهدئة أو إمتصاص الإعتداد القومى عند الإغريق. (وفى هذا الصدد) يمكن أن نرى محاولة مشابهة فى محاورة "تيمايوس" Timaios التى يعترف فيها أفلاطون بوجود علاقة من حيث الأصل genetic بين مصر وبلاد الإغريق بوجه عام، وبين أثينه وسايس Sais التى كانت أكبر المدن عند الحد الشمالى الغربى للدلتا، على وجه

---

* أول الشعراء المسرحيين التراجيديين الذين وصل إلينا عدد من مسرحياتهم فى صورتها الكاملة. عاش بين ٥٢٥/٥٢٤ و ٤٥٦ ق.م. (المترجم).

التخصيص – ولكنه، على غير ما هو جدير بالتصديق، أعطى الأولوية لأثينه.

ويبدو أن كلا من إيسخيلوس وأفلاطون، شأنهما شأن عدد من الإغريق الآخرين، ساءتهما الحكايات التراثية التى تتحدث عن الاستعمار. لأنها تضع الثقافة الإغريقية فى منزلة أدنى من ثقافة كل من المصريين والفينيقيين الذين كان إغريق ذلك الوقت يشعرون نحوهم شعوراً يتسم بالتضارب الحاد. فقد كان الإغريق يحتقرونهم ويخشونهم، ولكنهم يكنّون لهم فى الوقت ذاته إحتراما عميقا بسبب تاريخهم العتيق وما كان لديهم من عقائد دينية وفلسفة بقيا على مدى الزمن.

(وفى هذا الصدد) فإن تغلب مثل هذا العدد الكبير من الإغريق على شعورهم الفطرى بالكراهية (فيما يتصل بهذه العلاقة)، وتوصيلهم لهذه الروايات (المتصلة بالاستعمار) التى لا تكاد تتسق مع نعرتهم القومية، – ترك إنطباعا إيجابيا إلى حد كبير عند المؤرخ وليام متفورد **William Mitford** الذى ينتمى إلى القرن الثامن عشر، والذى استخدم هذه الروايات ليؤكد أنه "فيما يخص ظروفها الجوهرية فإنها لا تثير أى خلاف على الإطلاق". أما قبل متفورد فإن أحداً لم يُثر أى تساؤل حول (مصداقية) "النموذج القديم" فلم يكن هناك أى داع للدفاع عنه بصورة خاصة. هذا، وإن مثل هذه الدوافع للتحيُّز القومى (عند الإغريق) من شأنه أن يفسر لنا إغفال (المؤرخ) ثوكيديديس **Thucydides** لهذه الحكايات التراثية التى كان إدراكه لوجودها من الأمور المؤكدة.

ويمضى الفصل الأول فى مناقشة بعض حالات التناظر التى أقيمت بين الآلهة والشعائر المصرية والإغريقية، وفى مناقشة الاعتقاد السائد الذى مفاده أن الصيغ المصرية كانت هى الأسبق وأن الديانة المصرية كانت هى الأقدم. إن هذه الطريقة وحدها، وهى الرغبة فى العودة إلى الصيغ القديمة الحقيقية، هى التى تمكن المرء من التعرف على السبب الذى أتاح للالهة المصرية، ابتداء من القرن الخامس (ق.م.) إن لم يكن قبل ذلك، أن تُعبد تحت أسماء مصرية وتبعا للشعائر المصرية فى بلاد الإغريق بطولها وعرضها وفى القسم الشرقى لحوض البحر المتوسط، ثم فى العالم الرومانى فى فترة لاحقة (وجدير بالذكر هنا) أن العقائد الشرقية الأخرى، وبخاصة المسيحية، لم تبدأ فى أن تحل محل عبادات هذه الآلهة إلا بعد أن إنهارت (مقومات) الديانة المصرية فى القرن الثانى الميلادى.

أما الباب الثانى وهو "الحكمة المصرية والإنتقال ببلاد الإغريق من العصور المظلمة إلى

عصر النهضة" فقد تناولت فيه موقف آباء الكنيسة إزاء مصر. فبعد سحق الأفلاطونية الحديثة Neo-Platonism * وهي تمثل السليل الهيلليني الوثني للديانة المصرية، وسحق الغنوسية Gnosticism، وهي المقابل اليهودي – المسيحي لها، تمكن المفكرون المسيحيون من ترويض الديانة المصرية وذلك عن طريق تحويلها إلى فلسفة. وقد إتخذت هذه العملية من شخصية "هرمسيس المثلث العظمات" Hermes Trismegistos محوراً لها، وهو صورة بشرية أو مُعَقْلنة من تحوت Thoth، إله الحكمة عند المصريين، بعد أن نسبت إلى هذا الاله مجموعة من النصوص كتبت في خلال القرون الأخيرة للديانة المصرية (القديمة). وقد إنقسم آباء الكنيسة حول ما إذا كان "المثلث العظمات سابقا "الموسَى وللفلسفة الأخلاقية المتصلة بالكتاب المقدس، وجاء رأى القديس أوغسطين St. Augustine بما له من ثقل ليدعم الأولوية، ومن ثم التفوق، لموسى والكتاب المقدس. ومع ذلك فإن آباء الكنيسة كانوا متفقين في اعتقادهم بما سارت عليه الرواية التقليدية الكلاسيكية، وهي أن الإغريق تعلموا القسم الأكبر من فلسفتهم من المصريين – وإن كان المصريون، بدورهم، قد تعلموا بعض فلسفتهم من وادى الرافدين ومن بلاد فارس. وهكذا فإن "مثلث العظمات" كان يُنظر إليه خلال العصور الوسطى على أنه مؤسس الفلسفة والثقافة "الأممية" أو التي لاتقع ضمن إطار الكتاب المقدس.

وقد استمر هذا الاعتقاد في أثناء عصر النهضة. و(إذا كانت) حركة إحياء الدراسات الإغريقية في القرن الخامس عشر قد أدت إلى حب الأدب الإغريقي وحب اللغة الإغريقية وإلى التمثل بالإغريق، فإن أحداً لم يشك في حقيقة أن الإغريق كانوا تلاميذ المصريين، الذين كان لأبناء عصر النهضة اهتمام بهم يعادل اهتمامهم بالإغريق إن لم يزد عليه. لقد أعجب أبناء عصر النهضة بالإغريق لأنهم حافظوا على قسم بسيط من هذه الحكمة القديمة ونقلوه (إليهم). وإلى حد ما فإن التقنيات التجريبية لرجال مثل باراكلسوس Paracelsus ونيوتن Newton قد تم تطويرها لتستعيد هذا العلم المصرى الهرميسي، فقد كان عدد من النصوص الهرميسية متاحا في الترجمة

---

* مذهب فلسفي يعتبر تحديثا لفلسفة أفلاطون، ورغم بدايات أولى لهذا المذهب إلا أن المؤسس الحقيقي له هو أفلوطين Plotin الذى يأتي من ليكوبوليس (أسيوط) في صعيد مصر، والمذهب تغلب عليه الفلسفة الدينية theosophy وفيه يحاول أن يطور ما قدمه أفلاطون حول فكرة الاله الواحد، ولكنه يستخدم المنهج التأملي للتوصل إلى ذلك، بدلا من الإكتفاء بالمنهج العقلاني عند أفلاطون.

اللاتينية على امتداد العصور المظلمة والوسطى، كما عُثر على نصوص أخرى كثيرة غيرها فى عام ١٤٦٠ وتم إحضارها إلى بلاط كوزيمو دى ميدتشى Cosimo di Medici، حيث قام بترجمتها أكبر علمائه مارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino. وقد شكلت هذه النصوص والأفكار التى تضمنتها قيمة محورية للحركة المتأثرة بالأفلاطونية الحديثة التى أبتدأها فيتشينو، والتى كانت، فى حد ذاتها فى صميم حركة إحياء الآداب والعلوم الإنسانية فى عصر النهضة.

و(بالإضافة إلى هذا) فرغم أن كوبرنيكوس Copernicus قد استمد إنجازاته فى الرياضيات من العلم الإسلامي، إلا أن فكرته عن وضع الشمس كمركز للعالم. يبدو أنها واكبت إنبعاث الفكرة المصرية عن الشمس المؤلهة فى البيئة الفكرية الجديدة للهرميسية التى نمت أفكاره فى وسطها. هذا، وقد كان جوردانو برونو Giordano Bruno، الذى دافع عن آراء كوبرينكوس فى آخر القرن السادس عشر، أكثر منه تحديداً فى هذه المسألة، كما كان أكثر منه تجاوزا لاعتبارات الإحترام التى كانت تحيط بالهرميسية – المسيحية – الأفلاطونية الحديثة، وهى إعتبارات كان يراعيها فيتشينو. وحين هاله ماصنعته الحروب الدينية كما روعه عدم التسامح المسيحى، تبنى فكرة العودة إلى الدين الأصلى أو الطبيعى، وهو دين مصر، وكان جزاؤه على ذلك هو الإحراق عام ١٦٠٠ على يد محاكم التفتيش.

ويقودنا هذا إلى الباب الثالث وهو "النصر المصرى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر" (وفى هذا الصدد) فإن تأثير برونو استمر بعد وفاته. ويبدو أن برونو كانت له صلة بمؤسسى جماعة أتباع الروزيكروسية Rosicrusianism * الغامضة الراوعة التى فتنت بياناتها الناس فى الفترة المبكرة من القرن السابع عشر، وقد رأى الروزيكروسيون فى مصر النبع الأول للدين والفلسفة. ومن الأمور الشائعة أن النصوص الهرميسية قد استُبعدت مصداقيتها فى ١٦١٤ على يد العالم العظيم إيزاك كازوبون Isaac Casaubon الذى بيّن ما كان مقتنعا به من أن هذه النصوص لم تنبثق من أعماق العصر القديم ولكنها تنتمى إلى مابعد ظهور المسيحية. وقد حظى هذا التصور بالقبول على أنه أمر مسلّم به منذ القرن التاسع عشر حتى من قِبَلْ العلماء "المتمردين" مثل فرانسيس ييتس Frances Yates. ومع ذلك فقد حاولت فى هذا الباب أن

* عقيدة دينية فلسفية تجمع بين الطرق العلمية والغيبيات والعرافة فى سبيل البحث عن الحقيقة وترجع كتاباتها الأولى إلى القسم المبكر من القرن السابع عشر. (المترجم).

أبين أنى أكثر ميلا إلى الرؤية التى قدمها عالم المصريات سير فلندرز بترى Sir Flinders Petrie، وهى أن أقدم هذه النصوص يعود إلى القرن الخامس ق.م. على أنه مهما كان التاريخ الفعلى لهذه النصوص فإن الاعتقاد بأن كازوبون قد قضى على مصداقية هذه النصوص أمر خاطئ، فقد استمرت الهرميسية كقوة رئيسية حتى فترة متأخرة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، وظلت على تأثيرها إلى ما بعد ذلك التاريخ، وإن كانت نصوصها قد فقدت ما كان لها من بريق مع تراجع الاعتقاد فى السحر عند الطبقات العليا فى آخر القرن السابع عشر.

(هذا) ورغم أن النصوص الهرميسية فقدت جانبا من بريقها لدى مفكرى عصر التنوير، إلا أن الاهتمام والإعجاب بمصر لم يتناقص. و(يرجع ذلك إلى) أن القرن الثامن عشر كان عصراً يدين بالكلاسيكية ويتميز بنزوعه نحو النظام والإستقرار. ومن هنا فإن رومه كانت تُفضل على بلاد الإغريق، وفى الوقت ذاته، ومن أجل الإنفصال عن (أفكار) الإقطاع ومسيحية الماضى الأوروبى ذات الصبغة الأسطورية - كان هناك اهتمام كبير بالحضارات الأخرى غير الأوروبية، وقد كانت الحضارتان المصرية والصينية، إلى حد بعيد، هما الحضارتان الأكثر تأثيراً خلال ذلك القرن، فقد كان (الأوروبيون) ينظرون إلى كل منهما على أنها كانت تمتلك نظما كتابية متفوقة تمثل أفكاراً وليس مجرد أصوات، وأن كلا منهما كانت لديها فلسفات قديمة. على أن أكثر ملامح هاتين الحضارتين إجتذابا للإعجاب كان، على مايبدو، هو أن نظام الحكم فيهما كان عقلانيا وليس أسطوريا، وأن مقاليده كانت فى أيدى مجموعة من الرجال تم إختيارهم على أساس من تميز أخلاقهم، وأنهم كان لابد أن يمروا بقدر صارم من التهيئة لتقلد وظائفهم والتدريب عليها.

إن دوائر الكهنوت المصرى كانت لها جاذبيتها لدى المفكرين المحافظين على الأقل من الوقت الذى أتخذهم فيه أفلاطون نسقاً يسير على هدية الذين إختارهم للقيام على الأمور (فى مدنيته المثالية). وهو نفس الخط الذى سار عليه فى القرن الثامن عشر الماسونيون الأحرار Freemasons (أتباع حركة البناء الحر). بل أن أتباع هذه الحركة كان لهم، على مايبدو، اهتمام خاص بمصر لأنهم كانوا يعتقدون، حسب الرواية التقليدية القديمة، أنها موطن الهندسة والمعمار. وعندما ظهرت الماسونية التأملية Speculative Masonry عند منعطف القرن الثامن عشر فإنهم أخذو عن الروزيكروسية وعن برونو ليقيموا فلسفة ثنائية (أو ازدواجية)، كان من شأنها أن يقتصر الاعتقاد فى الأساطير والأديان المحدودة (المحتوى) على العوام، بينما يعود

المتنورون إلى الديانة المصرية فى نقائها وأصالتها – وهى الديانة التى نشأت من بقاياها (فى رأيهم) كل الديانات. وهكذا فإن جماعة أتباع البناء الحر، التى ضمت بين أعضائها كل شخصيته ذات قيمة فى عصر التنوير Enlightenment على وجه التقريب، رأوا أن دينهم هو دين مصرى وأن أماكن إقامتهم بمثابة المعابد المصرية وأنهم هم أنفسهم بمثابة رجال الدين المصريين. وفى الواقع فإن ما كان يكنه الماسونيون من إعجاب لمصر قد استمر بعد سقوط مصر من موقعها فى الأوساط الأكاديمية. وقد أستبقى الماسونيون العقيدة حتى الآن، رغم إنتقاصهم بذلك من قدر أنفسهم، وذلك بوصفها نوعا من الخروج على القياس فى عالم ينظر فيه (الأوروبيون) إلى التاريخ الحقيقى على أنه يبدأ بالإغريق.

وقد وصلت الماسنوية الأصولية إلى قمتها وإلى أكثر التهديدات حدة من جانبها للنظام المسيحى، فى زمن الثورة الفرنسية. فهنا كان التهديد السياسى والعسكرى مصحوباً بتحدٍ فكرى مثّله شارل فرانسوا ديبوى Charles Francois Dupuis، العالم الفرنسى الثورى الكبير وصاحب الموقف ضد الكنيسة. لقد كانت القضية التى طرحها هذا العالم هى أن الأساطير المصرية التى كان يرى – على نسق مافعل هيرودوتوس من قبل – أنها هى ذات الأساطير الإغريقية، إنما تتكون من قصص مجازية عن تحركات مجموعات النجوم الثابتة، وأن المسيحية ماهى إلا مجموعة شذرات أسئ فهمها من ذلك التقليد العظيم.

ويدور الباب الرابع حول موضوع "مظاهر العداء نحو مصر فى القرن الثامن عشر". لقد كان للخطر الذى شكلته مصر على المسيحية رد فعل بالطبيعة. ويمكن أن ننظر إلى التضحية بالمفكر برونو (الذى نادى بالعودة إلى الدين المصرى). وإلى هجوم كازوبون على أقدمية النصوص الهرميسية على أنهما أمثلة مبكرة لرد الفعل المذكور. ومع ذلك فقد تأزم الوضع مرة أخرى فى آخر القرن السابع عشر مع إعادة تنظيم الماسونية ومحاولة تجذيرها (أو تأصيلها). وربما كان التهديد الذى طرحه هذا "التنوير الجذرى، Radical Enlightenment أو الأصولى هو الذى يفسر التغير الحادّ فى مواقف نيوتن Newten إزاء مصر. ففى المرحلة المبكرة من عمله (العلمى) سار على نهج أساتذته من أنصار الأفلاطونية الحديثة فى كيمبردج فيما يخص إحترامه لهذا البلد، ولكنه أمضى العقود الأخيرة من حياته محاولا أن ينتقص من أهمية مصر من حيث أنه حاول أن يدفع بتاريخ تأسيسها (ككيان) إلى ما قبل حرب طرواده مبّاشرة. (وفى محاولته هذه)

كانت عين نيوتن على الخطر الذى يهدد النظام الطبيعى وما يقابله من النظم الدينية والسياسية التى تتمثل فى تنظيم إلهى ذى عادات منتظمة ونظام ملكى دستورى يتواءم وأفكار حزب الهويج Whig البريطانى. وقد كان هذا الخطر يتمثل فى مذهب الألوهية الجامعة Pantheism الذى يتضمن معناه وجود عام حى دون حاجة إلى مُنظّم أو حتى إلى خالق.

إن هذه النظرية يمكن أن نتتبع منشأها عبر سبينوزا Spinoza ثم (توغلافى الماضى) إلى برونو ومن قبل ذلك إلى أصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة Nco-Platonism ومصر نفسها. وقد تمثل أول رفض محدد لتحدى "حركة التنوير الأصولى"، كما تمثلت أقدم محاولة لجعل مبادئ حزب الهويج فى متناول الجموع، من خلال نيوتن – فى مجال العلوم والسياسة والدين، وتم ذلك فى ١٦٩٣ على يد رتشارد بنتلى Richard Bentley، المتشكك (فى الدين) ودارس الكلاسيكيات الكبير – وكان صديقا لنيوتن. وكانت إحدى الوسائل التى عمد إليها بنتلى لمهاجمة أعدائه وأعداء نيوتن هى أن يستخدم تكتيكات كازوبون. فقد استخدم علمه وأستاذيته فى النقد، للنيل من مصداقية ماجاء فى المصادر الإغريقية عن قدم (حضارة) المصريين وحكمتهم. وهكذا قام على امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحالف من حيث الواقع de facto بين النزعة الهيللينية ونقد النصوص وبين المسيحية. أما نوبات الهياج التى سببها الهيللينيون من غير المؤمنين (بالمسيحية) من أمثال شيلى Shelley وسوينبرن Swinburne فقد كانت غير ذات قيمة بالقياس إلى خطر الحركة المصرية – الماسونية.

إن محاولة نيوتون كانت تستهدف مجرد الإنتقاص من قدر مصر مقارنة بالمسيحية، ولكنه لم يحاول أن يرفع من شأن الإغريق. على أن عدداً من المدافعين عن قضية المسيحية كانوا قد بدأوا فى أواسط القرن الثامن عشر فى إنتهاج النظام (الفكرى) الصاعد آنذاك وهو نظام "التطور" الذى يقوم على افتراض مسبق مؤداه أن "اللاحق فى الزمن أفضل" (من السابق)، وذلك ليرفعوا من شأن الإغريق على حساب المصريين. ولم يلبث هذان الخطان أن تداخلا مع إتجاهين آخرين كانا قد بدآ فى الظهور والانتشار آنذاك وهما: العنصرية Racism و الرومانسية Romanticism. وهكذا، فإن الفصل الرابع فى هذا المجلد سيعنى كذلك بتقديم الخطوط العريضة لتطور الإتجاه العنصرى الذى قام على أساس من لون البشرة فى إنجلترة إبان القسم الأخير من القرن السابع عشر، وذلك إلى جانب (إستعراض) الأهمية المتزايدة للمستعمرات

الأمريكية بسياستها ذات الشقين المتلازمين وهما: إستئصال الأمريكيين (الأصليين) من أهل البلاد وإستعباد الأفريقيين السود. وقد تخللت هذه العنصرية فكر كل من لوك **Locke** وهيوم **Hume**، إلى جانب مفكرين إنجليز آخرين. وكان تأثيرهم وتأثير المكتشفين الأوروبيين الجدد للقارات الأخرى من بين اهتمامات جامعة جوتنجن **Göttingen** التي تمّ تأسيسها عام ١٧٣٤ على يد جورج الثاني، حاكم هانوفر المنتخب وملك إنجلتره والذى مثل جسرا ثقافيا بين بريطانيا وألمانيا*. وهكذا فإنه ليس من المستغرب أن يقوم يوهان فريدريخ بلومنباخ **Johann Friedrich Blumenbach**، وهو أستاذ في جامعة جوتنجن، في السبعينيات من القرن الثامن عشر، بكتابة أول عمل "أكاديمي" عن التقسيم العنصرى للجنس البشرى، وهو عمل يضع فيه هذا الباحث، بالطبيعة، البيض أو "القوقازيين" **Caucasians** – إذا استخدمنا تسميته الجديدة – على رأس التقسيم التنازلى.

وقد اتخذت هذه الجامعة موقع الريادة فى القيام بدراسات علمية حديثة ومنظمة (فى هذا الإتجاه). ففى العقد ذاته بدأ عدد من أساتذتها فى نشر دراسات تاريخية لا تخص الأفراد وإنما تخص الشعوب والأجناس ونظم الحياة السائدة لديهم. وبوسعنا أن ننظر إلى هذه المشروعات الحديثة على أنها تشكل منظوراً أكاديميا للتركيز "الرومانسى" على تقسيم المجتمع البشرى إلى أجناس، وهو منظور كان سائدا فى المجتمعين الإنجليزى والألمانى آنذاك. وفى هذا الصدد فإن رومانسية القرن الثامن عشر لم تكن مجرد إيمان بأولوية العواطف والاعتقاد بقصور الفكر العقلانى، فقد كانت تحيط بهذه العواطف مشاعر الإنفعال بالمناظر الطبيعية، وبخاصة المناظر البرية والبعيدة فى المناطق الباردة، والإعجاب بالشعوب النشطة المتمسكة بالأخلاق الفطرية، وهم الشعوب التى صاغتها هذه المناظر بشكل أو بآخر. إن هذه العواطف كانت مقترنة بالاعتقاد بأن مناظر القارة الأوروبية ومناخها خير بكثير مما هو موجود فى القارات الأخرى، ومن ثم فلابد أن يكون الأوروبيون أكثر تفوقا. وقد تزعم هذا الإتجاه مونتسكيو **Montesquieu** و روسّو **Rousseau**، ولكنه أتخذ أعمق جذوره فى كل من بريطانيا وألمانيا.

* ألمانيا هنا لا تشير إلى كيان سياسى، فإن الوحدة الألمانية لم تكن قد قامت بعد (لم تقم إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر). وإنما تعتبر هنا تعبيراً عن العنصر الألمانى الذى كان موزعا آنذاك على عدد من الدويلات الصغيرة إلى جانب دولة بروسيه **Prussia**. (المترجم).

وبنهاية القرن الثامن عشر كان مذهب "التطور" قد أضحى هو النظام الجذرى السائد لقياس الأمور، فالديناميه والتغيير أصبحتا تحظيان بتقدير أكثر مما كانت تحظى به قيمة الإستقرار، وبدأت النظرة إلى العالم من خلال منظور زمنى تطغى على تلك التى تنظر إليه من خلال الإعتبارات المكانية. ومع ذلك فإن هذه الإعتبارات ظلت على أهميتها بالنسبة للرومانسيين بسبب عنايتهم بالتأثيرات المحلية فى تكوين الشعوب أو "الأجناس". وهكذا ساد الاعتقاد بأن الجنس أو العنصر يغير من تكوينه الشكلى بمرور الزمن ولكنه، مع ذلك، يستبقى دائما تكوينا جوهريا لا يتغير. (وفى ضوء ذلك) فإن التواصل الحقيقى لم يعد ينظر إليه على أنه يتم من خلال العقل أو التفكير العقلانى الذى يمكن أن يصل إلى أى إنسان عاقل. وإنما أصبح ينظر إليه، فى تصورهم، على أنه ينساب من خلال المشاعر التي لا يمكن أن ينفعل بها إلا أولئك الذين تربط بينهم القرابة أو أواصر الدم والمشاركة فى "تراث" جماعى.

ولنعد الآن إلى مسألة العنصرية. إن عددا من الإغريق القدماء كان يجمع بينهم شعور يشبه كثيرا مايمكن أن نسميه الآن بالقومية. بل إن بعضهم دفع بهذا الشعور إلى مستوى التنظير فنادى بفكرة التفوق الهيلليني (الإغريقى) الذى يقوم على أساس من الموقع الجغرافى لبلاد الإغريق، و (لكن) هذا الشعور كان يقترن (فى الوقت ذاته) باحترام حقيقى وفعلى كان يكنه الإغريق للثقافات الأجنبية، وبخاصة تلك التى قامت فى مصر وفينيقية وبلاد الرافدين. وعلى أى الأحوال فإن الشعور "القومى" (لدى الإغريق القدماء) كان بالغاً فى ضآلته بالمقارنة بالموجة الطاغية للشعوبية والعنصرية اللتين اقترنتا بعقيدتى "أوروبا الشمالية" و "الشمال"، وهما اتجاهان اجتاحا شمال أوروبه مع ظهور الحركة الرومانسية فى أواخر القرن الثامن عشر. ومن هنا فإن النظام الفكرى الذى يعتبر الأجناس أو العناصر، من حيث جوهرها، غير متساوية فى الميزات الجسمانية أو الفكرية بدأ يطبق فى كل ميادين الدراسات الإنسانية، وفى ميدان التاريخ على وجه التخصيص. و (فى ضوء هذا النظام) فإن أى اقتراح باختلاط الأجناس أصبح أمرا غير مرغوب فيه إن لم يكن أمرا يؤدى إلى كارثة حقيقية. وعلى هذا، فمتى تكون الحضارة خلاقة ينبغى أن تكون "نقية نقاء عنصريا". وهكذا أصبح من الأمور غير المحتملة فى نظر الرومانسيين – وهى نظرة كانت تتزايد بصورة مستمرة – أن يرجع تكوين بلاد الإغريق إلى اختلاط بين أبناء البلاد من الأوروبيين وبين عناصر غازية من المستوطنين الأفارقة والساميين.

أما الباب الخامس وهو "اللغويون الرومانسيون: ظهور الهند وسقوط مصر، ١٧٤٠-١٨٨٠" فهو يبدأ بموجز تخطيطي للأصول الرومانسية للدراسات اللغوية ذات الصفة التاريخية والولع الذى عاصر منعطف القرن الثامن عشر بالدراسات المتعلقة بالهند القديمة، وهو ولع كان يرجع إلى حد كبير إلى إدراك العلاقة الأساسية بين اللغة السنكريتية وبين اللغات الأوروبية. وهذا الباب يستعرض كذلك تضاؤل التقدير الأوروبى للصين، وذلك من حيث أن (العمل على) التوازن التجارى بين المنطقتين كان فى صالح أوروبه، وهكذا قام كل من البريطانيين والفرنسيين بهجمات على الصين بشكل متزايد. وفى رأيى أن هذه العوامل جعلت من الضرورى تغيير صورة الصين من صورة لحضارة راقية ومتنورة إلى صورة لمجتمع يعج بالمخدرات والقاذورات والفساد والتعذيب. أما مصر القديمة، التى كان ينظر إليها فى القرن الثامن عشر على أنها تشكل تكوينا حضاريا متوازيا مع الصين إلى أقرب حد، فقد تعرضت لنفس الآثار المترتبة على الحاجة لتبرير التوسع الأوروبى المتزايد فى القارات الأخرى ولإساءة معاملة الشعوب التى تقطن تلك القارات. وهكذا قذف (الدارسون) بأهمية كل من المنطقتين إلى عصر ماقبل التاريخ لتشكل بذلك أساساً صلبا، ولكنه فى الوقت ذاته غير قادر على الحركة، يقوم عليه التطور الدينامى للأجناس الأكثر رقيا وهى: الآريون والساميون.

ورغم السقوط الذى لحق بسمعه مصر، فإن الاهتمام بها لم يتوقف خلال القرن التاسع عشر. بل إن هذا الاهتمام زاد بشكل أو بآخر مع ذوى الضجة العلمية التى أحاطت بها فى أعقاب حملة نابليون عليها فى ١٨٩٨، والتى كانت أهم نتائجها هى فك رموز الكتابة الهيروغليفية على يد جان فرانسوا شامبليون Jean Francois Champollion. وقد نظرت فى هذا الباب فى بعض التعقيدات التى تتصل بالبواعث المحركة لشامبليون ومسيرته العلمية فيما يتعلّق بالتقليد الماسونى والعلاقة المثلثة بين مصر القديمة وبلاد الإغريق القديمة والمسيحية. وليس علينا هنا إلا أن "نلاحظ" ببساطة، أنه بحلول موت شامبليون عام ١٨٣١ كانت مناصرته لمصر قد أكسبته عداء كل من المؤسسة السياسية المسيحية، والمؤسسة الهيللينية العلمية (المعنية بالدراسات الإغريقية) التى كانت قد ظهرت بشكل متحمس قبل ذلك بفترة وجيزة. وهكذا تم إهمال مصر بعد الحماس المبدئى لفك رموز الخط الهيروغليفى بربع قرن. وعند عودة الروح إليها فى أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كان العلماء ممزقين بين إغراء

مصر وبريق عمل شامبليون من جانب وبين العنصرية المتزمتة السائدة آنذاك من الجانب الآخر. و (تحت هذه الظروف) كان الأكاديميون ينظرون إلى الثقافة المصرية على أنها عنق زجاجة عقيم تستعصى عليه الحركة.

وقد "فُتِنَ" عدد من علماء الرياضيات والفلك بأناقة التصميم الرياضى للأهرام ووصلوا فى ذلك إلى حد الاعتقاد بأنها تشكل ركائز حكمة قديمة عليا. وقد تم وصمهم بالنزق والهوس للذنب المثلث (الذى ارتكبوه) وهو أنهم، (بأفتتانهم هذا) كانوا ضد مذهب الإحتراف* وضد الإتجاه العنصرى وضد مذهب التطور – وهى المعتقدات الجوهرية للقرن العشرين. أما بين (العلماء العقلاء) فقد بقيت سمعة مصر على تدنيها: ففى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر نظر الرومانسيون إلى المصريين على أنهم، فى جوهرهم، قوم ينقصهم المرح والإقبال على الحياة. وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأت تطفو على السطح صورة جديدة معارضة ولكنها لا تقل إهانة لمصر. لقد بدأ الرومانسيون يرون أن المصريين ينطبق عليهم التصور الأوروبى للأفارقة آنذاك – وهو أنهم قوم مرحون، محبون للمتعة، يميلون للفخر بصورة طفولية وماديون بشكل جوهرى.

وبوسعنا أن ننظر إلى هذه التغيرات من منظور آخر هو: أن نفترض أن المفكرين الأوروبيين، فى أعقاب ظهور الرق الأسود والإتجاه العنصرى، وجهوا اهتمامهم إلى المباعدة بين الإفريقيين السود وبين الحضارة الأوروبية إلى أقصى حد ممكن. وهكذا، فبينما كان الرجال والنساء (الأوروبيون) فى العصور الوسطى على غير معرفة مؤكدة بلون المصريين، فإن الماسونيين المحبين للمصريين رأوا أنهم من البيض، وبعد ذلك بدأ المفرطون فى انبهارهم بالهيللينية Hellenomaniacs فى أوائل القرن التاسع عشر يشكون فى إنتماء المصريين للون الأبيض وينكرون أنهم كانوا ذوى حضارة سابقة. هذا ولم يبدأ التأكيد على الصفات الإفريقية لمصر إلا فى أواخر القرن التاسع عشر بعد أن تم تجريدها من سمعتها الفلسفية. **ويجدر بالملاحظة هنا أنه فى كل حالة كان يتم تحديد الفاصل الضرورى بين السود والحضارة بصورة واضحة.** ومع ذلك، فرغم انتصار الإتجاه الهلينى واستبعاد مصر من دوائر البحث الأكاديمى، إلا أن هذا الإستبعاد لم يؤد إطلاقا إلى وضع نهاية للمفهوم الذى يجعل من مصر

---

* من الواضح أن المؤلف يقصد بالاحتراف، هنا، التخصص العلمى. (المترجم).

"مهداً للحضارة". وفوق ذلك فإن الإعجاب الغامض الـذى يقترب مـن الهـوس بالديانـة المصريـة والفلسفة المصرية بقى مصدر ضيق دائم لدى المحترفين من علماء المصريات. وفى هذا الصدد فإنى قـد ناقشـت فـى هـذا البـاب شـريحتين مـن هـذا "النظـام المضـاد" وهمـا: "ظـاهرة الانتشـار" diffiusionism التى روج لها إليـوت سميث Elliot Smith والتقليـد الـذى استمر مـدة طويلة والذى دار حول "علم الأهرام" pyramidology.

وقـد وضعـت البـاب السـادس تحـت عنـوان "الهـوس بالهيللينيـة Hellenomania"، ١: سقوط النموذج القديم، ١٧٩٠-١٨٣٠". و (فى هذا الصدد) فرغـم أن الإتجاه العنصـرى كان دائما مصدراً أساسياً لمعاداة "النموذج القديم" وأصبح بعد ذلك مقوما أساسـيا مـن مقومـات "النظام الآرى"، إلا أن ذلك وجد مايضارعه فى القـرن الثـامن عشـر والفـترة المبكـرة مـن القـرن التاسع عشر فى الهجوم على قيمة مصر من جانب المسيحيين (الأوروبيين) الذين أثـار خطـر ديانـة مصر و "حكمتها" من مخاوفهم. إن هذه الهجمات المسيحية تحدت ما قاله الإغريـق (القدمـاء) عـن أهمية مصر، وأعلت من شأن القدرة الإبداعية المستقلة لبلاد الإغريق وذلك بهدف الإنتقاص مـن قدرة مصر الإبداعية. وفى الحقيقة فإنه من الأمـور ذات المغزى العميـق أن يتـم تحـدى "النمـوذج القديم" لأول مرة بين ١٨١٥ و ١٨٣٠، إذ كانت تلك السـنوات هـى فـترة رد الفعـل العنيـف ضد الماسونية العقلانية التى كان ينظر إليها على أنها كانت خلـف الثـورة الفرنسـية، كمـا كـانت تلك السنوات (كذلك) سنوات إنتعاش للمذهب الرومانسى وانبعـاث للمسـيحية. وفـوق ذلـك، فلأن المسيحية قد تمت المطابقة بينها وبين أوروبه، فقد أصبح من الممكـن أن يجمـع بينهمـا مفهـوم التطور (أو التقدم) فى حركة موالية للهيللينية تساند حركة بلاد الإغريـق "الفتيـة" ضـد الأتـراك، الكفار الذين دخلوا مرحلة الشيخوخة.

وقد قام كارل أوتفريد موللر Karl Otfried Müller، الأسـتاذ فـى جامعـة جوتنجـن باستخدام التقنيات الحديثة فى نقد المصادر لينزع الثقة عـن كـل ماجـاء عنـد (الكتـاب الإغريـق) القدمـاء مـن إشـارات الى مناسـبات الاسـتعمار الاسـتيطانى المصـرى، ولإضعـاف الإشـارات إلى الاستيطان الفينيقى. وقد تم استخدام هذه التقنيات ذاتها لمهاجمة الأخبار (القديمة) التى تشير إلى أن إغريقيين تعلموا فى مصر. (وفى هذا الصدد) فإن النموذج القديم، كان قد وضع حاجزا فى وجه المعتقدات الفكرية الجديدة التى كانت تنادى بأن الثقافة الإغريقية كانت أوروبية فى جوهرها وأن

الفلسفة والحضارة جاءتا أصلا من بلاد الإغريق. وقد أزيل هذا الحاجز "من الناحية العلمية" حتى قبل أن يتم القبول العام بفكرة عائلة لغوية هندو-أوروبية.

وعنوان الباب السابع هو "الهوس بالإتجاه الهيلليني Hellenomania"، ٢: نقل النشاط العلمي الجديد إلى انجلتره وقيام النموذج الآرى، ١٨٣٠-١٨٦٠". إن أنصار "النموذج الآرى" كانوا، على خلاف أصحاب "النموذج القديم"، من الذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً في فكرة التقدم، فحسَب هذا النموذج كان ينظر إلى المنتصرين على أنهم أكثر تقدما، ومن ثم أفضل، من المهزومين. وهكذا، وبغض النظر عن المناسبات الخارجة عن القياس أو القصيرة المدى، فإن التاريخ - الذى أصبح ينظر إليه آنذاك على أنه تاريخ حياة الأجناس - يتكون مساره من إنتصار الشعوب القوية ذات الحيوية على تلك الضعيفة غير الفاعلة. ذلك أن (صفات) الأجناس قد حددتها التكوينات الطبيعية (التضاريس) وحالات المناخ السائدة في مواطن إقامتهم، وقد أبقت (هذه الظروف) فيهم على خصائص جوهرية دائمة، حتى مع إتخاذ هذه الخصائص لأشكال (خارجية) جديدة مع كل عصر جديد. وفوق ذلك فقد كان من الغنىّ عن البيان بالنسبة لهؤلاء العلماء أن أعظم عنصر في تاريخ العالم كان هو العنصر الأوروبى أو الآرى. فهو وحده الذى يملك، وسوف يملك دائماً، المقدرة على إخضاع كل الشعوب الأخرى، وعلى أن يبدع حضارات متقدّمة فعالة - وذلك بالقياس إلى المجتمعات الجامدة التي يحكمها الآسيويون والإفريقيون. حقيقة أن بعض الأوروبيين من مناطق التخوم، مثل الصقالبة والإسبان، تم إخضاعها على يد عناصر أخرى، ولكن مثل هذا الحكم - على خلاف فتح الأوروبيين لمناطق "الشعوب الأدنى" لا يمكن أن يشكل وضعاً دائماً أو مفيداً.

إن نماذج "العنصر" و "التقدم" والأنظمة الناتجة عنها والتى تتعلق باعتقاد "النقاء العنصرى (العرقى)"، وفكرة أن الفتوحات الوحيدة المفيدة هى التى تتم من جانب "العناصر (أو الأجناس) ذات السيادة" master races لأراضى الأجناس الضعيفة - هذه كلها لم يكن من الممكن أن تقبل "النموذج القديم". وهكذا فإن رفض موللر للحكايات التراثية عن الاستعمار المصرى لبلاد الإغريق تم قبوله بسرعة. وقد تم تركيب "النموذج الآرى"، الذى ظهر على أثر موللر، في إطار هذه النظم الجديدة. وقد كان من بين ماشجع هذا النموذج (الآرى) عدة عوامل هى: إكتشاف العائلة اللغوية الهندو-أوروبية الذى نُظر، في أعقابه، إلى الهندو-أوروبييّن على أنهم يشكلون

عنصراً، والتأكيد المقنع على أن هناك موطنا أصليا هندو-أوروبيا في وسط آسيه، والحاجة الى تفسير الفرضية التي تفيد أن اللغة الإغريقية كانت في أساسها لغة هندو-أوروبية. وفوق ذلك ففي هذه الفترة ذاتها بالتحديد، وهي القسم المبكر من القرن التاسع عشر، كان هناك اهتمام كبير بالاجتياح الجرماني للإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي، وبالفتوحات الآرية في الهند في الألف الثانية ق.م. وهكذا أصبح من الغني عن البيان تطبيق نموذج فتح بلاد الإغريق على يد عناصر من الشمال، كما أصبح من الأمور المغرية إلى حد كبير، القبول بفرضية تفيد بأن فاتحين أشداء قدموا إلى بلاد الإغريق من مواطنهم الواقعة إلى شمالي بلاد الإغريق والتي تتوافر في طبيعتها بواعث التحرك الإيجابي. هذا، بينما كان السكان الأصليون الذين عاشوا في بلاد الإغريق قبل الهجرة الهيللينية (الشمالية) ذوى طبيعة متراخية أدت إليها الظروف غير القاسية لموطنهم. (وفي هذا الصدد) فرغم وجود عدد كبير من العناصر غير الهندو-أوروبية في الثقافة الإغريقية لم يمكن التوفيق بينها وبين المثل الأعلى (الذى "يرضي" النموذج الآرى") وهو النقاء التام للهيللينية الآرية Aryan Hellenism - إلاّ أن فكرة الغزو الشمالي جعلت الاختلاط "العنصرى"، التي لا مفر منها (في حالة بلاد الإغريق)، غير مؤلمة إلى أقصى حد ممكن. ومن الطبيعي أن الهيللينيين الأكثر نقاء والأكثر إنتماء للشمال كانوا هم الفاتحين، كما يليق بعنصر سيّد. أما الشعوب الإيجية ممن وُجدوا قبل وصول الهيللينيين، فقد نُظِرَ إليهم على أنهم أوربيون من مناطق التخوم وعلى أنهم، على أى الأحوال، قوقازيون - وبهذه الطريقة فحتى أهل البلاد الأصليون لم يلوثهم "الدم" الإفريقي أو السامي.

وقضية "الدم السامي" تقودنا إلى الباب الثامن وهو "ظهور الفينيقيين وسقوطهم، ١٨٣٠-١٨٨٥". وهنا نجد ك. أو. موللر K.O.Müller ينكر في كتاباته التي ظهرت في العشرينيات من القرن التاسع عشر أن الفينيقيين كان لهم أى تأثير على بلاد الإغريق. ولكنه كان متطرفا في اتجاهه الرومانسي وسابقا لعصره في تعصبه العنصرى ونزعته المعادية للسامية. ونتيجة لهذا الوضع فإن الفينيقيين قد انتفعوا، من بعض الوجوه من سقوط المصريين* ، لأن الحكايات المتوارثة عن الاستعمار المصرى أصبح من الممكن الآن أن تفسر على أنها تشير إليهم. وسواء أكان هذا الأمر

* يقصد المؤلف هنا "سقوط المصريين من دائرة اهتمام المؤرخين الذين يتبعون النظام الآرى" في كتاباتهم. (المترجم).

قد تم عن وعى أو غير وعى، فإن المفكرين الأوروبيين قد نظروا إلى الفينيقيين على أنهم "يهود" العصور القديمة، وذلك بوصفهم تجاراً أذكياء. وقد كان المنظور الغالب للتاريخ فى أواسط القرن التاسع عشر هو منظور جدلية ثنائية بين ماهو آرى وماهو سامى. فالساميون قد أبدعوا فى الدين والشعر، والآريون تفوقوا فى أمور الفتح والعلم والفلسفة والحرية وكل مايستحق أن يسعى المرء للحصول عليه. وقد كان هذا الإعتراف المحدود بعنصر "الساميين" بمثابة "فرجة ضوء مواتية" محدودة فى أوروبه الغربية بين إختفاء الكراهية الدينية لليهود وظهور النزعة اللاسامية anti-semitism العنصرية. ففى انجلتره، حين تواكب العداء للسامية مع الموالاة لها، كان هناك إعجاب شديد بالفينيقيين لأن تجارتهم فى المنسوجات وتحركاتهم الإستكشافية واستقامتهم الأخلاقية الظاهرة بدت للأجانب وللأنجليز أقرب ما تكون إلى صفات العصر الفكتورى. ومع ذلك فإن النظرة المقابلة إلى الفينيقيين وغيرهم من الساميين على أنهم يميلون إلى البذخ ويتصفون بالقسوة والخيانة، لم تتوقف طوال الوقت وكانت هى النظرة السائدة بشكل عام فى القارة الأوروبية.

إن هذه الكراهية للفينيقيين على أساس أنهم "إنجليز" (فى صفاتهم) وشرقيون كذلك، كانت لافتة للنظر فى أعمال جول ميشليه Jules Michelet. المؤرخ الفرنسى الكبير ذى النزعة الرومانسية. وقد انتشرت آراء ميشليه عن الفينيقيين بشكل أكثر إتساعاً فى الرواية التاريخية "سلامبو" Salammbó التى كتبها فلوبير Flaubert والتى حظيت بشعبية واسعة لدى نشرها فى ١٨٦١. لقد اشتملت رواية "سلامبو" على وصف حى لقرطاجة فى أكثر أحوالها تفسخاً وتدهوراً، وهو أمر ساند بشكل قوى الأحكام المسبقة التى اتصفت بالعداء للسامية والعداء للشرقية anti-Orientalism والتى كانت سائدة على نطاق واسع آنذاك. وقد زاد الوصف الذى أبرز بشاعة التضحية بالأطفال للاله مولوخ Moloch من استثارة اللعنة (على أهل قرطاجة). إن ربط هذا العمل المقيت بالقرطاجيين والفينيقيين جعل من الصعوبة بمكان أن يحظوا بمناصرة أحد. و (على هذا) فقد تدهورت سمعتهم خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر إلى أدنى مما وصلت إليه سمعة اليهود.

وينتهى بنا هذا إلى الباب التاسع وهو "الحل الأخير للمشكلة الفينيقية، ١٨٨٠-١٩٤٥". ذلك أن تلك السمعة (المتدنية)، إلى جانب ظهور النزعة اللاسامية فى الثمانينيات من

القرن التاسع عشر، أدت إلى هجوم على الفينيقيين استمر لفترة طويلة، واتصف بدرجة غير عادية من الشراسة فيما يتصل بعلاقاتهم مع الإغريق وتأثيرهم عليهم، حسبما ورد في الحكايات التراثية – وذلك بعد أن كان (أنصار "النموذج الآرى") قد ارتفعوا بالإغريق إلى مرتبة نصف إلهيّة.

بعد ذلك بعقد من الزمان، نشرت في التسعينيات من القرن التاسع عشر مقالتان قصيرتان – وإن كان لهما تأثير غير عادى – على يد كل من يوليوس بلوخ Julius Beloch، وهو ألماني كان يقوم بالتدريس في إيطاليه، وسالومون ريناخ Salomon Reinach، وهو يهودى من الألزاس كان قد تم استيعابه في ذلك المجتمع ووصل إلى مركز الدائرة المثقفة وأهل العلم في باريس. وقد نادى كل من هذين بأن الحضارة الإغريقية كانت أوروبية صرفة، وأن الفينيقيين لم يقدموا للثقافة الهيللينية شيئا على الإطلاق، فيما يتعدى نقلهم للحروف الصامتة للأبجدية. ورغم أن عددا من العلماء ترددوا في قبول هذه المقولة على مدى السنوات العشرين التالية فإن الأساس الذى قام عليه ما أسميته "النموذج الآرى المتطرف" Extreme Aryan Model كان قد رسخ لدى منعطف القرن التاسع عشر. لقد كان هناك، على سبيل المثال، تباين ملحوظ بين ردود الفعل لإكتشاف هاينريخ شليمان Heinrich Schliemann للحضارة الميكينية في السبعينيات من القرن التاسع عشر وتقارير آرثر إيفانز Arthur Evans عن الحضارة الكريتية في كنوسوس Knossos عام ١٩٠٠. ففى الحالة الأولى نجد عددا من العلماء يقترحون بشكل مبدئي أن اللقى الأثرية، التي كانت مغايرة تماما لتلك التى تنتمى إلى بلاد الإغريق في عصرها الكلاسيكى، يمكن أن تكون من أصل فينيقي – وقد تم إنكار ذلك (على أى حال) فى العقود التالية بصورة تنطوى على كثير من الحرص والاهتمام. وعلى النقيض من ذلك فإن الحضارة التى تم اكتشافها فى كنوسوس أطلقت عليها "دون إبطاء" تسمية "الحضارة المينوية" وأعتبرت حضارة سابقة للحضارة الهيللينية، وأنها بالتأكيد حضارة غير سامية، رغم الروايات القديمة التى كانت تقول بذلك.

أما التصفية النهائية لمقولة التأثير الفينيقي على بلاد الإغريق، واستبعادها بشكل كامل على أنها مجرد سراب، فإن ذلك لم يتم الا في العشرينيات من القرن العشرين، مع تصاعد حركة اللاسامية الناتجة عن الدور المتصور والحقيقى لليهود فى الثورة الروسية وفى المؤتمر الشيوعى الدولى الثالث. ففى العشرينيات والثلاثينيات (من القرن العشرين) تم تكذيب فكرة الاستيطان

الفينيقى لبلاد الإغريق، كما تم نزع المصداقية عن الوجود الفينيقى فى منطقتى بحرإيجه وإيطاليه فى القرنين التاسع والثامن ق.م. هذا إلى أن الأصول السامية التى قدمت فى حالات كثيرة قبل ذلك لأسماء وألفاظ إغريقية، ثم إنكارها جميعا. وفى تلك الفترة بذل كل جهد ممكن للإقلال من مغزى الإقتباس من الثقافة الفينيقية، والذى لا يمكن الإنتقاص منه، وهو الأبجدية. ففى البداية شدد (أصحاب النموذج الآرى) على الإبتكار الإغريقى المفترض لحروف الحركة (العلة). وكانت حجتهم فى ذلك أن هذا الأمر جوهرى فى أية أبجدية حقيقية، وبدونه – حسب المعنى المتضمن لمقولتهم – لا يمكن التفكير بشكل منطقى. ثم جاءت الخطوة الثانية حين عمدوا إلى زحزحة مكان هذا الإقتباس إلى قبرص إلى أن وصل فى النهاية إلى مستوطنة إغريقية مزعومة على ساحل بلاد الشام. وكان أحد أسباب ذلك هو أن هذا الوضع كان على اتساق أكثر مع الطبيعة الدينامية للإغريق من حيث أنه يجعلهم هم الذين أحضروها من الشرق الأوسط ولم يتلقوها بشكل سلبى من "الساميين" – حسبما تذكر الحكايات المتوارثة. أما السبب الأخر فهو أن الإقتباس كان يؤخذ على أنه يتضمن الأختلاط الإجتماعى، ومن ثم التلوث العنصرى، وهو تصور كان غير مقبول آنذاك. أما الخطوة الثالثة فى هذا الصدد فهى تأخيرهم للإقتباس حتى ٧٢٠ ق.م.، أى حتى ما "بعد" قيام نظام "دولة المدينة" ***Polis*** والفترة التكوينية للثقافة الإغريقية فى العصر المبكر بفترة آمنة. وقد ترتب على ذلك إيجاد فترة طويلة من الأمية أمتدت بين الوقت الذى اختفت فيه نصوص الكتابة التخطيطية التى اكتشفها إيفانز وبداية استخدام الأبجدية. وقد قدم هذا الامتداد الزمنى ميزتين (لأصحاب "النموذج الآرى"): إحداهما هى أنها قدمت تفسيرا لظهور هوميروس، كشاعر أعمى – ويكاد يكون شماليا – فى مجتمع تسوده الأمية. والميزة الثانية هى أنه شكل عصراً مظلماً **Dark Age** بصورة (لا تسمح بتسجيل أية أخبار) بين العصر الموكينى والعصر الأرخى **archaic** (القديم المبكر). وقد زاد ذلك من تدنى مصداقية الأخبار التى أوردها (الكتاب) الإغريق المتأخرون عن تاريخهم المبكِّر، ومن ثم مصداقية "النموذج القديم".

وإلى جانب ذلك فقد كانت الثلاثينيات من القرن العشرين سنوات ضعف فيها "المذهب الوضعى" **Positivism** فى مجال العلوم الصرفة، بينما زادت قوته فى مجال المواضيع المتاخمة لها مثل المنطق والتاريخ القديم. وهكذا، ففيما يخص الدراسات الكلاسيكية بدا أن حل المشكلة الفينيقية أمر "علمى" ونهائى: لقد أصبح فى الإمكان منذ تلك اللحظة مباشرة حسم الأمر بشكل

علمي، أو كما يمكن أن نعبر الآن، إن نظاما أساسيا paradigm قد تم إرساؤه. وفي ضوء ذلك فإن أى دارس ينكر هذا النظام يدمغ بأنه عاجز وخارج عن التفكير السوى. وقد أظهرت الأيام صلابة هذا الوضع من حيث أن استمر أكثر من ثلاثين سنة منذ أن كشف النقاب فى ١٩٤٥ عن النتائج التى ترتبت على اتجاه اللاسامية، لتهز بذلك بشكل عميق الأساس الذى قام عليه اتجاه اللافينيقية. ومع ذلك فقد كان هناك تراجع على المدى الطويل عن "النموذج الآرى المتطرف"، وقد وصفت هذه العملية فى الباب العاشر، وعنوانه هو "موقف ما بعد الحرب: العودة إلى النموذج الآرى العام، ١٩٤٥–١٩٨٥".

هذا، ومن المحتمل أن تأسيس إسرائيل كان أكثر فعالية من عملية الإبادة أو المحرقة، Holocaust فى استعادة مقولة الفينيقيين لكيانها. فمنذ ١٩٤٩ تم قبول اليهود، أو الأسرائيليين على الأقل، كأوروبيين، وتبين بشكل جلى أن التحدث بلسانٍ سامى لا يؤدى إلى فقدان شعب لقدرته على الإنجاز الحربى. وفوق ذلك فإن الخمسينيات (من القرن العشرين) شهدت صعوداً حادّاً فى ثقة اليهود بأصولهم السامية.

وفى إطار هذا التطور فإن سايرس جوردون Cyrus Gordon وميخائيل أستور Michael Astour. وهما اثنان من كبار المهتمين بالدراسات السامية، بدآ فى مناصرة الحضارة السامية الغربية ككل ومهاجمة "النموذج الآرى المتطرف – وربما جاء ذلك نتيجة لعدم قدرتهما على قبول خصوصية اليهودية الأصولية أو الصهيونية. (وعلى أى حال) فإن جوردون، الذى يعرف لغات الشعوب القديمة فى القسم الشرقى من البحر المتوسط أكثر من أى شخص آخر على قيد الحياة، كان يرى دائما أن رسالته فى الحياة تتركز فى إثبات الصلات المتبادلة بين الثقافة العبرية والثقافة الهيللينية. وقد كانت جسوره نحو هذا الإثبات هى: أوجاريت، وهى ميناء قديمة على ساحل بلاد الشام، وجزيرة كريت. لقد وجد جوردون فى الأساطير الكنعانية التى سجلت فى أوجاريت فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.، والتى تمت ترجمتها فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين – وجد ما يثبت صلات مع ما جاء فى الكتاب المقدس وما جاء فى أشعار هوميروس. وقد أدى المقال الذى نشره (فى هذا الصدد) فى عام ١٩٥٥ إلى تحطيم سمعته كعالم "مُتزن وراسخ" ولكنه بهر عددا من مؤرخى المواضيع العامة وقسما من الرأى العالم من غير ذوى التخصص. وفى فترة لاحقة زاد من استياء المتمسّكين (بالنموذج

الآرى المتطرف) حين قرأ النقوش الكريتية المسجلة بالكتابة التخطيطية "أ" Linear A على أنها نقوش سامية، مما أفضى به إلى مواجهة مباشرة مع سيل من الإعتراضات، تمت إزالة أثرها تقريباً عن طريق أبحاث لاحقة. ومع ذلك فإن تفسيره لم يُقْبل بعد من جانب غالبية العلماء - هذا، ورغم أن ما قام به فنتريس Ventris قبل ذلك بسنوات قليلة، من فك رموز الكتابة التخطيطية "ب" بوصفها كتابة إغريقية، كان أمرا جديداً، إلا أنه قوبل بالترحيب من حيث أنه رسّخ الإتساع الجغرافي والعمق التاريخي للثقافة الإغريقية. أما قبول الكتابة التخطيطية "أ"، ومن ثم الحضارة المينوية. على أنها متحدثة باللسان السامي، فإن ذلك كان من شأنه أن يقلب كل المقولات المتعلقة بالتفرد الهيلليني، ومن ثم التفرد الأوروبى، رأسا على عقب.

وفي هذا الصدد فإن المؤيدين لحصيلة المعرفة التقليدية قد أصابهم قدر مماثل من الإرتباك، إن لم يكن بنسبة أكبر، حين ظهر كتاب "دراسات هيللينية سامية" Hellenosemitica، وهو عمل ضخم قام به ميخائيل أستور، زميل جوردون. والعمل يشتمل على مجموعة دراسات عن نقاط تشابه لافته للنظر بين الأساطير السامية الغربية والأساطير الإغريقية، وهي دراسات أظهرت نقاط إرتباط بين كل منهما من حيث التركيب والتسميات، كانت من التقارب بحيث لا يمكن تفسيرها بشكل عارض على أنها مظاهر متشابهة للنفس البشرية. هذا، وبخلاف التحدى الذى شكله الموضوع الذى دارت حوله الدراسة، فإن أستور قام (من خلال عمله هذا) بثلاث هجمات أساسية (على النموذج الآرى المتطرف). وأول هذه الهجمات هو أن كتابته لهذه الدراسة في حد ذاتها قلبت الوضع القائم status quo آنذاك رأسا على عقب، إذ بينما كان يحق لدارس الكلاسيكيات، الذى يأتي من صفوف "النموذج السائد" أن يناقش الشرق الأوسط في مجال علاقته مع بلاد الإغريق وروما، فإن العكس (في رأيهم) لم يكن صحيحا، إذ لم يكن من حق دارس الساميات أن يكتب عن بلاد الإغريق. والهجمة الثانية (التى شكلتها هذه الدراسة) هي أنها وضعت الشواهد الأثارية موضع التساؤل فيما يخص حقها في الأولوية على بقية الشواهد الأخرى: الأسطورة، الحكاية المتوارثة، اللغة، الأسماء - مهددا بذلك الموقف العلمي، "Scientific status" للتاريخ القديم. أما الهجمة الثالثة فهي أنه قدم عرضا تخطيطيا لسوسيولوجية المعرفة فيما يخص الدراسات الكلاسيكية، مشيرا إلى حلقات وصل بين التطورات التي تتم في حقل العمل العلمي وتلك التي تحدث في المجتمع. بل لقد ألمح في كلامه، بشكل

متضمن، إلى وجود علاقة بين اللاسامية والعداء للفينيقيين وألقى بظل من الشك على مقولة استمرار التقدم التراكمى للتعلّم. على أن أسوأ تهديد (لأصحاب النموذج الآرى المتطرف) هو الفكرة التى أراد أن يوصلها (لقرائه)، وهى أن الحكايات التراثية التى تدور حول داناؤس وكادموس تحتوى على نواة للحقيقة.

إن مثل هذا القدر من الهرطقات (الخروج على "المقدسات") لم يكن ليمر بلا عقاب، وهكذا تلقى أستور كمّاً موجعا من الضربات من جانب منتقديه أدى إلى توقفه عن العمل فى الحقل الذى افتتحه بتميز ظاهر. ومع ذلك فإن عمله، شأنه شأن العمل الذى قدمه جوردون، كان له آثار عميقة. فقد تمكن – إلى جانب العدد لامتزايد من اللقى الآثارية التى تنتمى إلى المشرق، والتى تم العثور عليها فى مواقع العصر البرونزى المتأخر والعصر الحديدى المبكر فى منطقة بحرإيجه – من تقويض دعائم "النموذج الآرى المتطرف". وهنا يبدو من قبيل وضع الأمور فى نصابها أن نذكر أنه، بحلول عام ١٩٨٥ كان غالبية الباحثين الذين يعملون فى هذا المجال قد تراجعوا إلى "النموذج الآرى العام" Broad Aryan Model. وهذا معناه أنهم يقبلون الآن إمكانية وجود مستوطنات سامية غربية ترجع إلى العصر البرونزى، ليس فى الجزر فحسب، بل كذلك فى بلاد الإغريق القارية – على الأقل فى طيبه. كذلك فهم يعتقدون الآن أن التأثير الفينيقى على بلاد الإغريق فى العصر الحديدى بدأ قبل القرن الثامن بفترة طويلة، بل قد تعود بدايته إلى القرن العاشر (ق.م.) هذا، ومن الجهة الأخرى فإن جوردون وأستور، رغم كل جرأتهما الفكرية، لم يتحدّيا النموذج الآرى فى حد ذاته: إن أحدا منهما لم يُدخل فى إعتباره إمكانية وجود مقوم ساميّ ضخم فى المفردات اللغوية الإغريقية، كذلك فمع تسليمنا باهتماماتهما الساميّة، إلا أنهما لم يبحثا إمكانية الاستعمار الاستيطانى المصرى لبلاد الإغريق وفرضية قيام اللغة والثقافة المصريتين بدور مماثل، بل ربما بدور محورى أكبر، فى صياغة الحضارة الإغريقية.

وقد كانت هناك، فى هذا الصدد، مجموعة من المحاولات لإحياء الروايات التى تتعلق بالتأثير المصرى فى بلاد الإغريق. ففى ١٩٦٨ قام زيجفريد مورنتس Siegfried Morenz، أستاذ المصريات الذى ينتمى إلى ألمانيا الشرقية (آنذاك) بنشر عمل كبير عن موضوع هذا التأثير وتشعباته الأكثر إتساعا بالنسبة إلى أوروبه ككل. ولكن هذا العمل لم يلق إلا اهتماما قليلا خارج

ألمانيا، أما تأكيد الدكتور سبيروبولوس Spyropoulos على قيام مستعمرة مصرية فى طيبة فى القرن ٢١ ق.م. فقد تم دفنها عن طريق التعتيم الكامل فى كثير من التهذيب. إن عددا من العلماء صوبوا نقدهم للتوقيتات التاريخية التى قدمها، ولكنهم إبتعدوا بقدر المستطاع عن ذكر ما اعتبروه جنوحا من جانبه إلى التهوس[١٥]. وفى أغلب الأحوال فإن الذين عُنوا بقضية التأثيرات المصرية الهائلة فى بلاد الإغريق كانوا على حدود الدائرة الأكاديمية أو خارجها: رجال مثل بيتر تومكنز Peter Tompkins الذى كتب (فيما يتصل بهذه القضية) عددا كبيرا من الموضوعات الصحفية، إلى جانب كتابه الذى كتبه بحذر شديد وتحت عنوان مثير هو "أسرار الهرم الأكبر" "Secrets of the Great Pyramid" وكذلك العالم الأمريكى الإفريقى الأصل ج.ج.م. جيمس G.G.M.James فى كتابة الصغير الذى يتميز بسحر أسلوبه "التراث المسروق" Stolen Legacy والذى يقدم فيه قضية مقبولة مفادها أن العلم والفلسفة الإغريقيين قد إقتبسا إلى حد هائل من الأصول المصرية.

وينتهى هذا القسم من المقدمة الذى اسميته "تلفيق حضارة الإغريق" بتنبؤ مؤداه أنه بالرغم من أن "النموذج الآرى العام" سيستغرق إسقاطه وقتا أطول من "النموذج الآرى المتطرف"، إلا أن الصيغة المعدلة من "النموذج القديم" ستحظى بقبول عام فى بواكير القرن القادم (الواحد والعشرين).

هذا، وتضم الأقسام التالية من المقدمة قدراً كبيراً من المناقشة التقنية، وهى أقسام ليست ضرورية لفهم هذا المجلد، ولذا فإنى أشير على القراء الذين تنحصر اهتماماتهم الرئيسية فى التأريخ أن ينتقلوا مباشرة إلى بداية الفصل الأول.

بلاد اليونان أوروبية أم مشرقية ؟

المقومات المصرية والسامية الغربية للحضارة الإغريقية.

موجز الجزء الثانى

يُعنى المجلد الثانى من "أثينه السوداء" بالمقارنة بين ما يمكن أن نجنيه من كل من النموذجين (السالفى الذكر) من فائدة نسبية تنعكس على عدد من الأنظمة أو طرق المعالجة المختلفة اللازمة لإعادة تركيب التاريخ. وذلك مثل: المصادر الوثائقية المعاصرة، علم الآثار، أسماء الأماكن، اللغة

والعقائد الدينية. وتتمثل مقدمة هذا المجلد فى مقارنة الأساس الجدير بالتصديق والقبول، المتأصل فى كل من النظامين.

وهنا نجد أنه من الواضح – مع استثناء ممكن لدرجة معرفتنا بأحوال مصر القديمة – أن أنصار النموذج القديم لديهم من المعلومات عن الألف الثانية ق.م. أكثر مما يملكه أنصار النموذج الآرى. ومع ذلك فإن الأخيرين لم يقيموا مطالباتهم بأحقيتهم فى التفوف على أساس من كم المعلومات، وإنما على أساس من "المنهج العلمي"، الذى يسيرون على هديه، ومن موضوعيتهم. وقد وضعت كلا من هذين الإعتبارين موضع تساؤل فى القسم الذى عالجت معه "تلفيق حضارة بلاد الإغريق القديمة". وقد بينت بشكل مدبب. فيما يخص إعتبار الموضوعية، أنه بينما كان الكتاب الإغريق (القدماء) ممزقين بين رغبتهم فى تحصيل عمق تاريخى إضافى لثقافتهم وبين رغبتهم فى التفوق فى كل الجوانب على جيرانهم، فإن علماء القرن التاسع عشر (من أصحاب النموذج الآرى) لم يكن يؤرقهم مثل هذا التضارب، فقد كان اهتمامهم الأول هو أن يُعلوا من شأن بلاد الإغريق الأوروبية وأن يهبطوا إلى درجة متدنية بالمصريين الأفارقة والفينيقيين الساميين. إن هذا فى حد ذاته حرىّ بأن يجعل الذى لا ينتمى إلى دائرتهم يميل إلى الاعتقاد بأن "الكتاب القدماء" كانوا موضوعيين أكثر من مؤرخى القرن التاسع عشر والقسم المبكر من القرن العشرين.

ومع ذلك فإن توافر إمكانات أكثر للتوصل إلى المعلومات، إلى جانب توافر قدر أكبر من الموضوعية لدى أصحاب "النموذج القديم"، لا يعنيان فى حد ذاتهما أن لهذا النموذج قيمة تفسيرية أكثر تفوقا من النموذج الآرى. فكما حاولت أن أبين من قبل، وكما سأبين مرة أخرى فى ختام هذا المجلد، فإننا لا ينبغى أن نستبعد هذا الأخير لمجرد أن الدوافع التى أوحت بإنشائه تعتبر الآن مثاراً للشكوك. وعلى سبيل المثال (التوضيحى) فإن ما سعد به علماء القرن التاسع عشر كثيرا من الصور التاريخية لاستعمار الآريين للهند ومن إقامة النظام الطبقى على أساس من فارق اللون، لا ينبغى أن يلغى إمكان استخدام الطريقة كتفسير تاريخى. ومع ذلك فينبغى أن نذكر أن الهند، على عكس بلاد الإغريق، كانت فيها روايات تقليدية قديمة عن الغزو.

ويقدم الباب الأول من "بلاد الإغريق" أوروبية أم شرقية ؟ "الخطوط العامة للشواهد الوثائقية عن الزمان والمكان الذين يدور حولهما اهتمامنا، (وفى هذا المجال) فإن القسم الشرقى للبحر المتوسط لم يكن أميّا فى الألف الثانية ق.م.: لقد كان المصريون والمشرقيون يعرفون الكتابة

مـن قـرون. فجزيـرة كريـت كـانت تسـتخدم طريقتهـا الخاصـة فـي الكتابـة التصويريـة hieroglyphs والكتابة التخطيطية "أ" Linear A، والتى كانت تستخدم كذلك فى جزر الكيكلاديس Cyclades. وفوق ذلك فـإن الإحتمـال الكبـير هـو أن الكتابـة التخطيطيـة "ب" ظهرت ونمت فى بلاد اليونان القاريّة فى خلال القسم الأول من الألف الثانية كذلك. وأزعم هنـا أن أغلب شعوب القسم الشرقى للبحر المتوسط كانوا يستخدمون أبجديات لـدى حلـول القـرن الخامس عشر ق.م.(١٦). وهكذا فإن معرفة الكتابة لم تكن أمراً منتشرا انتشـاراً واسـعاً فحسـب، بل أن فى مقدورنا أن نقرأ القسم الأكبر من صورها المختلفة، وهو مالا يستطيعه صانعو "النموذج الآرى".

وتبقى هناك مسألة، وهى أن الشواهد الوثائقية التى تتصل بالعلاقات بـين الأقـاليم الثقافيـة المختلفة فى القسم الشرقى للبحر المتوسط لا تزال ضئيلة العدد. وفى هذا الصدد فإن نقش ميت رهينه، الذى اكتشف مؤخرا على كتلـة حجريـة تحـت تمثـال ضخـم، يقـدم تفـاصيل عـن حمـلات مصرية برية واسعة النطاق ورحلات بحرية فى القرن العشرين ق.م. (١٧). ومن الأمور المعروفة منذ فترة أن الملكة آح حوتبه Ahhotpe، وهى أم أول فراعنة الأسرة الثامنة عشر، كان يفترض أنها قدمت فى وقت مبكر من القرن السـادس عشـر ق.م. مـن حونبـو H3W NbW، وهـى إقليـم أجنبى أمكن تحديده بشكل معقول على أنه منطقة بحرإيجه. ويبـدو أن التصميمـات الإيجية لبعـض مجوهرات الملكة أمر يؤكد هذا الإفتراض. ورغم أن ابنها عجموزه Amôsis زعم كذلـك نوعـاً من السيادة على حونبو، إلا أننا لانسمع شيئا آخر عن (ذلك النوع من السيادة) لأكثر من قـرن. هذا، ومهما كان نوع العلاقة بين أحمس وحونبو، فمـن الواضـح أنـه كـان هنـاك، فـى نهايـة فـترة الهكسوس وبداية الأسرة الثانية عشر نوع من التداخل السـكانى (فـى تلـك المنطقـة). ففـى ذلـك الوقت تظهر فى مصر تسمية "ب" كفتيو P3 Kft'iwy التـى تفيـد معنـى "الكريتـى"، كمـا أن أسماء لمصريين وكريتيين تظهر ضمن قائمة أسماء كريتية وجدت فى وثيقة برديـة مصريـة ترجع إلى الفترة ذاتها إن هذه الصورة لسكان مختلطين إختلاطا كاملا فى القسم الجنوبى من بحرإيجه تؤكدهـا الصور المرسومة على الجص frescoes التى عثر عليها فى ثيرا Thera كما تؤكدها أسماء مـن فترة لاحقة وردت فى الكتابة التخطيطية "أ" و "ب"

هذا، ويزداد عدد الشواهد الوثائقية التـى تخـص منطقـة بحرإيجـه كثـيرا فـى خـلال القرنـين

الخامس عشر والرابع عشر ق.م. (وفى هذا الصدد) فإن النقوش والصور الموجودة على جدران المقابر تبين بجلاء أن المصريين شعروا، بعد فتوحات تحتمس الثالث فى بلاد الشام فى أواسط القرن الخامس عشر، بمقدرتهم على ممارسة نوع من السيادة على جزيرة كريت والمناطق التى تتخطّاها – وهى مسألة تجددت عدة مرات على امتداد القرن التالى. هذا، وبعد قليل من إرساء هذه العلاقة، نجد أن الوثائق والصور المصرية تشير إلى تغيير فى مجال القوة المسيطرة فى كريت بشكل يتسق مع الشواهد الآثارية التى عثر عليها فى كنوسوس *Knossos – ليوحى كل ذلك بفتح موكينى لأرض المينويين آنذاك. لقد توقفت النصوص المصرية التى تشير إلى الكفتيو Kftiw فى بحرإيجه لتحل محلها إشارات إلى "تنين" Tín3 أو "تا – نا – يو" Ta-na-yu. وفى هذا الصدد فإن المطابقة بين هؤلاء وبين الدانائيين وبلاد الإغريق يكاد يؤكدها نقش من القرن الرابع عشر يقدم أسماء أماكن فى تا–نا–يو، أمكنت المطابقة بينها وبين أسماء لأماكن تقع فى كريت وبلاد الإغريق بشكل جدير بالتصديق إلى حد كبير. وإلى جانب ذلك فإن رسالة من الملك الفينيقى لمدينة صور، تشير إلى أحد ملوك دا–نا–أو، وهى منطقة يرجح بوجودها فى بلاد الإغريق.

كذلك فإن هناك ذكر متكرر لعلاقات بين المشرق وبحرإيجه فى القرن السابع عشر فى كل من الكتابة الأوجاريتية والكتابة التخطيطية "ب". لقد كان التجار الأوجاريتيون يتاجرون مع كريت، وفى اعتقادى أن اسم "دنن" Dnn الذى وجد فى أوجاريت ما هو إلا "دانان" و (من ثم) يشير إلى وجود إغريق فى هذه الميناء، كما أن الألواح المكتوبة بالكتابة التخطيطية "ب" تشير إلى وجود مجتمع مرفه يتكلم اللغة الإغريقية وإلى إقتصاد رفاهية فى جزيرة كريت وشبه جزيرة البلوبونيسوس** قريب الشبه بما كان موجودا فى الشرق الأدنى المعاصر لتلك الفترة. ومن الناحية اللغوية فإن النقوش المكتوبة بالكتابة التخطيطية "ب" تبين أن كثيراً من المفردات السامية التى ثبت إقتباسها فى بلاد الإغريق كانت موجودة بالفعل فى القرن الرابع عشر. وحقيقة أن هناك، بشكل عام، الدلالات اللفظية "القوية من الناحية الإيديولوجية" على توافر إمكانية لوجود بضائع كان من الممكن أن يأتى بها تجار ساميون. ولكن الأمر لايقتصر على ذلك، فإن المفردات

---

* تقع فى وسط الساحل الشمالى (تقريبا) لجزيرة كريت، وكانت أحد مركزى الحضارة والسيطرة الكريتيه (أو المينوية) فى العصر القديم. (المترجم)

** القسم الجنوبى من بلاد اليونان القاريّة. (المترجم).

المذكورة تشتمل على ألفاظ مثل لفظة "خيطون" chitôn التى كـانت تستخدم بشـكل أساسى لتفيد معنى "اللباس"، ومثل لفظـة "خريسـوس" chrysos (الذهـب)، وقـد كـانت لهـذا المعـدن أهمية فى الشعائر الإغريقية منذ العصر الحجرى الحديـث – وهـو أمـر يشـير إلى وجـود علاقـات وثيقة بحلـول العصـر البرونزى المتأخر. هـذا، إلى وجـود عديـد مـن أسماء الأشخاص مـن قبيـل "المصرى" و "الصورى" وما شابه ذلك. وهكذا، فإن الوثائق تشير، فى مجملها، إلى إتصالات وثيقة وإلى إختلاط فى السكان بطريقة يمكن أن تكون متسقة إلى حد بعيد مع "النموذج القديـم"، كمـا يمكن أن يتسـع لهـا "النمـوذج الآرى". هـذا، ولا يوجـد دليـل وثـائقى علـى موجـات الاستعمار الاستيطانى التى جاءت فى الحكايات المتوارثة.

ويُعنى الباب الثانى بالشواهد الآثارية. ويبدأ بتتبع مايمكن أن يدل على ما يمكـن أن تكـون الدولة المصرية الوسطى قد تركته من تأثيرات فى بويوتيا* فى نهاية الألف الثانية ق.م. ومع ذلـك فإن أغلب ماجاء فى هذا الباب يدور حـول التـاريخ للإنفجـار (البركـانى الكبـير فـى ثـيرا، وهـى جزيرة تقع على مسافة ٧٠ ميلا إلى الشمال من كريت. ونحن نعرف أن هذه الثورة البركانية التى شملت كل المنطقة التى يشغلها مركز الجزيرة قد وصلت فى قوتها إلى مايساوى ثورة البركان التـى حدثت فى كراكاتوا Krakatoa فى ١٨٨٣ عدة مرات. وحيث أن ثورة بركان كراكـاتوا قـد حطمت نوافذ على بعد مئـات الأميـال مـن مركـز البركـان، وأرسـلت أمواجـا عاتيـة عـبر المحيـط الهندى، كما أن الغبار الذى أثارته أسهم فى تطوير المذهب التعبـيرى Impressionism وأثـر فى مناخ النصف الشمالى للكرة الأرضية – فإن أثر إنفجار ثيرا لابد أنـه كـان جبـارا فـى أبعـاده. وتبرز الأخبار التقليدية أن الثورة البركانية (فى ثيرا) حدثت فى ذات الوقـت الـذى تعرضـت فيـه جزيرة كريت للتدميرات التى تم الربط بينها وبـين وصـول الإغريـق الميكينيـين إلى الجزيـرة حـوالى ١٤٥٠ ق.م. على أن هذا التصور تعترضه صعوبة واحدة هى أن اللقى الفخارية التى عـثر عليهـا فى كريت، والتى يرجع تاريخها إلى ماقبل هذا الدمار تتبع الطراز المينوى IB، وهو طـراز لم يمكـن العثور عليه تحت بقايا الحمم البركانية فى ثيرا، رغم البحث المكثف هناك. ونتيجة لذلك فإن بعض علماء الآثار قد فصلوا مابين الحدثين، محاولين أن يثبتوا أن ثورة البركان سـبقت التدمـير الموكينـى بنحو خمسين عاما، أى أنها وقعت حوالى ١٥٠٠ ق.م.

---

* على الساحل الشرقى لبلاد اليونان القارية ومركزها مدينة طيبه.

وفى اعتقادى أن الإنفجار وقع حتى قبل ذلك وأنه يرجع إلى عام ١٦٢٦ ق.م. وتقوم هذه الدقة (فى التأريخ للحدث) على علم الدندروكرونولوجى* dendrochronology. وفى هذه الحال يتم التأريخ بناء على عدد الحلقات الموجودة على مقطع شجرة الصنوبر ذات الثمرة المخروطية الخشنة، وهى شجرة تنبت فى القسم الجنوبى الغربى من الولايات المتحدة. إن إنفجارات لها قوة إنفجار كاراكاتوا تترك علامات من صقيع الصيف والنمو المتوقف للأشجار القريبة من خط الثلج. وفى هذا الصدد فإن أشجار الصنوبر المسنة (فى تلك المنطقة) لا تقدم لنا شواهد على ثورة بركانية هزت العالم فى أثناء القرنين السادس عشر والخامس عشر ق.م.، ولكن هناك شواهد على ثورة بركانية ترجع إلى ١٦٢٦ ق.م. وقد كانت تلك السنة كذلك سنة سيئة بالنسبة لشجر البلوط فى أيرلنده. وحقيقة إن أثرا مثل هذا الأثر المرتبط بإنفجار كاراكاتوا من الممكن أن تسببه أية هزة شديدة فى أى مكان آخر فى العالم، ولكن فى ضوء المشكلة المتعلقة بالبحث عن شاهد يسجل إنفجار ثيرا فإن المطابقة (بين الحدث وحالة الأشجار) تبدو محتملة[١٨]. ومع ذلك فإن هناك شواهد أخرى تساند التوقيت الأعلى أو الأقدم وهى: إذا كان يبدو أن الغازات البركانية قد شوهت بعض التوقيتات الكربونية (المعتمدة على استخدام طريقة الراديوكاربون) فيما يتعلق باللقى التى عثر عليها تحت مستوى الدمار، فإن الشواهد المستقاه من النباتات قصيرة العمر – وهى الوحيدة التى تزودنا بالمعلومات الدقيقة – تشير إلى القرن السابع عشر أكثر مما تشير إلى القرن الخامس عشر فيما يخص توقيت الحدث[١٩].

(ويتصل بهذا الموضوع، كذلك، حدث تاريخى وقع فى الصين). فعندما سقط جاى Jie، آخر أباطرة أسرة أكسيا Xia الحاكمة، واكبت هذا السقوط بعض الأحداث غير العادية، مثل ظهور ضباب أصفر، وحدوث صقيع فى الصيف وتعتيم فى الشمس و (تراءت) ثلاث شموس فى وقت واحد. وقد أمكن تفسير هذه الظواهر كلها تفسيرا معقولاً كنتائج لسحابة الغبار الناتجة عن بركان ثيرا. على أن المشكلة الثانية هنا هى تحديد التاريخ الذى سقط فيه جاى. إن هذا السقوط لا يمكن أن يكون قد وقع فى القرن الخامس عشر: وقد وضعه عدد من المؤرخين فى القرن السادس عشر كما وضعه آخرون قبل ١٧٠٠ ق.م. وعلى أية حال فإن بعض المصنفات التى تم تجميعها بناء على حوليات وشواهد أثرية قديمة – ترجع إلى القرن الثالث ق.م. – تشير إلى توقيت

* علم تحديد عمر المخلفات وتوقيت الأحداث بناء على القراءة العلمية للمقطع العرضى للشجرة. (المترجم).

فى غضون القرن السابع عشر ق.م. [٢٠]. إشـارة أخـرى إلى تـاريخ مبكـر فـى هـذا الصـدد تـأتى كذلك فإنّ من مصر وتعود إلى القرن الخـامس عشـر ق.م. أن هـذا القـرن ملـئ بشـكل ملحـوظ بالوثائق التى تسجل الأحداث، ومن هنا يصبح من المثـير للدهشة ألا توجـد بينهـا وثيقـة تسـجل بشكل أو بآخر حدثا على مستوى إنفجار ثيرا الذى لابـد أن يكـون قـد أثـر فـى مصـر السـفلى. ويضاف إلى هذا أن كريت، كما رأينا (فى مناسبة سابقة) كانت، على مايبدو، ترسـل وفـودا مـن حاملى الجزية إلى مصر فى ذلك الوقت بالتحديد، وهو حوالى ١٤٥٠ ق.م. وعلـى عكـس ذلـك فإنه لا تكاد توجد سجلات من القرن السابع عشـر – وهـو أمـر يصبـح مـن السـهل معـه تفسـير غياب أية إشارة إلى الإنفجار (فى ذلك القرن). إن الحجم الهائل لهذه الكارثـة يسـمح لى أن أقـوم باستثناء لاعتراضى العام على "حجة الصمت"، وإن كنت لازلت أعترف بأن مثل هذا النــوع من الحجة هو نوع ضعيف بطبيعته، كما أن التأريخ للأحداث عن طريق الدندروكرونولوجـى وطريـق الكربون والتأريخات الصينية (هى الأخرى) معرضة للشك. ولكن، رغم كل هذا، فإننا إذا أدخلنـا فى إعتبارنا الضعف الشديد للأساس الذى تقوم عليه قضية توقيت الحدث فى القرن الخامس عشر ق.م. فإن المصادر الأربعة (المذكورة) تجعل التأريخ له بعام ١٦٢٦ ق.م. أمرا جديرا بالقبول أكثر (من التوقيت الآخر) بكثير.

وحيث أن لا يوجد الآن إلا قدر أقل من القليل من الشك فى أن الثـورة البركانيـة وقعـت فى خلال القسم الأول من العصر المينوى المتأخر Late Minoan IA، فـإن قـدراً مـن التعديـل إلى الأقدم فيما يخص التوقيتات التى إتُبعت بشكل مطلق (حتى الآن) لعدد من الفترات يصبح أمرا مطلوبا. وفى هذا الصدد فـإن موسـوعة كامـبردج للتـاريخ القديـم Cambridge Ancient History تقدم تصورها التاريخى مستخدمة نظـام التوقيـت القـائم علـى اختـلاف طـرز الفخـار، (وذلك على النحو التالى):

- العصـر المينـوى الأوسط الثالث Middle Minoan III: ١٧٠٠–١٦٠٠ ق.م.
- القسم الأول من العصر المينوى المتأخر Late Minoan IA: ١٦٠٠–١٥٠٠ ق.م.
- القسم الثانى من العصر المينوى المتأخر Late Minoan IB: ١٥٠٠– ١٤٥٠ ق.م.

والتوقيت الذى أقترحه هنا هو:

- العصـــر المينوى الأوســط الثالث MM III: ١٧٣٠–١٦٥٠ ق.م.

• القسم الأول من العصر المينوى المتأخر LM IA: ١٦٥٠-١٥٥٠ ق.م.
• القسم الثانى من العصر المينوى المتأخر LM IB: ١٥٥٠-١٤٥٠ ق.م.

وفى هذا الصدد فإن مراجعة توقيت الفترات التى تمثل تطور الطرز الخزفية فى كريت، يستدعى كذلك مراجعة لتوقيت تلك الفترات فى بلاد الإغريق القارية التى تتبع توقيت الفترات المينوية وتظل مرتبطة بها بشكل تقريبى. هذا، إلى أن هذه المراجعة ستتضمن، على وجه التخصيص، تغييرا فى توقيت التواريخ المتعلقة بمقابر الدفن العمودى Shaft Graves التى إكتشفها شليمان لأول مرة فى موكينى بحيث يصبح ذلك التوقيت فى الشطر المبكر من القرن السابع عشر ق.م. بدلا من الشطر المتأخر من القرن ذاته. على أن القيام بهذا التغيير من شأنه أن يزيد من الصعوبة التى تقف فى وجه "النموذج القديم"، الذى يزعم أنصاره أن أفواج الاستعمار الاستيطانى التى ابتدأ بها "عصر الأبطال" جاءت نتيجة لطرد الهكسوس على أيدى المصريين فى القرن السادس عشر ق.م. ومع ذلك فإن توقيت القرن السادس عشر يتعارض كذلك مع غياب الشواهد الآثارية الكريتية التى تدل على تدمير عام له خطره فى تلك الفترة، وفى هذا الصدد فإنه من الأمور البعيدة الإحتمال إلى حد كبير أن يكون المستعمرون المصريون قد مروا بالجزيرة دون أن يلتفتوا إليها.

إن هذه التضاربات التى تتنافر مع الشواهد الآثارية تفسر أحد التعديلين الرئيسيين فى صد "النموذج القديم" حسبما اقترحت ذلك فى "أثينه السوداء". إن "النموذج القديم المعدل" يزعم أن المستوطنات المصرية - السامية الغربية فى منطقة بحرإيجه بدأت عند نهاية القرن الثامن عشر ق.م. حين سيطر الهكسوس لأول مرة على مصر السفلى (شمال مصر) - وهو توقيت أجده حريا بالقبول أكثر من توقيت عام ١٥٧٠ حين أنهارت سيطرتهم عليها. وإذا قبلنا، بشكل مؤقت، هذا التعديل فإنه سيتبقى لدينا سؤال (يبحث عن إجابة) هو: لماذا تصور الأقدمون، مع كل ما عرف عنهم من تبجيل لكل ما هو قديم، توقيتا متأخرا لهبوط المستوطنين على الشواطئ الإغريقية. ربما كان أحد الأسباب التى أدت إلى ذلك، هو رغبتهم فى أن يربطوا بين ذلك وبين طرد المصريين للهكسوس وبين "الخروج" الإسرائيلى Exodus الذى ربما حدث فعلا فى الشطر المبكر من القرن السادس عشر. كذلك قد يكمن سبب هذا التطور (للتوقيت المتأخر) فى عامل آخر هو رغبة الكتاب الأقدمين فى إتخاذ مظهر الإتزان والتعقل، فليس هناك مايدعو إلى أن تكون عوامل

الضغط فى هذا المجال أقل فى العصور القديمة مما هى عليه الآن. وأخيراً فإن الشعور "الوطنى" و (؟) تم اللجوء إلى) التورية بين لفظة هكسيوس Hikesios (الضارع أو المستجير) ولفظة هكسوس Hyksos، من بين المؤثرات فى هذا الصدد، وذلك من حيث أن نظرة الإغريق للقادمين إلى بلادهم على أنهم لاجئون أو ضارعون فى نهاية فترة (سيطرة) الهكسوس، هو أقل مساسا بالإعتداد الإغريقى من النظر إليهم (إلى الهكسوس) كفاتحين وصلوا (إلى بلاد الإغريق) فى أول تلك الفترة.

إن هناك شواهد آثارية يمكن أن تتفق إلى حد بعيد مع فرضية غزو الهكسوس لمنطقة بحرإيجه بعد وصولهم إلى مصر بوقت قصير. ومن بين هذه الشواهد حدوث تدمير فى خلال القرن الثامن عشر ق.م. لكل القصور فى كريت ثم إعادة بنائها بطريقة تختلف اختلافا بسيطا ولكنه ذو مغزى. ومعنى هذا أن هناك تحديداً تقليدياً بين فترة القصور المبكرة وفترة القصور المتأخرة. ومن بين التغييرات التى حدثت (عند هذا الحد) إدخال السيوف (إلى المنطقة) والمقابر العمودية والموتيف (الفنى) الذى يمثله كائن الجريفين* الملكى – وكلها وجدت فى المشرق فى فترة سابقة ثم أصبحت عناصر هامة فى بلاد الإغريق فى العصر الموكينى. وقد عثر فى مدينة كنوسوس على خاتم ينتمى إلى زمن هذا المستوى (الحدى) للتدمير، عليه صورة ملك بربرى ملتح له مظهر موكينى على قدر كبير من الوضوح.

هذا، وتوجد من الناحية الفنية نقاط تشابه لافتة للنظر بين اللقَى الإيجية التى تنتمى إلى العصر المينوى المتوسط الثالث Middle Minoan III والعصر الهلادى المتوسط الثالث Middle Helladic III، وبين اللقَى التى وجدت فى مصر والتى تنتمى إلى فترة الهكسوس والقسم المبكر من الأسرة الثامنة عشر. والفكرة العامة هى أن الطريق التى سلكتها الثقافة تتجه من منطقة بحرإيجه إلى مصر. على أن هذه الفكرة يحيط بها قدر من الشك بسبب السوابق المشرقية لعدد كبير من اللقى الميكينية التى يظهر فيها الطابع الموكينى بشكل متميز إلى حد كبير، سواء من حيث تقنياتها أو موتيفاتها (مواضيعها الفنية). على أن التناظر الأكثر فائدة، فى رأيى، للخليط الكبير فى مجال الثقافة المادية – على الأقل – حول القسم الشرقى للبحر المتوسط خلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م.، هو "السلام التترى" *Pax Tartarica* الذى حدث فى

---

* كائن أسطورى له رأس ورقبة نسر وجسم أسد. (المترجم).

غضون القرن الثالث عشر الميلادى. إننا نجد هنا أن الحكام المغول أوجدوا خليطا من الفن والتقنيات الصينية والفارسية والعربية، بعد أن أدخلوا ملامح من الواحدة إلى الأخرى وطوعوا بذلك تقاليدها الأكثر تشددا. على أني أؤكد، في حالة الهكسوس، على أن التقاليد التى كانت قائمة منذ زمن بعيد، مثل التقاليد المصرية والكريتية، عادت إلى ما كانت عليه بشكل سريع مع بعض التعديلات الطفيفة. أما فى بلاد الإغريق القارية التى كانت تفتقر إلى مثل تلك التقاليد (ذات الماضى البعيد) فإن "أسلوب الهكسوس الدولى) ذا الصفة الإنتقائية، استمر لفترة أطول بعض الشئ.

إن فرضية غزو هكسوس ذى مقومات مصرية - كنعانية لجزيرة كريت وإقامة مستوطنات أكثر إبتعادا نحو الشمال عند نهاية القرن الثامن عشر ق.م. يمكن أن تقدم تصورا يتواءم مع الشواهد الآثارية التى أشرت إليها - وهى المقابر العمودية فى موكينى، المليئة بأسلحة من نوع جديد، إلى جانب لُقَى أخرى تُظهر تأثيرات أجنبية أغلبها مينوى ومن الشرق الأدنى - من الممكن إلى حد كبير أن تكون مقابر الفاتحين الجدد. وفى الحقيقة فإن المؤرخ فرانك ستبنجز **Frank Stubbings**، أستاذ التاريخ القديم فى جامعة كمبردج، يؤكد الشئ ذاته فى مقاله عن المقابر العمودية فى "موسوعة كمبردج للتاريخ القديم **Cambridge Ancient History**، رغم أنه يقبل توقيتا يعود إلى القرن السادس عشر ق.م. ويؤكد لقرائه أن غزاة الهكسوس لم تكن لهم آثار طويلة الأمد على الثقافة الإغريقية[٢١]. ومنذ نشر تلك المقالة فى ١٩٦٠، ظهرت شواهد (أخرى) لتدعم موقفه الذى يمثل رأى الأقلية. كذلك فإن إكتشافات آثارية حديثة فى تل الضبعة - التى تقوم الآن، بصورة شبه مؤكدة، فى موقع أفاريس **Avaris**، عاصمة الهكسوس - كشفت عن ثقافة. ساميّة غربية - مصرية مركبة تبين نقاط تشابه واضحة لتلك التى وجدت فى المقابر العمودية[٢٢].

وقد يشير إستمرار بعض الملامح فى طرز الفخار فى موكينى، خلال العصر البرونزى المتوسط، إلى استمرار الثقافة السابقة على مستوى إجتماعى أدنى نسبيا. وهذا هو بالضبط مايمكن أن توحى به الشواهد اللغوية كما يفسرها "النظام القديم المعدل". هذا، إلى أنه يطابق كذلك أوصاف البلاسجيين **Pelasgians** الذين أطلق عليهم القادمون الجدد تسمية الدانائيين **Danaans** أو الإثينيين. ومع ذلك فينبغى أن نؤكد هنا أن هذا ليس هو التفسير الوحيد الذى

يمكن أن نستخلصه من الشواهد الآثارية، إذ لا يزال ممكنا، حتى بعد اللقى التي وجدت في تل الضبعة، أن نقول إن الثقافة المادية الميكينية كان سببها أن الزعماء المحليين في منطقة بحرإيجه قد أصبحوا أكثر غنى وقوة وأنهم أصبح في مقدورهم أن يستوردوا سلعا أجنبية وأن يستقدموا حرفيين من الخارج، أو أن الجنود المرتزقة الذين كانوا يعملون في مصر عادوا بقدر من الثروة ورؤية في الطرز الحديثة. ورغم أنه لا يوجد من الشواهد اللغوية أو في كتابات الكتاب القدماء مايساند هذه التفسيرات، إلا أن أغلب الآثاريين المعاصرين يتبعونها.

وهناك كذلك، كما أسلفت، مذهب يرى أصحابه أن التغيير الجذري في الثقافة المادية الإغريقية عند تلك النقطة إنما جاء نتيجة لغزو لم تكن له نتائج بعيدة المدى. ومع ذلك فمما لا شك فيه في كلتا الحالتين أن الآثاريين قد تأثروا بالحجج غير الآثارية. فأغلب العلماء الذين ينكرون وجود أية مستوطنات للهكسوس قد وقعوا، بالضرورة، تحت تأثير "النموذج الآرى" الذى يعملون في إطاره. وشبيه بذلك (من الجانب الآخر) أن العلماء الذين يعتقدون بوجود مستوطنات، وهم أقلية، قد أثرت فيهم الحكايات المتوارثة التي يقوم عليها "النموذج القديم". ومن الجليّ في الحالين أن اللقى (الآثارية) ذاتها لا تفرض تصوراً لنموذج واحد. على أن علم الآثار إذا كان بإمكانه أن يمدّنا بمعلومات مبهرة وهامة حول (مسائل مثل) كثافة السكان، حجم الاستيطان أو الإقتصاد المحلى، إلا أن هذه الأداة (علم الآثار واللقى الأثرية) لا تملك من الحساسية مايجعل بمقدور من يعتمد عليها، منفردة، أن يقدم إجابات على المسائل التى تعنى بها دراسة "أثينه السوداء".

والباب الثالث، وهو "أسماء الأنهار والجبال"، هو أول فصل في "أثينه السوداء" يركز على الاقتباسات أو الإفتراضات اللغوية. ومن هنا فإنه يبدأ بمناقشة نقاط التقابل أو التوافق الأصواتية بين اللغات المصرية والسامية والإغريقية. وقد تم العمل حتى الآن في صدد نقاط التناظر الموجودة بين اللغتين المصرية والسامية في قدر لا بأس به من التفصيل، كما أن قدراً كبيراً من المعلومات الخاصة بنقاط التقابل بينهما وبين اللغة الإغريقية يمكن إستنتاجه من الكلمات القليلة المعترف بإقتباسها، ومن مئات أسماء الأعلام المنقولة في اللغات الأخرى. وواضح من خلال كل هذا أنه كان هناك مدى واسع إلى حد غير عادى لنقاط التقابل الأصواتية. وعلى سبيل المثال فإن العدد الكبير من الطرق المختلفة التي يتخذها نقل لفظ أو أسم سامى أو مصرى إلى اللغة الإغريقية أمر

يدعو إلى الذهول. وهذه الإختلافات (بين الطرق المذكورة) يمكن تفسيرها بصورة جزئية من خلال صعوبة سماع الأصوات الأجنبية ومن ثم إعادة تركيبها، أو من خلال الإقتباس عن لهجات محلية مختلفة. ومع ذلك فإن السبب الرئيسى لهذا القدر الكبير من الإختلافات يرجع، على مايبدو، إلى المدى الزمنى البالغ فى طوله الذى تم خلاله الإقتباس. ففى الفترة الممتدة بين ٢١٠٠ و ١١٠٠ ق.م. – وهى التى تعنينا بشكل أساسى – نجد أن اللغات الثلاث، واللغة المصرية بوجه خاص، تمر بنقلات صوتية جذرية. ومن هنا فإنى أرى أن الأسم أو اللفظ الواحد ربما يكون قد تم إقتباسه مرتين أو ثلاث مرات بأشكال تختلف كثيرا من حالة لأخرى. وخير ماينـاظر هذا الوضع هو ما وجدته من إقتباسات اللغة اليابانية من اللغة الصينية على امتداد فترة مماثلة تمتد نحو ألف سنة، وإن كان نظام الكتابة فى هذه الحال يسمح للمرء أن يعرف الصورة التى كانت عليها الكلمة فى أصلها الأول، إذ أن "القراءات" (طرق القراءة) اليابانية الكثيرة المختلفة أو طرق نطق الحرف الصينى هى التى تشير إلى الاقتباسات المختلفة.

(وفى هذا السياق) فإذا كانت حروف العلة (أو الحركة) لم توجد سواء فى الكتابة المصرية أو السامية الغربية، فإن بعض المحاولات لإعادة تركيب حروف الحركة يمكن أن يتم من خلال اللغة القبطية وطرق النطق المازوريتية Masoretic لنصوص الكتاب المقدس، وذلك إلى جانب (مايمكن استنتاجه من) الخط المسمارى والخط الإغريقى و (التعبير عن هذه الحروف) عند نسخها فى كتابات أخرى. ومع ذلك فإن عدداً من محاولات تأصيل الألفاظ لابد من القيام به على أساس التركيب المكون من الألفاظ الصماء وحدها. (وفى الواقع) فإن هذا الأساس، إذا أدخلنا فى إعتبارنا المدى الواسع لنقاط التوافق الظاهرة بين الحروف الصماء ذاتها، يخلق عددا هائلا من نقاط التوافق الأصواتى بين الألفاظ والأسماء المصرية والسامية والإغريقية. ومن جهة أخرى فإن إمكان تخيل الظواهر phenomena بسهولة أمر لا علاقة له بإمكان حدوثها فعلا. وفوق ذلك فإن هناك حججاً أخرى من خارج المجال تدعم حدوث الاقتباسات اللغوية بقدر هائل. وحتى إذا استبعدنا التصور الذى يقدمه "النموذج القديم" فهناك نقاط التقارب الجغرافى والزمنى والشواهد الوثائقية والآثارية للإتصال المباشر. هذا بالإضافة إلى فشل العلماء العاملين فى حقل "النموذج الآرى" على مدى الأعوام المائة والستين الأخيرة فى أن يفسروا خمسين فى المائة من المفردات اللغوية الإغريقية وثمانين فى المائة من أسماء الأعلام ضمن إطار اللغات الهندو-أوروبية أو

الأناضولية التى يفترض وجود رابطة إنتساب بينها وبين اللغة السابقة للغة الهيللينية.

وفي ضوء هذه الظروف فإني أعتقد أنه مما يستحق الاهتمام أن نبحث بشكل لا يسمح بالتهاون عن أصول مصرية وسامية للصور اللغوية الإغريقية. وفي المقام الأول فإني لا أحاول أن أحل محل التأصيلات اللغوية الهندو-أوروبية المقبولة شيئاً جديداً، حتى لو كان بعض هذه التأصيلات خاطئا إلى حد كبير. إن أغلب التأصيلات الجديدة المقترحة في هذه الدراسة لاتملك منافسة (التأصيلات الحالية) بشكل يلتزم بالخط الأساسي، وحتى في مثل هذه الأحوال فإنه يتعين على المرء أن يظل حذراً إلى حد كبير. كذلك فإننا لابد أن نقتصر، فيما يخص الجانب الأصواتي، على نقاط التقابل التي تم الإيستيثاق منها فعلا في مجال الحروف الساكنة، وذلك رغم أنه من المرجح أن ظهور نقاط تقابل أخرى أمر يحدث بالفعل. وعلى نفس النسق فإنه لا ينبغي أن يكون هناك إبدال ***Metathesis*** أو قلب لترتيب الحروف الساكنة. والإستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو تغيير الترتيب بين الحروف السائلة – ل س، رس – بشكل متبادل بين موقعهما الثاني والثالث. و (على هذا فإنه) يبدو مشروعا أن نشتق اللفظة الإغريقية ***martyr*** (شاهد) من اللفظة المصرية ***mtrw*** التي لها نفس المعنى، ولفظة ***pyramis*** (الهرم) من اللفظة المصرية ***p3mr*** (المقبرة) أو (الهرم). ومع ذلك فإن صمام الأمن الأساسي لتفادى الإشتقاقات الزائفة هو الإعتماد على علم دلالات الألفاظ وتطورها **semantics**، حيث يكون التقابل (التناظر) الدقيق أمرا مطلوبا.

إن مجال أسماء الأماكن يشكل أحد المجالات التى تراخى فيها بشكل خاص أولئك الذين يعملون في إطار "النموذج الآرى". (وفي هذا الصدد) فإن أى تشابه، مهما كان فضفاضا بين لفظة إغريقية وأخرى أناضولية كان كافيا للربط بينهما. بغض النظر عما إذا كانت الألفاظ تشير إلى جزيرة أو جبل أو نهر أو مدينة، ناهيك عما يتصل بها من ظروف جغرافية أو حكايات تراثية. وقد أدى هذا التسيب أدى بالباحثين الأكثر تشدداً إلى أن يتفادوا البحث المتصل بهذا الموضوع بالكامل. وهكذا فإن هذا المجال لم تظهر فيه أية دراسة تتخطى العمل التخطيطي الصغير الذى قام به عالم الكلاسيكيات الألماني أ. فك **A.Fick** ونشره في عام ١٩٠٥. وقد كانت هذه الفجوة المذهلة نتيجة لا يمكن تفاديها للعجز الذى يكاد يكون كاملا من جانب علماء "النموذج الآرى" عن تفسير أسماء الأماكن **toponyms** في منطقة بحرإيجه، من حيث أن قدرا بالغاً في ضآلته من

هذه الأسماء، هو الذى يمكن تفسيره فى إطار التصور الهندو-أوروبى. إن كل مايمكن لأنصار "النظام الآرى" أن يقوموا به هو أن يفسروا عدم قدرتهم على تفسير هذه الأسماء واكتفاؤهم (فى هذا الصدد) بتسميتها "السابقة للهيللينية".

إن أصحاب "النموذج الآرى" يؤكدون (فى هذا المجال) كثيرا على عناصر أسماء الأماكن التى يدّعون أنها "سابقة للهيللينية"، وهى عناصر **(i)ssos-** و **nthos-** التى لم يقدم أحد أى معنى لها حتى الآن. وقد تم وضع هذا التصنيف لأول مرة على يد بول كريتشمر **Paul Kretschmer** العالم الألمانى المتخصص فى لغويات الدراسات الكلاسيكية وطوره ج.هالى **J.Haley** العالم الأمريكى فى الدراسات الكلاسيكية، وعالم الآثار كارل بليجن **Karl Blegen** الذى يرى أن التوزيع الجغرافى لأسماء الأماكن المذكورة يتطابق مع مستوطنات العصر البرونزى المبكر، كما يرى، إلى جانب ذلك، أنه بما أن الغزاة كانوا يفترض أنهم وصلوا فى بداية العصر البرونزى الأوسط، فإن هذه الأسماء هى إشارات إلى مستوطنات سابقة للهيللينية. والنظرية ركيكة من الناحية الآثارية إلى حد كبير، لأن نقاط التطابق يمكن أن تنطبق كذلك على العصر البرونزى المتأخر بنفس القدر الذى تنطبق به على مستوطنات العصر البرونزى المبكر. كذلك فإن الجانب الخاص بأسماء الأماكن هو الآخر على نفس القدر من الضعف، إذ أنه، حتى قبل أن يعلن هالى وبليجين عن نظريتهما، كان كريتشمر قد اعترف بأن نهايات الألفاظ **suffixes** (التى سبق ذكرها) يمكن أن تلحق كذلك بجذور لألفاظ هندو-أوروبية، ومن ثم فهى، فى حد ذاتها، ليست مؤشرات على جماعات (غازية) سابقة للهيللينيين - حتى إذا قبلنا "النموذج الآرى". وحيث أن (هذه) النهايات تظهر ملحقة بجذوع الكلمات **stems** المصرية والسامية، فإن هذه النهايات قاصرة، بنفس القدر، عن أن تساعدنا (فى هذا المجال) كمؤشرات إلى طبقة تحتية **substratum** (أو أساس) حين نعمل فى إطار "النموذج القديم".

وقد يبدو من المثير للدهشة، فى ضوء نقاط الضعف المذكورة، أن تحظى فرضية بليجين وهالى حتى الآن بهذا القدر الكبير من الإحترام. والتفسير هو أنه، فى حقل لا يزال مجدبا مثل حقل أسماء الأماكن الإغريقية القديمة، لا يجوز لنا أن نلقى بعيداً بأى شئ، حتى لو كان من النفايات. وحسب "النموذج القديم المعدل"، فإن **nthos-** لها عدة أصول مختلفة، وأحد الأصلين الأكثر انتشارا من بينها هو الصوت الأنفى الذى يقع بين صوتين سنّيين **dental**، والآخر هو

الأصل المصرى ntr- (المقدس). وقد يبدو أن (i)ssos- نهاية لفظية إيجية مميزه، ولكنها نهاية استمر استخدامها حتى آخر العصر البرونزى على أقل تقدير.

والباب الثالث يدور، كما ذكرت، حول أسماء الأنهار والجبال. ويميل هذا النوع من أسماء الأماكن بشكل مستمر إلى البقاء على ماهو عليه. وعلى سبيل المثال فإن أغلب هذه الأسماء فى انجلترة أسماء كلتيه celtic، بل إن بعضها يرجع، على مايبدو، إلى ماقبل اللغة الهندو-أوروبية. وعلى هذا فإن وجود أسماء مصرية أو سامية (فى بلاد الإغريق) قد يشير إلى اختراق ثقافى عميق إلى درجة كبيرة. إن الباب لا يتسع لكل ما اقترحه بخصوص (الأماكن الموجودة فى المنطقة)، ولكن تلك التى نظرت فيها تضم بعض أسماء الأماكن المشهود بصحتها على نطاق واسع. ولنأخذ على سبيل المثال تسميَتىْ كفيسوس Kèphisos وكافيسوس Kàphisos، وهما تسميتان أطلقتا على عدد كبير من الأنهار والجداول الموجودة فى أماكن متعددة فى بلاد الإغريق، ولم يقدم لهما أى تفسير حتى الآن. إنى أرى أنها مشتقة من Kbh، وهى تسمية معروفة ومنتشرة للنهر فى اللغة المصرية – وتعنى فى أصلها "عذب" – ثم أضيفت لها النهاية isos-. ويتسق علم مدلولات الألفاظ مع هذا (الاقتراح) بشكل ممتاز، فإن من الواضح أن Kbh مرتبطة بكلمتى Kb"*b*" بمعنى "بارد باعتدال"، K*bh* بمعنى "يطهر أو ينقى" – وقد كانت الأنهار السماة "Kephisoi" تستخدم لشعائر التطهير فى حالات كثيرة فى بلاد الإغريق. كذلك فإن K*bh* لها معنى إضافى وهو "بحيرة فيها طيور برية". ويتسق هذا مع بحيرة كوبياس kopias الكبيرة الضحلة، التى ترتبط بوشائج مصرية كثيرة فى الرواية الإغريقية، كما أن النهر الذى يغذيها يطلق عليه نهر كفيسوس. وفى حدود ما أعلم، فإن هذا التأصيل اللغوى لم يقترحه أحد من قبل.

(وهناك تأصيل آخر) هو تأصيل الاسم "ياردانوس" Iardanos، وهو اسم يظهر فى الإغريقية كإسم نهر، ووجد فى كريت و(شبه جزيرة) البلوبونيسوس – من التسمية السامية ياردين Yardèn أو الأردن Jordan. وقد كان هذا الإشتقاق مقبولا قبل هجوم "النموذج الآرى المتطرف". بل إن بلوخ Beloch وفك Fick لم يجدا بدأ من الإعتراف بأن الإشتقاق على قدر كبير من الإغراء ولم يكن فى وسعهما تقديم أية بدائل. ومع ذلك فقد تم إنكار هذا الإشتقاق طوال القرن العشرين. كذلك فإن هناك تأصيلا لغوياً آخر عن السامية كان معترفا به على نطاق واسع قبل القسم الأخير من القرن التاسع عشر، وهو الإشتقاق الخاص بالمقطع سام sam- فى

أسمـاء الأمـاكن الإغريقيـة، كمـا هـو الحـال فـي "سـاموس" Samos، سـاموطراقيا Samothrace، ساميكون Samikon، وهو مقطـع يشـير دائمـا إلى الأمـاكن المرتفعة، مـن الجذر السامى "سمم" smm √ بمعنى "مرتفع" – وهذه، هى الأخرى، إما أهملت أو تم إنكارهـا. وهناك إشتقاقات أخرى اقترحتها فى هذا الباب، ولكنها تحتاج إلى قدر أكبر من المناقشة.

وفى الباب الرابع وجهت عنايتى إلى اسماء المدن. إن هذا النوع من الأسماء ينتقل بوجه عام من ثقافة إلى أخرى بشكل أكثر شيوعا من انتقال أسماء الملامـح الطبيعيـة. ومع ذلـك فـإن العـدد الذى لا يكاد يذكر للأسماء الهندو–أوروبية التى تتسمى بهـا المـدن فـى بـلاد الإغريـق، ومـا نـراه (على الجانب الآخر) من اشتقاقات المصرية والسامية الجديرة بالتصديق والتى يمكن أن نجدها لعدد كبير من هذه الأسماء – كل هذا يوحى بكثافة فى الإتصال (بين بلاد الإغريق ومصر والمشـرق) لا يمكن تفسيرها فى إطار العلاقات التجارية وحدهـا. وعلـى سـبيل المثـال، فـإن إحـدى المجموعـات الأكثر شيوعاً بين أسماء المدن الإغريقية تدور حول جذع اللفظة، كري(ات). وهذه الظاهرة يمكـن تفسيرها بشكل مقبول فى إطار اللفظة السامية الغربية "قرت" -qrt- التى تعنى المدينة وهى تنطق بطرق مختلفة فى حالـة المـدن المختلفـة بمـا فيهـا قـارْت – (-Qart)، قـارِت (Qârêt) وقريـة أو قرية/ات Qiryâh/at. إنها فى الحقيقة إحدى التسميات الأكثر شيوعا فى حالـة المـدن الفينيقيـة والعبرية، والتى نجدها فى اسم قرطاجة Carthage ومدن أخرى كثيرة.

وقد قدمت فى هذا الباب أمثلة تظهر تقـابلا دقيقـا بـين إسـتخدام لفظـة كـارى – Kary واستخدام اللفظة الإغريقية القياسية التى تدل على "المدينة" وهى polis. وأكثر هذه الأمثلة لفتا للنظر هو المثل المتعلق بتماثيل الكارياتيداى Karyatidae حول مقبرة ككروبس Kekrops، مؤسس أثينا حسبما جاء فى الحكايات الشعبية، الموجودة فى رواق (مدخل مسـقوف) لمعبـد أثينـه بولياس Athena Polias. وهكذا تصبح "بنات المدينـة" تفسـيرا أكـثر قبـولا لهـذا الأسـم مـن "كاهنات (الآلهة) أرتميس من كارياى Karyae فى لاكونيا "Lakonia" أو "حوريات الجـوز" – وهما التفسيران الوحيدان السائدان فى الوقت الحالى. هـذا، وهنـاك متغـيرات عديـدة للجـذع كارى – Kary أضع بينها "كورنثوس" (Korinthos).

وعلى مقربة من كورنثوس (كورنثه) على المضيق الذى يحمل الإسم ذاته، تقع مدينة ميغاره

Megara. وقد فسر باوزانياس Pausanias، كاتب الوصف "السياحى،* الذى ينتمى إلى القرن الثانى الميلادى، إسم هذه المدينة على أنه يعنى "كهف" أو "غرفة تحت الأرض". (وفى هذا الصدد) فإن كلمة سامية غربية بهذا المعنى ذاته تظهر فى اسم المكان الأوجاريتى "مغرت" Mgrt والإسم الذى ورد فى الكتاب المقدس مناره M^ec^ārāh. إن هذه تبدو أصولا جديرة بالتصديق لأسماء المدن أو أحياء المدن الإغريقية: ميغاره Megara وميارة Meara.

(وأنتقل إلى مثال آخر). ربما لا يعرف الكثير منا أن مصر القديمة كان لها تقليد طويل الأمد فى مصارعة الثيران، بمعنى أن ثورا يصارع ثورً. وقد كانت التسمية التى تطلق على هذه المصارعة وعلى مسرح (أو حلبة) المصارعة هى "مطون" Mṯwn. ونحن نجد، فى أشعار هوميروس، لفظة موثس، -mothos وهى فى حالة المفعولة به "موثن" mothon تفيد معنى "ضجيج المعركة" كما تعنى كذلك "الصراع بين الحيوانات". هذا بينما نجد أن لفظة موثون mothôn كان يمكن أن تعنى "رقصا متحرّرا" أو "نغمة الناى" أو "شاباً وقحاً أو صفيقاً". وقد كانت لفظة "مطون" Mṯwn (المصرية) تمثل اسما شائعا لعدد من الأمكنة فى مصر، كما كانت (ألفاظ) "مُثونى" Mothône و "مِثونى" Methône و "مثانا" Methana تمثل أسماء أماكن تكاد تكون على نفس الدرجة من الانتشار فى بلاد الإغريق. و (جدير بالذكر) أن هذه الأماكن (الأخيرة) جميعا تقع على خلجان يمكن أن نصفها، دون صعوبة، بأنها تتخذ شكل المسرح. وعلى ذلك فإنه ليس من المستغرب أن نجد قطعة عملة نقدية من مُثونى Mothóne تصور الميناء على أنها مسرح ومن ثم تربطها بلفظة واسم مطون Mṯwn.

كذلك فإن الإشتقاق اللغوى التقليدى لإسم "موكينى" Mykènai هو من لفظة ميكيس *mykès* بمعنى "الفطر". ولكن اشتقاقاً أكثر قبولاً ربما جاء من مَحَنِه Mahaneh بمعنى "مخيّم" أو "محنايم" Mahanayim "مُخيّمان" – وهو اسم يطلق على الأماكن بشكل شائع فى اللغة السامية الغربية. وهنا، مرة أخرى، كان من المقبول بوجه عام، قبل ظهور "النموذج الآرى" أن يكون اسم المدينة الإغريقة "ثيبه" Thèbai (المتعارف عليه باسم طيبه) قد جاء من الإسم الكنعانى "تيبه" *tēbâh* (الفُلْك أو الصندوق) الذى أتى بدوره من اللفظة المصرية "تْبِءْ" *tb'i* أو

---

* رحاله وجغرافى إغريقى، ربّما أتى من ليديه فى آسيه الصغرى. وقد كتب كتابا أسماه "وصف بلاد الإغريق"، واشتهر اسمه حوالى ١٥٠م. (المترجم).

من لفظة "ضِبْط" (صندوق). وهاتان الكلمتان كثيرا ماكان يحدث خلط بينهما وبين كلمة أخرى ربما تنتمي إليهما، وهي كلمة *db3* (عوامة من القش أو فُلك من العشب المائى أو نبات البردى) وكذلك كلمة *db3t* (النعش أو المحراب) ومن ثم (القصر). إن ضب *Db3* التي تكتب بصورة Tbo أو ثبو Thbo في اللغة القبطية هي اسم مكان مصرى. ومع ذلك فمن المثير للاهتمام أننا لا نملك أى سجل لاستخدام هذه اللفظة كأسم للعاصمة الجنوبية لمصر، وهي التي أطلق عليها الإغريق اسم "ثيبى" ("طيبة" حسب المتعارف عليه). ومع ذلك فمن المحتمل كثيراً أن تكون قد استخدمت لتدل على مدينة "أفاريس" Avaris، عاصمة الهكسوس. وإذا كان الأمر كذلك فإنه من الممكن أن تكون لفظة "ضب" Db3 /ثيبه Thèbai قد تحولت إلى تسمية إغريقية بمعنى "العاصمة المصرية" ثم ارتبطت هذه التسمية بالعاصمة المصرية "طيبة" عندما أسست الأسرة الثامنة عشر عاصمتها هناك. وعلى أى حال فليس هناك من سبب للشك في أن اسم المدينة الإغريقية جاء (اشتق) من لفظة "تيبه" têbåh السامية الغربية ومجموعة الألفاظ المصرية المذكورة أعلاه(٢٣)

وقد كرست الباب الخامس لمدينة واحدة وهى "أثينه". وأحاول أن أدلل في هذا الباب على أن سم المدينة "أثينه" Athènai واسم الآلهه "أثيني" Athènè أو أثينا Athena وبين الاسم المصرى "حت نت" Ht Nt. وقد كانوا يطابقون في العصور القديمة بشكل دائم بين أثينا (الآلهة الإغريقية) وبين الآلهه المصرية "نت" Nt أو "نيئت" Nèit والاثنتان كانتا إلهتين عذراوين للحرب والنسيج والحكمه. وكانت عقيده الآلهه نيئت متمركزة في مدينة سايس Sais في غرب الدلتا وكان مواطنوها يشعرون برابطة من نوع خاص مع الأثينيين. وقد كان اسم "سايس" هو الاسم المدنى للمدينة بينما كان اسمها الدينى هو "حت نت" Ht Nt (معبد أو بيت نيئت). حقيقة أن هذا الاسم يفتقر إلى أية شاهد سواء من اللغة الإغريقية أو اللغة القبطية، إلا أن العنصر (أو الجزء) الخاص منه بأسماء الأماكن وهو "حت" -Ht منقول على هيئة "آت" -At أو "آث" -Ath. كذلك فإنه كان من الشائع إلى حد كبير في حالة الألفاظ المصرية أن يكون هناك حرف متحرك يسبق أول الحروف الساكنة في الكلمة prothesis. وفيما يخص اللفظة الحالية فإن الإحتمال هو أن "نت" Nt كان يسبقها حرف متحرك. ويريد من هذا الإحتمال إسم "عنات" 'Anåt الذى كان يطلق على إلهة سامية غربية شبيهة بالآلهة أثينا. وفي ضوء ذلك فقد لا أجاوز ماهو

معقول ومشروع أن اقترح نطقا للفصة "حت نت" يتخذ صورة "أثانايت" At(h)anait *. هـذا وإن إختفاء حرف "الياء" فى أثينى Athènè، وهى أثانا Athana فى اللهجة الدورية الإغريقية وأثانا A-ta-na فى الكتابة التخطيطية "ب" Linear B – هذا الإختفاء قـد يبـدو وكأنـه يثير مشكلة، إلا أن اللهجتين الأتيكية والدورية تشتملان على المتغيرات "أثينايا" Athènaia وأثانايـا Athanaia، بينما نجد أن الصـورة الكاملـة التـى تـرد فـى أشـعار هومـيروس هـى "أثينـايى" Athènaiè. هذا ولما كان الحرفان "تس" ts فى آخر الكلمة تسقطان فى حالـة كـل مـن اللغـة الإغريقية واللغة المصرية فى عصرها المتأخر، فـإن عـدم ظهـور هـذا الحـرف (اليـاء) فـى كـل مـن Athènài و Athènè ينبغى أن يكون أمرا متوقعا.

وإذا كان التوافق الصوتى phonetic جيدا فى هذا الصدد، فإن التوافق كامل من حيث دلالة الألفاظ semantic. وقد سبق أن ذكرت أن أصحاب "النموذج القديم" رأوا فى "نيئت" و "أثينا" اسمين للالهة ذاتها. فقد كان من الأمور المعتادة فى مصر أن يخـاطب الكـائن الالهـى باسـم مكان إقامته، وهذا حرىّ بأن يفسر الخلط فى اللغة الإغريقية بين اسمى الآلهة ومدينتها. ثـم هنـاك، فى النهاية، ماذكره خاراكس Charax، أحد كتـاب برغامة Pergamon فـى القـرن الثـانى الميلادى "إن أهل سايس أطلقوا اسم أثينه Athènae على مدينتهم" وهو أمر لا يكون لـه معنـى إلا إذا رأوا فى "حـت نـت" Ht Nt اسما لمدينة سايس.

وينتقل الباب الخامس إلى النظر فـى العلاقـة المتمثلـة فـى الصـور iconographic بـين نيئت وأثينة Athena. لقد كان رمز نيئت منذ عصر ما قبل الأسرات هو صرصور علـى عصـا، ثم تطور (هذا الرمز) ليصبح درعاً على هيئة الرقم 8 الـذى كثيراً مايقـترن بالأسـلحة. ويبـدو أن هذا هو أصل مازعموا أنه "إلهة الدرع" التى وجدت فى كريـت فـى العصـر المينـوى والتـى يربـط بينهـا بدورهـا، بشـكل عـام، وبـين لوحـة ملونـة مـن الحجـر الجيرى عـثر عليهـا فـى موكينـى Mycenae، وهى لوحة تظهر عليها صورة ذراعين ورقبه لالهة خلف درع على هيئـة الرقـم 8. وقد نُظر إلى هذه الصورة علـى أنها تمثيـل مبكـر للبـالاديون Palladion وهـو طقـم قـائم مـن السلاح ارتبط بعبادة الآلهة "بـالاس أثينـة" Athena *Pallas*، إلى جـانب تمثيلـه للالهـة ذاتهـا. وهكذا فإن المرء يستطيع من خلال هذه الطريقة أن يتتبع تطورا من خلال الصور، بدءاً من مصـر

---

* أشير بهذه العلامة إلى الصيغة المفترضة ولكن غير الموثقة للفظة أو الإسم. (المؤلف).

فى الألف الرابعة أو الثالثة ق.م.، ثم مروراً من خلال كريت وموكينى فى الألف الثانية إلى الآلهة التى شاعت معرفتها فى الألف الأولى – وهو أمر يقابل (يناظر) بالتحديد الترابط الذى يظهر فى الحكايات المتوارثة بين نيئت وأثينا، كما يقابل التأصيل اللغوى فى هذا الصدد. وإلى جانب هذا، فإن عقيدة الدولة للالهة أثينة فى (دويلة أثينا) كانت تعاصر فى أواسط القرن السادس ق.م. ماكان يقوم به أمازيس، الفرعون المصرى فى العصر الصاوى، من نشر لعبادة هذه الآلهة فى مكان آخر من القسم الشرقى لمنطقة البحر المتوسط.

إن سايس كانت على الحدود بين مصر وليبيّة* ، وفى بعض الأحيان كانت ليبية بشكل جزئى – وهو الأمر الذى يفسر الوصف التفصيلى الذى قدمه (المؤرخ) هيرودتوس للإرتباط بين (الآلهة) أثينة وليبيا. كذلك فإنه من الأمور الواضحة أن هذا أول مؤرخ إغريقى عظيم كان يرى أن المصريين وبعض الليبيين ذوى بشرة سوداء. ومن جهة أخرى فإن أقدم تمثيل لأثينة هو الذى تم فى موكينى، والذى نجد فيه أطرافها ملونة على نسق التقليد المينوى – المأخوذ عن مصر – والذى كان فيه الرجال يمثلون بلون أحمر / بنى، بينما كانت النساء تمثل بلون أصفر / أبيض. ومع ذلك فإن ترابط الأصول المصرية – الليبية للالهه نيئت / أثينة **Neït / Athena**، وإدراك هيرودوتوس لهذا الترابط وتصويره للمصريين على أنهم من ذوى البشرة السوداء – كل هذا أوحى بعنوان هذه السلسلة.

وقد قصرت الحديث فى الباب السادس على اسبرطه وحدها. وفى رأيى أن هذا الإسم المكانى إنما هو واحد من مجموعة كبيرة تضم متغيرات مثل سباطه **Spata** وسرديس **Sardis** وحسب اقتناعى فإنها جميعا ينبغى أن تكون مشتقة، بشكل مباشر أو غير مباشر، من اسم الموقع المصرى "سبت" Sp(3)(t)، سواء فى ذلك المحافظة أو عاصمتها. وقد كانت علامة الطائر الجارح الممثلة هنا برقم **3**، تسمع فى اللغة المصرية القديمة والمتوسط كحرف ساكن سائل هو ر/ل. أما فى اللغة المصرية فى العصر المتأخر فإن هذه العلامة كانت تستخدم لتعديل حروف الحركة الأخرى فحسب. وقد كانت تسمية "سبت" فى مصر تطلق فى المقام الأول على المنطقة التى تقع قرب منف والتى كانت مكرسة لأنوبيس **Anubis**، رسول الموت وحارس الموتى.

* كانت ليبيا تطلق بشكل عام على المنطقة الصحراوية التى تلى وادى النيل غربا، بغض النظر عن الحدود المصرية الرسمية (المترجم).

الذى كان يتخذ شكل إبن آوى. وفى اعتقادى أن هذه الصلة استمرّت على الأقل فى حالة سرديس واسبرطه، لأن الثقافة الأسبرطية أو اللاكونية مليئة بالارتباطات مع الحيوانات التى تنتمى لفصيلة الكلب. ومن بين هذه الاسم الآخر لاسبرطه، وهو لاكيدايمون Lakedaemôn، الذى يمكن تفسيره بشكل مقبول على أنه "الروح النابحة أو القارضة" وهى تسمية تصلح نعتا مناسبا بشلل كامل لأنوبيس، وتمثل نقلا لغويا دقيقاً عن كانوبوس Kanob/pos، (النطق الإغريقى للفظة) ك إنبو 'K^3'Inpw روح أنوبيس، اسم أقصى مصبات النيل فى إتجاه الغرب*. وفى الأسطورة الإغريقية نجد أن كانوبوس كانت لها ارتباطات وثيقة مع اسبرطة، كما كان ينظر إلى كل منهما على أنها مدخل إلى العالم السفلى** . ومن هنا فقد بحثت (فى هذا الباب) الأهمية الدينية للمقابل الإغريقى، وهو هرميس Hermes فى لاكونيا Lakonia والاهتمام الأسبرطى الخاص بالحيوانات التى تنتمى إلى فصيلة الكلب، وكذلك موضوعى العالم السفلى والموت، وجميعها، حسب إقتناعى، يمكن تتبعها فى الماضى حتى العصر البرونزى.

أما القسم الأخير من الباب فقد أفردته للتأثيرات المصرية على اسبرطة فى العصر الحديدى. (وفى هذا الصدد) فإن إمكان إشتقاق المفردات اللغوية السياسية الإسبرطية بشكل جدير بالتصديق من اللغة المصرية فى عصرها المتأخر – إن ذلك يرتبط بالرواية التى تفيد أن ليكورجوس Lykourgos، المشرع الإسبرطى، زار الشرق ومصر ليدرس النظم (السياسية) المعمول بها هناك. وفوق ذلك، فإن المظهر المصرى اللافت للنظر للفن الإسبرطى المبكر يدعم فكرة التأثير المصرى فى اسبرطة فى القرنين التاسع والثامن ق.م. وكل هذا يتصل كذلك بفكرة اعتقاد الملوك الإسبرطيين بإنحدارهم من أصول هرقلية ومن ثم مصرية أو هكسوسية. وهكذا، فإن ذلك يمكن أن يفسر أوضاعاً خارجة عن القياس فى "النموذج الآرى"، مثل بناء هرم فى المينيلايون Menelaion وهو "المزار (أو الضريح) الأسبرطى الوطنى"، ومثل الرسالة التى كتبها أحد الملوك الإسبرطيين الأواخر إلى الكاهن الأعلى فى أورشليم، وفيها يزعم الملك صلة قرابة بذلك الكاهن.

ويعود الباب السابع بالقارئ إلى اللعريات مع عرض للحجج التى تدعم أو تدحض وجود

---

* الغرب كان ينظر إليه عند قدماء المصريين على أنه وادى الموت. (المترجم).

** العالم السفلى هو عالم الموت عند الإغريق القدماء. (المترجم).

علاقة عضوية بين المجموعتين الأفرو-أسيوية والهندو-أوروبية. وهنا أجد نفسي بشكل واضح في صف الأقلية الذي يتخذه أر. بومهارد A.R.Bomhard، أ.ب. دجوبولسكي A.B.Dolgopolskii، كارلتون هودج Carlton Hodge والمتخصصين الآخرين في اللغويات ممن يعتقدون بأن وجود لغة سابقة مشتركة بين كل من هاتين العائلتين اللغويتين أمر لابد منه. وكذلك فإني أعتقد أن هناك إحتمالاً كبيراً لوجود إقتباسات من اللغة السامية واللغة المصرية القديمة قبل تحلل اللغة الأولى التي تشكل جذور اللغات الهندو-أوروبية قبل إنتهاء الألف الثالثة ق.م. ومع ذلك فإن هذين الإستثنائين يعرقلان مهمتي إلى حد كبير، وذلك لأن مواطن التشابه بين الألفاظ المصرية والألفاظ السامية الغربية من جهة والألفاظ الإغريقية من جهة أخرى لا يمكن ردها (جميعا) ببساطة إلى إقتباسات تمت في الألف الثانية ق.م.، إذ من الممكن أن يكون ذلك التشابة نتيجة لسبب لا يقتصر على الصدفة فحسب، وإنما قد يرجع كذلك إلى علاقات عضوية إنتمائية genetic أو لإقتباسات مبكرة عن ذلك بكثير. وخير طريقه للتحكم في هذه المسألة هي أن نرى إذا ماكانت هناك ألفاظ مماثلة موجودة في اللغات التيوتونية Teutonic والكلتية Celtic والتخارية Tocharian – وهي لغات بعيدة عن الشرق الأوسط، ومن هنا فإنه من غير المحتمل نسبيا أن تكون قد إقتبست من اللغات الأفرو-أسوية. ومع ذلك فإن المرء، حتى مع ذلك، لا يمكن أن يكون واثقا من النتيجة.

ثم يأتي الباب الثامن وعنوانه "الملامح المشتركة في لغات الشرق الأدنى القديم، بما فيها اللغة الإغريقية". (وفي هذا الصدد) فإننا نجد أن (المتخصصين في) اللغويات التأريخية وجهوا عنايتهم، منذ إكتشاف عائلة اللغات الهندو-أوروبية، إلى تشعبات العائلات اللغوية وإختلافاتها. وحيثما أمكن إدراك مواطن تشابه بين لغات متجاورة ولكنها غير منتمية لبعضها، فإن هذه الروابط اللغوية *Sprachbunden* كانت ترد إلى "طبقات" (لغوية) تحتية substrates قديمة تقع تحت اللغات الأحدث ظهوراً. على أن بعض اللغويين بدأوا يتجهون في السنوات الأخيرة إلى (البحث في) مواطن إلتقاء لغوية بين لغات متجاورة ولكن دون أن يكون بينها أى إنتماء، بعبارة أخرى تغيرات لغوية تمت عبر حدود لغوية. خذ، على سبيل المثال، النطق الفرنسي الأنيق لحرف الراء "r"، الذى انتشر في اللغة الألمانية، وكذلك إفتعال النطق غير السليم لهذا الحرف في اللغة الإنجليزية التي يتحدثها أبناء الطبقات (الإنجليزية) العليا. ثم هناك، إلى جانب

ذلك، الميل إلى إحلال الفعل الماضى المركب محل الفعل الماضى البسيط، وهو اتجاه يبدو أنه إنتقل من اللغة الفرنسية إلى لهجات فى اللغات الألمانية والإيطالية والأسبانية المجاورة. إن هذه التغيرات لا تقتصر على الإشارة إلى وجود إتصال وثيق (بين المناطق التى توجد فيها هذه اللغات)، ولكنها تشير كذلك إلى الإحترام السياسى والثقافى الذى حظيت به فرنسا بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، حين تمت هذه التغيرات اللغوية.

إن الباب الثامن يهتم بإمكان حدوث مثل هذه العمليات فى الشرق الأدنى القديم. فهناك محاولة، على سبيل المثال، لإثبات أنه رغم أن التحول من حرف S– الموجود فى بداية الكلمة إلى حرف h- قد حدث فى لغات كثيرة، بما فيها لغة سكان ويلز Wales، إلا أن حدوث ذلك فى اللغات الإغريقية والأرمينية والإيرانية ينبغى أن يُربط بينه وبين حدوثه فى اللغات المتجاورة معها مثل اللغة الليقية Lycian الأناضولية واللغتين الساميتين الكنعانية والآرامية. ويبدو أن هذا التطور قد تم فى غضون الألف الثانية ق.م. لأننا لا نجد مثيلاً له فى اللغات الأكثر قدما فى المنطقة مثل اللغة الإبلية Eblaite (لغة إبله)* أو الأكادية Akkadian أو الحيثية. وفوق هذا فيبدو، فى حالة النصوص الأوجاريتية التى يرجع تاريخها إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.، أن العملية قد ابتدأت ولكنها لم تتم.

وهناك تطور آخر حدث فى الألف الثانية (ق.م.)، هو تطور أداة التعريف، وهى ملمح ليس من الشيوع بين لغات العالم كما قد يظن المرء. إن هذا التطور حدث بشكل مؤكد فى اللغات الهندو–أوروبية فحسب، وفى كل حالة نجد أن أداة التعريف إنما هى صورة لإسم إشارة تم إضعافه. ومع ذلك فإن هذا لايستبعد إمكان إقتباس هذا المفهوم. (وفى هذا الصدد) فإن أداة التعريف تظهر لأول مرة فى اللغة المصرية القديمة فى العصر المتأخر فيما يبدو أنه اللغة الدارجة فى القرن السادس عشر ق.م. هذا ولا توجد (أداة التعريف) فى الشعر الأوجاريتى وفى شعر الكتاب المقدس ولكنها تظهر فى النثر الفينيقى ونثر الكتاب المقدس. فإذا أدخلنا فى إعتبارنا (قيام) الإمبراطورية المصرية فى المشرق خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر (ق.م.) فقد يكون من المقبول أن يُقترح أن هذا التغيير أو غيره من التغييرات اللغوية ذات الصفة الكنعانية المميزة إنما تحت نتيجة للتأثير المصرى.

---

* فى سوريه. (المترجم).

(أما فيما يخص) بلاد الإغريق، فيبدو أنها توصلت إلى أستخدام أداة التعريف بعد ذلك بقليل، إذ لا نجد أى أثر لها فى النصوص التى كتبت بالكتابة التخطيطية "ب"، كما أنها لا تظهر إلا فى حدود ضيقة فى أشعار هوميروس. على أنها تظهر فى البدايات الأولى لنثر العصر الحديدى. كذلك فإن استخدام أداة التعريف اليونانية بطرق متعددة خاصة بها وباللغة الكنعانية، يشير إلى أن الفكرة تم إقتباسها من المشرق. وكما هو معروف فإن أداة التعريف غير موجودة فى اللغة اللاتينية ولكنها موجودة فى اللغات التى اشتقت منها. وعلى هذا فمن المحتمل أنها كانت منتشرة فى اللاتينية الدارجة نتيجة لإقتباس إستخدامها فى اللغات الإغريقية واليونية **Punic*** والأرامية – وهى اللغات الأكثر انتشارا، بعد اللغة اللاتينية، فى الإمبراطورية الرومانية. أما عن انتشار أداة التعريف فى اللغات التيوتونية **Teutonic** والصقلبية **Slav** الغربية، فهذا يمكن تتبعه تاريخياً.

(وفى مجال أداة التعريف كذلك) فإن "صدفاً مثل التشابه الملحوظ بين لفظة ها ***ha*** (الـ) العبرية وكلمتى هى **hè** وهو **ho** وهما تمثلان صورتى أداة التعريف الإغريقية (المؤنث والمذكر) فى حالة الرفع، لا يمكن أن نفسرها إلا من خلال إفتراض علاقة عضوية إنتمائية بين مجموعتى اللغات الأفرو–أسيوية والهندو–أوروبية. (وفى هذا الصدد) فإن كلا من هاتين المجموعتين تشتمل على أسم إشارة هو **se** ** ، ويبدو أن كلا من اللغة الإغريقية والكنعانية حولت حرف السين **s** المبدئى (الذى يوجد فى بداية الكلمة) إلى حرف الهاء **h**، وأن كليهما طور حروف الإشارة إلى أدوات تعريف. وربما كان هناك تأثير مباشر أو "عَدْوىَ" من الصور السامية إلى الإغريقية، ولكن الأخيرة (الصور الإغريقية) متأصلة فى اللغات الهندو–أوروبية بشكل لا يسمح بإعتبارها إقتباسا.

كذلك فإن هناك نموذجا للتجاور يظهر فيه قدر أكبر من التعقيد. ذلك هو الذى نراه فى سقوط الألف الممدودة **ā** أو المهموزة (ذات الهمزة) **a'** وهو سقوط تم فى عديد من السياقات الأصواتية فى أغلب أرجاء الإقليم فى النصف الثانى من الألف الثانية ق.م. ففى مصر وكنعان تحولت هذه الى (ضمة طويلة أو "واو") **ō**، وتحولت إلى (كسرة طويلة أو ياء) **é** فى اللغا الأوجاريتية فى القسم الشمالى من منطقة المشرق، وفى اللغة الليقية فى القسم الجنوبى من

---

* هى اللغة الفينيقية الغربية (فى قرطاجة).

** راجع ملاحظة المؤلف فى حاشية ص٥٧. هذا وسيتم وضع هذه العلامة بعد الآن دون تنبيه للقارئ. (المترجم).

الأناضول، وفى اللهجة الأيونية (من اللغة الإغريقية) فى القسم الشرقى من بلاد الإغريق، وإن لم يتم ذلك فى حالة اللهجات الإغريقية الأخرى حيث بقيت الألف الممدودة علـى ماهى عليه. إن هذا التوزيع (الجغرافى) لحرفى ō الواو أو الضمة الطويلة) ō و ā (الألف الممدودة) يتقابل بشكل جيد مع التقسيم السياسى الذى كان قائما فى تلك الفترة بين الإمبراطوريتين المصرية والحيثية ومناطق تأثيرهما (نفوذهما). كما أن هذا التوزيع هام على وجه التخصيص لأنه يخترق الحدود اللغوية القائمة على الإعتبارات التاريخية والإنتمائية، بين اللغتين السامية والإغريقية. إن مثل هذه التغييرات التى انتشرت على نطاق واسع خلال الألف الثانية ق.م. تشير إلى درجة من الإتصال فى القسم الشرقي للبحر المتوسط، لم تحظ (بعد) بقدر كاف من الإعتراف العام، كما تشير إلى تأثير سياسى و/ أو ثقافى من جانب مصر وكنعان.

وموضوع الباب التاسع هو "الأصوات الشف(هـ)ية – الحلقية فى اللغات السامية واللغة الإغريقية وهى أصوات مثل "كو" qu التى نجد فيها صوتا حلقيا مثل الكاف أو الجيم (الجافة) يتبعها تدوير للشفتين أو "واو" w. ومن المعترف به بوجه عام أن هذه الأصوات وجدت فى اللغة الأولى التى إنبثقت منها اللغات الهندو–أوروبية، Proto-Inldo-European، ولكن ليس هناك إعتراف عام بأن الشئ ذاته ينطبق على اللغة الأولى التى إنبثقت منها اللغات السامية (اللغة الممهدة للسامية). ومع ذلك فإن الأصوات الشفهية الحلقية شائعة فى بقية اللغات الأفرو–أسيوية وفى اللغات السامية فى إثيوبيه. وقد حاولت فى هذا الباب أن أثبت أنه من الأكثر فائدة لنا فى جوانب إعادة تركيب اللغة الممهدة للسامية على أساس من بعض اللغات السامية فى جنوب أثيوبية، وليس إعتمادا على اللغة العربية كما هو معمول به فى الوقت الحالى. وإنى أزعم بوجه خاص – على أساس من الشواهد المستقاة من هذه اللغات ذاتها – اللغات السامية الآسيوية كانت فيها أصوات شفهية – حلقية وأن اللغة السامية الغربية أستبقت هذه الأصوات لفترة طويلة بعد بداية الألف الثانية (ق.م.). وحيث أنه من المتفق عليه بوجه عام أن الأصوات الشفهية – الحلقية الإغريقية توارت فى أواسط تلك الفترة، فإنى أقول هنا إن بعض الاقتباسات من السامية إلى الإغريقية قد تم حين كان كل من اللغتين يحتوى على أصوات شفهية – حلقية، وأن هذه الاقتباسات تم بعضها بعد أن أسقطت اللغة الإغريقية هذه الأصوات بينما كانت السامية الغربية لا تزال تستبقيها، وبعضها تم بعد أن اختفت من كلتا اللغتين – ومن هنا فإن إبراز قدر هائل من

الإتصال بين الثقافة السامية الغربية والثقافة الإغريقية قبل أن تتوارى المقاطع الشفهية – الحلقية، أى قبل أواسط الألف الثانية ق.م.، يمكن أن يحل عدداً من المشكلات التى تتعلق بتأصيل اللغة الإغريقية – وهى مشكلات تظل، بدون هذا التصور، بعيدة عن الحل. وإبراز هذه الصلة يبين لنا، كذلك، المدى الذى يستطيع "النموذج القديم المعدل" أن يصل إليه فى مجال المساعدة على إعادة تركيب الأشكال المبكرة فى اللغتين المصرية والساميّة وذلك من خلال المادة (اللغوية) الإغريقية الغزيرة.

وفى حدود الموجز الحالى فلن استطيع أن استشهد بأكثر من مثالين فى هذا المجال والمثال الأول يخص تلك المدينة الفينيقية الشهيرة المعروفة باسم جُبْلُ(مْ)، Gub/(um) فى اللغتين الإبلية والأكّدية و"جبال" G^cbal فى العبرية و "جبيل" فى العربية. وإذا أدخلنا فى اعتبارنا ماأعتقد فى صحته من استبقاء الأصوات الشفهية – الحلقية فى اللغة الساميّة الغربية، فإنى أرى أنه من المقبول أن نؤكد نطقا مبكرا هو "جويبال" Gebal وهو نطق نستطيع معه أن نفسر هذه المتغيرات. وفى مقابل ذلك فإن الإسم الإغريقى للمدينة هو "بيبلوس" Byblos أو Biblos. وهذا اللغز (الإختلاف المحير) يمكن حله على وجه التأكيد إذا ما افترضنا أن الاسم كان معروفا فى منطقة بحرإيجه قبل أواسط الألف الثانية ق.م. وبما أنه من المعروف أن "g^Wi" كانت تتحول فى أغلب الحالات إلى "bi" بعد سقوط الأصوات الشفهية – الحلقية، فيبدو من المعقول أن نقترح أن الإسم $G^Web(a)l$ كان مستخدما فى اللغة الإغريقية بصورة G^Wibl فى الوقت الذى كانت فيه هذه اللغة لا تستخدم الأصوات الشفهية – الحلقية، ثم أصبحت "بلوس" Biblos أو Byblos بعد ذلك تبعا للتحولات الصوتية.

أما المثال الثانى فهو الإسم المـُلْغِز "ديميتر" Demeter. وفى هذا المجال فإن الشواهد المستمدة من اللغات الإثيوبية والساميّة الغربية تجعل من الممكن أن نعيد تركيب الأشكال القديمة "g^We" و* "g^Way" ، بمعنى "الأرض" أو "الوادى الواسع". إن هذه الكلمة لو كانت قد دخلت فى اللغة الإغريقية قبل سقوط الأصوات الشفهية – الحلقية وإتخذت المسار العادى لتحولات الأصوات لكانت "g^We" قد أصبحت de ، وهذا يمكن أن يفسر لماذا دعيت الآلهة

* تمشياً مع منطق المؤلف وقياساته يمكن الإشارة هنا إلى أن أهل أعالى مصر ينطقون الجيم دالاً فيقولون "الدُمعة" أى الجمعة (المراجع).

الإغريقية "ديميتير" Démétér وليست "جميتير" Gèmètèr – وهو سؤال حير المفكرين على مدى ألفي سنة. إن هناك مشاكل في طريقة النطق وعدم ظهور الإسم في الكتابة التخطيطية "ب". ومع ذلك، ففي غياب أية بدائل يبقى التفسير مقبولا، وهو تفسير يسانده وجود الكلمة النادرة "جييس" gyès بمعنى (قياس الأرض). إن لفظة gyès تبدو كما لو كانت إقتباسا من اللغة الكنعانية إلى الإغريقية بعد أن سقطت الأصوات الشفهية الحلقية، ولكن قبل أن يتم تزحزج الأصوات في الكنعانية وفي ختام هذا المسار فإنه بعد أن إختفت الأصوات الشفهية الحلقية من كل من اللغتين، فإن gaia و gé (الأرض) الإغريقية، والتي ليس لها تفسير من واقع اللغات الهندو–أوروبية، يبدو أنها أقتبست من الكنعانية "جايئ" gayé التي تنطق على هيئة "جيء" gê' في الصورة المعدلة.

أما البابان العاشر والحادي عشر، فإنهما يعنيان بالاقتباسات اللغوية من اللغة الساميّة الغربية واللغة المصرية. وسأبدأ هنا بمناقشة الفصلين معا. وقد رجعت فيهما، في بعض الأحوال، إلى بناء أو تركيب الجملة أو التعبير syntax، أي ترتيب تتابع الألفاظ، كما هو الحال، على سبيل المثال، فيما يخص الاستعمالات المتشابهة لأداة التعريف في اللغة الكنعانية في العصر المتأخر – الفينيقية والعبرية – من جهة واللغة الإغريقية من جهة أخرى. وفي مواضع أخرى وجهت عنايتي إلى المورفولوجية morphology أو تعديل الألفاظ. ولكني خصصت أغلب البابين لدراسة الاقتباسات اللفظية.

ونبدأ هنا بالمورفولوجية أو تعديل الألفاظ في حالات العدد والجنس والحال والزمن وهكذا. وهنا نجد أنه، بإستثناء اللغة الحيثية، فإن اللغة اليونانية هي أقدم اللغات التي تم التثبت منها، بين اللغات الهندو–أوروبية. وهذا يجعل درجة "أضمحلالها" مورفولوجيا أمراً جديراً بالملاحظة. وسبب ذلك هو أنه رغم أن النظام الأساسي للألفاظ قد إحتفظ، على مايبدو، بتماسكه بشكل واضح في اللغات الهندو–أوروبية فإن الإسم في اللغة الإغريقية له خمس حالات فحسب، بينما له ست حالات في اللاتينية Latin رغم أن أول تسجيل لها ظهر بعد اللغة الإغريقية بألف سنة. (وجدير بالذكر هنا) أن اللغة اللتوانية Lithuanian، التي لم تسجل إلا في العصر الحديث، قد إستبقت الثماني حالات التي تأكدت بالنسبة للغة الممهدة للغات الهندو–أوروبية. إن هذا الفقدان (التناقص) المورفولوجي الذى مرت به اللغة الإغريقية إلى خمس حالات يمكن أن

يوحى بإتصال كثيف بلغات أخرى، وهذا يطابق الشواهد المعجمية ويضعف "نموذج الأصل المحلى" **Autochtonous Origin**. وعلى أى الأحوال فإن ذلك يمكن تفسيره عن طريق كل من "النموذج القديم" و "النموذج الآرى" اللذين بوسعهما أن يفسرا مثل هذا الإتصال تحديدا، وهو ماليس بإمكان النموذج الأول (المحلى) أن يقدمه.

على أن الاهتمام الرئيسى لهذين البابين يدور حول الاقتباسات فى مجال الألفاظ **verbal**. وكما ذكرت فإن المقوم الهندو-أوروبى للمعجم الإغريقى ضئيل نسبيا. وعلى سبيل المثال فإن لغات مثل اللغة الصقلمبية التى كانت تستخدمها الكنيسة القديمة واللغة اللتوانية - اللذين يرجع وجودهما بشكل محقّق إلى مابعد ظهور اللغة الإغريقية بألفى سنة - لهما نسبة من الجذور (الهندو-أوروبية) أعلى منها بنسبة هائلة، وهى جذور تشترك فى الأصل والإنتماء مع جذور اللغات الهندو-أوروبية الأخرى. وفوق ذلك فإن مدى دلالات الألفاظ وتطورها، الذى تظهر ضمنه الجذور الهندو-أوروبية فى اللغة الإغريقية يقارب، إلى حد كبير، ذلك الذى تظهر ضمنه الجذور الأنجلوسكونية فى اللغة الإنجليزية. إن هذه الجذور تمدنا بأغلب الضمائر وحروف الربط، كما تمدنا بأغلب الأسماء والأفعال فى مجال حياة الأسرة - فيما عدا الجانب السياسى منها، وفى مجال الزراعة التى تتعلق بتوفير أسباب الحياة فحسب وليس بالجانب التجارى منها. وفى المقابل فإن مفردات اللغة الحضرية مثل الكماليات، الدين، الإدارة، والمفردات الدالة على المعانى المجردة - ليست مفردات هندو-أوروبية.

إن مثل هذا النموذج يعكس فى المعتاد وضعا طويل المدى يكون فيه المتحدثون باللغة أو اللغات التى تقدم الألفاظ المتصلة بثقافة أعلى يسيطرون على أولئك الذين يتحدثون باللغة التى تقدم المفردات الأساسية **basic lexicon** - كما فى حالة العلاقات بين اللغة الأنجلوسكسونية واللغة الفرنسية فيما يخص اللغة الأنجليزية، وحالة لغة البانتو **Bantu** واللغة العربية فى خلق اللغة السواحلية **Swahili**، أو اللغة الفيتنامية واللغة الصينية فى تكوين اللغة الفيتنامية الحديثة. أما النموذج الأقل شيوعاً فهو مانراه فى حالة اللغة التركية واللغة المجرية **Hungarian** الذى اكتسب فيه الفاتحون المفردات التى تخص مستوى الحياة المصقول من أهل البلاد المفتوحة. ومع ذلك، ففى هذه الحالة، نجد من الأتراك والمجريين، كلاً يستبقى ألفاظه - وهى الألفاظ المغولية **Mongol** - فى مجالات التقنية العسكرية أو الإدارة. أما فى اللغة الإغريقية. فالألفاظ الدالة

على العجلة الحربية ذاتها، السيف، القوس، الزحف العسكرى، السلاح والدورع، المعركة... إلخ – كلها هندو–أوروبية. ومن هنا. فإن اللغة الإغريقية، كما يصورهـا "النمـوذج الآرى" لا تشـابه اللغات ذات النمط التركى. وهكذا، فلكى نقيل "النموذج الآرى" يصبح علينا أن نبرز اللغة الإغريقية على أنها لغة متفردة من حيث تصنيفها. أما "النموذج القديم" فمن شأنه أن يضع اللغة الإغريقية، هى والإنجليزية والفيتنامية، ضمن الفئة الأكثر شيوعاً من بين فئات اللغات المختلطة.

وأنتقل الآن إلى كل من الفصلين على حده. فالفصل العاشر ينظر فى الاقتباسات من اللغة السامية الغربية. وفى هـذا المجال أجد فى مقـدورى أن أتتبع عمـل العلمـاء منـذ مـاقبل إنتصـار "النموذج الآرى"، بل أكثر من ذلك، أن أتتبع عمل العلماء الذين إهتموا فى العقدين الأخيرين، فى كثير من الحذر وعلى أساس سليم، بإعادة تـأصيل الألفـاظ التـى تم تأصيلهـا مـن قبـل، وحتـى تأصيل ألفاظ زادوها من عندهم. على أننا، رغم هذا التقدم، لازلنا بعيدين عن الوضع الذى كـان قائما قبل هجوم "النموذج الآرى المتطـرف". وعلـى سـبيل المثال فـإن الحظـر الـذى فُرِضَ علـى الاقتباسات من السامية، والذى أسلفت ذكره، لم يشمل إطلاقاً أسماء البهـارات والسـلع الكماليـة الشرقية. ومع ذلك فإن اقتراحات المتخصصين فى الساميات بشأن تـأصيل علـى نفـس القـدر مـن المعقوليـة، لألفـاظ مـن مواطـن أخـرى ذات دلالات أكـثر حساسـية، مثـل لفظـة **bòmos** مـن **bâmâh**. وكلاهما يعنى "المكان المرتفع" أو "المذبح" – لاتزال مرفوضة بشكل عـام مـن جـانب المتخصصين فى الدراسات الكلاسيكية.

وقد قدمت فى هذا الفصل كذلك أمثلـة أخـرى مـن التـأصيل اللفظـى فـى اللغـة السـامية الغربية فى مجال الألفاظ ذات الدلالة الدينية. ومن بين هذه الأمثلة لفظة **haima** الإغريقية، وهى لفظة تكتسـب فى أشعار هوميروس إيحاءات إضافية تشير إلى "الروح" وإلى "الشـجاعة" إلى جـانب معناها الأساسى وهو "الدم". ويعكس العلم اليونانى المعنيين الأولين حيث نجـد أن لفظـة **haima** كان ينظر إليها على أنها مساوية لمعنى "الهواء" وليس – كما كـان ينتظـر – معنـى "المـاء". (وفـى هذا الصدد) فإن هناك من يحاول أن يثبت أن **haima** مشتقة من "حايم" **hayim** فى الكنعانيـة بمعنى "حياة". وقد كان الدم ينظر إليه فى الكنعانية على أنه مسـتودع الحيـاة. وعلـى سـبيل مثـال آخر فإن الجذر السامى المعروف على نطاق واسع، وهو قدس √**qds** (بمعنى مقدس). ومن حيث دلالة الألفاظ فإن هذا الجذر يتواءم مع مجموعة الألفاظ الإغريقية التى تلتئم حول **qudos** التـى

تعنى "المجد الالهى". ومن المثير للاهتمام كذلك أن ***qds*** (الكنعانية) بمعنى "منعزل، غير نظيف" إنعكست، على مايبدو، فى اللغة الإغريقية فى لفظتى ***kudos*** (بمعنى: كريه) و ***kudazò*** (بمعنى: يسب، يلعن). وهناك مجموعة أخرى من الألفاظ تلتئم حول لفظة ***naiò*** (بمعنى: يسكن أو يقيم) و ***naos*** (بمعنى: مكان إقامة أو معبد أو محراب)، من المحتمل أنها تأتى من الجذر السامى **√nwh**، التى تتضمن هذا المعنى سواء بشكل عام أو على وجه التخصيص. كذلك فإن اشتقاق ***nektar*** (الإغريقية) من لفظة "نقتار" ***niqtar*** السامية (الخمر المدخنه أو المعطرة ... إلخ) كان مقبولاً فى دائرة واسعة قبل هجوم "النموذج الآرى". وقد أعيد إحياؤها مؤخراً على يد الأستاذ ساؤل ليفين **Saul Levin**.

وإذا نظرنا إلى المفردات الدالة على المجردات، نجد جذع الكلمة الإغريقية ***kosm*** الذى نشتق منه لفظة **cosmos** وكذلك لفظة **cosmetics** فى لغتنا (الإنجليزية) الحالية. إن المعنى الأساسى للجذع الإغريقى هو "يوزع" أو "يرتب" (أو ينظم). وفى هذا الصدد فإن الجذر السامى **√qsm** يغطى مجالا من المعانى: يقسم، وينظم، ويقرر. وكذلك فإن الجذر الكنعانى ***sèm*** (بمعنى: العلامة أو الإسم) يبدو أنه اقتُبس فى اللغة الإغريقية مرتين: مرة على هيئة ***sèma*** (إشارة، علامة، رمز)، وفى وقت متأخر – ربما من صورة (أخرى لنفس الجذر وهى ***sèm*** – على هيئة ***schèma*** (بمعنى: صورة، شكل، رسم توضيحى، هيئة). وفى (مجال السياسة كذلك نجد مجموعات من الألفاظ مثل الكلمات الإغريقية ***deil-*** (بائس) و ***doul-*** (عميل أو عبد) التى يمكن أن تأتى بسهولة من (دال) ***dâl*** أو ***dal*** الكنعانية (بمعنى: تابع أو مغلوب على أمره أو فقير)*. هذا بينما يبدو من المحتمل أن تكون كلمة ***xenos*** الإغريقية قد اشتقت من الجذع الكنعانى **√sn** (بمعنى: يكره أو عدو).

وفى المجال العسكرى (الإغريقى) نجد أصولا لغوية مثل ***phasgan-*** (بمعنى: سيف، حد) من الجذر السامى **√psg** (يشق، يفلق)، و ***harma*** (عربة، عدة) من الجذر السامى **√hrm** (شبكة). وأخيرًا فهناك الكلمات الإغريقية الأساسية التى يبدو أنها ذات أصول سامية. وعلى سبيل المثال لفظة ***mechri(s)*** (حتى كذا، إلى حد

* تظهر هذه المعانى كذلك فى ألفاظ "ذُلّ" و "ذلّ" و "ذليل" العربية – وهى لغة سامية كذلك! – وتظهر بشكل أكثر وضوحا فى اللهجة اللبنانية للّغة العربية التى تنطق الدال بدلا من الذال. (المترجم).

كـذا) التـي يبـدو أنهـا مشـتقة مـن الجـذر السـامى mhr√ (يكـون فـي المقدمـة، يـأتي ليقـابل).
وفـي الحقيقـة فـإن أيـا مـن هـذه الإشـتقاقات ليـس مؤكـدا. ولكنهـا جميعـا معقولـة بشـكل أو بآخر. ومع ذلـك فإنهـا ينبغـي أن تحظـى بقـدر كبـير مـن العنايـة الفائقـة، طالمـا أنـه لا توجـد أيـة تـأصيلات هنـدو-أوروبيـة منافسـة، وكذلـك فـي ضـوء كـل الشـواهد الأخـرى التـي تؤيـد التأثير السـامي علـى بـلاد الإغريـق فـي الألـف الثانيـة والألـف الأولى ق.م.

والشـيء ذاتـه ينطبـق علـى الأصـول المصريـة البعـض الألفـاظ الإغريقيـة، التـي اقترحتها في الفصـل الحـادى عشـر. وعلـى عكـس البحـث فـي التـأصيلات السـامية. فـإن البحـث فـي الألفـاظ المصريـة المقتبسـة فـي اللغـة الإغريقيـة لم يتطـور بشـكل جـاد حتـى الآن. ويرجـع ذلـك ببسـاطة إلى أن الكتابـة الهيروغليفيـة لم تفـك رموزهـا إلا حـين كـان "النظـام القديـم" يشـارف نهايتـه، وحين أطلّـت الستينيات مـن القـرن التاسـع عشـر وظهـرت معـاجم اللغـة المصريـة القديمـة، كـان "النمـوذج الآرى" قـد قـام بنيانـه بشـكل راسـخ بحيـث أصبحـت أيـة مقارنـة بـين المفـردات فـي اللغتـين أمـراً غـير وارد فـي دائـرة الدراسـات الأكاديميـة. وقـد كـان الإسـتثناء الوحيـد فـي هـذا الصـدد هـو المحاولـة الجريئـة المثمـرة التـي قـام بهـا الراهـب الأب بـارتليمى Abbé Barthélemy فـي القـرن الثـامن عشـر ليقـارن ألفاظـاً إغريقيـة بألفـاظ قبطيـة. وحتـى اليـوم فإنـه لم يُسـمح بإرجـاع لفظـة إغريقيـة واحـدة ذات قيمـة إلى أصـول مصريـة، فيمـا عـداً ثـلاث كلمـات خارجـة عـن القيـاس وهـي: *baris* (نـوع مـن المراكـب الصغـيرة)، *xiphos* (سـيف)، -*makar* (مبـارك). بـل إن اللفظتـين الأخـيرتين وضعتـا موضـع تسـاؤل علـى نطـاق واسـع. كذلـك فقـد ظهـرت فـي عـام ١٩٦٩ مقالتـان جمعتـا عـددا مـن الألفـاظ (الإغريقيـة) الغريبـة والتـي يبـدو مـن شـكلها أنهـا دخيلـة وأقرتـا بأنـه مـن المقبـول أن تكـون ذات أصـول مصريـة. ولكـن، كمـا حـدث فـي حالـة الألفـاظ السـامية (الغريبـة) فـإن هـذه (الألفـاظ المصريـة) مـن الممكـن أن يكـون إنتقالهـا قـد تم عـن طريـق التجـارة أو الإتصـال العـابر، ومـن هنـا فقـد كـانت مقبولـة فـي "النمـوذج الآرى". وفـي ١٩٧١ ظهـرت مقالـة أكـثر سـلبية، أنكـرت البعـض وأضفـت الشـك علـى البعـض الآخـر مـن الأصـول المصريـة القليلة التـي كـان قـد تم الإقـرار بهـا[٢٤]

لقـد أكّـدْتُ علـى أهميـة المفـردات العسـكرية، وعلـى هـذا فـإن إشـتقاق لفظـة

xsiphos من اللفظة المصرية ***sft*** (سكين، سيف) لها مغزى كبير لأن ذلك معناه أن هناك أصل مصرى وأصل سامى للفظتين الإغريقيتين اللتين ترمزان للسيف. وهناك إعتراف قائم بأن اللفظتين ليستا من المفردات الهندو-أوروبية. وتوجد إلى جانب ذلك أمثلة أخرى تستحق أن نذكرها هنا، وتشمل ***makar-*** التى تأتى من الكلمة المصرية ***m3ᶜhrw*** (صاحب الصوت الصادق)، وهو اللقب الذى يعطى للمتوفى المكرم الذى مر بسلام من موقف (محنة) الحساب الأخروى. كذلك فإن ألفاظاً إغريقية أخرى يبدو من الممكن أن يكون لها أصول مصرية بنفس القدر من القبول. وقد سبق أن مررنا باشتقاق ***martyr*** (الإغريقية) من ***mtrw*** (شاهد) المصرية. كذلك فإن الجذع (الإغريقى) ***-tima*** (الشرف) فى كل من الحرب والقانون ربما أتى من اللفظة المصرية ***dîm3ᶜ*** والتى تم التأكد من وجودها فى الكتابة الديموطيقية على هيئة ***tym3c*** (بمعنى: يبرر أو يجعل الأمر حقيقيا).

وفى مجال السياسة، فرغم وجود جذر هندو-أوروبى أساسى ومنتشر على نطاق واسع وهو √reg (بمعنى: يحكم أو مَلِك)، وهو الذى نجده فى لفظة ***raja*** فى اللغة الهندية، و ***rix*** فى لغة أهل غاله (فرنسا الحالية) و ***rex*** فى اللاتينية و ***ri*** فى اللغة الإيرلندية - رغم ذلك فإن الكلمتين الدالتين على معنى "الملك" فى اللغة الإغريقية لا صلة لهما بهذا الجذر، إنما كانا ***(w)anax*** و ***basileus***. والأولى، وهى التى سنناقشها فى الباب الأول من هذا المجلد، يبدو أنها تأتى من صيغة ***ʻnhdt*** (ليحيا إلى الأبد)، وهى اللفظة التى كانت تستخدم بعد أسماء الفرعون فى أثناء حياته. وفى اللغة الإغريقية المبكرة لم يكن لقب ***basileus*** يطلق على الملك، بل كان الذى يحمل هذا اللقب مرؤوسا للملك (w)anax وفى مصر فإن لقب ***p3sr*** (الموظف الرسمى) أصبح هو اللقب المعترف به للوزير. وقد وُجد اللقب منسوخا فى اللغة الأكدية على هيئة ***pa-si-i-a(ra)***. وحيث أن حرف r المصرى كان يتغير عادة فى الإغريقية. لذلك لا توجد صعوبة من الناحية الأصوائية تعوق التطابق الكامل من حيث دلالة الألفاظ.

وقد قدمت فى الباب الأول من هذا المجلد وصفا للأصل المصرى للفظة ***sophia*** الإغريقية (بمعنى: حِكْمه). ومن هنا فإن كل هذه التأصيلات اللغوية فى

مجالات السلطة، التجريد والثقافة الرفيعة تتطابق مع النظام الذى يقترحه "النموذج القديم" فيما يخص علاقة الحاكم بسكان من أبناء البلاد الأقل تطوراً. ومع ذلك، وكما فى حالة اللغة الساميّة، فإن الألفاظ الأخرى المقتبسة توحى بإختراق (مصرى) أعمق فى الحياة الإغريقية فليس هناك (مثلا) مايدعو إلى الشك فى أن اللفظة الإغريقية ***chéra*** (أرملة) قد أتت من اللفظة المصرية ***h3rt*** (أرملة) أو أن الأداة ***gar*** مشتقة من ***grt*** المصرية التى لها ذات الوظيفة وذات الترتيب فى تركيب الجملة. وكما أسلفت فإن حرفى **ts** اللتان تأتيان فى نهاية اللفظة قد أسقطا فى اللغتين المصرية والإغريقية فى الفترة المتأخرة.

وما توصلْتُ إليه فى خاتمة باب "بلاد الإغريقية، أوروبية أم مشرقية؟" هو أنه: بينما تميل الشواهد الوثائقية والآثارية لمساندة "النموذج القديم" على حساب "النموذج الآرى"، إلا أن هذا الإتجاه ليس أمراً نهائيا. وفى مقابل ذلك فإن الشواهد المأخوذة من اللغة، إلى جانب أسماء من أنواع عديدة، تدعم بشده قضية "النموذج القديم" من حيث أنها قضية متماسكة بشكل عضوى. وذلك لأن مركزية الاقتباسات فى مجال المفردات والأسماء (إتصالها بجوهر أو صلب الحياة)، إلى جانب إتساع نطاقها، يوحيان بتأثير ثقافى مصرى هائل ومستمر فى بلاد الإغريق. وإذا كانت الحالة الخاصة باليابان قد أظهرت أن الاقتباسات (الثقافية) التى تتم على مثل هذا القدر من الإتساع، ليس من اللازم أن تكون نتيجة لفتح، إلا أن الفتح والاستيطان يشكلان الطريق المعتاده التى تتم من خلالها هذه الاقتباسات. وهكذا فإن الشواها اللغوية تدعم "النموذج القديم" بشكل قوى.

وإذا أدخلنا فى الإعتبار جميع طبقات (أنواع) الشواهد، فإنه لا سبيل إلى أن يكون لأسلوب "النموذج الآرى" قيمة متفوقة فى التشجيع على الإكتشاف الذاتى للحقائق. ونحن إذا أخذنا فى إعتبارنا القضية التى طرحتها فى المجلد الأول من "أثينه السوداء" وهى أن إحلال "النموذج الآرى" محل "النموذج القديم" يمكن أن يفسر من خلال "الرؤية السائدة" ***Weltanschauung*** فى الفترة المبكره من القرن التاسع عشر، فليس هناك مايدعو إلى الإبقاء عليها. وبإختصار، كما قلت فى موضع آخر من هذا الكتاب، فإن المجلد الأول منه يبين أن "النموذج الآرى" قد حُمل به سِفَاحاً. أما المجلد الثانى فإنه يظهر إفلاسه.

موجز الجزء الثالث

المجلد الثالث من "أثينه السوداء" بشكل محاولة لإستخدام "النموذج القديم المعدل" لإلقاء الضوء على جوانب من الدين الإغريقى والأساطير الإغريقية، لم تكن معروفة من قبل، وبوجه خاص على أسماء الكائنات البطولية والالهية. وقد تم عرض أبواب هذا المجلد بطريقة يظهر من خلالها التتابع الزمنى للعبادات (العقائد) المختلفة فى بلاد الإغريق. ومع ذلك فإن التتابع الزمنى هنا أمر غير مؤكد، شأنه شأن أى أمر آخر فى هذا المجال.

والباب الأول يعنى بأول تأثير دينى يمكن أن نتبينه - وهو تأثير العبادة الملكية للأسرة الحادية عشر - وهى عبادة الاله الصقر/ الثور منطو Mntw أو مونت فى القرن الحادى والعشرين ق.م. - على إقامة عقيدة الثور فى كريت فى نفس الوقت الذى أسست فيه القصور هناك فى القرن ذاته. وقد حاولت (هنا) أن أثبت أن غياب الشواهد الدالة على عقيدة محورها الثور فى العصر المينوى المبكر فى خلال الألف الثالثة ق.م.، تجعل من غير المحتمل إلى حد كبير أن تكون (هذه العقيدة) إستمراراً لعبادة الثور التى وجدت فى الأناضول فى الألف السابعة ق.م. وفوق ذلك فإن الطبيعة الجبلية لجزيرة كريت لا يمكن أن تعتبر بأى حال ملائمة للماشية (غير الأغنام والماعز). هذا، وإلى جانب الظهور المفاجئ لعبادة الثور هناك، فإن تطابق التوقيت وإتساع دائرة التأثير المصرى المعروف فى عهد فراعنة الأسرة الحادية عشر الذين يحملون اسم منتحتبه Menthotpe، وشواهد الإتصال بين مصر ومنطقة بحرإيجه فى ذلك الوقت - فإن هناك شواهد (كذلك) من الحكايات الموروثة توحى بتأثير مصر على كريت فى تلك الفترة. وفى اعتقادى أن إسمى الإله "منطو" والفرعون "منتحتبه" ينعكسان فى الإسم الذى أعطته الحكايات المتوارثة لقاضى ومشرع قديم أخضع الجزر الإغريقية، وهو "رادامانثيس" Rhadamanthis، الذى يمكن لاسمه أن يكون مشتقا بشكل جدير بالتصديق من اسم مصرى هو ردى مانطو M(a)ntw (بمعنى) Mntw' يعطى). وكان رادامانثيس كذلك الزوج ذو الميول الحربية لأمّ هرقل (هيراكليس) Herakles، وهو

(رادامانثيس) الذى علم البطل كيف يسدد سهامه. وقد كان "منطو" هو إله تسديد السهام، كما تم الربط بين "منطو" وبين الآلهة رعت R^ct التى نعرف من مصادر وادى الرافدين أن اسمها كان ينطق "ريا" Ria. وإذن فهذه التسمية يمكن بشكل معقول أن نعتبرها أصلاً لإسم الآلهه "ريا" Rhea التى لعبت دورا محوريا فى الديانة الكريتية.

هذا، ولم تكن عبادة "منطو" هى عقيدة الثور المصرية الوحيدة التى وصلت إلى منطقة بحرإيجه. وأرى من المعقول أن نربط بين شخصية "مينوس" Minos الذى يظهر فى الحكايات المتوارثة كأول ملك ومشرع فى كريت، وبين "Mènès" (مينا) أو Min حسبما دعاه (المؤرخ) هيرودوتوس، أول فرعون ومشرّع لمصر، الذى ينبغى أن نؤرخ له بعام ٣٢٥٠ ق.م. لقد نسب الأقدمون إلى "Min" (مينا) أنه أسس عبادة Apis (حابى) فى منف. كذلك فإن الرومان عرفوا عقيدة مصرية أخرى لعبادة الثور، تحت اسم "منيويس" Mnevis، رأى الدارسون أنها مشتقة، بشكل مقبول من تسمية مصرية هى "منيوى" Mnewe. وقد تم الربط بين هذه العقيدة وبين الجدران الملتفة، منذ الدولة (المصرية) القديمة، أى قبل بناء القصور الكريتية الأولى بمئات السنين. وهكذا يصبح لدينا تطابق مثلث: ففى مصر كانت هناك عقيدتان للثور مرتبطتان بإسمى "مين" و "منيوى"، وأولهما أسم لمؤسس ملكى، والثانى رُبط بين اسمه وبين "جدار ملتف"، وفى كريت رُبط بين عقيدة الثور وبين الملك المؤسس مينوس واللابيرنت Labyrinth (طريق ملتف يضل فيه المرء). وقد كانت الرواية الإغريقية واضحة من حيث أن الحرفى والمهندس (الإغريقى) دايدالوس Daidalos نقل (فكرة) طريقة اللابيرنث للملك "مينوس" عن الأصل المصرى. وفى هذا الصدد فقد تمت محاولات لاشتقاق اسم "لابيرنت" من لفظة ليدية مزعومة هى *labrys* (بمعنى: بلطه)، ولكن هذه المحاولات تبدو أقل إقناعاً من التأصيل الذى قدمه علماء المصريات فى الستينيات من القرن التاسع عشر – والذى أنكره علماء المصريات فى القرن العشرين – والذى اشتقوا فيه هذا الإسم من اسم مكان مصرى تمت إعادة تكوينه، وهو ربررحنت R-pr-r-hnt لموقع اللابيرنث المصرى العظيم الذى وصفه هيرودوتوس وكتاب قدماء آخرون.

لقد ظهرت فى كل بلاد الإغريق عقائد تدور حول عبادة الثور مشتقة من عبادة

"منطو" وكذلك من عبادات "مين" و "مينوس" و "حابى"، ولكن هذه العبادات طغت عليها عبادات متصلة بالماعز والكباش. وفى هذا الصدد، فإن العبادة الملكية المصرية تحولت، عند بداية الأسرة الثانية عشر أو قرب ذلك الوقت، إلى عقيدة محورها عبادة الكبش "آمون". وكما أسلفت فإن فراعنة الأسرة الثانية عشر الذين اتخذوا إسمى "امنمحات" Imn-m-h3t و "سنوسرت" S-n-Wrst والذين يمكن أن نطابق بشكل مقنع بينهم وبين الفاتحين العظيمين "ممنون" Memnon و "سيزوستريس" Sesostris فى الرواية الإغريقية – قاموا بحملات واسعة النطاق فى القسم الشرقى للبحر المتوسط، وهو أمر أظهرته فى الفترة الحالية، الشواهد المأخوذة من النقوش. ومن هنا فإني أحاول فى الباب الثانى أن أبين أن العقائد ذات النبوءات والتى تدور حول عبادات الكباش والماعز – والتى وجدت فى كل أرجاء بحرإيجه – قد أُدخلت هناك مباشرة بعد صعودها إلى ذروة الأهمية فى مصر نفسها فى غضون القرن العشرين ق.م. وقد كانت هذه العبادات مرتبطة فى مصر بكل من الالهين "آمون" و "أوزيريس"، وفى منطقة بحرإيجه بالالهين "زيوس" Zeus و "ديونيسوس" Dionysos، اللذين رأى فيهما الإغريق نظيرين للمعبودين المصريين.

وقد زاد من تعقيد الخلط الطبيعى بين الكباش والماعز، أن العقيدة ذات النبوءة فى المدينة الواقعة فى الدلتا، والتى عرفها الإغريق بإسم منديس Mendès، كانت مرتبطة بفصيلة من الكباش إنقرضت بعد ذلك – وهو أمر يدعو للخجل من حيث أن تلك الكباش كانت رمزا للخصوبة. وقد تم تمثيلها، فى خلال قرون تالية، بطريقة كان من شأنها أن تجعل هيرودوتوس، على الأقل، مرة يقول بأنها من الكباش وأخرى بأنها من الماعز. (وفى هذا الصدد) فإن دودنا Dodona، التى تقع فى القسم الشمالى الغربى من بلاد الإغريق كان يعترف بشكل عام بأنها أقدم مراكز النبوءة المتصلة بهذا النوع من العبادة. وتبعا لما ذكره هيرودوتوس وكتاب إغريق آخرون فإن نبوءتها كانت تقوم على أساس من نبوءات سيوه، وهى واحة فى الصحراء الليبية*. ونبوءات طيبة،

---

* كان يوجد معبد للاله آمون المرموز له بالكبش فى سيوه، ولا تزال آثاره باقية فى حالة معقولة حتى الآن. والصحراء الليبية تعبير جغرافى صرف ويقصد به هنا الصحراء الغربية فى مصر. (المترجم).

مركز العبادة التنبؤية. هذا وقد أكدت الشواهد الآثارية تماثلات ملحوظة بين "دودونا" و "سيوه". وفوق ذلك فإن عبادة آمون في سيوه كانت مرتبطة بالكائن الالهى "ددون" Ddwn، وهو اسم يبدو أنه كان أصلا لإسم "دودونا" ويبدو أن هذا الأخير ليس له تفسير آخر غير ذلك.

(وعلى سبيل مثال آخر) فإن هناك (مسألة) الخلط بين زيوس و ديونيسوس، وهو خلط كان كبيرا على وجه التخصيص في كريت - حيث يفترض أن زيوس قد مات - ومناطق الحدود والتخوم الشمالية لبلاد الإغريق، من دودونا في الغرب حتى طراقيا Thrace وفريجية توغلا نحو الشرق. إن هذه الأقاليم التي يمكن إظهارها، إعتمادا على أسس أخرى، على أنها أقاليم محافظة بشكل خاص، يبدو أنها حافظت على عبادة لم يمكن تمييزها، أتت فوقها عقائد أكثر تحديدا، ثم إدخالها أو نمت في وقت لاحق. ومع ذلك فإن كثيراً من مراكز العقيدة - مثل مركز عبادة زيوس في أوليمبيا - احتفظت بعناصر من الطبقة السابقة. وفي نهاية القسم الذى خصصته في هذا الباب للعقائد التي تدور حول عبادة الكبش/ العنز. تناولت أوجه التقابل بين مسرحة آلام أوزيريس، أو المسرح في الديانة المصرية، وبين أصول المسرح الإغريقي، وهي أصول كانت دينية في أساسها، كما كانت ترتبط بالاله ديونيسوس والعنز *tragos*.

أما الباب الثالث الذى يدور حول "لغز أبي الهول" فقد أعطيته اسم "الجمال"، وهو يخص الآلهة أفروديتي Aphrodite. وقد كان اسمها، من الناحية التقليدية، مشتقا من لفظة *aphros* (الزَّبَد)، بينما لم يقدم أحد أي تفسير للقسم الأخير للكلمة وهو *dite*. والصورة الكلاسيكية للالهة وهي تبرز من الزَّبَد تبين أن التقليد قديم. ورغم ذلك فإن الأمر يبدو لي وكأنه تورية أو تأصيل شعبي، أما التأصيل الحقيقي فإنه يأتي بشكل يكاد يكون مؤكدا من الإسم المصرى وضيت Pr w3dyt (بيت وضيت). إن هذا الإسم الذى أطلق على مدينتين - إحداهما في دلتا النيل، وهي التي عرفها الإغريق في وقت لاحق تحت اسم "بوتو" أو "بوتوس" Boutò/os، والأخرى في مصر العليا وهي أفروديتوبوليس Aphroditopolis - هذا الاسم يبين تطابق w3dyt مع Aphroditè. وفي هذا الصدد فقد أشرت من قبل إلى (عادة) المصريين في الربط بين

الآلهة وأماكن إقامتهم وذلك فى مناسبة (الحديث عن الآلهة) أثينه. ومع ذلك، فرغم أن استخدام **W3dyt** كصيغة خطاب (للالهة)، إلا أن هناك بعض الصعوبات من الناحية الأصواتية، حيث لا توجد حالة أخرى تم فيها الإحتفاظ بحرف r فى *Pr*، رغم أنه لو كان هذا قد حدث فإن إضافة مقطع صوتى فى بداية الكلمة على هيئة **a/i** يصبح أمرا تلقائيا. ولكن، على أى حال، فإن الإشتقاق من لفظة مثل **Pr-W3dyt** هو خير، من الناحية الأصواتية، من الإشتقاق من لفظة ***aphros***.

(هذا) ومن ناحية "علم الدلالات اللفظية" فإن قضية إشتقاق تسمية **Aphrodite** من **W3dyt Pr** هى قضية قوية حقا. فقد كانت **W3dyt** إلهة للخصوبة، وكانت مرتبطة بالنمو الجديد (للمزروعات) بعد الفيضان. تماماً كما كانت أفروديتى مرتبطة بالربيع وبالحب عند الشباب، هذا إلى جانب أن **W3dyt** يُربَط بينها وبين الثعابين التى تبدأ فى الظهور (بعد البيات الشتوى) فى ذلك الفصل. وقد تبين (فى هذا الصدد) أن إحدى اللُّقى الآثارية التى عُثر عليها فى كريت والتى ترجع إلى العصر المينوى المتوسط هى قاعدة تمثال لأحد كهنة **W3dyt**. وأكثر من ذلك فإن الخط الهيروغليفى (الموجود على هذه القاعدة) يفتقر إلى الإنتظام بدرجة توحى بأنه ربما يكون قد تم نقشه محليا. وعلى أى الأحوال فإن هذه اللُّقية توحى أن العقيدة وجدت فى الجزيرة فى ذلك الوقت. ومن هنا يصبح مما يلفت النظر وجود عدد من الأشكال (التماثيل)، التى تعود إلى تلك الفترة، لآلهة جميلة ومغرية تمسك بثعبانين، وهى تماثيل ربطها عدد من العلماء بشكل مبدئى بالآلهة أفروديتى. ويبدو أن العقيدة أزدهرت قرب نهاية العصر المينوى المتوسط، وعلى هذا فيبدو من المقنع أن نربط تاريخيا، بشكل مبدئى، بين إدخال هذه العبادة وبين موجة التأثير المصرى – المشرقى – المينوى التى تمت حوالى وقت غزوات الهكسوس عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن السابع عشر.

"الجمال" الذى كان عنوان الباب الثالث، أتْبعتَه بالباب الرابع تحت عنوان "والوحش". وموضوع الحديث فيه هو "ست"، **Seth** أو "سوتخ" **Sutech**، الاله الذى كان يُفترض أن اليهود تابعين له. وقد كان "سِت" فى اللاهوت المصرى هو إله المناطق الخارجية، الصحارى، وسكانها من القبائل الهمجية التى لا يمكن التنبؤ

بتصرفاتها. وتبعاً لما جاء فى (كتابات) بلوتارخوس Plutarchos فقد كان هو إله البحر. إن كل هذه الأسباب إلى أن نفترض أنه إذا كان غزو الهكسوس قد تم الربط بينه وبين الإقامة المؤقتة (لليهود) (فى مصر) كما جاء فى التوراه، فإن الاله "سِت" الذى ارتبط بالهكسوس هو الاله "يهوه" عند بنى إسرائيل، وهو إله القفار والبراكين والبحار الثائرة، وفى الأساطير الأوجاريتية نجد أن عدو الاله "بعل" Ba^cal إله الخصوبة، هو الاله "يم" Yam (البحر)، وعلى ذلك فيمكن أن يكون (يم) نظيرا سامياً آخر (للاله "سِت"). أما فى العصر المتأغرق (الهللنستى) فقد أطلق على هذا الأخير اسم "تيفون" Typhon ولكنه، على عكس باقى الآلهة المصرية لم يكن له مقابل إلهى إغريقى. ويبدو السبب فى ذلك واضحاً، فبمجئ ذلك العصر، لم يكن من الممكن أن يكون للاله "سِت" بوصفه رمزا للشر، مقابل يبعث على الإحترام.

ومن جهة أخرى فإن الاله الإغريقى الوحيد الذى لم يكن له مقابل مصرى هو "بوسيدون" Poseidon. وإنى أرى أنه ينبغى أن نربط بين هذين الطرفين غير المرتبطين (وهما "سِت" و "بوسيدون"). لقد كان كل منهما معنيا بالبحر، الهزات الأرضية، الصيد، العجلات الحربية والخيل، كما كان كل منهما ميالا للشر والخصومة. وتماماً كما كان الهكسوس متفانين فى حماسهم للاله "سِت"، فإن "بوسيدون" كان هو الاله الذى يذكر أكثر من غيره كثيراً فى الألواح المكتوبة بالكتابة التخطيطية "ب" فى كريت فى العصر الموكينى وفى بلاد الإغريق. وقد أدت الصيغ البديلة (لإسم بوسيدون) التى يظهر فيها حرف t (بدلا من s)، مثل Poteidòn– أدت بالمهتمين بالدراسات الهندو-أوروبية إلى أن يطابقوا بين هذا الإسم (الأخير) وبين الجذر √pot "القوة أو السلطة". على أنه من الصعب أن نربط بين النهاية d(e)òn وبين *dios* (إلهى). وبالنسبة لمن يعمل فى مجال "النموذج القديم" فإن التبادل بين حرفى s/t يوحى بالحرف الساميّ "صاد" Sade (ص)، الذى يبدو كما لو كان شكلا من أشكال ts.

والتأصيل اللغوى الذى أقترحه لاسم Poseidon هو p3(w)Sidôn أو Pr Sidôn بمعنى: "ذلك الذى من صيدون" (صاحب صيدون) أو "بيت صيدون". وقد كان "صيد" Sid هو (الاله) الراعى لمدينة صيدون، واسمه مشتق من الجذر

√swd بمعنى: يصيد وكان إلها للقنص وصيد السمك والعجلات الحربية والبحر. وهكذا نجد التطابق كاملاً من ناحية دلالات الألفاظ. على أن الصعوبة فى الإشتقاق هى أنها تحتاج إلى صيغة مصرية – سامية من نوع لم يكمن إثباته حتى الآن. وعلىّ هذا فإن التأصيل اللغوى الذى اقترحته هو اقتراح مبدئى. ولكن سواء أكان من الممكن قبول هذا الاقتراح أم لم يكن ذلك ممكنا، فإنى أعتقد أن بوسعى أن أقدم نقاط تناظر لافتة للإنتباه بين "ست" و "بوسيدون"، وترجع أهمية هذه، بوجه خاص، إلى أن الأثنين لم تتم المطابقة بينهما فى العصور الكلاسيكية، ومن هنا فإن نقاط التشابه بين الالهين وبين عقيدتيهما لا يمكن أن نعزوها إلى "تمصير" تم فى وقت لاحق.

والفصل الخامس وهو "التوأمان الرهيبان" يدور حول التوأمين" أبوللو" Apollo و "أرتميس" Artemis. لقد عُبدت الشمس فى مصر فى صور مختلفة فى صورة "رع" Ra، وفى صورة "آتون" Aten، قرص الشمس، وفى صورتى "خبر" Hprr و"تم" Tm، وهما الشمس الصبية فى الصباح والشمس العجوز عند المغيب، على التوالى. ومن الناحية الأصواتية فإن المشكلة الوحيدة فيما يخص إشتقاق "أبوللو" من Hprr هى أن حرف h لاينسخ إلا نادرا على صورة Ø. ومن جهة أخرى فإن مثل هذا الإقتباس يصبح ممكنا إذا كان دخوله (إلى بلاد الإغريق) قد حدث فى فترة متأخرة وإذا كان قد تم من خلال اللغة الفينيقية التى يمتزج فيها حرف h مع حرف h الأكثر ليونه، والذى يؤدى فى اللغة الإغريقية فى صورة Ø. ولكن تشاء الصدف أن تكون هناك إشارتان إلى أن هذين (الشرطين) قد توافرا فعلاً. ذلك أن عدم ثبوت اسم "أبوللو" فى الكتابة التخطيطية "ب" توحى بالتأخر الزمنى (المذكور)، كما أن النقل بوساطة اللغة الفينيقية عن طريق الأداء الصوتى CaCoC يوحى بأن الاسم قد مر من خلال الزحزحة (الصوتية) الكنعانية à›ò.

ومن ناحية علم الدلالات اللفظية فقد يكون اشتقاق "أبوللو" من "خبر" أمرا جيداً إلى حد كبير. لقد طابق (المهتمون) بين Hprr وبين Hr m 3ht أو "هارماخيس" Harmachis كما ينطقه الإغريق، وهو "حورس عند شروق الشمس". (وفى هذا الصدد) فقد طابقوا بين "حورس" و "أبوللو" منذ عهد الشاعر "بنداروس فى القرن

الخامس (ق.م.) على الأقل. على أن هذا الجانب المتصل بالفجر من الممكن أن يكون الجانب الذى يتفق إلى أقصى حد وطبيعة أبوللو، الذى كان ينظر إليه دائما على أنه (إله) شاب. كذلك فإن الأسطورة المحورية التى تتصل بحورس هى صراعه مع "سِت"، الذى صُوِّر على أنه وحش مائى، ثم إنتصاره (حورس) عليه. وفى بلاد الإغريق نلتقى بأسطورة أساسية من الأساطير المتصلة بأبوللو، وهى أسطورة "دلفى" Delphi، يظهر فيها الاله الشاب بصحبة أخته أرتميس وهو يقتل الثعبان. والحجة التى أسوقها هنا هى أن (تسمية) Delphi، شأنها شأن تسمية *adelphos* (بمعنى: أخ) تأتى من لفظة سامية بمعنى "زوج" (اثنين) أو "توأم". وهكذا فإن (صفة) Delphinios التى كان يتلقب بها أبوللو، ماهى إلا إزدواج (ترادف) مع لقب آخر (له) هو Didymos (بمعنى: توأم). ومن هنا يبدو أن صفة "التوأمة" twinness تشكل عنصرا جوهريا فى طبيعة هذا الاله.

إن المؤرخين الحديثين للديانة الإغريقية يبتعدون الآن عن الفكرة القائلة بأن أرتميس، الأخت التوأم لأبوللو، كانت إلهة للقمر فحسب. والفكرة الشائعة الآن هى أنها عذراء، وأنها كانت إلهة للقنص فى المساء والليل، وقد نُظر إليها فى العصر المتأغرق على أنها تقابل الآلهة المصرية "بست" B3sst التى كانت تمثّل بالقمر. ومع ذلك فإن "بست" كان لها كذلك جانب آخر عنيف ومتقد ومن ثم ساد الإفتراض أنها كانت تساعد فى تدمير أعداء حورس. ومن هنا فقد كان ينظر إليها على أنها لبؤة وتمثل بالمقابل الأنثوى للاله "رع" Ra و الاله "تم" Tm، إله شمس المغيب. كذلك فإن "خبر" و "تم" كانا يمثلآن الجانبين التوأمين للاله Hr 3htwy "حورس ذى الأفق(ين)" الذى كان معادلا للاله رع. أما قرينة "تم" وهى Tmt/B3sst فيبدو أنها كانت تتمتع بقدر من الإستقلال، ومنذ أواسط الألف الثانية ق.م. تم الربط بينها وبين الالهتينااللبؤتين المرتبطتين بالاله حورس ذى الأفق(ين). وقد كان أكبر أثر تذكارى للاله حورس فى مصر هو أبو اللهول (القائم) فى الجيزة. ورغم أن هذا الأثر التذكارى هو أسد واحد، فإن لوحة الإهداء التى أقيمت بالقرب منه فى القسم المتأخر من القرن الخامس عشر ق.م. أى حوالى ألف سنة بعد بنائه تشير إلى Hr 3htwy وإلى Hr(i)Tm، وهى

(أسماء) تشير إلى Tm نفسه بصورة تكاد تكون مؤكدة. وإذا أخذنا بالأسس الأصواتية فإن صيغة Tmt Hrt يمكن أن تقدم تأصيلا لغويا للاله أرتميس Artemis. (وفي هذا الصدد) فإن التناظر بين حرف t- الأخير في لفظة مصرية مع النهاية is- في لفظة إغريقية هو أمر شائع. كذلك فإن اسقاط حرف t الذى يأتي في وسط الكلمة يتمشى مع تطور اللغة المصرية، كما أن نطق Hr على أنها (H)ar أمر له مايثبته بشكل وافر، وكذا تحويل حرف h المصرى إلى حرف Ø. وهكذا فإن "توأمة" أبوللو وأرتميس يمكن أن ينظر إليها على أنها توأمة Hprr و Tm، ومن ثم توأمه لشمس الشروق وشمس المغيب.

ويمضي الباب الخامس ليبحث في أسباب تغيير الجنس (الذكورة والأنوثة) وكذلك في مواطن التوازى بين أبوللو وأرتميس وبين كادموس Kadmos وأوروبه Europa، والأخيران يأتي إسماهما من الجذرين الساميين √qdm (الشرق) و √îrb (الغرب – المغرب أو الغروب). وفي هذا المجال فإن عبادات طيبة الإغريقية وأساطيرها تكتسب أهمية خاصة لأنها مرتبطة كذلك بكائن مركب على نمط أبي الهول. وبذلك فهي تضيف إلى الشبكة المعقدة التي تصلهما بهذا الجانب من الديانة المصرية التي تتخذ من الشروق محورا لها. وهنا أحاول أن أثبت أن الكائن المركب في طيبة (الإغريقية) يمكن المطابقة بينه وبين الطبيعة الوحشية والأسدية لكل من أوروبا وأرتميس. على أن الذى يهيئ صلة أكثر التصاقا بين الكائنين المركبين هو اللغز الذى يطرحه الكائن المركب الإغريقي، "ماهو الكائن الذى له صوت واحد" وله قدمان في بعض الأحيان وثلاثة أحيانا وأربعة أحيانا أخرى، وهو في أضعف حالاته حين يملك أكبر قدر من الأشياء؟. لقد أشار جواب أوديبوس Oedipus (في هذا الشأن) إلى حياة الإنسان. ولكن هذا اللغز إنما هو واحد من مجموعة تنتشر في شتى أرجاء العالم – ومن بينها عدد كبير يشير إلى ضعف الشمس في الصباح وفي المساء وإلى قوتها في وسط النهار. وفي ضوء تكريس أبي الهول المصرى للشمس في الصباح والمساء، فإني أرى أن المضاهاة أمر يسترعي الإنتباه.

ورغم أن اسم أبوللو أتى متأخراً من الناحية الزمنية، إلا أن التداخل بين

التأثيرات المصرية والشامية تقودني إلى الاعتقاد بأن هذه الحلقة الأسطورية الشمسية يعود ظهورها إلى فترة الهكسوس. هذا، بينما نجد، من الجهة الأخرى أن الطقوس الدينية السرية في إليوسيس تأتي متأخرة زمنيا بعض الشيء. (وفي هذا المجال) فإن القدامى من كاتبي الحوليات كانوا على إتفاق عام من جانبهم على أن عقيدة ديميتر وديونيسوس وصلت إلى أتيكا Attica * في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. ويبدو من الممكن أن يكون هذا مقنعا تماما، رغم الأصل المبكر لإسم ديميتر الذي يرجع إلى الفترة المبكرة من الألف الثانية ق.م. (أنظر أعلاه ص٦٣). إن الشطر الأخير من القرن الخامس عشر يشكل فترة وصلت فيها مصر إلى درجة كبيرة من القوة بعد فتوحات تحتمس الثالث، وهي فترة يبدو أن عقيدتي إيزيس وأوزيريس ترسختا خلالها بشكل كبير في مصر والمشرق. وحيث أن اللوحات المصرية الخزفية المزخرفة التي كانت توضع تحت أركان المعابد قد تم العثور على عدد منها في موكيني، وبما أن تاريخها يعود إلى عهد أمنمحعت الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م.)، فإني لا أجد من الصعب أن نقبل أن تكون عقيدة إليوسيس، التي ترجع إلى العصر المبكر من تاريخ بلاد الإغريق، قد إنحدرت من أساس مصري كان قائما قبل ذلك بسبعمائة عام. ومما يدل على ذلك أن إحدى الطرق العديدة التي كانت تعطي هذه العقيدة تفردها في بلاد الإغريق، هي أنها - على نمط ماكان يحدث في المعابد المصرية - كان لها تنظيم كهنوتي ثابت. وقد كان التنظيم في هذه الحال يتكون من فصيلتين كان أعضاؤهما في العصر المتأغرق يعتقدون أن هناك روابط تربطهم بمصر.

لقد مثلت طقوس الأسرار الدينية المصرية المتعلقة بعبادة أوزيريس، قصة بحث إيزيس عن زوجها وأخيها القتيل، وإعادة تجميعها لجسمه، وإنتصار ابنهما حورس على ست، قاتل أبيه. وتبدو القصة المتعلقة بأسرار إليوسيس، للوهلة الأولى، مختلفة عن ذلك إختلافا كبيرا. ففي هذه نجد ديميتر تبحث عن إبنتها برسيفوني Persephone، التي

* تقع أتيكا في القسم الأوسط من شرقي بلاد الإغريق (شمال شرق شبه جزيرة البلوبونيسوس) وهي المنطقة التي تتوسطها وتشكل مركزها مدينة أثينة. (المترجم).

سرقها هاديس Hades، إله العالم السفلي* . وقد وجدت برسيفوني ولكنها، حين فشلت في تخليصها، بدأت إضرابا تحول بمقتضاه دون أي نمو للنبات في مواسم الطبيعة، وإنتهى الأمر بعقد صفقة تقضى بأن تُمضى برسيفوني نصف العام مع هاديس والنصف الآخر مع أمها (ديميتر). إن هذه الإختلافات (بين القصتين) لا تكفي لإبطال شهادة القدماء بأن الأسرار الدينية الإغريقية أتت من الأسرار الدينية المصرية.

(وفي هذا الصدد) ففي حالة مصر، بينما كان أوزيريس هو محور العقيدة فإن بطلتها الفاعلة هي إيزيس. وفي حالة بلاد الإغريق فمما لا شك فيه أن ديميتر كان يقف خلفها ديونيسوس. وفوق ذلك ففي الأسرار المصرية لم تكن هناك إمرأة واحدة فحسب، وإنما كانت هناك أمرأتان، فقد كان لإيزيس رفيقة دائمة هي أختها ونظيرتها نفتيس Nephtis التي كانت، إلى جانب ماقامت به من البحث عن أوزيريس ورثائه، كانت كذلك متزوجة من قاتله سِت. وبهذه الطريقة فإنها كانت مناظرة لبرسيفوني من حيث الالتباس الذي كان يحيط بالجانبين المحب والجهنمي (الشيطاني) من طبيعتها. ولكن فوق كل شيء، فإن التنويعات الواسعة التي نجدها في هذه الحلقات الأسطورية المصرية والإغريقية، تجعل التأكيد على مابينها من إختلافات أمراً لا ينبغي الإقدام عليه، وذلك إذا أدخلنا في إعتبارنا العدد الكبير من التفاصيل المتناظرة التي تنطوي عليها هاتان العقيدتان من عقائد الأسرار.

ويتضمن (هذا الباب) كذلك عرضاً للدراسات التي قدمت في القرن العشرين عن هذا الموضوع، بدءاً من لدراسة التي قام بها بول فوكار Paul Foucart، الذي أقنعه عمله المفصل في موضوع اليوسيس، كما أقنعته معرفته الهائلة بالمصريات أن الرواية التقليدية القديمة للأصل المصري (للأسرار الإليوسيّه) غير قابلة للجدل(٢٥) وعلى أي الأحوال فمما لاشك فيه أن نقطة الإرتكاز في الأسرار الإليوسية كانت هي البحث عن الخلود، والاعتقاد القائم على التناقض الظاهري بأنه لا يتحقق الا عن طريق الموت. لقد كان الاعتقاد السائد هو أن المرء يمكن أن يمر بموت رمزي، من خلال تلقينه لهذه الأسرار وإدخاله في طقوسها، حتى يولد من جديد، كإنسان خالد. وقد كان هذا

---

* هو إله العالم الآخر عند الإغريق (المترجم).

التصور شائعاً في بلاد الشرق الأدنى القديم، ولكنه كان قويا في مصر بشكل غامر. ومن هنا الإتفاق الشامل بين الكتّاب القدامى على أن فيثاغورس Pythagoras وأورفيوس Orpheus وسقراط Socrates وآخرون ممن عنوا بمسألة خلود الروح. إنما عرفوا عنها ماعرفوا من مصر.

وقد كان الاهتمام بالخلود أمرا محوريا بالنسبة للعقيدة الأورفية، وهى تشكل جانبا من الديانة الإغريقية يبدو أنه أدخل (فى البلاد) بعد العصر الأرخى (المبكر archaic الذى تهتم به دراسة "أثينه السوداء" فى جوانب أخرى، بمئات السنين. ومع ذلك، ففى اعتقادى أن قرب هذه العقيدة من العقيدتين الديونيسية والإليوسية يبرر التطرق إليها فى المجلد الثالث (من هذه الدراسة). إن اسم أورفيوس يبدو من المحتمل أنه يأتى من اللفظة المصرية ('Irp^ct) تشكل لقبا للاله المصرى المعروف بشكل شائع على أنه "جب" Geb. وقد كان هذا الأخير إلها للأرض الطيبة – النبات والحيوانات الموجودة فوقها إلى جانب عالم ماتحت الأرض، وهو مايتطابق مع موقع أورفيوس كمنسّق للطبيعة إلى جانب اهتمامه بما فى باطن الأرض. وقد كانت للاله جب صلة وثيقة بالاله أوزيريس، الذى كان يفترض فى بعض الأحيان أنه (أى أوزيريس) ابنه والذى حل محله كسيد للعالم السفلى. كذلك يبدو أن أورفيوس وديونيسوس كان كل منهما يطابق الآخر بطرق عديدة على نمط مشابه ولكن مع شئ من العداء بينهما. ذلك أن المجتمع المصرى لم يكن يتهاون مع الشذوذ الجنسى، ومن الصعب أن نجد نظيرا مباشرا لهذا الجانب من شخصية أورفيوس. ورغم ذلك فإنه من المثير للاهتمام مانلحظه من أن اسم ('I)rp^ct يشكل صيغة مؤنثة. بل إن هناك ماهو أكثر مغزى من ذلك، وهو أن لفظة ('I)rp^ct كتبت وكانت نهايتها المحدِّدة (التى تحدد معنى اللفظة) هى (صورة) البيضة، التى يبدو أنها ذات صلة بالبيضة المرتبطة بنشأة الكون والتى كان يضعها (الاله) جب فى صورته كإوزة بدون تدخل أنثوى فى أغلب الأحيان. هنا كذلك تناظر مثير للإنتباه مع بلاد الإغريق، وذلك من حيث أن بيضة كانت فى الأساس هى بداية لنشأة الكون فى العقيدة الأورفية.

ورغم أن (عقيدة) جب موغلة فى القدم، فإنه من المحتمل أن العقيدة الأورفيا

دخلت بلاد الإغريق فى فترة متأخرة. فليس هناك، على سبيل المثال، أى ذكر لأورفيوس أو لفكرة نشأة الكون المرتبطةبه، فى ملحمة أنساب الآلهة Theogony للشاعر هيسيودوس Hesiodos، كذلك فإن نطق ('l)rp^{c}t فى صورة / Orpais Orpheus (الإغريقية) يبدو أنه ينتمى إلى وقت متأخر. وعلى هذا فيبدو من المحتمل – حسبما جال بخاطر عدد من القدامى والمحدثين – أنه برغم أن أورفيوس قد يكون موغلا فى القدم، إلا أن الأورفيه لم تقم إلا فى القرن السادس (ق.م.) فى إقتران شديد بالفيثاغورية، كما أن الإرتباط مع ('l)rp^{c}t كان يشكل محاولة لإضفاء مجد متعلق بالقدم على عقيدة مُحْدثة. ومع ذلك فإنه من غير الممكن أن نقرر إذا ماكان تعديل (تطوير) الأورفية قد بدأ فى بلاد الإغريق أو فى مصر. على أن تأكيد الأورفية والفيثاغورية على فكرة التناسخ metempsychosis – هجرة الأرواح من جسد إلى آخر بين الكائنات – والنباتية (الإتجاه النباتى فى الغذاء) المرتبطة بها كانتا شائعتين كذلك بين الكهنة المصريين فى العصرين المتأغرق والرومانى. إنه من غير الممكن أن نعرف مدى قدم هذه الأنواع من التقشف، ولكن إذا أدخلنا فى إعتبارنا أن الدين المصرى كان بوجه عام دينا محافظا، فإنه يصبح من المرجح إلى حد كبير أن ترجع هذه الإتجاهات إلى زمن الدولة القديمة. هذا ومن الناحية – الأخرى فإن هذه (المعتقدات) ربما تكون قد دخلت فى عقيدة الأورفية نتيجة لتعديلات (تطويرات) لاحقة.

كذلك فإن هناك صلات بين أورفيوس وكتاب الموتى، ففى عصر الدولة الحديثة والعصور التالية من تاريخ مصر (القديمة) كان هذا الكتاب بمثابة مرشد للروح خلال مخاطر العالم الآخر حتى تصل إلى الخلود، وكثيراً ماكان يدفن مع الجسد المحنط. هذا، وقد كان بعض الرقى والتراتيل المحفورة على رقائق ذهبية كانت توضع على أجساد الذين يعتنقون عقيدة أورفيوس. وهكذا يصبح من المثير للإنتباه أن نلاحظ فى هذا المجال أن نسخة من "كتاب الموتى" تشير فعلاً إلى "كتابَىْ جب وأوزيريس".

وقد ساد الاعتقاد بوجه عام فى العصور الكلاسيكية أن أورفيوس كان ينتمى، بطريقة أو بأخرى، إلى طراقيا، ولكنه تعلم أسرار شعائره الدينية فى مصر. وقد كانت الصلة بين أورفيوس ومصر مقبولة لدى الجميع فى العصور القديمة. وعلى هذا فإن

مواطن التشابه التى تثير الإنتباه فيما يخص التأصيلات اللغوية والعقائد، يصبح تفسيرها، على مايبدو، سهلا إلى حد كبير من خلال "النموذج القديم". ومع ذلك فينبغى أن أضيف (هنا) أنه قد يكون من الممكن لأىّ من أنصار "النموذج الآرى" أن يعترف بالأصل المصرى لمثل هذه العناصر المتأخرة زمنيا، دون أن يؤدى ذلك إلى الأضرار بالهيكل العام للنموذج الذى يتبعه. ورغم ذلك فإنه من الأمور ذات المغزى، فى اعتقادى، أن عدد الذين يقدمون على ذلك (الإعتراف) من بينهم قليل بشكل ملحوظ.

أما خاتمة "حل لغز أبى الهول"، فقد كررْتُ فيها رؤيتى العامة، وهى أن مواطن التناظر فى التأصيلات اللغوية والعقائد التى تشكل هذا المجلد ينبغى أن ينظر إليها ضمن إطارها. فالمقارنات التى تقدم هنا ليست بين الديانة الإغريقية والديانات الألجونقوية Algonquin أو التسمانية Tasmanian على سبيل المثال بما يفصل بينهما من مسافات بعيدة فى الزمان والمكان. ولكن المقارنة (فى دراستنا الحالية) هى بين نظامين يقعان فى طرف واحد بذاته من أطراف البحر المتوسط وفى خلال ذات السنوات الألف (التى نتعامل معها). وفوق ذلك فإن الإغريق فى العصرين الكلاسيكي والمتأغرق أكدوا، هم أنفسهم، أن ديانتهم أتت من مصر. بل إن هيرودتوس ذكر على وجه التخصيص أن أسماء الآلهة (الإغريقية) جميعا أسماء مصرية فيما عدا استثناءاً أو إستثناءين. هذا، وفى غياب أية مواطن تناظر مقنعة مع الثقافة الهندو-أوروبية فى مجال التأصيلات اللغوية والعقائد، فإنه يبدو من المعقول أن نبحث عن نظائر مصرية. وفى هذا الصدد، فإن المادة (العلمية) الموجودة فى المجلد الثالث، إذا أخذناها سويا مع الأقسام التى تعالج موضوعى (الآلهة) أثينه و(الإله) هرميس، نتبين أن وضع الديانات الإغريقية والمصرية والكنعانية إلى جانب بعضها يلقى ضوءاً مفسراً على بقع كبيرة من مساحة كانت تشكل قبل الآن سرا مغلقا. ومع ذلك، فأهم من هذا كله، أن هذا (الوضع) يفجر أسئلة كثيرة جديدة، كما يولد مئات من الفرضيات التى يمكن أن نضعها موضع الإختبار. وكما سبق أن ذكرت فى المقدمة العامة لهذه الدراسة، فإن هذا، بالتحديد، هو مايفرق بين التجديدات الجذرية المثمرة وبين الهوس العقيم. إن الهدف الجدير بالصفة العلمية من موضوع "حل لغز أبى الهول" هو نفس مايستهدفه المجلدان الآخران: أن أفتح مساحات جديدة للبحث أمام

نساء ورجال يملكون مؤهلات أفضل بكثير مما أملكه. أما الهدف السياسي من "أثينه السوداء" فهو، بالطبع، التقليل من الغطرسة الثقافية الأوروبية.

الباب الأول

النموذج القديم فى العصور القديمة

ترجمة د. لطفى عبد الوهاب يحى

كيف حدث أن المصريين أتوا إلى البلوبونيسوس،
وماذا فعلوا لكى يجعلوا من أنفسهم ملوكـا لهـذه
المنطقـة مـن بـلاد الإغريـق ؟ هـذه أخبـار رواهـا
الكتاب الآخرون. وعلى هـذا فلـن أزيـد عليهـا،
وإنما سأمضى فى ذكر نقـاط لم يتعـرض لهـا أحـد
غيرى من قبل.

(هـــيرودوتوس: التحقيقـــــات التاريخيـــــة،
(٦-٥٥)[1].

لقد تعلم أغلبنا أن ينظروا إلى هيرودوتوس Herodotos على أنه "أبو التـاريخ". ولكـن حتى أولئك الذين يتبعون (تصور) بلوتارخوس Plutarchos وينظرون إليه (هيرودوتوس) على أنه "أبو الأكاذيب" ليس بمقدورهم أن يزعموا أن هيرودوتوس كان كاذبا حين تحدث عـن وجـود مثل هذه الأخبار. ذلك أن ماذكره لم يكن بيانا عن بعـض الشـعوب البعيـدة يصعـب التحقـق مـن صحته. ولكنه كان بيانا يستطيع قراؤه أن يتأكدوا مـن صحتـه، هـذا إذا لم يكونـوا متـأكدين مـن ذلك مسبقا. وإذا نحينا جانبا، لوهلة بسيطة، قضية ماحدث بالفعل طوال ألف سنة قبـل أن يكتـب هـيرودوتوس كتابـه "التحقيقـات التاريخيـة" Historiae، فإن تعبـيره يوحـى إلى حـد كبـير بـأن الاعتقاد الذى كان سائدا فى القرن الخامس ق.م. هو أن بلاد الإغريق قد اسـتعمرها (اسـتوطنها) المصريون فى بداية "عصر الأبطال". وآمل فى البـاب الحـالى أن أبين أن آراء هـيرودوتوس حـول المستوطنات المصرية والفينيقية (فى بلاد الإغريق)، رغم تناولها من جانب المتخصصين المحدثـين فـى الدراسات الكلاسيكية وفى التاريخ القديم بقدر من التعالى والأزدراء، إلا أنها كانت آراء مألوفة، ليس فى الوقت الذى عاش فيه (ذلك المؤرخ) فحســب، ولكـن فـى خـلال كـل مراحـل العصـور القديمة: العصر الأرخى (المبكر) والعصر الكلاسيكى والعصر القديم المتأخر.

البلاسجيون Pelasgians

وقبل أن نتعرف على آراء الإغريق فى العصر الكلاسيكى حول هـذه الغـزوات وغـزوات أخرى مفترضة غيرها، قد يكون من المفيد أن ننظر فى أفكارهم عن الشعب الذى كان يقطن بـلاد

الإغريق فى الفترة السابقة لها، وذلك من حيث أن هذه الأفكار هــى التى أسسـوا عليهـا رؤيتهـم للطريقة التى ظهرت من خلالها تأثيرات الشرق الأدنى عليهم. وهنا نلتقى بالمسـألة الشـائكة التـى تخص السـكان الأصليـين للبـلاد، والمعروفين علـى نطــاق فـائق الإتسـاع، وهـم البلاسـجيون Pelasgoi، وهى تسمية اسـتخدمها الكتـاب (والمبدعـون) الإغريـق المختلفـون بطـرق مختلفـة. فحسبما يذكر هوميروس، كان هناك بلاسجيون على كل من الجانبين (الإغريق والطروادييـن) فـى حرب طروادة. (وهنا نجد) أن قسما من قوات أخيليوس (على الجـانب الإغريقـى) مـن الهيللينيـين والآخيين ذُكروا على أنهم كانوا يقطنون (مدينة) "أرجوس Argos البلاسجية" التـى نظـر إليهـا بشكل لا لبس فيه على أنها تقع فى ثيساليا[٢]. وعلى الجانب الآخر فإن الذين كانوا يدافعون عـن طـرواده كـانوا محـاربى هببوثـوس Hippothos البلاسـجى الـذى كـان ينتمـى إلى لاريسـا Laris(s)a[٣]. (وفى هذا الصدد) فإن الإشـتقاق المحتمـل لاسـم المكـان Laris(s)a هـو مـن اسم المكان المصرى R-3ht "الدخول فى الأراضى الخصبة"، وهو اسم يحتمل أنـه كـان يسـتخدم للدلالـة علـى "أفـاريس" Avaris التـى ربمـا كـانت تسـتخدم كعاصمـة للهكسـوس فـى منطقـة الأراضى الخصبة فى القسم الشرقى من دلتـا النيـل[٤]. (وهنـا نجـد) أن الـدلالات اللفظيـة تطـابق بشكل ممتاز بين Laris(s)a و E-3h. وأكثر من ذلك فإن الوصف الـذى نعـت بـه هومـيروس المدينتين المختلفتين اللتين تحملان هذا الاسم (لاريسا) هـو *eribòlax* (ذات التربـة العميقـة)[٥]. وحسبما جاء فى الإشارة المحددة عند سترابون Strabo، الجغرافى الذى عاش وكتب فى أواخـر القـرن الأول ق.م. وأوائـل القـرن الأول الميـلادى، فـإن كـل المـدن الإغريقيـة التـى حملـت اسـم Laris(s)a أقيمت على أرض مكونة من الطمى[٦].

وإذا أخذنا الموجات الاستعمارية (الاستيطانية) للهكسوس كافـتراض نعمـل علـى أساسـه، فإنه من اللافت للنظر أن نلاحظ أن أكروبوليس مدينة أرجوس الواقعـة فـى البلوبونيسـوس (شـبه جزيرة المورة)، المدينة التى يفترض أن داناؤس Danaos أسسها والتى كان يربطه بها عـدد مـن الروابط العقائدية الدينية، كانت تسمى Larisa[٧]. وفوق ذلك فإن سترابون يؤكد فـى موضـع آخر من كتابه "الجغرافيا" أن "أرجـوس" فـى اللغـة الإغريقيـة تعنـى الأرض "الأرض المسـطحة"[٨] (السهلية)، وهذا ينطبق بسهولة على التأصيل اللغوى لإسم "لاريسا" مـن "الدخـول إلى الأراضـى الخصبة" بوصفها اسم عاصمة الهكسوس. ومع ذلك فإن أرجوس Argos كـان مـن بـين معانيهـا

كذلك "سرعة" و "كلب" أو "ذئب"، وهى معان عكستها الأساطير والصور المتصلة بهذه المدنية البلوبونيسية[٩]. أما نواة (جوهر) المعنى الذى تشكله هذه اللفظة فقد كانت "السساطع" أو "الفضة"، وهذا يتطابق تطابقا جيداً مع Ind hd' أو "الجدار الفضى"، وهى تسمية كان يغلب إطلاقها على منف، عاصمة مصر السفلى[١٠]. هذا ويزيد من قوة الصلات ذات الإتجاهات الثلاث بين البلاسجيين ولاريسا وأرجوس، وجود "أرجوس" بلاسجية فى الإقليم الذى تقع فيه المدينتان اللتان تحملان اسم لاريسا واللتان ثبت وجودهما فى (منطقة) تساليا[١١].

وقد أشار هوميروس كذلك إلى النبوءة العظيمة والقديمة الخاصة بالاله زيوس Zeus فى دودونا Dodona بمدينة إبيروس Epirus، على أنها "بلاسجية"، وهى صفة استخدمها الكتاب المتأخرون[١٢] للتعبير عنها. وإلى جانب هذا فإن "البلاسجيين" يظهرون فى مواضع أخرى فى قائمة الشعوب الكريتية التى يقدمها (هوميروس)، وهى قائمة تضم شعوبا أخرى من بينها الآخيون Achaeans و الاتيوكريتيون Eteocretans والكيدونيون Kydonians والدوريون Dorians[١٣]. كذلك فإن هيسيودوس Hesiodos (الشاعر الملحمى) – أو ربما كيكروبس Kekrops الذى ينتمى إلى ميليتوس Miletos – يذكر أن "ثلاث قبائل هيللينية استقرت فى كريت: البلاسجيون والآخيون Achaioi والدوريون[١٤]. وفى فترة متأخرة عن ذلك كثيرا يزعم (المؤرخ) ديودوروس الصقلى Diodoros Sikeliotes أن البلاسجيين قد استقروا فى (جزيرة) كريت بعد الإتيوكريتيين ولكن قبل الدوريين[١٥].

وحتى لو كان الإقتباس السابق للأخير لايعود من الناحية الزمنية إلى هيسيودوس الذى كان يعيش، حسبما يقدر أصحاب "النموذج القديم"، فى القرن العاشر ق.م. فإن هذا الإقتباس يتطابق مع قائمة هوميروس. ويميز هذا الأخير (هوميروس) بين البلاسجيين وبين الإتيوكريتيين (بمعنى: الكريتيين الحقيقيين أو الأصلاء)، الذين يفترض أنهم لم يكونوا هيللينيين، ومن ثم فمن الممكن أن يكونوا أناضوليين أو، على سبيل الترجيح، متحدثين باللسان السامى[١٦]. وفوق ذلك فإن هوميروس لم يشر إلى الدانائيين Danaans أو إلى الأرجوسيين فى كريت. إن هذه الحقائق، إلى جانب الإيحاء المرتبط بالإسم والذى يفيد بأنهم "أهل البلاد الأصليون"، يجعل من الجدير بالتصديق أن نقترح أن البلاسجيين كانوا أقدم من قطنوا الجزيرة (كريت) من الهيللينيين أو المتحدثين باللسان الإغريقى. وهكذا فإن الترتيب الذى يقدمه هيسيودوس، يبدو من المحتمل أن

يكون ترتيبا زمنيا: أى أن البلاسجيين وصلوا إلى الجزيرة قبل غزو الآخيين لها فى القرن الرابع عشر، وقبل أن يغزوها الدوريون في القرن الثاني عشر. وهكذا يصبح من المحتمل أن يكون البلاسجيون، (كما وردوا) في كلا القائمتين، متطابقين مع الدانائيين.

وهناك إشارة أخرى إلى أن البلاسجيين كانوا هيللينيين تستند إلى الصلة التي أوجدها عدد من العلماء بين البلاسجيين والفلسطين أو الفلسطينيين **Philistines** الذين استقروا في فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م.، فالفلسطينيون، حسبما تؤكد رواية قوية من الكتاب المقدس، يفترض أنهم أتوا من كريت. ومعادلة **Pelasg** و **Pelast** كانت تفسر عادة بالتأكيد على (إبراز) وجود نقطة توقف **fullstop** في أصل الكلمة حسبما كان قبل وجود الهيللينيين، سمعها الإغريق على أنها (حرف) **g**، بينما سمعها المتحدثون بالمصرية والسامية على أنها (حرف) **t**. هذا، وإلى جانب شكوكي في وجود سكان قبل الهيللينيين، فإنه من الصعوبة بمكان أن نقيم حرفا ساكنا في المسافة الصوتية بين حرفي الجيم (الجافة) والتاء.

على أن هناك طريقة أخرى يمكن الربط من خلالها بين الحرفين. ففي ١٩٥١ قام جان برار **Jean Berard** بتقوية الصلة (بين الحرفين) بأن لفت الأنظار إلى المتغير **Pelasgikon / Pelastikon** الموجود في معجم هيسخيوس **Hesychios** الذى يعود إلى القرن الخامس الميلادى – وذلك في حاشية على (ملحمة) "الإلياذة"، نشيد (١٧)، سطر٢٣٣[(١٧)] – وهذا يبين أنه من الممكن أن نخلط في الصورة المكتوبة بين حرفي Γ (جيم) و T (تاء) * . وهكذا، وهو الأمر أن أؤكد عليه في مكان آخر، إذا كانت الأبجدية الإغريقية قد بدأ استخدامها منذ القرن الخامس عشر ق.م.، فإن مثل هذا الخطأ (الخلط) يمكن أن يفسر لنا، إلى جانب المتغيرات الموجودة في النصوص، تسمية **Pelasgoi** ذاتها. وذلك من حيث أن هذه ربما

---

* أضيف هنا أن الخلط بين حرف "الجيم" (الجافة) و "التاء" ليس قاصرا على الصورة "المكتوبة" فحسب، وإنما قد يكون كذلك في الصورة "المنطوقة". فقد عرفتُ (في مرحلة الطفولة) أطفالا، كما عَرفْتُ (في مراحل لاحقة) رجالا مثقفين يقلبون حرف "الطاء" (وهي قريبة من حرف "التاء") إلى حرف "الكاف" المضخمة أو "القاف" المرققة (وكلاهما حرف حلقي قريب من حرف "الجيم" الجافة). وذلك مثل "بطاطا" كانت تنطق بين "بكاكا" و "بقاقا" أو "طبيب" التى كانت تنطق بين "كبيب" و "قبيب". حقيقة إن الأمثلة كانت نادرة ولكنها كانت موجودة. وقريب من هذا الخلط عند عدد كبير من الناس، بين حرف "الراء" وهو من مقدمة الفم (ومن ثم قريب من "التاء") وبين حرف "الغين" وهو حلقي من مؤخرة الفم (مثل حرف "الجيم" الجافة). (المترجم).

تكون قد أتت من Pelast وهو النطق الذى (يمكن) إعادة تكوينه من الصيغة الكنعانية[١٨]. (نجد نظيرا لذلك: تطور اسم هبريديز Hebrides من قراءة خاطئة لاسم هبيوديس Hebudes[١٩]. ورغم أن طبيعة اللغة أو اللغات الفلسطينية لا تزال غير مؤكدة، فإن أكثر اللغات مرشحة لذلك، احتمالا، هى اللغات الأناضولية الغربية، مثل اللغة الليدية، أو اللغة الإغريقية، والأخيرة هي التي تبدو أكثر إحتمالا[٢٠]. وعلى هذا فإذا كانت هناك أية معادلة بين اللغة البلاسجية واللغة الفلسطينية – وهو أمر ممكن، وإذا كان الفلسطينيون قد تحدثوا الإغريقية – وهو أمر محتمل، فإن هذا سوف يزيد بشكل كبير من أحتمال أن يكون البلاسجيون من سكان كريت قد تحدثوا لغة هيللينية.

ويبدو أن هيسيودوس، على نمط (ماجاء فى أشعار) هوميروس، قد رأى بلاسجيين فى إفثيا Phthia[٢١]، ورآهم كذلك فى أركاديا Arkadia حيث وصف زعيمهم (الشخص الذى كان يتلقب القوم باسمه) بلاسجوس Pelasgos بأنه من أهل البلاد[٢٢]. وفى القرن السادس أو الخامس ق.م. أشار أكوسيلاوس Akousilaos إلى كل بلاد الإغريق جنوبى تساليا باسم "بلاسجيا" Pelasgia. أما إيسخيلوس Aeschylos، الذى ينتمى إلى القرن الخامس، فقد زاد من حجم بلاسجيا لتظم القسم الشمالى من بلاد الإغريق كذلك[٢٣]. هذا بينما كتب هيرودوتوس عددا من الفقرات الممتعة، وإن كانت تؤدى إلى التشويش، عن البلاسجيين. وحسبما ذكر، فإن البلاسجيين، رغم أنهم عاشوا فى كل أرجاء بلاد الإغريق، إلا أنهم أسلاف للأيونيين Ionians وحدهم، وليسوا أسلافاً للدوريين الذين كانوا "هيللينيين". وقد أكد أن اللغة البلاسجية لم تكن لغة إغريقية، وأسس حجته فى هذا الصدد على ملاحظة مؤداها أن مدينتين تقعان على (مضيق) الهللسبونت Hellespontos (مداخل البحر الأسود) كانتا تعتبران مدينتين بلاسجيتين، ومع ذلك كانت لغتهما أجنبية (غير إغريقية). وعلى هذا فإن شعوباً مثل الأثينيين، الذين يفترض أنهم كانوا بلاسجيين قبل أن يصبحوا هيللينيين، كان لابد أن يغيروا لغتهم[٢٤].

وبخلاف أثينا فإن الأماكن التى ربط هيرودوتوس بينها وبين البلاسجيين كان تضم دودونه Dodona والساحل البلوبونيسي ولمنوس Lemnos وساموطراقيا Samothrace والقسم الشمالى الشرقى لمنطقة بحرإيجه بشكل عام[٢٥]. ومن الممكن أن يدعم من رأى هوميروس إكتشاف

حديث فى لمنوس لنصب تذكارى مكتوب بلغة تشبه اللغة الإتروربة، كما تدعونا كل كل الأسباب إلى أن نفترض أن المدن التى أشار إلى وجودها على (مضيق) الهللسبونت كانت تتكلم كذلك لغات أناضولية[٢٦].

والصورة التى يقدمها هيرودوتوس للبلاسجيين تبدو، فى شكلها العام، مشابهة لتلك التى يقدمها (المؤرخ) ثوكيديديس Thukydides بعد ذلك بجيل. وقد كان البلاسجيون، حسبما يذكر هذان المؤرخان، يشكلون القسم الأساسى من سكان بلاد الإغريق ومنطقة بحرإيجه فى الفترة المبكرة، وإن لم يشكلوا كل هؤلاء السكان، ثم تمثل الهيللينيون أغلب هؤلاء البلاسجيين بالتدريج بعد ذلك[٢٧]. وقد نظر هيرودوتوس إلى هذا التحول (التمثل) على أنه تم بعد الغزو الذى قام به داناؤس (لبلاد الإغريق)، وهو غزو حدث حسب تصور هيرودوتوس حوالى أواسط الألف الثانية ق.م. كما وصف (هذا المؤرخ) الدانائيين المصريين بأنهم علموا البلاسجيين – وليس الهيللينيين – عبادة الآلهة. كذلك نجد (المؤرخ) ديودوروس يذكر أن كادمويس Kadmos علم البلاسجيين استخدام الحرف الهجائية الفينيقية[٢٨]. ومن المحتمل كذلك أن الرواية التى تشير إلى ككروس Kekrops مؤسس أثينا على أنه مصرى، كانت شائعة على أيام هيرودوتوس. وعلى هذا، فرغم تأكيد هذا الأخير على أن الأثينيين – على خلاف أهل كل من أرجوس وطيبة – لم يكونوا من أهل البلاد الأصليين، فإننا نجد هذه الفقرة التى تدعو للاهتمام:

"حين احتل البلاسجيون المنطقة التى تدعى الآن بلاد الإغريق (هلاس Hellas)، كان الأثينيون، وهم أحد الأقوام البلاسجية، يُدعَوْن الكرانائيين Kranaoi ثم اكتسبوا اسم الككروبيين Kekropidae على عهد ككروبس، وعندما آل الحكم إلى إرخثيوس Erechtheus غيروا تسميتهم إلى الأثينيين"[٢٩].

إن الفكرة التى تصور البلاسجيين على أنهم هم السكان الأصليون للبلاد، ثم حولهم الغزاة المصريون ألى قوم لهم من الصفات مايقترب من التكوين الإغريقى – هذه الفكرة ترد بشكل أكثر وضوحا فى مسرحيات إيسخيلوس Aischylos و يوريبيديس Euripides، التى كتبت حوالى الوقت الذى كتبت فيه "التحقيقات التاريخية، لهيرودوتوس. وحسبما جاء فى هذه المسرحيات فإن البلاسجيين كانوا هم أهل البلاد الأصليين الذين واجههم داناؤس وتغلب عليهم بشكل أو بآخر فى منطقة أرجوس.

"لقد إتخذ داناؤس، الذى كان أبا لخمسين ابنة، مدينة إناخوس Inachos مقراً له حين أتى إلى أرجوس، ثم أرسى فى كل أرجاء بلاد الإغريق (Hellas) القانون الذى تسرى بمقتضاه تسمية الدانائيين على كل الأقوام الذين كانوا يتسمون حتى ذلك الوقت بإسم البلاسجيين"(٣٠).

والبلاسجيون، حسبما يذكر إيسخيلوس، يتطابقون بوضوح مع الهيللينيين المتأخرين، بينما يشير (الشاعر المسرحى) – بشكل ينطوى على مفارقة زمنية – إلى ممارسات البلاسجيين على أنها ممارسات هيللينية(٣١).

أما سترابون، فى أواخر القرن الأول ق.م. وأوائل القرن الأول م.، فقد جمع قدراً من المصادر عن البلاسجيين، مضيفا إلى ذلك قصة مفصلة عن هجرة بلاسجية من بويوتيا Boiotia إلى أتيكا(٣٢). وأما عن باوسانياس Pausanias فقد أشار فى القرن الثانى الميلادى إلى البلاسجيين فى أثينا وكورنثة وأرجوس ولاكونيا Lakonia ومسينيا Messenia، ولو أن أولئك الذين كانوا فى مسينيا كان يفترض أنهم جاءوا من ثساليا(٣٣). ومع ذلك فقد أعطى اهتماما خاصاً للصلة بينهم وبين الأركاديين واعتبر أن بلاسجوس هو الجد الأعلى للأركاديين. هذا وقد اقتبس باوسانياس عن آسيوس Asios، شاعر القرن السادس الذى أتى من ساموس Samos قوله: "والأرض السوداء أنتجت بلاسجوس، نظير الآلهة"(٣٤).

(وهنا قد نتساءل) هل نستطيع أن نخرج بشئ معقول من هذه الإشارات المختلفة ؟ إن صعوبة التوفيق بينها لم تقتصر على الكتاب القدامى مثل هيرودوتوس وسترابون، فقد تعرض العلماء المحدثون للصعوبة ذاتها. وكما قال العالم الموسوعى نيبور Niebuhr، مؤسس دراسة التاريخ القديم فى العصر الحديث، فإن إن اسمهم (البلاسجيين، ربما كان اسماً قوميا (لآحد الأقوام)، وعلى الأقل فإن التفسيرات التى قدمها الإغريق فى موضوعهم منافية للعقل، (٣٥) وبعد ذلك بقرن من الزمان نجد عالما آخر يجد نفسه فى حالة يأس مماثلة، وهو إدوارد ماير Edward Meyer، الذى هيمن اسمه على تخصص كتابة التاريخ القديم عند نهاية القرن التاسع عشر(٣٦). كما أن هناك عددا من مؤرخى القرن العشرين آثروا أن يهملوا القضية واكتفوا فى هذا الصدد بأن يذكروا أن البلاسجيين شكلوا عنصراً هاماً من عناصر السكان المبكرين فى بلاد الإغريق(٣٧).

ومن الصعوبة بمكان أن نجد للبلاسجيين مكانا مناسبا فى "النموذج الآرى" الذى يتحدث

(أتباعـه) عـن فتـح هيللينـى مـن الشـمال. إن بعـض الكتـــاب مثـل إرنسـت كورتيـوس Ernst Curtius، الكاتب الطليعي للنموذج الآرى، رأى فيهم شعبا نصف آرى تعرض لغزو أقليـة مـن الشـعب الهيللينـى الآرى الأكـثر تفوقـا[٣٨] – وهـو-تفسـير يتـواءم بشـكل مناسـب مـع مـاروا ه هيرودوتوس عن البلاسجيين فى المنطقة المتحدثة باللغة الأناضولية فى القسم الشمالى الشـرقى مـن منطقة بحرإيجه. على أن مثل هذه الفرضية تجعـل مـن الصعـب علينـا أن نقـدم تفسـيرا يجيـب علـى التساؤل التالى: إذا كان (الأقدمون) قد تذكروا البلاسجيين بهذا الشكل الظاهر، فلماذا لم يرد أى ذكر لغـزو الهيللينيـين لهـم ؟ (وهنـا نجـد) ثوكيديديـس نفسـه يشـير إلى البلاسـجيين وغـيرهم مـن الشعوب على أنهم قد "تهلّنوا" (اكتسـبوا الصفة الهيللينيـة) عـن طريـق "التواصـل" التدريجـى مـع "أبناء هيللين"* الذين يرجع أصلهم "هم أنفسهم" إلى افثيوتيس Phthiotis قرب ثساليا[٣٩].

وإحدى الطرق للإلتفاف حول هذه المشكلة هى طريقة العمل التـى تبناهـا وليـم ردجـواى William Ridgeway – الذى هيمن على مجال الدراسات الآثارية الكلاسيكية عند منعطـف القـرن التاسـع عشـر – وعلمـاء القـرن العشـرين: إرنسـت جرومـاخ Ernst Grumach و سنكلير هود Sinclair Hood. إن هؤلاء يؤكدون أن الفتح الدُّورى قد سـجلته الروايـة علـى أنه "عودة أبناء هرقل أو الهراكليين (الهرقليين)" و "الغزو الدورى"، اللذيـن كانـا فـى واقـع الأمـر حركات قبلية من الشمال إلى الجنوب فى القرن الثانى عشر ق.م.[٤٠]. (وجدير بالذكر) أن مثـل هذا الترتيب ينسجم بسهولة مع ماذكره هيرودوتوس من ربط الدوريين بالهيللينيين وربط الأيونيين بالبلاسجيين[٤١]. على أن هذا يؤدى إلى مشكلة بسيطة فى التوفيق بين مـاذكر مـن هَلّنـة الأثينيـين "البلاسجيين وبين الرواية القوية التى تذكر أن أثينا لم يفتحها الدوريون على الإطلاق. ولكن هـذا الصعوبة تكاد تفقد مغزاها إلى جانب "الحقيقة" التى أقر بهـا أغلـب مؤرخـى القـرن التاسـع عشـر وكل مؤرخى القرن العشرين تقريبا، وهى أن الذيـن صنعـوا الحضـارة الميكينيـة فـى فـترة مـا قبـل الدوريين كانوا يتحدثون الإغريقية. وهكذا تصبح الطريقة الوحيدة التى يمكـن مـن خلالهـا الربـط بين "الغزو الدورى" و "الفتح الآرى"، هى أن نقول إنه (الغـزو الـدورى) شـكّل آخـر حلقـة مـن

* هيللين Hellen هو لقب جد الهيللينيين وهو ابن (أو أخو) ديوكاليون وأبناؤه هم دوروس Doros وكسـيثوس Xuthos وأيولوس Aeolos وهم آباء السلالة الدوريـة والأيونيـة والأيوليـة علـى التـوالى فنحـن إذن بصـدد تصور إثنولوجى – أسطورى لأصل الإغريق راجع Thuc. I 3,2, Pind. Ol. g, 68 (المراجع).

موجات الهجرة. ومع ذلـك، فإن هـذا لا يقـدم شيئا فـى مجال فهمنـا لأول وصـول مـن جـانب المتحدثين باللغة الإغريقية أو بالأصول الأولى لهذه اللغة إلى بلاد الإغريق.

وكما نستطيع أن نرى عن طريق الرجوع إلى الكتّاب الإغريق (القدامى)، وهو ماقمنـا بـه آنفا، فإن "النموذج القديم" هو الآخر يواجه صعوبات فيما يخص مسألة البلاسجيين. وبالنسبة لمن يريد من المحدثين مناصرة "النموذج القديم المعدل" Revised Ancient Model فـإن الحـل الأمثل هو أن يتبع التيار الأساسى لكتابة التاريخ فى القرن التاسع عشر (الذى يمثلـه) علمـاء مثـل "جروت" Grote وفيلاموفيتس – مويلندورف Wilamowitz-Moellendorf، وأن يقـول معهـم إن لفظـة "البلاسـجيين، لاتزيـد عـن كونهـا تسـمية عامـة أطلقـت علـى سـكان البـلاد الأصليين[٤٢]. علـى أننى أزعـم هنـا أن هـذه التسـمية طُبقـت فـى أغلـب الأحيـان علـى السـكان الأصليين من الشعوب المتحدثة باللغة الهندو-أوروبية، الذين ثم استعمارهم، كما تم تمثلهم إلى حد ما على أثر غزوات مصرية – فينيقية. إن هذا (التفسير) يتسق بشكل جيد مع وصف إيسـخيلوس ويوريبيدس الذى سبق ذكره. وهكذا فإن الأمر الـذى وجهـه دانـاؤس للبلاسـجيين بـأن يصبحـوا دانائيين يكون مايمثلـه هنـا هـو تبنـى هـؤلاء لحضـارة الشـرق الأدنـى. كذلـك فـإن فكـرة التمثـل (الإستيعاب الحضارى) يمكن أن تتسق مع عملية تحول الأثينيين من بلاسجيين إلى أيونيين علـى يـد ككروبس وإرخثيوس.

وهكذا فإننا، من خلال العمل فى إطار "النموذج القديـم"، نتفـادى المشـكلة التـى تواجـه العلماء الذين يتبعون "النموذج الآرى"، وذلك فيما يخص فهم ما أرتآه الكتاب الكلاسيكيون فـى البلاسـجيين مـن أنهـم السـكان الأصليـون الـبرابرة لبـلاد الإغريـق، ولكنهـم، فـى الوقـت ذاتـه، هيللينيون بطريقة ما. و(هنا أجد) مما يلفت النظر كذلك، ذلك الإتجاه نحو الربـط بـين البلاسـجيين وبين أماكن بعيدة مثل أركاديا وإبيروس Epirus وطـرف ثسـاليا. وفـى هـذه الحـال فإننـا يمكـن ببساطة أن ننظر إليهم على أنهم يشكلون الجماعات الأولى من السكان الذيـن "تم تمثلهـم إغريقيـا بعد ذلك" Proto-Greeks. وربما نجـد نظـيرا لذلـك فـى التمييـز الـذى لا تتضـح معالمـه بـين الفيتناميين الذين يسكنون دلتـا النهـر الأحمـر وبـين (جماعـات) الموونـج Muong الذيـن يقطنـون المناطق الجبلية الواقعة فى الجنوب، والذيـن يتشـابهون فـى اللغـة والثقافـة مـع الفيتنـاميين، ولكـن ينقصهم إلى حد كبير (تلك) الاقتباسات الثقافية الهائلة التى إقتبسها هؤلاء الأخيرون مـن الصـين.

على أنه لا يوجد من الأدلة مايساند هـذا النـوع مـن النظـر فـى الأمـور. كذلـك فإننـا نعـرف أن الأركاديين كانوا يتحدثون اللغة الإغريقية بحلول آخر العصر الموكينى على الأقل، وفوق ذلك فإن أركاديا كانت تعج بتأثيرات مصرية وسامية [٤٣]. ومن الممكن أن نفسر هذا (الوضع) إذا إعتمدنا وجود تمثل بطئ ولكنه كامل فى تلك المنطقة. (وعلى سبيل المقارنة نقول هنـا) إنـه، تماماً كمـا أن أهل ويلز **Wales**، رغم مقاومتهم للإحتـلال الرومـانى، إلا أنهـم إحتفظـوا بعديـد مـن الألفـاظ اللاتينية المقتبسة كما احتفظوا بالعقيدة المسيحية الرومانية – فكذلك إحتفظ أهل أركاديـا بتقـاليد من الثقافة الأعلى التى قاوموها قبل ذلك. على أننا نسـتطيع، فـى مقـابل ذلـك، أن نجـادل بـأنهوا سموا "بلاسجيين" بسبب إستمرارهم فى التمسك بتقاليدهم فى فترة لاحقة.

ولم يكن أهل أركاديا هم الوحيدون من بين الإغريـق الذيـن إحتفظـوا بعنـاصر مـن الثقافـة الموكينية فى العصر الحديدى، فالشئ ذاته يمكن أن يقـال عـن الأيونيـين والأيوليـين. أمـا الإسـتثناء الكبير (فى هذا المجال) فهو الدُّوريون – وهو أمر يفجـر مشـكلة طبيعـة الثقافـة الدوريـة أو ثقافـة القسم الشمالى والشمالى الغربى من بلاد الإغريق، وهو القسم الذى يفـترض بشـكل مقنـع أنهـم أتوا منه. (وفى هذا الصدد) فإنه لا يوجد شك كثير فى وجود تأثيرات دينية مصريـة وسـامية فـى مختلف أرجاء القسم الشمالى من بلاد الإغريق وفى طراقيا. وهنـاك كذلـك الصـلات المحـددة بـين أهم مركز للنبوءات فى الإقليم، وربما أقدمها جميعا، وهو مركز "دودونه" البلاسجية ونبوءة آمون المصرية – الليبية فى واحة سيوه والنبوءة الكبيرة لآمون فى طيبة – وهن التى سأناقشها فى المجلـد الثالث (من هذه الدراسة).

وفوق ذلك فإن زعماء الدوريين يؤكدون أنهم من أبناء هرقل أو "هراكليون"، بمعنى أنهـم من ذرية المستوطنين من الدانائيين المصريين الذين حلوا محل الأسرات الحاكمة من سلالة تانتـالوس التانتالية **Tantalid** *والبلوبية **Pelopid** ** التى يبدو أنها قدمت مـن الأنـاضول فـى القـرن الرابع عشر ق.م. (وفى هذا الصدد) فإنه من الواضح أن الملوك الدوريين ظلـوا يعتـدّون بـأصولهم المصرية الهكسوسية حتى فترة موغلة فى العصر المتأغرق (الهللنستى) [٤٤]. ومـع ذلـك فلـم توجـد قصور ميكينية فى القسم الشمالى الغربى من بلاد الإغريق، ويبـدو مـن المقنـع أن نفـترض أن تـأثر

---

* تانتالوس **Tantalos** ابن زيوس وملك فريجيا ووالد بيلوبس (المراجع).

** بيلوبس **Pelops** ابن تانتالوس وسميت باسمه البلوبونيسوس **Peloponesos** (المراجع).

هذا الإقليم بوجه عام بالمؤثرات الآتية من الشرق الأدنى كان أقل من تأثر بقية بلاد الإغريق. وإلى جانب ذلك فإذا كان "عودة الهراكليين" الدورية، تزعم لنفسها شرعية دانائية، فإن هذا لا يمنع أن تكون لها كذلك جوانب إجتماعية ووطنية (قومية). إن عديدا من علماء الآثار لاحظوا إنبعاثا للحضارة المادية التى تنتمى للعصر الهلادى الوسيط الذى سبق العصر الموكينى، وذلك بعد تدمير القصور الميكينية. وهكذا قد يكون من المرجح كثيراً أن تكون نهاية العصر الموكينى قد جاءت على أثر الدوريين الذى لم يتم تمثلهم (إستيعابهم) ثقافيا، يواكبهم، على الأقل فى بعض الأماكن، دعم من مزارعين مروا بقدر من التمثل الحضارى (المذكور) ويمارسون حياتهم ضمن إطار إقتصادى مرتبط باقتصاد القصور[٤٥].

وإذا نظرنا إلى الأمر فى مجمله، فإن الإشارات إلى البلاسجيين فى بلاد الإغريق الأوروبية تتسق مع "النموذج القديم" بشكل معقول. فصفة "بلاسجى"، حسب هذه الإشارات، كانت، ببساطة، تسمية تطلق على أهل البلاد الأصليين من الإغريق المبكرين الذين لم يتم تمثلهم (حضاريا)، ومثل هذا الإطار لن يكون متنافرا مع وجود البلاسجيين المبكرين، الهيللينيين رغم ذلك، فى كريت[٤٦]. ومن جهة أخرى فإن الصعوبة الكبرى بالنسبة لرؤية "النموذج القديم المعدل" تأتى مما ذكره هيرودوتوس بشكل محدد عن اعتقاده بأنهم لم يكونوا من المتكلمين باللغة الإغريقية. ويبدو أنه قد أسس هذا الزعم بشكل كامل على شواهد من القسم الشمالى الشرقى لمنطقة بحرإيجه. وهنا قد يبدو من المقنع أن اقترح أن صفة "البلاسجيين" كانت تستخدم فى هذه الحال بالمعنى العام للكلمة كتسمية لأهل البلاد الأصليين. ويظهر أن استخدامها كان يشكل محاولة لتقديم أسم موحد للشعوب المختلفة، التى أدى وجودها إلى مثل هذا الإرتباك لدى الكتاب القدامى والمحدثين.

الأيونيون

يشكل الأيونيون إحدى القبيلتين الكبيرتين فى بلاد الإغريق، أما الأخرى فيمثلها الدوريون. وكان الأيونيون يقطنون فى العصور القديمة شريطا يقطع القسم الأوسط من منطقة بحرإيجه، يمتد من "أتيكا" Attika إلى "أيونيا" Ionia على ساحل الأناضول. وتذكر رواياتهم التقليدية الراسخة أنهم استعمروا المناطق الواقعة إلى الشرق بعد وصول الدوريين، وأنهم كانوا يعيشون فى مناطق أكثر إتساعا فى بلاد الإغريق قبل (هذه) الغزوات. وقد ربط هيرودوتوس بين

البلاسجيين والأيونيين، وكان يعتمد في ذلك، بشكل يكاد يكون مؤكدا، على رواية قديمة[٤٧]:

إن الأيونيين...، حسبما روى الإغريق طوال المدة التى عاشوها فيما يسمى الآن "أخايا" Achaia فى (شبه جزيرة) البلويونيسوس، كانوا يُدعون البلاسجيين أهل الساحل... وسكان الجزر كذلك... هم شعب من البلاسجيين: وقد عرفوا فى فترة لاحقة باسم الأيونيين لنفس السبب الذى عرف من أجله سكان المدن الإثنتى عشر التى أسستها أثينا، بهذا الإسم[٤٨].

لقد كان الأيونيون الذين عاشوا فى أتيكا وفى أيونيا على الساحل الأناضولى، يؤكدون على أصولهم القومية القديمة. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن لفظة "ياؤون" I(a)òn، التى وردت فى الكتابة التخطيطية "ب" Linear B فى صورة ia-wo-ne، هى نفس "ياوان" Yåwån فى اللغة السامية الغربية و "ياوانى" Yawani أو "يامانى" Yamani الآشورية و "ياونا" Yauna الفارسية و "وين"Wynn المصرية التى وردت فى الكتابة الديموطيقية. وكل هذه الكلمات تعنى: إغريقى (يونانى). على أن كل من يُعتدّ برأيهم يفترضون أن يكون اسم Ion إغريقيا، وذلك رغم إفتقاره إلى تأصيل لغوى هندو–أوروبى[٤٩]. ويبدو أن اللفظة المصرية *'Iwn(ty(w))* (المحاربون، البرابرة) [٥٠]، هى أقرب الأصول إقناعا لهذه المجموعة (من الأسماء) ولجماعتى Hyantes, Aones من سكان البلاد الأصليين الذين قابلهم فى بويوتيا الغزاة المصريون – الفينيقيون الذين يرد ذكرهم فى الحكايات الشعبية. ودليلنا على ذلك لا يقتصر على أن هذه التسمية المصرية موثقة لأكثر من ألف سنة قبل التسميات الأخرى فحسب، ولكن لها كذلك تأصيل ظاهر من كلمتى *'iwnt* (سهم) و *'iwn* (عمود أو جذع شجرة).

ولا يُضعف كثيرا من هذا الإشتقاق أن النصوص المصرية تميل إلى إستخدام هذه التسمية للدلالة على الشعوب الإفريقية الأخرى وليس للدلالة على الإغريق الذين كان لدى المصريين تسميات أخرى لهم، ونحن نرى نظيراً لذلك فى إستخدام الإسم الإنجليزى Indian بدون تمييز لتسمية شعوب مختلفة عن بعضها تماماً – وهو أمر يبيّن إلى أى حد تكون سهولة التحرك فيما يخص إستخدام الألفاظ الدالة على أهل البلاد الأصليين (من الشعوب الأخرى) أو على "البرابرة". وفيما يخص الحالة التى نحن بصددها فإننا نعرف أن المتحدثين باللسان السامى كانوا يستخدمون لفظة مشابهة بشكل يلفت النظر للدلالة على الإغريق – وهو استخدام بدأ على

الأقل منذ نهاية الألف الأولى ق.م. وكما ذكرت في مقدمة الدراسة، فإن الاله المصرى للصحراء ولكل ماهو برى ووحشى فيما يتجاوز وادى النيل وسكانه، كان الاله "ست" St. وقد تم نسخ هذه التسمية إلى Seth في الإغريقية وإلى Sutekh فى اللغة الأكادية. وسأحاول فى المجلد الثالث أن أثبت أن "ست" كان هو المناظر للاله بوسيدون Poseidon ومن هنا فمن اللافت للنظر أن الأخبار التقليدية فى بلاد الإغريق فى القرن الخامس ق.م. تذكر أن إيون Ion– الشخص الأسطورى الذى تسمى بإسمه الشعب (الإغريقى) – كان أبوه مشاغباً يحمل اسم Xouthos، وهو إسم يمكن اشتقاقه بسهولة من St. هذا إلى أن الصلة بينهما فى مجال دلالات الألفاظ، يقوى منها أن بوسيدون كان راعي الأيونيين[٥١].

وبهذه الطريقة يصبح فى مقدور "النموذج القديم المعدل" أن يقدم تأصيلات لغوية جديرة بالتصديق لأسماء Xouthos و Ion، وتفسيرات للعلاقات الوثيقة التى تصور الكتاب القدامى وجودها بين البلاسجيين والأيونيين. وبوجه عام فإن هذا النموذج بإمكانه أن يبدأ فى إضفاء معنى (واضح) على معلومات ظلت تشكل خليطا مشوشا لا أمل فى التعامل معه بالنسبة للكثيرين من العلماء البارزين الذين حاولوا أن يفهموها من خلال "النموذج الآرى".

الاستعمار (الاستيطان)

حين نتناول الروايات الإغريقية الخاصة بالاستعمار (الاستيطان)، فإنى أعتقد أنه من المفيد أن نقسمها إلى ثلاث فئات. فهناك، أولاً، الروايات الغامضة، إن لم نقل المتنافرة أو غير المتناسقة التى تتصل ببعض الشخصيات التى ترد فى الحكايات الشعبية مثل الملك إيناخوس Inachos فى أرجوس ومثل شخصيتى أمفيون Amphion وزيثوس Zethos فى طيبة. وهناك، ثانيا، الروايات التى تتصل بشخصية ككروبس فى أتيكا أو رادامانثيس Rhadamanthys فى كريت وأيونيا، وكانت هذه موضوع أخذ ورد فى العصر القديم. ثم هناك، ثالثا، أخبار كادموس وداناؤس وبلوبس Pelops، التى كانت مقبولة بشكل عام. وفي اعتقادى، كما أشرت آنفاً، أن الإغريق كانوا يميلون إلى الإقلال من شأن التأثير والاستعمار الذى أتى من الشرق الأدنى. وفوق ذلك فإنى على يقين من أن الحكايات الشعبية المتوارثة تحتوى على نواة هامة من الحقائق التاريخية، وأن طبقات الغموض المتراكمة بعضها فوق بعض يمكن تفسيرها على أساس من المراحل الزمنية، فكلما كان الاستعمار حديثاً كانت صورته أكثر وضوحا. (هذا) وسأوجه، فى المقام الأول، فى

هذا المجلد للروايات الخاصة بداناؤس وكادموس، لأن موجات الاستعمار الأكثر حداثة هي التي شكلت "ساحة المعركة" التي سقط فيها "النموذج القديم" وإنتصر "النموذج الآرى".

وبادئ ذى بدء، فإنه ينبغي علينا (فى هذا المجال) أن نُعنى بمسألة إستعمار كادموس لطيبة، فقد كان هذا الاستعمار هو نقطة الإرتكاز بالنسبة لأنصار "النظام القديم" لأنه كان مؤيدا بالأدلة القوية على نطاق واسع ولأن إحترام (الكتاب الأوروبيين) للفينيقيين الساميين تجاوز احترام المصريين الأفارقة بعدة عقود. (وحول هذه المسألة) فإن مقالة نشرها أ.و.جوم A.W.Gomme فى عام ١٩١٣ هيمنت على مسار التخصص العلمى الكلاسيكى لدى المتحدثين بالإنجليزية. وقد كانت دعوى هذا الكاتب هي أن استعمار كادموس، ومن ثم كل موجات الاستعمار (لبلاد الإغريق)، إنما اخترعها المؤرخون "العقلانيون" فى القسم المبكر من القرن الخامس ق.م. فى الفترة السابقة لهيرودتوس مباشرة[٥٢]. على أن مثل هذا الموقف المتطرف كان من الصعب دائما أن يحظى بالمساندة، أما الآن فقد أصبح من المتعذر الدفاع عنه إطلاقا. والسبب الأول فى ذلك هو أن الأمر غير مقنع بطبيعته، من حيث ظهور مثل هذه الحكايات الشعبية المفصلة المتعددة الأنواع ذات الإتجاه غير الوطني بشكل مفاجئ وعلى نطاق واسع فى القرن الخامس ق.م. الذى تميز بكثافة الإتجاه القومى. أما السبب الثانى فيتمثل فى الشواهد التصويرية. فهناك، (فى هذا المجال)، نحت بارز على شقفة من مزهرية ترجع إلى القرن السابع ق.م. وتصور يوروبا Europa فى لباس شرقى، كما أن هناك صوراً مماثلة من فترة مبكرة تمثلها هي والدانائيين[٥٣].

على أن الأدب هو الذى يقدم لنا الحجة المحورية فى هذا الشأن. (وفى هذا الصدد) فإذا كان هوميروس لم يذكر شيئا عن موجات الاستعمار، فلم يكن هناك من سبب يدعوه إلى ذكرها، ذلك أن ملحمتيه، رغم أشتمالهما على مواد ترجع إلى عصر أقدم (من عصر الشاعر) إلا أنهما كانتاً تعنيان بنهاية العصر الموكينى وليس ببدايته التى ترجع إلى ماقبل ذلك بعدة مئات من السنين. (ومع ذلك) فإن "الإلياذة" مليئة بالإشارات إلى الدانائيين والكادميين، وكان بإمكان الإغريق الذين عاصروا فترة لاحقة على الأقل أن يدركوا بشكل مباشر، أن زعيمى هذين الشعبين – وهما داناؤس وكادموس – قد قدما من مصر أو فينيقيا. (ويتصل بهذا) أن كلا من هوميروس وهيسيودوس أشاراً إلى "يوروبا" التى كان ينظر إليها دائما كأخت لكادموس أو قريبة لصيقة له، على أنها "إبنة فوينكس" Phoenix. وحين تردد كارل أو تفريد موللر Karl Otfried

Müller وعدد من نقاد المصادر الآخرين في وجود أية صلة (قرابة) بينهما، فإنهم ذكروا بوجه محدد – وكانوا على حق فيما ذكروه – أن تسمية Phoenix لها معان أخرى كثيرة، ومن ثم فليس من الضرورى أن تكون مرتبطة بالمشرق(٥٤)

ومع ذلك، فإذا أخذنا فى الإعتبار الإستخدام المتكرر من جانب هوميروس لكلمة Phoenix بمعنى "فينيقى"، وكذلك المطابقة في وقت لاحق بين يوروبا هى وكادموس وبين فينيقيا، فإن الحجة التى قدمها هذا العالم تصبح حجة مبالغ فيها، وبخاصة إذا عرفنا أن هيسيودوس وصف فينكس بأنه أبو أدونيس Adonis، الذى لا يتطرق الشك إلى أصله الفينيقى، كما لا يتطرق الشك إلى الأصل الكنعانى لاسمه الذى يأتي من آدون âdôn' (سيد) (٥٥). وفى الحقيقة فإنه بعد أن كتب "جوم" مقالته، نُشرت شذرة من أشعار "قائمة النساء" لهيسيودوس، جاء فيها أن "يوروبا" هى إبنة "الفينيقى النبيل"، وأن مختطفها (الاله) زيوس يحملها فوق المياه المالحة(٥٦). إن هذا يؤكد أن قصة "يوروبا" التى ينسبها، كاتب حاشية الإلياذة، النشيد الثانى عشر، سطر ٢٩٢ إلى كل هيسيودوس و باكخيليدس Bakchylides، شاعر القرن الخامس ق.م.، كانت موجودة فى زمن أول هذين الشاعرين.

وفيما يخص داناؤس فإن لدينا شهادة هيسيودوس أن داناؤس وبناته حفروا آبارا لمدينة أرجوس، كما تدلنا هذه الشهادة بشكل واضح على القرابة المتضمنة بينه وبين إيجبتوس Aegyptos. كما أن هناك شذرة من ملحمة *Danais* المفقودة، تصف بنات داناؤس بأنهن كن يسلّحن أنفسهن على ضفاف النيل(٥٧). وهكذا فحتى إذا خامرنا الشك فى قدم المصادر التى أعتمد عليها ايسخيلوس ويوريبيديس وهيرودوتوس، فإن الشواهد الأخرى تؤيد بشكل لايترك مجالا للخلاف، أن الروايات الخاصة بداناؤس وكادموس تعود إلى عهد الملاحم.

وحتى نتعرف على الموضوع الذى نحن بصدده التعرف اللازم، فقد يبدو من المفيد، عند هذه النقطة، أن ننظر فى التقويمات (الآراء) المختلفة للفترة التاريخية التى ظهر فيها أكبر شعراء الملاحم، هوميروس وهيسيودوس الذى كان معاصرا له على وجه التقريب. لقد كان القدماء يميلون إلى وضع هيسيودوس قبل هوميروس من حيث التوقيت الزمنى وإلى أن ينسبوا الإثنين للفترة الممتدة بين ١١٠٠ و ٨٥٠ ق.م.، وعلى أى الأحوال فبالتأكيد قبل مناسبة "الألعاب الأوليمبية" الأولى فى عام ٧٧٦ ق.م. (٥٨). أما علماء اليوم فإنهم يميلون إلى أن يضعوا الأمر فى

الإتجاه المعاكس، فيؤرخون لهوميروس بين ٨٠٠ و ٧٠٠ ق.م. ولهيسيودوس لفترة تدور حول التاريخ الأخير. والأساس الأول لإتجاههم نحو تأخير التوقيت هو أن الرأى السائد منذ ثلاثينيات القرن العشرين يؤكد أن حروف الكتابة دخلت إلى المجتمع الإغريقى فى القرن الثامن ق.م. وقد كتب العالم المعاصر جورج فورست George Forrest:

> إن هيسيودوس، شأنه شأن هوميروس، عاش فى فترة إنتقال من التعبير الشفهى إلى التعبير عن طريق الكتابة. وفى الحقيقة فإنه يبدو من المحتمل أن يكون كل منهما أول من سجل عن طريق الكتابة ماكان يعرفه من روايات شفهية قديمة، أو من الأوائل الذين فعلوا ذلك[٥٩]

وعلى أى الأحوال فإن علماء الدراسات الكلاسيكية أنفسهم يتجهون الآن إلى توقيت دخول الأبجدية الفينيقية إلى بلاد الإغريق بالقرن التاسع أو القسم الأخير من القرن العاشر ق.م. بل إن بعض المتخصصين فى الساميات قد أرجعوا دخول الأبجدية الكنعانية (إلى بلاد الإغريق) إلى القرن الحادى عشر، بينما أزعم أنا إن إنتقال الأبجدية لابد أن يكون قد تم قبل ١٤٠٠ ق.م.[٦٠]. وهكذا فإن (التوقيت) المعتمد على أساس الأبجدية لتحدى التوقيت القديم يبدو بعيدا عن الصحة. (على أن) هناك أسبابا أخرى تدعو إلى إرجاع فترة هوميروس إلى وقت متأخر. ومن بين هذه الأسباب أن ملحمة "الإلياذة" تفيد أن السلع ذات المستوى الرفيع كانت تأتى من فينيقيا، بينما تشير ملحمة "الأوديسيا" إلى وجود الفينيقيين فى بحرإيجه. ومن هنا، فحيث أن وصول هؤلاء الأخيرين (إلى بلاد الإغريق) يفترض أنه حدث فى غضون القرن التاسع ق.م. على أبكر تقدير، فإن هوميروس - إذا كان مثل هذا الشخص قد وجد فعلا - لايمكن أن يكون قد عاش قبل ذلك[٦١]. على أن ظهور هذه الحجة كان قبل الإكتشافات الآثارية الأخيرة التى بينت أن الفينيقيين كانوا يجوبون بحرإيجه منذ القرن العاشر، إن لم يكن منذ القسم الأخير من القرن الحادى عشر ق.م. ويتسق هذا الشاهد الجديد مع الدعوى التاريخية القوية بأن ذروة التوسع الفينيقى كانت بين ١٠٠٠ و ٨٥٠ ق.م.[٦٢]

وهناك سبب آخر لتوقيت فترة هوميروس فى القسم الأخير من القرن الثامن أو السابع ق.م.، وهو أن الجزء الأكبر من أحداث "الأوديسيا" يقع فى غربى بلاد الإغريق. والحجة المقدّمة هنا هى أن الإغريق لم يكن يتسنى لهم أن يعرفوا عن القسم الأوسط من البحر المتوسط قبل

استيطانهم فى صقلية وجنوب إيطاليا عند نهاية القرن الثامن ق.م. (٦٣). وفى رأيى أنـه مـن المفيـد من أكثر من جانب أن ننظر إلى هـذه الملحمـة علـى أنهـا تشـكل (مـايمكن أن نسـميه) "النسـخة الإغريقية من "كتاب الموتى" عند المصريين، وأن الجزر الغربية (الواقعة) عند مغرب الشمس كانت ترتبـط، فـى تصـور كـل مـن المصريين والإغريـق، بالعـالم السـفلى والعـالم الوهمىللموتـى عنـد الكواكب(٦٤). ومع ذلك فمن الواضح، حتى بدون هذه الفرضية، أنه كانت هنـاك حركـة تجارية نشطة للميكينيين مع غرب المتوسط فى العصر البرونزى وأنه، حتى لو لم يكن الإغريـق مشـتركين (فى هذا النشاط التجارى) بشكل مباشر، فلابد أنهم كانوا يدركون وجود معـاملات فينيقيـة مـع القسم الغربى للبحر المتوسط خلال القرون الثلاثة: الحادى عشر والعاشر والتاسع ق.م.

أما الأسباب التى تؤدى بنا إلى وضـع فـترة هيسـيودوس بعـد فـترة هومـيروس، فأولهـا أن هيسيودوس:

> "لا ينتمى إلى شعراء عصر الأبطال (المثالى). إنه دائما شخصى ومعاصر فـى رؤيته، إنه جزء من العصر الحديدى بالكامل، جـزء مـن (الواقـع) الحـاضر، وعلى وجه التخصيص من العالم الإغريقى الأرخـى الـذى ينتمـى إلى القـرن الثامن والقسم المبكر من القرن السابع ق.م."(٦٥).

وهناك حجة أخرى هى أن (ملحمة) أنساب الآلهة، **Theogonia** قد نظمت على أساس من نماذج تنتمى إلى الشرق الأدنى من نوع لم يتم تطويره إلا بعد ١١٠٠ ق.م. وهذه النمـاذج لم يكن من الممكن وصولها إلى بلاد الإغريق إلا بعد ٨٠٠ ق.م. حين أقيمت، حسبما يزعم البعـض، مستوطنة إغريقية فى (موقع) "الميناء"* على ساحل بلاد الشام(٦٦). إن "أنساب الآلهة" التـى نظمهـا هيسيودوس، تنتمى إلى لون (أدبى) يمكن أن نتتبع آثاره فى جميع أرجاء الشرق الأوسط بـدءاً مـن الألف الثالثة ق.م.، وليس هناك من سبب قوى يدعونا للشك فى أن صيغة أو صيغا مـا مـن هـذا اللون قد وجدت فى بلاد الإغريق فى العصر الموكينى(٦٧). ومع ذلك فيبدو أن الصيغة التى قدمها هيسيودوس فى ملحمته فى إطار هذا اللون (الأدبى)، تحتوى على خصائص لا يحسن تفسـيرها إلا من خلال الروايات التى كانت سائدة عند نهايـة الألـف الأولى (ق.م.)(٦٨). هـذا، ومـن الناحيـة

* سماها الإغريق "بوسيديون" وهى تقابل الآن مدينة الميناء البيضـا وضاحيتهـا صـابونى، أنظـر أحمـد عثمـان: تـاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، (القاهرة ١٩٩٧) ص٥٧ (المراجع).

الأخرى فإن وجود المستوطنة الإغريقية في موقع "المينا" أمر مشكوك في حديته إلى حد كبير. وقد يبدو من الأكثر إقناعاً أن هيسيودوس ومعاصريه كانوا على صلة بهذا النوع الأدبي الذى يتحدث عن "السلالات الالهية" فى الفترة المتأخرة من خلال فينيقيا التى كان هيسيودوس يحصل منها، على أى الأحوال، على نبيذه المفصل(٦٩).

وإذا نظرنا إلى الأمور فى عمومها، فإن الأسس التى قامت عليها مجابهة الروايات القديمة تبدو على قدر كبير من الضعف. وقد يبدو معقولا أن نقبل، كأساس إفتراضى للعمل، الإجماع الذى كان سائدا فى العصرين الكلاسيكى والمتأغرق على أن هيسيودوس أتى قبل زمن هوميروس، وأن الأول كان وقت أزدهاره فى القرن العاشر ق.م، بينما إزدهر الأخير حوالى نهاية القرن التاسع ق.م. وعلى أى الأحوال. فمهما كانت التوقيتات التى تنتسب إليها الحكايات الشعبية التراثية عن موجات الاستعمار من مصر وفينيقيا، فليس هناك من سبب ظاهر للشك فى أن آثار هذه الحكايات تظهر فى أقدم الروايات الإغريقية التى ظلت باقية.

الاستعمار (الاستيطان) فى المأساة الإغريقية

سأسلط الضوء هنا على العمل الدرامى الذى يشكل فيه الاستيطان، فى بلاد الإغريق الأوروبية، المحور الأساسى. وهذا العمل هو مسرحية "المستجيرات" أو "الضارعات" التى كتبها إيسخيلوس، وذلك رغم وجود إشارات إلى مستوطنين مصريين وفينيقيين فى مسرحيات أخرى ترجع إلى الفترة ذاتها. وتعتبر "المستجيرات"، بشكل عام، المسرحية الأولى والمتبقية من ثلاثية أو رباعية كتبها هذا الشاعر. أما عناوين المسرحيات التى لم تصلنا (والتى تشكل بقية هذه المجموعة)، فيعتقد أنها كانت: "المصريون" و "الدانائيون"، إلى جانب مسرحية ساتيرية هى "أميمونى" Amymone. ومن مسرحية "المستجيرات" والكتابات الأخرى المتأخرة عن موضوعى الأسطورة والحكاية الشعبية التراثية، يتضح المحور العام لهذه المسرحيات.

لقد كان (الاله) زيوس Zeus يحب إيو Io، إبنة إيناخوس Inachos ملك أرجوس. وهنا نجد هيرا (زوجة زيوس)، التى كثيرا ماكانت تنتابها نوبات الغيرة، تقوم بتحويل إيو إلى بقرة، ثم تسلط عليها ذباب الماشية ليعذبها. وقد هربت إيو إلى أماكن كثيرة ثم إستقرت فى مصر فى النهاية حيث وضعت إبنها من زيوس، وهو إبافوس Epaphos. وقد شملت ذرية إبافوس وزوجاتهم وأزواجهم كلا من ليبيا Libya وبوسيدون Poseidon وبيلوس Belos وأجينور

Agenor ملك (مدينة) صور – والدكـل مـن كـادموس ويوروبـا – والأخويـن التـوأم دانـاؤس وإيجبتوس[٧٠]. وأنجب داناؤس خمسين إبنة بينما أنجب إيجبتوس خمسين إبنا. ورغم وقوع شجار بـين الأخوين إلا أن زواج الأخوة جميعا تم عقده في فترة لاحقة على كل الأخوات. وفي ليلـة الزفـاف قتلت بنات داناؤس إبناء إيجبتوس باستثناء ابن واحد، ثم حصل داناؤس بعد ذلك بطريقة ما علـى عرش أرجوس. وقد اختلفت الطرق التي رويت بها القصة فيما بينها اختلافا كـبيرا وبخاصـة فيمـا يتعلق بأي هذه الأحداث وقع في مصر وأيها وقع في أرجوس.

وتصف المستجيرات مرحلة مـن هـذه القصـة، (وهـي مرحلـة) وصـول بنـات دانـاؤس إلى أرجوس كضارعات أو مستجيرات فررن من مصر. والأغراض التي تنطوي على الشر مـن جـانب أبناء ايجبتوس. وهناك يقوم لهم "بلاسجوس" Pelasgos ملك المدينة واحد أبنائها، حق اللجـوء في مقدس معبد زيوس هيكسيوس Zeus Hikesios "الضارع أو المستجير حامي الضارعين أو المستجيرين"* ثم يأتي بعد ذلك رسول من إيجبتوس وأبنائه ويطلب بصلف أن تسلم إليـه الفتيـات وهنا يرفض بلاسجوس ذلك بدافع من وطنيته الهيللينية العارمة. ثم تنتهي المسرحية بخطـط لتوطين داناؤس وبناته مع بلاسجوس وشعبه في أرجوس.

إن مدى تلون الدراسات الحديثة لهذه المسرحية باللون السياسي لم يتم إدراكه بشكل عـام. وقد أصر أتباع المذهب الرومانسي الوضعي والعلماء الذين أتوا بعد ذلك على أن هذه هـي أقـدم ماوصل إلينا من مسرحيات إيسخيلوس – أو من مسرحيات أي من شعراء المسرح الإغريـق علـى أي حال. وقد إتخذ الدارسون من هذا التاريخ محكّاً للدراسات الكلاسيكية الحديثة.

"لقد أعتبر العلماء حتى الآن، أن مسرحية "المستجيرات" Supplices هي أقـدم المسرحيات المتبقية من أعمـال إيسـخيلوس. وإذا قبلنـا الآن أن ننسـبها إلى مرحلـة

* الصفة اليونانية *Hikesios* تعني في الأساس "الضارع أو المستجير"، ثم أطلقت على الإله زيوس، كبير الآلهة اليونانية، بوصفه حاميا للضارعين أو المستجيرين، وكأنّ المعنى هو أن الإله، من فـرط رعايتـه لهؤلاء والتصاقـه بهم قد أصبحـت قضيتهم هي قضيته ومن ثم أصبح واحدا منهم. وجدير بالذكر أن هذا الإله لـه صفـة أخـرى مشابهة حدث فيها نفس التطور، وهذه الصفة هي *Xenios* أي "الغريـب" التي أصبحـت (في حالـة الإلـه) تعني كذلك "حامي أو راعي الغرباء". ومـن الواضـح أن الكـاتب يدير حديثه فـي المجـال الحـالي حـول معنـى "الضارع أو المستجير". (المترجم).

لاحقة (من أعماله) فإن ذلك سيجعل كل محاولات دراسة الأدب (الإغريقي) غير ذات جدوى[٧١].

على أن بردية نشرت في عام ١٩٥٢ تشير الآن بشكل قوى إلى أن الثلاثية حصلت على جائزة في عام ٣٦٣/٣٦٤ ق.م. وأنها، في ضوء هذا التاريخ، من نتاج المرحلة الناضجة[٧٢] من عمر هذا الكاتب المسرحى التراجيدى. وأجد هذا يتسق تماماً مع التقدير العظيم الذى حظيت به المسرحية فى القرنين الخامس والرابع ق.م. (وفى هذا الصدد) فإن دارسا كلاسيكيا معاصرا، هو د.ألان جارفى Dr.Alan Garvie قد بين بشكل لايرقى إليه الشك ماتنطوى عليه الأفكار السائدة حول قدم هذه المسرحية من مزاعم جوفاء، وأقام رأيه على أسس من البحر الشعرى المتبع والمفردات المستخدمة والبناء الدرامى للمسرحية[٧٣]. فما هو السبب، إذن، الذى أدى إلى توافق الآراء التى انتقصت من قدر المسرحية بسبب "عدم نضجها" ؟ إن أكثر الأسباب إقناعاً فى هذا المجال هو أن أكبر التراجيديين الإغريق كان مما لا يتناسب مع قدره أن يقدم، وهو فى مرحلة نضوجه، على معالجة موضوع قد يُفهم منه أن المصريين استقروا (فى وقت ما) فى (شبه جزيرة البلوبونيسوس).

كذلك كانت هناك محاولات بنفس القدر من الإلحاح لتقليل حجم الجوانب المصرية فى المسرحية، وهى جوانب أصبحت فى فترات لاحقة سندا على قدر كبير من الأهمية لأصحاب "النموذج القديم". وعلى سبيل المثال، فبينما ينظر (أصحاب هذه المحاولات) إلى "إيو" على أنها من أرجوس" فإن أغلب المصادر تتفق على أنها ليست إلا جدة بعيدة لكل من أيجبتوس وداناؤس. وهكذا فإن الأخوين وأولادهما كانوا قد أصبحوا مصريين إن لم يكونوا مصريين أنقياء. كما نجد أن الدانائيين يوصفون بشكل محدد بأنهم "ذوى بشرة سوداء"[٧٤]. ومع ذلك فإن العلماء الألمان اتجهوا بشكل أساسى إلى تفضيل الشارح القديم الوحيد (على النصوص الكلاسيكية) الذى يمكن أن يحور كلامه بحيث يؤدى – مهما كان ذلك مدعاة للشك – إلى أن هذين الأخوين التوأم هم أبناء إيو نفسها. ويزعم الشارح ذاته أن كل الأحداث الواردة فى الثلاثية قد وقعت فى أرجوس. وهكذا فضل (أصحاب المحاولات المذكورة) ماذكره (هذا الشارح) على كل المصادر الأخرى التى أكد بعضها أن كل الأحداث وقعت فى مصر، كما أنها جميعا – بما فى ذلك مسرحية *Danais* التى أسلفت الإشارة إليها – تذكر أن الدانائيين قدموا من مصر[٧٥].

ورغم هذه الإنتصارات لعلماء "النموذج الآرى"، فمما لاشك به أن إيسخيلوس كان مليئا بما يمكن أن نسميه، بشكل مفيد، القومية الهيللينية، و (من ثم) كان يود أن يخفف من وطأة أى غزو (لبلاد الإغريق). لقد عاش فى الفترة التى شهدت أوج الحروب الفارسية واشترك، بوصفه أرستقراطيا أثينيا، فى المعركة الحرجة فى ماراثون Marathon عام ٤٩٢ ق.م.. التى صدت غزوا فارسيا كبيرا، وتعبر مسرحية "الفرس" عن المشاعر المعادية للأغراب بالنسبة له – وهى مشاعر لا تختفى فى مسرحية "المستجيرات" إلا خلف قناع رقيق:

"سيدى! ماذا تفعل ؟ أى نوع من الصلف دفعك أن تتعدى بهذه الطريقة على شرف هذه المملكة و رجالها البلاسجيين ؟ هل تظن حقا أنك أتيت إلى مملكة من النساء؟ إن ماتقوم به هو عمل ينضح بالصلف بالنسبة لمتبربر يتعامل مع الهيللينيين[٧٦]

وفى مثل هذا الجو المفعم بمشاعر التعصب الوطنى يصبح من الأكثر إقناعا أن نفترض أن إيسخيلوس كان يريد أن يقلل من المكونات المصرية فى الحلقة الأسطورية، لا أن يبالغ فى هذه المكونات. والنص ملئ إلى حد كبير بالشواهد التى تساند هذا الرأى الذى أجادل فى سبيل إثباته. على أنه ينبغى علىّ، لكى أبين هذا الرأى، أن استبق حجتى واستخدم طرقا لفهم الموضوع كنت أدخر لها مكانا فى المجلدين الثانى والثالث من هذه الدراسة.

إن عناصر أية حكاية شعبية تراثية يمكن أن نسلسلها حسب قيمتها التاريخية، وأقل هذه العناصر فائدة هى المحاور التى تشترك فيها كل الحكايات الشعبية فى أى مكان، وذلك مثل العناصر الحالية وهى قصة الخمسين إبنة اللاتى يتزوجن ويقتلن خمسين إبنا. وتظهر محاور فولكلورية أخرى ولكن فى أماكن ذات مغزى. (ومن بين هذه) ماذكره المصريون الذين زودوا ديودوروس الصقلى Diodoros Sikeliotes بأخبار عن أن الإغريق حولوا الموقع الذى تنتمى إليه إيو من مصر إلى أرجوس[٧٧]. (ومنها كذلك) مابينه ميخائيل أستور Michael Astour من أن قصة إيو و زيوس وهيرا تشبه القصة الساميّة لهاجر فى الكتاب المقدس إن هاجر. التى يبدو أن اسمها مشتق من √hgr (يهيم، يهاجر)، قد أحبها ابراهيم وحملت منه وطاردتها زوجته الغيور سارة إلى داخل الصحراء، وكادت هاجر تموت لولا أن الله هيأ لها "مُقاماً" فى واحة حيث أنجبت اسماعيل الذين كان نصفه إنسان ونصفه حيوان برى. ويورد أستور كذلك

(فى هذا المجال) فقرة لافتة للنظر من سفر إرميا وهى "إن مصر بقرة جميلة ولكن ذبابة من ذباب الماشية هاجمتها من الشمال" (وهى فقرة) توحى بأن المستمعين الإسرائيليين لهذا النبى كانوا على معرفة بالحكاية الشعبية. إن أستور يستخدم كلا من هذين الشاهدين ليؤكد أن التأثير الساميّ موجود فى الحكايات الشعبية التى تحيط بإستيطان داناؤس[٧٨].

وعلى أية حال، فإنه يبدو أن هناك إشارات، حتى أكثر من ذلك، إلى وجود أساطير مصرية (فى هذا المجال). وعلى سبيل المثال فنحن نجد فى مسرحية "المستجيرات" (سطر ٢١٢) أن داناؤس يناشد "طائر زيوس" وأن الكورس يجيبه بمناشدة "الأشعة المخلصة للشمس". لقد إضطر المعلقون (من أصحاب "النموذج الآرى") هنا إلى أن يروا (فى "طائر زيوس") المقابل اللافت للإنتباه "للصقر الشمسى" لآمون رع – النظير المصرى لزيوس. ولكنهم يحاولون أن يقللوا من مغزاه، ذاكرين أن هذا نوع من التمصير. وهى محاولة تعطى النص نكهة متأخرة بعض الشئ ومعنى سطحيا[٧٩]. وفى موضع آخر هناك إشارات إلى زيوس بوصفه إلها يصدر أحكامه فى "عالم آخر" أو "عالم سفلى" على ما إقترفه البشر من ذنوب. وهذه تبدو، بشكل يلفت النظر، مثل المحاكمة المصرية للموتى على يد أو زيريس، وليس مما يدعو إلى الدهشة ماقام به البعض من إيجاد تناظر بين هذه المحاكمة وبين فقرات فى ملحمة الأوديسية لقيت قبولا واسع النطاق على أنها أورفية، ومن ثم مصرية فى المحصلة النهائية[٨٠].

إن هذه الإشارات لها إيحاؤها (بطبيعة الحال)، ومع ذلك فإن "أرسخ" الشواهد التاريخية التى تحتوى عليها الحكايات الشعبية التراثية تأتى من أسماء الأعلام. وهنا أجد من الضرورى أن نرجع إلى الدراسة الحديثة التى قام بها فريدرك آل Frederic All، عالم الكلاسيكيات والناقد الأدبى. لقد أظهر آل مايتسم به الكتاب الكلاسيكيون من تكلف زائد فى التدقيق، كما أظهر الحاجة إلى معالجة النصوص الكلاسيكية كما نعالج نص *Finnegans Wake* (لجيمس جويس) على سبيل المثال. وهو يرى أن المرء ينبغى أن يتفادى الإلتزام بمعنى أُحادى مباشر – على نحو ما فعل عدد كبير من المهتمين بالكلاسيكيات، كما يحاول التأكيد، من الناحية التطبيقية، على أنه ينبغى علينا أن نبحث (فى هذه النصوص) على الشبكة الكثيفة من مواضع التورية والجناس والتركيبات المتناظرة التى تعطى النصوص معانى أو "قراءات" متعددة، بل ومتناقصة فى كثير من الأحيان. وفوق ذلك فإن مواضع التورية "ينبغى أن تعالج على

نحو عابر. بل لابد أن ينظر إليها على أنها تكشف عن إرتباطات وحقائق عميقة، أن لم تكن مقدسة[٨١].

وليس هناك من شك في أن "المستجيرات" تستجيب بشكل جيد لمثل هذا النوع من المعالجة. ويشير جرافي Gravie، في هذا المجال، إلى:

> إستخدام الألفاظ التي يوحي جرسها بأحد المحاور (الموتيقات)، رغم أن معناها الفعلي قد يكون مختلفا عن هذا المحور بشكل كلي. ففي "المستجيرات" سطر ١١٧، نجد أن βουνιν تعني "ارضا بها تلال"، ولكنها توحي بمعنى "أرض البقرة" من حيث أن (الجذع bou يعني الماشية) كذلك فإن "Απιαν" توحي باسم Apis، النظير المصرى لإبافوس Epaphos (قارن سطر ٢٦٢). إن هذا يتجاوز كثيرا اللعب على الألفاظ، فهو ينبثق من فكرة مؤداها أن الإسم ليس مجرد تقليد أو أتفاق جماعي، ولكنه ينتمي بشكل حميم إلى الشئ الذى يمثله[٨٢].

ثم يمضي جرافي بعد ذلك ليشير بشكل واضح إلى تناظر محدد بين اسم Epaphos وجذع (الكلمة) -epaph، الذى يتكرر كثيرا فى المسرحية، والذى له فى حد ذاته معنيان: "يلمس" أو "يربت على" وهناك كذلك epipnoia التى تعني كلا من: التنفس الهادئ لزيوس الذى يخصب إيو، ثم فى وقت لاحق، العاصفة التى تهدد الدانائيين[٨٣]. وحتى فيما يتخطى هاتين اللفظتين ولفظة Apia(n)، فإن جان برار Jean Bérar يقترح ارتباطا آخر لاسم Epaphos، وهو اسم 'Ip.py الذى كان اسما لاثنين أو ثلاثة من فراعنة الهكسوس. وقد أصبح التقليد عند الإغريق أن يحولوا هذا الإسم إلى Ap(h)óphis[٨٤]، وهنا ينبه أستور إلى أن الاختلاف فى النطق يمكن تفسيره بأن اللغة المصرية القديمة مرت فى العصر المتأخر بتبديل الحرف المتحرك a إلى o قرب نهاية الألف الثانية ق.م.[٨٥]، وهذا يوحي بأن الإسم Epaphos، قد أدخل قبل ذلك الوقت، ومن ثم يضعف الحجة التى ينادى أصحابها بتمصير متأخر.

(كذلك) فإن اسم المكان Apia، الذى نادرا ما كان يستخدم خارج هذه المسرحية، يعني فى عمومه "أرجوس"، ولكنه يستخدم فى مواضع أخرى لينسحب على كل شبه جزيرة البلوبونيسوس، كما "ربط بشكل مقنع بينه وبين apios (بمعنى: بعيد) و apiè gaiè (بمعنى: الأرض البعيدة) فى أشعار هوميروس[٨٦]. على أنه من غير المحتمل أن تكون هذه اللفظة هى أصل

التسمية. كما ان Apia لها ارتباطات أخرى كثيرة. (وهنا أذكر) أنه كـان مـن الأمـور الواضحـة بالنسبة للأقدمين، بل مما اعترف به المحدثون كذلك منـذ ١٩١١ - أن الاسـم يذكـر باسـم الثـور Apis (حابى) فى مصر، ومن ثم فهو متصل بالبقرة إيو وابنها المصرى إبافوس[٨٧]. (و أشـير فـى هذا الصدد إلى) أن عبادة الثور أبيس فى منف تعود إلى الأسرة الأولى، غير أنهـا لم تصـل إلى قمـة تأثيرها إلا بعد الأسرة الثامنة عشرة، والصيغة المصرية للاسـم هـى Hpw[٨٨]. أو Hp أو Hpy وكانت إسما لأحد أبناء حـورس، وهـو إسـم يبرز بشـكل ملحـوظ فـى "كتـاب الموتـى"، وكـانت مسئوليته الخاصة هى حراسة الشمال[٨٩]، ومن فإنه حرىّ، فى نظر المصريين، أن يرتبط بـالإغريق. وللوهلة الأولى فـإن الربـط بينـه وبـين Apia الإغريقيـة أمـر بعيـد الإحتمـال. علـى أن مسـرحية "المستجيرات" تحتوى على نص هو:

> "إن الأرض التى نقف عليها هى أرض آبيه Apia ذاتها. وقـد حملـت هـذا الإسـم علـ شرف أحد الأطباء. وذلك لأن أبيس Apis، العـراف والطبيـب الـذى كـان ابنا للاله أبوللو، كان قد أتى من ناوباكتوس Naupaktos على الشاطئ البعيد، وخلّص هذه الأرض بشكل كامل من الوحوش التى تتحـرش بحيـاة الإنسـان والتـى أظهرتها الأرض بعد أن دنستها الأعمال الدموية التى وقعت فى العصور الخاليـة - فكـان ظهورهـا فـى صـورة أوبئـة مشـحونة بـالغضب، ومسـتعمرة مهلكـة تغـص بالأفاعى. وقد هيأ أبيس علاجا لهذه الأوبئة بالجراحة والرقى، ممـا عـاد بالخير علـى أرض أرجوس..." [٩٠].

وينبغى أن أنبه (هنا) إلى أن Hpy (حابى = Apis) كان يشغل فى مجمـع الآلهة المصـرى موقع الحارس على "جرة كانوب" التى كانت توضع فيها أحشاء المتوفى. وفى "كتاب الموتى" نجـد أن إحـدى مهامـه الرئيسـية فـى صـدد حماية الموتـى هـى أن يقتـل الشـياطين التـى تتخـذ صـورة الأفاعى[٩١]. وقد اعتُبر أبوللو، بشكل عام، مقابلا لحورس والد Hpy. (وفـى رأيـى) أن التداخـل الذى ينطوى عليه هذا التناظر يجعله جديرا بالتصديق بشكل غامر. على أن اسـم Apis - علـى الأقل فى هذا الإطار - يبدو حديثا، وذلـك علـى خـلاف اسـم Epaphos الـذى يبـدو أصلـه قديما. (أما) اسم Apia فإنه لا يظهر فى أشعار هوميروس، كما أن قصة زعيم القوم eponym (الذى سميت Apia على اسمه) والتى سبق ذكرها، لا تظهـر إلا فـى تلـك الفقـرة ولا يبـدو أنهـا

تنتمى إلى رواية أكثر انتشاراً.

هذا، وليس إبافوس وآبيا هما الوحيدان فى هذا المجال، ولكن أغلب الأسماء الواردة فى "المستجيرات"، لها إيحاءات ومضامين مصرية، وسأجتزئ (هنا) على تقديم أمثلة قليلة عنها. إن إيناخوس **Inachos**. (على سبيل المثال) الذى يعتبر فى الوقت الحالى أكثر الأسماء التى وردت فى المسرحية إنتماءاً إلى أرجوس من حيث الأصل، ينظر إليه على أنه ملك "أرجوس" ووالد "إيو"، كما أصبح (هذا الاسم) يطلق على النهر الرئيسى فى أرجوس فى وقت لاحق – وبوصفه الأخير فإنه صار يقابل بالنيل المصرى دائما. على أن الموقف (من هذه المسألة) كان مختلفا بشكل ظاهر، فقد زعم العالم اللامع الجرئ نيكولا فريريه **Nicolas Fréret**، على سبيل المثال – وإن كان زعمه يشوبه شئ من التشكك – أن إيناخوس كان مستعمرا مصرياً، وأقام زعمه على أساس من كلام الأب الكنسى المسيحى يوسيبيوس **Eusebius**(٩٢). وقد حاول فريريه أن يثبت أن هذا الاسم كان شائعا فى الشرق الأوسط ويعنى: الرجال المشهورين بقوتهم وشجاعتهم، وإستشهد فى هذا الصدد بكلمة ***ânâq***' التى وردت فى الكتاب المقدس، وهى الكلمة التى نسخت إلى **Enak** أو **Enach** فى اللغة الإغريقية التى كتبت بها الترجمة السبعينية* **Septuagint** للتوراه، وبكلمة ***anax, anaktos*** (الإغريقية) بمعنى (ملك).

وتسمية **ânaq**' تسمية تدعو إلى الإلتباس. فقد كان يتلقب بها حكام "قرية أربع" **Qiryat Arba**ᶜ الذى يبدو أنهم كانوا من الحيثيين. ولكنها تشير بوجه عام إلى الفلسطينيين الطوال الأقوياء، وهناك إتفاق على أن هؤلاء أتوا من منطقة بحرإيجه(٩٣). وبما أن لفظة ***(w)anakt-*** تظهر فى اللغة الفريجية كما تظهر فى الإغريقية. فإن لفظة ᶜ**anaq** يمكن أن تكون قد اشتقت منها. وإلى جانب الشكوك التى تحيط بهذا التأصيل اللغوى، فهناك (كذلك) مشكلة الإشارة الصريحة إلى أن "قرية أربع" أسست فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر ق.م.(٩٤). ولكن إذا افترضناه حسبما أعتقد، أن الفلسطينيين كانوا. فى غالبيتهم، يتحدثون الإغريقية، فإن (التسمية) الأولى تكون مقتبسة من الأخيرة(٩٥).

وعلى أى الأحوال، فإن فريريه لم يكن على وعى بوجود الجذر المصرى "عنخ" √ᶜ**nh**

• الترجمة السبعينية هى ترجمة العهد القديم إلى اليونانية على يد سبعين عالماً يونانيا ومثلهم من اليهود. وتمت الترجمة فى جزيرة فاروس (رأس التين) بالإسكندرية فى القرن الثالث ق.م. (المراجع).

الذى يدعم قضيته إلى حد كبير. إن المعنى الأساسى للكلمة هو "الحياة" كما هو الحال فى رمز العنخ المشهور. ومع ذلك فقد كانت لها صيغ تمتد على نطاق واسع. (وعلى سبيل المثال) فإن الصيغة (عنخ ضط) *ᶜnh dt* (فليعش إلى الأبد) كانت هى الصيغة المستخدمة رسميا بعد أسماء الفراعنة الأحياء. وهذا يقدم تأصيلا لغويا مقبولا للفظة الإغريقة **(w)anaktos (w)anax**، التى ليس لها تأصيل فى اللسان الهندو-أوروبى[٩٦]. كما يوجد إستخدام آخر للفظة "عنخ" **nh** بمعنى "نعش"، وهنا تبدو هذه اللفظة تأصيلا لكلمة **Anaktoron** الإغريقية بمعنى "المذخر" أو "الوعاء المقدس الذى كانت تحفظ فيه الذخائر الدينية، فى "مركز الأسرار الآليوسية".

وعلى أن (الصيغة) الأكثر إتصالا بقضيتنا الحالية هى استخدام "عنخ" فى عبارة ***mw nh*** لتصف "الماء الحى". (وهنا نجد) أن **Anaktos** (الإغريقية) تستخدم بنفس الطريقة، وعلى وجه التحديد فى سطر من الملحمة الضائعة ***Danais*** وهو "Ανακτος Νειλοιο ποταμοû (المنسوب إلى نهر النيل الملكى الحى). (وفى هذا الصدد) فإن النيل كان ذائع الصيت بسبب خصوبته وقدراته التى تمنح الحياة. وفوق ذلك، فإننا نعرف من أبوللودوروس **Apollodoros**، جامع الأساطير الذى عاش فى القرن الأول الميلادى، أن أم إيجبتوس وداناؤس – التى كانت إبنة للنيل – كانت تدعى **Anchinoè**. وتبدو هنا مشتقة من ***nh nwy*** (المياه الحية أو حياة الماء)، ويزيد من إمكانية هذه الإشتقاق صور أخرى من اسمها مثل **Anchirrhoè** أو **Anchirhoè**: إن ***rhoè*** تعنى "النهر" أو "تدفق الماء" فى اللغة الإغريقية[٩٧].

إن وجود مثل هذه المجموعات الغريبة من دلالات الألفاظ حول الملكية والنعوش والمياه الجارية، تبدو وكأنها تقلل من إحتمالات الصدفة العشوائية حتى تكاد تنعدم. وكذلك فإن الإستخدام الثلاثى للفظة **Inachos** للدلالة على معانى: الملك والسلف والنهر، إلى جانب العدد الكبير من المناسبات التى نجد فيها تقابلا بين هذه اللفظة وبين النيل كل ذلك قد يوحى بجناس متداخل بين الأسماء أو التورية فى اللغة المصرية واللغة الإغريقية من النوع الذى أسلفت الإشارة إليه فى حالة **Hpw/y-Apis/Apia** فهنا كذلك نجد أنه رغم استخدام لفظة "Ανακτος فى الشعر الملحمى، إلا أن هوميروس وهيسيودوس لا يستخدمان إسم **Inachos**، بل إن الأخير يستخدم اسما آخر لوالد إيسو – وهى أمور توحى بأن هذه العلاقة المصرية الإغريقية إنما هى فى الحقيقة تطوير لاحق.

إن اسم Io ، ابنة إيناخوس، مشتق من الفعل *ienai* بمعنى "يتجول" أو "يهيم على وجهه" وهو معنى يقابل في يسر سلاسة تأصيل كلمة هاجر من √hgr التي تعطي نفس المعنى[٩٨]. على أن هناك تأصيلات لغوية مصرية وسامية بنفس الوضوح. وهنا نجد أن المعلقين المحدثين يقرون التورية الواضحة بين Ιω" (إيو) و Ιων" (أيوني) وبين Ιον" (بنفسجي)[٩٩]. وقد اقترحت في مناسبة سابقة الأصل المصري للفظة التي تعني "أيوني". كذلك فإن التأصيل اللغوي المزدوج للفظة Io يبدو وكأنه يأتي في المقام الأول من اللفظة المصرية *iˁh* (القمر) التي تظهر في اللهجة البحيرية من اللغة القبطية في صورة *iòh*[١٠٠]. وفوق ذلك فقد كانت هناك روايات تفيد أن *iò* كانت كلمة تعني "القمر" في لهجة من أرجوس. وتتصل بهذا، حسبما يشير آل Ahl، الإرتباطات بين "إيو" و "إيزيس"، فقد ارتبطت (هذه الأخيرة) بالقمر في اللغة المصرية خلال الفترة الأخيرة من الديانة المصرية في العصر المتأخر. ويشير آل كذلك إلى الارتباطات القمرية بالقرون والأنوثة التي تتطابق في "البقرة"[١٠١]. وهنا في المقام الأول نجد التأصيلات اللغوية الثابتة، والأساسية في اعتقادي، للفظة Io: وهي التأصيلات المشتقة من *ˁiht* (البقرة) – *ˁihw* في حالة الجمع – و ˁiw3 (الماشية المدجّنة (المستأنسة) ذات القرون الطويلة).

وفيما يخص ذرية "إيو" فقد نظرنا في اسم واحد منها وهو "إبافوس". أما عن "ليبيا" Libya– التي تأتي من Rb، اللفظة المصرية التي تنتمي إلى العصر المتأخر– فإنه، في اعتقادي، صيغة أخرى للالهة أثينه Athena[١٠٢]. وقد اشتق عدد من العلماء اسم أبنهما بيلوس Belos من الجذر السامي "بعل" √bˁl، سواء في معناه العام "سيد" أو في معناه الخاص الذي يعني: الاله الذي يحمل هذا الإسم[١٠٣]. ومن الواضح أن اسم فينكس Phoenix مرتبط باسم فينيقيا Phoenicia[١٠٤]. ومن المتناقضات أن "أجينور" Agenor. ملك صور هو العضو الوحيد في العائلة الذي يحمل اسما إغريقيا يعني (فيه صفة الرجولة، جرئ). أما التأصيل اللغوي لإسم ايجبتوس Aigyptos فهو واضح، إذ يعود إلى H(t)-K3-Pth "معبد روح الاله بتاح". وقد كان (هذا الاسم) في أصله اسما لعاصمة مصر السفلى، منف Memphis. وحين نصل إلى العصر البرونزي نجد أنه أصبح، على مايبدو، يستخدم من الجميع للدلالة على صفة "المصري" في القسم الشرقي للبحر المتوسط بعامة. هذا بينما ورد الاسم الشخصي Ai-ku-pi-ti-jo في بلاد الإغريق في العصر الموكيني[١٠٥].

وتظهر اســم "داناوس" Danaos، توأم أيجبتوس وغريمه في صورة Da-na-jo في الكتابة التخطيطية "ب" Linear B. ولكن ذلك يُبرز مشكلة على قدر كبير من التعقيد والإثارة، إذ لا نعرف شخصيته بهذا الاسم في تاريخ مصر أو أساطيرها. على أن هذا الاسم له ارتباط طويل بمنطقة بحرإيجه من الممكن أن يمتد في الماضي إلى قلب الألف الثالثة[١٠٦]. ويدل على ذلك وجودها في الكتابة التخطيطية "أ" Linear A. (كذلك) فإن لفظة T'in3y أو ta-na-yu تظهر كتسمية مصرية لبلاد الإغريق منذ القرن الخامس عشر. كما كانت لفظة D3-in مستخدمة في القرن الثالث عشر[١٠٧]. وقد ربط آستور بين جذع الكلمة وبين الجذر السامي √dn(n) (قاض) الذي نجده في أسماء مثل دان إيل Dan'el أو دانيل Daniel. كما يزعم أن الدانائيين – الذين ينتسبون إلى اسم زعيمهم داناؤس – كانوا قبيلة تتحدث بلغة سامية ويرى أن هذه القبيلة وصلت إلى بلاد الإغريق في العصر البرونزى المتأخر، ربما من قيليقية Cilicia في جنوب شرق الأناضول[١٠٨]. وبينما أقبل أنه كانت هناك، على وجه الإحتمال، إتصالات بين الأقوام المختلفة المسماه "دانية" Dani/a أو "تانية" Tani/a في شرقي المتوسط، كما أعتقد أن سكان كل من قيليقية والمناطق الموجودة في جنوب بحرإيجه قد اختلطوا بالساميين بنسبة كبيرة في الشطر الأكبر من العصر البرونزى، إلا أني أفضل أن أتبع أولئك العلماء الذين يرون أن قوم "الدنييم" Dnnym الذين وجدوا في قيليقية في فترة لاحقة، وقبيلة "دان" التي تظهر في الكتاب المقدس، لم يأتوا إلى منطقة بحرإيجه وإنما أتوا منها[١٠٩]. ومع ذلك فإن موجات الاستيطان التي تعنينا هنا قد أتت قبل ذلك بوقت مبكر كثيرا، كما يتواتر في الحكايات التراثية عنها أن داناؤس قد أتى إلى بلاد الإغريق من الخارج.

أن اسم "دان" يحيط به، على وجه التأكيد، قدر كثيف من التورية في اللغات: المصرية والسامية الغربية والإغريقية. ويشير جاردنر Gardiner (في هذا المجال) إلى أن اسم المكان D3-in أو Dene كان يكتب مقترنا بالمقطع النهائي المحدد الذى يمثله رجل محنى الظهر. وهو يربط بين ذلك وبين اللفظة المصرية *tn'i*، التي كتبت في صورة *tn'i* في فترة لاحقة (بمعنى: مسن أو متعب)، ذلك أن بحلول تلك الفترة (اللاحقة) كانت حروف d , *t* , t تنطق بنفس الطريقة – بمعنى "عجوز" أو "متعب" ومن هنا فهو يسميها "الأرض المتعبة"[١١٠]. ومن هنا فإنه يصبح من الطريف أن نلاحظ أن الصفات التي يتسم بها (داناؤس)، في "المستجيرات" وفي

نصوص أخرى غيرها، هي سيحوحنه وتعه كذلك فإنه كان يُعرف بأنه فاص حكم ومشرع استقر في منطقة أرجوس، وانه هو وبناته قد اشتهروا باهتمامهم بفلاحه الأراضي. وعلى هذا، فمن الراجح أن اسمه مشتق من صيغة مصرية هي *dn'iw* * (الذى يوزع او الذى يروى)، من (فعل) *dn'i* (يوزع أو يروى)، وهي صيغة تتصل بشكل واضح باللفظة السامية √dn(n) (القاضي). ويبدو لى أن شبكة التورية كثيفة هنا بدرجة تحول دون أن نعرف بصورة واضحة من الذى أتى قبل الآخر: الشعب الدانائى الذى ينتمى إلى بحرإيجه، أم داناوس، المستعمر المصرى – السامي الذى يوزع أرض الاستيطان، المشرع القائم على رى الأرض.

وإذا كانت النتائج التي سوصل إليها من اسم داناوس تدعو بالضرورة إلى الإلتباس، فإن الحكاية الشعبية التراثية التي تخص صراعه مع ايجبتوس كان ينظر إليها، على الأقل منذ القرن الثالث ق.م.، على أنها تشير دون أى لبس إلى أنه كان زعيماً من الهكسوس، طردته حركة البعث الوطني المصرى في الأسرة الثامنة عشرة[111]. وفي هذا الصدد فإنه يجدر بنا أن ننظر في التسمية الإغريقية لمسرحية "المستجيرات" وهي: *Hiketides*، إن هذه التسمية مرتبطة بوضوح بلفظة *Hikesios* (الضارع أو المستجير) التي تشكل اللقب الأوسط من ألقاب زيوس، (كبير الآلهة الإغريقية)** ، وهو الاله الذى يسيطر (ذكره) على المسرحية من بدايتها إلى نهايتها[112]. كما أن هذه الكنية، التي تنطوى على شئ من الغرابة، كانت تستخدم بين الحين والحين في القسم الجنوبي من بلاد الإغريق على وجه التخصيص، كما كانت ترتبط بصفة عامة من صفات هذا الاله هي حمايته للغرباء[113]. ومن المثير للاهتمام كذلك مانلحظه من أن المسرحيتين اللتين تحملان اسم Hiketides تشير كل منهما إلى أرجوس، وهي المدينة التي ارتبطت في وقت لاحق باستعمار الهكسوس بوجه خاص[114]. إن Hikesios تشبه، بوجه لافت للنظر، اللفظة المصرية Hk3 h3st، التي تحولت في اللغة الإغريقية إلى Hyksos في غضون القرن الثالث ق.م.

وإذا ادخلنا في اعتبارنا التورية التي تسود المسرحية بشكل عام على نحو ما أسلفت، فإنه يصبح من المرجح حقاً أن أيسخيلوس والمصادر التي اعتمد عليها كانوا مدركين للفهم المزدوج *double entendre* في (هده) المسرحية التي شكلت إحدى مسرحيات ثلاث عن الصراع بين إيجبتوس وداناؤس، وعلى وجه التحديد عن وصول الأخير من مصر إلى أرجوس. و (هنا) قد

** راجع تعليقى في الحاشية في أسفل ص١٩٣ (المترجم)

يبدو كذلك من المعقول أن نفترض أن Hyksos كانت هى المعنى المبدنى وأن فكرة "الضارع أو المستجير" اشتقت منها. على أن الشواهد على انتشار فكرة "زيوس حامى المستجيرين أو الضارعين" على نطاق واسع توحى بأن التورية كانت قديمة وأن احتمال أن يكون ايسخيلوس هو أول من استخدم هذه التورية هو احتمال بعيد حقا.

وليس هناك من شك يذكر أن تصوير (إيسخيلوس) لوصول (الدانانيين) بوصفهم لاجئين استقبلهم أهل البلاد بحسن الوفادة ثم تحولوا إلى حكام بشكل غامض بعد ذلك، كان يرضى الشعور الوطنى الإغريقى أكثر بكثير من تصويرهم كفاتحين، فقد كان من شأنه أن يساعد على إزالة التوتر بين التقليد القديم والإعتزاز الوطنى (القائم آنذاك). أما عن قضية ما إذا كان هناك أم لم يكن هناك استعمار فى الواقع من جانب الهكسوس لأرجوس فى خلال الألف الثانية ق.م.، فإن ذلك سوف أناقشه فى المجلد الثانى من هذه الدراسة. وكل ما أطرحه هنا هو أن محور "المستجيرات" والقدر الهائل من المادة المصرية فيها. تبين أن إيسخيلوس ومصادره – التى ترجع إلى الوقت الذى كتبت فيه مسرحية Danais فى القرن السابع ق.م. أو قبل ذلك – كانوا يعتقدون أن هذا هو ماحدث فعلا.

هذا، وينبغى أن أضيف أخيرا، أن "المستجيرات" ليست هى المسرحية التراجيدية الوحيدة التى تشير إلى الموجات الاستعمارية إن عددا من تلك التراجيديات التى تعالج (أمورا متعلقة بمدينة) طيبة تشير إلى الأصل الفينيقى لكادموس. وعلى سبيل المثال، فإننا نجد فى مسرحية "الفينيقيات" أن جوقة النساء تأتى لكى تشهد سقوط الأسرة الحاكمة لسبب محدد، وهو أن كادموس يأتى من صور(١١٥). وهنا كذلك، تشير الشواهد إلى اعتقاد سائد (فى هذا الصدد) نجده فى الحكايات التراثية فى القرن الخامس ق.م.(١١٦).

هيرودوتوس

وقد ظهر هذا الاعتقاد فى أكثر صوره جلاءً عند هيرودتوس، الذى كتب كتابة "التحقيقات (التواريخ)" Historiae حوالى ٤٥٠ ق.م. وكان المحور الأساسى لهذا الكتاب هو العلاقة بين أوروبا – التى كان يعنى بها بلاد الإغريق بشكل عام – وبين آسيا وإفريقيا. وقد نظر إلى هذه العلاقة على أنها مجموعة من أوجه التشابه والإختلاف ومن الإتصالات والصراعات، كما سأل أسئلة كثيرة حول هذه المواضيع خلال رحلاته الواسعة فى أرجاء الأمبراطورية الفارسية من

بابل إلى مصر، وعلى تخومها الشمالية والغربية مـن إبـيروس Epiros إلى بـلاد الإغريـق والبحـر الأسود.

إن الإقتباس الموجـود علـى رأس هـذا البـاب يبـين أن هـيرودوتوس لم يكتـب أيـة أوصـاف لموجات الاستعمار (المذكورة) لأنه كان يعتقد أن (مثل) هذه الموجات قـد حدثـت (كذلـك) فـي مناطق أخرى. ومع ذلك، فإن الفقرة ذاتها تظهر، بنفس القـدر مـن الوضـوح، أن هـذه الموجـات الاستعمارية (على بلاد الإغريق) قد وقعت بالفعل، و "التحقيقـات (التواريـخ)" مليئـة بالإشـارات إليها:

"إن معبـد الآلهـــة) أثينــه هنــاك (فــي لنــدوس Lindos الموجــودة فــي رودس Rhodes) أقامته بنات داناؤس اللاتي هبطن على الجزيرة في أثنـاء فرارهـن مـن أبناء أيجبتوس،[١١٧]

ولقد هبط كادموس بن أجينور عليها (ثيره Thera) في أثناء بحثه عـن يوروبـا... وترك هناك عددا من الفينيقيين،[١١٨]

ولم يكن هيرودوتوس مهتما بالمستوطنات ذاتها بقدر اهتمامه بـالدور الـذى قـامت بـه فـي إدخال الحضارة المصرية والفينيقية إلى بلاد الإغريق:

"إني أنوى أن أتحدث عن الطقوس السرية الخاصة بالآلهه ديميتر Demeter، وهـي الطقوس التي يسـميها الإغريـق تسـموفوريا Thesmophoria. ومـع ذلـك... فمن الخير أن أقول، على سـبيل المثـال، إن بنـات دانـاؤس هـن اللاتـي جئـن بهـذه الطقوس من مصر ودرّبن النساء البلاسجيات عليها"[١١٩].

إن الفينيقيـين الذيـن أتـوا مـع كـادموس... أدخلـوا إلى بـلاد الإغريـق... وبعـد استيطانهم للمنطقة. عددا من الإنجازات، كانت أهمها الكتابـة، وهـي فـن لم يكـن معروفا، في اعتقادى، لدى الإغريق حتى ذلك الوقت"[١٢٠].

وفي مواضع أخـرى نجـد هـيرودوتوس ينسـب إدخـال حضـارة الشـرق الأدنـى (إلى بـلاد الإغريق) إلى شخصيات ثقافية معتمدة على شخصيات سياسية وعسكرية. على أن هذا الأمـر قـد استمر بعد المرحلة المبدئية للإستعمار.

"إنى أعتقد أن ميلامبوس Melampous... هو الـذى أدخـل أسـم ديونيسـوس Dionysos إلى بلاد اليونان، جنبا إلى جنب مع تقديم القرابين على شـرفه ومـع موكب عضو الذكورة. على أنه لم يكن يفهم العقيدة بشكل كامل، كما لم يُدخلهـا فى صورتها المتكاملة، ثم تم تصورها على وجه أفضل علـى يـد المعلمـين اللاحقـين ومع ذلك فقـد كـان ميلامبـوس هـو الـذى أدخـل موكـب عضـو الذكـوره، ومـن ميلامبوس تعلم الإغريق الشعائر التى يؤدونها الآن. لقد كان ميلامبوس، فى رأيى، رجلا على جانب كبير من القدرة (والنشاط)، فقـد تعلـم فـن التبصـير وأدخـل إلى بلاد الإغريق، مع تغيير طفيف، عددا من الأمور التى تعلمها فى مصر، ومـن بينهـا عبادة ديونيسوس... ومن المحتمل أن يكون ميلامبوس قد حصـل علـى معرفتـه فـى هذا الشأن من خلال كادموس الصـورى واولـئك الذيـن أتـوا معـه مـن فينيقيـا إلى الأرض المسماه بريوتيا الآن. فقد أتـت أسمـاء كـل الآلهـة تقريبـا إلـى بـلاد الإغريـق من مصر. إنى أعرف من تحقيقاتى واستعلاماتى التى قمت بها أنها أتت من الخـارج، ويبدو من المرجح أنها أتت من مصر لأن أسماء كل الآلهة كانت معروفـة فـى مصـر من أول الزمان... وهكذا فإن هذه الممارسات وغيرها مما سأتحدث عنـه لاحقـاً قـد أخذها الإغريق عن مصر... وفى العصور القديمة حسبما عرفت مما حكـوه لى فـى دودونه، كان البلاسجيون يقدمون كل أنواع القرابين وكانوا يصلّون للالهة ولكـن دون تمييز بين الأسماء والألقاب لأنهم لم يكونوا قـد سمعوا بعـد بمثـل هـذا التمييـز، وكـانوا يطلقـون علـى الآلهـة التسـمية الإغريقيـة *theoi* بمعنـى "المقدريـن" أو "المقررين" (أى أصحاب القرار النهائى)... ولكـن بعـد ذلـك بزمـن طويـل جُلبـت أسماء الآلهـة مـن مصـر إلى بـلاد الإغريـق وتعلمهـا البلاسـجيون... وبمضـى الزمـن أرسلوا إلى النبوءة فى دودونه (أقدم النبوءات، والنبوءة الوحيـدة آنـذاك فـى بـلاد الإغريق) يطلبون النصيحة حول ما إذا كان من المناسب أن يتخذوا (للالهـة) أسمـاء أتت إلى البلاد من الخارج. فأجابت النبوءة أنهم سيكونون على صـواب إذا فعلـوا ذلك. وهكذا استخدم البلاسجيون منذ ذلك الوقـت أسماء الآلهـة (المصريـة) عنـد تقديم قرابينهم، ثم انتقلت الأسماء من البلاسجيين إلى بلاد الإغريق"[١٢١].

هذا ولم يقصر هيرودوتوس إدخال أفكار الشرق الأدنى على المستوطنين. فقد جاء وصفه للأصول المصرية والليبية لنبوءة دودونة فى إبيروس تأسيساً على تقارير الكاهنات هناك وعلى تقارير الكهنة فى طيبة المصرية، كما جاءت فى صورة أساطير لم تكن متصلة بداناؤس أو كادموس بأية حال[١٢٢].

وقد ذكرت فى مناسبة سابقة أن هيرودوتوس قد أتُّهم من جانب بلوتارخوس Plutarchos فى القرن الثانى الميلادى بأنه "أبو الأكاذيب". وهناك إتجاه إلى معاملته الآن بنوع من التنازل من قبيل التسامح من جانب العلماء الداخلين فى دائرة "النموذج الآرى" الذين يزدرونه بسبب "سرعة تصديقه" بوجه خاص. ومع ذلك فإن هيرودوتوس لم يعتمد بشكل كامل على الحكايات التراثية حين تحدث عن اشتقاق العادات الإغريقية من الشرق عموما، ومن مصر على وجه التحديد[١٢٣].

> "إنى لن أسلم أبدا بأن الطقوس المتشابهة التى تقام فى بلاد الإغريق وفى مصر هى نتيجة لمجرد المصادفة. إذ لو كان الأمر كذلك لكانت شعائرنا ذات صفة إغريقية أكثر فى ملامحها، ولكانت أقل حداثة فى أصلها (مما هى عليه الآن). كما لن أوافق على أن المصريين أخذوا عن الإغريق هذا التقليد أو أى تقليد آخر"[١٢٤].

وهكذا فإن هيرودوتوس، على مايبدو، كان يعتمد على التفكير العقلانى أكثر من إعتماده على الثقة العمياء فى الروايات التقليدية، كما كان يعتمد على طريقة المفاضلة بين ما هو جدير بالتصديق (وماهو غير ذلك) – وهى مسألة يبدو أنها أقرب إلى ماهو مناسب فى التعامل مع هذا الموضوع. ومع ذلك فلا يعنينا هنا (مدى) صحة أو خطأ النتائج التى توصل إليها، ولكن الذى يعنينا هو الحقائق التى آمن بها وأنه كان يتبع فيما أقدم عليه (فى هذا الصدد) التقليد السائد آنذاك (ولو) بشكل نسبى. وهذا الزعم الأخير (من جانبى) قد تدعمه الإشارات السابقة لموجات الاستعمار، كما يدعمه قبول أفكار هيرودوتوس من جانب الأغلبية الساحقة من الكتاب الإغريق اللاحقين له. ويزداد وقع هذا القبول بوجه خاص فى ضوء الحماس الوطنى المتعصب لدى الإغريق فى تلك الفترة، وعدم إرتياح الإغريق (بل) وكراهيتهم للروايات التقليدية التى كانت تجعلهم أدنى ثقافياً من المصريين والفينيقيين الذين كان حضورهم على الساحة لايزال ملموسا آنذاك. ومن المرجح أن هذا هو السبب الذى جعل هيرودوتوس يبدو فى موقف دفاعى، ليس فيما يخص

حدوث موجات الاستعمار. ولكن فيما يخص مدى الإقتباس الثقافي للإغريق من المصريين والفينيقيين. إن عدم الإرتياح المذكور هو الذى يقودنا للحديث عن ثوكيديديس Thucidydes، ثاني المؤرخين الكبار، الذى عاش من ٤٦٠ إلى ٤٠٠ ق.م.

ثوكيديديس

لقد استغل نقاد الفترة المبكرة من القرن التاسع عشر، إلى حد كبير، صمت بعض المصادر فيما يخص موجات الاستعمار الاستيطاني (لبلاد الإغريق). وكان المؤرخ الذى يُعْنُونه بوضوح هو ثوكيديديس، وذلك من حيث أن المقدمة التى استهل بها هذا المؤرخ الدراسة التاريخية التى قام بها لم تذكر شيئا عن كادموس أو داناؤس. ومع ذلك فإن هذه المقدمة تذكر بالفعل غزو بلوبس Pelops لبلاد الإغريق من الأناضول. كذلك يذكر ثوكيديديس أن "الكاريين"* والفينيقيين قد سكنوا معظم الجزر (الإغريقية فى بحرإيجه)" فى وقت من الأوقات. كما أشار إلى الدانائيين والكادميين على أنها أسماء قديمة لسكان منطقة بويوتيا[١٢٥]. وإلى جانب ذلك فقد وصف ملوك أرجوس الذين أتوا قبل بلوبس، بأنهم من نسل برسيوس Perseus الذى رأى هيرودوتوس أنه إما "مصرى خالص" أو "آشورى"[١٢٦]. ومع ذلك فليست هنا (فيما كتبه ثوكيديديس) أية إشارة إلى كادموس أو داناؤس أو إلى موجات إستعمارهما.

وإذا أدخلنا فى إعتبارنا الإشارات العديدة إلى موجات الاستعمار التى وردت عند هيرودوتوس، وفى المسرحيات التراجيدية فى العقود التى سبقت كتابته لدراسته، فلابد أن ثوكيديديس كان على علم بالروايات السائدة آنذاك (فيما يخص هذه الموجات الاستعمارية)، وأن إغفاله لها جاء نتيجة قرار واع من جانبه (فى هذا الصدد). ومن العسير أن نقبل أن ثوكيديديس كانت لديه شواهد تنفى حدوث هذه الموجات الاستعمارية، إذ يكون من المؤكد بشكل كبير فى تلك الحالة أن يضمن كتابته إشارة إليها، ليدعم سمعته كمؤرخ، وكذلك لأن هذه الموجات الاستعمارية تصطدم مع الإطار التاريخى لما كتبه. على أن هناك تفسيرا ينسجم مع موقف مؤرخنا (فى هذا الصدد) بشكل أفضل، وهو أن ثوكيديديس الذى كان مؤرخا "ناقدا" واعيا بما يقوم به، كان مترددا فى أن يتعامل مع حكايات تراثية لا يمكن التحقق من صحة ماورد بها. على أن هذه

---

* سكان منطقة "كاريا" فى القسم الجنوبى الغربى من شبه جزيرة آسيا الصغرى. (المترجم).

الحجة لاتلبث أن تفقد ما لها من قوة حين يورد المؤرخ أسطورة أبعد من هذه الحكايات التراثية فـى أغوار الماضى، وهى أسطورة "هيللين" Hellen بن "ديوكاليون" Deukalion – الذى نجا مـن الطوفان[١٢٧].

إن أحد الأسباب التى جعلت (التاريخ الذى كتبه) ثوكيديديس يحظى بإعجاب أكـثر علـى مـدى القـرون الثلاثـة الأخـيرة، هـو أن رؤيتـه التاريخيـة كـانت رؤيـة "تطوريـة"[١٢٨]. (تدرجيــة) progressive. وتبعا لهذه الرؤية فإننا كلمـا زدنا إقترابا مـن الحـاضر. كلمـا أصبـح التنظيـم السياسى أعمق وأكـبر أثـرا. وهكـذا نجـد ثوكيديديـس يميـل (فـى كتابتـه) إلى التقليـل مـن شـأن المنجزات التى تمت فى الحقبة الميكينية ويؤكد على عدم استقرار المجتمـع فـى ذلـك الوقـت وعلـى الفوضى (التى شاعت) فى "العصور المظلمة" التى تلت تلـك الحقبـة. ويسـاعدنا هـذا المثـال علـى تفسـير إنكـار هـذا المؤرخ لأى شعور عنـد هوميروس بـأن الهيللينيـين كـانوا يشـكلون شـعبا واحدا[١٢٩]. ووفقا لرؤية ثوكيديديس فقد كان التاريخ يتطور نحـو القـوة التـى لم يسـبق لهـا مثيـل للمدينتين الزعيمتين "فى نظره"، وهمـا أثينـا وأسـبرطه – بحيـث غطـت حياتـه ووصفـت دراسـته "الحدث الذى أثار أكبر اضطراب فى تاريخ الهيللينيين والذى أثر كذلك على قسم كبير من العـالم غير الهيللينى، بل أكاد أقول فى البشرية بأكملها[١٣٠]".

إن هذه الدعوى غير العادية (فيما يخص الحجم الذى أعطاه لكل من أثينا واسبرطه) كانت ستتضارب مع فكرة اشتراك الهيللينيين، بوصفهم شعبا، فـى حـرب طـرواده. كذلـك فـإن القبـول بموجات الاستعمار كان سيشكل ضربة قاضية لإطاره التـاريخى، إذ أنـه (فـى تلـك الحـال) كـانت المسافات التى قطعها (المستعمرون) ونطاق العمليات التى قـاموا بها والنتـائج الهائلـة ذات المـدى الطويل التى ترتبت على موجات الاستعمار التى ترويها الحكايات التراثية – كل هذا كان سيظهر الحجم التافه لجوهر الحروب البلوبونيسية، التى كان تاريخ ثوكيديديس وحده هو الذى جعل منها شيئا كبيرا.

كذلك فإن هناك عاملا من شأنه أن يحول (دون ذكر ثوكيديديس لموجات الاستعمار أكثر مما يمكن أن نطلق عليه وصف "الشوفينية الزمنية (التاريخية)"، ألا وهو "وطنية" هذا المؤرخ – وأنـا استخدم هـذه الكلمـة بشـكل متعمـد. لقـد كـان ثوكيديديـس يضـع خطـأ لا يتـزحزح عنـه بـين "الهيللينى" و "البربرى" (المتبربر). كما كان كتابه بأكمله يشكل أنشودة تسبيح بتفـرّد الإنجـازات

الإغريقية، حتى تلك المدمرة أو المخربة من بينها. وعلى هـذا فإن الفكـرة التـى تفيـد بـأن يكـون المصريون الذين كان فى مقدور الأثينيين آنـذاك أن يفتحـوا بلادهـم، أو يكـون الفينيقيـون الذيـن كانوا يشكلون السلاح (البحرى) الأكثر رهبة فى القوة العسكرية الفارسية – أن فكرة أن يكون هؤلاء أو أولئك قد قاموا بدور محورى فى تشكيل الحضارة الإغريقية، كانت مقلقة بشكل واضح لمعاصرى ثوكيديديس.

إن مثل هذا الموقـف (مـن جـانب ثوكيديديـس) يمكـن أن يفسـر لنـا السـبب الـذى جعـل بـإمكان هذا المؤرخ "الناقد" الرافض للحكايات التراثية، أن يذكـر هيلينـى أو "هيلينـىا" – وهـى رمز وطنى صرف، بينما لا يذكر أجانب أثروا حضاريا (فى بلاد الإغريق) مثل داناؤس وكادموس أو كيكرويس المصرى. (وسأناقش فى البابين الرابع والسادس، إذا ماكان من الممكـن أو مـن غير الممكن أن يؤدى استبعاد الحكايات التراثية إلى إعطاء دفعة للتناول النقـدى (لكتابـة التـاريخ) فـى حد ذاته). ويبدو أن هذا النوع مـن "الوطنيـة" أصبـح سمة مميزة للفـترة التـى بـدأت فـى أعقـاب "الحروب الفارسية" التى نشبت خلال الفترة المبكرة من القـرن الخـامس ق.م. والفـترة التاليـة لهـا والتى شهدت توسع القوة الإغريقية: فمنذ ذلك الوقت نلمس بين أغلب الإغريق درجات متفاوتة من كراهيتهم "للبرابرة" واحتقارهم لهم. وفى مثل هذا المناخ فإن أقل مايمكن أن يتوقعـه المـرء مـن الكتاب الإغريق هو أن يقللوا من شأن الحكايات التراثية التى تشير إلى أن الإغريق مدينـون ثقافيـا للشرق الأدنى. ومن هنا يصبح من الأيسر علينا أن نفهم على سبيل المثال السبب الذى من أجلـه تم استبعاد أية اقتراحات تؤيد الصلات المصرية بكيكرويس، وإحلال الرؤية التى تفيد بأنه من أهل البلاد (بلاد الإغريق) بدلا منها. أو لماذا يصبح إغفال ثوكيديديس للحكايات التراثية كلها، أيسـر من اختراع الإغريق لحكايات "جديدة" عن موجات الاستعمار والحضارة.

إيسوكراتيس وأفلاطون

فى الفترة المبكرة من القرن الرابع ق.م. كان المتحدث البارز فى الدعوة إلى فكرة الجامعـة (بيـن الدويـلات) الإغريقيـة والإعـتزاز بالثقافـة الإغريقيـة هـو الخطيـب الأثينـى إيسـوكراتيس Isokrates. ففى خطبته الشهيرة التى ألقاها فى مناسبة الأعياد الأوليمبية عام ٣٨٠ ق.م. دعا الأثينيين والاسبرطيين إلى أن يلقوا بخلافاتهم جانبا وأن ينضمـوا إلى اتحـاد يجمـع كـل الإغريـق فـى مواجهة الإمبراطورية الفارسية والبرابرة. (وفى هـذه الخطبـة) أعلـن فـى درجـة غـير مسـبوقة مـن

(الشعور) بالأمن فى ظل الثقافة (الإغريقية):

"إن مدينتنا (أثينا) سبقت، حتى الآن، بقية الجنس البشرى فى الفكر والكلمة، بحيث أصبح تلاميذها معلمين لبقية العالم. وكان من نتائج دورها أن اسم "الهيللينيين" لم يعد مجرد أسم لجنس، وإنما علماً على الذكاء، كما أصبحت صفة "الهيللينيين" سمة للذين يشاركون فى ثقافتنا، أكثر مما هى صفة لأولئك الذين تربط بينهم أواصر الدم"(١٣١).

إن نبرة الغطرسة التى تشيع فى هذا البيان تدعو إلى الدهشة إذا أدخلنا فى الإعتبار أن عددا من الإغريق المثقفين، ومن بينهم يودوكسوس Eudoxos، عالم الفلك وأكبر علماء الرياضيات فى القرن الرابع ق.م.، كان لا يزال يشعر أنه مضطر إلى أن يدرس فى مصر(١٣٢). ولهذا فليس من الغريب أن نجد إيسوكراتيس يهتم بمسألة الموجات الاستعمارية:

"إن أية مجموعة من البرابرة كانت تمر بمحنة فى الأزمنة الخالية، كانوا يتجرأون على اعتبار أنفسهم حكاما للمدن الإغريقية. (وعلى سبيل المثال) فإن داناؤس، وهو أحد المنفيين من مصر، إحتل أرجوس، (بينما) أصبح كادموس، ملك صيدون (صيدا الحالية) ملكا لطيبة (الإغريقية)..."(١٣٣).

ومن المهم هنا أن نلحظ أن إيسوكراتيس، رغم كراهيته لهذه الموجات الاستعمارية، إلا أنه لم يشك فى تاريخيتها، ومع ذلك فإنه كان لا يزال متأرجحا بصدد هذه القضية، فقد رسم صورة فيها كثير من الإطراء لمصر فى خطبته "بوزيريس" Bousiris. إن هذا الخطاب كان، على أحد المستويات، مجرّد إظهار للبراعة *tour de force* فى ميدان الخطابة، لايزيد عن دفاع عن ملك أسطورى عُرف أساساً بممارسته لقتل الغرباء. ومع ذلك فحتّى يكون الخطاب مقنعا فلابد أن يكون مجاريا للمعلومات التقليدية السائدة (فى المجتمع). ومن هنا فمن الواضح أنه كان يشتمل على جوانب جادة إلى حد كبير. لقد صوّر إيسوكراتيس مصر وأهلها فى هذا الخطاب على أنهم أكثر الأقوام بركة فى العالم، ولكن، فوق كل إعتبار، فإن الخطاب كان بمثابة قصيدة مدح لبوزيريس بوصفه مشرعا أسطوريا ولكمال التشريع الذى سنه لمصر(١٣٤).

لقد أعجب إيسوكراتيس بنظام الطبقات وبحكم الفلاسفة وصرامة وسائل التربية

التى كان يتبعها الفلاسفة / الكهنة المصريون والتى أنتجت "الرجل المتأمل" ***paideia*** ***anèr*** ***theòrètikos*** الذى كان يستخدم حكمته العليا لصالح دولته[١٣٥]. كذلك فقد أدى تقسيم العمل إلى وجود "وقت فراغ" **scholè** مكنّ بدوره من "التعلم" **scholé**. وفوق هذا فقد أصر إيسوكراتيس على أن الفلسفة (حب الحكمة) ***philosophia*** كانت نتاجا مصريا وكان لايمكن إلا أن تكون كذلك[١٣٦]. (حقيقة) أن هذه الكلمة (الفلسفة) كان يستخدمها الفيثاعوريون المتمصرون (المنتمون ثقافيا لمصر) لبعض الوقت – ربما منذ القرن السادس (ق.م.)، – ولكن أحد أستخداماتها الأكثر قدما والتى ظلت سائدة جاءت من خطاب "بوزيريس"[١٣٧].

ولا يوجد فى الحقيقة أى تنافر من الناحية المنطقية بين هذا الموقف بما فيه من احترام عميق لمصر وبين شعور الكراهية المشبوبة للأغراب عند إيسوكراتيس. إنه لم ينكر الاستعمار، الذى ارتبط (فى ذهن الإغريق)، على الأقل منذ زمن هيرودوتوس، بتغلغل الديانة المصرية فى بلاد الإغريق. وأكثر من ذلك فإن تغنّيه (فى هذا الخطاب) بالنصر الثقافى لأثينا وبلاد الإغريق، إنما يشير إلى الوقت الذى تحدث فيه فحسب ولا يدعى إنسحابا على الماضى. ومع ذلك فيبدو أن هناك بالفعل تعارضاً بين الموقفين. ومن الممكن، (فى هذا الصدد)، تفسير هذا التناقض بأن البرابرة الذين كان إيسوكراتيس يعنيهم بوجه خاص هم الفرس والفينيقيون. وسبب موقفه من الأخيرين هو أنهم كانوا يشكلون القسم الأكبر من من نواة الأسطول الفارسى، ولأن راعيه، الطاغية إيواجوراس **Euagoras** انتزع أرضه، سلاميس، فى قبرص من الفينيقيين. وفوق ذلك فحوالى عام ٣٩٠ ق.م. وهو الوقت الذى كتبت فيه خطبة بوزيريس، كان تحالف ثلاثى قد إنعقد ضد فارس، بين أيواجوراس وأخوريس **Achorès** فرعون مصر وأثينا[١٣٨].

على أنى أعتقد أنه من الممكن لوجهتى النظر أن تتكاملا على مستوى أكثر عمقا، كمحاولة من جانب إيسوكراتيس لأن يوحد بين أثينا وأسبرطه ضد فارس. فمما لا شك فيه، (فى هذا الصدد) أن الأثينيين كانوا مفتونين لدى نهاية الحروب البلوبونيسية، عند منعطف القرن الرابع ق.م.، بدستور اسبرطه التى كانت عدوا ناجحا إلى درجة بعيدة. وقد قاد هذا علماء يعملون ضمن إطار "النموذج الآرى" مثل فيلاموفيتس – مويللندورف **Wilamowitz-Moellendorf**، عالم الكلاسيكيات الكبير فى القرن التاسع عشر، إلى أن

يؤكدوا إمكانية وجود دراسة حول النظم السياسية اللاكيدامونية" أوحت إلى إيسوكراتيس بكتابة خطبته "بوزيريس"، وإلى أن يذهبوا فى جدلهم إلى أن هذا الخطيب قد اتخذ من بوزيريس مثلاً أعلى له، لأن هيرودوتوس كان قد زعم أن الإسبرطيين يدينون بنظمهم (السياسية) لمصر[١٣٩]. أما العالم الفرنسى الحديث شارل فروادوفون Charles Froidefond فإنه يعترض على ذلك على أساس أنه لا يوجد هناك أى تشابه بين (خطبة) "بوزيريس" وبين دراسة "النظم السياسية اللاكيدايمونية" التى كتبها كسينوفون Xenophon، وذلك من حيث أن إيسوكراتيس حدد أن الأسبرطيين إنما اقتبسوا عن مصر بشكل جزئى، ولأن الجوانب العسكرية فى المجتمع الأسبرطى، وهى التى أثارت إعجاب جيله بشكل ظاهر، كانت منسوبة إلى ليكورجوس Lykourgos *، هذا ولم يحدث إلا فى وقت متأخر كثيرا، فى القرن الثانى الميلادى، أن زعم بلوتارخوس أن ليكورجوس كان مقلدا لمصر[١٤٠].

وأنا أوافق فروادوفون على أنه لا داعى لإفتراض وجود دراسة عن "النظم السياسية اللاكيدايمونية". على أننا نعرف، من الجانب الآخر. أن الأثينيين كانوا معنيين فى فترة مابعد الحرب، بالتعرف على أسرار النجاح الاسبرطى. وإلى جانب ذلك فإن العلماء الذين يعملون فى إطار "النظام القديم" ليس لديهم أدنى شك فى أن القصص التى كانت تروى عن الاقتباسات الاسبرطية، والليكورجية على وجه التحديد، من مصر فى مجال النظم، كانت سائدة فى بداية القرن الرابع ق.م. "لأنها كانت حقيقية". ومعنى هذا أن الرواية لا تستند إلى جوانب معينة من المجتمع الإسبرطى فحسب، وإنما تستند كذلك إلى التأثيرات المصرية القوية على الفن الأسبرطى الأرخى (المبكر) وإلى الأصول اللغوية المصرية الكثيرة المقنعة التى ترجع إلى العصر المتأخر - لتسميات نظم اسبرطية على وجه التحديد[١٤١].

لقد أصر إيسوكراتيس على أن الاسبرطيين قد فشلوا فى أن يطبقوا مبدأ تقسيم العمل (المصرى) وأن دستورهم لم يصل إلى الإكتمال الذى تميز به النموذج المصرى الذى كتب عنه، وأن "الفلاسفة الذين يقومون بمناقشة مثل هذه المواضيع والذين حصلوا على أوسع سمعة، يفضلون

* شخصية نصف اسطورية كان الاسبرطيون يعتقدون أن صاحبها هو واضع تشريعاتهم السياسية ونظمهم الإجتماعية. (المترجم).

الصيغة المصرية للحكم على كل ماعداها..."[١٤٢].

(وهنا نتساءل) من هم أولئك (الفلاسفة) الذين كان يعنيهم إيسوكراتيس؟ إن فروادوفون يحاول أن يؤكد، وبشكل، مقنع أن الإشارة كانت إلى الفيثاغوريين، وأن إيسوكراتيس كان يأخذ عن مفهومهم في مجال "النظم السياسية، بل ربما كان ينقل عما كتبوه فعلا"[١٤٣]. وفي هذا المجال فإن الأمر يحتاج إلى عبقرية فائقة من جانب أنصار "النظام الآرى"، حتى يصبح في مقدورهم أن ينكروا الروايات القديمة القوية التي أشار إليها هيرودوتوس والتي فصّلها الكتاب المتأخرون إلى حد كبير – وهي الروايات التي تفيد بأنه كان هناك شخص مثل فيثاغورس وبأن مدرسته قد قامت على أساس من دراساته الطويلة في مصر. ومع ذلك فقد حاول البعض أن يفعلوا ذلك[١٤٤]. وعلى أية حال، فإن إيسوكراتيس كان واضحاً ومحدداً بصددها: "إن (فيثاغورس) أصبح، في أثناء رحلته إلى مصر، تلميذا يدرس ديانة الشعب، وكان أول من أحضر إلى الإغريق كل الفلسفة[١٤٥].

وهناك احتمال ضعيف آخر. وهو أن إيسوكراتيس، حين تحدث عن الفلاسفة، كان يعني غريمه الكبير أفلاطون و"دولته" (المثالية) (أو "الجمهورية" وهي التسمية الشائعة)[١٤٦]. وفي هذا الصدد فإن الرأى السائد هو أن "الدولة أو الجمهورية"* كتبت بين ٣٨٠ و ٣٧٠ ق.م.، أى بعد خطاب "بوزيريس" الذى يعود تاريخه إلى حوالى ٣٩٠ ق.م. كذلك هناك اعتقاد سائد هو أنه من الممكن أن هذا الخطاب كانت له مسودات سابقة[١٤٧]. وعلى أى الأحوال فإن الإحتمال الوارد هو أن خطاب "بوزيريس" هو الأقدم زمنيا. ومع ذلك فإن هناك مواطن تشابه لافتة للنظر بينه وبين "دولة" أفلاطون. فقد كان هناك في هذه الأخيرة كذلك نظام لتقسيم العمل يقوم على أساس طبقي يحكمه مجموعة من الأوصياء (المستولين) يتولون مهامّهم نتيجة لإختيار دقيق بعد فترة تعليمية شاقة، فقد كان أفلاطون على عداء مستحكم مع فوضى النظام الديمقراطي في أثينا. ومن ثم فإن هذا النموذج (الذى قدمه) كان يدعو بشكل واضح إلى الإرتياح.

ولكن ماهو مدى الصلة بين هذا (النموذج الأفلاطوني) وبين مصر ؟ إننا نعرف، إلى جانب التشابه بين "دولة" أفلاطون وبين خطبة "بوزيريس" ذات الصفة المصرية المحددة، أن مصر التي

---

* الكلمة التي استخدمها أفلاطون هي *Politeia* وهي تعني النظام أو الدستور الخاص بالمدينة *Polis* وبمواطني المدينة *Politai*. ومن هنا فإستخدامي لتسمية "دولة" إنما هو من نوع التقريب. (المترجم).

قضى فيها أفلاطون بعض الوقت، حول ٣٩٠ ق.م. على وجه الإحتمال، شكلت نقطة اهتمام رئيسية في أعماله المتأخرة[١٤٨]. ففي (محاورة) فايدروس ***Phaidros*** يعلن أفلاطون، على لسان سقراط أنه "هو (تحوت Thoth إله الحكمة المصرى) الذى اخترع الأعداد والحساب والهندسة... وأهم من ذلك كله، أنواع الأدب..."[١٤٩].

كذلك نجد أفلاطون، فى محاورتيه "فيليبوس" ***Philebos*** و "إبينوميس" ***Epinomis***، يتحدث بتفصيل أكثر عن "تحوت" بوصفه مخترع الكتابة، بل مبدع اللغة وكل العلوم[١٥٠]. وفي موضع آخر يثنى أفلاطون على الفن المصرى والموسيقى المصرية ويحاول أن يثبت أن بلاد الإغريق أخذتهما عن مصر[١٥١]. وفي الواقع. فإن السبب الوحيد الذى يدعو إلى الشك فى أن محاورة "الدولة (الجمهورية)" قد كتبت على أساس من النظم المصرية هو أنه لا يذكر هذا (صراحة) فى نص المحاورة. على أن عدم ذكره لهذه الحقيقة له تفسير قديم. وقد جاء هذا التفسير فيما كتبه "كرانتور" Krantor، أقدم المعلقين على أعمال أفلاطون، وذلك بعد زمن أفلاطون بعدة أجيال:

> "لقد سخر معاصرو أفلاطون منه، قائلين إنه لم يكن مبدع الأفكار التى تناولها فى "الدولة (الجمهورية)"، وإنما نقلها عن النظم المصرية. وقد بلغ من اهتمامه بما قاله أولئك الذين سخروا منه، أنه نسب إلى المصريين قصة الأثينيين وأهل أطلنطيس (Atlanta) ليجعلهم يقولون إن الأثينيين قد عاشوا فعلا فى ظل هذا النظام فى فترة معينة فى الماضى[١٥٢].

وفي وجود هذه الشواهد التى تؤيد اشتقاق أفكار "الدولة (الجمهورية)" من أصول مصرية، ربط العلماء المعاصرون، هم الآخرون، بين أفلاطون ومصر. وكما ذكر ماركس Marx، فإن "دولة أفلاطون" فيما يتعلق بإتخاذ تقسيم العمل أساسا تكوينيا للدولة، هى مجرد معالجة مثالية لنظام التقسيم الطبقى فى مصر[١٥٣].

إن بوبر Popper، الذى يكره أفلاطون" كان يود لو استطاع أن يلطخ سمعته بإبراز الأصول المصرية لأفكاره، إلا أنه كان يكتب فى عصر يسوده "النموذج الآرى" بشكل أكثر إنتظاما وتخطيطاً. ومن هنا، فرغم أنه كان على وعى كامل بإتهام كرانتور (لأفلاطون) إلا أنه اكتفى بذكره فى حواشى دراسته، كما تعجب للملاحظة التى أبداها ماركس[١٥٤]. هذا وقد قام علماء موالون لأفلاطون باستنكار شديد لفكرة تفضيله (فى محاورة "الدولة (الجمهورية)" لتقسيم

طبقى على أساس من "النموذج المصرى". أما الأغلبية (من أنصار "النموذج الآرى") فإنهم يهملون، بكل بساطة، أى ذكر لمصر فى مجال الإرتباط بينها وبين "الدولة (الجمهورية)" [١٥٥].

وقد أشار أفلاطون فى محاورتيه "تيمايوس" ***Timaios*** و "كريتياس" **Kritias** إلى عجائب حضارة أطلنطيس **Atlantis** وإلى أنهيارها العنيف. وسوف أحاول أن أثبت فى المجلد الثانى من هذه الدراسة أن ذلك يشير إلى الدمار الذى لحق بجزيرة ثيره على أثر الإنفجار البركانى فى **١٦٢٦** ق.م.، وأن الأطلنطيين إنما هم مزيج من الشعوب الشمالية، والهكسوس الذين غزوا مصر فى أواسط الألف الثانية ق.م.، و "شعوب البحر" التى هاجمتها فى أواخر تلك الألف. على أن مايعنينا هنا هو مفهوم أفلاطون للعلاقة التاريخية بين بلاد الإغريق ومصر.

وفى هذا المجال، حسبما ذكرت فى المقدمة، كانت هنا رواية واسعة الانتشار ولكنها لم يتم ثبوتها إلا فى فترة متأخرة، تفيد أن الذى أسس أثينا هو كيكروبس، المصرى الذى وفد من مدينة سايس فى غرب الدلتا. كذلك كان هنا إعتراف بأن نيئيت **Néit**، إلهة تلك المدينة هى نفس الآلهة أثينه [١٥٦]. وفى الفقرة المشهورة عن أسطورة أطلنطيس، نجد أفلاطون ينسب إلى "كريتياس" القصة التى تفيد أن سولون، المشرع الأثينى العظيم، حين ذهب إلى سايس فى الشطر المبكر من القرن السادس ق.م. – وكانت عاصمة لمصر آنذاك – عومل معاملة الأهل وذلك بسبب الرابطة الخاصة التى كان أهل سايس يشعرون بها إزاء الأثينيين. بل لقد مكنوه من مقابلة كبار الكهنة المصريين. وفى خلال هذه المقابلة دمغ أحدهم سولون بهذه الكلمات الشهيرة "أى سولون، سولون، إنكم دائما أطفال. فلا يوجد إغريقى يمكن أن نقول إنه تخطى هذه المرحلة"، ثم مضى (الكاهن) ليذكّر لسولون أن الآلهة أثينه قد أسست مدينة أثينا قبل سايس وليس العكس [١٥٧] ثم وضح له أن عدم معرفة الأثينيين بذلك، وجهل الإغريق بماضيهم، إنما يرجع إلى تدمير ثقافة الإغريق بشكل دورى بسبب كوارث النار (الحريق) والماء، بحيث لم يترك ذلك أية ذكرى لمجد أثينا الغابر. أما فى مصر، فقد بقيت نظمها، بفضل الموقع المميز للبلاد [١٥٨].

وهكذا فإننا، فيما يخص (كتابات) أفلاطون نجد أنفسنا منساقين إلى أن نتجه إلى مصر، إذا اردنا أن نعود إلى النظم الأثينية فى العصر القديم. وقد كان أفلاطون يشبه إيسوكراتيس فى هذا التوجه، إذ أن إيسوكراتيس دعا إلى ترابط أثينا واسبرطه فى إطار جامعة هيللينية كما مجد الدستور المصرى بوصفه التصور الأنقى لدستور لاكيدايمونيه. (ففى حالة هذين المفكرين) نجد

أنهما كلما زاد تعمقهما فى إتجاه الجذور الهيللينية الحقيقية لبلاد الإغريق، كلما زاد اقترابهما من مصر. وأحد الأسباب التى أدت إلى ذلك هو أن كلا من إيسوكراتيس وأفلاطون كان مقتنعا بأن المشرعين والفلاسفة العظام، من أمثال ليكوجوس وسولون وفيثاغورس Pythagoras قد ذهبوا إلى مصر وأحضروا العلم منها. وفوق ذلك فإن كلا من إيسوكراتيس وأفلاطون كان يؤمن بالموجات الاستعمارية التى قادها بيلوبس وكادموس وأيجبتوس وداناؤس، وأن كلا منهما كان يسلم مع هيرودوتوس أن "البرابرة" قد أحضروا معهم مقومات ثقافية هامة[١٥٩]. وحتى فيما يخص قضية تأسيس أثينا فإن أفلاطون كان يتحرك ضمن إطار "النموذج القديم" بدرجة جعلته يسلم بوجود آصره ثقافية قرابية بينها وبين سايس. وهكذا فإن هذين العلمين الثقافيين البارزين فى الفترة المبكرة من القرن الرابع ق.م.، رغم تأرجحهما (فيما يخص التأثير الثقافى الخارجى على بلاد الإغريق) أو حتى معاداتهما لهذه الفكرة، إلا أنهما وجدا نفسيهما مضطرين للإعتراف بالأهمية الأساسية للإستعمار الخارجى، وللإقتباسات الثقافية الهائلة اللاحقة من مصر و المشرق، فيما يخص تكوين الحضارة الإغريقية التى كان كل منهما يعشقها بشكل مشبوب.

أرسطو

لم يتوقف أرسطو عند تتلمذه على أفلاطون، ولكنه درس فى "الأكاديمية"* كذلك على يودوكسوس Eudoxus الذى كان ينحدر من كنيدوس Knidos **، وهو عالم الرياضيات الكبير، وعالم الفلك الذى ذُكر عنه أنه قضى ستة عشر شهرا فى مصر يحلق رأسه (بشكل منتظم) حتى يستطيع أن يدرس مع الكهنة هناك[١٦٠]. كما تأثر أرسطو بشكل مكثف بما ذكره هيرودوتوس عن مصر وأعجب بها بشكل واضح. ورغم أنه كان يؤكد فى بعض الأحيان على قدم حضارة وادى الرافدين والحضارة الإيرانية إلا أن كان يؤمن "على مايبدو" بأن المصريين هم أقدم شعوب العالم[١٦١].(ومع ذلك) فقد كان أرسطو متناقضا، بنفس القدر. فيما يخص قضية انتشار الحضارات، فبينما نجده فى أحيان أخرى يحاول أن يثبت أن المصريين قد أبدعوا نظام

* "الأكاديمية" Akademia وهى هى "المدرسة" التى أسسها أفلاطون فى إحدى ضواحى مدينة أثينا حوالى ٣٨٥ ق.م. ليمارس فيها المفكرون والدارسون لقاءاتهم العلمية ودراساتهم. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى البطل أكاديموس Akademos الذى كانت ضواحى أثينا مقدسة لديه. (المترجم).

** مدينة يونانية كانت تقع على الساحل الغربى لشبه جزيرة آسيا الصغرى. (المترجم).

الطبقات ومن ثم كانت مصر هى مهد الرياضيات لأن طبقة الكهنة تمتعت بوقت كاف للتفرغ schole[١٦٢]. وحسبما يذكر، فإن الكهنة (فى مصر) اخترعوا "تخصصات الرياضيات" أو الفنون الرياضية mathématikai technai، التى كانت تضم الهندسة والحساب والفلك. وهى (العلوم) التى كان الإغريق بصدد تملكها (آنذاك)[١٦٣]. وفى الحقيقة فإن إعجابه بمصر فاق إعجاب هيرودوتوس بها فى أحد الجوانب. ففى حين آمن هيرودوتوس أن المصريين قد طوروا العلم الأساسى، وهو الهندسة، لأسباب عملية - وهى (إعادة) قياس الأرض بعد أن يطمس فيضان النيل معالم الحدود (بين الحقول)، نجد أن أرسطو يؤكد أن الكهنة قد توصلوا إلى هذا العلم بشكل تنظيرى[١٦٤].

نظريات الاستعمار والاقتباسات (الثقافية) المتأخرة فى العالم المتأغرق

من بين الملامح التى شكلت شخصية أرسطو أنه كان، بطبيعة الحال، مربيا للإسكندر الأكبر[١٦٥]. ونتيجة للفتح المقدونى المتفرد للإمبراطورية الفارسية فى الثلاثينيات من القرن الرابع ق.م. تدفق اهتمام الإغريق إلى حد كبير بكل الحضارات الشرقية، وعلى وجه التخصيص، (بحضارة) مصر. (وهنا نجد) أن الكاهن المصرى مانيتون Manetho يكتب، بعد الفتح مباشرة، تاريخاً لمصر باللغة الإغريقية، مقسما إياه إلى ٣٣ أسرة، وهو التقسيم الذى لا يزال يشكل أساس التأريخ لمصر القديمة[١٦٦]. وقد حدث كذلك، حوالى ذلك الوقت، أن بدأ هيكاتايوس Hekataios الذى ينحدر من أبديره Abdera *، الروايات التى تذكر أن طرد الهكسوس من مصر، والخروج الإسرائيلى (من مصر) Exodus، وهبوط داناؤس فى أرجوس، ماهى إلا ثلاث صور متوازية لقصة واحدة:

> "وقد حدس أهل البلاد أنه إذا لم يتخلصوا من الأغراب. فلن تكون هناك نهاية لما هم فيه من مشاكل. وعند ذلك طردوا الأغراب مباشرة من البلاد. وقد ترابط أكثر هؤلاء (الأغراب) نشاطا فيما بينهم، ويقول البعض إن (الرياح) قذفت (بمراكبهم) إلى شاطئ بلاد الإغريق وإلى بعض الأماكن الأخرى. وكان زعماؤهم رجال نبلاء، من بينهم داناؤس وكادموس. أما العدد الأكبر من بينهم فقد تم

---

* مدينة يونانية تقع على ساحل طراقيا Thrace المطل على بحر إيجه فى القسم الشمالى الشرقى لشبه جزيرة البلقان. (المترجم).

طردهم إلى المنطقة التى نسميها الآن "يهودية" Judaea، وهى منطقة غير بعيدة عن مصر، كما أنها غير مأهولة على الإطلاق. وقد كان على رأس هذه المجموعة من المستوطنين رجل يدعى موسى(١٦٧).

وتأسيسا على هذا، كما يبدو، وأنطلاقا من الاعتقاد الذى عبر عنه هيرودوتوس وهو أن أسلاف الملوك الاسبرطيين يرجع أصلهم إلى المستعمرين من الهكسوس – فإن آريوس Areios ملك اسبرطة كتب إلى أورشليم، حوالى ٣٠٠ ق.م.، قائلا فى بداية رسالته:

"إلى أونياس Onias الكاهن الأكبر. لقد ظهرت وثيقة تبين أن الأسبرطيين واليهود هم ذوو قرابة وينحدرون سويا من إبراهيم(١٦٨).

إن الإشارات إلى موجات الاستعمار المصرية – الفينيقية هى من الكثرة بحيث لا أستطيع أن أقدمها هنا بالتفصيل. كما أن المناقشات (التى دارت حولها) لم تكن حول وجود مناسبات الهبوط (على الشواطئ الإغريقية) وإنما حول ملامح هذه المناسبات: جنسية الزعماء، نقاط إنطلاقهم أو توقيت موجات الهبوط(١٦٩).

(وفى هذا المقام) فإن التوتر النفسى لدى الإغريق بسبب إعتدادهم بثقافتهم (من جهة) واحترامهم للحضارات القديمة (فى الوقت ذاته) زادت حدته، على مايبدو، مع الفتوحات المتفردة للإسكندر قبل ٣٣٠ ق.م. وبوسعنا أن نجد شاهدا على ذلك فى ردود الفعل التى أثارها ماقام به زينون Zeno الذى ينحدر من كيتيون Kition *، وهو الفينيقى الذى أسس المذهب الرواقى Stoicism لدى منعطف القرن الثالث ق.م. لقد سخر منه منافسوه فأطلقوا عليه تسمية "الفينيقى الصغير". ومع ذلك فقد كتب عنه أحد تلاميذه:

لقد وضعْتَ الأساس، بجهدك الذى لا يكل، لمذهب عظيم غير مسبوق

أيها السلف النقى للحرية التى لا تعرف الخوف

وإذا كانت الأرض التى أنبتتك هى فينيقيا.

فهل فى هذا ما يقلل من شأنك ؟ ألم يأت منها كادموس

---

* إحدى المستوطنات الفينيقية فى جزيرة قبرص. (المترجم).

الذى وهب بلاد الإغريق كتبها وفن الكتابة ؟[١٧٠].

وقد عبر ديودوروس الصقلى، الذى كتب فى غضون القرن الأول ق.م.، عن هذا التشويش، إن لم يكن الأزدواجية المتناقضة Schisophrania، حول موضوع "البرابرة" الذين وضعوا بلاد الإغريق على مسار الحضارة – وذلك فى مقدمة دراسته الضخمة "مكتبة التاريخ" حين كتب:

"إن أول الشعوب التى سنناقشها هى شعوب البرابرة، لا لأننا نعتبرهم أقدم من الإغريق، كما ذكر إيفوروس Ephoros، ولكن لأننا نود أن نقدم كل الحقائق المتعلقة بهم فى البداية. وذلك لأننا لو بدأنا بذكر البيانات المختلفة التى قدمها الإغريق، فقد نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقحم فى الروايات المختلفة لتاريخهم القديم حدثا يتعلق بشعب آخر[١٧١].

كذلك نجد ديودوروس الصقلى يشير إلى ماذكره المؤرخ الرودسى زينون الذى كان مقتنعا بأن الإغريق – أو قوما غامضين من رودس يُدعون الهلياديين Heliadai – قد نقلوا الثقافة إلى المصريين، ولكن فيضانا هائلا قضى على كل مايذكر بها، تماما مثلما نسى الأثينيون أنهم كانوا أقدم من (أهل) سايس:

"و لأسباب مثل هذه، فقد افترض الناس، بعد أجيال كثيرة، أن كادموس بن أجينور هو أول من نقل حروف الكتابة من فينيقيا إلى بلاد الإغريق"[١٧٢].

ويبدو أن ديودوروس كان لا يزال يتبع خط زينون حين أخذ، بعد ذلك، يتحدث بالتفصيل عن آثار ماقام به كادموس وداناؤس فى رودس، وهما فى طريقهما إلى استعمار بلاد الإغريق[١٧٣]. وهنا، كما هو الحال فى إيمان أفلاطون بأقدمية أثينا على سايس، نجد أن توجه زينون أقرب إلى أن يكون صورة مقلوبة لمنهج "النموذج القديم" من أن يكون توجها ضمن "النموذج الآرى". فنحن لا نجد هنا ذكرا لغزو من الشمال (لبلاد الإغريق)، كما أن هذا التوجه لا يفتأ يؤكد على العلاقة القرابية بين الثقافة والحضارة المصرية – الفينيقية. إن الرأى الذى ينادى بأن بلاد الإغريق هى التى دفعت بمصر فى طريق الحضارة كان يمثل نوعا من المبالغة حتى بالنسبة لأكثر أتباع "النموذذ الآرى" تحمسا. وفى هذا الصدد نجد الأستاذ أولدفاذر Oldfather،

المترجم الحديث لكتابات ديودوروس، يبدى ملاحظة عند هذه النقطة مؤداها:

"أن الكتاب الأول (من تاريخ ديودوروس) يقدم فى مواطن كثيرة متفرقة، دعاوى المصريين بقدم حضارتهم، وأجد أن الدعاوى المناقضة لذلك والتى يقدمها الإغريق هنا، إنما هى تفاخر أجوف(١٧٤).

والفكرة الأساسية التى يدفع بها ديودوروس هى إيمانه بأن حضارة مصر، وإلى حد أقل، حضارة شرقية أخرى، هى النبع الذى أنبثقت منه حضارة العالم:

"وبما أن مصر هى البلد التى تنسب إليها الأساطير أصل الآلهة، والتى يقال أنها شهدت أقدم ما تم من ملاحظة (نظام) النجوم، والتى سجل التاريخ فيها كثيرا من المنجزات الهامة لعظماء الرجال – لهذه الأسباب مجتمعة، سنبدأ تاريخنا هذا بذكر الأحداث المتصلة بمصر(١٧٥).

ونحن نجد أن ديودوروس لا يكتفى أن يشير بشكل متكرر إلى مناسبات استعمار طيبة وأرجوس على يد كادموس وداناؤس، ولكنه يخصص مساحة كبيرة فى بدايات كتابة كدعاوى أهل سايس التى تذكر أن كيكروبس وعدداً آخر من أقدم الملوك الأثينيين كانوا من المصريين، ولحججهم المقنعة لإثبات صلة (قرابة) خاصة بين أثينا ومصر(١٧٦).

على أن (هذا) الاستعمار لم يحْظَ باعتراف عام فى العصر المتأغرق والعصر الرومانى، ولكن يبدو أن الإعتراف بمناسبات تم فيها استعمار القسم الغربى لشبه جزيرة البلوبونيسوس وطيبة كان سائدا. وفى هذا المجال فإن "دليل بلاد الإغريق" الذى كتبه باوسانياس Pausanias فى القرن الثانى الميلادى، ملئ بالإشارات إلى هذه المناسبات:

"إن أهل تروزين Troizen (فى منطقة أرجوس)... يقولون إن أول إنسان وجد فى بلادهم هو أوروس Oros، وهو يبدو لى مصريا، وهو بالتأكيد ليس اسما اغريقيا"(١٧٧).

"وهناك طريق أخرى تبدأ من ليرنا Lerna وتصل إلى المكان الذى يسمى "مكان الميلاد"، وهناك يوجد على البحر محراب صغير للاله بوسيدون (راعى) الميلاد. وإلى جانب هذا (المحراب) توجد المراسى التى يقال إن داناؤس وأبناءه هبطوا فيها لأول

مرة فى منطقة أرجوس[١٧٨].

إن الربط بين هذا الهبوط الذى تذكره الحكايات التراثية وبين الميلاد مثير للإعجاب، مثله مثل وضع بوسيدون الذى كان إلها رئيسيا للميكينيين. كما كان ست – الذى أرى فيه المقابل المصرى له – هو الاله الرئيسى للهكسوس[١٧٩].

"فى رأيى أن أهل ناوبليا Nauplia كانوا فى فترة سابقة من المصريين الذين وصلوا إلى أرجوليس (منطقة أرجوس) مع أسطول داناؤس، ثم تم توطينهم بعد ذلك بثلاثة أجيال على يد ناوبليوس Nauplios، ابن أميمونى Amymone فى ناوبليا"[١٨٠].

"حين زحف كادموس إلى (داخل منطقة طيبة) على رأس جيش فينيقى، وخسروا (الهيانتيون Hyantes والآونيون Aones)! إحدى المعارك، فرّ الهيانتيون فى الليلة التالية مباشرة، ولكن الآونيين قاموا بإحدى شعائر الضراعة (الإستجارة)، فسمح لهم كادموس بالبقاء وبالتزاوج مع الفينيقيين الذين كانوا معه[١٨١].

وقد ناقشتُ الصلة بين اسمى Aones و Hyantes وبين اسم الأيونيين والاسم المصرى *Iwn(tyw')* (متبربر) فى مناسبة سابقة (أنظر ص.٩٣)[١٨٢]. وعلى هذا فإنه لا يوجد مجال للشك فى أن باوساياناس كان على إقتناع بأن مناسبات الاستعمار قد حدثت فعلا، وأنه كان على يقين بوجود دلائل مباشرة على هذه المناسبات فى زمنه فى القرن الثانى الميلادى.

هجوم بلوتارخوس على هيرودوتوس

شهد القرن الثانى الميلادى أقرب بوجه إلى مايمكن أن نسميه هجوما على "النموذج القديم". وقد جاء ذلك فى مقال مطول للكاتب ذى الإنتاج الغزير، بلوتارخوس، تحت عنوان "حول خبث هيرودوتوس"، وفى هذا المقال كال الإتهامات لهيرودوتوس. ومن بينها أنه "محب للبرابرة":

"إنه (هيرودوتوس) يقول إن الإغريق تعلموا الأمور الخاصة بالمواكب والأعياد من المصريين، وكذلك عبادة الآلهة (الأوليمبيين) الاثنى عشر. ويقول إن اسم ديونيسوس ذاته، تعلمه ميلامبوس Melampous عن المصريين، ثم علمه هذا

لبقية الإغريق، وأن طقوس الأسرار والشعائر السرية الخاصة بالآلهة ديميتير Demeter قد أحضرتها بنات داناؤس (معهن) من مصر... وليس هذا أسوأ مافي الأمر. إنه فوق ذلك يتتبع اسلاف هرقل (هراكليس) Herakles إلى (جدهم الأعلى) برسيوس Perseus ويقول إن برسيوس، حسبما يذكر الفرس، كان آشوريا. ثم يقول: وكذلك زعماء الدوريين يمكن إقامة الدليل على دمائهم المصرية الخالصة... ولا يكتفي (هيرودوتوس) بتلهفه على أن يثبت وجودا مصريا وفينيقيا لهرقل، بل إنه يقول إن هرقل الإغريقي أتى بعد الأثنين الآخرين (المصرى والفينيقى)، كما يريد أن يستبعد أصله الإغريقي ويجعله وافدا من الخارج. ومع ذلك فإن أهل العلم من القدامى. سواء فى ذلك هوميروس أو هيسيودوس، لم يتحدثوا عن كيان مصرى أو فينيقى لهرقل* ، بل عرفوا جميعا كيانا واحدا له، لهرقل الذى يخصنا وحدنا، الذى ينتمى إلى كل من بويوتيا وأرجوس..." (١٨٣).

ومن الواضح أن بلوتارخوس كان يعتقد أن قراءة سيصل غضبهم إلى أشده لدى معرفتهم بأفكار هيرودوتوس عن هذا الموضوع، على أنه من الطريف أن نلحظ أنه لا يذكر إلا مصادر قديمة عن مسألة هراقل وأنه لا يجابه الموجات الاستعمارية لداناؤس أو كادموس بشكل مباشر. و (فى الواقع فإننا) إذا أخذنا فى الإعتبار ما عبر عنه بلوتارخوس فى مقالته "عن إيزيس وأوزيريس" من معرفة عميقة بالديانة المصرية وتقدير عميق لها، فإننا نشك كثيرا إذا ماكان بلوتارخوس نفسه غير مصدق لما زعمه هيرودوتوس عن الأصول المصرية لذلك القدر الكبير من الثقافة الإغريقية. بل قد يبدو أن الإحتمال الأكبر هو أن هجوم بلوتارخوس على حب (هيرودوتوس) للبرابرة، barbarophilia كان مجرد أداة استخدمها بشكل عام للهجوم عليه. ومن المثير للدهشة كذلك أن نلحظ أن أحدا من الذين يسعون للحطّ من قدر "النموذج القديم" فى العصر الحديث، لم يعتمد على هذا المقال. وأحد الأسباب التى أدت إلى ذلك، كما كتب أثنان

* عن الأصول الشرقية لهرقل والمراجع المتخصصة أنظر:

Ahmed Etman, The Problem of Heracles' Apotheosis in the *"Trachiniae"* of Sophocles and in *"Hercules Oetaeus"* of Seneca. A Comparative Study of the Tragic and Stoic Meaning of the Myth. A thesis for the Ph.D Degree (in Greek with Summary in English). Athens 1974.

من مترجمي بلوتارخوس هو:

"أن هذا المقال، إذا كان قد أساء إلى محبى هيرودوتوس، فإنه أثار قلق المعجبين ببلوتارخوس* ، فقد وجد هؤلاء (الأخيروْن) من الصعب أن يصدقوا أن كاتبا على قدر كبير من الأريحية وطيب السجيه يستطيع، هو نفسه، أن يكتب بهذه الشحنة من الحقد، ومن ثم يعرض نفسه لإتهامات مماثلة لتلك التى كالها لهيرودوتوس(١٨٣)".

وأهم من ذلك، أن العلماء المحدثين كانوا أكثر تحمسا للإعتماد على المصادر "القديمة" أكثر من إعتمادهم على المصادر "المتأخرة". وهؤلاء العلماء – وهم من أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين – يعنون (بالمصادر المتأخرة) تلك التى تم تدوينها بعد القرن الخامس ق.م. وقد كان العامل المؤثر على هذا التفضيل – إن لم يكن الأساس الذى قام عليه فعلا – هو أن الثقل الأكبر فى العصرين المتأغرق والرومانى كان يميل لحو إثبات وقوع الموجات الاستعمارية وإلى اشتقاق الديانة الإغريقية من الديانة المصرية. على أننا، قبل أن نأتى إلى هذه القضية، ينبغى أن ننظر فى مسألة أثر الديانة المصرية على بلاد الإغريق فى العصر المتأغرق والعصر الرومانى.

إنتصار الديانة المصرية

الإتجاه الذى ظهر بين الإغريق والشعوب الأخرى فى حوض البحر المتوسط، نحو عبادة الآلهة تحت أسمائها المصرية، بدأ قبل فتوح الإسكندر وظاهرة التوفيق بين الأديان فى العصر المتأغرق بوقت طويل. ففى فترة مبكرة من القرن الخامس ق.م.، كتب الشاعر بنداروس Pindaros "ترنيمة لآمون" كانت بدايتها "آمون ملك الأوليمبوس". وقد كانت عبادة هذه الصورة الليبية** من الاله المصرى مرتبطة بطيبه (الإغريقية)، مسقط رأس هذا الشاعر(١٨٥). على أن هذه العبادة كانت لها قاعدة قوية كذلك فى اسبرطه، فقد كتب باوزانياس عن مقدس آمون فى أفيتيس Aphitis باسبرطه:

---

* ولكن بلوتارخوس فى مقاله عن إيزيس وأوزوريس يعترف بالأصول الشرقية للديانة الإغريقية. راجع: أعلاه ص٤٨–٤٩ حاشية رقم ٣ (المراجع).

** المعنى هنا جغرافى، والتعبير يشير إلى معبد آمون فى واحة سيوه الواقعة فى الصحراء الليبية = الصحراء الغربية حاليا. (المترجم)

"يبدو أن أهل لاكونيا* كانوا يستخدمون النبوءة الليبية أكثر من أية مجموعة أخرى في بلاد الإغريق منذ البداية. بل إن آمون يحظى بتبجيل في أفيتيس أكثر مما يحظى به لدى الذين يعبدونه في ليبيا"(١٨٦).

ومن غير الممكن أن نعرف ماكان يعنيه باوزانياس بعبارة "منذ البداية". ولكن لابد، على أية حال، أن العبارة كانت تشير إلى ماقبل نهاية القرن الخامس. ففى تلك الفترة أطلقت تسمية "الليبى" **Libys** على أخى القائد الاسبرطى ليساندروس **Lysandros** وذلك بسبب الرابطة التقليدية مع كهنة أو ملوك ***basileis*** أتباع عبادة آمون، كما أن ليساندروس ذاته استشار نبوءة (هذا الاله) (١٨٧). ولدى بداية القرن الرابع ق.م. كان آمون **Am(m)on** يعبد في أثينه وكُرّست له إحدى السفن ذات الثلاثة صفوف من المجاديف(١٨٨).

الإسكندر إبن آمون

من الواضح ان الاسكندر الأكبر اعتبر نفسه ابنا للاله آمون. فبعد فتحه لمصر قام برحلته الصحراوية ليستشير النبوءة الكبرى للاله في واحة سيوه بصحراء ليبيا. وقد ذكرت النبوءة للإسكندر أنه ابن الاله آمون، وهو مايفسر تصوير الاسكندر على العملة على أنه آمون ذو القرنين(١٨٩). وقد وردت أخبار كثيرة تفيد أن الاسكندر عمد في السنوات الأخيرة من حياته إلى أن يرتدى زى عدد من الآلهة والالهات ويطلب أن يعبد (كإله). "بل إن الاسكندر أبدى رغبته أن يسجد الناس أمامه، أنطلاقا من فكرة أن آمون، وليس فيليب، هو أبوه". ولكن المؤرخين المحدثين يصفون هذه الأخبار بأنها محاولة للنيل من سمعة الإسكندر(١٩٠).

وإذن فمن هو الذى كان إبنا للاله آمون ؟ إن أوزيريس كان ابن الاله رع حب الروايات المصرية المبكرة. وعندما ظهرت عقيدة آمون على عهد الأسرة الثانية عشر إتحد الالهان في صورة آمون – رع. وفي غضون الشطر الأخير من الدولة الحديثة ظهر هناك نوع من الإتحاد الغامض بين رع وأوزيريس(١٩١). ومن هنا يبدو أنه كانت هناك سوابق في اللاهوت المصرى للخلط بين آمون وديونيسوس، فيما كتبه (المؤرخ) ديودوروس الصقلى، أو عند المصدر الذى استبقى منه معلوماته في القرن الثانى ق.م. وهو ديونيسيوس سكيتوبراخيون‘ **Dionysios**

---

* يطلق اسم لاكونيا على السهل الذى تقوم فيه اسبرطة.

Skytobrachion السكندرى[192]. وعلى أى الأحوال فإن الاسكندر قد رأى فى نفسه هـذا الكيان الاهى المتوافق.

ولا نزاع فـى أن فتوح الإسـكندر، وهـى إنجـازات علـى أرض الواقـع، زادت مـن أهميـة الأساطير التى تتحدث عن الحملة التى قام بها الاله ديونيسوس، أو الاله أوزيريس حسبما يدعـوه ديودوروس – وهى حملة نجد بقايا مما يدل عليها فى روايات مصرية من عهد الأسرة الثامنة عشـرة أو حتى من عصر الدولة الوسطى[193]. بل لقد ظهر هيكـل لهذا التصـور فـى بـلاد الإغريـق فـى أعمال يوريبيديس Euripides قبل أن يولد الاسكندر – حسبما يشير إلى ذلـك جيمـس فريـز James Frazer[194]. هذا، وقد كانت العلاقة بين الاسكندر و (عقيدة) ديونيسوس يشـوبها قدر من التوتر، فقد شعر الاسكندر بنوع من المنافسة، بينه وبين الاله، على الأقل بعد الفتوح التى قام بها (الاسكندر)[195]. وتتحدث الأخبار عن موقف الإسكندر (فى هذا الصدد) لـدى وصولـه إلى مدينة نيسه Nysa فى جبال المنطقة الشمالية الغربية فى الهند. فتروى أنه حين علـم مـن أهـل المدينة عن ارتباطها بالاله المذكور:

"كان مسـتعدا لتصديـق قصـة الرحـلات التـى قـام بهـا ديونيسـوس. كذلـك كـان مستعدا للتسليم بأن ديونيسوس هو الذى أسس نيسـه. و (لكنـه) فـى هـذه الحـال سيكون قد وصل إلى النقطة التى وصل إليهـا ديونيسـوس، وسيذهب إلى أبعـد ممـا وصل إليه الاله"[196].

كذلك فإن هناك أخبارا غير ثابتة عن رحلة الاسكندر خلال الهند وهـو يقلـد فـى سـخرية أعمال العربدة الصاخبة التى تنسـب إلى ديونيسـوس[197]. وليـس هنـاك مـن شـك فـى الاهتمـام السياسى والعقائدى الذى أولاه (الإسكندر) لمناسبات الشراب العديدة التـى كـان ينغمـس فيهـا، وفى هذا الصـدد فإن مهمة نشر الحضارة المرتبطة بالاله أوزيريس / ديونيسوس تقدم خلفية أساسية لأنشطة الاسكندر ذاته فى هذا الإطار. ومن هنا كانت مطابقته لنفسه بابن الاله آمون، فى موازاة ومنافسة للاله ديونيسوس، خطا محورياً فى مشروع حياتـه. وهنـا نجـد أن المؤرخـين الذيـن يتبعـون

"النموذج الآرى" يؤثرون التركيز على قراءته لما كتبه كسينوفون Xenophon *و على المطابقة والمنافسة بينه وبين أخلليس (أخيليوس). ولا نزاع فى أن هذين العاملين كان لهما تأثيرهما فى قراره بأن يغزو آسيا، ولكنهما كانا أقل أهمية من رسالته الدينية المصرية بصفة أساسية. وفى هذا المجال فإننا لا يمكن أن نعزو دفن جثمانه فى مصر، وليس فى بلاد الإغريق أو بلاد فارس — إلى التصرف الذى لا هوادة فيه من جانب أحد قواده، وهو بطليموس الذى خلف الاسكندر كحاكم لمصر. إن هذا التصرف يُظهر القيمة المحورية لهذه البلد فى حياة الاسكندر وتصوره لذاته[١٩٨].

لقد انتفع بطليموس وخلفاؤه، حتى كليوباتره التى تعاملت مع قيصر وأنطونيوس، بالديانة المصرية، لكى يحصلوا على احترام رعاياهم المصريين وحبهم، ولكى تكون مصدر قوة ثقافية لهم فى معاملاتهم مع الدول الأخرى التى ظهرت (آنذاك) نتيجة لتفتت امبراطورية الاسكندر[١٩٩]. ولكن هذا لا يكفى لتفسير الانتشار الهائل للديانة المصرية فى تلك الفترة فيما وصف بأنه "فتح (غزو) الديانة الشرقية للغرب"[٢٠٠].

وعلى سبيل المثال فإن إيزيس، الآلهة المصرية الأم، قد عبدت فى أثينا منذ القرن الخامس ق.م.، ليس من جانب المصريين المقيمين هناك فحسب، ولكن من جانب أهل البلاد من الأثينيين[٢٠١]. وبحلول القرن الثانى ق.م. كان هناك معبد لإيزيس قرب الأكروبوليس، كما كانت أثينا تشجع المدن (الإغريقية) التابعة لها على اعتناق العقائد المصرية[٢٠٢]. وحتى فى جزيرة ديلوس Delos، التى كانت مقدسة لدى الإله "أبوللو" فإن عبادة كل من إيزيس وأنوبيس تحولت إلى عبادات رسمية بطريقة لم يكن لدولة البطالمة ضلع فيها، من حيث أن تلك الدولة كانت قد فقدت سيطرتها على الجزيرة قبل ذلك[٢٠٣]. بل إننا حين نصل إلى القرن الثانى الميلادى، نجد أن باوسانياس يخبرنا عن وجود معابد ومزارات مقدسة مصرية فى أثينا وكورنثه وطيبه (الإغريقية) وعدد من الأماكن فى منطقة أرجوليس Argolis ومسينيا Messenia وأخايا Achaia، وفوكيس Phokis[٢٠٤]. وذلك رغم أن هذا الكاتب لا يتحدث عن عقائد شرقية أخرى.

---

* خصص كسينوفون عمله (*Anabasis*) للحديث عن اشتراك مجموعة من المرتزقة الإغريق فى حملة تحت قيادة "قورش الصغير" (أحد المتنازعين على العرش الفارسى) وماقابلها من صعوبات وما قامت به من مغامرات فى الأراضى الآسيوية. (المترجم).

وينبغى أن أؤكد على أية ماتعرضت له بلاد الإغريق (فى هذا المجال) لم يكن إلا جزءاً من الموجة التى امتدت فى كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية[٢٠٥]. وعلى سبيل المثال فإن أهم المزارات المقدسة التى اكتشفت فى بومبيي Pompeii منذ ٧٩ ميلادية – حين ضربتها ثورة البركان فيزوفيوس، كانت مزارات مصرية*. و(على صعيد آخر) نجد (الامبراطور الرومانى) تيبريوس Tiberius يبعد الديانة المصرية – واليهودية – من (العاصمة) روما نفسها، ولكن العقيدتين عادتا (إلى روما) بعد فترة وجيزة، وهنا نجد أن الأباطرة المتأخرين، وعلى وجه التخصيص دوميتيانوس Domitianus وهادريانوس Hadrianus كانوا من الأتباع المخلصين للالهة المصرية[٢٠٦]. بل إن الأخير حاول أن يجعل من أنتينوس Antinoos، حبيبه الأثير، إلها مصريا، و (فى الواقع) فإن المنتزه الفريد الذى أقامه هذا الإمبراطور فى تيفولى Tivoli ** . إلى الشرق من روما، هو أقرب مايكون (فى تنظيمه) إلى مجمع جنائزى لحبيبه الالهى[٢٠٧].(وإلى جانب ذلك) فإن كلا من ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius وسبتميوس سفيروس Septimius Severus و كاراكالا Caracalla ودقلديانوس Diocletianus وعدداً آخر من الأباطرة (الرومان) زاروا مصر، وتؤكد أخبار هذه الزيارات على مدى ماأبدوه من احترام إزاء الآلهة المصرية والثقافة المصرية[٢٠٨]. وبغض النظر عن مشاعرهم الشخصية فى هذا الصدد، فإن موقفهم الذى اتخذوه كان، على مايبدو، لازما من الناحية السياسية، إذا أدخلنا فى إعتبارنا الدور المحورى للديانة المصرية فى كل أرجاء الإمبراطورية.

على أن هذا التحمس الشديد للديانة المصرية أدى إلى نوع من رد الفعل. وفى هذا المجال نجد أن العالمين الهولنديين الحديثين سميليك Smelik وهيمرليك Hemerlijk– اللذين حاولا بكافة الطرق أن يجمعا كل مايمكن جمعه من أمثلة على كراهية الإغريق للثقافة المصرية – لا يقابلان أية صعوبة فى هذا الصدد فى حالة روما. فقد كانت نقطة الضعف (فى تصور الرومان) فى الديانة المصرية هى عبادة الحيوانات. وعلى سبيل المثال فإن شيشرون وجد أن هذا النوع من العبادة أمر يدعو للإستغراب "عند هذه الأمة المصرية التى هى أبعد الأمم عن الفساد والتى تحتفظ بسجلات مكتوبة لأحداث تمتد على مر الأجيال[٢٠٩]. أما الكاتابان الساخران اللذان عاشا فى

* هناك معبد لإيزيس فى بومبيي. (المراجع).

** يعنى فيلا هادريانا villa Hadriana (المراجع).

فترة لاحقة، وهما يوفيناليس Iuvenalis ولوكيانوس Lucianus فقد أطلقا العنان لهجماتهما على عبادة الحيوانات وعلى مصر بأسرها[٢١٠].

وقد اعتقد أغلب الكتاب أن هذه العبادة إنما هى عبادة رمزية ومجازية، وهو رأى عرضه بلوتارخوس فى وضوح كامل فى مقاله "عن إيزيس وأوزيريس". بل لقد اعترف العلماء الذين يعملون فى إطار "النموذج الآرى" بأن هذا المقال هو أهم مصدر (كلاسيكى) فريد عن الديانة المصرية. وفوق ذلك فإن التفسيرات التى يقدمها، يتزايد التثبت منها مع تقدم علم المصريات يوما بعد يوم[٢١١].

لقد رسم بلوتارخوس بالتفصيل، الصورة العامة للديانة المصرية، التى يبدو أنها كانت شائعة بين المثقفين من الإغريق منذ القرن الرابع ق.م. على الأقل. وحسبما جاء فى هذه الصورة فإن عبادة الحيوانات ومايبدو كأنه من قبيل الخرافة فى الديانة المصرية إنما كان قشرة خارجية (لتقريب الأمور) للجماهير، أما الكهنة و / أو أولئك الذين تم تعريفهم بدخائل الديانة، فقد كانوا يعرفون أن عبادة الحيوانات والأساطير العجيبة (المحيطة بها) كانت تُخفى وراءها مُجرّدات عميقة وفهما متعمقا للعالم. فمن مقالة "عن إيزيس وأوزيريس" نعرف أن الأمر الذى كانت تعنى به الفلسفة الدينية فى مصر لم يكن العالم العابر المادى الذى يدور حول "الصيرورة" becoming بما تشتمل عليه من (أعراض) النمو والتلاشى، وإنما العالم الخالد الذى يدور حول "الوجود" being الذى كان يتجلى فى الأعداد والهندسة والفلك.

وبالطبع فإن هذا كله كان يشبه أفكار أفلاطون والفيثاغوريين والأورفيين بشكل يلفت النظر، ليس من حيث المضمون فحسب، ولكن فى كثير من الأحيان فى صورة الألفاظ المستخدمة لوصف تلك الأفكار. وعلى هذا فإن علماء القرنين التاسع عشر والعشرين قد رأوا فى بلوتارخوس مثالا رائدا لما نسميه "التفسير الإغريقى" *interpretatio Graeca* الذى وصفه البعض فى كثير من الوضوع على النحو التالى:

> "إن الإغريقى الذى يهتم بملاحظة الأمور، لم يكن دائما فى موقع يمكّنه من فهم الديانة المصرية من الداخل، وكانت العقبة الأولى هى جهله باللغة المصرية. ففى بعض الأحيان كان (الإغريقى) يقدم معادلة أو تفسيرا على أساس من فهم مغلوط لظاهرة مصرية، أو على أساس تعديل تم تقديمه بخصوص ظاهرة إغريقية. (وهنا نجد

أن) كل انحراف، سواء أكان جذريا أم بسيطا، يسهم في الإبتعاد عن الصورة الحقيقية.[٢١٢]

وقد خصص أحد كبار العلماء المحدثين كتابا بأكمله عن هذا "السراب" الإغريقي في فهم مصر[٢١٣]. إن البديهية* التي تفيد أن الديانة والفلسفة المصريتين كانتا تتسمان، بالضرورة، بعدم النضج وبالضحالة – هذه البديهية تواجه صعوبة (في مصداقيتها) في حالة عدد من الرجال الذين كانوا على قدر غير عادى من الذكاء مثل يودوكسوس **Eudoxos**، الذى تروى لنا الأخبار أنه عاش مع الكهنة المصريين وتعلم اللغة المصرية، و (من ثم) يبدو واضحاً أنه كان يكنّ إحتراما وحماساً كبيرين للثقافة المصرية. على أن نقطتي الضعف الأساسيتين في المنهج الفكرى الحديث هما: إفتقاره إلى إدراك ذاته، وإحساسه الوضعي بأنه يعرف أفضل ***Besserwissen*** مما كان يعرف القدماء. وهذا الحكم يصدق حتى على الإغريق المحبوبين (من جانب أصحاب هذا المنهج)، والذين كانوا متفوقين في كل جوانب الثقافة فيما عدا كتابتهم عن التاريخ القديم وفهمهم لحقيقة علاقاتهم مع الثقافات الأخرى.

وفيما يخص معاصرى بلوتارخوس والمفكرين اللاحقين الذين كتبوا في إطار "النموذج القديم"، فإن التشابه اللافت للنظر بين وصف بلوتارخوس للديانة والفلسفة المصريتين والوصفين اللذين قدمهما أفلاطون والفيثاغوريون، لم يشكل أية صعوبة على الإطلاق. إذ أن هذه الأوصاف كانت، ببساطة، نتيجة لحقيقة يعرفها الجميع – وهى أن أفلاطون وفيثاغورس وأورفيوس أخذوا أفكارهم عن المصريين. وفوق ذلك فإن بلوتارخوس كان يعتقد أنه كانت هناك روابط أخرى أكثر عمقا بين المصريين والديانة الإغريقية. وفي هذا الصدد فقد أهدى مقاله عن إيزيس وأوزيريس إلى إكليا **Klea** التى كتب إليها:

> "من ذا الذى تهيأت له الأسباب، ياإكليا، ليعرف أكثر منك أن أوزيريس مماثل لديونيسوس، فأنت على رأس الفتيات الملهمات (أتباع دونيسوس المخلصات) في دلفى **Delphi**، وقد كرسك أبوك وأمك في الشعائر المقدسة لأوزيريس.

---

* يضع المؤلف في المتن مرادفا للفظة "بديهية" وهو ***Interpretatio Germanica*** وهو اصطلاح معناه الحرفي هو "التفسير الجرمانى" ولا يفيد أكثر من معنى "بديهية" وقد آثرت ألا أذكره في المتن حتى لا يؤدى إلى أى التباس. (المترجم).

ثم يمضي بلوتارخوس بعد ذلك ليقدم تفاصيل عن مواطن التشابه الشعائرية بين كل من العقيدة المصرية وعقيدة دلفي[٢١٤]. وقد طابق بلوتارخوس ثلاث مرات في مجموعها بين ديونيسوس وأوزيريس في هذا المقال[٢١٥]. ورغم أنه لم يكتب بمثل هذا التحديد عن (التطابق بين شخصية إيزيس وديميتير، إلا أن تأكده (من هذا التطابق) كان بنفس الدرجة (كما في حالة أوزيريس وديونيسوس) دون أى شك. فهناك، على سبيل المثال، نقاط تناظر مفصلة بين المتاعب التي صادفتها إيزيس في بيبلوس (جبيل) **Byblos** وتلك التي قابلتها (ديميتير) في إليوسيس **Eleusis** كما صورتها قصيدة "ترنيمة هوميرية إلى ديميتير" وكثيرا مايستخدم أتباع "النموذج الآرى" هذه القصيدة كمثال واضح على "التفسير الإغريقي" عند بلوتارخوس[٢١٦].

وقد يكون الأمر على هذا النحو في هذه الحالة. ومع ذلك، فإني على اقتناع بأنه من المحتمل أن عقيدة الأسرار في إليوسيس. وهي العقيدة التي لا جدال حول ارتباط الترنيمة بها، ترجع في أصلها إلى مصر، حسبما كان القدامى يعتقدون[٢١٧]. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فهناك شواهد آثارية تدل على أن (الإغريق) كانوا يطابقون بين إيزيس وديميتر في إليوسيس بحلول القرن التاسع ق.م. – أي قبل التوقيت التقليدى للترنيمة المذكورة[٢١٨]. وعلى أية حال. فليس هناك أى سبب بالمرة يدعو إلى الشك في أن بلوتارخوس كان يرى في الالهتين تجليا لكيان إلهي واحد. وعلى العموم، فإنه من الواضح أن بلوتارخوس كان يعتقد أن الفلسفة الإغريقية جاءت من مصر، كما كان يؤمن بوجود وحدة بين الديانتين المصرية والإغريقية. وفوق ذلك فقد كان يعتقد أن الأولى أقدم وأنقى من الثانية.

وقد لعب هذا التصور للديانة المصرية دورا محوريا في العملين الروائيين الكبيرين في القرن الثاني الميلادى، وهما "أمور إثيوبية" *Aithiopika* التي كتبها هليودوروس **Heliodoros** و "تحولات الكائنات" *Metamorphoses* أو "الحمار الذهبي" لأبوليوس **Apuleius**. وتدور رواية "أمور إثيوبية" حول قصة رومانسية تغرى بالأخلاق الرفيعة، لإثيوبية حسناء فاضلة ولكنها غير سوداء. وفي هذه الرواية يعبر هليودوروس عن إعجابه الشديد بالإثيوبيين وبفلاسفتهم العراة **gymnosophists**. ولكن نقطة التركيز في هذه الرواية هي مصر والتفوق الأخلاقي لديانتها، كما تؤكد (الرواية) على الاهتمام المشبوب للكهنة الإغريق بتلك الديانة – وحين يتحدث الكاتب عن سيل الأسئلة التي يوجهها كهنة دلفي إلى كاهن مصرى زائر، نجده يقول:

"وباحتصار، فإنهم لم ينسوا أيا من الملامح الهامة لمصر. إذ لا توجد بلد فى العالم يفضلون أن يسمعوا أخبارها أكثر من مصر(٢١٩).

وعلى عكس ذلك، فإن "الحمار الذهبى" لأبوليوس رواية هزلية، ولكن لها نواة جادة تحتوى على أسرار دينية مصرية وعلى شخوص إيزيس، ربة التخفى والتحولات، ومن ورائها أوزيريس / ديونيسوس. وعند نقطة الذروة فى الرواية تعلن الآلهة للبطل:

"وهكذا فإن أهل فريجيا، وهم أقدم الأجناس قاطبة، يطلقون علىّ اسم بسيسنونتيا Pessinuntia. وهكذا (كذلك) يدعونى الأثينيون باسم ميزفا Minerva (أثينة) الكيكروبية، كما يسمينى القبارصة، الذين يتقاذفهم (موج) البحر، فينوس Venus (أفروديتى) البافية. وإسمى عند الرماة الكريتيين هو ديانا ودكتينا Dictynna, Diana، وعند الصقليين ذوى اللغات الثلاث هو بروسربينى Proserpine. أما لدى أهل إليوسيس فأنا كيريس Ceres، الآلهة القديمة، كما أنى (أُدعى) يونو Juno عند البعض، وعند البعض الآخر بلونا Bellona وهيكاتى Hecate ورامنوسيا Rhamnusia. أما الإثيوبيون الذين تغمرهم الأشعة الأولى لاله الشمس حين يولد كل يوم، هم والأفارقة، وكذلك المصريون الذين يتفوقون من حيث أن لديهم العقيدة الأصلية – فإنهم (جميعا) يكرموننى بشعائرى المميزة ويطلقون على اسمى الحقيقى: الملكة إيزيس. (٢٢٠).

هذا ، وقد أدى الاعتقاد بأن الديانة المصرية والشعائر المصرية هى الأصيلة والحقيقية، إلى أن تصبح الصورة الإغريقية والصور الأخرى لهذه الديانة زائدة عن الحاجة. وهذا يفسر لنا الرجوع عن هذه الصور الأخيرة. وفى هذا الصدد كتب يامبليخوس Iamblichos، أحد فلاسفة الأفلاطونية الحديثة Neo-Platonism، فى نهاية الفترة الوثنية فى القرن الرابع الميلادى:

"فليكن تفكيرنا على هذا النحو. بما أن المصريين هم أول من قدر لهم أن يشاركهم الآلهة، فإن الآلهة يبتهجون حينما يكون الإبتهال إليهم من خلال الشعائر المصرية(٢٢١).

(وفى نهاية الحديث) فإن السبب الذى دفعنى إلى الاقتباسات المتكررة فى هدا الفصل هو ما أشعر به من الحاجة إلى أن أوصل إلى الأذهان صورة كانت عادية وتقليدية فى العصر القديم ثم ابتعدت عن ذلك كثيرا فى الدراسات الكلاسيكية الحديثة. وتؤكد غرابة هذا التناول، فى حد ذاتها، عدم قدرة أنصار "النموذج الآرى" على الإقتباس من المصادر القديمة بغزارة ليساندوا قضيتهم. وكل ما أزعمه فى هذا الباب، هو أننا نجد أن الإغريق بعد القرن الخامس ق.م – وهى الفترة الوحيدة التى نعرف خلالها أية معلومات جوهرية عنهم، لم ينظروا إلى نظمهم السياسية وإلى ما كان لديهم من علم وفلسفة وديانة، على أنها أصيلة عندهم وذلك رغم إعتدادهم بأنفسهم وإعتزازهم بإنجازاتهم القريبة العهد. ولكنهم بدلا من ذلك، رأوا أنهم اقتبسوا ذلك كله من الشرق بوجه عام ومن مصر علىٰ وجه الخصوص، وذلك من خلال الموجات الاستعمارية المبكرة ودراسة الإغريق (هناك) فى فترة لاحقة.

الباب الثانى

المعارف المصرية وإنتقال اليونان من عصور الظلام إلى عصر النهضة

ترجمة د. حسين الشيخ

سأهتم فى هذا الفصل بالبحث فى إشكالية إستمرارية مصر القديمة بالرغم من تدهور حضارتها العظيمة، ففى المقام الأول نجد إستمرارية للديانة المصرية سواء فى إطار الديانة المسيحية أم خارج هذا الإطار، وتمثلت هذه الإستمرارية فى بعض طوائف الهراطقة مثل "الغنوسيين"(*)، كما تمثلت فى تراث "الهرامسة"* والذى كان بلا شك وثنياً تماماً. ويضاف إلى هذه الإستمرارية إعجاب وتقدير النخبة المثقفة بمصر، فمصر كانت ظهيراً للمسيحية وتراثها الدينى على أساس من العقائد والأخلاقيات، كما كانت مصدراً أساساً "للعراقة" والمعارف الدنيوية. وهكذا فحتى عام ١٦٠٠ لم تكن قد ظهرت محاولات جادة للبحث فيما إذا كانت الحضارة والفلسفة اليونانية مأخوذتين عن الحضارة المصرية، أم أنهما ظهرتا نتيجة لإحتلال مصر لليونان، وفيما بعد نتيجة الدراسات الإغريقية فى مصر.

إغتيال هيباتيا

فى عام ٣٩٠ ميلادية قامت مجموعة من الغوغاء المسيحيين بتدمير معبد الإله سيرابيس ومكتبة الإسكندرية الضخمة القريبة منه، وما أن مرت خمسة وعشرون عاماً على هذا الحدث حتى قامت مجموعة من الرهبان بتحريض من القديس "كيرلس" بقتل "هيباتيا" الفيلسوفة وعالمة الرياضيات اللامعة بطريقة بشعة. ويحدد هذان العملان الوحشيان نهاية الوثنية المصري، وبداية عصور الإظلام المصرية للمسيحية[١].

ومن المثير للدهشة أن العلماء الذين اهتموا "بالنسق الآرى" للحضارة اليونانية تعمدوا تجاهل الدافع المسيحى وراء هذه الأعمال الوحشية، وفضلوا التعامل معها على أنها مجرد عودة للتعصب المصرى الشرقى ضد العقلانية الهيللينستية[٢]. وإذا تجاهلنا الإيحاء الأوروبى التقليدى بأن

(*) الغنوسية هى حركة عقائدية منبثقة عن المسيحية وإن تعامل معها المسيحيون على أنها حركة إلحادية، أما الهرامسة فهم مجموعة من الفلاسفة نُسبوا إلى الإله "هيرميس" وهو المقابل اليونانى للإله "تحوت" المصرى رمز الحكمة والمعرفة، حاولوا فى النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى إنشاء فلسفة دينية من خلال الأفلاطونية، ولم يقتصروا على ديانة محددة بعينها. (المترجم).

"الأوروبيين لا يمكن أن يكونوا متعصبين" لأمكن تفسير حقيقة أن هؤلاء الذين قاموا بهذه الأعمال ودون استثناء أحد الجانبين. كانوا من المصريين والمسيحيين على حد سواء، فمع حلول القرن الرابع الميلادى تحولت مصر لتصبح من أكثر ولايات الإمبراطورية الرومانية تحمساً للمسيحية، إن لم تكن أكثرها على الإطلاق.

إنهيار النموذج الدينى المصرى - الوثنى

ماالذى حدث؟... لقد إنهارت الديانة المصرية بسرعة ملحوظة فى الفترة مابين ١٣٠ إلى ٢٣٠ ميلادية، إذ تحول قلب الوثنية فى مصر إلى المسيحية بسرعة وبحماس فياض فاق كل الولايات الرومانية الأخرى وترتبط هذه الظاهرة بالمشكلة الأكبر وهى: لماذا تحول كل العالم الوثنى القديم إلى المسيحية؟ وفيما يخص "المؤرخين المسيحيين، فإن هذا الحدث بالطبع لا يشكل لهم أية مشكلة، فهم يعتقدون بأن المصريين، أو أى شعب آخر عندما أبصروا "نور الحقيقة" أو "الديانة الحقيقية"، فقد هجروا وثنيتهم على الفور.

وإذا تجاهلنا هذا التفسير، فإن عامة المؤرخين سيجدون أنه من الصعوبة بمكان تفسير هذه الظاهرة.

وعلى نطاق أوسع يمكن القول بأن عدم الإستقرار بالإضافة إلى إنهيار النسق أو المثال المحلى التقليدى فى الإمبراطوريتين الهيللينستية والرومانية قد أفرز إتجاهاً طبيعياً نحو التوحيد، كنوع من رد فعل السماء تجاه هذه الإمبراطوريات الدنيوية، ويمكن تأكيد هذا بالإنتشار الواسع للديانة اليهودية (خاصة عن طريق تغيير العقيدة) فى حوض البحر الأبيض المتوسط فيما بعد عام ٣٠٠ ميلادية، وفى الواقع فحوالى منتصف القرن الأول الميلادى شكل اليهود نسبة من خمسة إلى عشرة بالمائة من إجمالى التركيبة السكانية للإمبراطورية الرومانية[٣]. وربما لذلك السبب انفجرت فى ١١٦-١١٧ ميلادية ثورة يهودية عارمة، فاقت فى شدتها الثورات المعروفة مثل ثورة المتطرفين Zealots فى ٦٦-٧٠ ميلادية، وثورة باركوكبا Barkokhba فى ١٣٢-١٣٥ ميلادية واللتان حدثتا فى مملكة يهودا.

وقد تبعت ثورة الشتات اليهودية هذه عملية قمع وإبادة جماعية في قبرص وقورنيائية، وخاصة في الإسكندرية التي تمت فيها عملية تدمير تام للمناطق اليهودية المتحضرة ذات الصبغة الهيللينية(٤). وحتى فيما قبل هذه الأحداث فبالرغم من أن اليهود كونوا قطاعاً لا يستهان به داخل التركيبة السكانية لمصر، إلا أن اليهودية بجوانبها الحضارية والدينية ظلت خارج نطاق التأثر بالحضارة المصرية* . وقد كون اليهود المصريون، مثلهم في ذلك مثل يهود أوروبا الشرقية، طبقة وسطى في مصر، تقف بين طبقة الإغريق الحاكمة، وطبقة المصريين المحكومة. ولهذا فقد كان من الطبيعي بل ومن الضروري أن تغذى الطبقة الحاكمة من الإغريق بذور التوتر والصراع بين المصريين وهذه الطبقة الوسطى من الأجانب.

ولأول وهلة قد تبدو الفرضية القائلة بأن الديانة المصرية قد إنهارت مع إنهيار دولة الفراعنة والقومية المصرية، منطقية إلى حد ما، إلا أن هذه الفرضية كما تحمل قدراً من القوة فهي أيضا تحمل قدراً كبيراً من التناقض. فقد خضعت مصر للحكم الأجنبي أغلب الفترة الزمنية الممتدة فيما بعد ٧٠٠ ق.م، وقد حكم بعض هؤلاء الأجانب مصر – كالإثيوبيين والبطالمة – من داخل مصر، إلا أن البعض الآخر مثل الفرس والرومان نظروا إلى مصر على أنها ولاية – وإن كان لها طابعها الخاص – إلا أنها تابعة لهم. وقد أخذ أغلب هؤلاء الحكام الأجانب في إعتبارهم أنه من الضروري المحافظة على علاقات جيدة ومتميزة مع الديانة المصرية ومع القائمين عليها حتى يتمكنوا من السيطرة الكلية

* المغالطة التاريخية واضحة تماماً، فبرغم أننا نسلم بميل اليهود التقليدى إلى تكوين كيانات منعزلة داخل المجتمعات التي عاشوا فيها أو ما يسمى، "الجيتو اليهودى"، إلا أنهم في حالة مصر لم يستطيعوا الفكاك من سيطرة الحضارة المصرية حتى في ديانتهم نفسها، ونأخذ هنا مثلاً واحداً هو المزمور ١٠٤ من مزامير داوود، والذى كُتب فيما بعد القرن العاشر قبل الميلاد. هذا المزمور يكاد يكون ترجمة عبرانية لتدشين الملك المصرى أمنحتب الرابع (إخناتون) إلى إله آتون، والذى كُتب حوالي منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد. هذا غير كتب الأمثال والوصايا والأحداث التاريخية والدينية والتي تشكل جزءاً لايستهان به من التوراة وتكاد تكون نقلا حرفياً من التراث المصرى القديم. عن هذا الموضوع بالتفصيل راجع: فؤاد حسنين على، التوراة الهيروغليفية، القاهرة بدون تاريخ. وراجع لنفس المؤلف، التوراة. عرض وتحليل، القاهرة ١٩٤٦. (المترجم).

على البـلاد.

حقيقـة أن الفـرس قـد قـاموا بحمـلات إضطهـاد ضـد الديانـة المصريـة فـى بعـض الأحيـان، لكـن يمكـن القـول بشـكل عـام أنهـم كـانوا علـى علاقـة طيبـة بهـذه الديانـة[٥]. وفيمـا بعـد خلفهـم المقدونيـون الذيـن كـان لهـم موقـف متميـز مـن هـذه الديانـة، كمـا سـبق الحديث عـن ذلـك فـى الفصـل الأول. وقـد ازدهـرت الديانـة المصريـة وانتشـرت فـى هـذه الفـترة حتـى وصلـت إلى الـذروة فـى النصـف الأول مـن القـرن الثـانى الميـلادى. وربمـا كـان هـذا الظـرف التـاريخى هـو السـبب الأساسـى فـى لفـت الإنتبـاه بشـكل واضـح لإنهيـار الديانـة المصريـة.

فلـو كـان العـامل الحاسـم وراء إنهيـار هـذه الديانـة هـو الإضطهـاد الأجنبـى لكـان مـن بـاب أولى أن يتـم هـذا الإنهيـار خـلال القـرن السـادس أو الرابـع قبـل الميـلاد حينمـا حكـم الفـرس مصـر، بـدلاً مـن القـرن الثـانى الميـلادى الـذى فيـه تمتعـت الديانـة المصريـة بعطـف وتـأييد أباطرة الرومـان.

لقـد كـان البطالمـة فـى مصـر – مثلهـم فـى ذلـك مثـل المغـول وأسـرة مانشـو فـى الصـين – يعـون تمامـاً خطـورة تـأثرهم بالحضـارة المصريـة المحليـة وإحتمـال ذوبـانهم فيهـا، فعملـوا دائمـاً على الحفـاظ علـى حضـارتهم، وحكمـوا مصـر كحكـام أجـانب. وتعـد كليوبـاترا السـابعة – ملكـة أنطونيـو وقيصـر – الأولى والأخـيرة مـن أسـرة البطالمـة التـى تعلمـت اللغـة المصريـة. وكنتيجـة لهذا الموقـف مـن البطالمـة، فقـد تعـاون الكهنـة المصريـون مـع حكـامهم الأجـانب الجـدد، كمـا تعـاملوا مـع مـن سـبقوهم، إلا أنهـم حـاولوا فـى نفـس الوقـت أن يحـافظوا علـى قـدر مـن العزلـة الخاصـة بهـم، أو مـا يمكـن أن نسـميه محافظـة علـى "القوميـة المصريـة".

إلا أنـه ومـع حلـول القـرن الثـانى الميـلادى، وبعـد أربعمائـة عـام مـن الحكـم اليونـانى، يبـدو أن الحكـام الرومـان الجـدد والمقدونيـون والمصريـون مـن الطبقـات العليـا بمـا فيهـم الكهنـة، قـد إنصهـروا معـاً فـى حضـارة هيللينيـة جديـدة ذات ديانـة مصريـة، وربمـا كـان حمـاس

أباطرة الرومان للديانة المصرية كديانة عالمية هو السبب وراء ضعف مركز كهنة مصر الذين عوملوا من قبل كأبطال. وبحلول القرنين الثالث والرابع الميلاديين ظهر موقف عدائي واضح تجاه الديانة المصبرية القديمة، وكما حدث في إجزاء متفرقة من العالم القديم، فقد أصبح المسيحيون يمثلون الطبقات الفقيرة - وفيما بعد الطبقات الوسطى - في مواجهة الطبقات العليا الثرية. ولهذا فقد كان من الممكن أن يثير الثراء الفاحش الذى اشتهرت به المعابد المصرية، وإستغلال بعض الكهنة لمواطنيهم الفقراء، استياء وثورة هذه الطبقة، رغم ما عرف عن هؤلاء الكهنة من ميل للحياة الخشنة القاسية[٦].

وهكذا ففيما بعد القرن الثاني الميلادى، ورغم الحقيقة المعروفة من أن المسيحية جاءت من فلسطين لتصبح ديانة عالمية، إلا أنها أصبحت تمثل الطبقات المصرية الفقيرة إلى جانب الطبقات الوسطى في مواجهة الطبقة العليا الثرية ذات الحضارة الهيللينية العالمية (الهيللينستية) وديانتهم المصرية الوثنية.

المسيحية والنجوم والأسماك

يبدو مما سبق أن هذه العوامل الإجتماعية والقومية قد لعبت دوراً رئيسياً في هدم الديانة المصرية المنظمة، حيث كانت هذه العوامل آخذة في النمو التدريجي البطيء، فالتوتر طويل الأمد، والنقائص التي شابت هذه الديانة، أديا إلى تبلور ملمحين جديدين وظهورهما بشكل واضح خلال القرن الثاني الميلادى.

وأول هذين الملمحين - كما تقول بذلك الحكمة التقليدية - هو أن المسيحية قد أصبحت متاحة للجميع، فهي ديانة عالمية موحدة بشكل لم تستطع اليهودية أن تجاريها فيه على الإطلاق، بالإضافة إلى أنها أصابت من اعتنقوها بحالة من الحماس الديني منقطع النظير مع اتجاه نحو الإنسجام والتوحد. أما ثاني هذين الملمحين فهو الإعتقاد العام الذى قال بأن نهاية العالم قد اقتربت وأن هناك عصراً جديداً على وشك أن يولد. فقد ساد الإعتقاد في ألف عام قادمة من المحبة والسلام والعدالة، أو بمعنى آخر نظام جديد أو ألفية جديدة تبدأ بظهور المسيح مع قديسيه.

ولم يكن هذا إلا رد فعل طبيعي للإحباط الذى عانى منه الناس فى كافة أوجه حياتهم، وخاصة بسبب الغزوات العسكرية والسيطرة الإقتصادية والثقافية التى مارسها الأجانب ضد أهل البلاد. وفى الحقيقة فإن الفكرة القائلة بأن قوة خارجية ستتدخل فى الأمر لتقضى على النظام الحاكم غير الشرعي - حتى أن الأول سيصبح الأخير والأخير سيصبح هو الأول عوضاً عنه - لم تكن فكرة جديدة، فهى عقيدة أساسية فى الديانة اليهودية، على الأقل منذ السبى البابلى الأول فى القرن السادس قبل الميلاد، ثم أخذت هذه الفكرة فى النمو والسيطرة فى الفترة التى تلت عام ٥٠ قبل الميلاد وإستمرت لمائتى عام تالية.

ويمكن تفسير هذه الأزمة جزئياً بعدد من المتغيرات الإقتصادية والسياسية، فقد كان هناك مثلا النجاح الذى لم يسبق له مثيل والذى حققه الرومان بتوحيدهم لدول حوض البحر الأبيض المتوسط تحت سيطرتهم، كما كانت هناك الحروب الأهلية الوحشية التى دارت بين القادة العسكريين الرومان، وأخيراً تأسيس الإمبراطورية الرومانية فى ٣١ قبل الميلاد*، والتى دائما ما نُظر لها على أنها بداية لعصر جديد تحت حكم أوغسطس.

أما فيما يخص اليهود فقد كان هناك عامل إضافى هو التغير الذى حدث فى سياسة الرومان تجاههم، فقد تحول الرومان من صداقة اليهود كحلفاء لهم ضد عدو مشترك هو السليوقيين الذين حكموا أغلب الأجزاء الشمالية الغربية لأسيا، إلى نوع من الحياد الذى يهدف إلى الحفاظ على توازن القوى، وفى النهاية تحولوا إلى عداوة اليهود، وبسقوط الممالك الهيلينيستية وتحول الإمبراطورية بجملتها إلى حكم ثنائى رومانى - يونانى، أصبح الإعتقاد فى المخلّص المنتظر عقيدة أساسية فى التراث اليهودى.

وقد كان المخلص الأول لليهود فى التوراة هو الإمبراطور الفارس "قورش" الذى

---

* ٣١ ق.م. هو تاريخ موقعه اكتيوم وإنتصار اوكتافيانوس على كليوباترا وأنطونيوس أما تأسيس الامبراطورية واكتساب أوكتافيانوس للقب أوغسطس فقد كان فى ٢٧ ق.م. (المراجع).

أعفى اليهود – أو على الأقل من رغب منهم – من النفى البابلى(٧). أما الإعتقاد فى الخلاص لدى اليهود فكان قائماً على أن هذا الخلاص سيأتى من الشرق، وخاصة من بين البارثيين الحكام الجدد لفارس، والذين حكموا أيضاً بلاد مابين النهرين، والتى اشتهرت بكثافة سكانها من اليهود، والذين مثلهم مثل اليهود خاضوا حروبا للإستقلال ضد السليوقيين. ومما لا شك فيه أن ثورات اليهود فى ١١٥، ١١٦ ميلادية كان من أسبابها غزو الإمبراطور ترايانوس لبارثيا فى ذلك الوقت(٨).

إلا أنه ربما كان من الضرورى أن أعود فأكرر هنا أن عقيدة الخلاص أو البحث عن مخلّص فيما بين ٥٠ قبل الميلاد إلى ١٥٠ بعد الميلاد، وفكرة إشراقة عصر جديد، هى أشياء لم تكن غريبة على اليهود، إلا أننا لا نستطيع تفسيرها كلية فى ضوء المتغيرات فى السياسة الرومانية السابق عرضها، فهناك عنصر آخر لا نستطيع التغاضى عنه هو التغير الفلكى من عصر كان برج الحمل هو المسيطر عليه، إلى عصر أصبح فيه برج الحوت هو المسيطر، ودون الدخول فى مجادلات حول من الذى إكتشف مبادرة الإعتدالين ومتى تم هذا الإكتشاف، فإنه مما لا شك فيه أنها كانت معروفة ومنتشرة حوالى ٥٠ قبل الميلاد(٩). وتعريف هذا مؤداه أنه خلال الفترة من ٥٠ قبل الميلاد وحتى ١٥٠ ميلادية تغير أو إنتقل الإعتدال الربيعى من برج الحمل إلى برج الحوت*.

وعبر هذه السلسلة من المتغيرات السياسية والإقتصادية والإجتماعية والفلكية يمكن للمرء أن يفهم القصيدة الرابعة للشاعر الرومانى "فيرجيليوس" والتى كتبها فى عام ٤٠ قبل الميلاد ويقول فى مطلعها:

---

* هذه المبادرة هى نوع ثالث من الحركة للكرة الأرضية يضاف إلى الحركة اليومية والسنوية المنتظمة لها. وهى دورة متذبذبة لمحور الأرض تستغرق مايقرب من ستة وعشرين ألف سنة، وتبدو النجوم وكأنها قد بدلت من مواقعها بالنسبة لنظام الشمس. وهكذا فحسب علامات الأبراج الفلكية الشائعة الإستعمال يبدأ الإعتدال الربيعى فى الظهور مبكراً، ويرجع هذا إلى أن الإعتدال الربيعى قد إنتقل من برج إلى الذى يليه مستغرقاً الفين ومائتى عام. ويقول الفلكيون بأن العصر القادم سيكون تحت سيطرة برج الدلو خلال فترة لا تزيد عن قرنين، عندما يحدث الإعتدال الربيعى داخل هذا البرج.

والآن... ستبدأ سلسلة عظيمة من القرون مجدداً

إنما أنت ... بوكيان الجميل الذى تبتسم لميلاد طفل

ستوقف حضّانته الحديدية ...

وينبثق جنس ذهبى عبر أنحاء العالم

ملك هو إلهك أبوللو.

وفرجيليوس هنا يتقدم بالتحية إلى "بوليو" الذى شغل وظيفة قنصل لروما بمناسبة ميلاد طفله الجديد، وكأنه مقدمة لميلاد "عصر جديد مجيد"، إلا أن التاريخ سيعيد نفسه – حسب رأى فرجيليوس – وستكون، هناك حروب طروادية جديدة وأحداث تاريخية أخرى(١٠).

وقد أجهد معظم دارسو الكلاسيكيات أنفسهم لإثبات أن هذه الأبيات لا تخرج عن كونها بضعة صور شعرية قدمها فرجيليوس بمناسبة ميلاد طفل لأحد أصدقائه وذلك فى مواجهة الرأى السابق والقائل بأنها نبوءة بمجئ المسيح. إلا أن الأمر يبدو أكثر إقناعاً إذا تصورنا أن الشاعر – بوصفه شاعراً – قد إستعمل عدة مستويات من المعنى مثل: ميلاد طفل لصديقه بوليو، وبداية عصر سلام جديد تحت زعامة أوغسطس، كما توحى الكلمات بظهور إله جديد، وبالتأكيد تشير هذه الأبيات إلى تغير كونى أو نجمى فى هذا العصر، والذى لايمكن أن يكون إلا الدخول فى العصر الجديد لبرج الحوت.

وقد ارتبطت النجوم دائماً بعظماء القادة والمخلصين مثل قورش الذى أسس الإمبراطورية الفارسية فى القرن السادس قبل الميلاد، وآن لوشان An Lushan الزعيم الصينى الثائر فى القرن الثامن الميلادى(١١). ومن المدهش أن نلاحظ الإرتباط الدائم والواضح بين النجوم والزعماء، البارزين خلال فترة الأزمة من ٥٠ قبل الميلاد وحتى ١٥٠ ميلادية، من المذّنب الذى عومل على أنه يمثل روح يوليوس قيصر إلى نجم بيت لحم، ثم النجم الذى إرتبط بالإله انتينوس إله الإمبراطور هادريان الجديد، بالإضافة إلى أن زعيم المقاومة اليهودية كان يُعرف بإسم – باركوبا – أى إبن النجم. كما أن

الزعيم اليهودى المُعمر "رابى أوكيبا Rabbiokiba" أحد العقلاء ومؤسس الدولة اليهودية الحديثة والذى عاصر تدمير القدس فى عام ٧٠ ميلادية قد تحمس كثيرا لإنتصارات "باركوبا" ورأى أنها مقدمة لعصر جديد مقتبساً هذه الكلمات من سفر الأعداد (٢٤ : ١٧):

"إنه لنجم خرج من نفس يعقوب"[١٢].

ومن مؤلف "بلوتارخوس" المعنون "عن إيزيس وأوزوريس" يتضح لنا أهمية حركة الأفلاك كإشارات لعالم مثالى للنجوم، وهذه العلاقة التكاملية بين الآلهة والنجوم يمكن ملاحظتها فى الديانة المصرية المتأخرة. كما نعلم أن علماء الفلك فى مصر فى العصر الهيللينستى قد إهتموا بدراسة مبادرات الإعتدال. وخلال القرن الثانى الميلادى تبدو دراسة هذه المبادرات وكأنها قد زادت عن حدها وذلك بسبب مصادفة فلكية غير عادية[١٣]. وتفسيراً لهذا يمكن القول بأنه كان لمصر القديمة عدة أنظمة للتقويم، إلا أنه وجد نظامان كانا الأكثر شيوعاً، وكان أساسهما هو "السنة"، الأول التقويم المدنى وكانت السنة فيه ٣٦٥ يوما، أما الثانى فقد إعتمد على ظهور نجم "الشعرى اليمانية" والذى كان ظهوره بشيراً ببدء موسم فيضان النيل[١٤].

ولما كانت السنة الفلكية تساوى ٣٦٥ وربع يوماً، لذا كانت السنة المدنية تتقدم عليها بمقدار يوم واحد كل أربع سنوات، وتتساوى السنتان مرة واحدة كل ١٤٦٠ عاماً. وقد حدثت هذه المصادفة فى عام ١٣٩ ميلادية، ولهذا إعتبرها الكهنة المصريون الذين ارتبطوا بشدة بدراسة النجوم، رسالة موجهة إليهم حول نهاية حقبة زمنية وبداية حقبة جديدة أخرى.

فى عام ١٣٠ ميلادية كان للإمبراطور هادريانوس، وحبيبه الصغير أنتينوس مناقشات طويلة مع كهنة الإله "تحوت" إلهُ الحكمة فى مركز عبادته الرئيس فى مدينة "هيرمو بوليس" الأشمونين. وبعد ذلك بفترة قصيرة تم العثور على انتينوس غريقاً فى النيل، وكتقليد مصرى قديم عومل الحادث على أنه "الإله أوزوريس غريقاً"[١٥].

ويبدو أن الموضوع برمته كان يقصد منه أن يتحول الأمر إلى لغز محير، وقد حدث ذلك بالفعل. إلا أنه يوجد شبه إتفاق جماعي الآن على أن موت أنتينوس كان تضحية إختيارية منه قام بها لتجنب كارثة مروعة كانت على وشك أن تقع[١٦]. ومن المؤكد أن الإمبراطور هادريانوس قد أعلن انتينوس إلها جديداً بإسم اوزوريس، وقد حققت عبادته إنتشاراً إلى حد ما رغم قصر عمرها.

وتتبقى لنا مشكلة موت أنتينوس وهل كان منقذاً ومخلصاً للعصر الجديد أم لا، أما الذى لا شك فيه هو أن المسيحيين نظروا إلى إلههم الجديد: أوزوريس – المسيح على أنه هو هذا المنقذ. وتوجدة عدة رؤى تقليدية خاصة بالمسيح، إلا أننى أود هنا أن أعرض رؤية جديدة تتعلق بالأسماك. فلم تكن الأسماك مألوفة كتقليد دينى مصرى أو يهودى إلا أنه فى بعض الأحيان ارتبطت بعض أنواع الأسماك بآلهة معينة فى مصر، وفى بعض المقاطعات عبدت بعض أنواع من الأسماك واعتبرت من المقدسات.

يضاف إلى ذلك أنه فى فترة لاحقة ظهرت بعض الأساطير التى قالت بأن الأسماك قد إلتهمت العضو التناسلى للإله أوزوريس أثناء غرقه، وربما كانت كلمة "باوت" Bwt بمعنى سمك تعنى أيضا الكراهية والبغض. ولهذا فلا نستطيع أن نعتبر الأسماك شعيرة أساسية فى الديانة المصرية القديمة[١٧].

وفيما عدا قضية الإله الفلسطينى "داجون" Dagon – وهى قضية مشكوك فيها – فإن الأسماك تبدو كما لو لم يكن لها أى دلالة دينية فى العهد القديم[١٨]. أما فى العهد الجديد (الإنجيل) فعلى العكس نجد أن الأسماك تلعب دوراً مؤثراً، وعلى سبيل المثال نجد أن أهم حوارى المسيح كانوا من صائدى الأسماك، بالإضافة إلى معجزة السمكتين والخمسة أرغفة الشهيرة، وطبقاً للقديس يوحنا ففى البشارة (الكتب الأولى من العهد الجديد) أن المسيح قد أطعم حوارييه سمكاً فى وجبة رمزية أخيرة[١٩].

ويضاف هذا التصور إلى الفكرة القائلة بأن الأسماك كانت عنصراً رئيسياً فى العشاء الأخير، وبالتالى إنعكس هذا الإنطباع على إنتاج صناع الأيقونات خاصة فى

بداية المسيحية[٢٠].

وفى معرض التحول (تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودم المسيح) فإن المسيح لم يكن فقط رمزاً للخبز أو الحبوب مثل الإله أوزوريس، بل رمز أيضاً للسمك - أو كما مُثل دائماً - رمزاً لسمكتين. وقد كتب المفكر المسيحى اللامع "ترتيليان" حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية قائلا: "نحن الأسماك الصغيرة التى ولدت فى الماء، على منوال مخلصنا" السمكة Ichthys.[٢١]

ويفسر هذا الإعتقاد لماذا استعمل السمك كرمز للإشارة إلى المسيح والمسيحيين، ويظهر دائماً فى الأسرار التى تدور حول المخلّص: (السمكة المسيح عيسى، المخلص، ابن الإله)، ولهذا فإن السمك بظهوره الرمزى فى الأسرار المسيحية. يوضح أن هذه الأسرار كانت تفسيراً للرمز وليس العكس. وكمحصلة لهذا فليس هناك من شك فى أنه بالرغم من النسق الآرى الرمزى الذى أحاط بالمسيح كمثال للتضحية، فإن إستعمال الأسماك، أو بشكل أكثر تحديداً (سمكتان كما فى علامات الأبراج) يوضح أن المسيحيين الأوائل نظروا إلى أنفسهم، كما نظر إليهم الآخرون، كأتباع لديانة جديدة فى عصر جديد يسيطر عليه برج الحوت.

دعونا نسلم مرة أخرى بأنه قد حدث نوع من الضغط طويل الأمد بجوانبه الإقتصادية والإجتماعية والوطنية على الديانة المصرية خلال القرن الثانى الميلادى، ويضاف إلى هذا الصدفة الغريبة من إنتقال من برج الحمل إلى برج الحوت، وإكتمال دورة السنين المصرية التى تعتمد على نجم الشعرى اليمانية، والأخرى المدنية التى تعتمد على فيضان النيل، والذى يمكن أن يكون قد ساهم فى خلق قوة دافقة من التدمير الذاتى. وفوق هذا يمكن القول بأن الديانة المصرية بالإضافة إلى إحتوائها على حس قوى بالدورات الزمنية المتعاقبة، فهى قد تمحورت أيضاً حول أفكار أخرى كالميلاد والموت والبعث، حتى أنها قد نظرت إلى الألهة أحيانا على أنهم فانين - رغم حياتهم الطويلة - كما يقول بروفسور "هورنونج Hornung" الذى كتب مايلى:

"لهذا يمكننا الإفتراض أن إمكانية الحياة بدون آلهة لفترة ما، كان شيئاً مؤكداً في الوعي المصرى، فعبارة مثل (في عصر حكم الآلهة) والتي تعني (طالما كانت الآلهة موجودة) ظهرت في نصوص المعابد المصرية - اليونانية الرومانية ... وإلا يكون الإيمان بالبعث... هو المسيطر على التعاويذ السحرية".(٢٢)

وفى إطار هذا السياق يمكننا قراءة إحدى المرثيات التى ظهرت فى أحد النصوص الهرمسية ... وتقول:

"سيأتي زمن ما يتضح فيه أن المصريين قد كرموا آلهتهم بأفعال تقية ورعة وخدمة منتظمة ولكن عبثاً، فكل هذا التقديس سيصبح عديم الجدوى، إذ ستترك الآلهة الأرض عائدة إلى السماء، ستهجر الآلهة مصر، وتصبح هذه الأرض التي كانت دوماً مستقراً للدين مرتعاً للعوز والإملاق. سيملأ الأجانب البلاد، ولن يقتصر الأمر على عدم الإهتمام بالشعائر الدينية، فسوف يحدث ما هو أكثر إيلاماً، فستحكم مصر بقوانين زائفة، وتقاسي ألم العقاب، وسيمتنع الكل عن ممارسة شعائر عبادة الآلهة... سوف يؤسس جنس ما، ربما كان الإسكيثيون، أو الهنود أو بعض البرابرة من الجوار، دولة له في مصر".

إلا أنه وكما فى العديد من نبوءات ورؤى الكتاب المقدس يمكن تعطيل أو إيقاف (أذى) الأعداء عن طريق:

"الأب العظيم... وبواسطة القوة الخالصة للإله الواحد... إما عن طريق محوهم تماماً بالطوفان، أو تدميرهم بالنار، أو القضاء عليهم بالأوبئة الفتاكة... ثم يعيد الإله العالم إلى جماله السابق... هكذا سوف يكون بعث العالم ثانية: عودة إلى كل ماهو طيب... وللطبيعة نفسها... (٢٣).

ومفهوم المتواليات هذا عن الميلاد فالموت ثم البعث، يترك الباب مفتوحاً لمن قد يحاولون بعث الديانة المصرية فى عصور النهضة والتنبؤ، إلا أنه وفى نفس الوقت يجب أن نأخذ فى الإعتبار بقاء هذه الديانة بشكلها المتغير فى الفترات المتأخرة، ومع المسيحية المبكرة. وبشكل عام يمكن القول بأن العاطفة الدينية لدى المصريين، والفلسفات الواعية والتعاليم اللاهوتية التى نسبها كتاب اليونان إلى الكهنة المصريين، ظلت موجودة ومنتشرة خلال عهود المسيحية الأولى. وفوق كل ذلك فعلى مستوى التعاليم الكنسية ونظام الكنيسة يبدو أن الديانة المصرية قد استطاعت إختراق المسيحية ليس فى مصر وحدها وإنما بشكل عام.

ماتبقى من الديانة المصرية

الهرمسية - الأفلاطونية الحديثة - الغنوسية

بالرغم من التشابه الغريب بين المسيح والإله أوزوريس والإله تموز إله بلاد مابين النهرين - وهم آلهة الخصوبة الذين يبعثون بعد موتهم، إلا أننى لن استطرد فى مناقشة استمرارية الديانة المصرية وديانة بلاد مابين النهرين فى إطار المسيحية، وبالرغم من جاذبية الموضوع، إلا أنه سيبتعد بنا كثيراً عن الهدف من هذا الكتاب.[٢٤] وبالتالى فسنهتم هنا ببقايا الديانة المصرية التقليدية وكيف عاشت واستمرت داخل إطار من المسيحية النمطية.

إجتازت مصر فى الفترة من ١٥٠ إلى ٤٥٠ ميلادية فترة من التشتت والإنقسامات الدينية والسياسية، يضاف إلى ذلك أن الفرق الدينية التى نتحدث عنها هنا كانت تميل إلى الإعتقاد بأنه يمكن الوصول إلى الآلهة بشكل فردى أو قاصر على مجموعات معنية فقط، عن طريق شعائر غامضة وصارمة، وأول وأهم بنود هذه الممارسات كان القسم المخيف على الإلتزام بالسرية المطلقة فيما يخص هذه الشعائر. كما أخذت هذه الفرق موقفاً عدائياً من الكتابة عن معتقداتهم، أو بمعنى آخر نشر هذه المعتقدات على الملأ، فقد كانوا يعتقدون بأنه يمكن الوصول إلى الحكمة الحقة عن طريق

الإتصال المباشر بين المعلم ومريديه بمعزل عن كل شئ. كما آمنوا بأنه من الصعوبة بمكان وصف (الذى لا يوصف) بالكلمات، لذا كان إصرارهم على السرية والغموض قوياً.

من ذلك يتضح أنه من الصعب وصف هذه الفرق، وحتى إذا كان هذا بالإمكان فإنه يعتبر بشكل من الأشكال خروجاً على فكرهم بجعله متاحاً للجميع، إلا أنه من الضرورى أيضاً أن نحاول فى نفس الوقت الإحاطة ببعض نماذجهم(٢٥).

لقد إستحوذ رقم "ثلاثة" فى الماضى على إهتمام الجميع، ويتضح هذا من بعض الأوصاف والتشبيهات كالإله هيرميس "المعظم ثلاثاً"، والثالوث المقدس المسيحى،(٢٦) وبين مجموعات الفرق التى نحن مهتمون بها وهى: الهرمسية والأفلاطونية الحديثة والغنوسية كان يوجد أكثر من ثالوث وينتمون إلى فصيلين أساسيين: الأول ذو الشكل المسيحى الذى وجد به إله - آب، وإبن كان بمثابة القوة العقلية النشطة للأب، ثم قوة ثالثة تعمل عمل الوسيط بين القوتين الأوليين(٢٧). أما الفصيل الثانى فهو مثال مختلف إلى حد ما تقوم فكرته على "الإله الخفى" الذى يقف وراء "القوة الخلاقة"، وهو الخالق الذى عبده اليهود والمسيحيون وغيرهم. وكان ينظر لهذين الإلهين إما على أنهما منفصلين، أو على أساس أنهما قد إتحدا بشكل غامض: "الإله الخفى"، ثم "الخير" الذى هو أول مبادئ الفكر الأفلاطونى، لقد كان هو "الفكر المجرد" مقابل "قوة الخالق" أما العنصر الثالث فى هذا الثالوث فقد كان مختلفاً تماماً، فهو "روح العالم" أو هو "عقل الإله"، أو هو بمعنى آخر "قوة الحياة فى العالم أو الكون بأجمعه"، وكانت مهمته الأساسية هى تنظيم الحوار بين القوتين الأوليين فى الثالوث مع الحفاظ عليهما منفصلتين.

ومن الأمور الغريبة المتناقضة أن حقيقة الإله الأول كإله خفى لا يمكن وصفه قد إستعملت أحيانا لتبرير الوثنية. فالإنسان يستطيع أن يلم فقط بالمحسوس أو المتناه، أما الإله الخفى فهو غير متناه كما كتب لنا الحكيم ماكسيموس الصورى فى القرن الثانى الميلادى قائلاً:

"الإلـه... أعظـم مـن الزمـن والأبديـة وكـل المخلوقـات، لا يمكـن تسميته، لا يمكن نطق إسمه بأى صوت، لا يمكن رؤيته بأى عين، ولما كنا عاجزين عن الإمساك بأى شئ من آثاره، لذا إستعنا بالأصوات والأسماء والصور، والذهب المشغول والعاج والفضة، والنباتات والأنهار وقمم الجبال والسيول، متشوقين كى نعرف شيئاً عنه".

ويستمر ماكسيموس الصورى فى نبرة روحانية - تذكرنا مباشرة بكتابات "جون لوك" - تدلل على التسامح الدينى:

"دع البشر يتعرفون على ماهو مقدس، دعهم يعرفون، هذا كل شئ. إذا ماحرّك فن "فيدياس" وجدان إغريقى بذكرى الإله، أو مصرى يقدس حيواناً ما، أو شخص آخر يقدس نهراً ما، أو آخر يقدس ناراً، فلا إعتراض لدى على إختلافهم، فقط دعهم يعرفون، دعهم يحبون، دعهم يتذكرون[٢٨].

وقد كانت الهرمسية والأفلاطونية الحديثة والغنوسية فلسفات ثنائية بمعنى أنها تقدم الخرافات للعامة، أما الخاصة فقد قدمت لهم المعرفة الحقة، إلا أن هذه المعرفة لم تكن معرفة عقلانية فقد كانت تتضمن إستعمال الحدس فى إكتشاف النفس، حتى أنه فى الإمكان إطلاق لفظ "الإلهام" أو "الوحى" عليها[٢٩].

وعن طريق التعلم والتدريبات الأخلاقية والدينية الشاقة يمكن للقلة الملهمة أن تقترب من "الخير" أو "المسبب الأول" الذى لا يمكن لعامة الشعب أن يكتشفوه، فهم لا يستطيعون رؤية ماوراء هذه "القوة الخالقة".

وقد إرتبط مبدأ الإستبطان والصفوة هذا بظاهرة غريبة تماماً على اليهودية والمسيحية التقليدية، هى الإعتقاد بإمكانية قداسة الإنسان. وأنا أرى أن هذا المبدأ قد جاء من الإعتقاد المصرى بأن الفرعون الذى يموت يتحول ليصبح هو الإله أوزوريس. وفى الديانة المصرية المتأخرة أصبح هذا الإعتقاد أكثر "ديموقراطية" أو بمعنى آخر انتشر

على نطاق واسع بين المصريين، فعن طريق القرابين وإتباع التعاليم الحقة والإجراءات الصحيحة أصبحت إمكانية أن يتحول أى إنسان بعد موته إلى الخلود ويصبح هو نفسه الإله أوزوريس مسألة متاحة أمام الجميع.

إلا أنه إذا إنتقلنا إلى مستوى أعمق وأكثر غموضاً فأعتقد أنه يمكن تتبع هذا الإعتقاد حتى يمكننا التفرقة بين إله الرعاة "الذى لا نظير له "فى الإسرائيليات، وبين مبدأ وحدة الوجود والإلهة "التى لا بديل عنها" عند الزراع المصريين. ففى المبدأ الأخير يمكن للإله أن يتجسد فى أى شئ، بما فى ذلك البشر.

وتقودنا الفكرة القائلة بإمكانية تحول الإنسان إلى إله، من الدين، حيث يتضرع أتباع الإله من أجل المساعدة أو الإرشاد الخ...، إلى السحر حيث يبدأ هؤلاء الأتباع فى طلب أشياء معينة. فيقول أفلوطين أحد أشهر الأفلاطونيين المحدثين:

"يجب أن تأتي الألهة إلى، لا أن أذهب أنا إليها[٣٠]. ويبدو واضحاً أن هذا النموذج الفكرى يتجاوز مبدأ المساواة بين الإنسان والإله إلى محاولة الإنسان السيطرة على الإله، حتى أنه يمكن القول بشكل من الأشكال أن الإنسان هو الذى يصنع الإله[٣١].

وعودة إلى إشكالية النجوم يتضح لنا أن النجوم قد لعبت دوراً هاماً فى "مثلث القوة" هذا فعلى الرغم من ظهور عدة أنساق فلكية مختلفة، إلا أن أكثر هذه الأنساق تأثيراً كان الذى قال به بطلميوس الجغرافى والفلكى الذى عاش فى مصر فى القرن الثانى الميلادى، وهى الفترة التى حدث فيها التحول من الديانة التقليدية القديمة، إلى العبادات الجديدة.

وطبقاً لبطلميوس فقد كانت الشمس والقمر والكواكب والنجوم "الثابتة" تدور حول الأرض فى مدارات خاصة بها. وهكذا فلكى يصل الإنسان إلى العالم المثالى يجب أن يتجاوزهم ويسمو فوقهم. وقد تضمنت الهرمسية والأفلاطونية الحديثة أيضاً الأفكار المصرية الصحيحة والتى لا علاقة لها بالمسيحية حول الوجود السابق للأرواح ثم تناسخ

هـذه الأرواح، أو إنتقال الأرواح من جسم إلى آخـر، ويرتبـط شـكلها الجديـد إلى حـد مـا بإقترانها بـالكواكب والنجوم خاصـة فى لحظة الميـلاد[٣٢].

وفى المعالجة السياسية الجيدة للغنوسـية والتـى قـامت بهـا الباحثـة المعـاصرة "إلـين بـاجلس" Elaine Pagels تبـدو الباحثة وقـد تعـاطفت مـع الغنوسـيين كنمـوذج للحريـة مناقض للتجمـد وللسـلطة الكهنوتية والقمـع الـذى مارسـته الكنيسـة التقليديـة، فقـد كـان لهـم عـدد كبـير مـن المعلمـين والنصـوص الدينيـة والكتـب المقدسـة، كمـا تحـدوا سـلطة الكنيسـة، لأن الأسـاقفة الذيـن كـانوا يتحكمـون فـى الكنيسـة منعـوا تدريس الديـن تمامـاً فيمـا عـدا الكتـب الأربعـة الأولى مـن الإنجيـل.

إلا أن الباحثـة لم تسـتثمر الحقيقـة الواضحـة وهـى أن الغنوسـيين كـانوا بشـكل عـام أغنيـاء عـن المسـيحيين التقليديـين، وأنـه رغـم أن مبـادئهم تقـول بـأن المعرفـة متاحـة للجميـع، إلا أن الدراسـة اللازمـة للتوصـل إلى هـذه المعرفـة كـانت بحاجـة إلى ثـراء واسـع ووقـت فـراغ طويـل[٣٣]. وفـى هـذا السـياق إسـتطاع الأب "فيسـتوجيير" Festugière – الـذى كـان مـن أبـرز مـن درسـوا الهرمسـية والغنوسـية فيمـا بـين ١٩٣٠-١٩٨٠ – أن يفـرق بـين هرمسية العلماء وهرمسـية العامـة، حينمـا أبـرز التضـاد الكـامن بـين الفلسـفة الهرمسـية فـى نصوصهـا الأصليـة مـن ناحيـة، والسـحر والعلـوم الغامضـة التى إرتبطـت بالهرمسية مـن ناحيـة أخـرى. وكمـا أشـار بعـض البـاحثين فـإن ممارسـة هـذه العلـوم الغامضـة كـان قـاصراً علـى النخبـة مـن المجتمـع[٣٤]. والمثـال الواضـح علـى ذلـك هـو "هيباتيـا" التـى كـانت أعظـم فلاسـفة الأفلاطونيـة الحديثـة، وأنبـغ علمـاء الرياضيـات والتـى انتمـت إلى الطبقـة العليـا وكـانت تعـد ضمـن صفـوة المجتمـع.

وقـد كـانت المـدارس الفلسـفية الثـلاث تفتقـر إلى الشـكل التنظيمـى الخـارجى، والفرديـة اللازمـة لنظـام مـن المعتقـدات التـى تؤكـد ظـاهرة الإسـتبطان والتـى واءمـت نفسـها تمامـاً مـع الموقـف الجديـد الـذى بـرز بإنهيـار الديانـة المصريـة الرسميـة. إلا أن الديانـة المصريـة ذات الآلهـة المتعـددة، كـانت تعوزهـا الوحـدة التنظيميـة أو الدينيـة التـى أدت إلى التوحيـد

الذى أعقبها، وفوق هذا فتوجد دلائل على أنه . ـد وجد نوع من "مابعد الهرمسية" إنتشر فيما قبل القرن الثانى الميلادى.

وكموجز سريع لما سبق عرضه يمكننا القول بأنه قد ظهرت ثلاث مدارس فكرية انبثقت عما تبقى من الديانة المصرية القديمة هى: الهرمسية والأفلاطونية الحديثة والغنوسية. وبينما حافظت الهرمسية على مصريتها نجد أن الأفلاطونية الحديثة قد إتجهت نحو الهيللينية وتمحور إهتمام الأفلاطونيون حول "أفلاطون المقدس" أما الغنوسيون فقد اعتبروا أنفسهم مسيحيين. وقد ظهرت بطبيعة الحال خلافات بين المدارس الثلاث وصلت أحيانا إلى حد الصدام، إلا أنه ورغم ذلك فقد كان هناك تشابه واضح وإرتباط بين معتنقى فكر المدارس الثلاث وتبادل لإنتاجهم الفكرى فيما بينهم[٣٥].

الهرمسية: يونانية، إيرانية، كلدانية، أم مصرية ؟

لقد كانت الهرمسية بلا شك هى أقدم المدارس الفكرية الثلاث، كما كان لها تأثير محسوس فى تكوين المدرستين الأخريين فيما بعد[٣٦]. يضاف إلى هذا أن أغلب الدارسين قد أجمعوا على أن الهرمسية أحتوت عناصر يونانية ويهودية وفارسية وعراقية ومصرية.* لكن لما كان الخلاف جاداً وقويا حول مدى عمق هذه المؤثرات واستمراريتها لذا كان من الضرورى أن نتعامل مع الموضوع فى ضوء "علم إجتماع المعرفة" قبل البحث فيما أعتقد أنه الجذور الأساسية المصرية للهرمسية.

أما علاقة الهرمسية بالفكر المصرى القديم فهى علاقة سياسية فى الأساس، كما قال بذلك "بلومفيلد" Bloomfield أحد مؤرخى الأدب والفن والذى كتب فى عام ١٩٥٢ قائلا: عند البحث فى مسألة العناصر المصرية فى الهرمسية يبدو أن الدراسات

---

* يحول المؤلف هنا الهرمسية إلى حركة فكرية عالمية ذات عناصر متعددة كما يقلص دور العنصر المصرى المعروف بأنه هو المسيطر ليصبح عنصراً ضمن بقية العناصر، وهو هنا يعود إلى إصدار الأحكام المطلقة التى – فى رأينا – تجافى الحقيقة التاريخية، إذ من الملاحظ أنه لم يشر ولو إلى واحد من هؤلاء الدارسين القائلين بهذه الفكرة. (المترجم).

المعنية تأخذ إتجاهاً ما ثم تعود لتأخذ أقصى الإتجاه المعاكس[٣٧]. ويرتبط بهذا الموضوع تساؤل عن عمر الهرمسية، فيكتب لنا "بلانكو" A.G.Blanco أحد المتخصصين المعاصرين فى الهرمسية قائلا:

"هؤلاء الذين يقفون وراء النظرية القائلة بأن الأعمال الهرمسية ذات أصل مصرى، هم أنفسهم الذين يحاولون العودة بتاريخ هذه الوثائق إلى الوراء[٣٨].

وفى هذا المجال يبرز أثنان من المتخصصين هما "ريتزنشتاين" Reitzenstein و"فيستوجيير". وقد كتب "ريتزنشتاين" الكثير عن الهرمسية مع مطلع هذا القرن مؤكداً على أصولها المصرية، لكن بمرور الوقت وبسيطرة فكرة "النسق الآرى" – السابق عرضها – فقد بدل من رأيه هذا، وبحلول عام ١٩٢٧ أصبح منادياً بأن الهرمسية ذات أصول إيرانية ومن ثم فهى آرية[٣٩]. وبداية من ثلاثينات هذا القرن وحتى الآن فقد سيطر الأب "فيستوجيير" على هذا الفرع من الدراسات، والذى نادى بالتأثير اليونانى على الهرمسية وعارض أى فكرة أخرى تقول بوجود علاقة بينها وبين العبادات المصرية الغامضة[٤٠].

وقبل كل شئ فيبدو من المنطقى أن ننظر بعين الإعتبار إلى ذلك التراث الذى حمل تأثيراً مصريا، فقد كتب أدبياته مصريون، وغالباً ما قد كتبوه بالخط الديموطيقى أو القبطى قبل إنهيار الديانة المصرية القديمة التقليدية[٤١]. يضاف إلى ذلك، أنه بينما أشارت المصادر القديمة إلى مؤثرات إيرانية زرادشتية وعراقية كلدانية، فلم يحدث فى العصر الرومانى أن عارض أى دارس الفكرة القائلة بأن الهرمسية ذات أصول أو تحوى مؤثرات مصرية.

وأود أن أؤكد هنا أن هذا الموضوع لازال يتحمل الكثير، فالأمر لا يقتصر على كون الهرمسية مرتبطة كلياً بالغنوسية والأفلاطونية الجديدة، لكن وكما أوضح الأب "فيستوجيير" فهى قد ارتبطت بالأفلاطونية ككل. كما يوجد تشابه كبير بين الهرمسية

ولاهوت إنجيل يوحنا، وبعض خطابات القديس بول[٤٢] هـذه العلاقـة الوثيقـة والإرتبـاط القوى يجعل بالتالى من تـاريخ ظهـور، النصـوص الهرمسـية ومـن "مصريتهـا" مسـألة ذات أهمية فائقة. فإذا كانت هذه النصوص سابقة على ظهور المسيحية وتسيطر عليها الـروح المصرية، يصبح هنـاك إحتمـال لأصـول أخـرى لمـا أصطلـح علـى أنـه العنـاصر اليونانيـة الأفلاطونية للاهوت المسيحى. أما إذا كـانت هـذه النصوص أقدم مـن ذلك بكثـير يصبـح منن الصعب علينا أن نتجاهل الرأى القديـم القـائل بـأن فيثـاغورس وأفلاطـون قـد أخـذا أفكارهما وفلسفتهما من مصر.

وفى مجال التأريخ لهذه النصـوص الهرمسـية لازال أغلـب مـن بحثـوا فيهـا يعملـون داخل الإطار الذى قام بوضعه الناقد الفرنسـى البروتسـتانتى الشـهير "أسـحق كـازوبون" Isaac Casoubon فـى أوائـل القـرن السـابع عشـر. وقـد قـام "كـازوبون" بهجـوم شرس على الرأى الذى كان سـائداً فـى عصـره والقـائل بـأن هـذه النصـوص مـاهى إلا مسـتودع قديـم للمعـارف المصريـة. وقـد إسـتعمل "كـازوبون" بعـض الأسـاليب الفنيـة والأدبية لتأريخ النصوص اللاتينية المطورة مع نهاية القرن السادس عشر، محـاولاً التدليـل على أن التشابه بين الأعمال الهرمسية وإنجيـل يوحنـا، وكتابـات القديـس بـول، والعلاقـة بين الأناشيد الهرمسية وسفر المزامير فى التـوارة، تعنى بوضـوح أن الكتـاب المقـدس يسـبق النصـوص الهرمسية زمنياً. وبنفس الطريقـة استمر "كـازوبون" فـى التعـرض للتشـابه مـع أعمال أفلاطـون، خاصة محاورة "تيمـايوس" وقـد كـانت أكـثر المحـاورات شـهرة فـى ذلـك الوقت، ورأى أن هـذا التشابه يعود إلى أن الهرمسـية قـد اسـتعارت الكثـير مـن أفلاطـون. وعلى أيـة حـال فإن "كـازوبون" قـد أشـار لنقطـة هامـة هـى أن "هـيرميس المعظـم ثلاثـاً" لم يـرد لـه ذكـر عنـد أفلاطـون أو أرسطو أو أى مـن الكتـاب القدمـاء[٤٣].

أمـا المحدثـون مـن البـاحثين والذيـن يعملـون فـى إطـار "النمـوذج الآرى" كبديـل للإطار المسيحى الذى عمل فى داخله "كـازوبون" فلـم يهتمـوا كثـيراً بعمـل هـذا النـاقد. فلا توجد لـدى هـؤلاء البحاثـة أيـة مشـكلة فـى كـون العهـد الجديـد قـد استقى بعـض الأفكـار مـن الفكـر الأفلاطونـى، كمـا أنهـم علـى إستعداد لتقبـل فكـرة المؤثـرات الإيرانيـة أو حتـى

الهندية على الهرمسية. وبهذه الطريقة يسمح "النموذج الآرى" للدارسين بالعودة بتاريخ النصوص الهرمسية إلى القرن الثالث قبل الميلاد، أى الفترة التالية لظهور أفلاطون. وكمثال لهذا يقول "فيستوجيير":

> "ولا تسمح لنا هذه الإشارات – إلى عبادة الآله تحوت – بالإستنتاج أن معابد مصر القديمة تحت حكم الفراعنة كان لها أرشيف يحوى مجموعة من الأعمال التى تنسب إلى الإله تحوت.
>
> وعلى العكس تماماً فيبدو أنه تحت حكم البطالمة ظهرت الأدبيات اليونانية الهرمسية[٤٤].

أما البعض الآخر من الباحثين فلم يحاول إستغلال هذه الفرصة مفضلين أن يؤرخوا هذه النصوص الهرمسية جنباً إلى جنب مع الأعمال الغنوسية ونصوص الأفلاطونية الحديثة، فى الفترة مابين القرن الثانى إلى القرن الثالث الميلادى.

وفى الحقيقة قد حاول العديد من الباحثين – مع ذلك – أن يكتشفوا مدى إمكانية العودة بهذا التراث الهرمسى إلى القرن الثالث قبل الميلاد. ففى العشرينات من هذا القرن طرح المؤرخ الألمانى "كرول" Kroll فرضية مؤداها أن المجتمع الذى تصفه النصوص الهرمسية والمفترض أنها تعود إلى القرن الثانى الميلادى، هو مجتمع هيلينستى وليس مجتمعاً رومانياً[٤٥]. وفى الثلاثينات دعم "فرانز كومون" Franz cumont – المؤرخ الشهير والباحث فى الميثرائية الإيرانية والديانات الوثنية – الفرضية التى نادى بها "كرول" وذلك فى ضوء ظهور عدد من الوثائق الهرمسية الجديدة والخاصة بعلم الفلك. وبالإضافة إلى تعضيده لكرول فقد أشار "كومون" إلى أن الظواهر الفلكية التى إحتوتها هذه النصوص الجديدة تشير بالتأكيد إلى القرن الثالث قبل الميلاد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حينما كتب قائلاً:

> "لم يسهم الفلكيون اليونانيون – المصريون الأوائل فى إبداع المبادئ التى هدفوا من ورائها إلى تعليم وتثقيف العالم الهللنيستى، لكنهم

استخدموا المصادر المصرية القديمة حتى فترة الإحتلال الفارسي لمصر، والتي يمكن القول عنها – أي عن هذه المصادر المصرية – أنها قد "أخذت جزئياً من المصادر الكلدانية القديمة.ويمكن تتبع آثار هذه المرحلة الأولى البدائية من المؤثرات فيما وجد من نصوصنا الحديثة، ويمكن تشبيهها بكتل غير منتظمة الشكل تم نقلها وزرعها في تربة جديدة حديثة. فعندما نعثر على إشارات عن "ملك الملوك" أو "الوالي" Satrap، يعني هذا أننا لا نتعامل مع مصر، بل نحن نتعرف الآن على الشرق القديم... فيبدو أن الكهنة الذين وضعوا الفلك المصري قد ظلوا مخلصين وملتزمين بالتراث الشرقي القديم"(٤٦).

وفي الحقيقة فبالرغم من أن "كومون" كان مؤرخاً للديانة الفارسية، وأن الإيرانيين كانوا بالنسبة للأوروبيين الجنوبيين "آريون أكثر من اليونانيين"، خاصة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلا أن كل هذا لا يؤثر أو يضعف الفرضية المقنعة القائلة بأن هذا التراث الهرمسي غير المتجانس قد تمت كتابته على مراحل متعددة، حتى أن بعض أجزاءه لا تعود فقط إلى ماقبل الإسكندر المقدوني في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، بل تسبق أيضاً أفلاطون أي حوالي خمسين سنة قبل ذلك(٤٧). وتشكل فرضية "كومون" هذه مشكلة عويصة "للنموذج الآري" لأنها لا تخرج عن أحد أمرين: فإما أن أفكار أفلاطون قد تطابقت مع مثيلاتها من الأفكار والمعتقدات الهرمسية المصرية الشرقية، أو أن هذه الأفكار والمعتقدات قد جاءت مباشرة من مصر كما تقترح ذلك النظرية القديمة.

أما الإعتقاد السائد بالأصل الفارسي لهذه الأفكار والمعتقدات فله أيضاً مشاكله، ومنها على سبيل المثال أن أفكار ومعتقدات "سولون" و "فيثاغورس" وغيرهم ممن زاروا مصر قبل غزو الفرس لها في ٥٢٥ قبل الميلاد تبدو كما لو كانت متطابقة مع أفكار أفلاطون وبلوتارخوس مما يرجح كون أصل هذه الأفكار مصرياً وليس فارسياً. وفي مجال

الأهمية النسبية لكون هذه الأفكار مصرية أو "شرقية" فمن المحتمل بل ومن الممكن أنه قد وجدت مؤثرات عراقية لا يستهان بها على مصر فيما قبل القرن السادس قبل الميلاد بفترة طويلة. ولابد أن هذه المؤثرات قد تعاظمت خلال هذه الفترة . لهذا فبعيداً عن المغالاة الغريبة فى الشوفينية (أو المغالاة فى القومية والوطنية) والسلوك المحافظ التقليدى الذى تميز به الكهنة المصريون، أعتقد أن الإستمرارية الواضحة للديانة المصرية عبر الأراء والمعتقدات اليونانية قبل وبعد الغزو الفارسى لمصر يجعلنا نقتنع بأن "كومون" قد غالى كثيراً فى مسألة المؤثرات "الشرقية" فى الديانة المصرية مع بداية عصر البطالمة، لأنها رغم كل الغزوات الأجنبية فيبدو أنها قد ظلت محافظة على مصريتها.

ورغم كل ذلك فإن الفرضية التى طرحها "كومون" من أن المجموعات الأولى من النصوص الهرمسية تعود إلى فترة إحتلال الفرس لمصر قد لاقت بعض التأييد من قبل "سير فلندرز بترى" **Sir Flinders Petrie** مؤسس علم المصريات فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فيقترح "بترى" طبقاً للمحتوى التاريخى لهذه الوثائق أنه توجد على الأقل بعض قطع منها تعود إلى الفترة الفارسية التى بدأت خلالها أزمة الديانة المصرية. وهو يقترح مثلا بأن المرثية – التى سبق الإشارة إليها فى صفحة ١٥٢ – والتى تبشر بعدم جدوى، ومن ثم تحريم الديانة المصرية القديمة، كانت منتشرة ومتداولة قبل أن تجّرم المسيحية الديانات الوثنية فى ٣٩٠ ميلادية بفترة طويلة، ولهذا فيمكن أن تكون هذه المرثية عبارة عن إشارات لفترة الإضطهاد الفارسى. كما يشير "بترى" إلى أن إعتماد التاريخ الأقدم لهذه النصوص يتمشى مع بعض الإشارات إلى الهنود والإسكيثيين كأجانب. بالإضافة إلى إشارات عن "أجانب حلوا بالبلاد مؤخراً"، مما يرجح الإشارة إلى الغزو اليونانى (ولا يقول الرومانى) لمصر، ويزيد على ذلك أن هذه الوثائق قد أشارت إلى ملك مصرى كآخر الملوك المصريين، والذى حكم فى الفترة من ٣٥٩ إلى ٣٤٢ قبل الميلاد[٤٨].

وبما أن الفرضية التى طرحها "بترى" سيكون من شأنها إلحاق أبلغ الضرر "بالنموذج الآرى"، لذا تعامل معها العديد من الدارسين على أنها محض خيّال. كما

كتـب لنـا أحـد المتخصصـين فـي الهرمسـية فـي ١٩٢٤ وهـو بروفسـور "والترسـكوت" Walter Scott والـذى يقـول:

"إذا ثبتـت صحـة هـذه التواريـخ، فسـيكون نتيجـة هـذا حـدوث إنقـلاب مذهـل فـى كـل الآراء والنظريـات الخاصـة بتـاريخ الفكـر اليونـانى".

وهكـذا فلـم يتـم التعـامل مـع هـذه الأدلـة التى تقـف فـى مواجهـة "النمـوذج الآرى" بشـكل موضوعـى، وإنمـا تم تجاهلهـا بـل وتحطيمهـا بواسـطة "النمـوذج الآرى" نفسـه. فلـم يـر بروفسـور "والترسـكوت" أى سـبب يدعـو إلى الـرد علـى فرضيـات "بـترى"، وتجاهلهـا تمامـاً قائلاً:

"إن الفرضيـات والأدلـة التـى يطرحهـا بـترى للتدليـل علـى صحـة التواريـخ التـى يفترضهـا لا تسـتحق عنـاء الإهتمـام بهـا".

وهكـذا وبكـل وقاحـة يعلـن "سـكوت" تـأكيده بسـيادة الكلاسـيكيات علـى كـل فـروع المعرفـة قـائلاً:

"إنـه لمـن المؤسـف أن يحـاول شـخص قـد إشـتهر بإجادتـه لعملـه فـى فـرع معـين، الدخـول إلى ميـدان جديـد عليـه تمامـاً، ولا يعـرف عنـه حتـى أقـل القليـل"(٤٩).

ولا يوجـد أدنـى قـدر مـن الشـك فـى أن "بـترى" كـان يعـرف عـن اليونـان أكـثر ممـا كـان "سـكوت" يعـرف عـن مصـر، وعلـى أيـة حـال فقـد كـان "سـكوت" يعـبر عـن مرحلـة تم فيهـا إخضـاع علـم المصريـات للدراسـات الهنـدو–أوروبيـة فى الثمانينـات مـن القـرن التاسـع عشـر، ولهـذا – حسـب رأى "سـكوت" – فعلمـاء المصريـات لـن يكـون لديهـم مـايقولون عـن هـذه النصـوص الهرمسـية، لأن علمـاء اليونانيـات يؤكـدون أنهـا يونانيـة.

وإذا مانحينـا جانبـاً فرضيـات "بـترى"، فـإن العلامـة الفارقـة التـى تشـير إلى أن الأجـزاء الأقدم مـن هـذه النصـوص تعـود إلى تـاريخ بعيـد تمامـاً، هـى أن كـل الدارسـين قـد أجمعـوا علـى أن الإلـه هـيرميس هـو نفسـه الإلـه تحـوت المصـري، حتـى أن "كـازابون" الـذى حقـق هـذه

النصوص فى القرن السابع عشر لم يرفض فكرة أنه من الممكن أن توجد ملحمة تحت اسم: "هيرميس المعظم ثلاثا"، وبالمقابل فالكتاب المحدثون لم يرفضوا فكرة الإله تحوت كإله للحكمة والمعرفة. أما السؤال المطروح الآن فهو مدى قدم هذه النصوص، وماهو الشكل الذى ظهرت عليه ملحمة "هيرميس المعظم ثلاثا"؟.

إلا أنه من الصعوبة بمكان أن نحاول إيجاد صلة واضحة بين عبادة الإله تحوت التقليدية، وبين فلسفات النصوص الهرمسية. ومؤخراً أوضح كل من بروفسور "ستريكر" Stricker وبروفسور "درشين" Derchain أن العنصر المصرى فى الأعمال الهرمسية واضح ومسيطر، وفى هذا تفوق العالمان على ماسبق وأن عرضه "فيستوجيير" وغيره من الدارسين الذين بحثوا فى ظل سيطرة "النموذج الآرى" على تفكيرهم(٥٠).وفوق ذلك فإن الفكرة القائلة، بوجود "أدبيات الإله تحوت" لهى فكرة قديمة جداً، فقد تكررت مراراً فى "كتاب الموتى" الذى عرف فى عصر الأسرة الثامنة عشر. وقد ذكر الأب "بويلان" Boilan الذى كتب فى العشرينيات من هذا القرن كتاباً عن الإله تحوت، إشارة تعود للأسرة التاسعة عشر تتحدث عن:

"كتابات الإله تحوت المحفوظة بالمكتبة"(٥١). كما أن "بلوتارخوس" و"كليمنت السكندرى" الكاتب المسيحى المبكر قد أشارا أيضاً إلى "أدبيات الإله هيرميس"(٥٢). ورغم أن النسخة التى تعود إلى عصر الأسرات، قد لا تحمل إلا القليل من التشابه مع النسخة الثانية، فأعتقد أن الغالبية العظمى من الدارسين سيقعون فى خطأ التسرع، إذا مابادروا بإنكار أى صلة واضحة بين النسختين.

وقد أكدت الحفائر والإكتشافات الحديثة قدم "الأعمال الهرمسية" التى كان من المفترض أنها تعود إلى العصر الرومانى. فقد ظهرت كلمة (داوتى) وتعنى "تحوت المعظم ثلاثا" فى الوثائق التى اكتشفت فى إسنا بمصر العليا ويعود تاريخها إلى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، أما "هيرميس ثلاثى العظمة" فقد ظهر إسمه فى النصوص الديموطيقية التى وجدت فى سقارة والتى تعود إلى أوائل القرن الثانى الميلادى، وقد كانت هذه

النصوص جزءاً من وثائق خاصة بأحد كهنة الإله تحوت. وفي جزء آخر من هذه المجموعة التي عرفت بإسم "خزانة هور" توجد إشارة إلى أن الإله تحوت أعتبر أبا للإلهة إيزيس، وهو الشيء الذي ظهر فيما بعد في النصوص الهرمسية(٥٣). وقد عثر بالإضافة إلى هذه الإشارات التي ترتبط "بالأعمال الهرمسية" على كتابات أخرى تربطهم فما أصطلح على تسميته "علم الكونيات الهرمسي" بأصوله التقليدية التي أرتبطت بعبادة الإله تحوت وطائره المقدس "أبو منجل" Ibis، وعلى سبيل المثال فقد تم تقدير إعداد طائر أبومنجل في سقارة في سنة واحدة بما لا يقل عن عشرة الاف(٥٤). وقد كان من المعتقد أن عبادة تحوت قد إنتشرت بشكل واسع في عصر البطالمة، إلا أننا نجدها كذلك في "كتاب الموتى" قبل ذلك بألف عام على الأقل، ففي عصر البطالمة كان تحوت إلها قوياً للغاية دائماً ما يتجه نحوه الناس بالضراعة، (٥٥) إلا أنه من الواضح تماماً أن عبادة تحوت في عصر البطالمة قد استمدت قوتها من جذورها الضاربة في القدم في التراث المصرى القديم.

أما السبب الرئيسي وراء مثل هذا الفصل الحاد بين العبادة القديمة والهرمسية المتأخرة فقد كان فلسفة الهرمسية الأفلاطونية التي اتسمت بالتجريد. وكان رفض تقبل فكرة أن المصريين كانوا قادرين على التجريد وممارسة الفكر الفلسفي هو عماد "النموذج الآرى"، ولهذا فقد أصبحت له خلفيات عقائدية متعددة. وهكذا يمكننا تفسير الإشكالية التالية: فقد نشرت براهين عديدة منذ حوالى ثمانين عاماً على أن المصريين كان بإمكانهم إبداع ديانة قائمة على التجريد، إلا أن هذه البراهين لم تلق الإهتمام الكافي بها. وقد جاءت هذه البراهين من مجموعة النصوص التي جرى العرف على تسميتها "لاهوتيات ممفيس" والتي تعود بتاريخها إلى الألف الثالثة أو الثانية قبل الميلاد. وتصف هذه الأعمال اللاهوتية عملية خلق الكون عن طريق "بتاح" إله مدينة منف والفيض الذى انبثق منه فكوّن "آتوم"، فكانا هما أول الموجودات، وقد خلق تباع العالم في فكرة، ثم شكله بأن لفظه بلسانه، أو بمعنى آخر بالكلمة. ورغم أن "فيستوجيير" والأب "بويلان" قد سارعا برفض وإنكار هذه الأعمال، إلا أنه من الواضح وجود تشابه لا

بنكـر مـع فكـرة "الكلمـة" لـدى الأفلاطونيين والمسـيحيين:

"الكلمـة التـى كـانت سـابقاً، الكلمـة المرتبطـة بـــا لله، ومــا كــان الإلــه، لقد كـانت الكلمـة، ثـم ارتبطـت بـا لله فـى البداية، وعـن طريقـه ظهـرت كـل الأشـياء..." (٥٦).

وبعـد نشـر وترجمـة "لاهوتيـات ممفيـس" كتـب عـالم المصريات الشـهير "جيمـس بريسـتيد James Breasted" قـائلاً:

"يكـون هـذا المفهـوم عـن العـالم قـاعدة صلبـة تجعلنـا نقـترح أن المفهـوم المتـأخر "للعقـل الفيـاض" و "الكلمـة" والمفـترض أنـه قـد دخـل إلى مصـر مـن الخـارج فـي وقـت لاحـق ومتـأخر، هـذا المفهـوم قـد وُجـد فـى فـترة سـابقة علـى ذلـك بكثـير. وهكـذا فـإن النظـرة التقليديـة اليونانيـة لأصـل فلسـفتهم النـابع مـن مصـر تحتـوى علـى جـزء كبـير مـن الحقيقـة مقارنـة بالعديد مـن التنـازلات التـى حدثـت فـى السـنين الأخـيرة".

ويستمر بريستيد قائلاً:

"وقـد كـان لـدى الإغريـق عـادة سـائدة قـاموا بمقتضاهـا بتفسـير ظهـور الآلهـة، والعلاقـات التـى قـامت بينهـم وبـين الآلهـة المصريـة تفسـيراً فلسـفياً... (هـذه العـادة) بـدأت فـى مصـر قبـل أن يولـد أقـدم فلاسـفة الإغريـق، ولهـذا فمـن الممكـن أن تكـون ممارسـة الإغريـق لهـذه التفسـيرات ذات دافـع مصـرى المصـدر فـى المقـام الأول(٥٧).

وقـد كـان دور الإلـه تحـوت فـى هـذا الكـون أنـه يعمـل عمـل القلـب للإلـه بتـاح، أمـا الإلـه حـورس فقـد كـان لسـانه. وهـذا التقليـد الـذى يربـط بـين الإلـه تحـوت والقلـب ظـل موجـوداً لألفـى سـنة تالية، كمـا يظهـر مـن وثـائق "خزانـة هـور" السـابق الإشـارة إليهـا، ويوضـح ناشـر هـذه الوثـائق "جـون راى" John Ray الإرتبـاط بـين القلـب والعقـل الـذى كـان تحـوت رمـزاً لـه(٥٨). وفـى لاهوتيـات أخـرى كـان تحـوت هـو مخـترع الكتابـة

والرياضيات وسيد التعاويذ السحرية، وهو رمز الكلمة المقدسة التى ربطت الآلهة ببعضهم، كما ربطت بينهم وبين البشر، حتى أنه كان يُعامل أحياناً على أنه خالق العالم[٥٩].

لقد كانت لحقيقة الإله تحوت بوصفه موصلاً أو ناقلاً جيداً تأثيراً قوياً فى التوفيق بينه وبين الإله أنوبيس الذى رُمز له بحيوان إبن آوى حامى الموتى، مرشد الأرواح ورسول الموت. كما تظل الحقيقة الأخرى الهامة واضحة فى الذهن، أى أن كلاً من تحوت وأنوبيس قد لعبا دوراً هاماً فى محاكمة الموتى. وقد إرتبط الإلهان حتى فى "نصوص الأهرامات" التى تعود بتاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. كما ظهرت صورة توفيقية لهما معاً فى الأسرة التاسعة عشر، أو بمعنى آخر فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إلا أنه تجدر الملاحظة بأنه لم تظهر عبادة رسمية للإله "هيرمانوبيس" فى الديانة المصرية حتى عصر البطالمة[٦٠]. كما أن علاقة هذه المرحلة الأخيرة من التطور بوجود الإله هيرميس فى الديانة اليونانية، والذى ربط بين دور كل من تحوت وأنوبيس، هى علاقة غير واضحة. إلا أنه ورغم أن الصلة الأصلية بين الإلهين بدأت فى مصر، يوجد بعض الشك حول الصورة التوافقية البطلمية للإلهين، وهل أتت من الديانة اليونانية أم لا.

ومع هذه الأشكال والقدرات المتعددة فقد أصبح بإمكان الإله "هرميس المعظم ثلاثاً" أن يلعب أدواراً متعددة فى الفكر الدينى، فكونه أباً لكل الآلهة وكونه العقل الأسمى جعله يصبح "الإله الباطنى" أو "الإله الخفى"، وكمحرك للعقل والمقدرة على الكلام يصبح هو القوة الخالقة، للعالم المادى، وكموصل أو ناقل يصبح هو "الروح القدس" الذى يربط أو يفصل بين الإلهين الآخرين، وأخيراً يمكن أن يصبح رسولاً أو مرشداً يقود الأرواح إلى الخلود ويساعدهم على تفهم العالم. إلا أن التقليد الذى ساد فيما بعد فى مرحلة متأخرة جعل من هرميس فيلسوفاً بل ومعلماً أخلاقياً.

وهنا نصطدم بإشكالية هرميس حسب نظرية "يوهميروس"* وتحوله من إله إلى حكيم من الحكماء. ويعتبر العديد من الباحثين أن هذا التحول هو أحد الملامح المتأخرة. لكن يبدو أن بعض هذه الملامح كان قد ظهر من قبل، فيشير أفلاطون مع بدايات القرن الرابع قبل الميلاد إلى تحوت كمخترع للكتابة والأعداد والفلك وغير ذلك من العلوم، وفوق ذلك يظهر تحوت عنده كإله وكأحد الحكماء في نفس الوقت(٦١). وبعد ذلك بما لايقل عن خمسين عاماً وصف "هيكاتايوس الأبد يرى" الإله هيرميس/ تحوت بأنه أعظم المخترعين من البشر(٦٢). كما توجد فرضيات أخرى لها أساس كبير من الصحة حول إشكالية هيرميس طبقاً لنظرية "يوهميروس" وتحوله إلى العقلانية، وتأتي هذه الفرضيات من فينيقيا هذه المرة. ففي القرن الأول الميلادى ترجم "فيلون" من مدينة بيبلوس (جبيل الحالية) إلى اللغة اليونانية بعض أعمال واحد من الكهنة الفينيقيين القدامى ويدعى "سانشوناتيون" Sanchunation والذى عاش كما أدعى فيلون قبل الحروب الطروادية(٦٣). ومع ظهور علم الدراسات الكلاسيكية في مطلع القرن التاسع عشر أصبح ينظر لكتابات فيلون عن الديانة الفينيقية القديمة وأساطيرها على أنها أساطير هيللينستية غير ذات جدوى. إلا أنه وفي الثلاثينات من هذا القرن تم أكتشاف التطابق الغريب بين كتابات فيلون وأساطيره وبين الأساطير التي وردت في وثائق أوجاريت والتي تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد قاد هذا الإكتشاف الدارسين إلى نظريات وآراء جديدة تماماً.

وهكذا وضع علماء الساميات مثل "وليام البرايت" William Albright و "أوتو إيشفيلت" Otto Eissfeldt الكاهن الفينيقي "سانشوناتيون" في النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، وإعتقدا بأن بعض أجزاء من عمله يعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد(٦٤). إلا أن بروفسور "بومجارتن" Baumgarten قام مؤخراً بتحدى التقليد القديم الراسخ وكذا أعظم مرجعين في هذا المجال في القرن العشرين

* عاش يوهميروس في القرن الرابع قبل الميلاد وخلاصة نظريته أن الآلهة ماهم إلا مجموعة من الأبطال الحقيقيين، وبمرور الوقت وتراكم العديد من القصص الخرافية عن أعمالهم تحولوا تدريجياً إلى آلهة. (المترجم).

لكى يدعم رأيه الذى طرح تاريخاً متأخراً جداً. وقد إعتمد فى هذا على أنه لا يمكن تفسير كل ماجاء فى عمل فيلون فى ضوء الوثائق الأوجاريتية، بالإضافة إلى قناعة "بومجارتن" نفسه بأنه من البديهى أن كل ماجاء فى عمل فيلون من فكر علمى وعقلانى هو ذو جذور إغريقية، حيث اعتقد "بومجارتن" أن علماء الكلاسيكيات قد أثبتوا وبشكل نهائى أن المنطق والعلم قد بدأ فى اليونان(٦٥). وبهذا فقد وضع "بومجارتن" نفسه – ونحن معه – فى دائرة مفرغة حيث لا يوجد علم أو منطق يسبق مابتدعه الإغريق – حسب رأيه – ويؤكد هذا أن أحداً لم يستعمل هذا العلم أو المنطق السابق على ما إخترعه الإغريق فى التعامل مع كتابات فيلون.

وقبل أن نتقدم فى بحثنا هذا يجب التوقف قليلاً لأضع بعض العلامات الفارقة والتعريفات، ففيما يخص النموذج الأول من "اليوهميرية" فتعريفه هو التجريد غير المشخص للقوى الطبيعية والذى يبدو أن الفكر المصرى القديم قد عرفه منذ قديم الأزل، ومن المؤكد أن علم الكونيات الخاص بمدينة "هيرموبوليس" كان حقيقة واقعة، وقد إرتبط بالإله تحوت وعلم الكونيات المرتبط "بتاأوتوس" **Taautos** والذى وصفه الكاهن "سانشوناتيون"(٦٦).

كما وجدت ظاهرة أكدت فكرة التجريد هذه، وهى أنه من بين الثمانية آلهة الخاصة بمدينة هيرموبوليس، والتى عن طريقها تم خلق العالم لم يعثر لأحد منهم على معبد خاص به، رغم أن هذه الآلهة كانت أحيانا ماتتوحد مع بعض الآلهة الأخرى التى كان لها معابد خاصة بها(٦٧).

أما النموذج الثانى من "اليوهميرية" فهو خاص بتحول الألهة والإلهات إلى حكماء من البشر وأبطال وبطلات، ويبدو أنها كانت ظاهرة عامة فعلى سبيل المثال يعود التقليد السائد فى مصر والذى ينسب ملوكها الأوائل إلى الآلهة إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد على الأقل(٦٨). ويبدو أن هذه الظاهرة قد ارتبطت فى الشرق بظهور التوحيد مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد، وربما كان السبب وراء هذا أن الديانات

التى إنغلقت علـى نفسـها لم يكـن بإسـتطاعتها اسـتيعاب عـدد آخـر من الآلهـة حتـى ولـو كـانوا من صغـار الآلهـة، فمثـلا فـى "سـفر التكويـن" يسـتطيع المـرء أن يلاحـظ كمـاً لايسـتهان بـه مـن التحـولات التـى تتفـق مـع نظريـة "يوهميروس"، فـى تحـول مـن كـانوا يبـدون كآلهــة أمثـال أخنـوخ. ونـوح إلى بشـر، مـع ملاحظـة أن سـفر التكويـن قـد تمـت كتابتــه فـى أوائــل الألـف الأولى قبـل الميـلاد. وفـوق هـذا فقـد لاحـظ الدارسـون بـدءاً مـن "رينـان" Renan فـى القـرن التاسـع عشـر إلى "الـبرايت" فـى القـرن العشـرين أن الديانـة الفينيقيـة قـد أسـلمت نفسـها تمامـاً إلى التحليـلات اليوهميريـة[٦٩]. لهـذا قـد يبـدو منطقيـاً أن نقبـل – حرفيـاً أو مجـازاً – آراء هـؤلاء البـاحثين الذيـن ربطـوا مـابين أيوهمـيروس واضـع النظريـة اليوهميريـة، وبـين مدينـة صيـدا، وأن نوافـق علـى ماقـام بـه كـل مـن "البرايت" و "إيشـفيلت" عندمـا أرجعـا "سانشـوناتيون" و "موخـوس" – الـذى وصلـت أعمالـه عـن الكـون الصيدونـى عـن طريـق الأفلاطونـى المحـدث "داماسـكيوس" – إلى الفـترة فيمـا قبـل القـرن السـادس قبـل الميــلاد[٧٠].

وقـد إعتمـدت كتابـات "سانشـوناتيون" عـن الكـون – ظاهريـاً – علـى أعمـال "تـاأوتوس" المفقـودة، والـذى أشـار إليـه فيلـون فـى كتاباتـه بوصفـه بطـلاً حضاريـاً فينيقيـاً، إذ أنـه قـام بإخـتراع الكتابـة[٧١]. وفـى مكـان آخـر مـن كتابـات فيلـون يظهـر "تـاأوتوس" وكأنــه "هـيرميس المعظـم ثلاثـاً" – وتعتـبر هـذه هـى أقـدم إشـارة لهـذا الإسـم فـى اللغـة اليونانيـة – كمـا يظهـر أيضـاً مسـاعداً ووزيـراً ذكيـاً للبطـل المقـدس "كرونـوس" فـى قصـة حياتـه ومغامراتـه التـى تم سـردها طبقـاً لنظريـة يوهمـيروس عـن "التحـولات"[٧٢].

وفـى سـفر أيـوب مـن الكتـاب المقـدس – والـذى يرجـع إلى القـرن السـادس قبـل الميلاد أو قبل ذلك – يظهـر الإلـه تحـوت لنـا عـبر هـذه الأسـطر:

من الذى وضـع الحكمـة فى فـم "تـوت" ؟

مـن الـذى وهـب "سيكوى" الفهـم الصحيـح ؟

وقـد علـق بروفسـور "مـارفين بـوب" Marvin Pope تعليقـاً علميـاً علـى سـفر أيوب، وفيمـا يخـص هـذه الأسـطر يقـول بروفسـور "بـوب":

"يبدو أن بروفسور "هوفمان" Hoffmann كان محقاً عندما إعتبر أن اسم "توت" الذى ورد فى سفر أيوب هو إشارة للإله تحوت نفسه، فالحروف الساكنة التى تظهر فى الإسم قريبة من الشكل الذى ظهر به الإسم وانتشر فى الأسرة الثامنة عشر وهو "دوتى"، وعندما وصلت عبادة تحوت إلى أوج إزدهارها وإنتشرت فى فينيقيا... ظهر فيلون من بيبلوس وقدم للفينيقيين الإله "تاأوتوس"، (وأصل الكلمة "تاأوت" يضاف إليها النهاية "وس") والذى يعكس أسمه الإسم القديم "تاحوت"... أما فيما يخص الإسم "سوكوى" فقد اقترح "هوفمان" رابطة بينه وبين الشكل القبطى لإسم كوكب عطارد وهى "سوخى"، وهكذا نجد الإله الذى أحاط بكل شئ، مخترع الكتابة وأصل كل المعارف "تحوت - تاأوتوس" قد إقترن بالإله "هيرميس - عطارد المعروف لليونان والرومان تحت مسمى جديد هو: هيرمس المعظم ثلاثاً - Trismegistos (باليونانية) و Tremaximus (باللاتينية)[٧٣].

وهنا يجب أن نتوقف لنؤكد أن "توت" الذى وهبه الإله الأعظم المعرفة لم يكن إلها بل حكيماً ورمزاً للحكمة. وهكذا فما لم يأخذ المرء موقفاً مضاداً لأى ظهور للعقلانية قبل الحضارة اليونانية، يصبح لدينا دليل دامغ على أنه فى كل من الحضارتين المصرية والفينيقية ظهرت فكرة تحول الآلهة إلى حكماء وأبطال - طبقاً لنظرية يوهميوس - وذلك قبل بروز التأثير اليونانى على الحضارة المصرية فى القرن الرابع قبل الميلاد بفترة طويلة. ويبدو هذا واضحاً ومؤكداً خاصة فى حالة تحوت وهيرميس المعظم ثلاثاً.

وأعود هنا لأكرر مرة أخرى القضية التى طرحتها سابقاً، فالأفلاطونية الحديثة والغنوسية قد ازدهرتا خاصة فى مصر القديمة وفيما بعد بين المصريين المتأغرقين بعد إنهيار الديانة المصرية الرسمية. وسواء كانت هناك عبادة أو جماعات هرمسية فى القرن الثانى وحتى الرابع الميلادى أم لم يكن، فلا جدال فى أن الأفكار الهرمسية قد لعبت

دوراً أساسياً ومحورياً بالنسبة للفلسفات الموجودة والهرطقات ومن تبعهم من مريدين. ودائماً ماكانت عبادة "تحوت" تلعب دوراً هاماً فى الديانة المصرية، إلا أن هذه الأهمية تزايدت فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد. أما فكرة "كتابات تحوت" فهى فكرة قديمة، ومن المحتمل أن هذه الكتابات قد وجدت فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، إلا أن "الأعمال الهرمسية" التى وصلتنا تصور لنا الديانة المصرية فى أزمة واضحة، بالإضافة إلى إحتوائها على مؤثرات إيرانية ومفاهيم عراقية قديمة. ولهذا فهناك مجرد إحتمال ضئيل فى أن تكون أى من هذه الوثائق ذات تاريخ يعود إلى الفترة فيما قبل الغزو الفارسى الأول لمصر فى ٥٢٥ قبل الميلاد.

ومن الواضح أن "الأعمال الهرمسية" تتسم بقدر من التضارب وعدم التجانس، ومن المحتمل أنها تحوى مواداً كتبت عبر فترة زمنية طويلة بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن الثانى الميلادى. وبالرغم من التاريخ المتأخر للأعمال الهرمسية، إلا أنه لا يوجد شك فى أنها قد احتوت على نماذج من ديانات ومفاهيم فلسفية أقدم منها بكثير، تعود فى جذورها الأصلية إلى مصر القديمة، وبالإضافة إلى المؤثرات الإيرانية والكلدانية السابق ذكرها، توجد أيضاً مؤثرات يونانية، على الأقل فى النصوص الأحدث من هذه الأعمال. وفى إعتقادى أنه من الصعوبة بمكان تتبع هذه المؤثرات اليونانية لأن الفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية الإغريقية تعتمد فى أساسياتها على الفكر والديانة فى مصر القديمة.

الهرمسية والأفلاطونية الحديثة فى ظل المسيحية المبكرة واليهودية والإسلام

مع نهاية القرن الرابع الميلادى تمكنت المسيحية من إقتلاع جذور الغنوسية تماماً، إلا أن الأفلاطونية الحديثة الوثنية تمكنت من الإستمرار لفترة أطول، ورغم ذلك فعندما دخل المسلمون مصر فى ٦٣٠ ميلادية لم يكن لها وجود. أما تصوير "هيرميس المعظم ثلاثاً" رمزاً للمعرفة فقد إستمر فى المسيحية والإسلام وكما رأى "جين سيزنك" وهو

أحد أعظم مؤرخي الديانات الوثنية التي ظلت موجودة حتى عصر النهضة - وكتب في القرن العشرين - فقد أصبحت الإيوهميرية شيئا ضرورياً، فاليوهيميرية في المسيحية المبكرة كان لها شأن كبير[٧٤]. وكما فعلت الكنيسة مع كل ديانات التوحيد التي انحدرت من الكنعانية فقد استعملت (الكنيسة) اليوهميرية لإضعاف وترويض الآلهة الوثنية في نفس الوقت كي تسمح لهم بالبقاء في ظل الديانة الجديدة، فقد توحدت نيت/ أثينا مع القديسة كاترين، وحورس / برسيوس مع القديس جورج، كما توحد أنوبيس / هيرميس مع القديس كريستوفر[٧٥]. إلا أن أهم مافي الموضوع هو أن تحوت / أنوبيس / هيرميس قد ظل خارج نطاق الكنيسة بوصفه الحكيم الذى يمثل ذروة الحكمة المصرية والشرقية "هيرميس المعظم ثلاثاً".

وقد كانت علاقة هيرميس بالكنيسة دائماً رقيقة ومتوازنة خاصة فيما يتعلق بالأولويات، فالأب "لاكتانتيوس" من القرن الثالث الميلادى مثلا إعتقد بأن هيرميس قد عاش قبل النبي موسى، أما القديس أوغسطين فقد إعتقد بأن الفلك وبقية العلوم المصرية قد تطورت وازدهرت في فترات سابقة، لكن لم توجد أى تعاليم أخلاقية في مصر حتى ظهور "هيرميس المعظم ثلاثاً"، والذى أتى بعد النبي موسى بقليل وتعلم منه ومن التعاليم الدينية التي وردت في الكتاب المقدس. وهنا وكما في مناطق بحثية عديدة فقد أوضح القديس أوغسطين أن المعرفة الدينية أتت قبل أى شئ - في الأهمية وفي الأسبقية - وخاصة قبل المعارف المصرية الهرمسية، وإن كانت هذه المعارف هي الأصل في حكمة الإغريق الوثنية[٧٦].

أما في الإسلام فقد تم تشخيص "هيرميس المعظم ثلاثاً" - طبقاً لنظرية يوهميروس وتوحد مع النبي أدريس الذى ظهر في القرآن. وقد كان إدريس يعامل بشكل تقليدى على أنه "أب لكل الفلاسفة"، وهو "الذى أوقفت عليه الحكمة ثلاثاً"، وفي أجزاء أخرى من التراث الإسلامي كان يُنظر له على أنه ثلاثة حكماء، الأول ظهر قبل الطوفان وعاش في مصر، أما الإثنان الآخران فظهرا بعد ذلك، وكان أحدهما من

بابل، أما الثانى فكان من مصر مرة أخرى. كما عومل إدريس على أنه رمز للثقافة والحضارة، فهو الذى اخترع كل العلوم والفنون وبخاصة الفلك والتنجيم والطب والسحر. وفوق ذلك فبالرغم من الفرضية المقنعة والقائلة بأن تأثير إدريس المصرى فى مرحلة الإسلام المبكر كان واضحاً فى هذه المناطق، إلا أن وجدت فلسفات إسلامية هرمسية لكنها لم تدرس بعناية كما يجب، ويعود هذا بلا شك إلى عدم إمكانية التعامل مع النصوص(٧٧).*

وقد عادت الفتوحات الإسلامية الضخمة** من فارس إلى إسبانيا فى القرنين السابع والثامن الميلاديين بالكثير من الشهرة والرخاء على اليهود، فبالرغم من روح الديانة اليهودية، القائمة على العقلانية والمساواة، إلا أنها كانت تحوى طقوساً سرية، أو على الأقل تقتصر على فئة معينة مع ظهور بعض الفلسفات الثنائية بها، وذلك حتى قبل ظهور المسيحية. كما أعتقد بعض أحبار اليهود والمتشيعين هم الذين عاشوا فى صحراء جوديا (يهودا) بدءاً من القرن الثانى قبل الميلاد، بأنه قد تم كشف الحقيقة لهم فقط، وهى الحقيقة التى لا يعرف عنها كهنة القدس أو غيرهم من الناس العاديين أى شيء. وعلى سبيل المثال فقد كان أهم مااستعملوه من العهد القديم هو سفر الرؤيا، كما أهتموا بعلم التنجيم وغيره من طرق التنبؤ، ويبدو أنهم قد شاركوا فى بعض ديانات الأسرار الموجودة فى ذلك الوقت والتى إزدهرت فيما بعد وخاصة فيما يتعلق بتصور هذه الديانات عن عرض الإله وكيفية صعود بعض الأنبياء إلى السماء(٧٨). وكما كانت سابقاً ستظل العلاقة بين هذه الطوائف والمسيحية محل نقاش لا ينتهى، إلا أن هناك جانباً آخر لم يحظ بنفس القدر من الإهتمام وهو التشابه، بل وإمكانية العلاقات المتبادلة والمواقف الموحدة التى أخذتها هذه الطوائف اليهودية تجاه العزوبة والحياة الجماعية فى الصحراء، وبين حركة الرهبنة التى ظهرت وترعرعت فى الصحراء المصرية(٧٩).

---

* ليس هناك مايلزمنا بأن نأخذ بهذا التفسير لأن هناك من قالوا بأن إدريس هو أوزوريس. (المراجع).

** من الواضح أن الكاتب لم يتعامل مع النصوص الفلسفية الإسلامية - بإعترافه هو - ولهذا فلا يحق له إصدار تعميمات تصل إلى الأحكام المطلقة حول وجود فلسفة إسلامية هرمسية. (المترجم).

كمـا يوجـد تشـابه واضـح فـى فكـر الطبقـة المتميـزة مـن معتنقـى الهرمسـية والأفلاطونيـة الحديثـة، ويمكـن ملاحظـة هـذا فـى أعمـال "فيلـون السـكندرى". فعنـد "فيلـون" تظهر طائفـة مـن المصريين واليهـود المتأغرقين الأغنياء تعـود للقـرن الأول الميـلادى وتحـاول التوفيـق بين ماجـاء فى العهـد القديـم والفكـر المصـرى الأفلاطونـى، عـن طريـق تفسـيرات مجازيـة غامضـة قـاصرة على هـذه الفئـة، حتـى أن فيلـون قـد أشـار إلى طائفـة متعصبـة أطلـق عليهـا "عبـدة الإلـه"[٨٠]. وقـد ظـل "فيلـون" نفسـه شـخصية هامـة فـى تطـور الأفلاطونيـة الحديثة والوسـطى، وكـان للتوليفـة التـى أبدعهـا مـن الأفلاطونيـة واليهوديـة صـدى السـحر فـى المسيحية. إلا أن الطبقـة الثريـة المثقفـة مـن اليهـود والتـى مثلهـا فيلـون قـد إنتهـت للأبـد عندمـا قـامت الإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقية بعمليـة إبـادة جماعيـة لليهـود عقـب مـاعرف بإسـم الثـورة اليهوديـة الكـبرى فـى عـام ١١٦ ميلاديـة.

ورغـم أن "فيلـون" قـد مـات قبـل تدمير المعبـد فـى القـدس فـى ٧٠ ميلاديـة، إلا أن حياتـه فـى "الشـتات اليهـودى" أو "المنفـى" كـانت رمـزا" "للعبـادة اليهوديـة فـى المنفـى"، وهكـذا فهـو يشـبه مـن أتـوا بعـده مـن اليهـود. وحتـى فـى هـذا المجتمـع "الفريّـس"، المتظـاهر بـالتقوى) العـبرانى كـانت هنـاك طقـوس غامضـة وإتجـاه نحـو عبـادات الأسـرار خاصـة فـى القـرون الأولى مـن الفـترة التـى أطلـق عليهـا بروفسـور "جرشـوم شـولم" Gershom Scholem "الغنوسـية اليهوديـة". وفـى الكتابـات التـى مثلـت هـذه الإتجاهـات يمكـن للمـرء أن يلاحـظ إهتمامـات يهوديـة واضحـة بعـرش الإلـه وعربتـه والطقـوس الغامضـة، والمغزى الـذى يختفـى وراء الأعـداد ووراء الأبجديـة العبرانيـة أو وراء النصـوص التوراتيـة. ومـن جهـة أخـرى نجـد أن أغلـب العنـاصر الرئيسـية فـى الهرمسـية والأفلاطونيـة الحديثـة والغنوسـية تتضمـن الإقتنـاع بـأن الإنسـان هـو مقيـاس كـل شئ، والكواكـب الثمانيـة أو القبـة السـماوية التـى يمكـن للإنسـان تجاوزهـا، ثـم الإتجاهـات الواضحـة نحـو السـحر[٨١].

وقـد ظهـرت فـى الديانـة اليهوديـة مـايمكنّ أن نطلـق عليـه مجـازاً الفـرق الصوفيـة أو الباطنيـة أو "التقـوى الخاصـة بطائفـة معينـة"، وذلـك خـلال القـرون من الشـامن وحتـى العاشـر الميـلادى، وعلـى سـبيل المثـال لدينـا مايسـمى "كـارايت" وهـى فرقـة يهوديـة متزمتـه ظهـرت

فى القرن العاشر الميلادى، وقد اشتهروا بإعتمادهم الدائم على كتابات "فيلون". إلا أن بروفسور "شولم" يحذرنا من أنه:

"لايجب أن نستنتج من ذلك إستمرارية المؤثرات السابق الحديث عنها – حتى القرن العاشر، ففى العصور الوسطى ظهرت القبلانية، ومن ثم ظهر التشابه بين التفسيرات القبلانية* والفيلونية (نسبة إلى فيلون) وذلك بسبب طريقتيهما المتماثلتين فى التأويل. والتى كان من الطبيعى أن تثمر نتائج متطابقة من حين إلى آخر" (٨٢).

وهنا يبدو بروفسور "شولم" وكأنه يثير قضية عامة سأتحدث عنها ثانية فى هذا الفصل، وهى إمكانية قيام وإستمرارية طوائف صوفية سرية يهودية فى مقابل موجة عامة من العداء والإبادة لليهود إستمرت ردحاً طويلاً من الزمن. ومن ناحية فيبدو أن هذه الجماعات لا تترك أثرا يذكر حتى وإن كانت قد ازدهرت لفترة، ومن ناحية أخرى فالبروفسور "شولم" يقول إن هذه الجماعات دائماً ما استعملت نفس النصوص الدينية، ونفس الطرق المتشابهة فى التأويلات والتفسيرات. لهذا أرى أنه لا يوجد لدينا سبب يدعو للشك فى إستمرارية هذه التقاليد الصوفية أو الباطنية، فالبروفسور "شولم" نفسه قد تتبع تطور الصوفية اليهودية. من مصر وفلسطين وحتى بابل فى الفترة من القرنين الثامن إلى التاسع الميلاديين، ثم يعود بها مرة أخرى إلى حوض البحر المتوسط فى مصر وإيطاليا فى القرن العاشر، وصوفية العصور الوسطى اليهودية الألمانية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر(٨٣).

وعلينا أن نستمر فى تتبع تاريخ القبلانية لأنها قد ارتبطت إرتباطاً وثيقاً بالهرمسية خلال عصر النهضة. فيمكن تفسير الصوفية القبلانية التى ظهرت فى مقاطعة بروفانس بفرنسا وفى اسبانيا فى القرنين الثانى والثالث عشر فى ضوء ماتبقى من تعاليم

* هى فلسفة دينية سرية عن أحبار اليهود وبعض مسيحيى العصور الوسطى منبية على تفسير الكتاب المقدس تفسيرا صوفيا. (المترجم).

الهرمسية وظهر فى المسيحية والإسلام وحدثت تطورات فى هذه الثقافات وحالة كاتالونيا ولانجودوك Languedocs لها سمة خاصة، فهى كما يطرح بروفسور "شولم" قراءة صوفية فى زمن الأزمة لنفس النصوص.

وفى القرنين الثانى والثالث عشر كانت إمارة "لانجودوك" – فى جنوب فرنسا – تموج بالحياة، فقد كانت لقرون عديدة مجتمعاً غنياً متميزاً متذبذباً بين المسيحية والإسلام واليهودية، وفيها حدث الإرتباط بين اليهود السفراديم الذين عاشوا فى ظل الإسلام، واليهود الإشكيناز الذين عاشوا فى أوروبا المسيحية.

وكان لسكان هذه الإمارة المقدرة الموضوعية على السمو بأشكال معينة من الديانات. وهكذا يمكن تفسير موقفهم المعادى للبدع أو الأفكار التحررية فى أوروبا المسيحية، مثل بدعة "الألبيجنسيين"* Albigensians (Cathars) أو "المطهرون"، وفيها تم تقسيم المؤمنين إلى قسمين: المؤمن العادى والمؤمن الكامل، وكانت أهم صفات المؤمن الكامل هى الإبتعاد عن الحياة اليومية فى هذا العالم المادى والإتجاه نحو الروحانيات، فى محاولة لإيجاد فصل تام بين الماديات والروحانيات وإستعجال الموت بإعتباره نقله إلى عالم الروح. وكان صراع هذه الطائفة فى محاولة البقاء قد ارتبط بصراع المنطقة نفسها فى محاولة للحفاظ على نفسها من سيطرة شمال فرنسا وملوكها المتمركزين فى بارس، والذين حاولوا الظهور بمظهر أبطال المسيحية الكاثوليكية وحتى يبرروا محاولتهم لتوسيع نطاق نفوذهم جعلوا هذه المحاولات تأخذ شكل حملات دينية ضد المهرطقين (الهراطقة) إلا أنه لا يوجد أدنى شك فى أن هؤلاء "المطهرون" قد استطاعوا تحقيق بعض الإنتشار والشعبية، فقد كان من الواضح أن روحانياتهم قد حققت بعض الفائدة لمجتمعهم(٨٤).

ومن الواضح أن هذه المعتقدات كانت ذات شقين، كما تشترك فى بعض مفاهيمها مع التقليد والتراث الصوفى أو الباطنى – الذى ناقشته فيما سبق – كمفهوم إنتقال الأرواح، "فالمطهرون" مذهب يحوى قدراً واضحاً من الثنائية يجعل من السهل

---

* هم طائفة من مسيحيى القرن الثانى عشر الميلادى عاشوا فى بروفانس بفرنسا وقالوا بفساد باباوات الكنيسة فى مما إضطر البابا "أبنوسنت الثالث" إلى تجريد حملة عسكرية ضدهم. (المترجم).

قبولـه كمذهـب إيرانـى، أوزرادشـتى، أو مـانوى. فقـوى الإلـه الخـير والشـيطان، الخـير والشـر، الـروح والمادة، كلها ثنائيات عالمية تبدو فـى حالـة صراع دائـم، وأيضـاً فـى حالـة تـوازن دائـم. وهـو مـايختلف تمامـاً عـن الرؤيـة الهرمسـية القائلـة بوحـدة الكـون، أو بـأن الإنسـان هـو مقيـاس كـل شـئ[٨٥]. إلا أنـه وبرغـم إنتشـار كـلا الحركتـين الدينيتـين علـى نطـاق واسـع فـى أوروبـا، فإزدهـار القبلانيـة اليهوديـة ومذهـب "الألبيجينيسـيين" فـى إمـارة لانجـودوك وفـى بروفـانس فـى نفـس الوقـت لهـو شـئ مثـير للدهشـة، ويشـير إلى شـئ غـير طبيعـى فـى التربيـة الإجتماعيـة والثقافيـة لهـذا الوسـط. وإنـه لمـن الصعوبـة بمكـان القـول بـأن أحـد المذهبـين لم يؤثـر فـى الآخـر، وهـو مـايبدو حقيقـة واقعـة إذا مـا أخذنـا فـى الإعتبـار التركيبـة الإجتماعيـة.

فكمـا نـال "المؤمنـون الكـاملون" فـى مذهـب "المطهـرون" الدعـم والحمايـة مـن مريديهـم، كذلـك حـدث نفـس الشـئ مـع الحاخامـات القبلانيـين الصوفيـين، فقـد مـيزتهم مجتمعـاتهم للمنـافع التـى جـاءت بهـا قدسـيتهم إلى هـذه المجتمعـات. لكـن بينمـا تعقـب الفرنسـيون الكـاثوليك أصحـاب مذهـب "المطهـرون" وأبـادوهم بـلا رحمـة، فلـم يسـتطع أعـداء القبلانيـة اليهوديـة أن يقومـوا بنفـس المهمـة، وبالتـالى انتشـرت هـذه الحركـة نحـو أسـبانيا حيـث ازدهـرت هنـاك كطقـس سـرى إلا أنـه حظـى بقـدر مـن التوقـير بـين اليهـود الإسـبان، وإسـتمر هـذا الوضـع حتـى قـام الملـك فردينـاند بطـرد اليهـود مـن إسـبانيا فـى ١٤٩٢.

وفـى الحقيقـة لقـد كـانت القبلانيـة طقسـاً سـرياً تم حظـر دراسـتها حتـى علـى اليهـود المتدينـين المتعلمـين الذيـن تجـاوزوا سـن الأربعـين. وترفـض القبلانيـة القـراءة التاريخيـة السـطحية للتـوراة، كمـا ترفـض أيضـاً القـراءة العقلانيـة التقليديـة التـى تحـاول الوصـول إلى قلـب النـص التوراتـى، والتـى مـن المفـترض فيهـا أن تكشـف لليهـود المتدينـين عـن غمـوض الكـون. فالقبلانيـة هـى إمتـداد لتعـاليم التلمـود، فالأسـرار يمكـن إكتشـافها عـن طريـق دراسـة متأنيـة للتـوراة، كدراسـة عـدد الأحـرف التـى كتبـت بهـا التـوراة، وتذهـب القبلانيـة إلى أبعـد مـن ذلـك كمحاولـة التأمل فـى فكـرة عـرش الإلـه وعربتـه، وفـوق كـل ذلـك اسـم الإلـه

الأعظم الذى يقود من يعرفه إلى قمة النشوة الصوفية .

وتضم القبلانية كلْ الأشكال أو الصور الأساسية التى ظهرت فى الهرمسية وما تخلف عنها مثل: الثالوث المقدس، الإله الخفى أو العقل، الكلمة، والروح التى تصل بينهما، الكواكب الثمانية السيارة أو القبة السماوية، الإنسان مقياس كل شئ، وأحيانا الإنسان صانع الإله. وفى الفترة الأولى لظهور القبلانية قادتها هذه المفاهيم إلى البحث فى التنجيم والطب والسحر وكل مااشتهر به اليهود فى أوروبا فى العصور الوسطى(٨٦).

الهرمسية فى بيزنطة وأوروبا الغربية المسيحية

يبدو أن أقرب أشكال الأفلاطونية الحديثة للمسيحية قد استطاع الصمود وظهر فى الإمبراطورية البيزنطية، وتمثل هذا فيما عرف بقرن النهضة أو القرن الحادى عشر. وكان أحد أهم شخصياتها "بسللوس" الذى إهتم بالفلسفة الهرمسية وبالسحر، وفى القرن العشرين يكتب لنا بروفسور "زرفوس" Zervos قائلا:

> "نحن لا نعرف على وجه اليقين كم الكتابات التى تركها "بسللوس" Psellos عن الأدبيات الهرمسية، فكل ماتبقى لنا هو بعض الشروحات والتعليقات ... يؤكد فيها "بسللوس" على أن المفهوم الإغريقى للإله قد تأثر بلا شك بالنموذج الشرقى. ويدعم رأيه هذا حول التفوق الشرقى على الفلسفة اليونانية بالإشارة إلى حادثة "بورفيريوس" Porpherios الفيلسوف الأفلاطونى الحديث من القرن الثالث الميلادى والذى تلقى تعليمه على يد الكاهن المصرى "أنى بونا" Anebon(٨٧).

وهنا نرى: الكهنة، الكتاب المقدس، العلوم المصرية والشرقية، واليونان مع بعض التركيز على الكتاب المقدس. وحقيقة أن كتابات "بسللوس" قد وصلت إلى إيطاليا فى القرن الخامس عشر تعنى أن هذه الكتابات قد حُفظت حتى فى خلال فترات القلاقل

التى مرت بها الإمبراطورية البيزنطية خاصة فى القرون الأربعة الأخيرة من عمرها، كما يوضح بقاء هذه الكتابات مدى المكانة الهامة التى احتلتها الأفلاطونية الحديثة والهرمسية فى ظل بيزنطة.

أما الإعتقاد بأن مصر القديمة هى أقوى مراكز السحر على الإطلاق فيبدو أنه كان عاملاً أساسياً فى تحول أوروبا الغربية إلى المسيحية. ففى مقبرة الملك الوثنى "كلدريك" الذى مات فى ٤٨١ ميلادية وهو والد "كلوفيس" أول ملك مسيحى لفرنسا تم العثور على بعض جعارين ورأس لثور يحلى جبهته قرص الشمس، غالباً هو "أبيس"[٨٨]. وبعد ذلك بحوالى ثلاثمائة عام كان خاتم شارلمان العظيم يمثل رأس الإله جوبيتر – سارابيس[٨٩].

وبالرغم من أن الإهتمام بالنصوص الهرمسية قد تضاءل إلى أدنى درجة خلال العصور المظلمة وبداية العصور الوسطى مثله فى ذلك مثل أغلب النشاطات الثقافية والحضارية فى هذه الفترة، إلا أن الهرمسية لم تمت كلية، فيبدو أن مثقفى العصور الوسطى قد إهتموا إلى حد ما بالسحر والتنجيم الهرمسيين رغم إهمالهم للفلسفة الهرمسية ذاتها. ورغم هذا فقد ظل أحد المخطوطات الهرمسية متداولاً منذ أن تُرجم إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى الميلادى، وهو بعنوان "اسكليبيوس"[٩٠]. ويؤكد إزدياد عدد النسخ التى تمت كتابتها من هذا المخطوط خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر مدى تصاعد الإهتمام به خاصة فى القرن الثانى عشر الذى أطلق عليه "عصر نهضة أوروبا الغربية"،[٩١] كما أنه من الصعب أن نفترض أن الإهتمام المتزايد بالإنسانيات فى القرون التالية لم يتأثر فى أى من أوجهه بمخطوط "اسكليبيوس" والقلة الباقية من مخطوطات الأفلاطونية الحديثة.

مصر فى عصر النهضة

مع بدايات القرن العشرين إتجه المؤرخون إلى إضفاء الصبغة الإغريقية على عصر النهضة، بسبب أثر أفلاطون الواضح حتى أواخر القرن الخامس عشر، ثم تأتى بعد ذلك

الأفلاطونيـة الحديثـة[٩٢]. إلا أن لا يمكـن إنكـار التأثـير المصـرى والشـرقى الـذى كـان مكمـلاً لحركـة النهضـة منـذ بدايتهـا. فـلا يمكـن القـول بـأن الإغريـق القدامـى كـانوا فـى نظـر شكسـبير مثـلا مجـرد بعـض الشـرقيين المشاكسـين، وليسـوا أنصـاف آلهـة، فنجـد فـى عصـر النهضـة أن معظـم البـاحثين الإيطـاليين والفنـانين وغـيرهم قـد ربطـوا أنفسـهم بـالإغريق. إلا أنهـم فـى الحقيقـى لم يهتمـوا بـإغريق هومـيروس أو بركليـس، ولا حتـى بالآلهـة الأوليمبيـة، وإنما أخذوا مـن الـتراث الوثنـى القديـم مـاعثروا عليـه.

فيكتب الفيلسوف والمؤرخ "دافيدهيوم" David Hume بحساسية القرن الثامن عشر قائلاً:

> "عندمـا بُعـث العلـم والتعلـم، كـان يُزيـن بنفـس مـازين بـه فـى عصـور إضمحلالـه بـين اليونـان والرومـان." [٩٣].

ورغـم هـذا التدهـور، إلا أن احـترام مصـر والشـرق كـان واضحـاً، فهـو تقديـر لغـزارة وغمـوض كتابـات الأفلاطونيـة الحديثـة، وتطلـع إلى أسـرار مصـر والشـرق. إلا أنـه وبـالتحديد مـن الأفلاطونيـة الحديثـة والهرمسـية إسـتمد عصـر النهضـة رؤيتـه المتمـيزة عـن القـوة اللانهائيـة الكامنـة فـى الإنسـان، كمـا أخـذ عنهـا قناعـة أن الإنسـان هـو مقيـاس لكـل الأشـياء. وبشـكل عـام يمكـن القـول أن القرنـين الرابـع والخـامس عشـر قـد شـهدا تقديـراً وإحترامـاً متزايـداً لمصـر وللمصريـين.

ومـع بدايـات القـرن الخـامس عشـر كـان لـدى بعـض البـاحثين الإيطـاليين فكـرة واضحـة عـن أهميـة مصـر المحوريـة، والنصـوص الهرمسـية بالنسـبة للعلـوم القديمـة التـى حـاولوا إحياءهـا، فقـد كـانت مخطوطـة "اسـكليبيوس" معروفـة بشـكل جيـد لهـم، بالإضافـة إلى النصـوص الهرمسـية التـى تمـت ترجمتهـا إلى اللاتينيـة. وفـوق ذلـك فبسـبب الإتصـال المتنـامى بـين إيطاليـا واليونـان أصبحـت كتابـات "بسـللوس" وغـيره مـن رواد فـترة النهضـة البيزنطيـة متاحـة أمـام مـن يرغـب فـى الإطـلاع عليهـا[٩٤]. وفـى عـام ١٤١٩ وصـل إلى إيطاليـا مخطـوط بعنـوان "الهيروغليفيـات"، وهـو مخطـوط يعـود إلى القـرن الخـامس الميـلادى عـن الهيروغليفيـات وضعـه هورأبوللـو Horapollo أحـد سـكان مصـر العليـا (صعيـد مصـر) وترجـم أيضـاً إلى

اللغة اللاتينية(٩٥). وقد حاول كاتب هذا المخطوط أن يربط بين التفسر الصحيح لبعض العلامات فى الهيروغليفية وبعض المجازات والإستعارات لهذه التفسيرات(٩٦). وقد إنتشر هذا العمل وذاع صيته لأنه أكد على الإعتقاد القديم بأن الهيروغليفية هى كتابة الأسرار السابقة على إختراع الأبجدية، حيث أن علامة واحدة منها تشير إلى معان مختلفة ومتنوعة، كما تبدو وكأنها غير مثقلة بصوتيات هذا العالم الدنيوى. وبشكل عام يمكن القول بأن الهيروغليفية وماحوته من ألغاز – كما كان التصور سائداً عنها – أصبحت تحتل مكانة هامة مع بدايات القرن الخامس عشر الميلادى، وعلى سبيل المثال يمكننا تذكر الميدالية الشهيرة جداً التى صُورت عليها العين المصرية المجنحة المعروفة والتى صنعها الرسام والمعمارى ومنظر الفن الشهير "ليون باتيستا البرتى Leone Battista Alberti" والذى كان يُنظر له على أنه مثل لفن عصر النهضة فى بداياته النقية(٩٧).

وقد ساد إنطباع قوى بإن إستعمال كهنة مصر للرموز الهيروغليفية قد ارتبط بإستعمالهم الدائم للمجاز والإستعارات، وخاصة فى التعريفات المجازية للأسرار والتى نسبها لهم العديد من كتاب اليونان وخاصة "بلوتارخوس". وكما سبق وأن رأينا، فدارسو القرنين التاسع عشر والعشرين قد أصروا على أن الإغريق (قد أخطأوا) كما انسحب إصرارهم هذا على مفكرى عصر النهضة، كما يكتب لنا أحد مؤرخى الفن فى أوائل القرن العشرين، وهو بروفسور "ويند" Wind عن بعض هؤلاء المفكرين قائلاً:

> "كان إهتمامهم قليلاً بعبادات الأسرار الأصلية، وكان إهتمامهم أقل بتفسيراتها الفلسفية، فالحكم الجيد لم يكن كافياً لوضع الضوابط والمحاذير، لقد كانت مسألة حظ حسن بالنسبة لهم، لأن هذا كان ناتجاً عن إنطباع خاطئ عن التاريخ، لقد إفترضوا أن تفسير التشخيص كان جزءاً من الأسرار الأصلية"(٩٨).

وأعتقد شخصياً بدقة وصدق تفسيرات القرن الخامس عشر، على الأقل فيما

يخص الديانة المصرية المتأخرة، وعلى أية حال فلم يحاول أى من إيطالى عصر النهضة البحث فى مدى صدق هذه التفسيرات.

أما الولع بمصر والذى طبع عصر النهضة فقد جاء أساساً من شهرة مصر بكونها أول البلاد التى تأسست فيها الأسرار والتعاليم المقدسة. وفوق ذلك فبإستثناء الفرس من معتنقى الزرادشتية والكلدانيين الذين لم يتركوا إلا أقل الآثار، فقد كهان يُنظر إلى المصريين بإعتبارهم أصحاب العلوم والفنون، ومن هنا اهتم بهم رجال عصر النهضة ونسائه. لقد بحث أهل عصر النهضة عن "المصادر" أو أصل الحضارة، لذا فقد بحثوا فيما وراء المسيحية وروما الوثنية واليونان القديمة، لكن خلف اليونان كانت توجد مصر دائماً، كما قال بذلك "جيوردانو برونو" Giordano Bruno فى القرن التالى: "لقد امتلكنا نحن الإغريق مصر، مملكة الأدب والنبل العظيمة، أصل كل تراثنا وشرائعنا"(٩٩).

إلا أنه وخوفاً من الظن بأن "برونو" لم يكن دقيقاً، أو أنه كان ينتمى إلى جيل "أفسدته" الأفلاطونية الحديثة، فسأعمد هنا إلى الإقتباس عن "فرانسيس بيتس" Frances Yates فى حديثة بمناسبة تأسيس مدرسة جديدة للأفلاطونية الحديثة، والذى يعكس بالضرورة موقفاً واضحاً من مصر واليونان:

> "فى حوالى ١٤٦٠ أحضر أحد الرهبان من مقدونيا مخطوطاً يونانياً إلى فلورنسه، وكان هذا الراهب أحد عملاء "كوزيمو دى مدتيشى" Cosimo de' Medici الذين كلفهم بتجميع المخطوطات القديمة له. وكان هذا المخطوط يحوى نسخة من الأعمال الهرمسية... ورغم أن مخطوطات أفلاطون كانت قد تم تجميعها وتنتظر الترجمة، إلا أن "كوزيمو" أمر "فيتشينو" بتركها مؤقتاً حتى يتفرغ لترجمة أعمال "هيرميس المعظم ثلاثاً" فى الحال قبل أن يتحول إلى أعمال فلاسفة اليونان... فقد كانت مصر تأتى قبل اليونان... وهيرميس قبل أفلاطون.
>
> ويبدو أن إحترام أهالى عصر النهضة لكل ماهو قديم كان عاملاً رئيسياً فى موقفهم الذى يقترب من تقديس الحقيقة أو "القديم"

والـــذى تطلـــب أن تـــترجم "الأعمـــال الهرمســـية" قبـــل "جمهوريـــة" أفلاطـون ومحاورتـه الأخـرى "المأدبـــة"[١٠٠].

أمـا الترجمـات الجديـدة للأعمـال الهرمسية فقـد وُظفـت لبعـث الأكاديميـة الأفلاطونيـة الجديـدة التـى أسسـها المـترجم العظيـم والبـاحث الفيلسـوف "مارسـيللو فيتشـينو" Marsilio Ficino فـى قصـره خـارج فلورنسـا. وقـد قـامت هـذه الترجمـات بخدمـة كـل الأكاديميـات المثيلـة التـى انبثقـت فـى أغلـب المـدن الإيطاليـة الهامـة، وفيمـا بعـد فـى كـل أوروبـا. وبـالرغم مـن أن هـذه الأكاديميـات قـد اقتفـت أثـر أكاديميـة أفلاطـون فـى أثينـا، إلا أن أعضاءهـا اعتقـدوا أنهـا قـد تأسسـت طبقـاً لنظـام الكهانـة المثـالى فـى المعـابد المصريـة. وقـد قـامت كـل الأكاديميـات الأوروبيـة بإنتخـاب أعضـاء جـدد فيهـا كمـبرر محـورى لوجودهـا.

وعلـى سـبيل المثـال فـى أكاديميـة رومـا فـى القرنـين الخـامس والسـادس عشـر كـانت مثـل هـذه الإنتخابـات مفعمـة بـالمعدات والأدوات الطقوسـية الشـخصية[١٠١]. فطقـوس ترقيـة العضـو إلى مرتبـة الخـالدين والتـى مورسـت فـى الأكاديميـة الفرنسـية وفـى أمـاكن أخـرى يمكننـا أن نرجعهـا إلى الأسـرار والطقـوس التـى تمنـح الخلـود فـى عصـر النهضـة، والتـى هـى فـى رأيـى مـأخوذة بشـكل أسـاس مـن مصـر القديمـة[١٠٢]. وفـوق كـل ذلـك فقـد ذهـب دارسـو عصـر النهضـة إلى مـاوراء الأفلاطونيـة الحديثـة، فقـد بحثـوا عـن أفلاطـون نفسـه وفيثـاغوراس وأورفيـوس ومصـر القديمـة بفلسـفتها وعلمهـا وسـحرها.

وفى أواخر القرن الخامس عشر تم إدماج فكر الأفلاطونية الحديثة مع فكر القبلانية، وقـام بعملية الدمج هذه مفكر عصـر النهضـة "بيكوديـلا ميراندولا" Pico della Mirandola، وكان سحر بيكو الروحـى قـادراً علـى توظيـف كـلا النموذجـين بطريقـة يسـتطيع بهـا أن يعضـد الكنيسـة المسـيحية علـى أسـس من الطقـوس السـرية المصريـة الهيروغليفيـة والأعـداد والحـروف العبرانية[١٠٣]. وقد تمتع بيكو فى ذلـك الوقـت بنفـوذ قـوى خاصـة بـين اسـرة بورجيـا الحاكمـة، والذين قاموا بتجميع العديد من الأعمال الفنية التى تمجد الديانة المصرية وبخاصة "العجـل أبيـس" الذى إتخذوه رمزاً لهم. أما ماهو أكثر أهمية على المدى البعيد فقد كـان إرتبـاط "بيكـو" الواضـح بالمفهوم المصرى عن الإنسان "كساحر" والذى يستطيع – كما يقـول لنـا فرانسـيس بيتـس – أن

يستخدم السحر والقبلانية فى محاولة السيطرة على العالم... كى يسيطر على مصيره وقدره بالعلم[١٠٤].

هذا الإندماج بين التراث المصرى والعبرانى يظهر مرة أخرى مع نهاية القرن السادس عشر وبخاصة فى أعمال فيلسوف عصر النهضة "توماسو كامبانيلا" Tommaso Campanella كما استمرت القبلانية تمثل مصدراً للإلهام فى مجالى السحر والعلوم خلال القرنين السادس والسابع عشر[١٠٥]. إلا أنه وكما أشارت "فرانسيس بيتس" فالقبلانية لم تكن أبداً "ديانة بدائية" Prisca theologia على أساس انتمائها للتراث التوراتى وليس الوثنى، وهكذا فلا يعود أمام مفكرى عصر النهضة إذا ما أرادوا تجاوز المسيحية من خيار إلا مصر[١٠٦].

كوبرنيكوس والهرمسية

كتبت "فرانسيس بيتس" فى ١٩٦٤ فى نفس الإتجاه الذى تسير فيه الكتابات الحديثة عن كوبرنيكوس قائلة:

"لم يعش كوبرنيكوس عالمه برؤية "توماس الإكوينى"، ولكنه عاشه من خلال رؤية الأفلاطونية الحديثة، والديانات القديمة وعلى رأسها "هيرميس المعظم ثلاثاً". ويمكن أن يفترض المرء أن التركيز المستمر على الشمس فى هذا العالم ذى الرؤية الجديدة ربما كان دافعاً عاطفياً جعل كوبرنيكوس يقوم بحساباته الرياضة القائمة على فرضية أن الشمس هى مركز النظام الكونى، أو أنه قد حاول أن يحظى بالقبول فقدم إكتشافه فى إطار هذا الإتجاه الجديد. وربما كان كل من التفسيرين صحيحاً أو ربما كان أحدهما فقط هو الصحيح[١٠٧]. ورغم أن "النصوص الهرمسية" - كما سبق وأن أشرت - تميل إلى النموذج البطلمى القائل بمركزية الأرض، ففى بعض النصوص نجد إشارات واضحة إلى النظام الآخر القائل بمركزية الشمس. ويزيد على ذلك أنه وُجدت إشارات متكررة إلى قدسية خاصة للشمس بوصفها مصدر الضوء، وأحيانا بوصفها الإله الثانى

الذى يحكم الإله الثالث والعالم المادى وكل المخلوقات الحية[١٠٨].
وهكذا تشترك هذه النصوص مع الموقف المصرى تجاه الشمس
بوصفها القوة المقدسة الرئيسية فى العالم وواهبة الحياة.

وقد حدثت تطورات متعددة فى مجال الدراسات الكوبرنيكية منذ أن كتبت "فرانسيس بيتس" الفقرة التى اقتبسناها، منها بعض المحاولات للتلطيف من حدة الفرضيات التى قالت بها. كما ظهرت إعتراضات مثل التى قال بها بروفسور "روزن" Rosen أحد مؤرخى تطور العلوم، فقد انتهج نفس المنهج التقليدى لتطور العلوم كمحصلة ناجحة لقفزات إنسانية بطولية من الظلام إلى النور، ولهذا فكوبرنيكوس فى رأى "روزن" لم يكن أفلاطونيا" أو أفلاطونياً حديثاً، أو حتى أرسطياً، بل كان "كوبرنيكياً"[١٠٩]. وبتحديد أكثر فقد أوضح عدد من الدارسين المحدثين، أن النماذج الرياضية التى أبدعها كوبرنيكوس أعتمدت بشكل أساس على المصادر الإسلامية، وبخاصة أعمال "نصر الدين الطوسى" من القرن الثالث عشر، و "إبن الشاطر" من القرن الرابع عشر[١١٠]. ولا يشمل هذا الرأى فكرة كوبرنيكوس عن مركزية الشمس فهى فكرة وردت عنده قبل أن يستطيع إثبات صحة براهينه الرياضية. إلا أن البعض قام بطرح فرضية أخرى مؤداها أن كوبرنيكوس قد استقى فكرته عن مركزية الشمس من باحث ظهر فى أواسط القرن الخامس عشر هو "رجيومونتانوس" Regiomontanus، وربما كان هذا الباحث قد أسهم بشكل أو بآخر فى تعبيد الطريق أمام من اعتنقوا نظرية مركزية الشمس، حيث عاش فى فترة إنتشار الأفلاطونية الحديثة وازدهارها. وسواء كانت هذه الفرضية لها جذور من الصحة أم لا، تبقى فرضيات البروفسور "بيتس" هى أقرب شئ – فى رأينا – إلى الصحة[١١١].

الهرمسية ومصر فى القرن السادس عشر

كان من البديهيات قديماً أنك ما أن تبدأ بقراءة النصوص "الهرمسية" حتى تصاب بخيبة أمل. إلا أن القائمة التى أوردها لنا بروفسور "بلانكو" تكذب هذه البديهية:

"ففيما بين ١٤٧١-١٦٤١ تمت طباعة ترجمة "مارسيللو فيتشينو" للنصوص الهرمسية خمس وعشرين مرة، أما ترجمة "باتريتيوس" Patritius فقد أعيد طبعها ست مرات، كما ظهرت طبعة ثنائية اللغة قام بها "فردوفوا" Fr De Foix وإعيدت طباعتها مرتين، أما مخطوط "أسكيليبيوس" فقد طبع أربعين مرة، أما تعليقات" فابرستابو ليسس" على مخطوط "بيماندر" فقد طبعت أربعة عشر مرة، أما التعليقات التى قام بها "روسيليوس" Rosellius فطبعت ست مرات، كما طبعت تعليقات "فابرستابولنيسس" Faber Stapulensis على مخطوط "اسكليبيوس" إحدى عشر مرة[١١٢].

وتعطينا هذه القائمة مرة أخرى مؤشراً على مدى الإهتمام النسبى باليونان ومصر، وعلى سبيل المثال نجد "جورج إليوت" George Eliot الذى ظهر فى ذروة الرومانسية الفيكتورية يصور لنا ببراعة مدى إهتمام عصر النهضة بالبقايا التى تخلفت عن أثينا الوثنية[١١٣]. إنه نوع من الخلط الزمنى فقد إهتم الأوروبيون الغربيون من القرن الخامس عشر وحتى السابع عشر بالرحلات والإستكشافات فى مصر عنها فى اليونان، وتوضح المجموعات المطبوعة مؤخرا من هذه الكتابات أنه فى الفترة من ١٤٠٠ إلى ١٧٠٠ ظهور مايزيد عن ٢٥٠ وصفاً لمصر كتبه الرحالة الغربيون[١١٤].

وطبقاً لبعض الإتجاهات يبدو أن الإرتحال إلى منابع المعرفة فى مصر قد وفر غطاءاً شرعياً لمهاجمة المعارف التقليدية السائدة والمثال الواضح على ذلك هو الطبيب المعروف ومهندس المناجم الذى إشتهر مع مطلع القرن السادس عشر "باراكيلسوس" Paracelsus، والذى أدعى – ربما زوراً – أنه رحل إلى مصر وتعلم هناك، وأطلق على ممارساته الطبية" الطب الهرمسى". إلا أن ذلك كان بداية تقليد إستمر حتى ظهور "نيوتن"، وفيه تحول العلماء إلى التجارب كوسيلة لإحياء المعارف المصرية الشرقية التى فشل الإغريق والرومان فى الحفاظ عليها[١١٥].

ويجب أن نتذكر هنا أنه عبر المائة وخمسين عاماً الماضية فقد أعتبر عصر النهضة

أحد قمتى الحضارة الأوروبية، وهو يكاد يقارب فى السمو القمة الأخرى وهى أثينا القرن الخامس قبل الميلاد. ونتيجة لهذا فقد عانى دارسو القرنين التاسع عشر والعشرين الكثير من المشاكل فى تعاملهم مع ظاهرة التقدير والإعجاب لمصر والشرق. وعلى سبيل المثال تبرز مشكلة الآلهة التى كان يشار إليها دائماً بأسمائها اللاتينية، إلا أن الإعتقاد السائد كان أنها ذات أصل مصرى. وإذا أخذنا "جان زينيك" Jean Seznec وهو من أهم باحثى القرن العشرين المتخصصين فى التراث الوثنى نجده فيما يخص الآلهة الوثنية يكتب قائلا:

> "لكن فى كتيباتنا التعليمية (كتيبات التعليمات التوضيحية) نجد أن عبادات الآلهة ذات الأصول الشرقية قد حظيت بشهرة واسعة وبخاصة الآلهة المصرية... وفى رأينا أن السبب فى هذا يعود إلى تأثير "الهيروغليفية" التى حازت إهتمام علماء الإنسانيات ودفعتهم إلى مصر خاصة والشرق عامة[١١٦].

وفيما بعد يكتب قائلاً:

> "وتفضيلنا للآلهة الشرقية على آلهة الأوليمبوس قد ازداد بسبب الإهتمام المتزايد بعلوم المصريات وما تمثله من ألغاز... وفيما يخص الإله "ميركوريوس" فهو يظهر كأحد السحرة يرتدى على رأسه قلنسوة مدببة، ويمسك بعصا صولجانه مخلوقات صغيرة مجنحة تبدو وكأنها خرجت من بئر، كما تحيط بالصولجان أربعة ثعابين متداخلة مع بعضها. كما يلاحظ "إيريارت" Yriarte أن هذا الشكل لا ينتمى إلى روما أو اليونان أو أشور أو حتى فارس. إنه ذكرى باقية من الإله "هيرميس" مرشد الأرواح فى العالم السفلى، أو مايسمى "بسيخوبومبوس" وهو الإله المصرى "تحوت" الذى علم الأرواح كيف ترتقى بنفسها لتتعرف على المقدسات[١١٧].

ولم يكن المؤرخون التقليديون فقط هم من ابتعدوا عن هذا المثال "سيئ الحظ" من

عصر النهضة، بل نجد "فرانسيس بيتس" وهى أشهر من تعامل مع الهرمسية تحذو نفس الشيء، فلم تحاول أن تتحدى أو تختبر قوة "النسق الآرى" السابق عرضه، فبينما تستطرد فى الحديث عن الهرمسية المصرية وثمارها الواضحة فى إيطاليا فى القرنين الخامس والسادس عشر، تحاول دائماً تذكير قارئها بأنها لا تصدق تماماً من كتبت عنهم بهذا التعاطف. وهناك الكثير من عباراتها التى تقود إلى هذا المعنى مثل: "لقد قاد هذا الخطأ التاريخى إلى نتائج مذهلة"(١١٨). وفى الحقيقة فإعتقادى الداخلى يؤكد لى أن مثل هذا الوصف لا يصدق إلا على "النسق الآرى" كما فصلته سابقاً.

ولا يوجد أدنى شك فى أن الهرمسية والإهتمام بالمصريات قد إزدهر فى القرن السادس عشر كجزء أساس وهام من حضارة عصر النهضة. إلا أن نظرة المؤرخين المتأخرين إختلفت، ورغم ذلك فنتاج الهرمسية فى هذه الفترة كان متميزاً، فلا ننسى "كوبرنيكوس" و "جيوردانو برونو"، وقد اعتبر مؤرخو القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين "برونو" رائداً من رواد العلم وحرية البحث والتفكير، لكن "فرانسيس بيتس" تصر على أن تعتبره جزءاً من التراث الهرمسى.

وقد كان "برونو" مميزاً لأنه ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه من سبقوه أو عاصروه، فبالرغم من كل حماس الهرامسة، نجدهم يعملون داخل إطار المسيحية والقيود التى وضعها القديس أوغسطين – سواء عن إقناع أم لا – لكن "برونو" ذهب إلى ماوراء المسيحية واليهودية حتى وصل إلى الوثنية المصرية القديمة.

> "لا تفترض أن السحر الكلدانى قد نتج عن القبلانية اليهودية، لأن اليهود هم بلا شك فضلات الحضارة المصرية، ولا يستطيع أى أنسان أن يقنع أحداً بأن المصريين قد أخذوا عن اليهود أى من مبادئهم سواء كانت صالحة أم لا. والآن فنحن الإغريق (ويبدو هنا أنه يقصد الوثنيون) نسيطر على مصر، مبدعة الكتابة والآداب، أساس كل تراثنا وشرائعنا"(١١٩).

أما الظروف الإجتماعية التى أحاطت بمثل هذا الفكر الراديكالى فكانت الإخفاف الذى منيت به عملية الإصلاح التى حدثت فى السبعينات من القرن السادس عشر للتغلب على محدودية المذهب الكاثوليكى ولرأب الصدع الذى منيت به المسيحية الغربية، والحروب الدينية التى أرهقت أوروبا فى أواخر القرن السادس عشر. ولهذا فقد حاول "برونو" أن يرتبط ببعض الحكام المعتدلين ذوى الميول التوفيقية، رغم أن هذا يناقض – على الأقل ظاهرياً – معتقداته الفكرية وميوله الدينية الراديكالية. وهكذا رأى "برونو" أنه لكى يحل السلام الروحى والمادى فلابد من تجاوز المسيحية عقلياً وسياسياً، كما قالت "فرانسيس بيتس": "لقد أصبحت معتقدات "برونو" الهرمسية مصرية تماما، فالديانة المصرية الهرمسية لم تعد مجرد ديانة بدائية تلقى على المسيحية بظلالها، وإنما أصبحت ديانة حقيقية"(١٢٠).

ويجب أن لا تقودنا حقيقة أن "برونو" قد تخطى الحدود المسموح بها فى المسيحية، ونتيجة لمعتقداته هذه قامت محاكم التفتيش بإحراقه، إلى تضخيم شذوذه أو غرابة أطواره فى إيطاليا القرن السادس عشر. وبينما كان هناك بعض التوازن بين الكتاب المقدس والمسيحية من جهة، والنصوص الهرمسية ومصر من جهة أخرى، إلا أن العلاقة بين مصر واليونان كانت أكثر تحديداً ووضوحاً. وعلى سبيل المثال يبدو شك "إرازموس" حول تاريخ النصوص الهرمسية وكأنه محاولة لحماية المسيحية أكثر منها محاولة لإثبات أسبقية الإغريق(١٢١). وبنهاية عملية الإصلاح الدينى فى أوروبا نجد "لامبرت دانيو" Lambert Daneau أحد أتباع المذهب الكالفينى* يستخدم ماأشتهر به المصريون من كونهم معلمو اليونانيين لإثبات أسبقية النبى موسى والتراث التوراتى فى "الفلسفة الطبيعية" التى سميت فيما بعد بإسم "العلم". فقد اقتبس "دانيو" من بعض المصادر القديمة ما جعله يطرح رأيا يقول بأن المصريين قد نقلوا علم التنجيم عن السوريين، ولما كان "موسخوس" هو الذى علم السوريين، ولما كان "دانيو" يعتقد أن

---

* الكالفينية هى مذهب كالفين الفرنسى الروتستانتى (١٥٠٩-١٥٦٤) والقائل بأن قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته. (المترجم).

"موسخوس" هذا هو النبى موسى، لذا خرج بنتيجة مؤداها أن العبرانيين هم معلمو المصريين وبالتالى معلمو الإغريق* ، وقد إستمر هذا الإعتقاد حتى القرن الثامن عشر(١٢٢).

وكى أنهى هذا الفصل سأطرح مثالاً معروفاً عن شكسبير، فعندما رسم شكسبير فى مسرحيته (ترويلوس وكريسيدا) بعض الشخصيات اليونانية، صورها متآمرة لا يمكن الإعتماد عليها، وقد كان هذا هو الإنطباع السائد فى تراث العصور الوسطى وليس فى عصر شكسبير. وكما حاولت أن أوضح فى هذا الفصل فقد إعتقد أغلب مفكرو عصر النهضة أن مصر هى أصل ومصدر كل العلوم، ثم نقل الإغريق عن مصر جزءاً من هذه المعارف.



* وبالتالى فهم أصل حضارة الغرب الحديثة، ولن أحاول هنا مناقشة مثل هذا الإفتراض الذى ينم عن نوايا خبيثة، لكن تجدر الإشارة إلى أن المؤرخ أو الباحث – حتى وإن كان فى بدايات حياته المهنية – لا يليق به عرض مثل هذه الإستنتاجات والتخريجات التى لاتعدو أن تكون مجرد تكهنات هى أشبه بمجادلة تستهدف تعكير صفحة مياه رائقة بإلقاء حجر فيها. (المترجم).

الباب الثالث

إنتصار مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

ترجمة د. فاروق القاضى

أتناول في هذا الفصل موضوع استمرار الهرمسية في القرن السابع عشر. ذلك أن أكثر الدارسين المحدثين أكدوا على أن النقد النصيّ لكازوبون قد حطّ من الثقة في مجموعة الكتابات الهرمسية، في حين أعتقد أنا أن أثر ذلك على مكانة هذه المجموعة كان أثرا جد ضئيل. فلقد ظل الإعتماد على هذه النصوص قائما على الأمد القريب، وجاء أفولها في القرن الثامن عشر نتيجة تحول العقول عن السحر بوجه عام أكثر منه نتيجة نقدٍ بعينه. والأهم من ذلك أن فقدان الاهتمام بالهرمسية لم يكن يعني أى إنتقاص من قدر مصر. فعند نهاية القرن السابع عشر، أصبحت مصر القديمة مقترنة بنزعة "التنوير الراديكالى" واستخدمت أداة لتقويض المسيحية والوضع السياسي القائم، واستمرت صورتها هى الركيزة لدى جماعة الماسونيين الأحرار الذين سيطروا على الحياة العقلية في القرن الثامن عشر. وهكذا فإن مصر، التي كثيرا ماكان ذكرها يرد مقترنا بذكر الإمبراطورية العظيمة الأخرى التي عُمرت زمانا طويلا وهي الصين، قد احتفظت بسمعة عالية بفضل فلسفتها وعلمها، بل بفضل نظامها السياسي قبل كل شيء، إلى أن هوى النظام الأوربي السياسي والفكري في عِقدى الثمانينيات والتسعينيات من القرن الثامن عشر.

الهرمسية في القرن السابع عشر

وقد جرى إحراق جيوردانو برونو حياً في مدينة روما في عام ١٦٠٠، لكن أثر موته على الهرمسية كان من حيث طول أمده أقل من أثر دراسة إسحاق كازوبون، ذلك الباحث البروتستانتي المعتدل الذى شن هجومه في عام ١٦١٤ على مسألة الأقدمية الزمنية للنصوص الهرمسية. وقد كان الأمر المثير للدهشة في دراسة كازوبون بالنسبة إلى فرانسيس ييتس هو كيف أن تقنيات البحث العلمي في مجال نقد النصوص، وهي تقنيات كانت متاحة منذ أخريات القرن الخامس عشر، قد جرى تطبيقها على النصوص الهرمسية في وقت متأخر على هذا النحو. لكنه إزاء الإنتقائية التي توجد بالضرورة في تطبيق مثل هذه الطرائق البحثية، وإزاء ما حدث بعد ذلك من استخدام لهذه التقنيات

فـي أغـراض سياسـية وإيديولوجيـة، فـإن مـا لا يثـير الدهشـة عنـدى أن التهديـد الـذى كـانت تُشَـكله هـذه النصـوص عنـد نهايـة القـرن السـادس عشـر ليـس للكاثوليكيـة فحسـب بـل للمسـيحية جمعـاء، كـان مـن شـأنه أن يدفـع باحثاً إلى تمحيصهـا بطريقـة عدائيـة[١].

وقـد أوضـح كـازوبون مـابين النصـوص الهرمسـية وأعمـال أفلاطـون وأجـزاء مـن العهـد الجديـد مـن مشـابهات فلسـفية ولاهوتيـة بـل حتـى نَصِّيـة، وذهـب إلى أنـه يتعـين أن تكـون النصـوص المصريـة هـى التـى أخـذت عـن النصـوص الأخـرى، وذلـك لسـببين: أولهمـا أنـه لم تكـن ثمـة إشـارات إليهـا فـى الكتـاب المقـدس أو عنـد أفلاطـون أو أرسـطو أو غيرهمـا مـن الكتـاب القدمـاء، وثانيهمـا أن هـذه النصـوص تشـير إلى نظـم متأخرة زمنيـا وتقتبـس مـن كُتـاب مـن العصـر الهلنسـتى[٢]. وهـذا الهجـوم الـذى صوبـه كـازوبون إلى هدفـه، وأعنـى صورة تلك المجموعة من الكتابات باعتبار أنهـا مـن عمـل رجـل واحـد كـان يكتـب قبـل ألـف سـنة ونيـف قبـل العصـر المسـيحى هـو بـالفعل هجـوم سـاحق ولكـن الذيـن تـابعوا كـازوبون دراسـيا وفكريـا لم يجيبـوا علـى الإعتراضـات التـى أثارهـا رالـف جـودورث **Ralph Cudworth** فـى السـبعينيات مـن القـرن ومفادهـا أن وجـود مـادة متـأخرة زمنيـا فـى النصـوص لايفقدهـا قيمتهـا مـن حيـث هـى مصـادر للحكمـة المصريـة، لأنهـا كتبـت فـى وقـت "لم يكن النسيان قد عفـى بعـد فيه علـى الوثنيـة المصريـة والتواتـر مـن لـدن كهنتهـا[٣].

وقـد أوْلى أشـياع كـازوبون قـدراً أقـل مـن الاهتمـام لتمحيـص الفكـرة التـى نـادى بهـا فلنـدرز بـترى، معتمـدا علـى أسـباب تاريخيـة بعينهـا، ومؤداهـا أن النصـوص تؤلـف مجموعـة متباينـة فـى خصائصهـا نسـبيا، كتبـت فيمـا بـين القرنـين السـادس والثـانى ق.م.[٤]. وفضـلا عـن ذلـك فـإن مـن اليسـير أن تفسـر المشـابهات التـى لا يمكـن إنكارهـا بـين النصـوص الهرمسـية وأعمـال أفلاطـون والأجـزاء "الأفلاطونيـة" مـن العهـد الجديـد باشـتراكها جميعـا فـى التولـد عـن الديانـة المصريـة فـى عهودهـا المتأخرة، وعـن الأفكـار مـن أرض النهريـن وفينيقيـا وإيـران واليونـان، تلـك الأفكـار التـى كـانت متداولـة فـى جميـع أنحـاء شـرقى البحـر المتوسـط إبان تلـك الفـترة.

وتبين الإشارة إلى إرازموس فى نهاية الفصل السابق (صفحة ١٥٩) أن هجوم كازوبون "الإنسانى المسيحى" على الفكرة فى أن تكون الهرمسية مصدرا للمسيحية لم يكن هجوما جديدا كل الجدة، ومع ذلك فقصة كشف كازوبون هى مطابقة فيلولوجية تامة لما سبق ذكره عن أسطورة تاريخ العلم فى القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين، أعنى العبقرية العلمية البطولية والمتفردة التى سبقت عصرها لتحيل ظلمة الغيبيات إلى ضياء العلم والعقل.

غير أن الأمر الذى لا يتواتر وهذا المثال أن الهرمسية والهيام بمصر إستمرا مزدهرين إبان القرن السابع عشر. وفضلا عن ذلك فإن فرانسيس ييتس قد عكست مايقع من خلط بين الأسطورة والحقيقة حين كتبت تقول: "إن (القنبلة) دمرت بضربة واحدة..." لكنها تستطرد فى الفقرة التالية قائلة: " إن أثر قنبلة كازوبون لم يظهر سريعا"، ثم عدلت بعد قليل رأيها فى هذا الأثر قائلة:

"بالرغم من أن عوامل أخرى كانت تفعل فعلها فى القرن السابع عشر ضد تقاليد عصر النهضة، فإن كشف كازوبون ينبغى أن يُنظر إليه، فيما أرى، على أنه أحد عوامل خلاص مفكرى القرن السابع عشر من إسار السحر، وهو عامل له أهميته(٥).

وصحيح أن مارتين ميرسين Martin Merssene، وهو فيلسوف ورياضى من بواكير القرن السابع عشر، قد استخدم تأريخ كازوبون ليهاجم الباطنية الهرمسية عند الساحر روبرت فلود Robert Fludd إبان العصر الإلزابيثى، لكن من العسير أن نزعم أن ذلك النقد النصى كان له تأثير بالغ على المجتمع بأسره(٦). وقد يبدو الأمر أكثر معقولية، بل هو بمثابة وضع الأمر فى نصابه، حين يقال إن الاعتقاد فى السحر تضاءل عند نهاية القرن السابع عشر لأسباب إجتماعية وأقتصادية وسياسية ودينية واسعة المدى، وهذا التضاؤل قد عمل على فقد الاهتمام بالنصوص الهرمسية بالتدريج، وعلى قدر مساوٍ لما حدث فى ذلك، كان فقدان الاعتقاد بالأقدمية الموغلة للنصوص نتيجة لإزدياد مذهب الشك على وجه عام.

وسواء أكان لنقد كازوبون تأثير على فكر القرن السابع عشر على وجه الإجمال أم لم يكن، فلم يترتب عليه تأثير على الهرمسية فى ذلك القرن بأى حال. فبعض الباحثين مثل كيرشر تجاهل كازوبون كلية، والبعض الآخر مثل أفلاطونيى كيمبردج تصدوا لموازنة نقده، لكنهم ذهبوا إلى أن النصوص لا تزال تحمل مادة قديمة ذات أهمية.

ولقد كان الغرض من تقديم برونو قرباناً هو حماية الكنيسة من تحدٍ مباشر. ذلك أن الاهتمام الكاثوليكى بمصر كان من القوة بحيث لم يكن من الممكن كبح جماحه، وأصبحت مصر القديمة هاجسا قويا عند واحد من أكثر الشخصيات الفكرية والثقافية أثرا فى روما فى القرن السابع عشر وهو أثاناسيوس كيرشر Athanasius Kircher الجزويتى الألمانى. وقد كان كيرشر هرمسيا مسيحيا له اهتمامات بأمور من قبيل التنجيم والتوافقيات الفيثاغورية* والقبالية السحرية**،(٧) ولم يكن لديه شك فى الأقدمية البالغة لهرمس المثلث العظمة Hermes Trismegistus، حيث اعتقد أنه عاش فى زمن ابراهيم تقريبا، وكان كيرشر على تمام الإستعداد للتسليم بالتصور القبالى المصرى للمسيح، أو كما كتب يقول:

"إن هرمس المصرى المثلث العظمة الذى كان أول من أنشأ الحروف الهيروغليفية والذى أصبح بذلك أبَ اللاهوت والفلسفة المصرية وراعيهما، كان هو أول المصريين وأقدمهم، ومنه تعلم كل من أورفيوس وموسى ولينوس وفيثاغوراس وأفلاطون ويودوكسوس وبارمينيدس وميليسوس وهوميروس ويوريبيديس ولقنوا معرفة حقة بالله وبالأمور الإلهية... (٨).

ومثلما كان كيرشر مهتما بمصر بوصفها موطن اللاهوت الأصيل Prisca thcologia كان معنيا بها أيضا بوصفها موئل "الحكمة الأصيلة" prisca sapientia أو "الفلسفة" وهو

---

* المقصود هو ماقال به الفيثاغوريون من أن هناك توافقات بين العدد والسلم الموسيقى، ومُجمله أن الفواصل النغمية الرئيسية فى هذا السلم عبر عنها فى نسب من الأعداد الأربعة الأولى. (المترجم).

** Kabbalah وهو مذهب صوفى عند طائفة من اليهود، وفيه اهتمام بعلاج الأمراض بطرق خارقة للعادة. (المترجم).

شئ أخفق اليونان فى الحفاظ على أكثره. وقد راسل كيرشر جاليليو بشأن موضوع المعدل العام للمقاييس الذى كان ينبغى أن يكون هو المعدل المصرى بطبيعة الحال، واستغل مركزه لدى البابوية ليبعث بوكلائه إلى مصر لتقرير ذلك من واقع مقاييس الهرم الأكبر(٩). وكان جهده الأكبر الذى وقف عليه كل حياته وكل مواهبه اللغوية غير العادية هو محاولة حل طلاسم الكتابة الهيروغليفية التى لم يكن ينظر إليها على أنها مجرد مستودع للحكمة القديمة فحسب، وإنما كان يرى فيها نظام الكتابة الأمثل. وقد تابع كيرشر هورابولو فى اعتقاده بأن الحروف الهيروغليفية رمزية صرف، وهى لذلك أسمى بكثير من كل الأبجديات. وبالرغم من أن محاولته لحل أسرار النقوش المصرية لم تكلل بالنجاح، فقد تبين له أن القبطية منحدرة من سلالة اللغة القديمة وأنها يمكن أن تقدم العون فى عملية فك أسرارها، وذلك بالرغم مما يفترض وجوده من نقص فى المقابلات الصوتية بينهما. وهكذا، ففى الوقت الذى كانت القبطية من حيث هى لغة مستخدمة تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مصر، كان كيرشر ينشئ لها فى روما دراسة على أساس قاعدى(١٠).

مذهب الروزيكروسية •

مصر القديمة فى البلاد البروتستانتية

كذلك استمر البروتستانت فى اهتمامهم بمصر وبالهرمسية. ويبدو أن أولئك الروزيكروسية الرواغين الذين برزوا فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا فى القرن السابع عشر كانوا – شأنهم فى ذلك شأن برونو الذى يغلب أن لهم به صلة ما– كانوا يصرغون للصفوة دينا حقيقيا يراد به فيما يظهر تفادى العداء الدامى الذى اندلع بصورة مفزعة بين الكاثوليك والبروتستانت فى حرب الثلاثين عاما التى إجتاحت ألمانيا من عام ١٦١٨ حتى عام ١٦٤٨(١١). وعلى نحو ما فعل هرامسة القرن السادس عشر، حبذ أصحاب النّحلة الروزكروشيانية، أو أولئك الذين أدعوا التحدث بلسانهم، حبذوا أن توكل قيادة المجتمع إلى صفوة من الرجال المستنيرين ممن لديهم معرفة علمية حقة بالسحر؛ إذ يتواترون بذلك فى ذات المسيرة من جماعات الكهنة المصريين إلى جماعات

• الروزيكروسية Rosicrucianism أو أصحاب زهرة الصليب، ولعل هذه التسمية جاءت من الرمز الذى اتخذته هذه الطائفة رمزا لها، وهو صورة صليب تتوسطه زهرة واحدة. (المترجم).

الأخوة من الفيثاغوريين، فأكاديمية أفلاطون. وتورد فرانسيس ييتس في هذا الصدد دعوى معقولة بأن هذه الفكرة الروزيكروسية هي التي كانت تقف من وراء فكرة "المجمع الخفي" الذي كان في مخيلة مؤسسي الجمعية الملكية في الخمسينيات من القرن السابع عشر(١٢).

ومع حرية النشر التي أتاحها قيام الكومنولث، شهد عقد الخمسينيات هذا انبعاثا مدهشا للاهتمام بالهرمسية. وعلى نحو ما ذكر المؤرخ كريستوفر هل "كان ما نشر في ذلك العقد من كتب الكيمياء الباطنية على منهج باراكيلسوس* يزيد على ما نشر في هذا الباب في القرن السابق بأكمله(١٣). ومن أجل التصدي لما أنعقد بين الكنيسة والمؤسسة الأكاديمية من صلة، تحالفت الهرمسية الإنجليزية مع الراديكالية السياسية والدينية(١٤).

بيد أنه بعودة الملكية في عام ١٦٦٠، غلب التيار المضاد للثورة كثيرا من المفكرين حيث اضطروا إلى التراجع عن نزعتهم الراديكالية. والأكثر أهمية من ذلك أن الملك، بتبصُّر حاذق منه، إحتوى تيار العلم بأن أصبح راعيا للجمعية الملكية مثلما كان هو رئيساً للكنيسة ومع ذلك فإن ما كان قد أختمر من أفكار الهرمسية إبان فترة قيام الكومنولث قد أوجد حافزاً قويا لصنوف لاحقة من التقدم في مجالات من العلم ذات أهمية. ذلك أن الهرمسية – وقد صار هناك عندئذ ميل إلى ربطها على نحو خاصة بمذهب الحقبة الألفية millenarianism الذي نما في انجلترا إبان القرن السابع عشر* – قد ركزت على الحاجة إلى أن تستكمل أسباب المعرفة أو تُسترجع برمتها،

• باراكيلسوس (راجع أعلاه) طبيب وكيميائي ألماني (١٤٩٣–١٥٤١). مارس مهنته بمنهج ثيوصوفي، وقد جال في عدة بلاد أوروبية محققا قدرا من النجاح في شفاء حالات مرضية عن هذا الطريق. (المترجم).

• فكرة الحقبة الألفية مذهب عند البعض يعتمد على نص ورد في الكتاب المقدس مؤداه أن المسيح يُبعث قبل ألف سنة من يوم الحساب (إما بجسده أو بقوة تعاليمه في قلوب المؤمنين، على خلاف بين أصحاب المذهب) حيث تكون له عندئذ السيادة على العالم. (المترجم).

باعتبار أن هذا متطلب ضرورى لحلول الحقبة الألفية الجديدة[١٥].

وفى هذا المناخ من الهرمسية والاعتقاد فى مذهب الحقبة الألفية ظهر أفلاطونيو كيمبردج الذين التفوا حول هنرى مور Henry More ورالف جدورث Gudworth.[١٦] وقد كانت هذه الجماعة التى إزدهرت من عقد الستينيات إلى عقد الثمانينيات من القرن تعلم كل شئ عن نقد كازوبون كما ذكرنا آنفا، لكنها ظلت تؤكد على قيمة النصوص الهرمسية لأنها تتضمن مبادئ من الحكمة الأصيلة. وحيث أن هؤلاء لم يروا ثمة داع إلى أن يعزى ما فى الهرمسية من مظاهر أفلاطونية إلى بلاد اليونان، فإن دور اليونان قد تحدد عندهم أساساً فى أنهم كانوا نقلة للحكمة القديمة بصورة جزئية، أو كما كتب مور يقول:

> "إن مدرسة أفلاطون ... لتتفق وفيثاغورس العليم وتوت المصرى البالغ العظمة... والصحائف البالغة القدم لحكمة الكلدان، وكلها أمور أبلاها الزمان، لكن أفلاطون وأفلوطين حفظاها للأيام[١٧].

وأشهر من نعرف من تلاميذ أفلاطونيى كيمبردج هو اسحاق نيوتن، وإن كان الجدل لا يزال محتدما حول الحد الذى يمكن عنده اعتباره هرمسيا[١٨]. لكن ليس ثمة شك فى أن "كشف اسحاق كازوبون لم يخترق تفكيره" على حد تعبير المؤرخ المثقف الحديث فرانك مانويل Frank Manuel[١٩].

وفضلا عن ذلك، فسواء قبل نيوتن وجود لاهوت هرمسى أصيل أم لم يقبل، فإن من المؤكد أنه كان يعتقد فى حكمة مصرية أصيلة يتعين عليه أن يسترجعها. وعلى سبيل المثال كان من الأمور الأساسية فى نظرية نيوتن عن الجاذبية أن يكون لديه قياس صحيح لمحيط العالم. وعلى قدر ما كان يعلم، لم يكن هناك قياس حديث دقيق لدرجة من درجات العرض، ومن ثم لم يكن أمامه سوى الإعتماد على الأرقام الذى ذكرها عالم الرياضيات والفلك الهلنستى إراتوستينيس Eratosthenes ومن تابعوه من بعد، وهى أرقام لم تكن ملائمة لنظرية نيوتن، لذلك كان افتراضه التالى أن إراتوستنيس بالرغم من أنه

عاش فى مصر ، قد أخفق فى الإحتفاظ بالمقاييس القديمة على نحو دقيق، ولذلك كان نيوتن محتاجا إلى استرجاع الطول المضبوط للذراع المصرى الأصلى الذى كان يستطيع أن يحسب منه طول الإستاديون (اليونانى) الذى كانت له علاقة بالدرجة الجغرافية وفقا للكتاب الكلاسيكيين.

وفى وقت أقدم من القرن السابع عشر كان كل من بوراتينى Burattini، وهو إيطالى كان يعمل لحساب كيرشر، وجون جريفز John Greaves، وهو باحث إنجليزى شغل باهتمامات مماثلة، كانا قد قضيا سنوات يحاولان الوصول إلى قياسات دقيقة للهرم الأكبر (وكان يُعتقد منذ أزمنة قديمة – وهو صواب فيما يحتمل – أن هندسة الهرم تنتظم وحدات متناسبة دقيقة من الطول والمساحة والحجم وكذلك على نسب هندسية مثل البى π والوسط الذهبى فى ϕ). وعندما عاد جريفز إلى إنجلترا قام بنشر اكتشافاته كاملة وعُين أستاذا للفلك فى اكسفورد. وقد استخدم نيوتن مقاييس جريفز ليستدل على أن الهرم قد بنى على قاعدة الذراعين. وكان أحد هذه المقاييس أقرب كثيرا إلى تلك التى يحتاجها نيوتن من تلك الأرقام التى ذكرها اليونان، والتى ظلت لا تلائم نظريته. ويمكن أن يكون السبب فى ذلك أن قياسات جريفز وبوراتينى لقاعدة الهرم لم تكن دقيقة لأنهما لم يكونا قادرين على اختراق الردم المتراكم حوله. والحق أن نيوتن لم يستطع أن يثبت نظريته العامة فى الجاذبية إلا فى عام ١٦٧١ عندما قام الفرنسى بيكار Picard بقياس درجة من درجات العرض فى شمال فرنسا قياسا دقيقا[٢٠].

وليست مسألة هذه المقاييس إلا مثالا واحدا لإيمان نيوتن "بالحكمة الأصيلة" لمصر القديمة، فقد كان مقتنعا كذلك بأن نظرية الذرة ونظرية مركزية الشمس والجاذبية كانت معروفة هناك[٢١]. ففى نشرة مبكرة من كتابه بعنوان المبادئ الرياضية Principia Mathematica كتب يقول:

لقد كان الرأى الأقدم عند أولئك الذين شغلوا أنفسهم بالفلسفة أن

النجوم المرصودة تقف فى الأجزاء العليا من العالم دون حركة، وأن الكواكب من تحتها تدور حول الشمس. وأن الأرض باعتبارها واحدا من هذه الكواكب تتخذ مدّارا سنويا حول الشمس... وقد كان المصريون هم أقدم من راقبوا السماء، وعنهم انتشرت هذه الفلسفة إلى العالم فيما يحتمل. ذلك أن اليونان، وهم شعب أكثر إستغراقا فى دراسة الفيلولوجيا منه فى دراسة الطبيعة، قد أخذوا من المصريين ومن الأمم المحيطة بهم أول أفكارهم عن الفلسفة وأقومها كذلك. وفى احتفالات فستا **Vesta** نستطيع أن نتبين روح المصريين الذين أخفوا الأسرار التى تعلو فوق استيعاب العوام تحت قناع من الطقوس الدينية والرموز الهيروغليفية[٢٢].

والمهم فى هذه الفقرة أن فيها إجمالاً للآراء التقليدية التى وجدت فى القرن السابع عشر عن أمور تهمنا هنا. فنيوتن يعرب بشكل واضح عن إعجابه واحترامه للمصريين القدماء بوصفهم أعظم العلماء والفلاسفة. وفى ضوء هذه المواقف الباكرة منه، تعجب إذ نراه ينفق السنوات الأخيرة من حياته فى محاولة الدفاع عن الرأى الذى طرحه فى رسالة له بعنوان "تعديل التوقيت الزمنى للممالك القديمة"، والذى يقول فيه إن الحضارة المصرية قامت قبل وقوع حرب طروادة مباشرة، وأن سيزوستريس العظيم ليس إلا شيشنق المذكور فى الكتاب المقدس والذى غزا أرض اليهودية **Judaea** بعد زمن سليمان. فوجهة نظر نيوتن أن يُحتسب المصريون ضمن شعوب جاءت فى وقت متأخر نسبيا، جاعلاً منهم أمة دون المأثورات القديمة فى الكتاب المقدس. غير أن نيوتن كان مهتما بالتأكيد على أسبقية إسرائيل دون أن تكون لديه الرغبة فى إنكار أن مصر هى منبع الحضارة اليونانية، ومن ثم فإن وضعه مصر فى تاريخ متأخر قد دفعه إلى أن يُعدِّل كل التوقيتات الزمنية الخاصة باليونان بحيث أبقاهم عند تاريخ متأخر عن المصريين[٢٣]. وسأوضح فى الفصل القادم أن النظرة إلى هذه المحاولة تكون أقوم لو رأيناها على أنها جزء من رد فعل المسيحيين والفضلاء من القائلين بالربوبية **deists**

أمثـال نيوتـن ضـد مآسمتـه المؤرخـة المثقفـة المعـاصرة مرجريـت جيكوبـس Margaret Jacobs "بـالتنوير الراديكـالى".

لكـن قبـل أن نـأتى إلى هـذا التنويـر الراديكـالى وحركـة الإصـلاح عنـد الماسـونيين الأحرار، قـد يبـدو مفيـدا أن ننظر فـى المعتقـدات التى سادت فـى المرحلـة الأخـيرة من عصـر النهضـة عـن أهميـة الفينيقيـين، وهـم الذيـن كـانوا مـن الأهميـة بمكـان فـى الأسـطورة الماسـونية، لأن حـيرام، نصـف الفينيقـى، هـو الـذى شـيد هيكـل أورشـليم الـذى يرمـز إلى العـالم والـذى كـان قلـب العقيـدة والطقـوس الماسـونية. وعلينـا أن نتذكـر أنـه فـى حـين ظلـت اللغـة المصريـة سـرا مسـتغلقا داخـل حروفهـا الهيروغليفيـة، كـان مـا أعقـب حركـة الأصـلاح الدينـى سـريعاً مـن زخـم فـى الدراسـات المسـيحية حـول اللغـة العبريـة قـد أدى إلى معرفـة أن العبريـة والفينيقيـة كانتـا كلتاهمـا لهجتـين انحدرتـا مـن ذات اللغـة[٢٤]، وكـان لـدى الدارسـين مـن ثـم فكـرة واضحـة نسـبيا عـن اللغـة الفينيقيـة قبـل أن يقـرأ الأب بـارتلمى Abbé Barthélemy أبجديتهـا فـى منتصـف القـرن الثـامن عشـر بزمـان طويـل.

وبـالطبع كـان المُعتقـد بـه عمومـا أن العبريـة كـانت اللغـة الأصيلـة للبشـر؛ لغـة الحديث عنـد آدم وفـى بـرج بـابل – ولذلـك كـان هناك بحث مكثـف عـن الكلمـات العبريـة فـى اللغـات الأخرى وبخاصـة اللغـات الأوروبيـة، وهـو بحـث لقـى شـيئا مـن التشـجيع مـن جـانب مـايمكن أن يعتـبره أكـثر البـاحثين اليـوم وقـوع توافقـات بالمصادفـة بـين الكلمـات يجـدر النظـر فيهـا. والحـق أن بعـض هـذه التوافقـات يمكـن أن تكـون وليـدة المصادفـة المحضـة فعـلا، لكننـى أعتقـد، كمـا ذكـرت فـى المقدمـة، أن البعـض الآخـر منهـا هـو نتيجـة العلاقـة العضويـة بـين اللغـات الأفـرو أسـيوية واللغـات الهنديـة–الأوروبيـة، فـى حـين جـاءت توافقـات منهـا نتيجـة اسـتعارة اللغـات اليونانيـة والأترووسـكية واللاتينيـة لكلمـات مـن الفينيقيـة أو الكنعانيـة[٢٥].

وقـد كـان يُنظـر إلى الفينيقيـين علـى أنهـم قنـاة إتصـال مـرت إلى أوروبـا مـن خلالهـا اللغـة العبريـة وغيرهـا مـن اللغـات والثقافـات التـى نطلـق عليهـا الآن اسـم السـامية. وعلـى

سبيل المثال استخدم جان بودان Bodin، وهو مُنَظِّر سياسى من القرن السادس عشر، استخدم دليلا لغويا ليؤكد زعماً له بأن كل الحضارة وكل اللغة قد انتشرت من الكلدانية إلى الخارج، واعتبر غزوتى دناؤس وكادموس خطوتين أساسيتين فى تلك العملية، وأكد أن مصدر اليونان جميعاً هو من آسيا ومصر وفينيقيا(٢٦). ولكن بالرغم من أن بودان ظل مفكرا سياسيا يحظى بالاحترام، فإن نظريته ونظريات مشابهة لم تلبث أن فنّدتها دراسات باحثين فى مطلع القرن السابع عشر من أمثال جوزيف سكاليجر J.Scaliger وكازوبون، ومن قِبَل رجال لم يتأملوا فى أمور تتصل باللغة العبرية، وإنما ظلوا محصورين داخل نطاق الدراسات الكلاسيكية حتى فى الوقت الحاضر. غير أن باحثا من الهيجونوت Huguenot هو صمويل بوشار Bochart، وهو باحث على ذات القدر من العلم ومن الحذر، لم يكن فى زمرة هؤلاء. فقد شغل فى الأربعينيات من القرن بتحقيق أسماء أماكن يمكن قبولها على أنها أسماء سامية، وقد ظلت باقية فى حدود منطقة البحر المتوسط دون أن تغلبها أو تحل محلها أسماء أخرى. وكان بوشار يجرى فى عمله هذا على أساس الافتراض الصحيح بأن العبرية والفينيقية كانتا فى الأساس لغة واحدة، فأجرى عن الكلمات الكنعانية الدخيلة فى اللغتين اليونانية واللاتينية بحثا جادا لم يتوقف استخدامه مرجعاً عُمدة إلا فى العشرينيات من القرن التاسع عشر(٢٧).

مصر القديمة فى القرن الثامن عشر

ويُعد نيوتن شخصية محورية؛ فإذا كان قد نجم هو عن عالم من التنجيم والكيمياء والسحر، فقد خلف وراءه عالما لم تعد فيه هذه الأمور تحظى بالإحترام. ويعكس هذا التغيير بالطبع التحول الإقتصادى والإجتماعى والسياسى الذى وقع فى القرن السابع عشر، إلى جانب إنتصار الرأسمالية فى إنجلترا وهولندا، وانتصار مبدأ تركيز التخطيط والسلطة الإقتصادية فى يد الدولة statism فى فرنسا. وفى هذا العالم الجديد لم يكن هناك مكان للهرمسية، فى صورتها القديمة على الأقل. لكن ذلك لم يكن يعنى حدوث نقص فى الحماس لمصر القديمة، بل لقد ارتفع هذا الحماس فى فترة الأعوام المائة مابين عام ١٦٨٠ وعام ١٧٨٠. فأشهر رواية فى مطلع فترة القرن هذه مثلاً، وهى رواية

"تليماك" لفينيلون التى نشرت لأول مرة فى عام ١٦٩٩ تدور حول بطلها الأمير اليونانى تليماخوس بن أوديسيوس، لكنها حافلة بالملاحظات المشوبة بالغيرة والعداء إزاء عِظَم ثروة المصريين المادية وسمو حكمتهم وفلسفتهم وعدالتهم، وتجرى المقارنة فيها على وجه الخصوص بين هذا كله وبين وضع اليونان المتدنى، بالرغم من أن الفرعون سيزوستريس قربهم إليه وأنعم عليهم بالقوانين(٢٨).

وكان منتصف القرن الثامن عشر نقطة إرتفاع الهيام بمصر إلى قمة عالية. ويعبر كاتب فرنسى. من عام ١٧٤٠ عن ذلك على النحو التالى:

إن الأشياء الوحيدة التى يجرى الحديث عنها هى مدينتنا طيبة ومنف والصحراء الليبية وكهوف إقليم طيبة. وكان نهر النيل مألوفا عند كثير من الناس إلفهُم لنهر السين. وحتى الأطفال كانت تهدر فى مسامعهم أصوات شلالات النيل ومصباته(٢٩).

والمفترض هو أن هذا الكاتب يمثل جزءا من حركة رد الفعل ضد مصر (أنظر الفصل الرابع). بيد أنه حتى أولئك الكتّاب الذين ينتمون إلى تلك الفترة، والذين كان يُحتفل بهم فى القرنين التاسع عشر والعشرين على أنهم طلائع فكرة مركزية أوروبا، كانوا يظهرون آية الأعجاب بمصر. فالعالم جيوفانى باتيستا فيكو Giovanni Battista Vico الذى ازدهر فى نابلى فى القرن الثامن عشر، والذى أصبح بطلا بين الدارسين فى القرن التاسع عشر بفضل رؤيته الرومانسية والتاريخية وكذا اعتناقه فكرة المركزية الأوروبية. قد كان معاديا للمصريين من وجوه شتى. وبوصفه كاثوليكيا تقيا، استبعد فيكو اليهود بشكل حاسم من نطاق التاريخ الوثنى وأرجع تاريخهم إلى زمن الخليفة، ولم ينظر إلى المصريين إلا على أنهم شعب من أقدم شعوب مابعد الطوفان. ومع ذلك فقد كان للمصريين دورهم البالغ الأهمية فى تفكيره. وهو يقرر أن مشروعه لتقسيم تاريخ العالم إلى ثلاثة عصور مبنى على التاريخ المصرى كما رواه هيرودوتوس، وهى مرحلة الآلهة فمرحلة الأبطال ثم مرحلة البشر. وقد رأى فى هذه المراحل مايقابل فى اللغة ثلاثة أنماط من الكتابة هى "الهيروغليفية" و "الرمزية"

و "الرسائلية" epistolary. وقد ناقش فيكو أسطورة كادموس وقبلها وعقد الصلة بينها وبين مصر(٣٠). كذلك إضطر مونتسكيو إلى التسليم بأن المصريين كانوا أحسن فلاسفة العالم (٣١).

وقد توحى العبارة الفرنسية المقتبسة أعلاه أن الإتجاه السائد فى الرأى العصرى آنذاك كان إتجاها متحمسا لمصر بصورة جلية واضحة. وعلى سبيل المثال فإن واحدا من أشهر كتاب المسرحية الإنجليز فى منتصف القرن الثامن عشر وهو أدوارد يونج قد كتب سلسلة من المسرحيات عن مصر، وهى مسرحيات لقيت من الاهتمام فى القرنين التاليين أقل القليل، وهو أمر ليس بمستغرب. وفى عام ١٧٥٢ عبر إدوارد جيبون عن حماسه لمصر – بكتابة مقال تاريخى عن سيزوستريس، وكان جيبون عندئذ فى الخامسة عشرة من عمره(٣٢).

وهذا الرأى الأثير، إلى جانب استمرار الاعتقاد بأن الثقافة اليونانية جاءت من مصر وفينيقيا، قد تمت ترجمته إلى دراسات بعيدة عن الباطنية. ففى عام ١٧٦٣ قدم الأب بارتلمى، مكتشف الكتابة التدمرية والفينيقية بحثا عنوانه "تأملات عامة عن العلاقة بين اللغات المصرية والفينيقية واليونانية". وكان افتراضه الصحيح الأول فى هذا البحث أن القبطية كانت صورة من المصرية القديمة، وقد كان يستند فى هذا إلى كيرشر، وإن كان قد عد كتابه الآخر كتابا خياليا. وقد تعرف بارتلمى على عائلة اللغات التى عرفت فيما بعد باسم عائلة اللغات السامية، وقد دعاها هو "بالفينيقية". وعلى أساس من هاتين القاعدتين أقام الأب بارتلمى دعواه بأن للغة المصرية صلة بعائلة اللغات السامية وان لم تكن هى نفسها لغة سامية. وصحيح أن شواهد بارتلمى المعجمية يمكن أن يُنظر إليها الآن على أنها خاطئة باعتبار أن بعض الكلمات القبطية أخذت عن كلمات سامية دخيلة تسربت إلى اللغة المصرية فى مرحلتها الأخيرة، غير أنه لا يمكن إنتقاد الأسس العامة التى بنى عليها أدلته المعتمدة على المشابهات فى الضمائر وفى الخصائص الأجرومية. وبهذا المعنى إذن كان بارتلمى طليعة لما يمكن أن نسميه الآن الدراسات

الأفرو-أسيوية.

وقد اعترف بارتلمى أنه لا يستطيع أن يتبين مقابلات أجرومية بين اللغتين القبطية واليونانية لكنه كان يعتقد أن المصريين استوطنوا بلاد اليونان وأثروا فيها حضاريا، وأكد أنه "من غير الممكن ألا تكون اللغة المصرية قد أسهمت فى تكوين اللغة اليونانية فى ظل هذا التبادل للبضائع والأفكار"(٣٣) وقد أورد بارتلمى من ثم قائمة بما فى اللغة اليونانية من اشتقاقات من القبطية. وقد يبدو بعض هذه الإشتقاقات مقبولا اليوم، مثل هوف hof القبطية، وهى hf الديموطيقية التى صارت أوفيس Ophis فى اليونانية بمعنى ثعبان أو أفعى(٣٤).

ولم يكن اللغويون وحدهم هم الذين أقروا من الدارسين بأسبقية مصر وتأثيرها الأساسى، فكتاب الأب بانييه Abbé Banier، وهو الكتاب العمدة فى الميثولوجيا القديمة إبان القرن الثامن عشر، واصل الروايات المأثورة فى العصور الكلاسيكية وعصر النهضة فيما يتعلق باقتباس الآلهة اليونانية والرومانية عن آلهة المصريين(٣٥). وعند نهاية القرن حاول جيكوب بريانت Bryant أن يواصل عمل بوشار، لكنه أوضح أن السبب فى أن الأخير لم يحقق نجاحا كاملا فى عمله هو أنه لم يفطن إلى العنصر المصرى الذى أسهم فى تكوين الميثولوجيا واللغة عند اليونان والرومان(٣٦). وقد حاول بريانت أن يشرح أصولها تلك على اساس أنها من ثقافة "آمونية" تضم عناصر مصرية وعناصر فينيقية. وبالرغم من الجوانب الخيالية فى هذا العمل، فإننى أعتقد أن مقاربته للموضوع هى فى أساسها المقاربة الصحيحة، إنما كان إخفاقه راجعا إلى أن أسرار اللغة المصرية لم تكن قد عُرفت بعد، ولأنه لم يستخدم فى دراسته اللغة القبطية. وعلى أى حال فبان كتابه الذى نشر فى عام ١٧٧٤ بعنوان "النظام الجديد: تحليل للميثولوجيا القديمة" كان يلقى أعظم التقدير فى أواخر القرن الثامن عشر، وكان مصدر إلهام لكثير من الشعراء

الرومانسيين، وعلى رأسهم جميعا بليك* Blake[٣٧].

وسادت هذه الآراء نفسها فى محل تاريخ الفلسفة. وقد سبق أن ذكرت أن من القائلين بمركزية أوروبا مثل مونتسكيو من رأى فى المصريين أعظم الفلاسفة. وحتى جيكوب بروكر Jacob Brucker الذى كان كتابه الضخم عن تاريخ الفلسفة هجوما قويا على أفلاطون وعلى معلميه المصريين لقصرهم المعرفة على أنفسهم ولازدواجية الحقيقة عندهم، لم يستطع أن يجرد المصريين من لقب "الفلاسفة"[٣٨].

القرن الثامن عشر: الصين وأصحاب المذهب الفيزيوقراطى

عند نهاية القرن السابع عشر كان هناك تيار عارم من الثقة الأوروبية فى النفس. ذلك أن النمسا سرعان ما استردت بلغاريا عقب هزيمة البولنديين للترك عند أبواب فيينا فى عام ١٦٣٨. ومع تقدم الروس صوب البحر الأسود زال التهديد التركى لأوروبا. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أخذ الأوربيون فى التقدم ضد الأسيويين برا وبحرا على السواء. وفى ظل هذا الأمان استشعر قادة حركة التنوير آنذاك الحرية فى إظهار ميلهم إلى ثقافات غير أوروبية، تعبيرا عن رد الفعل من جانبهم ضد الإقطاع والمسيحية التقليدية. وحتى ذلك الحين كانت مصر والصين هما النموذجين المفضلين لديهم، وكان ينظر إليهما على أن كلا منهما تشابه الأخرى كثيراً حتى وإن لم توجد بينهما صلة مباشرة. وما كانت أوروبا لتنظر إلى هاتين الحضارتين على أنهما مجرد يوتوبيات تضفى عليها صبغة عامة مائعة من النبالة تستخدم نماذج للتهكم على أوروبا وانتقاد أوضاعها، مثلما كان الشأن مع تركيا وفارس وأرض الهورون.** إنما كان لمصر والصين أهمية أعظم من هذا بكثير، لأنهما كانتا تقدمان نماذج إيجابية لحضارات أسمى وأرقى،[٣٩]

---

* الشاعر والفنان الإنجليزى وليم بليك (١٧٥٧-١٨٢٧) الذى قدم رؤيته للأساطير والدين من خلال عدة دواوين شعرية منها كتب الأنبياء، وقد قام رسم اللوحات التصويرية لكل دواوينه إلا واحدا. (المترجم).

** الهورون قبائل من الهنود الحمر سكنت منطقة البحيرات العظمى بأمريكا الشمالية، وقام بين أراضيها حلف ذو طابع خاص. ودخل حلفها هذا فى علاقات ودية مع فرنسا. (المترجم).

حضارات ذات منجزات مادية كبرى وفلسفات عميقة، كما كان لكل منهما نظام كتابة فائق.

بيد أن أهم ماكان يجتذب النظر فى مصر والصين من ملامح، هو نموذجهما فى نظم الإدارة حيث كان الرأى أنها نظم يقوم على تنفيذها على نحو عقلانى ودونما دجل غيبى، رجال يجرى اختيارهم من أجل فضائلهم وحكمتهم، ويتطلب فيهم أن يخضعوا لتدريبات قاسية ليحصلوا معرفة عميقة. وكان الفرنسى العلمانى من جماعة الفيزيوقراط يشعر بقربه الشديد من قرينه الصينى، وكان يحلو لهذه الجماعة أن ترى فى لويس الخامس عشر امبراطورا صينيا وأن يروا فى أنفسهم الطبقة المتأدبة المثقفة liberati. وتحت رعاية هؤلاء، مارست الصين تأثيرا ثقافيا خطيرا على فرنسا، حتى أن كثيرا من الإصلاحات السياسية والإقتصادية التى صدرت فى منتصف القرن الثامن عشر سعيا نحو المركزية ومن أجل الترشيد، إن لم يكن أكثرها، قد جاء متابعاً لنماذج صينية(٤٠).

القرن الثامن عشر: إنجلترا ومصر والماسونيون الأحرار

وفى حين تطلع الفيريوقراطيون إلى الصين، مال الماسونيون ذوو النزعة الصوفية الأكبر من ناحية أخرى إلى المصريين. وكان هؤلاء يضمون أكثر الرموز الكبرى فى حركة التنوير. ويكتنف تاريخ الماسونية كله غموض يتضاعف بالنسبة إلى تاريخها قبل إعادة تنظيم الطائفة فى بواكير القرن الثامن عشر، إذ يجرى تجميعه آنذاك من كتابات متأخرة زمنيا كان قد جرى تشويهها عمدا لخلق سياق تطورى ذى طابع أسطورى. غير أن هناك قدرا بعينه يمكن الإتفاق عليه، وهو أن الماسونيين الأحرار كانوا فى الأصل جماعات سرية من "البنائين" الذين اشتغلوا بتشييد الكاتدرائيات وغيرها من الأبنية الفارهة فى أوروبا فى العصور الوسطى، وقد تلاشوا من أكثر أجزاء القارة الأوروبية بعد حركة الإصلاح الدينى والحروب الدينية، لكنهم بقوا فى بريطانيا، وإن اتخذوا فيها طابعاً مختلفا للغاية بدخول السادة النبلاء "الجنتلمان" فى عضوية الجماعة وبداية ما أصبح يعرف "بالماسونية التأملية"(٤١). غير أنه حتى قبل أن يقع هذا التغيير فى أواخر

القرن السابع عشر، كان للماسونيين الأحرار علاقة خاصة بمصر.

وهناك كتاب بعنوان Originum Sive Etymologiarum كتبه المؤرخ والكاتب الموسوعي إيزودور Isidore الأشبيلي في العشرينيات من القرن السابع عشر ويتضمن ماقرره هيرودوتوس وديودوروس من أن المصريين هم الذين ابتكروا الهندسة من أجل استخدامها في قياس مساحات الأرض بعد إختفاء العلامات المحددة لها بفعل فيضان نهر النيل. ولم تكن الهندسة بالنسبة إلى إيزيدور إلا واحدة من الفنون السبعة، لكنها كانت بالنسبة إلى الماسونيين ذات أهمية قصوى، إذ أنها كانت تعادل الماسونية نفسها(٤٢). وقد أشارت بعض المخطوطات الماسونية من العصر الوسيط في هذا الخصوص إلى أن إقليدس شيد في مصر صروحا لفراعنتها(٤٣). وقبل أن نبادر لنبذ هذه القصة الطريفة جانبا، علينا أن نتذكر أن إقليدس قضى كل حياته في مصر فيما يبدو(٤٤).

وفي صميم الأساطير الماسونية كان هناك الفينيقيون الذين عقد الكتاب المقدس بينهم وبين المصريين علاقة وثيقة إذ عد كلا منهم من أبناء حام. ويحتمل أن حيرام أبيف مشيد هيكل سليمان، وهو نصف فينيقي، يحتمل أن يكون جزءاً من أسطورة ماسونية وجدت في القرن السادس عشر(٤٥). وإزاء ماكان مفترضا من أن الرجل قُتل بعد إتمامه بناء الهيكل، فمن المؤكد أنه في الوقت الذى أعيد فيه إنشاء الطائفة في بداية القرن الثامن عشر كان حيرام قد أصبح رمزا رئيسا من طراز الإله أوزوريس.

وقد سبق أن ذكرت أن فرنسيس ييتس ترى أن ثمة علاقة بين هرامسة عصر النهضة وجماعة الروزيكروسية في القرن السابع عشر، وذلك من خلال شخص برونو، وهي ترى كذلك أن ثمة علاقة بين هؤلاء الروزيكروسية والماسونيين الأحرار من خلال شخص إلياس أشمول Elias Ashmole مؤسس المتحف الأشمولي في أكسفورد، فهو قد التمس أن ينضم إلى الروزيكروسية، كما نعرف أنه قد جرى تدريبه ليكون ماسونا(٤٦). وتمضي فرانسيس ييتس إلى أبعد من هذا في إظهار أوجه الشبه الأساسية

بين الروزيكروسية والماسونيين الأحرار من حيث استخدامهم المقاييس والمناسيب فى المبانى، فى هيكل سليمان وفى الهرم الأكبر، رموزاً تشير إلى بنية الكون، ومن حيث رغبتهم فى خلق فئة من الرجال المستنيرين من شأنها أن تقود العالم إلى أسلوب للحياة أفضل وأكثر سلاماً وتسامحا[٤٧]. ومن ناحية أخرى، لم تعقد ييتس صلة ما كتلك التى عقدها بعض الدارسين الذين جاءوا من بعدها بين هذه الأمور ومقولة الدورات الألف سنوية millenarianism التى شاع إنتشارها فى تلك الأوساط ذاتها. وقد أعتقد كثير من القائلين بهذه الدورات أنه يتعين أن تتجمع صنوف المعرفة وتتراكم قبل أن تحل الحقبة الألفية الجديدة millenium،[٤٨] وبناءً على ذلك يمكن أن يكون الدارس العارف بمثابة القابلة التى تولد أخرويات الزمان. وإنه لمن هذه المدارس لما يظهر من أن "الثورة العلمية" الإنجليزية فى أواخر القرن السابع عشر قد تطورت.

وقد زاد اهتمام السادة (الجنتلمان) بالماسونية فى عقدى السبعينيات والثمانينيات. وعلى غرار ماتحدثه عوامل عارضة بعينها من تأثير، مثل الحركة الضخمة من أجل بناء مدينة لندن عقب الحريق الهائل الذى وقع فى عام ١٦٦٦، فإن نمو الماسونية الحرة يعكس تغييرات فى الطبقات العليا من المجتمع المدنى من التجار وملاك الأراضى، وما عاصر هذا النمو من إنتشار المقاهى ومنتديات الرجال، كما يعكس ما يمكن تسميته بالنشاط "السياسى الأدنى" فى خارج أروقة البلاط الملكى فى عصر عودة الملكية Restoration. وفى عهد الملك الكاثوليكى جيمس الثانى، من عام ١٦٨٥ إلى عام ١٦٨٨، وبعد وقوع الثورة الكبرى فى العام التالى، جرى إحياء النزعة الراديكالية التى استعادت ماكان باقيا من توجهات الكومنولث فى الخمسينيات. غير أن ماكان هناك من بيوريتانية (تطهرية) ومن قول فَجٍ بالدورات الألفية فى تلك الفترة التى أطلقت عليها مرجريت جيكوب كما ذكرت اسم حركة التنوير الراديكالية، قد حلت محله أفكار أحدث، من مذاهب تقول "بالربوبية" deism * ووحدة الوجود والإلحاد.

---

* مذهب لا ينكر وجود الله، لكنه ينكر وجود الوحي والأديان. (المترجم).

ولاهوتى قام على أساس حيدة المادة، حيث الحركة فيها تأتيها من خارجها؛ وإلا فإن الكون، من وجهة نظر لاهوتية، ليس فى حاجة إلى خالق أو "مهندس أعظم"، ناهيك عن "عقل زماني"، كذلك فإنه من وجهة نظر سياسية، فإن إنجلترا ليست بالتالى فى حاجة إلى ملك. هذا وقد كان تولاند على وعى تام بما تنطوى عليه آراوه عن أفكار جمهورية(٥٠).

وكان شخص جون تولاند عاملا فعالا فى إنشاء حكايات الماسونية التأملية وطقوسها ولاهوتها وهى أمور جرى تقنين الكثير من أنظمتها باندماج جماعات ماسونية وروزيكروسية مختلفة عام ١٧١٧(٥١). لكنه أضطلع بأمر الحركة فى ذلك الوقت نيوتونيون جديرون بالاعتبار. وحتى الشخصيات التى أنصفت بالجرأة من هؤلاء مثل وليام هويستون William Whiston نائب نيوتن وخليفته فى كيمبردج الذى جهر على الملأ أنه من أتباع أريوس (أو الأريوسية .Arianism)*، وأعلن - على خلاف معلمه - عدم إيمانه بألوهية المسيح، هؤلاء قد أظهروا أزدراءهم لتولاند وأفكاره "وعارضوها معارضة شديدة"(٥٢). غير أن بعض جوانب التنوير الراديكالى ظلت باقية فى الماسونية المتعالية التى احتفظت بالفكرة الأساسية فى عقيدة الصفوة وفقا لما نادت به الفلسفة المزدوجة، وبالشكل الجديد من أفلاطونيتها المحدثة. وقد أتبع عامة الناس بل وأكثر الماسونيين عقيدة متميزة، لكن المراتب العليا من الطائفة تعالت فوق المسيحية وذلك جريا على ما أخذت به تلك الفلسفة المزدوجة.

وبالنسبة إلى الماسونيين، شأنهم شأن الهرامسة، كان اسم "الإله الخفى" من القداسة أو من القوة السحرية بحيث لا يمكن إفشاؤه حتى للمراتب الدنيا من الطائفة. وهذا الإسم هو جابولون Jabulon وهو مؤلف من ثلاثة مقاطع، وليس فى هذا مايثير الدهشة. فأما المقطعان الأول والثانى من الاسم فهما جا Ja ويرمز ليهوه إله اسرائيل،

• النسبة إلى آريوس Arius (٢٥٦-٣٣٦م تقريبا) اللاهوتى المسيحى الليبى القائل بأن الإبن ليس مساويا للأب فى الطبيعة (وبالتالى فى الخلود)، وهو مذهب نادى به فى مدينة الاسكندرية بمصر وأدانه مجمع نيقية Nicaea (الأول) فى عام ٣٢٥م باعتباره هرطقة بفضل أثناسيوس أسقف الاسكندرية. (المراجع).

ولاهوتى قام على أساس حيدة المادة، حيث الحركة فيهـا تأتيهـا مـن خارجهـا؛ وإلا فـإن الكون، من وجهة نظر لاهوتية، ليس فى حاجة إلى خالق أو "مهندس أعظم"، ناهيك عن "عقل زماني"، كذلك فإنه من وجهة نظر سياسية، فإن إنجلترا ليست بالتالى فى حاجة إلى ملك. هذا وقد كان تولاند على وعى تام بما تنطوى عليه آراوه عن أفكار جمهورية(٥٠).

وكان شخص جون تولاند عاملا فعالا فى إنشاء حكايات الماسونية التأملية وطقوسها ولاهوتها وهى أمور جرى تقنين الكثير من أنظمتها باندماج جماعات ماسونية وروزيكروسية مختلفة عام ١٧١٧(٥١). لكنه اضطلع بأمر الحركة فى ذلك الوقت نيوتونيون جديرون بالاعتبار. وحتى الشخصيات التى أنصفت بالجرأة من هؤلاء مثل وليام هويستون William Whiston نائب نيوتن وخليفته فى كيمبردج الذى جهر على الملأ أنه من أتباع أريوس (أو الأريوسية .Arianism)*، وأعلن – على خلاف معلمه – عدم إيمانه بألوهية المسيح، هؤلاء قد أظهروا أزدراءهم لتولاند وأفكاره "وعارضوها معارضة شديدة"(٥٢). غير أن بعض جوانب التنوير الراديكالى ظلت باقية فى الماسونية المتعالية التى احتفظت بالفكرة الأساسية فى عقيدة الصفوة وفقا لما نادت به الفلسفة المزدوجة، وبالشكل الجديد من أفلاطونيتها المحدثة. وقد أتبع عامة الناس بل وأكثر الماسونيين عقيدة متميزة، لكن المراتب العليا من الطائفة تعالت فوق المسيحية وذلك جريا على ما أخذت به تلك الفلسفة المزدوجة.

وبالنسبة إلى الماسونيين، شأنهم شأن الهرامسة، كان اسم "الإله الخفى" من القداسة أو من القوة السحرية بحيث لا يمكن إفشاؤه حتى للمراتب الدنيا من الطائفة. وهذا الإسم هو جابولون Jabulon وهو مؤلف من ثلاثة مقاطع، وليس فى هذا مايثير الدهشة. فأما المقطعان الأول والثانى من الاسم فهما جا Ja ويرمز ليهوه إله اسرائيل،

---

* النسبة إلى آريوس Arius (٢٥٦-٣٣٦م تقريبا) اللاهوتى المسيحى الليبى القائل بأن الإبن ليس مساويا للأب فى الطبيعة (وبالتالى فى الخلود)، وهو مذهب نادى به فى مدينة الاسكندرية بمصر وأدانه مجمع نيقية Nicaea (الأول) فى عام ٣٢٥م باعتباره هرطقة بفضل أثناسيوس أسقف الاسكندرية. (المراجع).

وبـون bul ويرمـز للإلـه بعـل الكنعـانى[٥٣]. وأمـا المقطـع الأخـير أون on فهـو الاسـم العبرانى لمدينـة أون المصريـة التى عرفـت فـى اليونانيـة باسـم هليوبوليـس، وهـى الآن ضاحيـه مـن ضواحـى القـاهرة. ووفقـا لمـا ذكـره الكتـابّ الكلاسـيكيون، كـانت هليوبوليـس مركـزا عظيمـا للعلـم، وفيـه درس يودوكسـوس علـى سـبيل المثـال[٥٤]. وهكـذا كـان الإسـم بالنسـبة إلى الماسـونيين بهـذه المثابـة جُماعـا للحكمـة القديمـة المصطفـاة[٥٥]. والأمـر الأكـثر مـن ذلـك أهميـة أن المدينـة كـانت مركـزا عظيمـا لعبـادة الشـمس، حيـث أقـترنت علـى وجـه الخصـوص بالإله رع الذى كـان قـد اتحـد مـع الإلـه أوزوريـس فـى زمـن الأسـرة الثامنـة عشـرة كمـا سـبق أن ذكرنـا فـى صفحـة ١١٥. وتشـير النصـوص الهرمسـية مـرارا إلى المدينـة الكاملـة الصفـات التـى أسسـها هرمـس المثلـث العظمـة والتـى ترتبـط إرتباطـا وثيقـاً بالشـمس. وقـد اسـتخدم برونـو مصطلـح مدينـة الشـمس Città del Sole، وهـو مصطلـح غُـرف علـى نحـو أفضـل فـى اليوتوبيـا (المدينـة المثلـى) التـى كتبهـا معـاصره كمبـانيلا[٥٦].

ومدينـة كامبـانيلا هـذه يعمرهـا أنـاس شمسـيون أنقيـاء أتقيـاء، يرتـدون الملابـس البيضـاء، وتبـدو هويتهـم المصريـة فـى وضـوح وجـلاء. وتؤلـف أبنيـة المدينـة نموذجـا أمثـل للكـون، أو لنظـام للكواكـب السـيارة المركزيـة فيـه للشـمس[٥٧]. وعلينـا أن نتذكـر هنـا أن الأيديولوجيـا الماسـونية قـامت حـول فكـرة أبنيـة مقدسـة ترمـز إلى العـالم. وفـى مدينـة الشـمس هـذه، يلقـى موسـى وعيـس ومحمـد التبجيـل والإحـترام بصفتهـم كهانـا سـحرة، لكـن الـذى يحكمهـا هـو هرمـس المثلـث العظمـة بوصفـه كاهنـا للشـمس وحكيمـا فيلسـوفا وملكـا مُشـرّعاً[٥٨]. وعلـى ذلـك يكـون إدعـاء الماسـونيين بـأن رواياتهـم المـأثورة مسـتقاة مـن مصـر إدعـاءً لـه فـى حقيقـة الأمـر أسـاس. ويسـتطيع المـرء مـن خـلال النصـوص الهرمسـية وبرونـو وكامبـانيلا وجـون تولانـد وصحبـه أن يتتبـع خطـاً واصـلا بـين المقطـع الأخـير مـن أسـم إلههـم الذى لا ينطق بـه لبـالغ قداسته، وبـين أون مركـز عقيـدة رع فـي مصـر الدنيـا.

علـى أن ارتقـاء سـر جـابولون مـن اليهوديـة – المسـيحية ومـن الكنعانيـة – الفينيقيـة ومـن الطقـوس المصريـة الأوزيريـة التـى جُعلـت للمراتـب العليـا لا يعنـى أن الوضـع المركـزى

لمصر كان خافيا لدى الماسونيين الأحرار. ذلك أن الهياكل الماسونية كثيراً ما كانت تبنى على طراز مصرى، إبرازا لما كان ينبغى أن ينظر به إلى "المحافل" على أنها معابد مصرية. ومن المعلوم طبعا أن للعمارة أهمية بالغة بالنسبة للطائفة. ورموز هذه المحافل هى مفهوم القرن الثامن عشر لهذه الحروف الهيروغليفية المجردة الخالصة (وبعضها، مثل رمزى الهرم والعين، لا يزال يُرى فى خاتم الولايات المتحدة الرسمى وعلى ورقة الدولار النقدية). وهكذا فليس هناك من شك فى أن الماسونيين قد رأوا فى أنفسهم خلفاء "حراس المدينة" عند أفلاطون ولمن اتخذهم هؤلاء أنموذجا لهم، وأعنى الكهنة المصريين.

وإذا كان الحافز على التشبه بمصر وبعض رموزها الدينية قد نشأ عن مأثورات قديمة، فقد جاءت المعرفة العامة بها إلى الماسونيين الأحرار فى القرن الثامن عشر من دراسات معاصرة لهم. لكن قبل أن نبحث هذه المصادر الجديدة للمعرفة، أود أن أنظر فى التطورات الفكرية فى هذا المجال فى فرنسا.

فرنسا ومصر و "التقدم"

الخلاف بين أنصار القديم وأنصار الحديث

وجدت فكرة التقدم فى أوروبا منذ القرن السادس عشر، عندما بدأ الناس يتبينون أنهم أصبحوا يملكون من المخترعات والمنتوجات ما لم يملكه القدماء، مثل السكر والورق والطباعة وطواحين الهواء والبوصلة والبارود وما إلى ذلك، وكلها مدخلات مصدرها من آسيا. لكنه فى سنوات الحروب الدينية المدمرة التى دامت من عام ١٥٦٠ إلى عام ١٦٦٠ كان من العسير أن يلقى مثل هذا الرأى ذيوعا أو حتى أن يضرب فى الأرض بجذوره. بيد أن فترة القرن الواقعة بين عامى ١٦٧٠ و ١٧٧٠ كانت فترة توسع اقتصادى عظيم وتطور علمى وتقنى، وتركيز متزايد للسلطة السياسية. وكان الكاتب المحبوب بيرو Perrault و"المحدثون" فى فرنسا* لايشعرون بمجرد الغبطة

• يمثل الشاعر الفرنسى شارل بيرو (١٦٢٨-١٧٠٣) وأضرابه من "المحدثين" (أنصار الحديث) تياراً معارضا لفريق آخر من الأدباء الفرنسيين المناصرين للقديم يتزعمهم نيكول بوالو N.Boileau فيما عرف فى تاريخ

والسعادة عندما كانوا يقارنون عصر لويس الرابع عشر بعصر أوغسطس، وإنما اعتبروا روعة أيامهم وفضائل زمانهم أعظم مما كان لدى القدماء، وبخاصة فى أيام أولئك الأبطال الهرمريين المتوحشين(٥٩).

ويبدو أن عبادة لويس الرابع عشر باعتباره الملك الشمس **Le Roi Soleil** قد أُنشئت مع توليه سلطة الحكم فى عام ١٦٦١، كما يبدو أنها شكلت جزءاً من محاولة لخلق عبادة قومية يتجمع حولها كل الفرنسيين من الكاثوليك والبروتستانت(٦٠). هى الحال فى ألوهية الثالوث أبولو وهرقل والإله الخالق، فإن هذه العقيدة، أو فلنقل تصورها، إستفادت فى الحقيقة من شباب لويس وانتهاء حروب الفروند الأهلية. وصارت العقيدة أمراً أساسيا يقف من وراء تشييد قصر فرساى وإضفاء الروعة عليه، وأسهمت فى تحقيق هدف سياسى هو "شراء" طبقة النبلاء عن طريق المشاهد والمباهج التى تجرى فى بلاط كان المعتقد أنه أروع بلاط على وجه الأرض(٦١). لويس الرابع عشر – مثل أبولو – هو راعى الفنون، كما كان جسورا قويا مثل هرقل، كذلك كان بمثابة الشمس فى طقوس نهارية **Journée** تبدأ بالإحتفال بشروقه **Lever** وتنتهى بإحتفال مماثل بمغيبه أو إخلاده للنوم **Coucher**، لكن الملك فى الوقت نفسه "شمس كوبرنيقية" تدور من حولها الأفلاك. كذلك كان للعقيدة جوانبها الخيميائية(*) . وقد أوضح المؤرخ لويس ماران **Louis Marin** أن استخدام الألعاب النارية ونثر التراب فى الهواء وفوق الماء فى ضوء باهر، وهى أمور أساسية كان يجرى تمثيلها فى تلك المشاهد، إنما تصور قدرة لويس، بصفة كونه الشمس، على أن يمزج العناصر الأربعة

الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر بالنزاع بين أنصار القديم وأنصار الجديد. وقد أصبح بيرو كاتبا شعبيا محبوبا بفضل كتابه "قصص وحكايات من الأزمنة الماضية (١٧٩٧) الذى صاغ فيه حكايات شهيرة مثل ساندريلا وغيرها صياغة أصبحت هى التقليدية الثابتة. (المترجم).

• الخيميائية **Alchemical** نسبة إلى ضرب من معارف الكيمياء القديمة (خيمياء) كان هدفه الأساسى تحويل العناصر لاسيما تحويل المعادن إلى أحجار كريمة كالذهب فيما يعرف بحجر الفلاسفة، وهو متصل بمعارف التنجيم **Astrology**، ومنشؤه فى الأصل إما مصر القديمة أو الصين. وقد تأثر من غير شك بدراسات علماء الاسكندرية فى العصر الهلنستى. (المترجم).

ويسمو فوقها[٦٢].♦

ومع ذلك، فبالرغم من أن الجمع بين الخيمياء **Alchemy** وعقيدة الشمس والملك المؤلّه مقترنا بالشمس يبدو منحى مصريا للغاية، فلست أستطيع أن أجد بين هذه الأشياء علاقة مباشرة. ومن ناحية أخرى نعلم من فولتير أن لويس شُبّه بسيزوستريس بين جملة ملوك آخرين من العالم القديم[٦٣]. وهكذا فلابد أن الكتاب الفرنسيين عندما كانوا يصفون روعة مصر القديمة فى أثناء عهدى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر إنما كان لديهم تفكير مبيت فى مجتمعهم هم.

ويعيدنا ذلك إلى الخلاف الذى ساد الحياة الفكرية فى أوروبا فى القرن الثامن عشر بين أنصار القديم والحديث، ذلك الخلاف الذى كانت الأشكالية فيه كما سبق أن ذكرنا هى مسألة ما إذا كان المحدثون عندئذ أفضل من القدماء من النواحى الأخلاقية والفنية الجمالية. وقد تركزت المسألة على الخصائص الخلقية والفنية لملاحم هوميروس الشعرية. وعلينا أن نتذكر أن اليونان القدماء رأوا فى هوميروس فى مجال الثقافة "أبا منشئا". ومنذ القرن الخامس عشر وحتى بدايات القرن السابع عشر كان المصريون هم الذين يمثلون العالم القديم بحق، لكن هذه المرجعية المصرية استخدمت فى الوقت نفسه من جانب المجددين لتحدى المصادر القديمة لأرسطو وجالينوس ومن إليهما. وعلى ذلك فقد كان لمصر فى هذا المجال مايمكن تسميته بالصورة المزدوجة. وكان الجانب التقدمى هو السائد فى فرنسا فى القرن السابع عشر وبواكير القرن الثامن عشر، وكانت مصر، من حيث تشبيه فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر بها، إنما تقف فى صف المحدثين بصورة واضحة.

وقد كانت شخصية فنيلون مؤلف "تليماك" من المراوغة بحيث لم يكن يسمح لنفسه بأن يراه الناس على هذا الجانب أو ذاك من الجانبين. كان يحب هوميروس

♦ عبادة الشمس من العبادات التى شاعت فى الإمبراطورية الرومانية وحمل بعض الأباطرة لقب "الشمس التى لا تهزم" **Sol Invictus** مشاركين فى ذلك البطل هرقل والإله أبوللو الوضاء **Phoibus**. (المراجع).

ويعجب ببساطة اليونان، لكن ثناءه على ثراء المصريين العريض كما سبق أن ذكرت. وإمتداحه التفوق الثقافى للحضارة المصرية إبان عهد سيزوسترِيس، مقارنا بمستوى بلاد اليونان على أيام هوميروس، قد جعل فينيلون يقف بعيداً عن موقع مدام داسييه Dacier مترجمة "الإلياذة" والمناصرة للكمال الفنى والخلقى الخالد لهوميروس(٦٤).

ومن ناحية ثانية كان الأب تيراسون Abbé Terrasson. فى جانب المحدثين إلى حد أبعد من ذلك كثيرا. وقد وُلد لأسرة كاثوليكية موهوبة، ويبدو أن أباه كان يشارك القائلين بمبدأ الحقب الألفية اهتماماتهم التى سيطرت على مسيرة العلم فى إنجلترا فى القرن السابع عشر. وقد دفع هذا الأب أبناءه إلى التعلم عملا على "الإسراع بنهاية العالم". وأصبح جان تيراسون قسًّا وشخصية قيادية فى الحياة الفكرية فى فرنسا منذ التسعينيات حتى وفاته فى عام ١٧٥٠م(٦٥). وبصفته أستاذاً للغتين اليونانية واللاتينية فى الكوليج دى فرانس، ومتولياً لمناصب قيادية فى الأكاديمية الفرنسية وأكاديمية النقوش والفنون الجميلة، سيطر تيراسون على دراسات التاريخ القديم فى فرنسا فى بداية القرن الثامن عشر. وفى عام ١٧١٥ نشر تيراسون هجوما عنيفا ضد الإلياذه لما وضعه فى المقدمة من أنصار المحدثين(٦٦).

كذلك نال تيراسون شهرة عن طريق ترجمته لديودوروس الصقلى، المرجع الأثير بفضل تعليقه المفصل على شئون مصر ومسألة إستيطانها بلاد اليونان. لكنه عُرف أكثر بروايته التى ظهرت فى عام ١٧٣١ بعنوان: "سيثوس Sethos (سيتى)": تاريخ أو سيرة حياة مأخوذة عن العمائر المصرية: حكايات مصر القديمة". وقد تذرع تيراسون قليلا حين أدعى أن عمله هذا كان لرجل اسكندرى لا تعرف هويته كان يعيش فى القرن الثانى الميلادى. وبالرغم من أن الرواية ملفقة، فقد تضمنت مادة غزيرة مردودة إلى مصادرها التى يرجع معظمها إلى الكتاب القدماء من هيرودوتوس حتى آباء الكنيسة، وكذلك إلى رواية بعنوان إيثيوبيكا Aithiopica (الأثيوبيات أو قصة

إثيوبيا) يبدو أنهـا كتبت فى القرن الثانى الميلادى حقيقـة.*

و"سيتوس" بطل تيراسون هـو أمـير مصـرى ولـد قبـل حـرب طـروادة بقـرن مـن الزمان. والحقيقـة أن هنـاك اثـين مـن الفراعنـة عاشـا فـى القـرن الثـالث عشــر ق.م. ويحمـلان اسـم سيتى وهـو الإسـم الـذى تحـول فـى اليونانيـة إلى سـيتوس، فـى حـين كـان التـاريخ المتعـارف عليه لوقـوع الحرب الطروادية هـو عـام ١٢٠٩ ق.م. ويبـدو أن تيراسـون أخـذ هـذا الاسـم عـن مـانيثون المـؤرخ المصـرى الـذى عـاش فـى زمـن البطالمـة والـذى اسـتخدم الإسـم للإشـارة إلى الفرعـون رمسـيس الثـانى ابـن سـيتى الأول. وهـذه الحقيقـة، وهـى أن الإسـم والتـاريخ مضبوطـان بدرجـة معقولـة، تبـين أنـه كـان فـى وسـع الدارسـين فـى القـرن الثامن عشـر الإسـتفادة مـن حـين لآخـر مـن المصـادر الكلاسـيكية مـن أجـل إعـادة بنـاء التـاريخ المصـرى(٦٧). غـير أن الرواية خيالية فـى بنيتهـا، وهـى تشـبه روايـة "تليمـاك" لفينيلـون مـن حيـث أنهـا تـدور حـول مغـامرات وتربيـة أمـير شـاب نبيـل، لكنهـا تعكـس أيضـاً روايـات المـؤرخ ديـودوروس عـن فتوحـات أوزوريـس الحضاريـة. ذلـك أن سيثوس بعـد أن مـر خـلال شعائر وطقـوس سـرية شـتى، مضـى مرتحـلاً فـى إفريقيـا وآسـيا حيـث كـان ينشـئ المـدن ويسـنُّ القوانـين، ثـم آب آخـر الأمـر لينضـم إلى صحبـة مـن العـارفين(٦٨).

وقـد تضمنـت روايـة سـيثوس مثـل "تليمـاك" كثـيراً مـن التعليقـات المشـوبة بـروح العـداء عـن أمجـاد الحضـارة المصريـة، بـل أكـدت علـى تفـوق مصـر العظيـم علـى بـلاد اليونـان بأسـلوب أقـوى ممـا هـو فـى تليمـاك، إذ يصـف تيراسـون الأكاديميـة فـى منـف علـى أنهـا أسمـى بكثـير مـن الأكاديميـة فـى أثينـا، مـورداً تفصيـلات عـن العلـوم والفنـون التـى بـز فيهـا المصريـون اليونـان. وقـد اسـتخدم مقتبسـات مـن المصـادر الكلاسـيكية ليبـين أن مؤسسـى علـوم السياسـة والفلـك والهندسـة والرياضيـات اليونـان قـد درسـوا جميعـا فـى مصـر. وعـلاوة علـى ذلـك، أكـد تيراسـون وجـود تقـابلات وثيقـة الصلـة بـين الأسـاطير والطقـوس اليونانيـة والمصريـة،

* قد يعنى المؤلف رواية إيثيوبيكا المعروفة لنا، والتى تضم كثيرا من الأحـاديث عـن مصـر ونيلها وعقـائد أهلها وتقاليدهم، لولا أن هذه منسوبة إلىّ صاحبها الكاتب هليودوروس الذى يقول عن نفسه أنه فينيقـى مـن مدينـة حمص، وأن الأغلب أن الرواية كتبت فى القرن الثالث الميلادى. (المترجم).

وأن اليونان أخذوا صيغهم فى هذا المجال عن مصر(٦٩). وقد رأى أن ذيوع الثقافة بصفة رئيسية قد حصل من خلال دراسة اليونان فى مصر لكنه ذكر مع ذلك نشاط كل من كادموس ودناؤس فى مجال الاستيطان. هذا ومن الجدير بالملاحظة أنه عقد صلة قوية بين الفينيقيين وأمجاد الحضارة المصرية(٧٠).

وسرعان ما أصبحت رواية سيثوس المصدر الماسونى القاعدى للمعلومات عن مصر. وفيما كانت الماسونية تنتشر فى أوروبا وأمريكا الشمالية، كان الكتاب يترجم إلى الإنجليزية والألمانية، وقد صدر فى طبعات عديدة فى خلال القرن الثامن عشر، وأصبح مصدرا لعديد من المسرحيات والأوبرات التى كان معظمها ماسونيا، وأشهرها أوبرا "الناى السحرى" التى امتلأت بالرمزية الماسونية المصرية(٧١). وعلى مدى قرن كامل من الزمان، ظلت الرواية تستخدم صراحة على أنها مصدر لتاريخ الماسونية، ولا تزال سيثوس هى المصدر الرئيسى لأساطيرها وطقوسها. وقد ظل المأثور من القول بالأولوية المصرية من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الطائفة حتى أن الماسونية لم تستطع أن تنحنى أمام نمو هذه المسألة على المستويين الشعبى والأكاديمى. وقد عبر كاتب ماسونى عن ذلك فى عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر حيث كانت نزعة الحب للهلينية عارمة قائلاً:

"يتفق كل المؤرخين القدامى والمحدثين على أن مصر كانت منذ قديم الزمان مهد العلوم والفنون، وأن الشعوب التى عاصرتها أخذت مبادءها السياسية والدينية منها. وكما أوضح العلاّمة ديبوى Dupuis ، فإن مصر، وهى تشابه شجرة قديمة قدم العالم، قد رفعت رأسها الشامخ من عماء الأبدية، وأثرت كل أجزاء العالم بمنتجاتها، وضربت بجذورها فى عمق أجيال البشر، متخذة صوراً مختلفة ومظاهر شتى، لكنه جوهر دائم يصعد مرتقيا إلينا متمثلاً فى دينها وفضيلتها وعلمها"(٧٢).

الأساطير باعتبارها قصصا رمزية للعلوم المصرية

توطدت فى العصور القديمة فكرة تقول بأن الأساطير هى تأويل مجازى رمزى لأحداث تاريخية أو ظواهر طبيعية يصاغ من أجل الجماهير التى لم تكن أهلا إلا لإدراك

الحقيقة إدراكا جزئيا فقط، وذلك جانب من التوجه العام للحقيقة أو الفلسفة المزدوجة سبق أن أشرنا إليه مرارا. وقد كان هذا هو الأسلوب السائد لفهم الأسطورة منذ عصر النهضة حتى القرن السابع عشر.

وقد وصف فرانك مانويل Frank Manuel وصفا بالغ الدقة الطريقة التي رُفضت بها هذه المقاربة حيث أودى بها في القرن الثامن عشر التحول إلى التفكير الفطرى السليم. وفعل بعض كتاب الأساطير في ذلك القرن مثل فريريه Fréret والأب بانييه Banier كما فعل اليونان القدماء من أشياع يوهيمروس* قبل ذلك بألفى عام عندما حاولوا تأويل الأساطير على أنها روايات فجة لحقائق قُحّة(٧٣). وقد أفترض عندئذ أن القدماء أخذوا الأساطير بمدلولها الظاهر تماماً كما أخذت الشعوب المعاصرة أساطيرها على مايبدو.

وقد اقترن هذا التغير بنمو في إدراك مفهوم "التقدم"، وتزايد في الميل – بدءاً بفونتنل Fontenelle أحد كتاب القرنين السابع عشر والثامن عشر – نحو إحياء ما قال به القديس أوغسطين في العصور القديمة من وجود تشابه بين تاريخ البشرية ونمو الطفل إلى أن يبلغ سن النضج(٧٤). وفي تحول كامل عن الرأى السابق في الأسطورة بإعتبارها رموزا مبهمة تشير إلى حضارة أعلى، أخذ ينظر إليها عندئذ على أنها تعبير شعرى عن طفولة البشرية، بحيث يجرى تقويمها ليس على أساس ما تتضمنه من حقيقة، بل على أساس أنها مصدر معلومات عن علم نفس البشر.

بيد أنه بالرغم من كل هذه الفعاليات، ظل التأويل المجازى الرمزى للأسطورة بوصفها تعبيرا عن الحكمة القديمة لدى الكهنة المصريين باقيا، بل أنه ازدهر لدى الماسونيين الأحرار والروزيكروسية. وقد أوضح مانويل كيف تم إحياؤها في شكل

* صاحب نظرية فى أن الآلهة كانت فى الأصل ملوكا من البشر قاموا بأعمال بطولية أو نافعة لرعاياهم الذين حمدوا لهم ثم قدسوهم من أجلها ثم رفعوهم إلى مرتبة الآلهة وبذلك تحولت الأعمال الفعلية إلى أساطير. وقد راجت آراء يوهيمروس منذ أواخر القرن الرابع ق.م. فى أعقاب أعمال الإسكندر الأكبر وخلفائه. (المترجم).

مطبوعـات منشـورة فـى أعمـال كـور دى جبــلان C.de Gebelin البالغــة الكــثرة والبالغة الفجاجة فى آن(٧٥). غير أن مايهمنا أكثر هنا هو أعمـال البـاحث الثـائر شـارل فرانسـوا ديبـوى.

وليـــس مـــن قبيـــل المصادفـــة، كمـــا أوضـــح جيورجيـــو دى ســـانتلانا Giorgio de Santillana مؤرخ العلم العظيم فـى هـذا القرن العشـرين، أن ديبـوى ليـس معروفا فى الوقت الحاضر إلا قليلا. ذلك أن معتقداتـه ظلـت تشـكل تهديـدا لكـل مـن المسـيحية والأسطورة التى تصور بلاد اليونان على أنها مبتدأ الثقافة؛ بحيث كـان ينبغـى أن يوارى عمله التراب(٧٦). وقد كان ديبوى عالما لامعاً، فهو مخترع جهاز الملوّحة (السيمافور)، كما كان عنصـراً فعالا فى الشئون السياسية أثناء الثورة الفرنسية. ومن أجل شهرته الواسعة فى البحث وتفانيه فـى سبيل المبادئ الثورية المعتدلة، أختير "مديراً للوقائع الثقافيـة فـى عهـد "حكومـة الإدارة" مـن عـام ١٧٩٥ إلى عام ١٧٩٩، وأصبح رئيسا للهيئة التشـريعية أثناء فترة قنصلية نـابليون التـى تلـت ذلك.

وأكـثر كتـب ديبـوى شـهرة هـو كتابـه الضخـم بعنـوان "أصـل كـل العقـائد" الـذى ظهر فـى عـام ١٧٩٥، وقـد ذهـب فيـه إلى أنـه يمكـن إرجـاع كـل الميثولوجيـات والأديـان إلى مصـدر واحـد هـو مصـر. وفضـلا عـن ذلـك كـان يعتقـد أن كـل الأسـاطير تقريبـا تقــوم علــى واحــد مــن أساســين أثنــين همــا معجــزة التولُّــد والتناســل، والحركــات المعقــدة للنجــوم والأجـرام السـماوية. وبـالرغم مما يغلـف الأسـطورة عـادة من تعبـيرات خياليــة خلابــة، فهـى تخفـى فـى داخلهـا، فيمـا يـرى، حقيقـة علميـة يمكـن تفسـيرها علـى أسـاس مـن العلــم وحــده. والحقيقـة أن جـزءاً كبـيراً مــن عمــل ديبــوى الضخــم كــان يضــاهى بـين الأســطورة وعلــم الفلــك مضاهــاةً مفصلــة، وقــد كــان يعــرف مــن هــذا العلــم أكــثر ممــا عــرف علمــاء الكلاسـيكيات مـن بعــده، وهــذا مــن ســوء حــظ أنصــار النمــوذج الآرى. وكــان مايشــغل ديبـوى قضيتـان كبيرتـان. فكـان أحـد طعونـه موجهـا ضـد المسـيحية، وفـى هـذا الصـدد أظهــر بقـدر كبـير مـن التفصيـل الخلفيـة الميثولوجيـة للأنــاجيل مــن واقــع أســاطير الشــرق الأدنــى. وعنـده أن الديـن بنـى مـن ركـام الرمـوز الكهنونيـة التـى لم يُحسَـن فهمهـا أمـا القضيــة الثانيــة

التى شغل بها فكانت شرح الأساطير اليونانية على أساس علم الفلك، متابعاً هيرودوتوس والروايات القديمة المأثورة فى تناول هذه الأساطير على أنها مصرية فى أساسها. وفى هذا الصدد توصل ديبوى إلى سلسلة من التقابلات أو المصادفات المذهلة بين أساطير من قبيل أعمال هرقل الخارقة الإثنى عشر وحركة النجوم السنوية خلال المنازل الإثنى عشر للبروج.

وفى رأى فرانك مانويل أن ديبوى شائق لكنه غير معقول على الإطلاق،[٧٧] لكن سانتيلانا له فيه على العكس رأى مخالف تماما، إذ يقول:

"إن عمل ديبوى ضم فى حقيقة الأمر كل شئ تم التوصل إليه فى مجال علم الفلك العتيق، وهو لم يكن يملك مايتعامل معه سوى المصادر الكلاسيكية، كما لم يكن لديه فى واقع الأمر نصوص شرقية مضبوطة. أما فيما يخص الأجزاء الأخرى من العالم فلم يكن هناك سوى ماتيسر من تقارير الرحالة..... وبهذه الأدوات غير الكافية توصل ديبوى إلى شئ يبدو أن جهد الباحثين المحدثين قصر عن إدراكه. ومعرفة الرجل بالسابقين على سقراط أوسع كثيراً مما يمكن أن يستقى من هرمان ديلز Hermann Diels إنجيل الباحثين فى الوقت الراهن. وقد يكون الحكم على كتاب "الأصل" هو التطرف، لكنه كتاب قويم متماسك وذو تاثير"[٧٨].

وقد كان لآراء ديبوى تأثير خطير فى خلال السنوات العشرين التى أعقبت نشرها، فكان ينظر إليها على أنها التحدى الإيديولوجى والثيولوجى الموازى للتحدى السياسى فى الثورة الفرنسية. وسوف نتناول فى الفصل الخامس كيف تصدت المسيحية لهجومه عليها، وكيف تحدى أنصار الهلينية رؤيته لبلاد اليونان على أنها ذيل تابع لمصر، وهى رؤية تعكسها عبارته التى تقول: "يمكن اعتبار مصر أماً لكل ماورد فى أشجار أنساب الآلهة، وهى مصدر كل الحكايات التى تلقاها اليونان ووشوها بالزخارف، لأن الذى يظهر أنهم لم يبتدعوا شيئا كثيراً"[٧٩].

الحملة الفرنسية على مصر

وسواء أكان لديبوى دور مباشر فى إتخاذ قرار الذهاب إلى مصر أم لم يكن، فليس من شك فى أن وجوده بصفته شخصية ثقافية سياسية مهمة إنما يعكس مناخا عاما

من الحب لمصر وجد فى الأوساط النابليونية قبل عام ١٧٩٨، وهو العام الذى توجهت فيه الحملة الكبيرة إلى مصر. ومن المعروف أنه كان لديبوى تأثير فى حث الحملة على التوغل إلى مصر العليا التى كان يعتقد أنها مصدر الثقافة المصرية والثقافة العالمية بالتالى(٨٠).

والحق أن خططا لإحتلال مصر قد وضعت قبل الثورة (الفرنسية) بفترة طويلة، فى وقت بلوغ حماس الماسونية الفرنسية لمصر غايته فى السبعينيات. وفيما كان للحملة أسبابها السياسية والإقتصادية المهمة، فليس من شك فى أن أفكارا عن إحياء فرنسا "عهد الحضارة" الذى كانت روما قد دمرته كانت حافزا مهما من وراء الحملة(٨١).

وليس من المؤكد ما إذا كان نابليون نفسه ماسوناً، لكن ليس هناك شك فى أنه كان منغمساً فى الشئون الماسونية إنغماسا عميقا، وأن كثيراً من أعضاء الطائفة كانوا يشغلون المناصب العليا فى جيشه، وأن الماسونية إزدهرت فى ظل حكمه إزدهارا فائقاً(٨٢). ومن الواضح أنه أخذ الرمز الإمبراطورى وهو النحلة من مصر، من خلال مصادر ماسونية فيما يحتمل(٨٣). ومما يوضح هذا التأثير أيضاً سلوكه فى مصر؛ فقد حاول على سبيل المثال أن يتسامى فوق المسيحية ويظهر بطلاً من أبطال الإسلام واليهودية، وتوجه نحو الهرم الأكبر حيث كانت له تجربة صوفية باطنة(٨٤).

وقد كانت الحملة كلها نقطة تحول باهرة فى توجهات أوروبا نحو الشرق. فمن خلال وسائل شتى، من إجراء المسوحات الشاملة، إلى إعداد الخرائط والرسوم، إلى الإستيلاء على أشياء ومنشآت ثقافية لتزدان بها فرنسا، نرى مثلا باكرا لنمط أصبح من بعد علامة مميزة للإستعمار الأوربى: وأعنى به إبراز غرض الدراسة والاهتمام بالتحقيق العلمى، وهو ما صار قاعدة "الحركة الإستشراق" فى القرن التاسع عشر على النحو الذى أجاد إدوارد سعيد وصفه(٨٥). ومن ناحية أخرى كان لا يزال هناك كثير من آثار الموقف القديم من مصر، فوُجد لدى الأعضاء العلميين فى الحملة اعتقاد بأنهم يستطيعون أن يتعلموا فى مصر حقائق أساسية عن العالم وعن حقيقة ثقافتهم هم، وليس

مجرد أمور خارجية تستكمل معرفة الغرب بآسيا وإفريقيا لبسط سيطرته عليها.

فعلى سبيل المثال، قام عالم الرياضيات إدميه - فرانسوا جومار Edmé-Francois Jomard بقياس أبعاد الأهرامات وعمل مسوحات لمصر على أساس من المصادر القديمة التى كانت تؤكد أن المقاييس المصرية للطول تعتمد على معرفة مفصلة بطول محيط الأرض، وأن الهرم الأكبر يحوى نسب محددة من درجة العرض كما سبق أن ذكرنا فى صفحة ٢٠١ فى معرض الحديث عن نيوتن. وعندما نشر جومار مكتشفاته فى عام ١٨٢٩، وهو وقت أشتد فيه الحماس للهيلينية، لم تلبث التوافقات المذهلة التى كشف عنها أن لقيت الرفض بدعوى أنها غير دقيقة. هذا وتبدو نتائج جوماد صادقة بدرجة أكبر فى ضوء القياسات الحديثة والأكثر دقة(٨٦).

وحتى فى عام ١٧٩٨ غدت الهيلينية الجديدة والنزعة الرومانسية عاملين مهمين. فنابليون بالرغم من اهتماماته الماسونية كان ابنا لعصره، ومن الواضح أنه تصور نفسه على أنه الإسكندر فى صورته التى يبدو فيها يونانيا صرفا. وقد اصطحب نابليون معه كتاب "السير" لبلوتارخوس ليمده بنماذج كلاسيكية، كما كانت لديه نسخة من "الإلياذة" التى كان بطلها أخيليوس مصدر إلهام له. على أن ما كان يتصل بالأمر مباشرة وبصورة أوثق هى نسخة من كتاب كسينوفون "الأناباسيس" (الصعود) الذى يصور سلسلة من الأحداث التى شق اليونان الأوربيون من خلالها طريقهم بين أعداد ضخمة متراصة من أسيويين شتى. وقد أصبح هذا النص "إنجيلا" لحركة الإستعمار فى القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين، بالرغم من أن الأمر استغرق عدة عقود من السنين قبل أن يحل هذا الكتاب محل خطب ديموستنيس الديموقراطية أو الإلياذة ليكون نصا قياسيا لبدء تعلم اللغة اليونانية(٨٧).

وتمدنا قراءات نابليون الأخرى بعينة مثالية للذوق الرومانسى لعصره. كانت هناك أشعار "الأوشان" Ossian التى سنناقش أهميتها الفائقة للحركة الرومانسية فى الفصل التالى، وأخيراً كان هناك الكتاب المقدس وكتاب "الفيدا" السنسكريتى الذى

كان يمثل الولع الرومانسي الجديد بالهند القديمة، مما سنعرض لوصفه في الفصل الخامس[٨٨].

وقد كان وضع نابليون كالعادة وضعا دراميا، لكن موقفه، من حيث هو شخص يعيش في داخل النموذج القديم ولكن يجتذبه "نموذج التقدم" والهيلينية الرومانسية، كان موقفا يمثل العصر تماما. فقد يكون شيكاندر Schikaneder وموتسارت Mozart باقيين على احتفالهما بالحكمة المصرية في أوبرا "الناى السحرى" التي كتبت في عام ١٧٩١، لكن هذا تم بعيدا في مدينة فيينا. أما الأمور في غرب أوروبا فكانت مختلفة. كان إدوارد جيبون Edward Gibbon يشير في عام ١٧٨٠ إلى "لاهوت المصريين وفلسفة اليونان" بأسلوب يفيد الاعتقاد بالتقدم المرحلي، وكان قد أحرق قبل ذلك مقالته التي كتبها "في مقتبل صباه" عن سيزوستريس معبرا عن ذلك بقوله: "إنني في مرحلة أنضج من عمري لم أعد أفترض أن أعقد الصلة بين اليونان وتاريخ اليهود والمصريين القديم الضائع في غيامة سحاب بعيد[٨٩].

وفي هذا العقد نفسه من السنين، قام بالتحرك في ذات الإتجاه باحث مبرز آخر هو الأب بارتلمى الذى ذكرنا من قبل دراسته في حل رموز الكتابة الفينيقية وفي المقارنة بين القبطية والعبرية واليونانية. وفي عام ١٧٨٨، وقرب نهاية عمره المديد، نشر بارتلمى كتابه الذى سيغدو أشهر كتبه وهو "رحلة الشاب أناخارسيس Anacharsis". وتحكى الرواية قصة رحلة أمير سكيثي Scythian شاب في بلاد اليونان إبان القرن الرابع ق.م. وهي حافلة بالحواشي والتعليقات وتعكس قدراً كبيراً من المعرفة على غرار قصة سيثوس التي كانت، إلى جانب "قصة تليماك"، أحد المصادر التي ألهمت صاحبها[٩٠]. وكان النجاح الذى لقيته أناخارسيس معادلا للنجاح الذى حققته سيثوس، فقد صدرت في أكثر من أربعين طبعة بالفرنسية وترجمت إلى ثماني لغات[٩١]. لكن ما أعطته الرواية لبلاد اليونان من وضع مغاير كان أمرا عجيبا. فعند فينيلون يجيء الشاب الشمالي البسيط تليماك من بلاد اليونان إلى مصر حيث الثقافة الرفيعة المتصنعة،

فى حين يأتى أناخارسيس من سكيثيا أرض الفطرة والفضيلة والطهر إلى بلاد اليونان وهى فى حال من الأضمحلال والحياة المتكلفة، وإن ظلت بالرغم من ذلك موئلا لحضارة عظيمة.

وفيما كان بارتلمى معظّما لشأن بلاد اليونان، كانت جذوره الضاربة فى عمق النموذج القديم من الثبات بحيث لم يكن من الممكن له إهمال دورى مصر وفينيقيا الحضاريين. ففى المقدمة التى كتبها لروايته يرى المصريين على أنهم قوم قدموا ليسنوا التشريعات لليونان البدائيين، وهو قد تابع فريريه فى إرجاع تاريخ قدومهم ليس فقط إلى أيام كيكروبس وكادموس ودناوس، بل إلى أقدم من ذلك بثلاثمائة عام، أى إلى القرن العشرين ق.م.، أيام إناخوس Inachos وفورونيوس Phoroneus اللذين تميل الروايات اليونانية إلى رؤيتهما على أنهما من البلاسجين الأروميين الأصليين autochthonous(٩٢). وعلاوة على ذلك فإن مما يلفت النظر أن بارتلمى سبق الرأى الذى طرحه عالم الساميات العظيم إرنست رينان بعد ذلك بسبعين عاما، أى فى الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وهو الرأى القائل إن شمس الصحراء هى التى خلقت الطابع السامى الخشن وعقيدة التوحيد الصارمة فيه. فقد ذهب بارتلمى إلى أن شمس مصر الحارقة وما يقابلها بالعكس من ظل وارف قد ولد حالة من البساطة القصوى فى الفكر وفى الفن، فيما ولد ضوء اليونان المتألق شيئا ألطف وأرق وأكثر حيوية، حيث يقول:

وهكذا فإن اليونان الذين خرجوا من آجامهم لم يعودوا يرون الأشياء أسفل قناع مرعب كئيب، كذلك رقق المصريون فى بلاد اليونان شيئاً فشيئاً من غلواء تعبيراتهم الصارمة فى رسومهم ووجدنا الفريقين، وقد إتحدا عندئذ فى شعب واحد، يخلقان لغة تألقت بتعبيراتها المفعمة بالحياة، وخلعوا على آرائهم ألوانا غيرت من بساطتهم وجعلتهم أكثر جاذبية وإغراءاً(٩٣).

ويضع هذا الرأى بارتلمى فى موضع يمكن أن ينظر إليه فيه على أنه مرحلة

إنتقالية. ذلك أنه قبل قبل رؤية فنكلمان Winckelmann الرومانسية والمتمشية مع النزعة الهلينية الجديدة بأن المصريين جامدون شكليون بل هامدون بعض الشيء، في حين يظهر اليونان على صورة أطفال يبتسمون. غير أن بارتلمى من ناحية أخرى لم ير الأشياء كما كان يراها الناس فى القرن التاسع عشر، أى على أساس أن هناك أحتياجاً ماساً لأن يكون اليونان أنقياء عرقيا ولغويا. ولذلك فلا يظهر أنه عانى صعوبة ما من ناحية رؤية النموذج القديم لقضية الاستيطان.

ولم تكن رواية أناخارسيس طريقا واسعا للهروب من الواقع إبان الثورة الفرنسية فحسب، بل كانت فيما يحتمل أكثر التواريخ عن بلاد اليونان تأثيرا فى خلال بلوغ نزعة حب الهيلينية أوجها فى فرنسا. أما أعظم الكتب الإنجليزية تأثيراً، وهو الكتاب الضخم الذى كتبه وليام متفورد William Mitford صديق جيبون، بعنوان "تاريخ بلاد اليونان"، فكان كتابا أكاديميا صرفا. ومن حيث التأثر ببلاد اليونان، كان متفورد أقل بكثير من بارتلمى، كما أنه بوصفه رجلاً محافظاً متسقا مع ذاته رفض فكرة "التقدم"، ولم يكن بأى حال على يقين من أن بلاد اليونان تفوقت على مصر والشرق الأدنى، بل هو فى الحقيقة يُؤثر الشرق الأدنى على وجه العموم. ففى الجزء الأول من "تاريخه" وهو المرجع المتداول فى الموضوع منذ نشره فى عام ١٧٨٤ حتى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، كتب متفورد مايلى:

كانت آشور امبراطورية عظيمة، وكانت مصر بلادا آهلة بالسكان تخضع لنظام حكم بالغ الرفاهة، وكانت صيدا مدينة ثرية زاخرة بالسلع والمنتجات وتقوم بنقل تجارة هائلة، عندما كان اليونان يجهلون أكثر الفنون الظاهرة والضرورية ويعيشون فيما يقال على ثمار البلوط. لكنها (هكذا) بلاد اليونان التى كانت أول دولة فى أوروبا تخرج من عالم الهمجية. ويبدو أنها تدين بهذه الميزة تماماً (هكذا) لأسباب إتصالها الأيسر بأمم الشرق المتحضرة[٩٤].

كذلك أيد متفورد رأى النموذج القديم فى مسألة استيطان بلاد اليونان حيث يقول:

يبدو أنه فى زمن موغل فى القدم فى مصر، ونتيجة لبعض الثورات التى لا نعلم إلا القليل عن فعالياتها، إضطر قسم كبير من السكان إلى البحث عن مستوطنات خارجية. ويحتمل أن كريت تدين لتلك الظروف بحضارتها ونظام حكمها. ويتصل بموضوع تأسيس مستوطنات مصرية فى بلاد اليونان عدد من أقوى الروايات اليونانية المأثورة إسنادا، وهى روايات لاتتلاءم قط مع نعرة التحيز القومى، وإن كانت من حيث تلاؤمها التام مع التاريخ المعروف لا تبدو من حيث ملابساتها الأساسية محلا لأى سؤال(٩٥).

والقول بأن الروايات أو الأساطير تكون مقبولة إذا كان ذيوعها واسع المدى، وكان تلاؤمها حاصلا مع أنماط تاريخية أخرى، هذا جانب إلى تعارضها مع مصالح أولئك الذين يرددونها، هو قول يظل حجة قوية. لكن من المهم أن نلاحظ أنه ليس ثمة مواقف دفاعية أقدم عن النموذج القديم، وهذا راجع إلى أن طائر الحكمة* يطير وقت الغسق، بمعنى أن المعتقدات التقليدية المأثورة لا تجرى صياغتها إلا تحت ضغط التحدى. وكما هو الحال عند كثير من المتحصنين للدفاع عن وضع قائم يتبنونه، إدعى متفورد أن أكثر الباحثين الجادين يؤيدون موقفه ويعتقدون معه بوجود الأصول الشرقية للحضارة اليونانية. لكنه يقر بأن باحثا "أكثر ضحالة" هو صموئيل مسجريف Samuel Musgrave قد ذهب إلى أن الثقافة اليونانية ثقافة أرومية أصيلة فى بلدها autochthonous(٩٦). ولسوف نحول التفاتنا إلى مثل هذا الضرب من التفكير فى الفصل الرابع.



* فى تعبير المؤلف بالإنجليزية "لأن بومة مينرفا تطير..." وكان طائر البوم يرمز لمينرفا ربه الحكمة عند الرومان = الربة أثينة عند اليونان. (المترجم).

الباب الرابع

العداء لمصر فى القرن الثامن عشر

ترجمة د. فاروق القاضى

نحن نقارب الآن عقدة هذا الجزء من الكتاب، وهو بيان أصول تلك العوامل المؤثرة التى أسقطت النموذج القديم، وأدت إلى إحلال بلاد اليونان آخر الأمر محل مصر من حيث هى مصدر الحضارة الأوروبية. وأنا أركز على أربعة من هذه العوامل المؤثرة وهى رد الفعل المسيحى، وظهور فكرة "التقدم"، ونمو العنصرية، والنزعة الهيللينية الرومانسية. وتلك كلها أمور يتصل بعضها ببعض إلى الحد الذى يمكن معه أن يترادف مفهوم أوروبا ومفهوم العالم المسيحى، وأن يشير معنى رد الفعل المسيحى إلى استمرار العداء الأوربى وتزايد حدة التوتر بين الديانة المصرية والمسيحية.

وبالنسبة إلى مسألة "التقدم" أرى أن قيامها بصفتها أنموذجا سائدا فى التفكير قد أضر بمصر إضرارا بالغا وذلك لسببين هما أن قِدَم هذه البلاد العظيم قد وضعها "من خلف" الحضارات المتأخرة عنها زمنيا، فى حين أن تطاول تاريخها الممتد ورسوخه، وهو ما كان من قبل مصدر إعجاب بها، قد أصبح عندئذ سببا فى إزدرائها بحجة أنه تاريخ جامد وعقيم. ونستطيع أن نتبين أنه أضر بمصر كذلك ظهور النزعة العنصرية وما استلزمته من الحط من قدر كل ثقافة إفريقية. ومع ذلك فإن الإلتباس حول اشكالية وضع مصر "العِّرقى" قد أتاح لمؤيديها أن يدفعوا بأنها كانت "بيضاء" أصلا وأساساً. وعلى النقيض من ذلك أفادت بلاد اليونان من النزعة العنصرية إفادة سريعة وبطرق شتى وسرعان ما أصبح يُنظر إليها على أنها هى طفولة "العنصر الأوربى" الديناميكى.

وهكذا كان يمكن للعنصرية و"التقدم" أن يتضافرا للتنديد بالركود المصرى/ الأفريقى وإطراء الديناميكية والتغير اليونانى/ الأوربى. وقد لاءمت تلك الاعتبارات تماماً الحركة الرومانسية الجديدة التى لم تؤكد على الخصائص القومية والفروق الفئوية بين الشعوب فحسب، بل نظرت كذلك إلى الديناميكية على أنها القيمة الأسمى. وفضلا عن ذلك كانت الدويلات اليونانية صغيرة شديدة الفقر غالبا، وكان شاعرها القومى هو هوميروس الذى كانت ملاحمه البطولية تلائم على نحو رائع ولع القرن الثامن عشر الرومانسى بأهازيج الشمال التى كان أكثرها مثيرا غاية الإثارة، مثلها فى ذلك مثل الإلياذة. وهنا، وكما هو الحال فى مجال اللغة، أوجدت بين بلاد اليونان وشمال أوروبا علاقة خاصة لم يكن يشوبها سوى موقع بلاد اليونان الجغرافى فى

الجنوب الشرقى من البحر المتوسط، وإلا ذلك النموذج القديم الذى كان يؤكد إرتباطها القوى بالشرق الأوسط. ومجمل القول أنه فى حين كانت مصر ومعها الصين وروما هى النماذج للإستنارة، صارت بلاد اليونان مرتبطة بتيار النزعة الرومانسية العقلى والعاطفى الذى كان محدوداً وإن كان آخذا فى النمو فى القرن الثامن عشر.

رد الفعل المسيحى

وينبغى أن نؤكد أنه فى خلال الجانب الأكبر من حقبة الألفى عام التى تهمنا هنا تقريبا، لم يكن التوتر أو "التناقض" بين المسيحية والفلسفة المصرية "المزدوجة" تناقضا "ضديا" بالمعنى الوارد عند لينين عند ماو(*) . فالهرمسية والماسونية باعتبارهما حركتين مقصورتين على الصفوة، لم تهددا بشكل أساسى الوضع القائم من الناحيتين الإجتماعية والسياسية بل ولها حتى الناحية الدينية. غير أن دعاوى التوحيد التى وجدت فى كل من الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية، كل على نحوها الخاص، قد جعلت من العسير التسامح مع أى نوع من عدم التطابق بين المأثورين المسيحى والمصرى، ووجدت من ثم فترات طويلة من الخصومة المريرة بينهما.

وقد ورد فى الفصل الثانى ذكر هدم الكنيسة الأولى للغنوسية (الأدرية) والأفلاطونية المحدثة هدما ضاربا دمويا، غير أن الكنيسة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تسامحت بوجه عام مع الأفلاطونية والهرمسية بل شجعتهما. ولعل إعدام برونو لا يثير الدهشة إذا ما أخذنا فى الاعتبار هجماته تلك المجلجلة على المأثورات اليهودية – المسيحية ودعوته الصاخبة إلى العودة إلى الديانة المصرية. بل إنه فضلا عن ذلك، لم يكن ما أعقب إحراق برونو هو فرض الحظر على الدراسات عن مصر، وإنما كان تشجيعا ودعما كبيرا لما تسميه فرانسيس ييتس "بالهرمسية الرجعية" عند أثناسيوس كيرشر، أو بعبارة أكثر تلطفا، بالدراسات المصرية المجازة من جانب الكنيسة، ومنها إنشاء كيرشر للدراسات القبطية[1]. وبالرغم مما كان للهرمسية والروزيكروسية من تأثير فى الأوساط الثقافية فى شمال أوروبا فى الغالب، فإنهما لم تكونا عاملين مؤثرين فى

(*) المقصود بالطبع هو ماو – تسى – تونج فى تنظيره الشيوعى. (المترجم).

أحداث العنف فى حرب الثلاثين عاما فى ألمانيا وثورات الفروند فى فرنسا والصراع ضد الملكية فى أنجلترا وهولندا. كذلك لم يكن للهرمسية إلا دخل يسير فى الصراعات بين الكاثوليك والبروتوستانت أى بين الكنيسة الأعلى والكنيسة الأدنى، أو لم يكن لها من دخل على الإطلاق.

وكما سبق أن ذكرت، كانت الأفلاطونية المحدثة والهرمسية فى الغالب فلسفتين ظاهَرَهما المعتدلون فى محاولات للتسامى فوق سعار معارك ذلك الزمان السياسية والدينية. وبالمثل نما الإلحاد فى المذهب الذرى المقترن بتوماس هوبز Thomas Hobbes فى جو من اليأس الناجم عن تقارع السيوف فى أمور الدين. وهكذا ففى عقدى الستينيات والسبعينيات من القرن السابع عشر فى إنجلترا وجدنا رجالا من المعتدلين مثل رالف كدورث Ralph Cudworth – وكانوا مشغولين بمناوءة خصمين رئيسيين هما الغيبيات الكاثوليكية والحماس البيورتيانى المفرط – وجدناهم يرون فى الأفلاطونية ترياقا لكل من الداءين معا[٢]. وإلى جانب استعلاء الأفلاطونية فوق المشاحنات الطائفية، فإن قولها بأن ثمة ضياء أو روحا للعالم قد أضعف دعاوى أهل التعصب بتمثلهم هم للروح القُدس أو أوحى إلى المؤمنين دعاواهم بذلك. وفضلا عن ذلك، كان كدورث يعتقد أن المخاطر الإلحادية الناشئة عن الزعم بتماثل الروح والمادة وتماثل الخالق والمخلوق فى الفكر المصرى – الأفلاطونى، هو أقل حدة من إلحاد هوبز الآلى والذرى[٣].

وفى هذا المناخ الفكرى تشكل عقل نيوتن، وفى هذا السياق ينبغى أن ننظر إلى إعجابه المبكر بالمصريين مما أشرنا إليه فى الفصل السابق. غير أن موقفه من مصر تغير تغيرا عميقا فى عقد التسعينيات، فقد أنفق سنى حياته الأخيرة فى بحث أمور تتعلق بترتيب الأزمنة ترتيبا تاريخيا (كرونولوجياً). وكان أكثر بحوثه فى هذا أهمية هو بحثه "تعديل كرونولوجيا الممالك القديمة"، وفيه برهن نيوتن على أساس من الكتاب المقدس وعلم الفلك أن دعاوى الأقدمية الزمنية التى أدعاها المصريون وغيرهم من الشعوب قد بولغ فيها مبالغة كبيرة، وأن الأسرائيليين قد وُجدوا قبل كل الآخرين بأمد بعيد.

والأستاذ وستفول Westfall، وهو أحدث مَن كتب سيرة حياة لنيوتن، يصف

ذلك البحث بأنه "عمل بالغ الملالة"، ويعتقد أن نيوتن فى هذا العمل "قد أخرج كتابا" ليست له غاية واضحة وليس له شكل واضح". ولعل التفسير الوحيد الذى يستطيع وستفول أن يورده لذلك هو أن الكتاب يتضمن رسالة ربوبية مغلفة(٤). غير أن الشئ نفسه يمكن أن يقال عن أكثر أعمال نيوتن، ولا أظن أنه كلام يقدم دافعا كافيا للقيام بهذا الجهد الهائل الذى بذله نيوتن فى "الكرونولوجيا". والواقع أن من الممكن القول بأن هذا الكتاب هو أقوم ما كتب نيوتن فى حياته. وقد هاجم وليام وستون William Whiston الذى يمكن أن يوصف بأنه ضمير نيوتن الربوبى الكتاب هجوما ضاريا، وكذلك فعل الفرنسى الملحد فريريه Frérer(٥). وفضلا عن ذلك، فإن نيوتن صار فى أخريات أيامه متعاونا بالفعل مع كنيسة الدولة الرسمية كما يشير إلى ذلك وستفول. وعلى ذلك فإننى أظن أن من الأجدى أن ننظر إلى "الكرونولوجيا" على أنه كان نتيجة لما يصفه المؤرخ المثقف الأستاذ بوكوك Pocock بأنه "ارتداد كامل عما حاول كدورث أن يظهره من أن التفكير القديم كان بطبعه موافقا للاهوت المسيحى.

ويعزو بوكوك ذلك جزئيا إلى "تأثير اسبينوزا"، وهو رأى فيه إشكال لأن المؤرخ الأستاذ كولى Colie قد بين أن كدورث كان على معرفة تامة بفكر اسبينوزا فى السبعينيات. وقد تضمن كتابه العظيم "النظام العقلى الحقيقى للعالم" هجوما على موقف اسبينوزا(٦) ولا يعنى ذلك أن ننكر أن مذهب اسبينوزا فى وحدة الوجود استمر فى إضعاف احتمال وجود فلسفة أفلاطونية مسيحية بعد أن صدر كتاب كدورث فى عام ١٦٧٩. بيد أن العوامل الجديدة الفعالة من بعد قيام الثورة العظمى فى عام ١٦٨٩ كانت هى تولاند Toland وحركة التنوير الراديكالية. وجملة القول عندى هو أننى أظن أن كتاب نيوتن الأخير بما فيه من تقليل للأقدمية الزمنية للمصريين والشعوب القديمة الأخرى ينبغى أن يُنظر إليه على أنه دفاع مسيحى من ربوبى جديد بالإحترام ضد حركة التنوير الراديكالية التى اصطنعت أقدمية مصر والشرق أداة. وكما كان الحال مع برونو فى القرن السادس عشر، فإن التعايش السلمى الذى ظل قائما بين المسيحية وديانة مصر وفلسفتها خلال الجانب الأكبر من عصر النهضة قد سقط، وبدأ المسيحيون النضال.

ولقد أوجد الدفاع عن مذهب نيوتن تحالفاً بين الدراسات اليونانية والمسيحية. ويقودنا ذلك إلى ذكر شاغل مهم يشغلنا فى هذا الكتاب، وهو أمر يتعلق بصراع ثنائى بين مصر والكتاب المقدس ولكن بصورة أقل من تعلقه بالعلاقة الثلاثية مابين المسيحية ومصر وبلاد اليونان. وبيان الأمر أنه فى خلال القرون الأولى من الفترة المسيحية كان الصراع الأساسى بين المسيحيين والوثنيين. ولما كانت الثقافة السائدة فى شرقى البحر المتوسط إبان تلك الفترة ثقافة هلينية تستند فيها الديانة إلى قاعدة مصرية، فقد رأى كل من المسيحيين والوثنيين - وكان أكثر هؤلاء الأخيرين من أصحاب الأفلاطونية المحدثة - رأوا أن الفروق بين مصر والشرق وبلاد اليونان غير مهمة نسبيا - ومن ناحية أخرى قام يهود مثل يوسف وبعض من آباء الكنيسة مثل كلمنت السكندرى، وتيتيان باحتساب عدة نقاط ضد اليونان بما يشير إلى تأخرهم زمنيا، وبما يظهر ضحالة الحضارة اليونانية إذا ماقورنت بحضارات المصريين والكلدانيين والفرس ومن ليهم، ومنهم الإسرائيليون بالطبع. وقد أكدوا كذلك على كثرة ما أخذه اليونان فى مجال الثقافة عن شعوب أكثر قِدَماً منهم(٧).

وحتى عصر النهضة، لم تكن إمكانية استخدام اليونان ضد المصريين والكلدانيين وغيرهم الدفاع عن المسيحية أمراً واردا. وقد سبق أن بينت أن عداء إرازموس للهرمسية فى بواكير القرن السادس عشر كان فى أساسه متصلا بدفاعه عن المسيحية وعن الدين ضد السحر. لكن إرازموس كان كذلك نصيرا للغة اللاتينية الخالصة ولدراسة اللغة اليونانية(٨).

وفى تلك الأثناء أخذ الألمان يدركون المشابهات المثيرة بين لغتهم وبين اللغة اليونانية. فالأسماء فى كل من اللغتين لها حالات أربع من الإعراب فى مقابل خمس حالات فى اللاتينية وكلٌ من اليونانية والألمانية استخدمت أداة التعريف وتوسعت فى استعمال الأدوات والحروف مع الأفعال. وعقب حركة الإصلاح الدينى والإنفصال عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أصبحت الصلة بين اللغتين أقوى بكثير، باعتبار تصور الألمانية واليونانية على أنهما معاً لغتا الحركة البروتستانتية. وقد حارب لوثر الكنيسة

الرومانية بالإنجيل اليونانى، إذ كانت اليونانية لسانا مسيحيا مقدسا يستطيع البروتستانت أن يدعوا إدعاءً يقبل التصديق بأنها أوثق فى مسيحيتها من اللغة اللاتينية. ومع إنتشار حركة الإصلاح فى انجلترا وأسكتلندا واسكندناوة أخذ ينمو شعور بأن الشعوب المتحدثة باللهجات التيوتونية "أفضل" وأكثر "رجولة" من الأمم المتحدثة باللهجات الرومانسية فى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، وأن لغات تلك الشعوب أسمى فى مجموعها من اللغة اللاتينية حيث تعادل اليونانية، أو على حد تعبير كاتب إنجليزى من القرن السابع عشر حيث يقول:

> "كانت لغتنا لهجة من التيوتونية ومع أنها آنذاك كانت فى طفولتها فإنها لم تك جافة كما كانت مثمرة ومفعمة بالمعانى ولها أصول راسخة وبدائيات قابلة للتوسع والإنتشار من أصولها إلى تغصن فى الإشتقاقات والتركيبات مثل اللغة اليونانية ومتخطية فى قوتها إلى ماوراء اللاتينية واللهجات المشتقة منها" (٩).

وقد ازدهرت الدراسات اليونانية فى المدارس والجامعات البروتستانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. ومن العجيب أن نلحظ مثلاً كيف أن كثيراً من دراسى اليونانيات من الفرنسيين فى القرن السابع عشر – بما فيهم اسحق كازوبون ومدام داسييه – قد نُشِّئوا على أنهم هيجونوت Huguenots * (١٠). وماكان استخدام اللغة اليونانية ضد السحر المصرى بالذى يبعد كثيرا عن استخدامها لمهاجمة الغيبيات الرومانية الكاثوليكية. ومع ذلك فإن النقد الذى وجهة كازوبون لأقدمية النصوص الهرمسية زمنياً لم يكن من قبيل المقابلة بين بلاد اليونان بعقلها ومصر بغيبياتها وسحرها، وإنما كان من قبيل استخدام الأساليب النقدية فى مقاربة النصوص اليونانية من أجل التقليل من قِدَم الحكمة المصرية وبالتالى التقليل من قيمتها.

وقد استخدمت مقاربة مشابهة بعد ذلك بسبعين عاما على يد رتشارد بنتلى Richard Bentley. وبالرغم مما عُرف به بنتلى إبان سنى حياته من أنه العميد

---

* الهيجونوت هم البروتستانت من أتباع المصلح الدينى جون كالفن فى فرنسا. (المترجم).

المستبد الممقوت لكلية ترينيتي بكيمبردج فقد كان في مجال تاريخ الكلاسيكيات بطلا، باعتبار أنه مكتشف حرف (صوت) الديجاما digamma، أو بالأحرى مكتشف تلك الحقيقة، وهي أن الصوت ذو الذى يمثل بالشكل F في بعض الأبجديات اليونانية، قد كان موجودا في لغة هوميروس وغيرها من اللهجات اليونانية وإن لم يكن مكتوبا. وقد توصل بنتلي إلى هذا الكشف ببراعة فائقة بملاحظته أنه في بعض الحالات في الكلمات التي تبدأ بحروف متحركة لم يكن يجرى إسقاط هذه الحروف كيما توصل الكلمة بالمقاطع السابقة من أجل الترخيم. ولقد نال بنتلي تقديرا أكبر من أجل دراساته النقدية القوية التي أكسبته الشهرة فيما بعد بأنه أعظم دارسي الكلاسيكيات الإنجليز على مر الزمان، وإن لم ينل هذا التقدير في هذا المجال على وجه التحديد إبان حياته[١١].

وقد كان رتشارد بنتلي أيضاً هو أول من قام بتبسيط وإذاعة مبادئ نيوتن في الفيزياء وأول من أوضح ما بها من معان وإيحاءات لاهوتية وسياسية، مثل القول بأنه مادامت المادة لا تستطيع تحريك نفسها، فإن الأمر محتاج إلى إله ثابت الصفات يخلق الكون ويحفظ بقاءه، تماما مثلما أن شخص الملك ضرورى في نظام ملكي دستورى في ظل حزب الهويج Whig. وقد أبرز بنتلي مشروعه هذا في عام ١٦٩٢ عندما ألقى السلسلة الأولى من عظاته الكنسية أو محاضراته التي قام على تنظيمها السير روبرت بويل العالم الكيميائي الإنجليزي - الإيرلندى الشهير ضد "الكفار الأشرار، وهم الملاحدة والمؤلهة والوثنيون واليهود وأتباع محمد"(ص)[١٢]. ولا يكاد بنتلي يذكر الفريقين الآخيرين، وإنما كان واضحا أن اهتمامه متجه إلى الثلاثة الأُوَل. وأعظم ما كان يهم في الأمر برمته هو حركة التنوير الراديكالية. ويبدو أنه كان مهتما بوجه خاص بجون تولاند المفكر الراديكالي وطليعة مذهب الماسونيين الأحرار الذى استخدم فكرة برونو التي أخذها بدوره عن المصريين في القول بالمادة المتحركة، وهي الفكرة التي سخرها الراديكاليون للهجوم على نظريات نيوتن الفيزيائية.

كذلك يبدو أن بنتلي وجماعته كانوا على علم بنزعة تولاند الجمهورية، وكان تولاند بدوره على علم تام بالعلاقة التبادلية بين نظريات نيوتن الفيزيائية وآرائه السياسية[١٣]. وقد استخدم بنتلي ذكاءه المفرط وبحوثه في حقل الكلاسيكيات لا لكي

يشرح نظام نيوتن ودلالاته فحسب، بل لكى يلقى بالشك أيضا على مرجعية المصادر اليونانية التى أشارت إلى الحكمة والفلك لدى المصريين والشرقيين والزمن الذى كتبت فيه هذه المصادر(١٤). وبهذا أراد بنتلى أن يجرّد تولاند والراديكاليين من واحد من أقوى مصادر شرعية مذهبهم.

غير أن مايهمنا هنا بدرجة أكبر هو ذلك التحالف بين نيوتن وبنتلى، والربط بين العلم الجديد والدراسة النقدية للكلاسيكيات من أجل الحفاظ على "الوضع القائم". وإنه لمن دواعى السخرية أن هذين الرجلين اللذين كانا دائما على حافة الأريوسية أو الربوبية، إن لم يكونا عندها فعلا، قد أصبحا اثنين من أكثر المدافعين عن المؤسسة المسيحية تأثيرا(١٥).

الحلف اليونانى المسيحى

غير أننا نجد تحالفا أقوم من ذلك بين بلاد اليونان والمسيحية عند أحد معاصرى بنتلى وإن كان أصغر منه سنا، وهو جون بوتر John Potter الذى كان يعمل فى مدرسة ويكفيلد للنحو، وقد أصبح من بعد كبيرا لأساقفة كنتر برى. ففى عام ١٦٩٧ أخرج بوتر كتابا من أربعة أجزاء عن النظم السياسية والديانة عند اليونان. وقد ظل هذا الكتاب، مع توالى صدوره فى طبعات جديدة، المرجع القياسى فى الموضوع حتى صدور معجم الدكتور سميث فى عام ١٨٤٨م(١٦). وقد أكد بوتر - متابعا فى ذلك مأثورا تقليديا يرجع إلى أيام لوكريتيوس على الأقل- أن أثينا، على خلاف بقية بلاد اليونان، لم تُقهر على يد البرابرة، ليس هذا فحسب، وإنما جاءت الثقافة والنظم اليونانية منها(١٧). وبهذه الطريقة استطاع بوتر أن يباعد بين بلاد اليونان والشرق الأدنى، دون أن يعترض على مرجعية النصوص القديمة فيما يتعلق بموضوع الغزوات.

ونجد هذا التشدد الحائر واردا فى معالجة بوتر لموضوع الديانة. فبالرغم من محاولته هنا رفع طراقيا Thrace إلى مكانة مساوية، فإنه اعترف بأن الديانة جاءت من مصر، لكنه مضى يتناولها كما لو كانت ديانة يونانية خالصة(١٨). ويجد المرء فى خلال القرن الثامن عشر محاولات مشابهة خاصة بين الكتاب المدافعين عن المسيحية للتوفيق بين الرغبة فى التقليل من شأن مصر والرغبة فى إعلاء شأن اليونان، مع عجز منهم عن التصدى للنموذج القديم.

وفيما كان أنصار حركة التنوير الراديكالية فى أنجلترا يستخدمون مسألة أقدمية مصر وبلاد النهرين (ميسوبوتاميا) لكى يخففوا من وقع غلواء موقفهم، بدأ وكأنهم أحسوا فى قرارة أنفسهم بأنهم "تقدميون"، شأنهم فى ذلك كشأن أنصار الحديث فى فرنسا. بيد أنه كان مقدرا أن تخسر مصر آخر الأمر من جراء قيام أنموذج "التقدم" الجديد الذى يمكن تبين التحول الذى نجم عن طرحه من مقابلة الهجوم الذى شنه نيوتن على أقدمية مصر والشرق فى العقد الثانى من القرن الثامن عشر، بتناول الأسقف وليام واربرتون William Warburton للموضوع بعد ذلك فى الثلاثينيات، وهى مقاربة بالغة الإختلاف. ذلك أن واربرتون رأى فيما أسماه هو "التفويض الإلهى لموسى" رأى جانبا من الصراع ضد الربوبيين والأسبينوزيين والقائلين بوحدة الوجود، وقد أرجع مناهضة هؤلاء للمسيحية إلى زمن الأفلاطونية الجديدة[١٩]. وهكذا فإن واربرتون بمهاجمته التنوير الراديكالى، قد أمد المدافعين عن المسيحية بسلاح تقدمى ماض. ويصف المؤرخ بوكوك موقف واربرتون هذا على النحو التالى:

إنه بعيداً عن رؤية الفلسفة الحديثة على أنها تهديد للدين بما فيها من نزعة للشك، كان واربرتون أكثر ميلا إلى الرأى القائل بأن الفلسفة لم تصل إلى حالة الورع والتلطف والإعتدال التى تتساوق مع العقيدة إلا فى الفكر المعاصر، بل إنه حتى النزعة اللا دينية فى العصور الحديثة ٠– وهى التى شبهها بإصلاح حيكوب الراديكالى (أى التنوير) – قد بدت لواربرتون إحياء لأنماط قديمة من التفلسف فيه مسحة عتيقة[٢٠].

وكان رأى واربرتون فى الديانة المصرية ذاتها رأيا يوحى بأشياء، وهو رأى لا يبعد كثيرا عن رأى نيوتن. فهو لم يستطع فيما كتبه فى الثلاثينيات أن ينكر أن الديانة المصرية كانت فى يوم من الأيام ديانة موحِّدة راقية، لكنه ذهب إلى أنها تردّت فى حمأة الوثنية، منحيا فى ذلك باللائمة على السياسيين، وهو مذهب وصفه فرانك مانويل Frank Manuel بأنه "شعور بالتضامن (من جانب أسقف) مع الكهنوت المصرى"[٢١]. غير أن سبق الأولية لم يكن فى نظر واربرتون ميزة أو فضلا، وإن كان قد هاجم فى ضراوة "كرونولوجيا" نيوتن، حتى أن ذلك وضعه جنبا إلى جنب مع أناس

أشرار من الربوبيين مثل وليام وستون ومن الملاحدة مثل نيقولا فريريه[٢٢].

وعند واربرتون أن الحقيقة فى أن اليونان جاءوا متأخرين زمنيا إنما يجعلهم فى مكان أفضل باعتبار أنهم بزّوا أساتذتهم. وفيما وجد نفسه مضطرا إلى الإعتراف بأن اليونان تعلموا أسماء آلهتهم وطقوسهم الدينية من المصريين، أصر على إنكار أنها كانت هى ذات الأسماء[٢٣]. وقال إنه بالرغم من أن فيثاغوراس قد درس فى مصر على مدى عشرين سنة، فقد أظهر نظرياته بعد أن عاد إلى اليونان فقط. كذلك ذهب إلى أن المصريين كانوا عاجزين عن طرح الفروض، وهى دعوى مازالت حتى اليوم قائمة.

وقد عبر جيكوب بروكر Jacob Brucker مؤرخ الفلسفة الألمانى الكبير فى منتصف القرن الثامن عشر[٢٤] عن حالة مماثلة من توازن الضدين فى الموقف من مصر القديمة. ذلك أنه إزاء عدم إستطاعة بروكر إنكار المأثور التقليدى الراسخ عن كون المصريين فلاسفة فقد ذهب إلى أن الأدنى إلى الصحة أن يقال إنهم "نسابو آلهة" theogonists *، ومن حيث أنهم هم الذين ابتدعوا الرموز وبرعوا فى تلفيقها وصياغتها. وعنده أن الفلسفة الحقة بدأت بالأيونيين "قبل سقراط"، لكن أنسلاخها عن البحث فى أصل الآلهة قد جاء مع سقراط نفسه. ويعبر الأستاذ بوكوك عن وصف بروكر لما حققه سقراط من فتح فى هذا فيقول:

تخلى (سقراط) عن محاولة معرفة الطبيعة ناظر ا إليها، بدلا من ذلك، نظرة شك مفعمة بالإجلال والتوقير، جاعلا بؤرة إهتمام الفلسفة فى مطلبها الحقيقى، وهو اكتشاف الأخلاق الحقة التى تقود إلى إدراك الإله الحق[٢٥].

غير أن أفلاطون خان هذه الفلسفة "غير العلمية". وإنه لمن سوء الحظ عنده أن أفلاطون درس مع الفيثاغوريين فى صقلية ومع الكهنة فى مصر، ذلك أنه استورد من جديد الرموز والشعر والسرية والخفاء، وهى أمور كان الأيونيون وسقراط قد حاولوا الخلاص منها[٢٦]. وهكذا ففى محاولة منه لإيجاد فصل قطعى لا محل له بين سقراط وتلميذه دراوى سيرته الأثير أفلاطون، استطاع بروكر أن يدعى تفوق اليونان، مع

* إشارة إلى عمل هيسيودوس "أنساب الآلهة Theogony". (المراجع).

الإحتفاظ بالرأى القديم بأن كل أنماط الفلسفة الأفلاطونية متكاملة فى ارتباطها بالتقاليد المصرية.

أوروبا بصفتها القارة "التقدمية"

وقد أدت هزائم تركيا فى الثمانينيات من القرن السابع عشر، وما لقيته نظريات نيوتن فى الفيزياء من قبول عام إلى تحول فى رؤية أوروبا لصورتها. ففى عالم مابعد نيوتن، بدأ الكتاب، مثل مونتسكيو الذى ذكرنا من قبل إشارته إلى المصريين على أنهم أعظم الفلاسفة، بدءوا يعارضون "الحكمة" الشرقية "بالفلسفة الطبيعية" الأوروبية(٢٧). وقد كتب مونتسكيو ذلك فى عام ١٧٢١، ومع توالى سنوات القرن الثامن عشر زادت فكرة التفوق الأوربى بفعل تقدم أوروبا الإقتصادى والصناعى وتوسعها فى القارات الأخرى.

غير أن الموقف كان مختلفا عن الموقف الذى نتج عن أنتصار النزعة الأمبريالية فى القرن التاسع عشر، لأنه مامن أوربى فى القرن الثامن عشر كان يستطيع أن يزعم أن أوروبا خلقت نفسها. ومع ذلك كانت الدعوى عندئذ قائمة بأن أوروبا أكثر تقدما من أى قارة سواها. وهنا نجد وضعاً أشبه بوضع بلاد اليونان فى القرن الرابع و إبان العصر الهلنستى حينما كانت حضارتها تقارن بالحضارات الأقدم. وهناك على سبيل المثال تلك الفقرة التى يجرى إقتباسها كثيرا من كتاب "الإبينوميس" epinomis على لسان أفلاطون أو أحد تلاميذه والتى تقول بعد إيراد وصف فيه ثناء على علم الفلك عند المصريين والسوريين: "فنلحظ أنه ما من شئ تلقاه اليونان عن الأجانب إلا تحول على أيديهم إلى شئ أرق وأدق(٢٨).

والزعم بأن ثمة خاصية تفوق فى أهميتها كل تقدير يجرى إضافتها إلى مايستورد من تقنيات وأفكار وأساليب فنية جمالية، هو زعم وارد عند تلك الأمم التى تقع ثقافاتها عند أطراف المحيطات مثل إنجلترا وألمانيا واليابان وكوريا وفيتنام. ذلك أن الأمر يتطلب تأكيد الكبرياء الثقافى فى مواجهة الإقتباسات الخارجية التى تكون من الضخامة بحيث لا يمكن إنكارها، أو حين تمضى هذه الإقتباسات فى إتجاه يعاكس تسلسلا سلطويا مأثورا يعكس تفوقا "ثقافيا" أو "عرقيا"(٢٩). وعلى حد ما ذكر الكاتب الشعبى المحبوب أوليفر

جولد سميث في عام ١٧٧٤ في كتابه "تاريخ الأرض" وكأنّما به يعيد صياغة عبارة "الإبينوميس": "إن تلك الفنون التي يمكن أن تكون قد إبتدعت عند أجناس أخرى من البشر قد بلغت حد كمالها هناك (أي في أوروبا)"[٣٠].

فكرة التقدم

وقد ذكر كثيرا أن أوضح تعبير عن فكرة "التقدم" هو ماجاء في المقال الذى كتبه كوندرسيه Condorcet، في عام ١٧٩٣ بعنوان "تخطيط للوحة تاريخية عن تقدم الروح الإنسانية". غير أن أكثر الأفكار التي قدمها كوندرسيه في مقاله قد وردت قبل ذلك في الحديث الذى ألقاه آن روبرت تيرجو Anne Robert Turgot في عام ١٧٥٠ وهو في سن التاسعة عشر بعنوان "حديث عن التقدم المتتابع للروح الإنسانية". وقد كان تيرجو، الذى أصبح فيما بعد وزير مالية لويس السادس عشر، وثيق الصلة بكبار أصحاب المذهب الطبيعي "الفيزيوقراط"، وكان محبذا للآراء الإقتصادية الصينية، وقد وصف من ثم بأنه مؤسس الإقتصاد السياسي. وتتضح آراء تيرجو عن "التقدم" من حديثه المذكور ومن مسودات تواريخه التي لم يكمل كتابتها[٣١].

هذه الآراء مهمة في حد ذاتها، وكذلك من حيث هي متعلقة بما كان تيرجو ومعاصروه يعتنقونه من آراء عن المصريين والفينيقيين واليونان. ووفقا لنموذج "التقدم" الجديد كان ينبغي أن ينظر إلى هذه الحضارات في نظام تصاعدى على النحو الذى "تقدمت" به الروح الإنسانية. لكنه، على غرار ماكان واردا في كل مشروعات التطور التاريخي، وبخاصة عند هيجل وماركس، كان ينظر إلى كل مرحلة على أنها بدأت "تقدمية" من وجهة النظر المنفعية، لكنها انحدرت فيما بعد إلى حالة من الركود ومناهضة القوى الجديدة. وهكذا نظر تيرجو إلى مصر والصين بداءة على أنهما طليعتان، فهو يقول عنهما "إنهما تقدمتا نحو الكمال بخطوات عظيمة"[٣٢].

ولقد كان المفهوم عن المصريين والصينيين أنهم رياضيون وفلاسفة وميتافيزيقيون، غير أن الغيبيات والدوجماطيقية الكهنوتية قد استنزفت للأسف حيوية هذه "العلوم" في كل من الحضارتين. ومثلما حاول الأسقف واربرتون أن يبرئ ساحة الكهنة صدروا منه عن "تضامن كهنوتي"، فكذلك اغتبط المثقفون من أمثال تيرجو وكوندرسيه لامتلاكهم

عصاً أخرى يضربون بها ظهر الكهنة. ذلك أنه فى هذا الصدد، وكما هو الحال فى العالم الحديث، كان يُنحى باللائمة فى حصول الركود على الكهنة إلى حد كبير(٣٣). غير أن تيرجو اختلف مع أصحاب المذهب الطبيعى الذين أعجبوا بالصين المعاصرة فى أنه وضع هذه الدولة فى عداد الأمم السالفة، وقد وضعه هذا الجزء من المشروع "التقدمى"، أو بالأحرى أبقاه، قريبا جدا من صورة المصريين القديمة بما فيها من ارتداد، بمعنى أنه كان لهم دين خالص حقيقى، يحتمل أن يكون قد جاءهم من عند الإسرائيليين، لكنهم قد ضيعوه.

كذلك نظر تيرجو إلى الركود على أنه حصل نتيجة لإستبداد الحكومة فى مصر والصين، ولو أنه، مثل مونتسكيو الذى عزا ذلك إلى ماترتب على ماطرأ على أحوال الرى من تحسن ظاهر، يقرر أن حكومتى مصر والصين لم تكونا على درجة من السوء كالتى كان يمليها مايظهر من حرارة مناخهما، أو كالتى كانت عليها الصيغ المحمدية* (٣٤). كذلك فإن تيرجو – مثل بروكر وأكثر مفكرى القرن الثامن عشر – حشر الفيثاغوريين والأفلاطونيين المحدثين، ومن ضمنهم أفلاطون نفسه، حشرهم فى زمرة الميتافيزيقيين الأسيويين ذوى التفكير المتردى(٣٥). وعنده أن المراحل الأعلى لتقدم الروح الإنسانية بدأت بمنظور أرسطو، وأستمرت بطريق مباشر إلى بيكون وجاليليو وكيلر وديكارت ونيوتن وليبنتز(٣٦). وفيما يخص بلاد اليونان فى هذا الصدد اعتقد تيرجو أن أحدا لم يشهد ظهور فلاسفة فيها إلا بعد انقضاء عدة قرون، وذلك بالرغم مما كان يحفز تيرجو من تفكير فى أحوال انعدام الوحدة والحرية فى تلك البلاد(٣٧).

وقد كانت عظمة اليونان الحقيقية عند تيرجو تكمن فى الشعر الذى كان يأخذ أخذا مباشرا من ثراء اللغة اليونانية. وهذا الثراء قد تأتى لهذه اللغة...

... لأن الفينيقيين الذين كانوا يسكنون ساحلاً قاحلاً قد جعلوا من أنفسهم وسطاء للتبادل بين الشعوب. وقد إنتشرت سفنهم فى أرجاء البحر المتوسط، وبدءوا فى

---

* بالرغم من أن هذه العبارة لا تعبر بالضرورة عن رأى مؤلف الكتاب، فإننا نرى فيها إنعكاسا واضحا لما شاب معرفة مفكرى القرن الثامن عشر بالإسلام من أخطاء، وماترتب على هذه الأخطاء من تحامل فى الرأى نراه واضحا عند مونتسكيو وفولتير. (المترجم).

إظهار الأمم بعضها لبعض، كما أكملت علوم الفلك والبحرية والجغرافيا بعضها بعضا، وأمتلأت شواطئ اليونان وآسيا الصغرى بالمستعمرات. وقد تكونت الأمة اليونانية من اختلاط هذه المستعمرات المستقلة بالشعوبَ الأقدم فى بلاد اليونان وبقايا الغزوات الهمجية المتتابعة. ومن هذه الأخلاط المركبة، تكونت هذه اللغة، فصيحة رنانة، لتكون لغة لكل الفنون(٣٨).

وقد كان هذا الترخص فى إنكار فضل المصريين ولصالح الفينيقيين إرهاصاً بمواقف ظهرت فى المستقبل تخص الأهمية النسبية لهؤلاء الفينيقيين. كذلك يعكس كلام تيرجو على نحوٍ آخر اتجاه البحث اللغوى المعاصر له والذى سبق أن ذكرناه بخصوص بارتلمى* ، كما يبدو أن مشروع تيرجو يعكس تأملات له فى أن تكون اللغة الفرنسية قد تألفت أصلاً من خليط من اللغات الكلتية واللاتينية والجرمانية(٣٩)، كانت هذه الصورة لا تؤثر على قدرة الفرنسية على الصمود أمام منافسة الصورة الذاتية المساوية لليونانية بوصفها لغة "نقية" على نحو ماتبدو عليه الصورة المثالية للغة الألمانية. على أن نقاء اللغة مسألة بعيدة الإحتمال للغاية، ليس من أجل أسباب جغرافية وتاريخية فحسب، بل ولأسباب لغوية أيضاً على نحو ما أوضح تيرجو.

وفيما أعلن تيرجو ومعاصروه الرؤية الجديدة "للتقدم" وقاموا بصياغتها، إحتفظوا بمشاعر الإحترام إزاء المصريين والفينيقيين، ولم يجعلوا من حكايات إستعمارهم لبلاد اليونان(٤٠) وتأثيرهم عليها حضاريا موضعاً لتساؤل قط. ومع ذلك فإن إعمال الأنموذج "التقدمى" فكريا كان قاتلا بالنسبة إلى مكانة المصريين حقا، لأن أقدميتهم الزمنية التى كانت من قبل من أعظم ما يُحسب لهم أصبح عندئذ أمرا يُحسب عليهم.

وكان مايقابل تردى مكانة مصر هو ارتفاع شأن اليونان على الناحية الأخرى. لكنه قبل أن نأتى إلى تناول هذه النقطة، ينبغى أن نتناول العاملين الآخرين اللذين ساعدا رد الفعل المسيحى والأنموذج "التقدمى" فى إسقاط النموذج القديم، وأعنى بهما النزعة العنصرية ثم الرومانسية.

---

* أنظر ماسبق ص ٣٠٣-٣٠٤.

توجد فى كل الثقافات درجة مامن التحيز لصالح الشعوب التى يأتى ظهورها على نحو غير معتاد، وفى كثير من الأحيان توجد درجة ما من التحامل ضدها عبر أن شمولية النزعة العنصرية وتركزها عند الأوربيين الشماليين والأمريكيين وغيرهم من الإستعماريين منذ القرن السابع عشر قد جاوز كثيرا الحد المعتاد بحيث أنه يحتاج إلى شئ من التوضيح الخاص.

ومن العسير القول بما إذا كانت النزعة العنصرية قوية بشكل غير عادى أم لم تكن كذلك قبل القرن السادس عشر، وهو الوقت الذى دخل فيه الأوربيون الشماليون للمرة الأولى فى صلات دائمة مع شعوب من قارات أخرى. ففى الأغانى الشعبية الباكرة المعادية للسامية التى تذكر مصرع السير ليتل هيو Sir Little Hugh المزعوم، لا يبدو أنه كان ينظر إلى اليهود الأشرار فيها على أنهم داكنو البشرة على نحو خاص[٤١]. بل إن من الممكن أنه بإنتشار الفرنسيين والإيطاليين بعد الغزو النورمندى كان لون البشرة الداكن ينم عن وضعية رفيعة. فكانت تلك الأهازيج الشعبية الباكرة تقابل أحيانا مابين الفتاة الشقراء الفقيرة والفتاة السمراء الثرية. ومن ناحية أخرى فليس من شك فى أنه كان ينظر إلى "الفتاة الشقراء" على أنها هى الأرفع أخلاقيا. وفى أناشيد الأختين التى يبدو أن لها سوابق أسكندنافية بالغة القدم نرى تأكيدا على صورة الأخت السمراء الشريرة فى مقابل صورة الأخت الشقراء الطيبة[٤٢].

كذلك كان يجرى الربط بشكل واضح فى القرن الخامس عشر دون شك بين البشرة الداكنة والشر والدونية. حيث قوبل القادمون الجدد من الغجر بشعور من الخوف والكراهية من أجل بشرتهم السمراء ومن أجل قدراتهم الجنسية المزعومة فى أن معا[٤٣]. وسواء أكان هذا الشعور "بالآخر" الأسمر واضمار الكراهية له شعورا مكثفا على نحو غير عادى فى أوروبا الشمالية إبان العصور الوسطى أم لم يكن، فإن من المقبول به على وجه العموم أن نزعة عنصرية واضحة قد تنامت بعد عام ١٦٥٠. وأن هذه النزعة تصاعدت بزيادة النشاط الإستعمارى الإستيطانى فى أمريكا الشمالية وما أقترن به من سياسة إبادة الأمريكان الأصليين وسياسة استرقاق الأفارقة. وقد وضعت كل من

هاتين السياستين "الجمعيات البروتستانتية أمام مشكلات أخلاقية، حيث كانت مساواة البشر جميعا أمام الله، والحرية الشخصية قيماً أساسية لدى تلك الجمعيات ، ولم يكن من الممكن التخفيف من هذه المشكلات إلا بنزعة عنصرية قوية فقط.

وكان الكاتب الكلاسيكى الذى يُلتجأ إليه غالبا من أجل تبرير الرق هو أرسطو الذى تحدث حديثا ضافيا مؤيدا إياه. وقد اقترنت جاذبية حديث أرسطو عن ذلك بتلك الحقيقة، وهى أن أعماله صدرت عن إعتقاد لديه بأن اليونان كانوا متفوقين أصلاً على سائر الشعوب الأخرى، فهو يقول:

إن العناصر التى تسكن المناطق الباردة وسكان أوروبا ممتلئون جرأة وعاطفة، ولكن تنقصهم البراعة والقدرات العقلية شيئاً ما، ولهذا السبب ظلت هذه العناصر مستقلة على وجه العموم، فى حين أفتقدت القدرة على الإندماج سياسيا وعلى حكم الآخرين. ومن ناحية أخرى كان لدى العناصر الأسيوية العقول والبراعة معا، لكن كانت تعوزهم الشجاعة وقوة الإرادة، ولذلك ظلوا مستعبدين خاضعين. أما العنصر اليونانى الذى كان يحتل موقعا جغرافيا وسطا، فكان يملك قسطاً من الجانبين، ومن ثم ظل يحيا حرا، مالكا لأفضل النظم السياسية، كفئا لحكم الآخرين(٤٤).

وبهذه الطريقة وصل أرسطو مابين "التفوق العنصرى" والحق فى استعباد الشعوب الأخرى، وبخاصة تلك الشعوب التى لديها "ميول إلى العبودية".

ويبدو أن إدراكاً مماثلا للفروق "العنصرية" كان أساسيا فى فكر جون لوك فيلسوف حزب الهويجز البريطانى فى أخريات القرن السابع عشر. وليس من شك فى أن لوك الذى كان هو شخصيا ضالعا مع مستعمرات أمريكية تأخذ بمبدأ ملكية العبيد، قد كان شيئاً من قبيل مانسميه الآن بالعنصرى، مثلما كان دافيد هيوم فيلسوف القرن الثامن عشر العظيم. والذى يرد علينا فى مجال النقاش هو ما إذا كانت مواقفهما تلك قد أثرت فى فلسفتيهما أم لا، لكن مايذهب إليه هارى براكن **Harry Bracken** ونوام تشومسكى **Noam Chomsky** فى هذا الشأن يبدو معقولا مقبولا(٤٥).

وقد كان ثبات لوك على مبدأ الحط من شأن السكان الأمريكان الأصليين أمراً

ضروريا بالنسبة إلى مذهبه السياسى. لقد كانت هناك حاجة إلى الأراضى التى كان يقطنها الأهالى الأصليون لتكون برية شاسعة توضع فى متناول المستوطنين الإنجليز وغيرهم. وكانت إمكانية تحقق مثل هذا الإستيطان أمرا ضروريا لإقامة الدليل على أن البشر كان أمامهم الخيار فى أن ينضموا أو لا ينضموا إلى رابطة العقد الإجتماعى بكل ماينطوى عليه ذلك من أوجه عدم المساواة الواضحة[٤٦]. هذا وقد رفض لوك تبرير إسترقاق شعب من ذات الجنسية، ووصف ما قد يظهر على أنه استعباد من هذا النوع بصفة "الإكراه على أعمال شاقة". وعنده - وعند أكثر مفكرى العصر مثله - أن الإسترقاق يمكن تبريره فقط عندما يكون نتيجة الوقوع فى الأسر، باعتبار أنه البديل لما يحق أن يلحق (بالأسير) من الموت فى حرب عادلة[٤٧]. وقد صُنّفت هجمات الأوربيين المسيحيين على الوثنيين الأفارقة والأمريكان على أنها "حروب عادلة"، لأن هؤلاء لم يكونوا يدافعون عن ملكيتهم الخاصة بل عن مجرد "أرض يباب". وفضلاً عن ذلك كان لدى لوك اعتقاد غريب ومريح كذلك، وهو أن الأفارقة والأمريكان لم يمارسوا الزراعة، وأن حق امتلاك الأرض إنما يتأتى فقط بممارسة فلاحتها[٤٨]. هذا إلى ما كان المخطط العام يسمح به من إتخاذ الأوروبيين من السود عبيدا. وعلاوة على ذلك فإن وجود أعداد كبيرة من العبيد الأفارقة قد أدى فى حد ذاته إلى الإعتقاد بأنهم "عبيد طبيعيون" بالمعنى الذى قصده أرسطو.

والحق أنه عم فى الثمانينيات من القرن السابع عشر رأى يقول إن الزنوج لا يرقون إلا بمقدار حلقة واحدة فوق القردة السّعادين - وهى كذلك من إفريقيا - وذلك فى السلسلة الكبيرة من المخلوقات[٤٩]. ومما جعل هذا الضرب من التفكير أيسر هو إنكار هيوم مفهوم "الأنواع" من الناحية الموضوعية ورأيه فيه على أنها مفاهيم ذاتية. وقد كان يتشكك بوجه خاص فى التحديد غير الملائم لفئة "الإنسان"، حيث يقول:

> إننى لا أتصور شيئا من تلك التعريفات التى نملكها لكلمة إنسان،
> كما لا أتصور أن التوصيفات الموضوعة لهذا النوع من (الحيوان)
> هى توصيفات كاملة مضبوطة بحيث ترضى شخصاً متدبراً ممحصاً،
> بَلَه أن تلقى اتفاقاً عاماً..[٥٠].

وكان هذا الموقف يتناقض تناقضا صارخا ليس فقط مع ما هو وارد في الكتاب المقدس من "أن الله صور الإنسان على صورته"، بل كذلك مع إصرار ديكارت على التمييز تمييزا فئويا بين الحيوانات التي تفكر والإنسان الذى يفكر. وهكذا بدأ أن التجريبية (الأمبيريقية) تزيل عائقا (واهيا في الواقع) من وجه النزعة العنصرية، غير أنه ليس ثمة علاقة بالضرورة بين الأمبيريقية والعنصرية(٥١).

وصفوة القول أن من المؤكد أن لوك وأكثر مفكرى القرن الثامن عشر المتحدثين بالإنجليزية مثل دافيد هيوم وبنيامين فرانكلين كانوا عنصريين، وهم قد عبروا بصراحة عن الآراء الشعبية بأن لون البشرة الداكن مقترن بالتدنى العقلي والروحى. وفى حالة هيوم، تفوقت النزعة العنصرية على قواعد الدين المتعارف عليها، حتى أنه ليعتبر رائدا للرأى القائل بأنه لم يكن ثمة خلق واحد للبشر وإنما خلق متعدد ؛ "ذلك أن مثل هذا الأختلاف الدائم والمطرد لا يمكن أن يقع في الكثير من البلاد والكثير من العصور لو أن الطبيعة لم تجعل هنالك تمييزا بين تلك السلالات من البشر"(٥٢). ولعل مايُظهر تمركز النزعة العنصرية فى المجتمع الأوربى بعد عام ١٧٠٠ تلك الحقيقة، وهى أن هذا الرأى فى "التعدد السلالى" للأصول البشرية قد استمر ينمو فى القرن التاسع عشر حتى بعد إحياء المسيحية.

ولم تكن النزعة العنصرية بهذا الوضوح فى فرنسا فى القرن الثامن عشر، بيد أن المخطط الأرسطى - والمنحول على أفلاطون - عن حتمية التأثير المناخى والطبوغرافى على العناصر البشرية، والذى تخلل عمل جان بودان Jean Bodin فى القرن السادس عشر، قد إنتعش فى القرن الثامن عشر(٥٣) على يد مونتسكيو. وقد نال مونتسكيو الشهرة فى عام ١٧٢١ من خلال كتابه "الرسائل الفارسية" وهو فى مستوى من هذا الكتاب يستخدم شخصيات فارسية مرموقة لينتقد أوروبا ويتهكم عليها. وفى مستوى آخر منه يرسم صورة لأوروبا على أنها القارة "العلمية" و "التقدمية". وتفسير هذا التفوق عنده أنه نتيجة للمناخ الملائم المعتدل. وقد وردت آراء مونتسكيو الموالية لأوروبا والمعادية لآسيا وإفريقيا بشكل أوضح فى كتابه "روح الشرائع" الذى نشر فى عام ١٧٤٨.(٥٤)

وفى كتاب "العقد الإجتماعى" الذى نشر فى عام ١٧٦٢، هاجم روسو هجوما

عنيفا أى تبرير لمبدأ الإسترقاق، لكنه من ناحية أخرى تابع مدرسة الحتمية الجغرافية، إذ اعتقد أن الفضيلة والكفاءة السياسية لأى شعب تعتمد على المناخ والطبوغرافيا. وقد كان روسو مواليا لفكرة مركزية أوروبا، وكان إهتمامه بمصر والصين إهتماما قليلا بصورة لافتة للنظر، وتلك خصلة استمرت لدى من جاء بعده من الرومانسيين الذين انصرف ولعهم دائما تقريبا إلى شمال أوروبا بأصقاعه الجبلية الغائمة، وهو ماكان ينظر إليه على أنه المستودع الحقيقى للفضيلة الانسانية.

الرومانسية

وأعتقد أن النزعة العنصرية كانت هى العامل الثالث الكبير الذى يأتى من بعد عاملى الدفاع عن المسيحية وفكرة "التقدم"، وذلك من جملة العوامل التى يُعزى إليها سقوط النموذج القديم. فأما رابع هذه العوامل فهو الرومانسية. ولكى نسوق الأمر ببساطة نقول إن الرومانسية كانت تعارض حركة الإستنارة وتقاليد الماسونية فى تأكيدها على أن العقل غير كاف لتناول الجوانب المهمة من الحياة والفلسفة، كما كانت تهتم بما هو محلي وخاص أكثر مما تهتم بما هو عالمي وعام. وينبغى كذلك أن نبين تناقضاً ما نورده هنا بتبسيط شديد ولكنه مفيد. وهو التناقض بين حركة التنوير فى القرن الثامن عشر بما فيها من اهتمام بالإستقرار والنظام، والرومانسية بما فيها من نزوع شديد إلى مسيرة الزمن والتطور "التقدمى" من خلال التاريخ. ولعل من الأمثلة البارزة على منجزات حركة التنوير تحديد سواحل العالم موقعة على خرائط مضبوطة، وترتيب لينايوس Linnaeus * المنظم للأنواع الطبيعية، والدستور الأمريكى الذى كان يُفترض أنه يدوم إلى الأبد.

وإلى جانب المنجزات غير العادية التى حققها العلم الطبيعى إبان فترة سيادة الرومانسية من عام ١٧٩٠ إلى عام ١٨٩٠، وُجد اهتمام بالغ بالتاريخ. وفى كل من هذين المجالين كان النموذج الرئيسى المستخدم للتوضيح هو نموذج "الشجرة" حيث هيأت "الأشجار" الصورة الرومانسية المثالية، وجدنا ذلك فى نظرية داروين فى التطور

* لينايوس Linnaeus (١٧٠٧-١٧٧٨) عالم النبات السويدى، وكان هو وبوفون هما رائدى علم الأحياء فى تلك الفترة. (المترجم).

وفى مسألة عائلة اللغات الهندية - الأوروبية حيث هنالك أشجار تضرب بجذورها فى تربتها الخاصة وتتغذى فى ظل أجوائها الخاصة، وهى فى الوقت نفسه تحيا وتنمو، وتتقدم ولا ترجع القهقرى أبدا. وعلى نحو ما ذكرناه آنفا عن تصور التاريخ على أنه ترجمة حياة، فكذلك الشجرة لها ماض بسيط وحاضر ومستقبل مركبين متشعبين. ومع ذلك فقد كان لصورة الشجرة هذه عيوبها عند تناول التاريخ الأوربى واليونانى. وسوف أعود إلى ذكر هذه المسألة فيما بعد(٥٥).

وعلينا أن ندرك أنه بالرغم من أثر روسو الهائل فإن الحركة الرومانسية فى فرنسا لم تكن بذات القدر من القوة مثلما كانت فى بريطانيا وألمانيا. ولذلك فإن من يريد أن ينظر فى تطور الحركة فى مداها الأبعد فعليه أن ينظر إليه فى هذين القطرين.

ونبدأ بألمانيا، وهى قد مرت فى بواكير القرن الثامن عشر بواحدة من أشد الأزمات التى تمس هويتها القومية. إذ أنه على مدى يزيد على القرن منذ نهاية حرب الثلاثين عاما فى عام ١٦٤٨، وعلى نقيض واضح مما وقع لفرنسا وهولندا وانجلترا، كان هناك دمار حربى وتمزق سياسى وتخلف أقتصادى. وشهدت الفترة نفسها نهوض فرنسا عسكريا وثقافيا إلى درجة جعلتها تبدو وكأنها على وشك أن تصبح "روما جديدة" يمكن أن تستوعب أوروبا كلها(٥٦). وكانت الفرنسية هى لغة وثقافة البلاطات الألمانية، بما فى ذلك بلاط فردريك الأكبر فى بروسيا، حيث صدرت أكثر الكتب التى نشرت فى ألمانيا فى النصف الأول من القرن باللاتينية والفرنسية. وهكذا كان هناك خوف تردد صداه عند الفيلسوف الرياضى ليبنز فى أواخر القرن السابع عشر وعند بعض الوطنيين فيما بعد، وهو خوف كان له مايبرره من أن اللغة الألمانية لن تتطور إلى لغة جديرة بأن تستخدم فى المحاضرات الثقافية والفلسفية، بل إن من الممكن أن تختفى كلية أمام مد اللغة الفرنسية على نحو ما جرى للغة الجرمانية الفرنجية التى كان يتكلمها حكام فرنسا الأوائل، فكانت اللغة الألمانية والشعب الألمانى يبدوان وكأنهما يواجهان خطرا داهما(٥٧).

وكانت أهم استجابة لهذه الأزمة من جانب الرومانسيين الألمان هى محاولة إعادة الألمان إلى أصولهم الثقافية وخلق حضارة ألمانية أصيلة تنبع من التربة الألمانية ومن

الشعب الألمانى. ووفقا للآراء الرومانسية والتقدمية الجديدة، كان ينبغى أن يُنظر آنذاك إلى الشعوب فى سياقيها الجغرافى والتاريخى. وقد تغيرت صورة عبقرية العنصر أو الروح المتعلقة بأرض ما وبشعبها تبعا "لروح العصر" أو للتساتيجيست Zeitgeist إذا جاز لنا أن نستخدم هذه الكلمة التى تطورت فى عقد الثمانينيات. وقد كانت أقوى شخصية اهتمت بهذا الجانب من الحركة الرومانسية هو يوهان جوتفريد هردر J.G.Herder الذى كانت له أهميته كذلك فيما يتعلق بالحركة الهيللينية الجديدة وبتطور الدراسات اللغوية. وقد ظل هردر نفسه يجول فى إطار من حدود عالمية لحركة التنوير وذلك من حيث تأكيده على ما ينبغى من تشجيع كل الشعوب على استكشاف روح العبقرية فيها وتطويرها وليس الشعب الألمانى فقط(٥٨). لكن الاهتمام بالتاريخ والخصوصية المحلية وازدراء العقلانية أو "العقل الخالص" - وهى الأمور الواضحة فى أفكار هردر وأولئك المفكرين الألمان فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، مثل كنت Kant وفشته Fichte وهيجل Hegel والأخوين شليجل Schlegel - قد أمدت الشوفينية والنزعة العنصرية فى القرنين التاليين بقاعدة صلبة.

أوشان وهوميروس

وقد كان يُنظر إلى اللغة وإلى الأغنية الشعبية على أنهما أنقى ما فى جوهر "عنصر" ما، وقد أُعتبرا من الأمور غير الثابتة بل المتحركة بل "الحية"، الناقلة للشعور وليس للعقل. وفضلاً عن ذلك، كان هناك الإحساس بأنها هى الأمور المعبرة ليس عن العنصر بأسره فحسب، وإنما عن أكثر فترات هذا العنصر حيوية ودلالة على خصائصه أيضاً، وهى فترة "طفولته" أى مرحلته البدائية. ومن هذه الوجهة نركز على القصائد والأغنيات الشعبية.

ففى مجال ما للأغنية والملاحم من علاقة بالأمة جاء الحافز الرئيسى للحركة الألمانية هنا من بريطانيا أو بصورة أكثر تحديدا من اسكتلندا. ذلك أن قانون الإتحاد مع انجلترا فى عام ١٧٠٧ والهزائم التى لقيها مدعى العرش القديم وابنه الأمير شارلى فى

١٧١٥ و ١٧٤٥، وانحطـام الثقافـة الغيليـة Gaelic * فـي المرتفعـات قـد أوجبـت أن تعيـد القوميـة القديمـة تنظيـم صفوفهـا بصـورة أساسـية. وسـارعت الطبقـة العليـا مـن الاسكتلنديين المتحدثين بالإنجليزية إلى إعلاء مثل أدبى سليم للقومية اقترن فيه الحنين إلى البراءة المفتقدة بعبادة ماهو بسيط ومتخلف قاصٍ بعيد[٥٩]. وقد كانت التعبيرات الفنية الرئيسية لذلك هى القصائد والأغنيات الشعبية الأصيلة أو التى تمت صياغتها حديثا.

وحتى ذلك الحين، كان أكثر ماانتج عن هذه الحركة تأثيرا هو انتحال جيمس ماكفرسون James Macpherson لملحمة غيلية قيل إنها لشاعر من القرن الثالث اسمه أوشان وكانت تدور حول الأعمال البطولية التى قام بها والده. وقد نشرت أشعار أوشان فى عام ١٧٦٢، وبالرغم من السرعة التى انكشف بها زيفها وانتحالها فقد ظلت هى أكثر الأشعار المقروءة انتشارا فى أوروبا فى خلال الأعوام الخمسين التى تلت. وقد سبق أن ذكرنا (أنظر ص٢٢١) أنها كانت من جملة الكتب التى حملها نابليون معه إلى مصر. بل إنه حتى قبل الأشعار الأوشانية، كان الأسقف بيرسى Percy قد أخرج كتابه بعنوان "بقايا الشعر الإنجليزى القديم"، فكان لهذه المجموعة من القصائد الاسكتلندية والإنجليزية الأصيلة أثرها القوى أيضاً فى أنحاء أوروبا وبخاصة فى ألمانيا، حيث ألهمت هردر أن يقود حركة جديدة لجمع الأغانى الشعبية ونشرها[٦٠]. وقد تكاملت حركة الأغنية الشعبية هذه مع مدرسة "العاصفة والدفع" التى بدأها جوته وكان مدارها حول الروايات (وليلحظ هنا أن اللفظ الدال على الرواية فى اللغة الألمانية هو رومان Romane ومنه أشتق لفظ الرومانسية).

وفى خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر اعتبر أوشان أفضل من هوميروس. لكن ذلك لا يعنى أن هوميروس لم يكن محبوبا. ذلك أنه كان قد شغل فى بلاد اليونان القديمة مكانة بالغة الخصوصية حيث كان يشار إليه على أنه "الشاعر"، وكانت ملاحمه مادة أساسية فى التعليم اليونانى، بل بالنسبة إلى المعنى نفسه المتضمَّن فى أن يكون المرء يونانيا[٦١]. وفى روما كان التعليم اليونانى يبدأ دائما بهوميروس، وفى عصر النهضة الأوروبية، وبالرغم من غلبة المأثور التقليدى الأفلاطونى – المصرى، كان

* النسبة هنا إلى الغيليين وهم سكان المرتفعات الاسكتلندية والإيرلندية. (المترجم).

هناك اهتمام كبير بهوميروس، لاسيما بين الدارسين البروتستانت بفعل ارتباطهم باللغة اليونانية من حيث هى لغة غير رومانية. وعلى نحو ما كتب تانيجى لوففر Tanneguy Le Fèvre أحد الباحثين الهيجونوت Huguenot البارزين ووالد آن داسييه معبرا عن ذلك فى عام ١٦٦٤ قائلا: "إن القدماء، من جغرافيين وخطباء وشعراء ولاهوتيين وعلماء طب وفلاسفة أخلاق، بل ومن القادة العسكريين - كل فيما يخص حرفته - كانوا ينظرون إلى هوميروس على أنه المصدر الفائق للحكمة"(٦٢).

أما مدام داسييه نفسها، فقد ترجمت هوميروس إلى الفرنسية وناصرته ضد أنصار الحديث والجمهور العام الذى كانت تعتقد أنه متحيز ضده. وقد تحولت هى وزوجها إلى العقيدة الكاثوليكية فى توقيت كان مواتيا تماماً قبل أن يتم حظر المذهب البروتستانتى مباشرة، وهو تحول يصعب التوفيق بينه وبين احتفالها بالأخلاقيات والمبادئ السامية، غير أن ماقلل من هذا العناء فيما يبدو هو استمرار ولائها لولع أبيها الشديد بهوميروس.

وفى عام ١٧١٤ نشرت مدام داسييه كتابها الذى أحدث أثراً بليغا بعنوان "أسباب فساد الذوق"، وفيه هاجمت أنصار الحديث، مثل تيراسون Terrasson، الذين انتقدوا هوميروس واليونان من حيث أنهم كانوا بدائيين أجلافا إذا ما قورنوا بالفرنسيين المحدثين أو بالمصريين القدماء. وقد نظرت داسييه إلى هوميروس على أنه أقدم شاعر عبر عن مشاعر عصر لم يتطرق إليه الفساد. لكنها لكى تجعل من هوميروس الشاعر الأقدم، كان عليها أن تنكر ليس أهمية الحضارة المصرية فحسب، بل أهمية الحضارة "العبرانية" أيضاً(٦٣). غير أن مدام داسييه وأنصار القديم لم يفلحوا فى إعلاء شأن اليونان فى فرنسا مركز حركة التنوير، فعلى حد ما كتب فولتير فى أواسط القرن: "إنه ليبدو لى أن اليونان لم يعودوا موائمين للعصر، وهو ماصدق منذ أيام مسيو ومدام داسييه(٦٤).

لكن الأمور كانت مختلفة بالنسبة إلى البلاد الأخرى. فالعالم الإيطالى الحالم جيوفانى باتيستا فيكو G.B.Vico الذى كان يكتب فى العشرينيات من القرن الثامن عشر، كان ينظر إلى هوميروس على أنه خلاصة "الحكمة الشعرية" إبان المرحلتين الأولى والثانية من مخططه التاريخى وهما المرحلتان "الإلهية" و "البطولية"(٦٥). وجاء من بعده فى

الثلاثينيات توماس بلاكويل Thomas Blackwell معلم ماكفرسون الذى ابتدع أشعار أوشان ليرى فى هوميروس شاعرا لعصر بدائى ويرى فى اليونان طفولة أوروبا(٦٦).

وهذه الفكرة الجديدة التى تطورت تطورا سريعا فى القرن الثامن عشر عن "الطفولة"، تلتقى عند نقطة التقاطع مابين الرومانسية وفكرة "التقدم". وقد كان ينظر إلى الطفولة على أنها فترة العاطفة والمشاعر الجياشة قبل فترة النضوج والعقل، بل على أنها فترة تخلو من الميل الجنسى والفساد عند سن البلوغ. وفضلا عن ذلك فهى فترة الوجود بالقوة حيث التطلع إلى المستقبل دون إنشداد إلى الماضى. وهكذا مضى نمو فكرة الطفولة جنبا إلى جنب مع نمو الرومانسية وفكرة "التقدم". وقد كان المصدر الكلاسيكى الذى نشأت عنه صورة اليونان بصفة كونهم أطفالا هى محاورة "طيماوس" لأفلاطون التى يروى فيها - كما ذكرنا من قبل - خبر كاهن مصرى متقدم فى السن وهو يخاطب سولون قائلا" "أنتم معشر اليونان أطفال على الدوام: ليس ثمة شئ يُعرف بأنه يونانى قديم... إنكم دائما شباب فى أرواحكم، كلكم جميعا لأنه .... ليس عندكم من عقيدة واحدة يقال إنها قديمة"(٦٧).

ومثل هذه العبارة كانت بالنسبة إلى الدارسين فى العصور القديمة والوسيطة وعصر النهضة عبارة مُسفهة للغاية، بل إنه حتى أنصار الحديث فى القرن الثامن عشر كانوا يستطيعون تسفيه اليونان باعتبار أنهم طفوليون تافهون. لكنه مع ظهور فكرة "التقدم" كان من الممكن أن يتحول هذا لصالح اليونان، وهو ماحدث بالفعل.

النزعة الهيللينية الرومانسية

وكثيرا ماكان يُفترض أنه ما دامت الدولة تؤلف جزءاً من العالم الكلاسيكى فإن دراستها لبلاد اليونان القديمة أو إظهارها الإعجاب بها ينبغى أن ينظر إليه على أنه شكل من أشكال النزعة الكلاسيكية. لكن من الأجدى كثيراً أن ينظر إلى النزعة الهيللينية فى القرن الثامن عشر على أنها تقف فى جانب المعسكر الرومانسى. ذلك أن سادة التنوير من الجنتلمان كانوا مهتمين بمعانى النظام والإستقرار على امتداد مناطق واسعة، وهم فى عالمهم الذى عاصروه مالوا إلى الإهتمام "بالمناطق الكبيرة" مركزين محاولاتهم الإصلاحية

على فرنسا وروسيا وبروسيا، أما بالنسبة للعالم القديم فقد آثروا الدول القوية التى عُمرت فترات طويلة من الزمن، مثل الصين ومصر وروما. ومن ناحية أنهم كلاسيكيون، فإنهم قرءوا أكثر الكتاب اللاتين، لكنهم لم يقرءوا فى اليونانية إلا القليل، أو هم لم يقرءوا فيها شيئا بالمرة. لكن الطبقات العليا بدأت فى التسعينيات من القرن فى قراءة هوميروس فى نصه الأصلى. وهكذا جاءت النقلة من العقل إلى الشعور مصحوبة بنقلة من الإلتفات نحو روما الإمبراطورية إلى الإلتفات إلى بلاد اليونان الهوميرية والكلاسيكية.

وقد كان الرومانسيون يتطلعون إلى مجتماعات صغيرة فاضلة "نقية"، واقعة فى أماكن قاصية باردة مثل سويسرا وشمال ألمانيا واسكتلندا. وعندما كانوا يفكرون فى العالم القديم كان اختيارهم الطبيعى هو بلاد اليونان التى كان من الواضح أنها مؤهلة لذلك بحكم صغرها، كما كان من الممكن أن توصف دويلاتها – مع شئ من إعمال الخيال – بأنها فاضلة. أما نقائصها فى أمور أخرى، فكان يمكن التغاضى عنها إلى حين، وإن كان ذلك أمرا يتعذر بقاؤه على المدى الطويل. ولعل تحطيم النموذج القديم وإقامة النموذج الآرى يمكن أن يفهم على وجهه الصحيح، ومن نواحٍ شتى، على أنه محاولات لخلع هذه المُثل الرومانسية من حيث البعد والبرودة والتقاء على بلد مرشح لم يكن مواتيا للغرض[٦٨].

وقد وُجدت الرومانسية مع بداية حركة التنوير. وعند الأيرل شافتسبرى الثالث of Earl Shaftesbary، تلميذ جون لوك، نرى "الحساسية" ذات النزعة العالمية مقترنة بعقيدة فى الجمال وفى الصورة ومصحوبة بنزعة هيلينية جديدة[٦٩]. وقد ازدادت الرومانسية البريطانية المحبة لليونان فى الثلاثينيات عندما عقد بلاكول الصلة بين هوميروس واسكتلندا على نحو ما ذكر فى ص ٢٤٥. وفى هذا العقد من السنين نفسه تأسست جمعية الدلتانت Dilletenti التى بدأت، كما يوحى بذلك اسمها، ناديا إجتماعيا للشبان الأثرياء، لكن أهميتها ازدادت عندما أخذت تستورد التماثيل الكلاسيكية لتزدان بها بيوت النبلاء البريطانيين ومتنزهاتهم، ثم وسعت الجمعية دائرة نشاطها فى عام ١٧٥٠ بتشكيل لجنة لإجراء مسح شامل دقيق للأعمال الفنية الباقية

فى مدينة أثينا. وقد انعكس فى هذه اللجنة حماس شديد للفن اليونانى الذى لم يكن الأوربيون الغربيون حتى ذلك الوقت قد رأوه إلا فى نسخه الرومانية فحسب. وفى الوقت نفسه، بدأ النبلاء الجسورون يمدون رحلاتهم الكبرى من إيطاليا إلى بلاد اللفانت التى شملت بلاد اليونان[٧٠]. وقد كان فى استطاعة الباحثين المستنيرين أن يدرسوا الحقائق العامة عن العالم بقراءة الكتب وهم ينعمون بالراحة فيما يبحثون.

غير أن ذلك لم يكن يكفى لأن يشفى غُلّة الرومانسيين بما لديهم من اهتمامات بالمشاعر والخصوصية المحلية. كانوا ينشدون إلى جانب الخلود إلى الراحة فى الدراسة استنشاقاً إن أمكن لعبق الوثائق الأصلية وبقايا العصر والمكان الذى يبغون دراسته[٧١]. ففى الخمسينيات مثلا رحل روبرت وود Robert Wood إلى الإقليم الطروادى (المنطقة حول مدينة طروادة) حيث قرأ الإلياذة فى موقع أحداثها. وفى كتابه الذى ظهر فى عام ١٧٧٥ بعنوان "مقال فى عبقرية هوميروس الأصيلة وكتاباته"، نظر وود إلى هوميروس على أنه نتاج لأمة بذاتها فى بيئة طبيعية بذاتها أيضا. وبالرغم من أنه – خلافاً للرومانسيين المتأخرين – كان لا يزال يؤكد أن هوميروس كان شخصاً واحدا بذاته، فقد تابع المأثور القديم القائل بأن هوميروس كان ضريرا من أجل التأكيد على أنه كان أُميا. وقد كانت صورة هوميروس عند وود صورة "أوشانية" للغاية، بمعنى أنها صورة بدائية لذلك المنشد من الشمال، الشاعر المعبر عن طفولة أوروبا كلها وليس عن طفولة بلاد اليونان وحدها[٧٢].

وعند منتصف القرن، كان المزاج الرومانسى وفكرة مركزية أوروبا وفكرة "التقدم" آخذين فى خلق تحمس كبير فى بريطانيا لليونان الذين بدوا وكأنهم خُلقوا لتمثيل كل هذه المعايير. فعالم النحو الإنجليزى جيمس هاريس James Harris الذى كان مشغولا بالبحث فى اللغة المنطوقة (ومن المهم أن نلاحظ ذلك) كان يكره الشرقيين، كما أنه نظر إلى الرومان على أنهم أدنى ثقافة. وعلى العكس من ذلك كان يُجل اليونان. وقد كتب عنهم فى عام ١٦٥١ يقول:

فى مدى قصير من الزمن لا يتعدى القرن إلا قليلاً، أصبحوا ساسة ومحاربين وخطباء ومؤرخين وأطباء وشعراء ونقاداً ومصورين ونحاتين ومهندسين ثم (آخر الأمر)

فلاسفة، حتى أن المرء لا يستطيع إلا أن يسلم باعتبار تلك الفترة الذهبية عملاً من أعمال العناية الإلهية تكرمت به على الطبيعة البشرية كيما تظهر إلى أى حد من الكمال يمكن أن ترتقى سلالات البشر[٧٣].

هكذا كانت الفكرة عن "اليونان الربانيين" قد تشكلت من قبل، وأصبح ينظر آنذاك إلى تأخرهم فى الزمان وسرعة تطورهم ليس على أنها أمارات على ضحالتهم بل على أنها علامات على عظمتهم غير العادية. وعند عام ١٧٦٧ كان البريطانيون قد بدءوا يؤكدون تفوق اليونان على المصريين. ففى العام المذكور كتب وليام دف يقول:

لقد حققت العلوم فى بلاد اليونان تقدما سريعاً، وبلغت من التطور درجة رفيعة ... وإذا كان المصريون هم الذين اخترعوا فهذا يشهد لهم بأنهم بارعون أو حاذقون. لكن اليونان أظهروا مالديهم من عبقرية فائقة... ولقد كانت العلوم والفنون معروفة للصينيين على مدى عصور مديدة ... لكنهم لم يفعلوا (مثل ذلك)... [٧٤].

ولقد عاش باحث الكلاسيكيات صمويل مسجريف Samuel Musgrave حياة زرية ووضعه متفورد كما ذكرنا فى الفصل السابق "بالضحالة" فى البحث، وإن كان فيلاموفيتز - ملندورف قد ذكره بالتقدير فى كتابه بعنوان "تاريخ الدراسات الكلاسيكية"[٧٥]. وفى عام ١٧٨٢ نشر مسجريف كتابه "رسالة فى الميثولوجيا اليونانية"، وذهب فيه إلى أن الثقافة اليونانية ثقافة أصيلة أُرومية، بل أنكر المأثور الشائع بأن الديانة اليونانية مأخوذة عن مصر، وكان فى قوله هذا مستندا إلى مواربة لما ذكره لوكيانوس وهو سوفسطائى هجاء غزير الإنتاج عاش فى القرن الثانى الميلادى، وعلى أساس الإختلافات البينة بين الأسماء التى عرفت بها كل من الآلهة المصرية والآلهة اليونانية[٧٦]. غير أن متفورد أسقط حجج مسجريف كما رأينا، وإنما جاء اختراق الرومانسية للنموذج القديم فى هذه الناحية فى ألمانيا.

فنكلمان والنزعة الهيللينية الجديدة فى ألمانيا

وقد كان أعظم نصير لفكرة يفاعة اليونان ونقائهم عند منتصف القرن الثامن عشر هو الألمانى يوحنا يواقيم فنكلمان J.J.Winkkelmann فهذا الرجل الدءوب

فى عمله المستغرق فى هواجسه قد علم نفسه اللغة اليونانية فى وقت كانت فيه الدراسات اليونانية التى نشطت إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر قد ضعفت فى واقع الأمر. ولكى يبقى الرجل على مقربة من الأعمال الفنية التى عشقها وإن لم يكن قد رآها قط، تحول إلى الكاثوليكية وقضى أكثر سنى عمره فى روما حيث عمل قسيسا وخبيرا بالفن لدى الكرادلة الفارهين.

وقد رفض فنكلمان تحديداً الفكرة القائلة بأن اليونان إنصرفوا كلية إلى الفلسفة(٧٧). وإنما كان ماحققه اليونان من انتصار فى رأيه شيئاً أهم من ذلك بكثير وهو الجماليات. وفى وقت أسبق فى عام ١٦٠٧ كان باحث عظيم من علماء عصر النهضة وهو سكاليجر Scaliger قد حاول أن يضع تحقيباً لأربع مراحل من الفن والشعر عند اليونان، وهو تحقيب أقر له فنكلمان بالفضل عليه(٧٨)، ولو أن مخططه يبدو من نواح كثيرة أقرب إلى الأفكار المعاصرة له، من حيث أن التاريخ مقسم إلى مراحل، لاسيما تلك الفكرة التى أوردها تيرجو فى كتابه "تقدم العقل البشرى"، والتى تضمنت ثلاث مراحل تشابه كثيراً المراحل التى قال بها أوجست كونت Auguste Conte بعد ذلك بثمانين عاما وهى المراحل اللاهوتية والميتافيزيقية والعلمية(٧٩). وقد كان كتاب فنكلمان الذى نشر فى عام ١٧٦٤ بعنوان "تاريخ الفن القديم" هو أول محاولة للوصل بين تاريخ الفن وتاريخ المجتمع بمجموعه. وهو يرى أن الفن المصرى وصل إلى المرحلة البدائية فقط، وفيها كان الفنان مجبرا على تركيز إنتباهه على ماهو أساسى بالقطع(٨٠).

ويمضى هذا الرأى قائلا إن الفن المصرى لم يكن كاملا لأنه لم يكن يستطيع إلا أن يكون كذلك، لأن ظروفاً طبيعية واجتماعية كانت تعترض طريق تطوره. وفى مثال مبكر للغاية على التفرقة العنصرية الموجهة ضد المصريين، تابع فنكلمان أرسطو فيما زعمه من أن المصريين كانوا قوماً مُعوجِّى الساقين فطس الأنوف(٨١). ولذلك لم يكن لديهم نماذج فنية جميلة. وفى معارضة منه لكل المصادر الكلاسيكية، بل فى معارضته لمونتسكيو إلى حد ما، قرر فنكلمان أن موقع مصر الجغرافى لم يكن مواتيا لقيام ثقافة رفيعة، كما أدعى أن المصريين كانوا متشائمين فاترى الحمّاس، آخذا فى ذلك من أفواه هيرودوتوس وبلوتارخوس وديودوروس الصقلى وغيرهم من الكتاب القدامى ممن

أظهروا تعاطفا إزاء أفراحهم واتراحهم.

وفى هذه الآراء جانب يعكس رأيا كان سائدا فحواه أن السبب فى استسلام كثير من الشعوب فى القارات الأخرى أمام زحف الأوربيين هو أن عزم هذه الشعوب كان واهنا بفعل بيئاتها، ولأنها بحكم طبيعتها كانت ضعيفة سلبية(٨٢). وفيها جانب آخر يتضمن تقييما لحقيقة اهتمام المصريين البالغ بالموت، وهو اهتمام كان يفسر فى إطار النموذج "التقدمى" بأنه يعكس حقيقة أخرى هى أنه كان مقضيا أن تتفوق على مصر حضارات أكثر من حضارتها "حيوية"(٨٣).

ولم يكن تفضيل فنكلمان للفن اليونانى راجعاً لمجرد كونه قد جاء متأخرا من حيث التتابع التاريخى، لكن الرجل، فى عشقه المشبوب للهيللينية قد أحب كل جانب من جوانب الصورة اليونانية لديه، معتبرا أن الجوهرين الأثيرين فيهما هما الحرية والشباب(٨٤). كانت اليونان عنده هى خلاصة معنى الحرية، فى حين أن السلطة الملكية وروح المحافظة قد أعاقتا حركة الثقافه المصرية فغدت رمزا لجمود السلطة والركود، وهما أمران تصادف أنهما ليسا أوربيين أيضا. وكان نظام "دولة المدينة" اليونانى عند فنكلمان منطويا على معنى الحرية الذى لا يتسنى خلق فن عظيم بدونه. وقد أحب هو وأتباعه هذه الحرية وذلك الشباب لما فيهما من نضارة. وقد أكد على رقة الفن اليونانى ونعومته وعلى مافى الثقافة اليونانية فى مجموعها من "بساطة نبيلة" "وعظمة متلطفة" جاءت فى رأيه نتيجة لاعتدال المناخ اليونانى. وأكثر من ذلك، فإن عاملاً أساسيا فى عشق فنكلمان لليونان هو إعجابه باللواط عندهم. وقد كان هو نفسه لوطيا، وبه ظل يرتبط مابقى ملازما للنزعة الهيللينية الجديدة من تأثير العشق للجنس المماثل(٨٥).

وفى حين ظل فهم فنكلمان لليونان على أساس أنهم أحرار لطاف محبون للشباب فكرة رئيسة فى النزعة الهيللينية الجديدة، فقد كانت هناك صور أخرى لليونان حتى فى ذلك القرن الثامن عشر. ذلك أن الإعتقاد بما فى الثقافة اليونانية من خصائص مأساوية و "ديونيسية"، وهو اعتقاد بلغ أوجه فى أعمال نيتشه فى أواخر القرن التاسع عشر، قد كان واقعاً عند مفكرى القرن الثامن عشر، مثلما كان الحال عند الشاعرين هلدرلن Holderlin وهاينى Heine فى بداية القرن التاسع عشر(٨٦). وقد كان الإعجاب

بالدوريين بصرامتهم وتعطشهم للسلطة أثرا باقيا آخر للنزعة الهيللينية. غير أن كل هذه المدارس الفكرية التى وجدت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت متوحدة فى أفكارها عن العلاقة المقارنة بين مصر وبلاد اليونان: فمصر كانت تمثل مرحلة باكرة أدنى، مرحلة ميتة على نحو مستغرب للتطور الانسانى الذى رفعته العبقرية الأوروبية فى أرض هيلاس (اليونان) إلى مستوى ذى نوعية أرفع وذى حيوية أكثر.

وقد كان لعمل فنكلمان فعل السحر فى ألمانيا، وعلى حد ماكتب عنه مؤرخ الكلاسيكيات رودلف فايفر Rudolph Pfeiffer "لقد انقطعت الصلة بين المأثور اللاتينى التقليدى للحركة الانسانية، لتنمو حركة انسانية جديدة كل الجدة، وهى نزعة هيلينية جديدة حقا، كان فنكلمان فيها هو الذى بدأ، وجوته هو الذى أكمل، وفلهلم فون همبولت Wilhelm Von Humboldt فى كتاباته اللغوية والتاريخية والتربوية هو الذى نظّر. هذا وقد لقيت أفكار همبولت فرصة التأثير العملى عندما أصبح هو وزيرا للتعليم فى بروسيا، حيث أسس جامعة برلين الجديدة ومعهد التربية للدراسات الانسانية"[٨٧].

بل إن جوته الذى يعزى إليه بوجه عام تأسيس الحركة الرومانسية، قد كان فى حماس مفعم بالسرور يسمى القرن الثامن عشر قرن فنكلمان[٨٨]. وفى الثلاثينيات من القرن العشرين كانت الآنسة بتلر الباحثة الإنجليزية اللامعة المتخصصة فى الشئون الألمانية ترى فى فنكلمان الرمز الأول لما أسمته طغيان بلاد اليونان على ألمانيا[٨٩].

وقد كانت هذه النزعة الهيللينية الجديدة هى الإستجابة الكبرى الثانية فى مواجهة أزمة الهوية الألمانية فى القرن الثامن عشر، إلى جانب الرغبة فى العودة إلى الجذور الألمانية الأصيلة. وقد سبق أن ناقَشْتُ من قبل ذلك الادراك الذى ثبت على الأمد الطويل "للعلاقة الخاصة" بين اللغتين اليونانية والألمانية، وعن موقع اليونانية من حيث هى رمز دينى بروتستنتى مناوئ للاتينية الكاثوليكية. وفى القرن الثامن عشر، كان التهديد يأتى ألمانيا من جهة باريس التى كانت بمثابة "روما جديدة"، ومن اللغة الفرنسية بوصفها من اللغات الرومانسية. وبالإضافة إلى احياء هذا التحالف الثقافى القديم بين اللغتين اليونانية والألمانية، وُجد اتجاه جديد إلى تشبيه ألمانيا بهيلاس (اليونان)

الجديدة. وفي السبعينيات كان الأمر الآخذ في الوضوح أن بألمانيا قوة كامنة لأن تصبح مركزا ثقافيا مهما، لكن هذه القوة لم تكن واردة على الصعيد السياسي، لأن حروب فردريك الأكبر أقنعت المعاصرين بأن بروسيا لا تستطيع توحيد ألمانيا، وأن الإمبراطورية النمساوية غير مؤهلة لذلك سواء بسواء. وبدا وكان ما اتفق لألمانيا من اجتماع القوة الثقافية والضعف السياسي وافتقاد الوحدة إنما يشير إلى أنها لا يمكن أن تكون روما جديدة لكنها تستطيع أن تكون اليونان الجديدة.

وفي عقدى الستينيات والسبعينيات كتب ك.م. فيلنت* أهم كتاب المسرح في ذلك الأوان عدة مسرحيات عن اليونان[٩٠]. أما جوته فقد خلب اليونان لبه تماما، وقد قام في الحلقات الوسطى من عمره بعدة محاولات لتعلم اليونانية وإن لم تلق هذه المحاولات كبير نجاح[٩١]. وكان لدى هردر إعجاب عظيم بحرية الأثينيين ونزعاتهم الفنية الخلاقة، وقد كتب عن الشعر اليوناني وحث جوته على أن يعاود دراسته للغة اليونانية[٩٢]. والحق أن هؤلاء المفكرين والفنانين لم يكونوا في افتتانهم ببلاد اليونان على ذات القدر الذى كانه فنكلمان وعشاق الهيللينية الجدد إبان القرن التاسع عشر من بعد، لكن ليس هناك شك في أن صورة بلاد اليونان القديمة والعلاقة الحميمة بينها وبين ألمانيا الحديثة كانت آخذة في التمركز في الحياة الثقافية الألمانية، بما في ذلك "الأكاديمية" الناشئة حديثا آنذاك.

جوتنجن Göttingen

وينظر إلى فنكلمان بوجه عام على أنه مؤسس فرع تاريخ الفن. ومن المؤكد أن جوته تقبله على أنه باحث، لكنه لم يكن مقبولا لدى ذلك النوع الجديد من الأكاديميات المهنية "الإحترافية" التى بدأت في الظهور في ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر لاسيما في جنتجن. ويمكن اعتبار جنتجن بحق البذرة الأولى لكل الجامعات الإحترافية المتنوعة الحديثة فيما بعد، وقد تأسست في عام ١٧٣٤ على يد جورج الثانى ملك انجلترا ومنتخب هانوفر وأوقفت عليها منح سخية. وبحكم كونها مؤسسة جديدة كان في

* Christoph Martin Wieland (١٧٣٣–١٨١٣) شاعر من المعاصرين لجوته وقد قضى الشطر الأخير من حياته قريبا منه في فيمار. (المترجم).

استطاعة جنتجن أن تخلص من كثير من القيود الدينية والأسكولائية التى ظلت باقية فى الجامعات الأخرى، كما كانت - بحكم صلاتها ببريطانيا - قناة لتوصيل الرومانسية الإسكتلندية وفلسفة لوك وهيوم وآرائهما السياسية، وقد ذكرنا من قبل النزعة العنصرية عند هذين الفيلسوفين (أنظر ص٢٣٩-٢٤٠)(٩٣).

ويصح أن يقال إنه فى حين كانت "الإحترافية" المقصورة على فئة بعينها هى السمة المميزة للبحث فى جنتجن، كانت العرقية والعنصرية هما المبدأ الرئيسى الذى تجمعت فيه الدراسات. ولم يكن ذلك راجعا بالطبع إلى مجرد قيام الصلات الدراسية بانجلترا، بل كان مرده من ناحية أهم من ذلك بكثير إلى الرأى السائد فى المجتمع الألمانى المثقف فى جملته(٩٤). وبالرغم من إصرار أساتذة جنتجن على تأكيد مستوياتهم الأكاديمية الرفيعة وتفردهم واستقلاليتهم، فإن تأثرهم بكتاب لهم شعبتهم مثل فنكلمان وجوته ولسنج كان أمرا لا مندوحة عنه.

وقد كانت فكرة مركزية أوروبا واضحة بينه فى آراء واحد من مؤسسى الجامعة وهو كريستوف أوجست هيومان Kristophe August Heumann. وبوصفه رائدا للإحترافية الجديدة أسس هيومان مجلة علمية هى الوقائع الفلسفية (أو أعمال الفلاسفة) Acta philosophorum، وفى العدد الأول منها الصادر فى عام ١٧١٥ ذهب إلى أنه بالرغم من تفقه المصريين فى كثير من العلوم فإنهم لم يكونوا "متفلسفة"، وهو إدعاء رأينا من قبل أن معاصرى هيومان مونتسكيو وبروكر لم يجرءا على إبدائه، وهو أيضاً إدعاء كان جريئاً ومثيراً فى آن معاً، وذلك فى ضوء الإرتباط القديم الراسخ بين الحكمة أو الفلسفة philosophia ومصر(٩٥). وإنه لمن العسير أن نفهم تمييز هيومان تمييزا قاطعا بين "الفنون والعلوم المصرية" و "الفلسفة اليونانية" لأنه عرّف هذه الأخيرة بأنها "بحث ودراسة النافع من الحقائق المبنية على العقل(٩٦). ومع مافى هذا الرأى من افتقار إلى الدقة، فإن هذا فى حد ذاته هو الذى جعل ولا يزال يجعل الإدعاء بأن اليونان كانوا أول الفلاسفة إدعاء يكاد أن يكون من غير الممكن تفنيده.

والحق أننا لا نجد عند القدماء تأكيدا واحدا على أن اليونان كانوا وحدهم القادرين على التفلسف، وهو القول الذى عزاه كلمنت السكندرى إلى أبيقور ثم مضى يبين بُعد

هذا الزعم بُعداً بينا عن المصداقية[٩٧]. كذلك كانت هناك تلك العبارة التى أوردناها من قبل فى صفحة ٢٣٥[٩٨]. من رسالة الإبنوميس **Epinomis** والتى تشير إلى مقدرة اليونان على جعل كل شئ أصغر وأرق. غير أن هذا كله لا يقلل من اعتبارنا هيومان مجترءا على الطعن فى المأثور الراسخ القديم والحديث معا، وهو المأثور الذى رأى فى مصر والشرق موئل الحكمة والفلسفة.

وهناك قليل من الشك فى أن تكون آراء هيومان فى هذا الصدد مرتبطة بقوميته الألمانية واعتقاده فى مركزية أوروبا، فقد كان يحبذ كتابة الفلسفة بالألمانية، وحاول هو أن يفعل ذلك فى وقت لم تكن يُسمع فيه عن الألمانية تقريبا. كذلك كان هيومان من القائلين بالحتمية المناخية حتى قبل مونتسكيو[٩٩]، ففى رأيه أن الفلسفة ظهرت فى بلاد اليونان لأنه لم يكن من الممكن أن تزدهر فى مناخ بالغ الحرارة أو مناخ بالغ البرودة. ذلك أنه لا يستطيع أن يخلق فلسفة حقة سوى سكان المناطق معتدلة المناخ مثل بلاد اليونان وإيطاليا وفرنسا وانجلترا وألمانيا[١٠٠].

وهذه الآراء لهيومان سواء عن الأصل اليونانى للفلسفة أم عن قدرة اللغة على التعبير عن الفلسفة قد سبقت عصره بأكثر من خمسين عاما، لكن الذى بزَّ كتاباته عن تاريخ الفلسفة هى أعمال بروكر الضافية التى اتخذ فيها هذا الكاتب كما رأينا موقفا وسطا، لكنه لم ينكر على المصريين لقب "فلاسفة"[١٠١]، ومع ذلك ظل أثر هيومان باقيا فى جتنجن، وليس من الغريب أن يكون ديتريش تدمان **Dietrich Tiedemann** قد درس فى هذه الجامعة، وهو الأول فى موجة من مؤرخى الفلسفة وجدت فى عقد السبعينيات[١٠٢]. وقد أصبح من الأمور البديهية بالنسبة لهذه المدرسة العرقية و "العلمية"، وكذلك بالنسبة إلى كل من كتب فى الموضوع بعد ذلك، أن الفلسفة "الحقة" بدأت فى اليونان.

كذلك شهد هذا العقد من السنين ثورة فى مجال الدراسات التاريخية فى جتنجن خاصة. ففيها بدأ أحد أساتذتها وهو جاترر **Gatterer** مشروعا لكتابة تواريخ لا تكون عن ملوك وعن حروب، ولكن على أنها "سير حياة" لشعوب. وقام مؤرخ آخر هو سبتلر **Spittler** بدراسة الأنظمة على أنها تعبيرات عن صفات مميزة لشعوب

بعينهـا[١٠٣]. وكـان الأهـم مـن ذلـك هـي كتابـات مـاينرز **Meiners** المـؤرخ وعـالم الأنثروبولوجيـا الـذى كرمـه النـازيون فيمـا بعـد باعتبـاره مؤسـس النظريـة العرقيـة. ففيمـا بـين عـامى ١٧٧٠ و ١٨١٠ طـور مـاينرز الفكـرة العامـة السـابقة عـن "الصفـة المميـزة للعصـر" إلى نظريـة أكاديميـة عـن "روح العصـر" **Zeitgeist**[١٠٤]. ومـن الممكـن أن مـاينرز لم يكـن على علـم بمـا سبق أن ذهـب إليـه فيكـو فـى هـذا الخصوص، حين قـال بـأن كـل زمـان وكـل مكان لـه عقليتـه التـى يمليهـا موقعـه وتمليهـا أنظمتـه[١٠٥].

وقـد بولـغ فـى القـول بمـدى غيـاب هـذه المقاربـة للموضـوع عـن إدراك المؤرخـين السـابقين، لكـن مـا مـن شـك فـى أنـه أصبـح مـن غير الممكـن بعـد عقـد الثمانينيـات أن يحكـم أى مـؤرخ جـاد علـى أى فعـل أو قـول دون أن يـأخذ فـى حسـبانه السـياق الإجتمـاعى والتـاريخى لـه. وقـد كـان يتصـل بهـذا التطـور إتصـالا وثيقـا واحـدٌ مـن ابتكـارات مـاينرز الأخـرى وهـو "نقـد المصـادر". وكـان هـذا يقتضـى مـن المـؤرخ أن يقـدر قيمـة المصـادر المختلفـة وفقـا لمؤلفهـا ولسياقها الإجتمـاعى، وأن يقيـم تفسيره كليـة أو إلى الحـد الأكـبر منـه علـى أسـاس المصـادر الموثـوق بهـا، وقـد هـاجم مـاينرز مؤرخـين سـابقين عليـه مثـل بروكـر لأنهـم قبلـوا مصـادر تاريخية دون نقـد أو تمحيـص، بـدلا مـن أن يختـاروا منهـا تلـك التـى تـبرز "روح العصـر" الـذى كتبـت فيـه[١٠٦].

وتلـك مقاربـة للموضـوع كـانت تتـلاءم بـالقدر الكـافى مـع روح متنجـن "العلميـة" الجديدة، ومع ما كـان واضحـا مـن قبـل مـن تقليـد عنـد جـاليليو الـذى قـال بـأن "العثور على سبب واحـد شـديد الإلحـاح مـن شـأنه حـين يوجـد أن يحطـم ألفاً من الأسباب المحتملة مجـرد الإحتمـال". وقـد اثبـت هـذا المقيـاس جـدواه إلى أبعـد الحـدود فـى العلـوم التجريبيـة، لكنـه، وكمـا قـال جورجيـو دى سـانتيلانا **Giorgio de Santillana** فإننـا حالمـا نخـرج مـن دائـرة المراقبـة المباشـرة والمستمرة، وهـو مـا وصفـه جـاليليو بالاختبـار العسـير، لنـأخذ المقيـاس على أنه دليـل فلسـفى للتـأويل، فهنـا تبـدأ المخـاطر فـى الظهـور[١٠٧].

وتبـدو وسـائل مـاينرز هـذه، وهـى الوسـائل التـى غـدت مسـيطرة علـى فـن الكتابـة التاريخيـة فـى القرنـين التاسـع عشـر والعشـرين، تبـدو أمـرا أساسـيا بالنسـبة للمـؤرخ إذا مـا وضعنـاه موضـع المقابلـة مـع المـؤرخ الأخبـارى، إذ لا مندوحـة عـن أن يعطـى المـرء لمصـادره

المختلفة أوزانا مختلفة. إنما ينشأ الخطر من إفتقاد الوعى بالذات وإفتقاد المعرفة بأن المؤرخ بإهماله أو رفضه لمصادر بعينها، على أساس الإفتراض بأنها ليست "متناغمة" مع العصر المقصود، يستطيع أن يفرض أى نموذج يختاره هو. ويزيد ذلك فى مجال التأريخ من العنصر الذى يعكس العصر ويعنى المؤرخ فحسب. وفيما يخص أواخر القرن الثامن عشر أصبح الموقف أكثر سوءا من جراء ثقة المؤرخين "المحدثين" فى أنهم "عرفوا بما هو أفضل"، كما كانوا مقتنعين بأنهم – على خلاف من سبقهم من الباحثين – إنما يكتبون بشكل موضوعى. وفضلاً عن ذلك، أصر ماينرز وزملاؤه على تصديق ما وثقوا هم فيه من "نوعية" مصادرهم، دون اهتمام بكمية هذه المصادر، بل بما هو قابل للتصديق منها من حيث تشابهها جزئيا مع الأخرى.

وعندما نتناول المجالات التى يهتم بها هذا الكتاب (أثينة السوداء) نجد أن رفض هؤلاء المؤرخين قبول المعلومات المتضمنه فى التقارير التاريخية على ماهى عليه من التعدد والإنتشار وامكانية التصديق، قد فتح الباب أمام إنكار النموذج القديم، فكان من الممكن عندئذ أن يُضرب عرض الحائط بالإشارات القديمة العديدة إلى الإستيطان المصرى والفينيقى (باليونان) وإلى المقتبسات الثقافية اللاحقة على أساس أنها إشارات "متأخرة" و "ساذجة"، وببساطة "لا يعتمد عليها". والأكثر من ذلك أنه أصبح فى استطاعة الباحثين عندئذ أن يستخدموا حقيقة أن كثيرا من النصوص القديمة يتناقض بعضها مع الآخر، أو حقيقة أنها تمضى فى طريق معاكس للمبادئ التى قررها العلم الطبيعى، وذلك من أجل النيل من أى شئ لا يروق لهم. ومع ذلك فإن جزءاً من السبب فى أن النموذج لم يسقط توا بحيث استمر على مدى أربعين سنة أخرى هو أن ظل محتفظاً بتأثيره التقليدى الهائل على عقول الناس، أما الجزء الآخر من السبب فهو أنه لم يكن هناك مصادر قديمة أخرى ذات نوعية جيدة تنازله وتتحداه. وعندما جرى إسقاط النموذج القديم أضطر الباحثون الجدد إلى الإعتماد على ماراوا فيه "مخالفة" مفهومة ضمناً" و "تفنيدا من خلال الصمت" من جانب أولئك الكتاب القدامى الذين فاتهم لسبب من الأسباب أن يذكروا ذلك الإستيطان(١٠٨).

وبالرغم من الصلات بين "نقد المصادر" والروح العلمية الجديدة، فإن من المهم

أن نلحظ أن هذا المنهج لم يقم لا فى فرنسا الوضعية أو فى انجلترا التجريبية أو فى ألمانيا الرومانسية. فعلى سبيل المثال استخدم ماينرز نفسه التقنيات الجديدة فى البحث ليكتب تواريخ "تقدمية" رومانسية لشعوب قسمها هو تقسيما فئويا إلى البيض الشجعان الأحرار... إلخ والسود القباح.. إلخ، فكانت ألوان الطيف تتدرج فى الشمبانزى مرورا بالهوتنتوت واضرابهم، وانتهاء إلى الألمان والكلتيين[١٠٩].

وقد قام يوهان فريدريش بلومنباخ J.F.Blumenbach، وهو أستاذ للتاريخ الطبيعى فى جتنجن، بوضع منظومة عنصرية متدرجة أكثر تحريا وترتيبا، فكان كتابه الذى نشر فى عام ١٧٧٥ بعنوان "عن التنوع الطبيعى لأصول الجنس البشرى De generis humani varietate nativa هو أول محاولة من نوعها لوضع دراسة "علمية" للأجناس البشرية، وكان لينايوس قد كتب فى التاريخ الطبيعى من قبله ببضع عقود من السنين، غير أن بلومنباخ لم يستطع أن يطبق على المخلوقات البشرية التعريف الذى وضعه لينايوس للأنواع على الكائنات البشرية، وهو التعريف القائل بأن النوع هو مايشكل السكان القادرين على التوالد وإنجاب نسل مخصب. ولم يكن بلومنباخ تقدميا ولا كان معتنقا لفكرة تعدد الخلق التى تنكر ماهو مأثور فى الكتاب المقدس من أن ماجرى هو خلق واحد للبشر، والتى تؤكد على أن كل عنصر من العناصر خلق على حدة. إنما اعتقد بلومنباخ فى خلق واحد لانسان كامل. غير أن تفسيره لما أدركه من أختلافات "عنصرية" مهمة قد جاء متمشيا مع فكرة مركزية أوروبا التى وضعها العالم الطبيعى بوفون Buffon فى بواكير القرن، إذ أنه ذهب إلى أن النموذج العادى المألوف من الأنواع، وهو الذى وُجد فى أوروبا، قد تدهور فى القارات الأخرى بفعل الأحوال المناخية غير المواتية هناك، بحيث أصبح الأفراد أكثر ضخامة أو صغرا، أكثر قوة أو ضعفا، أكثر بياضاً أو سمرة وهكذا[١١٠].

وكان بلومنباخ أول من أذاع مصطلح "قوقازى"، حيث استخدمه للمرة الأولى فى الطبعة الثالثة الصادرة فى عام ١٧٩٥ من كتابه العظيم. وقد كان العنصر الأبيض أو القوقازى حسب رأيه هو أول العناصر وأجملها وأعظمها موهبة، ومنه انحدرت كل العناصر الأخرى لتصبح صينية أو زنجية وهكذا وقد برر بلومنباخ استخدامه لاسم

قوقازى الغريب بمبررات "علمية" " وعنصرية " من منطلق اعتقاده بأن سكان جورجيا هم ألطف "عنصر أبيض". غير أن الأمر كان ينطوى على ماهو أكثر من ذلك. كان هناك أولا الإعتقاد الدينى الذى لقى الذيوع على يد فيكو فى القرن الثامن عشر بأنه يكون من الأجدى لو أمكن النظر إلى أن الانسان جاء بعد الطوفان، وأن فلك نوح قد رسا – كما يعلم الكافة – فوق جبل أرارات فى جنوبى القوقاز[١١١]. كذلك كان من الأهمية بمكان تزايد ميل الرومانسية الألمانية إلى إرجاع الأصول البشرية، والأصول الأوروبية التالى، إلى الجبال الشرقية وليس إلى وادى النيل أو وادى الفرات كما كان القدماء يعتقدون. وقد عبر هردر عن ذلك بقوله: "فلنتسلق الجبال كادحين صوب قمة آسيا".

وقد أرجع هردر الأصول البشرية إلى مرتفعات الهملايا، فى حين ظل سائدا فى مجال البحث الرومانسى عن الأصول البشرية حتى القرن التاسع عشر ذلك الإعتقاد العام بأن البشرية، أو على الأقل أنقى صورة منها وهم الآريون، إنما جاءت من مرتفعات آسيا[١١٢]. وقد كان من مزايا هذا المخطط الأسيوى عن أصول البشر أنه جعل الألمان، من حيث البدايات الخالصة الأولى للبشرية، فى موضع أقرب من موضع الأوربيين الغربيين. على أن هذه الفكرة استُغلت بصورة أكثر فعالية فى القرن التاسع عشر.

وقد كان بلومنباخ متجاوبا مع مفاهيم الفترة التى عاش فيها عندما أدخل "الساميين" و "المصريين" في زمرة من كانوا عنده قوقازا. غير أن الأمر الذى يبدو واضحا، وإن لم أستطع أن أتتبعه على وجه الدقة، هو أنه كان قد وجد من قبل شئ من الإرتباط فى المعنى بين القوقاز والآريين. وكان هذا الأسم الأخير مصطلحا جديدا آخر أخذ يدخل فى مجال الإستخدام منذ التسعينيات[١١٣]. وقد جعلت الروايات المأثورة منطقة القوقاز المكان الذى شهد تصفيد بروميثيوس بالأغلال وإنزال العقوبة الشنيعة به. أما بروميثيوس فقد اعتبر المثال الخالص لأوروبا، فلم يكن معتبرا فقط إبنا ليابيتوس الذى بات من المقبول تشبيهه بيافث الإبن الثالث لنوح طبقا للكتاب المقدس والمعتبر سلفاً جد الأوربيين الأول، وإنما كان عمله البطولى الخير المنطوى على التضحية بالنفس، وهو سرقة سر النار من أجل خير البشرية، كان ينظر إليه على أنه عمل آرى قلبا وقالبا. وقد رأى جوبينو Gobineau فى بروميثيوس الجد الأكبر للعائلة البيضاء من

الشعوب، بل إن روبرت جريفز R.Graves المغرق فى رومانسيته قد ذهب فى وقت ما من القرن العشرين إلى أن اسم بروميثيوس يعنى سواستيكا Swastika (الصليب المعقوف)(١١٤).

على أن أستاذ آخر من جتنجن وهو أ.ل. شلوتسر A.L. Schlozer حاول فى الثمانينيات أن يضع قاعدة لعائلة لغوية "يافثية" ضمت أكثر اللغات التى اندرجت فيما بعد تحت اسم اللغات الهندية الأوروبية. وقد أخفق شلوتسر فى محاولته، لكنه نجح فى وضع قاعدة لعائلة سامية من اللغات(١١٥)، لولا أن الشخصية التى كانت مسيطرة فى حقل الدراسات السامية فى جتنجن كانت شخصية معلمه ج.د. ميخائيليس J.D.Michaelis الذى اجتمع فى شخصه النزعة القوية فى معاداة السامية مع كونه أعظم دارسى العبريات فى زمانه(١١٦).

وهكذا فلعل الأمر قد بات الآن واضحاً، وهو أنه فى الفترة مابين عامى ١٧٧٥ و ١٨٠٠ لم تقم جامعة جتنجن بتأسيس كثير من الأنظمة للجامعات التى أتت من بعدها فحسب، وإنما حدد أساتذتها كثيرا من الأطر التى جرت فى داخلها فيما بعد عملية البحث والنشر فى نطاق الفروع الدراسية المهنية الجديدة. وليس من شك فى أنه فى هذا الوسط المتميز. كان مركز الإختمار الثقافى هو دراسة فقه اللغات الكلاسيكية. وهى الدراسة التى أعطيت فيما بعد الاسم الأحدث والأكثر جلالا، وهو علم دراسة العصور القديمة Alterumwissenschaft(١١٧).

وقد سيطر على هذا الحقل من الدراسة كريستيان جوتلوب هاينه Christian Gottlolob Heyne صهر بلومنباخ، وهو الذى انعقد له لواء الأستاذية فى البلدة، من حيث أنه منذ تعيينه فى عام ١٧٦٣ حتى وفاته فى عام ١٨١٢ كان الشخصية الرئيسة فى البلدة وفى الجامعة سواء بسواء. وقد تولى هاينه إدارة المكتبة التى سرعان ما أصبحت واحدة من أحسن مكتبات أوروبا، وكان واحدا من أهم أنصار البحث المهنى "الجديد"(١١٨)، فقام بتطوير نظام الحلقة الدراسية (السمنار) المأخوذ عن منهج سقراط والذى بمقتضاه تطور فرع نقد المصادر.

وليس من المستغرب أن يكون النموذج القديم والإشارات الواردة فى النصوص اليونانية عن فضل مصر واحدا من الأهداف التى صُوب إليها سهم نقد المصادر

كثيرا[١١٩]. ومن الممكن أن يفيدنا هنا عقد المقارنة بين نقد المصادر واستخدامه منهج تحليل العامل فى مجال الدراسات الديموغرافية وفى أسلوب قياس الذكاء الذى كتب عنه ستيفن جولد Stephen Gould قائلا:

الحق أن كل ما أنتهجه من وسائل قد قام من أجل أن يكون تبريرات لنظريات بعينها عن الذكاء. فمنهج تحليل العامل بالرغم من كونه منهجا رياضيا قياسيا صرفا، فإن إبتكاره تم فى سياق اجتماعى ومن أجل أسباب محددة. وبالرغم من أنه لا يمكن مهاجمة ما أرتكز عليه من قاعدة رياضية، فإن الإصرار على استخدامه وسيلة لمعرفة البنية الطبيعية للعقل قد جعله منذ البداية يتورط فى أخطاء فادحة تتعلق بالمفاهيم[١٢٠].

وكان هاينه قد عرف فنكلمان عندما كان موظفا صغيرا فى مكتبة فى مدينة درسدن، وهو بصفته باحثا أكاديميا "مهنيا" قد قام بنقد كتابات فنكلمان، لكن ليس هناك من شك فى أنه تأثر تأثرا كبيرا بنزعته الهيللينية الجديدة[١٢١]. وقد كتب رودلف فايفر فى ذلك يقول: "إن مايميز دراسات هاينه وأصدقائه وتلاميذه عن غيرها من دراسات الباحثين المعاصرين لهم هو تأثير فنكلمان على وجه التحديد[١٢٢].

ويسترسل مؤرخ العلم المعاصر ستيفن تيرنر Stephen Turner شارحا هذه النقطة فى كتابه المهم عن تحول الدراسات الألمانية المعرفية التقليدية Gelehrte érudits إلى أكاديميات مهنية الطابع فيقول:

> إن الحركة الانسانية الجديدة من خلال هاينه كان لها بالمثل أثرها المنشط على الدراسات الكلاسيكية "وصورتها عند الجمهور". وقد حاول هاينه عبر مراحل حياته أن يصطنع روابط جديدة بين البحث الفيلولوجى التقليدى المدرسى منه والأكاديمى، وبين التيارات الجمالية للهيلينية الجديدة، مع ما كان فى فيمار من توجهات كلاسيكية كانت تعمل فى خارج نطاق الأكاديمية[١٢٣].

وفى هاينه يتلخص ما قد يحسن تسميته "بالوضعية الرومانسية"، على نحو ما كتبه عنه فرانك مانويل من "أن بحثه كان منزها عن الخطأ، كما كان تحريره للنصوص ملتزما

بالتقاليد الرصينة، لكنه فى كل ماتستتبعه المعرفة، كانت الروح المحركة له ولأجيال من العلماء الألمان هى ذات النزعة الهيللينية الرومانسية التى ملكت قلوب مواطنيه من رجال الأدب فى القرن الثامن عشر(١٢٤).

وقد كان هاينه شغوفا بالرحلة إلى ماوراء البحار وبالشعوب فى الخارج. وإذا ما أخذنا فى الحسبان أهمية ماينطوى عليه الزواج من أبنة الأستاذ فى الحياة الأكاديمية الألمانية فإن الحقيقة فى أن هاينه كان صهرا لبلومنباخ هى أقل أهمية من الحقيقة فى أن كلا من زوجى أبنتى هاينه كان مشغولا بأسفار أوروبية بعيدة المدى. وسوف نتحدث عن واحد منهما وهو هيرن Heeren فى الفصل السادس. أما الثانى الذى كان معروفا بدرجة أكبر كثيرا فى القرن الثامن عشر فهو جورج فورستر G.Forster الذى أبحر مع الكابتن كوك وكتب وصفا لرحلة بحرية حول العالم، وكانت آراؤه السياسية الراديكاليه وكرهه للإستغلال، حتى لو وقع على غير البيض، تجرى جنبا إلى جنب مع رفضه التقليل من شأن الفكرة القائلة بإمكان تعدد خلق الانسان. وقد عشق هاينه وفورستر كل منهما الآخر، وجرت بينهما مراسلات كثيرة متنوعة دار أكثرها حول الأقاليم المناخية وعلم الانسان (الأنثروبولوجيا)(١٢٥).

ولم يكن هاينه مهتما بالعقيدة المسيحية على نحو خاص، لكنه عندما استُقطبت الأطراف بعد عام ١٧٨٩ أصبحت عاطفته متعلقة بالحفاظ على الوضع القائم. ولا يمكن تفسير جوانب استنكاره العنيف للثورة الفرنسية فى بساطة بأنها غضب على جورج فورستر حتى وإن كان هذا قد رحل إلى باريس للمشاركة فى الثورة، ليس هذا فحسب، بل وهجر زوجته ابنة هاينه تاركا إياها تلوذ بحب أعز صديقاتها كارولين ابنة عالم الساميات ميخائيليس(١٢٦).

ويقتضى تفسير غضبة هاينه أيضاً أن نقيمه على أساس انحيازه الأساسى إلى النظام الألمانى - الهانوفرى كوضع قائم آنذاك، وهو انحياز لم يستطع أن يقلل منه قدرته على التعاون مع قوات الإحتلال الفرنسى من أجل حماية مصالح جامعته التى أحبها. وقد كان أمرا طبيعيا أن يعمل كثير من تلاميذ هاينه وأتباعه لصالح بروسيا ضد فرنسا وضد المبادئ الثورية. ومن الواضح على وجه الإجمال أن السلف المشهود له بأنه طُلعة علم

دراسة العالم القديم Alterumwissenschaft، وهو العلم الذى جرى نقله فيما بعد إلى بريطانيا وأمريكا على أنه فرع الدراسات الكلاسيكية الجديد، هو شخص كان نتاجا نموذجيا لجتنجن بنزوعها إلى الإصلاح أكثر من نزوعها إلى الثورة، وإهتمامها العميق بالعرقية وقضية العنصر وبحثها المضنى الشامل. وفضلا عن ذلك، فإن هذا الطلعة وهذا الفرع نفسه من الدراسة قد إقتسما ردة الفعل ضد الثورة الفرنسية بما كان فيها من تحد للنظام التقليدى والديانة وانصراف الإهتمام إلى اختلاف العناصر وانعدام التساوى فيما بينها، وهما قد اقتسما أيضاً كلا من الرومانسية المشبوبة والنزعة الهيللينية الجديدة اللتين كانتا لدى الأوساط الألمانية التقدمية فى القرن الثامن عشر.



الباب الخامس

اللغويات الرومانسية نهضة الهند وسقوط مصر

١٧٤٠ - ١٨٨٠م

ترجمة د. عبد الوهاب علوب

ونتناول الآن سقوط النموذج القديم الذى ينبغى التفرقة بينه وبين نشأة النموذج الآرى بعد ما يقرب من عشرين عاماً على الرغم من تأثره بخلفية مماثلة وبعدد من نفس القوى الاجتماعية والفكرية. يبدأ هذا الفصل بالانبهار باللغة السنسكريتية وغيرها من لغات الهند والذى تزايد فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر وكان له أثره على فهم الصلة بين اللغات الأوروبية. فقد أدى ذلك فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر إلى ظهور تصور عام لأسرة اللغات الهندو أوروبية سرعان ما تحول فى المناخ العنصرى الذى ساد العصر إلى نشأة فكرة الجنس الهندو أوروبى أو "الآرى". كما كان الشغف بالهند معناه أنها حلت محل مصر بوصفها أرض أسلاف أوروبا. إلا أن فكرة السلف فى ذلك العصر لم يكن يُنظر إليه من حيث نقل الفلسفة والعقل، بل باعتباره سلفاً رومانسياً يتصل بأواصر الدم والقربى.

ونعود الآن إلى النمط القديم. فبعد ثمانينيات القرن الثامن عشر، أصبح تنامى النزعة العنصرية ونشأة الإيمان بأهمية "النزعة العرقية" باعتبارها أحد مبادئ التفسير التاريخى أمراً حيوياً بالنسبة للتصورات القائمة عن مصر القديمة. فكان انسلاخ المصريين عن الجنس القوقازى النبيل فى تصاعد مستمر مع التأكيد على انتمائهم لإفريقيا "السوداء". وهكذا توارت فكرة أن المصريين هم أسلاف الإغريق وأنهم يمثلون طفولة أوروبا. كما ظهرت أزمة جديدة بين علم الأساطير المصرية والديانة المسيحية بظهور أعمال ديبوى Dupuis التى كانت تمثل المقابل الإيديولوجى أو العقائدى للهجوم الذى شنته الثورة الفرنسية على النظام الاجتماعى الأوروبى. ولا سبيل لفهم مغزى التمزق الذى عاناه شامبليون فى عمله إبان فترة رد الفعل بين ١٨١٥ و ١٨٣٠م إلا بهذه الخلفية. فمع أن شامبليون كان ثورياً مفوهاً وبونابرتياً متحمساً، فإن أحد اكتشافاته المبكرة قد قوض دعائم بعض نظريات أنصار ديبوى، وبالتالى فقد لقى هو وما قام به من فك للرموز الهيروغليفية كل ترحيب من جانب الكنيسة والنبالة التى تطالب بعودة الملكية. ومن ناحية أخرى، فإن تغليبه لمصر على اليونان. أضيف إلى معتقداته السياسية ليثير حفيظة العلماء من أنصار الحضارتين الهيلينية والهندية الذين استمروا فى بذلك كل جهدهم لعرقلة جهوده العلمية.

وقبيل وفاته المبكرة في عام ١٨٣١، تحدى شامبليون الأرثوذكسية المسيحية بتأريخه للآثار المصرية. وهكذا كان حين أتاه الأجل قد أثار غضب كل من المسيحيين وعلماء الحضارة الهيلينية، وتعرض علم المصريات لتدهور حاد لمدة الخمس والعشرين سنة التالية على الرغم من تصاعد الانبهار الشعبي بمصر واستمرار الاحترام الماسوني لها. ولم يبدأ هذا العلم في استرداد مكانته إلا في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر. وفيما بين ١٨٦٠ و ١٨٨٠، كانت هناك فترة من الشد والجذب بين روح شامبليون والنزعة العنصرية السائدة والشغف باليونان؛ أما بعد ١٨٨٠م، بدأ علم المصريات في الخضوع للنظام السائد للدراسات الكلاسيكية.

ومنذ ذلك الحين، ظلت هناك أصوات متنافرة تنادى بأن الحضارة المصرية بلغت بالفعل درجة معينة من المكانة الرفيعة التي قال بها الأقدمون في الدين والفلسفة والعلوم. ومع ذلك ظلت الرؤية السائدة هي أن المصريين لم يكونوا على درجة عالية من التحضر على الرغم مما بلغوه من تقدم تقني، وأن احترام الإغريق لحضارتهم كان قائماً على وهم. وقد أدى التناقض بين هذا "الخط الرسمي" والآثار الباقية والتقارير القديمة إلى ظهور عدد من النظريات المضادة.

تمت مناقشة اثنتين من هذه النظريات في أواخر هذا الفصل؛ أولاهما نظرية "الانتشار" diffusionism التي قال بها عالم التشريح والأنثروبولوجيا إليوت سميث Elliot Smith، وتذهب إلى أن النازحين الآسيويين هم الذين أقاموا الحضارة المصرية ونشروها في أوروبا وبقية أنحاء العالم. والأخرى هي مدرسة "علماء الأهرامات" التي ذهب الحذرون من أعضائها إلى أن الأهرامات الكبرى شيدت وفقاً لتصاميم وضعها مهندسون معماريون على درجة فائقة من الوعي بعلم الفلك والرياضيات. وينتهي الفصل بمناقشة احتمالات حدوث التقاء مستقبلي بين هاتين النظريتين المبتدعتين وعلم المصريات التقليدي.

نشأة الهندو أوروبية

كانت اللغة دائماً تمثل شاغلاً محورياً للرومانسيين. فاللغات عندهم تعد شيئاً مميزاً، بمعنى أنها ترتبط بمكان معين وبطبيعة معينة وبمناخ معين. من ثم فهي التعبير الوحيد

عن كل شعب من الشعوب. وكان هيردر منبهراً باللغة، وبالكلام على وجه الخصوص. وعلى أثر الحماس الانجليزى لهوميروس وبلاكويل وفيلسوف التصوف الألمانى هامان، كان هيردر ينكر تقديم الفكر والعقل على الألفاظ؛ وبالتالى فقد كان يعارض شغف حركة التنوير بالعلامات البصرية والحروف الهيروغليفية المصرية أو الصينية التى كان يُعتقد أنها تعبر عن فكر كونى غير مقيد بصوتيات محددة. والغاية الأولى للغة عند هيردر والرومانسيين ليست نقل الفكر، بل التعبير عن الأحاسيس؛ لذا فقد كانت الألمانية واليونانية محل إعجاب خاص. فاليونانية كما رأينا كانت تحظى بتقدير خاص فى أواسط القرن الثامن عشر لا باعتبارها أداة للفلسفة، بل لما تتميز به من سمات شاعرية[1].

وكان لاهتمام هيردر وغيره من الرومانسيين باللغة أهميته فى نشأة فقه اللغة التاريخى. كما أن التأثير الرومانسى يمكن ملاحظته فى النمطين الرئيسين للمنهج العلمى الشجرة والأسرة – واللذين أصبحا يحظيان بشعبية واسعة فى الأوساط العلمية والبحثية فى القرن التاسع عشر بما لهما من جاذبية جمالية وتقدمية. وفى علم اللغة التاريخى، كان افتراض وجود بدايات أولية، يعقبها التشعب والاختلاف من خلال تغيرات اعتيادية محددة ويمكن تحديد أطرها، له فائدة كبرى فى المراحل الأولى من المنهج العلمى الجديد. ومن ناحية أخرى، فالشجرة والأسرة لا يسمحان "باتخاذ نهج معاكس" أو بالامتزاج والتقارب، وهما يميلان إلى الغائية وافتراض أن كل لغة لها طبيعة جوهرية تكمن فى بدء نشأتها ولا تتأثر كثيراً بما تتعرض له فيما بعد من احتكاك[2].

وقد نسبق المناقشة الواردة بالفصلين السابع والثامن ونقول إن هذه هى الأسباب التى أدت إلى احتضار فقه اللغة التاريخى فى أواخر القرن التاسع عشر.

ومع ذلك فإن فقه اللغة كان قبل ذلك واحداً من أهم ميادين الفكر، وقد سبق أن تحدثنا فيما يتصل بكل من جهود آبى بارتيليمى Abbé Barthélemy وتطورات جوتنجن عن وضع شلوتسر Schlözer لقواعد أسرة اللغات السامية. وفى عام ١٨٢٠، كان بعض العلماء – وعلى رأسهم دين كريستيان راسك وفرانتس بوب وهو أحد تلاميذ هيردر – قد تحروا الصلات بين علم الصوتيات وعلم الصرف فى معظم اللغات الأوروبية[3].

كانت هذه الجهود تتصل بالتصنيف العنصرى المنهجى الجديد. فبما أن القوقازيين كانوا قد نزحوا من جبال آسيا، فقد افترض البعض أن اللغات الأوروبية ترجع لنفس الأصول. وبما أنه كان يفترض فى الجرمان أنهم من عنصر قوقازى أنقى، نظراً لأنهم كانوا آخر من نزح من الموطن الأصلى Urheimat، فقد افتُرض أن الألمانية أنقى وأقدم من سائر لغات الأسرة الهندو أوروبية. لذا فقد أصبح الاسم الألمانى لأسرة اللغات بعد تحديث تعريفها هو Indogermanisch (الهندو جرمانية)، وهو مصطلح صكه العالم الألمانى كلابروت H.J.Klaproth فى عام ١٨٢٣[٤]. إلا أن فرانتس بوب نفسه انحاز لعلماء من دول أخرى يفضلون مصطلح "هندو أوروبى" الذى كان توماس يانج Thomas Young هو أول من استخدمه فى عام ١٨١٦[٥].

قصة حب مع اللغة السنسكريتية

كان مصطلح "هندو-" يرتبط بشغف جديد بالهند وباللغة السنسكريتية. ففى كتابه القيم بعنوان The Oriental Renaissance (نهضة الشرق) الذى نشر لأول مرة فى عام ١٩٥٠، سعى المفكر الفرنسى ريمون شواب Raymond Schwab الذى عاش بأوائل القرن العشرين إلى سبر غور الاهتمام المتزايد بالحضارات واللغات الهندية والإيرانية القديمة، وهو اهتمام واكب التغلغل الفرنسى والبريطانى بشبه القارة الهندية. وكما هو الحال بالنسبة للعديد من التطورات الفنية والفكرية التى شهدها القرن التاسع عشر، كان أول من استحدث مفهوم "نهضة الشرق" هو العالم اللغوى والرومانسى المتحمس فردريش شليجل Friedrich Schlegel. يقول شليجل فى كتابه The Speech and Wisdom of the Indians (لغة الهند وحكمتها):

> (إن دراسة الأدب الهندى مهمة تتطلب أن يقوم بها باحثون ورعاة أدب من النوعية التى كانت موجودة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر والتى أثارت اهتماماً بالغاً ومفاجئاً بجماليات الدراسات الكلاسيكية بكل من إيطاليا وألمانيا، وسرعان ما أضفى عليها درجة من الأهمية أدت إلى تغيير صورة الحكمة والعلم، بل صورة العالم نفسه، وإلى تجديدها فى ضوء هذا العلم الذى تم

إحياؤه)[٦].

والعنوان الذى اختاره شواب لكتابه – أى نهضة الشرق – هو العنوان الذى اخترناه لفصل من كتاب لإدجار كوينيت Edgar Quinet صدر فى عام ١٨٤١. وكان لكوينت وشواب فيما الجديد تخطى الكلاسيكية المحدثة[٧].

وكان تعديل ذلك – أى الزعم بأن الاستشراق قد تحالف مع نزعة العصور الوسطى ليتجاوز الكلاسيكية – يمثل رؤية ممكنة ولو أنها غير محمودة فى اربعينيات القرن التاسع عشر. ولكن بانتصار اليونان وروما والتخلى عن الهند القديمة فى أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت فكرة مرفوضة تماماً وكان إحياؤها على يد شواب مجرد إحياء لشئ عفى عليه الزمن.

وينتمى المفهوم الآخر وراء نهضة الشرق إلى نوع من أساطير تاريخ العلوم يخلق الأبطال من البشر ويخرج النور والنظام والعلم فيه من الظلام والفوضى والخرافة. ويفترض فيه أن البشر قبل العصر الرومانسى لم يكونوا يعرفون "الشرق" أو يبالون به أصلاً، وأنه "أكتُشف" لأول مرة فى أواخر القرن التاسع عشر. صحيح أن مصر فى عصر التنوير كان يُعتقد أحياناً أنها تنتمى إلى الغرب لا إلى الشرق[٨]. ومن ناحية أخرى، كان هناك اهتمام مكثف بمصر والصين وكانت هناك معرفة تامة بهما قبل ١٧٥٠ كما حاولت أن أبين فى فصول سابقة. وحتى الهند كانت موضع اهتمام معرفى كبير فى القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر، ولو أن الاهتمام بها كان يشغل حيزاً أقل من الاهتمام بمصر والصين لدى مفكرى عصر التنوير. فكان براهمة الهند أقل جاذبية لهم من كهنة مصر أو حكماء الصين، إلا أنهم كانوا أنداداً لهم من الناحية الوظيفية فى النقد العام للمؤسسات والديانة الأوروبية.

وكان علماء الهند يعرفون دائما لغتهم الكلاسيكية، أى السنسكريتية، وكانت هناك معرفة بها فى الغرب منذ أواخر القرن السابع عشر[٩]. وقد صاحب ذلك انطباع عام عبر عنه سير ويليام جونز صراحة فى عام ١٧٨٦ بأن السنسكريتية فى علاقتها باليونانية واللاتينية.

"كانت تحمل أوجه تشابه فى كل من جذور الافعال وأنماط القواعد النحوية أقوى من أن تكون شيئاً من قبيل الصدفة؛ فهو تشابه يجعل من المستحيل على اللغوى أن يدرس ثلاثتهم دون أن يؤمن بأنهم نشأوا عن مصدر واحد ربما لم يعد له وجود؛ وهناك سبب مماثل ولو أنه أقل قوة لافتراض أن كلاً من القوطية والكلتية نشأتا عن نفس الأصل الذى نشأت عنه السنسكريتية ولو أن لهما معجماً لفظياً مختلفاً تماما الاختلاف"[١٠].

وكان العلماء الألمان والانجليز فى القرن التاسع عشر يرفضون الفكرة القائلة بأن لغتيهم قد تكونا قد نتجتا عن مزيج غير نقى. وبصرف النظر عن ذلك، فإن هذه العبارة الدقيقة التى تقوم على منطق مقبول كانت هى الأساس الذى بنى عليه فقه اللغة الهندو أوروبى وكل ما عداه من أنماط فقه اللغة التاريخى منذ ذلك الوقت.

كانت العلاقة اللغوية تعنى إمكانية النظر إلى لغة الهند وحضارتها باعتبارهما غريبتين ومألوفتين فى آن معاً، إن لم تكونا هما الأصل. وكان ظهور هذه الفكرة يرجع إلى أن جونز على الرغم من حذره فى هذا الموضوع – حيث يرى أن السنسكريتية واللغات الهندو أوروبية ربما كان لها أصل واحد غير معروف – فقد كان من المعتقد بصورة عامة أن السنسكريتية نفسها هى اللغة الهندو أوروبية الأم. وهذه الصلة ومعرفة أن البراهمة هم نسل الغزاة الآريين الذين كانوا قد نزحوا من مرتفعات آسيا الوسطى كما ورد فى التراث الهندى كانت تتفق تماماً مع العقيدة الألمانية الرومانسية بأن الجنس البشرى والقوقازيين جميعاً نشأوا بجبال آسيا الوسطى[١١]. وكانت هذه العقيدة تمثل قوة كبرى وراء الحماس المفرط لحضارة الهند بكل جوانبها، والذى ساد منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى العقد الثالث من القرن التاسع عشر. ومع ذلك كان لجونز من خلال الأدب تأثير أكبر مما كان له من خلال اللغويات على المدى القصير، وكانت ترجماته للشعر الهندى تلقى ترحيباً بالغاً فى كل أرجاء أوروبا[١٢]. وقد تأثر شعراء الليك

لانجليز Lake Poets * جميعاً بالشعر الهندى، وكتب جوته فى عام ١٧٩١. يقول: "حين أذكر" شاكونتالا (وهى قصيدة هندية ترجمها جونز) أحس أنه لم يعد هناك ما يقال"[١٣]. ولا ننسى أيضاً أن نابليون حمل معه نسخة من الفيدا فى حملته على مصر عام ١٧٩٨[١٤].

وتمثلت النتائج الأكاديمية لهذا الحماس فى إنشاء عدد من كراسى الأستاذية وإقامة قاعدة دراسية، وهو ما أضيف إلى الدراسات الجرمانية التى كانت تعرف باسم Indogermanisch (الهندو جرمانية) ليشكل تهديداً للاحتكار الذى كان للاتينية واليونانية باعتبارهما اللغتين القديمتين الوحيدتين[١٥]. وليس معنى هذا أن الدراسات السنسكريتية والجرمانية كانا تشكل خطراً حقيقياً على الدراسات اليونانية واللاتينية، ولو أن هذا كان رأى بعض الباحثين من أمثال مولر K.O.Müller فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر وسالومون ريناخ Salomon Reinach فى العقد الأخير من نفس القرن[١٦].

بداية، كانت الدراسات العلمية الجديدة تتركز فى بريطانيا وفرنسا وكانت لكل منهما مصالح استعمارية فى الهند. ومع ذلك فسرعان ماخبت جذوة الجهود البريطانية، وحتى الدراسة الفرنسية للسنسكريتية والهند القديمة خفتت تحت وطأة الرد الرومانسى الألمانى عليها. وكانت أبرز الشخصيات فى هذا المضمار فردريك فون شليجل وشقيقه فيلهلم الذى أصبح أول أستاذ للسنسكريتية فى بون. بل إن رجلاً أقل تعاطفاً كفيلهلم همبولت Wilhelm Humboldt كان يحمد الله أن مد فى أجله حتى قرأ بها "جافاد غيتا"[١٧].

اللغويات الرومانسية عند شليجل

قبل ذلك بعشرين عاماً، وفى عام ١٨٠٣، كان شغف شليجل بالهند أكثر وضوحاً: "إن كل شئ أصله هندى"[١٨]. كما كان شليجل أول من يصر على تعدد

* هم الشعراء الثلاثة كوليريدج، وسوثيى، ووردسورث الذين كانوا يقطنون منطقة البحيرات الانجليزية وظهرت هذه اتسمية لأول مرة فى "مجلة أدنبرة" عدد أغسطس ١٨١٧م. (المراجع).

الأصول اللغوية على الرغم من التراث التوراتى لبرج بابل وعلى الرغم مما ذهب إليه معظم المفكرين اللاحقين. فكان يرى أن هناك اختلافاً نوعياً بين الأسرة الهندو أوروبية واللغات الأخرى، وكان يهاجم ويليام جونز ومعاصريه لما يعتقدونه من وجود علاقات بين اللغات الهندية والسامية(١٩).

ويمكن أن ينسب مفهوم الجنس الآرى لشليجل مع أنه لم يصرح به. فكان حماسه الرومانسي واقتناعه بتفوق الجنس الهندى القديم يغطى على افتقاره للأدلة ويقدم إجابة مبسطة على ما كان قد أصبح يسمى "المسألة المصرية" أى كيف كان يمكن للأفارقة أن يقيموا حضارة راقية كهذه؟ والإجابة فى رأى شليجل تكمن فى أن مصر خضعت لاستعمار الهنود وتحضرت على أيديهم. وكان واثقاً فى هذه المقولة حتى أنه اتخذ من رقى العمارة المصرية دليلاً على عظمة الجنس الهندى(٢٠). وظلت فكرة الأصل الهندى لمصر على قوتها خلال القرن التاسع عشر كما سنرى مرة أخرى لدى جوبينو.

وعلى الرغم من اهتمام شليجل بالعنصر والعرق، فإن مركزية اللغة لم تغب عن خاطره قط. وكان يفرق بين نوعين من اللغات: اللغات الصرفية "النبيلة" واللغات غير الصرفية الأقل اكتمالاً. الأولى عنده من أصل روحانى والأخيرة كانت "حيوانية" فى الأصل(٢١). ويرى أن التفكير الواضح والعقل الراقى والشامل ما كان لينشأ إلا بصرف اللغات ذات الأصل الهندى(٢٢).

ومن الغريب أن شليجل لم يجد ترحيباً كبيراً من جانب النازيين. وكان السبب فى ذلك أنه لم يكن معادياً للسامية فى آرائه السياسية، فقد كان يدافع عن تحرير اليهود. وعلى المستوى الشخصى تزوج من ابنة الفيلسوف اليهودى الشهير موسس مندلزون Moses Mendelsohn(٢٣). كما كان يثنى على "رقى اللغتين العربية والعبرية"، بل إنهما فى رأيه" تحتلان أرقى مكان فى فرعهما"(٢٤). بل إنه كان يعتقد أنهما هجين من اللغات "الروحانية" و "الحيوانية"(٢٥). إلا أن هذا لم يحل دون وضعهما ضمن الصنف الأدنى مرتبة. وكان شليجل يفترض أن حضارة اليهود تأثرت بالمصريين الذين أخذوا حضارتهم الراقية عن الهنود فى رأيه كما سبقت الإشارة(٢٦). ولما كان فردريك شليجل واحداً من أوائل من ربطوا اللغة بالجنس، فإن آراءه عن تعدد أصول اللغات كانت

ترتبط بالتوجهات المعاصرة عن تعدد أصول البشر[٢٧].

وبتمهيد الطريق للأجناس الآرية والسامية، كان شليجل سابقاً لعصره دون جدال. ولم تؤخذ هذه الأفكار مأخذ الجد إلا بعد أربعين أو خمسين عاماً؛ فعلى الصعيد الخارجى، كانت القوى المعادية للسامية العرقية لا تزال غير قوية بدرجة كافية، وعلى الصعيد الداخلى، كانت آراؤه تتسم بقدر كبير من التناقض[٢٨]. وكان شليجل يصر على وجود فارق نوعى بين الإلصاقية – أى إضافة اللواحق وغير ذلك من الأدوات الى اللفظ – والتصريف الذى يتم فيه تعديل جذر اللفظ من الداخل والذى يرى أنه طريقة عضوية[٢٩]. ومما يؤسف له بالنسبة لتفوق اللغات الهندو أوروبية أن اللغات السامية يتم تصريفها بهذه الطريقة الأخيرة، ومصطلح "جذر" نفسه مأخوذ من قواعد اللغة العبرية[٣٠]. من ثم فقد اضطر من أتى بعده من العلماء لوضع اللغات السامية جنباً إلى جنب مع اللغات الهندو أوروبية فى أسمى مكانة. وفى الوقت نفسه، فإن الفرضية التى قال بها برتيليمى فى العقد السابع من القرن الثامن عشر بوجود علاقة جوهرية بين اللغتين الفينيقية والقبطية لم تؤخذ مأخذ الجد إلا فى القرن التاسع عشر. كما أن فكرة وجود أسرة لغوية سامية حامية أو أفرو أسيوية تشمل اللغات السامية والمصرية والإفريقية الأخرى لم تحظ بقبول عام إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية[٣١].

وكان التعديل الآخر الكبير الذى طرأ على مقولة شليجل على يد علماء اللغويات بأواسط القرن التاسع عشر يتعلق بمسألة "التطور". فقد لعب دوراً مهماً فى تحويل فقه اللغة من تاريخ اللغات إلى تفسير اللغات كقوة فاعلة فى صنع التاريخ. كما قام بضم "التطور" جزئياً إلى فكره. ومع ذلك فإن آراء شليجل كان قد عفى عليها الزمن من حيث أنه كان يرى أن اللغات الهندية "الروحانية" تتسم بالانكفاء على الذات. أى أنها بعد أن اكتملت تعرضت لدرجة ما من التدهور. ومن ناحية أخرى، كان هناك "تطور" فى اللغات "الحيوانية" كلما ازدادت تعقيداً[٣٢]. وهنا أيضاً كان على العلماء الذين جاءوا بعده ممن كانوا أكثر انغماساً فى فكرة "التطور" أن يدخلوا تعديلات على أفكاره وأن يفسروا تفوق اللغات وتدنيها عنده فى ضوء مكانتها على سلم التطور.

وكان العلماء الانجليز والفرنسيون لا يقلون اقتناعاً بأن اللغات الهندو أوروبية أرقى من كل اللغات الأخرى. ولكن لما كانت لغاتهم هم أنفسهم لا تعرف إلا القليل من التصرف، فإنهم لم يبدوا حماساً كبيراً بأفكار شليجل فى هذا المجال مع الإيحاء بأن اللغات السنسكريتية واليونانية واللاتينية والألمانية هى اللغات الوحيدة التى تتواءم مع الفلسفة والدين. وعلى النقيض من ذلك وعلى الرغم من التعديلات التى سبقت الإشارة إليها، فقد شاركه العلماء الألمان فى فكرته الجديدة أو وافقوا عليها. فكان فيلهلم فون همبولت مثلاً يميل إلى تصور حدوث تطور من اللغات الإلصاقية **affixing** أو التركيبية **agglutinative** إلى اللغات الصرفية **inflected**، وكان هو أيضاً يعتبر الفروق بين الصنفين نوعية(٣٣).

كان فيلهلم فون همبولت عبقرياً وضع أسس الدراسات اللغوية لكل من اللغة الباسكية والملايو- بوليفيزية. ومع ذلك كما سبقت الإشارة كان شغفه بالسنسكريتية من نوع آخر. فكان يرى مثلاً أن السنسكريتية بصرفها المكثف والمعقد تعد أفضل كثيراً من الصينية بما تتسم به من "عزل" ودرجة من الصرف أقل من الانجليزية. وفى مقاله الفذ عن الصينية كتبه فى عشرينيات القرن التاسع عشر، اضطر همبولت للتصريح بأن الصينية على الرغم من ألفاظها غير المعدلة تعادل أفضل اللغات الهندو أوروبية كأداة للتفكير المنطقى(٣٤). ومن ناحية أخرى، كان يرى أن افتقارها إلى الصرف "يحول دون التحليق الحر للفكر" وهو ما يحتاج إلى أنماط أجرومية لتوجيهه(٣٥). من ثم فليس الخط الصينى وحده فى رأيه هو الذى يتسم بالجمود، بل إن لغة الحديث نفسها تفتقر إلى القوة الحسية الكاملة التى يسعى إليها الرومانسيون الألمان حالياً فى اللغة. وربما كان انصراف الرومانسيين الانجليز والفرنسيين عن هذه النقطة يرجع لافتقار لغتيهم للصرف.

وكانت معادلة الصرف مع عدم التقيد تلخص تفرقة الرومانسيين بين الشغف الجامد بالصين فى عصر التنوير وحبهم هم لأسلافهم الهنود(٣٦). وفى عشرينيات القرن التاسع عشر، كان إعجاب همبولت المحدود بالصينية ودراساته لغيرها من اللغات غير الهندو أوروبية يميزه كأحد أفراد جيل مضى. وكان الشباب الذين تقطعت بهم السبل عن التنوير أكثر تشدداً؛ فقد انصب اهتمامهم على اللغات الهندو أوروبية.

كان كوينيت وشواب يزعمان أن تقدم الدراسات الهندية لم يكن سوى محور "لنهضة شرقية" عامة – وهو ما كان شواب يرى أنه يرتبط بالرومانسية – وقد ربطا هذه الحركة بموجة فك الرموز الكبرى التى شهدها القرن التاسع عشر[٣٧]. صحيح أن فك رموز الخط المسمارى بدأ فى عام ١٨٠٠ على يد عالم جوتنجن الرومانسى جروتفند G.F.Grotefend بقراءة أسماء ملوك الفرس إلا أنى سأبين فى هذا الفصل أن حل الرموز الهيروغليفية بكل ما يمثله من إثارة لم يأت من الرومانسية ونهضة الشرق، بل من التيار الماسونى الشغوف بالمصريات والروح العلمية للثورة الفرنسية[٣٨].

ومن ناحية أخرى فإن دعوى شواب بأن نهضة الشرق كانت ترتبط بنشأة الاستشراق كمبحث علمى ليس لها ما يبررها. فالعربية باعتبارها لغة ذات حضارة رفيعة فى صدر العصور الوسطى بأوروبا ظلت تدرس هناك من حين لآخر منذ ذلك الوقت. ومع ذلك فقد اتخذت وضعها الاعتيادى كعلم محدث فى عام ١٧٩٩ بتعيين سلفستر دى ساسى Sylvestre de Sacy كأول معلم فى مدرسة اللغات الشرقية الحية التى كانت حديثة العهد فى حركة كانت ترتبط بالحملة على مصر. ومما لا شك فيه أن دى ساسى سواء كمعلم للاستشراق الجديد أو كمؤيد للملكية يتواءم مع النمط الرومانسى والمحافظ لنهضة الشرق[٣٩]. وفى حين كانت فرنسا تحتاج إلى اللغة العربية للحملة على مصر وغزو الجزائر الذى بدأ فى عام ١٨٣٠، لم تكن ألمانية فى حاجة إليها، ولم يكن ثم اهتمام كبير باللغة العربية فيها. والاستشراق كما يشير إدوارد سعيد ورث كثيراً من الكراهية التقليدية للإسلام باعتباره عدو المسيحية[٤٠]. وفى هذا السياق، من المهم أن نشير إلى أن العقد الثالث من القرن التاسع عشر، وهو عقد له أهميته فى نشأة الاستشراق، كانت تطغى عليه حرب الاستقلال اليونانية بين اليونان المسيحيين والأتراك والمصريين المسلمين. إلا أنه كانت هناك جوانب دينية ولغوية كانت الحضارات السامية فيها تعد على نفس مستوى حضارات الآريين إن لم تكن مساوية لها (أنظر الفصل السابع).

ولم تكن نهضة الشرق تشمل الصين. وكان كثير من اليسوعيين يعرفون الصينية

منذ القرن السادس عشر، ومع مطلع القرن الثامن عشر، كان الأوربيون قد عرفوا الصين بشيء من التفصيل من خلال ترجماتهم وعشرات التقارير التي كتبها الرحالة[٤١]. وظلت اللغة الصينية تدرس بشكل متقطع في باريس منذ ذلك الحين. أما كراسي الأستاذية بصورتها المعروفة فلم تنشأ في غيرها من دول أوروبا إلا في أواخر القرن التاسع عشر. ومن الغريب أن الدراسات الصينية ظلت في حالة مزرية في ألمانيا حتى أواخر القرن، في حين أن أول كرسي أستاذية في السنسكريتية أنشئ ببرلين في عام ١٨١٨. وقد كتب أحد علماء الدراسات الصينية في عام ١٨٩٨ يقول: "إن ألمانيا والنمسا لم تحتلاً في الدراسات الصينية المكانة البارزة التي وصلوا إليها في بعض أفرع الدراسات الشرقية"[٤٢].

ومع أن العلماء الألمان هيمنوا على علم المصريات بعد ثمانينيات القرن التاسع عشر، فإن معظم الباحثين الألمان في حقبة نهضة الشرق لم يكن لديهم مايفعلونه إزاء العلم الجديد. وسيرد وصف عداء المستشرقين الفرنسيين لشامبليون فيما بعد. ويكفي في هذا المقام أن نشير إلى أن ريمون شواب يجعل عبارة "التحامل على مصر" عنواناً لأحد فصوله ويقول تحته: "وهذه النظرة إلى مصر باعتبارها أول وأهم مؤثر شرقي على الغرب تعد خطأ تماماً. والحقيقة أن مصر كما وصفها الباحثون جاءت متأخرة نسبياً، حيث لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر"[٤٣]. ويوضح شواب في تعليق هامشي أنه يقصد بذلك أن "الانبهار بمصر في القرن التاسع عشر حل محل الانبهار بالهند"[٤٤].

وهذه الأحكام مضللة في العديد من الاتجاهات لدرجة تجعل من العسير أن نعرف من أين نبدأ.

أولاً كما هناك عداء المستشرقين لمصر وبطء نشأة علم المصريات.

ثانياً وكما رأينا، كانت مصر تعد "المؤثر الشرقي الأول على الغرب" منذ القدم ولمدة أطول كثيراً من أى اهتمام مماثل بالهند.

ثالثاً على الرغم من وجود حب استطلاع كبير تجاه مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت مصر يُنظر إليها باعتبارها بلاداً غريبة وتثير الدهشة، أى

تختلف تماماً الاختلاف عن مكانتها الأولى بوصفها الحضارة الأم بالنسبة لأوروبا. ومن هذا المنطلق الأخير استبدلت بها النظرة الرومانسية للهند.

ومن الواضح بصورة عامة أن الاستشراق العلمى بدأ فى ألمانيا وفى غيرها بحدود محددة تماماً. وكانت المناطق الوحيدة فى الشرق التى أولاها للمستشرقون احتراماً هى آسيا الوسطى حيث كان يُنظر إليها باعتبارها تشبه الوطن الأوروبى بطبيعته الجبلية، وإلى الهند باعتبارها أرض ذوى القربى الذين يمكن للأوروبيين أن يعرفوا أنفسهم من خلالهم. وفى أواخر القرن التاسع عشر، كان احترام هاتين المنطقتين قد توارى بدوره.

يبين إدوارد سعيد و ر. راشد أن الاستشراق على مستوى جوهرى ومنذ النشأة كان يجمع بين الاهتمام بالمجتمعات الآسيوية واحتقارها والاقتناع بأن "أهل الشرق" يفتقرون إلى القدرة على تحليل حضاراتهم وتنظيمها[٤٥]. وسعى المستشرقون إلى إبراز الحضارات القديمة بالقارات الأخرى وأن يحطوا من شأن استمراريتها وتطورها الوسيط والحديث[٤٦]. وكان يمكن للبحث العلمى الغربى أن ينتحل الحضارات القديمة الأخرى تماماً حيث كان السكان المحدثون فى زعمهم إما طفيليين جدداً أو "فقدوا" باضمحلالهم الحضارة الرفيعة التى كانت لأسلافهم. أما الحضارات الأحدث التى لم يكن يمكن الحكم عليها بهذا المنطق فكانوا يرفضونها أو يتجاهلونها مع أن الأوربيين كانوا ليستطيعوا التعرف على الحضارات القديمة إلا من خلالها[٤٧]. وكانوا يزعمون بأن الأوربيين وحدهم هم الذين لديهم حس تاريخى حقيقى على الرغم من وجود أدلة باهرة على عكس ذلك[٤٨].

لاشك أن المستشرقين الأوائل بذلوا جهوداً مضنية وحققوا إنجازات كبرى ذات آثار ممتدة. إلا أن نمو الاستشراق لم يصاحبه اتساع فى الأفق كما يقول كوينيت وشواب. فكان يتسم بضيق الخيال والإحساس بالتفوق المتأصل والنوعى للحضارة الأوروبية، وهو ما ساعد على إيجاد هوة مع الحضارات غير الأوروبية وتغليب السمات الحسية عليها وتلخيص كل خصائصها المختلفة فى تصنيف عام يتلخص فى كلمة "شرقى" لمجرد أن هذه الحضارات ليست أوروبية. وكانوا ينظرون إليها باعتبارها "غريبة الأطوار" أو تتسم بالجمود أو السلبية فى مواجهة الديناميكية الأوروبية. والحقيقة أن منذ

القرن التاسع عشر، لم يكن من المقبول عند الأوروبيين القول بأن شعوب أية قارة أخرى يمكن أن يكونوا "علميين" مثلهم، أو أن الآسيويين أو الأفارقة قد أسهموا بأية صورة حقيقية فى نهوض أوروبا(٤٩). وكان الاستثناءان الوحيدان فى ذلك هما إيران القديمة والهند، إلا أن هاتين كانتا تعتبران جزءاً من الأسرة الهندو أوروبية بالطبع، وبالتالى فقد ملأتا فراغ "السلف الغريب الأطوار" الذى كانت تحتله مصر وكلدان من قبل. فكان جوبينو على سبيل المثال يؤكد أن "الأمتين المصرية والآشورية" كانتا تأتيان فى مرتبة تالية للأمة الهندية"(٥٠).

ولابد لنشأة الاستشراق بالطبع أن ترتبط ولو فى إنجلترا وفرنسا على الأقل بالتوسع الكبير للنزعة الاستعمارية وسائر أشكال الهيمنة على آسيا وإفريقيا والتى حدثت فى وقت واحد. فقد برزت الحاجة لفهم الشعوب غير الأوروبية ولغاتها فهماً منهجياً بغرض السيطرة على هذه الشعوب. بل إن معرفة حضاراتهم بفهمها وتصنيفها كان يضمن ألا تتعرف هذه الشعوب نفسها على حضاراتها إلا من خلال الدراسات الأوروبية. إلا أن هذا كان يتطلب قيداً آخر لربط النخب الاستعمارية بالدول المستعمرة، وهو ما كان يمثل عاملاً مهماً فى الإبقاء على الهيمنة الثقافية الأوروبية منذ اضمحلال النزعة الاستعمارية المباشرة فى النصف الثانى من القرن العشرين(٥١).

يبين ريمون شواب مدى تكرار الموضوعات الرومانسية الشرقية فى حضارة القرن التاسع عشر. إلا أن إيحاءه بأن هذه ظاهرة جديدة فى الفن الأوروبى تعد مضللة تماماً. فالاهتمام بالقارات الأخرى يسبق حمى الاهتمام بمصر والحبشة والصين التى سادت القرن الثامن عشر بفترة طويلة. كما أن نشأة الأفرع العلمية الاستشراقية فى القرن التاسع عشر قد خففت من عبء الواجب الثقيل الذى يتمثل فى ضرورة استيعاب الحضارات الشرقية والتعامل معها باحترام. وعلى خلاف ماقام به الفنانون والساسة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ممن كانوا ينظرون إلى مصر والصين بجدية تامة، كان نظراؤهم فى القرن التاسع عشر يكتفون بجمع قطع الخزف الصينى أو إدخال الموضوعات الرومانسية الغريبة فى أدبهم وفنونهم.

هذه التغيرات الفكرية والتعليمية يمكن أن تعزى لبعض السمات القومية الخاصة

بالاستعمار والتوسع الأوروبى فى القارات الأخرى، فالنشأة الأولى للدراسات الهندية القديمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر قامت على حاجة شركة الهند الشرقية لفهم رعاياها وحلفائها "الوطنيين". كما أن إضفاء الصبغة الرومانسية على الهند قد تم على يد الألمان الذين لم تكن لهم مصلحة مباشرة فى شبه القارة الهندية. وحتى فى إنجلترا، كان أكبر علماء الدراسات الهندية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر هو ماكس مولر Max-Müller الذى تم تعيينه أستاذاً للغات الهندية بجامعة أكسفورد بتحريض من سفير بروسيا البارون كريستيان ينسن، وظل شديد التمسك بقوميته الألمانية طوال فترة أستاذيته التى استمرت خمسين عاماً[٥٢].

سقوط الصين

حدث السقوط التاريخى للحضارة الهندية كسقوط الساميين القدماء فى أواخر القرن التاسع عشر. ونركز فى هذا المقام على بداية القرن وضعف الاهتمام بالصين ومصر. وقد حدث الانتصار الكامل للعنصرية و "التقدم" و "العودة" الرومانسية لأوروبا وللمسيحية مع بدء إحلال المنتجين الأوروبيين لمنتجاتهم محل السلع الصينية الفاخرة كالأثاث والبورسلين والحرير. ولم يكن عائد أوروبا من ذلك قاصراً على مجرد الإشباع الحضارى. فمع بدء تغلغل بريطانيا فى السوق الصينية بأقطان لانكشاير والأفيون الهندى اختل الميزان التجارى لغير صالح الصين وسرعان ماتلى التفوق التجارى الأوروبى مبادرات عسكرية.

ومن ١٨٣٩ – حين دخلت بريطانيا الحرب لحماية تجارة الأفيون من حظر رسمى صينى وحتى أواخر القرن، شنت بريطانيا وفرنسا و "القوى" الأخرى هجمات متتالية على الصين بغرض الحصول على امتيازات أكثر عدداً وأكبر حجماً. وكانت الحاجة لتبرير هذه التصرفات وهذا الاستغلال، إضافة إلى الانهيار الاجتماعى الحقيقى فى الصين والذى نجم عن الضغوط الأوروبية، والعنصرية و "العودة لأوروبا" هى القوى التى أدت إلى تغير صورة الصين فى تصور الغرب. فبعد أن كانت تمثل نموذجاً للحضارة العقلانية أصبح يُنظر إليها كبلاد قذرة يسودها التعذيب والفساد بكل أشكاله. وأصبح اللوم يوجه للصينيين بسخرية مكشوفة على تعاطيهم للأفيون. فكان دى توكفيل فى كتاباته فى أواسط القرن التاسع عشر يرى فى إعجاب أنصار حرية التجارة بالصين

أمراً غير مفهوم[٥٣].

كما يمكن التعرف على تدهور مكانة الصين في الغرب في اللغويات. فاللغة الصينية باعتبارها لغة مقطعية - كالقبطية والانجليزية أيضاً ولو إلى حد ما - كان من الصعب على همبولت أن يجد لها مكاناً في تطوره الارتقائي من اللغات الإلصاقية إلى الصرفية. وقد تلاعب بفكرة أن الصينية لغة طفوليه وبالتالى فهى لغة البشرية فى طور طفولتها، إلا أنه رفض هذه الفكرة فيما بعد[٥٤]. وفى أواسط القرن، لم تعد مثل هذه الأفكار الغريبة تساور علماء اللغات الهندو أوروبية من أمثال أوجست شلايشر August Schleicher. وكان شلايشر يرى أن هناك تدرجاً تطورياً ذا ثلاث مراحل من الصينية المقطعية إلى التورانية الإلصاقية (التركية والمغولية) ثم قمة التطور فى اللغات التورانية السامية والهندو أوروبية[٥٥].

ولم يكن البارون كريستيان بونسن Baron Christian Bunsen الذى كان تأرجح آرائه عن مصر قد أوشك على نهايته، يساوره أى تردد عن المكانة اللغوية وبالتالى التاريخية للغة الصينية. فهو يرى أن الصين تمثل أشد مراحل تاريخ العالم بدائية؛ وقد تلتها التورانية ثم الحامية (مصر). وأعقب ذلك الطوفان وفجر التاريخ الحقيقى وقوامه الجدل بين الساميين والهندو جرمان[٥٦]. وهكذا فعلى الأساس "العلمى" للغويات التاريخية، تم استبعاد كل من مصر والصين من دائرة التاريخ إلى ماقبل عهد الطوفان. وكانت العلاقات بين العرق واللغة كما أكدنا من قبل وثيقة للغاية فى القرن التاسع عشر. من ثم فإن تراجع المكانة اللغوية لمصر والصين كان يوازيه تراجع فى مكانتهما التشريحية والعرقية.

العنصرية فى مطلع القرن التاسع عشر

كان تصاعد النزعة العنصرية بصورة غير عادية فى أوائل القرن التاسع عشر تشمل التصنيفات "العرقية" الازدرائية تجاه الصينيين والمصريين. ومع الارتداد إلى الثورة الفرنسية وصحوة المسيحية، كانت وحدة الجنس البشرى من أكبر نقاط العقيدة التى لم تتمكن المسيحية فيها من استعادة مكانتها. بل إن نظرية تعدد الأعراق انتعشت إلى حد ما بعد انتكاسة ألمت بها فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر وهو عقد البروتستانتية،

فى حين شهدت الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٥٠ بصفة عامة نشاطاً مكثفاً للبحث عن أسس تشريحية للفوارق العرقية التى كان كل أوربى مثقف "موقناً" بوجودها[٥٧]. ولم يكن لعدم تمخض هذا البحث عن نتائج قاطعة أى تأثير على الرأى العام فى هذا الصدد؛ إلا أنه ربما كان أحد العوامل التى ساعدت على دفع عدد من العلماء الأكثر حذراً لمواصلة الاستعانة باللغة فى تفسير ماكانوا يعتبرونه فوارق واضحة بين مختلف الشعوب. وأياً كان الشكل الذى اتخذه علم الأعراق الجديد، فقد غزا كل مجالات الحياة والبحث[٥٨].

يصف رحالة عصر النهضة أندرياس كورساليس Andreas Corsalis الصينيين بقوله "إنهم من نوعنا"[٥٩]. وكان معظم كتّاب القرنين السابع عشر والثامن عشر يرون أنهم ينتمون لجنس متميز ولكنه ليس أدنى مرتبة بالضرورة[٦٠]. أما فترة حرب الأفيون فى أواسط القرن التاسع عشر، فكان الصينيون فيها موضع ازدراء من الناحية العرقية. تقول أغنية نشرت فى مجلة بانش Punch فى عام ١٨٥٨.

ولد جون الصينى تافهاً
يزدرى قوانين الحقيقة،
وكان جون الصينى بربرياً متوحشاً
ثقيلاً على الأرض.
سينغ يى هو جون الصينى الوحشى
سينغ يو هو جون الصينى العنيد.
حتى القس نفسه لا يستطيع أن يرفع عنه اللعنة
بما يضفيه على جون الصينى من صفات البشر.
لهم عيون كعيون الخنازير وذيول كذيول الخنازير،
طعامهم الجرذان والكلاب والحشرات والحلزون،
كلها فرائس لهم يقلونها على النار
وجون الصينى من هؤلاء المقززين.
جون الصينى أيها اللئيم،

لست محارباً أيها الصينى الجبان،
امنحوا لجون الثور فرصته إن استطاع
ولكن عليكم أن تشقوا عينيه قليلاً[٦١].

ولم يكن علماء القرن التاسع عشر أقل عنصرية إلا بدرجة قليلة. ومهما تعددت تصنيفات البشر لدى علماء الأنثروبولوجيا المحدثين فإن الأجناس "الصفراء" كانت تأتى فى مرتبة وسط، أى أدنى من الجنس الأبيض وأرقى من الأسود. وأصبح الصينيون موضع اتهام بما كان يعد فى عرف التنوير ميزة، ألا وهو الثبات. فيرى البارون كوفيير Baron Cuvier عالم التاريخ الطبيعى بأوائل القرن أن "هذا الجنس أقام امبراطوريات ضخمة بالصين واليابان ... ولكن حضارته ظلت ثابتة لمدة طويلة[٦٢]. ويقول العالم العنصرى كونت دى جوبينو أن قبائل الصفر:

"تتميز بضعف النشاط البدنى والميل إلى اللامبالاة ... وفتور الرغبات والإرادة العنيدة دون تطرف ... وهم يميلون للوسطية فى كل شئ. ولديهم قدرة كافية على فهم الأمور التى لا تتسم بالسمو أو العمق. والصفر شعب عملى بمعنى الكلمة. فهم لا يحلمون ولا يحبون النظريات. وقليلاً ما يبتكرون، ولكنهم قادرون على استيعاب ما قد تكون فيه فائدة لهم..."[٦٣].

ويجب أن نتذكر أن جوبينو كان يشتهر بأنه سلف هتلر؛ ومع أن البعض قد لا يوافق على ذلك، فقد كان يعتبر فى القرن التاسع عشر شخصاً غريب الأطوار ولكنه عالم كبير. وكان الوضع العنصرى الجديد للصينيين كافياً تماماً لاستبعادهم من الصورة الرومانسية للتاريخ الدينامى للعالم وكان تدنى مرتبة الصينيين عنصرياً أمراً مسلماً به لدى الجميع.

ماذا كان لون المصريين القدماء ؟

كان الوضع العنصرى للمصريين القدماء أقل تحديداً من وضع الصينيين لسببين: فقد نشب خلاف حاد بين الباحثين حول "جنسهم"، وكان المصريون أنفسهم يتأرجحون

بين رقى الجنس الأبيض وتدنى الجنس الأسود. يقول كوفيير:

"يتميز العنصر الزنجي ... بالبشرة السوداء والشعر الأجعد والجمجمة المضغوطة والأنف الأفطس. وبروز الأجزاء السفلية من الوجه وغلظ الشفتين بما يجعلهم أقرب إلى قبيلة القردة؛ فقد ظلت القبيلة التي تجمعهم في أقصى حالات البربرية دوما"(٦٤).

في حين يقول جوبينو:

"إن الجنس الأسود هو الأدنى مرتبة ومكانة في قاع سلم الأجناس. فالطابع الحيواني الذي يميزه يحدد مصيره منذ لحظة الحمل. وهو محصور في أضيق نطاق من الإدراك العقلي ... وإذا كانت ملكة التفكير عنده ضعيفة أو معدومة، فإن في رغباته وبالتالي في إرادته حدة شديدة غالباً. وعدد من الحواس ينمو فيه بقوة لا نظير لها في الجنسين الآخرين، وعلى رأسها الذوق والشم. وأشد سمات تدنيه نجدها في شغفه بالمحسوسات..." (٦٥).

وإذا كان الأوروبيون يعاملون السود بنفس السوء الذى كانوا يعاملونهم به في القرن التاسع عشر، فقد كان السود يعتبرون حيوانات أو على أحسن الفروض دون البشر؛ فلم يكن القوقازى النبيل يستطيع أن يعامل البشر الكاملين بهذه الطريقة. وهذا التغيير في الأوضاع يمهد الساحة للجانب العرقي والأول "للمسألة المصرية". فلو كان قد ثبت علمياً أن السود عاجزون بيولوجياً عن صنع الحضارة، كيف يمكن إذن تفسير حضارة مصر القديمة التي كانت تقع خطأ بالقارة الإفريقية؟(٦٦) كان هناك حلان، بل ثلاثة حلول:

الأول: إنكار أن قدماء المصريين كانوا من السود.

الثاني: إنكار تشييد قدماء المصريين لحضارة "حقيقية".

الثالث: إنكار الأمرين معاً. وكان الحل الأخير هو الذى مال إليه مؤرخو القرنين التاسع عشر والعشرين.

إلى أى الأجناس كان قدماء المصريين ينتمون إذن ؟ أجد فى نفسى ارتياباً من استخدام مفهوم أنه حتى إذا سلمنا بذلك جدلاً، فإنى ليحدونى الشك فى إمكانية العثور على إجابة فى هذه الحالة بالذات. فالبحث فى هذه المسألة عادة ما ينم عن ميول الباحث أكثر مما يكشف عن المسألة نفسها. على أية حال فلدىّ اقتناع أن سكان مصر ولو فى السبعة آلاف سنة الأخيرة يشملون أجناساً من إفريقيا وجنوب غرب آسيا والمتوسط. ومن الواضح أيضاً أننا كلما اتجهنا جنوباً فى الصعيد كلما زادت بشرة السكان ميلاً للسمرة وأن هذا هو الحال طوال الفترة المذكورة. وكما ذكرنا فى المقدمة، فإنى أعتقد أن الحضارة المصرية كانت إفريقية فى الأساس وأن العنصر الأفريقى كان فى الدولتين القديمة والوسطى وقبل غزو الهكسوس أقوى مما آل إليه الحال فيما بعد. كما أعتقد أيضاً أن العديد من أقوى الأسر الحاكمة المصرية التى كانت تتخذ من صعيد مصر مقراً لها – الأسرة الأولى والحادية عشر والثانية عشر والثامنة عشر – كان قوامها فراعنة يمكن الزعم بأنهم كانوا من السود[٦٧].

ومع ذلك فالطابع الأفريقى للحضارة المصرية لا صلة له بموضوعنا الحالى الذى يتعلق بما يكتنف الوضع "العرقى" للمصريين من غموض فى التصور العام. كان المصريون فى العهود الكلاسيكية يعتبرون من السود والبيض أو الصفر؛ فقد أشار هيرودوتوس إلى أنهم كانوا ذوى "بشرة سوداء وشعر أجعد"[٦٨]. ومن ناحية أخرى، فإن صور بوصير على الأوانى الفخارية تدل على أنه كان قوقازياً، مع أن حاشيته كانت من السود والبيض على السواء[٦٩].

ويعرب البروفسر جان دفيس Jean Devisse عن دهشته إزاء كثرة عدد السود فى الصور المسيحية المبكرة للمصريين[٧٠]. كما يشير إلى أن المصريين "ازدادوا سواداً" فى القرن الخامس عشر وهى الحقبة التى حظوا فيها بأعلى قدر من الإعجاب. كما يبدو أن هناك علاقة بين سواد بشرة المصريين وحكمتهم. فنجد العديد من لوحات العصور الوسطى وعصر النهضة تصور أحد الكهنة – يفترض أنه مصرى – فى صورة شخص أسود البشرة[٧١]. ومن ناحية أخرى، فإن صور هرمس تريسميجيستوس (ثلاثى العظمة) Hermes Trismegistos من عصر النهضة تصوره كأوروبى ولو أن له

بعض الملامح الشرقية الغامضة أحياناً[٧٢].

وفي انجلترا، كان إطلاق لفظ Gypsy (أو Egyptian) على أهل شمال غرب الهند دليلاً على أن المصريين في القرن الخامس عشر كانوا يعتبرون شعباً من السود[٧٣]. وكان التفسير التلمودى بأن "لعنة حام" (أبي كنعان ومصرايم) كانت سواد اللون، سائداً في القرن السابع عشر[٧٤]. ومن ناحية أخرى، ففي ظل ذلك المزيج من تصاعد النزعة العنصرية وإزدياد نظرة الاحترام لقدماء المصريين في أواخر القرن السابع عشر، مالت صورتهم إلى اللون الأبيض. فيقول برنيار Bernier مؤلف كتاب New Divisions of the Earth by the Different Species or Races Who Inhabit it (تقسيمات جديدة للأرض وفقا لاختلاف الأنواع أو الأجناس التي تسكنها) والذى نشر عام ١٦٨٤ إن المصريين جزء من الجنس الأبيض[٧٥].

ومما لاشك فيه أن كثيراً من الماسونيين عنصريون. فتورطهم المباشر أو غير المباشر في النخاسة وتحللهم من وحدة الجنس البشرى بدرجة أكبر من المسيحيين الأصوليين يبطل توجهاتهم الإنسانية وينسخ العقيدة الماسونية التي تذهب إلى أن "كل البشر إخوة". وهم بتركيزهم على مصر يهدفون إلى إيجاد فاصل حاد بين السود "الحيوانات" والمصريين النبلاء. ففي **الناى السحرى** مثلا، أوجد موتسارت تناقضاً حاداً بين البرابرة الشهوانيين والفيلسوف المصرى ساراستو[٧٦]. وإذا لاحظنا التركيز على مزايا الاستعمار المصرى، وهو موضوع محورى في سيثوس Sethos، والتناقضات الحادة فيه وفي غيره من كتابات القرن الثامن عشر بين البلاسجيين "أكلة جوز البلوط" قبل وصول المصريين وأمجاد الحضارة اليونانية بعده، يمكن القول بأن هذه كانت ولو إلى حد ما مبررات للأنشطة الأوروبية في ذلك الوقت.

أما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فكانت هناك اتجاهات لإعادة المصريين إلى إفريقيا، وهي اتجاهات ذات صلة بحالة شغف بإثيوبيا تنعكس في ترجمة د. جونسن لرحلة الأب لوبو في القرن السابع عشر إلى ذلك البلد وفي روايته Rasselas[٧٧]. وعلى الرغم من أن أسطورة العصور الوسطى عن مملكة بريستر

جون، الحليف المسيحى لأوروبا فيما وراء الإسلام، كانت تنطبق على العديد من مناطق آسيا وإفريقيا، فإن إثيوبيا بوصفها مملكة مسيحية ومنطقة جبلية نائية وغريبة كانت مؤهلة لذلك. بالإضافة إلى إمكانية الربط بسهولة بين إثيوبيا ومصر القديمة.

ومع ذلك ينبغى أن توضح أن تسمية Abyssinia (الحبشة) كانت تستخدم تحديداً لتفادى استخدام كلمة "إثيوبيا" لارتباطها بسواد البشرة. وأول طبعة أمريكية من كتاب جونسن، وكانت قد صدرت بفيلا دلفيا فى عام ١٧٦٨، كانت بعنوان The History of Rasselas Prince of Abissinia: An Asiatic Tale (تاريخ راسيلاس أمير الحبشة: حكاية آسيوية). وكان البارون كوفيير يرى أن لفظ "إثيوبى" يوازى لفظ Negro (زنجى)، وكان يصنف الأحباش – باعتبارهم أهل مستعمرات عربية – ضمن القوقازيين[٧٨]. ومع ذلك، فإن هذه التفرقة كانت أدق من أن يكون لها تأثير. وكان المستكشف الأسكتلندى الكبير جيمس بروس James Bruce الذى انبهر بإثيوبيا الحبشة وشغف بالبحث عن منابع النيل أكثر دراية فى هذا الصدد. فكان سكان جبال إثيوبيا فى رأيه سود البشرة ويتسمون بالجمال بوجه عام. وكانت اكتشافاته المبهرة قد شجعت المعجبين بمصر من أمثال بروس نفسه والرحالة كونت دى فولنى Compte de Volney وديبوى وشامبليون على التأكيد على أهمية صعيد مصر أو إثيوبيا باعتبارهما منبعين للحضارة المصرية[٧٩].

وعلى الرغم من الجاذبية الرومانسية الواضحة التى تميز بها الشغف بإثيوبيا، فإن الألمان لم ينجرفوا فى خضمه. إذ كانت مصادر انبهارهم خارج أوروبا تتركز فى آسيا، وحين كانوا يربطون مصر بإفريقيا السوداء كانوا يهدفون إلى تشويه صورتها. وقد سبقت الإشارة لكراهية فينكلمان Winckelmann لشكل المصريين؛ والفقرة التالية تبين مدى الضرر الذى يترتب فى رأيه على الربط بين إفريقيا ومصر:

> "كيف يمكن أن نرى أى ملمح للجمال فى قوامهم وكل الأصول التى جاء وا منها تتسم بالطابع الأفريقى ؟ فقد كانت لهم شفاه بارزة وذقن صغيرة ناتئة وصدغ غائر ومسطح كالأفارقة. وكان لهم أنف أفطس مسطح وبشرة داكنة لا كالأفارقة وحسب، بل

كالإثيوبيين أيضاً ... لذا فكل الصور المنقوشة على المومياوات لها وجوه بنية داكنة"[٨٠].

وكانت هناك مواقف مماثلة بكل من إنجلترا وفرنسا. فعلى سبيل المثال يقول شارل دى بروس Charles de Brosses الذى كان معاصراً لفينكلمان إن قدماء المصريين كانوا يشبهون السود المعاصرين فى أن عبادة الحيوانات – التى يعتبرها الماسونيون مجازية – لم تكن إلا من قبيل "عبادة الزنوج للتوافه"[٨١]. أما فى أواخر القرن الثامن عشر فكان الرأى السائد هو رأى موتسارت فى **الناى السحرى** وعمانويل شيكانيدر Emanuel Schikaneder واضع الكلمات، وهو أن المصريين لم يكونوا زنوجاً ولا أفارقة اصلاً. وكان هيردر بإعجابه الكبير بالشرق يعتبرهم شعباً آسيوياً[٨٢]. وكان العالم الأنثروبولوجي ورائد الدراسات العرقية اللورد مونبودو Monboddo الذى اشتهر بإدراج الأورانجوتان ضمن النوع البشرى يكن "إعجاباً كبيراً بالمصريين[٨٣] إلى جانب العرب واليهود باعتبارهم جميعاً من الجنس القوقازى[٨٤]. وبعد عدة عقود، ذهب كوفيير إلى "احتمال" أن يكونوا من الجنس الأبيض.

واللغات الإثيوبية السائدة هى لغات سامية، ويبدو أن هذا هو السبب فى أن مكانة الأحباش ضمن الجنس المتفوق كانت أكثر استقراراً من مكانة المصريين[٨٥]. ومع الزيادة الهائلة فى الآراء التصورية الخاصة بقدماء المصريين بين أيدى الأوروبيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر والتى كانت تعتبرهم شعباً مختلطاً، بدأ الميل لاعتبار المصريين أفارقة وسود البشرة.

وفى أواسط القرن التاسع عشر، بدأ جوبينو فى إحياء وجهة النظر التوراتية – أو التلمودية لمزيد من الدقة – وفى تصنيف المصريين ضمن الجنس الحامى واعتبارهم من السود. من ثم فقد وجد من الأجدى قبول نظرية شليجل التى ترى أن "الحضارة" المصرية – التى يسلم جوبينو بوجودها – كانت مستمدة من غرس المستعمرات "الآرية" الهندية[٨٦]. وقبل ذلك كان قد تم التوصل إلى رأيين وسط بين سواد المصريين وسمو حضارتهم بسبب طول الفترة الزمنية التى يشملها الموضوع. أولهما هو نفس الرأى السائد عن الهند بصفة عامة – وهو أن المصريين "الخلص" الأصليين كانوا من الجنس

الأبيض ولكن حدث فيما بعد اختلاط واسع النطاق بأجناس أخرى، وكان هذا الاختلاط بين الأجناس هو السبب الأول لاضمحلالهم[٨٧].

أما الرأى الوسط الآخر الذى قال به عالم الأنثروبولوجيا ويلز W.C.Wells الذى عاش بالقرن التاسع عشر، فكان على النقيض من ذلك. إذ كان ويلز مرتبطاً بالحركة الإنسانية وكان يعارض التطرف فى العنصرية وتعدد أجناس البشر، وكان يدافع عن تطور الجنس الأسود. وفى حين كان يقبل بوجود علاقة بين اللون ودرجة التحضر، كان يؤمن بأن الحضارة هى التى تحدد اللون وليس العكس. فيقول مثلاً إن الفن المصرى القديم يصور قوماً من الواضح أنهم كانوا من السود، أما المصريون المحدثون فليسوا من السود. لذا فمن المحتمل فى رأيه أن جلودهم أبيضت مع تقدم الحضارة[٨٨].

ويبين ويلز فى عام ١٨١٨ كيف تغير المناخ الفكرى بصورة جذرية منذ عصر التنوير. فقد تم نبذ فكرة وجود حضارة مصرية راقية فى مواجهة "تطور" قد يتجاوز المبدأ التوراتى الخاص بالاستمرارية الذى يقول: "وهل يمكن للحبشى أن يغير جلده أو أن يغير النمر بقع جلده ؟"[٨٩]. على أية حال، كان ويلز على حق فى نقطتين. ففى المقام الأول، كان الرأى السائد عن المصريين الأوائل فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر أنهم كانوا من السود - انظر التصورات الشهيرة لأبى الهول وقياسه على يد علماء الحملة الفرنسية[٩٠]. ثانياً، كانت مصر فى عام ١٨١٨، سواء كان ويلز يدرك ذلك أم لا يدركه، فى مستهل نهضة "قومية".

النهضة القومية لمصر الحديثة

نصل هاهنا إلى موضوع يبدو وكأنه غير ذى صلة بتاريخ صورة مصر القديمة. ومع ذلك فكما هو الحال بالنسبة "للكلب الذى لم ينبح فى الليل" فى قصة شيرلوك هولمز، كان انعدام تأثير النهضة المصرية على الصور النمطية العنصرية عن قدماء المصريين بأذهان العلماء مما يدلنا على شئ فى غاية الأهمية عنهم.

كانت مصر جزءاً من الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر. وظل الأتراك يحكمونها من خلال الحكام السابقين، أى المماليك، وهم فرقة من العبيد

معظمهم من القوقاز، وكانوا يشكلون أقوى فرق الجيش وحكموا مصر منذ القرن الثالث عشر. ويتسم تاريخ المماليك بصيغة دموية واضحة، وكانت السلطة على القمة تتغير بصورة سريعة. وفى أواخر القرن الثامن عشر، كان الإنتاج الزراعى التجارى وأعمال التجارة والصناعة قد بلغت مستوى جعل من مصر دولة غنية بالمعايير العالمية(٩١).

ثم اتجه حكم المماليك وسيطرة الأتراك نحو الضعف الشديد على أثر حملة نابليون فى عام ١٧٩٨ والتى تم تنفيذ جزء كبير منها عن طريق إحداث انقسامات طبقية ودينية وعرقية فى المجتمع المصرى. وفى عام ١٨٠٨م، وبعد انتشار حالة من الفوضى نتيجة لانسحاب الفرنسيين وتدخل الانجليز، تم طرد الانجليز وأمسك محمد على، القائد الألبانى بالجيش التركى، بزمام السلطة فى البلاد. وبعد عدة سنوات، أقام مذبحة للمماليك وأصبح والياً على البلاد بينما كان فى الحقيقة مستقلاً عن الأتراك.

وبدأ محمد على عملية تحديث حكومية للاقتصاد والمجتمع المصرى لا تقارن إلا بما قام به بطرس الأكبر فى روسيا وامبراطور الميجى فى اليابان. وتم الاستيلاء على أراضى المماليك والضرائب وتوزيعها بصورة مباشرة على الفلاحين الذين أصبحوا يدفعون مزيجاً من الإيجار والضريبة للدولة. وتم تنفيذ مشروعات رى هائلة وتم التوسع فى زراعة القطن والسكر على المستوى التجارى. وأنشئت المصانع الحديثة لتصنيع هذين المحصولين بالاستعانة بالخبراء الأجانب، ولكن كما حدث فى كل من روسيا واليابان، كانت المشروعات الصناعية بمثابة ترسانات أقيمت لإمداد الجيش الحديث باحتياجاته وأغنته عن الأسلحة الأجنبية(٩٢). ويمكن القول بأن هذا البرنامج كانت له آثار ضارة حيث زاد من اعتماد البلاد على محصول القطن وأوجد طبقة من ملاك الأراضى الأثرياء ممن عاد نفوذهم بالضرر على التنمية القومية. ومع ذلك فقد حقق البرنامج نجاحاً باهراً خلال فترة وجيزة. وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أتت مصر فى المرتبة الثانية بعد إنجلترا من حيث القدرات الصناعية الحديثة(٩٣).

وبهذه القواعد الاقتصادية والسياسية، بدأ محمد على إقامة امبراطورية مصرية عبر البحار. فقام جيشه الحديث بإخماد عدد من الأقاليم التابعة للأتراك بغرب الجزيرة

العربية، بعد أن قام قادة جيشه بفتح السودان فى عام ١٨٢٢م. واتجه نظره شمالاً إلى الشام واليونان، حيث كانت كثرة من اليونانيين يعيشون فى دلتا مصر باعتبارهم من رعايا الأمبراطورية العثمانية وكان لهم دور كبير فى القطاعات التجارية الجديدة من اقتصاد البلاد. وبعد تولى محمد على لزمام السلطة، توافدت أعداد أخرى من اليونانيين للانضمام لجيشه الجديد وللمشاركة فى الطفرة الاقتصادية[٩٤].

ومع بدء حرب الاستقلال اليونانية فى عام ١٨٢١م، تنازل السلطان التركى مكرهاً لمحمد على عن ولايتى كريت والمورة مع تكليفه بالقضاء على المتمردين. وظل المصريون لمدة أربع سنوات غير قادرين على الغزو بسبب عناد الأسطول اليونانى. ولكن فى عام ١٨٢٥م، انتهز المصريون فرصة حدوث تمرد على الأسطول اليونانى بسبب نقص الرواتب، وأنزلوا جيشاً نظامياً تحت قيادة إبراهيم بن محمد على. وتمكنت هذه القوة من سحق المقاومة العنيدة للقوات اليونانية غير النظامية. ثم تحرك إبراهيم شمالاً صوب ميسولونجى حيث كان المتمردون اليونانيون تحت الحصار التركى.

وأدى وصول الجيش المصرى المتفوق إلى ترجيح التوازن لصالح الأتراك، وتم الاستيلاء على بؤرة الثورة اليونانية ولكن بعد دفاع بطولى. وبموت بايرون هناك، احتشدت حكومات دول أوروبا لدعم القضية اليونانية، فتحولت الحركة إلى صراع قارى بين أوروبا من ناحية وآسيا وإفريقيا من ناحية أخرى[٩٥]. وكانت تركيا بميلها نحو الضعف أقل خطراً فى رأى البعض على اليونان وأوروبا من مصر. ففى تقييمه لاحتمالات حصول مصر على استقلالها التام عن تركيا كتب المستشار النمساوى ميترنيخ قائلاً: "وهكذا فقد يشهد المرء تحقيق ما طال التحذير منه باعتباره أكبر خطر يتهدد أوروبا، ألا وهو قيام قوة إفريقية جديدة ..."[٩٦].

ولمواجهة هذا الاحتمال، سعت الحكومتان البريطانية والفرنسية لفصل مصر عن تركيا. كما حاولت الحكومتان إقناع محمد على بالانسحاب من المورة وإجبار الحكومة التركية على التنازل له عن ولاية سوريا كتعويض عنها. وفى عام ١٨٢٧، قامت فرق من القوات البحرية البريطانية والفرنسية والروسية بتدمير الأسطولين التركى والمصرى فى موقعة نفارينو (نوارين)، وتحقق استقلال اليونان. وتم إبرام اتفاقية انسحب المصريون

بمقتضاها من جزر المورة وأطلقوا سراح عبيدهم اليونانيين. وعلى الرغم من هذه الهزيمة المهينة، تم منح محمد على ولاية سوريا وواصل توسعه الاقتصادى والعسكرى.

وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فرض المصريون هيمنتهم على سوريا وبدأوا فى تحديث البلاد وإنشاء قاعدة قوة جديدة هناك. وفى الوقت نفسه، تمكن محمد على وابنه إبراهيم من تكريس حكمهما لكريت. وكان سكان الجزيرة قد تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح فى القتال الضارى بين اليونانيين والأتراك إبان حرب الاستقلال اليونانية، وكانت الهدنة الوحيدة هى تلك التى أبرمها جيش إبراهيم حين فرض سيطرته على كريت لمدة ثمانية عشر شهراً كخطوة نحو المورة(٩٧).

وبعد هزيمة نفارينو فى عام ١٨٢٧، ثار أهل كريت المسيحيون مرة أخرى تحت حماية الأساطيل الأوروبية. إلا أن بريطانيا لم تكن ترغب فى قلب التوازن بدرجة كبيرة، وفى عام ١٨٢٩، تم السماح لمحمد على بإعادة فرض سيطرته على الجزيرة. وبعد ثلاث سنوات من الهدوء النسبى، ثار أهل كريت المسيحيون الساخطون على خضوعهم للمسلمين بينما حصل اليونانيون على استقلالهم، وقاموا بثورة أخرى ولكن تم سحقها بكل قسوة. وبعد عام ١٨٣٤، تم فرض حكم استعمارى صارم لم يحظ المسلمون فى ظله بأية محاباة، وأقيم اتصال مع الجالية اليونانية الضخمة فى مصر. وتم إصلاح الاقتصاد وتنميته للمصلحة المشتركة بين محمد على وأهل كريت. فتمت السيطرة على الأمراض وزادت الثروة والسكان زيادة كبيرة فيما اعتبر فيما بعد عصراً ذهبياً للجزيرة بعد عشرات السنين من الحكم التركى(٩٨).

وفى عام ١٨٣٩، أعلن محمد على استقلاله عن الباب العالى وقام بغزو تركيا. وبعد خمسة أيام، توفى السلطان، وبعد ذلك مباشرة تمرد الأسطول التركى والضم إلى المصريين. وكان التهديد القادم من شرق المتوسط تحت سيطرة قوة غير أوروبية أمراً لا يحتمل الانتظار، وفى استعراض للوحدة لم يتكرر إلا مع ثورة البوكسر فى الصين بعد ستين عاماً، هبت النمسا وانجلترا وفرنسا وبروسيا وروسيا لنجدة تركيا. فاضطر محمد على بعد أن تعرض لخطر الحصار للتنازل عن شمال سوريا وكريت وتحول مرة أخرى إلى التبعية للأتراك(٩٩).

وكانت الأوضاع الجديدة بمثابة ضربة للاقتصاد المصرى تفوق الضربة التى منى بها بعد موقعة نفارينو. وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، اتجهت سياسة الاكتفاء الذاتى الحكومية نحو الضعف بسبب التغلغل التجارى الأوروبى؛ وبعد الأوضاع الجديدة التى استجدت عام ١٨٣٩، اضطر الاقتصاد المصرى للعودة باتجاه النمط التقليدى التركى. وأدت هذه الانتكاسة إلى انفتاحه تماماً أمام الصناعات الأوروبية مما أدى إلى ضعف الصناعة المصرية بل إلى تدميرها(١٠٠). واحتفظ أبناء محمد على وأحفاده بثروة ضخمة وسلطة واسعة إلى أن تعرضوا للهزيمة السياسية والعسكرية على يد الانجليز. وحدث انهيار أكبر للاقتصاد الحديث بعد الاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢؟(١٠١).

والجهل بقصة هذا التاريخ الحديث ليس أمراً غريباً على الإطلاق. وهو لا يليق بنموذج التوسع الأوروبى النشط فى عالم خارجى سلبى. وكانت الامبراطورية المصرية فى القرن التاسع عشر تشبه قصص النهوض الغامضة التى لم تعمر طويلاً كنهضة الشيروكى فى جبال أبالاشيا والماوريين بنيوزيلند والصينيين بكاليفورنيا. وكانت نموذجاً لتفوق غير الأوروبيين على الأوروبيين فى ملعبهم ثم الاضطرار للتسليم لهم(١٠٢). وحين أخفقت الصورة النمطية للتفوق الأوروبى الطبيعى، كان التدخل المصطنع ضرورياً للإبقاء عليها.

وسبب سردنا لهذه الأحداث هو أن الامبراطورية المصرية الكبرى منذ عصر رمسيس الثانى لم يرد لها أى ذكر فى الكتابات المعاصرة التى تتناول التاريخ القديم. ومن الملاحظ أيضاً أنه فى الوقت الذى كان المصريون يسيطرون فيه على مساحات شاسعة من اليونان، كان لابد من منعهم من غزو داناؤس ولو جزئياً لأسباب تتعلق "بالشخصية القومية"(١٠٣). والعجز عن رؤية أى خروج على القاعدة فى ذلك يمكن تفسيره من زاوية "التغطية الإعلامية" المعاصرة. وعلى الرغم من أن التقارير الرسمية تشير إلى كفاءة الحكم المصرى ونزوعه إلى الخير، نجد أن التقارير الشعبية تشير إلى تورط المصريين فى بعض المذابح وتشبهها بالمذابح التى ارتكبها الأتراك واليونانيون المسيحيون. كما أن وجود السود على أرض اليونان كان يعتبر أمراً مروعاً(١٠٤).

ولامجال لتفسير تجاهل المؤرخين المعاصرين للانتصارات المصرية المعاصرة بصفة

عامة وفتوحاتهم فى اليونان بصفة خاصة بأن الأحداث الأخيرة لأنهم المؤرخ المحترف أو بأن التاريخ المصرى منى بحالة من التمزق التام مع دخول الإسلام. وكان مؤرخو القرن التاسع عشر يمثلون قلب العصر الرومانسي الذى كان من المفترض فيه أن الشعوب لها جوهر ثابت وسمات محددة. فلم يكن المؤرخون يجدون غضاضة مثلاً فى الربط بين القوط والفايكنج الوثنيين والانتصارات الانجليزية والألمانية المسيحية فى القرن التاسع عشر. ومن الواضح أن ازدواج المعايير يعود لأسباب عنصرية. ففى ذلك العصر، بل فيما سبقه من عصور أيضاً، لم يكن من المتوقع من المؤرخين الذين كانوا يؤمنون بأن الأفارقة أقل شأناً من الناحيتين العرقية والنوعية أن يعترفوا بقدرة المصريين على تجهيز جيوش باسلة فاتحة تضارع جيوش نابليون وويلنجان وبلوخر، حتى وإن كانت بقيادة قادة أوروبيين مارقين كمحمد على وابنه إبراهيم.

ديبوى وجومار وشامبليون

كانت العنصرية منذ البداية عاملاً مهماً فى الحط من شأن المصريين وفى نبذ النموذج القديم، وبعد عام ١٨٦٠، أصبحت هى العامل الأهم. إلا أن التنافس بين الديانتين المصرية والمسيحية فى العقدين الثالث والرابع من القرن التاسع عشر استمر فى لعب دور مهم. وقد سبق أن ناقشنا التهديد الذى تعرضت له المسيحية عند شارل فرانسوا ديبوى كمستشار ثقافى لأنظمة الحكم الثورية ومن خلال كتابه Origin of All Cults (أصل كل العقائد) الذى قدم فيه زعمه بأن المسيحية نشأت عن بقايا أسيئ فهمها من القصص المجازى الدينى والفلكى المصرى.

وقد تحولت هذه الفكرة إلى لعنة بعد الثورة الفرنسية وإحياء المسيحية كحصن ضرورى للنظام الاجتماعى. ولم يقتصر القلق الذى أثاره ديبوى على العناصر الرجعية الفظة، بل امتد ليشمل "المدافعين النقديين" عن المسيحية أيضاً. فأعلن كولريدج Coleridge تأييده لبركلى بعد قراءة أعماله؛ وكان دفاع بركلى فى مواجهة تحديات إضفاء الصبغة التاريخية على الأناجيل يقوم على أن مصداقيتها لا تقل عن مصداقية أية نصوص أخرى من منطلق أن التاريخ كله عبارة عن أسطورة[١٠٥]. وكما تعرض نيوتن وبنتلى وويستن لتخويف تولاند والتنويريين الراديكاليين، فقد شعر المستنيرون فى أوائل

القرن التاسع عشر بما يمثله ديبوى من خطر. فقد انبهر به الرئيس الأسبق جون آدمز مثلاً. وفى عام ١٩١٦، كتب لصديقه توماس جيفرسن يقول له بدلاً من إنفاق الأموال على الإرساليات التبشيرية "ينبغى أن ننشئ جمعية لترجمة أعمال ديبوى لكل اللغات وتمنح جائزة من الماس لأى شخص أو مجموعة تتقدم بأفضل رد عليها" (١٠٦). ينبغى أن تقدم جائزة الماس لجان فرانسوا شامبليون.

وكان الفزع الشديد من ديبوى والماسونيين المؤيدين لفكرة الأصل المصرى وذوى العلاقة الخاصة بالثورة الفرنسية، بالإضافة إلى الصلات الثلاثية المعقدة بين المسيحية واليونان ومصر القديمة، يبدو واضحاً فى حياة شامبليون المعذبة. وينبغى لشامبليون الذى يمثل نقيض نهضة الشرق أن يعتبر ذروة التنوير الماسونى. ويبدو أنه اكتشف مهمته فى فك طلاسم الحروف الهيروغليفية فى نفس المرحلة من صباه التى تحول فيها إلى الماسونية، وحين بلغ العشرين من عمره، كان قد أتقن العبرية والعربية والقبطية استعداداً للقيام بمهمته(١٠٧).

وكان فك الطلاسم قد أصبح ممكناً حينئذ بعد ظهور نسخ من نصوص جديدة تشمل حجر رشيد الذى كان قد اكتشف حديثاً والذى كان منقوشاً عليه نص واحد باللغات اليونانية والديموطيقية والهيروغليفية. إلا أن شامبليون كما يشير جاردنر كان "دائما النزوع إلى العودة لنظريته المتناقضة عن الطابع الرمزى البحت للحروف الهيروغليفية"(١٠٨). وكان تغلبه على تلك النزعة دليلاً على أن فك الطلاسم وإن كان يتطلب حافزاً ماسونياً، إلا أنه ما كان لينجح إلا مع بدء تصدع المثال المصرى وانتصار اللغويات الرومانسية. ولم ينبذ العقيدة الماسونية المحورية التى ترى أن الحروف الهيروغليفية رمزية بحتة وليست لها وظائف صوتية إلا فى هذه المرحلة.

ومن المفارقات أيضاً أن أول اكتشاف حقيقى لشامبليون تم فى عام ١٨٢٢ ويتمثل فى إرجاع دائرة بروج دندرة للعصر الرومانى، وكان إدميه فرانسوا جومار Edmé-François Jomard وهو أحد أنصار ديبوى ومن كبار علماء حملة نابليون قد ذهب إلى أنها ترجع لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد(١٠٩). وتتضح الخدمة التى أسداها للمسيحية بهذا الاكتشاف فى تقرير قدمه السفير الفرنسى فى روما عن

موقف البابا حيث ورد عنه أنه قال:

" (بهذا)... تم إسداء خدمة جليلة للدين؛ "فقد دحض شامبليون النظرية التي تزعم أنها اكتشفت في دائرة بروج دندرة تقويماً زمنياً أقدم من تقويم الكتاب المقدس". من ثم فقد طلب البابا من م. تيستا، وهو عالم في الدراسات القديمة، أن يرفع له تقريراً تفصيلياً بالآراء التي استند إليها شامبليون: (١) أن دائرة البروج هذه شيدت في عهد نيرون؛ (٢) ليست هناك آثار ترجع لما قبل ٢٢٠٠ ق.م. أي إلى عصر إبراهيم، وهكذا فوفقاً لديننا يظل هناك ثمانية عشر قرناً من الظلام لا يضيء لنا الطريق فيها إلا تفسير الكتاب المقدس"[١١٠].

والمساعدة في مواجهة الخطر الذي يمثله ديبوي يفسر التغير المفاجئ في مواقف النبالة بعد عام ١٨٢٢م وفي مواقف لويس الثامن عشر وشارل العاشر من شامبليون وشقيقه الأكبر، وكانوا يكنون لهما الكراهية بسبب مذهبهم اليعقوبي وموالاتهم لنابليون والدعم الكبير الذي تلقاه الشقيق الأصغر من نظام حكم كان يبغضه. فقصر شامبليون اكتشافاته التاريخية على أسر ما بعد الهكسوس والتي ترجع إلى ٢٢٠٠ ق.م. بما يسمح بأن تكون الأسبقية للتوراة. وإذا كان قد نال بذلك تأييد المدافعين عن المسيحية، فإن إلقاءه الضوء على الأمجاد التي حققها المصريون قبل الحضارة اليونانية بحقب طويلة أثار غضب علماء الحضارة الهيلينية. وبذلك فقد شق التحالف بين المسيحية والهيلينية إلى حين.

كان لشامبليون خصوم كثيرون في الدوائر العلمية ومنهم علماء المصريات من أمثال جومار الذي كان قد دحض تأريخه لدائرة البروج، والمؤسس الرومانسي المحافظ لعلم الاستشراق سيلفستر دي ساسي. أما صلب التيار الذي حال بينه وبين الأكاديمية والكوليج دي فرانس فكان يتألف من علماء الحضارة الهيلينية من أمثال جان أنطوان ليترون وراؤول روشيت اللذين كانا في ذلك الوقت يكنان العداء للحضارة المصرية[١١١]. ومع ذلك ففي عام ١٨٢٩، انتصر على عدد من خصومه بفضل الدعم

الملكى والفائدة التى يحققها فكه للطلاسم، ونال شامبليون اعترافاً كان يستحقه قبل ذلك بكثير. وهكذا ففى المناخ الليبرالى الذى ساد بعد ثورة يوليو ١٨٣٠، وجد شامبليون الفرصة سانحة لنشر النتائج التى توصل إليها بأن التقويم المصرى وبالتالى الحضارة المصرية كانا يرجعان لعام ٣٢٨٥ ق.م، وهو ما أثار المسيحيين وأنصار الحضارة الهيلينية ضده. لذا فقد توارى علم المصريات بعد وفاته فى عام ١٨٣١ لمدة ربع قرن تقريباً، فى حين واصل خصومه الهيلينيون والمستشرقون سيطرتهم على الأكاديمية الفرنسية. ومن المفارقات الغريبة أن من تلى رثاء شامبليون لم يكن صديقه ومؤيده داسيه Dacier السكرتير الدائم للأكاديمية، بل خليفة داسييه وهو دى ساسى، أكبر خصوم شامبليون(١١٢).

ولم تلق ترجمات النصوص المصرية اعتراف علماء التاريخ القديم إلا فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ويعد تجاهل علم المصريات بين ١٨٣١ و ١٨٦٠ من النقاط الشديدة الأهمية بالنسبة لموضوع هذا الكتاب، كما أن النموذج القديم القائم على أسبقية الحضارة المصرية فى تلك الفترة قد سقط وقام بدلاً منه النموذج الآرى القائم على تفوق الحضارة الهندية. ويمكن الاطلاع على مثال جيد لهذه العملية وللتدهور العام الذى منيت به صورة مصر القديمة فى رواية Middlemarch لجورج إليوت George Eliot، فمع أنها كتبت فى ستينيات القرن التاسع عشر، إلا أنها تقدم تصوراً دقيقاً للحياة الفكرية حول عام ١٨٣٠. فاهتمام العالم الكهل كازوبون بمصر القديمة فى رواية يهدف إلى تصوير نزعته الظلامية. أما لاديسلاف فهو شاب متحرر من بؤرة الرومانسية أى الجالية الألمانية بروما، فلا ينتقد كازوبون لتجاهله لشامبليون وما قام به من فك للطلاسم، بل نجده يسخر من عجزه عن قراءة المعارف الألمانية ومن اهتمامه بمصر(١١٣).

كان زعيما الجالية الألمانية بروما فى العقدين الثانى والثالث هما بارتولد نيبور وهو من كبار مؤرخى روما وتولى منصب سفير بروسيا بالفاتيكان لفترة وسكرتيره وخليفته كريستيان بونسن. وكانا من أكبر أنصار الرومانسية الجديدة والعنصرية. وكانا بالإضافة إلى ألكسندر وفيلهلم فون همبولت من بين العلماء الألمان القلائل الذين كانوا

يؤمنون بشامبليون وفكه للطلاسم فى العشرينيات. ومع ذلك كانت لهم بعض التحفظات على الحضارة المصرية. ففى عام ١٨٣٣، أصر فيلهلم فون همبولت، بصفته مشرفاً على المتحف القومى الجديد ببرلين، على ألا توضع الآثار المصرية بمتحف قومى، على الرغم مما لها من قيمة بالنسبة للعلماء وهو منهم، يستهدف استحسان الجمهور فى مكانة مساوية للفن Kunst وكان يقصد بهذه الكلمة الأخيرة العاديات اليونانية والرومانية.وفن عصر النهضة(١١٤).

كان كريستيان بونسن قد درس بجوتنجن، وأصبح فيما بعد سفيراً لبروسيا ببريطانيا فى وقت خرج فى أربعينيات القرن التاسع عشر. وتعلم الهيروغليفية وأتقن علم المصريات فى الثلاثينيات والأربعينيات على الرغم من "ارتياب مواطنيه وتجاهلهم له" وهو ما أدى إلى الإبقاء على هذا العلم حياً إبان ركوده، ولكن على حساب تحويل مصر إلى شئ غريب يخضع للدراسة(١١٥). وحين فكر لأول مرة فى دراسة المصريات كتب لنيبور قائلاً إنه كان "يحس شيئاً من الرهبة منها"(١١٦). وفى وصفه لرحلة قام بها لمدينة ألبانى خارج روما كتب يقول: "ليس هناك شئ جميل أو إغريقى يمكن النظر إليه ولكنى أسعى وراء كل ما هو مصرى"(١١٧).

كان تأييد بونسن لعالم المصريات رايخارت ليبسيوس Reichardt Lepsius وعالم المصريات والدراسات الآشورية صمويل بيرك Samuel Birch قد ضمن له مكانة شرقية رفيعة فى تاريخ علم المصريات. ونشر Dictionary of Hieroglyphics (معجم الهيروغليفية) لبيرك، وهو الأول من نوعه فى أية لغة، عام ١٨٦٧ كملحق للطبعة الثانية للمجلد الخامس من كتاب بونسن الضخم Egypt's Place in Universal History (مكانة مصر فى تاريخ العالم). وهذه المجلدات هى التى يرجع لها الفضل فى التعريف ببونسن ومواهبه المتعددة فى حياته وبعد وفاته مباشرة.

ومع أن بونسن دوَّن كتابه فى أربعينيات القرن التاسع عشر، فهو يزعم أن أفكاره الأساسية عن الموضوع كانت قد راودته قبل فك الطلاسم بفترة طويلة حين كان طالباً بجوتنجن عام ١٨١٢. لذا فمن الممكن تعقبها فى العالم الفكرى لهينه Heyne الذى التقى به بونسن وبلومنباخ Blumenbach الذى تتلمذ عليه. على أية حال،

هنـاك سمـات واضحـة للتطـورات الفكريـة اللاحقـة فـى دراسـاته التـى تذهـب إلى أن المصـرى هـو نسـخة إفريقيـة مـن الجـذر المشـترك لكـل مـن الجنسـين الآرامـى (السـامى) والهنـدو جرمـانى. وكـان بونسن يـرى أن:

> حضـارة الجنـس البشـرى ترجـع فـى المقـام الأول لأسـرتين مـن الأمـم تعـد الصلـة بينهمـا حقيقـة وراء احتمـالات الخطـأ كالانفصـال المبكـر بينهمـا تمامـاً. ومـا نسـميه تـاريخ العـالم هـو فـى رأيـى تـاريخ جنسـين... يمثـل الجنـس الهنـدو جرمـانى منهمـا التيـار السـائد للتـاريخ؛ وقـد تجـاوزه الجنـس الآرامـى وكـون حكايـات الدرامـا الإلهيـة"[١١٨].

ويعـبر عـن نفـس هـذه الفكـرة فـى موضـع آخـر علـى النحـو التـالى: "إذا كـان السـاميون العـبرانيون هـم كهنـة البشـرية فـالآريون الرومـان الهيلينيـون هُـم أبطالهـا وسـيظلون كذلـك أبـداً"[١١٩].

وسـنناقش هـذه التفرقـة بـين "الجنسـين الرئيسـين" فيمـا بعـد، ولكـن لابـد مـن التـأكيد هنـا أنـه علـى الرغـم مـن زعـم شـليجل بـأن أسـرتى اللغـات مسـتقلتان تمامـاً، فـإن القـول بوحـدة الأصـل بالنسـبة للآريـين والسـاميين كـانت لا تـزال تحظـى بـالقبول فـى أربعينيـات القـرن التاسـع عشـر. وقـد تضـاءل قبولهـا فـى أواخـر القـرن إلا أنهـا اسـتمرت حتـى ذروة عـداء السـامية فـى العقديـن الثـالث والرابـع مـن القـرن العشـرين[١٢٠]. وكـان بونسـن مـن خـلال إيمانـه بـأن الإطـار الـذى وضعـه يتـواءم مـع المعلومـات الجديـدة المسـتمدة مـن أعمـال شامبليون يرى صلات واضحـة بين مـا هـو مصـرى ومـا هـو سامي، مـع وجـود صـلات مهمـة بينهـما وبين مـا هـو هنـدو أوروبـى[١٢١].

وتقـوم مكانـة مصـر فـى جـانب كـبير منهـا علـى التقويـم. وقـد أضـاف بونسـن إلى ذلـك بيانـات مصريـة وفلكيـة جديـدة للمصـادر الكلاسـيكية والتوراتيـة. وجـاءت نتائجـه بعـد نتـائج شـامبليون بـأن التقويـم المصـرى كـان قـد بـدأ فـى عـام ٣٢٨٥ ق.م. إلا أن التواريـخ التى اسـتعان بهـا فـى تـاريخ العـالم لم تكـن لهـا صلـة بهـذا النظـام وتعـد خياليـة بمعاييرنـا الحاليـة. كـان بونسـن ينتمـى للجيـل الجديـد مـن المسـيحيين المتحمسـين، ويـرى أن تـاريخ العـالم مـر بثـلاث مراحـل قبـل الطوفـان: المرحلـة الصينيـة مـن ٢٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ ق.م.؛

والمرحلة التورانية من ١٥٠٠٠ إلى ١٤٠٠٠ ق.م.؛ والمرحلة الحامية من ١٤٠٠٠ إلى ١١٠٠٠ ق.م[١٢٢].

وكان التسلسل التاريخي – بدءاً من الصين إلى آسيا الوسطى إلى مصر وانتهاء بأوروبا – مختلفاً عن نظيره الذى سبق أن أقره فى مسودته الأولى وكان يتألف من ثلاث مراحل: الشرق ثم اليونان والرومان ثم المرحلة الثالثة، وهى مرحلة الأمم التيوتونية. والمخططان إذا وضعا جنباً إلى جنب فإنهما يشبهان "التطور" الذى قال به همبولت من اللغات الإلصاقية إلى اللغات الصرفية أو نظرية هيجل عن الحركة الكبرى "لمراحل تاريخ العالم"، وقد ظهر كلاهما فى وقت واحد تقريباً. فكما تتحرك الشمس من الشرق إلى الغرب عند هيجل، تحركت الفكرة العالمية من البدهى، أى "الحكم الإستبدادى الثيوقراطى" بمنغوليا والصين، إلى "حكم الأرستقراطية الثيوقراطى" بالهند و "الحكم الملكى الثيوقراطى" بفارس؛ بينما كانت مصر نقطة انتقال بين الشرق والغرب. كل هذه كانت تمثل أولى مراحل البشرية، وهى مرحلة يشبهها هيجل صراحة بالطفولة[١٢٣]. والمرحلة الثانية، وهى صبا البشرية، هى مرحلة اليونان حيث نشأت الحرية الأخلاقية لأول مرة. والمرحلة الثالثة هى مرحلة روما وكانت الذروة فى العالم الجرمانى.

ويلاحظ أن هيجل لم يكتب إلا أقل القليل عن مصر فى مخططه، .وكان تقديمه لها على الهند يبدو وكأنه حيلة ضحلة للحفاظ على الاتجاه الكلى للفكرة العالمية من الشرق إلى الغرب. وفى محاضراته عن تاريخ الفلسفة بين ١٨١٦ و ١٨٣٠، كتب بصورة مطولة عن الفكر الصينى والهندى، إلا أنه لم يتطرق إلى مصر إلا فى تناوله لأصول الفلسفة اليونانية[١٢٤]. من ثم فإن مرحلية التاريخ التى تفوقت فيها الحضارات الأوروبية على نظيراتها الشرقية هى التيار السائد فى ألمانيا بأوائل القرن التاسع عشر.

ونعود الآن إلى بونسن فنجد أن النزعة الآرية السامية وإيمانه بمصر كمصدر بعيد للحضارة يضعه ضمن مفكرى أوائل القرن التاسع عشر؛ وقد فقدت أفكاره هذه رونقها فى حياته (١٧٩١–١٨٦٠) وأصبحت غير مقبولة فى الدوائر العلمية بعد ١٨٨٠. ومع أن بونسن ومعاصريه كانوا يعتبرون الصينيين والمصريين رواد الحضارة، فقد تدنى بهم بونسن إلى حقبة ما قبل الطوفان. فالتاريخ الحقيقى عنده وعند كل مؤرخى أواسط

القرن التاسع عشر تقريباً قوامه الحوار بين الآريين والساميين. لذا فإن بونسن ينكر الأساطير اليونانية المتعلقة بالمستعمرات المصرية ببحر إيجة.

وهو يعترف كمعظم معاصريه بأن أساطير اليونان تضم بعض المؤثرات السامية؛ إلا أنه تبعاً لآخر البحوث الجرمانية يعتقد أن هذه المؤثرات غير مباشرة. وكان الهكسوس الساميون وفقاً لمخططه يسمون بيليسيت أو بيلاسجوى حين طردوا من مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وكان بعضهم قد استقر بكريت وجنوب بحر إيجة بعد أن طردوا الآريين الذين كانوا يقطنون بجزر هذه المنطقة. وقد اتخذ سكان هذه الجزر الآريون أسماء طارديهم ونزحوا إلى أراضي اليونان حيث أصبحوا أسلاف اليونان. وكان هؤلاء هم الذين أدخلوا بعض جوانب حضارة الشرق الأدنى إلى اليونان بعد أن خضعوا للمؤثرات السامية[١٢٥].

بهذه الطريقة المعقدة والمرهقة التي لم يكن لها سند قديم، سعى بونسن إلى دمج أساطير اليونان عن المستعمرات الفينيقية والمؤثرات السامية الواضحة في اليونان، في حين أنه أبقى في الوقت نفسه على النقاء الهيليني الآرى. ومع ذلك فإننا ندخل من هنا إلى عصر عداء السامية التي سيتم تناولها في الفصلين الثامن والتاسع حيث نناقش هذه الفروق بين المصريين والفينيقيين من ناحية واليونانيين من ناحية أخرى بصورة مفصلة.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن معرفة اللغة المصرية كلغة لم يصبح متاحاً لأغراض المقارنة إلا بعد عدة عقود من تخلي الباحثين عن أية فكرة تقول بأن المصريين احتلوا اليونان أو أن الحضارة المصرية كان لها أى تأثير جوهرى على مجموعة الجزر. لذا ففي حين كان علماء عصر النهضة والتنوير يتلهفون على إجراء دراسات مقارنة مع اللغة المصرية، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك. أما علماء أواخر القرن التاسع عشر ممن كانوا يملكون الأدوات اللازمة لذلك فكانوا يرون أن أية مقارنة تفصيلية ستكون غير ذات جدوى. وفي العقد الخامس من القرن التاسع عشر، ساد الرأى بأن اللغة والحضارة المصرية نتاج جنس بشرى أكثر تخلفاً وأدنى درجة وعاجز بالفطرة عن الإسهام في الحضارة الآرية العظمى واللغات النبيلة للهند واليونان وروما.

هناك رأى يرى أن من أهم أسباب تدنى صورة مصر التحرر من أوهام مضمون النصوص المصرية بعد قراءتها. إلا أن هذا لا ينطبق على شامبليون حيث زاد حماسه لمصر مع تقدمه فى السن. ومع إحياء الدراسات المصرية فى أواخر العقد السادس من القرن التاسع عشر، كان علماء المصريات ممزقين بين الإعجاب بشامبليون – مؤسس هذا العلم – وتقبل مكانة مصر الرفيعة فى نظره من ناحية والروح الرومانسية اليقينية السائدة وازدراء الثقافة من ناحية أخرى. ومع أن التناغم بينهما لم يكن تاماً فإن القضية الأساسية التى اتضح فيها هذا التوتر هى طبيعة الديانة المصرية. كتب مؤرخ الأديان كارل بت Karl Beth فى عام ١٩١٦ يقول:

> "التوحيد أم تعدد الآلهة ؟ هذه هى القضية الكبرى فى علم المصريات منذ اكتشاف النصوص المصرية الأولى. وتبين الدراسة التى قمنا بها هنا أن كلاً من الإجابتين لها ما يبررها؛ كما تدل على أن أنصار كل منهما يستعينون بهذه المفاهيم كشعارات، إلا أن أياً من المفاهيم لا يصور التفرد الحقيقى للديانة المصرية"(١٢٦).

إذا كان يمكن قراءة مجموعة النصوص المصرية بأى من المعنيين كما يشير، إذن فعلام كان ولايزال كل هذا الجدل ؟ إن جوهره يمثل استمراراً للصراع القديم بين الديانة المصرية والمسيحية. فإذا كانت الديانة المصرية توحيدية، فقد تعتبر أساس المسيحية أو أصلها. ومع ذلك فقد كانت المشكلة أكثر إلحاحاً فى أواخر القرن التاسع عشر. فلو كانت الديانة المصرية توحيدية لاصطدمت بالاحتكار الآرى السامى للحضارة.

كان كل من عمانويل دى روجيه Emmanuel de Rougé وهاينريش بروجش Heinrich Brugsch رائدا الموجه الثانية من علم المصريات فى العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر يتبع شامبليون والتراث المغلق والأفلاطوني من ورائه فى الإيمان بأن الديانة المصرية بصورتها النقية كانت ديانة راقية وتوحيدية فى جوهرها كما يشير دى روجيه فيما يلى: "هناك فكرة واحدة لها السيادة، ألا وهى فكرة وجود إله بدائى واحد؛ إنه فى كل مكان وزمان

جوهر واحد، إله ذاتى الوجود ولا سبيل للوصول إليه[١٢٧].

وتم تعيين بروجش أستاذاً لكرسى علم المصريات بجوتنجن فى عام ١٨٦٨، فكان أول أستاذ فى هذا التخصص منذ وفاة شامبليون. وكان هو أيضاً يرى أن المصريين كانوا أصلاً توحيديين، وهو نفس ما ذهب إليه سيربيتر لوباج رينوف Sir Peter Le Page Renouf أبرز علماء المصريات بانجلترا[١٢٨]. ولكن بظهور الطبعة الثانية من كتابه Lectures on the Origin and Growth of Religion (محاضرات عن أصل الدين وتطوره) فى عام ١٨٨٠، كان رينوف قد غير رأيه وأنكر أنه قال: "إن المصريين بدأوا بالتوحيد"[١٢٩]. ويرى الوسطيون من أمثال العالم ومؤرخ علم المصريات إريش هورنونج Erich Homung أن هذا التغيير فى الرأى جاء على أثر التعمق فى تاريخ مصر القديمة[١٣٠]. وأرى من الأجدى أن نعتبر إنكار التوحيد المصرى جزءاً من تيار طغت فيه العنصرية والهيلينية الرومانسية التى سادت الكلاسيكيات والتاريخ القديم ككل على علم المصريات.

ويمكن رؤية المرحلة الوسطى من هذا التيار فى فقرة من كتاب للأستاذ ليبلاين Lieblein. ففى فقرة كتبت فى عام ١٨٨٤، حاول ليبلاين توفيق الرؤية التوحيدية القديمة مع اللغويات الجديدة والمخططات التاريخية، وخرج برأى وسط فحواه أن المصريين ربما كان لهم إله زعيم أو لم يكن لهم إله أصلا":

> "بنظرة عامة ربما كانت فكرة الإله قد نشأت فى حقبة من اللغات أقدم من حقبة اللغات الهندو أوروبية. وقد يحمل المستقبل دليلاً على ذلك. وقد تمكن علم اللغات إلى حد ما من تصور لغة هندو أوروبية تعود إلى ماقبل التاريخ. وقد تمكن أيضاً من تصور لغة سامية قبل التاريخ ولغة حامية قبل التاريخ، ومن هذه اللغات قبل التاريخية الثلاث التى لا تقتصر الصلة بينها على الحدس، بل بدأت التدليل عليها، سيصبح من الممكن التوصل إلى صلة قبل تاريخية أقدم زمناً يمكن تسميتها قياساً بالصلة النوحية (نسبة إلى نوح). وحين نصل إلى هذه المرحلة فمن الأرجح أن نجد فى هذه اللغة قبل التاريخية ألفاظاً تعبر عن فكرة الإله. بل إنه من الممكن ألا تكون فكرة الإله

قد ظهرت فـي هـذه اللغـة قبـل التاريخيـة أيضـاً"[١٣١].

وهكـذا كـان المصريـون يرجعـون فـي رأى ليبلايـن إلى المـاضى البدائـي البعيـد. وبـدأ استبعاد آخـر بقايـا التقديـر الأفلاطونـى المغلـق والماسـونى لمصـر مـن نطـاق البحـث العلمـى، وبعـد عـدة سـنوات بـدأ شـن هجـوم واسـع النطـاق علـى علـم المصريـات القديـم مـن جـانب عـالم المصريـات الفرنسـى ماسـبيرو. وهـو يصـف الموقـف فـى عـام ١٨٩٣ بقولـه:

> "كنـت فـى مسـتهل حيـاتى العلميـة ، أى قبـل خمسـة وعشـرين عامـاً، أظـن ولفـترة طويلـة تاليـة كمـا فعـل الأسـتاذ بروجـش أن المصريـين توصلـوا فـى أقـدم عصورهـم إلى فكـرة التوحـد الإلهـى واسـتقوا مـن ذلـك نظامـاً دينيـاً كـاملاً وعالمـاً أسـطورياً رمزيـاً... ولم أكـن فـى هـذه الفـترة أسـعى إلى فـك طلاسـم النصـوص الدينيـة وكنـت أقصـر جهـودى علـى تـدارس بحـوث كبـار أسـاتذتنا. وحـين اضطـررت لتناولهـا... كـان علـىّ أن أعـترف أنهـم لم يكـن لديهـم مـا رآه الآخـرون فيهـم مـن حكمـة عميقـة. ولا سـبيل لاتهـامى بالرغبـة فـى الحـط مـن شـأن المصريـين، فأنـا أؤمـن بـأنهم مـن أعظـم الشـعوب التـى أنجبتهـا البشـرية ومـن أكثرهـا أصالـة وإبداعـاً، لكنهـم ظلـوا دائمـاً يتسـمون بقـدر مـن الهمجيـة ... فقـد ابتكـروا وأنتجـوا كثـيراً فـى مجـال الفنـون والعلـوم والصناعـة وكـانوا واعديـن بحق، إلا أن ديـانتهم تمثـل نفـس المزيـج مـن الفظاظـة والرقة الـذى تجده فـى غيرهـا"[١٣٢].

ومـا يهمنـا فـى هـذه الفقـرة الصـادرة عـن شـخص فرنسـى ليـبرالى ووريـث لعصـر التنويـر ليـس وصـف المصريـين، فمعظمـه صحيـح تمامـاً، بـل الإيحـاء بوجـود حضـارات هنـدو أوروبيـة ومسـيحية أخـرى متحضـرة تمامـاً ولا تتصـف بالهمجيـة[١٣٣]. إلا أن ماسـبيرو يفصـح عن توجهاته العنصريـة بصـورة أوضـح فـى موضـع آخـر مـن الفقـرة حيـث يقـول:

> "إذا كان الزمن قـد ألحق الضـرر بكثير مـن الأمـم فقـد أبـان عـن محاباتـه للمصريـين. فقـد أبقـى علـى مقـابرهم ومعـابدهم وتمـاثيلهم وآلاف مـن الأشـياء الصغيرة الى كـانت مفخـرة لحيـاتهم اليوميـة، وقادنـا إلى الحكـم

عليهم بأجمل وأرق الأشياء التى صنعوها، ودفعنا لوضع حضارتهم فى مكانة تساوى حضارة الرومان أو الإغريق. ولكننا لو أمعنا النظر فيها فإن رأينا يتغير؛ ونوجز القول بأن تحتمس الثالث ورمسيس الثانى أشبه بمتيسا بإفريقيا الوسطى منهما إلى الاسكندر أو القيصر ..." (١٣٤).

والقول بأن المرء لا ينبغى أن ينخدع بالمظاهر فيحطم القوانين "العلمية" للعنصرية يعد أيضاً دليلاً على التمزق التام بين الحقبة العلمية وما قبل العلمية فى نظر علماء القرن التاسع عشر. فكانت مصر القديمة فى رأى ماسبيرو ومعاصريه اكتشافاً حديثاً. وكل ما كتب عنها قبل حملة نابليون وفك شامبليون للطلاسم لم يكن له أى معنى فى نظرهم. ويواصل ماسبيرو قائلاً:

"ومعظم أساطيرها تشبه أساطير أشد قبائل العالمين القديم والجديد بربرية. وكانت للمصرى روح ميتافيزيقية مرهقة، وهى حقيقة أثبتها حين أمدته المسيحية بموضوع جدير بقواه المرهقة"(١٣٥).

وقد يظن المرء بأن تجريد المصريين من الحضارة والدين والفلسفة قد يترك لهم مسحة من الميتافيزيقا. إلا أن المد العنصرى لم يكن يسمح حتى بذلك. وبعد عشر سنوات وفى عام ١٩٠٤، أضاف عالم المصريات الانجليزى واليس بدج **Wallis Budge** قائلاً:

"إن المصريين وهم فى الأصل شعب أفريقى يتصفون بكل ماتتصف به أجناس الشمال الأفريقى عامة من فضائل ورذائل، ولا سبيل للظن ولو لبرهة بأن أى شعب أفريقى يمكن أن يصبح ميتافيزيقيا بالمعنى الحديث للكلمة. فما من لغة إفريقية تتواءم مع التعبير عن التأملات اللاهوتية والفلسفية، وحتى الكاهن المصرى حين يبلغ أرقى مدارج الفكر يظل عاجزاً عن ترجمة مقالة لأرسطو إلى لغة يفهمها رفاقه من الكهنة دون تعلم. فبنية اللغة وحدها تجعل ذلك مستحيلاً، ناهيك عن أفكار الفيلسوف الإغريقى العظيم التى تنتمى إلى مجال من الفكر والحضارة يعد غريباً تماماً عن المجال

المصـــرى"[١٣٦].

هنـا يستعين بـدج بالحيلـة السـائدة فـــى القــرن التاسـع عشــر لتـبرير عنصريتــه علــى أسـس لغويـة، ألا وهـى التهذيـب. صحيـح أنـه ليس هنــاك فــى الفكـر المصــرى مـا يضــارع أرسـطو، إلا أن بــدج اســتغل هــذه النقيصـــة ليوحـــى بوجـــود تفرقـــة نوعيــة بــين الفكريـــن المصـرى والإغريقـى ككـل، ولم يتمكـن مثلاً من الاسـتعانة بـأفلاطون كمثـال لـه.

ويشـن بـدج فى موضـع آخـر هجوماً على وجهـة نظر بروجش التـى تــرى أن أكـثر الكلمـات المصريـة شيوعاً لمعنـى "إلهى" – نـتر– كـانت تتطـــابق مـع كلمـــة φυσις اليونانيـة وكلمـة natura اللاتينيـــة.

"إنـه لمـن الصعـب أن نـدرك كيـف يتسـنى لعـالم المصريـات الكبـير أن يحـاول مقارنـة مفهـوم اللـــه فـى فكـر شـعب أفريقـى نصـف متحضـر بنظـائره عنـد أمـم متحضـرة كاليونـان والرومـان؟" [١٣٧].

لاشــك أن هــذا الازدراء يتعلــق فـــى بعــض جوانبـــه بـــالاحتلال البريطـــانى لمصـــر وبكراهيـــة أهلهـــا. والحقيقـــة أن مصـــر بعـــد عـــام ١٨٨٠ أصبحـــت أكـــثر المســتعمرات البريطانيـة إزعاجـاً بعد أيرلنـده والصومـال. ويبـدو ولاء بـــدج للامبرياليـة فـــى أجلـــى صـــوره فـــى إهدائـــه كتابـــه The Gods of the Egyptians (آلهـة المصريـين) للـــورد كرومر الـذى قـاد عمليـة تدمير الاقتصـاد الصنـاعى المصـرى تحـت مسـمى "مجـدد مصـر".

ولم يكـن العلمـاء الألمان يسـايرون العلمـاء الانجليـز والفرنســيين فــى نزعتهــم الشــكية تجـاه المصريـين وبعـد تشـكيك ليبلايـن فـى توحيدهـم، بـدأ الانتقـاد الصريـح والاحتقـار السـافر لأيـة فكـرة توحـى بأنـه كـانت لديهـم أيـة حكمـة قديمـــة[١٣٨]. وفـــى ثمانينيـــات القـــرن التاســع عشـر، سـاير بعـض علمـاء المصريـات علمـاء اللغـات الهنـدو أوروبيـة فـى مفـاهيمهم عـن النقـاء اللغـــوى الآرى. يقـــول بيزنـــبرجر A.Bezzenberger محـــرر دوريـــة Beiträge zur Kunde der indogermanishcen Sprachen الرائـــدة فـــى الدراســـات الهندو أوروبيـــة فـى وصفـه للموقـف فـى عـام ١٨٨٣:

"يرى البعـض أن مصـر كـان لها أثـر بـالغ الأهميـة علـى اليونـان القديمـة.

إلا أن هـذه الفرضيـة ليـس لهـا حتـى الآن أدنـى دليـل مـن الناحيـة اللغويـة. ونظـراً لخطـورة القضيـة فـإن دليـلاً كهـذا يعـد أمـراً ملحـاً ولاشك. من ثـم فقـد اتجهـت مباشـرة إلى د.أدولـف إرمـان (الـذى أصبح فيما بعد عميد علم المصريات الألماني) وطلبت منه أن يجمع الألفـاظ المصريـة الدخيلـة الحقيقية والافتراضيـة فـى اللغـة اليونانيـة وأن يتناولها بالدرس". فـرد إرمـان بما لـه مـن روح دعابـة ثقيلـة أحيانـاً وقـال: "ينبغـى لى مـن الناحيـة النظرية أن أسعد باقـتراحك، ولكـن يبـدو أن أهـم ركـن فـى الموضـوع مفقـود، ألا وهـو الألفـاظ الدخيلـة نفسـها. وقـد نصـادف عـدداً منها فـى كتـب علـم المصريـات، ولكـن علـى حـد علمى ليس مـن بينها لفـظ واحـد مؤكـد"(١٣٩).

وقـد اعـترف إرمـان بـأن الألفـاظ المصريـة الخاصـة بالمفـاهيم المصريـة وردت فـى اليونانيـة، إلا أنها ليست ألفاظاً دخيلة حقيقية. وفـى العـدد التالى من الدورية واجـه إرمـان تحدياً فـى هـذا الموضـوع. وفـى رده علـى التحـدى، اضطـر لتقديـم تنـازلين:

"أنـا لم أدع مطلقاً عـدم وجـود ألفـاظ دخيلـة مصريـة فـى اليونانيـة. كـل ما قلتـه هـو أنـى لا أعـرف أيـة حـالات مؤكـدة. ولا أعتقـد أن مسـميات الأشـياء التـى تخـص المصريـين التـى تظهـر هنـا وهنـاك لـدى الكتـاب الإغريق تعـد ألفاظاً دخيلـة فـى اليونانيـة علـى وجـه اليقـين(١٤٠).

وكـان تنازلـه الثـانى يتمثـل فـى إقـراره بـأن كلمـة βαρις (قـارب صغـير) دخلـت مـن اللفـظ المصـرى والديموطيقـى المتأخر "بـر" إلى اليونانيـة. ومـع ذلـك فقـد اختـتم حديثـه بالتحدى كمـا يلـى:

"وبعـد فـإن كـل مـا تبقـى يعـد سـلبياً فـى جوهـره؛ فهنـاك "ألفـاظ حضاريـة" وربمـا لفـظ دخيـل حقيقـى واحـد، وهـو βαρις ، ولاشـئ غـيره؛ والـرأى التقليـدى عـن وجـود تأثـير مصـرى عميـق علـى اليونـان لا يصـل إلى نفـس النتـائج. ولاشـك عنـدى فـى احتمـال توصـل الزمـلاء المتفتحـين إلى المزيـد كمـا فعلـت. ولابـد لى فـى هـذه الحالـة أن أذكرهـم

بأنه في خـط لا يميز حـروف العلة وفـي معجـم ألفـاظ تتسـم المعانى فيـه بالتأرجح الشـديد، يمكـن للمـرء أن يجـد أصـلاً مصرياً لكـل لفـظ يونـانى ... وهـذه رياضـة يسعدنى أن أتركهـا لغـيرى"(١٤١).

ومـع أن هـذا التوجـه كـان سـائداً بـين علمـاء المصريـات فـى ذلـك العصـر ومـا تـلاه، فلابد مـن الاعـتراف بـأن موقـف إرمـان اللبـق مـن قدمـاء المصريـين كـان موضـع استهجان بـين علمـاء المصريـات. فيحكـى ألـن جـاردنر Alan Gardiner القصـة التاليـة عنـه:

"ذات مـرة طلـب إرمـان مـن ماسـبيرو أن يدقـق لـه فقـرة فـى نصـوص الأهرامـات التـى كـانت مجموعـة مـن بقاياهـا موجـودة فـى بـاريس. ولـدى تلقيـه للتدقيـق كتـب إرمـان لماسـبيرو قـائلاً: "ممـا يؤسـف لـه أن المصريـين حتـى فـى هـذه الحقبـة المبكـرة لم يكونـوا يسـتطيعون أن يكتبـوا بصـورة صحيحـة!"، وهـى عبـارة رد عليهـا ماسـبيرو بعبـارة لاذعـة لم يوجههـا إلى إرمـان مباشـرة بـالطبع، حيـث قـال: "ممـا يؤسـف لـه أن المصريـين فـى الدولـة القديمـة لم يكونـوا قـد قـرأوا بعـد قواعـد إرمـان النحويـة!" (١٤٢).

علـى أيـة حـال، فعلـى الرغـم مـن موقـف إرمـان المتطـرف فـى هـذه القضيـة، أعتقـد أنـه مـن الإنصـاف أن نقـول إن هـذا الموقـف العنصـرى الشـكى مـن إنجـازات المصريـين والاسـتهانة بهـا طغـى علـى علـم المصريـات إبـان ذروة المـد الامبريـالى بـين ١٨٨٠ و ١٩٥٠. ومـع ذلـك فإنـه لمـن الغلـو أن نقـول إنـه كـان الاتجـاه الوحيـد. وسـنتطرق إلى الاتجـاه المضـاد علـى حـدود النطـاق العلمـى أو وراءه فيمـا بعـد فـى هـذا الفصـل، ولكـن كـانت هنـاك استثناءات لـه حتـى فـى صميـم علـم المصريـات. ففـى أوج العنصريـة فـى العقـد الأول مـن القـرن العشـرين مثـلاً، قـام جيمـس هـنرى بريسـتيد James Henry Breasted بنشـر كتابـه Memphite Theology (اللاهـوت فـى منـف) الـذى سـبق أن تناولنـاه فـى الفصـل الثـانى. ويقـول إن رؤيتنـا للعـالم.

"تشـكل أساسـاً كافيـاً لافـتراض أن المفهومـين اللاحقـين عـن العقـل الفيـاض Nous والعقـل المبدئـى logos واللذيـن ظـل يفـترض أنهمـا

دخلا مصر من الخارج فى حقبة أحدث كثيراً كانا قائمين فى تلك الحقبة المبكرة. من ثم فإن قول الإغريق بأن أصل فلسفتهم كان فى مصر يحمل ولاشك قدراً من الحقيقة أكبر مما كان مسلماً به فى السنوات الأخيرة".

ويواصل حديثه قائلاً:

"والعادة التى انتشرت بين الإغريق عن تفسير مهام آلهة المصريين وعلاقاتهم فلسفياً ... كانت قد بدأت بالفعل فى مصر قبل مولد أقدم فلاسفة اليونان؛ وليس من المستبعد أن تفسيرات الإغريق لآلهة اليونان قد تلقت أول دفعة لها من مصر"(١٤٣).

هذه النتيجة تبدو وكأن النص نفسه قد فرضها عليه، وتبدو غريبة حتى على فكر بريستيد. وقد كتب فيما بعد فى كتابه The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt (تطور الدين والفكر فى مصر القديمة) يقول بالمصطلحات اللغوية العنصرية المعيارية:

"لم يكن لدى المصرى المصطلحات اللازمة للتعبير عن نسق من الفكر التجريدى ولا كانت لديه القدرة على نحت المصطلحات اللازمة لذلك كما فعل اليونان. بل كان يفكر بالصور المادية"(١٤٤).

ولايزال هناك استثناء أغرب للتقليعات السائدة فى مجال البحث العلمى فى نهاية القرن التاسع عشر، ويتمثل فى كتاب المفكر الكلاسيكى الفرنسى بول فوكار Paul Foucart الذى كان يعرف الكثير عن مصر و كان ابنه جورج من علماء المصريات. كان بحث فوكارْ المفصل عن العقيدة الغامضة فى إليوسس قد أدى به إلى استنتاج أن العقيدة كانت قد وردت من مصر وأن يدافع دفاعاً حاراً عن النموذج القديم الذى سنتناوله فى الفصل القادم.

على أى الأحوال، فوجه الصعوبة بالنسبة لفوكار من منظور أصولية القرن العشرين أن بحوثه عن النقوش الإليوسية بلغت من الدقة حداً دفع العلماء اللاحقين فى

هذا المجال لاعتبارها أساسية. لذا فقد بدأ الباحثون اللاحقون في تمييز عالم النقوش البارع من المنظِّر المختل. وكما قال البعض: "لايسع المرء إلا أن يأسف على أن عالماً مهماً كهذا يقع في خطأ كهذا"(١٤٥).

وعلى الرغم من هذه الضلالات أو البدع، لاشك أن معظم العلماء "ذوى القوى العقلية السليمة" في الثلثين الأولين من القرن العشرين لم يأخذوا المصريين مأخذ الجد تماماً. إلا أن هناك تغييراً مهماً قد طرأ على فكرهم الازدرائي. فكان معظم علماء القرن التاسع عشر يسلمون برأى فينكلمان وغيره بأن المصريين شعب قديم مات. ومع استقرار نمط "التطور" ومع التناظر بين التاريخ والسيرة، وضع المصريون في مكانة مناقضة تماماً. فبدأ اعتبارهم أطفالاً وأصبحوا يحتلون مكانة تضارع مكانة الإغريق في فكر فينكلمان. ففي كتابه Egyptian Grammar (الأجرومية المصرية) الذى صدر في عام ١٩٢٧ واعتبر أساساً لعلم المصريات الحديث يقول ألن جاردنر:

> "على الرغم من ذيوع الحكمة الفلسفية التي يسبغها الإغريق على المصريين، فما من شعب يفوقهم نفوراً من التأمل وانغماساً في الاهتمامات المادية؛ وإذا كانوا قد أبدوا اهتماماً مفرطاً بالشعائر الجنائزية، فهذا مرجعه إلى إحساسهم بأن دوام الاهتمامات الدنيوية والمتع الأرضية كان في معرض الخطر ولم يكن يرجع لأى تساؤل عن الهدف من حياة الإنسان ومآلها".

ويصف المصريين في موضع لاحق بأنهم "شعب محب للمتع ويتسم بالمرح والروح الفنية والسخرية اللاذعة، لكنهم يفتقرون لعمق الأحاسيس والمثالية"(١٤٦).

وهكذا كان اشتهارهم بالحكمة العميقة في العصور القديمة ثم اشتهارهم بالسلبية والكآبة فيما بعد معلقين فوق رؤوسهم. ومع ذلك فقد ظل المصريون أدنى من الأوروبيين نوعياً. ولكن جاردنر يعترف في موضع آخر بأن علماء المصريات كانوا خاضعين لبعض الضغوط: "فالعلماء الكلاسيكيون في الماضي لم يكونوا يؤمنون بفكرة اعتماد الحضارة الهيلينية على الحضارة المصرية"(١٤٧).

نظراً لمركزية الكلاسيكيات وقوتها فى الجامعات، لم يكن هناك ما يمكن لعلماء المصريين فى علم جانبى صغير أن يفعلوه إزاء تشويه صورة مصر حتى إن أرادوا. وقليل منهم من حاول ذلك. وكلهم تقريباً تلقوا تعليماً كلاسيكياً قبل البدء فى تخصصهم. فكان جاردنر يعكس وجهات نظر معظم زملائه حين يقول: "إن اعتماد الإغريق المفترض على الفلسفة المصرية حين نضعه موضع البحث يتبين أنه محض هراء"[١٤٨].

وقد طغى إنكار الفلسفة المصرية والشك فى الديانة المصرية على علم المصريات حتى ستينيات القرن العشرين. فيشير هورنونج Homung على سبيل المثال إلى "نصف قرن من الإمساك" عن النظر فى مسألة الطبيعة الجوهرية للديانة المصرية[١٤٩]. وهناك عالم أو عالمان آخران كمرجريت موريى Margaret Murray التى استمرت فى وضع الديانة المصرية موضع البحث الجاد، إلا أن أمثال هؤلاء العلماء كانوا يعتبرون على هامش علم المصريات فى نظر العلماء "ذوى القوى العقلية السليمة[١٥٠].

وبدأ تصدع التيار السلفى فى الظهور بعد الحرب العالمية الثانية. ففى عام ١٩٤٨ بدأ أبى إتيان دريوتون Abbé Etienne Drioton مدير عام هيئة الآثار المصرية* فى رؤية ديانة أصيلة فى أدب الحكمة المصرى وفى القول باحتمال وجود عقيدة توحيدية أقدم زمناً[١٥١].

ومنذ الستينيات بدأ هذا التوجه الأكثر انفتاحاً فى الرسوخ وخاصة فى فرنسا وألمانيا. ففى هذين البلدين، بدأ النظر من جديد فى احتمال وجود أصالة روحية مصرية حقيقية. بل إن بعض علماء المصريات من أمثال العالم الألمانى هلموت برونر Helmut Brunner نادوا "بصورة جديدة لمصر"، ويرى برونر أن هناك طفرة نوعية وفكرية وروحية حدثت فى مصر فى مطلع الألفية الثالثة[١٥٢]. وعلى الرغم من هذه المرونة الجديدة، لاتزال هناك فجوة كبيرة بين علم المصريات وما يمكن أن نطلق عليه "الحضارات المضادة".

---

* وهذا القس الفرنسى هو صاحب كتاب "المسرح المصرى القديم" الذى قام بترجمته إلى العربية الدكتور ثروت عكاشة. (المراجع).

قبل أن نواصل تناول التيارات المضادة على هامش البحث العلمى لوجهة النظر السائدة عن الحياة الفكرية والروحية المصرية، أود أن ألقى الضوء على المواقف التى اتخذت من مصر القديمة فى المجتمع ككل. فمن المعتقد أن نتيجة للحملة الفرنسية بدأت حقبة من الشغف بالحضارة المصرية فى أوائل القرن التاسع عشر. والحقيقة أن هذه الصورة توافق النمط العام الذى يمثله ريموند شواب والذى يذهب إلى أن الوضعيين الرومانسيين كانوا فى طليعة الأوربيين الذين تكون لديهم وعى حقيقى بالعالم الخارجى. وهذه الرؤية بدورها مستقاة من المفهوم الذى يرى أن العلاقة الحقيقية الوحيدة بين أوروبا وسائر القارات هى علاقة تفوق حاسم، وهو مفهوم لم يكن له وجود قبل القرن التاسع عشر. ومع ذلك فإن الرؤية التقليدية لحقبة من الشغف بالحضارة المصرية لا تشتمل على عنصر الحقيقة، وكان هناك حب استطلاع طاغ عن مصر فى أوائل القرن التاسع عشر.

ولكن كان هناك كما رأينا اهتمام كبير وإلمام واسع بمصر قبل تلك الحقبة بزمن طويل[١٥٣]. كما أن مصر كان لها تأثير على أوروبا منذ القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر أكبر من تأثيرها عليها فى القرن التاسع عشر. وما من شك أيضاً فى أن "الشغف بالحضارة المصرية" فى القرن التاسع عشر كان أضعف من "الشغف بالحضارة الهندية" ولا يذكر بالمقارنة "بالشغف بالحضارة الهيلينية" أو الشغف باليونان الذى اجتاح أوروبا وأمريكا فى نفس الحقبة. والأهم من ذلك أن اليونان كانت فى نظر معظم الناس هى السلف المقدس والمحبوب، فى حين كانت مصر تعتبر غريبة أو مثيرة للدهشة.

ومع ذلك يظل صحيحاً أنه كان هناك اهتمام أوروبى هائل بإصدارات الحملة الفرنسية ونتائج الاستكشافات والاكتشافات الأخرى[١٥٤]. ولا غرو أن كانت هذه الاستكشافات تركز على الأهرام والمقابر، وفى النصف الثانى من القرن كانت هناك ترجمات لدليل الروح المصرى كتاب الصعود نهاراً الذى يعرف "بكتاب الموتى". وقد ضاعف ذلك من الانطباع الذى أصبح راسخاً فى ذلك الوقت بأن مصر مملكة كئيبة يظللها الموت، وبذلك فقد أعطيت مجالاً كانت له أهمية بالغة فى أواسط القرن التاسع

عشر وأواخره، ألا وهو الموت. فظهرت الطرز المصرية فى كل جبانات أوروبا وأمريكا الشمالية[155]. كما انتشر التحنيط فى الولايات المتحدة فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر. ومع أن هذا التطور غالباً ما يعزى لارتفاع المستوى الصحى بالمناطق الحضرية، فمن المهم أن نلاحظ التناقض بين طريقة الموت الأمريكية (المصرية) وانتشار حرق جثث الموتى – وهو الطريقة اليونانية للتخلص منها – والذى انتشر فى كثير من مناطق شمال أوروبا فى ذلك الوقت[156]. فهل كان هذا بسبب زيادة نفوذ الماسونية فى الولايات المتحدة ؟

ظلت الماسونية هى الرصيد الكبير لاحترام مكانة مصر. والحقيقة أن العمارة والرموز والطقوس الماسونية استمرت ولاتزال فى اتباع تقاليدها المصرية وليس ما تمليه التقليعات الأكاديمية[157]. فكانت مصر والهيروغليفية فى الماسونية الأمريكية محوريتين فى قيام العقيدة المورمونية (طائفة دينية أمريكية قاصرة على الجنس الأبيض أسسها جوزيف سميث فى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وقد ظلت تبيح تعدد الزوجات من منظور عنصرى لإكثار العنصر الأبيض، ثم حظرته فيما بعد: المترجم) فى عشرينيات القرن التاسع عشر، وكان لهما تأثير طاغ على الأدباء الأمريكيين بأواسط القرن التاسع عشر وأواخره. فروايات ملفيل Melvill – وخاصة موبى ديك Moby Dick – مليئة بالرموز المصرية والهيروغليفية، وتتسم رواية The Scarlet Letter (حرف سكارليت) لهاوثورن Hawthorne بنفس الطابع[158].

ومع أن الماسونيين كان لهم نفوذ كبير فى أوروبا أيضاً، فإن الاهتمام الأول فيها بمصر كان يقتصر تماماً تقريباً على حياتها الباطنية أو الدينية. وكان الماسونيون، كغيرهم من أعضاء الطبقتين العليا والمتوسطة الأوربيتين، أشد انبهاراً بالشغف السائد بالحضارة الهيلينية. كما ظلت بعض الطوائف الأصغر حجماً تحتفظ بمكانة محورية لمصر فى معتقداتها؛ فالروزيكروشية (وهى جماعة ذاع صيتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وادعت الوقوف على أسرار الطبيعة والدين، المترجم)، سواء بوصفها حلقة داخلية من حلقات الماسونية أو كتنظيم دينى مستقل، كانت ولا تزال تعتبر مصر محور معتقداتها وأصلها. وكانت لمصر مكانة محورية أيضاً لدى أتباع طائفة سويدنبورج Swedenborgians

(الوصول إلى الله عن طريق الكشف الصوفي والتأمل الفلسفي، وهي طائفة أمريكية نشأت عام ١٨٧٥ على أساس التعاليم البوذية والبرهمية، المترجم)، والأنثروبوصوفية anthroposophism من بعدهما[١٥٩].

ومع ذلك، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت طائفة سان سيمون St-Simonians تتمتع بنفوذ كبير. وكان أعضاء هذه الطائفة، وهم أتباع الرائد "الاشتراكي" والمفكر الوضعي الأول كلود أنرى كونت دى سان سيمون Claude Henri Compte de St Simon، يؤمنون برؤية ثلاثية لتاريخ العالم تذهب إلى أن "الحقبة" الثالثة والأخيرة" للنظام الوضعي" هي حقبة توحيد العالم. ومثل هذا التوحيد يتطلب فتح قنوات اتصال في كل أنحاء العالم، ومصر في رأى سان سيمون، كما كانت في رأى نابليون ومعظم مفكرى عصره، هي الجسر بين الشرق والغرب[١٦٠]. لذا فقد أبدى هو وخليفته الأستاذ أنفانتان Enfantin اهتماماً خاصاً بهذا البلد، لا من الناحية الدينية وحسب، بل العملية أيضاً.

وصل أنفانتان إلى مصر في عام ١٨٣٣ مع عدد من تلاميذه ومنهم مهندسون وأطباء ورجال أعمال وأدباء. وكانت معه موافقة رسمية من النظام الفرنسي الجديد بقيادة لوى فيليب على ما كان يعتبره ثاني حملة ثقافية وعلمية فرنسية؛ ومع ذلك فقد كانت له مهمة خفية أيضاً بوصفه "الأب" القادم للزواج "بالأم" الغامضة في الشرق. وكانت للمهمة بدورها صلة بالمشروع العملي الخاص بإنشاء قناة السويس. وفي إيضاحه لفكرة حفر قناة، يقول أنفانتان في ترديد هزلي للعقيدة الشائعة التي ترى أن الهيمنة الأوروبية على غير الأوروبيين تعد فعلاً جنسياً عادياً مع الجنس الآخر: "إن السويس هي محور مشروع العمر بالنسبة لنا. وسنقوم بفعل ينتظره العالم لكي نبين أننا رجال"[١٦١]. وتم إنشاء القناة على يد أحد أعضاء هذه المجموعة، وهو فرديناند دى ليسبس، ولكن في ستينيات القرن التاسع عشر. وفي الوقت نفسه، لعب أتباع السانسيمونية أدواراً حيوية كمهندسين وأطباء ومعلمين وما إلى ذلك في عملية تحديث مصر بقيادة دولة محمد على، وكانت صورة مشروعهم شديدة الشبه بحملة نابليون، وتتلخص في أن فرنسا توقظ مصر، مصدر الحضارة القديم، مرة أخرى[١٦٢].

وفى هذا المناخ السانسيموني، قام إسماعيل حفيد محمد على بتكليف فيردى، مؤلف ريزورجيمنتو الإيطالية، بوضع أوبرا قومية مصرية، وهى أوبرا **عايدة**. وكانت حبكة الأوبرا - التى وضعها عالم المصريات الفرنسى أوجوست مارييت **Auguste Mariette** وكان يعمل لدى الحكومة المصرية - تمجد مصر القديمة بأسلوب غربي. ومع ذلك، فالاختلاف عن القرن الثامن عشر كان واضحا؛ ففى حين مجد موتسارت الكهنة الذين حازوا الحكمة والأخلاقيات المصرية، وضع فيردى الكهنة فى مواجهة ضد **عايدة** وحبيبها راداميس(١٦٣).

حققت **عايدة** نجاحاً باهرا فى كل أنحاء أوروبا. وظل استمرار قبول الصورة الإيجابية لمصر - باعتبارها تنتمى للجنس الأبيض أساساً وبوصفها معين الحضارة - سائداً بكل من فرنسا وإيطاليا بصفة خاصة، ولكن يمكن ملاحظته أيضاً فى الفن الانجليزى والأمريكى(١٦٤). وهو إلى جانب الشغف بالمصريات الذى شاع لدى الجيل الثانى من علماء المصريات فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، يفسر الموقف الدفاعى أو التحدى اللذين سبقت الإشارة اليهما فى عبارات علماء ثمانينيات القرن التاسع عشر كماسبيرو وإرمان. وهم كالكلاسيكيين وعلى خلاف الجمهور العام كانت لهم رؤية كلية ومنهجية ويدركون ما تشكله أية صورة إيجابية لمصر من خطر على تفرد الحضارة اليونانية وحضارة أوروبا ككل.

إليوت سميث و "الانتشارية"

كان هناك خطران آخران يتهددان الحكمة التقليدية من داخل دائرة البحث العلمى نفسها. وسنركز بداية على الخطر الذى نشأ فيما بعد نظراً لأنه كان أقل خطورة فى تأثيره على علم المصريات؛ وقد جاء من الأفكار "الانتشارية" **diffusionist** لإليوت سميث. ولد سميث بأستراليا فى عام ١٨٧١ ونال الدكتوراه وذهب إلى انجلترا حيث أصبح من أبرز علماء التشريح. وفى عام ١٩٠١، عين أستاذاً للتشريح بالقاهرة حيث أنشأ مدرسة للطب. وفى السنوات الثمانى التالية، انبهر بمصر القديمة بأنثروبولوجيتها المادية وحضارتها(١٦٥). وفى تلك الفترة اقتنع بأن مصر هى منبع حضارة

الشرق الأدنى وأوروبا.

كان إليوت سميث يساير عصره فى عنصريته. لذا، ففى حين أنه لم يتمكن من تجنب حقيقة أن معظم سكان مصر يشبهون سكان بقية شرق إفريقيا، إلا انه كان مقتنعاً بحدوث حركة نزوح كبيرة من الآسيويين – غير الساميين – من ذوى الجماجم العريضة فى "عصر بناة الأهرامات"، أى فى الدولة القديمة(١٦٦). وذهب إلى أن هذا الجنس المختلط نزح إلى المنطقة المحيطة بالمتوسط ثم إلى شمال أوروبا ومعه حضارة الأحجار الضخمة التى اعتبر آثارها المبهرة صوراً من الأهرام. وهذا الجزء من نظريات إليوت سميث لم تعد له أية قيمة حالياً، فقد أثبت تحديد العمر الزمنى بالكربون أن حضارة الأحجار الضخمة الأوروبية بدأت قبل عصر الأهرام بأكثر من ألف سنة(١٦٧).

لقيت آراء سميث اهتماماً لدى الجمهور الانجليزى نظراً لأن "الانتشارية" كانت تتفق تماماً مع النزعة الامبريالية المعاصرة؛ ولأن المصريين فى رأيه ليسوا أفارقة؛ ولأنه كان عالم تشريح. وكان علم التشريح من العلوم "الصعبة"، فى حين أن علمى التاريخ والآثار لم يتسما بتلك الصفة. وكانت مؤرخو التاريخ القديم وعلماء المصريات المحترفون أشد حرصاً بطبيعة الحال. ولم تكن هناك على حد علمى أية محاولة لدمج نظرياته ضمن علومهم الأكاديمية. ومع ذلك، فإنه لم يواجه متاعب حقيقية إلا حين وسع نطاق نظريته ليزعم أن مصر ليست مصدر الحضارة الأوروبية وحدها، بل مصدر الحضارة فى العالم بأسره أيضاً. فأوجد أصولاً مصرية لأهرامات المكسيك ولتقنيات التحنيط فى بيرو وجزر مضيق توريس بالقرب من غينيا الجديدة.

ومن الغريب أن هذا الجزء من نظرياته يلقى اليوم قبولاً أكبر مما تلقاه نظرياته الخاصة بحضارات الأحجار الضخمة بأوروبا. فمن ناحية، أثبت تقدم علم الآثار وعلم تحديد العمر الزمنى بالكرّبون أن الحضارات التى استخدمت المعادن بجنوب غرب آسيا وحضارات العصر الحجرى الحديث بأوروبا كانت أقدم من حضارات مصر بكثير، وهو ما يدحض نظرياته فى هذه المجالات. ومن ناحية أخرى، فإن تزايد الأدلة على التأثير الأفريقى على أمريكا قبل عصر كولمبس بعد حوالى ١٠٠٠ ق.م.، واكتشافات من قبيل أن أهرامات أمريكا التى ترجع للعصر الحجرى الأوسط لم تكن مجرد قواعد لمعابد بل قد

تضم مدافن، يدعم فرضية وود بوجود تأثير مصرى مباشر على هذه الحضارات الأحدث زمناً[١٦٨].

وفى الوقت الذى أدى فيه ثانى أهم كتب إليوت سميث فى هذا المجال، وهو بعنوان The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization (المصريون القدماء وأصل الحضارة) الذى نشر فى عام ١٩٢٣، إلى هجوم من جانب المحافظين من أنصار وجهات النظر الرومانسية عن التميز المحلى، ومن جانب العنصريين المتشددين ممن كانوا يرون أن الحضارة كلها من نتاج الآريين الخلص. بل كانت هناك صراعات أعنف مع الليبراليين الذين كانوا قد بدأوا فى تحويل الأنثروبولوجيا من معقل للعنصرية التى كان أنصارها يقيمون امبراطوريات بغير ثمن إلى معقل يعيد النسبية الحضارية إلى أوروبا. أما فى العشرينيات فكانت المعركة متكافئة. فقد حصل إليوت سميث على تأييد الأغلبية فى مجال تخصصه، واكتسب تلاميذه مواقع مهمة فى علم الأنثروبولوجيا الطبيعية. بل إنه تمكن من استمالة ريفرز W.H.R.Rivers ، وهو من مؤسسى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، إلى معتقداته. كما لم يكن هناك فى ذلك الوقت علماء كبار للأنثروبولوجيا الاجتماعية يفوقون سميث[١٦٩]. والأهم من ذلك أنه كانت له اتصالات قوية بآل روكفلر الذين كانت مؤسساتهم تقدم أموالاً طائلة لكل من علمى المصريات والأنثروبولوجيا فى العشرينيات والثلاثينيات. وكان لسميث بكل هذه الموارد نفوذ كبير فى الدوائر العلمية[١٧٠].

ومع ذلك فقد ثبت أن تكتل القوى الذى احتشد ضده كان ذا قوة لا يستهان بها. وقد توفى ريفرز فى عام ١٩٢٢، ولحق به إليوت سميث نفسه فى عام ١٩٣٧ فى السادسة والستين من عمره. وحتى لو كانا قد امتد بهما الأجل، فالصلة بين أفكاره والعنصرية ما كانت لتصمد أمام التيار المعادى للعنصرية إبان الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها. إلا أن الخطر الذى تعرضت له الأنثروبولوجيا والذى كان مصدره إليوت فى مرحلة حساسة من مراحل تطور هذا العلم كان لا يزال مائلاً فى الرهبة أو العبوس لدى ذكر اسمه أو لدى ذكر لفظ "انتشارية" الذى لا يزال يعد سمة لازمة للأصولية أو "الكفاءة" فى هذا المجال.

على الرغم من أن علماء المصريات ومؤرخي التاريخ القديم كانوا يكرهون المتطفل الذى يطأ مجال تخصصهم، فقد كانوا أقل تورطاً فى هذا الصراع من علماء الأنثروبولوجيا، وهو ما قد يعزى إلى أن إليوت سميث لم يقترب بأية صورة من الصور من مجال اللغة الذى كان قدس أقداس الوضعية الرومانسية. ولكنهم كانوا مع ذلك يولون اهتماماً أكبر كثيراً بالخطر الثانى الذى كان يتهدد علم المصريات والذى استمر لمدة أطول كثيراً من "الانتشارية". وكانت جذور هذه البدعة العلمية تكمن فى وجهة النظر القديمة التى ترى أن المصريين أصحاب حكمة متفوقة عجز الإغريق عن تعلمها والحفاظ عليها كاملة.

تم إحياء هذه الفكرة فى أوائل القرن التاسع عشر فى أعمال خصم شامبليون العنيد إدميه فرانسوا جومار الرياضى وعالم المساحة الذى انضم لحملة نابليون والذى سبقت الإشارة إليه. جمع جومار نتائج قياساته للهرم الأكبر بالجيزة ووضعه الجغرافى الدقيق مع الأوصاف القديمة للأهمية الرياضية لقياساته. وقد بات مقتنعاً بأن قدماء المصريين كانت لديهم معرفة دقيقة بظروف الأرض ووضعوا وحدات قياسهم الطولية على أساسها، وهو ما يضعه بالطبع ضمن معسكر ديبوى. وكانت هناك انتقادات للتفاصيل الواردة بتقريره، إلا أن آراءه كانت تؤخذ بكل جدية فى المناخ الماسونى الذى ساد امبراطورية نابليون؛ وقد تمكن من إحياء الفكرة بعد انضمامه للمؤسسة العلمية الفرنسية قبل إعادة الملكية[١٧١].

وعلى الرغم من الضربة التى لحقت بسمعة جومار على أثر تحديد تاريخ دائرة بروج دندرة، ظلت أفكاره باقية أو كان يعاد اكتشافها وتطويرها من حين لآخر خلال القرن التاسع عشر[١٧٢]. وازدادت حدة الخلاف بين هذه المدرسة الابتداعية وعلم المصريات الأكاديمى بعد نشأة هذا العلم فى ستينيات القرن التاسع عشر، وبلغ ذروته فى ثمانينيات القرن التاسع عشر بعد خضوعها لسيطرة الكلاسيكيات. ولكن لم تكن هناك مناظرات رسمية بينهما فى أية مرحلة؛ وهو ما يعزى فى المقام الأول للمبدأ العام الذى يقضى بعدم إقدام أية دائرة ذات نفوذ أكاديمى على "الاعتراف" بالدخلاء، وثانياً

لأن الجماعتين كانتا تتحدثان بلغتين علميتين مختلفتين. والحقيقة أنهما كانتا انعكاساً للخلافات بين شامبليون وجومار. وكان علماء المصريات أولاً وقبل كل شئ علماء فى فقه اللغة يطبقون التقنيات الجديدة للغويات على المادة المصرية المدونة. أما الابتداعيون فكانوا رياضيين وعلماء مساحة وفلكيون وقليل منهم من كان على دراية تامة باللغة المصرية. ومن ناحية أخرى، لم يتمكن علماء المصريات فى القرن التاسع عشر من فهم أفكار المبتدعين، ناهيات عن دحضها.

وكان الصراع غير متكافئ من البداية، لأن المبتدعين كانوا يحاربون المثالين الرئيسين فى القرن التاسع عشر، وهما "التقدم" والعنصرية. ولو كانوا على حق لكان مستوى أى شعب أفريقى أو شبه أفريقى قديم فى الرياضيات أفضل من مستوى الأوروبيين حتى القرن التاسع عشر. وعلى مستوى أكثر دنيوية، كان المبتدعون بضعفهم العلمى وافتقارهم لنوازع المعرفة الأكاديمية المنظمة، ينزلقون أحياناً إلى شطحات دينية. ومما زاد من هذا الاتجاه ما لقبه المبتدعون من مصاعب فى تفسير الإنجازات المذهلة التى عثروا عليها فى الرياضيات والفلك القديمين، مما حدى بهم إلى إرجاعها للوحى الإلهى. وقد شجع ذلك بدوره أحياناً على ترويج معتقدات بأن الأهرام تحتوى على نبوءات إلهية[١٧٣]. وساعد كل هذا على فقدان الثقة فيما كان يعرف "بالأهراماتية" Pyramidiocy

وكانت هناك نقطة أخرى فى غير صالح المبتدعين، وهى أن الكلاسيكيات واللغويات كانت تتمتع بمكانة فى ألمانيا وأنجلترا فى القرن التاسع عشر أرقى من الرياضيات. وفى فرنسا بما لديها من معاهد فنية، كان الوضع يتسم بقدر أكبر من التوازن، ويبدو أن علماء المصريات كانوا خاضعين لبعض الضغوط للنظر إلى الأمور بمنظور جومار. فاضطر ماسبيرو مثلاً فى القرن التاسع عشر للتسليم بأنه قد اقتنع بآراء العالم الفلكى سير نومان لوكيار Sir Norman Lockyer التفصيلية بأن المعابد المصرية بنيت بدقة بالغة لأغراض فلكية[١٧٤]. والأغرب من كل هذا أن كثيراً من الناس – ومنهم علماء فلك لهم مكانتهم كالأستاذ بيازى سميث Piazzi Smyth عالم الفلك الملكى باسكتلنده، وسير نورمان لوكيار – ضحوا بمستقبلهم العملى سعياً وراء هذه الأفكار. وبالنسبة لبيازى سميث يمكن تفسير حالته بالحماس الدينى، إلا أن الإثارة

الكبيرة حول الرياضيات، فيبدو أنها كانت الدافع الأكبر فى حالة لوكيار[١٧٥].

ومنى "علماء الأهرامات" بأكبر نكسة لهم بانشقاق فلندرز بترى Flinders Petrie الذى سبقت الإشارة إلى تاريخه المبكر للنصوص الكيميائية القديمة. وكان لدى بترى إلمام كبير بالهندسة والقياس وحماس لأفكار سميث وغيره من خلفاء جومار، وفى عام ١٨٨٠، تمكن من الذهاب إلى مصر بأحدث معدات المسح القياسي لمراجعة دقة القياسات السابقة.

وكانت النتائج التى توصل إليها غير حاسمة. فقد سلم من ناحية بأن الهرم الأكبر كان بحذى الجهات الأصلية للبوصلة بدقة أكبر من أى صرح أحدث زمناً، وأن قياسات الغرفة الداخلية تدل على معرفة بأن π تساوى ٧/٢٢ وبمثلثات فيثاغورت. كما انبهر بصورة عامة بالبراعة التقنية والرياضية التى استخدمت فى تشييد الأهرامات. ومن ناحية أخرى، فقد اختلف مع بيازى سميث حول طول الذراع المستخدم فى البناء، ولم يقبل ماذهب إليه سميث بأن البناء كان يضم طول السنة بدقة[١٧٦]. وفى ضوء التغيرات التى طرأت على علم المصريات فى ثمانينيات القرن التاسع عشر والاتجاه العام نحو الإحتراف فى البحث العلمى وغيره بين ١٨٨٠ و ١٩٦٠، دخلت النظريات "الهرماتية" طوراً جديداً من النزق أو ادعاء العلم.

وبقياسه البالغ الدقة وتطويره لدراسة الرموز الخاصة بمختلف أساليب صناعة الفخار، أصبح بترى مؤسساً لعلم آثار مصرية حديث تماماً. وارتقى فيما بعد لرتبة فارس وانضم لعلم المصريات الأكاديمى وأسهم فيه بدور حيوى. إلا أن العلاقة لم تكن سهلة على الإطلاق[١٧٧]. فلم يحصل على كرسى أستاذية إلا من أحد المتبرعين الخارجيين، وظل يعامل معاملة المارقين حتى وافته المنية عام ١٩٤٢.

ولم يكن انشقاق بترى ليوقف دراسة الأهرامات وسائر الصروح المصرية على أمل كشف حكمة قديمة أسمى مكانة. فواصل لوكيار تطوير أفكاره عن المعرفة الفلكية المعقدة التى تمثلت فى الصروح المصرية القديمة، وواصل هذا الاتجاه من بعده عدد من علماء القرن العشرين وأبرزهم الهاوى البارع شوالر دى لوبيز Schwaller de Lubicz. حققت مؤلفات دى لوبيز التى نشرت فى الخمسينيات والستينيات نجاحاً وانتشاراً كبيرين خاصة فى الدوائر التى تعتنق طقوساً دينية سرية ولدى الناس بصفة

عامـة[١٧٨].

وفي الوقت نفسه، تم وضع قياس جديد أدق للأهرامات علـى يـد المهنـدس كـول J.H.Cole في عام ١٩٢٥. وقد جاء هذا القياس ليؤكـد العديـد مـن الدعـاوى التـي قال بها "علماء الأهرامات" الأوائل بما فيهم جومار الذى يبدو أنه توصـل إلى تقديـرات دقيقة نسبياً لأطوال وحدات القياس المصرية نتيجـة لخطأين متوازيين. وكـان عـدم دقـة قياسه قد نجم عن فشله في إدراك أن الهرم الأكبر كـانت لـه قمـة. وكـانت هنـاك منـذ عشرينيات القرن الحالى حركتا انشاقاق كبريان على البحث العلمي "القويـم" إلى الموقـف الـذى اتخـذه "علمـاء الأهرامـات"؛ كـانت أولاهمـا لليفيـو كـاتولو ستتشـيني Livio Catullo Stecchini وهو باحث إيطالي درس بألمانيا وحصـل علـى درجـة الدكتـوراه مـن جامعة هارفارد في علم القياس القديم. وقد بين ستتشيني فـي عـدد مـن الدراسـات نشرت في الخمسينيات والستينيات أن المصريين كـان لديهـم علـم دقيـق للغايـة بقياسـات كوكب الأرض وأن هـذا العلم طبق في مصر وفي غيرها بدقة بالغة[١٧٩].

أما الانشقاق الآخر نحو الاعتقاد بوجود حكمة قديمة أسمى فكان أكثر غرابة؛ فقد قام به واحد من أعظم مؤرخي علوم عصر النهضة إن لم يكن أعظمهم قاطبة، ألا وهو جورجيو دى سانتيانا Girogio de Santillana. فبعد أن دون سانتيانا كتابا مهما عن جاليليو، وجه اهتمامه إلى التراث الكيميائي المصرى القديم؛ ثم اتجه في أواخر سني حياته إلى مطالعة كتاب Origine de tous les cultes (أصل كل الأديان) لديبوى وأقتنع برأيه بـأن كثيراً مـن الأساطير القديمة كانت بالفعل صورة مجازية للفلك بشقه العلمي. إلا أن دى سانتيانا ذهب إلى مـا هو أبعد من ديبوى ومصر وأدعى وجود معرفة أقدم زمناً يمكن العثور علـى بقاياهـا فـي الأسـاطير الموجودة في كل أرجاء العالم وحدد تاريخها بما قبل ٦٠٠٠ ق.م. بالاستعانة بتقديم الاعتدالين الربيعي والخريفي وتأخيرهما.

وعلـى الرغـم ممـا حظـى بـه دى سـانتيانا مـن صيـت واسـع، إلا أن كتابـه Hamlet's Mill (طاحونة هاملت) الـذى ضمنـه نظريتـه هـو وأحـد زملائـه الألمـان لم يلق قبولاً لـدى أية هيئة نشر جامعية فتم نشره تجارياً، ومعنـى هـذا أن كبـار العلمـاء ليسـوا مجبرين على النظر لعمل كهذا بعين الاعتبار[١٨٠]. كما أن جرأة دى سـانتيانا ومـده لعنقـه

إلى هـذا القـدر قـد حـد مـن فعاليتـه كـأحد أنصـار مدرسـة ديبسوى وجومـار. إضافـة إلى أن كتابـه هـذا قـد أمكـن ضمـه إلى "الجنـاح المتطـرف" كمـا حـدث بالنسـبة لكتـابى ستتشـينى وتومكينز Tompkins؛ وهـو مـا سمـح للبـاحثين الأصوليـين أو أجـبرهم علـى تجاهلـه.

وبسبب علـم الآثـار، زاد عـدد علمـاء المصريـات ومؤرخـى التـاريخ القديـم حاليـاً عمـا كـان عليـه منـذ خمسـين أو مئة عـام. إلا أن قليـلاً منهـم مـن جمـع بـين الوقـت والجهـد والبراعـة اللازمـة لتقبـل آراء شـوالر دى لوبـيز أو ستتشـينى أو سـانتيانا بمـا تتسـم بـه مـن تعقيـد. بـل كـان الاتجـاه السـائد فـى هذيـن العلمـين فـى الثلاثـين سـنة الأخـيرة هـو الاعتمـاد علـى تفنيـدات كهـل آخـر مـن كهـول تـاريخ العلـم، وهـو الأسـتاذ أوتـو نويجيبـاور Otto Neugebauer الـذى كـان لاسمـه نفـوذ طـاغ لـدى المدافعين عـن الأمـر الواقـع.

كـان نطـاق علـم نويجيبـاور واسـعاً. وقـد سبقت الإشـارة إليـه فـى سـياق الحديـث عـن كوبرنيكـوس، إلا أن أشـهر أعمالـه كـانت فـى مجـال العلـم فـى التـاريخ القديـم. فقـد تميز فـى هـذا المجـال بـأفق أوسـع مـن غـيره، وكمـا كـان مسـتعداً للتسـليم جـدلاً باعتمـاد كوبرنيكـوس علـى العلـوم الإسـلامية، فقـد دلـل علـى وجـود بعـض التأثـيرات المهمـة مـن حضـارة بـين النهريـن علـى الرياضيـات والفلـك عنـد الإغريـق[١٨١]. كمـا نشـر عـدة أعمـال عـن علـى الفلـك المصـرى بالتعـاون مـع بعـض علمـاء المصريـات الأصوليـين، إلا أنـه فـى هـذه الأعمـال وعلـى النقيـض تمامـاً مـن معاملتـه لحضـارة بـين النهريـن قـد سـاير زمـلاءه فـى موقفهـم الازدرائـى مـن مصـر والكيميـاء القديمـة[١٨٢]. والحقيقـة أن نويجيبـاور كـان يصـر فـى كـل أعمالـه علـى أن المصريـين لم تكـن لديهـم أفكـار تتسـم بالأصالـة أو التجريديـة. ويفسـر دقـة قياسـات الأهرامـات والمعـابد واستخدام π بأنهـا حصيلـة براعـة عمليـة وليسـت ناتجـة عـن فكـر عميـق؛ ومـن الأمثلـة علـى ذلـك قولـه: "هنـاك مـن يزعـم العثـور علـى صـورة صحيحـة لنصـف الكـرة الأرضيـة بـإحدى برديـات موسـكو، إلا أن النـص يـدل علـى تـأويل أشـد بدائيـة؛ وهـو الأرجـح"[١٨٣]. ومـن الغريـب أن نويجيبـاور لا يعـترف بمدرسـة الأهرامـات؛ بـل كـان يرفضهـا.

> "إن الثوابـت الرياضيـة المهمـة، كالقيمـة الدقيقـة لـ π والتعمـق فـى علـم الفلك، يفـترض أنهـا تكـون جـزءاً مـن أبعـاد هـذا البنـاء وتركيبـه. وهـذه

النظريـات تتنـاقض مـع كـل المعـارف الصحيحـة التـي توصـل إليهـا علمـاء الآثـار والمصريـات عـن تـاريخ الأهرامـات والغـرض منهـا"(١٨٤)

ثـم يوصـى المهتمـين بمـا يقـر بأنـه "مشـكلات تاريخيـة وأثريـة شـديدة التعقيـد تتصـل بالأهرامـات" بمطالعـة كتـب إدواردز ولاور عـن الموضـوع(١٨٥).

ولا يتدخـل إدواردز عـالم الآثـار المصريـة الذيـن كـانوا "مدهشـين مـن إضفـاء كـل هذه الأهمية علـى مناقشـة نظريـات لم يكـن لهـا أيـة مصداقيـة فـى عـالم المصريـات"(١٨٦)

كـانت نظريـات لاور تتسـم بقـدر مـن التنـاقض. فهـو مـن ناحيـة نقـر بـان القياسـات فـى بعـض الخـواص المتميزة؛ وأنـه تمكـن العثـور فيهـا علـى علاقـات مثـل π و φ، وعلـى "الرقـم الذهبـى" وعلـى مثلـث فيثـاغورث؛ وأن هـذه كلهـا تتفـق ومـا ذكـره هـيرودوتوس وغـيره مـن قدمـاء الكتّـاب عـهـم(١٨٧). ومـن ناحيـة أخـرى، فهـو يسـتنكر "شـطحات" جومـار وبيـارى سميـث؛ ويهـاجم الـذراع الطـولى الـذى أعـاد جومـار بنـاءه؛ وزعـم ان الصيـغ والدقـة الفلكيـة الخارقـة التـى تميـز أوضـاع الأهرامـات لم تكـن سـوى نتيجـة "للتجريبيـة البدهيـة والنفعيـة"(١٨٨).

وهـذا التنـاقض بـين الاعـتراف بالدقـة الرياضيـة الخارقـة للهـرم الأكـبر و "اليقـين" بـأن الإغريـق هـم أول الرياضيين "الحقيقيـين" نجـده طاغيـا علـى العديـد مـن كتابـات لاور عـن الموضـوع. ويصـل التوتـر إلى ذروتـه بوجـود حقـائق بـان الاغريـق قـد سمعـوا بكثـير مـن السـمات الخارقـة للهـرم الأكـبر وانهـم كـانوا يـرون أن المصريـين هـم أول الرياضيين والفلكيـين. وأخيرا هنـاك مشـكلة أخـرى تتمثـل فـى أن كـثرة مـن الرياضيين والفلكيـين الإغريق تعلموا فـى مصـر. وقـد تعامل لاور مـع هـذه المصـاعب علـى النحـو التالى:

"علـى الرغـم مـن أنـه لم يتـم حتـى الأن اكتشـاف أيـة وثيقـة رياضيـة مصرية يصعـب فهمهـا، فإننـا نعـرف أن الكهنـة المصريـين - لـو صـدق الإغريـق - كـانوا غيوريـن علـى أسـرار علمهـم وأنهـم كـانوا منشـغلين بالرياضيـات كمـا يشـير أرسـطو. مـن الأرجـح إذن أنهـم كـان لديهـم علـم سـرى تكـون شـيئا فشـيئا فـى سـرية تامـة داخـل المعـابد علـى مـر

القرون التى تفصل بين بناء الأهرام حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م. ونشأة الفكرة الرياضى الإغريقى فى القرن السادس قبل الميلاد. أما من الناحية الهندسية، فإن تحليل مبانى كالهرم الأكبر كان يحتل مكانة متميزة فى أبحاث هؤلاء الكهنة؛ ومن الواضح أنهم نجحوا بالصدفة فى اكتشاف سمات ظلت موضع يقين تام عند المعماريين"[١٨٩].

كان لاور أحد مكتشفى الوجود الحقيقى لإمحتب مهندس الأسرة الثالثة الذى سبق رفضه بوصفه أسطورة مصرية متأخرة، واكتشف بعضاً من أهم مبانى سقارة المتأخرة. كما قضى حياته معجباً بالسمات الخارقة للأهرامات؛ وهو ما يجعل من الصعب فهم أسباب عجزه عن إدراك أبسط الحلول، وهو تصديق الإغريق والاعتراف مع أستاذ المصريات الألمانى برونر Brunner بوجود "عصر محورى" Achsenzeit حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. وبعد قرنين أو ثلاثة، أى فى عصر الأسرتين الثالثة والرابعة، كان هناك علم رياضيات بالغ التعقيد ظهرت بعض معالمه فى بناء الهرم الأكبر. وقد احتفظ المصريون اللاحقون به وعلموه لزوارهم من الإغريق[١٩٠].

وما الذى يجعل هذه الفرضية أقل رجحاناً من القول بأن الإغريق حققوا طفرة فكرية نوعية فى القرن الرابع قبل الميلاد إذا ما نحينا الآراء العنصرية "التقدمية" جانباً ؟ ليس هناك ما يحول دون صحة الفرضية الثانية نظراً لقربها من المنجزات الحقيقية للأهرامات والتراث القديم المتصل الحلقات من علم رياضيات مصرى متفوق.

على أية حال، لم تكن مثل هذه الرؤية متاحة أمام الباحثين التقليديين إبان ذروة الامبريالية. إلا أنه من الواضح أن هذه المسألة كانت تؤرق لاور ويبدو أن القوى الاجتماعية كانت تقيده. ولو كان قد تقبل أبسط الإجابات لكان قد مسه نفس الهوس الذى مس جومار وبيازى سميث من قبله. لذا فقد حبذ إرجاع العلاقات الرياضية الفذة فى الهرم الأكبر ومكانتها فى التراث القديم إلى مجرد صدفة اكتشفها الكهنة المصريون فيما بعد واستغلوها.

ومع ذلك، فإن الحلول التى قدمها لاور لاتزال تسمح بوصف بعض المصريين اللاحقين بالقدرة على نوع من التفكير المتطور نسبياً؛ فيقول:

"ظلت مصر على مدى ثلاثة آلاف سنة من تاريخها تمهد الطريق لعلماء الإغريق - كأرسطو طاليس وفيثاغورس وأفلاطون - ممن أرتحلوا إليها للدراسة بمدرسة الإسكندرية أو للتدريس فيما بعد كإقليدس. ولكن كانت روحهم الفلسفية التي عرفت كيف تنهل من الكنوز التي جمعها المصريون بنزعتهم اليقينية التقنية هي التي جاءت بمرحلة من العلم الخالص"(١٩١).

من أين يأتي لاور اليقين بأن الحكمة الخفية المصرية التي لم يكن لديه دليل عليها لم تكن إلا مجرد "يقينية تقنية" على الرغم من تأكيد الكتّاب القدامى على تدين الكهنة المصريين وزهدهم ؟ لا نملك إلا أن نعتبر هذا مجرد إعلان بالولاء لكل من يعملون في إطار النموذج الآرى. كان علماء المصريات المغموررون على حق في رفضهم لرأى لاور في نظريات "علماء الأهرامات". ففي معركته مع "علماء الأهرامات" أصبح يشبههم أو على الأقل يتقبل الكثير من آرائهم بما يجعل دفاعه عن توجهاته الأصولية أمراً مرهقاً للغاية.

لم يكن لاور وحده في هذا المأزق. فقد كتب آبي دريوتون الذى سبقت الإشارة لاعترافه بالنزعة الدينية المصرية يقول: "لاينبغي أن نولي اهتماماً ... لضلالات بيازى سميث بأن قياسات الهرم الأكبر تنم عن وجود علم خفي لدى قدماء المصريين"(١٩٢). إلا أنه يقول في موضع آخر إن علماء المصريات بإهمالهم "لعلماء الأهرامات" أصبحوا يتهمون بأنهم "هواة سذج عمي وعنيدون في علم تكدرت ثوابته الهادئة"(١٩٣). وهناك أيضاً ما يدل على أن عدداً من علماء المصريات "المحترمين" يشعرون بضغوط من الخارج - أو من المادة التي يتناولونها ؟ - وظلوا لفترة طالت أو قصرت يتلاعبون بالبدع والخروج على المألوف(١٩٤). وفي هذا الصدام بين نموذج قديم وآخر آرى، أعتقد أن الاتجاه القديم هو الذى كانت له الغلبة مع بعض التعديلات. وفي الوقت نفسه، لاشك أن المجال ككل لا يزال يسير على نهج تراث شامبليون اللغوى كما خرج على يد ماسبيرو وإرمان وغيرهما من علماء أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ممن أوجدوا حلقة وصل بين مجال تخصصهم والوضعية اليقينية الرومانسية السائدة، ولاشك أيضاً أن مدرسة جومار في الرياضيات والمسح القياسي لاتزال تقف خارج الساحة.



الباب السادس

الهوس الهيلليني -١-

(١٧٩٠-١٨٣٠)

ترجمة د. منيرة كروان

يتناول هذا الباب، أساساً، التطورات الاجتماعية والثقافية على مدى أربعين عاماً فى شمال ألمانيا البروتستانتى. وربما تكون الفترة الزمنية قصيرة بيد أنها تشمل الثورة الفرنسية، وغزوات نابليون، وتصاعد الشعور القومى الألمانى إزاء القومية الفرنسية، فضلاً عن سنوات المد الرجعى ثم إنشاء بروسيا لتكون دولة ألمانية حاكمة وبؤرة للاتجاهات القومية الألمانية كلها.

فى تلك الفترة الحرجة تحديدا تم تأسيس علم الفيلولوجيا الجديد، أو (علم دراسة التاريخ القديم) Alterumswissenschaft باعتباره علما طليعيا بالمعنى الحديث. وكانت تلك هى المرة الأولى التى تنشأ فيها شبكة من العلاقات الواضحة المحمودة بين الطالب والمدرس والأقسام القادرة على توفير أكبر قدر ممكن من التمويل من الدولة، والمجلات المكتوبة بلهجة مهنية هدفها التفرقة بين المشتغلين بالعلم والعامة غير المتخصصين.

وفى رأيى أنه يجب النظر إلى هذه التطورات الثقافية والأكاديمية فى ضوء ما جرى من تطورات اجتماعية/ سياسية. ومن اللافت للنظر أن بعض العلماء الرواد الرئيسيين فى الدراسات اللغوية والسياسية؛ مثل همبولت Humboldt ونيبور Niebuhr قد لعبوا أدواراً أساسية فعالة فى نشأة العلم الجديد وفى إقامة نظام جامعى جديد أيضاً. فضلاً عن أنهم كانوا كذلك من الشخصيات السياسية الهامة فى الساحة القومية.

ومن الأمور ذات الدلالة البالغة أن فترة تعاظم نفوذهم السياسية كانت أثناء الإصلاحات التى اضطرت الحكومة البروسية إلى إجرائها بعد الهزيمة النكراء التى منيت بها أمام جيوش نابليون فى Jena سنة ١٨٠٦. وينبغى النظر إلى التطور والرقى واسع المدى لعلم الفيلولوجيا الجديد، الذى وضعه همبولت فى مركزه برنامجه للإصلاح التعليمى Bildung، باعتباره واحداً من تلك الإصلاحات. لقد كان من رأى همبولت وأصدقائه أن "دراسة التاريخ القديم عامة والإغريق خاصة "وسيلة لاندماج الطلاب والشعب فى كل متكامل، وكان من رأيهم أن حياة الشعب قد تناثرت متفرقة بفعل المجتمع الحديث. والأكثر مباشرة من ذلك أن همبولت والآخرين رأوا فى الدراسة

وسيلة لتحقيق إصلاح "حقيقى"، يمكن لألمانيا من خلاله أن تتجنب ثورة من الطراز الذى أرعبهم كثيراً فى فرنسا. ومنذ البداية، إذن، كانت دراسة الفيلولوجيا فى ألمانيا – مثل نظيرتها دراسة الكلاسيكيات فى إنجلترا – تعتبر "طريقا ثالثاً" بين الثورة والرجعية. وعلى أية حال، فالواقع أن تأثيرها انحصر فى ترسيخ "الوضع الراهن". لقد صارت المؤسسات التعليمية وحركة الإصلاح التعليمى الكلاسيكية التى غمرتها بالحماسة بمثابة الأعمدة التى ارتكزت إليها بروسيا القرن التاسع عشر والنظام الاجتماعى الألمانى.

ففى قلب دراسة التاريخ القديم الألمانية كانت تقبع صورة الإغريقى المقدس، فنياً وفلسفياً على السواء. وكان لابد للإغريق أن يكونوا – على شاكلة الصورة المثالية التى رسمها الألمان لأنفسهم – مندمجين بتراب وطنهم وأنقياء خالصين. ومن ثم فإن "النموذج القديم"، بما يميزه من الغزوات المتعددة والاستعارات الثقافية المتكررة والنتائج الضمنية للاختلاط العرقى واللغوى غير مقبول على نحو متزايد. وفى هذا السياق الاجتماعى والسياسى فقط يمكن للمرء أن يفهم هجوم كارل أوتفريد مولر Karl Otfried Müller، أحد الأوائل الذين أنتجهم النظام الجديد، على السلطة المهمينة للنموذج القديم.

ففى سنة ١٨٢١م، أى السنة التالية لنشر كتاب The Minyans الذى أرسى فيه آراءه ومناقشاته، اندلعت حرب التحرير اليونانية واجتاح الهوس الهيللينى أوروبا. وفى ظل الهوس الهيللينى المعادى لآسيا وإفريقيا أصبح الدفاع عن "النموذج القديم" غير وارد تقريباً، ومن المتناقضات أن مؤرخ العصور القديمة العظيمة برتولد نيبور Barthold Niebuhr، الذى فعل الكثير لتقدم النزعة الرومانسية والنزعة العنصرية فى كتابة التاريخ، كان هو البطل الوحيد المدافع عن النموذج القديم. وبعد موته سنة ١٨٣١م، بات من الصعب، بل من المستحيل، أن يجادل العلماء "الصالحون" بأن المصريين قد استعمروا بلاد الإغريق، أو أنهم لعبوا دوراً مهماً فى تشكيل الحضارة الإغريقية.

فردريك أوجست فولف ووليم فون همبولت

بعد أن تأملنا "سقوط" مصر، ينبغى علينا أن نولى وجوهنا صوب "ظهور" بلاد

الإغريق. لقد درس فردريك أوجست فولف، أشهر تلاميذ كريستيان هينه فلسفة روح العصر Christian Gottlob Heyne، لمدة عامين فقط من ١٧٧٧-١٧٧٩ في جوتنجن. ولكنه بفضل هذه التجربة، ومن خلال Zeitgeist، صار نموذجا يجسد الوضعية الرومانسية من عدة جوانب[١]. فقد كان تلميذا لفنكلمان Winckelmann، مؤمنا بمرحلية التاريخ، كما كان محبا لبلاد الإغريق وباعتباره ألمانيا مخلصاً فقد تأثر كثيراً بحركة العودة للأصول وتركيزها على الأغنية الشعبية. كما أنه وجد نفسه في التراث الرومانسي للدراسات الهومرية التي تعرضنا لها في مناقشة مدام داسييه Mme Dacier وفيكو Vico وفي هذا المجال اعتقد فولف بأنه متوافق مع بنتلي Bentley[٢].

لقد جمع فولف كل تلك الخيوط سوياً. وإذ بنى عملّه في سياق من التحليل التفصيلي للنصوص، ورأى أن "الإلياذة" و "الأوديسيا" نتاج لطفولة الجنس الإغريقي، والجنس الأوربي بالتالي. وإذ تقبل تلك المشاعر كما أخذ عقولة التراث القديم عن أن هوميروس كان كفيفا، اقتنع بأن الملاحم قد ألفت شفويا قبل أن تكون للإغريق أبجدية بزمن طويل[٣]. وفي رأيه أن الملاحم طويلة بحيث لا يمكن نسبتها لمنشد واحد أمي. وهكذا، فإنها لابد وأن تكون نتاجاً لعدد من الشعراء الشعبيين ولم تجمع سويا إلا عند جمعها، أو كتابتها، كما يفترض، في القرن السادس ق.م في أثينا. وقد خلص فولف من تلك الافتراضات إلى الاستنتاج الرومانسي في صورته الكاملة. إذ يجب النظر إلى الملاحم الهومرية الآن باعتبارها نتاج طفولة الأغنية الإغريقية الأوروبية برمتها وليس باعتبارها نتاجاً لمؤلف فرد[٤].

لقد جاءت معظم هذه الأفكار من الكتاب الاسكتلنديين ومن روبرت وود، الذى قرأها في سياقها الطبيعي. بيد أن فولف، بفضل خبرته في النصوص ومكانته كأستاذ، أضفى على هذه الآراء الشكل الأكاديمي اللازم في عالم "المعرفة المهنية" الجديد[٥]. ومن ناحية أخرى، فإننا لا يجب أن نغض الطرف عن حقيقة أن دراسة فولف تبدو ضحلة إلى حد ما على الورق. وعلى الرغم من أن كتابه "Prolegomena

to Homer"* مثير للغاية، فإنه اعتبر "دراسة متسرعة"، كما أن أعماله المكتوبة عموما لا تثير الإنتباه كثيراً في المكتبات[٦].

لقد كان إنجاز فولف الحقيقي متمثلاً في علم الفيلولوجي (أو دراسة التاريخ القديم) الذي أسسه. إذ أنه سجل نفسه "دارساً للفيلولوجيا" عندما دخل جامعة جوتنجن سنة ١٧٧٧م، وهو ما اعتبر آنذاك تطوراً جذريا[٧]. ولكن فيما بعد أطلق على دراسة النصوص القديمة - الحافلة بالفن الكلاسيكي والآثار - اسم Altertumswissenschaft أي علم التاريخ القديم. لقد اعتبر فولف مؤسس هذا العلم على الرغم من أنه يبدو واضحاً أنه اشتق شكله الأدبي من أستاذه هاينه Heyne، كما أخذ محتواه كله عن فنكلمان، أما التسمية فقد اشتقت من المفردات الجديدة للعلم والتطور الذي دعا إليه كانط Kant في ألمانيا[٨]. وتكمن براعة فولف في أنه كان مدرساً قديراً، وباعتباره أستاذا بجامعة هال Halle حوالي ١٧٨٠م أيد العلم الجديد وحث على إقامة الدراسة والبحث باعتبارها وسيلة تعليمية وقاعدة جامعية للبحث. ولقد ذاعت شهرة فولف واستمرت بفضل صلته بالأرستقراطي البروسي الصغير وليم فون همبولت.

وقبل أن نفحص الصداقة التي ربطت بينهما وما أسفرت عنه من نتائج غير عادية في مجال الدراسة والمؤسسات على السواء، فإنني أود البحث في الملابسات السياسية التي أحاطت بكل من الهيللينية الرومانسية والفلسفة الوضعية في جامعة جوتنجن. إذ أنهما ارتبطا بشكل لصيق كما أوضحت من قبل. كما أن المحركين لكل من الاتجاهين اعتبروا أنفسهم "تقدميين" وكانوا يحبذون حرية الدول الصغرى. ومع هذا، كان هناك قدر كبير به من الغموض حول معنى هذه الحرية. فضلاً عن أن جميع المناصرين لهذه الأفكار تقريباً تراجعوا عنها، عندما جاء وقت الإختبار في مواجهة الثورة الفرنسية لأنها كانت تشكل تهديدا للإمتيازات، وبسبب العنف الذي ميزها، كما أنهم رأوا فيها مدخلاً "غير طبيعي" أو "غير عضوى" للحرية. وينبغي على المرء أن يضع هذه

---

* العنوان الأصلي هو Prolegomena ad Homerum ونتحفظ على استخفاف برنال بهذا الكتاب الذى فجر المشكلة الهوميرية وشغل أوروبا عدة قرون فأفادت منه الكثير. (المراجع).

الخلفية فى ذهنه وهو ينظر إلى الإصلاحات التى خططوا لها ونفذوها فيما بعد.

صار فولف وهمبولت صديقين حميمين فيما بين سنة ١٧٩٢ وسنة ١٧٩٣م وفى فترة عنوان الثورة. ومن خلال مناقشاتهما أخرج همبولت لمحة موجزة "فى دراسة التاريخ القديم والإغريقى خاصة"(٩). وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم ينشر فى حياته، فإن فولف قرأه ونقده وكذلك فعل الشاعر والكاتب والفيلسوف العظيم شيللر Schiller. هذه اللمحة الموجزة Sketch اكتسبت أهمية كبيرة، لأنها تعبر عن الأفكار التى حاول همبولت تنفيذها حينما صار وزيرا للتعليم ببروسيا فيما بعد.

وقدم همبولت مبررين لجعل دراسة التاريخ القديم الدعامة المركزية فى التعليم العام. إذ قال بأن ثمة أسبابا جمالية لدراسة الإغريق، ولكن الأهم كانت قناعته بأن دراسة الرجال الأفذاذ فى التاريخ القديم سوف يخلق فى الحاضر مجتمعاً جديداً من رجال أفضل. إن مثل هذه الدراسة لابد وأن تكون مركز التكوين التعليمى والأخلاقى. ومع الاهتمام الرومانسى بالنمو والتكوين عبر العصور، جاء تقييم همبولت لدراسة تاريخ القدماء ليس باعتباره هدفا وإنما باعتباره عملية إجرائية. لقد اعتقد أن استيعاب التطور العضوى المعقد للتاريخ القديم سوف يساعد على تدعيم القوى الخلاقة فى الطلاب وتقويتها(١٠).

وربما كان همبولت ينوى أصلاً أن يكون برنامجه الإصلاحى لصالح الشعب كله. بيد أنه صار الطابع المميز للنخبة الراقية(١١). وهكذا كان برنامجه تحدياً لطبقة النبلاء. كان هدفه إصلاح بروسيا من خلال الثقافة الألمانية مع تجنب أهوال الثورة الفرنسية: إذ ألف "فى كتابة التاريخ القديم" أثناء محاكمة لويس السادس عشر التى كتب عنها آنذاك يقول: "إن هذا الإعدام والمحاكمة الشنيعة تركا وصمة لا تمحى"(١٢). فقد دأبت الطبقات العليا فى فرنسا على قراءة كتاب بارتلمى "Anarchasis" هروباً من ضغوط الثورة وفظائعها، ولا شك فى أن دراسة الإغريق قد وفرت لهمبولت وصديقه شيللر منفذاً للهروب(١٣). ومع ذلك فإن دراسة الإغريق كانت تعنى ماهو أكثر بالنسبة لهما؛ إذ رأيا فى دراسة الإغريق ومحاكاتهم نوعا من التسامى على شطط الثورة ورد الفعل. كذلك فإن مجموعة خطابات شيللر الشهيرة "حول التعليم الجمالى للإنسان"

تتناول في الخطاب الخامس فوضى الثورة الفرنسية، ثم تبعه الخطاب السادس الذى يدور حول الوظيفة التوفيقية لدراسة الإغريق[١٤].

إصلاحات همبولت التعليمية

لقد ساعد همبولت وشيللر موضوعيا في الدفاع عن الوضع القائم، بغض النظر عن مراكزهم السياسية الذاتية. كان هذا الوضع الآمن من الراديكادبة هو بالضبط ما اتجهت نحوه الملكية البروسية بعد الإذلال الذى ذاقته الحكومة التقليدية وجيشها المحبوب بعد هزيمتهم المروعة في جينا عام ١٨٠٦م. وفي عام ١٨٠٩م عُهد إلى همبولت بإعادة تنظيم النظام التعليمي ضمن إصلاحات أخرى تم تنفيذها لمواجهة المتحدى الثورى الفرنسي. وقد بنى البناء الجديد على أساس التكوين التعليمي Bildung الذى اعتقد أنه سوف يعيد إحياء الشعب الألماني بعد الهزائم الساحقة التي منى بها. وقد رفض بوعي الأسلوب الفرنسي القائم على الفنون التطبيقية في مرحلة التعليم العالي لأنه يركز على الرياضيات والعلم الطبيعي، مفضلاً المدارس التي تقوم بتعليم مفهوم Wissenschaft الأوسع مجالاً. ومن الناحية الصورية كان المنهج الدراسي البروسي الجديد يحتوى ثلاثة فروع علمية هى الرياضيات والتاريخ واللغات. وعلى أية حال، فإننا يمكن أن نعرف أولويات همبولت من خلال حقيقة أن الرياضيات لم تكن تدرس إطلاقا على مدى الخمس سنوات الأولى من عمر جامعة برلين الجديدة، التي تعتبر إنجازه الرئيسي[١٥].

كان أبرز عالم ضمه همبولت إلى جامعة برلين هو فولف، الذى أدخل حلقات النقاش Seminars، التي انتشرت من هناك إلى بروسيا، ثم ألمانيا، ومنها إلى بقية أنحاء العالم. وبدا أن هذه الطريقة، التي تؤكد أن الطلاب يتعلمون بطريقة أفضل من خلال أبحاثهم، تتيح للطلاب قدراً من الحرية ومجالاً للإبداع أكبر مما تتيحه المحاضرات التقليدية. ومع هذا، فإنه على الرغم من الإنجازات الأكاديمية الكبيرة التي تحققت بفضل هذا النظام على مدى السنوات المائة والثمانين الماضية، يبدو واضحاً أن هذا النظام كان أداة فعالة تماماً للتحكم في اختيار وتناول الموضوعات المتعلقة بالدراسات الأكاديمية.

لقد سارت ممارسة فولف لعلم الفيلولوجيا، أو التاريخ القديم، على خطى هاينه

ومدرسة جوتنجن. إذ أنه رفضما اعتقد أنه مجرد بحث نظرى فى الكليات من النمط الذى كان شائعا فى عصر التنوير لصالح المواجهة المباشرة مع موضوعات النقد التحليلى المحددة. وإذ غفل تماماً عن إدراك نزعته الرومانسية المكثفة الواضحة للعيان، كتب يقول: "إن أبحاثنا كلها أبحاث تاريخية نقدية تنصب على الحقائق ولا تتناول الأشياء التى نتطلع إليها. فالآداب ينبغى أن تحظى بالحب، أما التاريخ فإنه جدير بالإحترام"(١٦).

هذا المدخل الذى ينم عن عقلية بسيطة ساد فى مجال دراسة التاريخ والكلاسيكيات منذ ذلك الحين. وفى مقالته "مهمة المؤرخ" أدرك أن وصف الماضى يتطلب ماهو أكثر من الوصف الخارجى بكثير. إذ كان المطلوب تحقيق نوع من التوازن بين "الملاحظة العقلية" و "الخيال الشعرى". ومع ذلك، فإن المؤرخ، على عكس الشاعر، يجب أن يُخضِع خياله للواقع الذى يمكن دراسته كما أنه "يجب أن يخضع بالضرورة لسلطة الشكل، على حين يضع فى ذهنه دائما الأفكار التى هى قوانين الواقع"(١٧). ومن المؤكد أن هذه الأفكار تضمنت فى القرن التاسع عشر "القوانين العلمية للأجناس".

كذلك حاول همبولت أن يصارع صعوبات العلاقة بين الذات والموضوع فى البحث التاريخى، وكان يعتقد أنها تتطلب بعض مشاعر القرابة مثل تلك التى توجد بين ألمانيا وبلاد الإغريق القديمة. فهكذا يمكن أن يكتب تاريخا عن العالم القديم. وفى الوقت نفسه يبدو الإغريق وكأنهم جاوزوا التاريخ. على نحو ماكتب فى مقالة أخرى".

"إن دراستنا للتاريخ الإغريقى تختلف، إذن، تمام الإختلاف عن دراستنا لأى فرع آخر من فروع التاريخ. فبالنسبة لنا خرج الإغريق عن دائرة التاريخ. وحتى إذا كانت مصائرهم تنتمى لشبكة الأحداث العامة، فإنها من هذه الناحية لاتهمنا إلا قليلاً. إننا نخفق تماماً فى إدراك علاقتنا بهم إذا ما أقدمنا على تطبيق المعايير التى نطبقها على تاريخ بقية العالم عليهم. إن معرفة الإغريق ليست مفرحة فقط أو مفيدة وضرورية لنا فحسب – لا بل إننا نجد فى الإغريق وحدهم المثال الذى نحب أن نكون عليه ونخلقه. وإذا كان كل جزء من التاريخ يثرينا بالحكمة والتجربة الإنسانية، فإننا نأخذ من الإغريق شيئاً يكاد يكون إلهيا، لا يمت للبشر بصلة"(١٨).

ولم تتفوق على وجهة نظر همبولت فى الطبيعة المتسامية للتاريخ الإغريقى سوى

وجهة نظره فى لغتهم. إذ أنه رأى فى اللغة اليونانية توازنا مثالياً بين الحيوية الشابة والنضج الفلسفى، ولم ير فيها "لغة أصلية" كالسنسكريتية – وبذلك كشف عن الصفات المزدوجة لعلم الجمال والفلسفة التى كانت تنسب إلى الإغريق منذ خمسينيات القرن التاسع عشر(١٩).

ولقد تناولنا بالفعل الأهمية المركزية للغة، وعلاقتها الأساسية بالأمة والشخصية الوطنية، فضلا عن الإنبهار الرومانسى بهذه الأمور الثلاثة جميعا(٢٠). وقد اتجه همبولت، الذى كان لغوياً فى الأساس على الرغم من تعدد اهتماماته، إلى اعتبار اللغة متغيراً مستقلاً فى جوهره(٢١). فبالنسبة له كانت طبيعة اللغة الإغريقية ذات أهمية فائقة. فضلاً عن أن الاهتمام بالإغريقية، كما كان الحال دوما – أو منذ القرن الخامس عشر على الأقل – كان موازياً للاهتمام باللغة الألمانية(٢٢). وهكذا، فمع تصاعد نغمة القوة الألمانية واتجاهها صوب الذروة بحرب التحرير ضد نابليون سنة ١٨١٣–١٨١٤م بدأ التمجيد المتزايد للغة الألمانية؛ التى اعتبرت فضيلتها الأساسية، عكس الفرنسية، كونها أصيلة **echt** ونقية **rein** على نحو ما(٢٣).

وكان همبولت، حتى قبل كتابة "لمحة موجزة" **Skizze**، قد نادى بأن عظمة اللغة الإغريقية تكمن فى أن العناصر الأجنبية لم تفسدها(٢٤). وهكذا، فإن عالم اللغة العظيم الذى سحرته تعقيدات الاختلاط اللغوى بشكل خاص، قد عطل ملكاته النقدية عندما تعلق الأمر باللغة الإغريقية وعالج الأمر كما لو كان نقاء اللغة الإغريقية مسألة محسومة. هذا التصور غير المقنع بطبيعته كان يمكن اعتباره ضرباً من ضروب العبث واللامعقول قبل انتصار الرومانسية الهيللينية، بيد أنه صار الآن أصل الفيلولوجيا والدراسات الكلاسيكية الحديثة مع بعض التحفظات. ومنذ ذلك الحين فرض خطر كامل على الأسماء المستعارة من أصول إفريقية –آسيوية لم يستثن منه سوى الكلمات الدالة على مواد الرفاهية الشرقية بشكل واضح تماما.

وبينما أصر همبولت والرومانسيون الآخرون على الاختلاف اللانهائى بين المجتمعات ومع غياب السمات الكلية التى زعم عصر التنوير وجودها فإنهم تصوروا وجود اتجاه عام مزود بنظام داخلى أو قوة عليا، أو كينونة(٢٥). ونظروا إلى الإغريق

على أنهم قد تساموا عن الفوضى الدنيوية واقتربوا من الكمال. وبشكل ما، إذن، كانوا هم أنفسهم السمة الكلية الإنسانية.

وهذا بالتحديد، ماجعل الإغريق بؤرة الاهتمام فى التكوين التعليمى Bildung الذى حاول قادة ألمانيا من خلاله فهم أنفسهم وإدراك ذاتهم، إلى جانب مازعموه من تسامي الإغريق فوق قوانين التاريخ. ولقد انتشر علم الفيلولوجيا والدراسات الكلاسيكية؛ بسبب أهداف مماثلة إلى بقية أنحاء أوروبا، ومنها إلى سلالتهم غير المباشرة خارج أوروبا. وعلى الرغم من نقاط الضعف العلمية فى هذه الدراسات فإن دورها فى التكوين الأيديولوجى للطبقة الحاكمة، قد استمر فى كونه الأكثر أهمية من البحث التاريخي أو اللغوى. وهكذا كان علم الكلاسيكيات محافظاً منذ البداية بينما كانت نزعة حب الإغريق Philhellenism فى مطلع القرن التاسع عشر - على الرغم من عنصريتها الراسخة - تحمل كلا من الجانب الراديكالى والجانب الرجعى، فإن دراسة الكلاسيكيات كانت محافظة منذ البداية. وكانت الإصلاحات التعليمية التى مثلت الكلاسيكيات مركز الثقل فيها، محاولات منظمة للحيلولة دون نشوب الثورة(٢٦).

أصحاب نزعة حب الهيللينية

لكى نفهم سقوط المثال القديم فى عشرينيات القرن الثامن عشر، ينبغى أن نبدأ بتفهم الجو السياسى والإيديولوجى العام الذى حدث هذا التحول فى إطاره. ففى مركز هذا الجو العام كانت نزعة حب الإغريق قد استحوذت فى القرن التاسع عشر على مايمكن أن نسميه "الجناح الراديكالى" فى الحركة الرومانسية. وكانت حركة حب الإغريق تميل إلى مشاركة الحركة الرومانسية رفضها لحركة التصنيع فى المدن، ورؤيتها لعالمية حركة التنوير وعقلانيتها، فضلا عن رفضها للثورة الفرنسية. ومن ناحية أخرى، فبينما تحول التيار الرئيسى فى الحركة الرومانسية صوب الماضى فى العصور الوسطى والمسيحية، ولا سيما المسيحية الكاثوليكية، كان أصحاب نزعة حب الإغريق أحيانا متشككين دينيا أو ملحدين، وسياسيين راديكاليين(٢٧). فمثلا، أحب هيجل وفردريك شليجل Fredrich Schlegel الإغريق فى شبابهما، ولكنهما عندما تقدم بهما السن وزادت لديهما نزعة المحافظة تحولا صوب المسيحية(٢٨). وقد أبقى اليساريون من

أنصار هيجل، ومنهم ماركس، على ولع هيجل الحماس ببلاد الإغريق فى شبابه.

ويبدو السبب فى حماسة الراديكاليين واضحا. لأنه إذا ما قارنا الدويلات الإغريقية فى هذا الصدد بروما أو مصر أو الصين، نجدها بالفعل نماذج للحرية. فضلا عن أن ذلك التوتر الذى ميز الحركة الرومانسية قد استمر فى الوجود، إذ أن كلاً من نظام المدرسة العامة الذى أعيد إحياؤه، وكان المفروض أن يصبح قادة المستقبل فى انجلترا، من خلاله، "مسيحيين مهذبين" بفضل دراستهم الكلاسيكية الوثنية، والحركة الهادفة إلى خلق مسيحية هندو-ألمانية، أو هيللينية، يمكن اعتبارهما محاولتين للتوفيق بين هذين الجناحين فى الحركة الرومانسية[٢٩].

لقد تسببت تجربة الثورة الفرنسية وانتصار الرجعية بعد سنة ١٨١٥م فى صحوة أشد مرارة بين الرومانسيين من أبناء الطبقة العليا. ومع ذلك فقد تم إحياء نزعة حب الحرية، على الرغم من أن ذلك أتخذ شكلاً غريبا فحسب عندما إندلعت حرب الإستقلال اليونانية سنة ١٨٢١م. وكان الألمان أسرع الجنسيات التى تأثرت بها وتورطت فيها[٣٠]. وفعلا كانت حركتهم فى تأييد النضال اليونانى بمثابة المركز الوحيد الهام للنزعة التحررية فى البلاد. إذ ذهب أكثر من ثلاثمائة ألمانى إلى اليونان للقتال، بيد أنهم كانوا بمثابة قمة جبل الجليد فقط فى الحركة التى ضمت عشرات الألوف الذين كان أغلبهم من الطلاب والأكاديميين[٣١]. كما ذهب فرنسيون وإيطاليون تؤيدهم جمعيات عديدة مناصرة للهيللينية، كذلك كانت الحركة قوية فى الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى بلاد اليونان سوى ستة عشر فرداً من أمريكا الشمالية، فإن نزعة حب الإغريق الواسعة المدى والناجمة عن الحرب كانت بمثابة تعزيز قوى لجمعيات الأخوة "الهيللينية" فى الولايات المتحدة. أما التأثير الرئيسى الآخر فقد جاء من جمعيات حرق الكتب الطلابية الألمانية التى تم إحياؤها فيما بين سنة ١٨١١م وسنة ١٨١٩م على يد المدرس غريب الأطوار الذى تقدم بممارسة "الأب" جان لتأييد النزعة الوطنية الرومانسية لحرب التحرير. وقد حافظت جمعيات الصداقة فى كل من البلدين على هذه الروح الشوفينية بالإنحياز المادى واللاعقلانى القوى الذى حكم تصورات مؤسسيها[٣٢].

وقد إنغمس البريتون Britons *، أيضا، بشكل عميق في المسألة اليونانية. فمنذ القرن الثامن عشر، كما رأينا من قبل، اهتم الشعراء الإنجليز والاسكتلنديون اهتماماً كبيراً ببلاد اليونان. فعندما عرضت تماثيل البارثينون الرخامية في لندن سنة ١٨٠٧م كانت هناك موجة من الهوس بالفن اليوناني الخالص الذى لم يسبق لأحد هناك مشاهدته[٣٣]. وقد رأى هنرى فيوسلى التماثيل الرخامية فصاح هاتفا: "لقد كان الإغريق آلهة، لقد كان الإغريق آلهة[٣٤]".

كان فيوسلى (Fuseli Or Füssli) فناناً سويسرياً ومؤرخاً للفن يعيش في لندن حيث طور أفكار فنكلمان. ويبدو أن ولهه ببلاد اليونان كان المعادل لكراهيته لمصر. فبالنسبة له كانت بلاد اليونان "ذلك الشاطئ السعيد حيث بزغ الفن من الحياة والحركة من الحرية متحررة من استبداد الهيروغليفية التى تعتبر دواء مسكنا للجهل، وأداة للإستبداد، أو نيراً ثقيلاً يبعث على الخمول الأبدى"[٣٥].

ومع ذلك، فإنه ينبغى أن نلاحظ أن فكرة أن بلاد اليونان خرجت من عباءة مصر تتضمن قبولاً بالنموذج القديم الذى رفضه أصحاب نزعة حب الإغريق المتأخرين. وعلى الرغم من أن فيوسلى كان أجنبيا فإن أفكاره عن بلاد اليونان لم تكن غريبة عن الجو الثقافى العام فى الربع الأول من القرن التاسع عشر.

ومع بداية الحرب سنة ١٨٢١م، وصلت الحماسة لبلاد اليونان إلى درجة الحمى، كما كتب شيللى:

"كلنا يونانيون، إذ أن قوانيننا وآدابنا وديانتنا وفننا كلها تضرب بجذورها فى البلاد اليونان. ولولا بلاد اليونانية لبقينا على الوثنية والبداوة... لقد حقق الشكل الإنسانى الكمال فى بلاد اليونان التى أنطبعت صورها فى تلك الأشكال التى لا يشوبها عيب من المنتجات التى يشكل الفن الحديث اليائس شظاياها، كما أنها أطلقت النبضات التى لا يمكن أن تتوقف أبدا، عبر آلاف القنوات فى عملية هائلة أو طفيفة، هدفها

* جنس من الأجناس الجرمانية التى هاجرت إلى الجزر البريطانية أثناء عصر الغزوات الجرمانية، وقد اشتقت من إسمهم تسمية منطقتهم باسم بريطانيا. (المترجمة).

مساعدة الإنسان وإسعاده حتى زوال الجنس البشرى[٣٦]. وهكذا بدأ الهوس الهيلليني حقا وفعلاً.

وعلى الرغم من فصاحة شيللى العاطفية الحماسية وغرقه الدرامى عندما كان على وشك الذهاب إلى اليونان، فإن أشهر شاعر محب للإغريق فى العصر الرومانسى كان بيرون. ولم تكن مصادفة أنه كان اسكتلنديا: إذ أن القرن الثامن عشر قد ربط بين تلك البلاد والحركة الرومانسية على نحو مارأينا. وفى بواكير القرن التاسع عشر لم يتم توريط بيرون وحده ولكن تورط أيضاً السير والتر سكوت Sir Walter Scott، الداعية إلى إحياء العصور الوسطى، وإبتكار تراث قومى وهمى جفل منه سكوت نفسه[٣٧]. وعلى الرغم من السمة الغليظة الفظة لحركة الريجنسى Regency الاسكتلندية، فإن بيرون ربط بينها وبين بلاد الإغريق. وكان قد نادى باستقلال بلاد اليونان قبل انفجار الثورة بعقد من الزمان، وتتويجاً لذلك كله – وبدوافع مختلطة ولكنها رومانسية أساساً – انضم إلى الحرب لكى يلقى حتفه فى غمارها[٣٨].

وفى جميع أنحاء الغرب الأوربى كانت حرب الإستقلال اليونانية تعتبر صراعاً بين القوة الأوروبية الفتية والتدهور والفساد والقسوة الأفرو أسيوية:

"إن برابرة جنكيزخان وتيمورلنك بعثوا من جديد فى القرن التاسع عشر، وأعلنت الحرب حتى الموت ضد الديانة والحضارة الأوروبية[٣٩].

وحتى فى القرن الثامن عشر بدأ النظر إلى الحكم التركى فى اليونان باعتباره أمراً منافياً للطبيعة فقد جاء نتيجة قهر جنس أعلى بيد جنس أدنى. وسوف يبقى بالذاكرة أن كريستيان بونسن Christian Bunsen قد وضع "الطورانيين"* أو الأتراك بين الصينيين والمصريين فى سلمه التدرجى (الهيراركى) التاريخى للأجناس؛ وفى القرن التاسع عشر كان حكم هذا الجنس فى نظر المعاصرين مقضياً عليه بالفشل فى النهاية، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يؤدى إلى أى تقدم حضارى.

* "الشعوب الطورانية" تعبير يطلق على سكان الهضبة الإيرانية وتشمل مجموعة الشعوب الفارسية والإيرانية والتركية فى المنطقة الممتدة من إيران الحالية حتى وسط آسيا. (المترجمة).

وبنهاية القرن بات هذا المبدأ مطبقاً بانتظام فى مجال الدراسات التاريخية، وتعتبر مفاهيم حكم العرب والبربر فى أسبانيا مثالاً واضحاً على هذا التحول. فقبل سنة ١٨٦٠م كان الكتاب الإنجليز والأمريكيون الشماليون متعاطفين مع المسلمين Moors؛ * لأن الإسلام فى نظرهم كان أخف ضرراً من الكاثوليكية. وبغروب شمس القرن (التاسع عشر) كانت الإعتبارات العنصرية قد غلبت على الإعتبارات الدينية؛ ومن ثم اعتبر حكم العرب فى أسبانيا عقيماً ومُداناً طوال الثمانمائة عام التى ازدهر خلالها[٤٠].

وهكذا، كان لتكثيف المشاعر العنصرية فى أتون الحرب التحريرية اليونانية تأثير مباشر على النموذج القديم. وفى البداية كان ينظر إلى المصريين ثم الفينيقيين باعتبارهم أدنى "عنصرياً" أما الأساطير الإغريقية التى تحكى عن استعمارهم "لبلاد الإغريق المقدسة" فضلاً عن تمدينهم لها، فقد صارت غير مستساغة بل ومستحيلة أيضا. ومثلها مثل قصص السيرينات والكنتور، ثم حذفها لأنها معادية للقوانين البيولوجية والتاريخية وفق المفاهيم العلمية للقرن التاسع عشر. وقد تعاظمت الإعتراضات على هذه الصورة بفعل جانب آخر من جوانب التحول من التنوير إلى النزعة الرومانسية. وبما أن حركة التنوير قد ركزت على الثقافة والتقدم، لم يكن من لغو القول عن الإغريق أن تربط حضارتهم بالإستعمار المصرى والفينيقى. ومن ناحية أخرى، ركز الرومانسيون على الطبيعة والتمايز، والأسس القومية الدائمة، بحيث لم يعد مسموحاً بافتراض أن الإغريق كانوا أبداً أكثر بدائية من الأفريقيين والآسيويين.

الإغريق القذرون والدوريون

كان أصحاب نزعة حب الإغريق أكثر اهتماماً بالإغريق الكلاسيكيين من "أحفادهم" البطوليين وإن كانوا مسيحيين وقذرين، وهو ما حاول البعض أن يجد له مخرجاً بتفسير أنهم من "السلاف البيزنطيين[٤١]". وكان أصحاب نزعة حب الإغريق

* لفظ المور Moors استخدمه كتاب العصور الوسطى للدلالة على مُسلمى شمال إفريقيا الذين ساهموا بالنصيب الأكبر فى فتح الأندلس وحكمها. وقد صار مصطلحا تاريخيا دالاً على مسلمى تلك البقاع ومسلمى الأندلس فى كتابات بعض المؤرخين الغربيين حتى اليوم. (المترجمة).

يبحثون عن أصول بلاد الإغريق قبل أن تصطبغ بالفساد الشرقى، وبتأليههم – كما رأينا فى أعمال همبولتِ وشيللر – قصرت قامة الإغريق القدماء أنفسهم عن مطاولة المقاييس الراقية الجديدة. هذه المقاييس بدأت تسعى باطراد إلى نقاء ثقافى ولغوى ثم "عنصرى" فى نهاية المطاف. ومثل هذه النماذج المثلى وجدت مبكراً منذ سبعينيات القرن الثامن عشر على يد فريدريش شليجل فى "الإسبرطيون" أو التجمع القبلى الأكبر الذى كانوا ينتمون إليه، أى الدوريون. وقد وصفت إليزابيث راوسون **Elizabeth Rawson**، المؤرخة الحديثة لصورة اسبرطة، كتابة شليجل عنهم كما يلى:

"على أى حال، فمن البداية تستخدم لغة فينكلمان التذكرية عن الإغريق للدلالة على الدوريين؛ فهو يحدثنا عن "عظمتهم الصافية" **Milde Grossheit**، وهو ما يتناقض فعلاً مع الأيونيين الذين خضعوا للمؤثرات الشرقية بسهولة أكبر، لأنهم أى الدوريون، يشكلون الفرع الهيللينى الأقدم والأكثر نقاء وهيللينية والمسئول الأكبر عن هاتين الخاصيتين الأساسيتين من خواص الروح الهيللينية أى الموسيقى والألعاب الرياضية[٤٢].

لاحظ أن شليجل وكثيرين غيره من الكتاب المتأخرين قد أخذوا هذين الجانبين من الجوانب "الألمانية" للثقافة الإغريقية، بما يشوبهما من اللا منطقية واللا عقلانية، باعتبارهما الجانبين الأساسيين. ففى كتاب نيتشه "ميلاد التراجيديا"، الذى نشر سنة ١٨٧٢، يؤكد على العاطفة الديونيسية المتأججة فى التراجيدية والموسيقى على حساب أبوللو، وغالبا ما يُنظر إلى هذا الكتاب باعتباره طفرة بعيدة عن رؤية فنكلمان "لعظمة الإغريق الصافية". والحقيقة أنه ينتمى إلى التراث الألمانى الذى يرجع بأصوله إلى هاينه **Heine** فى أربعينيات القرن التاسع عشر، وإلى هينه **Heyne** والكاتب المسرحى فيلاند **Wieland** فى القرن الثامن عشر[٤٣].

وفى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين استمرت عقيدة الألمان فى الدوريين اللاكونيين، وربط أنفسهم بهم، تتصاعد حتى وصلت ذروتها فى الرايخ الثالث[٤٤]. وبنهاية القرن التاسع عشر تصور بعض الكتاب القوميين أن الدوريين آريون ذوو دماء نقية وفدوا من الشمال، وربما من ألمانيا، ومن المؤكد أنهم صوروهم فى صورة تقارب

الألمان من حيث دمائهم الآرية وشخصيتهم إلى حد كبير[٤٥].

هذه الحماسة لم تقتصر على الألمان. فقد كتب جون باجيل بيورى J.B.Bury في مؤلفه "تاريخ بلاد الإغريق"، الذى نشر للمرة الأولى سنة ١٩٠٠ م ويعتبر حتى الآن من الكتب الأساسية، يقول:

"استولى الدوريون على وادى يوروتاس Eurotas، وحافظوا على نقاء أصلهم الدورى بعيدا عن الاختلاط بدم غريب، وأخضعوا كافة السكان فصاروا رعاياهم... إن الميزة البارزة التى ميزت الدوريين... هى مانطلق عليه "الشخصية". وفى لاكونيا Lakonia ظهرت هذه الميزة بشكل كامل وطورت نفسها، إذ يبدو فى هذا المقام أن الدوريين قد ظلوا دوريين إلى أبعد مدى"[٤٦].

من المثير أن نلاحظ أن بيورى – مثل كثيرين من الكلاسيكيين البريطانيين البارزين عند منعطف القرن التاسع عشر، بما فيهم جون بنتلاند ماهافى John Mahaffy Pentland ووليم ريدجواى William Ridgeway – قد جاءوا من أصول بروتسانتية فى أيرلندا. وكان الرجال الثلاثة متحمسين للدم الشمالى – وربما الألمانى – النقى للدوريين. وهكذا، وبعيدا عن المشاركة فى النزعة العنصرية العامة التى دمغت تلك الفترة، يبدو واضحاً أنهم رأوا تشابها بين العلاقة التيوتونية الإنجليزية مع الأيرلنديين، الذين اعتبروهم "أوربيين هامشيين" والعلاقة بين الدوريين والشعوب الخاضعة لهم مثل البلاسجيين الوطنيين والعبيد Helots[٤٧]. كان ريدجواى عنصريا صارماً، وعلى الرغم من أن عائلته عاشت فى أيرلندا على مدى مائتى سنة، كان يفاخر بأنه "لاتوجد نقطة دم أيرلندية واحدة تجرى فى عروقه"[٤٨]. وهكذا فإنه بحلول سنة ١٩٠٠م كان يُنظر إلى الإسبرطيين – الإغريق الحقيقيين – باعتبارهم أنقياء عنصريا وشماليين إلى حد ما. ولم يكن الموقف على هذا القدر من التطرف فى مطلع القرن التاسع عشر، بيد أن الضغوط كانت متصاعدة.

شخصيات إنتقالية (١) هيجل وماركس

وثمة متطلب ضرورى لفحص الهجوم الشامل على "النموذج القديم" فى عشرينيات القرن

التاسع عشر يتمثل فى النظر إلى المفكرين الذين عجلوا بهذه التغيرات. ولكـى أقوم بهـذا العمـل كان علىّ أن اتخـذ ثلاثـة أمثلـة: هيجـل ومـاركس، وهـيرين A.H.L.Heeren وبـارتولد نيبـور Bartold Niebuhr.

ولـد هيجــل سـنة ١٧٧٠م، ووصــل إلى ذروة قوتــه وتأثـيره فـى عشـرينيات القـرن التاسع عشـر، بيـد أن علمـاء الفيلولوجيـا لم يتقبلـوه وتمكنـوا بفضـل نفوذهــم أن يبعـدوه عـن الجامعـة البروسـية لسـنوات عديـدة. ومـع هـذا فإنـه كـان فـى مركـز القلـب بالنسـبة للفلسـفة الألمانيـة آنـذاك، فضـلاً عـن أنـه كـان صـاحب تأثير طـاغ على المؤرخين الرومانسـيين[٤٩]. ولا شـك فـى أن هيجـل كـان مثـالاً علـى عصـره، إذ أحـب أوروبـا، أو المنطقـة المعتدلـة علـى حـد تعبـيره، واحـترم الجبـال الآسـيوية والهنـد؛ وكـان يكـره الإسـلام ويحتقـر إفريقيـا تمامـا[٥٠]. وخـط السـير الـذى وضعـه لـروح العـالم World Spirit ، متصـوراً أنـه يمضـى مـن الشـرق صوب الغرب، أضطـره إلى الزعـم بـأن مصـر التى تتوغـل غربـاً أكـثر مـن الهنـد الواقعـة شـرقاً، أشد منهـا تقدمـا[٥١].

وتتجلـى مشـاعر هيجـل الحقيقيـة فى كتابـه "محـاضرات فـى تـاريخ الفلسـفة" الـذى نشـر بـين عـامى ١٨١٦-١٨٣٠م. ففـى هـذه المحـاضرات كتـب بـالتفصيل عـن الفكـر الصينـى والهنـدى، ولكنـه لم يتطـرق إلى الفكـر المصـرى سـوى عندمـا تنـاول أصـول الفلسـفة اليونانيــة[٥٢].

"وهكـذا جلـب فيثـاغورس فكـرة نظامــه الريـاضى مـن مصـر بـدون شـك، وكـانت مصـر مجتمعـاً منتظمـاً جمعتـه أهـداف الثقافـة العلميـة والأخلاقيـة... وكـانت مصـر فـى ذلـك الوقـت تعتـبر بلـدا ذا ثقافـة عاليـة، وكـانت كذلـك إذا مـا قورنـت بـبلاد اليونـان؛ ويتجلـى هـذا واضحـاً حتـى فـى الإختلافـات بـين الطوائـف والطبقـات الاجتماعيـة التى تشـى بـأن ثمـة تقسـيماً بـين فـروع الحيـاة والعمـل الكـبرى كـان قائمـاً؛ مثـل الصنـاعى والعلمـى والدينـى. بيـد أننـا لسـنا بحاجـة للبحـث عـن معرفـة علميـة لـدى المصريين فيمـا وراء ذلـك، ولا أن نظـن أن فيثـاغورس تلقـى العلـم هنـاك. ولا يقـول أرسـطو (Metaph.I) سـوى عبـارة "بـدأت العلـوم الرياضيـة لأول مـرة فـى مصـر، لأن جماعـة الكهنـة هنـاك كـان لديهـم وقـت فـراغ"[٥٣].

وكتب هيجل في موضع آخر:

"يمس اسم بلاد اليونان الوتر الحساس في قلوب الرجال المتعلمين في أوروبا، ويصدق هذا علينا نحن الألمان بصفة خاصة... ومن المؤكد أنهم (الإغريق) تقبلوا البدايات الأساسية التي قامت عليها حضارتهم وديانتهم... من آسيا وسوريا ومصر، ولكنهم استأصلوا الطبيعة الأجنبية لهذه البدايات بصورة عظيمة للغاية، بحيث تغيرت بشكل كبير جدا، وواصلت العمل، ثم تحورت وتغيرت لتظهر في شكل مختلف تماماً، لدرجة أن حضارتهم التي اعتزوا بها، مثلنا، وعرفوها وأحبوها كانت من صنعهم"(٥٤).

وهكذا، فإن هيجل اعترف بالاستعارات الحضارية الكبيرة، جرياً على تقاليد جاءت في Epinomis (التي سبقت الإشارة إليها)، ولكنه جادل بأن الإغريق غيروا هذه الاستعارات تغييرا كيفياً(٥٥).

وما طرحه هيجل عن أن الشرق كان يمثل طفولة البشرية وأن بلاد اليونان كانت تمثل فترة المراهقة يتشابه كثيراً، بطبيعة الحال، مع آراء كارل ماركس(٥٦). إذ قال ماركس إنه في بلاد اليونان وحدها قطع الفرد الحبل السرى الذى يربطه بالجماعة، وتحول من كائن حي إلى حيوان سياسي. ومع حبه الذى لازمه طوال حياته لبلاد اليونان، تقبل تماماً الرأى السائد بأنه في كل جانب من جوانب الحضارة اليونانية كانت بلاد اليونان مختلفة عن – ومتفوقة على – كل ما سبق(٥٧). ومع هذا فإن ماركس تعدى ذلك لكي يزعم – بنفس وضوح موقف شيللي – أن بلاد اليونان تسامت فوق المنحدرين من سلالتهما من الأجيال الجديدة. مثل هذا الزعم تسبب آنذاك في مشكلة، لأنه بهذا جعل بلاد الإغريق تمضي عكس مجرى التقدم. وفي محاولة لمعالجة ذلك كتب ماركس في المقدمة التي وضعها لموجز كتابه رأس المال":

"فيما يتعلق بالفنون، من المعروف تماماً أن بعض فترات معينة شهدت إزدهارها لا تحسب ضمن التطور العام للمجتمع، ومن ثم لا تحسب أيضاً ضمن الأسس المادية... فعلى سبيل المثال يقارن الإغريق بالمحدثين أو بشكسبير أيضاً".

ومع ذلك فإن رأى التناقض الظاهرى بأن "في بنيتهم الكلاسيكية التي غيرت

مجرى العالم... هناك بعض الأشكال... من الفنون لا يمكن وجودها سوى فى مرحلة نامية من مراحل التطور الفنى".

وزاد ماركس على ذلك بافتراض أن الأساطير تستحيل وجوداً إذا ما خضعت للحقيقة، مثلما هو الحال فى إنتصارات الصناعة الرأسمالية. وعلى أية حال، فإنه تشبث بأن الأساطير لا يمكن أن تظهر سوى فى مجتمع محدد بأشكاله الاجتماعية المتمايزة:

"إن الفن الإغريقى يفترض سلفاً وجود الأساطير الإغريقية بمعنى أن الطبيعة والأشكال الاجتماعية عملاً سويا بطريقة فنية لا واعية من خلال الخيال الشعبى. تلك هى مادته. ليست أى أساطير أياً كانت؛ بمعنى أنه ليس اختياراً عشوائيا ناجماً عن فعل الطبيعة اللاواعى... إذ لم يكن ممكنا على الإطلاق أن تكون الأساطير المصرية هى الأساس أو الرحم الذى ولد منه الفن الإغريقى"(٥٨).

إن تفسيرى لهذه الفقرة الغامضة، بقدر ما يتحمل موضوعنا فى هذا الكتاب، هو أنه حتى خمسينيات القرن التاسع عشر عندما كتب ماركس "رأس المال"، كان مدركاً تماماً أن المثال القديم يتحتم عليه مواجهة أن الأساطير الإغريقية - والفن بالتالى - لم يأت من صلات الإغريق الاجتماعية وإنما من مصر. ومن المؤكد أن قبوله لهذا يجعل من مشروعه محض هراء(٥٩). كما أنه كان يعيش فى عصر كان كل فرد فيه يشعر فى أعماقه أن بلاد الإغريق كانت تصنف باعتبارها منفصلة عن مصر وأرقى منها. وهكذا فإن تحطيم النموذج القديم كان يوفر لجيله حرية لم تكن متاحة لهيجل فى هذه المسألة. لقد كان بوسع ماركس أن ينكر التأثير المصرى على بلاد اليونان دون مواربة.

شخصيات إنتقالية (٢) هيرين:

ولد هيرين Heeren سنة ١٧٦٠، أى قبل هيجل بعشر سنوات، ولكنه عمّر بعده بإحدى عشرة سنة إذ مات سنة ١٨٤٢م. وكان هيرين زوج إبنة هاينه، كما كان أستاذاً متميزا للتاريخ فى جوتنجن فى عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر. وكانت دراسته التى تركزت على التطورات الإقتصادية والتكنولوجية شاملة بحسب المقاييس المطبقة فى جوتنجن. وكان هيرين، مثل حميه هاينه وزوج أخته جورج فورستر

George Forster، مولعاً باستكشافات القرن الثامن عشر، وقد ربط في أكبر مؤلفاته الذى يحمل عنوان "تأملات في سياسات، وتفاعلات وتجارة الأمم العظمى في العالم القديم"، بين الإستكشافات التى تمت في إفريقيا والشرق الأدنى وبين الكتابات القديمة حول نفس الموضوع. وأكدت النتائج التى توصل إليها على أهمية كل من قرطاجة وأثيوبيا ومصر، وبشكل تبريرى إلى حد ما بسبب إعجابه الشديد ببلاد اليونان، وجد نفسه مضطراً إلى الحفاظ على النموذج القديم لكى يفسر التشابهات الواضحة التى رآها بين تلك الثقافات وثقافة بلاد الإغريق(٦٠).

ولم يلق هيرين معاملة طيبة من معاصريه الذين مارسوا نفوذهم على الأجيال الصاعدة، إذ اعتبره همبولت "رجلاً كئيبا إلى حد ما"، والسبب الأول في كونه معروفا اليوم يرجع إلى الصورة الكاريكاتورية القاسية التى رسمها له الشاعر هنريش هاين في كتابه "صور الترحال"(٦١). لقد عاقب الرومانسيون هيرين لا لأنه اختار الموضوع فحسب، وإنما لأنه تمسك أيضاً بالنموذج القديم لمدة أطول مما يجب، وهو الآن لا يجد له قراء سوى المؤرخين السود(٦٢).

شخصيات إنتقالية (٣) بارتولد نيبور

فاقت شهرة نيبور شهرة هيرين بكثير. إذ أنه عرف عموماً، وحقاً، بأنه مؤسس الدراسة الحديثة للتاريخ القديم. بيد أن المدهش، من وجهة نظر هذا الكتاب، أنه ظل داخل إطار النموذج القديم. إننى أتناول نيبور بشئ من التفصيل لأنه كان يمثل التفكير الألمانى المتقدم في نهاية القرن الثامن عشر، وبسبب تأثيره الهائل على فهم القرن التاسع عشر التاريخ القديم "والمنهج" التاريخى الصحيح. ومن خلاله يمكننا أن نتحقق إلى أى مدى كان (التاريخ والمنهج) غارقين في الرومانسية والعنصرية.

وعلى أى حال، فإننى وضعت نيبور أيضاً ضمن الشخصيات الإنتقالية، لأنه على الرغم من تقديمه المساعدة الضخمة للقوى الفكرية والأيديولوجية التى أطاحت بالنموذج القديم، كان هو نفسه ما يزال محافظاً عليه حتى نهاية حياته. ومن المحتمل أنه فعل ذلك بوازع من نزعته المحافظة الصارمة، أو لأسباب تتعلق بالمنافسة الشخصية أو

المهنية. وتطرح طريقته شديدة الإقناع التى دافع بها عن النموذج القديم، أسباباً أخرى غير ذلك على كل حال.

إن بارتولد نيبور المولود عام ١٧٧٦م يستند إلى خلفية تيوتونية واسعة، إذ كانت عائلته من الفريزيين Frisians *ذوى الثقافة الألمانية وأقامت فى هولشتين Holstein، ثم فى الدانمرك. وكان أبوه كارستن نيبور رحالة مشهوراً استخدمه البلاط الدانمركى وجوتنجن. وكان يحب الإنجليز أيضاً؛ إذ كانت الإنجليزية اللغة الأجنبية الأولى لابنه. كما درس بارتولد فى انجلترا وكان هو الوحيد الذى تلقى دراسته هناك من أبناء جيله تقريبا. وشجع كارستن نيبور ابنه على قراءة اللاتينية واليونانية إلى جانب العربية والفارسية. وهكذا حصل برتولد على قاعدة دراسية واسعة غير عادية، وعايش مجموعة من الجيران المثقفين مثل عالم الهوميروسيات فوس Voss والشاعر الرومانسى بوى M.C.Boie وكلاهما من خريجى جوتنجن(٦٣).

وكان بارتولد على إتصال بالمراسلة مع هاينه، وكان كلاهما يرغب فى الدراسة بجوتنجن. إلا أن كارستن نيبور فضّل أن يرسل نيبور إلى جامعة كييل Kiel التى كانت دانمركية آنذاك؛ إذ أنها كانت الباب المحتمل للوظائف العليا فى الدانمرك. ومن كييل ذهب لمدة سنة إلى إدينبرج؛ ثم أمضى ست سنوات فى كوبنهاجن موظفاً مدنياً ناجحاً للغاية ومتخصصاً فى المالية وواصل دراسته مع التركيز على التاريخ الرومانى. وفى سنة ١٨٠٦ التحق بالحكومة البروسية وهى فى أدنى درك لها، وعمل على تنفيذ الإصلاحات التى ساعدت الملكية على البقاء. وهنا أيضاً كان لديه الوقت للدراسة والبحث وفى سنة ١٨١٠-١٨١١م كتب مؤلفه تاريخ روما، الذى لم يلبث أن حاز الاعتراف بأنه أساس الدراسة الحديثة "والعلمية" للتاريخ القديم. ثم أرسل مبعوثا لبروسيا فى روما حيث ظل حتى عام ١٨٢٣. بعد ذلك ذهب نيبور إلى بون فيما يشبه الإعتزال وعلى الرغم من أنه كان مايزال يهتم بالسياسة كثيراً، فإنه كرس غالب وقته

* شعب من الشعوب الجرمانية التى وفدت من اسكندنافيا لتغزو بقية أوروبا فيما بين القرن الخامس والقرن السابع للميلاد، وقد استقر أغلبهم فى هولندا الحالية ومنحوا إسمهم للإقليم الذى يعرف باسم فريزيا.

للبحث والدراسة حتى مات فى بداية سنة ١٨٣١ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين.

كان نيبور فى الأساس مؤرخاً لروما. وقد كشف عن سبب هذا الاهتمام المؤرخ العارف زفى يافيتز Zvi Yavetz، الذى يشير إلى أن الصورة التى رسمتها المؤرخة الأديبة الآنسة بتلر Miss E.M.Butler فى بداية القرن العشرين فى كتابها الرائع "طغيان بلاد اليونان على ألمانيا"، تحتاج إلى قدر من الخصائص التى تحسنها. وعلى الرغم من أن يافيتز يعترف بأنه كان هناك ارتباط خاص ببلاد اليونان استمر فترة طويلة، وأنها استحوذت تماماً على الألمان فى نهاية القرن الثامن عشر، فإن المؤرخين الألمان، محافظين وليبراليين، قد ركزوا على روما - على فترة صعودها فقط لا على سقوطها - لأنهم شبهوها ببروسيا(٦٤). ذلك كان نيبور يهتم عاطفيا ببلاد اليونان.

ويستحق موقف نيبور الأيديولوجى العام أن نتوقف أمامه بعض الوقت. والعالم الفنلندى ريتكونن Seppo Rytkönen يصف نيبور بأنه "رجل وجد طريقة بين التنوير والتجديد". ومع ذلك كان تعريف ريتكونن "للتنوير" فضفاضاً بحيث يشمل مونتسكيو وبورك Burke. فضلاً عن موسير Möser الألمانى المحافظ(٦٥). على حين كان تصوره "للتجديد" ضيقاً نسبياً ويبدو هذا التصور مقيداً فى إطار العبثيات الشاعرية الآرية فى هيدلبرج، بحيث يستبعد تراث جوتنجن الأكثر ثباتاً الذى كان من الواضح تماماً أن نيبور ينتمى إليه.

والأستاذ العظيم المتخصص فى الكلاسيكيات موميجليانو Momigliano، الذى يسمو فوق تاريخ الدراسات الكلاسيكية، شغوف دوما بأن ينأى بدراسته عن الرومانسية والوطنية الألمانية. ويزعم أن الأسس التى يقوم عليها تفكير نيبور جاءت من الإقتصاديين الإنجليز، وليس حتى من البريطانيين(٦٦). ويستشهد موميجليانو بليبر F.Lieber حامى نيبور بحقيقة أن نيبور أخبره أن معظم أصدقائه البريطانيين كانوا من الهويج* whigs وأنهم أنقذوا انجلترا سنة ١٦٨٨م(٦٧). ولأن معظم أصدقاء برتولد

---

* الهويج Whigs أعضاء الحزب الذى كان يهدف بعد ثورة ١٨٦٦م فى انجلترا إلى تقليل سلطة التاج وإخضاعها للبرلمان والطبقات العليا. (الترجمة).

نيبور في بريطانيا كانوا من شركة الهند الشرقية* الذين كانوا على صلة بأبيه كارستن، ومن ثم فإن مذهبهم السياسي لا يثير الدهشة.

وفضلاً عن ذلك، كانت ثورة ١٦٨٨م الجيدة بالنسبة لنيبور هي النموذج الأمثل للتغيير السياسي بأقل قدر من الفوضى. إذ أنه كان يؤمن في شبابه بأن هذا النمط من الأحداث لا يمكن أن يحدث سوى بين الأجناس الشمالية الراقية. ومع ذلك، فإنه عندما وصل إلى منتصف العمر فقد الأمل حتى في هذه الأجناس. وقد وصفت فرنسيس بونسن Frances Bunsen، التي عرفت فيما بعد باسم كريستيان بارون بونسن، والتي عرفت نيبور معرفة وثيقة، وصفته بأنه من أكثر الرجعيين تشددا وبأنه محافظ متزمت. كما ذكرت أنه كان يميل بشكل عام إلى الثقة في الحكومة أكثر من ثقته في المحكومين[٦٨]. وقد تصرف نيبور وفقا لهذه المبادئ، وتجلى إحتقاره للإيطاليين الجنوبيين "Polcinellos" عندما ذهب يؤدى واجبه موظفا بروسيا لمساعدة النمساويين في سحق تمرد الكاربونارى Carbonari في نابولى سنة ١٨٢١م[٦٩]. ويبدو أيضاً أن موته المبكر، قد عجّل بحدوثه إن لم يكن تسبب فيه، الرعب الذى تملكه من جراء الثورة الفرنسية والبلجيكية سنة ١٨٣٠م[٧٠]. ومن ثم، فلا شك في أن نيبور، بعد عام ١٨١٧، كان رجعيا حتى بمقاييس عصر الثورة المضادة وهو ماترك أثره على كتاباته التاريخية في الفترة المتأخرة.

ولكن، هل يعنى هذا أنه كان محافظاً عن وعي سنة ١٨١١م عندما ألف كتابه "التاريخ" للمرة الأولى؟ يعتقد ريتكونن أن إيديولوجيته بدت أشد محافظة مما كانت عليه فعلا، على حين يشير الأستاذ موجليانو إلى ميول نيبور الديموقراطية الباكرة وتأييده لتحرير العبيد في الدانمرك وبروسيا[٧١]. وفي الحقيقة، كان تعاطف نيبور مع الثورة الفرنسية ضحلاً للغاية كما كان قصيرة المدى في وقت كان شائعاً فيه مثل هذا التعاطف[٧٢]. والواقع أن الفكرة القائلة بأن أفكاره المحافظة كانت أساسية قويت من خلال حقيقة أنها كانت نفس أفكار أبيه. إذ كان كارستن نيبور يكره الفرنسيين دوما

---

* كانت شركة الهند الشرقية هي طليعة الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية، كما كانت الأساس الذى قام عليه النشاط الإستعمارى في المحيط الهندى. (المترجمة).

مثلما كان يكره الاضطرابات السياسية من أى نوع. وأفزعه أن يجتمع الإثنان. ولأنه جاء من أصل ريفى تعاطف كارستن مع الريفيين من أبناء موطنه ديمارش Dithmarch وهو تعاطف كان يتماشى مع النزعة الرومانسية فى تلك الأيام. وزادت مشاعر التعاطف هذه قوة فى نفس بارتولد على يد بوى صديق أبيه الذى جمع بين النشاط فى الأوساط الشعرية والتأييد الحماسى للحرية الألمانية الأصيلة ومعارضة حركة التنوير الفرنسية(٧٣).

وفى رأى موجليانو أن أفكار نيبور تحتوى على "مزيج من الاتجاهات المحافظة والليبرالية، وهو الأمر الذى لم يكن معتاداً على الإطلاق فى القارة الأوروبية"، وفى رأيه أن ذلك "نتاج لتجربته البريطانية"(٧٤). ومع ذلك فإن هذه الأفكار تبدو مشابهة لأفكار أبيه ومجموعته، كما كانت مغرقة فى الرومانسية. ويبدو أن نيبور فى فترة شبابه لم يكن يؤمن فحسب بأن الفلاحين الشماليين جديرون بالحرية التقليدية الحقيقية، بل كان يؤمن أيضاً بأنهم يمكن أن يكونوا خط دفاع ضد القوى الثورية والكاثوليكية(٧٥). هذا المزيج من الأفكار وجد فى بريطانيا، بيد أنه كان ألمانيا واسكندنافيا؛ ومن ثم فما من سبب يدعو إلى معارضة التيار التاريخى الرئيسى الذى يصف نيبور بأنه رومانسى ومحافظ فى آن واحد(٧٦).

لم يحدث أبداً أن قارن أحد بيْن نيبور وآدم سميث أو بنتام أو جيمس ميل. وكان بورك Burke البريطانى هو الوحيد الذى التفت إليه، فعندما كتب مقدمة الطبعة الثالثة لكتابه "تاريخ روما" ذكر فيها مانصه: "ليست هناك قاعدة واحدة من قواعد الحكم السياسى فى هذا الكتاب يمكن أن توجد عند مونتسكيو أو بورك"(٧٧). لقد تقبل جميع الكتاب – فيما عدا موجليانو – فكرة التشابه الوثيق بين نيبور وبورك، من بارونيس بونسن والألمانى القومى المحافظ هنريخ فون ترتيسكى فى أواخر القرن التاسع عشر، وصولاً إلى المؤرخين المعاصرين فيت Witte وبردنتال Bridenthal. وهكذا يجادل موجليانو بأن نيبور ذهب إلى إيدنبرج لأنها كانت، على عكس لندن، بها جامعة، وهو مايدل على روح نيبور المستنيرة. وربما يكون هذا السبب العملى قد لعب دوراً فى قراره، بيد أن نيبور أخبر صديقاً له أنه سوف يذهب إلى اسكتلنده لكى يتعلم لغة

الأوشيان Ossian[٧٨].

وعلى الرغم من أن نيبور كان رومانسياً راسخاً، ومحافظاً داعياً للإصلاح حتى سنة ١٨١٠م تقريباً، فإنه كان يدعو للإصلاح لإنقاذ الدانمرك وبروسيا من الثورة (وينبغي النظر إلى تأييده لإلغاء الرق في هذا السياق)، وبسبب أفكاره هذه هاجمه الرجعيون الذين انضم إليهم فيما بعد[٧٩]. فقد زعم ريدكونن، مثلا، أن نيبور ارتبط بحركة التنوير بسبب افتقاره إلى النسبية التاريخية واعتقاده بعدم تاريخية الطبيعة الإنسانية، وعلى الرغم من ذلك فإنه يرى في مواضع أخرى أن نيبور كان ينطلق من مفهوم للتطور الرومانسي، ولكن النزعة التقليدية Traditionalismus ألقت عليه بظلالها فيما بعد، وهو "موقف" جد مختلف عن النظام العقلاني السائد الذى كانت حركة التنوير تتوق إليه[٨٠].

وفضلاً عن ذلك كانت مقارنات نيبور الثقافية تتم في نطاق حدود صارمة. ومقارنته المركزية التي عقدها بين روما وديمارش موطنه الأصلي لم تصبح ممكنة سوى لأنه تصور أن كلا الشعبين يتمتعان بالنقاء العنصرى وكانا من نتاج البيئة. وهو هنا أيضاً كان يسير وفقاً للتيار العام للحركة الرومانسية. ولم يتقبل مذهب الكلية الكونية Universalism في أى مرحلة، كما أنه لم يقبل وحدانية الله، أو فكرة الإلحاد أو الإيمان بالعقل حسبما رأت حركة التنوير، ناهيك عن فكرة الحرية والمساواة والإخاء التى نادت بها الثورة الفرنسية. فضلاً عن أن التطوير الذى قام به نيبور في الحركة الرومانسية لم يبق رهين قيود تاريخه. وكما ذكرنا في الفصل الخامس، كان رئيساً للجماعة الألمانية في روما التى كانت مهد الحركة الرومانسية الجديدة[٨١].

كيف أثرت نزعة نيبور المحافظة ورومانسيته في كتابته التاريخ؟ بداية كان، مثل همبولت، يرى أن دراسة التاريخ القديم عموما – وكان مايزال يسميها الفيلولوجيا – هي وسيلة إعداد "التكوين التعليمي" Bildung، وهي بذلك وسيلة إرتقاء الأمة[٨٢]. لقد كان منهجه هو منهج نقاد جوتنجن الذى هو "مزيج بين النقد العقلاني والتجديد الخيالي إعتماداً على تحليل النص والمشابهات والحدس العلمي"[٨٣]. أو على حد وصف دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الحادية عشرة، في أفضل مقالة كتبت عنه: "لقد جاء

بالاستدلال لكى يوفر مكاناً للتراث المشكوك فيه، وأظهر إمكانية الكتابة..."[84]. ولكن كيف كان ذلك التراث محل شك ؟ هذا مالم يتم إيضاحه، بيد أنه من الواضح أن أقل ما كان يمكن الإعتماد عليه من الكتابات كانت تلك التى كسرت قوانين العلم فى مطلع القرن التاسع عشر بما فيها فرعها العنصرى. هذا الجانب من منهج نيبور يرتبط بالنقطة الحرجة، التى أثارها موميليانو، ومؤداها أن نيبور كان أول من تحدى المؤرخين القدامى الكبار فى عقر دارهم. إذ أن جيبون نفسه بدأ من حيث أنتهى تاكيتوس، ولكن نيبور كتب عن روما القديمة التى غطاها ليفيوس وآخرون بشكل جيد[85].

وقد أخذ نيبور آراء همبولت على أنها مجرد استنتاج وخيال فيما بعد، ونقل عنه المؤرخ الجهبذ جوش G.P.Gooch ، الذى عاش فى بدايات القرن العشرين، قوله: "إننى مؤرخ لأننى أستطيع أن أرسم صورة كاملة من قطع متفرقة، وحالما عرفت أن هناك بعض الأجزاء المفقودة، وكيف أعوضها، إذ لا يعتقد أحد مدى ما يمكن استعادته مما يبدو مفقوداً"[86]. وعلى الرغم من أن اعتراف نيبور تمت صياغته فى مصطلحات وضعية، فإنه اعتراف صادق يصدق على كل المؤرخين. وحتى لو كان الأمر كذلك، يصعب على المرء أن يدعى أن نيبور، مع احتواء منهجه على قدر كبير من الموضوعية، كان أول مؤرخ "علمى"، ولا أن يزعم، قطعاً، بأنه قد رفع علمه إلى مستوى أعلى فوق أولئك المؤرخين غير العلميين من أمثال هيرودوتوس وثوكيديديس وسيماقيان Sima Qian وتاكيتوس وابن خلدون وفولتير وجيبون. إذ أن هؤلاء جميعاً قد كتبوا بطريقة واضحة على الأقل.

فما هى إسهامات نيبور بالتحديد ؟ ففى ذلك الوقت، وحتى الآن، تتجلى أفضل جوانب عمله فى أنه – حسب رأى ريتكونن وموميليانو – افترض أن التاريخ الرومانى قد أخذ من أغانى أو أشعار ملحمية مفقودة. ووفقا لما أوضحه كتاب كثيرون تبدو فكرة نيبور مشتقة من الإعتقاد الرومانسى بمركزية الأغنية الشعبية فى أصول الشعوب[87]. وبعد أن طرح الأستاذ موميليانو رأيه بأن نيبور كان فى الأساس من نتاج حركة التنوير الاسكتلندية، لم يكن مدهشاً أن يقلل موميليانو من أهمية الأغانى. وكان أهم تجديد فى مؤلفات نيبور بالنسبة له فى الموضوع الثانى: أى طبيعة قانون الأرض الرومانى الباكر

والحقل العام Ager Publicus. وبرهن على أن نيبوركون أفكاره هذه من معلوماته عن الهند التى استقاها من أصدقاء أبيه الاسكتلنديين(٨٨). وعلى أى حال، يعترف موميليانو بأن دافع نيبور إلى دراسة هذا الموضوع ما رآه من سوء معاملة الثوريين الفرنسيين للرومان الأصليين فى قانون إصلاح الأرض على الرغم من اعتداله. أو على حد تعبير نيبور نفسه عندما كتب يفند "الشعور المجنون الكريه الذى نغتته عصابة إجرامية فى القانون الزراعى"(٨٩).

كانت روما بالنسبة لنيبور، شأنها شأن بريطانيا، نموذجاً يكشف كيف يمكن للصراعات الداخلية أن تحل بطريقة تدريجية ودستورية. وفى محاولته لتطوير هذه الفكرة طرح نظريته الثالثة والكبرى القائلة بأن النبلاء والعامة لا ينتمون إلى طبقات مختلفة فقط وإنما ينتمون أيضاً إلى أجناس مختلفة، وهو ما طبقه نيبور أيضاً على حالات أخرى، وقد استخدمت هذه النظرية قبل ذلك فى فرنسا حيث ساد الإعتقاد بأن النبلاء كانوا من سلالة الفرنجة الجرمان، على حين كانت الطبقة الثالثة من الغالو رومان*، وهى الطبقة التى لعبت دوراً فعالاً فى تطور ثورتى ١٧٨٩م و ١٨٣٠م. وثمة نموذج أثر أيضاً فى نيبور، هو نظام الطوائف الهندى الذى نتج عن الغزو الآرى على ما يفترضون، وكان محاولة للحفاظ على النقاء العنصرى للغزاة.

وعلى أى حال كان نيبور هو الذى أضفى الطابع الأكاديمى على هذه النظرية، وحسب له أنه هو الذى طرحها. وقد وجه المؤرخ الفرنسى الرومانسى الكبير ميشيليه Michelet التهنئة إلى نيبور على اكتشافه الأساسى العنصرى للتاريخ مبكراً فى سنة ١٨١١م(٩٠). وكانت تلك أيضاً هى الرسالة التى أخذها عن نيبور تلميذه الإنجليزى دكتور أرنولد، رئيس الرجبى Rugby الشهير(٩١). وعلى الرغم من الشكوك حول الأغانى الشعبية والحقل العام، والأصول العرقية للطبقات الرومانية ونظرية أخرى عن الأصول الشمالية للأتروسكيين، فإن المحرر المجهول للمقالة المخصصة عن نيبور فى طبعة

---

* أى كانوا مزيجا من عناصر الغال، سكان فرنسا الأصليين، والعناصر الرومانية قبل أن تستوطن قبائل الفرنجة الساليين – إحدى القبائل الجرمانية – فرنسا فى خضم حركة الغزوات الجرمانية فيما بين القرنين الخامس والسابع للميلاد. (المترجمة).

١٩١١م من دائرة المعارف البريطانية كتب يقول:

"إذا كان كل استنتاج إيجابى بشأن نيبور قد تم تفنيده، فإن زعمه بأنه أول من تناول التاريخ الرومانى بروح علمية سوف يبقى دون مساس، كما أن المبادئ الجديدة التى أدخلها على البحث التاريخى ستبقى كما هى ولن تفقد شيئاً من أهميتها".

وأحد هذه المبادئ "الجديدة" هو مبدأ الوضعية الرومانسية الذى طرحه وناصرته جامعة جوتنجن، وهو يعنى بدارسة الشعوب ومؤسساتها بدلاً من الأفراد. ومع ذلك كان نيبور محل الإعجاب لأنه أكد على دور العنصر أو العرق فى التاريخ.

"إذ أنه بتقديمه أوجه الإختلاف بين النبلاء والعامة باعتبارها نابعة من اختلافات أصلية فى العرق والجنس لفت الإنتباه إلى أهمية الإختلافات العرقية وأسهم فى إحياء هذه العوامل التفريعية فى التاريخ الحديث".

وبالإضافة إلى ذلك كان نيبور مدركاً لأهمية النقاء العرقى والعنصرى:

"ويبدو من مجرى تاريخ العالم أن الغزو والاختلاط المقصود قد صهر أصولاً عرقية عديدة سويا... وقلما يخرج أى شعب بعينه فائزاً من هذا الاختلاط. إن البعض يتحمل الخسارة الجسيمة الناجمة عن خسارة حضارة قومية نبيلة، والعلم والأدب المرتبطين بهما. بل أنه حتى الشعب الأدنى ثقافيا قد لا يجد هذه التنقية العرقية المستوردة التى تعوض خسارته عن شخصيته الأصلية وتاريخه القومى، فضلاً عن قوانينه المتوارثة[٩٢]".

ولا محل للدهشة، إذن، أن المؤرخ القديم أولريخ فيلكن **Ulrich Wilcken** – الذى ذاع صيته تحت حكم النازيين – كان قادراً على أن يهلل لنيبور باعتباره "مؤسس علم التاريخ العرقى"[٩٣]. وقد وصف نيبور، وهو مايزال فى الثامنة عشرة من عمره، فى خطاب إلى والديه سنة ١٧٩٤م النتائج الضارة للاختلاط العنصرى، ولا شك فى أن هذه العنصرية الرومانسية كانت قائمة على أساس ما اعتبره فروقا مادية وعنصرية أساسية. وفى تلك المرحلة، على الأقل، كان يؤمن بفكرة البوليجينيا **Polygeny** (أى تعدد الأجناس البشرية وترتيبها وفقاً لأجدادها العليا بشكل مستقل):

"إننى أصر على أننا ينبغى أن نستخدم بحرص شديد الفروق بين اللغات كما هى

مطبقة في نظرية الأجناس وأن نولي اعتباراً أكبر للتوافق الجسماني... فالجنس هو أحد أهم العناصر في التاريخ التي مانزال بحاجة إلى الفحص - إذ أنه، في الحقيقة، هو الأساس الأول الذى يقوم عليه التاريخ والمبدأ الأول الذى يجب أن يمضي على أساسه(٩٤).

ويبدو أن تفضيل نيبور العنصرية الجسدية على اللغوية قد جاءه من أفكار والده، ومن أفكار البريطانيين فى الشرق عن طريقه. إننى أضعه وراء همبولت والتراث الذى تمسكت فيه فيما بعد بونسن سكرتيرة نيبور، وعالم الساميات والمؤرخ الفرنسى إرنست رينان Ernest Renan وهو التراث الذى يصر على أن الفروق الواضحة بين الشعوب ليس سببها التوافق الجسدى وإنما كفاءة اللغة(٩٥). وكانت العنصرية الجسدية لازمة لمبدأ نيبور القائل بالطبيعة العنصرية للطبقة، مع التسليم بأن الطبقات بل والطوائف المختلفة تتحدث بنفس اللغات. ومن اللافت للنظر مدى ثباته على هذا المبدأ وعدم رغبته في الاختلاط العنصرى.

لقد جمع نيبور بين الرومانسية والعنصرية فى تسعينيات القرن الثامن عشر. وكان هذا الجمع عملية سهلة. ومن نواح عدة كان الجنس أو النوع مجرد مصطلحات "علمية" يخاطب بها جماعة الرومانسيين. وفى كتابه Also a Philosophy of History، المنشور سنة ١٧٧٤م، الذى أوضح فيه هردر Herder رأيه الأساسى فى النزعة التاريخية والنسبية التقدمية، أصر على أن الشعب مصدر الحقيقة كلها(٩٦). ويظهر هذا المفهوم فى القرن التاسع عشر باعتبار أنه "الحقيقة العنصرية" التى تجب كل ماعداها(٩٧).

وعلى الرغم من التطابق الأساسى بين الرومانسية والعنصرية، فإن هناك تناقضاً بين النموذج الرومانسى للأصالة العرقية والحق العنصرى لجنس السادة فى الغزو. ولم يمتد اعتقاد نيبور المبكر فى رغبة الشعوب المتخلفة - أى الألمان - فى تطوير ثقافات أصيلة ليشمل السلالات غير الأوروبية. ففى سنة ١٧٨٧ - أى وهو فى سن الحادية عشرة - كان يساند النمساويين - الذين لم يكن يحمل لهم قدراً كبيراً من الحب - ضد الأتراك، وفى سنة ١٧٩٤م كان أشد احتقار يمكن أن يسب به فرنسا الثورة هو وصفها "بالتترية الجديدة"(٩٨). وفى سنة ١٨١٤م نادى بوحدة أوروبية ومسيحية لمحاربة

الإسلام، وفى محاضرات ألقاها قرب نهاية حياته سُجل عنه قوله:

"من الطبيعى أن تساند السيادة والسيطرة الأوروبية العلوم والآداب، إلى جانب حقوق الإنسان، وأن منع تدمير قوة بربرية سيكون عملاً من أعمال الخيانة العظمى ضد الثقافة العقلية والإنسانية"(٩٩).

كانت مناسبة هذا الدفاع عن الأمبريالية هو غزو مصر المرتقب. وهو مثل الأخوة همبولت وبونسن – ولكن على خلاف معظم علماء الكلاسيكيات والمستشرقين الألمان – قبل ما قام به شامبليون من فك رموز الكتابة الهيروغليفية فى حجر رشيد. وأدى به هذا إلى الهجوم على فولف F.A.Wolf العظيم الذى "تحرى تاريخ الكتابة القديم بين الإغريق بشكل مستقل تماماً عن الفن فى الشرق "على حد قوله. هذه الرؤية الأحادية لنيبور قد نسبت إلى "تحيز فولف ضد تاريخ الكتابة العريق فى الشرق"(١٠٠). وإذ كان نيبور نفسه على إتصال بكنيسة روما، فقد حذا حذو شامبليون فى التوصل إلى صيغة توفيقية مع الكنيسة حول وضع التواريخ(١٠١). وهكذا رجع بالتاريخ المصرى إلى سنة ٢٢٠٠ ق.م وهو التاريخ الذى كان يفترض آنذاك لوجود الهكسوس. وعلى الرغم من ذلك، فإنه بعد أن كشف عن الغطرسة الثقافية والعنصرية والزمنية للمنهج النقدى التى كانت تدميرا للتاريخ القديم منذ ذلك الحين، زعم أن الأسرات الثلاث عشرة التى تم تسجيل تاريخها قبل الهكسوس كانت من اختراع المصريين الذين كان عليهم أن يقنعوا بامتلاك تاريخ يرجع فى قدمه إلى عصر إبراهيم، ولكنهم أرادوا أن يرتقوا إلى مكانة أسمى جرياً على العرف السائد بين الشعوب الشرقية(١٠٢).

وكان نيبور أيضاً فى الحالة الرومانسية – العنصرية عندما أفتعل التمييز القاطع بين الإغريق الأحرار المبدعين والمصريين، الذين كانوا، شأن الشعوب المقهورة الأخرى الكثيرة، متقدمين كثيراً فى الفنون على حين بقى الجانب الثقافى فى حضارتهم متخلفاً(١٠٣). كما هاجم الفينيقيين لافتقارهم إلى الجذور. هذه الخطيئة الجوهرية التى تتنافى مع قانون الرومانسية، قد استخدمت بطبيعة الحال ضد اليهود حتى انتصار الصهيونية الرومانسية، ولا شك فى أن نيبور قد شارك فى موجة معاداة السامية التى كانت تتصاعد بين أوساط طبقته الاجتماعية(١٠٤).

ومع هذا، كما ذكرت سلفا، بقى نيبور داخل إطار النموذج القديم. وكتب فى محمل هجومه على فولف:

"إذا سلمنا بأن... الإستغلال المتفلسف للتاريخ عن النفوذ التعسفى الذى مارسته الأمم الشرقية على الإغريق... فإن فولف يسرف كثيراً فى تجاهل حقيقة أن العلاقات بين بلاد الإغريق والشرق كانت قائمة، وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين فيما بعد، فإن الإغريق قد تأثروا فى الأزمنة بالباكرة بالأمم الشرقية وتعلموا منها(١٠٥).

لقد اعتقد نيبور أن الأسطورة المصرية التى تتحدث عن استيطان كيكروبس Kekrops فى أثينا كان إنعكاساً للتأثير المصرى، على نحو ما فعلت أساطير داناؤس Danaos و أيجيبتوس Aigyptos بالنسبة لمنطقة أرجوس Argolid. ولم يساوره أى شك فى قيام كادموس Kadmos بتأسيس طيبة(١٠٦). ومن ناحية أخرى، هناك نغمة دفاعية فى هذه التأكيدات يجب أن تُعزى إلى تأثير فولف وأفكاره، وفى عشرينيات القرن التاسع عشر، كان التأثير لكارل أوتفريد موللر الذى جاء بعده. وسوف أعود إلى موللر بعد دراسة أول هجوم على النموذج القديم فى القرن التاسع عشر، وهو الذى شنه القس رادل الصغير Abbé Petit-Radel.

رادل الصغير والهجوم الأول على النموذج الآرى

كان رادل الصغير عالماً يهتم بالفن والعمارة اهتماماً شديداً، وفى سنه ١٧٩٢ هاجر إلى روما التى كانت بالفعل مركز علم الجمال الرومانسى، وفى روما انبهر ببقايا عصر ما قبل الرومان. وحسب التقاليد القديمة أطلق على هذه البقايا صفة كيكلوبى، لأنها كانت فى نظره شاذة ومن ثم فهى "حرة" بطريقة كانت الأبنية المصرية والشرقية الأخرى تفتقر إليها(١٠٧). وعلى أساس وجود هذه المبانى فى ذلك الزمان، بات مقتنعا بأن ثمة حضارة أوروبية عامة أو مشتركة كانت قد تأسست فى كل من إيطاليا واليونان قبل وصول المصريين والفينيقيين(١٠٨).

وفى سنة ١٨٠٦م قدم رادل الصغير ورقة "الأصول اليونانية لمؤسس أرجوس" إلى معهد فرنسا Institut de France فى باريس. وقامت فكرته على أساس

التأريخ الباكر الذى وضعه ديونيسيوس الهاليكارناسى، وهو مؤرخ إغريقى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد، عن الإستقرار الأركادى فى إيطاليا، وهو ما ربط رادل الصغير بينه وبين المبانى الكوكلوبية. وهاجم الفرنسى فريريه Fréret وبارتلمى Barthélemy، باعتبارهما من معارضى النموذج القديم، فيما يتعلق بالمستوى الحضارى للسكان الأصليين من الإغريق عندما جاء المصريون بهدف الإستيطان. وعزز هذا الرأى بزعم أن العمارة الكوكلوبية تسبق وجود المصريين زمنياً، فضلاً عن اعتقاده الرومانسى بأن الإغريق العظام لم يكن ممكناً أن يكونوا متخلفين إلى هذا الحد. كما أن رادل الصغير تحدى بشكل خاص التراث القائل بأن الملكين أناخوس وفورنيوس، ملكى أرجوس، من أصل مصرى(١٠٩). وأوضح كيف كان هذا التراث ضعيفاً قديماً – وإنها لحقيقة أنه حتى بين الشخوص الضبابية للفترة الأسطورية، كان هذان الملكان شنيعين بشكل واضح. وتوحى نغمة الورقة بقدر من الشك حول مدى جسارته، لأن هناك اقتراحات بأن ما كان يقوله كان موضع ترحيب من جمهوره الباريسى(١١٠). ويبدو أن الورقة حظيت بقبول حسن، وواصل رادل الصغير ليلعب دوراً بارزاً فى الحياة الأكاديمية لحركة التجديد.

كارل أوتفريد موللر والإطاحة بالنموذج القديم

حيثما حاول رادل الصغير أن يجتث السلطة القديمة والنموذج القديم، جاء التحدى المباشر لهما من لدن كارل أوتفريد موللر Karl Otfried Müller. وليس هناك شك، عموماً، حول النزعة الرومانسية التى وسمت أستاذية موللر وحياته بسماتها. وفى رأى رودلف بفيفر Rudolf Pfeiffer، مؤرخ الكلاسيكيات الذى عاش فى مطلع القرن العشرين، أن موللر كان هو "الشخص المشع فى عالم شاب سعيد"، على حين كان المؤرخ الإنجليزى الفاهم جوش G.P.Gooch يرى أنه "شيللى عصر النهضة الحديث، وأبوللو الشاب فى معبد التاريخ"(١١١). كان موللر واحداً من الرعيل الأول الذى تعلم وفقا لنظام همبولت التعليمى. ولد فى سيلزيا Silesia سنة ١٧٩٧م، ودرس فى عاصمتها برسلاو Breslau، وكان يحضر حلقات النقاش Seminars التى كانت قد أنشئت على غرار جامعة برلين. كما كان أستاذ هايندورف

Heindorf، أحد تلاميذ فولف المبعدين، وعمل مولر شخصياً لمدة عام تحت إشراف فولف في برلين. وعلى الرغم من أن مولر كان يكرهه كثيراً، فإن تأثير فولف تسرب إلى كتاباته.

كانت كلمة السر بالنسبة لكل منهما مقدمة كانط Wissenschaft[١١٢].
وإذ تبنى مولر طريقة فولف التقدمية والعلمية، إلا أنه ركز على الطبيعة الرائدة لبحوثه هو، وكان يعتقد أنها سوف تخلي مكانها لأعمال العلماء اللاحقين. ولكن، بينما كان يتعامل باحترام مع المستقبل كان تعامله مع الماضي يتسم بالغطرسة. وكانت الأعمال السابقة الوحيدة التي رآها جديرة بالاهتمام هي منشورات جوتنجن وكتابات العلماء الفرنسيين الملكيين من أمثال رادل الصغير وعالم الكلاسيكيات راؤول روشيت Raoul Rochett، عدو شامبليون اللدود. وكان مولر في احتقاره للسابقين نموذجاً كاملاً لعلماء اللغة المحترفين في القرن التاسع عشر ممن تعاملوا باحتقار مع نموذج العلماء الشاملين érudits or Gelehrte الذي شاع في القرن الثامن عشر، والذين أخذوا يحلون محلهم[١١٣].

كانت رسالة مولر حول التاريخ المحلي لجزيرة أيجينا Aigina، وكان البحث نموذجاً كاملاً للوضعية الرومانسية، على الرغم من أنه استوحى الفكرة من مجموعة الآثار المرمرية التي كانت قد أحضرت منذ فترة قريبة إلى ألمانيا من هناك. فقد رأى، مثلما أوضح جوش، أن هذا التاريخ المحلي الأول لليونان القديمة كان يشبه أول تاريخ ألماني محلي؛ في الدراسة التي قام بها الرومانسي المحافظ جوستوس موسر Justus[١١٤]. عن تاريخ أوسنابروك Osnabrück[١١٥].
وثانيا، فإن أيجينا جزيرة – أي أنها نموذج كامل للمكان المحدد والملائم للدراسة الشاملة. ومن المهم أيضاً أنها كانت مأهولة بالدوريين وتقع قبالة أثينا عاصمة الأيونيين "الفاسدين".

وتم تعيين مولر أستاذ كرسي في جوتنجن بفضل هذا البحث القوى وبسبب صغر سنه وأطلق على هذا "مكان الأمكنة بالنسبة لى" بطريقة عبرية مدهشة في تحوير العبارة[١١٦]. ومنذ ذلك الحين كان مركزه الأكاديمي مضموناً على عكس كثيرين من معاصريه. وحصل على المال والتقدير من حكومة هانوفر ومن الولايات الألمانية الأخرى حتى وافته المنية، بطريقة رومانسية، في غير أوانها، في أثينا سنة ١٨٤٠م على أثر نوبة

حمى[117].

وعلى الرغم من حرفيته، كان مجال دراسة مولر هائلاً. إذ كان بوسعه أن يتناول علم الفيلولوجيا بالطريقة الجديدة المتفق عليها، مثلما كان قادراً على إنتاج بحث عن الأتروسكيين كتبه باستفاضة عن الفن والآثار القديمة[118]. وكانت البحوث التي صارت أعمدة دراسة التاريخ القديم تلك التي تضمنها كتابه "تاريخ القبائل والمدن الإغريقية" الذي نشر بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٢٤م وكتابه "مقدمة إلى النظام العلمي للأساطير" المنشور سنة ١٨٢٥م. وكان هجومه على النموذج القديم في الكتابين واضحاً جلياً. ويبدأ المجلد الأول من كتابه "تاريخ القبائل والمدن الإغريقية، أورخومينوس ومينانس" باقتباس من باوسانياس Pausanias:

"إن الإغريق ميالون بشكل مرعب إلى أن يكونوا مشدوهين على حساب إنتاج بلادهم؛ لقد وصف المؤرخون البارزون الأهرامات المصرية بأدق التفاصيل ولم يذكروا أقل القليل عن كنوز منزل منياس Minyas (في أورخومينوس) أو أسوار تيرنس، التي لا تقل إعجازاً بأي حال من الأحوال"[119].

تدور الفقرة المقتبسة حول فكرة محورية؛ فهي تلفت انتباه القارئ إلى كل من المينيين الذين رآهم مولر قبيلة غازية تمت بصلة القربى إلى الدوريين؛ كما أنها تدين ما اعتقد أنه من الرذائل الملازمة للإغريق، وهي ما أطلق عليه فيما بعد إسم مرض "الهوس المصري" Egyptomania، و "الولع بالبرابرة" Barbarophilia[120]. وتجلت هذه التشويشات في "وهم" أن المصريين وبرابرة آخرين من غير الأوربيين كانت لهم حضارات أرقى اقتبس الإغريق منها على نطاق واسع.

وكان لمولر أعداء في جبهتين: النموذج القديم الذي استخدمه الماسونيون وديبوي Dupuis، فضلاً عن حب شليجل للهند هو ومجموعة هيدلبرج الرومانسية التي تكونت حول الفيلسوفين الصوفيين المتخصصين في الأساطير كروزير Ceuzer وجورس Görres. وعلى حين رأى شليجل مصر مستعمرة هندية، فإن كروزير - الذي رأى غير ذلك تشابهات لا يمكن تعليلها بين الديانة الهندية والديانة الإغريقية، لا سيما في نظام الرمزية فيهما - استمر في الجدل، بدون أي دليل، بأن الكهنة الهنود

جلبوا فلسفتهم بطريقة ما إلى بلاد اليونان[١٢١]. وعلى الرغم من أنهم كانوا بالتأكيد أشد تأثيراً بعد سنة ١٨١٥م في ألمانيا – على عكس دعاة النموذج القديم – فإن الولع بالهند لم يستطع أن يقدم أى دليل محدد على الإنتقال لكي يستخدمه مولـلر في الهجوم[١٢٢].

وفى تناوله للنموذج القديم، كان مولـلر يشير باستمرار إلى المزج والإتصال بين الكهنة الإغريق والكهنة البرابرة. وزعم أن هذا يشي بوجود علاقات أساسية بين النظم الدينية المختلفة والأساطير. ويرى مولـلر أن تلك الصلات "المتأخرة" هي التي أدت إلى خلق هذا الإنطباع الكاذب بأن اليونان استمدت ديانتها وأساطيرها وحضارتها كلها من الشرق الأدنى. وهنا كانت طريقته الرئيسية في إزالة ما اعتبره زيادات متأخرة "حجة من الصمت"[١٢٣]. ومبدئياً، عرف مولـلر أن التراث القديم الأصيل يظهر أحياناً فقط في المصادر المتأخرة – والحقيقة أنه هو نفسه اعتمد أحيانا على مثل هذا الدليل. وهكذا، فإنه لكي ينكر أصالة إحدى الأساطير أخذ يبحث عن معيار إضافي؛ أى لابد أن سبباً معاصراً قوياً أدى لاصطناع هذه الأسطورة[١٢٤]. وعلى أى حال، فمن الناحية العملية اعتبر مجرد عدم وجود المصداقية أمراً مذموماً لاسيما عند ماكان مولـلر يهاجم النموذج القديم" إذ استخدم هو ومن جاء بعده هوميروس وهسيودوس، لا باعتبارهما شاعرين ذائعي الصيت، وإنما باعتبارهما موسوعيين. وبهذه الطريقة باتت الجملة الشائعة "ليس معروفا لهوميروس" تعني أنه "لم يكن موجوداً في زمن هوميروس"، ولا تعني "لم يتم التعرف عليها في تراث هوميروس الباقي".

وكان أسلوب مولـلر الثاني في هدم النموذج القديم هو التشريح أو التحليل؛ إذ أنه زعم أن هذا كان تصحيحاً لما رآه اتجاهاً عاماً في العالم القديم صوب التوفيق بين المتناقضات[١٢٥]. ولأنه كان يعلي من شأن الخصوصية الرومانسية على كونية عصر التنوير، فقد جادل بأن "الفصل، إذن، عمل من أعمال عالم الأساطير الرئيسية"[١٢٦]. فإذا مانزل بالأساطير إلى سماتها المحلية بهذه الطريقة، صار من الممكن تصويرها وكأنها تضرب بجذورها في تربة اليونان. ومع ذلك أصر مولـلر على أن هناك حاجة للتجميع والتوفيق من خلال اقتفاء أثر النماذج الدينية والأسطورية التي انتشرت مع الأجناس

الغازية، وليس تجميع النوع "المتأخر" أو الكهنوتي الذى سبق ذكره فعلاً.

كان المثال الأول على هذا النموذج ما اعتبره مولر ربطاً بين أبوللو والدوريين - أى أن عبادة هذا الإله قد انتشرت مع غزوات الدوريين. وكان مثل هذا التفسير مثالياً بالنسبة للإعتقاد الرومانسي العام بأن الحيوية كانت تنساب من الشمال صوب الجنوب وليس العكس[١٢٧]. وهكذا، زعم مولر أنه إذا ما وجدت عبادات متماثلة أو أساطير أو أسماء فى اليونان أو الشرق الأدنى فلابد أن تكون يونانية، أما إذا وجدت فى اليونان وطراقيا، أو اليونان وفريجيا - شمال شرق اليونان - فلابد أن تكون نشأتها فى الأخيرة[١٢٨]. ويصدق هذا على بلاد اليونان، إذ يقول مولر: إذا وجدت مظاهر متماثلة فى كل من شمال البلاد وجنوبها، فإنها تكون قد وفدت من الشمال دائماً. وفضلاً عن ذلك، فإنه إذا كانت العبادات أو الأسماء المتشابهة شائعة فى اليونان ومنطقة بحرإيجة، فإن ذلك يعنى أنها نتاج أصلى للبيئة وليست مجلوبة بواسطة الأجانب.

كان هجوم مولر الأول ضد الأساطير التى تدور حول كيكروبس Kekrops ومستعمراته المزعومة فى أثينا ومنطقة بحيرة كوبايس Kopais فى بويوتيا Boiotia، التى كانت تضم أورخومينوس المدينة التى أطلق اسمها على المجلد الأول من تاريخه[١٢٩]. وقد ثبت أن هذا التراث "متأخر" فقط، وبهذا تحقق الشرط الأول فى التلفيق" كما وجدت صلات حميمة بين الإغريق عموماً والأسرة السادسة والعشرين المصرية (٦٦٤-٥٢٠ ق.م) والتى كانت عاصمتها مدينة سايس Sais ، المدينة الشقيقة لأثينا، وهكذا حقق الشرط الثاني. وفضلاً عن ذلك أوضح مولر أن المصادر الأساسية للأسطورة كانت فى كتاب زعم باوسنياس أنه مزور وحكايات حكاها المصريون لديودوروس Diodoros، ولا يمكن الثقة بها لأن المصريين راعوا فيها مصلحتهم الشخصية[١٣٠]. كذلك رأى مولر أن كيكروبس من السكان الأصليين على الرغم من اعتقاده القوى فى وجود الاستيطان الأجنبى فى أماكن أخرى[١٣١]. وأخيراً، اقتبس مولر من مينيكيوس، فى إحدى محاورات أفلاطون، ما معناه أن الأثينيين كانت دماؤهم نقية بعكس أهل طيبة والبلوبونيسوس، الذين استعمر الشرقيون بلادهم[١٣٢].

ولم يشر مولر إلى هذه الفقرة عند اعتراضه على الأساطير التى تدور حول

حصول داناؤوس على الفروة الذهبية، وقد لجأ فى ذلك إلى إظهار التعارض فى دائرة الأسطورة. وزعم أيضاً أن داناؤوس لم يكن ممكناً أن يكون مصرى الأصل لأن اسمه أطلق على الدانائيين، الذين كانوا إغريقاً بالتأكيد[١٣٣]. ومع ذلك فإنه يعترف أنه بينما كان الأصل المصرى للكيكروبس مجرد لغو تاريخى، فإن أسطورة داناؤوس حقيقية وأصيلة[١٣٤]. ولم يستطع مولر تجنب الإنزلاق فى هاوية التساهل لأنه كان يعرف السطور التى تشير إلى نبات دناؤوس فى ملحمة داناؤوس[١٣٥]. وعلى أية حال، فإن هذا لم يسبغ على الأساطير الصفة التاريخية، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا "الحقائق" التى تتعلق بالاتجاه العام من الشمال إلى الجنوب للعنصر الثقافى و "نفور المصريين من السفر والترحال وركوب البحر"[١٣٦].

وسلم مولر بأن الأساطير التى تدور حول كادموس تطرح المزيد من المشكلات. فهى فى المحل الأول مهتمة بالفينيقيين الذين رآهم شعباً تجارياً نشيطاً، والذين كانوا فى رأيه "أقدم من... المصريين المتعصبين الذين يخافون الأجانب"[١٣٧]. ومع هذا، فإن مولر، الذى كان مقتنعا بثبات الشخصية القومية، فكر أنه من غير المتصور أن يتمكن تجار يركبون البحر من فتح طيبة البعيدة عن الساحل. وهاجم الأساطير التى تدور حول كادموس بأن فرق بين المستعمرات الفينيقية المزعومة فى بويوتيا وتلك الواقعة فى بحرإيجة. وعندئذ استبعد الأساطير القديمة باعتبارها متعارضة مع الإستيطان الفينيقى المتأخر فى ساموطراقيا وثاسوس شمال بحرإيجة، لأن هيرودوتوس رأى أن ديانة الكابيروى Kabeiroi القديمة ديانة بيلاسجية.

وعلى الرغم من أن مولر لا يعترف بذلك، فإنه يقع هنا فى صعوبات بالغة، لأن علماء القرنين السابع عشر والثامن عشر أدركوا أن اسم Kabeiroi مشتق من الكلمة السامية "كبير". إذ أن الإغريق والرومان كانوا يطلقون عليهم اسم "الآلهة الكبرى"؛ فهى باليونانية Mégaloi Theoi ، وباللاتينية Dei[١٣٨]. وفضل مولر اشتقاق الإسم من فعل Kaio (بمعنى يحرق)، رابطاً بين الديانة ومهنة الحدادة اللتين لاشك فى ارتباطهما سويا. كما أوضح الصلة بين كادموس وكادميلوس Kadmilos، وهو أحد الآلهة الكبار Kabeiroi. ولاحظ أن ذلك الإله كان يُعبد قرب طيبة. ومع ذلك، فإنه عندما لم يتمكن من أن يرى الديانة فى كلا المكانين

باعتبارها من ديانات الشرق الأدنى، استخدم "برهانا" على أن ديانة بحرإيجة كانت بيلاسجية لكى يبرهن على أن ديانة كادموس واسمه فى طيبة جاءا من المصدر نفسه، ومن ثم فلا صلة لهما بفينيقيا[١٣٩].

وفى ذلك الوقت، لم تنجح هذه المجادلة المشوشة والمربكة بأكثر مما نجح هجوم موللر على أصحاب نزعة حب الهند، ولم تنتشر آراؤه عن الفينيقيين، شأنها شأن آرائه عن الهنود، سوى فى القرن العشرين. فعلى سبيل المثال، حدث سنة ١٨٨٢م أن هاجم عالم الكلاسيكيات الكبير المتخصص فى الدراسات الهندو أوروبية هيرمان أوسنر Herman Usener إنكار موللر "لتأثير الشرق الأوسط الواضح الآن"[١٤٠]. كان موقف موللر أفضل مع المصريين. وفى سنة ١٨٤٠م حاول موفرز F.C.Movers فى كتابه "الفينيقيون"، المنشور فى أربعينيات القرن التاسع عشر، أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من أساطير داناؤوس على أساس أن صلات داناؤوس بالهكسوس تجعله سامياً لا مصرياً، ولكنه تعرض لنقد وهجوم عنيف حطا من شأنه تماماً، وبحلول سنة ١٨٤٠م بات من غير الجائز قبول أية قصة عن الأصول المصرية لكيكروبس[١٤١]. وهكذا، عمل كل العلماء المشهورين، بعد موللر، فيما أسميه "النموذج الآرى العريض"، إذ اعتقدوا أنه بينما يحتمل وجود أو عدم وجود مستوطنات فينيقية فى بلاد اليونان الأصلية، فمن المؤكد أنه لم يكن هناك وجود لأى مستوطنات مصرية.

وقد اعتبر معظم المؤرخين الذين جاؤوا بعد موللر، وبعض معاصريه، أنه رومانسى أساساً من حيث حفاظه على التمييز المطلق بين الإغريق والحضارة الأخرى. وفى كتابه أورخومينوس أنكر التهمة، وبعد أن اعتذر عن أنه عامل الأساطير الإغريقية كما لو كانت أساطير بحتة، زعم أن بلاد الإغريق كانت جزءاً من العالم ومن ثم فإن الأساطير الإغريقية كانت تقوم عليها بقية أساطير الجنس البشرى[١٤٢]. أما اعتراضه فكان ضد الإعتقاد فى الروابط الإستعمارية والاستعارات الكلية التى أخذتها الديانة والأساطير الإغريقية عن الشرق. وكان على إقتناع بأنه قد أوضح أن هذه أمور غير تاريخية على الرغم من أن الأوهام المتعلقة بها هى التى وجهت كل الأبحاث السابقة.

وناشد موللر فى كتابه Prolegomena العلماء ببيان فصيح أن ينجزوا ما فشل فيه

وأن يفحصوا الأساطير فى دراسة متأنية بهدف الوقوف على حقيقة الأسـاطير الإغريقيـة(١٤٣). ولم تستطع المدرسـة الأنثروبولوجيـة التى أسسـها العالمـان الكلاسـيكيان جيمـس فريـزر **James Frazer** وجين هاريسون **Jane Harrison** ، والتي ازدهرت في بدايات القرن العشرين، أن تتجاوز تلك الحدود بأي شكل(١٤٤). أما ما اعتبره موللر خارجاً عن القانون فهو أية علاقة خاصـة بين الأساطير الشرقية والأساطير الإغريقية. والواقع، على حـد تعبيره، "أن الكتـاب كلـه يعـارض النظريـة التـى تجعـل معظـم الأسـاطير إسـتيراداً مـن الشـرق". واسـتمر ليقـدم مثـالاً محترمـاً علـى الرومانسية الوضعية:

"أنـه لكـى يفـترض هـذا بالنسـبة لأسـطورة واحـدة فقـط، فلابـد مـن برهـان قـاطع إمـا عـن التوافـق الداخلـى الكبـير الـذى يمكـن تفسـيره عـن طريـق النقـل وحـده، وإمـا، ثانيـا، أن الأسـطورة تفتقـر إلى أيـة جـذور تربطهـا بتربـة الـتراث المحلـى، وإمـا، أخـيراً، يكـون النقـل متجليـاً فـى الأسـطورة ذاتهـا"(١٤٥).

والحاجـة إلى "برهـان قـاطع"، باعتبـاره نقيـض الإقنـاع بالمناقشـة، أمـر لا يمكـن الركـون إليـه فـى كافـة فـروع المعرفـة. ويصبـح ضربـاً مـن العبـث فـى مجـال يلفـه الغمـوض مثـل مجـال أصـول الأسـاطير الإغريقيـة.

وتجلـت شـعوذة موللـر ثانيـة فـى إلقـاء عـبء مثـل هـذا "البرهـان" علـى كـاهل المتحمسـين للنمـوذج القديـم. وقـد جـادل العـالم فوكـارت **Paul Foucart**، الـذى عـاش فـى بدايـات القـرن العشـرين، بأنـه سـيكون أكـثر منطقيـة أن نطلـب البرهـان مـن أولئـك الذيـن تحـدوا الإجمـاع القديـم علـى أنـه كـان هنـاك اسـتعمار شـرقى بـدلاً مـن أن نطلبـه مـن أولئـك الذيـن دافعـوا عـن هـذا الإجمـاع(١٤٦). إن حقيقـة نجـاح خدعـة موللـر تكشـف عـن الكيفيـة التـى كـان جمهـوره، إبـان حـرب تحريـر اليونـان وبعدهـا، راغبـاً فـى الإسـتماع إليـه. وإذ استحوذ موللـر علـى المكانـة الأكاديميـة الرفيعـة التـى مكنتـه مـن مطالبـة المعـارضين بالبرهـان، فقد ضمـن تدمـير النمـوذج القديـم.

وقـد اعـترف موللـر بـأن الإشـتقاق **etymology** هـو أحـد أفضـل الوسـائل للتمييـز بـين العنـاصر التاريخيـة فـى الأسـطورة أو فـى القصـص الخرافيـة، ولاسـيما اشـتقاق الأسماء(١٤٧). بيـد أنـه شـخصيا لم يحـرز سـوى قـدر ضئيـل مـن التقـدم فـى هـذا المضمـار فـى

حالة بلاد الإغريق، وبعد بعض المحاولات الضعيفة أبدى دهشته قائلا:

"ولكن وا أسفاه، إن الإشتقاق مايزال علما يستخدم فيه التخمين العشوائي أكثر من الدراسة المنهجية، ولأننا نرغب في الحصول على تفسير بأسرع ما يمكن لكل شيء، فإن عملنا فيه غالباً ما ينتهي إلى الفوضى بدلاً من الوضوح"[١٤٨].

هذا الفشل يفسر لنا، على حد تعبير إثنين من المحدثين المعجبين بمولر، لماذ: "تخضع الفيلولوجيا في أعمال مولر للأساطير دائما"[١٤٩]. وعلى أية حال فإن مولر كان يؤمن تماماً بتقدم العلم" ومع هذا... لا حماقة في أن نأمل في وجود حلول أكثر نجاحاً في هذا المجال[١٥٠]. وعلى الرغم من ذلك، ومن سوء حظ النموذج الآري، أن فشل فقه اللغة الهندو أوروبي في المائة وستين عاماً الماضية في أن يفيد في تفسير الأساطير والديانة الإغريقية. ومثل هذه الحال تتناقض بشكل صارخ مع مئات الحالات المقنعة التي تتناول الإشتقاقات من اللغة السامية واللغة المصرية[١٥١]. وكثيرٌ من هذه الحالات، بما فيها أمثلة من طيبة وكادموس وكابيروي والعنصر سام – في ساموطراقيا Samothrace – كانت معروفة لمولر، ولكنه نادراً ما كان يواجهها مباشرة، مفضلاً أن يسقطها من الاعتبار[١٥٢].

ونأتي الآن إلى كيفية قبول الأجيال المتأخرة لمولر وأفكاره. فقد كان محط الإعجاب في زمانه كما أقيمت له لوحة تذكارية في جوتنجن سنة ١٨٧٤م كانت الأولى آنذاك، وبنهاية القرن التاسع عشر كان يعتبر من رواد "التاريخ القديم" المعاصرين[١٥٣]. وفي كتابه "تاريخ الدراسات الكلاسيكية" الذي نشر سنة ١٩٢١م قال الأستاذ الكبير فيلاموفيتز مولندورف Wilamouwitz Moellendorf بعد أن ذكر اسم مولر "ها قد وصلنا أخيراً إلى أعتاب القرن التاسع عشر التي اكتمل عندها غزو العالم بالعلم"[١٥٤].

وينبغي أن نلاحظ أن هذه العبارة – بغض النظر عن الصورة الإستعمارية التي تستند عليها – تقدم مولر بوصفه شخصية بطولية بمصطلح تاريخ العلم الذي حول الفوضى والظلام إلى نور ونظام، وخلق مجالاً علمياً جديداً. وبالنسبة لمجال الأساطير كانت صورته تلك موجودة في حياته. وتبنى كل من توماس كيتلي Thomas

Keightley فـي كتابـه "الأسـاطير فـي بـلاد الإغريـق القديمـة وروما"، المنشـور سـنة ١٨٣١م و ١٨٤٩م – تبنى كلاهما منهجـه الجديـد. ويشـير مـؤرخ الكلاسـيكيات تـيرنر F.M.Turner إلى كتيلـي وسميـث باعتبارهمـا "شـارحين بريطـانيين جـادين للأسـاطير الكلاسيكية"(١٥٥). على حـين استمر التيـار العـام لدارسـي الأسـاطير فـي قبـول تعريـف موللر لنفسـه بأنـه "علمى" واعتبـاره مؤسسـا" جـاداً" و"مدققـاً" للعلـم الـذى يعملـون فـي رحابـه(١٥٦).

ومـع ذلـك، أخـذ علمـاء الكلاسـيكيات العـارفون يميلـون، فـي غضـون السـنوات العشـرين الماضيـة، إلى أن يكونـوا أكثر حساسية تجاه الجوانـب الخلافيـة فـي موللـر. ذلـك أن رودولـف بفيفـر Rudolf Pfeiffer، على سـبيل المثـال، اعـترف بـأن المجلديـن الضخمـين للذين كتبهما موللر عـن الدوريـين كانـا "ترنيمـة أخـاذة عـن تميز الدوريين فـي كـل شئ أكـثر مـن كونهمـا سـرداً تاريخيـاً"(١٥٧). ويؤكـد مومجليـانو، فـي سـعيه لتقريـر أهميـة العلـم الـذى يشـتغل بـه، والجوانـب العقلية فيـه، على أهمية موللـر الـذى يحـاول إنكـار رومانسـيته، ولكنـه يحـذف موللـر مـن الصـور العديـدة التـى رسمهـا لعلمـاء الكلاسـيكيات فـي القـرن التاسـع عشـر(١٥٨).

وأكثر ما يلفت نظرنا فى عمل موللر أنه قام فى أساسـه علـى المعلومـات التقليدية المتاحـة للدارسين على الدوام. ولم يتضمن أى قدر من إتسـاع آفـاق المعرفـة الـذى شـهده القـرن التاسـع عشر. ولم يستطع، بطبيعة الحال، أن يأخذ فى حسبانه قراءة الخط المسمارى، أو كشوف شـليمان الأثرية، إذ حدث هذا بعـد وفاتـه. ومـع ذلـك فإنـه، علـى النقيـض مـن هاينـه Heyne وهـيرين Heeren، لم يكن يهتم باكتشافات القرن الثامن عشر، كما أنه تجاهل التطورات العلميـة المثـيرة بين عامى ١٨١٥ و ١٨٣٠م، بعكس همبولت ونيبور وبنسين. وليس هناك مايدل على اهتمامـه بما قام به شامبليون من فك رموز حجر رشيد، كما أن عـداءه للهنـد كـان يعنـى أنـه لم يطبـق فـي عمله علم اللغة الهندو أوروبية حيث على الرغم من صلتـه الوطيـدة بـالأخوة جريـم Grimm وغيرهم من العلماء المتخصصين في الدراسات الهنـدو أوروبيـة. ويعنـى كـل هـذا أن السـبب فـي تحطيـم النمـوذج القديـم يرجـع كليـة إلى مايسـميه المؤرخـون "الأسـباب الظاهريـة". فلـم يسـقط النموذج القديم بسبب أى تطور جديد فى مجال الدراسة ولكن لأنه لم يعد يناسـب الرؤيـة العالميـة

السائدة. ولكى نكون أكثر تحديداً نقول إنه لم يكن متوافقاً مع قيم ومثل بداية القرن التاسع عشـر عن العنصر والتقدم.



الباب السابع

الهوس الهيلليني -٢-

انتقال العلم الجديد إلى إنجلترا وظهور النموذج الآرى

(١٧٩٠-١٨٣٠)

ترجمة د. منيرة كروان

يهتم الشطر الأول من هذا الباب بنقل أعمال مولـلر إلى انجلترا. وتنبغى رؤية هذا النقل فى سياق إدخال علم الآثار القديمة إلى انجلترا وتأسيس علم الدراسات الكلاسيكية. إذ كان المفروض أن تكون دراسة كافة نواحى الحياة اليونانية الرومانية ذات تأثير تعليمى وأخلاقى ونفعى على الأولاد الذين سيكونون حكام بريطانيا والإمبراطورية.

وصارت دراسة الكلاسيكيات مركز النظام الإصلاحى للمدارس العامة، كما باتت صاحبة السيادة فى الجامعات. وقاد هذه الإصلاحات دكتور/ أرنولد وغيره من الإصلاحيين فى العصر الفيكتورى ممن رأوا فى التعليم والبحث الألمانى "طريقاً ثالثاً" انشق عن جمود انجلترا فى عهد المحافظين والهويج "Whig"، ويتجنب فى الوقت نفسه النزعة الثورية الفرنسية. وعلى أية حال، فلا شك فى أن المصلحين الإنجليز كانوا يخشون الثورة أكثر من خشيتهم من رد الفعل، وهو نفس ما حدث مع همبولت ورفاقه بعد ثلاثين سنة فى ألمانيا. وعلى أية حال، فإن هذا لم ينقذهم من هجوم المحافظين.

كان كونوب ثيرلورل Connop Thirlwall وجورج جروت George Grote، اللذان عارضا دفاع ميتفورد Mitford عن النموذج القديم، ينتميان إلى جناح مختلف قليلاً عن هذه الصفوة الإصلاحية. وتأثر كلاهما بأعمال مولـلر، وإن تنصل كلاهما من ثوريته الهادمة للقيم الموروثة. إذ رفض ثيرلوول استبعاد المستوطنات الفينيقية، على حين رفض جروت تماماً أفكار جوردون ورفض التفكير فى صدق الأساطير الإغريقية عن ماضى اليونان. وعلى الرغم من إختلافهما فى أسلوب التناول فإن التأثير الخالص لأعمالهما تمثل فى التشكيك فى التراث المتعلق بالاستيطان وتكريس الإبداعية المستقلة للإغريق الذين صار ينظر إليهم باعتبارهم من أشباه الآلهة. وكان ذلك، بطبيعة الحال، موضع ترحيب الرأى العام الذى تزايد ولعه بالهيللينية، كما تزايد احتقاره لكل الثقافات غير الأوروبية.

أما الجزء الثانى من الفصل السابع فيهتم بالمصالحة بين الدراسات المحبذة للهند والهندو أوروبية والدراسات المولعة بالهيللينية ودراسة التاريخ القديم. فبعد أن هدم مولـلر النموذج القديم، كان من السهل نسبياً ملء الفراغ بنموذج الغزو والغلبة الهندو

أوروبى القادم من الشمال. وفى هذه الحال، على عكس ما حدث مع النموذج القديم، كان ثمة تفسير داخلى للتغيير وهو الحاجة إلى تفسير الأساس الهندو أوروبى للحضارة الإغريقية. ومع ذلك فلا شك فى أن العلماء الألمان والإنجليز كانوا مشدودين بشكل خاص صوب أفكار الغزو الشمالى التى تتوافق تماماً مع النزعة العنصرية السائدة ومع مشروع مولر العنصرى. ولم يكن هناك شك أيضاً فى أن الولع بالهند آنذاك قد لفت انتباه الأوربيين إلى الغزوات الآرية لشبه القارة من ناحية الشمال. وتطلب الأمر قليلاً من الخيال لنقل تلك الغزوات - التى وردت فى التراث الهندى - إلى بلاد الإغريق التى لم يكن بها أية تسجيلات عن مثل هذه الغزوات.

النموذج الألمانى والإصلاح التعليمى فى انجلترا

كان الألمان مقتنعين تماماً فى مطلع القرن التاسع عشر بأنهم كانوا "البناة الثقافيون للبشرية"، وهو بالضبط ما رآه إيسوقراطيس فى الآثينيين والإغريق فى القرن الرابع قبل الميلاد[1]. وكان هذا نوعاً من تقدير الذات قبله معظم الأوربيين "التقدميين" والأمريكيين الشماليين. واتخذت الفلسفة الألمانية والتعليم طريقاً وسطاً بين إفلاس التراث والثورة الفرنسية والإلحاد. وعلى حد قول إلنيور شافر Elinor Shaffer عن أحد جوانب هذا الموضوع فى سياق تاريخ الأدب:

"كان النقد الألمانى حاذقاً وفنيا بحيث لا يصلح لأن يكون دليلاً لحركة الطبقة العاملة فضلاً عن أنه قابل لتفسيرات متعددة، من بينها صيغة مراجعة تنقيحية جاءت من داخله بحيث تركت المؤسسات الكنسية والسياسية على حالتها الأصلية ولها من السلطان والقوة ما كان لها من قبل. ومنذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان هناك فى ميدان المعرفة الإنجليزية الأداة التى توفر لأكثر حركة علمية فى أوروبا إمكانية أن تضرب المؤسسة الأكاديمية الإنجليكانية ... وتنبئنا طبيعة هذه الحالة من التفكير بالكثير عن ازدواجية النزعة الرومانسية السياسية بل والمزيد عن طبيعة حركة التوفيق التى وجدت فى العصر الفيكتورى. ومن زاوية معينة يمكن رؤيتها باعتبارها أثراً ثقافياً رئيسيا يدل على نفاق البورجوازية"[2].

هذا الاتجاه الجرمانى تمثل فى فرنسا فى الفيلسوف والسياسى المحبوب فيكتور

كوزان Victor Cousin الذى لمع فى ظل البورجوازية الكبيرة التى جسدها النظام الوسطى للويس فيليب Louis Philippe. وأسس كوزان التعليم الإبتدائى الفرنسى على النموذج البروسى، وحفظ مكاناً خاصاً فى النظام التعليمى كله للقدماء، والإغريق منهم خاصة، مثلما فعل همبولت الذى كان يعجب به كثيراً. كما أنه كان من المؤمنين المتحمسين بوجوب الفصل القاطع بين فلسفة الشرق العفوية، وفلسفات العالم (الغربى) الوثنى والمسيحى العقلانية(٣).

وبينما كان بعض الإصلاحيين الإنجليز مستعدين لتقبل "التكوين التعليمى" البروسى بمجرد أن ذاع واشتهر، حالت قوة المحافظين دون صبغ التعليم بالصبغة الألمانية عشرات السنين. والحقيقة أنه لم يمكن أن يبدأ سوى فى الثلث الثانى من القرن بعدما أدى الضغط البروتستانتى والصناعى إلى إنشاء جامعات جديدة وبات واضحاً أن هناك حاجة إلى إصلاح المدارس العامة وجامعتى أوكسفورد وكمبردج. وعلى الرغم من ذلك، فإنه حتى بعد إصلاح الجامعة لم ترسخ حلقات المناقشة (السمنار) وصادرت السلطات الجامعية آراء أساتذة أوكسفورد وكمبردج مثلما حالت المشاعر التحررية للإصلاحيين دون إقامة حكم مطلق على النمط الألمانى(٤). فضلاً عن ذلك. أخذ "التكوين التعليمى" فى النظام الألمانى بجدية أكثر مما حظيت به الأبحاث التى أجريت عنه. ومن اللافت للنظر أن جويت Jowett، عالم الكلاسيكيات البارز فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، قد ترك تأثيراً مستمراً على طلابه ولكنه كان أقل قدرة من أى من أسلافه غير الإصلاحيين(٥). وما أنتجته الجامعات الإنجليزية كان هزيلاً تافهاً إذا ما قورن بذلك الإنتاج الهائل للعلماء الألمان(٦).

كانت دراسة اللغة اللاتينية وقراءة نصوص القدماء قد صارت محور المناهج الدراسية فى جامعات العصور الوسطى. وزادت الأهمية النسبية لهذه المظاهر التعليمية فى إنجلترا أثناء القرن الثامن عشر مع تلاشى الاهتمام بالدين واللاهوت ومع ازدراء الطلاب الأرستقراطيين للرياضيات. كما بدأ الاهتمام بتزايد باللغة اليونانية بعد سنة ١٧٨٠م على نحو ما رأينا. فقد تميزت الطبقة العليا بمعرفة اللاتينية دائماً، وحينئذ صارت اليونانية الحلقة الأولى. ومع ذلك فإن الكلاسيكيات – أى دراسة كافة مظاهر

التاريخ القديم باعتبارها نوعاً من التدريب الثقافي والأخلاقي للصفوة - لم تظهر سوى في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكانت تسير على هدى النموذج الألماني سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر.

كان توماس أرنولد Thomas Arnold هو الشخصية الثابتة في تأسيسها، وكان مشهوراً أكثر بكونه مروجاً لمفهوم "المسيحي المهذب" الذى يبدو هجيناً لا يصدق. وباعتباره مديراً لنادى الرجبي ونصيراً قوياً لإصلاح الجامعة زاد تأثيره تماماً في السنوات العشر الأخيرة، أى بين عامي ١٨٣٢م و ١٨٤٤م وكان أرنولد ينتمي، مثل همبولت وكوزان، إلى مايمكن تسميته "الوسط الميال للشجار بالفطرة"، كما كان يكره كلاً من الثورة والرجعية[٧]. وكان حبه لألمانيا محور جميع أفكاره الإصلاحية في سبيل الحفاظ على أفضل تراث؛ وحين التقى بونسين Bunsen في روما سنة ١٨٢٨م سرعان ماصارا صديقين. وعلى الرغم من أنه كان قلقاً بعض الشئ من شكوك نيبور التاريخية فإنه بات معجباً متحمساً له وكتب ملخصاً شعبياً لكتاب "التاريخ الروماني"[٨]. كما أن أرنولد شارك نيبور حماسته للعنصر باعتباره المبدأ الأساسي للتفسير التاريخي. وخصص محاضرته الإفتتاحية للأستاذية في التاريخ الحديث في أوكسفورد عام ١٨٤١م لهذا الموضوع[٩]. وترجع أهمية دكتور أرنولد وابنه ماتيو، بصفة خاصة، إلى "اتجاههما"؛ إذ أنهما أوضحا المشاعر الكامنة فعلاً في الرأى العام السائد وقوياها[١٠].

وظهرت مجموعة أكثر أصالة من العلماء في كمبردج. وبالفعل فإن إمكانية الإصلاح في هذه الجامعة، التى يسيطر عليها الهويج وتتمتع بقدر أكبر من المرونة، قد تجلت في حقيقة أن امتحان بكالوريوس الشرف الكلاسيكي بهيئته المستديرة ظهر هناك سنة ١٨٢٢م. وعبر جامعة كمبردج دخل النظام الدراسي الألماني الجديد و "التكوين العلمي" إلى انجلترا. وكان جوليوس هير Julius Hare وكونوب ثيرلوول من بين الشخصيات الرئيسية التى أسهمت في هذه النقلة، إذ كانا صديقين في المدرسة والجامعة. وقضى هير بعض طفولته في ألمانيا حيث تعلم الألمانية واكتسب حماسة لثقافتها لازمة طوال العمر، ثم نقله إلى كونوب ثيرلوول؛ وقد نشطا ومعهما عالم الرياضيات وليم هويل، في المحاولة الأولى لتأسيس إتحاد كمبردج بعد إغلاق جمعية الطلاب الجدلية.

وكرس هويل William Whewell وثيرلوول تقسيهما لتعلم الألمانية من هير. ومع مرور الوقت كان هو ينتقل إلى الصفوف الأعلى، ولم يكتفْ ثيروول بتعلم الألمانية وإنما كان أيضاً قد قرأ كتاب "التاريخ" لنيبور. ولم يلبث أن ذهب إلى روما، حيث ربط نفسه بالمجتمع الألماني ووطد صداقته مع بونسن بدرجة جعلتها "ذات تأثير بالغ الأهمية على حياته"(١١).

وخلال عودة ثيرلوول إلى انجلترا ترجم مقال القديس لوك، وهي مقالة صعبة في اللاهوت كتبها Schleiermacher شليرماخر، الذى كان عالم لاهوت متخصصا في الرومان والآريين وكان مفضلاً لدى همبولت وبونسن(١٢). وتسبب هذا في فضيحة بين أعضاء السلك الكهنوتي المحافظين والمعادين للاهوت الألماني برمته. لكن ذلك لم يحل دون عودة ثيرلوول إلى كلية الثالوث المقدس وتلقي التعليمات والتوجيهات المقدسة اللازمة. وفي عام ١٨٢٢م بدأ مع هير في ترجمة كتاب "التاريخ" لنيبور، وظهر الجزء الأول منه سنة ١٨٢٨م، ثم ظهر الثاني بعد أعوام ثلاثة، بيد أنهما تركا الجزء الثالث قبل أن ينتهي لأن صبرهما الخارق كان قد نفد.

وفي سنة ١٨٣٠م اتصل ثيرلوول وهير بجمعية طلابية سرية وصغيرة محدودة، هي جمعية الرسل التي كانت قد أنشئت قبل عشر سنوات باعتبارها نادياً اجتماعياً مسيحياً، وساعداها على التحول وأضفيا عليها طابعها الميتافيزيقي الليبرالي المميز الذى لازمها منذ ذلك الحين مع بعض التعديلات وشجع الاثنان "الأخوة الصغار" على احترام الشعراء الرومانسيين والعلم الألماني(١٣). وحسب قول أحد الأعضاء الذين انتخبوا سنة ١٨٣٢م "كان كولريدج Coleridge ووردورث Wordsworth آلتنا الرئيسية، أما هير وثيرلوول فكانا بمثابة أنبيائنا". وزعم مصدر آخر أن "نيبور كان بالنسبة لهم ربما شكل مشاعرهم على مدى زمن طويل"(١٤). وتكثفت المشاعر الرومانسية للمجموعة سنة ١٨٣٣ بموت هلام Hallam، الذى كان شابّ لامعاً أحبه ثيرلوول وكثيرون من الأخوة؛ وكانت عبادته، التي ترمز إلى الشباب والجمال الذى فقدوه، قد خلدت في كتاب تنيسون Tennyson، الذى يحمل عنوان "الذكرى" وبقي مركز الجمعية ومحورها على مدى السنوات الأربعين التالية.

وليس هناك شك فى أن ثيرلوول تصور نفسه سقراط الجماعة، فهو يدرك بشكل واعى خيرة العقول فى الجيل الأصغر لكى يشعر بطريقة رومانسية ويفكر بأسلوب الشك. وهكذا أصبح الشك الرومانسى الطابع المميز لما أسماه المؤرخ الاجتماعى المعاصر نويل أنان Noel Annan الأرستقراطية المثقفة أو طبقة المثقفين الجديدة[١٥]. وذلك من خلال جمعية الرسل بصفة خاصة وروح العصر Zeitgeist بصفة عامة.

وذاعت بالفعل شهرة ثيرلوول السقراطية بعد وقفته المبدئية من أجل قبول المنشقين للحصول على الدرجات الجامعية فى كمبردج وبعد أن خذله هير Hare وهويل Whewell أُجبر على الإستقالة ومع ذلك فإن سمه لم يكن مُراً، إذ كان أصدقاء الهويج (Whig) يحتلون المراكز الهامة، وسرعان ما نعم بعيشة رغدة فى أيست رايدغ East Riding ونعم بقدر من وقت الفراغ مكنه من كتابة "تاريخ بلاد الإغريق".

ولقد عُين ثيرلوول عام ١٨٤٠ أسقفاً لكنيسة سان ديفيد أقدم دائرة اسقفية فى مقاطعة ديلز ولابد أن هذا قد اعتبر واحداً من سلسلة التحركات الموالية للألمان والتى كان من ضمنها تعيين دكتور أرنولد استاذاً فى رجيوس (Regius). وكذلك لبعثة بونسين الخاصة إلى إنجلترا من قبل الحكومة البروسية وذلك لتعزيز مشروعه الدينى الكبير - والذى كانت له أضواء عنصرية تيوتونية قوية - لتوحيد الكنيسة اللوثرية والأنجليكانية.

ولقد أخذ المشروع شكلاً ملموسا بتأسيس الأسقفية الأنجليكانية المشتركة فى القدس. وكانت هذه الخطوة هى التى قادت الكاردينال القادم نيومان Newman إلى الكاثوليكية. ولقد كان تحوله إلى العقيدة الجديدة، مثالاً جيداً على الإنقسام داخل الحركة الرومانسية بين التقدميين المحبين لبلاد الإغريق الألمان وبين الحماسة الرجعية للشعيرة المسيحية والعصور الوسطى والتى كان يمكنها أن تقود الغافل إلى روما.

ولقد ناصر ثيرلوول، كأسقف، الإتجاه الليبرالى "لطبقة المثقفين الجديدة وجناحها الكنسى، الكنيسة الرحبة. وفى هذا كان يقف بمفرده تقريبا، ولقد أدهش تصرفه الأول

أقرانه. فقد كان الأسقف الوحيد الذى صوت لصالح منح اليهود حقوقاً مدنية. وكانت دوافعه للوقوف فى هذا الموقف الشجاع متعدده ومختلطه. فقد كانت تجمع بين الليبرالية الحقيقية والاعتقاد بأن الاستيعاب والدمج هو أسرع طريق لتغيير الديانة (وفى الواقع كان تغيير ديانة اليهود هو الهدف الأكبر للكنيسة الإنجليكانية فى القدس)[١٦]. ولقد استمر ثيرلوول بقية حياته يجمع بين هذه الليبرالية الأخلاقية وعدم الرضا عن كل ما يحيط به، فيما عدا الأطفال والحيوانات الأليفة.

ويجب أن نؤكد أن ثيرلوول ظل رومانسيا معاديا للثورة طوال مسيرته الإصلاحية الشجاعة، والتى بلغت قمتها فى حديثه البليغ بصورة غير عادية والذى هزم فيه أنصار مبدأ اللا مؤسسية. وكانت مقالاته المسماه "Primitiae" والتى كتبها فى سن الحادية عشرة مثار مدح مبالغ فيه من مجلة Anti-Jacobin Review ، وقد أهداها إلى الأسقف بيرس Percy والذى نرى أن كتابه "Reliques of Ancient British poetry" كان السبب الأساسى فى اهتمام الرومانسية بالقصص الشعرية الغنائية الشعبية فى كل من بريطانيا وألمانيا. وبعدئذ وفى عشرينيات القرن التاسع عشر، أضفى هو وهير الاحترام على الشاعرين وردزوورث Wordsworth وكلوريدج Coleridge خلال أكثر المراحل تطرفاً فى حياتهما. كما تملك ثيرلوول الرعب من الثورة وظن أنه تحقق منها فى "بنات ريبيكا" – فقد ارتدى الرحال من مقاطعة ديلز زى النساء كى يحرقوا (؟؟؟ف٧ص٤١) تحصيل الضرائب المغيته – وأثناء الحرب الأهلية الأمريكيين، وبفوز ما استهجن نظام العبودية وجد أن مشهد صعود الديموقراطية العسكرية التى يحكم منها رجال غلاظ الطبع وضيعو الأصل أشد مدعاه للإنزعاج[١٧]. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان لديه ما وصفه صديقه توماس كارليل Thomas Carlyle بأن مايقترب من الإدراك الجنوبى للخطر الفرنسى[١٨]. وعلى وجه العموم بدت آراء ثيرلوول السياسية قريبة من آراء كل من بونسن، وتوماس أرنولد ونيبور الشاب.

وكان الجزء الثامن من كتاب ثيرلوول "تاريخ بلاد الإغريق"، والذى بدأ يظهر عام ١٨٣٥، أول عمل ضخم بالإنجليزية يتضمن نتائج الدراسات الألمانية الحديثة. وكان أيضاً أول عملل يحل محل كتاب ميتفورد Mitford الضخم "التاريخ" والذى نُشر بين عامى ١٧٨٤–١٨٠٤م. ورغم ذلك، فإن الهجوم على ميتفورد المحافظ،

والذى كان متشككا للغاية فى إنجازات الإغريق، كان قد بدأ قبل ذلك بعشر سنوات أثناء حرب التحرير اليونانية فى مقالات ظهرت بين عامى ١٨٢٤–١٨٢٦م. وكان أولها، والذى كتبه توماس بابنجتون مكاولى (Thomas Babington Macaulay)، نقداً شرساً الآراء الرجعية المتطرفة المعادية لأثينا والمناصرة لإسبرطة والتى نسبها لميتفورد. ورغم ذلك، والأهم من كل شئ، اعترض مكاولى على أن ميتفورد قد عامل الإغريق على أنهم مجرد شعب آخر: ولقد كان مكاولى مثل شيللى Shelley أو شيللر Schiller وهمبولت فى ألمانيا، مقتنعاً أن الإغريق كانوا فوق تلك الأشكال من التحليل أو كما قال هو نفسه أنه عندما كان يفكر فى بلاد الإغريق كان يحب "أن ينسى دقة القاضى فى خشوع العابد"[١٩].

وجاء الهجوم الثانى عام ١٨٢٦ على يد جورج جروت George Grote مدير البنك الراديكالى الشاب. لقد تعامل جروت مع ميتفورد بحرص أكثر من مكاولى وسلم تماماً بأن ميتفورد لم يكن مناصراً لأسبرطه وأنه كان يفضل الدساتير المختلطة مثله فى ذلك مثل ارسطو. وكان اعتراض جروت يتحصر، فيما اعتقد، فى انحياز ميتفورد لانجلترا، وفشله فى إدراك الطبيعة الخامسه لبلاد الإغريق، التى استخدمها، أى جروت، من مؤسساتها الحرة: "إن هذا النبوغ والتباين الفذ للموهبة الفرية والذى يشكل سحر التاريخ وعظمته الإغريقى يرجع إلى النظام الديموقراطى فقط (وإلى ذلك النظام الأرستقراطى المفتوح الذى يشهد إلى حد كبير ولقد استمر فى الإدعاء الأجوف بأن بلاد الإغريق يجب أن تُعامل معاملة خاصة، وذلك لأن مكانتها الخاصة قد رسخت بالفعل. وأكد على الاهتمام غير العادى الذى يضفيه التحول الكلاسيكى للتعليم الانجليزى على جميع التعاملات الإغريقية..."[٢٠]. وهكذا فقد اتفق الناقدان على أن بلاد الإغريق يجب أن توضع فوق الحدود العادية للدراسة" ولكن مكاولى انغمس فى أشياء أخرى، أما جروت فقد تابع مهمته، وبعد عشرين عاما أخرج عمله الضخم عن التاريخ الإغريقى.

وبالرغم من هذا، فقد ظهر ثيرلوول قبل ذلك. إن المقارنة العادية التى عقدت بينهما أوضحت أنه بينما نتج عن احتقار ميتفورد المحافظ للديموقراطية الإغريقية عمل

يقع في خمسة أجزاء لصالح حزب المحافظين، كان كتاب "التاريخ" لجروت تحديا راديكاليا لها. وكان من المفروض أن يحافظ عمل ثيرلوول على كفتي الميزان[٢١]. ورغم ذلك، وفيما يتعلق بموضوعنا، فإن التضاد قائم بين هجوم ثيرلوول وجروت على النموذج القديم ودفاع ميتفورد عنه. وكما رأينا في الفصل الثالث، فإن الدارسين الأقدميين الذين تقبلوا النموذج دون تساؤل لم يشعروا أبداً بحاجتهم إلى تبريره. ولكن ميتفورد شعر في ثمانينيات القرن الثامن عشر أن عليه أن يصيغ دفاعاً عن وجهة النظر الارثوذكسية بأن المصريين والفينيقيين قد أقاموا مستعمرات في بلاد الإغريق وزعم أن جميع الأسباب تدعونا إلى تصديق الروايات الإغريقية عن إقامة المستعمرات لأنها تفصيلية وواسعة الانتشار، وأيضاً لأن الإغريق ماكانوا ليخترعوا قصصاً ضد مصلحتهم[٢٢]. وفي مواجهة تلك القضية المقنعة ثيرلوول حجج مولر - رغم أنه لم يذكره بالإسم - كما أضاف ملاحظة ساخرة عن دوافع مولر:

"في فترة متأخرة نسبياً. تلك التي تلت ظهور الأدب التاريخي بين الإغريق، ساد اعتقاد عام، سواء بين عامة الشعب أو المثقفين، بأنه في العصور السحيقة قبل أن يفسح اسم البلاسجيين وسيطرتهم الطريق أمام اسم العنصر الهيلليني وسيطرته، فقد انجذب الأجانب إلى شواطئ بلاد الإغريق لأسباب متعددة، وإقاموا هناك المستعمرات وأسسوا الأسر الحاكمة وبنوا المدن وأدخلوا فنونا نافعة ومؤسسات اجتماعية لم يعرفها السكان الأصليون البدائيون. وساد مثل هذا الاعتقاد بين مثقفي العصر الحديث في كل أنحاء العالم تقريبا. ويتطلب الأمر قدراً كبيراً من الشجاعة للمجازفة بإثاره الشك حول حقيقة الرأى الذى أقرت به مثل هذه السلطة ووجهته مثل هذه الفترة الطويلة من الإستحواذ على العقلية العامة، وربما لم يكن أبداً محل تساؤل إذا ما كانت الدلائل المستمدة منه لم تستفز مثل هذا الاستفسار الغيور في الأرض التي يستقر عليها (هذا التأكيد من عندى[٢٣].

ولم يحدد ثيرلوول ماذا كانت تلك النتائج، ولكن من الصعب رؤية بديل للنتائج الرومانسية والعنصرية فيما يتعلق بعمل مولر. هذه العبارة الصادرة من شخص وثيق الصلة بالدارسين الألمان هامة للغاية، وذلك لأنها توحي أن النقد قد طبق، ليس بسبب

وجود تناقضات جوهرية كما ادعى مولـلر نفسه فى حالة داناؤوس، ولكـن لأن مضمـون الأساطير كـان مثيراً للاعتراض. ويستمر ثيرلوول فى قوله:

"ورغم ذلك، فعندما استيقظت تلك الروح، ساد شعور بأن القصص الذائعة عـن تلك المستعمرات القديمة أوجدت فرصة كبيرة لعدم الثقة، ليس فقط بسبب الملامح العجيبة التى عرضها، وإنما عدم الثقة فى الحقيقة المريبة القائلة بأنه بمرور الزمن يبدو عدد هذه القصص متزايداً كما تبدو تفاصيلها معروفة بقدر أكبر من الدقة، وكلما رجعنا للخلف كلما قل ذكرها حتى إذا ما وصلنا للملاحم الهوميرية فقدنا كل أثر لوجودها[٢٤]. ومثل مولـلر مـن قبله، كان ثيرلوول غير قادر على إيجاد أى معارضة صريحة للنموذج القديم بين الكتاب الإغريق المبكرين وكان مضطراً إلى استخدام ما أسماه "حجه من الصمت" وهكذا إدعى أنه تحقق من وجود معارضة ضمن من الكتاب الإغريق" واعتقد أن الأساطير قد فُندت بصمت القصائد الشعرية للإغريق والمؤرخين القدماء"[٢٥].

وبروح الرسل الحقيقية استطاع ثيرلوول أن يرى دائما جانبين أو أكثر لأية مسألة. وفى هذه المسألة يبدو أنه كان ممزقاً بين نتائج مولـلر المقنعة رغم عنصريتها، وبين الطريقة القويمة التى دافع نيبور عنها. وهكذا كتب "يبدو من المحتمل أو حتى من الضرورى أن نأخذ طريقاً وسطاً بين الآراء القديمة والحديثة"[٢٦]. وكانت محاولته للتوفيق مثالية: ليسوا مصريين !! أما الفينيقيون فمن المحتمل، – وأنكر حقيقة الأساطير التى تدور حول الأصل المصرى لكيكروبس وداناؤوس على أسس عنصرية:" أن القول بوجود مستوطنين من دماء مصرية نقية، عبروا البحر الإيجى وأسسوا مدنا بحرية، يبدو متعارضا مع كل ما نعرفه عن الشخصية القومية[٢٧]. يجب أن نلاحظ كلمتى "نقية" وبحرية !! لقد اختار ثيرلوول كلماته بعناية شديدة كى يتجنب مناقضة فتوحات محمد على وابراهيم المعاصرة، ولكن هذه العنصرية المنهجية توضح كيف يمكن للإيدلوجية أن تتجاوز الحقائق المجردة[٢٨]. ومن ناحية أخرى، تقبل ثيرلوول بالفعل الأساطير التى تتناول كادموس والفينيقيين، ليس فقط فى الجزر ولكن فى بويوتيا أيضاً وهناك سبب آخر لتمييزه عن غيره من عنصرى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين المعاديين

للسامية، وهو رغم أنه رومانسى أصيل يتحدث بمصطلحات "الدم" والعنصر ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان يصبر على القول:

"أنه أمر قليل الأهمية فى حد ذاته إذا ما كان حفنه من المصريين أو الفينيقيين قد اختلطوا بسكان بلاد الإغريق أو لم يختلطوا بهم. أن ما يجعل هذا التساؤل مثيراً هو التأثير المُفترض أن وصول هؤلاء الغرباء قد أحدثه فى الدولة أو المجتمع فى بلدهم الجديد"(٢٩). مثل هذا القصور فى الاهتمام بالنقاء العنصرى لقى قبولا أقل بعد ثمانين عاما.

جورج جروت

سرعان ما توارى كتاب ثيرلوول "التاريخ" أمام كتاب جورج جروت George Grote الذى ظهر عام ١٨٤٦م. ولقد تعاصر الرجلان فى المدرس فى شارتر هاوس Charterhouse، وزعم جروت أنه ماكان ليبدأ مشروعه على الإطلاق إذا كان قد علم بكتاب ثيرلوول. ولقد تقبل ثيرلوول من جانبه هذا الإجلال بود مذهل(٣٠) ولقد أوضح موميجليانو التشابه بين دائرة معارف ثيرلوول ومعارف جروت من رجال البنوك الراديكاليين: "لقد كان كلا المجتمعين يكره ميتفورد ويقرأ الألمانيين، ولقد تعرضا لهجوم مجله Quarterly Review. كما كان كلاهما يهدف إلى التحرر من سيطرة العادات الإنجليزية السياسية والثقافية، ولقد أراد كل منهما إقامتها على قواعد فلسفية ثابتة"(٣١). ذلك أدعى موميجليانو وجود فرق جوهرى: فقد أراد ثيرلوول وهير أن يقدما فلسفة رومانسية للتاريخ، وأن لا يستبدلا الدراسات التجريبية السائدة فى أكسفورد وكمبردج، ولقد كان جروت نفسه تجريبيا ووضعيا(٣٢). وفى الحقيقة فإن الفرق بين الإثنين لا يجب أن يُحمل بأكثر مما يحتمل. فقد شارك كثيرون من أنصار المذهب النفسى فى الولع الرومانسى لبلاد الإغريق الذى شارك فيه فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر كلُ من النساء والرجال ذوى الميول المتباين، باستثناء الرجعيين المتطرفين. (ويقتبس موميجليانو أقوال جون ستيورت ميل John Stuart Mill عن بلاد الإغريق، لكن مشاعر والد ميل النفعى المحبه للإغريق، والذى علم ابنه فى سن الثالثة الإغريقية، تتحدث عن نفسها(٣٣). وعلى سبيل المثال فإن إعجاب جروت بالمدينة الدولة يبدو متشابها مع إعجاب روسو بها فى نواحى عدة.

وبالفعل، وكما قال موميجليانو، فإن تعاطف جروت مع الدول الصغيرة... قد أدى به فيما بعد إلى القيام بدراسة محدوده عن سياسة سويسرا[٣٤]. ومن ناحية أخرى، وباعتباره راديكاليا ونفعيا، كان جروت بطبيعة الحال متعاطفا مع الروح العلمية التى تمثلت فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فى وضعية كومت Comte فى فرنسا. وهكذا كان جروت قادراً على أن يطلب دليلا من التاريخ القديم ثبات أكثر من نيبور أو مولر، واستهجن ما اعتبره "تصريحا ألمانيا بالتخمين[٣٥]".

ولقد أصر موميجليانو على أن جروت قد انشق على مولر ومعجبين من الإنجليز عندما أقام تمييزاً واضحاً بين بلاد الإغريق الأسطورية والتاريخية[٣٦]. ورغم ذلك فقد بدأ مولر كتابه المسمى Prolegomena بمقولة أن هناك "حداً واضحاً مقبولاً بين الإثنين[٣٧]". ولقد تبع كلا من مولر وجروت وولف أيضاً فى اعتقاده أن الكتابه لم تكن موجوده فى بلاد الإغريق قبل القرن الثامن ق.م. وأنه لم يكن هناك تعليم على يد الكهنة، كما كان الحال فى الشرق. وهكذا كانت الروابط بالأزمنة المبكرة ضئيلة للغاية[٣٨]، كذلك اتفق كلا الرجلين على أنه بينما يمكن أن تحتوى الأسطورة على عناصر تاريخية، لم يكن من المفيد أن نفكر فى نواة الحقيقة النقية التى أقيمت عليها العناصر الأسطورية، بل يجب النظر إلى العنصرين باعتبارهما متداخلين منذ البداية[٣٩]. وهكذا، وهنا أيضاً، لا يبدو التمييز بين جروت والمؤرخين الرومانسيين كبيراً كما افترض الأستاذ موميجليانو.

ومع ذلك فقد كان هناك إختلاف مهم بين جروت والرومانسيين الألمان – الذين كانوا مهتمين ببلاد الإغريق باعتبارها تمثل طفولة أوروبا، فهو باعتباره راديكاليا أكثر من كونه محافظاً لم يندم على انتهاء عصر فاعلية الأساطير الشعرية. ومثل جيمس هاريس James Harris، عالم النحو فى القرن السابق، كان ولع جروت بازدهار الديموقراطية الأثينية المتأخرة والمفاجئة. وكان اهتمامه الرئيسى، كما سبق ورأينا، هو أن يدحض شك ميتفورد المحافظ حول المؤسسات الإغريقية[٤٠].

ولقد جادل موميجليانو أيضاً بأن جروت كان حياديا تماماً فى مسألة تاريخية الأساطير الإغريقية: إذ أنه ببساطة طلب "دليلاً إضافيا" قبل أن يتقبلها[٤١].

وبغض النظر عن عدم ملائمة مثل هذه المطالبة بالدليل فإن حيادية جروت في هذا الأمر موضع شك كبير، فإن لهجة مناقشته التاريخية لهجة شكية إن لم تكن تهكمية. وهكذا فإنه يذكر باستحسان جاكوب برينت Jacob Bryant، وهو مؤرخ وكاتب أساطير في نهاية القرن الثامن عشر، والذى قال أنه من المستحيل أن نأخذ بجدية حكايات شعب يؤمن بالكنتوروس والساتيروس والجنيات والخيول التى تستطيع أن تتحدث[٤٢].

وقد تبدو حجة بيرنت مقنعة، وعلى الرغم من ذلك ينبغى أن نتذكر أن كل فترة لها أفكارها العامة التى تؤمن بها والتى تعتبر – ضرباً من الخرافة لدى الأجيال التالية. وفى هذه الحالة فإننى أصر على أن مانعتبره الآن اعتقادات خاطئة فى الكنتوروس والمخلوقات الأسطورية الأخرى، لهما أقل تضليلاً، بالنسبة لما نهتم به من موضوعات، من أساطير القرن التاسع عشر عن العنصر، والسمات القومية التى لا تتغير والنقاء، والتأثيرات الضارة للاختلاط العنصرى، وأهم من ذلك كله إضفاء صفات شبه إلهية على الإغريق، مما جعلهم يسمون على قوانين التاريخ واللغة. وهكذا، وبينما يجب أن نكون على حذر فى تعاملنا مع الحكايات القديمة، يجب أن يكون لدينا شك أكبر فى تفسيرات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لها.

ويزعم موميجليانو أنه بسبب حيادية جروت، فإن آراءه عن الأساطير لم تبطل بأى شكل بسبب الكشوف الأثرية اللاحقة التى أكدت الحكايات الأسطورية[٤٣]. وهذا العذر لا يصدق إذا ما كانت آراؤه شكية، كما أزعم. بالإضافة إلى هذا، فإن مثل هذا الشك يبدو مبرراً أكثر عند جروت أكثر منه عند خلفائه فى القرن العشرين الذين أجروا حفائر فوق طرواده، وموكينابى وكنوسوس، وإلى ما غير ذلك، فإن المرء يتوقع منهم أن يستثمروا فائدة الشك فى التراث المسلم به عن التاريخ القديم على الأقل.

وقد يبدو من الحصافة على سبيل المثال تذكر الفرضيات المعمول بها بأن فكرة أن بويوتيا تمتعت بعلاقة خاصة مع فينيقيا، أو أن سيزوستريس وممنون، فرعونى مصر الأسطوريين اللذان أطلق عليهما اسم سينوسرت وأمينميس، قد قاما بحملات واسعه فى شرق البحر المتوسط فى القرن العشرين ق.م، تذكر ذلك سوف يكون أكثر حصافة من

إنكارها باعتبارها نوعاً من التحريف، وأن تخضع فقط - عندما نجد أن الدليل الأثرى أو النقوش تؤكد كلا التراثين[٤٤].

ورغم ذلك، فقد كان احتقار جروت لفشل التراث فى الاستجابة لمتطلبات "الدليل" مؤثراً للغاية. وكان إصراره - بالإضافة إلى أصرار مولر - على أننا يجب أن نفترض أن بلاد الإغريق كانت معزولة عن الشرق الأوسط حتى يثبت عكس ذلك، كان مفيدا كوسيلة لطرد المنشقين عن النموذج الآرى خارج الحظيرة الأكاديمية[٤٥] - وبالمثل، فباتخاذه الإولمبياد الأول عام ٧٧٦ ق.م. بداية للتاريخ الإغريقى، أكد جروت بقوة الانطباع بأن بلاد الإغريق كانت فى الفترة الكلاسيكية جزيرة على صعيد المكان والزمان على السواء. لقد نُظر للحضارة الإغريقية على أنها جاءت من لا شئ وأنها قد بزغت تقريبا فى كامل قوتها وسلاحها بطريقة فوق طاقة البشر.

وسرعان ما صار تاريخ جروت مقياساً للدارسين ليس فى انجلترا فقط ولكن فى ألمانيا وفى كل مكان آخر بالقارة[٤٦]. ورغم أن نظام جروت فى معالجة الأسطورة قد يكون مبهجاً، فإنه لم يقنع المؤرخين الآخرين، الذين شعروا أنه مازال يجب عليهم أن يقدموا بعض الآراء حول التاريخ الإغريقى المبكر. ويبدو أنهم بشكل عام قد أتبعوا موقف ثيرلوول التوفيقى: فرغم أن الأساطير الإغريقية تصر على وجود غزوات مصرية وفينيقية، فإن الدليل "العلمى" فى اللغويات يقترح الآن أن اللغة الإغريقية كانت لغة نقية وأصلية. ويوضح كتاب سير ويليام سميث "تاريخ بلاد الإغريق"، وهو المرجع الانجليزى فى ذلك الموضوع منذ نشره عام ١٨٥٤ وحتى ثمانينيات القرن التاسع عشر، يوضح بعض الصعوبات فى هذا الصدد: أن حضارة الإغريق وتطور لعبتهم تثبت أن التطور كان نابعاً من البيئة وأنها ربما تكون قد تأثرت تأثيراً ضئيلاً بالنفوذ الأجنبى ورغم ذلك فإن التراث الإغريقى قد تشير إلى نتيجة عكس ذلك وثمة اعتقاد ساد بينهم بأن البلاسجيين قد تخلصوا من بربريتهم على يد أجانب شرقيين أقاموا فى بلدهم وأدخلوا العناصر الأولية للحضارة بين السكان البوائيين، وأن كثيراً من أساطير التراث هذه، رغم ذلك، ليست أساطير قديمة ولكنها ترجع إلى فترة متأخرة[٤٧]. وبإعطاء الجذور الأيدلوجية لتصور أن اللغة الإغريقية لغة "نقية"، والتى ناقشناها فى الفصل السادس،

فمن المثير أن نلاحظ أن اللغة قد استخدمت، بعد عدة عقود، كقاعدة علمية لإنكار النموذج القديم. وقد قام سميث، مثل ثيرلوول، بعمل نوع من التوفيق لقبول الاستيطان الكادمي الفينيقي لطيبه في الوقت الذى يرفض فيه أية حكايات عن مستعمرات مصرية. وبينما فكر الرومانسيون تفكيرا غير جدى منذ القرن الثامن عشر في فكرة أن الإغريق من أصل شمالى، أكدت حملات الهجوم العلمية على النموذج القديم، منذ صمويل موسجراف Samuel Musgrave إلى كارل أوتفريد موللر وكونوب ثيرلوول، على أصالة الإغريق وعلى التشابه بين الهيللينيين والبلاسجيين. وفى خمسينيات القرن التاسع عشر أصبحت عائلة اللغة الهندو أوروبية والجنس الآرى "حقائق ثابتة".

وبوجود نظرية عنصرية متماسكة، ومفهوم وطن أصلى آرى فى مكان ما فى جبال وسط آسيا، تحولت صورة الأصول الإغريقية.

الآريون والهيلليني‍ون

لقد أعد نيبور وموللر والهندو-أوربيون فيما بينهم جميع العناصر اللازمة لإقامة النموذج الآرى وجعل نيبور رفض المصادر القديمة مشروعا، وأدخل فى التاريخ القديم المثال الفرنسى والهندى للغزو الشمالى.

ولقد أبعد موللر النموذج القديم من بلاد الإغريق. ورغم ذلك، فقد كان مجهود علماء اللغة فى ربط اللغة الإغريقية بالسنسكريتية وتوضح أن اللغة الإغريقية لغة هندو أوروبية أقوى من هاتين المجادلتين. ولقد كان من الضرورى تقديم بعض التفسير التاريخى لهذه العلاقة، وكان مثال الغزوات الشمالية من وسط أسيا مناسباً للغاية.

أننى أيضاً أريد أن أؤكد أن النموذج القديم والآرى لا يستبعد كلاهما الآخر بالضرورة ولكنهما فى الحقيقة تعايشا معا معظم القرن التاسع عشر فيما أسميه النموذج الآرى الفضفاض. ويعنى هذا أن الإغريق المبكرين، الذين ظهروا نتيجة غزوات هندو أوروبية قبل ظهور الهيللينيين، قد هزموا على يد الشرقيين والفينيقيين الذين تركوا فيما بعد آثاراً حضارية مهمة. أننى شخصياً أبرهن، فى النموذج القديم المعدل، على أنه كان من المحتمل وجود غزوات أو تغلغل مبكر من جانب المتحدثين بالهندو أوروبية فى حوض

البحر الإيجى قبل إقامة مستعمرات مصرية وسامية غربية[٤٨]. ورغم ذلك، وبصورة عامة، فقد اهتم أنصار النموذج الآرى التسلسل أو الهيراركية العرقية والنقاء العنصرى وكانت فكرة إقامة مستعمرات مصرية وفينيقية تبدو كريهة دائما بالنسبة لهم.

هناك قصور كبير فى النموذج الآرى الجديد هو الافتقار إلى شهادة القدماء لصالحه. فقد ذكر توكوديديس التحركات القبلية التى تحرك فيها الهيللينيون من شمال بلاد الإغريق نحو الجنوب وضمهم لشعوب أخرى. والتاريخ الذى يحدده لهذه العملية يكتنفه الغموض. بيد أنه يؤكد أنها لم تكتمل زمن الحرب الطروادية، وهو مايترك أصول الدانائيين والآرجيين والآخيين وكثيرين غيرهم من الإغريق بدون تفسير[٤٩]. وثمة مشكلات مماثلة، سببتها الوجود المتأخر زمنيا، تقلل من قيمة التراث الذى يدور حول الغزو الشمالى والذى يمكن أن يكون مقبولا - عودة أبناء هراكليس (هرقل) أو الغزو الدورى الذى اكتسحت فيه قبائل من شمال غرب بلاد الإغريق الجنوب واستولوا على معظم البلوبونيثوس وجزء كبير من جنوب بحر إيجة.

كانت الروايات تصر على أن هذه الأحداث حدثت بعد الحرب الطروادية التى حدثت حوالى ١٢٠٠ ق.م. وهكذا - وإذا ماقبلها المرء على أنها هى الغزو الآرى، فربما لا يكون أجاممنون ومينيلادس ومعظم الأبطال الهوميروسيين من الإغريق. وهو ثمن لا يريد أن يدفعه سوى عدد قليل من دارسى الهيلينيات، حتى قبل فك رموز الخط المسمارى الذى أثبت أن الإغريقية كانت لغة الحديث فى بلاد الإغريق قبل الحرب الطروادية بزمن طويل[٥٠]. ومن ثم فإن الاحتمال الوحيد كان إثبات أن الغزو الدورى كان الغزو الأخير فى سلسلة الغزوات، وإن كان هذا الزعم يغفل الغزو الأول.

ولقد اعترف أرنست كورتيوس Ernst Curtius زميل مولر الأصغر المخلص، بعدم وجود مصدر قديم للغزو الآرى، أو كما قال "أن الشعور بالأصالة قد تطور بينهم (الإغريق) فى أكبر تنوع للتراث[٥١]. ورغم ذلك، كان فقه اللغة (الفيلولوجى) نظاما "علميا".يسمو فوق مثل هذه الأمور، ولم ينزعج المؤرخون الجدد من قصور المصادر القديمة. فقد قبل أن تيودور مومسين Theodor Mommsen المؤرخ العظيم لروما فى منتصف و أواخر القرن التاسع عشر، كتب فى البداية يجب أن

تخلص التاريخ من كل تلك القصص التى ترمى إلى أن تكون تاريخاً، ولكنها ليست سوى ارتجال"[٥٢].

وبعد ظهور الدراسات الهندو أوروبية وبروز نموذج الغزو الآرى وتحطيم مولر للنموذج القديم أصبح تطبيق النموذج الآرى على بلاد الإغريق واضحاً لدرجة أنه يبدو أنه حدث عموما بين أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر. ولذلك، فمن الصعب معرفة إلى من يُنسب، ورغم ذلك، فأكثر المرشحين هم الأخوة كورنيتوس. وإذا ماكسرنا قاعدة سيطرة الإبن البكر فسوف نضع جورج الأصغر فى البداية.

ولد جورج كورتيوس Georg Curtius فى لوبك عام ١٨٢٠، درس فى بون وبرلين وشغل منصب أستاذ فى براج (التى كانت بالفعل مركزاً كبيراً للغويات) وفى كيل وليبزج. وكانت كتبه العديدة تطبيقات للمبادئ الجديدة للدراسات اللغوية الهندو أوروبية على اللغة الإغريقية. ولقد عمل فى النحو المقارن وفى العنصر الهندو أوروبى فى اللغة الإغريقية، وفى كليهما رتب تغيير الأصوات، الأنيق والعادى، بحيث يمكن اشتقاق الإغريقية من الهندو أوروبية الأولى حسبما افترض[٥٣]. وخلال خمسينيات القرن التاسع عشر أقام كورتيوس قاعدة صلبة كان من الصعب تجاوزها. ولقد وصف ستيورت جون، مؤلف المعاجم فى بداية القرن العشرين، الوضع فى عشرينيات القرن العشرين فى مقدمة الطبعة التاسعة لقاموس Liddel and Scott، القاموس اليونانى – الانجليزى الشهير، بقوله:

> "بعد تفكير دقيق، تقرر تقليل المعلومة الإشتقاقية إلى أدنى حد. إن نظره إلى قاموس بويزاك (Dictionaire etymo logique de la langue grecque) سوف توضح أن تأملات علماء الاشتقاق ليست خالية من التخمين إلا فيما ندر. إن تطور فقه اللغة المقارن منذ ايام ج. كورتيوس (الذى كان كتابه "الاشتقاق اليونانى" المصدر الأساسى الذى اعتمد عليه قاموس لبول أندسكوت) قد أدى إلى التخلص من كثير من الهراء، ولكنه لم يقدم سوى القليل فى بناء (العلم)[٥٤].

ويصدق هذا على الوضع الحالى مثلما كان يصدق على الوضع عام ١٩٢٥ عند

كتابة هذه الكلمات. إن كثيرا من الهراء كان بالطبع ساميا، فقد كان من المستحيل احتماله في عشرينيات القرن التاسع عشر[٥٥]. وإذا كان جورج كورتيوس قد ربط بين بلاد الإغريق واللهجات الهندو أوروبية لغويا، فقد فعل أخوه الآخر نفس الشئ ولكن من الناحية التاريخية. لقد ولد أرنست كورتيوس عام ١٨١٤. ودرس في بون وجوتنجن حيث ارتبط بمولر. وقضى في اليونان الفترة بين عام ١٨٣٦-١٨٤٠م وكان بجانب مولر عندما وافته المنيه. وكتب كورتيوس وصفاً تاريخياً مفصلاً لمنطقة البلوبونيسوس وحصل على مركز في برلين، وبعد ذلك عُين أستاذاً في جوتنجن من عام ١٨٥٦ إلى ١٨٦٨، ثم أصبح أستاذ كرسي في برلين حيث قضى الثماني والعشرين عاماً الباقية من حياته هناك[٥٦].

ولقد شارك أرنست كورتيوس مولر في شغفه بطبيعة بلاد الإغريق وتماثيلها وآثارها، فضلاً عن فنها. وكان ما كتبه أول كتاب ضخم عن تاريخ بلاد الإغريق يكتبن كاتب عاش في هذا البلد بالفعل، بالإضافة إلى ذلك، كان كورتيوس يتمسك دائما برأيه الرومانسي بوصفه ناصحا ومرشداً عن بلاد الإغريق. وكما أوضح ديليموتيز - مويلندروف "فإنه لم يكف مطلقا عن إيمانه بهذا المفهوم المثالى، بل ظل ينادى به حتى يوم وفاته[٥٧]. ورغم ذلك، ويعكس مولر، فقد تمت الإطاحة بكورتيوس في حركة الحماسة الجديدة للهندو-أوربيين والآريين وامتدت رومانسيته إليهم.

إن مثل هذه الرؤية تتخلل كتابة "تاريخ بلاد الإغريق" الذى نشر الجزء الأول منه عام ١٨٥٧. ولقد تقبل كورتيوس وجهة نظر علماء اللغة بوجود **Urheimat** هندو أوروبى في مكان ما في جبال وسط أسيا، ومن هناك، أنطلق الهيللينيون جنوباً واستوطنوا بلاد الإغريق، مثلما أكتسح الآريون الجنوب وقهروا الهند. ورغم ذلك، أكد كورتيوس، بعكس الأقدميين وسابقيهم، على وجود فرق بين البلاسجيين والهيللينيين: "إن زمن البلاسجيين يقبع في الخلفية. كفترة طويلة من الرقابة: أما الدافع والحركة فقد انتقلت في البداية مع هيليني وأبنائه، وبوصولهم يبدأ التاريخ"[٥٨].

وقد يبدو هذا الفرق مشابهاً للفرق بين الآريين وغير الآريين. والحقيقة أن كوريتوس، على أية حال، كان يرى أن البلاسجيين هم الموجه الأولى من الآريين ذوى

المكانة الأدنى، والذين جاءوا خلال الأناضول عبر الدردنيل والبسفور إلى بلاد الإغريق، مخلفين آثاراً فى فريجيا. لقد كانت الغزوات الهيللينية المتأخرة أصغر فى الحجم ولكن "رغم قلة عددها، فإن قوتها العقلية السامية بعلتها قادرة على تجميع العناصر المتناثرة... وجعلتها تتطور إلى حالة أعلى من الرقى"(٥٩). إن أوجه التشابه بين سكان أسبرطه ومسينيا الأصليين السابقين على الغزو الدورى والسكان الإيرلنديين ذوى الأصول الآرية قد ورد ذكرها فى صفحة ٢٩٤(٦٠). لقد تميز مشروع كورتيوس التاريخى الذى تصور الهيللينيين الآريين الذين يهزمون البلاسجيين نصف الآريين بأنه مزيج أيديولوجى بين ملمحين مرغوبين – غزو العنصر الأسمى القادم من الشمال، والحفاظ على النقاء العنصرى الضرورى.

وكان الغزاه الجدد شماليين تماماً. وقامت إحدى مجموعاتهم "بالإستيلاء على الطريق البرى عبر الدردنيل، بوابة الشعوب القديمة: وعبروا من خلال طراقيا إلى الأرض الألبانية شمال بلاد الإغريق، وهناك، وفى الأقاليم الجبلية، طوروا حياتهم الخاصة فى وحدات اجتماعية...، تحت اسم الدوريين(٦١). أن سبب هذا الوصف المعبر لحياة جبلية منعزلة فى مقاطعات، مما يجعلهم يشبهون السويسريين تقريبا، قد جاء فيما يبدو من حاجة الرومانسيين المستمرة لاستخلاص شخصين الشعب من جغرافية الأرض. وكانت ورطة بالنسبة لأنصار هذا الرأى أن وجدوا أن الأثينيين من الأيونيين "الناعمين" قد عاشوا فى أقليم أتيكا الوعر، بينما عاش الأسبرطيون فى وادى يوروتاس الخصيب.

ولقد تناول كورتيوس أصول الأيونيين باختصار شديد، فهو لم يزد ببساطة عن أن الأيونيين جاءوا مباشرة من فريجيا إلى الساحل الشرقى للبحر الإيجى(٦٢). ولقد ذكر التراث الإغريقى بوضوح أن أيونيا الأناضول لم يستعمرها الأيونيون القادمون من بلاد الإغريق سوى فى القرن الحادى عشر، ولكن نيبور تحدى القدماء فى هذه النقطة. وبهذه الطريقة استند كورتيوس على قوة الدراسة الجديدة عندما أنكر التراث وزعم أن الإغريق قد عاشوا هناك قبل ذلك بكثير. وفى خاتمة هذا الجزء جادل بأن هجراتهم المنفصلة قد ميزت الدوريين عن الأيونيين: ومن ثم فقد وضعت الأسس الأولى للثنائية التى سادت تاريخ ذلك الشعب بأكمله. ورغم ذلك، فقد كانوا متحدين من حيث

العنصر. فقد كان الإحساس الداخلي بالقرابة يجذب كلاً منهما للآخر[٦٣].

والأهم من ذلك كله، أن مشاعر كورتيوس الغامض عن الهيللينيين الآريين تركزت حول اللغة:

"إن الشعب الذى عرف كيف يطور بطريقة فريدة الكنز المشترك للغة الهندو- جرمانية كان ... الهيللينيون. وكان تصرفهم التاريخى الأول هو تطوير هذه اللغة، وكان تصرفا فنيا. إذ يجب اعتبار اللغة الإغريقية دون اللغات الأخرى شقيقاتها عملا فنيا... فلو أن قواعد هذه اللغة كانت هى كل ما تبقى لنا من الهيللينيين، فإنها كانت ستلقى كدليل كامل وقوى على مواهب هذا الشعب غير العادية... إن اللغة كلها تشبه جسداً رياضياً متمرنا، حيث تظهر كل عضلة وكل عصب فى شكلها الأمثل، حيث لا أثر لبروز البطن، ولا توجد به مادة خاملة، ولكن القوة والحياة فقط[٦٤].

وكان لزاما أن تكتمل هذه اللغة "النقية" فى الجبال الشمالية قبل النزول إلى بلاد الإغريق. ولقد رأى كورتيوس هذا الاكتمال المبكر ضرورياً بشكل خاص، لأنه اعتقد أن اللغات تنتمى إلى البيئة بشكل مباشر، عادة ما تسود طبقة من الأصوات على التلال، وتسود طبقة أخرى فى الوديان، وطبقة ثالثة مغايرة تسود فى الهول"[٦٥]. ولم يكن ممكنا التفكير فى أن شيئاً جميلاً ونقياً مثل اللغة الإغريقية قد تطور فى حوض البحر المتوسط، أو أنه جاء نتيجة اختلاط الهيللينيين بالمصريين والساميين.

واعترف كورتيوس بالفعل أن الفينيقيين فى العصور القديمة قد تاجروا فى بلاد الإغريق وأدخلوا بعض الابتكارات الحديثة. ورغم ذلك فقد أصر على أنهم سرعان ما طردوا على يد الأيونيين الأكثر نشاطاً. وكان مقتنعاً أن أساطير الاستيطان المصرى الفينيقى لم تكن سوى محض خرافة كما أثبت العلم العنصرى: "من غير المتصور أن الكنعانيين الحقيقيين، الذين تراجعوا فى خزى أمام الهيللينيين فى كل مكان، خاصة عندما تعاملوا معهم وهم يعبدون عن وطنهم، والذين احتقرهم الهيللينيون كشعب لدرجة جعلت الهيللينيين ينظرون للزواج المختلط بينهم وبين الكنعانيين على أنه زواج مُشين،

وذلك عندما عاشوا معهم في مناطق بها خليط من السكان مثل سلاميس في قبرص*، أننا نكرر مرة أخرى أنه أمر لا يمكن تصوره أن أولئك الفينيقيين قد أسسوا إمارات بين الهيلليين في أى وقت من الأوقات(٦٦).

إن الدلالة المعادية للساميين في هذه الفقرة، والاتجاهات المختلفة تجاه الفينيقيين في بريطانيا في ذلك الوقت سوف يتم مناقشتها في الفصل التالى. ولكن كورتيوس من جانبه قد انتحل الأعذار للإشارة للفينيقيين بطريقة مماثلة ومساوية لطريقة بونسين المربكة، وطبقاً لكورتيوس فإن قصص التراث الإغريقي عن المستعمرات الفينيقيين ظهرت إما من الخلط الطبيعي بين الفينيقيين والأيونيين الذين كانوا خارج البلاد وتعلموا بعض النظم الأجنبية، أو من حقيقة أن كاريا كانت تُسمى فينيقيا، وكان يبدو أن الكآريين أحد أنواع الإغريق الشرقيين(٦٧).

وكان الاستثناء الوحيد الذى سمح به هو كريت حيث اعترف بأن الفينيقيين الفعليين ربما كانوا قد استقروا فيها بأعداد كبيرة، بالرغم من أنهم لم يحلوا محل البلاسجيين الأصليين مطلقا(٦٨). وفي خمسينيات القرن التاسع عشر، كان ذلك يبدو بعيد الاحتمال مع وجود الجزيرة تحت الحكم التركى، ولكن بعد اكتشاف إيفانز للحضارة المينوية على الجزيرة عام ١٩٠٠، اكتسبت كريت أهمية كبرى بحيث لا يمكن قبول خضوعها للفينيقيين.

أننى أود أن أنهى هذا الفصل بلمحة موجزة. فقد سبق وذكرنا الأستاذ الكبير المحافظ ويليام ريدجواى (William Ridgeway) وذلك في معرض حديثنا عن صورة الإسبرطيين الـ Ulstermen وكان هو الأستاذ البارز في تخصص التاريخ الإغريقي المبكر في كمبردج أوائل القرن العشرين(٦٩). وفي كتابه "العصر المبكر لبلاد الإغريق والذى نُشر عام ١٩٠١، قدم نسبة الثقافى عندما أشار إلى أربعة مؤرخين لم يرتب أحد في منهجهم الشكى" وفي جدية آرائهم هم نيبور، ثيرلوول، جروت وكورتيوس. إن أحدا لا يشك في شكهم تجاه النظريات التى لا يميلون إليها(٧٠). ومن

---

* في النص الانجليزى وردت لفظة or بمعنى "أو" (سلاميس أو قبرص) والصحيح "سلاميس في قبرص" أى وضع in بدلاً من or (المراجع).

ناحيـة أخـرى فليـس هنـاك شـك علـى الإطـلاق فـى أنهـم جميعـا - مـع احتمـال اسـتثناء جـروت - كـانوا عنصريـين وإنهـم جميعـاً كـانوا رومانسـيين مغرمـين بتصوراتهـم عـن بـلاد الإغريـق. ويجـب أن يكـون واضحـاً الآن أننـى أرغـب فـى الارتيـاب فـى جديـة آرائهـم واتزانهـم وموضوعيتهـم.



الباب الثامن

صعود الفينيقيين وسقوطهم (١٨٣٠ - ١٨٨٥)

ترجمة د. منيرة كروان

ونصل الآن إلى مرحلة وسطى من مراحل تأسيس النموذج الآرى، إذ أن مساهمة المصريين فى تشكيل بلاد الإغريق قد استبعدت على حين ماتزال مساهمة الفينيقيين تحظى باعتراف عام. ووجهة نظرى فى هذا الفصل والفصول التالية إن القوة الرئيسية الكامنة وراء رفض الاعتقاد التقليدى بالتأثير الضخم للفينيقيين ببلاد الإغريق فى تاريخها الباكر كانت ممثلة فى بروز النزعة العنصرية لمعاداة السامية باعتبارها نزعة معادية للنزعة الدينية. وكان السبب فى ذلك راجعا إلى الاعتقاد الصحيح بأن الفينيقيين كانوا وثيقى الصلة للغاية باليهود من الناحية الثقافية.

وفى الفترة الوسيطة التى نهتم بها تعقد الموقف بسبب تشابه آخر، رؤى أنه يربط بين الماضى والحاضر – وهو العلاقة بين الانجليز والفينيقيين – أمراء الماضى الفخورين من الصناع والتجار. هذا الربط كان مقبولا بين كل من الانجليز وأعدائهم – الفرنسيين فى بداية القرن التاسع عشر والألمان فى نهايته – وهكذا كانت ثمة فروق جوهرية فى المعالجة التاريخية للفينيقيين على ضفتى القنال الانجليزى؛ فقد مال الانجليز إلى الإعجاب بهم بينما كان سكان القارة معادين لهم بعنف تفاوتت درجاته: كان اهتمام الفرنسيين بالفينيقيين قد تزايد مع تورطهم الاستعمارى فى لبنان (فينيقيا القديمة) وشمال إفريقيا (فينيقيا الجديدة). وقد وصل العداء الفرنسى للفينيقيين ذروته فى رواية فلوبير* التاريخية ذائعة الصيت "سلامبو" والتى رسمت صورة حية للرفاهية والقسوة التى كانت عليها قرطاجة فى القرن الثالث ق.م. ولقد فجرت رواية "سلامبو" قضية طقس مولوخ Moloch **المرعب والتضحية بالمولود الأول وهو الطقس الذى يرد ذكره كثيراً فى صفحات الكتاب المقدس. إن تذكره فلوبير التصويرية بالرابطة بين القرطاجيين

---

* جوستاف فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠) : له خمس روايات طويلة وبعض الأعمال القصيرة. ومن العجيب أن فلوبير اعتبر واقعيا رغم رومانسية موضوعاته ورغم أن تركيزه الأساسى لم ينصب على موضوع الرواية والشخصيات ولكنه يركز فى المقام الأول على الأسلوب. ورغم أن رواية "سلامبو" لم تحظ بقبول حسن فى بداية نشرها عام ١٨٦٢ فقد فازت فيما بعد بتقدير كبير. (المترجمة).

** مولوخ صنم كنعانى كان يتم تقديم المولود الأول قربانا له. وتشهد فقرات كثيرة من الكتاب المقدس على استمرار هذا الطقس حتى القرن السادس ق.م. (المترجمة).

والفينيقيين مع هذا الإستذكار الشديد جعلت من الصعب حتى على الباحثين البريطانيين واليهود أن يجعلوا منهم أبطال.

وتهتم الأقسام الثلاثة الأخيرة من الفصل الذى نحن بصدده بوجهة نظر جوبينو حول بلاد الإغريق باعتبارها تأثرت إلى حد بعيد بالسامية ومن ثم كانت ثقافتها ثقافة فاسدة، كما تهتم باكتشاف شليمان للحضارة الموكينية فى العصر البرونزى والمناقشات التى دارت حول الطبيعة العنصرية واللغوية لكل من الحكام والسكان. أما أنا فينصب اهتمامى بشكل خاص هنا على الاعتقاد الشائع بأن الثقافة بأسرها قد اصطبغت بالسامية بشدة.

أما الموضوع الثالث والأخير فهو التأثير الذى أحدثه فك رموز الخط المسمارى واكتشاف أول الآشوريين والبابليين المتحدثين بالسامية ثم اكتشاف السومريين غير الساميين وما أحدثه ذلك كله من تأثير على كتابة تاريخ شرق البحر المتوسط. وإذ نسب المؤرخون المعادون للسامية والذين كانوا قد سيطروا على معظم كتابات التاريخ القديم فى تسعينيات القرن التاسع عشر كافة وجوه الحضارة - حضارة بلاد مابين النهرين. إلى السومريين أمكنهم أن يواصلوا ادعاءهم العام بأن الساميين كانوا بالأساس قوماً غير مبدعين.

الفينيقيون ومعاداة السامية

كان هناك على الدوام تطابق بين الكراهية الدينية لليهود والعداء العنصرى لهم وعلى الرغم من هذا فإنه كان هناك حقا تحول خلال القرن التاسع عشر من Judenhoβ أى كراهية المسيحيين التقليديين لليهود إلى نزعة عنصرية حديثة ضد السامية وكان التحول عملية معقدة على أية حال، وكان إيقاعها مختلف السرعات فى الأماكن المختلفة، ففى ألمانيا على سبيل المثال كانت الفجوة بين الكراهية العنصرية والكراهية الدينية ضئيلة، ولم توجد إلا فى الدوائر المستنيرة والماسونية قبل الثورة الفرنسية. إذ عاشت كراهية اليهود التقليدية على حين نمت جذور معاداة السامية بسرعة فى بواكير القرن التاسع عشر مع العودة للمسيحين والرغب الذى أحدثته النتائج الثورية لحركة التنوير. وقد ارتبطت حركة التنوير فى أذهان الرجعيين ارتباطاً

وثيقاً بالعقلانية اليهودية.

وكانت التغيرات الجارية بين أكثر أفراد النخبة ثقافة بمثابة قمة جبل الجليد بالنسبة للطبقات الألمانية الحاكمة بأسرها. وهكذا فإن همبولت وزوجته كارولين تحركا في الدوائر اليهودية قبل الثورة ولكن بنهاية حياة كارولين كان عنفها وحدتها قد كسب لها اعتراف النازى باعتبارها رائدة من رواد معاداة السامية. أما همبولت نفسه فقد ظل مدافعاً عن اعطاء اليهود حقوقهم المدنية، لكن كتب عام ١٨١٥ : "إننى أميل إلى اليهود ككتلة، أما كأفراد فإننى أتجنبهم بشدة"[1]. وعلى أية حال فليس هناك شك فى أن الموقف قد أصبح أكثر حدة فى سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر وإن كثير من التحرريين المعروفين مثل **Moellendrof-Wilamouitz** و **Mommsen** وآخرين مثل نيتشة **Nietzche** قد عارضوا بشدة تصعيد لنزعة معاداة السامية الجديدة.

وفى فرنسا – التى كان عدد اليهود بها أقل كثيراً – كانت الحلقات المزدوجة التى تربط بين العقلانية اليهودية والتنوير وبين الثورة التى أعطت الحقوق المدنية لليهود قد ربطت بشدة بين اليهود والاتجاه الجمهورى فى السياسة الفرنسية منذ ذلك الحين وكان هذا يعنى أيضاً أن عنف الكراهية تجاه اليهود قد ازداد حدة بين صفوف الملكيين والكاثوليك فى فرنسا عن أى مكان آخر فى أوروبا. ومن ناحية أخرى، بينما كان التحرريون والتقدميون يشاركون غالباً فى النزعة العنصرية ومعاداة السامية الجديدة، فإنهم فى بعض الأحيان رأوا اليهود بمثابة الدعامة الخارجية للجمهورية، ومن ثم كان لليهود حلفاء هامين فى المجتمع الفرنسى وغالباً ما كان لهم مثل هؤلاء الحلفاء فى الحكومة الفرنسية.

وفى إنجلترا، التى كان اليهود قد طردوا منها حتى خمسينيات القرن السابع عشر، كانت توجد من الناحية النظرية اتجاهات معادية للسامية مثلما كانت توجد أيضاً اتجاهات محبة لها. وكان هناك تراث يرجع إلى العصور الوسطى يقول بأن الانجليز ينحدرون من نسل سام بن نوح – وهو جد اليهود الأعلى – ولا ينحدرون من نسل يافث – الجد الأعلى للأوربيين. وكانت هناك الرؤيا البيوريتانية التى ترى إنجلترا على

أنهـا القـدس الجديـدة، وهـى رؤيـا مـاتزال حيـة إلى اليـوم فـى ترنيمـات بليـك Blake الكنسـية[٢]. هـذا الـتراث والـدور الهـام الـذى لعبـه اليهـود فـى تأسـيس السـيادة الماليـة والاسـتعمارية لبريطانيـا فـى أواخـر القـرن السـابع عشـر والثـامن عشـر كـان يعنـى أن هنـاك انتقـالاً مـن كراهيـة اليهـود إلى معـاداة السـامية بشـكل بطـئ، مثلمـا كـان الحـال فـى فرنسـا، وقـدم فرصـاً غـير عاديـة فـى منتصـف القـرن التاسـع عشـر. والذين تحولـوا مـن اليهوديـة إلى المسـيحية مثـل دزرائيلـى (Disraeli) تمكنـوا مـن الوصـول إلى أعلـى المنـاصب بطريقـة كـانت مسـتحيلة مـن قبـل ومـن بعـد علـى السـواء، كمـا أن اليهـود المتمرسـين كسـبوا حقوقـاً مدنيـة وحـازوا القبـول الاجتمـاعى بشـكل لم يحـدث ثانيـة حتـى خمسـينيات أو سـتينيات القـرن العشـرين.

ماذا كان الجنس السامى ؟

على الرغم من أننا رأينا كيف كان اسم قوقازى قد نسب إلى يافث من خلال بروميثيـوس باعتباره اسما نقيضاً لاسم سام فإن مبتكره بلومنباخ (Blumenbach) لم يطـرح هـذا المصطلح سوى فى الطبعة الثالثة لكتابه العظيم De Generis Humani Varietate Nativa عـام ١٧٩٥م. ونحن نعلم أن مفهومه الأول عن الجنس الأبيض الراقى كان يتضمـن كـلا مـن الانجليز كلمة "قوقازى" حتى نهاية القرن التاسع عشر[٣]. وفى أربعينيات القرن التاسع عشـر علـى سبيل المثال وصف دزرائيلى موس بأنه "رجل يجسد النمـوذج القوقـازى مـن جميع الوجـوه، علـى حـين كتب يقول أن اليهود الأوربيين لم يكونـوا ليتحملوا كـل معانـاتهم لـو لم يكونـوا مـن ذوى الـدم القوقازى الخالص وفيما بعد، فى سبعينيات القرن التاسـع عشـر يشـير جـورج اليـوت إلى اليهـود باعتبارهـم القوقازيين الأكثر نقاء[٤]. وحتى فى ألمانيا فإن لاسـين Lassen المسـيحى العنيـف فـى معاداة السامية، وهو من تلاميـذ شـليجل، لم يرفـض فكـرة أن اليهـود قوقـازيون[٥]. وفـى العقـود نفسها كانت هناك مواقف أخـرى أخـذه فـى التطـور. فـإن البروفسـير روبـرت كنوكـس .Prof Robert Knox، عالم التشريح، حاز شهرته باستخدامه لسارقى القبور بورك Burke وهـارى Hare. ومـن الشـائع أنـه كـان يطلـب جثثـا حديثـة الوفـاة ويشـكو مـن أن الجثـث التـى كـانوا يحضرونها له لتشريحها كانت قديمة جداً وباليه. وعلى أية حال، فقد أسعده أن يقبل جثث ضحايـ جرائم القتل التى ارتكباها. ولقد تم شنق بورك وهارى، أما كنوكس، فعلى الرغم من أنه مُنع مـن

ممارسة التشريح، فإنه صار رائدا بارزا من رواد العنصرية، إذ صاغ عبارات يجارى بها سيدونيا الحكيم فى رواية دزرائيلى المسماه تنكريد Tancred، والذى قال "إن الجنس والعنصر هو كل شئ، وليست هناك حقيقة أخرى". وفى عام ١٨٥٠م أصر كنوكس على أن "الجنس البشرى هو كل شئ، فهو ببساطة حقيقة بل هو أكثر الحقائق لفتاً للنظر، وأكبر حقيقة شاملة توصلت الفلسفة إليها منذ الأزل. الجنس البشرى هو كل شئ، هو الأدب والعلم والفن - فى كلمة واحدة - تعتمد الحضارة عليه"[٦].

وقد مجد كنوكس المناسبات التى ارتكب فيها الرجل الأبيض جرائم الإبادة العنصرية: "كان هناك مجال واسع للإبادة أمام الأجناس الساكسونية الكلتية والسارماشيين (السلاف)[٧]. وقد وصف اليهودى بأنه "مهجن عقيم"، واتهم اليهود بأنهم جامدين دائما وغير مبدعين:

"ولكن أين الفلاحون اليهود والميكانيكيون اليهود والعمال اليهود، لماذا يكره اليهودى العمل اليدوى ؟ أليست لديه أية قوة إبداعية ؟ ألا يوجد أى تحول آلى أو علمى فى عقله ؟ ... ثم بدأت أتحرى عن ذلك ورأيت ... أن اليهود الذين يتبعون أى نداء لم يكونوا حقاً من العبرانيين ولكنهم انحدروا من صلب أب يهودى وأم سكسونية أو كلتية. أما اليهودى الحقيقى لا يستسيغ سماع الموسيقى ولا يحب العلم أو الأدب ولا يميل إلى البحث والتساؤل[٨]. ألخ.

والواضح أن كنوكس قد انتقل من الكراهية الدينية لليهود إلى نزعة عنصرية حديثة معادية للسامية... وعلى الرغم من أن مثل هذه المناقشات العنصرية كانت محدثة فى بريطانيا العظمى على نحو ما أوضح مؤرخ معاداة السامية الحديثة بولياكوف Poliakov، فإن المفكرين التقدميين من أمثال داروين وهربرت سبنسر مبتدع الداروينية الاجتماعية كانوا يعملون داخل الإطار نفسه تقريباً، بل أن داروين كثيراً ما اقتبس عبارات كنوكس مبدياً موافقته عليها[٩].

ولنعد إلى فرنسا، ففى عام ١٨٥٦م اشتكى عالم الساميات العظيم ارنست رينان Ernest Renan من أن فرنسا لا تؤمن بالعنصر إلا قليلاً، وهذا بالتحديد لأن العنصر كاد أن يختفى من وجدانها... وكل هذا (الاهتمام بالعنصر) يمكن أن يكون

موجوداً لدى شعب مثل الألمان الذين ما يزالون يحافظون على جذورهم الأولية"[١٠]. وربما تكون المقارنة بين فرنسا وألمانيا مقارنة عادلة، ولكن الفرنسيين أيضاً كانوا يهتمون بالعنصر أو الجنس البشرى. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت فكرة "الجنس السامي" قد أُدمجت منذ وقت طويل فى النزعة العنصرية الجديدة فى فرنسا. ولقد ذكرت بالفعل نظرية التاريخ المرتكزة على الدراسات اللغوية باعتبارها حواراً بين الآريين والساميين. ومن ناحية أخرى فإن تلميذ نيبور الفرنسى ميشيلية **Michelet** رأى فى هذا نضالاً عنصرياً حتى الموت. ومنذ عام ١٨٣٠م كتب يقول فى كتابه "التاريخ الرومانى":

"إن بقاء ذكرى الحروب البونية على هذا القدر من الذيوع والحيوية لم يكن بلا سبب، إذ لم يكن الصراع لمجرد حسم مصير مدينتين أو إمبراطوريتين، دائما كان لتقرير من يحكم العالم من الجنسين، الجنس الهندو-جرمانى أم السامى... فمن ناحية كانت عبقرية البطولة والفن والقانون، وعلى الجانب الآخر روح الصناعة والملاحة والتجارة... لقد حارب الأبطال دون كلل جيرانهم الدؤوبين الخونة. كانوا يحبون الذهب والحدائق المعلقة والقصور السحرية... لقد شيدوا الأبراج بطموح المردة، وحطمتها سيوف المحاربين وإزالتها من على وجه البسيطه"[١١].

ولابد من أن هذه الفقرة قد فُهمت على مستويين، اكتسب كل منهما أهمية فائقة. أولهما المستوى السطحي الخاص بالصراع العنصرى بين الآريين والساميين، وثانيهما، وهو مستوى آخر، فإن كلمة "الجيران الخونة" تشير إلى البيون **(Albion)** الخائن، وهو الاسم الذى أطلقه الفرنسيون على الانجليز. ولا شك فى أن ميشيليه كان يفكر فى الحروب النابليونية الدائرة فى زمنه وهو يكتب عن الحروب البونية، ومن ثم، فإنه على الرغم من أن فرنسا البطولية قد خُربت بسبب الثورة الصناعية الانجليزية، فإن مقارنتها بالحروب البونية، كان بمثابة الوعد بالانتقام. لقد عكست هذه المشابهة منظور العلاقة الوطيدة بين إنجلترا والساميين عموما - والفينيقيين منهم على وجه الخصوص. وهى العلاقة التى تفسر إلى حد ما الصور الانجليزية الإيجابية عن اليهود والتى ذكرناها توا والتى سنعود إليها مراراً وتكراراً.

وسوف نرى أفكار ميشيليه عن الفينيقيين في كتابات جوبينو وفلوبير. وسوف نستمر الآن في النظر إلى تطور نزعة معاداة السامية العنصرية في فرنسا والتي يتجلى أبرز مثال لها في كتابات إيميل لوى بورنو Emile Louis Burnouf كان إيميل بورنو عالماً بارزاً من علماء السنسكريتية، وكان متحمسا للروابط الهندو-أوروبية. وكان أيضاً ابن عم يوجين بورنو Eugène Burnouf أحد مؤسسي الدراسات الهندية في فرنسا وبطل كتاب شواب Schwab الذى يحمل عنوان "النهضة الشرقية" وإذ كتب إيميل بورنو في ستينيات القرن التاسع عشر واصفاً الجنس السامي على النحو التالي:

"إن السامي الحقيقي يميزه شعر ناعم، متموج عند نهاياته، وأنف معقوف بقوة، وشفاه مكتنزه. وأطراف غليظة، وسيقان رفيعة، وأقدام مفلطحة. وما هو أكثر من ذلك فإنه ينتمي إلى الشعوب التي تكون مؤخرة الرأس لديها أكبر حجماً من مقدمتها، ونموه سريع للغاية، ولكنه يتوقف عند سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، ففي هذا السن تكون الجمجمة التي تحوى أعضاء الذكاء قد التحمت تماماً، بل أنها يندمج سويا في بعض الحالات. ومن هذه الفترة يتوقف نمو عقله. أما في الجنس الآرى فإن هذه الظاهرة أو أى شئ شبيه بها لا يحدث في أى مرحلة من مراحل العمر"(١٢).

وحسبما يقول بورنو، كان الجنس السامي خليطاً من الجنس الأبيض والجنس الأصفر. أما معاصره جوبينو، الذى اعترف به التيار الرجعي الشرس أباً للعنصرية الأوروبية مؤخراً، فإن له رأياً أشد تعقيداً فيما يخص اليهود والساميين. إذ كان الكونت جوبينو ممزقاً بين تأييده المحافظ للكنيسة وشغفه بالنظرية الجديدة في العنصرية. وقد أدى به هذا الصراع إلى كافة أنواع الصعوبات، كان أشدها رسوخا متمركزاً حول مسألة خلق الإنسان، هل كان خلقاً من أصل واحد أم من أصول متعددة ؟... وقد وصفه بولياكوف بحق بأنه "توحيدى في النظرية تعددى في الممارسة، لأن جوبينو كان يرى فعلاً الأجناس الثلاثة - الأبيض والأصفر والأسود - باعتبارها سلالات منفصلة(١٣). ولأنه شخصياً كان ممزقاً بين أب نبيل جامد وأم "مغامرة"، فقد كان واضحاً في تخيله الجنسي للأعراف(١٤). ووفقاً لرأى جوبينو، فإن "البيض" كانوا في الأصل "الذكر"،

على حين كان "السود من ناحية أخرى "الأنثى". وعلى الرغم من احتقاره لهم فإنه رأى "أن العنصر الأسود"... كان ضروريا لتطور عبقرية فنية في جنس ما، لأننا رأينا مدى تفجر.... الحيوية والعفوية التي هي صفات جوهرية لازمة لروح هذا الجنس (الأسود) وكيف أن الخيال، وهو مرآة الحساسية وكافة الشهوات للأشياء المادية، يجعل هذا الجنس مستعداً وجاهزاً..." [١٥].

هذا التوتر ذاته قد انعكس على رؤية جوبينو التاريخية الشامل، وهي رؤية هجينه تولدت عن المزج بين الكتاب المقدس والنزعة الهندو-أوروبية. فالأجناس الثلاثة، حسب رأيه - يمثلها أبناء نوح الثلاثة - حام وسام ويافث - وهم جميعاً يرجعون في أصولهم إلى أقليم سوجديانا Sogdiana، أو اقليم مشابه في وسط آسيا، وهم مثل أبطال قصة "الخنازير الثلاثة الصغيرة" خرجوا يسعون وراء عيشهم[١٦]. وكان الحاميون هم أول من اتجه جنوباً. وبعد أن أسسوا بعض الحضارات وحاولوا الحفاظ على نقائهم الجنسي، اختلطت أنسابهم قسراً بالسود المحليين الذين كانوا في درجة أدنى[١٧]. وكان الساميون هم الذين رحلوا بعد الحاميين. وعلى الرغم من أن أولئك بذلوا محاولات للحفاظ على نقاء دمائهم، فإنهم اختلطوا كثيراً بالدماء السوداء، وكان هذا راجعاً إلى حد ما إلى اتصالهم المباشر بالسود، ولكن السبب الأكبر كان نتيجة اختلاطهم بالحاميين المهجنين[١٨]. ولم يبق في الشمال سوى أبناء يافث، أو الآريين الذين حافظوا على نقاء جنسهم.

وعلى الرغم من أن كتاب جوبينو كله كان بمثابة رثاء للنقاء الجنسي المفقود، فإن الخليط الجنسي كان الأساس الذى قام عليه هيكل كتابه ذلك أنه في حالة الاختلاط الجنسي فقط يمكن للإنسان أن يشرح كلاً من ملامحه الجيدة والسيئة على السواء وهكذا فإن جوبينو نسب ما أعجبه في اليهود. بسالتهم في القتال وجودة زراعتهم للأرض. إلى دمائهم السامية، ولكن مهارتهم في التجارة وحبهم للترف وقسوتهم واستخدام المرتزقة وما إلى ذلك كانت بسبب التأثيرات الحامية[١٩].

وفي سنة ١٨٥٦م كتب حامية جوبينو وراعيه أليكسيس دى توكفيل Alexis de Tocqueville كتب إليه مواسياً بسبب الاستجابة البطيئة التي لقيها كتابه في

فرنسا. وكان توكفيل، مثل صديقهما المشتركة أرنست رينان، يظن أن الكتاب كان يمكن أن يحظى بقبول أفضل فى ألمانيا "بحماستها للحقيقة المجردة..." وأكد له مجدداً أن الكتاب سوف يعود إلى فرنسا عن طريق ألمانيا على الرغم من كل شئ[٢٠]. والحقيقة أن الكتاب قد أُعيد طبعه بعد الغزو الألمانى لفرنسا سنة ١٩٤٠م مباشرة.

نقائص الساميين اللغوية والجغرافية

كانت هناك نظرة سادت طويلاً ترى بحق أن هناك قرابة وطيده تجمع بين اليهود والفينيقيين. فقبل حل لغز الأبجدية الفينيقية على يد بارثليمى Barthelemy فى منتصف القرن الثامن عشر بوقت طويل، كان بوشار Bochart فى القرن السابع عشر مدركاً تماماً أن العبرية والفينيقية لهجتان من لغة واحدة[٢١]. وبحلول ثمانينيات القرن الثامن عشر كانت اللغتان قد أدرجتا مع العربية والآرامية والحبشية تحت عنوان "اللغات السامية". وكثيرون من علماء مطلع القرن التاسع عشر، الذين اتخذوا موقف رد الفعل إزاء الصورة التى يرسمها الكتاب المقدس للغة العبرية باعتبارها لغة آدم وكلام الجنس البشرى كله حتى سقوط برج بابل، باتوا ينكرون بعنف أن تكون هذه اللغة لغة كاملة أو أصيلة. إذ أحسوا أنذاك أنها لغة بدائية. فقد حث همبولت ، مثلاً، على أن يتم تعليمها فى الجمنازيا لهذا السبب[٢٢]. وقد رأينا فى الفصل الخامس كيف أن فريدريك شليجيل حدد اللغات السامية باعتبارها الشكل الأعلى من لغة الحيوان، ولكن بما أن النحو والصرف يعتبر حجر الأساس فى اللغات "الروحية" الأسمى، فإنه لم يكن هناك سبيل لتجنب حقيقة أن اللغات السامية كانت هى اللغات المتفوقة فى الصرف والنحو[٢٣]. ومن ثم، فإنه بينما كان همبولت وغيره يبتكرون أبنية لغوية "تقدمية" على نحو أو آخر، كان لابد من وضع اللغات السامية على نفس القمة مع اللغات الهندو-أوروبية. هذا الموقف الذى عكس التسامح النسبى إزاء اليهود فى أوروبا فى بواكير القرن التاسع عشر، استخدم بوصفه قاعدة للنظرة، الأكاديمية إلى التاريخ "الحقيقى" باعتباره حواراً بين الآريين والساميين.

وقد نظر العنصريون من علماء وظائف الأعضاء (الفسيولوجى) إلى الساميين باعتبارهم "الأنثى" و "العاقر" أيضاً - ذكاؤهم سطحى وخيالى، ولكنهم فى الأساس

عاجزين عن التفكير أو الفعل الإبداعي ولم يتفق أرنست رينان مع صديقه جوبينو، وإنما سار على خطى التراث الروماني الأقدم الذي يزعم أن ثمة أسباباً لغوية في الأساس تكمن وراء عجز بعض الشعوب. وقد كان رينان الذي يحظى باعتراف عام بأنه أبرز جنير فرنسي في اللغات السامية، ومؤسس الدراسات الفينيقية في القرن التاسع عشر، يولى جُلَّ اهتمامه بما رأى أنه من نقائص اللغات السامية. وإذ عبر عن نفسه من خلال الأسلوب الملتو للعلماء الألمان الذين هام بهم إعجاباً، كتب يقول:

"إن وحدة الجنس السامي وبساطته كامنة في اللغات السامية ذاتها. فهم لا يعرفون التجريد، كما أن ما وراء الطبيعة يبدو من ضروب المستحيل بالنسبة لهم. وبما أن اللغة هي القالب الضروري لصياغة العمليات الفكرية لأى شعب، فإنه إذا تجرد الأسلوب من التركيب اللغوى، وأفتقر إلى التنويعات البنائية، وخلا من حروف الوصل التي تناسب العلاقات المرهفة بين عناصر الفكر، كان محتماً على اللغة أن تتواءم مع نبوءات العرافين الفصيحة ورسم الانطباعات العابرة، ولكنها لابد وأن ترفض كافة أشكال الفلسفة والتأمل العقلي الخالص. ولنتصور كيف يمكن لمثل أرسطو أو كانط أن يعمل بمثل هذه الأدوات..." [٢٤].

وفي رأى رينان أن السبب الآخر في النقص الذى يعترى اللغات السامية هو سبب جغرافي. فالأوربيون يعيشون في مناخ ممطر (لقد كان "بريتون" Breton)، ولهذا جبلوا على طبيعة تتسم بالحذق والفطنة والتعددية. أما الساميون القادمون من الصحراء، بشمسها التي لا ترحم والفروق الحادة المميزة بين الضوء والظل، فقد جبلوا على البساطة والتعصب:

"يبدو لنا الجنس السامي جنسا غير كامل من خلال بساطته. وإنني أجرؤ على القول إنهم بالنسبة للعائلة الهندو-أوروبية مثل الرسم البسيط بالقلم إذا ما قورن بفن الرسم أو التصوير (بالألوان) أو هم مثل التراتيل الكنسية مقارنة بالموسيقى الحديثة. إن هذا الجنس يفتقر إلى التنويع، وإلى ذلك المدى من الوفرة والتنوع في الحياة والذى هو ضرورى لتحقيق الكمال" [٢٥].

ومن ناحية أخرى، كانت هذه البساطة والكثافة منابع الدين الذى أعطاه الساميون للعالم؛ على حين رأى رينان أن رسالته تتمثل فى الجمع بين العلم الذى نسبه للآريين والدين الذى نسبه للساميين[٢٦]. ومن هنا جاءت دراساته الفيلولوجية وفى الأجناس فى بحثه عن أصول المسيحية. ولا ينبغى على أية حال النظر للدين باعتباره مبرراً لإعطاء الساميين المساواة:

"وهكذا يجب التعرف على الجنس السامى من خلال الخصائص السلبية. فليست لدى هذا الجنس أساطير ولا ملاحم ولا علوم أو فلسفة، وليست لديه فنون أو حياة مدنية؛ ففى كل شئ يغيب الحذق والتركيب تماماً، كما تتوارى المهارة والإحساس، إلا فيما يتعلق بالوحدة. وليس لدى هذا الجنس أى تنويع فى عقيدته التوحيدية[٢٧]

وموقف رينان حرج، ليس فقط لأن اعترافه العلنى غير العَادى يوضح أنه كان يوصل آراءً عامة ببعضها البعض، وإنما بسبب وضعه البارز فى مجال الدراسات السامية والدراسات الفينيقية ودراسات كتاب اليهود والنصارى المقدس أيضاً. هذا المزيج كان يعنى أنه قد عكس الآراء الشائعة والمواقف العلمية فى هذه الدراسات وركز عليها[٢٨]. والواقع أن هناك متوازيات لافتة للنظر بين علاقات رينان باللغات السامية، وعلاقات كل من همبولت ونيبور وبونسين فى الدراسات المصرية القديمة. ففى كلتا الحالتين يبدو أن الباحثين قد خشوا تهمة التعاطف المفرط مع موضوع دراستهم. وبطبيعة الحال لم يكن ممكناً تبرير أى تورط فى خيانة أوروبا، إذا ما كشفت الدراسة "العلمية" لثقافة غير أوروبية عن أن هذه الثقافة أدنى من الناحية الكيفية، وغريبة، وخاملة[٢٩]. وعلى أية حال، فقد أصر رينان على أن الساميين لم يكونوا كغيرهم من غير الهندو-أوربيين، الذين لم يكن هناك شئ طيب يمكن أن يقال عنهم. وقد ثبت على القول بأنه كانت للساميين خصائص جيدة شاركهم فيها الانجليز؛ وقد خفف من عداوته لكليهما بعكس ميشيليه. ففى رأيه أن كلاً من الشعبين يمتلك "استقامة عظيمة فى العقل وبساطة فى القلب يحسدون عليها، كما أن لديهما عاطفة أخلاقية رائعة...[٣٠]".

يقـدم التنـاقض بـين تومـاس ومتـى أرنولـد مثـالاً إرشـاديا للتغـيرات التـى كـانت تجرى داخل التيار العنصرى الانجليزى فى القرن التاسع عشر. إذ كـان الدكتـور توماس أرنولد مشغولاً فى عشرينيات القرن التاسع عشر وثلاثينياته بين التيوتـون والغـال – بما فـى ذلك الغالو – رومان – كما كان مهتماً بشكل واضح بالصراعات بين الانجليز والفرنسيين والأيرلنديين. وكـان فخـوراً بشـهرته بـأن "دكتـور أرنولـد تيوتونـى التيوتـون وكـاره الكلـت"[٣١]. أمـا ابنـه متـى فـى خمسينيات وستينيات القـرن التاسـع عشر، وسبعينياته فكان يميل إلى كل من الفرنسيين والأيرلنديين معتقداً أنه قد تجاوز ضيق الأفق الذى أقسم به والده[٣٢]. ولأنـه كـان مدركـاً تمامـاً مـدى التقدم الجديد الـذى تحقق فى مجال الدراسات اللغوية، فقد كـان مـن المؤيدين المشابرين للهنـدو أوربيين والآريين. إذ كـان يحبهم جميعاً. والواقع أنه باعتباره زعيمـاً لمدرسة أخـرى فـى الفكـر الانجليزى فـى منتصف القرن التاسع عشـر، فقـد تحمس حتى للغجر والبوهيميين. فقـد كـان هـؤلاء المتحدثـون باللغات الهنـدو-أوروبيـة يبـدون آنـذاك، مثلما رأى فنكلمـان الإغريـق، فـى صورة أبناء العم الآريين المرحين الساحرين الطفوليين اللامبالين، على الرغم مـن نزعتهم الفلسـفية فـى بعـض الأحيـان. لقـد كـانوا هـم الجـانب الأخـف فـى الثقافـة الهنـدو-أوروبيـة[٣٣].

وقـد اعـترف متـى أرنولـد بـأن رينـان كـان، بعـد والـده هـو، أكـبر مؤثـر فكـرى علـى حياتـه[٣٤]. وتقبـل اعتقـاد رينـان – التـى كـان يشـاركه فيـه معظـم المفكرين البارزين فى عصره – بأن التقسيم الأساسى فى تاريخ العالم كان بـين الهيللينيـة والعبريـة، أى بـين الآريـة والسـامية[٣٥]. وعلـى أى حـال، جابهتـه مشـكلة لم تؤثـر فـى دعـاة العنصرية فـى القـارة الأوروبيـة: إذ أنـه كـان مضطـراً إلى الاعـتراف بصحـة اتهـامهم بـأن الانجليـز كـانوا يشـاطرون السـاميين بعـض الخصـائص. وفضـلاً عـن ذلـك، كمـا ذكـرت مـن قبـل، كـانت لبريطانيـا تـراث محـب للسـامية صـار علـى درجـة مـن القـوة لاسـيما مـع بـروز البورجوازيـة فـى منتصـف القـرن التاسـع عشـر. وهكـذا كـان كثيرون مـن أبنـاء العصـر الفيكتـورى يـرون أنفسـهم فـى صـورة

الآباء الذين ذكرهم الكتاب المقدس، ويمدحون أنفسهم بسبب مثابرتهم، وتدبيرهم، وحصافتهم، واحترامهم للأشكال – فضلاً عن إحساسهم بالاستقامة الصارمة.

كان أرنولد معذباً بهذا التذبذب الذى يتقاطع مع خطوط لغوية وعنصرية. وشرحه لذلك التشوه مؤداه أن روح الانجليز "العبرانية" كانت راجعة أساساً إلى حركة الإصلاح الدينى والحركة التطهرية (البيوريتانية). ومعنى هذا، أن التقسيم بين الهيللينية والعبرانية كان من نتاج الحرب الأهلية، أى الصراع المستمر بين الكنيسة الأعلى والكنيسة الأدنى، بين كنيسة المدينة وكنيسة الضيعة، وبين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي[٣٦]. ومثلما فعل رينان ادعى متى أرنولد أنه تعرف على فضائل عديدة في التراث "العبراني"؛ ومع هذا فإنه طلب من الانجليز أن يشيحوا بوجوههم بعيداً عن النزعة الفلسطينية البورجوازية التى ميزت البيورتان الأواخر ويولوا وجوههم شطر الإغريق. فقد رأى في الإغريق – متبعاً في ذلك خطى التراث السائد أى تراث فنكلمان – شعباً مرحاً فناناً تلقائياً ذا طبيعة هادئة. ولكن أرنولد – بوصفه رجلاً من أبناء القرن التاسع عشر – أضاف إلى خصالهم أيضاً التفكير الصافي والمقدرة الفذة على التفلسف. فإذا ما اتجهت إنجلترا إلى الروح الإغريقية كان بوسعها أن تلحق بالتقدم الذى حققته جاراتها الأوربيات. لقد كانت دعوة أرنولد النهائية التى ضمنها كتابه الشهير Culture and Anarchy، دعوة ذات طبيعة عنصرية" "إن الهيللينية نبت هندو–أوربى المنشأ، والعبرانية نبت سامي المنشأ، وعن الانجليز شعب من الشعوب الهندو–أوروبية، ومن الواضح أننا ننتمى بالطبيعة لحركة الهيللينية"[٣٧].

وعلى الرغم من أن النزعة الهيللينية في العصر الفيكتورى كانت حركة حيوية ومعقدة ذات جوانب عديدة، فلا شك في أن كافة التصورات عن الإغريق بعد نشر كتاب متى أرنولد Culture and Anarchy سنة ١٨٦٩م قد تطورت مع، أو كانت رد فعل إزاء، ما ذكره عن النزعة الهيللينية الألمانية الجديدة German Neo-Hellenism. وحيث تداخل حب دكتور أرنولد للإغريق مع نزعته التطهرية، والتوتونية ومعاداة السامية، فإن النزعة الهيللينية لدى إبنه كانت مرتبطة بوضوح برؤية الجنس الهندو–أوربى أو الآرى في صورة صراع دائم ضد الجنس السامي، أو أن هذه النزعة كانت متصلة بالصراع بين القيم الزراعية والقيم البورجوازية.

وفي هذا، بطبيعة الحال، كان يسير على طريق ممهد تماماً. ومن الناحية النظرية فإنه – مثل ميشيليه ورينان وغيرهما – مقولة بونسن بأنه "إذا كان الساميون العبرانيون كهنة الإنسانية، فإن الآريين الإغريق والرومان كانوا وسوف يبقون إلى الأبد، أبطالها"[٣٨]. وعلى أية حال، فإن الجميع أحسوا أنهم حين يمنحون الساميين الديانة فإنهم يمنحونهم أكثر مما يستحقون. ومثلما كتب متى أرنولد في خطاب إلى أمه:

"لقد اعتاد بونسين أن يقول إن مهمتنا الكبرى هي التخلص من كل ما هو سامي خالص في الديانة المسيحية وأن نجعلها ديانة هندو-جرمانية، كما أن شليرماشر Schleiermacher يقول أنه في مسيحية أوطاننا الغربية الكثير من أفلاطون وسقراط وبدرجة أكبر من وجود يوشع وداود، وعلى العموم كان أبي يعمل في اتجاه هذه الأفكار التي طرحها بونسن وشليرماشر، وربما كان أقوى رجل انجليزى في عصره يقوم بهذا العمل"[٣٩]. وبدون رغبة في جذب الانتباه بعيداً عن روح دكتور أرنولد الرائدة في هذا الموضوع، يجب تذكر أنه في سنة ١٨٢٥م قام ثيروول بترجمة كتاب شليرماشر St luke "القديس لوقا" الذى كان يحوى الكثير من هذه الأفكار. وفضلاً عن ذلك، كان فيكتور كوسان في فرنسا يعلن عن الطبيعة الهيللينية للمسيحية منذ سنة ١٨١٨م[٤٠].

بينما لا يمكن للمرء أن يلوم الآباء دائماً على خطايا أبنائهم، فإنه من المثير أن نلاحظ أنه خلال سبعينيات القرن التاسع عشر اخترع إرنست ابن بونسن صيغة آرية لعبادة الشمس قائمة على أساس تراث الكتاب المقدس الذى يقول إن آدم كان آريا وأن الحية كانت سامية[٤١]. وبغروب شمس القرن التاسع عشر كانت هناك عدة محاولات مختلفة لتأسيس مسيحية آرية أو جرمانية. وكانت أوفر هذه المحاولات حظاً هي تلك التي خلقها بول لاجارد الأكاديمي البارز المتخصص في الساميات والوطني الألماني المتحمس. وكانت وجهة نظر لاجارد Paul Lgarde أن المسيح كان "يهوديا آريا" من الجليل صلبه "اليهود الساميون". ومما جعل الأمور أكثر سوءاً أن يهوديا آخر هو بولس أخذ المسيحية وحرَّفها؛ وبهذا تولدت الحاجة لتخليص الديانة الآرية الحقيقية من الشوائب السامية التي علقت بها. لقد كان لاجارد مغاليا في عدائه للسامية ونادى

سراراً وتكراراً بتحطيم اليهودية ونفى اليهود إلى مدغشقر، وقد صارت دعوته هذه فيما بعد أحد مشروعات هتلر. وعلى العموم، فإن حركة لاجارد قد وُصِفَت بأنها أحد منابع النازية[٤٢]

وفى إنجلترا، لم تكن الأمور أبداً على هذا القدر من التدهور. وحتى مع هذا، فقرب نهاية القرن كانت هناك رغبة فى تجريد الساميين من مساهمتهم الواحدة فى تاريخ البشرية. ذلك أن أحد الموضوعات الأساسية فى رواية هاردى Hardy الذى يحمل عنوان "Tess of the d'Urbervilles"، والذى نشر لأول مرة سنة ١٨٩١م، هو الصراع بين إنجلترا السكسونية الحقيقية التى تتميز بحيويتها الدائمة فى Wessex التى تحتل مكان القلب منها، وبين أحفاد الغزاة الفرنسيين الضامرين.* وعلى أية حال فقد تم الربط بين النزعة الجرمانية لدى هاردى والنزعة الهيللينية التى رأى أنها فى حال من الصراع ضد النزعة السامية والفلسطينية السائدة بين أوساط البورجوازية الجديدة. فالبطل Angel Clare يريد أن يعود إلى الأرض ليتزوج فتاة سكسونية خالصة. وهو فى الوقت نفسه يتمتع بخصال ديونيسيوسية مثل تلك التى أسبغها فنكلمان على الإغريق؛ إذ أنه يحب الرقص، كما يهوى الأكل والشرب واللهو والمرح فى الريف الهادى عموماً. أما والد آنجل وإخوته فكانوا من الطراز السامى العتيق، فهم على خلق قويم، مستقيمون، وبعيدين تماماً عن الاتصال بالطبيعة والحياة. ويصف هاردى اللحظة الحرجة فى صراعاتهم بالمصطلحات التالية:

"حدث ذات مرة أن عبس الحظ فى وجه آنجل إذ قال لأبيه ... إنه ربما كان من الأفضل للجنس البشرى لو أن بلاد اليونان كانت هى منبع الديانة للحضارة الحديثة بدلاً من فلسطين، وكان حزن أبيه من ذلك النوع الذى أعماه عن أن يدرك أنه ربما كان هناك واحد على الألف من الحقيقة فى هذا القول، وهو قدر أقل كثيراً من نصف الحقيقة أو الحقيقة كلها..."[٤٣].

ومن ثم فإن هاردى هنا يضع نفسه فى صف متى أرنولد ورينان على الرغم من أنه لا

---

* هذه إشارة إلى أن غزو إنجلترا سنة ١٠٦٦م على يد وليم الفاتح جاء من نورماندى التى كانت إمارة نورماندية غرب فرنسا، ونتج عن هذا الغزو أن ظلت إنجلترا بمثابة تابع ثقافى لفرنسا حوالى ثلاثة قرون.

يشاطرهما حبهما للغيليين*

الفينيقيون والانجليز (١): وجهة نظر إنجليزية

على الرغم من الربط بين الانجليز والساميين، فإن أحداً لا يقارن الانجليز بالعرب أو الأحباش. فالساميون عندهم هم اليهود والفينيقيون معاً أو أحدهما، وفي هذا الجزء من الفصل سوف نركز على الارتباط مع الفينيقيين. فبينما ركزت مناقشات ميشيليه عن الحرب الدائمة بين الهندو-أوربيين والساميين على الصراع بين روما وقرطاجة، كان التشابه بين قرطاجة وإنجلترا واضحاً أمام ناظرى القراء فى القرن التاسع عشر على كلا ضفتى القنال الانجليزى (أى فى إنجلترا وأوروبا). وكان كثيرون من أبناء العصر الفيكتورى يحملون مشاعر إيجابية تجاه الفينيقيين باعتبارهم تجار أقمشة جادين لم يعملوا بتجارة الرقيق إلا قليلاً، كما أنهم نشروا الحضارة على حين حققوا أرباحاً طيبة. وهكذا، فإن وليم جلادستون William Gladstone، الذى جاء من بيئة تجارية مشابهة تماماً، كان بطلاً مرموقاً بين دعاة النزعة الفينيقية(٤٤). وقد يبدو هذا مدهشا بالنظر إلى ولعه بقيم هوميروس الارستقراطية، وحبه لليونان الأوروبية، وكراهيته لتركيا الآسيوية(٤٥). وعلى أى حال، فإن هذه الحماسة وجدت ما يتصادم معها فى أربعينيات القرن التاسع عشر، عندما أعلن دزرائيلى، الذى سيصبح منافساً له فى المستقبل. عن تفوق الجنس السامى. وفى سنة ١٨٨٩م، ألف المؤرخ المحترم رولينسون G.Rawlinson تاريخاً عطراً عن الفينيقيين وصفهم فيه بأنهم "الشعب الوحيد بين كل شعوب العالم القديمة الذى يحمل خصائص تجمع بينه وبين إنجلترا والانجليز(٤٦).

كذلك كان هناك اعتقاد شائع – ومعقول تماماً – بأن الفينيقيين قد جاءوا إلى كورنول ليتاجروا فى مقابل القصدير، ويبدو أن متى أرنولد رأى فى ذلك مصدراً باكراً من مصادر النزعة العبرانية الانجليزية. ففى القصيدة الشهيرة التى مطلعها "هناك تاجر رزين من صور..." ينسلخ الفينيقى فى حياء بعيداً عن الجنس الإغريقى السيد الجديد "سادة الموج الشباب ذوى القلوب الوضاءة". فحينئذ يطرد الفينيقى من البحر المتوسط

---

* Gaels الغيليون، إصطلاح يطلق على أجداد الأسكتلنديين والأيرلنديين.

إلى المحيط الأطلنطى وبريطانيا، ويظهر نفس هذا التعاطف مع الفينيقى الهالك بعد أكثر من خمسين سنة فى قصيدة "Death By Watee" فى ديوان ت.س. إليوت "الأرض اليباب "The Waste Land": :

فليباس الفينيقى، مات منذ أسبوعين
نسى صيحات النوارس وصوب
البحر العميق
كما نسى الربح والخسارة
تيار تحت البحر
التقط عظامه هامسا، بينما كان يعلو
ويسقط مر بمراحل عمره وشبابه
داخلاً فى الدوامة
أممى أم يهودى
أنت يامن تدير العجلة وتنظر هبوب
الريح فكر فى فليباس الذى كان يوما وسيما
طويلاً مثلك[٤٧].

وتنتمى "الأرض اليباب" إلى فترة مابعد Bérard، التى سوف أناقشها فى الفصل التالى. ومع هذا، فإنها توضح مواقف أنجلو – سكسونية بعيدة المدى فى الربط بين الفينيقيين وبينهم فى نشاطاتهم البحرية والمصرفية. أما الالتباس والغموض الذى يكتنفها بشأن طبيعة الفينيقيين السامية، فهو أمر له دلالته أيضاً، لأنه إذا كان الساميون نموذجاً للطفيلية والسلبية، فإن الفينيقيين – الذين كانوا نشطين فى الملاحة والصناعة والتجارة أكثر من "التمويل" اليهودى – لا يمكن أن يكونوا ساميين حقا.

وعندما تقوم به العمر إلى غايته، شعر جلاد ستون بالحاجة إلى الدفاع عن أحبائه الفينيقيين من التهمة الزاحفة صوبهم بأنهم ساميون: "لقد كنت أؤمن دائما بأن الفينيقيين فى أعماقهم كانوا من جنس غير سامى"[٤٨]. والواقع أنه مع بداية القرن العشرين كانت إنجلترا تلحق بسرعة بقية أوروبا فى نزعتها المعادية للسامية، وصارت

المواقف تجاه الفينيقيين أشد تعقيداً. والاعتقاد بأن ربما كان لها ارتباط ببعض العناصر السامية الهامشية بات محل شكوك متزايدة. ولذلك فإن البحث عنها، على نحو ما فعل شرلوك هولمز أثناء تقاعده في كورنوول، كان يعتبر آنذاك بمثابة نموذج للفراغ. ومن ناحية أخرى، فإنه حتى ملء الفراغ يوحي بأنه كان هناك ولع بالموضوع وبالفينيقيين؛ على حين كانت هناك مواقف مختلفة تماماً تتطور تجاههم في كل مكان آخر في أوروبا.

الفينيقيون والانجليز (٢): وجهة النظر فرنسية

ذكرنا فيما سبق المشابهة الضمنية – المريحة تماماً – التي عقدها ميشيليه بين كل من الفرنسيين والرومان، والانجليز والقرطاجيين. ولكنه في موضع آخر يقول في صراحة ووضوح:

"لقد تجسدت الكبرياء الإنسانية في شعب، فكانت إنجلترا – ماذا حدث عندما انتقل البرابرة (الدانيين والنورمان) ليعيشوا فوق تلك الجزيرة القوية، لكي ينعموا بثراء البلاد والضرائب التي يجبونها من المحيط؟ لقد جمع ملوك البحر، حيث العالم بلا قانون وبلا حدود بين صلابة القرصان الدنماركي وغطرسة "السيد" ابن النورمان الإقطاعيين ... ترى كم مدينة مثل صور وقرطاجة ينبغي تراكمها فوق بعضها حتى نصل إلى وقاحة إنجلترا الماردة[٤٩].

إن الوحشية الكامنة في هذا التشبيه يمكن أن نراها من خلال إشاراته للفينيقيين: "يبدو أن القرطاجيين، مثل الفينيقيين، الذين انحدروا من نسلهم، كانوا شعباً صعباً وحزينا، حسيا ونهما، مغامراً دوئما بطوله". وبعد هذا المثال الرائع على التناقض في القول، يستمر في استعراض وجهة نظره بأنه" في قرطاجه أيضاً كانت الديانة بشعه ومليئة بممارسات مخيفة"[٥٠].

لقد ظلت التشابهات المذمومة بين الانجليز والفينيقيين بشكل عام، والقرطاجيين بشكل خاص، فيضان نسيج الفكر الفرنسي طوال القرن التاسع عشر. ومن الممكن النظر إلى هذا التناقض من خلال حقيقة أنه عندما قال جلادستون أن الفينيقيين لم يكونوا

ساميين، كان يعني أنهم كانوا أفضل من اليهود. ومن ناحية أخرى، فقد كانوا أكثر سوءاً بالنسبة لمعظم الكتاب الفرنسيين والألمان، وقد يكون من المفيد هنا أن نتأمل مواقف جوبينو تجاه الفينيقيين.

وهناك سببان يضفيان الأهمية على جوبينو، فقد كان له قدر من النفوذ على الفكر الفرنسي والألماني وكذلك على ماتيو (Matthew) وأرنولد (Arnold)، ويبدو أنه قد عبر بصورة متطرفة عن أراء عديدة اعتنقها العديد من أصدقائه أمثال دى توكيفيل ورينان (de Tocqueville) (Renan) ولكنهم لم يجرؤا على نشرها.

إن وضع الفينيقيين في تصور جوبينو عن الغزوات الثلاث للحاميين والساميين والآريين أو أبناء يافث، وضع معقد. إذ أن الكتاب المقدس جعلهم ينحدرون من نسل حام بشكل واضح. ولكن، وكما رأينا في الفصل الثالث، فقد عرف الدارسون العلاقة الحميمة جداً بين الفينيقية والعبرية على الأقل منذ القرن السابع عشر[٥١]. وبالنسبة لجوبينو في القرن التاسع عشر، كان هذا الضم اللغوى حرجاً ومزعجاً أيضاً. ولقد كان التركيب القوى لتراث الكتاب المقدس، ورغبة جوبينو أن يربط اللغة المقدسة برباط متين مع لغة الفينيقيين، فضلاً عن موقفه المعقد، وإن كان إيجابياً في نواح عديدة تجاه اليهود، كل ذلك قد وزعه إلى تصوير الفينيقيين باعتبارهم من أبناء حام لا من أبناء سام، وبذلك لم يكن هناك من سبيل أمام جوبينو لعمل مصالحة بين الكتاب المقدس والمصادر اللغوية سوى التزوير السافر. وفي عام ١٨١٥ قسم عالم الساميات الألماني الكبير ويلهلم جسينيوس Wilhelm Gesenius اللغة السامية إلى ثلاث عائلات فرعية:

(١) الآرامية والسورية

(٢) الكنعانية – وتضم العبرية والفينيقية – والتي جاءت منها اللغة البونية*

(٣) اللغة العربية والتي اشتقت منها الأثيوبية[٥٢].

ومع ذلك ذكر جسنيوس في موضع آخر أن اللغة الفينيقية انتشرت في أنحاء

* اللغة البونية هي الفينيقية أو بالأحرى كانت لغة القرطاجيين في شمال إفريقيا. (المترجمة).

المستعمرات والأسواق الفينيقية الواسعة، ولقد أورد جوبينو هذه الصفحة ليزعم أن جسينيوس قد صنف اللغات السامية إلى فصائل أربع:

وتضم الأولى الفينيقية والبونية والليبية التي اشتقت منها اللهجات البربرية، والثانية العبرية ولهجاتها المختلفة، والثالثة... الآرامية، ... والرابعة العربية[٥٣]

وبعيداً عن الفصل بين الفينيقية والعبرية، فإن الإساءة اللغوية البالغة في هذا التصنيف تكمن في ربط جوبينو الفينيقية باللغات البربرية. وليس ثمة عالم ساميات واحد يمكنه القبول بأن تلك كانت لغات سامية، سواء عاش آنذاك أو في الوقت الحاضر. وعلى أية حال، كان كلا الإنتهاكين أساسيين لتصوره حتى يمكنه أن يجعل الفينيقيين من أبناء حام حسب نموذج الكتاب المقدس وهو ما يعني أنه طبيعتهم الأولية باعتبارهم من الجنس الأبيض هي التي أتاحت لهم أن يشيدوا قدراً من الحضارة، ولكن في الوقت الذي وصل فيه الساميون من الشمال الشرقي، كان الفينيقيون قد صاروا شعباً أسود بالفعل، ومن ثم فهم المسئولون عن إفساد اليهود، "في زمن إبراهيم كانت حضارة الحاميين في قمة اكتمالها وفي قمة فسادها[٥٤].

ولقد ركز جوبينو على النقائص أكثر من المزايا. وقبل بداية عمله كله استخدم صور الفئران والمرض التي طبقها النازى على اليهود، وطرح سؤالا بلاغياً: هل يعزى سقوط الفينيقيين إلى الفساد الذى كان ينحر فيهم والذى نشروه في كل مكان ؟ لا، على العكس من ذلك تماماً، فقد كان فسادهم الأداة الرئيسية لقوتهم وعظمتهم[٥٥]. ومن ثم، إلى أى مدى كان جوبينو يضع إنجلترا في مخيلته عندما كتب هذا ؟ لقد كان جوبينو يعرف الانجليزية بصورة جيدة، وكثيراً ما كان يقتبس من مصادر انجليزية، كما اهدى كتابه "مقالات في عدم المساواه بين الأجناس البشرية" إلى ملك هانوفر المولود في إنجلترا. ورغم ذلك، فمن المثير للملاحظة أنه في جميع رحلاته حول العالم، من أسكندنافيا إلى فارس والبرازيل وأماكن أخرى عديدة، لم يعبر القنال إلى إنجلترا.

بالإضافة إلى ذلك، فإن جوبينو يلتزم الصمت بطريقة غريبة، فيما يتعلق بالدولة التي سيطرت على العالم في عصره، وهنا تعارض صارخ مع حماسة الغوار لألمانيا.

ولقد وافق جوبينو بطريقة واضحة على الشعور الأنجلو - ساكسونى بالتفوق النوعى على الأمريكيين الأصليين والسود فى أمريكا الشمالية، وهو فى هذا يتبع راعيّه دى توكفيل de Tocqueville، وكان لاذعاً بنفس القدر فى تناوله النفاق السائد حوله فيما يخص الرق(٥٦). كان اهتمامه الأكبر ورعبه الأكبر ناجمين عن سياسات الهجرة الأمريكية، وفى هذا المجال عقد مقارنة غير موفقه بين نيويورك وقرطاجة، التى كانت تسكنها على الأقل العائلات الكنعانية النبيلة. بالإضافة إلى ذلك، فقد ملكت قرطاجة كل شئ كانت صور وصيدا تفتقر إليه، ولكن قرطاجة لم تضف ذره للحضارة السامية، كما لم تمنع مصيرها النهائى(٥٧). وفى موضع آخر، قارن جوبينو بين وظائف صور وصيدا التجارية بلندن وهامبورج، كما قارن بين وظائفها الصناعية بليفربول وبرمنجهام(٥٨). وسوف تبدو المشابهة بين الأنجلو - ساكسون والكنعانيين، وكراهيته للإثنين واضحة. ورغم ذلك، فمن الواضح أنه كان يبغض الحاميين والساميين غير الأصلاد عن جداره. فقد اعتبر الفينيقيين المتأخرين نتاجا لاختلاط المولدين الحاميين والساميين، وهو نتاج تفوق فيه الساميون طبعاً باعتبارهم من الجنس الأبيض أكثر من الحاميين. ومع ذلك، فإن المفارقة التراجيدية التى وجدها عبر التاريخ أن الأجناس السوداء "المؤنثة الأدنى" قد هزمت وأفسدت الأجناس المذكرة البيضاء". وهكذا أقام الفينيقيون مدنا اختلط فيها البذخ اللامعقول بالعادات البربرية، وفوق ذلك كانت هناك شعائر دينية قبيحة، بما فيها ممارسة الدعارة وتقديم القرابين البشرية، والتى، كما أكد هو نفسه لقرائه، "لم يمارسها الجنس الأبيض مطلقاً(٥٩).

وفيما يتعلق بشكل الحكومة، فإن الفينيقيين لم يكونوا نبلاءً وأحراراً شأن البيض، ولكنهم كانوا محكومين إما بواسطة الطغاة أو بديموقراطية الغوغاء(٦٠). وكانت قرطاجة أسوأ ما فى الأمر كله، فقد كانت بلا تاريخ، وتأسست بعد أن تدهور الحاميون تماماً، وعندئذ تعرضت لتأثير أفريقى أكبر(٦١). لقد رأى جوبينو وصول الساميين كخطوة كبيرة للأمام، ولكنهم أيضاً قد تم إفسادهم على يد الحضارة السوداء، وكان بصفة عامة مذبذباً فى اتجاهاته بشأن اليهود. ففى بعض الأوقات كان ينادى بأنهم قد حفظوا بعضاً من طبيعتهم كجنس أبيض، وفى أحيان أخرى كان يدعى أن اليهود تغيروا من رعاة

عسكريين إلى تجار مخنثين[٦٢]. وأسوأ ما فى الأمر، أنهم كانوا يستعينون بالشعوب الأخرى جنوداً مرتزقة.

وعن هذه الممارسة كتب جوبينو:

إن أهم الخصائص الأساسية لانهيار الحاميين والسبب الظاهرى الكبير لسقوطهم... كان فقدانهم لشجاعة المحارب وعدم أخذهم أى دور فى النشاطات العسكرية، أن هذه الفضيحة المدوية التى حدثت فى بابل ونينوى لم تكن أقل فى صور وصيدا[٦٣].

سلامبو

لقد أعلن ميشيليه نفس الرسالة عام ١٨٣٠م عندما كان يصف ثورة المرتزقة القرطاجيين بعد هزيمتهم فى الحرب البونية الأولى عام ٢٤١ ق.م. ولقد أعطى ميشيليه تقريراً حياً لعصيان جيش كان يتكون من خليط عنصرى غير عادى ويقوده رجل أسود يُسمى ماثو Matho وإغريقى يُدعى سبنديوس Spendios، ولقد اعتمد فى تقريره على المصادر الكلاسيكية وبصفه رئيسية على المؤرخ الإغريقى بوليبيوس* ولقد هُزم ذلك الجيش بعد معارك تحفل بالعنف غير العادى والقسوة، أُعدم خلالها المرتزقة وعدداً من أعدائهم من القرطاجيين فى مشاهد بالغة الرعب[٦٤].

---

* بوليبيوس: كان مؤرخا إغريقيا لروما. كان ضمن الألف رهينة الذين أخذوا إلى روما عام ١٦٨ ق.م. وكان صديقاً للقائد الرومانى سكيبيو أيميليانوس(المشهور باسم سكيبيو الأفريقى الأصغر) وصاحبه إلى أسبانيا وإفريقيا حيث شهد تحطيم قرطاجة عام ١٤٦ ق.م. ويحوى كتابه الضخم فى التاريخ ٤٠ كتاباً مازال باقياً منها الأجزاء الخمسة الأولى بالإضافة إلى شذرات من الأجزاء الأخرى. وكان هدفه الأساسى تقديم الحقائق والأسباب حول صعود روما السريع للتحكم فى العالم من عام ٢٢١-١٦٨ق.م.، مع مقدمة يصف فيها التاريخ الرومانى من عام ٢٦٤ الى ٢٢٠ ق.م. وهناك أيضاً خاتمة يلخص فيها الأحداث بين عامى ١٦٨ الى ١٤٦ ق.م. وكان بوليبيوس عقلانيا يرفض الخرافات ويؤكد على الأسباب والظروف وسياق الأحداث واستحالة التغيير. وكان الهدف من كتاباته هدفا تعليميا. فالحظ يرفع فقط أولئك الذين يستحقون، فقد سيطرة الرومان على معارضيهم بسبب سمو شعورهم وتنظيمهم العسكرى. (المترجمة).

ولقد صار نص ميشيليه هو الأساس لجوستاف فلوبير فى روايته "سلامبو" لقد كان فلوبير مسحوراً منذ زمن بعيد بغرابة "الشرق". فقد زار مصر وأراد أن يكتب رواية عن ذلك البلد، يطلق عليها اسم أنوبيس Anubis، وذلك بعد نجاح قصد "مدام بوفارى"[٦٥]. وفى وقت ما قبل مارس ١٨٥٧م غير رأيه، واستخدم فكرة روايته لتصبح رواية "سلامبو". وفى رأى العالم الإيطالى بنيديتو Benedetto أن فلوبير أغفل رواية "أنوبيس" لأن ثيوفيل جوتيه Theophile Gautier، وغيره من أنصر فلوبير، قد قدم فى نفس العام رواية تدور حول مصر القديمة. ولكنه لم ينجح فى تحديد سبب اختيار فلوبير لموضوعه الجديد[٦٦].

ورغم حقيقة أن الإجابة لا تظهر فى مراسلاته، فإنه يبدو أن العصيان الهندى الذى اندلع فى فبراير من ذلك العام هو الإجابة المناسبة. لقد نجحت بريطانيا – الإمبراطورية العظيمة للفينيقيين العصريين – فى المهمة الصعبة فى توحيد التجار الهنود والمسلمين فى الثورة ضدها، وذلك بسبب جشعها ووحشيتها وباستخدامها لحوم الأبقار ودهن الخنزير المُعلب والذى كان الجنود يلعقونه ومنذ البداية، بدأ واضحاً أن القتال ضد هذا العصيان استخدمت فيه الوحشية والقسوة البالغة من الطرفين. وهكذا كان التماثل بين إنجلترا وقرطاجة واضحاً فى رواية "سلامبو" منذ البداية.

وفى مايو عام ١٨٦١م، وعندما شعر فلوبير أن كتابه جاهز لأصدقائه، دعى الأخوة جونكور Goncourt، وهم من الشخصيات الأدبية الباريسية الشهيرة، لبرنامج قراءة على النحو التالى.

(١) سوف أبدأ فى الصباح فى الساعة السابعة تماماً وفى بعض الأحيان فى الثالثة.

(٢) عشاء شرقى فى الساعة السابعة. سوف يقدم لكم لحم آدمى، مخ برجوازى ولحم أنثى النمر محمر فى شحم الكركدن.

(٣) بعد تناول القهوة، يُستأنف الصراخ باللغة البونية حتى بعد نعيق المستمعين[٦٧].

لقد كان بودلير، شاعر التدهور، صديقاً مقربا لفلوبير أثناء كتابته الرواية، ورواية "سلامبو" عبارة عن دراسة فى التدهور[٦٨]. ولقد اختار فلوبير، من وجهة نظر

الطبقة العليا الفرنسية فى خمسينيات القرن التاسع عشر، أحد مظاهر التدهور (أى المرتزقة) فى أكبر مدينة متدهورة (قرطاجة) بين أكثر الشعوب تدهوراً (الفينيقيين). أو لكى نصوغها بشكل آخر، لقد صور اجتماع كافة المتناقضات فى مجتمع رجولى أبيض مهذب: خليط المرتزقة من أجناس مختلفة يقوده من ناحية رجل أسود ومن ناحية أخرى إغريقى خائن لجنسه، ضد القرطاجيين، الذين كانوا خليطاً قبيحاً من الزنوج، الحاميين والساميين، مع خلفية شبه مدارية مرفهة تضم الكهنة، الخصيان، الحسيين والنساء الفاسدات (مشتبكين سويا فى صراع قاسى ومخيف).

وكان هناك، كما ذكرت، مادة تاريخية حقيقية تُبنى عليها مثل هذه الحالة. ولقد دعم فلوبير قراءته لميشيلية وبولييبوس حينما جعل مكان الرواية قرطاجه، ولكن الأهم أنه استخدم مادة من دراسات المستشرقين الفرنسيين المتأخرين وبخاصة رينان. وباتباعه هذا، أدرك تماماً مدى العلاقات الثقافية الوطيدة بين كل المتحدثين باللغة الكنعانية، واستخدم معلومات من الكتاب المقدس عن الإسرائيليين وجيرانهم، كى يزيد من المادة الضئيلة المتاحة عن الفينيقيين والقرطاجيين[٦٩].

ولقد أوضح بنيديتو Benedetto، فى كتاباته عام ١٩٢٠م، أن ما أعاد فلوبير بناءه قد صمد أمام الاختبار الذى تم من خلال الدراسات المتأخرة[٧٠]. ورغم حقيقة أن بنيديتو كان مرتبطاً بمدرسة الكلاسيكيات فى روما، المعادية بشدة للسامية، وأنه كان يكتب فى فترة سادت فيها العنصرية ومعاداة السامية تماماً فإن كثيراً مما نادى به هذا الإيطالى يبدو صحيحاً اليوم[٧١]. ورغم ذلك، فإننى أعتقد أن فلوبير كان مخادعاً بشكل جوهرى فى إثنين من استدلالاته:

الأول: إن قرطاجة فى القرن الثالث ق.م، كانت نموذجاً للحضارة الشرقية على نحو ما، ومن ثم فإنها تستحق إبادتها على أيدى الرومان بعد تسعين سنة، بيد أنه كان هناك اعتراض أخلاقى بسيط على تدمير الاستعمار للحضارات غير الأوروبية فى القرن التاسع عشر. (وبالإضافة لذلك، نجد هنا سبباً آخر لتخلى فلوبير عن مشروعه للكتابة عن مصر القديمة التى كانت تفتقر تماماً للرذيلة والقسوة التى تناسب أغراضه.

الثاني: كان فلوبير يعني ضمنيا أن الأوربيين – باستثناء الانجليز – كانوا غير قادرين على تلك الأشياء. والحقيقة أن الرومان تفوقوا على القرطاجيين بالفعل في جميع أشكال الترف والعدوان، بينما لم يختلف المقدونيون عنهم كثيراً. وبالتحديد، فإن حرب المرتزقة القرطاجيين في القرن الثالث ق.م، بمحتواها الثوري الاجتماعي، يمكن مقارنتها بالحرب الرومانية – التي حدثت بعد ذلك بأقل من ٢٠٠ عام – ضد جيوش العبيد بقيادة سبارتاكوس، والتي حوربت وقُضي عليها بنفس القدر من الرعب[٧٢]. لقد كان مجتمع فلوبير – فرنسا زمن الإمبراطورية الثانية – يمارس أنواعاً غير معقولة من الإساءة ضد شعوب الصين والهند– الصينية، بل أن مايتصل بهذه النقطة أكثر كانت ممارسات الفرنسيين ضد الجزائر، فضلاً عن أن الاستغلال والرفاهية والفساد الذى حفلت به قرطاجة في رواية "سلامبو" كان، بشكل ما، مشابها لملامح باريس زمن فلوبير، كما وصفتها – بشكل يتسم بالحيوية – روايات إميل زولا[٧٣].

لقد كانت "سلامبو" نجاحا هائلا. وعندما حاول فلوبير أن يصور حياة البرجوازية الفرنسية بشكل واقعي في رواية "مدام بوفاري"، شوه الناشر كتابه وحُوكم بتهمة "الإساءة للأخلاق العامة". وكانت "سلامبو" أكثر خدشاً للحياء بكل المقاييس، لكنها هذه المرة جعلت فلوبير "أسد" المجتمع الفرنسي الراقي، ومكنته من أن يصبح صديقاً للعائلة الحاكمة[٧٤]. لقد راهن فلوبير على الحصان الرابح في مجال الأدب، فإن واقعيته التي طبقها على "الشرق" أتاحت لقرائه أن يحصلوا على نشوتهم العنصرية والسادية، وهم يشعرون بتفوقهم الفطري والمطلق باعتبارهم مسيحيين بيض. كما أنها زادت من مهمة فرنسا الحضارية لإنقاذ شعوب القارات الأخرى من قسوتهم وشرورهم[٧٥].

مولـــــوخ

لقد بالغ فلوبير كثيراً في أحد مظاهر الحضارة القرطاجية التي لم يشاركها فيه الرومان ولا الأوربيون في القرن التاسع عشر تلك هي شعيرة تقديم قرابين خاصة من الأطفال سواء بقطع رقابهم أو بالحرق أو بكليهما معاً. ولقد أشار إليها باعتبارها تضحية للإله المخيف مولوخ، وهو في ذلك يتبع التراث التفسيري لذلك العصر ولقد استقر

الأمر منذ زمن على اعتبار أن المقطع (vmlk) يشير فى هذه الحالة إلى اسم القربان نفسه وليس إلى الإله[٧٦]. وكان أبناء الطبقات الحاكمة فى قرطاجة هم الضحايا، ولكن فلوبير، متبعاً المصادر الكلاسيكية، روى أن بعض الأغنياء قد حصلوا على بديل لأبنائهم من أبناء الطبقات الفقيرة أو العبيد[٧٧]. ورغم أنه أضاف هنا بعض التفاصيل الشنيعة من عنده، فقد كان يتبع المؤرخين الإغريق والرومان، وهنا أيضاً يبدو أن الحفريات المتأخرة، سواء فى قرطاجة أو فى العديد من المستعمرات حيث عُثر على مئات من الأوانى مملوءة بعظام أطفال محترقة ومهداه إلى الإله بعل، تؤكد صحة أدوات روايته[٧٨].

وليس هناك شك فى أن التراث اليهودى والمسيحى قد اعتبر هذه التضحية بالأطفال (ممارسة) مقيتة. إن نجاح رواية "سلامبو" الهائل فى فرنسا ثم فى بقية أنحاء أوروبا، والذى يرجع فى جانب منه إلى وصفه لمولوخ، قد أعاد فتح الحديث عن الجانب المفزع فى الكتاب المقدس بقوة غير عادية. وبالنسبة لكثيرين فقد امتد هذا الشعور ليصبح إدانة كاملة للمجتمع الذى مارسها، وزود كل من كان يكره قرطاجة والفينيقيين، وارتباطهما باليهود والانجليز، بذخيرة قوية.

بالإضافة إلى ذلك، ليس هناك شك فى أن مثل هذه المشاعر قد امتدت إلى الجامعة. فكان على جميع مؤرخى قرطاجة وفينيقيا فى القرن العشرين أن يضعوا فلوبير فى حسبانهم[٧٩]. وعلى الجانب اليهودى يبدو أن "سلامبو"، بتأكيدها على مولوخ، قد أحيت وركزت الكراهية الدينية والمستمدة من الكتاب المقدس للكنعانيين وازدرائهم، كما أدت إلى ابتعاد حتى غير المتدينيين واليهود المدمجين إلى أن يبتعدوا عن الكنعانيين والفينيقيين.

وفى عام ١٨٧٠م تغير العدو الرئيسى لقرطاجة وإنجلترا، إذ دخلت فرنسا الحرب الفرنسية - البروسية إمبراطورية وخرجت منها جمهورية، بينما خرج منها ملك بروسيا إمبراطوراً على المانيا - إن كثيرين من الألمان يؤمنون الآن أن عبادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعبادة روما نفسها قد سقطت عليهم. وحتى فى القرن الثامن عشر، فقد نُقل عن هيردر (Herder) أنه قد قال أن عيبَ قرطاجه كان كراهيتها، وإنها يجب أن تُقارن بابن آوى الذى كان على أنثى الذئب الرومانى أن تقضى عليه، ولكن فى

أواخر القرن التاسع عشر كان تدمير المدينة الذى تستحقه مجرد كليشيه[٨٠]. ولقد تم التركيز على مدى صحة أن التدمير الرومانى للمدينة كان نهائياً. ولقد أصبحت مقولة: "إن قرطاجة التى دمرها الرومان، لم يُعد بناؤها ثانية أبدا" أصبحت بالصدفة غير حقيقية تماماً – ويبدو أنها أصبحت تعبيراً شائعا[٨١]

إن هذا المبدأ – مبدأ الحل النهائى – قد امتد فى مجال الدعاية – تجاه إنجلترا فى الحربين العالميتين، وفى الواقع تجاه اليهود فى الهولوكوست[٨٢]. ورغم ذلك، فإننى فى هذا سوف اتجه مباشرة من تلقاء نفسى إلى الفترة التى تركزت فيها معاداة السامية العنصرية بعد ثمانينيات القرن التاسع عشر، وهنا سوف نستعرض اتجاهات منتصف القرن التاسع عشر تجاه فكرة استيطان الفينيقيين فى بلاد الإغريق.

الفينيقيون فى بلاد الإغريق ١٨٢٠ – ١٨٨٠م

من المحتمل ان موللر، الذى أنكر الدور الفينيقى فى تكوين بلاد الإغريق كان معاديا للسامية[٨٣]. ورغم ذلك، وكما سبق ورأينا، فإن هجومه على كادموس لم يكن مقبولاً بشكل عام فى ذاك الوقت.

وفى الواقع، ومع انهيار الإعجاب المصريين، كان هناك اهتمام متصاعد واحترام للفينيقيين. ولقد انعكس هذا التغير فى كتاب موفرز (Movers) المسمى "الفينيقيون"، الذى ظهر خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، وتقوم فكرة الكتاب بأجزائه الضخمة على تجميع كل ما جاء عن هذا الشعب من إشارات سواء كلاسيكية أو فى الكتاب المقدس. ولقد اتجه موفرز إلى أن يعزى حيوية الفينيقيين إلى تأثيرات شمالية وخاصة تلك القادمة من الآشوريين[٨٤]. وهو فى هذا يتفق مع بيلوخ فى القرن التاسع عشر، وكاربنتر فى القرن العشرين، ومثل كثير من المؤرخين المتأخرين كان معجباً بشدة بتلك الحضارة المتوحشة والتى كانت تصور غالبا، على نحو ما، بأنها أقل سامية مما توحى به لغتها السامية النقية. وفى القرن التاسع عشر، أُرجعت المهارة العسكرية الآشورية لتأثيرات "العنصر الأبيض"[٨٥].

ومن ناحية أخرى، فإذا كان الساميون قد فقدوا الثقة شمالاً وشرقا فإنهم

كسبوها في الجنوب. وفيما يتعلق بوجود الفينيقيين في بلاد الإغريق، فإن موفرز لم يكتف بكل ما أضفاه القدماء على الفينيقيين من فضل، بل أنه نسب إليهم أفضال وأناؤوس المصرى. ويمكن تبرير هذه المكانة إلى حد ما من خلال التركيب الحقيقى لثقافة مصر السفلى فى الفترة الهكسوسية. وعلى آية حال، وعلى حد تعبير ميخائيل أستور المعجب به، توصل موفرز إلى هذه النقطة بالتخمين، دونما دليل بحوزته[٨٦]. ومن ثم، يمكننا أن نحكم على استنتاجه من وجهة النظر التاريخية، وبهذه الطريقة فإنها تناسب الفترة التى تلت سقوط المصريين، ولكنها كانت قبل سقوط الفينيقيين.

صورة من بلاد الإغريق عند جوبينو

هذه أيضاً هى الفترة التى يجب أن نضع فيها موقف جوبينو من أصول بلاد الإغريق. لقد كان جوبينو، كما سبق ورأينا، يعمل داخل إطار النموذج الآرى، ولكن فى خمسينيات القرن التاسع عشر كان النموذج مايزال فضفاضاً للغاية، وسمح بالتأثيرات السامية. ولقد حلل الإغريق على النحو التالى:

(١) هيللينيون – آريون، دخلت عليهم عناصر صفراء، ولكن بتفوق كبير للعنصر الأبيض وبعض الصلات السامية.

(٢) سكان أصليون – كلتيون وسلاف مشبعون بعناصر صفراء.

(٣) طراقيون – آريون مختلطون بالكلتيين والسلاف.

(٤) فينيقيون – حاميون – سود.

(٥) عرب وعبرانيون (يهود) – ساميون مخلطون للغاية.

(٦) فلسطينيون – ساميون، من المحتمل أنهم أكثر نقاء.

(٧) ليبيون، تقريبا حاميون سود.

(٨) كريتيون وغيرهم من سكان الجزر الآخرين – من الساميين شبيهين بالفلسطينيين[٨٧].

إن هذا كفيل بأن يجعل أشد العنصريين جسارة يرفع يديه فى استسلام. ورغم ذلك، فقد أصر جوبينو على موقفه رغم أنه وجد من المستحيل أن يكون ثابتاً فى مثل

هذا الموقف المعقد.

ونحن لا نحط من شأنه بالمرة بقولنا هذا، فإذا ما انتقل المرء من "العنصر" إلى الحضارة فليس هناك شك فى صحة بعض التحول والاختلاط المتضمن فى ثنايا ذلك. ولقد كان جوبينو مصيباً تماماً عندما قال "مامن مجتمع يقوم فى العصور البدائية مثل هذه الاهتزازات العرقية"، ومثل هذه الإحلالات والهجرات المتعددة[88]. بالإضافة إلى هذا، نال مشروعه قيمة تفسيرية أكبر من النموذج الآرى المتطرف. فقد اعتقد أن السكان الأصليين من الإغريق قد تم غزوهم من جهة الشمال على يد الآريين المردة فى وقت ما من الألف الثالثة، ورغم ذلك، فقد تم غزوهم فى نفس الوقت تقريباً من الجنوب بواسطة الكنعانيين، الذين اعتبرهم عرباً ساميين وعبرانيين وكذلك فينيقيين سود[89]. ولقد نهج نهج موفرز فى اعتباره أن الفينيقيين قد اكتسبوا حضارتهم من آشور التى كانت بها عناصر بيضاء[90].

وكانت مسألة وجود مستعمرات مصرية من عدمه مسألة ليست فى غاية الأهمية بالنسبة لجوبينو أمام مسألة تلويث الدم الإغريقى بالفينيقيين السود. ورغم ذلك، فقد وافق على الدراسة الحديثة التى أنكرت وجود مستعمرات مصرية فى بلاد الإغريق[91]. بينما تبع نظرية شليجل بأن عظمه الحضارة المصرية قد جاءت من الحضارة الهندية، كما آمن أيضاً أن عملية التهجين العنصرى للشعب المصرى، والتى ضمت قدراً معقولا من العناصر السوداء أو حتى الزنجية، قد أعطت البلد طبيعة ثابتة وسلبية[92]. فقد رأى جوبينو التاريخ الإغريقى صراعاً بين الروح الآرية الإغريقية المتركزة فى شمال طيبة، والروح السامية فى الجنوب، وكلاهما قد تدعم بأبناء عمومتهم فى الجنس من خارج البلاد[93]. وبهذه الطريقة لم يكن لديه مشكلة مع تراث كادموس ودناوؤس، أو مع تميز الدورى[94].

ورغم ذلك، يجب أن نلاحظ، أنه بغض النظر عن ممارسته لشخصية وعادات الهيلليين الآريين، فقد كان جوبينو مقتنعاً بأن بلاد الإغريق القديمة ككل قد تلونت بالعناصر السوداء، وصارت سامية تماماً. وكان جوبينو واحدا ضمن أولئك الذين نادوا بأن الإغريق الحاليين قد هجنوا لدرجة لا يستطيعون معها الادعاء بأنهم أحفاد الإغريق

القدماء[٩٥]. وبالفعل، فإن إيمانه بالتأثير الفينيقي على بلاد الإغريق كان جزءا من إيمانه العام بأن جنوب أوروبا كان قد أصبح سامياً بدرجة ميئوس منها، وأن الشعوب الجرمانية في الشمال هي فقط التي احتفظت بنقائها الأبيض[٩٦]. ورغم ذلك كان ضمن الأقلية في هذا، فبينما كان معظم الأوربيين الشماليين مستعدين لمشاركته أرائه عن تفوق الجنس الآرى، فإنهم لم يكونوا مستعدين أن يتخلوا عن بلاد الإغريق وروما.

وعلى وجه العموم، كانت هناك رغبة متزايدة للإيمان بالمستعمرات الفينيقية. ولقد رأينا في الفصل السابق كيف تجنب جروت (Grote) الموضوع وكيف التف بنسين وكورتيوس حول الأساطير، وكيف تهرب ويليام سميث وجورج رولنسون (G.Rawlinson) من الإجابة عنها[٩٧]. ورغم هذا، فإن كثيرين لم يروا سبب للشك في النموذج القديم فيما يتعلق بالفينيقيين رغم أنهم لم يصلوا إلى المدى الذى وصل إليه جوبينو. فقد كتب جلادستون عام ١٨٦٩م:

"إن مزيدا من البحث في موضوع الفينيقيين قد نتج عنه صورة واضحة وكاملة لما كنت أغامر فقط بالشك فيه أو الإشارة إليه، وأعطاهم، إذا كنت رحيبا، دوراً مؤثراً للغاية في تكوين الأمة الإغريقية. إن هذا الكشف، إذا ما كان حقيقيا،.لتلك التأثيرات السامية القوية، سواء على بلاد الإغريق في عصر هوميروس والتي كانت فعاله قبل عصره، تفتح آفاقاً جديدة في تاريخ العالم القديم[٩٨].

شليمان واكتشاف "الموكينيين"

لقد كان جلادستون بالطبع سياسياً في الأساس ولم يكن أكاديمياً؛ ولذلك فإن أراءه لم تكن عصرية تماماً. ورغم ذلك، فمن الجدير بالملاحظة أن ملاحظاته قد جاءت مباشرة قبل اكتشافات هينريس شليمان المذهلة في موكيناى وثيريس في سبعينيات القرن التاسع عشر. لقد أصر شليمان نفسه على أنه "قد حَدَّق في وجه أجاممنون، وإن البقايا كانت لأبطال الملاحم الهوميرية، الذين كانوا إغريقاً بالطبع. ورغم ذلك، وبشكل مبدئي، فقد أحدثت اكتشافاته أثراً عكسياً. فقد قوت سواعد أولئك الذين ادعوا وجود تأثير فينيقي عظيم على بلاد الإغريق.

ولقد كانت المكتشفات الموكينية مختلفة بالتأكيد عن أى انطباع سابق عن الفن الإغريقي،

فقد اتفق بشكل عام على أنها قبيحة. ولذلك فقد افترض أنها بيزنطية أو قوطية أو شرقية وهو الاحتمال الأكثر انتشاراً. وفى تلك الحالة الأخيرة فقد كانت إما مستوردة أو صنعها الحرفيون الشرقيون فى بلاد الإغريق أو صبيانهم من الإغريق[٩٩].

ومن ثم، كان الاستنتاج الواضح أنها آثار للمستعمرات الفينيقية فى التراث الإغريقى. وكما كتب ماكس دنكر (Max Dunker) مؤرخ التاريخ القديم الألمانى النابغة عام ١٨٨٠م:

"إن عملية فحص معظم الآثار القديمة على أرض بلاد الإغريق قد قدمت الدليل على وجود تجارة واسعة المدى على سواحل البلد، أن الآثار نفسها، وليس فقط الأشياء التى وُجدت بداخل الآثار، تتحدث لصالح التأثير بشكل لا نزاع فيه، ومن ثم، فهى تشى بوجود الفينيقيين فى بلاد الإغريق. هناك آثار وعلامات وبقايا للمستعمرات الفينيقية فوق الأرض الإغريقية وللتأثير الفينيقى على الإغريق. أن التراث الإغريقى نفسه يحكى لنا عن المدنية ومنطقة السيادة التى أقامها أحد أبناء الملك الفينيقى على أرضهم. إن هذه هى الحالة الوحيدة التى يتحدث عنها التراث بالنسبة للمستعمرات، ولكننا فى موقف يثبت وجود سلسلة كاملة من المستعمرات الفينيقية على ساحل بلاد الإغريق[١٠٠].

ولقد اختلف معه دارسون ألمان آخرون، مثل مؤرخ بلاد الإغريق أدولف هولم (Adolf Holm). إن هولم، الذى نادى علانيةً بأن الإغريق كانوا "نوعاً راقياً نادراً من البشر"، قد تبع أرنست كورتيوس فى تنقيحه العلمى للفترة التراثية. ولقد عرض رأيه الشخصى فى المشكلة الدراسية عندما كتب فى ثمانينيات القرن التاسع عشر.

"فى الأيام الأخيرة ظهر رد فعل حازم ضد النظرية الشائعة بوجود تأثير عظيم للفينيقيين على بلاد الإغريق، وهو مُبرر تماماً، ولكن ليست هذه هى المشكلة دائما. إن السبب الحقيقى فى معارضة الناس لفكرة وجود الفينيقيين فى بلاد الإغريق هو أنهم يهدفون إلى جعل الإغريق غير مدينين لفينيقيا بأى شئ مهم. إننى أعتقد أننا قد أثبتنا أن التأثير الواسع المنسوب لهم... ليس إلا نزوة. ولكن لماذا العزوف عن الاعتراف بوجود مجرد مستعمرات للفينيقيين فى بلاد الإغريق عندما تدعمها معايير تاريخية تعتبر قوية فى حالات أخرى ؟ لقد كان الفينيقيون هناك فى وقت من الأوقات، ولكن تأثيرهم لم يكن مهما[١٠١].

إن كلمات هولم تشعرنا بشكل جد واضح بالضغوط الخارجية على مؤرخى التاريخ القديم، وسبب المهادنة التى قام بها دارسون مثل ثيرلوول فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وفرانك ستبنجز (Frank Stubbings) فى ستينيات القرن العشرين(١٠٢). ورغم ذلك، لم تكن مقبولة فى قمة حركة المد الإمبريالى ومعاداة السامية فى الفترة من ١٨٨٥ إلى ١٩٤٥م، والتى كانت كذلك مرحلة الاحتراف فى الآثار الكلاسيكية.

لقد ظهرت بالفعل النغمة التى ستصبح سائدة خلال تلك الفترة وكما كتب أحد الكتاب فى الطبعة الأولى لدورية "الجريدة الأمريكية للآثار" عام ١٨٨٥م"

"إن الفينيقيين، كما نعرفهم لم يأتوا بأية فكرة مثمرة إلى العالم .. إن فنونهم... تستحق بالكاد أن نطلق عليها اسم فنون، لقد كانوا تجاراً فقط معظم الوقت. لقد كانت عمارتهم وفن النحت والرسم لديهم من النوع ضعيف الخيال للغاية. وكانت ديانتهم، بقدر مانعرفها، دعوة للحواس فى أساسها(١٠٣)

بابل

ورغم ذلك، وفى ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان هناك نوع جديد من السامية أقل إثارة للاعتراض والنفور. فلقد كان هناك اهتمام كبير منذ بداية القرن بالآثار القديمة لمنطقة مابين النهرين، بينما كان تعاطف رجال مثل موفرز وجوبينو مع الآشوريين، الذين انهزموا وذبحوا بطريقة "غير سامية" بالمرة، كما سبق وذكرنا. فضلاً عن أن أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر قد شهدت فك رموز نصوص الكتابة المسمارية تدريجياً، وهى الكتابة التى دونت بها الفارسية القديمة واللهجات الآشورية والبابلية للغة الآكادية، واللغة السومرية القديمة غير السامية.

ولقد ولد فك الرموز قدراً كبيراً من الإثارة العلمية اشتدت مع العقود التالية بحيث بدأت النصوص الآكادية تُقرأ مع مشابهات مذهلة فى الكتاب المقدس(١٠٤). ومع تزايد الاتجاه نحو العلمانية فى سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر لاقت تلك النصوص ترحيباً على اعتبار أنها تزودنا بخلفية للعهد القديم. ويمكن أن تُستخدم كذلك

لتأكيد الاعتقاد بأن حضارة الساميين الغربيين – اليهود والفينيقيين – كانت مشتقة فى الأساس من الحضارة البابلية الأقدم، وأنها جاءت منها – كما قد يتوقع المرء من الساميين. ولقد تزايد هذا الاتجاه فى تسعينيات القرن التاسع عشر، عندما استقر فى وجدان الجميع أن حضارة مابين النهرين قد أقامها السومريون الساميين، وأنه "عندما ظهر الساميون فى بابل، كانت الحضارة قد أكتمل تطورها"[١٠٥]. إن الدارسين، الذين أرادوا، لأسباب مختلفة، أن يتجنبوا نسبة الفضل إلى الفينيقيين، بدأوا ينسبون العناصر السامية التى تمثل أدنى قدر من المساهمة فى الحضارة الإغريقية وغيرها من الحضارات الأوروبية للآشوريين والبابليين[١٠٦]. ورغم ذلك، وحتى فى هذا الموضع، كانت هناك مشكلة أن الطريق الطبيعى للانتقال سيكون عبر البحر، خلال فينيقيا – أو على الأقل شمال سوريا.

وبالفعل، كان هناك اتجاه فى أواخر القرن التاسع عشر للاعتراف بوجود تأثيرات شرقية على بلاد الإغريق من هضبة الأناضول، التى كان سكانها من الأسيويين لا يتحدثون السامية. وتشير مصادر التراث القديم فعلاً لوجود علاقات إغريقية مع آسيا الصغرى، ومن المفترض أن بيلوبس قد غزا جزءاً كبيراً من جنوب بلاد الإغريق، من هناك. ورغم ذلك، وطبقاً للنموذج القديم، وُضع هذا الغزو دائما بعد غزو كادموس وداناؤوس، ولم ينسب الفضل لبيلوبس فى أية إبداعات حضارية – فيما عدا سباق العربات.

وبعد اكتشاف الصلة بين لغة الإمبراطورية الأناضولية القديمة للحيثيين واللغة الهندو–أوروبية عام ١٩١٢ تحمس لها المستشرقون الألمان حماسة كبرى. ولقد حاولوا، ومعهم الكلاسيكيون، أن ينسبوا للأناضوليين أكبر قدر ممكن من الفضل فى التأثيرات الشرقية على بلاد الإغريق. فعلى سبيل المثال، فقد خصص الكلاسيكى والمؤرخ البريطانى والكوت (P.Walcot)، والذى نشر كتابه الهام "هسيود والشرق الأدنى" عام ١٩٦٦م، خصص الفصل الأول فى كتابه للحيثيين، والثانى للبابليين ورغم ذلك فلم يُذكر أياً منهما فى التاريخ القديم كمصدر للأساطير والديانة الإغريقية[١٠٧]، بعكس المصريين والفينيقيين تماماً.

وبالفعل، ففي السنوات التي يتناولها الفصل الثالث، أي من عام ١٨٨٥م إلى ١٩٤٥م، فإن اهتماماً دراسياً ضئيلاً بالتأثيرات الشرقية على بلاد الإغريق تركز على انتقال التأثير البابلي إلى بلاد الإغريق عبر البر، متجنبا سورياً، ومتفقاً مع تفضيل الدارسين الألمان للطريق البرى عن البحرى كوسيلة للانتقال والاتصال. وسوف نتجه الآن لدراسة تلك الفترة.



الباب التاسع

الحل الأخير للمشكلة الفينيقية (١٨٨٥ - ١٩٤٥)

ترجمة د. منيرة كروان

يهتم هذا الباب بتدعيم النموذج الآرى وإنكار تأثير كل من المصريين والفينيقيين فى تكوين بلاد الإغريق. ويرجع إنكار التأثير الفينيقى لتيار معاداة السامية القوى فى تلك الفترة، وبصفة خاصة فى فترتى الذروة، فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر وفى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وقد جاءت الفترة الأولى فى أعقاب هجرة. يهود أوروبا الشرقيين الواسعة لغرب أوروبا وتركزت حول عملية دريفوس (Dreyfus)، أما الثانية فقد جاءت بعد دور اليهود الخطير فى الشيوعية الدولية والثورة الروسية خلال الأزمات الاقتصادية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

ففى تسعينيات القرن التاسع عشر، اطلقت أول المدافع نيرانها ضد فكرة الاستيطان الفينيقى وذلك على يد سالمون ريناخ (Reinach) اليهودى الفرنسى المندمج، وجوليوس بيلوخ (J.Beloch) الألمانى المنفى فى إيطاليا. وتبع ذلك فترة سكون نجح خلالها العالم الفرنسى الكبير فيكتور بيرار - (V.Bérard) نجاحاً كبيراً بين الطبقات الشعبية ولكن ليس بين زملائه من الكلاسيكيين. وذلك فى نشر أفكاره، عن التوغل السامى الجوهرى فى بلاد الإغريق.

ورغم ذلك، وفى نفس الفترة شجعت اكتشافات آرثر إيفانز Arthur Evans المثيرة فى كريت، وتفريقه المينويين عن المتحدثين باللغة السامية الذين كان من المعتقد أنهم السكان الأصليون للجزيرة، شجعت على وجود اهتمام كبير بالشعوب ما قبل - الهيللينية فى منطقة البحر الإيجى. ولقد نُسبت جميع المظاهر التى لا يمكن شرحها فى إطار الهندو-أوروبية فى الحضارة الإغريقية إلى ذلك الشعب المينوى الغامض، مما سمح بأن تكون بلاد الإغريق مكتفية ذاتيا من الناحية الحضارية ومما أزال الحاجة لتفسير التطورات بتأثيرات قادمة من الشرق الأدنى.

وفى عشرينيات القرن العشرين امتد ذلك الرفض لأية تأثيرات سامية على منطقة البحر الإيجى، ونتج عنه محاولة ناجحة للغاية لتقليل أهمية أحدى الإستعارات الفينيقية التى لا يمكن أنكارها، ونعنى بها الحروف الأبجدية. والواقع أن أنصار النموذج الآرى المتطرف كانوا قد سيطروا فعلاً بحلول عام ١٩٣٩م على المجال لدرجة أن من كان يقترح أن الأساطير التى تدور حول وجود الفينيقيين فى بلاد الإغريق تحتوى على جوهر الحقيقة، لابد وأن يخسر مكانته العلمية

فوراً.

النهضة اليونانية

لم يتم قبول آراء شليمان حول جنسية الموكينيين سوى فى أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر، وبدأت بقاياهم توصف بأنها أوروبية، وكان أكثر المعارضين حماسة للتصنيف الجديد الأثرى اليوناني تسونتاس (C.Tsountas) ومنذ الحصول على الاستقلال، بذل المثقفون جهداً جباراً كى يعيدوا لبلدهم ماضيه "الهيلليني"، ولقد أُعيد أحياء أسماء الأماكن الكلاسيكية، وهُدمت الأبنية التركية ومبانى البنادقة وحتى البيزنطيين للكشف عن البقايا القديمة. وفى نفس الوقت، لم يستطع إغريق القرن التاسع عشر أن يدعوا أنهم كانوا دائما مثل صورة الإثينيين المثالية فى القرن الخامس. وهكذا اتخذت العبقرية الهيللينية أشكالاً عديدة فى محاولتها الحفاظ على الروح القومية، رغم أنها تأثرت فى تكوينها دائما بماضيها وبالمناخ والطبيعة الإغريقية. ومن ثم، ومن هذا المنطلق، ليس من المستغرب أن تسونتاس كان مهما بالاكتشافات الجديدة، والتى كان يمكن تفسيرها بأن العبقرية الإغريقية لم تكن قاصرة على شكلها الكلاسيكى، ولكن كانت لها أشكالها الأخرى التى تتميز بقدر مساوٍ من العبقرية.

لقد كان تسونتاس مقتنعاً بأن الآثار الموكينية هى آثار لإغريق سابقين على الحضارة الكلاسيكية، ولكنه أنكر بشدة أن يكون لها أية علاقة بالشرق: "أن هذا الفن الأصيل، المميز والمتجانس فى الشخصية، يجب أن يكون من عمل جنس قوى وموهوب. ولقد أخذناها كبديهية أنه من نتاج سلالة هيللينية"[1]. ورغم ذلك، فإنه حاول، فى نواح أخرى، أن يثبت قضيته. ولقد نشرت المجلة الأمريكية للآثار AJA عام ١٨٩١م ملخصاً لإحدى مقالاته:

"إن استنتاجات دكتور تسونتاس ليست فى صالح الأصل الآسيوى للحضارة الموكينية. أن نقاطه الأساسية كالتالى: ١- أن تصوير الآلهة جاء مطابقاً للتصورات الإغريقية ٢- ليس هناك بقايا فى موكيناى وتيرنتيوس لأنواع يمكن أن تؤكل من الأسماك، ولكن يوجد المحار فقط، ولم يكن إغريق هوميروس من آكله الأسماك، بينما لا توجد كلمة فى اللغة الآرية تشير للمحار ٣- كان الموكينيون مرتبطين من ناحية بالأيطاليين والآريين الآخرين، ومن الناحية الأخرى بإغريق الفترة التاريخية الذين كانت حضارتهم امتداداً لهم ٤- كان نسق المنزل الموكينى ملائما للجو الممطر وكان مستورداً

من الشمال[٢].

إن الخطأ في النقطة الأولى قد تم تناوله في المقدمة، وسوف نتناوله بالتفصيل في جزئي الكتاب التاليين. أما النقطة الثانية فهي ضعيفة لدرجة لا تستحق التقييم. أما النقطة الثالثة فهي نقطة ملتوية، وعلى أية حال، فقد تم تجاوزها تماماً باكتشاف الحضارة المينوية في كريت. ومن الصعب تحديد الأساس الذى قامت عليه النقطة الرابعة، فالأسطح الجمالونية تنتشر في أنحاء سوريا، ويبدو أن الأسطح المنبسطة كانت هي الشكل الأكثر شيوعاً في منطقة البحر الإيجي في العصر البرونزى.

وعلى وجه العموم، فإن قليلاً من مؤرخي التاريخ القديم والآثريين سوف يأخذون هذه الحجج مأخذ الجد اليوم، رغم أن الجميع تقريبا سوف يقبلون النتائج التي استخلصها تسونتاس منها بشكل صورى ولم يختف التأييد للتأثير الفينيقي على بلاد الإغريق في الحال. وساد على المستوى الشعبي إدراك أكبر. لقد احتوى كتاب مدرس أمريكي نُشر عام ١٨٩٥م على الآتي:

"إن نواة الحقيقة في كل تلك الأساطير قد تكون هي أن الإغريق الأوربيين قد استقبلوا العناصر الأولية لحضارتهم من الشرق وهذا عن طريقين: الأول بشكل مباشر من خلال إقامة عناصر سامية، وبخاصة فينيقية، في بلاد الإغريق في عصور ما قبل التاريخ، والثاني بشكل غير مباشر، من خلال الإغريق الشرقيين الذين اتصلوا بشعوب سامية أو شبه سامية، من خلال إقامتهم في آسيا الصغرى وفي كريت وقبرص، ومن المحتمل أيضاً في شمال مصر - ونقلوا تلك البذور الحضارية لأهلهم في بلاد الإغريق الأوروبية[٣]

وبحلول عام ١٨٩٨م كان العالم المستقل روبرت برون (R.Brown) واعياً بشكل كامل بالقضايا المتعلقة بالموضوع. فقد هاجم أنصار الآرية الذين تجاهلوا تماماً على مدى قرن كامل وجود ذلك الكم الضخم للتأثير السامي، الذى رأت المدرسة الآريو - سامية أنها وجدته بطول بلاد اليونان وعرضها[٤]. ومن المثير أن وجهة نظر برون، والتي كانت مقبولة لوقت طويل في القرن التاسع عشر، بدت الآن شاذة، كما أن كتابه ككل، عندما يُقرأ اليوم، يعطي إحساساً بالتحصينات العسكرية.

منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر فصاعداً تحول المناخ الثقافي في أوروبا بسبب انتصار حركة معاداة السامية العنصرية في ألمانيا وأستراليا، وبظهورها الحاد في أماكن أخرى. ومن الواضح أن هذا التغيير كانت له أسباب عديدة، كان أهمها الهجرة الجماعية ليهود أوروبا الشرقية إلى أوروبا الغربية وأمريكا. وقد استخدموا كبش فداء لمعاناة عمال المدن، ومن أجل بناء هوية لعمال المدن والفلاحين مع الرأسماليين وأصحاب الأراضي في مواجهة هؤلاء الدخلاء. ولقد استفادت معاداة السامية أيضاً من الاتجاه للعلمانية ومن تزعزع الإيمان في خمسينيات القرن التاسع عشر فضلاً عن نجاح الأنماط الأخرى من العنصرية. لقد ارتبطت فورة العنصرية بالأمبريالية وتكون الأحساس بالصلابة القومية في المدن الكبرى ضد السكان المحليين البرابرة من غير الأوربيين. ومن دلائل التناقض أن ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر كانت أيضاً العقود التي بسطت فيها أوروبا وأمريكا الشمالية سيطرتها الكاملة على العالم. وتم القضاء على الشعوب الأصلية في أمريكا وأستراليا بعمليات إبادة واسعة النطاق، أما أولئك الذين ينتمون لإفريقيا وآسيا فقد تم اخضاعهم وإذلالهم بشكل كامل. فلم يكن هناك سبب يدعو "الرجل الأبيض" لأن يعمل لهم أى حساب على المستوى السياسي. وفي هذا الصدد يمكن اعتبار معاداة السامية رفاهية أوروبية، يمكن أن تنغمس فيها فقط حينما لا يكون هناك أعداد خارجيون.

كان هذا هو الوضع إذن، سنة ١٨٩٢م، عندما كتب العالم الفرنسي متعدد الاهتمامات سالمون ريناخ عن كتابات تسونتاس: "إن هذه أفكار في الهواء"[٥]. وفي العام التالي نشر هو نفسه مقاله رائدة تتناول المعنى نفسه. وحقيقة أنه كان ينبغي على ريناخ أن يمجد تلك الأفكار التي تكشف عن أنها لم تعد البقية الوحيدة من التراث الرومانسي. وبالكاد استطاع سالمون ريناخ وأخوته المميزون أن يكونوا أقل رومانسية. فقد جاءوا من عائلة يهودية غنية مندمجة تعيش في باريس، وكان رينان وغيره من المثقفين العصريين زواراً دائمين لمنزل والدهم. وكان موقف أخوته من الديانة اليهودية معقداً. فقد اعتقدوا، رغم عدم تعليمهم الديني، أنها هي والمسيحية مجرد خرافات عفى

عليها الزمـن.

ومـن ناحيـة أخـرى، كـان سـالمون مهتمـا بحفـظ الثقافـة اليهوديــة، وكــان رئيســا لمجلـة "دراسـات يهوديـة" لعـدة سـنوات. وكـان لـه دور فعـال فـي قضيـة دريفـوس هـو وشـقيقه جوزيـف. فقـد كانـا معارضين علـى طرفـي النقيـض للقـوى الملكيـة الكاثوليكيـة التـي تغـذى نزعة معـاداة السـامية الجديـدة فـي فرنسـا(٦).

وكـان ريناخ عالماً فـذا مـن حيـث اتسـاع أفـق معارفـه وعمقهـا. ورغـم ذلـك، كـانت اهتماماتـه الرئيسـية تـتركز فـي العلـوم الجديـدة للآثـار والأنثروبولوجيـا. ورغـم معرفتـه العريضـة بـالهند والشـرق الأدنـى كـان اهتمامـه الأكـبر منصبـاً علـى سـيل المعلومـات الأثريـة القادمة من شمـال ووسـط وغـرب أوروبـا. ولأنـه كـان دائمـا متشبثاً بـأن اللغـة لا يمكـن ربطهـا بنمـط مـادى، فقـد كـانت كتاباتـه فـي أوائـل تسـعينيات القـرن التاسـع عشـر إعلانـا مزدوجـاً للاسـتقلال: اسـتقلال أوروبـا عـن الوهـم الشـرقي، واسـتقلال علـم الآثـار والأنثروبولوجيـا العلميـين عـن دراسـة فقـه اللغـة وتداعياتـه الرومانسـية. ويسـتطيع المـرء أن يـرى فـي ريناخ مزايـا وعيـوب الآثـار والدراسـات الكلاسـيكية فـي القـرن العشـرين: فالمزايـا هـي الإدراك والشـك، بينمـا تركـزت العيـوب فـي المطالبـة بـالدليل – عندئـذ علـق الأمـر بوجهـة نظـر المعـارضين – والاتجـاه إلى تقديـم التواريـخ واحتقـار القدمـاء.

ولقـد كـان مقالـه الطويـل "الوهـم الشـرقي (Le mirage Oriental) هجومـاً مزدوجـاً علـى كـل مـن الهنـود الشـرق الأدنـى السـامي. ولكـي نسـتخدم المشـابهة العسـكرية وهـو النمـط الـذى كـان يفضلـه ريناخ نفسـه، فقـد تم الحـط مـن شـأن الصـين ومصـر وتركيـا عـن طريـق تحـالف هنـدو – أوربـي – سـامي. أمـا مولـلر، الـذى وصفـه ريناخ بأنـه "يسـبق عصـره دائمـا" فلـم تواتـه الشـجاعة لطـرح حلفـاء أوروبـا جانبـا سـوى فـي عشـرينيات القـرن التاسـع عشـر(٧).

وبحلـول عـام ١٨٨٥م اكتمـل غـزو أوروبـا للعـالم لدرجـة أن هـذه الشـجاعة أصبحـت عاديـة ويمكـن أن تطـرح الهنـود والسـاميين جانبـاً.

"عندمـا يُكتـب تـاريخ تطـور العلـوم التاريخيـة فـي القـرن التاسـع عشـر، فسـوف يتـم

التركيز بحق على أنه فى الفترة من ١٨٨٠م إلى ١٨٩٠م ظهر رد فعل ضد "الوهم الشرقى" على استحياء فى البداية ثم تم تأكيده أكثر فأكثر وتبريره بالحقائق، كما تمت البرهنة على صحة حقوق أوروبا ضد ادعاءات آسيا فى غموض الحضارات الأولى[٨].

هاجم ريناخ الرومانسيين المتخصصين فى الدراسات الهندية فى نقاط ثلاث، أولها أنه أوضح أن محاولة ربط الأساطير الهندية بالإغريقية قد فشلت. الثانية، وفيما يتعلق باللغة، فقد ذكر عالم اللغويات الشاب فرديناند دى سوسير (Ferdinand de Saussuire)، الذى طور واحدة من أفكار مايسمى علماء النحو الجدد الذين اعتبروا أنفسهم فى تمرد عام ضد الجيل القديم من العلماء، ولقد ادعى ريناخ أن شوسير قد أنزل السنسكرينية من عرشها باعتبارها أقدم اللغات الهندو-أوروبية وأكثرها نقاءً. ولقد عرف شوسير اللغة الهندو-أوروبية الأصلية على أنها أوروبية، وبالتحديد، مع الليتوانية. ويرتبط بذلك زحزحة الـ Urheimat من عائلة اللغات الهندو-أوروبية الأصلية إلى درجة اللغة الأوكرانية أو حتى لغة البلطيق[٩]. وعلى أية حال، وهذه هى نقطته الثالثة، فقد أصر ريناخ على أن المتحدثين باللغة الهندو-أوروبية، حتى لو كانوا يشكلون جنساً فى وقت ما، فقد تم استيعابهم جسديا فى الشعوب الأوروبية الأصلية، كما أن حضارات ما قبل التاريخ العظيمة فى غرب أوروبا كانت نابعة من البيئة بشكل أساسى[١٠].

إن الأسباب الظاهرية لعداوة ريناخ للعنصرية الآرية وإيمانه بقدرات أوروبا على الاستيعاب تبدو واضحة. ولكن هجومه على التأثيرات السامية أكثر تعقيداً. ويبدو أن هذا يتعلق برغبته فى تأكيد هويته الحضارية كأوربى مندمج، فى الوقت الذى يفتقر فيه إلى رصيد من الحضارة السامية. ويمكن أن يكون مرتبطاً أيضاً – ولو جزئياً – برغبة العلمانية الجديدة فى إبعاد يهود أوروبا عن الفينيقيين والقرطاجيين الذين رأينا من قبل ارتباطهم بطقس مولوش. وبعيداً عن تأكيد نزاهته، يجب أن نرى تأييده للدراسات اليهودية على أنه يؤدى وظيفة مزدوجة فى "الإبقاء على العلم بالقتل"، والتى سادت العلم الطبيعى طوال القرن التاسع عشر.

وأنكر ريناخ تماماً وجود أية تأثيرات سامية أو مصرية على أوروبا حتى أواخر

"عصر المعادن". ورغم ذلك فقد اعترف بأنه منذ بداية التجارة الفينيقية، والتى جعلها فى القرن الثالث عشر ق.م.، "أصبحت الحضارة الغربية إلى حد ما... رافداً من روافد حضارة الشرقيين"(١١). وبالرغم من هذا. فقد أصر على أن أساس الحضارة كان محلياً تماماً.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد آمن أن حضارات ما قبل التاريخ العظيمة فى أوروبا قد أثرت فى حضارات الشرق، وأنه إذا ما حاول العلماء أن يسلكوا هذا الطريق بشجاعة كافية "وأن يتجهوا إلى الهجوم بدلاً من الدفاع" فسوف يحرزون نجاحاً(١٢). لقد اتفق ريناخ مع تسونتاس بأن الحضارة الموكينية كانت حضارة أوروبية، كما كانت هناك حضارات مشابهة وُجدت حول البحر المتوسط والأسود كما يقول، ولقد رأى أن الاختلافات الزمنية والمحلية كانت نتيجة تصور القبائل المختلفة التى تنتمى لنفس الأصل والتى وصلت إلى درجات مختلفة للحضارة(١٣)

جوليوس بيلوخ

على الرغم من ثورية ريناخ التى تجسدت فى اعترافه بالتأثير السامى بعد سنة ١٣٠٠ ق.م، فإنه لم يرجع القهقرى ليصل لموقف مولر. ولقد حدث ذلك فى العالم التالى، عام ١٨٩٤م على يد جوليوس بيلوخ Juluis Beloch فى مقالته المؤثرة للغاية – برغم قصرها – وعنوانها "الفينيقيون فى البحر الإيجى"(١٤).

كان بيلوخ ألمانياً يعيش فى روما. ولقد مارس التدريس فى جامعتها لمدة خمسين عاماً، من ١٨٧٩-١٩٢٩م، ولقد كان يحب السفر فى أنحاء إيطاليا وتصنيف آثارها تماماً مثل همبولت ونيبور وبونسين، وقد ظل، مثلهم أيضاً، رافضاً للحضارة الإيطالية(١٥). وبالرغم من نجاحه الكبير كمحاضر وحجم منشوراته الكبير، يبدو أن بيلوخ قد اعتبر نفسه فاشلاً محكوما عليه بالنفى. ويبدو أنه ظل ممنوعا من ممارسة الحياة الجامعية الألمانية على يد مؤرخ روما الألمانى الكبير مومسن Mommsen. وهناك سبب آخر لعدم قدره بيلوخ إيجاد مكان مناسب له فى ألمانيا، وهو أنه كان موضع شك بأنه يهودى، سواء كان ذلك حقيقياً أم لا. ورغم – وربما بسبب – هذا الشك، لم يكن فقط ألمانيا قومياً متقد العاطفة، ولكنه كان أيضاً معادياً للسامية قاسياً(١٦). بالإضافة إلى

ذلك فقد امتدت معاداته للسامية إلى كتابة التاريخ "إن الزنجي الذى يتحدث الإنجليزية لا يعتبر إنجليزياً لهذا السبب، وإن اليهودى الذى كان يتحدث باليونانية لا يعتبر يونانياً، وبنفس المعيار الآن فإن اليهودى الذى يتحدث الألمانية لا يعتبر ألمانيا"(١٧).

لقد كتب جوليوس بيلوخ فى التاريخ الإغريقى والإيطالى بطريقة مدهشة، إذ أن السبب الأول فى أن ذكره مايزال مقروناً بالاحترام هو أنه أدخل المناهج الإحصائية الحديثة فى دراسة التاريخ القديم(١٨). وقد جاء هذا المنهج الذى يعتمد على معالجة المعلومات السهلة المتاحة بأسلوب صارم، مصحوباً بالموقف الجامد الذى يطلب الدليل والبرهان، ويعتبر هذا التناول تناولاً نقدياً فائقاً للمصادر القديمة وولعاً بتقديم التواريخ زمنياً. وتوافق أيضاً مع ما وصفته فى المقدمة بأنه "وضعية أركيولوجية (= أثارية)"، أى الإيمان المطلق بالآثار باعتبارها مصوراً علمياً للمعلومات عن العصور القديمة. وهذا بدوره يرتبط بالإعتقاد القائم على تشابه الكلمات، بأن تناول الموضوعات يجعل المرء "موضوعياً"، كما أن بيلوخ وخلفاءه أظهروا قدراً ضئيلاً من الحساسية تجاه الحقيقة القائلة بأن التفسير الأثرى يمكن أن يكون معرضاً للتأثيرات الذاتية مثل تفسير الوثائق واللغويات والأساطير.

ويشير البروفسير موميجليانو، فى مقالته عن بيلوخ، إلى الصراعات الخفية بين نزعته التحررية ونزعته الوطنية... بين عنصريته وعقيدته عن الأرقام(١٩). وإذ أننى لا أنكر التناقضات الخفية، فإننى اعتقد أنها عادة ما تكون "غير مثيرة للخصومة". فإذا ما وسع المرء نطاق "عقيدة الأرقام" لتصير نوعاً من الطلب الوضعى للبرهان، فإن هذه "الصراعات الخفية" قد صارت النتاج الرئيسى للدراسات الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين. إنها تعوض الجانب "النقدى الوراثى" فى كتابة التاريخ والذى من أجله مدح ويلكن، مؤرخ التاريخ القديم اليمينى، نيبور(٢٠). ورغم تعرض بيلوخ للهجوم من جانب زملائه الأكثر ليبرالية – مثل مومسين وبلياموتز – مويلندروف – كما يتعرض له الآن على يد موميجليانو، فقد كانت آراؤه مجرد ترجمة متطرفة للآراء التى تبناها العلم ككل. وإذا ما تركنا تناوله للساميين للحظة، سنجد أقلية من علماء الكلاسيكيات يخالفونه فى مفهومه القائل "لا علاقة للعلم بالإحتمالات المجردة "الذى

يربطونه بالإسراف فى استخدام كلمة "من المحتمل"[٢١].

على نحو ما يفعل هو. ولم يعرف بيلوخ أى لغة من اللغات السامية، مثله فى ذلك مثل معظم كلاسيكيي القرن العشرين. ورغم ذلك، ونتيجة إقتباسه للدراسات الألمانية الحديثة، شعر أنه قادر على إنكار أن اللغة الإغريقية قد استعارات كلمات فينيقية وأسماء أماكن، على الرغم من جاذبية العلاقة بينهما. بل إنه مثلاً، أنكر العلاقة بين نهر الأردن والنهر المسمى **Iardanos**، الذى اكتشف فى كريت وإليس، وهى علاقة حظيت باعتراف واسع النطاق من قبل. أو بين جبل طابور فى فلسطين وجبل أتابيريون **(Atabyrion)** فى رودس[٢٢]. ولقد وجد بيلوخ إدوارد ماير – الذى كان قومياً ألمانياً شديد البأس – مفيداً فى هذا الصدد. ولقد كان ماير يشبه أدولف فى أنه لم ينف وجود مستعمرات فينيقية فى البحر الإيجى، رغم تطرفه فى إنكار التأثيرات السامية عن بلاد الإغريق. وهكذا يمكن أن نعتبره موضوعياً فى هذا الموضوع[٢٣]. ولقد تبع بيلوخ مولر فى نسبة الإشارات الإغريقية وفى الشرق الأدنى لأصول دينية مشتركة إلى وجود علاقات فى الفترة الكلاسيكية المتأخرة أو الهيللينستية[٢٤].

وأخذ بيلوخ من عالم آخر فكرة أن الفينيقيين لم يعلموا الإغريق صناعة السفن لأنه ليس من المفترض وجود كلمات سامية بين المصطلحات البحرية الإغريقية، وهو ما يعنى أنهم لم يستطيعوا الوصول للبحر الإيجى فى وقت مبكر[٢٥]. وهذه الحجة مضللة من ناحيتين. أولا: أن وجود الفينيقيين فى البحر الإيجى فى الألف الثانية فرضاً لا يعنى أنه لم تكن لدى الإغريق الأوائل سفن قبل ذلك. ثانيا، فقد حدث ووجدت بعض الإشتقاقات السامية التى تتوافق تماماً مع المصطلحات البحرية الإغريقية التى ليس لها أصول هندو-أوروبية معروفة. ورغم أن الجميع قد سلم جدلاً بأن كلمة **(baris)** (زورق صغير) أصلها مصرى، فإن بيلوخ ومعاصريه لم يفكروا فى إمكانية وجود أصول مصرية أخرى فى مجال دراسة معانى الكلمات.

وهذا فى الحقيقة يمكن أن يفسر عدداً كبيراً من المصطلحات التى يمكن أن تتطابق تماماً مع حقيقة أن أقدم تصوير مفصل للقوارب كان من منطقة البحر الإيجى، وكان على حوائط ثيرا فى منتصف الألف الثانية، وكان تصويراً واضحاً لأنماط سفن

مصريـة[٢٦].

كذلـك أصـر بيلـوخ علـى أن القـوارب الفينيقيـة كـانت صغـيرة للغايـة وليسـت لهـا القـدرة علـى تحـدى البحـر المفتـوح. وهكـذا، ربمـا كـانوا قـادرين علـى أن يزحفـوا بطـول سـاحل شمـالى إفريقيـا، ولكنهـم لم يسـتطيعوا أن يصلـوا إلى بحـر إيجـة قبـل القـرن الثـامن. ويوجـد الآن دليـل أثـرى كاسـح يـرى أنهـم قـد فعلـوا[٢٧]. وهنـا، يفضـل بيلـوخ، مثـل أصحـاب النمـوذج الآرى المتطرفـين، أن ينسـب أى تأثـيرات شـرقية لا يمكـن إغفالهـا إلى الأنـاضول والطريـق الـبرى طبعـا.

وعمومـاً، فـإن إحـدى طـرق التمييـز بـين المتطرفـين وغـير المتطرفـين فـى "النمـوذج الآرى" هـو η موقفهـم مـن ثوكيديديـس. فبينمـا لا يسـتريح أتبـاع النمـوذج الآرى العريـض (المعتـدل) لهـوس هـيرودوتوس بمصـر، فـإنهم يكنـون لثوكيديديـس احترامـاً عميقـاً. ذلـك أن ثوكيديديـس لم يذكـر أيـة مسـتعمرات مصريـة – فينيقيـة فـى بـلاد الإغريـق الرئيسـية، ولكنـه، مـع ذلـك، يشـير لوجـود مسـتعمرات فينيقيـة فـى الجـزر الإغريقيـة وحـول صقليـة كلهـا. ولقـد أنكـر بيلـوخ وجودهـا تمامـاً، وطـالب بدليـل أثـرى لإثبـات أقـوال القدمـاء واسـعة الإنتشـار والتـى يعوزهـا الدليـل[٢٨]. ورغـم ذلـك، فقـد كـان اهتمامـه الرئيسـى منصبـاً علـى إشـارات هومـيروس المسـتمرة نسـبياً إلى الفينيقيـين والصيداويـين. ولقـد حـاول بيلـوخ، مثلمـا فعـل مولـلر، أن يقلـل مـن حجـم الإشـارة للفينيقيـين بتوضيـح أن كلمـة فوينكـس (Phoinix) لهـا معـانى عديـدة مختلفـة فـى اللغـة الإغريقيـة، وتعـامل مـع الحـد الأدنـى مـن الإشـارات للفينيقيـين بافـتراض أنهـا تنتمـى لأحـدث طبقـة مـن الملاحـم، والتـى رأى أنهـا ليسـت نتـاج قريحـة شـخص فـرد وإنمـا هـى مـيراث مـتراكم. وهـو فـى هـذا يتبـع نهـج وولـف ومولـلر. ولقـد أنكـر بيلـوخ تمامـاً وجـود أيـة إشـارات للفينيقيـين فـى جوهـر الملاحـم، وبـرر هـذا الإعتقـاد بغيـاب الفينيقيـين عـن قائمـة حلفـاء طـروادة مـن الـبرابرة فـى ملحمـة "الإليـاذة" والتـى اعتبرهـا شـاملة لمنطقـة بحرإيجـة والأنـاضول[٢٩]. وهكـذا كـان قـادراً علـى الادعـاء بـأن الفينيقيـين لم يسـتطيعوا القـدوم إلى البحـر الإيجـى قبـل نهايـة القـرن الثـامن ولهـذا لم يسـتطيعوا أن يلعبـوا دوراً مهمـاً فـى تكويـن الحضـارة الإغريقيـة.

لقـد كتـب العـالم البلجيكـى المعـاصر جـى بونيـنز (G.Bunnens) عـن الرجـال الذيـن

أسسوا النزعة الآرية المتطرفة: "عندما يقرأ المرء أعمالهم، لا يستطيع مقاومة التفكير بأن هؤلاء المؤلفين لا تحكمهم دائما الموضوعية العلمية وحدها. لقد أصر ريناخ و أوتران (Autran)، وهو عالم فرنسي له نفس الآراء، على حفظ مكان في الماضي السحيق لتلك الشعوب التي تحكمت في سياسة العالم في عصرهما: أى للأوربيين. وأصروا على أنه من غير المعقول أن الشعوب التي تحظى بهذا القدر من الأهمية اليوم لم تلعب أى دور في الماضي. ولذلك كان من الضرورى "تأكيد حقوق أوروبا فوق ادعاءات آسيا". وتفسر الخلفية التاريخية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هذه النظريات الجديدة. فقد كانت تلك هي فترة إنتصار النظام الإستعمارى للقوى الأوروبية... وهناك عامل آخر غير علمي، فقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر تياراً قوياً لمعاداة السامية في أوروبا، وبصفة خاصة في ألمانيا وفرنسا... وامتدت هذه الكراهية لليهود وإلى مجال التاريخ، فانصب على الساميين الآخرين، أى الفينيقيين[٣٠].

فيكتور بيرار

ومن المثير، أن النموذج الذى يصفه بوننس كان واضحاً لكل ذى فطنة آنذاك. ففي عام ١٨٩٤م، وهو العام الذى نشر فيه بيلوخ مقاله، أخرج فيكتور بيرار (V.Berard) كتابه الضخم "في أصل العبادات الآركادية" والذى جاء بتصور معاكس تماماً للعلاقة بين الإغريق والفينيقيين.

لقد ولد بيرار في جورا (Jura) على الحدود السويسرية، وشق طريقه في العلم من خلال مدارس الليسيه في باريس وفي عام ١٨٨٧م ذهب إلى المدرسة الفرنسية في أثينا وانشغل لمدة ثلاث سنوات يعمل حفائر في أركاديا، المنطقة الجبلية الريفية الأصلية القديمة في وسط البلبونيز. وسافر في مختلف أنحاء تلك المقاطعة البعيدة، وكذلك في مختلف أنحاء بلاد الإغريق والبلقان. كان بيرار رجلاً غير عادى في حيويته وإصراره. فهو لم يستمر في حياته الأكاديمية فقط لكنه أيضاً نشر العديد من الكتب عن البلقان المعاصرة والشرق الأدنى وروسيا. وتولى الإشراف على جريدة سياسية تسمى "Revue de Paris" طوال عدة سنوات وتم إنتخابه فيما بعد ممثلاً لمقاطعة جورا في البرلمان. ورغم أنه كان راديكالياً في الأمور السياسية، فقد ارتبط بشكل لصيق بالبحرية

الفرنسية واستهواه البحر بشـدة[٣١].

ولقـد أرجـع موضوعـات كتابـه الأول عـن الديانـات الأركاديـة إلى مفاجـأتين مذهلتين واجهتاه أثناء إقامته فى المقاطعة. الأولى هـى دقة باوسينياس المذهلة؛ حيثمـا كـان من الممكـن التحقق من صحة ما كتبه عن طريق المسح الشامل أو عن طريق الآثار. وقد يبدو من الغريب إلى حد ما أن بيرار دُهش من هذا الاكتشاف، على حين كان الكتاب الدليل للقرن الثانى قد برهن، بفضل اكتشافات شليمان فى موكينـاى وتيرنتيوس، بدقة باوسيناس البالغة فى تحديده للمواقع الأثرية الهامة.

ورغم ذلك، فإن الروح الأكاديمية لـ Besserwissen، والمجسدة فى ريناخ وبيلوخ، لم ترتبك بسهولة. فلقد استمر باوسيناس، مثل غيره من المؤرخين والجغرافيين القدماء، يُعامل بعطف ودود يليق بالأطفال. وعلى آية حال، فقد كان بيرار مقتنعاً بأن باوسيناس قد زار الأماكن التى قال إنه زارها وإنه وصفها بدقة. ولقد شجع هذا بيرارعلى تصديق الكتاب القدماء الآخرين أيضاً[٣٢].

ولقد رأى بيرار كذلك أن الديانات الأركادية كانت غير هيللينية، ولم يكن ذلك موضع خلاف، فقد ارتبطت أركاديا دائما بالبلاسجيين. وكان ما أدهشه، وأغضب زملاءه، هو استنتاجه بأنها كانت سامية. فقد كان من الأمور المسلم بها فى أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر، أن الفينيقيين، باعتبارهم شعباً يرتاد البحار، لم يستطيعوا أن يتوغلوا فى البر. وكان ما عمله بيلوخ هو مجرد تنظيم منهجى للإعتقاد الشائع بأن التأثير الفينيقى فى بلاد الإغريق كان متأخراً للغاية. وتم دحض هذين الافتراضين بفكرة التأثيرات السامية الجوهرية فى منطقة داخلية تعد نموذجاً فى الحفاظ على عاداتها القديمة.

ولقد ادرك بيرار المتناقضات تماماً. ونظراً لإقتناعه بما توصل اليه فقد بدأ يتساءل عن مدى صحة النموذج الذى هاجموه، كما بدأ يبحث عن متشابهات حديثة. وأدى هذا إلى أن كتب فقرة سوف اقتبسها هنا بالكامل، لأنها تلخص بشكل جميل الموضوع الرئيسى لكتاب "أثينا إفريقية سوداء". إذ كتب فى مجال تبريره للوجود الفينيقى فى منطقة أركاديا، تلك المنطقة البلاسجية الداخلية الفقيرة البعيدة:

"... يذهب أوربيون كثيرون اليوم إلى البلاسجيين، الذين لا يقلون في البعد أو الوحشية، وليحصلوا على نفس القدر الضئيل من المكاسب، وكي يستكشفوا الأركاديات الإفريقية. إن الشغف بالمغامرات والرحلات ليس حكراً على فترة زمنية واحدة أو على جنس واحد، أو على تشتيت الساميين غير العادى في العالم المعاصر. ... والحقيقة أن الرحالة المعاصرين يدفعهم دافعان لا يبدو أنهما كانا يحركان أهل صيدا بنفس الدرجة، على أقل تقدير، وهما: الفضول العلمى والحماسة الدينية. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه المقارنة بين البلاسجيين والكونغوليين المعاصرين قد تبدو مدهشة وعلى الرغم من هذا، ينبغى على المرء أن يحذر الوقوع في فكرتين مسبقتين، أو بالأحرى نمطين من المشاعر اللاعقلانية وغير الواعية تقريبا هما ... تعصبنا القومى الأوربى، وما يمكن للمرء أن يسميه تعصباً للإغريق، دون أن يجاوز حدود الاحترام. ومنذ سترابون (جغرافى القرن الأول) وحتى كارل ريتر Carl Ritter (جغرافى أوائل القرن التاسع عشر الذى تعلم في جوتنجن)، فقد علمنا جميع الجغرافيين أن نعتبر قارتنا الأوروبية أرضاً مفضلة عن أى أرض أخرى، وأنها فريدة وتفوق الجميع في جمالها... وفى رشاقة أشكالها وقوة حضارتها ... إن هذه الطريقة في النظر إلى العالم ربما يمكن أن تؤثر في عدد كبير من أفكارنا العادية تماماً رغماً عنا أو بدون وعى منا تقريبا. أننا نضع أوروبا في جانب وآسيا أو إفريقيا في الجانب الآخر، وبين الإثنين هاوية سحيقة. وحينما نتحدث عن التأثيرات الأسيوية على بلد أوربى فإننا لا نستطيع أن نتصور ... أن البرابرة قد تجرأوا وقدموا إلينا. ولكن الحقيقة القاسية ترغمنا على الإعتراف بأنهم في بعض الأحيان قد أكتسحونا. ويدعى بعض الناس أن مهد أجدادنا كان بعيداً عن قارتنا الأوروبية، وكان في وسط آسيا. ولكن بالنسبة لآبائنا من الآريين، فإننا نتميز بالصفح والغفران الذى يميز الأبناء المخلصين، فحتى لو كانوا قد جاءوا من آسيا، فهم ليسوا آسيويين، فقد كانوا هندو-أوروبية إلى أبد الآبدين.

"على العكس، فإن غزو آسيا السامية لقارتنا الأوروبية الآرية، يعتبر أمراً مقيتا بسبب إنحيازاتنا كلها. ويبدو حقيقيا كما لو كان الساحل الفينيقى يبعد كثيراً عنا، بأكثر مما تبعد الهضبة الإيرانية، كان مجرد رمية حظ فريدة، وعشرة من عشرات الحظ السيء... لا

يتصور المرء للحظة إنهـا قـد تتكـرر ثانيـة. أن يحتـل الفينيقيـون قرطاجـة ويسـتولوا علـى نصـف تونـس فهـو أمر يخص إفريقيـا، وأن يهـزم القرطـاجيون بدورهـم أسبانيا وثلاثـة أربـاع صقلية (فلا بأس، فقد كانوا) مجرد مناطق إفريقية، كما نقول. ولكن عندما نجد آثار الفينيقيين في مارسيليا وبراينست وكيثرا وسلاميس وثاسوس وساموتراس وفي بؤتيا ولاكونيا برودس وفي كريت، فإننا لا نرغب، كما في حالة إفريقيا، في القول بوجود مستعمرات حقيقية، ولكننا نتحدث فقط عن نزول مؤقت بهذه المناطق أو مجرد محطات تجارية... وإذا ما استطعنا التفوه بكلمات "حصون" أو "ممتلكات فينيقية" فإننا نسرع بإضافة أنها كانت منشآت ساحلية... لقد أصبح هذا التعصب الأوربي تعصباً وتزمتاً حقيقياً عندما قابلنا الغرباء، ليس في فرنسا أو أتروريا أو لاكونيا أو طراقيا ولكن في بلاد الإغريق. لقد ثارت كل أوروبا في بدايات هذا القرن،... ولم يعد حب الهيللينيين الدافق في عشرينيات القرن التاسع عشر هو الموضة الرائجة. ولكن المرء يستطيع القول بأن العاطفة لم تتغير كثيراً... فإننا لا يمكن أن نتصور بلاد الإغريق إلا باعتبارها بلاد الأبطال والآلهة القائمة تحت أروقة من الرخام الأبيض. ودون جدوى يخبرنا هيرودوتوس أن كل شئ قد جاء من فينيقيا ومصر، فنحن نعرف ماذا يجب أن نعتبر هيرودوتوس العزيز العجوز. وبعد عشرين عاما أمدنا فيها علم الآثار، في كل يوم وفي كل المدن الدول الإغريقية، بأدلة لا يمكن إنكارها على التأثير الشرقي، فإننا مازلنا لا نسمح بأن نعامل بلاد الإغريق على أنها مقاطعة شرقية مثل كاريا أوليكيا أو قبرص بسبب ذلك. إذ أننا في جغرافيتنا نفصل أوروبا عن آسيا، وفي تاريخنا نفصل التاريخ الإغريقي عما نسمية التاريخ القديم. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نرى من الآثار المادية والملموسة أن الإغريق... كانوا تلاميذاً لفينيقيا ومصر، ونرى أنهم قد استعاروا من الشرق السامى بالنص حتى الأبجدية. ورغم ذلك، فإننا نتراجع مصدومين أمام الفرضية الآثمة بأن نظمهم وعاداتهم ودياناتهم وشعائرهم وأفكارهم وأدبهم وكل حضارتهم البدائية يمكن أن تكون موروثة أيضاً عن الشرق"[٣٣].

ومن المثير أن نلاحظ أن بيرار رغم شجاعته الجمة لم يقترح التأثير المصرى بشكل جاد - بعكس معاصرة فوكار (Foucart) - ولم تحدى قدس الأقداس أى اللغة

اليونانيـة.

واكتشـفت أن عواطفي تحركـت لأنني اكتشـف تلك العبارة الواضحـة عـن الأفكـار التي يعبر عنها كتابي، وقد كُتبت في قمة المد الإستعماري ومع بدايات النمـوذج الآرى المتطرف ورغم ذلك، فإن هذه الحقيقة نفسها تبدو وكأنها تضع تحديا أمـام طريقـي فـي شـرح تلك التطـورات العلميـة فـي مصطلحـات ظاهريـة - أى أنهـا قـد تـأثرت بشـدة بالتطورات الإجتماعية والسياسية الخارجية والجو الثقافي العـام.

ولمواجهـة هـذا التحـدى، اعتقـد أنـه سـيكون مفيـداً أن ننظـر إلى ثلاثـة روابـط للمعرفة: التفكير الشخصي للعلماء، مقدرتهم على التعليم والنشر، ثم التطور العـام فـي المعرفة. وإنني اعتقد أن سوسيو لوجية المعرفة يمكنهـا أن تصـل إلى توقعـات تقريبيـة فقـط للاتجاهـات والسـلوك فـي المسـتوى الأول. ويمكنهـا أن تكـون أفضـل فـي الثـاني، ولكـن يمكنها أن تصـل إلى المكانة التي تستحقها فقط في المستوى الثالث والأعم.

وتنتمي هذه الحالة إلى المستويين الأول والثاني. واعتقد أنه كـان مـن المسـتحيل أن يظهر بيرار ألماني أو انجليزى علـى حـد سـواء. ويعطـي شـليمان مثـالاً متناسـقاً للحـدود الرومانسية التي بداخلها كان يمكن حتى لأكثر الألمـان راديكاليـة وإبداعـاً أن يفكـر فـي هذه الأمور. ولقد أوضح جلادستون وفريزر وهاريسون الحدود العريضة نسـبياً والممكنـة في بريطانيا. فقط كـان روبرتسـون سميـث، المنشـق المحـترف والأنـثروبولوجي اللامـع فـي الديانة السامية، هو الذى يمكنه أن يبدأ ويتجاوزهم.

ولم يكن ممكنـاً أن يتطرق الفكر لمثل هـذه الأفكـار سـوى فـي فرنسـا وذلـك بعـد نزعة الشك التي ميزت المذهب الآرى الألماني بعد سنة ١٨٧٠م، وأيضـاً بين الجمهوريـين المعروفين بكراهيتهم الكاثوليكية الملكية المعادية للسـامية. ويمكـن للمـرء أن يقـول بطريقـة رومانسية إن أصل بيرار المحلي كان مهمـاً وذلك لوجـود مـيراث قـوى للفردية العلمانيـة والراديكالية الإجتماعية في كل مـن "جـورا" الفرنسـية والسويسـرية، والـذى جعـل منهـا مثـالاً لثلاثـة مـن كبـار الفوضويـين الإجتمـاعيين هـم بـرودون (Proudhon) وبـاكونين (Bakunin) وكرودبوتكـن (Kropotkin)[٣٤]. وهنـاك عـامل آخـر مهـم، وهـو أن بيرار لم يكن أكاديمياً قحاً، إذ كان له عالمه الخارجي، عالمه الصحفي والسياسـي، والـذى

أعطاه منظوراً أوسع. ونلاحظ نفس هذه الخواص فى كل من شليمان وجلادستون.

ويكون هذا العامل الأخير حاسماً على المستوى الثانى. إذ لم يكن ممكنا للمنشق الأكاديمى، رجلاً كان أو إمرأة، توافر فرصة لنشر أفكاره "غير الصحيحة" إلا إذا كان فى وضع إجتماعى مرموق. ففى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لم يكن الأكاديميون الملتزمون يحتكرون المنشورات "المحترمة" تقريباً على نحو ماهو حاصل الآن من خلال سيطرة الملتزمين على مطابع الجامعات بالشكل الذى يتيح للأكاديميين أن يتجاهلوا ما يُنشر فى أى مكان آخر. وعلى كل حال، فقد كان من الصعب، حتى فى ذلك الزمان، على العلماء المنشقين والخارجين أن يحوزوا فرصة عرض آرائهم.

وكان لتجاوز حدود الأكاديمية الملتزمة عواقب سلبية أخرى تتمثل فى أنه يصعب على الباحث غير المنتمى إلى نظام "المتفرد" أن يعرف أين يجب أن يتوقف. ومن حيث المبدأ القائل بأن المرء يمكن أن يُشنق بسبب شاه أو بسبب جمل، فإن هناك إغراء كبيراً بأن "تحكى الحكاية كما هى"، بصرف النظر عن الأحكام المسبقة لدى جمهور السامعين. ويمكن للعالم أن يتجاوز بسهولة حدود ماهو يمكن أن يتقبله معظم الملتزمين ذوى الأفق الواسع، كما يمكنه أيضاً أن يتجاوز ما هو مفيد لتطوير أفكاره القاسية.

فعلى سبيل المقال طور بيرار نظرية فحواها أنه كما كان يوجد بحر متوسط فينيقى خلف البحر المتوسط الإغريقى فقد كانت هناك "أوديسيا" فينيقية قبل "الأوديسيا" الإغريقية(٣٥)

ولقد زود هذا الفرض الطائش العلماء الملتزمين بسلاح مثالى للشك فيه وفى كل أفكاره. ورغم ذلك فقد اكتشف خلال أبحاثه الواسعة والمستفيضة فى الموضوع عدداً كبيراً من الإشتقاقات اللغوية السامية المقنعة لأسماء الأماكن الإغريقية، كما أسس مذهباً مفيداً فى إزدواجية أسماء الأماكن، ويتعلق ذلك بالمواقف التى استخدمت فيها أسماء مكانين مختلفين تماماً للدلالة على الأمكان نفسها أو أماكن قريبة منها. وفى مثل هذه الحالات كان يجادل بأن الأسماء هى ببساطة كلمات إغريقية وسامية تدل على نفس الأشياء.

ولنأخذ على سبيل المثال جزيرة كيثرا (Kythera) الواقعة فى الجنوب الشرقى للبلوبونيز. ففى عام ١٨٤٩م تم اكتشاف نقش من بلاد مابين النهرين يرجع إلى القرن الثامن عشر ق.م، ولقد كتب هيرودوتوس أن معبد أفروديتى أورانيا قد أقيم هناك بواسطة الفينيقيين، ولقد كانت أفروديتى تصور دائما مرتدية تاجاً[٣٦]. ولاحظ بيرار أن اسم الميناء الرئيسى للجزيرة كان سكانديا (Skandeia) ولقد قال هسيجيوس – واضع أقدم قاموس إغريقى باقى حتى الآن – أنها تعنى "توعاً من غطاء الرأس". عندئذ أوضح بيرار أن كلمة "كيثرا". أى أسم الجزيرة واسم المدينة الرئيسية بها والتى ليس لها اشتقاق هندو–أوربى – يمكن أن تكون مشتقة من الأصل السامى (Ktr) الذى وُجد فى العبرية (Keter) أو (Koteret) بمعنى تاج أو أكليل مرصع بالجواهر[٣٧].

ورغم الطبيعة المقنعة للغاية لهذه الإزدواجية فى الأسماء وغيرها من التشابهات الدينية، كان العلماء الملتزمون قادرين على إغفال بيرار وجميع أعماله بسبب استحالة أن تكون الأوديسيا فينيقية. وبحلول عام ١٩٣١م، عام وفاة بيرار، بات اسمه مضغة فى الأفواه فى الأوساط الدراسية، ولكن يجب أن نلاحظ أن الحركة السرية استمرت تعتنق مثل هذه الآراء "فى مخدعها". بالإضافة إلى هذا، فقد قرأ الجمهور العريض كتبه وقدرها، ويبدو أن الشعور – الذى عبر عنه جوبينو قبل ذلك بخمسين عاماً – بأن أودسيوس كان سامياً بشكل ما قد انتشر بين القراء. وقد أُحسن استقبال بيرار فى بريطانيا بشكل خاص، وذلك بسبب شغفها بالفينيقيين وتشابهها معهم، ولقد ترك تأثيره بصمة دائمة فى الأدب خاصة فى "أولسيوس" التى تدور عن اليهود لا عن الإغريق.

رغم ذلك، لم يستطع بيرار أن يوقف عجلة التطرف الآرى فى مجال البحث، وفى مستواه الثالث والأكثر أهمية كان يمكن إستخدام سوسيولوجية المعرفة ببعض الإتقان. وأننى مقتنع بأن السياسة الأوروبية والمجتمع الأوربى، فى الفترة من ١٨٨٠ إلى ١٩٣٩م كانا منغمسين فى العنصرية ومعاداة السامية، وكانت الدراسات الكلاسيكية جوهرية بالنسبة للتعليم والنظم الإجتماعية لدرجة أنه كان من المستحيل تغيير صورة بلاد الإغريق القديمة بالطريقة التى أرادها بيرار بغض النظر عن الدليل التاريخى والأثرى. ولم يكن من الممكن إحداث أى خدش فى نماذج التاريخ القديم المقامة عليهم الا بعد

إنهيار النظام الإستعمارى وتجريم العنصرية ومعاداة السامية رسمياً بين عامى ١٩٤٥-١٩٦٠م.

اخناتون والنهضة المصرية

لا يشير كل من بيرار وفوكار إلى الآخر فى كتاباته. وعلى الرغم من أنه ليس بوسع المرء سوى التأمل، فإنه يبدو أنهما قد شعرا بأن بدعة واحدة تكفى - وأنه سيكون تجاوزا يفوق الحدود إذا ما دافعا عن المصريين والفينيقيين فى وقت واحد. ومن الواضح، برغم ذلك، أنه بازدياد معاداة السامية وكراهية الفينيقيين، ظهرت مساحة أكبر للتسامح إزاء المصريين. وقد حفظ علماء المصريات المحترفون فكرة أن المصريين أدنى من ناحية التصنيف العرقى، ولكن عامة الناس أخذوا ينظرون إليهم باعتبارهم لا يمثلون أى تهديد للحضارة الأوروبية.

وكانت شخصية الملك المنشق إخناتون بصفة خاصة موضع الإعجاب. ذلك أن هذا الفرعون الذى اعتلى العرش تحت اسم أمينوفيس، فى الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة فى غضون القرن الرابع عشر ق.م، تخلى عن عبادة عائلته وأسرته الحاكمة للإله آمون وغيره من الآلهة، وحاول إقامة عبادة توحيدية ترتكز على قرص الشمس، هى عبادة آتون. ومن آتون اتخذ اسمه الجديد اخناتون. وانتقل من طيبة العاصمة التقليدية إلى عاصمة جديدة بُنيت فى الواقع المعروف الآن باسم "تل العمارنة". ورغم ذلك، انتهت حركة الإصلاح مباشرة بعد موته، وأُعيدت عبادة آمون مرة أخرى وعادت طيبة عاصمة مرة أخرى. وتُركت تل العمارنة لتصبح موقعاً نموذجياً لعلم الآثار، وعندما تم الحفر فى الموقع فى ثمانينيات القرن التاسع عشر على يد فلندرز بترى وظهرت الخطوط العريضة لمحاولته الإصلاحية إزدادت الحماسة الأوروبية تجاه اخناتون.

ولقد اهتم علماء المصريات بشكل خاص بإعطاء اخناتون وديانته الآرية الجديدة، أو على الأقل الشمالية، أوراق الإعتماد. وادعى بترى أن أصل الديانة يرجع إلى مملكة الميتانى الشمالية والناطقة باللسان الحورانى، وكما يزعم، فقد جاء منها كلُ من جد اخناتون وأمه وزوجته(٣٨). ولقد بقيت هذه الإعتقادات - أو تعديلاتها - شائعة طوال الخمسين سنة التالية. وكما جاء فى العبارة التالية، والتى كتبها أحد علماء المصريات،

الـذى استطاع تحويـل الإصلاحــات إلى مسـألة عنصريــة: "يجـب أن نتذكـر دائمـاً أن كثـيراً من الدماء التــى كـانت تجرى فـى عـروق الملـك كـانت دماء أجنبيـة. ومـن ناحيـة أخـرى، فـإن من كــان يحادثهم، رغـم تعليمهـم العالى، كـانوا مجـرد مصريـين يؤمنـون بالخرافـات(٣٩).

ولقـد تم الإتفـاق الآن بشـكل مقبـول علـى أنـه لـو كـان أبنـاء الأسـرة الثامنـة عشـر مـن الأجانب، فـإنهم كـانوا نوبيين. ومـن المحتمـل أيضـاً أنهـم كـانوا مـن صعيـد مصـر، ولابـد أنهـم كـانوا مـن ذوى البشـرة السـمراء علــى أيـة حـال كمـا يظهـر مـن صورهـم(٤٠). وبالنسـبة لمسـألة الديانـة الجديـدة، فقـد ثـار جـدل بـأن ديانـة آتـون جـاءت مـن عبـادة سامية هـى ديانـة أدن أو أديـن (أى الـرب والسـيد). ومـع هـذا فـإن الإجمــاع هنـا أيضـاً علـى أن الإصلاحــات الدينيـة يمكـن أن تُفسـر بطريقـة أكـثر إقناعـاً علـى أنهـا تطـور محلـى، وأن مشـروع الأصـل الميتــانى، كــان يقصــد بــه تفسـير "الإسـتحالة" العنصريـة بـأن يقــوم المصريــون الأفارقــة "الجـامدون" بتغيـير عنيـف – وهـو مـا اضطـر المسـيحيون إلى الإعـتراف بأنـه كـان اتجاهـاً أيجابيـاً(٤١)

ومـن ناحيـة أخـرى فـإن الحماسـة لإخنـاتون وإصلاحاتـه، حتـى مـن جـانب أولئـك الذيـن تصـالحوا مـع كونـه مصريـاً– يبـدو أنـه يوضـح وجـود قـوى أخـرى. كـانت إحداهـا ظهـور الإعتقـاد القديـم بـأن اليهـود كشـعب، موسـى كفـرد، قـد تعلمـوا دينهـم مـن مصـر. وكـان الدراسـون حريصـين فـى الموضـوع، ولكـن وجــود ديانـة التوحيـد فـى القـرن الرابـع عشر ق.م. فى بلـد مجاور تمامـاً جعـل مـن الطبيعـى للغايـة أن تُشـتق الإسـرائيليات مـن هنـاك.

ولقـد اعتقـد بعـض الكتـاب أن عبـادة آتـون كـانت اسمـى مـن اليهوديـة: "إن المسـيحية لا تقـترب مـن ديانـة فـى العـالم سـوى عقيـدة إخنـاتون(٤٢). وهكـذا يمكـن أن تكـون المسـيحية مشـتقة تمامـاً، سـواء مـن الناحيـة الروحيـة أو التاريخيـة، ليـس مـن الساميين ولكـن مـن "ديانـة آريـة سـواء حقيقيـة أو شـرقية، وهـذا هــو السـياق الـذى يجـب أن يـرى فيـه المـرء كتـاب "فرويـد" مؤسـس ديانـة التوحيــد"، والــذى كُتـب فـى أواخـر ثلاثينيـات القـرن العشـرين. ورغـم ذلـك، فقـد أراد فرويـد بـالتحديد أن يعـارض المعجبـين باخنـاتون مـن المسـيحيين. ولكـى يخفـف مـن معـاداة السـامية العنيفـة آنـذاك يبـدو أنـه كــان يـأمل فـى إعفـاء اليهوديـة واليهــود مـن مسـئولية قمـع حركـة التوحيـد المسـيحية وإلقـاء اللـوم علـى اخنـاتون

والمصريين[٤٣].

آرثر إيفانز والمينويون

بعد بداية القرن العشرين مباشرة، كان لابد للمناقشات العلمية أن تتضمن عاملاً جديداً هو: الحضارة المينوية في كريت. وقد جاء الدليل عليها من اكتشافات آرثر إيفانز المذهلة في كنوسوس في تسعينيات القرن التاسع عشر، وسرعان ما قامت حفائر أخرى في كل مكان في الجزيرة. وبإدراك أن الحضارة الموكينية كانت من عدة وجوه مجرد شكل مبسط للحضارة الكريتية، أصبح من المهم للغاية ومن الطبيعي التحديد اللغوى للحضارة الكريتية القديمة. ففي العصور الكلاسيكية، يبدو أن استخدام المصرى لاسم (kftiw) قد انتقل من الكريتية إلى الفينيقية، ويبدو أن الإغريق كانوا يشيرون بكلمة فوينيكس (Phoinikes) إلى كل من المينويين والفينيقيين[٤٤]. وقد يفترض هذا وجود ارتباط ما بالسامية، وعلى أية حال، يبدو أنه كان مقبولاً، أو على الأقل في العصور الهيللينستية، أن الفينيقية كانت اللغة الرئيسية في كريت المبكرة. فعلى سبيل المثال، كتب لوكيوس سبتيميوس في القرن الرابع الميلادى، أنه عندما حدث زلزال عام ٦٦ ميلادية واكتشفت مخطوطات كريتية قديمة أستدعى الأمبراطور نيرون الساميين لتفسيرها[٤٥]. ومن ثم، فقد كان أرنست كورتيوس، كما سبق ورأينا في الباب السابع، راغباً في التسليم جدلاً بوجود قدر معقول من المستوطنات السامية في كريت، بينما كان ينكر أن البلاسجيين المحليين قد هزموا تماماً[٤٦].

وكان إيفانز نفسه يؤمن بوجود علاقة بين الكريتيين القدماء، الذين يدعوهم الآن بالمينويين نسبة إلى الملك الأسطورى مينوس ملك كريت، وبين الفينيقيين، رغم أننا يجب أن نتذكر أنه قد وافق جلادستون في أن الفينيقيين لم يكونوا ساميين خالصين وإنما تعرضوا لتأثيرات من منطقة بحرإيجة[٤٧].

ولد إيفانز عام ١٨٥١م، ورغم أنه تعلم في أوكسفورد وجوتنجن، فقد كان ينتمي للجيل الأكبر سنا والأكثر تفتحاً. وهكذا تقبل إحتمال التأثير السامي، وربما حتى الليبي، على كريت، ومن هناك على منطقة البحر الإيجي بكاملها. ورغم ذلك، فإن صياغته لاسم "مينوى" قد شجعت الناس على أن يفكروا في كريت باعتبارها وجوه

حضارية منفصلة تماماً عن حضارات الشرق الأوسط. لذلك كان من السهل على إجماع الآراء الأكاديمية أن تصل إلى نتيجة فحواها أن اللغة المينوية لم تكن هيللينية ولا سامية، وليس من المعتقد كذلك أنها كانت مصرية رغم العدد الكبير للأشياء المصرية التي وجدت في كريت على كل مستوى. ولقد اعتبرت اللغة المينوية بشكل عام من اللغات الأناضولية المختلفة. فقد كانت تنتمي، أولا تنتمي، للهندو-أوروبية طبقاً لتعريف كل شخص للأخيرة. وكان هناك نفس القدر من التصميم على إظهار أن المينويين كانوا غير ساميين من الناحية العنصرية. وكما كتب أحد العلماء عام ١٩١٩م واصفاً إحدى الصور المرسومة على الجبس والمعروفة جيداً:

إن حامل الكأس يمكن أن يوضح تركيبتهم الجسدية: شعر أسود مجعد، أنف مستقيم، جمجمة مستطيلة. وأنا عن نفسي أرفض أن أؤمن أن هذا الشخص اللطيف سامي أو فينيقي حسب الرأى المطروح. فإننا نعرف أن هؤلاء الناس كانوا موهوبين بطريقة غير عادية، خاصة فيما يتعلق بالشكل، وأنهم كانوا معرضين لتطور سريع للغاية[٤٨].

وفي ذلك الوقت اعتبر المينويون أكثر البلاسجيين تحضراً، ولقد وضح هذا الخط السائد على يد اثنين من مؤرخي غرب آسيا: "من المحتمل عدم وجود اكتشاف بالغ الأهمية على حد معرفتنا بتاريخ العالم عامة، وبتاريخ حضارتنا بصفة خاصة، أكثر من اكتشاف موكيناى على يد شليمان والمكتشفات الأخرى التي ظهرت هناك بعد ذلك، والتي بلغت ذروتها في اكتشافات السيد آرثر إيفانز في كنوسوس. ومن الطبيعي أن تكون هذه الاكتشافات مهمة للغاية لنا، لأنها كشفت عن بدايات حضاراتنا الأوروبية الآن وبداية إزدهارها. أن أسلافنا في الحضارة ليسوا المصريين ولا الآشوريين ولا العبرانيين (اليهود) (لاحظ حذفه للفينيقيين حتى كاحتمال) ولكنهم الهيللينيين، وقد اقتبسوا، أي الإغريق الآريين، معظم حضارتهم من الشعب الذى وجدوه في المنطقة من قبلهم أي قبل الهيللينية[٤٩].

إن كل شئ يعتمد الآن على ماقبل الهيللينيين! ولقد ذكرت سلفاً الصيغة التوفيقية القديمة القائلة بأنه ربما يكو ن الفينيقيون قد وفدوا إلى بلاد الإغريق ولكن ذلك

لايهم، لأنه لم يكن لهم أى تأثير فى تطور الحضارة الإغريقية. ورغم إزدياد قوة النموذج الآرى المتطرف، فقد كانت ماتزال هناك بعض امتدادات النموذج الآرى العريض" الذى أتخذ هذا الخط ويشمل ذلك إيفانز، زميل شليمان العجوز، وليهلم دور بفيلد والمهندس المعمارى اللامع أدوارد ميير.

لقد أصروا، مثل توكوديديس، على أنه كان هناك فينيقيون" أصليون فى الجزر، وربما حتى فى طيبة(٥٠). وكان هذا التفكير غير محتمل بالنسبة للجيل الأصغر الذى نضج بعد عام ١٨٨٥. وكما قال ج.ب. بيورى (J.B.Bury) ، مؤرخ بلاد الإغريق البريطانى اللامع فى أوائل القرن العشرين والليبرالى ذو الشأن، عام ١٩٠٠م فى كتابه "تاريخ بلاد الإغريق" والذى مايزال مرجعاً لليوم: "مما لا شك فيه أن الفينيقيين كانت لديهم أسواق هنا وهناك على الساحل وفى الجزيرة، ولكن ليس هناك سبب للتفكير فى أن الكنعانيين قد أقاموا لأنفسهم بيوتاً أبدا على الأرض الإغريقية، أو أنهم قد أدخلوا الدماء السامية للشعب الإغريقى(٥١). لاحظ استخدام كلمتى السر الرومانسيتين العنصريتين "أرض" و "دماء" ! لقد استمرت مثل هذه الاتجاهات حتى الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

ذروة معاداة السامية (١٩٢٠ - ١٩٣٩)

لقد أصبح الجو العام أكثر صعوبة فى عشرينيات القرن العشرين. فلقد إزدادت حركة معاداة السامية فى أوروبا وأمريكا الشمالية فى أعقاب تمركز اليهود الفعلى والمحسوس فى الثورة الروسية. لقد كان هناك دائما يهود يعملون بالبنوك وخبراء أموال يمكن إلقاء اللوم عليهم فى الأزمات الاقتصادية والإحباطات القومية، أما الآن فيبدو أن الصورة السابقة الغامضة عن المؤامرة اليهودية للإطاحة بالاخلاق والنظام المسيحى وهدمهما، قد اتخذت شكلاً مرئياً تجسد فى الحزب البلشفى(٥٢).

لم تكن هذه المشاعر محصورة فى ألمانيا، أو فى المتطرفين السوقيين مثل النازى. فقد أصبحت معاداة السامية هى الشئ العادى فى "المجتمع المهذب" فى كل من شمال أوروبا وأمريكا الشمالية، ولقد كانت الجامعات ضمن "المجتمع المهذب". وقد أمدنا المؤرخ الإجتماعى المعاصر البروفسير أورين (Oren) مؤخرا بصورة مفصلة عن فرض

حدود ضيقة لتقليل عدد الطلبة اليهود فى جامعة ييل وفى المدارس المهنية المختلطة خلال عشرينيات القرن العشرين، وليس هناك سبب يدعونا إلى افتراض أن ما وصفه هناك لا ينطبق على كليات وجامعات أخرى فى الولايات المتحدة فى بريطانيا أيضاً، وأن كان بشكل غير منظم(٥٣).

والحقيقة أنه فى ثلاثينيات القرن العشرين، كان هناك عدد من الكلاسيكيين المتميزين للغاية المعادين للغاشية، والذين سار حبهم للحرية الإغريقية جنباً إلى جنب مع معاداتهم للنازية وحكم الطغاة الغاشى. ولكننا قد رأينا أن حب الهلينية كانت له دائما استنباطاته الآرية والعنصرية، وإن الدراسات الكلاسيكية هى قاعدته المحافظة. وهكذا فليس هناك شك فى أن العلم ككل قد شارك معاداة السامية السائدة، إن لم يكن قد تجاوزها. إن مثالاً للجو العام آنذاك فى الدراسات الكلاسيكية يمكن أن نراه فى الخطاب التالى الذى وُجد فى مكتب البروفسير هارى كابلنى عام ١٩٨٠م فى كورنيل، والذى ظل لعدة سنوات اليهودى الوحيد الذى تولى وظيفة أستاذ موضوع فى رابطة إيفى:

"عزيزى كابلن، إننى أريد أن أعضد نصيحة البروفسير بريستول وأن أحثك على الإلتحاق بالتعليم الثانوى إن الفرص فى وظائف جامعية، والتى لم تكن أبداً متوفرة، قليلة فى الوقت الحالى ومن المنتظر أن تصبح أقل. إننى لا أشجع أى شخص لأن يتطلع لوظيفة جامعية مضمونة. بالإضافة إلى ذلك، فهناك تحيز حقيقى قوى ضد اليهود. إننى شخصياً لا أشارك فى هذا، وإننى متأكد من صحة نفس الشئ بالنسبة لجميع هيئة التدريس هنا.

ولكننا قد رأينا الكثير من اليهود المؤهلين جيداً، وقد فشلوا فى الحصول على مناصب، فلقد فُرضت هذه الحقيقة علينا. إننى أتذكر الفريد جوديمان ولوى، وكلاهما عالمان ممتازان ذوى سمعة عالمية، ولكنهما رغم ذلك غير قادرين على الحصول على وظيفة جامعية، إننى أشعر أنه من الخطأ تشجيع أى شخص بأن يكرس نفسه لمسيرة أعلى فى التعليم بينما الطريق أمامه مسدود بتحيزه العنصرى الذى لا يمكن إنكاره. ويشاركنى فى هذا جميع زملائى من الكلاسيكيين الذين أرفقوا توقيعهم مع توقيعى فى هذا الخطاب. توقيع شارل بنين، دور هام، جورج ويستولى واندرو. أتيكا فى

٢٧/٣/١٩١٩م"[٥٤].

في مثل هذا الجو العام نادراً مايثير الدهشة أن الدراسة يجب أن تؤكد كلا من الفصل الكامل لبلاد الإغريق عن الشرق الأدنى، والشك في أن الفينيقيين قد لعبوا دوراً إيجابياً في أى وقت في منطقة البحر المتوسط.

النزعة الآرية في القرن العشرين

رغم بدايات الهجوم الجديد على العنصرية، فقد كان هناك تزايد في العنصرية الآرية، ليس فقط بين اليمين المتطرف سئ السمعة والمتمثل في النازية، ولكن أيضاً في الأوساط الأكاديمية العادية. لقد شارك في ذلك جوردون تشايلد، مؤرخ ما قبل التاريخ الماركسي، إذ كرس له كتابه "الآريون"، والذى ربط في مقدمته بين اللغة والعنصرية المادية: "إن اللغات الهندو-أوروبية واصلها المفترض قد تمت دراستها تفصيلياً من خلال أدوات مرنة ودقيقة للغاية في مجال الفكر... ويلى هذا إذن أن الآريين كانوا بالضرورة موهوبين بملكات عقلية غير عادية، وإن لم يكن ذلك متمثلاً في تمتعهم بحضارة مادية رفيعة المستوى". ويشير تشايلد كذلك إلى "وحدة روحية محددة لأولئك الذين اشتركوا في لغة واحدة".

لقد شرح سمو الروح الآرية بالمثال التالى "إن من يشك في هذا عليه أن يقارن القصة الرزينة المنقوشة بواسطة ... (الآرى) داريوس على حجر في Behistun، مع الوصف الأجوف الصاخب في تمجيد الذات للسامى آشور بانيبال أو نبوخذ نصر [٥٥].

ويسود نفس هذا القدر من العنصرية الفجة في الطبعة الأولى لكتاب "التاريخ القديم" المنشور في مطبوعات كمبردج تحت إشراف بيورى وزملائه عام ١٩٢٤م. وكان الهدف منه أن يكون نموذجاً للتاريخ "الموضوعى الجديد" والمكتوب بطريقة جماعية بواسطة متخصصين كل في مجال تخصصه، ولقد نجح بسرعة في إحراز مكانه عالية. ولقد طُبق نفس نموذج "تاريخ كمبردج" الآن في عدة مناطق وحضارات في العالم.

وفي الفصل التمهيدى العام لكتاب "التاريخ القديم" تُسيد العنصر. ويعلن جون مايرز، أستاذ التاريخ القديم في جامعة أكسفورد، في الباب الأول عن مكانته في

التراث النيبورى العرقى فى التاريخ القديم: "لقد جاءت الشعوب القديمة إلى منصة التاريخ ... ترتيب معين... كل منها يضع المكياج الملائم للدور الذى سوف يعلبه... ويفترض التاريخ مسبقاً تكوين هذه الشخصية... فى غرفة الممثلين فى الماضى السحيق. ويهدف ... المشهد المسرحى التالى... إلى وصف كيف جاء البشر بتلك الخصائص فى البنية والسجايا..." (٥٦)

وبعد أن وافق على وجهة النظر الثلاثية فى الأجناس البشرية، وصف مايرز المغول "بالتطفل" و "الصبيانية"، وإنهم يشبهون "حيوان من ذوات الأربع عندما ننظر إليه من الخلف! وبعد هذه الإشارة الهزلية لجبنهم، يتقدم مايرز أكثر فيجمع بين الضوئين ويقول إن فصيلتهم النفسية كانت من نوع "خاص" لا تضع قدراً كبيراً من القيمة للحياة الإنسانية...

ويستطيع المغولى "بسبب عدم مبالاته غير الإنسانية المعتادة، أن يظهر قسوة فريده تماماً عندما يثيره الخوف أو سوء المعاملة(٥٧). ولقد نجح الرجل الأسود برقة بشكل يثير الدهشة، رغم أن الزنجى قد وُصف بأن له فك يشبه آكلة اللحوم. وقوة جسدية فظيعة(٥٨)

ولقد عكس البروفسير كوك، فى فصله عن "الساميين"، الاتجاهات السائدة فى عصره. ولأن الساميين كانوا مختلفين كلية عن الآريين، فهناك خطأ ما بخصوصهم فلقد اتهمتهم كوك بالتطرف للغاية فى التفاؤل والتشاؤم، فى الزهد والحسية فلقد كانت لديهم طاقة عظيمة وحماسة وعدوانية وشجاعة، ولكنهم افتقروا للروح الدؤوبة، وكان لديهم ولاء قومى قليل واهتمام قليل بالقيمة الأخلاقية لتصرفاتهم. "فالشعور الشخصى هو منبع التصرف وليس العقل أو الخطة أو الأخلاق(٥٩)

فهناك تناقض صارخ بين الساميين غير الأخلاقيين عند كوك والساميين الأخلاقيين عند رينان قبل ذلك بستين عاماً. ويبدو أن هذا يعكس التأثير الإضافى "للعرب" على خليط السامية، الخوف من الغواية اليهودية. وكانت أسراب البلاشفة تتبع نبيهم العبرى ماركس، ولكن كوك كان أكثر قرباً لرينان عندما ادعى أن التفكير غير المترابط كان

ينقص الساميين. "في أنبياء اليهود، وفي قرآن محمد(*)، نجد الحماسة والفصاحة والخيال أكثر من الدقة المنطقية والتفكير المتسق والفهم الجارف... "إن التفكير لا يتقدم خطوة نحو الحكمة، وهو ليس قائماً بذاته وليس موضوعيا[٦٠].

ولقد استمر هذا النوع من التفكير حتى بعد الحرب العالمية الثانية وكان بمثابة القاعدة لهنرى فرانكفورت، الأثرى والمؤرخ الفني وفيلسوف التاريخ القديم، في تمييزه بين التفكير "الأسطورى" للمصريين القدماء والساميين والمتوحشين العنصريين في مواجهة تفكير الإغريق والأوربيين المتأخرين العقلاني"[٦١].

وبالطبع فإن النفوذ المطلق لهذا النوع يقلل من المساحة الضخمة للتفكير الأسطورى في المجتمع الحديث، وأكثر من هذا، فقد ألغى المصريون الدقة "الموضوعية" التي حققها سكان بلاد مابين النهرين في قياسهم للمسافة والزمن، وبالقدر الكبير الذى سمحوا للقياس أن يتحكم في حياتهم. ونعود الآن إلى رؤية كوك للساميين في "تاريخ كمبردج القديم"، باعتبارهم وسطاء ينسخون النماذج الأجنبية ... ويعيدون تشكيل ما اقتبسوه... ويضعون بصمتهم الشخصية على مايرسلونه للخارج"[٦٢]. ومن المتناقضات هنا، أن نجد لدينا شيئاً يبدو شبيهاً بـترات Epinomis بدرجة لافتة للنظر، وبمقتضاه "أتقن" الإغريق كل شئ أخذوه عن الثقافات الأخرى[٦٣]. ومهما يكن من أمر، كان الإغريق وما قبل الهيللينيين – بالنسبة لكوك، مختلفين عن هذا. إذ كان يرى أنهم المبدعون الأصليون لثقافتهم.

ويمكننا أن نرى الآراء الأساسية للعلماء الذين بدأوا "تاريخ كمبردج القديم" من تلك الفصول الإفتتاحية. فلقد أوضحوا أن كل شئ مرهون الآن بما قبل الهيللينيين، وخلال عشرينيات القرن العشرين بذلوا، هم وبعض العلماء المعاصرين الآخرين، جهداً جهيداً لكى يكتشفوا أكبر قدر ممكن من المعلومات عن ما قبل الهيللينيين وعلاقتهم

(*) أثبتنا هذه العبارة بترجمتها الحرفية. والمستشرق رينان ينسب القرآن الكريم إلى النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وهو بطبيعة الحال لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله إلى الرسول كما أنه يعكس اتجاها استشراقيا عنصرياً ضد الإسلام والعرب يمثله رينان وغيره ممن دأبوا على النظر بعدوانية وانحياز ضد القرآن والإسلام والعرب. (المترجمة).

بالهيلينيين أنفسهم. وخلال ذلك العقد بدأ العالم السويدى العظيم مارتن نيلسون M.Nilsson فى توضيح الروابط بين الأساطير الإغريقية الكلاسيكية وفن الأيقونات فى الحضارات الموكينية والمينوية.

وبعد إقامة هذا الرابطة، لم يعد من المستطاع تقبل الآراء المتساهلة تجاه العلاقات المينوية والموكينية بالشرق الأوسط والتى نادى بها ايفانز والجيل الأكبر. لقد أصبح من المستحيل الآن تقبل فكرة وجود صلات أساسية عبر شرق البحر المتوسط فى العصر البرونزى. إن الصعوبات التى تقف فى وجه هذا الرفض، والمتمثلة فى أوجه التشابه الواضحة بين فن العمارة والحضارات المادية فى كريت ومصر وسوريا، لم تعد ذات مغزى عند مقارنتها بالموضوعات. محل البحث والتى لم تكن بأقل من سلامة ونقاء الحضارة الإغريقية ذاتها(٦٤)

ولقد سبق ورأينا أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر ساد اعتقاد بأن لغة أو لغات الشعوب قبل الهيللينية كانت أسيوية أو أناضولية بشكل ما. ورغم ذلك، وبحلول عشرينيات القرن العشرين بدأت اللغة الحيثية تكشف أسرارها وأصبحت النقوش الليدية والليكية والكارية متاحة، وأصبح من الصعب بشكل متزايد أن تستمر الفرضية، لأنه كان من المستحيل إيجاد أمثلة مشابهة فى الإغريقية مع العناصر غير الإغريقية. وبالرغم من هذا، فقد بدأ أن تلك هى الطريقة الوحيدة الممكنة والتى استخدمت عام ١٩٢٧م فى محاولة جمع الشعوب قبل الهيللينية جغرافياً. ففى مقال مكتوب طبقاً للطريقة "العلمية" المشتركة التى تم الإعتراف بها حديثاً على شكل جزءين، كتب أحدهما الأثرى كارل بليجن وكتب الثانى عالم الكلاسيكيات هالى، أخذ المؤلفان من عالم اللغة الألمانى بول كريتشمر افتراض وجود أجزاء فى أسماء الأماكن فى اللغة قبل الهيللينية هما (Nlhos) و (issos) يمكن أن تكون مرتبطة بالأجزاء (nda) و (ssa) الموجودة فى الأناضول ولقد برهنا على أن هذا يعنى أن كل أسماء الأماكن هذه قد جاءت من الفترة القديمة السابقة على الهندو-أوروبية. ولقد اعتبر إدعائهما التالى. بأن توزيع أسماء الأماكن هذه والأسماء الأخرى الإغريقية غير الهيللينية يتطابق مع مستوطنات العصر البرونزى المبكر بشكل جيد، مع افتراض أن الهندو-أوربيين قد قاموا

بغزواتهم فى بداية العصر البرونزى الوسيط[٦٥].(ولقد تطور إجماع الآراء منذ ذلك الحين بأن الغزو لم يجئ فى هذه المرحلة وإنما جاء مع الصدع الأثرى الذى يُرى فى الحضارات المادية بين العصر الهيلادى المبكر الثانى والعصر الهيلادى المبكر الثالث).

إن دليل الكاتبين على التوافق بين دليل تسمية الأماكن والدليل الأثرى ليس قوياً. فلقد إعترفا أن أسماء الأماكن تتناسب أيضاً بدرجة كبيرة مع مجال العصر البرونزى المتأخر للحضارة الموكينية[٦٦]. وحتى حجتهم اللغوية كانت أشد إهتزازاً، فقبل كل شئ، فإن نهايات أسماء الأماكن لها معنى فى الغالب، فعلى سبيل المثال (Ville) تعنى مدينة، (ham) تعنى قرية، (bourne) تعنى جدول ، (ey) تعنى جزيرة...الخ، ورغم ذلك، فإن النهاية (ssos) و (nthos) تشير إلى جميع الملامح الجغرافية، وتفترض بالتالى وجود أصول غير متجانسة. وثانيا، وعلى حد قول عالم اللغويات الأناضولية المعاصرة بروفسير لاروش، يمكن تفسير النهايات ssa... ألخ على أنها حيثية وليس على أنها ما قبل الهيللينية[٦٧]. ويمكن تغيير هذا الزعم إذا ما وجد أحد تشابهات واضحة بين اللغات الأناضولية ولغات ماقبل الهيللينية، وهو أمر محتمل رغم صعوبته.

وبالرغم من هذا، فهناك عقب كؤود أقامها بول كريتشمر فى كتابه الأخير، والتى كانت فى متناول اليد قبل أن ينشر بيلجن وهالى عملهما. تلك هى الحقيقة بأن النهايات هى أشياء تلصق بأصول الكلمات الهندو-أوروبية[٦٨] وهكذا وحتى لو كانت فى بعض الحالات تتميز بالقدم الشديد، فلا يمكن اعتبارها مؤشراً للغة الشعب الإيجى وحاضرته قبل وصول الإغريق الذين يتحدثون الهندو-أوروبية[٦٩]. إن هذا يشى بشئ عن ضعف الدراسات المقارنة بين الأسماء بالدرجة التى تسمح بأن تكون دراسة مثل مقالة بلجين وهالى، التى تشوبها عيوب جوهرية، دراسة كلاسيكية مايزال الدارسون المهتمون بمثل هذه الموضوعات يشيرون إليها

إن أعمال بيلجن وهالى توضح عدم مقدرة العلماء على الأمساك "بالشعوب ما قبل الهيللينية فى أيديهم" برغم حقيقة أن الكثير اعتمد عليها فقد ظلت أساسية فى ظل الرفض التام للتأثير المصرى أو الفينيقى الأساسى على تكوين بلاد الإغريق، وهكذا شهدت أواخر عشرينيات القرن العشرين وأوائل الثلاثينيات هجوماً مكثفاً على

الفينيقيين. إن الطبيعة غير السامية للمينويين أصبحت الآن آمنة لدرجة أن التطابق القديم بين المينويين والفينيقيين يمكن أن يحافظ على الخطوط التى افترضها بونسين وكوريتوس فى القرن التاسع عشر، وثمة زعم الآن بأنه عندما يرد ذكر الفينيقيين فى الأساطير الإغريقية يكون المقصود حقيقة هم المينويين[٧٠].

ترويض الأبجدية: الهجوم الأخير على الفينيقيين

لقد كان كاربنتر Rhys Carpenter الشخصية الرئيسية فى تطور النموذج الآرى التطرف، وهو عالم أثرى أمريكى، كان من أشد المعجبين ببلوش كما كان معارضاً لفكرة "الوهم الشرقى" طوال حياته. وبحلول عام ١٩٣٠م تم التشكيك على نطاق واسع فى أساطير الاستيطان الفينيقى فى بلاد الإغريق وكانت كل الكلمات المشتقة من اللغة السامية للأسماء والكلمات الإغريقية تقريبا قد حُذفت ولم يتبق سوى الأبجدية. واستطاع الشاعر والقصاص روبرت جرافز أن يدعى أن أصلها آرى. ولم يستطع العلماء، رغم محاولاتهم، أن يتجاهلوا حقيقة أن الحروف الإغريقية تشبه الحروف السامية ولها نفس الوقع تقريباً، وأن معظمها لها نفس الأسماء (الفا، بيتا وهكذا) وكانت لها معانى واضحة فى الكنعانية المتأخرة ولكنها لا تعنى شيئاً فى الإغريقية[٧١].

وهكذا، فرغم أن العلماء الجدد قد شعروا أنهم أحرار فى استبعاد الدليل الجماعى القديم المنتشر للغاية بأن الإغريق قد أخذوا أبجديتهم من الفينيقيين، فإنهم لم يستطيعوا تجنب الاعتراف بأصلها السامى. وحسب ما قالت به كتابات كثيرة قديمة عن الموضوع، فقد نُسب إدخال الأبجدية إلى داناؤوس من مصر أوكادموس من صور. وهذا يجعله فى منتصف الألف الثانية ق.م. ورغم ذلك، فهناك فقرة فى كتابات يوسيفوس المؤرخ اليهودى،* يؤكد فيها - بين تنايسيل من الشتائم ضد الإغريق الذين يهاجمهم بصفة خاصة لإفتقارهم إلى العمق الحضارى - يؤكد فى هذه الفقرة أن الإغريق كانوا يتفاخرون فقط عندما ادعوا أنهم قد تعلموا الحروف من كادموس. والحقيقة، طبقاً لكلامه، أنهم كانوا أميين زمن الحرب الطروادية[٧٢]. ومما لا يدعو للدهشة أن فقرة

* مؤرخ يهودى قديم عاش فى ظل الحكم الرومانى فى فلسطين وكتب عن "الحرب اليهودية وعن تاريخ اليهود القديم. وقد اتهمه اليهود بالخيانة ولقبوه بلقب خائن أورشليم. (المترجمة).

يوسيفوس كانت مفضلة لدى العلماء الرومانسيين المتخصصين في الدراسات الهيللينستية عندما نتأمل الصورة التي صوروا بها هوميروس شاعراً أميا أعمى. ومع هذا فإن غالبية العلماء يفضلون قبول الإجماع القديم، وذلك لأن الأساطير التي تدور حول تأسيس كادموس لطيبة لم يُشك في أصالتها بجدية حتى نهاية القرن.

ورغم هذا، فإن هذا التاريخ المبكر لم يكن مقبولا بالنسبة لريناخ وبيلوخ. فقد خفض ريناخ فترة الإنتقال ليجعلها القرن الثالث عشر بدلا من القرن الثاني عشر، وهو لوقت الذى اعتقد أن التأثير الفينيقي قد بدأ فيه[٧٣].

واقترح بيلوخ أن يكون القرن الثامن هو تاريخ أول إحتكاك وأيد رأيه بأربع حجج. فقد ادعى في المقام الأول، عدم وجود نقوش إغريقية يمكن تحديد تاريخها، قبل القرن السابع. ثانيا، إن الإشارة الوحيدة للكتابة في أعمال هوميروس كانت غامضة، ومن المحتمل أن الشاعر وجمهوره كان يفهم القراءة بالفعل. ثالثا، فقد ادعى أن الطريق من فينيقيا إلى بلاد الإغريق سار عبر قبرص التي لم تستخدم الأبجدية إلا أيام الإسكندر. رابعاً، فقد ادعى أن أسماء الحروف الأبجدية تشبه الآرامية لا الفينيقية. وهكذا يجب أن تكون الأبجدية مستعارة بعد أن سادت الآرامية في شرق البحر المتوسط، أى في أواخر القرن الثامن[٧٤].

لقد سبق مناقشة غموض أولى نقاط بيلوخ، "دليل من الصمت"، وسوف نعيد مناقشتها في مكان آخر. وبالنسبة للنقطة الثانية، فرغم تأكيدات بيلوخ وغيره من العلماء أن الإشارة خالية من المعنى، فليس هناك شك في أن هوميروس قد أشار مرة إلى العلامات المهلكة (semata lygra) التي كانت تُكتب[٧٥].

إن عدم وجود الأبجدية في قبرص كان نتيجة ظروف محلية، كانت تعني أن الجزيرة فشلت في الاستجابة في الوقت الذى انتقلت فيه الأبجدية من شرق البحر المتوسط إلى منطقة البحر الإيجي. إن هذا لا يعطينا إنطباعاً، بطريقة أو بأخرى، عن وقت حدوث الإنتقال. وأخيراً، فقد رأينا بالفعل أن بيلوخ لم يعرف أى لغة من اللغات السامية، وأنه كان مخطئاً عندما ادعى أن أسماء الحروف الإغريقية تعكس النطق الآرامي. إن الـ ó في حرفي يوتا (iota) درو (ηho) تعكس الصوت الموجود في الكنعانية

وليس فـى الآراميـة.

وعلى أية حـال، فلـم تؤخـذ آراء بيلـوخ عـن الأبجديـة بجدية كبـيرة مـن جـانب معاصريـه، كمـا كـان الجدل حـول تـاريخ إدخـال الأبجدية أكـثر ميوعـة خـلال الربـع الأول من القـرن العشـرين عنـه بـين النمـوذج الآرى العريـض والمتطـرف ككـل. وقـد يكـون السـبب وراء هـذا الإنفتـاح هـو التأثير النسـبى للسـاميين واليهـود فـى دراسـة النقـوش السـامية، التـى كـانت ضرورية لأية عملية تأريخ جـادة. ورغـم ذلـك، فليـس هنـاك شـك عمومـا فـى أن الاتجاه كـان يميـل إلى تخفيـض تواريـخ إنتقـال الأبجدية. وذلـك لنفس الأسـباب التى قـوت مـن عضـد النمـوذج الآرى المتطـرف. ولا ننسـى الرغبـة "الوضعيـة" المألوفـة والمـتزايدة حاليـاً فـى الحصـول على "الدليـل"، شـأنها شـأن الرغبة فـى إعطـاء علـم الآثـار والتـاريخ القديـم، مـا كان يُظن أنه اليقـين الـذى تتمـيز بـه العلـوم الطبيعية.

وبلغـت عمليـة التقديـم ذروتهـا عـام ١٩٣٣م، عندمـا اقـترح البروفسـير ريـس كاربنـتر، الأثـرى، وهـو دخيـل تمامـاً علـى علـم النقـوش، عـام ٧٢٠م تاريخاً لإدخـال الحـروف الأبجدية إلى بـلاد الإغريـق. وكـانت أسـبابه فـى ذلـك مزدوجـة: أن أقـدم حـروف إغريقيـة تشـبه الحـروف الفينيقيـة فـى القـرن الثـامن، وعـدم وجـود نقـوش أبجدية مكتشـفة قبـل ذلـك التـاريخ، أى "دليـل مـن الصمـت"[٧٦].

وكـان هـذا التقديـم للتـاريخ واحـدا ضمـن ثـلاث محـاولات قـام بهـا كاربنـتر كـى يقلـل من أهميـة إدخـال الأبجدية، ولكـى يقلـل مـن احتمـال أنهـا كـانت مصحوبـة بأيـة أسـتعارات هامـة. واتخـذت المجادلـة الثانيـة شـكل عمـل فصـل قـاطع بـين الحـروف السـاكنة والحـروف المتحركـة فـى الأبجدية. إن اخـتراع الحـروف المتحركـة قـد نُسـب – وهـو خطـأ مـن وجهـة نظرى – إلى الإغريـق[٧٧]. ولقـد أوضـح أنـه يعتقـد أن الحـروف المتحركة كـانت فـوق قـدرة السـاميين، وأشـار كاربنـتر إلى "اخـتراع الإغريـق الفـذ للحـروف المتحركـة، وهكـذا نسـب للإغريـق أنهـم قـد اخـترعوا أول أبجدية "صحيحـة"[٧٨].

وكـانت محاولـة كاربنـتر الثالثـة أن يزحـزح مكـان الإستعارة بعيداً عـن بـلاد الإغريـق الأصلية بقـدر الإمكـان. فقـد اقـترح كريـت ورودس، وفيمـا بعـد قـبرص، وهـو أمـر غـير مقنـع بـالمرة للسـبب الـذى سـبق وذكرتـه وهـو أنهـا لم تسـتخدم الأبجدية. ورغـم ذلـك، وفـى

أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، أوضح الأثرى سير ليونارد ودلى أنه كانت هناك مستعمرة إغريقية فى القرن الثامن فى المونا (Muna) على الساحل السورى، وهو الأمر الذى أشعره بالإرتياح، وافترض أن الإغريق يمكن أن يكونوا قد تعلموا الأبجدية هناك[٧٩]. ورغم تهافت إدعائه، ورغم الإفتقار التام للنقوش الإغريقية المبكرة على مدى ٥٠٠ ميل من الموقع، فقد تقبل الكلاسيكيون والأثريون، بما فيهم كاربنتر، أن يكون هذا الموقع نقطة الإنتقال (بحماسه)[٨٠].

ولكن، لماذا كان كاربنتر متهاوناً لهذه الدرجة فيما يتعلق بالمكان رغم أنه، فيما يختص بالزمان بالغ فى الاهتمام بالحاجة إلى الدليل؟ والسبب الأول، أنه اعتقد أنه من المناسب أكثر للحضارة الإغريقية الحيوية أن تكون قد جلبت الأبجدية إلى الوطن بدلاً من أن تكون قد استقبلتها على نحو سلبى. وأما السبب الثانى فهو أسد أشد قُبحاً ويلخص البروفسير ليليان جيفرى، وهو أكثر خلفائه بروزاً، الحالة بقوله: "إن البروفسير كاربنتر قد أجاد فى النقطة الثانية، ذلك أنه فى حالة وجود استيطان غير منتظم لشعبين، فإن أحدهما سوف يأخذ أبجدية الآخر، وليس لمجرد وجود مركزى تجارى سامى فى المنطقة الإغريقية"[٨١].

إن إعادة البناء التخيلى هذا يجعل من البديهى أن الاستيطان السامى كان بالقطع مؤقتاً، أكثر من الاستيطان الإغريقى، وهو زعم لا تؤيده المصادر القديمة كثيراً. ولقد سبق ورأينا مناقشة بيرار له[٨٢]. ذلك، فإن الإصرار على محدودية إنتشار المستوطنات الفينيقية وطبيعتها المؤقتة له أسباب ذات مظهر أيديولوجى قوى؛ فيجب أن يكونوا كذلك، إذا كان لبلاد الإغريق أن تظل من الناحية العنصرية الطفولة النقية والخلاصة والجوهر لأوروبا. وخشية أن يظن أحد أن فى هذا مبالغة، فإننى أحب أن أعيد فقرة من كتاب بيورى، كان قد كتبها وتتعلق بإنتقال الحروف الأبجدية:

"مما لا شك فيه، أن الفينيقيين أمتلكوا أسواقاً هنا وهناك، على الساحل وفى الجزيرة، بيد أنه ليس هناك سبب يدعونا للإعتقاد بأن الكنعانيين قد أقاموا فى أى وقت بيوتاً لأنفسهم على الأرض الإغريقية أو أنهم أدخلوا الدماء السامية للشعب الإغريقى"[٨٣].

إن إنتقال الأبجدية يجب أن يكون قد حدث خارج بلاد الإغريق، وإلا فسوف يتطلب استيطاناً فينيقياً لا يستهان به، ومن ثم فإن هذا يعنى "اختلاطا عنصريا".

ونعود الآن إلى زمن حدوث الإنتقال. لماذا يصر كاربنتر على أواخر القرن الثامن وهو ما يمكن أن يُزور بسهولة – وقد حدث فعلاً – فى الاكتشافات المتأخرة ؟ إن فائدته الأولى تكمن فى أنه يمكن أن يفسر لماذا أبحر الفينيقيون ذوو الطبيعة السلبية تجاه الغرب، فقد قادهم الآشوريون، الذين كانت لهم صلات قوية على الساحل الفينيقى فقط فى منتصف القرن الثامن. لقد سبق ورأينا تفضيل الآشوريين الساميين جزئيا فقط عند مناقشتنا لآراء موفرز وجوبينو[٨٤]. وأكثر من ذلك، فإن التاريخ المتأخر يعنى أن ما وُجد من تأثير فينيقى على بلاد الإغريق قد جاء ليس فى مرحلة تكوين البلاد وإنما بعد إقامة المدينة الدولة (polis) وبعد بداية الاستيطان وهما مؤسستان كان يمكن بدلاً من ذلك اعتبارهما مؤسستين فينيقيتين[٨٥].

وعندما جوبه كاربنتر بالتحدى، اعترف أن تاريخه المتأخر يتطلب إنتشاراً سريعاً فريداً وتنوعاً فى الأبجدية خلال إيطاليا ومنطقة الأناضول أيضاً، وليس خلال البحر الإيجى فقط. ورغم ذلك فقد أجاب: "إننى اعتبره أكثر من مجرد عبث، إننى اعتبره غير إغريقى ومن ثم فمن غير المعقول، أن تكون الأبجدية قد تباطأت على مدى أية فترة زمنية بين ذلك الشعب النشيط للغاية، وأن تكون الأبجدية قد عُرفت ولم تُستخدم لمجرد التأجيل السلبى. وفى الحقيقة فإن المناخ الإغريقى قد صنع معجزات للأبجدية الفتية، بحيث تكاد تراها وهى تنمو"[٨٦].

وبعيداً عن الصورة الرومانسية للمناخ والأشجار والشباب والنمو، فإن الفقرة توضح قوة واستمرارية التراث، والمتمثلة بالفعل فى همبولت، بأن القوانين الطبيعية والمتشابهات تتوقف عندما يتعلق الأمر بالإغريق القدماء. وأنه من غير المناسب – إذا لم يكن من الفحش – أن نحكم عليهم بنفس مقاييس الحكم على الشعوب الأخرى.

ولم تطح بلاغة كاربنتر بكل العلماء. فقد استمر هانز جنسين **Hans Jensen**، وهو من أشهر علماء الأبجدية فى القرن العشرين، على سبيل المثال فى تمسكه بتحديد القرن العاشر أو الحادى عشر تأريخا لدخول الأبجدية[٨٧]. وجاء التحدى

المباشر الوحيد لكاربنتز من عالم الساميات الأمريكي أولمان (Ulman)، الذى اقترح من قبل فى مقال لم يقتبسه كاربنتز – القرن الثانى عشر أو ما قبله تاريخاً للأبجدية. ووافق أولمان على أن كثيراً من الحروف الإغريقية القديمة قد خرجت من الأشكال الموجودة فى نقوش القرن التاسع الفينيقية أو المؤابية، ولكنه اعتبرها مشتقة من أشكال أقدم تنتمى إلى شرق البحر المتوسط، وأنها لا تشبه الأشكال المتأخرة. وأصر على أن الأبجدية تماثل فى القدم أقدم حروفها. ولقد تحقق أولمان من حروف أقدم نقش فينيقى مؤرخ، ذلك الموجود على تابوت اهيرام ملك بيبلوس، باعتبارها مشابهة للغاية لحروف القرن التاسع، ولكن حينما تختلف الحروف، فإن الحروف الأقدم كانت أكثر قرباً للأشكال الإغريقية[٨٨].

وفى رده على أولمان، أخذ كاربنتز الاتجاه المعاكس بشكل ضمنى، أى أن ينظر للأبجدية على أنها حديثة طبقاً لأحدث حروفها. أى أنه ركز على حرفى K , M، وهى الأشكال الإغريقية التى تشبه الأشكال الفينيقية المتأخرة[٨٩]. وعلى الرغم من أن هذا ليس موجهاً إلى مناقشات أولمان عن الحروف "الأقدم". فإن أولمان لم يستطع أن يصمد أمام أسلوب كاربنتز القوى والقانونى. وأمام التيار المعادى للسامية والقوة السلبية لدراسات الكلاسيكية والسامية. وبالفعل، فقد رحب الكلاسيكيون ترحيباً حاراً بنتائج كاربنتز. وأكدوا الإيمان الكامن فى القلب الرومانسى للعلم بأن هوميروس كان شاعراً أمياً. فقد كان هناك بعض القلق إزاء اكتشاف إيفانز للكتابة فى كريت، والدليل الذى يشير لنفس الاتجاه من البلاد الأصلية. ورغم ذلك، فإن نقوش اللغة المسمارية يمكن أن يقال – بشكل مقنع حتى لو كان خطأ – إنها قد ماتت مع تحطم القصور الموكينية، ومن ثم كان تقديم كاربنتز للتاريخ محل ترحيب لأنه أقام "عصراً مظلماً" طويلاً من الأمية يمكن فيه للشاعر الشعبى هوميروس، أو مجموعة الشعراء الهوميروسيين، أن ينشدوا بنشاط بربرى شمالى.

ومن المثير أن نلاحظ أنه فى أثناء عشرينيات القرن العشرين بدأ البروفسير ميلمان بادى دراسته عن الأغانى الشعبية الصربية ليوضح أن الإلياذة والأوديسيا يمكن أن يكون قد تم تأليفهما دون كتابة[٩٠].

إن تأمين كاربنتر للعصر المظلم الأمي والكئيب يمثل عصر جذب إضافي للنموذج الآرى. إن التوقف في الاستمرار الحضارى، الذى وصفه، سمح للشعب بأن يأخذ بتحفظ ما كتبه إغريق الفترة الكلاسيكية والهيللينستية عن ماضيهم البعيد، وقد أكمل هذا الشك، ليس فقط فى النموذج القديم، ولكن أيضاً فى النموذج الآرى العريض:

وهكذا، وبروح العصر، إنهزم الكلاسيكيون على يد كاربنتر، فقد نجح كاربنتر فى ثلاثينيات القرن العشرين فيما فشل فيه بيلوس فى تسعينيات القرن التاسع عشر. ولقد استخدم كاربنتر تقريباً نفس الحجج. لقد قام معظم دارسى الساميات بعمل تطويع للخط الذى وضعته هيمنة العلم، ولكن البعض - وبخاصة اليهود - كانوا أقل سعادة. وظل أولمان غير مقتنع، فقد استمر هو وآخرون - وبخاصة بروفسير طور سيناء فى أورشليم - استمر يرى أنه من الواضح أن الأبجدية الإغريقية لم تشتق من فينيقيا فى عصر الحديد ولكنها اشتقت من أصول كنعانية أكثر قدماً[٩١].

وفيما بين سنة ١٩٣٨ و ١٩٧٣ لم تكن هناك معارضة جادة لاقتراح كاربنتر بالتقديم الكبير لتاريخ استعارة الإغريق للأبجدية. إن تخفيض تاريخ إدخال الأبجدية قد أزال العائق الخطير الأخير من طريق إقامة النموذج الآرى المتطرف، وباندلاع الحرب العالمية الثانية، اقتنع الكلاسيكيون ومؤرخو التاريخ القديم أن علومهم قد دخلت عصر العلم.

ولكى نصوغ الأمر فى مصطلحات معاصرة، فقد تمت إقامة المثال والنموذج. ولم يعد من المحتمل لعالم ان يقترح أنه كانت هناك أية تأثيرات مصرية أو فينيقية ذات قيمة على تكوين بلاد الإغريق. وأن من يفعل ذلك، إذا كان ذلك ممكناً - سوف يُطرد من المجتمع الأكاديمى أو على الأقل يوصم بالشذوذ.



الباب العاشر

الموقف فيما بعد الحرب

ترجمة د. فاروق القاضى

بهذا الباب نكون قد قطعنا محيط دائرة كاملة. فقد بدأت هذا الكتاب بذكر أمور تتعلق بالوقت الحاضر، لكننى منذ ذلك الحين حاولت قدر الاستطاعة ألا أُقحم هذه الأمور على الحديث إلا قليلاً. وإنى لآمل عند هذا الموضع من الحديث أن ينال القارئ – أو القارئة – الذى يهتم أساساً بالعالم اليوم، شيئاً يكافئ جهده المضنى عبر الفصول التسعة الماضية، كما آمل أن تصبح – أو يصبح – على إقتناع بعامل الإرتباط المتزامن بين التاريخ والتأريخ.

ويضم هذا الفصل قصتين أعتقد أن أولاهما قريبة من نهايتها السعيدة، ألا وهى قصة تلك الحركة التى قادها فى الأساس باحثون من اليهود من أجل إزالة نعرة معاداة السامية فى كتابة التاريخ القديم، وإعطاء الفينيقيين ماهم خليقون به من إقرارٍ بدورهم المهم فى تكوين الثقافة اليونانية. وعلى حد تعبير المصطلح المستخدم لدينا هنا، فإن لهؤلاء الباحثين صلة وثيقة بإعادة صياغة النموذج الآرى الموسع.

وبدون أن نلج فى العوامل الداخلية المؤثرة فى هذه النقلة، نستطيع أن نقول إنه بالنظر إلى الأمر نظرةً خارجية، نرى أن النجاح فى استعادة مكانة الفينيقيين كان يتطلب شرطين مسبقين تحققا كلاهما، وأولهما هو إعادة دمج اليهود فى نسيج الحياة الأوروبية، وثانيهما هو الإصرار القوى الماثل فى داخلية الثقافة اليهودية على المتابعة الفكرية، مع إحترام المؤسسة الأكاديمية فى آن معا. ولقد أزال تحقق الشرط الأول ما كان كامناً فى نزعة معاداة السامية من عوائق فكرية كانت قد جعلت من التسليم بمنجزات الفينيقيين والكنعانيين أمراً غير ممكن. أما تحقق الأمر الثانى فكان يعنى أنه حتى ذلك العدد القليل من الباحثين اليهود المهتمين بهذه القضايا يمكن أن يكون لهم أثر قوى على الوضع الأكاديمى القائم.

وتتعلق القصة الثانية المتضمنة فى هذا الفصل العاشر برفض الفكر المأثور عن الإستيطان المصرى لبلاد اليونان فى العصر البرونزى، وهى قصة لا تبدو نهايتها فى الأفق واضحة هذا الوضوح. ويحاول باحث ألمانى أو باحثان أن يعيدا المأثور من ذلك

القول عن الإستيطان المصرى، لكن ليست هناك حركة واسعة المدى فى أوساط البحث الأكاديمى لاستعادة مكانة مصر القديمة فى هذا المجال. وفضلاً عن ذلك فليس للمصريين القدماء أنصار "طبيعيون" كما هو الأمر فى حالة الفينيقيين. ذلك أن المصريين الإسلاميين لديهم إزاء مصر القديمة قدر كبير من حالة تكافؤ الضدَّين زاد من حدتها استخدام صورة مصر القديمة من قِبَل حكومات فاسدة أو موالية للغرب من أجل تأكيد فكرة أن مصر الحديثة ليست عربية. ومن الممكن أنه من أجل هذا السبب، أو من أجل موقف التسليم بما للدراسات الغربية من سطوة كبيرة، لم يعمد الباحثون المصريون إلى تمحيص ذلك الإعتقاد القديم فى الدور العالمى لمصر القديمة، ولم يبحثوا تأثيرها فيما وراء البحار.

وقد اقتصرَ الفريق الوحيد الذى ناصر مصر على جماعات صغيرة من غربى إفريقيا ومن الأمريكيين السود. غير أنه حتى هؤلاء كانوا معنيين بإثبات أن مصر هى بحق إفريقية سوداء أكثر من اهتمامهم بتأثير مصر على بلاد اليونان. وهم فى موضع اهتمامهم بهذا التأثير إنما ركزوا على انتقال هذا التأثير عبر ما درسه اليونان فى مصر، وعلى ما يرونه نهباً كاملاً واستيلاءً على فلسفة المصريين وعلمهم فيما بعد غزو الأسكندر.

وثمة عامل أقوى كان يحول دون استعادة وجه مصر فى النموذج القديم، وهو أن هؤلاء الدارسين السود – على خلاف أنصار الفينيقيين – كانوا يقفون فى خارج نطاق المؤسسة الأكاديمية، ولذلك فإن أكثر ما كُتب عن ذلك الذى أسماه ج.ج.م جيمس "بالتراث المنهوب" The Stolen Legacy (ويعنى ما سرقه اليونان من المنجزات الثقافية المصرية)، قد كان يجرى تداوله بين الأصدقاء، أو ينشر فى طبعات صغيرة للغاية يتخاطفها جمهور يحدوه اهتمام حماسى بالموضوع، لكنها لم تكن تعتبر لدى الأكاديميين بحثا علمياً، بل لم تسع المكتبات إلى إقتنائها. وآية مايصور ذلك أننى ظللت أدرس هذه القضايا ثمانية أعوام قبل أن أعلم بهذه الكتابات.

وعندما اتصل ما بينى وبين هذه الكتابات وجدت نفسى موزَّعا أشد التوزع. فمن ناحية كان ما دربت عليه يجعلنى أحجم عنها لافتقادها كثيراً من اللزوميات

الظاهرة للبحث، ومن ناحية أخرى ألفيت وضعي العقلي يقربني إلى كتابات السود أكثر منه إلى المأثور الراسخ عن التاريخ القديم. واعتقد أن ثمة مغزى لمشاعرى تلك. فلابد أن هناك باحثين آخرين قد راعهم وضوح دور الفينيقيين في تكوين بلاد اليونان كما راعتهم المظاهر السياسية لغمط هذا الدور. وهم قد بدءوا يتساءلون ليس فقط حول النموذج الآرى المتطرف، بل كذلك حول النموذج الموسع. وقد عرفت من مئات المناقشات التى أجريتها حول هذا الموضوع أنه لم يعد من الممكن أن تثار على الملأ تلك الإعتراضات الأيديولوجية على النموذج القديم، وإنما يمكن أن يظل الإعتقاد فيها محصوراً فى أوساط الخاصة. لكننى مقتنع بأنه حتى هذا الموقف، بالرغم من شيوعه على وجه الإجمال، فإننا لا نجده شائعاً شيوعاً كبيراً فى الأوساط الأكاديمية اللبرالية.

وبناء على ذلك، فيبدو أن التسليم بالنموذج الآرى إنما يتأتى بفعل مأثور تقليدى كامن فيه هو نفسه، وبفعل القصور الذاتي الأكاديمي. وينبغى ألا نقلل من أهمية هذين العاملين، لولا أن عددا من التطورات الداخلية المدهشة قد تولت إضعافهما، وكلها توضح أن حضارات عصر البرونز كانت أكثر تمدنا وكذلك أكثر عالمية فى مجالها مما كان يُعتقد من قبل، وأن السجلات القديمة بوجه عام يمكن التعويل عليها أكثر مما يعُول على صيغتها المعادة التى تمت حديثاً. فإذا ما أخذنا فى الحسبان هذه المسارات الداخلية والخارجية، أرانى مقتنعا بأنه يتعذر الدفاع حتى عن النموذج الآرى الموسع، وبأن النموذج القديم سيعوُد فى وقت ما فى بواكير القرن الحادى والعشرين.

الموقف فيما بعد الحرب

وبفعل الحرب العالمية الثانية وذيوع أمر "المحرقة" (الهولوكومست) زالت المشروعية عن النعرة العنصرية ومعاداة السامية، غير أن القيمة الجديدة بشأن المساواة بين الأجناس أخذت وقتاً طويلاً كيما تستقر كعرف أو قانون. وقد استمرت معاداة السامية فى الواقع العملى فى كل من أوروبا وأمريكا الشمالية فى أكثر أوساط المجتمع بما فى ذلك الأوساط الأكاديمية، بالرغم من الدور البارز الذى قام به الباحثون اليهود الذين فروا إلى إنجلترا والولايات المتحدة. واستمرت جامعات أمريكية كثيرة حتى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات تستبعد اليهود أو تحصرهم فى نطاق حصص ضئيلة[1]

أما عن معاداة السامية في بريطانيا في فترة مابين الحربين فقد كانت النظم القائمة أقل يسراً من حيث مايعلق من الرجاء عليها، لكن يبدو أن وضعاً مشابها كان قائما هناك. غير أنه منذ أواخر الخمسينيات أصبح الطلاب والأكاديميون اليهود مقبولين تماماً في الجامعات الرئيسية، وقد حدث ذلك أيضاً في مجال دراسة الكلاسيكيات. وبحلول السبعينيات كان كثير من الشخصيات المهيمنة في هذا الحقل من اليهود.

وكان التحامل العنصرى ضد الأفارقة والأسيويين، ولا يزال، عائقاً أفدح من ذلك كثيراً؛ فلم تبدأ المحكمة الأمريكية العليا في التحرك ضد مشروعية التفرقة العنصرية إلا في منتصف الخمسينيات، وأكثر السود في الولايات المتحدة - ولا نقول كلهم البتة - لم يحصلوا على حق التصويت إلا في الستينيات، ولم تغير هذه الإصلاحات القانونية والسياسية الجوانب الأخرى في مركز السود والأسيويين الجنوبيين. ولقد أحرز بعض المهاجرين السود وغير الأوربيين أكثر مما خسر البيض في أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية وبمعدل أسرع.

كذلك تأثرت كتابة التاريخ بأحداث العالم الثالث مما سأناقشه فيما يلي. وقد يبدو من الصواب هنا أن نقول إن قيام إسرائيل وتوسعها العسكرى بعد عام ١٩٤٩م كان له في مجال التقليل من نزعة معاداة السامية فعل أقوى أثراً من ذيوع أمر محرقة اليهود (الهولوكوست) من حيث هي نتيجة لهذه النزعة. ولم يتأثر البيض من جانبهم بوجه عام باستقلال الهند في عام ١٩٤٧م أو "برياح التغيير" التي هبت في الخمسينيات والتي وجدت بريطانيا وفرنسا إزاءها أن من الحكمة أن تمنحا مستعمراتهما الإستوائية استقلالها السياسي، وعلى أي حال فقد أقر الاستعمار الجديد السيطرة الإقتصادية للدول الرئيسة. وفضلاً عن ذلك، فإن مشكلات حقيقية نشأت لدى الدول التي استقلت حديثا أو الدول شبه المستقلة، واستمرت هذه المشكلات في دعم المقولة بأن البيض وحدهم هم المؤهلون للحكم الذاتي، لكن الأهم من ذلك من وجهة نظرنا كان استمرار الهيمنة الثقافية الأوروبية، فلم يحدث تغير حقيقي في فهم التاريخ وتعليمه، واستمرت مزدهرة تلك "الشوفينية الأوروبية" التي استنكرها فكتور بيرار V.Bérard؛ وعلى سبيل المثال، ففي وقت متأخر هو الستينيات من هذا القرن كان

موضوع المساق الوحيد الذى يدرس فى امتحان الإمتياز فى مادة التاريخ فى جامعة كيمبردج عن العالم الثالث هو عن "توسع أوروبا".

بيد أنه كانت هناك تغييرات مهمة، وأولها النجاح الإقتصادى غير العادى لليابان، واقتران هذا بإعادة توحيد الصين وتحولها إلى قوة عظمى التمس فيها الغرب بعد عام ١٩٧٠م حليفا له ضد الروس. وكان هتلر قد منح اليابان فى الثلاثينيات وضعا "آريا فخرياً" وأصبح رأيه فى ذلك مقبولا عند عام ١٩٦٠م. وإبان السبعينيات بدأ الصينيون يحرزون بدورهم هذا الوسام. وهناك الآن ما يبدو وكأنه فكرة غربية عامة بأن يكون الأسيويون الشرقيون فى ذلك سواء وإن كانوا مختلفين بعض الشيء. كذلك نال الهنود قدراً أكبر من الإحترام مع إبلاء شبه القارة من أهوال التقسيم. ومن ناحية أخرى تغيرت صورة الشيخ العربى الرومانسى إلى صورة أمراء النفط المنتفخين وصورة "الإرهابيين" الفلسطينين. وثار كل العداء المسيحى القديم للإسلام ليتجه ناحية العرب. وعلى خلاف إعجاب أوروبا إبان القرن التاسع عشر بالفرس، أصبح تصوير إيران يتم من خلال أسماء شيطانية. وفضلاً عن ذلك فإن إفريقيا، بالرغم من استقلالها، لا يزال ينظر إليها وإلى شتات شعوبها وكأن لارجاء فيها. ولا زالت الفكرة عن السود هى أنهم أدنى صورة من الإنسانية.

لقد عددت هذه القوالب الفجة ليس لأن أكثر الأكاديميين يقبلونها، ولو أن البعض يقبلها بلا مواربة، بل لأننا جميعاً، فيما عدا المسلمين، قد تأثرنا بها على نحو ما، بما فى ذلك كثير من الأسيويين والأفارقة. وكثيرُ من حركات العالم الثالث، ومن أمثلتها الزنجانية Negritude، تقبلت الفكرة الأوروبية القائلة بأن الأوربيين وحدهم هم القادرون على أن يفكروا تفكيراً تحليلياً. ونتيجة لذلك مال كثير من المثقفين السود والسُّمر إلى إنكار موهبتهم التحليلية ناكصين بها إلى خصال "نسائية" بعينها فى المجتمع كخصال دفء العاطفة وقوة الحدس والإبداع الفنى، وهى أمور يسترعى النظر أن جوبينو Gobineau كان على استعداد لخلعها على السود. وبعبارة أخرى، لم يكن الشعوبيون البيض وحدهم هم الذين وجدوا من اليسير قبول أسطورة "المعجزة اليونانية" ومايستتبعها من التفوق الفئوى للحضارة "الغربية". غير أنه كان هناك شئ من مجانبة

هذا الإجماع، وهو ماننظر فيه فيما بعد في هذا الفصل.

التطورات في الدراسات الكلاسيكية (١٩٤٥-١٩٦٥م)

حتى القرن التاسع عشر، كان المؤرخون الذين يتوخون الحذر يبدءون مؤلفاتهم بالقول بأن الحدود العرقية والحدود اللغوية لا تكون دائما متطابقة. كانوا يقولون هذا قبل أن يمضوا إلى معالجة هذه الحدود جميعاً كما لو كانت متشابهة[٢]. وبعد عام ١٩٤٥م أصبحت المقاربة اللغوية هي المقاربة الوحيدة المقبولة في الدراسة، وصار الدارسون يشيرون إلى التقسيمات اللغوية أكثر من إشارتهم إلى التقسيمات العرقية. ومن ناحية أخرى، ففي حين أودت الحرب بالنزعة العنصرية، خرج العلم منها ظافراً، وبهذا اكتسب النموذج الآرى المتطرف بمرور الوقت مشروعية متزايدة، إذ لم يعد هناك أحد تقريباً يشك في أنه هو "الحقيقة العلمية" التي تأتت بفضل علم الآثار وغيره من المناهج الحديثة. ولم يعد يُنظر إلى النموذج القديم على أنه مشروع متماسك تجرى مواجهته من أجل دحضه، وإنما تناثر هذا النموذج إلى مجموعة من الأساطير السخيفة التي لا يستطيع "أحدٌ اليوم" أن يبدأ بأخذها مأخذ الجد.

وقد كانت المجادلات التي أحتدمت حول التاريخ اليوناني الباكر قد جرت كلها تقريبا في داخل إطار النموذج الآرى المتطرف. كانت هناك مناقشة مستفيضة حول الوقت الذى وصل فيه الهيلينيون إلى بلاد اليونان. وحتى الخمسينيات كانت قلة يعتد بها من الباحثين تقول بأن الآريين تدفقوا جنوبا عند نهاية عصر البرونز فقط إعتماداً منهم على أساطير "عودة أبناء هرقل" والغزو الدورى. وبالرغم مما أصاب هذا الرأى من تجريح بفضل كشف ميخائيل فنتريس M.Ventris لأسرار الكتابة الخطية الثانية Linear B وبيان أنها لغة يونانية، فإن عدداً ممن كانوا يقاومون بعناد ظلوا يعتنقون تلك الآراء حتى السبعينيات[٣].

ومن المتفق عليه أن كشف فنتريس هو أعظم تطور داخلي تم في هذا الحقل منذ إكتشافات شليمان وإيفانز، وأنه تم على يد شخص هاوٍ، كما كان الشأن في حالة شليمان. ذلك أن فنتريس، وهو مهندس، حاول أن يحل رموز نصوص الكتابة الخطية الثانية بعد أن نشرت وذلك بطريقة الشفرة، مفترضاً أنها كتبت بلغة ذلك الشعب

العامض السابق على الهيلينيين. لكنه فى عام ١٩٥٢م حاول أن يقرنها باللغة اليونانية. وبهذا الأسلوب من الوصل بينهما أفلح فى حل طلاسمها.

وأريد أن أعود هنا إلى موضوع أثير فى مقدمتى لهذا الكتاب وهو: لماذا قام بكل من هذين الكشفين دخيلان إخترقا هذا التخصص إختراقاً ؟ فى حالة شليمان كانت هناك سذاجته وثقته فى القدماء، وهما أمران تعلم الدارسون فى عصره أن يتفادوهما بأى ثمن. كذلك كان فنتريس "ساذجاً" فى وصفه الكتابة الخطية الثانية مقارنة جنباً إلى جنب مع اللغة اليونانية أكثر من وصفه إياها لتقارن بلغة أناضولية غامضة مستعصية على الفهم، أو بشئ من قبيل ماجرى تلفيقه من عناصر فى اللغة اليونانية سابقة على الهيلنية[٤]. وفضلاً عن ذلك كانت هناك تلك الحقيقة، وهى أن الكتابة الخطية الثانية كانت تمثل اللغة اليونانية بطريقة بالغة الفجاجة، وكانت قراءتها على أنها نصوص يونانية تتصادم بعنف مع كل الجهود التى أنفق دارسو الكلاسيكيات أعمارهم من أجل صقل هذه اللغة وتصفيتها.

والرأى القائل بأنه مامن دارس للكلاسيكيات كان بوسعه أن يقوم بهذا العمل هو رأى يعززه أن نضع فى مجال المقارنة الأبجدية المقطعية القبرصية، وهى أبجدية أستخدمت لتمثيل اللغة اليونانية فى جزيرة قبرص حتى العصر الهلنستى، وكانت مساوية تقريباً للكتابة الخطية الثانية من حيث خشونتها فى تقريب الصوتيات اليونانية. وقد حل طلاسم هذه الأبجدية كل من جورج سميث الذى لم يكن يعرف إلا القليل من اللغة اليونانية وصمويل بيرش الذى كان فى الأساس من علماء المصريات والأشوريات، بالرغم من كونه دارساً قديراً للحضارة الهيلينية، وكان معتاداً من ثم على تقبل الإرتباطات الواهية التى يتطلبها مثل ذلك العمل[٥]. وهذا الرأى، وهو أن دارسى الكلاسيكيات كانوا من رهافة الحس بمكان بالنسبة لمثل هذا العمل، على الأقل فى مراحله الإبتدائية، سوف يتجلى بصورة تطبيقية فى الجزء الثانى من هذا الكتاب "أثينة السوداء"، عندما سأحاول رصد الكلمات المصرية والفينيقية الدخيلة فى اللغة اليونانية من خلال مقابلات لهذه الكلمات فى هذه الأخيرة، وهى مقابلات قد يقبلها أكثر المشتغلين باللغويات المقارنة، لكنها بالنسبة إلى دارسى الكلاسيكيات أمر فج عظيم

الفجاجـة.

وإذا أخذنـا فـي الإعتبـار مـا كـان فـي عمـل فـنتريس مـن تهديـد لحرفيـة أهـل التخصـص، يصبـح أمراً لافتاً للنظر البـدار والحمـاس اللذين اسـتقبل بهمـا هـذا العمـل[٦]. ويمكـن تفسـير جـانب مـن ذلـك بسـحر فـنتريس الشـخصى، وذكائـه فـي أن طلـب إلى عـالم كلاسـيكيات محـافظ ومتمكـن وهـو جـون شـادويك ليكـون شـريكه فـي العمـل، ثـم اكتشـاف فـنتريس مـن واقـع الألـواح التـى عـثر عليهـا حديثـا لأدلـة تعـزز تفسـيراته. ومـن ناحيـة أخـرى، فليـس مـن شـك فـي أنـه عندمـا حـان الوقـت للتظـر فـي الموضـوع، وجـد دارسـو الكلاسـيكيات أن القـراءة الجديـدة تؤيـد النمـوذج الآرى المتطـرف لأنهـا تزيـد فـي العمـق الزمنـي والمجـال الجغرافـي لبـلاد اليونـان. غـير أن ثمـة أمـور كـانت تكـدّر صفـو الفكـرة، وأولهـا العثور علـى اسـم الإلـه ديونيسـوس فـي أحـد ألـواح الكتابـة الخطيـة الثانيـة. وقـد كـان يفـترض فـي ديونيسـوس فـي المـأثور لـدى اليونـان علـى وجـه العمـوم أنـه إلـه جـاء فـي وقـت متـأخر، ولذلـك كـان دارسـو الكلاسـيكيات قـد ذهبـوا إلى أن عبادتـه قـد وصلـت أو تطـورت فـي القـرن السـادس أو السـابع قبـل الميـلاد. وقـد أدى ظهـور اسمـه فـي القـرن الثـالث عشـر إلى العـودة بـالأمور القهقـرى إلى التـاريخ الـذى قـال بـه الأقدمـون تقريبـاً وهـو القـرن الخـامس عشـر. وقـد كـان كـل ذلـك أمـرا مُربكـا للغايـة. لكـن، بـالرغم مـن أن أحـدا لم يسـتطع أن ينكر هذا الدليـل، فقـد استمر أكـثر الدارسـين ينسـجون فـي حججهـم علـى المنـوال القديـم.

غير أن الأخطر من ذلك هو ما اكتشف فى الكتابة الخطية الثانية من أسماء شخصية سامية ومصرية، وكثير من الأسماء السامية الدخيلة الدالة على سلع كان يُزعـم أنهـا مجلوبـة مـن الخـارج مثل التوابل والذهب ونحو ذلك. وكان يظن منذ العشـرينيات أن الفينيقيـين أدخلوهـا معهـم عنـد وصولهم (إلى اليونان) فى أواخر القرن الثامن فيما كان يفترض. ولم يلحظ دارسو الهيلينية ما فى هذا من تعارض مع النموذج الآرى المتطرف، إلى أن واجههم به علمـاء الساميات. وبوجـه عـام، عزز حل رموز الكتابة من النموذج الآرى المتطرف، وشجع الدارسين على أن يستمروا فى النظـر إلى الشمال يلتمسون فيه مصدر الأصول التى قدمت بطريق الغزو. وتطور الأمر إبان الخمسينيات إلى إجماع على أن الشـعب السـابق علـى اليونـان والمتحـدث باللسـان الهنـدى الأوربـى وصـل إلى حوض بحرإيجة عند نهاية الفترة الهلادية الباكرة، أى فى عام ٢٢٠٠م ق.م. تقريباً.

والدارسون الذين لوحدهم قبلوا قراءة المجموعة الخطية الثانية على أنها لغة يونانية ورفضوا كذلك فكرة وقوع الغزو الهليني هم أنصار ما أسموه هم أنفسهم "نموذج الأصل الأرومي". وهؤلاء، يقودهم في ذلك فلاديمير جيورجيف Vladimir Georgiev ؛ ذلك العجوز العنيد في حقل دراسة التاريخ القديم في بلغاريا، وكولين رنفرو Colin Renfrew؛ عالم الآثار المتطرف في قوله بالانعزالية، ينكرون أن تكون الهندية الأوروبية قدمت إلى بلاد اليونان من موطن يقع في شمالي البحر الأسود، إنما قالوا، بدلا من ذلك، بأن ماسبق الهندية الأوروبية لم يكن قط شيئاً أكثر من مجموعة من اللهجات التي كان يجرى التحدث بها في أنحاء الأناضول والبلقان. فكانت إحداها هي تلك اليونانية التي جرى الحديث بها في بلاد اليونان[7]. وينتمي هذا التفكير إلى نموذج إنعزالي كان سائدا في علم الآثار والأنثروبولوجيا منذ الأربعينيات معارضاً مبدأ امتزاج الثقافات. ويبدو أن شيوع هذا النموذج له علاقة برد الفعل ضد القول بوقوع استعمار، وهو قول يتضح أن فكرة الإمتزاجية الثقافية هي إنعكاس أكاديمي له[8]. غير أن ميول اللغويين ودارسي الكلاسيكيات تجعلهم أقل استعداداً من غيرهم للتخلي عن فكرة الإمتزاج هذه، لأنها كثيراً ماتقدم تفسيراً مقنعاً للعلاقات بين السلالات اللغوية المعروفة. كذلك إستخدم هؤلاء الحجة القوية في أن الإمتزاج من خلال الغزو والهجرة قد لعب دوراً مهما في عصر التاريخ المكتوب، وليس ثمة سبب يدعو إلى افتراض أن عصر ما قبل التأريخ كان يختلف في هذا الأمر اختلافاً كبيراً.

ويعتبر نموذج الأصل الأرومي بمثابة عودة إلى موقف كارل أوتفريد موللر. في العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر قبل أن يتطور النموذج الآري. لكنه، وكما هو الحال مع ميلر، كان أنصار النموذج الأرومي يتوجهون بذات التوجه الفكري، نحو الشمال الأوربي، بل إنهم أكثر عداء من أصحاب المذهب الآري للمأثورات القائلة باستعمار قدم من الشرق الأدنى عند نهاية العصر البرونزي الأوسط. غير أن هذا الإنكار إلى جانب الفتقاد طبقة أدنى ليجر، وضعها فيما قبل الهيلينية قد جعلت نموذج الأصل الأرومي مفتقراً إلى تفسير لوجود عناصر ليست بالهندية الأوروبية

فى اللغة اليونانية، وهى نقطة استغلها المدافعون عن النموذج الآرى[٩]. لكن أنصار نموذج الأصل الأرومى شعروا بإمكان إغفال هذا الخلل الأساسى، ربما لأنهم كانوا يعملون فى إطار النموذج السائد فى علم الآثار آنذاك. ولما كان كل من هذا النموذج والنموذج الآرى يستبعدان احتمال حدوث الاستيطان من الشرق الأدنى، فإن الخلاف بينهما لا يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع كتابنا أثينة السوداء، حيث يتركز النظر هنا على الخلاف بين النموذج القديم والنموذج الآرى.

الصلات مع شرقى البحر المتوسط (المشرق)

يبدو أن شعور الكراهية ضد الفينيقيين كان فى تزايد حتى منتصف الستينيات. وقد تزعم ريز كاربنتر حملات هدفها تأخير التاريخ الذى بُثت فيه الأبجدية والتقليل من مدى امتداد الاستعمار الفينيقى، ولقيت مقترحاته فى هذا الشأن القبول بوجه عام[١٠]. وأصبح احتمال وقوع استعمار فى طيبة أمراً مرفوضاً على العموم. والحق أن أكثر التفسيرات الآرية تشدداً وإصراراً بالنسبة إلى أسطورة كادموس قد ظهر لدى الباحث الفرنسى ف.فيان F.Vian فى عام ١٩٦٣م[١١]. وقد استمر كثير من الكتاب ينكرون قيام الصلات فى شرقى البحر المتوسط أو يقللون من شأنها على الأقل. وفى عام ١٩٥١م أحس مؤرخ التاريخ القديم الإنجليزى مايجز R.Meiggs أن فى وسعه أن يذكر ما يلى فى نشرته المراجعة لتاريخ برى Bury:

> قد يبدو أن ثمة شواهد أدبية تتضافر لتدل على أنه كانت هناك علاقات وثيقة بين الموكينيين والفينيقيين أو غيرهم من الساميين فى العصر البرونزى. وهذه الشواهد لسوء الحظ هى أقل تماسكا وأقل إقناعا مما تبدو عليه.... والأمر الأكثر خطراً هو تزايد الشك فى أن تكون شعوب الشرق الأدنى قد قدمت إلى المنطقة الأيجية أو غربى البحر المتوسط إبان عصر البرونز[١٢].

ومع تراكم الشواهد الأدبية المتزايدة بشأن الصلات بين المنطقة الإيجية ومنطقة الليفانت (حوض البحر المتوسط الشرقى)، نشأ الافتراض بأن تكون هذه الصلات قد جاءت نتيجة مبادرة يونانية: "... إن الذى يستطيع وحده أن يدعى لنفسه بحق فضل

إقامة الروابط التى وصلت المنطقة الإيجية بالشرق بعد إنتهاء الفترة الثانية من مرحلة الحضارة المينوية الوسطى وفى خلال الجزء الأخير من الألف الثانية ق.م. إنما هم البحارة والتجار والصناع من بلاد اليونان الموكينية"[١٣]. ومن أجل الأسباب التى لمسناها فى الفصلين الثامن والتاسع، لم يكن كثير من علماء الساميات براغبين فى دراسة التاريخ الفينيقى الذى ترك حتى الستينيات ليعالجه دارسو الكلاسيكيات ومحبو الثقافة الهيلينية وفى عام ١٩٦١م أعاد الباحث اللبنانى د. بارامكى D.Baramki ذكر القضية التى عرضها إيفانز مع نهايات القرن الماضى ثم وولى فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الحالى ومؤداها أن ما أحرزه الفينيقيون من نجاح إنما يرجع إلى انتشار الدم الآرى، فى حين أن د.ب. هاردن D.B. Harden الذى كان قد تلقى تعليما كلاسيكياً قد قبل فكرة سيطرة الموكينيين على البحار، وذلك فى كتابه الذى نشر فى عام ١٩٦٢م بعنوان "الفينيقيون"[١٤].

وفى مواجهة الإكتشافات الأثرية الجديدة عن تلك الصلات وإزاء حقيقة ما ظهر من أن تيار التأثير كان متجها من الشرق إلى الغرب، ثارت ردود فعل ليس ضد النظريات التى أنكرت كل الصلات فحسب، بل كذلك ضد جميع أولئك الذين عزوا هذه الصلات بأكملها إلى نشاط الموكينيين ثم إلى اليونان من بعدهم. فالباحث العظيم وليم فوكسول أولبرايت William Foxwell Albright عميد الدراسات السامية حتى وقت وفاته فى عام ١٩٧١م قد أرجع الإستيطان الفينيقى إلى القرن التاسع بل القرن العاشر[١٥]. والمؤرخ الاسترالى المتخصص فى التاريخ القديم وليام كوليكان William Culican فى كتابٍ له بالغ الجرأة قد أكد على التأثير المهم الأصيل لمنطقة اللفانت (حوض شرق البحر المتوسط) فى خلال الألف الثانية، وإن كان قد تفادى بحذق ومهارة النموذج القديم، ومسألة ما إذا كان للساميين الغربيين أم لم يكن من تأثير عميق طويل الأمد على الحضارة اليونانية[١٦].

وفضلاً عن ذلك فإن حلقة الوصل الواهية فى النموذج الآرى المتطرف، وأعنى إنكار الرواية لشأن كادموس، استمرت أمرا يثير الشك. فالباحث الكلاسيكى الماركسى الكبير جورج تومسون George Thomson فى عام ١٩٤٩م، ثم زميله من بعد

د.ف. ويلتز في عام ١٩٦٢م قد أقرا بأن أبناء كادموس إنما هم قبيلة سامية جاءت من فينيقيا إلى كريت ومنها إلى طيبة[١٧]. وفي الستينيات ايضاً عبر المؤرخ اللبناني د. بارامكي ومعه نينا جورجيان عن اعتقادهما بأنه قد وجدت محلة استيطان فينيقية في طيبة، وإن كانا قد ذهبا إلى أن ذلك قد حدث في عصر الحديد[١٨]. وذهب بعض المؤرخين إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ قبلوا ليس فقط الأساطير عن كادموس بل كذلك عن دناؤوس. وأقام عالم الكلاسيكيات ج. هكسلي G.Huxley الدليل على هذه الافتراضات في كتابه كريت واللوفيون الذى نشر في عالم ١٩٦١م، غير أن هكسلي، كما يبدو من عنوان كتابه، كان معنيا بدراسة العلاقات المهمة مع الأناضول أكثر من اهتمامه بالعلاقات مع مصر وبلاد اللفانت. ومن الجدير بالالتفات هنا ملاحظة أن هذا الكتاب نشر بمجهود سخصى[١٩]. وقد جاء التطور الأكثر إشارة للدهشة من نشر الفصل الذى كتبه عالم الآثار الكلاسيكي الدكتور فرانز ستابنجز Frank Stubbings في العالم التالى بعنوان "قيام الحضارة الموكينية" في الطبعة الثالثة للجزء الثاني من موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم[٢٠]. فهاهنا قبل ستابنجز النموذج القديم إلى الحد الذى ذهب فيه إلى وجود غزوة من مصر، وأن إمارات للهكسوس قد أقيمت في بلاد اليونان، بل زعم أن ثمة شواهد أثرية حديثة تؤيد هذا التفسير، وكان يقصد إقامة الدليل على أنه قد وُجد تأثير من مصر ومن دول الشرق الأدنى في بلاد اليونان عند بداية الفترة الموكينية[٢١].

وذهبت عالمة آثار كلاسيكية أخرى هي إميلي فرميولى Emily Vermeule أستاذة هذا التخصص في هارفارد إلى أبعد من ذلك مدى حين أشارت إلى أن الحضارة الموكينية احتفظت بصلاتها مع مصر وفينيقيا طيلة حياتها. وفي عام ١٩٦٠م، وفي معرض وصفها لسقوط هذه الحضارة كتبت تقول:

> ... من الواضح أن الذى اختفى ليسوا هم الموكينيين بل هي الحضارة الموكينية. ذلك أن هذه الحضارة اعتمدت إعتماداً كبيراً على ما كان يبعث فيها النشاط من صلة بكريت والشرق منذ مرحلة المقابر البئرية Shaft Graves فصاعداً (أى منذ مرحلة

أقدم المقابر التى اكتشفها شليمان فى موكيناى). وعندما تقطعت
هذه الصلة مضت الحضارة الموكينية إلى حالة من الجدب بحيث بات
من العسير التعرف عليها(٢٢).

لكن علينا أن نتذكر أن هذه الآراء لم تكن بالآراء السارية المعتمدة ولا هى كذلك الأن بأى حال. فأكثر علماء الآثار والمؤرخين البريطانيين المحدثين المتخصصين فى تاريخ بلاد اليونان إبان العصر الموكينى من أمثال شادويك Chadwick وديكنسون Dickinson وهاموند Hammond وهوكر Hooker و رنفرو Renfrew وتيلور Taylour يذهبون إلى أن الحضارة الموكينية جاءت نتيجة لتطور داخلى محلى. أما الأشياء الظاهرة التى استعارها اليونان من الشرق الأدنى. فقد نُظر إليها على أنها مُدخلات جاءت من خلال مبادرة يونانية من قبيل عودة الجنود المرتزقة أو التجارة بل حتى السياحة فى منطقة الشرق الأوسط(٢٣).

وبعد أن أسقطت المؤسسة الأكاديمية بشكل نهائى احتمال وجود تأثير مصرى أو كنعانى على الثقافة أو اللغة اليونانية، كان فى وسع هذه المؤسسة أن تستخدم هذه "الحقيقة" لمهاجمة افتراضات الغزو المبنية على مأثور الروايات اليونانية أو على أدلة علم الآثار. وحاول الدكتور ستابنجز أن يدور حول هذا المعنى فيما يتعلق بالهكسوس حين قال:

إن القول بأن قدومهم (إلى اليونان) لم يصحبه شيء من التمصير
الواسع المدى لهو قول يتمشى تماما مع ما نعرفه عن الهكسوس فى
مصر، حيث أن ما أدخلوه هناك قليل لا يعدو تقنيات عسكرية
وتنظيمات. وهم لا يمثلون تحركاً جمعياً من الشعوب، بل كانوا طبقة
حربية مغلقة، كما أنهم لم يُدخلوا لغة جديدة...(٢٤).

وأظن أن هناك مشكلات حقيقية فى تحليل ستابنجز لأثر الهكسوس فى مصر. ذلك أن معلوماتنا المباشرة عن فترة حكم الهكسوس فى مصر معلومات جد قليلة. لكن ليس هناك شك، آخر الأمر، فى أنه على ما كان من انبعاث القومية والثقافة المصرية فى الأسرة الثامنة عشرة، فإن ثمة تحولاً ثقافيا كبيراً حدث فى خلال تلك الفترة من الحكم

الأجنبى. ومن المؤكد أن الدكتور ستابنجز يبدو محقاً فى رؤيته للهكسوس على أنهم طبقة حربية مغلقة، لكنهم - شأنهم فى ذلك كشأن المغول الذين مخضوا ثقافات أوراسيا مخضاً عنيفاً - يبدون من الناحية الثقافية ذوى تأثير تكوينى من حيث أنهم قاموا ببث حضارات أخرى، وأعنى بث الحضارة السامية فى مصر، وبث الحضارة المصرية والمينوية فى اليونان وهكذا. لكن بلاد اليونان التى كانت تفتقر إلى التقاليد الحضارية الراسخة التى كانت لمصر، كانت عرضة للتغيير بصورة أكبر كثيراً. لذلك فإن من المحتمل أن يكون الهكسوس قد أثروا فى المنطقة الإيجية تأثيراً أعظم.

من ناحية أخرى، فمن حيث تتابع الدراسات تاريخيا، نرى موقف ستابنجز عودا إلى ما ذهب إليه كانوب ثيرلوول فى الثلاثينيات وأدولف هولم فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، من أنه قد يكون هناك وجود لمصريين وساميين فى بلاد اليونان، ومع ذلك فليس هذا بالأمر المهم لأنه لم يكن لهم تأثيرات طويلة الأمد. وبالرغم من أن ستابنجز حاد عن تلك العنصرية الفجة التى وجدت فى الفترة مابين عامى ١٨٨٥-١٩٤٥م، فإنه - كأسلافه - قد رفض النموذج القديم رفضاً قاطعاً.

ولم تكن الأدلة الأثرية "الحديثة" التى اعتمد عليها ستابنجز فى دعواه كافية لزعزعة النموذج الآرى المتطرف المتخندق بإحكام. غير أن عددا من الاكتشافات الجديدة التى وقعت فى خلال الستينيات كان لها أثر كبير فى تقدير الأهمية النسبية لشعوب اللفانت واليونان فى شرقى البحر المتوسط. ففى عام ١٩٦٧م نشر عالم الآثار البحرية جورج باص George Bass تقريره عن السفينة الوحيدة التى يرجع تاريخها إلى العصر البرونزى المتأخر والتى كان قد عثر عليها حتى ذلك الوقت. وبالرغم من أن باص ذهب إلى أن هذه السفينة التى غرقت قبالة رأس جيليدونيا جنوبى تركيا كانت سفينة سورية، فإنه لم يمض إلى الزعم بأن ذلك يعنى أن كل حركة السفن فى تلك الفترة كانت كنعانية. لكنه اعتماداً على هذا الدليل وأدلة أخرى، ذهب إلى أن من الواضح أن تجارة اللفانت كانت ذات أهمية قصوى فى أواخر عصر البرونز[٢٥].

وقد قطع ذلك دابر تلك المزاعم المقبولة قبولاً واسع المدى: وإن يك على غير أساس، عن سيادة للبحار كانت لغير الساميين، سواء أكانوا مينويين أم موكينيين، وعن ممالك البحر، كما حطمت ما كان قد ذهب إليه بيلوخ من أن السفن الفينيقية لم تكن تستطيع أن تصل إلى بحر إيجة

قبل القرن الثامن. وفي عام ١٩٦٣م والسنوات التالية، عثر على عدد كبير من الأدوات من منطقة الشرق الأدنى، من بينها ثمان وثلاثون خاتما من الأختام الأسطوانية فى طبقة أثرية تم تأريخها بحوالى عام ١٣٠٠ ق.م.، فى موقع الكادميين وهو القصر الملكى فى طيبة[٢٦]. ولقد لزم أكثر علماء الآثار جانب الحذر إزاء ذلك، لكن هذا الكشف الذى وقع فى مدينة كانت الروايات المأثورة تصلها بالفينيقيين وصلاً وثيقاً أعاد بالطبع فتح موضوع إمكان احتواء الأساطير حول كادموس على شئ من الحقيقة، كما زود البحث بذخيرة تتحدى الجوانب المعادية للفينيقيين فى النموذج الآرى تحديا جذريا[٢٧]. وفى الستينيات أيضاً، أوضحت دراسات مؤرخى الفن الصلة الكبيرة بين منطقة الشرق الأدنى والمنطقة الإيجية فى كثير من الأساليب التقنية والموضوعات المشتركة إبان العصر البرونزى المتأخر، فيما بدأ أن إتجاه التأثير فى الجزء الأكبر من هذه الفترة قد كان ناحية الغرب[٢٨].

ومما يستلفت الإنتباه أن دارسى الكلاسيكيات وعلماء الآثار المشتغلين بالمنطقة الإيجية لم يقفوا من هذه الدراسات موقفا معاديا صريحا[٢٩]، ومع ذلك فليس من شك فى ماحدث هناك من تقليل من شأن هذه الأدلة بوجه عام. وعلى النقيض من ذلك كان تفسيرهم للكميات الكبيرة من الفخار الموكينى الذى عثر عليه فى منطقة اللفانت منذ أواخر العصر البرونزى على أساس أنها شاهد على وجود يونانى، إن لم يكن شاهدا على استعمار فى المنطقة[٣٠]. وفيما عارض ذلك ميخائيل أستور وبعض النقاد من دارسى الساميات، أرانى متقبلاً لما يبدو هنالك من تأثيرات ثقافية يونانية مهمة وجدت فى منطقة اللفانت فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر. لكننى مازلت أظن أن من الصواب أن نلفت النظر إلى مغبة الكيل بكيلين عندما يؤكد الدارسون على وجود هذه التأثيرات على حين يفكرون أثر الساميين الغربيين فى المنطقة الإيجية[٣١].

دراسة الأساطير (الميثولوجيا)

وينبغى أن نؤكد أن دارسى الحضارة اليونانية وجدوا الشواهد عن الصلات بين الحضارتين فى مجال الثقافة المادية أقل إزعاجا لهم من الشواهد فى مجالين آخرين ينظر إليهما على أنهما أساسيان بدرجة أعظم، ألا وهما الأساطير واللغة. فأما عن الأساطير فقد وُجدت طريقتان للتعامل مع تلك الأدلة المتزايدة على المشابهات المثيرة بين الصور الإيجية والصور من الشرق الأدنى شريطة الإحتفاظ بالدوران فى دائرة النموذج الآرى المتطرف. وكانت الطريقة الأولى والأكثر إقناعاً من

هاتين هى المقاربة "الأنثروبولوجية" التى أيدها كارل أتفرد موللر وكـان رائداهـا مـع نهاية القـرن هما عالما الكلاسيكيات جيمس فريزر وجين هاريسون من كيمبردج. وقـد أخـذت هـذه الطريقة بمبدأ النظر إلى تلك المشابهات على أنها توارد خواطر فى الروح البشرية. وقـد كـانَ مـن الممكـن التعمية على المشابهات بين الأساطير اليونانية وأساطير الشـرق الأدنـى بطوفـان مـن الكتـب التـى عددت مشابهات مماثلـة فـى هـذا الصـدد مـن جميـع أنحاء العـالم(٣٢). وأمـا المقاربـة الثانيـة المهمـة للموضوع فهى تلـك التـى ذكرناهـا فـى صفحـة ٣٩٠ والتـى تبناهـا دارسـا اليونانيـات المحدثـان الأستاذان والكوت Walcot و وسـت West ومؤداهـا إرجـاع التأثـيرات الشـرقية إلى الهنـود والإيرانيين والحيثيين والحوريين والبابليين، على نسق تنازلى وفقاً لما تمليه الرغبة(٣٣)

وثمة أسلوب منهجى ثالث يعزى إلى عالم الكلاسيكيات وتدوين الأساطير الأستاذ الأمريكى فونتنروز Fontenrose، وهو الجمـع بـين الطريقتـين المذكورتـين، مـع الأخـذ بـالأمور الكليـة الواردة فى الأساطير على أنها مسلمات، مع الإقرار بأن الإقتباس قـد تم عـبر الطريـق الـبرى(٣٤) غير أنه وجدت مقاربة أخرى للموضوع حـاولت أن تعـالج المشـكلات التـى أثارتهـا أوجـه الشـبه القوية بين ثقافة اليونان وثقافة أوجاريت Ugarit السامية الغربيـة، ومضمـون هـذه هـو التسـليم بوجود محلات استيطانية يونانية فى هذه المدينـة السـورية، وبـأن المسـتوطنين اليونـان نشـروا هـذه الأساطير والحكايات السـامية لـدى عودتهـم إلى وطنهـم(٣٥). وهكـذا، ففـى كـل هـذه المقاربـات للموضوع، كان التحايل المقصود هو أن يجرى تفسير هذه المشـابهات بـأى طريقـة كـانت، سـوى ذلك التفسير الوارد فى النموذج القديم، ألا وهو الاستيطان المصرى والفينيقى فى بلاد اليونان.

اللغـــــــة

. على امتداد الحديث فى هذا الجزء من الكتاب، كنت أؤكد أن اللغة هى "قدس الأقـداس" فى النموذج الآرى. فالأمر لا يقتصر على ذلك الإعتقاد الرومانسى بأن اللغـة هـى المعـبرة أساسـاً عن الروح المتفرد لشعب من الشعوب فحسب، بل إن هناك أيضاً الوضـع البـالغ الأهميـة الـذى تشغله اللغة فى جوهر أى نظام معرفى أكاديمى، بحيث أن القدرة على اسـتخدام عنصـر اللغـة هـو المتطلب الذى لا محيص عنه لصياغة رأى بعينه فى هذا الصدد. وتنطبع حدود النظـام المعرفـى فـى أذهان الدارسين إلى حد كبير من خلال ماينطوى عليه تعليم اللغة من عملية هى بالضرورة جبرية. لذلك فليس من العجيب أن نرى أنه فى حين لَقِيَ الحظر الذى فُرض على ذكر المؤثـرات الشـرقية

في مجال الثقافة المادية ارتياحا كبيرا، وحدث قدرٌ من التحرك للمواجهة في موضوع الأساطير، فإن الأمر حين بلغ منطقة اللغة همد الحديث عن التأثيرات الإفريقية - الأسيوية الأساسية جامداً بلا حركة. وفي هذا المجال أيضاً، أرجع الباحثون "المحترمون" تلك المواد "الشرقية" الماثلة في الألفاظ اليونانية والتي تعذر عليهم الانتقاص من قيمتها، أرجعوها إلى مصادر هندية أو إيرانية أو حيثية أو حورانية أو بابلية أو سامية غربية أو مصرية، جرياً على الطريقة التنازلية نفسها، أى وفقا لما تقتضيه الرغبة(٣٦).

غير أن باحثين أمريكيين محدثين يتمتعان بمقدرة متكافئة في كل من اللغتين اليونانية والعبرية وهما شاءول ليفين Levin وجون بيرمان براون J.P.Brown، عملا بقدر كبير من الحذر والرصانة لإبراز عدد من الكلمات الكنعانية الدخيلة في اللغة اليونانية. والذين وقفوا من دارسي الكلاسيكيات على عمل هذين الباحثين يرفضون رأى ليفين لأنه يقرر وجود حلقات إتصال أصيلة بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية، وهو موقف أصبح في ذلك الوقت الذى استقر فيه النموذج الآرى المتطرف يُعد مُروقاً لذات الأسباب على الأرجح(٣٧). أما دراسات براون التي نشرت على نطاق واسع في المجلات العلمية المتخصصة في الدراسات السامية فكان خطة ببساطة هو التجاهل(٣٨). وكان هذا في الحقيقة هو الأسلوب التقليدى في التعامل مع عمل من هذا القبيل لايمكن تفنيده.

لقد تم فرض نوع من الاعتراف بأن قبل وجود دين في خط الكتابة ب Linear B أدخل في العصر البرنزى. وبرغم هذا فإن أهم وأخطر وأكثر عمل علمي مقبول عن الدين السامي للغة الإغريقية كان كتيباً وضعه العالم اللغوى الفرنسي إ.ماسون E.Masson والذى حدّ من خبر هذا الدين بحصره في بضع كلمات هى سميات أشياء مادية وجدت في النقوش السامية ماستبعد تلك الكلمات الموجودة في لغة أوجاريت أو الكتاب المقدس(٣٩) وهكذا تم تقليص حجم الدين المعترف به.

أوجـــــاريت

بيد أن رد الفعل إزاء هذه "النعرة الآرية" كان آخذا في الظهور. لكنه قبل أن نتناول هذا الأمر ينبغي أن نذكر تطوراً داخليا كبيرا أضعف النموذج الآرى المتطرف، وهو اكتشاف الحضارة الأوجاريتية. فقد أجريت حفائر شاملة في موقع أوجاريت، ذلك

الميناء على الساحل السورى، فور اكتشافه فى عام ١٩٢٩م. ولم تلبث الحفائر أن أخرجت من باطن الأرض فى الموسم الأول من التنقيب عددا كبيرا من الألواح الصلصالية المحروقة كانت قابعة فى طبقات أثرية يرجع تاريخها إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. وكان بعض هذه الألواح مكتوبا باللغة الأكادية، وهى اللغة العامة للعصر البرونزى المتأخر، لكن البعض الآخر كان مكتوبا بخط مسمارى غير معروف. وسرعان ما حلت رموز هذا الخط بفضل عاملين، أولهما أنه لم يكن مقطعيا كسائر الأشكال المسمارية الأخرى وإنما كان أبجدياً، وثانيهما أن اللغة كانت صورة غير معروفة من اللغات السامية الغربية، وإن كانت قريبة جدا من اللغة الكنعانية.

وقد كانت اللغة "الجديدة" ذات قيمة كبرى بالنسبة للغويين، ذلك أن أكثر نصوصها نصوص اقتصادية تقدم معلومات قيمة عن بنية وتجارة مركز تجارى عظيم، وبعضها الآخر يخص الأساطير والطقوس الدينية، وكانت هذه أهمية بالغة نظراً للمشابهات بينها وبين قصص الكتاب المقدس والأساطير اليونانية. وقد سبب هذا مشكلات كبرى للنموذج الآرى المتطرف الذى كان المعتقد المحورى فيه هو الفصل القطعى بين اليونان الآريين وأهل اللغات الساميين.

الدراسة العلمية وقيام اسرائيل

لم تتأثر الدراسات الهيلينية تأثرا مباشرا بتأسيس اسرائيل وتوسعها العسكرى، حتى بالرغم مما قدمه ذلك من دليل واضح على أن المتحدثين باللغة الكنعانية لم يكونوا بطبيعة حالهم عاجزين عن تأسيس مستعمرات فيما وراء البحار. وقد كان التأثير المباشر على المؤرخين اليهود هو أنهم ضيقوا بؤرة دراستهم لتنصب على فلسطين، مهملين ديار الشتات (الدياسبورا). وبالمثل وجد ميل إلى تأكيد الفوارق بين الاسرائيليين وجيرانهم من الكنعانيين والفينيقيين أكثر منه إلى تأكيد المشابهات، وبذلك ضاقت إلى حد بعيد دراسات مقارنة مهمة(٤٠).

وكان التأثير غير المباشر لتأسيس اسرائيل مهما من حيث أنه جدد اعتداد اليهو

باليهودية العلمانية. وفضلاً عن ذلك، فإنه بإيجاد القطبين معاً، الديني والقومي العلماني، أصبح مسموحا بمجال أكبر للتحرك والمناورة في داخل التقاليد اليهودية المأثورة، واستطاع نفر قليل من الدارسين اليهود استخدام هذا المجال الجديد ليتحرروا في فكرهم. وفي أمريكا، يعمل سيروس جوردون Cyrus Gordon وميخائيل استور Michael Astour، وهما أبرز هؤلاء الدارسين في هذا المجال الذي يهمنا هنا. وكل من الرجلين يهودي واعٍ بذاته ولكن في خارج تيار الدين والصهيونية. ويظهر أن الحافز الأكبر لجوردون من وراء عمله هو السعي إلى الإدماج، لكنه ليس إدماجاً من قبيل ذلك الذي نادى به باحثون مثل ريناخ، الذي أراد لليهود أن يتواءموا مع الثقافة المسيحية أو الثقافة الهيلينية، وإنما رأى جوردون في الإدماج مشاركة من كلا الجانبين، على ما هما عليه من علم بجذورهما واعتداد بها، من أجل خلق حضارة أكثر ثراء[٤١]. وتتشابه آراء استور في ذلك، لكن يبدو أن في عمله توجها أقوى نحو نزعة سامية عامة، وإحجاما عن أن يخلع أي نزعة خلاقة على المتحدثين باللغات الهندية الأوروبية أو بالمصرية.

سيروس جوردون

وسيروس جوردون باحث لغوي لامع، وهو واحد من أعظم المتخصصين في الدراسات السامية من الأحياء. وبالرغم من محاولات خصومه لنبذ عمله جانبا، فإن كتابه الرائد عن قواعد اللغة الأوجاريتية Ugaritic Grammar يظل هو المرجع العمدة عن أول لغة سامية جديدة يجري الكشف عنها في هذا القرن. بيد أن جوردون ظل على الهامش من الحياة الأكاديمية، واعتبره كثير من الدارسين متهوساً في آرائه. ولعل من أسباب ذلك أن خطاياه أو أخطاءه لم تكن من النوع الذي يصدر عن غفلة أو إهمال، وهو ما تتسامح إزاءه المؤسسة الأكاديمية تسامحاً كبيراً، بل كانت تلك من قبيل الآراء التي "ترتكب إرتكاباً"، فهي بهذه المثابة أخطاء تعد شنيعة لا تغتفر. وفضلاً عن ذلك فإن محاولاته لإظهار تأثير فينيقي بل حتى يهودي مبكر على أمريكا كان أمراً أبعد ما يكون عن التعقل التقليدي المألوف، وهذا ما جعله يبدو سخيفاً مثيرا للهزء. وكان ذلك يعني أن عمله الأصيل يمكن أن يُلفظ جانبا بإزدراء، وهذا هو ماكان[٤٢].

وقد جاء التهديد المباشر والأكثر خطراً على الوضع الأكاديمي القائم من

محـولات جـوردون الربـط بـين الثقـافتين السـامية واليونانيـة اللتـين يـرى أن ثمـة جسـرين يصـلان بينهمـا همـا أوجـاريت وكريـت. واعتمـاداً علـى أسـاس قـاعدى مـن مرجعـه الشـامل عـن أوجـاريت، كتـب جـوردون كتابـاً نُشـر فـى عـام ١٩٥٥م، وجعـل عنوانـه هـو "هومـيروس والكتـاب المقـدس"، وقـد انتهـى فيـه إلى أن "الحضـارتين العبريـة واليونانيـة همـا بنيتـان متوازيتـان قامتـا علـى ذات الأسـس الماثلـة فـى شـرقى البحـر المتوسـط. وبـالرغم مـن أن ذلـك كـان يشـبه نسـبيا آراء إيفـانز فـى بدايـة هـذا القـرن، فإنـه لم يلـق تسـامحا مـن أولئـك البـاحثين الذيـن كـانوا يعملـون فـى داخـل إطـار النمـوذج الآرى المتطـرف، فكـان رد الفعـل إزاء عمل جـوردون علـى حـد وصفـه هـو:

"إنـه رد فعـل جـاد، إذ أن بعـض مـن عرضـوا للكتـاب كـانوا أسـخياء فـى مدحهـم إيـاه، فـى حـين ازدراه آخـرون، لكـن الأمـر كـان من الوضـوح بمكـان، إذ لم أعـد أنـا ذلـك البـاحث الرصـين الـذى يتقبلـه المتخصصـون علـى أنـه متخصـص رزيـن، وإنمـا أصبحـت معكـرا صفـو السـلام الأكـاديمى، وفـى الوقـت نفسـه صـرت باحثـا تلقـى كتاباتـه ومحاضراتـه اهتمامـاً مـن جمهـور أوسـع"[٤٣].

وهنـا، وكمـا حـدث بالنسـبة لفكتـور بـيرار قبـل ذلـك بخمسـين عامـا، كـان هنـاك إنقسـام بـين رأى العامـة العـاديين بمـا لـه مـن ميـل إلى "تجميـع" الموافقـات البسـيطة ذات العموميـة وبـين الـرأى المهنـى بمـا فيـه مـن الميـل إلى "الفصـل" بـين الأمـور. فـالرأى المهنـى كـان محتاجـاً إلى موضوعـات ضيقـة غـير ذات صلـة بغيرهـا، ممـا يلائـم البحـث الفـردى "والملكيـة الخاصـة" للمعرفـة. وقـد كـان موقـف المتخصصـين الآخريـن مـن كـل مـن بـيرار وجـودون صـادراً بـالتحديد عـن شـعورهم بـالتهديد، وذلـك بسـبب معقوليـة القضيـة التـى أقيمـت ضـد الوضـع الأكـاديمى القـائم.

وبالنسـبة للشـخص العـادى فـإن العلاقـات الوثيقـة بـين بـلاد اليونـان كمـا يصورهـا هومـيروس وأوجـاريت وفلسـطين كمـا يصورهـا الكتـاب المقـدس تبـدو أمـراً معقـولا تمامـاً، وذلـك بحكـم التقـارب التـاريخى والجغرافـى، لاسـيما بعـد أن أضعـف النـازيون الثقـة بـالفكرة القائلـة بـأن الآريـين متمـيزون وممتـازون فئويـاً. لكـن الأمـر لم يكـن "بهـذه البسـاطة" بالنسـبة إلى المهنيـين. ذلـك أن الرجـل العـادى الـذى لم يكـن لديـه فكـرة عـن تفـاصيل الموقـف المتضمنـة

فى الكتب التى تبحث فى الموضوع لا يحق له أن يتحدى رأى الخبراء. ومن سوء الخط أن كثيراً من الأكاديميين ودوا لو أن الأمر هو كذلك فعلاً، لأن مكانتهم وأسباب عيشهم تقوم على ذلك، إذ أن الأمر الواضح لا يكون على الدوام أمرا زائفاً. بل يمكن أحياناً أن نبادر بالقول بأن إدراك أفراد الجمهور العاديين كان أفضل من إدراك المهنيين المحترفين. وقد ذكرت فى المقدمة مسألة.

أما كريت، وهى نقطة الإرتباط الثانية بين الساميين واليونان عند جوردون فكان أمرها محل إرتباك بدرجة أكبر. ذلك أن جوردون وقد أثاره حل فنتريس لرموز الكتابة الخطية الثانية مضى فى عمله على أساس افتراضية لقيت فى وقتها الإنتقاد وإن أصبحت الآن مقبولة على العموم، وهى أن علامات هذه الكتابة لها ذات القيم الصوتية التى كانت فى الكتابة السابقة عليها، وهى الكتابة الخطية الأولى التى كانت طراز الكتابة إبان المرحلة المتأخرة من الحضارة المينوية على الأقل[٤٤]. وتأسيسا على ذلك، كان فى استطاعة جوردون أن يقرأ فى الكتابة الخطية الأقدم عدة كلمات سامية وأن يتبين فيها أنماطاً من نظام الجملة فى اللغة السامية، ولكى يتحقق له ذلك، افترض أن هناك قدراً ضئيلاً من التمييز بين الوقفات الملفوظة وغير الملفوظة كما هو الحال فى الكتابة الخطية الثانية، (الوقفات بس وبس وتس ودس وكس وجس). ومن أجل إنشاء معجم ألفاظه استقى جوردون من كل من اللغة السامية الغربية واللغة الأكادية. وقد نشر جوردون نتائج بحثه الأولية حول قراءة الكتابة الخطية الأولى فى مجلة Antiquity العلمية الجليلة الشأن فى عام ١٩٥٧م. وفى الستينيات طور أفكاره حول ذلك الموضوع وكذلك فى موضوع القراءات السامية للنقوش الإتيوكريتية Eteocretan المتأخرة المكتوبة بالأبجدية اليونانية[٤٥]. وقد اعتبرت الأساليب التى اتبعها جوردون فى ذلك أساليب شاذة غير مألوفة على وجه العموم، لكن الكشف فى عام ١٩٧٥م عن لغة الإبليت Eblaite، وهى لغة سامية غربية ترجع إلى الألف الثالثة ق.م. قد عزز هذه الأساليب على نحو مثير حقا. وكانت هذه اللغة الأخيرة تجمع بين صيغ عتيقة من اللغة الأكادية وملامح موجودة فى اللغتين الأوجاريتية والكنعانية[٤٦].

وقد اعتبرت دراسة جوردون عن المشابهات بين هوميروس والكتاب المقدس

"مسألة جدلية"، شأنها فى ذلك شأن دراسته عن الكتابة الخطية الأولى. غير أن الجدير بالملاحظة أن جوردون سرعان ما لقى التأييد من اثنين من الباحثين "الإنجليز" من البيض فى جنوب إفريقيا. ويمكن تفسير ذلك فى اعتقادى بعوامل خارجية وايديولوجية. ذلك أنه فى حين شعر أكثر الأوربيين الشماليين والأمريكيين بعد عام ١٨٨٥م بأن فى وسعهم الإنخراط فى سلك معاداة السامية دون حرج، كان الإفريقان Afrikahers *، بفعل تقاليدهم الأصولية يشعرون إزاء اليهود بمشاعر الحب والبغض معا[٤٧]. وقد تحول هذا المزيج المركب إلى معاداة السامية بفعل تنظير العنصرية لديهم تنظيراً منهجيا وبفعل تحالفهم مع النازيين الألمان[٤٨]

ومن ناحية أخرى، لم يكن فى وسع "إنجليز" جنوب إفريقيا أن يتغافلوا عن تهديد غير الأوربيين، فاحتفظوا إزاء اليهود بمشاعر من قبيل تكافؤ الضدين. وفضلاً عن ذلك، كانت تعوزهم الحاجة تحديداً إلى إيجاد تفسير للأطلال الحجرية القائمة فى زيمبابوى، وهو الموضع الذى تسمى تلك الدولة باسمه حاليا. وحتى قبل أن يتم تأريخ هذه البقايا الأثرية فى الستينيات بالقرنين الخامس عشر والسادس عشر باستخدام الطريقة الكربونية فى التأريخ، كان من الواضح أن الذى بناها هو شعب الشونا Shona الذى لا يزال يعيش فى الإقليم. غير أن قبول هذه النتيجة لم يكن أمرا ممكنا، لأن القوالب الفكرية العنصرية كانت تحول دون الإقرار بقيام الأفارقة بمثل هذه المشروعات. وعلى ذلك أرجعت هذه المبانى إلى الفينيقيين[٤٩]. وهكذا احتفظت جنوب إفريقيا بما وجد إبان الفترة الفكتورية من مشاعر إيجابية إزاء الفينيقيين، ويبدو أن هذا كان عاملاً على تفتح عقلية دارسى الكلاسيكيات فى جنوب إفريقيا إزاء هذه القضية.

غير أن هذين الباحثين سحبا تأييدهما واتخذا موقفاً متشدداً فى مسألة قراءة الكتابة الخطية الأولى، إذ حبذا عامل صلة هذه الكتابة بالأناضول وتعلّلا بعللا لا أدرية. وينبغى أن ننظر إلى هذا التغير فى ضوء ما وُجد من رد الفعل العنيف ضد دعوى الصلات السامية فى أوساط دارسى الحضارة اليونانية الأوربيين، وعلى الأخص من جانب شريك فنتريس، وهو جون شادويك عميد الدراسات اللغوية الموكينية. فسواء فى

* مواطنو جنوب إفريقيا ذوو الأصل الأوربى. (المترجم).

المقالة التى كتبها شادويك عن الكتابة الخطية الثانية فى موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم أم فى كتابه الضخم بعنوان "وثائق باللغة اليونانية الموكينية" نراه لا يورد أى ذكر لدراسات جوردون عن الكتابة الخطية الأولى، وهى دراسات نشر الكثير منها فى دوريات علمية معتمدة. ومما يجدر ذكره أن شادويك يزعم على صورة محددة أن ما استبعده من قائمة مراجعه "لا ينبغى تأويله على أنه انتقاد لما استبعد"، ومع ذلك فإن أهمية افتراضات جوردون ليس فيما يخص تفسير الكتابة الخطية الأولى فحسب، بل فيما يخص طبيعة كتابة الموكينيين ولغتهم ومجتمعهم كذلك، وهو ما يجعل من تفادى شادويك الإشارة إليها أمرا له مغزاه(٥٠).

وقد عانى جوردون، حتى الآن على الأقل، مما عاناه كثير من المفكرين الراديكاليين. بل إنه حتى الآن، وبعد أن بدأ النموذج الآرى المتطرف الذى هاجمه جوردون فى الخمسينيات يترنح، وبالرغم مما صار معترفا به الآن من إمكان قراءة الكتابة الخطية الأولى بالقيم الصوتية نفسها التى فى الكتابة الخطية الثانية، وأن ثمة لغات سامية "مختلطة" قد وجدت، وأن هناك ألفاظاً سامية فى الكتابة الخطية الأولى وفى الكتابة الإتيوكريتية، وأنه ليس هناك من سبب واضح يمنع كون هذه الكلمات سامية، بالرغم من ذلك كله فلا يزال هناك إنكار لكون هذه الكلمات سامية ولكون جوردون مستحقا لأى مثوبة فى طرح هذا الافتراض(٥١).

وبالرغم من نبذ جوردون جانباً من الوجهة الأكاديمية وبطرائق شتى، فإن أسلوبه ومهاراته التعليمية قد جعلت تلاميذه خيرة أبناء جيلهم من حيث التمكن من أدوات البحث. وقد أصبحوا يمثلون الآن قوة كبيرة فى مجال الدراسات السامية فى أمريكا. ومن الدروس التى تعلموها ما يكلفه الخروج عن الصف من ثمن فادح، فلم ينشر سوى واحد منهم فقط دراسة عن كريت(٥٢). ومع ذلك تحتفظ الأكثرية بتعاطف كبير مع آرائه وتستنكر ما أصاب دور الكنعانيين والفينيقيين من إهمال مقصود منظم(٥٣). وليس من شك فى أن تأثيرهم يصيب الوضع الأكاديمى القائم بالضعف والوهن، وأن هذا يؤدى إلى رفض التسليم بما كان يعتبر من قبل أمرا لا يحتمل سؤالا، وأعنى تفوق الدراسات الكلاسيكية على الدراسات السامية.

غير أن زميلاً لجوردون وهو ميخائيل أستور، قد كـان لـه على المدى القريب تأثير أبعد كثيراً. وقد كان أستور إبان الثلاثينيات يقيم فـى باريس حيث كـان يـدرس على شـارل فيرولو C.Virolleaud، وهو فرنسي اشتغل بحل رموز اللغة الأوجاريتية، وكان متأثراً بآراء بيرار Berard كما كان يؤمن بالحقيقة الأساسية المتضمنة فيما هو وارد من إشارات إلى الفينيقيين فـى الأقاص عن كادموس. وفى الفترة من عام ١٩٣٩م حتى عام ١٩٥٠م عاش أستور فـى معسكرات الإعتقال السوفيتية، ثم أمضى السنوات الست التالية فى مدينة بسيبيريا حيث كان فى استطاعته فى خلال وقت فراغه أن يواصل بحث موضوع العلاقات اليونانية – السامية متجشما فى ذلك صعوبات بالغة. وفى عام ١٩٥٦م غادر الإتحاد السوفييتى إلى بولندة، وبعد عام من وصوله قرأ مقالة جوردون الأولى عن الكتابة الخطية الأولى، ولم يلبث أن سافر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة حيث عينه جوردون في وظيفة في قسمه بجامعة برانديس Brandeis اليهودية الكبيرة(٥٤). وفى عام ١٩٦٧م نشر أستور كتاب "الهلينية السامية" Hellenosemitica الذى ضم دراسات ضافية عن مجموعات الأساطير التى تدور حول دناؤوس وكادموس وحول عدد من أبطال أساطير اليونان ومن بينهم ياسون وبلليرفون. وفى هذه الدراسات حاول أستور أن يبين تفاصيل المشابهات بين الأساطير اليونانية والأوجاريتية وقصص الكتاب المقدس سواء فى المبنى أم فى الأسماء. وكان أستور فى ذلك متابعا لدراسات بيرار، بل مضى إلى مدى أبعد منه.

وقد سبق أن ذكرت أن باحثين آخرين فـى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، مثل فونتنروز و والكوت، كانوا قد تتبعوا بالتفصيل نماذج فـى الأساطير اليونانية مماثلة لنماذج فى أساطير الشرق الأدنى، دون أن يساورهم شك فـى أن الصور اليونانية هى المأخوذة من تلك(٥٥). فلماذا اعتبرت دراسات أستور إذن منطوية على قدر أكبر من التعدى ؟ كان ذلك أولاً لأن أستور كان يهاجم من موقع رسمى ، أى أنه تحدى الكهنوت الأكاديمى، وكان هذا يعكس نسبية القوة المتاحة لمنهجين معرفيين اثنين، ذلك أنه بالرغم من مناقشة دارسى الكلاسيكيات من قبل لوجود نظائر شرقية فى الميثولوجيا (الأساطير) اليونانية، فقد كان لأحكام "المستشرقين" عن بلاد اليونان وقعٌ يختلف تماماً

ولا يمكن قبوله بحال*

ولقد كانت هناك اعتراضات أساسية على دراسة أستور. فالباحثون من أمثال فونتنروز و والكوت كانوا قد قاموا بمسح واسع للميثولوجيا العالمية بما فيها أساطير الهند وإيران وما إليهما، وكانوا يميلون ما أمكن إلى الأخذ بالمصادر الأقل إجتراءً. وعلى النقيض من ذلك، لم يكن اشتقاق الأسماء اليونانية عن السامية عند أستور تعدياً على حرم اللغة المقدس فحسب، إذ أنه جعل الصلات بين الساميين الغربيين واليونان صلات وثيقة ومحددة على صورة مثيرة للقلق. وفضلاً عن ذلك، فإن مجالين من مجالات الأساطير التي عالجها أستور. وهما المجالان المتعلقان بكادموس وداناؤوس، كانا يمسان مسألة استعمار الشرق الأدنى لبلاد اليونان. وهو قد أثار فيهما قضية غدا تصديقها أمرا واردا، وهي أن هذه الأساطير تنطوى على نواة من الحقيقة التاريخية. بل لقد كان القسم الرابع من كتاب "الهيلينية السامية" أكثر إثارة من حيث أنه تطرق إلى قضية سوسيولوجيا المعرفة، وكان عرضه لتاريخ الدراسات والآثار الكلاسيكية وأيديولوجياتها هو الأساس الذى بنت عليه كل الدراسات التالية فى هذا الموضوع، بما فيها دراستنا هذه. وبذلك فإن أستور بعمله هذا قد أنفذ عامل النسبية فى الأمور إلى قلب موضوعات كانت قد أحصنت نفسها من قبل ضد اعتبارات الإحتمالية وعدم التيقن، وهى الاعتبارات التى كان إعمالها قد أعاد تشكيل نظم معرفية أخرى منذ التسعينات من القرن التاسع عشر.

وقد أثبت أستور (راجع روث ادواردز وغيرها) أن ثمة روابط وطيدة بين الأساطير السامية الغربية والأساطير اليونانية[٥٦]. لكن من الواضح أن ذلك كان جزءاً واحداً فقط من هدفه. ذلك أن أستور، شأنه فى ذلك شأن موفرز **Movers** وغيره من الدارسين فى منتصف القرن التاسع عشر ممن أقروا النموذج الآرى الموسع، يؤمن بأن تصوير النموذج القديم لوقوع الاستعمار هو تصوير صحيح فى جوهره، اللهم إلا باستثناء ما أرجعه ذلك النموذج إلى المصريين من فتوح ترجع أساساً إلى الساميين

---

* يومئ المؤلف ساخرا إلى أن أحكام علماء الغرب على الساميين والشرقيين كانت مقبولة، فى حين لم يكن مقبولا لدى هؤلاء أية أحكام يتوصل إليها "الشرقيون" فى قضايا تخص الشرق واليونان. (المترجم).

الغربيين. وبوجه عام ذهب أستور إلى "أن لغة الفينيقيين لم تكن مستخدمة في عدة أنحاء من بلاد اليونان في العصر الموكيني فحسب، وإنما كانت الحضارة الموكينية بأسرها ومن حيث الأساس ثقافة تقع في محيط دائرة الشرق القديم، ممثلة بذلك أقصى إمتداد لهذا الشرق غربا"(٥٧).

وبالرغم من أن أستور أشار إلى وجود الكلمات الدخيلة في الكتابة الخطية الثانية بما يبرهن على وجود تأثير سامي له وزنه قبل القرن الرابع عشر ق.م.، فإنه لم يستقصي أي تأثيرات أبعد من ذلك في مراحل أخرى من تطور اللغة اليونانية. وفضلاً عن ذلك لم يأخذ في اعتباره احتمالات وجود تأثيرات ثقافية مصرية أو وجود انتشار للشرق الأدنى بصفة عامة، وهو أمر كان من شأنه أن يفسر وجود العناصر غير الهندية الأوروبية في اللغة اليونانية وفي أسماء المواضع وشخصيات الأساطير، فيُغني بذلك عن الحاجة إلى افتراض وجود طبقة أقدم من سكان سابقين على الهيلينيين. ومع ذلك، فإن أستور قد غيّر من سياق التسلسل التاريخي لشرقي البحر المتوسط بشكل دائم.

وقد حقق كتاب "الهيلينية السامية" مبيعات جيدة على غير المعتاد. لكن المعلقين أظهروا له من العداء ما جعل أستور يقلع عن الإشتغال بالموضوع. وكان على رأس نقاد أستور واحد من الباحثين القلائل المزودين بالمهارات الضرورية لمنازلته وهو ج.هـ. موهلي J.D.Muhly عالم الآثار الأمريكي، وكان على علم باللغتين اليونانية والأكادية. وقد زعم موهلي أن كتاب الهيلينية السامية مخيب للآمال إلى حد بعيد، إذ أنه بدلاً من أن يعالج المشكلة معالجة جديدة، إعتماداً على ثروة من المعلومات الجديدة، إذ بقارئ الكتاب يجد فيه إعادة لعرض نظريات فكتور بيرار(٥٨). وعند موهلي أن أستور لم يثبت شيئاً يتعلق بعلاقات اليونان ببلاد اللفانت إبان عصر البرونز، كما إدعى أن أستور في هجومه على تزيُّد الباحثين في معارضة الوجود الفينيقي، مثل بيلوخ Beloch في التسعينات من القرن التاسع عشر، إنما كان يُنصب شاهد زور تخالف أقواله أقوال دارسي الكلاسيكيات المحدثين. لكن ما أضعف هذه الحجة ما قرره موهلي في عبارة

أخرى تقول: "ولست أورد دفاعاً عن السخافات التي نشرت والتي يجرى نشرها(*) عن حضارة الشرق الأدنى على يد دارسى كلاسيكيات معروفين"[٥٩].

ولعبارة موهلى الثانية أن تجد لدينا إهتماماً بالنظر فيها. ذلك أن بيلوخ كان لا يزال يحظى بتقدير واسع المدى بالنسبة إلى جانب من طرحه المعرفى، كما أن مجال الإختيار بين نزعة معاداة الفينيقيين عنده فى التسعينيات من القرن التاسع عشر وبين هذه النزعة عند ريز كاربنتر فى الخمسينيات من القرن العشرين كان مجالا جد ضئيل[٦٠]. وليس من شك فى أن موهلى، من ناحية أخرى، كان محقا فى إشارته إلى أن أكثرية دارسى الكلاسيكيات المحدثين لا يشاركون معلميهم ومعلمى معلميهم فيما كان فاشيا فيهم من عنصرية ومعاداة للسامية، لكنه كان لا يزال يطالب قراءه أن يتبلّعوا فكرة لا يمكن قبولها، وهى أن يكون النموذج الآرى المتطرف قد نما خالصاً من تأثيرات روح العصر الذى صيغ فيه، أو بريئاً من آراء أولئك الذين صاغوه، حتى وإن كانت تلك آراء يمكن إعتبارها الآن غير مقبولة.

وبعد ثلاث سنوات، أى فى عام ١٩٧٠م، عاود موهلى هجومه فى مقال له بعنوان "هوميروس والفينيقيون" نسج فيه على منوال الرأى التقليدى الذى أجملنا ذكره فى هذا الفصل من قبل، وهو أنه ليس ثمة دليل من علم الآثار على وجود فينيقى فى البحر المتوسط قبل القرن الثامن ق.م.، وأن ما وُجد فى طبقات عصر البرونز (الأثرية) من أشياء ترجع إلى بلاد اللفانت، إنما هى أشياء جلبها اليونان من خلال خدمتهم جنوداً مرتزقة أو اشتغالهم بالتجارة أو حتى من قبيل ما يجلبه السائحون معهم من طُرف. وقد أكد أن الفينيقيين الذين يتحدث عنهم هوميروس هم فينيقيو عصره هو، وكان موهلى يضع هذا العصر عند القرن الثامن ق.م.، أى أنهم ليسوا معاصرين لحرب طروادة أو الفترة الموكينية المتأخرة. وقد كان موهلى واضحاً فى تأكيده الحار لآراء كل من بيلوخ وريز كاربنتر بأن تأثير الفينيقيين كان متأخرا فى الزمان وضحلاً[٦١]. وسوف نعود فيما بعد إلى تغير رأى موهلى تغيراً جزئياً فى الثمانينيات.

(*) الخط المثبت أسفل هاتين الكلمتين تأكيدا لهما هما من عند المؤلف – كما يقرر هو – أى ليس فى نص كلام موهلى. (المترجم).

وبالرغم من أنه لم يكن لأستور أثر مباشر كبير على الدراسات الكلاسيكية، فمن المؤكد أن دراساته لقيت استجابة عند مؤرخي العالم القديم. ففي عام ١٩٧٦م أجيزت في جامعة كاليفورنيا بسانتا باربارا رسالة دكتوراه قدمها ج.س. بليجمييه بعنوان "كادموس واحتمال وجود سامي في بلاد اليونان في العصر الهلادى". والواقع أن الرسالة كانت أكثر جرأة مما يوحي به عنوانها، لأنها لم تقبل ما ذهب إليه أستور بشأن الأساطير حول كادموس ودناؤوس فحسب، بل ذهبت إلى مدى أبعد من ذلك في ترجيح المأثور عن الأصل المصرى لدناووس. كذلك عاود بليجمييه الحديث عما كان مقبولا عن الأصول الإشتقاقية السامية في الكلمات وأسماء الأماكن اليونانية، وأحيا عددا آخر من تلك الإشتقاقات التي كانت قد استبعدت في غضون القرن التاسع عشر(٦٢).

وبعد ذلك بسبع سنين، أعلن في عام ١٩٨٣م أن ناشرا هولنديا بسيطاً هو في سبيله إلى نشر رسالة بليجمييه في كتاب، لكن هذا الكتاب الموعود سحب في اللحظة الأخيرة ولم يظهر منذ ذلك الحين. وليس من الممكن أن نذكر شيئاً بالتحديد في هذا الخصوص دون أن نعلم ملابسات الموضوع. ومع ذلك فقد يظهر أن الأمور مضت في تسلسل يتفق مع المناخ العام الذى كان "يثبط همة" الناشرين إزاء نشر كتب تؤيد هذه الهرطقة الأكاديمية بالذات(٦٣). وعلى سبيل المثال كتب شاءول ليفين Saul Levin يقول:

"لقد كان البحث عن ناشر يرغب في النشر يستغرق وقتا أكثر من الوقت الذى يستغرقه البحث نفسه. وكانت هذه المسألة كريهة إلى النفس بقدر ما كان البحث نفسه محببا إليها. وقد علمتني التجربة أن أنتظر عاما أو أكثر كيما يصلني شئ لا يكون أفضل من خطاب بالرفض مصحوب بإيضاح مقتضب أو بدون إيضاح"(٦٤).

وفي ذلك وصف جيد لتجربتي أنا كذلك. ولقد نشر سيروس جوردون كل كتبه الأخيرة في مطبعة صغيرة يمتلكها أحد أفراد أسرته، في حين نرى روث إدواردز Ruth Edwards، التي سأذكرها بعد قليل، تشكر ناشرها "من أجل قبوله هذا الكتاب للنشر في وقت يقوم الدليل على أنه زمان صعب"(٦٥). ويوضح هذا المثل كيف

أنـه مـن خـلال التحكـم فـى جهـات النشـر الجامعيـة والتأثـير الخطـير علـى جهـات النشـر التجاريـة، كـان مسـموحا للأكـاديميين الـذى يؤيـدون الوضـع القـائم "برفـع ألويتهـم" للإفصاح عن موقفهـم هـذا، أو بعبـارة أخـرى قمـع المعارضـة لما هـو ثـابت مسـتقر لديهـم.

محاولة الوصول إلى حل وسط: روث إدواردز

لم يشـعر أى مـن دارسـى الكلاسـيكيات بجـدوى القيـام بمحاولـة للدفـاع الشـامل عـن موقفهـم فـى مواجهـة جـوردون وأسـتور، أو لعلهـم كـانوا غـير قـادرين علـى ذلـك. ومـن ناحيـة أخـرى حـاولت إحـدى الباحثـات أن توجـد حـلا وسـطا يمكـن مـن خلالـه احتـواء الجوانـب الإيجابيـة فـى أبحـاث علمـاء السـاميات فـى دراسـات بحثيـة "تحظـى بالإحـترام". وكـانت هـذه الباحثـة هـى الدكتـورة روث إدواردز، إحـدى تلميـذات الدكتـور سـتابنجز الـذى سبق أن ذكرنـاه فى صفحـة ٤٥٣ فى معـرض ذكرنـا لإعتقـاده فى حـدوث فتـوح قـام بهـا الهكسـوس. وقـد أنجـزت رسـالة روث إدواردز فى عـام ١٩٦٨م، لكـن كتابهـا لم يظهـر إلا بعـد مـايزيد علـى عشـر سـنين. ويُعـد كتـاب "كـادموس الفينيقـى" ذا أهميـة كـبرى بالنسـبة للموضوعـات التـى تشـغلنا هنـا.

وموقـف الباحثـة مـن أسـتور موقـف نقـدى، وهـى تهـاجم بضـراوة قولـه بوجـود ابـط بالإسـتناد إلى وجـود التقـابل فـى الميثولوجيـا، علـى أسـاس أن كثـيراً منهـا – فـى ،ہا – ليس موثقـاً علـى وجـه التـأكيد، وإنمـا يعتمـد الأمـر علـى قـراءات يعتريهـا الشـك لـصوص أوجاريتيـة ترجـع إلى فـترات شـتى، أو لأنهـا ببسـاطة ترجـع إلى موضوعـات فلكلوريـة عامـة مشـتركة(٦٦). كذلـك تتشـكك روث ادواردز فـى صحـة اشـتقاقات أسـتور، وترجـع الأمـر إلى مـايقع حتمـا مـن إرتخـاء فـى الصـوت عنـد التعـامل مـع الحـروف السـاكنة الصِّرف فـى الأبجديـات السـامية الغربيـة. ومـن ناحيـة ثانيـة تهـاجم الباحثـة بـذات القـدر مـن الضـراوة مسـألة إنكـار نقّـاد المصـادر للأقدميـة الزمنيـة للأسـاطير حـول كـادموس ودنـاؤوس، مشـيرة إلى أنـه طالما لم يهاجمهـا كـاتب يونـانى مـن الفـترة البـاكرة، فقـد كـان علـى أولئـك النقـاد أن يركنـوا إلى "دليـل الصمـت" هـذا، حتـى وإن كـان دليـلاً يعتريـه شـك. ثـم مضـت الباحثـة لتدلـل علـى أن الأسـاطير عـن الاسـتعمار الفينيقـى أحـاديث جـد قديمـة(٦٧).

وبوجـه عـام، تؤكـد الدكتـورة إدواردز علـى أن كـل الأسـاطير ينبغـى أن تعـالج بحـذر

شديد. وعلى أنه ينبغي تفادى الموضوعات الفلكلورية المشتركة بقدر الإمكان. لكنها مقتنعة باحتواء الأساطير عن كادموس ودناؤوس على عناصر موكينية أصيلة، بل أنها فضلاً عن ذلك تؤيد أستور فيما ذهب إليه من أن الدليل المستمد من الأساطير لا يزيد في ذاتيته في شئ عن الدليل المستمد من المصادر الأخرى، أى من حيث احتواء كل منهما على عنصر الذاتية، أو كما تقول هي بنص كلامها:

"إن أولئك الذين يحضُّوننا على نبذ الأساطير جانبا والتركيز على هذه المصادر الأخرى يفترضون أحيانا أن هذه المصادر أكثر موضوعية من الروايات المأثورة. لكن ينبغي أن نؤكد أن علم الآثار واللغويات والوثائق إنما هي مصادر موضوعية في حدود دائرة محدودة للغاية هي في حقيقة الأمر الدائرة التي يلتزم الدارس فيها بمجرد الملاحظة أو وصف المادة فحسب. أما حين يتطلع الدارس إلى التفسير فإن عنصراً ذاتيا يطرأ على العملية. ويجدر بنا بيان ذلك في علم الآثار على وجه الخصوص. فعلماء الآثار يختلفون في تفسير ظاهرة بذاتها كتجمع طائفة من الأدوات، أو مستويات طبقات الدمار، ويتبعون في تفسيرهم إياها طرائق شتى. وفضلاً عن ذلك، فإن هناك ميلاً إلى أن تتم التفسيرات الاثرية بشكل نمطي، وتبعاً لذلك، كان من المعتاد فيما يخص عصور ما قبل التاريخ في بريطانيا أن تفسر تغييرات بعينها في الثقافة المادية بوقوع غزو ، أما اليوم فإن هذا الرأى مرفوض عادة، بحيث يُفضل عليه تفسير يقول بحدوث التطور محلياً. وبالمثل؛ في عصور ماقبل التاريخ في بلاد اليونان نستطيع أن نرى كيف أنه حتى التسعينيات من القرن التاسع عشر كان هناك ميل إلى تفسير كثير من منجزات عصر البرونز هناك على أنها من فعل الفينيقيين أو الشرقيين ... وكيف أنه بعد ذلك بقليل أصبحت الافتراضات القائلة بالأثر الكريتي مقبولة لدى الجميع ، ثم كيف يجرى التأكيد الآن بوجه عام على استقلالية بلاد الإغريق القارية. فالمصادر الأخرى ليست في حد ذاتها موضوعية في مسألة إعادة بناء عصور ما قبل التاريخ، لأنها تخضع لتحديدات مماثلة لما تخضع له المأثورات الأسطورية تماماً. وعالم ما قبل التاريخ يعالج دائما مادة غير كاملة وغامضة... وليس هناك في استخدام الأدلة الأسطورية شئ غير منطقي أو غير صحيح في أساسه، شريطة أن يكون المرء واعيا بطبيعة ما يقوم بمعالجته[٦٨].

وهكذا، ففى حين تسلم الدكتورة إدواردز بأن هناك نواة من الحقيقة التاريخية فى الأساطير المتعلقة بكادموس وبالتالى فى تلك المتعلقة بدناؤوس أيضا، فإنها ليست على يقين مما إذا كانت هذه الأساطير تشير إلى مستوطنات للهكسوس ترجع إلى القرن السادس عشر أم إلى محلات استيطان تجارية ترجع إلى القرن الرابع عشر.

وهى تعتقد كذلك أن الأساطير تتيح الظن بوجود منشأة فى طيبة ترجع إلى أيام كادموس، ومصدرها إما كريت أو الشرق الأدنى، وهى ترجح المصدر الثانى[٦٩]. لكنها تتابع أستاذها الدكتور ستابنجز فى رأيه، "فيما أُثر عن تيرلوول". فى قولها: "إنه فى حين يحتمل حدوث غزوات سامية، فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً". وتوضح إدواردز أن الأمر الوحيد الذى هى متأكدة منه تقريباً هو أنه لم يكن ثمة هجرة واسعة المدى إلى بلاد اليونان:

"لو أن استيطاناً واسع المدى وقع من الشرق على بلاد اليونان فى العصر الموكينى لكان للمرء أن يتوقع أن يجد لذلك إما آثاراً أكثر تحديداً يرصدها علم الآثار أو آثاراً مسجلة فى بعض الوثائق الشرقية. لكننا نفتقد شواهد من هذا القبيل، كما أن المادة اللغوية لا تسعفنا بما يؤيد ذلك على نحو مُرض، على أساس ضئالة وجود الساميات نسبياً فى اللغة اليونانية إذا تابعنا آستور، مع ما يمكن أن تفسر به هذه من أنها كلمات دخيلة"[٧٠].

ويمكن للمرء أن يلاحظ هنا استخدام منهج الدليل المستنبط من صمت المصادر argumentum ex silentio فيما يتعلق بعلم الآثار، وتداول الدليل اللغوى فى سياق يشابه القول بما يلى "ليس ثمة معنى لأن نبحث للكلمات اليونانية عن اشتقاقات من الشرق الأدنى على أساس أنه ليس هناك شاهد على صلات قوية بين الثقافتين. وحيث أن هناك كلمات دخيلة قليلة، فليس من الممكن أن تكون هناك صلات ذات أهمية ...".

ومع ذلك، فبالرغم من حذر روث ادواردز ورغبتها فى أن تتحفظ فى الأمر، فليس من شك فى أنها تأثرت تأثراً كبيراً بأعمال جوردون وأستور. والأمر الجدير بالملاحظة أن بليجنبيه الذى لم يكن على علم برسالة ادواردز على الاطلاق كان ينسج

على منـوال مشـابه. فـإذا أخذنـا فـي الاعتـار البـاحثين مجتمعـين فإنهمـا يوضحـان لي أن النموذج الآرى المتطرف يتداعى؛ فكلٌ من إدواردز وبليجنبيه يقر دونما تساؤل بأن نزعة معاداة السامية المتعاصرة أثرت على الكتابات التاريخية عن الفينيقيين، وفضلاً عن ذلك فقد أكد كل منهما على مشروعية اتخاذ الأساطير مصدراً للمعلومات عن عصر ما قبل التاريخ، وكانت إدواردز متابعة في ذلك لأستاذها ستابنجز.

عود إلى فينيقي عصر الحديد

وفي حين كان أستور وأسلافه يحيون ذكر فينيقيي أو كنعانييّ عصر البرونز، كانت ثمة محاولات للإقرار للفنيقيين بوضع ما في بواكير عصر الحديد. ففي مجموعة من المقالات نشرت في عام ١٩٦٧ بعنوان "معابد هرقل – ملقرت: بحوث في دراسة توسع الفينيقيين في البحر المتوسط"، بين عالم الكلاسيكيات البلجيكي د.فان برشم D.Van Berchem مدى التأثير الفينيقي في منطقة البحر المتوسط، موضحاً عمق هذا التأثير وقِدَمه منذ بواكير الألف سنة الأولى قبل الميلاد[٧١]. ثم ظهر بعد ذلك في عام ١٩٧٩ كتاب ضخم عن توسع الفينيقيين لدارس بلجيكي آخر هو جوى بنتز G.Bunnens. وفي هذا الكتاب يربط المؤلف بين مشاعر الحب الفرانكفونية للفينيقيين، وهي المشاعر المأثورة عن بيرار Bérard وبين الوعي الأكاديمي الذى ساد في الستينيات بالذات، إلى جانب تحليل أستور السياسي للدراسات الكلاسيكية[٧٢].

وفي عام ١٩٨٠ أصابت العدوى حتى جامعة بنسلفانيا، وهي منطقة موهلي. ففي رسالة علمية أعدها أحد طلابه وهو ب. د. هلم P.R.Helm ، أورد الباحث قدراً كبيراً من الأدلة الأثرية الحديثة التي توحي بوجود فينيقي في منطقة بحرإيجة في وقت باكر يرجع إلى القرن العاشر ق.م. وفي إحدى الفقرات التي تظهر علاماتٍ لما يعترى الطالب من صعوبات عندما يتوصل إلى نتائج تعارض آراءً لأستاذه تمسك بها طويلا، يقول هلم:

> ليس لهذا كله أن يوحي إلينا بأنه لكي نصف الأوضاع في بدايات عصر الحديد يتعين إحياء النظرية التي سبق رفضها والتي تقول باحتكار الشرق الأدنى للنشاط البحرى في أواخر عصر البرونز

لتؤخذ نموذجا لحركة التجارة الإيجية الشرقية، كما أنه ليس وارداً طرح فكرة استعادة "تلك الأيام التى كان الدارسون فيها يرون التجار الفينيقيين يجوبون كل مكان فى المنطقة الإيجية إبان القرن الثامن، فيجلبون تجارتهم إلى بلاد اليونان ويلقنون أهلها فنون الحضارة الرفيعة، حتى إن كان التجار الفينيقيون يوسمون عندئذ بصفة أنهم "فينيقيون قبارصة". ذلك أن هناك شواهد كثيرة تبين أن أثينا ودويلات يونانية أخرى كانت تشتغل فى هذه القوة بنشاط يجرى بصورة منتظمة. والأمر الذى يرد هنا هو أن التجارة الشرقية فى معظمها – إن لم تكن بأسرها – كانت فى أيدى التجار القبارصة (وتجار ساحل اللفانت (= المشرق) فيما يحتمل)، وهم الذين كانوا يتاجرون مع جنوب شرقي المنطقة الإيجية بصفة منتظمة، ومع جزر الكيكلاد Cyclades ويوبويا وأتيكا بين حين وآخر[٧٣]. (مع العلم بأن هلم يكتب فى موضع آخر من كتابه أن البضائع القبرصية كانت "فى الواقع بضائع فينيقية)*

وقد غير موهلى نفسه من موقفه فى منتصف عقد الثمانينيات. ففى بحث نشره فى عام ١٩٨٤، وقد دهمه فيما يلوح طوفان الشواهد الأثرية، يتبين موهلى تأثيراً سامياً كبيراً فى بلاد اليونان فى العصر الموكينى[٧٤]. وبالرغم من هذا التغير المفاجئ فى موقف موهلى، والنتائج التى توصل إليها هلم، ظل الرجل سادراً فى عناده فيما يتعلق بقضيته الفينيقيين فى منطقة بحرإيجة فى عصر الحديد الباكر[٧٥].

يوسف نافى Joseph Naveh وتاريخ إنتشار الأبجدية

وليس مما يثير الدهشة أن تلقى "ثورة" علماء الساميات نجاحها الأكبر فى موضوع الأبجدية، وهى تمثل نقطة الضعف فى النموذج الآرى. وقد رأينا كيف أن حملات الهجوم التى وُجهت ضد النموذج الآرى المتطرف إبان الخمسينيات والستينيات

---

* الخطوط الموضوعة تحت العبارات تأكيدا لمعناها موضوعة من عندى (المؤلف).

كانت مرتبطة إرتباطاً واضحا بانبعاث الشعور بالثقة بالنفس لدى اليهود على أثر قيام اسرائيل، بل جاء التحدى فى موضوع الأبجدية من اسرائيل ذاتها. ففى خلال الأربعينيات كان عالم الساميات والنقوش الأستاذ طور سيناى **Tur-sinai** يواصل فى المقدس معارضته لريز كاربنتز فيما حدده من تاريخ متأخر للغاية لإنتشار الأبجدية، ثم أتخذ الموضوع إنطلاقة جديدة جاءت فى عام ١٩٧٣م بمقالة اعتراضية لعالم آثار تحول إلى عالم نقوش وهو يوسف نافى: وكان عنوانها هو "بعض اعتبارات حول الأبجدية اليونانية[٧٦] من خلال دراسة النقوش السامية" **Some Semitic epigraphical considerations of the Greek alphabet**. واعتماداً على دراسة إبغرافية (نقشية) صِرف، ذهب نافى إلى أن إطراد الإتجاه غير المؤكد فى كتابة النقوش اليونانية الباكرة لا يماثل الإتجاه المطرد المنتظم للأبجدية الفينيقية من اليمين إلى اليسار، وإنما يشابه حالات غير منتظمة فى إتجاه الكتابة حاصلة فى الأبجدية الكنعانية التى سبقتها. وبالمثل، فإن وقفات عدد من الحروف اليونانية خاصة الألفا **A** والسيجما Σ ليست هى وقفات الحروف الفينيقية، بل تناظر وقفات وجدت فى مرحلة أقدم. وذهب نافى إلى أبعد من هذا بقوله إن حرفى الإيتا **H** ولأومكرون **O** اليونانيين مشابهان لشكلى الحرفين الكنعانيين وليس لشكلى الحرفين الفينيقيين، وأن الراجح أن الحروف اليونانية دلتا Λ و إبسيلون **E** ونى **N** وكسى Ξ ويى Π وأومكرون **O** ورو **P** ، وكذلك حرف ثيتا ⊙ فيما يحتمل هى حروف مأخوذة عن الكنعانية المتأخرة أكثر من احتمال أخذها عن الحروف الفينيقية، وذلك بالرغم من عدم مشاكلتها الأشكال السامية الأقدم[٧٧].

وقد كان نافى على بينة من أن ثمة صعوبات تعترض ما افترضه بشأن حرفى كابا **K** وميو **M** ، وهنما الحرفان اللذان تبدو نماذجهما الأقدم مشابهة للأشكال الفينيقية منذ عام ٨٥٠ ق.م. أكثر من مشابهتها للصور (الكنعانية) الأقدم. وكان لدى نافى فى تفسير ذلك تأويلات عويصة على نحوٍ ما. لكنه بالرغم من كل ما هنالك من تعقيدات، كان مقتنعا بأن صور الحروف الأقدم مع الأخذ بالشواهد مجتمعة، ينتهى بنا إلى إرجاع هذه الحروف إلى تاريخ سابق على صياغة الأبجدية الفينيقية فى صورها النمطية. وعلى

أساس قبول يوسف نافى لتأريخ أولبرايت لنقش أحيرام ببعيْد عام ١٠٠٠ ق.م. – وهى مسألة أخطأ فيها نافى فيما أرى – وإعمالاً منه لمنهج الدليل المستنبط من صمت المصادر، أيد نافى هذا التأريخ المذكور على أنه الوقت الذى تمت فيه الصياغة النمطية (للحروف الفينيقية) ، وحدد تاريخا لانتشارها قبل ذلك بخمسين عاما، أى فى عام ١٠٥٠ق.م.[٧٨].

وقد ظهر مقال نافى فى المجلة الأمريكية لعلم الآثار The American Journal of Archaeology التى كان كاربنتز وأولمان قد نشرا فيها آراءهما. ومع ذلك، وكما يحدث غالبا إزاء ما كانت تتعرض له المسلمات الأكاديمية الراسخة من تحديات جذرية، لم تلق آراء نافى أى استجابة تقريبا. ووجدنا الدكتورة ل. جفرى L.Jeffrey، أهم من خلف ريز كاربنتز، وهى عالمة كلاسيكيات من أكسفورد ومتخصصة فى الأبجديات اليونانية الباكرة، تحصر نقدها لنافى فى تعليقات مقتضبة من طراز ما يلى: "نافى؛ فى مقال له يستحق إهتماماً جاداً من علماء النقوش، بالرغم من أن وجود فجوة فى جانب هذه النقوش قبل القرن الثامن ق.م. لن ينفك يشكل مشكلة (مع خطأ ما يذهب إليه نافى من افتراض أن ما فى بتر الذيل فى كل من حرف مو M وبسى Ψ هو شكل مبكر)[٧٩]. استمرت الدكتورة جفرى وزملاؤها بشكل عام يعتمدون على "عمل ريز كاربنتز الأساسى"، بالرغم من أنهم منذ الكشف عن نقوش يونانية أمكن تأريخها بالقرن الثامن ق.م. يميلون الآن إلى الظن بتأريخ يرجع إلى هذا القرن المذكور أكثر منه إلى القرن السابع ق.م.[٨٠]. ونقول بالمناسبة إنه يترتب على هذا التنازل منهم سقوط واحدة من أهم المعطيات فى مذهب كاربنتز، وهو الحاجة إلى إدخال عنصر الآشوريين بوصفهم عاملا قويا دفع الفينيقيين نحو الغرب، كما يترتب عليه سقوط واحد من الإعتبارات الأساسية التى كانت تدفع كاربنتز إلى بيان أن التأثير الفينيقى إنما جاء بعد قيام نظام "دولة المدينة Polis اليونانية.

ولقد كان الموقف مختلفا عند علماء الساميات. فالأستاذ كيلى ماكارتر Kyle McCarter عالم النقوش الباحث فى الكتاب المقدس، وأحد تلاميذ وزميل الأستاذ فرانك كروس Frank Cross خليفة أولبرايت العظيم، والمشتغل المبرز بالنقوش السامية فى جامعة هارفارد، قد حاول أن يجد حلا وسطا بين نافى وكاربنتز، فانتهى إلى تقرير رأى غير مؤكد يقول فيه:

فيما يحتمل أن اليونان بدءوا يجربون الكتابة الفينيقية في وقف باكر يرجع إلى القرن الحادى عشر ق.م.، فإنهم ، لسبب من الأسباب، لبثوا حتى بداية القرن الثامن دون أن يوجدوا نسقاً كتابياً حقيقياً خاصاً بهم. وعلى ذلك فإن أحسن ما يوصف به هذا النسق الكتابى اليونانى هو أنه منحدر من نموذج فينيقى سابق يرجع إلى القرن الثامن ق.م..... (٨١).

وأعتقد أن الأستاذ ماكارتر محق فى تأكيده على أن ثمة فترتين أخذ اليونان فيهما (أبجديتهما) غير أن ضلال رأيه يبدو جلياً فى معارضته أموراً ثابتة، وقبوله الظاهر لآراء كاربنتر والحقيقة أن ماكارتر قد وافق نافى فيما ذهب إليه؛ إذ ما الذى يمكن أن يعنيه "تجريب" الأبجدية أن لم يعن أخذاً مبكراً من هذه الأبجدية ؟ ومن ناحية ثانية فإن معضلة البحث عند ماكارتر كانت معضلة عامة، لأن تأريخ إنتشار الأبجدية كانت مسألة عشيت أعيُن كثير من علماء الساميات عنها مراراً، فكانوا يضعون هذا التأريخ فى وقت ما فيما بين عام ١١٠٠ وعام ٧٥٠ ق.م. (٨٢).

بيد أن علماء آخرين من دارسى الساميات كانوا ينزعون إلى القول بتأريخ أقدم. فالاستاذ كروس اتخذ إزاء علماء الكلاسيكيات موقفاً أكثر تدقيقا وتمحيصاً، وفى عام ١٩٧٥م طرح كروس الأمر فى عبارات منمقة أقام بها الحجة على الصلة الوثيقة بين القول بالتأريخ المتأخر لانتشار الأبجدية وبين النموذج الآرى المتطرف وذلك على النحو التالى:

إنه من وجهة نظر المستشرق لم يعد ثمة وزن لأدلة قياسية بعينها ساقها دارسو الكلاسيكيات للتدليل على الزمن المتأخر لانتشار الأبجدية......:

(١) ذلك أن الزعم بأنه لم يكن هناك وجود للفينيقيين فى الغرب حتى القرن الثامن أو بعده هو ببساطة زعم خاطئ، بل هو حالة نموذجية تبين خطأ إعمال منهج الدليل المستمد من صمت المصادر. لقد كان الفينيقيون على صلة بجزر غربى البحر المتوسط وشواطئه منذ القرن الحادى عشر فصاعداً .....

(٢) إنه ليبدو أن نظرية العصر المظلم الطويل الذى كان اليونان يجهلون فى خلاله الكتابة نظرية آخذة فى التفسخ ... وهى تبدو للمستشرق نظرية قلقة غير ثابتة للغاية ...

(٣) إن الرأى الذى انتشر انتشاراً واسع المدى بأن الكتابة اليونانية جرى اقتباسها مباشرة قبل تاريخ أقدم النقوش اليونانية الباقية (وهى تلك النقوش التى تؤرخ الآن بالنصف الثانى من القرن الثامن ق.م.) هو رأى خاطئ ... إذ يتعين علينا تثبيت فترة طويلة يفترض أنها انقضت ما بين وقت اقتباس الكتابة وظهورها فى أقدم النقوش اليونانية المعروفة، كيما تُفسر المسافة الواقعة بين أقدم أنماط الكتابة اليونانية وبين أى نقطة فى تتابع أنماط الكتابات قبل الكنعانية والكتابة الخطية الفينيقية .....

(٤) إن أى نظرية عن الكتابة اليونانية لا تقدم تفسيراً شافياً لوجود ملامح عتيقة، (أى من حيث قدم الطراز) فى أبجديات جزيرة كريت وجزيرة ثيرا وجزيرة ميلوس، هى نظرية لن تصمد طويلاً. وأنا شديد الميل إلى الإعتقاد بأن الفاعل الأصلى وراء انتشار الأبجدية هم الفينيقيون فى الغرب أكثر من كونهم اليونان فى الشرق(٨٣).

ولقد قوت الاكتشافات الحديثة فى اسرائيل من قناعات الأستاذ كروس أكثر فأكثر، ومن أخص هذه بالذكر قائمة كاملة لحروف هجاء **abecedarium** وجدت فى قرية عزبة سرطة خارج مدينة تل أبيب ويرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر، وكانت الحروف فيها تشبه الحروف اليونانية والرومانية أكثر كثيراً من مشابهتها للحروف الفينيقية المتأخرة(٨٤).

غير أنه بقى من علماء النقوش السامية من كان يتخوف من مثل هذه الجرأة فى التفكير. لذلك فقد استخف هؤلاء الطرب عندما عثر على أحد النقوش فى موضع تل فخرية على مسافة نحو مائتى ميل من الحدود السورية التركية. ونظراً إلى أن هذا النقش – الذى أُرجع تاريخه مؤقتاً إلى منتصف القرن التاسع ولو على غير أساس إبغرافى – تحمل حروفه كثيراً من ملامح الكتابة السابقة على الفينيقية، فقد قام الافتراض بأن

الخصائص العتيقة الموجودة فى الأبجدية اليونانية يمكن أن تكون قد انتقلت إليها فى تاريخ متأخر نسبيا[٨٥]. لكنه حتى هؤلاء الدارسين يعترفون بأن ساحل اللفانت والظهير الأرضى الملاصق له مباشرة كان يكتب عند القرن التاسع بحروف فينيقية نمطية. وهكذا فإنه لكى تصل الجدية من طراز أبجدية نقش تل فخرية، فإن الأمر يقتضى قفزة من فوق فينيقيا أغنى مناطق الشرق الأدنى وأكثرها شهرة ومكانة فى ذلك الوقت. ومثل هذا الزعم غير المقبول لا يؤكد إلا أمرا واحدا، وهو ما هنالك من روح محافظة ومصالح مغلقة كامنة.

وبالرغم من هذه الدوامة من الآراء، فليس من شك فى أن الإتجاه العام ينحو الآن إلى إرجاع الأبجدية إلى وقت أقدم، بل إن إرجاع تأريخها إلى القرن العاشر هو الآن أمر شائع حتى عند أولئك الذين تصدوا لنافى بمعارضتهم[٨٦]. لا بل كانت هناك محاولات لدفع هذا التأريخ إلى ما قبل القرن الحادى عشر. ففى عام ١٩٨١م نشر روبرت ستيجليتس R.Stieglitz ، تلميذ جوردون، نشر مقالاً ذهب فيه إلى أن نافى حين افترض أن الأبجدية انتقلت فقط قبيل تشكل الأبجدية الفينيقية مباشرة، إنما كان يلتزم بالحد الأدنى لتاريخ إنتشارها. وعلى أية حال فقد أوضح ستيجليتس كيف أن شواهد من الكتابة الأوجاريتية المتأخرة تشير إلى أنه عند عام ١٤٠٠ ق.م. وجدت أبجدية فينيقية تتألف من اثنين وعشرين حرفا، كما بيّن، علاوة على ذلك، أن ثمة روايات مأثورة يونانية قوية كانت تشير إلى أن اليونان كانت لهم أبجدية قبل خرب طروادة. وبناء على ذلك قرر ستيجليتس أن الأبجدية انتقلت من خلال شعب أتيوكريتى كان يتحدث لغة سامية ويسكن فى كريت فى القرن الرابع عشر[٨٧].

وفى عام ١٩٨٣ اقترحت أنا تاريخاً أقدم لانتقال الأبجدية معتمداً فى ذلك على أساس كشف جديد وقع فى قرية كامد اللوز فى سهل البقاع بلبنان، وهو كشف أرجع ما يسمى بالأبجدية السامية الجنوبية على أساس متين إلى القرن الرابع عشر ق.م. [٨٨] ونحن نعثر على النقوش المكتوبة بالخطوط السامية الجنوبية فى أنحاء من صحراء الجزيرة العربية والصحراء السورية، وهى خطوط لم يبق منها اليوم إلا الأبجدية الأثيوبية. وأهم ما تختلف هذه الخطوط فيه مع الأبجدية الكنعانية ذات الحروف الاثنين والعشرين وكذلك

مع سلالة الأبجديات التى انحدرت من الكنعانية، وتضم الفينيقية والآرامية ومشتقاتها والأبجدية العربية الحديثة، هى أن الخطوط السامية الجنوبية تتألف من ثلاثين حرفا تضم الحروف الساكنة فى العربية وفى اللغات السابقة على السامية. والحقيقة أنه استناداً إلى الكشف الذى وقع فى كامد اللوز ذهب عالما الساميات والنقوش الألمانيان الأستاذان روِلج Rollig ومانسفلد Mansfeld إلى أن الأبجدية الكنعانية أخذت من أبجدية أقدم من طراز السامية الجنوبية[٨٩]

وكان برايتوريوس Praetorius عالم الساميات الألمانى قد أشار فى عام ١٩٠٢م إلى المشابهات المثيرة، سواء من حيث الصورة أو النطق، بين الحروف الثمودية والصفوية ، وهما اثنتان من أقدم الأبجديات العربية الجنوبية، وبين مايسمى "بالحروف الجديدة" فى اليونانية وهى حروف فى Φ وخى X و بسى Ψ وأوميجا Ω التى تأتى فى نهاية الأبجدية اليونانية، لكننا لا نجد هذه المشابهات فى الأبجدية الكنعانية. وتعرض هذه الملاحظة لنا فى كثير من النقوش اليونانية الباكرة وإن لم يكشف عن الأصل فيها. ويمضى برايتوريوس قائلاً إن هذه الحروف مأخوذة من أبجدية أقدم من الطراز السامى الجنوبى. وبالرغم من أن عدداً من الباحثين منهم السير آرثر إيفانز وعالم الساميات الفرنسى العظيم رينية ديسو Rene Dussaud قد اعترفوا بوجود هذه المشابهات، فإن افتراض برايتوريوس رُفض فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن[٩٠]. ويبدو أن أسباب ذلك كانت راجعة إلى عدم ملاءمة هذه الأفكار للنموذج الآرى المتطرف وإلى الإتجاه الوضعى الذى كان غالباً على علم الآثار، وهو اتجاه كان يدفع الدارسين إلى طلب "دليل" على وجود أبجديات سامية جنوبية.

أما وقد صارت هناك الآن شواهد أقدم، فإننى أعتقد أن الوقت حان لنعيد فتح باب المناقشة. وقد طرحت أنا افتراضا بأن الأبجديات الأناضولية والإيجية وغيرها من أبجديات مقطعية مشتقة فيما هو حول منطقة البحر المتوسط، قد نشأت جميعاً من أبجدية واحدة كانت مستخدمة فى بلاد اللفانت قبل أن تتطور الكنعانية فى المدن الفينيقية إبان القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م. لتصبح أبجدية تضم أثنين وعشرين حرفا[٩١]. والقبول بهذا القول يعود بنا إلى النموذج القديم، أى إلى موقف هيرودوتوه ، وسائر

الكتاب القدامى الآخرين، فيما عدا يوسف، وهم الذين ذهبوا إلى أن الأبجدية دخلت بلاد اليونان على يد كادموس أو دناؤوس فى وقت ما فى منتصف الألف سنة الثانية قبل الميلاد. وهذه العودة من شأنها أن تحطم كذلك الفكرة القائلة بوجود عصر مظلم لم تُعرف فيه الكتابة، فى حين أن واقع الحال وهو تقرير معرفة الكتابة من قبل أن تقع الحرب الطروادية من شأنه أن يقوى بدوره من إعتمادنا على ماقرره يونان العصر الكلاسيكى عن ماضيهم إبان عصر البرونز، وعلى الأخص الروايات المأثورة عن وقوع استعمار على بلادهم .

ولا يُمثّل الهجوم على التأريخ المتأخر لانتقال الأبجدية إلى بلاد اليونان إلا جانبا واحدا من جوانب الهجوم على النموذج الآرى المتطرف فى مجموعه. وليس ثمة شك فى أنه مع نكوص الأستاذ موهلى عن رأيه، تمزق قلب المعارضة لفكرة وجود سامى قوى مبكر فى المنطقة الإيجية. لكن هذا لا يعنى أن نقول إنه لم يعد هناك ما يتيح البقاء للنموذج الآرى المتطرف بفعل القصور الذاتى. وإنه لمن المدهش فى هذا السياق أن نذكر أن آخر طبعة من الجزء الأول من المجلد الثالث من موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم Cambridge Ancient History وعنوانه: الشرق الأدنى وعالم بحرإيجة من القرن العاشر إلى القرن الثامن ق.م.، تضم فصولاً عن آشور وبابل وأورارتو وعن الدويلات الحيثية – الجديدة فى سوريا، عن الأناضول وإسرائيل ومملكة يهوداً وقبرص ومصر، لكنهاً لا تتضمن فصلا عن فينيقيا، وهى التى كانت القوة السائدة فى البحر المتوسط فى تلك الفترة.

ومع ذلك، فبالرغم من أن هذا الكتاب نُشر فى عام ١٩٨٢م فإن الخطة التى جرى إعداده بها إنما تمثل فكراً سابقاً على ما تم من إعادة للنظر فى الأمور فى أواخر الستينيات. وعلى سبيل المثال فإن القائمة التى أعدها أو زوين مرى عالم الكلاسيكيات فى أكسفورد عام ١٩٨٠م للمصادر والمراجع عن التأثيرات الشرقية فى بلاد اليونان إنما تبين على نحو يثير الشجن مدى قلة ما أُنجز فى مجال دراسة هذا الموضوع الشائك. وعلى حد ما هو متوقع، يشير أكثر الكتاب إشارة غير واضحة إلى بابل ويفضلون تعبير "الجسر البرى" ويتفادون بذلك فينيقيا. بل إن مرى نفسه، وهو يمثل اتجاه الميل الراغب

عن النموذج الآرى المتطرف كما يبدو أكثر تفتحا إزاء موضوع التأثير الفينيقى، يرجع هذا التأثير إلى فترة تقع بعد عام ٧٥٠ ق.م.، فى حين أن أوج إزدهار فينيقيا وتبنى اليونان الواضح للنظم الفينيقية مثل نظام "دولة المدينة" والنشاط الاستعمارى هى أمور سابقة على ذلك[٩٢].

المصريون: عود على بدء؟

وسواء ألقيت هذه الأفكار، أو أفكار نافي وكروس، القبول أم لم تلق، فإن حقيقة أنها أصبحت أفكاراً للنقاش إنما يعنى أنكسار إحتكار فكرى مارسه النموذج الآرى المتطرف فكان في هذا مضرب المثل. ولذلك فإننى أعتقد أنه بالرغم من مد التيار المحافظ وإحياء النزعة العنصرية فى الثمانينيات، فإن من شأن الهجوم على النموذج الآرى المتطرف أن يحقق نجاحاً فى وقت قريب نسبياً. أما المعركة من أجل استعادة النموذج القديم وما للمصريين فيه من مكان فسوف تستغرق وقتاً أطول. والحق أن عالم المصريات الألمانى الشرقى سيجفريد مورينز Siegfried Morenz هو الباحث الأكاديمى الوحيد الذى يلقى قبولاً فى دعواه بما كان هناك من مواقع استيطان مصرية، وبأهمية ما أخذه اليونان الذين درسوا فى مصر بعد ذلك. ذلك أن مورينز الذى كان باحثاً مرموقاً غزير الإنتاج معروفاً على الأخص ببحوثه فى الديانة المصرية، نشر فى عام ١٩٦٩م كتاباً بالغ الأهمية بعنوان "التقاء أوروبا ومصر". ويغطى هذا الكتاب بعضاً من المجالات التى يتناولها كتابنا هذا، لكنه يختلف إختلافاً أساسيا عن كتاب "أثينة السوداء" فى نواح شتى مهمة؛ فهو لا يطرح خطة مشروع يمكن أن تقارن بالنموذج القديم والنموذج الآرى، وهو يعارض بشكل محدد إبراز قضية سوسيولوجيا المعرفة بالرغم مما يظهر من أن المؤلف على وعى بالعوامل المؤثرة الكامنة فيها[٩٣]. وفضلاً عن ذلك فإن مورينز لا يأخذ بعين الإعتبار احتمال حدوث نقول لها أهميتها فى مجال اللغة، ولا يذكر ما أخذه اليونان عن الثقافة السامية الغربية، ومع ذلك فإنه يقر بأنه كانت هناك علاقات ثقافية مهمة بين بلاد اليونان ومصر من خلال جزيرة كريت على وجه التحديد[٩٤]. وهو كذلك صريح فى ادعائه بأن الأساطير عن دناؤوس تحتوى "نواة تاريخية"[٩٥]. ويصر على أن اليونان لم يتعرفوا على الآلهة المه ـ ـة فى مصر فحسب (وذلك بصفة

كونهم تجارا أو صناعاً فى نوقراطيس Naucratis، وهى مستوطنة أسست فى مصر فى القرن السادس ق.م.) ، وإنما عرفوا هذه الآلهة كذلك فى وقت باكر بين ظهرانيهم وعلى أرضهم[٩٦]. كذلك فإنه مقتنع بأن أفلاطون درس فى مصر حيث تعلم من تجربته هذه[٩٧].

وإزاء العوامل الداخلية الكامنة والمؤثرة إجتماعيا وفكريا وأكاديميا، فليس من المدهش أن جهد موريتنز البحثى المفصل بما صاحبه من جرأة قد لقى استجابة ضئيلة. ولقد كتب هذا الكتاب بمشاركة باحثين سويسريين ونشر فى الغرب، ومع ذلك فلا يظهر أن كان له تأثير كبير على توجهات علم المصريات فى ألمانيا الغربية كما يمثله الأستاذ هلك Helck صاحب الكلمة المسموعة على الصعيدين الثقافى والأكاديمى فى مجال تخصصه وهو علاقات مصر القديمة بالعالم الخارجى. ولم يترجم كتاب موريتنز إلى الإنجليزية أو الفرنسية، وعلى حد علمى فهو ليس معروفا فى خارج حدود دول وسط أوروبا المتحدثة بالألمانية إلا بالكاد.

ولم يكن لكتاب "التقاء أوروبا ومصر" من تأثير على الإطلاق على جماعة الباحثين الأخرى الوحيدة المؤمنة بما كان لمصر من تأثير ثقافى عظيم على بلاد اليونان، ونعنى بها الأمريكيين السود. ففى حين أن علماء الساميات، وأكثرهم من اليهود قد حاربوا النموذج الآرى المتطرف من مواقعهم على تخوم الأوساط الأكاديمية ، فإن أنصار المصريين، وأكثرهم من السود، قد وقفوا على وجه الإجمال يتحدون النموذج الآرى من خارج حدود الدراسة البحثية المنظمة.

وكان عدد قليل من الباحثين الأكاديميين السود قد حققوا نجاحاً فى مجال الدراسات الكلاسيكية، وأخصهم بالذكر هو فرانك سنودن Frank Snowden الأستاذ المبرز فى هذا الفرع في جامعة هوارد الرئيسة للسود. وقد ركز هؤلاء الباحثون جهدهم على تجميع القليل مما كان النموذج الآرى يسمح بإرجاعه من فضل إلى السود، في حين سلموا بما كان هذا النموذج يحظر قبوله، سواء في ذلك عدم التسليم بوجود عنصر مكون أسود في الثقافة المصرية أو الإنكار لأى دور للعناصر الإفريقية الأسيوية فى تكوين الثقافة اليونانية[٩٨]. وثمة باحثون آخرون هم أكثر إدراكا للمدى البعيد الذى تغلغلت به النزعة العنصرية فى كل ركن وزاوية من ثقافة أوروبا

وأمريكا الشمالية إبان القرنين التاسع عشر والعشرين، وهؤلاء كانوا أكثر حساسية بالأمور، ويأتي في مقدمتهم جورج ج.م. جيمس، وهو أستاذ يُدرس في كلية صغيرة في أركنساس، وقد نشر في عام ١٩٥٤ كتاباً بعنوان "التراث المنهوب" وفحواه" أن اليونان ليسوا هم مصدر الفلسفة اليونانية، وإنما هم شعب إفريقيا الشمالية الذى يعرف عادة باسم المصريين". ولم يهتم كتاب "التراث المنهوب" بمنشآت عصر البرونز في بلاد اليونان، وإنما أوضح – مستنداً إستناداً قويا إلى المصادر القديمة – إلى أى مدى أقر اليونان بأنهم أخذوا ما تعلموه عن المصريين في خلال عصر الحديد[٩٩]. وزعم جيمس، ولكن بأسلوب تعوزه الرصانة بعض الشيء، أن المصريين كانوا سودا، ثم أنهى كتابه بدعوى مؤثرة إلى إحداث التغيير في وعى السود وإدراكهم فيقول:

إن ذلك يعنى في الحقيقة تحرراً عقلياً ينعتق فيه البشر السود من أغلال زيف تقليدى حبسهم في سجن من مركب الشعور بالتدني وإهانة العالم لهم وهوانهم عليه[١٠٠].

ولقد حاولت مرتين أن أحصل على نسخة من "التراث المنهوب" تقبل مكتبة جامعة كورنيل إقتناءها وذلك قبل أن توضع هذه النسخة آخر الأمر في مكتبة فرعية أصغر. ذلك أن الكتاب ليس معترفا به على أنه كتاب بمعنى الكلمة، وهو كذلك غير مقروء في خارج نطاق مجتمعات السود[١٠١]. لكن له في الأوساط المثقفة في داخل هذه المجتمعات تأثيراً بالغ القوة، وهو يحظى عندهم بتقدير عظيم.

ويقترن كتاب "التراث المنهوب" في عقول الناس عموما بمدرسة فكرية رائدها هو عالم الفيزياء النووية الراحل الشيخ أنتاديوب Anta Diop. وقد أكثر ديوب من الكتابة عما رآه صلة وثيقة بين إفريقيا السوداء ومصر. وفي معرض ذلك أفترض صحة النموذج القديم للتاريخ اليوناني وصدق نظريات جيمس عن "التراث المنهوب" على وجه العموم، لكنه صرف إهتمامه الأكبر إلى ماحققته الحضارة المصرية العظيمة من إنجازات وما قام الباحثون الأوربيون من تشويهه منها، هذا إلى اعتقاده بأن المصريين كانوا سودا كما أشار إلى ذلك هيرودوتوس[١٠٢].

وفي مقال نقدى شائق، قام الباحث الأسود المعاصر يعقوب كاروثرز Jacob Carruthers بتقسيم الباحثين السود في هذا الموضوع إلى ثلاث مدارس أولاها هم "المناجزون

القدماء" الذين "لم يتلقوا تدريباً خاصاً على البحث، لكنهم كرسوا أنفسهم بدأب وفى إخلاص للتفتيش عن الحقيقة فى ماضى السود أنى وجدوا سبيلا، لتحطيم الأكذوبة الكبرى عن تدنى السود تاريخيا وثقافيا، فكان هؤلاء يتناولون المعطيات المتاحة أياً كانت ليعتصروا منها الحقيقة بقدر ما تسمح الأحوال"(١٠٣).

أما الفريق الثانى الذى يضم جورج وشنطن وليامز George Washington Williams، و أ.ب. ديبوا W.E.B. Dubois وجون هوب فرانكلين John Hope Franklin، وأنطون نوجيرا Anthony Noguera ، وعلى مزروى، فقد ذهبوا إلى أن السود أسهموا بنصيب فى بناء الحضارة المصرية جنباً إلى جنب أجناس أخرى، لكن تناول الكتاب الأوربيين للتاريخ جثم على صدر هذا التأويل تماماً ... والأمر يقتضى كذلك افتراض وجود نصيب للسود فى حضارة اليونان القديمة، وهو أمر حقيقى إذا فُهم على وجهه الصحيح، لولا أن الجانب الأكبر من هؤلاء "المثقفين السود" ليس لديهم إدراك للمعنى الحقيقى لذلك(١٠٤).

ويرى كاروثرز فى الفريق الثالث إمتداداً "للمناجزين القدماء"، وهم يضمون ديوب وبن يوشانان Ben Jochannen وتشانسلور وليامز Chancelor Williams، ويرى فى هؤلاء باحثين طوروا مهاراتهم المتعددة الجوانب ليتمكنوا من تأكيد حقائق الماضى الإفريقى، وهو عنصر لازم لتأسيس كتابة تاريخية إفريقية(١٠٥)

لكن ليس هناك شك فى أن زمن "المناجزين القدماء" قد فات، ولن يكون أكثر السود قادرين على التكيف مع آراء البيض على غرار ما فعل الأستاذ سنودن. لكنه بالرغم من الصيحات التى تدعو إلى وحدة الفكر، وهى دعوة جعلها عراك المثقفين السود أمرا ضرورياً، فإن لدى هاجساً بأن المعركة بين الفريقين الثانى والثالث حسب تقسيم كاروثرز، ستبقى وقتا طويلا. وعلى ذلك فها أنا أرى عند نهاية عقد الثمانينيات صراعاً بين الباحثين السود حول مسألة الطبيعة "العرقية" للمصريين القدماء. على أنه ليس ثمة إنقسام خطير بينهم حول عظم قدر الحضارة المصرية ودورها الأساسى فى تكوين بلاد اليونان. وفضلاً عن ذلك فلديهم عداء عام للثقافة السامية، خاصة عند افتراض أنها أثرت فى مصر. وفى الوقت نفسه، ففيما يتزايد استعداد الباحثين البيض – باستثناء مورينز – للإعتراف بأن الساميين الغربيين أدوا دوراً مهما فى خلق الثقافة

اليونانية، لا تزال هناك ممانعة أقوى كثيراً في الاعتراف بأثر مصرى قوى فيها[١٠٦]. ولعل محاولة التوفيق بين هاتين المقاربتين المتعارضتين للموضوع تشكل جانبا من جوانب بحثي هذا.

النموذج القديم المعدل

ومما يلفت النظر أنني أجد أن من الأيسر أن أضع نفسي وما أطرحه من نموذج قديم معدل ضمن دراسات الباحثين السود أكثر منه ضمن الثوابت المتعارف عليها أكاديميا ... أرانى معدودا مع الفريق الثانى فى تقسيم كاروثرز الموسومين باسم "المثقفين السود". وإنى لسعيد أن أحشر فى الزمرة الممتازة التى تضم ديبوا ومزروى والآخرين؛ أولئك الذين ينظرون إلى مصر على أنها إفريقية أساساً، وإن كانوا لا يرون المصريين القدماء على صورة تشاكل صورة الأفارقة الغربيين اليوم.

وهذا شاهدٌ على عُزلة الأفكار التى تشكل خلفية هذا الكتاب فى داخل الأوساط الأكاديمية. ومع ذلك فإننى أعتقد أن ما يثيره النموذج القديم المعدل اليوم من غضب بين دارسى الكلاسيكيات وبعض مؤرخى العالم القديم إنما هى ظاهرة مؤقتة، ومرد ذلك فى المقام الأول إلى أن تفكك النموذج الآرى المتطرف وإدخال العاملين النسبى والخارجى فى أسلوب دراسة التاريخ القديم قد كانت له آثار مدمرة على الوضع القائم فى مجموعه على ما أعتقد. غير أن السبب الأساسى الذى يجعلنى مقتنعاً بأن النموذج القديم المعدل سوف يحرز نجاحا فى المستقبل القريب هو ببساطة أن الضغوط السياسية والفكرية التى كان يمارسها النموذج الآرى المتطرف فى داخل الأوساط الأكاديمية الليبرالية قد اختفت إلى حد كبير.

ومنذ الأربعينيات فقدت النزعة العنصرية ومعاداة السامية ما لهما من وزن وتأثير بفعل الممارسات السياسية لألمانيا النازية ، فكان على نزعة معاداة السامية أن تتحول إلى التخفى والتلبس، كما كان على النعرة العنصرية إزاء ظهور العالم الثالث أن تعمد إلى المراوغة والالتواء. والذى كان يساوى ذلك فى الأهمية هو فقدان الثقة لدى الليبراليين فى "العلم" الصوفى الباطن، والشك العميق الذى وُجد منذ الستينيات عند أصحاب المذهب الوضعى. وهكذا ففيما عدا أمور محتملة فى مجال اللغة فقط، لم يعد النموذج

الآرى المتطرف بقادر على أن يصمد أمام تيار الإدراك العام بأسلوب الزعم بأن من يقيم الحجة العلمية على صحة هذا النموذج إنما هم خبراء متخصصون.

وحينما تقدم بى العمل فى البحث، ذكر لى أناس من خارج دائرة مجالات هذا الموضوع مراراً أنهم يجدون طروحاتى التاريخية أكثر إقناعا مما تطرحه المؤسسة الأكاديمية، فقد كانوا لا يستطيعون أن يروا سبباً يجعل وقوع ذلك الإستيطان الذى رددت المأثورات ذكره أمراً غير محتمل، أو موجباً لئلا تعامل اللغة اليونانية معاملة أى لغة أخرى بلا اختلاف. ولماذا لا يكون قد وقع على هذه اللغة تأثير قوى من اللغة المصرية أو اللغة السامية الغربية ؟ ولماذا لا يكون اليونان قد أخذوا من مصر ديانتهم كما أقر بذلك هيرودوتوس وغيره من اليونان القدماء ؟ ولماذا لا يكون العلماء والفلاسفة اليونان قد لقنوا الكثير من علمهم وفلسفتهم من مصر ؟ ومجمل القول أن عِلَتىْ وجود النموذج الآرى على الأساسين العلمى والعنصرى لم تعودا تمدان البحث بافتراضات يُعتد بها. وبدون هاتين العلتين يسقط النموذج. على أننا نترك معالجة ذلك إلى ما يلىَ من خاتمة.



الخـــــاتمة

ترجمة د. فاروق القاضى

من غير المعقول أن نحاول تلخيص هذا الكتاب في بضع عشرة فقرة، حتى إذا ما أحسناً وصف مئات الصفحات التي خلت، والتي حاولت فيها أن أطرح بعضاً من تضاعيف هذا الموضوع الواسع المتشعب الأطراف، وذلك على أحسن ما يكون الوصف بالتعبير الصيني "النظر إلى الزهور من فوق ظهر جواد".

وقد أوضحت في مقدمة الكتاب النهج العام الذى أرى به تاريخ غربي آسيا وشمالي إفريقيا إبان العشرة آلاف سنة الأخيرة، كما أوضحت، بقدر أكبر من التفصيل، رؤيتي لمجالات التبادل الثقافي عبر شرقي البحر المتوسط إبان الألف سنة الثانية قبل الميلاد. وفي هذه الخاتمة أريد أن أركز على موضوع هذا الجزء الأول وهو "اختلاق بلاد اليونان القديمة"، وفحواه هو ما حدث من تغير في النماذج، مما جرى من خلاله فهم أصول الحضارة اليونانية. لكنني قبل أن أمضي في هذا قُدُما، أود أن أكرر أن النموذج القديم والنموذج الآرى ليسا بالضرورة متضاربين. فالحقيقة أنه في حين أن النموذج القديم المعدل الذى أقترحه هو صورة من النموذج القديم، كما يوحي بذلك اسمه، فإنه يتقبل عدداً من ملامح النموذج الآرى، بما في ذلك معتقد هذا النموذج الرئيسي في قدوم عدد كبير من المتحدثين بالهندية الأوروبية في وقت ما من الشمال إلى بلاد اليونان. ومن ناحية أخرى، فليس من شك في أنه كان هناك تضاد كبير من الوجهة العملية بين النموذجين، وهو ما حاولت أن أبحثه هنا.

وقد بدأ متن هذا الكتاب بوصف الكيفية التي رأى بها اليونان تاريخهم البعيد، وأعني بهم يونان العصر الكلاسيكي والعصر الهلنستي ثم اليونان الوثنيون المتأخرون، أي يونان الفترة من القرن الخامس قبل الميلاد حتى القرن الخامس الميلادى. وقد حاولت أن أتتبع رؤية هؤلاء الخاصة لأسلافهم وهم آخذون في التحضر على أيدى المصريين والفينيقيين، ثم التأثير المتأخر لدراسة اليونانيين في مصر بعد ذلك. وقد حاولت كذلك أن أوضح تلك العلاقة الضدّية المتكافئة القوة بين المسيحية والمأثور اليهودى في الكتاب المقدس من ناحية، والديانة والفلسفة المصرية من ناحية أخرى. وبالرغم من تلك القرون

من التضاد الحقيقى والقوى، فلم يكن ثمة شك على أى من الجانبين فى أنه حتى القرن الثامن عشر، كان يُنظر إلى مصر على أنها منبع كل فلسفة "الأمميين" Gentile ومعارفهم، بما فى ذلك فلسفة اليونان ومعارفهم، وأن اليونان كان قصاراهم أن حفظوا جانباً من تلك المعارف وحسب. وقد كان الإحساس بالضياع الذى أوجدته تلك الحقيقة، إلى جانب السعى لاسترجاع الحكمة المفتقدة هما الباعثين الرئيسيين لتطور العلم فى القرن الرابع عشر.

وقد مضيت مبيناً أنه فى بداية القرن الثامن عشر، اصبح تهديد الفلسفة المصرية للمسيحية تهديداً حاداً. وكان الماسونيون الأحرار الذين أكثروا من استخدام صورة الحكمة المصرية يقفون فى نقطة المركز من نزعة التنوير وهى تهاجم النظام المسيحى. وقد جاء تطوير النموذج اليونانى للكمال الشعورى والفنى من أجل معارضة هذه الفكرة عن "العقل" التى وجدت فى القرن الثامن عشر لدى محبى الثقافة المصرية. وفضلاً عن ذلك فإن تطوير فكرة المركزية الأوروبية ونزعة العنصرية إلى جانب التوسع الإستعمارى على مدى الفترة ذاتها، قد أفضى إلى الفكرة الزائفة القائلة بأن البشر الذين يعيشون فى أقاليم مناخية معتدلة – أى الأوربيين – هم وحدهم القادرون بحق على التفكير. وهكذا فقد المصريون القدماء وضعهم بوصفهم فلاسفة على أساس أنهم عاشوا فى إفريقيا، بالرغم من أن مسألة لون بشرتهم كان أمراً غير مؤكد، كما أنهم عانوا من جراء تأسيس الأنموذج "التقدمى" الجديد على أساس أنهم عاشوا فى غيابة ماضٍ بعيد.

وعلى هذا النحو، ومع نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن اليونان يُعتبرون أكثر حساسية وفنية من المصريين فحسب، بل أصبح ينظر إليهم آنذاك على أنهم فلاسفة أفضل، بل فى الحقيقة على أنهم مؤسسو الفلسفة. ولعلى أزعم أنه مثلما أصبح ينظر إلى اليونان عندئذ على أنهم أمثلة للحكمة والحساسية على هذا النحو، فإنه فى ثورة مضادة نظر الأذكياء من المثقفين إلى مسألة دراسة اليونان على أنها وسيلة لإعادة تركيب شعب صرفت الحياة الحديثة عنه النظر، بل حتى من أجل إعادة إقرار التواؤم الإجتماعى فى مواجهة الثورة الفرنسية. ولقد نشأت الدراسات الكلاسيكية على نحو ما نعرفها اليوم

بين عامى ١٨١٥ و ١٨٣٠، وهى فترة محافظة إلى حد بعيد. كما أن هذه الفترة نفسها شهدت حرب الإستقلال اليونانية التى وحّدت الأوربيين جميعا ضد الأعداء المسلمين التقليديين من آسيا وإفريقيا.

وهذه الحرب، إلى جانب حركة مناصرة الهيلينية التى دعمت نضال اليونان من أجل الاستقلال، قد أكملت الصورة التى كانت موجودة من قبل لبلاد اليونان على أنها الصورة المصغرة لأوروبا. وصار ينظر إلى اليونان القدماء عندئذ على نحو من حد الكمال، وعلى أنهم قد سَموا فوق قوانين التاريخ واللغة. وهكذا اعتبر ضرباً من التجديف المارق أن يقوم المرء بدراسة أى مظهر من مظاهر ثقافتهم بذات الأسلوب الذى يصطنعه فى دراسة ثقافات الشعوب الأخرى. وفضلاً عن ذلك فإنه بظهور النزعة العنصرية المشبوبة والمنظمة فى بواكير القرن التاسع عشر: لم تعد الفكرة القائلة بأن ثقافة اليونان ثقافة مختلطة قام الأفريقيون والساميون بمهمة تحضيرها، لم تعد هذه فكرة مقيتة لدى النفوس فحسب، بل فكرة غير علمية أيضاً. وعلى نحو ما كان لابد للمرء من أن ينبذ حكايات اليونانيين "الساذجة" عن الحوريات ومخلوقات القنطور، كان عليه بالمثل أن يرفض تلك الأساطير التى تذهب إلى استعمار اليونان على يد أجناس أدنى. وإنه لأمر محير أنه بقدر ما تزايد الإعجاب فى القرن التاسع عشر باليونان، بقدر ما قل الإحترام لما كتبه اليونان أنفسهم عن تاريخهم.

وأنا أرى أن إسقاط النموذج القديم إنما يرجع برمته إلى عوامل إجتماعية مؤثرة من هذا القبيل، ونتيجة لما قام به أولئك الأوربيون الشماليون من أهل القرن التاسع عشر من إضفاء خصال بعينها على اليونان الأقدميين. وفى إعتقادى أنه ليس هناك عامل مؤثر داخلى من قبيل إحراز تقدم فى معرفة بلاد اليونان القديمة، يمكن أن يفسر هذا التغيير. وإزاء ما قلت هنا، فإننى أقبل القول بأن ما ساعد كثيراً على نشوء النموذج الآرى إنما هو تحقق الفكرة القائلة بوجود عائلة للغات الهندية الأوروبية، وهو أمر يعتبر إنجازاً داخليا بالرغم من كونه وليد النزعة الرومانسية. وساعد على ذلك أيضاً تلك الحقيقة التى لاشك فيها وهى أن اللغة اليونانية هى فى أساسها لغة هندية أوروبية. لكننا نذكر فى هذا الصدد أيضاً أن العوامل المؤثرة الإجتماعية

والفكرية نفسها التى أسقطت النموذج القديم فى العشرينيات من القرن التاسع عشر قد كانت أشد وأنكى فى الأربعينيات والخمسينيات. ومن الواضح أنها لعبت دوراً فى تزايد الصورة "الشمالية" لبلاد اليونان القديمة، وهى الصورة التى تطورت فى أواخر القرن. وفى الوقت ذاته فإن الإحساس بأن أهل ذلك القرن التاسع عشر هم وحدهم الذين كانوا يعرفون كيف يفكرون تفكيراً علمياً، قد أعطى الباحثين – وأكثرهم من الألمان – الثقة لكى ينبذوا سياق السرد القديم للتاريخ اليونانى الباكر، وأن يبتدعوا سياقاً جديداً من عندياتهم، دون ما مراعاة للكتاب القدماء.

ومع تصاعد النزعة العنصرية فى القرن التاسع عشر، كان هناك تزايد فى الكراهية للمصريين الذين لم يعد يُنظر إليهم على أنهم أسلاف اليونان ثقافيا بل على أنهم غرباء فى الأساس، وهكذا أصبح من الممكن أن ينشأ نسق جديد فى علم المصريات (الأجبتولوجيا) يدرس تلك الثقافة الدخيلة مؤيدا فكرة بُعدها عن الحضارة "الحقة" لكل من اليونان وروما.

وقد إنهارت وضعية مصر بصعود النزعة العنصرية فى العشرينيات من القرن التاسع عشر، واضمحلت وضعية الفينيقيين بصعود نزعة معاداة السامية فى الثمانينيات ثم هوت ببلوغ هذه النزعة أوجها فيما بين عامى ١٩١٧ و ١٩٣٩م. وهكذا، فعند فترة الحرب العالمية الثانية، كان قد أصبح من الأمور المقررة المؤكدة أن بلاد اليونان لم تأخذ من مصر أو من فينيقيا شيئاً ذا أهمية فى مجال الثقافة واللغة، وأن أساطير إستيطانهما (اليونان) إنما هى أمور تجذب الإلتفات لكنها لا تصدق، تماماً مثل حكايات حكماء اليونان الذين تلقوا التعليم فى مصر. والحقيقة أن هذه الآراء ظلت سارية بعد فترة السنوات من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٦٠م، أى حتى بعد أن ضعفت لدى المجتمع الأكاديمى الثقة فى أسسها الأيديولوجية من العنصرية ومعاداة السامية بوجه عام.

بيد أن النموذج الآرى المتطرف هوجم منذ أواخر الستينيات هجوما عنيفاً على يد اليهود وعلماء الساميات بصفة أساسية، وتزايد الإعتراف عندئذ بأهمية دور الكنعانيين والفينيقيين فى تكوين بلاد اليونان القديمة، ومع ذلك استمر إنكار المرجعية التقليدية لمصر بالنسبة لكثير من أمور الحضارة اليونانية. أما فى مجال دراسات اللغة اليونانية، وهى معقل الدفاع الأخير للرومانسية وللنموذج الآرى المتطرف، فقد كان

محكوما على أى حديث عن تأثير أفرو-أسيوى مهم على اللغة اليونانية بأنه سَخَف غير مقبول.

ولعل النقطة الرئيسية التى كنت أحاول أن أطرحها من خلال هذا الكتاب هى أن ما حدث من إسقاط النموذج القديم وإحلال النموذج الآرى محله لم يكن مرده إلى قصور داخلى فى النموذج القديم أو إلى أن النموذج الآرى كان يفسر أى شئ بصورة أفضل أو أكثر قبولاً. إنما كان ما قدمه هذا الأخير فى الحقيقة هو أن جعل تاريخ بلاد اليونان وعلاقتها بمصر وبلاد اللفانت يتفق مع نظرة عالم القرن التاسع عشر ومع نزعة العنصرية المنظمة الماثلة فى هذه النظرة على وجه التحديد. ومنذ ذلك الحين، فقدت أفكار "العنصر" والتفوق الفنوى الأوربى التى شكّلت جوهر النظرة العِرْقية فى تفسير التاريخ Weltanschauung، فقدت مصداقيتها سواء من الناحية الأخلاقية أم من ناحية المنهجية التعليمية، بحيث يحق لنا أن نقول إن النموذج الآرى قد جرى تصوره على نحوٍ يمكن أن نسميه الآن بالخطأ أو الخطيئة.

غير أننى مصر على أن تصور هذا النموذج على أنه خطيئة أو حتى على أنه خطأ لا يزعزعه بالضرورة. فالنظرية الداروينية التى صيغت فى ذلك الوقت نفسه، ومن أجل كثير من الدوافع المستهجنة نفسها، قد ظلت منهجا تعليمياً مفيداً للغاية. ويستطيع المرء أن يذهب إلى أن نيبور وموللر وكورنيوس والآخرين من أضرابهم كانوا "يسيرون نياما" بالمعنى الذى قصده آرثر كوستلر من هذا التعبير الذى يصف به الإكتشافات "العلمية" النافعة التى تمت من أجل أسباب وأغراض متباينة لم تعد تلقى قبولاً فى أوقات لاحقة. وكل ما أدعيه لهذا الكتاب من أهمية هو أن يكون قد طرح قضية يتعين الاجابة عليها، وهى أنه إذا كان المصدر الذى يعتريه الإلتباس للنموذج الآرى لا يجعله نموذجاً زائفاً، فإن ما يوضع موضع التساؤل هو افتراض تفوقه على النموذج القديم بشئ متضمن فى داخله. ومن أجل هذا السبب يهتم الجزء الثانى من هذا الكتاب بعقد المباراة بين النموذجين من حيث كونهما أداتين فعاليتين لفهم بلاد اليونان القديمة.



الملحـــــــق

ترجمة د. فاروق القاضى

هل كان شعب "الفلسطين" من اليونان * ؟

ناقشنا فى الفصل الأول ما يظهر من معقولية وجود ارتباط بين الاسمين العرقيين بلاسجيين Pelasgoi وبلست Peleset أو الفلسطين. ولذلك فلعل من المفيد أن نبحث هنا الصلات بين الفلسطين وجزيرة كريت[1]. ولا يشك أحد من أن الشعب الذى اسماه المصريون برست Prst قد قدم من الشمال الغربى، لكن ثمة نقاشاً واسعاً يدور حول ما إذا كان قد قدم من كريت أم من أرض الأناضول.

ويذهب عالم الآثار البريطانى الدكتور ساندرز Sandars إلى أن النصوص المصرية تبين أن البرست (الفلسطين) قدموا إلى بلاد اللفانت بطريق البر، ولعل هذا يوضح أن الأمر متعلق بغزوة أناضولية أكثر من تعلقه بغزوة إيجية. وفضلا عن ذلك، يأتى اسم البرست فى أحد النصوص المصرية مقترنا بالترش الذين يبدو أنهم كانوا هم الطرواديين أو الترشينيين من شمال غربى الأناضول[2]. وفى الكتاب المقدس عُرف أمراء الفلسطين باسم سرانيم Seranim، وهو لقب يمكن أن يكون قد جاء عن لفظ ساراواناس Sarawanas أو تاراواناس Tarawanas فى اللغة الحيثية الجديدة، أو من لفظ تيرانوس Tyrannos فى اللغة اليونانية (الذى اشتق منه لفظ tyrant فى اللغة الإنجليزية)، وهو لفظ يُفترض أنه مأخوذ من ليديا. وقد كانت خوذة الرأس التى يضعها العملاق الفلسطينى جالوت (جوليات Goliath ** تسمى قُباع Qob^c، وهى كلمة يمكن أن تكون مأخوذة من الكلمة الحيثية كوباهى Kupahhi ولها ذات

---

* المقصود هنا هو الشعب القديم الذى يرد اسمه فى مختلف النصوص القديمة لاسيما النقوش. ولا يقصد المؤلف بالطبع التسمية الحديثة المستعملة حاليا للإشارة إلى شعبنا العربى الفلسطينى الآن. وعنوان هذا الملحق هو Were The "PHILISTINES" Greek? وهى صياغة تؤكد مايعنيه المؤلف من تساؤله (المترجم).

** قائد الفلسطين الجبار فى حروبهم ضد بنى إسرائيل. وقد صرعه نبى ا لله داود عليه السلام وانتصر لهم وخلصهم من إذلال الفلسطين إياهم. (المترجم).

المعنى[٣]. بل لقد قرن اسم جالوت (جوليات) نفسه بالاسم الليدى ألياتس Alyattes[٤]. وأخيراً، فلقد روى المؤرخ الليدى اكسانثوس Xanthos أن بطلاً ليديا يدعى موبسوس Mopsos قد ذهب من ليديا إلى فلسطيا[٥]. وكل هذه الشواهد تُتخذ قرائن على أن الفلسطين قدموا من الأناضول أكثر من القول بأنهم قدموا من كريت.

غير أن هذه الحجج ليست من القوة بالقدر الذى هى ظاهرة عليه. ذلك أنه عندما يُؤخذ فى الاعتبار أوجه نشاط اليونان فى تلك الفترة فى قبرص وبامفيليا وقيليقية فى جنوبى الأناضول، وأعنى بتلك الفترة أواخر القرن الثالث عشر والقرن الثانى عشر ق.م.، فإننا لا نجد سببا يمنع أن يكون البعض منهم قد قدم بطريق البر. ووفقا لما ذكره الشاعر كالينوس kallinos الذى كان يكتب فى القرن السابع ق.م.، فإن شعوبا بقيادة موبسوس (أحد أبطال اليونان فى حرب طروادة) قد عبرت جبال طوروس، حيث أقام البعض منها فى بامفيليا، وانتشر الآخرون فى قيليقية وسوريا أيضا، بل توغلوا حتى فينيقيا[٦]. والشئ اللافت للنظر هو التشابه بين هذه الرواية وما جاء فى نقش رمسيس الثالث الذى كتب فى وقت مبكر من القرن الثانى عشر ق.م. وقد ورد فيه:

.... وأما عن البلاد الأجنبية فقد حاكوا مؤامرة فى جزرهم، وتحركت كل البلاد جميعاً على الفور متدافعين إلى القتال. ولم يقوَ بلد على الوقوف فى وجه أسلحتهم: فيهم الحاتى (الحيثيون فى وسط الأناضول)، والقودى (قيليقية)، وقرقميش (عند الفرات الأعلى)، والأرزاوا والألاشيا (قبرص). وقد قُضى عليهم .... وأقيمَ معسكر فى عامور (سوريا) .... وكان حلفهم مؤتلفا من البرست والتكور والسكل والدن والوش[٧].

وعلينا أن نلحظ أن رمسيس الثالث رأى أن المؤامرة بدأت "فى جزرهم"، وهو ما يوحى بالمنطقة الإيجية وصقلية بل حتى سردينيا. كذلك فقد يبدو أن هذا هو ما يوضح وجود البرست فى هذه الغزوة الأخيرة من غزوات "شعوب البحر".

وينبغى أن نلاحظ أيضاً أن البرست يرتبطون هنا بالتكوُر الذين استقروا كذلك فى فلسطين والذين يمكن أن تكون هم صلة بالبطل اليونانى تيوكروس Teukros، أما

اسم السكل فيكاد أن يكون اتصاله بصقلية أمراً مؤكداً، وكذلك اتصال الدن بدانونا والدنائيين. أما الترش فلم يردوا فى القائمة فى هذه المناسبة.•

وكلمة سرنم ومعناها "أمراء" تظهر فى النصوص الأوجاريتية مما يبين أنه سواء أكان لهذه الكلمة إرتباط بالأناضول أم لا، فإنها كانت مستخدمة فى بلاد اللفانت قبل وقوع الغزوات، ولا يمكن أن تكون لها صلة مباشرة بأناضوليين كانوا بين "شعوب البحر" الغازية[٨]. وقد يكون لكلمة قوبع $Qoba^c$ صلة بالكلمة الحيثية كوباهى Kupahhi، لولا أن الحيثيين يظهرون كثيرا فى أرض فلسطين التوراتية، وليس هناك بالتالى إلا قليل من الشك فى أن اللغة الحيثية كان لها تأثيرها فى اللهجات الكنعانية التى كان يجرى الحديث بها هناك[٩].

وفضلاً عن ذلك فإن ارتداء القوبع لم يكن مقصورا على الفلسطين. فقد أشار أستور إلى أن شاءول و المصريين والبابليين والمرتزقة من صور ارتدوا غطاء الرأس هذا، بل ارتداه يهوه نفسه[١٠]. أما الصلة بين جالوت (جوليات) وألياتس فهو أمر ممكن، لكنه وفقا لكتاب صموئيل فإن جالوت ينتمى إلى عماليق (رباعيم) جات Gath الذين يرى ج.سترينج J. Strange، وهو أحد الباحثين المحدثين فى الموضوع، أنهم ربما كانوا كنعانيين[١١]. ويبدو لى هذا الطرح بعيدا عن الاحتمال. أما الذى يبدو أكثر احتمالا فهو أن "الرباعيم" (العماليق)، شأنهم فى ذلك كشأن الديتانو عند الساميين الغربيين والتيتان عند اليونان كانوا هم أرواح الموتى العملاقة[١٢]، ومن هنا يكون اللقب رباعيم مجرد إشارة إلى ضخامة جثة جالوت، وأن الصلة بين جوليات (جالوت) وألياتس هى مجرد إمكان.

وتظل الحجة الأقوى لتأييد حدوث هجرة أناضولية هى الرواية الليدية التى تذكر أن موبسوس الليدى ذهب من ليديا إلى أشكلون (عسقلان) فى فلسطيا. لكننا رأينا كذلك أن ثمة روايات عن حملات قادها موبسوس اليونانى ومعه أبطال يونان آخرون نحو

• مما قد يؤثر فى استنتاجات المؤلف أن نذكر هنا بأن الاسم نفسه تيوكروس يرد فى الروايات الأسطورية أيضاً على أنه ملك فريجيا Phrygia (بالأناضول) وأول ملوك طروادة الذى جعلته المأثورات الجد الرابع للملك برياموس الذى وقعت فى عهده الحرب الطروادية الشهيرة. (المترجم).

بلاد اللفانت عبر الأناضول وقبرص. وقد جاء التأكيد الواضح للأساطير اليونانية عن موبسوس من خلال الكشف فى بلدة كراتيبى Karatepe فى قيلقية عن نقش من القرن الثامن ق.م. مكتوب بلغتين هما الحيثية التصويرية (اللوفية) والفينيقية. ويشير هذا النقش إلى مملكة دنيم Dnnym وإلى واحد من الأسلاف دعاه النص اللوفى باسم مكساس Muksas ودعاه النص الفينيقى باسم م ب س Mps[١٣]. والأمر الذى يشير الإرتباك أنه من الناحية العرقية يشير اسم المملكة إلى مستوطنة يونانية، فى حين يشير اسم مؤسس الأسرة إلى أنها أسرة أناضولية، الأمر الذى يؤيد الأسطورة الأناضولية. وعلى ذلك فإن هناك أمورا تبين أن عناصر أناضولية كانت متوطنة فى أرض اللفانت فى وقت "غزوات شعوب البحر" فى القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل البلاد.

غير أن القرينة على توطن العناصر المتحدثة باللغة اليونانية فى المنطقة هى قرينة أقوى. فهناك أولاً تساوق الروايات المأثورة فى الكتاب المقدس عن قدوم الفلسطين من كفتور أوكريت أو جنوبى بحر إيجة[١٤]، وهناك أيضا روايات عن جنود مرتزقة يُدعون كريتى أو بليتى يذكرون دائما مع الفلسطين وأحيانا ما يوازون بهم، ويُظن أن هؤلاء هم الكريتيون والفلسطين بوجه عام، وهم عادة يرتبطون بداود الذى لم يحارب الفلسطين فحسب بل حارب أيضا من أجلهم[١٥]. وينبغى أن نلاحظ أن اللغة العبرية احتوت على قدر كاف من الاسماء الدالة على الشعوب الأناضولية، مثل الحيتى (الحيثيين) الذين يرد ذكرهم كثيراً، والتوبال والمشك والتيراس، وهذا الشعب الأخير قد يكون هو شعب الترش نفسه فى النصوص المصرية أو هو شعب الطرواديين. ومع ذلك فإن الفلسطين لا يُقرنون بأى من هذه الشعوب، وإنما يقرنون مرارا وتكرارا وبشكل محدد بالكفتور. وهكذا فليس هناك مدعاة للشك فيما يرد فى الكتاب المقدس من ربط بين الكريتيين والفلسطين.

ومما يلفت النظر من الوجهة الأثرية أن مايسمى "بالفخار الفلسطينى" الذى وجد بكميات كبيرة فى المناطق المتصلة بشعب الفلسطين الوارد ذكره فى العهد القديم، كان فخارا محليا فى صناعته، لكنه شبيه بطراز الفخار المعروف بطراز الفترة الموكينية الثالثة Mycenaean III C IB وتأتى الأمثلة الأوثق من حيث تأكيد التشابه من طرسوس

فى قيليقية ومن قبرص ومن كنوسوس فى كريت. غير أنه ليس ثمة مجال للخلاف فى أن هذا الطراز ظهر فى المنطقة الإيجية وأن المناطق الأخرى التى عثر عليه فيها تتفق وما تواتر من أخبار المستوطنات اليونانية فى هذه الفترة[١٦]. والحقيقة فى أن ثقافة فلسطيا منذ القرن الثانى عشر حتى القرن العاشر ق.م. تبدى تأثيراً مصريا قويا هى حقيقة لا تثير الدهشة، وذلك بالنظر إلى قربها الشديد من مصر، وإلى أن كثيراً من شعوب البحر خدموا جنودا مرتزقة لدى المصريين. وعلى ذلك فإن القرائن المكتوبة والأثرية التى توجد الصلة بين الفلسطين والمنطقة الإيجية تتفق معاً إلى حد ما، وعلى نحوٍ نادر بل فريد. لكنه بالرغم من ذلك تُقر عالمة الآثار الإسرائيلية الدكتورة دوثان Dothan فى كتابها الضخم عن الفلسطين بأن ثقافة هؤلاء المادية جاءت من المنطقة الإيجية، لكنها تُصر على أن الفلسطين كانوا إلسيريين أو طراقيين أو أناضوليين، كانوا أى شئ إلا أن يكونوا يونانا[١٧].

فإذا أقررنا ذلك الإفتراض المحتمل بأن الجانب الأكبر من عنصر الفلسطين ناشئ من كريت والمنطقة الإيجية وأنهم صنعوا فخارا من الطراز الموكينى، فإن الإحتمال يصبح كبيراً للغاية فى أنهم كانوا يتكلمون اليونانية. وبالرغم من أن لغة إتيوكريتية غير يونانية ظلت باقية فى كريت حتى العصر الهللنستى كما سبق أن ذكرنا أعلاه، فإننا نعلم من الكتابة الخطية الثانية Linear B أن اليونانية كانت هى اللغة السائدة فى الجزيرة قبل أكثر من قرن من ورود أقدم إشارة إلى البرست.

كذلك فإن ثمة أمورا أخرى تبين إتصال الفلسطين ببلاد اليونان. فالنصوص الآشورية تشير إلى شخص بعينه تسميه لا–ما–نى أو لا–دا–نا، وكلا الصيغتين تعنى "يونانى"، وهى تذكر أن هذا الشخص استولى على العرش فى أشدود المدينة الفلسطينية وأعلن العصيان ضد آشور فى عام ٧١٢ ق.م. وقد ثارت مناقشة واسعة حول ما إذا كان هذا الشخص يونانيا أم زعيما محليا[١٨]. لكنه بالرغم مما كان قد تقرر بصورة جلية من أن الفلسطين قد أصطبغوا سريعا بالصبغة السامية فإنه يمكن حل مشكلة لا–ما–نى بالتمشى مع افتراض يذهب إلى أن بعض الفلسطين من ذوى النفوذ فى القرن الثامن كانوا من سلالة يونانية.

وبعد غزو الأسكيثيين فى القرن الثامن وحركات التهجير الإجبارى البابلية الجديدة التى وقعت فى القرن السادس، يبدو أن اسم "الفلسطين" قد حل محله اسم "الغزاويين (غزاتى) حينا والأشدوديين (أشدودى) حينا آخر، وذلك نسبة إلى المدينتين الرئيستين فى المنطقة. وفى حوالى عام ٤٠٠ ق.م. أدان نحميا زواج اليهود من نساء أشدود، وأشار إلى "لغة أشدود" (أشدوديت) على أنها تمثل تهديداً "للغة اليهود" (يهوديت)[١٩]. وليس من المؤكد مايعنيه هذا التعبير الأخير، باعتبار أن اليهود فى ذلك الوقت كانوا يتحدثون بالآرامية وبالعبرية معا. لكن من غير المحتمل أن يكون نحميا مهتماً لأمر لغة سامية غربية. ومن ناحية أخرى فإن اللغة التى يبدو الإحتمال أكبر فى تشكيلها تهديداً (للغة اليهود) إنما هى اللغة اليونانية التى كانت تنتشر إنتشاراً سريعا فى أنحاء شرقى البحر المتوسط. وليس هناك كلمة فى الكتاب المقدس تشير إلى "اليونانية" من حيث هى لغة. وعلى ذلك فقد يبدو مقبولا أن نفترض أن نحميا كان يعنى (بأشدوديت) "اللغة اليونانية"، وتلك إشارة أخرى إلى الصلات بين اليونان والفلسطين.

وثمة أمر يبين الصلات بين فلسطيا وبلاد اليونان فى تلك الفترة، وهو أنه فى حوالى عام ٤٠٠ ق.م. كانت غزة هى المدينة الوحيدة إلى الشرق من مدينة أثينا التى سكت نقوداً طبقاً للأوزان الأتيكية*. غير أن ما ينبغى ملاحظته هو أن الكتابات على هذه النقود كانت بالحروف الفينيقية، بل إن بعضها كان منقوشا عليه كلمة تُقرؤ إما يـ هـ د (يهود) أو يـ هـ و (يهوه)، وصورة لشخص جالس يبدو أنه إله إسرائيل[٢٠]. وتحمل بعض النقود من هذه المدينة النقش مينو MEINΩ الذى يُفترض أن له صلة بمينوس ملك كريت[٢١].

وبالرغم من الدفاع المستميت الذى قاومت به كل من يافا وغزة الأسكندر (الأكبر)، فإن ما أعقب ذلك من اصطباغ الإقليم بالصبغة الهيلينية كان أعم وأشمل مما كان عليه الأمر فى فينيقيا وجوديا. وكما يبين فكتور تشير يكوفر Victor Tcherikover مؤرخ العصر الهللنستى الكبير فإن فى ذلك فيما يبدو إشارة إلى نزوع طبيعى إلى الثقافة اليونانية[٢٢]. وعلى سبيل المثال فإن اسطفان البيزنطى الذى كان

---

* يقصد عيار العملة نفسه الذى كانت تضربه أثينا (المترجم).

يكتب فى القرن الخامس الميلادى يذكر أن الإله مارنا Marna الذى كان يُعبد فى غزة كان هو الإله زيوس كريتوجنيس Zeus Kretogenes ، أى "زيوس المولود فى جزيرة كريت"[٢٣].

ومجمل القول أن ما هو أشبه بغزو "شعوب البحر" هو غزوات الصليبيين؛ وكانت هذه موجات من الغزاة الشماليين قدمت بطريق البر وطريق البحر فى فترة شديدة الأضطراب، وجماعات يعترض بعضها طريق بعض فى بحثهم جميعا عن غنائم يسلبونها أو أرض يستوطنونها. وقد كان الصليبيون فى معظمهم يتكلمون لغات رومانسية وإن كانوا من قوميات ذات لهجات متباينة، وكان من بينهم أيضاً إنجليز وألمان. وعلى هذا النحو كذلك يبدو أن شعوب البحر كانت تتكون من مجموعات لغوية شتى تضم متحدثين بكل من اللغتين اليونانية والأناضولية. والإحتمال الوارد هو أنه بالرغم من أن الجماعات الأخرى قد تألفت إلى حد كبير من المتحدثين باللغة الأناضولية، كان الفلسطين فى أغلبهم من اليونان. وحتى الوقت الذى تم فيه فك أسرار الكتابة الخطية الثانية Linear B على أساس أنها كتابة يونانية، لم تكن صلة شعب الفلسطين بكريت تُشكل أمرا محيرا. كان من اليسير أن ينظر إليهم على أنهم شعب سابق على اليونان هناك. أما إخفاق الباحثين فى التعرف على القرينة القوية على حلقة الإتصال بين الفلسطين واليونان فلا يمكن تفسيره إلا فى حدود رأى أهل القرنين التاسع عشر والعشرين فى "الفلسطينين" على أنهم بالضبط، وعلى النقيض من الهيلليين، هم خصوم الحضارة.



الحواشى (*)

(*) الأرقام الواردة فى الحواشى بين قوسين وبعد اسم المؤلف تشير إلى تاريخ النشر ولابد من مراعاة ذلك أثناء القراءة حتى تتوافر للقارئ المدقق إمكانية معرفة عنوان الكتاب المشار إليه بدقة ولاسيما إذا كان للمؤلف المقصود أكثر من كتاب فى قائمة الببليوجرافيا (المراجع).

حواشي مقدمة المؤلف

(١) انظر الباب السادس حواشي ١٤٣-١٤٤.

(٢) انظر الباب العاشر حواشي ٧-٩.

(٣) عن المناقشات حول ذلك انظر ص١١٦ والجزء الثاني.

(٤) Bernal (1980).

وعن ألواح أوروك أنظر G.Pettinato (عن طريق إتصال شخصي، Cornell, 3 Dec. 85).

(٥) انظر الباب العاشر حاشية ٧-٩.

(٦) Goodenough (1970).

(٧) Bernal (1989a).

(٨) Warren (1965, p.8); Renfrew (1972, pp. 345-8).

(٩) Bernal (1983a, 1983b;).

وأنظر أيضا (1987) وعلى نحو هو الأكثر اكتمالاً (1990).

(١٠) Bernal (1980).

(١١) Spyropoulos (1972; 1973).

(١٢) Bernal (1986a, pp. 73-4).

(١٣) انظر الجزء الثالث.

(١٤) Herodotos, VI. 53-5.

(١٥) يشير باك (1979) Buck ص٤٣ إلى نظرية سبيروبولوس ولا يأخذ بها. ولا يقتطف سيميونوغلو (1985) Symeonoglou من مقالاته مع أنه ذكرها في البيليوجرافيا الضافية التي جمعها في الموضوع. ودون الإشارة إلى الشكل الهرمي أو أي روابط بمصر فإنه يسفه تأريخ سبيروبولوس (صفحات ٢٧٣-٢٧٤) أما هيلك (1979) Helck فيهمل سبيروبولوس تماماً.

(١٦) Bernal (1988a).

(١٧) Farag (1980).

(١٨) La Marche and Hirschbeck (1984, p.126). For the Irish oaks: personal communication M.G.L. Baillie to P.Kuniholm, Athens, April 1985.

(١٩) Michael and Weinstein (1977, pp. 28-30).

(٢٠) عن الصلة مع الصين أنظر (1985, p.816) Pang and Chou وعن تاريخ Shang انظر Fan (1962, p.24). وعن تاريخ تعديلي منخفض Keightley (1978)، وعن آخر مرتفع أنظر Chang (1980, pp.354-5).

(٢١) Stubbings (1973, pp. 635-8).

(٢٢) Bietak (1979).

(٢٣) C.Müller (1841-70, vol.III, p. 639).

(٢٤) Hemmerdinger (1969); McGready (1969); Pierce (1971).

(٢٥) عن فوكار وردود الفعل عليه انظر الباب الخامس حاشية ٤٥.

حواشي الباب الأول

(١) يشير النص إلى ممالك أرجوس واسبرطة وعن اعتقاد ملوك اسبرطة المتأخرين في أصولهم وجدودهم من الهكسوس. انظر الجزء الثاني:

(٢) وعن قائمة كاملة بالإشارات إلى البلاسجيين أنظر

Iliad, II. 681; F.Lochner- Hüttenbach (1960, pp. 1-93).

(٣) Iliad, II. 841; X.429 and XVII. 290.

(٤) من معطيات بعض النقوش جاءت أول محاولة مترددة من جانب الأستاذ بيتاك Bietak (1979 p.255) الذى قام بالحفر في تل الضبعة (أفاريس). وبالنسبة للمشكلة الصوتية من حيث اشتقاق اسم Larissa من R-3ht فليست مشكلة خطيرة. فالحرف الإبتدائي r المصرى القديم كان يحول إلى l في الإغريقية، أما الألف المضعفة في المصرية الوسطى ,3 فكانت تقلب إلى r في السامية. أما الحرف الحنجرى h فكان يسقط في العادة وهناك أمثلة عديدة على أن t في نهاية الكلمات المصرية تتحول إلى is في اليونانية وعن التفاصيل راجع الجزء الثاني.

(٥) Iliad, II. 841 and XVII. 301.

(٦) أنظر Strabo, XIII. 621.C، ويقتطف هذا النص للتدليل على ارتباط Larissai بالطمي والتربة الخصبة وبالبلاسجيين في K.O.Müller (1820, p. 126).

(٧) وعن ارتباط داناؤس بلاريسا وأرجوس انظر Pausanias, II.19,3. وأنظر (Frazer, Levi in Bibliography).

(٨) Strabo, VIII.6.9.

(٩) أنظر Ahl (1985, pp. 158-9).

(١٠) عن 'Inb hd أنظر Gauthier (1925, vol.I, p.83).

وأنظر .Gardiner (1947, vol.II, pp. 122-6) ويعنى اسم العاصمة الحيتية هاتوس أوهاتوساس "الفضية" ولا نستطيع أن نؤكد أو ننفى ما إذا كان الاسم الإغريقى والأناضولى تحريفا للاسم المصرى الأقدم وما إذا كانا قد إشتقا من لون المدينة والقلعة فعلاً.

(١١) Iliad, II. 681.

(١٢) راجع .Iliad. XVI. 233 وعن مزيد من المناقشات انظر الجزء الثالث.

(١٣) Odyssey. XIX.175.

(١٤) Aigimios, fr.8, in White (1914, p.275).

(١٥) V.80.1.

(١٦) بصفة عامة أقبل رأى جوردون... C.Gordon (1962a, 1963a-b, 1966, 1967, 1968a-b, 1969, 1970a-b, 1973, 1975, 1980, 1981), pace Duhoux (1982, p.232 وعن إشتقاق Eteocretan المقبول انظر Duhoux, pp.16-20. ذلك أن الكلمة *eteos* نفسها ليس لها اشتقاق هندو-أوروبى واشتقاقها المحتمل هو الكلمة المصرية it' التى وجدت فى الديموطيقية أيضاً مثل eiot فى القبطية تعنى "الشعير" و it m'it' فى المصرية الوسطى والمتأخرة تعنى "الشعير فى الشعير" حرفياً وهو تعبير يعنى "الشعير" بمعنى الكلمة ويفترض أنها تشير إلى الحبوب نفسها أو إلى القزان. ونجد فى الإغريقية eteo krithos تعنى الشعير الجيد أو الأصلى. وعن المركزية والجدية فى اللعب بالكلمات فى الحضارات القديمة انظر أسفله. وسواء أكانت Eteokretes هى لعب بكلمة eteokrithos أى it' الشعير الجيد أو الأصلى فإن تبدو اشتقاقاً محتملاً لـ eteos. ومن المحتمل أن يكون هناك خلط بين المصرية it(y)' والقبطية eiot بمعنى الآباء. وهذه الكلمة قد تكون أصل الاسم العشائرى Eteoboutades وهم كهنة الربة أثينة بولياس فى مدينة أثينا الذين توارثوا هذه المهنة.

(١٧) J.Bérard (1951, p.129) ,

وعن الأصل الكريتى للفلسطين انظر الملحق: .Lochner - Hüttenbach, p.142

(١٨) W.F. Albright (1950, p.171)؛ وعن الإنتقال المبكر للألفبائية انظر .Bernal (1987a)

(١٩) عن تأثير الكتابة على اللغة المنطوقة أنظر

Lehmann (1973, pp. 178 and 226), Polomé (1981, pp. 881-5).

(٢٠) انظر الملحق.

(٢١) Fr. 16, *The Great Eoiai* (White, p. 264).

(٢٢) Strabo. V.2.4.

(٢٣) Akousilaos, fr.11. وهذا النص مقتطف فى .Ridgeway (1901, 1, p.90) وفى مكان آخر فإنه يحدد المعنى فى البلوبونيسوس كما فعل أفوروس فى القرن الرابع، انظر :

Apollodoros, II.1.1. *The Suppliants*, 251-60.

(٢٤) وبالنسبة لأيسخولوس أنظر .Herodotos, I. 58 and II. 50

(٢٥) راجع .Herodotos, 11.50-5; IV.145; VII.94 وعن أستعراض لآراء أخرى عن البلاسجيين أنظر .Abel (1966, pp.34-44) , A.B.Lloyd (1976, pp.232-4) عن الأثنيين المبكرين بوصفهم "Pelasger und Barbaren" أنظر .Meyer (1892, vol.I, p.6)

(٢٦) M. Pallotino (1978, pp. 72-3).

(٢٧) Thucydides I.3.2.

(٢٨) Herodotos, II.50-5, Diodoros, III.61.1.

(٢٩) راجع .Herodotos, VIII.44 عن الكيكروبيس كمصريين انظر الجزء الثانى، وعن هذا المعتقد حول إريخثيوس أنظر Diodoros, 1.29.1. & Schol. Aristeides, XIII.95, cf. Burton (1972, p.124). أما الرأى الشائع والسائد فهو أنه أصيل.

(٣٠) راجع ,Euripides, *Archelaos* وهى شذرة مفقودة وردت عند Strabo, V.2.4.

(٣١) *The Suppliants*, 911-14.

(٣٢) Strabo, V.2.4. and IX.2.3.

(٣٣) Pausanias, I.28.3; III.20.5; IV.36.1; VIII.1.4.-5 and 2.1.

(٣٤) Pausanias, VIII.1.4.

(٣٥) Niebuhr (1847a, vol. 1,p.28).

(٣٦) Meyer (1928, vol.2, Pt.1, p.237, n.).

(٣٧) عن عرض للآراء الحديثة أنظر Abel (1966, pp. 1-6).

(٣٨) انظر الباب السابع حاشية ٥٩.

(٣٩) Thucydides, I.3.2.

(٤٠) Ridgeway (1901, vol.I, pp. 280-92); Grumach (1968/9, pp.73-103, 400-30); Hood (1967, pp. 109-34).

(٤١) Herodotos, I.58.

(٤٢) أنظر Grote (1846-56, vol.2, p.350, etc.), Gobineau (1983, vol.I, p.663); Wilamowitz-Moellendorf (1931, vol.I, pp.60-3).

(٤٣) V.Bérard (1894); ch.IX, Note 33.

(٤٤) انظر مايلى، والجزء الثانى.

(٤٥) Sandars (1978, p.185); Snodgrass (1971, pp.180-6); Wardle (1973).

(٤٦) انظر الملحق.

(٤٧) Herodotos, I.58.

يشير آبل (Abel 1966, p.13) إلى حقيقة أن هذه المعلومة قد قدم لها بالأداة gar (= لأن، حيث أن) مما ينم عن أن هيرودوتوس كان يشير إلى مقولة تقليدية متعارف عليها وليست من ابتداعه.

(٤٨) Herodotos, VII. 94-5 trans. p.473.

(٤٩) Chantraîne (1968-75, vol.I, p.475b); T.Braun (1982, pp. 1-4).

(٥٠) يتطلب نطق الحرف اليوناني يوبسيلون υ نفساً إبتدائياً (الهاء فى العربية) ومن ثم من المحال أن يكون هناك شكل Yantes وقد يأتى دعم إضافى للإشتقاق المصرى من اسم اغريقى آخر لشعب بدائــى – ومرتبط كذلك بأتيكا – ونعنــى بـايون Paion. إذ يتفـق العلمـاء بأنـه صنـو للاسـم إيـون Ion أو إيـاؤن Iaon ولكنهم لم يتفهموا الآلية الموجودة فيما قبل العصر الهيلليني والتى عن طريقها يرتبط هذان الاسمـان. انظـر البلبليوجرافيا التى أوردها كرومى (Cromey 1978, p.63) ويمكن شرح المصدر ببساطة على أنـه مـن الكلمة المصرية p3iwn (بمعنى "البربرى").

(٥١) عن Xouthos أنظر Herodotos, VII.94; VIII.44 & Pausanias, VII.1.2. وعــن بوسيدون إله الأيونيين أنظر (Farnell (1895-1909, vol.4, pp.10-11, 33-4, etc. إن عـدم اليقين فى الحرف السيني (من سين) فـى بداية Xouthos و Zethos الـذى قـد يكـون صـورة أخـرى لسيث Seth ربما جاء من الخلط بالإله الكنعانى "سيد" إله البحر والصيد فـالأصل السـامى swd بمعنـى الصيد الذى يمثل نشاطا "محوريا" فى عبادة سيت وبوسيدون الذى كان اسمه يكتب أحيانا Poteido/an وانظر الجزء الثالث.

(٥٢) أنظر (1913) Gomme وعن استمرار هذا التأثير أنظر Muhly (1970, esp. p.40), R.Edwards (1979, p.65, n.63).

(٥٣) أنظر R.Edwards (1979, p.77, n.70.

(٥٤) K.O.Müller (1820-4, vol.I, pp.113-21).

(٥٥) R.Edwards (1979, p.77, n.70); Chantraine (1968-75, vol.I, p.21).

ولعل الجذع السامى الغربى الذى وجد فى adana الإبلية Eblaite قد جاء من الأصل المصرى idnw بمعنى المندوب أو الحاكم

(٥٦) Merkelbach and West (frs 141 and 143).

(٥٧) أنظر Catalogue of Women, fr.16 وتلك الفقرة المقتطفة عند Strabo, VIII.6.8 & fr.17. وعن شذرة مسرحية *Danais* أنظر Kinkel (1877, fr.1) & R.Edwards (1979, p.75).

(٥٨) Parian Marble, 1.11.44-5 and Herodotos, IV.53.

وعن عرض قديم للتقديرات أنظر Tatian, 1.31 وعن دراسة حول التاريخ القديـم للشـاعرين أنظـر Jacoby (1904, pp.152-8).

(٥٩) أنظر Forrest (1982, p.286) وعـن تغطيـة جيـدة للببليوجرافيا حـول الدراسـات الحديثـة عـن هيسيودوس وتواريخه راجع: G.P.Edwards (1971, pp.1-10, 200-28). وعـن المزيـد حـول هوميروس انظر الباب السادس حاشية ٣. وعن دراسات حول تاريخ متأخر لإنتقال الحروف انظـر البـاب التاسع حواشى ٧٤–٩١.

(٦٠) عن كل هذه التواريخ وظلالها السياسية أنظر Bernal (1987a; 1988).

(٦١) عن وجهة النظر هذه وشيوعها انظر Finley (1978, pp.32-3). كانت الإشارات إلى الفينيقيين وراء ماذهب إليه بعض العلماء من أن "الأوديسيا" قد نظمت في وقت متأخر عن "الالياذة" إلى حد كبير (Nilsson, 1932, pp.130-7; Muhly, 1970). ويقول موهلي Muhly (p.20, n.6) أن هذا الرأى قد طرح حتى في العصور القديمة (Longinus, De Sublimitate, IX.13).

[وتجد مناقشة علمية جادة للمشكلة الهومرية في المؤلفات العربية التي نشرها كل من محمد صقر خفاجة وعبد اللطيف أحمد على ولطفي عبد الوهاب وأحمد عتمان. المراجع].

(٦٢) أنظر Albright (1950, pp.173-6; 1975, pp. 516-26); Cross (1974, pp. 490-3; 1979, pp. 103-4; 1980, pp.15-17; Sznycer (1979, pp.89-93); Naveh (1982, pp.40-1); Helm (1980, pp.95-6, 126).

(٦٣) Finley (1978, p.33).

(٦٤) أنظر الجزء الثالث.

(٦٥) Finley (1978, p.33).

(٦٦) Forrest (1982, pp. 286-7).

(٦٧) يقبل والكوت هذا الإحتمال. Walcot (1966, p.16)

(٦٨) أنظر Walcot (1966, pp.27-53) ينبغي أن نشير إلى حقيقة أنه بينما لا يحدث خلط بين زيوس وماردوك في بلاد الإغريق فإن زيوس كان دوماً يعتبر صورة مطابقة لآمون. ومن ثم فمن المحتمل تماماً أن الأنساب التي تدور حول زيوس قد أخذت من مصر في الألف الثانية ق.م. وعن آراء والكوت حول العلاقة بين مصر وفينيقيا انظر الباب العاشر حاشية ٣٣.

(٦٩) لا يوجد سبب للشك في أن بيلينوس تعني من بيلوس *Works and Days*, p.589.

(٧٠) كان شليجل W.A.Schlegel أول من طرح فكرة أن "الضارعات" جزء من ثلاثية: عام ١٨١١ انظر Garvie (1969, p.163). وعن موضوعاتها أي المسرحية أنظر Apollodoros, II.1.3 & III.1.1, Nonnos (*Dionysiaka*, II.679-98, III.266-319), & the Scholiast on Euripides' The "Phoenician Women".
وكل ذلك لخصه إدواردز R.Edwards (1979, pp. 27-8). وأنظر كذلك Garvie (1969,p.163). وعن الإشارات إلى أميموني أنظر Frazer (1921, vol. I, p.138, n.2).

(٧١) Garvie (1969, p.29). وأورده F.R.Earp (1953, p.119),

(٧٢) Garvie (1969, pp.1-28).

(٧٣) Garvie (1969, pp.29-140).

(٧٤) أنظر *"The Suppliants"*, 1.154. وعن مناقشة حول ذلك أنظر Johansen and Whittle (1980, vol.2, p.128).

(٧٥) راجع Scholiast on "Hekabe" 886. انظر المقال فى Pauly-Wissowa, IV,2,2094-8.
وعن ازدواجيته انظر Garvie (1969, p.164, n.3).

(٧٦) "*The Suppliants*", ls.911-14, trans. Weir Smyth pp. 89-91.

(٧٧) راجع: Diodoros, 1.24.8. وتقول مصادر معلوماته بأن الإلهة إيو هى ايزيس.

(٧٨) 46.20. Astour (1967a, pp.86-7, 388).

(٧٩) Johansen and Whittle (1980, vol.2, p.171).

(٨٠) راجع: ls. 155-8, 228-34, 822-4.
وانظر Johansen and Whittle (1980, vol.2, p.184).

(٨١) أنظر Ahl (1985, esp. pp.17-63).

(٨٢) راجع: Garvie (1969, pp.71-2). ويستخدم هيرودوتوس (Herodotos, IV.199) كلمة bounos بمعنى التل (مع أنها الكلمة المستخدمة دوماً فى اليونانية الحديثة للدلالة على الجبل وهو استخدام نادر فى اللغة الإغريقية القديمة) ويقول إنها جاءت من قوريني (الشحات) فى ليبيا أنظر Garvie (p.71). & Johansen and Whittle (1980, vol.2, pp.105-6). ويبدو لى أنه من المقبول به الربط – ولو من باب اللعب بالكلمات أو التورية – بالجذع المصرى القديم √bn, الموجود فى الكلمات *wbn* بمعنى "يطلع مثل الشمس" و *bnbn* (القمة، الذروة أو التل البارز) أنظر A.B.Lloyd (1976, pp.318-19)

(٨٣) Garvie (1969, p.72).

(٨٤) J.Bérard (1952, p.35).

(٨٥) ويورد كل من آستور وجوهانسين وهُوتيل Astour (1967a, p.94). Johansen & Whittle, (1980, vol.2, p.45). دون ذكر المرجع اعتراضات J.R.Harris على كم هذا الصائت حيث أصيب ببعض التحريف من جراء التغيير والإستعارة وهى قضية ضعيفة. وقد أشار كل من جوهانسين Johansen و هُوتيل Whittle إلى اهمال الكم فى تأصيل اشتقاقات أيسخولوس (ص ١٠٥) وكان هجوم هاريس Harris الرئيسى على الأسس الإيديولوجية للقول بأن الربط بين Epaphos و Aphophis لا معنى له.

(٨٦) *Iliad*, 1.270; 3.49 and *Odyssey*, 7.25; 16.18, cited in Johansen and Whittle (1980, vol.2, p.105).

(٨٧) الآراء عن معرفة القدامى انظر على سبيل المثال Fréret (1784, p.37) وعن وجهة النظر الحديثة أنظر Sheppard (1911, p.226).

(٨٨) Vercoutter (1975, cols 338-50).

(٨٩) Van Voss (1980, cols 52-3).

(٩٠) *The Suppliants*, 260-70 (trans. Weir Smyth, 1922, vol.1, p.27).

(٩١) van Voss (1980, cols 52-3); Budge (1904, vol.1, p.198).

(٩٢) كاستور المشار إليه عند يوسيبيوس .(Eusebius, 1866, p.177) وعن تعقيدات نص يوسيبيوس أنظر: .(A.A.Mosshammer (1979, pp.29-112 وانظر كذلك (Fréret (1784, p.20 أنظر أعلاه حواشي ٨-١٠ عن مختلف معاني الاسم أرجوس.

(٩٣) Num. 13:22-33; Deut. 1:28, 2:10-21, 9:2; Josh. 11:21-2, 14:12-15, 15:14 & 15:13-14; Judg. 1:20.
عن الفلسطين انظر الملحق. يرى جوبينو Gobineau 1983 vol.1, p.663 أن إيناخوس و nax من السامية anáq.

(٩٤) في Num. 13.22 يقال بالتحديد إن Hebron – التي ربما كانت الاسم الأحدث لقريات عربه Qiriat Araba قد أسست قبل زون Zoan بسبعة أعوام. وزون يبدو أنها هي عاصمة الهيكسوس آفاريس Avaris المؤسسة في القرن السابع عشر أو قبل ذلك.

(٩٥) راجع (Fréret (1784, p.37. إن إشتقاق الكلمة من √nq (العقد أو العنق) يبدو فولكلورياً.

(٩٦) ستتم مناقشة الجانب الصوتي من هذا الدين في الجزء الثاني.

(٩٧) راجع Apollodoros, II.1,4. وعن الاختلافات أنظر: .(Frazer (1921, vol.1,pp.134-5
إن فكرة الماء – الحياة أو العيش والماء المنساب مسألة طبيعية وهي متضمنة في الفكرة الإغريقية المتأخرة "الماء الحي" ,ζῶν ὕδωρ وفي التقاليد اليهودية والمسيحية فنجدها في الكلمة العبرية מַיִם חַיִּים وأنظر: (Leviticus 14:5, 6, etc.) .Daniélou (1964, pp.42-57) وعن تعقيدات لاتينية أكثر حول علاقة إيو بأبيها إيناخوس (إله النهر) وصاعقة Flumen زيوس مغتصب إيو في Ovid *Metamorphosis*، وأنظر: .(Ahl (1985, p.86

(٩٨) أنظر: Astour (1967a, p.86).

(٩٩) Johansen and Whittle (1980, vol.2, p.65).

(١٠٠) أقبل وجهة نظر: T.T.Duke (1965, p.133).

(١٠١) أنظر: .(Ahl (1985, pp.151-4. وعن جذور فكرة إعتبار ايزيس والقمر شيئا واحداً عند المصريين القدامى والإغريق أنظر: .(Hani (1976, p.220

(١٠٢) أشرنا في المقدمة إلى الأصول المصرية لأثينة Athena مثل أصول زوج ليبيا بوسيدون Poseidon وسوف نتناولها بالتفصيل في الجزء الثاني.

(١٠٣) أنظر: (Meyer (1892, vol.1, p.81 كما جاء عند (Astour (1967a, p.80 ويزعم ماير أن تركيبة الإسم بيلوس Belos تدل على أنه لايمكن أن يكون من الكنعانية بعل Baal بل ربما من الآرامية *bᵉʿēl* فهي اذن اشتقاق متأخر. ومع ذلك فمن الممكن أن تكون قد تغيرت من Balos إلى Belos في اليونانية.

(١٠٤) سوف نناقش في الجزء الثاني التشابك في الجذور المصرية السامية وكذا كلمة Phoinix.

(١٠٥) Astour (1967a, p.81).

(١٠٦) فى نصين متوازيين يعودان إلى حوالى ٢٥٠٠ ق.م. أحدهما من المدينة السورية إبلا Ebla والثانى من أبوسلابيخ Abu Salabikh (أبو صلاح بيك؟) فيما بين النهريـن نجـد الاسمين Amni و DA-ne[ki] فى مكانين متقابلين – وفيما يبدو متنافسين – فـى المنطقـة الغربيـة (G.Pettinato, 1978, p.69, no.186) .... واقترح علىّ المؤلف (فى لقاء شخصى مارس ١٩٨٣) أن الاسم الأول يمكن ربطه بالمدينة الكريتية Amnisos وهو الذى ورد فى نقوش خط الكتابة بـ Linear B وفى اللغة المصرية القديمة من الألف الثانية. وفى هذه الحالة – أو حتى فى حالة أن Amni كـان مصطلحاً مولـداً للتعبير عن "الغرب" وهو فى المصرية imn فإن أرض دانى Da-ne يمكن أن تكون كريت.

(١٠٧) أنظر .Helck (1979, pp.31-5; Gardiner (1947, vol.1, pp.124-6) وانظر الجزء الثانى عن مزيد من التفاصيل.

(١٠٨) Astour (1967a, pp. 1-80).

(١٠٩) أنظر

Gordon (1962b, p.21); Yadin (1968); Arbeitman and Rendsburg (1981).

لمزيد من الدراسات عن هذا الموضوع وآراء جديدة.

(١١٠) Gardiner (1947, vol.1,p.126); Morenz (1969, p.49).

قد يبدو الجذع Ini (ينمو ويكبر) الأصل ولكن الاتجاه العام إلى تحسين اللفظ الذى يحيط بفكرة الموت عند الإغريق فى أصل √θv والموجود فى كلمة thanatos وغيرها يجعل كلمـة "الموت" ذات علاقة أو "ذات إيحاءات" بالكبر فـى السـن". وعـن ربـط المصريـين فكـرة المـوت بكـبر السـن أنظـر .Hornung (1983, pp.151-3)

(١١١) وعن الشكوك فى هذا التراث انظر ماسبق فى المقدمة ص١٢٩–١٣٣..

(١١٢) Johansen and Whittle (1980, vol.2, p.5).

(١١٣) Farnell (1895, vol.1, pp.72-4); A.B.Cook (1925, vol.2, pt,2, pp.1093-8).

(١١٤) والأخرى على يد يوريبيديس.

(١١٥) راجع: *The Phoenician Women*, 202-49.

وقارن: *The Bakchai*, 170-2, 1025 and *Phrixos*, frs 819 & 820.

(١١٦) عن عرض عام أنظر R.Edwards (1979, pp.45-7).

(١١٧) Herodotos, II.182 (trans. p.201).

(١١٨) Herodotos, IV.147 (trans. p.319).

(١١٩) Herodotos, II.171 (trans. p.197).

(١٢٠) Herodotos, V.58 (trans. p.361).

(١٢١) راجع Herodotos, II.49-52 (trans. pp.149-51) وعن محاولات أكثر تفصيلا وحداثة أنظر Froidefond (1971, pp.145-69); A.B.Lloyd (1976, vol.2, pp. 224-6).

(١٢٢) Herodotos, 11.55-8.

(١٢٣) Plutarch, *De Malig.* وعن الجدية التى بدأ العلماء المحدثون يعالجون بها كتابات هيرودوتوس فى الخمسين سنة الأخيرة أنظر A.B.Lloyd (1976).

(١٢٤) Herodotos, II.49 (trans. p.149).

(١٢٥) Thucydides, I.8.

(١٢٦) Herodotos, VI.53-4.

(١٢٧) Thucydides, I.3.2.

(١٢٨) انظر على سبيل المثال Sondgrass (1971, p.19).

(١٢٩) راجع Thucydides I.3.2 وعن المناقشة حول ذلك أنظر Strabo, VIII.6.6. تستخدم الصيغة καθ Ελλαδα και μεσον Αργος, "عبر هيللاس وأرجوس الوسطى" للدلالة على بلاد الإغريق فى الأوديسيا Odyssey, I.343-4; IV.726, 816; XV.80.

(١٣٠) Thucydides, I.1.

(١٣١) راجع: *Panegyrikos*, 50 (trans. Norlin, p.149). وعن سياق هذه الخطبة أنظر Bury. (1900, pp. 540-1, 568-9). وانظر أيضاً: Snowden (1970, p.170), الذى يرحب بذلك برهاناً على أن الإغريق لم يعرفوا العنصرية.

(١٣٢) Diogenes Laertius, VIII.86-9; de Santillana (1963, pp.813-15).

(١٣٣) *Helen*, X.68 (trans. p.226).

(١٣٤) أنظر *Bousiris*, 30. Pace Smelik and Hemelrijk (1984, p.1877), عن الذين ارتدوا ألواناً مخالفة للألوان المصرية على أكمامهم.

(١٣٥) *Bousiris*, 16-23.

(١٣٦) *Bousiris*, 28.

(١٣٧) أنظر Cicero, *Tusculanae Disputationes*, V.3.9; وستتم مناقشة اشتقاق كلمة sophia "الحكمة" من المصرية "أعلم، أتعلم" فى الجزء الثانى.

(١٣٨) Bury (1900, p.541); Gardiner (1961, p.374) and Strauss (forthcoming, ch.6). إن الإسم سلاميس Salamis الذى هو اسم ميناء فى قبرص وفى غرب أثينا وقد كان ملجأ أمن وسلام للسفن فهو بوضوح من اشتقاق سامى أى "سلام" الموجود فى الاسم العربى "دار السلام" ولقد ثبت أن أثينا هى الطرف الضعيف فى الإتحاد.

(١٣٩) Wilamowitz-Moellendorf (1919, vol.I, pp.243-4; vol.2, p.116, n.3).

(١٤٠) Plutarch, *De Iside*, 10; *Lykourgos*, 4; Froidefond (1971, pp.243-6).
وفي الحاشية ٧٧ يعترف أن سترابون – القرن الأول – يشير كذلك إلى دين ليكورجوس لمصر.

(١٤١) انظر الجزء الثاني.

(١٤٢) *Bousiris*, 18 (trans. p.113).

(١٤٣) Froidefond (1971, p.247).

(١٤٤) راجع Herodotos, II.81. ولتأكيد متأخر أنظر Diogenes Laertius, VIII.2-3، وعن محاولة الإنكار أنظر Delatte (1922, p.152).

(١٤٥) *Bousiris*, 28; Isokrates, p.119.

(١٤٦) انظر على سبيل المثال Norlin's trans., p.112, n.I.

(١٤٧) انظر المناقشة في Froidefond (1971, pp. 240-3).

(١٤٨) وعن عرض للمناقشات بين أنصار النموذج الآرى من العلماء حول ما إذا كان أفلاطون قد زار مصر أم لا أنظر Froidefond (1971, p.269, n.24) and Davis (1979, p.122, n.3). ومن الملاحظ على أية حال أن دافيس Davis يشير إلى أن "هذه الرواية لم ينكرها صراحة أحد من علماء الكلاسيكيات الموثوق بهم" إلا أنه ينبغي أن نشير إلى أن أكبر المتشككين في زيارة أفلاطون لمصر نجده في شخص T.Hopfner ولاسيما في مؤلفه Phutarch über Isis und Osiris.

(١٤٩) *Phaidros*, 274 D (trans. H.N. Fowler, p.563).

(١٥٠) *Philebos*, 16C; *Epinomis*, 986E-987A.

(١٥١) Davis, 1979, pp. 121-7.

(١٥٢) يشار إليه عند Proklos, In *Tim.* LXXVI (trans. Festugière, 1966-8, vol.I, p.111). إما رواية افلاطون حول اسطورة أطلانطيس (أتلانتيس) فسوف يشار إليها فيما بعد.

(١٥٣) Marx, Kapital, vol.I, Pt.4 (1983, p.299).

(١٥٤) Popper (1950, pp. 495, 662).

(١٥٥) عن الأول أنظر A.E. Taylor (1929, pp.275-86). وعن الثانى انظر على سبيل المثال Lee (1955, Introduction).

(١٥٦) راجع Herodotos, II.29, 62; Plato, *Timaios*, 21E. وعن التفاصيل حول العلاقة الحقيقية بين سايس Sais وأثينا انظر الجزء الثاني وانظر برنال Bernal (1985a, pp. 78-9).

(١٥٧) *Timaios*, 22B (trans. Bury, 1913, p.33).

(١٥٨) راجع *Timaios*, 23A. ومن المحتمل أن يكون أفلاطون هنا يسجل رواية أقدم. وعن الأساطير التى تدور حول الكوارث سنناقشها فى الجزء الثاني ومن المحتمل أن يكون هناك نوع من التسمية المقدسة أو اللعب بالألفا ط أو التورية Paranomasia بحيث أن الكاهن يعنى بالنسبة لأثينا Ht.Nt "المقدس" ومن هنا الاسم القديم لسايس انظر المقدمة والجزء الثانى و Bernal (1985a, p.78).

(١٥٩) بالنسبة لايسوكراتيس أنظر حاشية ١٣٣ أعلاه وعن افلاطون أنظر Menexenos, 245D.

(١٦٠) انظر حاشية ١٣٢ أعلاه.

(١٦١) *Meteorologika*, I.14.351b, 28.

(١٦٢) *Metaphysika*, I.1.981b.

(١٦٣) راجع *De Caelo*, II.14.298a. وعن المحاولات الحديثة لحذف الفلك من القائمة أنظر Froidefond (1971, p.347.n.35).

(١٦٤) Froidefond (1971, p.350, n.61).

(١٦٥) أنظر G.G.M. James (1954, pp.112-30) الذى يزعم بأن هذا الموقف أتاح له أى أرسطو الإقتراب من المكتبات المصرية التى بدورها تستطيع أن تشرح الحجم غير المعقول وكذا المدى الواسع لكتابات أرسطو. هذا الرأى وكذا الإتجاه العام لإعتبار الفتوحات اليونانية فى الشرق الأوسط قد تكررت فى الفتوحات العربية الاسلامية بعد ذلك بألف عام – وهكذا فإنهم أغرقوا أو عرّبوا الكثير من الثقافات السابقة وأضاعوا بقيتها. – هذا الرأى لا يمكن التحقق منه جدياً ولكنه بحاجة إلى تمحيص.

(١٦٦) H.-J. Thissen (1980, cols 1180-1).

(١٦٧) وردت الإشارة إليه عند
Diodoros, XL.3.2, trans. F.R.Walton and R.M.Geer, vol.XII, p.281.

(١٦٨) ترد الاشارة إلى هذه الرسالة عند كل من
I.Maccabees XII: 20-2 and Josephus, *Antiquities* XII.226.
ومع أن الأستاذ مومليانو Momigliano يثق فى كل الوثائق الواردة عند I.Maccabees إلا أنه يتحفظ على هذه الرسالة أى أنه مشكوك فى صحتها. ولأنه يعمل داخل دائرة النموذج الآرى فمن الطبيعى أن يعامل فكرة العلاقة بين اليهود والإسبرطيين على أنها من اللامعقول (Momigliano 1968, p.146) راوسون E.Rawson (1969, p.96) فهو كذلك لا يصدق الأمر. ولا يشير أحدهما إلى عمل ماير E.Meyer المتعمق فى هذا المجال (1921, p.30) حيث يقبل أصالة هذه الرسالة وصحتها ويربطها بعمل هيكاتايوس ولا يشك فيها كل من كلاوسنر J.Klausner (1976, p.195) و أستور Astour (1967a, p.98).

(١٦٩) عن المناقشة حول ما إذا كان كادموس مصرياً أو فينيقياً أنظر Pausanias, IX.12.2. وعن الاختلاف بين المؤرخين القدامى حول تاريخ قدوم كادموس إلى بلاد الإغريق أنظر R.Edwards (1979, p.167).

(١٧٠) Zenodotos, quoted in Diogenes Laertius, VII.3 and 30 (trans. Hicks, vol. II.p.141).

(١٧١) Diodoros Sikeliotes, I.9.5-6 (trans. Oldfather, vol. I, pp.33-5).

(١٧٢) Diodoros Sikeliotes, V.57.1-5 (trans. Oldfather, vol. III, pp.251-3).

(١٧٣) Diodoros Sikeliotes, V.58.

(١٧٤) Oldfather, vol. III, pp.252-3).

(١٧٥) Diodoros Sikeliotes, 1.9.5-6 (trans. Oldfather, vol. I, pp. 33-5).

(١٧٦) Diodoros Sikeliotes, 1.28-30 (trans. Oldfather, vol. I, pp.91-7).

(١٧٧) Pausanias, II. 30.6 (trans. Levi, vol. I, p.202).

(١٧٨) Pausanias, II .38.4 (trans. Levi, vol. I, pp. 222-3).

(١٧٩) تمت الإشارة فى المقدمة إلى فكرة اعتبار بوسيدون صورة من سيت وسوف نفصل القول فى الجزء الثالث.

(١٨٠) Pausanias, IV.35.2 (trans. Levi, vol. II, p.187).

(١٨١) Pausanias, IX.5.1 (trans. Levi, vol. I, p.317).

(١٨٢) انظر الحاشية رقم ٥٠ أعلاه.

(١٨٣) *De Malig.* 13-14 (trans. Pearson and Sandbach, pp.27-9).

(١٨٤) L. Pearson and F.H. Sandbach, p.5.

(١٨٥) Pausanias, IX.16.1 (trans. Levi, vol. I, p.339, n.75).

(١٨٦) راجع .Pausanias, III.18.3 (trans. Levi, vol. II, p.62) وسنناقش هذه النبؤة فى الجزء الثالث.

(١٨٧) Pausanias, III.18.3 (trans. Levi, vol. II, p.62 and Levi's note 153).

(١٨٨) F.Dunand (1973, p.3); S.Dow (1937, pp.183-232).

(١٨٩) راجع Arrian, *Alexander*, 111.3.2; Lane-Fox (1980, pp.202, 207). عن القرون انظر التشابه المذهل بين عملة سكندرية وأخرى لآمون فى قوريني (= الشحات) – مستوطنة إغريقية على ساحل ليبيا – فى Lane-Fox (1980, pp.200-1). تصور عملات قوريني آمون أحيانا على نحو يشي "بلمسة الدم الزنجي" أنظر .Seltman (1933, p.183)

(١٩٠) Arrian, IV.9.9; Lane-Fox (1980, pp.388-9).

(١٩١) Hornung (1983, pp.93-5).

(١٩٢) راجع .Diodoros Sikeliotes, III.68-74 وانظر الجزء الثالث حول هذا الدمج الإغريقي – ولاسيما الكريتي – فى مجال الدين.

(١٩٣) راجع Diodoros Sikeliotes, I.17.3-1.20. عن العلاقة بين أوزيريس – جواب الآفاق لتعمير الأرض – وديونيسوس انظر بلوتارخوس Plutarch, *De Iside*... 13, 365B. Helck (1962, col. 505). ينكر هيلك أن أسطورة فتوحات أوزيريس ذات أصول فى التراث المصرى. ويقول هانى J.Hani "من المدهش ملاحظة أن هيلك قد حذف "النشيد إلى أوزيريس" الموجود فى

اللوفر والذى يشير إلى هذه الرواية وذلك التراث المصرى. على أن هذا الحذف لا يذهلنى لأنه جاء من الحصن الآرى العتيد أى موسوعة باولى فيزوفا "Pauly Wissowa".

(١٩٤) Bakchai, 13-20. See Frazer (1921, pp.324-5).

(١٩٥) Arrian, IV.9.5, 10.6; VII.20.1.

(١٩٦) Arrian, V.2.1 (trans. Robson, vol. II, p.7).

(١٩٧) Arrian, VI.27.2 (trans. Robson, vol. II, p.191).

(١٩٨) أنظر Lane-Fox (1980, pp.121-3; وعن الأسلوب المصرى فى الدفن راجع الباب العاشر: ص٥٨٣-٥٨٥.

(١٩٩) أنظر Parke (1967, pp. 222-30). وعن رأى آرى متطرف راجع: Wilcken (1928; 1930). وعن حياة فيلكن الناجحة فى ظل الرايخ الثالث راجع: Canfora (1980, p.136).

(٢٠٠) انظر أيضا: Hani (1976, p.8). عن بيليوجرافيا لهذا الإتجاه. وهناك سلسلة متصلة من مؤلفات M.J.Vermaseren مكرسة لهذا الموضوع Etudes préliminaires aux religions orientales dans l'empire romain. Leiden: 1961).

(٢٠١) Z[illegible]er (1950, pp. 151-2); Froidefond (1971, p.228); Dunand (1973, p.5)

(٢٠٢) Pa[illegible]nias, I.41.4; Dunand (1973, pp. 13, 99).

(٢٠٣) Dunand (1973, p.89).

(٢٠٤) Pausanias, I.41.4; II.3.3; II.32.6; III.9.13; III.14.5; III.18.3; IV.32.6; VII.25.5; X.32.9.

(٢٠٥) عن انتشار عبادة ايزيس – على سبيل المثال – انظر البيليوجرافيا – غير الكاملة – وإن كانت ضخمة التى جمعها Leclant (1972, 1974).

(٢٠٦) Smelik and Hemelrijk, 1984, pp.1931-8.

(٢٠٧) انظر R.Lambert, 1984, esp. pp.121-7 and 157-60.

(٢٠٨) Smelik and Hemelrijk (1984, pp. 1943-4).

(٢٠٩) *De Republica*, III.9.14 (trans. Smelik and Hemelrijk, 1984, p. 1956).

(٢١٠) Smelik and Hemelrijk (1984, pp. 1965-71).

(٢١١) انظر – كمثل واحد من بين الكثير – بلوتارخوس وإشارته إلى النشيد الذى يسمى أوزيريس "ذلك الذى يختفى فى أحضان الشمس" (54-372B) والإشارات المصرية إلى حضن الروح Re وروح أوزيريس. ويقول هانى (1976, p.219) Hani عن ذلك "هنا مرة أخرى يمكن الإعتماد على معلومات بلوتارخوس الجديرة بالثقة".

(٢١٢) أنظر .Gwyn Griffiths (1980, col.167) وينبغى أن نشير إلى أن جريفيثز لا يقبـل الإقـلال مـن شأن المصادر الإغريقية حول الحضارة المصرية كما يفعل آخرون مثل فرواردفون Froidefond.

(٢١٣) Froidefond (1971).

(٢١٤) راجع .Plutarch, *On Isis...* 35.364.E (trans. Babbit, p.85)؛ هنـاك مصـادر أخـرى كثيرة ومن بينها نشير بصفة خاصـة إلى العلاقة بين العبـادة الدلفيـة والمصريـة فـى هـذا المؤلـف وغـيره Jeanmaire (1951, p.385); Hani (1976, p.177). See also Heliodoros, II.28.

(٢١٥) 13, 356B; 28, 362B.

(٢١٦) Griffiths (1970, pp.32 0-1).

(٢١٧) Clement of Alexandria, *Protreptikos*, II.13.

(٢١٨) Snodgrass (1971, pp. 116-17).

(٢١٩) Heliodoros, II.27.3.

(٢٢٠) Apuleius, XI.5 (trans. Griffiths, 1975, p.75).

(٢٢١) Iamblichos, VII.5.3 (trans. T.Taylor, 1821, p.295).

حواشى الباب الثانى

(١) Gibbon (1776-88, vol.3, pp. 28, 199-200; vol. 5, pp. 109-10).
وتجـدر الإشـارة هنـا إلى أن المكتبة الكبرى (الأولى) قـد دمـرت عرضـاً علـى يـد جيـش يوليـوس قيصـر [(الواقـع أن الـذى أحـرق هـو جـزء مـن المكتبـة فقـط. المراجـع)]، أمـا المكتبـة الصغـرى (الثانيـة) فقد كانت لا تزال الأعظم فى وقتها.

(٢) أنظر على سبيل المثال Baldwin Smith (1918, p. 169).

(٣) Juster (1914, vol. I, pp. 209-11, 253-90).

(٤) Juster (1914, vol. I, p.211); Baron (1952, vol. 2, pp. 93-8, 103-8).

(٥) Herodotos III 27-43.

(٦) عـن ثـراء المعابد المصريـة الفـاحش والأعـداد الضخمـة مـن العبيـد التى كـانت تتبعهـا راجـع:
Cumont (1937, pp. 115-44).

(٧) *Ezra* 1: 2-4.

(٨) Neusner (1965, vol. 1, pp. 70-3).

(٩) عن وجهتى نظر معارضتين فى هذا الموضوع راجع:

de Santillana (1969); Neugebauer (1950, pp. 1-8)

(١٠) Virgil, Eclogues, IV. lines 4-10 (trans, Fairclough, 1932, vol. 1, p.29).

Pulleybank (1955, pp.7-18)

(١١) Pulleybank (1955, pp. 7-18).

(١٢) أنظر Finkelstein (1970, p. 269).

(١٣) راجع بصفة خاصة الأبواب ٤١–٤٥ (367C- 369C). وينسب اكتشاف هذه الظاهرة إلى هيبارخوس الفلكى الذى عاش فى الإسكندرية إبان القرن الثانى قبل الميلاد.

(١٤) Gardiner (1961, pp. 64-5); von Bekarath (pp. 297-9).

(١٥) أنظر Griffiths (1970, p. 34. وللأقباط إصطلاح مستعمل ومثير للإهتمام هـو: هاسييى" Hasie" والذى يقترح "سيرنى" Cerny أنه مشتق من اللفظ الأقدم: هسى" Hsi بمعنى الغارق المبارك" وربما كان لهذا إرتباط ما بهذه الأساطير. أما أصل الكلمة اليونانية "Hosio" بمعنى مقدس أو خال من الدنس فيبدو أنه أيضاً قد اشتق من اللفظ السابق، وقد يكون هذا الإفتراض أرجح من كونه مأخوذا عن الجذر الهندو-أوروبى (إس) "√es" بمعنى "يكون"، وسوف نناقش هذه القضية بتفصيل أكثر فى الجزء الثالث.

(١٦) Lambert (1984, pp. 126-42).

(١٧) Gamer-Wallert (1977, pp. 228-34); Griffiths (1970, pp. 342-3, 422-3).

(١٨) رغم أن الإله "داجون" Dagon قد تكون له علاقة بالكلمة اليونانية "دراكون" Drakon بمعنى سمك أو "دراجون" بمعنى تنين، إلا أنه إرتبط بشكل تقليدى بالكلمة العبرية "داج" Dag بمعنـى سمـك أيضـاً، كمـا تعنى كلمة "داجان" Dagan حبوب أو طعام، ويوجد إله قديم لدى الساميين يسمى "داجـان" يبـدو أنه قد ظهر فى "إبلا" فى الألف الثالث قبل الميلاد. راجع: Pettinato, (1981, pp. 246-8). وعلى أية حال فالإسرائيليون لا ينظرون بشكل عام للأسماك على أنها من المقدسات أو المحرمات.

(١٩) John 21: 1-14.

(٢٠) Baldwin Smith (1918, pp. 129-37).

(٢١) راجع *De Baptismo*, I. وعن موضوع الأسماك التى تعيش فى "الماء الحى" فى فكر المسيحيين الأوائـل أنظر Daniélou (1964, pp. 42-57). وربما كـان ترتيليـانّ و Tertullian يشير بشـكل مـن الأشكال إلى الحقيقة المعروفة بأن "برج الحمل" يتبع أو يأتى بعد برج الدلو "حامل الماء".

(٢٢) Hornung (1983, p. 163).

(٢٣) *Corpus Hermeticum*, II. 326-8 (trans. F. Yates, 1964, pp. 38-9).

(٢٤) عن هذا الموضوع راجع الدراسة الممتازة لديبوى Dupuis (1822, vol. 1, pp. 75-322)، كما ستتم مناقشة أوجه التشابه هذه فى الباب الثامن من هذا الكتاب.

(٢٥) حدثت عدة محاولات لإختزال الهرمسية وماحولها من فلسفات فى نسق واحد، قام بها عدد من الدارسين أشهرهم –كرول J.Kroll– الذى يحيط بالموضوع – بدون شك – أكثر منى. أنظر Blanco (1984, p. 2268).

(٢٦) عن مفهوم الرقم "ثلاثة" فى العصور القديمة وعصر النهضة راجع: Wind (1980, pp. 41-6).

(٢٧) Des Places (1984, p. 2308).

(٢٨) Hobein (vol.2, p.10, trans. Murray, 1951, p.77. n.1).

ويشير إليه (1968, pp. 219-20)

(٢٩) Pagels (1979, p. xix).

(٣٠) Porphery, *Vita Plotini*, X.

(٣١) Des Places (1975, pp. 78-82).

(٣٢) راجع Plato, Republic, XI.

(٣٣) يبدو أن النساء فى الغنوسية قد حصلوا على قدر من الحرية يتماشى مع الحرية التى حصلت عليها النساء من الطبقات العليا قديماً. راجع: Pagels (1979, pp. 48-69). وبالمثل فلا يوجد شك فى أن الظروف الإجتماعية للنساء فى مصر القديمة كانت أفضل من مثيلاتهن الكنعانيات أو اليونانيات. باجلس، (Pagels, pp. 63-64). ويقول بروفسور مورتون سميث Morton Smith أن المسيحية قد أخذت موقفاً متشدداً من المرأة لأن الطبقة الإجتماعية الأكثر تأثيراً داخل الديانة كانت هى الطبقة الدنيا، وكانت المرأة كجزء منها تشكل عنصراً هاماً فى إقتصاد العائلة. هذه الطبقة تحولت تدريجياً لتصبح جزءاً من الطبقة الوسطى حيث تم عزل المرأة فى منزلها.

(٣٤) Blanco (1984, p. 2242).

(٣٥) على سبيل المثال انظر كمثال للأدبيات الهرمسية ماظهر فى المكتبة الغنوسية التى اكتشفت فى نجع حمادى (Blanco, 1984, pp. 2248-9, 2252). ويوجد ثبت حديث بأهم المراجع التى تبحث فى الهرمسية وعلاقتها بالمدارس الأخرى عند بلانكو: صفحات ٢٢٤٣-٢٢٤٤. وكمثال على العلاقة بين الأفلاطونية الحديثة والهرمسية أنظر

Des Places (1975, pp. 336-7); Dieckmann (1970, pp. 18-25).

(٣٦) وعن قائمة بالدراسات التى تبحث فى أثر الهرمسية على الغنوسية راجع: Blanco (1984, p. 2278. n.102). وعن أثرها على الأفلاطونية الحديثة راجع: Des Places (1975, pp. 76-7; 1984, p. 2308)

(٣٧) Bloomfield (1952, p.342), cited in Yates (1964, p. 2, n.4).

(٣٨) Blanco (1984, p. 2264).

(٣٩) أنظر Blanco (1984, p. 2272). ومن المثير للدهشة أن نلاحظ كيف تجاهلت الباحثة إلين باجلس الأثر المصرى وفكر الهرامسة على الغنوسية فى كتابها الشهير عن هذا الموضوع بينما حاولت فى نفس الوقت الإفتراض بوجود تأثير هندى اعتماداً على أدلة واهية Elaine Pagels (1979, pp. xxi-xxii). وأنظر أيضا Schwab (1984, p. 3) .

(٤٠) أنظر Yates (1964, p.3). عن قائمة بالدراسات حول الهرمسية فى القرن العشرين، وثبت بأعمال الأب فيستوجيير فى هذا الموضوع أنظر
Dieckmann (1970, pp. 18-19); Blanco (1984, pp. 2268-79).

(٤١) عن النصوص الغنوسية والتى كتبت أصلاً بالقبطية أنظر Doresse (1960, pp. 255-60).

(٤٢) Blanco (1984, p. 2273).

(٤٣) يوجد ملخص لأعمال كازوبون Casaubon في: Yates (1964, pp. 398-403); Blanco (1984, pp. 2263-4). وسنناقش فيما بعد الطريقة التى اعتمد عليها كازوبون فى إنكار وجود أشياء معينة لأنه لم يرد لها ذكر فى الأدبيات القديمة.

(٤٤) Festugière (1944-9, vol. 1, p.76).

(٤٥) Kroll (1923, pp. 213-25).

(٤٦) Cumont (1937, pp. 22-3).

(٤٧) وعن إنجازات كومون ودوره فى البحث التاريخى راجع: Beck (1984, pp. 2003-8).

(٤٨) أنظر Petrie (1908, pp. 196, 224-5; 1909, pp. 85-91). وتقوم فرضية بترى، كما تقوم قناعتى بها، على المنطق والإقناع أكثر منها على اليقين. فمن الممكن أن يكون كتاب القرن الثانى الميلادى قد تعمدوا إختيار جو وزمن آخرين لكتاباتهم كالفترة الفارسية مثلا، كما حدث فى حالة هليودوروس عندما كتب قصته "أثيوبيكا"، يضاف إلى ذلك العامل العقائدى الذى يقف وراء من حاولوا أن يؤرخوا لهذه الأعمال الهرمسية بتاريخ حديث، مما يجعلنا نميل إلى التاريخ الأقدم بشدة.

(٤٩) Scott (1924-36, vol. 1, pp. 45-6).

(٥٠) Stricker (1949, pp. 79-88); P. Derchain (1962, pp. 175-98). See Griffiths (1970, p. 520) and Morenz (1969, p. 24).

(٥١) أنظر Boylan (1922, p. 96); T.G. Allen (1974, p. 280)) ومن الملاحظ هنا أنه لم يورد تاريخاً محدداً، انظر أيضاً: Baumgarten (1981, p. 73).

(٥٢) راجع Clement, *Stromata*, VI.4.37 F. Plutarch, 61,375. وعن مناقشة رأى بلوتارخوس راجع: Griffiths (1970, pp. 519-20).

(٥٣) عن مكتشفات إسنا أنظر P.Derchain (1975, pp. 7-10). وعن مكتشفات سقارة أنظر Ray (1976, p. 159). وأنظر أيضاً Morenz (1973, p. 222).

(٥٤) Ray (1976, pp. 136-45).

(٥٥) T.G. Allen (1974, p. 280).

(٥٦) أنظر John 1:I، وعن رفض هـذه الأفكار راجـع: Festugière (1944-9, vol. 1, p. 73); Boylan (1922, p. 182).

(٥٧) أنظر Breasted (1901, p. 54). G.G.M. James (1954, pp. 139-151)، ومن الواضح أن بريستيد كان مدركاً تماماً لتعريفات "لاهوتيات ممفيس" أما كلمة "نووس" νοος اليونانية والدالة على العقل الفياض المستخدم في التفكير والإستيعاب فيبدو أنها قد جاءت من الكلمة المصرية "نـوو" nw أو vw3 بمعنى يرى أو ينظر والتي جاء منها أيضاً الفعل اليوناني "نويو" νοεω بمعنى يدرك أو يلاحظ.

(٥٨) انظر اللقب p3 nb n p3 h3ty الذى أطلق على تحوت (سـيد القلـب) والـذى اعتـبره رأى شيئاً محيراً Ray (1976 p. 161)، كما نظر إلى تحوت على أنه قلب الإلـه رع، راجـع: بـدج Budge (1904,vol. I, pp.400-1)

(٥٩) Budge, (1904, vol. I, pp. 400-1).

(٦٠) راجع Pyramid Texts, 1713 C. Griffiths (1970, p. 517). وعن بعض الأدلة الأقدم راجع: Hani (1976, pp. 60-1).

(٦١) وللعديد من هذه الإشارات إرجع إلى: Froidefond (1971, pp. 279-84).

(٦٢) Jacoby (1923-9, vol. 3, p. 264); fragm. 25, 15, 9; 16,1.

(٦٣) ظهـرت عـدة قصاصـات مـن كتابـات فيلـون عنـد يوسـبيوس الـذى كتـب فـى القـرن الثـالث الميـلادى. Eusebius, *Praeparatio Euangelica*, I.9.20-29 and I.10.

(٦٤) Albright (1968, pp. 194-6, 212-13; Eissfeldt (1960, pp. 1-15).

(٦٥) أنظر Baumgarten (1981, pp. 1-7, 122-3). وفي الجزء الثالث من كتابي هذا سأحاول البرهنة على أن العديد من الأسماء التي وردت عن فيلـون ولا يمكـن تفسـيرها فـى ضـوء الوثـائق الأوجاريتيـة أو السامية، ربما كان لها أصل مصرى.

(٦٦) أنظر Albright (1968, p.225). Baumgarten (1981, pp. 108-19). لاحظ أيضـاً التشـابه والتقارب بين النموذجين الكونيين.

(٦٧) Budge (1904, vol.I, pp. 292-3); Hani (1976, pp. 147-9). Derchain (1980, cols 747-56).

(٦٨) Gardiner (1961, pp. 47-8).

(٦٩) أنظر Renan (1868, p. 263); Albright (1968, p. 223)
وعن الآخرين راجع Baumgarten (1981, p. 92,n.94).

(٧٠) .Albright (1968, p. 193); Eissfeldt (1960, pp. 7-8). Baumgarten (1981, pp. 107-10)
وعن اليوهيميرية في الحضارة الكنعانية وتأثيرها على اليونان أنظر G.Rosen (1929, p.12).

(٧١) Jacoby (1923-9, vol.3, p.812, 15-17). Baumgarten (1981, p.69).

(٧٢) Jacoby (1923-9, vol.3, p.810, 2-5). Baumgarten (1981, p.192).

(٧٣) أنظر Pope (1973, p. 302) وسأحاول في الجزء الثاني من كتابي هذا أن أبحث في العلاقة بين كل من تحوت وأنوبيس وهيرميس وكوكب عطارد.

(٧٤) Seznec (1953, p.12)

(٧٥) أنظر Devisse (1979, pp. 39-40); Morenx (1969, p. 115).

(٧٦) *City of God*, 18. 39.

(٧٧) Blanco (1984, pp. 2253-8).

(٧٨) أنظر Scholem (1974, p.11). وعن اللفائف انظر Gaster (1964).

(٧٩) Festugière (1961-5, esp. vol. I).

(٨٠) Scholem (1974,p.9); Sandmel (1979).

(٨١) Scholem (1974, pp. 8-30).

(٨٢) Scholem (1974, p.9).

(٨٣) Scholem (1974, pp.30-42).

(٨٤) Lafont et al. II (1982, pp. 207-68).

(٨٥) Scholem (1974, p.45).

(٨٦) Scholem (1974, p.31).

(٨٧) Zervos (1920, p. 168, trans. in Blanco, 1984, pp. 2258-9)
راجع نفس العمل لإشارات أخرى عن بسللوس.

(٨٨) توضح قصة هذه الجعارين مدى سيطرة فكرة "النموذج الآرى" على عقول بعض الباحثين. فقد تم العثور على مقبرة "شيلدريك" Childeric في ١٦٥٣، ورغم أن بعض اللقى الأثرية أختفت، إلا أن الكم الأكبر حفظ وتم نشره بسرعة بواسطة طبيب هاو للآثار يسمى جان جاك شيفليه Jean-Jacques Chiflet. ومع أن بعض قطع هذا الكنز الأثرى معروضة في إحدى صالات العرض بباريس Cabinet des Medailles فإنه لازال على الباحثين المحدثين أن يعتمدوا على مانشر في القرنين ١٧ و ١٨ لما في هذه الطبعة من دقة أذهلت هؤلاء الباحثين. وفي أحدث دراسة عن هذا الموضوع قامت بها الدكتورة دوما Dumas عارضت الباحثة أراء شيفليه حول نسبة رأس الثور التي عثر عليها إلى أبيس وكتبت تقول "إننا لسنا بحاجة للبحث عن أصول مصرية أو حتى رومانية". وقالت إن هناك نماذج سكيثية مشابهة على نحو أو آخر (1976, pp. 42-3). وطرحت بديلا أخر هو التأثير الحيثي، وهى الحضارة الأناضولية التي اختفت قبل ذلك بأكثر من ألف عام. وتفسيرنا لهذا هو ارتباطها بالنموذج الآرى حيث أن الحيثيين اعتبروا من الهندو–أوروبيين. وإذا وضعنا في الاعتبار أن تشيلدريك Childeric كان في الجزء الأكبر من حياته تابعاً للرومان وقضى بعض الوقت في بلاط أتيلا Attila في المجر وأن الديانة المصرية قد أثرت

فى الولايات الشمالية للامبراطورية الرومانية المتأخرة أى ألمانيا والنمسا والمجر الآن وحتى القرن الخامس (Selem, 1980; Wessetzky 1961). وتشير كذلك إلى حقيقة أن شرلمان المسيحى أعطى أهمية خاصة لسرابيس. صفوة القول إنه ليس هناك مايغضب فى فكرة أن هناك تأثيراً مصرياً. على أية حال فإن الغضب يظهر عندما فحصت دوما تقرير شيفليه عن الجعارين المصرية فى المقبرة فهى تشرح هذه "العلطة البلهاء" وتقول: "بالتعامل مع العملة الفضية التى كان بعضها قد أصيب بالثقوب فقد أخرج شيفليه – على وجه المقارنة – بعض النماذج من مجموعته بل أخرج أيضاً بعض الجعارين. وكان البنديكتى المثقف برنار دى مونتفوكو Bernard de Montfoucon (من أعظم علماء عصره) قد ضمّ هذه الجعارين بكل إصرار إلى ما أسماه "عملة إفرنجية" ... وتكرر هذا الخطأ بسبب ماتمتع به مونتفوكو من ثقل ونفوذ علميين. وهكذا فإن مقبرة تشيلدريك قد تزودت بحوالى عشرين من الجعارين المصرية (1976, p.6). فلماذا ترى دوما فى سابقيها مخطئين قد وقعوا فى سلسلة متصلة من المزالق؟ هناك فى الواقع أسباب ايديولوجية قوية تبرر لماذا حاول علماء القرن التاسع عشر والعشرين استبعاد الجعارين من هذه المقبرة. فملوك الألمان والفرنجة الذين أسسوا المملكة الفرنسية كانوا أعزاء جداً فى قلب الحق الفرنسى French Right وفى قلب أولئك المؤمنين بالتعاون الفرنسى الألمانى. ولم يكن من باب المصادفة أن شعار حكومة فيشى الفرنسية Vichy France كانت البلطة المزدوجة الافرنجية francisque وهو مثل رائع لما وجد فى مقبرة تشيلدريك. ولذلك لم يكن مقبولاً السماح بوجود الجعارين المصرية فى مثل هذا المعبد الآرى لأن الجعارين ترمز للقوة البربرية الجنوبية. [طبعاً من وجهة نظر الآريين الشماليين المتحضرين – المراجع].

(٨٩) Seznec (1953, p. 55).

(٩٠) Blanco (1984, p. 2260; Wigtil (1984, pp. 2282-97).

(٩١) Festugière (1945, vol. I, pp. xv-xvi; vol. 2, pp.267-75). Scott (1924-36, vol. I, pp. 48-50); pace Dieckmann (1970, pp. 30-31).
ويبدو أن ديكمان لايعرف شيئا عن هذه النسخ.

(٩٢) Blunt (1940, pp. 20-1).

(٩٣) ورد ذلك عند Wind (1980), p. 10.

(٩٤) Blanco (1984, pp. 2256-60).

(٩٥) Dieckmann (1970, pp. 27-30); Iversen (1961, p.65); Seznec (1953, pp. 99-100). and Boas (1950).

(٩٦) Gardiner (1927, p.11).

(٩٧) Wind (1980, pp.230-5); Dieckmann (1970, pp. 32-4).

(٩٨) Wind (1980, p.7).

(٩٩) Bruno, *Spaccio*, Dial. 3, in *Dialeghi italiani*, pp.799-800, cited in Yates (1964), p.223.

(١٠٠) أنظر Yates (1964, pp. 12-14). واستعمال المثال هنا غير موفق فمحاورة "المأدبـة" و "الجمهوريـة" لم تكونا هما أشهر أعمال أفلاطون فى عصر النهضة بل كانت محاورة "تيمـايوس" والتـى بعكـس العملـين الآخرين كانت تعكس احتراما واضحاً للحضارة المصرية.

(١٠١) Wind (1980, p.245).

(١٠٢) سنناقش فى الجزء الثالث من هذا الكتاب الفرضية القائلـة بـأن هـذه الأسـرار والطقـوس قـد ظهـرت فـى الدولة الوسطى إن لم يكن فى الدولة القديمة.

(١٠٣) Yates (1964, pp. 84-116); Dieckmann (1970, pp. 38-44).

(١٠٤) Yates (1964, p.116).

(١٠٥) Yates (1964, pp.360-97).

(١٠٦) Yates (1964, p.85).

(١٠٧) Yates (1964, p.154); Rattansi (1975, pp. 149-66); Kuhn (1970, esp. pp. 128-30).

(١٠٨) أنظر Festugière (1945-1954, vol.2, p.319) وهو يرد عند Yates (1964, p.36).

(١٠٩) E. Rosen (1970; 1983).

(١١٠) وعن هذا التأثير راجع: Swerdlow and Neugebauer (1984, pp. 41-8). I و أود أن أشكر هنا د.جميل راغب لمساعدته القيمة لى فى هذا الجزء.

(١١١) Swerdlow and Neugebauer (1984, pp. 50-1).

(١١٢) Blanco (1984, p. 2261).

(١١٣) Eliot (1906, ch.6, pp.80-4).

(١١٤) Sauneron et al. II (1970-I, Introduction); Khattab (1982).

(١١٥) Hill (1976, p.3); Rattansi (1963, pp. 24-32).

(١١٦) Seznec (1953, p.238).

(١١٧) Seznec (1953, pp.253-4).

(١١٨) Yates (1964, p. 6).

(١١٩) أنظر حاشية ٩٩ أعلاه.

(١٢٠) Yates (1964, p. 351).

(١٢١) Yates (1964, pp.164-5).

(١٢٢) راجع Daneau, 1578 p.9 وهو وارد عند Manuel (1483, p.6.) ولقد استطعت أن أتتبـع هـذه الصلة إلى الوراء حتى Warbuston (1736-9, vol.3, p. 398). وأنظـر أيضـاً McGuire & Rattansi (1966, p.130) والذى يعـود بهـذا الاتحـاد إلى العـالم (الفريزيـانى Frisian) أركـيريوس

Arcerius فى حاشية على ترجمته لمؤلف يامبليخوس *De Vita Pythagorae* المنشور عـام ١٥٩٨. ولقـد أظهـروا ربطـه موسـخوس Moschos بموخـوس Mochos (أنظـر أعـلاه حاشـيـة ٧٠) وهـذه الفرضيات ليست بهذا الجنون الذى قد تبدو عليه. فهناك رواية تقليدية عـن استعارة مصـر للمعرفـة مـن سوريا – التى نقول نحن المحدثين عنها الآن فينيقيا وسوريا ومابين النهرين. وليس هناك مـن اعـتراض قـوى على ربط موسخوس بالكلمة العبرية أو الآرامية Moseh فالسين كانت تنقل إلى الإغريقية sch أما الـ - os فهى نهاية المذكر فى اللغة الإغريقية. وهذا ليس معناه أن الاسـرائيليين كـانوا يمتلكـون معرفـة علميـة موازية – أو مساوية – (ولننحى جانباً صفة أعلى أو أسمى) لمعرفة المصريين. أكـثر مـن ذلـك فـإن الكلمـة s-sch جاءت فى وقت متأخر لما يدعم ببرهان صوتى نظرية أن هـذه الروايات هيللينسـتية عندما ساد الإعتقاد بأن اليهود من كبار علماء الفلك. أنظر Theophrastos, *Peri Euseb*, I.8, cited in M.Stern (1974, vol. I,p. 10). See also Momigliano (1975, pp. 86-8)

حواشى البـاب الثالث

(١) أنظر ates (1964, p.141)، وانظر أيضاً Dieckmann (1970, pp.104-5)

(٢) Scott (1924, p-36, vol. I, pp.41-43); Blanco (1984, pp.2263-4)

(٣) Cudworth (1743, p.320) مقتبسا عند Yates (1964, p.429); Dieckmann (1970, pp.105-7)، وللمزيد عن أفلاطونيى كيمـبردج والهرمسية انظـر Patrides (1969, pp. 4-6), Rattansi (1975, pp. 160-5) ولا يبـدو أن الدارسـين الذيـن كتبـوا قبـل ييتـس قـد نظـروا إلى اهتمامات أولئك بالهرمسية على أنها أمر له مغزاه، انظـر Cassirer (1970) الـذى كـتـب قبـل ذلـك بسنوات عديدة، وانظر أيضاً Colie (1957).

(٤) انظر ما سبق فى الباب الثانى، حاشية ٤٨.

(٥) Yates, (1964, pp.398-9, 432-55); Blanco (1984, p. 2264); Scott (1924-36, vol. I, p.43).

(٦) راجـع Yates (1964, pp.432-55) Blanco (1984, p.2264، وعـن فلـد والحـروف الهيروغليفية انظر Dieckmann (1970, pp. 76-7).

(٧) Godwin (1979); Iversen (1961, pp.89-90); Dieckmann (1970, pp.97-9).

(٨) Kircher (1652, vol.3, p.568; trans, Yates, 1964, pp.417-17).

(٩) أنظر Tompkins (1973, p-30)، وإنه لمما يؤسى له أن كتاب تومبكنز هذا – وهو مبحـث رائـع – قد جرى تجريده من أسانيده البحثية، انظر أيضاً Iversen (1961, pp. 94-6).

(١٠) Gardiner (1975, pp.11-12); Iversen (1961, pp.90-8).

(١١) عن إمكانية وجود هذه الصلة أنظر .Yates (1964, pp.407-15), Dieckmann (1970, pp.71-5)

(١٢) Yates (1972, pp.180-92); see also Dieckmann (1970, pp.103-4).

(١٣) Hill (1976, p.8).

(١٤) Hill (1968, p.290); Rattansi (1963, pp. 24-6).

(١٥) عن تأثير عقيدة "الحقبة الألفية" التي كانت أساسية لدى تلك الأوساط انظر Popkin (1985, pp.XI-XIX) وأنا لم أستقصي كل الأدبيات حول الموضوع، لكنني أشعر شعوراً أكيداً أن هناك من الدارسين من عقد الصلة بين هذا النوع من الاعتقاد في الحقبة الألفية ومحاولة القباليين – من خلال الدراسة – إستعادة ماصاحب عملية الخلق من فيض النور الإلهي.

(١٦) Yates (1964, pp.423-31); Popkin (1985, p. xii).

(١٧) راجع Bullough (1931, p.12), quoted in Patrides (1969, p.6). عن كدورث والهيروغليفية أنظر Dieckmann (1970, pp.105-7).

(١٨) عن الآراء المؤيدة أنظر Rattansi (1973, pp.160-5). وعن الآراء المعارضة أنظر McGuire (1977, pp.95-142).

(١٩) Manuel (1974, pp. 44-5).

(٢٠) Tompkins (1978, pp.30-3).

(٢١) أنظر McGuire and Rattansi (1966, p.110).

(٢٢) عن التعقيدات الببليوجرافية أنظر Westfall (1980, p.434). وأنظر أيضا Pappademos (1984, p.94).

(٢٣) يوضع شيشنق تاريخيا في القرن التاسع ق.م. ومن أجل مناقشة هذا الموضوع كاملا أنظر Manuel (1963, esp. pp.101-2). See also Westfall (1980, pp. 812-21); Iversen (1961, p.103).

(٢٤) راجع Friedrich (1951, p.4)، وقد رأى فريدريش العلاقة بين الفينيقية والعبرية شبيهة بالعلاقة بين الهولندية والجرمانية العليا. أما أولبرايت Albright (1970, p.10) فقد وصف العبرية بأنها "تنويع في اللهجة عن الكنعانية". ويكتب مناحم شتيرن Menahem Stern (1974, p.12) قائلا في سياق حديثه "حيث إنه ليس ثمة فارق بين اللغتين العبرية والفينيقية عمليا ......".

(٢٥) ستجرى مناقشة هذا الموضوع بالتفصيل في الجزء الثاني من الكتاب.

(٢٦) Bodin (1945, p.341).

(٢٧) Bochart (1646).

(٢٨) Fénelon (1944, Bk.2, pp.22-40).

(٢٩) مقتبس في Charles - Roux (1929, p.4).

(٣٠) كان فيكو قد أرسى قاعدة مشروعه هذا فى عام ١٧٢١ حيث ورد فى خاتمة كتابه De Constantia Jurisprudentia. أما فكرة التوازى مع أنماط الكتابة الثلاثة فقد وردت عنده فى عام ١٧٢٥ فى الطبعة الأولى من كتابه Scienza Nuova – الكتاب الثانى، الباب الثالث. وللمناقشة حول كادموس انظر الباب السابع من كتاب De Constantia. انظر أيضاً Dieckmann (1970, pp.119-24) وأنا مدين بهذه الملاحظات إلى جريجورى بلو Gregory Blue.

(٣١) Montesqieu (1748, 15-5).

(٣٢) راجع Gibbon (1794, vol. I, pp.41-2)، وللمزيد عن الحماس لمصر فى القرن الثامن عشر أنظر Iversen (1961, pp.106-23).

(٣٣) Barthélemy (1763, p.222).

(٣٤) راجع Barthélemy (1763, p.226)

وعن طرح معادٍ لهذا الرأى انظر Badolle (1926, pp.76-8).

(٣٥) Banier (1739).

(٣٦) Bryant (1774, esp. vol. I, p.XV).

(٣٧) Frye (1962, pp.173-5); F.M.Turner (1981, pp.78-9).

(٣٨) Braun (1973, pp.119-27); Pococh (1985, pp. 19-23).

(٣٩) فى وقت مبكر يرجع إلى عام ١٧١٢ حاول ديلاجروز de la Groze أن يعقد صلة بين نظامى الكتابة عندهما، انظر الخطاب الذى اقتبسه بارتلمى Barthélemy (1763, p.216) لكن المحاولات الأكثر شهرة فى هذا الصدد هى تلك التى قام بها جوينى Guignes فى عام ١٧٥٨ ونيدهام J.T.Needham فى عام ١٧٦١.

(٤٠) ليس بمستغرب أن يلقى هذا الحقل البالغ الخصوبة اهتماما بالغ الضئالة من مؤرخى القرنين التاسع عشر والعشرين، لكن أنظر Pinot (1932); Maverick (1946); Appeleton (1951), Honour (1961). وفى هذا الصدد فإن ريمون شواب Roymond Schwab (1950) يبدو مضللا إلى حد بعيد، انظر مايلى أدناه الباب الخامس، الحواشى من ٧ إلى ١٠.

(٤١) R.F. Gould (1904, pp. 240-5).

(٤٢) Knoop and Jones (1948, pp. 64-6).

(٤٣) لمناقشة هذه المخطوطات باستفاضة انظر Gould (1904, pp.262-85).

(٤٤) أنظر Lumpkin (1984, p.111)

(٤٥) هذا ماتظهره الحقيقة التالية وهى أن هذا البناء يدعى حيرام أبيف فى ترجمة كفرديل Coverdale للكتاب المقدس فى الأربعينيات من القرن السادس عشر، وإن كان هذا الإسم لا يظهر فى الترجمة التى ظهرت فى بواكير القرن الثامن عشر فى عهد الملك جيمس.

(٤٦) Gould (1904, p.243).

(٤٧) Yates (1972, p.210). وكانت هاتان العقيدتان أساسيتين بالنسبة إلى جماعة فرسان المعبد Templars الذين صاغوا عقيدة أن قبة الصخرة خلفت الهيكل. كذلك نظروا إلى أنفسهم على أنهم صفوة تتسامى فوق الحزازات الدينية لدى السوقة من الناس - [وهي في حالتهم تلك الحزازات بين المسيحية والإسلام. وقد نشطت هذه الجماعة اعتباراً من عام ١١١٨ إلى أن قضى عليهم ملك فرنسا (هنرى الرابع) في عام ١٣١٤ باعتبار كونهم هراطقة، حيث سقطت عكا آخر معاقلهم في فلسطين - المترجم]. وقد اعتبر الماسونيون الأحرار أنفسهم من سلالة فرسان المعبد Steelmaret (1893, p.2).

(٤٨) Popkin (1985, pp. xii-xiii).

(٤٩) عن اسبنوزا وتأثيره على أفلاطونيي كيمبردج أنظر Colie, (1957, pp.66-116).

(٥٠) Jacob (1976, pp.201-50; 1981, esp.pp. 151-7); Manuel (1983, pp.36-7); Force (1985, pp.100, 113).

(٥١) Manuel (1983, p.36)، ويمكننا إدراك عدم ارتياح الماسونيين بعد ذلك لدور تولاند المهم في إصلاح الطائفة من حذفهم اسمه في تواريخهم المعتمدة.

(٥٢) Force (1985, p. 100).

(٥٣) Knight (1984, pp. 236-40).

(٥٤) Diogenes Laertius, VIII. 90.

(٥٥) Tompkins (1973, p.214).

(٥٦) لمناقشة ذلك أنظر Yates (1964, pp. 55-7).

(٥٧) Yates (1964, pp. 370-2).

(٥٨) See Yates (1964, pp. 367-73).

(٥٩) For the intricacies of the *querelle*, see Farnham (1976, pp. 171-80); Furhmann (1979, pp. 107-28); Simonsuuri (1979, pp. 1-45).

(٦٠) عن المحاولات الأسبق لمزج العقيدتين معاً أنظر Farnham (1976, p.39)، وعن محاولات أخرى لإقامة مهرجانات دينية قومية أنظر Bloch (1924, pp. 360-70).

(٦١) كان بعض المفكرين على علم بأن بلاط امبراطور المانشو كانجكسي يفوق ذلك روعة Honour (1961, pp. 21-5, 93).

(٦٢) Marin (1981, pp. 246-7).

(٦٣) Voltaire (1886, ch. 32, pp. 408-9).

(٦٤) راجع Fuhrmann (1979, p.114)، ويبالغ فارنهام Farnham (1976, p. 177) في مدى لزوم فينيلون جانب هوميروس والقدماء.

(٦٥) Beuchot (1854, pp. 169-71).

(٦٦) ‎،errasson (1715).

(٦٧) جاء هذا مقتبسا عن مانيثون عند المؤرخ يوسف فى رسالته بعنوان "ضد ابيون" Contra Apionem سطر ٩٨.

(٦٨) انظر Terrasson (1931)، وعن التقييم العدائى للغاية لرواية سيثوس Sethos أنظر Badolle (1926, pp. 295-6)، وانظر أيضاً Ivérsen (1961, pp. 121-2)، وعن مناقشة ذلك فى سياق قضية البلدنجزرومان Bildungsroman فى القرن الثامن عشر أنظر Honolka (1984, pp. 144-54).

(٦٩) Terrasson (1731, esp. Bk.2).

(٧٠) Terrasson (1731, Bk.7, p.4).

(٧١) أنظر Chailly (1971); Nettl (1957)، وكان المصدر الرئيسى الآخر "للناى السحرى" هو:
Ignaz von Born's "Uber die Mysterien der Agyptier', in Jaurnal für Freymaurer, vol.I, (1784). See Iversen (1961, p.122); Honolka (1984, p.144). In 1773.
وعندما كان موتسارت فى سن السابعة عشرة، وقبل أن يصبح ماسونا، كتب موسيقى لأوبرا من تأليف جبلر Gebler تحمل عنوان "ثاموس ملك مصر" واعتمدت هى الأخرى على رواية سيثوس أنظر K.Thomson (1977, pp.24-31); Honolka (1984, pp.142-4) ولعل الفضل فى بقاء أوبرا "الناى السحرى" – على ما لها من قيمة فعلية ومع أن نصها لم يكن ملائما للفترة الرومانسية –، إنما يتعلق بحقيقة أخرى وهى أنها كانت أول أوبرا كبيرة تؤلف بالألمانية. ولم يثر اعتراض على موضوعها إبان السنوات التى تلت إخراجها مباشرة. وقد كتب جوته تذييلا عليها فى عام ١٧٩٥، انظر Iversen (1961, p.122).

(٧٢) Rheghellini de Schio (1833, pp. 7-8).

(٧٣) Manuel (1959, pp. 85-125).

(٧٤) Manuel (1959, pp. 44-5).

(٧٥) Manuel (1959, pp. 245-58).

(٧٦) De Santillana (1963, p. 819).

(٧٧) Manuel (1959, pp. 259-70).

(٧٨) De Santillana (1963, p. 819).

(٧٩) راجع Dupuis (1795, vol.1, p.14) وكان ديبوى ينقل عن كاتب أشورى مسيحى من القرن الثانى الميلادى وهو تاتيان Tatian الذى كتب كتاب "رسالة إلى اليونان" ذكر فيه السحر الفارسى وحروف الفينيقيين وهندسة المصريين وكتاباتهم التاريخية.

(٨٠) Auguis (1822, p.10).

(٨١) راجع Charles Roux (1929, p.13; 1937, p.2) ، وثمة عـامل آخـر وإن كـان أقـل أثـرا، وهـو المأثور عن حملة لويس التاسع النكدة الطالع على مصر إبان الحركة الصليبية.

(٨٢) R.F. Gould (1904, pp.451-5); Beddaride (1845, pp. 96-140).

(٨٣) أنظر Iversen (1961, p.132).

(٨٤) Madelin (1937, pp. 235-7). La Décade Egyptienne (1798, vol.1, pp. 1-4); Tompkins (1978, pp. 49-50).

(٨٥) Said (1978, pp. 113-226).

(٨٦) Tompkins (1978, pp. 45-51, 201-6).

(٨٧) عن نقائص كسينوفون بوصفه كاتبا، ونقائص "الأناباسيس" بوصفها مصدراً، من حيث أنهما مدخـل إلى دراسة اللغة اليونانية أنظر Pharr (1959, pp. xvii-xxxii). والمقابل لكسينوفون فـى اللاتينية هـو يوليوس قيصر فى كتابه "الحروب الغالية".

(٨٨) Madelin (1937, vol.2, p.248).

(٨٩) راجـع Gibbon, (1794, pp. 41-137)، وعـن عـداء جيبـون الثـابت للسـامية أنظر Pocock (1985, p.12).

(٩٠) عن مقارنة هذه الرواية برواية سيثوس أنظر Badolle (1926, p.275).

(٩١) Badolle (1926, pp. 397-8).

(٩٢) راجع Barthélemy (1789, pp.2-5)، وعن آراء فريريه Fréret انظر الباب الأول، حاشية ٩٢.

(٩٣) Barthélemy (1789, p.62).

(٩٤) راجع Mitford (1784, vol. I, p.6)، وعن تأثير هذا التاريخ الذى كتبه متفورد أنظر F.M.Turner (1981, pp. 203-7).

(٩٥) أنظر Mitford (1784, vol. I, p.0)، ونحن نعلم الآن أن حضارة عصـر القصـور فـى جزيـرة كريـت تأتى قبل الفترة التى يسميها متفورد "بالاضطرابات المصرية" Egyptian upheavals بزمـن طويـل، وهى المرحلة التى تشير إلى فترة الهكسوس.

(٩٦) Musgrave (1782, pp. 4-5).

حواشى البـاب الرابـع

(١) انظر الباب الثالث حاشية ٧. راجع Iversen (1961; pp.5, 89-99); Blanco (1984, pp.2263-4); Godwin (1979, esp. pp. 15-24).

(٢) Colie (1957, pp.2-4); Pocock (1985, p.12).

(٣) أنظر Pocock (1985, p.13)، ولا يعنى ذلك أن أفلاطونيي كيمبردج كانوا غير معنيين باسبينوزا أو بما رأوه مذهبا فى وحدة الوجود أو إلحاداً hylozoick عنده، .(Colie, 1957, pp.96-7

(٤) Westfall (1980, p.815).

(٥) Ibid.; Manuel (1959, pp.90-5).

(٦) Pocock (1985, p.23); Colie (1957, p.96).

(٧) راجع .See Josephus, *Against Apion*; Clement, *Stromata*، وعن تيتيان انظر أيضا الباب الثانى حاشية ٧٦.

(٨) انظر ماسبق فى الباب الثانى حاشية ١٢١.

(٩) Hare (1647, pp. 12-13)، مقتبساً عند .MacDougall (1982, p.60)

(١٠) لاستعراض تاريخ هذه العلاقة بين البروتستانتية والدراسات اليونانية أنظر Lloyd-Jones (1982b, p.19).

(١١) راجع .Pfeiffer (1976, pp. 143-58; Wilamowitz-Moeliendorf (1982, pp.79-81) وقد اعتبر حرف الديجما digamma على العموم حرفا قديما على أساس أنه لم يكن موجودا فى الأبجدية الأيونية التى أصبحت أبجدية قياسية عند نهاية الحروب البلوبونيسية فى عام ٤٠٣ ق.م. وفى الجزء الثانى من كتابى هذا (ظهر فى عام ١٩٨٨) أزعم أن الأبجدية الأيونية أقدم بكثير من الأبجديات الدورية التى تحتوى على الحرف المذكور، وأنه بناء على ذلك يكون الحرف قد دخل إلى الأبجدية اليونانية فى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م.، أى فى وقت أحدث كثيرا من عام ١٦٠٠ ق.م.، وهو الوقت الذى أرجعت إليه انتشار الأبجدية إجمالاً. ولا يعنى هذا إنكارا لاكتشاف بنتلي للصوت "وو"، بالرغم من اعتقادى فى أن إخفاق اليونان فى إسقاط حرف العلة للترخيم قد يكون نتيجة لاقتباسهم لصوت حرف "العين" المصرى أو السامى، أو على الأقل يعكس معرفتهم إياه، انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب.

(١٢) Bentley (1693).

(١٣) Jacob (1981, p.89).

(١٤) راجع Bentley (1693) وللمزيد عن محاضرات بنتلى - بويل نفسها أنظر Pfeiffer (1976, pp.146-7).

(١٥) عن الدلالات الربوبية فى محاضرات بنتلى بويل نفسها أنظر Force (1985, pp. 65-6)، وعن الشكوك الأبعد مدى فى استقامة عقيدة بنتلى أنظر Westfall (1980, pp.650-1) وقد كان هناك بالطبع مسيحيون عارضوا كلا من نيوتن وبنتلى، أنظر Force (1985, p.64).

(١٦) Potter (1697); B.H.Stern (1940, p.38, n.49); Smith (1848)، وعن بعض النتائج اللاحقة التى نجمت عن الحلف بين بلاد اليونان القديمة والمسيحية انظر .Bernal (1986, pp.11-12)

(١٧) راجع *De Rerum Nat.* VI.1، وكان لوكريتيوس، كما ذكرنا من قبل، ابيقوريا، وعن النعرة القومية اليونانية أو "شوفينية" هذه المدرسة أنظر الباب الأول، حاشية ١٧٠.

(١٨) Potter (1697, Bk I, pp. 1-3; Bk 2, pp. 1-2).

(١٩) أنظر Warburton (1739, vol.4, p.403)، وللمزيد عن واربرتون ومصر انظر Dieckmann (1970, pp.125-8); Iversen (1961, pp.103-5).

(٢٠) Pocock (1985, p.11).

(٢١) Manuel (1959, pp.69, 191-3).

(٢٢) Warburton (1739, vol.4, pp.5-26); Manuel (1959, pp.107-12).

(٢٣) Warburton (1739, vol.4, pp.229-41).

(٢٤) عن المراجع حول بروكر أنظر L.Braun (1973, p.120).

(٢٥) Pocock (1985, p.22).

(٢٦) Ibid.

(٢٧) Montesquieu (1721, Letters 97, 104, 135; cited by Rashed. 1980, p.9).

(٢٨) *Epinomis*, 987D.

(٢٩) انظر على سبيل المثال حركة الكوكوساى (الروح الوطنية) التى ظهرت فى اليابان فى السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر باعتبارها رد فعل للنزعة التغريبية المتسارعة Pyle (1969, pp.60-9); Teters (1962, pp.359-71).

(٣٠) Goldsmith (1774, vol.2, pp.230-1).

(٣١) Turgot (1808-15, vol.2, pp.52-92, 255-328).

(٣٢) Turgot (1808-15, vol.2, pp.55, 315).

(٣٣) Manuel (1959, p.69).

(٣٤) راجع Montesquieu (1748, Bk.18, ch.VI)، وكان هذا بالطبع يناقض بشكل مباشر "النظرية الهيدروليكية" التى ألح إليها ماركس فيما بعد وطورها وتفوجل Wittfogel من أن السيطرة على المياه أدت إلى الإستبدادية الشرقية. وعلى خلاف مفكرى القرنين التاسع عشر والعشرين، كان لدى مونتسكيو نموذج هولندا يؤيد به رأيه. وللمراجع عن الأسلوب الأسيوى فى الإنتاج أنظر Bernal (1987b).

(٣٥) راجع Turgot (1808-15, vol.2, pp. 65, 253, 314-316)، وقد كتب تيرجو فى موضع آخر (ص٧١) يقول: "كان أفلاطون يغرس زهورا، وكان سحر بيانه يزخرف حتى أخطاءه"، وعن الرأى الذى ظل ساريا حتى القرن التاسع عشر معتبرا أفلاطون شاعرا مغريا أكثر منه فيلسوفا أنظر Wismann (1983, p.496).

(٣٦) Turgot (1808-15, vol.2, pp.276-9).

(٣٧) Turgot (1808-15, vol.2, p70).

(٣٨) Turgot (1808-15, vol.2, pp.66-7).

(٣٩) انظر الباب الثالث الحاشيتين ٣٣ – ٣٤.

(٤٠) Turgot (1808-15, vol.2, pp.330-2).

(٤١) راجع (1882-98, vol.3, pp.233-54) Child، وهذا النقص فى الاهتمام بلون بشرة اليهود يتناقض تناقضا واضحا مع ما جاء فى الصورة التى استحضر بها والتر سكوت أفكار تلك الفترة فى رواية "إيفانهو" حيث يتكرر فيها التأكيد على سمرتهم. وقد كتب هذا بالطبع فى بدايات القرن التاسع عشر عندما كان هناك هاجس يستحوذ على الاهتمام عن "الإختلافات العرقية" و "العنصرية".

(٤٢) عن الإستعراض العام للمواقف من السود إبان العصور الوسطى أنظر Devisse (1979, pt.1) وانظر أيضاً Child (1882-98, vol. I, pp.119-21).

(٤٣) Child (1882-98, vol.3, pp. 51-74).

(٤٤) *Politics*. VII.7 (trans. Sinclair, 1962, p.269).

(٤٥) Bracken (1973, pp. 81-96; 1978, pp. 241-60). See also Poliakov (1974, pp. 145-6).

(٤٦) أنظر على سبيل المثال: Locke (1689, Bk.5, p.41).

(٤٧) Locke (1689, Bk.4).

(٤٨) راجع Locke (1689, Bk.5, pp. 25-45). عن مناقشة فى هذا الموضوع أنظر Bracken (1973, p.86).

(٤٩) Jordan (1969, p.229).

(٥٠) أنظر Locke (1688, Bk.3, p.6)، حيث يُقتبس كلامه ويُناقش فى Jordan (1969) pp.235-6 ولأمثلة أخرى من عنصرية لوك أُنظر Bracken (1978, p.246)

(٥١) حاشية على رسالة "فى الخصال القومية" اقتبسها جوردان See Bracken (1978, p.253).

(٥٢) حاشية على رسالة "فى الخصال القومية" اقتبسها: Jordan (1969, p.253); Bracken (1973, p.82); Popkin (1974, p.143); and S.J.Gould (1981, pp. 40-1).

(٥٣) عن الإشارة المنحولة على أفلاطون أنظر *Epinomis*, 987D وعن بودان انظر الباب الثالث حاشية ٢٦.

(٥٤) انظر على سبيل المثال Montesquieu (1748, Bk.8, p.21).

(٥٥) للمزيد عن الهجوم على صورة الأشجار انظر الجزء الثانى من الكتاب.

(٥٦) شارك الإيطاليون إلى حد ما فى غزو فرنسا الثقافى لأوروبا فى القرن الثامن عشر، حيث اعترف لهم الجميع على وجه العموم بأنهم أرقى الموسيقيين والمصورين، وبأنه لا يزال لديهم تقاليد علمية كبرى.

(٥٧) أنظر Blackall (1958, pp. 1-35).

(٥٨) Berlin (1976, pp. 145-216); Iggers (1968, pp. 34-7).

(٥٩) Trevor - Roper (1983).

(٦٠) Berlin (1957, pp. 145-216).

(٦١) لوصف دور هوميروس في الثقافة اليونانية في العصر الكلاسيكي أنظر Finley (1978, pp.19-25) ويمكن ربط لقب "الشاعر" الذى حمله هوميروس بما يبدو مقبولا عن مسألة اشتقاق اسمه من اللفظ المصرى حـ (و) ت.ر أو اللفظ القبطى همير (ومعناها المتهجى أو الناطق بالحديث).

(٦٢) Le Fèvre (1664, p.6); cited in Farnham (1976, p.146).

(٦٣) Dacier (1714, pp. 10-12); quoted in Simonsuuri (1979, pp. 53-5). See also Farnham (1976, pp. 171-9).

(٦٤) Voltaire (letter to M.Damilaville, 4 Nov. 1765); cited in Santangelo (n.d., p.6).

(٦٥) Vico (1730). For discussions of this, see Manuel (1959, pp. 154-5); Simonsuuri (1979, pp. 90-8).

(٦٦) Blackwell (1735); Simonsuuri (1979, pp. 53-5).

(٦٧) راجع *Timaios*, 22B (trans, Bury, 1925, p.33) وبالرغم من المشكلات المثارة حول تأريخ كلمة (إيد) = طفل تأريخا مبكرا، وتأريخ الكلمة الدالة على "ألـ" التعريف تأريخا متأخرا فإن الإشتقاق الأقرب للتصديق للكلمة اليونانية pais-paidos هو p3ʾid (الطفل)، أما الجذر الهندى الأوربى بو pu أو بور pur فيبدو أقل احتمالا، ويبدو من المؤكد تقريبا أن المقطع المصرى (إيد id) هو أصل المقطع اللاحق suffix اليوناني ad (= أطفال) وأداة النسبة إلى الأب (أى البنوة) فى اليونانية ides ---

(٦٨) عن استخدام تعبير "النزعة الهيللينية الرومانسية" للمرة الأولى أنظر H.Levin (1931). وانظر أيضاً: B.H.Stern (1940, p.vii).

(٦٩) راجع Simonsuuri (1979, pp. 104-6)، وقد كان شافتسبرى كذلك معاديا لمصر والأبجدية الهيروغليفية.

(٧٠) St Clair (1983, p.176). See also Jenkyns (1980, pp. 8-9); B.H. Stern (1940); Simonsuuri (1979, pp. 133-42).

(٧١) لوصف هذه العملية وصفا حيا وبيان النتائج التى يمكن أن تترتب عليها، انظر حديث إدموند ويلسون عن المؤرخ ميشيليه Wilson (1960, pp. 12-31).

(٧٢) Jenkyns (1980, pp. 8-9); Turner (1981, pp. 138-40); Simonsuuri (1979, pp. 133-42); Wilamowitx-Moellendorf (1982, p.82).

(٧٣) Harris (1751, p.417).

(٧٤) Duff (1767, pp. 27-9).

(٧٥) Wilamowitz - Moellendorf (1982, p.83).

(٧٦) أنظر Musgrave (1782, esp. pp. 4-5)، وقد قرن مسجريف رسالته المذكورة بأخرى إنتقد فيها التسلسل الكرونولوجى عند نيوتن.

(٧٧) Winckelmann (1764, p. 128).

(٧٨) Winckelmann (1764, p. 97).

(٧٩) Turgot (1808-15, vol.2, pp. 256-61). See also L.Braun (1973, pp. 256-61); Comte (1830-42).

(٨٠) لفضح الزيف فى هذا الرأى المثير للسخرية أنظر Jean Capart (1942, pp.80-119)، وعن مناقشة التخبط فى آراء فنكلمان عن الكتابة الهيروغليفية أنظر Dieckmann (1970, pp. 137-41).

(٨١) لم تكن هذه الآراء مقصورة على أرسطو، ولننظر على سبيل المثال إلى صور المصريين المرسومة على الأوانى من بلدة كايريا والتى تصور أسطورة بوزيريس وهى لا تتوخى أبدا تجميلهم (أنظر Boardman (1964). اللوحة رقم ١١ وص١٤٩)، ففى حين يشار فى كل من هذين الموضعين إلى أن أتباع بوزيريس كانوا سودا، وأن بوزيريس صُوِّر على أنية أخرى على أنه واحد من هؤلاء، فإنه لا بوردمان ولا سنودن Snowden (1970, p.159). يذكران الحقيقة فى أن "البطل اليونانى هرقل (هيراكليس) يُصَّور على أنه أفريقى أسود أجعد الشعر! وكان هذا أمرا وقف النموذج الآرى عاجزا عن معالجته. وعن الأسباب التى يمكن أن تكون وراء هذه النظرة إلى هرقل، انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٨٢) راجع Winckelmann (1764, Bks I and 2)، أنظر أيضاً Iversen (1961, pp. 114-15). وعن أسلاف هؤلاء من البريطانيين كانوا يؤمنون بهذه الأمور العامة أنظر B.H. Stern (1940, pp. 79-81).

(٨٣) انظر الباب الخامس، الحاشيتان ١٥٥-١٥٦ عن "سبيل المصريين إلى الموت" فى القرن التاسع عشر.

(٨٤) أنظر Butler (1935, pp. 11-48); pace Pfeiffer (1976, p. 169).

(٨٥) أنظر Jenkyns (1980, pp. 148-54); F.M. Turner (1981, pp. 39-41).

(٨٦) أنظر Butler (1935, pp. 294-300); Kistler (1960, pp. 83-92).

(٨٧) Pfeiffer (1976, p.170).

(٨٨) مقتبس عند Pfeiffer (1976, p.169).

(٨٩) Butler (1935, pp.11-48).

(٩٠) أنظر Clark (1954).

(٩١) Trevelyan (1981, p.50); Lloyd-Jones (1981, pp. xii-xiii).

(٩٢) Trevelyan (1981, pp. 50-4); Butler (1935, pp. 70-80); Pfeiffer (1976, p.169).

(٩٣) L. Braun (1973, p. 165).

(٩٤) عن الرومانسية فى ألمانيا. فى أواخر القرن الثامن عشر انظر ما ذكر من قبل، وعن النزعة العنصرية أنظر Gilman (1982, pp. 19-82).

(٩٥) يتصل بمصر ثلاث من أقدم أربع إشارات إلى الفلسفة philosophia، وقد ذكرنا من قبل (الباب الأول، حاشية ١٣٦) أن إيسوقراط (إيسوكراتيس) أشتق اسمها من هذه البلاد على وجه التحديد. ويمكن تبين الصعوبة التى وجدها الباحثون المحدثون فى تقبل ذلك عند مالنجرى Malingrey (1961). الذى يترجم عامدا لفظ فلسفة على أنها "حضارة" مصر، أنظر: Froidenfond (1971, pp. 252-3).

(٩٦) انظر هذا مقتبسا فى L.Braun (1973, p.111) عن هيومان Heumann (1715, p.95) الذى لم يتيسر لى الاطلاع عليه.

(٩٧) راجع .Stromateis, I.4، وعن النعـرة القومية (الشـوفينية) الأبيقورية واحتمـال أن تكـون لها صلـة بالمنافسة مع الرواقيين "الفينيقيين" انظر ماسبق ذكره فى حاشية ١٧.

(٩٨) انظر حاشية ٢٨ أعلاه.

(٩٩) عن وضع اللغة الألمانية المتدنى عن بداية القرن الثامن عشر انظر ماسبق حاشية ٥٧.

(١٠٠) 1715, vol.I, p.637 (quoted in L.Braun, 1973, p.113).

(١٠١) انظر الحواشى ٢٤-٢٦ أعلاه.

(١٠٢) Tiedemann (1780); L.Braun (1973, pp. 165-7).

(١٠٣) انظر Hunger (1933); Butterfield (1935, esp. p.33); Marino (1975, pp.103-12)

(١٠٤) Marino (1975, pp. 103-12); L.Braun (1973, pp. 165-7).

(١٠٥) عن تفاوت درجات معرفة الألمان بكتابات فيكو والدرجة التى أنكروا بها تأثيره أنظر Croce (1947, vol. I, pp. 504-15)، وانظر أيضاً Momigliano (1966c, pp.253-76).

(١٠٦) Meiners (1781-2, vol. I, p.xxx), quoted in L.Braun (1973, pp. 175-6).

(١٠٧) De Santillana (1963, p. 823).

(١٠٨) انظر فيما يلى الباب السابع حاشية ٢٥.

(١٠٩) Meiners (1781-2 vol. I, pp. 123-4, 1811-15). See also Poliakov (1974, pp.178-9).

(١١٠) Baker (1974, pp. 24-7); Jordan (1969, p.222); Bracken (1973, p.86); Gerbi (1973, pp. 3-34).

(١١١) عن فيكو وشعوب العالم فيما بعد الطوفان أنظر Manuel (1955, pp. 154-5).

(١١٢) Herder (1784-91, Bk.6, p.2 and Bk.10, pp.4-7), cited by Harris - Schenz (1984, p.28)، وقد افترض جورج فورستر الذى كان إلى حد كبير جزءاً من دائرة مدرسة جتنجـن أن البيض أتوا من منطقة القوقاز (Forster, 1786).

(١١٣) مصطلح آريا Arya هو بالطبع مصطلح قديم وارد فى اللغات الهندية الأوروبية وفى اليونانيـة، ويبـدو أن أقدم استخدام حديث له كان عند السير وليام جونز Sir William Jones (1794, sect. 45).

(١١٤) Gobineau (1983, p.656); Graves (1955, vol.2, p.407).

(١١٥) أنظر Moscati et al, (1969, p.3). وقـد كـانت الفكـرة عـن وجـود علاقـة بـين العبريـة والآراميـة والعربية فكرة معروفة منذ العصور القديمة بالطبع. وقد اسـتخدمها بـاحثون قبـل شلوتسـر بزمـان طويـل، انظر على سبيل المثال الإشارة إلى بارتلمى فى الباب السابق.

(١١٦) Poliakov (1974, p.188).

(١١٧) See R.S. Turner (1985).

(١١٨) من أجل قائمة موجزة للمراجع عن هاينه أنظر Pfeiffer (1976, p.171, n.5).

(١١٩) انظر مثلا الهجوم الذى شنه هاينه على المصداقية المصدرية للإلياذة (النشيد التاسع، البيتان ٣٨٣، ٣٨٤، وفيه ثناء على ثروات طيبة المصرية، أنظر P. Von der Mühl (1952, p. 173).

(١٢٠) S. Gould (1981, p.238).

(١٢١) Wilamowitz - Moellendorf (1982, p.96).

(١٢٢) Pfeiffer (1976, p.171).

(١٢٣) R.S. Turner (1983a, p.460).

(١٢٤) Manuel (1959, p.302).

(١٢٥) عن فورستر وهاينه أنظر Leuschner (1958-82, esp. vol.14)، وعن الأنثروبولوجيا عند فورستر أنظر vol.8, pp.133, 149-53; Harris. Schenz (1984, pp. 30-1).

(١٢٦) عن غضبة هاينه والتفسير الشخصى لها انظر Momigliano (1982,p.10)، وعن الادعاء بأن جتنجن أتخذت "طريقا وسطا" بين طرفى نقيض هما الثورة والرجعية أنظر Marino (1975, pp.358-71)، وعن عداء مدرسة جتنجن للثورة انظر مايلى الباب السادس الحواشى من ٩ إلى ١٦. وهناك سبب آخر لذهاب فورستر إلى باريس وهو أن يدرس اللغة الهندية استعدادا للقيام برحلة إلى الهند، انظر Schwab (1984, p.59)، وبعد وفاة فورستر عملت كارولين مع فلهلم شليجل مترجم شكسبير وعالم السنسكريتية وتزوجت منه. وعندما طلقا تزوجت الفيلسوف فريدريش فلهلم شلنج. وتستمد كارولين اليوم شهرتها من رسائلها التى تمدنا بصورة رائعة عن الرومانسيين الألمان الأوائل (Nissen, 1962, pp.108-9).

حواشى الباب الخامس

(١) كتب هردرد Herder بالفعل عن مصر والحروف الهيروغليفية؛ إلا أنه كما يقول ليزيلوت ديكمان Liselotte Dieckmann: "كل مناقشته المطولة عن مصر ليس لها قيمة إلا فى بيان كيفية نشر "أغنية الخلق" فى مصر" (1970, p.153, see also pp. 146-54). وعن الموقف من اليونانية كلغة شعرية خالصة فى القرن الثامن عشر، انظر الباب الرابع، حاشية ٣٨.

(٢) للاطلاع على موقف مضاد للتوجه التقليدى أنظر (Masica (1978, pp.1-11، وانظر أيضاً Scollon and Scollon (1980, pp.73-176).

(٣) عن راسك Rask وبوب Bopp أنظر Pederson (1959, pp. 241-58).

(٤) عن الهندو أوروبية أنظر Meyer (1892, pp. 125-30) cited in Poliakov (1974, p.191).

(٥) عن الهندو أوروبية أنظر

Siegert (1941-42, pp. 73-99), cited in Poliakov (1974, p.191).

وعن استخدام بوب لمصطلح الهندو أوروبية أنظر مقدمة

Bopp (1833), cited in Poliakov (1974, p.191) & Pederson (1959, p.262, n.2).

(٦) Schlegel (1808, p.x, trans. Mirington, 1849, p.10).

(٧) Schwab (1984, p.11); Rashed (1980, p.10).

(٨) انظر الأمثلة التالية لسير وليام جونـز Sirwilliam Jones فـي عـام ١٧٨٤: "لأن مصـر كـانت هـي المصدر الرئيس للمعرفة بالنسبة للغرب، والهند بالنسبة للبقاع الشرقية من العـالم..." (1807, p.387). وفي فهرس مكتبة جوتنجن حسب قول هين في ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر، كانت الأساطير المصرية توضع تحت عنوان "Western". وتم نقلها في فترة ما في القرن التاسع عشر إلى الجزء الشـرقي "Oriental".

(٩) Boon (1978, pp. 334-8); Schwab (1984, p.27-28).

(١٠) أنظر Jones (1807, p.34); Schwab (1984, pp. 33-42).

(١١) أنظر Thapar (1975; 1977, pp. 1-19); Leach (1986).

(١٢) Schwab (1984, pp. 51-80).

(١٣) Schwab (1984, pp. 195-97).

(١٤) وأنظر الباب الثالث حاشية ٨٨ Schwab (1984, p.59)

(١٥) Schwab (1984, pp.78-80).

(١٦) انظر البابين السادس والتاسع. Schwab (1984, pp.51-80)

(١٧) Schwab (1984, p.59)

(١٨) Letter to Ludvig Tieck, 15 Dec. 1803, p. 140; cited in Poliakov, 1974, p. 191).

(١٩) Schlegel (1808, p.85); See Schwab (1984, p.175); Timpanaro (1977, pp. xxii-xxiii).

وعـن قنـاعتي بـأن جونـز علـى صـواب وأن شـليجل وبـوب مـن بعـده كانـا علـى خطـأ، انظـر المقدمــة، ص٨٩، وانظـر الجـزء الثــاني.

(٢٠) Schlegel (1808, trans. Millington, 1849, p. 506-7); cited in Poliakov, 1974, p.191).

(٢١) Schlegel (1808, pp.60-70). See also Timpanaro (1977, pp. xxii-iii).

(٢٢) Schlegel (1808, pp.68-9) trans. Millington, 1849, p.456-7); See also Rashed, 1980, p.11).

(٢٣) Poliakov (1974, p.191).

(٢٤) Schlegel (1808, p.55) trans. Millington, 1849, p.451)

(٢٥) Timpanaro (1977, pp. xx-xxi).

(٢٦) Poliakov (1974, p.191).

(٢٧) Timpanaro (1977, pp. xx-xxi).

(٢٨) انظر البابين السابع والثامن.

(٢٩) Schlegel (1808, pp. 41-59) trans. Millington, 1849, p.439-53); Timpanaro (1977, p.xix).

(٣٠) Timpanaro (1977, pp. xix).

(٣١) عن أسرة اللغات الأفرو–أسيوية انظر المقدمة، وانظر الجزء الثانى؛ وعن بارتيلمى Barthélemy انظر الباب الثالث، حاشية ٣٤.

(٣٢) Schlegel (1808, pp. 55-59) trans. Millington, (1849, p.451-53).

(٣٣) Humboldt (1903-36, vol.4, pp.284-313). See Sweet (1978-80, vol.2, p. 403-4).

وفى دراسته لسويت، يشير الأستاذ لويد جونز إلى أن همبولت لم يكن دائما على رأى واحد فى هذا الشأن (1982a, p.73)

(٣٤) Humboldt (1903-36, vol.5, pp. 282-92).

(٣٥) Humboldt (1903-36, vol.5, pp. 293).

وكان شليجل قد عقد مقارنة مماثلة بين اللغتين (1808, 99. 45-50)

(٣٦) Humboldt's letters reprinted in Schlesier (1838-1840, vol. 5, p.300). and in Von Sydow (1906-16, vol.7, p.283). See also Sweet (1978-80, vol.2, p.418-25).

(٣٧) Schwab (1984, pp, 482-6).

(٣٨) عن جروتفند وأتباعه أنظر Pederson (1959, pp. 153-8); Friedrich (1957, pp. 50-68).

(٣٩) Said (1974, pp. 123-30).

وهناك خطأ مطبعى فى صفحة ١٢٤ من كتابه: فالتاريخ ١٧٦٩ تصحيحه ١٧٩٩.

(٤٠) Said (1974, pp. 59-92).

(٤١) أنظر Cordier (1904-24).

(٤٢) Cordier (1898-46).

(٤٣) Schwab (1984, pp. 24-5).

وكان شواب يكن نفس الآراء المتحاملة تجاه من كتب عنهم. ويتضح تحامله على مصر فى كتابه بأكمله.

(٤٤) V. V. Bartold. والذى يقتطف من الكاتب الروسى Schwab (1984, p.488).

(٤٥) Said (1974, pp. 122-48); Rashed (1988, pp.10-11).

(٤٦) أنظر Rahman (1982, pp.1-9).

(٤٧) وبالنسبة للحضارات الإسلامية والهندية والصينية، فالإستعارة من أنماطها اللاحقة واضح تمام الوضوح. وحتى الإنجازات الغربية المؤكدة فى مجال قراءة اللغات المدونة بالخط المسمارى وفهمها ما كانت لتتم بدون استمرارية الحضارات العربية والفارسية واليهودية. انظر الأبواب التالية للاطلاع على استعانة شامبليون بتراث العلوم السحرية وبالقبطية فى فكه لطلاسم الحروف الهيروغليفية.

(٤٨) إنه لمن السخف أن ننكر لقب "مؤرخ" على سيما أويان Sima Oian ومن جاء من بعده من كتّاب ومحققين لتواريخ الأسر الحاكمة الصينية، أو على شخصية عظيمة كابن خلدون و "المؤرخين" المسلمين اللاحقين. للاطلاع على هذا الموضوع فى السياق الإسلامى انظر عبد الملك (١٩٦٩، ص١٩٩-٢٣٠) Abd-el-Malek (1969 pp. 199-230. ويستند إحياء الرأى القائل بأن الآريين وحدهم هم الذين لهم القدرة على كتابة التاريخ إلى الزعم بأن الحيثيين الذين كانوا يتحدثون لغة هندو-أوروبية هم الذين اخترعوها فى الشرق الأدنى القديم. انظر على سبيل المثال Butterfield (1981, pp. 60-71).

(٤٩) تأثير كل من إفريقيا وأسيا هو موضوع هذا العمل. ويحدونى الأمل أن أتناول مستقبلاً موضوع التأثيرات غير الأوروبية اللاحقة. وللاطلاع على مسألة اعتبار أوروبا القارة "العلمية" الوحيدة، انظر Rashed (1980).

(٥٠) Gobineau (1983, vol. I, p.221).

(٥١) Said (1974, esp. pp. 73-110).

(٥٢) Chaudhuri (1974).

(٥٣) De Tocqueville (1877, p.241; trans. Gilbert, 1955, p.163). See Blue (1984, p.3).

(٥٤) Humboldt (1826; 1903-36, vol.5, p.294).

(٥٥) Schleicher (1865), cited in Jespersen (1922, pp. 73-4).

(٥٦) C. Bunsen (1848-60, vol. 4, p.485).

والفكرة القائلة بأن التاريخ الحقيقى لا وجود له فى الشرق تعود إلى عصر هيجل.

(٥٧) للاطلاع على نزاع المسيحيين الأصوليين حول هذا الموضوع، انظر Curtin (1964, pp.30-72); Curtin (1971, pp. 1-33)

(٥٨) انظر الباب السادس للمزيد عن استخدامها لدى نيبور وغيره من المؤرخين.

(٥٩) Cordier (1899, p.382).

(٦٠) أنظر Bernier (1684) cited in Poliakov (1974, p. 143).

(٦١) Punch. 10 Apr. 1858, cited in Dawson (1967, p.133) and Blue (1984, p.3).

(٦٢) Cuvier (1831, vol. 1, p.53) quoted in Curtin (1971, p.8).

(٦٣) Gobineau (1983, vol. 1, pp. 340-1).

(٦٤) Cuvier (1831, vol. 1, p.53); quoted in Curtin (1971, p.8).

(٦٥) Gobineau (1983, vol. 1, pp. 339-40).

(٦٦) يقول جوبينو Gobineau: "لا حاجة بى لأن أضيف أن كلمة شرف، مثل مفهوم الحضارة الذى يحتويها، كلاهما مجهول بنفس القدر بالنسبة للصفر والسود" (1983 vol. I, p.342).

(٦٧) انظر المقدمة.

(٦٨) BK II. 104.

(٦٩) انظر الباب الرابع، حاشية ٨١.

(٧٠) انظر Devisse (1979) I, p. 43، وللاطلاع على الصورة المسيحية القديمة (2, pp. 82-4).

(٧١) Devisse 2, pp. 136-94).

(٧٢) أنظر Yates (1964, Frontispiece and pls 3-5).

(٧٣) للاطلاع على أوجه التشابه بين صور السود والغجر أنظر Child (1882-98,vol.3, pp. 51-74)، ويتضح وجود التباس واضح فى هذا المجال فى الوصف الإنجليزى التقليدى لرأس أحد الأتراك بأنه يشبه رأس الأفريقى الأسود. انظر الباب الرابع، الحواشى ٤٢-٥٠.

(٧٤) نوقشت هذه الفكرة وشيوعها فى القرن السابع عشر لدى جوردان Jordan (1969, p.18).

(٧٥) Bernier (1684); cited in Poliakov (1974, p.143).

(٧٦) Gilman (1982, pp. 61-9).

(٧٧) Johnson (1768). Moorehead (1962, p. 38).

وبعد خمسين عاماً، كان كولريدج لا يزال يتلاعب بفكرة الحبشة بإعتبارها محورا لشرق يصطبغ بصبغة مثالية. انظر Schaffer (1975, pp. 119-21).

(٧٨) Cuvier (1831, vol. 1, p.53); quoted in Curtin (1971, pp. 8-9).

(٧٩) أنظر Hardeben (1909, vol. 2, p. 185); Bruce (1795, vol. 1, pp. 377-400); Volney (1787, pp. 74-7); Dupuis (1822, vol. 1, p. 73).

(٨٠) Winckelmann (1964, p. 43); trans. in Gilman (1982, p. 26).

(٨١) De Brosses (1760). Manuel (1959, pp. 184-209).

لا أجد مراجع من القرن الثامن عشر أو العشرين تؤيد فكرة أن "عقائد الزنوج" كانت لها وظائف رمزية أو مجازية. انظر هورتن Horton (1967, 1973). فهذه هى قوة العنصرية.

(٨٢) Herder (1784, vol. 1, p.43).

(٨٣) Rawson (1969, pp. 350-2); Jordan (1969, p. 237).

(٨٤) أنظر Blumenbach (1865, pp. 264-5).

(٨٥) Curtin (1971, p. 9).

(٨٦) راجع (Gobineau (1983, vol. 1, p. 347 وعن نظرية شليجل أنظر مايلى:

(٨٧) Jordan (1969, pp. 580-1).

(٨٨) Wells (1818, pp. 438-1); cited in Curtin (1964, p. 238).

(٨٩) إرميا = ١٣/٢٣.

(٩٠) انظر ما آلت إليه عند ديوب Diop (1974) (١٩٧٤) وعند تومكينز Tompkins (1973, p.76) (1974, p.76).

(٩١) Gran (1979, pp. 11-27).

(٩٢) Abdel-Malek (1969, pp. 23-64); Gran (1979, pp. 111-131).

(٩٣) Abdel-Malek (1969, p. 31).

(٩٤) Sabry (1930, pp. 80-2); St Clair (1972, pp. 232-8).

(٩٥) Sabry (1930, pp. 95-7); St Clair (1972, pp. 240-3).

(٩٦) وعند مقتضف Sabry (1930, p. 135).

(٩٧) Sabry (1930, p. 396).

(٩٨) Sabry (1930, pp. 395-401).

(٩٩) Sabry (1930, pp. 405-541); R. and G. Cattaui (1950, pp. 138-216).

(١٠٠) Abdel-Malek (1969, pp. 32-46).

(١٠١) Abdel-Malek (1969, pp. 47-64).

(١٠٢) تمكن دى توكفيل De Tocqueville (1837, vol.3, p.142) من التوفيق بين عنصريته والإنجازات الاقتصادية والإجتماعية التى حققها الشيروكى Cherokees بإرجاع تقدمهم لعدد كبير من المهجنين. أنظر Gobineau (1983. vol. 1, p. 207, footnote). وأكبر استثناء من هذا النمط هو اليابان، فمعدلاتها وقوتها جعلت من العسير إدراجها ضمن النسق الإستعمارى، وينبغى النظر إليها ضمن ما كان يعد بالنسبة للغرب "سمكة" أكبر كثيراً من الصين. ومع ذلك، فقد تم تفسير الإنجازات اليابانية بأنها نوع من "الغش". وكان هناك إصرار عنصرى استمر حتى الحرب العالمية الثانية على أن اليابانيين عاجزون جسمانياً عن منازلة الأوربيين الغربيين.

(١٠٣) انظر الباب السابع، حاشية ٢٧.

(١٠٤) انظر مثلاً الزنجى المنتصر الذى يقف وراء اليونانى الأبيض فى لوحة ديلاكروا الشهيرة "على اطلال ميسولونجى"

(١٠٥) For reading Dupuis, "Letter to Thelwall", 19 Nov. 1976; for liking Berkeley. "Letter to Poole", 1 Nov. 1796, vol. I, p. 140) & "to Thelwall" 17 Dec. 1796. Iversen (1961, p. 143).

ويقوم هذا الجزء والجزء التالى على كتاب برنال (Bernal, 1986, pp. 21-3).

(١٠٦) 4 Nov. 1816, cited in Manuel (1959, p. 278).

(١٠٧) Hartleben (1906, vol. I, p. 140). Iversen (1961, p. 143).

وهو يشير إلى تصالح الملك مع شامبليون ولكنه لا يفسر ذلك.

(١٠٨) Gardiner (1957, p. 14).

(١٠٩) للاطلاع على تفسير جومار Jomard لدائرة البروج، انظر Tompkins (1973, p. 49) وعن احتمال كونه يمثل تقليداً أقدم زمناً، انظر (pp. 168-75).

(١١٠) Letter to Montmorency - Laval, 22 Jun. 1825, in Hartleben (1909, vol. I, p. 288).

(١١١) انظر على سبيل المثال خطابى شامبليون للأب جازيرة Abbé Gazzera بتاريخ ٢٩ مارس و ١٩ أغسطس ١٨٢٦م؛ وصحيفته بتاريخ ١٨ يونية ١٨٢٩ (Hartleben, 1909, vol. I, pp.304; vol.2,p.335) وانظر أيضاً ماريشال (Marichal, 1982, pp. 14-15)

(١١٢) Marichal, (1982, p. 28); Leclan (1982, p. 42).

(١١٣) *"Middlemarch"* "منتصف مارس"، وقد قدمت إليوت رسالة مزدوجة رائعة فى اختيارها لاسم "كازوبون" Casaubon غير المألوف. لقد كانت تعرف كل شئ عن علامة القرن السابع عشر عن طريق صديقها راثر فورد Mark Rutherford الذى كان يجمع سيرة حياة كازوبون فى بدايات السبعينيات من القرن التاسع عشر بينما كانت هى منهمكة فى تأليف "منتصف مارس" Middlemarch.

(١١٤) Humboldt, Gegen Aenderung des Museumsstatuts, 14 Juni 1833 (1903 - 1936, vol.12, pp. 573-81); cited in Sweet (1978 - 80, vol. 2, pp. 453 - 4).

(١١٥) وكان من أسباب ذلك أنه يحتاج إلى تعلم اللغة القبطية. Bunsen (1868, vol.1, p.244).

(١١٦) F. Bunsen (1868, vol. 1, p. 254).

(١١٧) خطاب إلى شقيقته كرستينا، ٢٨ ديسمبر ١٨١٧ ورد في (Bunsen, 1868, vol. 1, p. 137)

(١١٨) F. Bunsen (1868, vol. 1, p. 244); C. Bunsen (1848-80, vol. 1, pp. I, ix).

(١١٩) C. Bunsen (1868-70, vol. 1, p. 210).

(١٢٠) انظر على سبيل المثال لهجة براون المتحفزة (R. Brown, 1898). وللاطلاع علـى التطـورات اللاحقـة انظر الباب التاسع، حاشية ٤.

(١٢١) للاطلاع على مصداقية هذه الآراء في ضوء المعلومات الأحدث، انظر قائمة المصادر والمراجع الخاصة بهذا الموضـوع فى الجزء الثانى.

(١٢٢) C. Bunsen (1848-60, vol. 4, p. 485).

(١٢٣) Hegel (1975, pp. 196-202).

(١٢٤) Hegel (1892, vol. I, pp. 117-147, 198).

(١٢٥) C. Bunsen (1848-60, vol. 4, pp. 440-3).

(١٢٦) Beth (1916, p. 182).

(١٢٧) De Rougé (1869, p. 330); cited in Homung (1983, p. 18).

يشير بدج (Budge, 1904, p.18) إلى أن شامبليون فيجياك Champollion Figeac شقيق جان فرانسوا Jean Francois الأكبر والمخلص حباً لأخيه كان يؤمن بالتوحيد المصـرى. ويـورد هورنونـج (Hornung, 1983, p.18) عبـارة لها مغزاها وهـى "كنـت أفـترض"، وهـى عبـارة تفـترض أن علـم المصريات الحديث ينبغي فصله تماماً عن "ماقبل التاريخ" وأن كل ما فيه كان اكتشافا جديداً.

(١٢٨) Brugsch (1981, p.90); cited in Hornung (1983, p.22) and Renouf (1880, p.89) Hornung (1983,p. 23).

(١٢٩) Preface to 2nd edn, cited in Hornung (1983, p. 19).

(١٣٠) Hornung (1983, p. 24).

(١٣١) Lieblein (1884) quoted in Budge (1904, vol. I, pp. 69-70).

(١٣٢) Maspero (1893, p. 227).

(١٣٣) الجدير بالذكر أنه كان هناك اهتمام تنويرى بالحضارات غـير الأوروبيـة حين نبـغ جـان ابـن ماسـبيرو فـي الدراسات الصينية. وقد لقى مصرعه ضمن صفوف "المقاومة" في الحرب العالمية الثانية.

(١٣٤) Maspero (1893, p. 227, trans. Budge, 1904, vol. I, p. 142).

(١٣٥) نفس المرجع.

(١٣٦) Budge (1904, vol. I, p. 143).

(١٣٧) Budge (1904, vol. I, p. 68).

عن اشتقاق اللفظ اليونانى ανθος (زهرة) ولكنه في ٫ ٫ أصل بمعنى (نمو) من اللفـظ المصـرى القديـم ntr "نر"، انظر الجزء الثانى.

(١٣٨) Hornung (1983, pp. 24-32).

(١٣٩) Bezzenberger (1883, p. 96).

(١٤٠) أنظر Erman (1883, p. 336) وقد جاء التحدى من فابس (Weise, 1883, p. 170)

(١٤١) أنظر Erman (1883, pp. 336-8) وأعتقد بالطبع أن سبب سهولة العثور على تقابل بين الألفاظ المصرية واليونانية هو أن ما بين ٢٠ إلى ٢٥ بالمائة من الألفاظ اليونانية مشتق من ألفاظ مصرية.

(١٤٢) Gardiner (1986, p. 23).

(١٤٣) انظر الباب الثانى، حاشية ٥٧.

(١٤٤) نفس المرجع السابق.

(١٤٥) Kem (1926, p. 136, n. 1).

(١٤٦) أنظر Gardiner (1926, pp.4, 24) وينبغى أن نؤكد على أن المصريين عند جاردنر كانوا يختلفون نوعياً عن اليونانيين عند فينكلمان فى الافتقار إلى الشعر والروحانية. وكان علم المصريات بأواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين شديد الاحجام عن الاعتراف بسمو الأدب المصرى. انظر مناقشة "قصة سنوحي" عند باينز (Baines, 1982). كما كان هناك اتجاه لوصف "أدب الحكمة المصرى" بأنه ترجمانى أو علمى وليس دينيا. وقد توقف هذا الإتجاه فى العشرين عاماً الأخيرة. انظر وليامز (1981, p.11) R.J.Williams.

(١٤٧) Gardiner (1942, p. 53).

(١٤٨) Gardiner (1942, p. 56).

(١٤٩) Hornung (1983, p. 24).

(١٥٠) Murray (1931; 1949). See Cemy (1952, p. 1).

(١٥١) Drioton (1948).

(١٥٢) Brunner (1957, pp. 269-70). See also the bibiography in Hornung (1983, pp. 28).

(١٥٣) كيرل (Curl, 1982, p. 107) هو صاحب هذا الرأى.

(١٥٤) Iversen (1961, pp. 131-3); Curl, 1982 (pp. 107-52); Tompkins (1978, pp. 37-55).

(١٥٥) Curl (1982, pp. 153-72).

(١٥٦) أنظر (Farrel (1980, pp. 162-70 وهو لا يناقش التأثير المحتمل للماسونية على "تمصير" العادات الجنائزية الأمريكية. وكان حرياً به أن يأخذ فى اعتباره تأثير جنازة واشنطون الماسونية المهيبة. ولابد للباحثين كغيرهم من الناس أن ينبذوا ما وجدوا عليه أسلافهم، ولكن لا يزال مما يثير الأسى أن يتعرض الأستاذ فاريل بكل هذا الازدراء لجيسيكا ميتفورد (Jessica Mitford (p.213 التى فتحت مجالاً له أهميته والتى سرق عنوانه منها.

(١٥٧) Mares (1959, p. 295); Wortham (1971, p. 92).

(١٥٨) راجع Erwin (1980); Franklin (1963, pp. 70-9); Brodie (1945, pp. 50-3) وليس معنى هذا إنكار أهمية الهيروغليفية فى الأدب الأوروبى فى القرن التاسع عشر انظر (Dieckmann, 1970, pp. 128-37) وكل ما أقصده هو أنهم كانوا أكثر محورية فى الولايات المتحدة.

(١٥٩) Iversen (1961, p. 121).

(١٦٠) راجع (Manuel (1956, pp. 155-6؛ وللتعرف على مكانة مصر المحورية فى فكر سويدنبورج، انظر ديكمان (Dieckmann, 1970, pp. 155-60)؛ وللاطلاع على الثيوصوفية أو الكشف الصوفى، انظر بلافاتسكى (Blavatsky, 1930; 1931).

(١٦١) راجع (Abdel-Malek (1969, p. 190 وهو يورد بالحاشية فى تلك الصفحة خطاباً من جان دوترى Jean Dautry يقول فيه الأخير: "لم يورد سان سيمون سواء فى أعماله المنشورة أو غير المنشورة ذكراً لقناة السويس، ولكن لابد أنه أشار إليها فى حواراته عن الاتصالات عبر المحيط".

(١٦٢) راجع (Abdel-Malek (1969, pp. 189-98 وللاطلاع على صورة بصرية لليقظة، انظر الميدالية البرونزية التى صدرت تخليداً لذكرى صدور كتاب La Description de l'Égypte (وصف مصر) فى عام ١٨٢٦. ويصور وجه العملة إعادة اكتشاف مصر بصورة ملكة مصرية تكشف النقاب عن وجهها لبلاد غاليا Gallia أو بلاد الغال (أى فرنسا القديمة) فى هيئة قائد رومانى منتصر. ويبين ظهر العملة عدداً من آلهة المصريين وإلاهاتهم.

(١٦٣) Abdel-Malek (1969, p. 302), Curl (1982, p. 187).

كما قام فيردى أيضاً بوضع موسيقى نشيد قومى مصرى.

(١٦٤) Curl (1982, pp. 173-94).

(١٦٥) Black (1974, pp. 4-6).

(١٦٦) Elliot Smith (1911, pp. 63-130).

(١٦٧) إلا أن هذا لا ينفى احتمال أن تكون آثار الألف الثالثة – كتل سيلبورى Silbury Hill– أو الألف الثانية – كالمراحل اللاحقة من ستونهينج Stonehenge– قد تأثرت بالتطورات التى شهدتها مصر وشرق المتوسط.

(١٦٨) وليس معنى هذا إنكار الطابع المحلى للزراعة فى الأمريكتين والحضارات القائمة عليها، أو احتمال أن يرجع التحنيط الذى عثر عليه بصحراء أتاكاما Atacama إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، وبالتالى فهو محلى. ومن ناحية أخرى، من المرجح أيضاً أن حضارات الأمريكتين قد خضعت لتأثير أفريقى منذ حضارة أولمك Olmec التى نشأت بشرق المكسيك وترجع إلى مطلع الألف الأولى قبل الميلاد على الأقل؛ انظر فان سرتيما (Van Sertima, 1976; 1984). وللاطلاع على شواهد أخرى واضحة عن تأثيرات شرق آسيا على الأمريكتين، انظر تيلهام و لو (Needham and Lu, 1985) . وللاطلاع على الهجوم على التأثيرات عبر القارية فى عهد ماقبل اكتشاف الأمريكتين، انظر ديفيز (Davies, 1979). فكرة يبدى عداءً واضحاً لفكرة وجود تأثير أفريقى (p.78-93). وفى حين تأثرت نظرية "الإنتشار" لدرجة كبيرة بالنزعة الامبريالية، يبدو أن النزعة الانعزالية ترجع إلى الاعتقاد بأن أوروبا وحدها هى التى كانت لديها القدرة على التأثير فى غيرها بدعوى أنها "القارة الكونية".

(١٦٩) Langham (1981, pp. 134-99).

(١٧٠) Elkin (1974, pp. 13-14); Langham (1981, pp. 194-9).

(١٧١) Jomard (1829a; 1829b); See also Tompkins (1978, pp. 44-51).

(١٧٢) انظر الحاشية ١٠٩ أعلاه.

(١٧٣) Tompkins (1978, pp. 93-4).

(١٧٤) Tompkins (1978, p. 169).

(١٧٥) Tompkins (1978, pp. 77-146).

(١٧٦) Tompkins (1978, pp. 96-107).

(١٧٧) Petrie (1931); Tompkins (1978, p. 107).

(١٧٨) Schwallet de Lubicz (1958; 1961; 1968); See also Tompkins (1978, pp.168-75).

(١٧٩) Steccini (1957; 1961; 1978).

(١٨٠) أنظر de Santillana (1963); de Santillana and von Derchend (1969).

وللاطلاع على دقة تحديد الاعتدالين الربيعيين، انظر الباب الثانى، حاشية ٩.

(١٨١) أنظر Neugebauer (1945).

وللمزيد عن كوبرنيكوس، انظر الباب الثانى، الحاشية ١١٠ و ١١١.

(١٨٢) Neugebauer and Parker (1960-9, p.78).

وللاطلاع على الازدراء، انظر مثلا نويجيباور (Neugebauer, 1957, pp. 71-4).

(١٨٣) Neugebauer (1957, p. 78).

(١٨٤) Neugebauer (1957, p. 96).

(١٨٥) نفس المصدر.

(١٨٦) Lauer (1960, p. 11).

(١٨٧) Lauer (1960, p. 10).

(١٨٨) Lauer (1960, pp. 4-5; 13-14; 21-4).

وللمزيد عن مسألة الذراع الطولى، انظر تومكنز (Tompkins, 1978, p.208).

(١٨٩) Lauer (1960, p. 1-3).

(١٩٠) Brunner (1957, pp. 269-70).

وهو لا يشير إلى الأهرامات تحديداً فى زعمه هذا.

(١٩١) Lauer (1960, p. 10).

(١٩٢) Drioton and Vandier (1946, p. 129); cited in Lauer (1960, p. 4).

(١٩٣) Drioton, preface to Lauer (1948); cited in Tompkins (1978, p. 208).

(١٩٤) Brunner (1957); Brunner- Traut (1971).

حواشى الباب السادس

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية انظر الباب الرابع حاشية :١٢٣ و ١٢٤.

(٢) انظر الباب الرابع حاشية ٦٣-٦٧. لمزيد من المعلومات حول فولف Wolf وبنتلى Bentley انظر Wilamowitz - Moellendorf, 1982. pp.81-2.

(٣) مما لا شك فيه أن العصور القديمة قد نظرت لهوميروس باعتباره فناناً شفهياً. وقد زاد من قوة هذا التراث الإشتقاق المصرى لإسمه أو للكلمة العامة التى تشير لكلمة شاعر وذلك من "فن النطق" وهو اشتقاق مقنع للغاية. انظر الباب الثالث، حاشية ٦١. لم يتطرق فولف لمناقشة مشاكل أصل الأبجدية الإغريقية. ولقد شاركه مؤسسو "النموذج الآرى المتطرف" فى القرن العشرين فى افتراضه هذا. وأنا شخصياً أعتقد أن الملاحم، رغم ارتباطها الأكيد بالشفاهة، كانت وثائق مكتوبة وغير عفوية، وإنها جاءت من ميراث طويل مُلم بالقراءة والكتابة.

لمزيد من التفاصيل حول هوميروس انظر الباب الأول حاشية ٥٩. ولمزيد من التفاصيل حول مناقشة علماء القرن العشرين ورأيى الشخصى فى اعتبار منتصف الألف الثانى ق.م. تاريخا لإدخال الأبجدية الإغريقية أى قبل هوميروس أنظر Bernal. (1987a forthcoming 1988).

(٤) أنظر Wolf (1804) . انظر أيضاً .Pfeiffer (1976. pp. 173-7)، F.M.Turner (1981. pp.138-9).

(٥) لمزيد من المعلومات عن Scots و Wood انظر الباب الرابع، حاشية ٧١-٧٢. ولمزيد من المعلومات حول "الإحتراف" انظر R.S.Turner (1983 (1983a, 1985).

(٦) أنظر Morno (1971. p. 771).

(٧) أنظر Pfeiffer (1976, p.173).

(٨) انظر الباب الرابع، حاشية ١٢٢-١٢٣.

(٩) Humboldt (1793).

(١٠) راجع Humboldt (1793). انظر أيضاً: Sweet (1978-80) الجزء الأول ص١٢٦.

(١١) لمزيد من المعلومات حول الفكرة الأساسية للإصلاح التعليمى للجماهير أنظر Holrendahl (1981, pp.250-72) ولمعرفة النتيجة الفعلية أنظر R.S.Turner (1983b, p.486).

(١٢) خطاب فى ٧ فبراير ١٧٩٣، ورد عند Humboldt (1841-25, vol.5, p.34) ولقد استشهد به سويت Sweet أيضاً: Sweet (1978-80, vol.1, p.131) ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع أنظر Seidel (1962. pp. xix-xxix).

(١٣) انظر ماسبق، الباب الثالث، حاشية ٩١. نقلا عن Wilamowitz-Moellendorf الذى يعزى الكثير من نجاحه للإشارات الغامضة للفرنسيين المعاصرين. ورغم ذلك فقد اعترف أنه أعطى صورة جيدة لأثينا فى العصر الكلاسيكى (1982, p.103).

(١٤) راجع Schiller (1967, p.103) لمزيد من التفاصيل حول طريق جوتنجن الوسط بين طرفى نقيض أى الثورية والرجعية كما يزعمون أنظر Marino (1975, pp.338-71).

(١٥) Sweet (1978-80, vol.2, p.46).

(١٦) راجع Wolf (1804, 2nd. edn, p.xxvi) وقد اقتبسه Pfeiffer مع موافقته الكاملة على آرائه Pfeiffer (1976, p.174)

(١٧) أنظر Humboldt (1903-36, vol.4, p.37, trans. Iggers 1967, p.59)، لمزيد من المعلومات حول المناقشة المستفيضة لهذه القطعة انظر

Iggers (1968, pp.56-62), Sweet (1978-80, vol.2, pp.431-40).

(١٨) Humboldt (1903-36, vol.v, p.33, trans in Cowan 1963, p.79.

(١٩) انظر الباب الرابع حاشية ١٠٢.

(٢٠) انظر الباب الرابع حاشية ٥٧–٥٨، والباب الخامس، حاشية ١–٣.

(٢١) R.L. Brown (1967, pp. 12-B), Humboldt (1903-36, vol. IV, p.294).

(٢٢) انظر الباب الرابع حاشية ٩.

(٢٣) أنظر Poliakov (1974, p.77) . ولمعرفة رأى الشاعر كلوبستوك Klopstock فى هذا تفصيلاً، انظر ص٩٦. وهناك ترجمة لأحد أحاديث Fichte فى هذا الصدد فى R.L.Brown (1967, pp.75-6)

(٢٤) Humboldt (1903-36, vol.1, p.266).

(٢٥) Iggers (1967, p.59). ترد أفكار مشابهة لذلك عند هيجل وكثيرين من المفكرين المعاصرين.

(٢٦) ينصب الإعتراض الوحيد الممكن على الجانب الطوبوى أو اليوتوبيا فى مفهوم همبولت الأصلى لعملية الإصلاح التعليمى. وفى رأى البروفسير Canfora (1980, pp. 39-56) أن اليمين قد أستحوذ على

دراسة الكلاسيكيات عند منعطف القرن التاسع عشر. وعلى أية حال فإنه يتخذ من الإستغلال اليعقوبي للتاريخ القديم أساساً ينطلق منه. وإنني إذ أسير على نهج المدرسة المحافظة في شمال أوروبا. لا أضع هذا ضمن التراث الفيلولوجي.

(٢٧) بالتأكيد كان الطريق الآخر المحافظ هو "الشرق" و "الهند". انظر الباب الخامس، حاشية ٦-٣٦. ولقد قام هذا الجزء بشكل مباشر على كتاب برنال. Bernal (1986. pp. 24-7)

(٢٨) Highett (1949, pp.377-436) St. Clair (1972, pp. 251-62).

(٢٩) لمزيد من المعلومات حول المدارس العامة انظر الباب السابع حاشية ٤-١٠. ولمزيد من التفاصيل عن المسيحية الآرية أنظر الباب الثامن، حاشية ٣٨-٤٢.

(٣٠) لمزيد من المعلومات عن مدى البعد والإهتمام بالبحر المتوسط في تلك الدوائر قبل حرب التحرير اليونانية، أنظر M. Butler (1981, pp.113-37).

(٣١) St. Clair (1972, pp.119-27).

(٣٢) راجع St. Clair (1972, pp.334-47). والإستثناء الكبير لذلك هي ΦBK التي تأسست قبل الآخرين وكان لها دائما شخصية مختلفة للغاية. لمزيد من المعلومات عن الأب جان، وتمريناته وحرق كتبه، أنظر Mosse (1964, pp.13-30), F.R.Stern (1961, pp.1-25).

(٣٣) لمزيد من المعلومات عن تأثير مجموعة التماثيل المرمرية على تقدير بريطانيا للفن الإغريقي ولبلاد الإغريق نفسها في تلك الفترة، أنظر St. Clair (1983, pp.166-202)

(٣٤) Haydon (1926, p.68).

(٣٥) Knowles (1831, p.241).

(٣٦) Shelley (1821, Introd).

(٣٧) في قصة فلوبير "مدام بوفاري" المؤلفة في عشرينيات القرن التاسع عشر، كانت البطلة قد قرأت سكوت Scott، وكان لها ديانة مارى ملكة الأسكتلنديين (الباب السادس). لمزيد من التفاصيل عن أصل ذلك التراث أنظر Trevor - Roper (1983, pp. 29-30).

(٣٨) St. Clair (1972, pp.164-84).

(٣٩) *Courrier Francais*, 7 Jun. 1821, p.26.

(٤٠) فيما نتعلق بوجهة النظر الأولى، أنظر Borrow (1843), Irving (1829) بالإضافة إلى أعمال برسكوت Prescott العديدة في التاريخ الإسباني. وبالنسبة للتفسير العنصرى الآخر أنظر Hannay (1911).

(٤١) Fallmerayer (1835), St. Clair (1972, pp. 82-4).

(٤٢) Rawson (1969, p.319).

(٤٣) Kistler (1960), E.M.Butler (1935, pp.294-300).

(٤٤) Rawson (1969, pp.338-43). انظر الإشارات المتكررة للدوريين Speer (1970, pp.63, 159)

(٤٥) Rawson (1969, pp.330-43)

(٤٦) Bury (1900, p.62).

(٤٧) يذكر كارتليدج Cartledge حاشية وردت عند الأستاذ Wade-Geary في أثناء اشارته إلى مدينة موثونى Mothone، وهى مدينة فى ميسينيا هزمها الاسبرطيون، ويصفها بأنها "Ulster" فى أيرلندا الميسينية. ويستخدم كارتليدج التشبيه نفسه فى مكان آخر (ص١١٦) ولكن فى سياق اسبرطى معادى للإنجليز.

(٤٨) لقد كتب ريدجواى Ridgeway أيضاً بعض الكتب عن التاريخ الاسكتلندى والقصص الشعرية الغنائية الشعبية. أنظر Conway (1973), Stewart (1959, pp.17-18).

(٤٩) كان ميشيله Michelet تلميذا له أنظر Hegel (1892, vol. I, trans. note).

(٥٠) Hegel (1975, pp.154-209).

(٥١) Hegel (1975, ch.6., n.127).

(٥٢) Hegel (1892, vol. I, pp.117-47)

(٥٣) Hegel (1892, vol. I, pp.197-8).

(٥٤) Hegel (1892, vol. I, pp.149-50).

(٥٥) انظر ماسبق الباب الرابع، حاشية ٢٨.

(٥٦) لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة، أنظر Bernal (1988a).

(٥٧) راجع Marx (1939, pp.375-413, trans. 1973, pp.471-513). لمزيد من المعلومات حول هذه الجزئية، أنظر Bernal (1987b).

(٥٨) Marx (trans. 1973, p.110).

(٥٩) رغم اقتناعى بأن معظم الموضوعات الأسطورية الإغريقية جاءت من مصر أو فينيقيا، فالواضح بنفس القدر أن الإختيار والمعالجة كانت إغريقية فى الأساس. وبالتالى فإنها تعكس المجتمع الإغريقى فعلا.

(٦٠) أنظر Heeren (1832-4, vol. I, pp.470-1, vol.2, pp.122-3).

(٦١) خطاب همبولت إلى زوجته كارولين، ١٨ نوفمبر ١٨٢٣م فى

Von Sydow (1906-16, vol.7, pp.173-4).

انظر أيضاً: Heine (1830-31, vol.2, p.193).

(٦٢) انظر على سبيل المثال: Hansberry (1977, pp.27, 104, 109).

(٦٣) C.Bunsen (1859, pp.30-5), Witte (1979, pp.17-19)

(٦٤) Yavetz (1976, pp.276-96).

(٦٥) Rytkónen (1968, PP.21, 222), witte (1979, P.191).

(٦٦) Momigliano (1980, P.567).

(٦٧) Momigliano (1982, P.8).

(٦٨) C.Bunsen (1859, pp.336-7, 340), F.Bunsen (1868, vol.V, p.195).

(٦٩) خطاب إلى مدام هنسلر Hensler، ١٧ مارس ١٨٢١، Witte (1979, p.136).

(٧٠) Rytkónen (1968, pp.280-2), C.Bunsen (1859, pp. 485-9).

(٧١) Rytkónen (1968, p.220), Momigliano (1982, pp. 8-9).

(٧٢) Witte (1979, p.21), C.Bunsen (1859, pp.485-9).

(٧٣) Witte (1979, p.18).

(٧٤) Momigliano (1982, p.7).

(٧٥) لقد أوضح أن الخطاب كان الشر الأقل أنظر C.Bunsen (1859, p.125).

(٧٦) E.Fueter (1936, pp. 467-70), C.P. Gooch (1913, pp. 16-17), H.Trevor - Roper (1969).

(٧٧) راجع هذه الصفحة p.XIII التى وردت عند Rytkónen (1968, p.306)

(٧٨) أنظر F.Bunsen (1868, vol. I, p.337). لمعرفة رأى الآخرين أنظر Witte (1979, p.185), Bridential (1970, p.98).

(٧٩) خطاب إلى مولتكى Moltke، ٩ ديسمبر ١٧٩٦. ورد عند Bridenthal (1970, p.98).

(٨٠) Witte (1979, p.167)

(٨١) Rytkónen (1968, pp.67, 219).

(٨٢) انظر الباب الخامس. حاشية ١١٥.

(٨٣) انظر رسائله إلى ألتنشتين Altenstein ٤ يناير ١٨٠٨م، وإلى Schuckman ٢ مايو ١٨١١. أنظر Witte (1978, p.20), Rytkónen (1968, pp. 175-6).

(٨٤) Witte (1979, p.185)

(٨٥) كاتب مجهول. مقال حول نيبور فى الموسوعة البريطانية. الطبعة الحادية عشر. ١٩١١م.

(٨٦) أنظر Momigliano (1966d. pp.6-9). يشير باللوتينو M.Pallotino (1984, p.15)، وهو محق فى ذلك، إلى أن متيفورد Mitford وكذلك ميكالى Guiseppe Micali، مؤرخ أيطاليا القديمة، قد استبقا مناهج نيبور التاريخية الحديثة.

(٨٧) وردت دون الإشارة لمرجع عند: Goock (1913, p.19).

(٨٨) Bridenthal (1970, p.2), Fueter (1936, p.467), Witte (1978, p.82), Trevor - Roper (1969).

إن ادعاء الأستاذ موميجليانو أن نيبور قد يكون محقا، لا يقلل بأى شكل من أهمية التأثير الرومانسى. لقد وضع مكاولى Macaulay كتابه "Lays of Ancient Rome" و المنشور عام ١٨٤٢م، على أساس فرضية نيبور.

(٨٩) Momigliano (1982, pp. 3-15).

(٩٠) وردت عند: Momigliano (1982, p.9).

(٩١) Michelet (1831, vol.1, p.XI).

(٩٢) أنظر الباب السابع، حاشية ٧-١٠.

(٩٣) Niebuhr (1847-51, vol.1, pp.XXIX-XXXI).

(٩٤) أنظر Wilcken (1931). وردت عند: Witte (1979, p.183). لمزيد من المعلومات عن حياة فيلكن تحت حكم النازى، أنظر Canfora (1980, p.136).

(٩٥) خطاب من كيل Kiel ورد عند: C.Bunsen (1868, pp. 35-40).

(٩٦) أنظر الباب الخامس، حاشية ٥٦-٥٨. أنظر كذلك الباب الثامن، حاشية ٢٤-٢٨.

(٩٧) Iggers (1968, p.30), shaffer (1975, p.85).

(٩٨) انظر الإقتباس من نصيحة الحكيم سيدونيا Sidonia في (Disraeli: Tancred, vol.3, Ch.1) "إن العنصر هو كل شئ، وليس هناك حقيقة أخرى، لأنه يحتوى على جميع الأشياء الأخرى. فقال اللورد هنرى: "حقا ماتقول".

(٩٩) Witte (1979, p.20).

(١٠٠) Rytkónen (1968, p.182), Niebuhr (1852, lecture VII, pt.1, vol. I, pp.98-9).

منذ عدة أعوام أعرب نيبور عن رغبة في وضع آسيا مع الآوروبيين "إننى أتصور المستعمرات الألمانية في بيثينيا Bithynia .. ألخ". أنظر خطابه إلى مدام هنسلر ١٦ أغسطس ١٨٢١ الذى ورد عند C.Bunsen (1859, p.410).

(١٠١) Niebuhr (1852, Lecture XX, vol. I, pp.222-3).

(١٠٢) أنظر الباب الخامس، حاشية ١١١-١١٢.

(١٠٣) Niebuhr (1852, Lecture V, vol. I, p.77, Lecture VII, pp.97-9).

(١٠٤) Niebuhr (1852, Lecture VI, vol. I, pp.83-4).

(١٠٥) انظر على سبيل المثال خطابه إلى مدام هينسلر Hensler ١٧ مارس ١٨٢١ الذى ورد عند: C.Bunsen (1859. p.405).

(١٠٦) Niebuhr (1852, Lecture XX, vol. I, p.223).

(١٠٧) Niebuhr (1852, Lecture IX, vol.1, p.117).

(١٠٨) Hoefer (1852-77, vol.8, Cols 721-5).

(١٠٩) قد تكون هذه الأسوار "الكيكلوبية" من آثار الأسلاف القدماء الشائعة في الأناضول، ويبدو أن أسوار وبوابات موكيناى والمدن والحصون الموكينية الأخرى هى نتيجة موجة من التأثير الأناضولى مرتبط في الأسطورة بغزو بيلوبس Pelops في القرن الرابع عشر ق.م. ومن الممكن أن المبانى من ذلك النوع في إيطاليا كانت مرتبطة بالاتروسكيين الذين يصر التراث القديم على أنهم قد جاءوا من شمال غرب الأناضول. وهكذا فإننى أعتقد أن هذا الطراز المعمارى قد دخل بعد التأثير المصرى الضخم على بلاد الإغريق في بداية العصر البرونزى المتأخر، ولكن قبل التأثير الفينيقى في القرنين العاشر والتاسع.

(١١٠) من أجل مناقشة مستفيضة لشخصية Inachos أنظر الباب الأول حاشية ٩٣-٩٧.

(١١١) أنظر Petit - Radel (1815).

(١١٢) Pfeiffer (1976, p.186), Gooch (1913, pp.16-17), Wilamowitz - Moellendorf (1959, pp.67, 1982, p.127).

حيث يتحدثون عنه مستخدمين نفس المصطلحات.

(١١٣) Miller: Prolegomena zu einer wissenchaftlichen Mythologie - trans. by Leitch (1844).

من أجل مناقشة مستفيضة لهذا الموضوع واستخدام كانط Kant للمصطلحات أنظر

Neschke-Hentschke (1984, p.484).

(١١٤) أنظر R.S. Turner (1983a).

(١١٥) Gooch (1913, p.35).

(١١٦) Donaldson (1858, p.VII).

(١١٧) Donaldson (1858, pp.VII-XXXIX)

من اللافت للنظر أن مولـلر لم يُطرد مع اصدقائه وزملائه – بما فيهم الأخوة جريم Grimm "سبعة جوتنجن"، الذين اعترضوا على تصرفات ملك هانوفر غير الليبرالية فى عام ١٨٣٧م.

(١١٨) لقد فازت أعماله عن الاتروسكيين بالجائزة التى منحتها الأكاديمية البروسية. وهو يشرح ويعرض بطريقة نقدية طبيعة وتكوين وتدريب الشعب الاتروسكى. أنظر Donaldson (1858, p.XXII). وبالاضافة إلى التعبير عن الهوس الاتروسكى فى نهاية القرن الثامن عشر، والذى أيده البونابرتيون بصفة خاصة الذين رأوا أنفسهم فيما يبدو متشابهين مع الاتروسكيين، فإن بعض الألمان قد اعتبروا الشعب القديم صنواً لهم. أنظر Poliakov (1974, pp. 65-6), Borsi (1985) ولقد إدعى نيبور ، فى الطبعة الأولى، أن الاتروسكيين قد جاءوا من شمال جبال الألب، وهو الأمر الذى قد يُفسر اهتمام الأكاديمية البروسية. لاحظ أيضاً الاهتمام بالاصلاح التعليمى عند الاتروسكيين، وهو مالم يعرف عنه شئ بالفعل.

(١١٩) Pausanias, XI. 363 (trans. P.Levir, 1971, vol. I p.387).

(١٢٠) استخدم بلوتارخوس كلمة "محب للأجانب" philobarbaros لمهاجمة هيرودوتوس (أنظر ماسبق الباب الأول، حاشية ١٨٣). وهناك مصطلح حديث آخر فهو تفسير يونانى interpretatio Graeca – يمثل وجهة نظر متوازنة بشكل ملحوظ أنظر Griffiths (1980). إننى أعتقد أن اسم المينيين

Minyans – الذى وُجد فى سهل بيوتيا الغنية (أرض الماشية) وفى مسينيا بالبلوبونيسوس قد جاء من الكلمة المصرية mniw التى تعنى رعاة الماشية. (أنظر الجزء الثانى).

(١٢١) لمزيد من المعلومات عن "حب الهند" (Indophilia) أنظر الباب الخامس، حاشية ٦–١٧. أنظر أيضاً Creuzer (1810-12), Momigliano (1946, pp.152-163). ومن أجل قائمة مصادر مختصرة عن كل من Creuzer و Görres و F.Schlegel أنظر

Feldman & Richardson (1972, pp.383-389).

(١٢٢) لمزيد من المعلومات عن الهجوم على Creuzer أنظر Müller (1855, pp.331-6). أما بالنسبة للهجوم على Dupuis أنظر Müller (1834, pp. 1-30).

(١٢٣) لمزيد من التفصيلات حول فكرة "دليل من الصمت" (argument from silence) أنظر المقدمة ص٨٧–٨٨.

(١٢٤) Müller (1825, pp.128-9, trans. 1844, pp.68-9).

(١٢٥) Müller (1825, pp.128-9. trans. 1844, pp.158-9).

لقد وُجد هذا اليقين قديماً، لكننى لا أرى سبباً للشك فى وجود دوافع مماثلة إلى حد ما من أجل المخالفة.

(١٢٦) Müller (1825, p221, trans. 1844, p. 161).

(١٢٧) Müller (1825, pp.232-4, trans. 1844, pp. 173-4).

(١٢٨) Müller (1825, pp.239-40, trans. 1844, p. 179).

(١٢٩) لمزيد من المعلومات حول احتمال أن مستوطنات كيكروبس (Kekrops) تمثل تأثيراً مصرياً نتج عن الحملات العسكرية خلال الأسرة الثالثة عشر، أنظر الجزء الثانى وكذلك المقدمة ص٩٩–١٠٠.

(١٣٠) Müller (1820-4, vol. I, pp. 106-8).

(١٣١) لمزيد من المعلومات عن هيرودوتوس والمستعمرات الأخرى، أنظر الباب الأول، حاشية ١١٧–١٢٤. ولمزيد من المعلومات عن كيكروبس، أنظر الباب الثامن، حاشية ٤٤.

(١٣٢) Menexenos 245 C-D, Müller (1820-4, vol. I p.107).

وللتمييز بين "النقاء الأثينى" والغزوات الشرقية لأجزاء أخرى فى بلاد الإغريق، أنظر الباب الرابع، حاشية ١٨

(١٣٣) لمزيد من التفصيلات حول الآراء المختلفة بالنسبة لاسم داناؤوس، أنظر الباب الأول، حاشية ١٠٧–١١٠.

(١٣٤) Müller (1820-4, vol. I, p.109).

(١٣٥) لمزيد من المعلومات حول هذه الجزئية، أنظر الباب الأول، حاشية ٥٧.

(١٣٦) Müller (1820-4, vol. I, p.112).

(١٣٧) Müller (1820-4, vol. I, pp.108, 113).

(١٣٨) أنظر Herodotos, II, 51 لقد أدرك السيد كازوبون Casaubon هذا الارتباط بـ Kabeiroi أنظر Middemarch, Ch.20, Astour (1967a, p.155), Dupuis (1795, vol. I, p.9).

(١٣٩) لم يذكر موللر اسم هيرودوتوس (III, 37) وذلك لأنه كان يعني وجود ارتباط ضمني بين عبادة Kabeiroi وعبادة الاله بتاح Ptah إله الحدادة المصرى.

(١٤٠) أنظر Usener (1907, p.11) وللاطلاع على دراسة جذابة عن Usener أنظر Momigliano (1982, pp.33-48).

(١٤١) لمزيد من المعلومات عن Movers أنظر الباب الثالث حاشية ٨٦.

(١٤٢) Müller (1820-4, vol. I, p.122).

(١٤٣) Müller (1825, pp.282-3, trans. 1844, pp.221-2).

(١٤٤) على الرغم من غموض مانشرته جين هاريسون Jane Harrison (1925 p.84) حول موضوع تأثير الشرق الأدنى على الأساطير الأغريقية، فإنها نفذت ببصيرتها إلى أبعد من ذلك عندما قارنت بين عالم الساميات روبرتسون سميث Robertson Smith– الذى سمحت له خلفيته الدينية أن يبقى داخل الإطار العريض للنموذج الآرى محافظاً على رأيه بأنه كان هناك تأثير من الشرق الأدنى على بلاد الإغريق – وبين فريزر Frazer عالم الكلاسيكيات الذى كان يحاول بطريقة أقل تهديداً أن يصل إلى المتوازيات الأنثروبولوجية بين الشعوب. تقول هاريسون. "إن روبرتسون سميث الذى نُفى بتهمة الهرطقة كان يرى النجم في الشرق. أما نحن الكلاسيكيين فقد أغلقنا آذاننا وأغلقنا عيوننا عبثا ولكن ما إن تطرق الكلمات السحرية "الغصن الذهبى" الأذن حتى تزول الغشاوة فإذا بنا نسمع ونعي".

(١٤٥) Müller (1825, p.285, trans. 1844, p.224).

(١٤٦) Foucart (1914, pp.2-3). لمزيد من المعلومات عن Foucart. أنظر الباب الخامس، حاشية ١٤٥، والجزء الثالث.

(١٤٧) Müller (1825, p.290, trans. 1844, pp.224-5).

(١٤٨) Müller (1825, p.290, trans. 1844, p229).

(١٤٩) Feldman and Richardson (1972, p.417).

(١٥٠) Müller (1825, p.290, trans. 1844, p229).

(١٥١) انظر المقدمة والجزئين الثانى والثالث.

(١٥٢) Astour (1967a, pp.128-58.), R.Edwards (1979, pp.64-114).

(١٥٣) Nissen (1962, pp.12, 117).

(١٥٤) Wilamowitz Moellendorf (1982, p.105).

(١٥٥) F.M. Turner (1981, p.79).

(١٥٦) أنظر Feldman and Richardson (1972, pp. 416-18). أنظر أيضاً قائمة المراجع الموجودة فى F.m.Turner (1981, P.79). إن ترنر Turner يأخذ موللر بجدية شديدة.

(١٥٧) Pfeiffer (1976, p.187).

(١٥٨) لمزيد من المعلومات عن محاولة تبرير ذلك أنظر Momigliano (1982, p.33).

حواشى الباب السابع

(١) لمزيد من المعلومات حول إدعاء ايوكراتيس أنظر الباب الأول، حاشية ١٣١. هذا الإقتباس من بونسن. أنظر F.Bunsen (1868, vol. I, p.111)

(٢) Shaffer (1975, p.25).

(٣) أنظر Cousin (1841, pp.35-45). يبدو أن كازن Cousin قد طور فكرته الأساسية عن الإنتقائية والدور الرئيسى لأفلاطون من Combes-Dounous الذى كتب فى بداية القرن. أنظر Wismann (1983, pp.503-7). لم يستطع Combes-Dounous إنكار أن أفلاطون قد استعار فكرة خلود الروح من مصر والشرق رغم رغبته فى القيام بذلك. أنظر Combes-Dounous (1809, vol. I, p.141)
أما فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فقد أصبح الطريق آمنا أمام كازن كى ينسبها للعبقرية الإغريقية.

(٤) خطاب من بونسن إلى أرنولد ٤ مارس ١٨٣٦ F.Bunsen (1868, vol. I, pp. 420-2). لمزيد من المعلومات حول الأوتوقراطية (حكم الفرد) المهنية البروسية أنظر R.S. Turner (1983a, 1985).

(٥) Lloyd-Jones (1982a, pp.1617.

(٦) أنظر الخطاب المُرسل من H.G.Liddell (والد Alice ومؤلف أول قاموس يونانى – انجليزى كبير) إلى H.H.Vaughan ، ١٨ ديسمبر ١٨٥٣، والذى ورد عند Bill (1973, p.136).

(٧) لقد تم ترتيب هذا على يد Bolgar. أنظر Bolgar (1979, pp. 327-38).

(٨) لقد كان يجد الألمان أقل جاذبية. أنظر خطابه إلى بُنسين، إثنين الفصح ١٨٢٨، ورد عند:
F.Bunsen (1868, pp. 316-19).

(٩) أنظر T.Arnold (1845, pp.44-50)

لقد كان العنصر هو المبدأ التاريخى الملحوظ عند Vaughan تلميذ أرنولد الشهير وذلك عندما أصبح أستاذا فى أكسفورد أنظر Bill (1973, pp.182-5).

(١٠) أنظر Bill (1973, pp. 8-10).

(١١) أنظر مقالة الكاتب المجهول عن Thirlwall فى الموسوعة البريطانية ١٩١١. انظر أيضا:
J.C. Thirlwall (1936, pp. 1-24).

(١٢) لمزيد من المعلومات حول Schleiermacher أنظر Shaffer (1975, pp. 85-7).

ولمزيد من المعلومات حول إيمانه "بالمسيحية الآرية" أنظر الباب الثامن، حاشية ٢٩–٣٠.

(١٣) J.C. Thirlwall (1936, pp. 56-7).

(١٤) أنظر Merrivale (1899, p.80). لم أستطع العثور عليه لكنه ورد عند:
J.C. Thirlwall (1936, p.57). , Brookfield (1907, p.8)

(١٥) Annan (1955, pp. 243-78), P. Allen (1978, p.257).

(١٦) Thirlwall (1936, p.200), F.Bunsen (1868, vol. I, p.601).

(١٧) هذا ليس وصفاً سيئا للوضع عام ١٩٨٧! Thirlwall (1936, p.165).

(١٨) وردت عند: Thirlwall (1936, p.164).

(١٩) Màcaulay (1866-71, vol.7, pp.684-5) ولقد ورد عند: Jenkyns (1980, p.14).

انظر المناقشة الممتعة التى وردت عند: F.M. Turner (1981, pp. 204-6).

(٢٠) Grote (1826, p.280), F.M.Turner (1981, pp.207-8).

(٢١) وردت عند: Thirlwall (1936, p.97).
Momigliano (1966b, pp. 57-61).
F.M. Turner (1981, pp. 203-16).

(٢٢) لمزيد من المعلومات حول هذه الحجج أنظر الباب الثالث، حاشية ٩٤–٩٥.

(٢٣) C. Thirlwall (1835, vol. I, p.63).

(٢٤) C. Thirlwall (1835, vol. I, p.64).

(٢٥) C. Thirlwall (1835, vol. I, p.67).

(٢٦) C. Thirlwall (1835, vol. I, p.71).

(٢٧) C.ThirlWall (1835, vol. I, p.74).

(٢٨) لمزيد من المعلومات حول النشاط المصرى فى البحر الإيجى آنذاك أنظر الباب الخامس، حاشية ٩١-٩٩.

(٢٩) C. Thirlwall (1835, vol. I, p.74).

(٣٠) J.C. Thirlwall (1936, pp.98-101).

(٣١) Momigliano (1966b, p.61).

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) Momigliano (1966b, p.60), Pappe (1979, pp. 297-302).

(٣٤) Momigliano (1966b. p.61).

(٣٥) Momigliano (1966b. p.62).

(٣٦) Momigliano (1966b. p.63).

(٣٧) K.O. Müller (1825, p.59, trans. 1844. p.1).

(٣٨) Müller (1825, pp.249-51, trans. 1844, pp. 189-90), Grote (1846-56, vol.2, pp. 182-204).

(٣٩) Müller (1825, p.108, trans. 1844, pp. 189-90), Grote (1844-56, vol.2, p.77).

(٤٠) F.M.Turner (1981, pp.90-7), Momigliano (1966b, pp.56-74).

(٤١) أنظر Momigliano (1966b, p.63). لمزيد من التفصيلات حول مناقشة جروت Grote للأساطير ومدى تأثير موللر عليه أنظر F.M. Turner (1981, pp.87-8).

(٤٢) Grote (1846-56, vol. I, p.440).

(٤٣) Momigliano (1966b, pp.63-4).

(٤٤) من أجل قائمة ببليوجرافية حول الاكتشافات الكنعانية والفينيقية فى طيبة:
Porada (1981), R.Edwards (1979, p.132.n.145)
لمزيد من المعلومات حول حملات الأسرة الثانية عشر أنظر Farag (1980, pp.75-81).
ولمعرفة أرائى فى ذلك أنظر المقدمة ص٩٩-١٥٥، والجزء الثانى.

(٤٥) يشير هذا إلى معاملة كل من:
Victor Berard, Paul Foucart, Paul Levin, Michael Astour, Cyrus Gordon, Ruth Edwards وغيرهم.

(٤٦) Momigliano (1966b, pp.64-7).

(٤٧) Smith (1854, pp. 14-15).

(٤٨) أنظر المقدمة ص٩٤-١٠٢. وسوف تتم مناقشة "النموذج القديم المُعدل" بتفصيل أكثر فى الجزء الثانى.

(٤٩) Thucydides I. 3.

(٥٠) أنظر الباب الأول حاشية ٣٩-٤١.

(٥١) Curtius (1857-67, vol. I, p.26, trans. 1886, vol. I, p.30).

(٥٢) لقد تم الإستشهاد به دون إشارة محددة في Pallotino (1978, p.37).
لمزيد من المعلومات عن الوصف الخلاب لموقف مومسين الشكي وموقف الآخرين منه أنظر
Gossman (1983, pp.21-41).

(٥٣) Sandys (1908, vol.3, p.207).

(٥٤) Stuart - Jones (1968, p.x).

(٥٥) لمزيد من المناقشة حول هذه الجزئية أنظر الجزء الثاني.

(٥٦) Sandys (1908, vol.3, pp.228-9).

(٥٧) Wilamowitz- Moellendorf (1982, p.153).

(٥٨) Curtius (1857-67, vol. I, p.27, trans. 1886, vol. I, p.41).

(٥٩) Curtius (1857-67, vol. I, p.30, trans. 1886, vol. I, p.45).

(٦٠) انظر ما سبق الباب السادس حاشية ٤٦ -٤٧.

(٦١) Curtius (1857-67, vol. I, pp.30-1, trans. 1886, vol. I, pp.45-6).
لم أستطع أن أجد ذكراً واضحاً له، ولكن يبدو من المتوقع بشكل كبير أن كورتيوس والعلماء الألمان الآخرين قد رأوا أوجه تشابه بين الألمان المرتكزين على الأرض والمتفوقين أخلاقيا والدوريين وأبناء عمومتهم الإنجليز الموهوبين بحريا والذين لا يمكن الإعتماد عليهم.

(٦٢) Curtius (1857-67, vol. I, pp.31, trans. 1886, vol. I, pp.45-6).

(٦٣) المرجع السابق.

(٦٤) Curtius (1857-67, vol. I, p.20, trans. 1886, vol. I, p32).

(٦٥) Curtius (1857-67, vol. I, p19, trans. 1886, vol. I, p34).

(٦٦) Curtius (1857-67, vol. I, p.41, trans. 1886, vol. I, p58).

(٦٧) Curtius (1857-67, vol. I, pp.41-3, trans. 1886, vol. I, pp.58-61).
لمزيد من المعلومات حول خطة بونسن أنظر الباب الخامس، حاشية ١٢٥. لقد كانت إشارة هوميروس الوحيدة للبرابرة – أى غير الإغريق – هى إشارته للكاريين (Iliad. II, 867).

(٦٨) Curtius (1857-67, vol. I, pp.58-61, trans. 1886, vol. I, p.81-3).

(٦٩) لصورة أكثر حيوية له أنظر Stewart (1959, pp. 16-18).

(٧٠) Ridgeway (1901, vol. I, p.88).

حواشي الباب الثامن

(١) خطاب من همبولت إلى كارولين، ٢٩ فبراير ١٨١٦م. ورد عند:
Sydow (1906-16, vol.5, pp.194-5). Sweet (1978-80, vol.2, p.208).

(٢) Poliakov (1974, pp.37-46, 210-13).

(٣) أنظر الباب الرابع، حاشية ١١٣-١١٤.

(٤) Disraeli (1847, BK3, Ch.7, BK.5, Ch.6), Eliot (1876, BK.5, Ch.40).

(٥) Poliakov (1974, p197).

(٦) كما وردت عند: Knox (1862, p.1), Poliakov (1974, p.232).

(٧) وردت عند: Curtin (1971, p.16).

أنظر أيضا: Curtin (1964, pp.375-80).

(٨) كما وردت عند: Knox (1862, p.194), Poliakov (1974, p.362).

(٩) Poliakov (1974, p.233).

(١٠) خطاب إلى جوبينو Gobineau ٢٦ يونيو ١٨٥٦. ورد عند: Boissel (1983, pp. 1249-50)

(١١) Michelet (1831, BK.2, Ch.3).

(١٢) Burnouf (1872, pp. 318-19, trans. 1888, pp. 190-1).

(١٣) أنظر Poliakov (1974, p.234). لمزيد من التفصيلات حول أفكار جوبينو عن الجنس الأصفر والجنس الأسود، أنظر الباب الخامس، حاشية ٦٣-٦٥.

(١٤) أنظر Gaulmier (1983, pp.1, XXII, XI).

(١٥) وردت هذه المعلومة عند: Poliakov (1974, p.235).

لمزيد من المعلومات حول التصور الذى ساد فى القرن التاسع عشر للعلاقة بين المنحرفين من البيض البالغين والذكور العاديين من غير البيض والأطفال والمجانين والنساء، أنظر
Gilman (1982, pp. 1-18).

(١٦) لمزيد من المعلومات عن مشروع جوبينو، أنظر Poliakov (1974, p.234).

(١٧) Gobineau (1983, pp.349-63).

(١٨) Gobineau (1983, pp.364-478).

(١٩) المرجع السابق وبصفة خاصة الصفحات ٤١٥-٤١٧.

(٢٠) خطاب فى ٣٠ يوليو ١٨٥٦ ورد عند: Poliakov (1974, p. 238).

(٢١) لمزيد من المعلومات عن بارتلمى Barthélemy أنظر الباب الثالث، حاشية ٢٤، ولمزيد من المعلومات عن بوشار Bochart. أنظر الباب الثالث، حاشية ٢٧.

(٢٢) R.L. Brown (1967, p.57).

(٢٣) أنظر الباب الخامس، حاشية ٢٥.

(٢٤) Rashed (1980, p.12), Renan (1855), Gaulmier (1977, p.48), Said (1978, p.139).

من المثير أن رينان قد اختار الإغريقي والألماني كأمثلة للفلاسفة الأوروبيين الحقيقيين. وكان سيجد نفسه وسط صعوبات جمة إذا كان قد استشهد بسلوك Locke وهيوم Hume اللذان كتبا باستفاضة عن الإنجليزية بوصفها لغة منعزلة.

(٢٥) أنظر Renan (1855). وردت عند Gaulmier (1977, p.47)

(٢٦) لمزيد من المعلومات حول شعور رينان أنه بدراسته للحضارة السامية فإنه كان يخلقها بشكل ما أنظر Said(1978, p.140)

(٢٧) أنظر Renan (1855). وردت عند: Gaulmier (1977, p.47), Faverty (1951, p.169)

(٢٨) Faverty (1951, pp. 167-74), Said (1978, pp. 137-48)

(٢٩) انظر ماسبق ، الباب الخامس، حاشية ١١٧–١٢٠.

(٣٠) أنظر Renan (1858, p. 359). على قدر علمي فإن رينان لم يتصد مطلقاً للمشكلات التى أثارتها هذه المقارنات بالنسبة لنظرية التحديد المناخي وقلما استطع الإنجليزى أن يطور هذه الخصائص من الشمس المتوهجة !.

(٣١) Faverty (1951, p. 76).

(٣٢) Faverty (1951, pp.111-61).

(٣٣) أنظر M. Arnold (1906). كان عالم القرن التاسع عشر الكبير جورج بورو George Borrow، والذى أضفى رومانسية على الغجر، مهتما بشدة بلغتهم وبغيرهم من الشرقيين المتحدثين بالهندو–أوروبية مثل الأرمينيين (1851, Chs. 27, 47). وكان وصف بورو لفيلسوف الغجر الطبيعي Jasper Petulengro شائعاً إلى حد كبير فى إنجلترا فى العصرين الفيكتورى والإدورى. أنظر Borrow (1851, 1857). ولم تكن عبادة الغجر البوهيمية مقبولة فى ألمانيا. وعندما تعلق الأمر بالهولوكست، فإن لغتهم الهندو–أوروبية لم توفر لهم الحماية أكثر من لغة اليهود الألمانية المسماه Yiddish

{ تعليق: Yiddish: كانت اللغة التى يتحدث بها اليهود فى جميع أنحاء العالم رغم أنها لم تكن لغة عالمية. وكانت مزيجاً من اللهجات الألمانية ظهرت حوالى ١١٠٠ فى حارات اليهود فى أوروبا الوسطى ومن هناك إنتشرت فى جميع أنحاء العالم. ومن وجهة نظر علم الصوتيات فإن اليديش قريبة من ألمانية العصور الوسطى الراقية أكثر من اللغة الألمانية الحديثة. وقد استمدت مفرداتها فى الأساس من اللغة الألمانية ولكنها تضخمت فيما بعد بسبب المفردات المستعارة من اللغة العبرية والسلافية واللغات الرومانسية وكذلك من اللغة الإنجليزية. (المترجمة).}

(٣٤) Faverty (1951, p.167).

(٣٥) Faverty (1951, pp. 162-85).

(٣٦) لمزيد من المعلومات حول "هيللينية" ماتيو أرنولد Mathew Arnold بإعتبارها العامل الهـام فـى تدهـور بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أنظر Wiener (1981, pp.30-7).

(٣٧) M. Arnold (1869, p.69). لاحظ إستخدام الكلمة الساكسونية "Growth" والدينامية المتضمنة فـى كلمـة "movement" لمزيـد مـن المعلومـات حـول الروابـط بـين الهيللينيـة والآريانيـة، أنظـر Hersey (1976).

(٣٨) أنظر ماسبق الباب الخامس، حاشية ١١٩.

(٣٩) Russell (1895, vol. I, p. 383).

(٤٠) لمزيد من المعلومات عن Schleiermacher فى أنجلترا، أنظر Shaffer (1975, pp. 85-7)
ولمزيد من المعلومات عن Cousin أنظر Gaulmier (1978, p.21).

(٤١) أنظر Gaulmier (1978, p.21). هناك حالة مشابهة بشـكل مثير لذلـك فـى القـرن العشـرين وهـى التحول من عنصرية كينيث كلارك Kenneth Clark الهادئة إلى عنصرية إبنه العنيدة.

(٤٢) Poliakov (1972, pp. 307-9); Mosse (1964, pp. 15-30), F.R. Stern (1961, pp. 35-52).
كـانت معظـم أفكـار لاجـارد Lagarde إمتـداداً لأفكــار رينــان.

(٤٣) Hardy (1891, Ch. 25).

(٤٤) Gladstone (1869).

(٤٥) F.M. Turner (1981, pp. 159-70), Lloyd- Jones (1982a, pp.110-25).

(٤٦) Rawlinson (1889, p.23).

(٤٧) M. Arnold (1906, p. 25).
كـانت تلـك نفـس كلمـات إرنســت كورتيــوس Ernst Curtius المعـاصر لأرنولـد عندمـا كـان يكتب عــن أنسـاب السـاميين، أنظـر ماسـبق البـاب السـابع، حاشـية ٦. انظـر أيضـا:
T.S. Eliot (1971, pp. 46-7).

(٤٨) أنظر Evans (1909, p. 94) لقد أتفق إيفانز، الذى كان يسلط الأضواء أنذاك فى كـل مكـان علـى المينويين غير الساميين بما فيهم الفينيقيين، مع الرجل العجوز العظيم.

(٤٩) Michelet (1962, p.68).

(٥٠) Michelet (1831, pp.177-8).

(٥١) أنظر الباب الثالث. حاشية ٢٧.

(٥٢) Gesenius (1815, p.6)

فى الحقيقة إن مسألة تصنيف اللغات السامية موضع خلاف كبير وقد زاد من تعقيدها اليوم اكتشاف العديد من اللغات القديمة والحديثة. وليس هناك أدنى شك فى صحة تصنيف جسينيوس Gesenius للفينيقيين على أنها مطابقة للعبرية أكثر من مطابقتها للغة البربر.

(٥٣) Gesenius (1815, p.4), Gobineau (1983, pp. 380-1).

(٥٤) Gobineau (1983, p. 388).

(٥٥) المرجع السابق ص١٤٩.

(٥٦) المرجع السابق ص١١٣٥.

(٥٧) المرجع السابق ص١١٤١.

(٥٨) المرجع السابق ص٣٩٦.

(٥٩) المرجع السابق ص٣٩٦-٣٧٢.

(٦٠) المرجع السابق ص٣٩٩-٤٠١.

(٦١) المرجع السابق ص٤٠١-٤٠٥.

(٦٢) المرجع السابق ص١٩٥ و ص٤١٣-٤١٧.

(٦٣) المرجع السابق ص٣٧٨-٩ و ص٣٧٩ حاشية ٢.

(٦٤) طبقا لبوليبيوس كان Spendios من جنوب إيطاليا. Michelet (1831, pp. 203-11).

(٦٥) A. Green (1982, pp. 28-31), Benedetto (1920, pp. 21-39).

لمزيد من التفاصيل عن المعالجة النقدية لهذا السحر أنظر Said (1978, pp. 180-97).

ولقد أشار برونو إلى أنه "من بين أعمال فلوبير، فإن سلامبو دون شك هى أقل أعماله حظاً من العناية والدرس من جانب الباحثين. فليس هناك طبعة جيدة لها وتكوينها معروف بشكل سيئ". أنظر Jean Bruneau: Flaubert, 1973, vol.2, p.1354.

(٦٦) Benedetto (1920, p. 39), A. Greene (1982, p. 28) Starkie (1971, p. 14).

إن قولى إن التمرد قد جذب إهتمام فلوبير للموضوع وظل فى عقله نموذجاً عصرياً هاماً لا يعنى بأى حال أننى أحاول نزع الثقة من النماذج المتشابهة المهمة التى أوضحها د. جرين Green بين سلامبو والثورة الفرنسية عام ١٨٤٨ أنظر A. Green (1982, pp. 73-93).

(٦٧) خطاب فى أول مايو ١٨٦١ ، ورد بالإنجليزية عند: Starkie (1971, p. 22).

(٦٨) Starkie (1971, pp. 20-2).

(٦٩) Starkie (1971, pp. 58-9).

(٧٠) أنظر Benedetto (1920)

لمزيد من المعلومات عن معاداة هذه المدرسة للسامية والتى أشرف عليها بيلوخ Juluis Beloch أنظر ماسيلى

(٧١) إننى أتفق هنا مع العالم Lloyd - Jones . أنظر

Wilamowitz- Moellendorf (1982, p. 103, n. 405)

(٧٢) يصف ميشيليه Michelet، الذى أفاض فى وصف أهوال حرب المرتزقة، الإجتياح الثالث بطريقة واقعية للغاية، وهو يحذف تماماً مسألة صلب ستة آلاف عبد على طول الطريق من كابوا Capua إلى روما بعد النصر الرومانى

(٧٣) بالرغم من أن زولا قد نشر قصة "Nana" فى عام ١٨٨٠ فقط فقد بدأ رواياته الواقعية عن الحياة الباريسية والفساد فى ستينيات القرن التاسع عشر.

(٧٤) Starkie (1971, pp. 23-6).

(٧٥) Said (1978, pp. 182-5).

(٧٦) لقد إستقر ذلك على يد Eissfeldt عام ١٩٣٥. أنظر
A.R.W. Green (1975, pp.179-83), Spiegel (1967. p.6)

(٧٧) Flaubert (1862, Ch.13).

لم تدرس التفريعات العديدة والهامة فى هذا الموضوع إلا بقدر ضئيل للغاية وذلك لأسباب واضحة. وهى تستحق دراسة جادة وتفصيلية لا أستطيع القيام بها هنا.

(٧٨) أنظر
Benedetto (1920, pp.196-215), Spiegel (1967, pp. 62-3), A.R.W. Green (1975, pp. 182-3)

(٧٩) أنظر Harden (1971, p.95), Herm (1975, pp.118-19), Warmingten (1960, p. 164).
والأخير معادى لفلوبير بشدة.

(٨٠) ورد ذلك عند: Herm (1975, p.118).
ورغم أننى لا أملك سببا واحدا للشك فى ذلك، فإننى لم أستطع إيجاد الأصل. أنظر
Kunzl (1976, pp. 15-20)

(٨١) أنظر Lohnes and Strothmann (1980, p. 563)
لقد جعل المؤلفان الإقتباس من المصادر الألمانية – كلما كان ذلك ممكنا – مسألة مبدأ.

(٨٢) بعد سقوط الإمبراطورية الألمانية عام ١٩١٨ وظهور موسولينى عام ١٩٢٢، أدى ربط موسولينى نفسه بروما إلى إحياء أيطالى نبع من الربط بين العدو إنجلترا وقرطاجة القديمة
Cagnetta (1979, pp. 92. 5).

(٨٣) انظر على سبيل المثال ١٨٢٠–١٨٢٤ الجزء الأول ص٨.

(٨٤) Movers (1840-50, vol. 2, pt. 1, pp. 265-302).

(٨٥) Movers (1840-50, vol. 2, pt. 1, pp. 300-3, 420).

(٨٦) أنظر Astour (1967a, P.93).

(٨٧) Gobineau (1983, vol. I, pp. 664-5).

(٨٨) المرجع السابق، ص٦٦٣

(٨٩) المرجع السابق، ص٦٦٣

(٩٠) المرجع السابق، ص٣٦٧

(٩١) المرجع السابق، ص٦٦٢

(٩٢) المرجع السابق، ص٤٢٠-٤٦٣

(٩٣) المرجع السابق، ص٦٦٠-٦٨٥

(٩٤) لقد عانى متاعب أكثر فى تفسيره لأوديسيوس بوصفه نموذجاً لبلاد الإغريق السامية من شمال ايثاكا (الجزء الأول ص٦٦١).

(٩٥) أنظر المقالات التى كتبها فى الموضوع والمذكورة عند: Gaulmier (1983, p.IXX).

(٩٦) Gobineau (1983, vol.1, pp. 716-932).

(٩٧) لمزيد من المعلومات عن Bunsen. أنظر ما سبق الباب الخامس حاشية ١٢٥. ولمزيد من المعلومات حول Curtius أنظر الباب السابع حاشية ٦٧-٦٨. ولمزيد من المعلومات عن Smith، انظر الباب السابع حاشية ٤٧. انظر أيضاً: Rawlinson (1869, pp. 119-20)

(٩٨) Gobineau (1869, p. 129).

(٩٩) Gardner (1880, p.97), Vermeule (1975, p.4).

(١٠٠) Dunker (trans. 1883, vol. I, p. 59).

(١٠١) Holm (trans. 1894, pp. 47, 101-2).

(١٠٢) لمزيد من المعلومات عن Thirlwall أنظر الباب السابع حاشية ٢٩، ولمزيد من المعلومات عن Stubbings أنظر الباب العاشر. حاشية ٢٤.

(١٠٣) Harsh (1885, p. 191).

(١٠٤) Friedrich (1957, pp. 59-69)

(١٠٥) أنظر Winckler (1907, p. 17), T.Jones (1969, pp.1-47).
لمعرفة أرائى فى هذا الموضوع، أنظر المقدمة ص٩٠-٩١.

(١٠٦) انظر على سبيل المثال: Reinach (1893, pp. 699-701)

(١٠٧) Walcot (1966, pp.1-54).

حواشى الباب التاسع

(١) T.Sountas and Manatt (1897, p.326).

(٢) Frothingham (1891, p.528).

(٣) Van Ness Myers (1895, p.16).

(٤) R. Brown (1898, p.IX).

(٥) راجع (Reinach (1892b, p.93. كما وردت أيضاً في Reinach (1893, p.724).

(٦) Necrologue, Revue Archéologique 36 (1932)

انظر أيضاً مقالة عن Reinach لكاتب مجهول في: Encyclopaedia Judaica.

(٧) Reinach (1893, p.543).

(٨) Reinach (1893, p. 541).

(٩) Reinach (1892b, 1893, pp. 541-2).

لمزيد من التفصيل حول إعلاء شأن علم اللغة التاريخي عند Saussure الليتواني والنحويين الجدد أنظر Pedersen (1959, pp.64-7, 271-300).

(١٠) Reinach (1893, pp. 561-77).

(١١) المرجع نفسه ص٥٦١-٥٧٧.

(١٢) المرجع نفسه ص٧٠٤

(١٣) المرجع نفسه ص٧٢٦

(١٤) Beloch (1894).

(١٥) Momigliano (1966a, p.247).

(١٦) Momigliano (1966a, pp.259-60).

(١٧) Beloch (1893, vol. 1, p. 34, n. 1).

(١٨) LLoyd - Jones (1982c, p. XX).

(١٩) Momigliano (1966a, p.258).

(٢٠) أنظر ماسبق الباب السادس، حاشية ٩٤.

(٢١) لاحظ الإرتباط المدهش بين الإثنين في Beloch (1894, p. 114)

(٢٢) Beloch (1894, p. 126).

(٢٣) المرجع نفسه ص١٢٥.

(٢٤) المرجع نفسه ص١٢٨

(٢٥) المرجع نفسه ص١١٢.

(٢٦) وبالنسبة للمصطلحات الكنعانية، أنظر على سبيل المثال كلمة byblinos (حبال السفينة) نسبة إلى مدينة Byblos (إيلا èlah أو إيلات èlaté) من كلمة élàh / état (ومعناها الشجرة الباسقة) وكلمة gaulos (سفينة) من كلمة gullàh (سفينة) وحسبما أتذكر فإن Chantraine (1928, p.18) يحذف الكلمة الهندو-أوروبية ku(m)bara (عمود) باعتبارها مشتقة من كلمة kubern (مجداف توجيه) بتسرع شديد. وعلى أية حال يبدو أيضاً أن هناك تأثيراً من الجذع السامي

Vkbr (كبير)، ولقد اعترف Chantraine بإمكانية الإشتقاق المصرى من كلمة baris. لكنه كتب فى عشرينيات القرن العشرين وأنكر التأثيرات السامية ونسب الأغلبية العظمى من الكلمات البحرية التى لا يمكن شرحها فى مصطلحات هندو-أوروبية إلى شعوب ما قبل الهيللينية أو شعوب البحر المتوسط.

(٢٧) Bass (1967), Helm (1980, pp. 95, 223-6).

(٢٨) Beloch (1894, pp. 124-5).

(٢٩) أنظر الباب الأول، حاشية ٥٨-٦٨، وأيضا Beloch (1894, p. 112).

(٣٠) Bunnens (1979, pp. 6-7).

(٣١) Armand Bérard (1971, pp. VII-XVIII).

(٣٢) V. Bérard (1894, pp. 3-5).

(٣٣) المرجع السابق ص٧-١٠.

(٣٤) Kropotkin (1899, pp. 385-400).

(٣٥) V. Bérard (1902-03, 1927-9).

(٣٦) Herodotos I, 105.

(٣٧) Bérard (1902-03, vol. 2, pp. 207-10), Astour (1967a, p. 143).
لم يؤمن أى منهما بوجود تأثير مصرى فعال، لذا فقد فشلا فى ملاحظة أنه من المحتمل أن كلمة Skandeia – وليس لها اشتقاق هندو-أوروبى – قد اشتقت من الكلمة المصرية Shmty (بمعنى التاج المزدوج لمصر) وأنها نُقلت مع أداة التعريف P3 إلى الإغريقية Psent، وأننى اعتقد أن كثيراً من ثنائيات بيرار، إن لم يكن معظمها، هى فى الحقيقة بين اللغة المصرية والسامية وليس بين الإغريقية والسامية.

(٣٨) Petrie (1894-1905, vol. 2, pp. 181-3).

(٣٩) Weigall (1923, p. 69).

(٤٠) Gardiner (1961, pp. 213-14).

(٤١) King and Hall (1907, pp. 385-6).

(٤٢) Weigall (1923, p. 127).

(٤٣) Freud (1939).

(٤٤) Vercouter (1953, pp. 98-122), Helck (1979, pp. 26-30).

(٤٥) أنظر Evans (1909, p. 109).
لقد أعطى الأسباب التى جعلته يقبل تقرير Septimius انظر أيضا: Gordon (1966b, p.16).

(٤٦) أنظر الباب السابع، حاشية ٦٨.

(٤٧) انظر الباب الثامن حاشية ٤٨. لمزيد من التفصيل حول اختراع إيفانز للفظ مينوى Minoan أنظر Evans (1909, p. 94).

(٤٨) Stobart (1977, p. 32), Steinberg (1981, p. 34).

(٤٩) King and Hall (1907, p. 363).

(٥٠) Dörpfeldt (1966, pp. 366-94), E.Meyer (1928-36, vol. 2, pt. 2, pp. 113-22), Gilles (1924, p.27).

(٥١) Bury (1900, p. 77). ولقد ظلت هذه الفقرة في الطبعة الثالثة التي نقحها R.Meiggs عام ١٩٥١ ص٧٧.

(٥٢) انظر على سبيل المثال: Baron (1976, pp. 168-71).

(٥٣) Oren (1985, pp. 38-63).

(٥٤) Cornell Alumni News 84, a July 1981, p.7. أدين بهذا المرجع لدكتور Paul Hoch

(٥٥) Childe (1926, p.4).

(٥٦) Myres (1924, p. 3).

(٥٧) المرجع السابق. ص٢١-٢٣.

(٥٨) المرجع نفسه ص٢٦-٢٧.

(٥٩) S. A. Cook (1924, p. 195).

(٦٠) المرجع السابق ص١٩٦.

(٦١) Frankfort (1949, pp. 3-27) لمزيد من التفصيل حول المناقشة الرائعة لهذا الموضوع في الفكر الأوروبي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أنظر Horton (1973, pp. 244-305).

(٦٢) S. A. Cook (1924, p. 203).

(٦٣) تم تناول هذه النقطة عند: Bernard (1981, p. 29).

(٦٤) Nilsson (1950, p. 391).

(٦٥) Blegen and Haley (1927, p. 151).

(٦٦) المرجع السابق ص١٥١

(٦٧) Laroche (1977, p. 213).

(٦٨) Kretschmer (1924, pp. 84-106), Georgiev (1973, p. 244).

(٦٩) لمناقشة مستفيضة وتفصيلية لتلك "العناصر" أنظر الجزء الثاني.

(٧٠) أنظر الباب الخامس حاشية ١٢٥، الباب السابع حاشية ٦٨، وللخلط بين الفينيقيين والمينويين أنظر Burns (1949, p. 687)

(٧١) للحصول على قائمة مصادر للمحاولات الألمانية لإثبات هذا أنظر Jensen (1969, p.574), Waddell (1927), Graves (1984, pp.1-124), Georgiev (1952, pp. 487-95)

(٧٢) Josephus: *Contra Apionem* 1-11.

(٧٣) أنظر ماسبق حاسية ١١.

(٧٤) Beloch (1894, pp. 113-14).

(٧٥) Iliad VI 168-9.

(٧٦) Carpenter (1933, pp.8-28).

(٧٧) لمزيد من التفاصيل حول إيمانى بأن الأبجدية الإغريقية تكونت بشكل أساسى من الأبجدية السامية التى كانت تستخدم الحروف المتحركة على الأقل لنقل الأصوات الأجنبية أنظر Bernal (1987a, Forthcoming 1988)

(٧٨) Carpenter (1933, p. 20).

(٧٩) Woolley (1938, p.29).

(٨٠) Jeffery (1961, p. 10. n.3).

(٨١) المرجع السابق ص٧.

(٨٢) انظر ماسبق حاشية ٣٣.

(٨٣) Bury (1900, p. 77) . أنظر أيضاً ما سبق حاشية ٥١ .

(٨٤) أنظر الباب الثامن، حاشية ٨٣-٨٥.

(٨٥) لمزيد من التفاصيل حول حجتى على وجود تأثير فينيقى كبير على منطقة البحر الإيجى منذ القرن العاشر على الأقل وأن المدينة الدولة الإغريقية والمجتمع السلافى ككل مشتق من فينيقيا أنظر Bernal (1987b).

(٨٦) Carpenter (1938, p. 69).

(٨٧) Jensen (1969, p. 456).

(٨٨) Ulman (1934, p. 366).

(٨٩) Carpenter (1938, pp. 58-69).

(٩٠) Parry (1971).

(٩١) Z.S. Harris (1939, p.61). وعن التغييرات التى يدخلها Albright على تاريخ النقش المحورى على تابوت حيرام Ahiram لكى يصل به إلى مايتناسب مع التأريخ السائد أنظر

Garbini (1977, pp. 81-3). See also Bernal (1987a; forthcoming, 1988); Tur-Sinai (1950, pp.83-4).

حواشي الباب العاشر

(١) Oren (1985, pp. 173-286).

(٢) انظر على سبيل المثال Holm, (1984, vol. I, p.13).

(٣) أنظر Grumach (1968 / 9); Hood (1967).

(٤) لوصف كيفية حل طلاسم هذه الكتابة أنظر Chadwick (1973a, pp.17-27).

(٥) أنظر Friedrich (1957, pp.124-131).

(٦) أنظر Chadwick (1973a, pp.24-7).

(٧) أنظر Georgiev (1966; 1973, pp. 243-54); Renfrew (1973, pp. 265-19). انظر المقدمة ص ٩٢-٩٦.

(٨) لا يعني ذلك أن كل المؤيدين للنموذج الانعزالى كانوا معارضين لفكرة الاستيطان، ولا يعنى كذلك أن كل القائلين بفكرة الامتزاج كانوا يعارضون هذا الاستيطان.

(٩) Grossland & Birchall (1973, pp. 276-8).

(١٠) أنظر Carpenter (1958; 1966)، وانظر أيضاً Snodgrass (1971, pp.18-23).

(١١) Vian (1963.

(١٢) Bury (1951, p. 66).

(١٣) Kantor (1947, p.103).

(١٤) Baramki (1961, p.10).

(١٥) Albright (1950; 1975).

(١٦) Culican (1966).

(١٧) Thomson (1949, pp. 124, 376-7); Willetts (1962, pp. 156-8).

(١٨) Baramki (1961, pp.11, 59); Jidejian (1969, pp.34-7, 62).

(١٩) راجع Huxley (1961, esp. pp.63-7) وانظر أيضاً أدناه، الحاشية ٦٣، ٦٤.

(٢٠) راجع Stubbings (1973, vol.2, pt.I, pp. 627-58)، وقد نشرت هذه الفصلة لأول مرة فى عام ١٩٦٢

(٢١) Stubbings (1973, pp. 631-5).

(٢٢) Vermeule (1960, p.74) اقتباسا عنها عند: Astour (1967a, p. 358).

(٢٣) Chadwick (1976); Dickinson (1977); Hammond (1967); Hooker (1967); Renfrew (1972) and Taylour (1964). ويرد أفضل تعبير عن هذا الرأى عند موهلى Muhly (1970B, pp. 19-64)، لكننا سنناقش التحول فى مواقفه فيما يلى من الحديث. وقد تبنت

فرميولى هذه الآراء كذلك **Vermeule (1964)**، لكنها وسعت هى الأخرى من حـدود
منذ ذلك الوقت.

(٢٤) راجع (Stubbings (1973, p.637، وقد شملت التغيرات التى حدثت فى مصر تطور عام على أنه لغة جديدة هى اللغة المصرية المتأخرة، وكذلك شيوع استخدام البرونز وأشـ الحصان والعجلة الحربية والسيف والقوس المركبة والنادوف.

(٢٥) راجع (Bass (1967، وعن تقريره المبدئى عن الموضوع انظر 267-86).

(٢٦) glou (1985, pp. 226-7).

(٢٧) انظر عرضاً لذلك فى ds (1979, pp. 132-3).

(٢٨) عن المراجع التى تتناول هذه المسألة أنظر ds (1979, p.118, notes 122-3).

(٢٩) انظر التعليقات على كتاب ستيفنسون سميث فى
1967, pp. 92-4); Muhly (1970a, p.305).

(٣٠) انظر على سبيل المثال: 1968, p.162); Stubbings (1975, pp. 181-2).

(٣١) أنظر 967a, pp. 350-5).

(٣٢) أنظر على سبيل المثال بحث الأستاذ

(٣٣) أنظر 966); West (1971).

(٣٤) أنظر se (1959).

(٣٥) 1958, p.37).

(٣٦) See Szemerenyi (1964; 1966; 1974); Mayer (1964; 1967). ولمزيد من العمل، انظر الجزء الثانى من كتابنا.

(٣٧) 68; 1971b; 1973, 1977; 1978; 1979; 1984).
وعن بحثه عن العائلتين اللغويتين انظر (1911a). وكما ذكرنا فى المقدمـة (ص١٣٤–٣٥ إحياء فى السنوات القليلة الأخيرة لفكرة وجود علاقة عضوية أصلية بين العائلتين والهندية – الأوروبية.

(٣٨) 965; 1968a; 1968b; 1969; 1971).

(٣٩) انظر ;(Masson (1967 ولتقريظ رأيه انظر على سبيل المثال al (1970, p.338).

(٤٠) كانت هناك بالطبع استثناءات مهمة نذكر منها أعمال أمبرتو كاروزو (1971) وإشبيجل egel.

(٤١) انظر القسم الخاص بالترجمة الذاتية فى جوردون 971 (pp. 144-59).

(٤٢) 968, pp. 437- 460); Friedrich (1968, pp. 421 - 4), Bunnens (1979, Davies (1979, pp. 157-8).
وعن آرائى الشخصية فى هذا الموضوع انظر الباب الخامس، حاشية ١٦٨.

(٤٣) Gordon (1971, p. 157).

(٤٤) Gordon (1971, p. 158). For the concession, see Chadwick (1973a, pp. 387-8).

(٤٥) Gordon (1962a; 1963a; 1966b; 1968a; 1968b; 1969; 1970a; 1970b; 1973; 1975; 1980; 1981). See also Astour (1967b, pp. 290-5). وعن الإثيوكريتية انظر الباب الأول أعلاه، حاشية رقم ١٦.

(٤٦) Dahood (1981a; 1981b); Garbini (1981); Gelb (1977; 1981); Keinast (in Cagni, 1981).

(٤٧) Gordon (1971, p. 161).

(٤٨) لم يمنع هذا القادة "الأفريقان" من اعادة اكتشاف صلات القرب الحقة بينهم وبين الاسرائيليين القدماء، وقد وجدوا الآن أن من السياسة إقامة علاقة حلف مع اسرائيل الحالية.

(٤٩) أنظر Chanaiwa (1973).

(٥٠) Chadwick (1973b, vol.2, pt.1, pp. 609-26; 1973a, pp. 595-603).

(٥١) انظر على سبيل المثال Duhoux (1982, pp. 223-33).

(٥٢) أنظر Stieglitz (1981, pp. 606-16).

(٥٣) أنظر Neiman (1965, pp. 113-15); Sasson (1966, pp. 126-38).

(٥٤) Astour (1967a, pp. xii-xvii).

(٥٥) انظر الحاشية رقم ٣٢ أعلاه، ولم يلبث كيرك Kirk أن تبنى هذه الموضوعات.

(٥٦) عن اعتراضات أدواردز انظر (pp. 139-61) 1979 وقد أثارت نقاطا مهمة ولكن دون اسقاط القضية برمتها.

(٥٧) Astour (1967a, pp. 357-8).

(٥٨) Muhly (1965, p. 585).

(٥٩) Muhly (1965, p. 586).

(٦٠) عن هذا الإعجاب به حاليا انظر الباب التاسع ، حاشية ١٨.

(٦١) Muhly (1970b, pp. 19-64).

(٦٢) Biligmeier, (1976, esp. pp. 46-73).

(٦٣) كان المفروض أن يكون الناشر هو J.C.Gieben وكان الكتاب سيحمل هذا العنوان Kadmos and Danaos; A Study of Near Eastern Influence on the Late Bronze Age Aegean.

(٦٤) Levin (1971a, p. ix).

(٦٥) R.Edwards (1979, p.x).

(٦٦) R.Edwards (1979, pp. 139-61).

(٦٧) R.Edwards (1979, pp. 17-113).

وعن أدلتها بالتحديد انظر الباب الأول، الحواشي ٥٢-٥٧.

(٦٨) R.Edwards (1979, pp. 201-3).

(٦٩) R.Edwards (1979, pp. 172-3).

(٧٠) R.Edwards (1979, pp. 171, n.182).

(٧١) Van Berchem (1967, pp. 73-109, 307-38).

(٧٢) Bunnens (1979, esp. pp. 5-26).

(٧٣) Helm (1980, pp. 97, 126).

(٧٤) Muhly (1984, pp. 39-56).

(٧٥) Muhly (1985, pp. 177-91).

(٧٦) Tur-Sinai (1950, pp. 83-110, 159-180, 277-302); Naveh (1973, pp. 1-8).

(٧٧) Naveh (1973, pp. 1-8)

(٧٨) عن تأريخ هذا النقش بالقرن الثالث عشر ق.م. انظر

Garbini (1977); Bernal (1985b; 1987 and 1988).

(٧٩) Jeffery (1982, p. 823, n.8).

(٨٠) Jeffery (1982, p. 832).

(٨١) McCarter (1975, p. 126).

(٨٢) انظر على سبيل المثال Millard (1976, p. 144).

(٨٣) راجع Cross (1979, pp. 108-111) ، وفي حين أؤيد كل ما ورد في هذا الرأي الرائع تقريبا، فأنا لا أوافق على اعتقاد كروس في الأقدمية الزمنية الخاصة لأبجديات كريت ... ألخ انظر Bernal, (1987b).

(٨٤) Cross (1980, p. 17).

(٨٥) Millard and Bordreuil (1982, p.140); Kaufman (1982).

(٨٦) انظر على سبيل المثال Burzachechi (1976, pp. 82-102).

(٨٧) Stieglitz (1981, pp. 606-16).

(٨٨) Bernal (1983a; 1983b).

(٨٩) Röllig and Mansfeld (1970, pp. 265-70).

(٩٠) Evans (1909, pp. 91-100); Dussaud (1907, pp. 57-62).

(٩١) Bernal (1983a; 1983; 1985b; 1987 and 1988b).

(٩٢) انظر Murray (1980, pp. 300-1) وعن اقتباس اليونان من هذه النظم انظر Bernal (1988a) وتظهر خطة المجلد الثالث من موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم The Cambridge Ancient History أن حذفا ما قد أجرى ومغزاه إنكار أهمية التأثير الفينيقي على بلاد اليونان قبل عام ٧٥٠ ق.م.

(٩٣) Morenz (1969, p.44; for language, see pp. 20-175).

(٩٤) Morenz (1969, pp. 38 , 39).

(٩٥) Morenz (1969, p. 49).

(٩٦) Morenz (1969, pp. 56-7).

(٩٧) Morenz (1969, pp. 44-8).

(٩٨) Snowden (1970).

(٩٩) James (1954).

(١٠٠) James (1954, p. 158).

(١٠١) راجع Carruthers (1984, p.34) لم يرشدنى إليها الدكتور جيمس تيرنر إلا بعد سنوات طويلة فى بحثى فى هذا المجال.

(١٠٢) Diop (1974; 1978; 1985a; 1985b). See esp. 1974, pp. xii-xvii, p.1.

وعن آرائى الشخصية فى هذا الموضوع انظر الباب الخامس الحواشى من ٦٥-٩٠.

(١٠٣) Carruthers (1984, p.34).

(١٠٤) Carruthers (1984, p.35). See Dubois (1975, pp. 40-2; 1976, pp. 120-47); J.H.Franklin (1974); Noguera (1976).

(١٠٥) Carruthers (1984, p.35). See Diop (1974; 1978; 1985a; 1985b); Ben Jochannan (1971); C.Williams (1971).

(١٠٦) إلى جانب مورنز Morenz فهناك استثناء أو اثنان من هذا: فقد سبق أن ذكرنا (راجع حاشية ٦١ أعلاه) قبول بليجمييه للأساطير المتعلقة بداناؤس المصرى، بل أن الأكثر من ذلك أهمية هو ما يتضح من دراسة الأساتذة إميلى فرميولى لاحتمال وجود تأثيرات مصرية كبرى على بلاد اليونان، ولننظر فى إشارتها (1979, pp.69-80) إلى أوجه الشبه الأساسية بين عقائد كل من المصريين واليونان حول الموت.

حواشى الملحق

(١) انظر الباب الأول، حاشية ١٧ و ١٨ و انظر أيضا (1971, p.166) Macalister ؛ Mazars (1914, p.2) وقد اقتبس منهما (1980, p.2) Joffe

(٢) راجع (1978, p.145) Sandars، ولن أدخل هنا فى مسألة أغطية الرأس المصورة تصويرا رائعا فى الرسوم المصرية، لأنها لا تبين بشكل واضح ما إذا كان الذين يرتدونها من المنطقة الإيجية أم من الأناضول.

(٣) Barnett (1975, p.373).

(٤) Albright (1975, p.513).

(٥) راجع (1975, pp.363-6) Barnett، ومن أجل مقاربة أكثر تمحيصا للموضوع أنظر Astour (1967a, pp.53-67), 1972, pp. 454-5.

(٦) الإقتباس فى سترابون (Strabo, XIV, 403 (trans. Jones, p.325. ويشير أستور (1972, pp.454-5) Astour بحق إلى الإضطراب غير العادى الذى يحيط بأخبار هجرات اليونان والليديين من آل موبسوس.

(٧) الإقتباس فى استور (1967a, p.11) Astour وفى ساندرز Sandars (1978, p.119)

(٨) راجع (1947, vol.1, pp. 124-5) Gardiner. وعن الدانائيين، أنظر الباب الأول الحواشى من ١٠٦ إلى ١١١.

(٩) Astour (1972, p. 457).

(١٠) أنظر Rendsberg (1981).

(١١) Astour (1972, p. 458).

(١٢) Strange (1973).

(١٣) راجع (Lipinsky (1978, pp. 91-7); Pope (1980, pp. 170-5. وأنظر الجزء الثالث.

(١٤) أنظر (1967a, pp. 1-4) Astour. وعن مناقشة حول العلاقة الصوتية بين موكساس Muksas و Mps أنظر الجزء الثانى وكذلك (1988b) Bernal.

(١٥) Amos 9:7; Jer. 47:4; Gen. 10:14; with textual emendation, Ezek. 25: 15-17; Zeph. 2: 4-7.

(١٦) أنظر 2 Sam. 15: 18-22; I Sam. 27 وعن علاقة داود بالفلسطين قارن J. Strange (1973).

(١٧) أنظر M. Dothan (1973); Muhly (1973); Popham (1965). T. Dothan (1982, pp. 291-6); Snodgrass (1971, pp. 107-9), and Helck (1979, pp. 135-46).

(١٨) راجع (1982, pp.20-22, 291-6) T.Dothan. ومما يؤيد رأيها أن "التيجان ذات الرياش" أو

الشعر من الطراز الذى كان يضعه البرست على رءوسهم لا يظهر لها أثر فى اليونان، لكن أثرها لا يظهر أيضا لا فى البلقان ولا فى غربى الأناضول. وفضلا عن ذلك فإن التكور T(t)kr والدن Dnn الذين قدموا بالتأكيد من اليونان يشتركون معا فى استخدام ذات الطراز، انظر Sandars (1978, p.134)

(١٩) وعن عرض حديث لهذا الموضوع أنظر Helm (1980, p.209).

(٢٠) Nehemiah 13: 23-4.

(٢١) For Yhd, J.Naveh (personal communication, Jerusalem, Jun. 1983); for Yhw, see Seltman (1933, p. 154).

(٢٢) Gardiner (1947, vol.I, p.202).

(٢٣) Tcherikover (1976, pp. 87-114).

(٢٤) راجع Gardiner (1947, vol.I, p.202). وأنا أعتقد أن مارنا Marna مشتقة من لفظة مصرية M3nw تعنى "جبل غروب الشمس جهة الغرب" وهو اسم يمكن تطبيقه على كريت واسم مكان الدولة الحديثة Mnnws الذى تم ربطه – على نحو مقبول وليس قاطعاً – باسم ملك كريت مينوس Minos يمكن أن يكون مشتقاً من هذه اللفظة. ولمزيد عن هذا الموضوع انظر الجزء التانى من الكتاب.

البيليوجرافيا

Abdel-Malek, A. (1969) *Idéologie et renaissance nationale: l'Égypte moderne.* Paris: Éditions Anthropos, 2nd edn.

Abel, L. S. (1966) *Fifth Century BC Concepts of the Pelasgians.* Stanford University, MA thesis.

Abou-Assaf, A., Bordreuil, P. and Milliard, A. R. D. (1982) *La Statue de Tell Fekheriyé: et son inscription bilingue assyro-araméenne.* Études Assyriologiques Éditions recherche sur les civilisations no. 7, Paris.

Ahl, F. (1985) *Metaformations: Soundplay and Wordplay in Ovid and Other Classical Poets.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Akurgal, E. (1968) *The Art of Greece: Its Origins in the Mediterranean and the Near East.* New York: Crown Publishers.

Albright, W. F. (1950) 'Some Oriental glosses on the Homeric problem', *American Journal of Archaeology* 54:162–76.

—— (1968) *Yahweh and the Gods of Canaan: A Historical Analysis of Two Contrasting Faiths,* London: Athlone.

—— (1970) 'The biblical period', in L. Finkelstein, *The Jews Their History.* New York: Schocken, pp. 1–71.

——(1975) 'Syria, the Philistines and Phoenicia', *Cambridge Ancient History,* 3rd edn, vol. II, pt 2, *History of the Middle East and the Aegean Region 1380–1000 BC,* pp. 507–36.

Allen, P. (1978) *The Cambridge Apostles: The Early Years.* Cambridge University Press.

Allen, T. G. (1974) (trans.) *The Book of the Dead or Going Forth by Day.* Chicago: Oriental Institute.

Annan, N. (1955) 'The intellectual aristocracy', in J. H. Plumb, ed., *Studies in Social History: A Tribute to G. M. Trevelyan*. London: Longman, pp. 243–87.

Apollodoros (1921) *The Library*, J. G. Frazer, trans., 2 vols. Cambridge, Mass.: Loeb.

Appleton, W. W. (1951) *A Cycle in Cathay, The Chinese Vogue in England in the 17th and 18th Centuries*. New York: Columbia University Press.

Arbeitman, Y. and Bomhard A. R., eds (1981) *Bono Homini Donum: Essays in Historical Linguistics, in Memory of J. Alexander Kerns*, 2 vols. Amsterdam: John Benjamin.

Arbeitman, Y. and Rendsburg, G. (1981) 'Adana revisited: 30 years later', *Archiv Orientální* 49: 145–57.

Aristotle, *De Caelo*.

—— *Metaphysica*.

—— *Meteriologica*.

—— (1962) *Politics*, T. A. Sinclair, trans. London: Penguin.

Arnold, M. (1869) *Culture and Anarchy*. London: Smith Elder.

—— (1883) *Literature and Dogma*. London: Smith Elder.

—— (1906) *The Scholar Gypsy and Thyrsis*. London: Macmillan. See F. W. E. Russell.

Arnold, T. (1845) *Introductory Lectures on Modern History*. New York.

—— (1864) *A French Eton*. London.

Arrian (1929) *Anabasis of Alexander*, E. Iliff, trans. Robson. New York: Putnam.

Astour, M. C. (1967a) *Hellenosemitica: An Ethnic and Cultural Study in West Semitic Impact on Mycenaean Greece*. Leiden: Brill.

—— (1967b) 'The problem of Semitic in Ancient Crete', *Journal of the American Oriental Society* 87: 290–5.

—— (1972) 'Some recent works on Ancient Syria and the Sea People', *Journal of the American Oriental Society* 92.3: 447–59.

Auguis, P. R. (1822) Introduction, in vol. 7 (pp. 1–26) of Dupuis, *Origine de tous les cultes, ou la religion universelle*, 12 vols. Paris.

Badolle, M. (1926) *L'Abbé Jean-Jacques Barthélemy (1716–1795) et l'Hellénisme en France dans la seconde moitié du XVIII^e siècle*. Paris: Presses Universitaires de France.

Baines, J. (1982) 'Interpreting *Sinuhe*', *Journal of Egyptian Archaeology* 68: 31–44.

Baker, J. R. (1974) *Race*. London: Oxford University Press.

Baldwin Smith, E. (1918) *Early Christian Iconography and the School of Provence*. Princeton: University Press.

Banier, A. (1739) *The Mythology of the Ancients Explained*, anon. trans. London: A. Millar.

Baramki, D. (1961) *Phoenicia and the Phoenicians*. Beirut: Khayats.

Barnard, K. (1981) *The Paradigm of Race and Early Greek History*, paper for an undergraduate course, Government 352. Cornell.

Barnett, R. D. (1956) 'Ancient Oriental influence on Archaic Greece', *The Aegean and the Near-East, Studies Presented to Hetty Goldman*, ed. S. Weinberg. Locust Valley, NY: Augustin, pp. 212–38.

—— (1960) 'Some contacts between Greek and Oriental religions', *Éléments orientaux*

dans la religion grecque ancienne, ed. O. Eissfeldt. Paris: Presses Universitaires de France, pp. 143–53.

—— (1975) 'The Sea Peoples', *Cambridge Ancient History*, 3rd edn, vol. II, pt 2, pp. 359–78.

Baron, S. W. (1952) *A Social and Religious History of the Jews*. New York: Columbia University Press, vols 1–2.

—— (1976) *The Russian Jew under Tsars and Soviets*. New York: 2nd enl. edn.

Barthélemy, J-J. (1750) 'Réflexions sur quelques monuments et sur les alphabets qui en résultent', *Recueils des Mémoires de l'Académie des Inscriptions* 30: 302–456.

—— (1763) 'Réflexions générales sur les rapports des langues égyptienne phénicienne et grecque', *Recueils des Mémoires de l'Académie des Inscriptions* 32: 212–33.

—— (1789) (1788) *Voyage du jeune Anacharsis en Grèce vers le milieu du IV^e siècle avant l'ère vulgaire*. Paris.

Bass, G. (1961) 'Cape Gelidonya Wreck: preliminary report', *American Journal of Archaeology* 65: 267–86.

—— (1967) 'Cape Gelidonya: a Bronze Age shipwreck', *Transactions of the American Philosophical Society* 57: pt 8.

Baumgarten A. J. (1981) *The Phoenician History of Philo of Byblos: A Commentary*. Leiden: Brill.

Beck, R. (1984) 'Mithraism since Franz Cumont', in H. Temporini and W. Haase, eds (1972–) *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt: Geschichte und Kultur Roms im Spiegel der neueren Forschung*, 21 vols. Berlin/New York. vol. 17.4. *Religion: (Heidentum: römische Götterkulte, orientalische Kulte in der römischen Welt [Forts.])* ed. W. Haase, pp. 2003–112.

Beckarath, J. von (1980) *Kalender*, in Helck and Otto, cols 297–9.

Beddaride, M. (1845) *De l'Ordre Maçonique de Misraim*. Paris.

Beer, A. and Beer, P. (1975) *Kepler Four Hundred Years: Proceedings of Conferences Held in Honour of Johannes Kepler*. Oxford: Pergamon.

Beloch, J. (1893) *Griechische Geschichte*, Strasbourg.

—— (1894) 'Die Phoeniker am aegäischen Meer', *Rheinisches Museum* 49: 111–32.

Benedetto, L. F. (1920) *Le Origini di 'Salammbô'*. Florence: Istituto di Studi Superiori Pratici in Firenzi Sezione di filologia e filosofia.

Ben Jochannan, Y. (1971) *Black Man of the Nile, Africa, Africa the Mother of Civilization*. New York: Alkebu Lan Books.

Bentley, R. (1693) *A Confutation of Atheism from the Structure and Origin of Humane Bodies*. London.

Benz, F. L. (1972) *Personal Names in the Phoenician and Punic Inscriptions*. Rome: Biblical Institute.

Bérard, A. (1971) Préface, in V. Bérard, *Les Navigations d'Ulysse*, 3 vols. Paris: Librairie Armand Colin.

Bérard, J. (1951) 'Philistines et préhellènes', *Revue Archéologique*, série 6: 129–42.

—— (1952) 'Les hyksos et la légende d' io: Recherches sur la période pré-mycenienne, *Syria* 29: 1–43.

Bérard, V. (1894) *De l'origine des cultes arcadiens: Essai de méthode en mythologie grecque.* Paris: Bibliothèque des Écoles Françaises d'Athènes et de Rome.

—— (1902–3) *Les Phéniciens et l'Odysée*, 2 vols. Paris: Librairie Armand Colin.

—— (1927–9) *Les Navigations d'Ulysse.* Paris: Librairie Armand Colin.

Berlin, I. (1976) *Vico and Herder: Two Studies in the History of Ideas.* London: Hogarth.

Bernal, M. (1980) 'Speculations on the disintegration of Afroasiatic', paper presented at the 8th conference of the North American Conference of Afroasiatic Linguistics, San Francisco, April and to the 1st International Conference of Somali Studies, Mogadishu, July.

—— (1983a) 'On the westward transmission of the Canaanite a[illegible] before 1500 BC', paper presented to the American Oriental Society, Baltim[illegible] [illegible]pril).

——(1983b) 'On the westward transmission of the Semitic alphabet before 1500 BCE, paper read at the Hebrew University, Jerusalem (June).

——(1985a) 'Black Athena: the African and Levantine roots of Greece', *African Presence in Early Europe, Journal of African Civilizations* 7.5: 66–82.

——(1985b) Review of *Sign, Symbol, Script: An Exhibition on the Origins of the Alphabet*, in *Journal of the American Oriental Society* 105.4: 736–7.

——(1986) 'Black Athena denied: the tyranny of Germany over Greece', *Comparative Criticism* 8: 3–69.

——(1987) 'On the transmission of the alphabet to the Aegean before 1400 BC', *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 267: 1–19.

——(1989) 'First land then sea: thoughts about the social formation of the Mediterranean and Greece', in E. Genovese and L. Hochberg, eds. *Geography in Historical Perspective.* Oxford: Blackwell.

——(1990) *Cadmean Letters: The Westward Diffusion of The Semitic Alphabet Before 1400 BC.* Winona Lake: Eisenbrauns.

Bernier, F. (1684) *Nouvelle Division de la terre par les différentes espèces ou races qui l'habitent.* Paris.

Beth, K. (1916) 'El und Neter', *Zeitschrift für die alttestamentliche Wissenschaft* 36: 129–86.

Beuchot, A. 'Jean Terrasson, 1852–77', *Biographie Universelle: Ancienne et Moderne.* Paris, vol. 41, pp. 169–71.

Bezzenberger, A. (1883) 'Aus einem briefe des herrn dr. Adolf Erman', *Beiträge zur Kunde der indogermanischen Sprachen* 7: 96.

Bietak, M. (1979) *Avaris and Piramesse: Archaeological Exploration in the Eastern Nile Delta. Proceedings of the British Academy* 65. London.

Bill, E. G. W. (1973) *University Reform in Nineteenth Century Oxford: A Study of Henry Halford Vaughan.* Oxford: Clarendon.

Billigmeier, J. C. (1976) *Kadmos and the Possibility of a Semitic Presence in Helladic Greece.* University of California, Santa Barbara, thesis.

Black, H. D. (1974) 'Welcome to the centenary commemoration', in Elkin and Macintosh, eds *Grafton Elliot Smith*. Sydney University Press, pp. 3–7.

Blackall, E. (1958) *The Emergence of German as a Literary Language, 1700–1775*. Cambridge University Press.

Blackwell, T. (1735) *Enquiry into the Life and Writings of Homer*. London.

Blanco, A. G. (1984) 'Hermeticism: bibliographical approach', in H. Temporini and W. Haase, eds (1972–) *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt: Geschichte und Kultur Roms im Spiegel der neueren Forschung*, 21 vols. Berlin/New York. Vol. 17.4. *Religion: (Heidentum: römische Götterkulte, orientalische Kulte in der römischen Welt [Forts.])* ed. W. Haase, pp. 2240–81.

Blavatsky, H. P. (1930) *The Secret Doctrine* . . . Los Angeles: The Theosophy Co.

— (1931) *Isis Unveiled*. . . Los Angeles: The Theosophy Co.

Blegen, C. W. and Haley, J. (1927) 'The coming of the Greeks: the geographical distribution of prehistoric remains in Greece', *American Journal of Archaeology* 32: 141–52.

Bloch, M. (1924) *Les Rois Thaumaturges: Étude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre*. Strasbourg and Paris: Publications de la Faculté des Lettres de l'Université de Strasbourg.

Bloomfield, M. W. (1952) *The Seven Deadly Sins*. East Lansing: Michigan State University Press.

Blue, G. (1984) *Western Perceptions of China in Historical Perspective*. Talk at the China Summer School, Selwyn College, Cambridge.

Blumenbach, J. F. (1795) *De Generis Humani Varietate Nativa*. Göttingen, 3rd. edn.

— (1865) *Anthropological Treatises of Johann Friedrich Blumenbach*, ed. and trans. T. Bendyshe. London.

Blunt, A. (1940) *Artistic Theory in Italy: 1450–1600*. Oxford: Clarendon.

Boardman, J. (1964) *The Greeks Overseas: The Archaeology of Their Early Colonies and Trade*. London: Penguin.

Boas, G. (1950) trans. *The Hieroglyphics of Horapollo*. New York: Pantheon.

Bochart, S. (1646) *Geographia Sacræ Pars Prior: Phaleg seu de Dispersione Gentium et Terrarum Divisione Facta in Ædificatione Turris Babel etc. Pars Altera: Chanaan, seu de Coloniis et Sermone Phœnicum*. Munich.

Bodin, J. (1945) *Method for the Easy Comprehension of History*, B. Reynolds, trans. New York: Columbia University Press.

Boissel, J. (1983) 'Notices, notes et variantes', in Gobineau, *Oeuvres*, vol. 1, pp. 1177–471.

Bolgar, R. R. (1979) 'Classical influences in the social, political and educational thought of Thomas and Matthew Arnold', in Bolgar, ed., *Classical Influences on Western Thought AD 1650–1870: Proceedings of an International Conference held at King's College, Cambridge, March 1977*. Cambridge University Press, pp. 327–38.

— (1981) 'The Greek legacy', in Finley, pp. 429–72.

Bollack, M. and Wismann, H. (1983) *Philologie und Hermeneutik im 19. Jahrhundert*

II: Philologie et herméneutique au 19ème siècle. Göttingen: Vandenhoek und Ruprecht.
Bomhard, A. (1976) 'The placing of the Anatolian languages', *Orbis* 25.2: 199–239.
— (1984) *Toward Proto-Nostratic: A New Approach to the Comparison of Indo-European and Afroasiatic.* Amsterdam: John Benjamin.
Boon, J. (1978) 'An endogamy of poets and vice versa; exotic ideas in Romanticism and Structuralism', *Studies in Romanticism* 18: 333–61.
Bopp, F. (1833) *Vergleichende Grammatik des Sanskrit, Zend, Griechischen, Lateinischen, Litthauschen, Gothischen und Deutschen.* Berlin, trans. E. B. Eastwick, as *A Comparative Grammar of the Sanskrit, Zend, Greek, Latin, Lithuanian, Gothic, German and Slavonic Languages*, 3 vols. London, 1845–50.
Bordreuil, P. (1982) see Abou-Assaf.
Borrow, G. (1843) *The Bible in Spain.* London: John Murray.
— (1851) *Lavengro.* London: John Murray.
— (1857) *Romany Rye.* London: John Murray.
Borsi, F. *et al.* (1985) *Fortuna degli etruschi.* Milan: Electa.
Boylan, P. (1922) *Thoth the Hermes of Egypt: A Study of Some Aspects of Theological Thought in Ancient Egypt.* London: Oxford University Press.
Bracken, H. (1973) 'Essence, accident and race', *Hermathena* 116: 91–6.
— (1978) 'Philosophy and racism', *Philosophia* 8: 241–60.
Brady, T. H. (1935) 'The reception of Egyptian cults by the Greeks (330–300 BC)', *The University of Missouri Studies* 10: 1.
Braun, L. (1973) *Histoire de l'histoire de la philosophie.* Paris: Ophrys.
Braun, T. F. R. G. (1982) 'The Greeks in the Near East', *Cambridge Ancient History*, 2nd edn, vol. 3, pt 3, *The Expansion of the Greek World, Eighth to Sixth Centuries BC*, pp. 1–31.
Breasted, J. H. (1901) 'The philosophy of a Memphite priest', *Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde* 39: 39–54.
— (1912) *The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.* Chicago: Scribner.
Bridenthal, R. (1970) *Barthold George Niebuhr, historian of Rome: a Study in Methodology.* Columbia University, thesis.
Brodie, F. M. (1945) *No Man Knows My History: The Life of Joseph Smith the Mormon Prophet.* New York: Knopf.
Brookfield, F. (1907) *The Cambridge Apostles.* New York: Scribner.
Brosses, C. de (1760) *Du Culte des dieux fétiches ou parallèle de l'ancienne religion de l'Égypte avec la religion actuelle de Nigritie.* Paris.
Brown, J. P. (1965) 'Kothar, Kinyras and Kytheria', *Journal of Semitic Studies* 10: 197–219.
— (1968a) 'Literary contexts of the common Hebrew Greek vocabulary', *Journal of Semitic Studies* 13: 163–91.
— (1968b) 'Cosmological myth and the Tuna of Gibraltar', *Transactions of the American Philological Association* 99: 37–62.

—— (1969) 'The Mediterranean vocabulary of the vine', *Vetus Testamentum* 19: 146–70.
—— (1971) 'Peace symbolism in ancient military vocabulary', *Vetus Testamentum* 21: 1–23.
—— (1979–80) 'The sacrificial cult and its critique in Greek and Hebrew', pt 1, *Journal of Semitic Studies* 24: 159–74; pt 2, *Journal of Semitic Studies* 25: 1–21.
Brown, R. (1898) *Semitic Influences in Hellenic Mythology*. London: Williams and Norgate.
Brown, R. L. (1967) *Wilhelm von Humboldt's Conception of Linguistic Relativity*. The Hague and Paris: Mouton.
Bruce, J. (1795) *Travels to Discover the Sources of the Nile, In the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773*, 5 vols. London: G. G. and J. Robinson.
Brugsch, H. (1879–80) *Dictionnaire géographique de l'ancienne Égypte*. Leipzig.
——(1891) *Religion und Mythologie der alten Ägypter*. Leipzig.
Brunner, H. (1957) 'New aspects of Ancient Egypt', *Universitas* 1.3: 267–79.
Brunner-Traut, E. (1971) 'The origin of the concept of the immortality of the soul in Ancient Egypt', *Universitas* 14.1: 47–56.
Bryant, J. (1774) *A New System or an Analysis of Ancient Mythology*, 3 vols. London.
Buck, R. J. (1979) *A History of Boiotia*. Edmonton: University of Alberta Press.
Budge, W. (1904) *The Gods of the Egyptians: or Studies in Ancient Egyptian Mythology*, 2 vols. London: Methuen.
Bullough, G. (1931) *Philosophical Poems of Henry More, Comprising Psychozoia and Minor Poems*. Manchester University Press.
Bunnens, G. (1979) *L'expansion phénicienne en méditerranée: essai d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littéraires*. Brussels and Rome: Institut historique belge de Rome.
Bunsen, C. (1848–60) *Egypt's Place in Universal History*, C. H. Cotrell, trans. 5 vols. London: Longman.
—— (1852) *The Life and Letters of Barthold George Niebuhr, with Essays on his Character and Influence*, 2 vols. London.
—— (1859) *The Life and Letters of Barthold George Niebuhr*. New York.
—— (1868) Statement of a Plan of Intellectual Labour Laid Before Niebuhr, at Berlin, January 1816. Trans. F. Bunsen, vol. 1, pp. 85–90.
—— (1868–70) *God in History, or the Progress of Man's Faith in the Moral Order of the World*, S. Winckworth, trans., 3 vols. London: Longman.
Bunsen, F. (1868) *A Memoir of Baron Bunsen . . . Drawn chiefly from family papers by his widow Frances Baroness Bunsen*, 2 vols. London: Longman.
Burnouf, E. (1872) 'La science des religions', Paris; trans. J. Liebe (1888) as *The Science of Religion*, London.
Burn, A. R. (1949) 'Phoenicians', *Oxford Classical Dictionary*, pp. 686–88.
Burton, A. (1972) *Diodorus Siculus, Book 1: a Commentary*. Leiden: Brill.
Bury, J. B. (1900) *A History of Greece to the Death of Alexander the Great*. London: Macmillan.

—— (1951) *A History of Greece to the Death of Alexander the Great.* London: Macmillan, 3rd edn., rev. R. Meiggs.

Burzachechi, C. (1976) 'L'adozione dell'alfabeto nel mondo greco', *Parola del Passato* 31: 82–102.

Butler, E. M. (1935) *The Tyranny of Greece over Germany. A Study on the Influence Exercised by Greek Art and Poetry over the Great German Writers of the Eighteenth, Nineteenth and Twentieth Centuries.* Cambridge University Press.

Butler, M. (1981) *Romantics Rebels and Reactionaries: English Literature and its Background, 1760–1830.* Oxford University Press.

Butterfield, H. (1955) *Man and His Past: the Study of Historical Scholarship.* Cambridge University Press.

—— (1981) *The Origins of History.* ed. A. Watson. New York: Basic Books.

Cagnetta, A. (1979) *Antichisti e impero fascista.* Bari: Dedalo.

Cagni, L., ed. (1981) *La Lingua di Ebla: Atti del convegno internationale (Napoli, 21–23 aprile 1980).* Naples: Istituto Universitario Orientale, Seminario di Studi Asiatici, 14.

Canfora, L. (1980) *Ideologie del Classicismo.* Turin: Einaudi.

Capart, J. (1942) 'Egyptian art', in Glanville, *Legacy of Egypt.* Oxford: Clarendon, pp. 80–119.

Carpenter, R. (1933) 'The antiquity of the Greek alphabet', *American Journal of Archaeology* 37: 8–29.

—— (1938) 'The Greek alphabet again', *American Journal of Archaeology* 42: 58–69.

—— (1958) 'Phoenicians in the west', *American Journal of Archaeology* 62: 35–53.

—— (1966) *Discontinuity in Greek Civilization.* Cambridge.

Carruthers, J. (1984) *Essays in Ancient Egyptian Studies.* Los Angeles.

Cartledge, P. (1979) *Sparta and Lakonia: A Regional History 1300–362 BC.* London: Routledge & Kegan Paul.

Cassirer, E. (1970) *The Platonic Renaissance in England,* J. P. Pettegrove, trans. New York: Gordian Press.

Cassuto, U. (1971) *The Goddess Anath: Canaanite Epics of the Patriarchal Age,* I. Abraham, trans. Jerusalem: Magness.

Cattaui, R. and G. (1950) *Mohamed-Aly en Europe.* Paris: Geuthner.

Černy, J. (1952) *Egyptian Religion.* London: Hutchinson.

Chadwick, J. (1973a) *Documents in Mycenaean Greek.* 2nd edn. Cambridge University Press.

—— (1973b) 'The Linear B tablets as historical documents', *Cambridge Ancient History,* 3rd edn, vol. 2, pt 1, *The Middle East and the Aegean Region, c.1800–1380 BC,* pp. 609–26.

—— (1976) *The Mycenaean World.* London: Cambridge University Press.

Chailley, J. (1971) *The Magic Flute, Masonic Opera,* H. Weinstock, trans. New York: Knopf.

Champollion, J. F. (1814) *L'Égypte sous les Pharaons: ou recherches sur la géographie, la*

religion, la langue, les écritures et l'histoire de l'Égypte avant l'invasion de Cambyse. Grenoble.

—— (1909) see Hartleben, H.

Chanaiwa D. (1973) *The Zimbabwe Controversy: A Case of Colonial Historiography.* Syracuse, NY: Program of Eastern African Studies.

Chandler, R. (1769) *Ionian Antiquities, Published with Permission with the Society of Dilletanti.* London.

Chang, K. C. (1980) *Shang Civilization.* New Haven: Yale University Press.

Chantraine, P. (1928) 'Sur le vocabulaire maritime des grecs', in *Étrennes de linguistique: offertes par quelques amis à Émile Benveniste.* Paris: Geuthner, pp. 1–25.

—— (1968–75) *Dictionnaire étymologique de la langue grecque,* 4 vols. Paris: Klincksieck.

Charles-Roux, F. (1929) 'Le projet français de conquête de l'Égypte sous le règne de Louis XVI', *Mémoires de l'Institut d'Égypte* 14: 1–85.

—— (1937) *Bonaparte Governor of Egypt,* E. W. Dickes, trans. London: Methuen.

Chaudhuri, N. C. (1974) *Scholar Extraordinary: The Life of Professor the Right Honourable Max Müller PC.* London: Chatto & Windus.

Child, F. J. (1882–98) *The English and Scottish Popular Ballads,* 5 vols. Boston.

Childe, G. F. (1926) *The Aryans.* London: Kegan Paul.

Cicero, *The Nature of the Gods.*

—— *Tusculanae Disputationes.*

Clark, W. M. (1954) *Christoph-Martin Wieland and the Legacy of Greece: Aspects of his Relationship to Greek Culture.* Columbia University, PhD thesis.

Clement of Alexandria, *Stromata.*

—— *Protrepticus.*

Coleridge, S. T., see Griggs, E. L.

Colie, R. L. (1957) *Light and Enlightenment: A Study of the Cambridge Platonists and the Dutch Arminians.* Cambridge University Press.

Combes-Dounous (1809) *Essai Historique sur Platon, et coup d'œil rapide sur l'histoire du Platonisme depuis Platon jusqu'à nous.* Paris.

Comte, A. (1830–42) *Cours de philosophie positive,* 6 vols. Paris: Bachelier.

Conan-Doyle, A. (1968) *The Adventure of the Devil's Foot,* in *The Annotated Sherlock Holmes,* 2 vols. London: Murray, pp. 508–26.

Conway, R. S. (1937) 'William Ridgeway', *Dictionary of National Biography: Twentieth Century 1922–1930.* Oxford University Press, pp. 720–2.

Cook, A. B. (1914–40) *Zeus: A Study in Ancient Religion,* 3 vols, 5 pts. Cambridge University Press.

Cook, R. M. (1937) 'Amasis and the Greeks in Egypt', *Journal of Hellenic Studies* 57: 227–37.

Cook, S. A. (1924) 'The Semites', *Cambridge Ancient History,* 1st edn, vol. 1, pp. 181–237.

Cordier, H. (1898) 'Les études chinoises: 1895–1898', Suppl. to *T'oung-Pao* 9: 44–51.

—— (1899) 'Deux voyageurs dans l'Extrême Orient au XV[e] et au XVI[e] siècles: essai

[illegible] dans l'ordonnance chrétienne du monde (XIVe–XVIIe siècle) Lausanne: Fondation de la menil.

Dickinson, O. T. P. K. (1977) *The Origins of Mycenaean Civilization*. Gotenborg: Studies in Mediterranean Archaeology No. 49.

Dieckmann, L. (1970) *Hieroglyphics: The History of a Literary Symbol*. St Louis: Washington University Press.

Dimakis, J. (1968) *La guerre de l'indépendance grecque vue par la presse française (période 1821–1824): contribution à l'étude de l'opinion publique et du mouvement philhellénique en France*. Thessalonika.

Diodoros Sikeliotes (1933–67) *The Library of History*, 12 vols, C. H. Oldfather, trans. Cambridge, Mass. (vols 11 and 12 trans. F. R. Walton and R. M. Geer).

Diogenes Laertius (1925) *Lives of Eminent Philosophers*, R. D. Hicks, trans. 2 vols. Cambridge, Mass.

Diop, C. A. (1974) *The African Origin of Civilization: Myth or Reality?*, M. Cook, trans. Westport, Conn.: L. Hill.

—— (1978) *The Cultural Unity of Black Africa*. Chicago.

—— (1985a) 'Africa: cradle of humanity', *Nile Valley Civilizations*: pp. 23–8.

—— (1985b) 'Africa's contribution to world civilization: the exact sciences', *Nile Valley Civilizations*: pp. 69–83.

Disraeli, B. I. (1847) *Tancred; or the New Crusade*. Liepzig: Tauschnitz.

Dods, M. and Smith, T. (trans.) (1867) *Tatian, Theophilus and the Clementine Recognition*, vol. 3, *The Ante-Nicene Christian Library*. Edinburgh, pp. 1–39, esp. 35–6.

Dolgopolskii, A. B. (1973) *Sravitelno-istoricheskaya fonetika kushchitskikh yazykov*. Moscow: Nauka.

Donaldson, J. W. (1858) Introduction in Müller, *A History of the Literature of Ancient Greece*, 3 vols. London, vol. 1, pp. i–xxxix.

Doresse, J. (1960) *The Secret Books of the Egyptian Gnostics*. London: Hollis & Carter.

Dörpfeldt, W. (1966) (1935) *Alt-Olympia: Untersuchungen und Ausgrabungen zur Geschichte des ältesten Heiligtums von Olympia und der älteren griechischen Kunst* (reprint). Osnabrück: Zeller.

Dothan, M. (1973) 'Philistine material culture and its Mycenaean affinities', in Karageorghis, ed. *The Mycenaeans in the East Mediterranean*. Nicosia.

Dothan, T. (1982) *The Philistines and their Material Culture*. Jerusalem and New Haven: Yale University Press.

Doumas, C. (1979) *Thera and the Aegean World: Papers Presented at the Second International Scientific Congress, Santorini, Greece, August 1978*. London.

Dow, S. (1937) 'The Egyptian cults in Athens', *Harvard Theological Review* 30, 4: 183–232.

Drioton, E. (1948) 'Le monothéisme de l'ancienne Égypte', *Cahiers d'histoire égyptienne* 1: 149–68.

—— (1948a) Preface, in Lauer, *Le Problème des Pyramides d'Égypte*.

Drioton, E. and Vandier, J. (1946) *L'Égypte*. Clio. Paris: Introduction aux études historiques.

Dubois, W. E. B. (1975) *The Negro*. New York: Kraus-Thompson Organization.

— (1976) *The World and Africa*. New York: Kraus-Thompson Organization.

Duff, W. (1767) *An Essay on Original Genius: and its various Modes of Exertion in Philosophy and the Fine Arts, Particularly in Poetry*. London.

Duhoux, Y. (1982) *L'Étéocrétois: Les textes, la langue*. Amsterdam: J. C. Gieben.

Duke, T. T. (1965) review, *The Classical Journal* 61.3: 131–6 (p. 133).

Dumas, F. (1976) *Le Tombeau de Childéric*. Paris: Le Cabinet.

Dunand, F. (1973) *Le culte d'isis dans le bassin de la Méditerranée*, 3 vols. Vol. II: *Le culte d'isis en Grèce*. Leiden: Brill.

Dunker, M. (1880) *Griechische Geschichte*, S. F. Alleyne, trans. (1883), 3 vols. London.

Dupuis, C. F. (1822) (1795) *Origine de tous les cultes, ou la religion universelle*, 12 vols in 7. Paris.

— (An XII) Discours prononcé à la rentrée du Collège de France Le 1^er Frimaire.

Dussaud, R. (1907) *Les Arabes en Syrie avant l'Islam*. Paris: Leroux.

— (1931) 'Victor Bérard (necrologue)', *Syria* 12: 392–3.

Earp, F. R. (1953) 'The date of the Supplices of Aeschylus', *Greece and Rome*: 118–23.

Edwards, G. P. (1971) *The Language of Hesiod in its Traditional Context*. Oxford: Blackwell.

Edwards, I. E. S. (1947) *The Pyramids of Egypt*. London: Penguin.

Edwards, R. (1979) *Kadmos the Phoenician: A Study in Greek Legends and the Mycenaean Age*. Amsterdam: Hakkert.

Eissfeldt, O. (1935) 'Molk als Opferbegriff im Punischen und Hebräischen und das Ende des Gottes Moloch', *Beiträge zur Religiongeschichte des Altertums*, vol. 3.

— (1960) 'Phönikische und griechische Kosmogonie', in *Éléments orientaux dans la religion grecque ancienne*. Paris, pp. 1–15.

Eliot, G. (1906) (1864) *Romola*, 2 vols. Chicago: Mc Clarg.

— (1871–2) *Middlemarch*, 2 vols. London and Edinburgh.

— (1876) *Daniel Deronda*, 2 vols. Edinburgh and London.

Eliot, T. S. (1971) *The Complete Poems and Plays: 1909–1950*. New York: Harcourt Brace.

Elkin, A. P. (1974) 'Sir Grafton Elliot Smith: the man and his work; a personal testimony', in *Grafton Elliot Smith: the Man and His Work*. Sydney University Press, pp. 8–15.

— (1974a) 'Elliot Smith and the diffusion of culture', in *Grafton Elliot Smith: the Man and His Work*. Sydney University Press, pp. 139–59.

Elliot Smith, G. (1911) *The Ancient Egyptians and their Influence Upon the Civilization of Europe*. London: Harper.

— (1923) *The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization*. London: Harper.

Erman, A. (1883) 'Aegyptische Lehnwörte im Griechischen', *Beiträge zur Kunde der indogermanischen Sprachen* 7: 336–8.

Erman, A. and Grapow, H. (1982) *Wörterbuch der ägyptischen Sprache*, 7 vols. Berlin: Akademie Verlag.

Eusebius (1866) *Chronicorum*, trans. from the Armenian by H. Petermann, ed. A. Schoene. Berlin: Weidmann.

Evans, A. (1909) *Scripta Minoa*. Oxford: Clarendon.

—— (1921–35) *The Palace of Minos*, 4 vols in 6. London: Macmillan.

Fallmerayer, J. P. (1835) *Welchem Einfluss hatte die Besetzung Griechenlands durch die Slawen auf das Schicksal der Städte Athen und der Landschaft Attika*. Stuttgart and Tübingen.

Fan Xiangyong (1962) *Guben Zhushu Jinian Jixiao Dipu*. Shanghai.

Fārag, S. (1980) 'Une inscription memphite de la XII[e] dynastie', *Revue d'Égyptologie* 32: 75–81.

Farnell, L. R. (1895–1909) *The Cults of the Greek States*, 5 vols. Oxford: Clarendon.

Farnham, F. (1976) *Madame Dacier: Scholar and Humanist*. Monterey: Angel Press.

Farrell, J. J. (1980) *Inventing the American Way of Death*. Philadelphia: Temple University Press.

Faverty, F. (1951) *Matthew Arnold: The Ethnologist*. Evanston, Ill.: Northwestern University Press.

Fay, B. (1961) *La francmaçonnerie et la révolution intellectuelle du XVIII[e] siècle*. Paris: Libraire Français.

Feldman, B. and Richardson R. D. (1972) *The Rise of Modern Mythology 1680–1860*. Bloomington and London: Indiana University Press.

Fénelon, F. de S. de la M. (1833) (1699) *Télémaque, fils d'Ulysse*. Philadelphia.

Festugière, R. P. (1944–9) *La révélation d'Hermès Trismégiste*, 3 vols. Paris: Lecoffre, vol. 1, *L'astrologie et les sciences occultes*.

—— (1945) trans. *Corpus Hermeticum*, 4 vols. Paris: Société d'édition 'Les Belles Lettres'.

—— (1961–5) *Les Moines d'Orient*, 4 vols in 3. Paris: Éditions du Cerf.

—— (1966–8) *Prolius, Commentaire sur le Timée*, 5 vols. Paris.

Finkelstein, L. (1970) *Akiba: Scholar, Saint and Martyr*. New York: Atheneum.

Finley, M. I. (1978) *The World of Odysseus*. New York, rev. reset edn.

—— (1980) *Ancient Slavery and Modern Ideology*. New York.

—— (1981) *The Legacy of Greece: A New Appraisal*. Oxford: Clarendon.

Flaubert, G. (1857) *Madame Bovary*. Paris.

—— (1862) *Salammbô*. Paris.

—— (1973) *Oeuvres*, 3 vols., ed. and ann. J. Bruneau. Paris: Pléiades.

Fleckenstein (1975) 'Kepler and Neoplatonism', in Beer, pp. 519–33.

Fontenrose, J. (1959) *Python: a Study in Delphic Myth and its Origins*, Berkeley: University of California Press.

Force, J. E. (1985) *William Whiston: Honest Newtonian*. Cambridge University Press.

Forrest, W. G. G. (1982) 'Central Greece and Thessaly', *Cambridge Ancient History*, 2nd edn, vol. 3, pt 3, *The Expansion of the Greek World, Eighth to Sixth Centuries BC.* eds. J. Boardman and N. G. L. Hammond, pp. 286–99.
Forster, G. (1786) 'Noch etwas über die Menschenraβen', *Der Teutsche Merkur.* Aug.
—— (1958–) Georg Forsters Werke. Berlin: Akademie der Wissenschaften der D.D.R. Zentralinstitut für Literaturgeschichte.
Foucart, G. (1914) *Les Mystères d'Eleusis.* Paris: A. Picard.
Frankfort, H. and H. A. (1946) 'Myth and reality', in *The Intellectual Adventure of Ancient Man.* University of Chicago Press.
Franklin, J. H. (1947) *From Slavery to Freedom: A History of American Negroes.* New York: Knopf.
Franklin, H. B. (1963) *The Wake of the Gods: Melville's Mythology.* Stanford: Stanford University Press.
Frazer, J. (1890–1915) *The Golden Bough: A Study in Magic and Religion*, 9 vols. London: Macmillan.
—— (1898) *Pausanias's Description of Greece*, 6 vols. London.
—— (1911) *The Dying God, The Golden Bough*, vol. 3. London: Macmillan.
—— (1921) *Apollodoros; The Library*, 2 vols. Cambridge, Mass. See Apollodoros.
Freeman-Greville, G. S. P. (1962) *The East African Coast: Select Documents from the First to the Earlier Nineteenth Centuries.* Oxford: Clarendon.
Fréret, N. (1784) 'Observations générales sur l'origine et sur l'ancienne histoire des premiers habitants de la Grèce', *Académie des Inscriptions, 1784–1793* 47 (published 1809). *Mémoire de Littérature*: 1–149.
Freud, S. (1939) *Moses and Monotheism*, Katherine Jones, trans. London: Hogarth.
Friedrich, J. (1951) *Phönizisch-punische Grammatik.* Rome: Analecta Orientalia.
—— (1957) *Extinct Languages*, F. Gaynor, trans. New York: Philosophical Library.
—— (1968) 'Die Unechtheit der phönizischen Inschrift aus Parahyba', *Orientalia* 37: 421–4.
Froidefond, C. (1971) *Le mirage égyptien dans la littérature grecque d'Homère à Aristote.* Paris: Ophrys.
Frothingham, A. (1891) 'Archaeological news', *American Journal of Archaeology* 6: 476–566.
Frye, N. (1962) *Fearful Symmetry.* Boston: Beacon.
Fueter, E. (1936) *Geschichte der neueren Historiographie.* Berlin and Munich: R. Oldenberg.
Fuhrmann, M. (1979) 'Querelle des Anciens et des Modernes, der Nationalismus und die deutsche Klassik', in Bolgar, *Classical Influences*, pp. 107–28.
Fung Yu-lan (1952) *A History of Chinese Philosophy*, D. Bodde, trans., 2 vols. Princeton University Press.
Gamer-Wallert, I. (1977) 'Fische, religiös', in Helck and Otto, cols 228–34.
Garbini, G. (1977) 'Sulla datazione dell'iscrizione di Ahiram', *Annali dell'Istituto Orientale di Napoli* 627: 81–9.

— (1978) 'La Lingua di Ebla', *La Parola del Passato* 181: 241–51.
— (1981) 'Considerations on the language of Ebla', in Cagni, pp. 75–82.
Gardiner, A. H. (1927) *Egyptian Grammar.* Oxford: Clarendon.
— (1942) 'Writing and literature', in S. R. A. Glanville, ed., *The Legacy of Egypt.* Oxford: Clarendon, pp. 53–79.
— (1947) *Ancient Egyptian Onomastica*, 3 vols. Oxford University Press.
— (1957) *Egyptian Grammar*, 3rd edn. Oxford: Clarendon.
— (1961) *Egypt of the Pharaohs.* Oxford: Clarendon.
— (1986) (1945–55) *My Early Years*, ed. J. Gardiner. Isle of Man: Andreas.
Gardner, P. (1880) 'Stephani on the tombs at Mycenae', *Journal of Hellenic Studies* 1: 94–106.
Garvie, A. F. (1969) *Aeschylus' Supplices: Play and Trilogy.* Cambridge University Press.
Gaster, T. H. (1964) *The Dead Sea Scriptures: In English Translation.* Garden City New York: Anchor Books.
Gaulmier, J. (1978) *Ernest Renan: Judaisme et Christianisme: textes présentés par Jean Gaulmier.* Paris.
— (1983) Introduction to Gobineau, *Oeuvres*, vol. 1, pp. i–lxxxvii.
Gauthier, H. (1925–31) *Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques*, 5 vols. Cairo: L'Institut Français d'archéologie orientale.
Gelb, I. J. (1977) 'Thoughts about Ibla: A Preliminary Evaluation, March 1977', *Syro-Mesopotamian Studies* 1.1: 1–26.
— (1981) 'Ebla and the Kish civilization', in Cagni, pp. 9–73.
Georgiev, V. I. (1952) 'L'origine minoenne de l'alphabet phénicienne', *Archív Orientální* 20: 487–95.
— (1966) *Introduzione alla storia delle lingue indoeuropee.* Rome: Edizione de l'Ateneo.
— (1973) 'The arrival of the Greeks in Greece: the linguistic evidence', in Crossland and Birchall, pp. 243–54.
Gerbi, A. (1973) *Dispute of the New World: The History of a Polemic, 1750–1900*, rev. and enl. edn. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press.
Gesenius, F. H. W. (1815) *Geschichte der hebräischen Sprache und Schrift.* Leipzig.
Gibbon, E. (1776–88) *The Decline and Fall of the Roman Empire*, 6 vols. London.
— (1794) 'Memoirs of my life and writings', *Miscellaneous Works of Edward Gibbon Esquire with Memoirs of His Life and Writings, Composed by Himself: Illustrated from His Letters with Occasional Notes and Narrative by John Lord Sheffield*, 2 vols. London, vol. 1, pp. 1–185.
Giles, P. (1924) 'The peoples of Europe', *Cambridge Ancient History*, vol. 2, *The Egyptian and Hittite Empires to c. 1000 BC.* Cambridge University Press, pp. 20–40.
Gillings, R. J. (1973) *Mathematics in the times of the Pharaohs.* Cambridge, Mass.
Gilman, S. (1982) *On Blackness without Blacks: Essays on the Image of the Black in Germany.* Boston.

Gimbutas, M. (1970) 'Proto-Indo-European culture: the Kurgan culture during the fifth, fourth and third millennia', *Indo-European and Indo-Europeans: Papers Presented at the Third Indo-European Conference at the University of Pennsylvania*, eds. G. Cardona, H. M. Hoenigswald and A. Senn. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, pp. 155–97.

Gladstone, W. (1869) *Juventus Mundi: The gods and men of the heroic age.* London: Macmillan.

Glanville, S. (1942) *The Legacy of Egypt.* Oxford: Clarendon.

Gobineau, J. A. de (1983) *Oeuvres*, 2 vols. Paris: Pléiades.

Godwin, J. (1979) *Athanasius Kircher: A Renaissance Man and the Quest for Lost Knowledge.* London: Thames & Hudson.

Goldin, J. (1967) Introduction, in Spiegel, *The Last Trial*, pp. i–xxvi.

Goldsmith, O. (1774) *History of the Earth*, 8 vols. London.

Gomme, A. W. (1913) 'The legend of Cadmus and the Logographi', *Journal of Hellenic Studies*, pp. 53–72, 223–45.

Gooch, C. P. (1913) *History and Historians in the Nineteenth Century.* London: Longman.

Goodenough, W. H. (1970) 'The evolution and pastoralism and Indo-European origins', in *Indo-European and Indo-Europeans: Papers Presented at the Third Indo-European Conference at the University of Pennsylvania*, eds. G. Cardona, H. M. Hoenigswald and A. Senn, pp. 253–65.

Gordon, C. (1962a) 'Eteocretan', *Journal of Near Eastern Studies* 21: 211–14.

— (1962b) *Before the Bible: The Common Background of Greek and Hebrew Civilizations.* New York: Harper & Row.

— (1963a) 'The Dreros bilingual', *Journal of Semitic Studies* 8: 76–9.

— (1963b) 'The Mediterranean factor in the Old Testament', *Supplements to Vetus Testamentum* 9: 19–31.

— (1965) *Ugaritic Textbook*, *Analecta Orientalia* 18. Rome: Pontificum Institutum Biblicum.

— (1966) *Evidence for the Minoan Language.* Ventnor.

— (1968a) 'The present status of Minoan studies', *Atti*: 383–8.

— (1968b) 'Northwest Semitic texts in Latin and Greek letters', *Journal of the American Oriental Society* 88: 285–9.

— (1968c) 'The Canaanite text from Brazil', *Orientalia* 37: 425–36.

— (1968d) 'Reply to Professor Cross', *Orientalia* 37: 461–3.

— (1969) 'Minoan', *Athenaeum* 47: 125–35.

— (1970a) 'Greek and Eteocretan unilinguals from Praisos and Dreros', *Berytus* 19: 95–8.

— (1970b) 'In the wake of Minoan and Eteocretan', Πρακτικά του Α' Διέθνουσ Ἀνθρωπιστικοῦ Συμποσίου ἐν Δελφοῖς 1: 163–71.

— (1971) *Forgotten Scripts: The Story of their Decipherment.* London: Penguin.

—— (1975) 'The decipherment of Minoan and Eteocretan', *Journal of the Royal Asiatic Society*: 148–58.

—— (1980) 'A new light on the Minoan language', Πεπραγμένα: 205–9.

—— (1981) 'The Semitic language of Minoan Crete', in Arbeitman and Bomhard, pp. 761–82.

—— (1983) 'The Greek unilinguals from Praisos and Dreros and their bearing on Eteocretan and Minoan', Πεπραγμένα τοῦ Γ' Διέθνους Κρητολογικοῦ Συνεδρίου: 97–103.

Gossman, L. (1983) 'Orpheus Philologus: Bachofen versus Mommsen on the study of Antiquity', *Transactions of the American Philosophical Society* 73: pt 5.

Gould, R. F. (1904) *A Concise History of Freemasonry*. London: Gale and Polden.

Gould, S. J. (1981) *The Mismeasure of Man*. New York: Norton.

Gran, P. (1979) *Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760–1840*. Austin: University of Texas Press.

Graves, R. (1948) *The White Goddess*. London: Faber & Faber.

—— (1955) *Greek Myths*, 2 vols. London: Penguin.

Green, A. (1982) *Flaubert and the Historical Novel*. Cambridge University Press.

Green, A. R. W. (1975) *The Role of Human Sacrifice in the Ancient Near East*. Missoula, Montana: Scholars Press for the American Schools of Oriental Resarch.

Griffiths, J. G. (1970) *Plutarch's De Iside et Osiride*. Cambridge University Press.

——(1975) *Apuleius of Madauros, The Isis Book (Metamorphosis, Book XI)*. Leiden: Brill.

—— (1980) 'Interpretatio Graeca', in Helck and Otto, vol. III, cols 167–72.

—— (1982) 'Plutarch', in Helck and Otto, vol. IV, cols 1065–7.

Griggs, E. L. (1956–71) *Collected Letters of Samuel Taylor Coleridge*, 5 vols. Princeton University Press and Oxford: Clarendon.

Grimm, G. (1969) *Die Zeugnisse ägyptischer Religion und Kunstelemente in römischen Deutschland*. Leiden: Brill.

Grote, G. (1826) 'Mitford's *History of Greece*', in the *Westminster Review* 5: 280–331.

—— (1846–56) *A History of Greece*, 12 vols. London.

Grumach, E. (1968/9) 'The coming of the Greeks', *Bulletin of the John Rylands Library* 51: 73–103, 400–30.

Guignes, C. L. J. de (1758) *Mémoire dans lequel on prouve que les chinois sont une colonie égyptienne*. Paris.

Haase, R. (1975) 'Kepler's harmonies between Pansophia and Mathesis Universalis, in Beer and Beer, pp. 427–38.

Hammond, N. G. L. (1967) *A History of Greece to 322 BC*, 2nd edn. Oxford: Clarendon.

Hani, J. (1976) *La Religion égyptienne dans la pensée de Plutarque*, collection d'études mythologiques. Centre de Recherche Mythologique de l'Université de Paris. Paris: 'Les Belles Lettres'.

Hannay, D. (1911) 'Spain, history', *Encyclopaedia Britannica*, 11th edn.

Hansberry, L. W. (1977) *Africa and the Africans as seen by Classical Writers: The Leo*

William Hansberry African History Notebook, 2 vols, ed. J. E. Harris. Washington: Howard University Press.

Harden, D. (1971) *The Phoenicians.* London: Penguin.

Hardy, T. (1891) *Tess of the d'Urbervilles.*

Hare, J. (1647) *St Edward's Ghost: or, Anti-Normanisme. Being a Patheticall Complaint and Motion in the behalfe of our English Nation against her grand (yet neglected) grievance, Normanisme.* London.

Harris, J. (1751) *Hermes: Or, a Political Inquiry, Concerning Language and Universal Grammar.* London.

Harris, Z. S. (1939) *The Development of the Canaanite Dialects: An Investigation in Linguistic History.* New Haven: American Oriental Society.

Harris-Schenz, B. (1984) *Black Images in Eighteenth Century German Literature.* Stuttgart: Heinz.

Harrison, J. (1903) *Prolegomena.* Cambridge University Press.

—— (1925) *Reminiscences of a Student's Life.* London: Hogarth.

Hartleben, H. (1906) *Champollion sein Leben und sein Werk*, 2 vols. Berlin: Weidmann.

—— (1909) *Lettres de Champollion le Jeune recuellies et annotées*, 2 vols. Paris: Bibliothèque Égyptologique.

Havelock, A. E. (1982) *The Literate Revolution in Greece and its Cultural Consequences.* Princeton University Press.

Haydon, B. R. (1926) *Autobiography and Memoirs*, new edn, ed. Aldous Huxley. London: P. Davies.

Heeren, A. H. L. (1824) *Ideen über die Politik, den Vehrkehr und den Handel der vornehmsten Völker der alten Welt*, 2 vols, Göttingen, trans. B. W. Talboys (1832–4) as *Reflections on the Politics, Intercourse, and Trade of the Principal Nations of Antiquity*, 2 vols. Oxford.

Hegel, G. W. F. (1892) *Lectures on the History of Philosophy*, E. S. Haldane and F. H. Simson, trans., 3 vols. London.

—— (1967) *Philosophy of Right*, trans. with notes by T. M. Knox. London: Oxford University Press.

—— (1975) *Lectures on the Philosophy of World History: Introduction: Reason in History*, H. B. Nisbet, trans. Cambridge University Press.

Heine, H. (1830–1) *Reisebilder*, 2 vols. Hamburg.

Helck, W. (1962) 'Osiris', in *Pauly Wissowa*, suppl. 9: 469–513.

—— (1971) *Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend v. Chr.* 2nd improved edn, Wiesbaden.

—— (1979) *Die Beziehungen Ägyptens und Vorderasiens zur Ägäis bis ins 7. Jahrhundert v. Chr.* Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft.

Helck, W. and Otto, E. (1975) *Lexikon der Ägyptologie*, vol. I. Wiesbaden: Harrasowitz.

—— (1977) —— vol. II.

—— (1980) —— vol. III.

-- (1982) —— vol. IV.

Heliodoros (1935) *Aithiopika*, J. Maillon, trans., 2 vols. Paris: 'Belles Lettres'.

Helm, P. R. (1980) *'Greeks' in the Neo-Syrian Levant and 'Assyria' in Early Greek Writers.* Philadelphia, PhD thesis.

Hemmerdinger, B. (1969) 'Noms communs d'origine égyptienne', *Glotta* 44: 238–47.

Herder, J. G. (1784–91) *Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit*, 4 vols. Riga and Leipzig.

Herm, G. (1975) *The Phoenicians: The Purple Empire of the Ancient World*, C. Hillier, trans. New York.

Herodotos (1954) *Herodotus: The Histories*, A. de Selincourt, trans. London.

Hersey, G. (1976) '"Aryanism" in Victorian England', *Yale Review* 66: 104–13.

Hester, D. A. (1965) 'Pelasgian a new Indo-European language?' *Lingua* 13: 335–84.

Heumann (1715) *Acta Philosophorum.* Halle.

Highet, G. (1949) *The Classical Tradition: Greek and Roman Influences on Western Literature.* New York and London: Oxford University Press.

Hill, C. (1968) *The World Turned Upside Down.* London: Temple Smith.

—— (1976) *Science and Magic in Seventeenth Century England*, text of a lecture given at the J. D. Bernal Peace Library, 19 Oct. 1976.

Hodge, C. (1976) 'Lisramic (Afroasiatic): an overview', in M. L. Bender, ed., *The Non-Semitic Languages of Ethiopia.* East Lansing, Mich., pp. 43–65.

Hoefer (1852–73) *Nouvelle Biographie générale*, 46 vols. Paris.

Hohendahl, P. U. (1981) 'Reform als Utopie: Die preußiche Bildungspolitik 1809–1817', in W. Voßkamp, ed., *Utopieforschung: Interdisziplinäre Studien zur neuzeitlichen Utopie*, vol. 3, pp. 250–72.

Holm, A. (1886–94) *Griechische Geschichte von ihrem Urspunge bis zum Untergange der Selbständigheit des griechischen Volkes*, 4 vols, Berlin, trans. 1894 as *History of Greece.* London: Macmillan.

Honolka, K. (1984) *Papageno: Emanuel Schikaneder: Der Große Theartermann der Mozart-Zeit.* Salzburg: Residenz Verlag.

Honour, H. (1961) *Chinoiserie: The Vision of Cathay.* London: John Murray.

Hood, S. (1967) *Home of the Heroes: The Aegean Before the Greeks.* London: Thames & Hudson.

Hooker, J. T. (1976) *Mycenaean Greece.* London: Routledge & Kegan Paul.

Hopfner, T. (1922/3) *Fontes Historiae Religonis Aegyptiacae*, 2 vols. Bonn: Marci et Weberi.

—— (1940–1) *Plutarch über Isis und Osiris*, 2 vols. Prague: Orientalisches Institut.

Hornung, E. (1971) *Der Eine und die Vielen: Ägyptische Gottesvorstellungen.* Darmstadt, trans. J. Baines (1983) as *Conceptions of God in Ancient Egypt: The One and the Many.* London: Routledge & Kegan Paul.

Horton, R. (1967) 'African traditional thought and Western science', *Africa* 37: 50–71, 155–87.

—— (1973) 'Lévy-Brühl, Durkheim and the scientific revolution', in R. Horton and R.

Finnegan, eds *Modes of Thought: Essays on Thinking in Western and Non-Western Societies*. London: Faber & Faber.
Humboldt, W. von. (1793) 'Über das Studium des Altertums und des Griechischen insbesondre', *Gesammelte Schriften*, vol. I, pp. 255–81.
—— (1821) 'Ueber die Aufgabe des Geschichtsschreibers', *Gesammelte Schriften*, vol. 4, pp. 35–56.
—— (1826) 'Lettre à Monsieur Abel-Remusat sur la nature des formes grammaticales en générale, et sur la génie de la langue chinoise en particulier', *Journal Asiatique* 9:115; reprinted, *Gesammelte Schriften*, vol. 5, pp. 254–308.
—— (1841–52) *Wilhelm von Humboldts gesammelte Werke*, ed. C. Brandes, 7 vols in 4. Berlin.
—— (1903–36) *Wilhelm von Humboldts gesammelte Schriften*, 17 vols. Berlin: Leitzmann and Gebhardt.
Hunger, K. (1933) *Die Bedeutung der Universität Göttingen für die Geschichtsforschung am Ausgang des achtzehnten Jahrhunderts*. Berlin: E. Ebering.
Huxley, G. (1961) *Crete and the Luvians*. Oxford: the author.
Iggers, G. I. (1967) [trans. of W. von Humboldt's] 'The task of the historian', *History and Theory* 6: 57–71.
—— (1968) *The German Conception of History: The National Tradition of Historical Thought from Herder to the Present*. Middletown, Conn.: Wesleyan University Press.
Irving, W. (1829) *The Conquest of Granada*. New York.
—— (1852) *The Alhambra*. New York.
Irwin, J. T. (1980) *American Hieroglyphics: the Symbol of Egyptian Hieroglyphics in the American Renaissance*. New Haven: Yale University Press.
Isokrates (1928–44), 3 vols, 1 & 2 trans. G. Norlin; 3, trans. L. Van Hook. Cambridge, Mass.: Loeb.
Iversen, E. (1957) 'The Egyptian origin of the Archaic Greek canon', *Mitteilungen des Deutschen Archäeologischen Instituts Abt. Kairo* 15: 134–47.
—— (1961) *The Myth of Egypt and its Hieroglyphs in European Tradition*. Copenhagen: Gad.
Jacob, M. C. (1976) *The Newtonians and the English Revolution 1689–1720*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
—— (1981) *The Radical Enlightenment: Pantheists, Freemasons and Republicans*. London: Allen & Unwin.
Jacoby, F. (1904) *Das Marmor Parium*, ed. and ann. Weidmann. Berlin.
—— (1923–9) *Fragmente der griechischen Historiker*, ed. and ann. Weidmann. Berlin.
James, G. G. M. (1954) *Stolen Legacy, The Greeks were not the authors of Greek Philosophy, but the people of North Africa, commonly called the Egyptians*. New York: Philosophical Library.
Jeanmaire, H. (1951) *Dionysos*. Paris: Payot.
Jeffery, L. H. (1961) *The Local Scripts of Archaic Greece: A Study in the Origin of the Greek Alphabet and its Development from the Eighth to the Fifth Centuries BC*. Oxford: Clarendon.

— (1976) *Archaic Greece: The City-States c. 700–500 BC.* London/New York: St Martin's.

— (1982) 'Greek alphabetic writing', *Cambridge Ancient History*, vol. 3, pt 1, pp. 819–33.

Jenkyns, R. (1980) *The Victorians and Ancient Greece.* Oxford: Blackwell.

Jensen, H. (1969) *Sign, Symbol and Script: An Account of Efforts to Write*, 3rd rev. edn, trans. G. Unwin. New York: Putnam.

Jespersen, O. (1922) *Language: its Nature, Development and Origin.* London: Allen & Unwin.

Jidejian, N. (1969) *Tyre Through the Ages.* Beirut: Dar el-machreq.

Joffe, A. H. (1980) *Sea Peoples in the Levant.* Cornell, Department of Near Eastern Studies, undergraduate thesis.

Johansen, H. F. and Whittle, E. W. (1980) *Aeschylus: the Suppliants*, 3 vols. Aarhus: Gyldenda.

Johnson, S. (1768) *The History of Rasselas Prince of Abissinia: An Asiatic Tale.* Philadelphia.

Jomard, E. F. (1829a) *Description générale de Memphis et ses pyramides.* Paris.

— (1829b) *Remarque sur les pyramides.* Paris.

Jones, T. (1969) *The Sumerian Problem.* London, New York, Toronto and Sydney: John Wiley & Sons.

Jones, W. (1784) 'On the gods of Greece, Italy and India', in *The Works of Sir William Jones, with the Life of the Author by Lord Teignmouth*, 13 vols, London, 1807, vol. 1, pp. 319–97.

— (1786) 'Third anniversary discourse before the Asiatick Society (of Bengal)', in *The Works of Sir William Jones, with the Life of the Author by Lord Teignmouth*, 13 vols, London, 1807, vol. 1, pp. 25–39.

— (1794) *The Laws of Manu.* Calcutta.

Jordan, W. D. (1969) *White Over Black: American Attitudes Toward the Negro: 1550–1812.* Baltimore: Penguin.

Josephus, *Contra Apionem.*

— *Antiquitates Judaicae.*

Juster, J. (1914) *Les Juifs dans l'Empire romaine*, 2 vols. Paris: Geuthner.

Kantor, H. J. (1947) 'The Aegean and the Orient in the second millennium BC', *American Journal of Archaeology* 51: 1–103.

Kaufman, S. A. (1982) 'Reflections on the Assyrian–Aramaic bilingual from Tell Fakhariyeh', *MAARAV* 3/2: 137–75.

Keightly, D. N. (1978) *Sources of Shang History: The Oracle Bone Inscriptions of Bronze Age China.* Berkeley: University of California Press.

—(1983) ed., *The Origins of Chinese Civilization.* Berkeley: University of California Press.

Kern, O. (1926) *Die Religion der Griechen.* Berlin: Weidmann.

Khattab, A. (1982) *Das Ägyptenbild in den deutschsprachigen Reisebeschreibungen der Zeit von 1285–1500.* Frankfort a.M.: Europäische Hochschulschriften Reihe 1 Deutsche Sprache und Literatur.

Kienast, B. (1981) 'Die Sprache von Ebla und das Altsemitische', in Cagni, pp. 83–98.

King, L. W. and Hall, H. R. (1907) *Egypt and Western Asia in the Light of Recent Discoveries*. London: Grolier Society.

Kinkel, I. G. (1877) *Epicorum Graecorum Fragmenta*. Leipzig.

Kircher, A. (1652) *Oedipus Aegyptiacus*. Rome.

Kirk, G. S. (1970) *Myth: its Meanings and Functions in Ancient and Other Cultures*. Berkeley and Cambridge: University of California Press.

Kistler, M. O. (1960) 'Dionysian elements in Wieland', *Germanic Review* 25.1: 83–92.

Klausner, J. (1976) 'The First Hasmonean rulers: Jonathan and Simeon', in A. Schalit, ed. *World History of the Jewish People: VI, The Hellenistic Age*. London: W. H. Allen, pp. 183–210.

Knight, S. (1984) *The Brotherhood: The Secret World of the Freemasons*. London, New York: Granada.

Knoop, D. and Jones, G. P. (1948) *The Genesis of Freemasonry: An Account of the Rise and Development of Freemasonry in its Operative, Accepted and Early Speculative Phases*. University of Manchester Publications.

Knowles, J. (1831) *The Life and Writings of Henry Fuseli, Esq. M.A., R.A.* London.

Knox, R. (1862) *The Races of Men: A Philosophical Inquiry into the Influence of Race over the Destinies of Nations*. London, 2nd edn.

Kretschmer, P. (1924) 'Das nt-suffix', *Glotta* 13: 84–106.

Kroll, J. (1923) 'Kulturhistorisches aus astrologischen Texten', *Klio* 18: 213–25.

Kropotkin, P. (1899) *Memoirs of a Revolutionist*. New York and Boston: Houghton Mifflin.

Kuhn, T. (1970) *The Structure of Scientific Revolutions*, 2nd edn. Chicago University Press.

Kunzl, A. (1976) *Der Gegensatz Rom-Kartago im Spiegel historisch-politischer Ausserungen der Zeit um den Ersten Weltkrieg*. Erlangen, thesis.

Lafont, R., Labal, P., Duvernoy, J., Roquebert Martel, P. and Pech, R. (1982) *Les Cathares en Occitanie*. Paris: Fayard.

La Marche, V. C. and Hirschbeck, K. K. (1984) 'Frost rings in trees as records of major volcanic eruptions', *Nature* 307, 12 Jan. pp. 121–6.

Lambert, R. (1984) *Beloved and God: the Story of Hadrian and Antinous*. New York: Viking.

Lane-Fox, R. (1980) *The Search for Alexander*. Boston and Toronto: Little Brown.

Langham, I. (1981) *The Building of British Social Anthropology: W. H. R. Rivers and his Cambridge Disciples in the Development of Kinship Studies, 1898–1931*. Dordrecht, Boston and London: J. D. Reidel.

Laroche, E. (1977?) 'Toponymes et frontières linguistiques en Asie Mineure', in *La Toponymie Antique: Actes du Colloque de Strasbourg, 12–14 juin 1975*. Leiden: Brill, pp. 205–13.

Lattimore, R. (1939) 'Herodotus and the names of the Egyptian gods', *Classical Philology* 34: 357–65.

Lauer, J. F. (1948) *Le Problème des Pyramides d'Égypte*. Paris: Payot.

—— (1960) *Observations sur les pyramides*. Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale.

Leach, E. (1966) 'The legitimacy of Solomon, some structural aspects of Old Testament history', *European Journal of Sociology* 7: 58–101.

—— (1986) *Aryan Invasions over Four Millennia*, Wenner-Gren Symposium no. 100, 'Symbolism Through Time'. Fez: 12–21 Jan.

Leclant, J. (1972) *Inventaire Bibliographique des Isiaca: Répertoire analytique des travaux relatifs à la diffusion des cultes isiaques, A–D*. Leiden: Brill.

—— (1974) *E–K*.

—— (1982) 'Champollion et le Collège de France', *Bulletin de la Société Française d'Égyptologie* 95: 32–46.

Lee, H. D. P. (1955) *Plato: The Republic*. London: Penguin.

Le Fèvre, T. (1664) *Les Poètes grecs*. Saumur.

Lehmann, W. P. (1973) *Historical Linguistics: an Introduction*. New York: Holt, Reinhart & Winston.

Levi, P. (1971) *Pausanias' Guide to Greece*, 2 vols. London: Penguin.

Levin, H. (1931) *The Broken Column; a Study in Romantic Hellenism*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Levin, S. (1968) 'Indo-European penetration of the civilized Aegean world as seen in the "Horse" tablet of Knossos (Ca895)', *Attie memorie del 1° congresso internazionale di micinilogia. Roma, 27 Settembre–3 Ottobre 1967*, pp. 1179–85.

——.(1971a) *The Indo-European and Semitic Languages*. Albany: State University of New York Press.

—— (1971b) 'The etymology of νέκταρ exotic scents in early Greece', *Studi Micenei ed Egeo-Anatolici* 13: 31–50.

—— (1973) 'The accentual system of Hebrew, in comparison with the ancient Indo-European languages', *Fifth World Congress of Jewish Studies*, 4: 71–7.

—— (1977) 'Something stolen: a Semitic participle and an Indo-European neuter substantive', in P. Hopper, ed., *Studies in Descriptive and Historical Linguistics: Festschrift for Winfred P. Lehmann*. Amsterdam: John Benjamin, pp. 317–39.

—— (1978) 'The perfumed goddess', *Bucknell Review* 24: 49–59.

—— (1979) 'Jocasta and Moses' mother Jochabed, Teiresias-Teipeσiaσ, suppl. 2: 49–61.

—— (1984) 'Indo-European descriptive adjectives with 'Oxytone' accent and Semitic stative verbs', *General Linguistics* 24.2: 83–110.

Lewy, H. (1895) *Die semitischen Fremdwörter im Griechischen*. Berlin.

Lieblein, J. (1884) *Egyptian Religion*. Christiania and Leipzig.

Linforth, I. M. (1911–16) 'Epaphos and the Egyptian Apis', *University of California Publications in Classical Philology* 2: 81–92.

—— (1926) 'Greek gods and foreign gods in Herodotus', *University of California Publications in Classical Philology* 9.1: 1–25.
—— (1940) 'Greek and Egyptian gods (Herodotus II, 50, 52), *Classical Philology* 35: 300–1.
Lipinsky, E. (1978) 'Ditanu', *Studies in Bible and the Ancient Near East, Separatum*: 91–110.
Lloyd, A. B. (1976) *Herodotos Book II*, vol. II: *Commentary 1–98*. Leiden: Brill.
Lloyd-Jones, H. (1981) Foreword, in Trevelyan, *Goethe and the Greeks*, pp. i–xlvii.
—— (1982a) *Blood for the Ghosts: Classical Influences in the Nineteenth and Twentieth Centuries*. London: Duckworth.
—— (1982b) *Classical Survivals: The Classics in the Modern World*. London: Duckworth.
—— (1982c) 'Introduction to Wilamowitz-Moellendorf', *History of Classical Scholarship*: i–xxxii.
Lochner-Hüttenbach, F. (1960) *Die Pelasger*. Vienna.
Locke, J. (1688) *Essay Concerning Human Understanding*. London.
—— (1689) *The True End of Civil Government*. London.
Lockyer, J. N. (1893) *The Early Temple and Pyramid Builders*. Washington.
—— (1894) *The Dawn of Astronomy*. London.
Lohnes, W. F. W. and Strothmann, F. W. (1980) *German: a Structural Approach*, 3rd edn. New York: Norton.
Lorimer, H. L. (1950) *Homer and the Monuments*. London: Macmillan.
Lucretius, *De Rerum Natura*.
Lumpkin, B. (1984) 'Mathematics and engineering in the Nile Valley', *Journal of African Civilizations* 6.2: 102–19.
Macaulay, T. B. (1842) *Lays of Ancient Rome*. London.
—— (1866–71) *The Works of Lord Macaulay Edited by His Sister, Lady Trevelyan*, 8 vols. London.
McCarter, K. (1975) *The Antiquity of the Greek Alphabet and the Early Phhenician Scripts*. Missoula, Montana: Scholars Press for Harvard Semitic Museum.
MacDougall, H. A. (1982) *Racial Myth in English History*. Montreal, Hanover Vt. and London: Harvest House, University Press of New England.
Macqueen, J. G. (1975) *The Hittites and Their Contemporaries in Asia Minor*. London: Thames & Hudson.
McGready, A. G. (1969) 'Egyptian words in the Greek vocabulary', *Glotta* 44: 247–54.
McGuire, J. E. (1977) 'Neoplatonism and Active Principles: Newton and the Corpus Hermeticum', in Westman and McGuire, pp. 95–142.
McGuire, J. E. and Rattansi, P. M. (1966) 'Newton and the pipes of Pan', *Notes and Records of the Royal Society* 21: 108–43.
Madelin, L. (1937) *Histoire du consulat et de l'empire*, 8 vols. Paris: Hachette, vol. 2, *L'ascension de Bonaparte*.
Malingrey, A. M. (1961) *Philosophy: Étude d'un groupe de mots dans la littérature grecque des Présocratiques au IV^e s. ap. J.-C.* Paris: Klincksieck.

Mallet, D. (1888) *Le Culte de Neïth à Saïs*. Paris.
Manuel, F. E. (1956) *The New World of Henri Saint Simon*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
—— (1959) *The Eighteenth Century Confronts the Gods*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
—— (1963) *Isaac Newton, Historian*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
—— (1974) *The Religion of Isaac Newton*. Oxford: Clarendon.
—— (1983) *The Changing of the Gods*. Hanover Vt. and London.
Marichal, R. (1982) 'Champollion et l'Académie', *Bulletin de la Société Française d'Égyptologie* 95: 12–31.
Marin, L. (1981) *Le Portrait du Roi*. Paris: Minuit.
Marino, L. (1975) *I maestri della Germania, Göttingen 1770–1820*. Turin: Einaudi.
Marsh, (1885) 'Review of *A History of Art in Phoenicia and its Dependencies*, by G. Perrot and C. Chipiez', *American Journal of Archaeology* 1: 190–5.
Marx, K. (1939) *Grundrisse der Kritik der politischen Ökonomie, Verlag für fremdsprachige Literatur*. Moscow and Berlin. trans. Martin Nicolaus (1973) as *Karl Marx, Grundrisse*. New York: Vintage Books.
—— (1983) *Das Kapital: Kritik der politischen Ökonomie, erster Band, Hamburg 1867 Text*. Ser. 2, vol. 5, in *Karl Marx – Friedrich Engels, Gesamtausgabe (MEGA)* 1975–1983. Berlin: Dietz Verlag.
Masica, C. P. (1978) *Defining a Linguistic Area: South Asia*. Chicago University Press.
Maspero, G. (1893) *Études de mythologie et d'archéologie égyptiennes*. Paris.
Masson, E. (1967) *Recherches sur les plus anciens emprunts sémitiques en grec*. Paris: Klincksieck.
Matz, F. (1973) 'The zenith of Minoan civilization', *The Cambridge Ancient History*, 3rd edn, vol. 2, pt 1, *The Middle East and the Aegean c. 1800–1380 BC*, pp. 557–81.
Maverick, L. (1946) *China a Model for Europe*. San Antonio: Paul Anderson.
Maximus of Tyre (1910) ed. H. Hobein. Leipzig: Teubner.
Mayer, M. L. (1964) 'Note etimologiche III', *Acme* 17: 223–9.
—— (1967) 'Note etimologiche IV', *Acme* 20: 287–91.
Mayes, S. (1959) *The Great Belzoni*. London: Putnam.
Mazar, B. (1971) *World History of the Jewish People*, vol. 3. London: W. H. Allen.
Meiners, C. (1781–2) *Geschichte des Ursprungs, Fortgangs und Verfalls der Wissenschaft in Griechenland und Rom*. Lemgo.
—— (1811–15) *Untersuchungen über die Verscheidenheiten der Menschenrassen*, 3 vols. Tübingen.
Mellink, M. J. (1967) Review of *Interconnections in the Bronze Age* by W. S. Smith. *American Journal of Archaeology* 71: 92–4.
Merkelbach, R. and West, M. L. (1967) *Fragmenta Hesiodea*. Oxford: Clarendon.
Meyer, E. (1892) *Forschungen zur alten Geschichte*, 2 vols. Halle.
—— (1921) *Ursprung und Anfange des Christentums, II. Die Entwicklung des Judentums und Jesus von Nazaret*. Stuttgart and Berlin: Cotta.

—— (1928–36) *Geschichte des Altertums*, 4 vols. Stuttgart and Berlin: Cotta.
Meyer, G. (1892) 'Von wem stammt die Bezeichnung Indogermanen?', *Indogermanische Forschungen* 2: 125–30.
Michael, H. N. and Weinstein, G. A. (1977) 'New radio carbon dates from Akrotiri', *Thera. Temple University Aegean Symposium* 2: 27–30.
Michelet, J. (1831) *Histoire Romaine*, 2 vols. Paris.
—— (1962) (1831) *Introduction à l'histoire universelle*. Paris: A. Colin.
Millard, A. R. (1976) 'The Canaanite linear alphabet and its passage to the Greeks', *Kadmos* 15: 130–44.
Millard, A. R. and Bordreuil, P. (1982) 'A statue from Syria with Assyrian and Aramaic inscriptions', *Biblical Archaeologist* 45.3: 135–41. See also under Abou-Assaf.
Mitford, W. (1784–1804) *The History of Greece*, 8 vols. London.
Momigliano, A. (1946) 'Friedrich Creuzer and Greek historiography', *Journal of the Warburg and Courtauld Institute* 9: 152–63.
—(1957) 'Perizonus, Niebuhr and the character of the early Roman tradition', *Journal of Roman Studies* 47: 104–14, repr. in his *Essays on Ancient and Modern Historiography* (1977). Oxford, pp. 231–51.
—(1958) 'The Place of Herodotos in the History of Historiography', *History* 4: 1–13.
—(1966a) 'Giulio Beloch', in *Dizionario Biografico degli Italiani*, vol. 8, pp. 32–45, repr. in *Terzo Contributo alla storia degli studi classici e del mondo antico*, 1966. Rome, pp. 239–65.
—(1966b) 'George Grote and the study of Greek history', *Studies in Historiography* (1966) London, pp. 56–74.
—(1966c) 'Vico's scienza nuova: Roman "Bestioni" and Roman "Eroi"', *History and Theory* 5: 3–23, repr. in *Essays on Ancient and Modern Historiography* (1977), pp. 253–76.
—1966d) 'Ancient history and the antiquarian', *Studies in Historiography*, pp. 6–9.
—(1968) *Prime linee di storia della tradizione Maccabaica*. Amsterdam: Hakkert.
—(1975) *Alien Wisdom: The Limits of Hellenization*. Cambridge University Press.
—(1980) 'Alle origini dell'interesse su Roma arcaica, Niebuhr e l'India, *Rivista Storica Italiana* 92: 561–71.
—(1982) 'New paths of Classicism in the nineteenth century', *History and Theory Beiheft* 21.
Monro, D. B. (1911) 'Wolf, Friedrich August', *Encyclopaedia Britannica*, 11th edn, vol. 28, pp. 770–1.
Montesquieu, C. de (1721) *Lettres Persanes*. Paris.
—— (1748) *L'esprit des lois*. Paris.
Moorehead, A. (1962) *The Blue Nile*. New York: Harper & Row.
More, H. (1931) *Philosophical Poems of Henry More*. G. Bullough, ed. Manchester University Press.
Morenz, S. (1969) *Die Begegnung Europas mit Ägypten*. Zürich and Stuttgart: Artemis.
—— (1973) *Egyptian Religion*, A. E. Keep, trans. London: Methuen.
Moscati, S. (1968) *Fenici e cartaginesi in Sardegna*. Milan: A. Mondadori.

Moscati, S., Spitaler, A., Ullendorf, E., and von Soden, W. (1969) *An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages: Phonology and Morphology*. Wiesbaden: Harrasowitz.
Mosse, G. (1964) *The Crisis of German Ideology: Intellectual Origins of the Third Reich*. New York: Grosse & Dunlap.
Mosshammer, A. A. (1979) *The Chronicle of Eusebius and the Greek Chronographic Tradition*. Lewisburg: Bucknell University Press.
Movers, F. C. (1841–50) *Die Phönizier*, 2 vols, 4 books. Bonn and Berlin.
Muhly, J. D. (1968) Review of *Hellenosemitica*, by M. C. Astour. *Journal of the American Oriental Society* 88:585–8.
—— (1970a) Review of *Interconnections in the Ancient Near East*, by W. S. Smith. *Journal of the American Oriental Society* 90: 305–9.
—— (1970b) 'Homer and the Phoenicians: The relations between Greece and the Near East in the Late Bronze Age and Early Iron Ages', *Berytus* 19: 19–64.
—— (1973) 'The Philistines and their pottery', paper presented to the *Third International Colloquium on Aegean Prehistory*. Sheffield.
—— (1979) 'On the Shaft Graves at Mycenae', *Studies in Honor of Tom B. Jones*, M. A. Powell and R. M. Sack, eds. Neukirchen-vlugn: Butzon & Bercker kevelaer, pp. 311–23.
—— (1984) 'The role of the Sea Peoples in Cyprus during the L.C. III period,' in *Cyprus at the Close of the Late Bronze Age*, V. Karageorgis, ed. Nicosia: G. Leventis Foundation, pp. 39–56.
—— (1985) 'Phoenicia and the Phoenicians', *Biblical Archaeology Today: Proceedings of the International Congress on Biblical Archaeology, Jerusalem, April 1984*, A. Biran *et al.*, eds Jerusalem: Israel Exploration Society, Israel Academy of Sciences and Humanities American Schools of Oriental Research, pp. 177–91.
Müller, C. (1841–70) *Fragmenta Historicorum Graecorum*. Paris.
Müller, K. O. (1820–4) *Geschichten hellenischer Stämme und Städte*, 3 vols. Breslau, Vol. 1, *Orchomenos und die Minyer*, vols II and III, *Die Dorier*, vols 2 and 3 trans. H. Tufnell and G. C. Lewis as *The History and Antiquities of the Doric Race* (1830) 2 vols. London.
—— (1825) *Prolegomena zu einer wissenschaflichen Mythologie*. Göttingen. trans. J. Leitch as *Introduction to a Scientific System of Mythology* (1844) London.
—— (1834) 'Orion', *Rheinisches Museum* 2: 1–30.
—— (1858) *A History of the Literature of Ancient Greece, Continued by J. W. Donaldson*, 3 vols. London.
Murray, G. (1951) *Five Stages of Greek Religion*. Oxford: Clarendon.
Murray, M. (1931) *Egyptian Temples*. Marston, London: Sampson Low.
—— (1949) *The Splendour that was Egypt*. London: Sidgwick & Jackson.
Murray, O. (1980) *Early Greece*. Brighton: Harvester/Atlantic Highlands, NJ: Humanities.
Musgrave, S. (1782) *Two Dissertations: 1) On the Grecian Mythology: 2) An Examination of Sir Isaac Newton's Objections to the Chronology of the Olympiads*. London.

Myres, J. L. (1924) 'Primitive man in geological time', *Cambridge Ancient History*, 1st edn, vol. 1, pp. 1–97.
Naveh, J. (1973) 'Some Semitic epigraphical considerations on the antiquity of the Greek alphabet', *American Journal of Archaeology*: 1–8.
— (1982) *Early History of the Alphabet: An Introduction to West Semitic Epigraphy and Paleography*. Jerusalem: Magnes/Leiden: Brill.
Needham, J. and Lu, G. D. (1985) *Transpacific Echoes and Resonances: Listening Once Again*. Singapore: World Scientific.
Needham, J. T. (1761) *De Inscriptione quadam Ægyptiaca Taurini inventa et Characteribus Ægyptiis olim et Sinis communibus exarata idolo cuidam antiquo in regia universitate servato ad utrasque Academias Londonensem et Parisiensem Rerum antiquarum, investigationi et studio præpositas data Epistola*. Rome.
Neiman, D. (1965) 'Phoenician place names', *Journal of Near Eastern Studies* 24: 113–15.
Neschke-Hetschke, A. B. (1984) 'Discussion', in Bollack and Wismann, pp. 483–4.
Nettl, P. (1957) *Mozart and Masonry*. New York: Philosophical Library.
Neugebauer, O. (1945) *Mathematical Cuneiform Texts*. New Haven: American Oriental Society and the American Schools of Oriental Research.
— (1950) 'The alleged Babylonian discovery of the precession of the equinoxes', *Journal of the American Oriental Society* 70: 1–8.
— (1957) *The Exact Sciences in Antiquity*. Providence.
Neugebauer, O. and Parker, R. A. (1960–9) *Egyptian Astronomical Texts*, 4 vols. Providence and London: Brown University Press. See also Swerdlow.
Neusner, J. (1965–70) *A History of the Jews in Babylonia*, 5 vols. Leiden: Brill.
Newton, I. *A Dissertation upon the Sacred Cubit of the Jews and the Cubits of several Nations: in which from the dimensions of the Greatest Pyramid as taken by Mr. John Greaves, the ancient Cubit of Memphis is determined.*
— *Principia Mathematica.*
— *The Origins of Gentile Theology.*
Niebuhr, B. (1828–31, enl. edn) *Romische Geschichte*, 2 vols. Berlin.
— (1847) *Vorträge über alte Geschichte an der Universität zu Bonn gehalten*, 3 vols. Berlin. trans. L. Schmitz as *Lectures on Ancient History from the Earliest Times to the Taking of Alexandria by Octavianus* (1852) 3 vols. Philadelphia.
— (1847–51) *The History of Rome*, J. C. Hare and C. Thirwall, trans. 4th edn, 3 vols. London.
Nilsson, M. P. (1932) *The Mycenaean Origin of Greek Mythology*. Berkeley: University of California Press.
— (1950) *The Minoan Mycenaean Religion*. 2nd rev. edn. Lund. C. W. K. Gleerup.
Nissen, W. (1962) *Göttinger Gedenktafeln: Ein biographischer Wegweiser*. Göttingen Vandenhoek & Ruprecht.
— (1975) 'Ergänzungen', *Göttinger Gedenktafeln: Ein biographischer Wegweiser*. Göttingen.

Noguera, A. (1976) *How African was Egypt: A Comparative Study of Egyptian and Black African Cultures*. New York: Vantage Press.
Nonnos, (1940) *Dionysiaca*, 3 vols, trans. W. H. D. Rouse, notes by H. J. Rose and L. R. Lind (Loeb). Cambridge, Mass.
Oren, D. A. (1985) *Joining the Club: A History of Jews at Yale*. New Haven: Yale University Press.
Otto, E. (1975) 'Ägypten im Selbstbewußtsein des Ägypters', in Helck and Otto, cols 76–8.
Paaw, C. de (1773) *Recherches philosophiques sur les Égyptiens et les Chinois*. Berlin.
Pagels, E. (1979) *The Gnostic Gospels*. New York: Random House.
Pallottino, M. (1978) *The Etruscans*, rev. and enl. edn, trans. J. Cremona, ed. D. Ridgeway. London: Penguin.
—— (1984) *Storia della Prima Italia*. Milan: Rusconi.
Pang, K. D. and Chou, H. H. 'Three very large volcanic eruptions in Antiquity and their effects on the climate of the Ancient World', paper abstract in *Eos* 66.46. 12 Nov. 1985: 816.
Pappademos, J. (1984) 'The Newtonian synthesis in physical science and its roots in the Nile Valley', *Journal of African Civilizations* 6.2: 84–101.
Pappe, H. O. (1979) 'The English Utilitarians and Athenian democracy', in Bolgar, *Classical Influences* . . . , pp. 297–302.
Parke, H. W. (1967) *The Oracles of Zeus: Dōdōna, Olympia and Ammon*. Oxford: Blackwell.
Parker, R. A. and Neugebauer, O. (1960–4) *Egyptian Astronomical Texts*, 4 vols. London: Lund Humphries for Brown University Press.
Parmentier, L. (1913) *Recherches sur le traité d'Isis et d'Osiris de Plutarque*. Brussels: Académie Royale de Belgique.
Parry, M. (1971) *The Making of Homeric Verse: The Collected Papers of Milman Parry*. Oxford: Clarendon.
Patrides, C. A. (1969) *The Cambridge Platonists*. Cambridge University Press.
Paulys Real-Encyclopädie der classischen Altertumswissenschaft, ed. G. Wissama *et al.* (1894–). Stuttgart, München.
Pausanias, *Guide to Greece*, see Frazer and Levi.
Pedersen, H. (1959) *The Discovery of Language: Linguistic Science in the Nineteenth Century*, J. W. Spargo, trans. Bloomington: Indiana University Press.
Pendlebury, J. D. S. (1930a) *Aegyptiaca*. Cambridge University Press.
—— (1930b) 'Egypt and the Aegean in the Late Bronze Age', *Journal of Egyptian Archaeology* 16: 75–92.
Petit-Radel, F. (1815) 'Sur l'origine grecque du fondateur d'Argos', *Mémoires de l'Institut Royal de France, Classe d'Histoire et de Littérature Ancienne* 2: 1–43.
Petrie, W. M. F. (1883) *The Pyramids and Temples of Gizeh*. London.
—— (1893) *The Great Pyramid*. London.
—— (1894–1905) *A History of Egypt*, 3 vols. London.

—— (1908) 'Historical references in Hermetic writings', in *Transactions of the Third International Congress of the History of Religions*, Oxford 1: 196–225.

—— (1909) *Personal Religion in Egypt before Christianity*. New York: Harpers Library of Living Thought.

—— (1931) *70 Years of Archaeology*. London: Sampson Low.

Pettinato, G. (1978) 'L'Atlante Geografico nel Vicino Oriente antico Attestate ad Ebla ed ad Abu Salabikh', *Orientalia* 46: 50–73.

—— (1979) *Ebla: un impero inciso nell'argilla*. Milan: Mondadori, trans. (1981) as *The Archives of Ebla: An Empire Inscribed in Clay, with an Afterword by Mitchell Dahood S. J.* Garden City: Doubleday.

Pfeiffer, R. (1976) *History of Classical Scholarship: From 1300–1850*. Oxford: Clarendon.

Pharr, C. (1959) *Homeric Greek: A Handbook for Beginners*, 2nd edn. Norman, Okla.: University of Oklahoma Press.

Picard, C. (1937) 'Homère et les religions de l'Égypte', *Revue archéologique* 6^{me} Série, 10: 110–13.

—— (1948) *Les Religions Préhelleniques*. Paris: Presses Universitaires de France.

Pierce, R. H. (1971) 'Egyptian loan words in Ancient Greek?', *Symbolae Osloenses* 46: 96–107.

Pinot, V. (1932) *La Chine et l'esprit philosophique en Europe 1640–1740*. Paris: Geuthner.

Plato, (1914–192?) 12 vols, H. N. Fowler, trans. *Kratylos*.

—— *Kritias*.

—— *Menexenos*.

—— *Republic*.

—— *Timaios*, see Lee, 1955.

Platon, N. and Stassinopouloutouloupa, E. (1964) 'Oriental seals from the Palace of Cadmus: unique discoveries in Boeotian Thebes', *Illustrated London News*, 28 November: 859–61.

Plutarch, *De Iside et Osiride*, trans. F. C. Babbit (1934–5) in *Plutarch's Moralia*, 16 vols (Loeb). Cambridge, Mass.: Harvard University Press/London: Heinemann, vol. 5, pp. 7–191.

—— *De Herodoti Malignitate*, trans. L. Pearson and F. H. Sandbach in *Plutarch's Moralia*, vol. 11, pp. 9–133.

Pocock, J. G. A. (1985) 'Gibbon as an Anglican manqué: clerical culture and the *Decline and Fall*', Miriam Leranbaum Memorial Lecture, SUNY, Binghamton, 17 April.

Poliakov, L. (1974) *The Aryan Myth: A History of Racist and Nationalist Ideas in Europe*, E. Howard, trans. London: Chatto & Windus and Heinemann for Sussex University Press.

Polomé, E. C. (1981) 'Can graphemic change cause phonemic change?', in Arbeitman and Bomhard, pp. 881–8.

Pope, M. (1973) *Job: A New Translation with Introduction and Commentary*, 3rd edn. Garden City, NY: Anchor.

— (1980) 'The cult of the dead at Ugarit', in G. Young, ed. *Ugarit in Retrospect: 50 Years of Ugarit and Ugaritic.* Winona Lake: Eisenbraun, pp. 170–5.
Popham, M. (1965) 'Some Late Minoan pottery from Crete', *Annual of the British School at Athens* 60: 316–42.
Popkin, R. H. (1974) 'The philosophical basis of modern racism', in C. Walton and J. P. Anton, eds *Philosophy and the Civilizing Arts*, pp. 126–65.
— (1985) Introduction to Force, pp. xi–xix.
Popper, K. R. (1950) *The Open Society and its Enemies*, 2 vols. Princeton University Press.
Porada, E. (1965) 'Cylinder seals from Thebes: a preliminary report', *American Journal of Archaeology* 69: 173.
— (1966) 'Further notes on the cylinders from Thebes', *American Journal of Archaeology* 70: 194.
— (1981) 'The cylinder seals found at Thebes in Boiotia, with contributions on the inscriptions from Hans G. Güterbock and John A. Brinkman', *Archiv für Orientforschung* 28: 1–78.
Porphery, *Vita Plotini.*
Potter, J. (1697) *Archæologia Græca, or the Antiquities of Greece*, 4 vols. London.
Praetorius, G. F. (1902) 'Zur Geschichte des griechischen Alphabets', *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* 56: 676–80.
Pulleybank, E. G. (1955) *The Background of the Rebellion of An Lu-shan.* Cambridge University Press.
Pyle, K. B. (1969) *The New Generation in Meiji Japan: Problems of Cultural Identity 1885–1895*. Stanford University Press.
Rahman, A. (1982) *Science and Technology in Medieval India.* New Delhi: Vikas.
— (1983) *Intellectual Colonization: Science and Technology in West–East Relations.* New Delhi: Vikas.
Rashed, R. (1980) 'Science as a Western phenomenon', *Fundamenta Scientiae* 1: 7–21.
Rattansi, P. M. (1963) 'Paracelsus and the Puritan revolution', *Ambix* 11: 24–32.
— (1973) 'Some evaluations of reason in sixteenth- and seventeenth-century natural philosophy', in Teich and Young, pp. 148–66.
Rawlinson, G. (1869) *A Manual of Ancient History.* Oxford.
— (1889) *History of Phoenicia.* London.
Rawson, E. (1969) *The Spartan Tradition in European Thought.* Oxford: Clarendon.
Ray, J. D. (1976) *The Archive of Hor.* London: Egypt Exploration Society.
Reghellini de Schio (1833) *La Maçonnerie considérée comme le résultat des religions égyptienne, juive et chrétienne.* Paris.
Reinach, S. (1892a) *L'Origine des Aryens: Histoire d'une Controverse.* Paris.
— (1892b) 'Résumé of Tsountas', in *Revue Archéologique* 1: p. 93.
— (1893) 'Le mirage oriental', *Anthropologie* 4: 539–78, 699–732.
Renan, E. (1855) *Histoire générale et système composée des langues sémitiques.* Paris.
— (1858) *Études d'histoire religieuse*, 3rd edn. Paris.
— (1868) 'Mémoire sur l'origine et caractère véritable de l'histoire phénicienne qui

porte le nom de Sanchunation', *Mémoires de l'Académie des inscriptions et Belles-Lettres* 23:241–334.

Rendsburg, G. (1982) 'A new look at Pentateuchal HW'', *Biblica* 63:351–69.

Renfrew, C. (1972) *The Emergence of Civilization: The Cyclades and the Aegean in the Third Millennium BC.* London: Methuen.

—— (1973) 'Problems in the general correlation of archaeological and linguistic strata in prehistoric Greece: the model of autochthonous origin', in Crossland and Birchall, pp. 265–79.

Renouf, P. I. P. (1880) *Lectures on the Origin and Growth of Religion.* London.

Ridgeway, W. (1901) *The Early Age of Greece*, 2 vols. Cambridge University Press.

Robertson Smith, W. (1894) *The Religion of the Semites: The Fundamental Institutions.* Cambridge.

Röllig, V. W. and Mansfeld, G. (1970) 'Zwei Ostraka vom Tell Kāmid el Loz und ein neuer Aspekt für die Entstehung des kanaanäischen Alphabets', *Die Welt des Orients* 5. 2: 265–70.

Rosen, E. (1970) 'Was Copernicus a Hermeticist?', *Minnesota Studies in the Philosophy of Science* 5: 164–9.

—— (1983) 'Was Copernicus a Neoplatonist?', *Journal of the History of Ideas* 44.3: 667–9.

Rosen, G. (1929) *Juden und Phönizier.* Tübingen: Mohr.

Rosenthal, F. (1970) Review of *Recherches sur les plus anciens emprunts sémitiques en grec*, by E. Masson, in *Journal of the American Oriental Society* 90: 338–9.

Rothblatt, S. *The Revolution of the Dons: Cambridge and Society in Victorian England.* Cambridge University Press.

Rougé, E. de (1869) 'Conférence sur la religion des anciens Égyptiens', *Annales de philosophie chrétienne*, 5th ser. 328–30.

Russell, B. (1961) *History of Western Philosophy: and its Connections with Political and Social Circumstances from the Earliest Times to the Present Day*, new edn. London: Allen & Unwin.

Russell, F. W. E. (1895) *The Letters of Matthew Arnold*, 2 vols. New York.

Rytkönen, S. (1968) *B. G. Niebuhr als Politiker und Historiker.* Helsinki: Annales Academiae Scientiarum Fennicae, ser. B. vol. 156.

Sabry, M. (1930) *L'Empire Égyptien sous Mohamed-Ali et La Question d'Orient (1811–1849).* Paris: Geuthner.

Saggs, H. W. F. (1962) *The Greatness that was Babylon.* New York: Hawthorn Books.

Said, E. (1978) *Orientalism.* New York and London: Vintage.

St Clair, W. (1972) *That Greece Might Still be Free: The Philhellenes in the Greek War of Independence.* London: Oxford University Press.

—— (1983) *Lord Elgin and the Marbles*, 2nd rev. edn. Oxford University Press.

Saldit-Trappmann, R. (1970) *Tempel der ägyptischen Götter in Griechenland und an der Westküste Kleinasiens.* Leiden: Brill.

Sandars, N. K. (1978) *The Sea Peoples: Warriors of the Ancient Mediterranean 1250–1150 BC.* London: Thames & Hudson.

Sandmel, S. (1979) *Philo of Alexandria: An Introduction.* New York/Oxford: Oxford University Press.

Sandys, J. E. (1908) *A History of Classical Scholarship*, 3 vols. Cambridge University Press.

Santangelo, G. S. (1984) *Madame Dacier, una filologa nella 'Crisi' (1672–1720)*. Rome: Bulzoni.

Santillana, G. de (1963) 'On forgotten sources in the history of science', in A. C. Crombie, ed. *Scientific Change: Historical Studies in the Intellectual, Social and Technical Conditions for Scientific Discovery and Technical Invention, from Antiquity to the Present* London, pp. 813–28.

Santillana, G. de and von Dechend, H. (1969) *Hamlet's Mill: an Essay in Myth and the Frame of Time.* Boston: Gambit.

Sasson, J. M. (1966) 'Canaanite maritime involvement in the second millennium BC', *Journal of the American Oriental Society* 86: 126–38.

Sauneron, S. *et al.* (1970–) *Collection des voyageurs occidentaux en Égypte.* Cairo: Institut Français d'archéologie orientale.

Schiller, F. von (1967) *Über die ästhetische Erziehung des Menschen: in einer Reihe von Briefen (On the Aesthetic Education of Man: In a Series of Letters)*, E. M. Wilkinson and L. A. Willoughby, trans. Oxford.

Schlegel, F. von (1808) *Über die Sprache und Weisheit der Indier.* Heidelberg. trans. as 'On the language and philosophy of the Indians' by E. J. Millington (1949) in *Aesthetic and Miscellaneous Works of Friedrich von Schlegel.* London.

—— (1939) *Cours d'histoire universelle (1805–1806)*. J. J. Anstett, ed. Paris: Patissier.

Schleicher, A. (1865) *Über die Bedeutung der Sprache für die Naturgeschichte des Menschen.* Weimar: H. Böhlen.

Schlesier, G. (1838–40) *Schriften von Friedrich von Gentz*, 5 vols. Mannheim.

Scholem, G. G. (1960) *Jewish Gnosticism, Merkehbah Mysticism and the Talmudic Tradition.* New York: Jewish Theological Seminary of America.

—— (1965) *On the Kabbalah and its Symbolism*, R. Mannheim, trans. New York: Schocken.

—— (1970) *Kabbalah.* New York: Quadrangle.

—— (1974) *Major Trends in Jewish Mysticism.* New York: Schocken.

Schwab, R. (1950) *La Renaissance Orientale.* Paris: Bibliothèque Historique.

—— (1984) G. Patterson-Black and V. Reinking, trans. New York: Columbia University Press.

Schwaller de Lubicz, R. A. (1958) *Le Temple de l'homme: Apet du sud à Louqsor.* Paris: Caractères.

—— (1961) *Le Roi de la théocratie pharaonique.* Paris: 'Homo Sapiens'.

—— (1968) *Le Miracle égyptien.* Paris: Flammarion.

Scollon, R. and S. B. K. (1980) *Linguistic Convergence: An Ethnography of Speaking: At Fort Chipewyan, Alberta.* New York, San Francisco and London: New York Academic Press.

Scott, W. (1924–36) *Hermetica*, 4 vols. Oxford: Clarendon.

Seidel, S. (1962) *Der Briefwechsel zwischen Friedrich Schiller und Wilhelm von Humboldt*, 2 vols. Berlin: Aufban Verlag.

Selem, P. (1980) *Les Religions orientales dans la Pannonie Romaine: Partie en Yougoslavie.* Leiden: Brill.

Seltman, C. (1933) *Greek Coins: A History of Metallic Currency and Coinage Down to the Fall of the Hellenistic Kingdoms.* London: Methuen.

Seznec, J. (1953) *The Survival of the Pagan Gods: The Mythological Tradition and its Place in Renaissance Humanism and Art*, B. E. Sessions, trans. New York: Pantheon.

Shaffer, E. S. (1975) *Kublai Khan and the Fall of Jerusalem: The Mythological School of Biblical Criticism and Secular Literature 1770–1880.* Cambridge University Press.

Shelley, P. B. (1821) *Hellas.* London.

Sheppard, J. T. (1911) 'The first scene of the Suppliants of Aeschylus', *Classical Quarterly* 5: 220–9.

Siegert, H. (1941–2) 'Zur Geschichte der Begriffe "Arische" und "arich"', *Wörter und Sachen* 4: 73–99.

Simonsuuri, K. (1979) *Homer's Original Genius: Eighteenth Century Notions of the Early Greek Epic (1688–1798).* Cambridge University Press.

Smelik, K. A. D. and Hemelrijk, E. A. (1984) '"Who knows not what monsters demented Egypt worships?" Opinions on Egyptian animal worship in Antiquity as part of the ancient conception of Egypt', in H. Temporini and W. Haase, eds *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt: Geschichte und Kultur Roms im Spiegel der neueren Forschung.* 17.4, *Religion: (Heidentum: römische Götterkulte, orientalische Kulte in der römischen Welt [Forts.])*, ed. W. Haase, pp. 1852–2000.

Smith, W. (1848) *A Classical Dictionary of Greek and Roman Biography, Mythology and Geography.* London.

—— (1854) *A History of Greece: From the Earliest Times to the Roman Conquest.* New York.

Smyth, C. P. (1864) *Our Inheritance in the Great Pyramid.* London.

—— (1867) *Life and Work at the Great Pyramid.* Edinburgh.

—— (1874) *The Great Pyramid & the Royal Society.* London.

Snodgrass, A. (1971) *The Dark Age of Greece: An Archaeological Survey of the Eleventh to the Eighth centuries BC.* Edinburgh University Press.

Snowden, F. M. S. (1970) *Blacks in Antiquity: Ethiopians in the Greco-Roman Experience.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Sourvinou-Inwood, C. (1973) 'The problem of the Dorians in tradition and archaeology', paper presented to *the Third International Colloquium on Aegean Prehistory*, Sheffield.

Speer, A. (1970) *Inside the Third Reich*, R. and C. Winston, trans. London: Weidenfeld & Nicolson.

iegel, S. (1967) *The Last Trial: On the Legends and Lore of the Command to Abraham to Offer Isaac as a Sacrifice: The Akedah*, J. Goldin, trans. New York: Pantheon.

pyropoulos, T. (1972) 'Αἰγυπτιακὸς Ἐποικισμὸς ἐν Βοιωτίαι', *Ἀρχαιολογικὰ Ἀνάλεκτα ἐξ Ἀθηνῶν* 5: 16–27.

— (1973) 'Εἰσαγωγὴ εἰς τὴν Μελέτην τοῦ Κωπαϊκοῦ Χώρου', *Ἀρχαιολογικὰ Ἀνάλεκτα ἐξ Ἀθηνῶν* 6: 201–14.

Starkie, E. (1971) *Flaubert the Master: A Critical and Biographical Study (1856–1880)*. New York: Atheneum.

Stecchini, (1957) 'The Delphian column of the dancers', *American Journal of Archaeology* 61: 187, note.

—— (1961) 'A history of measures', *American Behavioral Scientist* 4.7: 18–21.

—— (1978) 'Notes on the relation of ancient measures to the Great Pyramid', in Tompkins, *The Secrets of the Great Pyramid*, pp. 287–382.

Steel-Maret (1893) 'La Franc-Maçonnerie: ses origines, ses mystères et son but', in *Archives Secrètes de la Franc-Maçonnerie*. Lyon.

Steinberg, R. (1981) *Modern Shadows on Ancient Greece: Aegean-Levantine Connections in the Late Bronze Age*. Cornell University, MA thesis.

Stella, L. A. (1951–2) 'Chi furono i Populi del Mare', *Rivista di antropologia* 39: 3–17.

Stern, B. H. (1940) *The Rise of Romantic Hellenism in English Literature, 1732–1786*. Menasha, Wisconsin: G. Banta.

Stern, F. R. (1961) *The Politics of Cultural Despair; a Study in the rise of the Germanic ideology*. Berkeley: University of California Press.

Stern, M. (1974) *Greek and Latin Authors on Jews and Judaism*, vol. I, *From Herodotus to Plutarch*. Jerusalem: Israel Academy of Humanities and Sciences.

Stewart, J. G. (1959) *Jane Ellen Harrison: A Portrait from Letters*. London: Merlin.

Stieglitz, R. R. (1981) 'The letters of Kadmos: mythology, archaeology and eteocretan', αντιτυπο απο τον α' (2) τομο των πεπραγμενων τον δ' διέθνονσ κρητολογικοῦ συνεδριδυ ('Ηράκλειο, 29, Αὐγούστου-3 Σεπτεμβρίου 197( ) Athens, vol. 2, pp. 606–16.

Stobart, J. C. (1911) *The Glory that was Greece*. Philadelphia: Lippincott.

Strabo (1929) *The Geography*, H. L. Jones, trans. 8 vols. Cambridge, Mass.: Loeb.

Strange, J. (1973) 'Biblical material on the origin of the Philistines', paper presented to the *Third International Colloquium on Aegean Prehistory*, Sheffield.

Strauss, B. S. (forthcoming) *Politics and Society in Athens After the Peloponnesian War, 403–386 BC*. Ithaca: Cornell University Press.

Stricker, B. H. (1949) 'The Corpus Hermeticum', *Mnemosyne*, Series 4, vol. 2: 79–80.

Stuart-Jones, H. (1968) Preface, *Greek–English Lexicon: Liddell and Scott*. Oxford. pp. i–xii.

Stubbings, F. H. (1973) 'The rise of Mycenaean civilization', *The Cambridge Ancient History*, 3rd edn, vol. 2, pt 1, *The Middle East and the Aegean 1800–1380 BC*, pp. 627–58.

—— (1975) 'The expansion of Mycenaean civilization', *The Cambridge Ancient History*,

3rd edn, vol. 2, pt II, *The Middle East and the Aegean Region c.1380–1000 B* pp. 165–87.

Sturtevant, E. H. (1942) *Indo-Hittite Laryngeals*. Baltimore: Linguistic Society « America.

Sweet, P. R. (1978–80) *Wilhelm von Humboldt: A Biography*, 2 vols. Columbus: Ohi State University Press.

Swerdlow, N. M. and Neugebauer, O. (1984) *Mathematical Astronomy in Copernicus's D Revolutionibus*, 2 pts. New York/Berlin: Springer.

Sydow, A. von (1906–16) *Wilhelm und Caroline in ihren Briefe*, 7 vols. Berlin: Mittler und Sohn.

Symeonoglou, S. (1985) *The Topography of Thebes: From the Bronze Age to Modern Times*. Princeton University Press.

Szemerényi, O. (1964) 'Structuralism and substratum: Indo-Europeans and Aryans in the Ancient Near East', *Lingua* 13: 1–29.

—(1966) 'Iranica II', *Die Sprache* 12: 190–226.

—(1974) 'The origins of the Greek lexicon: *Ex Oriente Lux*', *Journal of Hellenic Studies* 94: 144–57.

Sznycer, M. (1979) 'L'inscription phénicienne de Tekké près de Cnossos', *Kadmos* 18: 89–93.

Tatian, see Dods and Smith.

Taylor, A. E. (1929) *Plato: The Man and His Work*, 3rd edn. London: Methuen.

Taylor, T. (1821) *Iamblichus on the Mysteries of the Egyptians, Chaldaeans and Assyrians*. Walworth.

Taylour, W. (1964) *The Mycaeneans*. London: Thames & Hudson.

Tcherikover, V. (1959) *Hellenistic Civilization and the Jews*, S. Applebaum, trans. Philadelphia.

— (1976) *Hellenistic Palestine in the Hellenistic Age: Political History of Jewish Palestine from 332 BCE to 67 BCE*, ed. A. Schalit, vol. 6 in *The World History of the Jewish People*. London: W. H. Allen.

Teich, M. and Young, R. (1973) *Changing Perspectives in the History of Science: Essays in Honour of Joseph Needham*. London: Heinemann.

Terrasson, J. (1715) *Dissertation critique sur l'Iliad d'Homère, où à l'occasion de ce poème, on cherche les règles d'une poétique fondée sur la raison et sur les exemples des anciens et des modernes*, 2 vols. Paris.

— (1731) *Sèthos, histoire ou vie tirée des monuments de l'ancienne Égypte*. Paris.

Teters, B. (1962) 'The Genro In and the National Essence Movement', *Pacific Historical Review* 31: 359–71.

Thapar, R. (1975) *The Past and Prejudice*. New Delhi: National Book Trust.

— (1977) 'Ideology and the interpretation of early Indian history', in *Society and Change: Essays in Honour of Sachin Chaudhuri*. New Delhi, pp. 1–19.

Thirlwall, C. (1835–44) *A History of Greece*, 8 vols. London.

Thirlwall, J. C. Jr (1936) *Connop Thirlwall, Historian and Theologian*. London: Society for the Promotion of Christian Knowledge.

Thissen, H.-J. (1980) 'Manetho', in Helck and Otto, *Lexikon*, vol. III, cols 1179–81.

Thomson, G. (1941) *Aeschylus and Athens – A Study in the Social Origin of Drama*. London: Lawrence & Wishart.

—— (1949) *Studies in Ancient Greek Society 1: The Prehistoric Aegean*. London: Lawrence & Wishart.

Thomson, K. (1977) *The Masonic Thread in Mozart*. London: Lawrence & Wishart.

Thucydides, (1954) *The Peloponnesian War*, R. Warner, trans. London: Penguin.

—— (1980) *Histories*, C. F. Smith, trans. (Loeb). London: Heinemann/Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Tieck, L. (1930) *Ludwig Tieck und die Brüder Schlegel, Briefe mit Einleitung und Anmerkungen*, H. Lüdete, ed., Frankfurt a. M.: Baer.

Tiedemann, P. (1780) *Griechenlands erste Philosophen oder Leben und System des Orpheus, Pherekydes, Thales und Pythagoras*. Leipzig.

—— (1793) *Geist der spekulativen Philosophie*. Marburg.

Timpanaro, S. (1977) Introduction to Schlegel, *Über die Sprache und Weisheit der Indier*. Amsterdam.

Tocqueville, A. de (1837) *De la Démocratie en Amérique*, 3 vols. Brussels.

—— (1877) *L'ancien régime et la révolution*, 8th edn. Paris; trans. S. Gilbert (1955) as *The Old Regime and the French Revolution*. New York.

Tompkins, P. (1978) *The Secrets of the Great Pyramid*. London: Penguin.

Trevelyan, H. (1981) *Goethe and the Greeks*, 2nd edn. Cambridge University Press.

Trevor-Roper, H. (1969) *The Romantic Movement and the Study of History* (John Coffin Memorial Lecture). London: Athlone.

—— (1983) 'The Highland tradition of Scotland', in Hobsbawm and Ranger, *The Invention of Tradition*. Cambridge University Press, pp. 15–41.

Tsountas, C. and Manatt, J. (1897) *The Mycenaean Age*. Boston.

Turgot, A. (1808–15) *Oeuvres de M. Turgot Ministre d'État, Précédées et accompagnées de Mémoires et de Notes sur sa Vie, son Administration et ses Ouvrages*, 9 vols. Paris.

Turner, F. M. (1981) *The Greek Heritage in Victorian Britain*. New Haven: Yale University Press.

Turner, R. S. (1983a) 'Historicism, *Kritik*, and the Prussian professoriate', in Bollack and Wismann, pp. 450–78.

—— (1983b) 'Discussion', in Bollack and Wismann, p. 486.

—— (1985) 'Classical philology in Germany: toward a history of the discipline', Paper presented to *The Fabrication of Ancient Greece 1780–1880*, Conference held at Cornell 22–23 April 1985.

Tur-Sinai, S. (1950) 'The origin of the alphabet', *The Jewish Quarterly Review* 61: 83–110, 159–80, 277–302.

Ullman, B. L. (1934) 'How old is the Greek alphabet?', *American Journal of Archeology* 38: 359–81.
Usener, H. (1907) 'Philologie und Geschichtswissenschaft', in *Vorträge und Aufsätze*, 2 vols. Leipzig, vol. 2, p. 11.
Van Berchem, D. (1967) 'Sanctuaires d'Hercule-Melqart: contribution à l'étude de l'expansion Phénicienne en Méditerranée', *Syria*: 73–109, 307–38.
Van Ness Myers, P. (1895) *A History of Greece for Colleges and High Schools*. Boston.
Van Sertima, I. (1976) *They Came Before Columbus*. New York: Random House.
—— (1984) 'Nile Valley presence in America BC', *Journal of African Civilizations* 6.2: 221–46.
Vaux de Foletier, F. de (1970) *Mille ans d'histoire des Tsiganes*. Paris: Fayard.
Vercoutter, J. (1956) *L'Égypte et le monde égéen préhellénique*. Paris: Maisonneuve.
—— (1975) 'Apis', in Helck and Otto, vol. 1, cols 338–50.
Vermeule, E. (1960) 'The fall of the Mycenaean Empire', *Archaeology* 13.1: 66–75.
—— (1964) *Greece in the Bronze Age*. Chicago University Press.
—— (1975) *The Art of the Shaft Graves of Mycenae*. Cincinnati: University of Cincinnati.
—— (1979) *Aspects of Death in Early Greek Art and Poetry*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.
Vesey-Fitz-Gerald, B. (1973) *Gypsies of Britain: an Introduction to their History*, 2nd edn. Newton Abbot: David and Charles.
Vian, F. (1963) *Les origines de Thèbes: Cadmos et les Spartes*. Paris: Études et Commentaires No. 48.
Vico, G. B. (1721) *De Constantia Jurisprudenta*. Naples.
—— (1725) *La Scienza Nuova*. Naples.
—— (1730) *La Scienza Nuova Seconda*. Naples.
Virgil (1935) *Works*, H. R. Fairclough, trans., 2 vols (Loeb). London: Heinemann/ Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
Volney, C. F. C. (1787) *Voyages en Syrie et en Égypte*. Paris.
Voltaire, F. M. (1886) (1768) *Siècle de Louis XIV*. Paris.
Von der Mühll, P. (1952) *Kritisches Hypomnema zur Ilias*. Basel: Rheinhardt.
Voss, von M. H. (1980) 'Horuskinder', in Helck and Otto, vol. III, cols 52–3.
Wace, A. J. B. (1924) 'Greece and Mycenae', *Cambridge Ancient History*, 1st edn, vol. 2, *The Egyptian and Hittite Empires to c. 1000 BC*, pp. 431–72.
Waddell, L. A. (1927) *The Aryan Origin of the Alphabet*. London: Luzac.
Walcot, P. (1966) *Hesiod and the Near East*. Cardiff: University of Wales Press.
Wallace, W. P. (1966) 'The early coinages of Athens and Euboia', *Numismatic Chronicle*, 7th series. 6: 23–44.
Walton, C. and Anton, J. P. (1974) *Philosophy and the Civilizing Arts*.
Warburton, W. (1738–41) *The Divine Legation of Moses, demonstrated, on the principles of a religious deist from the omission of the doctrine of a future state of reward and punishment in the Jewish dispensation*. London.

Yavetz, Z. (1976) 'Why Rome? Zeitgeist and Ancient historians in early 19th century Germany', *American Journal of Philology* 97: 276–96.

Yoyotte, J. (1982) 'Le Panthéon égyptien de J.-F. Champollion', *Bulletin de la Société Française d'Égyptologie: séance solennelle consacrée à la commémoration du cent-cinquantenaire de la mort de J.-F. Champollion* 95: 76–108.

Zafiropulo, J. and Monod, C. (1976) *Sensorium Dei dans l'hermétisme et la science*. Paris: 'Les Belles Lettres'.

Zervos, C. (1920) *Un Philosophe néoplatonicien du XIe s.: Michel Psellos, sa vie, son œuvre, ses luttes philosophiques, son influence*. Paris: Leroux.

Zucker, F. (1950) 'Athen und Aegypten bis auf den Beginn der hellenstischer Zeit', *Antike und Orient*: 140–65. Leipzig.

المشاركون فى ترجمة هذا الكتاب

د. أحمد عتمـــــان

- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية ومدير مركز الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة بكلية الآداب – جامعة القاهرة.
- رئيس الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية.
- عضو مراسل لجماعة برناسوس باليونان.

من أهم كتبه في الدراسات الأدبية:

- الأدب الإغريقي تراثاً إنسانيا وعالميا. الطبعة الثانية – دار المعارف ١٩٨٧.
- الأدب اللاتيني ودوره الحضارى (حتى نهاية العصر الذهبى) – الطبعة الثانية. دار المعارف ١٩٩٥.
- الأدب اللاتيني ودوره الحضارى. العصر الفضى– أجيبتوس – القاهرة ١٩٩٠.
- كليوباترا وأنطونيوس. دراسة في فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقي. الطبعة الثانية. أجيبتوس، القاهرة ١٩٩٠.
- المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم: دراسة مقارنة. الطبعة الثانية الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ١٩٩٣.
- قناع البريختية والتسيوعية. دراسة فى المسرح الملحمى، التنوير الذهنى البريختى والتطهير الأرسطى، بريخت بين الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى. أجيبتوس، القاهرة ١٩٩٢
- طريقنا إلى الحرية: محاورة زكى نجيب محمود– أحمد عتمان. عين للدراسات والبحوث. القاهرة ١٩٩٤.
- تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم. القاهرة ١٩٩٧.
- له دراسات متنوعة فى الآداب الكلاسيكية والأدب المقارن باللغة اليونانية والانجليزية والايطالية والفرنسية منشورة فى مؤتمرات دولية ودوريات علمية. له عدة مترجمات من اليونانية القديمة واللاتينية ومترجمات أخرى من العربية إلى اليونانية الحديثة والايطالية.

د. لطفى عبد الوهاب يحيى

- تخرج فى قسم التاريخ فى جامعة الاسكندرية فى ١٩٤٥ وحصل على دكتوراه الفلسفة فى التاريخ القديم من جامعة لندن فى ١٩٥٣ وعمل فى جامعة الاسكندرية وعدد من الجامعات العربية ويعمل حاليا أستاذا متفرغاً لتاريخ الحضارة اليونانية الرومانية فى جامعة الاسكندرية.
- يهتم فى كتاباته بعدد من الجوانب التى تدخل ضمن هذا التخصص في حدّ ذاته مثل الفكر السياسي والمسرح. وقد كان اهتمامه بهذا المجال الأخير نقطة انطلاق فى تأسيسه، فى كلية الآداب – جامعة الاسكندرية، أول قسم للمسرح فى الجامعات المصرية فى ١٩٨١. كما اهتم بالحضارة اليونانية الرومانية فى دائرة علاقاتها بمنطقة الشرق الأدنى مثل حضارة الاسكندرية القديمة وحضارة مصر وسورية وشبه جزيرة العرب، وذلك من حيث التأثيرات المتبادلة بين الجانبين.
- كان مقررا لأكثر من مرة للجنة العلمية لترقية أساتذة التاريخ واللجنة العلمية لترقية أساتذة الدراسات الكلاسيكيه فى الجامعات المصرية، ولايزال عضوا بلجنة الدراسات الكلاسيكية حتى الآن.

* صدر له حتى الآن نحو عشرة كتب في مجال تخصصه من بينها: "اليونان" مقدمة في التاريخ الحضارى" و "دراسات فى العصر الهيللينستى" و "هوميروس: تاريخ حياة عصر" و "من حضارة اليونان والرومان" و "مقدمة لحضارة الاسكندرية: دراسة في حضارة البحر المتوسط" و "العرب في العصور القديمة: مدخل حضارى لتاريخ العرب قبل الاسلام". هذا إلى جانب دراسات جانبية أخرى مثل "الكيان العربى بين المقومات والامكانات" و "ملامح المجتمع القومى: دراسة فى العالم العوبى". كما نشر له عديد من الأبحاث بالعربية والانجليزية في الدوريات أو المؤتمرات المصرية والعربية والأوروبية، عن حضارة الاسكندرية والحضارة اليونانية والحضارة العربية والحضارة السورية في العصر اليونانى والعصر الرومانى والعصر البيزنطى.
* عضو في عدد من الجمعيات العلمية، من بينها: جمعية الآثار بالاسكندرية، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية الرومانية بالقاهرة، المجلس الدولى للدراسات الهومرية" في أتينا.

د. فاروق حافظ القاضي

تخرج فى قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس (١٩٥٨) حيث تخصص فى التاريخ القديم (شعبة التاريخ اليونانى - الرومانى) وحصل على درجة الماجستير فى هذا التخصص من جامعته (١٩٦٥) ثم على الدكتوراه من جامعة أثينا باليونان (١٩٧٣). تدرج فى وظائف هيئة التدريس بكليته وهو الآن أستاذ متفرغ بها. تركزت بحوثه بوجه خاص على تاريخ مصر فى العصر الرومانى وشارك بها فى بعض المؤتمرات العلمية. من كتبه: "روما وسقوط الممالك الهلنستية" و "دراسات فى تاريخ مصر فى العصر الرومانى" و "منهج لفهم تاريخ الإغريق وحضارتهم" و "أوضاع الإغريق فى مصر فى العصر الرومانى (فى ضوء الوثائق البردية)"، ومن مترجماته "الاسكندر الأكبر" لجون جنتر، و "ملحمة جلجامش" (بالاشتراك)، وهو عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية والجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، وعضو مراسل بالجمعية الأثرية بأثينا باليونان.

د. منيرة عبد المنعم كروان

* أستاذ مساعد بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية - بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
* حصلت على الدكتوراه عام ١٩٨٨ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.

من أعمالها المنشورة:

* العالم الآخر فى المسرح الإغريقى. القاهرة ١٩٩٣. (دار المعارف).
* التجربة الإغريقية (ترجمة) الكويت ١٩٩٤ (ذات السلاسل).
* "Marriage and Husband. - Wife relalionship in Greek Drama". Classical Papers II, 1992. Cairo.
* "اسيرات الحرب فى التراجيديا الإغريقية بين القهر النفسي والقتل المعنوى". مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة. العدد ٦١، ١٩٩٤.
* "إشكالية الحكم والحاكم فى أنتيجونى" سوفوكليس. مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة العدد ٦٥، ١٩٩٤.

- "حول تعليم الأبناء.. قراءة فى أوراق بلوتارخوس". أوراق كلاسيكية العدد الثالث، ١٩٩٤.
- "اللغة والأسطورة" (ترجمة). ١٩٩٧. (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والنشر).

د. حسين أحمد الشيخ

- دكتوراه فى الآداب من جامعة الاسكندرية فى ١٩٨٢.
- مدرس التاريخ القديم بقسم الآثار بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية (١٩٨٢-١٩٨٥).
- أستاذ زائر للتاريخ القديم بجامعة بيروت العربية - لبنان (١٩٨٦).
- أستاذ زائر للتاريخ القديم بالرئاسة العامة لتعليم البنات بالرياض بالمملكة العربية السعودية (١٩٨٧).
- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة بيروت العربية - لبنان (١٩٩١-١٩٩٤).
- حاليا أستاذ التاريخ القديم المساعد بقسم الآثار - جامعة الاسكندرية.

من مؤلفاته:

- سلسلة دراسات فى تاريخ الحضارات القديمة:

الجزء الأول: اليونان. دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية ١٩٩٣.

الجزء الثانى: الرومان. دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية ١٩٩٣.

الجزء الثالث: العصر الهيللينستى. دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية ١٩٩٤.

الجزء الرابع: العرب قبل الإسلام. دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية ١٩٩٤.

- نساء غيرن وجه التاريخ. دار العلوم العربية. بيروت ١٩٩٦.
- الديانات السرية والعبادات الغامضة فى التاريخ. دار العلوم العربية. بيروت ١٩٩٦.
- فرانسيس فوكوياما. نهاية التاريخ (ترجمة). دار العلوم العربية. بيروت ١٩٩٣.

د. عبد الوهاب محمود علوب

- دكتوراه جامعة ميتشيجان ١٩٨٨ فى الدراسات الايرانية.
- قام بالتدريس فى جامعة ميتشيجان لمدة عامين ١٩٨٨-١٩٩٠.

من مؤلفاته:

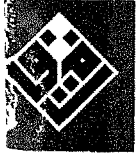
- القصة القصيرة والحكاية فى الأدب الفارسى ١٩٩٣.
- معجم الآثار والأديان ١٩٩٦.
- معجم الواعد للألفاظ والتعبيرات والتراكيب الفارسية ١٩٩٦.
- الأدب الفارسى الحديث والمعاصر ١٩٩٧.

من مترجماته:

- الجزيرة العربية والاسلام (عن الفارسية) ١٩٩٣.
- القوى العظمى (عن الانجليزية) ١٩٩٣.
- الموجة الثالثة (عن الانجليزية) ١٩٩٣.
- السياسة الدولية (عن الانجليزية) ١٩٩٤.
- الحداثة وما بعد الحداثة (عن الانجليزية) ١٩٩٥
- ديانة الساميين (عن الانجليزية) ١٩٩٦

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
رقم الإيداع ١٣٢٤٤/٩٧
الترقيم الدولى (I . S . B . N - 977 - 235 - 935 - 9)





Black Athena

The Afroasiatic Roots of Classical Civilization

VOLUME 1 The Fabrication of Ancient Greece 1785-1985

MARTIN BERNAL

أثينة إلهـة العقل والحكمة عنـد الإغريق إفريقية سـوداء ، ولها أصـول سامية أيضـاً . هذا كل ما يريد أن يقـوله المؤلف مارتن برنال . ويقـع مشروعـه فى أربعة أجزاء ، وبين أيدينا ترجمة الجـزء الأول . إنه حقاً مشروع ضخم ، لأن المؤلف يتصـدى لمهمة إعـادة تأريخ الحضارات القـديمة ، ومن ثم إعادة تشكيل العقلية الحديثة . فالمركـزية الأوروبية جعلت من أوروبا منبعاً لكل إبداع فكرى وفنى . ومع أن الحكمة الإغريقيـة تقول "لاشىء يُخلق من العدم فإن الفكرة الشائعـة لدى الغرب عن المعجـزة الإغريقيـة تعنى أن الإغريق هم صـانعو كل شىء من لا شىء ، أى لم يسبقهم أحد إلى مـا توصلوا هم إليه . هم مبدعو الفنون والآداب والعلوم ، وتفـوقوا عـلى أسلافـهم من أصحـاب الحضـارات الأقدم فى كل تلك المجالات . أنكر بعض الأوروبيين إسهـامَ الحضارة المصرية القديمة فى تشـكيل الحضارة الإغـريقية والرومـانية . هكذا يأتى كـتاب "أثينة السوداء" بمثابة دعوة لإنصاف الحضارة المصـرية والحضارات الشرقية الأخـ ومع أنها دعوة ليست نزيهة تمامـاً ، ومع أننا لا نقبل كل أطروحات أن الموضوعـية تلزمنا بأن نعـترف له بالنجـاح فى إحداث هزّة عنيـفة ببعض المسلّمات وخلقت واقعًا جديدًا فى الدراسات الكلاسيكية خا مجـال الدراسات اللغويـة والأثرية والتاريخيـة على وجه العـموم . ندخل هذه الساحة دون أى تردد .



تصميم الغلاف : عماد حليم

المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومي للترجمة

أثينة السوداء

الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية

الجزء الثاني - المجلد الأول

تأليف: مارتن برنال

675

ترجمة: نخبة من أساتذة الجامعات المتخصصين

تحرير ومراجعة: محمود إبراهيم السعدني

المشروع القومى للترجمة

أثينا الســوداء

الجذور الأفرو - آسيوية للحضارة الكلاسيكية

[الجزء الثانى - المجلد الأول]

تــألــيـــــــف : مارتن برنال

ترجـــمــــــة : نخبة من أساتذة الجامعات المتخصصين

تحرير ومراجعة : محمود إبراهيم السعدنى



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٧٥
- أثينا السوداء [الجزء الثانى - المجلد الأول]
- مارتن برنال
- نخبة من أساتذة الجامعات المصرية المتخصصين
- محمود إبراهيم السعدنى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب

BLACK ATHENA

Volume II

By:

M. BERNAL

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

تصدير المحرر

بقلم : محمود إبراهيم السعدنى

بداية ، لنا هنا ، وعلينا كلمة شكر واجبة لوزارة الثقافة ، ممثلة فى المجلس الأعلى للثقافة الحالى ، بنشاطه المكثف ، والمختار بعناية ، وإنجازاته فى مجال الترجمة "المشروع القومى للترجمة " بصفة خاصة ، وإكماله الفائدة العلمية بعمل ندوات وحوارات ، بين الحين والحين ، لتتحرك العقول وتتسع الأذهان للرأى والرأى الآخر ، وتتخلص من وساوس النظرية الأحادية الجانب ، ومن ثم تزداد حركة التنوير انتشاراً وتعم المنفعة الثقافية ، وتتجدد الروح العلمية المصرية ، فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى مجاراة مستجدات الحياة العصرية التى تقفز قفزًا كل يوم إلى آفاق بعيدة ، حيث لن يلحق بها إلا أصحاب الهمم العالية والرؤى المستقبلية ، الحريصة على المشاركة الإيجابية بالقول وبالفعل ، وليس بالصمت العاجز وبالفرجة الكسيحة !!!

وواجب الشكر أيضًا " لأخبار الأدب " لتبنيها أقلام المتخصصين فى الرد على أخطر كتاب ثقافى موسوعى ، يزلزل النظريات القديمة ، من منطلق إبراز الإيجابيات والسلبيات بموضوعية علمية ، وسماحة مصرية (كما عهدناها دائمًا طيلة تاريخنا وعبر حضارتنا وأدياننا) كَدرس منا نعلمه ، الآن ، لجهابذة الغرب العنصريين الحاقدين على حضارتنا الرائدة وتراثنا الأسبق ، وفضلنا على العالمين .

ولما كنت واحداً من المتخصصين الذين تابعوا على صفحات هذه الجرائد الحرة آراء الزملاء الأساتذة الدكاترة/عبد المنعم عبد الحليم ، من جامعة الإسكندرية ،

ومصطفى النشار ، من جامعة القاهرة فى عدة مقالات متتالية ، وردودهم العلمية وتوضيحاتهم المنهجية على تلك الهجمة " اليهودية الأهداف والمقاصد "على الحضارة المصرية خدمة لمصالح مشبوهة ، وتزييفًا للتاريخ والحقائق الدامغة رأيت ضرورة المشاركة بالرأى وتوضيح بعض جوانب الموضوعات المثارة فى ميدان التاريخ والحضارة بوجه عام. يجب أن نعترف صراحة أنه لا حضارة تنشأ من العدم ، ذلك لأن مفهوم الحضارة ، سواء قديمًا أو حديثًا ، يعنى كل إنجازات الإنسان فى كل المجالات الحياتية العلمية ، أو الثقافية الذهنية النظرية ، أى فى كل مناحى الحياة ، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا.

ومن ثم تتشعب المصادر والينابيع المغذية لكل الروافد الحضارية ، دونما حكر على شكل أو احتكار لتطور ما ، فى مكان ما ، طالما أن الخطوط متصلة ومظاهر الأخذ والعطاء قائمة .

ولقد كانت منطقة الشرق القديم ذات طبيعة خاصة فى مسيرة حضارتها عبر العصور، صعودًا وهبوطًا ، وقوة وضعفًا ، وذلك خلافًا لما عرفته أوروبا القديمة ، ممثلة فى حضارتى اليونان والرومان ؛ إذ يلاحظ على منطقتنا القديمة ما يلى (ونقصد بها حضارات مصر القديمة والعراق القديم وسوريا القديمة ، فضلاً عن العمق الاستراتيجى السكانى للهجرات القديمة من الجزيرة العربية القديمة صوب الشمال الشرقى ، تارة (حيث العراق) ، أو الشمال الغربى ، تارة أخرى (حيث سوريا القديمة) فى الألف الثالثة والثانية والأولى قبل الميلاد، وهى الفترة الزمنية قيد الدراسة والبحث):

أولاً : الامتداد الجغرافى الطبيعى دون وجود فواصل أو موانع قاهرة لحركة السكان أو القوافل أو الجيوش فى كل المنطقة .

ثانيًا : التأثير الحضارى المتبادل بين حضارات المنطقة كلها ، فى كل مجالات الحياة : دينيا واقتصاديا وفنيا .

ثالثًا : الأطماع السياسية المباشرة ، لكل القوى الناهضة فى المنطقة على حساب الممالك الضعيفة المتهالكة فيها .

ومن ثم ، كان تبادل الأدوار الحضارية ، فى المنطقة ، مواكبًا لتبادل الزعامات السياسية فيها ، ولهذا ندرك :-

(أ) سبق الحضارة المصرية وتأثيرها الكاسح طيلة النصف الأول من الألف الثالثة ق.م تقريبًا (طيلة الدولة القديمة) على كل المنطقة شرقًا أو غربًا .

(ب) صعود نجم بعض ممالك العراق (كالدولة الأكادية) وكذلك بعض الممالك السورية (كمملكة إبلا) فى نهايات النصف الثانى من الألف الثالثة ق.م ، حينما كانت مصر تمر بمرحلة الانتقال الأولى فى تاريخها وضعفت إدارتها المركزية عدة قرون.

(جـ) استعادة مصر لدورها الطليعى الرائد فى المنطقة مع الدولة الوسطى (مطلع الألف الثانية ق.م) وفرض وجودها السياسى والعسكرى على كل امتدادها الطبيعى ، فى الشمال حتى سوريا ، والجنوب حتى النوبة ، والغرب حتى الحدود الليبية.

(د) ولكنه ، فى غياب الدور المصرى الفعال ، فى القرنين ١٨ ، ١٧ ق.م ، بسبب احتلالها من قوة " الملوك الرعاة " (الهكسوس) ،الآسيويين ، ظهرت القوة العراقية البابلية لتقود المنطقة حضاريا ، وكان حمورابى وإنجازاته من أبرز ما سجل التاريخ القديم فى صفحاته الحضارية الشاملة : أدبًا ، وعلمًا ، وفنًا .

ولنا هنا وقفة قصيرة ، حيث لا نسمع بالمرة ، حتى ذاك التاريخ عن وجود عبرانى (يهودى) من أى نوع ، سواء سياسى أو اجتماعى ، فى أى من المجتمعات القديمة فى المنطقة ذاتها!!

(هـ) تتبدل الأدوار ، تارة أخرى ، ولكنها أكثر حسمًا لصالح الحضارة المصرية والزعامة الفرعونية على أرض النيل ؛ حيث يتم تحرير البلاد من الهكسوس ، وتتكون الإمبراطورية المصرية ، كأعظم ما تكون

خارجيًا ، منذ مطلع القرن ١٦ ق . م ، على أيدى ملوك أشداء نذروا أنفسهم للكفاح فى سبيل الوطن وتحرير ترابه الغالى من دنس الغزاة ، أمثال / أحمس الأول وسكننرع وتحوتموس الأول وأحفادهم وخاصة ملك الملوك و " أب الناس أجمعين " ، "نابليون الشرق " كما سماه علامة المصريات جيمس هنرى برستيد (J.H.Breasted) الفرعون الشاب / تحوتموس الثالث ، فى مطلع القرن الخامس عشر ق.م وحتى منتصفه.

وللمرة الثانية نكرر – وحتى ذلك التاريخ ، أى حوالى عام ١٤٥٠ ق. م – لا نسمع يقينا عن أى كيان عبرى (يهودى) فى المنطقة بأسرها ؛ حيث لا إشارة وثائقية من قريب أو بعيد لوجود مثل هذا العنصر السكانى للمنطقة ، تمييزًا لهم عن بقية العناصر البدوية الآسيوية التى كانت تدخل مصر . وعرفتها النصوص المصرية باسم " عابيرو " منذ مطلع الألف الثانية ق.م.

وإذا كان كتاب برنال ، الذى بين أيدينا ، هو فى رأى البعض ، مثل الأسطورة ، حيث يقول : (when is a myth not a myth ? Bernal's Edith Hall Ancient Model" Arethousa, 25 (1992) وهو الكتاب الذى يمثل تحديًا للمثقفين لأنه ملىء بالأفكار الأيديولوجية والجدل السياسى ، والفنون الكثيرة ، فإن العبرة هنا فى تأييده أو نقده – تكون كما تعتقد هى نفسها : " بالقدرة التنافسية على الإقناع وليس الدليل بالإدانة أو التبرئة " (عن ترجمة للدكتور / أحمد عتمان ، فى تقديمه لترجمة الجزء الأول لهذا الكتاب ، ص ١٧ ، الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٧) ، فإن لعلمائنا الأجلاء ملاحظات عليه نوجزها كالتالى (قبل أن نضيف نحن كذلك وجهة نظرنا فى هذا الكتاب " الماكر " ، الذى يدس السم فى العسل ، ويعلن فى الواجهة شىء ، ويخفى وراءها أشياء أخرى مناقضة تمامًا أو على الأقل ، تخدم أغراضًا أخرى) فى نقاط محددة :

١ – يرى الأستاذ الدكتور / حسن حنفى أن هذا الكتاب به تفصيلات متناهية فى الصغر وجزئيات تطغى على المادة العلمية ، وتصل درجة الإسهاب فيه إلى حد أن يتوه

القارئ أو أن يتهم مؤلفه بالتعالم أو الرغبة فى إخفاء شيء وراء هذا الكم الضخم من المعلومات التاريخية عن الحضارات القديمة .

٢ - ويرى الأستاذ الدكتور/ أحمد عتمان ، مقدم الترجمة العربية للجزء الأول ، بأن هذا الكتاب (بالرغم من إيجابياته "كمانيفستو " ضد المركزية الأوروبية - على حد قوله (ص٢١)- فإنه:

(أ) " قد صيغ بأسلوب فيه الكثير من الدهاء والمراوغة ... "

(ب)" ..... وتجد عباراته عائمة غائمة لا يمكن الإمساك بها أو الاستناد إليها فى توجيه الانتقاد إلى صاحبها. "

(جـ) " .... وفى الظاهر يدافع المؤلف عن "المصرية " فى مواجهة ما يسميه " النموذج الآرى المتطرف " ، ولكنه فى الظاهر والباطن معًا يُعلى من شأن " السامية " فى مواجهة الطرفين السابقين، وبذلك وضع المؤلف نفسه بين طرفين ، فى الواقع ، لا ثلاثة ، وهو يسمو بالسامية على "النموذج الآرى المتطرف" و " المصرية " ، وهو بذلك يضع نفسه ، إلى حد ما ، فى صف أولئك الذين يرون فى " السامية " أساس الحضارة الإنسانية .... " (ص٢٢).

١ - ويعتقد الأستاذ الكبير / شوقى جلال (كما جاء فى دراسته " المختصر المفيد " بعنوان (الحضارة المصرية : صراع الأسطورة والتاريخ ، سلسلة اقرأ ٦١٤ (١٩٩٦) وهو الذى أفرد فيه فصلاً خارجيًا لتوضيح " مؤامرة اليهود ضد مصر " (ص ص ١٠٤ - ١١١) استقراء لموقف اليهود واستماتتهم لتحقيق أغراضهم اليهودية فى المستقبل متخذين العلم والمعرفة سلاح المعركة القادمة فى صراع المنطقة) فيقول (ص٨٠) .

" إن المعلومة سلاح ماض فى يد من يتناولها صدقًا ومهارة ، لا تزييفًا وتلاعبًا. أما الخوف فإنه يورث العزلة والجمود ، وهو بداية الطريق إلى العجز والتهلكة ".

وهكذا عرف اليهود طريقهم ، كما فهمه أستاذنا الجليل ، بعد أن أدركوا عيبهم في الزمن الماضي بسبب عزلتهم وتقوقعهم وعدم تجاوبهم مع المجتمعات التي عاشوا فيها ، ولهذا بدأوا يبادرون في وضع الخطط للوصول إلى أهدافهم في الهيمنة والسيطرة على جيرانهم . ومن هنا ندرك حجم وأهمية بل وخطورة تصريح شيمون بيريز ، رئيس وزراء إسرائيل السابق بقوله :

" المعركة القادمة لن تكون على الحدود أو الأرض ، بل ستكون معركة الهوية اليهودية ، والانتماء الثقافي " .

هكذا تتضح النوايا ، وإن كنا غافلين ، بعد ، عن الوسائل والأدوات والسياسات اليهودية التي اتخذوها سرًا لتحقيق تلك الغايات المستقبلية لوجودهم في منطقتنا ذات الرصيد الحضاري المتراكم عبر آلاف السنين .. فكيف السبيل ، إذن لاختراق هذا الحاجز الرهيب لسكان المنطقة ؟ كان هذا هو لسان حال الإسرائيليين اليوم للإجابة عن أيديولوجية علمائه ومفكريه ولبناء وخلق، حتى ولو بالتزييف ، أرضية لأجيالهم الجديدة ، إن لم تساير تراث حضارات المنطقة الأقدم والأعظم ؛ فعلى الأقل تشارك فيه وتسهم في وجوده وحركته الحديثة .

ومن هنا ، كما أتخيل ، كان قرارهم السري بالهجوم المنظم والمكثف على رموز حضارة سكان المنطقة وعلى رأسها إثارة الشكوك وخلق الأزمات الفكرية ، على هيئة إمكانية إعادة النظر ، بدعوى القراءات الجديدة في الوثائق القديمة لتراث المنطقة ؟!!! وهكذا فكر اليهود لنا .. فهل مازلنا في غفلة عما يدبرون لنا ؟!! أعتقد لا .. وما نكتب الآن ليس إلا بشائر يقظة علمية لعلمائنا الأجلاء .

ولسوف نُخيب ظنهم وينقلب المكر السيئ على أهله مصداقًا لقول الحق سبحانه وتعالى: " ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين " .

إن حركة الالتفاف وقلب الحقائق وتأويل العلم ، وخلط لأوراق الماضي البعيد ، لهي من أبرز سِمات علماء اليهود ، قديمًا وحديثًا .

لقد ظهر جليا لكل من اطلع على الكتاب المترجم أو قرأ موجزه الوافى عند الأستاذ/شوقى جلال ، أننا أمام عدة قضايا تاريخية وأثرية قديمة كانت هى للمؤلف ، مداخل اختراق لفبركة مقصودة وخلق أرضية واقعية لكيان عبرى قديم قِدم الإنجاز الحضارى لأهل المنطقة الأصليين . وهذه القضايا القديمة ، المفاتيح ، نراها نحن كالتالى :

أولاً : قضية أصل العنصر السكانى الأول فى المنطقة ، وبخاصة فى سوريا القديمة ، وهى المعروفة باسم قضية السامية.

ثانيًا : هجرة السكان الأوائل المؤسسين للحضارة الكريتية ، اليونانية ، فى الألف الثالثة ، ونزوح العنصر الهيللادى داخل اليونان نفسها وحجم التأثيرات المصرية عليهما .

ثالثًا : قضية الغزو الدورى لليونان ، وأصل هؤلاء السكان ، فى أواخر القرن ١٢ ق.م ومقدمات الحضارة الكلاسيكية وحجم تأثير الشرق بعامة ، والحضارة المصرية بخاصة على ذلك .

ولسوف نناقش ، سويًا ، كل قضية على حدة ، موضحين حقيقة مضمونها ، وجوانب الشطط فى تأويلها وتوظيفها خدمة للغرض اليهودى الماكر ، مستعينين بآخر الدراسات وأحدث الاكتشافات الأثرية الخاصة بكل جزئية .

أولاً : قضية السامية:

وهنا تكمن قمة التحايل اليهودى الصهيونى ، ومحاولة الالتفاف على تاريخ وحضارة المنطقة بحثًا عن موضع قدم لعنصرهم ، منذ المراحل المبكرة لنشأة الكيانات المتحضرة الأولى على أرض الشرق القديم ، علَّهم يقدرون أن يثبتوا وجودهم منذ تلك القرون البعيدة من تاريخ أمتنا ، وأملاً فى تحقيق أى قدر من المشاركة فى صنع تلك الأمجاد العابرة .

وهكذا فقد بدأ يهود العالم الحديث ، مع نهايات القرن ١٩ الميلادى ، يدركون خطورة عدم تحديد هويتهم وإبراز دورهم القديم وضرورة تحسين صورتهم للأجيال القادمة لكسب التأييد أمام القرارات المصيرية المستقبلية ؛ فها هو شلوستر اليهودى النمساوى يخترع نظرية "السامية" ، ويروج لها .

ولكن كلمة الحق تأتى أيضًا ، من أوروبا ، من عالم أكثر موضوعية وامانة ، هو روبرتسن سميث (W.R. Smith) فى كتابه " ديانة الساميين " فى عام ١٩٨٤م ؛ حيث أكد الدور العربى (السامى) ، وليس فقط لليهودى كما يحلو لاصحاب النظرية العبرية (فى مواجهة النظريات الأخرى ، مثل النظرية البابلية أو الكنعانية، أو حتى الآرية (اليونانية القديمة) ، وهو كتاب مهم ، تمت ترجمته مؤخرًا إلى العربية ، ضمن المشروع القومى للترجمة، عام ١٩٩٧ ، من الدكتور/ عبد الوهاب علوب ، وراجعه وقدم له الأستاذ الدكتور/محمد خليفة حسن .

وهنا يقرر المؤلف حقيقة تغيب عن أذهان الكثيرين ، ويلفت نظرهم إلى أن معظم المفسرين لهذا الاشتقاق التوارتى لأصل السامية - كما ورد فى الاجتماع العاشر - يميلون إلى الاعتقاد بأن هذا التصنيف يقوم على أسس جغرافية وسياسية ، وليس على أُسس عرقية (راجع الكتاب السابق ، ص ٥) ويضيف قائلاً : " وهو تصنيف أقرب إلى الحقيقة التاريخية" المرجع نفسه .

ومع ذلك الفهم السليم ، أو الأكثر موضوعية وعلمًا بتطورات الأحداث السياسية فى الشرق القديم ، والأكثر معرفة بجغرافيته ؛ فإن هناك من يقصر لقب " الساميين " على اليهود، فقط دون غيرهم ، وهو ما فعله برنال فى كتابه ، حتى أصبح المصطلح عنده وكأنه خاص بهؤلاء وحدهم ، فى وقت لم يكونوا هم شيئًا يُذكر ، ولم تشر النصوص المصرية والحيثية (المسمارية) إليهم إلا كخدم داخل بيوت كبار أمراء المنطقة أو كعمال فى المناجم المصرية فى سيناء .

ثانياً :

إننا ، وفى سبيل توضيح تطور الروح العدائية ضد اليهود من المجتمع الدولى القديم ، والاتهامات التى كانت موجهة ضدهم آنذاك ، وبخاصة مع العصر البطلمى ، فى مصر ، وتحديداً مع الملك بطلميوس الثانى (فيلادلفوس : ٢٨٥ - ٢٤٦ ق. م) سنرجع بالضرورة إلى أحد أشهر علماء العصر الهيللينستى ، وهو تارن (Tarn) - أوروبى مثلهم ، وهو منهم وعليهم - فماذا جاء فى شهادته ، حيث أفرد لعلاقة اليهود بالعصر وثقافته وعلمائه اليونان فصلاً كاملاً فى كتابه الأشهر "الحضارة الهيللينستية" (أى ما بعد فتح الاسكندر للشرق وحتى انتحار كليوباترا : ٣٣٣ - ٣٠ ق.م) ، وهو الفصل السادس (VI) ، ص ص ٢١٠ - ٢٣٨ . وهو يهدف من تلك الدراسة المستفيضة كما يقول بالحرف الواحد (كان أول نشر للكتاب عام ١٩٢٧ ، وتم تنقيحه وأُعيد نشره عام ١٩٥٢ ثم ١٩٦١ وأخيراً عام ١٩٧٤) إلى ما يلى :

" إن الهدف من هذا الفصل هو أن نُكوِّن صورة عن تأثير الهيللينية على اليهود ، وعن بداية ومصير تلك الحركة الفكرية (ويقصد الروح اليونانية الجديدة مع الاسكندر) التى أوصلت العالم اليونانى بجنس (عنصر) كان من القوة بمكان حتى أنه قاوم وقع تلك الثقافة المنتصرة "

هكذا نشعر بروح ذكية عالمة ، متمرسة على قلب الحقائق والأدوار ؛ حيث يجعلون من عزلة اليهود وعدم استجابتهم لروح العصر الجديد ، قوة وبأسًا ، وموقفًا تجب الإشادة به وتوضيحه ... إنه الدور الأوروبى الذى تعهد باليهود وأوجد لهم طريقًا ومكانًا فى حضارات العالم القديم ، على أرض شرقنا القديم.

ومع ذلك ، لم يجد تارن بُدًا من أن يعرض للحقائق التاريخية الثابتة ، فى العصر الهيللينستى ، وقال قوله الحق العلمى بموضوعية وجرأة يُحسد عليهما - كما فعل روجيه جارودى مؤخراً - حينما وصف حكاية الترجمة اليونانية المعروفة باسم "السبعينية : Septuagint" للعهد القديم اليهودى لأول مرة إلى لغة ذاك العصر ، وهى اليونانية ؛ فقال :

"The Jewish tradition .... is Legend;... "

بمعنى " إن التراث اليهودى – حول تفاصيل تلك الحدوتة – هو أسطورة " .

وإن كان يعكس الاعتقاد اليهودى بأن الجيل الثانى منهم ، أى إبان العصر البطلمى ، فى عهد بطلميوس الثانى السابق الذكر ، وخاصة يهود الإسكندرية ، كان قد نسى تراثه وماضى أجداده ولغتهم ، وتبنى اللغة اليونانية لسانًا لهم . كما أرادوا ، بتلك الحدوتة ، أن يؤكدوا على صداقة الملك البطلمى لهم (تارن ، ص٢٢٣).

وهكذا ، أيضًا ، ونحن أمام أقدم تسجيل للتوراة ، منذ عام ٢٨٠ ق.م ، فقط ، لا نملك إلا أن نردد شهادة تارن حولها ، وحول ظروف ترجمتها ، بأنها " مجرد اسطورة " ... فما بالنا ببقية التراث اليهودى اللاحق على ذلك وكله بمثابة ردود أفعال ودعاية يهودية ، من الكتاب اليهود فيما بعد ذلك ، على أحداث ومواقف تاريخية ، وبخاصة بعد دخول الرومان المنطقة ، وتحديداً بعد تحديهم هم ، أى اليهود ، لأهم عنصر فى سياساتهم وسيادتهم على المنطقة وهو تأليه الأباطرة الرومان ، فى القرن الأول الميلادى ، ووجوب تقديم القرابين ليهم.

وإنك عزيزى القارئ ، لتعجب عندما تعرف أن بداية مشوار العداء القديم والكراهية قد ألصقها الكاهن اليهودى يوسيفوس (Josephus) – من القرن الأول الميلادى – للكاهن المصرى المؤرخ ، أيضًا ، وهو مانيتون (Manetho) ، من القرن الثالث ق.م فكيف تستقيم عناصر القضية هذه ، وهو اتهام خطير كهذا ، حيث يُنصِّب يوسيفوس (وهو المدافع الشرس، المتذاكى عن اليهود وتراثهم حتى ضد الرومان) ، من نفسه شاكيًا وقاضيًا ضد الكاهن المصرى الذى يسبق زمان ووجود يوسيفوس نفسه بما لا يقل عن قرنين ونصف من الزمان!!.

وذلك فى الوقت الذى لم نجد شيئًا فى نصوص مانيتون ، التى تم العثور عليها من تواريخه لفراعنة مصر القدامى ، يدينه من قريب أو بعيد بمثل هذا الاتهام الخطير ... وكأنه قدر مصر العظيمة أن تتلقى الجحود والنكران ، دائمًا ، من أقرب المقربين وأكثر المستفيدين من خيرها وتسامحها مع مرضى النفوس والحاقدين !!!

ولكن أكثر الكتاب عداوة لليهود ، فى تلك الفترة ، وقبل عام ١٠٠ ق. م ، كان أحد خُطباء اليونان ، من جزيرة رودوس ، وهو ابوللونيوس (Apollonius) ، وكذلك بوسيدونيوس (Poseidonius) ، حول فضيحة عثور انطيوخوس الرابع ، ملك سوريا المقدونى ، عند زيارته لقدس الأقداس فى أورشليم على تمثال لرجل (موسى؟) راكبًا حمارًا! إذن ، الحق ، أن المادة التاريخية الثابتة تؤكد تهكم اليونان من اليهود ورموزهم الدينية، وكان عليهم هم الآن أن يردوا ويدافعوا عن أنفسهم ، وبدأت حرب الكلمات واستعرت على يد يوسيفوس ، فى القرن الأول الميلادى ، الذى كتب تواريخه على مرحلتين وتحقيقا لهدفين اثنين هما:

أولاً : الدفاع عن التراث اليهودى الأقدم منه ، وإعادة عرضه ، وتنقيته ، مما قد يعيبه (من وجهة نظره هو ككاهن يهودى فى القرن الأول الميلادى يكتب تاريخًا لقرون عدة تسبقه ؟!!!)، وبالتالى ضرورة تجميله.

ثانيًا: البحث عن أرضية تاريخية ، أقدم كلما أمكن ، لوجود اليهود فى المنطقة ومشاركتهم فى صنع أحداثها .. حتى إنه ، مثلاً ، يرد قرار الملك الفارسى دارا بعودة السبى البابلى إلى أورشليم إلى إرادة إلهية ، بوحى من إله اليهود نفسه (يهوا) !!! وهو ما تنبأ به أشعيا قبل حدوثه بحوالى ٢٠٠ عام !!! وكأنه لا فضل إطلاقًا لأى أجنبى عليهم!!! ، حتى ولو كان سيدهم ومليكهم ، آنذاك ، والمتحكم فى رقابهم جميعًا !!![١]

هكذا بدأ دفاع اليهود عن أنفسهم ، وكله زيف ، بالقاء التهم على الآخرين ، بأساليب ماكرة خبيثة واتخذت منهجًا محددًا لإعادة كتابة التاريخ القديم ، وللأجيال ، حتى لا تنسى ، واستندت على :-

(أ) فقدان الأصول الأقدم لمصادر التاريخ الماضى ، ومن ثم إمكانية الادعاء بأى شىء وبأى شكل.

(١) (راجع بحثنا ، عن " يوسيفوس والقدس : دراسة تحليلية لكتابه الحادى عشر من الآثار اليهودية " فى ندوة (مصادر تاريخ القدس) ، المنعقدة فى كلية آداب القاهرة ، فى الفترة من ٢١ - ٢٣ مارس ١٩٩٨).

(ب) اختلاق كلام مباشر وخطب ورسائل ، باسم الملوك والحكام القدماء ، لمزيد من الايحاء بأعلى درجة من المصداقية .

(جـ) التأكيد على المبادئ الدينية اليهودية فى التوحيد وتمسكهم بتقاليدهم وطقوسهم وأعرافهم .. خلافًا لما تأكد من دراسات تفصيلية عميقة على أهم عنصر فى تراثهم وهو تغير كل شيء فى دينهم ، وفق مصالحهم السياسية ... أى ضرورة تسييس الدين !!.

وهنا أجد نفسى أمام أفضل دراسة ، بقلم عربى ، هى بالحق كاشفة وفاضحة لكل الفكر التوراتى وقصصه وأهدافه ، لصاحبها الباحث فراس السواح الذى يقول :-

" آرام دمشق واسرائيل : فى التاريخ والتاريخ التوراتى" ، الصادرة عن منشورات دار علاء الدين ، دمشق (د.ت) ، الذى يقول :-

" وتكبر الخرافة وتتسع ، وتستكمل حلقاتها خلال قرنين أو ثلاثة من عودة عزرا بسفر الشريعة من البلاط الفارسى ، ويتم ربط تاريخ اليهود بتاريخ ما قبل اليهودية ، أى تاريخ اسرائيل ويهوذا . وتتابع قصة الأصول توغلها فى الماضى المجهول مما سبقهما . ثم كان لابد من ايقاف هذه العملية عند حد معين ، فعمد كهنة اورشليم أخيرًا إلى جمع هذه الأدبيات وإعادة صياغتها بشكل أخيرًا ، وفق إطار ايديولوجى وكرونولوجى يضم التقاليد المتفرقة فى كل موحد. وبذلك انجز كتاب التوارة ، وظهرت اسرائيل التوارتية ككيان ذهنى وأدبى على انقاض تاريخ السامرة ويهوذا المطمور تحت ركام الدمار الآشورى والبابلى"[1] ثم يضيف قائلاً ، أيضًا ، وموضحًا طريقة الالتفاف اليهودية والتزييف المستمر حتى لتاريخهم الدينى" أما عن ذلك المنظور الايديولوجى الذى حاول كهنوت اورشليم فرضه على روايتهم ، فقد بقى غريبًا عن جو القصص التوراتى ، التى استقل كل منها برؤيته الدينية الخاصة ، فإله الآباء لا يشبه إله الخروج وإله اشعيا ، وهذا لا يشبه إله القضاة ، وإله اشعيا غريب كل الغرابة عن كل ما سبقه

(١) فراس السواح ، آرام ، دمشق واسرائيل : فى التاريخ والتاريخ التورانى ، دمشق (دون تاريخ) ، ص ٢٨٥ .

من تصورات وسفر ايوب والجامعة لا يمكن قراءتهما بعيني إرميا ، ونشيد الانشاد لا يمكن وضعه في أي سياق ديني توراتي . وهذا يعني أننا لسنا أمام ايديولوجية دينية متسقة ، تعلن عن نفسها بالطريقة نفسها عبر اسفار الكتاب بل أمام ايديولوجية توفيقية لا تملك الحد الأدنى من الوحدة والانتظام " (١) .

وهكذا كانت البداية خرافة ، في دينهم وتاريخهم ، ولا تزال الخرافة تعمل عملها حتى اليوم ، على أيدى الأجيال الحديثة والمعاصرة ليهود اليوم ، بإصرار غريب ، واستماتة مفضوحة أمام مثقفى العالم .. فهل من متابع الآن يمكن أن يصبر كثيراً على خرافاتهم الأحدث؟

ثالثًا : ومن القضايا الجوهرية التي وجد فيها برنال ضالته لكي يزج بالعنصر السامي ، الذى جعله عامداً متعمداً مرادفًا لكلمة عبراني / يهودى فقط ؟!!! ، قضية تأثير الحضارة المصرية على الحضارة اليونانية في الألف الثانية ق.م ، وذلك بالاعتماد على موضوعين رئيسيين اثارهما بمكر شديد وخبث السياسى المحنك ، وهما: -

الموضوع الأول : ويتمثل فى هجرة عناصر مصرية (أفريقية سوداء !!) من مصر إلى كريت ، مكونة الحضارة المينوية على أرض تلك الجزيرة ، بوابة اليونان الجنوبية ، فى وسط حوض البحر المتوسط الشرقى بأواخر الألف الرابعة ق.م (!!!)

والموضوع الثانى: ويعتمد على المادة الاسطورية القائلة بهجرة العناصر الفينيقية ، أولاد دناؤوس ، إلى أرض كادموس ، فى مدينة طيبة (Thebai) اليونانية شمال غرب أثينا، فى مطلع الألف الثانية ق.م.

إن ما توصل إليه برنال من نتائج ، جعلته فى النهاية يعتقد فى سواد اثينا ، كنتاج افريقى بسبب هجرة بعض أهلها أو تأثيرهم الحضارى عليها ، لهو ظلم كبير للحضارة اليونانية الكلاسيكية ، حتى ولو كان ذلك عن طريق إعلاء درجة التأثير المصرى على تلك الحضارة المتميزة شكلاً وموضوعًا ، وذلك لان المقدمات التى ساقها ،

(١) المرجع نفسه.

ظنا منه بسلامتها وتأكيد تأثيرها ، لا يمكن أن تقود وتسفر عن مثل تلك النتائج الخطيرة ، وفى ذلك خرق فظيع لأبسط قواعد المنهج البحثى فى التاريخ والآثار ، حيث تتواجد محاذير تاريخية وفجوات شاسعة ، فضلاً عن اختلافات حيوية فى المسألة الديموجرافية واصل السكان لكل مرحلة حضارية !!!

ولكى نكون أكثر اقناعًا ومنهجية ونوضح ما نقول ، وما نراه نحن كمتخصصين ، بأن برنال ، الرجل السياسى الداهية ، الباحث فى التاريخ والآثار ، قد تجاوزه وتجاهله أو ربما ، وهو الأوقع لغزارة مادته البحثية ، قد أغمض الطرف عنه ، وتعمد نسيانه ، يجب أن نضع فى اعتبارنا عاملين أو ثلاثة :-

(أ) الفارق الزمنى الرهيب ، الذى يصل إلى حوالى ١٥٠٠ عام ، بين ما يجعل منه مقدمات لقضاياه ، وبين ما يريد أن يثبت التأثير الشرقى عليه ، وهو العصر الكلاسيكى (القرنين الخامس والرابع ق.م) ، مما يجعل النتائج مشكوك فيها لبعد الشقة الزمنية بين المؤثر وموضع التأثير ، الذى لا يشمل المكان فحسب ، بل تضمن أيضًا السكان ، وهو عامل متغير ديناميكى التكوين فى كل حين، ولا يثبت على حال ، حتى ولو ثبت على الأرض ذاتها والموضع نفسه.

(ب) اليقين الأثرى التام حول تغير طبيعة السكان وأولوياتهم الجديدة [١] وبخاصة على أرض بلاد اليونان الأم (Mainland of Greece) عقب الغزو الدورى لها ، فى مطلع القرن الثانى عشر ق.م تقريبًا (أو حتى منتصفه ، حوالى ١١٥٠ ق.م) ومن ثم زوال أى تأثير شرقى ، لو كان صحيحًا أنه قد حدث ، على يونانى الألف الثانية ق.م ، فى كادموس وطيبه أو غيرها (!!)

(١) محمود السعدنى ، تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠م ، الباب الثالث ، الفصل الأول : "نهاية وبداية : الغزو الدورى" ، ص ١٢٧ - ١٣٨ .

وإذا اضفنا العامل الثالث ، وهو فى تقديرنا (بمنتهى الأمانة العلمية والموضوعية البحثية ، وبفضل سماحة الشرقيين بعامة ، وصدق المسلمين بخاصة) العامل الفيصل ، وكلمة الحق فى تلك القضية الحضارية ، فى أدواتها والسياسية فى غاياتها وأهدافها ، والمتمثل فى الدليل الاثرى الشرقى المكتشف على الأرض اليونانية ، فى الألف الأولى ق.م ، وتحديداً فى النصف الأول لهذه الألفية ، أى الذى يؤرخ بحوالى من ١٠٠٠ - ٥٠٠ ق م ، كمقدمات محتملة من الشرق للتأثير على اليونان ، لوجدنا أن برنال قد بالغ فى ظلم الحضارة اليونانية الكلاسيكية .

وخلاصة القول ، بعد استعراضنا لبعض افكارنا حول المحاذير المنهجية ، والمبالغات فى التقدير ولوى الحقائق التاريخية والاثرية ، وتحميلها أكثر مما تحتمل من تأويل وتخريجات، فإننا نرى ضرورة أن نفصل الحديث حول كل جزئية مما اشرنا إليه آنفًا ، حتى تتبين ، عزيزى القارئ ، مقدار مصداقية ما طرحناه ، ومنطقية ردنا على برنال ، **الذى يجب أن نصرخ فى وجهه ، بأعلى صوتنا وقوة إيماننا بأنفسنا وتراثنا العريق ، قائلين له :**

- **لقد أخطأت الطريق لهدفك المشبوه : فإن تأثير الحضارة المصرية على اليونان ، فى كل مراحل تاريخها ، معروف لدى المتخصصين ، ومن ثم لم تأت إلينا بجديد .**

- **وظلمت العصر الكلاسيكى اليونانى بمبالغات للتأثير الشرقى عليه ، الذى احتكرت ماهيته فى العنصر السامى (اليهودى) !!!! وكذلك يجب أن نهمس فى أذان الاوروبيين ، بإخلاص : -**

إحذروا اليهود ، إنهم قادمون إليكم ، ومن بين ايديكم ، ليفسدوا عليكم وحدتكم ، وليشككوا فى تراثكم وليشعروكم بَدين آخر ، أقدم ، هو الدين الحضارى ، غير الدين النازى.. انهم يمهدوا لابتزازكم من جديد !!!

والآن نستسمح قارئنا العزيز فى أن نعرض عليه بعض التفاصيل الخاصة بالموضوعين السابقين ، المؤرخين بالألف الثانية ق.م ، حتى يتبين لنا زيف ومبالغة النتائج التى أقحمها برنال ، دون مقدمات كافية وحقائق ثابتة أثريًا وتاريخيًا .

أولاً : نظرية هجرة عناصر مصرية (أفريقية) ، فى أواخر الألف الرابعة ق.م، إلى كريت(١):

لقد كان السيد آثر ايفانز (S.A.Evans) فى عام ١٩٠٠م ، هو أول من نادى بهذه النظرية وقال بقرابة وصلة دم بين السكان الأوائل فى كريت وبين هجرة ممكنة من الساحل الليبى (الافريقى) ، وتحديداً من مصر عند توحيد شطريها ، الشمالى والجنوبى ، فى نهايات الألف الرابعة ق.م ، ويهمنا أن نؤكد على بعض النتائج الهامة ، الأخرى ، قبل الخوض فى تفاصيل ردنا على تلك النظرية ، المقولة عقلاً ، ولكنها مرفوضة جملة وتفصيلاً فى ضوء أدلة مادية ملموسة وكذلك ما يمكن أن يُسميه علماء اليوم ، معايير جيوبوليتيكية خاصة بالحضارة المصرية الثابتة الملامح فمن أهم نتائج حفائر ايفانز فى كريت ، ما يلى :

(أ) أثبتت الآثار عدم مصداقية الأساطير التراثية فى كل تفاصيلها :

١ – صحيح ، كان هناك ثور ، ولكن ليس كوحش آدمى ، مينوتاوروس (Minotauros) ، بل فقط كحيوان مقدس ، وكرمز ملكى من رموز القوة الجسدية، كما كان فى الشرق القديم.

٢ – وصحيح أنه كان هناك قرابين بشرية (أضاحى) تُقدم لبعض الآلهة ، فى حوالى مطلع القرن ١٧ ق.م ، أوقات الشدة والزلازل وانتشار الأوبئة ، ولكن ليس لتقديمها لثورمينوس!.

٣ – وصحيح أن ملوك كريت القدامى كانوا أقوياء وأشداء ، بدليل روعة وضخامة البنيان على هيئة القصور الفخمة ورفاهة العيش ، ولكن ذلك لم يكن فى كل الأحيان ، بل فى الفترة الأخيرة ، فقط ، من عمرها الحضارى ١٧٠٠ – ١٤٥٠ق.م ، كمملكة مستقلة ، قبل الغزو الميكينى لها .

(١) المرجع نفسه ، ص ص ٨١ – ٨٧ .

(ب) هناك تأثيرات مصرية عديدة ، فى الديانة ورموزها ، والإدارة الملكية ورموزها ، وكذلك فى كثير من المجالات الفنية : العمارة والنحت والرسم . هذا فضلاً عن البدايات الأولى للغة كريت الأقدم (Pictographic) .

(جـ) روح كريت الرقيقة ودقة رسوماتها ولوحاتها ، ونوقها الراقى فى رسم مناظر الطبيعة وتفاصيل الإنسان بحيوية شديدة ، ليس لها مثيل فى نتائج الشرق الحضارى .

* الرد على نظرية ايفانس حول أصل الكريتيين القدماء :

عندما كان ايفانس قد استند فى نظريته القائلة بأصل ليبى لسكان كريت القديمة وأن هناك صلة دم وقربى بين المصريين القدماء وبين الكريتين القدماء على أساس وجود عدة متشابهات ومظاهر حضارية تم الكشف عنها ومعرفتها فى ضوء الدليل الاثرى من حفائرة فى كنوسوس ومنها :

١ - الكتابة التصويرية .

٢ - بناء المقابر القبابية الدائرية .

٣ - وجود تأثيرات فنية عديدة مثل :

(أ) الآنية الحجرية.

(ب) البناء بالحجر.

(جـ) الرسوم الجدارية.

(د) بعض الموضوعات الدينية الجنائزية.

وعندئذ وجد ايفانز نفسه مُضطراً لأن يبرر وجود تلك المظاهر الحضارية المتشابهة فى كريت القديمة مع مثيلاتها فى مصر القديمة وقال بنظريته التى تُرجِّح

هجرة جماعات من المصريين القدماء من الدلتا صوب الشمال ، وذلك عند توحيد القطرين أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد (حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد) خوفًا من بطش الملك مينا فنزحوا مضطرين إلى جزيرة كريت ومن ثم كانوا هم أصل البدايات الأولى للحضارة الكريتية القديمة .

ولكننا مع ذلك وبالرغم من منطقية النظرية واحتمالاتها الواردة إلا أن الموضوعية التاريخية والأمانة البحثية والأدلة العديدة تُعطينا الحق فى رفض النظرية جملة وتفصيلاً ، **وذلك عن طريق منهجنا وتحليلنا وردنا على كل جزئية من جزئيات النظرية ومحاولة ايجاز المبررات لكل عنصر من عناصر المظاهر الحضارية المتشابهة حتى نتيقن فى النهاية من أننا أمام تشابه ظاهرى سطحى هو بفعل تأثير الحضارة المصرية المزدهرة أنذاك على جزيرة كريت وأهلها وليس بالضرورة نتيجة لانتقال مهاجرين مصريين إليها ، وتتمثل عناصر الرفض والرد على هذه النظرية فيما يلى:**

أولاً: حول القول بهجرة سكان مصريين :

لهذه الجزئية جانبان:

أ - الجانب السياسى :

وهو القائل بوصول الملك مينا من الجنوب إلى الشمال وخوف بعض أهالى الشمال من بطشه وهجرتهم إلى كريت فإنه ينتفى هذا الجانب إذا عرفنا أن بعض النظريات الحديثة حول العمليات المؤثرة لتوحيد شطرى مصر الشمالى والجنوبى لم تكن واحدة بل مرت بمراحل عديدة[1] . كما أن الملك مينا هذا بدأ حملته الوحدوية

(١) عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، (الأنجلو المصرية) ، القاهرة ، المقدمة ، حيث يقارن بين حضارة مصر والعراق ، ثم (الجزء الأول ، مصر) يتحدث عن محاولات التوحيد بين شطرى القطرين ، والتى وصلت إلى أكثر من (٦) محاولات . رحم الله أستاذ أساتذة علم المصريات وعميد كلية الآثار المصرية فى جامعة القاهرة .

المقصودة من الشمال إلى الجنوب وليس العكس مما ينتفى معه السبب المباشر لهجرة أهل الشمال .

ب - الجانب الحضارى ويتمثل فى عدة نقاط:

١ - ليس فى طبع المصرى القديم ترك الوطن بفضل قناعته الدائمة بخيرات بلده وبساطة أسلوب معيشته اليومية فضلا عن ارتباطه الوثيق بالأرض وأسرته وأهل قريته. ولم يسجل التاريخ القديم كله فى نصوصه المكتشفة إلا حالة واحدة لأحد موظفى الدولة المصرية الوسطى حوالى (٢٠٠٠) قبل الميلاد وهو سنوهى وكان فى " عُرْف اليوم " كلاجئ سياسى اضطرته الظروف للذهاب إلى سوريا . وبعد أن عرف الفرعون بقصته أرسل فى طلبه يرجوه العودة لوطنه وأنه سيلقى الترحيب والتقدير حيث الأهل والوطن والعادات والتقاليد التى تربى عليها .

٢ - الشىء لزوم الشىء :

إذا صدقت نظرية إيفانز فى هجرة جماعات مصرية إلى كريت فإنه كان من الأوْلى أن نجد آثاراً مصرية أصلية خلفتها تلك الجماعات المهاجرة إبان تواجدها هناك . ولكن شيئًا من هذا القبيل لم يحدث. وإن ما تم العثور عليه ليس مصريًا خالصًا ، إنما هى أشياء تُقلد النماذج والأنماط المصرية ، مما يعنى أن أهل كريت القدماء قد عرفوا طريقة صناعة هذه النماذج وأحضروا معهم عينات لها وقلدوها بأسلوبهم الخاص وذوقهم المعروف.

المادة الأثرية :

١ - حول عمارة المقابر القبابية الدائرية :

ثبت بالدليل الأثرى اليقينى أن أصول عمارة هذه المقابر وجذورها القديمة الأولى نشأت ، ليس فى شمال افريقيا ، بل فى حضارة العراق القديمة وتحديداً فى آثار السومريين القدماء .

٢ - حول الآنية الحجرية:

وهذه الآنية الحجرية المكتشفة فى كريت والتى تُؤرخ بالنصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد (٣٠٠٠ - ٢٥٠٠) قبل الميلاد فإننا نجد معظمها هو تقليد كريتى أصيل بأيدى كريتيين لبعض الأشكال والأنماط المصرية القديمة لهذه الآنية بإبداع ، والحق يُقال ، بإبداع سبق كثيراً وفاق فى أشكاله وجودته الآنية الحجرية المصرية التى كانت هى الأصل فى هذا التقليد وليس غريبًا أن يتفوق التلميذ على أستاذه ، فهذه بعض سُنن الحياة ومعطياتها !!

وكلها جاءت بعد فترة زمنية لا تقل عن (٥٠٠عام) من تاريخ مثل هذه الهجرات المزعومة من ايفانز وكان الأوْلى :

(أ) أن تُؤرخ هذه الآنية المستوردة من مصر بتاريخ الهجرة إلى كريت . ثم كان أوقع ، نظريًا ، أن توجد منها كميات كبيرة بنفس الأشكال والأنماط المصرية القديمة . هذا فضلاً عن أدوات مصرية قديمة أخرى كان لابد أن تتواجد إلى جوار تلك الجماعة المهاجرة إلى كريت إن صحت نظرية ايفانز وهذا لم يحدث.

(ب) البناء بالحجر. وهنا ندرك حقيقة أثرية لا لبس فيها ؛ إذ إن المادة المُكتشفة فى عمارة القصور الملكية تؤكد أن معرفة أهل كريت بهذا الأسلوب من البناء جاءت متأخرة كثيرا بما لا يقل عن ألف عام تقريبًا من معرفة المصريين القدماء لهذا النوع من البناء وهو تقطيع الأحجار وتسوية سطوحها وترتيبها فى صفوف متناسقة دون الحاجة فى أغلب الأحوال إلى مونة فيما بينها ، وكذلك استخدام فروع الأشجار لتقوية الأسقف سواء على هيئة قطع مستطيلة قائمة الزوايا أو على هيئة كُتل متعددة الزوايا أو كانت غالبًا من الحجر الجيرى أو أنواع أخرى أكثر صلابة فى الحالات النادرة ، ولكنه يُلاحظ الفرق الشاسع بين أحجار البناء فى مصر واحجار البناء فى كريت من حيث الحجم والضخامة وتسوية الأسطح بوجه عام.

فبينما مثلا نجد أحجار الهرم الأكبر تتراوح أوزانها ما بين ثلاثة أطنان إلى سبعة فى المتوسط ويصل وزن حوائط حجرة الملك الجرانيتية إلى حوالى سبعين طنًا نجد أن الأحجار الكريتية المكونة لبعض حوائط القصور الملكية سواءً فى كنوسوس أو غيرها لا يزيد وزنه عن عدة مئات من الكيلوغرامات، أى انها أصغر كثيرًا جداً ، ومن ثم فإننا أمام سببين اثنين ينفيان وصول مهاجرين مصريين إلى كريت كانوا هم الذين "حسبما يدعى ايفانز " قد بنوا تلك القصور والمعابد وهذان السببان هما :

الأول : الفارق الزمنى الكبير بين معرفة المصريين القدماء فى مصر بهذا الأسلوب من البناء وتاريخ أقدم بناء صخرى على أرض كريت مما يعنى أنه لو صحت نظرية ايفانز لكان أولئك المصريون المهاجرون بخبراتهم القديمة ومعارفهم المعمارية قد بنوا ، فى كريت ، شيئًا شبيهًا بآثارهم فى بلدهم فى التوقيت نفسه أو بعده بقليل.

الثانى: اختلاف أحجام ونوعيات الحجر المبنى به تلك الآثار هذا فضلاً عن اختلاف المجموعات المعمارية من قصور ومعابد[1] وكذلك المقابر اختلافًا بينًا عن مثيلاتها فى مصر مما يعنى أن أناسًا آخرين هم الذين بنوا هذه الآثار وهم الكريتيون القدماء وليس المصريون المهاجرون كما يقول إيفانز.

وتعليلنا البسيط هنا هو :

أن مهندسين كريتيين كانوا قد رأوا مصر يومًا ما ، فى أواسط الألف الثالثة ق.م، بطريقة ما وتعلموا طريقة البناء بالحجر من المهندسين المصريين ثم عادوا لبلادهم ليبنوا مبانى وفق مزاجهم الخاص وطبقًا لمعطيات بيئتهم المحلية واتساقًا مع تراثهم على أرض هذه الجزيرة .

(١) ويصل الاختلاف إلى مداه ، إذا قارنا ذلك بالقصور الميكينية ، التى ورثت التراث الكريتى ، ومع ذلك اختلفت عنها باختلاف الناس والمكان ، راجع كتابنا السابق ، ص ١٠٤ - ١٢٠ .

أما القضية الثانية ، والأخيرة ، والتى يعتمد عليها برنال اعتماداً كبيراً فى تسويقه لفكرته بتأثير الشرق على الغرب ، فهى أسطورة داناؤوس وأبنائه وهجرتهم إلى طيبة (Thebes) ، اليونانية ، فى وسط إقليم بيوتيا (Boeotia) - شمال إقليم اتيكى - حيث العاصمة المركزية القديمة اثينا أى أننا أمام دليل أسطورى ، لا أكثر ولا أقل ، مهما كانت طبيعة الحُجج المصاحبة ، من لغوية وفلكلورية ، فهل يمكن أن يصمد هذا الدليل الضعيف للغاية وهو عبارة عن مادة أسطورية ، خيالية (Mythological) أمام الآثار المكتشفة فى الموقع ذاته ؟!!! وهل بعد العثور على الدليل الاثرى - الذى لا يكذب ولا يتجمل ، كما أسميه أنا دائماً - من مجال لكلام آخر غير الدليل الوثائقى اليقينى الذى خرج إلى النور من الموقع نفسه ، المشار إليه آنفاً ، والذى بسببه أوقف الأثرى اليونانى ، باباثناسيو ، حفائره فى المنطقة لأن فرضيته لم تؤكدها الاكتشافات ، بالضبط كما لا يزال يظن - غير المتخصصين - وهو مؤلفنا برنال ؟!!

إن وجود أسطورة ما ، فى مكان ما ، بتفاصيل معينة ، لا يعنى بالضرورة صدق كل تلك التفاصيل ، ولكن - على الأرجح - أن تكون بعضها وليس كل هذا ، وفى الغالب يكون الأمر لا يتعدى خبراً أو جزئية صغيرة جداً فى الحدوتة الكبيرة المسلية المروية على ألسنة العامة عبر الأجيال ، مما قد يفسر حدثا ما ، أو علاقة ما ، فى ذاك التاريخ البعيد ، حفظتها الذاكرة الشعبية لأخلاقياتها الحميدة ، العاكسة لسنين الأسلاف السابقين وصلاح أحوالهم ، أو على العكس لتبيان خيرة البعض وفساد طِباع واخلاق البعض الآخر ، مما يُجسد صراع الخير أو الشر الابدى فى الكون المحيط بنا منذ الازل[1].

ولعل ما نعرفه عن أسطورة ايزيس المصرية ، وجلجامش البابلى (العراقى)، وأخيليوس اليونانى ، ما يجعلنا على يقين من أن هذه القصص ، وأشباهها فى العالم القديم، التى نسجت حولها الأساطير ، ما هى إلا وحىٌ خيال الأجيال المتعاقبة ، وذلك بهدف :

(١) فى دراسة ممتازة ، لحالة أسطورية محددة ، فى تراثنا الشرقى القديم ، ألا وهى أسطورة جلجامش ، أنظر محمد خليفة حسن : بين التاريخ والأسطورة ، القاهرة .

(أ) إما لتبرير وجود ظاهرة طبيعية متكررة وثابتة.

(ب) أو لتفسير بعض مظاهر التأثير الأجنبى الغريب على المجتمع.

(جـ) أو محاولة لتعليل وقوع بعض الأحداث والوقائع التى عرفوها وسمعوا بها ، ولكنهم لم يكونوا شهودًا عليها ولم يرونها !!!

ومن ثم تكون الأسطورة القديمة - فى معظم تفاصيلها - تعالج خللاً فى معلومات وذاكرة الأجيال اللاحقة عن أسلافهم فيما ينتسب إلى :

١ - خصائص المكان ،

٢ - وعلاقات الإنسان ،

٣ - وتطور الزمان.

وأسطورة دناؤوس ، فى ضوء الكشف الاثرى فى الموقع فى بحيرة كوبائيس (Kopais) واقليم ثبائيس (Thebais) فى بيوتيا ، لا تخرج عن هذه الحقائق :

(أ) وصول جماعة من الشرق القديم ، ليسوا بمصرين - وعلى الأرجح من سوريا القديمة وكانوا على علم تام وتحت تأثير الحضارة المصرية القديمة - جاءوا إلى هذا الموقع واقاموا فيه رَدْحًا من الزمان - وهم فى الغالب كانوا تجارًا (مع مطلع الألف الثانية ق.م).

(ب) المادة الأثرية المكتشفة لم تسجل كتابات كثيرة ، وهى بالخط المسمارى ، والموقع ذاته ليس فيه سوى بئر تراثية (مصرية الأصل) لدفن الموتى فى مقبرة أرضية

وهكذا ينقشع الغمام والضباب من حول اضافات الأجيال وانبهار البعض ومبالغاتهم حول بعض الأشخاص أو بعض الأحداث القديمة.

وكان أوْلى بمؤلفنا – كما فعلنا نحن بالضبط[*] وهو أن نسجل مظاهر التأثير الاثرية، أولاً ، من واقع عمل الحفائر وحصار البعثات الأثرية والاكتشافات السنوية على الأرض اليونانية ، ثم نحاول ثانيًا : أن نفسر وأن نبرر وجود تلك الأشياء ، على الأرض داخل المنازل والمقابر والمعابد اليونانية ، وليس كما فعل هو ، خلافًا للمنهج العلمى ، وإصراراً على تفاصيل – غير يقينية – لا تعدو كونها مادة أسطورية .....!!!

لقد جاءت – فى ضوء الاكتشافات الأثرية – مظاهر التأثير المصرية على الحضارة اليونانية ، (وهى إبان مراحل الأعداد والبحث عن الذات ، فيما قبل العصر الكلاسيكى أى فيما قبل عام ٤٨٠ ق.م) على مراحل متعددة منها[١] :

١ – وصول آلهة مصرية إلى الجزر اليونانية ، مثل الإله آمون إلى كريت (منذ القرن ٨ ق.م) ، والإلهة نوت إلى ساموس (منذ مطلع القرن ٧ ق.م) وكذلك ايزيس إلى أثينا . وقد أكد هيرودوت نقل اليونانيين لآلهتهم عن الآلهة المصرية ، وذلك فى شهادة مؤكدة من بعد ذلك ، بأكثر من قرنين ونصف من الزمان.

٢ – معرفة اليونانيين تكنيك النحت – من خلال البدايات الأولى لذلك فى تشكيل التماثيل الخشبية لتماثيل الآلهة ، كما ثبت من الإشارة الأدبية لنحاتين يونانيين ، فى ساموس، – داخل معبد الربه هيرا (Heraion) ، تقليداً لطريقة النحت المصرى الاقدم . ثم تلا ذلك تقليد صناعة التماثيل البرونزية ، نقلاً عن عشرات الأصول المصرية الموجودة : فعلاً داخل المعبد ذاته ، منذ النصف الأول للقرن (٧) ق.م.

(*) وهى رسالتنا للدكتوراه من جامعة أثينا الوطنية عام ١٩٨٠ ، بعنوان : العلاقات المصرية – اليونانية : قطع النحت المصرية والمتمصرة المكتشفة فى اليونان فيما بين ٩٤٥ و ٥٢٥ ق.م ، وأثينا ١٩٨٢م (باللغة اليونانية الحديثة) .

(١) وهى بعض نتائج رسالة الدكتوراه (ph.D.) الخاصة بنا ، من أثينا عام ١٩٨٢م، – كما ذكرنا من قبل – ويمكن الإطلاع عليها باختصار شديد فى الملخص الإنجليزى للرسالة (Abstract) ، فى آخرها ، عقب النتائج نفسها باليونانية الحديثة ، أثينا عام ١٩٨٠م .

٣ - تقليد اليونانيين لشكل التمثال المصرى الواقف ، بالمواجهة (en face) المعروف باسم الـ (Kouros) ، فى أحجامه المختلفة ، نقلاً عن المحاولات القبرصية الأقدم (منذ القرن (٧) ق.م) ولكن للحق وإعمالا بمبدأ الموضوعية العلمية والحيدة والأمانة الواجبة كان ذلك لوقت قليل لم يزد عن نصف قرن من الزمان ، حتى أبدع اليونان طرائق أخرى وانطلقوا فى تحريك تماثيلهم وتفوقوا على أساتذتهم المصريين ... وهذا هو جوهر العبقرية اليونانية .

ولنا - بعد كل هذه السياحة فى فكر المؤلف وآخرين مثله - أن نوجز ردًا بليغًا ، فى نقاط معلومة ، تكون بمثابة خاتمة وفصل خطاب لهذا الكتاب ، الذى آثرنا أن ننشره على عددين :

الأول : هذا الذى بين أيدينا ، ويضم (٦) ستة فصول فقط ، **والثانى** ويضم الفصول الستة الأخرى الباقية ، وذلك بسبب حجمه الكبير واستطراداته الكثيرة . هذا لاسيما أننا فضلنا أن نعلِّق ونشرح ونضيف وحتى ننفذ ، فى حينه ، بعض آراء المؤلف برنال .

وهاكم ردنا النهائى حول الكتاب ومؤلفه :

وهكذا تكون تلك الدراسة ، التى بين أيدينا ، لصاحبها برنال ، قد خرجت عن هدفها تمامًا ، ولم تُثبت أن أثينا الكلاسيكية كانت سوداء (أفريقية ؟ !!!) عبر التأثيرات المصرية المتواصلة على مراحل تطور الحضارة اليونانية القديمة ، بل روِّجت - فى المقام الأول - وهو الهدف الأول لمؤلف الكتاب - لدور يهودى / عبرى شارك فى هذا التأثير ، مما يعنى أن أصحاب الفعل والحق الحضارى فى تأثير الشرق على الغرب ، هم أولئك ، تلك الحفنة من البشر ، الذين لم يكن لهم وجود - من أى نوع ، قبل القرن (١٠) ق.م ، وليست لهم آثار تُذكر -من أى نوع ، وفى أى مكان بالمنطقة ، قبل هذا التاريخ .

إن ما قام به برنال - على ضخامته ووجاهته - هو فى نظرنا ، آخر محاولة يهودية مأجورة ، لتزييف تاريخ المنطقة ، كما فعل اسلافه من قبل ، فيلون ويوسيفوس !!!!

ولكن لماذا الإصرار على حشر اليهود فى حضارات المنطقة ؟ !!

إنه التزييف المتعمد للتاريخ لخلق دور حضارى لهم :

(أ) فى غير زمانهم .　　(ب) وفى غير مكانهم.　　(جـ) وعلى أكتاف غيرهم .

وذلك حرصًا على تحقيق الهدف الأسمى ، الإستراتيجى فى الفكر اليهودى المعاصر، بأن المعارك القادمة ، مع الجيران - كما قال شيمون بيريز نفسه - ليست على الحدود أو الأرض ، بل هى حول قضايا الهوية والثقافة .

ومن ثم يجب أن نقول لبرنال:

" لقد خالفت كل قواعد المنهج البحثى العلمى:

١ - جعلت من السامية (؟!) حقائق تاريخية ، وهى مجرد فرضية لغوية (!).

٢ - اتخذت من الأساطير مادة تاريخية ! وهى ليست كذلك.

٣ - ضخَّمت من وجود بعض الآثار، فى حوض المتوسط ، وهى ليست سوى تذكارات لبعض الرحلات المتباعدة!

ومع كل ذلك نشكرك على :

(أ) مجهودك الضخم ومعلوماتك الغزيرة.

(ب) شجاعتك فى إبداء الرأى فى عالم القطب الواحد.

(جـ) تحديك للغطرسة الثقافية الأوروبية.

حتى ولو اختلفت أهدافك ، عن أهدافنا ، وهو أمر سيظل قائمًا قرونًا طويلة ، مهما ضاقت حلقات العولمة وأحكمت الحصار المادى حول عالم اليوم ، شرقه وغربه ، ذلك لأن الهوية والثقافة مظهران عميقان فى الفكر والوجدان ، لا ينطمسان بسهولة ، ويجريان فى الإنسان - مهما كان - مجرى الدم فى العروق ... فإلى أن يتم تغيير دم العالم كله (!)، وفق أولويات الفكر العولمى (التجارى / المادى / الصهيونى) المعاصر ، فإننا منتظرون، وسيعلم الذين ظلموا - عندئذ فقط - أى منقلب سينقلبون ؟!!!

المقـــدمة

الأدلة الأثرية والوثائقية

ترجمة / محمد حمدى إبراهيم

كان الجزء الأول من هذه السلسلة معنيًا بوجهتى نظر عن الأصول الأولى لبلاد الإغريق قديمًا ، وكانت وجهة النظر الأولى، التى أطلقت عليها اسم " النموذج القديم " ، تذهب إلى أن منْ سكنوا بلاد الإغريق فى الأصل كانوا من البلاسجيين ومن قبائل أخرى بدائية ، وإلى أن هذه القبائل قد ارتقت وتحضرت على يد المستوطنين من المصريين والفينيقيين الذين حكموا أجزاء من بلاد الإغريق خلال الفترة المعروفة باسم العصر البطولى. ووفقًا لوجهة النظر الثانية ، التى أسميها " بالنموذج الآرى "، فإن الحضارة الإغريقية كانت نتيجة لامتزاج ثقافى أعقب غزوًا تم من الشمال على يد إغريق يتحدثون بلغة هندو-أوربية وينتمون إلى أرومة أقوام سابقين على فترات العصر الهيلينى. ولقد حاولت فى الجزء الأول أن أتتبع التفاعلات التى قدر بفضلها لمسيرة النموذج القديم فى بلاد الإغريق إبَّان القرن الخامس ق.م. أن تظل باقية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، إلى أن تم نبذها فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى ليحل محلها النموذج الآرى خلال عقد الأربعينيات من هذا القرن نفسه.

وكانت مقدمة الجزء الأول تحتوى على الخطوط العامة لمشروع هذا الكتاب كله. وفى هذه المقدمة أعربت عن اعتقادى بأن ما أطلقت عليه اسم " النموذج القديم المعدل أو المنقح " ينبغى أن يحل محل " النموذج الآرى ". إذ أن " النموذج القديم المنقح " يتقبل من ناحية فكرة أن المصريين والفينيقيين قد استوطنوا بلاد الإغريق قديمًا ، وأن تأثيرهم فيها كان بعيد المدى ، كما أنه من ناحية أخرى يأخذ فى الاعتبار حقيقة

لا مراء فيها ، وهى أن اللغة اليونانية هى فى الأساس لغة هندو-أوربية ؛ وفضلاً عن هذا ، فهو نموذج يُجرى تعديلات زمنية مختلفة بناء على ما اقترحه علم الآثار فى أيامنا هذه. ولقد دونت فى خاتمة الجزء الأول ما هو نصه:

" إن المفهوم الذى يعبر عن " النموذج الآرى " - سواء أكان ناجمًا عن خطيئة أم عن خطأ - لا يقلل بالضرورة من قيمته. فنظرية داروِن (أو الداروينية) التى ظهرت على الأرجح فى نفس التاريخ ، والتى حددت بدورها عن نفس الدوافع ذات السمعة السيئة ، قد ظلت على الدوام مشروعًا معرفيًا ذا فائدة جمة - وقد يكون بوسع المرء أن يبرهن على نحو بالغ الإحكام والدقة أن نيبور (Niebuhr) وميللر (Muller) وكورتيوس (Curtius) وآخرين غيرهم كانوا مُصابين " بداء المشى أثناء النوم " ، بالمعنى الذى اعتاد آرثر كيسلر (Arthur Koestler) أن يستخدمه اصطلاحًا كى يصف به الاكتشافات "العلمية" النافعة التى تم التوصل إليها بوسائل عرضية أو أغراض غير جوهرية يرفض الناس قبولها فى العصور التالية. غاية ما أنشده إذًا من وراء هذا الجزء هو أن يزودنا بمسألة علينا أن نجيب عليها ، وهى: بالرغم من أن الأصل المشكوك فى صحته ، والمقدم لنا من قبل " النموذج الآرى " ، لا يميل منه نموذجًا خاطئًا ، إلا أنه يدفعنا إلى الشك بالفعل فى قدرته على التفوق فطريًا على " النموذج القديم".

ولقد بات واضحًا من ذلك القدر الوافر من العروض النقدية التى ظهرت عن الجزء الأول أن هناك نزعة تشكيكية تتعلق بجدوى " النموذج القديم المنقح " الذى قمت بتقديمه أو تتعلق بمصداقيته. ومن ناحية أخرى ، فقد كان هناك قبول عام لخطتى فى التأريخ ، وكذلك لوجهة نظرى المثيرة للجدل ، ومؤداها أن معظم الأشخاص الذين أرسوا دعائم " النموذج الآرى " كانوا - وأقولها بلا مواربة - من أنصار التمييز العنصرى ومن المعادين للسامية ، وكان هناك أيضًا إقرار عام بأن مثل هذا المسلك من جانب هؤلاء الأشخاص قد آثر فى كتابتهم للتاريخ. وبناء على ذلك فقد استندت إلى هذا القبول واتخذت منه إجازة تسمح لى بالاستمرار فى مشروعى البحثى.

غير إن الإطار العام لاستمرارى فى مشروعى البحثى قد تغير بصورة جوهرية ، ذلك أن هناك كثيرًا من نقاد الجزء الأول قد كتبوا أو ألمحوا إلى أننى سوف أُجابه

صعوبة كبيرة فى إنتاج عمل مقنع بناء على الطريقة الى عرضتها فى المقدمة ؛ وكانوا على حق فى رأيهم. وبالتالى ، فقد كان على أن أغير مشروعى البحثى فيما يتعلق بثلاث نقاط مهمة. فلقد أدركت - فى المقام الأول - أن من الضرورى أن أخصص الآن جزءًا كاملاً لمصدرين من مصادر المعلومات ، كنت قد خططت فى الأساس من أجل أن ينهضا بتغطية الدليل المستقى من علم الآثار ومن وثائق العصر البرونزى على امتداد فصلين لا سواهما.

وفى المقام الثانى ، وجدت أن الهدف الذى كنت قد وضعته نصب عينى - بالفصل الدقيق الواضح بين الأنواع المختلفة لهذا الدليل والحرص على إبقاء كل منها على حدة - قد تحطم بأسره ، حيث إننى أدركت أنه من المستحيل علىَّ أن أوضح أهمية مثال واحد من الأمثلة بمعزل عن الأمثلة الأخرى. إذ كنت قد ذهبت فى قولى - على سبيل المتابعة إلى أن تشييد القصور فى جزيرة كريت إبان القرن الحادى والعشرين ق.م. كان متأثرًا أبلغ التأثير بحدث معاصر له ، وهو استرداد السلطة المركزية بمصر فى بداية الدولة الوسطى. وأعتقد أن هذه الحُجة يمكن أن تُصاغ بصورة مُقنعة ، لو أن المرء ربطها فحسب بإدخال عبادة الثور إلى كريت فى فترة معاصرة ، وكذا بالأحداث المصرية الأخرى السابقة عليها والمواكبة لها؛ والأمر نفسه يصدق عند فحص أهمية نقش ميت رهينة. فلقد أحسست بأن لزامًا على أن أتفحص المصادر الكلاسيكية والهلينستية ، وكذا الدليل المستمد من علم الآثار ، بصورة جد شاملة. وعلى هذا ، فقد ضربت صَفحًا عن محاولة تطبيق المنهج الصارم على المادة العلمية لصالح (ما أسميته) " بالوصف المكثف " الذى يتضمن أنماطًا من المعلومات كثيرة ومختلفة فى وقت واحد[1].

ويقودنا هذا إلى النقطة الثالثة التى استتبعها إجراء أهم تغيير فى خطتى الأصلية ؛ إذ إننى تخليت عن التمسك بقناع الحياد عند تناولى لكل من النموذجين ، وأسفرت عن التزامى بالنموذج القديم المنقح. ولقد كنت أعرف دومًا أن هذا أمر صعب ، ولكننى بمرور الوقت اكتشفت أنه مستحيل. فبدلاً من إصدار حُكْم على الجدوى المعرفية التنافسية عن كل من النموذجين بطريقة محايدة ، سوف أحاول الآن أن أبين أن النموذج القديم المنقح قادر على وصف تطور الحضارة الإغريقية وطبيعتها ، وقادر أيضًا على تفسير ذلك بطريقة أكثر شمولاً وأكثر إقناعًا من " النموذج الآرى ".

الأسباب الجوهرية لتفضيل النموذج القديم المنقح على النموذج الآرى :

فى مقالٍ آسرٍ جذاب - رغم كونه حسب فكرى مُضللاً بصورة أساسية - تم نشره عام ١٩٧٢ ، حاول ناشره أستاذ الكلاسيات د.أ. ماك نيل (R.A.Mc Neal) أن يبرهن على أن هناك أربعة مداخل يمكن عن طريقها فهم فترة ما قبل التاريخ لحضارة منطقة البحر الإيجى، وهى: (١) المصنوعات الأثرية. (٢) اللغة. (٣) المادة المتعلقة بالهياكل العظمية لو رغب الباحث فى استخدامها.(٤) الأساطير والحكايات الخرافية الإغريقية(*)(٢). وبغض النظر عن بعض الاعتراضات الصغرى ، مثل الحقيقة القائلة بأن علماء الآثار اليوم مهتمون للغاية بالمبانى وطُرُز الاستيطان والدلائل المتعلقة بالنشاط الزراعى والصناعى، وكلها أمور لا تقتصر على المصنوعات والأدوات ، وحقيقة أن الأدلة المُستقاة من الهياكل العظمية يمكن إدراجها بسهولة تحت علم الآثار ، رغم كونها غامضة لأقصى حد ؛ فالمشكلة - رغم هذه الاعتراضات - تكمن فى إغفال خطة الأستاذ ماك نيل للوثائق المعاصرة لهذه الفترة التاريخية. إذ أن العصر البرونزى لحضارة منطقة البحر الإيجى لم يكن عصراً من عصور ما قبل التاريخ كما يفترض الأستاذ ماك نيل ، فهناك إشارات كثيرة فى النصوص المصرية والمشرقية ونصوص ميسو بوتاميا (= بلاد ما بين النهرين) ، بل وأكثر من ذلك ، فهناك الألواح الإيجية المدونة بالكتابة الخطية الأولى (Linear A) والكتابة الخطية الثانية (Linear B) ؛ وبناء على ذلك فإننى أتصور أن المعلومات المستمدة من الوثائق ذات أهمية بالغة. ومن أجل هذا السبب ، فقد كان مرامى فى الأصل هو أن أبدأ هذا الجزء بفصل عن "الوثائق المعاصرة"، نظراً لأن علم الآثار - على أية حال - قادر على تزويدنا بالأدلة القديمة التى ترجع إلى العصر الحجرى الحديث وبواكير العصر البرونزى. ولذا فقد غيرت

(*) والحق أننى معجب بهذا المقال لهجومه الجسور على الدعائم اللغوية الذاتية للنموذج الآرى، وعلى استخدام هذا النموذج لمقولة " جيته " الشهيرة، وهى: " إن أكثر الأشياء أهمية للفهم هو أن يكون كل شيء واقعى بذاته نظرية بالفعل ". وتنصب اعتراضاتى على هذا النموذج لإيمانه بالحرفية أو التخصص فى المهنة ، وعلى رفضه لتقبل أى أمر أو فكرة ما لم يكن حقيقة مؤكدة (المحرر).

خُطتى بحيث يتم بمقتضاها إيراد الدليل الوثائقى الخاص بالصلات بين الشرق الأدنى ومنطقة البحر الإيجى فى الفصل العاشر من هذا الجزء.

ويناضل الأستاذ ماك نيل بقوة ضد أية محاولة ترمى لتوليف دليل مستمد من تصنيفاته الأربعة ، وهى علم الآثار ، واللغة ، والأنثروبولوجيا الطبيعية ، والأساطير ، زاعمًا عن اقتناع أنه ليس بوسع المرء أن يوقن بوجود ارتباط متبادل بينها. كما أنه يدعى كذلك - ولكن على نحو أكثر إقناعًا - أنه لا ينبغى على الباحثين الخوض فى تخصصات جيرانهم ، حيث إنهم سيعجزون بلا ريب عن أن يحظوا بمجرد أمل فى فهم أسرار الآخرين المهنية. وكلى أمل فى أن تكون اعتراضاتى على هذه الحُجة الأخيرة من جانبه قد باتت واضحة لقراء الجزء الأول من كتابى.

وعلاوة على ذلك ، فليس بمقدورى أن أقبل شرطه بتوافر اليقين ؛ لأننى أسست حُجتى فى مشروعى البحثى كله على مبدأ القابلية للتصديق على نحو تنافسى أكثر من اعتمادى على اليقين أو التأكد الذى لا ريب فيه ، وذلك لأنه يستحيل تحقيق الاتجاه الأخير ببساطة فى مثل هذه الحالات. وبالتالى ، فإن أعظم ما يمكن للمرء أن يفعله هو تحقيق ما هو قريب من الصدق ، وأفضل طريقة للوصول إلى ذلك هى الربط بين الأدلة المستقاة من كافة المصادر ، حتى مع علمنا بالمخاطر التى قد ينطوى عليها هذا الربط. وبناء على ذلك ، فعلى الرغم من أننى أحاول فى هذا الجزء التمييز بين المداخل المختلفة لدراسة الموضوع ، فإننى لا أُصاب بالانزعاج حينما أعجز عن الإبقاء عليهم منفصلين.

وقبل أن أنبرى لمعاينة قيمة " النموذج القديم المُنقَّح "-[٣] فى ضوء المصادر المتنوعة للدلائل التى نحظى بها ، يجدر بى أن آخذ فى الاعتبار أن قابلية هذا النموذج الفطرية للتصديق إنما هى قابلية نسبية مقارنة مع " النموذج الآرى ". " فالنموذج القديم " يتمتع بميزة أنه وُجِدَ فى عصر أكثر قُربًا من الحِقبة الزمنية موضع الاهتمام. ومن الممكن أن يثور الجدل حول فجوة زمنية مقدارها ألف ومائتى عام ، بين القرن الخامس ق.م. - حينما ظهر الدليل لأول مرة على " النموذج القديم " - وبين القرن الثامن عشر ق.م. ، وهو القرن الذى أعتقد أنه قد وجدت خلاله مستوطنات من الشرق الأدنى فى

بلاد الإغريق ، وهى فجوة زمنية أكثر اتساعًا من الحقبة التى تفصل بيننا الآن وبين عصر شارلمان (Charlemagne) . ومن الممكن كذلك أن يحتدم النقاش حول أن هذا الخط الفاصل بين بلاد الإغريق خلال العصر الميكينى وبينها إبان العصر الكلاسى(*) لا يقل فى امتداده من الناحية النوعية عن الثلاثة آلاف وخمسمائة عام التى تفصل بيننا وبين ما نفترض وجوده من مستوطنات أقامها المصريون والفينيقيون.

غير أن هناك أسبابًا عديدة لها وجاهتها تحدونا إلى رفض مثل هذا الجدل ، أولها أن روث إدواردز (Ruth Edwards) قد أثبتت فى كتابها : " كادموس الفينيقى: دراسة فى الأساطير المصرية والعصر الميكينى "، أن هناك كمًا كبيرًا من الأدلة الأدبية والفنية التى تم اكتشافها بطريقة عَرَضية ، وهى توحى بأن النموذج القديم قد كان له وجود خلال العصر الآرخى (=القديم ، من ٧٧٦-٥٠٠ق.م.) ، بل وحتى خلال العصر الجيومترى (٩٥٠-٧٧٦ق.م.)، وهو أمر من شأنه أن يقلل من الفجوة الزمنية لعدة قرون(٣). وفضلاً عن ذلك، فإن الدليل المُستقى من الألواح المدونة بالخط الثانى (Linear B) ، والذى تدعمه كمية متزايدة من المعلومات التى أتاحها لنا علم الآثار ، قد أثبت – فيما يتعلق بالديانة على الأقل – أن هناك استمرارية جديرة بالاعتبار منذ العصر الميكينى حتى فترة العصر الكلاسى فى بلاد الإغريق(٤).

ولقد حاولت فى مكان آخر أن أبرهن على أن الأبجدية السامية الغربية قد أدخلت إلى منطقة البحر الإيجى قبل عام ١٤٠٠ق.م. وأيًا كان الأمر ، فإن الاكتشافات الحديثة فى مجال علم النقوش ، وكذا التفسيرات المتعلقة بها ، قد جعلت اقتباس الأبجدية الإغريقية أو تطويعها وتعديلها بعد القرن الحادى عشر ق.م. أمرًا يصعب احتماله إلى أبعد مدى(٥). وحتى لو افترضنا أن هذه الأبجدية قد أدخلت خلال فترة أحدث من ذلك تتزامن مع القرن التاسع ق.م.، فإن بقاء الخط القبرصى المقطعى – حتى فترة حديثة نسبيًا – بغير برهان لأكثر من خمسة قرون ، وبقاء الكتابة الأولى (Linear A) بجلاء فى شرق جزيرة كريت لمدة تربو على ألف عام، يجعل من غير المحتمل إلى أقصى حد أن

(*) ينحت أستاذنا الدكتور/ حمدى إبراهيم مصطلحًا جديدًا – على أساس إتيمولوجى – بدلاً من اللفظة المألوفة – حتى الآن – وهى كلاسيكى . (المحرر)

تكون المعرفة بالخط الثانى قد اختفت توًا عن بكرة أبيها مع انهيار حضارة المجتمع الميكينى القائمة عل القصور والبلاط خلال القرن الثانى عشر ق.م.(٦) وهكذا ، فإن كافة الأسباب تحدو بنا إلى افتراض بقاء بعض الوثائق من "العصر البرونزى المتأخر" ووصولها إلى " العصر الحديدى المبكر ". ومن ناحية أخرى ، فعلى الرغم من أنه لا يوجد أدنى شك فى وجود انحسار ثقافى ملحوظ بين القرن الثانى عشر والقرن الثامن عشر ق.م.، وضياع معلومات حقيقية خلال تلك الحقبة ، ونمو كثير من الحكايات الأسطورية والخرافية والفولكلورية التى تتلاحم فيما بينها ، إلا أن من الثابت وجود تداخل بين الكتابات الخطية والكتابات الأبجدية ، وأن هذا التداخل قد حدث مع مرور الزمن ومن المحتمل أنه استمر لقرونٍ كثيرة. ويكاد يستحيل على المرء الآن أن يُقيم الحجة على أن العصر البرونزى لدى الإغريق كان مفصولاً عن العصر الحديدى بقرون من الأمية لا يمكن اختراقها أو النفاذ منها.

وعلى سبيل المثال ، فإن النشيد الثانى من الإلياذة يحتوى على قائمة وصفية مُسهبة ومفصلة للمدن الميكينية ، التى يبدو أن كثيرًا منها قد اختفى عند حلول العصر الذى دون(*) فيه هوميروس ملاحمه خلال القرن التاسع ق.م. وبالتالى، فمن المحتمل جدًا أن يكون ما ورد فى ملاحمه مؤسسًا على مادة كانت مدونة خلال العصر البرونزى. وفضلاً عن ذلك ، فلقد كان فى مقدور كتاب العصرين الكلاسى والهيلنستى ، الذين كان لديهم تراث شفاهى ومدون بنفس القدرة أن يقوموا بزيارة بعض الأطلال الميكينية التى كانت أجزاء منها لا تزال قائمة بغير أن يبليها الزمن ، خاصة وأننا نعرف أن هؤلاء الكتاب كانوا يمارسون آنذاك نوعًا من الاشتغال بعلم الآثار(٧).

وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط كانت هناك سجلات على قدر كبير من الأهمية ترجع إلى العصر البرونزى ، وكانت متاحة خلال فترة العصر الكلاسى للكهنة المصريين، وبنفس القدر للفينيقيين وسكان بلاد ما بين النهرين. ولقد تمت خلال العصر

(*) من المعروف لدى دارسى الأدب اليونانى القديم ، أن هوميروس كان شاعرًا منشدًا ، وليس هناك أدنى دليل على تسجيل وكتابة وتدوين الإلياذة آنذاك ، فى عصره ، فلم تكن الأبجدية اليونانية قد ظهرت بعد ، ويؤرخ لأقدم نقش بحروفها ، من جزيرة ناكسوس بحوالى ٧١٥ ق.م (المحرر).

الهيلنستى ترجمة بعض نصوص هذه السجلات القديمة إلى اللغة اليونانية ، أو تم تلخيصها على يد كهنة وعلماء ، من أمثال المصرى مانيتون والفينيقى فيلون من بيبلوس وبيروسوس من بلاد ما بين النهرين[٨]. وكانت هذه المؤلفات وغيرها من المصادر متاحة أمام الكتاب الإغريق، مثل هيكاتيوس من أبديرا ، ومناندروس من إفيسوس، وغيرهما. وقبل هؤلاء ، أى خلال القرن السادس ق.م.، ساد الاعتقاد بأن فريكيديس من سيروس قد أسس كتابه على مصادر مصرية وكلدانية[٩].

وعلى العكس من ذلك ، نجد أن هيرودوتوس، وديودوروس الصقلى، وغيرهما من الكتاب القدامى قد حشدوا فى مؤلفاتهم آراء كثيرة عن التاريخ المصرى، ثبت فى أحيان كثيرة أنها أدنى فى قيمتها من الآراء التى توصل إليها علماء المصريات المحدثون الذين أُتيح لهم الرجوع إلى المصادر الأصلية واستخدامها بسهولة ويُسر[١٠]. وعلى أية حال ، فإن اكتشاف نقش ميت رهينة الذى يصف محلات ورحلات – لم نكن نعرف عنها شيئًا قبل ذلك – قام بها المصريون إلى سوريا وما ورائها خلال الأسرة الثانية عشرة ، يبرهن على أنه لم يكن يجدر بنا أن ندع مواكب النصر المظفر لعلم المصريات – وهى حقيقة لا ريب فيها – تحدو بنا إلى التقليل من قدر تكامل المعرفة الحديثة. ومن المثير للدهشة – فى هذا الصدد – أن نلاحظ أن هيرودوتوس ومعه سائر الكتاب الإغريق الآخرين قد ذكروا فيما يبدو هذه الفعاليات المتعلقة بالحملات والرحلات ، فى إطار وصفهم لانتصارات الملك المصرى سيسوستريس **Sesostris** (انظر الفصلين الخامس والسادس أدناه). وبالتالى ، فإن من الممكن بالفعل أن يكون الإغريق قد عرفوا معلومات عن علاقات مصر بمنطقة البحر الإيجى رغم كونها معلومات لا تزال مجهولة بالنسبة للباحثين المحدثين.

وحرى بنا أن نلاحظ – على مستوى أعم من ذلك – أن علماء المصريات (المحدثين) مازالوا يعتمدون على التراث المصرى الذى نقله إليهم المؤرخ القديم مانيثون فى مواطن كثيرة، وأنهم لا يزالون يستخدمون الإطار التقليدى الخاص بتقسيم تاريخ مصر إلى أسرات على النحو الذى نقله إليهم . فضلاً عن كونهم لا يكفون عن الاستشهاد بنصوص هيرودوتوس، وبلوتارخوس ، وديودوروس الصقلى والإشارة

إليها ، حيث منحهم الاتصال المباشر مع هؤلاء الكتاب إحساساً بتاريخ مصر القديمة لا يمكن معادلته أبداً بنفس درجة الإحساس التى يمنحها لهم الاتصال مع الباحثين المحدثين.

كذلك ، فإن التفوق النسبى لعلماء المصريات المحدثين على الكتاب الإغريق من العصرين الكلاسى والهيلنستى لا سبيل إلى مضاهاته أو مناظرته بالمعلومات المتوافرة لنا عن منطقة المشرق (Levant) ؛ إذ إن اللوحات التى تم العثور عليها فى أوجاريت قد رسمت لنا صورة جذابة آسرة ومفصلة عن البوابة السورية الكبرى لما يقرب من قرن من الزمان خلال العصر البرونزى المتأخر. كما قدمت لنا دليلاً مهماً - وإن كان مؤلفاً من شظايا غير مترابطة-يتعلق بالديانة السامية الغربية وأساطيرها. كذلك ، فإن الحروف المسمارية التى تم العثور عليها فى " العمارنة " تزودنا بفكرة عن الموقف السياسى فى السواحل السورية وفلسطين لعدد من العقود الواقعة على امتداد القرن الرابع عشر ق.م. وعلى أية حال ، فإن الأوراق البردية كانت هى مادة الكتابة السائدة فى منطقة المشرق الجنوبى ، ومن الواضح أن المدن الفينيقية كانت تسرف فى استخدامها بوجه خاص ، وفقاً لما أخبرنا به المؤرخ اليهودى ورجل السياسة يوسيفوس (= يوسف) الذى عاش خلل القرن الأول الميلادى بقوله[11]:

" أما عن العناية التى أولاها المصريون والبابليون لسجلاتهم التاريخية منذ عصور سحيقة فى القدم ......فمن بين الأمم التى كانت على اتصال بالإغريق نجد أن الفينيقيين هم الذين حققوا الفائدة القصوى من الكتابة والتدوين ، سواء فيما يتعلق بأمور الحياة العادية أو فيما يتصل بتسجيل الأحداث العامة (=الرسمية) وحفظها ، وأعتقد أننى لست فى حاجة - فى هذا الصدد- إلى إضافة قول آخر ، نظراً لأن هذه حقيقة تقر بها كل شعوب العالم ".

وفضلاً عن ذلك ، فعلى الرغم من الدمار الذى حاق بالمدن الفينيقية مرات كثيرة خلال الألفية الأولى ق.م.، إلا أن بعض الوثائق - فيما يبدو - قد ظلت باقية بصورة سليمة حتى العصر الهيلنستى ، بل وحتى العصر الرومانى ، كما ذكر لنا المؤرخ يوسف[12]:

" ولقد اضطلع أهل "صور " – منذ سنوات كثيرة خلت – بتدوين سجلات رسمية بأحداث تاريخهم التى تستحق الحفاظ عليها ، وكذا بالأحداث التى ترتبط بصلاتهم مع الأمم الأجنبية. وكانت الدولة تقوم بجمع هذه السجلات وتحافظ عليها بكل عناية ...... وكان كثير من الرسائل التى تم تبادلها بين حيروم (=حيرام، الملك الفينيقى) وبين (النبى) سليمان (عليه السلام) (خلال القرن العاشر ق.م.) محفوظة فى هذه السجلات حتى يومنا هذا ".

(ومن أسف) أن أيًا من هذه الوثائق لم يصل إلينا فى العصور الحديثة ، كما أن النص الوحيد ذا الأهمية الذى لدينا الآن من الأدب الكنعانى هو العهد القديم (=التوراه). وهذا النص له قيمة تاريخية فائقة الأهمية(*) ، وإن كان معنيًا على نطاقٍ واسعٍ بإسرائيل(**)، وهى دولة داخلية فى اليابسة وليس لها صلات بالبحر المتوسط إلا فيما ندر، ناهيك عن منطقة البحر الإيجى. وبالتالى ، ففى ضوء نصوص قليلة العدد إلى أدنى حد ، وسجلات أثرية غاية فى الغموض والإبهام وبصورة متناثرة غير مرتبطة ، فإن معرفة الباحثين المحدثين بالساحل المشرقى خلال العصر البرونزى المتأخر تعد معرفة دقيقة بالقياس إلى نظيرتها خلال العصرين الكلاسى والهيلنستى.

ولقد أمدتنا اللوحات المدونة بالكتابة الخطية الثانية فى منطقة الإيجى بدليل لغوى فائق القيمة، فضلاً عن أنها زودتنا بمعلومات لها اعتبارها عن الاقتصاد الميكينى المتأخر وحضارته القائمة على البلاط والقصور. غير أن هذه اللوحات – من ناحية أخرى – قد أغفلت ذكر معلومات كنا بأمس الحاجة إليها عن الديانة فى بلاد الإغريق خلال العصر البرونزى المتأخر، كما أنها – على أية حال – قد خلت معه أية نصوص أسطورية أو تاريخية.

(*) هذا بالرغم من الشكوك الكثيرة حول حقيقة أصل ومكونات الكتابة السبعينية (Septuagenta) منذ العصر البطلمى وأساطير وهذا تسجيلها عندئذ ، وعدم دقة تواريخها فى ضوء أحدث الدراسات التوراتية التى يروجون لها ويصرون على تاريخيتها ، كما يفعل هنا مؤلفنا مارتن برنال . (المحرر)

(**) يقصد المؤلف بها دولة يهودية (يوديا) التى أقامها اليهود فى منطقة فلسطين – سوريا قديمًا. (المترجم)

ولقد أجريت خلال القرن الماضى فى بلاد الإغريق حفائر أكثر منهجية وتنظيماً عن ذى قبل ، وتمخضت عن إظهار دليل فائق الأهمية ، وبالتالى مكنت الباحثين من إنشاء دراسات متتابعة لطبقات الخزف خلال العصرين ، البرونزى الأوسط والبرونزى المتأخر. ومع ذلك ، فلقد تعذر على الباحثين التوصل إلى تحديد تاريخ لا ريب فى دقته لهذين العصرين ، كما أن الحدود الفاصلة بين العصر البرونزى الأوسط والعصر البرونزى المتأخر ظلت غامضة حتى عهد قريب بالنسبة لفترة زمنية تحظى بفائق اهتمامنا ، بالإضافة إلى أن الجداول التاريخية التزامنية أو التواريخ المتناظرة لمنطقة الشرق الأوسط قد غدت مثاراً لجدل عنيف بين الباحثين[١٣]. كما كان هناك بالمثل ميل لعدم الركون إلى الثقة فى طريقة الكشف بالكربون [١٤] والطرق العلمية الأخرى المستقلة المتبعة فى تأريخ المكتشفات الأثرية ، حيثما تتعارض مع تحديد الترتيب الزمنى الذى كان تصوره قد تم سلفًا. وتأمل معى - على سبيل المثال - الفقرة التالية التى قام بصياغتها عالم الآثار الشهير بول أستروم (Paul Astrom) :

"وأود أن أؤكد على أنه لا فائدة تُرجى من اللجوء إلى طريقة الكشف بالكربون [١٤] كوسيلة للتأريخ ، عند قيامنا بتحديد تاريخ دقيق للعصر البرونزى فى منطقة البحر الإيجى؛ ويمكن التدليل على هذا بالمثال التالى: اتضح لنا أن متوسط الطريقة المصوبة للكشف بالكربون [١٤] على مجموعة قصيرة الأجل قوامها سبع عينات ترجع جميعًا إلى عصر تدمير جزيرة ثيرا ، أو على فترة زمنية سابقة على ذلك التدمير بقليل ، وبالتحديد خلال عام ١٦٨٨ق.م.، يشير إلى أن البركان ثار عام ٥٧ ق.م. وبالتالى فإن هذه النتيجة تبدو مضحكة للغاية ، لأن هناك اتفاقًا عامًا - بناء على أسس ومعايير أخرى - على أن ثورة البركان فى جزيرة ثيرا قد حدثت خلال فترة زمنية تقع خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر ق.م. ".

وفى الحق إن هناك مقاييس مستقلة أخرى ذات عدد كبير قد أسفرت عن إعطاء تواريخ زمنية مماثلة فى بعدها عن الحقيقة لتلك التى اعتبرها " أستروم " مضحكة. وكما سوف أبين فى الفصل السابع ، فلقد بدأ باحثون كثيرون يتراجعون الآن ، وينكصون على أعقابهم (ويتخلون عن موقفهم المؤيد لهذه الطريقة)[١٥]. أما النقطة التى أحاول أن ألقى الضوء عليها هنا ، فهى أن الاعتقاد التقليدى " للنموذج الآرى " كان قد

ترسخ منذ أمد طويل قبل تطبيق هذه التقنيات الجديدة على ما اكتشف من آثار فى منطقة البحر الإيجى ، وأن رد فعل أنصار هذا النموذج إزاء نتائج هذه التقنيات بوجه عام كان العمل على حشرها داخل نموذجهم أكثر من تطويعها لصالحه أو استبعادها تماماً. وبالتالى، فيجب علينا أن نحكم على هذه الصورة من التنافس القائم بين النموذجين ، لا بناءً على كافة المعلومات المتاحة لأشياعهما الذين بادروا إلى مناصرتها بعد أن تأسسا واستقرا ، بل بناءً على حالة المعرفة السائدة فى الفترة التى شهدت تكون كل نموذج منهما. ذلك أن النموذج الآرى - على سبيل المثال - قد تشكل فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، وهى فترة لم توجد فيها معرفة أثرية متعلقة بالتأريخ الزمنى من أى نوع ، حيث إن هذا النوع من المعرفة لم يتأسس قبل عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، حينما تمكن الأستاذ فلندرز بترى(Flinders Petrie) من تأريخ المكتشفات الأثرية الفخارية التى تم العثور عليها فى مصر ويقودنا تأريخها إلى العصرين المينوى والميكينى[١٦].

وحتى لو استطعنا اليوم أن نتوصل إلى تحديد تاريخ دقيق للآنية الفخارية (أو الخزفية) ، وتمكنا من الكشف عن المكان الذى تم صنعها فيه ، فلن يتسنى لنا أبداً أن نعرف من هذه الأوانى الفخارية اللغات التى كان يتحدث بها من صنعوها ومن استخدموها. كما أنه ليس بوسعنا البرهنة من خلالها على وجود غُزاة أو تحرك سكانى، أو على العكس من ذلك، ليس بوسعنا استبعاد مثل هذا البرهان من مجال البحث ، ما لم يتضمن هذا انقطاعًا ثقافيًا كاملاً ، وهى حالات بالغة القدرة لحُسن الحظ. وبالتالى، فإن علم الآثار بمفرده لا يمكنه أن يجيب على الأسئلة التى نحن مهتمون بها ، وأعنى بها نوعية التأثيرات المصرية والفينيقية فى منطقة البحر الإيجى خلال العصر البرونزى ، وكذا مداها ومدتها[١٧].

ويُعتبر الشطر الأكبر من تقييمنا للمعرفة التى كان يحظى بها إغريق العصرين الكلاسى والهيلنستى عن العصر البرونزى ، على المدى الكمى للانقطاع الثقافى بعد انقضاء القرن الثالث عشر ق.م. ومثل هذا الانقطاع الثقافى الشامل لم يحدث فى مصر ، لو صدقنا ما قاله الكهنة المصريون للمشرع الآثينى سولون (Solon) خلال النصف الأول من القرن السادس ق.م. فمن الواضح أنه لم يوجد عمليًا بمصر أى

تمزق فى الاتصال الثقافى أو المعرفى بالماضى، رغم وجود نوع من انعدام الاستقرار السياسى ومن التدهور الاقتصادى بها خلال القرون التالية. ذلك أن غزوات شعوب البحر للشرق الأدنى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق.م. - والتى يجد القارئ وصفًا لها فى ملحق الجزء الأول - قد أوجدت بالفعل انقطاعًا على ساحل منطقة المشرق (Levant) ، يبدو أنه أدى إلى إحلال مدن ذات طراز جديد محل مدن العصر البرونزى التى كانت تخضع غالبًا لحكم " موروناخى " (= فردى) رغم كونها مدنًا تجارية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ؛ وكان المعبد وليس القصر هو الذى يهيمن على مقدرات الأمور ومجرياتها فى هذه المدن ذات الطراز الجديد ، التى شهدت بزوغ مجتمع يمكن أن نطلق عليه دون غضاضة اسم " مجتمع العبيد "[١٨]. وبرغم هذه التغيرات الاجتماعية الجوهرية ، إلا أن المدن - على أية حال - قد ظلت مزدهرة لعشرات السنين، ولا أقول لقرون ، بعد الدمار الذى حاق بها ؛ كما ظلت محافظة على درجة عالية من الاستمرارية فى ثقافتها المادية. فنحن نعرف - حتى من الرحالة المصرى " ون آمون " (Wen Amon) - الذى عاش خلال القرن الحادى عشر ق.م. - أنه قد تم الحفاظ على السجلات الرسمية فى مدينة بيبلوس (Byblos) المهمة ، على الأقل ، لمدة تربو على قرن من الزمان[١٩].

ولقد دمرت الاضطرابات - فى شبه جزيرة الأناضول - الامبراطورية الحيثية إلى الأبد - وإن لنا أن نتأمل فى هذا الصدد ما كتبه الأستاذ جيمس ماكوين (James Macqueen)، المتخصص فى الدراسات الحيثية[٢٠]: " ليس بوسعنا الآن أن نُسلم جدلاً بحلول أربعمائة عام من الفوضى والاضطراب ومن الرجوع شبه التام لحياة التنقل والبداوة ". ذلك أن قسطًا كبيرًا من تراث هذه الإمبراطورية الحيثية قد ظل قائمًا بصورة طيبة خلال عصر الحديد. وكما أوضحت أعلاه ، فإن بلاد الإغريق لم تكن بمثابة استثناء هذه الحقيقة ، كما أن الانقطاع فيها لم يكن شديد الوطأة كما تم تصويره بوجه عام. وعلى وجه الإجمال ، فبينما كان الانقطاع مأساويًا على الصعيد المحلى ، فإن ما يُطلق عليه إجمالاً اسم " العصور المظلمة " فى منطقة شرق البحر المتوسط لم يُسفر عن انقطاعٍ واضح المعالم عن الماضى.

وفى الحق إن " العصور المظلمة " قد اكتسبت هذه التسمية السيئة التى اقترنت بها بفعل التدهور غير المسبوق الذى حدث فى الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين فى بيزنطة. فرغم أن بيزنطة اجتازت هذه الأزمة وعبرتها ، إلا أنه كان لِزامًا عليها أن تجرى حركة إصلاح جذرية لكى يتسنى لها اجتيازها. فأما الإسلام، فقد خلق بداية جديدة تمامًا على الرغم من حفاظه على بعض المؤسسات والعلوم والفلسفات المصرية والإغريقية والبابلية. وأما فى أوروبا الغربية ، فإن إمبراطورية الفرنجة (Frankish Empire) لم تكن تشبه فى شىء الإمبراطورية الرومانية التى زعمت أنها كانت خليفةً لها. وعلى وجه الإجمال، فإن حضارات العصر البرونزى فى منطقة الشرق الأوسط قد أُتيح لها أن تتيقظ وتنشط بفعل الغزو الهيلنستى والغزو الرومانى من بعده ، ولكنها ظلت باقية وفعالة حتى الغزو القوطى والفتح العربى ، والانتصارات التى حققتها كل من المسيحية والإسلام[٢١].

ولقد أدى تدمير الحضارة المواكب لظهور عقيدة التوحيد[*] إلى انقراض اللغات المكتوبة للحضارات المبكرة رغم كونها لغات ذات قيمة كبيرة ، وأعنى بها اللغات السومرية والأكادية والمصرية القديمة. ومن هنا ، فإن الانقطاع الثقافى الحاد والملحوظ الذى حدث فى الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين يجعل الاضطرابات التى وقعت خلال القرن الثانى عشر ق.م. تبدو فى نظرنا تافهة قليلة الشأن. وبالتالى ، فرغم أن أنصار "النموذج القديم " عاشوا إبَّان الفترة التى غابت فيها شمس تراث العصر البرونزى ، إلا أنهم كانوا لا يزالون يحيون فى العالم القديم. أما أبطال " النموذج الآرى " – على العكس من ذلك – فقد عاشوا بعد انصرام قرون كثيرة على هذا الانقطاع (Coupure) الحقيقى .

وإذًا ، فمن الواضح بوجه عام أن الكُتَّاب الذين تمكنوا من صياغة " النموذج القديم " كانت لديهم معلومات عن العصر البرونزى بقدرٍ أوفر مما لدى أنصار

(*) عجبى لهذا التفكير الرافض لعقائد التوحيد ، فى المنطقة ، حيث يحملها المؤلف مسئولية التدمير الحضارى للثقافات الأقدم ، لمجرد ضياع لغات تلك الحضارات الأقدم .. فهل هذا منطقى ، برغم استمرار حضارة كل منطقة وتراثها ولكن بلسان جديد فقط ؟!!! (المحرر)

"النموذج الآرى"، فضلاً عن كونهم يمتلكون الإحساس بموضوعهم انطلاقًا من ثقافتهم المشتركة مع أسلافهم. وعلى أية حال، فإن أنصار "النموذج الآرى" لم يؤسسوا تفوقهم المزعوم على الكم المتوافر لديهم من معلومات بقدر ما أسسوه على وجهة نظر افتراضية مفادها أنهم يخطون - على عكس السُذَّج من الكتاب الكلاسيكيين والهيلنستيين - " بمدخل نقدى " ورؤية علمية كفيلة بأن تُعوضهم عن أى نقصٍ فى معلوماتهم.

كذلك فإن الاصطلاح "Altertumswissenschaft" ، المستخدم فى اللغة الألمانية للدلالة على (طبيعة) هذه الدراسة الجديدة، يفيد معنى أدنى فى درجة التحديد مما يفيده المقابل الإنجليزى له، وهو "علم دراسة العصور القديمة (Science of Antiquity). وأيًا كان الأمر فإن إطلاق صفة " العلمية " - حتى بالمعنى الواسع للكلمة - إنما يظهر بجلاء إحساس العلماء والدارسين بالإثارة والثقة فى البداية (القوية) للقرن التاسع عشر ، وهو إحساس دفع هؤلاء الباحثين إلى تجاهل أسلافهم من أتباع " الباروك "(Baroque) . وباختصار، فإن هذا الزعم بالاتصاف "بالعلمية " قد ظهر لأول مرة خلال عقد التسعينيات من القرن الثامن عشر الميلادى ، تحت تأثير من مصطلحات الفيلسوف كانط (Kant) وقبل الطفرة التكنولوجية المواكبة لاكتشاف البخار والكهرباء ، خلال السنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر وعقد العشرينيات من ذات القرن. وأيًا كان الأمر ، فبمثل ما تفوقت السكك الحديدية والسفن التجارية والبرق على كافة وسائل الانتقال والاتصال السابقة عليها ، وأزاحتها عن المنافسة، فإن علماء فقه اللغة والمؤرخين القدامى خلال القرن التاسع عشر قد آمنوا بأن مدخلهم "النقدى" - أو "منهجهم" العلمى التاريخى - قد وضعهم وفقًا لمعايير التصنيف فى مستوى أسمى من كل أسلافهم السابقة.

فلقد كان " النموذج القديم " - بالنسبة لهؤلاء الباحثين - عبارةً عن وَهْمٍ وضلال. وكما قام الباحثون " العلميون " باختزال كل الشواهد والمراجع الإغريقية إلى قناطير وسيرنييات ومخلوقات خرافية أخرى اعتبروا أنها انتهكت قوانين التاريخ الطبيعى وأثمت فى حقه ، كان لزامًا عليهم بدورهم أن ينبروا لطمس وجهة نظر القدماء بأن بلاد الإغريق قد تحضرت على أيدى المصريين والفينيقيين ، على اعتبار أنها وجهة نظر آثمة

فى حق قوانين " علم الأجناس " (القائم على التمييز العنصرى). ولذا ، فقد كان حرياً بنا أن نؤكد على أن وجهة النظر هذه - بالنسبة لكثير من الباحثين - كانت تمثل "العلم الأسمى" الذى تندرج تحته كافة العلوم الأخرى ، وأن ما يُطلق عليه اسم " المبدأ العِرقى للتاريخ " كان يُعتبر على نطاقٍ واسعٍ الإنجاز الأول لعلم التأريخ الذى تم على أيدى هؤلاء المؤرخين الجدد(٢٢).

إن دعاوى أنصار الآرية بامتلاك الموضوعية لا تبدو مقنعةً فى ضوء العلاقات القائمة بين الدراسات الكلاسية وبين الأيديولوجية السياسية التى ناقشنا تفاصيلها بنوع من الإسهاب فى الجزء الأول(٢٣). وأصوغ القول ببساطة ، فعلى الرغم من أن باحثى القرن التاسع عشر أكثر استحقاقًا للثقة من كتاب العصور الكلاسية فى علمى الحيوان والطبيعة، إلا أن معظم مؤسسى النموذج الآرى كانوا أقل " موضوعية " بكثير من قدامى الإغريق فيما يتعلق بدراسة تأثيرات منطقة الشرق الأدنى فى بلاد الإغريق. ذلك أن قدامى الإغريق كانوا نهبًا بين رغبتهم فى الارتباط بالحضارات القديمة وبين أمنيتهم فى ألا يصبحوا فى ميدان الثقافة أدنى مرتبة من المصريين والفينيقيين ، الذين كانوا لا يزالون منتشرين حولهم فى كل مكان ولا يحظون منهم بالحب والمودة. وعلى العكس تمامًا من ذلك ، فقد انساق علماء الكلاسيات فى القرن التاسع عشر - رغم وجود استثناءات قليلة - إلى توجه أحادى ، كان الهدف منه التأكيد على سيادة الخصائص " العرقية " المميزة وعلى التفوق الأساسى للأوروبيين.

وكما ذكرنا من قبل ، فإن كون النموذج الآرى قد تعززت دعائمه - على الأقل جزئيًا- على أسس من فكرتى المركزية الأوربية والتمييز العرقى ، إنما هو أمر ليس من شأنه أن يجعله عاريًا من الصحة أو عديم الفائدة فى المجال المعرفى. فالناس الذين يمقتون نظرية مالثوس (Malthus) (١٧٦٦ - ١٨٣٤) مازالوا يعتبرون أن نظرية داروين - التى أسست بكل وضوح على آراء مالثوس - مفيدة للغاية. وهناك أمرٌ آخرٌ يتعلق بموضوعنا هذا كذلك - ربما بطريقة مباشرة أكثر - ألا وهو افتراض حدوث غزو آرى لشمال الهند، فالحقيقة التى لا جدال فيها والتى مفادها أن علماء الدراسات الهندية من أنصار التمييز العرقى خلال القرن التاسع عشر قد انتشوا طربًا بهذا

الافتراض ، إنما هو تصرف لا يجعله منافيًا للحقيقة؛ إذ عجز النقد الحديث الذى اضطلع به باحثون نوى نزعات متطرفة عن تحويله إلى افتراض لا ضرورة له[٢٤].

وحرىٌ بنا أن نُلاحظ أيضًا أنه وُجدت بالهند – على خلاف بلاد الإغريق – رواية تراثية قوية مفادها أن هناك غزوًا قد يتم للمنطقة الشمالية ، وأن هناك لغات سابقة على الآرية قد ظلت باقية فيها بشكلٍ أو بآخر ، حيثما يتوقع المرء العثور عليها. ولسوف أحاول فى الفصل الثامن من هذا الجزء أن أبرهن على أن مؤرخى العصر الفيكتورى ومؤرخى بواكير القرن العشرين ، ربما كانوا على حق ، عندما رأوا أن حشود الهسكوس عند غزوهم لمصر كانت تضم بعض الأقوام القادمين من شمال سوريا ، وأن هؤلاء الأقوام كانوا يتحدثون على الأرجح بلغة هندو-إيرانية أو حتى هندو-آرية ، وبالتالى فإن هناك حالات قد يبدو فيها "النموذج الآرى " ملائمًا وصالحًا. والسؤال المطروح الآن هو: لماذا إذًا لا يبدو هذا الأمر صحيحًا فى حالة بلاد الإغريق ؟ ربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن العُنصريين من مبتدعى "النموذج الآرى " كانوا مصابين بداء " المشى أثناء النوم " – وفقًا للمصطلح الذى أطلقه كيلسر – بمعنى أنهم انبروا لتأسيس نموذج ناجح ومثمر بناء على أسباب عَرَضية أتتهم كيفما اتُفق ، وكأنهم احتذوا نفس الطريقة التى سار على منوالها معاصرهم داروين تمامًا بتمام .

وعلى أية حال ، فإن النموذج الآرى للحق لم يقدر له النجاح فى الجانب المعرفى ولم يسهم بمزيد من الكشف ، على الأقل منذ عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر ، عندما أُتيح للظواهر الهندو-أوروبية فى اللغة اليونانية والثقافة المرتبطة بها أن تتحقق على نطاق كبير. وبالتالى، فإن فوز النموذج الآرى على النموذج القديم لا يمكن اتخاذه مؤشرًا أو دليلاً على تفوقه ؛ إذ إن هناك – فى الحقيقة – تناقضًا مذهلاً بين النجاح المثمر الذى تحقق للداروينية على المدى الطويل فى مجال التاريخ الطبيعى ، وبين افتقار المذهب الآرى إلى الملاءمة بصورة صارخة فيما يتعلق بتفسير أصل الحضارة الإغريقية أو طبيعتها. وبغض النظر عن موافقة القراء على تحليلاتى وصحة اشتقاقاتى، فليس بوسع أحد أن ينكر أن شطرًا هائلاً من الثقافة الإغريقية القديمة لا يزال غامضًا مُبهَمًا. وبالتالى، ففضلاً عن الأسباب الجوهرية التى حَدَت بى إلى تفضيل وجهات نظر قدامى الإغريق حول تاريخهم ، فإن هناك افتقارًا كبيرًا إلى الملاءمة من

جانب النموذج الآرى ، الأمر الذى يجعلنى آمل فى أن أوضح فى هذا الجزء وفى الأجزاء التالية له القدرة التفسيرية الفائقة التى يتمتع بها النموذج القديم المُنقَّح.

ولنعد الآن أدراجنا لكى نستعرض موضوع التحول عن النموذج القديم والاتجاه إلى النموذج الآرى واضعينه فى اعتبارنا بطريقة أكثر تجريداً ، فرغم أن مخططات الأستاذ كوهن (Kuhn) قد صممت لكى يتم تطبيقها على تاريخ العلوم الفيزيائية ، فإننى مقتنعٌ بأنها ذات فائدة معرفية أيضًا فى دراسة التغير الثورى الذى حدث فى الدراسات الإنسانية. كذلك فإننى الآن أقل ترددًا مما كنت عليه فى الجزء الأول فيما يتعلق بالنموذجين، القديم والآرى، على اعتبار أنهما مثالين أو " قالبين أم " تصاغ الدراسة على منوالهما. فأما النموذج الآرى فيتناسب مع متطلبات الأستاذ كوهن بأن "القالب الأم" (Matrix) لابد وأن يكون دراسيًا (Disciplinary) ؛ لأنه ملكية عامة لممارسة الدراسة التخصصية ، وهو " قالب أم " لأنه مركب من عناصر تم تأليفها من ضروب شتى ، يتطلب كل ضرب منها مواصفات إضافية خاصة[٢٥] – وفى أحيان أخرى يحاول الأستاذ كوهين أن يبرهن – على غرار الصياغة التى يقترحها عالم الاجتماع بارى بارنز (Barry Barnes) - على أننا مع وجود " المثال " أو "القالب الأم الدراسى "[٢٦]:

" ليس بوسعنا أبدًا ...... أن نُوجِدَ مُبررًا عقليًا ذا سياق مستقل ، يسوغ لنا تفضيل الجديد على القديم ، أو أن نُوجد برهانًا يستعصى على الإلغاء " للتقدم "؛ فالمفاهيم والإجراءات تتغير، والمشكلات ومعايير الحكم تتغير كذلك .....وليس هناك شىء من شأنه أن يزودنا بمرفأ آمن أساسى للتقييم النسبى، كما أن الثورات تفصل بين أشكال الحياة العلمية غير القابلة للقياس ".

هذه مقولة تمت صياغتها فى اصطلاحات نظرية عن الأسباب الكامنة التى دفعتنى إلى تغيير مشروعى البحث ، من تقييم مستقل وغير منحاز للجدوى المعرفية لكل من النموذجين إلى إيضاح لما يمكن التوصل إليه عن طريق التكيف مع النموذج أو المقال الجديد، ثم إن الأستاذ كوهن يحاول أن يبرهن – من خلال مصطلحات تذكرنا

بصورة ملحوظة بالدياليكتيك الماركسى – على صحة التحول من صيغة للنتاج العقلى إلى الصيغة التالية لها، بقوله[٢٧]:

" ولسوف يعزف العلماء عن اعتناق (المثال الجديد) ولن ينثنوا عن ذلك إلا إذا اقتنعوا بتوافر شرطين فى غاية الأهمية: الأول وجوب نجاح المثال المرشح فى حل مشكلة بارزة أقر الباحثون بوجودها على نطاق عام ، وألا توجد طريقة أخرى غير طريقته لحل هذه المشكلة. والثانى وجوب محافظة المثال الجديد على قسط كبير نسبياً من القدرة على استنباط حل واقعى للمشكلة ، وهى قدرة تتمثل فى الإضافة الملموسة للعلم من خلال الباحثين السابقين ".

ويبدو هذا المعنى مماثلاً من نواح كثيرة لمفهوم " فائض القيمة التفسيرية (Surplus explanatory Value) الذى أصر عليه الأستاذ لاكاتوس (Lacatos) فى معرض نقده لما بدا له على أنه نزعة متصلبة أو استبدادية التغيرات الانتقالية للمثال عند الأستاذ كوهن[٢٨].

وإن الشذوذ الجسيم الذى قلل من شأن النموذج القديم كان يكمن فى التناقض الواقع بين اعتقاده بأن بلاد الإغريق قد تحضرت بفضل المصريين والفينيقيين وبين مفهوم " النظرة الشاملة إلى العالم " (Weltanschauung) الذى ساد خلال القرن التاسع عشر ؛ وهو مفهوم كان ينظر إلى الأجناس على اعتبار أنها محددات حاسمة للتاريخ وعلى اعتبار أن تسلسل السلالات تنازلياً من أبيض إلى أسمر إلى أسود إنما هو أمر بديهى. ولقد استطاع "نموذج الأصل القح" (Model of Auto Chthonores Origin) أن يتجاوز هذه المشكلة ويعلو عليها ، وهو نموذج لم يتم إيضاحه إلا خلال عقد السبعينات من القرن العشرين على يد كوهن رنفرو (Colin Renfrew) ، رغم أنه كان متضمناً بصورة غير صريحة عند كل من ك.و.ميللر (K.O. Muller) وجورج جروته (George Grote) خلال الفترة الواقعة ما بين ١٨٢٠–١٨٤٠م[٢٩]. ومع ذلك ، فإن هذا النموذج لم يتح للباحثين الفرصة لدراسة الديناميات الداخلية للفترة المبكرة من تاريخ بلاد الإغريق التى أغفل الأستاذ جروته دراستها تماماً[٣٠].

أما النموذج الآرى ، فكان قادراً على أن يحقق ما هو أكثر من ذلك ؛ إذ إنه زودنا بما أطلق عليه الأستاذ كوهن اسم " النموذج " (المثالى) لعلاقة اللغة اليونانية بسائر اللغات المنتمية إلى عائلة اللغات الهندو-أوربية. وأياً كان الأمر ، فإن هذا النموذج الجديد لم يحقق مطلب الأستاذ كوهن الثانى ، وهو المطلب الذى ينص على: " وجوب أن يعد المثال الجديد بالحفاظ على قسط كبير نسبيًا من القدرة على استنباط حل واقعى للمشكلة ، وهى قدرة تتمثل فى الإضافة الملموسة للعلم من خلال الباحثين السابقين". أما أولئك الذين دمروا النموذج القديم وهؤلاء الذين أسسوا النموذج الآرى فقد أقدموا – على العكس من ذلك تماماً – على محو الكتابة من فوق صفحة السبورة وشرعوا فى الكتابة من جديد. والسؤال المطروح هو: لماذا إذاً يتوافق علماء التاريخ المنتمين للقرن التاسع عشر مع النموذج الذى طرحه الأستاذ كوهن؟ ويبدو أن الإجابة على هذا السؤال تكمن فيما وقفوا عليه أو أدركوه من جسامة الشذوذ الموجود فى النموذج القديم ، وهو شذوذ دفعهم إلى أن يفضلوا عليه أى نموذج آخر ، أو يحبذون عدم وجود نموذج آخر على الإطلاق. وكان السبب الداخلى الوحيد لنجاح النموذج الآرى هو قدرته على تفسير الأساس الهندو – أوروبى الذى قامت فوقه اللغة اليونانية.

وبالتالى، فقد جرى تبادل للمواقع بين هذه الميزة التى لا جدال فيها وبين الحاجة إلى إنكار التراث الإغريقى من ناحية ، ووجود آثار كثيرة لثقافة الشرق الأولى فى بلاد الإغريق من ناحية أخرى ، وهى آثار وقف عليها الباحثون القدامى ولمسوها بأنفسهم. وباختصار ، فإن حقيقة حلول النموذج الآرى محل النموذج القديم هى حقيقة لا تمنح النموذج الآرى اليد العليا ولا تجعله يحظى بالتفوق .

خلاصة البراهين والأدلة:

وعند هذه النقطة أود أن أتحدث إجمالاً عن محتويات هذا الجزء ، كى أحيط القُرّاء علماً بعددٍ من الخيوط التى يمكن أن ترشدهم فى خضم تلك المتاهة التى هم على وشك أن يلجونها بما فيها من حقائق ووجهات نظر لا حصر لها. وكما ذكرت آنفاً ، فإن الجزء الذى بين أيدينا يركز على مصدرين من مصادر المعلومات هما علم الآثار

والوثائق المعاصرة المتعلقة ببلاد الإغريق خلال العصر البرونزى ، وبصلات بلاد الإغريق خلال العصر نفسه بسائر منطقة شرق البحر المتوسط. وهناك مصادر أخرى للمعلومات تشمل اللغة وتسميات المواقع الجغرافية ، وعلم الأساطير ، والديانة ، سوف تتم مناقشتها أيضًا فى هذا الجزء (بدون تفصيل) ، ولكنها سوف تغدو موضع تركيز عليها الضوء فى الجزئين الثالث والرابع.

والفصل الأول من هذا الجزء مخصص لجزيرة كريت قبل عام ٢١٠٠ ق.م. ، نظراً لأن هذه الجزيرة تتمتع بموقع فريد بين ثلاث قارات ، هى أفريقيا وأوروبا وآسيا ، وكانت فى كثير من الأحيان واحداً من أهم الجسور الرابطة بين هذه القارات. وهناك مسح مختصر لفترة العصر الحجرى الحديث فى جزيرة كريت منذ إدخال الزراعة والأوانى الفخارية إليها من شبه جزيرة الأناضول قبل عام ٦٠٠٠ ق.م.، وكذا للتأثيرات الوافدة إليها من مصر وليبيا ومن منطقة المشرق ومن جزر الكيكلاديس والجزء القارى من بلاد الإغريق من جنوبه حتى شماله ، وهى تأثيرات تتضح وتستبين من خلال الأطلال الأثرية المتبقية من هذه الفترة الزمنية الطويلة.

ولم تكن جزيرة كريت خلال فترة العصر الحجرى الحديث تحظى بذات القدر من الأهمية النسبية التى حظيت بها المناطق المزدهرة حول منقطة البحر الإيجى ، على اعتبار أن أكثر المناطق أهمية آنذاك كانت السهول الشاسعة المنتجة للقمح شمالى بلاد الإغريق. ولكن هذه المناطق المزدهرة بدأت فى التقهقر والتأخر مع بداية العصر البرونزى قبل عام ٣٠٠٠ق.م.، فى نفس الوقت الذى غدت فيه جزر منطقة البحر الإيجى الجنوبية وسواحلها أكثر ثراءً وتطوراً. وهناك قدر من النقاش الذى يثار حول أسباب هذا التحول الجغرافى ، ويحاول نفر من الباحثين أن يبرهنوا على أن السبب فى هذا التحول هو إدخال محاصيل جديدة من محاصيل البحر المتوسط إلى المنطقة من الشرق، ونخص منها بالذكر العنب والزيتون. غير أن هناك باحثين آخرين يتساءلون عن التاريخ الذى أدخلت فيه هذه المحاصيل ، ويفضلوا أن يؤكدوا على أن السبب هو التحسينات التى طرأت على الملاحة والسفن وزيادة التبادل التجارى تبعًا لذلك. وسواء أخذنا بالرأى الأول أو انحزنا للرأى الثانى ، فإن انتقال الازدهار من الشمال إلى الجنوب يبرهن على وجود مزيد من الاتصال مع منطقة الشرق الأدنى.

ولقد أكدت التقنيات العلمية الجديدة ، التى يمكن عن طريقها التوصل إلى تحديد دقيق للمكان الأصلى الذى جاءت منه الأوانى الفخارية والأدوات المعدنية المحتوية على مقدار من معدن الرصاص ، أكدت صحة وجهات النظر التى ذهب إليها " أنصار نظرية الانتشار المعدل" التى سادت خلال بدايات القرن العشرين. غير أن هذه النظرية كانت تسير فى الاتجاه المضاد لنظريات الغُلاة المتطرفين من " دُعاة الانفصال ذوى النزعة التنقيحية " بقيادة الأستاذ كولن رنفرو **(Kolin Renfrew)** ، أستاذ الآثار بجامعة كمبردج. فلقد بات واضحًا الآن أن الفترة الزمنية الممتدة من نهاية الألفية الرابعة إلى بداية الألفية الثالثة ق.م. كانت فترة تبادل تجارى واسع النطاق ، وهو تبادل تجارى يمتد من الشرق الأوسط حتى إسبانيا والمجر فى أقصى الغرب وحتى أفغانستان فى أقصى الشرق. وفى مثل هذا الامتداد الجغرافى الرحب يصبح التصور القائل بأن الاتصالات التى تمت حول منطقة شرق البحر المتوسط كانت محدودة أو مقيدة تصوراً لا معنى له(*).

وفى الفصل الأول ، الذى يتم فيه تسليط الضوء على جزيرة كريت ، نجد قدراً من النقاش حول إدخال طرق جديدة للتعدين وطرز جديدة لتصنيع الأوانى الفخارية إلى الجزيرة خلال تلك الحقبة الزمنية، بالإضافة إلى خصائص ثقافية أخرى يبدو أن منطقة المشرق كانت منشأها الأول . وإن لنا أن نعتبر بداية العصر البرونزى هى أكثر الفترات احتمالاً – فيما يبدو– لدخول إحدى اللغات السامية الغربية إلى جزيرة كريت ، لتصبح واحدة من اللغات المهمة – إن لم تكن هى اللغة السائدة – التى قدر لها أن تستمر فى الجزيرة حتى ظهور اللغة اليونانية خلال النصف الثانى من الألفية الثانية ق.م. ، ووجود آثار تشهد على وجودها فيها . ومن الواضح – فى ذات الوقت – أن الديانة الكريتية التى كانت سائدة خلال العصر المينوى المبكر كانت متأثرة بمصر أبلغ

(*) ما ظهر فى كريت ، فى النصف الثانى من الألفية الثانية ، لم يكن لغة يونانية ، بل هو فقط كتابة خطية، المعروفة باسم (Linear B) ، ولا علاقة لها بالأبجدية اليونانية فيما بعد ١١٠٠ق.م. راجع كتابنا/ تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠م حول علاقة مصر بكريت ومظاهر هذا التأثير المصرى الفنى والدينى. (المحرر)

التأثر ' إذ تم العثور على أدوات وموتيفات فنية مصرية ومشرقية فى الجزيرة منذ الألفية الثالثة ق.م.

ونجد كذلك قَدْرًا من النقاش حول الكتاب المتعلق بهذه الحقبة الزمنية ، والذى دونته عالمة الآثار لوسى جوديسون (Lucy Goodison) التى تنتمى إلى مذهب الأنثوية (Feminism) فى البحث العلمى. ذلك أن جوديسون هاجمت المفهوم السائد بأن الكريتيين كانوا يعبدون ربة أم من ربات الأرض ، وأقامت الدليل على أن الرسوم التصويرية والنحتية فى الجزيرة توضح أن الكريتيين كانوا ينظرون إلى الشمس باعتبار أنها أنثى. والحق أن هناك مبررات إيديولوجية ذات أهمية توضح السبب الذى حدا بباحثى القرنين التاسع عشر والعشرين إلى تفضيل صورة الأرض الأم باعتبارها موضوعًا ملائمًا للعبادة السائدة بين الشعوب غير الآرية. كما أن علماء اللغة – منذ بداية القرن التاسع عشر– ارتأوا أن الآريين شعب ذكورى روحى يعبد السماء ، وأن الشعوب التى انتصر عليها الآريون كانت شعوبًا أنثوية فى المقام الأول ومعنية أساسًا بالأرض وبالمادة. ورغم أن الشمس فى مصر القديمة كانت مذكرة ، فإن السماء كانت مؤنثة ، أما الأرض فكانت غالبًا مذكرة. ولقد كانت لوسى جوديسون على حق فى نظرتها إلى الديانة التى اعتبرتها كريتية بعد أن شكلت قوامها من جديد على نحو محدد. وعلى أية حال ، فقد ضربت جوديسون أمثلة مشابهة من الديانة المصرية القديمة لافتة للنظر، مثل تصور المصريين القدماء للشمس وكأنها تجر داخل زورق فى عرض السماء ، ومثل وجود سيدتين بصحبتها فى الصباح ، يبدو أنهما تماثلان الربتين المصريتين إيزيس ونفتيس (Nephthys) ، اللتين ذرفتا الدمع الهتون حزنًا على موت أوزيريس.

وعلى وجه الإجمال ، فيبدو واضحًا أنه كانت هناك صورا إقليمية مختلفة للثقافة داخل جزيرة كريت ، وأن هذه الصور المختلفة قد احتوت جميعها على عناصر محلية قدر لها الاستمرار منذ العصر الحجرى القديم ، غير أنها تكشف أيضًا عن وجود تأثيرات بالغة من قبل الثقافات المجاورة ، أى من جزر الكيكلاديس من ناحية الشمال ، ومن شبه جزيرة الأناضول من ناحية الشمال الشرقى ، بل وحتى من مصر بقدر أوفر من ناحية الجنوب، ومن منطقة المشرق من ناحية الجنوب الشرقى. ولقد قُدِرَ لوجهة

النظر الحريصة هذه ، المتفقة مع الفطرة السليمة ، أن تظل مقبولة تمامًا حتى عقد الستينيات من القرن العشرين ، أى بعد انقضاء فترة طويلة من الزمن من بزوغ النموذج الآرى المتطرف. فحتى عقد الستينيات من القرن العشرين ، لم يكن القبول العام بوجود تأثيرات شرقية فى الثقافة السابقة على الهيلينية يشكل سوى تهديد ضئيل للنموذج الآرى. ذلك أن الأقوام الناطقين بلغات ليست هندو-أوربية رغم كون أصولهم قوقازية ، ومعهم إلى حد ما الشعور الأوروبية السابقين على وجود الهيلينيين ، كانوا يقومون بدور المصفاة التى تنقى الثقافة الإغريقية من التأثيرات الأفريقية والسامية الوافدة إليها. ولقد حاول عالم الآثار المتميز النظرة نو الآراء التقدمية ، جوردون شيلد (Gordaon Childe) ، على سبيل المثال ، أن يثبت صحة نظرية "الانتشار المعدل" والتأثيرات الحاسمة الوافدة من منطقة الشرق الأدنى فى أوربا إبان العصور السحيقة، رغم أن شيلد نفسه كان - فى فترة شبابه - البطل المغوار المتحدث بلسان حال التفوق الآرى.

ومنذ عام ١٩٧٢ أصبح عالم الآثار كولن رنفرو ، الأستاذ بجامعة كامبردج ، هو الشخصية المهيمنة فى مجال تفسير الموضوعات المتعلقة بمنطقة البحر الإيجى إبان الألفية الثالثة ق.م. ذلك أن رنفرو اقتفى خطى اتجاه كان سائدًا فى الدراسات الأثرية والدينية الخاصة بالحضارة الإغريقية ، وهى دراسات تتصور أن أصول الثقافة الإغريقية ليست وقفًا على الآريين الذين ساد اعتقاد بأنهم نزحوا إلى بلاد الإغريق من ناحية الشمال ، بل تتمثل فى الشعوب الأصيلة التى كانت تقطن منطقة البحر الإيجى. وكان رنفرو يحاول فى الحقيقة أن يثبت صحة " نموذج الأصل القُح "، كما أنه ذهب إلى القول بأن أنماط اللغات الهندو-أوربية قد وفدت من خلال الزراعة، ليس فقط إلى بلاد الإغريق وحدها بل أيضًا إلى قارة أوروبا بأسرها. ويرى رنفرو - وفقًا لخطته البحثية - أن الأثر الحاسم فى الحضارة الإغريقية إنما يتمثل على الأرجح فى التأثير الكبير الوافد من قبل منطقة المشرق ومصر ، وهو تأثير كان بوسع الباحثين المبكرين أن يقفوا على آثاره فى حضارة كريت إبان الألفية الثالثة ق.م. وبناء على ذلك ، فقد كان من الضرورى بالنسبة له أن تكون بلاد الإغريق قد حَظِيَتْ بطفولة نقية لا تَشوبُها تأثيرات شرقية. وفى هذا يقول[٣١] :

" ولقد كانت هناك تغيرات لافتة للنظر ، حدثت بكل ميدان على امتداد ألف عام فى كل أرجاء منطقة جنوب البحر الإيجى .... ولم تكن هذه التطورات تدين للتأثير الشرقى إلا بالنذر اليسير ، وإن كانت الملامح الأساسية المميزة للحضارة المينوية – الميكينية التى أعقبتها قد تحددت خلال تلك الفترة ".

وطالما أن الأستاذ رنفرو قد استخدم مصطلح " الغُلاة من المتخصصين فى الدراسات الآرية " كوصفٍ للباحثين الذين أنكروا كافة التأثيرات المصرية والفينيقية فى بلاد الإغريق ، فمن الصعب على المرء أن يعثر على مصطلح آخر مناسب ينطبق على هؤلاء الذين يذهبون أبعد من ذلك ، فينكرون كافة المؤثرات الشرق-أوسطية فى الشعوب السابقة على وجود الهيلينيين ؛ على حين يرتأون فى ذات الوقت أن الأوربيين الأوائل مجرد مزارعين منتمين للعصر الحجرى الحديث أكثر من كونهم آريين مستخدمين لمعدن البرونز وللمركبات ذات العجلات. وفى تصورى أن مصطلح " الغُلاة من المتخصصين فى الدراسات الأوروبية " مصطلح لا يبعث فى النفس إلا أدنى درجة من الرضى.

أما الفصلان الثانى والثالث فيمنحان اهتماماً أكبر لمنطقة بويوتيا التى هى عبارة عن سهل يقع فى المنطقة الوسطى من بلاد الإغريق وتحيط به الجبال من كل جانب. وخلال هذا السهل كان يجرى عدد من الأنهار التى كانت تتكون عادة فى بعض أجزائها مستنقعات ضحلة على شكل بحيرات ، كان أكبرها كوبائيس (Kopais) ؛ وكانت هذه البحيرات فى الغالب مغلقة بغير منفذ يوصلها إلى البحر. ولكن حدث فى فترة ما من فترات العصر البرونزى أن جرى حفر قنوات وتشييد أنفاق – تم الكشف عنها حديثًا – للربط ما بين الكهوف ، وكان الغرض من هذه القنوات والأنفاق هو تجفيف البحيرات سالفة الذكر عن طريق إيجاد مخارج تتسرب إليها المياه إلى أن تصب فى البحر. ولقد اتضح لنا أن عمليات تجفيف هذه البحيرات وأن تقنيات الرى المستخدمة فى هذا السهل كانت بالغة التعقيد والتطور ، وأنه عندما قدر لها الانهيار فى نهاية العصر البرونزى لم يحل محلها نظام بديل حتى القرن التاسع عشر الميلادى، برغم بذل محاولات وجهود عقد العزم عليها.

ولم يكن هذا الطراز من التعقيد ذى المستوى الرفيع فى إنشاء مثل هذه الحواجز والأنفاق موجوداً ومنفذاً فى حوض البحر المتوسط آنذاك على هذا المستوى إلا فى مصر. وبالتالى ، فإن هذا النظام المتطور للرى فى بويوتيا ، بالإضافة إلى وجود رابية صناعية مدرجة بالغة القدم اعتقد العالم الذى كشف عنها حديثًا أنها تقليد لهرم مصرى ، إنما هما أمران قمينان (بإقناعنا) بإمكانية وجود تأثير مصرى - إن لم يكن استعماراً مصرياً - فى منطقة بويوتيا خلال العصر البرونزى المبكر.

ويبدأ الفصل الثانى بمسح شامل للروابط الموجودة بين بويوتيا ومصر والتى أمكن للكتاب الكلاسيين والهيلنستيين الوقوف عليها وتبنيها. وتمثل هذه الروابط جزئياً فيما يمكن استنباطه من تسمية عاصمة كل بلد من البلدين باسم طيبة(*)، بل إنها تمثل أكثر من ذلك فى التشابه القائم بين ضفاف النيل والدلتا من ناحية ، وبين الشواطئ ذات المستنقعات لبحيرة كوبابيس فى بويوتيا من ناحية أخرى. ومع ذلك ، فإن القسم الأكبر من الفصل الثانى يوجه عناية خاصة بالنظائر الأسطورية وتلك المتعلقة بالعبادات بين كل من بويوتيا ومصر. وهناك أهمية خاصة حول نشأة عبادة للربة أثينا على الشاطئ الجنوبى لبحيرة كوبابيس ، إذ اعتقد أنه يمكن إرجاعها إلى عبادة نظيرة الربة أثينا المصرية ، وأعنى بها الربة نيت (Neit) بوصفها ربة مختصة بتنظيم توزيع الماء. وهناك أسطورة مصرية تصور الربة نيت على صورة بقرة تواصل السباحة فى (قنوات) الدلتا إلى أن تستقر فى نهاية الأمر عند بقعة أصبحت فيما بعد سايس (Sais) ، المدينة المقدسة لهذه الربة. وتشبه هذه الأسطورة المصرية بصورة لافتة للنظر أسطورة إغريقية عن كادموس ، مؤسس مدينة طيبة الإغريقية ، حيث مثلته وهو يقتفى خُطَى بقرة إلى أن حطت رحالها عند موقع المدينة التى قدر لها مستقبلاً أن تصبح مدينته.

(*) كلمة "طيبة" مصرية قديمة مكونة من لفظين هما : " تى " ، وهى أداة التعريف فى اللغة المصرية القديمة، "إبة" بمعنى المكان أو الموقع الممتاز. ومنها أخذت الكلمة اليونانية "ثيباى"(Thebai) التى أطلقت على مدينة طيبة الإغريقية. (المترجم)

ولقد قام كادموس بعد ذلك بالتضحية بهذه البقرة هناك ، ثم أسس فى مدينته عبادة الربة أثينا الملقبة بلقب غامض هو أونجا (Onga) أو أونكا (Onka) . ولم يكن الكاتب القديم والرحالة المشهور بأوسانياس يملك تفسيراً لأصل هذا اللقب ، ولكنه أعرب عن اعتقاده بأنه فينيقى فى الوقت الذى آمن فيه كتاب آخرون بأنه مصرى. ويكاد أن يكون من المؤكد أن التسمية " أونكا " ترجع إلى اسم الربة المصرية "عنقت" (cn kt) التى عرفت لدى إغريق العصر الهيلنستى باسم أنوكيس (Anukis) ؛ وأنوكيس هى ربة جنادل النيل وربة الجزر الواقعة فى مجراه المتشعب عند هذه الجنادل. ومن الأمور التى تخلب اللب فى هذا الصدد أن نجد أن مدينة طيبة الإغريقية قد شيدت على حافظة جرف تتدفق فوق ثلاثة جداول يتشابك مجرى كل منها مع الاثنين الآخرين. أما الاسم الأسطورى الآخر المناظر للقب " أونكا " - وهو أونكايوس (Onkaios) فى منطقة أركاديا بشبه جزيرة البيلوبونيس - فكان مرتبطًا باللسان المنبسط لمجرى نهر الأردن سريع الجريان ، حيث تتفرق مياهه لتكون مجموعة من الجزر. ومن الواضح أن هناك تورية متضمنة فى الجذع السامى " عنق " (c nq) الذى يعنى العقد (Necklace) . ذلك أن الأساطير المتعلقة بتأسيس مدينة طيبة - وبوجه خاص تلك الأساطير التى تدور حول هارمونيا (Harmonia) زوجة كادموس - ترتبط أشد الارتباط بالحديث عن العقود وغيرها من الحبال أو الأربطة.

وهناك أيضًا قدر من الأهمية يتعلق بسيدة أسطورية أخرى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمدينة طيبة الإغريقية ، وهى ألكمينى التى غرر بها الإله زيوس وعاشرها ، وكان من نتيجة ذلك أنها أنجبت ابنه هيراكليس (=هرقل). ولذا فقد تم تخصيص قسط وافر من الفصل الثانى للتأمل فى الخيوط المتشابكة التى تجمع بين العناصر الوافدة من بلاد ما بين النهرين ومن المنطقة السامية الغربية ومن مصر، وهى عناصر تفاعلت فيما بينها وتضافرت كى تسهم فى خلق صورة أعظم بطل إغريقى ، وعلى وجه التحديد طيبى. هذه الأحداث السالفة عبارة عن معبودات زلقة ومراوغة للغاية من كافة الثقافات الثلاث المذكورة ، غير أنها تتضمن كذلك فراعنة من الملوك المصريين وبوجه خاص من ملوك الدولة الوسطى ، الذين سوف تتم مناقشة فتوحاتهم وانتصاراتهم وما هو مرجع من تأثير لهم فى بلاد الإغريق فى الفصول الأخيرة من هذا الكتاب.

ويثير هذا قضيتين أكثر عمومية ، تتلخص الأولى منهما فى أن ما كان يُنظر إليه بوجه عام على أنه مفهوم إغريقى مميز عن البطل نصف المؤله المنجدر دومًا من سلالة ملكية ، يمكن رد أصله إلى الرجل - الإله أو الفرعون المؤله فى مصر. أما الثانية فمفادها أنه قد يوجد قدر من الحقيقة المادية فى أفكار الكاتب الإغريقى يوهيميروس (Euhemeros) ، الذى كان معاصراً لفتوحات الإسكندر الأكبر المذهلة ولتأسيس الممالك الهيلنستية التى يتمتع حكامها بالقدسية؛ ذلك أن يوهيميروس قد حاول أن يثبت أن الاعتقاد بوجود الأرباب قد صدر عن أشخاص متميزين لا مثيل لهم. ولقد استخدم مصطلح " اليوهيميرية " (Euhemerism) فى العصور الحديثة بمعنى مغاير لهذا المعنى تمامًا - وأنا واحد من الذين يمكن توجيه اللوم لهم على ذلك الاستخدام - ألا وهو وصف تحول الشخصيات الأسطورية الخالدة إلى شخصيات تاريخية من بنى البشر. وليس هناك شك - فى حقيقة الأمر - فى أن كلتا العمليتين تتكرران بصورة نسبية ، وبالتالى فإنه من المحتمل فى هذه الحال أن فراعنة الدولة الوسطى كانوا بمثابة عناصر أساسية مهمة فى تشكيل صورة البطل هيراكليس.

وعلى وجه الإجمال ، فإن الفصل الثانى يقدم توضيحًا للنظائر الأسطورة التى تتسم بالتفصيل والتعقيد والتى توجد بين إقليم بويوتيا وبين الشرق الأدنى ويعود القسط الأكبر منها إلى فترة العصر البرونزى ، على حين يعود بعضها إلى الألفية الثالثة ق.م. وهو أمر لابد منه لكى يزودنا بخلفية تتيح لنا تقييم الدعاوى المتصارعة التى ذهب إليها علماء الآثار المحدثين عن إقليم بويوتيا ، وهو ما سوف تتم مناقشته فى الفصل الثالث. وكما سبق أن ذكرنا ، فهناك مؤشران ماديان أساسيان يبرهنان على احتمال وجود تأثير مصرى فى العنصر البرونزى. وأولهما هو "المدفن" أو "الهرم" المنسوب لكل من أمفيون (Amphion) وزيثوس (Zethos) ، ومن المؤكد أنه بناء ضخم شيد على أيدى بنائين ، وأنه قد حَظِىَ بقدسية غير عادية خلال العصرين الكلاسى والهيلنستى ، وأن أميفون وزيثوس قد اعتبرا مؤسسين لمدينة طيبة الإغريقية. فلقد ثار الجدل منذ العصر الكلاسى حول كونهما المؤسسين الأولين لمدينة طيبة أم لا ، بمعنى هل قَدِما إلى مدينة طيبة الإغريقية قبل كادموس ، كما أن المؤرخ فريكيديس (Pherekydes) - الذى ساد اعتقاد كبير بأنه استخدم مصادر فينيقية - يضيف إلى

هذه المعلومة أن المدينة التى أسسها كلاهما قد دمرت ، وأن كادموس عندما وفد إلى المنطقة أعاد بناء مدينة طيبة الإغريقية على أنقاض المدينة (الأقدم) فى نفس الموقع.

وهناك قدر من الشك فى هذه الرابية (=المدفن) ترجع فى زمنها إلى عصر الخزف المعروف لدينا باسم العصر الهيللادى المبكر الثانى EH II (Early Helladie II=) ، والذى تمتد فترته ما بين عام ٣٠٠٠ وعام ٢٤٠٠ ق.م. ، بمعنى أنه يتزامن مع عصر الدولة القديمة فى مصر. ويعتقد الأستاذ ثيودوروس سبيروبولوس (Theodoros Spyropoulos)، الذى أشرف على الحفائر المتعلقة بهذه الرابية ، أن بناء المدرجات فيها متطور ورفيع المستوى ويشبه إلى حد بعيد الأهرامات المصرية المبكرة(*) ، وقد تم نهب المدفن المقام على قمة هذه الرابية. ورغم أن سبيروبولوس يعتقد أن المكتشفات القليلة التى تم العثور عليها فى الموقع الأثرى قد وفدت من مصر، إلا أنه من الصعب علينا أن نحدد أصلها على وجه اليقين. ولو أننا أخذنا فى الاعتبار الخلفية الأسطورية التى سلفت الإشارة إليها وحقيقة كوننا نعرف أن المصريين كانوا حتى هذه الفترة الزمنية مستمرين فى تشييد أهراماتهم ، فقد يبدو من المنطقى أن نفترض وجود تأثير مصرى على أقل تقدير - إن لم يكن وجوداً مصرياً - وأن هذا التأثير يتمثل فى الأعمال الإنشائية الضخمة المطلوبة لإقامة مثل هذا الأثر.

ولقد أظهرت الحفائر التى جرت حديثًا وجود مستوى عالٍ من الرخاء والتمدن فى منطقة بويوتيا خلال العصر الهيللادى المبكر الثانى (EH II) . ومن اللافت للنظر حتى الآن وجود تلك " المبانى الدائرية " - التى يطلق عليها الألمان اصطلاحًا اسم (Rundbauten) ، وهى مبانى تنتمى لهذا العصر تم العثور عليها بالقرب من مدينة أورخومنوس (Orchomenos) ، على الشاطئ الشمالى بحيرة كوبابيس. وأكثر التفسيرات مدعاة للقبول هو أن هذه المبادئ كانت صوامع للغلال. ولقد أوضح الأستاذ سبريذون مارينانوس (Sprydon Marinutos) ، الذى ظل عميداً لعلماء الآثار فى بلاد اليونان حتى رحيله عن الحياة فى أواخر السبعينيات من القرن العشرين ، أن هذه

(*) والإشارة هنا إلى هرم زوسر المدرج بسقارة الذى كان مكونًا من عدة مصاطب يعلو بعضها بعضاً . (المترجم) .

الصوامع تشبه إلى حد بعيد صوامع مماثلة تم العثور عليها فى مصر ، ووجدت لها صور واضحة فى رسوم المقابر المصرية. وبناء على ذلك، فقد حاول ماريناتوس أن يُثبت أنها تبرهن على وجود تأثير مصرى فى المنطقة خلال هذه الفترة المبكرة من الزمن. ومن ناحية أخرى، فإن وجود هذه الصوامع كانت منتشرة على نطاق واسع فى السهل، سواء على شواطئ بحيرة كوبايس أو على ضفاف نهر كيفسوس (Kephissos) الذى كان يجرى فى هذا السهل ، وقد يبدو رغم ذلك ، أن من الأكثر مدعاة للتصديق أن نفترض أن هذه الوفرة الملحوظة فى الحبوب كانت نتيجة لعمليات التجفيف الاصطناعية ولنظام الرى الذى كان سائداً.

أما الفكرة القائلة بأن تاريخ أقدم الحواجز المقامة فوق الأراضى المنخفضة المستصلحة فى حوض بحيرة كوبايس يرجع إلى العصر الهيللادى المبكر الثانى ، فهى ليست بفكرة جديدة. ذلك أن المهندس لوفر (Lauffer) ، عالم الآثار الألمانى الذى كرس حياته العلمية بأسرها لدراسة الإنشاءات الهيدروليكية ، قد اعتقد أن تاريخ هذه الحواجز يعود بالفعل إلى هذا العصر المذكور. غير أن من خلفوه من الباحثين المحدثين كانوا أكثر منه احترازاً وحذراً، إذ إنهم اكتفوا بأن أكدوا أن أقدم هذه الإنشاءات يعود إلى فترة ما قبل العصر الميكينى. ولكن سبيروبولوس يؤكد أنه عثر على فخار يعود تاريخه إلى العصر الهيللادى المبكر الثانى فوق أحد هذه الحواجز ، وبالتالى فإنه يعزز موقف الأستاذ لوفر. وهكذا ، فإن نقطة التقاء تتجمع فيها الأدلة المتمثلة فى : الهرم ، حواجز الماء ، المبانى الدائرية ، والرخاء البادى بوجه عام خلال هذه الفترة ، وهى أدلة تبرهن على وجود أعمال إنشائية بالغة الفخامة فى منطقة بويوتيا خلال منتصف الألفة الثالثة ق.م. وعلاوة على ذلك ، فليس " الهرم " وحدة ولا " المبانى الدائرية " فقط هى التى تدل دون سواها على أن هذه الأعمال الإنشائية كانت وثيقة الصلة بمصر؛ ففى تلك الفترة تقريباً وجدت طرق متطورة رفيعة المستوى لتجفيف المستنقعات وللرى فى بلاد ما بين النهرين قدر لها أن تستمر لعدة آلاف من السنين. ومع ذلك، فمصر كانت أقرب موقعاً وكانت منهمكة فى إنشاء الأعمال الهيدروليكية الضخمة خلال عصر الدولة القديمة. وبالتالى، فقد يبدو من الأرجح أن تكون مصر هى مصدر الخبرة اللازمة للتعامل مع المشكلات المعقدة التى كانت لازمة للتحكم فى بحيرة كوبايس.

ولم تكن بويوتيا هى المنطقة الوحيدة فى بلاد الإغريق التى تم تجفيف أرضها وريها خلال العصر البرونزى ، فلقد وجدت حواجز عديدة وسدود مشابهة فى منطقة أركاديا الجبلية وسط شبه جزيرة البيلوبونيس. ولم يتم تحديد تاريخ لإنشاء هذه السدود ، ولكن المتخصصين فى علم الآثار والمهندسون الذين قاموا بمسحها يعتقدون أن مواطن الشبه الكائنة فيها تدلل على أن إنشاءها تم فى نفس العصر الذى تم خلاله إنشاء نظائرها فى بويوتيا. بل إن هناك ما هو أشد من هذا روعة ، وأعنى به السد الضخم المقام قرب مدينة تيرنس (Tiryns) فى سهل منطقة أرجوس، إذ تم إنشاء هذا السد على مقياس أضخم من السدين القائمين فى بويوتيا وأركاديا، فضلاً عن عدم وجود أوجه للتماثل بينه وبينهما.

ولقد ازدادت إمكانية الاعتقاد بأن سد مدينة تيرنس قد بدأ إنشاؤه أيضًا خلال العصر البرونزى المبكر(*)، عندما تم العثور على مبنى دائرى (Rundbau) (أو صومعة) ذى أبعاد بالغة الضخامة لدرجة توحى بأنه كان قمينًا بتخرين كافة المحاصيل التى كانت تزرع بسهل أرجوس. ولا يبرهن هذا فحسب على توافر رخاء ملحوظ ، بل يدلل كذلك على إدارة سياسية مركزية وقوية – أو على الأقل إدارة اقتصادية مؤثرة – من طراز يعجز الأستاذ رنفرو عن تخيله ، استناداً إلى نموذجه الذى يذهب فيه إلى القول بأن الزراعة كانت على نطاق ضيق خلال ذلك العصر. ولقد أوحى إلينا المبنى المهم – الذى تم اكتشافه فى ليرنا (Lerna) خلال تلك الحقبة الزمنية والذى يعرب اسم "منزل القرميد " – أوحى إلينا كذلك بمثل هذا الطراز الفائق من قوة الإدارة والتنظيم. وسواءً كان هذا المبنى قصراً صغيراً أو مقراً لمجلس من المجالس ، فهو يؤكد الصورة التى أوحى بها " المبنى الدائرى " من وجود إدارة مركزية متطورة على مستوى رفيع.

ويولى الفصل الثالث أيضًا عناية خاصة بأسماء الأماكن الجغرافية ومواقع الفيضانات والرى. فالاسم فينيوس (Pheneos) أو بينيوس (Peneios) - على سبيل

(*) هذا وإن كان العالم الألمانى كيليان (Kilian) - مدير حفائر المعهد الألمانى للآثار فى أثينا – فى صيف عام ١٩٨٠ حينما كنت ضمن البعثة الأثرية الألمانية فى حفائر تيرنس – قد أكد أن هذا السد يؤرخ بالعصر الميكينى ١٦٠٠–١٢٠٠ ق.م. (المحرر).

المثال – كان أحد الأسماء الشائعة التى تُطلق على الأنهار والبحيرات ، وكان يتم تداوله وإطلاقه فى كافة أرجاء بلاد الإغريق ، وبوجه خاص فى إقليم تساليا الذى يقع شمال بويوتيا وفى أركاديا. وليس لهذا الاسم أصل هندو-أوربى ، ويبدو أنه مأخوذ على الأرجح عن الكلمة المصرية القديمة "بوونوى " [P ; Nw (y)] (=الفيضان). ولقد وُجِدَتْ أدلة قوية فى كل من تلك المنطقتين تُثبت أو الزلازل كان بوسعها أن تُسفر عن وجود كُتَل من الأرض على شكل سدود تؤدى إلى حدوث فيضانات ، كما كانت تنتج عنها روايات أسطورية قديمة تربط بينها وبين الفيضانات ونظم الرى التى لا يتصدى لها سوى الأبطال .

ومن أهم الأسماء شيوعًا فى بلاد الإغريق اسم كيفيسوس [Kephis(s)os] ، وأعتقد أن هذا الاسم مأخوذ عن تسمية مصرية قديمة لموقع جغرافى ، هى: " كفو " [Kbh (w)] ، وهى كلمة تطلق فى مصر بصورة عامة على الجداول والأنهار ومجارى المياه الأخرى. ومن الواضح أنها مرتبطة بكلمتين من اللغة المصرية القديمة ، هما: "كب" (Kbb) (= بارد) و "كف" (Kbh) (= نقى) . وكانت كلمة " كب " تسمية تُطلق على الكهفين الكبيرين الموجودين فى النيل قرب جزيرة إلفانتين عند الشلال الأول ، واللذين كان يُفترض أن نهر النيل ينبع أو يستمد مياهه منهما ، ويبدو أنه كان هناك ارتباطٌ بصفة عامة بين التسمية " كفو " وبين المياه الباردة النقية التى كانت تنبجس من باطن الأرض. وكان هناك اعتقاد بأن كثيرًا من الأنهار – إن لم يكن جميعها – التى تسمى باسم كيفيسوس كانت تنبع من تحت الأرض أو تصب مياهها داخل الأرض ، وأن مياهها كانت تستخدم فى طقوس التطهير. وكانت كلمة "كفو" تستخدم أيضًا كتسمية خاصة للمكان الذى تكثر فيه البرك والمستنقعات أو البحيرات التى ترتادها الطيور المائية. وقد يبدو مثل هذا الاشتقاق ملائمًا للاسم الذى أطلق عليه بحيرة كيفاياى (Kêphayai) فى أركاديا ، وعلى اسم بحيرة كوباييس ذاتها التى كان يصب فيها نهر يسمى كيفيسوس.

وكانت هناك مدن عدة تحمل اسم " أورخومنوس " فى كل من بويوتيا وأركاديًا ، وكانت هذه المدن تتميز بوقوعها بالقرب من حواجز وقنوات تنتمى للعصر البرونزى. ومن الواضح أن هذا الاسم الجغرافى ، وأعنى به " أورخومنوس " ، يرجع فى تاريخه

إلى العصر البرونزى ، حيث إنه دُوِنَ فوق ألواح كتابية مكتوبة بالخط الثانى. ولقد اقترح البعض أن هذا الاسم مشتق من جذع هندو-أوربى بمعنى " قريب " أو " دانى " ، وأنه تَشَكَّل من هذا الجذع -فى اللغة اللقوانية (Likuanian) -وهى لغة هندو-أوربية - الفعل (Veróiu) (= يطوق، يحصر ، يحبس). ومع ذلك ، فقد يبدو أن هناك اشتقاقًا - أكثر مدعاة للقبول - يتمثل فى الجذع الكنعانى " عرك "(*) (Irk) ، الذى يعنى أساسًا " ينظم فى صفوف " ، " يصف "، وفى السياق العسكرى يمكن ترجمته " يعد الجيش للقتال ". وقد يبدو أن هذا الجذع " عرك " كان هو الأصل لطائفة متشعبة من الكلمات الإغريقية التى تبدأ بالسابقة (-arch) ، وهى كلمات ليس لها أصول هندو-أوربية ، وتعنى " يسير أولاً " ، أو " يكون على رأس "، " يتزعم " فى السباق العسكرى. إذًا ، فمن المحتمل أن الكلمات الإغريقية المبدوءة بالسوابق (-orch) ، أو (-erch) ، قد تم اشتقاقها جميعًا من الجذع السامى "عرك". وهذا أمر من شأنه أن يعزز الافتراض بأن كلمتى "أورخومنوس" و "إرخومنوس" (Erchomenos) تعنيان "مكانًا منظمًا" أو "موقعًا يمكن التحكم فيه"، وأنهما تشيران إلى الحواجز أو السدود والقنوات القريبة منه. وعلى الرغم من ثبوت الأصل السامى لهاتين الكلمتين بصورة نهائية ، إلا أن اللاحقة - (menos) الموجودة فى كل منهما توحى بأنها نهاية اسم مفعول فى حالة البناء للمجهول وفقًا لخصائص النمو فى اللغة اليونانية القديمة، الأمر الذى يجعل اسم الموقع الجغرافى نفسه يبدو فى الصورة الإغريقية. وأيًا كان الأمر ، فقد يبدو أنه وجدت ظاهرة يطلق عليها علماء اللغة بطريقتهم المشوقة اسم " التشويه الاشتقاقى " (Contamination) ، وبناء على هذه الظاهرة فإن كلمة " أورخومنوس " قد تكون محوَّرة عن الكلمة السامية (mayîm) (= المياه)(**)، وبالتالى فقد يكون من الأصوب أن نترجمها " بالمياه التى جرى التحكم فيها "، وهو ما يتناسب تمامًا مع السياق.

(*) وأعتقد أن من هذا الجذر " عرك " جاءته الكلمة العربية " عرك ، يعرك " وكذلك الاسم المشتق منها "معركة ". (المترجم)

(**) النهاية (im) فى السامية نهاية نحوية تفيد الرفع ، وبالتالى فإن الجذع المشترك بين السامية والعربية هو "ماى ". (المترجم)

ويجب أن يتم النظر إلى هذه الاشتقاقات الممكنة فى سياق الأعمال الإنشائية التى كانت متبعة بالفعل قديمًا فى الرى ، والاحتمال الأرجح هو أن المهارات اللازمة لهذه الأعمال لابد وأن تكون قد وفدت أولاً من مصر وثانيًا من منطقة المشرق ، كما أن الروايات المتواترة القديمة كانت تربط بين الذين هاجروا من مصر وبين نظم الرى المبكرة. ولكن الصعوبة الكبرى تكمن فى الوقوف على الخصائص المميزة لهذه الفترة الواقعة فى نطاق العصر البرونزى ، والتى وفدت إبانها التسميات التى تمت الإشارة إليها فى دور التطور خلال الألف الثانية ق.م.، ومن الملاحظ أن الألفاظ الخاصة بها قد وفدت خلال الفترة الأخيرة فقط من تطورها. وقد يبدو هذا من حكم المؤكد عمليًا ، لو أن المرء قام - فى حقيقة الأمر - بجعل تاريخ وصول اللغة الهندو - أوروبية إلى بلاد الإغريق يتزامن مع نهاية العصر الهيللادى المبكر الثانى أو مع بداية العصر البرونزى الوسيط. ولكن من المحتمل أن بعض العبادات والتقاليد - وعلى الأخص ما يتعلق منها بالربة الراعية للرى " نيت / أثينًا " وبمعاركها مع الإله " ست / بوسيدون " الممثل للقوة البرية - ترجع فى تاريخها إلى فترة زمنية أسبق.

وهناك إشارات متكررة - وهو أمر مثير للاهتمام - فى التراث الإغريقى إلى ما يمكن تسميته باسم " الأسس المزدوجة " ، ويكفى أن نذكر هنا مثالاً واحدًا عليها ، وهو يتمثل فى بساطة فى الممارسة اللاهوتية والأسطورية لتطبيق الازدواجية بصفة عامة بغية إضفاء مزيد من الغموض ، بمثل ما نرى فى حالات الأرباب ذوى المولد المزدوج والأرباب الذين لديهم والدان أو والدتان فى نفس الوقت(*)، وما إلى ذلك. ويمكن أن يتطابق هذا المفهوم مع المتطلب البنائى الأسطورى الذى نادى به الأستاذ ليفى شتراوس (Lévi-Strauss). وفى هذه الحال قد يبدو أن الازدواجية قد بنيت على أساس تاريخى، ومن الممكن أن الإغريق الذين كانوا يعيشون خلال فترة عصر الحديد يدركون بطريقة غامضة على نحو ما أنه لا يوجد عصر مظلم واحد فحسب سابق عليهم ،

(*) مثل الإله ديونيسوس الذى وُلِدَ من رحم أمه " سيميلى " ومن رحم صناعى هو فخذ والده " زيوس ". ويُرجَح أن اللقب " ديثيرامبوس " الذى لقب به الإله - وهو كلمة مجهولة وصعبة حتى الآن - يمكن أن يعنى " ذو المولد المزدوج ". (المترجم)

وأعني به عصر سقوط موكيناى ، وعودة آل هيراكليس خلال العقود الزمنية التى تلت حرب طروادة ، بل يعرفون أيضًا أن هناك عصورًا أخرى أكثر منها قدمًا مثل العصر الذى حدث إبَّانه الطوفان على أيام ديوكاليون(*) (Deukaliôn) ، والذى يمكن تحديده تاريخيًا بحوالى عام ١٦٠٠ ق.م. ، أو مثل عصر آخر أقدم من سواه جميعًا ثم فيه - إلى جانب أعمال أخرى - تدمير مدينة طيبة الإغريقية التى أسسها أميفون وزيثوس.

وليس هناك شك فى أن مجتمع بلاد الإغريق خلال فترة العصر الهيللادى المبكر الثانى (=عصر الخزف) كان يحظى برخاء اقتصادى وافر للغاية وبازدهار وتطور رفيع المستوى ، ولا جدال أيضًا فى أن كثيرًا من الخصائص المميزة لما بقى لنا من آثاره تشى بأنها جَدُّ مصرية. وعلاوة على ذلك ، فقد لا يصيبنا بالدهشة وجود تأثير مصرى فى بلاد الإغريق إبَّان هذا العصر ، حيث إن مصر كانت تحيا آنذاك فى ذروة عصر الدولة القديمة. ورغم أنه لم يتم العثور على مقتنيات أثرية مصرية بالغة الوضوح خلال تلك الفترة فى بويوتيا أو أركاديا ، إلا أنه تم العثور على عدد قليل من المكتشفات الأثرية المصرية ذات الأهمية التى تنتمى لعصر الدولة القديمة فى أماكن أخرى فى منطقة البحر الإيجى ، وليس فقط فى جزيرة كريت. وعلى وجه الإجمال ، فإننى أحاول فى الفصل الثالث أن أثبت أن هناك برهانًا ماديًا مقنعًا يمكن صياغته عن وجود تأثير مصرى مهم - إضافة إلى وجود تأثير مشرقى ولكن بدرجة أقل - فى الجزء القارى من بلاد الإغريق وكذلك فى منطقة البحر الإيجى خلال الألفية الثالثة ق.م.

وقرب نهاية الألفية الثالثة ق.م. اتخذت التطورات الحادثة فى جزيرة كريت صورة مختلفة للغاية عن نظائرها التى وقعت فى الجزء القارى من بلاد الإغريق. وقبل هذا الوقت، يبدو أن الازدهار ، والمعيار الذى سارت وفقًا له التفاعلات الاقتصادية فى الشمال قد أصبحا بغير جدال أعظم من نظيريهما فى جزيرة كريت. وعلاوة على ذلك ، فبرغم عثورنا فى جزيرة كريت على مقتنيات أثرية أوفر تنتمى لعصر الدولة القديمة فى مصر ، وعلى مقتنيات أخرى مشرقية تنتمى إلى بواكير الألفية الثالثة ق.م. ووسطها

(*) ديوكاليون ، هو ابن ديوكاليون من هذا العقاب ، فقام الأخير ببناء فلك أو سفينة له ولزوجته بيرها وتمكن عن طريقها من النجاة من الفيضان والرسو على جبل برناسوس. (المترجم)

– وهو الأمر الذى حاولنا فيما سبق إثبات صحته – إلا أنه فيما يبدو كان هناك اتصال واسع النطاق بين وسط منطقة البحر الإيجى وشمالها وبين منطقة الشرق الأوسط. إذ إن الاختلاف بين بلاد الإغريق وكريت لم يحدث إلا بعد نهاية كل من العصر الهيلادى المبكر الثانى (=عصر الخزف) والعصر الميكينى المبكر الثانى فى جزيرة كريت خلال القرن الرابع والعشرين ق.م. فلقد حاقت صورة من الدمار ببلاد الإغريق أعقبها انهيار مظاهر التمدن وانخفاض كثافة الاستيطان. أما فى كريت – فعلى العكس من ذلك – فقد كان هناك تطور أُطلق عليه اسم " العصر الأول لحضارة القصور " ، وهو تطور أسفر عن تشييد القصور الكريتية ذات الحجم الكبير ، والتى يبدو أنها بُنِيتْ فى القرن الأخير من الألفية الثالثة ق.م.

ولقد ثار جدل مُحتَدِم حول أسباب تطور الحياة الكريتية ، من مجتمع مثقف رغم كونه غير متمدن خلال العصر المينوى المبكر إلى مجتمع قائمٌ على تشييد القصور وحياة البلاط، يتكون من دويلات ذات حجم كبير بصورة منطقية ويدار بطريقة بيروقراطية. ورغم أن الأستاذ رنفرو – ومعه نفر من الغلاة من أنصار المركزية الأوربية – يقرون بأن الانتقال كان ذا أهمية حاسمة ، إلا أنهم لم يحاولوا أن يبرهنوا – وهو أمر مثير للدهشة – على أن هذا الانتقال قد تم بالضرورة على يد سكان أصليين غير نازحين أو وافدين. ولكن أنصار اتجاه "الانتشار المعدل " من ناحية أخرى – ومن بينهم مؤسس علم الآثار الكريتية السير آرثر إيفانز (Arthur Evans) وتلميذه اللامع ج.د.س. بندلبيرى (J.D.S. Pendlebury) - قد لاحظوا كثرة عدد المقتنيات الأثرية بصورة ملحوظة ، سواء من منطقة المشرق أو من مصر ، خلال طبقات العصر الميكينى المبكر الثالث ، كما لاحظوا أيضًا أن التغيرات التى طرأت على تقنيات تشغيل المعادن وعلى تصميم الأحجار وصناعة الأوانى الفخارية تعكس وجود تأثيرات مشرقية ومصرية على التوالى. ولقد استلفت نظرهم كذلك التشابه الجوهرى بين عمارة التصور الكريتية والنُظُم الإدارية المُتبَعة فى إدارتهم للقصور الملكية ، وبين نظائرها التى سبقتها زمنيًا بقرون عديدة فى الشرق الأوسط. وبالتالى ، فقد أصبحوا أكثر ميلاً – نتيجة لهذا الذى لاحظوه – إلى ربط هذا التحول بالتأثيرات الشرقية.

ومن الجدير بالذكر أن يتوصل عدد من الباحثين الأثريين الأصغر سنًا فى جامعة كامبردج إلى استنتاج مشابه ، ولكن عن طريق مغاير تمامًا لهذا الطريق. وحيث إن هؤلاء الباحثين الأثريين الشبان قد تلقوا العلم على أيدى الغُلاة من أنصار المركزية الأوروبية ، فقد روعتهم الصعوبات التى حالت بينهم وبين توليف الدليل الأثرى داخل النموذج الارتقائى السلس ، الذى اقترحه الأستاذ إيفانز وسار على نهجه الأستاذ رنفرو إلى حد معين. وبالتالى، فهم يستخدمون الآن اللغة التى كان يستخدمها قبلاً نقاد نظرية " داروين " من " النشوء والارتقاء "، كما يتحدثون عن " التوازنات المتقطعة (Punctuated equilibiria) . ولقد استلفت نظر هؤلاء الباحثين كذلك أن الفترة الأولى من عصر حضارة القصور كانت تتميز بوجود زيادة حادة فى وسائل الاتصال مع منطقة الشرق الأدنى. وحتى لو سلمنا بهذا ، فإن هؤلاء الباحثين الأصغر سنًا يتصفون بغموض تفسيراتهم - شأنهم فى ذلك شأن الجيل الأكبر من أنصار اتجاه "الانتشار المعدل" - فيما يتصل بكيفية حدوث هذه التطورات وبالأسباب الكامنة وراء حدوثها.

ويبدو أن التفسير (المقبول) سوف يتحقق من خلال الترجيح القوى بأن بناء القصور الكريتية قد تم خلال فترة حكم الأسرة الحادية عشرة لمصر. ولقد تأسست هذه الأسرة على يد الفراعنة سود البشرة القادمون من مصر العليا ومن إقليم طيبة بالذات ، كما قُدِرَ لهؤلاء الفراعنة أن يُعيدوا لمصر وحدتها ، وأن يُؤسسوا ما عُرِفَ فيما بعد باسم الدولة الوسطى. وليس هناك شك فى أن قوة مصر العسكرية قد نمت تحت حُكْم هذه الأسرة التى قام فراعنتها بإرسال حملات عسكرية إلى منطقة المشرق. ولقد علمنا أيضًا - من خلال إجراء تحليل لنظائر معدن الرصاص - أن الأسرة الحادية عشرة الحاكمة فى مصر كانت تستورد الفضة الخام المُستَخرَجِة من مناجم لاوريون الموجودة فى إقليم أتيكا جنوب مدينة أثينا. ويومئ هذا - مع قَدرٍ من المُكتَشفات والمُقتنيات الأثرية المصرية التى عُثِرَ عليها فى كريت وتنتمى لعصر هذه الأسرة - بوجود إمكانية لتشييد القصور الكريتية بطريقة أو بأخرى نتيجة لبناء القوة المصرية المعاصرة لها زمنيًا. وعلى أية حال ، فإن الارتباط القائم بينهما لا يزال يبدو واهيًا لو أننا اقتصرنا فى تأسيسه على الأدلة الأثرية وحدها.

وبالتالى ، فهناك مصدر آخر من المصادر التى نستمد منها الأدلة اللازمة ، وهذا المصدر يتمثل فى عبادة الثور التى تعد من أكثر الخصائص المميزة اللافتة للنظر فى المجتمع الكريتى الذى قامت حضارته على القصور وحياة البلاط. ويظهر البرهان على صحة هذا بجلاء فيما بقى شاخصًا حتى الآن من أطلال القصور الكريتية ، وفيما ظل متواترًا لدى الإغريق من روايات تراثية تدور حول قصر الملك مينوس المعروف باسم قصر اللابيرنث (=التيه) (*)، وحول الوحش الخرافى المعروف باسم المينوتاوروس (Minotauros) (**). ورغم وجود بعض السهول الصالحة لرعى الماشية فى جزيرة كريت ، فإن أبرز خاصية (جغرافية) مميزة فيها هى الجبال ، الأمر الذى يجعلها مكانًا صالحًا بصورة أساسية لرعى العناز أو الماعز الوحشية (agrimia) . وبالتالى ، فإن الدهشة لا تعترينا - بناء على هذا الطابع الجغرافى - لعدم وجود دليل على عبادة الثور فى جزيرة كريت حتى نهاية العصر الميكينى المبكر. غير أن غياب مثل هذا الدليل يضاعف من صعوبة تقبلنا لفكرة أشد رواجًا، مفادها أن أصل عبادة الثور فى جزيرة كريت خلال الألفية الثانية ق.م. مأخوذ عن عبادة الثور القوية السائدة فى ثقافة كاتال حيوق (Catal Hüyük) خلال فترة العصر الحجرى الحديث التى تتزامن مع الألفية الثانية السابقة ق.م. وبالتالى، فهناك احتمال لصحة (الفرضية القائلة) بأن كلاً من جزيرة كريت وبلاد الإغريق القارية قد تلقيا كثيرًا من - أو معظم - التقنيات الزراعية من حضارة منطقة الأناضول ؛ وحرىٌ بى أن أذكر هنا أننى ناقشت مرارًا موضوع "الدليل" المستمد من الصمت "(argumentum ex silentio) واتخذت موقفًا مناهضًا له. وأيًا كان الأمر ، فهناك فجوة زمنية كبيرة تقدر بأربعة آلاف سنة فيما يتعلق بالشواهد الدالة على وجود عبادة الثور سواء فى منطقة الأناضول أو فى منطقة البحر الإيجى، وهى فجوة زمنية تثير قدرًا من الصعوبات أمام تقبل هذه الفرضية. ولكن الصعوبات

(*) كلمة " لابيرنثوس " تعنى البلطة المزدوجة أصلاً ، وكانت هذه البلطة ذات الحدين رمزًا من رموز عبادة الثور فى جزيرة كريت. (المترجم)

(**) المينوتاوروس مخلوق خرافى نصفه الأعلى إنسان والأسفل ثور. وكانت هذه المخلوقات المزدوجة التركيب فى الأساطير القديمة تعكس رغبة عارمة لدى البشر فى إيجاد "المخلوق الأعلى " أو " السوبر مان " بلغتنا الآن ، حيث تجتمع فى تركيبها القوة مع العقل. (المترجم)

المثارة أمام مصداقية الفرض تتقلص أو تنعدم ، لو أننا أقررنا بوجود مكان آخر يمكن أن يكون أصلاً لهذه العبادة ، ناهيك عن وقوعه جغرافيًا بالقرب من جزيرة كريت وتزامنه بدقة مع نفس الفترة وهى القرن الحادى والعشرين ق.م. ، وأعنى به مصر تحت حُكْم الأسرة الحادية عشرة .

وكانت الثيران - بوصفها حيوانات ذوات قوة وجمال - موضع تقديس دينى فى ثقافات مختلفة. وفى مصر ، كانت الثيران وقرونها ذوات أهمية كبرى فى أمور العبادة خلال عصر ما قبل الأسرات. ومنذ بداية عصر الملوك الفراعنة كان هناك عدد من العبادات المخصصة للثور ، كان أشهرها قاطبة عبادة العجل أبيس (Apis) التى أسسها أول ملك شرع وواهب للقوانين من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، وهو الملك الذى عرفه الإغريق فيما بعد باسم مينيس (Menes) ، أو مين (Min) (*)، بالقرب من مدينة ممفيس (=منف)، أو " من نفر" (Mn nfr) . ومن اللافت للنظر أن يكون مينوس (Minos) ، أول ملك على جزيرة كريت وأول من وهبها القوانين ، مرتبطًا أيضًا ارتباطًا وثيقًا بعبادة الثور وبالوحش الأسطورى مينوتاوروس. فكثيرًا ما كان المينوتاوروس يمثل فى التراث المصرى المتعلق بتصوير الآلهة على صورة مخلوق له رأس ثور وجسم إنسان.

كذلك كانت هناك فى مصر عبادات أخرى ذوات أهمية وتتعلق بالثور ، ففى مدينة هليوبوليس (=أون=مدينة الشمس=عين شمس)، الواقعة جهة الشمال الشرقى من مدينة القاهرة الحديثة ، كانت هناك عبادة لمعبود يسمى منيفيس (Mnevis) وكان اسمه المصرى يكتب بالرموز الهيروغليفية بعلامة (معناها الجدار الملتف). ووَفْقًا للأسطورة الإغريقية، فإن دايدالوس (Daidalos) هو المهندس الذى صمم وبنى قصر اللابيرانث الكريتى على غرار الطراز المصرى ، وأن أول ذكر إغريقى لكلمة " لابيرنث " لم يكن يشير إلى القصر الملكى المشيد فى مدينة كنوسوس الكريتية ، بل إلى المعبد الجنائزى ذى الحجم الهائل الذى بناه الفرعون المصرى الذى ينتمى إلى الأسرة الثانية عشرة ،

(*) ربما يكون هو الملك الذى نعرفه باسم " مينا " أو " نعرمر " أو " نارمر " ، وهو مؤسس الأسرات وموحد شطرى الوادى. (المترجم)

وأعنى به الملك " أمنمحات الثالث" (Amenemhe III) عند مدخل بحيرة (قارون) بالفيوم. وأعتقد أن كلمة " لابيرنثوس" (Labyrinthos) قد اشتقت من أحد أسماء هذا الفرعون ،" نم وورت رع" (N m ; r.t Rc) ؛ وكان هذا الاسم يُتَرجْم على يد إغريق العصر الهيلنستى بصور متعددة ، من بينها الصورتان (Labaires), (Labares))[٣٢] .

ومعنى ذلك ، أن لدينا مثيل ملحوظ يتألف من ثلاثة عناصر ، ومفاده أنه كانت توجد بمصر عبادات للثور ترتبط باسم " مين " ، وهو العنصر الأول. وأن كلمة " مين " كانت أيضًا من ألقاب الفرعون واهب القوانين ومؤسس العبادة ، وهذا هو العنصر الثانى. وأن الثور كان مرتبطًا بما يعرف باسم " الجدار الملتف "، وهذا هو العنصر الثالث والأخير. ويرتبط هذا الدليل بعناصره الثلاثة بمصر إبَّان الدولة القديمة ، أى قبل عصر إنشاء القصور الكريتية. أما فى جزيرة كريت ، فكانت هناك عبادة للثور مرتبطة بملك يُدعى مينوس وبقصر يعرف باسم اللابيرنث. ومع ذلك فالنظائر المتعلقة بهذا الدليل تغدو أكثر تعقيداً ، حيث إن هناك روايات تراثية تقْص علينا أن الملك مينوس لم يكن دائمًا مُشرِعًا مُبَجلاً رفع المقام ، بل كان أحيانًا واحدًا من الساتيروى(*) الشهوانيين الفاسقين. وبالتالى ، فهو يتماثل (فى طبيعته المزدوجة هذه) بشخصية مصرية أخرى ، وهى الإله " مين "(Min) الذى كان يُمَثَّلُ فى الأعمال الفنية بعضو ذكورة ضخم والذى كانت العصور المتأخرة ترى فيه الأصل الذى استمد منه الإغريق إلههم الشهوانى "بان"(Pan) ، راعى الساتيروى ومرشدهم. وقد يبدو لنا أن هناك خلطًا أو اندماجًا قد وُجِدَ فى بعض الأحيان بين الإله " مين " هذا وبين " مينيس " أو "مين" ، الفرعون الذى أسس الديانة .

وهناك عبادة مصرية أخرى ارتبطت بعبادة الثور ، هى عبادة الإله " منتو " (Mn tw) ، وهو إله مهم للحروب والفتوحات ، وبوجه خاص للحروب التى يخوضها المصريون مع المناطق الشمالية. كما أنه إله ذاع صيته وامتدت شهرته على المستوى القومى ، على اعتبار أنه قام برعاية فراعنة الأسرة الحادية عشرة الذين حملوا اللقب

(*) الساتيروى هم أتباع الإله ديونيسوس ، وكانوا يمثلون على هيئة مخلوقات مزدوجة التركيب ، نصفها الأعلى إنسان ولأسفل تيس (أوجوى) ، وهى مخلوقات ترمز للشهرة. (المترجم)

" منتوحتـب" (Mentohotepe) ، ومعناه " أن الإله منتو راضٍ عن الفرعون ومغتبط به " . وبالتالى ، فيبـدو أن عبادة الثور الكريتية قد ظهرت خلال القرن الحادى والعشرين ق.م. ، وهو تاريخ يتزامن على وجه الدقة مع عصر الأسرة الحادية عشرة التى أعادت توحيد مصر وبسطت نفوذها على بلاد أخرى خارج الوطن ، ونشرت أو روجت لعبادة الثور. ويبدو كذلك أن الاسم " منتو - فى صورته "رضى منتو " (Rdi Mn tw) التى تعنى أن " الإله منتو يعطى " أو " الشخص الذى أعطاه الإله منتو " - قد بقى لنا بمواصفاته داخل صورة الملك الأسطورى رادامانثيس (Rhadamanthis) ، شقيق الملك مينوس ، والذى كان ملكًا وقائدًا منتصرًا وقاضيًا يحكم وفق مقاييس العدالة التى يضعها. أما فى مصر ، فكان الملك "مين" ، مؤسسة الأسرة الحادية عشرة ، والملك " أمنتحب" ، مؤسس الدولة الوسطى ، يُعْبَدان أحيانًا معًا خلال عصر الدولة الحديثة ، وهو أمر يعادل تقريبًا الصلة القائمة بين مينوس وشقيقه " رادامانثيس " فى التراث الإغريقى. وحيث إنه وجد قديمًا نوع من الامتزاج أو الاندماج بين الإله والفرعون - أى بين الإله " مين " والفرعون " مينيس " ، وكذلك بين الإله "مين" من ناحية وبين الفرعون "أمنحتب" من ناحية أخرى - فقد يكون من المقبول أن نقترح أن كلاً من " مينوس " وشقيقه " رادامانثيس " قد استقيا صورتيهما فى جزيرة كريت من المنابع المقدسة ومن المنابع الملكية على حدٍ سواء.

وهناك أساليب متعددة يمكن عن طريقها تفسير مثل هذا النمط من التناظر ، وأولها هو أن نرد السبب فى وجود التشابه إلى الصدفة ؛ ولكن هذا التفسير يبدو بعيداً عن الاحتمال نظرًا لتعقد النظير وكثافته. أما الثانى فمفاده أن ننسب التشابه إلى الصياغة التوفيقية التى جرت خلال العصرين الكلاسى والهيلنستى بين الكهنة المصريين ونظرائهم من الإغريق. وهذا أمر مستحيل من الناحية العملية ، نظرًا لأن اسمى مينوس ورادامانثيس يظهران فى أعمال كل من هوميروس وهيسيودوس، ونظراً لأن مؤلفات هذين الشاعرين توضح بجلاء أن معظم الأساطير المتعلقة بهاتين الشخصيتين قد وجدت بالفعل خلال القرنين العاشر والتاسع ق.م.، وبالتالى فإن أية صياغة ترمى إلى التوفيق بين النظائر لابد وأن تكون قد حدثت قبل هذين القرنين ، وربما تمت خلال ما يعرف باسم " العصور المظلمة " . غير أن هذا الافتراض يبدو

بدوره بعيداً جداً عن الاحتمال ، نظراً لطبيعة الاتصالات التى وجدت بين مصر وبلاد الإغريق ، ونظراً للاختلال الذى طرأ على أحوال الديانة الإغريقية إبَّان هذا العصر. وهب أننا افترضنا أن الصياغة التوفيقية قد حدثت فى تاريخ أسبق من التاريخ المذكور أعلاه ، فإن أرجح الفترات لحدوث مثل هذه الصياغة هى فترة القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م.، حينما كان هناك اتصال بين المناطق الواقعة شرق حوض البحر المتوسط ، وحينما كانت الديانة مزدهرة فى المنطقتين (الشرقية والإغريقية). وفى الحق أن الصواب لن يجانبنا كثيراً لو أننا اعتقدنا أن الأساطير الإغريقية قد تشكلت خلال تلك الحقبة الزمنية. ذلك أن علم الآثار يوضح لنا أن عبادة الثور فى جزيرة كريت قد بدأت بالتحديد فى الوقت الذى كانت فيه عبادة الإله المصرى " منتو " فى أوج ازدهارها ، وبالتالى فإن كافة ما لدينا من أسباب يحدو بنا إلى أن نفترض أن النظائر الأساسية لهذا التشابه البادى بينهما إنما تعود فى تاريخها إلى هذه الفترة.

وهناك سبب آخر يحملنا على تحديد أواخر الألفية الثالثة ق.م. كتاريخ لوجود هذا التناظر، وهو أن العبادة القومية فى مصر قد تحولت إبان الفترة التى تقع حوالى عام ٢٠٠٠ق.م. من عبادة الثور " منتو " إلى عبادة الكبش " آمون ". وبالتالى ففى الوقت الذى ظل "منتو" فيه عضواً مهماً فى مجمع الآلهة المصرى - وهى حقيقة لا مِراء فيها - وارتبط على وجه الخصوص بالفتوحات التى تمت شمال مصر ، وفى الوقت الذى أصبح فيه الكبش "زان" (Zan) أو " زيوس " (Zeus) ربًّا فائق الأهمية فى العبادة الكريتية ، نجد أن جزيرة كريت قد حافظت على أن تظل عبادة الثور عبادة مركزية لها بعد أن تخلت مصر عنها وتبنت عبادة مغايرة. وقد يتناسب مثل هذا التوصيف مع النمط الثقافى العام لانتقال الديانات وانتشارها ، وهو النمط الذى تحافظ بمقتضاه المناطق البعيدة عن المركز على السمات الثقافية التى تم هجرها أو التحول عنها فى المركز. فالديانة البوذية - على سبيل المثال - انتشرت وقُدِرَ لها البقاء فى "سرى لانكا"، وجنوب شرق آسيا ، ونيبال ، والتبت ، ولكنها لم تظل باقية فى البلد الذى شهد أصل وجودها وهو الهند. ويَصْدُق القول نفسه على الديانة المسيحية التى انتشرت وقُيِضَ لها البقاء فى أوروبا ، وأفريقيا الشرقية ، ولكنها لم تظل ديانة للأكثرية فى

منطقة سوريا - فلسطين ولا فى مصر ، وهى المناطق التى نشأت فيها أصلاً أو ازدهرت.

وهناك أدلة تكاد ترتفع إلى مرتبة اليقين على أن عبادة الثور فى جزيرة كريت قد أدخلت هناك من مصر - بالإضافة إلى التشابه المعمارى والاجتماعى بين القصور الكريتية ونظائرها فى الشرق الأدنى ، وفضلاً عن وجود عدد كبير من النظائر الأخرى، ثقافية كانت أم تصويرية - وهى أدلة توضح بجلاء أن " الطفرة الثقافية " التى تمت من عصر ما قبل تشييد القصور إلى العصر الأول من بناء القصور فى الحضارة الكريتية، قد حدثت على الأقل نتيجة لسبب غير مباشر أو لدافع معاصر وافد من الشرق الأوسط؛ كما أنها تُبين بجلاء أيضًا أن هذا الدافع كان مرتبطًا بتأكيد أهمية الوجود المصرى فى المنطقة. وأعتقد أيضًا أن الروايات التى تدور حول رادامانثيس - جنبًا إلى جنب مع الدليل المستقى من علم الآثار - توحى بإمكانية وجود نوع من السيادة المصرية على منطقة جنوب البحر الإيجى خلال القرن الحادى والعشرين ق.م.

وأتناول بالدراسة فى الفصلين الخامس والسادس(*) الفتوحات التى تمت على يد أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة فى مصر، وأعنى به الملك سنوسرت الأول (Senwosre I)، أو سيزوستريس (Sesôstris) كما يسميه الإغريق. ولقد تحدث المؤرخ هيرودوتوس ، وكذلك الكتاب الإغريق المتأخرون ، بإسهاب وبتفضيل لا بأس به عن فتوحات هذا الفرعون التى تم إنجازها عن طريق إرسال حملات عسكرية مجهزة ، تمكن جيشه بواسطتها من التوغل فى قارة آسيا ، ووصل عن طريق اسكيثيا (Scythia) - الواقعة جنوب مراعى الاستبس الروسية- إلى بلاد القوقاز. ولقد حاول المؤرخون - الذين ألفَّوا أعمالاً تاريخية بعد فتوحات الاسكندر الأكبر التى تمكن عن طريقها من الوصول إلى الهند - أن يبرهنوا على أن الملك سنوسرت الأول قد وصل فى فتوحاته إلى نفس الأماكن التى وصل إليها الاسكندر الأكبر. غير أن الباحثين المُحدَثين - ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادى - قللوا من شأن كافة هذه الروايات التاريخية

(*) لم يذكر المؤلف الفصل الرابع صراحة ، وربما تحدث عن محتوياته مع الفصل الثالث. (المترجم)

ولم يوفوها حقها ، نظراً لأن معظم هؤلاء الباحثين المحدثين ظلوا لفترة زمنية طويلة عازفين عن الإقرار بأن سنوسرت الأول هو نفسه سيزوستريس. كذلك فقد كان هؤلاء الباحثون يميلون إلى التنازع فيما يخص هذا الموضوع ، ويذهبون إلى القول بأن هذه الروايات التاريخية ما هى إلا محاولات مصرية تهدف إلى إيجاد بطل مصرى قومى ، يمكن لفتوحاته أن تتفوق على فتوحات الحكام الفرس بعد قورش الأكبر وعلى فتوحات الحكام المقدونيين بعد الإسكندر الأكبر ؛ ومن هذا المنطلق ، يمكننا أن نفهم سر جنوح ديودوروس الصقلى - الذى دَوَّن مؤلفاته إبَّان العصر الهيلنستى - إلى المبالغة والتهويل. وفيما يتعلق عموماً بميل الباحثين المحدثين إلى الإنكار أو عدم التصديق ، فإننى أتصور أن موقفهم هذا قد نشأ بسبب وجود صعاب حالت بينهم وبين القبول بوجود جيش أفريقى متمدن وقادر على إنجاز مثل هذه الفتوحات الباهرة ، لا فى جنوب غربى آسيا فحسب بل فى أوروبا كذلك. والحق أن هذا الاعتقاد سرى سريان النار فى الهشيم ، وتردد على ألسنة دعاة منظومة المذهب العرقى خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين.

وحتى منتصف القرن العشرين ، كان هناك اتفاق عام على الدور الأساسى للدليل المستمد من علم النقوش ولنظيره المستمد من علم الآثار ، وكان هناك اتفاق عام كذلك على أنه كانت هناك إمبراطورية مصرية ، أو على الأقل منطقة نفوذ لمصر فى إقليم سوريا–فلسطين ، خلال عهد الأسرة الثانية عشرة. ولكن بعد تلك الفترة ، وأعنى بها فترة منتصف القرن العشرين ، سادت موجة من التشكك حيال هذه الحقيقة ، ووصلت فى ذروتها إلى الحد الذى حدا ببعض الباحثين إلى التشكيك فى وجود هذه الإمبراطورية من الأساس. ذلك أنهم اعتبروا أنه لا معنى للحديث عن فتوحات لسنوسرت / سيزوستريس ما لم تكن له قاعدة بمثابة نقطة ارتكاز فى منطقة المشرق.

ولكن اكتشاف عدد كبير من النقوش فى مدينة ممفيس (=منف=قرية ميت رهينة الحالية) وقراءتها قراءة مبدئية قد عزز من موقف المناصرين لفكرة وجود إمبراطورية مصرية أنشأتها الأسرة الثانية عشرة فى منطقة سوريا - فلسطين. وتصف هذه النقوش الحملات العسكرية الكبرى التى جهزها ثم قام بها كل من الملك سنوسرت الأول وخليفته الملك أمنمحات الثانى فى البر والبحر. ولقد وصلت بعض هذه الحملات

إلى بلاد النوبة وبلاد كوش (Kush) التى تقع على مسافة بعيدة من جنوبى أفريقيا ، ولكن عدداً أكبر من هذه الحملات اتجه شمالاً صوب آسيا ، أى إلى جزيرة سيناء وإلى لبنان وإلى "ست" (S tt) ، وهى بلاد تقع على مسافة أبعد تجاه الشمال وكانت تعادل آسيا التى يعنيها الإغريق لدى كتاب العصور المتأخرة. وكنتيجة لهذه الحملات تم تدمير عدد من المدن ذات أسماء غير معروفة لدى المصادر المصرية الأخرى ، وبالتالى فقد وفرت هذه الحملات بعد عودتها إلى مصر قدراً عظيماً من الأسلاب والغنائم القيمة ، منها أسرى الحرب ، ومنها المعادن مثل الفضة والرصاص على وجه الخصوص.

ولقد أنفق الأستاذ جورج بوزنر (George Posener) ، وهو باحث رفيع المنزلة جُلَّ عمره فى دراسة تاريخ الدولة الوسطى فى مصر ، وكَرَّس جهده بوجه خاص للوقوف على الصلات التى نشأت بينها وبين منطقة جنوب غرب آسيا. ولقد ارتأى هذا الأستاذ أن النقش دليل قوى يعضد اعتقاده فى سيادة الدولة الوسطى المصرية على منطقة سوريا-فلسطين؛ ولقد عَضَدَ وجهة نظره فى هذا الصدد الباحث الأثرى الإسرائيلى رافائيل جينفيون (Raphael Giveon) .

غير أن وليام ورد (William Ward) ، عالم المصريات الأمريكى وفارس الحَلَبَةَ فى الدراسات اللبنانية بلا منازع والذى كان قد ناهض الأفكار المنادية بوجود إمبراطورية مصرية على عهد الأسرة الثانية عشرة ، قد زعم انطلاقًا من موقفه المناهض هذا أن النقض المذكور ينتمى إلى فترة زمنية متأخرة جداً ، وأن تاريخه يعود إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة. وبالتالى، فقد ذهب وليام ورد إلى أنه ليس بوسعنا استخدام هذا النقش كدليل ، نظراً لأنه دون بعد مرور سبعمائة عام على وقوع الأحداث. غير أن الأستاذ فولنجانج هيلك (Wolfgang Helck) ، الذى يمكن اعتباره أعظم علماء المصريات الأحياء شهرة وتميزاً فى ألمانيا والذى كان قد عارض من قبل فكرة الأنشطة التوسعية للدولة المصرية الوسطى فى جنوب غرب آسيا ، قد اقتنع بوجهة نظر الأستاذ جورج بوزنر الرامية للوثوق بصحة الدليل المستمد من النقش ، وشاطره الرأى فى أن تاريخ هذا النقش يرجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كما حاول أن يبرهن على أن الحملات العسكرية المصرية آنذاك قد وصلت فى تقدمها إلى جزيرة قبرص وإلى المنطقة الجنوبية من شبه جزيرة الأناضول.

وفيما يتعلق بى – بوصفى فيلسوفًا – أسمح لنفسى بأن أذهب إلى أبعد من ذلك منالاً ، فأحاول البرهنة على أن النقش يفتح الباب على مصراعيه للسؤال عن المصداقية التاريخية للحملات العسكرية بعيدة المدى التى جهزها الملك المصرى سيزوستريس وتمت روايتها على يد الكُتَّاب الإغريق. وفى الحقيقة أنه حتى مع عدم وجود هذا النقش ، فقد كان لزامًا علينا أن نُجرى مثل هذه المراجعة بدايةً ، نظرًا لأننى أعتقد – كما أسلفت أعلاه – أنه عند إلتقاء المصادر القديمة واجتماعها وعدم وجود تناقض بينها إبَّان العصور القديمة ، فإن على الباحثين أن يتخذوا خطوطها العريضة بمثابة افتراضات فاعلة.

وقبل أن ننبرى لتقييم مدى مصداقية الكُتَّاب الإغريق ، فمن الضرورى أن نشرع فى تمحيص أقوالهم وتوضيحها إلى أبعد حدٍ ممكن. فمن الواضح ، على سبيل المثال ، أن هيرودوتوس عندما روى لنا أن سيزوستريس قد اتخذ طريقه عَبْر " قارة " آسيا ، لم يكن يعنى أنه بلغ فى تقدمه بلاد شوخوتكا (Chukhotka) ومضايق بيرنج (Bering) - وفى الحقيقة أن الكُتَّاب القدامى قد اعترضوا على ما ذهب إليه ديودوروس (الصقلى) من أن هذا الفرعون قد وصل إلى الهند. ومن الواضح فى هذا السياق أن هيرودوتوس كان يقصد بآسيا التى تحدث عنها المنطقة التى نطلق عليها الآن اسم " آسيا الصغرى " أو تركيا. وفى هذه الحال ، فإنه ينبغى علينا أن نعتبر أن حملات سيزوستريس العسكرية قد سارت عبر شبه جزيرة الأناضول والمنطقة الواقعة شمال البحر الأسود حتى وصلت إلى القوقاز ، وهو طريق يبلغ طوله حوالى ثلاثة آلاف ميل ويعد بالقطع مسافة شاسعة ، لو أخذنا فى الاعتبار أنها قطعت منذ ألفى عام ق.م. ولكن هذه المساحة وبكل المقاييس أقصر من المسافة التى قطعها الإسكندر الأكبر بجيشه، كما أنها بمقاييس العصور الحديثة يمكن أن تُقارن بالمسيرة الطويلة التى قطعها الصينيون الشيوعيون سيرًا على أقدامهم ، وإن كانت الأخيرة تختلف عن مسيرتى سيزوستريس والإسكندر الأكبر فى أنها لم تكن ترتكز على ظهير يتمثل فى دولة مستقرة وإمدادات من الزاد قادمة عن طريق البحر.

ويتضمن الفصل الخامس قسمين عن التأريخ ، لا يتعلق أولهما مباشرة بتأريخ فترة حُكْم سيزوستريس ، ولكن أهميته ترجع إلى أنه يمدنا بصورة ممتازة عن عددٍ من

الصعوبات التى سببتها رغبة علماء الآثار فى إرساء أساس " علمى " لتخصصهم. كما يهتم هذا الفصل أيضًا بتأريخ عصور مصر الزمنية ، وهو التاريخ الذى ظل حتى عشرين عامًا خلت يزودنا بالأساس الذى يقوم عليه تأريخ عصور باقى مناطق الشرق الأوسط والبحر الإيجى. ويرجع السبب فى هذا أن مصر وحدها التى كانت تحظى بقوائم عن تعاقب الملوك وفترات حكمهم منذ بداية الألف الثالثة ق.م. أو قبلها . غير أن هذه القوائم كانت بعيدة عن الاكتمال وكانت تتسم أحيانًا بوجود تناقض بين بعضها والبعض الآخر ، فضلاً عن أنها كانت تحتوى على ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الفترات الوسيطة" أو "الفترات الانتقالية"، التى تقع بين حكم أسرة قوية وبين الأسرة التى تليها ؛ وكانت هذه الفترات توجد عند حدوث اضطرابات سياسية فى مصر ينجم عنها خلل فى تسلسل السجلات التاريخية والتقاويم الزمنية. ولكن معظم الباحثين اتفقوا - عن طريق الاستعانة بالحساب الفلكى التاريخى الذى يبدأ بالأسرة الثانية عشرة - على أن حكم الأسرة الأولى فى مصر قد بدأ حوالى عام ٣٤٠٠ق.م.

وخلال منتصف القرن العشرين الميلادى ساد دافع قوى بين علماء المصريات وأساتذة التاريخ القديم هدفه تأسيس مكانة " علمية لتخصصاتهم وبالتالى لأنفسهم ، واتضح لهم أن أيسر طريقة لتحقيق ذلك الهدف هى التمسك بأهداب التشكك والجنوح إلى الاحتراز. وأصبح بالتالى محظورًا عليهم أن يستخدموا البراهين الاحتمالية ، كما أصبح لزامًا عليهم بصورة مطلقة ألا يجنحوا إلى التأمل أو التكهن. ولقد تم تطبيق هذا التشكك وهذا الاحتراز بصفة خاصة على كل من المكان والزمان ، وغدا هناك ميل قوى لتقييد الامتداد الجغرافى للأنشطة البشرية القديمة ، واتجاه أقوى منه إلى تقليص امتداد التواريخ الضاربة فى القدم وجعلها تنحصر فى فترات زمنية أحدث نسبيًا. وبالتالى، فعن طريق الأخذ بأقصر مدة حكم لكل ملك من ملوك الفراعنة، وعن طريق الإصرار (على تقليص) الفترات التى كان الحكم فيها شركة بين الفرعون وخلفه، وعن طريق التشبث بتقليص فترات التداخل بين عهود الأسرة الحاكمة ، تمكن الباحثون "ذوى المنهج العلمى الجديد " من إرجاع تاريخ بداية تأسيس مصر الفرعونية إلى القرن التاسع عشر ق.م. ورغم نكوص هؤلاء الباحثين فيما بعد عن التمسك بهذا الرأى الجذرى ، فإن المحاولات التوفيقية الجديدة التى جرت قد جعلت التاريخ المقترح

ينحصر فى القرن الحادى والثلاثين ق.م.، أى فى فترة زمنية قوامها مائتى أو ثلاثمائة عام بعد التاريخ الذى استقر عليه الرأى من قديم.

وعلى مدى العقدين الأخيرين من القرن العشرين ظهر على المسرح " علماء طبيعيون" بمعنى الكلمة ، وأرادوا بعقول متفتحة تتسم بالسذاجة أن يحلوا المشكلات - التى غدت الآن قابلة للحل - بواسطة منهجهم العلمى. غير أنهم أصيبوا بالدهشة - مثلهم فى ذلك مثل أى شخص آخر - عندما وجدوا أن التواريخ الزمنية التى أسفر عنها الفحص الراديو-كربونى والتقنيات الأخرى (التى نبغوا فيها) قد جاءت على نحو ما ، وهو أمر مغزاه، أحدث بسنوات كثيرة عن التاريخ الذى تم افتراضه بناء على المعرفة الأثرية التقليدية. وعلى أية حال ، فإن الأقسام الخاصة بالتأريخ فى الفصل الخامس تولى عناية خاصة للمعارك النقدية التى مازالت تشتعل بعنف حتى الآن بين وجهات النظر المتضاربة فى هذا الصدد.

ففى عام ١٩٧٩ قام عالم الآثار اللامع جيمس ميلارت (James Mellaart) - الذى اعتبره زملاؤه شخصًا معتل الفكر بوجه عام بسبب شطحاته الفكرية الغريبة - بنشر مقال عن التأريخ ، نادى فيه بألفاظ استفزازية بإعادة النظر فى التواريخ المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط وما حولها ومراجعتها مراجعة شاملة ، كى تتطابق مع التواريخ التى نتجت عن طريق الفحص الراديو-كربونى. وسرعان ما شن المتخصصون فى علم الآثار هجومًا ضاريًا على مقاله ؛ لأنه لجأ فى نظرهم إلى أسلوب الانتقاء الجزئى لبعض التواريخ وإلى لى عنق الحقائق وتحريفها. ورغم أن هذا الهجوم الضارى عليه قد كُلِلَ بالنجاح ، فإن دفاعهم عن الوضع الراهن لم يستمر سوى فترة قصيرة. ففى بعض الأحيان كانت المُختبرات التى يجرى فيها الفحص الراديو-كربونى - تتردى فى " أخطاء جسيمة " متكررة فيما يخص التأريخ ، وكان على المتخصصين أن يعيدوا الفحص مرارًا حتى يصلوا إلى النتيجة الصحيحة ، أى إلى أن يتوصلوا إلى تواريخ تتناسب مع التواريخ المتعارف عليها بصورة عامة. وكان الأمر المثير حقًا فى هذا هو أن الأغلبية الساحقة من التواريخ المتعلقة بالألفيتين الثالثة والرابعة ق.م. - رغم أن بعض هذه " الأخطاء " كان ينطوى على تشتيت لكل من الاتجاهين - كانت تبدو بكل بساطة " أعلى جدًا " فى قدمها بفترة تتراوح بين مائتى عام وخمسمائة عام. ومن

الطريف أن هذا الخطأ ظل يتكرر باستمرار - فى أحد هذه المختبرات ذات الشهرة - لسنوات طويلة حتى تمكنوا من " تصويبه " فى نهاية الأمر ، وساعتها أوعزوا لعلماء الآثار بتكتم شديد أن يقوموا بإنقاص التواريخ التى حددوها سلفًا للمواقع الأثرية المعنية لمدد تصل إلى عدة قرون. ولكن ما من أحد قدم لنا تفسيرًا عن سبب وقوع "الخطأ" ولا عن الأساس الذى تم تصويب الخطأ بناء عليه.

وفى أواخر عقد الثمانينات من القرن العشرين استطاع فريق من العلماء - من ولاية تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية ومن سويسرا - أن يجمع ثمانين عينة كربونية جديدة من عدد من الأهرامات ، وقاموا بفحصها عن طريق الاختبار الكربونى. ولقد نتج عن تحليلهم لهذه العينات وحصولهم على سلسلة من التواريخ - المتعلقة بالملوك الفراعنة ابتداء من عصر الدولة القديمة - أن هناك فارقًا زمنيًا يقدر بحوالى ٣٧٤ عامًا فى المتوسط أقدم من التاريخ الذى توصلت إليه المعرفة التقليدية المتواترة. وفى الحق أن هذا الفارق الزمنى أقدم تاريخيًا من التاريخ الذى اقترحه الأستاذ ميلارت ، كما أنه يعزز وجهة نظره تعزيزًا قويًا.

ولهذه الأسباب ، فإننى أوافق الآن على رأى ميلارت بالارتداد إلى المعرفة التقليدية المتواترة التى توصل إليها الباحثون فى بداية القرن العشرين الميلادى ، والتى تفيد بأن الأسرة الأولى فى مصر قد بدأت حكمها حوالى عام ٣٤٠٠ ق.م. - وليس عام ٣١٠٠ق.م. كما زعم غُلاة العلميين - وبأن الأسرة الثالثة - وهى الأسرة الأولى من أسر الدولة القديمة - قد تأسست حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. ، وليس عام ٢٦٨٦ ق.م. تبعًا لوجهة نظرهم ، وهو التاريخ الذى نجده مذكورًا فى موسوعة كامبريدج للتاريخ القديم. وحيث إن تاريخ عصر الخزف فى منطقة البحر الإيجى كان يتحدد بناءً على التقويم المصرى القديم ؛ فمعنى هذا أن نرفع بداية العصر المينوى المبكر المعادل للهيلادى الأول من عام ٣٠٠٠ ق.م. إلى عام ٣٣٠٠ق.م.، وأن نرفع كذلك بداية العصر المينوى المبكر المعادل للهيلادى الثانى من عام ٢٥٠٠ق.م. إلى عام ٣٠٠٠ق.م.

ولقد أكد ميلارت أن تصعيدنا لتواريخ بداية الدولة القديمة لتصبح أقدم زمنيًا يتضمن بالضرورة أن نقوم بتصعيد مماثل لتواريخ بداية الدولة الوسطى ، الأمر الذى

أجبر الباحثين على التخلى عن تطبيق منهج التأريخ الفلكى عند بداية الأسرة الثانية عشرة الذى اعتمد عليه التأريخ المصرى المبكر بأسره. ومن ناحية أخرى ، فإن الأستاذ ميلارت وافق على إقرار التواريخ التقليدية التى كانت تحدد بداية الدولة الحديثة فى مصر ، وارتأى أنها تعود إلى عام ١٥٦٧ق.م. متفقًا فى ذلك متعارفًا عليه من وجهات نظر. ولقد لجأ الأستاذ ميلارت - فيما يخص التحول الذى ذهب إليه من تصعيد زمنى نحو القدم بالنسبة للدولة القديمة إلى تصعيد زمنى قليل أو متوسط بالنسبة للدولة الحديثة - إلى طريقة مفادها التوسع فى حساب الفترة الوسطى الانتقالية الثانية.

ولسوف نقوم فى الفصل الثامن بمناقشة طريقة تأريخ هذه الحقبة الزمنية وحساب مدة استمرارها على نحو أكثر تفصيلاً ، مع الأخذ فى الاعتبار أنه ليس هناك أدنى شك فى وجود بعض المشاكل المتعلقة بوجهات النظر التقليدية حول تأريخها ومدتها. غير أننى - على أية حال - أجد نفسى عازفًا تمامًا عن إغفال التأريخ الفلكى لبداية الأسرة الثانية عشرة ، حيث إنه يبدو لى بالفعل تأريخًا مبنيًا على أسس راسخة. وبالتالى ، فحيث ينبرى ميلارت لتوسيع نطاق الفترة الوسطى الانتقالية الواقعة ما بين الدولتين الوسطى والحديثة ، أفضل أنا إعادة توسيع نطاق الفترة الوسطى الانتقالية الأولى الواقعة بين الدولتين القديمة والوسطى. والسبب فى ذلك هو أنه قد جرى خلال السبعين عامًا الأخيرة تقليص جوهرى بصفة خاصة لنطاق هذه الفترة - بوصفها أكثر الفترات الزمنية ليونة أو مرونة - وذلك لأن إنقاصها أو حذفها يزود الباحثين بأيسر طريقة للتوصل إلى أدنى تاريخ مرغوب فيه لبداية الأسرة الأولى من الدولة القديمة. وعلى هذا الأساس ، فأثناء مراجعتى للتواريخ المصرية التى تحدد بداية الدولة القديمة، وجدت أن من الأوفق أن أحصر نفسى فى نطاق الحدود التقليدية التى تحدد تاريخًا لبداية كل من الدولة الوسطى والدولة الحديثة.

وفى الواقع ، فإن الأستاذ ميلارت لم يقتصر على مصر وحدها فيما يتعلق بتصعيد تواريخه الزمنية تجاه القدم ، بل أصر على أن نتائج اختبار الفحص الراديو-كربونى قد أوضحت بجلاء ضرورة إجراء تصعيد مماثل أيضًا للتواريخ الزمنية المتعلقة ببلاد ما بين النهرين خلال الألفيتين الرابعة والثالثة ق.م. ولقد أدى هذا إلى وجود كثير من حالات التزامن أو التطابق فى التواريخ المتعلقة بالبلدين (مصر وبلاد

ما بين النهرين) لابد من البرهنة عليها بالأدلة. وهنا، حظيت وجهات لابد من البرهنة عليها بالأدلة. وهنا، حظيت وجهات نظر الأستاذ ميلارت بتعزيز جزئى من خلال عمل علمي من نوع آخر ألفه عالم الإحصاء بيتر هوبر (Peter Huber) . ذلك أن الأستاذ هوبر قام بدراسة طائفة من التقارير العلمية عن بلاد ما بين النهرين تتعلق بمواقع أثرية للربة فينوس ولخسوف القمر ، تنتهى إلى بداية الألفية الثانية ق.م. وأوضح الأستاذ هوبر – على أساس هذه التقارير– أن ما يُطلق عليه اسم التقارير الزمنية الوسطى والأدنى لا يتوافق بداهة مع هذه المعلومات المتوافرة لديه ، على حين أن ما يُسمى "بالتقويم الزمنى الأطول" يتوافق معها بصورة أفضل من كافة الوجوه . وأود أن أنوه هنا إلى أنه لا ينبغى علينا أن نخلط فى هذا الصدد بين هذا " التقويم الزمنى الأطول " وبين " التقويم الزمنى الأعلى " الذى استخدمه الباحثون فى بداية القرن العشرين الميلادى ، واستند إليه الأستاذ ميلارت فى براهينه.

وجدير بالذكر أن الأستاذ هوبر – مثله فى ذلك مثل العلماء والفنيين الآخرين العاملين فى حقل اختبارات الفحص الراديو – كربونى – لم يكن لديه هدف شخصى محدد يسعى إلى تحقيقه ، ولم يكن يعنيه أن تغدو نتائجه أقدم زمنيًا أو أحدث من النتائج المعروفة لدى العلماء المتخصصين ، ولكن جل اهتمامه كان منصبًا ببساطة على رؤية المشكلة وكأنها لغز جذاب قابل للحل. ولا يمكننا أن نفترض توافر نفس الدرجة من الحياد لدى علماء الآثار الذين دأبوا على تحريك التواريخ الزمنية نزولاً عن تجاه فترة أحدث وبمدى يقدر بعشرات السنين ، فى الوقت الذى كانوا ينبذون فيه ما توصل إليه الأستاذ هوبر من نتائج محايدة. ومع ذلك ، فيبدو أن موقفهم الآن (رغم عدم حيادهم) قد تدعم من خلال تواريخ لم يتم بعد نشرها ولا التحقق من صدقها ، وهى تواريخ تتعلق بقصر عثر على بقاياه فى شبه جزيرة الأناضول يمكن عن طريقها تعزيز التقاويم الزمنية الوسطى وربما الأدنى. وبالتالى ، فإن على الباحث أن يتخذ موقفًا مرنًا فى هذا الصدد ، يسمح بإمكانية الإقرار بصحة أى من التقويمين الزمنيين المذكورين.

ولو أن المرء قبل " بالتقويم الزمنى الأطول "، فقد يبدو أنه وجد – خلال النصف الثانى من القرن العشرين والنصف الأول من القرن التاسع عشر ق.م. – تناقض لافت

للنظر بين السلم والرخاء اللذَّين سادا مصر ومنطقة المشرق ومنطقة جنوب بحر إيجة من ناحية ، وبين التدميرات المتكررة التي حدثت في شبه جزيرة الأناضول والبلقان والقوقاز من ناحية أخرى. ففي اعتقاد المحُدَثين من المتخصصين في علم الآثار أن هذه التدميرات المتكررة كانت علامة على انتهاء العصر البرونزي المبكر في هذه المناطق ، وأن السبب في وقوع هذه التدميرات يعزى إلى الغزوات القادمة من جهة الشمال. ومع ذلك ، فلم يتسن لنا العثور بالتحديد على مكتشفات " شمالية " داخل الطبقات التي حدثت فيها التدميرات ، سواء بشبه جزيرة الأناضول أو بشبه جزيرة البلقان. غير أنه تم العثور - من ناحية أخرى - على عدد قليل من المكتشفات التي تنتمي إلى عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية في كل من شبه جزيرة الأناضول وشبه جزيرة البلقان. وبالتالي ، فقد يصبح من الصعب إيجاد توافق بين مثل هذا السيناريو وبين " التقويم الزمني الأوسط ، فضلاً عن أن " التقويم الزمني الأقصر " يقع خارج نطاق الموضوع.

ولقد تعززت إمكانية الإقرار بصحة " التقويم الزمني الأطول " ، وبأن هذه التدميرات قد حدثت نتيجة للغزوات المصرية ، بعد اكتشاف خبيئة ترجع إلى عهد الفرعون أمنمحات الثاني وتم العثور عليها في معبد الإله " منتو " بمنطقة " الطود " التي تقع جنوب مدينة طيبة مباشرة. وتحتوي هذه الخبيئة (أو الكنز) على أواني فضية من منطقة الأناضول ، وعلى مقتنيات أخرى تتضمن أختامًا اسطوانية الشكل من اللازورد ، الذي يعتقد أنه مُستَخرج من مناجم بأفغانستان وأن النقوش المدونة على الأختام المصنوعة منه قد كُتِبَت في بلاد ما بين النهرين ، فيما عدا خاتم واحد منها على الأقل يُحتمل أنه من منطقة الأناضول. وأغلب الظن أن هذه المقتنيات قد وردت في الأصل من منطقة وسط الأناضول ، حيث إنه من المحتمل أن تكون أختام بلاد ما بين النهرين قد وصلت إلى منطقة الأناضول كنتيجة للنشاط التجاري الذي كانت تضطلع به المستعمرات الآشورية ، التي نعلم أنها وجدت هناك خلال الفترة الواقعة بين القرنين العشرين والتاسع عشر ق.م.

ومن المحتمل أن هذه الخبيئة التي عثر عليها في منطقة " الطود " قد وُجِدَت نتيجة لحركة التجارة بين الأناضول ومصر ، ولكن وضعها في معبد الإله " منتو " ، إله الانتصار في الحرب والمرتبط بالإله " ست " المصري بوجه خاص ، يجعل من المرجح

أن تكون هذه الخبيئة قرباناً من الغنائم التى تم الحصول عليها عن طريق الحرب. ولقد تدعم هذا الافتراض بورود إشارة فى نقش " ميت رهينة " إلى هدية من الغنائم من لَدُن الإله " ست " إلى معبد الإله " منتو " فى منطقة " الطود ". وبالتالى ، فيبدو أن علم الآثار يدعم الدعاوى القديمة القائلة بأن الفرعون المصرى سيزوستريس قد قام بفتوحات فى آسيا ، التى يقصد بها " آسيا الصغرى".

أما الدليل المستمد من طراقيا (= ثراقيا Thrakia) القديمة - وهى بلغاريا حالياً - فهو أقل وضوحاً فى المعالم ، فهناك بالتأكيد تدميرات كبرى قد وقعت خلال نهاية القرن العشرين وبداية القرن التاسع عشر ق.م. ، كما أن هناك كمية من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة - لم يكن ممكناً أن تؤول إلى حوزة المصريين إلا من خلال منطقة البلقان وحدها - قد ظهرت لأول مرة فى مصر فى عهد الأسرة الثانية عشرة ؛ ولكن هناك احتمالاً مماثلاً بأن الحصول عليها أو اقتناؤها قد تم على امتداد فترة زمنية طويلة الأمد من التبادل التجارى. وبالتالى ، فإن هذا القسم الخاص بفتوحات الملوك الفراعنة يقوم على أدلة ترجيحية ، ولكن البرهان عليها ليس بنفس القوة ولا وثيق الصلة مثل نظيره الخاص بمنطقة الأناضول. كذلك فإن الأدلة المستقاة من سكيثيا (Scythia) ومناطق الاستبس بجنوب روسيا أكثر ندرة من سواها ، فضلاً عن أنها تبدو أصعب فى تكوينها ، نظراً لأن البدو الرُحَل هم الذين كانوا يسكنون هذه المناطق فى الغالب الأعم خلال تلك الفترة الزمنية.

ولكى يتسنى لنا أن نفحص الآراء القائلة بوجود فتوحات (مصرية) فى منطقة القوقاز، فإن علينا أن نتأمل طائفة أخرى من الأدلة التى تتم معالجتها فى الفصل السادس من هذا الجزء ، ومعظمها روايات متأخرة. فالمؤرخ هيرودوتوس يعتقد أن سكان منطقة كولخيس (Kolchis) - الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الأسود - كانوا ينحدرون من نسل الجنود الذين حاربوا فى صفوف جيش الفرعون المصرى سيزوستريس واستوطنوا هذه المنطقة. ولقد بنى هيرودوتوس وجهة نظره هذه على عدد من العوامل ، منها أن أهل كولخيس أنفسهم هم الذين صرحوا بأن نسبهم يرجع إلى هذا الأصل ، ومنها أنهم كانوا سود البشرة وذوى شعر كثيف مجعد على ذات الهيئة التى وصف بها هيرودوتوس المصريين. وسواء أكان الحال على هذا النحو أم لا ، فنحن

نعرف من النماذج الفنية التى تم بها تصوير جنود الدولة الوسطى فى مصر من أن صفوفهم كانت تضم نوبيين متماثلى السحن ، جنباً إلى جنب مع الجنود المصريين.

ولقد تبنى عدد من الكتاب المتأخرين وجهة نظر هيرودوتوس عن أصول الكولخيين وتوسعوا فيها وأسهبوا ، وكان أكثر هؤلاء شهرة وذيوع صيت أبوللونيوس الرودى **(Apollônios of Rhodes)** ، وهو شاعر وفقيه لا يُشَق له غُبار فى مكتبة الإسكندرية الشهيرة خلال القرن الثالث ق.م. (٢٩٥-٢١٥ ق.م.). ولقد نظم الشاعر أبوللونيوس الرودى ملحمة شعرية بعنوان " الأرجوناوتيكا " **(Argonautika)** (= رحلة السفينة أرجو) ، تدور أحداثها حول الرحلة البحرية التى قام بها البطل الإغريقى " ياسون " **(Iasôn)** إلى بلاد كولخيس على متن سفينة " أرجو " (= السريعة) وبصحبة طاقها من البحارة الذين كانوا جميعًا من الأبطال المغاوير فى الأساطير ، بحثًا عن الجرة الذهبية. ولقد تأكدت العصور السابقة على عصر الشاعر أبوللونيوس من صحة كثير من المعلومات الواردة بهذه الملحمة - عن الشعوب القاطنة على امتداد السواحل الجنوبية والشرقية للبحر الأسود - قبل أن تثبت صحتها لعصر أبوللونيوس ذاته ، وهى معلومات توضح بجلاء أن هذا الشاعر كان بوسعه الحصول على مادة تاريخية تتسم بالدقة. وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه المعلومات توحى بأن هيرودوتوس لم يكن مُحقًا فى احترازه عندما ذكر أن المصريين - على خلاف الكولخيين - كانوا يجهلون الروابط (العرقية والتاريخية) التى تجمع بين بلديهما (مصر وكولخيس). فهناك فقرة مسهبة فى ملحمة " الأرجوناوتيكا " تنسب فضل تأسيس كولخيس إلى فرعون مصرى كان ملكًا ، اعتلى العرش قبل أن يوجد ما يسمى ببلاد الإغريق بزمان. هذه الإشارة الواردة فى الملحمة - بالإضافة إلى طائفة من مظاهر الثقافة الكولخية التى ورد ذكرها فى الروايات المتوافرة - إنما يؤكدون جميعًا الصورة التى رسمها هيرودوتوس ، على الأقل للدرجة التى دفعت الكولخيين - خلال القرن الخامس ق.م. - إلى الاعتقاد بأنهم انحدروا فى الأصل من أرومة الجنود الذين كانوا يحاربون جيش الفرعون المصرى سيزوستريس ، ما لم تكن روايتهم المتواترة دقيقة فى المقام الأول.

ولا تزال هناك حقيقة لافتة للنظر ، مؤداها أن هناك حتى اليوم سكان محليون فى تلك الأنحاء من الأفارقة السود ، الذين نزحوا إليها من منطقة ساحلية شبه استوائية

تقع بالقرب من منتجع سوخومى (Sukhumi) . كذلك فإن الأدلة التى قُدِرَ لها أن تظل باقية – بعد المحاولات التى بذلها " ستالين " لتشتيت شمل أفرادها وإجبارهم بالقوة على الزواج من ذوى قُرباهم الحميين – إنما هى أمة تتحدث بلغة قوقازية محلية خاصة بالأبخاز (Abkhaz) وأفرادها مسلمون شديدو الحفاظ على دينهم. وليس هناك أدنى شك فى أن نفرًا من أسلافهم قد هاجر إلى هناك خلال عصور زمنية أحدث ، عندما خضعت المنطقة للحكم التركى. وأيًا كان الأمر، فإن من الممكن أن تعود أصول سكان منطقة البحر الأسود المُحدَثين من ذوى البشرة السوداء إلى فترة القرن السابع عشر الميلادى ، وأن يعود أقدم أسلافه لهم فى النسب إلى فترة القرن الرابع الميلادى. وبالتالى ، فإن الفجوة الزمنية فى حالتهم ليست بأطول مدى من تلك الفجوة التى كانت تفصل بين هيرودوتوس وبين الفرعون سيزوستريس ، فضلاً عن أن إمكانية الاستمرار الاستيطانى بالنسبة لهم – كما يقر بذلك الباحثون فى حضارتى الأبخاز وجورجيا–أمر غير وارد ولا مجال للبحث فيه.

ويبدو أن هناك مناطق أخرى قد حظيت أيضًا بتوافر أدلة تراثية عن مسيرة الفاتح المصرى العظيم. فلا ريب أن التصوير الذى جرى خلال فترة الألف الثانية ق.م. للتعبير عن أرباب الرعد فى مناطق المشرق وحران والأناضول – والذى يشمل بعل (Baãl) ، وتيسوب (Tessub) ، وطارخون (Tarkhwun) - كان واقعًا تحت تأثير بالغ من صور الفرعون المصرى للأزمنة للنظر كما تبدت فى عصر الدولة الوسطى. ولقد كانت أكثر مواطن الشبه إدهاشًا فيها تتبدى فى لباس الرأس العالى المستقر فوق تاج مصر العليا الأبيض ، والذى كان يزداد تعقيدًا فى بعض الأحيان بعد أن تُضاف إليه صور للأفعى الحارسة " أورايوس " (Ouraios) (= الكوبرا المصرية) التى كانت تُوضع فى مقدمة تاج الفرعون. ولكن هناك أيضًا أوجه أخرى من الشبه جديرة بالملاحظة – فيما يتعلق باتخاذ أوضاع الوقوف والجلوس – بين هذه الصور الدينية وبين الصور الفرعونية. ولقد سبق أن أثرنا فى الفصل الثانى من هذا الجزء قضية إمكان خضوع المظاهر التى صور البطل هيراكليس وفقًا لتأثير مُستمد من صور فراعنة الدولة الوسطى ، كذلك قمنا فى نفس الفصل بمنح الاهتمام الكافى للارتباط القائم بين هيراكليس وبين هؤلاء الأرباب الذين يسببون الذعر والأذى.

وأبعد من ذلك ، فيبدو من المحتمل أن تُعَدْ الأساطير المتعلقة بالفتح الحضارى للشرق على يد الإله أوزيريس / ديوينوس ، والتى أثرت تأثيرًا بالغًا فى الإسكندر الأكبر ، أن تُعَدْ جزئيًا على الأقل نوعًا من تطبيق نظرية يوهيميروس - بالمعنى الأصلى الذى سلفت الإشارة إليه ، وهو تحول الرجل العظيم إلى إله - على انتصارات الفرعون المصرى سيزوستريس. وهناك فضلاً عن ذلك ارتباط مباشرين هاتين الشخصيتين : فمن الواضح أن المصريين الذين كانوا يعيشون فى هذه الحقبة قد رأوا فى الإسكندر الأكبر صورة جديدة للفرعون المصرى سيزوستريس من ناحية ، ومن ناحية أخرى فيبدو أن الأساطير المتعلقة بالإسكندر الأكبر - والتى بدأت تنتشر وتروج بعد رحيله عن الحياة - قد صيغت استناداً إلى الملاحم الشعبية التى كانت متداولة عن الفرعون المصرى سيزوستريس خلال العصر الهيلنستى. وفى الحق أن الروايات المصرية المتعلقة بالفرعون سيزوستريس ، والتى قام هيرودوتوس والكتاب الإغريق الآخرون بقصها علينا ، كانت روايات قديمة بصورة واضحة ، وأن فتوحات الإله أوزيريس قد قام الدليل على وجودها بدءًا بالأسرة الثامنة عشرة المصرية.

وبغض النظر عن بقاء أدلة ممكنة وغير مباشرة عن الانتصارات والفتوح فى الأساطير الخاصة بكل من هيراكليس وديونيوس ، فإن لدينا حكايتين إغريقيتين محليتين يمكن بكل يسر وثقة أن يكونا نتاجًا لهذه الأساطير. وأول هاتين الحكايتين هى تلك التى تروى أن الملك المصرى كيكروبس (Kekrops) هو مؤسس مدينة أثينا. وهناك احتمال أن يكون اسم كيكروبس مشتقًا من الاسم الأول للفرعون المصرى سيزوستريس ، وهو " خبر كارع " (Hpr K; r c) ، أو من الاسم الأول لحفيده سيزوستريس الثالث ، وهو " خع كاوورع " (H k;w Rc) . وكانت مدينة أثينا قريبة من مناجم لاوريون التى نعلم أنها كانت تمد مصر بالفضة خلال عهد الأسرة الحادية عشر. وبالتالى ، فإن الاعتقاد بوجود استيطان مصرى قديم فى إقليم أتيكا قد يتلاءم بالتأكيد مع النموذج العام لحملات الفرعون سيزوستريس ، التى كان دافعها الأكبر هو الحصول على هذا المعدن. ولسوف تتم مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

أما الحكاية الثانية التي يُحتمل أن تكون تصويراً شعبيًا لذكرى انتصارات الأسرة الثانية عشرة ، فهي تتمثل في الروايات التراثية الخاصة بفعاليات البطل الأسود ممنون(*) (Memnon) . وكان ممنون هذا – تبعًا للتراث الملحمي السائد – قد تم استدعاؤه خلال حرب طروادة بهدف مد يد العون للملك بريامـوس ، الذي وصفه هوميروس بأنه " أكثر الرجال وسامة في طروادة ". ولقد كانت الروايات التراثية المتعلقة بالبطل ممنون في حقيقة الأمر أكثر شيوعًا في منطقة شمال غرب الأناضول ، حيث كان يُنظر إليه هناك بوصفه ربًا للخصوبة ، يماثل الإله المصري أوزيريس وتنتحب من أجله السيدات وفصائل الطيور ، وبوصفه أيضًا بطلاً فاتحًا منتصراً اعتبره الشاعر هوميروس مساويًا للفرعون المصري سيزوستريس.

وليس هناك شك في أن الإغريق نظروا إلى ممنون بوصفه إثيوبيًا(**)، أي على أنه أسود اللون. ولكن هناك بعض التعقيدات التي تكتنف هذه التسمية ، نظرًا لأن الإغريق نظروا إلى شعبين بوصفهما إثيوبيين : الإثيوبيون القاطنون جنوبي مصر (وهم النوبيون) ، والإثيوبيون أو " السود " الذين شكلوا قوام سكان مملكة عيلام القديمة الواقعة شرق بلاد ما بين النهرين وشرق الخليج الفارسي. وحضارة بلاد عيلام حضارة قديمة قدم مثيلتها التي ازدهرت على يد الشعوب السامية والسومرية في بلاد ما بين النهرين، كما أن لغتها تنتمي إلى عائلة اللغات الدرافيدية التي لازال لها وجود قوي حتى الآن في جنوب الهند. ورغم وجود أنماط من السلالات الزنجية بين سكان مملكة عيلام ، إلا أنه يبدو أن الغالبية العظمى منهم كانوا سوداً ينتمون إلى سلالة من سلالات جنوب الهند. وما من شك في أنه بحلول العصر الكلاسي وجد العيلاميون – الخاضعون آنذاك للحكم الفارسي – في شخص ممنون بطلاً قوميًا يمثلهم، وليس هناك

(*) كلمة " ممنون " في اللغة اليونانية تُطلق على ابن ربة الفجر (Eos) ، ولقد ورد في الإلياذة أنه ذُبِحَ على يد أخيليوس. (المترجم)

(**) كلمة " إثيوبي " في اللغة اليونانية تعني " ذو الوجه المحترق " كناية عن سواده ، وهي مكونة من كلمتين: (aitho) بمعنى " يحرق " ، (ops) بمعنى " وجه. (المترجم)

شك أيضًا فى وجود اعتقاد إغريقى جازم مُستمد من التراث القديم بأن ممنون قد وَفِدَ من جهة الشرق ، أى من حيث يبزغ نور الفجر.

ومن ناحية أخرى، فقد كانت هناك رواية لا تقل عن هاتين الروايتين قوة ورُجحانًا، ومفادها أن ممنون كان إثيوبيًا من أفريقيا وأنه ارتبط بوادى نهر النيل. فلقد كان اسم ممنون يُطلق من قِبَل الإغريق على التمثال الضخم الشهير الذى يقع على ضفة النهر بالقرب من مدينة طيبة، وأعنى به (تمثال) الفرعون المصرى أمنحتب الثالث (Amenhotpe III)(*). وعلى أية حال ، فلقد كانت هناك كذلك مخربشات حُفِرَت على جسم هذا التماثل أسمته بإسمين، هما : أمينوث (Amenoth) وفامينوث (Phamenoth)، الأمر الذى يوضح لنا أنه كانت هناك معرفة بوجود صورتين من اسم الفرعون المصرى الذى أُقيمَ له التمثال ، وهما: إمنحتب (Imnhtp) (= آمون حوتب) وأمنحتب (Amenhotpe) الثالث.

وهناك دلائل واضحة فى الحقيقة على أن اسم ممنون لم يُشتَق من التسمية الأولى إمنحتب ولكن من تسمية أخرى هى: إمنمحات (imn m h ; t) ، أى أمينيميس (Ammenemês) (باللغة اليونانية) ، وهو الاسم الذى أُطلِقَ على كل من والد سيزوستريس وعلى ابنه كما أنه الاسم الذى ارتبط بانتصارات هذا العاهل وفتوحاته فى نقش ميت رهينة وفى وثائق أخرى غيره. كما أننا نعرف كذلك أن العائلة الملكية التى شكَّلَت قِوام الأسرة الثانية عشرة قد وَفِدَت من جنوب مصر العليا ، وأنها كانت تنحدر من أسلاف نوبيين. وبالتالى ، فإن الرواية التراثية التى تتحدث عن بطل أسود منتصر يدعى ممنون وعن وصوله إلى منطقة شمال غرب الأناضول من جهة الشرق ، قد تتناسب بكل دقة مع تاريخ الحملة التاريخية المصرية التى قادها ابن الفرعون المصرى سيزوستريس ووريثه عبر شبه جزيرة الأناضول ، وأعنى به الملك إمنمحات

(*) كان الإغريق خاصة والأوروبيون عامة يُطلقون على تمثالى الفرعون المصرى أمنحتب الثالث اسم "تمثالى ممنون"، نظرًا لأنهم كانوا يسمعون صفيرًا كصفير الناى ينبعث من الثقوب التى تكسو التمثالين الموجودين الآن قرب مدينة الأقصر. والأرجح أن هذا الصوت الحزين كان يحدث نتيجة لتبخر الندى من فوق هذه الثقوب. (المترجم)

الثانى (imn m h ; t) . وليس هناك من سبب يدفعنا إلى الظن بأنه كان على الشاعر هوميروس – أو على الروايات التراثية التى استقى منها مادته الشعرية – أن يشعر بلوم النفس أو وخز الضمير ، لأنه أخبرنا بأن بطلاً ينتمى إلى القرن التاسع عشر ق.م. لازال يعيش إبَّان فترة حرب طروادة التى دارت رحاها خلال القرن الثالث عشر ق.م.! ولا تثريب كذلك على الشاعر الرومانى فرجيليوس لأنه جعل الملكة (الفينيقية) ديدو (Dido) ، مؤسسة قرطاجة المنتمية للقرن التاسع ق.م. ، معاصرة لزمن سقوط طروادة التى يسبقها بحوالى أربع قرون. ومن الواضح أيضًا أن ممنون – سواء بصورته الواقعية أو الخيالية – قد أصبح أساسًا للبطل الأنموذج (أو البطل الأصل) ، لدرجة أنه بعد انقضاء فترة زمنية تقدر بسبعمائة عام على حكم الملك إمنمحت الثانى نجد ملكًا على موكيناى لا يزال يحمل اسم أجامنون ، أى "ممنون العظيم".

وبالتالى ، فإن هناك عددًا كبيرًا من الظواهر الأثرية والتصويرية والأسطورية المنتمية إلى منطقة شاسعة والمتعذر حاليًا إيجاد تفسير لها ، قد ارتبطت مع بعضها بإحكام وغدت تشكل معنى ومغزى ، هذا لو أننا قبلنا الروايات الإغريقية ونقش ميت رهينة كحقيقة أساسية. ولن يكون هناك شىء مستحيل بحكم فطرته أو حتى غير قابل للتصديق بالنسبة لحملات الفرعون سيزوستريس ، لو أن المرء قام بتحديدها على النحو الذى تم افتراضه أعلاه. فقد يكون رفضنا لتقبل مصداقيتها التاريخية الجوهرية – فى واقع الأمر – أمرًا مثبطًا ثقيل الوطأة على النفس.

ورغم أن الروايات التاريخية وكذا الأساطير التى نسجها الإغريق كانت مركزية فيما يتعلق بإعادة بناء فتوحات سيزوستريس ، إلا أنه لا توجد لدينا فى هذه الأساطير إشارة (صريحة) – علمًا بأن هذه الأساطير متميزة بوضوح عن الروايات المتواترة عن كيكرويس المصرى – إلى الفرعون المصرى الذى وَفِدَ آنذاك إلى بلاد الإغريق. ومن اللافت للنظر على سبيل المثال أن الأساطير التى تدور حول ممنون كانت متركزة فى منطقة شمال غرب الأناضول ، وليس فى بلاد الإغريق ذاتها.

وينصب الاهتمام الأساسى فى الفصل السابع على إعادة تأريخ الحقبة التى حدثت إبَّانها ثورة البركان العارمة فى جزيرة ثيرا (ساندورينى حاليًا) ، التى تبعد

سبعين ميلاً عن شمال جزيرة كريت. وتُعَدُّ ثورة هذا البركان ذات أهمية لعددٍ من الأسباب ، ولكن أهم سبب منها على وجه الخصوص هو أنها تدفعنا إلى رفع تصاعدى لتأريخنا نحو القدم عند تحديد بداية عصور الخزف فى منطقة البحر الإيجى ، وهو الأمر الذى يجعل مؤشرات التأثير القادم من منطقة الشرق الأدنى منتمية إلى فترة زمنية أسبق ، فضلاً عن أنه يوجد تزامنًا بين الفترات الزمنية التى يوحى علم الآثار بوجود اتصال وثيق فيما بينها ، وبين تلك الفترات التى استقينا الدليل على تحديدها من المصادر الوثائقية. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مثل هذا الإجراء يمكن أن يزودنا بدراسة حالة أخرى توضح لنا الطرائق التى يحبذ الباحثون فى نطاقها التمسك بأهداف نظريات مستقرة ثابتة ، بأكثر مما يفضلون مواجهة التورط أو الخوض فى مجاهل أدلة جديدة. (وليس أدل على ذلك) من أننى سمحت – فى الجزء الأول – لعنقى أن يشرئب ، وقبلت التاريخ الواقع بين عامى ١٦٢٨–١٦٢٦ ق.م. كبديل للتاريخين التقليديين، وأعنى بهما عام ١٥٠٠ق.م. أو عام ١٤٥٠ق.م. وكانت الأسباب التى حدت بى إلى فعل ذلك تتلخص فى أن التاريخ الأقدم كان هو التاريخ الذى تم الاستدلال عليه عن طريق الخدوش أو العلامات الموجودة فى طبقات لحاء سيقان الأشجار فى كل من الولايات المتحدة الغربية وأيرلندا ، وفى أن هذه الأدلة التى تم الحصول عليها بهذه الطريقة قد توافقت بطريقة أفضل مع الدليل المستمد من اختبار الفحص الكربونى١٤ . وفضلاً عن ذلك ، فإن التاريخ الأقدم قد فسر لنا أيضًا سبب غياب الروايات القادمة من مصر والتى كان شطرًا منها معروفًا بين عام ١٥٠٠ق.م. وعام ١٤٥٠ق.م.، فى الوقت الذى كانت فيه الحقبة الأخيرة من القرن السابع عشر ق.م. تخلو من الأدلة المتعلقة بهذه النقطة. وعلاوة على هذا كله ، فقد تحققت من أن التواريخ الأحدث كانت تعتمد فحسب على حدس مُؤداه أن ثورة البركان كانت سببًا فى دمار الحكم المينوى وانهياره فى جزيرة كريت ، كما أنها كانت فى ذات الوقت سببًا فى انتصار الميكينيين الإغريق على الجزيرة ، وهو الانتصار الذى عرفنا من السجلات المصرية أنه تحقق حوالى عام ١٤٥٠ ق.م.

ومنذ أن قمت بنشر الجزء الأول من كتابى هذا ، ظهر دليل أوفر يعزز صحة التاريخ الأقدم أو الأسبق زمنيًا. ولقد تم التوصل لهذا الدليل عن طريق الطبقات التى

تكَون لحاء سيقان الشجر فى كل من ألمانيا وإنجلترا ، وعلاوة على ذلك من خلال دراسة الطبقات التى خلفها سقوط الجليد فى فصل الشتاء وذوبان نهر الجليد الذى يحدث خلال فصل الصيف فى جرينلاند. ولقد بينت لنا هذه الظواهر أن هناك زيادة كبيرة فى درجة الحموضة التى يمكن للمرء أن يتوقع وجودها بعد حدوث ثورات البراكين ، التى على غرار ثورة بركان جزيرة ثيرا حوالى عام ١٦٤٠ق.م. وكانت هى قشة الجليد التى قصمت ظهر البعير ، إذ غدا بعدها علماء الآثار المتخصصون فى فترة العصر البرونزى لمنطقة البحر الإيجى - يسلمون عن بكرة أبيهم تقريبًا بأن أدق تاريخ لوقوع هذا الحدث هو القرن السابع عشر ق.م.

وهناك قسم من الفصل السابع عبارة عن استقصاء يتخذ صورة التحقيق للمناقشات التى دارت فى هذا الصدد ، وهدفى من هذا الاستقصاء هو اكتشاف السبب الذى حدا بعلماء الآثار إلى ضرورة التمسك لفترة طويلة يمثل هذا الافتراض المهلهل فى مواجهة الدليل المضاد الذى ثبتت موضوعيته. ولقد اعتبرت هذه التحقيقات وأمثالها مجافية للذوق بوجه عام، حيث إن الاتجاه السائد فى مثل هذه الأحوال هو : "أن أى إنسان معرض لارتكاب هفوة أو زلة". وكانت أهدافى من اللجوء إلى مثل هذا الاستقصاء هى: أولاً محاولة توجيه تحذير من صياغة الفروض فى المستقبل بهذه الطريقة ، وثانيًا ، جعل من يتمسكون بأهداب الفكر الاتباعى يدفعون ثمن مسلكهم. ذلك أننا نُهَاجَم الآن بضراوة وتعسف الهفوات الأكاديمية الناجمة عن الالتزام والاجتهاد ، على حق يقابل من ينتقلون إلى الحذف أو الإغفال بتسامح مفرط ، وهو تصرف ينطوى على قبول للوضع الراهن بغير إعمال لقواعد النقد الموضوعى. لذا فإن مرامى هنا هو أن أبذل ما فى وسعى لكى أخفف من حدة التباين عند التعامل مع هذين النمطين من الأخطاء.

ويُوجه الاهتمام فى الجزء الثانى من ذات الفصل إلى ثلاث روايات تراثية تبدو أنها حفظت لنا ذكريات فولكلورية عن ثورة بركان ثيرا السالف الذكر. وأولى هذه الروايات وردت فى العهد القديم ، ففى سِفر الخروج نجد ذكرًا لعدد من الظواهر الطبيعية المرتبطة برحيل بنى إسرائيل عن مصر ؛ ولقد تم النظر إلى هذه الظواهر - لحقبة زمنية طويلة - على أساس أنها توحى بوجود نشاط بركانى. فهناك ذكر " للظلام

الذى يمكن الإحساس به "، و"لعمود السحاب " الذى يظهر نهارًا ، و" لعمود اللهب " الذى يشاهد ليلاً. فضلاً عن ذلك، فهناك الانغلاق الذى حدث فى البحر الأحمر إلى فرقين هائلين ثم انطباق البحر مرة أخرى ليغرق الفرعون المصرى وجيشه ، وهى ظاهرة تشبه بصورة لافتة للنظر الأثر الناجم عن حدوث موجة مد هائلة عقب الزلازل أو الثورات البركانية ؛ وهى موجة تُعرف باسم (tsumai) وتشبه فى صورتها النمط الذى يبدو أنه حدث فى سواحل كل من مصر وفلسطين المطلة على البحر المتوسط نتيجة لثورة بركان جزيرة ثيرا.

ولو أننا أرجعنا تاريخ نشأة هذه الروايات الأسطورية إلى عام ١٦٢٨ق.م. بدلاً من عام ١٤٥٠ أو عام ١٥٠٠ ق.م.، فسوف يدعم هذا الافتراض القديم - وهو افتراض قوى بالفعل - الذى يعتقد أن رواية التوراة عن احتجاز بنى إسرائيل فى مصر كأسرى أو عن إقامتهم فيها رواية مؤسسة على ذكرى فولكلورية عن حكم الهكسوس لمصر ، وهى الذكرى التى لعب بنو إسرائيل فيها دورًا بارزًا فى عصور متأخرة. وفى الحقيقة أنه لا يوجد هناك اتساق دقيق (بين أحداث الرواية وثورة البركان)، حيث إن طرد الهكسوس قد تم حوالى عام ١٥٧٠ق.م. ، أى بعد ثورة بركان جزيرة ثيرا بأكثر من خمسين عامًا. وبالتالى فيبدو أنه قد تم إدماج الحادثتين الدراميتين داخل الأسطورة. وأيًا كان الأمر ، فإن عام ١٦٢٨ق.م. هو أقرب تاريخ زمنى ممكن لانسحاب الهكسوس من مصر ، كما أنه أقرب لهذه الحادثة من التواريخ الأحدث زمنيًا التى تم تحديدها لثورة البركان. كذلك فإن النظرية القائلة بأن هذه الكوارث الطبيعية الناجمة عن وقوع الزلازل كانت ذات فائدة لبنى إسرائيل ، إنما هى نظرية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحقيقة أن إلههم " يهوا " (Yahweh) كان إلهًا للزلازل وكل أنواع الاضطرابات فى الطبيعة. فضلاً عن أن إخلاص الهكسوس وتفانيهم فى عبادة الإله " ست "، النظير المصرى لإلههم " يهوا " ، أمر يبرهن على أن هذه العبارة كانت سابقة فى تاريخها على ثورة البركان ؛ وإن كانت كافة الأسباب - مع ذلك - تحدو بنا إلى افتراض أن ثورة البركان قد منحت تدعيمًا قويًا لهذه الحقيقة.

أما الرواية الثانية التى تستحق الاعتبار والتنويه ، فهى رواية مصرية - إغريقية قصها علينا أفلاطون فى محاورتَيْه، " تيمايوس " و " كريتياس " ، وهى عبارة عن قصة

درامية تتضمن وصفًا (لقارة) أطلانطيس (Atlantis) (المفقودة) ؛ وهناك رغم بأن هذه القصة قد رويت على السياسى الأثينى " صولون " عند زيارته للعاصمة المصرية "سابيس" (= صاالحجر) حوالى عام ٦٠٠ق.م. ووفقًا لهذه القصة فإن أطلانطيس كان جزيرة غنية رائعة تقع فى المحيط الأطلنطى ، وعقد فيها ائتلاف بين الملوك الذين حشدوا جيشًا بالغ الضخامة ليقهروا به أفريقيا بأسرها فيما عدا مصر ، وأوروبا بأسرها فيما عدا أثينا ، التى تزعمت حركة مقاومة بطولية ضد هذا الجيش الضخم الغازى. أما جزيرة أطلانطيس فقد تعرضت لدمار درامى تسببت فيه الزلازل والفيضانات.

ويبدو أن هناك ضَربين من الخلط قد حدثا فى هذه الرواية ، أحدهما جغرافى والآخر تاريخى. ذلك أن الباحثين ارتأوا لبعض الوقت أن هناك ارتباطًا بين الدمار الذى تسببه النيران والدمار الذى يسببه الطوفان من ناحية ، وبين ثورة بركان جزيرة ثيرا من جهة أخرى. غير أن أفلاطون كان واضحًا تمامًا حينما ذكر أن أطلانطيس كانت تقع وراء أعمدة هيراكليس، أى وراء مضيق جبل طارق ، وبالتالى فهى تقع فى المحيط الأطلنطى. وأنا أقر هنا بأن هناك إشارة إلى جزيرة ثيرا وأن الخلط الذى حدث كان بسبب الاسم " أطلانطيس". كما أننى أحاول أن أبرهن على أن الجذع (-Atal) - الموجود فى كلمة أطلانطيس ، وفى كلمة الأطلنطى ، وفى التسميتين اللتين أطلقتا على جبال " أطلس " وعلى العملاق الأسطورى " أطلس " (-Atlas) مشتق من الكلمة المصرية القديمة " إترو " (itrw) (= نهر) التى كانت تستخدم كاسم لنهر النيل بمثل ما كانت تطلق كتسمية على المساحات الشاسعة من المياه ، وكانت تُطلَق بوجهٍ خاص على النهر الذى ساد الاعتقاد قديمًا بأنه يُحيط بالعالم ويكتنفه. إذ كانت هذه الكلمة المصرية فى الحقيقة بمثابة مرادف دلالى لكلمة المحيط (Okeanos) (=Ocean) الإغريقية، وهى تسمية يبدو أنها مشتقة من أصل " ميسوبوتامى". وبالتالى ، فإن أطلانطيس بوصفها بحرًا يمكن أن يقصد بها موقع جزيرة ثيرا فى البحر المتوسط ، رغم أنه من المحتمل أن تكون مرتبطة ارتباطًا غامضًا فى معناه بقارة أمريكا الواقعة فيما وراء المحيط الأطلنطى.

ولقد امتد الخلط الزمنى ليرتبط أيضًا بالخلط الجغرافى ، حيث إن كلمة " إترو " فى اللغة المصرية القديمة مرادفة لكلمة مصرية من عصر متأخر هى " يم " (ym) (= بحر) ، المأخوذة عن الكلمة السامية " يم " (= البحر)(*) (yam) ؛ وكانت الكلمة الأخيرة (يم) مستخدمة لوصف " شعوب البحر " التى هاجمت مصر خلال القرن الثانى عشر ق.م. ولا جدال فى أن الفقرة التى يصور فيها أفلاطون المؤامرة التى دُبِرَت ضد العالم المتحضر عن طريق غزو ينطلق من جزيرة أطلانطيس تتشابه بدرجة مذهلة مع النقش الذى دُوِنَ فى عهد الملك رمسيس الثالث ، وهو النقش الذى يصف أيضًا المؤامرة التى تم نسجها على يد "شعوب البحر " فى جزرهم. ولو أن المرء قام بالربط بين عودة الهيراكليداى (=آل هيراكليس) - أو ما يُعرَف باسم " الغزو الدورى " - وبين التحركات العسكرية التى قامت بها القبائل فى منطقة البحر الإيجى فى أعقاب الغزو الذى قامت به " شعوب البحر "، لاكتشف أن مدينة أثينا قد ناهضت الغُزاة الشماليين بالفعل ، رغم أنه سيكون من قَبيل المبالغة والشطط أن نزعم أنها قادت بتصرفها هذا العالم أو أنها أنقذته. ويبدو أن هناك ازدواجية فى قصة صولون بين ما يطلق عليه علماء المصريات المحدثون اسم " الفترة الوسطى الانتقالية الثانية " و " الفترة الوسطى الانتقالية الثالثة "، وكذلك الدمار الذى حاق بجزيرة " ثيرا " بسبب ثورة بركانها ، وبين الثورة البركانية التى تعرض لها الهكسوس خلال الفترة الوسطى الانتقالية الثانية والاضطراب السياسى الذى ساد خلال الفترة الوسطى الانتقالية الثالثة.

غير أن ما يُلفْت النظر هنا هو أن الفترة الوسطى الانتقالية الثالثة قد شهدت بدورها ثورة بركانية عارمة ، تمثلت فى ثورة بركان هيكلا (Hekla) الثالثة عام ١١٥٩ق.م.، وهو أكبر بركان فى أيسلاندا. ولقد أوضح مؤخرًا علماء الآثار من الأيرلنديين والاسكتلنديين، وكذا المتخصصون فى علم المناخ المتعلق بالعصور القديمة ، أن منطقة شمال غرب بريطانيا قد أقفرت عمليًا من سكانها فى أعقاب ثورة بركان هيكلا الثالثة ، رغم أنه اتضح لنا أن الظروف المعيشية هناك كانت قد بدأت فى التدهور قبل ذلك بعشرات السنين. وعلى الرغم من أن الموقف كان أقل وضوحًا فى معالمه ،

(*) وهو الجذر الذى جاءت منه كلمة " اليم " فى لغتنا العربية. (المترجم)

وعلى الرغم من عدم وجود كارثة كاسحة مماثلة فى حوض البحر المتوسط الذى يتمتع بنوع من الحماية النسبية ، إلا أننا نرجح أن النموذج المناخى فيه كان مماثلاً لنظيره البريطانى ، أى أن هناك تدهوراً حدث أدى إلى وجود هجرات ووقوع اضطرابات منذ نهاية القرن الثالث عشر ق.م. ، وكذلك إلى حدوث انهيار تام قرب منتصف القرن الثانى عشر ق.م.

ويبدو أن هاتين الثورتين البركانيتين اللتين وقعتا عام ١٦٢٨ وعام ١١٥٩ ق.م. كان لهما أثر درامى بالغ وطويل المدى على الصين. ولذا فإن الفصل السابع لعدد من الرحلات القصيرة التى تم القيام بها فى الصين ، وتم التركيز من خلالها على العمل الرائع الذى اضطلع بإنجازه العالم الصينى - الأمريكى كيفن بانج (Kevin Pang) فى مجال علم المناخ. وكان الأستاذ بانج وزملاؤه فى التخصص قد داوموا على استخدام السجلات الصينية على أمل معاونتهم فى إعداد سجلات حديثة لعلم الأرصاد الجوية على امتداد فترة الأربعة آلاف عام الماضية - ولقد تسنى لهؤلاء الباحثين التوصل إلى تواريخ على قدر من الدقة للظواهر الطبيعية غير العادية التى تتعلق بالمناخ خلال الحقبة الزمنية التى تبدأ بالقرن التاسع ق.م.، بما فى ذلك الظواهر الطبيعية الكثيرة التى يحتمل أنها وجدت نتيجة لوقوع الثورات البركانية. أما فيما يتعلق بالفترة الزمنية السابقة على القرن التاسع ق.م.، فإن عملهم كان حافلاً بالصعوبات الجمة ، وكان سبب ذلك هو الخلاف الشديد بينهم حول دقة التأريخ. وأيا كان الأمر ، فإننى أتفق مع الأستاذ بانج فى أنه من الأفضل أن نؤرخ لسقوط أسرة اكسيا (Xia) الحاكمة بنهاية القرن السابع عشر ق.م.، ولانهيار أسرة شانج (Shang) الحاكمة بنهاية القرن الثانى عشر ق.م.

وكانت الفرضية الرئيسية التى افترضها الأستاذ بانج - استناداً إلى هذا المنهج من مناهج التأريخ - هى أن انهيار أول أسرتين حاكمتين فى الصين ، وهما اكسيا وشانج ، يتزامن فى وقوعه مع اندلاع ثورة البركانين ، وأعنى بهما ثورة بركان جزيرة ثيرا وثورة بركان هيكلا الثالثة. ومن هذا المنطلق ، فحرى بنا أن نأخذ على محمل الجد كثيراً من الظواهر الطبيعية غير العادية التى ورد ذكرها فى المصادر التراثية على أنها مرتبطة بانهيار الأسر الحاكمة - مثل قرص الشمس المزدوج ، وكسوف الشمس

أو خُفُوت نورها، والضباب الجاف ، وسقوط الجليد خلال فصل الصيف ، وغير ذلك. وحتى وقف قريب فى عصرنا الحاضر ، كان معظم الباحثين يتصور أن هذه الروايات التى تروى حدوث أحداث خارقة للطبيعة مجرد روايات مختلقة أو خرافية أو مبالغ فيها لأجل هدف سياسى ، غايته إظهار الأسرة الحاكمة القديمة وكأنها فقدت " التفويض السماوى " واستحقت بالتالى أن يُطاح بها على يد الأسرة الحاكمة الجديدة ، التى كانت هذه الروايات تُدَون فى ظل اضطلاعها بالحكم.

ولكن يبدو لنا الآن أن مثل هذه الروايات كانت تحتوى على قدر من الحقيقة ، وأن الثورات البركانية والأعاجيب الفلكية التى ترتبت على وقوعها - وما تلا ذلك من عواقب اقتصادية وخيمة تتمثل فى الجَدْب أو القَحْط وفُقْدان المحاصيل - كانت بالفعل أسباباً جوهرية رغم عدم كونها كافية لسقوط الأسرتين الحاكمتين اكسيا وشانج فى الصين ، بالإضافة إلى وجود عوامل أخرى اجتماعية وسياسية بالطبع.

وإن احتمال كون هذه الروايات صحيحة ودقيقة يُفضى بنا إلى الاعتقاد بأن الأساس الذى بُنيت عليه النصوص التى تصف سقوط أسرة اكسيا وارتفاع نجم أسرة شانج، لا يعود تقريباً إلى عهد كونفوشيوس إبَّان القرن السادس ق.م. - كما هو مفترض بوجه عام - بل إلى حقبة زمنية أقدم من ذلك بكثير ، وبالتحديد إلى القرن الثانى عشر ق.م. بعد سقوط أسرة شانج الحاكمة ، أو حتى إلى التاريخ الأسبق الذى زعموه ، هو القرن السابع عشر ق.م. وفى كلتا الحالتين ، فمن شأن مثل هذا الأمر أن يوضح أن السادة الصينيين كانوا يفكرون بواسطة المصطلحات الكونفوشيوسية قبل مولد هذا الفيلسوف الشهير بخمسمائة عام أو يزيد. وبناء على ذلك ، فإن ما قاله كونفوشيوس ينبغى أن يؤخذ على محمل الجد ، وذلك حينما ذهب فى قوله إلى أنه كان ناقلاً عن سواه أكثر منه أصيلاً منشئًا.

ولاشك أن إعادة تحديد التاريخ على هذا النحو لها نتائج واسعة النطاق ، حيث إنها تطيح بإحدى الساقين اللذين ترتكز عليهما نظرية " العصر المحورى ". وتبعًا لهذه النظرية ، فإن هناك حدثًا استثنائيًا وقع بالصدفة أو رعته العناية الربانية فى العالم إبَّان القرنين السادس والخامس ق.م. وبناء على ذلك ، فإن علينا أن نفترض أنه قُدِرَ

للدين الحق وللفلسفة وللعلم أن يظهروا خلال هذين القرنين. ذلك أن كونفوشيوس (Vonfucius) ولاؤوزى (Laozi) (أو لاؤوتزو Laotzu) قد ظهرا خلالهما فى الصين ، وأن بوذا (Buddha) قد ظهر فى الهند، وأن زرادشت (Zoroaster) قد ظهر فى بلاد فارس ، وأن الديانة اليهودية قد نشأت فى بابل، وأن " المعجزة الإغريقية " – وهو أكثر هذه الأحداث أهمية – قد بزغت فى بلاد الإغريق–غير أننا نعرف الآن أن كونفوشيوس قد بنى أفكاره بصورة أساسية على ثقافة زو (Zhou) المبكرة التى سادت (الصين) خلال القرنين الثانى والحادى عشر ق.م.، وأنه اعتمد على تراث أقدم سابق عليه زمنيًا. أما بوذا ، فقد كان يمثل رد فعل ضد الهندوسية التى وجدت قبل عصره بأكثر من ألف سنة. وأما زرادشت نفسه ، فقد تحدد تاريخ ظهوره بفترة زمنية تقع خلال الألفية الثانية ق.م.، كما أن شطرًا كبيرًا من العهد القديم – إن يكن معظمه – قد دُوِنَ قبل القرن السادس ق.م. بزمان طويل. وفى الحق أن " الثورة " الوحيدة التى حدثت خلال هذين القرنين كانت هى المعجزة الإغريقية. وإننى لمقتنع أشد الاقتناع بأنها كانت تدين فى ظهورها للديانات المبكرة التى ظهرت فى مصر ومنطقة المشرق ، وأنها كانت تدين كذلك للتراث الفلسفى والعلمى الذى كانت منتشرًا فى هذه المنطقة.

إن القوة النسبية للمثال الإغريقى هى التى أفشت قواعد اللعبة ، كما أن التصور المتعلق " بالعصر المحورى" يسمح لبلاد الإغريق وبالتالى للأوروبيين باحتلال موقع (متميز) فى مطلع الحضارة العالمية. وبالتالى ، فقد تم التنكر لثقافات العصر البرونزى العظيمة السائدة فى كل من آسيا وأفريقيا ، وبات حتمًا مقضيًا على (طائفة من الباحثين) أن يتبرأوا منها ، رغم أن الحضارة الكلاسية (الأوروبية) قد اعتمدت عليها ، ليس فقط فى التقنيات المادية ولكن أيضًا فى الروح والفكر.

ويبدو أن الثورتين البركانيتين اللتين وقعتا فى كل من جزيرة ثيرا وهيكلا الثالثة ، واللتين أديتا إلى سقوط الأسرتين الحاكمتين اكسيا وشانج ، كان لهما دور حاسم وتأثير طويل الأمد فى تاريخ الصين. وقد أسمح لنفسى هنا بأن أذهب إلى مدى أبعد مما ذهب إليه الأستاذ كيفن بانج ، وانبرى للبرهنة على هاتين الثورتين البركانيتين – لو أننا نحينا فترة زمنية قوامها خمسمائة عام جانبًا – قد لعبتا دورًا مهمًا فى إقامة نموذج تاريخى خاص بتعاقب الأسر الحاكمة ، وهو تقليد لا وجود له فى اليابان – على

سبيل المثال – رغم كونها إمبراطورية آسيوية عظمى بدورها. كما أننى أعتقد أيضاً أن الآيات المادية الواضحة التى أظهرت الثورتان البركانيتين عن طريقها زوال " التفويض السماوى "، كانت لها أهميتها فى إرساء تقليد يُخول للناس الحق فى الثورة ضد "السلطة غير الشرعية" فى كل من الصين وفيتنام. فى هذين البلدين نجد أن العرف القاضى " بالتفويض السماوى " – مع ما أُدمج داخله من إمكانية زواله وانقضاء أثره أو فاعليته – قد غدا أمراً مقبولاً ، بل وتم اتحاده مع عُرف قوى يُخْول للناس حق الثورة. وبالتالى ، فرغم وجود الحركات (الاجتماعية) القروية التى تحدث كل ألف عام فى معظم المجتمعات ، إلا أنها قد ارتبطت فى كل من الصين وفيتنام بإمكانية حدوث تغيير سياسى فى عالمنا هذا لا فى عالم تالٍ له.

وخلال القرن التاسع عشر الميلادى ، حينما أراد الباحثون اليابانيون إيجاد مقابل يابانى للمصطلح الأوربى " الثورة " (revolution) ، اختاروا كلمة (kakumei) التى تعنى "زوال التفويض ". أما المقابل الصينى لهذه الكلمة وهو (geming) ، فيؤكد على الارتباط بين المفاهيم التراثية ونظائرها (الأوربية) الغربية. وليس هناك شك فى أنه بحلول الفترة الأخيرة من عقد الأربعينات من القرن العشرين – وهى فترة كانت تُنذر بحلول فاجعة – تم النظر على نطاقٍ واسعٍ إلى " الكومنتانج " (Kuomintang) على أنه فقد " التفويض السماوى ". وبالتالى، فإن الشيوعيين الذين خطوا على " التفويض السماوى " والذين ركبوا موجة الحماس الثورى على المستوى الاجتماعى والقومى ، كانوا يتمتعون آنذاك برخصة مستمدة من التراث، أو يحملون على كاهلهم واجباً يقتضى منهم إعادة تشكيل المجتمع. وكانت هذه السلطة المزدوجة هى التى أتاحت لماوتسى تونج ومناصريه إنجاز تنظيم الاقتصاد وفقًا لمبادئ الملكية الجماعية للأرض بسرعة فائقة لا نظير لها ، كما سمحت لهم بانطلاقة الطفرة الكبرى للأمام وللقيام بثورتهم الثقافية القائمة على مبادئ راديكالية غير مسبوقة. وبالتالى ، فإن الصين اليوم لازالت تحمل سِمات ثورة بركان جزيرة ثيرا ، بعد مضى ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام على حدوث هذه الثورة البركانية.

والفصل الثامن مَعْنىٌ أشد العناية فى المقام الأول بالهكسوس (Hyksos) الذين قَدِموا من الشمال الشرقى ، وغزوا مصر أو تسربوا داخل أرضها قُربْ نهاية الدولة

الوسطى ، وبسطوا سلطانهم - على أقل تقدير - على مصر الدنيا (=الدنيا) لفترة تربو على القرن ونصف القرن ، إلى أن تم طردهم منها على يد الأسرة الثامنة عشرة - وهى أسرة مصرية-نوبية قريبة من عام ١٥٧٠ ق.م. وأول مشكلة تقف حجر عثرة فى طريقنا هنا هى مشكلة التأريخ ، حيث إن التواريخ المدونة فى السجلات المصرية غير مؤكدة. ومرامى هو أن أسعى لإثبات أن الهسكوس - ارتكازًا على أساس (من تواريخ) عصور الخزف الفلسطينية- قد وَفِدْوا على الأقل إلى منطقة شرق الدلتا حوالى عام ١٧٤٠ق.م. أما المشكلة الثانية فتتعلق بأرومة الهكسوس وأصله العِرقى. ومدخلى إلى هذه النقطة مَبنىٌ على التمعن فى نصوص الكُتَّاب الذين تناولوا تاريخ الهكسوس. إن نجد أن النص الكلاسى القياسى الذى دونه المؤرخ المصرى - الكاهن مانيثون - عن هذا الموضوع ، يصف الهكسوس بأنهم : " أقوام وافدة من جهة الشرق ، وغزاة من أصل غامض غير معروف." ، وبأنهم غزوا مصر ودحروا (قواتها) بشراسة بالغة. وكما ذكرنا آنفًا فإن الكُتَّاب - على الأقل منذ العصر الهيلنستى - قد ربطوا بين حُكْم الهكسوس لمصر وبين أسر بنى إسرائيل أو إقامتهم فى مصر، لدرجة أن الاعتقاد الذى ظل سائدًا حتى أواخر القرن التاسع الميلادى ، كان مبنيًا على فرضية مفادها أن هؤلاء الغزاة (الهكسوس) كانوا من بنى إسرائيل ، أو كانوا عبرانيين من عصر أقدم ويتحدثون بلغة سامية على أية حال.

ولكن ، بناء على الترتيب المنهجى لنزعة العداء للسامية ، يبدو أن هذه الصورة التى تمثل أقوامًا وافدة من جهة الشمال تتقدم وتكتسح وادى نهر خصيب يتميز بالازدهار والرخاء، هى صورة آرية عظيمة وليست سامية على الإطلاق. هذا إذا ما أسقط المرء العرب من حسابه فيما يختص بهدف هذا البرهان، مثلما فعل الباحثون خلال الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى. وفى الحق أن وجهة النظر هذه بشأن الهكسوس تستمد الدعم والمساندة من مقولة المؤرخ مانيثون " عن أصل الهكسوس الغامض " ، فضلاً عن أنها تلقى دعمًا (أشد) من نقش تم اكتشافه ويرجع تاريخه إلى الأسرة الثانية عشر التى كانت تحكم مصر. ولقد تبين من قراءة هذا النقش أنه يشير إلى عاصمة الهكسوس بكلمة مركبة تجمع بداخلها لفظين ، أولهما لفظ " عامو " (c ; NO) ، وهو المصطلح المصرى الذى كان يُطلق على المتحدثين

بالسامية من منطقة سوريا – فلسطين ، وثانيهما لفظ " سماوو " (Šm ; O) الذى كان يُستَخدم للدلالة على " البدو " الرحل الذين يضمون " الأجانب بين صفوفهم ". ولقد تم تفسير (الكلمة المركبة من هذين اللفظين) على أساس أنها تبين أن الهكسوس كانوا يضمون بين جحافلهم قومًا غير ساميين فى أرومتهم.

ولقد اقترح العلماء الألمان – الذين اعترتهم الدهشة من جراء التشابه الواضح بين الفتوحات المفاجئة للمغول وللأتراك وبين (غزو الهكسوس لمصر) – أن الهكسوس كانوا أمة من " آسيا الداخلية ". وسرعان ما قاموا بمطابقتهم مع الحوارنيين (Hurrians) الذين تم الكشف حديثًا عن أنهم قوم يتحدثون بلغة غير سامية ، وليست هندو-أوربية فى ذات الوقت؛ وكان هناك افتراض سائد بأن هؤلاء الحورانيين قد هاجروا من منطقة ما وراء القوقاز إلى الجزء الشمالى من بلاد ما بين النهرين ، وفى وقت مماثل لقدوم الهكسوس إلى مصر. أما الآن ، فنحن نعرف أن الحورانيين كانوا موجودين فى بلاد ما بين النهريين منذ الألفية الثالثة ق.م. ، وربما منذ حقبة زمنية أكثر قِدَمًا. ولقد ازداد حماس العلماء الذين كانوا يعتقدون أن مملكة حوران من الميتانيين (Mitanni) كانت معاصرة لعهد الأسرة الثامنة عشرة ، كما اشتد هذا الحماس عندما تم الكشف عن أصل بعض الأسماء الملكية وبعض الأسماء المقدسة لدى الميتانيين ، بالإضافة إلى المصطلحات الخاصة بقيادة المركبات الحربية ، واتضح أنها هندو-إيرانية ، إن لم تكن هندو-آرية. ولقد أوحى ذلك لهم بشدة بأن مملكة حوران هذه قد تكونت فى الأصل بفضل " عرق آرى مسيطر "، ارتبطت سطوته وهيلمانه بالعجلات الحربية. ولقد شد من أزر مقترحاتهم فى هذا الصدد حقيقة مفادها أنه برغم وجود نذر يسير من المعلومات أو برغم غياب المعلومات تمامًا عن منطقة سوريا – فلسطين اعتبارًا من القرن السابع عشر ق.م. – وهو القرن الذى ظهرت عنه من جديد معلومات تتعلق بهذه المنطقة فى الوثائق المدونة خلال القرن الخامس عشر ق.م. – إلا أن من المرجح أنه كان هناك وجود لحورانيين كثيرين ولعدد معين من المحاربين ، من ذوى الأسماء الهندو-إيرانية ، فى هذه المنطقة.

ولقد وقف نفر من علماء المصريات موقفًا مناهضًا من هذه المقترحات (الألمانية) ، واعترضوا على مثل هذا الانتهاك لحرمة تخصصهم (من جانب غير المتخصصين) ،

وتشبثوا بالتيار الذى كان سائداً بينهم آنذاك ، وهو تيار يتمثل فى إبداء الكراهية من جانب المتخصصين للأحداث الدرامية أو للأحداث المبنية على شطحات فكر يصعب تحقيقه. كما أن بعض هؤلاء العلماء قد أحس بالنفور تجاه المضامين المعادية للسامية والمتمثلة فى (الإصرار) على إدخال الحورانيين والآريين فى زُمرة الهكسوس. وكان بوسع هذه الطائفة من علماء المصريات أن تعزز اعتراضاتها عن طريق إيضاح أن معظم أسماء الهكسوس مشتقة من أصل سامى ، وأنه لا وجود هناك لأسماء هندو-أوربية ، أو حتى حورانية بينها.

ولقد ظل هذا الخلاف محتدمًا - خلال عقدى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين - حول الأطر والخطوط العريضة ، وكان فحواه أن علماء دول أوروبا الوسطى، ومعهم المؤرخون القدامى ، قد اعتقدوا بوجود عناصر حورانية وآرامية فى التكوين العرقى للهكسوس ، فى الوقت الذى ركز فيه علماء المصريات من جنسيات أخرى على سيادة العنصر السامى فى أرومة الهكسوس بصورة كاسحة ؛ وإن كانت الغالبية العظمى من الطائفة الأخيرة قد سلمت فى العادة بوجود بعض عناصر حورانية وغير هندو-إيرانية فى أصول الهكسوس العرقية. ولكن يبدو أن التحول الذى حدث بعد الحرب العالمية الثانية ضد ظاهرة العداء للسامية ، وضد النظريات المنادية بوجود "عرق آرى مسيطر" فى أرومة الهكسوس، كان له تأثير بالغ فى نظرة الباحثين المُحدَثين إلى قضية الأصل العرقى للهكسوس.

فالباحثون الآن يميلون إى استبعاد إمكانية وجود عناصر حورانية - ناهيك عن العناصر الهندو-أوربية - فى الأصل العرقى للهكسوس. ثم إنهم يعترضون على الاعتقاد بوجود غزو لمصر قام به الهكسوس ، ويفضلون على ذلك وجود هجرة سامية بطيئة وغير درامية ، أو تسرب لأراضى مصر على شكل مجموعات صغيرة من (الأقوام السامية). ولقد عززت التقاويم الزمنية الحالية - سواء الأدنى منها أو الأوسط - وجهة نظرهم هذه ، نظراً لأن التوسع الحورانى فى سوريا وفى بلاد ما بين النهرين - وهو توسع يلقى الإقرار والقبول- قد حدث تحديداً خلال القرن السابع عشر ، مما يجعل أية علاقة له بتحركات الهكسوس الأصلية منتمية إلى عصر لاحق متأخر جداً. ويعنى هذا أنه صار لزاماً على القلة القليلة من الباحثين ، التى أصرت دوماً على وجود عنصر

حوراني في تكوين (أرومة الهكسوس)، أن تميز بين طائفتين من الهكسوس : طائفة الهكسوس الساميين الذين تسربوا داخل مصر في عصر مبكر ، وطائفة الهكسوس المتأخرين الذين غزوا مصر تحت قيادة الحورانيين.

ولو قَبِلَ المرء " بالتقويم الزمني الأطول " فيما يتعلق ببلاد ما بين النهرين ، فإن بوسعه أن يحدد الآن تاريخ التوسع الحوراني الذي تمت البرهنة على وجوده بفترة النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م. ، أي قبل وصول الهكسوس إلى مصر. أما إذا لم يقبل المرء بهذا التقويم ، فسوف يجد أمامه نظائر مماثلة مستمدة من ظهور الإسلام وظهور المنغوليين أو التايبنج (Taiping) في الصين ، وهي نظائر توحي بأنه من الممكن تمامًا أن تبزغ قوة ذات صولة بغتة في ظرف عام أو عامين. وفي كلتا الحالتين ، فرغم أنني أستحسن كثيرًا الميول السياسية لهؤلاء الذين حاولوا إنكار التأثير الحوراني أو الهندو-إيراني في أرومة الهكسوس ، إلا أنني أعتقد أن الصواب جانبهم ، حيث إن هناك أدلة ترجح وجود عنصر حوراني - وربما أيضًا وجود عنصر هندو-إيراني - في الأصل العرقي للهكسوس ؛ بل إنها برهنت أكثر من ذلك على أن هذا العنصر كان مرتبطًا على الأرجح بفن امتطاء العربات الحربية ذات العجلات.

وربما آن لنا أن نحظى في هذا الصدد بحالة واضحة من حالات " النموذج الآري" . وفي الحق أنني لم أنكر بتاتًا وجود فتوحات أو غزوات تمت من وقت لآخر على أيدي البرابرة القادمين من الشمال ، بل إنني أعتقد في واقع الأمر أن هذه كانت هي الحال بالنسبة لشمال الهند ، حيث كان هناك تراث قومي يبرر وجودها ، فضلاً عن كونها ملائمة للانتشار اللغوي الذي جرى هناك في عصر متأخر. وفي واقع الأمر ، فإن القضية المطروحة لإجراء النقاش حولها وللبرهنة عليها في كتاب " أثينا السوداء " تتلخص ببساطة في أن هذا النموذج (الآري) يستعصي على التطبيق في حالة بلاد الإغريق ، التي لم تكن تحظى بتراث مماثل ولا انتشار لغوي مشابه.

فإذا سلمنا بوجود الحورانيين وبوجود أقوام يتحدثون بإحدى اللغات الهندو-أوربية في زمرة الهكسوس ، فلن يكون هناك شك في أن الغالبية العظمى من هؤلاء الأقوام الذين غزوا مصر كانت تتحدث بلغة سامية. والدليل على ذلك أن معظم أسماء

الهكسوس سامية ، كما أن الحفائر التى أُجريت فى (أواريس) - عاصمة الهكسوس بمصر فى منطقة " تل الضبعة " حاليًا بشرق الدلتا - قد أوضحت أن ثقافتهم المادية كانت سورية - فلسطينية ، وبالأحرى كانت مزيجًا من الثقافة المصرية وثقافة منطقة المشرق. وبالتالى ، فبمثل ما كانت قبائل البدو الرحل التى انضوت تحت لواء أتيلا (Atilla) (= قائد الهون) تتألف بصورة كاسحة من الجرمان - جيران الرومان القدامى - وبمثل ما كانت الثقافة التى قُدِرَ لها أن تُهيمن على الشطر الأكبر من غرب أوروبا ثقافة جرمانية وليست ثقافة خاصة بقبائل الهون ، فإن التأثير النهائى لغزو الهكسوس لمصر قد تمثل فى إدخال أسلحة جديدة من أسلحة الهكسوس ، ولكنه أسفر أيضًا عن إدخال ثقافة ولغة من المنطقة السورية - الفلسطينية إليها.

أما الفصل التاسع ، فهو مخصص لما نظرت إليه على أنه استمرار لعملية طرد الهكسوس من مصر وتعقب لفلولهم التى توجهت هذه المرة إلى منطقة البحر الإيجى. وفى حقيقة الأمر فإننى لست أول كاتب ينادى بذلك، إذ سبق للأستاذ إدوارد ماير (Edward Meyer) - العالم الألمانى والمتخصص راسخ القدم فى التاريخ القديم - كما سبق لباحثين آخرين غيره أن قدموا وجهة النظر هذه بذاتها فى بدايات القرن العشرين. كما حاول الأستاذ فرانك ستابنجز (Frank Stubbings) ، عالم الآثار بجامعة كامبردج ، أن يبرهن فى وقت أحدث على أن القبور القبابية(*) فى موكيناى(**) كانت مدافن مخصصة لأمراء الهكسوس-ولكن رأيه هذا ظل بوجه عام غير رائج ولم يحظ بالقبول طوال فترة الخمسين عامًا الأخيرة.

مرامى فى هذا الفصل هو أن أسعى جاهدًا مرة أخرى لإنعاش الجدل الدائر بين العلماء حول الاكتشافات التى حدثت خلال فترة منصرمة مقدارها عشرون عامًا أو يزيد. وكانت أهم التطورات التى أسفرت عنها هذه الاكتشافات هى إرجاع كثير من

(*) حول المقابر القبابية (Vaulted Tombs) - كأخص خصائص العمارة الميكينية - راجع كتابنا: تاريخ وحضارة اليونان، القاهرة ٢٠٠٠م. (المحرر)

(**) تسمى الآن فى اليونانية الحديثة تبعًا لاسم قرية قريبة من الموقع الأثرى - باسم ميكينز (Mykénes) . (المحرر)

عصور الخزف إلى تواريخ زمنية أقدم ، بناء على التاريخ الذى تم تحديده لثورة بركان جزيرة ثيرا . ولقد أوضحت هذه التواريخ الجديدة التى تم تحديدها بطريقة التصاعد نحو القدم أن التحولات التى حدثت فى الثقافة المادية لمنطقة البحر الإيجى كانت مرتبطة بفن متفرد جداً من فنون الشرق الأدنى وبالتقنيات المتعلقة بها خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر ق.م. ، ويعنى هذا أنه يجب ربط هذه التحولات – أو لنقل هذه التجديدات – بالهكسوس. وبناء على ذلك، فليس بمقدورى – فيما يخص هذه الجزئية – أن أسير على منوال " النموذج الآرى القديم "، الذى جرى الاعتقاد وفقًا له بأن الهكسوس المطعمين بعناصر فينيقية / مصرية قد وصلوا إلى بلاد الإغريق بعد أن تم طردهم من مصر حوالى عام ١٥٧٠ق.م. وفى واقع الأمر فإننى أسعى لإثبات أن مستوطنات الشرق الأدنى فى منطقة البحر الإيجى قديمًا قد وجدت فى فترة قريبة من بداية حُكْم الهكسوس لمصر ، أى حوالى عام ١٧٣٠ق.م.، وليس فى فترة قريبة من نهاية حكمهم لها . وهذا التعديل المتعلق بالتأريخ هو فى الواقع بمثابة تنقيح أو "مراجعة" " ثانية "للنموذج القديم المنقح" ، أما " المرحلة الأولى " فتتمثل فى التسليم بأن الأساس الهندو – أوروبى للغة اليونانية لابد أن يكون قادمًا من الشمال – بطريقة أو بأخرى – خلال فترة زمنية معينة.

ويتناول القسم الأول من الفصل التاسع التغيرات التى حدثت فى جزيرة كريت حوالى عام ١٧٣٠ق.م. ، ففى تلك الحقبة حل الدمار بالقصور الكريتية ثم أعيد تشييدها على جناح السرعة. ورغم أنه كان هناك بالضرورة استمرار ثقافى ، إلا أنه وجدت اختلافات كافية حدت بمعظم المؤرخين إلى التمييز بين حقبة زمنية تُعرف باسم " عصر القصور الأقدم " وحبة تعرف باسم " عصور القصور الأحدث "، وهما حقبتان موجودتان قبل حدوث هذه التغيرات وبعدها . وهناك أيضًا اتفاق عام على أن القصور الأحدث قد تأثرت بدورها على نحو أكبر بالتأثيرات الوافدة من منطقة الشرق الأدنى ، رغم أن القصور الأقدم قد تأثرت أبلغ التأثر بذات التأثيرات الوافدة.

ورغم أن معظم الباحثين يشهدون بوجود هذا الاستمرار الثقافى بناء على خبرتهم بالمعادن الكريتية ، إلا أن معظمهم يقر أيضًا بأن أسلحة الحقبة الحديثة قد تأثرت بصورة بالغة بالشرق الأدنى وبالتقنيات السورية على نحو خاص. فلقد أدخل السيف

كسلاح إلى جزيرة كريت إبَّان عصر الخزف المواكب للفترة الثالثة من العصر المينوى الأوسط (١٧٣٠-١٦٧٥ق.م.). ولقد جرى نقاش حول إمكان وجود أصل اشتقاقى مصرى وسامى يحظى بالقبول للكلمتين الرئيسيتين المستخدمتين فى اللغة اليونانية للدلالة على السيف، وهما: **(Xiphos)** ، **(Phasganon)** ، وهما كلمتان ليس لهما مقابل أو مثيل مشابه فى اللغات الهندو-أوروبية. ويبدو أن العربة الحربية - التى تعتبر هى والسيف سلاحًا أعجوبة - قد دخلت إلى جزيرة كريت فى نفس الوقت الذى دخل فيه السيف إليها ، أى إبان العصر البرونزى المتأخر.

وفى مجال الفن ، يجد المرء طرازًا لم يكن معروفًا عمليًا من قبل ، سواء فى منطقة البحر الإيجى أو فى منطقة الشرق الأوسط. هذا الطراز الجديد يتمثل فى صورة مستحدثة من صور التعبير الفنى تُعرف باسم " الوثبة الطائرة **(Flying lerp)** ، حيث تمنح الحيوانات وفقًا لهذا الانطباع بأنها تتحرك بسرعة فائقة عن طريق مد قدميها الأماميتين والخلفيتين معًا فى الهواء فى آن واحد. وبوجه عام ، فهناك تركيز واضح - فى هذه الصورة - على الحيوية الدافقة المتمثلة فى التحليق والسرعة. ويظهر هذا الطراز أيضًا فى بعض المقتنيات المصورة القليلة التى خلفها لنا الهكسوس ، سواء فى مصر أو فى منطقة سوريا - فلسطين .

وهناك فكرتان رئيسيتان (= موتيفتان) وفدتا خلال هذه الفترة ، وهما أبو الهول المجنح **(Winged Sphinx)** والغريفن **(Griffin)** . ورغم أن أبا الهول قد ظهر أصلاً بمصر فى زمن بالغ القدم ، إلا أن صُوَره المُجَنَّحة التى ظهرت فى جزيرة كريت قرب نهاية القرن الثامن عشر ق.م. كانت مستلهمة من وحى طراز سورى ، فضلاً عن أنها كانت ترتبط تحديداً بالهكسوس.

أما الغريفن - وهو عبارة عن مخلوق له جسم أسد ورأس صقر أو نسر - فقد أدخل أيضًا بصورته السورية تحديداً إلى جزيرة كريت إبَّان عصر الخزف المواكب للفترة الثالثة من العصر المينوى الأوسط. كما أن الغريفن قد مثل بصورة متكررة على امتداد فترة تالية قوامها خمسمائة عام فى منطقة البحر الإيجى ، وهو يقاتل أو يقتنص

فرائسه من " الوضع الطائر ". ولم يكن هذا التمثيل مجرد تصوير ينتمى إلى تاريخ الفن بقدر ما كان تصويراً يوحى بأهمية سياسية قوية ، نظراً لأن مخلوقات الغريفن كانت موضوعة على جانبى كرسى العرش فى أكبر القصور الكريتية وهو القائم فى مدينة كنوسوس ، وكذلك فى القصر الميكينى المشيد فى بيلوس (Pylos) (وهو المعروف باسم قصر نستور Nestor) . وبالتالى ، فيبدو أن الغريفن - مثله فى ذلك مثل أبى الهول المُجَّنح - كان شعاراً ملكيًا للهكسوس ، وأنه اقتبس منهم على أيدى الملوك الكريتيين. وقد يُفسر مثل هذا الاقتباس الزيادة الملحوظة كمًا وكيفًا فى الأسلحة المنتمية لطرز كانت سائدة فى منطقة الشرق الأدنى ؛ كما يبدو أن (منْ كانوا خلفها وعززوها) هم بالأحرى الهكسوس أنفسهم. ولم يكن السبب فى هذا فحسب هو الدمار الذى حق بالقصور الكريتية خلال هذا العصر ، ولا الزيادة المحسوسة للتأثير المشرقى وللرموز التى خلفها الهكسوس. ولكن السبب يرجع إلى عثورنا - فى الطبقة التى حاق فيها الدمار بالقصر القديم المشيد فى كنوسوس - على عدد من الأختام التى ثبت أنها تظهر بجلاء الطراز الفنى الحيوى الجديد ، وعلى صورتين يُرَجح أنهما ملكيتين ، تمثل الأولى منهما أميراً شاباً وتمثل الثانية رجلاً ملتحيًا. ولا يوجد مثيل معاصر لفترة الصورة الثانية سوى فازة مثيرة للدهشة ، على هيئة رأس ، تم العثور عليها فى مقبرة من مقابر الهكسوس فى جيريكو (Jericho) ، وسوى الأقنعة التى تم العثور عليها فى المقابر المحفورة (Shaft Graves) الموجودة فى موكيناى.

وعلى وجه الإجمال ، فرغم عدم وجود برهان على أن الهكسوس قد قاموا بغزو جزيرة كريت أو فتحوها خلال تلك الفترة ، إلا أن عدد النهايات المبعثرة التى يمكن لمثل هذا الافتراض أن يربط بنها يجعل من الأجدى لنا اقتصادياً أن نقتفى خطى الأستاذ إدوارد ماير وخطى المؤرخين الآخرين الذين افترضوا هذا الافتراض. وإن كان هناك برهان تفصيلى على هذا وارد من بقعة أخرى من منطقة البحر الإيجى.

ويدور القسم الثانى من الفصل التاسع حول المدينة التى تُسَمى حاليًا أكروتيرى (Akrotiri) والواقعة فى جزيرة ثيرا ، وهى مدينة غطتها الحِمَمْ التى أهالتها ثورة البركان. ورغم أنه لم تجر حفائر سوى فى جزء صغير من هذه المدينة ، إلا أن ما تم الكشف عنه حتى الآن يعتبر بالغ الإثارة. فلقد كانت مدينة أكروتيرى إحدى مدن

حوض البحر المتوسط المزدهرة ، وكانت ذات طراز أساسى مازال موجوداً حتى الآن ؛ ولقد تم الكشف فيها عن منازل مبنية من طابقين كانت تزخر بمقتنيات استهلاكية معتادة. وبالتالى ، فيمكن اعتبارها مدينة من العصر البرونزى مماثلة فى ظروفها وقدرتها لمدينة بومبى الإيطالية ، وإن كانت أفضل منها فيما يتعلق بالحالة التى حُفِظَت بها اللوحات الجدارية الجصية ، التى تقدم لنا معلومات ضافية عن التقنيات الفنية ، وكذا معلومات خلابة أوفر عن صورة المجتمع فى هذه المدينة إبان العقود التى سبقت ثورة البركان. ذلك أن هذه اللوحات لا تصور فقط مجتمعاً طبقيًا غنياً ومتطوراً ، بل تصور كذلك مجتمعاً عالميًا إلى أقصى حد بما يضمه من أجناس شتى ، لا تقتصر المعرفة فيه على جزيرة كريت وحدها بل تمتد لتشمل أفريقيا ومنطقة المشرق. ولقد أبدى الخبراء دهشتهم إزاء ما عثروا عليه من مكتشفات ، نظراً لأنها أوحت لهم بعمق التأثير المصرى الواضح ، وبوجه خاص فى الزوارق المخصصة للاحتفالات. كذلك فإنه هؤلاء الخبراء قد عجبوا أشد العجب من الثياب البيضاء ذات الحواف (المطرزة)، التى كان يرتديها أفراد الطبقات العليا (فى هذه المدينة). وإنى أعتقد أن هناك نظائر جيدة لهذه الثياب يمكن العثور عليها فى سوريا.

أما مؤرخو الفن ، فقد لاحظوا بدورهم أن هناك لمحة من التأثير الميكينى فى اللوحات الجدارية التصويرية ، رغم أن الرسومات المصورة عليها بما تتضمنه من ثقافة كانت تدين بالكثير لحضارة كريت. فلقد كانت هذه اللوحات تصور رجالاً مسلحين يرتدون خوذات من ذات الطراز الذى كان سائداً فى الجزء القارى من بلاد الإغريق ، بالإضافة إلى العثور على مناظر مشابهة للمناظر المصورة بطريقة التطعيم (niello) التى كانت مستخدمة فى المقابر الأسطوانية الموجودى فى موكيناى ؛ وطريقة النِّل هى طريقة فنية لزخرفة المعادن وطلائها بطبقة من المينا عن طريق ملء خطوط الرسوم المنقوشة على الصفائح المعدنية بمزيج معدنى أسود فاحم. غير أننى أعتقد أنه يمكن النظر إلى كل من هاتين التقنيتين - إلى جانب الصور الجدارية - على اعتبار أنهم ينتمون إلى ثقافة " الهكسوس العالمية ".

إن الطبيعة العالمية (Cosmopolitan) لهذا المجتمع (الممثل فى مدينة أكروتيرى) تبعث فينا مزيداً من الدهشة ، هذا لو أننا آمنا بأن ثورة البركان وبأن تاريخ تأسيس

هذه المدينة قد حدثا خلال الفترة الواقعة بين أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر ق.م. فلو أننا حددنا تاريخًا جديدًا لثورة البركان (بناء على الاعتبارات التي سلف ذكرها) ، فلا ريب أنه بوسعنا الآن أن نعرف أن هذه اللوحات الجدارية الجصية قد سجلت مظاهر الحياة فى مجتمع معاصر للقرن السابع عشر ق.م.، أى بعد مرور قرن كامل على الغزو الذى يُفتَرض أن الهكسوس قد قاموا به لجزيرة كريت. وقد يتناسب مثل هذا الافتراض بصورة جيدة - فى واقع الأمر - مع كثير من المظاهر الموجودة على اللوحات الجدارية والتى كانت قبلاً تثير حيرتنا. وتتمثل هذه المظاهر الباعثة على الحيرة فى وجود كل من التأثير العالمى والتأثير المصرى ، وفى وجود تأثير لكل من الطابع الحربى والمؤثر الميكينى، وكذلك فى وجود مخلوق الغريفن - وهو رمز ملكى - مرسومًا على إحدى اللوحات الجدارية.

وخلال العصور الكلاسيكية ، راجت روايات تراثية عديدة مفادها أن جزر الكيكلاديس - التى كانت جزيرة ثيرا واحدة منها - قد خضعت للسيادة الكريتية ؛ وليس لدينا سبب واحد يحملنا على الظن بأنه كانت هناك فترة واحدة لا سواها لخضوع هذه الجزر للسيادة الكريتية. وعلى أية حال، فهناك عددٌ من الباحثين يعتقدون بالفعل أن نهاية العصر البرونزى الأوسط وبداية العصر البرونزى المتأخر كانتا تمثلان كلتاهما حقبة واحدة من حقب السيطرة الكريتية؛ ويعد هذا فى ذاته أمرًا مقبولاً. ولكن، لو أن جزيرة كريت نفسها كانت خاضعة لحكم أمراء الهكسوس فى تلك الحقبة ، فقد يوحى هذا بوجود سيادة للهكسوس أيضًا على جزر الكيكلاديس خلال الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر وإبان القرن السابع عشر ق.م. فهل مارس الهكسوس يا ترى نوعًا آخر من النشاط الحربى فى منطقة تقع أبعد من ذلك شمالاً ؟

وهناك قليل من الشك يراودنا حول ما إذا كانت أعظم مكتشفات العصر البرونزى إثارة فى مجال الثقافة هى المكتشفات التى تم العثور عيها فى الجزء القرى من بلاد الإغريق - وبالتحديد فى موكيناى - على يد العالم الأثرى والمفسر العبقرى الألمانى هينريش شليمان (Heinrich Schliemann) . ذلك أن حفائر شليمان هذه ، التى كشفت لنا عن المقابر الأسطوانية فى ميكنياى ، قد أوجدت لنا ما يمكن اعتباره الكشف الأول الذى سيظل على الدوام أعظم كشف مذهل عن الثقافة التى أصبحت تُعَرَّف منذ ذلك

الوقت " بالثقافة الميكينية". فالمقتنيات التى تم دفنها مع القادة الأوائل من حُكام موكيناى مقتنيات بالغة الروعة ، كما أن الأثر المباشر الذى خلفته فى نفوسنا عنها يشي بالعنف والبداوة ، نظراً لأنها تضم كميات كبيرة من الأسلحة التى زُيِنَ بعضها بحِلية جميلة بطريقة " التطعيم "، وأقنعة مصنوعة من رقائق الذهب لمحاربين ملتحين بصورة لافتة للنظر.

ويكشف الفحص المتأنى الدقيق لهذه المقتنيات عن نزعة انتقائية غير عادية : فالخزف الذى تم العثور عليه ينتمى إلى التراث المحلى للعصر الهيلادى الأوسط ، أما ما عدا ذلك تقريبًا فهو دخيل أو مجلوب من الخارج وينم عن أنه جديد على بلاد الإغريق. فأما التأثير الأشد قوة فى هذه المقتنيات فهو وافد من جزيرة كريت ، ولكن هناك طائفة أخرى من التأثيرات الوافدة من مناطق خارجية أبعد من كريت : فالعنبر مجلوب من منطقة البلطيق، والكوارتز الشفاف مجلوب من جبال الألب ، وبيض النعام مجلوب من أفريقيا ، فضلاً عن وجود بعض المقتنيات التى تظهر بجلاء التأثيرات السورية - الفلسطينية والمصرية. وأيًا كان الأمر ، فإن معظم مظاهر التأثيرات الأخيرة كانت من نوعية غير عادية للدرجة التى أعتقد بأن أفضل وصف لها هو أنها تنتمى لطراز " الهكسوس العالمى " وبعيدة عن مواصفات التأثير المصرى ". وأرى لزامًا على أن أصرح بأن أصول هذه الثقافة المادية ذات الخصائص المتغايرة كانت غاية فى التعقيد بصورة واضحة ، وبالتالى فإن أى مخطط تاريخى يتصدى لتفسيرها لابد وأن يكون بدوره على نفس الدرجة من التعقيد والصعوبة.

والنموذج المقترح هنا مشابه على الأرجح لنظيره المتعلق بغزو النورمان لإنجلترا: فالفايكنج (Vikings) الوافدون من بلاد اسكاندبنانيا استولوا على نورمانديا ، ولكن بعد انصرام قرن أو يزيد قام النورمان بغزو إنجلترا وألحقوا بها الهزيمة. غير أن الأثر الناجم عن الغزو لم يتمثل فى جلب ثقافة اسكاندبنانيا ولغتها إلى إنجلترا ، بل انحصر فى إدخال لغات النورمان، وثقفات أتباعهم من رجال الإدارة الفرنسيين والإيطاليين إليها. وفى الحق أن قوام الاختلاف بين النموذجين يتبدى فى أن النورمان قد أصبحوا ذوى ثقافة فرنسية بحلول عام ١٠٦٦ ميلادية ، على حين أن زعماء الهكسوس وأمراءهم كانوا لا يزالون يحتفظون بسمات كثيرة من ثقافتهم المادية ، وعلى الأرجح

أيضًا من لغتهم ، نظرًا لأن توسع الهكسوس كان أكثر سرعة. وأيًا كان الأمر ، فإن سيادة الخصائص السامية فى صفوف الهكسوس بصورة لافتة للنظر أثناء إقامتهم بمصر ، قد توحى بشدة بأن ثقافات البرابرة الأصلية لم تؤثر فيهم إلا بدرجة ضئيلة – وذلك على غرار ما حدث من توسعات بالنسبة لتكوين الإمبراطوريات المتبربرة ، مثل إمبراطوريات الهون والمنغوليين والمغول – وذلك حين نجح هؤلاء البرابرة فى إدخال ثقافات الآخرين ، إلى البلاد التى قاموا بفتحها. وبالتالى ، فقد ساعد الهون على جلب الثقافة الألمانية إلى أوروبا الغربية ، وحمل المنغوليون ثقافة شرق آسيا إلى إيران وأوروبا ، وجلب الأتراك المغول الثقافة الفارسية إلى الهند ؛ وفى كل حالة من هذه الحالات قامت الأقوام الغازية بتغيير الثقافات التى حملتها قبل أن تقدمها إلى البلاد التى استقبلتها.

والافتراض الذى نقترحه هنا هو أن الأسر الملكية الحاكمة المدفونة فى المقابر الأسطوانية وفى باقى المقابر الميكينية الأخرى ، إنما هى لغزاة من الهكسوس القادمين من سوريا ، وكان هؤلاء الغزاة يتحدثون على الأرجح بالحورانية أو بلغة هندو – إيرانية. وأيًا كان الأمر ، فلقد كانت غالبية الطبقة الحاكمة (فى موكيناى) طبقة مشرقية من المتحدثين بلغة سامية ، وكان يوجد بين صفوفهم عدد لا بأس به من المصريين والكريتيين الذين كان معظمهم يتحدثون أيضًا بلغة سامية على الأرجح ؛ وكانت الثقافة المصرية – وبوجه خاص فى ميدان الديانة – متغلغلة تمامًا فى كل هذه المجموعات العرقية الثلاث. وبالتالى، فمن ناحية نجد أن الاستمرارية التى تتبدى فى طرز الأوانى الفخارية جنبًا إلى جنب مع الحقيقة الدالة على أن اللغة اليونانية هى لغة هندو – أوربية ، يوضحان دوام واستمرارية السكان الأصليين وثقافتهم. ومن ناحية أخرى ، نجد أن التغير الملحوظ الذى طرأ على الثقافة المادية وأن التأثيرات الجديدة الدخيلة كذلك التى ارتبطت بالروايات التراثية الإغريقية عن الاستيطان المصرى والفينيقى فى تلك المنطقة ، إنما تبرهن جميعًا على وجود غزاة أجانب بين مصر ومنطقة المشرق قدر لهم أن يحكموا أجزاء من بلاد الإغريق أو يهيمنون عليها بأسرها ، حتى العصر الذى وصل إليها فيه آل بيلوبس قادمين من شبه جزيرة الأناضول خلال القرنين الخامس

عشر والرابع عشر ق.م. أما بالنسبة لمدينة طيبة ، فلقد استمرت الأسرة الفينيقية الحاكمة حتى سقوط المدينة إبان القرن الثالث عشر ق.م.

ووفقًا للمخطط التاريخى المقترح هنا ، فنجد أن ما نعتبره طرازًا فنيًا " ميكينيًا " يتبدى على أفضل صورة فى المقتنيات التى قدر لها البقاء من طراز الهكسوس الذى نشأ أصلاً فى سوريا خلال القرن الثامن عشر ، على الرغم من وجود تأثيرات محلية وأخرى وافدة من شبه جزيرة الأناضول بعد عام ١٤٠٠ ق.م. ولقد اختفى هذا الطراز على نطاق واسع – وإن لم يختف بالكامل – فى كل من مصر وكريت ، نظرًا لوجود تراث محلى ثرى يتسم بالتركيب والتطور فى كل من البلدين. وعلى العكس من ذلك ، فإن الجزء القارى من بلاد الإغريق – الذى كان أقل تطورًا خلال العصر الهيللادى الأوسط – لم يبد من المقاومة تجاه ذلك الطراز الفنى سوى النزر اليسير ، وبالتالى فقد انفتح الباب على مصراعيه أمام الطراز الفنى للهكسوس لكى يصبح الطراز المميز لمنطقة البحر الإيجى خلال العصر البرونزى المتأخر.

وعلى قدر ما نعلقه من أهمية على اللغات ، فهناك فى ذهنى قدر ضئيل من الشك فى أن الكلمات والأسماء – مصرية كانت أو سامية – كانت متداولة فى منطقة البحر الإيجى خلال الألفية الثالثة ق.م. فمن الثابت أن الإغريق قد استعادوا بصورة كبيرة من هذه اللغات خلال فترة السيطرة المصرية على منطقة شرق البحر المتوسط إبان العصر البرونزى المتأخر بعد عام ١٤٧٠ق.م. ، وكذلك إبان العصور الجيومترية والآرخية والكلاسية ، التى يبدأ أولها بعام ٩٥٠ ق.م. وينتهى آخرها بعام ٣٠٠ ق.م. ومع ذلك ، فإن القرنين الواقعين ضمن الحقبة الزمنية الممتدة من عام ١٧٣٠ق.م. حتى عام ١٥٣٠ق.م – وهما القرنان اللذان تم اعتبارهما فى الغالب الأعم أقوى الفترات التى يُرجح أن اليونانية قد تكونت خلالها كلغة– يبدوان وكأنهما القرنان اللذان تم خلالهما خُضُوع بلاد الإغريق لحكم أقوام من المتحدثين بلغة سامية غربية وكذلك لحكم أقوام من المتحدثين باللغة المصرية القديمة. وبوجه عملى ، فما من شك فى أن كلاً من هاتين اللغتين كانت لها منزلتها الرفيعة فى المنطقة إبَّان ذلك العصر.

ويتعلق الفصل العاشر بالأدلة الوثائقية المعاصرة ، وأعنى بها الروايات المتواترة فى مصر ومنطقة المشرق عن الصلات التى نشأت بينهما وبين منطقة البحر الإيجى خلال العصر البرونزى ، وكذا الإشارات الوافدة من منطقة البحر الإيجى والتى تتعلق بصلاتها بمصر وبالمنطقة السورية - الفلسطينية.

ولقد تم تخصيص القسم الأول من الفصل العاشر للسجلات المصرية. وهنا - كما فى سائر أجزاء هذا الكتاب - نجد لزامًا علينا أن نقرر المغزى الذى كان يعنيه الكُتَّاب القدامى عند ذكرهم لأسماء الأماكن المختلفة التى كانوا يستخدمونها - وعلى سبيل المثال ، فهناك الاسم " منوس " (Mnws) الذى كان مُستَخدمًا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة للإشارة إلى بلد أجنبى يقع فى الشمال الغربى ، وكان هذا البلد مرتبطًا بقوم يعرفون باسم " فنهو " (Fnhw) الذين كانوا على الأرجح هم الفينيقيون. (ومن ناحية أخرى) فقط ربط بعض الباحثين المحدثين بين " كلمة منوس " وبين الملك مينوس (Minos) وجزيرة كريت ؛ وبالتالى فإن الموقف ليس واضح المعالم بحال من الأحوال. وأود أن أنوه هنا بأننى ناقشت فى الفصل الرابع من هذا الجزء موضوع اشتقاق اسم الملك مينوس من اسم الإله المصرى " مين "، وكذلك موضوع ارتباط (هذا الملك الكريتى) بأول فرعون مصرى ، وهو الملك " مين " /مينيس (=مينا). غير أن هناك احتمالاً آخر أبعد منالاً ، مفاده أن كثيرًا من أسماء الأماكن المعروفة تحت اسم (Minoa) جنوبى منطقة البحر الإيجى وقد اشتقت من الكلمة السامية الغربية " منوهاه (Menuhah) ، التى تعنى " مكانًا للراحة أو استراحة ". وبغض النظر عن ذلك ، فهناك احتمال قوى فى أن تشير كلمة " منوس " بالفعل إلى مناطق من جزيرة كريت ، وبالتالى فإن الدليل الوثائقى يوحى بأن أمراء جزيرة كريت قد رضوا بسيادة الفرعون المصرى " سيزوستريس" عليهم ، وهذا الدليل مجرد دليل آخر من الأدلة التى سبقت مناقشتها فى الفصول الأولى من هذا الجزء ، ووجدت أنه يجدر بى أن أقوم بتوضيحه.

أقام الاسم " كفتيو " (Kftiw) (وهو يشير فى اللغة المصرية القديمة إلى جزيرة كريت وجزيرة قبرص وجزء من سواحل سوريا) فهو أقل إثارة للنقاش والجدل ، فعلى الرغم من المحاولات المتكررة التى كانت تهدف إلى تحدى الموقع (الجغرافى) - حيث إن أمراء "الكفتيو" الذين كانوا يصورون فى رسوم المقابر كانوا ذوى ملامح آسيوية فى

الغالب الأعم- إلا أنه ليس ثمة سبب يحدو بنا إلى استبعاد المعرفة التقليدية التى ارتأت أن لفظ " ال " كان يشير إلى جزيرة كريت. ولقد تأكدت هذه الحقيقة لنا الآن بعد عثورنا على قاعدة تمثال للملك أمينوفيس الثالث (Amenôphis III) ، فرعون الأسرة الثامنة عشرة - عن " ال" التى كانت كتسمية مستخدمة على رأس قائمة لعدد من أسماء الأماكن فى منطقة البحر الإيجى. وكانت أقدم إشارة " ال " - بصفتها شريكًا تجاريًا من البعد - يرجع عهدها إلى الفترة الوسطى الانتقالية (٢٤٥٠-٢١٠٠ق.م.). أما الاستخدام المتكرر لكلمة " " ، فيرجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وبوجه خاص بعد انصرام عقد السبعينيات من القرن الخامس عشر ق.م. ، عندما بسط الفرعون المصرى تحتمس الثالث (Tuthmôsis III) سلطانه على الشطر الأكبر من منطقة سوريا - فلسطين ، وعندما ظهرت صورة ال وهم يقدمون الجزية إلى الملوك الفراعنة.

ولقد سببت هذه الصورة شيئًا من الانزعاج للباحثين المحدثين ، الذين كانوا قد عثروا على عدد من البراهين التى حدت بهم إلى إنكار حقيقة مثل هذه الدعاوى من جانب المصريين. غير أننى لست أرى من جانبى أى مبرر للشك فى هذه الدعاوى ، وكأن مسألة السيادة المصرية على منطقة المشرق كانت متوقفة على وجود حاكم طموح أو محنك من منطقة البحر الإيجى يمكنه التوصل إلى تفاهم مع الفرعون المصرى.

ولكن قد يكون هناك ما هو أكثر من ذلك ، حيث إن الملك المصرى تحتمس قد زعم أنه " أحكم وثاق الأقواس التسعة ، وهى الجزر الواقعة فى منتصف المسافة بين " واج ور" (W' ; d wr) (= بحر) ، و " حاوو نبو(ت) " (H ; w nbwt) (= سكان بحر إيجة وجزيرة كريت)، وكذا البلاد الأجنبية التى شقت عليه عصا الطاعة ". ومن هذه الفقرة قد يبدو لنا أن الحملات العسكرية المصرية - ونحن نعلم حق العلم أن مصر كان لها أسطول بحرى إبان تلك الفترة-قد أبحرت إلى منطقة البحر الإيجى. فالاسم " وا ج ور" (=الخضرة الشاسعة) كان يعنى "البحر" (أو بالتحديد البحر الأحمر) منذ عصور سحيقة ، لكن استخدامه اقتصر فى عهد الدولة الحديثة على البحر المتوسط فى الغالب وعلى منطقة البحر الإيجى بالتحديد. أما كلمة "حاوونبو(ت)" فتعنى " خلف أو ما وراء الجزر "، وهى كلمة وردت فى " فنون الأهرام " إبان الألف الثالثة ق.م. ، وارتأى عالم المصريات الكبير آلان جاردنر (Alan Gardiner) أنها بمثابة وصف دقيق بما فيه الكفاية

لمنطقة البحر الإيجي. ولكن عالمًا آخر للمصريات متخصصًا في العلاقات المصرية - الإيجية ، هو الأستاذ الفرنسي جان فيركوتيه Jean (Vercoutter) ، عارض هذا الرأى معارضة سافرة وجاهد لكي يثبت أن هذا التماثل مستحيل، حيث إن الأمر يتطلب معرفة متطورة جداً بالجغرافيا خلال الحقبة التي دون فيها الشطر الأكبر من " فنون الأهرام " ، ونعني بها الألفية الرابعة ق.م. وبالنسبة لي فليست هناك صعوبة تحول بيني وبين التواءم مع الفكرة القائلة بأن المصريين الذين عاشوا قبل عصر الأسرات كان لديهم هذا الإدراك العام للجغرافيا. ولكن من الممكن أن يتم انتحال المصطلح خلال فترة زمنية أكثر قربًا من وقت تدوين " فنون الأهرام " نقشًا ، أي عند نهاية عصر الدولة القديمة تقريبًا ، حيث بات من الواضح - من خلال أدلة أخرى جرت مناقشتها في الفصل الثالث - أن الحكام المصريين المسئولين كانوا يعرفون منطقة البحر الإيجي.

وعلى أية حال ، فنحن نعرف أن مصطلح " هوونبوت " كان يستخدم لوصف منطقة البحر الإيجي وبلاد الإغريق منذ عصر الدولة الحديثة. وفي حقيقة الأمر ، فإن كلمة "هوونبوت " بدأت تحل محل كلمة " كفتيو " بعد نهاية حكم الفرعون المصرى تحتمس الثالث، وبالتحديد عام ١٤٥٠ ق.م. هذه الحقيقة - بالإضافة إلى حقيقة أخرى قوامها أن كلمة " كفتيو" كانت مستخدمة خلال العصر البطلمي للدلالة على الفينيقيين - توحي بأن كلمة " كفتيو " كانت مستخدمة لوصف جزيرة كريت إبان العصر الذي كانت فيه نسبة كبيرة من سكانها - إن لم يكن القسم الأعظم منها - تتحدث بلغة سامية.

وهناك طائفة من الأسماء التي استخدمت للإشارة إلى بلاد الإغريق خلال عصر الدولة الحديثة في مصر ، وهي أسماء تتمثل في مجموعة من الكلمات المرتبطة ارتباطًا عنقوديًا باللفظين " تيناوى (Tin;y) أو " تانايا " (Tanaya) من ناحية ، وبالألفاظ "داوين" (D;-in) و "ديني" (Dene) أو " دينيين " (Denyen) من ناحية أخرى. وليس هناك شك في أن هذه الألفاظ هي نفسها الكلمات اليونانية التي كانت مستخدمة للإشارة إلى " الدانائيين " (Danaoi) ، وهو الاسم الذي تكرر وروده عند الشاعر هوميروس للإشارة إلى الإغريق. وفيما يتعلق بالمصريين ، فإن هناك رابطة تجمع بين الرمز المصرى

المستخدم فى كلمة " تينوى " وبين معنى " الرجل المسن المقعد ". أما فيما يتعلق بالإغريق ، فإن هذا المعنى الأخير يتلاءم تماماً مع الأوصاف التى أطلقت على داناؤوس (Dånaos) حيث تروى لنا إحدى الأساطير أنه استوطن مدينة أرجوس فى بلاد الإغريق بعد أن وفد إليها من مصر. وكان داناؤوس يصور على هيئة رجل مسن عاجز أو مقعد ، أما ألقابه الإيجابية - بوصفه مستوطناً وقائماً على شئون الرى - فتتناسب أيضاً مع التورية التى ترمز إليها الكلمة المصرية القديمة " دنى " (Dni) ، التى تعنى "يقسم حصص المياه" أو " يروى "؛ وكانت هذه اللفظة المصرية القديمة بدورها تنتمى إلى الكلمة السامية " دبين " [d (y) n (n)]، التى تعنى " القاضى". ورغم أن الكُتَّاب القدامى كانوا يُدركون بوضوح هذه الارتباطات القائمة بين التسميات ، إلا أن الاسم الأصلى لا يمكن ببساطة أن يكون مشتقاً مثل هذه الكلمات المذكورة بمثل ما اشتقن منها الاسم "دانيقى " (Da-ne ki) الذى ظهر ضمن إشارة واضحة الدلالة لأقصى الغرب فى أحد نصوص بلاد ما بين النهرين ، وهو نص يراجع تاريخه إلى حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م.

ويبدو أن مصر كانت لها معاملات مباشرة مع " التينوى " (=الدانائيين)، وأخرى غير مباشرة مع أمراء منطقة المشرق ، خلال الفترة الزمنية الواقعة بين عام ١٤٧٠ وعام ١٢٥٠ق.م. إذ تم تصوير زعماء " التينوى " فى رسوم أحد المقابر المصرية وهم يقدمون الجزية لفرعون مصر تحتمس الثالث. كما نجد قائمة تضم أسماء مدن منطقة البحر الإيجى مدونة فوق قاعدة لتمثال الفرعون المصرى أمينوفيس الثالث سابقة الذكْر ، وكان كل من "الكفتيو " و " التينوى " يتصدران هذه القائمة.

وخلال القرن الثانى عشر ق.م. كانت كلمتين " دنى " و "دبين " تستخدمان كتسميتين لأحد شعوب البحر التى نَهَبْت أرض مصر وخربت منطقة المشرق ؛ ولقد تم الربط أيضاً بين هذه الشعوب وبين الدانائيين الذين ورد ذكرهم فى ملاحم هوميروس. كذلك تم الربط بينهم وبين قبيلة " دان " (Dan) التى ورد ذكرها فى العهد القديم ، ومن الممكن أن نرتأى أن قبيلة "دان " هذه قد نشأت فى الأصل من اندماج العبرانيين من بنى إسرائيل مع أحد شعوب البحر.

وهناك أيضًا إشارات أخرى وردت فى نصوص من بلاد ما بين النهرين- وكذا فى النصوص السورية - إلى منطقة البحر الإيجى ، ولقد ذكرنا آنفًا أن التسمية "دانيقى" قد أُستخدمت فى نصوص ما بين النهرين لهذا الغرض ذاته. وفى نفس الموضع وفى قائمة مماثلة وجدت فى مدينة " إبلا " (Ebla) السورية ، فصادف الاسم "أمنيقى" (Am - ni ki) الذى يمكن ربطه بكلمة أمنيوس (Amnissos) ، وهو الاسم الذى كان يطلق على المرفأ البحرى لمدينة كنوسوس الكريتية ، وهى مدينة تُعْرف أنها سحيقة فى القدم. كما أن هناك قائمة يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر ق.م. ، وتم العثور عليها فى مدينة " مارى " Mari الواقعة فى أعالى نهر الفرات ، وهى تشير إلى " كابتارا " (Kaptara) (أى كريت) بوصفها شريكًا تجاريًا ومركزًا من مراكز تصنيع السلع الفاخرة.

وهناك أمر يبعث على الدهشة مفاده عدم وجود أى ذكر للإغريق أو الإشارة إليهم فى السجلات ذات القيمة المتعلقة بميناء أوجاريت (Ugarit) السورى (=رأس شمر حاليًا) ، والتى يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الثالث عشر ق.م. وفى تصورى أنه يمكن تفسير هذا الموضوع جزئيًا على اعتبار أنه كان بسبب الحصار الذى فرضه ملوك الحيثيين على الممالك الميكينية إبان الفترة التى بسط فيها الحيثيون سيادتهم على مدينة أوجاريت. وعلى أية حال ، فإن هذا الحصار لم يشمل كل أنوا ع التجارة ، وذلك أن لدينا معلومات عن وجود سوق حرة للتبادل التجارى تسمى (tamkarum) فى ميناء أوجاريت ، وأن هذه السوق كانت تقوم بتبادل تجارى منتظم مع جزيرة كريت.

وأيًا كان الأمر ، فإن نصوص أوجاريت تشير إلى أسلوب آخر للاتصال بين منطقة المشرق وبين بلاد الإغريق ، فكثير من الأساطير والأناشيد الأوجاريتية تشبه نظائرها الإغريقية بصورة لافتة للنظر ، فضلاً عن أنها تزودنا " بجسور " مهمة للربط بين الموضوعات الإغريقية ومثيلاتها فى نصوص العهد القديم. وبالتالى ، فحتى على هذا المستوى قد يبدو أنه كانت هناك ثقافة عامة لمنطقة شرق البحر المتوسط ، على الأقل منذ العصر البرونزى المتأخر.

وهناك وثائق من العصر البرونزى تتعلق بمنطقة البحر الإيجى ، وهى الوثائق المدونة بالكتابة الخطية الأولى (Linear A) ، وبالكتابة الخطية الثانية (Linear B) ، وكلاهما غدت قراءته الآن ممكنة. والوثائق المدونة بهذه الخطين عبارة عن مدونات بكتابات خطية تنتمى للحضارتين المينوية والميكينية ، وكانت هذه المدونات الخطية مستخدمة فى أماكن كثيرة من منطقة البحر الإيجى ، وفى جزيرة كريت على وجه الخصوص. ورغم أنه لا يزال هناك جدل شديد حول العائلة اللغوية التى تنتمى إليها اللغة المدونة بالكتابة الخطية الأولى، فليس هناك شك فى أنها تحتوى على قدر وافر من الكلمات السامية. وهذه الكلمات لا تغطى السلع الفاخرة فحسب ولكن تغطى كذلك الخامات ، مثل حبوب القمح والعنب ، وكلمات أساسية أخرى مثل "كل" أو "جميع" أو "شامل" أو "إجمالى". وقد يرجع وجود هذه الكلمات السامية إلى أن اللغة المدونة لغة سامية – وهو ما أميل إلى الاعتقاد به – أو إلى كثرة الاستعارة من المصدر السامى عن طريق اللغة الكريتية التى لا يعرف مصدرها حتى الآن. ولكن فى كلتا الحالتين ، فإن هذه الكلمات تبرهن على وجود علاقات قائمة بين جزيرة كريت وبين منطقة المشرق.

أم الخط الثانى فهو صورة مماثلة للكتابة التى كانت مستخدمة فى تدوين اللغة اليونانية (إبان ذلك العصر). وقبل أن ينجح العلماء فى فك طلاسم الخط الثانى ، كان هناك اعتقاد سائد بأن الكلمات السامية القليلة التى استعارتها اللغة اليونانية ، مثل كلمة " خيتون " (Chitôn) (=قميص ، ثوب) وكلمة " خريسوس " (Chrysos) (= الذهب)، قد أُدخلت إلى اللغة اليونانية خلال القرن السابع ق.م. غير أننا الآن أصبحنا نعرف أن هذه الكلمات وأمثالها كانت موجودة بالفعل فى اللغة اليونانية خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. وبالتالى ، فحتى ولو لم يقبل المرء بوجود الكلمات الأخرى المستعارة من السامية ومن اللغة المصرية القديمة – وهو ما أعتقد بأنه موجود فى النصوص المدونة بالكتابة الخطية الثانية – فلا ريب أن هذه النصوص تزودنا ببرهان ساطع على الاستعارة المعجمية وعلى الصلات الثقافية التى كانت قائمة خلال العصر البرونزى.

كذلك فإن مجتمع القصور الملكية الميكينية واقتصاده اللذين أوضحتهما هذه النصوص يظهران لنا قدرًا كبيرًا ومفصلاً من أوجه التشابه بين هذه القصور وبين القصور المماثلة لها فى منطقة الشرق الأدنى. بل إن المقاييس والصيغ البيروقراطية المستخدمة فى تدوين هذه النصوص توضح بجلاء وجود استعارات محددة من مصر ومن منطقة جنوب غرب آسيا. وعلاوة على ذلك ، فهناك عشرات من أسماء الأعلام المدونة بالخط الثانى لها مقابل اشتقاقى يمكن الوثوق بصحته فى اللغات السامية والحورانية والمصرية القديمة. ومن هذه الأسماء نذكر "أيكوبيتيو " (Aikupitio) (=أيجبيبتوس) ، " ممفيتى " (Memphite) (= من ممفيس = منف ؛ أو مصرى) ، " قيصيرايو " (=مصرى Msry بالسامية ، ومصرى بالعربية) ، "أوراديو (Aradajo) (= رجل أو شخص من مدينة أرواد Arwadالفينيقية) ، " تورييايو " (Turijajo) وأيضًا "تورييو" (Turijo) (= من تيروس ، أى من مدينة صور الفينيقية). هذه الأسماء وأمثالها تؤكد الصورة التى أمدتنا بها إحدى البرديات المصرية التى يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر ق.م.، وهى بردية يدور موضوعها حول " كيفية كتابة أسماء الكفتيو " كما أنها تبرهن بوضوح على التباين التام لسكان جزيرة كريت من حيث العرق. وعلى نحو مماثل نجد أناسم العلم " باكفتى " (P;Kfty) (=الكريتى) يظهر فى مصر خلال القرن السادس عشر ق.م. وفى الحق أن جميع هذه الجذاذات من المعلومات الوثائقية التى وصلتنا من مصر ومن منطقة المشرق ومن منطقة البحر الإيجى إلى نفس الاتجاه ، كما أنها توضح بجلاء وجود مظاهر كثيرة للاتصال والامتزاج العرقى فيما حول منطقة شرق البحر المتوسط خلال العصر البرونزى ؛ وهى مظاهر يرجع تاريخها على الأقل إلى فترة مبكرة من القرن السابع عشر ق.م. ، وربما إلى فترة زمنية أسبق من هذا التاريخ بكثير.

وفى الفصل الحادى عشر ينصب الاهتمام على حقبة العصر الميكينى المتأخر فى بلاد الإغريق. ووفقًا للتقويم الزمنى المتبع فى هذا الكتاب ، فإن الحضارة (الميكينية) قد استمرت لحقبة زمنية طويلة تمتد من القرن الثامن عشر حتى القرن الثانى عشر ق.م. ، ومن الواضح أيضًا أنه كان هناك قدر وافر من الاستمرارية الثقافية طوال هذه الحقبة. إذ استمر استخدام طرز فنية "وموتيفات " مماثلة على امتداد هذه الحقبة ، أخص منها

بالذكر " أبا الهول (Sphinx)(*)و" الغريفن (girffin) . وحيث إن الأدلة الأثرية مقتطعة ومتفاوتة ، فإن من المستحيل علينا بالتالى أن نتوصل لمعلومات مؤكدة عن البنى الاقتصادية والاجتماعية فى بلاد الإغريق خلال القرون المبكرة. ونحن نعرف من خلال "المقابر القبابية" ومن خلال الطرز الأخرى للمقابر أن الميكينيين كانوا معنيين أشد العناية بالحرب ، وأن موضوع الحرب قد استحوذ عليهم وتحول لما يشبه الهاجس الذى استولى على أفكارهم. ورغم ذلك ، فإن الرسوم الجصية الجدارية - التى تم العثور عليها فى جزيرة ثيرا والتى يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر ق.م. - تبين لنا تقدمًا تقنيًا ملحوظًا ونزعة سلمية واضحة تسود هذا المجتمع ، على الأقل فى جزر الكيكلاديس ، حيث وجدت أدلة أثرية على وجود مجتمع متحضر وغنى نسبيًا.

وقد يُعزى السبب فى عدم العثور على مكتشفات من القصور الملكية الخاصة بالميكينيين الأوائل - على عكس ما حظينا به من وفرة فيما يخص مكتشفات مقابرهم - إلى تأثير الاستمرارية الثقافية وإلى إعادة التشييد والبناء التى لم تترك خلفها سوى آثار عن هيئة المبنى السابق ، أقل فى الكم من الصورة التى غدا عليها المبنى بعد تدميره. ورغم ذلك ، فقد تم العثور على عدد لا بأس به من القصور (الملكية) التى يرجع تاريخها إلى الفترة الأخيرة من العصر الميكينى. كذلك فقد أُتيح لنا أن نعثر على ألواح كتابة مدونة بالخط الثانى ، يرجع تاريخها إلى أواخر العصر الميكينى ، وهى ألواح - كما أسلفنا - تمدنا بدليل وثائقى له اعتباره عن البنيتين الاقتصادية والاجتماعية لهذه القصور الملكية.

وإن الصورة التى تجلت أمامنا من هذا النمط من الأدلة قد توحى بوجود مجتمع بطولى يتميز بالقوة والعنف أثناء إسلامه الزمام للاستقرار ولترسيخ نظم البيروقراطية

(*) لمزيد من تفاصيل الاتفاق والاختلاف فى الشكل الفنى بين أبى الهول المصرى واليونانى، وعلاقتهما بالأشكال الأسطورية العراقية والسورية، راجع رسالة الماجستير (غير المنشورة) لصاحبتها/ إلهام نجم الدين: أبو الهول فى الفن المصرى واليونانى والآشورى، كلية الفنون الجميلة، الزمالك (القاهرة)، ٢٠٠٢م. (المحرر)

المدنيـة داخله. والحق أن الموقف الواقـعى لهـذا المجـتـمع لم يكن على هذه الدرجـة من البساطة الواضحـة للعيان ، وإن كان الدليل المستقى من جزيرة ثيرا لا يُبرهن فقط على التقدم السلمى الذى حدث خلال القرن السابع عشر ق.م. ، بل إنه ليوضح أيضًا حقيقة مؤداها أن آخر طراز للقصـور الميكينية المتـأخرة كان يحتوى على تحصينات دفاعية. وبالتـالى ، فإن من المحـتـمل – على ما يبدو – أن بلاد الإغريق كـانت خـاضـعـة خـلال الشطر الأكبر من العصر الميكينى لسلطة عدد من المماليك ، التى كانت تتعايش فيها نظم البيروقراطية المدنية لإدارة القصـور الملكية مع كم وافر من حيـاة الحرب ، داخل مناخ تسـود فيه أخلاقيات المحـاربين وطباعـهم حيـاة المجتمع فى هذه الممالك. وأقرب مثـال يحضـرنى هنا على هذا هو اليابان بعد انصـرام القـرن الثـامن الميـلادى ، حيث كـانت ثقـافة البـلاط الرفـيـعـة المتـأنقـة تقف على طرفى نقـيض من القـسـوة الوحـشـيـة للبـوشيـدو (bushido) وخصـالهم الإقطاعية التى تشبـه تصـرفات قطاع الطرق ، وأعنى بها عبادة الفصيلة العسكرية وتوقيرها.

ومن المثـير للاهتـمـام ، أن التراث الإغـريقى – على الرغم من تركيزه على عظمـة العصر المبكر التليدة – قد حافظ على أنشطة " العصر البطولى "، ومنحها من الاهتمام أوفر مما منحـه للفـعـاليات المزدهرة التى تتعلق بالمجـالين الاقتصـادى والثـقـافى خـلال العصـر البرونزى المتـأخـر. ويرجع ذلك دون شك فى جـزء منه إلى أن الأعمـال الدامية العنيفة الناتجة عن الجرأة البطولية تصنـع دائمًا قصصًا أكثر جاذبية ، وإن كـانت تبدو بالمثل وكـأنها حدثت بسبب نقص الحضـارة وضعف الاسـتمرار فى التـقدم ، ونمو الروح العسكرية ومفاهيم الإخلاص والخيانة ، عقب انهيار عصـر حضارة القصور خلال القرن الثانى عشر ق.م.، وإبان العصـور المظلمة التى تم أثناءها صياغة معظم الأساطير.

وما من شك فى أن القرون الثلاثة التى يركـز عليها الفصل الحادى عشر ، وأعنى الفترة الزمنية الواقعة بين عامى ١٥٥٠ وعام ١٢٥٠ق.م. ، تمثل حقبة العصر البرونزى التى وجدت فيها معظم المؤشرات الدالة على قيـام اتصـالات مصـرية وشرقية مع منطقة البـحـر الإيجى ، وهى مـؤشـرات وأدلة مـسـتـمـدة من الوثائق ومن علم الآثار مـعًا. ومــع

ذلك ، فقد كان من الصعب علينا حتى وقت قريب أن نوجد علاقة ربط متبادلة بين هذين النوعين من الأدلة ، نظرًا لأن الفترات الزمنية التى تبرهن الوثائق المصرية على وجود علاقات وثيقة خلالها بين مصر ومنطقة البحر الإيجى - وهى فترات تتزامن مع الفترة الأخيرة من عهد الملك تحتمس الثالث (١٤٧٠-١٤٥٠ق.م.)، ومع فترة حكم الفرعون أمينوفيس الثالث وابنه إخناتون (Akhenaton) (١٤١٩ - ١٣٦٤ ق.م.) - ليست هى الفترات الزمنية التى تحدو بنا المعرفة التقليدية إلى مقابلتها بعصر الخزف الذى يبرهن الدليل الأثرى على أن معظم الاتصالات والعلاقات قد حدثت خلالها. وتتمثل هذه الفترات الزمنية فى الحقبة الأولى من العصر الهيلادى المتأخر الثالث ، التى جرى العرف على اعتبارها معادلة للحقبة الممتدة من عام ١٤٠٠ إلى عام ١٢٧٥ق.م. ، وكذلك فى الحقبة الثانية من العصر الهيلادى المتأخر الثالث المعادلة للحقبة من ١٢٧٥-١١٨٠ق.م. وأيًا كان الأمر فقد بات لزامًا علينا الآن - بناء على التقويم الزمنى القائم على أساس الترتيب الجديد للأحداث المتزامنة مع التقويم المصرى، وبناء بالتالى على تحديث كافة الفترات الزمنية الخزفية للعصر البرونزى المتأخر فى منطقة البحر الإيجى التى يتطلب الأمر تحديثها بسبب إعادة النظر فى تاريخ حدوث ثورة بركان جزيرة ثيرا - أن نصعد نحو القدم بداية الفترة الأولى من العصر الهيلادى المتأخر الثالث لكى تصبح معادلة للفترة من ١٤٩٠-١٤٧٠ق.م. ، وأن نصعد كذلك بداية الفترة الثانية من العصر الهيلادى المتأخر الثالث لكى تصبح معادلة للفترة من ١٣٧٠-١٢٢٠ق.م. وحيث إنه ينبغى أن يظل تاريخ الدولة الحديثة فى مصر ثابتًا ، فإن هذا يعنى أن الأدلة التاريخية والأثرية المتعلقة بالاتصال الوثيق بين مصر ومنطقة المشرق من ناحية ، وبين منطقة البحر الإيجى من ناحية أخرى ، قد أصبحت الآن متوافقة زمنيًا وقادرة على أن تقدم لنا صورة مترابطة منطقيًا.

والحق أن إعادة التأريخ تتطلب أيضًا إجراء تغيير فيما يتعلق بتقسيم الحقب التاريخية لجزيرة كريت ، إذ ظلت الدهشة تغمر المؤرخين القدامى لزمن طويل إزاء توافر خاصية متميزة للوحة مصورة فى قبر ، يرجع تاريخها إلى عهد الملك تحتمس الثالث (١٤٦٠-١٤٥٠ق.م.). وتمثل هذه اللوحة شخصًا من أهل كريت وهو يقدم

الجزية إلى الفرعون المصرى ، وكان هذا الكريتى يرتدى تنورة من طراز مينوى ، مزركشة بطريقة تتسم بالمبالغة وفقًا للأسلوب الميكينى(*). وحيث إن الألواح المدونة بالخط الثانى تقدم لنا دليلاً ساطعًا على أن اللغة اليونانية كانت هى اللغة السائدة فى جزيرة كريت خلال القرن الرابع عشر ق.م. – أو على أكثر تقدير خلال القرن الثالث عشر ق.م. – فإن معاودة تصوير الرسوم كان القصد منها هو تبيان حدوث غزو – أو وجود بطريقة ما – لجزيرة كريت من قبل الإغريق الميكينيين. ووفقًا للمعرفة التقليدية، فإن عام ١٤٥٠ ق.م. يعتبر علامة فاصلة على بدء الفترة الخزفية الثانية من العصر المينوى الثانى. ولقد بدا هذا متطابقًا بصورة مرضية مع حقيقة مفادها أنه خلال هذه الفترة بأسرها قد حل الدمار بالقصور الكريتية التى كانت مشيدة فى أقاليم الجزيرة ، وتركزت إدارة الجزيرة بأسرها فى مدينة كنوسوس. ومنذ ذلك الحين تم التخلى عن الأدلة الأخرى المؤيدة التى كانت مستخدمة، مثل إدخال طراز " المقابر الأسطوانية " إلى جزيرة كريت فى هذه الفترة الزمنية. كما كان وصول الميكينيين حوالى عام ١٤٥٠ق.م. أمرًا ضروريًا ، ونظرًا لأن السير آرثر إيفانز كان قد أعلن أن قصر كنوسوس ذاته قد دمر فى مطلع الفترة الأولى للعصر المينوى المتأخر الثالث ، وبالتحديد حوالى عام ١٣٨٠ق.م. وبالتالى ، فإن إرساء اللغة اليونانية بوصفها لغة رسمية لعاصمة جزيرة كريت كان أمرًا مطلوبًا بإلحاح خلال هذه الفترة الزمنية.

وأيًا كان الأمر ، فلقد عكف فريق من الباحثين طوال عقود كثيرة من السنوات – بزعامة العالم اللغوى ليونارد بالمر – (Leonard Palmer) على محاولة إثبات أن قصر كنوسوس قد ظل باقيًا دون أن ينهار حتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م.، وأن اللوحات الكتابية المدونة بالخط الثانى والتى تم العثور عليها فى هذا القصر ينبغى أن تؤرخ

(*) حول أصل تلك التنورة المينوية الكريتية واستمرارها خلال العصر الميكينى ووصولاً حتى العصر الكلاسيكى – كما تصورها بعض مناظر الآنية الكلاسيكية ، راجع مقالنا: ElSaadami, M.,

"Origin, Use and Rendering of the Animal Hide on Some Classical Vases ", Prak tika of the XIIth International Congress of Classical Archaeology, Athens 4-10 Sept. (Vol. II, Athens 1988, pp. 57-67. (المحرر)

بنهاية القرن الثالث عشر ق.م.، وليس أقدم من هذا التاريخ بمائتى عام (كما هو مُعتَقد). ويبدو أن التفسيرات الحديثة للدليل الأثرى تعضد الآن من وجهة نظر الأستاذ بالمر فى هذا الصدد، وبالتالى فإن حاجتنا الماسة إلى التدليل على وصول الإغريق إلى جزيرة كريت لم تعد قائمة أو مَلحة مجال من الأحوال ، طالما أنه اتضح لنا أنه كان بوسعهم أن يَفِدوا إلى الجزيرة فى أى وقت قبل عام ١٣٠٠ق.م.

ومع ذلك ، فإن الدليل المصرى المتعلق بتغير حُكام الجزيرة ، وهو الدليل الذى تم الاستدلال عليه أيضًا من التخلى عن التسمية "كفتيو" وازدياد التسمية "تنى" (Tni) ، من شأنه أن يزودنا بحجة بالغة الإقناع على انتقال السلطة (أو القوة) فى جزيرة كريت خلال منتصف القرن الخامس عشر ق.م. غير أن السؤال نفسه يظل قائمًا ، وهو : "فى أى وقت من عصر الخزف بالتحديد حدث هذا الانتقال فى السلطة ؟ ". إذ أن العصر المينوى المتأخر الثانى للفخار قد تطور عن العصر السابق له ، وهو الفترة الثانية من العصر المينوى المتأخر الأول ، كما أنه أدى بدوره إلى العصر التالى له وهو الفترة الأولى من العصر المينوى المتأخر الثالث ؛ وعلى هذا النحو فلا يمكننا استخدام الفخار كدليل على انتقال السلطة. وأيًا كان الأمر ، فإن كافة أشكال الدليل الأخرى توحى بوجود استمرارية ثقافية جوهرية فى الجزيرة خلال هذه المرحلة ، بغض النظر عن تغير اللغة. ويبدو أن أبسط إجراء يمكن اتخاذه هو الإبقاء على التاريخ الثابت الذى لا ريب فيه ، أو تحريكه تحريكًا طفيفًا إلى عام ١٤٧٠ق.م. على وجه التقريب ، شريطة أن يتم النظر إليه فى ضوء مصطلحات عقد الخزف بوصفه بداية للعصر المينوى المتأخر ، وبداية كذلك للفترة الأولى من العصر الهيللادى المتأخر الثالث. ذلك لأن الفخار المتعلق بهذا الأسلوب الإيجى الشامل (أو الموحد) هو الذى أمكننا العثور عليه على امتداد البحر المتوسط وما وراءها ، وبوجه خاص فى المناطق التى كان معروفًا أنها واقعة تحت الهيمنة المصرية بعد انتصارات تحتمس الثالث المظفرة ، وهى: قبرص، منطقة المشرق ، مصر ، والنوبة.

ومن الممتع أن نلاحظ أن المنطقة الوحيدة التى لم يتم العثور فيها على فُخَار ميكينى هى هضبة الأناضول الوسطى التى كان يسيطر عليها الحيثيون. وبناءً على

ذلك ، فقد تم تخصيص عدة أقسام من الفصل الحادى عشر لتفصيل العلاقات بين منطقة البحر الإيجى وبين شبه جزيرة الأناضول. ولقد أفردت قسمًا من هذه الأقسام للحديث عن الوثائق الحيثية التى تتعلق بجيران الحيثيين من جهة الغرب ، وهما أرزاوا (Arzawa) وآسووا (Assuwa) (ومن التسمية الأخيرة أُشتق اسم قارة آسيا). ولقد ظهرت قُرب نهاية القرن الخامس عشر ق.م. قوة غربية جديدة تم ذكرها فى الوثائق الحيثية ، ألا وهى (قوة) أخيياوا (أو أهيياوا) (Ah hiyawa) التى اعتبرها فريق من الباحثين - منذ عقد العشرينيات من القرن العشرين - مناظرة للآخيين، وهى التسمية التى وردت عن الشاعر هوميروس للدلالة على غالبية الإغريق. وبالتالى فقد غدا الموقف مشوشًا ومضطربًا للغاية (أمام الباحثين) ، ولكن الصورة الأدنى التى يمكن القبول بصحتها واستنتاجها ، سواء من الوثائق الحيثية ومن الروايات الإغريقية المتأخرة، هى أن الأحيياوا (أو الآخيين) كانوا عبارة عن خليط مكون من أهل غرب شبه جزيرة الأناضول المتأغرقين ، ومن الإغريق الذين كانوا يعيشون على حواف الإمبراطورية الحيثية وداخل منطقة البحر الإيجى والذين اعتادوا أن يشنوا غاراتهم على المناطق المجاورة لهم. ويحق لنا أن نربط بين هؤلاء وبين البطل الأسطورى الإغريقى بيلوبس (Pelops) ، الذى سُمِيْت على اسمه شبه جزيرة البيلوبونيس (Peloponnesos) (=جزيرة بيلوبس)، والذى تباهى الملوك العظام عند هوميروس - من أمثال أجاممنون ومنيلاؤوس - بأنهم ينحدرون من صلبه. وأنا أعتقد أن اسم " بيلوبس " مشتق من الاسم المصرى " باوربعت Rpc t ; P الذى يعنى " الأمير المتوج " ، وبالتالى فهو لقب للملوك المصريين (مثل لقب الفرعون) وليس اسمًا شخصيًا لملك بعينه. ومن الصعب علينا أن نتوصل إلى تحديد تاريخى دقيق للنقطة التى تمكن بواسطتها هذا النموذج الأصلى المتميز (للعواهل) أن يبسط سلطانه على منطقة إليس (Elis) الواقعة شمال غرب شبه جزيرة البيلوبونيس، والتى يبدو أنها كانت القاعدة الأولى لقوة الآخيين أو لسلطة " آل بيلوبس " ، ويمكن أن يقع تاريخها على الأرجح بين عام ١٤٢٥ وعام ١٣٠٠ق.م. ولكن العقبة الكؤود فى هذا الصدد هى استحالة الاهتداء إلى أية اختلافات فى الثقافة المادية بين الدانائيين وبين الآخيين ، فضلاً عن أن كلاً من الدليل الوثائقى والدليل الأسطورى يتسم كلاهما بالغموض ، حيث إن الشاعر هوميروس لم يكن

واضحًا على الإطلاق فى وضع حدود مميزة تحدو بنا إلى التفريق وفقًا لها بين هذين الشعبين. ومن المحتمل أن المصريين قد أشاروا إلى كل من الـ "تيينو " (Tiniw) (=الدانائيين والـ "إيكوس" (Ikw?) (=الآخيين) الذين كانوا يمثلون طائفتين من شعوب البحر التى أغارت على مصر إبان تلك الحقبة الزمنية.

وأبسط التفسيرات هو أن ننظر إلى " الدانائيين " بوصفهم سكانًا للممالك أو الأقوام التى حافظت على الممالك التى نشأت خلال نهاية القرن الثامن عشر ق.م. على يد أبطال الهكسوس الأصليين ، وأن ينظر إلى " الآخيين " باعتبارهم الأقوام التى لقيت الهزيمة على يد الأسر الحاكمة الجديدة الوافدة من شبه جزيرة الأناضول. وكما أنه من الصعب تحديد تاريخ دقيق لتأسيس مملكة بيلوبس فى إليس ، فإن من الصعب كذلك أن نتوصل إلى تاريخ محدد لخضوع الممالك الأخرى – مثل موكيناى / أرجوس واسبرطة – لسيطرة الآخيين ؛ فكل ما هو واضح أمامنا هو أن آخر أسر الهكسوس الحاكمة – وهى أسرة آل كادموس فى مدينة طيبة– قد ظلت باقية حتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م.

أما الحقيقة القائلة بأن الآخيين كانت لهم صلات تربطهم بأهل جزيرة الأناضول فلا تعنى أنهم كانوا حلفاء للحيثيين ، فالأمر على العكس من ذلك تمامًا ، نظرًا لأن الآخيين كانوا فيما يبدو – مثلهم فى هذا مثل الدانائيين – أعداء لأهل منطقة الأناضول الوسطى لردح طويل من الزمن. ذلك الوثائق الحيثية تبرهن على وجود عداوة دائمة مع " الأهيياوا "، فضلاً عن أننا أشرنا فيما سبق إلى عدم وجود فخار ميكينى وارد من الأراضى الحيثية. وهناك نموذج مماثل يمكن الاطلاع عليه عند تأمل المقتنيات الأجنبية التى تنتمى إلى هذه الحقبة الزمنية والتى تم العثور عليها فى موكيناى. ولقد أوضح عالم الآثار الأمريكى إريك كلاين (Eric Cline) أنه لا توجد سوى قطعة آثار حيثية واحدة ، وأن هذه القطعة الأثرية قادمة من جزء من شبه جزيرة الأناضول بعيدة عن سيطرة الحيثيين ، فى الوقت الذى تتضمن فيه المكتشفات التى تم العثور عليها عددًا جديرًا بالاعتبار من المقتنيات المصرية والمشرقية.

ونحن نعرف أن السلع الميكينية كانت رائجة بصورة واسعة على امتداد المنطقة ، وأن الحيثيين كانوا بدورهم تجاراً نشطاء فى بلاد ما بين النهرين ومنطقة شمال سوريا. فلماذا والحال كذلك كان يتعين على كل منطقة من المنطقتين أن تُغلق أبوابها أمام التبادل التجارى مع نظيرتها ؟ وحتى لو استبعد المرء وجود تطابق بين "الأهيياوا" وبين " آخايا " (Akhaia) ، فإنه من غير المقصود ألا تعلم كل منطقة من هاتين المنطقتين شيئًا عن المنطقة الأخرى. وهناك تفسير آخر أقل بُعداً عن الاحتمال بدرجة طفيفة ، ومؤداه أن كل منطقة من المنطقتين لم تكن بحاجة إلى منتجات المنطقة الأخرى أو سلعها ، نظراً لأنها كانت تحتل مواقع جغرافية مماثلة فى تميزها وملاءمتها لنظيرتها. وحى لو كان هذا الرأى يحمل فى طياته قدراً من الحقيقة ، فإن كل الأسباب تحدو بنا إلى افتراض مفاده أن مثل هذا الاعتماد على النفس (=الاكتفاء الذاتى) من الناحية الاقتصادية كانت تدعمه إرادة سياسية قوية ؛ وهناك أدلة وثائقية وأثرية تعزز هذا الافتراض. والوثيقة التى نستمد منها برهاننا عبارة عن معاهدة بين الحيثيين وبين أحد الملوك التابعين (لإمبراطوريتهم) فى منطقة شمال سوريا ، ويتضمن نص هذه المعاهدة التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر ق.م. تنبيهًا على هذا الملك بصفة خاصة بمنع سفن " الأهيياوا " من ممارسة التجارة عبر أراضى بلاده. أما الدليل الأثرى فهو مستمد من وجود كمية وفيرة من الفخار الميكينى الذى ينتمى إلى الفترة الأولى من العصر الهيلادى المتأخر الثالث فى أراضى الجزء الشمالى من سوريا ، فى الوقت الذى لا يوجد من هذا الفخار شيء خلال الفترة الثانية من العصر الهيلادى المتأخر الثالث. وأكثر التفسيرات مدعاة للتصديق إزاء مثل هذا التناقض هى أن هذا الأمر حدث كنتيجة حتمية لحقيقة معروفة ، مفادها أن المنطقة المذكورة قد خضعت لسطوة الحيثيين حوالى عام ١٣٧٠ق.م. ، وهو العام الذى يواكب بداية الفترة الثانية من العصر الهيلادى المتأخر الثالث.

وهكذا ، فإن الصورة الأكثر احتمالاً هى أنه كانت هناك عداوة بين الإغريق وبين الحيثيين خلال الفترة الواقعة بين عام ١٤٣٠ وعام ١٢٣٠ق.م. تقريباً ؛ وكان المصريون بطبيعة الحال هم أكبر منافس للحيثيين فى هذه المنطقة. ففى الوقت الذى يرجح فيه أن الفرعون المصرى تحتمس الثالث كان قد أرسل حملة تأديبية إلى منطقة البحر الإيجى

حوالى منتصف القرن الخامس عشر ق.م. ، كانت الأدلة الوثائقية والأثرية توضح لنا بجلاء أن الممالك الإغريقية ذات الدور القيادى البارز على امتداد القرن التالى كانت قانعة بأن تظل واقعة فى نطاق الوجود المصرى ، وبأن تتقبل " نسمة الحياة " من الفرعون المصرى.

وليس هناك شك فى وجود اتصالات حميمة وعلاقات تجارية وثقافية واسعة النطاق خال تلك الفترة. وبغض النظر عن توافر الشواهد الوثائقية التى تمت مناقشتها فى الفصل الحادى عشر من هذا الجزء فيما يتعلق بوجود مثل هذه الاتصالات ، فإن بحوزتنا أدلة أثرية لها اعتبارها تعزز هذه الحقيقة وتدعمها. وكما ذكرنا سابقًا ، فقد تم العثور على كميات وفيرة من الفخار الميكينى الذى ينتمى إلى الفترتين الأولى والثانية من العصر الهيللادى المتأخر الثالث (١٤٧٠-١٢٢٠ق.م.) فى كافة المناطق الخاضعة للسيادة المصرية أو للتأثير المصرى. وبالمثل فقد تم العثور فى منطقة البحر الإيجى على كثير من الأوانى الفخارية الكنعانية ذات الحجم الكبير التى تُستَخدم كأوعية لحفظ كل أنواع السلع.

ولقد تم العثور على الشطر الأعظم من هذه الأوعية المشرقية - فيما يبدو أنه كنز مُدَّخر أو خبيئة أثرية إلى حد بعيد - فى حطام سفينة غارقة تم الكشف عن موقعها خارج موقع يعرف باسم "قاص" (Kas) ويقع على الساحل الجنوبى الغربى من تركيا ؛ وكانت هذه السفينة الغارقة تحتوى على ما يربو على ١٢٠ إناءٍ فخارى من هذا النوع. ويمكننا أن نحدد تاريخ غرق هذه السفينة بحوالى عام ١٣٠٠ ق.م. ، أى قُرْب نهاية عصر القوة المصرية المتعاظمة. وأيًا كان الأمر ، فإن ثراء حمولة هذه السفينة الغارقة إنما يكشف عن صورة مذهلة لحجم التبادل التجارى الذى كان قائمًا فى منطقة شرق البحر المتوسط خلال العصر البرونزى المتأخر. فبالإضافة إلى العاج وخشب الأبنوس ، تم العثور على عدد كبير من قوالب صب معدن النحاس ، وهذه الكمية من القوالب تزودنا بمعلومات مؤكدة عن وجود تجارة واسعة النطاق للنحاس ، الذى كان يجرى استخراجه بصورة أساسية فى هذا العصر من مناجم فى جزيرة

قبرص وجزيرة سردينيا. وهناك أيضاً مؤشرات توحى بوجود تجارة رائجة– وإن كانت أقل حجماً من سابقتها – فى معدن القصدير ، الذى ورد إلى منطقة البحر المتوسط من أفغانستان القاصية ومن بوهيما وكورنوول (Cornwall) .

ويتعلق أحد الاكتشافات ذات الأهمية الفائقة خلال السنوات الأخيرة بتجارة الرصاص والفضة المخلوطة بالرصاص ، وهو ما يمكن أن نستدل عليه عن طريق إجراء عملية تحليل لنظائر الرصاص. ونحن نعرف الآن أن مناجم لاوريون فى إقليم أتيكا والواقعة جنوب مدينة أثينا كانت من أكبر المصدرين لهذين المعدنين ، على الأقل منذ بداية الدولة الوسطى فى مصر. إذ تم العثور على الرصاص المستخرج من هذه المناجم والذى كان مستخدماً فى كل من بلاد ما بين النهرين ومصر خلال العصر البرونزى المتأخر.

وهناك كشف رائع آخر تم حديثًا وتوصلنا إليه عن طريق تحليل عدد من اللوحات المنقوشة من الخزف المزخرف والتى كان مخططًا لها أن توضع ضمن أساسات معبد مصرى قديم وذكر فيها اسم الفرعون المصرى أمينوفيس الثالث ، وتم العثور عليها فى موكيناى. وهذا الكشف بما يحويه كشف فائق الأهمية ، لأنه لو تم العثور على هذه اللوحات الخاصة بالأساسات فى مصر لكان لزامًا على علماء الآثار أن يشرعوا فى البحث عن علامات أخرى تميز صورة المعبد الذى بنى فوقها. وعلى أية حال ، فإن معظم هذه المكتشفات التى عثر عليها فى موكيناى قد وجدت ضمن خبيئة من المقتنيات الثمينة ، ولم توجد فى مواضع كان القصد منها تمييز الأركان الأربعة للمعبد. ومن ناحية أخرى ، فإن هذه المكتشفات ليست لها قيمة جوهرية – رغم كونها ذات أهمية كبرى فيما يتعلق بالشعائر والطقوس الدينية – وبالتالى فليس من المحتمل أن تكون قد أُستوردت أو جُلِبَت من الخارج بوصفها تذكارات. ولو أننا أضفنا الأدلة الأخرى التى تبرهن على وجود اتصال على المستوى الملكى بين مصر وموكيناى إبَّان هذه الفترة ، فقد يتضح لنا أن هناك فرصة معقولة لأن يكون القصد من وجود هذه المقتنيات هو التدليل على تأسيس مبنى مصرى هناك ، حتى ولو لم يستمر هذا المبنى سوى لفترة زمنية قصيرة ، وحتى ولو لم يُقدِّر له أن يُشَيد بعد ذلك على الإطلاق.

وعلى أية حال ، فليس الرمز المستمد من هذه اللوحات المنقوشة هو الذى يبرهن على حميمية الاتصالات بين مصر وبلاد الإغريق خلال هذا العصر ، فلقد أظهر تحليل الرصاص المستخدم فى الطبقة التى تم بها طلاء الخزف أن هذا الرصاص مجلوب من مناجم لاوريون. ويمكن تفسير هذه الحقيقة بأمرين لا ثالث لهما : الأول هو أنه كان هناك آنذاك مصنع مصرى ملكى ورسمى فى بلاد الإغريق ، قادر على تصنيع هذه اللوحات المنقوشة أو على صنع طبقة الطلاء التى كانت تعلو الخزف ، والتى يرجح أنها صنعت فى مصر برصاص مجلوب من بلاد الإغريق. أما الثانى فيبدو أنه أكثر احتمالاً وترجيحًا ، فضلاً عن كونه بمثابة حل يؤكد على وجود علاقات متشابكة بين مصر وبين منطقة البحر الإيجى إبان هذه الفترة الزمنية ، أى حوالى عام ١٤٠٠ ق.م.

فنحن نعلم – فى إطار التفسير الثانى – أن مصر وسائر البلاد الأفريقية كانت تقوم بتصدير العاج ، وخشب الأبنوس ، والسلع الاستوائية الأخرى مثل المر (myrrh) والتوابل على اختلاف صنوفها ، وبيض النعام ، وربما الريش وأوراق البردى. وهناك احتمال بأن هذه البلاد كانت تُصَدر أيضًا كميات من الذهب ، رغم أن بلاد الإغريق كانت لديها مواردها الخاصة بها من هذا المعدن ؛ ويبدو من المحتمل أيضًا أن تدفق العبيد كان يتم بصورة سائدة من الشمال إلى الجنوب. وكانت منطقة المشرق التى يمر عَبْرها الشطر الأعظم من هذه التجارة تحظى بمنتجات خاصة بها دون سواها ، مثل خشب الأرز والسلع التى تتطلب دقة وبراعة فى صناعتها. ومن ناحية أخرى ، فنحن نعرف أن منطقة البحر الإيجى كانت تقوم بتصدير الخزف الرائع الصنع ، بالإضافة إلى كافة ما كانت الأوانى الميكينية تحويه ، ومن بينها على وجه التأكيد زيت الزيتون إضافة إلى معدن الرصاص والفضة.

ولم يكن مثل هذا التبادل التجارى متوازنًا بين الطرفين ، فما دمنا نعرف أن بلاد الإغريق كانت من أكبر المصدرين للمعادل فقد يبدو من الضرورى أن نفسر انعدام التوازن هذا عن طريق عامل آخر ، سواء أكان هذا العامل سياسيًا أم اقتصاديًا ؛ وقد يكون أحد التفسيرات الممكنة فى هذا الصدد هو افتراض أن قوة مصر السياسية وقوتها البحرية قد مكناها من استغلال منطقة البحر الإيجى. ولكن ، قد يكون من الأرجح أن يقتصر التفسير بصورة أساسية على الناحية الاقتصادية دون سواها ،

حيث إن مصر كانت تقوم بالفعل بتصدير القمح لمنطقة شرق البحر المتوسط بأسرها ، على غِرار النهج الذى نعلم أنها قد سلكته خلال العصرين الأرخى (=القديم) والكلاسى ، أى إبَّان الفترة الواقعة بين عامى ٧٧٠-٣٢٥ق.م. وتوضح كل من المصادر الوثائقية والأثرية أنه كانت هناك بالفعل سفن ذات حمولات من الضخامة بمكان ، بحيث تجعل وجود تجارة للقمح على نطاق واسع أمرًا معقولاً ومقبولاً. ومن المعروف كذلك أن مصر قد أسهمت فى تخفيف المجاعة التى حدثت فى منطقة شبه جزيرة الأناضول ومنطقة المشرق عن طريق سفنها عبر البحر خلال القرن الثالث عشر ق.م. ومن المؤكد تقريبًا أن بعض مدن منطقة المشرق - التى شكلت فيما بعد فينيقيًا - قد عانت بصورة منتظمة من نقص إنتاج القمح لديها إبان هذه الحقبة. كذلك ، فإن الأدلة الأثرية والوثائقية المتعلقة بجنوبى بلاد الإغريق خلال هذا القرن نفسه توحى بوجود زيادة مرتفعة فى عدد السكان وبنقص مثير للدهشة فى إنتاج الغلال. وقد نستشف من هذا حدوث مجاعات متكررة جرى على أثرها استيراد للغلال بصورة متكررة - ومن المحتمل أن يكون قدر من هذه الغلال المستوردة قد تم جلبه بالفعل من منطقة البحر الأسود التى كان تمد بلاد الإغريق أيضًا بالقمح خلال العصر الكلاسى ، ولكن قد يكون من الأرجح أن يكون الشطر الأعظم من هذه الغلال كان يستورد من مصر. ومن المثير للدهشة أن هناك رواية إغريقية تشير إلى قيام مصر بتخفيف حدة مجاعة حدثت فى إقليم أتيكا قبل نشوب الحرب الطروادية بفترة من الزمن. وكل هذه المؤشرات - جنبًا إلى جنب مع أصول الكلمات المصرية التى يمكن الاقتناع بقبولها، والتى اشتقت منها كلمات يونانية تتعلق بالقمح وبتحويله إلى خبز - توحى بأن النمط المتعلق بقيام مصر بتصدير القمح إلى بلاد الإغريق وسائر بلاد حوض البحر المتوسط التى كنت قائمة خلال العصور الكلاسية والهيلنستية والرومانية ، كان نمطًا قد تأسس وأرسيت دعائمه إبان فترة العصر البرونزى المتأخر.

ولقد ظلت المسألة المتصلة بمن كانت له السيطرة على التجارة فى منطقة شرق البحر المتوسط إبان العصر البرونزى تمثل واحدة من أشد المساجلات العلمية إثارة للمرارة خلال العقدين الأخيرين (السابقين على تأليف هذا الكتاب). ومنذ القدح المعلى الذى ظفر به الميكينيون الذين يتسمون بالدينامية ويتصفون بالنشاط ، ولقد حَظِىَ هذا

الرأى بمسوغ قوى من حقيقة مفادها وجود قدر أوفر من الفخار (أو الخزف) فى منطقة المشرق وفى مصر وبكم أكثر من وجوده – على العكس من ذلك – فى منطقة البحر الإيجى – غير أن وجود الفخار فى حد ذاته يعد دائمًا مؤشرًا جيدًا على (مهارة) القوم الذين يتاجرون فى الأوانى الفخارية. فعلى سبيل المثال ، قد يكون من الخطأ أن نفترض وجود تجارة الأوانى الصينية فى أوروبا الغربية بعد انصرام القرن السابع عشر الميلادى، لا لشىء إلا لأن معظم الخزف الموجود فى هذه المنطقة من صنع الصين أو نتاج صناعة محلية تقوم بتقليد الخزف الصينى على نحو أدنى فى الجودة. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن فريقًا من الباحثين قد نوهوا إلى عدم وجود ذكر للإغريق فى السجلات الوفيرة المتعلقة بالتجارة فى مدينة أوجاريت. وأتصور أن هذا الأمر يمكن تفسيره باعتبار أنه يمثل ظاهرة محلية ناشئة عن الحظر الذى فرضه الحيثيون على تجارة (أوجاريت) المنفردة مع " الأهيياوا ". وأيًا كان الأمر ، فهناك قدر ضئيل من الشك فى أن مدينة أوجاريت ومدن منطقة المشرق الأخرى كانت أكثر تمرسًا بالتجارة إلى حد بعيد من منطقة البحر الإيجى ذات الاقتصاد القائم على حضارة القصور ، وهو أمر يمكن استنباطه من الألواح الكتابية المدونة بالخط الثانى. وفضلاً عن هذا ، فلدينا أيضًا الصورة الرائعة التى قدمتها لنا الملاحم الهومرية ، ومفادها أن التجارة كانت بأسرها فى أيدى الفينيقيين.

ولقد اعتقد الأستاذ جورج باس (George Bass) الذى اكتشف أول سفينة غارقة إبان نهاية الحقبة الزمنية ، وهى السفينة التى تم العثور على حطامها على مبعدة من الساحل الجنوبى لتركيا عند " رأس جيليدونيا " (Cape Gelidonia) ، أعتقد أن أفراد طاقم هذه السفينة كانوا من أهل منطقة المشرق. أما الاكتشاف الأكبر الذى توصل إليه الأستاذ جورج باس ، فهو الاكتشاف الأكبر الذى توصل إليه الأستاذ جورج باس، فهو الاكتشاف الذى أسفر عن عثوره على حطام السفينة الغارقة خارج الموقع المعروف باسم " قاص " – كما ذكر آنفًا– ولقد أتاح لنا هذا الاكتشاف أن نحظى بدليل قد يكون أشد غموضًا عن جنسية بحارة هذه السفينة. ورغم أن هؤلاء البحارة كانوا من جنسيات مختلفة ، إلا أنه من المؤكد أنه كان من بينهم عدد من البحارة الإغريق. كذلك ، فرغم أن النزاع المحتدم بين النموذج الآرى المتطرف الذى يُنكر أى دور خلافه

للسابين الغربيين ، وبين النموذج الآرى المعتدل (ذى الأفق الأرحب) الذى يسمح بدور واحد لهم لا سواه ، كان نزاعاً له أهميته ودلالته إلا أنه كان كذلك نزاعاً عقيماً لا جدوى منه ولا طائل من ورائه بصورة نهائية. ويعود السبب فى هذا إلى أنه اتضح لنا الآن أن منطقة شرق البحر المتوسط كانت " كوزموبوليتانية " (=عالمية) فى طابع (حضارتها) إبان الفترة الممتدة ما بين عامى ١٤٧٠-١٢٢٠ق.م.، وبالتالى ، فقد كان هناك بحارة من جنسيات مختلفة تنتمى إلى منطقة البحر الإيجى ومنطقة المشرق وإلى مصر، وكان هؤلاء البحارة يبحرون بسفن ذات حمولات مختلطة بصورة عامة. وقد اقترح نفر من الباحثين أن يكون السِلْم والرخاء اللذين حَظِيَت بهما هذه المنطقة نتيجة لما يمكن تسميته "بالسلم الميكينى " (Pax Mykenaeca) ، غير أن مثل هذه التسمية توحى بأنها آرية التوجه لأنها تضع العربة أمام الحصان. فمما لا شك فيه أن مصر كانت هى القوة المسيطرة على المنطقة خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٤٧٠-١٣٧٠ق.م.، وأنها ظلت تحظى بأهمية عسكرية وسياسية وثقافية حتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م.، وبالتالى فمن الأوفق أن نُسلم بأن الرخاء التجارى قد تحقق تحت مظلة السلم المصرى (Pax Aegyptiaca) .

وإن وجود مثل هذا المجتمع " الكوزموبوليتانى " - خلال الشطر الأكبر من النصف الثانى للألفية الثانية ق.م.، وعلى امتداد منطقة شرق البحر المتوسط بما فى ذلك منطقة البحر الإيجى - أمر من شأنه أن يجعل الفكرة القائلة بالعزلة الثقافية فكرة مجافية للمنطق ولا معنى لها. فمن الواضح أن هناك أسباباً متعددة تحدو بنا إلى توقع وجود اتصال ثقافى ووجود استعارات لغوية من جانب اللغة اليونانية وبوجه خاص من اللغة المصرية القديمة ومن السامية الغربية. ومن الواضح أيضاً وبكل تأكيد أنه لا توجد هناك دوافع لإنكار الدليل على وجود تلك الاستعارات ، لأنه دليل جدير فطرياً بالتصديق. وأيًا كان الأمر ، فرغم أن الدليل الأثر المستقى من هذا الحقبة الزمنية يجعل من المتعذر علينا أن ندافع عن " النموذج الآرى " أو عن النموذج الذى ينادى بالأصل القُح سواء بسواء ، إلا أنه يمكن النظر إلى هذا الدليل الأثرى ذاته على اعتبار أنه يُضْعف من قوة " النموذج القديم " من منظور المفهوم الضيق، نظراً لأن بوسع هذه الحقبة الزمنية التى تتميز بالاتصال الوثيق طويل الأمد أن تفسر لنا عدداً من

الاستعارات الجوهرية المتنوعة ، سواء أكانت دينية أو لغوية أو ثقافية ، بغير الاستناد إلى فكرة الفتح أو الاستيطان كمبرر وحيد لا سواه. ولكن ما يقف حجر عثرة أمام هذه الفكرة هى الحقيقة القائلة بأن بلاد الإغريق كانت بالفعل ناطقة باليونانية خلال العصر الميكينى المتاخر، وأنها كانت تعبد أربابًا بأسمائهم الإغريقية التى سادت فى عصر متأخر نسبيًا. إذ يبدو أن الأسماء والكلمات ، التى ساد الاعتقاد بأنها ذات أصول مصرية قديمة أو سامية غربية ، كانت قد استقرت وتأسست بصورة طيبة فى بلاد الإغريق خلال تلك الحقبة من الزمن.

وبالإضافة إلى ذلك ، فنحن نعرف من اللوحات الجدارية المصورة التى تم العثور عليها فى جزيرة ثيرا أن ثقافة جزر الكيكلاديس - على أقل تقدير - كانت بالفعل ثقافة كوزموبوليتانية نجد أميزها إبان القرن السابع عشر ق.م. وبالتالى ، فعلى الرغم من توافر الاتصال الوثيق خلال الفترة الواقعية بين عامى ١٤٧٠-١٢٢٠ق.م. ، فإنه يبدو أن هناك شكلاً ضئيلاً فى أن تكون الثقافة الإغريقية - كما عرفها من العصور الآرخية (=القديمة) والكلاسية - قد قد تشكلت بالفعل آنذاك بصورة أساسية. وإذا كان الحال كذلك ، فإن علينا أن نبحث - من خلال أدلة تنتمى لفترة زمنية أسبق من هذه الفترة - عن بعض ما ساد الاعتقاد بأنه بمثابة مؤثرات جوهرية مصرية وسامية فى بنية الثقافة الإغريقية. ولا ريب أن شطرًا من هذه المؤثرات - كما تمت المناقشة أعلاه - يمكن أن يرجع فى تاريخه إلى حقبة الألف الثالثة ق.م. أو حتى قبلها.

وأيًا كان الأمر ، فيبدو أن الدليل الأثرى يوضح بجلاء أن الفترة الزمنية الحاسمة كانت متزامنة مع الربع الثانى من الألفية الثانية ق.م. ، وأن هذه التأثيرات كانت مرتبطة بفتوحات الهكسوس وبحركة استيطانهم أو استعمارهم.

ويدور الفصل الثانى عشر - وهو الفصل الأخير من هذا الجزء من كتابنا - حول نهاية العصر الميكينى خلال القرن الممتد من عام ١٢٥٠ حتى عام ١١٥٠ ق.م، ويتم التركيز فيه على حصار مدينتن (شهيرتين) وتدميرهما ، وأعنى بهما مدينة طيبة الإغريقية ومدينة طروادة. وفى هذا المقام أيضًا نجد أن التقويم الزمنى أو التأريخ قد شابهه الاضطراب وعمه التخبط ، بسبب إرجاع تاريخ عصور الخزف إلى حقبة زمنية

متأخرة عما يجب. فوفقًا للمعرفة التقليدية ، نجد أن الفترتين الزمنيتين المتعلقتين بعصور الخزف ، وهما : الفترة الثانية من العصر الهيلادى المتأخر الثالث ، والفترة الثالثة من العصر الهيلادى المتأخر الثالث ، تبدأن على التعاقب بعام ١٢٧٥ق.م. وعام ١١٨٠ق.م. ويوحى الدليل الأثرى بأن مدينة طيبة الإغريقيــة قد دُمِرَت فى أواخر الفترة الثانية من العصر الهيلادى المتأخر الثالث (LH iii B2) ، وهو ما يوافق تقريبًا عام ١٢٠٠ ق.م. بناء على المعرفة التقليدية. وهناك مدينتان تم تدميرهما وهما مرشحتان كى تناظر إحداهما مدينة طروادة الأثرية التى أشار إليها الشاعر الملحمى هوميروس ، أولاهما مدينة طروادة السادسة التى يحتمل أنها دمرت فى تاريخ يقارب الفترة الثانية من العصر الهيلادى المتأخر الثالث (LH iii B) ، وهو تاريخ يوافق على وجه التقريب عام ١٢٧٥ ق.م. بناء على التقويم الزمنى المتعارف عليه. وبالتالى، فإن هذا التاريخ قد يكون أسبق زمنيًا من التاريخ التقليدى المتواتر لسقوط طراودة ، وهو التاريخ الذى يقع فى الفترة ما بين عامى ١٢٥٠-١١٧٠ق.م. على التعاقب. غير أننا لو فحصنا بصورة أكثر جدية التاريخ المحدد الممتد من حوالى عام ١٢٧٥ق.م. حتى عام ١٢٥٠ق.م.، لوجدنا أنه يسبق زمنيًا التاريخ الذى تحدد لسقوط مدينة طيبة الإغريقية بناء على التأريخ التقليدى لعصر الخزف ، حيث إن الافتراض العام لسقوط مدينة طيبة الإغريقية - وفقًا للتراث الأسطورى - هو أنها سقطت فى تاريخ سابق على تاريخ نشوب حرب طروادة. أما المدينة الثانية ، فهى مدينة طراودة السابعة (أ) التى دمرت حرقًا بالنيران - وفقًا للوصف الوارد برواية هوميروس التى حظيت بالقبول - إبَّان تاريخ يقارب بداية الفترة الثالثة من العصر الهيلادى المتأخر (LH iii C) ، وهو العصر الذى يتحدد تاريخه بناء على المعرفة التقليدية بعد عام ١١٧٥ق.م. وحيث إن التاريخ الأخير يتناسب بالتوافق مع الحد الأدنى للتقاويم الزمنية الإغريقية ، فمن الصعب علينا أن نجعله متوافقًا مع الصورة التقليدية للحملة العسكرية الإغريقية التى وصفت بأنها بالغة الضخامة والتنظيم ، فى ضوء ما نعرفه من أن الحضارة الميكينية كانت تسير إلى انحدار وتدهور بالفعل خلال ذلك الوقت.

هذه الحال من التشوش وانعدام التأكد حول تحديد أية مدينة من المدينتين المسميتين باسم " طروادة " هى التى دمرت ، هى الحال التى حدت بطائفة من

النازعين للشك من أمثال موسيس فينلى (Moses Finley) - الذى يعتبر الشخصية المهيمنة على حقل الدراسات الكلاسية بجامعة كامبردج خلال حقبتى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين - إلى الارتياب من صحة التحديد التاريخى للحروب الطروادية على نحو لم يقم به باحث آخر سواه منذ اكتشافات شليمان المثيرة. وعلى أية حال ، فإن إعادة النظر فى التحديد التاريخى وفق منهج جديد لتأريخ عصور الخزف قد أوضحت لنا الموقف بطريقتين: الأولى منهما هى أن انهيار مدينة طروادة السادسة ينبغى أن يتحدد تقريبًا بعام ١٣٥٠ق.م. ، وهو تحديد يتيح لنا أن نُقِرْ بوجود هذه المدينة قائمة (ومزدهرة) قبل تدميرها بأكثر من قرن من الزمان ، أى حوالى عام ١٢١٠ ق.م. وهذا التحديد التاريخى الأسبق فى القدم يقع بصورة دقيقة فى منتصف امدى الزمنى للتأريخ التقليدى ، كما أنه يجعل طبيعة انهيار المدينة متوافقًا مع ما ورد بالملاحم. (والطريقة الثانية)(*) مفادها أن هذا التحديد التاريخى - بغض النظر عن العثور على مكتشفات ذات أهمية على ساحل المدينة ، حيث كان يفترض وجود معسكر الإغريق الذين حاصروا المدينة - قد أكد لنا من جديد صحة التاريخ الذى حدده لنا هوميروس وجعل له القدح المعلى.

وتتناول أقسام من هذا الفصل تاريخ مدينة طروادة الذى يتسم بالغموض والتعقيد ، وتدرس إمكانية تحديده عن طريق علم الآثار والسجلات الحيثية. فمن الواضح أن مدينة طروادة - بوصفها مدينة مزدهرة ذات رخاء غدا مضرب المثل - كانت تحظى بموقع استراتيجى فريد ، يقع عند النقطة التى كان على السفن أن تنتظر فيها هبوب ريح رخاء مواتية لتتمكن من الإبحار عبر مضيق الدردنيل وتصل إلى البحر الأسود ، كما أن مدينة طروادة خلال العصر البرونزى كانت أيضًا نهبًا للسيطرة والتسلط عليها، من قبل قوة الحيثيين تارة ومن قبل قوة الإغريق تارة أخرى.

أما فيما يتعلق بانتفاء كل ذكر أو إشارة إلى الحيثيين فى ملاحم هوميروس وكذلك فى التراث الإغريقى بأسره ، فهو أمر يمكن تفسيره عن طريق ذكر حقيقة مفادها أن

(*) لم يذكر المؤلف سوى الطريقة الأولى فقط. وأنا هنا أرجح أن هذه الفقرة تخص الطريقة الثانية التى أغفل المؤلف ذكرها. (المترجم) .

الإمبراطورية الحيثية - رغم عدم انهيارها تماماً حتى بداية القرن الثانى عشر ق.م. - قد فقدت ما كان لها من قوة وتأثير فى منطقة غرب الأناضول بحلول عقد الثلاثينيات من القرن الثالث عشر ق.م. وبالتالى فقد يبدو لنا أن حرب طروادة كانت - بطريقة أو بأخرى - عبارة عن محاولة إغريقية لملأ الفراغ الناشئ آنذاك فى المنطقة. ولكن هذه المحاولة جابهت مقاومة ضارية من جانب الحلف الذى تألف ضدها حينئذ من الدول المجاورة الموجودة بمنطقتى الأناضول الغربية والأناضول الجنوبية ، وكذلك من الثراقيين.

ويتضمن الفصل الثانى عشر من هذا الجزء كذلك قسماً عن مدينة طيبة الإغريقية، وبداخل هذا القسم توجد معالجة مختصرة لما يمكن استخلاصه أو التوليف بين شتات معلوماته عن تاريخ هذه المدينة منذ إعادة تشييدها للمرة الثانية على يد أمراء الهكسوس - وفَقًا لما أعتقد - الذين يتمثلون وفقًا للأسطورة فى شخص البطل الفينيقى كادموس. وهناك قدر من الجدل المحتدم حول البراهين المتعلقة بتاريخ هذا البطل الفينيقى ، وحول تفضيل كثير من الباحثين للتقاويم الزمنية المتأخرة التى تم افتراضها خلال العصر القديم. ومن جانبى ، فإننى أعتقد أن ما يجعل هذه التقاويم الزمنية مُرَجَحة على ما سواها بشدة ، هو الرغبة فى التوفيق بين الرواية القائلة بأن كادموس هو الذى أدخل الحروف الأبجدية إلى بلاد الإغريق ، وبين الاعتقاد السائد بأن أقدم تاريخ لدخول هذه الحروف الأبجدية هو عام ١٣٠٠ق.م. على وجه التقريب. لذلك ، فلقد حاولت أن أبرهن - مرتكزًا فى هذا الصدد على أسس متصلة بالكتابات المدونة نقشًا - على أن الأبجدية السامية (= الفينيقية) قد أدخلت إلى بلاد الإغريق إبَّان فترة زمنية لا يمكن أن تكون متأخرة عن عام ١٤٠٠ق.م. ، وربما خلال فترة أقرب صعوداً فى القدم إلى عام ١٨٠٠ق.م. وبالتالى ، فليس هناك من سبب يدفعنى إلى الشك فى الرواية القديمة البارزة القائلة بأن كادموس - أو الغزو الذى تم على يديه أو نسب إليه - قد وصل إلى مدينة طيبة الإغريقية، تقريبًا فى ذات الوقت الذى وصل فيه داناؤوس إليها وأقام فيها مستوطناته، وأعنى به عام ١٧٣٠ق.م. على وجه التقريب.

وهناك وفرة من الشواهد الكلاسيكية التى تتطابق بصورة جيدة مع الدليل التصويرى (=الأيقونى) (iconograhpic) ، وهى شواهد تجعل من المؤكد تقريبًا أن

الطيبيين كانوا يعتقدون أن حكامهم منحدرون من سلالة ملوك ينتمي نسبهم إلى كادموس ، وأن هؤلاء الملوك قد قدموا إلى مدينتهم أصلاً من فينيقيا. وليس ثمة سبب يحملني على الشك في أن هذه الرواية تستند إلى أساس من التاريخ الحقيقي ، أو في أن مملكة طيبة هي المملكة التي ظلت باقية وحدها خلال تلك الفترة منذ عصر تأسيس إمارات الهكسوس.

ومن الواضح أيضًا أن مدينة طيبة الإغريقية قد احتفظت بعلاقات وصلات مع منطقة الشرق الأدنى ، أو أنها أعادت إحياء علاقات كانت موجودة معها من قديم. إذ تم العثور على عدد من المقتنيات الثمينة التي تنتمي إلى منطقة الشرق الأدنى في "الكادميون" (Kadmeion) (=مصر القديمة) ، وكان بعض هذه المقتنيات الثمينة مُصَنَعًا أو أعيد تصنيعه إبان الحقبة التي شهدت سقوط هذه المدينة. ولقد أوحى هذا إلى أحد الباحثين بأنه كان هناك جالية من الصناع الشرقيين المهرة تقوم بصنع هذه المقتنيات الثمينة داخل القصر. ولكن أكبر كشف مذهل على الإطلاق كان عبارة عن مجموعة من الأختام الأسطوانية المصنوعة من اللازورد ، وكان الشطر الأكبر من هذه الأختام عبارة عن مجموعة من الأختام الرسمية أو الدينية التي تم صنعها في عصر حكم الأسرة الكاسية في بابل. ولقد تمكنت الباحثة إديث بورادا (Edith Porada) ، كبيرة الاختصاصيين في أختام منطقة غرب آسيا ، في عمل رائع يتميز بقدرته على الاستشراف والكشف من أن تثبت صلة هذه الأختام بالمعابد التي تم نهبها على يد الفاتح الآشوري الذي أنزل الهزيمة بمملكة بابل على عهد الاسرة الكاسية ، وهو الملك "توكولتي نينورتا الأول" (Tukulti Ninurta I) . ولقد حاولت الباحثة بورادا أن تبرهن على أن هذا الملك قد أرسل هذه الأختام إلى بلاد الإغريق ، إما بوصفها سلعًا تجارية ، وإما لأغراض دبلوماسية. ولقد كانت الباحثة بورادا على بينة من المعاهد الحيثية المذكورة آنفًا ، والتي كانت تهدف إلى حظر التبادل التجاري بين بلاد الإغريق وبين مملكة آشور ؛ ولكنها لم تكن تعلم شيئًا عن الدليل المؤكد المستمد من قالب ضخم من معدن الرصاص ، كان يُستَخدم في صب المعادن وكان مختومًا باسم الملك " توكولتي نينورتا " ، ولكنه كان مصنوعًا من رصاص تم استخراجه من مناجم لاوريون التي تقع بمنطقة أتيكا في بلاد الإغريق.

وهكذا ، فعلى الرغم من عدم وجود أدنى شك فى أن مدينة طيبة الإغريقية كانت تحظى بصلات وثيقة مع منطقة الشرق الأدنى خلال الحقبة التى تم فيها انهيارها ، فمن الواضح أيضًا وبنفس القدر أن مدينة طيبة لم تكن نسيجًا وحدها بين الدويلات الإغريقية فيما يختص بوجود هذه الصلات. وبالمثل ، فعلى الرغم من عدم وجود سبب للشك فى أن أسلاف ملوك طيبة منحدرون من نسل كادموس وبالتالى من أرومة فينيقية ، إلا أن هذه المكتشفات سالفة الذكر فى حد ذاتها لا تبرهن على أن مدينة طيبة الإغريقية كانت مدينة قام بتأسيسها أقوام من منطقة الشرق الأدنى.

ولقد غدا التاريخ المحدد لانتصار الآشوريين على مملكة بابل - وهو عام ١٢٣٥ق.م. على وجه التقريب - تاريخًا مقبولاً يمكن الوثوق به ، وبالتالى فهو يقدم لنا حدًا فاصلاً يمكن لنا أن نضع بعده تاريخًا لتدمير مدينة طيبة الإغريقية بصفة نهائية ، وحرى بنا أن نحدد الآن هذا التاريخ بعقد العشرينيات من القرن الثالث عشر ق.م. ووفقًا للروايات التراثية المتداولة بين الإغريق ، فإن سقوط مدينة طيبة الإغريقية قد حدث قبل نشوب حرب طروادة بفترة زمنية وجيزة ، وهى الحرب التى يمكن القول بأن رحاها دارت خلال السنوات العشر الأولى من القرن الثالث عشر ق.م.، وبالتالى فإن ذروتها المتمثلة فى سقوط مدينة طروادة ودمارها تكون قد حدثت عام ١٢١٠ق.م. تقريبًا.

ولقد سمحت لنفسى بأن أتأمل بإمعان - فى الفصل الثانى عشر من هذا الجزء - قضية تحديد تاريخ (دقيق) لنهاية العصر الميكينى ولانهيار حضارة العصر البرونزى بوجه عام ، وهما واقعتان حدثتا على الأرجح خلال القرن الثانى عشر ق.م.، وأتصور فى هذا الصدد أنه يمكن اعتبار سقوط كل من مدينة طيبة الإغريقية ومدينة طروادة بمثابة نذير بانهيار الحضارة الميكينية. فلقد شهدت بداية القرن الثانى عشر ق.م. الغزوات التى قامت بها شعوب البحر والتى ورد ذكرها فى الوثائق المصرية القديمة. وكانت هذه الغزوات تشتمل على الغارات التى تم شنها من شمالى منطقة الأناضول ومن غربها ، ومن منطقة المشرق ، ومن مصر. ولقد أسفرت هذه الغزوات عن وضع نهاية لسيطرة القوة الحيثية وحدوث دمار مؤقت فى الدول الساحلية فى منطقة

المشرق ؛ أما مصر فقد قدر لها أن تظل وحدها قائمة بغير تدمير أو انهيار ، وإن كانت قوتها قد ضعفت عن ذى قبل بصورة واضحة.

وما من شك فى أن الشعوب التى بات علينا أن نطلق عليها آنذاك اسم "الإغريق" كانت ضالعة فى شق مثل هذ الغارات ، وأنها شاركت فى التسويات التى تم عقدها عقب حدوث عدد من هذه الغارات. ومن ناحية أخرى ، فمن الصعب علينا أن نتحدث على وجه الدقة عن كيفية ارتباط هذه الهجرات بالاضطراب البالغ الذى وقع فى بلاد الإغريق ذاتها إبان نفس الفترة. وكانت المظهر الكبرى لهذا الاضطراب تتمثل فى الغارات التى تم شنها ، أو الفتوحات التى تم إنجازها لأجزاء من جنوب بلاد الإغريق على يد الدوريين القادمين من شمال غرب بلاد الإغريق. ولقد زعم الملوك الدوريون – سواء أكان زعمهم هذا صادقًا أم لا – أنهم منحدرون من آل البطل هيراكليس، أو من سلالة الأرباب ، أو من أصلاب الأسرة القديمة الحاكمة ذات الأرومة المصرية – الفينيقية. وبهذه الطريقة، فقد غدوا قادرين على إكساب أنفسهم شرعية أسمى مقامًا من شرعية آل بيلوبس الذين حلوا محلهم فى مدينتى أرجوس وإسبرطة ، وغيرها من المدن الأخرى. ولقد حدا الانحدار كذلك من صلب أسلاف ذوى أرومة مصرية – فينيقية بالملوك الاسبرطيين المتأخرين إلى الاعتقاد بأنهم يمتون بصلة نسب إلى اليهود ، الذين يفترض أن قادتهم – بمثل ما كان أسلافهم الحقيقيين أو المتخيلين–كانوا هم الأمراء الهكسوس الذين قام المصريون بطردهم من مصر(*).

(*) المؤلف متحمس للغاية لفكرة أن الهكسوس قد غزوا الأناضول وبلاد اليونان والجزر بعد طردهم من مصر وهزيمتهم من جيشها. ولا اعتراض لى على هذه النظرية إلا فى أننى أتشكك أن يكون الهكسوس المدحورون قادرين على التحول من الضعف إلى القوة الغازية بغير أسباب معلومة. فضلاً عن أن المؤرخ اليهودى يوسف يذهب إلى القول بأن الهكسوس رحلوا بعد طردهم من مصر إلى منطقة فلسطين حيث أسسوا مدينة "أورشليم". كما أنه فى نفس الوقت ينفى أن يكون اليهود وأسلافهم من الهكسوس شعبًا بحريًا، وبالتالى فإنه يدافع عن عراقة الحضارة العبرية اليهودية ضد من اتهموها بالحداثة من الإغريق ، مرتكزًا على عدم معرفة الإغريق باليهود على اعتبار أنهم شعب قارى ليس له اهتمامات بحرية. وفى ضوء آراء المؤرخ اليهودى لا يمكننا القول بأن الهكسوس تحولوا من شعب من الرعاة إلى شعب بحرى بغير أسباب مقنعة. (المترجم)

ويبدو أن الاضطراب البالغ الذى عم واستشرى فى بلاد الإغريق قد بلغ ذروته خلال عقد الخمسينيات من القرن الثانى عشر ق.م.، وأن مدينة موكيناى ذاتها قد قُدِرَ لها أن تنهار خلال هذا العقد دون سواه ، وبالتالى فإن الواضح أن هناك أسبابًا عديدة تفسر الانهيار الذى حدث إبان ذلك الوقت لحضارة العصر البرونزى. ويبين أحد الافتراضات التى اقترحت فى هذا الصدد أن السبب الأساسى فى وقوع هذا الانهيار كان هو التدهور الذى طرأ على المناخ فأثر بالتبعية على نصف الكرة الشمالى بأسره ابتداء من الربع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م. ؛ ولقد سبق لنا أن ناقشنا هذه النقطة بكثير من التفصيل عند التعرض لملخص الفصل السابع من هذا الجزء. غير أن الباحثين المتخصصين فى هذا الموضوع لم يصادفوا أى تدهور مناخى طويل الأمد آنذاك ، وعلاوة على ذلك ، فرغم أن هؤلاء الباحثين يقرون بحدوث فترات جفاف وقحط استمرت أحيانًا على الأرجح لسنوات طويلة ، إلا أنهم يؤكدون ببراهين قابلة للتصديق على حدوث فترات جفاف وقحط مماثلة خلال القرن الرابع عشر ق.م.، وذلك حينما استطاعت منطقة جنوب بلاد الإغريق من إعالة كمية شديدة الكثافة من السكان. وبوسعى أن أدلل على أن هذا اللغز يمكن حله لو أننا أقررنا بأنه خلال الفترة الزمنية الممتدة من ١٤٧٠-١٢٢٠ق.م. كان القمح المصرى متاحًا ومتوافراً لبلاد الإغريق ، كى يساعد سكانها المتزايدين فى التغلب على فترات المجاعة والقحط. وبالتالى ، فإن الغزوات التى قامت بها شعوب البحر - والتى نجم عنها إضعاف مصر والقضاء على أية إمكانية لنقل إمدادات القمح عن طريق البحر - هى التى أرغمت اقتصاد جنوب بلاد الإغريق على التحول من اقتصاد قائم على التصنيع والزراعة المتخصصة خلال عصور الخزف، وأعنى بها الفترتين الأولى والثانية من العصر الهيللادى المتأخر الثالث، إلى اقتصاد قائم على الاكتفاء الذاتى خلال الفترة الثالثة من العصر الهيللادى المتأخر الثالث ، وهو اقتصاد تنهض به طائفة من السكان قليلة العدد نسبيًا وقادرة على الصمود أمام فترات الجفاف والقحط المتكررة ولديها القوة على تخطيها.

ورغم أنه ليس بوسعنا أن نعزو السبب لانهيار طويل الأمد - وهو الانهيار الذى وقع فى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثانى عشر ق.م. - إلى عوامل مناخية وأخرى سياسية ، إلا أنه يبدو أن السبب الأول والأهم كان هو التدهور السياسى الذى

طرأ على مظلة " السلم المصرى " (Pax Aegyptiaca) . وأيًا كان الأمر ، فيبدو أن الضربة القاصمة – التى وجهت لعدد من المناطق وأسفرت عن سحق حضارة العصر البرونزى بأسرها – كانت تتمثل فى التدهور الذى طرأ على المناخ ، وهو التدهور الذى حدث نتيجة لثورة بركان هيكلا الثالثة عام ١١٥٩ ق.م. ومن المثير للدهشة أن نلاحظ أنه خلال العقد التالى لهذا التاريخ شرع الأمير " زهو " (Zhou) فى إسقاط أسرة شانج (Shang) الحاكمة (فى الصين) ، وأقفرت منطقة شمال غرب بريطانيا من سكانها ، وانهارت دعائم دولة عيلام الوسطى فى إيران ، وحل الدمار بالحضارة المؤسسة على البلاط والقصور الملكية ومجتمعها فى بلاد الإغريق.

ورغم أن مصر لم تخضع أبدًا ولم تستسلم ، ورغم أن منطقة المشرق قد استعادت سريعًا ثروتها وقوتها ، إلا أن المناطق الهامشية الواقعة على حدود الشرق الأدنى قد استغرقت وقتًا أطول لكى نستعيد ما كان لها من صولة ومنعة. وحتى عندما تمكنت هذه المناطق من استرداد ما كانت ترجوه من قوة ، فإن ذلك قد تحقق بصيغ اجتماعية متنوعة وبأنماط جد مختلفة. أما فى بلاد الإغريق ، فبعد انحسار المجتمع الذى قامت حضارته على حياة القصور والبلاط ذات الطابع البيروقراطى حل محله مجتمع عتيق أكثر تمسكًا منه بالقبيلة. على حين ظل الانتعاش الذى تحقق خلال القرن التاسع والثامن ق.م. يسير بصورة شاملة على الخطوط العريضة التى تم تأسيسها فى فينيقيا خلال القرن الحادى عشر ق.م. ، وبناء على المواصفات التى كان يتم وفقًا لها إنشاء الدويلات المستقلة التى يقوم اقتصادها على التجارة والتصنيع ، والتى تعتمد اعتمادًا واضحًا على عمل العبيد البدنى بوصفهم أملاكًا منقولة ، شريطة أن يتحقق هذا كله فى ضوء وجود مفهوم وثيق لحقوق المواطنين. ولكى يتسنى لنا توضيح هذا الاختلاف بين المجتمعين بصورة رمزية ، فبوسعنا القول بأنه حيثما وجدت حياة البلاط والقصور الملكية فإنه سوف يحل محلها آنذاك مدن تهيمن عليها معابد للآلهة يتم النظر إليها على أنها بمثابة هوية مشتركة بين كافة المواطنين.

أما العلاقات (الوثيقة) القائمة بين موجة التأثير هذه الوافدة من منطقة الشرق الأدنى وبين التراث الإغريقى القح ، فهى علاقات تشكل قوام قصة أخرى ليست جزءً من مشروع هذا الكتاب الذى بين أيدينا على أية حال.

وختامًا ، فلقد تجاسرت وأعلنت فى مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب عن المحتويات التى كنت قد خططت سلفًا لورودها فى الجزئين الثالث والرابع من الكتاب. غير أنه وقد اتضح لى أننى كنت على الخطأ فى وضع هذا التصور المسبق ، فإننى بناء على ذلك لا أنوى هذه المرة أن أستبق الأمور أو أمضى قدمًا فى عرض التفاصيل المخطط لورودها فى الجزئين الثالث والرابع من الكتاب. ولا بأس من القول بأن هذين الجزئين سوف يغطيان بوجه عام الميادين التى سبق اقتراحها من قبل فى مقدمة الجزء الأول ، وهى ميادين تتعلق بما تصورت أنه سيعالج فى الجزئين الثانى والثالث. وبغض النظر عن التغييرات التى طرأت على تفاصيل مخطط هذا المشروع البحثى ، فإن الاختلاف الجوهرى - فيما يتعلق بالجزئين - يكمن فى أن هذه التغييرات سوف تكون مؤسسة على نفس الخطوط العريضة التى سار على منوالها هذا الجزء الذى بين أيدينا، فيما يتعلق بكونها مؤلفة من وصف "مكثف" أتعشم أن أحاول من خلاله توضيح مدى خصوبة النموذج القديم المنقح ، وتبيان مدى فاعليته. ويقف هذا الوصف "المكثف" على طرفى نقيض من المنافسة الحيادية التى قمت بشرحها سلفًا فى بداية هذه المقدمة، والتى اعتقدت خطأ أن القيام بها أمر ممكن ، حينما انبريت لأول مرة لتصميم الخطوط العريضة لخطة هذا المشروع البحثى.

هوامش المقدمة

(١) انظر الجزء الأول ، ص ص ٤٤٢-٤٤٣

(٢) انظر: ماك نيل (١٩٧٢) ، ص٢٠ .

والحق أننى معجب بهذا المقال لهجومه الجسور على الدعائم اللغوية الذاتية للنموذج الآرى، وعلى استخدام هذا النموذج لمقولة " جيته " الشهيرة، وهى: " إن أكثر الأشياء أهمية للفهم هو أن يكون كل شىء واقعى بذاته نظرية بالفعل ". وتنصب اعتراضاتى على هذا النموذج لإيمانه بالحرفية أو التخصص فى المهنة ، وعلى رفضه لتقبل أى أمر أو فكرة ما لم يكن حقيقة مؤكدة.

(٣) انظر : إدواردز (١٩٧٩) ، ص ص ٦٥-٨٩ .

(٤) انظر: نلسون (١٩٣٢).

على حين يعد الأستاذ بيركرت (1985) Burkert، ص ص ٤٧-٥٣، أكثر احترازاً رغم أنه لا ينكر المثال الأساسى الذى قدمه الأستاذ نلسون.

(٥) انظر: Naveh (1932), pp. 1-8; Bernal (1987), pp. 1-19; Bernal (1990).

(٦) عن قبرص، انظر: Jensen (1969), pp. 138-141; Friedrich (1957), pp. 124-131

وعن كريت ، انظر: Davis (1967), p. 26; Gorden (1966), p. 13; Steiglitz (1976), p. 85; Marinatos (1985), P. 228; Raison and Brixhe (1961), p. 130; Bronn (1978), p. 44; Pace Brice (1959), p. 380.

(٧) انظر: Thucydides, I, i ; Pausanias, III, 3, 3; Plutarch, De Gen. Soc., 5-6.

(٨) انظر: Josephus, Contra Apionem, I, 12-21 (1981).

وعن فيلون انظر : Baumgarten (1981); Attridge & Oden;

وعن مانيتون انظر: Waddel (1940), pp. Vii-xxx

(٩) انظر: Josephus, Contra Apionem, I, 14

وقارن : Walcot (1966), pp. 18-19; Kirk, Raven & Schofield (1983), pp. 48-72.

(١٠) أشار معظم الباحثين المعلقين إلى أن تأريخ هيرودوتوس الزمنى للتاريخ المصرى يمكن تقويمه أو تعديله عن طريق إجراء تصويب معنى. انظر de Selincourt (1954), p. 166.

(١١) المؤرخ يوسف: ، ضد أبيون ، جزء ١ ، فقرة ٢٨ . وانظر ترجمة الفقرة صـ١٧٥ .

(١٢) المؤرخ يوسف ، ضد أبيون ، جزء ١ ، فقرات ١٠٧-, ١١١ وانظر الترجمة ص ص ٢٠٥-٢٠٧ من الكتاب .

(١٣) انظر أدناه ، الفصل السابع ، الحواشى من رقم (٢) إلى رقم (٦٢) .

(١٤) انظر: Astrom (1978), pp. 87-90.

(١٥) انظر أدناه ، الفصل السابع.

(١٦) انظر: Petrie (1890, 1891, 1894); Su also Cadogan (1978), p. 209.

(١٧) انظر: Plato, Timaios, 22 D.

(١٨) انظر: Bernal (1989 a), pp. 22-25.

(١٩) انظر: Gardiner (1961), p. 309; Wilson (1969), p. 27.

وعن الاستمرارية فى الثقافة المادية ، انظر: Prausnitz (1985), P. 191.

(٢٠) انظر: Macqueen (1975), p. 52.

(٢١) انظر: Herrin (1978), pp. 19-33.

(٢٢) انظر: الجزء الأول ، ص ص ٣٠٣-٣٠٥

(٢٣) انظر بصفة خاصة: ص ص ٢٨١-٢٣٣؛ برنال (١٩٨٨).

(٢٤) تابع وقارن : Leak (1986); Thapor (1975, 1977).

وكلاهما دون نقداً رائعاً ومفحماً ومبنياً على اسس إيديولوجية للدراسات الهندية التى تمت خلال القرن التاسع عشر وكذا للدراسات الهندو-أوربية.

(٢٥) انظر: Kuhn (1977), p. 463.

وعن التقسيم الذى قام به الأستاذ كوهن للنماذج المبكرة وتصنيفها إلى " نماذج قياسية " وقوالب دراسية " انظر: Suppe (1977). Pp. 135-151.

(٢٦) انظر: Barnes (1982), p. 11.

(٢٧) انظر: Kuhn (1970), p. 169.

(٢٨) انظر: Lacatos (1970), pp. 106-111.

(٢٩) انظر الجزء الأول ، ص ص ٤٠٧-٤٠٧

(٣٠) انظر الجزء الأول ، ص ٣٢٦-, ٣٣٠ وانظر أيضاً : برنال (١٩٨٨) .

(٣١) انظر: Renfrew (1972), p. xxv.

(٣٢) انظر: انظر الجزء الأول من ص٦٤ .

الفصل الأول

كريت قبل فترة القصور منذ عام ٧٠٠٠ حتى ٢١٠٠ ق.م

ترجمة : أبو اليسر فرح

تُعَدْ جزيرة كريت المكان الملائم لإجراء مسح للعلاقات بين الشرق الأدنى وعالم بحر إيجه، وهناك عدة أسباب تكمن وراء هذا الاختيار. وأول هذه الأسباب هو وجود الأدلة على قيام إتصالات بين هذه الجزيرة وجنوب غرب آسيا الصغرى وشمال أفريقيا منذ العصر الحجرى الحديث. وقد إستمرت هذه الاتصالات خلال عصر البرونز المبكر. أما ثانى هذه الأسباب فإنه فى خلال فترة القصور التى إزدهرت فى أواخر الألف الثالثة والثانية لعبت هذه الجزيرة دور الجسر فى نقل وبلورة المؤثرات المصرية والشرقية إلى بلاد الإغريق القارية(*) . ولهذا يمكننا القول بأن التأثير الكريتى كان أساسيًا فى تكوين الحضارة الموكينية وتطورها فى الألف الثانية.

وسوف نحاول فى هذا الفصل أن نلقى الضوء على المرحلة الأخيرة من تاريخ هذه الجزيرة. وهى مرحلة العصر الحجرى الحديث وأوائل عصر البرونز، أى الفترة الواقعة ما بين عامى ٧٠٠٠ و ٢١٠٠ ق.م.

وفى هذا الصدد فإننى أركز على علم الآثار بصفة أساسية. ولا يرجع هذا إلى إعتقادى بأن علم الآثار له الأفضلية كمؤشر، أو لكونه السبيل الوحيد لمعرفة عالم بحر إيجه خلال الألف الثانية ق.م (ما بين عامى ٢٠٠٠ و ١٠٠٠ ق.م).

(*) نستخدم كلمة بلاد الإغريق القارية لترجمة عبارة Greek mainland أنظر ترجمة الجزء الأول ص٩٧ . (المترجم)

وهى الفترة التى يركز عليها هذا الكتاب. بل إننى أعطى إهتمامًا لعلم الآثار لسببين:

أولهما أن هذا العلم دائمًا هو الوسيلة الهامة للحصول على المعلومات. ويصدق هذا فى خلال العصور التاريخية وما قبل التاريخية. والسبب الثانى أنه على الرغم من أن المعلومات التى يمكن إستيفاؤها من الأساطير أو المصادر اللغوية مفيدة إلى أبعد الحدود. فإنه توجد صعوبة فى مطابقة هذه المعلومات مع الشواهد الأثرية.

ومن ناحية أخرى فإننا إذا أردنا أن ننظر إلى الألف الثالثة على سبيل المثال، فإننا نلاحظ قلة نسبيته فى الوثائق المعاصرة. وبهذا تكون المعلومات التى يزودنا بها علم الآثار هى السبيل الوحيد أمامنا لكى نتعرف على هذه الحقبة. إلا أننى أعتقد ان التعامل مع الدلائل الأثرية بشكل منعزل هو أمر غير مقبول حتى عندما يتعلق الأمر بالفترة المبكرة. لذا فإننى سوف أحاول فى الفصل الأول أن أتبينها من خلال القرائن التى يمكن معرفتها من الوثائق التى تنتمى إلى حضارات معاصرة. بالإضافة إلى تلك القرائن التى تزودنا بها الأساطير والعبادات. وفى بعض الأحيان ما يمكن معرفته من اللغة وأسماء الأعلام.

وبالإضافة إلى هذه المشاكل التى تتعلق بالقرائن، توجد الصعوبات التى تتصل باتخاذ علم الآثار كقاعدة. ولست أنوى الخوض فى المسألة الفلسفية المعقدة التى تدور حول مناقشة ما إذا كان علم الآثار قائمًا بذاته (بشكل يتعارض مع ذلك الذى يستخدم الأساليب العلمية للآخرين)(١).

إننى هنا ببساطة أفضل أن آخذ فى الاعتبار التطبيق العملى، أو على الأقل الحد الأدنى من النظرية لأنها تؤثر فى المشكلات المحددة التى نهتم بها. وفى الغالب فإنه لا يوجد شك فى مدى صدق الدليل - فى الحفائر الجيدة - فيما يتعلق بمكان العثور عليه وفى أى قطاع. وفى الوقت الراهن فإنه من خلال الوسائل العلمية يمكن معرفة مادة الدليل ومصدره. ويمكن معرفة ذلك فى بعض الأحيان عن طريق الراديو كربون. وذلك من خلال قياس نسبة الكربون النشط. وهى النسبة التى تأخذ فى التناقص عندما يموت الجزء العضوى. وكذلك عن طريق دراسة عمر الأشجار **(dendrochronology)**

من خلال حساب حلقات الشجرة، الذى يتيح للمرء معرفة تاريخ هذه الشجرة بدقة. ومن ناحية أخرى محاولة معرفة الكيفية التى انتقل بها هذا الأثر إلى مكان آخر. وإلى أى مدى يمكن أن يقدم ذلك فائدة للتفسير الموضوعى للمؤرخ أو عالم الآثار.

والواقع أننا عندما ننظر إلى المبانى أو طُرُق الزراعة والصناعة. وهى التى تُمثل مجال الاهتمام الرئيسى لعالم الآثار أو المؤرخ فى وقتنا الراهن، فإننا نلاحظ وجود تفاوت فى التفسير وبخاصة عندما يتعلق الأمر بعلاقة هذه الأنماط بمثيلتها فى أماكن أخرى. وخلاصة القول أن الأدلة فى حد ذاتها وبشكل مجرد تقدم إجابات محددة. وأقصى ما تستطيعه تلك الأدلة هو أنها تصنع حدوداً واضحة يستطيع عالم الآثار من خلالها أن يتأمل.

آراء دُعَاة الانتشار

وأفكار دُعَاة العُزلة

من الطبيعى أن يلعب الشكل دوراً مهمًا فى عالم التأمل. وقد ناقشت فى الجزء الأول بشكل مختصر العلاقة بين الإستعمار (colonialism) وتفضيل فكرة الانتشار (diffusionism) والاعتقاد بأن الحضارات الأعلى مرتبة إنما تنتشر من خلال الغزو أو الهجرة[٢]. ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن الآريين القدماء وكذلك النماذج المتطورة فى بلاد اليونان تُعَد جميعها ناتجة عن الانتشار. إن نظرية الانعزالية (Isolationism) - أو التطور الذاتى كما يحلو لأصحابها أن يطلقوا عليها بشكل مضلل. والتى تقوم على روح المبادرة والنشوء الذاتى، أو بمعنى آخر التطور المحلى، إنما جاءت كرد فعل طبيعى للفكرة السابقة وسيطرت على علم الآثار منذ حقبة الأربعينيات.

والحقيقة أن أشد الهجوم ضراوة على نموذج الاستيطان الانتشارى جاء فى المقالة التى كتبها وليام آدامز (William Adams) وهو عالم بارز فى مجال آثار النوبة. وقد شكلت هذه المقالة الفكرة الرئيسية فى أعمال كولين رينفرو (Colin Renfrew)،

وعلماء آخرين من دُعَاة الانعزالية[٣]. فراحوا يثيرون جدلاً كثيراً حول تفسير دُعَاة الانتشار للأدلة الأثرية. وقد لخص آدامز هذه الأفكار وبلور رأيه فى نهاية مقال له بعنوان " الغزو والانتشار والتطور " نشرها فى إحدى الدوريات الأساسية فى هذا الحقل وهى دورية (Antiquity) .

وطالما أنه ليس لدينا دليل قاطع من علم الآثار، فإن أى تفسير موجود الآن يجب أن يكون قابلاً لإعادة النظر فى ضوء الاكتشافات المتوالية. ومما يثير الأسى أنه لا توجد نقطة يمكن لنا عندها أن نهمل الأدلة ونأخذ بالتفسيرات. لأن كل نظرية لا تعدو أن تكون مجرد إحتمال. وأى بناء لنظرية على أساس نظرية أخرى يؤدى بشكل واضح إلى تقليل الاحتمالية. لذا فإن الدليل المادى يمكن أن يؤدى بشكل غير محدود لإقامة حقائق التاريخ[٤].

وعلى أية حال فإن مسألة الفصل ما بين التفسير (interpretation) والدليل المادى (solid evidence) هى مسألة ليست مُقنعة بشكلٍ صارم. ومما هو جدير بالذكر أن رجال الآثار عندما يختارون موقعًا للتنقيب تكون لديهم فكرة مُسبَقة وأن هذه الفكرة تلازم أيضًا من يأتى بعدهم وتحدد قراراتهم فيما يتعلق بالمكان الذى يحفرون فيه. كما تحدد أيضًا الوسائل التى يتبعونها، وأين عليهم أن يتوقعوا، وما هو الجانب الذى ينبغى فحصه بدقة، وما هى البقعة التى يجب عليهم أن يقوموا بتنظيفها وملاحظتها. وما ينبغى الاحتفاظ به. وليس هناك مفر من القول بأن التحليل لابد أن يكون ذاتيًا (Subjective) . والحقيقة أن النتيجة التى توصل إليها آدامز على الرغم من أنها لا تبدو متميزة إلا أنها مثلها فى ذلك مثل فكرة ماك نيل (McNeal) التى أشرنا إليها كما جاءت فى مقالة فى مقدمه هذا الكتاب تحتوى على هجوم على فكرة الانتشار. وتبدو رؤيته ذات وقع عنصرى[٥]. وفى إطار الرغبة فى عدم الاعتراف بمصداقية الافتراضات المبنية على معطيات علم الآثار، وكذلك الأدلة الأخرى من عصور ما قبل التاريخ، فإن بعض الباحثين من أمثال آدامز وماك نيل هجروا كل ما تم الاستدلال عليه، وفضلوا الأخذ بفكرة التطور الذاتى والانعزال .

ويمكن تلخيص فكرتى فيما يلى. إننى على الرغم من تقبلى لنقدهما للأدلة المتوافرة فإننى أرى أنه لابد من الاستفادة إلى أقصى حد مما هو متوافر لدينا، وأن نستمر فى استخراج الاستنتاجات. وفى نفس الوقت علينا أن نذكر أنفسنا باستمرار بأنها ليست ثابتة تمامًا. إننى أحرص على هذا لأننى مقتنع بعدة حقائق. أولها أن الأبحاث بدون هذه الأدلة تؤدى إلى نتائج ليس لها معنى. أما ثانيتها فإنه على الرغم من كونها غير صادقة بشكل مطلق، فإن الافتراضات المختلفة بطريقة أو أخرى يمكن أن تشجع على الوصول إلى ما يفيد. وفى هذه الحالة يكون دورنا هو القيام بعملية المزج، ثم اختيار أقلهم سوءًا وهناك نتيجتان مترتبتان على الحقيقة الثانية وهما:-

١- إنه يحول دون إقامة افتراض جديد يفسح بشكل لا فِكاك منه مكانًا للأفكار القديمة التى قامت على أدلة ينبغى التعديل عليها.

٢- أن هذه الحيلولة نابعة من وجود خط محدد للعزلة وهو أمر قد يؤدى بشكل خاطئ إلى فكرة الاتصال أكثر من العزلة. وهو أمر يحتاج إلى برهان. إن هذا الاتجاه خاطئ. وقد أخذت ما يمكن أن نطلق عليه الشكل الانتشارى المخفف.

لذا فإننى أرى أن التغيرات الحضارية يمكن إرجاعها لعاملين هما التأثير الخارجى أو التطورات الداخلية. أو كنتيجة لتركيبة معقدة للعاملين معًا. والحقيقة أن الدارسين فى عصرنا الحالى الذين يأخذون بفكرة العزلة لابد أن أفكارهم قد تولدت من خلال النظرة الحديثة إلى عالم بحر إيحه خلال عصر البرونز ما بين عامى ٣٣٠٠ إلى ١١٠٠ ق.م. وقد إنقسم العلماء فى العصر الحالى إلى معسكرين بشكل حاد. وقد تمت مناقشة آراء أصحاب المعسكر الأول فى الجزء الأول (من هذا الكتاب). ويضم هذا المعسكر بشكل أساسى الدارسين ذوى الاتجاه المحافظ مثل فرانك ستابنجز (Frank Stubbings) والراحل سبيريدون ماريناتوس (Spyridon Marinatos) وقد تأثر هؤلاء ببقايا النموذج القديم. وقالوا بأن بلاد اليونان قد تعرضت للغزو من مصر ومن الشرق فى عصر البرونز المتأخر حوالى عام ١٥٧٠ ق.م. إلا أنهم مع ذلك يجادلون بالقول بأن هذا الغزو لم يدم لفترة طويلة. وأنه لم يكن ذا أثر بارز فى الحضارة الإغريقية. أما المجموعة الثانية فإنها تضم معظم العاملين فى مجال الآثار من الذين ينتمون إلى

الجيل المتوسط. وكذلك المؤرخين المتخصصين فى تاريخ اليونان القديم مثل جون بينتلف (Johin Bintliff) وبيتر وارن (Peter Warren) . ويميل هؤلاء إلى الأخذ بنظرية الانعزال. ويتبنون نظرية رينفريو (Renfrew) التى تنادى بفكرة النمو الذاتى (Autochthonous) للحضارة. وتستند إلى الاعتقاد بوجود مستوطنات ذات تأثير بارز فى بلاد الإغريق منذ العصر الحجرى الحديث. ويعارضون بشدة فكرة الغزو الخارجى الذى أدى إلى وجود مستوطنات أجنبية فى منطقة بحر إيجه مصدرها الشرق الأدنى[٦]. إن رينفريو ذهب إلى مدى أبعد مما ذهب إليه مؤسسو فكرة النموذج الآرى أنفسهم. فإنه لم يكتف بالقول بأن الإغريق لم تكن لديهم علاقات بارزة مع الشرق الأدنى، بل ذكر أنهم فى العصر ما قبل الهيلينى كانوا عنصراً نقياً لا تشوبه شائبة.

وعند هذه النقطة فإننا نرى أنه لزاماً علينا أن نعمل على ملء فجوة تركت فى الجزء الأول (من هذا الكتاب). فقد ذكرت أن فكرة النموذج الآرى المتطرف قد سادت بشدة فى بداية هذا القرن. إننى أضع فى الاعتبار أفكار نظرية الانتشار (diffusionist) التى نادى بها إليوت سميث (Elliot Smith) . ومفادها أنه يوجد شعب آسيوى ذو طبيعة نشطة، وأن هذا الشعب هو الذى قام بنشر الحضارة فى أرجاء العالم منطلقاً من مصر[*][٧]. وهو أمر لم تجر الإشارة إليه. وعلى أية حال

فإنه يوجد باحثون معتدلون تأثروا بعلماء الآثار الذين يعتقدون بأن الحضارة الأوروبية جاءت بشكل جوهرى من الشرق الأدنى، مما حدا بخصومهم إلى أن يعموهم بالمغالاه فى الإيمان بفكرة " الضوء الآتى من الشرق " "Ex Oriente Lux" .

ولعل أبرز الذين ينادون بفكرة الانتشار المعتدل (Modified diffusionists) عالم الآثار السويدى أوسكار مونتيليوس (Oscar Montelius) وقد تبعه فى هذا الاتجاه الكثيرون من الباحثين. وبخاصة فى بريطانيا. مثل السير جون مايرز (John Myres) . وكذلك الباحث الاسترالى العظيم والعالم صاحب المكانة العالمية فى مجال الآثار ونعنى

(*) لا يخفى على القارئ ما يهدف إليه المؤلف من إيراد هذه العبارة حيث الترويج لفكرة فضل اليهود على الحضارة الإنسانية. انظر مقدمة د. أحمد عتمان للجزء الأول ص ٢٢، ٢٣ . انظر أيضاً تعليق د. حسين الشيخ فى ترجمته للفصل الثانى من الجزء الأول ص ٢٨٨ . (المترجم)

به جوردن تشايلد (Gordon Child) [٨] . ويقول هؤلاء الدارسون أن سكان منطقة بحر إيجه قد تلقوا الكثير من المهارات الفنية من الشرق الأدنى إن لم يكن معظم هذه المهارات، وذلك خلال الألف الثالثة. وعلى أية حال وكما أشرت فى الجزء الأول فإن مايرز وتشايلد كانا على اقتناع تام بتفوق الجنس الآرى. كما كانت لديهما قناعة بأن الإغريق كانت لديهم أفضل الحضارات الآرية. إن التناقضات التى تكمن فى هذه الأفكار الأساسية يمكن تلافيها عن طريق التخمين بوجود عنصر سابق على العنصر الهللينى (Pre - Hellenes) يُعَدْ وسطًا ما بين الهللينيين الآريين وبين العناصر الوافدة من الشرق الأدنى[٩].

ومما يَجْدُر بالذكر أن من بين خصوم نظرية الانتشار المعتدل بعض الباحثين من أمثال سالومون رايناخ (Salomon Reinach) وهو الأمر الذى ناقشناه فى الجزء الأول. وقد شن هذا الباحث هجومًا على ما أسماه " بالسراب الشرقى". ويقصد بهذا التعبير أولئك الذين يبحثون عن الأصول الآسيوية للحضارة الأوروبية. وهناك أيضًا جوستاف كوسينا (Gustav Kossina) العالم البارز فى مجال الدراسات الآثارية الألمانية فى أوائل القرن العشرين. وقد ذكر هذا العالم بأن العناصر الأصلية مثل الآريين والفنلنديين والسومريين قد جاءت من مصدر واحد. وأن الشعوب الأدنى قد استفادت من إختلاطها بتلك الشعوب الأعلى مرتبة. إلا أن أعظم الحضارات هى تلك التى أقامتها العناصر النقية التى لم تتسرب إليها شوائب. وهو الأمر الذى يمكن أن نلاحظ حدوثه فى حالة شمال ألمانيا[١٠]. وينبغى أن نلاحظ الروح العنصرية هنا. وتبدو فى أعمال رينفرو (Renfrew) ووارين (Warren) محاولة واضحة لإحياء فكرة الانعزالية أو التطور الذاتى. وهى الفكرة التى تقف على النقيض من فكرة الانتشار المعتدل التى نادى بها مونتيليوس (Montelius) و تشايلد (Childe) . وهى فى نفس الوقت تطبيق عملى لنظرية النقاء الخالص وعدم التأثير على عالم بحر إيجه.

وهكذا فإن أفكارهم تبدو ذات طابع عنصرى، لأنهم يرون أن الحضارة الأوروبية أعظم حضارات الإنسانية قد أقامها الأوروبيون ذوى اللسان الهندو أوروبى فقط. ومما يسترعى الانتباه بشكل فج أن كتاب رينفرد يحمل عنوانًا مستفزًا وهو " قيام الحضارة: الكيكلاديس وعالم بحر إيجه فى الألف الثالث ق.م". على الرغم أنه أهدى

إلى ذكرى العالم جوردون تشايلد (V. Gordon Child) الذى كان رينفرو يجاهر بعدائه لآرائه.

وعندما يتعلق الأمر بجزيرة كريت قبل عام ١٤٥٠ . حينما كان الموكينون على ما يبدو هم السادة فيها، فإننا نجد أنفسنا فى أتون معركة ما بين دُعَاة الانعزالية ودُعَاة الانتشار المعتدل. ومن الجدير بالذكر أنه حتى هؤلاء الأخيرين يميلون إلى الاعتقاد بأن الحضارة المينوية كانت تتمتع بقدر من الحيوية والحرية تفتقر إليهما حضارات الشرق الأدنى[١١].

كريت قبل القرن الحادى والعشرين

العصر النيوليثى (الحجرى الحديث)

٧٠٠٠ - ٣٣٠٠ ق.م

ذكر إسترابون أن جزيرة كريت فى القرن الأول ق.م والقرن الأول الميلادى لم يكن ينظر إليها باعتبارها جزءًا من عالم بحر إيجه بل بإعتبارها منطقة وسطى ما بين بلاد اليونان وأفريقيا[١٢]. ويقول كيت براينجان (Keith Branigan) أحد المتخصصين فى تاريخ وآثار هذه الجزيرة أنها تقع على خط الاتصال بين القارتين الذى وصلت من خلاله الفنون والحرف التى تنتمى إلى الحضارات العظمى فى هاتين القارتين إلى طرف بدائى ثالث[١٣]. وتؤكد الأدلة الآثارية أن كريت قد تأثرت بخمسة أقاليم رئيسية وهى الأناضول والمشرق ومصر وليبيا وأخيرًا الكيكلاديس وبلاد اليونان. ومن المحتمل أن تكون الزراعة قد جاءت إلى كريت كما جاءت إلى بلاد اليونان القارية من الأناضول خلال الألف الثامن أو السابع ق.م[١٤]. وذلك خلال العصر الحجرى الحديث الذى أعقب ذلك حيث توفر عنصران هما التطور الذاتى والتأثير الخارجى. ويؤكد عالم الآثار الأمريكى سول ڤاينبرج (Soul Weinberg) أن النمط الجديد من الفخار المزخرف الذى عُرِفَ فى الفترة المتأخرة من العصر الحجرى الحديث خلال الألف الخامسة ق.م.

إستند إلى نمط الأوانى التى عُثِرَ عليها فى حضارة العبيد(*) التى شهدتها بلاد الرافدين وسوريا فى الفترة ذاتها. وقد يكون لهذا دلالة لغوية لأننى إفترضت (بشكل متردد) فى مقدمة الجزء الأول أن نموذج فُخَار العبيد قد انتشر فى أرجاء الشرق الأوسط(**) (!!!) وهو الأمر الذى يمكن ربطه بحركة انتشار الساميين فى هذه المنطقة[١٥].

ويرى سير آرثر إيفانز (Sir Arthur Evans) الذى يُعَد مؤسس علم الآثار الكريتية أن هناك مؤثرات ليبية فى نماذج أشكال الرجال التى عثر عليها فى مخلفات العصر الحجرى الحديث. والتى ترتدى ثياباً ليبية. وقد ذكر عالم الآثار البريطانى سينكلير هود (Sinclair Hood) أن بعض هذه النماذج وُجِدَتْ فى مصر فى عصر ما قبل الاسرات. وربما تكون وَفِدَت من هناك. وخرج هذا الباحث بحكم عام مفاده أن هذه الأردية التى بقيت فى كريت حتى وقت متأخر تعد مفتاحاً لمعرفة الكثير من المظاهر فى الحضارة المينوية فى كريت. لأن المعتقدات والعادات التى عرفت فى الأصل فى الشرق الأدنى كانت تميل إلى البقاء[١٦]. ويمكننا من خلال هذه الملاحظة أن نجنى ثماراً كثيرة سوف نُورِدها لاحقًا.

ومن الجدير بالذكر أن هناك عالمان سارا على نهج آرثر إيفانز وأولهما بندلبرى (J.D.S. Pendlebury) الذى يجمع بين المعرفة بالآثار المصرية والإيجية. أما ثانيهما فهو عالم الآثار اليونانى أليكسيو (S. Alexiou) وقد استطاع كلاهما أن يرصد مؤثرات ليبية على كريت خلال العصر الحجرى الحديث ربما تمثلت فى ذلك الشكل من رُكَام الحجارة الذى يقام كعلامة للذكرى، والذى تطور إلى شكل المقابر الكريتية (Tholos) أو فى المقابر ذات القباب[١٧]. كما أن التأثير المصرى يتأكد من خلال العديد من الأوانى الحجرية المصرية التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات. وكذلك رأسى الصولجان التى

(*) حضارة قامت فى جنوب العراق ومن أهم مراكزهم بلدة إريدو (ابى شهرين الحالية) ويرى البعض أن أصحاب هذه الحضارة جاءوا من جنوب غربى إيران . أنظر عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم. مصر والعراق. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٨٤ ص ٣٧٧ (المترجم)

(**) لا يحل استخدام هذا المصطلح فى تلك الفترة الزمنية من التاريخ القديم، لأنه مصطلح حديث، كما لا يحل للحديث عن العناصر السامية (!!!) البدوية أمام مراكز حضارية أقدم (!!!) (المحرر)

عُثِرَ عليها فى كنوسوس. وهى ترجع جميعًا إلى أواخر العصر الحجرى الحديث أو نهايته[١٨]. وقد أثار هذا الأمر جدلاً ضد فكرة الانتشار. فقد تمسك كل من وارين ورينفرو بأن الأوانى الحجرية الكريتية التى ترجع إلى العصر الحجرى الحديث، إلى جانب نماذج أخرى من الأوانى ذات الثقوب إنما جاءت نتيجة لتطورات محلية[١٩].ولكن فى الحقيقة فإن وجود إنتاج كثيف لمثل هذه الأدوات فى مصر فى هذه الفترة والعثور على بعض منها فى كريت على الرغم من أنه لا يؤكد فكرة الانتشار فإنه يدفع بالجدل الدائر إلى الأمام فى صالح هذه الفكرة. وذلك عن طريق إيفانز وعلماء آخرين فى مجال الآثار. وهو أمر جدير بأن يوضع فى الاعتبار[٢٠].لذا فإننى أرى أن هناك أدلة كافية لتأكيد فكرة الانتشار من العصور الباكرة جدًا، حيث كانت كريت مركزًا للالتقاء بين مختلف حضارات البحر المتوسط.

عصر البرونز المبكر

حوالى عام ٣٣٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م

قبل أن نتحدث عن أحوال كريت فى بواكير العصر المينوى فإننا نرى أنه لزاما علينا أن نُلْقى نظرة على بدايات عصر البرونز فى شرق البحر المتوسط بشكل عام. والواقع أنه يوجد بعض الشك فى أن قيام الحضارة المينوية يرتبط بشكل واضح بالانفجار الحضارى الذى شهدته منطقة جنوب غرب آسيا ومصر فى نهاية الألف الرابعة. ففى هذه الفترة إمتدت الحضارة السومرية السامية التى قامت فى بلاد الرافدين إلى سوريا[٢١]. وقد أثبتت الحفائر التى جرت فى مدينة بيبلوس (Byblos) الفينيقية وجود درجة من الشكل الحضرى فى هذه المنطقة فى تلك الفترة[٢٢]. كما شهد القرن الرابع والثلاثين ق.م. صعود نجم مصر التى توحدت تحت حكم الأسرة الأولى. ومن الجلى أن هذه التطورات جاءت مستندة إلى حضارات محلية من العصر الحجرى الحديث. ما لبثت أن أصبحت حضارات تتمتع بشخصية متميزة. ولكن على الرغم من ذلك فإن التحولات المتزامنة ترتبط بدرجة أو بأخرى بعامل الانتشار (وبعبارة أخرى أن

التطورات المحلية إنما تحفزها أنشطة خارجية). وهو أمر يمكن أن نلاحظه بجلاء ليس فقط من مجرد التشابه بين التطورات المتعاصرة ما بين مصر وبلاد الرافدين بل من خلال التطابق بين النماذج التى ترجع إلى عصر ما قبل الاسرات وعصر الأسرة الأولى فى هاتين المنطقتين.

وزيادة على ذلك فإن هناك من الدلائل الآثارية ما يدل على وجود شبكة تجارية تربط مصر وبلاد الرافدين مع أفغانستان[٢٣]. كما تحتوى مقابر فرعونية عُثِرَ عليها فى النوبة على محتويات يمتد مصدرها حتى هضبة كردفان فى غرب السودان وشواطئ المشرق[٢٤]. وهناك أيضًا دلائل أثرية قوية على وجود اتصالات بين مصر وفلسطين وأسبانيا فى هذه الفترة. كما تم العثور على لوحات كتابية تنتمى إلى بلاد الرافدين فى رومانيا[٢٥]. وهذا الأمر لا ينبغى أن يثير دهشتنا كما قد يبدو للوهلة الأولى. لأن مناطق ترانسلفانيا (Transylvania) وهنغاريا (المجر) وبوهيميا تحتوى على الرصاص والفضة والصفيح، وهى مواد كانت مطلوبة فى بلاد الرافدين. وينبغى أن نذكر أن أربعة من آنية الشراب عُثِرَ عليها فى بلدة أور ترجع إلى حضارة جمدة نصر التى ترجع تاريخها إلى أواخر الألف الرابعة. ويبدو أن هذه الآنية كانت مصنوعة من رصاص هنغاريا (المجر). وهو أمر يمكننا التحقيق منه باستخدام النظائر المشعة. وهذه الطريقة فى تقدير العمر الجيولوجى لمعدن الرصاص تُجْرَى عن طريق تقدير نسبة اليورانيوم والثوريوم Thorium (*). لأن النشاط الاشعاعى تجمد بعد مرحلة معينة. وهذا لا ينطبق على الرصاص فقط بل على المعادن الأخرى التى يمكن أن تتحد معه، وعلى وجه الخصوص النحاس والفضة[٢٦].

وينبغى أن نلاحظ أن التغير الذى وقع فى حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م ليس دلالة على وجود تغير تقنى فقط بل يدل على تطور جغرافى أيضًا[٢٧]. ففى خلال العصر الحجرى الحديث كانت بلاد الإغريق هى أغنى الأقاليم حيث توجد السهول الزراعية الخصبة فى تساليا ومقدونيا فى شمال هذه البلاد. أما جزيرة كريت وجنوب بلاد اليونان فكانت

(*) الثوريوم هو عنصر إشعاعى فلزى النشاط . (المترجم)

تبدو هى الأصغر ومجتمعاتها أقل ترفًا. وكانت مساحة الأرض القابلة للزراعة فيها محدودة، وذات أمطار قليلة. إلا أنه فى الألف الثالثة حدث العكس، فقد أصبحت منطقة جنوب بحر إيجه هى مركز الأزدهار الاقتصادى بينما ساد الشمال حالة من الركود، وهذا الموقف يتطلب تفسيرًا.

يسوق رينفرو رأيًا فحواه أن الازدهار الاقتصادى جاء نتيجة لقدوم محاصيل جديدة مثل الكروم والزيتون، التى كانت تصلح زراعتها على الشواطئ الجبلية والجُزُر أكثر مما تصلح فى السهول الشمالية التى كانت ملائمة لزراعة الغلال[٢٨]. وقد ثار جدل فى وقتنا الراهن حول مدى استخدام محصول الكروم والزيتون بشكل تجارى خلال عصر البرونز. وهو ما سوف نعرضه فيما بعد . كما أن الشواهد اللغوية غامضة فيما يتعلق بهذا الأمر، وبالإضافة إلى هذه المحصولات الجديدة.

فإن أتباع رينفرو يميلون فى الوقت الراهن إلى القول بوجود تحسن فى مجال الملاحة. بالإضافة إلى إزدهار التجارة فى جنوب بحر إيجه مما سهل على بعض المناطق التى لا تنمو فيها محصولات معينة لكونها غير ملائمة لنمو هذه المحصولات فى أن تحصل على حاجتها من الخارج.

ويحرص هؤلاء على القول بأن هذه التجارة النشطة إقتصرت على منطقة بحر إيجه، ويرسمون صورة لشبكة من المراكز التجارية التى كانت نشطة على الرغم من أنها صغيرة[٢٩]. ولأن مثل هذه المراكز التجارية كانت موجودة فى الشرق الأوسط منذ الربع الثالث من الألف الرابعة. لذا فإنه من المحتمل أن هذا التأثير الذى لعب دور الحافز أو المنبه وإن لم يكن مباشرًا. فقد جاء متضمنًا فى مثل هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية. إن الدلائل المادية فى كريت فى هذا الوقت تجعل هذا التطور متماثلاً.

وخلال عصر البرونز احتلت الحضارات المينوية المبكرة السهول الصغيرة. وأخذت تتباين بشكل واضح. ففى الشمال كان الفخار يؤكد استمرار أنماط العصر الحجرى الحديث التى تأثرت بجزر الكيكلاديس، فى شرق وجنوب جزيرة كريت. وامتدت إلى الشمال وفيما بعد سيطر نموذج من الفخار وهو آنية (Agios Onouphrios) . ويرى

البعض أن أصل هذا النموذج يرجع إلى الأناضول . كما جاء فى كتاب برانيجان (Branigan) فى كتابه " نشأة عصر القصور فى كريت ".

إن المصدر الخارجى الوحيد الأكثر إحتمالاً للنماذج ذات اللون الأصفر والأحمر هو سوريا وفلسطين، حيث عرف نموذج مشابه منذ أواخر الألف الرابعة ق.م. كما تتشابه روح الزخرفة فى هذا النموذج مع تلك التى وجدت على الآنية المينوية. بالإضافة إلى تماثل الأشكال المصورة على النموذجين. إضافة إلى ذلك فإن بعض نماذج الفخار الفلسطينى من عصر النحاس تربطها أواصر واضحة مع النماذج الكريتية، وعلى وجه الخصوص تلك التى تسمى " مزهريات الطيور ".

إن تطور نموذج آنية (Agios Onouphrios) قد وقع فى ميسارا Messara (جنوب كريت). وربما حدث هذا التطور تحت تأثير العناصر الشرقية، التى تدل عليها شواهد أخرى[٣٠].

أما الشواهد الأخرى التى يشير إليها هذا المؤلف فهى عادة الدفن الجماعى فى مقابر باسم[*] "ثولى" (Tholoi) . وتكديس الجماجم. كما أن دخول أعمال البرونز

جعل هذا المؤلف يعتقد بافتراض قيام هجرة من فلسطين إلى كريت عبر سوريا[٣١]. ولم يستطع رينفرو أن يتقبل هذا الافتراض الغائم الذى قال به براينجان لذا فإنه فى محاولة منه لتقديم الدليل تراجع أملاً فى أن يتمكن من إيجاد البرهان " لا يوجد فى بقايا حضارة العصر المينوى الأول الباكرة ما يؤكد بشكل لا لبس فيه وجود اتصال مع مصر أو الشرق الأدنى"[٣٢].

ويرى عالم الآثار الأمريكى سول واينبرج (Saul Weinberg) ثمة تشابه بين عدد من النماذج التى يرجع تاريخها إلى الألف الثالثة ق.م فى كريت وتلك التى ترجع إلى حضارة (Ghassul) الباكرة فى فلسطين. وقد قام واينبرج بملاحظة مزهريات الطيور،

(*) تُعْرَف باسم المقابر القبابية، وهى ذات عمارة دائرية عند القاعدة والجدران ولكن قبابية السقف، مثل الجرس، ثم تُغطَى بالأتربة ويتم إخفاء القبة تماماً، ولا يظهر إلا فتحة الطريق الموصلة إلى بوابتها، انظر . محمود السعدنى: تاريخ اليونان وحضارتها، القاهرة ٢٠٠٠ م . (المحرر)

والزخارف التى تزين قواعد الآنية، وقواعد موائد القرابين، والمغارف الخزفية، والنماذج المصقولة وآنية الجبن، والاختام المخروطية وعادة الدفن فى قبور ذات أضرحة، والزخرفة التى تعتمد على أشكال الزهور[٣٣]. وقد وافق عالما الآثار البريطانيان برانيجان (Branigan) وهود (Hood) على وجود هذا التماثل، وراحا يقدمان المزيد من الإضافات[٣٤]. وعلى الرغم من أن رينفرو قد أقر بأن وجهة نظر واينبرج جديرة بالاهتمام فإن الأفكار الأساسية فى كتابه بنيت على الاعتقاد بأن جوردون تشايلد ومن ساروا على نهجه مثل واينبرج وبرانيجان قد أخطأوا بشكل مطلق فى أخذهم بنظرية الانتشار السلمى[٣٥]. ومما هو جدير بالملاحظة أنه توجد بقايا من بعض المصنوعات التى تم استيرادها من مصر والشرق منذ الفترة المينوية المبكرة. فقد كانت كنوسوس مستوطنة هامة كما بينا. وقد عُثِرَ فيها على آنية ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات والدولة القديمة فى مصر. كما عُثِرَ أيضًا على أعمال من العاج المستوردة أو المُصنَّعة محليًا. مثلما عُثِرَ على مثل هذه البقايا فى أماكن أخرى من عالم بحر إيجه[٣٦]. ولكن كما حرص رينفرو على أن يؤكد لنا فإنه " بالإضافة إلى الآنية الحجرية المصرية فى كريت هناك شواهد صغيرة على وجود اتصالات أجنبية خلال الألف الثالثة[٣٧]. وعلى أية حال فإن دُعَاة العزلة يُثيرون قضايا أخرى. فعلى سبيل المثال فيما يتعلق بظهور عجلة الفخار وانتشارها على نطاق واسع خلال عصر البرونز المبكر فى منطقة بحر إيجه. وقد إعترض دارين ورينفرو على ما ذهب إليه هؤلاء مثل ما قال به جوردون تشايلد فى الثلاثينيات بأن هذا جاء نتيجة للانتشار وهو ما عبر عنه رينفرو، قائلاً:-

" إن المرة الأولى التى يتم فيها العثور على عجلة الفخار كانت فى بقايا حضارة أوروك (الوركاء) فى بلدة أور(*). ويمكن القول تحديداً بأنه لم يكن يوجد فى منطقة بحر إيجه ما يشبه هذه العجلة، فإن عجلة الفخار التى جرى استخدامها فى كيليكيا (Cilicia) قديمًا يمكن أن نجد فيها تعضيداً لفكرة الانتشار. لأنه كان يوجد ارتباطٌ

(*) أحد أهم المواقع الأثرية فى جنوب العراق، وأ؟قدم مدينة عراقية يتم الكشف فيها عن نصوص مسمارية قانونية للأحوال الشخصية . (المحرر)

ما بين حضارة طروادة الثانية وطرسوس (Tarsos) فى كيليكيا. وبهذا يمكننا تأييد نظرية تشايلد عن الانتشار. ولكن من ناحية أخرى، وفيما يتعلق بوجود التناظر فإن وارين يرى أن وجود الطاولة المستديرة فى منطقة بحر أيجه قبل ظهور عجلة الفخار السريعة يثير اقتراحًا بامكانية أن تكون عجلة الفخار السريعة قد جرى تطويرها فى هذه المنطقة بشكل مستقل ايًا كان المصدر الذى جاءت منه فى الأصل[٣٨]".

وفى نظرى فإنه فى مثل هذه الحالة وفى أحوال أخرى فإن أعتراضات رينفرو على إفتراض تشايلد بوجود الانتشار تذهب إلى مدى بعيد. ولا تُضْعِف هذه الافتراضات، وهى تدل بوضوح على رغبة ريفنرو فى الابقاء على منطقة بحر

إيجه بعيداً عن الشرق الأدنى. وعلى أية حال سواء قَبِلَ المرء بآراء واينبرج وبراينجان أم لا، فهل يمكن لنا أن نتصور ألا تتأثر كريت وجنوب منطقة بحر إيجه بهذا النمط الواسع من التجارة الذى أشرنا إليه من قبل. فقد تم العثور على أوان حجرية فى حفائر كنوسوس تنتمى إلى عصر ما قبل الاسرات. ونحن نعلم من الكشوفات الواسعة التى جرت فى جزيرة ميلوس (Melos) إحدى جزر مجموعة الكيكلاديس[*] ، بأن هذه المنطقة كانت تمارس تجارة واسعة مع أعالى البحار فى فترات قديمة قبل ٣٣٠٠ ق.م. وينبغى أن تتذكر ما جاء عند هوميروس من ذكران الابحار كان مباشرة من كريت إلى مصر ثم العودة. كان أمر شائعًا فى عصر الحديد. وقد ذكر عالم الآثار الألمانى هيلك (W. Helck) . وهو متخصص فى العلاقات الدولية القديمة، وذلك فى معرض حديثه عن تجارة الزجاج فى العصور الباكرة، بأنه ليس هناك ما يدل على حدوث تدهور فى فنون الملاحة ما بين العصر الحجرى الحديث والألف الثالثة[٣٩]. ومن الثابت أن الملاحة فى منطقة جنوب بحر إيجه كانت تتمتع بموانئ أفضل مما هو عليه الحال فى عصرنا الراهن. وأنها شَهِدَت تَحسُنًا فى نهاية الألف الرابعة. وكان المجتمع فى هذه المنطقة منغمساً بشدة فى التجارة[٤٠].

(*) فى وسط البحر الإيجى (بين اليونان وتركيا)، وسُميَت بهذا الاسم لأنها تأخذ شكل الدائرة فى مجمل شكل الجوار الجغرافى لها، أو هى – كما قال استاذنا المرحوم/ عبد اللطيف أحمد على – كعقد إنفرطت حباته . (المحرر)

إن السبب فى عدم إمكانية تصديق الصورة التى تنادى بالانعزالية، والتى لا يبدو أنها تستند على الأدلة، وهو أن هذه الصورة قد جرت صياغتها قبل التوصل إلى التقنية الحديثة التى يمكن من خلالها معرفة الأصل الجغرافى للطين أو المعادن . وهى التقنية التى تم تطبيقها فى مجال علم الآثار. إن وجهة نظر القائلين بفكرة الإنعزالية تابعة من أساس أيديولوجى، فقد كتب رينفرو فى مقدمة كتابه " نشوء الحضارة" .

" لقد توصلت إلى اعتقاد بإن فكرة الانتشار المعروفة على نطاق واسع، والتى تقول بأن الحضارة الإيجية هى أمر تم استعارته من الشرق هى فكرة غير وافية، فإنها فشلت فى أن تفسر لنا ما جاء فى السجلات الآثارية. لذا فإننا لم نعد نتقبل أن الفكرة الرئيسية لعصور ما قبل التاريخ الأوروبية هى ما عبرت عنه كلمات جوردون تشايلد "تأثر البربرية الأوروبية بالحضارة الشرقية". آلاف السنين (الألف الثالثة ق.م) شهدت منطقة جنوب بحر إيجه تغيرات بارزة فى كافة المجالات. فى الزراعة. وفنون الحرف والتنظيمات الاجتماعية وفى الفنون والعقيدة وكذلك فى التجارة والسكان. إن هذه التطورات تُدين بنسبة قليلة للتأثير الشرقى. وفى هذا الوقت كانت قاعدة الملامح الرئيسية للحضارة المينوية - الموكينية التى سوف تلى بعد ذلك كانت آخذه فى التشكيل[٤١]".

ومن الواضح أن رينفرو قد قَبِلَ وجهة نظر بعض الدارسين من أمثال مارتن نيلسون (Martin Nilsson) الذى تخصص فى دراسة تاريخ الديانات والأساطير. وترى وجهة النظر هذه أن هناك استمرارية جوهرية من الحضارة المينوية - الموكينية استمرت حتى العصر الكلاسيكى، مما يؤدى إلى تثبيت فكرة استقلالية الحضارة الإغريقية والأوروبية. وبينما يميل كل من مونتيليوس (Montelius) وتشايلد (Chiled) ومنْ سار على دربهما إلى الاعتقاد بوجود فجوات (فترات انقطاع) فى الحضارة الإيجية بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. فإن رينفرو مثله فى ذلك مثل نيلون (Nilsson) يرى أن هناك استمرارًا جوهريًا فى هذه الحضارة " وهكذا فبالنسبة لرينفرو فإن عليه أن يسلم بوجود تأثير واضح فى حضارة بحر إيجه خلال العصر الحجرى الحديث. وأوائل عصر

البرونز، وان هذا التأثير ينبغى أن يحتل مكانه فى قلب الحضارة الإغريقية فى كل مراحلها"[٤٢].

ومن الواضح أن هناك استعارات أخرى من الشرق الأدنى تمت فى بواكير العصر المينوى. ومن المُرجَحْ أن الكتان وصناعة النسيج من الكتان. قد أحضر إلى منطقة بحر إيجه من الشرق الأدنى فى ذلك الوقت. ويرى ريفرو أن إدخال الكروم واستخراج الخمور منها قد أدخلت إلى كريت خلال الألف الثالثة. إلا أن بعض الدارسين فى وقتنا الراهن يشككون فى هذه المقولة. ولكن إذا كان هذا الأمر حقيقيًا وأن الكروم قد أدخلت إلى منطقة بحر إيجه من الشرق الأدنى. فإنه يمكننا أن نلجأ إلى الأدلة اللغوية لكى تساعدنا فى تقصى هذا الأمر. إن كلمة (Wine) تعنى خمر وعنب فى آن واحد. طبقًا للكلمة المُتَفق عليها باعتبارها كلمة مُضلله". أو تعبير فنى غامض يُستخدم لوصف التشابهات اللفظية فى عدد من اللغات. بدون الإشارة أو حتى الرغبة فى الإشارة إلى المصدر الأصلى[٤٣]. إن الجذر ليس فقط فى اللغات الهندوأوروبية. فهى فى الإغريقية oinos وفى اللاتينية (Vinum) ، وفى اللغة الأرمينية (gini) وفى اللغة الحيثية (Wiyana) ولكنها أيضًا فى اللغة السامية Wayn . وفى اللغة العربية يوصف العنب الأسود بأنه Wayaue الأثيوبى. وهناك أيضًا فى اللغة الأكادية كلمة الخمر. ويرى عالما اللغويات الروسيان إليش سفيتش (Illic Suitic) ودبجوبولسكى (A.B.Dolgopolski) أنه لا مناص من الاعتقاد بأن هذه الكلمات عبارة عن حبات فى عنقود من تراث مشترك وهو الـ (Nostratic) (وهى عبارة عن مجموعة لغوية عليا تشتمل على الأفروآسيوية والهندوأوروبية إضافة إلى عدد من عائلات اللغات الأخرى). وزيادة على ذلك فإن هذان العالمان يعتقدان فى أن هذا عبارة عن اقتراض من اللغة السامية لصالح اللغة الهندوأوروبية. وذلك بالمعنى الذى نشير إليه فى هذا الكتاب بتعبير ما قبل الهندوجيثى Proto - Indo Hittite [٤٤] . وبالنظر إلى كريت فإنه تبدو ثمة ملاحظة وهى أن كلمة خمر فى الحضارة المينوية هى Wono التى جاءت من الجذر الهندوحيثى وهذا ما وجدناه فى الكتابة Linear B بينما جاءت فى الكتابة الخطية الأولى (Linear A) فى شكل Yane [٤٥] . ومن الممكن أن يكون هذا الشكل قد جاء نتيجة تطور مستقل عن

الجذر العام. إلا أن الأمر الأكثر احتمالاً أن يكون سن أصل سامى غربى على وجه التحديد. حيث تحول حرف W إلى Y وقد أجمع معظم الدارسين على أن تحول حرف W إلى Y فى اللغة السامية الغربية قد بدأ فى الألف الثانية[٤٦] ويؤدى هذا إلى ترجيح رأى علماء الآثار من الجيل التالى الذين يرون أنه على الرغم من وجود كروم برية فى منطقة بحر إيجه منذ بداية عصر البرونز. فإن زراعة الكروم بشكل منظم لم تُعرَف فى هذه المنطقة حتى منتصف الألف الثانية[٤٧]. وعلى أية حال فإن الدليل اللغوى ليس واضحًا بشكل مقنع. لأن استبدال الـ W بـ Y قد حدث فى اللغة السامية الغربية الأمورية التى يرجع تاريخها إلى الألف الثالثة. وربما حدث فى (Eblait) [*] وهى لغة غربية سامية أخرى يرجه تاريخها إلى الألف الثالثة. ومع ذلك فإنه من المحتمل أن كلمة Yane قد أُستُخدمت خلال الألف الثالثة لوصف العنب البرى. وهو نفس الشكل الذى كان يستخدمه المتحدثون باللغة السامية فى المشرق فى الألف الثانية. ولهذا فإن Yane على وجه التحديد هو الشكل الذى يتوقع المرء أن يكون مُستَخَدما مع بداية ظهور زراعة الكروم المنتظمة فى الألف الثانية. إننا لا نريد من كل هذا أن نقول أن حضارة كريت خلال العصرالمينوى الباكر هى حضارة تنتمى إلى الشرق الأدنى بشكل كامل. فإن شعوبها على الأقل كانت تعيش فى حالة رخاء تحكمها مدن كبرى أو دول كما هو الحال فى الحضارات المعاصرة لها فى سوريا وبلاد الرافدين والمشرق أو مصر.

والأمر الذى ينبغى أن يحظى بالتأييد هو ما ينادى به جورئون تشايلد والذى يتمثل فى فكر الانتشار السلمى مع وجود عناصر حضارية راحت تتخلل فى داخل الحضارات المحلية. كل ذلك أوجد بناءً مترابطًا إلا أنه فى الأصل يحتوى على خليط متنوع.

(*) نسبة إلى إبلا (Ebla) فى سوريا القديمة، وهى حضارة لمركز تجارى كبير ، أواخر الألف الثالثة ق.م، وتم الكشف عن مئات من الألواح المسمارية الأكادية اللغة. (المحرر)

الديانة الكريتية فى أوائل

عصر البرونز

منذ أن راح كل من رينفرو ووارين يعملان على إرساء أفكارهم ضد نظرية الانتشار السلمى أظهرت دراسة رائعة للأفكار الدينية الكريتية - من خلال ما تكشف عنه البقايا الآثارية أن هذه الأفكار يمكن أن تنتمى إلى الحضارات المعاصرة فى الشرق الأوسط بشكل عام. ومصر على وجه الخصوص. وإذا ما بدأنا بتلك البقايا التى تم العثور عليها ويرجع تاريخها إلى الألف الثالثة. فإننا نجد أن إحدى العالمات فى مجال الآثار وهى الدكتورة لوسى جوريسون (Dr. Lucy Goodison) أخذت تفتش عن ملامح ثابتة فى المنحوتات المختلفة التى تتعلق بالموت والدفن فى كريت والكيكلاديس وقد استطاعت بمهارة فائقة أن تلاحظ المكانة المركزية التى تحتلها بعض الرموز الفنية والمعمارية التى تمثلها رحم المرأة وشعر العانة بالإضافة إلى مؤشرات أخرى للموت يمكن النظر إليها كتمثيل لفكرة البعث(٤٨).

وبالإضافة إلى ذلك فإن الدكتورة لوسى جوديسون أنكرت بشدة وجهة النظر الشائعة والتى تقول بأن الديانة المينوية قامت فى الأصل على عبادة الربة "الأرض الأم". وساقت بدلاً من هذه الفكرة نظرية عبادة الربة " الشمس ". والحقيقة أن الأدلة التى تؤيد ما ذهبت إليه كانت على درجة من القوة مما جعلها تشعر بالدهشة من أن بعض الدارسين ومن أبرزهم مارتن نيلسون (Martin Nilsson) لم تستلفت أنظارهم المكانة الهامة للشمس فى الأيقونات المينوية، والتى تظهر فيها الخاصية الأنثوية(٤٩).

ومن الجدير بالذكر أن ما لم تضعه الدكتورة جوديسون فى الحسبان هو الفكرة الأساسية لأنصار النموذج الآرى، والتى ترى أن الديانة الآرية كانت ترتبط بالسماء. بينما يفترض أن ديانة ما قبل العصر الهللينى كانت تقوم على رموز أرضية. وترتبط هذه الفكرة بما هو موجود من توتر واختلاف فى الحضارة الإغريقية ما بين آلهة الأوليمب السماوية والمظاهر التى ترتبط بالأرض فى هذه الديانى. ومن ناحية أخرى

فإن رد هذه الأسباب الى تفسيرات عنصرية يُعَد تطوراً حديثًا. حيث تُعَد جزءًا من الخصائص الرومانسية والعنصرية لتقسيم المراحل المانوية(*) بين الروح والمادة. وتبدو هذه الفكرة واضحة لدى عالم اللغويات الروماني الألماني فردريش فون شليجل Friedrich Von Sclegel . فإنه يرى أن اللغات الهندوأوروبية كانت ذات طابع روحاني. بينما اللغات الأخرى وعلى رأسها اللغات السامية ذات طابع حيواني(٥٠). والحقيقة أن النظرية التي ترى أن العبادات الآرية كانت روحانية في مقابل عبادات الأجناس الأخرى تعد مادية. بقيت رواجًا في ألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر. وشكلت أساسًا للفكر النازي(٥١). وقد ظهرت هذه التفرقة أولاً في عشرينات القرن الثامن عشر. وبقيت دعمًا من كارل اوتفريد موللر Karl Otfried Miller الذي راح يعمل على تحطيم النموذج القديم. فقد كرس مؤلفه " الديوريون ". – الذي يُعَد عظيم الأثر على الرغم من مجافاته للعقل – من أجل التركيز على القول بأن عقيدة القبيلة الشمالية الأعلى. هي عقيدة أبوللونية(**). وتجمع بين كونها سماوية وشمسية أيضًا(٥٢). وحتى وقت قريب جداً فإن وجهة النظر التي تقول بأن الديانة الإغريقية هي مزيج بين آلهة السماء الهيللينية والروحانيات المحلية في منطقة بحر إيجه. ظلت مستقرة ولم يتم إختبار مدى مصداقيتها. ولكن العالم الألماني فالتر بوركرت Walter Burkent الذي يُعَد حجة في الديانى الإغريقية استطاع أنْ يدحض بشدة فكرة الربط ما بين الآلهة الأوليمبية والغزاة الهيللينيين. وذكر أنه إذا كانت الصادرات المحلية الإغريقية أقرب إلى باقي العبادات الهندوأوروبية الأخرى منها إلى العبادة الأوليمبية(٥٣).فإن هذا من شأنه إضعاف فكرة النموذج الآرى التي تأخذ بنظرية الغزو الشمالي.

وإذا ما عُدنا إلى فكرة الدكتورة جوديسون عن عبادة الشمس الكريتية فإننا نُلاحظ أنها تذكر أن بعض ملامح هذه العبادات ذات طابع محلي ومتميز. وعلى وجه

(*) العقيدة المانوية نسبة إلى ماني وتدور حول الإيمان بفكرة إثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام. (المترجم)

(**) الروح الأبوللونية التي ترمز إلى القيم والمُثل العُليا في البشر (الأنا الأعلى) في مقابل الروح الديونيسيوسية التي ترتبط بالجانب الغريزي في البشر (الأنا الأدنى). (المترجم)

الخصوص النظر إلى الشمس باعتبارها أنثى(٥٤). وترى هذه الباحثة أن هناك ملامح مشتركة ما بين عالم بحر إيجه ومصر. مثل فكرة قيام الشمس برحلتها خلال السماء نهاراً. وقيامها بالسفر أسفل العالم أثناء الليل. وأنها تقوم بهذه الرحلات فى قارب. بالإضافة إلى فكرة الموت ثم البعث فى صورة الإنبات. والحقيقة أن هاتين الفكرتين توجد مثيلتهما فى الديانة المصرية. فهناك المراكب المقدسة التى تُبْحر خلال السماء مع إله الشمس " رع " وكذلك أوزيريس الذى قتله شقيقه ست. ثم بُعِثَ من جديد. ثم أنتصار أبنه حورس وانتقامه. كل ذلك يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالموت الموسمى ثم إعادة الحياة فى الإغذية والمحاصيل والنباتات الأخرى(٥٥).

وقد ذكرت جوديسون أن ساحات الرقص التى وُجِدَت بالقرب من العديد من المقابر الكريتية. كانت مخصصة للاحتفالات. وهى تشتمل على مناظر للنواح من ذلك النمط الذى كانت تؤديه إيزيس ونفتيس وهما تنتحبان أمام أخيهما الميت أوزيريس المحبوب. وتقومان بتجميع أشلاء جسده الممزق. وترى هذه العالمة أن هاتين الأختين (إيزيس ونفتيس) من الممكن ان تكونا هما ذات السيدتين اللتين يجرى تصويرهما أحيانًا على أختام(*) هذه الفترة(٥٦).

وقد ربطت جوديسون ما بين عملية تكريس الجعارين فى التلال المقدسة فى كريت وبين الجعارين المصرية. وكذلك الجعارين المقدسة التى تصور وهى تقوم بدفع كرة من الروث إلى أعلى. ورأت أن ذلك من الممكن أن ينظر إليه باعتباره يمثل الدورة الشمسية وفى هذا المجال أيضًا أشارت إلى نموذج مينوى للجعارين على ظهرها صورة الشمس ثم العثور عليه(٥٧). والإحتمال القوى هو أنه قبل ظهور الجعران فى منتصف الألف الثالثة كانت توجد خنافس شمسية ترتبط بالربة نيت فى الديانة المصرية وهو الأمر الذى سوف نناقشه فى الفصل الثانى. وكذلك فى الجزء الثالث من هذا الكتاب(٥٨).

(*) من الصعب جداً تصديق أو الاقتناع بهذا الاحتمال الضعيف الذى لا يقوم عليه دليل أثرى واحد – غير الآنية الحجرية (Stone Vases) ، فيما قبل ٢٠٠٠ ق.م، حيث تؤرخ هذه الأختام، ولكون الألم والحزن مشاعر إنسانية لا تحتاج للنقل بالضرورة من حضارة لأخرى . (المحرر)

وقـد أقـامـت لوسى جوديسون مـلاحظاتها عـلى قرينة قـامـت عـلى إعتقـادهـا فيما يذهب إليه كل من كولين رينفرو وبيتر وارين من وجود إستمرارية حضارية فى كريت منذ العصر الباكر ثم العصر المتوسط وحتى عصر البرونز وبواكير عصر الحديد. وعلى أية حال فبينما يرى كلاً من رينفرو ووارين وجود استمرارية وحدوث تطور خلال وجـود تفاعل خصب ما بين الحضارات المحلية وحضارات الشرق الأدنى[٥٩].

وقد قـدم والتر بوركات Walter Burkert نموذجـًا آخراً على وجـود هذا التفـاعل. ويتمثل هذا النموذج فى الرمز الدينى الذى يأخذ شكل البلطة المزدوجة فى أعلى بلاد الرافدين فى الألف الرابع التى انتقلت إلى سومر وعيلام فى وسط وشرق بلاد الرافدين فى الألف الثالثة. كما أن عبادة البلطة ذات الرأس المزدوجة وُجِدَتْ أيضًا فى طروادة الثانية. وقد عرفتها الحضارة المينوية فى كريت فى أوائل عهدها. خلافًا لما هو عليه الحال فيما يتعلق بعبادة الثور التى ارتبطت بها فيما بعد[٦٠].

ولعل مصر أقرب إلى كريت حيث إزدهرت فى الدلتا عبادة البلطة المزدوجة خلال عصر الدولة القديمة. وظلت ذات جذور عميقة فى مصر العليا[٦١]. وهذا فيما أعتقد يمكن إرجاعه إلى الرمز المزدوج للإله الأفريقى الشمالى " مين". وسوف نناقش دلالة هذا الأمر فى الفصل الرابع . وهكذا فإن البلطة المزدوجة التى يُنظر إليها باعتبارها رمزًا أوروبيًا وأناضوليًا يوجد لها جذور فى أفريقيا والشرق الأدنى وليس هناك سبب يدعـونا إلى الاعـتـقـاد بوجـود حـائل دون هـذا التـبـادل[٦٢]. وهكذا فـإن بعض الملاحظات التى يسوقها الذين يعتقدون فى النموذج الآرى. مثل تلك التى تقول " إذا كانت هناك أفكار شرقية غامضة قد ساعدت الكريتيين فإننى أتخيل أنها أدت إلى سرعة تشكيل البلطة المزدوجة[٦٣]. فإن هذه الملاحظات خاطئة فى تفصيلاتها كما أنها ذات دفع كرية.

خاتمـــة

ولهذا فإنه يبدو أن هناك أسبابًا وجيهة تدعونا لرفض الرؤية التعديلية لكل من رينفرو ووارين. ومن ثم إلى إعادة تأكيد الرأى الشائع الذى يأخذ به كلاً من مونتيليوس وتشايلد. كما يتمسك به كلاً من واينبرج ويراينجان وباحثون آخرون. وهو الرأى الذى يقول بأن كريت خلال أوائل عصر البرونز قد تلقت مؤثرات حضارية على نطاقٍ واسعٍ من الشرق الأدنى بشكلٍ عام. ومن مصر على وجه الخصوص. بشكل أكثر مما كان عليه الأمر خلال العصر الحجرى الحديث. وهو أمر يتأكد بقوة من خلال أنماط وأشكال الفخار. وكذلك إدخال عجلة الفخار السريعة. ونسيج الكتان. وزراعة الكروم إلى جانب عادات الدفن وصناعة الايقونات.

وفى الفترة التى تقع فى أواخر الألف الرابعة. إذا كان لنا أن نرجع إليها بدايات بواكير العصر المينوى. فى هذه الفترة كانت الحضارات المصرية قد رسخت أقدامها[٦٤]. وفى هذه الفترة أيضًا كانت سوريا والمشرق أكثر ميلاً للتحضر بدرجة فائقة وقد شهدت الألف الثالثة قمة إزدهار الحضارة فى عصر الدولة القديمة فى مصر. وهناك من الدلائل ما يشير إلى قيام المصريين والنوبيين فى أواخر هذه الفترة بالتجارة مع مناطق تصل إلى شرق إيران وأفغانستان[٦٥]. ويشبه هذا الأمر إلى حد كبير ما كان خلال النصف الأول من الأولف الثالثة والذى يتمثل فى وجود تلك الحضارة الراقية التى قامت على تجارة المدن فى سوريا والمشرق. والتى كانت تتمتع بشبكة واسعة النطاق. وعلى قدر كبير من التشابك ويميل بعض العلماء إلى الاعتقاد بوجود هجرة من فلسطين إلى كريت فى بداية وبواكير العصر المينوى. وسواء أخذنا بهذا الرأى أن لا فإن هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الحضارة المينوية سواء فى بداياتها أو خلال تطورها فد تخللتها مؤثرات من مصر والشرق الأدنى. وهو اعتقاد مؤسس على الدلائل الآثارية المباشرة أو العارضة.

وفى الحقيقة أننا سوف نناقش التطورات التى حدثت فى القصور الكريتية فى أواخر الألف الثالثة. وذلك فى الفصل الرابع. ولكن قبل ذلك فإننى أريد أن أضع فى الاعتبار العلاقات بين الشرق الأدنى ومصر على وجه الخصوص وبلاد اليونان مع التركيز على المنطقة التى تشكل مدخلاً لوسط بلاد اليونان ونعنى بها منطقة بيوتيا Boiotia .

هوامش الفصل الأول

(1) M.H.Salmon (1982 , esp .pp .19 -30)and the papers in Renfrew , and Sea graves (1982).

(٢) الجزء الاول ص ٤٠٧- ٤٠٨ .

(3) Adams (1968) and Renfrew (1987 , esp . pp. 86 - 94).

(4) Adams (1968 , p.213)

(5) Mc Neal (1972, p.19) see Introduction , n, 2

(٦) الجزء الاول ص ٤٠٧ – ٤١٢ .

(٧) الجزء الاول ص ٢٧٠ – ٢٧٢ .

(٨) من أجل مراجعة الاتجاهات الآثارية انظر : Trigger (1980 , pp. 24 -31 , 44-9)

(٩) عن الفكرة العنصرية عند Myres انظر الجزء الأول ص ٣٨٩ . أيضا عند ميل Gordon Childe المبكر الى فكرة الآرية انظر الجـزء الاول ص ٣٨٨- ٣٨٩ و كـذلك Trigger (١٩٨٠ص ٤٠ – ٥٣) و بالطبع لعب شيلد دورا متميزا فى معارضة النازية و معاداة السامية : انظر Trigger (١٩٨٠ ص ٩١ – ٩) .

(١٠) فيما يتعلق بـ Reinach انظر الجـزء الاول ص ٣٧٠ – ٣٧٣ عن Kossinna انظر : (1980, Trigger PP. 24 - 6) ويجب ان نتذكر أن السومريين ينظر اليهم باعتبارهم أصل حضارة بلاد الرافدين . عن بعض المظاهر الايديولوجية لهذا انظر الجزء الاول ص ٣٦٤ – ٣٦ .

(11) Trigger (1980 , p.50)

(12) Starbo , Geography 10 .4.2

(13) Branigan (1968 a , p .7)

(١٤) يرى البـاحـثـون (Hood (Branigan (1968 , p . 7) Renfrew (1972, pp. 63 - 4) 1971 , p.28) أن هناك احتمالية لأن يكون الفخار المبكر مصدره جهة أبعد فى الشرق وربما يكون آتيا من فلسطين

(15) Weinberg (1965 b ,p.47).

و يبدو أن رينفرو Renfrew (1972 , p.67) يتشكك فى هذه، الفكرة ولكنه لا يسوق اعتراضاً عليها. فيما يتعلق بالربط ما بين آنية العبيد و المتحدثين باللسان السامى ، انظر الجزء الأول ص ١٢ .

(16) Hood (1971 , p.31)

(17)Evans (1928 , p .34) Pendlebury (1963 , p.74) ; Alexious (1967a,p.484).

وكذلك Branigan (1970 a ,p.141) أن نفس الفكرة قدمها عالم الاثار اليونانى (Xanthoudides 1924,p.128) أما الاعتراضات فقد جاءت من قبل كل من Banti (1933 ,pp.244-5) and Hood (1971 ,p.173)

أن كلمة (tholos) التى لم يجد لها شانترين أصلاً مُقنعًا فى اللغة الهندو-اوروبية قد جاءت من الكلمة الديموطيقية ,dw3t,t(w)3t والتى تعنى فى اللغة المصرية العالم السفلى" او الحجرة الداخلية" فى المقبرة ويبدو انها تنحدر أيضًا من كلمة dw3w (فجر – صباح) فيما يتعلق بالربط مابين مقابر الالف الثالثة و مشرق الشمس انظر (Goodison (1985 ,pp.70-2

(18)Warren (1965 ,pp.30 -1) and , Pendlebury (1930a) ,pp.20- 1) and Hood (1971,p.29).

(19) Warren (1965,p.8) ;Renfrew (1972,p.347)

(20) Evans (1921,pp.64-70; 1928) (volume 2),pp.21- 59; 1925 ,esp. pp.11-23)

(21) Oates (1979,pp.21-2 and29- 30)

(22) Jidejian (1968,pp.11-15)

(23) Gardner (1961,pp.396-7); Hoffman(1979,pp.293-4) Biggs (1966) ; Herrmann (1968)and Kulke (1976).

(24) Williams (1980;1985.pp.32-5 and 1986)

(٢٥) فيما يتعلق بنمط التجارة بشكل عام انظر (Helck (1979,pp.12-13

وفيما يخص الدلائل من اسبانيا انظر (Monteagudo(1985 ,pp.36-41

و عن رومانيا انظر Helck (1979,pp.9-12) and Dumitrescu(1982,p.84

أن اختيارات عنصر الكربون تعطى تاريخًا و يرجع إلى الألف الخامسة او السادسة .فإذا أخذنا فى الاعتبار النقص فى التأريخ الكربونى للألواح التى ترجع الى الفترة المبكرة من حضارة بلاد الرافدين ، فإن هذا لا ينبغى أن يدفعنا الى اهمال الأمر كلية . فان هناك إمكانية لوجود كتابة فى هذا الزمن البعيد . و مع ذلك فإن الأقرب الى الترجيح أنها يجب أنْ توضع مع تجارة الألف الرابعة . و شبيهة بذلك تلك الأختام الأسطوانية التى لا يوجد شك فى تأثير بلاد الرافدين عليها و كذلك النماذج الفخارية التى تشبه النمط الأناضولى . وهى التى تم العثور عليها فى عصر مالك الثانى فى البانيا ، ويرجع تاريخها الى زمن يرجع إلى الألف الثالثة إنْ لم يكن الرابعة انظر.

وكذلك انظر (Prendi(1982,p.204) - Gebrech(1988,p.186

(٢٦) إنَّ فكرة وجود عناصر من الشرق الادنى فى الدانوب فى نهاية الألف الرابعة مسألة قديمة انظر Childe (1949,esp.pp.239-40)-Dayton(1982a,p.145) وكذلك كما أن Dayton الذى يُعَد من غُلاة المتعصبين للنظرية الآرية يرى أنَّ المبادرة جاءت من أوروبا . وفيما يتعلق بالاقداح الرصاصية انظر Dayton (1982a,p.166)

(٢٧) أن هذا التاريخ يعود الى فترة سابقة عما هو متعارف عليه و هو يعكس محاولة للموائمة بين التواريخ الخاصة بالشرق الادنى و تلك التى اثبتتها الاختبارات الكاربونية فيما يخص عصر الدولة القديمة فى مصر ,انظر الفصل الخامس ملحوظة رقم ٧١-٧٨ و كذلك رقم ٩٦-٩٧ .

(٢٨) انظر Renfrew(1972) وكذلك الدراسة الاحدث (1948 pp.248-57) وانظر كذلك Trump (1981,pp.75-7) وأيضاً (1988.pp.240-2) Andel and Runnels

(29) Andel and Runnels (1988,pp.242-5)

على أية حال ربما يستلفت النظر أنْ نلاحظ أنَّ أسماءها ليست ذات وقع اوروبى كما يرى رينفرو إلا أنه يمكن النظر إليها باعتبارها مؤشراً على "انبثاق الحضارة فى عالم بحر ايجة .

(30) Branigan(1970a,pp.199-200)

ويمكن النظر إلى اسم Onouphrios باعتباره مُنحدراً من أحد الألقاب الشائعة لاوزيريس وهو ,wnnfr الذى يعنى الكائن الطيب "او الجميل" . و هذا بالطبع ليس له علاقة بالفخار الذى يحمل اسم المكان هو ,Agios Onouphrios أى القديس أنوفريوس .

(31) Branigan(1970a,pp.199-200).

(32) Rewnfrew(1972,p.89).

(33) Weinberg(1954,p.95;1965a,pp.302-8).

يوجد تشابه بارز ما بين نمط التحصينات فى فلسطين و الكيكلاديس وإسبانيا فى الفترة حول عام ٣٣٠٠ق.م انظر فى هذا الصدد

Vaux(1971,pp.214-18),trump(1981,pp.100,126)and Renfrew (a1972,pp.392-9)

(34) Branigan(1970a,pp.199-203);Hood (1971,pp.36-8)

على الرغم من أنَّ برانجيان فى مقالته قد ذكر قائمة بالمواد التى تم العثور عليها و ترجع إلى عهد الدولة القديمة انظر ص١٨١-١٨٢ ١٩٧٠ ، إلا أنه فى مقالته عام ١٩٧٣ ذكر عددا أقل . ويؤكد هذا مدى التوسع فى العلاقات ما بين مصر و منطقة بحر ايجة بعد أوائل العصر المينوى الثالث ويقر وارن

Warren too (1965,p.38) بوجود تشابه واضح بين ماعُثِرَ عليه فى أوائل العصر المينوى و تلك التى ترجع الى (Ghassulian)

(35) Renfrew(1972,p.347)

سبق أنْ أشرنا الى هذه المناقشة فى الجزء الأول ص ١٥-١٦.

(36) Helck(1979,pp13-15)and Renfrew (1972,pp.444-9)

فيما يتعلق بالعاج انظر Krzyszkowska(1983,pp.163-70)

(37) Renfrew(1972,p.449)

(38) Renfrew(1972,p.57)

(39) Helck (1979,p.4), الاوديسيا ١٤ ، سطر ٢٥٢-٢٥٨

(٤٠) انظر ملحوظة رقم ٢٩ .

(41)Renfrew(1972,p.xxv).

(42) Renfrew(1972,p.269).

(43) Masson(1976,p.9,n.1),Chantraine(1968-75,p.785).

(44) Dolgopolskii(1987, pp,5,9).

إنّ كلمة kvim الجورجية التي يسود الاعتقاد في بعض الأحيان بأنها هي الأصل . يتم النظر إليها الآن باعتبارها مستعارة من الدراسة المفصلة لهذه الكلمة انظر (Brown(1969,pp.147-51 .

(٤٥) فيما يتعلق بكلمة yane انظر Gordon(1966,pp.28-9 انظر أيضًا الفصل العاشر ملحوظة ١٣٧ . عن تحويل ay الى a انظر العمل القادم للباحث Rendsburg

(46) Harris(1939,pp.8-9); Moran (1961,pp, 34 - 72), Moscati et al.(1969,p46)

(47) Zohary and Hopf (1988,pp.140-1)

(48) Lipinski(1981,p.201) على أى تقدير فهذا هو اعتقاد

(49) Goodison(1985,pp.159-60;1988,p.169)

بالنسبة لجودسيون فان أهم الأشياء المرتبطة بالعبادة هى تلك الآنية الخزفية التى تُسمى "وعاء القلى". للبحث فى هذا الامر بشكل مفصل انظر (1985) Coleman

(٥٠) انظر الجزء الأول ص ١-٣٠ .

(51) Katz(1986,pp.168-9)

وكذلك (1986 pp.43-5) كما أننى أشعر بالعرفان تجاه Glenn Ayala للمعلومات التى أوردها .

(52) Muller(1820-4) وكذلك الجزء الأول من الكتاب ص ١١- ٣١٠

(53) Burkert(1985,pp.200-1)

(٥٤) كما جاء عند جودسيون (Goodison(1985,p.50 أن حضارات عديدة مثل اليابان كانت لديها ربات للشمس . كما وُجِدَت ربات الشمس أيضًا فى مناطق حول البحر المتوسط مثل الأناضول واوجاريت ولهذا فليس من الضرورى أنْ تكون هذه ظاهرة محلية. ومن الجدير بالذكر أنَّ الكلمة العبرية semes (الشمس) مذكرًا ومؤنثًا فى نفس الوقت. وانني أعتقد أنَّ الأمر عندما يتعلق بكريت فإنه تُوجد ارتباطات بمصر لأن الربة (Rhea) التى تأتى فى مقدمة الربات فى كريت جاء اسمها من الكلمة المصرية ,R t(Riyat)t3y وهو الشكل المؤنث لتجسيد صورة الشمس. انظر فيما يلى الفصل الرابع ملحوظة رقم ٨- ١٣٧ و فيما يتعلق بالتفضيل الايجى لاتخاذ الشكل المؤنث للشمس والذى يبدو واضحًا فى تبنى الاغريق لآلهة الشمس ممثلاً فى أرتميس (Arteimis) وأوروبا (Europa) انظر الجزء الثالث .

(55) Goodison (1985,pp.84;1988,p.169)

(56) Goodison (1985,pp.85.101)

(٥٧) يرى الباحثان جودسيون واتورس وجود ارتباط ما بين التماثيل الكريتية الصغيرة للجعران . والجعران المصرى الذى يرتبط بالشمس انظر : (Watrous (1987b,p.67. Goodison(1985,p.110)

(٥٨) انظر الفصل الثانى ملحوظة رقم ٢٥ . و كذلك الجزء الثالث من هذا الكتاب .

(59) Renfrew(1972,pp.44-60);Goodison (1985,pp.120-3).

(60) Burkert(1985,pp.37-8)

(61) Newberry(1909,pp.27-30);Hall(1929)

(٦٢) انظر الفصل الرابع ملحوظة رقم ٧٢-٨٦,

(63) Gadogan(1986,p.171)

فيما يتعلق بالارتباط بين البلطة المزدوجة وشمال أوروبا ، أنظر الجزء الأول ص١٦٧

٦٤) انظر هامش ٢٧ أعلاه .

(65) Porada(1982,p.291).

الفصل الثانى

تأثير مصر على بيؤتيا والبلوبونيز خلال الألف الثالثة

أولاً: الدليل الدينى والأسطورى والخرافى

ترجمة : هانم محمد فوزى

فى هذا الفصل سأعرض إلى القدر الهائل والمعقد من المتشابهات الأسطورية والعلاقات بين بيؤتيا ومصر مركزًا على موضوعات الرى والصرف. وسأحاول حل طلاسم بعض هذه الأساطير والخرافات عن بيؤتيا وكذلك بعض المتشابهات القريبة منها فى أجزاء أخرى من بلاد اليونان، خاصة فى أركاديا بالبلوبونيز. وهذه المتشابهات تكون مصحوبة ليس فقط بتشابه أسماء الأماكن بل أيضًا بالدليل المادى من نظم الرى الهامة التى وُجِدَت فى كلٍ من بيؤتيا والبلوبونيز. وغالبًا ما يُعتَقد أنها مُستوحاة من هندسة الرى المصرية. وهذا ما سوف نناقشه بالتفصيل فى الفصل الثالث.

إن الدليل الدينى والأسطورى والأثرى وأسماء الأماكن تشى جميعها بوضوح بأن بيؤتيا وأقاليم أخرى من بلاد اليونان قد تأثرت تأثرًا هائلاً بمصر وبالشرق فى غضون عصر البرونز. وأيضًا من المحتمل جدًا أن تكون هذه التأثيرات قد بدأت فى الفترة الميلادية المبكرة (الفترة الفخارية القريبة من الفترة الميناوية المبكرة بكريت). ولكن، على الرغم من وجود شكل ما من أشكال السيادة المصرية على بعض الولايات الإيجية فليس ثمة دليل يؤكد أن هذه التأثيرات كانت نتيجة استعمار مصرى. وهكذا وعلى الرغم من وجود الكثير من التطابق فى المواقف بين الشرق الأدنى وإقليم بحر إيجه فى العصر البرونزى المبكر (٢٣٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م وفى العصر البرونزى المتأخر ١٧٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)، فإن المؤشرات الموضوعية الوحيدة على وجود سيادة مباشرة تأتى فى العصر المتأخر.

فى العصرين الهيلينستى والرومانى، اعتاد الكُتَّاب أمثال ثيوفراستوس وبلنيوس وبلوتارخوس أن يضاهوا بين شواطئ النيل وشواطئ كوبائيس (Kopais) إذ رأدوا أوجه تشابه بين الجزر الطافية، والنباتات المائية، والنخيل وصناعة الكتان فى الإقليمين[١].

وقد حدت كثرة الشواهد بكارل أوتفريد موللر (Karl Otfrid Müller) إلى قبول الرأى القائل بهجرة شعب زراعى أو باحتلال مصرى " وهو ما يبدو أن له أساس"[٢]. وبالطبع أخذ يشرح ما رآه من خداع للمظاهر فى هذه الحالة [٣]. إلا أن موللر (Müller) كان يعلم أنها ليست أوجه التشابه الجغرافية فقط بين هذين المستنقعين هى التى ربطت بين مصر وحوض كوبائيس. فهناك أيضًا وشائج أسطورية تربط بين بؤتيا ومدينة طيبة وسوف نناقش لاحقًا استقاقات مصرية جديرة بالتصديق لأسماء أماكن مثل طيبة وكوبائيس وكفيسوس (Kephissos) ولأسماء قومية مثل الميناثيون واللابيشا[٤].

وفى الفصل الرابع سوف تُؤخذ بعين الاعتبار السمات المصرية والسامية الغربية فى الكثير من الأساطير البيوتية، مثل تلك التى تدور حول أوديب وأبى الهول. وسوف اكتفى هنا بالإشارة إلى بعض الشواهد الدينية والأسطورية والاسمية على التأثير المصرى. وآمل أن يمهد هذا الفصل الثالث حيث سأعرض إلى الشاهد الأثرى من المنطقة المحيطة ببحيرة كوبائيس ، من الألف الثالثة ، على الاحتلال المصرى.

سميلى وألكمينى

سنتناول أولاً ألكمينى، وهى أميرة أسطورية كانت تعيش فى طيبة وقد أغواها زيوس ونتيجة لهذا أنجبت هيراكليس. وكانت عبادتها هامة جداً على شواطئ كوبائيس، وثمة تشابه كبير بين ميلاد اثنين من أبناء زيوس هما ديونيسوس وهيراكليس، من امرأتين تربطهما صلة وثيقة بطيبة. وتدعم هذه الصلة الفقرة التالية من الإلياذة حيث يذكر زيوس خليلاته السابقات:

" ولا بنت فوينيكس ذائع الصيت التى حملت لى مينوس والمؤلة ردمنثيس Rhadamanthys ولا سيميلى ولا ألكمينى فى طيبة التى أنجبت لى هيراكليس رابط الجأش، وحملت سيميلى ديونيسوس"[٥].

وهذا لا يربط فقط بين الإلهين هيراكليس وديونيسوس وبين كادموس المؤسس الفينيقى الأسطورى لطيبة، عن طريق بسميلى وألكميلى[٦]. أشرت فى الفصل الأول، إلى اشتقاق اسم زيوس عشيق إيو من الكلمات المصرية الدالة على البقرة[٧]. وطبقًا للأسطورة، فقد كانت سميلى ابنه كادموس، التى أغواها زيوس هى الأخرى وأنجبت ديونيسوس، يبدو اسمها أيضًا مشابهًا للأصول المصرية، على الرغم من وجود مقترحات أخرى. فأحد اشتقاقات الاسم هو أنه من كلمة فريجية مشكوك فيها بمعنى سماء، واشتقاق آخر من (Selene) اليونانية بمعنى قمر[٨]. وهناك أحتمال أقوى اقترحه عالم الساميات ميخائيل أستور (Michael Astor) وهو أنه مشتق من اسم الربة السامية Sml (أم النسور) وبعض الروايات عن قصة ميلاد ديونيسوس وتقطيعة تشبه الأساطير عن (Sml) والنظير الأوغاريتى لأوزويريس ، دينيسوس وهو (Baal) ومن الواضح أن لهم سمات مشتركة[٩]. وبذلك يكون هناك كل الحق فى الشك فى التأثير السامى الغربى.

إلا أن الاشتقاق الأساسى الأكثر احتمالاً لسيميلى يبدو أنه من الكلمة المصرية (Sm3t) بمعنى بقرة برية. فالأصول الحضارية للمصريين كمربين للماشية تجعل البقر بالنسبة لهم كما هو الحال بالنسبة للنوير والشيلوك (Nuer and Silluk) الذين مايزالون يسكنون وادى النيل – مثلاً للثروة والجمال، ويتجلى هذا من أشياء كثيرة من بينها استعمال المصريين لكلمة (Sm3yt) بمعنى " زوج ملكية"[١٠] وفى الصفات المشتركة بين كل من الكبش الممثل للإله آمون فى مصر العليا وبين زيوس، الذى اعتبره الإغريق القدماء نظيره الإغريقى، فإن كلمتى سمات Smi(y)t وسميلى (Semele) تبدوان قرينتان متلائمتان للغاية.

ويجب التنويه إلى أن العلاقة بين زيوس وآمون كانت وطيدة جداً فى بؤتيا بصفة خاصة، ويشير بوسانياس(*) (Pausanias) ، الرحالة الكاتب من القرن الثانى الميلادى، إلى مزار مقدس لآمون فى طيبة به تمثال أهداه شاعر محلى يدعى بندار فى القرن الخامس ق.م[١١]. وقد كتب بندار ترنيمة جاء بها ذكر " آمون ملك الأوليمب"[١٢].

والأصل المصرى اللغوى الأساسى لألكمينى أقل من سيميلى. فالفعل rh بمعنى يعرف له معنى توارتى أو دنيوى. والأسم (Rh?mn) يُصدق عليه، مثل المصطلحات rhnsw و rhtnsw (معارف الملك من الرجال والنساء) [١٣]. وهكذا، بينما الأسماء الإغريقية ((Alkmaion، بطل أرجوس نو العلاقة بطيبة، وألكماؤن Alkma(o)n ، الشاعر الدورى من القرن السابع، ربما تكون له صلة

بالعنصر الشائع فى الأسماء الإغريقية Alki بمعنى الحامى، وربما تكون مشتقة أيضاً من Rhimn فاسم ألكمينى، خليلة زيوس، يبدو أنه يأتى من (Rhtim) والحرفان الأوسطان (ts) كانا غير مستقرين فى اللغة المصرية وأحياناً لا يظهران فى اللغة اليونانية عند نقلها للأسماء المصرية، كما هو الحال فى Amenóphis من Imnhtp' . ونعرف أنه فى منتصف الألف الثانية كانت كلمة .Imn' تنطق Amára ؛ ونعلم أيضاً أن المقاطع الساكنة الابتدائية سواء أكانت من حرفين أم ثلاثة كانت تسبقها دائماً فى اللغة المصرية حروف متحركة مفترضة وأن الحروف المتحركة غير المشددة كانت تُقصرً[١٤]وهكذا فإن كلمة Ioan المشتقة من الكلمة المصرية arhemana يمكن أن تقبل بسهولة فى اللغة اليونانية كـ " ألكمانا " وبالتالى تصبح فى اللهجة الأيونية .Alkémene إذن Alkeméné / Rhtimn تبدو مناسبة جداً لزوج آمون زيوس.

وبعد أن أخذنا فى الاعتبار هذا الاحتمال القوى لكون اسم ألكمينى مصرى علينا أن نشير باختصار إلى العناصر المصرية فى خلفيتها. وبغض النظر عن العلاقة بين زيوس - آمون والتى أشرنا إليها آنفاً والخاصية المصرية الأساسية لابنها هيراكليس،

(*) رحالة يونانى وجغرافى اشتهر فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى بكتابه " رحلات حول اليونان (Perieseis Peri tes Hellados) وكذلك " الجغرافيا" (المحرر).

والتى سوف نناقشها لاحقًا، فقد اعتقد هيرودوت أنها وأحد أزواجها وهو أمفيتريون، كانا مصريين[١٥].أما السمات المصرية لزوجها الآخر ردمنثيس Rhadamanthys فسوف نناقشها فى الفصل الرابع. ويكفينا هنا القول بأن زوج ألكمينى ، أى زوج أم هيراكليس، ردمنثيس هو الذى عَلَّمَ البطل كيف يرمى القوس والسهم[١٦]. وهذا أمر هام، لأنه فى فقه الإلهيات المصرى القديم نجد منتو Mntw، والذى سيناقش فى الفصل الرابع، وهو الأصل المصرى لردمنثيس كان هو الحامى المقدس للرمى بالسهام.

الربة أثينا ومدينة أثينا فى بؤتيا

عبادات الربة أثينا إتونيا والربة أثينا ألاكومينا

كانت لألكمينى مقبرة قرب هاليارتوس (Haliartos) على الساحل الجنوبى لكوبائيس حيث تُوجَد حفريات قديمة سوف نعرض لها فى الفصل الثالث. وكانت لصيقة لمقبرة منسوبة لردمنثيس كما كانت قريبة من مزار لكيكروبس (Kekrops) البطل المؤسس لأثينا. وتوجد فى الواقع آثار أثينية أخرى فى الإقليم. فهناك مزارات لأثينا وكان من المعتقد أن هناك مدينتان أغرقتهما بحيرة كوبائيس، تُدْعَيان أثينا وإلوسيس. ويقترح سترابون أنهما، مثل المدن الكبرى التى تحمل نفس الاسم فى أتيكا، أسسهما كيكروبس[١٧]. وبالإضافة إلى هذا، كانت هناك عبادة البطل كيكروبس فى هاليارتوس نفسها، بالرغم من وجود جدل فيما إذا كان كيكروبس هذا هو مؤسس أثينا أم أنه ابن بانديون (Pandion) ، أحد ملوك أثينا المتأخرين[١٨].

ويسوق كل من فوسِّى Fossey وشاختر Shachter وهما من المتخصصين المعاصرين فى تاريخ بؤتيا - الحجج - معضداً كل منهما الآخر والتى تؤكدان " الفكرة الأثينية " هذه فى الإقليم الواقع غرب هاليارتوس ظهرت مؤخراً جدًا فقط حينما كانت أثينا تحكم الإقليم بين عامى ١٧١ و ١٢١ ق.م[١٩]. وواقع الأمر أن فوسى ليس متطرفًا إلى هذا الحد ويقبل بأنه ربما كانت هناك تقاليد محلية أصلية ذات طابع أثينى

زائف[٢٠]. وحتى شاختر يقبل بأن عبادتين محليتين لأثينا ألالكومينا وأثينا إيتونيا Itonia كانتا قديمتين جداً[٢١].

وقد كان مزار أثينا إيتونيا فى كورونيا، وهى تبعد عشرة كيلومترات إلى الغرب من هاليارتوس، هو مركز العبادة فى بؤتيا وتميز بالنشاط الكبير وبوضوح فى العصرين القديم (٧٧٦ – ٥٠٠ ق.م) والكلاسيكى (٥٠٠ – ٣٢٥ ق.م) وجرى العُرْف على افتراض أنه كان قد أُسس من قِبل البؤتيين الذين غزوا الإقليم الذى سمى بؤتيا نسبة إليهم، من الشمال بعد الحرب الطروادية بقليل (حوالى ١٢١٠ ق.م) وقد أخبرنا باوساناس بأن اللقب (It?nos) كان لوالد (Boiotos) الى يُنسَب إليه البوتيون. وكانت العبادة الحربية لأثينا إيتونيا عبادة مركزية فى ثيساليا على مدى العصرين الكلاسيكى والهلينستى ويفترض استرابون عن اقتناع بأن البؤتيين المنتصرين هم الذين جلبوا هذه العبادة معهم من وطنهم ثيساليا إلى شواطئ كوبائيس[٢٢].

من أين جاء اسم إيتونيا؟ يبدو أن هناك مقترحان. أولهما: أنه من الكلمة المصرية Itnt' (قرص الشمس المؤنث) . وسبق أن ناقشنا فى الفصل الأول علاقة كل من الرمز والمفهوم بالعصر القديم فى كريت والشاهد الوحيد على أن Itn.t' هى البديل عن Neit التى كان يرى فيها القدماء النظير المصرى لأثينا، ترجع إلى القرن الثانى الميلادى. وهكذا ربما تكون نتيجة للتأثير الإغريقى أكثر مما هو تقليد مصرى أصيل. إلا أن وجود Neit على مركب الشمس وارتباطها بالشمس؛ وخاصة عندما يرمز إليها بعين رع وقرص الشمس الملكى الذى تخرج منه كوبرا، (يرجع وجودها هذا إلى الأسرة الثامنة عشرة على الأقل) [٢٣]. وحتى قبل ذلك كان هناك ارتباط بين نيت Neit وخنفساء كليوباترا التى يبدو أن إيقونتها كانت قد سبقت إيقونة الجعران وربما كانت لها وظيفة شمسية إذ كانت دائما مضيئة[٢٤]. وأقوى ارتباط لنيت بالشمس نجده فى المملكة القديمة فى النصف الأول من الألف الثالثة. وأكثر من هذا، أن هناك دليل من كريت على أن إيقونة خنفساء الشمى كانت شائعة فى كريت فى العصر المينوى المبكر[٢٥]. كما أن وجودها المتأخر فى بلاد الإغريق يعكس تقليداً مصرياً قديماً جداً.

وسنناقش فى الفصل الثالث وجود دليل من الألف الثانية من البحر الإيجى يؤكد الرابطة بين الربة أثينا وقرص الشمس وبالحيات على شكل وجه جورجونا، الذى كانت تضعه الربة دائمًا على درعها. وهذا الجانب الشرس من شخصية الربة يناسب جداً الطبيعة الحربية لأثينا إيتونيا.

إلا أن الصفة إيتونيا لها أصل آخر له شأن أكثر مباشرة . فعندما وصف سترابون الأصل الثيسالى لعبادة الربة أثينا إيتونيا فى كورونيلا Koronela ، قرر أيضًا أنه كانت هناك توريه حول أسماء النهر إما Kuralios أو Korlios و Koronela. هذا النهر الذى كان ينساب من نبعين مثل ثديىٍ الربة، كان مهمًا جداً فى العبادة[٢٦].

وهذا يؤدى إلى احتمال وجود استقاق آخر لإيتونيا Itonia . فاستيفانوس (Stephanos) البيزنطى الذى كان يكتب فى القرن السادس الميلادى، أكد أن مدينة إيتانوس (Itanos) الكريتية سميت على اسم ابن فوينكس Phoinix (الذى سُمى على اسمه الفينيقيون). وبمتابعة هذه الإشارة إلى وجود أثر سامى رأى كل من موفر F.C.Movers و برار Victor Bérad أن أصل هذا الاسم يرجع إلى كلمة etan أو êtan بمعنى المنساب دائمًا، فى اللغة العبرية[٢٧]. ومنذ أن كتبوا الاسم وهو معتمد فى كل من Linear A, B (الكتابة الخطية الأولى والثانية) على أنه Itano وUţano على التوالى(*). والاختلاف بين Itan و Iton يمكن شرحه بأن حرف a السامى قُلب فى اللغة اليونانية واللغات الأخرى إلى o ، على سبيل المثال

ميناء قرطاجة Carthage يعرف فى اليونانية بـ Kothon وهى مشتقة من كلمة كنعانية من العصر المتأخر qatan أو qaton بمعنى صغير[٢٨]. وفى ضوء الأهمية

(*) القياس هنا خاطئ تمامًا، إذ كيف أفسر السابق باللاحق وأبحث فى هذا الأخير عن أصل لتكوين الأسبق تاريخيًا... كيف يتأتى هذا منطقيًا، فضلاً عن إنه لا علاقة للعبرانيين فى فلسطين القديمة (منذ حوالى عام ١٠٠٠ ق.م) ، بكريت القديمة، ومدينة إيتافوس بها، التى ورد ذكرها فى ألواح كتاباتها القديمة منذ ما قبل عام ١٤٠٠ ق.م؟!!! (المحرر)

الدينية لانسياب الرافد عبر إيتونيا فمن المحتمل جداً أن يكون هذا الاسم موجوداً قبل وصول البؤتيين . مما كان سبباً فى تأسيس هذه الديانة هناك والاحتمال الأكبر لوجود ضخم للسامية الغربية فى بؤتيا فى العصر البرونزى المتأخر يدل على أن الاسم من الممكن أن يكون سامياً، إلا أن شيوع Tanos/ Itonos حول البحر الإيجى يرجع إلى أن اسم المكان كانت له مكانة خاصة متميزة فى اللغة المحلية.

لقد اتفق الباحثون بصفة عامة على أن عبادة أثينا ألالكومينا أقدم حتى من عبادة أثينا إيتونيا، وهناك حُجَجٌ ، كما سنرى، تؤكد الربط بين العبادتين ويشير هوميروس إلى أثينا ألاكومينا[٢٩]. ويسوق شاختر أسباباً أخرى لقبول عمرها الكبير: إذا كانت تُعتَبر قديمة فى العصور القديمة، وجذبت أساطير من عصر ما قبل التاريخ، ووُجِدَت على مَقْرُبة شديدة من عبادة أثينا إيتونيا على بعد ثلاثة كيلومترات فقط. وفى العصور القديمة كانت هناك علاقة بأثينا يشى بها وجود اسم (Alakomenios) الذى كان يُطلَق على الشهر الأخير من السنة البؤتية، وأحياناً كان يُكَرر هذا الشهر للتوفيق بين السنة الشمسية والسنة القمرية[٣٠]. فمن المعروف أن التقاويم تحتفظ بمصطلحات قديمة بصفة عامة.

Gôg , Og , Ogygos

جوج و أوج و أجيجوس

قليل نسبيًا ما هو معروف عن العبادة. ففى قصة ترجع على الأقل إلى القرن الرابع ق.م. نجد أن Alalkomena أو Alkomena هى إحدى البنات الثلاث لأوجيجوس Ogygos الحاكم الأسطورى الأول لبؤتيا[٣١]. ويخبرنا وباسانياس أيضاً أن أوجيجوس Ogygos هو والد إلوسس Eleusis فى أتيكا[٣٢]. وأوجيجا Ogygia هو اسم الجزيرة النائية لكاليسبو التى ورد ذكرها فى الأوديسيا. وتشير دلالات الأسماء جميعها إلى فكرة نشوئها من فيضان بدائى. ويربط المؤرخ الألمانى ماير Aduard Meyer بين

أوجيجوس Ogygos بصفة خاصة وبين فيضان كوبائيس[٣٣] والربط بين البحيرة والمدن والمغمورة بالماء مثل أثينا وإلوسيس من سواحلها الغربية يفسر بالتأكيد العلاقة المحيرة بين أوجيجوس Ogygos وبؤتيا وأتيكا. وترد الدلالة المزدوجة للعصور القديمة والمستنقعات فى فقرة من الفرس لأرخيلوخوس يُشير فيها ليس إلى طيبة البؤتية ولكن المصرية[٣٤].

وأوضح الاشتقاقات لاسم Ogygos أو Ögygés و Ogygia تأتى من السامية الغربية، فأكثرها شيوعًا بخصوص كلمتى Ogygia و Okeanos بمعنى محيط أو حافة العالم هى من الجذر السامى wg'√ بمعنى يرسم دائرة[٣٥]. وهذه الدلالات للمحيط والجبال التى تحيط بالعالم نجدها أيضًا فى شخصية أسطورية سامية غربية ، إلا وهو <Og، من باشان. وقد كان (<Og) شبيهًا جداً بـ (Ogygos) . وكان يُرى فى التوراة على أنه آخر سلالة الرفائيين Rephaim ، وهو جنس بدائى من العمالقة له علاقة بالطقوس الجنائزية وأرواح الموتى المرتبطة بالطين الرطب فى العالم الآخر[٣٦]. وعلى عكس هذه المواصفات كان للرفائيين Rephaim أيضًا علاقة بالشفاء والأفاعى المتصلة بالطب فى كل من بلاد اليونان والمشرق ، كما كانت لهم صلة أيضًا بالحياة والبعث والخصوبة[٣٧].

وهناك نص أوغاريتى، يسمى الـ Rephaim أو Rpim باسم qdmym أى الشرقيين أو القدماء ، وهو نفس الجذر الذى اشتق منه اسم كادموس مؤسس طيبة[٣٨]. وفى سفر التثنية فى التوراة يقال أن الملك (<Og) من باشان هو آخر من بقى من سلالة الرفائيين Rephaim على قيد الحياة فى الإقليم العام لكنعان[٣٩]. وهكذا يكون وضعه كأقدم ساكن مشابه جداً لوضع أوجيجوس Ogygos فى بؤتيا. وتقع باشان بصفة عامة إلى الشمال من موآب (Moab) حيث شمال الأردن الآن ، إلا أن باشان تتصف بالخصوبة الشديدة والماشية السمينة[٤٠]. على عكس هذا الإقليم القاحل. وبهذه الطريقة كان متوازيًا مع أراضى المستنقعات ذات المراعى الغنية فى بؤتيا.

وكـان <Og هو الكائن الوحـيـد الذى بقى على قـيـد الحـيـاة من شـعب مـا قـبل الطوفان. وطبقًا لتفاسـير التوراة اليـهودية(*) التى دونت فى بابل من القرنين الخـامس والسـادس والمدونه بـاسم المدراش فـإن <Og قـد نجـا من الطوفـان بجلوسـه على قـمـة سـفـينة نوح[٤١]. ولا يربط أسـتـوربين Ogygos و <Og . إذ يرى أن Ogygos هو نظيـر نوح ونظيره فى بلاد الرافدين أوت – نابشـتـيم Ut - Napistim ونظيره فـى بلاد الإغريق هوديوكاليون (Deukalion) [٤٢]. وقد جرى العرف على أن اسم نوح (Noah) مشتق من الجذر السـامى (√nwh) بمعنى يرتـاح أو يسـتقر. وبغض النظر عن الحرف الأخيـر h ، فمن المحتمل أنه قد تأثر بالكلمـة المصرية (nwy)بمعنى مـاء أو فيضـان. وهذا يفـسـر بعض الكلمات غير القيـاسـية كمـا هو الحـال فـى التـعبير (Mê Noah) بمعنى فـيضـان والموجود فى سِفـر الشـعيا Isaiah وترجمـة Noah بـ Noe فى ترجمة التوراة المعروفة باسم السبعونية[٤٣]. وهكذا وبطريقة أو بأخرى أصبح نوح Noah هو الفيضـان الذى ارتبط به. وهـذا الغـمـوض أو هذه الوظيـفـة المزدوجـة يمكن أن تنسـحب على <Og وOgygos . وبهـذا الخـصـوص فـإنه لمن الممتع مـلاحظة أنه فى كلمـة Wg3 فى اللغـة المصرية المتـأخرة كان يتضمن نوعًا من "الماء أو الفيضان"[٤٤]. ويظهر اسم المكان Wg(3) أيضًا كاسم لجسم من الماء، سواء " القناة الكبيرة أم مجرى النيل". وفى الإقليم الثالث من مـصـر العليـا وهـى مدينة إسنا[٤٥]. وكـانت إسنا هـى مـركز عـبادة نـيت فى مصـر العليا. وسـوف نناقش عـلاقـتـها بالمدينة المقدسـة لأثينا Troezen Athena فى أرجوليس (أرجوليذا) فى الفصل الثالث، ومن الممتع هنا أن ننوه إلى عـلاقة Wg(3) بالماء والنظير المصرى لأثينا ألا وهـى نيت Neit .

إلا أن هناك صـعوبـات فـيـمـا يـخص جذر الكلمة سـواء <Og أم Ogygos . ففى الحـالة الأولى المقطع الأول Γαyin فى اللغة السـامية يمثل صعوبات. إلا أنه ثمة علاقة

(*) هناك إصرار غريب على أن يكون التفسير التواراتى هو الذى يسود ويختم به فى كل اشتقاق لغوى أو حـتى بحث أسطورى، فـهل ببسـاطة هكذا، يسلم العلمـاء الآن، (أم أن الأمـر يخص برنال فـقط وهو أمـر واضح تمامًا لا لبس فيه، حيث أننا أمـام حالة ماكرة جدًا) بمرجعية التوراة فى فرعى التاريخ والآثار القديمين. (المحرر)

وثيقة بين الحرف W المصرى و Γ وبهذا يسهل تخطى هذا العائق فمشكلة اشتقاق Ogygos من Wg(3) تكمن فى حرف g الثانى حيث لا يوجد دليل عليها فى النصوص المصرية .

إلا أن هناك دلالات فى اللغة السامية الغربية. أولها يوحى بها العملاق Gôg المشار إليه فى التوراة، والمفروض أنه ابن يافت Japhet وكان يعيش مع أخيه هاجوج Hagogo فى أقصى الشمال . ويبدو أن هذا يجعله مختلفًا عن أوج <Og ، حتى بالرغم من ثيران وجواميس باشان التى بُشر بأكلها فى جنازة جوج Gôg[٤٦] . ثم أن هناك احتمال أن Gôg هى ببساطة كلمة سامية بمعنى عملاق، والجذر √gg المعتمد فى اللغة الأكادية والأوغاريتية والكنعانية ومعناها العام هو " سطح أو رواق أو قمة". وفى اللغة الأمهرية gogg تعنى فيه علاوة على أسماء Gôg أو Magos يرجح هذا الاحتمال. على أية حال، فليس ثمة شك فى أن كلمة δiδαs اليونانية بمعنى عملاق ليست من أصل هندوأوروبى وهو ما يحرص على ذكره بعض المعجميين. وسواء أكانت δiδαs من أصل سامى أم لا فإن تكرار حرف g فى Ogygos هو تأثير للكلمة اليونانية.

ويؤكد أستور أن Ogygos مشتق من الجذر السامى √<gg بمعنى يحرق أو يشعل، ويربط هذا بالتقليد القوى الذى كثيراً ما يربط بين الطوفان والحريق. وكمثل على هذا هو أن زوجة بطل الطوفان الإغريقى كانت تسمى Pyrrha بمعنى نار[٤٧]. وفى الفصل السابع سوف أناقش كيف أن هذا التقليد له أصل تاريخى فى الأحداث البركانية وخاصة بركان ثيرا الهائل عام ١٦٢٨ ق.م. وطبقًا للتقليد اليهودى كما يخبرنا التلمود، فإن الطوفان الذى كان يفرق <Og من باشان كان مصحوبًا بحريق كاد يودى بحياته لولا قوته العملاقة[٤٨].

باختصار، وبالرغم من أن الاشتقاق من الكلمة السامية الغربية (<Og) ومن الكلمة المصرية Wg3 بمعنى طوفان ضعيف وبالرغم من أن الاشتقاق من الكلمة اليونانية gigas المأخوذة عن السامية √gg ليس أكيداً ، فإن تشابك النظائر يجعل العلاقة بين Ogygos أو Ogygos وبين Og أمراً محتملاً جداً. على أية حال ، فلا شك فى أن Ogygos ، الممثل البؤتى للأصل الإغريقى ، له علاقات كثيرة ومعقدة بالشرق الأدنى.

ألالكومينا

والآن أود أن أعود إلى ابنه Ogygos ألالكومينا أو ألكومينا . فألكوميني هي مسقط رأس أوديسيوس، بالرغم من أن هذا سيسبب إرباكًا مع ألكوميني أخرى على جزيرة إيثاكا موطن البطل[٤٩]. والأهم من ذلك، هو وجود عادة أن اللقب Alalkomeneus قد شيد أثينا على شاطئ نهر تريتون Triton تحت اسمي (Alalkomena) و (Koronia) .

وكان هذا بديلاً للتقليد الآخر القائل بأن أثينا أنشأها ورعاها نهر تريتون في ليبيا[٥٠]. وقد ذكر هرودوت تريتون مقترنًا بأثينا في ليبيا، وهي جنوب تونس الحالية[٥١] ويضعها كتاب قدماء آخرون في أقاليم أخرى من شمال وغرب أفريقيا، ولكنها في معظم الأحوال مرتبطة بالمستنقعات[٥٢]. وفي فقرة ممتعة جدًا من ملحمة الأرجونوتيكا التي سوف نناقشها في الفصل السادس، نجد أن المثقف أبوللونيوس الرودسي، الذي كان أمينًا بمكتبة الإسكندرية بالقرن الثالث قبل الميلاد، يدعي أن تريتون هو اسم قديم للنيل. وبدون ربطة بمن سمي على اسمه وهو تريتون أحد أبناء بوسيدون، لما كان هناك اشتقاق مقنع للاسم، بالرغم من الاعتقاد المبهم بأن له علاقة بالكلمة اليونانية tritos بمعنى ثالث. إلا أن الجذر اليوناني trito - is كثيراً ما يختلط حسبما أعتقد بالكلمة المصرية tryt وهي اسم من الفعل tr بمعنى يحترم، التي تستخدم بكثرة عند الإشارة إلى الملوك والآلهة. ونلاحظ أن إرمان Erman وهرمان جرابو H. Grapow الناشران الرئيسيان لقاموسي اللغة المصرية Wörterbuch der Ageyptischen Sprache يشتقان tr من twr بمعنى يحترم. إلا أن المعنى الأساسي لهذه الكلمة هو يطهر. وفي كتاب الموتى، وهو من أهم النصوص المصرية ويرجع تاريخه إلى الأسرة الثامنة عشرة أو السابعة عشرة في القرن السابع عشر قبل الميلاد، نجد أن كلمة twr هي اسم أحد أنهار الجنة، أو ساحة أهل النعيم المفعمة بالغلال الوفيرة والزراعة المزدهرة[٥٣]. وهذا الاشتقاق لـ Tritonis غير مقنع ، ولكن يجب أن يكون ماثلاً في الذهن عند النظر في الربط بين أثينا ونظيرتها المصرية نيت وبين تجفيف المستنقعات وخلق أرض خصبة بحذاء ضفتي النيل والأنهار والبحيرات الأخرى.

هل لنا أن نربط بين أثينا ألالكومينا وعبادة أثينا إيتونيا التى تقع على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الغرب وكذا بينها وبين مقبرة ألكمينى Alkmene التى تبعد أيضًا بنفس المسافة تقريبًا إلى الشرق؟ يؤكد شاختر على وجود روابط أساسية بين العبادات المجاورة لأثينا. وافترض مؤقتًا أن Alakomeneion كانت هى الموطن الأصلى لعبادة أثينا إيتونيا ثم انتقلت غربًا، ربما بسبب خطر الفيضان(٥٤). ليس من الضرورى أن نصل إلى هذا الحد لكى نقبل اقتراحه العام هذا، والذى لديه عليه دليل قديم – وهو مرجع للكاتب المسيحى الأفريقى لاكتانيوس Lactanius من القرن الرابع يشير فيه إلى باخيليديس (Bakchylides) وهو شاعر من القرن السادس ق.م. كان قد قرر أن أثينا ألالكومينا وإيتونيا تدلان على نفس الشىء(٥٥).

وإذا قارنا بينهما فسنجد أن المواصفات المثيرة للانتباه فى عبادة أثينا إيتونيا تتطابق مع مثيلتها فى عبادة ألالكومينا. فالثانية على سبيل المثال كانت على صلة وثيقة بالأفاعى من القرن السادس ق.م على الأقل(٥٦)ويعتقد شاختر أن الحية المرسومة على إناء بؤتى كانت هى زيوس الأرضى حيث كانت أثينا إيتونيا تقرن بزيوس فى هاليارتوس(٥٧). وثمة آثار قليلة لزيوس الثعبانى. ولكن هناك أيضًا شرحان مصريان لهذه الصورة الإيقونية اليونانية . أحدهما ربط نيت بالكوبرا المنتضبة على التاج الفرعونى، كما كانت رمزًا للربات. إلا أن الأكثر احتمالاً هو أن ذلك المخلوق من كورينى Korone ، مثل ذلك الموجود على مزهرية بؤتية أخرى من القرن السادس وصورة أثينا فى برينى Priene على ساحل آسيا الصغرى، والتى تلتف فيها حية أمام الربة، هى نماذج لابن نيت ورفيقه المألوف جدًا منذ عهد المملكة القديمة ، ألا وهو التمساح أو سوبك(٥٨). وكان سوبك هو رب الفيضانات ، وضفتى النهر وخاصة بحيرة الفيوم – وهى منخفض ضخم وواحة متصلة بوادى النيل . وهكذا تبدو مثل هذه العبادة ملائمة للسواحل السَبِخة لبحيرة كوبائيس. وسأنظر فى العلاقات بين ألكمينى وأثينا ألالكومينا لاحقًا فى هذا الفصل . إلا أننى سأتناول هنا خاصية أخرى لنيت .

نيت المتحكمة فى المياه

فى المجلد الثالث سوف أناقش العلاقة الوطيدة بين نيت وأثينا وأيضًا بين سايس (Sais) أو (Ht Nt) وهى مدينة نيت وبين مدينة أثينا . إلا أننا هنا من الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار خاصية معينة للربة المصرية لكى نتعمق فى عبادات أثينا على شواطئ كوبائيس .

إن نيت لها وظائف عديدة كمحاربة وناسجة وكربة لطبقات الجو العليا . إلا أن الخاصية الأساسية لها هى كونها البقرة المقدسة - البقرة المبدعة - آخت 3h3t Ahet متزامنة مع (Mhtwrt)، الفيضان أو المستنقع الأعظم، وهو الماء الأزلى[٥٩] . والتفاصيل عن هذا نجدها فقط فى نصوص العصرين الصاوى والبطلمى فى الألف الأولى قبل الميلاد . إلا أن مراجعًا وردت فى نصوص الهرم ومنقوشة على أهرامات الدولة القديمة المتأخرة (٢٧٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م) ، ولكنها مؤلفة قبل ذلك بعدة قرون ، وكذلك فى نصوص التوابيت من الدولة الوسطى (٢١٠٠ - ١٧٥٠ ق.م) توضح أن هذه الأفكار أقدم بكثير. وعبادتها فى سايس فى مستنقعات الدلتا الغربية معروفة فى الأسرة الأولى وربما كانت أقدم[٦٠].

وتصف نصوص الهرم مظهرًا من مظاهرها الرئيسية : " لقد أتت نيت إلى بحيراتها الواقعة على حافة (Mht Wrt) (أى المُستَنقع الكبير)[٦١].

نيت تجعل العُشْب أخضر على ضفتى الافق. فى النسخة المُعدَّلة لكتاب الموتى كيف خَلَقَت نيت أرضًا من داخل المياه ، " فاصلة الجزر والضفاف" [٦٢]. وفى الدولة القديمة، كانت هى الربة التى شقت الطرق . وهذا يعنى بوضوح أنها تقود المواكب الدينية والجنائزية غالبًا فى قارب عبر الماء. وكانت تعنى كلمة Wp(i) أيضًا شق الطرق المائية[٦٣]. وهكذا، فهى الربة التى تخلق القنوان والنظام فى المستنقعات البرية .

المعركة بين نيت وست وبين أثينا وبوسيدون

دور نيت كربة للفيضان واهب الغذاء وربة القنوات والرى واستصلاح الأراضى يمكن أن يقدم لنا مفتاحًا لفهم سمات كثيرة لشخصية أثينا الأسطورية بدت غير مفهومة من قِبل الباحثين المحدثين لنأخذ مثلاً المعركة بين الربة الإغريقية وبوسيدون فى مدينة أثينا وتروزين وأماكن أخرى، تلك المعركة التى توازى معارك نيت ضد نظير بوسيدون المصرى ألا وهو ست الأفعى الشريرة Apopi(٦٤) وبالبحث عن أسباب هذا الصراع كتب فارنل Lewis Farnell الباحث الأرثونوكس فى الديانة اليونانية – الآتى:

" لا تجد فى أى مكان فى الديانة اليونانية أى علاقة بين بالاّس (أثينا) وبوسيدون تشير إلى علاقة أصلية فى الخاصية. حيث تواجدت العبادات جنبًا إلى جنب، كما هو الحال فوق أكروبوليس مدينة أثينا، وفى إقليم كولونيا واحتمال فى سونيون وتريزين(*) واسبرطة وآسيا (فى أركاديا وربما كورنثا، نرى فى بعض هذه الأماكن مصالحة نهائية بين عبادتين كانتا فى البداية متصارعتين. فالنزاع بين أثينا وبوسيدون حول أرض أتيكا هو رمز للتغيرات الطبيعية ، فالإشارة إلى مد البحر أو جزره شئ مقبول جداً ولكن غير حقيقى: ولدينا تشابه فى الصراع بين هليوس وبوسيدون فى كورنثا، حيث يبدو التفسير أكثر طبيعية وأكثر احتمالاً؛ ولكننا نعلم أنه خطأ، فأولاً الإقليم المتنازع عليه بين الإلهية هو أكروكوينثوس ، وهو منطقة مرتفعة ولا تعى ذاكرة أى إغريقى أن مياه البحر غمرتها أو هددت بذلك وثانيًا لدينا دليل واف على انتشار عبادة قديمة جداً لهيلوس فى كونثا واندثرت قبل عبادة بوسيدون فى إيتونيا المتأخرة. ولا شك فى وجود أسباب طبيعية لعبادة بوسيدون فى كورنثا، ولكن الأسطورة الكورنثية لهذا النزاع، والأسطورة الدلفية للنزاع بين أبوللون وبيثون، وبين أبوللون وهيراكليس على

(*) هو الاسم الأقدم لإقليم أرجوليذا شمال إقليم لاكونيا (Lakonia) و عاصمته إسبرطه، قديمًا، وحتى الآن . (المحرر)

إناء البخور (Tripod)(*) والأسطورة الأتيكية عن المنافسة بين بوسيدون وأثينا ومعارك أخرى كثيرة بين الآلهة، محتمل أنها تشمل نفس الجوهر لحقيقة تاريخية، لصراع فعلى بين العبادات بعبادة مبكرة علقت بأذهان السكان الأصليين للمكان، وعبادة لاحقة أدخلها السكان المُحدَثون. فأثينا كانت الربة الأقدم فى أتيكا، وبوسيدون كان الرب الكبير للأيونيين، والنزاع والصداقة بين هذين الإلهين على الأكروبوليس هو النظير الدينى للصراع والاتحاد بين أتيكا القديمة والعناصر الأيونية للسكان[٦٥].

والخلل الأساسى فى هذه الفقرة هو أن فارنل Farnell أرجع معظم المشكلة إلى أنها مشكلة " سلالة" أو عنصر عِرقى وقد سبقه إلى ذلك نيبور B. Niebuhr كما أُعجِبَ به مؤرخو القرن التاسع عشر. طبعًا لربة أثينا كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمدينة أثينا. ونقبل أيضًا الرأى القديم القائل بأن بوسيدون كان حاميًا للأيونيين، وسأذهب إلى أبعد من ذلك وأربط بين ولع الميكينيين به وبين عبادة الهكسوس لست. ومن ناحية أخرى ليس هناك داع للاعتقاد بأنه كان هناك سكانًا أثينيين أصليين وبادوا قبل سيادة الجنس الأيونى[٦٦].

ونلاحظ أن والتر بركرت W. Burkert السويسرى وأحد الثقات المعاصرين فى شئون الديانة اليونانية لا يشير إلى هذه النظرية العرقية. ويقلل من التركيز على العامل القومى بينما يركز على علاقة هذين المعبودين بالخيل[٦٧]. وليس هناك شك فى أن عددًا من عبادات الحصان قد وُجِدَت، وسوف أوضح فى الفصل الرابع كيف أن بوسيدون كان قد ارتبط بالعجلات الحربية منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد. ومن ناحية أخرى، فليس هناك على حد علمى - وصف أو تمثال لهذين الإلهين وهما يقاتلان من فوق عجلة حربية وآمل أن أوضح فيما بعد أن عبادات أثينا وبوسيدون ومنافستهما سبقت تاريخيًا دخول العجلات الحربية إلى بلاد اليونان. ويناقش بركرت Burkert أيضًا - وبالقياس على الصراع بين أبوللون وبوسيدون - أن الصراع بين أثينا وبوسيدون يرمز إلى

(*) هو محرقة البخور، الواسعة الحلق العالية الأرجل الثلاثة، التى كانت تصنع غالبًا من البرونز، وتوضع فى حجرة تمثال الإله (Sekos) ، أو : (Cella) قدس الأقداس، وقد التصق رسمها وتوحدت مع شخصية أبوللون، ومعبد الوحى فى دلفى، منذ القرن السادس قبل الميلاد . (المحرر)

الصراع بين الأجيال، بين الشباب والشيوخ(٦٨). فعلاً من الواضح أن أبوللون - كرمز للشمس المشرقة، مثل نظيريه المصريين حورس وخبرى Khepri يبدو فى صورة شاب أصغر سنًا من ستِ غريم عمه بوسيدون، إلا أن الأمر ليس واضحًا بالنسبة لأثينا بالرغم من كونها ابنة أخت بوسيدون، ولا بالنسبة لنيت فكلتاهما ليستا فتاتين بشكل واضح ولكن تجسدان الشباب الدائم على نحو لافت للنظر.

إذًا أخفقت هذه المقترحات، فماذا سوف يتبقى لنا؟ أولاً هناك الافتراض الذى رفضه فارنل Farnell ، وهو أن الصراع هو رمز للتغييرات الطبيعية، إيحاءً إلى مد البحر أوجذره فقد ضللته هنا نظرته البحرية الخالصة إلى الإله الإغريقى. فبوسيدون - مثل ستِ ونظيرهما الأوغاريتى "يم" وتعنى البحر هو إله للاضطراب خارج نطاق الزراعة . وهكذا وعلى الرغم من أن عالمه يشتمل يقينًا على البحر

إلا أنه اشتمل على أشياء أخرى مثل الزلازل وحمير وخيول البدو فى الصحراء ، والصراع الرئيسى الذى أشار إليه فارنل هو الصراع بين الأرض ذات البنية المنظمة والماء الهيولى الطلق والمعركة المصرية بين حورس وستِ تصور دائمًا على معركة بين إنسان وحيوان نهرى أو بحرى ضخم وقوى، تمساح أو فرس نهر على الأرجح. ومن الممتع ملاحظة أن فرسان النهر (hippopotamoi) لا تشبه كثيرًا الخيول، ولذا فالكلمة اليونانية ومفهومها ربما جاءت من ربطهم بين الخيول وستِ ومناظرته لتيفون الإغريقى فيما بعد(٦٩).

وهذه الدلالات النهرية تشرح عبادات أثينا وبوسيدون فى منطقتى آسيا وإسبرطة تقعان عند المنبع وسهل نهر يوروتاس Eurotas ثانى أكبر نهر فى البلوبونيز. (ومحتمل أن الصراع فى أثينا كان أصلاً على سهل تراكيا على ساحل أتيكا) . إلا أن الروابط الوثيقة بين مدينة أثينا وسايس مدينة نيت المحاطة بالمستنقعات، وكذا المزاوجة وهى أقل يقينًا ولكنها محتملة بين ترويزينيا فى أرجوليذا وإسنا مدينة نيت الجنوبية، والتى تتطلب أيضًا عملاً مائيًا، كافية لشرح العبادة المزدوجة لأثينا وبوسيدون فى المدينة اليونانية، ومدينة أثينا موضع الصراع بين أثينا وبوسيدون تشبه كثيرًا مدينة سايس موضع الصراع بين نيت وستِ.

وبدلاً من تأكيد أن العبادة المرتبطة بمثل هذه الآلهة المتباينة لابد وأنها تمثل الصراع الدينى بين الشعوب أو بين الإجيال المختلفة، فقد يكون مقبولاً أكثر افتراض أن الصراع هو نفسه شيء رئيسى للعبادة. وقد أثبت فونتنروز (Fontenrose) وآخرون عالمية مثل هذه المعارك بين الآلهة[٧٠]. وهنا أريد ببساطة تأكيد أن الأشكال المميزة لكثير من هذه الموضوعات الموجودة فى اليونان هى فى معظم الأحوال مصرية أو سامية غربية.

إذ كان السائد فى مصر، كما هو الحال فى معظم الأماكن الأخرى، أن قوى الطبيعة الشريرة وترويضها أمر ضرورى لوجود البشر. هكذا وبينما أرفض أن عبادة الحصان كانت أساسية فى الصراع بين أثينا وبوسيدون، فإن بركرت محق فعلاً فى قوله " أنه عندما ينشئ بوسيدون الحصان وتبتدع أيضًا اللجام والشكيمة فإنهما يضعان الحيوان فى خدمة الإنسان، وهذا شيء عالمى لأنه قدم كوكبة مؤثرة من قوى الطبيعة والحكمة التطبيقية "[٧١].

بوسيدون / ست

سنعود إلى أثينا فيما بعد، ولكن هنا نحتاج إلى التركيز على بوسيدون. فقد كانت له هو أيضًا عبادة فى الإقليم الواقع جنوب كوبائيس على بعد عشرة كليومترات شرقى هاليارتوس، حيث كانت هناك أيكة وفيما بعد معبد بوسيدون وأونخستوس Onchestos وحيث أنه كان يقع على الممر الفاصل بين هاليارتوس وطيبة، فقد ربط شاختر بينه وبين مراكز عبادة بوسيدون الأخرى الموجودة على ممرات أو فواصل مائية فى غابات تساليا، والتى يُعتَقد أنها ترجع إلى العصر البرونزى. ويربط الباحثون أيضًا بين جنوب اليونان، ويؤكدون أنها نشأت فى العصور الميكينية المبكرة[٧٢]. والعبادة الأونخستية كانت متصلة بصفة خاصة بساحات البرارى والخيول. وكذلك عبادة كل من بوسيدون وتلفوسا التى وجدت عند نبع تلفوسا (Telphosa) أو (Tilpousa) الموجود عند سفح منحدر تحت الجبل التلفوسى على بعد كيلومتر واحد من الكوميناى[٧٣]. وهناك عاشر بوسيدون الربة المتوحشة إرينيس Erinys وأنجبا الحصان السحرى أريون المشهور

بمساعدته هيراكليس لإنقاذ البطل أدرواستوس (Adrastos) [٧٤]. وقد اتضحت أهمية هذه الأسطورة على نطاق أوسع عند ظهورها فى تلفوسا بأركاديا حيث يُقَال أن بوسيدون اغتصب ديمتر ارينيه هناك وأنجبا أريون[٧٥].

ويبدو فى الأسماء المناظرة لإرينى وأريون يبدو أنها مشتقة من كلمة شِقاق eris [٧٦]. وهنا أيضًا تقدم لنا الأساطير المصرية إرشادات مفيدة تُعِيْن على فهم هذه المجموعات الأسطورية.

وقد لاحظ فونتنروز Fontenrose علاقة وثيقة بين إرينيس وكورى برسيفونى[٧٧] وبهذا يمكننا اعتبار إرينيس الترجمة اليونانية لنفتيس المصرية. ونفتيس هى أخت إيزيس (التى نظيرتها اليونانية هى ديمتر الربة الأم للأرض وأم برسيفونى) وزوجة سِت الذى يماثله فى اليونانية القديمة العالم السفلى هاديس. ومثل نظيرتها اليونانية برسيفونى أوكورى، كانت تعتبر نفتيس ربة لكل من الخير والشر معًا. وقد ساعدت الربة المصرية أختها على حماية أوزوريس وحورس ولكنها كانت فى نفس الوقت ربة للموت[٧٨]. وعلى عكس أختها إيزيس ربة الخصوبة الدائمة فقد كانت نفتيس عاقرًا ولكن يُقَال أنها كان لها طفل واحد هو ابن آوى أو الإله أنوبيس، وكما هو الحال فى الأساطير المصرية - وفى غيرها - فإن الشكوك تُحيط بالأب، إذ تؤكد بعض المصادر أنه أخوها أوزوريس ، والبعض الآخر يرى أنه زوجها ست[٧٩]. والرأى الآخر يناسب القصة اليونانية جيدًا أو يربط أنوبيس بأريون ابن بوسيدون. واختلاط أبوة انوبيس هى نتيجة لسمته الأسطورية . وبالرغم من أن ارتباطه الوثيق بالموت (وهو الدور الذى سنناقشه باسهاب فى الفصل الثالث) فإن دوره كان إيجابيًا. فهو مرشد وأحيانًا حامل الروح مثل نظيره اليونانى هرميس مرسل الأرواح. ويشبه أنوبيس أريون فى استرادادِه للموتى وحملهم إلى دار السلام. إذن نجد بصفة عامة أن قصة بوسيدون وإرينيس وأريون تسير على نَهْج النموذج المصرى ذى العلاقة بالحصان .

دلفوس وانوبيس

إلا أن النموذج معقد للغاية حيث أن عدداً من الباحثين رأى توازياً بين تلفوسا Telphousa - Tilphousa ودلفوس Delphos ابن بوسيدون أو أبوللون وملانثو Melantho أو ملاينا Melaina ابنه ديوكاليون Deukalion (الفيضان) ودلفوسا Delphoussa وهو اسم عين ماء من عيون دلفى الثلاثة(٨٠). وكانت العلاقة واضحة لأنه طبقًا لنشيد عند هوميروس أسماه " ترنيمة إلى أبوللون الثعبانى" فقد أقام ابوللون معبده وبنوعته عند النبع التلفوسى قبل أن يقوم بهذا فى دلفى(٨١). وقد تأكد هذا بوجود ثلاثة أشكال لاسم المكان الأركادى Delphousia / Telphousa / Thelpousa وهذا يقودنا إلى التطابق بين دلفوس وأبوللون وإلى التعقيدة المتعلقة بعبادة أبوللون فى دلفى، والتى سنناقشها فى الفصلين ٣ ، ٤ .

وعلى أساس العلاقة التى أوجدها هسيخيوس Hesychios المعجمى الإغريقى من القرن الخامس الميلادى، بين الأسماء الدلفية والكلوانية لكوكب الزهرة Venus طابق فيكتور برار Victor Berard بين مجموعة تلبوسا وتلفوسا ودلفوسيا Thelpousa, Telphousa, Delphousia وبين نجمة الصباح فى عبادة Dilbat السامية(٨٢). وإذا كان الأمر كذلك، فإنه من وجهة نظرناأقل أهمية من اعتبار دلفوس ابن بوسيدون أو أبوللون وميلينا أوميلانثو. إذا قبلنا معادلة بوسيدون بست وحورس ابن أوزوريس بأبوللون، فإن غموض نشأة دلفوس تشبه بوضوح نشأة أنوبيس.

ميلينا Meliana / نفتيس Nephthys

أمومة دلفوس لاتزال تستحوذ على مزيد من الاهتمام ويطابق فونتنروز Fontenrose بين ملينا و " جى " ربة الأرض وبالتالى وبطريقة غير مباشرة بالأرض الأم ديميتر(٨٣). وما من شك فى أن الاسم Melantho / Melaina له علاقة بالجذر اليونانى (M??av) بمعنى أسود. وباستمرار تسمى الأرض فى الكتابات الإغريقية "بالسوداء". ولهذا السبب يبدو أن ابنها دلفوس كان يعتبر أفريقيًا أسود ويبدو واضحًا

أن صورته هى تلك التى نجدها على عدد من عملات القرن الخامس من دفلى وأثينا[٨٤].
إلا أن الجذر نفسه من أين أتى؟.

ليس ثمة جذر هندى أوروبى للون الأسود، بالرغم من أن Chantraine يرى تشابهًا هنديًا أوروبيًا فى الجذر البلطيقى Meln بمعنى البقعة الزرقاء[٨٥]. إلا أنه من المقبول أكثر أن نشتق هذا من الاسم المصرى (M3nw) ، أى الجبل الغربى حيث تغرب الشمس فى المساء ، ومدخل العالم السفلى (ويناقش هذا أكثر فى الفصلين الرابع والعاشر) [٨٦]. والاشتقاق من M3nw يناظر الجذر السامى rb>√ بمعنى " يدخل " ، "المكان الذى تغرب فيه الشمس"، " الغرب " و "أسود "، وقد كتبها هوميدوس erebos وحددت فى قاموس ليدل وسكوت Liddell and Scott بـ " المكان السفلى " المظلم الذى يمثل مَعْبَرًا من الأرض إلى هاديس". وشبه مؤكد أنها تأتى من الكلمة الأكادية erebu بمعنى الغروب .

وفى هذه الحالة فإن Melanlho / Melaina ربما لا تعنى فقط " أسود" ولكن سواد الغرب والمساء . وهذا يربطهما بـ (Europa) التى يشتق اسمها من rb> والتى لعبت دورًا هامًا فى أساطير بؤتيا وعبادتها[٨٧]. وعلاقتها بالغسق تربطها أيضًا بربتين مصريتين يونانيتين هما (Hrt Tmt) وأرتميس اللبوة المتوحشة وربة شمس المساء، أو نفتيس وبرسيفونى، ربة الحد الفاصل بين الحياة والموت والنهار والليل. وبعد ان أشرنا إلى علاقتها بديميبز وموازاتها بالأساطير التلفوسية عن خطف بوسيدون لإرينى، فإن التفسير الأخير هو الأكثر احتمالاً والمطابقة هنا أوثق وقد رأى بلوتارخوس فى مؤلفة "عن إيزيس وأوزوريس" De Iside et Osiride العلاقة المحرمة بين أوزوريس ونفتيس كقصة رمزية:

أبعد أجزاء الأرض بجانب الجبال والحد المتاخم للبحر الذى يسميه المصريون نفتيس. ولذلك فهم يسمون نفتيس " النهاية " telente ويقولون بأنها زوجة تيفون. إذن كلما فاض النيل بمياه غزيرة فإنه يصل إلى الأقاليم البعيدة، ويسمون هذا بالاتحاد بين أوزوريس ونفتيس، والذى يدل عليه ظهور النباتات[٨٨].

وكما أسلفنا فمنبع تلفوسا يُوجَد عند سَفْح مُنْحدْر على بعد أمتار قليلة من الحافة التاريخية لبحيرة كوبائيس ولكن على بعد كيلو واحد من الخمسة وتسعين مترًا التى تمثل المحيط والذى يبدو أنه كان المستوى فى العصور القديمة جدًا(٨٩). والنبع كان بالضبط على حافة السهل، تمامًا مثلما وصف بلوتارخوس إقليم نفتيس فى مصر. والفرق الرئيسى فى القصة المصرية هو أن نفتيس ، زوجة ستِ ، كانت قد أغواها أوزوريس واهب الفيضان الخيِّر. ونجد من ناحية أخرى ، فى الأساطير اليونانية أن هاديس خطف برسيفونى وأن بوسيدون رمز المياه الطافية اغتصب إرينى Melantho / Melaina فى تلفوسا إلا أن التوازى ملحوظًا بين قصة بلوتارخوس والأسطورة البؤتية.

ولكى يكون لهذا التناظر دلالته فلابد من الوفاء بشرطين عسيرين. أولاً لابد من قبول المطابقة بين بوسيدون وستِ وكذا بين برسيفونى ونفتيس. وبالرغم من أنه لم يكن مقبولاً رسميًا فى العصور الكلاسيكية والهلينستية. إلا أننى آمل فى أن أدلل على هذه الروابط فى الأجزاء التالية. والشرط الثانى هو أنه إذا كانت القصة المصرية قديمة جدًا، كما تبدو، فإن مدلولها الرمزى كان لأكثر من ألف عام قبل بلوتارخوس وهذا أيضًا ليس من الصعب قبوله كما سيتضح. وهناك أمثلة كثيرة أوضحها روايته للأساطير التى تدور حول أوزوريس، حيث يبدو بلوتارخوس متأثرًا بالتقاليد التى ترجع إلى ألف عام مضت(٩٠). وإذا سلمنا بتطابق نفثيس مع برسيفونى إرينيس، فإن فرص التوازى الملحوظ بين أسطورة تلفوسا وقصة بلوتارخوس وهى مثل على التفسير الإغريقى Interpretatio Graeca جديرة بالإهمال (وعبارة التفسير الإغريقى هى التعبير المستعمل من قبل الباحثين المؤيدين للنظرية الآرية Aryanists لوصف ما رأوا أنه تفسير خاطئ للإغريق المتأخرين لثقافتهم على أنها استعارت عناصر عميقة من مصر وجنوب آسيا . وحدث هذا نظرًا لقدم عهد الديانات البؤتية وبالتحديد لأن الإغريق والمصريين أخفقوا فى العصور الكلاسيكية فى إعطاء اعتراف عام بمطابقة كل من ستِ وبوسيدون .

أريون وبيجاسوس

إن قصة حمل وميلاد الحصان السحرى أريون، حسب روايات علماء كثيرين ، مشابهة جداً لقصة بلليروفون وبيجاسوس[٩١]. فبيجاسوس، الحصان الطائر ، المفروض أنه ابن بوسيدون من ميدوسا وأنجباه فى غرب هيبربوريا الأسطورية أوليبيا ، وهو مرتبط بالينابيع بصفة خاصة. وبعد أن أمسك البطل بليروفون ببيجاسوس وروضه استعان على قتل الوحش خيمير Chimaera . وبعد ذلك ، وبينما كان بليروفون جزيناً لجرأته على الطيران إلى جبل أوليمبوس وصل بيجاسوس إلى قمة الجبل وبقى هناك كخادم للآلهة .

ويرى ميخائيل أستور Michael Astour أن الاسم بليرفون Bellerophon يشتق من الكلمة السامية بعل- لافون - Ba<al- raphôn بمعنى الرب الشافى. كما يرى أن الكثير من أسلافه، كما هو الحال بالنسبة لموضوعات أيقونات بيجاسوس وبعض موضوعات الأساطير التى تدور حوله، من الواضح أنهم من جنوب غرب آسيا[٩٢]. إلا أنه لم يستطع أن يشرح اسم بيجاسوس أو نسبه.

على الأقل منذ عصر هسيودوس، الذى أحدده فى القرن العاشر قبل الميلاد ارتبط اسم بيجاسوس بكلمة (Pege) أو (Paga) بمعنى عين أو مياه جارية[٩٣] واسترابون، فى القرن الأول قبل الميلاد، أشار إلى هيبوكرينى Hippokrene بمعنى نبع الحصان على أنه نبع بيجاسوس على جبل هليكون، على بُعْد عشرة كيلو مترات جنوب تلفوسيون وبحيرة كوبائيس ويسلم كانترين Chantraine بأن هذا الاشتقاق غامض ولكنه يذهب إلى هذا التفكير لأن الينابيع تكون باردة . و pege لها علاقة بالفعل Pegnymi بمعنى يلتصق بـ ونادراً ما يأتى بمعنى يتجمد. وهذا غريب حيث إنَّ Pege أو فعلها Pegazo تحملان بالتحديد معنى التدفق أو حركة الماء السائل، أو الدموع، وهكذا[٩٤].

ولعل من الأوفق اشتقاق Pege وبيجاسوس من المجموعة المصرية لدلالات الألفاظ وتطورها والتى تتضمن كلمات مثل Pg3w بمعنى أوانى للغسيل و(Pg3) بمعنى فتحة ،

g3 بمعنى يتفجر وPgy بمعنى يجرح، وكلها تكتب مع كلمة محدودة هى (Psgorpgs) بمعنى لعاب أو يبصق – وعلينا ملاحظة أن بيجاسوس قد انبجس من عُنق أمه ميدوسا. والأكثر من هذا، فقد كانت هناك أسماء أماكن Pg3 و Pgs [٩٥].

صلة ليبيا بالخيول

من المحتمل أن الاسم تلفوسيا Tilphossia مشتق من T3lbyw (ليبيا) وهو ما سنناقشه لاحقًا. وهنا سأدرس العلاقة بين الخيل والينابيع الموجودة فى ليبيا مستعملاً الاسم بالمعنى الحديث الدال على دولة ليبيا وأيضًا بالمعنى القديم إذ كانت تشمل كل المغرب والصحراء الغربية. فى العصور الكلاسيكية، مثلما هو الحال الآن، كان البلد الموجود إلى الغرب من مصر معروفًا برمله، إلا أنه عُرف فيما بعد بخيوله أيضًا وعرباته وواحاته، ويبدو أن الحمير والخيول قد دخلت إلى ليبيا عبر مصر، فقط فى منتصف الألف الثانى وبداية المملكة الجديدة، وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة، فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. استولى المصريون على أعداد كبيرة منها[٩٦]. وفى العصر الكلاسيكى أصبحت ليبيا هى بلد الخيل بامتياز excellence Par . وأطلق بندار على منطقة قورينى التى تقع شرق البلاد اسم "الحصان الجيد" كما أطلق عليها كاليماخوس شاعر القرن الثالث اسم " أفضل حصان للحمل"[٩٧]. إلا أن أوريك باتيس Oric Bates وهو كاتب من أوائل القرن العشرين كان يشير إلى الليبيين القدماء بكلمة " الخيول "، وكان يصفهم بأنهم أصغر من الجياد ولكن أقوياء ونحاف وسريعيين. وكانوا مدربين جيدًا على اتباع سادتهم مثل الكلاب[٩٨]. وهذا مثير فى ضوء مضاهاة أنوبيس الكلبى والحصان أريون كما أشرنا سالفًا.

ومثلما اشتهر الليبيون بأنهم فرسان مَهَرة، فقد اشتهروا أيضًا بأنهم سائقو عربات ممتازون. وادعى رمسيس الثالث فى عام ١١٧١ ق.م أنه سلب منهم حوالى مائة عربة[٩٩]. وقد وُجِدَت رسومات على الحجر يرجع بعضها إلى ما حول هذه الفترة – فى الصحراء جنوبًا وحتى النيجر، وتصور هذه الرسومات مئات العربات[١٠٠]. وفى العصور الكلاسيكية كانت كل القبائل الأفريقية الشمالية تقريبًا تستخدم العربات

لأغراض حربية[١٠١]. وطبقًا لهيرودوت فإن العجلات ذات الأربعة جياد كانت قد دخلت إلى بلاد اليونان عن طريق ليبيا[١٠٢]. وإذ يشير هوميروس إلى استعمالها، فهذا لابد أنه كان قبل ٨٠٠ ق.م. وربما قبل ذلك[١٠٣]. والأكثر احتمالاً هو القرن الثانى عشر عندما كان الليبيون والإغريق متحالفين لكونهما من شعوب البحر[*].

ويمكن ملاحظة العلاقة بين الجياد والعربات من ناحية وبين العيون والواحات من ناحية أخرى من أسماء المغيرين البدو فى ليبيا. وإحدى القبائل الشهيرة التى أغارت على الساحل من الداخل، على ظهور الخيل أو مستعمله عربات، هى قبيلة النيجر Vigretai أو Nigretes الذين ترجع إلى سُمرتهم المحببة الكلمة اللاتينية niger ، والتى اشتقت منها negro فى كل من البراتغالية والأسبانية والإنجليزية . وقد أتى اسمهم من الجذر السامى n)gr)√ بمعنى الماء المُنساب فى الرمل ، وهو أصل لأسماء جغرافية مثل Ger, Nugar, Niger نهر النيجر الشهير الذى ينساب لأسباب غير معروفه من المحيط الأطلنطى شرقًا نحو الصحراء[١٠٤].

سكان الواحات Nobatai

الجذر السامى nbt√ يعنى تدفق الماء أو الواحة. وكان أحيانًا يطلق على سكان الصحراء الواحات اسم Nabatu أو Nabati أو الأنباط فى شبه الجزيرة العربية. ولكن الموقف يتعقد بوجود مكان فى مصر اسمه نبط Nbyt أو Nbt إشارة إلى بلدتين فى صعيد مصر كانتا تعرفان باسم Ombos و Ombi وأومبوس كانت متاخمة للصحراء وهى أهم مركز لعبادة ستِ وقد كان معروفًا دائمًا باسم رب أومبوس أو نبطى[١٠٥]. ولهذا نجد شعوب الواحات يربطها بالإله ستِ رباط وثيق نظرًا لأنه رب الصحراء وسكانها وحيواناتها. ولذا فمن المستحيل اكتشاف أى منها هو أصل الاسم Nobatai ،

(*) والأدق ، أثريًا، أنها دخلت إلى اليونان مع الميكينين – ولا علاقة لليبيا بذلك – فقد أثبتت الحفائر فى اليونان فيما قبل ١٢٠٠ ق.م، أن العجلات الحربية كانت معروفة لديهم ومستخدمة بكثرة، وبخاصة من حفائر قصر تيرنس Tiryns فى أرجوس . (المحرر)

وهـم شعب بدوى كان يعيش فى الصحراء الشرقية. وكانت مدينتهم عند أعالى النيل فى النوبة وكانت تعرف باسم Nabata أو Napata[١٠٦]. وفى العصر البطلمى كان هناك تعبير جغرافى T3N3pytw ومعناه أرض Napitu ، والتى يحدد مكانها بليبيا عالم الجغرافيا المتخصص فى مصر القديمة هنرى جوثير Henri Gautheir ، واسترد هذه الأرض الإمبراطور الرومانى ديوكلتيانوس لحماية الحدود الجنوبية لمصر عام ٢٩٤م[١٠٧]. وبُذلَت محاولات متعددة للمطابقة بينها وبين قبائل ليبية معينة ولكنها لم تكن محاولات مُقنعة[١٠٨]. بَيْد أن هناك إشارات كثيرة إلى أن Nobatai "سكان الواحات" كانوا يحصلون على معلوماتهم من ليبيا وأيضًا من النوبة وشبه الجزيرة العربية Arabia .

ست وبوسيدون ، نبتى ونبتيون

طبقًا لهيرودوت، فالعربة ذات الأربعة جياد ليست فقط هى التى أتت إلى بلاد اليونان من ليبيا ولكن أيضًا إلهها الراعى بوسيدون : فالليبيون هم الشعب الوحيد الذى كان يعرف دائمًا اسم بوسيدون وكان يعبده دائما[١٠٩]. يفيدنا بشيء فى هذا الشأن ألان لويد Alan Lioyd الذى كتب تعليقًا ممتازًا على الكتاب الثانى لهرودوت وهو عن مصر، ويؤكد لويد، إلتزامًا منه بالنموذج الآرى ، أن الأصل الهندى الأوروبى/ اليونانى لبوسيدون لا يدانيه شك ويرجع تاريخ دخوله بلاد اليونان إلى العصر الآخى على الأقل (العصر البرونزى المتأخر) [١١٠]. وافتراضى المبدئى الذى ذكرته فى الجزء الاول يفيد بأن اسم بوسيدون مشتق من الكلمة المهجنة من اللغتين المصرية والسامية P3(w) أى Sidôn بمعنى الذى من صيدا[١١١].

وهكذا فإننى لا أقبل أن الاسم كان إما اسم هندى أوروبى أو ليبى. ومثلما ناقشت آنفًا، فإننى أرى أنه نظير ست المصرى الذى كان يُعتَبر فى العصور الكلاسيكية مثالاً للشر.

وقد يُفسر لنا هذا لماذا كان الرواه المصريون الذين أخذ عنهم هيرودوت صارمين جداً فى رفضهم بوسيدون وهو الإله المبجل فى بلاد اليونان، كأحد أفراد الآلهة المصرية كما يفسر لماذا كانوا يرونه كإله للبرية الخارجية، ومن ثم كان إلهاً ليبيًا. ومن المحتمل أن يكون هيرودوت قد حذا حذو الرواة المصريين وربط بوسيدون بنهر تريتون Triton وبحيرة تريتونيس Tritonis فى ليبيا أو إلى الغرب قليلاً[١١٢] وهكذا يبدو أن الإله كان مرتبطًا بالمياه الداخلية فى ليبيا، وأيضًا بالصيد والجياد وعربات سكان الواحات المشاغبين.

وهنا يجب أن نأخذ فى الاعتبار اسم نبتون النظير الإيطالى لبوسيدون. ولنرجع للحظة إلى الجذر السامى √nbt بمعنى الواحات وسكانها، وهو ما ظهر فى أسماء الأماكن Nabata و Napata وأيضًا قبيلة Nabatai التى كانت تعيش فى شرق ليبيا فى العصور القديمة المتأخرة ومدينة Napete قرب روما كان بها نهر وينابيع، وحسب وصف الأثرى جورج دنيس George Dennis لها عام ١٨٤٠ م: (المسافر) غادر برارى كمبانيا ودخل منطقة غابات. وهى إحدى المناطق القليلة فى وسط إيطاليا والتى تُذَكِّرْ الإنجليزى بوطنه ... هذا الامتداد للمروج الخضراء اليانعة ... والمنظر ككل يكون تقليداً حيًا - وهو شىء نادر فى قارة أوروبا - لمنظر طبيعى فى حديثة إنجليزية[١١٣].

لقد كانت فى الواقع واحة. وسوف نناقش فى الفصل الثالث وجود اشتقاقات سامية مقبولة لأسماء أماكن حول روما- بما فيها اسم المدينة نفسها. وهكذا فإن اشتقاق Nepete من الجذر السامى لا يمكن رفضه بسهوله. واللاحقة السامية الغربية الدالة على شخص أو قبيلة معينة ôn أو an ، تجعل Nepete أصلاً مقبولاً لنبتون Neptun والمرشح الرئيسى الآخر هو الكلمة المصرية Nbty-Seth [١١٤]. وهكذا فوجود اسم Nepete يشى بأن بعض الناس رأوا تشابهًا بين واحات الصحراء ومنابع المياه الأوروبية وضواحيها القريبة منها، فى الأقاليم الجافة. وإذا قبلنا بهذه الخلفية، فإن علاقة بوسيدون بالربة فى تلفوسا تبدو طبيعية .

بوسيدون ، تيلفوسا وليبيا

هل يمكن استـنتـاج أى شىء من الاسم Tilphousa / Telphousa / Thelpousa نفسـه؟ يبـدو أن هناك على أحـد المستـويات عـلاقـة بين دلفـوسـا ودلفوس Delphos, Delphousa وبين معناها الأسـاسى " اثنان" أو " أخ " وهو ما أشرنا إليه آنفًا وسوف نناقشه ثانية فى الفصل الرابع[١١٥].وسـأناقش أيضًا العلاقة بين اسم المكان فى اللغة المصرية T3lbyw أى أرض ليبيا واللاحقة الإيجية S(s)a[١١٦]– ونادرًا ما نجد من يشهد على أن T3lbyw ضَرْبٌ آخر من كلمة Rb أو Libu أى الليبيون. ولم يظهر هذا الاسم ذاته إلا منذ عهد رمسيس الثانى فى القرن الثالث قبـل الميـلاد وكان يعنى آنذاك ، فيما يبدو، قبيلة بعيدة غرب مصر[١١٧]. وإبَّان غزو شعوب البحـر، أى الشـعوب مـن الشمال الغربى ومن الغرب، أصبح libu - من وجهة النظر المصرية – قادة الصحراء الغربية.

ولكى نكشف عن التناظر بين (T3lbyw) وتلفوسا البؤتيـة حرى بنا ألا ننسى أن الإغريق، منذ عهد هوميروس وربما قبل ذلك ، كانوا ينظرون إلى ليبيا على أنها تشمل كل أفريقيا الواقـعة غرب النيل[١١٨]. وعظم هذه المساحة كانت عبارة عن صحـراء وواحات؛ مثلما كانت تلفوسا البؤتية التى شكلت المنحدر شديد الانحدار والنبع الذى يشبه الواحة والذى كان ينبع منه ويفيض تحته – كما فى ليبيا – نهر تريتون Triton المرتبط ببحيرة سَبِخة[١١٩]. ولذلك يمكن اعتبار كلاً من تلفوسا وليبيا كنية لربة توازى الربة المصرية نفثيس أخت إيزيس العاقر وإرينيس/ برسيفونى الإغريقية، أخت الخائفة إيزيس نظير ديميتر. وإذا كانت Melaina/ Melantha نظير إرينيس مرتبطة بـ M3nw الجبل المصرى العربى، كما افترضت آنفًا، فإن هذا يشى بعلاقة مع ليبيا[١٢٠]. والأكثر من هذا ، فليبيا مثلها مثل إفريقيا ربما توازى أيضًا السواد فى Melaine/ Melantha Delphos [١٢١] . هذه (التوازيات) وأساطير بوسيدون المرتبطة بليبيا تجعل الاشتقاق Telphusa من T3lbyw مقبولاً تمامًا.

تلفوسا الأركادية

إن مضاهاة تلفوسا فى أركاديا بليبيا من الناحية الجغرافية أقل وضوحًا. فتلفوسا الأركادية كانت تقع على نهر لادون Laden حيث ظهرت من مضيق ثم انتشرت فى قنوات مختلفة على سهل فيض صغير. واسم لادون يبدو كبديل لاسم نهر Ismenos الذى فاض إلى أبعد من طيبة فى بؤتيا وأيضًا يظهر مرتين فى البلوبونيز - مرة فى أركاديا ومرة فى إليس Elis فى أركاديا ينبع من العيون التى منشأها بحيرة (Pheneos) حيث كان يعبد كل من أثينا وبوسيدون معًا. وكانت هذه العيون أو القنوات تتعرض بصفة مستمرة للهزات الأرضية، وهذا كان يؤدى إلى توقف اندفاع الفيضان[١٢٢]. وكل هذا يمكن أن يُعْزَى " بوضوح إلى بوسيدون، إله الزلازل، وربما يشرح فكرة خطف ديميتر إرينيس فى اتجاه مجرى النهر فى تلفوسا . وفى إليس يصب نهر لادون فى نهر بنيوس Peneios فى إليان بيلوس (Elean Pylos) أو قوس البوابة والعلاقة المزدوجة بين الاسمين مهمة، خاصة وأن بنيوس Peneus عنده اشتقاق مصرى فى P3Nw(y) بمعنى الماء أو الفيضان[١٢٣].

وقد أشار أستور إلى وجود نهر لاثون (Lathon) أو ليتون (Leton) عبر مسافة غير بعيدة عن بحيرة تريتون فى ليبيا. ويربط أستور هذا بالتنين الأوغاريتى (th n) والإله العبرى (Liuwgatau) (ومنها Leviaghan) الذى يضاهية العلماء المُحَدثون بإله البحر الأوغاريتى يم Yam(m)[١٢٤] والذى يقوى هذا الاشتقاق هو لادون ladon الأسطورى - الثعبان الذى كان يحرس تفاحات هسبريديس الذهبية - والذى قتله هيراكليس، ربما فى ليبيا. وطبقًا لهيسود فمن الممكن أن يكون هذا الثعبان نهرا[١٢٥]. ففكرة أن العالم مُحاط بنهر / ثعبان/ تنين، وبداخله الجحيم تظهر فى نص غنوحى أو باطنى Gnostic روحى مصرى ، Pistis Sophia ، من القرن الثانى أو الثالث الميلادى، ويربطه عالم الأساطير جوزيف فونتنروز Fountenrose بالمفاهيم المصرية المبكرة[١٢٦]. وسوف أناقش بتفصيل أكثر فى الفصل السابع عند ربطة بأطلس Atals- Atantos المحيط الذى يُحيط بالعالم، وكل من العملاق أطلس والمحيط الأطلسى ، كل منها له علاقة وثيقة بهراكليس وهسبريديس وليبيا[١٢٧].

ونلاحظ أن شــارح أبوللونيــوس الرودس يصف لادون (Ladon) على أنه التنين تيفون، الذى مات فى منابع نهر العاصى فى سورية[١٢٨]. وكثيراً ما يُعزى مجرى نهر العاصى إلى حركة الزلازل. وتيفون هو النظير الإغريقى الرسمى للإله ستِ. ويشير أستور فى هذا الصدد إلى أن يم Ym(m) الأوغاريتى أو (Tpt Nhr) (نهر القاضى)، والمعادل للرب ستِ وبوسيدون كان يظهر على شكل تنين[١٢٩]. وهكذا، وفى بلاد الإغريق نجد أن مصر والشرق لها علاقة بالأنهار والتنين ورب الفوضى.

نيت / أثينا ونفتيس /إرينيس

يرجع بنا لادون Ladon فى بؤتيا إلى شواطئ البحيرات فى بؤتيا، حيث ندرك بسهولة وجود بوسيدون كإله لكل من المستنقعات البرية والينابيع. وكذلك الحال بالنسبة إلى وجود إرينيس Erinys ، إذا ما ربطنا بينهما وبين برسيفونى ونفثيس زوجة ستِ. وبالمثل، وجود أثينا كربة لتنظيم المياه واستصلاح الأرض هو بالضبط ما يجب أن نتوقعه فى مكان يجمع بين الاثنين. إلا أن هناك بعض الصعوبة فى فهم العلاقة بين الربتين.

شىء واحد كان يجمعهما هو الجورجون، ميدوسا، التى أشرت إليها آنفًا والتى كانت تربطها علاقة وثيقة مع برسيفونى/ نفثيس، ومع ليبيا بطريقة ثانوية. إلا أنه، بينما كانت أثينا متورطة فى قتل الوحش وضرب عنقه، كانت ترتدى وجهها وبهذه الطريقة كانت متصلة بها. وهذه العلاقة التى ترجع إلى العصر البرونزى ستناقش لاحقًا فى الفصل الثالث .

أونكا/ أنونكيس Onka / Anukis

نحن هنا معنيون بعلاقة أخرى بين ربتين هما نيت / أثينا و نفثيس / إرينيس وهى الموجودة فى الاسم أونكا Onka . نلاحظ أن مزار ديميتر إرينيس فى تلفوسا

الأركـادية كـان بمنطة أونكيـون Onkeion . وهذا هو لقب الملك أونكوس Onkos الذى كان يعتبر ابن أبوللون أونكايوس Onkaios[١٣٠]. ويبدو أن هؤلاء اتخذوا أسماءهم من الموقع أكثر من الأشياء المحيطة.

ويكاد يكون من المؤكد أن اشتقاق أونكا Onka يأتى من اسم الربة المصرية Γnkt ، التى عرفها الإغريق فى العصر الهيلينستى بأنوكيس Anukis . والمقطع <qgins> فى اللغتين المصرية والسامية كان دائمًا مرتبطًا بالحرفين المتحركين الخلفيين o و r فمثلاً اللاحقة القبطية o مشتقة من اللاحقة المصرية Γ3 بمعنى عظيم والقبطية onh و onh تقابل Γηh بمعنى حياه. والمقطع النهائى - ts كان عادة يحذف فى اللغة المصرية ودائمًا كان يحذف فى اللغة اليونانية. وهكذا فليس ثمة مشكلة صوتية فى اشتقاق Onka من Γnkt .

وأنوكيس Anukis كانت لها علاقة بالكبش خالق العالم الرب خنوم Khunm فى إلفنتين، على الحدود الجنوبية لمصر عند منحدرات الشلال الأول. وكانت على صلة بالجزر الموجودة بالشلال بالقرب منه، وأشهرها Sahel و Elephantine و Philai[١٣١] وكربة للمكان الذى يفيض منه النيل على مصر، فقد كانت متصلة أيضًا بمنابع النيل - التى طبقًا لهيرودوت كانت أحيانًا ترى على أنها عيون Pegai - كما كانت لها صلة بفيضان النيل[١٣٢]. وحيوانها المقدس هو الغزال P3ghs . وهذا مهم فى ضوء أحد اشتقاقات بيجاسوس المذكورة آنفًا. والغزال له علاقة بالسرعة gst ، سرعة المياه المندفعة إلى ما وراء جزر أنوكيس Aunkis . والصورة الآدمية لأنوكيس كانت عادة تصور بتسريحة نوبية وكانت ترى على أنها غير مصرية[١٣٣]. وكانت أيضًا على صلة بنفثيس.

وهكذا فالاسم Onkaios ، محدد تمامًا فى جميع الأحوال. وموقعها فى تلفوسا حيث هدأت حركة نهر لادون بعد أن كان يتدفق بسرعة، لتظهر بالجزر وحيث استقرت ديميتر إرينيس كل هذا يتطابق تمامًا - وإن كان على نطاق، أضيق - مع مراكز عبادة Γnkt فوق جزر شلالات النيل وارتباطها بنفتيس.

نيت / أثينا وأنوكيس / أونكا

كانت عبادة أثينا أونكا أو أونجا Onka أو Onga معروفة أكثر من عبادة أونكايوس Onkaios . وطبقًا للأسطورة فقد أسسها كادموس Kadmos فى مكان وسط طيبة حيث استقرت البقرة المقدسة ، بعد أن قادته لتأسيس المدينة .

ويقبول الروابط القائمة بين نيت وأثينا وبين أنوكيس وأونكا، لنا أن نتوقع وجود علاقات بين نيت وأنوكيس. إلا أنه لم يثبت وجود علاقات بين الربتين المصريتين. ولكن ليس عسيرًا علينا أن نتصور، كما هو الحال فى العصر البطلمى، أن الربة نيت والإله الكبش خنوم كانا الزوجان المقدسان فى إسنا وكانا يقدمان على أنهما شكلان لنفس الإله خالق العالم. والأكثر من هذا، فقد كانت نيت على هيئة البقرة المقدسة الخالقة أخت 3h3t . كانت ترى على أنها أم خنوم ويعتقد رمضان السيد، الذى وضع مُؤَلَّفًا قَيمًا عن نيت ، أن الربط بين نيت وخنوم كان أقدم من هذا[١٣٤].

ولعل هذه العلاقة قد انعكست على العبادات اليونانية. لقد كان خنوم معروفًا جدًا بكونه سيد الشلالات Nb Kbbw وأحيانًا كان يشار إليه ببساطة بـ Kbh[١٣٥] . وسنناقش فى الفصل القادم كفيسوس Kephis(s)os ، المرتبط بروافد كانت تفيض تحت الأرض[١٣٦]. كفيسوس أيضًا شخصية أسطورية، وأعتقد أنه بهذا لابد وأن يرتبط بخنوم. فى إرجوس ، على سبيل المثال، كان كفيسوس أحد القضاة الذين أيدوا فتح الإقليم لهيرا وليس لبوسيدون، وهى أسطورة قريبة جدًا من الصراع بين بوسيدون وأثينا والذى أشرنا إليه آنفًا[١٣٧].

فى مدينة أرجوس كان هناك معبد لكنيسوس حيث أحضر باوسانياس رأس ميدوسا[١٣٨]. وسبق أن أشرنا إلى أن العلاقة بين ميدوسا وكل من أثينا وإيرينيس / برسيفونى: وبالمثل فى مصر العليا، ليست نيت فقط بل أنوكيس (Anukis) ونفثيس كانتا رفيقتان حميمتان لخنوم. هكذا، يمكن أنْ تكون هناك علاقة بين أنوكيس ونيت عبر خنوم / كفيسوس.

وتأكد أكثر الربط بين أثينا أونكا وعلاقتها التقليدية بالبقرة التى قادت إلى تأسيس طيبة وبين نيت بفضل نقوش ترجع إلى العصر الرومانى تتضمن إشارة إلى معبدها الكبير فى إسنا إلى نيت على أنها أخِت Ahet السابحة مع الشمس بين قرنيها لتستقر فى سايس(١٣٩). ويبدو أن قصة أخِت هذه قديمة. وكما أشرنا آنفًا، فقد كانت نيت تطابق بقرة المستنقع الكبير Mht Wrt فى نصوص الهرم من الألف الثالثة(١٤٠). كما نعرف أيضًا أن نيت كانت متطابقة مع مدينتها، سايس أو Ht Nt بمعنى بيت نيت منذ عهد الأسرات المبكر. وإذا أخذنا فى الاعتبار تسليمنا بأنها أم رع فى نصوص الموتى من المملكة الوسطى، فمن المحتمل أن يعكس النقش المتأخر فى إسنا قصة أقدم بكثير(١٤١).

وقد أوضح ميخائيل أستور (M. Astour) أن قصة اتباع بقرة لاكتشاف مكان بناء مدينة نجدها واردة فى التوراة وربما كانت معروفة فى مكان آخر فى الحضارة السامية الغربية(١٤٢). ولكن التماثل الأقرب هو ما نجده بين نيت باعتبارها أخت وتأسيس مدينة سايس وبين قصة كادموس الذى اقتفى أثر البقرة وضحى بها فدية إلى أثينا وقام بتأسيس كل من طيبة وعبادة أثينا أونكا . وعلاوة على هذا فإن الأسطورة المصرية تركز على نيت باعتبارها أَخِت ، وهذا هو تحديداً سمة الربة التى كانت أقرب لخنوم، حيث إن أَخِت كانت أم خنوم، ومن ثم لأنوكيس . هكذا ، فإن سياق أسطورة تأسيس أى مدينة ، خاصة مدينة لها وضع طيبة الجغرافى – انظر ما يلى – سيكون تحديد السياق الذى نتوقع أن نجد فيه اندماجًا بين نيت / أثينا وبين أنوكيس/ أونكا.

وكتب باوسانياس عن العبادة الطيبية لأثينا أونجا فقال أن أولئك الذين كانوا يعتقدون أن كادموس كان مصريًا وليس فينيقيًا قد جاء إلى طيبة، إنما تناقضهم حقيقة أن " أثينا " هذه تسمى أونجا فى الفينيقية وليس سايس باللغة المصرية(١٤٣). وسوف نناقش فى الفصل الثانى عشر مسألة الخلط بين الأصل المصرى والفينيقى لكادموس. وهنا أود أن أشير إلى أن باوسانياس كان محقًا فى افتراض حتمية وجود علاقة وثيقة بين أثينا وسايس كما كان محقًا فى حيرته إزاء أثينا أونكا. وأثينا أونكا ليس اسم الربة الرسمى، بل هو دمج بينها وبين أنوكيس Anukis . فباوسانياس محق فعلاً فى كونه غير متأكد مما إذا كانت أونكا مصرية أم فينيقية.

والأصل الأكثر احتمالاً للاسم نخت nkt وهو الاسم المصرى لأنوكيس Γnkt أنه مشتق من الفعل ink بمعنى يطوق. وهـذا يشير إلى جـزرها المحاطة بفـروع النهـر. إلا أننا نجد الأصل السامى √rnq بمعنى قلادة أكثر توازيًا، فالفكرة إما أن الأنهار المنهمرة كانت كالقلادة أو أن الجزر كانت تبدو داخل الشلال مثل عقد من الجواهر. وهذا يبدو بعيد الاحتمال لعاملين :

أولاً: هناك الموقع الجغرافى لطيبة، فهى على جرف فوق سهل طيبة الذى كان ينساب فوقه نهران أو ثلاثة لتتجمع بعد ذلك فى القاع. وهكذا فالموقع يشبه كلاً من الجزر المصرية Γnkt والسامية Γηq بمعنى قلادة[١٤٤] .

ثانياً: حقيقة أن الموقع الجغرافى كان يرى بهذه الطريقة فى العصور القديمة وهو ما يثبته حقيقة أن اسم ملكة كادموس هو هارمونيا Harmonia بمعنى " ينظم حبات العقد " ، وأن أشهر هدية كانت تقدم فى الزفاف هى قلادة[١٤٥].

وكل هذه العلاقات يمكن رؤيتها فى مسرحية يوريبيديس " الفينيقيات" فبينما كانت تسقط المدينة ، كانت الجوقة المكونة من نساء فينيقيات تغنى احتفالاً بتأسيسها الفينيقى:

ومن ثم قدمت الآلهة المقدسة لحضور زفاف هارمونيا

وارتفعت أسوار طيبة عالية على أنغام القيثارة وعلى

دعوة قيثارة أمفيون.

وعلى الأرض ما بين النهرين وقفت أبراجها شامخة.

حيث جلست ديركى وايزميونوس جنبًا إلى جنب.

يندى السهل الأخضر الخصيب[١٤٦].

لاحظ الإشارة المتكررة إلى الخيوط أو الأوتار وهى مشتقة من هارمونيا Harmonia و Harmon المشتقة من الجذر السامى √hrm بمعنى خيط أو شبكة وهو ما سنناقشه فى الفصل الثالث.

وبالطبع هارمونيا لها صفات أسطورية أخرى كبيرة . وقد أوضح أستور على سبيل المثال، العلاقات بين السومارييين والربات الساميات بلقب " سيدة البيت أو القصر"(١٤٧). وهذا يقربها من نفثيس أو Nbt Ht التى تعنى أيضًا "سيدة البيت". هكذا فالعلاقة بين عبادة أونكا وهارمونيا فى طيبة البؤتية تتطابق مع المواءمة المصرية بين أنوكيس ونفثيس. وهناك قصة أخرى عن هارمونيا مؤداها أنها وزوجها كادموس تحولا إلى ثعبانين وذهبا ليعيشا فى هسبريديس فى آخر حياتهم. وهذه الأسطورة أيضًا لها عدة أوجه، إحداهما هو أن أحد خيوط القلادة هو نهر إيزمنيوس/ لادون Ismenios / Ladon (الذى كان يعيش فى هسبيريدس أيضًا)، وهارمونيا كانت فعلاً حية(١٤٨). إلا أن النقطة الرئيسية التى أردت التركيز عليها هن هى أن اسم هارمونيا بمعنى " قلادة " يجعلها قريبة من Γng وΓnkt و Onka .

كما رأينا، فإن الاشتقاق الأكثر احتمالاً لـ Γnkt يأتى من فعل ink . واللغة المصرية أيضًا بها كلمة Γnkt بمعنى قلادة. إلا أن وجود أسماء سامية أخرى كثيرة فى بؤتيا تجعل السامية أكثر احتمالاً. وهكذا فإن حيرة باوسانياس بين الأصل المصرى والفينيقى للاسم أونكا يبدو أنه يعكس وجود كل من اللغتين معًا عند البداية الأولى لهذه العبادة.

أثينا أونكا وأثينا أولكومينا

وجذر مصرى آخر نعرض له هنا هو Γrk وهو قريب من الناحية الصوتية من Γnk ويمكن أن نجد نطقًا صوتيًا مشابهًا لـ Onka فى الكلمة اليونانية (horkos) بمعنى قسم، وهى تأتى من الكلمة المصرية (Γrk) بمعنى حلف أو قسم والكلمة القبطية

Ork [١٤٩] . المعنى الأساسى لـ (Γrk) هو إلزام. وهذا يبدو مشابهًا لكلمة Γnk بمعنى يطوق أو قلادة . وفى اللهجة القومية Γrk بمعنى قسم تحولت إلى Olk وكلمة Γvky (اليوم الأخير من السهر) وكلمة rvky (اليوم الأخير من السنة) كانت تستخدم كثيرًا على فرض أنها أتت من معنى أن السنة مثل الحلقة.

والمصريون لديهم ثلاثة أو أربعة تقاويم، ولكن التقويم الذى يبدو أساسيًا بالنسبة لهذه المجموعة الأسطورية هو التقويم المدنى. وينقسم هذا التقويم إلى اثنى عشر شهرًا وكل شهر من ثلاثين يومًا مضافًا إليها خمسة أيام هى الأيام النسئ. وكانت تبدأ السنة الجديدة بالشروق الشمسى لنجم الشعرى اليمانية الذى كان مؤشرًا لوصول فيضان النيل فى منتصف شهر يوليو الحالى. على الأقل على عهد الأسرة الثامنة عشرة، أول يوم من أول شهر للفيضان من السنة الجديدة كان عهد خنوم رب الخلق وشلالات النيل[١٥٠] . وهكذا كانت Γrkyrnpt مرتبطة برفيقه rnkt/ Anukis الذى كان يعتبر فيضان النيل، وعلى الأقل فى العصور المتأخرة، كانت تتطابق مع Spdt/Sothis ربة نجم الشعرى اليمانية[١٥١].

ولم تكن Γrky فى اللغة القبطية تكتب فقط Ork أو Olk ولكن أيضًا alke . وهذا يرجع بنا إلى Alalkomena و Alkmene . والتوازى هنا ليس صوتيًا فحسب. هناك أيضًا علاقات تقويمية هامة. بينما Γrky rnpt كانت آخر يوم فى أيام النسئ الخمسة وكانت مكرسة لإيزيس ونفثيس ، فإن الشهر الذى يتكرر أحيانًا حتى يتوافق التقويم كان يسمى فى بؤتيا باسم Alakomenios. وسنناقش لاحقًا العلاقة بين ألالكومينا وأثينا ألكمينى. ويعنينا هنا ملاحظة أن mena-mene من الواضح تشابهها مع الكلمة اليونانية mene بمعنى شهر. ويزعم شاختر أنه فى مدينة أتيكا الشهر المساوى لألكومنيوس كان يسمى أثينا يوس، وهو ما يتوافق مع أثينا ألالكومينا[١٥٢]. وعدم التأكد التقويمى فى كل من الأيام الزائدة المصرية Γrkyrnpt والكومينوس البؤتى يتطابق مع أسطورة زيوس الذى حول دوره يوم وليلة إلى ثلاثة عندما كان يمازح ألكومينى لتحمل ولدها هيراكليس[١٥٣].

وهكذا، من خلال التلاعب المتعلق بالكلمات بين الجذور المتشابهة Γnk, Γnk من الممكن وجود توازى بين العبادة الطيبية لأثينا و Γnkt/Anukis Onka (ومن نفتيس ونظيرتها إرينيس وبرسيفونى) ، وعبادة أثينا ألالكومينا وألكمينى. إلا أننا لكى نُكمل هذا، علينا أن نقيم علاقة بين أثينا ألالكومينا وألكمينى.

أثينا ألكومينا وألكمينى

يبدو ان الاسم ألكمينى يعتمد على تورية تكشف عن ان لها أصلان مختلفان على الأقل، أحدهما من (Rht imn) بمعنى صديق آمون والآخر من Γrky بمعنى الأيام الأخيرة من السنة.

وإن تزاوج أثينا إيتونيا (التى ناقشنا آنفًا علاقتها بأثينا ألالكومينا) فى هاليارتوس، وربما فى كورونيا Koroneia أيضًا، هذا التزاوج مع زيوس مهم، حيث أن أثينا كانت باستمرار تظهر بمفردها أو مع منافسين لها مثل بوسيدون وهيفايستوس. وكان زيوس يعبد فى كل بؤتيا على أنه زيوس كارايوس Karaios أو Keraios بمعنى ذو القرنين. وأوحى هذا إلى شاختر باحتمال وجود علاقة ما بين الكبش - ذى القرنين "آمون" المصرى، الذى كان يُعْبدَ فى طيبة على الأقل منذ عهد بندار فى القرن الخامس قبل الميلاد[١٥٤].إلا أن شاختر رأى أن هذه الفكرة خاطئة، حيث إنه كان يعمل من خلال النموذج الآرى Aryan Model ومن ناحية أخرى، بالنسبة لهؤلاء الذين لا يستعملون هذا النموذج، فإن عبادة زيوس المحلية مع أثينا مقترنة بحقيقة أن ألكمينى كانت زوجة زيوس تؤدى إلى وجود احتمال قوى لحقيقة أن معبد أثينا ألالكومينا كان على بُعْد سبعة كيلومترات فقط من مقبرة ألكمينى والتشابهات غير العادية بين أسمائهم تبدو جوهرية فعلاً وليست مجرد نتيجة للصدفة المحضة.

وثمة احتمال أن ألالكومينا تأتى من ألكمينى مع البادئة المصرية المألوفة R - بمعنى مدخل لـ والتى أشرنا إليها فى الفصل الأول[١٥٥]. كما رأينا أيضًا أن هذه

البادئة ربما تكون قد نقلت إلى اللغة اليونانية على أنها – La وأن الحروف المتحركة المفترضة تكون محتملة قبل الحروف الساكنة المفردة. والأكثر من هذا فإن – R تُستَعمل بكثرة لدرجة أنها كانت غالبًا تعنى ببساطة " إقليم ......" [١٥٦]. وفى هذه الحالة، فمن الممكن أن تكون " إقليم ألكمينى" . وحيث أن هناك دلالات كثيرة على التأثير الكنعانى على بؤتيا فى عصر البرونز المتأخر، فمن المحتمل أن البادئة –A فى Alalkomenia تأتى من أداة التعريف ha . وهذا يوجد، مثلاً، فى Atobyrion ، اسم أعلى وأهم جبل فى رودس من الكلمة الكنعانية Hatabor بمعنى مركز أعلى جزء[١٥٧]. من ناحية أخرى، فالبادئة -A فى Alakomena من الممكن أن تكون مجرد أول اللفظة. وإذا كانت Alalkomena تعنى " إقليم ألكومينا"، فإن أثينا ألالكومينا من الممكن إلى أن تكون اندماج بين أثينا وألكمينى، " زوجة آمون أوزيوس".

وهناك عدد من العلاقات بين نيت وآمون. وكما ذكرنا آنفًا، فقد كانت Neit تربط أحيانًا بـ itn قرص الشمس. كما كانت ترى على أنها أم ابن الإله رع ولذلك كانت تربط بآمون، والذى كان يسمى باستمرار آمون – رع. على الأقل من الأسرة الثلاثين فى القرن الرابع قبل الميلاد – كانت نيت تتطابق مع زوجتى آمون، أمنت Amenet والربة Mut[١٥٨] . وملمح آخر مثير هو علاقة نيت Neit بـ منت Mntw ، الإله المصرى المحارب وخاصة فيما يخص هزيمة الشمال. وهناك نقش هام من الأسرة الحادية عشرة يظهر منت ونيت وهما تحميان الفرعون Mntwhtop الثانى، والذى سنناقش فى الفصل الرابع علاقته بالإيجيين[١٥٩]. وهذه الفكرة أن نيت ومنت وممكن نيت وآمون كانوا الآلهة الحارسة لفراعنة الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، يبدو أن هذه الفكرة تمدنا بتوازٍ هام مع زواج ألكمينى بالقاضى الأسطورى والمشرع Rhadamanthys الذى سوف نناقشه فى الفصل الرابع، وهو النظير اليونانى لكل من الإله Mntw وفوعون الأسرة الحادية عشرة Mntw Htp ، ويمدنا أيضًا بتناظرات مهمة مع زواج زيوس من ألكمينى لينجبا البطل هيراكليس، الذى يشبه بشدة فرعون من الأسرة الوسطى.

هيراكليس

الأصول السومرية والسامية لهيراكليس

هيراكليس هو شخصية أسطورية على قدر كبير من الثراء والتعقيد إلى درجة أنه من الصعب معرفة كيفية فك الخيوط المختلفة التى تتشابك معًا مكونة إياه. ويرجعه والتر بركرت Walter Burkert إلى العصر الحجرى القديم الأعلى من ٢٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ قبل الآن حيث يبدو كصياد عظيم يقتل الحيوانات الضخمة وككاهن يمكنه دخول عالم الموتى والعودة منه. ونراه بتحديد أكثر قادرًا على إبراز صور من القصور السومارية والأكادية من الألف الثالثة تظهر بطلاً يرتدى جلد أسد وممسكًا بقوس وهراوة ويقتل الأسود، والتنانين والطيور الجارحة، ونحو ذلك[١٦٠]. وبركرت حريص على عدم الإشارة إلى الاسم ولكن من الواضح جدًا أنه كان يفكر فى البطل السومارى جلجامش، هذا بينما كان العلماء الآخرون أكثر وضوحًا[١٦١]. لقد كان جلجامش الأصلى حاكمًا لمدينة أوروك uruk حوالى عام ٢٦٠٠ ق.م[*]. ومن الواضح أن الأساطير جمعت عنه فى القرون التالية لوفاته، ولكن أولى النصوص المتعلقة بمآثره ظهرت فقط حوالى عام ٢١٠٠ ق.م، ويبدو أن ملحمة جلجامش، كما نعرفها، كانت قد ألفت فى النصف الأول من الألف الثانية[١٦٢].

لقد كان جلجامش حاكمًا عسكريًا، وقد اصطحب صديقه المشعر انكيدو (Enkidu) الرجل الطبيعى أو الوحش الذى اعتزل الزواج والحياة المستقرة، وسافر معه لقتل الوحش هواوا (Huwawa) وثور السماء الكبير. وبعد وفاة إنكيدور ذهب جلجامش لزيارة صديقه فى العالم السفلى، وليبدأ بحثًا عن الخلود، وقد أظهر كُتَّاب الأساطير أنَّ هذه الملحمة أيضًا معقدة إلى حد بعيد. فهى عن جلجامش التاريخى، وموضوعات فولكلورية موجودة فى قصص من كل أنحاء العالم وأعمال أدبية، بعضها ذات مغزى فلكى وفلسفى[١٦٣].

(*) ليس هناك دليل أثرى واحد يقينى لوجوده الأصلى أو مدة حكمه . (المحرر)

كم كان تأثير ملحمة جلجامش على الأساطير اليونانية حول هيراكليس؟ طبعًا مستحيل الإخبار عن مكان الدائرة السومارية التى رسمت عن موضوعات فولكلورية باتساع العالم. وبنفس الطريقة، وحيث أن كليهما على الحدود بين الفنائية والخلود وكلاهما متعلق بالموت، فهذا الموضوع عام جدًا إلى درجة أنه لا يشير إلى علاقة خاصة بين البطلين. إلا أن هناك عدد من المتشابهات المحدودة - فكل من جلجامش وهيراكليس كانا يمشيان، أكثر من ركوبهما العربات، وكانا يستخدمان الهراوات أكثر من السيوف، وهذا فيما يبدو يحدد أصول البطل اليونانى قبل عام ١٧٥٠ ق.م، عندما ظهرت العربات والسيوف فى إقليم البحر المتوسط وسرعات ما أصبحت رموزًا لطبقة الأبطال. وبالمثل، عادة ما كان كل من جلجامش وهيراكليس ينجز أعماله وحده أو يصحبه رفيق أو تابع لهما متفان فى خدمتهما وقد أزعجهما موته إزعاجًا شديدًا.

الإله الفينيقى الهام ملكارت Melqart أو Mlkqrt بمعنى ملك المدينة، الذى كان الإله الحامى للمدينة الفينيقية صور كان يمكنه مد جسر بين جلجامش وهيراكليس. ونجد فقرة مفصلة من هرودوت ودليل نقشى يوضحان تمامًا تطابق ملكارت وهيراكليس(١٦٤).

ومن المستحيل أن نبين مدى قدم عبادة ملكارت فى صور. وقد كتب هيرودوت أن معبد هيراكليس كان قديمًا قدم مدينة صور نفسها والتى يعتقد أنها أسست قبل عصره بحوالى ٢٣٠٠ سنه، أى حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م. هذا، مثلما ألمح أستاذ الساميات الفرنسى رنيه دسو Rene Dussaud ، ربما يشير إلى عبادة (Hadad) بعل Ba<al ، أحد الآلهة التى اشتق منها ملكارت، لكن هذا الملكارت هو توفيق حدث بعد ذلك بين آلهة كثيرة(١٦٥). ويؤكد معظم العلماء المحدثين على أن عبادة ملكارت كانت أحدث بكثير. وأكثرهم تطرفًا يضعها فى عصر النقوش المبكرة فى القرن العاشر ق.م ويقترح أن عبادته حلت محل العبادات الأقدم بالمدينة(١٦٦). وهناك أيضًا شك بسيط فى أن ملكارت كان يتطابق مع آلهة كثيرة تشمل إله بلاد الرافدين نرجال Nergal ،

وكما سنرى لاحقًا، كان يتطابق مع الإله السامى الغربى(*) رشف Reshef إله الطاعون(١٦٧).

ويبدو أن اسم هيراكليس يشى بأن أصل البطل هو الشرق الأدنى. والحكمة التقليدية قديمًا كانت تفهم اسم هيراكليس على أنه يعنى " المجد لهيرا" . على أية حال فتطابق المقطع الأخير من الاسم مع Kleos بمعنى مشهور، حدا ببحوث الاشتقاق اللغوى عن اسمه إلى التركيز على الجزء الأول -Hera ، كما وجدت بحوث فى الاسم Hera نفسه وربما كلمة "hero " والاشتقاق الهندى - أوروبى المعتاد لـ Hera هو من الجذر Ser بمعنى يخدم أو يحمى. وقد هوجم هذا من قبل جون شادويك John Chadwick المتخصص الرائد فى بلاد الإغريق الميكينية، فعلى أساس B Linear الكتابة الخطية الثانية فإن الشكل Era يدل على اسم الربة. وهذا ينقصه aw فى الشكل المعاد تركيبه herwa ، الذى يعتقد شادويك أنه ضرورى(١٦٨). وإذا كان هذا النقد يعتمد أو لا يعتمد على دقة فى غير محلها، فمن الأفضل أن نجد أصلاً لـ Héra و hero وأيضًا لملامح من شخصية هيراكليس، من اتحاد ثلاثة جذور سامية تعتمد كلها على الحروف الساكنة √hrr .

أول الجذور السامية ، هو الجذر الذى يبدو رئيسيًا بالنسبة لمواصفات هيراكليس √hrr, heroes, Hera بمعنى نبيل، حر. فى اللغة العبرية كلمة (Hor) تعنى المولود حرًا أو النبيل والاسم Hrr يظهر فى اللغة الأوغاريتية. فى القرن الثانى الميلادى، نصادف الجذر Ben Hur والكلمة السواحيلى ذات الأصل العربى uhura بمعنى حرية. هناك مشاكل خاصة بالنطق كما يظهر Era فى Linear B الكتابة الخطية الثانية أن الـ e فى Hera هى أولية وليست متطورة عن a ، وحرف الجر يعود إلى اللغة السامية الغربية(١٦٩).

(*) إصرار دائم على إلقاء ظلال السامية، وإيحاءات الوجود اليهودى فى المنطقة منذ تواريخ أقدم بأى شكل من الأشكال وفى كل مناسبة، وهنا نلاحظ إلصاق الصفة بإله محلى، موجود فى المنطقة (الساحل السورى الفلسطينى (الفينيقى بعد ذلك) منذ ما قبل عام ١٠٠٠ ق.م، أى وجود مملكة سليمان على أرض فلسطين.

والمعنى الثانى لـ (√hrr) هو يشيط أو يحرق. اسم الإله الأكادى Erra بمعنى يوم حار جداً مشتق من هذا الجذر. و Errag كانت معروفة فى العصر السرجونى Sargonic - فى الألف الثالثة – ولكن ملحمة عنه تبدو أنها قد أُلِفَت فى الألف الأولى، التى كانت بصفة خاصة فترة قاسية من تاريخ بلاد الرافدين . و Errag أو " الأرض المحترقة " كان محارباً متوحشاً وقاسياً ، ولكنه كان بطلاً تخصص فى التخريب وإحداث المجاعات عن طريق الحرق. لقد كان من عدة أوجه مطابقًا لنرجال Nergal ، إله الطاعون المخيف جداً(١٧٠). هذا الجذر يبدو أنه ظهر فى اللغة اليونانية بمعنى " جنون" هيراكليس ونوازعه التدميرية. ويمكن أيضاً أن يكون له صلة بعلاقة البطل بالنار التى كانت قوية بصفة خاصة فى عبادات هيراكليس الفينيقية. هنا، العلاقة الصوتية أفضل من العلاقة بـ Hor . وما من شك فى أن Erra تأتى من الجذر √hrr وأنه بينما الحرف الأول h حذف فى اللغة الأكادية إلا أنه بقى فى اللغة السامية الغربية. ولكن اللغة السامية الغربية لم تحتمل تضعيف r ، ولذلك أصبح النظير الغربى لـ Erra هو Hera ، بالرغم من أن الطبيعة المحددة للحرف e غير أكيدة.

الجذر السامى الثالث √hrr – أصله اللغوى – √hrr - يعنى " يحفر ويثقب". وكما هو الحال فى hrrبمعنى نبيل، حر ، فيبدو أنها تنطق بالحروف المتحركة الخلفية (u,o) فى اللغة العبرية. هذا المجال اللفظى يبدو أنه منعكس على هيئات هيراكليس كمنختص بالأنفاق (الجحور) وكساقى بالرغم من أنهار – كما سيتضح لاحقًا، ربما يكون لها أصول أخرى أيضاً.

واشتقاق آخر يمكن أن يأتى من الاسم المصرى Hr , Horus الذى تُعَاد صياغته Haruw . وكان هذا الاسم يُستَعمل لكل من الصقر البرى وإله الشمس وكرمز واسم للفرعون الحى وسوف نناقش هذا لاحقًا.

بالرغم من الخلط وانعدام الدليل المباشر، فمن الواضح أن (H)era كان اسمًا يستعمله المُتحَدثون باللغة السامية الغربية للدلالة على البطل الهراقلى أو الذى يشبه ملكارت وأقوى دليل على هذا يأتى من اسم مدينة أبديرا Abdera .

ويبدو مقبولاً جداً أن نشتق أبديرا من الكلمة السامية الغربية abdera بمعنى خادم Era . بالرغم من أن تطوير أسماء الأماكن من ألقاب شخصية نادر إلا أنه يحدث أحياناً. ومثال على هذا هو Didyma ، اسم مدينة على الساحل الكورنثى Carian والمشهورة بنبوءتها عن ديديمايوس Didymaios بمعنى التوأم، وهو لقب أبوللون. وسأناقش فى الفصل الثالث كيف أن دلفى وديلوس أخذتا اسميهما من Delphos ، وكلمة أخرى تعنى توأم استعملت كـ epiclesis لأبوللون.

فى حالة أبديرا هناك علاقات مقنعة بين المدن التى تحمل هذا الاسم وهيراكليس. طبقاً للأسطورة، أبديرا فى ثراكيا كانت هى المكان الذى قتل فيه ودفن خادمه أو رفيقه أبديروس Abderos ، وكل من المدينة الثراكية وأبديرا فى جنوب شرق أسبانيا كان هيراكليس هو الإله الشرفى لها. وحتى لو أهملنا الطبيعة السامية الواضحة للبادئة - Abd ، فالاسم لا يمكن تفسيره بالمعايير اليونانية، ليس فقط لأن أبديرا الثراكية هى اقليم متصل - ومن زمن بعيد - بفينيقيا قبل أن تصبح ناطقة باللغة اليونانية، ولكن أبديرا الأسبانية كانت فى مركز مجموعة المستعمرات الفينيقية على الساحل الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة[١٧١].

الأصول المصرية لهيراكليس

بعد تقديم ما يبدو أنه دليل قوى على الأصل السامى لاسم هيراكليس، فمن المحير بعض الشيء أن هيرودوت يقرر بصراحة أن الاسم هيراكليس أتى من مصر[١٧٢]. ويقترح آلان لويد Alan Lloyd أنه عندما كتب هيرودوت " اسم " كان يقصد أسماً وليس مجرد " فكرة" مثلما فعل علماء آخرون. يرى لويد أن هيرودوت هنا - وفى مكان آخر - كضحية لتضليل التفسير اليونانى Interpretatio Graeca ، من ناحية اعتقاد المؤرخين الإغريق فعلاً أن الآلهة المصرية كانت تدعى بأسمائها الإغريقية[١٧٣]. ولكننى كما يتضح الآن لا أوافق على أن التفسير الإغريقى تضليل، وأعتقد أن الكثير من أسماء الآلهة الإغريقية، مثل أبوللون، أثينا وهلم جرا، كانت فى الواقع مصرية وعندما قال هيرودوت " اسم " كان يعنى مجرد اسم إلا أن الدليل فى هذه الحالة أقل

تحديداً والعلماء الحذرون الذين يؤكدون أن هيرودوت كان يشير إلى مجرد فكرة هيراكليس على حق.

إلا أنه من المحتمل أن الاسم هو الذى كان يدور فى أذهان الرواة الذين استقى منهم هيرودوت معلوماته. وربما كان الشكل Hr K3 كان مقبولاً فقط فى إقليم بطلميوس السادس فى القرن الثانى قبل الميلاد للاسم الذى كان يكتب عادة Hk3 بمعنى سحر(١٧٤). وحتى فى عالم الديانة المصرية المثير للحيرة فإن شخصيه Hk3 أو Heka بالذات غامضة وخادعة ؛ حيث إنه الصورة البشرية للسحر فطبيعته الأساسية تمثلت فى نظر هرمان فلد Herman te Velde الخبير فى الديانة المصرية، فى صورة " قوة سحرية، والطاقة المقدسة الخالقة، وخلق البشر، والقادر الحى والتأثير الغامض(١٧٥) ". وهذا يبدو ككل إله غامض جداً إلى درجة أنه لا يمكن ربطه بهيراكليس. والأكثر من هذا هناك مشاكل صوتية حادة إذ أن Hrk3 كانت تنطق فى الألف الأولى المتأخرة بنفس الطريقة مثل Hk3 ربما مثل Hik . وهذه المطابقة يبدو فى الواقع أنها السبب فى كتابة Hrk3 . وهكذا فكون الراء فى ٣ من الحروف السائلة يتطلب قراءة قديمة للاسم.

إلا أننا وقبل التخلص من هذه العلاقة يجب أن نأخذ فى الاعتبار نقطة أو نقطتين أولاً Hk3 كان يرى على أنه المسئول عن إخضاع Apopis ، الوحش الثعبانى للعماء الكونى السابق على الوجود(١٧٦). ثانيًا هناك أيضًا علاقة وثيقة بين H(r)k3 وإله متأخر كان يعرف باسم توتو Tutu الذى كان يرى فى العصر البطلمى على شكل أسد يمشى وكان يعرف بـ " العظيم فى الشجاعة"، ابن نيت. وهكذا فهو يشبه هيراكليس - الذى كان أيضًا يشبه الأسد بوضوح - وكان ابن الكمينى/ أثينا ألالكومينا. وأكبر فترة لعبادة توتو Tutu كانت فى القرنين الأولين من الميلاد وهى الفترة التى شهدت ازدهار عبادة هيراكليس(١٧٧). وكانت النظرة السائدة أن كلاً من Tutu , H (r) k3 هما تجل للإله Shu ، إله الهواء، والذى سنناقش علاقته الأكيدة بهيراكليس لاحقًا، ثالثًا، فى المعبد البطلمى والرومانى للربة نيت وخنوم فى إسنا، H (r) k3 كان يبدو فى صورة طفل مقدس، وأمه هى نيت. وليس ثمة شك فى الأهمية القصوى لطفولة هيراكليس فى الأساطير المحيطة به. وهذا يربط H (r)k3 بحورس الصغير المعروف بـ Hrphrd أى حورس الطفل (هربوكراتيس فى اللغة اليونانية) (١٧٨). والخلط بين هيراكليس

وهربوكراتيس فى القصور القديمة المتأخرة يتضح من عبارة قالها إراتوستينيس Eratosthenes ، أمين مكتبة الإسكندرية فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد فى مجموعته عن ملوك طيبة. فيشير إراتوستنيس إلى الفرعون سمفروكراتيس Semphrukates على أنه هيراكليس هربوكراتيس(١٧٩).

أين ينتهى بنا كل هذا؟ يبدو أنه من الممكن تمامًا القول إن هيرودوت والرواة المصريين الذين أخذ عنهم دار فى خاطرهم H(r)k3 عندما قالوا أن الاسم هيراكليس جاء من مصر. إلا أن الأقل احتمالاً أن الاسم هيراكليس أتى بالفعل من Hrk3 بالرغم من أنه مجرد احتمال. وإجمالاً فإن الأكثر احتمالاً هو افتراض أن المقطع الأخير kles – هو مجرد لاحقة يونانية معناها " مجد "، وكانت تستعمل باستمرار مع أسماء الأعلام. إلا أن أساس الاسم وكذلك اسم هيرا Hera وكلمة hera يبدو أنها تتأثر بالجذور السامية hrr وخاصة من √hrr بمعنى نبيل أو حر، ولكن تأتى من حورس أو H?ruw وثمة مشكلة صوتية هنا فى كون الشكل Era فى linear B الكتابة الخطية الثانية يظهر أن e فى الاسم Hera سائدة فى جميع اللغات الهيلينية وليس نتيجة لابدال ?بـ ?فى اللهجات اليونانية الشرقية. إلا أن التناظرات السامية شديدة الأهمية. أولاً، هناك تشابهات كثيرة شمسية وبطولية بين هيراكليس والأبطال اليونانيين من ناحية، والفراعنة المصريين من الأسرة الوسطى، الذين كانوا يبدأ لقبهم الرسمى دائمًا بـ Hr وأيضًا اسم حورس من ناحية أخرى.

ومن المهم أيضًا أن نلاحظ فيما يخص اسم هيرا أن حتشبسوت الفرعونه من الأسرة الثامنة عشرة تسمى نفسها، ضمن أشياء أخرى، Hnt nt d'm بمعنى الأنثى حورس ربة الذهب الخالص(١٨٠).

وبعد هذه الملامح عن اسمه، فليس مدهشًا أن الأساطير اليونانية لا تشير إلى طفولة هيراكليس فى سورية أو بلاد الرافدين. إلا أنه كانت تشاهد علاقات كثيرة بمصر.

ومثلما رأى العلماء المحدثون هيراكليس كشخصية مركبة، فإن الكُتَّاب القدماء كثيراً ما أكدوا أنه كانت هناك أشكال مختلفة تدعى هيراكليس. وقد ميز هيرودوت بين

الإله والبطل هيراكليس وبين الإله المصرى البالغ القدم والإله الفينيقى والإله المعبود فى مستعمرة ثاسوس Thasos الفينيقية وهيراكليس من طيبة اليونانية(١٨١). وديودوروس الصقلى المؤرخ العام من القرن الأول قبل الميلاد، رأى ثلاثة هيراكليس. أقدمهم ولد فى طيبة بمصر وأخضع كل العالم، والثانى كان كريتيًا ، وهو الذى أسس الألعاب الأوليمبية والثالث هو ابن ألكمينى وزيوس وقد ولد قبل الحرب الطروادية(١٨٢). وشيشرون يفرق بين ستة هيراكليس - هيراكليس اللاتينى - وكان المصرى هو ثانيهم، والذى من صور كان رابعهم والإغريقى هو سادسهم(١٨٣).

هيراكليس ، حورشف ورشف

أين نجد هذا الهيراكليس القديم إن لم يكن أقدمهم فى التراث المصرى؟ ثمة تطابق مع الإله الكبش Arsaphes - Hrys -f فى اليونانية ومعنى اسمه " ذلك الذى على بحيرته". بالرغم من أنه كان له مركز أصغر للعبادة فى الدلتا يعرف باسم هيراكليوبوليس الصغرى Herakleopolis Parva ، فإن مدينته الرئيسية ، والتى عرفت فيما بعد بـ هيراكليوبوليس الكبرى Herakleopolis Magna كانت فى الفيوم، واسمها المصرى هو Nni-nsw(t) مدينة الأطفال الملكيين. عمومًا مثل هيراكليس، فقد كان هارسافيس Harsaphes مرتبطًا بالأطفال الملكيين. وكان يعرف أيضًا بالإله الملكى المثل لآمون، الذى كان يتماثل معه كثيرًا فيما بعد. إلا أنه كان أيضًا إلهًا للخصوبة مثل أوزوريس. وهذا الارتباط بالخصوبة كان يؤخذ مع اسمه وموقع مراكزه فى الفيوم ومناطق المستنقعات بالدلتا حيث تمت استصلاحات معتبرة. هذا يشير إلى أنه كان مختصًا بالرى والصرف(١٨٤). وسوف نناقش لاحقًا هذه الجوانب المختلفة التى يتصف بها هيراكليس.

بالرغم من التصديق على الإله السامى الغربى على أنه Ra-sa-ap فى إبلا Ebla من منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، فالاسم Hys-f يبدو أيضًا أنه أصل اسم الإله السامى الغربى للحرب والمرض Reshef orRsp (١٨٥) .وليس ثمة أصل سامٍ مقنع للاسم الأخير(١٨٦) ومن المعروف أن Hrys-f له معبد فى Byblos ، ولكن ثمة شك بسيط

فى وجود خلط بينه وبين Reshef هناك وفى أماكن أخرى. والمطابقة لا يبطلها كون الإله الكنعانى Reshef قد عبد فى الأسرة الحديثة بمصر. وبالتوازى مع هذا سوف نناقش فى الفصل الرابع أن الربة المصرية W3dyt أصبحت تماثل الربة السامية الغربية dst وعبدت على هذا النحو فى مصر(١٨٧).

هناك بالفعل ملامح شيقة فى عبادة Reshef فى مصر. أولاً، يبدو أنه قد كَرَّسَ له وادياً شمال هيراكليوبوليس الكبرى Herakleopolis Magna مركز عبادة Hry?-f وهناك نقش من العصر الفارسى نقرأ عليه الاسم Roshef ابن حاكم Nni-nsw هيراكليوبوليس الكبرى (Herakleopolis Magna) أو ابن Resheph حاكم Nni-nsw(١٨٨) . على أية حال فثمة علاقة وثيقة بين Reshef و Hryš-f الذى فقد اسمه فى العصور المتأخرة معنى " على بحيرته"(١٨٩).

وكان السائد فى مصر – على الأقل من الأسرة ١٨ أن (Reshef)إله الفرعون المختص بشئون الحرب، والرماية خاصة وأنه يتطابق مع Mntw)(١٩٠) . لكونه زوج أم هيراكليس. أمفيتريون المزدوج لردمانثيس وأيضاً زوج ألكمينى والمنفى إلى طيبة – كان معلم البطل فى الفنون الحربية(١٩١).

إذا كان تطابق Arsaphes مع كل من Reshef وهيراكليس واضحاً، فإن المثلث قد اكتمل بوجود توازٍ تام بين Reshef وهيراكليس. وفى مقال نشر بعد وفاة مؤلفه، القائد العسكرى والمؤرخ ايجال يادين Yiegal Yadin يثبت المؤلف أنه بينما كان يتطابق Reshef السامى الغربى باستمرار مع أبوللون اليونانى نظراً لارتباطهما بالسهام والسقم، فقد كان أيضاً معادلاً من نرجال وهيراكليس. واستخدم rhyton على شكل رأس أسد مهداه إلى Reshef ووجدت فى أوغاريت ليحسم مطابقة Reshef للأسود. ويذهب يادين إلى ربط هذا بعلاقة هيراكليس بالأسود وليستغل ما كان قد كتبه سابقاً عن مطابقة هيراكليس لشمشون – فكلاهما أساساً بطل شمسى وله علاقة بالأسود. ويوافق يادين على أن دان Dan وهى القبيلة الإسرائيلية التى كان شمشون ينتمى إليها، أصلها يرجع إلى أحد شعوب البحر.

هكذا، رأى يادين اندماجاً بين هيراكليس الإيجى ورشف الكنعانى(١٩٢). وأعتقد

أنه ثمة علاقات بين الاثنين قبل هذا بكثير، كما اعتقد أن أقدم واحد فى هذه المجموعة هو Hrys-f المصرى. فخصائص هذه الآلهة ، كونها شمسية ومتجولة ورماه وأقوياء ومطابقين للأسود وصغار فى السن - إن لم يكونوا كالأطفال - وكل هذا يجعلهم قريبين جداً من حورس أو Hprr ، رب شمس الصباح، ونظيرهم اليونانى أبوللون. هكذا، على سبيل المثال المدينة الموجودة فى Philistia والمسماة Arshuf ، من Hrys-f or Reshef ، كانت تسمى أبوللونيا Apollonia فى بلاد اليونان، ونصوص قبرص تساوى بين رشف وأبوللون(١٩٣). إلا أن هذا لا يضعف المطابقة بين هيراكليس ورشف.

هيراكليس ، خونسو وشو

علماء كثيرون من زيته (Sethe) إلى جريفثس (Griffiths) ولويد طابقوا هيراكليس بإله مصرى آخر هو خونسو. وكان خونسو هو الثالث فى مجموعة الآلهة الثلاثة التى كانت تعبد فى طيبه، الأب هو آمون والأم هى موت (أم و / أو نسر). واسم خونسو يبدو أنه مشتق من فعل hns بمعنى يسافر، وهذا يناسب البطل المسافر، أو كما يضعه لويد، المتجول فى السماوات(١٩٤). إلا أن عالم المصريات جورج بوزينيه (George Posener) اعتقد أنه كانت هناك Paranomasia بين hns ودمج خونسو كطفل ملكى، والذى ركب اسمه من الشكل h-n-nsw (طفل الملك)، وهكذا يرتبط بهيراكليوبوليس ماجنا أو Nnisw(t) أى مدينة الأطفال الملكيين. وقد أصدر بوزينيه أيضًا على أن خونسو لم يرتبط فقط بآمون، ملك الآلهة، ولكن أيضًا بالملوك الدينويين(١٩٥). والكثير من هؤلاء، مثل آمون ، لهم مقاعدهم الرئيسية فى طيبة، ومن الشائق هنا ملاحظة أنه فى الكثير من الأعراف أن هيراكليس ولد وتربى فى طيبة الإغريقية.

ويشير أيضًا ريتيه وجريفثس ولويد إلى أن خونسو كان مطابقًا جداً لشو، إله الهواء، الذى كان معروفًا بكونه محاربًا شرسًا(١٩٦). وترتبط ضراوة شو بعنفوان الشمس وسط النهار، وهذا بالتالى يوازى حر √hrr بمعنى سفعه وإيرا Erra البطل / نصف الإله(١٩٧). وكانت مهمة شو الرئيسية هى فصل الأرض عن السماء، أو دعم السماء وهذا يوازى أسطورة هيراكليس وأطلس. التى يخدع فيها أطلس البطل فى

جعله يرفع السماء ولكن هيراكليس يخدع العملاق بعد ذلك ويجعله يرفع حمله مره أخرى. وسوف نناقش الأصل المصرى لاسم أطلس فى الفصل الخامس(١٩٨).

والمطابقة بين هيراكليس وشو تقوى عن طريق صراع البطل مع أنتايوس Antaios ، حيث ، مثل شو فى الأسطورة المصرية، يفصل هيراكليس الشر عن الأرض برفعه فى الهواء. وهناك اعتقاد بأن أنتايوس كان يعيش فى ليبيا وأنه ابن بوسيدون(١٩٩) والدلالات المصرية لهذه القصة تأكدت عن طريق شرح جاردينر Gardiner بأن Ґntywy النظير المصرى لأنتايوس ، كان صورة من ستِ. ويقول فى هذا:

" كان الظن حتى الآن أن مطابقة Antywey المصرى بأنتايوس الذى تصوره الإغريق عملاقًا ليبيًا ذبحه هيراكليس- إنما يفترض أنها تعتمد على مطابقة الأسماء، وتوضح المساواة بين ستِ - تيفون المشار إليها آنفًا تظهر أن التشابه بين الأساطير المصرية والإغريقية أكثر مما كان يظن سابقًا(٢٠٠) ".

والتطابق مع ليبيا، مع علاقاتها بنبتون وبوسيدون وانتايوس/ انتيوس يقدم لنا سببًا آخر للربط بين ستِ وبوسيدون. والجدير بالاهتمام أنه ساد فى عصر النهضة اعتقاد، ربما توارثه مع العصور القديمة، بأن هذه المعركة كانت بين هيراكليس المصرى وأنتايوس ملك ليبيا. وقد أشار إليها مكيافيللى Machiavelli فى كتابه "المقالات" Discorses :

إن خرافات الشعراء، التى يظهر فيها أن انتايوس ملك ليبيا، فى صورة الملك الذى لا يقهر أمام هجمات هيراكليس المصرى طالما واجهة باق داخل حدود مملكته، ولكن ما أن يتركها بسبب دهاء هيراكليس حتى يفقد مكانته ويخسر حياته(٢٠١).

ويشبه هيراكليس المنتصر على أنتايوس فى ليبيا كلاً من حورس والفرعون المصرى وشو إلا أن العلماء عند مطابقتهم هيراكليس بشو لا يشيرون إلى أن توتو Tutu ومن ثم Hrk3 كانا صورتين من تجليات شو. هكذا، فجدلهم ينحو إلى دعم احتمال أنَّ الاسم هيراكليس مشتق من Hrk3 .

ولنحاول الآن النظر فى أمر الربة موت Mut أم خونسو. لقد أصبحت هذه الربة مشهورة فقط أثناء حكم حتشبسوت فى الأسرة الثامنة عشرة (١٥٠٣ - ١٤٨٣ ق.م) عندما شيد معبد للثالوث الملكى فى الكرنك، إلا أن الدليل على اسمها ظهر فى المملكة الوسطى[٢٠٢]. وعلى عهد الأسرة العشرين ١١٨٤ - ١٠٨٧ ق.م كانت الربة موت ترتبط بالربة نيت ، ونجد البراهين على التماثل فى العصور المتأخرة[٢٠٣]. وهذا يترك السؤال مفتوحًا عما إذا كانت موت مجرد شكل جديد لنيت القديمة، ولكن يبدو أن الاثنين يمكن تطابقهما فى العصر البرونزى المتأخر. وهنا مرة أخرى، يجب ملاحظة أن شو وتوتو و H(r)k3 كان يُنظر إليهم على أنهم أبناء نيت[٢٠٤].هكذا فإن حالتى التناظر بين كل من نيت وموت وبين أثينا ألالكومينا وألكمينى يماثلان التشابه بين شو و Hrk3 وبين هيراكليس.

هيراكليس وفراعنة المملكة الوسطى

عند هذه النقطة ، يجب أن نأخذ فى الاعتبار هيئة أخرى لهيراكليس كصورة إغريقية لفرعون المملكة الوسطى (٢١٠٠ - ١٨٠٠ ق.م) إذ على الرغم من أن البطل الإغريقى - كما سنرى لاحقًا - كان يشبه فراعنة كل من المملكتين القديمة والوسطى فى أشياء مثل الرى، فإنه يشبه فراعنة المملكة الوسطى بصفة أخص. وكان الاعتقاد السائد أن هيراكليس أتى من طيبة الإغريقية أو فى تجسيدات أقدم من مصر أو بصفة خاصة فى طيبة المصرية[٢٠٥]. لقد كان معروفًا أن فراعنة المملكة الوسطى شأنهم شأن شو أتو من إقليم طيبة وكان بعض الإغريق يعتقدون ، طبقًا لتراث إغريقى واسع الانتشار، أن بعض فراعنة الأسرة الثانية عشرة كانوا فاتحين عظامًا وأن جيوشهم امتدت من ليبيا وأثيوبيا أى سيكثيا Scythia وكولخيس Colchis فى منطقة القوقاز.

بالرغم من أن العلماء المحدثين يعترفون بحقيقة الغزوات المصرية فى النوبة فى عهد المملكة الوسطى والبعض مستعد للقول بسيادة مصرية على أجزاء من سورية وفلسطين، فإنهم غير مستعدين للقول بإمكانية أى من الغزوات الواسعة التى عزاها هيرودوت وديودوروس إلى سيزوستريس، فرعون الأسرة الثانية عشرة Senwosre I

سنوسرت الأول ، أو أن لها أى ظل من الحقيقة. إلا أننى سوف أناقش هذا الاحتمال بالتفصيل فى الفصلين الخامس والسادس. وإذا سلمنا بهذه الحجج، فلن تكون هناك صعوبة فى اعتبار هذه الفتوحات كأساس لهيئة هيراكليس الأسطورية كفاتح. ولكى نقوم بهذا الربط فإننا نحتاج فقط إلى قبول حقيقة الفتوحات الجنوبية، بالرغم من احتمال الاعتراض بأن الإغريق فى الألف الثانية ربما لم يسمعوا بهذه الأحداث البعيدة، فإنه، فى المقابل، يبدو أن فاتحى المملكة الوسطى كانوا عظامًا جداً لدرجة أنهم أوحوا بصورة هيراكليس الفاتح.

لقد كان الاعتقاد السائد أن فراعنة الأسرة الثانية عشرة شأنهم شأن هيراكليس والأبطال الإغريق المتأخرين يحتلون الحدود الفاصلة بين الإنسانية أو الفنائية بين الألوهية. ويزعم هيرودوت أن هيراكليس كان إلهًا مصريًا فى العصور القديمة وأن البطل هيراكليس كان صورة متأخرة جداً[٢٠٦]. ويؤكدون فى موضع آخر أن الديانة المصرية لم تكن بها عبادة الأبطال[٢٠٧]. ويؤكد ألان لويد أن المصريين ألهوا فقط: العلماء والحكماء والسحرة ونوى المقدرة الفذة، مثل هذا الاختلاف فى الموقف هو بالطبع اختلاف رئيسى فى المزاج بين ثقافتى كل من اليونان القديمة ومصر القديمة[٢٠٨].

ويبدو أن لويد هنا ليس راغبًا تمامًا فى إيجاد وجه للتمايز وواقع الأمر أن المصريين دأبو على أن تكون الآلهة من طبقة مختلفة تمامًا عن البشر، أى الفراعنة. وهؤلاء ، مثل الأبطال الإغريق، كانوا من دم ملكى وينظر إليهم باعتبارهم يعملون على إنجاز الأعمال الهائلة والشجاعة. وقد أصبحت هذه المهابة قوية فى الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، وأبدت الأجيال المتأخرة إجلالاً خاصاً للشخصيات المقدسة أمثال أمنحتب الثانى وأمنمحات الأول والثانى وسنوسرت الأول والثالث ، وهذه العبادات كانت نشطة فى العصور المتأخرة. هكذا، فهذه الآلهة التى كان لقبها يبدأ بـ Hr وكثيراً ما كانت تكرره، هى نسبياً شبيهه بهيراكليس، والأكثر من هذا ، ففى ذروة عهد الأسرة الثانية عشرة كانت هناك عادة حكم الفراعنة جنبًا إلى جنب مع ورثتهم. وهكذا فالربط بين خونسو وأرسافيس (Arsaphes) وهيراكليس فى مصر بالأطفال الأبطال الملكيين يتلاءم جيداً وكل من هيراكليس والأبطال الإغريق الآخرين[٢٠٩].

وكان المفترض أن هيراكليس ، شأنه شأن جلجامش، كان يعمل وحده أو مع رفيق واحد تابع له، وهذا على عكس أخيه غير الشقيق ديونيسوس (سنناقش انحدار انتصاراته من انتصارات سنوسرت فى الفصل الرابع) الذى قام بغزواته على رأس جيش، ويبدو أن هذا يميز هيراكليس عن الفراعنة المصريين بجيوشهم الضخمة، فيما عدا الدعاية المصرية الموجود بالنصوص التى صورت الفتوحات كما لو كانت تعزى للفرعون نفسه بمساعدة بسيطة من جيوشه وسبق أن أشرنا إلى دور هيراكليس كصياد للوحوش الضخمة، وهذا أيضًا له تواز بالفراعنة المصريين الذين اشتهرت رحلات صيدهم الرائعة فى الصور والنقوش. وقد أشار الكتاب الإغريق أيضًا إلى قدرة سيزوستريس على الصيد[٢١٠].

هيراكليس كمهندس رى

وهناك أيضًا توازيات هامة بين الأنشطة المذكورة عن فراعنة الدولة الوسطى والدولة القديمة وبين خاصية محيرة بعض الشىء لهيراكليس ودوره كمهندس رى. وبالرغم من كونه شىء طبيعى جداً بالنسبة للأبطال أن يخضعوا لأعداء ويقتلون الوحوش، فإن حفر القنوات والأنفاق أمر أقل اعتياداً، إلا أن هذا هو أحد الموضوعات المتكررة جداً فى الأساطير التى وردت عن هيراكليس.

ويتضح من خاتم من منطقة ما بين النهرين أن صورة بطل يشبه جداً هيراكليس وهو يقتل وحشًا بسبعة رءوس ويرجع تاريخها إلى الألف الثالثة. وترتبط الأساطير الأوغاريتية هذا بقتل التنين ذى الرؤوس السبعة (Lodon) والذى يرتبط بوضوح بالبحر الأدغاريتى وبإله النهر يم (Yam(m)[٢١١] ، إلا أن قتل هيراكليس لهيدراء (الماء) ذات الرؤوس الكثيرة فى إنجازه الثانى يشتمل على صورة موزعى السدود أو مصبات الأنهار المختلفة وهندسة الرى[٢١٢]. وقد نظف هيراكليس الأسطبلات الأوجية وهو الانجاز الخامس له، وذلك عن طريق تحويل نهرى ألفيوس Alpheios وبنيوس Peneios خلالها. وقتل البطل للطيور الاستيمفالية التى كانت تقذف برازًا مسممًا، من المحتمل أنه ارتبط بالقصص الأخرى عن تجفيف المستنقعات الآسنة. وهنا يجب الإشارة إلى

أن، كما هو الحال بالنسبة للاسطبلات الأوجية، أحد الأنهار فى هذه الأسطورة كان يسمى بنيوس **Peneios** وهو ما سأناقشه فى الفصل القادم، يشتق اسمه من **p3nw** بمعنى فيضان فى اللغة المصرية(٢١٣). فى إنجازه العاشر، حجز هيراكليس نهر ستريمون **Strymon** لكى يدفع مخزونه إلى الوطن، وفى إنجازه الحادى عشر يقتل الوحش لادون الذى ناقشنا طبيعته النهرية آنفًا، ولعل هذا يعد جانبًا لقصة الطفل هيراكليس وهو يخنق الحيتين، والتى أصبحت رمزًا لطيبة على عملاتها. وترمز الحيتان للنهرين الجاريين عبر طيبة، وأحدهما هو لادون(٢١٤). وفى اتجاه معاكس، هناك فكرة قوية لكون هيراكليس قد حول نهر كفيسوس **Kephissos** ليصب فى بحيرة كوبائيس(٢١٥).

وسبق أن أشرنا إلى احتمال أن هذه الخاصية لهيراكليس يمكن أن تمت بصلة بطريقة أو بأخرى للجذر السامى (**√hrr √hrr>**) بمعنى تجويف النفق . من المحتمل أنه مرتبط بتطابق مع " الذى فوق بحيرته " **Hrys-f/ Arsaphes** ، إلا أن أوضح التوازيات يبدو أنه مع فراعنة الدولة الوسطى.

وروى هيرودوت أن الملك مينا (**Min**)كان قد شيد سدودًا لحماية ممفيس عند رأس الدلتا(٢١٦). وكتب أن فاتح الأسرة الثانية عشرة العظيم سيزوستريس استعمل أسرى الحرب فى أعمال التشييد والرى الضخمة(٢١٧). ويلمح هرودوت أيضًا إلى أن الفرعون امنمحات الثالث بانى قصر التية (اللابيرانث)، وهو أيضًا من الأسرة الثانية عشرة، كان مهتمًا أيضًا بالرى(٢١٨). وقد أسهب ديودوروس فى وصف التقريرين الأخيرين. إذ يصف بدقة كيف أن أمنمحات كان قد جفف الفيوم واستعملها لتنظيم منسوب النيل(٢١٩). وأشار أيضًا إلى نشاط سيزوستريس - وهو يطلق عليه سيسوسيس **Sesoosis** - فى مجال حماية المدن من الفيضان وفى مجال تحسين الرى(٢٢٠).

هكذا نجد تشابهات بين صورة هيراكليس مهندس الرى والتصور الإغريقى الكلاسيكى، عن فراعنة الأسرة الثانية عشرة الذين تعهدوا بالرى واستصلاح الأرض، فى الواقع، ما من شك فى وجود تطابقات قوية بين صور هؤلاء البشر المؤلهين كما تصورهم المصريون والإغريق فى العصور الكلاسيكية وبين صور البطل هيراكليس.

وقد أوضح أمين المكتبة إراتوستنيس Eratosthenes هذه التشابهات، إذ وصف ملك طيبة السادس والعشرين بأن " سيمفروكراتيس Semphroukrates " الذى هو هيراكليس هربوكراتيس" ووصف الملك الرابع والثلاثين بـ " سيستوسيخرميس Sistosichermes ، هيراكليس الشجاع". ومن الصعب مطابقة سيمفروكراتيس Semphroukrates ولكن يبدو أنه ينتمى إلى الدولة الوسطى. وبتتبع الإشارات إلى امنمحات الأول والثانى، اعتبر العلماء المحدثون سيستوسيخرميس إشارة إلى سيزوستريس الأول أو الثالث أو كليهما[٢٢١]. وكتب ريتشارد لبسيوس Reichard Lepsius عالم المصريات من القرن التاسع عشر، مقالاً مفصلاً عما رآه من مظاهر تطابق بين سيزوستريس وهيراكليس، ويقرر أن الروابط الأسطورية بين كليهما (هيراكليس وسيزوستريس) كانت واضحة ومتعارف عليها[٢٢٢] من وجهة نظر الناقد المصرى القديم.

وحرى بنا أن نتذكر أن هيراكليس يرجع وبوضوح إلى عصر ما قبل السيوف والعجلات الحربية. وبهذه الطريقة، كان مختلفًا عن فراعنة الدولة الحديثة (١٠٧٠ - ١١٠٠ ق.م) الذين استعملوا العجلات الحربية إما فعلاً أو رمزاً، ومثل هيراكليس، ارتدى فراعنة الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة جلد الأسد ، وكانوا يظهرون وفى أيديهم الهراوات المشهرة[٢٢٣]. وحدث تألية فراعنة الدولة الوسطى أثناء، أو بعد عهودهم مباشرة[٢٢٤]. ولم يكن تفسيراً لاحقًا. هكذا، فهذه الخاصية لطبيعة هيراكليس محتمل أنها كانت رئيسية فى الأسطورة التى نشأت فى العصر البرونزى، أى قبل ١١٠٠ ق.م. وبينما كان فراعين الأسرة الثانية عشرة تحت حماية آمون بصفة خاصة، الذى كان الإله الملكى لطيبة والأب المقدس لهم، كان هيراكليس ابن زيوس، الذى كان فى طيبة الإغريقية مطابقًا جداً وبصفة خاصة لآمون، والأكثر من هذا، فحيث كان فرعون الأسرة الحادية عشرة المدعو امنحتب مكرسًا لمونت Mont أو Mntw ، وكان هيراكليس بمعنى أو بآخر ابن رادامانثيس الذى كان النظير الإغريقى لمونت، وهذا ما سوف نناقشه فى الفصل الرابع وسبق أن ناقشنا تطابق أثينا مع ألكمينى وما من شك فى أن أثينا فى الأساطير الإغريقية كانت تساعد وتساند هيراكليس بصفة مستمرة.

وبالمثل، هناك دليل واضح على كون نيت حامية لأمنحتب الثانى، وثمة سبب بسيط للشك فى أنها كانت تقوم بنفس الوظيفة بالنسبة لفراعنة الأسرة الثانية عشرة[٢٢٥].

وبينما تهكم العلماء المُحدثون على روايات كل من هيرودوت وديودوروس عن فتوحات سيزوستريس، نجد دليلاً تفصيليًا من النصوص والآثار مما يدعم وبقوة رواياتهم عن انتصارات المختصين بالماء فى الدولة الوسطى. وبالرغم من أن العمل الأكبر فى تجفيف بحيرة الفيوم الكبرى كان فى عهد الأسرة الثانية عشرة، فإن العُرْف جرى على وضع بداية الرى فى مصر مع أول فرعون أى مينا الذى حكم حوالى عام ٣٤٠٠ ق.م، وهو ما يبدو دقيقًا، وأيضًا هناك دليل أثرى على وجود سدود من الدولة القديمة (٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م) . وقد وُجِدَ دليلٌ واضحٌ على إنشاء القنوات من قبل الفرعونين سنوسرت الأول والثالث، المعروفين بكونهما النموذج الأصلى لسيزوستريس، ويصدق نفس الشىء على أمنمحات[٢٢٦] Moeris . والاسم Moeris يبدو أن له مصدرين ، أولاً، هناك اسم المكان (Mrwr) بمعنى البحيرة الكبيرة أو القناة الكبيرة، وهو ما أُطلِقَ على بلده بالقرب من ثغر الفيوم؛ ثانيًا، الاسم NemaГreГ، فرعون الأسرة الثانية عشرة المعروف عامة بأمنمحات الثالث الذى تعهد فعلاً بأعمال رى مهمة فى الفيوم[٢٢٧].

هكذا، فإن فكرة المنجزات الفعلية لهؤلاء الفراعنة قد لعبت دورًا مهمًا فى تكوين هيراكليس الأسطورى وهو ما يجب أن نأخذه مأخذ الجد.

هيراكليس بوصفه فرعونًا من الدولة الوسطى فى بؤتيا

فى الأساطير الإغريقية، كان هيراكليس أساسًا بطل من طيبة، وكانت طيبة عادة هى مسقط رأسه ومسرح الكثير من منجزاته المبكرة. كما كان معبودًا أيضًا فى أماكن أخرى من بؤتيا. وفى هذه المرحلة، لعله من المفيد أن ننظر إلى بعض هذه العبادات بحثًا عن أية دلائل على وجود علاقات مع مصر أو فراعنة الأسرة الوسطى بصفة خاصة.

مدينتان فى غرب بؤتيا لهما اسم مشابه بطريقة واضحة وهما تيسبياى Thespiai وتيسبى Thisbe وكلاهما كانت بها عبادة هامة لهيراكليس. وكما أوضح أستور، فكل من الاسمين له أصل مقبول من اسم حرانى لرب العاصفة Tessub [٢٢٨] . وفكرة تأثير حرانى على بؤتيا فى العصر البرونزى فكرة محتملة، أولاً، بسبب احتمال وجود عناصر حرانية بين الهكسوس، الذين استعمروا فى البحر الإيجى، وثانيًا، بسبب التأثير الأناضولى فى نهاية عصر البرونز. وسوف نناقش هذه المسائل فى الفصلين التاسع والحادى عشر.

والعلاقات الخاصة بين مثل هذا التأثير الحرانى وعبادة هيراكليس يوحى بها اسم زوجة البطل، وهو هيبى Hebe وأثبت عدد من العلماء أن اسمها لا يعنى فقط "الشباب" كما وأن عالم اللغة الألمانى بول كرتشمير Paul Kretschmer يربطها بطريقة مقنعة بهيبتا Hipta الموجودة فى اثنين من الأناشيد الأورفية Orphic ، كما أوضح أن كليهما لابد وأنه مُشتَق من زوجة Tessub الربة Hebat الحرانية[٢٢٩]. والربط بين هيراكليس و Te??ub يمتد بلا شك إلى أناتوليا وجنوب القوقاز. إلا أنه ليس من الضرورى أن يبعده عن فراعنة الدولة الوسيطة. وكما سوف أناقش فى الفصلين السادس والحادى عشر، فإن فتوحات سنوسرت الأول فى هذه الأقاليم قد تركت أثرًا للفرعون المرتدى التاج الأبيض لمصر العليا على رسومات كل من الملكية و " الإله الضار " الشهير جداً Tessub .

وقد أسس باوسانياس Pausanias عبادة هيراكليس فى ثيسبياى Thespiai فى زمن أقدم من زمن هيراكليس ابن أمفيتريون، وينتمى إلى من كان يدعى (قديمًا) هيراكليس الذى وجدت مقدساته فى إثراى Erythrai بإيونيا وفى صور[٢٣٠].

سبق أن أشرنا إلى عبادة هيراكليس Melqart فى صور. وطبقًا لباوسانياس، "فإن تمثال هيراكليس فى إرتريا Erythrai لا يشبه التماثيل التى يسمونها Aiginetau أو أقدم تماثيل الأثينية، ولكنه مصرى محض بطريقة لم يسبق لها مثيل"[٢٣١]. وجدير بالذكر أنه كان هناك سداً ضخمًا للتحكم فى المياه ومد الأرض بها فى ثيسبياى Thespiai وثيبى Thisbe ، وأيضًا كما هو الحال فى كوروينا Koroneia كان هيراكليس

معروفًا باسم Heracles Kharops , Kharops أو غالبًا Kharops Herakles . والصفة يبدو أن معناها " لامع العينان " إلا أن ثمة احتمالاً آخر وهو أن الاسم متصل بـ Kekrops المؤسس الأسطورى لأثينا ، والذى كان له معبد فى هاليارتوس أيضًا. وسوف نناقش بمزيد من التفصيل كيكروبس فى الفصل الثالث ولكن يكفى هنا القول بأن الاسم ربما يكون له صلة بـHprk3RΓ, HΓk3wRΓ, HΓhpr or وهى الأسماء الأولى لسنوسرت الأول والثانى والثالث.

وهكذا توجد علاقات محتملة لهيراكليس *البؤتى* بمصر *إبَّان الأسرة الثانية* عشرة .

النتيجة

لقد تعلق هذا الفصل بجزء صغير من الدليل على وجود علاقات وثيقة ودائمة بين بؤتيا وأركاديا والشرق الأدنى فى عصر البرونز. فيما بعد فى هذا المجلد، سأقوم بدراسة اشتقاقات مصرية وسامية جديرة بالتصديق لأسماء أماكن كثيرة هامة فى بؤتيا بما فى ذلك كوبائيس Kopais وكفيسوس Kephissos وأرخومينوس Orchomenos ومينيان Minyan وطيبة Thebes نفسها. وفى الفصل الرابع سأنظر فى التناظرات الأسطورية المعقدة أيضًا بين مخلوقاتت مثل أبى الهول المصرى والبؤتى، وبين عبادات الشمس لحورس وأبوللون وبين تم Tm وأرتميس، وأيضًا بين أوديب والمصرى K3MWt.f بمعنى ثور أمه. وهنا اهتممنا إلى حد ما بهؤلاء المختصين بالمياه الجوفية والرى والصرف.

وكما رأينا، فعبادات أثينا القديمة على شاطئ بحيرة كوبائيس وفى طيبة تبدو موازية للأساطير المحيطة بنيت Neit كربة للمستنقعات واستصلاحها. كما توجد أيضًا تشابهات بين تنافسها مع بوسيدون والصراع بين الزراعة والطبيعة فى مصر وليبيا. وعبادة أثينا أونكا فى طيبة توحى بتماثل نيت / أثينا بنفثيس / برسيفونى/ إرينيس

من خلال أنوكيس Anukis المصرية والعلاقات بالفيضان والتحكم فى المياه كما يبدو أيضًا أن هناك علاقات بين Γnkt/Onka و ΓΤk/alke تربط بين اسمى Onka و Alkemene وعبادات أثينا فى إتونيا Itonia ذات الصلة بألالكومينا Alakomena . تشير إلى تطابق بين أثينا وألكمينى Alkmene ، وزواج أمون /زيوس بأم هيراكليس، فى مصر، كانت تقدم نيت على أنها الأم المقدسة لمنتوحوتب الثانى Menthotpe II من الأسرة الحادية عشرة.

من الواضح أيضًا أن البطل الطيبى هيراكليس هو شخصية معقدة خُلِقَت من مصادر كثيرة، وبالرغم من احتمال أنها ليست أقدمها- كما يفترض الإغريق- فإن المصادر المصرية كانت أساسية فى تكوينه. فمن ناحية كانت هناك الآلهة – شو (Shu) وأرسافيس (Arsaphes) / (Hry s-f) ، ومن ناحية أخرى فراعنة الأسرة الوسطى. فأرسافيس والفراعنة، كما رأينا، يمثلون معظم الخلفية لمآثر هيراكليس كمهندس رى.

وهكذا ، فليس هناك فقط توازٍ بين بحيرة كوبائيس ومصر كما شوهد فى العصر البطلمى، ولكن هناك أيضًا تشابهات معقدة بين الأساطير المصرية وعبادات أثينا فى بؤتيا، كما توجد أيضًا تطابقات بين أساطير هيراكليس كمهندس رى وبين المنجزات الخيالية والحقيقية لفراعنة الدولة الوسطى فى الصرف والرى. وككل يبدو أن هناك دليل واضح على افتراض أن عمال الرى القدماء فى بؤتيا بصفة عامة وعند بحيرة كوبائيس بصفة خاصة كانوا على صلة بعمال مصر بطريقة أو بأخرى.

بعض الأساطير التى نوقشت يبدو أنها تنتمى إلى عصر البرونز المتأخر. وقد أشار إليها هوميروس وهسيودوس، مبينين أنها وُجِدَت على الأقل فى القرن العاشر، ولكنهما يقدمان أدلة على أنها لم تكن قبل القرن السابع عشر ق.م. وأوضح أمثلة على هذا هو الأساطير التى تشير إلى بوسيدون وإرينيس كخيول، حيث أن ، كما أشرنا آنفًا، الخيول لم توجد بأعداد يعتد بها فى الشرق الأوسط ومنطقة بحر إيجه قبل القرن السابع عشر قبل الميلاد. وربما انطبق الشيء نفسه على ثلفوسا/ تلفوسا Telphousa/Thelphusa فى صلتها بالأسماء T3ldyw, Rb and libus وعلى الرغم من أن ليبيا كانت معروفة بالجياد لدى الشعوب الإيجية على الأقل منذ الألف الثالثة. فإن

هذا الاسم وعلاقة البلد بالجياد ظهروا فقط فى النصف الثانى من الألف الثانية. وبالمثل، فالأسماء التى من الواضح أنها حرانية (*) ألا وهى ثيسبى / ثيسبياى وهيبى Thisbe/ Thespiai and Hebe ؛ فمن الممكن أن تكون قد ظهرت لأول مرة بعد وصول الهكسوس، وهو ما سوف أناقشه فى الفصل التاسع، الذى حدث فى نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد. ومن المحتمل أيضًا أن الأساطير المحمومة حول أوجيجوس Ogygos قد ظهرت فقط بعد بركان ثيرا عام ١٦٢٨ ق.م(**).

ولأسباب سوف تتضح لاحقًا، فإننا نبحث عن آثار أسطورية وثقافية لعصور أقدم. وكل ما يمكن قوله هنا هو احتمال أن الأساطير الأساسية عن هيراكليس وألكمينى وردمانثيس تأتى من انعطاف الألف الثانية. ومن ناحية أخرى، فالبعض، مثل العبادة الأولى لأثينا وبوسيدون فى بيوتيا، ممكن أن تكون أقدم. ولتحديد العصر المحتمل لهم فمن الضرورى أن نفحص الدليل الأثرى الذى سيناقش فى الفصل التالى.

(*) حرانية هذه هى نسبة إلى أرض حوران أو حران التى عاش بها سيدنا إبراهيم عليه السلام. (المترجمة).

(**) هذا تاريخ غير دقيق للبركان. وقديم جدًا، حيث يجمع علماء الآثار (منذ مطلع السبعينيات وحتى الآن)، على أن البركان قد وقع حوالى عام ١٤٥٠ ق.م . راجع / Marinatons, Thera (I- VII) (المحرر) وكذلك انظر/ محمود السعدنى، تاريخ وحضارة اليونان، القاهرة ٢٠٠٠م (ثيرا ولوحاتها الجدارية) ص ٥٥ – ٥٨ .

هوامش الفصل الثانى

(1) Theophrastos, Peri phyton historias, IV. 10 ; IV. 59; peri aition, II. 12.4 ; Pliny, Natural History II. 95 and XIX. 1.2.2; Plutarch suka 20.3-5.

وعلينا أن نرى هذه المراجع فى ضوء .Heroadotos II. 156 . ويجب أيضًا التنويه إلى أن سرابيس وأمون وإيزيس وأنوبيس كانوا يعبدون فى طيبة فى العصرين البطلمى والرومانى وإلى أنه كان هناك مركز عبادة لسرابيس فى تناجرا Tanagraجنوب بؤتيا. انظر (Spyropoulos (1972 p. 25 . ومثل هذه العبادات كانت منتشرة انتشارًا واسعًا فى بلاد اليونان.

(2) Müller (1820 - 4, I, p.92).

(3) Müller (1820 - 4, I, p.93).

(4) For the Kopais and Kephis(s)os, see ch. III, nn. 94-7. For Minyan, see ch,III, n. 48, and Volume 3. for Thebes, see ch. XII, nn. 49-52.

الميناثيون هم مهاجرون وصلوا إلى اليونان فى القرن الثالث عشر ق.م أى قبل الغزو الدورى مباشرة.

اللابيث هم مجموعة من العماليق جاء ذكرهم فى الأساطير عند كل من هوميروس وهيسيودوس ودخلوا فى صراع مع آلهة الأليمبوس.

(5) Iliad, XIV. 321-5, tr. A.T. Murry, II, p.91.

(6) Schachter (1981, p.16) .فى طيبة . يرى شاختر أن عبادة الاثنين كانت متوازية

(7) Volume I, p.95.

(٨) يشتق Chantraine هذا من الكلمة اليونانية Selas بمعنى نار أو ضوء الشعلة. إلا أنه لا يجد اشتقاقًا مقبولاً لهذا. وثمة علاقة بين Selas وبين الكلمة الديموطيقية Sl-Sol فى القطبية بمعنى شعلة. وهذا الجذر لا يوجد فى اللغة المصرية القديمة ويقترح Cerny أن Sol تأتى من الكلمة السامية s<l.Sa<ala وتعنى فى العربية شعلة. وهكذا يكون أكثر الافتراضات احتمالاً هو أن كلاً من اللغتين الديموطيقية واليونانية استعارت من كلمة سامية غربية غير محققة هى Sal بمعنى نار أو لهب أو شعلة أو منارة.

(9) Astour (1967 a, pp. 170-2) . ولكى تجد نقدًا جادًا لهذا Burton (1972, pp 102-3) .انظر

عن أهمية رعاية الماشية فى أصول الحضارة المصرية انظر :

(10) Hoffman (1979, pp. 236-7)

(11) Pausanias, IX. 16.1.

(12) See Volume 1, p. 114.

(13) See Rank (1935 - 52 , I, p. 226).

(14) Gardiner (1957, pp. 428-30).

(15) Herodotos, II. 43.

(16) Tzetzes, Scholiast on Lykophron. وقبل بهذا أيضًا أبوللودوروس Apollodoros, II. 4. 12; see the discussion in Frazer (1921, I, p. 183, n.I).

(17) Strabo, IX. 2.18.

(18) Pausanias, IX. 33.1.Schachter (1986, p. 113) Roesch (1982, p.214)

وفكرة أن كيكروبس كان آخر ملوك أثينا كان قد عارضها روش وأعتقد أن روش على حق واعتقد أن تفسير باوزانياس مقبول ولكنه غير صحيح هنا

(١٩) انظر فوسى (Fossey (1974, p. 15, n. 40 الذى يستشهد ببحث شاختر.

وانظر شاختر (Schachter (1981, p.114, n. 3 الذى يستشهد بمقالة فوسى.

(20) Fossey (1974, p. 15, n. 40)

(21) Schachter (1981, p. 113).

(22) Strabo, IX. 2.29 see also Pausamias, I. 13.1 and X.1.10 and Farmell (1895-1909, I, pp. 402 - 3, n.61).

(23) Sayed (1982 I, pp. 71-2, 106-14).

(24) Keimer (1931, pp. 151-9); Hollis (1988, pp. 1-3).

(25) See ch. I, n. 58. for more, see Volume 3.

(26) Strabo, IX. 2. 29.

(27) Movers (1941 - 50) II, 1, p. 258) and Berard, les Pheniciens et l'Odyssee, 2nd ed., II, p. 337 not in (1902 -3) See Asthour (1967, p. 140).

(٢٨) استعمال Kothon بمعنى كأس كبير للشرب يمكن إما أن يشير إلى ميناء قرطاجى أو أن يكون مثلاً على مسرح الجنود. وللمزيد بخصوص هذا الاشتقاق انظر (Brown (1969, p. 157 .

(29) Schachter (1981, p. 113); Iliad, IV. 8 and V. 908.

(30) Schachter (1981, p. 113).

(31) Pausanias, IX. 5. 1.

(32) Pausanias, I 38.7. Varro, Res rusticae. 3. 1. 2.

(33) Meyer (1928 - 96, II, p. 194). See also Fonten vase (1959, pp. 236-7).

(34) Aischylos, the Persians, II. 37 - 40.

(35) See below, ch VII, nn. 122 - 3.

(36) See Pope (1981, p. 170).

وفى الفصل الرابع ستكون هناك مناقشة أكثر للعلاقة بين الرفائيين The Rephaim ومساكنهم الطينية والعمالقة الإغريق، الذين يتصل اسمهم بالكلمة اليونانية titanoi بمعنى رجال الطين او الجبس، ويقترح أستور (Astour (1967 a , pp. 196 - 7,n.3 أنها تأتى من كلمة سامية بمعنى طين أو وحل وهى موجودة فى اللغة الأكادية وتكتب Titu . وأدين لسكوت نوجل Scott Noegel بكل الجزء الخاص بالعلاقة بين اوج Og و اوجيجوس Ogygos . وانظر أيضًا (West (1971, p. 41 .

(37) Astour (1967 a , pp. 236 - 7).

حيث يعرض للعلاقة بين <the Rephaim rp بمعنى يشفى والملاك الرئيسى رفائيل من ناحية، والثعابين من ناحية أخرى.

(38) Pope (1981, p. 170)

(39) deuteronomy 3.11.

(40) Ezekiel 38, 39, وفى أماكن أخرى

(41) Midrash Bereshit Raba 31. 13; Sanhedrin 108 b; Targum Yerushalmi Dt. 2. 11, 3.10; Yalcut Reubeni on Gn. 7. 22.

(42) Astour (1967 a, p. 212).

(43) Isaiah 54. 9.

(44) Erman and Grapow (1982, 1, p. 376). It is hot, lowever, in Lesko and Switalski - lesko, 1982 - 90.

(45) Gauthier (1925 - 31, I, p. 208).

(46) Ezekiel 39. 18.

(47) Astour (1967 a , p. 212).

(48) Zebahim 113b ; Sanhedrin 108b; Rosh ha-Shanah 12a; Yerushalmi Sanhdrin 10, 296; Yelmmadena in Yalkut 11508 on Tsaiah 64 11.

(49) Schachter (1981, p. 113).

إذا يرفض الصلة بأوديسيوس كخيال محض وربما يكون محقًا. إلا أنه، بينما يعنى اسم أوديسيوس ببساطة (المسافر)، نجد الكلمة المصرية wd(yt)w وهى من wdyt بمعنى حمله أو رحلة او معسكر. وهذا أيضًا ممكن أن ينطبق على هيراكليس الذى سنناقش علاقته المكنة بالعبادة لاحقًا.

(50) Pausanias , IX. 33. 7. Pausanias, VIII. 26. 5-6.

حيث يقرر أن الأركاديين عندهم أيضًا نهر اسمه Triton بالقرب من عبادة أسكليبيوس وأثينا . ومن المثير أنه كان فى Peneos ، التى كما سنرى لاحقًا تشتق اسمها من الكلمة المصرية P3nw بمعنى الفيضان . ومن أجل إشارات أخرى إلى ميلاد أثينا وأنشطة أخرى قرب Triton انظر: (Farnell (1895- 1909, I, pp. 266- 9; 385- 6, n. 16

(51) Herodotos , IV. 178.

(52) Apollonios Rhodios, IV. 149 ; Diodoros, III. 53. 4 ; Plsny, Natural History, V. 28.

(53) For the derivation of tr frpm twr, see Erman and Grapow (1925 - 31 , V, pp. 255 and 318).

(54) Schachter (1981, p. 113).

(55) Lactantius on Statius, thebaid, VII. 330. See Schachter (1981, p. 112).

(56) See Farnell (1895 - 1909, I, pl. xv) and Schachter (1981, p. 122).

(57) Schachter (1981 - pp. 120 -1).

(58) Sayed (1982, I , pp. 101 - 6). For the coin and the statue at Priene, see Farnell (1895 - 1909, I, p. 338).

(59) Sayed (1982, I, pp. 51 - 62).

(60) Sayed (1982, I, pp. 31-2).

(61) Pyramid Texts 508-9. Sayed, Doc. 196 (1982, T, pp. 31-2).

حيث يقدم مراجع لكل الترجمات المنشورة.

(62) Sayed (1982, I, pp. 61 - 62; II, pp. 319 - 20, Doc. 287).

(63) Sayed (1982, I. Pp. 67-9). See also Hollis (1987b, pp. 8-9).

(64) For Neit's warlike triumph over Seth and Apopi, see Sayed (1982, I, pp. 72-6). For the identification of Seth with Poseidon, see Volume 1, pp. 66- 7). I will be discussed further in Volume 4.

(65) Farnell (1895 - 1909, I, pp. 270 -1).

(66) See Volume 1, pp. 303 - 6 , 320.)

(67) Burkert (1985, p. 221).

(68) Burkert (1985, p. 221).

(69) For Seth's characteristics, see Rundle - Clark (1959, pp. 14-15).

(70) Fontenrose (1959).

(71) Burkert (1985, p. 221).

(72) Schachter (1986, pp. 211 - 14).

(73) Pausanias, IX. 33. I ; Strabo, IX. 2. 36.

(74) Thebais schol. On Iliad, XXIII. 346 - 7.

(75) Pausanias, VIII. 25. 4-7 and 42.1. see also Berard (1894, pp. 136-7).

(٧٦) يبدو أن العلاقة تتأكد بوجود Erion مختلف على عمله أركادية. انظر Schachter (1986, p. 222, n. 5). وربة الشقاق Eris التى ليس لها اشتقاق هندو - أوروبى ، ربما تشتق من الجذر السامى الغربى hrr بمعنى يحرق، يضرم النار، وهو يستعمل بمعنى يضرم الشقاق، وللمزيد عن هذا الجذر ، انظر أدناه تحت هيراكليس.

(77) Fontenrose (1959, p. 368, n. 5).

(٧٨) هذا والمتشابهات مع Mary Magdalene سوف تناقش بالتفصيل فى الفصل الرابع.

(79) For the Osiran version, see Plutarch, De Iside.... 356 and 366 B-C. for Seth's paternity, see Budge (1904, p. 378) and Graefe on unpublished sources (1984, IV, col. 459, n. 20).

(80) See Berard (1894, pp. 136-7) and Fontenrose (1959, pp. 46, 421).

(81) Hymn to the Pythian Apollo, 244 - 76.

(82) B'erard (1894, pp. 136-7).

(83) Fontenrose (1959, pp. 47 esp n.5). For the relation between ge and Demeter see Volume 1, p. 57.

(84) For a bibliography on this see Snowden (1970, pp. 307 - 8, n. 6).

(85) Andr'e (1948, pp. 44 - 53).

(86) See ch. IV, n. 99 and ch. X, n. 9.

(87) Lewy (1895, p. 139) and Astour (1967 a, p. 130).

يفضل علماء اللغات الهندو - أوروبية اشتقاق erebos من الجذر reguos بمعنى مظلم وهو موجود فى السنسكريتية والآرامية. وثمة كلمة أخرى سامية تقابل كلمة غرب هى aharon وتظهر فى اسم المكان Acheron وهو النهر المرتبط بالموت فى العبادة والأساطير ويقع جغرافيا فى أقصى الشمال الغربى لبلاد اليونان. انظر :

Astour (1976 a, p. 314)

(88) Plutarch De Iside,..., 366 B. Trans. Babbit, p. 93.

(89) Knauss (1987 a, pp. 43-6; 1987 b, p.3).

(90) See, for instance, Fontenrose (1959, pp. 177- 81).

(91) Fontenrose (1959, pp. 370-2).

(92) Astour (1967 a. pp. 226-7 ; 250-71).

(93) Hesiod, Theogony, 282 - 3.

(94) Strabo, 1 X. 2. 25.

(95) B'erard (1894 p. 116).

وهو يتفق مع Bochart فى اشتقاق الاسم من √pgh بمعنى كبح – يكبح. وهذا يبدو مقبولاً فى ضوء الأسطورة القائلة بأن أثينا قد وضعت لجامًا على بيجاسوس. وهذا الشكل ليس معترفًا به فى التوراة العبرية. إلا أن Pag تعنى أحيانًا حبل المشنقة و Paga تعنى الشكيمة وهى تظهر فى الآرامية والعبرية الحديثة من العصر الأول الميلادى ومن المحتمل جداً أن الجذر قد وجد قبل ذلك بكثير. وبعد اعطاء الاشتقاق السامى لبلروفون Bellerophon يبدو من المحتمل أن هذا الجذر لبيجاسوس قد لعب أيضًا دورًا فى خلق الأسطورة.

(96) See Breasted (1906, III, ss 589 and IV ss III).

(97) Pindar, Pythian Ode, IV. 2 ; Kallimachos, quoted in Strabo, X. 5. 1. and XVII. 3. 21. for others, see Bates (1914, pp. 96-7).

(98) Bates (1914, p. 97).

(99) Breasted (1906, IV, ss III).

(100) See L'hote (1959, pp. 122 - 8).

(101) Herodotos, IV. 170 - 93.

(102) Herodotos, IV.189.

(103) Iliad , VIII, 184-5, and Odyssey, XIII. 81-5.

(104) Bernal (forthcoming)آت قريباً

(105) See Gardiner (1947, II, pp. 5, 28-9).

(106) Procopius, History, I. 19. 29; Pliny, Natural History, VI, 35; Arkell (1961, p. 178); Andre (1948, pp. 44- 53).

وبصفة عامة هناك اتفاق على أن كلمة Oasis اليونانية تأتى من الكلمة المصرية wh3t وهى فى القبطية uahe

(107) Procopius, De Bello Persico, I. 19. 29-31, cited in Bates (1914, p. 236).

(108) Gauthier (1925 - 31, v, p. 21).

(109) Herodotos, II. 50.

(110) Lloyd (1976, pp. 237 - 8).

(111) See Volume 1, p. 67.

(112) Herodotos, IV. 180 and 188.

(113) Dennis, (1848, I. P. 109).

(١١٤) عن اللاحقة الوثنية h- انظر Grodon (1966, ss 8.60) . وليس ثمة سبب لكون الشكل الاتروسكى Nethun أقدم من الشكل اللاتينى Neptun . فالأكثر احتمالاً هو أن Nethun مشتقة من Neptune وليس العكس. وعن علم الرومان بأهمية Nbty انظر :

Winkler(1985, pp. 309 - 18).

(115) For Delphos see n.84 above. For the meaning of the stem Deph - see Volume 4.

(116) Gauthier (1925 0 31 , v , p. 27).

(117) For Rb, libu, see Gardiner (1947, I, pp. 121 -2).

(118) See Odyssey, IV. 85 and XIV. 295.

(119) For a bibliography on reference to Tilphousa/ Telphusa/ Thelphousa, see Fonterose (1959, p. 367, nn. 3-4).

(120) See above n. 86.

(121) See above nn. 83 - 4.

(122) Frazer (1898, IV, 262 - 3 ; 286).

(123) For more on this, see below, ch. III. Nn. 85-6.

(124) Astour(1967a, p. 214). For the Ugaritic paralles, see Gray (1956, p. 32); for the biblical ones, see Pope (1973, p.30).

وقد جرى العُرَف على ربط Ladon الأركادى بالثعبان أو التنين وهو مازال يحيا فى اسم المكان الحديث Drakovouni ، بمعنى جبل التنين، وهو الجبل القريب من النهر.

(125) Hesiod, Theogony, 333 - 5.

وقد ذُكِرَ الثعبان بالفعل فى الثيوجونيا ولكن لمعرفة مطابقتها لـ Ladon انظر : West (1988, p. 258, 1. 334).

(126) See Pistis Sophis, 287 - 9 ; Budge (1934, pp. 357 - 79) and Fontenrose (1959, pp. 234 - 7).

(127) See ch, VII, nn 107-18.

(128) Scholiast on Apollonios Rhodios, IV. 1396.

(129) Astour (1967 a, p. 214).

(130) See Fontenrose (1959, p. 369).

(131) For Anuket (is), see Otto (1975 c, cols 333 - 4). For this derivation of Onka, pace Berard (1894, p. 140).

(132) Herodotos, II. 28.

وعن التعقيد الهائل الذى يحيط بهذه الينابيع المفترضة، انظر:

Lloyd (1976, pp. 107 - 17).

(133) For Nephthys and Anukis, see Graefe (1982, cols 458 -9).

(134) Sayed (1982, I, p. 125).

(135) For Khnum being drawn as Nb kbhw, see Gardiner (1947, II, p.4).

بالرغم من أن مرجعه عن Gauthier (1925 - 31,V, 170) لا يشير إلى خنوم وعن الاستعمال المحتمل للقب Kbh بمفرده، انظر:

Budge (1904, II, p. 5).

(136) See ch. III, nn. 94-7.

(137) See Pausanias, II. 4.5.

(138) See Pausanias, II. 20.6.

(139) Inscription at Esna, Sayed, Doc.1024 (1982, II, pp. 634-5)

(140) See n. 60 above.

(141) For Neit as cow and mother of Re, see Sayed, Doc. 260 (1982, II, pp. 308-9).

(142) I. Samuel 6.7-12 ; Astour (1967 a, pp. 157-8).

(143) Pausanias, IX, 12. 2.

(144) Symeonoglou (1985, pp. 7-11).

(145) Euripides, the Phoenician Women, 822-33, trans. Vellacott (1972, p. 265), and Schliast on [1]. 71; Phorekydes quoted in Apollodoros, II, 4. 2; Pindar, Pythian Odes, III, 94 (167); Diodoros, IV. 65.5 and V. 49. I; Pausonias, IX. 12.3.

(146) Euripides, the Phoenician Women, 822-7, trans. Vellacott (1972, p. 265).

(١٤٧) عن الأسباب الأخرى لطبيعتهم الثعبانية انظر:

Astour (1967 a, pp. 154-8, 392).

(148) Astour (1967 a p. 160).

(١٤٩) وقد رأى هذا Barthelemy (1763, p. 226) أما Chantraine الذي كتب بعد مائتي عام يصف الاشتقاق من " horkos بأنه غامضاً ".

(150) Sethe (1906 - 9, IV, 1. 823).

(151) Hintze (1975, col. 333).

(152) Schachter (1981, p. 113). Bickerman (1980, p. 20)

(153) Apollodoros, II. 48, and Diodoros, IV. 9. 2.

(154) Schachter (1981, p121, n. 3).

(155) Volume 1, p. 76.

(١٥٦) انظر التسعة والثمانين اسماً للمكان والتي تبدأ بـ R عند:

Gauthier (1925 - 31, III, pp. 112-28).

(157) Lewy (1895) p. 194, n. 2).

(158) See Sayed (1982, p. 141).

(159) Sayed (1982, pp. 282 - 3, Does. 220 and 221).

(160) Burkert (1985, p. 209).

(161) See, for instance kirk (1974, p. 257).

(162) Jacobsen (1976, p. 195).

(163) Jacobsen (1976, pp. 208-19).

(164) Herodotos, II. 44, and levy (1934, p. 45).

(165) Dussaud (1946 - 8 , p. 2081).

(166) For a full bibliography on this, see Lloyd (1976, pp. 205-6).

(167) See Seyrig (1944-5); Dussaud (1946-8). See also Brundage (1958).

حيث يثبت بطريقة مؤثرة العلاقات بين هيراكليس وجلجامش و Melqart ويستمر، بما يبدو دقة فى غير محلها، فى ربط البطل الإغريقى بالجنوب الغربى لأناتوليا فى القرن السابع.

(168)Chadwick (1976, pp. 87, 95).

(١٦٩) ربما تكون هناك تورية فى الكلمة الأكادية sarrum غير الموجودة فى Eblaite والكلمة العبرية Sar بمعنى ملك. وسوف نناقش فى الفصل الثالث إبدال حرف s بـ h.

(170) See Roberts (1971) and Jacobsen (1976, pp. 226- 32).

ومن المشوق أن والتر بركرت Walter Burkert يرى علاقة بين إرا و Erra طيبة. إلا أنه يربط بين إله الرافدين وأدراستوس Adrastos ، الملك الأسطورى لأرجوس وعدو طيبة، والذى قاد الأبطال السبعة ضد طيبة (a984, pp. 97- 104) ، هكذا، وحيث أن هيراكليس يطابق إرا Erra ، فهو هنا عدو طيبة أكثر منه بطلها. إلا أن عنف هيراكليس وعدم الثقة به يجعل هذا ممكنًا جداً.

(171) Apollodoros, II. 5.8. for Further bibliography, see Frazer (1921, p. 201, n. 2).

وعن عبادة هيراكليس فى أبديرا الأسبانية والصعوبات التى واجهها العلماء الأريانيون فى التعامل مع طبيعتها الفينيقية البحتة انظر : Farnell, (1921, pp. 145, 167) .

(172) Herodotos, II. 43.

(173) Lloyd (1976, pp. 203-4).

(174) Sauneron (1968, p. 18).

(175) Te Velde (1970, p. 186).

(176) Te Velde (1970, p. 175). In fact, Budge notes a variant form of Hrk3 p hard, Hrk3 the Child (1904, I p. 463).

(177) See Budge (1904, I, p. 463) and Sauneron (1960).

(178) Budge (1904, I, p. 463, n. 3).

(179) See Syncellus (1719, p. 81). For lepsius' interpretation of this, see below, n. 222.

(180) See Gardirer (11957, pp. 71-3).

(181) Herodots, II. 43-4. Lloyd (1976, pp. 207-11).

حيث يُنكر وجود علاقة بعبادة فينيقية. وقد أدحض هذه الحالة فان برخم Van Berchem (1967) ولم يُشر إليه لويد Lloyd الذى نظر إلى المشكلة عبر البحر المتوسط.

(182)Diodoros, III. 7. 4.4.

(183) De Natura Deorum, III 42.

(184) See Altenmuller (1977, cols. 1015- 18) and Yadin (1982)

(185) For bibliography on this see Yadin (1982, p. 266).

(186) For the unsatisfactory nature of the proposed semitic etymologies see Fulco (1976, pp. 64-5).

(187) For his cult at Byblos, see Fulco (1976, p. 55, nn. 292-4).

عن اللبس بين الآلهة المصرية والآلهة السامية الغربية، انظر:

Leclant (1960, p. 53, nn. 7-10), Simpson (1960 , p. 68 and pace fulco (1976, p. 55). For the Egyptian cities, see Gardiner (1947, II, pp. 113-14, 176).

(188) Fulco (1976, p. 20).

(189) Gardiner (1947, II, p. 114).

(190) Fulco (1976, pp. 3-21).

(191) Diodoros, IV. 10.2. see also ch. IV, nn. 132-58.

(192) Yadin (1982, pp. 264- 741. for his arguments on Dan, see yadin (1968) and below, ch. X, nn. 53-9. for the Aegean origins of the Sea Peoples, see Volume I, pp. 445-50.

(193) Fulco (1976, p. 50) and Yadin (1982, p. 270).

(194) Lloyd (1976, p. 195).

(195) Posener (1966).

(196) Sethe (1929, pp. 30-4), Bonnet (1952, p. 142); Griffiths (1955, p. 23). For a full bibliography, see Lloyd (1976, p. 195).

(197) See above, n. 170.

بنفس المعنى " حرق و وباء" ولكن فولكو Fulco(1976, pp. 64-5) يرى هذا مشتق من اسم الإله.

(198) Sethe (1929, pp. 30-4); Bonnet (1952, p. 142); Griffths (1955, p. 23); Lloyd (1976, p. 195).

(199) Apollodoros. II. 5. 11.

(200) Gardiner (1947, II, p. 55).

(201) Machiavell : (Gilbert, 1964, p. 354). For a full biliography of Herakles and Antaios, see Frazer (1921, I, pp. 222-3, n.2).

(202) Te Velde (1982,cols. 247-8).

(203) Sayed (1982,pp. 139-40).

(204) Sayed (1982,pp. 116-118).

(205) See n. 181 above.

(206) Herodotos, II. 44.

(207) Herodotos, II. 50.

(208) Lloyd (1976, p. 239).

(209) For Methotpe's divinity, see ch. IV, n. 158. for that of Senwosre I, see ch. V, n. 57.

(210) Diodoros, I. 55. 5.

(211) Rachel Levy (1934).

حيث توضح التطابق بين Tel Asmar Seal ومنجزات هيراكليس لأكثر من خمسين سنة. ومن أجل دراسة مفصلة عن عجل البحر the seal والنصوص الأوغاريتية والأساطير الإغريقية عن هذا الموضوع، انظر:

Rendsburge (1984).

(212) Servius, the commentator on Virgil in the 4th \century AD, pointed this out in his commentary on Aeneid VI. 287.

(213) See Diodoros, IV. 18.6, and Graves (1955, II, p. 120).

(214) See nn. 122-7 above. Astour (1967 a, p.392).

حيث يوضح أن صورة إله يخنق ثعابين يوجد على أحد الأختام التى وجدت فى طيبة (see below, ch. XII, nn. 75-87) بالرغم من أن هذا يظهر أن الأيقونة ترجع إلى عصر البرونز فى الشرق الأوسط، فإننى أعتقد أن وجودها فى طيبة مجرد صدفة.

(215) Pausanias, IX. 38.7, and Strabo, II.4 .11.

(216) Herodotos, II. 99.

(217) Herodotos, II. 108.

(218) Herodotos, II. 13 , 101.

(219) Diodoros, I. 551 - 52.

(220) Diodoros, I. 57. 1-4.

(221) See Waddell (1940, pp. 223- 225). See laso n. 209 above.

(222) Lepsius (1871, p. 54). Burton (1972, pp. 171-3)

إذ يشير إلى بعض الصعوبات الفنية للمقاييس

(223) Wildung (1984, p. 40, 11. 33).

(224) For more detail on this, see ch. V, n. 57.

(225) Stevenson Smith (1971, p. 169).

(226) Burton (1972, pp. 175 -6).

الاسم Ny-m3r t-Rr كان يرسم بعدد من الطرق المختلفة وتشمل Lamares و lamaris و labares و labaris (Waddel, 1940, p.224, n. 1) .

(227) For two excellent surveys of the complicated literature on this, see Burton (1972, pp.162-3)and Lloyd(1976, p. 34).

(228) Astour (1967 a, pp. 215 - 16). See also levin (1989).

(229) Kretschmer (1927, pp. 76-8), Hrozny [Civ. Of Hittites and Subaraeans] and Graves (1955, p. 206).

(230) Pausanias, IX. 27. 8.

حيث يشير إلى هيراكليس على جزء ناتئ (أو إصبع) من جبل إيدا فى كريت وفى شمال غرب أناتوليا كانت يستخدم كحامى للرضيع زيوس وعلاقة اسم ايدا بالأصابع اشتق وبوضوح ، أو على الأقل على سبيل التورية، من الجذر السامى yd بمعنى يد

See Gardiner (1957, p. 455) and Greenberg (1986, p. 287).

(231) Pausanias, VII. 5. 5. Astour (1967 a, p. 215)

ويبدو أنه يغالى هنا بقوله أنه كان يوجد تمثال مشابه فى ثيسبياى Thespiai

الفصل الثالث

المؤثرات المصرية فى بويوتيا

١ - والبلوبونيسوس فى الألف الثالثة (ثانيا) الدلائل الآثارية

ترجمة : أبو اليسر فرح

حاولت فى الفصول السابقة أن أحلل بعض الأساطير والروايات عن بويوتيا، وهى تُشبه إلى حدٍ كبير مثيلاتها فى مناطق أخرى من بلاد اليونان وبخاصة أركاديا والبلوبونيسوس . ومما يستلفت النظر أن التشابه بين هذين الإقليمين يمكن ملاحظته فى التشابه فى أسماء الاماكن وأنماط نُظُم الرى ، وهى فى الغالب مستوحاة من نظم الرى لدى المصريين.

وقد ذكرت فى الفصل الأول أن الفترة الهامة التى مارست فيها مصر والشرق تأثيرًا قويًا على بلاد اليونان كانت فترة الألف الثانية وعلى وجه الخصوص الفترة التى تقع ما بين عامى ١٧٣٠ ، ١٦٠٠ ق.م. وكان ذلك فى مَعرِض إشارتى إلى وجود مستوطنات للهكسوس(*) فى منطقة بحر إيجه . وقد قادتنى الرغبة فى المزيد من الاستقصاء إلى الاعتقاد بوجود تأثير واضح يرجع إلى فترة أقدم ، وإلى أن أحد هذه المؤثرات قد انتقل إلى بلاد الإغريق القارية فى النصف الأول من الألف الثالثة ق.م. أى فى بواكير عصر الخزف الهيللادى الثانى ، وهى الفترة المعاصرة لزمن الدولة القديمة فى

(*) هناك شبه استحالة لوقوع ذلك و حدوثه كوجود للهكسوس فى البحر الإيجى، و تحديدًا فى كريت، لمجرد العثور على إناء عليه خرطوشة باسم "خيان" ملك الهكسوس أو درع لذاك الملك .. فليست هذه سوى تذكارات للفترة الزمنية نفسها وليس بالضرورة دليلاً يقينيًا على وجود مستعمرة للهكسوس أنفسهم. (المحرر)

مصر. كما تسللت مؤثرات أخرى إلى كريت وأنحاء أخرى من منطقة بحر إيجه خلال عصر الدولة الوسطى المصرية.

وذلك فى الفترة ما بين عامى ٢١٠٠ ، ١٨٠٠ ق.م. وهى عصور الخزف خلال أوائل العصر المينوى الثالث، وأواسط العصر المينوى الثالث فى كريت. وسوف نحاول فى هذا الفصل أن نلقى الضوء على الأول منها أما بقيتها فإننا سوف نناقشها فيما بعد فى هذا الجزء.

وعلى الرغم مما هو معروف من أن نُظُم الرى التى عُثِرَ عليها فى بويوتيا ترجع إلى عصر البرونز. فإن هناك جدل حول تحديد الفترة التى تنتمى إليها هذه النُظُم من عصر البرونز. وهناك دلائل متزايدة ترجح اقتراحًا مفاده أن تلك النُظُم قد تم البدء فى إنشائها فى أوائل العصر الهيلادى. أما بالنسبة للسدود الموجودة فى أركاديا فإننا لا نستطيع أن نطمئن تمامًا إلى دقة التاريخ الذى ترجع إليه. ولكن يمكن القول بأنها قديمة بنفس الدرجة، وفى أورخومينوس (Orchomenos) إلى الشمال من بحيرة كوبايس (Kopais) توجد مخازن للغلال على النمط المصرى ، يمكن أن يرجع تاريخها إلى أوائل عصر البرونز، وهذا الشكل المتقدم للنظام الاقتصادى فى بويونيا كان يقوم بشكل أساسى على نظام الرى الذى كان نتاجًا للتأثير المصرى. وهذه الفكرة يمكن أن نجد ما يدعمها فمثلاً فى وجود تلك المقبرة الكبيرة فى طيبة(*). ويرى مكتشف هذه المقبرة ثيودوروس سبروبولوس Theodoros Spyropoulos أنها تتخذ شكلاً هرميًا وأن تاريخها يرجع إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى.

(*) لا يخفى على القارئ أن المقصود هنا مدينة طيبة الإغريقية التى تقع فى إقليم بويوتيا. (المترجم)

وتبعد عن أثينا (إلى الشمال الغربى منها) حوالى ساعة ونصف بالسيارة ، الآن ، صعوداً فى الطريق إلى دلفى (Delphoi) أشهر معابد الوحى والنبوءة فى اليونان القديم ، من القرن ٦ ق.م. والجدير بالذكر أن حفائر يونانية تمت هناك فى طيبة (Thebai) وكشفت عن عناصر معمارية مصرية خالصة مثل الشكل الهرمى والبئر لمقابر تحت الأرض(؟!!) منذ مطلع الألف الثانية ق.م. (راجع/ محمود السعدنى، تاريخ الحضارة اليونانية، القاهرة ٢٠٠٠م). (المحرر)

وعلى الرغم من عدم العثور على أهرامات من عصر البرونز فى منطقة أرجوس التى تقع فى شمال البلوبونيسوس ، فإنه تم العثور على مخازن غلال ضخمة ذات طراز مصرى يرجع تاريخها إلى أوائل العصر الهيلادى . بالإضافة إلى سد مائى ضخم يرجع إلى عصر البرونز تم اكتشافه بالقرب من تيرنس (Tiryns) ، ويجب ان نأخذ هذه الآثار بالإضافة إلى الآثار التى ترجع إلى عصر

البرونز والتى توجد على مسافة أقل من ٢٠ ك.م. من ليرنا (Lerna) على رأس خليج أرجوس باعتبارها مؤشرات على وجود دولة متقدمة فى هذه المنطقة من أرض أرجوليس، وأن هذه الدولة قد خضعت بشدة للتأثير المصرى . كما أن اكتشاف منازل ذات القرميد فى أنحاء متفرقة من جنوب ووسط بلاد اليونان يؤكد وجود درجة ما من التنظيم السياسى ، أو على الأقل وجود نوع من التنظيم الاجتماعى فى هذه الأقاليم.

وإذا ما أخذنا فى الاعتبار الدلائل الدينية والاسطورية، وكذلك دراسة أسماء الأماكن (Toponymy) والشواهد الآثارية، فإننا نجد أنفسنا أمام حقيقة واضحة وهى أن منطقة بويوتيا ومناطق أخرى من بلاد اليونان قد تأثرت بشدة بمصر والمشرق خلال عصر البرونز. ومن المؤكد من الناحية الفعلية أن هذه المؤثرات قد بدأت فى أوائل العصر الهيلادى. وعلى الرغم من أنه كان يوجد شكل من أشكال السيادة المصرية على بعض دويلات منطقة بحر إيجه فى هذه الفترة. فإنه لا يوجد فى الدلائل الأسطورية ما يؤكد أنّ هذه المؤثرات جاءت كنتيجة لحركة استيطان مصرى أو مشرقى فى الفترة المبكرة، وهكذا فإنه يمكن القول بأنه على الرغم من وجود الكثير من أوجه الشبه بين الأحوال فى الشرق الأدنى وعالم بحر إيجه فى أوائل عصر، البرونز خلال الألف الثالثة، وأيضًا فى أواخر عصر البرونز خلال الألف الثانية، لذا فإن الاقتراح الذى يقول بوجود تحكم مباشر لمصر أو المشرق يأتى فى مرتبة تالية(*) .

(*) هذه النتيجة هى منطقية بكل المعايير لغياب أدلة أخرى غير بعض الآثار المتشابهة و ليست المصرية الخالصة . (المحرر)

الآثار الإسبرطية

مقبرة ألكمينى (Alkmene)

قبل أن أبدأ بمناقشة الدلائل الآثارية من الألف الثانية والثالثة فإننى أود أن أبدأ بعرض تقرير عن كشف أثرى قديم. لقد كتب بلوتارك فى القرن الثانى الميلادى وصفًا لأثر يرجع تاريخ إكتشافه إلى أربعمائة عام سابقة على أيامه. فخلال الفترة ما بين عامى ٣٨٢ إلى ٣٨٠ ق.م أى أثناء الاحتلال الأسبرطى لبويوتيا قام بعض الإسبرطيين تنفيذًا لأوامر ملكهم أجيسيلاوس الثانى بالحفر فى بقعة يعتقد أنه كان يوجد بها مقبرة ألكمينى وتقع بالقرب من مدينة هاليارتوس (Haliartos) على الشاطئ الجنوبى لبحيرة كوبايس (Kopais) والحقيقة أنه لم يتم العثور على بقايا فى المقبرة. وما عثر عليه فى داخلها هو حجر فقط (بعض التفسيرات للنص ترى أنه كان يوجد هيكل عظمى) . بالإضافة إلى سوار من البرونز حجمه ليس كبيرًا، وجرتان من الفخار تحتويان على تراب تحول إلى كتلة صلبة متحجرة. وأمام المقبرة توجد مائدة من البرونز عليها نقش طويل من نقوش ذلك الزمان القديم. وهو يثير الدهشة إلا أن المرء لا يستطيع قراءته ، وعلى الرغم من أن النقش يبدو واضحًا إذا تم غسيل البرونز. فإن نمط هذا النقش يبدو ذو سمت غريب وأجنبى ويشبه بقوة الكتابة المصرية. ويقال أن الملك أجيسلاوس قام بارسال نسخة من النص إلى الملك (الفرعون نيت نبف Nht nbf نكتانيبو (Nektanebes) ٣٧٩ – ٣٦٣ ق.م) . وقد وصل المبعوث الأسبرطى إلى مدينة منف حاملاً معه وثيقة طويلة من الملك أجيسلاوس إلى خنوفيس Chonuphis المعبر عن رأى الإله والذى سبق أن أجرى معه أفلاطون و اللوبيون من بيباريثوس (Peparethos) وكذلك سيمياس (Simmias) حوارات فلسفية فى تلك الأيام. وقد حمل المبعوث معه أوامر من الملك بأن يقوم خنوفيس بترجمة هذه الكتابة إن كان بمقدوره أن يعرف شيئًا منها ، وأن يرسل الترجمة إلى الملك على الفور، وقد حبس خنوفيس نفسه لمدة ثلاثة أيام وراح يقلب فى جميع الكتب القديمة ثم كتب إجابته إلى الملك التى عرفنا خبرها منه. إن الوثيقة تحتوى أمرًا بالاحتفال بتكريم ربات الفن (Muses) ، وتتخذ الكتابة نمط الشكل الذى كان سائدًا فى عهد الملك بروتيوس (Proteus) التى علمها إياه هيراكليس بن

أمفتريون (Amphitryon) . فقد كان الإله يستخدم النقوش لكى يعلم الإغريق ويحضهم على العيش فى دعة وسلام وأن تكون الفلسفة هى المجال الذى يحققون من خلاله القناعة. وأن عليهم أن ينحوا أسلحتهم جانبًا وأن يقوموا بتسوية خلافاتهم حول الصواب والخطأ بأن يخلدوا إلى رحاب ربات الفن ويمارسوا الحوار[١].

هل ثمة ما يمكن استخراجه من هذا النص؟ مما لا شك فيه أن الاسبرطيين كانوا يتمتعون بالسيادة على إقليم بويوتيا فى ذلك الوقت، وكان ملكهم أجيسلاوس الثانى يتولى قيادة قواتهم. والواقع أن الدوافع التى دعت الملك أجيسلاوس إلى أن يأمر بفتح المقبرة غير معروفة على وجه التحديد. إلا أنها ترتبط بحقيقة جلية وهى أن سيده ومعشوقه الملك الجسور والقائد الاسبرطى العظيم ليساندر (Lysander) قد لقى حتفه منذ ستة عشر عامًا أى فى عام ٣٩٥ ق.م. فى هاليارتوس. وقد أشار باوسانياس إلى أن مقبرة ليساندر تقع بالقرب من هاليارتوس، وعلى أية حال فإن أحد الدارسين الحاليين وهو بيتر ليفى (Peter Levi) يذكر أن اسم ليساندر قد ارتبط بإحدى المقابر القديمة[٢]. وعلى الرغم من أن السبب المنطقى لهذا الموقف غير واضح فإن من الأرجح أن عملية الحفر فى مقبرة ألكمينى ترتبط بشكل ما بازدياد إهتمام الاسبرطيين بعبادة الأبطال متمثلة فى بطلهم ليساندر. على أيه حال فإن ربط هذا الأمر بليساندر يعطى مصداقية لما ذكره بلوتارك.

والواقع أن الوصف التفصيلى للأشياء التى تم العثور عليها فى المقبرة يجعلنا ننظر إلى التقرير الذى كتب عن الاكتشاف بعين الاعتبار. فإنه لا يحتوى قصصًا عن الثعابين أو العظام العملاقة أو الكنوز الضخمة، وقد لا يكون مدعاة لدهشة قراء الجزء الأول من كتاب أثينا السوداء أن يعلموا أن إغريق القرن الرابع ق.م - مع قبول النموذج القديم - لابد وأنهم افترضوا أن البقايا القديمة واللوح مصرية. أما فيما يتعلق بالسؤال الذى قد يطرح نفسه وهو لماذا يختص ذلك بمقبرة الكمينى فى بويوتيا فهو أمر سوف نناقشه لاحقًا. ومن الملاحظ أن شفارتز (J. (Schwartz الذى كتب مقالاً طيباً عن هذا الكشف فإنه على الرغم من طبيعته المتشككة قبل هذا الجزء من رواية بلوتارك[٣].

ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن أجيسلاوس كان يتمتع بعلاقات قوية مع مصر، ففى عام ٣٩٦ ق.م قام الفرعون نفرتيس الأول (Nephertes I) بإرسال مساعدات إلى أجيسلاوس الثانى من أجل مساعدة أسبرطة فى القيام بحملة ضد الفرس. وقد إنتهت حياة الملك الاسبرطى الحافلة خلال مشاركته فى حملة لمساعدة مصر ضد الفرس فى عام ٣٦٠ ق.م[٤]. وذكر ديوجنيس لأرتيوس (Diogenes) Laertios) الذى كتب عن الفلاسفة أن عالم الرياضيات والفلك يودوكسوس من كنيدوس (Eudoxos of Kindos) قد ذهب إلى مصر مع الطبيب خريسيبوس (Chrysippus) وحمل معه خطاب توصيه من أجيسلاوس إلى الفرعون نتكتنبو الذى زكاه بدوره لدى الكهنة[٥]. ومن المعروف أن كلاً من يودوكسوس وخريسيبوس كانا من كنيدوس المستعمرة الأسبرطية فى كاريا. وكانت أسبرطة قد استولت عليها فى عام ٣٩٠ ق.م، وعلى الرغم مما هو معروف من أن يودوكسوس قضى بعض الوقت فى أثينا فإنه من المحتمل أن يكون هذان الرجلان قد أُرسِلا فى مُهمة دبلوماسية لدى الفرعون الجديد من قبَل السلطات الأسبرطية. وعلى أية حال فإن هناك مشكلة فيما يتعلق بتاريخ هذه المهمة. فإنه طبقًا لما جاء عند ديومينيس فإن يودوكسوس توجه إلى مصر بعد إقامته فى أثينا مباشرة، وأن عمره آنذاك كان ٢٣ عاما، وأن ذلك لابد وأنه قد تم عام ٣٨١ ق.م. وعلى الرغم من أن هذا التاريخ يُعَد ملائمًا للقيام بهذه المهمة الدبلوماسية. فإن اللبس يمكن أن نعزوه إلى أمرين. فإما أن يكون هناك خطأ فى تقدير عمره، والأمر الثانى هو أن يكون قد جرى إسقاط رحلة له قام بها فى الفترة التى تقع ما بين إقامته فى أثينا وسفره إلى مصر . ومن الثابت أنه كانت هناك وشائج ما بين أجيسلاوس ونكتانيبو ٣٧٩ - ٣٦٣ ق.م منذ بداية حُكْمه وأن هذا الوضع قد استمر حتى نهاية عهده[٦]. وكان عام ٣٧٩ ق.م على وجه التحديد عامًا متميزًا. ففى هذا العام خضع إيفاجوراس (Evagoras) طاغية سلاميس فى قبرص للفرس بعد أن كان يتولى قيادة المعارضة ضدهم. وفى العام ذاته نجح نكتانيبو فى التغلب على آخر فراعنة الأسرة ٢٩ التى أسسها نفرتيس الأول الحليف السابق للملك أجيسلاوس . لذا فإن الموقف كان حَرِجًا فيما يخص العلاقات بين الأسرة الجديدة فى مصر وأسبرطة أقوى دويلات الاغريق مع غياب الحلفاء الآخرين والرغبة فى التصدى للفرس. والواقع أن الربط ما بين يودوكسوس السفير

والنص المكتوب يؤكده بشدة ما هو معروف أن يودوكسوس قد تلقى العلم على أيدى كاهن يُدْعى خونوفيس Chonuphis[٧] وشبيه بذلك ما قام به أفلاطون من إجراء محاورات فلسفية مع خونوفيس عندما كان فى مصر حوالى عام ٣٩٠ ق.م. إن كل ذلك يُعطى مصداقية إلى قصة مجئ يودوكسوس وإلى طلب أجيسلاوس القيام بترجمة للنص. إنه يبدو أن هذه القصة قابلة للتصديق ونعنى بها قصة قيام الإسبرطيين بإرسال الوثيقة إلى الفرعون المصرى وقيام هذا الأخير بإحالتها إلى الكاهن خونوفيس[٨]. إن هذا لا يعنى أن كل ما تم العثور عليه فى المقبرة مصرى. حقًا أنه أمر بعيد الاحتمال أن تكون كذلك. إن السوار البرونزى والفخار ربما يرجع تاريخهم إلى أواسط العصر الهيللادى ٣٣٠٠ – ١٧٠٠ ق.م. أو الموكينى ١٧٠٠ – ١٢٠٠ ق.م. إلا أن اللوح البرونزى الذى وُجِدَ أمام المقبرة يثير أكثر من مشكلة لأنه لم يتم العثور على مثيل له فى الحضارة المصرية أو فى المشرق أو منطقة بحر إيجه. إلا أن هذا لا يدعونا إلى التشكك فى هذه الرواية. فإن أى واحدة من تلك الحضارات ربما تكون قد عرفت عادة وضع اللوحات البرونزية أمام المقابر. كما أنه أمر بعيد الاحتمال أن تكون العلامات فى حقيقتها هيروغليفية. والأمر الأكثر إحتمالا هو أن نمط الكتابة الذى كان سارياً فى عهد الملك بروتيوس والتى علمها إياه هيراكليس بن أمفيتريون هى فى حقيقتها الكتابة الخطية الثانية (Linear B) أو الكتابة الخطية الأولى (Linear A) وربما كانت أيضًا كتابة مسمارية. وإذا كان النقش قد اتخذ شكل الكتابة المصرية الهيروغليفية فإنه يصعب تفسير الصعوبة التى وجدها خونوفيس فى قراءة اللوح. وهو أمر لابد وأن يكون مثيراً لكاهنٍ مثقف.

وعلى أية حال فإن هناك جزءًا قابلاً للتصديق فى القصة وهو ما يتعلق بالتقرير الذى يتناول ترجمة خونوفيس للنص والذى جاء فيه أن هيراكليس " قد أمر بإقامة الاحتفالات تكريمًا لربات الفن (Muses) (*) ... وأن الإله قد استخدم النقش لكى يعلم

(*) ومنها جاءت تسمية " موسيون" (Mouseion) ، " دار العلم " ، بالإسكندرية البطلمية، وكانت مفاجأة علمية وأدبية وفنية، حتى لمعاصريها، وحقق علماؤها إنجازات ضخمة، ومنها، أيضًا، تم اشتقاق لفظة (Museum) الحديثة ومرادفاتها الأوربيات، وكان بطلميوس الثانى (فيلالفوس) ٢٨٤ – ٢٤٦ ق.م، هو صاحب الفضل الأول لذلك . (المحرر)

الاغريق ويحضهم على العيش فى دعة وسلام ، وأن تكون الفلسفة هى المجال الذى يحققون من خلاله القناعة، وأن عليهم أن ينحوا أسلحتهم جانبًا ، وأن يقوموا بتسوية خلافاتهم حول الصواب والخطأ بأن يخلدوا إلى رحاب ربات والفن ويمارسوا الجوار "[٩].

ولا ينبغى لنا أن نستبعد هذه الرواية باعتبار أنه ليس فيها ما يثير الاهتمام. بل يجب أن نأخذ فى الاعتبار ما نعرفه عن انتشار عبادة ربات الفن (Muses) فى إقليم هاليارتوس. لذا فإنه ليس من المستبعد أن يكون هذا التقرير حقيقيًا ، وأن خونوفيس كانت لديه معلومات عن منطقة بيوتيا. والواقع أن اختيار الكاهن المصرى للإله هيراكليس ينطوى على دلالة واضحة تدل على الحكمة. فكما نعلم فإنه كانت توجد صلات وثيقة وقديمة ما بين مصر والإله هيراكليس البويوتى. وزيادة على ذلك وإذا ما استبعدنا إحتمال وجود محاولة لجعل قطعة من بويوتيا تبدو كما لو كانت إسبرطية للأبد من خلال انتحال علاقة بين مقبرة تنتمى إلى عصر البرونز والملك الأسبرطى ليساندر. فمن المحتمل أن تكون الإشارة إلى الإله هيراكليس الذى يجمع بين صفتين فى آن واحد وأولاهما اعتباره بطلاً فى مدينة طيبة، وثانيهما النظر إليه باعتباره الجد الأسطورى لملوك أسبرطة (أبناء هيراكليس) و المقصود منها إضفاء الشرعية على الوجود الأسبرطى فى منطقة بويوتيا(*) . والحقيقة أن الاحتلال الاسبرطى لم يكن يستند إلى قاعدة دينية صلبة، ويرجع السبب فى ذلك إلى التدنيس الى لحق بالأكروبوليس فى طيبة فى ظل السيادة الأسبرطية. وهو أمر حَظِىَ بتأييد أجيسلاوس[١٠]، ومن ناحية أخرى فإن نص خونوفيس لا يمكن النظر إليه باعتباره دعاية أسبرطية لأن اسبرطه آنذاك كانت فى شغلٍ شاغلٍ بنشاطها العسكرى الداخلى. وفى الحقيقة أنَّ هذا النص أكثر شبهاً بالخُطَب التى ألقاها الخطيب إيسوقراط (Isokrates) فى عام ٣٨٠ ق.م. والتى راح يدعو فيها إلى اتحاد الإغريق

(*) أوافق المؤلف تمامًا على هذا التخريج المنطقى السليم ، و لا سيما فى ضوء دمج آلهة مع بعضها ، وتواجد البعض إلى جوار الآخر ، كما حدث مع أثينا ، فوق الاكروبوليس ، مع إريخثيوس الأقدم . راجع/محمود السعدنى "البارثينون : بين الأثر و الآثار"، المؤرخ العربى، القاهرة ٢٠٠٠م.

سياسياً وحضارياً من أجل مواجهة الفرس. والتفسير الأقرب إلى الاحتمال هو أن هذه الترجمة هى دعوة مصرية للإغريق للاتحاد، وأن يكون هذا الاتحاد تحت الزعامة الأسبرطية.

وعلى أية حال فقد توالت الأحداث وجاء الرد من خلال ما قام به الأدميرال الآثينى خابرياس (Chabrias) فى عام ٣٧٧ الذى عاد بعد أن تمكن من إغلاق الطريق إلى طيبة البويوتية أمام إسبرطة[١١].

والواقع أنه ليس من الصعب أن تشرح لماذا كان اعتقادنا بأن هذا النقش مصرياً . فإنه بالإضافة إلى غلبة النموذج القديم على بلاد الاغريق فى القرن الرابع، توجد أسباب محددة (كما رأينا فى الفصل الثانى) تدعو إلى الربط ما بين مصر وألكمينى وزوجها رادامانثيس (Rhadamnthys)[*] وإبنها هيراكليس من ناحية وموقع بناء المقبرة فى هاليارتوس على بحيرة كوبايس وكذلك الربط بينها وبين طيبة وبويوتيا إجمالاً.

مقبرة أمفيون (Amphion)

وزيتوس (Zeithos)

والآن فإننى أود أن أترك جانبًا علم الآثار القديمة وألجأ إلى علم الآثار الحديثة. والحقيقة أن مدينة طيبة الآن مدينة عامرة تعج بالحياة مما يشكل صعوبة فائقة أمام إجراء حفائر فيها، وقد أدى هذا إلى وجود صعوبة فى معرفة كل فترات تاريخها. وكذلك عصور ما قبل التاريخ، فهناك مشكلة تتمثل فى تقييم تاريخها خلال العصر الهيللادى الثانى (٣٠٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م)، وكذلك أوائل العصر الهيللادى الثالث (٢٤٠٠ - ٢٠٥٠ ق.م)، وهناك بقايا من نماذج بيوت القرميد تشبه تلك التى تم العثور عليها

(*) عن رادامانثيس انظر ترجمة الجزء الأول ص ١٥٧ - ١٥٨ . (المترجم)

فى ليرنا (Lerna) فى منطقة أرجوس، ومناطق أخرى، ويبدو أن هذه البيوت كانت تؤدى وظيفة القصر أو أماكن الاجتماعات[١٢].

فلربما كانت طيبة مركزًا بارزًا فى الألف الثالثة، ويقوى هذا الاحتمال وجود آثار من الممكن أن نصفها بأنها مثل الأهرامات. وفى أوائل السبعينيات قام تيودورسبيروبولوس (Theodor Spyropoulos) المشرف على الآثار فى منطقة بويوتيا بكتابة العديد من المقالات التى تتعلق بالمسح الأثرى والحفائر فى هذه المنطقة. وقد ورد فى مقالين من هذه المقالات حديث مباشر عن إحتمالية الوجود المصرى أو التأثير المصرى فى منطقة بويوتيا. وكان عنوان أول هذه المقالات هو " الاستعمار المصرى لبويوتيا". أما المقال الثانى فكان عنوانه " مقدمة لدراسة منطقة كوبايس ". وقد استندت دراسة سبيروبولوس عن الاستعمار المصرى لبويوتيا على موقعين أثريين هامين. أولهما ما يطلق عليه مقبرة زيثوس (Zethos) وأمفيون (Amphion) أما الموقع الآخر فهو تلك الشبكة المعقدة من قنوات الرى والسدود التى استخدمت لرى منطقة كوبايس (Kopais) .

وقد نشر سبيروبولوس فى عام ١٩٨١ كتابًا عن الموقع الأول، وهو عبارة عن رابية كبيرة تقع إلى الشمال من مدينة طيبة عند نقطة ملتقى مجريين مائيين يحتضنان المدينة، وتعرف تلك الرابية باسم مقبرة زيثوس وأمفيون . وكما جاء عند هيسيود أن أمفيون وزيثوس هما اللذان شيدا أسوار طيبة عن طريق العزف على القيثارة[*]. وإذا ما أخذنا فى الاعتبار العلاقة ما بين مدينة طيبة والقلادة والآلة الموسيقية التى ورد ذكرها فى الفصل الشابق. فإنه مما يثير الاهتمام أن ندقق فى شكل الآلة الوترية[١٣].

وطبقًا لما ذكره هوميروس فإن " التوأم أمفيون وزيثوس هما أول من أسس مدينة طيبة ذات الأبواب السبعة وحصناها بالأسوار حيث كان من الصعب عليها العيش فى

(*) إلى هذا الحد يمكن أن تصل الأسطورة ، فيما لا منطق يحدده ، و حيث يخترق كل الحواجز العقلية إلى اللامعقول !!! و هذا هو أحد أهم ملامح الفكر اليونانى القديم، راجع / كتابنا : تاريخ وحضارة اليونان، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص ١٣٩-١٦٤ . (المحرر)

طيبة الواسعة غير الممعنة مهما كانت الشجاعة التى توفرت لهما"(١٤). ومن الواضح أن أعدائهما كانت القبائل البربرية مثل الاونيس (Aones) والتميكيس (Timmikes) وهويانتس (Hyantes) ولِيليجيس (Leleges) والبلاسيجيين(*) (Pelasgians). وهى قبائل إما أنها من نفس المنطقة أو أنها وفدت من منطقة أتيكا إلى الجنوب من بويوتيا(١٥). (هناك مناقشات طويلة عن البلاسيجيين وعن إنحدار أسماء الأون (Aones) والهينات من كلمة (iwn(t)yw) المصرية التى تعنى "برابرة" فى الجزء الأول من هذا الكتاب(١٦)) . من الواضح طبقًا لوجهة نظر هوميروس أن أمفيون وزيثوس كانا غريبين عن المنطقة وقاما بالاستيطان فيها، كذلك ذكر هيسيود وبعض الكتاب القدامى بالإضافة إلى فريكيديس (Pherekydes) المتخصص فى أساطير القرن السادس ق.م. أن التوأم أمفيون وزيوس هما أول من أسس مدينة طيبة (تجب الإشارة إلى أن أوجيجوس (Ogygos) الذى أشرنا إليه فى الفصل الثانى يعد أول ملك أسطورى للمنطقة التى عرفت فيما بعد باسم بويوتيا، إلا أنه لم يكن مؤسسًا لمدينة طيبة) (١٧)، وطبقًا لرواية فريكيديس عن تاريخ طيبة فإن المدينة التى شادها أمفيون وزيثوس كانت بمثابة حصن دفاعى ضد الفليجان (Phlegyans) ويبدو أن هؤلاء الأخيرين قد جاءوا من تساليا فى الشمال، بعد وفاة الأخوين. وقاموا بتدمير المدينة، وإذا ما لجأنا إلى علم دراسة أصل الكلمات (Etymology) فلربما نجد أن كلمة فليجان هى P3rk(y)w (التى تعنى عدو). وأن كادموس Kadmos وخلفاؤه قاموا بإعادة بناء مدينة طيبة فى الموقع المهجور(١٨).

وهناك رواية تتردد بشدة تقول بأن كادموس الفينيقى لم يكن هو الذى قام بإعادة بناء المدينة ، بل هو المؤسس الحقيقى لها. والحقيقة أن كلمة qedem لا تعنى شرق فقط ولكنها تعنى أيضًا قديم. وعلى أية حال ذكرت روايات أخرى تؤكد صحة ما جاء عند البعض عن الإشارة إلى كادموس باعتباره أول من استوطن مدينة طيبة. والمشكلة التى

(*) كما أن هناك آراء أخرى تتحدث عنهم باعتبارهم مؤسس حضارة تساليا - فى العصر النيوليثى (٥٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م)، وقد نزلوا من الشمال أو من تراكى وليسوا من داخل البلد الأم ، راجع / محمود السعدنى ، تاريخ وحضارة اليونان، القاهرة ٢٠٠٠ . (المحرر)

تثور فى هذا الصدد هى حول موضع أمفيون وزيثوس. وقد حاول بعض المؤرخين مثل هيلانيكوس (Hellanikos) من القرن الخامس ق.م. وفيلوخوروس (Philochoros) من القرن الرابع ق.م. حل هذه المشكلة عن طريق وضع هذه المشكلة عن طريق وضع الأخوين بعد كادموس[١٩]. وقد أخذ باوسانياس (Pausanias) بهذه الترتيب ولكنه أدعى أن مدينة طيبة قد أسسها أمفيون وزيتوس أدنى مدينة كادميا (Kadmeia) التى بناها كادموس[٢٠]. إن هذه الرواية تثير مشكلة لأننا نعرف أن ملوك طيبة الأواخر كانوا ينحدرون من كادموس، ولكى تصبح هذه الرواية قابلة للتصديق فلابد من إعادة ترتيب خلفاء كادموس، ومن أجل تجنب هذه التعقيدات فإن هيكاتايوس من ميليتوس ، وهو ينتمى إلى القرن الخامس ق.م. وكذلك إيفوروس (Ephoros) مؤرخ القرن الرابع. وقد سايرهم إسترابون فى القرن الأول ق.م أنكروا رواية هوميروس وقالوا أن أمفيون وزيتوس لم يؤسسا مدينة طيبة، ولكنهما قاما ببناء مدينة يوتريسيس (Eutresis) إلى الجنوب الغربى منها[٢١].

والواقع أنه ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بانكار احتمالية الرواية التى ذكرت أولاً والتى تتعلق بأمفيون وزيتوس، على الرغم من الأثر الفولكلورى الواضح لقصة بناء الأخوين التوأم لمدينة، و هو الذى نحسه بجلاء فى أسطورة قيام رومولوس وريموس بتأسيس مدينة روما. وإذا كنا لا نملك دليلاً على أن المقبرة التى تسمى مقبرة أمفيون وزيتوس كانت تحمل الاسم ذاته فى عصر البرونز، فإنه لا يوجد ما يشير إلى أنها كانت تحمل إسماً آخر فى عصر باكر. وقد أشار إليها إيسخولوس وقال أنها كانت موضعاً للتبجيل كما كانت على أيام باوسانياس[٢٢]. ويؤكد الباحثان يوانيس (Ioannis) وإيفيلين لوكاس (Loucas Eveline) على هذه الحقيقة حين ذكرا أن هذا الموقع ظل مقدساً خلال العصور القديمة ولم يتم البناء فيه لمدة ثلاثة آلاف عام[٢٣] ، إلا أنه يساورنا بعض الشك فى أن يكون هذا الموقع هو أقدم مكان فى المدينة . وقد جرت أعمال الحفر فى هذا الموقع مرات عديدة خلال هذا القرن. وعثر فيه على العديد من القبور التى يرجع تاريخها إلى أوائل العصر الهيلادى. ومما هو جدير بالذكر أن تيودور سبيروبولوس الذى قام بالتنقيب فى هذا الموقع فى عام ١٩٧١ يرى أن هذا البناء يتخذ شكل هرم مدرج له ثلاثة مستويات يعلوها تكوين من الطوب المجفف[٢٤]. ويوجد بها مقبرة

تحدها الأحجار. وفي إطار فكرة وجود الأخوين يرى سبيروبولوس إحتمال وجود فتحتين للدفن في هذه المقبرة. وعلى الرغم من أن المقبرة تعرضت للنهب في العصور القديمة فإن بعض محتوياتها قد سلمت من النهب مثل بعض حبات الذهب التي تشكل جزءاً من عقد على هيئة سوسنة وكذلك شكل لولب مزدوج عليه تاج يتخذ شكل نبات البردي. بالإضافة إلى بعض حبات اللؤلؤ[٢٥]. والحقيقة أن الموطن الأصلي لهذه الحُلِيِّ غير معروف. وسوف أوضح في الفصل التالي مدى التأثير المصري على صناعة الحلي في كريت خلال عصر البرونز[٢٦]. إن شكل نبات البردي المستخدم في الزينة مستمد من مصر. إلا أن شيوع استخدام هذا الشكل في كريت في ذلك الوقت يجعل من الصعب علينا القول بأن موطن هذه الحُلِيُّ الأصلي هو مصر. كما تواجهنا مشكلة أخرى وإن كانت أقل أهمية وتتمثل في التأريخ. ويمكن يكون هذا التاريخ هو الألف الثالثة. ويرى سبيروبولوس من خلال دراسته للحُلِي وكسر الفخار التي عثر عليها في الموقع، أن هذه الرابية يرجع تاريخها إلى أوائل العصر الهيلادي الثاني وعصر الخزف (Ceramic period) ، وهي فترة تقع ما بين عامي ٣٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م طبقاً لمنهج هذا الكتاب[٢٧]. إلا أن باحثاً آخر هو سارنتيس سيميونوجلو (Sarantis Symeonoglou) الذي يشغل منصب نائب المشرف على الآثار القديمة في بويوتيا ونشر كتاباً مفصلاً عن طبوغرافية طيبة، لا يوافق على هذا التاريخ المبكر ويرى أن تاريخ الفخار الذي عُثِرَ عليه في المقبرة يرجع إلى منتصف العصر الهيلادي[٢٨]. ولكنه لم يذكر تحديداً أي فترة في ذلك العصر. والحقيقة أن غالبية الدارسين قبلوا بما ذهب إليه سبيروبولوس في تحديد هذا التاريخ وهو أوائل عصر البرونز، وليس هناك ما يدعوني إلى معارضة هذا الرأي[٢٩].

وإذا كنا قد قبلنا التاريخ الذي يقترحه سبيروبولوس لهذه المقبرة فإننا لا نستطيع قبول ما ذهب إليه من إرجاع أصل المقبرة إلى مصر. وعلى الرغم من أن إنشاء هذه المقبرة يرجع إلى فترة ما قبل وصول الشعوب الهندية الأوروبية، وهي فترة يتفق الجميع على أنها تقع في نهاية بواكير العصر الهيلادي الثاني. فإن انصار النموذج الآري يرون أنها من نمط مقابر الـ (Kurgan) وهي نوع من الأكوام الترابية التي كانت تستخدم للدفن وجدت في جنوب روسيا والبلقان.

ويفترضون أنها إحدى الملامح المميزة لقوم يتحدثون بلغة ما قبل اللغة الهندية الأوروبية[٣٠]. ونحن مضطرون إلى إجراء مقارنة لأن نمط الـ (Kurgan) هو مجرد كوم من الحجارة والطين. وعلى النقيض من ذلك تماماً فإن مقبرة أمفيون وزيتوس كان يوجد بها درج أعد بعناية، ولها قمة من القرميد وقد أقيمت على تل موجود من قبل، وبها عدد من القاعات التى أقيمت بداخلها ويبدو أنها ترتبط بطقوس جنائزية[٣١].

ويرى سبيروبولوس أن وجود أرض فضاء أمام المقبرة ووجود كوتين يؤديان إلى دهليز يجعل فى الإمكان مقارنتها بمقابر وجدت فى لابيثوس (Lapithos) وإنكومى (Enkomi) فى قبرص[٣٢]. ويسير فى نفس الاتجاه كتاب إنجوبينى (Ingo Pini) الذى يتحدث عن عادات الدفن فى كريت حيث يرى أن المقابر الكريتية ذات الممرات (dromoi) ذات تأثير مصرى[٣٣]. ويؤكد سبيروبولوس على هذه الفكرة من خلال اعتقاده بوجود علاقة مباشرة ما بين المقابر الكريتية ذات الشكل القائم المزودة بممرات ومثيلاتها فى مصر[٣٤]. وفى هذه النقطة فإن سبيروبولوس لا يقف على قاعدة صلبة لأن المقابر الكريتية تنتمى إلى فترة القصور القديمة، أى أوائل الألف الثانية ؛ لذا فإنها زمنياً تالية على التاريخ الذى أرجع إليه مقبرة أمفيون وزيتوس.

والواقع أن المحاولات التى بُذِلَت من أجل إيجاد تشابه ما بين مقبرة أمفيون وزيتوس ومقابر أخرى معاصرة لها فى ليوكاس (Leukas) وخايْرونيا (Chaeonea) فى أقصى شمال اليونان. هى محاولات غير مقنعة، ولدينا بعض الشك فى أن تكون هذه المقابر هى الوحيدة من نوعها فى اليونان[٣٥].

ومما يُثير الدهشة أن أقرب الآثار شبها بحالتنا هذه فى أوروبا هى التى توجد فى سيلبرى هل (Silbury Hill) بالقرب من السلسلة الصخرية الكبرى فى أفيبرى (Avebury) . إن هذا الهرم المدرج الذى شُيِدَ بعناية من الحجر الجيرى يبدو أكثر قِدَماً، كما أن تاريخه يرجع إلى القرن ٢٨ أو ٢٧ ق.م. وهو نفس التاريخ الذى ترجع إليه مقبرة أمفيون وزيتوس، وهو تاريخ يأتى بعد بناء الأهرامات الكبرى فى مصر، وهو أمر يبدو أنه تم فى الفترة ما بين عامى ٣٠٠٠ و ٢٨٠٠ ق.م[٣٦]. وعلى الرغم من الازدراء الذى صبه الباحثون الذين ينتمون إلى أوائل القرن العشرين ومنتصف هذا

القرن. ففى اعتقادى أنه يخامرنى الشك فى أن البنائين فى سيلبرى كانوا على دراية بالأهرام المصرية المعاصرة لهم[٣٧]. ومن ناحية أخرى فإن ذلك يعيد إلى الأذهان بقوة فكرة أن المصريين قد استعمروا مقاطعة وسكس (Wessex) فى عهد الأسرة الثالثة أو الرابعة[*]. وفيما يتعلق بمقبرة أمفيون وزيتوس فمن الواضح أن بناتها كانوا يعرفون أهرامات مصر. ومن ناحية أخرى يرى البعض أن فترة أوائل العصر الهيلادى الثانى، وهى الفترة التى يبدو أن مقبرة أمفيون وزيتوس قد بنيت خلالها، كانت مصر خلالها قد تخلت عن نمط الهرم المدرج[٣٨]. إن هذا الاعتراض ليس خطيراً كما قد يبدو للوهلة الأولى أولاً لأنه من المستحيل القول بأنه عندما تم بناء المقبرة خلال عصر الخزف الطويل (٣٠٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م). إذا كان ذلك قد وقع فى أوائل هذا العصر فإنه يكون معاصراً لزمن الأسرة الثالثة (٣٠٠٠ - ٢٩٢٠ ق.م)، وهى الفترة التى شهدت أكبر الأهرامات المُدَرَّجة. والأمر الثانى هو أن الأهرامات المدرجة ظلت تحتفظ بدلالتها الدينية حتى بعد التطور الذى أدى إلى بناء الأهرامات العادية، بل أكثر من ذلك أن عمليات تشييدها ظلت مستمرة، فإن معبد الشمس الذى شيد فى عهد الأسرة الخامسة للفرعون " نى أوسررع" Ni-user-re حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م قد بُنِيَ مُدَرَّجًا ، وهناك ما يدعونا للافتراض بأن الهرم المدرج للملك زوسر من الأسرة الثالثة (حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م) كان يتمتع بمكانة مقدسة فى القرون التالية خلال عهد الأسرة الخامسة[٣٩].

والأمر الثالث هو أنه ينبغى أن نقول ببساطة إنه من المحتمل أن هذه الأنماط ظلت متبعة فى الخارج على الرغم من توقف الأخذ بها فى مصر.

ومع ذلك فإننى أرى أن يوانيس (Ioannis) وإيفيلين لوكاس(Loucas) (Eveline) على حق عندما أشارا إلى وجود تأثير من الزقورات[**] التى عرفتها بلاد الرافدين ،

(*) كما يحزننى هذا الشطط فى الفكر الغربى بحثًا عن التأصيل الزمنى الذى يفتقدونه فى آثارهم (!!!) ، التى يستحيل ان تؤرخ بهذه العصور القديمة التى يدعونها (!!!) ، فكان مثل ذلك أوْلى ان يحدث فى اليونان أو عند الرومان !!! (المحرر)

(**) المعابد السومرية التى كان يتم تشييدها على أماكن مرتفعة يجرى الصعود إليها عن طريق درج. (المترجم)

والتى كانت ماتزال تشيد(٤٠). وهذه الزقورات مثلها مثل الأهرام هى مبانٍ مُقدَسة يحمل بناؤها معنى رمزيًا وهو الصعود إلى السماء. لذا فإنه ينبغى أن يساورنا كثير من الشك فى أنها كانت تؤدى الوظيفة التى من أجلها استمدت تلك المكانة ذات التقديس الفائق التى ظلت تنعم بها لعدة آلاف من السنوات، باعتبارها مقبرة لامفيون وزيتوس. ومن الجلى أنه كان ينظر إليها أيضًا باعتبارها مصدرًا للخصوبة الدائمة لسهول بويوتيا.

وقد جاء عند باوسانياس ما يلى:

"إن المكان التذكارى الذى ينسب إلى أمفيون وزيتوس هو عبارة عن ركام من الطين، وقد أراد بعض الرجال من تيثوريا (Tithorea) فى فوكيس أن يأخذوا بعض الطين، وكانت فكرتهم تتلخص فى أنهم إذا أخذوا الطين عندما تكن الشمس فى برج الثور من هذا الموقع ووضعوه فى تل أنتيوبى (Antiope) (الأم الأسطورية للتوأم) فإن المحاصيل سوف تنبت فى أرضهم فى تيثوريا وليس فى طيبة."

وقد أراد باوسانياس أن يروى نبوءة باكيس (Bakis) التى ترجع إلى القرنين السابع والسادس ق.م. لكى يدلل على مدى قدم هذه الرواية(٤١).

وفى زمن باوسانياس (القرن الثانى الميلادى) كانت تيثوريا تحتوى على أهم معابد بلاد اليونان التى أقيمت للربة إيزيس، حيث كان يجرى اتباع الطقوس المصرية بدقة(٤٢). والحقيقة أنه ليست لدينا وسيلة لمعرفة مدى قدم هذا العادة، فلربما تكون قد بدأت فى العصر الهللينيستى أو حتى خلال العصر الرومانى وذلك فى إطار حركة التمصير التى أشرنا إليها فى الجزء الأول من هذا الكتاب(٤٣). وعلى الرغم من أن هذه العبادة على وجه الخصوص مصرية فإننا نلاحظ أن ما أورده باوسانياس عن باكيس يأتى متوازيًا مع شارة هوميروس فى النشيد الذى وجهه إلى الربة " جايا " (Gaia) ، وكذلك إحدى الشذرات التى بقيت من تراجيديا مفقودة ليوربيديس بعنوان " انتيوبى"،

كل ذلك يؤكد الرواية المتداولة عن القوة السحرية التى تتمتع بها التربة التى تحيط بمقبرة أمفيون وزيتوس، وأن هذه الرواية يمكن إرجاعها إلى عصر البرونز[٤٤].

ومما هو جدير بالذكر أن فراعنة الدولة الوسطى كانوا مايزالون يسيرون على عادة بناء الأهرامات. ومعظم هذه الأهرامات كانت تطل على بحيرة الفيوم التى تحيط بها الأحراش، وقد اعتادوا تجفيف هذه الأحراش وتحويلها إلى سهول فائقة الخصوبة. وعلى الرغم من أن تلك الأهرامات أحدث من مقبرة أمفيون وزيتوس ، فإنه هناك نقطة تشابه بينهما، وهى أن مقبرة أمفيون وزيتوس تشرف على سهل طيبة حيث بحيرة "كوبايس" النظير الاغريقى لبحيرة الفيوم. ومع ذلك فثمة أمر ينبغى أن يوضع فى الاعتبار وهو أن بُناة مقبرة أمفيون وزيتوس أرادوا أن يقيموا شبيهًا بالأهرام – وربما كان القصد إنشاء مقبرة ملكية – وأن هذا الأمر يتطلب توفير قدر من الثروة وحشد عددًا كبيرًا من الأيدى العاملة، وكل ذلك لا يدل على أن هؤلاء البُناة كانوا مستعمرين مصريين. وكما رأينا فإنه لا يوجد مواد من تلك التى تم العثور عليها ما يمكن اعتباره بشكل قاطع قادمًا من مصر[*]. وعلى أية حال فإن سبيروبولوس لم يؤسس فكرته عن المقبرة على أساس نظرية الاستعمار المصرى فقط، فإن الأكثر أهمية بالنسبة له هو تلك الشبكة الواسعة للرى فى كوبايس والتى يرى هذا الباحث أن تاريخها يرجع إلى عصر الخزف فى أوائل العصر الهيلادى الثانى والتى يعتقد أنها تقع ما بين عامى ٢٦٠٠–٢٣٠٠ق.م بينما نفضل نحن فى هذا الكتاب أن نضعها فيما بين عامى ٣٠٠٠–٢٤٠٠ق.م.

نظام الرى فى كوبايس

إن بحيرة كوبايس عبارة عن حوض مساحته حوالى ٣٥٠ ك.م وتقع فى الشمال الغربى لإقليم بويوتيا، ويصب فى هذه البحيرة نهر كيفيسوس (Kephissos) وكذلك بعض الأنهار الأخرى الصغيرة، إلا أن الطريق إلى البحر تعترضه كتلة بتوؤن (Ptoon)

(*) هكذا بستقيم الفكر المنهجى التاريخى السليم ، والاستنتاج المنطقى ، حيث لا نتائج تاريخية بدون وثائق وأدلة أثرية . أوافقه الرأى على ذلك . (المحرر)

الصخرية. وكما هو معروف فإن الجبال التى تتكون من الحجر الجيرى عادة ما تتخللها الكهوف ؛ لذا فإنه توجد قنوات تحت الأرض تجعل مياة البحيرة تصب فى البحر، سواء أكانت هذه القنوات طبيعية أو أنها ثمرة الجهد البشرى. ومما لا شك فيه أنه لفترة طويلة تمتد خلال عصر البرونز كانت مساحات كبيرة من البحيرة تجف شتاءً، بينما تمتلئ بالمياة خلال الصيف. ولقد جرى تحويل مجرى نهر كيفيسوس باتجاه الحد الشمالى للسهل والبحر.. وذلك عن طريق إقامة عدد من السدود. وقد تعرض هذا النظام للدمار فى نهاية أواخر العصر الهيلادى الثالث حوالى عام ١١٥٠ ق.م) عندما إندفعت القبائل الدورية والبويوتية الشمالية باتجاه الجنوب. وعلى الرغم من استصلاح بعض المساحات خلال العصر الكلاسيكى منذ عصر الحديد بعد عام ١١٠٠ ق.م، فإن مساحة كبيرة من أرض هذا الحوض كانت تفيض بالمياه وتحولت إلى أرض أحراش غير منتجة. وربما يفسر لنا ذلك ما نلمسه من تناقض ما بين حالة الانتعاش السياسى والاقتصادى التى نعمت بها طيبة ومدينة أورخومينوس (Orchomenos) التى تقع فى شمال بويوتيا خلال عصر البرونز، وبين حالة التدهور التى آل إليها هذا الإقليم خلال العصر العتيق (Archaic) والعصر الكلاسيكى (أى ما بين القرن الثامن إلى القرن الرابع ق.م) وفى أواخر القرن الرابع ق.م، حاول الإسكندر الأكبر أن يجفف البحيرة مرة أخرى، وتم حفر قناة كبيرة لهذا الغرض فى منتصف الحوض، وعلى أية حال فإن هذا المشروع لم يكتمل ربما لأسباب سياسية أو فنية أو للسببين معًا، وظلت بحيرة كوبايس مليئة بالأعشاب وأصبحت مساحتها أكبر خلال الألفى عام التاليين. وفى العصر الحديث حاولت شركة فرنسية أن تجفف البحيرة، إلا أن شركة إنجليزية تمكنت من إنجاز هذه المهمة فبدأت العمل فى عام ١٨٧٠ وتمكنت من الانتهاء منه فى عام ١٨٩٠، وهو إنجاز يعادل ما تم القيام به خلال عصر البرونز وهو تحويل بحيرة كوبايس مرة أخرى إلى أرض زراعية منتجة(٤٥).

ويبدو أن عملية تصريف المياة وكذلك نظام الرى قد بدأ عن طريق عمل أحواض ذات خُلْجَان مغلقه على الشواطئ الشمالية للبحيرة، ومما لا شك فيه أن مثل هذه المشروعات تتطلب هندسة مائية على درجة عالية من التقدم بالإضافة إلى نظام سياسى واجتماعى مستقر.

والواقع أن أحد الأسئلة الهامة التى يثيرها وجود هذا المشروع هو متى تم إقامتها؟. ويميل عالمًا الآثار فوسى (Fossey) ووالاس (Wallace) إلى إرجاع تاريخ إقامة هذه المنشآت إلى العصر الموكينى حوالى ١٧٠٠ - ١٢٠٠ ق.م[٤٦]، إلا أن بعض المتخصصين فى هندسة المياة وعلماء الآثار الألمان الذين عملوا فى هذا المجال لمدة خمسين عامًا يرون أن الأعمال الأولى فى مثل هذا المشروع ترجع إلى عهد أقدم. أما العالم البارز فى هذا المجال وهو لوفر (S. Lauffer) فإنه يرى أن هذه الأعمال ترجع إلى أوائل العصر الهيلادى[٤٧]. بينما يعتقد بعض العلماء الذين جاؤوا بعده مثل كناوس (Knauss) أنها من عمل المينائيين (Minyan). وطبقًا للرواية الشائعة فإن المينائيين هم المسئولون عن شبكة تصريف المياة (إن كلمة مينائيين تحريف للكلمة المصرية (Mniw) ومعناها "الرُعَاة"، وهو ما سوف نناقشه فى الجزء الثالث). وفى الأساطير الاغريقية ورد ذكر المينائيين باعتبارهم قبيلة بدائية عاشت فى مدينة أورخومينوس (Orchomenos) التى تقع شمالى بحيرة كوبايس، وقد ارتبط هذا الاسم بطراز من الفخار كان يجرى تصنيعه فى أورخومينوس، وينتمى إلى أواسط العصر الهيلادى. وينبغى التأكيد على أن الربط الذى نقوم به حديثًا هو أمر عشوائى وليس هناك فى النموذج القديم ما يجعلنا نعتبر المينائيين على وجه الحصر ينتمون إلى العصر الهيلادى.

وعلى أية حال فإن الجزء الأول من المؤلف الضخم الذى وضعه كناوس وزملاؤه بعنوان " المشروعات الهندسية المائية للمينائيين فى كوبايس. أقدم تحكم فى الأنهار فى أوروبا. والتطوير الثانى لحوض نهر كوبايس بواسطة المينائيين فى الألف الثانى ق.م ". هذا العنوان يدل بشكل واضح على أنه لا يوجد شك فى تفكير هؤلاء العلماء ومعاصريهم من الدارسين الآخرين، فى أن هذا العمل قد بدأ فى منتصف عصر البرونز (٢٠٥٠ - ١٦٧٥ ق.م). ولكن سبيروبولوس حدد تاريخًا متأخرًا عنهم، وهو ما قبل العصر الموكينى أو أواخر عصر البرونز[٤٨].والواقع أن الدارسين الألمان على صواب فى حرصهم على أن يكونوا أكثر تحديدًا فى هذا الأمر. ففى الكتاب الذى صدر

فى عام ١٩٨٤ حدد كناوْس وزملاؤه بداية مشروع الصرف فيما بين عامى ٢١٠٠ - ١٩٠٠ ق.م[٤٩]. وفى عام ١٩٨٧ وصف كناوْس ما إعتبره أقدم تلك الانشاءات ، وأرجع تاريخه إلى النصف الثانى من العصر الهيلادى[٥٠]. وطبقًا للتقسيم الزمنى (الكرونولوجى) المتبع فى هذا الكتاب فإن هذا التاريخ يقع ما بين ١٨٣٠-١٦٧٥ ق.م.

وينبغى أن نلاحظ أن كناوْس لم يأخذ فى اعتباره الدلائل الفخارية التى قدمها سبيروبولوس. ونعنى بذلك الفخار الذى تم العثور عليه على إحدى الضفاف الشمالية للبحيرة ويرجع تاريخه إلى أوائل العصر الهيلادى، وربما يكون معاصراً لمقبرة أمفيون وزيتوس[٥١]. والحقيقة أن هذا التأريخ يلقى قبولاً من علماء الآثار من أمثال كونسوك (D. Konsole) ويوانيس (Ioannis) وكذلك إيفيلين لوكاس (Eveline Louca) [٥٢] ، ونحن نرى أن مسألة المينائيين ينبغى أن نربط بينها وبين المينويين ومن ثم المصريين[٥٣]. وإذا كنت لا استطيع القبول بما ذهب إليه سبيروبولوس فى الربط ما بين المينائيين والمينويين من الناحية اللغوية ، فإننى أرى أنه علـى حق فيما ذكره عندما أشار إلى أن مصر فى عصر الدولة القديمة كانت فى قمة ازدهارها، مما يترتب عليه الاعتقاد بأنها المكان الذى يوجد به هذا المستوى المتقدم فى الهندسية الهيدروليكية، بنفس الدرجة التى كانت عليها الأعمال الهندسية حول بحيرة كوبايس، وأن مصر هى مصدر هذه التقنية[٥٤]. ولذا فإن فكرته التى تقول بأن مقبرة أمفيون وزيتوس وكذلك الأعمال الأولى عند بحيرة كوبايس ترتبط ببعضها البعض، وأنها ترجع إلى وجود أدلة مادية ، حيث لم يعثر على آثار مصرية فى إقليم بويوتيا فى هذه الفترة.

ولكن على أية حال فإنه توجد أدلة عارضة معقولة يمكن أن تساند اقتراح سبيروبولوس، وأول هذه الدلائل هو توفر حالة من الثراء فى هذا الإقليم خلال أوائل العصر الهيلادى الثانى. ومن سوء الحظ أنه لم يتم التنقيب فى كثير من مواقع الاستيطان. وبالتالى فلا توجد دراسات عنها، وفى هذه الفترة كانت توجد أكبر قرية فى يوتريسيس (Eutresis) على بعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب من طيبة. كذلك كشفت الحفائر الحالية فى ليثاريس (Lithares) التى تقع على بُعْد سبعة كيلو من هذه المدينة

على ضفاف بحيرة هوليكى[*] (Hylike) عن وجود مستعمرة مزدهرة خلال أوائل العصر الهيلادى الثانى، وقد تمتعت هذه المستعمرة بنمط مدينة. كما توجد دلائل مؤكدة على قيام تجارة بين هذه المستعمرة والأناضول ومقدونيا، بالإضافة إلى جزر الكيكلاديس[٥٥].

صوامع الغلال

توجد بعض البقايا الآثارية يمكن أن تُرَجح أن العمل فى تلك الإنشاءات التى تتعلق بأعمال الهندسة المائية ، والتى سلفت الإشارة إليها قد بدأت فى منتصف القرن الثالث، ونعنى بالبقايا الآثارية عدد من المبانى ذات الشكل المستدير فى أورخومينوس (Orchomenos) والتى يتراوح قُطرها ما بين ٨ إلى ٢,٥ متر. وقد ذكر سبيريدون مارينატوس (Spyridon Marinatos) الذى أصبح فيما بعد أبرز العلماء فى مجال الآثار اليونانية فى عصر البرونز فى عام ١٩٤٦ أن هذه المبانى ليست مقابر، كما أنها لا يمكن أن تكون معابد أو منازل ولكنها على وجه التحديد صوامع للغلال . وأنها تُشبه بشكل واضح تلك النماذج المستعارة من مصر. وكذلك النمط الذى تم العثور عليه فى جزيرة ميلوس إحدى جزر الكيلاديس. ويدل حجم هذه الصوامع على أنها أقيمت لكى تستوعب غلال من انتاج منطقة شاسعة، كما يؤكد هذا المستوى الكبير من التخزين وجود تنظيم سياسى متقدم. وقد تمكن مارينا توس من خلال دراسته للخزف من إرجاع تاريخ هذه المنشآت إلى أوائل العصر الهيلادى الأول والثانى. وبالإضافة إلى هذه المنشآت أشار هذا العالم إلى وجود سلسلة من الصوامع ذات الحجم الكبير، وقد شُيِّدَت هذه الصوامع من الطوب ويصل محيط دائرتها إلى ٨٨ مترا ويبلغ ارتفاع القباب فيها إلى ٤٦,٤ مترا فى تيرنس (Tiryns) فى سهل أرجوس الذى يقع فى شمال

(*) أما النطق اليونانى الحديث لاسم البحيرة نفسها ، فهو " إليكى " . (المحرر)

شرق شبه جزيرة البلوبونيز. أما تاريخ إنشائها فإنه يرجع إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى أيضًا. وإذا أخذنا بهذا الرأى فلابد أن هذه الصوامع قد أقيمت لاستيعاب كل الغِلال التى ينتجها سهل أرجوس[٥٦]. والواقع أن مقالة مارييناتوس تثير حالة من الارتباك لدى المتخصصين، فإن هذا العالم من أبرز المتخصصين فى مجال الآثار اليونانية فى خمسينيات هذا القرن، بل والستينيات واستمر الحال كذلك فى السبعينيات. وقد جاءت أفكاره عن التأثير المصرى، وعن وجود تنظيم سياسى واقتصادى كبير فى بلاد اليونان خلال الألف الثالثة ق.م. مناقضة لما يؤمن له الأوروبيون الشماليون عن بلاد اليونان فى هذه الحقبة.

ومن الملاحظ أن رينفرو ومثله فى ذلك مثل الكثير من المنادين بفكرة الانعزالية. قد شعر بالارتباك أمام وجود مثل هذه المنشآت ذات الحجم الضخم ؛ فإذا سلمنا بأنها صوامع للغِلال فإن هذا يؤدى إلى هدم النموذج الذى يأخذ به، والذى يقول بوجود مزارع محلية صغيرة فى أوائل عصر البرونز فى تاريخ الزراعة الإغريقية. وقد أثار الشك فى بعض إجزاء كتابه عن بزوغ الحضارة حول إمكانية النظر إلى هذه المنشآت على اعتبار أنها مساكن[٥٧]. إلا أنه عاد فى مواطن أخرى وأقر بأن هذه المنشآت وكذلك تلك التى وجدت فى تيرنس تكون صوامع للغلال . وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يزال مُصرًا على أن لا ينهض دليلاً على هدم نظريته التى يرى من خلالها أن الزراعة الاغريقية خلال الألف الثالثة كانت تقوم على أسس أولية[٥٨].

فإذا أخذنا فى الاعتبار نظام الرى فى كوبايس، وكذلك السد بالقرب من تيرنس، وهو سد على الرغم من كونه قصيرًا إلا أنه ذو حجم كبير. فإنه لا يكون من قبيل المبالغة الربط بين هذه الصوامع الضخمة وبين المنشآت المائية[٥٩].

وكما رأينا فإن تاريخ هذه الصوامع يرجع إلى أوائل العصر الهيلادى الأول والثانى (حوالى ٣٣٠٠-٢٤٠٠ ق.م) إلا أن تاريخ سد تيرنس لايزال موضعًا للخلاف. فإن الباحث الأمريكى "بالسر" (J. M. Balcer) يرى أن هذا التاريخ يرجع إلى أواخر

العصر الموكينى. إلا أن "كناوْس" (Knauss) يرى أن سد تيرنس أكبر بكثير من سدود بويوتيا . ومن ثم فإنه لا ينبغى بأى حال المقارنة بينه وبين تلك الموجودة فى كوبايس .

وعلى أية حال فإنه يصنع تأريخًا لسدود كوبايس يرجع إلى ما بين عامى ١٨٣٠ و١٦٨٠[٦٠]. وما يسترعى الانتباه أن هذا الباحث يعتقد أن سد تيرنس هو الأقدم. وأنه يرجع إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى[٦١]. وهكذا فإنه يتوافق مع تاريخ صوامع تيرنس. ومن ناحية أخرى فإن التاريخ الذى يقترحه كناوْس لأعمال كوبايس يأتى بعد العصر الهيلادى المبكر بفترة طويلة وهو تاريخ إنشاء الصوامع. وعلى أية حال فإن سبيروبولوس يربط ما بين مخازن الغلال ونظام الرى الذى يرجع إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى[٦٢]. ومن ثم فإن فكرة أن تكون تلك المبانى المستديرة هى صوامع الغلال، وأن إقامتها كانت نابعة من تأثير مصرى، وكذلك إرجاعها إلى هذا التاريخ المبكر، هى أمر يحالفه الصواب. ومن ناحية أخرى فإنه بسبب بعض المسائل المتداخلة يمكن القول بأن نظام الرى والصرف فى كوبايس (وكذلك فى البلوبونيسوس) قد تم تحت تأثير مصرى خلال عهد الدولة القديمة حوالى ٣٠٠٠ - ٢٤٧٠ ق.م. وعلى وجه الخصوص من أجل خدمة ضفاف نهر كيفيسوس الغنية، وكذلك المحاصيل الموسمية لحوض البحيرة فى السنوات التى يكون فيها هذا الحوض جافًا.

إن وجود بيت القرميد أو القصر الصغير الذى يرجع تاريخه إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى فى " ليرنا " (Lerna) على بعد كيلو مترات معدودة من تيرنس (Tiryns) قد يزودنا بدلائل فى صالح فكرة الانتاج الزارعى الكثيف، ونظام الرى فى هذه الفترة. ومع ذلك فإن بيوت القرميد فى ليرنا وطيبة لا ينبغى النظر إليها باعتبارها قصورًا صغيرة ترتبط بنظام الرى، وليس هناك ما يدعونا للاعتقاد بوجود نظام للسدود بالقرب من ذلك السد الذى وجد فى مسينيا (Messenia) جنوب غرب البلوبونيسوس. على الرغم من أنه من المتوقع وجود نظام للرى فى هذا الإقليم . وعلى أية حال فإنه يوجد نموذج لبيت القرميد فى جزيرة إيجينا (Aigina) على الرغم من وجود القليل أو حتى عدم وجود أنظمة للرى فيها[٦٣].

نظام الرى والإستيطان

فى إقليم أرجوس

أشرت فى الجزء الأول من هذا الكتاب إلى نظام الرى الذى يُفتَرض أنه جرى تنفيذه على يد " دناؤوس" (Danaos) المستوطن الأول والمؤسس لأرجوس. وإننى على يقين من أنه قد جاء من مصر فى عصر الهكسوس خلال الألف الثانية. إن ما يدفعنا إلى التأكد من نسبة نظام الرى إليه ربما يأتى من أن هذا الاسم يتشابه مع الكلمة المصرية (dui) وينحدر منها (وهى كلمة تعنى يوزع أو يروى) [٦٤]. فإذا كان الأمر كذلك فإن ملامح هذا النظام ترجع إلى الألف الثالثة وليس الثانية. وسوف نُرجئ الحديث عن هذا فى الفصل التاسع، وذلك لأسباب كثيرة. فإننى لازلت متمسكًا بفكرة أن كل الأفراد والأحداث التى ترتبط بشخصيته الأسطورية هى أحداث مركبة وتنتمى بشكل غالب على الأقل إلى العصر المتأخر.

ومن ناحية أخرى فإن شخصية إيناخوس (Inachos) وهى شخصية أسطورية ، إن لم تكن خرافية، وهو أول ملوك أرجوس ووالد إيو (Io) التى يسود الاعتقاد بأنها وجدت قبل " دوناؤوس". إن إيناخوس يمكن النظر إليه بإعتباره الصورة المجسدة لنهر "إيناخوس"، الذى يُعْد أكبر أنهار أرجوس ولكن إطلاق هذا الاسم ليس له تفسير مقنع. وقد إفترضت فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن يكون منحدراً من الكلمة المصرية (rnh) التى تعنى الحياة ، وترد أحيانًا بمعنى المياه الحية، وقد جاء ذكرها فى أشكال أخرى لكى تعنى " الذى يعيش للأبد" وكان هذا أحد ألقاب فرعون الحى[٦٥].

ويسود الاعتقاد بأن إيناخوس ينتمى إلى هذا المكان، وأنه وُلِدَ فيه، إلا أننا نرى الأب يوسيبيوس (Eusebius) يشير إلى رواية تقول بأن إيناخوس مثله فى ذلك مثل دناؤوس كان مستوطنًا جاء من مصر. وقد حَظِيتَ هذه الرواية بقبول الدارسين الفرنسيين فى القرن ١٨ من أمثال "نيكولاس فرير"(Nicolas Freret) و"أبيه بارثلمى" (Abbe Barthelemy) . فقد ذكر هذان العالمان أن إيناخوس وإبنه الذى ذكرته الأساطير ويدعى فرونيوس (Phroneous) كانا مستوطنين مصريين أقاما فى أرجوس

فى القرن العشرين ق.م[٦٦]. فإذا أخذنا فى الاعتبار الأصل المصرى للاسم والدلالة اللفظية التى ترتبط بالملكية، وكذلك المياة، ورد ذلك جميعًا إلى فترة مُوغلة فى القِدَم، فإن ذلك يقودنا إلى إتجاه عام وهو أن نظام الرى كان مصريًا ، وكذلك الاستيطان ، وأن ذلك يرتبط بالسد والمبنى نو الشكل المستدير فى تيرنس (Tiryns) وكذلك بيت القرميد، وهو البيت الذى كان فيما يبدو يقوم بوظيفة القصر فى " ليرنا" (Lerna) خلال الألف الثالثة، إلا أن ذلك يظل على أية حال فى عالم التخمين.

نظام الرى والصرف

فى أركاديا Arkadia

إذا كانت نظم الرى والصرف فى تيرنس وكوبابيس هى أكبر الأعمال من نوعها فى بلاد اليونان فإن هناك نماذج أخرى فى أماكن متفرقة ، مثل تلك التى وجدت فى أركاديا التى تقع فى قلب شبه جزيرة البلوبونيسوس . ولقد تحدثت فى الفصل الثانى عن بعض الملامح الطبيعية لإقليم أركاديا وذلك فى معرض حديثى عن تيلبوسا (Thelpousa) ولادون (Ladon) التى تنبع من بحيرة فينيوس (Phenueos) وتتصل بحيرة ستيمفالوس (Stymphalos) من خلال قناة تحت الأرض، قد ذكر باوسانياس أن هناك رواية محلية دارجة تعزو إنشاء هذه القناة إلى الإله هرقل[٦٧]. وتدل عمليات المسح الحديثة على أنه حدث تطوير لهذه القناة بواسطة البشر، وقد قام بإجراء عمليات المسح " كناوْس " (Knauss) وفريق البحث المصاحب له. وقام هذا الفريق بالعمل فى بحيرتى فينيوس وستيمفالوس بالإضافة إلى حوض " كافاى" (Kaphai) وكذلك منطقة أورخومينوس (Orchomenos) فى البلوبونيز، وهى تقع جنوبى بحيرة " تاكا" (Takka) بالقرب من تيجيا (Tegea) جنوب غرب تريبوليس (Tripoli) الأركادية ، وقد أكدت هذه العمليات وجود عمليات انشائية للسدود بالإضافة إلى تطوير القنوات الطبيعية فى الإقليم[٦٨].

والواقع أنه من الصعب معرفة تاريخ هذه الأعمال. فإن البعض منها يرجع إلى العصر الهيلينيستي. بينما يرجع بعضها الآخر إلى العصر الروماني. ولكن معظمها كان قائمًا في أواخر عصر البرونز، وهو ما يمكن معرفته من خلال الدلائل التي أمدتنا بها المستوطنات القريبة التي يرجع تاريخها إلى العصر الموكيني(٦٩). بالإضافة إلى ما ذكره هوميروس من أن أرخومينوس الأركادية كانت في زمن الحروب الطروادية غنية بالقطعان(٧٠).

وبشكل عام فإن التناقض ما بين ثراء أركاديا في عصر البرونز، وما آل إليه حالها من تدهور خلال العصر الكلاسيكي يؤكد أن نظام الري والصرف كان أكثر فعالية في العصور الباكرة. وثمة تأكيد آخر يدلنا على إرجاع هذه السدود إلى عصر البرونز، ويتأتى ذلك من خلال ربطها بشخصية هيراكليس، وهي شخصية على الرغم مما يكتنفها من غموض فإنها ترجع إلى هذا العصر(٧١). وهناك تأكيد أكثر على قدم أعمال الهندسة المائية في أركاديا، وهو ما تمثله الملاحظة التي أبداها كناوْس وفريق العمل المصاحب له، والتي ترى تشابهًا ما بين سدود أركاديا وتلك الموجودة في تيرنس (Tiryns) وبويوتيا، وبما أن هذه الأخيرة كانت موجودة إبَّان العصر الموكيني، فليس هناك من الأسباب ما يحملنا على الافتراض بأن سدود أركاديا متأخرة عنها. وعلى أية حال فإنه طالما أن كناوْس وفريقه قد ذكروا أن سدود البلوبونيز تشبه تلك الأعمال الميناثية "Minyan" في كوبابيس. فإن ذلك ينهض دليلاً على أن ثمة احتمال بأنها قد بدأت في أوائل أو منتصف العصر الهيلادي. وليس في أواخر هذا العصر(٧٢).

تشابه أسماء الأماكن

في بويوتيا وأركاديا

أثار انتباه علماء الآثار المحدثين ذلك التشابه بين التقنية المستخدمة في بناء السدود في كل من بويوتيا وأركاديا، ولعل الأكثر لفتًا للنظر ذلك التشابه الدقيق بين أسماء الأماكن التي وُجِدَت بها تلك الأعمال المائية. وقد أشرنا من قبل في الفصل

الثانى إلى وجود نهر يحمل اسم لادون (Ladon) فى كلتا المنطقتين، وكذلك التشابه ما بين اسم تلفوسا (Tilphousa) وثلبوسا (Thelpousa) . وكذلك ما بين اسم أونكا (Onka) وأونكايوس (Onkaios) [٧٣] كما يستلفت النظر أيضًا وجود مدينة تحمل اسم أورخومينوس تقع على مَقْرُبة من ذلك السد الذى يمكن اعتباره أقدم السدود على بحيرة كوبايس. وكذلك أخرى تحمل نفس الاسم وتحتل موقعًا مهمًا على القناة التى تصل ما بين بحيرات كافاى القديمة وأورخومينوس الأركادية، كما توجد أورخومينوس أخرى على حافة سهل فتيوتيس (Phitiotis) فى ثساليا[٧٤].

ويساورنا بعض الشك فى أن يكون هذا الاسم من أصول قديمة ، فإن الصفة (Ekomeno و Okomeno) تظهر فى الكتابة التخطية (Linear B) وعلى الرغم من إصرار شادويك (Chadwick) بأن هذه الكلمات لا ترتبط بأروخومينوس الأركادية فإنه لا ينبغى أنها ترتبط بشدة باسم مدينتين مختلفتين وجدتا فى العصر الكلاسيكى وهما مدينتا أورخومينوس (Orchomenos) وإرخومينوس (Erchomenos) . وقد ذكر شانترين (Chantraine) أن التطور الأتيمولوجى لاسم أورخومينوس غامض إلى حد كبير. ولكن على أية حال يسود اعتقاد عام بأنها تنحدر من الجذر (Orch) الذى يعنى كرمة أو شجر الفاكهة، وهو ما يمكن أن نأخذه أيضًا على محملين متقاربين "الأيكة" أو "الحديقة" أو على أنه سياج لذلك، فإن كناوس يأخذ بالرواية التى يسير عليها الدارسون والتى تقول بأن المعنى المقصود هو المكان المحدد أو الذى يحيط به سور[٧٥]. كما أقر بوجود ملحوظة وهى أن كلتا المدينتين تقعان فى منطقة توجد أعلى مناطق الرى وليس فى وسطها. وقد استند إلى ما جاء عند استرابون وباوسانياس ، وذكر أن أورخومينوس البويوتية تقع فى سهل كوبايس ، وأنها نقلت إلى موقعها الأخير بعد الفيضان الذى حدث فى نهاية عصر البرونز[٧٦] ، إلا أنه لا يوجد دلائل يمكن مقارنتها فيما يتعلق بأورخومينوس الأركادية.

وهناك اقتراح بوجود أصل إتيمولوجى للجذر (Orch) من الكلمة (wer-gh)(مغلق) وهو موجود فى اللغة الليتوانية فى كلمة Verziu (بمعنى معلق أو مسور). وفى اللغة الاسكندنافية القديمة (Virgill)(دائرة). وهناك احتمال آخر قابل للأخذ به بنفس الدرجة وهو أنه من الجذر الكنعانى rk . والمعنى الأصلى لهذا الفعل هو "الترتيب فى

نظام" أو " الوضع فى صفوف" . وقد استُخدِمَت بشكل متواتر فى المجال العسكرى بمعنى " إعداد صفوف القتال". وثمة مشكلة أخرى من جانب علْم الصوتيات، وهى أننا لا نعرف متى بدأت اللغة الكنعانية فى إبداء تلك الظاهرة المعروفة باسم " تليين الوقفات" مثل b,g,d وكذلك T , K, P التى تأتى بعد حروف العلة والتى تؤدى إلى قراءة rk مثل rkh . وعلى الرغم من ذلك فإن تحول حرف kالسامى إلى حرف ch اليونانى هو أمر معروف بما يكفى بتدبر هذه المعادلة. إن تليين الحروف ربما يكون قد انتشر من خلال الاختلاط مع جذر سامى آخر هو rh (الذى يعنى طريق أو يرحل أو يصل). وأن هذا الجذر rh ربما يكون هو الأصل فى الكلمة اليونانية (erchomai) (رحلة - يصل - يذهب) وهى كلمة ليس لها أساس إيتمولوجى فى اللغة الهندية الأوروبية(٧٧).

إن الجذرين rh , rk تنحدر منهما كلمات كثيرة فى اليونانية، وتحمل هذه الكلمات معنى " ترتيب صفوف القتال " . ومن المحتمل أن rk هو الأصل فى عنقود من الكلمات اليونانية التى تبدأ بـ arch والتى ليس لها أساس فى اللغة الهندية الأوروبية. ويرى شانترين أن المعنى الأساسى لها هو " يذهب أولاً " أو " يبادر" أو "يبدأ " كما ترجم كلمة (archion) إلى " يتولى القيادة " . وذلك فى المجال العسكرى . ومن هذا المقطع تنحدر معان كثيرة للمقطع arch مثل " يقود " و " أولاً "، وهكذا فإنه من الواضح أن (erchorcho) عبارة عن استعارة من اللغة السامية. إن هذا يقوى الافتراض بأن (orchomenos أو Erchomenos) تعنى " المنظم " أو " المكان المسور" ، وتشير إلى وجود السدود والقنوات التى تتحكم فى المياة. وإذا كان الأصل السامى للجزء الأول الذى لا جدال فيه فإن الجزء الأخير وهو (menos) هو اسم الفاعل المبنى للمجهول الذى يدل على التسمية اليونانية للمكان. ومن الممكن أن يكون ثمة امتزاج ما بين كلمة (mayin) فى الآرامية التى تعنى مياه، وفى لغات أخرى يجرى دمج حرفى العلة المتتابعين (diphthong) لكى يصبحا حرف e فقط فى اللغة السامية(٧٨). ولذا فإن المعنى يكون " المياه المنظمة " وهو ما يمكن أن يعبر عن المعنى المطلوب بدقة.

وعند هذه النقطة فإنه ينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا التطور الإتيمولوجى لبعض الكلمات اليونانية التى تتصل بالرى وأولها كلمة استخدمها الأقدمون لكلمة السدود والجسور وهى كلمة (Khoma) . إنها تشبه الكلمة العبرية (homa) (جدار) ،

والتى استخدمت لوصف الأسوار التى تحيط بالمدن والأماكن الكبرى. ولكن لأن كلمة (homa) تستخدم بشكل منفرد فى اللغة السامية أكثر من استخدامها على هذا النحو فى اللغة اليونانية، لذلك فإن الإعارة ربما جاءت من الغرب إلى الشرق. أما كلمة (gephyra) فإننا نرى أن جونز هوكر (Jones Hooker) الذى تخصص فى الدراسات الكلاسيكية يثير جدلاً حول الأصل السامى لهذه الكلمة، والتى تعنى فى الأصل سد أكثر مما تؤدى إلى المعنى الذى إلتصق بها وهو " جسر". إنه يقترح أنها جاءت من أصل سامى هو (gb) الذى يحمل معانى " يحفر " و " سد " و " حصن "[٧٩]. وسوف أناقش فى الجزء الثالث من هذا العمل فكرة أنه ربما يكون من الأفضل استنادًا إلى علم الأصوات أن نستشف أن كلمة (gephyra) قد جاءت من الأصل السامى (gwbr) (يدفن) . وعلى أية حال فإن افتراض الأصل السامى لهذه الكلمة يدعمه ما ورد عند هيرودوت ونصه كما يلى : " إن الـ (Gephraei) على حسب وصفهم قد جاءوا فى الأصل من إرتريا (Eretria) ، ولكن عندما تحريت الأمر وجدت أنهم فى الحقيقة فينيقيون، وهم ينحدرون من هؤلاء الذين وفدوا مع كادموس إلى ما يعرف الآن بإقليم بويوتيا . حيث تم منحهم منطقة تاناجرا (Tanagra) لكى يقيموا فيها مساكنهم، وبعد أن قام أهل أرجوس بطرد خلفاء كادموس، ثم طرد الـ (Gephyraei) بواسطة البويوتين لجئوا إلى أثينا[٨٠].

وهكذا فإن الجماعة التى تحمل اسم " جسر " والتى جاءت مع الغازى كادموس فى عصر البرونز وصفت بأنها فينيقية . إن هذا يعطينا إشارة ذات دلالة واضحة على تدخل ذوى اللسان السامى فى نظام الرى فى بويوتيا، وهذه التسميات السامية المرجحة سواء أطلقت على الأماكن أو الأشخاص تتوافق مع التأثير السامى فى مجال العبادات والأساطير فى بويوتيا وأركاديا خلال عصر البرونز[٨١].

ومما هو جدير بالذكر أن العالمين الألمانيين كالسيك (Kalcyk) وهنريش (Heinrich) ذكرا أن جبل أوركسيس (Oryxis) المتاخم لأورخومينوس فى أركاديا يرتبط بكلمة (Orysso)(بمعنى يحفر قنا). وهى تعنى أيضًا(حفر الجبل) [٨٢]. والواقع أن الجذر

(Orygk) ليس له تفسير مقنع فى اللغة الهندوأوروبية من الناحية الاتيمولوجية[٨٣]. ومن ناحية أخرى هناك الأصل السامى (rg) (يحفر). وقد ورد بمعنى يحفر الأرض الجافة[٨٤]. ومما هو جدير بالملاحظة أن جبل أوركسيس يقع بالقرب من جبل ساتيس (Saitis) وقد أشرنا من قبل إلى مدينة سايس (Sais) مركز عبادة الربة نيت - أثينا، وارتباط هذه المدينة بعمليات التحكم فى المياه[٨٥]. إن كلا الجبلين يقع بالقرب من أورخومينوس على شواطىء بحيرة فينيوس .

إن اسم فينيوس يدل بوضوح على التأثير المصرى فى تسمية الأماكن التى لها صلة بالمياه ونُظُم الرى فى بويوتيا وأركاديا. إن كلمة فينيوس (Pheneos) وبينيوس (Peneios) تنحدر من كلمة (P3 Nw(y) (الفيضان). وربما تكون هى كلمة (Panan) فى اللغة القبطية. وهو الأمر الذى ذكرناه من قبل[٨٦]. إن اسم (Peneios) يُطلَق على نهر إليس (Elis) فى شمال غرب البلوبونيز وهى المنطقة التى يفيض منها نهر لادون (Ladon) . كما أن هذا الاسم ذاته يُطلَق على النهر الرئيسى فى تساليا والذى يفيض فى سهل تساليا. وكان القدماء يعتقدون أنه كان فى الأصل عبارة عن بحيرة. وعلى أية حال فإنه إما أن يكون ناتجًا عن زلزال أو من أعمال بوسيدون (إله البحر) فإن نهر بينيوس التسالى أصبح يتجه إلى البحر[٨٧]. ومما هو جدير بالذكر أن الكاتب الملحمى المصرى نونوس (Nonnos) كتب فى القرن الخامس الميلادى - استنادًا إلى مادة ترجع إلى عصور قديمة - لكى يربط ما بين هذه الأحداث الدرامية والطوفان العظيم الذى إجتاح العالم[٨٨]. إن الاقتراح الذى يرجح الفيضان ربما يمكن قبوله بقوة فيما يتعلق بفينيوس فى أركاديا . إن حالات الانسداد التى نتجت عن الزلازل المتتابعة والتى أغلقت مجارى الاتصال مع نهر لادون قد جرى ذكرها من قبل. كما أن القنوات الأخرى سواءً كانت طبيعية أو من صُنْع الإنسان لابد وأن يكون قد لحقها التدمير[٨٩]. وقد ذكر بلينى أن المنطقة شهدت وقوع خمسة فيضانات خلال العصور التاريخية . كما كتب باوسانياس ما يلى:" إن سهل فينيوس يقع اسفل كارياى (Karyai) ، وقد وقع به فيضان أغرق السهل، وحتى أيامنا هذه توجد علاقات باقية على الجبال تدل على مدى ارتفاع مستوى المياه[٩٠]."

سار جيمس فريزر (James Frazer) وباحثون آخرون من بعده على نفس النهج الذى سار عليه كناوس وفريقه فى تقدير البحيرة التى من صُنْع البشر[٩١]. (ولا يجب الخلط ما بين اس (Peneios ، Pheneos) وبين اسم العلم (Phinea/es) ، فإنه مثل الاسم العبرى بنحاس (Pinhas) يأتى من الاسم المصرى (P3 Nhs) (النوبى أو الأسمر) حول هذا الأمر أنظر الفصل الثامن الذى سيأتى فيما بعد[٩٢].

وهناك بحيرة أخرى يبدو أن اسمها فى الأصل كان مصرياً وهى بحيرة فى أركاديا تحمل اسم كافاى (Kaphai) [٩٣] .إن اسم (Kbh(w)) واحداً من أكثر الأسماء المصرية شيوعاً للدلالة على مجارى المياه والأنهار والمسطحات المائية الأخرى[٩٤]. وهى ترتبط بشكل واضح بالجذر (kbb) (بارد) وكذلك (kbh) (يطهر) ، إن (kbb) كان اسما لواحد من كهفين يقعان بالقرب من جزيرة الفنتين، وكان يسود الاعتقاد بأن النيل ينبع منهما وقد أشار هيرودوت إلى هذين المنبعين باسم (Pegai) [٩٥].إن قيام المصريين بالربط ما بين (kbh(w)) واليرودة وكذلك الينابيع التى تحمل المياة العذبة وتخرج من كهوف فى الأرض هو أمر يتماشى مع فكرة أن بحيرة كافاى تستمد مياهها من مصادر غامضة ومن قنوات مختفية ، وإذا ما تذكرنا النهاية (issos) التى توجد فى أسماء بعض الاماكن فى منطقة بحر إيجه ، فإننا نجدها فى اسم (Kephissos) وهو النهر الرئيسى الذى يصب فى بحيرة كوباييس، كما نجدها فى أسماء العديد من أسماء الأنهار فى بلاد اليونان. إن الكثير من هذه الأنهار إن لم يكن غالبيتها يأتى من كهوف، وكانت تلك الكهوف تستخدم لإجراء شعائر التطهر[٩٦]. ويمكننا أن نلاحظ أن (kbh(w)) تكتب بشكل محدد بالعلامات المصرية للتعبير عن البرك أو البحيرات التى تعيش على شطآنها طيور مائية . إن هذا ينطبق على كافاى (Kaphai) ، كما انه ملائم أيضاً لحالة بحيرة كوباييس[٩٧] .

إن كناوس له عدة اقتراحات بناء على ما جاء عند بلينى، فإن كوباى (Kopai) قد اكتشف المجداف، وبلاتايا (Plataia) توصل إلى الدفة ، وأن إيكاروس (Ikaros) قد توصل إلى الملاحة، أما دايدالوس (Daidalos) فقد إكتشف الصارية وعارضه الشراع[٩٨]. إن هذه الرواية يجب أن تؤخذ فى الاعتبار ولا ينبغى إهمالها، ويجب أن نلاحظ التشابه بين كلمة بلاتايا وكلمة (Plat) (مجداف – دفة) كما أن الشكل

الأسطورى لأجنحة إيكاروس يمكن أن يكون ملائماً لعملية الإبحار. لقد وصف كل من باوسانياس وبلوتارك عبارة دايدالا (Daidala) التى انتشرت بين موطنى بلاتايا التى تقع على الحدود بين بويوتيا وأتيكا، حيث يجرى قطع أطول شجرة من بين أشجار البلوط، ويتم صنع أصنام صغيرة من أخشابها، ويرجع ذلك إلى العادة المصرية التى تقوم على صُنْع أشكال باقية من الخشب[٩٩]. وقد يفسر هذا الإدعاء بأن دايدالوس هو الذى اخترع الصارية، وعلى أية حال فإن الربط ما بين كوبابيس والمجداف هو أمر يسهل فهمه أو القبول به. ويربط كناوس ما بين كوبابيس والمجداف من الناحية الاتيمولوجية، وذلك إنطلاقًا من إعتقاده بأن القنوات التى وجدت فى كوبابيس لم تكن فقط مجرد قنوات للرى والصرف. ولكنها كانت تُستَخدم للملاحة الداخلية[١٠٠]. إن قابلية هذه النقطة الأخيرة للتصديق لا تعوض ضعف الدليل الاتيمولوجى، وعدم إمكانية وجود مكان يسمى "مجداف" لذا فإن الأمر الأكثر قبولاً للتصديق هو أن اسم كوبابيس – مثل (Kophai) – قد جاء من التسمية التى جرى استخدامها بكثرة وهى (kbh,) التى تلائم على وجه التحديد البحيرة الضحلة المليئة بالأعشاب. وهكذا فإننا إذا أخذنا (Kophai , Kopais) يكون لدينا نموذج للنشابة بين أسماء الأماكن المرتبطة بنظام الرى فى بويوتيا وأركاديا. والمرء لابد وأن يلاحظ الارتباط الواضح مع مصر.

ماذا يمكن أن نستشف من خلال هذه الملاحظات الاتيمولوجية؟ إن الكثير من الأسماء يبدو من أصل مصرى أو تنتمى إلى الساميين الغربيين، وهذا يدل بجلاء على وجود المتحدثين باللسان المصرى والسامى الغربى فى المنطقة عندما تم إطلاق هذه الأسماء. ولكن هذا على أية حال أمر غير مؤكد، فإن الأسماء من الممكن أنْ تكون قد أُخِذَت من مصر والمشرق دون أقحام مسألة الهجرة. وثمة مشكلة أخرى تتعلق بالتأريخ، وتطرح سؤالاً هو هل الأسماء التى سبق ذكرها قد أُطلِقَتْ قبل إقامة هذه الأعمال أو خلال الإنشاء أم بعد الفراغ منها؟

أنه بحق أمر شديد التعقيد عندما نحاول إيجاد تاريخ تقريبى لأعمال الهندسة المائية فى بويوتيا والبلوبونيسوس. إن المناقشة التى ذكرناها من قبل تشير إلى أن أعمال الهندسة المائية فى بويوتيا وأرجوس ربما يكون البدء فى إنشائها تم فى أوائل العصر الهيلادى.

وقياسًا على ذلك يكون الحُكْم صحيحًا فيما يتعلق بأعمال أركاديا، على الرغم من أن هذه الأخيرة ربما يكون العمل فيها قد بدأ بعد الأولى بقرون. فهل يمكننا أن نخمن أن ذلك التشابه فى التقنية ما بين بويوتيا وأركاديا كان نتيجة للإفادة من تجربة بويوتيا التى كان موقعها أكثر جنوبا ، ولذلك فهل يمكننا القول بأن أسماء الأماكن قد جاءت إلى البلوبونيز من بويوتيا وليس من الشرق الأوسط بشكل مباشر؟ وزيادة على ذلك فإنه على الرغم من أن أسمًا واحدًا من أسماء هذه الأماكن على الأقل وهو أورخومينوس كان مُستخدمًا خلال عصر البرونز، إذا كانت نُظُم الرى يرجع تاريخها إلى عهد أقدم، فليس هناك بالضرورة رابطة ما بين بداية الانشاءات وإطلاق أسماء الأماكن.

إن الأمر فيما يتعلق بأسماء هذه الأماكن يبدو على درجة كبيرة من التعقيد. فإذا ما نظرنا إلى بعض ما جاء فى الأساطير فإنه يبدو من المؤكد تقريبًا أن بعض أسماء الأماكن من أصل شرق-أوسطى مثل ثيسبى (Thisbe) وثيسبياى (Thespiai) التى أُدخلَت خلال أواخر عصر البرونز – وهو تاريخ يتفق مع أول إنشاءات الهندسة المائية. إلا أن البعض الآخر من الأسماء يبدو أقدم، وكل ما استطيع أن أذكره بنوع من التأكيد أنه فى نهاية عصر البرونز كانت توجد العديد من أسماء الأماكن التى ترتبط بأعمال هندسة الرى، وأن معظم هذه الأسماء على الأرجح مصرية أو سامية غربية استنادا إلى علم الاتيمولوجى.

وهكذا فإنه طالما أن الدلائل التى تتعلق بأسماء الأماكن ليست مؤكدة، فإن الأمر الأكثر فائدة أن نفترض أن هذه الأسماء قد جاءت مع السدود والقنوات، وأن قومًا من المتحدثين بالمصرية أو السامية الغربية قد اشتركوا فى إقامتها، وربما تم ذلك فى أوائل عصر البرونز. وتقريبًا خلال العصر الموكينى(*).

(*) وهذه نتيجة منطقية جدًا ، وموضوعية ، وأيًا كانت قلة الدليل الأثرى المصرى – فى هذه الأماكن يرجع قومًا أخرين ، غير المصريين ، كانوا على إتصال بمصر ، ونقلوا الخبرات المصرية الى اليونان ، وهم الفينيقيون، كما فعلوا الشيء نفسه ، من بعد ذلك ، فى عصر الحديد مع مطلع الألف الاولى ق.م . (المحرر)

التركيب الاجتماعي والسياسي

لبلاد اليونان في أوائل العصر الهيللادي

إنني أفضل اعتبار أن أقدم الدويلات التي قامت في بلاد اليونان هي تلك التي كانت قاعدتها في تيرنس (Tiryns) وليرنا (Lerna) في إقليم ارجوس، ويجب التأكيد فيما يتعلق بهذه النقطة على أن سهل أرجوس كان على درجة من الرخاء. وأنه على الرغم من فترات التدهور التي وقعت خلال الألف الثالثة، فإن هذه المنطقة قد نعمت بفترات صافية من الرخاء العظيم.

إن ليرنا التي تقع على رأس خليج أرجوس كانت مستوطنة ذات شأن كبير، حيث كانت توجد بها العديد من المساكن. بالإضافة إلى سور محكم حول المستوطنة. كما وجد بها أيضًا بيت القرميد وهو عبارة عن قصر صغير، وذلك خلال أوائل العصر الهيلادي الثاني[١٠١]. ومن الممكن ان تكون ليرنا أصغر من تيرنس. وربما كانت هناك مدن أخرى كبيرة في المنطقة، وزيادة على ذلك فكما أشرنا من قبل فإن بيوتا أخرى من القرميد تشبه بيت ليرنا قد وجدت في مسينيا (Messenia) وجزيرة إيجينا التي تقع ما بين أتيكا وإقليم أرجوس، وربما في مدينة طيبة[١٠٢]. وهكذا فإننا إذا ما نظرنا إلى إقليم أرجوس في أوائل عصر البرونز فإننا نجد أنفسنا بإزاء مجتمع على قدر كبير من الرخاء والتقدم، وإذا ما أضفنا صومعة الغلال في تيرنس والسد - إذا كانا ينتميان إلى هذه الفترة - فإننا نجد أن الإقليم كان يتمتع بنوع من الوحدة السياسية . وترى إميلي فيرميول (Vermeule Emily) أن التعاون في تلك الآونة كان ذو طبيعة إشتراكية (Communal) وهو اقتراح يترك شكل النظام الاجتماعي غامضًا. وعلى أية حال فإننا إذا ما أخذنا في الاعتبار النُظُم الاجتماعية وشكل الدولة في الشرق الأدنى خلال هذا العصر فإنه من المعقول أن يكون النظام في أرجوس ذا طبيعة ملكية أو قائم على نظام الإمارة كما هو الحال في مصر وفي بيبلوس (Byblos)[١٠٣] . المدينة التجارية العظيمة على الشاطئ الشرقي للمتوسط ، والتي كانت توجد بها حكومات أرستقراطية

أو بلوتوقراطية(*). وقد كان الحال كذلك فى المدينة المعاصرة التى كان لها شأن كبير وهى إبلا (Ebla) .

وعلى الرغم من أن كوبابيس لم تكن قد شهدت بعد اكتمال نظام الرى والصرف ، كما أن الصوامع بها كانت أصغر من تلك التى وجدت فى تيرنس فإنه يبدو أنه كانت توجد إمارة أو جمهورية صغيرة فى أورخومينوس البويوتية. إن النمط الكبير والشكل الذى كانت عليه مقبرة أمفيون وزيتوس تجعلنا نعتقد بوجود دولة ذات شأن فى طيبة. إن أشكال التنظيم الاجتماعى الذى يقف وراء السدود الأركادية أمر يصعب على الفرد أن يرصده. ولكن بشكل عام فإن من الواضح أن بلاد اليونان فى أوائل العصر الهيلادى الثانى شهدت العديد من الدويلات كان لبعضها شأن كبير .

ومن الواضح أيضًا أنه كان يوجد فى أتيكا وجزيرة سيفنوس (Siphnos) إحدى جزر الكيكلاديس على الأقل مناجم كان يجرى استغلالها بشكل تجارى. وقد تم العثور على الرصاص الذى كان يُستَخرج من هاتين المنطقتين فى مواقع يرجع تاريخها إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى فى كريت وبويوتيا[١٠٤]. كما تم العثور على قالبين لصب المعادن فى حطام سفينة غارقة ترجع إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى فى دوكوس (Dokos) بالقرب من إقليم أرجوس، تدل بجلاء على مناجم الرصاص والفضة فى لاوريون (Laurion) عند رأس أتيكا على بُعْد ٨٠ ك.م[١٠٥]. وسوف نرى فى الفصل القادم كيف كان يجرى تصدير الفضة المستخرجة من لاوريون إلى مصر خلال الألف الثانية[١٠٦]. إن سفن دوكوس كانت على درجة من التطور بحيث كانت قادرة على الوصول إلى السواحل الشرقية ومصر. إلا أنه ليس لدينا من الدلائل ما يؤكد أنها كانت تولى شطر هاتين المنطقتين. إن المكان الذى عثر فيه على حطام السفينة يعطى انطباعًا بأن السفينة كانت فى طريقها إلى سهل أرجوس أو جنوب البلوبونيز أو كريت . وعلى أية حال فإنه يمكننا القول أنه خلال النصف الأول من الألف الثالثة

(*) مكونات أصحاب الثروة (المترجم) .

كان يتم إنتاج النحاس بشكل تجارى فى عالم بحر إيجه. إن دراسات علم المعادن فى عصرنا الراهن تثبت أن الرأى السائد بأن مناجم لاوريون قد بدأ فى استغلالها خلال القرن الخامس ق.م، فقط هو رأى خاطئ وأن هذا الأمر يسبق هذا التاريخ بألفى عام على الأقل[١٠٧].

إن الافتراض الذى يقضى بوجود دول كبرى فى بلاد اليونان القارية فى ذلك الوقت هو افتراض يُثير عددًا من المشاكل. أولاً نجد أنه من الصعب علينا أن نشرح لماذا لم يكن يوجد فى كريت قصور أو دول على الرغم من أنها تشربت التأثير المصرى. وهو الأمر الذى سوف نوضحه فى الفصل الأخير. بينما كانت توجد القصور والدول فى شمال أرجوس وبويوتيا. إن أكثر التفسيرات إقناعًا هو ذلك الذى يقوم على الأساس الجغرافى مع إمكانية استثناء ميسارا (Messara) فإن كريت لم يكن يوجد بها مستنقعات أو سهول تتناسب مع إقامة نظام للرى والصرف. كما أنها لم تعرف تنظيمات إجتماعية قادرة على القيام بمثل هذه المشروعات. وهكذا نلاحظ أنه بينما كانت كريت قادرة على إيجاد نظام اقتصادى وقصور فى منتصف وأواخر عصر البرونز، فإن الرخاء والحضارة ذات المستوى الرفيع التى تمتعت بها فى أوائل العصر المينوى أو فى فترة ما قبل العصور تشير بجلاء إلى إمكانية كريت على تحقيق الإزدهار بدون أن يكون هناك قصور بالمرة. إن جزر الكيكلاديس التى كانت ذات اقتصاد مزدهر وحضارة راقية فى أوائل عصر البرونز. وكانت على اتصال دائم بالحضارات الشرقية لم يكن لها - فى حدود ما هو معروف - دويلات أو قصور[١٠٨]. إن نظام الرى والصرف فى كوبابيس، وكذلك الثروة التى عرفتها بويوتيا خلال عصر البرونز تنهض دليلاً قويًا على أن سهول بلاد اليونان من اللازم أن تكون لها تنظيمات إجتماعية ذات حجم كبير حتى تكون قادرة على تحقيق الاستغلال الأمثل للإمكانيات الزراعية فى هذه السهول.

وثمة مشكلة أخرى فى القول بأنه فى حالة وجود مثل هذه الدول ذات الدرجة العالمية من التقدم، وفى ظل وجود الكتابة واستقرارها والمعرفة بها فى بلدان المشرق،

فلابد وأن تكون الدول الاغريقية على علم بها، حتى على الرغم من عدم وجود آثار مكتوبة. لقد ساد الاعتقاد - على أساس ما يمكن أن يستشف من الحجة الناتجة عن الصمت - بأن الاختام لم تكن تصنع أو لم تكن تستخدم فى بلاد اليونان خلال فترة أوائل العصر الهيلادى، ولكن من الواضح الآن - على أية حال- أنه كان يجرى تصنيعها هناك، وأنه كانت توجد فنون النقش على الأحجار الثمينة والأختام على درجة عالية من الجودة(١٠٩). إن هذا يدل بجلاء على وجود درجة من الاحساس بفكرة الملكية الخاصة فى المجتمع. كما توجد أيضًا نماذج منتشرة من الفخار يرجع تاريخها إلى أوائل العصر الهيلادى الثانى. ولكن لا توجد واحدة من العلامات تشبه تلك المقاطع الواردة فى الكتابة التخطية (Linear) . كما أنه لا توجد تأكيدات بوجود كتابة محلية فى هذه الفترة(١١٠).

لقد أشرنا فى مواضع كثيرة إلى أننا يجب أن نكون قلقين على وجه الخصوص فيما يتعلق بمسألة " الحجة الناتجة عن الصمت ". وبخاصة عند الحديث عن الكتابة لأن الكتابات عادة ما تتكون بشكل عام من شرائح من العلامات على مواد هشة وقابلة للتلف(١١١). لذلك فإننى لا أشعر بالقلق نتيجة للفشل فى العثور على نماذج من الخطوط التى ترجع إلى أوائل العصر الهيلادى فى بلاد اليونان. وعلى أية حال فإنه إذا ما وُجِدَت كتابة فى هذه المنطقة فى ذلك العصر. فإنها على وجه التحديد لابد وأن تكون شبيهه إما بالكتابة التصويرية الكريتية أو بالخط السابق على الكتابة التخطية (Linear A,B) . وكما سوف نوضح فى الفصل القادم أن الكتابة التخطية (B) لا يمكن أن تكون قد إنحدرت بشكل مباشر من الكتابة التخطية (A) ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الكتابة التخطية (B) قد إنحدرت من خط قبل الخط (A) وأن ذلك قد جرى فى حوالى عام ١٦٠٠ ق.م(١١٢). ومن أجل أن نكون قادرين على أن نشرح العلاقة ما بين الكتابة التخطية (A) التى تنتمى إلى قبرص والمقاطع التى تحتويها الكتابة التخطية (B) فإننى يمكن أن أثير جدلاً مفاده أن الشكل المشترك قد استمر إلى فترة متأخرة فى منتصف الألف الثالثة. وتأكيداً لتخميناتى فى هذا المجال فإننا ينبغى أنْ نأخذ فى الاعتبار معرفة المجتمعات المجاورة للكتابة. ومن المحتمل أنه على الأقل فى الدول

الكبرى إن لم يكن الحال فى الدول الصغرى فى منطقة بحر إيجه والأناضول كانت الكتابة مُستَخدَمة. وإذا ما تذكرنا أن حروف الهجاء قد تم جلبها إلى الإقليم فى منتصف الألف الثانى، فإن هذه الجذور العميقة ربما تشرح لنا لماذا ظلت هذه المقاطع هى الكتابة الرسمية فى كريت وبلاد اليونان القارية ذاتها.

إن هذه النظرية تأتى على النقيض من نظرية سبيروبولوس عن الاستعمار المصرى، فإذا كان هذا الاستعمار جارفًا حسب اقتراح هذا العالم فإنه لابد وأن يكون قد جلب معه الكتابة التصويرية المصرية (الهيروغليفية)، أو الكتابة ذات الحرف المتصلة (الهيراطيقية) إلى بويوتيا. أما القول بان الكتابة الأكثر شيوعًا خلال أوائل العصر الهيلادى الباكر فى بلاد اليونان لابد وأن تكون إيجية أو أناضولية قد يؤدى إلى الاعتقاد بانتسابها إلى حضارات أخرى بنفس القدر. إن هذا فى اعتقادى ينطبق بالتحديد فيما يتعلق بلغة الحديث. ولكن من ناحية أخرى فإن التأكيدات بوجود مؤثرات مصرية كثيرة فى الدويلات الإيجية خلال بواكير عصر البرونز أمر يدعمه وجود الأشكال الهرمية وأعمال الهندسة الخاصة بالرى، وكذلك صوامع الغلال. ولكن هذه الشواهد ليست هى الأدلة الآثارية الوحيدة التى تدل على الوجود المصرى بشكل بارز ومتزايد فى هذا الوقت.

شواهد آثارية أخرى عن تأثير مصر فى عصر الدولة القديمة على منطقة بحر إيجه

قبل الحديث عن العلاقات بين مصر ومنطقة بحر إيجه حوالى منتصف الألف الثالثة، فإننا يجب أن نركز على القول بأن هذه الفترة قد شهدت ازدهارًا حضاريًا فى بُلدان الشرق الأدنى. وقد كان لهذه البلدان علاقات دبلوماسية وتجارية انتشرت فى مدى أبعد بكثير من منطقة الشرق الأدنى. ونحن نعلم أن مدينة إبلا (Ebla) السورية فى ذلك الوقت كانت على اتصال بمملكة كان مقرها كردستان الحالية. كما كانت بلاد

الرافدين تستورد أحجار اللازورد وربما الصفيح من أفغانستان[١١٣]. كما تؤكد تحليلات الرصاص أن بلاد الرافدين كانت تستورد الفضة والنحاس من " المريا " فى جنوب أسبانيا[١١٤]. وإذا ما نظرنا إلى هذا النطاق الواسع الذى كانت تتم فيه العمليات التجارية فإن التجارة بين مصر ومنطقة بحر إيجه تبدو كما لو أنها تجارة محلية.

لقد ناقشنا التأثيرات المصرية على كريت فى الفصل الأول. أما الإشارات المصرية إلى عالم بحر إيجه فى عصر الدول القديمة فسوف نقوم بمناقشتها فى الفصل العاشر، وعلى هذا الأساس فإننا الآن سوف نضع فى اعتبارنا الدلائل الآثارية فقط. وهى التى تم العثور عليها فى أماكن متفرقة فى المنطقة. فقد تم العثور على إنائين حجريين يرجع تاريخهما إلى عصور ما قبل التاريخ أو إلى بواكير عصر الأسرات المصرية فى موكيناى وأسينى (Asine) فى منطقة أرجوس، التى تقع فى نفس المنطقة التى توجد بها تيرنس.

وقد عثر على الإناء الأول فى محيط الفخار الذى يرجع إلى أواخر العصر الهيلادى فى موكيناى. أما الإناء الثانى الذى وجد فى أسينى فإنه من المحتمل إرجاعه إلى مخلفات العصر الموكينى. أى ما يقرب من ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ عام من تاريخ صناعتهما. ويرى عالم المصريات بندلبرى (J.D.S.Pendlebury) والذى تخصص فى الآثار الكريتية أيضًا أن هذه الآنية الفائقة الجمال ذات الجودة العالية ربما تكون قد جاءت عن طريق كريت، أو ربما جاءت ايضًا من خلال عملية نهب إحدى المقابر الإغريقية جرت فى وقت لاحق[١١٥]. وإذا ما أخذنا بالرأى الذى يتحدث عن التأثير المصرى فى أرجوس فى الألف الثالثة فإن إمكانية أن تكون هذه الآنية قد وصلت فى ذلك الحين، وأنها دُفِنَت أو حُفِظَت كشىء ذو قيمة تتوارثه الأجيال فى بلاد اليونان أمر لا ينبغى أن نستبعده. وشبيه بهذه الحالة أحد الأزرار على هيئة ختم تم العثور عليه فى محيط بقايا ترجع إلى أوائل العصر الهيلادى الثالث فى أسينى. ويرى العالم الذى قام باكتشافه أنه مصرى، وطبقًا للإطار النظرى فإننا لا ينبغى أن نستبعد هذا الاحتمال بالقول بأنه أمر مبكر جدًا فيما يتعلق بتاريخ الاتصال[١١٦]. ولكن من ناحية أخرى فإن

هذا يمثل مجرد احتمال ولن نعطى اهتمامًا كبيرًا لهذا الختم ونأخذه على أنه يمثل دليلاً إضافيًا.

وهناك دليل لا يعتريه شك، وهو عبارة عن كأس من الرخام نُقِشَ عليه اسم معبد الشمس الخاص بمؤسس الأسرة الخامسة أوسركاف الذى حكم فى القرن ٢٦ ق.م. لقد عُثِرَ على هذه الكأس فى جزيرة كيثيرا(Kythera) التى تقع بالقرب من الطرف الجنوبى لشبه جزيرة البلوبونيز (١١٧). ويوجد احتمال قوى بأن يكون هذا الكأس الرقيق قد نقل إلى الجزيرة بعد صناعته بوقت قصير. ويرى العالم هيلك (Helck) أن هذا الكأس لابد وأنه قد وصل إلى الجزيرة بعد سقوط الأسرة الخامسة ؛ لأن مثل هذا الكأس لا يمكن أن يُؤخذ من المعبد قبل هذا التاريخ(١١٨). إن الروابط القوية بين هذه الجزيرة والساميين (!!!) تترك(*)مجالاً للاعتقاد بوجود اتصالات مع الشرقيين فى بعض المجالات خلال الألف الثانية. فعلى سبيل المثال هناك نُصِبَ كرسى للملك " نرام سين" ملك أشنونا الذى حَكَمَ فى تلك الفترة عُثِرَ عليه فى الجزيرة(١١٩). ويظهر اسم (Ku-te-ra) فى قائمة مصرية تضم بعض الأماكن الإيجية من منتصف الألف الثانية. وهو الأمر الذى سوف نناقشه فى الفصل العاشر. إن الأصل السامى لاسم (Kythera) هو (Ktrt) (تاج). وكذلك الحال بالنسبة للكلمة المصرية (Shandeia) من كلمة (Shmty) (تاج مصر المزدوج) وهو الأمر الذى ناقشناه فى الجزء الأول(١٢٠).

إن كل ذلك على أية حال لا يساعدنا فى إمكانية إتخاذ هذا الكأس كدليل على العلاقات بين مصر ومنطقة بحر إيجه خلال العصر الهيلادى الثانى. وفى هذه الحالة وللمرة الثانية فإن الدليل على الرغم من أنه قد يثير هذا الاقتراح فإنه يبقى مهتزًا. فهو لا يقدم دليلاً قاطعًا على وجود التأثير المصرى فى بلاد اليونان. وكما يبدو الأمر فيما يتعلق بجزيرة كيثيرا فهى يمكن اعتبارها إلى كريت أكثر من انتمائها إلى نطاق تأثير بلاد اليونان القارية(١٢١).

(*) لا حظ عزيزى القارئ الدهاء الشديد فى حشر تلك اللفظة ، بدلاً من المصريين ، وكأنها مرادف لهم (!!!) إنه السم فى العسل ، الهدف النهائى لهذا المؤلف برنال (!!!) ولسوف نواصل كشف ألاعيبه أولاً بأول . (المحرر)

وهناك أيضًا شاهدان أثريان من عصر الدولة القديمة من المنطقة الإيجية يثيران العديد من الصعوبات، وذلك لأنهما من الذهب الذى تم العثور عليه بواسطة صائدى الكنوز من التجار الذين حاولوا بيعها أو نجحوا فى بيعها بالفعل إلى تجار عديمى الضمير. وأبرز هذه المجموعة هى تلك التى يُطلَق عليها كنز دوراك (Dorak) وهو الذى تم العثور عليه فى دوراك بالقرب من بحر مرمرة على بعد ١٦٠ كم. من طرواده. ومن المعتقد أنه يحتوى على عدد من المشغولات الذهبية من حضارة اليورتان (Yortan) التى تنتمى إلى هذه المنطقة. وهناك سيف حديدى يرجع إلى أوائل عصر البرونز وبعض الشرائح الذهبية تنسب إلى فرعون الأسرة الخامسة ساحورع. لقد اختفى هذا الكنز منذ أن جاء وصفه فى مجلة **The London Illustrated News** فى عام ١٩٥٩ . ولكن هناك بعض الشك فى مدى أصالة هذه المواد[١٢٢]. وعلى أية حال فإننى على استعداد لأن آخذ بما ذهب إليه جونز ميلارت (Jones Mellart) الذى كتب مقالاً قصيراً ذكر فيه أنه قام بفحص تلك المواد التى تم العثور عليها[١٢٣]. فإذا كانت حقيقية فلابد أنها كانت هدية رسمية من مصر إلى الحاكم المحلى، الذى يُفتَرض أنه حاكم دوراك وربما تشير إلى نوع من السيادة المصرية على النمطقة.

إن ذلك ليس هو الدليل الأثرى الوحيد الذى يشير إلى الاتصال بين مصر والأناضول فى عصر الدولة القديمة. فقد عُثِرَ على أباريق من كيليك (Cilicia) فى مقبرة مصرية فى الجيزة يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الرابعة. كما عُثِرَ على أحد الأزرار على هيئة خِتْم مصرى فى طرسوس (Tarsus) فى كيليكيا[١٢٤]. وكذلك يوجد كَمٌ مدهش من الاتصالات بين كيليكيا فى جنوب شرق الأناضول من ناحية وبين طروادة ودوراك من ناحية أخرى فى الشمال الغربى. إن الكثير من المواد التى عُثِرَ عليها تشير إلى أن التجارة المصرية والاتصالات امتدت إلى ما بعد سوريا ، ولكنها على خلاف الحال بالنسبة لكنز دوراك لا تظهر بوضوح الوجود المصرى فى منطقة بحر إيجه .

إن هذا الوجود تؤكده مشغولات ذهبية أخرى ، وهى ربما كانت عبارة عن محتويات قبر لاحدى الأميرات. وعلى الرغم مما يبدو من أن هذه المشغولات قد جاءت

من منطقة بحر ايجه، فإن المصدر الأصلى لها غير معروف. ويعتقد " هيلك" أنها مثل مشغولات دوراك جاءت من شمال غرب الأناضول، وربما من طرواده ذاتها، وأنها المجموعة الوحيدة التى يرجع تاريخها إلى أوائل عصر البرونز(١٢٥). إن أكثر المشغولات إثارة من تلك التى تحتويها هذه المجموعة عبارة عن ختم كبير من الذهب أسطوانى الشكل يتعلق بموظف كبير فى المنطقة من عهد فراعنة الأسرة الخامسة منكاور (Menkauhor) وإيزوزى (Izozi) ، فكيف إذن وصل هذا الختم الشخصى إلى منطقة بحر إيجه وقد تساءل كل من إميلى (Emily) وكورنيليوس فيرمول (Cornelius Vermeule) هل تم إرسال هذا الموظف فى مهمة دبلوماسية أو تجارية إلى شواطئ البحر المتوسط البعيدة عن مصر.... وهل حمل هذا الموظف ختمه معه لكى يتم اعتماده. وهل قُتِلَ هذا الموظف فى الخارج؟(١٢٦) وقد أراد هذان العالمان أن يدعما رأيهما فيما يتعلق بقيام الموظفين المصريين بالإبحار إلى مناطق شرق البحر المتوسط فى الألف الثالثة ق.م فذكرا أسماء منكاور وإيزوزى وكذلك اسم ساحور التى تم العثور عليها فى جرار من الألباستر فى بيبلوس Byblos . وهكذا فإن فكرة الاهتمام المصرى بهذه المناطق الأجنبية فى ذلك الوقت غير واضحة، كما أن فقدان هذه المتعلقات الثمينة على وجه التحديد أمر يحتاج إلى تفسير. لقد تحدثت إميلى فى موضوع آخر عن اتساع نطاق تجارة جزر الكيكلانيس وتجارة الإغريق البحرية فى هذا الوقت المبكر من العصر الهيلادى . كما تحدث كتاب صدر حديثًا عن الموانئ البويوتية المزدهرة فى ذلك الوقت. ولدينا أيضًا حطام سفينة دوكوس (Dokos) كدليل . وهكذا فليس هناك سبب للافتراض بأن بلاد اليونان كانت أكثر تأخرًا من شمال غرب الأناضول(١٢٧).

وبالنسبة لهؤلاء الذين يأخذون بفكرة النموذج المتكامل، وعلى وجه الخصوص الفكرة التى تقول بأن عبادة الإله ديونيسوس الإغريقية قد جاءت من عبادة الإله أوزيريس فى مصر. فإن هناك دلائل إضافية ترجع إلى الألف الثالثة تؤكد وجود اتصالات بين مصر ومنطقة بحر إيجه، وتتمثل فى عبادة الإله ديونيسوس كإله للخصوبة التى كانت تمارس فى الجزء الأخير من الألف الثالثة فى جزيرة كيوس (Keos) بالقرب من أتيكا(١٢٨).

وإذا ما حاولنا أن نربط بين هذه الدلائل فإن الاحتمال الأقوى هو ما ذكره عالِم المصريات والمتخصص فى تاريخ الفن المقارن وليم ستيفن سميث Wiliam Steven Smith الذى قال :

"إن التوسع فى التجارة الملكية براً وبحراً نلاحظها بوضوح فى الأسرة الخامسة تثير إقتراحا بأن الفترة من عهد سنفرو (بداية الأسرة الرابعة حوالى عام ٢٩٠٠) وحتى خوفو الثانى (Phiopos II) (نهاية الأسرة السادسة حوالى عام ٢٤٥٠ ق.م) هى فترة ملائمة لمصر لكى تكون على إدراك تام بعالم بحر إيجه[١٢٩].

وبعبارة أخرى ، فإننا إذا ما أخذنا فى الاعتبار ما كانت تتمتع به مصر من ثروة خلال عصر الدولة القديمة، وكذلك القوة السياسية التى كان يتمتع بها فراعنة هذا العصر، وما عُرِفَ عنهم من اهتمام بالتجارة مع جيرانهم فى الجنوب وغاراتهم على هؤلاء الجيران، علينا أن نضع كل ذلك جنبًا إلى جنب مع تجارتهم وعلاقاتهم السياسية النشيطة مع بيبلوس والشاطئ الشرقى، فإنه لمن المُستَغْرَب ألا يكون لمصر علاقات مع عالم بحر إيجه فى هذه الفترة. وزيادة على ذلك فلابد أن يكون هناك قليل من الشك فى وجود ما يترتب على هذه الاتصالات، وهو التأثير المصرى على بلاد اليونان، أكثر من التأثير اليونانى على مصر. وهكذا فإننى أعتقد أن المرء عليه أن يضع اعتباراً للآثار التى وجدت فى كريت وفى أماكن أخرى من منطقة بحر إيجه، وعلى الرغم من ذلك فإننى أرى أن الشواهد على التأثير المصرى والتى تتمثل فى الهرم الذى عثر عليه فى طيبة، وكذلك أعمال الرى وصوامع الغلال هى شواهد لها مصداقية أكثر.

نهاية الفترة الباكرة من عصر البرونز

" قمة الازدهار الحضارى "

يسود اعتقاد عام بأن الرخاء والحضارة اللذين شهدتهما بلاد اليونان فى أوائل العصر الهيلادى قد انتهيا بسلسلة من الانهيارات التى وقعت فى القرن الثالث

والعشرين ق.م (إننى أعتقد أن التاريخ الحقيقى ينبغى أن يكون القرن الخامس والعشرين ق.م) ويميل المؤرخون إلى إرجاع قدوم نوى اللسان الهندوأوروبى إلى شبه جزيرة البلقان إلى هذه الفترة ، وعلى الرغم من أننى أميل إلى الاعتقاد بأن غلبة اللغة الهندوأوروبية على اللغة الهندوحيثية قد تم فى زمن أقدم ، فإننى مكره على إلزام نفسى بهذا ومع ذلك فإنه يوجد قليل من الشك فى أن تكون القبائل الشمالية مسئولة عن الانهيارات التى حدثت، وعمليات الاستيطان التى أعقبت ذلك ، وبناء على ما تقدم فإن هذا الوقت هو الذى شهد قدوم نوى اللسان الهندوأوروبى إلى بلاد اليونان[١٣٠]. وليس هناك شك فى أن ليرنا (Lerna) قد دمرت ، وأن منطقة أرجوس قد تم اجتياحها فى ذلك الوقت وتميل إميلى فيرميول (Emily Vermeule) إلى الأخذ بهذا التاريخ. فإنه بعد التدمير الذى لحق ببيت القرميد (فى ليرنا) احتاجت بلاد اليونان إلى نصف ألف من السنوات لكى تعاود الاقتراب من نفس المستوى الحضارى[١٣١]. وعلى الرغم من ذلك ، وكما هو الحال فى عصور الظلام التى أعقبت سقوط الحضارة الموكينية فى القرن ١٢ ق.م. فإن الأحوال لم تكن جميعها بنفس الشكل، فإن بعض المناطق يبدو أنها لم تمس، بينما استعادت مناطق أخرى من انهيار جيرانها. وزيادة على ذلك يبدو أنه قد حدثت حالة استبدال عامة للسكان فى اتجاهات مختلفة. فعلى سبيل المثال فإن التدمير الذى وقع فى القرن الرابع والعشرين كان أقل حدة فى بويوتيا. على الرغم من أن المتخصصين يرون حالة من الانخفاض فى عدد السكان والرخاء فى أواخر فترة بواكير العصر الهيلادى الثانى تشبه تلك الحالة التى كانت عليها باقى بلاد اليونان[١٣٢]. وعلى النقيض من هذا الرأى يرى سيميونوجلو (Symeonoglou) أن هناك زيادة سكانية وحالة من الازدهار سيطرت على طيبة وبويوتيا بشكل عام فى أوائل العصر الهيلادى الثانى. وأن ذلك يرجع إلى اقتحام عامل خارجى جاء من الجنوب وليس من الشمال. ولما كان هذا العالم متحمساً للنظرية الآرية فإنه لجأ إلى القول بأن هذا العامل الخارجى قد جاء من خلال تحركات سكانية فى نطاق عالم بحر إيجه[١٣٣].

ويربط سيميونوجلو بين الاقتحام الذى وقع فى أوائل العصر الهيلادى الثانى بالأساطير التى تتعلق بكادموس (Kadmos) الذى يعتقد هذا العالم أنه جاء من كريت فى هذا الوقت[١٣٤]. وعلى الرغم من أننى لا أود أن أفقد النتائج الآثارية التى ذكرها

سيميونوجلو، فإنه توجد بعض الصعوبات فيما يتعلق بهذه النتائج: مثل اعتقاد سبيروبولوس بأن أساطير كادموس ودوناؤوس (Danaos) تشير إلى عامل خارجي يتمثل فى التأثير المصرى على وجه التحديد، وأن هذا العامل قد جاء فى أوائل العصر الهيلادى[١٣٥].

أولاً توجد إشارات محددة فى أسطورة كادموس تدل على أنه كان فينيقيا وأن اسمه من أصل سامى، إن هذه الأفكار سوف نناقشها بشكل أكثر تفصيلاً فى الفصل العاشر. وثانياً أن ما طرحه كل من سيميونوجلو وسبيروبولوس يُعَدْ إنكاراً لما جاء عند هوميروس. فقد ذكر هذا الشاعر أن أمفيون وزيتوس قد أقاما مدينة طيبة . وأن كادموس أعاد بنائها، لقد ذكر فيريكيديس (Pherekydes) عالم اللغويات الذى ينتمى إلى القرن السادس قصة مفادها أن المدينة الأقدم تحولت إلى أطلال قبل وصول كادموس[١٣٦]. ولكن سيميونوجلو يفضل بدلاً من ذلك أن يأخذ بالقصة التى تُبدل الأمر وتجعل من كادموس المؤسس الأصلى[١٣٧]. إن القصة الأقدم تتفق مع وجهة النظر الآثارية المقنعة التى تشير إلى أن حالة الرخاء شهدت انحساراً خلال أوائل العصر الهيلادى الثانى، والجزء الأول من أوائل العصر الهيلادى الوسيط. ولكن هذا الأمر سوف نناقشه فى الفصل العاشر.

إن التدمير الذى وقع فى أوائل العصر الهيلادى الثانى فى بلاد اليونان يبدو أنه يتوافق مع سقوط الدولة القديمة فى مصر، وفترة الانتقال الأول التى شهدت حالة من التدهور السياسى والاجتماعى فيها.

وإذا كانت حالات الغزو قد أنهت حضارة عصر البرونز فى القرنين ١٢ ، ١٣ فإن مصر والمشرق قد نهضت بسرعة من كبوتها، بينما الأقاليم المحيطة بها مثل منطقة بحر إيجه امتد بها الحال فى العصور المظلمة لعدة قرون .

الخاتمـــة

بالنظر إلى تلك الشواهد الكثيفة والمعقدة من أسماء الأماكن والديانات والأعراف المحلية التى ناقشناها فى الفصل الثانى. فإن من المقطوع به أن بويوتيا وأجزاء من البلوبونيز قد تلقت تأثيرات مصرية حضارية على نطاق واسع، وكذلك من الشرقيين ذوى اللسان السامى خلال عصر البرونز (*).

والحقيقة أنه من الصعب أن نكون أكثر تحديداً فى أحكامنا، فإن بعض الأساطير بما فيها تلك التى ترتبط بالربة أثينا والإله بوسيدون، ترتبط فى اعتقادى بالصراع من أجل استصلاح مناطق المستنقعات، وربما تكون قد جاءت أوائل عصر البرونز، ومن خلال المساهمة المصرية فى إقامة نظم الرى والصرف فى تلك الآونة. كما ان تلك الأساطير التى ترتبط بالإله زيوس وألكمينى وهيراكليس - بأشكاله المختلفة - ربما تكون قد جاءت فقط خلال الألف الثانية. أما الأخرى التى ترتبط بالخيول على وجه الخصوص، فلابد وأنها قد استقرت بعد وصول الخيول والعجلات الحربية الى بلاد اليونان فى القرن ١٨ ق.م. على الرغم من أنها تحتوى بلا شك على عناصر أكثر قدماً. كذلك فإن الأساطير التى تتعلق بكادموس فيبدو أنها جاءت أيضًا فى هذا العصر المتأخر.

فإذا ما وضعنا الأساطير والخرافات وأسماء الأماكن جنبًا إلى جنب فإننا نجد تأثيراً مصريًا ذا طبيعة طاغية، وكذلك تأثيراً واضحًا من الساميين الغربيين على بويوتيا وإقليم أرجوس وأركاديا(١٣٨).

إن هذه الصورة تتماشى مع السجلات الآثارية بشكل طيب. إن الأثر المصرى واضح فى بناء هرم أمفيون وزيتوس، ومشروعات الرى والصرف المبكرة فى كوبايس

(*) لاحظ عزيزى القارئ - الإصرار على حشر لفظ " الساميين "(بدلاً من المصريين أو الشرقيين) حتى يتسنى له الوصول الى النتائج المرجوة من كتابه !!! (المحرر)

فى أوائل عصر البرونز، وهى التى ناقشناها باسهاب من قبل. وكذلك صوامع الغلال المصرية بالقرب من أورخومينوس. وهناك أيضًا التأثير المصرى والشرقى فى القصر الموكينى الذى وجد فى طيبة، والمجموعة المثيرة للإعجاب التى ينتمى طابعها إلى الشرق الأدنى، التى تم العثور عليها فى كادميون (Kadmeon) وترجع إلى القرن الثالث عشر ق.م. وسوف نناقش كل ذلك بالتفصيل فى الفصل الثانى. بما يؤكد استمرارية الاتصال مع مصر، وتدفق التأثير المصرى .

ومن سوء الحظ أنه من المستحيل أن نحدد شكل العلاقة التى قامت بين بويوتيا ومصر فى الفترة التى تقع فى دائرة اهتمامنا . إن الفرصة فى أن تكون هذه العلاقة قد أخذت شكلاً استعماريًا مباشرًا تبدو ضئيلة . وعلى الرغم من خطورة فكرة الاستناد إلى الحُجة الناتجة عن الصمت. فإنه يلاحظ أن الأمر لا يقتصر على نقص الدلائل الآثارية المصرية، وعدم وجود شواهد على إقامة هذه المستعمرات بل إنه يوجد ترجيح قوى بأن نظام الكتابة البويوتية ينتمى إلى منطقة بحر إيجه أكثر من إنتمائه إلى الهيروغليفية أو الهيراطيقية. ولكن برغم كل هذا فإن الشواهد الآثارية للتقنية المصرية فى بويوتيا فى هذه الفترة، وكثافة التسرب المصرى والسامى فى العبادات والأساطير والقصص وأسماء الأماكن فى بويوتيا، واحتمال وجود موظفين مصريين فى منطقة بحر إيجه فى الألف الثالثة، يجعل فكرة السيادة المصرية فكرة محتملة.

إلى أى مدى يمكن أن نطبق الصورة التى وجدت فى بويوتيا على بقية بلاد اليونان؟ إن النماذج الآثارية تكشف عن درجة متقنة من التعاون ، وربما فى أعمال الهندسة المائية ذات النمط المصرى، والذى عثر على نماذج منه فى مصر. إن كل هذا يجعل فكرة السيادة أمرًا ممكنًا . كما يجعل العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإقليم أرجوس أمرًا واقعيًا . إن التشابه الدقيق بين نظم الرى والصرف فى بويوتيا وأركاديا، وكذلك بين الأساطير وأسماء الأماكن المحيطة بتلك الإنشاءات فى الإقليمين، تثير اقتراحًا مفاده أنه إذا كانت أعمال الرى فى أركاديا قد بدأت فى بواكير العصر

الهيلادى، فإن ذلك يعنى جود تأثير مصرى وسامى هناك أيضًا. وهكذا فإنه فى فترة مبكرة جدًا ربما ترجع إلى ما قبل وصول المتحدثين بالهندوأوروبية - بالمعنى المناقض للهندوحيثية - مارست حضارات عصر البرونز فى مصر والشرق تأثيرًا على نطاق واسع فى منطقة بحر إيجه.

أما الصورة فى كريت وجزر الكيكلاذيس فى أوائل عصر البرونز فإنها تختلف بشكل واضح عن تلك التى عرفتها بلاد اليونان القارية. ففى الجزر يلاحظ المرء وجود صورة جذابة جدًا لحضارة مادية متقدمة. مع درجة من الحياة الحضرية ، ولكن لا توجد دلائل على وجود الدولة القوية. وكما أشرنا فى الفصل الأول فإن الدلائل الآثارية فيما يتعلق بكريت على الأقل لا تدع مجالاً للشك بوجود التأثير المصرى والشرقى الواضح على تلك الحضارات. وسوف نستعرض فى الفصل العاشر الأدلة التى يمكن أن نستمدها من الوثائق المصرية لتدعيم هذا القول. ففى الحقيقة يوجد تشابه رئيسى ما بين العلاقات التى ربطت ما بين منطقة بحر إيجه والشرق الأدنى فى أوائل عصر البرونز، أى فترة ازدهار الدولة القديمة. وتلك التى قامت فى أواخر عصر البرونز عندما كانت الدولة الحديثة فى عصر القوة.

وهناك بالطبع اختلافات بارزة وأولها تلك الحقيقة - بعد التشرذم والفوضى فى عصر الانتقال الأول - وهى أن صحوة القوة المصرية فى الدولة الوسطى فى القرن الحادى والعشرين، يبدو أنها قد لعبت دورًا هامًا فى تحول كريت إلى منطقة عامرة بالقصور والدويلات. وعلى النقيض من ذلك يبدو تأثير الدولة الوسطى على بلاد اليونان القارية والجزر التى تقع فى الشمال أقل ظهورًا. إن وجود القوة الحضارية وربما السياسية التى تتمثل فى كريت المينوية بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. جعل من تلك الجزيرة وسيطًا هامًا وفريدًا خلال النصف الأول من الألف الثانية ق.م وهو الوسيط الذى سيلعب الدور الحاسم فى تطور الحضارة الإغريقية. والحقيقة أن الفارق الحاسم بين عالم بحر إيجه وأوائل عصر البرونز وأواخر هذا العصر هو أنه لا يوجد دليل صغير

على وجود استعمار مباشر هناك خلال الألف الثالثة. ومن ناحية أخرى وكما سوف نرى فى الفصل التاسع، أن أُمراء الهكسوس فى ظل الحضارة المصرية السامية(!!!)(*) قد تمكنوا من إقامة مستعمرات فى بلاد اليونان. وأسسوا أسرًا حاكمة عمرتِ لزمن طويل خلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م. (!!!)

(*) كم هو ملفت للنظرتكرار صفة الحضارة المصرية بأنها سامية (!!!) - وهو وصف لغوى فردى غير مؤكد (!!!) - ثم استبدال الأصل المصرى لتلك الصفة وحدها كمرادف للأصل العريق ؟!!! إنه التزييف الحضارى المتعمد من علماء ومؤلفين مجهولى الهوية فى التخصص الذى يكتبون فيه الآن .. عجبى على ثقافة اليوم العالمية التى ركعت - فعلاً - لأهداف السامية !!! (المحرر)

هوامش الفصل الثالث

(1) Plutarch ,De Genio Socratis ; de lacy and Einarson PP.389-97

فيما يتعلق بصعوبات التعامل مع النص فى هذا الجزء انظر:(Schacher(1981,p.14

ولمعرفة المزيد عن المقبرة و الحفائر التى تمت فيها انظر:.(Persson(1932,pp.295-309

(2) Levi(1971,I,p.380,n.190).

(3) Schwartz (1950,p81).

(4) Cartledge (1987,pp.328-9).

(5) Diogenes Laertios,VIII.87,trans.Hicks(1925,pp.401-3)

(٦) إن المشكلة ليست معقدة كما يتصور شفارتز راجع (Schwartz(1950,p.78 لان حكم نيكتانيبو بدأ فى ٣٧٩ كما يفترض شفارتز انظر (Lioyd(1983,p.281

(7) Plutrch ,de Iside ,10 ;Clement of Alexander ,Strom., I.15,69: Diogenes Laertios ,VIII.go ;Schwartz (1950,p.78).

(٨) عن المراجع التى تتعلق بالمناقشة التى دارت حول مدى صدق رحلة أفلاطون إلى مصر انظر الجزء الأول ص٤٥٩ ملحوظة رقم ١٤٨ .

(٩) يعتقد الكثيرون من الكتاب فى هذه الفكرة انظر على سبيل المثال :

Persson(1932,p.303)and Schwartz(1950,p.81)

(10) Cartledge(1987,pp.296-7).

(11) Schwartz(1950,p.79).

(12) Symeonoglou(1985,pp.15-19)and Shaw (1987,p60)

(13) Hesiod,Merkelbach and West,1983,frg.182 .Palaephatos c.42 in Loeb, p.214,no.96.

(14) Odyssey ,XI .262 -4.

(١٥) شذرات من هيكاتايوس انظر (Jacoby (1932-9,I,F.119

(١٦) انظر الجزء الأول ص٩٨,

(١٧) انظر هيسيود

Merkelbach and West ,1983,frg. 182. Palaephatosc.42 in Loeb,p.214,no.96.

وفيما يتعلق بالدراسة الشاملة لهذه الشواهد انظر :

Buck(1979,p.46)and Symeonoglou(1985,pp.76-7)

(١٨) شذرة عن Pherecydes, انظر Jacoby(1923-9,III,F.41) طبقا لما جاء عند يوربيديس The Phoenician Women,638, :

فإن الرجل الذى اخذ كادموس من قُطَيعْة عجلة صغيرة قادته الى طيبة كان يُسَمى Pelagon فهل يمكن أن يكون هذا الاسم منحدراً من الكلمة ?Ip3 rkw

(١٩) عند المناقـــشــــة المفــــصلة حــــول المصـــــادر انظر Buck(1979,p.46) وكــــذلك (Symeonoglou.1985,pp.76-7).

(20) Pausanias,IX .51-3.

(21) Strabo,IX.2.28;Buck(1979,p.46);Symeonoglou (1985,pp.76-7)

(22) Aischylos, Seven Against Thebes ,526-9.and Pausanias,IX.17.2.

وفيما يتعلق بتعريف Symeouoglou لهذا الموقع انظر . ١٩٨٥(pp.83,192

(23) Loucas and Loucas (1987,p.100)

(24) Keramopoulos (1917,pp.381-92)see also Symeonoglou (1985,p.273)

(25) Spyropoulos (1972a,pp.18-23)

و انظر ايضا (Konsola (1981,p100 الذى ورد فى

Loucas and Loucas (1987,p.96)

(26) Pausanias ,IX .34.3.Higgins (1979,pp.25-7)

(27) Spyropoulos(1972a,p.20)

إنَّ التواريخ الأعلى التى ذكرت هنا لعصور الخزف الاغريقية جاءت بسبب اختبارات الكربون التى بُنِيْت عليها بالعصور التى زامنتها انظر الفصل الخامس هامش رقم ٨٤–٨٨ .

(٢٨) Symeonoglou (1985,p.273)

(٢٩) فيما يتعلق بالدارسين الذين قَبلوا هذه النتيجة انظر على سبيل المثال

Treuil (1983,p.441)Konsola (1981,p.140)and Loucas and Loucas (1987,p.96)

(30) Schachermeyr(1967,pp.269-70)and Konsola (1981,pp.231-4)

(Loucas and Loucas (1987 ,p.97التى وردت فى

(31) Loucas and Loucas (1981,pp.97-8)

(32) Spyropoulos (1981a ,pp.84-6)

(33) Pini(1968,p.39).

(34) Spyropoulos (1981a ,pp.117-24)..

(35) Treuil(1983,p.441).

(36) Burl(1979 ,pp.130,254)

(37) Burl(1979,p129)

أن هذا لا يعنى اننى أذهب الى نهاية المطاف مع ((Ivimy(1974,pp.68-80.الذى يذهب إلى القول بأن المؤسسات التى وجدت فى تل Silbury و كذلك الآثار الكبرى التى ترجع الى الألف الثالث قد أقامها مستوطنون مصريون . ولكننى مع القول الذى يرى أنّ من قاموا ببناء هذه المنشآت قد قاموا بتطوير المعلومات الرياضية و كانوا على دراية بما كان شائعًا فى عصر الدولة القديمة فى مصر. إنّ المشكلة المتعلقة بـ Ivimy و التى تقول بأن تل Silbury يرجع إلى تاريخ سابق على الأهرامات. قد تم حلها الآن من خلال التاريخ الأعلى الذى أعطى للدولة القديمة فى مصر .

(38) Loucas and Loucas (1987,p.99).

(39) Edwards (1947,pp.1367).

(40) Loucas and Loucas (1987,pp. 99-100).

(41) Pausanias ,IX .17.3;Levi(1971,I,pp.343).

عن المصادر حول Bakis انظر .Kern(1896,II,cols 2801-2)

(42) Pausanias ,X.32.9.

(٤٣) انظر الجزء الأول ص ١٧٧–٢٠ .

(44) Homeric Hymn to Ge ,11,6-7,and Euripides ,Nauck frag.195.

(٤٥) عن المراجع حول الصرف فى Kopais انظر :

Hope Simpson(1965,pp.113-20)See also Spyropoulos (1972a, pp.22-b, 1973a); Fossey (1974); Wallace (1979); Knauss, Heinrich and Kalcyk (1948); and Knauss (1986,1987a,1987b).

46) Fossey (1974,p.7) and Wallace (1979,p.8)

يقر Fossey بأن الإنشاءات الأولية يرجع تاريخها الى زمن أقدم .

(47) Lauffer (1981,pp.245-6)

(48) Knauss, Heinrich (1984); Knauss (1986,1987a,1987b).

(49) Knauss,Heinrich (1984,p.56).

(50) Knauss (1987a,p.103)

(51) Spyropoulos (1981,pp.133-4)

(52) Konsola (1981,p.39) ; Loucas and Loucas (1987,pp.102-3).

(53) Spyropoulos (1981,pp.135-6).

(٥٤) لعل ما يثير الدهشة قلة الأبحاث التى نشرت حول هذا الموضوع الهام . ونعنى به مشروعات الرى التى أقيمَت فى عصر الاسرة ١٢ فى الفيوم ولكن انظر (Arnold (1977,cols 87-93

(55) Tzavella-Evjen (1948)

(56) Marinatos (1946)and Vermeule (1964,p.35)

(57) Renfrew (1972,p.100).

(58) Renfrew (1972,p.288).

(59) Balcer (1947)

هذا الباحث لا يُقِر إحتمالية التاريخ الذى يرجع الى أواسط أو بواكير العضر الهيلادى .

(60) Knauss (1987a,pp.103-4).

(61) Knauss (1987a,p.206,n.33) .

(62) Spyropoulos(1973a.p.209).

(63) Shaw (1987).

(٦٤) انظر الجزء الأول ص ٨٨-٩٨

(٦٥) انظر الجزء الأول ص٩٤ .

(٦٦) انظر ص ٨٣-١٨٦ .

(67) Pausanias,VIII.14.2.

(68) Kalcyk and Heinrich (1986); knauss(1987a); Knauss.Heinrich and Kalcyk (1986)

(69) Hope-Simpson (1965,p81)

(70) Iliad, H.605.

وكذلك See also Knauss, Heinrich and Halcyk(1986,p.604)

(٧١) فيما يتعلق بالارتباط مابين هيراكليس وبحيرات اركاديا انظر الفصل الثانى هوامش رقم ٢١٣-٢١٤ .

(72) Knauss, Heinrich and Halcyk(1986,p.604)

(٧٣) انظر الفصل الثانى هوامش رقم ١٢٢-١٢٤ .

(74) Ventris and Chadwick (1973,p.543)

(75) Knauss, Heinrich and Halcyk (1986,p.611)

(76) Knauss, Heinrich and Halcyk (1986,p.611). see Strabo ,IX.2.18, and Pausanias , IX.24.1-3.

(٧٧) من الممكن أن يكون الأمر هنا عبارة عن مزج من الفعل erchomai

(78) Moscati el al .(1969,p.47).

(79) Hooker (1979)

(80) Herodotos,V.60,trans ,de Selincourt (1954)oo,360-1)

(81) Astour(1967a ,pp.138-244)and Berard (1894).

(82) Kalcyk and Heinrich (1986,p.12)

(٨٣) يربط Chantraine ما بين هذا و الكلمة الليتوانية ruket (يحضر)

(84) Job 30.3-8.

(٨٥) انظر الفصل الثانى هوامش ٥٩-٧١ و كذلك ١٣٩-٤١ .

(٨٦) انظر الفصل الثانى هوامش ١٢٣-١٢٤ فيما يخص Panau انظر Gardiner (1947,II,p.177).

(87) Herodotos, VII.12809.

(88) Nonnos ,Dionysiaka ,VI.366-80.

(٨٩) انظر الفصل الثانى , هامش ١٢٢ .

(90) Pliny . Natural History,XXXI.54.

(91) Pausanias,VIII.14.1;Levi(1971,II,p.12)

(92) Frazer(1898 ,IV,pp.231-3);Kalcyk and Heinrich(1986),p.12)

إننى فى الحقيقة غير قادر على رؤية السطر فى الصورة التى عرضوها فى ص ١١ .

(٩٣) انظر الفصل الثامن ، هوامش رقم ٤٨-٤٩ .

(94) See Brugsch (1879-80, pp. 823-5) and Gauthier (1925-31, V, pp. 169-72)

(٩٥) انظر الفصل الثانى ، هوامش رقم ١٣٥-١٣٨ .

(٩٦) بالنسبة للمقطع issos- انظر الجزء الثالث .انظر على سبيل المثال Pausanias,I.37.3and II.20.6 بالنسبة للموقع الذى تظهر فيه ثيسيوس من خلال نهر كيفيوس الاثيكى حيث يوجد معبد كيفيسوس. يمكننا بسهولة أنْ نسمع صوت النهر و هو يجرى تحت الارض .

(97) Gauthier (1925-31,V,p.171)

(98) Natural History ,VII.209.see Knauss (1987a ,p. 199,n.22)

(99) Pausanias, IX.3.3-4, and Plutarch ,Daedala, in Eusebius Praepartio Evangelica, III.1.6.For the Ded,

راجع فيما يلى الفصل الرابع ، هامش ٤٥ .

(100) Knauss(1987a,pp.194-9).

(101) Caskey(1956, 1957, 1960, 1971); Vermeule (1964, pp.29-44).

(102) Shaw (1987).

(103) Vermeule (1964,p.35)

فيما يتعلق بدستور مدينة Ebla راجع: Pettinato(1981,pp.69-95)

(104) Gale and Stos Gale(1981)and Stos-Gale and Gale 91984b)

(105) Vichos and Kyriakopoulou(1989); Bass(1990a)

(١٠٦) انظر الفصل الرابع ، هامش ٢٣ .

(107) Dayton (1982a,p.158).

(108) See Vermeule (1964,pp.45-58)and Renfrew (1972).

(109) Vermeule (1964,pp.37-9).

(110) Vermeule (1964,pp.40-1)عن أسواق الفخار انظر

(111) Bernal (1990, pp.54-6).

(١١٢) انظر الفصل الرابع ، هوامش ٤٣-٤٤ .

(113) Pettinato (1981,pp.103-9) and Biggs(1966) , Herrmann(1968) and Kulke (1976,pp.43-56).

(114) Dayton (1982a,pp.159.163)

(115) Pendlebury (1930a, pp. 53,57,64-5)

(116) Brown (1975, pp.8,106)

1938, Frodin .and Persson (1938,p.234).

(١١٧) يحمل هذا القدح رقم ٤٥٧٨ من مقتنيات متحف أثينا انظر

Stevenson Smith (1971, p. 180).

(118) Helck (1979, p. 15).

(١١٩) عن ترجمة هذا النص و المناقشات التى دارت حوله انظر

Astour (1967a, pp.142-3).

(١٢٠) انظر الجزء الاول ص ٣٨٢. ٥٠١ .

(121) Coldstream (1973) and Coldstream and Huxley (1984)

(١٢٢) بالنسبة لوجهة النظر المثيرة للشك فى هذا الموضوع المثير انظر Pearson and Connor (1968).

(١٢٣) فيما يتعلق بتأكيدات ميلارت انظرعلى سبيل المثال .(1967, p.394)

(124) Mellart (1967) ,p.401)

(125) Helck (1979),p.16). see also Vermeule and Vermeule (1970)

(126) Vermeule and Vermeule (1970,pp.36-7)

(127) Vermeule (1964,pp.64-6)and konso(1981,p.182)cited in Loucas and Loucas (1987, p.103).

(128) See Caskey (1980)

(129) Stevenson Smith (1971,p.181).

(130) Howell (1973),Caskey (1986,pp.22-3).

عن المسح الشامل حول الجدل الدائر حول هذا الأمر انظر

Drews(1988,pp.17-20)

(131) Vermeule (1964,p.59).

(132) Buck(1979,pp.35-6).

(133) Symeonoglou(1985,pp69-70).

(134) Symeonoglou (1985,pp.70-5).

(135) Spyropoulos(1981,pp.133-7).

(١٣٦) انظر أعلاه هامش ١٨ و كذلك .Buck (1979,p.47)

(137) Symeonoglou(1985,pp.76-7).

(١٣٨) انظر الجزء الأول ص ٥١-٥٤و٨٨-١٠١ . فيما يتعلق بحالة أثينا وإسبرطة سوف نناقشه بتفصيل كبير فى الجزء الثالث.

الفصل الرابع

عصر القصور القديمة فى كريت والدولة الوسطى فى مصر ٢١٠٠ - ١٧٣٠

ترجمة : أبو اليسر فرح

نود فى هذا الفصل النظر إلى كريت بعد أن تحولت من مجتمع زراعى ينعم بالرخاء يضم تجمعات صغيرة إلى دويلات مركزية تحكمها القصور. إن هذا التغير يضعها على خط واحد مع نمط كان سائداً فى معظم مناطق الشرق الأوسط لقرون سابقة. إن هذا التطور الكريتى مع ملامحه يعد ذو دلالة عظيمة فى حد ذاته. كما أنه يمدنا بمعظم العناصر الأساسية فى أواخر الحضارة الموكينية التى سادت فى أواخر عصر البرونز، ويشكل أساساً لحضارات العصور الارخايكية (العتيقة) والكلاسيكية فى بلاد اليونان.

ويؤكد هذا الفصل أن التأثير المصرى يقف وراء قيام القصور وهو الأمر الذى جرى التقليل من أهميته فى القرن العشرين بعد قيام آرثر إيفانز Arther Evans بأعمال التنقيب فى حوالى عام ١٩٠٠، وذلك على الرغم من ورود الإشارة إليه فى الروايات القديمة. إن اكتشاف تلك الحضارة الرائعة الصافية لكريت المينوية كان أمراً لا يُطاق بالنسبة لهؤلاء الذين تقوقعوا داخل إطار النموذج الآرى. والذين رأوا فى هذه الحضارة مجرد مرحلة من مراحل العلاقة بين أوروبا والشرق. وتبدو كريت بهذا الشكل أحد الوالدين للحضارة الهللينية. مع ما يترتب على هذا من اعتبارها كذلك بالنسبة لكافة الحضارات الغربية. أما الوالد الآخر فهو سهول وجبال وسط آسيا ؛ فهى التى أنجبت ذلك العنصر الفعال أى الهندوأوروبى[١].

العصر المينوى المبكر الثالث

عصر ما قبل القصور

انتهى عصر الخزف المينوى الثالث ، وجاءت بداية العصر المينوى الأوسط فى فترة تقع قرب التحول نحو الألف الثانية. ويشكل هذا التغير بداية لعصر القصور فى تاريخ كريت، وبينما كانت كريت فى أوائل العصر المينوى مجتمعا ريفيا يضم تجمعات آخذه فى النضج. فإننا نجدها فى العصر الوسيط عبارة عن دول يتم إدارتها من القصور.

وليس من المستغرب أن نجد أحد دُعَاة الانعزالية وهو كولين رينفرو (Colin Ren-frew) لا يريد أن يضع أهمية لأى تغيرات قد تتضمن وجود مؤثرات خارجية. وهكذا فإنه يرى أن الاستمرارية فى التحول من عصر ما قبل القصور (Prepalatial) إلى العصر الذى يسبق عصر القصور بشكل مباشر وهو الذى يطلق عليه (Protopalatial) هو أمر ينبغى أن نركز عليه[٢]. وثمة مشكلة أخرى تتعلق باستخدام المصطلحات فإن كلمة Prepalatial يمكن أن تستخدم لوصف عصرين. أولهما هو العصر المينوى المبكر بأكمله، وثانيهما كما اعتدت أنا على استخدامها لوصف الفترات التى تكتب عملية بناء القصور بشكل مباشر. وفى وقتنا الراهن نجد الدارسين قد بدأوا فى التأكيد على دلالة وضع الحدود بين أوائل العصر المينوى الذى لم يكن يعرف القصور من ناحية. والفترة السابقة على إقامة القصور من ناحية أخرى. وقد تركزت شكوكهم حول فكرة التحول الهادئ من خلال موقع ميرتوس (Myrtos) الذى يقع على الشواطئ الجنوبية لشرق كريت، والذى يمكن النظر إليه باعتباره مستوطنة تنتمى إلى أواخر العصر المينوى الباكر فى فترة التحول إلى مرحلة القصور. وقد أظهرت دراسة قام بها أحد شباب الآثاريين ويدعى وايتلو (T.M.Whitelaw) أن موقع ميرتوس لا يمكن اعتباره جسراً ما بين بواكير العصر المينوى وعصر ما قبل القصور فى كريت[٣]. ويميل بعض الدارسين إلى الأخذ بهذه الفكرة، وقد عبر عن ذلك أحد علماء الآثار فى جامعة كمبردج عن ذلك قائلاً " بعد إعادة فحص موقع ميرتوس فإنه لا يمكن القول بأن قصور العصر المينوى

الأوسط هى مجرد مظهر مختلف لنمط تلك التى تنتمى إلى أوائل العصر المينوى"[٤].
ويبدو أن جون شيرى (John Cherry) وهو عالم آثار أخر من جامعة كمبردج قد توصل إلى النتيجة ذاتها. فقد أصر فى إحدى مقالاته التى كانت تحت عنوان " التطور والطفرة وأصول المجتمع المركب فى كريت المينوية". على القول " إن الانتقال إلى مجتمع القصور فى كلا الجانبين فى عام ٢٠٠٠ ق.م. يعد لاعتبارات كثيرة هامة عبارة عن وثبة تفوق أى تطور قد وقع من قبل"[٥]. ومثل هذه الفكرة تثير الدهشة لكونها نابعة عن الجامعة التى يوجد بها أستاذ الآثار البارز كولين رينفرو. وأيا ما كان الجانب الذى يميل إليه شيرى فإن من الواضح أنه يوجه نقداً حاداً إلى فكرة التطور الى الأمام التى قال بها مؤسس علم الآثار الكريتى ونعنى به آرثر إيفانز. وسار عليها معاصروه أيضاً والتى استند إليها بقوة رينفرو. وهو يضع هذه الفكرة جنباً إلى جنب مع نظرية الرائد العظيم لنظرية التطور فى العصر الفيكتورى أى " الداروينية ". وهكذا فإنه يطبق الاعتراضات التى تحتويها نظريات الداروينية عن التطور الهادئ على مجال الآثار الكريتية. وتكون النتيجة هى وقوع تطور مفاجئ أعقبه حالة من الركود النسبى. إن فكرة شيرى قائمة على أساس ما يمكن ملاحظته للفارق الكبير الذى يوجد فى المجتمع وتنظيماته الاجتماعية فى عصر القصور. وقد أكد أيضًا على أهمية الدليل الأثرى الذى يؤكد الزيادة المطردة فى الاتصال ما بين كريت والشرق الأدنى[٦].

وقبل أن نمضى قُدُمًا فى فحص هذه الظاهرة فإننا يجب أن نُلقى نظرةً على الترتيب الكرونولوجى (الزمنى) لهاتين المنطقتين، وإن آرثر إيفانز بنى ما قام به من ترتيب زمنى للخزف الخاص بجزيرة كريت على أساس ترتيب العصور فى مصر. إن العصر المينوى الأول يماثل عصر الدولة القديمة. أما العصر الوسيط فإنه يماثل عصر الدولة الوسطى. بينما يماثل العصر المينوى المتأخر عصر الدولة الحديثة. وقد ظلت هذه الفكرة تلقى قَبولاً عامًا . وظل الحال كذلك لما يزيد عن خمسين عامًا. وقد بذلت محاولات جادة من الدارسين للتكيف مع هذه الفكرة[٧]. وأحد هذه المحاولات ما جاء من إعتراف على يد وليم وارد (Wiliam Ward) عالم المصريات الأمريكى والذى كَرَّس وقتًا طويلاً لدراسات العلاقات فى منطقة شرق البحر المتوسط. وقد جاء فى اعترافه "إن غالبية المتخصصين فى الدراسات الايجية الذين استندوا إلى تأريخ الخزف يضعون

بدايات العصر المينوى الأوسط الأول حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. أو بداية عصر الأسرة الثانية عشرة[٨]. وهكذا فإن العصر المينوى المبكر الثالث الذى سبقه يبدو أنه قد بدأ فى الحقب الأخيرة للقرن الثانى والعشرين. وفى الفترة الأخيرة نجد أن البروفسيور كادوجان (Cadogan) يضع بدايات العصر المينوى الأوسط الأول (أ) حوالى عام ٢٠٥٠ ق.م. وهو تاريخ يتماشى مع ما أكدته الاختبارات الكاربونية[٩]. وعلى أية حال فإن هذا العالم ومعه بعض المتخصصين الآخرين يوافقون على أن بناء القصور قد تم فى فترات تقع عند بداية عصر الخزف. وبعبارة أخرى فإنه يبدو أن القصور الكريتية العظيمة قد جرى تشييدها خلال الأعوام الخمسة والعشرين عند التحول نحو الألف الثانية[١٠]. وعلى أية حال فإنه من الواضح وجود فترة سابقة على ما قبل القصور (Prepalatial) وأن هذه الفترة استمرت لما يقرب من قرن قبل ذلك، وأن النمط بينها وبين عصر الخزف غير واضح. وهناك تداخل واضح ما بين فخار العصر المينوى الوسيط الأول فى كنوسوس، وفخار أوائل العصر المينوى الثالث فى شرق كريت، ويبدو على الأرجح – كما جاء عند " وارد" – (Ward) أن معظم ما يخص الجزء الأخير من أوائل العصر المينوى الثالث كذلك فى العمارة – ما قبل القصور – لا يماثل عصر الانتقال المصرى الأول. ولكن الأكثر احتمالاً أنه كان مُعاصراً لفترة الأسرة الحادية عشرة، وهى الأسرة الأولى فى عصر الدولة الوسطى، وهى الفترة التى بدأت عند منتصف القرن ٢٢ وازدهرت فى القرن الحادى والعشرين[١١].

وفى أوائل العصر المينوى الثالث كانت هناك زيادة مطردة فى الاتصال ما بين كريت والشرق الأوسط بشكل عام، وبين كريت ومصر على وجه الخصوص. وقد لاحظ عالم الآثار كيت برانيجان (Keit Branigan) وجود موجة من المؤثرات السورية على كريت. فقد ذكر على سبيل المثال أنه على الرغم من وجود مظاهر الاستمرارية فإن صناعة المعادن فى كريت فى هذا الوقت " تأثرت بشكل واضح بالأنماط والتقنية التى استخدمت فى سوريا وكيليكيا". ففى هذه الفترة وما بعدها جرت عمليات استيراد للخناجر[١٢]. كما لفت انتباه عالم آخر للآثار هو كرسكوفسكا (O.Krzszkowska) وجود زيادة واضحة خلال أوائل العصر المينوى الثالث فى استيراد سِن الفيل. وربما كان مصدره مصر أو سوريا. وكذلك أسنان فرس النهر التى من المؤكد أنها كانت تأتى من مصر[١٣].

وقد أثبت بيتر وارين (Peter Warren) أن الآنية الصغيرة ذات الشكل الأسطوانى، وكذلك القوارير الصغيرة التى وجدت فى فخار أوائل العصر المينوى الثالث فى كريت تنحدر من النماذج المصرية[١٤].

وقد أردف الآثارى فانس واتروس (L.Vance Waterous) قائلاً " فى خلال العصر المينوى الأوسط الأول وجدت أشكال جديدة للمزهريات التى تشمل الأقداح والأكواب ذات الشكل المخروطى، والأشكال ذات الأخاديد ونماذج الحيوانات، فى كريت وكانت تمثل تقليداً للآنية التى عرفت فى الشرق الأدنى من فترة طويلة سابقة". ويرى هذا العالم أيضًا وجود صِلات ما بين الاستخدام الدينى لهذه الآنية فى كريت وكل من مصر والمشرق من ناحية أخرى[١٥]. كما يذكر اقتراحًا معقولاً مضمونه أن عجلة الفُخَّار السريعة ذات التجويف التى ظهرت أولاً فى العصر المينوى الأوسط الأول والثانى قد جرى استيرادها من الشرق الأدنى من أجل الوفاء بمتطلبات نظام القصور[١٦].

الرصاص والأشكال المخروطية :

تم العثور على الأشكال المصرية التقليدية فى كريت. فقد عُثِرَ على ستة جعارين من محيط آثار ترجع إلى أوائل العصر المينوى الثالث، وأواسط العصر المينوى الأول فى ميسارا (Messara) فى جنوب كريت[١٧]. إن دلالة هذه الجعارين أكثر أهمية من أحجامهم أو عددهم فإن وجودهم يدعم فكرة وجود صِلات قوية فيما يتعلق بالتأثر النمطى بين الأختام المصرية والكريتية، تلك الصِلات التى بدأت فى أوائل العصر المينوى الثالث[١٨]. وقد عبر عن ذلك بندلبرى Pendlebury قائلا: "إن الكثير من المظاهر تبدو شديدة الشبه وبخاصة عندما نضعها جنبًا إلى جنب مع المواد التقليدية الأخرى التى كان يتم استيرادها بما لا يدع مجالا للشك بأن ثمة اتصالات بين مصر وميسارا فى هذه الفترة[١٩] ". وقبل صدور هذا الرأى عن بندلبرى تعرضت وجهة نظر إيفانز التى تقول بوجود اتصالات بين مصر وكريت للهجوم الشديد. وقد جاء هذا الهجوم من ماتز (F.Matz) فى مقال نشره فى برلين عام ١٩٢٨، الذى يرى أن فن النقش على

الأحجار الكريمة فى كريت خلال هذا العصر له أصول من البلقان أو حتى من منطقة الدانوب(٢٠). أما الباحثون الألمان والنمساويون فإنهم يفضلون الأخذ بفكرة الأصل الأناضولى لفن صناعة الأختام الكريتى(٢١). ولكن على الرغم من ميل " وارد " (Ward) إلى الأخذ بهذه الفكرة فإنه يقول " رغم الجدل الذى أثاره هؤلاء الدارسون حتى فى الكتابات الحديثة جداً، فإن هناك قدراً مدهشاً من التأييد لأفكار إيفانز الأصلية "(٢٢).

والآن فإننا عندما نأخذ فى الاعتبار الاتصالات التى كانت تجرى ما بين الشمال والجنوب ، فإننا نلاحظ وجود تطابق يثير الدهشة - وهذا ما أظهرته تحليلات الرصاص -. فهناك تمثالان من عهد الأسرة الحادية عشرة من القرن الحادى والعشرين. قد جرى صنعهما من الفضة المستخرجة من لاوريوم فى أتيكا. وربما يحلو للبعض القول بأن هذا التحليل ربما كان خاطئًا، أو أن هذه الفضة قد جرى استيرادها من قرون سابقة فى عهد الدولة القديمة، وذلك خلال الاتصالات التى ربما تكون قد حدثت، والتى أشرنا إليها فى الفصل السابق.

وفى الحقيقة أن مسألة واردات مصر من لاوريوم هو أمر سوف نناقشه فى الفصل الحادى عشر. وعلى آية حال فإن التفسير الأكثر ترجيحاً هو الذى يقول بوجود اتصالات سياسية مباشرة أو غير مباشرة. وكذلك وجود علاقات تجارية بين مصر وعالم بحر إيجه فى أوائل عصر الدولة الوسطى(٢٣).

إن أكثر النماذج التى تقع عليها أبصارنا، والتى تدل على التأثيرات الواردة من الشمال هى تلك النماذج ذات الشكل المخروطى، والتى يطلق عليها العلماء الألمان "المشكلة المخروطية " (Spiralen problem) والتى يثيرها ذلك الاستخدام الواضح للأشكال المخروطية للزخرفة فى كل من كريت ومصر فى القرن الحادى والعشرين. وأحد الحلول الممكنة لهذه المشكلة هو ما يقترحه بعض الدارسين الألمان مثل " فيمن" (Fimmen) و" هيلك " (Helck) ويرى هذا الاقتراح أن هذه الطريقة فى الزخرفة جاءت من الشمال. وربما من جزر الكيكلاديس(٢٤). وهناك حل آخر يلقى قبولاً أكثر فى ظل مناخ الرفض لفكرة الانتشار(Diffusion) . وهو المناخ الذى ساد فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

ويرى هذا الباحث إنه قد تم التوصل إلى هذا الشكل فى كل هذه الأماكن الثلاثة بشكل مستقل عن الآخر(٢٥). وقد عمل وارد (Ward) على توسيع هذه الفكرة. فبعد أن أوضح سهولة التوصل إلى هذا الشكل بشكل مستقل، فإنه افترض وجود ثلاثة مراكز للانتشار هى جزر الكيكلاديس وشرق تركيا وإيران(٢٦). وهذا الرأى يبدو مقبولاً إلى حد كبير.

وعلى أية حال فإنه يمكننا أن نلاحظ أن الأشكال المخروطية فى الحقيقة كانت شائعة فى الشرق الأوسط ومنطقة بحر إيجه منذ منتصف الألف الثالثة على الأقل(٢٧). وزيادة على ذلك فإن طريقة الزخرفة التى تقوم على استخدام الخطوط اللولبية، كانت شائعة فى مصر فى عصر الدولة القديمة. وأكثر من ذلك يوجد مثالان منها تتمثل فى الجدران الملتفة فى منفيس (Memphis) والقرون المخروطية فى التخطيط المقدس لـ "مين" (Min) ، والتى يمكن أن نربطها بعبادة الثور التى يبدو أنها قد جاءت إلى كريت من مصر فى ذلك الوقت (إنظر أسفله). وهكذا فعلى الرغم من وجود الأشكال المخروطية فى مصر وكريت وأيضًا فى الأناضول والكيكلاديس عند التحول نحو الألف الثانية، فإن دلالة استخدامهم الرمزية تدل على أن مصدرهم مصر.

القصور الكريتية

قبل أن نتطرق إلى الحديث عن أصول عبادة الثور فإننا ينبغى أن نلقى نظرة على القصور التى إزدهرت فى ظلها هذه العبادة. لقد تم تشييد هذه القصور فى العقود الأخيرة للقرن الحادى والعشرين. ويبدو أنها ظلت حتى القرن الثانى عشر. وكانت كريت خلال هذه الفترة واقعة تحت التحكم الإغريقى الموكينى. واستمر الحال على هذا المنوال لما يزيد عن ٢٥٠ عاما(٢٨).

ولما كانت كريت تقع فى إقليم يعد مسرحًا للنشاط الزلزالى الكثيف، فمن المرجح أنه قد حدثت بها حالات دمار ناتجة عن الزلازل، أكثر من كونها نتيجة لنشاط عسكرى أو احراق. ومع ذلك فإن الخمود الحضارى تعد ذات دلالة - إذا ما استبعدنا حالة

وصول الإغريق حوالى عام ١٤٥٠ ق.م - وهى قد وقعت بالقرب من نهاية القرن ١٨ ق.م، ما بين عصر الخزف فى العصر المينوى الأوسط الثانى، العصر المينوى الأوسط الثالث، وهى الفترة التى يعتبرها دارسو العمارة فاصلاً ما بين أوائل وأواخر عصر القصور[٢٩]. وعلى الرغم من التغيرات التى حدثت فى تركيب القصور واستخدام الرموز، وهو الأمر الذى سوف نناقشه فيما بعد، فإنه توجد استمرارية فى عصر القصور لمدة تزيد عن ٨٠٠ عام. وهكذا فإنه يبدو أن ثمة مبررات قوية تدعونا إلى النظر فى السِمات المبكرة للقصور. وإلى أن نقارنها بالقدر الكبير الذى نعرفه عن بيروقراطية البلاط والاقتصاد فى أواخر عصر القصور. وليس هناك شك فى أن طريقة بناء القصور الكريتية فى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. تعد إمتداداً لما كان سائداً فى جنوب المنطقة الإيجية من النُظُم الاقتصادية والاجتماعية. وهى النُظُم التى كانت قائمةً فى معظم مناطق الشرق الأوسط لأكثر من ألف عام[٣٠]. والأكثر من ذلك أن دخول هذه النُظُم لم يكن مقتصراً على المظاهر العامة، بل تعداه إلى التفاصيل الدقيقة. ومن الجدير بالذكر أن " جيمس والتر جراهام" (James Walter Graham) الذى كرس معظم حياته الدراسية لمتابعة طُرُز العمارة فى القصور فى كريت، وظل كتابه " قصور كريت " هو العمل البارز فى هذا المجال، قد ذكر فى هذا الكتاب ما يلى " إن التشابه الموجود بين قصور كريت وقصور الشرق الأدنى فى كثير من الأوجه أمر لا يمكن إنكاره إلا قليلاً. ونفس هذا الحكم يمكن إصداره فيما يتعلق بالعمارة الكريتية والمصرية ".

إن هناك تشابهًا بشكل عام ما بين قصر مدينة مارى (فى أعالى نهر الفرات) وقصر مينوس، فإن الحجرات مرتبة حول الأفنية، كما خصصت أقسام القصر المختلفة لأغراض شتى، وهناك حمامات مزودة بأنابيب فخارية وكذلك وجدت قاعات للمجالس... إلخ، ولكن على الرغم من هذا الإطار الواسع للتشابه. فثمة اختلافات تبدو عميقة الجذور، ويمكن للمرء أن يتساءل أى النمطين المعماريين قد أثر فى الآخر. وإلى أى درجة كان هذا التأثير؟ وهناك طرق للبناء قد انتشرت بشكل واسع مثل المبانى ذات النصف خشبية. ذات القوائم، كذلك يمكن أن نلاحظ بعض التشابه فى التفاصيل، مثل ذلك التشابه الموجود فى الأنابيب الفخارية فى مارى وكنوسوس ... وبين جذع العمود

نو الأخاديد وربما بعض التيجان ... والأعمدة المصرية. كما يمثل التصوير الجدارى مجالاً للتشابه فى نطاق محدود....

إن الفكرة التى يمكن أن تتبادر إلى الذهن هى أنه عندما ظهرت القصور أولاً حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. فإن المعماريين الكريتيين على الرغم من أنهم كانوا على دراية بطرق العمارة المستخدمة فى تشييد القصور فى المناطق الأخرى، فإنهم ابتكروا أشكالاً مناسبة أملتها عليهم متطلبات البيئة الكريتية، وقد استخدموا تقنية إنسانية كانت شائعةً فى شرق البحر المتوسط، ومألوفة لديهم فى الوقت نفسه ، ولكنهم كرسوا أشكالاً ملائمة ذات خصوصية محلية. وهى أشكال تأثرت بالعمارة التى كانت معروفة لدى جيرانهم عبر البحر. إن اقتباس نمط قاعات الطعام المصرية عندما كان هذا الأمر مرغوبًا من قبل الملوك، يعد تقليداً للفراعنة ورغبة فى إضفاء مظاهر الأبهة[٣١].

ورغم ما يسود من طابع الإنكار لوجود تأثير من الشرق الأدنى ومصر وهو ما تسجله بوضوح إحدى المقالات الصادرة حديثًا، فإنه يقر بوجود تأثير مصرى فى أحد القصور الذى ينتمى إلى أواخر عصر القصور فى موقع فايستوس (Phaistos) جنوب المنطقة الوسطى من كريت. وقد ورد فى المقال ما يلى " ذكرت فى مقال سابق أنه لا يوجد سبب للاعتقاد بوجود مؤثرات ذات أثر فعال من حضارة خارج الجزيرة، قد تكون فرضت طابعها على العمارة فى كريت فى أى مرحلة من مراحل تطورها. إننى مازلت متمسكًا بهذا الرأى ، إلا أن وجود زخارف فخمة أو بعض الملامح المبهرة مثل قاعات الاستقبال وصالات الطعام يدل على أن الاستيراد ليس أمرًا ممكنا فقط بل هو أمر مرجح[٣٢]".

والواقع أن مظاهر الأبهة وما ارتبط بها لم تكن أمرًا مطلوبًا للقصور فقط. بل أنها إلى جانب كونها مظهرًا للرفاهية فإنها كانت ضرورية لنظام الحكم والاقتصاد[٣٣]. وقد عرفت القصور الكريتية الكثير من مظاهر الفخامة منذ بداية انشائها. فعلى سبيل المثال يوجد تشابه بارز بين صناعة الحُلىِّ المصرية والكريتية، وهذا يدل على وجود إستعارة من حيث الموضوعات والتقنية وهى ظاهرة بدأت منذ عصر القصور القديم[٣٤]. ويمكن أن نلاحظ أن الموضوعات التى رسمها الفنان من أجل الزخرفة فى كريت.

وجدت أمثلة لها فى عصر الدولة الوسطى فى مصر. وعلى سبيل المثال فقد إستعار المينويون طريقة المصريين فى التلوين، فرسموا النساء فى ألوان بيضاء. أما ألوان الرجال فكانت هى الأحمر والبنى. إن تصوير الربة المصرية على هيئة أنثى فرس النهر وهى واقفة وعلى ظهرها جلد التمساح يبدو أنه قد جاء إلى كريت فى هذا الوقت وأدى إلى تحول فن الايقونات إلى نوع يعرف لدى علماء الآثار باسم الجنيعات (genii) (*)الذى أصبح شائعًا فى الفن الكريتى(٣٥).

إن العلاقة ما بين الرموز الدينية والزخرفية فى القصور الكريتية وتلك التى وجدت فى مصر. هو أمر سوف نناقشه فى هذا الفصل وكذلك فى هذا الجزء من كتابنا، وشبيه بذلك هذا التماثل الدقيق الذى يستلفت النظر ما بين النظم الرسمية والاقتصادية فى القصور الكريتية ومثيلتها فى قصور الشرق الأوسط. وسوف نتناول هذا الأمر فى الفصل العاشر.

وقد أثار " واتروس" (Watrous) مؤخرًا جدلاً مفاده أن الكثير من العناصر الفنية والمعمارية ذات الأصول الشرقية فى أوائل العصر المينوى الثانى ترتبط بمرحلة إقامة القصور، وإدخال النظم البيروقراطية، والتى ينبغى النظر إليها كوحدة واحدة، قد جلبت إلى كريت كجزء من متطلبات النظام الملكى. وقد دحض بشكل واضح نظرية رينفرو التى تقوم على فكرة العزلة، كما ذكروا أيضًا أن التوازى التاريخى المؤكد لزيادة الثروة والاتجاه نحو النظام المدنى لا يجب أن تؤدى فى حد ذاتها إلى إيجاد نمط مجتمع القصور على النحو الذى عرفته كريت ومنطقة الشرق الأدنى(٣٦). وتبدو أفكار " واتروس" غير تقليدية بين المتخصصين فى الآثار الايجية، وعلى الرغم من هذا فإنها ليست موضعًا للاعتراض من جانب المعسكر الآخر من المتخصصين فى الدراسات الايجية، لأنهم وجدوا أنه من الصعب عليهم المجادلة فى النتائج التى توصل إليها.

(*) Elsaadani, M., " Similarities" and Differances between the Egyptian TA-WRT and the Mycenaean Genii", The Congress of the Ploponneesean Studies, Kalamata (Greece), 1982.

وفى كل الأحوال تبرز أمامنا نقطتان هامتان، أولاهما أن النموذج العام للقصور والنظم الاجتماعية التى تعد بمثابة المراكز الحضارية بالإضافة إلى مهام أخرى، قد جاءت إلى كريت من الشرق الأدنى، أما النقطة الثانية فهى أن معظم الدارسين فى القرن العشرين يعارضون الاذعان لهذه الحقيقة[٣٧]. وقد أوردت من قبل ما جاء عند جراهام من إشارات تدل على عدائه لفكرة تأثر كريت بالشرق الأدنى. وهو الأمر الذى يبدو واضحًا فى كتابه. ويوجد لدينا نموذج أكثر وضوحًا لهذا الاتجاه، ويتمثل فيما جاء عند " كيث برانيجان " .(Keith Branigan) الذى يرى أن الأخذ لهذا الإتجاه يقود فى النهاية إلى قبول فكرة الأثر الخارجى على كريت. ويقول هذا الباحث " ولكن فوق كل شىء فإن الفكرة العامة للقصر المينوى تختلف بشكل كلى عن عمارة القصور فى الأماكن الأخرى خلال عصر البرونز فإن القصر المينوى يتمتع بشكل البلاط المركزى بالإضافة إلى البعد المحورى. فقد كانت لهذا القصر القدرة على النمو انطلاقًا من المركز. وإن العمارة لم تكن مرغمة على أن تلائم أفكارًا مقررة سلفًا من حيث المساحة والشكل[٣٨].

وهنا يتولد لدينا الانطباع الواضح فيما يتعلق بالإطار الايديولوجى بأن المينويين يمثلون مرحلة " الأوروبيون القدماء" (Proto - Europeans) . وبهذا يتم استبعاد أية مؤثرات آسيوية أو أفريقية. كما ينبغى أن نلاحظ فى الأنماط السابقة (للقصور) عدم وجود أسوار. مما يمكن اعتباره دلالة واضحة على الطبيعة السليمة الهادئة للمجتمع المينوى، وهو مجتمع يمكن النظر إليه بشكل متطابق مع الصورة التى ذكرها "فينكلمان" (Winckelmann) عن الشكل العام للمجتمع الاغريقى فى خالكيديكى (Chalkidik?) فى القرن ١٨ ، ١٩ . وتشبه هذه الحالة إلى حد بعيد ما نلاحظه من تأثر آرثر إيفانز بشكل واضح بخليفته الاجتماعية، وانتمائه إلى الطبقة العليا عند تصوره للمجتمع الكريتى الهادئ المسالم[٣٩].

وبعد أن نأخذ كل هذا فى اعتبارنا ينبغى أن نلاحظ وجود مَعْلَم كريتى شديد التميز فى القصور والحضارة التى تحتويها، وهناك ملامح محلية متشابهه توجد فى أقاليم الشرق الأوسط التى احتوت على قصور مثل بلاد الرافدين وسوريا والاناضول ... الخ . ففى هذه الأماكن جميعًا يمكن أن نلاحظ أن القصور تعكس

الأحوال الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ويمكن القول بأن الاكتشافات الحديثة تشير بقوة إلى وجود الاضاحى البشرية(*)، وهو ما سوف نناقشه فى الجزء الثالث ، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن المجتمع المينوى لم يكن مجتمعًا تسوده الطمأنينة كما أراد آرثر إيفانز أن يصوره(٤٠). وهناك ما يدل على وجود إهتمام نسبى فى أوائل عصر القصور بالأمور التى تتعلق بالدفاع والعنف. على الرغم من أن هذا الموقف قد تغير بشكل واضح فى أواخر عصر القصور. وهذا يؤدى إلى الاعتقاد بوجود حالة من التوافق ما بين دول عصر القصور فى كريت فى الفترة الأولى ما بين عام ٢٠٠٠ و ١٧٣٠ ، وبأنه لم يعد ثمة تهديد خارجى.

إن الملامح الكريتية الأخرى مثل بروز أساليب الزخرفة البحرية يمكن أن نرجعها إلى العامل الجغرافى، فإن الموقع المتوسط لكريت يجعل نظام القصور فيها ذو شخصية متميزة عن تلك القصور المعاصرة لها. ففى تلك الفترة كانت كريت تمثل نقطة إلتقاء للمؤثرات المصرية والشرقية، وعلى الرغم من الانقطاع الحاد فى بداية فترة ما قبل العصور (Prepalatial) فإن رينفرو على حق حينما يرى وجود حالة من الاستمرارية تمتد من أوائل العصر المينوى إلى العصر المينوى الوسيط. ويجب أن نتذكر أن ذلك لم يكن نتيجة للعزلة ولكن بسبب الامتزاج الحضارى المتتابع. ومما لا شك فيه أن كريت فى العصر المينوى الباكر كانت تعد مجتمعًا راقيًا له شخصيته الحضارية المتميزة.

نظام الكتابة الكريتية

إن هذا الاستقلال يتضح بجلاء فى الحقيقة التى نعرفها وهى أن كريت لم تأخذ بالهيروغليفية المصرية أو الكتابة المسمارية أو طريقة الكتابة التى كانت متبعة فى بيبلوس (Byblos) ، ولكن كانت لها طريقتها فى الكتابة التى تقوم على المقاطع المستقلة. إن الصورة المعروفة لتطور الكتابة الكريتية هى تلك التى عرفت فى العصر المينوى

(*) حول هذا الموضوع الخطير فى تاريخ الحضارة الإنسانية القديمة، راجع كتابنا، تاريخ وحضارة اليونان، القاهرة ٢٠٠٠ م. (المحرر).

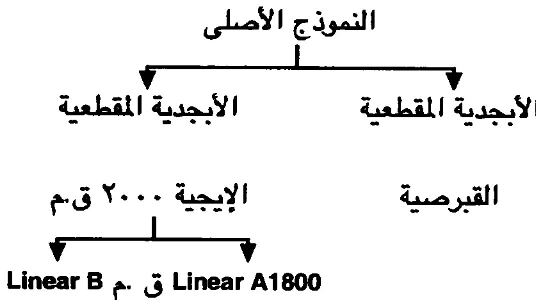
الوسيط الأول، أى بعد إنشاء القصور مباشرة. فقد جرى تنظيم العلامات التى كانت مستخدمة منذ أوائل العصر المينوى الأول لكى تصبح كتابة ذات أشكال تصويرية. واستخدمت هذه الكتابة فى القرون القليلة التالية حتى بداية العصر المينوى الوسيط الثالث. فى القرن الثامن عشر عندما تم استبدالها بمقاطع صوتية هى (Linear A) وظلت هذه الطريقة المقطعية مستخدمة فى كريت حتى حلت محلها طريقة .(Linear B) وهى طريقة مماثلة فى الكتابة جرى تطويعها لكى تلائم اللغة الاغريقية، وهى اللغة التى وفدت إلى كريت وأصبحت مستخدمة فى كنوسوس مع قدوم الميكينيين!! إلى كريت حوالى عام ١٤٥٠ .

ويجب أن نسلم بوجود صعوبات فى هذه النظرية. وأولها الحقيقة التى تقول بأن خط (Linear B) لا يمكن أن يكون قد انحدر بشكل مباشر من خط (Linear A) وهذا يتطلب التسليم بأن (Linear B) قد انحدر من خط سابق على Linear A وهو أمر لا يمكن القبول به. وذلك فى ضوء النظرية التى ترى أن التطور كان مباشراً من الكتابة التصويرية إلى (Linear A) كما ذكرنا آنفًا. وأيضًا فإنه يجعل من المستحيل الابقاء على النظرية الجذابة البسيطة التى تقول بأن خط Linear B قد تطور فى كريت عندما تمكن الإغريق من هزيمة كريت ذات القصور ولكى نوضح الأدلة المستمدة من علم النقوش فإنه من الضرورى أن نعتقد بأن خط (Linear B) كان موجوداً ومستقراً قبل ذلك فى بلاد اليونان القارية.

ويرى العالم الأمريكى سترلنج دو (Sterling Dow) المتخصص فى الدراسات الكلاسيكية أن نظام المقاطع قد ابتدع حوالى عام ١٦٠٠ ق.م. ويضع هذا الإقتراح أمام المؤرخين التقليديين مشكلتين: أولاهما هى لماذا يحتاج الاغريق إلى مثل هذه الكتابة قبل أن يكون لديهم قصور؟ أما المشكلة الثانية فهى أنه لماذا لم يتم البرهنة على وجودها خلال قرون عديدة[٤١]. والحقيقة أن هذه المشاكل لا تبدو بالنسبة لى خطيرة. فإن المجتمعات ذات التركيب الاقتصادى والسياسى البسيط لديها القدرة على استخدام وتطوير الكتابات ذات المستوى المتقدم والتى على درجة من التعقيد. انظر

على سبيل المثال كتابة Xixia التى تطورت فى غرب سنكيانج Xinjiang فى أواخر الألف الأولى للميلاد. وعلى آية حال فإننا ذكرنا فى الفصل السابق أن بلاد اليونان كانت تحتوى على عدد لا بأس به من الدويلات منذ أوائل منتصف الألف الثالثة ق.م. وإزاء الافتقار إلى وجود دليل لعدة قرون فى الألف الثانية فى بلاد اليونان، وفيما يتعلق به فهناك خوف من الاستناد إلى الحجة الناتجة عن الصمت ؛ لأن ذلك يُظهر إخلاصًا لا مسوغ له لعلم الآثار. ومن الواضح أنه توجد أمثلة كبيرة على وجود فجوات طويلة وواضحة فى تسجيل الكتابات(٤٢).

وتوجد صعوبة أخرى فى النظرية التقليدية تنبع من العلاقة ما بين خط (Linear A) و (Linear B) والأبجدية المقطعية فى قبرص. وهذه الأخيرة ربما تنحدر من أخرى سابقة ربما تكون أكثر قدمًا من النموذج الأصلى للنظامين الإيجيين السابقين. ويمكن أن يكون تصورنا كما يلى:



وتوجد دلائل من أحد القصور فى جنوب كريت فى فايستوس (Phaistos) تشير إلى وجود أحد أشكال (Linear A) الذى كان مستخدمًا فى خلال العصر المينوى الوسيط الأول (أ) عند نهاية الألف الثالثة(٤٣).

إن الفكرة التى تقول بأن خط (Linear A) ذاته كان قديمًا فى القرن ١٧ ، ١٦ تدعمها الحقيقة التى نعرفها بأن هذه الكتابة كانت مستخدمة للتعبير عن الكثير من اللهجات الإقليمية فى خلال العصر المينوى الوسيط الثانى (ب) حوالى عام ١٧٠٠ ق.م.

وهى الفترة التى وصلت إلينا منها معظم اللوحات التى صمدت أمام عوادى الزمن(٤٤). فإذا كانت الكتابة الخطية الأولى (Linear A) قد نشأ عند التحول إلى الألف الثانية فإن نموذجه الأصلى الذى انحدر منه (Linear B) أيضًا لابد من أنه كان موجودًا فى الألف الثالثة. وفى هذه الحالة فإن أصل هذه الكتابة وكذلك المقطعية القبرصية لابد وأن يكون قد تطور بشكل جيد قبل ذلك أى فى منتصف الألف الثالثة وربما فى فترة أقدم. إن احتمالية تطوره قبل عام ٢٥٠٠ ق.م. تزداد من خلال الحقيقة التى تقول بأن الكتابة المسمارية التى تم تطويعها وتبنيها فى لغات عديدة . كانت مستقرة فى المشرق فى ذلك الوقت.

إن أكثر الافتراضات التى يمكن أن تلقى قبولاً هى أن أصل هذه الأبجديات المقطعية قد تطور فى مكان ما. فى منطقة مداها ما بين قبرص وجنوب الأناضول حتى كريت، وأن ذلك قد تم فى فترة تالية على تطور الكتابة التصويرية فى تلك المناطق، فى فترة قريبة من بداية عصر البرونز، وأن هذه الأبجدية المقطعية قد تم ابتداعها من أجل لغة – ليست مثل اللغة الاغريقية ولكنها أشبه بمعظم اللغات الأخرى مثل الأناضولية والكريتية السامية كما يفترض عالم الساميات سيروس جوردون (Cyrus Gordon) - لا تجعل ثمة تفرقه ما بين الحروف الساكنة المنطوقة وغير المنطوقة.

وهكذا فإنه على الرغم من نقص الأدلة فإن من المحتمل أن كلاً من الكتابة التصويرية والكتابة المقطعية، كانت مستقرة فى كريت فى فترة ما قبل القصور. وهذا يفسر لنا ظاهرة وهى أنه على الرغم من الفجوة الحضارية ما بين فترة عدم وجود القصور والفترة السابقة مباشرة على عصر القصور فى كريت، وعلى الرغم من التأثير الواسع من المشرق ومصر فى القرن الحادى والعشرين، فإن القصور الكريتية لم تأخذ بالكتابة المسمارية أو الهيروغليفية أو الهيراطيقية. إن هذا الشكل الذى يوحى بالتناقض من حيث المنطق التاريخى – فى المنطقة الهامة للكتابة – يؤدى إلى تأكيد فكرة رينفرد عن الاستمرارية الحضارية من أوائل العصر المينوى وحتى العصر المينوى الأوسط.

الرموز الدينية فى أوائل

عصر القصور فى كريت

إذا ما سلكنا طرقًا أخرى فإننا نجد مستجدات ذات دلالة فى عصر ما قبل القصور وأوائل عصر القصور. ومما يلفت النظر أنها ذات أصول شرقية أو مصرية. من بين هذه المستجدات الرموز الدينية. فنجد مثلا st (عقدة الكتف) و(الربطة). ويجرى تضعيف هذه الأخيرة لكى تصبح Ded وهى عبارة عن حزمة وفقرات وضلوع مع nh> . إن عنخ علامة الحياة تمثل رباط صندل. والأقرب إلى الاحتمال أنها تمثل شكل فقرات الثور البرى (Taurochos) (ثور برى منقرض) [٤٥]. إن الاستخدام الواضح لرموز الثور الخاصة بالعبارة المصرية فى جزيرة كريت فى أوائل الألف الثانية يمكن أن نراه فى " قرون التكريس ". وهو رمز دينى استخدم بشكل بارز وأحيانًا يبدو استخدامه ذو طبيعة زخرفية فى الحضارة الكريتية فى عصر القصور. وقد ذكرنا عالما المصريات فى القرن العشرين وهما نيوبرى Newberry ، جايرت Gaerte أن ذلك قد جاء نتيجة للمزج بين رمزين مصريين هما (wpt) وشكل جبلين يقسمهما واد[٤٦]. إن هذا الدمج الواضح لهذين الرمزين الذى ظهر أولاً فى العصر المينوى الأوسط الثانى يبدو أنه كريتى ذو طبيعة محلية. ومن حيث المفهوم العام فإن الانصهار له جذور مصرية أقدم نجدها فى نصوص الأهرام التى دونت فى عهد الأسرة الخامسة والسادسة، فى القرون ٢٨ ، ٢٧ . ولكن من الواضح أنها ترجع إلى عهد أقدم. ولدينا فقرة تدل على هذا الإنصهار كما يلى: " إن هذين الجبلين قد انشطرا متباعدين . جاء هذا الملك إلى الوجود حاملاً القوة فى جسده[٤٧] ".

وترتبط Wpy بشكل واضح مع wpi (انفتاح – على وجه الخصوص انفتاح الرحم عند الميلاد). ويأتى الربط مع شكل الجبلين من خلال رمز آخر هو 3ht شكل الشمس فى الأفق ما بين جبلين، حيث تغرب الشمس وهو ما يرمز إلى فكرة الموت والبعث. ويمكن ملاحظة العلاقة بين الخلود وعودة النباتات إلى الحياه فى الديانة المصرية والمينوية المبكرة.(إنظر الفصل الأول). ويمكن أن نلاحظ مجموعة من الكلمات مثل 3ht

(فيضان) 3ht or 3ht (أرض زراعية) 3h (بركة البردى) 3h (يتحول إلى روح) وهى فى الجذر الاغريقى lakh (بمعنى خضره أو أخضر) [٤٨]. إن كلمة 3h3h (ينمو أخضر) ، ويبدو أنها اسم السهل المقدس فى إليوسيس. ولكن الاسم الأكثر شيوعًا هو أورجاس (Orgas)[٤٩] .

وتلقى فكرة الربط ما بين الرموز المصرية وقرون التكريس فى كريت معارضة من نيلسون (Nilsson) على الرغم من إقراره بوجود تماثل فى الشكل. ولكنه أشار إلى أن العلاقة المصرية هى رمز، بينما النماذج المينوية مجرد علامات دينية كانت تستخدم لتوضيح الأماكن أو الأشياء التى تكرس للعبادة. كما ذكر أيضًا أن الرمز الكريتى لا يرتبط فى حد ذاته بأى قدر من التقديس[٥٠]. وعلى أية حال فإن أحد الدارسين المحدثين وهو بارى باول (Barry B.Bowell) ذكر أن الأمر فيهما يتعلق بالجبلين قد يكون حقيقيًا. ورفض اعتراضات نيلسون باعتبارها أكثر غموضًا[٥١]. ولدينا بعض الشك فى أن قرون التكريس أيضًا يمكن إضافتها إلى مجموعة الرموز الدينية التى وجدت فى كريت فى عصر القصور.

الأصول الأناضولية المحتملة

لعبادة الثور

وننتقل الآن من مناقشة فكرة القرون إلى عبادة الثور فى كريت فى عصر القصور. وذلك فى محاولة منا لمعرفة ما إذا كانت هناك احتمالية لمجيء هذه العبادة من عصر الدولة الوسطى فى مصر. إن الثيران حيوانات قوية ذات طبيعة جذابة. سواء كان ذلك لمظهرها أو عند النظر إليها باعتبارها رموز. ولهذا عرفت عبادة الثور فى أماكن كثيرة. ويبدو أنها كانت ذات طبيعة محلية فى تلك الأماكن. وعلى أية حال فإن كريت ذات الطبيعة الجبلية وهى تسمية جاءت من الكلمة المصرية K3yt (الأرض العالية) هى فى الواقع مكان ملائم للماعز والماعز البرية agrimi على وجه التحديد أكثر من كونها مكانا ملائمًا للثيران[٥٢]. فإذا ما وضعنا هذه الحقيقة فى الاعتبار فإننا

ينبغي أن نتساءل من أين جاءت عبارة الثور إذن؟ وكالعادة فإننا عندما نحاول البحث عن أصل شرقى فإن الأصل المرشح هو الأناضول[٥٣]. وعلى سبيل المثال فقد كتب "والتر بوركرت" (Walter Burkert) فى كتابه الذى حاز القبول من الدارسين وعنوانه "الديانة الاغريقية".

إن ما تم العثور عليه فى بلدة " كتال هويك " (Catal Huyuk) ويرجع تاريخه إلى العصر الحجرى الحديث يجعل من المستحيل أن نشك فى أن الرمز نو القرون الذى أطلق عليه إيفانز " قرون التكريس " ليس مقصوراً به قرون الثور بالمعنى المجرد. إن العدد الكبير من قرون الثور الحقيقية التى تم اكتشافها فى أحد المعابد فى " كتال هويك " هى عبارة عن تذكار تم إحرازه من خلال صيد الثيران. وجرى وضعه فى فناء إحدى الربات فى موقع يتوسط المسافة ما بين كتال هويك وكريت، وقد تم اكتشاف هذه المجموعة الآن. كما عُثِرَ على نماذج أخرى من التكريسات من قبرص يرجع تاريخها إلى نهاية الألف الثالثة ..... [٥٤] وبناءً على ما تقدم فقد راح هذا العالم يرتب لمسألة البحث عن أصل البلطة المزدوجة. إلا أنه عانى الكثير فيما يتعلق برغبته فى البحث عن أصل عبادة الثور فى كريت[٥٥]. إن عبادة الثور فى كتال هويك أمر مثير للاهتمام حقًا. إلا أنه فشل فى الإشارة إلى أنها إزدهرت واختفت فى الألف السادس ق.م. وهو تاريخ يسبق معرفة قرون التكريس فى قبرص وكريت بثلاثة آلاف عام. ومن الجدير بالذكر أنه كانت توجد عادة – ربما بشكل متقطع – فى مصر. وهى عادة وضع علامة على قبور الموتى من البشر، تتمثل فى وضع رؤوس ثيران تبرز من الأرض. وكان ذلك يجرى خلال الألف الحادى عشر ق.م. واستمر حتى أوائل عصر الأسرات فى الألف الرابع[٥٦].

لقد ذكرت فى مرات عديدة أن المرء لا ينبغى له أن يعطى اهتمامًا كبيرًا لفكرة استخراج الدليل من صمت المصادر. وأنه من الممكن أن يكون هناك استخدام دينى لقرون الثور فى الأناضول لمدة ثلاثة آلاف عام. بدون أن يكون لدينا برهان، ولكن ينبغى لنا أن نستبعد الأناضول ليس فقط لأننا ذكرنا فى الجزء السابق أن قرون التكريس ذات أصول مصرية كريتية. ولكن لأننا نستبعد الأمر كلية فيما يتعلق بعبادة الثور بشكل عام.

وهناك غياب كامل لأى رسومات لعبادة الثور خلال العصر الحجرى الحديث أو أوائل عصر البرونز فى كريت[٥٧]. بينما عرفت عبادة الثور فى قبرص فى نهاية الألف الثالثة. وخلال هذه الفترة فى بداية عصر القصور أصبحت الثيران ذات أهمية قصوى لشئون العبادة فى كريت.

الرعـــــد والجنـــس

بـــــان Pan ، ومـــــين Min

و بـــــــاوزا B'ĀZĀ

فى هذا الجزء نحاول القيام برحلة بعيداً عن علم الآثار ، وذلك فى محاولة للبحث عن أصل محتمل آخر لعبادة الثور التى قفزت فجأة إلى الجزيرة فى القرن الحادى والعشرين والقرن العشرين ق.م. وقد ذكرت أنها لم تنحدر من أصول أناضولية ترجع إلى ثلاثة آلاف فقط ، بل إنها تنحدر من مصر من عصر الأسرة الحادية عشرة التى عاصرتها. وقبل أن نمضى فى الحديث عن عبادة العجل فى أوائل عصر الدولة الوسطى، فإننا يجب أن نُلقى نظرة على عبادة الثور فى أفريقيا وارتباطها بكريت.

ونبدأ بالحديث عن الإله المصرى " مين " (Min) وهو الذى يقابل الإله " بان " فى الديانة الاغريقية. وقد ذكر هيرودوت أنه قديم جداً وكان واحداً من الآلهة الثمانية الذين وُجِدوا قبل بقية الآلهة[٥٨]. كما أورد المؤرخ ديودور الصقلى فى القرن الأول ق.م. أسماء الآلهة الأثيوبية فى مروى التى كانت بمثابة المركز السياسى والحضارى العظيم فى أعالى النيل، على بعد مائة ميل من الخرطوم الحالية، وهى الآلهة إيزيس وبان وهيرا وزيوس[٥٩]. أما معاصرة الأصغر منه ونعنى به الجغرافى استرابون فقد ذكر أن أهل مروى كانوا يعبدون هيراكليس وبان وإيزيس وآلهة أجنبية أخرى[٦٠]. وسوف نحدد فى الفصل الرابع هوية هذه الآلهة بشكل محدد. إلا أن اهتمامنا الآن ينصب على الإله "بان" الذى يقابل الإله المصرى "مين " (Min) .

ترجع عبادة الإله " مين " إلى المراحل الأولى من التاريخ المصرى فى مدينتين تقعان فى الجنوب هما قفط (Koptos) وإخمين (Akhmin) وعلى آية حال فإنه منذ أوقات مبكرة جداً كان اسم مين (Min) ينطق مينو (Minw) ويرتبط بالنوبة وهى البلاد التى تقع أعلى النيل بعد مصر وبلاد بونت وهذه البلاد الأخيرة تقع بعيداً فى شرق أفريقيا إلى الجنوب ويتم الوصول إليها عن طريق البحر[٦١]. وفى عصر الدولة الوسطى كان يُطلَق على مين اسم "الفتى الغريب". ومن الواضح أنه قد جاء من الجنوب[٦٢]. وقد ارتبط مين فى النصوص البطلمية بـ ;Md وهم قبائل البجة (Beja) الذين كانوا يعيشون فى صحراء شرق النيل فيما يُطلَق عليه جنوب مصر وشرق السودان. وما يزالون يستوطنون هذه المنطقة فى عصرنا الراهن. وفى بلاد بونت كان يُنظَر إلى هذا الإله باعتباره المسئول عن توزيع مواد الرفاهية التى تأتى من المنطقة الاستوائية، ويفترض عالم المصريات الفرنسى " شاسينا " (Chassinat) وآخرون أن هؤلاء البجة كانوا يقومون بدور الوسيط التجارى ما بين شواطئ البحر الأحمر ووادى النيل[٦٣].

ومما يستلفت النظر أن الإله " مين " كان يرتبط بالخصوبة والإنماء فى مصر، وهو أمر لا يتفق مع كونه معبوداً للصحراء. إننى أعتقد أنه يمكن التوفيق بين هذين الأمرين عندما نقارن بينه وبين عبادة الإله B^wäza, فى شرق إفريقيا. وهو الإله الذى يمثل قوة الاخصاب التى تتجسد فى الرعد الذى تعقبه الأمطار وإذا ما استثنينا اليزيديين والعلويين فى سوريا والعراق، فإن الحالة الوحيدة لغير المسلمين والمسيحيين نجدها تتمثل فى سكان جنوب وسط إثيوبيا، حيث الجوارج (Gurage) وهم الوثنيون الوحيدون الذين يتحدثون بلغة سامية. وما يزال B^wäza أو Bazo يُعبَد بين ربوعهم. وذلك بسبب قوته الطاغية وقدرته الجنسية. وذلك ما تعكسه الأنشودة التالية:

أى بازو هل يوجد مكان لم تذهب إليه

أو منزل لم ترتاده

فتردى الأب والأبن

وتهرب مع الأم والابنه؟[٦٤]

ومما يثير الفضول هذان المظهران المتناقضان اللذان ينعكسان بشكل جلى فى التركيب الاتيمولوجى (Bʷäzä) ذاته . فهو يأتى من الجذر السامى أو الأفروآسيوى الذى يرد فى اشكال متعددة قسمها ديفيد كوهين David Cohin المتخصص فى المعاجم إلى قسمين من أقسام تطور الدلالة اللغوية . هما Split (يمزق) ، Divide (يقسم) ، distribute (يوزع) ، من ناحية ، inflate (يضخم) ، Inseminate (يبذر الحب) ، abound (يكثر) من ناحية أخرى(٦٥).

وسوف أناقش فى الجزء الثالث مسألة ورود (Bʷäzä) فى الحضارة الكنعانية فى شكل (Bo'az) . وفى كتاب روث (Ruth) نجد أن هذا الاسم كان يُطلَق على أحد أقارب نعومى (Naomi) الذى كان ارتباطه بالخصوبة واضحًا من خلال قصة زواجه من روث فى مخزن الغِلال خلال موسم الحصاد فى بيت لحم "بيت الخبز "(٦٦). إن المظهر الذى يبعث على الرهبة (مثل الرعد) لـ (Bʷäzä) يتفق مع ما جاء فى العهد القديم من إطلاق اسم (B?'az)على أحد العمودين فى مدخل معبد يهوه، وربما يكون (Bo'az) أيضًا إسما لأعمدة معروفه كانت توضع أمام معابد الكنعانيين الأخرى(٦٧). إن عادة وضع أعمدة قائمة بشكل مستقل أمام المعابد لها ما يقابلها فى عبادة (Bʷäzä) عند الجوراج (Gurage) . ومن الملاحظ أن كهنة (Bʷäzä) يُطلَق عليهم اسم (Maga) . وهو أمر يستلفت النظر ولكنه يرتبط بشكل غامض بالكلمة الايرانية ماجى (Magi) . التى تعنى تقسيم قطع صغيرة من خشب الأشجار التى ضربتها الصاعقة. ثم وضعها على الأرض بالقرب من المدخل أو خارج كوخ، ويفسر عالم الانثروبولوجيا وليم شاك (Wili-am Shack) هذا الطقس بأنه يرمز إلى أن الأرض أو الممتلكات التى توضع عليها تلك الأخشاب هى أرض مباركة ينبغى على الجميع احترامها والا تعرضوا لانتقام (Boza) (٦٨). و هذا النوع من الإضاءة الروحانية يبدو بمثابة الدليل. وهو ذات النمط الذى نجده أيضًا لدى الجوراج (Gurage) ومثل هذه الحاجة إلى الوقاية من الشرور وذلك التقديس الخلاق فى العبادة السامية الغربية يمكن أن نلاحظه فى أنشودة من أوجاريت. وكذلك فى ملاحم الإله بعل الذى يعاقب بلا رحمة، ولكنه فى نفس الوقت يقوم باخصاب الأرض مثله مثل العاصفة إلى تجذب الأشجار وتهددها(٦٩).

وربما يكون هناك ربط يلفت النظر ما بين كريت وهذه العبادة. وقد كتب كليارخوس (Klearkhos) أحد تلاميذ ارسطو. أنه خلال القرن الخامس ق.م هزم أهل تارنتون (Tarenton) فى جنوب إيطاليا مدينة تقع إلى جوارهم وهى مدينة كاوسينا Kausina . وكان يسكن فى هذه المدينة قوم يطلق يابيجيس (lappyges) عُوقِبَ المقهورون بأن فُرِضَ عليهم أن يؤدوا طقس الإضاءة، وقد اعتاد أهل تارنتون أن يقوموا بوضع أعمدة أمام مداخلهم، وأن يقدموا الأضاحى أمام الأعمدة للإله زيوس -Kata) baites) (المنحدر). ويرى كوك A.B.Cook العالم الإنجليزى المتخصص فى الدراسات الكلاسيكية بعد مناقشته لهذا النوع من العبادة أننا يجب أن نشير بأصبعنا إلى كريت. وقد أعطى كليارخوس بعض التفصيلات لكى يؤكد فكرته الإسطورية بأن الـ (lapyx) هى الأصل لـ (lapyges) وأن مصدرها كريت[٧٠]. ويُضيف كوك أيضًا أن الصاعقة التى يستخدمها زيوس (Katabaites) يمكن أن تكون راجعة إلى البلطة المزدوجة ويعتقد كوك أن البلطة المزدوجة ترمز إلى زيوس (Katabaites)[٧١] .

ويمكن أنْ نلاحظ وجود تصوير للبلطة المزدوجة فى بلاد الرافدين فى الألف الرابع. إلا أنه لا توجد إشارة إلى معناه الدينى. وعلى أية حال وكما أشرت فى الفصل الأول فإنه يبدو أنه كان يوجد عبادة للبلطة المزدوجة فى مصر فى العصر العتيق[٧٢]. وإذا ما أخذنا بفكرة كوك فإن أحد الأغراض الدينية للبلطة المزدوجة فى كريت – لأن بعضها كان يمثل دعامة للسقف بينما بعضها الآخر لا ترتبط بالمبنى – هو ما تقوم به الأعمدة عند الـ lapygi من إبعاد خطر الصواعق الطبيعية أو الروحانية. وسوف نرى فيما بعد كيف أن شكل البلطة المزدوجة يشبه إلى حد كبير صاعقة زيوس. وهكذا فإننا نرى أن استخدام الجوراج (Gurage) للأخشاب المأخوذه من الأشجار التى ضربتها الصاعقة (Sana) كان الغرض منه توفير الحماية من (B"äza) . كما أن البلطة المزدوجة ترمز إلى الحماية من الصاعقة، وليس من الواضح ما إذا كان للإله آمون النظير المصرى للإله زيوس ارتباط بالصاعقة أم لا. وعلى أية حال فإن الإله مين (Min) الذى ارتبط بكل من آمون ومنتو (Mntw) من فترة مبكرة له ارتباط بالصاعقة التى كان يرمز إليها بالشكل .-.,Hm . وقد استخدم هذا الشكل فى اسماء مدينتين ترتبطان بهذا الإله وهما أخمين (Akhmin) (بانوبوليس Panopolis) . ومدينة قفط Koptos وربما استخدم

أيضًا فى اسم المديرية التاسعة فى مصر العليا التى عرفها الاغريق باسم خيميس (Khemmis) . إن دلالة هذه العلاقة الغامضة التى يرجع تاريخها على الأقل إلى عصر الأسرة الأولى (٣٤٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م) هو أمر مبهم إلى حد كبير، ويطلق جاردنر Gar-diner على هذه الظاهرة اسم The Two fossil belemites وقد ذكر أن أقدم (نماذج لهذا الرمز) تشبه إلهم ذا الرأس المزدوج[٧٣]. ويرى عالم المصريات " وين رايت " (G.A.Wainwright) أن الرمز (Hm) أصبح يمثل رمز الصاعقة أخذه الإله " مين " بعد الاندماج الذى تم بين عبادة الثور وعبادة الكبش الإله الصاعقة[٧٤]. ويصعب تفسير هذا الأمر من خلال نظريات التاريخ الطبيعى المعاصر ولكن يمكن تفسيره فى مصر وبلاد اليونان بأنه يمثل شكل الصاعقة. ففى بلاد اليونان نجد أشكال زيوس خلال العصر العتيق يوجد بها الصاعقة فى يد وفى اليد الأخرى صولجان يشبه شكل الصدفة[٧٥]. إن الرمز Hm الصاعقة المزدوجة تشبه أشكالاً من القرن السابع لزيوس وهو يتأهب لإرسال الصواعق[٧٦].

ومن الجدير بالملاحظة أنه بينما كانت لدى الكثيرين من الآلهة المصرية رايات فإن الإله مين هو الوحيد الذى كانت تقام أمام معابده أعمدة خاصة لأداء الشعائر. ولهذه الأعمدة أشكال تتخذ رأس الثور أو قرونه، التى ترسم مع الشكل المخروطى كما سبق أن ذكرنا. والحقيقة أن دلالة الشكل المخروطى تبدو غامضة ربما تمثل عصا الراعى. أو صدفة متحجرة أو إحدى الرخويات المتحجرة - وعادة ما تكون بدون رأس. أو الحية الملتفة التى يمكن النظر إليها على أنها تأخذ شكل الصاعقة. إن كلمة الصدفة المتحجرة (ammonite) قد جاءت من اسم آمون Amon . ومن المؤكد أن الكثير قد لاحظوا فى التماثيل الارتباط الواضح ما بين قرون الكبش رمز الآله آمون وبين شكل الصدفة، وذلك حتى قبل أن يطلق دارسو العصور الوسطى على الحفرية اسم Cornu Ammonis التى جاء منها الاسم الحديث[٧٧]. إن Bt يمكن أن ترمز أيضًا إلى الرحم وعادة ما تكتب T ، وهنا فإنها يمكن أن تمثل الشكل اللولبى أو التيه Laberinth[٧٨] .

وهناك أيضًا دلالة تستلفت الانتباه ، وهى أن العلاقة المزدوجة (Hm) يمكن أن تستخدم بأشكال متشابهة، وعلى الرغم من أن كلمة hm (معبد) ، hm (شكل مقدس) تشاهد مكتوبة فقط منذ عهد الدولة الوسطى فإن هناك إحتمالية أن يكون المقطع (hm)

يعنى مقدس، وأن هذه العلامة المزدوجة ذات قوة مقدسة قد جرى استخدامها كرمز عام للطهارة أو القداسة، وأن هذا الاستخدام تم بطريقة أكثر من تلك الطريقة التى استخدم بها البلطة المزدوجة فى كريت[٧٩]. وينهض ذلك دليلاً على احتمال أن تكون الشعائر الخاصة بالبلطة المزدوجة التى وجدت فى عصر ما قبل الأسرات وعصر الدولة القديمة فى مصر، عبارة عن تطور أو اشتقاق لـ Hm الذى أصبح مصدراً هاماً إن لم يكن أهم المصادر على الإطلاق للبلطة المزدوجة فى كريت.

وإذا ما رجعنا إلى الإله " مين " فإننا نلاحظ أن عالما المصريات جوتيه Gauthier و شاسينا (Chassinat) اللذان درسا عبادة الإله " مين " حاولا أن يشرحا مظهرين لهذا الإله، فهو كإله للبرية والاخصاب للأرض الزارعية بدأت عبادته فى بلاد بونت المدارية. وأنها انتقلت عبر الصحراء الشرقية إلى صعيد مصر. حيث إندمجت مع إله الخصوبة القديم فى قفط وهو K3mwt.f (ثور أمه)[٨٠] فإذا ما تم هذا الاندماج بالفعل فلابد وأن ذلك قد حدث فى الألف الرابعة. حيث توجد تماثيل للإله " مين " فى قفط يرجع تاريخها إلى ما قبل بداية عصر الدولة القديمة[٨١]. وفى هذه الحالة فإننا يجب أن نتجنب أن نصدر أحكاما مسبقة بشكل خاطئ. وأن نتفق ببساطة على أن عبادة إله على شاكلة الإله " مين " لابد وأنها كانت منتشرة على نطاق واسع فى شرق أفريقيا، وأنَّ هذه العبادة عرفت أيضًا فى مصر العليا وارتبطت بتربية الحيوانات. وفى الأماكن الممطرة فإن هذه العبادة لابد وأنها تميل إلى الارتباط بخصوبة المحاصيل. أما فى الأماكن الجافة فإنها ترتبط بالرعد الذى لا يؤدى إلى سقوط أمطار فى تلك الأقاليم. كما أن الإله مين له ارتباط خاص مع البلاد الجبلية التى يعيش بها الأجانب[٨٢].

ومما لا شك فيه أن الحيوان الرئيسى للإله من هو الثور الذى لم يكن يطلق عليه K3mwt.f فقط بل كان يطلق عليه أيضًا K3nfr (الثور الجميل) وكذلك يطلق عليه K3 nht (الثور الجبار). وكان يُصَوَّر فى بعض الأحيان مُزوداً بقرون[٨٣]. وبالإضافة إلى ذلك نلاحظ أن عضو التذكير ذو الحجم الكبير فيه لا يبدأ من منطقة ما بين الفخدين وإنما من البطن. وعلى الرغم من ذلك فكلما ذكر عالم المصريات الألمانى " إبرهارد أوتو " أنه يوجد دائمًا (صلة نسب أساسية) ما بين الإله " مين " والكبش رمز الإله آمون[٨٤]. فقد ارتبط هذان الإلهان فى طيبة منذ عصر الأسرة الحادية عشرة.

وفى عصر الدولة الحديثة يبدو أن ثمة إندماج وقع ما بين الإله آمون ورع والإله "مين" فى الكثير من العبادات. وأتخذا شكلاً واحداً يقوم على التركيز على عضو التذكير(٨٥) .

وفى الحقيقة أن تصوير الإله الاغريقى " بان " (Pan) فى شكل الماعز يمكن تفسيره كنتيجة للاندماج مع الإله آمون (الكبش - الماعز). إن ارتباط الإله بأن بالإله مين يمكن تأكيده ليس فقط من خلال الإشار إلى عضو التذكير ذى الحجم الكبير فيه، وارتباطه بخصوبة الحيوانات وكونه يعيش فى البرارى فقط، ولكن من خلال الملامح الزنجية التى كان يصور بها هو ورفاقه الساتير (Satyrs) أيضاً. أما اسمه المصرى ومكانة والدته من الناحية اللاهوتية ونعنى بها كالستو (Kallisto) . فهذا ما سوف نناقشه فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

وفى أوائل القرن ١٩ جاء عند الشاعر الرومانسى نيبور (Neibuhr) وكذلك عالم الميثولوجيا يوهان هينريش فوس (Johann Heinrich Voss) أن اسم بان ينحدر من الأصل الأوروبى Pa(s) (بمعنى يحرس أو يحمى). وهو الأصل الذى جاءت منه الكلمة الانجليزية Pasture (مرعى) أو Pastor (راعى)..... الخ(٨٦). ويرى عالم الكلاسيكيات السويسرى فيليب بورجود (Philippe Borgeaud) الذى ألف كتاباً عن الإله بأن أن وجهة نظر فوس يمكن تأكيدها من خلال النصب الذى اكتشف فى القرن السادس، والذى كرس للإله بان وأطلق عليه اسم " باونى " Paoni ، ويعتقد بورجود أن هذا الاسم الأخير قد جاء من (Pawon) وهو فى الأصل Pa(s)on . حيث يرد حرف s المطلوب(٨٧). إلا أن شانترين (Chantraine) يتشكك فى هذا التفسير. ويرى أن الأصوب هو الأخذ بالاقتراح الذى نادى به العالم الهولندى " روج" (C.H.Ruijgh) والذى يقول بأن اسم "بان" يرجع إلى ما قبل العصر الهللينى (Pre-Hellenic) . وهو شكل آخر للاسم (Paiaon) الذى ينظر إليه باعتباره اسماً قديماً للإله أبوللو(٨٨). إن العلاقة بين إيون Ion ، إيوان Iaon، بايون Paion ودلالة إنحدارهما من الكلمة المصرية (iwn) أو p3 iwn التى تعنى أجنبى هو أمر قد ذكرناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب(٨٩). إن هذا الوصف نجده ملائماً للإله بان ذى الطبيعة البرية.

وعلى أية حال فإنه لا يبدو أن هذا هو المصدر الوحيد لهذا الاسم. فإن اختصار Paiaon إلى (Pan) ربما كان بتأثير حالات التورية ذات الشكل الغامض التى كانت تزخر بها حضارات شرق البحر المتوسط[٩٠]. وأول هذه الأشكال يأتى من الكلمة الاغريقية) Panجميع - كل شىء) وهناك شكلان آخران ربما كانا مصريان يربطان الإله بان بالإله مين. ويمكن إرجاعهما إلى P3hm وهناك احتمال آخر وهو الأقوى ، وهو أن تطور اسم الإله Pan قد تأثر بالكلمة المصرية) P3 imأنين). وأن المقطع الصوتى الذى يأتى من الكلمة الاغريقية (Pan) ، Panos (سمكة نيلية) يأتى من الكلمة المصرية p3 (السمكة) [٩١]. وفى ضوء على دلالة الألفاظ (Semantics) يوجد تشابه ما بين كلمة P3im (أنين)، (أين) وكلمة (خشب) . التى ترتبط بالإله أوزوريس حيث يرد تصويره فى المناظر الميثولوجية على شجرة[٩٢]والواقع أن الربط ما بين الاسم المقدس والأنين يمكن ملاحظته أيضًا فى اسم باكوس (Bakchos) الذى انحدر من الكلمة السامية Bakui (النادب - النائح). وكذلك نظيره بنيثوس (Pentheus) فى الهندية الأوروبية (بمعنى النائح أيضًا) [٩٣]. إن الربط ما بين الإله بان والأنين يمكن ملاحظته فى الكلمات Panismos, Panikos (ذعر - رعب). وقد جعل بلوتارك هذا الربط واضحًا فى قصته عن " ثاموس" (Thamus) . فمن الواضح أن ثاموس هو دموزى أو تموز. الإله الذى عرف فى بلاد الرافدين وسوريا، وكانت مهمته أخصاب المحاصيل والقطعان التى كانت تنوح فى كل عام على موته قبل الأوان[٩٤]. وفى كل الأحوال فإن تموز هو نظير الإله المصرى أوزوريس. وطبقًا لما ذكره بلوتارك فإن ثاموس قد تلقى تعليمات بأن يذهب فى قاربه إلى (Palodes) وأن يهتف قائلاً " بان العظيم مات ". وقد فعل ذلك "وحتى قبل أن يفرغ إنطلقت صرخة عظيمة من الألم. لم يكن مصدرها شخص واحد فقط. وقد امتزجت هذه الصرخة بالتعجب والذهول"[٩٥].

مين ومينوس

لنمض قدمًا فى الاستطراد عن العلاقة بين الثور المصرى (Lecherous) (الماجن) والماعز الاغريقية Lecherous (الماجنة) التى ترتبط بالإله بان. وعلينا أن نحاول إلقاء

نظرة على احتمال تواجد الإله المصرى " مين " فى عالم بحر إيجه تحت اسم مينوس (Minos) .

وطبقًا لما جاء فى رواية إغريقية يرجع تاريخها إلى عصر سابق على عصر الشاعر هيسيود، فإن مينوس كان ملكًا ومشرعًا فى كريت " إنه الأكثر جلالة من بين الملوك الفانين"[٩٦]. كما أشار إليه هوميروس أيضًا باعتباره قاضيًا فى عالم الموتى، وهو ما يجعله نظيرًا للإله أوزيريس من وجهة النظر المصرية، وفى عهد الدولة الحديثة كان ينظر إلى الإله آمون باعتباره مظهرًا أو على وجه التحديد هو b3 أو روح أوزوريس[٩٧]. ويحتوى أحد النصوص من كتاب الموتى الذى يرجع إلى القرن السابع ق.م. (العصر الصاوى). على ابتهالات للإله آمون الذى كان فى ذلك الوقت قد إندمج مع اوزيريس باعتباره قاضيًا للبشر بعد الموت[٩٨]. وطبقًا لهذا فإن مينوس الكريتى يماثل كلاً من أوزوريس وآمون. وهو أيضًا يماثل " مين " وذلك من خلال إندماج " مين " مع آمون.

وفى الفصل العاشر يوف آخذ فى الاعتبار الافتراض الذى اقترحه أولبرايت (Alb-right) بأن الكلمة المصرية (Mnws) استخدمت للدلالة على البلاد الأجنبية. مما يجعلها قابلة لأن تُطلَق على جزيرة كريت من خلال كلمة Minos . وسوف أنظر أيضًا فى إمكانية أن يكون (Minos) أيضًا مرتبطًا بـ (M3nw) الجبل الذى تغرب فيه الشمس، وهو الذى ارتبط به رع Ra الذى إندمج أيضًا مع الإله آمون[٩٩]. ومن سوء الحظ أننا لا نعرف كيفية نطق (M3nw) لذا فإن تأكيد صلتهم بـ Minos يظل أمرًا لا نستطيع حسمه، وبخاصة لأن الاسم الاغريقى لم يُشْر بشكل مباشر إلى جزيرة كريت ولكنه أشار فقط إلى ملكها الاسطورى.

ويوجد تفسير أكثر قبولاً لأصل كلمة مينوس (Minos) وهو أنه ينحدر من اسم أول فرعون مصرى وهو الملك مينا Mn (حوالى عام ٣٤٠٠ ق.م) الذى عُرِفَ من خلال الشكل الاغريقى (Menes .(ولكن هيرودوت قبل ذلك بعدة قرون أطلق عليه اسم Min [١٠٠] . وهناك صعوبة ينبغى أن نأخذها فى الاعتبار، فإن القائمة الرسمية للملوك الدولة الحديثة استخدمت شكلاً واحدًا للأسماء (الاسم النبتى) الخاصة بالملوك الأوائل

فى الأسرة الأولى. بينما كان المعاصرون يذكرون الملك الحى باسم آخر وهو الاسم الحورى. وهكذا فإنه على الرغم من أن الاسم النبتى Mni يظهر فى قائمة الملوك فإن اسم Mn عُثِرَ عليه فقط فى واحد من نقشين معاصرين. لذا فإن الصعوبة تكمن فى إننا لا نعرف بأى أسماء حورس يرتبط. إن كلاً من جاردنر (Gardiner) ولويد (Lloyed) على صواب فى القول بأن (Mn) هو الفرعون الأول. وأن اسمه الحورى هو " نرمر" Narrmer [١٠١].

وعلى أية حال فإن هذه المشكلة لا تعنينا طالما أن الاسم استُخْدِمَ بوضوح من قبل هذا الفرعون البارز فى الاسرة الأولى، وفى العصور التالية اعتُبِرَ على النطاق العام هو مؤسس عصر الأسرات ، ومن المحتمل أيضًا وجود تورية مع كلمة mn (يؤسس – يَدْعم) ويمكن أنْ تُستَخدم كفعل متعدى (transitive) لكى يعنى " يؤسس " ، وفى هذه الحالة ومن هذا المنطلق فإن مينوس الكريتى من الممكن أنْ يكون لقبًا للمؤسس المحلى الذى قام لعملية التوحيد[١٠٢]. وفى العصور الكلاسيكية يبدو أنه كان يُنظَر إلى (Mn) ليس باعتباره الفرعون الأول. بل على أنه الرائد فى مجال الحكومة المستقرة فى أى مكان. وقد رأى ديودور تماثلاً واضحًا ما بين (Mn) ومينوس الكريتى. وطبقًا لما جاء عنده فإن الملك المصرى هو:

ليس عظيمًا فقط فى روحه ولكن أيضًا فى حياته فهو الأكثر حيوية من بين كل المشرعين المعروفين، وطبقًا للرواية المتداولة فإن الإله هوميس هو الذى منحه القوانين لتأكده من أنه سيكون سببًا لبركات عظيمة، وكما حدث لدى الإغريق فى حالة مينوس فى كريت وليكورجوس بين اللاكيدايمونيين. فقد تسلم الأول قوانينه من زيوس أما الأخير فقد وهبها له الإله أبوللو[١٠٣].

وطالما أننا بصدد الحديث عن عبادة الثور فى كريت فإن هناك رواية قديمة تربط ما بين (Mines/Min) والثور. فقد ذكر الكاتب الرومانى آيليان (Aelian) فى القرن الثانى والثالث أن مينيس (Menes) هو الذى أسس عبادة العجل أبيس[١٠٤]. بينما جاء عند المؤرخ المصرى مانيثون أن هذه العبادة نشأت فى عصر الأسرة الثانية ، إلا أن هذا الرأى يمكن وصفه من خلال ورود أشارة إلى هذه العبادة من عهد فرعون من الأسرة

الأولى هو rh[١٠٥] . وبالإضافة إلى ذلك توجد العديد من الارتباطات ما بين (Mines/ Min) وكذلك nfr / Mn من ناحية ومنف (Memphis) مقر عبادة العجل أبيس[١٠٦].

وهكذا يبدو أن هناك سبباً قوياً يدعونا إلى الأخذ بما قال به آيليان وحتى برغم أن هذه العبادة قد تم تأسيسها فى فترة سابقة على هذا الكاتب بثلاثة آلاف عام ، فإن هذا أمر بالغ الأهمية لأننى اعتقد أنه ينير لنا الطريق ، وهو يعد نموذجاً لقوة واستمرار مثل هذه المعتقدات التى صمدت لهذا المدى الطويل. وفى كلمات موجزة فإننا إذا أخذنا التشابه فى الاسم، والربط بين العجل وصورة الحاكم المصرى كمؤسس سياسى فإنه لس من المستبعد أن نعتقد أن اسم (Minos) كمشرع وقاض للموتى قد جاء من (Min / Menes) .

ولكن على أية حال فإن (Menes / Min) ليس هو المصدر الوحيد فإنه يوجد على الأقل مصدران آخران. وأولهما هما (Menevis) ، وفى النص الذى أخذناه من ديوبوروس وأشرنا إليه من قبل يشير الكاتب بوضوح الى Menes ، ولكن الاسم الذى استخدمه هو (Menevis) ، وهذا هو الاسم الاغريقى للعجل الذى كان موضع التقديس فى مدينة اون (iwn) أو هليوبوليس (Heliopolis) وهى الآن إحدى ضواحى القاهرة، وهو ما أشرنا إليه فى الجزء الأول من هذا الكتاب[١٠٧]. ومن الجدير بالذكر أن اسم العجل يكتب بالمصرية Mrwr (mr العظيم). وفى أحد نصوص التوابيت من الدولة الوسطى يرد فى شكل Nmwr [١٠٨] . وفى اوائل القرن العشرين ذكر عالم الآثار الألمانى كورت سيت (Kurt Sethe) أن اسم Menevis ينحدر من الشكل المصرى (Mnewe) ، وهو الأمر الذى تأكد منذ ذلك الحين من خلال اكتشاف كتابة لـ (Min) منذ وقت ليس ببعيد[١٠٩].

وفى الحقيقة يوجد قدر كبير من التداخل فى اللغة المصرية ما بين ثلاثة من الأصوات الساكنة هى Mn , Mr وكذلك nm ، ويجب أن نلاحظ أن المقطع ls فى الأسماء السامية كان يجرى كتابته فى اللغة المصرية بدون تفريق فى شكل r.3. وأفضل نموذج لهذا هو الاسم المصرى Kbn المعروف لسكانها من ذوى اللسان السامى باسم

جوبلا Gubla ، والتى يعرفها الإغريق المتأخرون باسم بيبلوس Byblos [110]. فإن هذه الأصوات الثلاثة أى nm , mn , mr فإنها تعنى مصارعة الثيران، وإذا ما ابتعدنا قليلاً عن كلمة Mni فإننا نجد كلمة mniw (رُعَاة) ، mn't (البقرة الحلوب) ، وكلمة mnmnt (قطيع) وكلمة Mnmnmwt.f (ثور أمه) كان أحد ألقاب من. كما أن كلمة (Nmiw) تشبه إلى حد كبير كلمة mniw, (بدوى) [111]. وكذلك نجد أن كلمة Nmnm تعنى يهتز كما هو الحال مع كلمة mnmn ، إلا أن الكلمة الأولى تدل على معنى الذهاب والإياب مثل حركة القطعان. ومما يستلفت النظر أن المعنيين لكلمة nmi (ينتقل) أو (يتحرك فى شكل دائرى) فى اللغة المصرية المتأخرة، وكذلك (خوار الماشية) إن كلتاهما تحتوى على الشكل. وهو الشكل الذى اعتقد جاردنر لأسباب لا نعرفها أنها ينبغى أن تقرأ مثل المقطع الصوتى nm . وعلى أية حال فإن العلاقة ذاتها تأتى فى كتابة mrrt (شارع) وفى اسم منفيس العجل . Mrwr ، ونلاحظ ورود المقطع nm ومعنى " الحوائط الملتفة" معا فى اللغة المصرية المتأخرة nmr (يسقط الأسوار). إن العودة إلى علم الدلالة للأصل المصرى nm فى اللغة الاغريقية يبدو جليا فى المعانى التى تحيط بالجذر (nom) والذى يمكن أن نجده فى كلمتى nomadites (بدو) ، nomos (قانون) وهذا ما سوف نناقشه فى الجزء الثالث[112].

فإذا ما وضعنا كل ذلك جنبًا إلى جنب فإننا نجد توازيا ذا ثلاثة أبعاد: ففى مصر توجد عبادة العجل مرتبطة باسم Mn وكذلك باسم الفرعون المؤسس واسم السور المحيط، وفى كريت توجد عبادة الثور وترتبط بالملك المؤسس وهو مينوس وبقصر اللابيرنث، ويمكن أن نجد هذا التوازى بشكل أشد قربًا فيما جاء عند آلان لويد (Alan Loyed) عالم الكلاسيكيات والمتخصص فى دراسة المصريات أيضًا، فقد أشار هذا العالم إلى أن الوصف الذى أورده استرابون عن المصارعة بين الثيران والذى جرى فى إحدى الساحات عند معابد أبيس وهيفايستوس (بتاح) فى مصر. يرجع إلى اعتقاد مصرى قديم يعود إلى عهد الدولة القديمة، ويبدو أنه يرمز إلى فكرة الصراع ما بين حورس وستِ[113]. والواقع أن ترجمة كلمة (dromos) إلى الإنجليزية أمر صعب. فهو مكان للجرى ولكن ليس له شكل محدد. فمن الممكن أن يكون مسرحًا دائريًا ، إلا أنه فى أغلب الأخيان يكون عبارة عن طريق عريض أو مضمار للسباق. تحيط به أسوار ذات

شكل دائرى. ويطلق على الثيران المتصارعة اسم (mry) وهو مقطع يرتبط بشكل واضح لـ (Mrwr) والأكثر دلالة من ذلك أن Mrwr / Mnevis كان يجرى تصويره أحياناً فى شكل العجل، ولكن ربما كان ذلك فى عصور متأخرة. أو على شكل رجل له رأس العجل، وهو بهذا يكون شبيهاً بالمينوتاوروس (Minotaurus) فى قصر اللابيرنث[١١٤].

وهناك رواية قديمة تقول إن دايدالوس (Daidalos) هو الذى قام ببناء قصر اللابيرنث فى كنوسوس على طراز مصرى[١١٥]. ومما هو جدير بالذكر أن أقدم استخدام معروف لكلمة لابيرنث هو ما جاء عند هيرودوت. ولم يكن ذلك إشارة منه إلى البناء الموجود فى كريت. وإنما إلى ذلك البناء الضخم الذى أقيم كمعبد جنائزى فى عهد أحد فراعنة الاسرة (١٢) وهو أمنمحات الثالث (١٨٥٩ - ١٨١٤ق.م) الذى وجد فى هواره الحالية على بعد بضعة أميال إلى الغرب من اللاهون فى مدخل الفيوم. وقد ظل هذا البناء الضخم قائماً حتى عصر هيرودوت وربما شاهده أيضاً استرابون فى القرن الأول الميلادى[١١٦].

وينبغى أن نذكر هنا أن هاينريش بروجش (Heinrich Brugsch) عالم المصريات. الذى عمل لدى الخديو إسماعيل (حاكم مصر ١٨٦٦ - ١٨٧٩) ، وأصبح أستاذاً لعلم المصريات فى جامعة جوتنجن بعد شامبليون . كتب عملاً رائعاً هو القاموس الجغرافى لمصر القديمة : .Dictionaire geographique de l'ancienne Egypte تم طبعه فى عام ١٨٧٩، وفى هذا القاموس اقتراح أن تكون كلمة Laberinthos الاغريقية جاءت من الكلمة المصرية R-prR-hnt (بمعنى المعبد الذى يقع فى مدخل البحيرة) [١١٧]. إن صحة هذا الاسم ليست أمراً مؤكداً. ولكن (r-pt) هو اصطلاح شائع لكلمة معبد، أما كلمة (R-hnt) كانت اسماً للإقليم الذى يسمى فى اللغة القبطية (Lehone) أو (Lihone) وهو الاسم الذى ما تزال تحتفظ به إحدى القرى وهى اللاهون، وللأسباب ظاهرة فإن هذا الافتراض لم يلق قبولاً فى العقود التالية، كما رفضه بشده جوتيه (Gauthier) فى ثلاثينيات هذا القرن فى القاموس الجغرافى الذى أعده[١١٨]. وفى بدايات هذا القرن تم تنمية الفكرة التى ترى أن اللابيرنث تنحدر من (R-pt-Rhunt) لكى تحل محلها فكرة تقول إن الأصل قد جاء من ليديا Lydia (فى آسيا الصغرى) متمثلاً فى كلمة Labrys

(البلطة المزدوجة) وأخذت هذه الفكرة تلقى المزيد من القبول عندما تتابع بشكل ملحوظ العثور على هذا الرمز فى كنوسوس[119]. وكما سلف القول فإن البلطة المزدوجة كانت رمزًا دينيًا مهمًا فى كريت فى العصر المينوى، إلا أنه يصعب علينا أن نعرف لماذا يُطلَق اسمها على أحد المبانى، وفى كل الأحوال فإن اللغة الليدية أو أى لغة أخرى من الأناضول لم يتم التحدث بها فى كريت. إذن فمن المؤكد أنه لا توجد رواية تربط ما بين اللابيرنث وليديا. أما السبب فى وجود هذا الافتراض البعيد عن الحقيقة فيرجع إلى عدم الرغبة فى الاعتقاد بوجود أصول مصرية أو سامية، وهى الرغبة التى تسود بشدة بين الباحثين الألمان والبريطانيين بعد عام ١٨٠٨ ، بسبب تفضيلهم لفكرة الأثر الاناضولى الآسيوى على فكرة تأثير الشرق الأدنى.

وفى الجزء الأول من هذا الكتاب قبلت اقتراح بروجش **Brugsch** بأن **R-prR-hnt** هى أصل كلمة لابيرانث وهى الفكرة التى عمل على إحيائها عالم الساميات روبرت شتيجلتز **Robert Stieglitz** [120] ومازلت على اعتقادى بأن هذه الكلمة أثرت فى الشكل الاغريقى، وعلى أية حال فإننى الآن أفضل الأخذ بالتفسير الإتيمولوجى الذى أقره ماسبيرو (**Maspero**) وشبيجلبرج (**Spieglberg**) وآرثر إيفانز **Arthur Evans** والذى عرضه بشكل خاص المؤرخ **H.R.Hall** فى عام ١٩٢٠ ، ولكن قوبل بالرفض مؤخرًا من قبل آلان لويد **Alan Lloyed** [121] ، وذلك لأن أصل **Labyrinthos** توجد فى الاسك الأول للفرعون إمنمحات الثالث وهى (**Ny-m3r t-Rr**) بانى اللابيرنث المصرى الأصلى. وقد سلَّم الكُتَّاب الكلاسيكيون بوجود **Ny-m3r t-Rr** فى أشكال مختلفة مثل **Labaris , La-bares , Lamares, Mares** [122] .

إن التوافق ما بين اسم مبنى اللابيرنث واسم الفرعون الذى أقيم من أجله يبدو بالنسبة لى أمرًا ظاهرًا، فإن المقطع (**nthos**) الواسع الانتشار من المعتقد أنه ينتمى إلى ما قبل العصر الهللينى. وله مصادر متعددة تشمل الشكل البسيط لإخراج الصوت من الأنف قبل الأصوات السنية (**dental**) . وفى بعض الأحيان كما هو الحال فى كلمة **anthos** (زهرة – نماء) فإننى أعتقد أنها جاءت من الكلمة المصرية **ntr** (النماء المقدس – فى مجال التوحيد) [123]. وهذا أمر ممكن كما هو الحال فى المقطع الأخير (**inthos**) الموجود فى كلمة (**Labyrinthos**) .

وكما أسلفنا القول فإنه توجد ارتباطات قوية ما بين اللابيرنث ومصر، وزيادة على ذلك توجد مؤثرات مصرية واضحة في طريقة تشييد القصور الكريتية وزخرفتها، وعلى النقيض من ذلك تمامًا توجد اتصالات طفيفة ما بين كريت في عصر البرونز والأناضول . بينما لا توجد علاقات بالمرة ما بين هذه الجزيرة وليديا. ولكل هذه الأسباب مجتمعة ، بالإضافة إلى الأسباب التي تستند إلى دلالات علم اللغة، فإنني أفضل الأخذ بفكرة الأصل المصرى لكلمة اللابيرنث عن الأصل الليدى.

وحتى لو سلمنا بأن اللابيرنث لم يأت من مصر. فإننا نجد أنه على الرغم من الخلط لدى الاغريق المتأخرين ما بين كلمة (dromos) الساحة المخصصة للثيران والمعبد الجنائزى وبين القصور الكريتية ذاتها، فإنه من الواضح وجود هذا التشابه البارز ما بين عبادة العجل فى مصر والعبادة ذاتها التي مورست في كريت في عصر القصور. ولا ينبغي أن نسأل أنفسنا أي العبادتين تطورت أولاً ؛ فإن الإجابة واضحة حيث أن هذه العبادة فى مصر يرجع تاريخها إلى الألف الرابعة، بينما عرفت فى كريت فقط في حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. وقبل أن نمضى فى تحديد قضية كيفية الانتقال فإننا نعتقد أنه من المفيد أنْ نربط ما بين بعض المظاهر الميثولوجية المتشابهة.

إن مينوس الكريتى تتوفر فيه بعض الصفات التي لا تليق بالمشرع الوقور. فقد عُرِفَ عنه أنه كان يقوم بإغواء الحوريات واغتصابهن، وكذلك نساء البشر[١٢٤]. وفى هذا المجال فإننا يمكن أن نقارنه بالإله زيوس. ولكن مينوس لم يكن خالدًا أو أنه يعلو درجة عن الفانين، فإن هذه الصفات ترتبط بالإله المصرى " مين" Hm (الصاعقة المزدوجة) والبلطة المزدوجة التى عُرِفَت فى كريت المينوية، بالإضافة إلى قصة ثور مينوس الشاهق البياض ، الذى حَظِيَ بإعجاب مينوس فجعله قائدًا لقطعية ، وقام هذا الثور بتلقيح الزوجة باسيفاى (Pasiphai) التى إنجبت وراحت تتضرع إلى دايدالوس لكى يقيم لها بناءً. ومن خلال هذا المزج ولد المينوتاوروس (Minotauros)، ومن الملاحظ أن الإله العجل "مين" فى مصر كان له ثورًا أبيض كرُس من أجله. وكان يرتبط بكلمة K3mwt.f (الثور الذى لقح أمه). وهكذا كان للمينوتاوروس ابن مينوس وباسيفى ثور أبيض، ويمكن مقارنته بالإله مين، ويثير الانتباه أيضًا أن عبادة "مين" كانت تحتوى على بقرة مقدسة سوداء ihtkmt [١٢٥] . وإذا ما أخذنا فى الاعتبار التماثيل بين " مين " وآمون فى مصر

من ناحية، وبين زيوس ومينوس فى كريت من ناحية أخرى. فإنه من المثير للفضول أن نشير إلى ما سبق أن ذكرناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب. وهو أن تكون إيو Io عشيقة زيوس قد جاء اسمها من iht (بقرة) [١٢٦]. إن التوحد ما بين الإله والفرعون اللذان يحملان اسم (Mines) لا يمكن أن يكون ظاهرة كريتية خالصة، فقد كانت هناك مناسبات فى مصر أدت إلى أن يعبد الأثنان معًا. ففى العيد الأعظم للإله " مين " فى طيبة كان يتم الاحتفال به فى عصر الأسرة التاسعة عشرة (القرن ١٣ ق.م) وكان التمثال الذى يتم حمله فى هذا الاحتفال هو تمثال Mines / Min [١٢٧].

وهكذا فإنه حتى لو لم يكن هناك ارتباط طبيعى ما بين الاثنين كما يدعى بعض الباحثين فإن الروح التى كانت سائدة لدى الأقدمين، والتى تميل إلى التورية لابد من وأنها قادت المتعبدين إلى أن يلاحظوا تلك الارتباطات الدينية الواضحة[١٢٨]. لذا فإنه من الواضح أنه تم وضع العجل منفيس (Mnvis) مع اللقب الملكى Menes / Min وكذلك الشخصية المقدسة من أجل تعويض النواحى الأسطورية فى شخصية مينوس.

حالة الرافضين للتأثير المصرى

إن البرهنة على التشابه ذى الطبيعة البارزة بين " مين " ومينوس هو أمر يتعلق بالدراسات الميثولوجية المقارنة أكثر من كونه متعلقًا بعلم الآثار. بالإضافة إلى ذلك توجد فجوة زمنية كبيرة ما بين الأساطير الإغريقية عند كريت التى تمتد ما بين العصر الجيومترى (Geometric) الخزفى الذى يمتد ما بين عامى ١٠٠٠ و ٧٠٠ ق.م والعصر العتيق ٧٧٦ – ٥٠٠ ق.م، وقد ظهرت عبادة الثور فى القصور الكريتية منذ بضعة آلاف سنة أقدم من ذلك. وإذا ما وضعنا ذلك جنبًا إلى جنب فمن الممكن أن تجادل كارل أوتفرد موللر (Karl Otfried Muller) ومن أخذ برأيه ؛ لأنه يرى أن مظاهر التشابه بين كريت ومصر هى مجرد نتائج للعلاقات المتبادلة فى الفترة المتأخرة ما بين الإغريق والأجانب والمصريين فى مجال الديانة[١٢٩].

وعلى أية حال فإنه توجد عقبتان كبيرتان أمام مثل هذا التفسير. أولاهما هذا التداخل غير العادى ما بين تلك المظاهر المتشابهه، أما الثانية فهى تلك الحقيقة التى تقول أنه على الرغم من الروايات الكثيرة عن الأساطير التى تتصل بالملك مينوس ، والتى ظهرت فى فترة متأخرة. فإن هناك إشارات طفيفة فى أعمال كل من هسيود وهوميروس، مما يرجح أن هذه الروايات كانت معروفة فى عهدهم. وهكذا فإن الذين يؤيدون الفكرة التى تقول بأن هذه التشابهات هى مجرد اختراعات جاءت فيما بعد. وإذا كانوا على خلاف موللى صفًا واحد، فإنهم لابد من أن يرجعوا هذا الاتصال إلى ما قبل القرن العاشر، وهو ذات الوقت الذى أرى أن هسيود ينتسب إليه، لأننى أعتقد أنه أقدم الشعراء[١٣٠]. وبناءً على هذا يمكن القول بأن الاتصال الرئيسى لابد وأنه تم إما فى عصر الحضارة الموكينية حوالى ١١٥٠ - ١٠٠٠ ق.م. وهى الفترة التى تمثل فترة إزدهار نسبى فى علاقات الصداقة ما بين عالم بحر إيجه والشرق الأوسط ، أو أن يكون ذلك قد تم فى أواخر عصر البرونز. وفى هذه الحالة الأخيرة فإن الأمر يؤدى إلى نسج سلسلة من الادعاءات ، لأن مصر والشرق فى تلك الآونة لم يقتصر الأمر فيها على وجود طبقة من الكهنة المتعلمين، بل أيضًا لأن القصور الكريتية أو الموكينية فى تلك الآونة كانت ما تزال فى طور النهوض. وربما كانت لديها بعض السجلات التاريخية. ومع ذلك فإنه ليس هناك شك بأن اختلاق مثل هذه الأساطير كان أمرًا ممكنًا، وزيادة على ذلك فإذا ما أخذنا فى الاعتبار العلاقات القوية ما بين مصر وعالم بحر ايجه فى القرون ١٥ ، ١٤ ق.م. فإن المرء يستطيع أن يضع يده على مثل هذه الإدعاءات مما يؤكد الربط بين المنطقتين من أجل تأكيد سمو مصر وعلو كعبها المسبق على الشمال.

وعلى أية حال فإنه توجد لدينا دلائل إضافية تؤكد هذه الفكرة البسيطة التى ترى الأساطير تعكس بعض الحقائق التاريخية، مثل تلك الحقيقة التى تقول بأن القصور الكريتية قد تطورت كنتيجة للتأثير القادم من الشرق الأدنى، وأن عبادة العجل التى لعبت مثل هذا الدور الهام فى تلك القصور قد جاءت من مصر على وجه الخصوص، وتحديداً فى الوقت نفسه وهو القرن الحادى والعشرين ق.م.

مونت Mont

و رادامانثيس Rhadamanthys

وحتى يمكننا أن نتفحص هذا المصدر الآخر، فإنه من المفيد أن نحاول التعرف على أحد الأخوة الأسطوريين لمينوس. وهو الملك رادامانثيس. ويميل روبرت جريفز (Robert Graves) إلى القول بأن هذا الاسم جاء من Rhabda Mantis (ذلك الذى يحكم بالصولجان) ، إن هذا الاسم أميل إلى أن يكون أسمًا مصدره كاريا(١٣١). ومن ناحية أخرى فإن شانترين (Chantraine) يرفض هذه الفكرة وكل الافتراضات الأخرى باعتبار أنه ليس هناك ما يؤيدها ، وأننى أعتقد أنه يمكن للمرء أن يرى بشكل إيجابى أن هذا الاسم قد جاء من الكلمة المصرية Rdi Mntw (Mntw أو Mont بمعنى ذلك الذى وهبه مونت أو منتو). وعلى الرغم من أن هذا الشكل لم تتأكد صحته تمامًا فإن Rdi مع الاسم المقدس Mntw هى شكل شائع جدًا فى المسميات المصرية(١٣٢).

إن الشكل العام لاسم رادامانثيس يؤدى إلى اقتراح مفاده أن استعارة هذا الاسم يرجع إلى فترة مبكرة ؛ لأن الفعل rdi بدأ فى اسقاط الحرف r حتى منذ عصر الدولة الوسطى، على الرغم من أنه لا ينبغى علينا أن نقلل من أهمية قوة تأثير العصر القديم فى الحضارة المصرية(١٣٣).

دعنا ننظر أولاً فى إمكانية أن يكون RdiMntw / Rhadamnthys يقابل من حيث القدسية Mntw أو السكنسريتى Mntw Re(Re) نفسه. إن Mntw يعد إلهًا آخرًا من آلهة الشمس، وهو يرتبط بالإله آمون رع. لقد جرت الإشارة إليه باعتباره إلهًا للشمس أو باعتباره مرتبطًا بالنجوم فى نصوص الاهرامات(١٣٤). فهو إله منطقة طيبة فى صعيد مصر. وقد ارتفعت مكانته مع ارتفاع نجم هذه المنطقة فى عصر الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٥ - ١٩٧٩ ق.م) خلال النصف الثانى من هذه الفترة. وقد ارتبطت عبادته بالبلاط الملكى، وانتشرت فى جميع أرجاء البلاد. ولكن مع بداية عصر الأسرة ١٢ صارت أقل أهمية، فى مقابل ازدياد أهمية عبادة آمون، الذى نميل إلى أن نشبهه بـ Mntw، ورغم ذلك فإن Mntw ظل إلها له مكانته فى مديرية طيبة، وكان يتمتع بشعبية

واسعة باعتباره إلهًا للحرب ، الذى ارتبط بإعادة توحيد مصر فى عصر الأسرة الحادية عشرة بعد ثلاثمائة عام من التشرذم خلال عصر الانتقال الاول. وكما سوف نعرض بتفصيل أكثر فى الفصل الخامس فإن هذا الإله ظل على وجه الخصوص مرتبطًا بفكرة إخضاع البرابرة الشماليين(١٣٥).

لقد كان لمنتوخليلتان أولاهما هى iwnyt (ترتبط بـ iwn الجنوبية) وهو اسم مركز عبادته فى مدينة أرمنت أو هرمونثيس (Hermonthis) على بعد عشرين ك.م أعلى مدينة طيبة، وهى التى تقابل iwn أى مدينة هليوبوليس فى مصر السفلى(١٣٦). أما الخليلة الثانية فهى (Tnnyt) وهذا هو الشكل المؤنث للاسم Tnn . إله الخلق القديم الذى اندمج مع الإله بتاح خالق الحرف. وفيما بعد فقدت كل من Tnnyt , iwnyt المكانة المستقلة التى كانت تتمتعان بها وتم استبدالها بـRrt t3wy (أو Ria سيدة الأرضين) (١٣٧). إن Rrt هو الشكل المؤنث للاسم Rr ومن المؤكد أنه الشكل المصرى للاسم Rhea . وهذا أمر صحيح من وجهة نظر علم الصوتيات ، فإننا نعلم أن Re فى عصر الدولة الحديثة كانت تتم كتابته فى اللغة الأكادية Riya أو Ri'a (١٣٨) . لقد اندمجت Ria مع Nwt التى كان ينظر إليها فى العصر الهللينيستى على أنها تقابل Rhea .

إن التعارض الذى قد يبدو جليًا ما بين شخصية Nut كربة للسماء و Rhea كربة أرضية تحمى الصغار فى الكهوف والمغارات. أمر يمكن تفسيره من خلال ما نعرفه فى الشعائر المصرية ، فإن المهمة الرئيسية لنوت هى أن تقيم ما يشبه القوس على المومياء داخل التابوت، وأن تقوم بحراسة المقابر والتوابيت، ويرى بعض الدارسين أن هذا يدل على أنها تغيرت من كونها ربة للسماء إلى أن تصبح ربة للموت. بينما يرى آخرون أنًّ ارتباطها بالأرض يرجع إلى عصور ضاربة فى القدم(١٣٩). وعندما ننظر إلى خليلة منتو أى Re فيما يتعلق بعلاقتها برادامانثيس، يلفت انتباهنا أن (Rhea) كانت من أهم المعبودات فى كريت، وهذا دعم فكرة ارتباط مصر بهذه الجزيرة فى مجال الآلهة، كما يمكن القول أن استخدام اسم (MutwRe) على نطاق واسع يدل على العلاقة بينه وبين إله الشمس Re ، كما أن Mutw Hr يدل بوضوح على الارتباط بالإله اليافع المقاتل حورس. ومثله فى ذلك مثل هذا الأخير كإله للحرب التى تقوم على الإغارة فإن (Mntw)

كان يُصَوَّر أحيانًا فى شكل ثور عنيف، وكانت تجرى عبادته فى شكل الثور مع الثيران الأخرى فى مراكز عبادته فى عصر الأسرة الثانية عشرة، وفى هذا الوقت فإن لون الثور المقدس كان على الدوام هو اللون الأبيض، وكما هو معروف فإن الثور منتو كان يرتبط بشكل واضح بالثور الأبيض للإله " مين ". كما يرتبط منتو ايضًا بالبقرة السوداء (ihtkm) التى تقابل إيو Io ، كما أشرنا آنفًا[١٤٠]. وفى وقت لاحق بعد عام ٧٠٠ ق.م. كانت هناك أربعة عبادات للثور ترتبط بمنتو. وكانت إحداها تتصل بالوحى والنبوءات. وتحتوى جميعها على طقوس إقامة المهرجانات التى تتعارك فيها الثيران[١٤١]. وهذا يقودنا إلى فكرة أن هذه العبادة التى تقوم على العراك لا يمكن أن تلعب دورًا مهمًا فى مجال القضاء فى عالم الموتى فى العقائد الجنائزية. فإن هذه الوحشية أمر لا يتلائم مع القضاء فى أى مكان وخصوصًا عالم الموتى. وفى الحقيقة فإن كتاب (The Coming Forth by day) ، والمعروف باسم كتاب الموتى يشمل الإشارة إلى Mntw من بين الآلهة الآخرين فى إليسيوم Elysium [١٤٢] .

إلى أى مدى تتفق هذه الصفات مع شخصية رادامانثيس؟ لقد عُرِفَ هذا الكريتى كمشرع، وكان ربيبه هو هيراكليس. ومن المفترض أنه كان يقوم بتنفيذ أحد قوانينه الخاصة بالقصاص. ويبدو أنه قانون " العين بالعين "، ومن الملاحظ أن هسيود وهوميروس وكتاب آخرون فى عصور لاحقة كانوا ينظرون إلى رادامانثيس جنبًا إلى جنب مع مينوس باعتباره قاضيًا فى عالم الموتى[١٤٣]. فقد أطلق عليه فى الأودية اسم (Xanthos) وهو ما سوف نناقشه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب. وكان يشار إليه باعتباره مقدسًا أكثر من الإشارة إليه باعتباره قاضيًا عادلاً[١٤٤]. وكلمة مقدس تبدو أكثر ملائمة مع المقطع anthos (شبيه الإله) ، وهو الوصف الذى أطلق عليه فى الإلياذة[١٤٥]. وفى الأودية يصور رادامانثيس على أنه قادر على الذهاب إلى أبعد نقطة فى إتجاه الغرب والعودة فى اليوم نفسه ، وهو ما يجزم بوجود رابطة بينه وبين الشمس[١٤٦].

وهنا يجب أن نشير إلى أن شهرة رادامانثيس كمشرع وقاض لا يمكن أن تجعل منه إلها مسالمًا. فمن المفروض أنه قام بإنشاء إمبراطورية واسعة فى الجزر الأيونية، ليس فقط بهدف إقرار العدل ولكن أيضًا " لانزال العقاب الصارم بالمدنيين"[١٤٧]. وقد

ناقشنا فى الفصل الثانى قصة الرحلات الأسطورية التى كان يقوم بها رادامانثيس ما بين كريت وبويوتيا. وكذلك ارتباطه بزيوس وأبوته لهيراكليس. وهكذا هل يمكن القول بأن هيراكليس كان فرعونًا فى الدولة الوسطى ، لأن رادامانثيس يساوى منتو كراع للأسرة الحادية عشرة وللفراعنة التاليين(١٤٨).

وبشكل عام يوجد أساس للربط ما بين رادامانثيس و(Mentw) . فقد كان كلاهما مقاتلاً وبطريقة ما كان أبًا لبطل دائم الترحال وفرعون فى آن واحد. وفى الفصل الثانى ناقشت تصوير منتو على أنه الحامى لمنتوحتب الثانى(١٤٩). لقد كان كل من رادامانثيس ومنتو شديدى الارتباط بآمون زيوس. كما أنهما ارتبطا بشكل أو بآخر بعبادة العجول. وإذا ما استندنا إلى علم الأصوات فإننا لا نجد صعوبة فى العثور على رابطة المقطع Mntw , mantthys فقد عرفنا من الكتابة الآشورية أن الاسم Mntw كان ينطق فى الأصل مع الحرف a (١٥٠) .

والحقيقة أن الربط ما بين كريت ومنتو لا يقتصر على رادامانثيس. فإننا يجب أن نلاحظ تمركز عبادة (Rhea) فى الجزيرة فى الفترة المتأخرة، لذلك فإن Re / Ria التى لم تكن ذات مكانة بارزة فى الديانة المصرية لابد وأنها خليلة منتو. وهناك أيضًا تزامن وجود العجل الأبيض الذى يبدو أنه يربط ما بين منتو ورادامانثيس من ناحية وبين شقيق هذا الأخير أى مينوس المقدس Min . وبالإضافة إلى ذلك فهناك احتمال أن منتو مثله فى ذلك مثل (Mnevis) كان يصور فى شكل رجل له رأس الثور خلال العصر المتأخر(١٥١). وقد تم العثور على ختم فريد ذو ثلاثة أوجه عند الكرنك بالقرب من طيبة يرجع تاريخه إلى عصر الانتقال الأول. أو إلى عصر الأسرة الحادية عشرة يظهر فيه رجل برأس الثور(١٥٢). وطبقًا لما هو معروف عن انتشار عبادة منتو فى ذلك الوقت فلربما يمكن القول بأن هذا الرسم يمثله. ولكننا لا نملك وسيلة لتأكيد هذا الأمر. كما أننا نلاحظ أن شكل " الرجل الثور " قد جاء على خاتمين من بلاد الرافدين فى كنز تود Tod الذى يرجع إلى عهد أمنمحات الثانى ١٩١٧ - ١٨٨٢ ق.م. عُثِرَ عليهما أسفل معبد منتو. وسوف نناقش هذا الأمر فى الفصل الخامس. وربما يكون من المفيد أن نحاول معرفة ما إذا كانا يرتبطان بمنتو على وجه التحديد أم لا (١٥٣).

وعلى الرغم من ارتباط منتو الواضح بالعجول فى عصر الدولة الوسطى فإنه كان يُصَوَّر بشكل عام برأس الصقر[١٥٤]. وعلى أية حال فإنه لم يوجد فى كريت تصوير لثور مينوس Minotaurus على هيئة الثور خلال عصر القصور. أما الصورة الشائعة فى التراث الاغريقى فلربما تكون قد جاءت فقط من خلال الاتصال الواسع المدى مع مصر خلال القرن الخامس عشر. وفى كل الأحوال فليس هناك شك فى أن منتو فى هيئة الثور العنيف، مثلها فى ذلك مثل هيئة من كانت ترتبط بالإله آمون، وهى صورة تنطبق على المينتوتاوروس، أى ابن مينوس وابن شقيق رادامانثيس وحفيد زيوس .

وعند هذه النقطة فقد يكون من المفيد أن نضع فى الاعتبار احتمالية ألا يكون رادامانثيس منحدراً بشكل مباشر من الإله المصرى، ولكن من الحاكم المصرى ، ويجب أن نتذكر أن مينوس يقرن بـ Min المقدس وكذلك بالملك Min/ Menes .

ومن الجدير بالذكر أن Menes / Min باعتباره مؤسسًا للأسرة الأولى يُذْكَر دائمًا بصفة المنتصر الذى صاغ القوانين، والحكام الوحيدون الذين يضارعونه فى الشهرة هم هؤلاء الذين أعادوا توحيد بلادهم، والذين أسسوا الدولة الوسطى. إن منتوحتب الذى ذاع صيته فى حوالى عام ٢١٥٠ ق.م. لم يعرف بصفته فرعونًا، ولكنه كان موضع التكريم باعتباره منحدراً من الأسرة الثانية عشرة ومرتبطًا بالأسرة السمراء التى أعادت توحيد مصر إنطلاقًا من قاعدتها فى مديرية طيبة[١٥٥]. لقد كان منتوحتب الثانى الذى حكم فى القرن الحادى والعشرين أكثر ملوك الأسرة نشاطًا فى خلال المدة التى استغرقها حكمه وهى ٥١ عامًا. فقد أصبحت مصر مرة ثانية قوة كبرى كما كان الحال فى عصر الدولة القديمة. وهو الأمر الذى عبر عنه حاردنر قائلاً " أن منتوحتب تعنى مونت راضيًا. إن رضا الإله المحلى له سبب وجيه لأنه شهد إعادة توحيد مصر بعد سنوات من التشتت تحت راية حاكم واحد ".

ومن الملاحظ أن الشخصين العظيمين اللذين حملا اسم منتوحتب قد جرى ذكرهما باعتبارهما مؤسسين للدولة الوسطى. ويقرنان دائمًا بـ Min/ Menes . وعلى سبيل المثال فإن تماثيل Menes / Min ومنتوحتب كانت تحظى بمكانة خاصة فى الاحتفال العظيم للإله Min . وهو الاحتفال الذى كان يقام فى الرمسيوم بالقرب من

طيبة فى عهد رمسيس الثانى مـن الاسـرة ١٩ . وهكذا فإننا نلاحـظ ان الفراعنة Min / Menes ومنتوحتب لعبا دوراً هاماً وبخاصة فيما يتعلق بعبادة العجل التى ترتبط بالإله Min .

إن مظاهر التشابه ما بين الديانات المصرية والكريتية متشابكة بشكل دقيق. ففى مصر نجد أن " مين " ومنتو يرتبطان بالعجول البيضاء ويرتبطان بالإله آمون. وفى كريت فإن الشقيقين مينوس ورادامانثيس يرتبط أولهما بالعجل الأبيض. وكلاهما ابن لزيوس الذى يساوى آمون. إن الربط ما بين رادامانثيس ومنتوحتب يمكن أن يُكْمل أضلاع المربع حيث أن مينوس يتداخل مع الثور " مين " ومع الفرعون Min/ Menes . كما يتداخل رادامانثيس مع الإله العجل منتو ومع الفرعون المؤسس منتوحتب. وفى مصر عرف هذان الفرعونان بالصداقة وبارتباطهما بالتشريع. وهى ذات الصفة التى عُرِفَ بها كل من مينوس ورادامانثيس فى كريت. وهناك أيضًا النظرة الكريتية إلى دور هذين البطلين الملكيين فيما يتعلق بالفكرة الأساسية فى التراث المصرى أى فيما يتعلق بعالم الموتى.

وعلى الرغم من أن الدمج ما بين الإله والحاكم يبدو أمرًا غريبًا فى حالة " مين " فهو أمر طبيعى فى مصر، ويمكن أن نرى نموذجًا له فى الإشارة إلى الفرعون سيزوستريس الأول من الأسرة الثانية عشرة، الذى سنعالجه بالتفصيل فى الفصل الخامس. فقد وردت الإشارة إلى هذا الفرعون باعتباره " العجل الأبيض" الذى جعل البرابرة يولون الأدبار.

وقد علق عالم المصريات الألمانى أوتو (Otto) الذى كتب كثيراً عن عبادة العجل فى مصر قائلاً " إن هذا يزودنا بدليل على الارتباط ما بين الشخصية المحبة للقتال والعجل منتو، كما يشير بجلاء إلى الربط ما بين شخصية الملك المحب للقتال وعبادة العجل فى مصر العليا".

ويستلفت النظر هـذا التشابه الدقيق فى مجال العبادة ما بين مصر وكريت وهو ما يتمثل فى ازدهار عبادة العجل الملكى الأبيض فى مصر فى القرن الحادى والعشرين

على وجه التحديد، وذلك بناء على الدلائل الآثارية التى أشرنا إليها آنفًا عندما تم إنشاء القصور أولاً وإرساء عبادة العجل.

وكما أسلفنا القول فإن ذلك كان خلال الفترة التى يلاحظ عدد من الدارسين أن التأثير المصرى والشرقى واضحًا فى كريت. ويرى بندلبرى (Pendlebury) أن كريت قد تأثرت بشدة بالحضارة المصرية والشرقية من خلال دلتا وادى النيل. وهى المنطقة التى خضعت بعض أجزائها لمتحدثين باللغة السامية فى عصر الانتقال الأول. ويفضل وليام وارد (Wiliam Ward) - استنادًا إلى أساس يبدو قويًا - القول بأن هذه الظاهرة قد حدثت فى أوائل عصر الدولة الوسطى ، حيث إن التأثير المصرى قد جاء إلى كريت من خلال فينيقيا بشكل عام. ومن بيبلوس على وجه الخصوص. والحقيقة أن بيبلوس كانت قد تمصرت بشدة، فقد تم العثور فيها على العديد من النقوش التى ترجع إلى عصر الدولة الوسطى، وفى ذلك الوقت أشارت النصوص المصرية إلى أمير بيبلوس باعتباره h3ti (حاكم إقليم) ولم تشر إليه بكلمة hk3 h3swt (هكسوس) التى تعنى أمير أجنبى مثلما كانت تطلق على الحكام الآخرين فى سوريا وفلسطين.

ومن المعروف أن منتوحتب الثانى لم يكتف بإعادة توحيد مصر فقط بل أن قادة جيشه قاموا بحملات على النوبة وسيناء ، وربما امتدت حملاتهم إلى مناطق أبعد فى الشمال. ونحن نعلم من المصادر الوثائقية أنه تم إرسال حملة بحرية على الأقل إلى بيبلوس. وهو أمر تؤكده الدلائل الآثارية ؛ حيث كانت الأخشاب السورية تستخدم فى صنع الصناديق والتوابيت التى ترجع إلى عهد الأسرة الحادية عشرة .

وإضافة إلى هذا يوجد " قدر مونيه Monet " . وهى عبارة عن خبيئة ضخمة تحتوى على آثار مصرية يرجع تاريخها إلى القرن الحادى والعشرين عثر عليها فى بيبلوس. كما توجد لدينا دلائل على وجود مصريين ينتمون إلى عصر الأسرة الحادية عشرة فى منطقة بحر إيجه. ولعل الدافع القوى إلى مثل هذا التواجد يتمثل فى الفضة التى يتم استخراجها من مناجم لاوريون فى إقليم أتيكا، والتى وجدت فى

تمثالين مصريين(*) ينتميان إلى هذه الفترة التى أشرنا إليها. ويبدو أنه من المرجح أن كريت قد تلقت مؤثرات من مصر ومن العناصر السامية الغربية فى الشرق فى القرن الحادى والعشرين، حينما كانت الشخصية التى تحكم فى مصر وسوريا هى منتوحتب، الذى كانت العبادة الرسمية فى عهده هى عبادة منتو وثوره الجامح.

والحقيقة إننا لا نملك دلائل وثائقية على وجود حملات على منطقة بحر إيجه فى ذلك الوقت ، إلا أن نقش ميت رهينة الذى جاء فيه وصف لحملات مصرية وقعت فى وقت سابق فى البر والبحر - وهو ما سوف نناقشه فى الفصل الخامس - يقدم لنا تحذيراً دراميًا ضد فكرة استخراج الدليل من الصمت فى مثل هذا النوع من المواقف. فلم تكن هناك حاجة إلى القيام بالغزو. وعلى أية حال فمن أجل شرح مثل التمدد فى التأثير الحضارى، فإننا يجب أن نشير إلى أن الفراعنة الذين حملوا اسم منتوحتب و أعادوا توحيد مصر، وأعادوا إليها مكانتها كقوة لها مكانتها فى المشرق، فأنهم كانوا فى حاجة إلى المعادن التى لم تكن متوفرة فى شمال شرق أفريقيا وجنوب غرب آسيا. وهذا تفسير قد يكون كافيًا، وإذا ما قبل المرء فكرة الربط بين رادامانثيس ومنتوحتب فإنه يصبح لدينا أيضًا مؤشرات أسطورية على وجود توسع للقوة السياسية. لقد كتب ديودوروس عن رادامانثيس قائلاً: " لقد جاء أيضًا من أجل السيطرة على عدد ليس قليل من الجزر، وكذلك على جانب كبير من شاطئ آسيا. إن الرجال جميعاً قدموا إليه أنفسهم طواعية وذلك بسبب عدالته". وفى موضع آخر ذكر ديودوروس جزر كاريا وأيونيا على وجه التحديد. ويمكن القول بأن الأصل المحتمل لاسم واحد من العناصر الاغريقية وهم الأيونيون قد جاء من الكلمة المصرية iwn (رامى السهام. بربرى). وهو أمر ناقشناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب. ومما يثير الاهتمام فى هذا الاتجاه أن منتو الذى كان مهتما على وجه الخصوص بأمر القتال ضد البرابرة الشماليين كان يحمل لقب Nb hsf iwntyw (السيد الذى قمع البرابرة) . وإذا

(*) لقد كان الدافع اليونانى (والأثينى تحديدًا) أكبر بكثير من الدافع المصرى لاحتياجهم الدائم إلى القمح، ومن ثم فهذان الأثران لا يدلان على تواجد مصرى بالضرورة ، بقدر ما هى إلا تذكاران على اتصال التجار اليونان بمصر ورحلاتهم القديمة إليها، راجع/ محمود السعدنى: " تصدير" هذا الجزء من الكتاب الثانى . (المحرر)

ما نحينا فضة لاوريون جانباً فإنه لا يوجد لدينا دليل أثرى على وجود أى تغلغل فى منطقة بحر إيجه فى عصر الأسرة الحادية عشرة. وفى حدود معلوماتنا فإن الآثار المصرية الوحيدة من عصر الدولة الوسطى التى وجدت فى منطقة خارج كريت، هى جعران أسبرطه وكذلك تمثال خشبى من معبد الربة هيرا فى جزيرة ساموس Samos . وهى آثار من المرجح أنه قد جرى استيرادها خلال العصر العتيق (٧٧٦ - ٥٠٠ ق.م). وهى الفترة التى شهدت ازدهار التجارة بين ساموس ومصر(*) ، كما ارتبط رادامانثيس بمنطقة بويوتيا. وكما رأينا فى الفصلين الثانى والثالث أن هذه المنطقة قد تأثرت بشدة فى الألف الثالثة.

رسوخ عبادة العجل
وروح المحافظة فى كريت

على الرغم من أن عبادات العجل بشكل عام وعبادة منتو على وجه الخصوص ظلت تتمتع بأهمية فى مصر حتى تاريخ نهاية العبادات فى القرن الثانى والثالث الميلاديين، فلا يوجد شك فى أنها وصلت إلى قمتها فى عصر الأسرة الحادية عشرة. ولكن أهميتها تقلصت خلال عصر الأسرة الثانية عشرة مع ارتفاع نجم العبادة الملكية الجديدة أى عبادة الكبش ذو الرأس البشرية آمون. ويبدو أنه يوجد لدينا فى عبادة الثور الكريتية نموذج لنقطة مهمة تتمثل فيما قدمه سنكلير هود (Sinclair Hood) الذى تخصص فى دراسة آثار منطقة بحر إيجه. فقد ذكر هذا العالم ما يلى "إن روح المحافظة هى مفتاح معرفة الكثير من مظاهر الحضارة المينوية فى كريت. فإننا نلاحظ أن المعتقدات والعادات التى كانت سائدة فى الأصل فى أماكن أخرى فى الشرق الادنى، ظلت باقية فى كريت". فمن خلال احتفاظ الكريتيين بأهمية عبادة العجل

(*) راجع رسالة الدكتوراه - باليونانية الحديثة وملخصها بالإنجليزية - لصاحبها / محمود السعدنى "العلاقات المصرية - اليونانية فى ضوء القطع المصرية والمتمصرة المكتشفة فى اليونان : ٩٤٥ - ٥٢٥ ق.م" - أثينا ١٩٨٢ .

لعدة قرون فى عصر القصور، حافظوا على ديانة العصر المبكر فى الدولة الوسطى فى مصر. ويمكن أن نلاحظ وجود نمط شبيه بهذا فى شرق آسيا، فقد استعارت كوريا واليابان من الصين الكثير من المظاهر فى عهد أسرتى سو Sui وتانج Tang . وقد حافظ هذان البلدان على هذه المظاهر مع العناصر المحلية وتطورت. وأصبح الجميع ينظرون إليها باعتبارها كورية ويابانية محضة. وعلى سبيل المثال فإن الملابس الوطنية الكورية التى ترتديها النساء هى ذات الملابس التى كانت سائدة فى الصين فى القرن السابع والثامن الميلادى. وهناك أمر وثيق الصلة بالموضوع فى مجال الديانة، ويتمثل فى اختفاء البوذية من موطنها الأصلى فى الهند، بينما ظلت باقية فى سرى لانكا والتبت وجنوب آسيا، إلا أنها فى كل منطقة من هذه المناطق كانت لها شخصيتها المتميزة.

خاتمة

عندما نعود إلى النقطة الأساسية فى هذا الفصل فإننا نطرح تساؤلاً حول ماهية الأفكار التى تدفعنا الدلائل الآثارية من كريت قبل عام ٢٠٠٠ ق.م إلى الاعتقاد فيها. دعنا نبدأ بأن نذكر القارئ بالفكرة التى أثرناها فى الفصل الأول. أولاً أن الدلائل تقودنا بشدة إلى الاعتقاد بأن كريت قد تلقت الزراعة والفخار من الأناضول، ولكنها كانت على اتصال مع شمال أفريقيا والمشرق. وثانيًا أن حضارة العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) المتأخر وكذلك أوائل عصر البرونز فى كريت هى عبارة عن مزيج من مؤثرات ليبية ومصرية ومشرقية وأناضولية وأيضًا شمالية. وهناك إحتمال ولكنه لا يصل إلى درجة التأكيد بأن الشكل الجديد للمجتمع التجارى الذى أخذ فى التطور فى منطقة بحر إيجه عند انقضاء الألف الثالثة، قد تأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بالتطورات السابقة عليه فى الشرق الأدنى، وفى كل الأحوال فإنه يوجد بعض الشك فى أن تكون منطقة بحر إيجه قد تلقت عجلة الفخار إلى جانب الفخار وعادات الدفن من الشرق الأدنى. إن فحص البقايا المادية للرموز الدينية التى ترجع إلى بواكير الحضارة المينوية فى كريت، يؤدى إلى ملاحظة تشابه قوى بين تلك الرموز ومثيلتها فى الدولة القديمة المصرية المعاصرة لها.

من الواضح أن القصور الكريتية لم تتطور بشكل عفوى ومنتظم، وأنها وليدة المجتمع فى العصر المينوى الباكر. ولكنها تعد طفرة لا علاقة لها بما كان سائدًا من قبل. إن إدخال القصور والتنظيمات التى ارتبطت بها من الناحية الاجتماعية، والتى كانت موجودة منذ قرون سالفة فى الشرق الأدنى يعد فى حد ذاته دليلاً على المؤثرات الشرقية، وزيادة على ذلك فإن أنماط العمارة وأشكال الزخرفة فى تلك القصور لابد وأنها جاءت من مصر بالتحديد، ويستلفت النظر أيضًا أن نهضة مجتمعات القصور فى

كريت خلال القرن الحادى والعشرين ارتبط بها تركز عبادة العجول، وهى العبادة الرسمية للأسرة الحادية عشرة فى مصر.

إن علم الآثار يمكن أن يقوم باظهار هذا فقط كشكل تنظيمى يدل على هذا التزامن الواضح. وعلى أية حال فإننا عندما نضع الدلائل الآثارية جنبًا إلى جنب مع ما هو متوافر لدينا من بقايا التراث الاغريقى والنقوش المصرية، يمكن أن نلاحظ أوجه التشابه الكثيرة والمتشابكة. التى تفسر لنا بشكل مقنع ما إذا كانت تلك العبادة قد تم استعارتها من مصر فى ذلك الوقت أم لا. وهكذا فإن عبادة العجل الملكية فى مصر المعاصرة، وليس من خلال سلسلة طويلة تنتهى عند " كاثال هويك" Catal Huyuk فى الأناضول التى يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل عصر القصور فى كريت، هى المصدر الذى استمدت منه كريت معظم ملامح عبادة العجل. وهى العبادة التى نسجت حولها أساطير الملك مينوس والمينوتاوروس.

إن التحول الاجتماعى والحضارى الذى وقع فى كريت فى القرن الحادى والعشرين تزامن مع إعادة توحيد مصر فى عصر الأسرة الحادية عشرة، وانتشار النفوذ المصرى فى المشرق، وربما إلى مدى أبعد . إن التبنى الواضح للعبادة الأسرية يدل على التأثير المصرى المباشر فى هذه المرحلة الهامة. وهناك بعض الأساطير التى سجلت فقط فى العصر الهللينستى تجعل بعض الدارسين يعتقدون بوجود حكم مصرى أو سيادة لهذه الدولة على كريت وبعض الجزر فى تلك الآونة، إلا أن انتماء هذه الأساطير إلى عصر لاحق، وكذلك عدم وضوح الدلالات التى تحتويها يجعل هذه الفكرة تتسم بعدم الواقعية. ولا يوجد شك فى أن كريت قد تأثرت بشدة بمصر خلال القرن الحادى والعشرين.

إن تأثير الشرق الأدنى وعلى وجه التحديد التأثير المصرى الذى ذكرناه هنا لا يعنى ان المينويين كانوا مجرد مقلدين لجيرانهم فإن الكريتيين مثلهم فى ذلك مثل معظم الشعوب كانت لديهم مساحة لا بأس بها من الأصالة الحضارية. وليس هناك شك فى أنهم كما طوروا " قرون التكريس" من رمزين مصريين فإنهم توصلوا أيضًا إلى تطوير خاص بهم فيما يتعلق بعبادة العجل. وهناك على سبيل المثال دليل طفيف

على أن المصريين قد مارسوا عادة الوثب على الثيران التى كانت شائعة فى كريت. وبينما كانت الأنماط والنماذج تجرى استعارتها من مصر والمشرق بشكل متتابع، فإن المرء لا يجد صعوبة فى التعرف على سمات الفن الكريتى. وعلى وجه الخصوص عندما يتعلق الأمر بتصوير الحياة البحرية. وهو النمط الذى كان غائبًا فى فنون الشرق الأدنى. وبرغم كل هذا فإن الشواهد التى ذكرناها فى هذا الفصل ، والتى تدل على أن الأقاليم الأخرى كانت لها عدد من الصفات المحلية المميزة، فإننا نلاحظ أن قصور كريت فى العصر الباكر كانت على وجه التحديد جزءًا من العالم الحضارى للشرق الأوسط، وأنها استعارت عناصر حضارية بشكل مكثف من مصر والمشرق.

هوامش الفصل الرابع

(١) فيما يتعلق بالمناقشات حول حالة الإعجاب الجديدة التى سيطرت على الجميع بعد عام ١٩٠٠ كريت القديمة انظر الجزء الأول ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(2) Renfrew (1972. p.98).

(3) Whitelaw (1983.pp323-40)

(4) Lewthwaite (1983.p.172)

(5) Cherry (1983.p33)

(6) Ibid,p.41.

(7) Matz (1973a ,pp.141-3)

(٨) يذهب وارد (١٩٧١ ص ٧٢) ° كذلك ص ٧٤ - ٨٢ إلى ضرورة إهمال التاريخ المبكر الذى قدمه Astrom ، ومن الواضح أن أستروم لم يتخل عن هذا الرأى فى كتاباته الأخيرة (١٩٧٨ ص ٨٧ - ٩٠) وهو رأى ترتب على التاريخ المبكر لحضارة بلاد الرافدين . فيما يتعلق بهذا الأمر ، انظر الفصل الخامس هامش ١٠٥ .

(9) Cadogan (1978,pp.209-14)

إن الموقف معقد فى ضوء الحقيقة التى تقول بوجود تداخل وقتى ما بين نماذج الفخار الذى يرجع إلى العصر المينوى المتوسط الأول (٣) وذلك الذى يرجع إلى أوائل العصر المينوى الثالث فى باقى أرجاء الجزيرة

see Merrillees (1977.p.37).

(10) Matz (1973a.pp.141-5)

(11) Ward(1971,pp.72-125).

(12) Branigan (197oa.p.81).

(13) krzyszkowska (1983,p.168).

شبيه بهذا الأمر أن الخزف المزخرف الذى أزداد استيراده فى أوائل العصر المينوى الثالث ربما كان مصدره مصر أو سوريا ويفضل karen Pollinger Foster الاعتقاد بأن سوريا هى المصدر على أساس أن الحكمة تقتضى الاقتناع بأن بضائع الشرق الأدنى كانت ترد إلى كريت من سوريا ليس ذلك فحسب ، ولكن تقنية صناعة الخزف المزخرف الذى عثر عليه فى كريت تبدو أقرب إلى فخار من ذلك الذى ينتمى إلى مصر انظر ١٩٧٩ ص ٥٦ -٥٩

(14) Warren (1965 .pp.7-43:1967.pp37-48:1969.pp.41-5.71-91

(15) Watrous (1987b,.67).

فى دحض آراء الانعزالية فى نماذج الفخار ، راجع مناقشته فى ص ٧٠

(16) Watrous (1987b,p.70).

(17) Ward(1971.pp92-5).

(18) Evans(1921-35.i,pp.117-25).

(19) Pendlebury (1963,p.83).

(٢٠) على الرغم من إنكار ماتز لوجود اتصالات ما بين مصر وكريت فى هذا الوقت إلا أنه يعتقد أن ذلك الرمز الذى يأخذ شكل الصليب المعقوف قد أنتقل من كريت إلى الشمال الشرقى لأفريقيا . فإذا ما أخذنا فى الاعتبار ذلك الارتباط ما بين شكل الصليب المعقوف والنظرية العنصرية الآرية – التى لا تقتصر على النازيين – فليس من المقصود أن يكون هذا الشكل قد ورد إلى أوروبا من أفريقيا وقد تجنب ورد (١٩٧١ ص ٨٥ ، ٨٩) أن يحسم هذا الأمر من خلال تمسكه بالقول بأن وجود شكل الصليب المعقوف فى كل من مصر وكريت بشكل متزامن قد جاء نتيجة لتطرو مستغل فى كل من البلدين

(21) Fimmen (1921.pp.154-60):Biesautl (1954.pp.33- :Helck.(1979.p.20).

(22) Ward (1971,p.86). للحصول على معلومات حول الجدل الدائر حول انظر الهامش رقم ٢٤٧ لديه .

(23) Z.a. Stos Gale on Poursat (1984.p.87).

(24) Ward (1971.pp.107-25):Helck (1979.pp.21-2).

(25) Kantor (1947.pp.21-4).

(26) Ward (1971,pp.1o8-10).

ربما يستلفت النظر فى هذا الاتجاه أن شكل العقدة المتدنية قد جاء إلى كريت من مصر فى خلال القرن ١٩ أو ١٨ ق.م Higgins (1979,p.37)

(27)Vermeule and Vermeule (1970,p.33).

(٢٨) من أجل تبرير هذا التاريخ غير المقنع أنظر الفصل العاشر هوامش رقم ٩١ – ١٠٥ .

(٢٩) أرجعت موسوعة كمبردج للتاريخ القديم هذا الانقطاع إلى عام ١٧٠٠

وتماشيا مع دراسة تاريخ الخزف من خلال إعادة تاريخ الانفجار البركانى فى جزيرة فيرا وإرجاعه إلى عام ١٦٢٨ ق.م فإننى أقترح أن يكون التاريخ حوالى عام ١٧٣٠ ق.م انظر ما يلى الفصل السابع .

(٣٠) من أجل التقليل من أهمية هذه الحقيقة يبرز على سبيل المثال :

Trump (1981.p.175).

(31)Graham (1962,pp.231-2).

(32)Graham (1970,pp.238-9).

(٣٣) فيما يتعلق بوصف هذا المبدأ فى حالة تطبيقه على مصر القديمة

أنظر Springborg (1990,pp.37-89)

(34) Higgins(1979,pp.22-37).

(٣٥) يثير جدلاً مفاده أن هذا التقليد قد بدأ فى كريت فى بداية العصر المينوى المتوسط الثالث . وعلى أية حال فإن الأساس الذى بنى عليه جدله أستمده من الآنية وهو أمر غير مسئول فيما يتعلق بـ Thueris Schapchermeyt (1967,.p.31 and plates 63-9)

(36) Watrous (1987b,pp.65-6,70).

(37) Bennet(1990,p.194,n.70).

(38) Branigan (1970a,p.52).

(39) Bintlifft(1984).

(40) Warren (1981);Sakellarakis and Sapuna-Sakellaraki (1981).

(41) Dow (1973,p.602).

(٤٢) إن Dow على وجه الخصوص شديد الحساسية فيما يتعلق بهذا الطرح ، لأنه يرمى إلى استغلال فكرة " الدليل من الصمت " لكى يدلل على وجود فترة طويلة من عدم المعرفة بالكتابة تفصل ما بين عصر البرونز والعصر العتيق Archaic ويبدو هذا جلياً من تلهفه على القول بأن قبرص اختلفت بشكل حاسم عن سائر بلاد اليونان فيما يتعلق بالحفاظ على كتابتها خلال عصر البرونز وحتى العصر الكلاسيكى (١٩٧٣ ص ، ٦٠٠ - ٦)حول الجدل فى هذا الأمر وعلاقته بدعم أصحاب النموذج الآرى والتقليل من أهمية النموذج القديم انظر الجزء الأول ص ٣٩٨ وكذلك .Bernal(1983)

(43) Godart(1983).

(44) Ventris and Chadwick (1973,p.31).

(45) Evans (1921-35,11,p.49).

وكذلك Rundle Clark (1959,p.237) بالنسبة للأفتراض الذى يقول بأن كلتا العلامتين تنحدران من شكل فقرات الثور البرى التى ينظر إليها باعتبارها الأصل وفى حالتنا هذه تعنى الحياة ، انظر:

Schwabe Adams and Hodge (1982).

وفى هذه الحالة فإن ذلك يؤدى إلى تقريب الكثير من المعانى الرمزية

(46) Newberry (1909,pp.24-31);Gaerte (1922,pp.72-5).

(47) Pyramid Text, Utt.685;Faulkner(1969,p.295).

(٤٨) فيما يتعلق بالديانة المينوية الباكرة انظر الفصل الأول هامش ٥٥

إن Lakh ليس لها أساس إتيمولوجى فى الأصل الهندو- أوروبى . أما التفريعات الأخرى من ih والتى يبدو أنها تشمل Leikhen (شجرة ، طحلب ، فطر) فهى أكثر مفعولية من القول بالإنحيدار عـن الأصـل الهندو - أوروبى وكذلك فإن كلمة leigh موجودة فى الكلمة الإنجليزية lick والإغريقية Leikho أو Lasies بمعنى (مكسو بالشعر) . إن التبادل ما بين s، h يتردد دائما فى اللغة المصرية .

(٤٩) للحصول على معلومات عن هذا السهل ، انظر الجزء الرابع ، وكذلك Frazer (1898,11,pp.514-15)

(50) Nilsson (1950,p.189).

(51) Powell (1977,pp.72-3).

قدم لنا باول مسحًا رائعًا للفكر المبكر فى هذا الصدد ، وقد تمسك باعتقاده فى النظرية الآرية فذكر أن الرموز يمكن أن تنتقل إلى الحضارات الأخرى دون أن يؤدى هذا الانتقال إلى إحداث تغير فى الهيكل الأساسى للبناء الفكر .

(٥٢) ليس هناك ما يدل على وجود ارتباط بين – K3yt والجزيرة فيما يتعلق بالمناقشة حول الأسماء المصرية المعروفة لجزيرة كريت . انظر الفصل العاشر هوامش ٢-٢٣ فيما يلى .

(٥٣) فيما يتعلق بالجدول حول تفضيل الأناضول انظر الجزء الأول ص ٢-٣٩١ .

(٥٤) Burkert(1985,p.37).

(٥٥) انظر الفصل الأول ، هامش ٦٠ أعلاه .

(٥٦) Hoffmann (1979,p.91).

(٥٧) الدليل الوحيد الممكن على الوجود المبكر لعبادة الثور نجده فى إنائين من بورتى (Porti) وكوماسا (Kumasa) فى ميسارا (mesara) التى يرو فيها شكل الثيران التى تتخذ أشكالاً أدمية ذات قرون. وقد كتب برانيجان Branigan (1970 ب ص ٨١) عن هذا الأمر قائلاً " إن بعضها من الممكن أن ينتمى إلى أوائل العصر المينوى الثانى إلا أننا لا نستطيع التأكد من تاريخها على وجه التحديد فلربما يرجع هذا التاريخ إلى فترة لاحقة . ولكن من المؤكد أن بعض الآنية التى تم العثور عليها والتى تتخذ شكل الثور وتنتمى إلى أواسط العصر المينوى الأول (إننى مدين إلى ليفيا مورجان Lyvia Horgan فيما يخص هذه الإشارة) .إن مشكلة عدم تحديد التاريخ أيضا تنطبق على النماذج الطينية التى تحمل أرقام ٤١٢٦ و٥٠٥٢ فى متحف هيراكليون . فإنها لا يمكن أن تشكل أساسًا قويًا لرأى فى صالح وجود مبكر بعبادة الثور فى كريت فى عصر القصور .

(58) Herodotos, II.145.

(59) Diodoros,III.8.

(60) Strabo ,XVII.2.3.

(61) Chassinat (1966-8,II,p.676); Gundlach (1982,cols 135-9)

(62) Chassinat (1966-8,II,p.676).

(63) Chassinat(1966-8,II, pp.676-7) See also Gardiner (1947,I,pp.80-6).

(64) Shack and Habte(1974,p.26).

لمعرفة المزيد عن B aza انظر Leslau (1950,pp.54-5)

(65) Cohen (1970- 6,II,p.53).

التفسير الصحيح لهذا الاسم هو أنه ينحدر من bt+a az حول التركيبة المعقدة لهذا انظر (Mulder 1986,pp.19-25)

(66) Ruth,31-18 هناك اعتبارات أخرى للثراء غير العادى لهذه الأسطورة وهو ما سوف نناقشه فى الجزء الثالث

(67) I.Kings, 7.21

فيما يتعلق بالنماذج الأخرى Herodotos II.45 للحصول على معلومات فى هذا الصدد راجع Lloyd (1976,p.200)

(68) Shack and Habt (1974,p.175).

(69) Gordon (1962b,pp.178-205)

(70) Klearkhos,Fr.9,In Frag.Hist Gr.II.see cook (1914-40,II,pp.28-32)

انظر لمعرفة المزيد عن الـ lapyges -Bernal 1990,pp.44

(71) Cook (1914 - 40,11,p.30)

انظر أيضا هاريسون يرى وجود تماثل ما بين البلطة المزدوجة وصاعقة الإله زيوس Jane Harrison (1927,pp.176-7) ولا يقتصر التشابه على هذا الشكل فقط بل ترى هاريسون أيضا (١٩٢٧ ص ٥٦ – ٥٧) أن البلطة الحجرية يمكن النظر إليها فى هذا الإتجاه حيث يطلق المزارعون فى اليونان الحديثة على أنفسهم لقب Astropelekia (بلطة النجوم).

(٧٢) انظر الفصل الأول ، هامش ٦١ – ٦٢ .

(73) Gardiner (1957 ,p.503,R-22).

(74) Wainwright (1931 .pp.185-95).

قد ربط هذا الكاتب ما بين هذه المقنوفات والآلة حورس وقرينه الإغريقى أبو للو

(75)Cook(1914-40,Ipp.84-6).

إن الأصل الإتيمولوجى لكلمة (belemnite) ينحدرن من الكلمة الإغريقية belemna (مقنوفات). لذا من السهل النظر باعتبارهم مقنوفات

(76) Cook (1914-40,I.1.pp.85-6).

(77) See Gardiner (1957,p.487) and Gundlach (1982,p.136).

(٧٨) يمثل الرمز المصرى رحم البقرة أكثر من رحم المرأة ، ويعكس هذا مركز وجود القطعان وبخاصة البقر وهو الأمر الذى أشرنا إليه أيضا وقد تمسك كل من (Schwabe Adams and Hodge 1982,p.445) بالاعتقاد بأنه شكل الرحم الإنسانى وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً حتى فى ظهر كتاب (Vesalius) فى القرن ١٦ الميلادى . وليس لَدىَّ سبب يدعونى إلى الشك فى هذا إلا أننى لم أتمكن من العثور على الإشارة التى أعطوها لجاردنر ١٩٤٧ . وفيما يخص الارتباط ما بين الرحم والأمعاء من ناحية والشكل اللولبى واللابيرانث من ناحية أخرى ، انظر

Eco (1989,pp.362-3)

(٧٩) إن كتابة كلمة Hm مع العلامات المحددة يجعلنا نزداد اهتماماً بالبحث عن باقى العنقود .إنها تكتب مع العلامة لتعنى الحائط المنهار ، وتكتب مع لتعنى "يضرب أو يجير". كما أن كلمة Hm تعنى بهدم المبانى أو إيذاء شخص ما . وتستخدم أيضا بمعنى أعاق أو طرد . وتعنى هذه الكلمة فى اللغة المصرية المتأخرة (تدمير - إجبار - فتح - تكسير) وتأتى مع العلامة المحددة (حركة) ويبدو أنها تشير إلى الحيوانات البرية . وتعنى كلمة Hm يمسك أو يقبض وكذلك ينشر أو يسوق . فإذا ماء وضعنا كل هذا العنقود من الكلمات جنبا إلى جنب فإننا نجد أنها من حيث الدلالة اللغوية قريبة من الكلمة السامية (bwaz) ومعناها المزدوج الذى يعنى التدمير والانتشار والحماية منه. إن كلمة hm(way) تعنى "غبار" وإذا كتبت مع العلامة فإنها تعنى يبحر ، وهذا يدل على أنها ترتبط بالرياح . وإذا ما أخذنا فى الاعتبار التوازى ما بين عاصفة bwaza وعاصفة الاله hm,Mim فإنه يمكننا القول بأنها أصل الكلمة الإغريقية kheimon بمعنى العاصفة كذلك فإن كلمة kheima تعنى شتاء . وهى كلمة ذات أصل هندو - أوروبى واضح . ولكن من حيث الدلالة اللغوية يبدو أنها تنتمى إلى مجالين متباينين . وربما يكون هذا الوضع نتج عن تداخل جذريين مختلفين

(80) Gauthier (1931,pp.149-50),Chassinat (1966-8,II,pp.684-91)

(81) Gundlach (1982,col.136).

(82) Gauthier (1931,p.197).

للحصول على مسح شامل للنقوس التى تتعلق بالإله فى هذه الأقاليم انظر :

Bemand(1977)

(83) Gauthier (1931,p.176.) .

(84) Otto(1966,p.118;n.d.,p123).

(85) Budge (1904,II,p.18)Gauthier (1931,pp.180-1);Otto(n.d.,p123).

(86) Voss (1827-34).for Voss and Niebuhr,see Volume 1,p.298

(87) Borgeaud (1979,p.263)

فيما يتعلق ملاحظة أكثر إبهاماً انظر الملحق الذى أعده Alfred Willy

(Borgeaud 1979 ,pp.283-5).

(88) Ruijgh (1967,s.86,n.40).

(89) Volume I,p.454,n.50.

(٩٠) للمزيد من المعلومات انظر الجزء الأول ص ٩١ - ٩٢ .

(٩١) كلٌ من in(t) المصرية و Pan الإغريقية تشير إلى

Tilapia Nilotica

(92) Sethe (1908 ,pp.II-14;19loa,pp.71-8).

وكذلك Hani (1976) ولمعرفة المزيد حول هذا الأمر انظر الجزء الرابع.

(93) Astour (1967a,pp.174-5):

هناك احتمال بأن يكون الاسم الإغريقى الغامض لأحد الأسماك وهو

bakoss عبارة عن تورية مثلما فى حالة Pan- panos

(94) Frazer (1911,I.pp.6-121) and Jacobsen (1976,pp.25-73).

(95) Plutarch ," on the Obsolescence of Oracles" , 419,trans Babbit (1936,p.4o3).

(٩٦) أستشهد بهذا افلاطون فى Minos راجع loeb انظر كذلك

Hesiod,p.204.

(97) Odyssey, xi.586.

(٩٨) إشارة إلى الفصول (1904,II,p.10) CLXII and CLXII1 Cited Budge (أنظر كذلك Otto (1975b,.cols.245-6).

(٩٩) انظر الفصل العاشر ، هوامش ٢ – ٨ .

(١٠٠) Herodotos , II.7.

من الممكن أن يكون هذان اللفظان من الـ Mayan المبكر . ولكن يظل هذا محض افتراض

(١٠١) Lloyed (1988,pp.6-10).

(١٠٢) يظل الموقف غامضًا فى ضوء الحقيقة التى تعرفها التى تقول أن هناك شخصية أسطورية فى الهند ينسب إليها الفضل فى إعادة الاستقرار السياسى ووضع التشريعات وأن هذه الشخصية هى .Maru

(103) Diodoros ,IXCV 1-2.trans .Oldathr (1935,Ip.319).

(104) Aelian XI.10cited in Otto (1938,p.5.n.2).

(105) Manetho Fragments 8,9 and 10; Vercoutter (1975,col.338)

وانظر أيضا : Lloyd (1976,p..171)

(106) Herodotos, II.99.

الذى يرى أن min هو الذى قام بإنشائها. وانظر أيضًا (Gardiner 196la,p4o8)

(١٠٧) فيما يتعلق بـ Iwn,Iwnw or ,On أنظر الجزء الأول ص ١٧٦ ، ١٧٧

(108) Coffin Texts,V.1916.see also Kakosy (1982,col.165).

(109) Sethe (1923,p.191). see also Otto (1938,p.34).

(١١٠) بعيدًا عن تلك التى وردت فى النص يجد المرء تشابها كما هو الحال فى كلمة minwi (ميناء) وكذلك الكلمات التالية mrw mr، mrgt التى تعنى ميناء وشاطئ (السفينة) وكذلك كلمات. mn ، mr . وهما كلمتان تعنيان (الرجل المريض). ومما يستلفت الانتباه فى اللهجات الحالية فى مصر والمغرب أن النهاية (s ,) التى عادة مما تنطق n فمثلا Football تنطق (futban) .

(١١١) سوق نناقش كلمة mniw عند الحيث عن الميناثين .

(١١٢) انظر الجزء الثالث.

(113) Lloyd(1978,pp.609-26):

للمناقشة حول كلمة mtwn اسم المكان الذى كانت تجرى فيه مصارعة الثيران وعلاقته بكلمة mothos التى ترد فى حالة المفعول به فى شكل mothon

(الصوت الذى يحدث خلال المصارعة) والأماكن التى تحمل اسم

mothone ، 41 .. methana إلخ ، انظر ما يلى هامش ١٧٤ الجزء الثالث

(114) Erman (1934,p.27).

إن شكل الثور الذى يحمل رأس منفيس قد أعيد مرة أخرى ، انظر :

anzone (1881-6,vol.I,pp.170-2,pl.55-3) وهو شكل بطلمى وفى حدود ما أعلم فليس هناك ما يدل على وجود أقدم له .

(115) Diodoros ,I.61.1-3, and pliny.N.H.XXXvi.90.

(116) Herodotos.

وقد وقع نظر نيبرى على الموقع فى عام ١٨٨٩ وعام ١٩١١ وجده مجرد مساحة من الأراضى المليئة بالأحجار الجيرية المتشققة. ويبدو أن هذا الموقع شهد عمليات إحراق للجير خلال العصر الرومانى . وقد ذكر ديوبور وبلينى أن الموقع تعرض للتدمير على أيامهم أنظر جاردنر Gardiner (1978,p.70;1985) إن القليلين. من الدارسيين منذ العصور القديمة المتأخرة الذين يرون أن بحيرة موريس التى ذكرها هيرودوت هى ذاتها بحيرة الفيوم . قد قبلوا وصفه للبحيرة وللبناء الذى أقامه موريس أو أمنمحات الثالث تفصيلاً. وعلى الرغم من ذلك فإنهم رأوا أنه من المعقول الربط ما بين اللابيرنث، وبين هذا المبنى الذى يبدو أنه معبد جنائزى غير عادى أقيم بطريقة شديدة الإتقان . وهو ما أكدته الأساليب الأثرية والنقوش. حول دراسة هذا الأمر أنظر Lloyd (1988,pp.121-71) ويجدر بالملاحظة. كما أنه أمر ذو دلاله فيما يخص النظرة المتشككة لدعاة الآرية وهى النظرة التى تميل إلى تغير النقوسية الإغريقية فى مصر بما يتفق مع ما ترغبه العقلية الإغريقية أن Armayor يرى أن ضرورة النظر إلى الأصول الباكرة للابيرانث الإغريقى كما هى .

(117) Brugsch (1879 - 80,II,P501).

أشرنا إلى هذا الكاتب من قبل فى الجزء الأول ص ٢٦١ – ٢٥٨

(118) Gauthier (1925-31,III,p.119).

(119) Kretschmer (1896,p.404).

كذلك آخرون ساروا على هذا الافتراض. انظر Hester (1965,pp.358-9) ومن الملاحظ أن كلاً من فريسك وشانترين لم يشيرا إلى اعتراض Brugsch فيما يتعلق بعبادة البلطة المزدوجة وأصولها، فى الشرق الأدنى انظر الفصل الأول هامش ٦١– ٦٣ أعلاه .

(١٢٠) انظر الجزء الأول ص ٦٤ .

(121) Hall(1905,pp.320-4)in 1920(pp.153-5);Lloyd (1970,pp.92-6).

(122) Waddell (1940,p.224,n.1)

يبدو أنه خلط بين اسم الفرعونين عندما أطلق عليه marrus أو mendes وإننى أرى أن هذه تنحدر من Imn m hbt and Ny-my t-rc وعلى آية حال فإن فيرجوت Vergote (1962) يذهب إلى القول بأن كلاً

الاسمين عبارة عن أشكال مختلفة Ny-my t-re فيما يخص العلاقة ما بين Imn m h3t و Memnon انظر الفصل السادس هامش ١٤٧ - ١٤٨ .

(١٢٣) انظر الجزء الثالث .

(124) Apollodoros.II.5.9 and III.1.2, and Nonnos ,xIII.222 and XL.284.

(125) Gauthier (1931 ,p.83).

(١٢٦) انظر الجزء الأول ص ٩٥ .

(127) Gauthier (1931,pp.83,2o5).

لقد قرأ Sethe الأسماء رقم ٤٧ و ٥٢ في قائمة أبيدوس كما يلي Nfr-KiMin and Nfr-Ki Minnnw انظر المناقشة في هذا الصدد (Stock,1949,p.35 وهو أمر يستلفت النظر . هؤلاء الفراعنة من الأسرة الثامنة التي يكتنفها الغموض من القرن الخامس والعشرين (في أوسطه) ربما تمثل رابطة ما بين Min والبيت الحاكم في كريت لمدة عدة مئات من الأعوام بعد ذلك

(128) Gundlach (1982,col.136)

(١٢٩) انظر الجزء الأول ص ٣١٠ - ٣١١

(١٣٠) انظر الجزء الأول ص ٨٥- ٨٨ .

(131) Graves (1955,I,p.298);Wilamowitz- Moelendorff (1931 32,Ip.56,n.3)

(١٢٣) انظر (52- Ranke (1935

و في الواقع إنني لست أول من اقترح وجود أصل مصري لاسم Radamanthys فقد سبقني إليه بيرارد (Berard did so (19o2- 3,pp.68-9 الذي قال بأنه ينحدر من الأصل المصري amenti أو In nty وأنه ورد ذكره عند بلوتارك كما يلي " Amenthys " وهو إسم البر الغربي حيث كانت تجري محاكمة الموتى . وربما يكون هناك تورية ، انظر ما يلي هامش رقم ١٤٣ . إلا أن بيرارد لم يستطع أن يفسر معنى المقطع الأول للاسم أي (Rhacla)

(133) Gardiner (1957,p.217:288).

(١٣٤) انظر نصوص الأهرام رقم ٥٠٣

(١٣٥) من أجل الحصول على معلومات مفصله عن هذه العبارة انظر :

Bourghouts (1982,cols200-4).

(136) Jahnkuhn (1980,col.212).

(137) Bourghouts (1982,col.201).

(138) Budge (1904,I,p.328);Mercer (1949,p.125).

(139) Rusch (1922);Frankfort ,de Buck and Gunn(1933,p.27).

لمعرفة وجهة النظر المناقضة انظر (Hollis (1987a,.pp.7-8

(140) Otto (1938,p.47);Bourghouts (1982, col .2ol); Drawer .(1940,pp.157-9).

(141) Bourghouts (1982,col.202).

(142) Book of Coming Forth by Day , cxi ,6 and Clxx.see Budge (1904,II,p.26)

(143) Hesiod ,in Merkelbach and West 1983 ,frs 140-4.

Odyssey Iv.564;Diodoros,V.79;Nonnos ,XIX.190.see also Marinatos (1949,p.II).Victor Berard (1902-3,pp.68-9)

وفيما يتعلق بالربط بين هذه و amenti انظر أعلاه هامش ١٣٢ وربما يكون هناك تورية بين هذه وبين شخصية rhadamanthy-s

(144) Odyssey IV.564 and VII.323.Marinatos (1949,p.II)

يترجمها إلى " الأشقر " ويستخدمها فى محاولة لإيجاد رابطة ما بين رادامنثيس وبويوتيا . حيث يرى أن الشفرة أمر شائع بين سكان هذا الإقليم

(145) Iliad, XIV.322.

(146) Odyssey , VII.323.

(147) Diodoros,V.79.I-2.

(١٤٨) انظر الفصل الثانى ، هوامش ١٩٠- ١٩١

١٤٩) انظر الفصل الثانى ، هامش ١٥٩ .

(150) Ranke (1935 -52,I,pp.54.57).

للمزيد من المؤشرات ، حول نطق Mntw انظر Gardiner (1947,II,p,22)

(151) Drioton (1931,pp.26o-1); Lanzone(1881-6,Vol.I,pp.293-9,pls99.2 and 4)

(152) Ward (1971,p.138).

(153) Contenau (1953,p.17,Plate 40).

سوف نناقش أمر هذا الكنز فى الفصل الخامس ، هامش ١٢٦-١٣٧

(154) Bourghouts (1982,col.200).

(١٥٥) فيما يتعلق بالتشابه ، انظر على سبيل المثال Maspero

(1884,p.462,n.1.)

الفصل الخامس

سيزوستريس الأول (Sesostris I)

(الدليل الأثرى والوثائقى للروايات اليونانية عن انتصاراته)

ترجمة : محمود إبراهيم السعدنى(*)

يقول ليفيوس : (Levi, 1971, vol 1, p.117,)

"إن الصورة الغريبة (للفرعون) سيزوستريس هى واحدة من مشكلات الكتاب الثانى عند هيرودوت".

لقد بينت ، كما كنت آمل ، أن هناك العديد من المناهج المتاحة لدراسة التاريخ القديم لحوض البحر المتوسط، بما فى ذلك آثاره، ولغته، وأسماء أعلامه، وتراثه وتقاليده التى ظلت سائدة بين شعوب المنطقة فى أزمان لاحقة. كما أن هناك، أيضًا، الوثائق المعاصرة. وهذه ، على وجه الخصوص، لها علاقة وثيقة بموضوعنا، وذلك لأن مصر، مع مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد، كانت بالتأكيد تعرف الكتابة، وكذلك كان المشرق (Levant)[١] على نحو شبه يقينى، ومن الواضح، أيضًا، أن هذه الكتابة كانت تستخدم فى كل من أناتوليا (Anatolia)[٢] والعالم الإيجى (Aegean) ، إبَّان الألف الثانية ق.م، وهى الفترة التى تهمنا بدرجة كبيرة .

وهنا ، تارةً أخرى ، يجب أن يكون واضحًا أنه ، وبالضبط كما فى حالة الدليل الأثرى، ليس هناك ما يقال إنه تمويه إذ لا توجد وثائق معاصرة، من طراز

(*) سيكون لنا هنا تعليقاتنا الخاصة وبعض الشروح بهامش وبرقم عربى مسلسل ، بينما ستظل الهوامش الأجنبية كما هى بحروفها الإنجليزية ، وذلك – كالعادة فى آخر الفصل .

"أن سى (X) المصرى الفينيقى وصل إلى هذا المكان فى اليونان وأسست مدينة مملكة هناك[٣]"، مما يؤكد بجلاء النموذج القديم . كما أنه لا يوجد من ينكرون هذا الموضوع. إن كل ما يمكن أن يفعله الإنسان، فى غياب تلك الوثائق، أن يمعن النظر فى القرائن التى يمكن أن تمدنا بها والذى يمكن أن تمدنا به وثائق عصر البرونز، فيما يخص العلاقات بين المشرق، وإقليم بحر إيجه إبَّان الفترة الوسيطة والمتأخرة من عصر البرونز.

ويركز هذا الفصل على نص وحيد من أغنى مصدر للدليل الوثائقى، ألا وهى مصر. وهذا النص لم يذكره اليونان بطريقة مباشرة، حيث سنتناول تلك الوثائق المباشرة فى الفصل العاشر، ومع ذلك، فإن أثر"ميت رهينة" المنقوش ، وعلاقته بروايات هيرودوت وآخرين عن الانتصارات العظيمة للفرعون سيزوستريس هو، كما أعتقد، واحد من أهم المصادر القديمة ذات القيمة غير العادية، ليس فقط للتأكد من مصداقية المصادر الكلاسيكية، ولكن أيضًا من أجل فهم التغيرات التى طرأت على مناطق الأناضول والبلقان والقوقاز وعالم وبحر إيجه مع نهاية فترة عصر البرونز المبكر.

اكتشاف نقش

" ميت رهينة "

ظل جيرارد هاينى (Gerhard Haeny) ، مدير المعهد السويسرى للآثار بالقاهرة، ولمدة عدة سنوات، يشك فى احتمال وجود نقش كبير أسفل واحد من التماثيل العملاقة لرمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)، والذى يقف منصبًا (مشيداً) أمام معبد الإله بتاح. وظن جيرارد أن هذا النقش بناه أو وسّعه فراعنة الأسرة التاسعة عشرة، فى الموقع ذاته الذى يتبع الأسرة الثانية عشرة، فى ممفيس، بالقرب من القرية الحالية المعروفة باسم " ميت رهينة ". وفى عام ١٩٧٤ قام سامى فرج، مفتش الآثار، باستخراج النقش المحفور على لوح كبير من الحجر.

وعندما شاهد النقش لبيب حبشى، عميد الآثار المصرية، أدرك على الفور أنه يشبه قطعة أخرى أصغر كثيراً كان قد تم العثور عليها بالقرب من المكان نفسه، وتم نشرها على أيدى فلندرز بترى (F. Petrie) فى عام ١٩٠٩ . و سرعان ما اتفق الجميع على أن القطعتين تحملان صفات النقش ذاته " الطول بشكل ملحوظ". وحتى بالرغم من أن القطعة الجديدة كانت ذات أطوال ٢×٢,٥ متراً مربعاً، إلا أن القطعتين قد أكملتا، فقط، جانباً من النقش الأصلى الكلى. كانت بداية ونهاية النقش الأصلى مفقودتين، وكذلك رؤوس كل السطور، وساهم فى عدم وضوح النص، حتى الآن. إن الجانب الأيسر من الصورة، التى تم التقاطها له حينئذ وتم نقل النقش عنها، لم تكن بؤرة العدسة مركزة عليه، وأصبح من المستحيل أخذ صورة جديدة له. ومع ذلك، فإن فرج وجورج بوزينيه (G. Posener) ، الأثرى البلجيكى، اعتقدا عن حق بأن النقش كان هاماً جداً إلى درجة أنه، وبالرغم من بعض النواقص، يجب نشره بأسرع ما يمكن. ولقد تم ذلك فى مجلة الآثار المصرية: (Revue d'EgyptoLogie) فى عام ١٩٨٠[1].

ولم يكن مستغرباً بأنه لم تكن هناك ترجمة كاملة، ولكن بوزينيه وفرج كانا قد كتبا، كلاهما، ملاحظات على بعض محتويات النقش. ويشير النص مراراً وتكراراً، إلى ملكين من فراعنة الدولة الوسطى، وهما سنوسرت الأول (Senwosre I) وأبنه أمنمحات الثانى (Amenemhe II) ، فى مطلع الأسرة الثانية عشرة، فيما بين ١٩٥٩ و ١٨٨٢ ق.م، وكان ذلك النص قد تم إنجازه، على الأرجح، مباشرةً عقب نهاية حكم الفرعون الأخير[2] .

ويذكر النص ، فى معظم متنه، الحملات العسكرية خارج الحدود المصرية، سواء ما كان منها برياً أو بحرياً. وبعض هذه الحملات كان إلى أفريقيا، ولكن أغلبها كان موجهاً إلى آسيا، واتجهت واحدة ، فقط، صوب سيناء، واثنتان ذهبتا إلى حنتص (Hnty-s)، أى لبنان ، فى حين توجهت حملة أخرى إلى سط (Stt) ، وهى التى شارك فيها الفرعون بنفسه.

وست (Stt) اسم بلد فى أقصى الشمال. واستخدمت الدولة الحديثة هذا الاسم، للدلالة على نهارين (Nahrin) ، أو مملكة الميتانيين (Mitanni) فى سوريا الشمالية

وما بين النهرين ميسوبوتاميا[٤] (Mesopotamia) ، ولكن أول استخدام لهذا الاسم للدلالة على اسم آسيوى كان قد لوحظ منذ الأسرة الحادية عشرة[3].

وأشار نقش ميت رهينة، كذلك، إلى حملات عسكرية دمرت بلدانًا أخرى صوب الشمال، لم ترد أسماؤها فى أى مكان آخر فى النصوص الجغرافية المصرية. واسفرت نتائج تلك الحملات، أو الغارات، عن إحضار كميات ضخمة من البضائع المميزة إلى مصر، وهى فى الغالب ماشية، وعبيد، ومعادن.

أهمية النقش كدليل على وجود
إمبراطورية مصرية فى آسيا إبان الدولة الوسطى

ما الملفت للنظر فى هذا النص؟

إنه فى المقام الأول، وكما سنرى، يبدو وقد أعطانا دليلاً قويًا لتدعيم وتأييد التراث اليونانى المتأخر جدًا القائل بأن سنوسرت الأول وأمنمحات الثانى قادا حملات ضخمة بعيدة صوب الشمال من مصر.

وثانيًا، يدعم النقش بقوة موقف علماء المصريات والمؤرخين القدماء الذين يزعمون أن مصر إبَّان الدولة الوسطى كان لها إمبراطورية، أو على الأقل دائرة تأثير وهيمنة، فى منطقة الشرق.

ثالثًا، يمثل النقش بيانًا توضيحيًا داعمًا، لعلم المصريات والتاريخ القديم باعتبارهما مبحثين علميين. ذلك لأن هذا الدليل الجديد والهام لمثل تلك الحملات الكثيرة المكثفة، أتى من فترة ساد الظن بأنها معروفة جيداً سواء فى المصادر الرسمية أو الأدبية. إذ وضحت هذه المصادر أن مصر كانت غنية وقوية خلال مطلع الأسرة الثانية عشرة، بعد أن أمسك زمام السلطة فيها مؤسسها أمنمحات الأول.

لقد كانت الأسرة الحاكمة من أقاصى الصعيد، ويبدو أن والد[٥] أمنمحات كان قد أتى من إقليم طيبة، وكانت أمه من طاستى (T3Sty) ، المتاخمة لإقليم إليفانتين (Elephantine) أو أقاصى النوبة (Nubia) . وأياً ما كان الأمر، فإن هناك شك قليل بأن هذه الأسرة ، كما يعتقد جاردنر (Gardiner) من أماكن " كان أهلها، فى جزء منهم على الأقل، من جنس نوبى[4]." وهكذا، فإنه يبدو معقولاً أن نسلم بدقة أعمال النحت من التماثيل التى تصور هؤلاء الفراعين أناساً سود البشرة، بالرغم من أن هناك تماثيل أخرى تعطيهم مظهراً آسيوياً، بشكل أكبر. وعلى الرغم من أصلهم الجنوبى، فإن فراعنة هذه الأسرة قد نقلوا عاصمتهم بعيداً عن طيبة (Thebes) ، عاصمة الأسرة الحادية عشرة ، إلى مدينة اللشت (Lisht) فى شمال مصر العليا (أى فى إقليم الفيوم) [٦].

ويشهد عهد سنوسرت الأول إنجازاً معمارياً يفوق الوصف فى ضخامة عدده. وفى هذا يقول عالم المصريات سمبسون (Simpson) "إن عدداً قليلاً من المواقع هى التى لم تشهد نشاط الملك المعمارى لإنشاء الصروح الضخمة الكثيفة[5]." ومن المهم بوجه خاص، أن النقش (موضوع الدراسة) ربما كان قد ألحق بمعبد بتاح الكبير، فى ممفيس، والذى ربط بينه - كما سنرى فيما بعد - الكتاب اليونان وبين سيزوستريس على وجه الخصوص[6].

إننا نعرف أن جنرالات الجيش فى عهد الفرعون أمنمحات الأول كانوا نشيطين فى حملاتهم العظيمة فى النوبة وكذلك إلى الغرب ضد الليبيين. ويظهر سنوسرت نفسه، قائداً لواحدة من تلك الحملات الأخيرة، عندما ظهرت محاولة انقلابية استهدفت حياة أبيه. وليس واضحاً بدقة، متى حدث ذلك، ولا إن كانت قد نجحت تلك المؤامرة، بالرغم من أنها محتملة الوقوع[7]. وإذا كان ذلك قد تم بالفعل، فإنه يكون قد حدث مع نهاية العشر سنوات، من الحكم المزدوج (بين الفرعون وابنه)، وأن سنوسرت أعاد النظام بسرعة واستعادت مصر ثروتها وقوتها، واستمرت فى التوسع.

وانقسم العلماء على أنفسهم واختلفوا حول اهتمامات الأسرة الثانية عشرة وسطوتها فى آسيا. وحتى الآن، فإن الدليل الوثائقى الوحيد والمعاصر لفتوحات هذه

الأسرة فى آسيا هو النصب الحجرى التذكارى لأحد جنرالاتها المدعو " نسومنتو" (NSW Mntw) ، إذ يسجل هذا النصب التذكارى حملة له انتصر فيها على الآسيويين، ودمر قلعتهم، إبَّان حُكْم أمنمحات الأول وسنوسرت الأول[8]. ومع ذلك، فإنه هناك دليلاً هامًا غير مباشر عن هذه الفتوحات، كما أن معلومات علماء المصريات عن العلاقات المصرية مع آسيا فى ذاك الوقت، تأتى فى المقام الأول، – وهذا مما يلفت الانتباه – من نص أدبى يرجع إلى هذه الفترة، وهو قصة سنوحى [9].

هذه القصة المفْعَّمة بالحيوية، والتى ظلت لقرون عدة واحدة من أكثر القصص شعبية فى مصر، تدور حول سنوحى، أحد رجالات القصر الفرعونى، والذى ترامى إلى سمعه عن غير قصد أحد أخبار وأسرار الدولة عن موت أمنمحات الأول. عندئذ، وخوفًا على حياته، هرب إلى كنعان[٦] (Canaan) . واتجه سنوحى إلى أقصى الشمال حتى ببلوس (Byblos) وبعد ذلك عاد متوجهًا إلى بلاده متخذًا طريق العودة. ولكنه، فى نهاية المطاف استقر فى رتنو (Rtnw) العليا، والتى يبدو أنها هى الأراضى الداخلية لسوريا الجنوبية[10]. وهناك أصبح سنوحى، أولاً، مستشارًا لملك إقليمى محلى، ثم رئيسًا ثريًا مستقلاً بنفسه. وبعد سنوات عديدة هناك، أعطى الفرعون سنوسرت الأول لسنوحى تصريحًا وإذنًا بالعودة إلى مصر، مرحبًا به للإلتحاق بقصره، تارة أخرى، وقد دفن جثمانه فى مصر.

إن أحدًا لا ينكر أن القصة تحتوى على حقيقة تاريخية وخيال مبدع، والصعوبة، هنا، تكمن فى التمييز بين الاثنين. كما أن قصة حياة سنوحى وإقامته فى رتنو تتضمن أوصافًا قليلة عن بعض الشئون العسكرية. كما أنه، وعمومًا فى الواقع، فإن العلاقات الحميمة بين المصريين وأهل البلاد الأصليين لتلك المنطقة، وكذلك ذهاب وإياب رسل سنوسرت الأول عبر إقليم رتنو (Rtnw) فضلاً عن تقارب الأمراء السوريين وتملقهم للسلطات المصرية، كل أولئك يوحى بنوع من الهيمنة المصرية على الإقليم. ومن ناحية أخرى، فإن القصة تصف سنوسرت الأول وكأنه :" خلق لكى يؤدب البدو، ويسحق أهل الرمال". كما تصفه بأنه : "هو الذى يقطع رقاب أولئك الذين بين الآسيويين ". كما أن مناظر من المعبد الجنائزى للفرعون سنوسرت الأول تصور جمع

الجزية والغنائم من الأجانب المهزومين، مع صفوف من الأسرى تضم رجلاً سورياً[11].
كيف يمكننا أن نوفق بين كل هذه الصور المتناقضة للحرب والسلام[٧]؟ .

هناك احتمال واحد، أن نفترض سيادة السلام داخل منطقة الهيمنة المصرية وأعمال الحرب فيما بعدها. وقبل السير قدماً لتطوير هذه الفكرة، بالرغم مما سبق، فإننا يجب علينا أن نلتفت إلى التفسيرات شديدة التباين التى نستقرئها من الدليل الأثرى لبيان ما إذا كان لمصر، فى عهد الدولة الوسطى، إمبراطورية آسيوية أم لا.

إننا نعرف أنه كان هناك نشاط مكثف فى مناجم سيناء. كما وترجع أكثر الآثار الدالة على الأنشطة المصرية هناك إلى الأسرة الثانية عشرة إذ تزيد وحدها عن آثار الأسر الأخرى مجتمعة. وفوق ذلك كله، فإن العلاقات (الخارجية بين مصر وجيرانها)[٨]، وخلافاً لما هو معروف عن مثيلاتها فى فترات أخرى، تبدو لنا بأنها كانت ودية. وكذلك خلافاً لما جاء فى آثار الدولة القديمة، فإن هناك مؤشرات قليلة من الدولة الوسطى تفيد بأن حملات التعدين (مناجم سيناء) كانت حملات مسلحة[12].

ولكن الدليل الأثرى للإتصال مع مصر يوجد بعيداً عن سيناء. كما تم الكشف عن أعداد كبيرة من أشياء ترجع إلى عهد سنوسرت الأول، ليس فقط فى الإقليم السورى، الفلسطينى، ولكن أيضاً فى الأناضول (Anatalia) وثار جدل حامى الوطيس بشأن أهميتها خلال القرن العشرين الميلادى، كما سنرى فى هذا الفصل وفى الفصل الذى يليه. لقد أوجز عالم الساميات والمتخصص فى آثار فلسطين وليام فكس إلبرايت (W.F.Albright) النتائج التى انتهى إليها علم الآثار البريطانى والأمريكى، فيما بين الحربين العالميين، حينما كتب يقول:

إن غرب فلسطين وكذا فينيقيا[٩]، وأجزاء من سوريا كانت خاضعة للسلطة المصرية وللثقافة المادية المصرية....وإن الآثار لشاهدة على وجود اتصالات مباشرة مع القصر الملكى المصرى التى ترجع إلى عصور قديمة منذ مطلع القرن ١٩ ق.م (وهى الفترة التى يؤرخ بها ألبرايت للأسرة ١٢

وقد تم الكشف عن هذه الآثار فى أقصى الشمال حتى أوغاريت (Ugarit) ، وفى أقصى الشرق عند قطنة (Qatna) ، شمال شرق حمص (Hums) . كما أن المكتشفات، التى عثر عليها فى بيبلوس (Byblus) تعطى فكرة حية عن مدى تأثر الفن والصناعات الحرفية فى فينيقيا بمصر. وإن نصوص اللعنة (منذ نهايات الأسرة الثانية عشرة التى هزمت أعداء مصر) تمكننا ، هى الأخرى، من أن نرسم خطًا حدوديًا للمنطقة التى تخضع للسيادة المصرية المباشرة عبر وسط سوريا، شمال دمشق، وحتى وادى إليوثيروس (Eleutherus) فى وسط فينيقيا)[13].

لقد تأكدت هذه الصورة العامة وتطورت على أيدى جورج بوزينيه ((G. Posener، والأثرى الإسرائيلى رافائيل جيفون[14] (R. Giveon). لقد وجه بوزينيه الأنظار إلى مؤشرات عن " إمبراطورية " مصرية فى الإقليم السورى - الفلسطينى[١٠]، وذلك عن طريق اتصالات منتظمة وحركة نقل للجزية والغنائم، كما يستشهد بوزينيه بسطر من قصة سنوحى عندما كان الأخير يحيا فى رتنو : (Rtnw) "إن المبعوث الذى ذهب إلى الشمال أو إلى الجنوب، فى اتجاه مقر الحكم (للفرعون) ، توقف لأننى كنت هناك[15]". لقد أشار بوزينيه إلى أن سنوحى وجد مصريين[١١] فى أماكن كثيرة زارها. كما أشار بوزينيه أيضًا إلى النص المشهور المعاصر لنص سنوحى، والمعروف عمومًا باسم : "مشاق التجارة The Satire of the Trades" هذا النص المدرسى، الذى كان يشجع التلاميذ على الدراسة بوصف مساوئ وشرور كل الوظائف والمهن الأخرى ما عدا مهنة الكاتب ، يحتوى على الأبيات التالية:

- إن المبعوث يذهب إلى أعماق الصحراء
- تاركًا بضائعه مع أطفاله
- خائفًا من الأسود ومن الآسيويين (r3mw)
- إنه يأمن على نفسه (فقط) حينما يكون فى مصر[16]

إن اسم رامو (r3mw) عادة ما يقال إنه غير مصرى ، وإنه سامى على الأرجح. ومع ذلك ، فإن المتخصصين غير متأكدين من أصل الكلمة، ولعل الأرجح أنه من أصل

آرامى (arami) ، حيث يوجد النصوص الآشورية، التى تشير إلى البدو الآراميين ، وهناك صعوبة رئيسية تتمثل فى أن كلمة (r3mw) تظهر فى النصوص المصرية لمدة أكثر من ألف عام قبل أن نسمع عن الآراميين لأول مرة من المصادر السامية ، وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر ق.م، فى حوليات الملك الآشورى الفاتح تيجلات بيلسر الأول[17] (Tiglath-Pileser I) وهذا، فيما أعتقد، قد تم نقضه مما هو معروف عن ثبات وبقاء الأسماء العرقية، وكذلك بسبب أوجه التماثل المثيرة بين المجموعتين. إن كلمتى رامو (r3mw) و أرامى (arami)، تظهر بمعنى البدو الذين يسكنون الصحراوات فى سوريا وشمال ما بين النهرين[١٢] (العراق).

ولما كان المصطلح رامو (r3mw) قد طالعناه لأول مرة فى نهايات الدولة القديمة، وكان شائعًا فى الدولة الوسطى حيث نعرف أن الحرف (3) كان مستخدمًا ليقابل صوتيًا الحرف الأجنبى (r) وكذلك حرف الـ (L) ، فإن ذلك لا يمثل لنا مشكلة، ولكن التمييز والتفريق بين الـ "عين" (ayin) المصرية، والـ "ألف" (aleph) السامية الغربية، التى تكتب مع (بدايات) الأسماء لهو أمر أكثر خطورة، ومع ذلك، فإن هناك العديد من الأمثلة للتأثير المتبادل بينهما داخل اللغات السامية. كما أن هناك إضطرابًا كبيرًا فى تقدير حجم مديونية أحدهما للآخر، والتى تبدو محتملة جدًا، ولاسيما مع احتمال أن يكون الاسم المصرى (السابق الذكر :r3mw) مأخوذ من كلمة هى " عرب " (arab) ، وهى الاسم السامى الآخر الذى يعنى بدو الصحراء[18].

وكما أوضح فونتنروز (Fontenrose) ، عالم الأساطير، فإن هومر كان فيما يبدو، على علم بالآراميين، عندما أشار إلى جماعة باسم "أريموى" (Arimoi) وموضع ذكر هؤلاء، فى الإلياذة ، يقع بشكل مدهش على وجه الخصوص كالتالى:-

" كانت الأرض تئن من تحتهم (الجانب الآخى)[١٣] وكذلك تحت زيوس، الذى قذف بصاعقته، عند غضبه، حينما كان يعاقب الأرض من حول تيفويوس (Typhoeos) فى بلاد أريموى (Arimoi) ، حيث يقول الناس إنه مضجع تيفويوس[19]".

وكذلك نجد فرانسيس فيان (Francis Vian) عالم الآريات المتطرف فى محاولاته المتكررة لنفى كل التأثيرات السامية على اليونان ، يقول إن أريموى (Arimoi) -

المذكورة عند هوميروس - تمثل أرض الجن الأسطورية بشكل تام[20]. ولكن فونتنروز (Fontenrose) كان أكثر عقلانية وقبولاً عندما ربط أرض تيفويوس أو تيفون (كما ذكرنا نحن فى هامشنا رقم (١٤)) بمنطقة كيليكيا (Cilicia) أو شمال سوريا، حيث كان الآراميون لهم الغلبة فى القرن التاسع ق.م[21].

وفى هذا الإطار، فإنه من الجدير بالذكر أن نلفت النظر إلى أن اسم تيفويوس كان هو المعادل للإله المصرى ستِ (Sth) أو (Seth) ، والذى كان إلهًا للاضطراب والصحراء، وبالتحديد على أرض ستِ (Stt) . ويبدو أن هناك علاقة مجازية بين الاسمين (أى بين اسم الإله واسم موطنه). وكانت أرض ست (Stt) ، هذه ، يُنظر إليها عمومًا على أنها أرض سورية - فلسطينية، وتشير إلى الشمال (انظر صفحة ٢٣١) - أى أرض جماعة (r3mw) ، السابقة الذكر. ويتجلى صراع الإله ست مع حورس (Horus) بوضوح، فى الأساطير اليونانية ، فى مثيله كصراع بين تيفويوس/ تيفون وزيوس[22].

ويزيد احتمال معرفة الاغريق القدامى بأرض الـ (r3mw) / الأراميين بعد شهادة هوميروس بكلمة " إريموس " (Eremos) ، من جذر كلمة (eremo) ، والتى تعنى " المكان أو الأشخاص المنعزلين أو المهجورين"، وذلك فى إشارة خاصة إلى الصحارى وسكانها. وكان أحد اشتقاقاتها كلمة إريميتس (Eremites) ، والتى منها كلمتنا (فى الإنجليزية) هرمت (hermit) ، أى /ناسك. إن معقولية وقبول اشتقاق أفريقى آسيوى لهذه الكلمة، يزداد مع عجز علماء المعاجم عن ايجاد بديل هندى - أوروبى[23].

ونعود إلى أدلة وحجج بوزينيه لصالح السيادة المصرية على الإقليم السورى/الفلسطينى، فى ذاك الوقت، فقد فسر الصديريات الذهبية المؤرخة بالأسرة الثانية عشرة، وكذلك جواهر الصناديق والأسود الملكية، (والتى كانت قد اكتشفت ليس فقط فى بيبلوس (Byblos) وبيروت ولكن أيضًا فى أوغاريت (Ugarit) ، وحلب (Aleppo) وأماكن أخرى) على أنها هدايا احتفالية إلى ملوك محليين[24]. كما أن ستيفنسون سميث (Stevenson Smith) ووليام ورد (William Ward) قد أشارا إلى أنه هناك أيضًا تماثيل لأشخاص مصريين عاديين عثر عليها فى فلسطين وسوريا بل وفى أماكن أبعد

كثيرا حتى كريت وجنوب الأناضول، كان قد تم إهداؤها إلى المعابد المحلية، ويشير هذا إلى أن وجود مصر استمر زمنًا طويلاً، في هذه المناطق[25]. وعلى الجانب الآخر من العملة أظهر لنا بوزينيه أن الآسيويين المرسومين على جدران إحدى مقابر بني حسن، في مصر الوسطى مع مطلع القرن ١٩ ق.م، لم يكونوا بدوًا جائعين، كما كان يظن عادةً، ولكن هم عبارة عن شيخ ثرى[١٥]، ومعه عشيرته وكانوا من المحتمل في مهمة تجارية، أو رسمية[١٦]. لقد ربط بوزينيه ذلك بالواردات الآسيوية العديدة ووجود العبيد في مصر إبَّان الأسرة الثانية عشرة. كما أن هناك لوحات جدارية أخرى، من بدايات حكم سنوسرت الأول، تُظهر لنا، ليس فقط جنودًا مصريين، بل أيضًا نوبيين وآسيويين[26].

ومع ذلك، فإن هناك علماء آخرين هم أكثر شكًا بكثير حول هذه "الإمبراطورية" الآسيوية. وفولفجانج هلك (W.Helck) ، الذى تسيد علم المصريات في ألمانيا طيلة الثلاثين عامًا الأخيرة، يستبعد أى خبر حول سوريا من ادعاءات سنوحى، ويشير إلى أن مؤلف القصة ربما كان، فقط، في جنوب فلسطين [27]. ويرفض هلك، فكرة وجود "إمبراطورية" مصرية في آسيا، ومن ثم يقبل بوجود اتصالات حميمة مع ببلوس (Byblos) بصورة، أقرب ما تكون إلى اعتبارها مستعمرة (مصرية). ولكن هلك يسلم بقيام تبادل تجارى مؤكد للبضائع الخام مع أماكن بعيدة جداً حتى أفغانستان. كما يعتقد بأن الأعداد الكبيرة للعبيد الآسيويين، في مصر، إبَّان الأسرة الثانية عشرة هى نتاج تجارة غير مباشرة، كانت تتم في أغلبها، عبر وسطاء تجاريين سوريين.

كما أن العالم الأمريكي والمرجع الكبير للدراسات اللبنانية والفينيقية، وليان ورد (W. Ward) يتشكك، بالقدر نفسه (كما فعل هلك) في وجود أية "إمبراطورية" آسيوية للدولة الوسطى. إنه يسلم بأن هناك دليل ، من سنوحى ، يشير إلى وجود مصريين في فلسطين، ويلفت النظر إلى أن سنوحى كتب يقول بأنه كان مضطراً لأن يتسلل خلف حائط دفاعى كان مبنيًا على الحدود الشرقية لمصر، مما يعنى أن السيادة المصرية على المنطقة ، الواقعة عدة أميال بعد هذا الخط، (يقصد السور الدفاعى) تبدو غير محتملة[28]. ومع ذلك، فإنه حتى ولو كانت هذه الأسوار تدعمها حراسة قوية ودفاع قوى فإن أسوار الإمبراطوريات التقليدية مثل الصين وروما، نادراً ما تكون

علامة على حدود هذه البلدان بل إنها عادةً ما تفصل بين المناطق السكنية وتلك التى يسكنها البدو إننى لا أرى سبباً لكى ننكر على مصر هذا الاحتمال.

ويبدو أننا بإزاء مأزق بعد أن تشبث علمان من أعلام علم المصريات فى فرنسا وألمانيا كل بموقفه المعارض للآخر، فها هو بوزينيه يعترف لتوه بقيمة كشف ميت رهينة (Mit Rahina) ، وأن هذا النص يمكن أن يدعم رأيه فى هذه القضية، ومن ثم فقد كتب مسجلاً ملاحظاته يقول :

" إنه بجانب تلك المعلومات الكثيرة المهمة فى مجال المفردات والجغرافيا والإقتصاد، فإن نص ميت رهينة يلقى ضوءاً جديداً على السياسة الخارجية للملوك الأوائل للأسرة الثانية عشرة، إننى أريد أن أؤكد على هذه النقطة. وإن بعض العلماء أمثال هلك (Helck) ، ومؤخراً فراندسن (Frandsen) ، عندما كتبوا عن علاقات مصر مع الدول المجاورة، فإنهم قد قللوا ، لدرجة كبيرة، من تأثير الأسرة الثانية عشرة على سوريا وفلسطين."

إننا لا نعرف بالضبط طبيعة العلاقات حتى إنها لو كانت قد اقتصرت فقط على التجارة، فإن الجانبين لم يكونا متساويين. وإن دولة كبيرة وقوية مثل مصر لابد أنها مارست، ضغطًا قوياً على الإمارات الصغيرة فى آسيا. وأدى هذا إلى درجة معينة من السيادة والهيمنة (المصرية) مدعومة ببعض الحملات العسكرية .

« والآن وبشهادة نص ميت رهينة، فإننا نرى أننا يجب ألا نقلل من تأثير مصر وسيطرتها على سوريا وفلسطين من بداية الأسرة الثانية عشرة[29]» .

للأسف ، فإن بوزينيه منذ أن توفى لم ينشر أى تطوير لمضامين الإكتشاف. ومع ذلك، فقد أظهر فولفجانج هلك (Helck) عقلية متفتحة، والتزاماً منزهاً عن الغرض من أجل متابعة وتحصيل المعلومات، والتى هى نادرة حتى بين أعظم العلماء. وفى مقالة قصيرة له سلم هلك بأن تحدى بوزينيه له وآخرين، على أساس نقش ميت رهينة، كان سليماً، "على الأقل فيما يخص الامتداد الجغرافى"، (على حد قول هلك)، السلطة المصرية فى سوريا وفلسطين إبَّان الدولة الوسطى. وما هو أكثر من هذا، فقد تبنى

هلك، الآن، الرأى القائل بأن سنوسرت الأول (Senwosre I) أو على الأقل ابنه وولى عهده أمنمحات الثانى، قد قام بحملات مستمرة صوب الشمال[30].

سنوسرت وسيزوستريس

يثير نقش ميت رهينة خلافات أهم بكثير من وجود أو عدم وجود "إمبراطورية" الدولة الوسطى فى سوريا وفلسطين. وتتعلق هذه الخلافات بتعزيز التطابق بين سنوسرت الأول وسيزوستريس.

لقد وصف هيرودوت سيزوستريس وكذلك فعل كتاب يونانيون آخرون، وأعتبروه الفاتح المصرى العظيم. كما وضعه مانيتون (Manetho) ، الكاهن المصرى ومؤرخ القرن الثالث، ضمن الأسرة الثانية عشرة.

إن ترتيب العلامات داخل الخرطوشات، وكذلك الأشكال البيضاوية المرسومة بالحبل حول أسماء الفراعنة هى غير منتظمة إلى درجة كبيرة. وفى بداية كتب المصريات الاسم المألوف لفرعون الأسرة الثانية عشرة، هكذا " Wsrtsn" ولكن شامبليون وعدداً من تلاميذه لم يستطيعوا أن يروا تشابهًا بين هذا الاسم (أى/ اسم سنوسرت) واسم سيزوستريس، فى أى من أشكاله المختلفة سيزوستريس (Sesostris) ، أو سيزووسيس (Sesoosis) ، أو سيزونخوسيس (Sesonchosis) ، كما قدمه اليونان للفاتح المصرى العالمى[31]. وهكذا فإنهم قد اعتبروا أن سيزوستريس كان شخصية خيالية وأن انتصاراته المزعومة كانت مبالغات لتلك التى قام بها فراعنة لاحقون، مثل رمسيس (Ramesses II) الثانى فى القرن الثالث عشر ق.م، وشيشنق (Sheshonk) فى القرن التاسع، ولقد كان مثل هذا الحل ملائمًا لعدة أسباب :

أولاً: إنه يؤكد " المعرفة الأفضل" (Besserwissen) قبل علماء الآثار العلميين المحدثين حول هيرودوت وسذاجة اليونانيين المتأخرين.

ثانيًا: إنه يحدد عدد وهدف الفتوحات الخارجية التى قام بها الأفارقة(١٧) وكذا المصريون الذين يذهب الافتراض الى أنهم كسالى. ومن المحتمل أيضًا أن يكون الإحجام عن الربط بين الأسماء سببه كراهية المسيحيين أن يكون هناك امتعاض لربط الأسماء المأخوذة فى مطلع القرن ١٩ للتاريخ المصرى القديم، الذى يمثل تهديداً للتاريخ التوراتى، ولقد ظهر هذا الاتجاه عند المؤرخ الألمانى بارتولد نيبور (Barthold Nibebuhr) ، حينما أنكر حقيقة وقوع أحداث التاريخ المصرى قبل الهكسوس[32].

ومع ذلك، فقد اختلفت الآراء وأبدى عدد من العلماء ومن بينهم كريستيان بنسين (Ch. Bunsen) سكرتير نيبور دهشتهم للحقيقة القائلة بأن مانيتون ((Manetho، الكاهن والمؤرخ المصرى من القرن الثالث ق.م، كان قد وضع سيزوستريس، بوضوح، فى الأسرة الثانية عشرة، وهكذا فإنهم أرادوا أن يطابقوا بينه وبين واحد أو كل الفراعين الثلاثة، الذين يعتقد بأنهم يسمون "[33]- Wsrtsn" ، ولكن على أنه " S-n Wsrt" (رجل الإلهة Wsrt) . وأكد أن هذا الاسم، بكتابته بطريقة تقليدية على أنه (Senwosre)، كان هو أصل كلمة سيزوستريس (Sesostris) [34] . إن معقولية وقبول هذا التفسير لمطابقة سيزوستريس مع سنوسرت كانت أخاذة لدرجة أنه تم قبوله فوراً ومن الغالبية، ولم يظهر من يناقضه خلال الخمسة والعشرين عامًا الماضية[35].

إمنمحات

إنه بينما كان اسم (imn m h3t) (آمون فى المقدمة) اسمًا واضحًا للفراعنة الذين كانت عبادتهم المعروفة مخصصة لآمون، نجد اسم سنوسرت (S-n Wsrt) إلهة مصرية قديمة، ولكنها ذات أصول غامضة، ومن المحتمل أن تكون هى شكل محلى، فى طيبة، للإلهة حتحور (Hathor) الهة الجمال التى تأتى فى شكل بقرة: لقد كانت هاتان الإلهتان كلتاهما مرتبطتين بأماكن بعيدة جداً، وكانت حتحور الربة الراعية، وبصفة خاصة، للمناجم الغنية ومنابعها[36]. ويبدو أنزديودوروس (Diodorus) احتفظ بالعلامة التى تربط الفرعون والالهة حتحور عندما أشار إلى "أثيرتيس" (Athyrtis) ابنة سيزوسيريس التى وُجِدَت فى حملاته الخارجية[37].

وكما سنرى، فإن اتحاداً مع حتحور/ وسرت (Hathor/ Wsrt) سيكون ملائمًا ، وبصفة خاصة فى ضوء فتوحات أو حملات سنوسرت الأخيرة، والتى عنيت بالمعابد والأحجار الثمينة. ومع ذلك، فإنه من غير الواضح، هذه النشاطات ومن الناحية الفنية، كان سنوسرت هو ما يقصد به علماء المصريات وما يسمونه بلفظة "nomen"، كواحد من بين ألقاب الفرعون الكثيرة ذات القائمة الطويلة، وكان من المعتاد أن يمنح الفرعون هذا اللقب قبل اعتلائه لكرسى العرش، وكان ذلك، بالتأكيد ، هو ما حدث مع الفراعنة المتأخرين بالنسبة للقب نفسه (nomen)[38] . وهذا هو ما يمكن أن يماثل حالتنا هنا؛ إذ إن أمنمحات الأول كان يبدو، كذلك، مهتما جداً بالفتوحات الخارجية. ومن المحتمل أيضًا أن جاء إطلاق هذا الاسم بعد وقوع بعض فتوحات سنوسرت، عندما كان يحكم بالاشتراك مع والده، وفى نهاية المطاف، فإن هذا الاسم، أو اللقب (Wsrt) ، كان بشرى ملائمة لغالبية الإنجازات العظيمة التى تمت فى عهده.

سيزوستريس عند مانيتون

هنا، وحتى أفحص عملية المطابقة بدرجة أعمق، سوف أنظر أولاً فى أوصاف الكتاب اليونانيين القدماء والمصريين اللاحقين عن سيزوستريس، وذلك قبل العودة إلى الدليل الأثرى والنقشى (النصى) المصرى عن سنوسرت الأول.

ومع ذلك، فقد ترك لنا هذا التطابق بعض المشاكل. أولاً: وضع مانيتون سيزوستريس فى الترتيب الثالث لفراعنة الأسرة الثانية عشرة. وطبقًا لما جاء عنده، فإن هذا الفاتح العظيم قد سبقه – فى الترتيب – أمنمحات (Ammenemes) ، مؤسس الأسرة ، ثم تلاه سيسونخوسيس (Sesonchosis) ، ومن بعده أمنمحات ، الذى كان قد قتل على أيدى بطانته الخاصة[39] . هنا، يبدو أن مانيتون كان قد جمع أشتاتًا مضطربة الترتيب والتسلسل لعدد من الملوك يمكن ، الآن، أن نرتبهم، بصورة تقريبية، كالتالى:-

– أمنمحات الأول	:	١٩٧٩ – ١٩٥٠ ق.م
– سنوسرت الأول	:	١٩٥٩ – ١٩١٤ ق.م
– أمنمحات الثاني	:	١٩١٧ – ١٨٨٢ ق.م
– سنوسرت الثاني	:	١٨٨٤ – ١٨٧٨ ق.م
– سنوسرت الثالث	:	١٨٧٨ – ١٨٥٩ ق.م
– أمنمحات الثالث	:	١٨٥٩ – ١٨١٤ ق.م
– أمنمحات الرابع	:	١٨١٤ – ١٨٠٥ ق.م
– سبك نوفرو	:	١٨٠٥ – ١٨٠١ ق.م

ويبدو أن مانيتون خلط بين سنوسرت الأول، الذى يسميه " سيسونخوسيس"، وبين سنوسرت الثاني والثالث. لقد كان سنوسرت الثالث، بحق، حاكمًا قويًا، ويبدو أنه كان قد قام بحملات وفتوحات فى أفريقيا أكثر مما فعله أسلافه[40]. والاحتمال الذى نواجهه الآن لابد وأن الكتاب المتأخرين اللاحقين، مثل هيرودوت، ربما عزوا إنجازات أحفاد سنوسرت الأول (وبصفة خاصة فتوحات سنوسرت الثالث) إلى جدهم الأول[41].

المشكلة الثانية: التى يفرضها علينا مانيتون فتأتى من وصفه لسيزوستريس:

« إنه خلال تسع سنوات قام سيزوستريس بقمع كل آسيا وأوروبا وحتى ثراكى[١٨]. وقد شيد، فى كل مكان، لوحات تذكارية لانتصاراته على القبائل (الأعراق Lit. ethne) الأجنبيه، وفوق شواهد (Stelae) أنتصاراته هذه، سجل نقشًا وأشار فيه إلى عرق شجاع بأن استخدم رمز الأجزاء السرية للرجل. بينما أشار إلى عرق وضيع بأن رمز إليه بالأجزاء السرية للمرأة. وتبعًا لذلك، عظم المصريون سيزوستريس وأهلوه ورفعهوه إلى المرتبة التالية لأوزيريس[42]» .

تشكلت هذه الصورة فيما يبدو، لجذب اهتمام القراء، إن لم يكن لإثارة شهوتهم، وأضفت على سيزوستريس شهرة عظيمة وشبهته بالآلهة، ومن ثم فإنها يبدو أن شأنها أن تعزز صورة مانيتون عند الكلاسيكيين المُحَدثين إذ يروه نموذجًا للمؤرخين الهيللينستيين فى رواياتهم غير المترابطة منطقيًا وتفتقر إلى الثقة، ومع هذا فإن كلاً من هاتين الروايتين تنطوى على قدر من الحقيقة كما سأحاول أن أبين فيما يلى.

سيزوستريس عند هيرودوت

وقبل أن نعرض لهذه الأشياء، يجب أن ننظر فى وصفين آخرين متماثلين لهذا الفاتح. ونعنى بذلك وصف هيرودوت ، فى القرن الخامس ق.م ووصف ديودوروس الصقلى فى القرن الأول ق.م.

كتب هيرودوت يقول:

« لسوف أنتقل سريعًا لأقول شيئًا عن سيزوستريس، الذى فاق الجميع، ولم يكن كمثله أحد من الملوك الآخرين فيما قام به الكهنة من دور وما خلفوه من تذكارات. لقد قال الكهنة أن سيزوستريس أبحر، أولاً، بأسطول من سفن حربية من الخليج العربى (Arabian gulf)[١٩] حتى صار بحذاء ساحل المحيط الهندى، وقد أخضع القبائل التى مر بها على الساحل، إلى أن وجد ماءً ضحلاً جعل تقدمه أبعد من ذلك مستحيلاً. وعندئذ، وفى طريق عودته إلى مصر، (ومازال الحديث وفق رواية الكهنة)، فقد شكل جيشًا قويًا وسار على رأسه عبر القارة مخضعًا تحت إمرته كل قوم (ethnos) يلقاه فى طريقه. وكان كلما قابل عدوًا شجاعًا، كان قد حاربه ببسالة من أجل الحرية، أقام له الفرعون نُصُبًا تذكاريًا (Stela)، فى الموقع نفسه، يحمل نقشًا اسمه الشخصى وبلده[٢٠]. ثم يضيف جملةً ليشير فيها إلى أنه بفضل جبروت قواته المسلحة قد حقق النصر. ومع ذلك، فإنه إذا سقطت مدينة بسهولة فى يديه وبدون مقاومة من جانبها، كان يضيف ملحقًا إلى النقش المحفور فوق الشاهد التذكارى - بعد أن يكون قد سجل عليه كل الأحداث كما ذكر من قبل - على هيئة تصور للأعضاء التناسلية للمرأة،

قاصداً، بذلك، أن يظهر أن سكان هذه المدينة لم يكونوا بأشجع من النساء. وهكذا فقد استمر تقدمه المظفر عبر آسيا، حتى دخل أوروبا[٢١]، وهزم أهل سكيثيا (Scythia)[٢٢] وأهل ثراكي[٢٣]. وهذه فيما أعتقد، كانت أبعد بقعة وصل إليها الجيش المصرى، وذلك لوجود أعمدة تذكارية يمكن أن ترى فوق هذا الجزء من البلاد، ولكن ليس أبعد من ذلك..... وفى طريق العودة وصل سيزوستريس إلى نهر فاسيس (Phasis)، (فى كولخيس) وإنه من المحتمل جداً أن يكون سيزوستريس، هنا، قد فصل جانباً من قوات جيشه وتركهم خلفه ليستقروا أو ربما سئم البعض من أسفارهم ففروا من الجيش. إننى لا أستطيع أن أقول عن يقين أياً من الإحتمالين هو الصحيح. ولكنه ليس هناك شك فى الحقيقة القائلة بأن أهل كولخيس[٢٤] هم من أصل مصرى... » .

إن معظم الشواهد التذكارية التى أقامها الملك سيزوستريس فى البلدان المفتوحة، قد أختفى، ولكننى قد رأيت بعضها بنفسى فى فلسطين، مشفوعة بالنقش الذى ذكرته من قبل وكذلك رسم الأعضاء التناسلية للنساء. وفى إيونيا، كذلك، هناك صورتان لسيزوستريس منحوتتان فى الصخر إحداهما فى الطريق من إفيسوس (Ephesus) إلى فوكايا (Phocaea)، بينما الأخرى بين ساردیس (Sardis) وسميرنا (Smyrna) . وفى كلتا الحالتين، فإن الشكل المنحوت يصل ارتفاعه إلى حوالى (٧) أقدام ويصور رجلاً حاملاً رمحاً فى يده اليمنى، وقوساً فى يده اليسرى، بينما بقية معداته تماثل تارة التسليح المصرى، وتارة أخرى التسليح الإثيوبى، وعلى صدر التمثال، من الكتف إلى الكتف الآخر، تجرى كلمات النقش التالى، وهو محفور وفق الكتابة المصرية المقدسة:

« بفضل قدراتى ملكت هذه البلاد........» .

لقد استمر الكهنة فى إخبارى بأن سيزوستريس، وهو فى طريق عودته إلى وطنه، مصحوباً بأعداد كبيرة من الأسرى من البلدان المقهورة، قابلة أخوه عند دافنى (Daphnae)، بالقرب من بيلوزيوم (Pelusium) ، وهو الذى كان قد تركه ليحكم مصر خلال غيابه، ودعاه هو وأبناءه إلى وليمة. وبينما كانوا على العشاء، جمع أخوه حزماً

من العصى حول المبنى وأشعل فيها النيران.... وقد أسفر ذلك عن موت اثنين من أبنائه (سيزوستريس) حرقًا فى النار، بينما تم انقاذ الآخرين مع والدهم....

ولقد كان سيزوستريس هو الملك المصرى الوحيد الذى حكم إثيوبيا، ومن بين أعماله التذكارية لحكمه أنه ترك تماثيل حجرية له، هو نفسه، ولزوجته، وارتفاع كل منها (٤٥) قدمًا، وهذا غير التماثيل لكل من أبنائه الأربعة ارتفاع التمثال (٣٠) قدمًا. لقد تم تشييد هذه التماثيل فى مدخل معبد الإله هيفايستوس (بتاح). وبعد ذلك بزمن طويل، لم يسمح كاهن هيفايستوس لملك الفرس داريوس أن يقيم تمثالاً له شخصيًا أمام هذه التماثيل، ذلك لأن (كما أعتقد الكاهن) أعمال داريوس لم تكن عظيمة بقدر عظمة إنجازات سيزوستريس المصرى. إن فتوحات سيزوستريس ليست بأقل توسعًا من تلك التى قام بها داريوس، وقد ضمت بلاد أهل سكيثيا (Scythia)، أولئك الذين لم يقدر داريوس على إخضاعهم، ولهذا فلم يكن سليمًا أن يضع داريوس تمثاله أمام تلك التى كانت مهداة من قبل حاكم لم يسبقه أحد فى إنجازاته. ويقولون أن داريوس اعترف بهذه الحقيقة(43).

سيزوستريس عند ديودوروس

يمثل وصف ديودوروس للفرعون أطول وصف حتى الآن، وفيه أسماه سيزوأوسيس (Sesoosis)، هو شبيه بما جاء عند هيرودوت. ويبدو أنه أخذه عن المؤرخ الأقدم مباشرة، وتجرى سطور الفقرة الخاصة بانتصاراته كالتالى:

« أولاً وقبل كل شيء، كان سيزوأوسيس ورفاقه الذين يصاحبونه كذلك، قد أرسلهم والده بجيش لفتح " أرابيا " (Arabia[٢٥])، حيث هزم سيزوأوسيس .... كل أمة العرب، التى لم تستعبد أبدًا قبل ذلك اليوم، ثم بعد ذلك، أرسله أبوه إلى الأقاليم الواقعة فى الغرب، فأخضع الجزء الأكبر من ليبيا، بالرغم من أنه كان فتى لم يتجاوز سن الشباب. وعندما اعتلى العرش، عند وفاة والده، ولكنه كان مليئًا بالثقة فى نفسه بفضل مكاسبه السابقة، قام بحملات تعهد فيها بفتح بقاع الأرض المأهولة .....

بعد أن جهز جيشه سار به ، أولاً وقبل كل شيء، لمحاربة الإثيوبيين، المقيمين جنوب مصر. وبعد أن هزمهم، أجبر السكان على أن يدفعوا له جزية من الأبنوس، والذهب، والعاج، ثم جرد أسطولاً مكونًا من (٤٠٠) سفينة للبحر الأحمر[٢٦]، فأصبح هو أول مصرى يقوم ببناء سفن حربية، ولم يكتف سيزوأوسيس بالاستيلاء على الجزر فى تلك المياه، بل إنه أيضًا، أخضع الساحل البرى حتى وصل إلى الهند، هذا وواصل هو نفسه شق طريقه........... فحسب هو ما فعله، لقد زار بالفعل الإقليم الذى استولى عليه فيما بعد الإسكندر المقدونى، وأكثر من هذا أنه زار بعض شعوب وأقوام لم يطأ الإسكندر بلادهم. ذلك لأن الفرعون المصرى كان قد عبر نهر الجانج "جانجيس" (Ganges) وزار كل الهند وحتى آخر حدودها مع المحيط، كما زار قبائل سكيثيا (Scythia)، حتى وصل إلى تانانيس (Tanais) ، الذى يفصل أوروبا عن آسيا. ويقولون أنه كان هناك، فى ذاك الوقت، بعض المصريين الذين تخلفوا بالقرب من بحيرة مايوتيس (Maeotis) (=بحر أزوف : Azov)، وهم الذين أسسوا أمة الكولخيين (Colchi) ..... وبالطريقة نفسها أخضع كل الأراضى الباقية من آسيا لسلطانه، وكذلك معظم جزر الكيكلاديس (Cyclades) وبعد أن عبر إلى داخل الأراضى الأوروبية ، وكان فى طريقه من خلال الإقليم المترامى كله لثراكى، فإنه فقد، تقريبًا، جيشه بسبب نقص الطعام والطبيعة الصعبة للأراضى، وتبعًا لذلك، وضع نهاية لحدود حملته فى ثراكى، وأقام نُصبًا تذكارية فى أماكن عديدة من الأقاليم التى أستولى عليها ....

وتعامل بلطف مع كل الشعوب المقهورة، ثم بعد أن أكمل حملاته الخارجية فى تسع سنوات، أمر الأمم الأجنبية بأن تحضر إلى مصر، كل عام، هدايا، كل حسب طاقته ومقدرته، بينما جمع هو نفسه أعداداً ضخمة من الأسرى، لم يحدث مطلقًا، أن فاق عددها أحد من قبل. كما جمع كميات ضخمة من غنائم أخرى.....» .

إنه بالرغم من أن أعمالاً عظيمة قد نسبت إلى سيسوأوسيس (Sesoosis)، فإن عظمته تبدو بشكل أفضل فيما أظهره من معاملة، عرفت عنه، مع الملوك الأجانب ، كلما انطلق فى رحلة خارج القصر الملكى. إن الملوك الذين كان قد سمح لهم بالاستمرار فى حكم الشعوب التى اخضعها وكذلك كل الأمراء الآخرين الذين حصلوا منه على أهم المناصب فى السلطة، كانوا يحضرون بأنفسهم إلى مصر، فى أوقات معلومة، حاملين

الهدايا، وكان الملك (الفرعون) يرحب بهم، وفى كل الأحوال، يقوم بتكريمهم وإظهار المكانة الخاصة لهم. ولكنه - مع ذلك - كلما كان ينوى زيارة معبد أو مدينة، فإنه كان يستبعد الخيول من عربته الحربية، ذات الأربعة خيول، ويضع بدلاً عنها، فى النير، الملوك (الأجانب) والأمراء الآخرين، فى كل مرة أربعة منهم[44].

الحقيقة والخيال فى قصص سيزوستريس

كم من هذه القصص، الواضح منها المبالغة، يجب أن نصدق؟ إن معظم علماء اليوم يسلمون بالمطابقة بين سيزوستريس/ سيسوأوسيس وسنوسرت الأول والثالث، وكذلك يعتقدون بأن هناك نواة تاريخية لهذه القصص. ولكنهم يرون أن هذه النواة صغيرة نسبيًا، وتوارت فى أغوار بعيدة جدًا. وتبعًا لهم، أيضًا، فإن الشخصية الأسطورية لسيزوستريس قد ارتبطت، بشكل كبير، بشخصيات مأخوذة من فراعين آخرين لاحقين حققوا انتصارات - وبوجه خاص رمسيس الثانى، من الأسرة (١٩) وشيشونق من الأسرة (٢٢) - ومن ثم فقد تم تكوين تلك الشخصية كنموذج فرعونى مثالى. كناتج مصرى، يمكن أن ينافس الانتصارات اللاحقة للفرس واليونان. لقد كتب هيرودوت عندما كانت الامبراطورية الفارسية لا تزال فى أوج ازدهارها، وكذلك فعل مانيتون، وديودوروس، عقب الفتوحات ، غير العادية، للإسكندر الأكبر[45]. ولسوف يبدو محتملاً أن هناك بعض الحقيقة فى هذه التفسيرات، بالرغم من أنها تحمل بوضوح طابع مبدأ المعرفة الأفضل (Besserwissen) (ولسوف يدرك قراء الجزء الأول لكتابنا Black Athena أننى أرى فى التفسيرات الواضحة لهذا بأنها أقل اعتماداً عليها مقارنة بالنصوص القديمة ومصادرها).

ومع ذلك، فإن هناك علماء آخرين، وبوجه خاص جورج بوزينيه (G. Posener) تمسكوا برأيهم فى أن معظم أسطورة سيزوستريس يرجع تأريخيًا إلى الدولة الوسطى فى اتجاهين أثنين هما : أولاً، إن هذه القصص لها أساس واقعى (فعلى) بدرجة ما، وثانيًا، وهناك منذ أواخر الدولة القديمة استخدام واع للدعاية لأغراض كثيرة، ولكن، بصفة خاصة، من أجل تكوين أسطورة ملكية[46].

إن الكلمة المصرية لهذا كانت (md.t) بمعنى " خطاب " أو " حديث "، وهى التى جاءت منها الكلمة اليونانية " ميثوس" (mythos) . كما أن لفظتى (Mdw) أو (mwdw) وتقابلهما بالديموطيقية (mt) والقبطية (moute) أو (mout) وتعنى " يتحدث أو ينصح "، كفعل وتعنى " حديث أو كلمات"، كاسم . وكذلك فإن تعبير (Mdw ntr) يعنى " كلمة الإله "، أو – فى صيغة الجمع– " الكتاب المقدس"، بينما تعبير (ddmdw) وبالديموطيقية (dd md/t)، وبالقبطية (de mtau) فإنها تعنى " الكلمات الناطقة" أو " السحر "، ومن ثم فإن (Mdt) هى " الحديث أو الكلمات " أو دعوى قضائية. ومع ذلك، فإنه يلاحظ أن هذه اللفظة كانت تنطق كما لو كانت (met) أو (met) . وهكذا فإن الشكل الدقيق (المصرى القديم/ الذى تم منه اشتقاق الكلمة اليونانية ميثوس (Mythos) شكل غامض. ومع ذلك، فإن نطق الحرف الصوتى الواسع يجب أن يدرك فى ضوء المقابل المهم والمطابق لذلك تماماً بين (mdt / mdw) وكلمة (mythos) ، وكذلك الكلمات الأخرى العديدة المكونة من الجذر نفسه[47] .

ولكى نعود إلى الحديث عن سيزوستريس، فإنه بدلاً من أن ننتقص أو أن نتجاهل ونستبعد الإدعاءات " الساذجة للقدماء "، فإنه يبدو مهماً أن نختبرها ونتأكد من مصداقيتها فى ضوء المصادر الأخرى للمعلومات. ولقد أكدت فى الجزء الأول أن المفيد لنا أن تتخذ من التراث القديم الأكثر انتشاراً، الذى لا يبارى، فروضا نظرية لعملنا . ومع ذلك، فإنه لمن المنطق والمعقول أن نتخذ فقط تلك العناصر القصصية منها، والتى هى مقبولة، بشكل عام، فى العالم القديم. ومن ثم، فإننى لذلك، أود أن أدرس هذه العناصر دراسة فاحصة لبيان حقيقتها.

إن الشىء الوحيد غير المقبول، بقدر علمى، من عهد سيزوستريس هو قيامه بفتح وغزو الهند، بالرغم من أن من المهم أن هيرودوت لم يذكر شيئاً عن ذهاب سيزوستريس إلى بلاد ما بين النهرين (العراق) (مسوبوتاميا)[48] ولهذا، فلربما كانت فتوحات سيزوستريس الشمالية المزعومة يجب أن تكون مقصورة على آسيا (والتى سوف نناقش حدودها فيما بعد)، وكولخيس (جورجيا)، وثراكى (الجزء الجنوبى الشرقى من البلقان)[٢٧]، وسكيثيا فى جنوب روسيا، وإن كان هناك لا يزال بعض الشك بشأن الإقليمين الأخيرين.

إن كتابًا حديثين قد أخذوا موقفًا معقولاً وهو أن ثراكى وسكيثيا لا يجب أن يؤخذ على محمل الجد، كواقع قد حدث فعلاً، ذلك لأنه - بالضبط كما فعل المصريون فى العصر الهيللينستى، وبالغوا فى فتوحات سيزوستريس، لكى تتفوق على فتوحات الإسكندر- وهى إدعاءات نمت إبَّان أو عقب الغزو الفارسى لمصر، فإنها تعنى أنها تحاول أن تَجبَّ فتوحات الغزاه الفرس العظام، أمثال قورش وداريوس. ويعضد ذلك ما جاء فى أسطورة داريوس من أنه لم يمنح إذنًا بأن ينصب تمثاله أمام معبد بتاح فى ممفيس، لأن الفرس فشلوا حيث نجح سيزوستريس، فى فتح سكيثيا[49]. وتصدق الحجة نفسها، كذلك، على النوبة، التى كان الفرس غير قادرين على أن يفتحوها، بينما كان هناك - فى هذه الحالة - نص واضح، ودليل أثرى وعقائدى دينى يظهر لنا أن سنوسرت الأول والثالث قد نجحا فى ذلك. وهكذا، فإن الرواية المصرية حول ثراكى وسكيثيا يجب أن تظلا أقل احتمالاً، مما يمكن أن يكون قد حدث مع آسيا. ومع هذا سوف ندرس مثل هذا الاحتمال.

وينقلنا هذا إلى الصعوبة المتمثلة فى عدم وضوح مصطلح " آسيا". إن الاسم اليونانى، لهذه الكلمة، مشتق من اسم محلى أقدم، عثر عليه فى مملكة أسوا (Assuwa)، التى جاء ذكرها فى النصوص الحيثية كما كان فى الأناضول، وكذلك كاسم لمدينة هى أسوس (Assos) فى إقليم طرود (Troad) وهى المنطقة المحيطة بطرواده نفسها، وعندما تم ضم مملكة ليديا، فى الأناضول، إلى الإمبراطورية الفارسية فى القرن (٦) ق.م، قام الجغرافيون الإيونيون بتوسيع نطاق معنى كلمة " آسيا "، فى اتجاهين، وذلك حتى تشمل وتغطى كل الأناضول، وكذلك لتصبح اسم واحدة من الثلاث قارات، جنبًا إلى جنب مع أوربا وليبيا (أى/ أفريقيا).

ليس هناك أدنى شك فى أن هيرودوت قد سار على نهج أسلافه فى استخدام المعنى الثانى، ولما كانت كتاباته قد خلت تماما من أى مصطلح عن الأناضول، فإنه يبدو محتملاً جدًا أن يكون كل من الجغرافيين القدامى واللاحقين على السواء، وكما فعل هو أيضًا، قد استخدموا لفظة " آسيا " كاسم لما كان يسمى لاحقًا باسم " آسيا الصغرى " (Asia Minor)[50]. وهكذا فعندما كتب هيرودوت عن سيزوستريس قائلاً: "ولقد واصل تقدمه المظفر داخل آسيا، حتى دخل أوروبا" فإنه ربما كان يعنى، فقط، أن

سيزوستريس كان يواصل سيره داخل الأناضول، وأعتقد أن الحيرة والشك حول اسم آسيا، كانت هى السبب فى أن ديودوروس، وكتابًا آخرين لاحقين، قد جعلوا فتوحات سيزوستريس قارية فى اتساعها.

ويصبح لزامًا النظر إلى التوسع الأخير فى فتوحات سيزوستريس فى ضوء حاجة ديودوروس أو مصادره، أو هما معًا، لكى ينافس إنجازات الإسكندر الأكبر. ولسوف نرى لاحقًا التناظر الوثيق فى الروايات التى تحكى عن كل منهما[51]. وجدير بالملاحظة هنا أن وصف ديودوروس لطموحات سيزوستريس، الفتى فى أن يفتح العالم، وذلك عقب وفاة والده، يشبه كثيرًا جدًا وضع الإسكندر وعلاقته بوالده فيليب. ومن ناحية أخرى، يرتبط هذا العنصر الذى يبدو خياليًا بقيام سيزوستريس فعلاً بإخضاع « الجزء الأكبر من ليبيا، وهو فتى دون سن الشباب » ، وهو يبدو كخليفة تاريخية . وبالمثل، فإن رواية مانيتون بأن الفرعون أمنمحات سلف سيزوستريس، « قُتِلَ على أيدى أعوانه » ، تبدو مؤكدة عند علماء المصريات المحدثين[52].

ونستطيع أن نقتفى أثر هذا الخلط نفسه بين الخيال والواقع فى كثير من القصص المروى عند هيرودوت وديودوروس. ومثال ذلك، تلك القصة عن أخ لسيزوستريس، حاول أن يقتله حرقًا بالنار ؛ إذ تبدو غير محتملة التصديق، لأنها ذات طبيعة فلكلورية[53]. ومع ذلك، فإن هناك قصصًا آخر، ربما بدا لنا على نفس القدر من الخيال أو أكثر، ولكنه ربما كان له، بشكل مدهش، أساس واقعى. مثال ذلك، ما نجده من وصف لإجراء الفرعون إذ يحفر أشكالاً للأعضاء التناسلية للذكر والأنثى على لوحات انتصاره، وهو الأمر الذى جاءت روايته عند هيرودوت ومانيتون وديودوروس، ويبدو أنه حدث له أساس من الواقع. إننا نعرف أن كلمة (hm) وتعنى " جبان "، تحتوى على علامات تناسلية لكل من الذكر والأنثى، كما أنه كان لها ارتباط واضح باللواط بمعنى من معانيها، وقد ارتبطت بكلمة (hmt) وتعنى " امرأة " ومعروف أن كلمة "hm" كانت تستخدم للإشارة إلى الأعداء وكذلك إلى الجبناء فى الجيش المصرى، وذلك فى النصوص العسكرية إبَّان الدولة الوسطى، فضلاً عن استخدامها فى اللوحات الحدودية التى شيدها سنوسرت الثالث فى منطقة سمنة (Semna) وأورونارتى (Uronarti) على ضفاف نهر النيل الأعلى فى النوبة [54] .

وهناك مبالغة أخرى من ديودوروس، وهى إشارته إلى عربة سيزوستريس التى يجرها الأمراء المصريون والملوك الأجانب، ولكن زيته (Sethe) ، وماليز (Malaise) وبيرتون (Burton) يعترضون على ذلك، مبررين هذا الرفض على أساس أنه ليس هناك أى دليل على وجود عربات أو خيول فى الدولة الوسطى، وأنها، فى حقيقة الأمر، قد أدخلت إلى مصر على يد الغزاة الهكسوس[55]. ولكن الموقف ليس على درجة من الوضوح التام كما حاولوا ذلك. إن اكتشاف مقبرة حصان لابسًا فى فمه لجامًا بالقرب من حصون الدولة الوسطى فى منقطة بوهن (Buhen) ، فى النوبة، وإذا صدقت الإدعاءات حول فتوحات سيزوستريس الواسعة فى أتجاه الشمال، فإن المصريين يكونوا قد اتصلوا بشعوب استعملت، على الأقل، عربات بسيطة. ودليلنا يجىء من خاتم إسطوانى يظهر أنه كانت هناك عربات معروفة فى أناتوليا الشرقية مع نهايات القرن (٢٠) ق.م[56]. ومع ذلك. فإن هذا التفسير مع رواجه ليس كافيًا، وهكذا، فإنه من المحتمل أن تكون الإشارة إلى العربة والخيول هى حاشية أضيفت لاحقًا.

ومن جهة أخرى، فإن إدعاء ديودوروس بأن سيزوستريس كان يجره[٢٨] مسئولون كبار وملوك أجانب هو شىء مقبول عقلاً خاصة فى ضوء التراث المصرى الممتد فى حمل وشد تماثيل الآلهة عند القيام بزيارات دينية إلى مدن الأقاليم. ويجب التنويه إلى أن سنوسرت الأول كان إلهًا[57] وخلافًا لأسلافه، الذين كانوا مجرد تجليات مقدسة للإله أو كانوا " أشباه آلهة". وهناك كذلك تدعيم أكبر للقصة، القائلة بأن الفرعون كان يجره كبار الموظفين والملوك الأجانب، ويأتى ذلك من الحقيقة المعروفة بأن ديودوروس يشير إلى رحلة الفرعون إلى " معبد أو مدينة".

وحتى إذا كان بعض أكثر إدعاءات هيرودوت " خيالاً، عن سيزوستريس تشتمل على عنصر من الحقيقة، فماذا عسانا فاعلين بالعناصر الأخرى العديدة الخاصة بفتوحاته الواسعة؟ وقبل معالجة هذه الأشياء بطريقة مباشرة، يجب علينا أن نضع فى اعتبارنا السبب فى أن العلماء المحدثين قد أخرجوها من حساباتهم.

إن الإدعاءات (فى نصوص المؤرخين الكلاسيكيين[٢٩]) حول فتوحات واسعة لم يتم رفضها والاعتراض عليها على أساس من بحث أثرى أو تاريخى مفصل، لكن لأنها

كانت "معروفة " وأنها سخيفة من أساسها وغير منطقية. إن العلماء قد شككوا فى ذلك حتى قبل أن يتم هدم النموذج القديم(٣٠) (Ancient Model) ففى الجزء الأول ذكرت أن إدوارد جيبون (E. Gibbon) كتب فى عام ١٧٥٢ م أول مقالة تاريخيه له وكان عمره ١٥ عامًا، بعنوان " عصر سيزوستريس"، ولكنه فى عام ١٧٨٠م مزقها لأنه، كما قال : « فى سن أكثر نضجًا، لم أعد أتجرأ على أن أربط الآثار اليونانية، واليهودية، والمصرية، التى ضاعت فى غياهب الماضى البعيد» (58). وبحلول العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر كانت قد ترسخت نزعة التسلسل الهرمى للاعراق، وبدأت صورة المصريين كشعب معزول له خصوصية فى الظهور وأخذت مكانها فى أمان. وهذه المبادئ الراسخة النمطية أعادت تمامًا فكرة قيام إمبراطوريات مصرية فى آسيا أو أوروبا(59).

وهكذا، فإنه بالرغم من التأكيد على حدوث فتوحات الأسرة الثانية عشرة فى أفريقيا وكذلك بعض تفاصيل القصص اليونانية حول الفرعون، إلا أنه أصبح من البديهيات، خلال الـ (١٥٠) عامًا الأخيرة أن القصص والحكايات اليونانية حول فتوحات سيزوستريس الشمالية كاذبة فى جوهرها(60). ولما كان ذلك هو الاتجاه الغالب، فإن العالم الكلاسيكى الفرنسى بول فوكار (P. Foucart) ، كان هو الوحيد الذى وقف ضد هذا التيار، معتقداً بأنه ليس هناك ما يبرر استبعاد الرأى القديم الواسع الانتشار من الساحة(61). وليست هناك محاولة واحدة تمت لتقييم احتمالية وقوع هذه القصص فى ضوء كم المعلومات الجديدة المتراكمة، والتى غدت فى متناول الجميع، منذ ذلك الوقت وحتى الآن(٣١).

وإذا استبعدنا ادعاءات ديودوروس بأن سيزوستريس وصل إلى الهند وما بعدها، فإننا يبقى معنا مخطط يبدأ بفتوحاته فى إثيوبيا وليبيا وحملاته البحرية إلى البحر الأحمر، والتى غالبًا ما يفسرها اليونانيون بأنها كانت إلى المحيط الهندى. وقد اتبع سيزوستريس ذلك بحملات برية، لمدة تسع سنوات، داخل أناتوليا وثراكى، وحول البحر الأسود عبر سكيثيا وصولاً إلى كولخيس، كما أن هناك، أيضًا، إشارات غير دقيقة لفتوحات فى ميسوبوتاميا (العراق) وإيران.

وماذا تعنى كلمة " الفاتح" فى مثل تلك النصوص؟ إنه بالرغم من إدعاءات المصريين حول الأعمال الخيرية لمليكهم سيزوستريس، فإن هذه الفتوحات كانت تمثل تجارب مرعبة مخيفة للشعوب التى عانت منها. ويتحدث كل من الرواة المصريين والكلاسيكيين عن أعمال تدمير وتخريب، وحصار، وثروات، فضلاً عن فرض الجزية المنتظمة على الشعوب المقهورة. كما أن إقامة النصب التذكارية (Stelae) يفترض نوعاً من المحاولة لتأكيد الهيمنة والسيطرة، ولكنه لا يوجد هناك ما يشير إلى أن الفرعون قد حقق إمبراطورية طويلة الأمد، ومع ذلك، فإن هناك، أيضًا مادة تراثية، ناقشناها لاحقًا، تقول بأن سيزوستريس أقام مستعمرات خارجية.

القدرة العسكرية المصرية

إبّان الدولة الوسطى

نعرف من قصة معاصرة باسم " الملاح الناجى [٣٢]" أن المصريين كانوا يبحرون جنوبيًا حتى البلدان الاستوائية، وذلك إبان الدولة الوسطى[62]. كما نعرف، كذلك، من اللوحة المشهورة للملكة حتشبسوت، فى الدير البحرى، وإنطلاقًا من طيبة على صفحة النيل، أن الأساطيل الرسمية (الملكية)، فى القرن (١٥) ق.م، كانت تبحر حتى سواحل شرق أفريقيا[63].

ومع ذلك، يؤكد بيرتون (Burton) أنه بينما كان المصريون قد استخدموا سفنًا "لأغراض الحرب"، منذ الدولة القديمة، فإنه ليس هناك أية رسومات (لوحات) لسفن صُمِمَت خصيصًا لأغراض الحرب، وهى التى لم تظهر إلا إبان الحرب العظيمة ضد "شعوب البحر" ، فى عهد رمسيس الثالث مع مطلع القرن (١٢) ق.م. وبالرغم من ذلك كله، فإننا نعرف من دليل وثائقى أن أساطيل الأسرة (١٨) كانت متخصصة وذات كفاءة[64]. ولما كانت معلوماتنا عن أساطيل الدولة الوسطى ليست مكتملة أبدًا، فإننا لا يمكننا أن نصادر إمكانية وجود مثل تلك السفن عدة قرون قبل ذلك، وحتى هذا، فإن هناك بعض المنطق للشك فى رواية ديودوروس عن أن سيزوستريس كان « أول من

بنى سفنًا حربية » . وفضلاً عن ذلك، فإنه من غير المحتمل - بالرغم من أنه يعتبر ممكنًا بالنظر إلى حجم عملياته الحربية - أن يرسل سيزوستريس (٤٠٠) سفينة إلى البحر الأحمر أو المحيط الهندى، وبالمثل، فإن هناك مشاكل حول إشارة هيرودوت القائلة:

« ...... وأبحر، أولاً، بأسطول حربى من الخليج العربى بحذاء ساحل المحيط الهندى، مخضعًا القبائل الموجودة على الساحل أثناء سيره، حتى اكتشف أن المياه الضحلة قد جعلت تقدمه للأمام مستحيلاً [65] » .

وهذا يشير فيما يبدو إلى بعض الخلط بين الرحلات، عبر المحيط، وتلك التى تبحر على صفحة النيل، حيث نعرف أن الماء الضحل قد تسبب فى صعوبات للحملات العسكرية للأسرة (١٢)[66]. ومع هذا، لا نجد سببًا جوهريًا للشك فى الجزء الأول من إشارة هيرودوت.

ويبدو، للوهلة الأولى ، أن الروايات حول حملات سيزوستريس البرية مستحيلة الحدوث لأن جيوشه كان ينقصها العربات الحربية، والخيول، وحتى الخناجر، ويمكن للمرء أن يربط ذلك كله (كما فى الروايات الواردة لنا) مع شئون الحرب القديمة وفتوحات كل من الملك الآشورى تيجلات بلسر (Tiglath Pilesar) ، والملك الفارسى قورش (Cyrus) أو الإسكندر الأكبر. ومع ذلك، فإنه يجب أن نتذكر أنه قبل سيزوستريس، بحوالى ثلاثة قرون من الزمان، كان سارجون العظيم، الملك العراقى[٣٣]، قد قام بفتوحات واسعة فوق أراضى الإقليم نفسه، وبأدوات ليست أفضل مما كان لدى سيزوستريس من بعده. وفوق هذا، فإن وجود الخيول لم يكن يعنى أن الجيوش اللاحقة، كانت تعتمد عليها لأغراض النقل فيما بعد . والحقيقة أنه وحتى القرن (١٩) الميلادى لم يكن قد تم اكتشاف بديل للنقل وذلك بغرض نقل الجنود والكثير من مواد الإمداد والتموين لهم عن طريق البر.

إننا نعرف من نقش ميت رهينة أن السفن كانت تستخدم لإحضار الجزية والغنائم إلى مصر، ولهذا، فإنه من المحتمل أن تكون إمدادات الجيوش، على الساحل، ممكنة ويتم أحضارها بالطريقة نفسها. كما أننا نعرف، كذلك، أن الحمير كانت تستخدم بالفعل كدواب نقل فى كل من سوريا وأناتوليا، ومن ثم كانت ميسورة أمام الجيوش

المصرية وإذا كانت روايات حملات سيزوستريس يمكن الوثوق بها فإن لنا أن نقول إن معظم عمليات التموين والإمدادات كان يجرى الاستيلاء عليها من السكان المحليين. وجدير بالذكر أن نشير إلى أن الصعوبات الوحيدة التى رواها ديودوروس ولم تثبت حول جيوش سيزوستريس، كانت فى منطقتى ثراكى وسكيثيا الفقيرتين والبعيدتين نسبيًا ، حيث « فقد معظم جيشه بسبب نقص الطعام ، والطبيعة الصعبة للأرض[67] » .

وهناك العديد من الرسومات، من هذه الفترة، تصور القوات المصرية، والنوبية، والآسيوية، موحدة الزى وهى القوات التى كانت مسلحة بالرماح والأقواس والقضبان[68] . ومع ذلك، فإن أكثر اللوحات إثارة للانتباه بشأن حجم وفعالية جيوش الأسرة الثانية عشرة، جاءت من آثار تحصيناتها فى النوبة، حيث غرقت الآن معظم[٣٤] هذه الآثار بسبب السد العالى فى أسوان. ولقد كتب وليام آدامز (W. Adams) ، وهو عالم حجة فى آثار النوبة، عن هذا الموضوع ما يلى:

« لما كان الفراعنة غير راضين عن غنائمهم من البلدان الجنوبية، فقد ساروا على سياسة تحصين النيل عند " بطن الحجر"، وذلك عن طريق سلسلة من أقوى وأمتن التحصينات التى شيدت فى العالم القديم قاطبة. وبعد أربعة آلاف عام من بنائها، وثلاث مائة عام من هجرها النهائى.فإن الحوائط الطينية لهذه الآثار العملاقة لا تزال قائمة، فى بعض أجزائها، لارتفاع حوالى أربعين قدمًا فوق رمال الصحراء..... أما قلاع الشلال الثانى فقد كانت مبينة، كما هو واضح، على مدى فترة تمتد لمائة عام، فى عهد سنوسرت الأول، وسنوسرت الثانى، وسنوسرت الثالث. ومن الظاهر أن هذه القلاع قد نظر إليها على أنها تكوِّن مجموعة معمارية واحدة، وربما كانت تحت قيادة إنشائية بنائية موحدة، وتشير مظاهر التماثل فى الخطة إلى أن العديد من هذه القلاع قد تم تصميمه بأيدى المعمارى ذاته، وأنها بنيت، فى الغالب، فى وقت واحد.... ويعرب بوهن (Buhen) عن ذهوله، ليس فقط بسبب حجم تلك الدفاعات والحصون، بل أيضًا بسبب تعقيداتها المعمارية. ففيها، أى فى هذا البناء، توجد النتوءات البارزة (المعاقل : Bastions)، والكوات الدفاعية للرمى (Loop holes) ، والخندق (Fosse)، والجسر المتحرك (draw bridge) ، والمنحدرات المخصصة للهجوم (glacis)، وجميعها عناصر

كلاسيكية فى تحصينات العصور الوسطى.... وتوجد هذه الملامح نفسها ، بدرجة أكبر أو أقل، فى معظم القلاع الأخرى للدولة الوسطى[69] » .

ولما كانت مصر قد حققت ثراءً ملحوظًا وتمتعت بمركزية للحكم فى عهد سيزوستريس، (كما يوجد الدليل، من النوبة، على المقدرة لتركيز كل تلك المصادر للثروة لخدمة أغراض عسكرية)، فإنه يبدو من غير المقبول منطقياً ألا تقوم دولة، بمثل هذه الآلة الحربية والمقدرة العسكرية، بفتوحات ذات شأن فى آسيا. ومع ذلك ، فإن هذه المقدرة لا تعنى أن مثل هذه الفتوحات قد حدثت فعلاً، ولهذا الموضوع الأخير نحن نحتاج إلى أدلة أكثر. وهذا ما أرجو أن أفعله فيما يلى.

الخلفية التأريخية

(التأريخ المصرى للألف الرابعة والثالثة ق.م)

قبل البحث عن أى دلالات أثرية لفتوحات سيزوستريس يجب أن ندقق، قدر الإمكان، فى تأريخ تلك الحملات المزعومة. وإذا كانت الأسرة الثانية عشرة تملك سجلات واضحة لمدد الحكم لفراعنتها، فإنها، أيضًا، لها بداية مؤقتة وثابتة نسبيًا، ويعتمد هذا على توافق وقوع بداية السنة الشمسية مع بزوغ نجم الشعرى اليمانية (Sothis)، والذى يعلن بداية فيضان النيل. وقد سجل ذلك فى السنة السابعة من حكم سنوسرت الثالث، وإذا كان ذلك الحساب وتلك الملاحظة قد تمت فى ممفيس، فإنها تعنى أنها قد حدثت عام ١٨٧٢ ق.م، وهذه المقابلة قد اعترف بها علماء الآثار المصرية لسنوات عديدة، كما وضعوا، أيضًا، تأريخًا لكل الأسرة فيما بين ١٩٩١ و ١٧٨٦ ق.م، بفضل عالم المصريات والمتخصص فى علم الفلك المصرى ر.أ. باركر (R.A.Parker)، فى عام ١٩٥٠[70].

ومع ذلك قام باركر وآخرون خلال العقود التالية بإعادة النظر فى أطوال مدد الحكم التقليدية لفراعنة تلك الأسرة على أن يقللوا هذه ، ويطيلوا فى كل حكم مشترك

(للفرعون وابنه سوياً على العرش). وبهذه الطريقة يكون زمن هذه الأسرة قد قل بمعدل (١٢) اثنتى عشرة سنة، ويصبح الآن فيما بين ١٩٧٩ و ١٨٠١ ق.م[71].

وفى الوقت نفسه، بدأ عدد من العلماء الألمان فى الترويج لنظرية مفادها أن زمن ظهور نجم الشعرى اليمانية قد حدثت على خط عرض ٢٤ْ عند حدود إقليم إليفنتين لم يحدث فى ممفيس أو هليوبوليس أو قرب خط عرض ٣٠ْ بل أبعد نقطة فى اتجاه الجنوب بما يقل عن ذلك بحوالى ٦ درجات أى خط عرض ٣٠ْ، فى ممفيس (Memphis) هليوبوليس (Helioplis) كما أن وتوافق ذلك الظهور للنجم مع بداية السنة الشمسية الجديدة يكون، عندئذ، قد تم عام ١٨٣٠ ق.م، مما يعنى تقليل زمان تلك الأسرة بمعدل (٤٢) عاماً، ووضعها فيما بين ١٩٣٧ و ١٧٥٩ ق.م[72]. ولكن ذلك، الآن، يبدو غير محتمل بسبب ارتفاع التأريخ اليونانى فى ضوء الاكتشافات الفخارية، وهذا ما سوف نناقشه فى الفصول التالية.

التأريخ المصرى للدولة القديمة

مع مقدم القرن العشرين الميلادى تمت محاولة تأريخ التاريخ المصرى الأقدم (المبكر)، حيث أصبحت صعوبات التأريخ، بالزيادة أو النقصان بوجه عام، أكثر وضوحاً، ما وضحت البواعث والغوامل التى دفعت الباحثين لاتخاذ مواقفهم السابقة، والتشبث بمقترحاتهم القديمة، ولكى نفهم ذلك المشوار. بطريقة أكاديمية عملية، أعتقد أنه من المفيد أن نعرج على تأريخ الدولة المصرية القديمة، بالرغم مما فى ذلك من عدم ضرورة مباشرة لتأريخ الأسرة الثانية عشرة.

ومع بداية هذا القرن، كانت كل محاولات التأريخ المصرية، التى بين أيدينا ، ميسورة للعلماء، وتستند إلى حسابات تاريخ نجم الشعرى اليمانية. وهكذا فإن كل قوائم التأريخ ، منذ ذاك الوقت، قد تمت حساباتها على أساس الجمع بين تاريخ نجم الشعرى اليمانية وبين السجلات المصرية[73].

إن حكم فراعنة الأسرة الحادية عشرة هو أقل ثباتًا واستقرارًا من مثيله لفراعنة الأسرة الثانية عشرة، ولكن هناك دليلاً على أن الأسرة الحادية عشرة قد استغرق حكمها، ككل، حوالي ١٦٠ عامًا، بالرغم من أن العلماء المُحَدثين يفضلون تقدير مدة بقائها بـ ١٤٣ عامًا[74].

ويأتى تقدير مدة حكم هذه الأسرة الحادية عشرة من قائمة تورين (Turin Canon). وهذه القائمة هى كشف بأسماء الفراعنة ومدد حكمهم، وقد تم نقشها وكتابتها إبَّان الأسرة التاسعة عشرة فى القرن (١٣) ق.م، إنها تشبه بطريقة مذهلة ما نعرفه من تاريخ مانيتون، المكتوب للحكام اليونانيين[٣٥]. الذين حكموا مصر، بعد مرور ألف عام تقريبًا من وجودها. ويبدو أن قائمة تورين كانت كاملة عندما حصل عليها القنصل الفرنسى فى مصر، المدعو/ دروفيتى (Drovetti) . ومع ذلك، فإن شامبليون قد تمكن من رؤيتها، فى تورين، على هيئة شذرات، فى ذاك الوقت، حيث ظلت هكذا لمدة ١٨٠ عامًا، ومن ثم أخذت اسمها. وقد احتاجت عملية إعادة تجميع تلك القطع المتناهية الصغر والمهمشة إلى تفكير طويل عميق ومجهود ضخم. ولم يكن اهتمام العلماء مُنصبًا على النص فحسب وعلى ظهر البردية، حيث وثيقة ضرائبية، بل على ضفائر البردى ذاتها التى تم استخدامها لعمل اتصال لأطرافها وتثبيت الروابط بينها[75]. ومع ذلك، فإن التاريخ الأساسى فى هذه البردية هو مفتاح يبدو مؤكدًا نسبيًا. إنها هى السنوات الـ ٩٥٠، من بداية حكم أول فرعون مصرى، وهو مينا (Menes) ، وحتى نهاية الأسرة السادسة أو الثامنة، آخر أسرة فى الدولة القديمة، وأحفادها أو خلفائها.

ومع قبولنا هذا التأريخ، تظل هناك مشكلة مع ما يُسَمى " مرحلة الانتقال الأولى ": عقب سقوط وانهيار الأسرة السادسة أو الثامنة. وقد قدم هانز ستوك (H. Stock)، المتخصص فى فترات الانتقال، نظريته فى عام ١٩٣٠، فكتب الآتى:-

- الأسرة السابعة (حوالى ٢٧ عامًا) = ٢١٩٠ - ٢١٦٣ ق.م.
- الأسرة الثامنة (حوالى ٦٥ عامًا) = ٢١٧٥ - ٢١١٠ ق.م
- الأسرة التاسعة (حوالى ٤٥ عامًا) = ٢١٧٥ - ٢١٣٠ ق.م
- الأسرة العاشرة (حوالى ٩٠ عامًا) = ٢١٣٠ - ٢٠٤٠[76] ق.م

وهذا النمط التـأريخي يخـتلف تمامًـا عن ذلك الذى عـرفناه فى مطلع القـرن العـشرين الميـلادى ، فقـد اقتـرح عالـم المصـريات الأمريكـى جيمز هـنرى برستد (J. Breasted)، فى عام ١٩٠٦، التأريخ التالى:-

- الأسرة السابعة = ٢٤٧٥ ق.م

- الأسرة الثامنـــة = ٢٤٧٥ ق.م

- الأسرة التاسعـــة = ٢٤٤٠ ق.م

- الاسرة الحادية عشرة = ٢١٦٠ ق.م(77)

وهناك، كذلك، المؤرخ القديم المعاصر لبريستيد، وهو العلامة إدوارد ماير (Eduard Meyer)، الذى وضع كل المرحلة الانتقالية الأولى فيما بين ٢٤٤٠ + ١٠٠ وعام ٢١٦٠ ق.م(78). وكما هو واضح آنفًا، مع تأريخ ستوك (Stock)، قام علامة آخر حديثًا بتقليل طول هذه المرحلة. ولقد رأى جاردنر (Gardiner)، فى نهاية حياته، أن هذه المرحلة الانتقالية قد استغرقت حوالى مائة إلى مائتى عام(79). بينما وضعها وليام هيز (W. Hayes - كما كتب ذلك فى " تاريخ كامبريدج القديم" (Cambridge Ancient History) لمدة (٤٨) ثمانية وأربعين عامًا فقط، واعتبر توحيد الأسرة الحادية عشرة لمصر قد حـــدث، وفـــقط، فى عـــام ٢٠٤٠ ق.م. وليس هناك شك فى أن مـــعظم علمـــاء المصريات،اليوم،يشاركون رأيه ويتفقون معه(80)

إن هذا الضـغط لفترة الانتقال الأولى يجب أن ينظر إليه، على أنه جزء من اتجاه عـام لتخـفيض تواريخ التـاريخ المصـرى، ولكن لماذا أحس العلمـاء بضـرورة تقليل هذا التأريخ، ولاسيما أنه - كما ذكرنا من قبل - ليس هناك أى تـأريخ مصرى جديد قد ظهر منذ أيام برستدوماير(*) ؟ أعتقد أن أفضل تفسير لهذا الإتجاه يمكن أن يفهم فى ضوء علم اجتماع المعرفة . إنه مع الحرب العالمية الأولى قام علماء الآثار ومؤرخو القصور القديمة بتكثيف جهودهم ونضالهم لتكون لهم مكانة علمية. ويمكن أن تفسر

(*) وهكذا يأتى ذكرها أيضًا فى المراجع العربية المترجمة .

ذلك الاتجاه من جانبهم على أنه الرغبة فى أن يكون القصور أوضح وأصوب. ولكن بعض العلماء الحذرين والمحافظين خافوا أولاً وقبل كل شيء من اتهامهم بأنهم تأمليين فى منهجهم. وفى الوقت نفسه، فقد كان من المنتظر منهم أن يكونوا مجددين. وفى هذه الحالة فإن المخرج الوحيد للتجديد كان هو أن يكونوا مغالين فى نقدهم لكل نوع من أنواع الأدلة العلمية ، وعلى وجه الخصوص تلك التى تنتمى إلى المصادر الوثائقية القديمة. وهكذا فإنهم قد مالوا إلى الحد من الإدعاءات القديمة فى الزمان وفى المكان.

ومن دواعى السخرية إأن هذا الاتجاه قد كبحت جماحة معلومات من العلوم "الصلبة"، التى كان علماء المصريات وعلماء الآثار يحاولون أن ينافسونها . وكما هو معروض خلال هذا الكتاب فإن المصادر الجديدة للمعلومات تميل إلى زيادة العمق التاريخى والاتساع الجغرافى لمارسات وأنشطة العالم القديم.

وفى هذه الحالة تحديداً، فإن التحدى يأتى من طريقة التأريخ بالكربون المشع ففى عام ١٩٧٩ نشر الأثرى الواسع الشهرة فى آثار أناتوليا، جيمس ميلات (J. Mellaart) مقالاً مذهلاً فى الدورية الإنجليزية (Antiquity) بعنوان « التأريخ المصرى والشرق الأدنى: هل هو معضلة؟ » لقد ناقش فيه الاعتقاد الذى كان سائداً بأن التأريخ بطريقه الكربون المشع لا يمكن استخدامها فى مصر، حيث توجد لديها مصادر أخرى للتأريخ، وأكد على أن ذلك الإعتقاد لم يعد صواباً الآن بفضل عمليات إعادة النظر وتنقية طريقة التأريخ بالكاربون. ولهذا فقد اقترح ميللارت أن يتم إعادة تأريخ الحضارتين فى ضوء ذلك الدليل الجديد. وفيما يخص مصر، فإن النتيجة التى توصل إليها هى أن تأريخ الكاربون أشار إلى أن الأسرة الأولى بدأت حوالى ٣٤٠٠ ق.م، وهكذا فإن كل التواريخ الخاصة بالتاريخ المصرى يجب أن تزداد بمعدل (٣٠٠) ثلثمائة عام، حتى نصل إلى تأسيس الدولة الحديثة، والتى وافق ميللارت على أن تأريخها التقليدى، المعتاد، بعام ١٥٦٧ ق.م، هو تأريخ مقبول.

إن النقطة التى " قفز " عندها ميللارت من تأريخه العالى إلى مستوى التأريخ التقليدى العادى كانت خلال مرحلة الانتقال الثانية، ذلك لأن مصر، وقتها، كانت تحت احتلال الغزاة الهكسوس (Hyksos)، فى الشمال[81]. ولقد تبنى ميللارت الفكرة القائلة

بأن هذه الفترة كانت قد طالت مدتها أكثر من المعتقد، وبينما يقدر تاريخ كامبريدج القديم (Cambridge A. History)الفجوة فيما بين سقوط الأسرة (١٢) وقيام الأسرة (١٨) بحوالى (٢١٩) عامًا [بين عام ١٧٨٦ وعام ١٥٦٧ ق.م] ، فإن ميللارت يقيمها بحوالى (٣٧٩) عامًا فيما بين عام ١٩٤٦ وعام ١٥٦٧ ق.م. ولسوف يتم تناول هذا الموضوع بتفصيل أكبر فى الفصل الثامن، وإن كان يجب الإشارة هنا إلى أن ميللارت كان بإمكانه أن يدعم رأيه بتمديد الانتقال الثانية وذلك بالتأكيد على أن الهكسوس كانوا فى مصر فى الأسرة (١٨)، وكذلك بأن كلاً من مانيتون والآثار المعاصرة تشير إلى أنه كان هناك عدد كبير من الفراعين ينتسبون إلى الأسرة (١٣) التى سبقت وصول الهكسوس.

ولقد سلم ميللارت بأن وضعه للأسرة (١٢) فيما بين (٢١٥٥) و (١٩٤٦) لا يتوافق مع تاريخ نجم الشعرى اليمانية. ولكنه أدرك أنه ليس هناك طريقة للمصالحة بينهما، ولاسيما إزاء ما اعتبره هو دليلاً لا يمكن رفضه، وهو دليل الكربون المشع[82].

وَتقْلب آراء ميللارت حول التأريخ المصرى والفلسطينى كل ما استقر فى علم المصريات، والذى كان – حتى ذلك الوقت – يتأرجح بين مؤيدين " للتأريخ الوسط "، وأولئك الذين يحاولون إرساء تأريخ جديد ولو كان أقل من سابقه، ولقد عارض بحث ميللارت معارضة مباشرة من علماء المصريات هما بارى كمب (B. Kemp) وجيمس فاين شتاين (J. Weinstein) وسرعان ما أصبح الجدل بينهم فنيًا جدًا ومرهقًا جداً لمعظم القراء وصعبت عليهم المتابعة[83]. ومع ذلك ، فإن الهجوم قد ترك انطباعًا بعدم جدوى وفائدة محاولة ميللارت لإعادة التأريخ.

وبعد ثمانى (٨) سنوات ، فى عام ١٩٨٧، تم نشر تقرير مفصل لتأريخ الأهرامات بطريقة الكاربون الجديدة، فقد قام مجموعة من العلماء السويسريين والأمريكان، برئاسة هربرت هاس (H. Haas) بتجميع (٦٤) عينة عضوية طازجة، من داخل الأهرامات، وقاموا باختبارها فى المعامل، فى تكساس وسويسرا. كانت نتائجهم

مدهشة، ذلك أنهم طالبوا بزيادة تقسيم " تاريخ كامبريدج القديم" بمعدل ٣٧٤ عامًا[84].

وفى تعليقاتهم على المحاولات السابقة للتأريخ بالكربون المشع، والتى كانت تميل إلى تأييد التأريخ التقليدى المعتاد، لفت هاس ورفاقه الانتباه إلى الحقيقة القائلة بأن العينات السابقة كانت غير طازجة وكذلك كانت الأبحاث القديمة المبكرة تستخدم أدوات أقل تقدمًا وأقل دقة وتكنيكًا، ومن ثم كانت تقديراتهم غير منتظمة[85].

إن علماء تكساس وسويسرا لم يثيروا أى اختلاف آخر يوجد من تأريخهم وتأريخ باحثين كثيرين غيرهم، مثل حالة الأثرى الإنجليزى ، من كامبريدج، إيان شو (I. Show) الذى نشر مقالة عام ١٩٨٥[86] بعنوان : « التأريخ المصرى وتأريخ حلقات شجر البلوط الأيرلندى » ، وبينما نجد شو وآخرين يعملون جنبًا إلى جنب مع علماء المصريات، وكان عندهم شغف بأن تتوافق اكتشافاتهم مع التأريخ التقليدى، نجدهم وقد أصابهم فيما يبدو الإحباط لعدم إمكانية تحقق ما يريدون ونجد هاس وزملائه قد اهتموا اهتمامًا بالغًا بالأساليب التقنية ودخلوا إلى الموضوع بعقول متفتحة، مع أنهم كانوا مندهشين من النتيجة والدرجة التى جاءتهم بها أبحاثهم واختلفت عن تلك التى قامت بها مجموعة " تأريخ كمبريدج القديم"[87]. وصادفت ردود الأفعال لإنجاز هاس ورفاقه حالة من الصمت إلى حد كبير، وكان هناك اعتراض واحد وهو أن علماء تكساس وسويسرا لم يفلحوا فى أن يدركوا الاختلاف بين المادة الطويلة العمر والأخرى القصيرة العمر، وكذلك عدم دقتهم فى التأريخ، ولاسيما إذا جاءت العينة من كتلة مادية ربما تكون قد ماتت فيها الحلقات المركزية للشجرة قبل استعمالها فى بناء الهرم بعشرات السنين أو القرون. حاول هاس ورفاقه أن يواجهوا ذلك بالإدعاء بأن الأهرامات غالبًا ما استغرقت عشرات السنين ليتم بناؤها[88]. وفضلاً عن ذلك، فإنه يبدو أن قليلاً، فقط، من العينات كانت هى طويلة العمر، وهكذا فإنه من الممكن أن تكون أقدم من الأهرامات. ومع ذلك فإننى أعتقد بأن إدعاء فريق هاس، بضرورة زيادة تأريخ مجموعة " تاريخ كمبريدج القديم" بمعدل (٣٧٤) عامًا، يحتاج إلى تخصيص بعض الشىء.

ومع ذلك، فإنه من الطريف، أن نذكر أن الاعتراض الرئيسى على التأريخ المرتفع لجماعة تكساس وسويسرا هو كون هذه الإضافة الكبيرة لمئات السنين، التى جاءت بتحليل الكربون المشع، لا تساير التأريخ المعتمد على المصادر التاريخية. كما أنها لا تناسب التأريخ الفلسطينى، والذى يعتمد هو نفسه على النماذج المصرية المعاصرة له، فضلاً عن اعتماده على أسلوب الكربون المشع(89).

ويمكن مناقضة هذا بالقول إن هاس وزملاءه كانوا قد تبنوا، فعلاً، تأريخ الكربون المشع المبكر للحضارة المصرية، ووضعوا ذلك فى اعتبارهم، وبالإضافة إلى ذلك، وبينما نجد تأريخهم لا يتطابق مع تأريخ المصادر التاريخية (كما قلنا من قبل) (٣٦)، كما هو معروف عنها الآن، وإذا أمكننا أن نخفض تلك التواريخ للأسباب السالفة الذكر، فإنها ستصبح متوافقة مع تأريخ جيمس هنرى برستيد (Breasted) ومعاصريه، والتى كانت معتمدة على الحوليات المصرية ذاتها. وكما ذكرت من قبل، فإننى أعتقد أن تأريخ برستيد هو الأجدر بالثقة من تأريخ غيره من خلفائه أو الأجيال اللاحقة، وذلك بسبب الضغوط الحاصلة مؤخراً لتقليل التأريخ، ويعتمد التأريخ الفلسطينى كليةً على الترتيبات التزامنية مع مصر. وهكذا فإن الأمر يصبح " تحصيل حاصل" إذا استخدمناه لكى نضبط التأريخ المصرى لهذه الفترات، وفيما يخص تجديد التواريخ الفلسطينية بالكربون فإن الجدل الدائر بين فاينشتاين وميللارت حول هذا الموضوع، يظهر لنا أن تفسيرهما غير مؤكد تماماً ويبعد تماما عن اليقين.

تأريخ إبـــــــلا (Ebla)

وهناك فائدة واحدة لإعادة النظر فى تأريخ كل من برستيد (Breasted) وماير (Mayer)، تعود على الدولة المصرية القديمة، وهى أنها تحل مشكلة فى تأريخ " إبلا " (Ebla)، المدينة السورية العظيمة، ويعتبر الكشف الأثرى لهذه المدينة أعظم مباهج آثار الشرق الأدنى فى الربع الأخير من هذا القرن. ولقد تم العثور على آثار كثيرة تؤرخ بفترات عديدة، ولكن اهتماماً زائداً كان من نصيب القصر الذى تم الكشف عنه فى المستوى المرقم بـ (IIB1)، من هذه الحفائر، حيث عثر على أرشيف ضخم. إن عطاء تلك

الألواح وإفادتها فى دراسة الاقتصاد، والمجتمع، والديانة واللغة للشرق الأدنى القديم لهو عطاء يفوق الحد وثورى وكبير جداً، بل ومعقد، ولا يمكن عرضه هنا[90].

وهكذا، فإننى سوف أهتم، هنا، بموضوع التأريخ فقط ومشكلة تاريخ تدمير القصر، الذى وجد فيه الأرشيف. هناك ملكان اثنان من حكام مسوبوتاميا ، بلاد الرافدين (Mesopotamia)، هما سارجون العظيم، وابنه الأكبر نرام سين (Naram Sin)، كان قد إدعى كل منهما غزو إبلا. ولقد اعتقد باولو ماتياى (Paolo Matthiae) لأثره الذى كان قد اختار الموقع وكشف عن العديد من كنوزه – اعتقاداً مبدئيًا على أساس الآثار المعمارية والنمط الفنى، أن تدمير القصر كان على أيدى نرام سين فى القرن (٢٣) ق.م[91].

ولكن جيوفانى بتيناتو (Giovanni Pettinato) (عالم النقوش الذى قرأ، لأول مرة، نصوص اللغة الإبلية السامية (؟!!) الجديدة، وهى اللغة المحلية التى كتبت بها ألواح كثيرة) ، قد عارض تأريخ ماتياى مقترحاً أن أرشيف إبلا كان قد تم تدميره فى وقت سابق بكثير، وقبل حكم سارجون بوقت كاف. وتستند نظريته على عدد من الحقائق: أولاً، تحتوى النصوص على كم ضخم من المعلومات الجغرافية، دون أى ذكر للملك سارجون أو مدينته أكاد (Akkad) ، والتى يبدو أنها قد استفادت إستفادة غير عادية من أهمية الفاتح المباغت لبلاد النهرين وتدميره لسوريا وثانيًا: هناك متشابهات ، سواء فى شكل الكتابة أو فى اللغة، بين ألواح إبلا ونصوص بلاد النهرين فيما قبل عصر سارجون، والتى تؤرخ بحوالى ٢٥٠٠ ق.م، ولقد أفضى به ذلك، مبدئيًا، إلى أنه أرجع تدمير أرشيف إبلا إلى الملك السومرى إياناتوم (Eannatum) ، من مدينة لاجاش (Lagash)، جنوب بلاد النهرين، وهو الملك الذى كان معروفًا بأنه فتح وغزا مدينة مارى (Mari) على نهر الفرات الأعلى، على مبعدة (١٧٠) ميلاً شرق إبلا. ومع ذلك، قام بتيناتو، بعد ذلك، بتخفيض هذا التأريخ ليصبح حوالى ٢٤٠٠ ق.م، وكذلك الحملات الشهيرة للحاكم السومرى ، لوجال زاجيزى (Lugalzaggizi) ، حاكم مدينة كيش[92](Kish) . ولقد راجت نظرية تيناتو حول تدمير قصر إبلا وتأريخه، بما قبل

سارجون، وتحول ماتياى ومؤيدوه بهدوء إلى تأييد الرأى القائل بتدمير القصر على يد سارجون حوالى ٢٣٥٠ ق.م بالرغم من أنهم لا يزالون لا يذهبون بعيداً كما ذهب بتيناتو[93].

ويبدو أن ماتياى لا يملك إلا دليلاً واحداً لصالح الرأى القائل بتدمير نارام سين لحضارة إبلا وأرشيفها، وهذا الدليل يتمثل فى وجود قطعتين من آنية من الديوريت داخل القصر IIB1 ، (الذى عثر بداخله الأرشيف) منقوش عليها اسم الفرعون خفرع، من الأسرة الرابعة، وكذلك اشتمل هذا الأرشيف على غطاء من الألبستر لإناء، عليه اسم الفرعون بيبى الأول من الأسرة السادسة.

ووفقًا لتأريخ تاريخ كمبريدج القديم (C.A.H) ، فإن بيبى الأول (Pepi I) قد حكم فى الفترة من (٢٣٣١) إلى (٢٢٨٣) ق.م، بينما حكم نارام سين من (٢٢٩١) حتى (٢٢٥٥) ق.م. بالرغم من أن تأريخ الأخير جاء متأخراً بعض الشيء، ولقد اعتقد ماتياى، فى البداية، (من ذلك التأريخ)، أنه بينما نجد قطع خفرع قديمة فعلاً عندما تدمر قصر إبلا، فإن إناء بيبى كان هدية معاصرة للحدث، ومن هنا ظن أن قصر إبلا هذا لا يمكن أن يكون قد تم تدميره بأيدى سارجون أو أى حاكم عراقى[٣٨] أقدم. وحتى اليوم، وبالرغم من أن ماتياى يقبل الآن الرأى القائل بتدمير سارجون لأرشيف إبلا، إلا أنه غير مستريح أبداً إلى ما يراه متأخراً فيما يمثله الدليل المصرى المعاصر[94].

وتظهر الآن معلومات فلكية تقلل تأريخ كمبريدج القديم لحكام بلاد النهرين القدماء الذين عاشوا هذه الفترة (محل الخلاف)، ويرفعون ويزيدون تأريخ سارجون بواقع تسع سنين فقط. وهكذا فإن سارجون يجب أن ينظر إليه كحاكم فى الفترة من (٢٣٨٠) إلى (٢٣٢٤). وكذلك ابنه نرام سين، من (٢٣٠٠) إلى (٢٢٦٣)ق.م[95].

ووفقًا للتأريخ المصرى هنا، فإن الملك بيبى الأول حكم فى الفترة من ٢٦١٤ إلى ٢٥٦٥ ق.م، وهذا ما يتوافق حتى مع تأريخ بتيناتو المبدئى وكذلك التأريخ المبكر جداً لتدمير قصر إبلا (IIB1) حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م، وهو التاريخ الذى يفضله معظم العلماء فى ضوء النقوش الشبيهة بأمثالها فى حضارة العراق القديم[96] .

ويمكن، كذلك، حل مشكلتين أخريين بالرجوع إلى تأريخ كل من برستيد وماير للدولة القديمة فى مصر، وأولى هذه المشاكل هى غياب أية إشارة إلى مصر فى نصوص إبلا. ولقد كان بتيناتو محتاراً فيما قبله من تأريخ شائع وصحيح للدولة القديمة المصرية، معتقداً بأن الأسرة الرابعة العظيمة كانت مزدهرة فيما بين الـ (٥٠) و (٧٠) عاماً التى تغطيها النصوص، ومع ذلك، فإنه يبدو الآن أن الأسرة السادسة والدولة القديمة كانت قد انهارت حوالى ٢٥٠٠ ق.م، وكذلك إذا تم تنزيل[٣٦] تأريخ دمار إبلا بمعدل (٣٠) عاماً، ليكون حوالى عام ٢٤٧٠ ق.م، فإن ذلك سيتوافق مع واحد من أكثر فترات التاريخ المصرى فوضى، وهكذا، فإنه لن يكون هناك سبب للدهشة لغياب اسم مصر فى نصوص إبلا[٣٧].

مع ذلك، فإن هذا الإتجاه لا يمكن أن يشيع وينتشر حيث أن هناك الآن اتجاهاً آخر، له وزنه، يستند إلى أن الأرشيف يحتوى على معلومات جغرافية عن أى مكان يقع غرب المدينة[97].

أما المشكلة الثانية، والتى يمكن أن تكون قد تم حلها بزيادة تأريخ الدولة القديمة المصرية، فهى أنه سيتم تفسير غياب أى أثر مصرى داخل أراضى العراق القديم (مسوبوتاميا)[٣٨] ، أو العكس ، مما يوضح المعاصرة بينهما، والتى يمكن أن يتوقعها الباحث توقعاً تاماً بين هاتين الإمبراطوريتين القويتين الواسعتين .

وتعتمد هاتان الملاحظتان الأخيرتان، بالطبع، على غياب الدليل، الذى هاجمته كثيراً فى هذا العمل. ومع ذلك، فإننى لا أرى سبباً فى أن أشك، مع هذه الميزات الإضافية ومعاصرة ألواح إبلا الممكنة[٣٩]، فى أن تأريخ الدولة القديمة هو مرتفع بشكل كبير وأعلى مما أعطاه تاريخ كامبريدج القديم (C.A.H.) وأن تأريخ الراديو كاربون الجديد يبدو وقد ثبّت التواريخ المصرية للدولة القديمة التى قدمها برستيد وماير وميللارت .

هل هذا ينطبق على كل عملية التسجيل الزمنى للأحداث المصرية المبكرة؟ لقد كان هناك طريق واحد واضح، به يمكننا أن نوفق بين هذه النتائج الجديدة وبين التأريخ "الزائد" للدولة القديمة مع المزيج التقليدى للتأريخ النجمى (Sothic date)، وكذلك تأريخ تورين (Turin Canon)، وهو أن نقلل (أو / أن نقصر) الفترة الزمنية لمرحلة ما قبل عصر الأسرات (Protodynastic) التى تسبقها مباشرة، وبهذه الطريقة فإن الأسرة الأولى يمكن أن توضع حوالى (٣٢٠٠) ق.م، حتى ولو بدأت الأسرة الثالثة حوالى (٣٠٠٠) ق.م، ولكنه لسوء الحظ، فإن هذا الحل لا يدعمه ويغطيه مصدر آخر فى التاريخ المصرى، وهو حجر بالرمو (Palermo Stone)، وهو الذى يؤرخ، على الأقل، بألف عام كاثر أقدم من قائمة تورين التاريخية (Turin Canon) . هذا الحجر، وهو موجود الآن فى مدينة بالرمو بإيطاليا، هو عبارة عن قطعة من لوح، كان قد تم النقش عليه، كما هو واضح، فى الأسرة الخامسة مسجلاً الفراعين الأقدمين وبعض الأحداث البارزة خلال حكم أولئك. وكما هو حادث مع قائمة تورين، فإنه يمكن أن يزودنا، وفقط، بفتات متعب من المعلومات. وأحد هذه المعلومات يتمثل فى القول بأن الأسرتين الأولين، من الدولة القديمة، استمرت لمدة (٤٤٤) عامًا. هذا الرقم ربما يكون له مغزى عددى أو حسابى أكثر من كونه ذى دلالة تاريخية . ومع ذلك، فإن أحدث دراسة لحجر بالرمو تحدد، بشكل مقبول ومعقول، زمن الأسرتين الأوليين فيما بين (٤٠٥) و (٤٨٦) عامًا[98]. ومن ثم، فإنه من المستحيل أن نقلل زمن هذه الفترة لأقل من مائتين عامًا من السنين، بالرغم من قلة عدد أسماء الفراعين الذين جاء ذكرهم على هذا الحجر، وهكذا، أيضًا، فإنه لا يكون هناك شك فى أن ميللارت كان محقًا فى إعادة النظر فى تاريخ تأسيس وبداية مصر الفرعونية، بحوالى عام (٣٤٠٠) ق.م، وهو التاريخ الذى وضعه برستيد أيضًا، ويجب الآن، تبعًا لذلك، أن ننظر إلى الأسرة الثالثة على أنها بدأت حوالى عام (٣٠٠٠) ق.م، وأن الدولة القديمة كانت قد انتهت حوالى (٢٤٧٠) ق.م تقريبًا، وهكذا سيرًا على ما جاء فى قائمة تورين بأن ذلك استغرق (٩٥٥) عامًا بعد تأسيس الأسرة الأولى[99].

تأريخ الدولة الوسطى

وإذا كان ميللارت على حق فيما اعتقده حول الدولة القديمة، فهل هذا يعنى أن المرء عليه أن يقبل تأريخه الزائد والمرتفع أيضًا بالنسبة للدولة الوسطى؟ إننى أعتقد أنه لا يجب أن يكون كذلك. لقد قدم بارى كمب (Barry Kemp) دفاعًا جيدًا عن الإمكانية الكاسحة والمعقولة للتأريخ النجمى [100]. وهكذا فإن الحل الوحيد هو أن نجمع ونؤلف بين التأريخ الجديد المرتفع للدولة القديمة، وبين التأريخ النجمى للدولة الوسطى، وذلك بأن نطيل فترة الانتقال الأولى أكثر من الثانية. وهناك شك قليل فى عدد الفراعين وأنهم كثيرون حتى أنهم يصلون إلى (١٨) فرعونًا، عقب وفاة بيبى الثانى، الطاعن فى السن، والذى بلغ من العمر (١٠٠) عام، وهؤلاء إما أنهم ينتسبون إلى نهاية الأسرة السادسة أو إلى الثامنة، وهناك (١٨) فرعونًا آخرون تنسبهم قائمة تورين إلى الأسرة التاسعة والعاشرة[101]. وفوق ذلك كله، فإنه من الواضح أن حكم كل أولئك لم يكن قصيراً ولا مجرد انقلاب، وذلك فى ضوء عدد أوراق البردى التى تصور الحياة، وقتئذ، على أنها مسالمة تمامًا ومزدهرة، وعلى الأقل لبعض الفترات فى حكم بعض الملوك من تاريخ الدولة. وكذلك هناك، كما يبدو، عدد لا بأس به من الأسرة الحاكمة المحلية، فى الأقاليم، كحكام لبعض المناطق الداخلية (Nomes) [102].

ولقد لاحظ وليام ستيفنسون سميث (W. Stevenson Smith)، مؤرخ الفن، اختلافات حضارية ضخمة بين الدولة القديمة والوسطى، وهو العالم الذى كان قد وقف بعيداً ضد الإتجاه بتخفيض التأريخ للحضارة المصرية ، وذلك بالاعتراض على العديد من مظاهره. وكذلك فقد اهتم وكان يميل إلى ضغط فترة الانتقال الأولى هذه[103]. وبالرغم من أن هناك آثاراً للغة المصرية فى الدولة الوسطى - ونقصد اللغة الرسمية المكتوبة لها - فإنها كانت قد ظهرت منذ الدولة القديمة، وأن التغيير الجذرى للهجة الرسمية ينبئ عن فجوة سياسية وحضارية جوهرية فيما بين الدولتين[104]. ويبدو أن هذا لم يكن ممكنًا فى أن يحدث فى قرن من الزمان، وفى الغالب كان ذلك مستحيلاً دون مرور فترة زمنية.

وبإيجان، فإننى أعتقد أننا يجب أن نعود إلى برستيد ونرجع إليه فيما يخص تأريخنا المبكر للحضارة المصرية. وهذا يعنى إعادة نظر جوهرية لتأريخ فترة ما قبل الأسرات (العصر العتيق : Archaic Period) وكذلك الدولة القديمة، فضلاً عن مرحلة الانتقال الاولى، ولكن مع إجراء تعديل طفيف نسبيًا فى تأريخ الأحداث التى وردت فى هذا الفصل، ونقصد بها الدولة الوسطى وحكم سيزوستريس.

تأريخ مسوبوتاميا (بلاد النهرين)

من الضرورى أن يكون لدينا بعض المعلومات عن تأريخ مسوبوتاميا فى مطلع الألف الثانية ق.م، وذلك لكى يمكننا أن نصل إلى أى معرفة مقبولة لحملات سيزوستريس فى مسوبوتاميا وأناتوليا. وفى الحقيقة، فإن هناك جدل كبير حول هذا الموضوع طيلة الخمسين عامًا الماضية. ولقد تركز ذلك على تنافس تأريخى بين ما هو "طويل"، و "وسط " و "قصير " لبعض أحداث التاريخ مثل حكم حمورابى (Hammurabi)، ملك بابل الشهير، وكذلك غزو هذه المدينة (أى/ بابل) على أيدى الحيثيين فيما بعد. وهذه الجداول التأريخية تعتمد على أربع تواريخ محتملة، وهى التى تتفق مع تقارير ومعلومات فلكية قائمة على ملاحظة كوكب الزهرة، والتى تم الكشف عنها فى لوح بابلى أثرى.

وفى خلال العشر سنوات الماضية ، قام بيتر هيوبر (Peter Huber)، عالم الإحصاء من معهد MIT (٤٠)، بنقد التأريخ الأقدم، " الطويل "، نقدًا شديدًا وبقوة. ويعتقد هيوبر أنه، ليس فقط تلك الملاحظات البابلية لدوران الزهرة كل (٨) سنوات، ولكننا نجد كذلك بعض حالات الكسوف والخسوف للقمر، فى أوقات معينة، فضلاً عن أطوال الشهور، كل ذلك يشير إلى تأريخ " طويل" أكثر من التأريخين الآخرين . ويختتم هيوبر أحدث كتاباته حول هذا الموضوع مقرراً:

« لقد انتقلت ، فى اعتقادى، مشكلة التأريخ لمطلع الألف الثانية إلى شكل غاية فى الأهمية. إنها لم تعد مجرد مسألة إلتقاط واحد من أشكال التأريخ الفلكى العديدة على

أساس من قاعدة تاريخية أو أية براهين أخرى غير فلكية، ولكنها أصبحت مسألة قبول أو رفض تأريخ واحد فقط.

كما أنى أعتقد أيضًا، أنه بينما نسبة الـ ٩٩٪ من الثقة هى، بالطبع، مختلفة عن درجة اليقين، فإن هذا الهامش من الخطأ لهو أضيق مما هو موجود فى معظم النظريات والبراهين التاريخية، وكذلك فإن أى رفض محتمل لها يجب أن يكون تأسيسًا على دليل ناقض لها غاية فى القوة [105]» .

ولقد التقت النتيجة التى توصل إليها هيوبر مع الإتجاه السائد والأكثر ثباتًا بين علماء آثار أناتوليا[106]. إن المشكلة تكمن، الآن، فيما يظهر على أنه " الدليل المناقض القوى"، كما طلبه هيوبر. وقد تم ذلك على أساس تأريخ حلقات الشجر[٤١] (Dendro chronology) ويعتقد الآن بيتر كونيهولم (Peter Kuniholme)، عالم التأريخ بالشجر، أن قصر أجيم هيوك (Acem Huyuk)، فى أناتوليا الوسطى، والذى عُثِرَ فيه على خاتم للملك ياختون ليم (lakhtun-Lim)، حاكم مارى، يمكن أن يؤرخ بعام ١٧٩٢/١٧٩١ ق.م + – ٣٧ عامًا[107]. ويبدو أن الملك ياختون ليم كان معاصرًا أقدم للملك الآشورى شمشى أدد، الذى حكم، (طبقًا للتأريخ الطويل)، فى منتصف القرن (١٩) ق.م. وهكذا فإنه من الصعوبة بمكان أن يوفق بين هذا التاريخ وذاك التأريخ. ومع ذلك، فإنه يمكن أن يساير، بسهولة، التأريخ " الوسيط" وكذلك يمكن أن يناسب التأريخ " المنخفض"، مع وجود بعض المشكلات البسيطة[108].

ومن جهة أخرى، فإن هناك العديد من الصعوبات فى تاريخ منطقة أجيم هيوك، وأولى هذه الصعوبات يتمثل فى أن عملية التأريخ، هنا، لم تأت عن طريق " نقى " للتأريخ بحلقات الشجر، بمعنى أنه ليس هناك تواصل فى مجموعة الحلقات المتوازية (الأشجار قيد الدراسة) [٤٢]، من منطقة أناتوليا الوسطى، وصولاً من العصور القديمة وحتى العصر الحديث، فى وقتنا الحالى. ولقد تم التوصل إلى تاريخ المنطقة (السابقة الذكر)، من عمليات التأريخ بالراديو – كاربون لحلقات الشجر، مقارنةً بمثيلاتها فى أماكن أخرى، حيث يوجد تواصل مستمر لحلقات العينات. ومن هنا، فإنه بالرغم من أن هذا الأسلوب يعتبر أكثر صلابة ويمكننا الاعتماد عليه بشكل أفضل عن التأريخ

البسيط للراديو – كاربون ، يوجد هناك احتمالات عدة للخطأ. أما الصعوبة الثانية ، أو المشكلة الاخرى ، فهى تكمن فى أن الحفائر التى تمت فى قصر أجيم هيوك ، والتى منها أخذت عينات اللحاء الخشبى والأختام، لم يتم نشرها بعد . وبسبب هذه الحالات ، أو الصعوبات (السابقة الذكر) ، والتى تشى بعدم اليقين ، فإننا لا نستطيع ببساطة أن ننفض أيدينا من التأريخ "الطويل". ومع ذلك ، فإننا بالمثل لا يمكننا أن نشارك هيوبر ثقته المطلقة، تقريبًا، فى ذلك التأريخ.

وهكذا، فإننا إذا كان يجب علينا أن نعظم ونقدر تأريخ باركر (Parker) المرتفع ، والتأريخ الألمانى المنخفض للأسرة الثانية عشرة، فإننا علينا أن نتعامل أيضًا مع مستويات التأريخ المختلفة ، المرتفعة والوسطى والمنخفضة، لحضارة بلاد النهرين (مسوبوتاميا). وعلى الجانب المصرى ، فإننا نسعى للبحث عن أحداث تدمير وانهيار فى أناتوليا أثناء حكم كل من سنوسرت الأول وأمنمحات الثانى فيما بين ١٩٥٨ و١٨٨٣ ق.م أو ١٩١٢ و ١٨٤١ ق.م. إنه ليس من قبيل المحتمل أن تكون هناك حملات عسكرية مصرية فى أناتوليا، ويمكن أن تحدث مع مطلع أو بدايات حكم سنوسرت الأول. إننا نعرف أنه كان هناك أزمة سياسية عندما أتى هذا الملك إلى العرش وكان يحارب فى ليبيا مع بدايات حكمه، ومن ثم، فإنه يبدو من غير المحتمل أن يبدأ مثل تلك العملية كفاتح وغازى لآسيا، لحين قدرته على بناء قاعدة قوية، بدرجة كافية، سياسيًا وأقتصاديًا وعسكريًا، تمكنه من أن يقوم بذلك. وإذا قبل المرء منا المصادر التقليدية، فإنها تؤكد على أن حملات سنوسرت الأول البحرية والبرية صوب الجنوب وقعت قبل تلك التى وجهها صوب الشمال. وأخيرًا، فإن هناك المراجع الخاصة بحكم ابنه، أمنمحات الثانى، وذلك فى داخل نقش ميت رهينة. كل أولئك تقوى احتمالية حدوث ذلك، بشكل أفضل، على أيدى أمنمحات الثانى، الذى شارك فى هذا النشاط الخارجى بحملات تمت فى السنوات الأخيرة من حكم سيزوستريس. وهكذا، فإننا نبحث عن الدليل الأثرى لجيش قوى فى أناتوليا فى فترة زمنية ما، فيما بين ١٩٣٠ و ١٩١٦ أو١٨٩٨ و١٨٨٤ ق.م.

الدليل الأثرى للحملات

إذا فرضنا جدلاً أن فتوحات سيزوستريس قد حدثت وكانت واقعًا، فماذا نتوقع أن نكتشف من مادة أثرية؟ بدايةً، أن يجد المرء تدميرًا شاملاً واسعًا، فى المناطق المذكورة، والتى تؤرخ بتلك الفترة مثل أناتوليا، ثراكى، سكيثيا والقوقاز الغربى. ولما كان التراث لا يحدد مكان إمبراطورية عاشت أمدًا طويلاً، فإنه على المرء ألا يتوقع أن يرى أثرًا كبيرًا للحكم المصرى، ولكنه ربما تكون هناك بعض المعثورات المصرية، وربما يكون ممكنا، بضربة حظ عظيمة، أن يعثر على الجزية التى تم إرسالها من الأقاليم المفتوحة إلى مصر. ومن الناحية الاقتصادية، ربما كان من المحتمل كذلك أن يحقق الباحث سرعة نسبية فى إعادة صياغة الأوضاع السياسية آنذاك، وذلك عقب عمليات التدمير والتخريب، لمناطق مركزية ثرية، بالرغم من كونها أقل أمانًا واستقرارًا من الناحية الاقتصادية، ولكنها ستستغرق وقتًا أطول لكى تستعيد عافيتها من جديد.

ومن وجهة النظر السياسية، فإن الإغارات السريعة والقصيرة الأمد للمغول داخل جنوب شرق آسيا، أو مثيلتها التى قام بها الأوروبيون داخل جنوب الصحراء فى أفريقية، تقدم لنا النموذج الشبيه أو المعادل لتلك الفتوحات (التى سبق ذكرها والخاصة بالفرعون المصرى سيزوستريس)[٤٢]، وذلك بأنها حركت هجرات ضخمة، وكونت ممالك جديدة ودولاً وجماعات سكانية ذات ملامح قومية.

وأخيرًا فإن تراث المستعمرات التى عاشت طويلاً، والتى استقرت كثيرًا، ربما تقود الإنسان لأن يتوقع وجود مناطق جديدة ثرية جنبًا إلى جنب مع الأقاليم المدمرة.

أما من وجهة النظر الأثرية، فهناك، على ما يبدو، مؤشر لوجود " إمبراطورية" للأسرة الثانية عشرة، كما فسر ذلك ألبرايت (Albright) وبوزينيه (Posener) والدهريون (Maximalists) - أولئك الذين يؤكدون على طول مدة الإمبراطورية – استنادًا إلى انتشار الفخار الملون لعصر البرونز الوسيط (الأول) لحضارة الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط فى منطقتى كيليكيا وسوريا، حيث يلاحظ أن النتاج الحضارى المادى لهذه المنطقة، مع مطلع الألف الثانية ق.م، يربط بوضوح كيليكيا

(التى هى الآن جنوب شرق تركيا) بسوريا، ويجب إرجاع هذا التراث الحضارى إلى مصر، كما أشار بذلك جيمس ميللارت (James Mellaart)، وذلك بفضل العثور على أشياء مصرية هناك تؤرخ بالأسرة الثانية عشرة[109]. وكما سنرى لاحقًا، فإنه من المحتمل جدًا أن كيليكيا كان قد تم فتحها وغزوها على أيدى سنوسرت الأول و/أو/ابنه أمنمحات الثانى (AmmenemesII) كما أنه من المحتمل، كذلك، أن كيليكيا ظلت تحت الهيمنة السياسية المصرية لعشرات من السنين بعد ذلك. ولقد كان الساحل السورى- الفلسطينى الغربى قاعدة مستقرة ، نسبيًا، للتواجد المصرى ومؤيديه، والتى منها استطاع سيزوستريس وابنه أن ينطلقوا ويجهزوا حملاتهم، هذا بالرغم من أن القبائل البدوية كانت قد أغارت على هذا الإقليم من الشرق، وهذا هو ما يمكن أن يوضح ويفسر استقرار وثبات الدليل الأثرى فى هذا الإقليم خلال القرن العشرين ومطلع القرن التاسع عشر ق.م، وذلك على العكس تمامًا من الوضع القائم فى أى مكان آخر من الشرق الأوسط.

ويميز ميللارت تمييزًا تامًا قاطعًا، وربما فقط مع نهاية حكم سنوسرت الأول، بين الساحل السورى - الكيليكى، واتصالاته بمصر، وبين وسط وشمال أناتوليا، حيث تمتد طرق التجارة وتربط المملكة الآشورية بالشرق[110].

أناتوليا القديمة : موجز تاريخى

وأناتوليا (Anatolia) ، جغرافيًا، هى إقليم منفصل تمامًا، بشكل ملحوظ، ومناخه متنوع ووديانه متوسطه، فضلاً عن هضاب مرتفعة، وسهول وبحيرات داخلية. وتعتبر العلاقة الحضارية الحالية والارتباط بتركيا حالة استثنائية مضللة، ذلك لأن معظم تاريخ أناتوليا المعروف يشبه، إلى حد كبير، تاريخ القوقاز اليوم، وهو خليط حضارى ولغوى به العديد من نقاط الضعف المهجورة لأسلوب حياتى محلى محافظ، فى مناطق تأثرت تأثيرًا جذريًا بالغزو والتجديد. ولقد كان ذلك، بالتأكيد، هو الحال الذى كانت عليه المنطقة مع مطلع الألف الثانية ق.م.

وعلى قدر الإمكان للقيام بعملية إعادة تصور لما كان عليه الحال آنذاك استناداً إلى أسماء معاصرة، وانتشار ذلك فى العصور اللاحقة، فلقد قدمنا النموذج اللغوى جاهزاً فى خريطة رقم ١٣، وينتسب العديد من هذه اللغات مثل الحيثية (Hittite)، واللوفية (Luvian) ، والبالية (Palaic)، والليدية (Lydian)، وربما كذلك الكارية ((Carian إلى الفرع الأناتولى للأسرة الحيثية- الهندية (Indo - Hittite) أما اللغات الفريجية (Phryguan) والأرمنية المبكرة (Proto - Armenian) فإنها ترجع إلى الأسرة الأوربية - الهندية ((Indo-Europeanكما أن هناك لغات أخرى مثل الحاتية (Hattic)، والكارتفالية المبكرة (Proto-Kartvalian) - والتى منها إشتقت اللغات الجورجية (Georgian)- وكذلك الحورية (Hurrian) . كل أولئك جميعًا ليست لغات أوروبية - هندية[111].

ولقد أهتمت محاولات تاريخية عدة لإعادة التصور وتفسير التدمير فى أناتوليا بالمشكلة القائمة حول " وصول" العناصر السكانية التى تتحدث الحيثية، ولغات أناتولية أخرى، من الشمال. وكنت قد قررت فى الجزء الأول (من هذا الكتاب الذى بين أيدينا) أننى أوافق جورجيف (Georgiev) وكذلك رينفرو (Renfrew) على رأيهما فى الاعتقاد بأن هذه اللغات ، مثل اللغات التى ليست أوروبية - هندية، كانت غريبة عن المنطقة[112]. ومن ثم، فإن قدومها لا يمثل مشكلة هنا. ولكنه، من ناحية أخرى، من الممكن أن تكن اللغة الحورية قد دخلت إلى أناتوليا من الجنوب الشرقى، واللغة الفريجية ومجموعة اللغات ذات الأصل الأوروبى - الهندى للغة الأرمينية قد وصلت ، كما هو واضح، من الشمال. وليست هناك أية مظاهر لوجد هاتين اللغتين الأخيرتين مع مطلع الألف الثانية ق.م، ولكنه وفق الدليل اللغوى، فربما كان من المحتمل أن هذه اللغات كانت قد وصلت إلى أناتوليا قبل ذلك، بالرغم من أن اللغة الفرنجية امتدت داخل مركز شبه الجزيرة مع الجزء الأول للألف الأولى ق.م فقط. ويبدو أن أكثر الأوقات احتمالاً وأنسبها لدخول تلك اللغات إلى المنطقة، لأول مرة، هو ما يتفق مع تكديس الدليل الأثرى المتنامى، كما نعرف، والسجلات الأكادية والتى يؤرخ بالقرن (٢٣) ق.م.

وعمومًا، فقد اتفق العلماء على أن الثقافة المسماه بالكورجية (Kurgan)، والتى تمثلت فى شمال القوقاز وقدمها لنا ميكوب بارو العظيم (Maikop Barrow)، يبدو أنها قد اخترقت، فى هذه الفترة الزمنية، أناتوليا الشرقية وانتشرت مع الحضارات

المحلية[113]. إنه من الممكن، ولكنه أقل احتمالاً، أن الاضطرابات فى أناتوليا الغربية، وتقريبًا فى الوقت نفسه، والتى اعتدنا على أن نربطها " بغزو لوفى " (Luvian invasion)كانت قد قويت بوصول الفريجيين الأوائل من الشمال الغربى[114].

وعلى أية حال، فإن شرق أناتوليا ووسطها، فيما بعد عام (٢١٠٠) ق.م تقريبًا، كان قد بدأ مرحلة توسع اقتصادى وحقق إزدهارًا يستند أساسًا على ثروات معدنية (من المناجم) وفيرة، وكذلك على تجارة مع الشرق الأوسط، وهى التى استمرت، مع بعض فترات التوقف الهامة، حتى نهاية عصر البرونز فى القرن (١٢) ق.م، وتأتى أقدم أمثلة للكتابات المعروفة باسم (الهيروغليفى الحيثى) (Hittite Hierolyphic) من حوالى عام (٢٠٠٠) ق.م، ومع ذلك، فإنه يبدو محتملاً أن هذه الكتابة قد نشأت بعد أن عرف سكان أناتوليا الكتابة ولكن قبل أن يتصلوا ويعرفوا الحروف المسمارية، والتى ظهرت، على الأرجح، حوالى مطلع الألف الثالثة ق.م. إن الشكل المسمارى الذى استخدمته الإمبراطورية الحيثية، والتى تكونت بعد الاضطرابات التى تشغل بالنا لم يكن آشوريًا، بل كان سوريًا، وليس معروفًا كيف ولا متى تحول ذلك من الهيروغليفى إلى المسمارى، وإن كان أحد الاحتمالات هو فتح سوريا أمام أناتوليا فى القرن (٢٠) والقرن (١٩) ق.م.

التدمير فى أناتوليا

كولتيبى الثانية (Kultepe II)

وكاروم كانيش (Karum Kanesh)

وبالرغم من أنه لا يوجد أثر على الإطلاق لثقافة أدبية محلية فى الألف الثالثة ق.م لإقليم أناتوليا، فإن هناك مصدرًا لمعلومات تاريخية، وخاصةً حول منطقتها الوسطى منذ منتصف القرن (٢٠) ق.م، وما نقصده هو تلك الآلاف العديدة من الألواح المكتشفة فى محطة تجارية آشورية فى كارم كانيش، فى موقع يسمى الآن باسم القرية التركية

البسيطة كولتيبى (Kultepe) . ولسوء الحظ، وكما هو شائع دائمًا فى مثل تلك الحالة فى علم الآشوريات، فإن عملية الكمال، وإحساس العلماء بالملكية الخاصة، قد حرم معظم هذه الألواح من أن تنشر[٤٤].

ومع ذلك فقد عرفنا الكثير من تلك الألواح المتاحة. وبخاصة حول مخطط كارم (وهى التى تعنى مستعمرة تجارية). وعن علاقاتها مع المستعمرات الآشورية الأخرى، فى أناتوليا، وكذلك علاقتها بمدينة آشور، والتى تبعد عنها بحوالى(٥٠٠) ميلاً، فى حوض صعب الإجتياز تمامًا، وتخبرنا هذه الألواح، أيضًا، بمعلومات كثيرة عن التجارة فى العالم القديم، وأهمية نشاط التجارة الفردية الخاصة[٤٥]. وترينا هذه الألواح، على وجه الخصوص ، الكميات الكبيرة من الفضة الأناتولية والذهب والرصاص، وقد تم تصديرها إلى آشور فى تبادل سلعى معها مقابل المنسوجات من مسوبوتاميا، وكذلك الصفيح، والذى كان يأتى من مكان شرقى أبعد، ربما من افغانستان[115].

وتكشف الألواح، كذلك، عن المجتمع الذى كان يعيش فيه التجار الأجانب ويمارسوا نشاطهم، ولكن بدرجة أقل وضوحًا، وكان لمعظم المدن ملوك، وأكثر أولئك بأسماء حيثية. وكان هناك " الملك المعظم"، فى مدينة بورشاتوم (Burushattum)، التى تبعد، عن العاصمة، بحوالى مائة ميل إلى الغرب. وهناك قصص تاريخى حيثى يشير إلى ملكهم الأول باسم " أنيتا" (Anitta) ، ملك كوسارا (Kussara)، الواقع إلى الشمال من كانيش، وهو الذى نقل عاصمته إلى " نشا" (Nesha) أو نيشا (Nisha) ، والتى ، من المحتمل، أن تكون هى نفسها كانيش (Kanesh) . ولقد جاء ذكر أنيتا كما فتح العديد من المدن وأجبر ملك بوروشخاندا (Purushkhanda) على الخضوع له. كما ورد ذكره، أيضًا، فى النصوص الآشورية. وكذلك تم العثور على خنجر، أو رأس سهم، منقوش عليه اسمه، وجاء ذلك من آثار حفائر قصر مدمر فى كانيش، ومع ذلك، فإن هناك خلاف بين العلماء حول ما إذا كان أنيتا هذا معاصرًا لنهاية القرن (٢٠)، أى فى فترة كوليتبى الثانية، أو أنه كان موجودًا فى فترة القرن (١٩) ق.م، حيث مرحلة كوليتبى الأولى/ب[116]. وعلى أية حال، فإن هناك هوة وفجوة عظيمة بينه وبين الملك التالى له مباشرة، وهو المؤسس للإمبراطورية الحيثية، " لابارناس" (Labarnas) ، فى منتصف أو نهاية القرن (١٨) ق.م.

وهذا يقودنا إلى المشكلة الحساسة لتأريخ نصوص كولتيبى. وينصب اهتمامنا على مرحلتين من تاريخ هذه المدينة، هما كولتيبى الثانية (II)، والأولى/ب (Ib) . وكلتا المرحلتين أو الفترتين كانتا مزدهرتين، وفيهما كانت هناك تجارة رائجة بين كانيش وآشور وكذلك فقد أنتجتا عدداً ضخمًا من الألواح. ومع ذلك. فإنه مع نهاية مرحلة كوليتبى الثانية، تم تدمير المدينة وضاحيتها تدميراً شاملاً، حيث كان يقيم الآشوريون، وذلك عقب إنذار ما أو بغيره، وقد مرت على المدينة عشرات السنين قبل أن ينصلح حالها تارة أخرى، وتبدأ مرحلة كوليتبى الأولى/ب.

ولقد أظهر عالم الآشوريات الدانماركى م.ت.لارسن (Larsen Mogens Trolle) حكمة عندما لم يتعرض لمسألة التأريخ، فى مؤلفه الرائع عن الإقتصاد والبنية الاجتماعية لمدينة كاروم. وهكذا فإن أكثر المؤلفات تفصيلاً حول كاروم وتأريخها لا يزال هو ذلك المنشور على يدى مؤرخ التاريخ القديم التركى " بالكان" (Balkan) فى عام ١٩٥٥، وهو الذى استطاع، بالإطلاع على إشارات الألواح للملوك الآشوريين، أن يربط بينهم وبين الملوك المعاصرين لهم فى بابل، ويبدو أن كاروم الآشورية كانت قد بدأت فى الظهور مع بدايات حكم الملك إريسوم (Erisum I) الأول تقريباً.

ومع ذلك، فإن الوثائق ، فقط، إلى الأربعة عشر عامًا الأخيرة من حكمه البالغ أربعين أو واحد وأربعين عامًا، إنها، أى الوثائق الأثرية، تغطى حكم خلفاء إريسوم الأول: إكونوم (Ikunum) وشاروم – كين (Sarrum-Kun)، وتنتهى عند حكم الملك بوزور- آشور الثانى (Puzur-AssurII) . ولسوء حظنا، لا تعطى قوائم الملك الآشورى طول مدة حكم هؤلاء الملوك، ولهذا فإننا مضطرين إلى عمل تخمينات.

وبالرغم من كل ذلك، فإننا يبدو نسير على أرض صلبة عندما نعيد ترتيب المادة الأثرية المكتشفة من كاروم، للعام العاشر من حكم الملك شمشى- أداد.

وتقدم لنا القوائم التأريخية الآشورية تقديراً بـ(١٥٩) عامًا للفترة الواقعة بين تولى إريسوم الأول العرش، وموت الملك شمشى أداد. ولقد وزع بالكان، بالنظر إلى كاروم كانيش، (٢٦) ستة وعشرين عامًا من هذا الإجمالى وحددها للفترة التى ليس لها وثائق فى كاروم، وثمانين عامًا منها للباقى من آثار كولتيبى الثانية، وتم توزيع ثلاثة

وعشرين (٢٣) عاماً أخرى على مرحلة كولتيبى الأولى /ب (Ib)، وذلك إبَّان حُكْم الملك شمشى أداد، مما يعطى فترة انقطاع، وهوة تاريخية لمدة (٣٠) ثلاثين عامًا بين الفترتين، والتى يمكن أن تؤرخ لتدمير كولتيبى الثانية فى حوالى ١٨٩٠ ق.م(117).

ومع ذلك، فإن هناك عدداً من المشاكل مع هذا التقدير. ويسجل بالكان نفسه العديد من الملاحظات التى ترجح تأريخًا أطول للمدد الزمنية للفترات، حيث يلاحظ أنه كان هناك أكثر من متر من الأتربة بين كل مستوى أثرى (Strata)، وكذلك فإن إتجاه ومخططات المنازل كان قد تغير، مما يعنى أن السكان الجدد لم يكن يهمهم أو لم يكونوا يعرفون محتوى المرحلة السكنية الأقدم، لقد حدثت هناك تغييرات فى شكل وإنماط متاع الحياة وطريقة صناعتها. وأخيراً كان هناك عدد من التغيرات الهامة فى خلال ذلك كله(118). أما الملاحظة الثانية فإنها تبدو أكثر وضوحًا، ذلك لأنه حتى إذا كان كل السكان الآشوريين، فى كاروم، قد قتلوا مع انهيارها ودمارها، فإنه – فى مجتمع تجارى متنقل– لابد أن يكون هناك أحياء آخرون كانوا يعرفون بهذه الطبقة الخاصة بالتدمير. ولهذه الأسباب، يعتقد الأثرى أوزجوس (Ozguc) بأن مثل هذه التغييرات التى حدثت كانت قد استغرقت (٥٠) خمسين عاماً، وهذا، فى رأى واعتقادى بأنه أقل احتمال(119).

لقد غطت الفجوة التأريخية بين المرحلتين حكم الملكين نرام سين وإريسوم الثانى، وكذلك العشر سنوات الأولى من حكم شمشى أداد، ويظن البروفيسور بالكان أن التدمير قد حدث فى نهاية حكم بوزور – أشور الثانى. ولكن يبدو أنه لا يوجد سبب لمثل هذا الظن، وربما كان الملك قد حكم مدة اطول.

إننا نعرف أن نرام – سين حكم لمدة خمس عشرة (١٥) عامًا على الأقل، ولهذا فإن فجوة الـ(٣٠) عاماً ستسمح، فقط، بخمس سنوات زيادة لحكم نرام–سين أو للملك بوزور/آشور الثانى، وذلك دون المساس بحكم إريسوم الثانى، كاملاً وحده. إن ضغط هذه التواريخ يبدو كبيراً جداً.

وفى الوقت نفسه، سيكون هناك مدة زمنية كبيرة جداً للمرحلة الموثقة (التى بها آثار كتابية) من تاريخ كولتيبى الثانية، وصحيح أن بعض الأسر التى كانت تمارس

التجارة عاشت هناك، فى هذه المدينة، طيلة أربعة أجيال ، ولكن لارسن (Larsen)، فى الحالة التى استخدمها كمثال، فى دراسة تفصيلية لكاروم، نجد أن الجد الأكبر كان ميتًا قبل أن يتم الاتصال، وأن الإبن الأكبر كان يفترض فيه عددم بلوغه سنًا كبيرة[120].

وعندئذ يبدو من المحتمل أن كولتيبى الثانية ووثائقها يجب أن يتم وتقليلها، وأن الفجوة التأريخية لابد من إطالتها من عشرين عامًا إلى أربعين. وإذا كنا سنقبل إجمالى السنين فى قاعة الملك الآشورى بـ(١٥٩) عامًا، وذلك منذ تولى إريسوم الأول للعرش وحتى وفاة شمشى أداد ونخصم ثلاثين (٣٠) عامًا من حكم إريسوم، وذلك قبل بداية وجود كاروم، و(٢٣) ثلاثة وعشرين عامًا، أيضًا، من حكم شمشى أداد، فإنه يبقى عندنا (١٠٨) عامًا لمرحلة كوليتبى الثانية ومرحلة التدمير. وهكذا فإن كل شىء يتعلق بهذا التاريخ، أى عام ١٨٥٩، ١٨٠٣، ١٧٩٢ ق.م، وذلك وفقًا للتأريخ الطويل، والأوسط، والقصير بالترتيب. وهذه التواريخ، بإضافة (٦٠) أو (٧٠) عامًا، لمدة التدمير، فإنها تعطينا هذه الفروق: ١٩٢٩ - ١٩٠٩ ، ١٨٧٣ - ١٨٥٣ . إن التأريخ الطويل سيعطينا زمنًا معاصرًا تمامًا مع الجزء الأخير من حكم سنوسرت الأول، كما قال بذلك باركر.

ولن يناسب التأريخ المتوسط هذا، بل يتفق مع التأريخ الألمانى المنخفض للتاريخ المصرى، ولعهد امنمحات الثانى، تحديداً، فيما بين ١٨٧٥ و ١٨٤٢ ق.م، ويمكن للمرء منا أن يصل إلى مصالحة محتملة باقتراح أن التدمير المصرى، المزعوم، حدث خلال حكم كل من سنوسرت الثانى والثالث. وليس هناك شىء ضمن المكتشفات المصرية المؤرخة بالأسرة الثانية عشرة، وكان قد تم العثور عليها فى المستويات التى تدمرت من أناتوليا، ويمكن تأريخها بتلك الفترة، ومن جهة أخرى، فإنه لا يوجد أى خطاب فى مراسلات كاروم يشير إلى مصريين، مما يجعل قيام المصريين بحملة على المنطقة غير محتمل لأمد طويل، وبالإضافة إلى ذلك، فإن هناك الدليل المكتشف من طود (Tod) وكنوزها (وهو الذى سنناقشه بعد ذلك) حيث توجد قطع أثرية مشابهة لتلك التى تم الكشف عنها فى كولتيبى الثانية، وكانت قد وصلت إلى مصر خلال حكم أمنمحات الثانى.

وعندما قام ميللارت، استناداً للتأريخ المرتفع على أساس اكتشافات الأسرة الثانية عشرة ومعثوراتها، بوضع تأريخ الدمار بين ١٩٤٠ و ١٩٠٠ ق.م[121]. وقد وضع هذا التأريخ، أيضاً، الواقعة قريبة من فترة سيزوستريس وحملاته المزعومة ضد الشمال، والتى أرخنا لها فيما بين ١٩٣٠ و ١٩١٦ ق.م

إننى أتمنى أن تكون الأسباب، التى من أجلها خصصت مساحةً كبيرة للتوصل إلى تأريخ تدمير كولتيبى الثانية، قد ظهرت جليةً الآن، لقد كانت كانيش (Kanesh)، أو نيشا (Nesha) أو نسيلى (Nisili) - كما يسميها الحيثيون، مركزاً عسكرياً، وتجمعاً حضارياً محورياً، ولقد كانت كانيش، مع نهاية فترة كوليتبى الثانية، ذات كثافة سكانية كبيرة جداً فيما بين (٢٠) إلى ٣٠,٠٠٠ نسمة، كما كانت، أيضاً، حلقة اتصال لطرق التجارة من العراق القديم (مسوبوتاميا) وسوريا، فى الشمال، إلى حيث مناجم الفضة والرصاص الغنية، بالقرب من مدينة سبنكاراهيسار (Sebinkarahisar)، والبحر الأسود، وغرباً حتى الساحل الإيجى وطرواده (Troy)[٤٦] (أنظر خريطة /١٢) .

ويجب علينا، فى هذا الخصوص، أن نطلع على المقال الكلاسيكى الآتى لكاتبه ميللارت: " نهاية عصر البرونز المبكر فى أناتوليا وحوض البحر الإيجى"، والذى تم نشره عام ١٩٥٨:

« كانت كاروم، الآشورية، فى وسط أناتوليا، ذلك الموقع التجارى، أسفل أسوار المدينة الكبيرة لكانيش... قد تحولت إلى تراب ورماد، حوالى ١٩٠٠ ق.م (المستوى الثانى : Level II)، ولم تعد إليها الحياه من جديد قبل نصف قرن (من تاريخ الدمار). وقد عانت مدينة أليشار هويوك (Alishar Huyuk)، التى كانت تعاصر كاروم، كمركز تجارى آخر، من نفس المصير، ولكن دمار ألاكار هويوك الخامسة (Alacar Huyuk/v) كان اسبق من ذلك بكل تأكيد......» .

« وفى موقع جبلى، بين هاليس (Halys) وسانجاريوس (Sangarius)، قد وقع تدمير واسع النطاق: وقد اخترقت كل من كرا أو جلان (Karaoglan)، وبيتك (Bitik)، بولاتلى (Polatli)، وكذلك جورديون (Gordion)، هذا فضلاً عن هجر السكان للعديد من المدن الأخرى مثل إيتوكوسو (Etiokusu) وسيركيس (Cerkes) ...... ويقع سهل

باليكسير (Balikesir) بين هذا الإقليم وسهل ترود (Troad)، حيث يشتهر، الآن، كمركز لحضارة يورتا (Yortan culture)، والتى عرفناها بطريقة كافية من خلال مقابرها. ولا يوجد بين آثار كل هذه المدن أى فخار أقدم من نهاية عصر البرونز المبكر (E.B.A.)» .

« وفى سهل ترود (Troad) لم يتم تدمير طروادة الخامسة (TroyV) الحريق ، ذلك لأن الفترة التالية عليها تظهر لنا تغيراً حضارياً، وخراب وهجر مدينتين أخرتين هما كومتيبى الثانية (Kumtepe) وكراآجاشتيبى (Karaagactepe) . أما فى جزيرة لمنوس[٤٧] (Lemnos) ، فإن مساكن عصر البرونز المتأخر، فى منطقة بوليوخنى (Poliochni) يقال أنها تدمرت بفعل الزلزال، كما أن الموقع لم يتم سكناه، تارةً أخرى، فى عصر البرونز الوسيط[122]» .

« ولقد ظل هذا الرأى الجرئ والرؤية المختصرة التى قدمها ميللارت قرابة عشر سنوات بعد ذلك، ضمن (تاريخ كمبريدج القديم)، وكان تحديًا للعديد من العلماء الحذرين المدققين. ولقد أعتقد العالم الأمريكى الأثرى جيمس ميولى (J. Muhly) أن دماركاروم كانيش ليس إلا : " نوع ما من حادثه محلية " (Some sort of local) event)[123] بينما كاتب آخر يظن، بخصوص هاتوس (Hattus) أن كاروم الآشورية لم يتم تدميرها، ولكن بحثًا أحدث قد ظهر وعارض هذا الرأى[124]. وفى الحقيقة أن ميللارت لم يزعم أن كاروم قد تدمرت. وحتى لو كان الأمر كذلك، فقد سمح ببعض التعديلات، عندما كتب يقول :(وحتى إذا اثبتت البحوث الأحدث، التالية علينا، وكشفت الستار عن بعض المواقع الأخرى غير القائمة التى قدمناها نحن، فإنها ، بكل تأكيد، ستضيف مُدنًا أخرى). وفى الواقع، يبدو الآن أن المدينة المهمة، المعروفة بعد ذلك باسم أفروديسياس (Aphrodisias) فى غرب أناتوليا، كانت قد تدمرت تقريبًا حوالى الفترة نفسها[125]. وليس هناك أدنى شك، أنه كان هناك – كما وصف ميللارت الحالة هذه – سلسلة طويلة من المواقع المحترمة أو المهجورة، والتى توضح بعض الخلل فى النصف الشمالى من أناتوليا مع نهاية عصر البرونز المبكر"[126].

هل كان سيزوستريس هو الذى دمر كاروم؟

لقد اعتقد ميللارت، فى عام ١٩٥٨، أن الدمار الذى لحق بالموقع كان نتيجة لغزو حيثى إلى داخل أناتوليا الوسطى، والذى أفضى إلى هجرات صوب الغرب وكذلك أسفر عن فوضى شاملة لاحقًا. ولكى يتحقق ذلك، وميللارت لم يصر أبدًا على أن ملكًا حيثيًا باسم أنيتا (Anitta)، وينتمى إلى مرحلة كولتيبى الأولى/ب (عقب عمليات التدمير)، ولكنه يرفض أيضًا ويستنكر وجود أسماء حيثية مكتشفة فى كولتيبى الثانية[127] . كما أنه، كذلك، قد حيره غياب أى دليل مادى حضارى يكشف عن هؤلاء الغزاة المزعومين. وهذا قد جعله يقترح أنهم « جاءوا من منطقة ما بعيدًا عن حضارة الإقليم الشرقى المتوسطة » . ومع ذلك، فإنه فى الألف الثالث ق.م، يوجد دليل مادى كافى لاتصالات أناتوليا مع حضارات عبر القوقاز. إن عدم القبول الظاهرى لهذه الأجزاء من شكل نظريته كان سببًا، على ما يبدو، فى تركها كليةً، ولكن حزام الدمار سيظل ، وتصبح أكثر غموضًا بسبب فشل ميللارت فى تفسيرها.

وهل مسموح به أن نربط بين هذا كله وبين سيزوستريس وأن نقبل عبارات وأقوال كل من هيرودوت ومانيتون وديودوروس بأنه هو الذى هزم وغزا "كل آسيا" وهو المصطلح الذى عادة ما يستخدم للإشارة إلى أناتوليا " من شرقها إلى غربها"[٤٨]؟.

وبالرغم من المشاكل التاريخية، فإننى أعتقد أن الموضوع يمكن أن يكون كذلك، كما أن ميللارت، مع أنه يسجل ملاحظته لغياب الدليل الأثرى القادم من "الشمال"، فإنه يحصى وجود عدد من القطع المصرية المؤرخة بالأسرة (١٢)، والتى تم الكشف عنها فى مناطق رئيسية وهامة على طول الطريق. وكما ذكرنا آنفًا، لقد قام ميللارت، وأستنادًا على هذه المعثورات بشكل جزئى، بتقديره لتاريخ الدمار[128]. أما الدليل الأثرى الأكبر على حدوث حملة مصرية غزت أناتوليا الوسطى، فى ذاك الوقت، فإنه يأتى من مصر نفسها.

كنز طود (Tod)

تم الكشف عن كنز طود فى الثلاثينيات من هذا القرن (فى عام ١٩٣٠ م)، تحت أساسات لمعبد الإله مونت (Mont)، فى طود، التى تبعد (١٧) كم جنوب الأقصر، داخل حدود الإقليم الطيبى (Theban nome)، حيث كان الإله مونت إلهًا محليًا، والذى خرج منه، كبلدهم الأصلى، مؤسسو الأسرة الـ(١٢). وتؤرخ الأجزاء المعمارية للمعبد بالأسرة الحادية عشرة، والتى حكمت مصر، وهى الأولى فى ذلك، من داخل هذا الإقليم، وكان معبودها الرئيسى هو الإله مونت، ولكن الفرعون سنوسرت الأول ألغى وحطم هذا البناء الأقدم للمعبد، وبنى صرحًا جديدًا له. وكان الكنز نفسه موضوعًا فى (٤) أربع خزائن (صناديق) م ن النحاس، وعليها كتابات وخراطيش باسم أمنمحات الثانى[129].

وهذه الصناديق هى مصرية الصنع، ولكن محتواها كان كله أجنبيًا. فكانت تحوى سبائك ووزنات ذهبية، وسلاسل لأختام وأساور وزينة من ذهب، وفضة وإلكتروم، فضلاً عن (١٤٣) طبقًا مسطحًا و(١٠) بغطاء ، جميعها من الفضة، أما الصناديق الأخرى فكانت مليئة بالحجر الكريم " لابس لازولى"، وتحتوى على عدد من الأختام الأسطوانية. وكما أشار الأثرى، المكتشف، بيسون دى لاروك (Bisson de la Roque) ليس هناك شك فى أن هذه القطع الأثرية قد أتت من آسيا. لقد كان الذهب يأتى من النوبة وساحل البحر الأحمر فى شكائر وشنط (bags)، وليس فى خزائن وصناديق، ولم تنتج هذه الأقاليم الفضة، والتى كانت – فى ذاك الوقت – تعادل الذهب فى قيمتها وربما أغلى أيضًا[130]. وكان أقرب مكان لاستيراد الفضة هو أناتوليا، والقوقاز، ومحاجر لاوريون، فى اليونان[٤٩]. بالرغم من أنه كان لا يزال هناك مصادر أعظم، لاستخراجها، فى منطقة البلقان.

ولما كان هناك علامات للجودة بيد فاحصين مصريين منقوشة على بعض القطع الأثرية، فإن هذا الكنز له قيمته الواضحة لما تحتويه من معادن. ومع ذلك، وبالرغم من أن بعض الأطباق قد تكسر، فإن شكلها، كما أعتقد، وكذلك مكان استيرادها وصناعتها، قد أضاف إلى قيمتها[131].

وإذا كان هناك أدنى شك حول المكان الأصلى للمعدن، فإن ذلك سرعان ما ينقشع بفضل أشكال تلك الآثار، والتى ليست مينوية(٥٠). كما كان يظن فى وقت ما من قبل، وبالرغم من أن الشكل الإيجى لبعض من هذه المعثورات يمكن أن يأتى من أصل من غرب شبه الجزيرة، إلا أن المجموعة كلها، قد أتت، كما هو واضح، من أناتوليا أو من القوقاز. وهناك إناء واحد، فى رأى البعض، له ما يشبهه بالضبط (أى / مثيله) كان قد تم الكشف عنه فى كولتيبى الثانية[132] .

ولقد أظهرت الأختام الأسطوانية الأصل العام نفسه لهذه القطع الأثرية، فمعظمهم من العراق القديم (Mesopotamia)، ولكنها تضم واحداً ، على الأقل، من كابادوكيا من الجزء الشمالى من وسط أناتوليا، وواحداً آخر من إيران. وكما يحدث عادة مع كل مجموعات الأختام او العملات، فإنها تأتى وتتجمع عبر فترة تاريخية طويلة، ولكنها تميل إلى نهايتها. وفى هذه الحالة، فإنهم - أى الأختام - يعود تأريخها إلى نهاية الفترة الأكادية فى الألف الثالثة ق.م، وتحديداً فى القرن الـ ٢٣ ق.م، ولكن الغالبية العظمى منها تأتينا من فترة لاحقة ، لذلك، وتؤرخ بالأسرة البابلية الأولى، وهى التى حكمت إما فى القرن الـ(٢٠) أو القرن الـ (١٩) ق.م.

إن قبول التأريخ الطويل والكبير لحضارة مسوبوتاميا، وربما يجعل محاولات بورادا (Porada) الذكية، تسود وتنتشر، وهى التى تشيع بأن هذه الأنماط النحتية (النقشية) الموجودة فيما قبل الأسرة الأولى ليست ذات أهمية[133] . كما أن أصلها وتاريخها يتفق تماماً مع النظرية القائلة بأن المصريين وحلفاؤهم كانوا ينهبون(٥١) ويغزون أناتوليا، وتجارها الآشوريين، فى نهاية القرن الـ(٢٠) ق.م.

أما المكون الآخر الكبير لهذا الكنز، أى كنز طود، فقد كان الحجر الكريم المعروف باسم " لا بيس لازولى"، والذى جاء من أفغانستان بشكل مؤكد. وبالرغم من أننى لن أنكر تماماً أن القوات المصرية كان بإمكانها أن تصل إلى هناك، ولكنه أكثر قبولاً أن نفترض أن حجرلابيت لازولى جاء عن طريق مسوبوتاميا، والقوقاز، وأناتوليا. إننا نعرف أنه خلال الدولة الحديثة كانت آشور مصدراً رئيسياً لهذه المادة[134] .

ولكن، كيف وصل الكنز إلى طود؟ إن أحد الآنية الفضية عليه علامة تفيد بأن أحد المبعوثين المصريين هو الذى احضره، ولقد ربط بوزينيه (Posener) وضع هذا المبعوث ومكانته بأولئك الرسل والسفراء الذين كانوا يتحركون شمالاً وجنوباً، بحذاء الساحل السورى - الفلسطينى، إشارة إلى ما جاء عنهم عند سنوحى[135] . وينقل لنا بوزينيه بعض سطور لنص تمجيدى قدم لمعبد سيزوستريس ، فى طود، واصفًا موائد القرابين المصنوعة من مواد ثمينة[136] :

« لقد كان شيئًا جميلاً، مرتان، وكذلك كثيرًا، مرتان، أن يعتاد المرء أن يرى كل ذلك، فى هذا البلد، قبل ذلك، وأن يقدم ، من جديد، ما أحضره وسلمه الأجانب والمبعوثون، الذين يسافرون خلال هذه البلدان » .

لقد كان سيزوستريس اسمًا على مسمى: S-n Wsrt (بمعنى : رجل وسرت)، سيد/ صاحب المناجم الأجنبية([137] . وبعيداً عن هذه الإشارة، التى توازى تمامًا ما سجله لنا الكتاب الإغريق (اليونان)، وكذلك نقش ميت رهينة، فإنه شيئًا ما، غير عادى، كان قد حدث فى أواخر عهد سيزوستريس. كما أن الإهداء يوضح، أيضا، أن هذه المواد كان يتم إحضارها عن طريق كل من حاملى الجزية الأجانب والمبعوثين الرسميين المصريين. وهذا ما يتفق مع الأوصاف والرسومات الجدارية التى وصلتنا من الدولة الحديثة، مصورةً حاملى الجزية القادمين إلى مصر. ولقد وصف لنا كل من كمب (Kemp) ومريلليس (Merrillees) الهدايا الأخيرة بما يلى: " بينما نجد البعض منها جاء نتيجةً للنهب والسلب أو لغرض ضرائب على أقاليم مفتوحة تم غزوها، نجد البعض الآخر قد تم إرسالها إلى مصر كهدايا رسمية دبلوماسية[138] ". وربما كان الوضع كذلك مع كنز طود، ولكنه فى ضوء بعض المؤشرات الأخرى حول نشاط عسكرى، فإن التركيز، فى هذه الحالة، يجب أن ينصب على محتوى الاعتداء والغزو، والضرائب المفروضة.

وفوق كل ذلك، يجب ألا ننسى أن هذا الإهداء كان قد تم للإله منتو (Mntw) أو مونت، والذى كان بجانب كونه إله الإقليم الطيبى، وكذلك صاحب الأهمية المركزية لكل من الأسرة (١١) والأسرة الـ(١٢)، كان إلهًا للحرب، وبصفة خاصة

للفتوحات الأجنبية وإخضاع البرابرة. وكان مونت، على وجه الخصوص، قد ارتبط بأرض ست (Stt) فى آسيا[139] . إنه لمن دواعى الدهشة أن الإله مونت، إله طود، قد ذكر، خصيصًا، فى نص ميت رهينة، وذلك كملتقى للجزية الأجنبية القادمة من بلاد ست (Stt)[140] .

ولسوف نعود، لاحقًا، إلى موقع ست (Stt) - وهى Stt بالشكل الأصوب - وارتباطاتها بمعبد الإله مونت فى طود. وفى الوقت نفسه، لسوف نضع فى اعتبارنا الوظيفة المحتملة للكنز. لقد أكد كل من كمب ومبريلليس على المادة الخام للكنز وقيمته الاقتصادية، وبالرغم من أن ذلك كان، بلا شك، وظيفة ما للكنز، يجب على المرء ألا ينسى أن كثيرًا من القطع الأثرية لم تتحول إلى سبائك من المعدن الأصلى لها، وأنها كانت أهديت وتم حفظها فى معبد للإله مونت. وهكذا فإنه من المحتمل، مثل كنوز أخرى عديدة فى المعابد، أن يكون لها - كما قلنا نحن من قبل وليس القدماء - وظيفتان: واحدة مدينة دنيوية، ووظيفة أخرى دينية. إن كنز طود لم يكن مجرد سبيكة ذهبية أو فضية، والقطع الأثرية المهشمة كانت تمثل فى مجملها، مناظر مناسبة لموضوع إخضاع الأجانب. لقد كان الكنز، كذلك، قربانًا للإله مونت وللانتصارات المصرية العسكرية، التى يمكن أن تعزى إليه.

وهكذا لا يوجد شىء فى الآثار المصرية أو الليفانت أو أناتوليا يمكن أن يحول دون وصف الكتاب اليونان لفتوحات سيزوستريس فى أناتوليا. والحقيقة، أن مثل هذه الحملات يمكن أن يشرح عددًا من الظواهر المحيرة السابقة الذكر ويوضحها، وبصفة خاصة سلسلة الدمار وكنز وطود، والتى تشتمل على أشياء واردة من أناتوليا والشرق البعيد. ومن الجانب الآخر، إذا قبل شخص ما تأريخًا متوسطًا أو منخفضًا لحضارة مسوبوتاميا فإن مظاهر التدمير الثابتة ربما يمكن أن تكون نتيجة لأى عدد من الأسباب الأخرى. وقبل النظر فى نقش ميت رهينة والمصادر الأخرى للتدليل على الغزوات المصرية فى أناتوليا، فإنه يبدو من المفيد، مع ذلك، أن نلقى نظرة على دليل لهذه الفتوحات من مناطق أخرى.

سيزوستريس فى ثراكى وسكيثيا؟

فى قول مباشر منقول عن ميللارت حول سلسلة الدمار الذى لحق بشمال أناتوليا، جاء آنفًا، كانت هناك إشارة إلى هجرة وترك موقع كبير عبر الهيلليسبنت فوق شبه جزيرة ثراكى، وحيث يضيف قائلاً:

« إن ثراكى التركية (وتسمى أيضًا تركيا فى أوروبا) وكذلك الإقليم الساحلى ومقدونيا (ثراكى اليونانية) لهى فارغة على الخريطة الأثرية. ولكن فى بلغاريا يوجد دليل على أن الفوضى التى حدثت فى شمال أناتوليا أعلنت عن نفسها هناك كذلك كما أن علماء بلغاريا يؤرخون نهاية عصر البرونز المبكر، عندهم (يوناسيتى، وسالكوتس وإسيرو : Yunacite, Salcuza, Esero) بحوالى ١٩٠٠ ق.م. وكذلك فإن هجر تلك المواقع المفاجئ مضافًا إلى الغياب التام لعصر البرونز الوسيط يشير بالضرورة وبكل تأكيد إلى كارثة ما[141] » .

وبقدر اهتمامى وما يخصنى، فإنه لا يوجد هناك دليل أثرى على وجود الدولة الوسطى المصرية فى هذه المنطقة، ومع ذلك، فيوجد بعض المؤشرات المشجعة القادمة من مصر. ويظهر ذلك فى أنه خلال الدولة الوسطى فإن خليط الإلكتروم (Electrum)، وهو المصنوع من ٣٠٪ من الفضة و ٧٠٪ من الذهب، كان قد استخدم لأول مرة. كما يبدو، أيضًا، أن المناجم الوحيدة، فى العالم، حيث تكون هذه النسب متوافرة بشكلها الطبيعى، هى تلك الموجودة فى جبال أبوزينى (Apusini) فى إقليم ترانسيلفانيا (Transylvania). وينتج هذا الإقليم، أيضًا، مادة الأميثيست (Amethyst). واليشب (Jasper) ، والعقيق الأبيض (Chalcedony)، والحجر الكريم العقيق الأحمر (Cornelian). وهذه الأحجار جميعًا كان ظهورها، لأول مرة فى مصر، إبان الدولة الوسطى، كما يؤكد ذلك العثور على حجر من اليشب، أحمر رائق صافى وكذلك بلون أصفر، كان قد استخدم فى التطعيم، والذى جاء، من مكان ما، من رومانيا، وهذه الأنماط الحجرية، من اليشب، لا توجد فى مصر، ولا كذلك الجمشت، وبخاصة، المصنوع من هذه النوعية[142].

ويبدو أنه من المحتمل جداً، عندئذ، أن الإلكتروم، وكذلك هذه الأحجار، شبه الكريمة، كانت تأتى من البلقان، وهذا ، بالطبع، لا يعنى بالضرورة أن غزواً مصرياً تم لهذا الإقليم. وكما نعرف، فإن المراكز التجارية كانت قد أمدت نشاطها إلى أبعد من حدودها، دون أن يرتبط ذلك بأى هيمنة وسيادة سياسية أو عسكرية. وعلى الجانب الآخر، فقد كانت هناك رغبة لمثل هذه الأدوات الترفيهية، التى كانت بمثابة الباعث للحملات المصرية فى المنطقة، وإحضارها لمصر، حيث تم العثور عليها وتؤرخ بالفترة نفسها، مما يعطينا، كذلك، صورة أخرى للتدليل على الظروف والملابسات حول تاريخية التراث الخاص بغزوات وفتوحات سيزوستريس(143).

ولقد ذكر لنا ديودوروس، فى معرض حديثه عن سيزوستريس، حول مشاكل الجوع أكثر مما تحدث عن مثيلاتها بسبب البرد: « وبعد أن عبر إلى داخل أوروبا، وكان فى طريقه خلال ثراكي الممتدة، فقد فقد تقريباً كل جيشه بسبب حاجته للطعام، وطبيعة البلاد الصعبة»(144) ، وهكذا فقد تعرضنا، فى سكيثيا، لصعوبتين: الأولى، هى غياب أى بقايا أثرية لوجود مصرى هناك، والثانية، هى الباعث ، الواضح تماماً، والذى تم ذكره آنفاً، من أجل المصريين، وذلك باختراعهم لقصة سيزوستريس على أنه قد غزا وفتح سكيثيا حتى يمكن للبطل المصرى أن يكون قد تفوق على الحكام الفرس، الذين لم يفلحوا فى غزوها(145). ومع ذلك، وكما ذكرت من قبل، فإن فتوحات وغزوات سيزوستريس فى النوبة، والتى تم توظيفها للغرض نفسه، لمعاداة الفرس، قد تأكد صدقها. وهكذا فإن استخدام فتوحات الفرعون وغزوه لسكيثيا لمجرد الدعاية، لم ينف عنها، فى ذاتها، تاريخيتها.

سيزوستريس فى كولخيس؟

إن واقعة وجود سيزوستريس فى كولخيس، على الشاطئ الشرقى للبحر الأسود، لهى أقوى من سابقتها (أى/ من غزوه سكيثيا). ففى خلال الألف الثالثة ق.م، وبالرغم من وجود مشاكل لغوية ضخمة، كان هناك نوع من الوحدة الملحوظة فى عناصر ثقافة

وتراث كل منطقة القوقاز الغربية، وهى المعروفة باسم ثقافة كورو – أراكسيس (Kuro - Araxes) . وقد تم العثور على فخارها الفخم، من هذه الحضارة، من موقع مشهور فى الليفانت وهو خربة كيراك ((Khirbet Kerak، وحتى فلسطين جنوبًا، وبالرغم من عدم اكتشافه فى أناتوليا الوسطى. لقد استغلت هذه الحضارة، بالفعل، المناجم الغنية لجنوب غرب القوقاز، سواء للاستخدام المحلى أ من أجل التصدير إلى الجنوب وإلى الشمال[146]. وكانت هذه الحضارة قد إزدهرت حوالى عام ٢٣٠٠ ق.م، وذلك تحت تأثير حضارة وثقافة كورجان الشمالية وكان قد حدث تغير فجائى، ظهر فى صناعة الفخار، ويعبر عن التحول من مرحلة البرونز المبكر (٢) لى المرحلة التالية عليها، البرونز المبكر(٣) [147] .

ويبدو أن هناك بعض الخلط بين علماء الآثار حول تأريخ التدمير وكذلك التجديدات الثقافية الحضارية، وقد حاول البروفيسور بورنوى (Burnoy) أن يربط ذلك كله بتلك المظاهر وسلسلة الأحداث كما صورها لنا العالم ميللارت من قبل[148]. وهذه المشكلة يمكن أن تجد حلاً لها وذلك فى ضوء اعتبار أن الغزو الشمالى كان قد وقع حوالى ٢٣٠٠ ق.م، بينما حملات سيزوستريس فى الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٢٠ ق.م، وربما يتناسب ذلك مع فقرة كتبها كل من بورنوى ولانج حول الانتقال إلى الألف الثانية ق.م:

« لقد اختفى، أخيراً، الإمتداد الطويل للألف الثالثة ق.م، وبالرغم من أن العنصر السكانى لم يكن قد تغير تغييراً جذريًا، فإن عناصر جديدة بدأت فى الظهور. كما بدأت عناصر قوة فاعلة جديدة فى التأثير، وذلك عبر القوقاز، وفى معظم حوض أورميا (Urmia) أيضاً[149] » .

وقد لاحظ لانج ، فى مكان آخر ، ما يلى:

« ...... ونلاحظ، فى أرمينيا، انتقال السكان من الأراضى المنخفضة الخصبة، بما فيها تجمعات قوية مستقرة، إلى المراعى المرتفعة، والتى كان يفضلها، عادةً ، ملاك القطعان الكبيرة من الحيوانات والأغنام، والتى كانت ملمحًا رئيسيًا للحياة الرعوية للقبائل الأوروبية – الهندية المبكرة، القادمة من السهول المفتوحة[150] » .

وهذا هو التحول والتراجع الى الجبال ربما ، كان بالضبط ، هورد فعل لغزو بواسطة جيش منظم . وهناك دليل ، فى ذات الاتجاه ، يأتينا من مدينه بيبلوس (Byblos) ، المتمصرة الى درجة كبيرة جداً ، حيث نجد هذا الدليل عبارة عن تواجد الحرفيين وصناع معادن من أصل قوقازى. ولقد عزى عالم الاثار الفرنسى كلود شيفر (C.Schaeffer) هذه الظاهرة الى تحرك لعمال المعادن القوقازيين، والذى يعتقد فى أنه حدث بسبب "زلازل على درجة عالية من القوة ، غير العادية." والتى ارتجت لها المنطقة كلها حوالى عام ٢٠٠٠ق.م. وإن كثيراً من تاريخ شيفر كان يحتاج الى مراجعة وذلك بسبب الاكتشافات الحديثة والأساليب العلمية الحديثة. ومع ذلك فإن أساس هذا التأريخ الذى قدمه لا يزال صالحاً:

« .... إن الفقر العام، المطلق والتام، للأنماط المعدنيــة، فى آسيا الصغرى، فيما بين ٢٠٠٠ – ١٥٠٠ ق.م، كان دائمًا يسبب دهشة للأثريين، كما أنه يلاحظ بشكل أوضح فى ذلك التناقض الموجود بينها وبين ثراء الانتاج فى الأقطار المجاورة[151] » .

إنه من المفارقات العجيبة أن يشير ميللارت، فى عام ١٩٧٨ إلى أن كل المنطقة الواقعة شمال شرق أناتوليا– التى عرفت بعد ذلك باسم أرمينيا وجورجيا الغربية – وهى التى كان بها احتياطيات معدنية ضخمة وحركة نشطة لتصنيع المعادن، " ليس بها أى أماكن سكنى أو تجمعات سكانية ترجع إلى عصر البرونز الوسيط[152] ". إنه يجب أن يتم التأكيد على أن هذه المناطق الواقعة إلى الشرق، بما فى ذلك الموقع الشهير المعروف باسم " ترياليتى" (Trialeti)، داخل أراضى جورجيا، كانت قد استمرت فى الإزدهار. لقد كانت عمليات التدمير والفوضى التى حدثت فى القرن (٢٠) ق.م مظاهر تخريب محلية، ولكن يبدو أنها أفادت بعض الأقاليم المجاورة، ولاسيما الواقعة إلى الجنوب، ويستطيع المرء أن يجد آثاراً وبقايا لذلك خلال منطقة الليفانت (Levant)، وبخاصة المصنوعة من المعادن الشمالية، وما يميزها من تحسينات كبيرة على هذه الصناعة[153].

لقد بدأت مصر نفسها فى استخدام المعدن، على نطاق واسع، فى هذه الفترة فقط، وإنه لمن المدهش، أيضًا، أن نلاحظ كيف أن جيوش الأسرة (١٢)، بسرعة، استخدمت الأسلحة الحديثة، التى ربما كانت مصنوعة وفق أسرار صناعة المعادن

الجديدة: مثل الخناجر، والبلط، والسيوف. وفى الحقيقة أنه من الملاحظ أن يكون هناك، إلى درجة ما، مستوى عام (مشترك : Koine) للتسليح العسكرى وتكنيكه خلال تلك الفترة، من الجنوب وحتى النوبة، وإلى الشمال وحتى القوقاز[154].

وبقدر اهتمامى الواسع، فليس هناك أية قطع أثرية مصرية مؤكدة تم الكشف عنها فى القوقاز، وتؤرخ بهذه الفترة، وذلك بالرغم من العثور على زوج من رؤوس صولجان، فى أرمينيا، ويمكن أن تكون مصرية باطمئنان. وعلى الجانب الآخر هناك شك ضئيل حول الأصل القوقازى لمعثورات كان قد تم الكشف عنها فى مصر[155].

وهكذا، فإن الدليل الأثرى من جنوب غرب القوقاز يسمح لنا بتوقع غزو، كما فى تراكى البلغارية، حيث لوحظ حدوث تدمير واسع وتخريب استمر طويلاً. ولكنه لا علم الآثار ولا المصادر الوثائقية ستسمح لنا بإنتشار صناعة المعادن القوقازية فى اتجاه الجنوب، وكذلك منتجات أناتوليا الشمالية، خلال الأسرة الـ(١٢)، وذلك فى ضوء غزو من الشمال، وعلى العكس تمامًا، فإن الصورة التى أعطاها الكتاب اليونان عن سيزوستريس، وهو يرسل أعدادًا ضخمة من الأسرة للعودة لبلادهم، ربما تشرح لنا وتوضح هذه الظاهرة شرحًا جيدًا.

الدليل على حدوث فتوحات سيزوستريس

من نقش ميت رهينة

ويجب أن أرجع، الآن، إلى نقش ميت رهينة، وأحب أن ألقى الضوء عليه، بمعرفة ما يمكن أن يوضحه هذا النقش لهذه الروايات. ويعطى نقش ميت رهينة الصورة نفسها، إلى حد كبير، حيث يتحدث عن حملات الفرعون العظيمة ورحلاته الناجحة التى حققت المكاسب. لقد ارتبط معظمها بإرسال الغنائم والعبيد والبضائع الثمينة، ولاسيما المعادن، إلى مصر. وهناك مراجع دائمة وإشارات إلى معدن الفضة، ومرجع واحد أشار إلى الرصاص، وهو الذى كان معروفًا، من قبل، أنه كان يتم استيراده، فقط، إبَّان الدولة الحديثة[156]. وهذه الأشياء كان من الممكن أن تأتى فقط من

أناتوليا، والقوقاز أو اليونان . كما أن هناك ، ايضًا، إشـارات لأرضٍ تُسمى "ستِ" (Stt < Stt)[157] .

ويشير الارتباط القوى بين نقش ميت رهينة وكنز طود إلى أن ست (فف) تشتمل على أناتوليا . وهناك سطـران، متهرئان، فى النص، يذكران القرابين بشـكل متوازى، بما فى ذلك المعدن، وذلك فيما بين ست (Stt) والمعبد الملكى للإله مونت فى إقليم " يونى" (Iwny)، أرمنت، على البر الغربى للنيل، وعلى مسافة (٢٠) ك.م جنوب طيبة، وكذلك بينها وبين قرابين أخرى من ست، أعطاها أمنمحات الثانى للإله مونت، فى ضرتى (Drty) فى طود (Tod) .

إن الإشارة الدقيقة، حول ذلك، لهى غامضة، ولكنها تبدو هى الأكثر احتمالاً، والأكثر تعبيرًا عن هذا المضمون[158]. كما أن القطع الأثرية، التى جاء ذكرها ليست هى تلك الخاصة بالكنز، وهكذا فإنه يبدو من المؤكد، غالبًا، بأنه، على الأقل إبَّان الدولة الوسطى، كانت ست (Stt) تشتمل على أناتوليا وتضمها، بالضبط كما أضحت كلمة ومصطلح (Stt) معادلة لكلمة " آسيا".

وفى هذه الحالة، فإن ما يبدو وهو (b3)، بمعنى " تدمير" أو " خضوع"، لإقليم ست (Stt)، فى عهد أمنمحات الثانى، - والذى جاء ذكره فى أحد سطور النقش قبل القرابين المقدمة للإله مونت - يأخذ معنى مختلفًا[159] وهذه هى الإشارات الوحيدة للفظة ست (Stt)، ولكن النقش يحتوى على ثلاثة أسماء آسيوية غير معروفة، وكانت قد ذكرت من قبل.

وأول هذه الأسماء هو (Tmp3w)، حيث هناك احتمال واحد فقط ، لذلك ، وهو (Tnpw) أو (Twn(y) p)، "Tunip" ، وهى مدينة فى وسط سوريا . وهذه المدينة الهامة معروفة فى النصوص البابلية منذ عهد الملك حمورابى، وهى الأكثر احتمالاً فى مضاهاتها لغويًا، بالرغم من تناوب الهجاء للفظها بين "n" و "m" [160]، كما أن الصعوبات الحقيقية تتمثل فى أن هذه المدينة " Tmp3w "، توصف على أنها منتجة للرصاص، وهى شىء لا يعرف عنه أى شىء فى سوريا[161]. لقد كان الحديد يصنع، فى كميات صغيرة فى أناتوليا، منذ الألف الثالثة ق.م[162]. وهكذا فإن إحضار

الرصـاص من " Tmp3" قـد يبـدو مـؤشـراً، هنا، للقـوة المصـرية، فـى ذاك الوقت، داخل أناتوليا.

والأسمـاء الأخرى الجديدة، فى النقش، هى لهاتيـن المدينتـين ، اللتـين تدمرتـا أو أخضعتهما الجيوش المصرية : (LwsL) و (L 3sy) ويرى فولفانج هلك (Helck) مدينة "Iwsl" - أو كـمـا يقـرأها هو "3ura" علـى أنهـا هـى اسم "Ura"، الذى هـو مـوجـود فى النصـوص الحيثية والأوغاريتية وكذلك المصرية، بعد ذلك بحوالى (٦٠٠) ستمائة عام، فى القرن الـ(١٣) ق.م، وذلك فى إشـارة إلى مدينة على ساحل كيليكيا[163]. وربما كان ذلك، بالفعل، هو الوضع، والحالة المقصودة. وذلك، بالرغم من أن اسم "Iw3l"، أيضًا، يبدو قريبًا من " (w3iwry) ، نوعًا ما، وهو اسم إيجى، تم العثور عليه على قاعدة عمود للفـرعـون أمنحـوتب الثـالث، ويؤرخ بحـوالى عـام ١٤٠٠ ق.م، وهو الذى ألصقـه مـعظك العلمـاء باسم "(W) Ilios" - Troy [164] ولسـوف يبـدو هذا التـعـريف والمطابقـة بشـكل أفضل إذا أمكن أن تتم قراءة هذا الاسم على النحو التالى "W3y"، ولكن ذلك يبدو غير ممكن. كمـا ذكرت فـى الفصل الثـالث (Chap. III)، فإن قطعًا أثرية مـصـرية هامـة من الناحيـة السيـاسيـة تاريخـها إلى الدولة القديمـة، يمكن، أيضًا، أن تكتشف فى سـهل تروود (Troad)، ومن ثم فإن الاحتمال وارد هناك[165].

ولقـد ضـمن مـيللارت مدينة طروادة (Troy) فى قـائمـة المدن المدمـرة منذ حـوالى ١٩٠٠ ق.م، ولكنه سمح بأن تكون طرواده (V) الخامسة، والتى انتهى مصيرها حوالى الوقت نفسـه، لم يتم حرقـها، ومع ذلك فإنه، أى العلامـة ميللارت، يبدو أكثر إقناعًا فى إدعائه بأنه كان هناك تغيـر صـريح ومطلق أو حـالة انقطاع فى مـشـوار الحـضـارة فى ذاك الوقت[166].

وإن نظرية هيلك (Helck) القـائلة بأن " iw3i" يجب أن تتطابق مع " Ura"، تتـقـوى أكثر بربطها باسم آخر هو " i3sy"، أى مع قبرص، الواقعة جنوبًا، عبر البـحر، بحوالى (١٥٠) كيلو متر، ولكن هذا الاسم يقودنا إلى العديد من التعقيدات الكبيرة، حيث يقع، هو نفسه ، من اسمين آخرين كلاهما يمثل موضوعًا لخلاف كبير. فمدينة أو اسم "Irs" لشكل عـام كان قد تم قبوله على أنه هو اسم " قبـرص"، بالرغم من أن بعض العلماء

يعتبره امتداداً لساحل أناتوليا الجنوبية[167]. وقد قوبل هذا الاسم فى النصوص المصرية، وأماكن أخرى، ولكن فى الدولة الحديثة فقط، ولما كنا نعرف الحقيقة القائلة بأنه خلال الدولة الوسطى، كان حرف " ٣ " حرفًا متحركًا، فإن الاقتراح المقدم من كل من ملتزر (Meltzer) وهيلك (Helck) بأن "i3sy" كانت هى الشكل الأقدم للفظة " آلاسيا" (Alasia) يبدو مقبولاً، ويعتبر ذلك دليلاً مناسبًا، كذلك لنقش ميت رهينة[168].

وكما أشار بوزينيه (Posener) أن (iw3i) وكذلك (i3sy) يجب أن تكون فى آسيا لأن (١٥٤٦) أسيرًا آسيويًا (3nw) كانوا قد أخذوا منهم. أما الغنائم الأخرى فإنها تناسب، اكثر، إما قبرص أو أناتوليا على اعتبار أنها تحوى بلطًا من البرونز، وخناجر وسكاكين. وكانت قبرص معروفة بأنها مصدر كبير لإنتاج النحاس فى نهاية عصر البرونز. ومع ذلك، فإن كثيرًا من العلماء يقبلون الرأى القائل بأنها، أى قبرص، كانت قد أنتجت المعادن منذ العصر القبرصى المبكر، (الثالث/III)حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م[169].

وهنا يبدو أنه كان هناك تأثير مصرى قوى على قبرص إبّان تلك الفترة، التى نشير إليها اختصاراً بـ (E.C.III) . كما أن خرز الدولة الوسطى وتمائمها قد تم العثور عليها فى طبقات (Strata) المواقع الأثرية فى قبرص، وكانت معاصرة لها، هذا بالرغم من أنه لا يوجد أى شىء قبرصى، يؤرخ بالفترة ذاتها، تم التعرف عليه فى مصر[170].

إن الحظ الفاصل بين الإقليم والمدينة الرئيسية فيه ليس دائمًا قاطعًا وواضحًا تمامًا، وفى حالتنا هذه، (أى بين (I3st) و (Iw3I) ، اللتان تكتبان بخرطوشات تستخدم للمدن، وليس بعلامة الجبل ، والتى تستخدم، بصفة عامة، للدول الأجنبية، وفى هذا النص، بالتحديد، لمدينة (Tmp3w)) فإن هناك تغييرًا مستمرًا بين (Irs/Alasia) كمدينة وكبلد. وهكذا فإن (I3sy) يمكن أن تشير إلى مدينة إنكومى (Enkomi) أو أية مدينة رئيسية أخرى فى قبرص[171].

وفي عام ١٩٤٦ استطاع هـ.ت. بوسرت (H.T. Bossert)، المتخصص فى تاريخ وآثار أناتوليا القديمة ، أن يطابق ، بوضوح، بين (isy) ولفظة أسوا (Assuwa)، الاسم

الحيثى لملكة فى غرب أناتوليا، والتى منها – كما ذكرنا آنفًا – جاء الاسم اليونانى آسيا (Asia) [172] . ومنذ أمد بعيد عام ١٨٨٦م، قام عالم المصريات والمؤرخ القديم جاستون ماسبيرو (G. Maspero) باشتقاق اسم آسيا من اللفظة ذاتها، أى / isy ، فى أحد أشكالها المتطورة، والتى كان يراها، فى الأصل، هى اسم لقبرص[173].

وهناك احتمال لحل واحد فقط، لهذه المشكلة المعقدة، يأتى من نقش ميت رهينة، حيث لفظة واسم " I3sy" وهذا يفترض نوعًا من التكييف المصرى والموائمة إما للفظة محلية أو لاسم من الليفانت هو "I3sy" للدولة على قبرص، والتى كانت قد مدت كيانها حتى شمل أجزاءً أخرى أبعد، فى اتجاه الشمال الغربى، وهذه النظرية قد تتفق ، بشكل مرضى، مع النتائج التى توصل إليها عالم التاريخ القديم ج.أ وابنرايت (G.A. Wainwright) ، عام ١٩١٥، بأن " isy" تقع على سهل ساحلى، وكانت لها حدود مع سوريا وآسيا الصغرى، وكذلك روابط مع كيليكيا، ولم تكن أبدًا تسمى جزيرة[174].

وعلى الجانب الآخر، كان العالم اليونانى د.ج. جيورغاكاس (D.J. Georgakas) - فى دراسته المفضلة عن اسم آسيا – قد سجل اعتراضين على هذا النوع من التنظير، الاعتراض الأول يقول بأن المصريين كان لديهم، بالفعل، اسمًا لآسيا، وهو فى لفظة "Stt" . ومع ذلك، وبعد أن أعطينا وأوضحنا غموض هذا المصطلح الأول كما أسلفنا، فإننى لا أرى سببًا لئلا تكون لمناطق معينة فى أناتوليا الغربية أسماءها الخاصة بها. أما اعتراض جيورغاكاس الثانى فهو أقوى من سابقه بكثير: إنه يقول بأن أسُّوا (Assuwa) اسم مستقر تمامًا فى لغات أناتوليا، وليس هناك ضرورة لأن نقترح أصلاً مصريًا له[175].

وهكذا، فبينما نجد ارتباطًا واضحًا بين " isy" و "Assuwa" و آسيا (Asia) ، فإن أصول ألفاظها ليست كذلك. وبالمثل، فبينما هناك احتمال كبير جدًا بأن " I3sy" كانت شكلاً قديمًا مبكرًا للفظة Irs/Alasia/Cyprus فإنه من الممكن، أيضًا، أن تكون هى أصل كلمات "isy /Assuwa/Asia" إن تقرر وجود الأسرى (r3mw) والغنائم من المشغولات المعدنية قد يناسب الاحتمالين، وإن قبرص هى الأقرب إلى مصر، وقد تكون أكثر

احتمالاً على هذا الأساس، وعلى أية حال، فإن أسماء "Stt" و "Tmp3w" و "Iw3I" وكذلك "I3sy" ومنتجات تلك المدن (أو / الأقاليم)، المسجلة فى نقش ميت رهينة، تشير بوضوح إلى أن حملات سيزوستريس كانت قد سارت بعيداً إلى ما وراء الإقليم السورى – الفلسطينى (Syro - Palestine)، وتوغلت إلى داخل قبرص وأناتوليا.

الخلاصـــة

إنه منذ مطلع القرن التاسع عشر (١٩) الميلادى كان قد تم التشكيك فى المادة التراثية، التى وصلتنا، حول حملات سيزوستريس الشمالية، وذلك قبل القيام بأية حفائر أثرية، بمدة طويلة، وقبل العثور على أى دليل كتابى (نقشى) حول الموضوع، وكان قد تم رفضها وعدم التصديق فيها، لأنها - أولاً - خضعت لمنطق الشك الحديث الذى لا يتسامح مع مثل هذه التخمينات حول مرحلة تاريخية مبكرة، مثل حالتنا، والتى ليس حولها إلا دليل ضئيل للغاية، كما أن هناك، أيضًا، اعتراضات دينية على التاريخ المصرى فيما قبل عصر الهكسوس، الذى يقترب كثيرًا، بصورة خطيرة، من فترة الخلق[٥٢] (Creation) كما يجب أن نضيف إلى هذا كله، تلك الروح العنصرية المنظمة والمتزايدة التى رأت فى قيام حاكم إفريقى بحملات عسكرية (ليس فقط إلى الليفانت، بل وأيضًا إلى آسيا الصغرى وأوروبا) عملاً لا يمكن الاقتناع به.

وهكذا، فإن كل الحفائر والاكتشافات الحديثة، التى يمكن أن تلقى ضوءًا على موضوعنا، قد تم النظر فيها على أساس " العلم والإلمام " بأن المادة الأدبية التراثية حول حملات سيزوستريس الشمالية كانت بحق مضحكة ومنافية للعقل. وإذا ما سأل سائل حول هذا الانطباع الأولى المبدئى فإن ألوانا عديدة من الأدلة التى وضعناها فى اعتبارنا سابقًا كأدلة غير ذات صلة بالموضوع، تناسب نمطًا ما يتماسك نسبيًا ومترابط. وهذه الأدلة تحتوى على عناصر القوة المركزة والتعقيد العسكرى العظيم لجيوش الأسرة الثانية عشرة، والتى ظهرت بجلاء بتحصيناتها الفائقة، على غير ذات مثال، فى النوبة، وكذلك التدمير، الذى حدث تقريبًا فى ذات الوقت فى كل من أناتوليا والبلقان، هذا فضلاً عن كنز طود الذى يحوى أدوات معدنية ثمينة ومجوهرات كان قد تم اهداؤها للإله مونت، إله الفتوحات الشمالية، بالإضافة إلى النقوش واللوحات الجدارية من المبانى التى أهديت للفرعون سنوسرت الأول وابنه أمنمحات الثانى.

إن نقش ميت رهينة لا يشير إلى أى احتلال مصرى محتمل فى اليونان. وحتى إذا تمت ترجمته، بأوسع معانيه الممكنة. وتم الربط بينه وبين الروايات التراثية حول سيزوستريس، فإن تأثيره سيقتصر، فقط، على الاقاليم المجاورة لأناتوليا وثراكى، وليس اليونان، البلد الأم، وشبه الجزيرة نفسها. أما لماذا، عندئذ كان يجب دراسة هذا الموضوع، فى هذا العمل، فى هذا الفصل والذى يليه؟ فإن الإجابة عن السؤال الأول ينحصر فى علاقته بالنموذج القديم (Ancient Model) ونقش ميت رهينة يؤيد ما تم اعتباره، بشكل عام، كأسخف مجموعة قصصية، غير منطقية، رواها لنا هيرودوت والكتاب اليونان للعصر الهيللينستى. وإذا كان هناك عناصر أساسية، ذات مضمون للحقيقة فيها، فإن " النموذج القديم " يجب أن يوضع فى الاعتبار بشكل أكثر جدية بصفة عامة.

كما أن نقش ميت رهينة يشهد، على وجه الخصوص ، بأن المصريين لم يكونوا دائمًا « جلوسًا – فى – بلدهم » [Stay - at - home] ، وشعبًا محافظًا، بالضبط كما كان يظنهم ويعتبرهم، عادة مؤيدو " النموذج الآرى" (Aryan Model) . ولقد قدم عالم الكلاسيكيات/ بول فوكار (P. Foucart)، مع مطلع هذا القرن، وجهة نظره القائلة بأن اكتشاف اللوحات الجدارية للحملات البحرية، فى عهد الملكة حتشبسوت، إلى افريقيا، والتى تم الكشف عنها فى معبد الدير البحرى، قد غير تلك الصورة تمامًا، وأنه لم يكن هناك سبب يفرض على المصريين أن يحصروا هذا النوع من المغامرة والكشف صوب الجنوب فقط(176).

إن كثيرين من مؤيدى النموذج الآرى، غير القادرين على رفض وجهة النظر هذه، قد تجاهلوها. والآن يأتى نقش ميت رهينة ليرفع من جديد هذه المشكلة فى صداره الاهتمام وبشكل أكثر حدة عن ذى قبل، فى وقت ملائم تمامًا حيث لم يعد مؤيدوا النموذج الآرى قادرين بعد على أن يحتفظوا بقدرتهم على امتلاك واحتكار سلاح "الحقيقة العلمية".

وبالضبط، كما حدث فى الفصول الأربعة الأول، يبدو من الأهمية بمكان أنْ نستعرض الدليل الأثرى المكتشف فى كريت وبيوتيا داخل إطاره الأسطورى والتعبدى

(الدينى) وأسماء المواضع، وذلك بهدف وضع نقش ميت رهينة وما جاء فيه تحت الاختبار، وكان على، لتحقيق ذلك، أن أتقدم بأدلة أخرى أكثر من مصادر مختلفة، وبخاصة الأثرية منها.

إنه بالرغم من نقص الصرامة والقطع فى هذا العرض لمادتنا على أساس الاختيار، فإننى على يقين بأن الصورة النهائية والإجمالية التى قدمناها بهذه الطريقة تشير إلى أننا - فى هذا الموضوع وغالبًا فى الموضوعات الأخرى - يجب ألا نؤمن إيمانًا كاملاً فى الحكمة المأثورة التقليدية، ولكن يجب أن نعطى ثقة أكبر فى النموذج القديم[٥٣]. ومع ذلك، فإن هناك مصدرًا آخر، محتملاً، للمعلومات، والذى يمكنه وضع التقارير اليونانية على المحك، وهو الأساطير، والحكايات، والذاكرة الشعبية فى العالم القديم، فإلى هذه سأتوجه فى الفصل التالى.

أولاً - هوامش الفصل الخامس

(1) Farag (1980), p. 75), Posener (1982, P.7); Petrie and Walker (1909, pp. 6-7, 17-18).

(٢) يعتقد كل من فرج وبوزينيه بأن النقش لابد أن يتم تقييمه على ما هو عليه، وأن يؤرخ بالأسرة الثانية عشرة، كما فعل جيفون (Giveon, 1985, p. 16, n, 34) ولكن وليان وارد (William Ward)، الذى هو على القدر نفسه من التخصص لتاريخ الدولة الوسطى، يستبعد هذه الآراء. وعلى النقيض من اقتراح وارد، يمكن اعتبار أن عدم معرفتنا بأسماء الأماكن الأجنبية فى نصوص الدولة الحديثة، يبدو مقبولاً فى ضوء ملابسات ومعايير النطق للغة المصرية إبّان الدولة الوسطى. ولهذا السبب فإننى أفضل اتباع نظرية كل من فرج وبوزينيه وأن نقبل تأريخها للأسرة الثانية عشرة، وهو الرأى السائد الآن، بوجه عام ، من علماء المصريات، راجع/ O'connor (1990) ..

(3) Farag (1980, pp. 78-79; Posener (1982, p. 8)

وحول لفظة ست (Stt) انظر جاردنر (Gardiner 1947, I, p. 177) &

(Gauthier 1925-31, I,p. 95) .

(4) Gardiner)1961, a, p. 126)

(5) Simpson, (1948: a, col. 891).

(6) Herodotos, II. 110 & Diodoros, I. 57.5 & Lloyd (1988, pp. 36-7).

(7) حول مذهب الشك، وموقفه من هذا، راجع/Simpson (1984, b, cop. 950)

وحول الاعتقاد فى أن القتل كان ناجحًا، راجع/ بوزينيه

(1956, pp. 66-73) & Blument hal (1983, pp. 105-106).

(٨) وحول مراجع بيلوجرافية حول هذه اللوحة (Stela)، وحول اسم (New Mntw) نفسه، راجع/ بوزينيه (1971, p. 538) & Simpson (1984 a, col. 899)

(9) راجع / Lichtheim (1975, I, pp. 222-35)

وحول المراجع الخاصة بالترجمات العديدة لهذه القصة الشهيرة، راجع /Lichtheim

(المرجع السابق، صص ٢٢٢-٢٢٣) وكذلك سمبسون (Simpson, 1984 b, col. 953)

(١٠) حول مناقشة مطولة لموضع بلدة او إقليم رتنو (Rtnw)، راجع/

Gardiner (1947, 1, pp. 142-9)

(11) Posener (1971, p. 538)

(12) Posener (1971, p. 539)

(13) Albright (1960, p. 85).

(14) Posener (1940, 1956, and 1971); Giveon (1978 a, pp. 61-72; 1981; 1985).

أما العالم فاينشتاين (Weinstein)، الذى عارضه جداً كثيرون والقائل بفكرة قيام إمبراطورية مصرية لحساب الدولة الوسطى، فكان قد سمح وصرح بأنه هناك جعارين عديدة للفرعون سنوسرت الأول فى فلسطين، وأن تمثالاً لسيدة، يحتمل بأنها أبنته، عثر عليه فى منطقة تل جزر [1974, p. 52] (Tell Gezer)، وإن الأدلة الأثرية، التى على أساسها بنى رأيه، وقال بأن هذه الأميرة كانت هى إبنه أمنمحات الثالث، قد اختفت منذ ذاك التاريخ.

(15) Posener (1956, p. 109)

(16) Posener (1971, p. 540)

وحول الاستشهاد الوارد فى المتن، راجع/ ليشتهايم

(Lichtheim, 1975, I, p. 188).

(17) Giveon (1975, cols. 462 - 63).

وراجع أيضاً، قائمة المراجع القصيرة، حول الاسم، فى "Helm" (1980, p. 229, n.5.).

(١٨) هناك خلط بين اسمين ظهر فى صعوبات حول مرجع هوميروس واشارته لأناس يدعون " إرمبوى : Ermboi "، فى إحدى فترات الأوديسيا، عند وصفها لرحلات ومغامرات بطلها أوديسيوس وكذلك مينيلاوس، حيث يقول (IV: 82-5) "وتحولت حول قبرص وفينيقيا ومصر، ووصلت إلى الإثيوبيين وأهل صيدا، وكذلك الإرمبوى، فضلاً عن ليبيا ...."

وفى التاريخ القديم، اعتبرت هذه إشارة إلى العرب (Strabo, I, 41)، ولكن – وكما لاحظ هلم (Helm) فإن ذلك يمكن أن يستعاض عنه باسم: الآراميون "، حتى يمكن، ببساطة، أن تعنى لفظة " إرمبوى: Erem-boi " بنو الشرق الأدنى القديم. وهناك، أيضاً، إشارة يونانية أقدم للعرب، جاءت عند هيسيود (Hesiod)، فى عمله المعروف باسم: " كتالوج النساء"، حيث يقول: " ابنه العربى، التى أنجبتها هيرمايون (Hermaon)، الغالية، مع ثروينا (Thromia)، ابنه السيد بيلوس (Belos)"[Frag. 15 (137),] وترجمة إيفلين وايت Evelyn - White (1914, p. 167), frag. 137 وترجمة إيفلين وايت

وذلك فى كتاب ، أيضاً، (Merkelbach and West 1983) .

(19) Iliad, II. 782 - 85.

(20) Vian (1960, pp. 19 - 24).

(21) Fontenrose (1959, p. 71, n.2) وهو هنا يعرض رأياً ضد رأى فيان

(Vian, 1963, pp. 64-82).

(22) Fontenrose (1959, pp. 82,177-93),

وحول اتصال وعلاقة المصطلح (Stt) بالشاطئ أو الإقليم السورى – الفلسطينى، انظر فان سترز:
Van Steres, 1966, pp. 99.

(23) Chantraine (1968 - 75, p. 371)

حول ذلك كتب شانترين (بين القوسين السابقين) على أنه : (Rien de chair)، وكذلك استبعد نظرية بوكورنى (Pokorny) (1959 - 69, pp. 332-3) حيث حاول فيها أن يشتق كلمة: eremo من جذع كلمة أوروبية – هندية (Indo-Europ) وهو " ...er " بمعنى " أترك ".

(24) Posener (1971, pp. 540 - 1)

وحول قائمة بهذه التماثيل، انظر هلك (Helck):1971, pp. 68-9

(25) Ward, (1961, pp. 17-39) ; Stevenson Smith (1965, pp. 14-150) & ibid., p.15, n. 48. وذلك حول بيلوجرافيا كاملة لكل هذا

(26) Posener (1971, pp. 540-1) For the pictures, see Davies and Gardiner (1936, plates X and XI)

(27) Helck (1971, p. 41).

(28) Ward (1971, p. 68).

(29) Posener (1982, p. 8).

(30) Helck (1989, p. 27).

(31) Maspero (1901, p. 593).

(32) Volume 1,pp. 252, 306.

(33) Bunsen (1848 - 60, I, 309-24); Maspero (1901, p. 593).

(34) Sethe (1900, 1904). Burton (1972, p. 164) وهو الذى يؤرخ لمقالات زينه (Sethe) تأريخًا خاطئًا بعامى ١٩٠٢ و ١٩٠٥ بالترتيب.

(35) Maspero (1901), pp. 596-7

وهو الذى قبل قراءة زيته لاسم " سنوسرت"، ولكنه يعتقد أساسًا بأن اسم " سيزوستريس" تم اشتقاقه من لفظ مركب من "Ramesses, Rcsstsw" ومع ذلك فقد قوض زيته هذا التفسير لهذه الحالة، وذلك عام ١٩٠٤.

(36) Burton (1972, p. 166).

(37) Diodoros, I. 53. 8.

(38) Gardiner (1957, p. 74).

(39) Manetho, frs 32, 34-6, trans. Waddell (1940, pp. 64 - 73).

(40) For details, see delia (1980, pp. 24- 107).

(41) Pace Hayes (1971, p. 505), who sees Senwosre III as the prototype.

(42) Manetho, Frs 32, 34 -6.

(43) Herodotos, II. 100- 110, trans de Selincourt (1954, pp. 166 - 9)

(44) Diodoros, I. 53. 5 - 58.2, trans, Oldfather (1933, pp. 187 - 95).

(45) See Sethe (1900, 1904); Maspero (1901); Rattenbury (1933); Braun (1938, pp. 13- 18); Lamge (1954); Malaise (1966); West (1977); Lloyd (1982; 1988, pp. 16-18).

(46) Posener (1956, p. 15).

(٤٧) قام عالم المصريات السوفيتى والمتخصص فى الدراسات القبطية بيتر فيكتور فيتش إرنست (P.V. Ernshtedt) بتأصيل الاشتقاق المصرى لكلمة " My thos" فى عام ١٩٢٥ .(pp. 55-7) ولكن شانترين (Chantraine) يعطى المعنى الأصلى لكلمة (Mythos) على أنها " تطور كلمات لها اتجاه محدد، وهدف، وخط سير واحد". وكذلك على أنها محتوى كلمات". وكذلك فإنه يجب أن نذكر الحقيقة القائلة بأنه لا يوجد اشتقاق أوروبى/ هندى (Indo-European) لهذه الكلمة.

(48) Megasthenes, cited in Strabo, XV, 686, and Arrian, Indica, V. 4.

(49) See Herodotos, II, 110, and Diodoros, I. 58 . 4. For a modern discussion of this see Lloyd (1982, p. 37).

(50) Georgacas (1969, pp. 34-7). See also Helm (1980, p. 23. n. 23). For Egyptian etymologies or renderings of Asia, see nn. 164-72 below.

(51) See ch. VI, nn. 12 -14.

(52) For a bibilography of this, see Posener (1956, pp. 68-9).

(53) Spiegelberg's explanation of Sesostris escaping from the fire over the bodies of two his sons, as the result of' a dragoman's tale based upon a frequently recurring repersentation of the triumphant Pharaoh, He is often depicted with his feet placed on two heads symbolizing the foreign enemies of Egypt, the Negroes and Syrians' (1927, p. 25) is farfetched but possible.

(54) The parallel was first pointed out by Iversen (1961, p. 149, n. 16). See also Burton (1972, p. 171). For detalis, see Delia (1980, pp. 54 - 6). The sign (well) was used for hm (female organ) from Middle Kingdom times.

(55) Sethe (1900, p. 3.); Malaise (1966, p. 250); Burton (1972, p. 178).

(56) Emery, 1960, p. 6; Clutton- Brock (1974, pp. 92 -3). For the chariots' illustrated on cylinder seals from Kultepe II, see Drews (1988, pp. 93-6). Drews (n. 48) accepts a 'middle chronology' dating of 1910 - 1840 for Kultep II.

(57) For official involvement in the transport of gods, see, for instnce, the Stela of Ikhernofret (Berlin Museum 1204), translated in Lichtheim (1975, pp. 123-9). For the newness of Senwosre I's title of 'God', see Blumenthal (1985, pp. 108-9). See also Springborg (1990, pp. 46-7).

(58)Volume 1, pp. 170, 185.

(59) See Volume 1, p. 326.

(60) For acceptance of the stories of Sesostris' conquests in Africa and Arabia. See, for instance, Sethe (1900, pp. 16-20), Malaise (1966, pp. 260-4)and Lloyd (1988, p. 36). Lloyd gives a full bibliography of the secondary literature on this point.

(61) Foucart (1914, p. 4) cited by E. Meyer (1928 - 36, I, p. 263). For more on Focart, see Volume 1, pp. 264-5, 314, 380, 383.

(62) See Lichteim (1975, I, pp. 211- 15).

(63) Naville (1894 - 1908, III, plated 69 - 71); Stevenson Smith (1958, pp. 136, 138; 1965, p. 7).

(64) For Ramesses fleets, see Burton (1972, p. 160). For the 18th Dynasty navies, see Hayes (1973, pp. 367-9) and Save-Soderbergh (1946, pp. 33-50). See also ch. X, n. 86.

(65) Herodotos, II. 100.

(66) See the inscription from the 19th year of Senwosre III (C. 1864 BC) from Uronarti (Khartoum 2683)discussed in Delia (1980, pp. 77-9). For a literary explanation of Sesostris having been checked by shoals, sea Lloyd (1988, p. 19). Lloyd accepts that the text was referring to the sea not the Nile.

(67) Diodoros, I, 55. 6.

(68) See, for instance, Wildung (1984, Plates 140, 150-1).

(69) Adams (1984, pp. 176- 81). For a comparative view of these fortifications, see van Seters (1966, pp. 33-7).

(70) Parker (1950, p. 69).

(71) Parker (1976, pp. 178 - 84); Kitchen (1987, p. 43).

(72) Krauss (1985, pp. 73 - 82); Kitchen (1987, p. 43).

(73) Meyer (1994, pp. 45 - 51).

(٧٤) هناك اعتقاد حديث منذ أن نقل فارينا (Farina) النص الهيراطيقى إلى الهيروغليفية فى الجزئية V. 1. 18 من قائمة تورين (1938,p. 35) (Turin Canon)، إلتصق به إدعاء متردد، نوعًا ما، على يد العلامة وينلوك (Winlock, 1940, p. 118.2) بأن هذه الأسرة استمرت لمدة ١٤٣ عامًا. ونقل ذلك عنه جاردنر فى دراسته له (Gardiner, 1959, p. 16) ومع ذلك فإن زيته، عام ١٩٠٥، قد قرأه بزيادة ١٦٠ عامًا وهو الشىء الذى قبله ماير (Meyer, 1907, p. 21) وكذلك برستيد (Breasted, 1906, I, p. 41) . إنه لمن المستحيل أن نصدر حكمًا قاطعًا حول هذه القضية، التى هى غامضة تمامًا.

(75) Gardiner (1959, pp. 11- 13)

(76) Stock (1949, p. 103).

(77) Breasted (1906, I, pp. 40-5).

(78) Meryer (1907 b, pp. 68, 178).

(79) Gardiner (1961 a, p. 67).

(80) Hayes (1971, p. 996). For a bibliographical survey of the trend to diminish or annul the 1st Intermediate Period, see Kemp (1980, p. 27).

(81) Mellaart (1979, pp. 7-11).

(82) Mellaart (1979, p. 7).

(83) Kemp (1980) and Weinstein (1980).

(84) Haas et al., (1987). Their results also appear to have been supported by work on a different sample processed with the methods at Hanover, Haas et al., (1987, p. 597).

(85) Haas et al., (1987, pp. 586-7).

(86) Shaw (1985).

(87) Shaw (1985, p. 304); Haas et al., (1987, pp. 596-7).

(88) Haas et al., (1987, pp. 588-9).

(89) See Weinstein (1989 b, p. 103). See also Harding and Tait (1989, pp. 151-2).

(90) For a survey of the finds at Ebla and some of their implications, see Pettinato (1981).

(91) Matthiae (1981, p. 9).

(92) Pettinato (1981, p. 107).

(93) Matthiae (1988, p. 76).

(94) Matthiae (1988, p. 77). Synchronism in Byblos also indicate that Sargon reigned during the Egyptian 1st Intermediate Period.

(95) Huber (1987 b, p. 9).

(96) Pettinato (1981, p. 107; personal communication, cornell, 1983).

(97) Steinkeller (1986, pp. 31-40).

(98) See Gardiner (1961 a; pp. 62-3); O'Mara (1979, addendum).

(99) Mellaart (1979, p. 9).

(100) Kemp. (1980 , p. 25).

(101) See Mit Rahina, col, 5+ X.

(102) Gardiner (1961 a, pp. 112-16).

(103) Smith (1965, p. XXXIV).

(١٠٤) أنظر كاليندر (Callender, 1975, p.1)، الذى يصل باقتراحه إلى حد أن اللغة المصرية الوسيطة (فى مرحلتها الوسطى: Middle Egyptian) كانت هى اللغة المتحدث بها فى أواخر الدولة القديمة وكذلك فترة الانتقال الأولى. إنه صحيح أن الاختلافات بين المصرية الحديثة والوسيطة أكبر بكثير مما هو موجود بين اللغة المصرية القديمة (فى مرحلتها العتيقة) والوسيطة،، وأنَّ المساحة الزمنية المفقودة لمدة ٢٣٠ عامًا، لفترة الانتقال الثانية هى أقل بكثير من المدة الزمنية لـ ٣١٠ عامًا، نقدرها نحن هنا، لفترة الانتقال الأولى، ومع ذلك فإن الحقيقة القائلة بأنه بينما كانت اللغة المصرية العتيقة والوسيطة قد ظهرتا اعتماداً على اللغة المتحدث بها فيممفيس (منف)، فى مصر السفلى (الدلتا)، فإن اللغة المصرية الحديثة كانت هى اللغة المتحدث بها فى طيبة (Thebes)، فى مصر العليا (الصعيد): أنظر/ جرينبرج Greenberg, 1986, pp. 282-3 وهكذا يكون هناك مسافة إقليمية كبيرة، وكذلك زمنية فى الحالة الثانية.

(105) Huber (1987a, p. 17). See also Huber (1982). The 'long' chronology is not the higher chronology proposed by Landsberger and Nagel (see Strommenger, 1964, chart). This is some eighty years earlier still. It should, however, be pointed out that Huber has not checked his figures against higher chronologies as thoroughly as against the lower ones. For his dismembering of objections see Astrom (1987) - 9, III, pp. 61-3).

(106) Mellaart (1957, 1958, and 1967).

(107) Personal communication from Peter Kuniholm, Cornell, October, 1990.

(108) See Maps and Charts.

(109) Mellaart (1982, pp. 31-2).

(110) Mellaart (1982, pp. 31-2).

(111) Curney (1973, pp. 229-32); Watkins (1986, pp. 45-8).

(112) Volume I. pp. 13-14.

(113) Lang (1966, pp. 43-4 ; 1977, p. 76) ; Burney and Lang (1971, 78-85); Bosch- Gimpera (1980, p. 171); Mellaart (1967, pp. 36-8).

(114) For the old view, see Mellaart (1967, pp. 29-31).

(115) Larsen (1976, pp. 80-105).

(116) For a bibliography of the debate, see Gurney (1973, pp. 232-3). Macqueen (1975, p. 21) and Mellaart (1978, p. 57) plump for the later date.

(117) Balkan (1955, pp. 58-63). Dendrochronology seems to be on the brink of estabisining a date for the destruction, but the tree-ring sequences have not yet been anchored to an absolute chronology. See Kuniholm and Newton (1989).

(118) Balkan (1955, pp. 42-3, 58-63).

(119) Cited by Mellaart (1957, p. 58).

(120) Larsen (1976, pp. 81-4).

(121) Mellaart (1958, p. 9) and (1967, p. 37)- C. 1900 BC; (1978, p. 49)- C. 1940 BC.

(122) Mellaart (1958, p. 10).

(123) Muhly (1973 b, p. 326). For Mellaart's repetitions of his thesis see (1967, pp. 44-5). However, he omits it in 1978.

(124) Bittel (1970, pp. 46-7). For the report of burning, see Mellink (1977, p. 293).

(125) Kadish (1971, p. 123).

(126) Mellaart (1958, p. 10).

(127) Mellaart (1958, p. 14).

(128) Mellaart (1978, map on pp. 46-7).

(129) Bisson de la Roque et al. (1953, pp. 7-14) ; Helck (1971, p. 382). For a bibliography on this, see Kemp and Merrilles (1980, p. 290, n. 690). See also Vandier (1972, pp. 260-1).

(130) Bisson de la Roque et al. (1953, p.10).

(131) Pace Kemp and Merrilles (1980, p. 296).

(132) Davis (1977, pp. 69-78, esp. p. 72; 1974, pp. 46-81); Kemp and Merrillees (1980, p. 290).

(133) Porada (1950, pp. 155-62). It is significant that Kemp and Merrillees make no mention of the seals which put the cap of futility on their ingenious attempt to downdate the treasure, which mars their otherwise splendid work.

(134) Bisson de la Roque et al. (1953, p. 9 and plates XLIII - XLIX) ; Kemp and Merrillees (1980, p. 295).

(135) Posener (1971, p. 540).

(136) Unpublished but quoted by Posener (1971, p. 543).

(137) See nn 36-7 above.

(138) Kemp and Merrilles (1980, p. 295).

(139) Erman and Grapow (1982, II, p. 92).

(140) Farag (1980, p. 78, line 9+X); Borghouts (1982, cols 200-4). See below. Helck (1989, p. 29) makes the general connection between the mit Rahina inscription and the Tod Treasure.

(141) Mellaart (1958, p. 11).

(142) Dumitrescu (1982, pp. 37-43); Garasanin (1982 a, pp. 142-52).

(143) Dayton (1982 a, p. 155).

(144) Diodoros, I. 55.6-7.

(145) See n. 49 above.

(146) Lang (1966, pp. 43-5; 1978, pp. 70-3) ; Muhly (1973 b, pp. 202-6); Mellaart (1982, pp. 22-3).

(147) Burney (1958, pp. 169 0 75); Lang (1978, p. 78); Burney and Lang (1971, p. 95).

(148) Burney (1958, p. 178); Lang)1978, p. 78).

(149) Burney and Lang (1971, p. 85).

(150) Lang (1978, p. 76).

(151) Schaeffer (1948, pp. 544-5).

(152) Mellaart (1978, p. 47, map). For the high development of metalwork in EBIII Anatolia see Yakar (1985).

(153) Maxwell- Hyslop (1946).

(154) Tylecote (1976, p. 21); Yadin (1963, I, pp. 60-2, 153-75); Maxwell- Hyslop (1946). See also ch. IX, nn. 22-34 below.

(155) Lang (1978, p. 77). See, for instance, the two splendid 12th h-Dynasty gold-mounted ointment jars made from Caucasian obsidian illustrated in Wildung (1984, p. 93, plate 82).

(156) Helck (1971, p. 389). The main silver and lead mines are those near Sebinkarahisar some fifty-five miles south of Giresun on the Black Sea and Ergani Maden near Diyarbakir on the Upper Euphrates in Central Turkey. See Dayton (1982 a, p. 166).

(157) Gardiner (1947, I. P. 177).

(158) Farag (1980, p. 78, lines 9+X and 10+X). not only the transcription but the style of these passages is obscure. See, for instance, the use of dy instead of the more usual rdi, and ds not for 'beer jugs' but offerings in general as in the determinative for inw (tribute). For this see Gardiner (1957, p. 530). The reading I propose also involves using o n (y)w for 'of ' rather than n or nt as was common in the Middle Kingdom. The reason for reading as the foreign country rather than as a 'cake' is the reference earlier in the line to (copper or bronze of Stt) . I am deply

indebted on this point, as for so much elso, to Edward Meltzer. He of course bears no responsibility for my conclusions. For another discussion of the writing of Stt and a reference to in the term sttyw (Asiatics) in an 11th Dynasty inscription, see van Seters (1966, p. 107).

(159) Farag (1980, p. 77, lines 8+x). I follow Posener (1982, p. 8) in reading the 'bird' before Stt as b3.

(160) Helck (1971, pp. 295-7, 571).

(161) Muhly (1973 b, pp. 209-11) doubts even the reports of copper mining in the region.

(162) Genesis (4.33). for the iron-working see Tylecote (1976, p. 40). See also Yakar (1985). See also ch. XI, n. 76. for a discussion of the exchanges between m, p and b with especial referance to Anatolia see Bernal (1990, pp. 92-3). See also Helck (1989, p. 28).

(163) Helck (1989, p. 28).

(164) Cline (1987, p. 28). For forther discussion see ch. III, nn. 122-4 above.

(165) See ch. III, n. 122 and Macqueen (1975, p. 18).

(166) See above n. 121.

(١٦٧) راجع جاردنر (Gardiner, 1947, p. 131) وكذلك هيلك (Helck, 1971, pp. 282-3) .
ولكن سترينج (Strange, 1980, pp. 169-83) يعتقد بأن ألاشيا (Alashia) ليست هى قبرص، مع أن فاكسمان (Wachsmann, 1987, pp. 99-102) يميل بشدة إلى جانب التفسير التقليدى. ولقد كانت النقطة الرئيسية، والتى ألمح إليها قبل ذلك بحوالى خمسين عاماً العالم باور (Power, 1929, p. 156) تتمثل فى أن ألاشيا لا يمكن أن تكون مدينة شمال ببلوس لأنها - استناداً إلى ما جاء فى خطاب تل العمارنة رقم ١١٤ حيث يرى ملك ببلوس رب - أدى (Rib-Addi) مدينة ألاشيا فى الطريق الموصل إلى مصر، وذلك بتنادى المرور على أعدائه. وفى عام ١٩٨٧ أدعى مريلليس (Merrillees, 1987, p. 59)، بطريقة غير مقنعة بالمرة، بأن هذا الاجتهاد والتفسير يشبه ما قال به أستور (Astour) يوماً ما، عندما أنكر الأخير - بطريقة خاطئة تطابق موقع تل مرديخ (Tell Mardikh)مع إبلا (Ebla) على أساس أن التل لم يرد فى نص رحلة وصفت إبلا. ويبدو أن ميريلليس كان على حق تماماً عندما أشار إلى أن تعريف ألاشيا بقبرص ليس تفسيراً أمنًا مثل تلك المدن الأخرى أمثال إبلا وأوغاريت حيث ورد الاسم مذكوراً بوثائق محلية عديدة، ومن ناحية أخرى فإنه، أى ميريلليس، وفريقه، لا يقدمون لنا موقعًا بديلاً آخر لمدينة ألاشيا، ومن ثم فإنه لا يوجد تعريف أو مسمى جغرافى آخر، من الألف الثانية ق.م، لقبرص ، لا فى المصادر المصرية أو الليفانت، أو المصادر الحيثية أو حتى العراقية القديمة (مسوبوتاميا). وهكذا فإن هذا التعريف يظل مقبولاً تماماً.

(168) Meltzer (personal communication, 22 October 1987) and Helck (1989, p, 28). Vercoutter (1956, p. 93, n.4), noting that list appeared only after the reign of Akhenaten, argued that it must have been preceded by Isy. L3sy seems more probable, though isy may also have been used.

(169) Farag (1980, p. 79, line 16+x); Posener (1982, p. 8).

(170) Catling (1971, pp. 818-22); Merrillees (1977, pp. 44-6).

(171) Ward (1961, p. 30). Merrillees (1987, pp. 67-71) gives a thorough survey of the pervious literature surrounding this ambiguity. See also Helck (1989, p. 27-8).

(172) Bossert (1946, pp. 5-40, 177).

(173) Maspero (1886, pp. 361-8).

(174) Wainwright (1915, pp. 1-36).

(175) Georgacas (1969, pp. 39-41). Vercouter (1956, p. 181) avoids this problem by simply denying any connection between isy and Assuwa. As Merrilles (1987, p. 36) pointes out, Vercoutter does this 'not on philological but on historical grounds'.

(176) Foucart (1914, pp. 2-3). For more on foucart, see Volume 1, pp. 70, 264-5, 314, 380, 495. foucart's ideas will be discussed in some detail in Volume 4.

ثانيًا - هوامش أضافها المترجم

(١) الليفانت (Levant) . فى التاريخ القديم ، ووفق تقدير الجغرافيين لموقع هذا الاقليم ، يشمل شمال سوريا وجنوب شرق تركيا الحالية . والحق أنَّ المصادر الكلاسيكية اليونانية ، وكذلك اللاتينية ، لم تذكر هذا الاقليم بهذا الاسم ، بينما كان الاقليم الآخر " أنا توليا " (Anatolia) هو الأكثر شهرة وورودًا فى تلك المصادر .

(٢) انا توليا (Anatolia) ، هى الجزء الجنوبى من تركيا الحالية ، وربما أشتقت منها كلمة "الأناضول" التى تشير الى وسط تركيا الآن.

(٣) لا يشير المؤلف من أين نقل ترجمة هذه ، ولا ما هو مصدره الكلاسيكى فى هذه المعلومة التاريخية الدامغة ، بالرغم من وضعه لها بين علامة تنصيص وربما كان هيرودوت هو مصدره ، فى ذلك ، ولكن لا ندرى أين ؟

(٤) ويُقصد بها الهلال الخصيب (العراق) . وهو مصطلح يونانى النشأة والتركيب ، منذ العصر الكلاسيكى ، على يد هيرودوت ، فى كتابه التاريخ / من تواريخة ، وهو الذى كان قد وعد بكتابة كتاب خاص بحضارة العراق القديم – كما فعل عن الحضارة المصرية ، ولكن ذلك لم يتم لأسباب لا نعرفها . الكلمة مركبة من كلمتين هما : الصفة (Meso) وتعنى " وسط " ، والاسم (Potamo's) ، وتعنى " النهر " ، وكلاهما يعنيان ، إذن البلدا دواقع وسط النهر ، أو " ما بين النهرين " .

(٥) يدافع استاذنا الكبير الدكتور عبد العزيز صالح عن نشأة وأصل امنمحات الأول – فى مواجهة الآراء المُغرضة – ويفند ذلك بقوله :

" يبدو ان امنمحات كان من أقرباء الأسرة الحادية عشر السابقة له ، أو من أطهارها ، وأنه لم يعتل العرش اغتصابا من ورثتها ، وانما اعتلاه ، بعد أن عجزوا عن الاحتفاظ به ، وبعد أن مرت البلاد بفترة عزَّ عليها فيها الاستقرار والحكم الصالح ".

وكذلك فإن لنا فى ألقاب الفرعون الجديد المؤسس أمنمحات الأول للأسرة (١٢) ، مثل " المنقذ " ، "معيد النهضة " ، خير دليل على هذا الاتجاه ، وأنه قريب لهم ، وليس بغريب عنهم ، ولم يفعل سوى إتخاذ مبادرة قوية واجبة آنذاك .

راجع الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق) ت الطبعة (٣) ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ص ١٧٣ – ١٧٤ .

(٦) هذه إضافة من المترجم ، لتوضيح الموقع الجغرافى للعاصمة الجديدة ، وأبَّان الأسرة الثانية عشرة ، والتى شهدت آثارًا عملاقة ، من معابد ومقابر وأهرامات ، حتى أنَّ هيرودوت نفسة – فى منتصف القرن الخامس ق.م – وصف أحد القصور (معبد) " اللابيرانث " المصرى ، فى اللاهون بانه يعادل كل آثار اليونان مجتمعة .

(٧) نحن لا نرى فى كل ما تقدم من أخبار عن علاقات مصر الفرعونية فى عهد سنوسرت الأول لسوريا ، وأوصاف الفرعون الواردة فى نصوصه أى تناقض – كما يدعى المؤلف – وذلك لأن هؤلاء كانوا أقوياء عديدة ، وقبائل كثيرة ، تسكن الوديان والمرتفعات للاقليم السورى هذا فضلا نفسة ، ويحكم أمراء متفرقون ، ومن ثم كان ولاؤهم متذبذاً مع مصر بقدر قوتها عليهم من ناحية ،. ويقدر مصالحهم هم معها من ناحية اخرى ، بالضبط كما ظل الحال كذلك فى عهد تحوتموس الثالث . وحملاته ال (١٧) عليهم فى مطلع النصف الثانى من القرن ١٥ ق.م (١٤٦٨ – ١٤٣٦ ق.م) .

(٨) المؤلف لم يذكر أية علاقات يقصد ، ولكن يُفهم أنه ما بين القوسين – كما حددناها نحن – هى المعنية هنا بهذا الخصوص .

(٩) لا يمكن الحديث ، تاريخيًا ، عن مُسَمى " فينيقيا " (Foinikike) - كما يسميها أقدم المصادر الأدبية ، وهى اليونانية ، وكما تثبت آثارها هى نفسها – فيما قبل القرن العاشر ق.م ، حيث يؤرخ لهذا العنصر النشيط تجاريًا فى المنطقة . أما الأصوب ، تاريخيًا وأثريًا ، فيجب علينا أنْ نشير إلى هذه المنطقة ، وأهلها ، بأنهم الساحل السورى – الفلسطينى فحسب .

(١٠) هنا تصح الإشارة لهذا الإقليم ، بهذا الاسم ، فى ذاك التوقيت ، بالضبط كما قلنا فى هامش (٩) السابق ، حيث لم يكن العنصر الفينيقى قد ظهر على الساحة التجارية بعد وهمين على تجارة تلك المنطقة ، وإن كان أجداده الأوائل ، ذوى الأصول العربية البدوية ، هم الذين تولوا إتمام الصفقات ونقلها بين بلدان المنطقة .

(١١) لا أدرى كيف يُحَمل الأثريون الأشياء أكثر مما تحتمل ... وأشك فى أنَّ سنوحى قال ذلك بالحرف .. فلماذا إذنْ لوى الأخبار التاريخية ؟ إذ أن عبارة سنوحى هذه التى يستند عليها بوزينيه لا تعنى أكثر من أن : القصر الفرعونى بعد أن عَلِمَ بوصول سنوحى الى إحدى مُدُن سوريا وقابله المبعوث الفرعونى ، الذى كان يجوب تلك الأصقاع لينقل أخبارها وهداياها الى الفرعون ، توقف هذا الرسول ، وأصبح سنوحى يقوم مقامه ويلعب دوره لصالح القصر الفرعونى . ومن ثم أصبح سنوحى أحسن بديل عن البعوث المنتظم القادم من مقر الحكم الفرعونى ، وقد أدى دوره باقتدار وأمانة حتى أنَّ الفرعون سنوسرت الأول كافأه على خدماته وطلب منه العودة ، برقة بالغة وتقدير عظيمين، الأمر الذى قد حسن سنوحى نفسه ، وجعله يسجل ذلك فى نصوص قبره .

(١٢) هذه كلمة يونانية الأصل ، عرفناها كأقدم إشارة عند هيرودوت (منتصف القرن ٥ ق.م) ، وهى مركبة من لفظين : الأولى : (meso) وتعنى " منتصف " أو " وسط " : ثم الثانية (potamo's) وتعنى : نهر ، وصيغة (Mesopotumia) لتعنى : أرض ما بين النهرين (دجله والفرات) ، أو " بلاد النهرين " ، كما فضل استاذ الاجيال الدكتور / عبد العزيز صالح ، فى كتابه المرجعى العظيم : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : العراق ، ط/٤ ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ص ٤٣٢ – ٤٣٣ .

(١٣) كان الاخيون (Achaeans) ، وهم أنفسهم الميكينيون (Mycenaeans) كما عرفناهم من آثارهم بفضل صفائر هاينريش شليمان (١٨٧٦ م) ، هو الاسم الذى استخدمه هومر (هوميروس : Home-ros) لهم فى ملحمته الخالدة الالياذة . لمزيد من التفاصيل حول الحضارة الاخية (المكينية) ، ١٦٠٠ – ١٢٠٠ ق.م ، راجع / محمود السعدنى ، تاريخ الحضارة الهيللينية ، الرياض ، دار الخريجى ١٩٩٧، ص ص ٩٤ – ١٢١ .

(١٤) هو نفسة تيفون (Typhon) ، كما نعرفه فى الأساطير اليونانية القديمة ، وكما جاء وصفه عند هيسيود (Hes, Theog. 820 ff) ، ومن قبله هوميروس (Iliad, 2:783) ، ومن بعدهما شعراء الرومان . فهو وحش أو أحد العمالقة ، كأحد أبناء آلهة الأرض " جايا : "Gaea، وله مئات الرؤوس بأشكال الوحوش التى تُصدر أصوات الكائنات المختلفة، كذلك له مئات الأيدى والأرجل التى يبطشن بها ، وكان على وشك إحداث دمار شديد لولا تدخل كبير الآلهة زيوس (Zeus) وهجومه عليه بصواعقه، فطرحه أرضاً ثم ألقى به فى جحيم العالم السفلى تارتاروس. راجع The Oxford Classical Dictionary, 2nd edition, Oxford 1970 (Rep. 1972), p. 1101 .

(١٥) أى ثراء هذا الذى يستنتجه العالم بوزينيه؟!!وما هى مظاهر هذا الثراء المزعوم؟ هل لبس الصوف والوبر، آنذاك، كان من مظاهر الثراء؟ أم أن هدايا الشيخ – التى لا وجود لها فى اللوحة الجدارية – هى التى جعلت بوزينيه يتحدث عن ثراء ؟!!! الحق أننى لا أرى أية مظاهر غير عادية لشيخ قبيلة عادية، أتى بأهله، حاملين أدوات حياتهم اليومية على ظهور الحمير، راغبين فى الإقامة والعيش داخل الأراضى المصرية أملاً فى حياة أفضل؟!! الاحتمال الوحيد الباقى هو ثراء هذا الشيخ البدوى الآسيوى، قياساً بفقر الحياة الأوروبية آنذاك؟!! إذن، فالمعيار غير منطقى وغير سليم للمقارنة؟!!! هذا لوى للحقائق الأثرية مقصود؟!!!

(١٦) هنا تحفظ مقبول، ولكنه، مع ذلك، يفتقد إلى الأدلة والقرائن. فليس مع الوفد البدوى أية هدايا، ومن ثم ليسوا فى مهمة رسمية، قياساً بحالة Kefti الإيجيين، اليونانيين، فى مقابر أمراء الأسرة ١٨، حوالى منتصف القرن ١٥ ق.م، راجع/ محمد السيد عبد الحميد ، (Ph. D.) العلاقات المصرية – اليونانية القديمة (دراسة فى مشكلة الكفتيو)، الزقازيق ١٩٩٦، حيث تتنوع الهدايا وتسجلها اللوحات الجدارية بوضوح تام!!!.

(١٧) هذه التسمية هنا، نيابة عن العنصر الوحيد التاريخى الذى قام بحملات خارجية (سواء للتوسع أو التأديب أو لمجرد الاستطلاع– كما فعل تحوتموس الثالث حينما قام بـ ١٧ حملة على سوريا وفلسطين) وهم المصريون ، والحديث عن أفارقة، يجعل القضية مائعة ويقلل من أهمية هذا الإنجاز المصرى الأوحد وقتها!!! كما يفتح الباب لأقاويل أخرى!! إنه السم فى العسل!!!!.

(١٨) هى شبه جزيرة يونانية تقع فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى لليونان مع حدود يوغوسلافيا السابقة (صربيا الحالية)، وآخر حدود تركيا الغربية.

(١٩) وهو ما سار على نهجه أيضاً ديودوروس – فيما بعد ذلك بحوالى أربعة قرون – حينما أسمى خليج العقبة وخليج السويس، والجزء الشمالى كله من البحر الأحمر باسم " الخليج العربى" : " Arabikos Kolpos " . وليس القصد هنا، بالمرة، ما نعرفه نحن اليوم، بالخليج العربى، الذى كان يعرفه المؤرخون الكلاسيكيون باسم : الخليج الفارسى " " Persikos Kolpos .

(٢٠) إن صدق هذا الخبر – الذى لم يتأكد وجوده أثرياً حتى الآن (على حسب علمى المحدود) – فإن ذلك يعنى إنسانية الروح العالية لهذا الفرعون وثقته بنفسه، وتقديره العالى لقيمة الحرية، كمطلب آدمى راقى لكل الشعوب على وجه الأرض، حتى ولو كان هو شخصياً الذى ينتزعها بحكم الفتح والغزو، وليس هذا بغريب على المصريين وحضارة مصر القديمة صاحبة السبق الإيمانى والعلمى الحياتى على كل حضارات العالم القديم، وقد وجد فيها اليونان النموذج الأسبق لكل تميز مادى ومعنوى.

(٢١) هذا الخبر هو المفارقة التاريخية الغريبة عند هيرودوت لأنه يتبعه بدليل مادى، عبارة عن أعمدة انتصار، كان قد رآه هو بعينى رأسه فى هذه البقاع!!! وهو أمر لا نعرفه – نحن اليوم – حتى الآن !!!.

(٢٢) سكيثيا (Skythia) بلد أسماه اليونان للمنطقة الواقعة بين كارباثيا ونهر دون (Don) فى آسيا الوسطى، وأطلقوه على مجموعة من قبائل فى شمال غرب إيران وشرق تركيا فى القرن ٧ ق.م . راجع O.C.D. p. 968 .

(٢٣) سبق ذكر موقعها فى هامش (١٨)

(٢٤) كولخيس (Kolkhis) - كما هى باليونانية - هى أشهر بلدان وسط آسيا الغربية، جنوب جبال القوقاز، وقد خلدها أبوللونيوس الرودى (من رودوس) - فى العصر الهللينستى، ضمن أشهر آداب الإسكندرية البطلمية، قصة أسطورية للأمير ياسون (Iason) فى صراعه مع عمه للوصول إلى العرش سعياً وراء الفروة الذهبية (Golden Fleece) . راجع / O.C.D., p. 263., s.v. " Colckis & ibid., p. 105, s.v. " Ar- gonauts" .

(٢٥) كانت هذه التسمية، عند هيرودوت، غير محددة الحدود الجغرافية، حيث كان يشير بها إلى كل هذه الأماكن:-

(أ) سيناء (ب) بادية الشام (جـ) شمال غرب الجزيرة العربية (الجزء الصحراوى : Arabia Deserta)، كما على ذلك سترابون من بعد ذلك. أما الجزء الشامى، حيث يقطن الأنباط (Nabataeai) فكان يسمى : " بالجزء الصخرى". (Arabia Petraea) (أرابيا بترايا) . فكلمة " أرابيا" هنا لا تعنى بالضرورة الجزيرة العربية، بل ربما فقط الأجزاء الشمالية الشرقية من حدود مصر حيث يسكن البدو فى صحراوات واسعة وحتى حدود فلسطين.

(٢٦) هذه واحدة من أقدم الإشارات إلى تسمية هذا البحر بهذا الاسم، كما نعرفه نحن إلى يومنا هذا، بعد أن كان حتى وقت هيرودوت (القرن ٥ ق.م) يسمى بالخليج العربى، كما ذكرنا من قبل (راجع/هامش١٩).

(٢٧) إن ثراكى ليست كذلك ، أبداً ، كما يقول الكتاب خطأ. فهى فى الجزء الشمالى الشرقى، وربما كان ذلك خطأ مطبعياً، إذ لا يعقل ألا يعرف الكاتب موقع ثراكى على خريطة اليونان (راجع هامشنا رقم (١٨)).

(٢٨) أى يجرون ويحملون المحفة الملكية التى يجلس عليها الفرعون، كنوع من التكريم الرفيع لمكانته، والطاعة الواجبة منهم لمليكهم، ولاسيما هذا الفرعون بالذات، الذى تم تأليهه تأليهاً كاملاً، خلافاً لأسلافه، هذا إذا صدقت كل الاحتمالات فى اعتبار سيزوستريس هو نفسه سنوسرت الأول/ الثالث، فهل مثل ذلك العمل كان كثيراً عليه؟!!!.

(٢٩) هذا ما يقصده المؤلف، وهو موضوع الدراسة فى هذه الجزئية من الفصل، من أمثال ما ورد عند هيرودوت وديودوروس.

(٣٠) لا ندرى ما هو قصد المؤلف من هذا المصطلح الذى كتبه بالحروف الكبيرة.

(٣١) هذا هو رأى المؤلف، ويبدو فيه ناقداً لنفسه ولغيره من الباحثين المعاصرين، وإن كان ينم عن موضوعية واضحة منه، وإدراك بأهمية الموضوع التاريخى المثار حول تلك الروايات الكلاسيكية.

(٣٢) جرى العرف - فى مراجعنا العربية والمترجمة - على تسمية هذه القصة باسم " الملاح الغريق". راجع مثلاً، عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق)، (الإنجلو المصرية) القاهرة ١٩٨٤ .

(٣٣) النص الإنجليزى، فى الكتاب أمامنا، يذكر كلمة "Mesopotamian" كصفة لسارجون، والأدق تاريخيًا وعنصريًا أن يقول " الأكادى" (Akkadian) باعتبار أن هذا العنصر كان، ولا يزال ، مشكوكًا فى أصله ومصدر هجرته إلى داخل العراق وسيادته على وسطه وشماله طيلة حوالى قرنين ونصف من الزمان، فى الثلث الأخير من الألف الثالثة ق.م، ولعل كلمتى " بكر" (تاجر) و " نانجار" (نجار) الموجودتان فى اللغة الأكادية تفسران طريقة وصول تلك الأصول العرقية الغريبة، على أهل البلاد الأصليين، وهى أسلوب التسلل البطئ، كما فعل الملك المؤسس نفسه، سارجون، الذى كان بستانيًا، فساقيًا للملك ، ثم الملك؟!!

(٣٤) ولعل أشهر أثر تم نقله، بفضل مساعدة هيئة اليونسكو فى مطلع الستينات من هذا القرن العشرين، وإشراف التكنولوجيا الألمانية، كان هو معبد أبى سنبل، الذى تم نقله من أسفل الوادى إلى موقع قريب، شبيه بموقعه السابق، ولكن على ربوة عالية، هى الموجود عليها الآن.

(٣٥) يذكر المؤلف، خطأ، أن حكام مصر فى العصر الهللينستى (٣٣٢ – ٣٠ق.م) كانوا " يونانيين "، فيقول بالحرف الواحد : ... for the Greek rulers of Egyp of ... وهذا كلام غير تاريخى بالمرة، إذ لم يكن يومًا ما – فى كل التاريخ القديم– أن كان حاكم مصريًا يونانيًا، والحق أنهم كانوا، وقتها، مقدونيين، من جنس الإسكندر الأكبر وخلفائه القادة الفاتحين للشرق القديم آنذاك، وكان اليونانيون مجرد أداة تنفيذية إذا ربه فى الأقاليم وليس على رأس الدولة البطلمية، التى سميت باسم ملوكها المقدونيين واحداً بعد الآخر. راجع/ إبراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة، (الإنجلو المصرية)، القاهرة

(٣٦) هذه العبارة بين القوسين من عندنا نحن، كمترجمين، لما فى ذلك من تكرار، ربما تسبب فى إشاعة الملل لدى القارئ.... وهذه ليست المرة الأولى لمثل هذا الاتجاه، حتى أن زميلنا أ.د. فاروق القاضى، من كثرة التكرار فى الجزء الأول من هذا الكتاب، اطلق عليه صفة " برنال الرغاى"، وذلك فى احتفالية التقييم والمساءلة بين المترجمين والمعلقين، كما دعا إلى ذلك أ.د. جابر عصفور، رئيس المجلس الأعلى للثقافة، مساء الأحد الموافق ٢٨/١٢/١٩٩٧، فى مبنى مكتبة القاهرة الكبرى، بالزمالك.

(٣٧) يصف المؤلف لغة إبلا بأنها سامية جديدة (New Semitic) مستخدمًا لفظة " سامية" وكأنها أصبحت مصطلحًا أثريًا أو لغويًا يقينيًا لا خلاف عليه بين علماء التخصص ذاته. ولسنا نستبعد النوايا العنصرية من استخدام هذا المصطلح هنا بالذات للإشارة إلى التواجد (اليهودى؟!!!) الذى أصبح اليوم، هو وحده، المساوى والمعادل لكلمة السامية!!!! إنهم هم الذين ابتدعوا هذه النظرية اللغوية الأصل، على يد العالم النمساوى شلوستر فى أواخر القرن (١٨) م، ثم حوروها من ساروا على الدرب وأيقنوا الفائدة والغرض البعيد لأفكارهم الرهيبة، إلى عباءة فضفاضة تشمل العنصر اليهودى كله، دون غيرهم، وغدوا يرفعون هذا الشعار ضد كل من يقف حجر عثرة أمام أهدافهم ومخططاتهم العدوانية فى عالم اليوم، القرن العشرين!!!، ويتهمونه بمعاداة السامية (Antisemitic) .

والأصل – كما قلنا – لغوى، فإن العنصر السامى من قضية أثرية لغوية فى نهايات الألف الثالثة ق.م، حيث لا أثر لتواجد عبرانى يقينى على الساحة الأنثروبولوجية إطلاقًا، إلا إذا كانوا يتعمدون الخلط المقصود بين العنصر العربى البدوى المهاجر من الجزيرة العربية ، أصلاً، والمقيم داخل أراضى بلاد النهرين (مسوبوتاميا) قبل ذاك التاريخ بقرون عدة ؟!!!، وبين جذورهم الأولى العبرانية فى المنطقة والتى ليس لها – فى ذاك الوقت – أية دلائل أثرية على وجودها. وهكذا لا نشك لحظة فى رغبة المؤلف الملحة فى إيجاد أية أرضية تاريخية أقدم، من المعروف عنهم، ليشاركوا المنطقة تاريخها وحضارتها منذ نشأتها الأولى، حتى يستقيم، بعد ذلك، حقهم ومطلبهم فى العيش فى المنطقة على أساس الحق التاريخى الأقدم!!!

(٣٨) بالطبع لا يستخدم المؤلف هذه الصفة، ولكننا وجدناها أقرب وأسهل من الصفة التاريخية (Mes-opotamian) الأدق، ومع ذلك، رأينا فى صفة "عراقى" ككلمة واحدة سريعة - المقابل المفهوم لدينا الآن.

(٣٩) هنا المؤلف لا يقول لنا لماذا تم تأريخ تدمير قصر إبلا بحوالى عام ٢٥٠٠ ق.م، ولا لماذا يفضل هو تنزيل هذا التأريخ بمعدل (٣٠) عاماً، لكى يتوافق ذلك تماماً مع انهيار الدولة القديمة ونهاية الأسرة السادسة، وكلها ترجيحات لا أساس لها من المنطق التاريخى أو حتى الأثرى؟!!! كما كان، بالضبط، محيراً موقف العلماء الذين انحازوا لتأريخ برستيد وماير؟!!! كل ذلك ليبحث عن مبرر قوى لعدم ذكر اسم مصر فى أرشيف إبلا، وهو التفسير الذى يجده الآن - ظاهرياً لا شك - منطقياً ومقبولاً!!!.

(٤٠) لم يقل لنا المؤلف كنه هذا الاختصار، وضن علينا بتفسيره حتى ولو فى هامش .

(٤١) وهى إحدى طرائق التأريخ العلمية الشهيرة، من العلوم المساعدة لعلم الآثار الآن، وإن كانت الطريقة الأشهر هى الكربون/١٤ (Carbon 14)، وللمزيد راجع Ehrich R.W., Chronologies in Old World Archaeology, the Univ. of Chicago Press, Chicago and London, 1965 (4th Im-preeion 1971) حيث يطبق المؤلفون، كل فى مجال تخصصه الأثرى من حضارات العالم القديم، طريقة الكربون /١٤ وذلك بعد استعراض التأريخ الأثرى النسبى للأقاليم الجغرافية المتحضرة القديمة. والمصطلح لفظة مركبة، كما هو واضح، من كلمتين ، أولاهما كلمة "Dendra" التى تعنى " شجرة" ، والثانية هى كلمة "Chronology" المعروفة.

(٤٢) هذه إضافة من عندنا نحن (المترجم).

(٤٣) وهذه إضافة من عندنا للشرح (المترجم).

(٤٤) هنا يلمس برنال أهم مشكلة جوهرية تواجه مصير المكتشفات الأثرية ، بوجه عام، فى كل عمليات الحفر والتنقيب التى تسفر عن معثورات كثيرة ومتنوعة، ولاسيما النقوش أو المخطوطات أو مثال تلك الألواح المذكورة آنفًا بوجه خاص. وهذه المشكلة - كما لخصها بإيجاز شديد ويتضح بجلاء صدق التجربة الذاتية مع هذه الأمور، التى نراها نحن كذلك للأسف، وهى تتمثل فى:-

(أ) احتكار المشرف العام على الحفائر لكل المعثورات بوجه عام.

(ب) المَنْ ببعض هذه المعثورات على بعض العلماء المقربين بغرض الدراسة والنشر، أو للمحظوظين من طلاب البعثات الأجنبية!!!.

(ج) تأخير النشر العلمى لأسباب كثيرة، ليس هنا مجال للحديث عنها.

(٤٥) ذلك لأن التجارة الأكثر شيوعًا والأكثر توقعًا، آنذاك، أنْ تكون لصالح الممالك القديمة والقصر الحاكم، وليست باسم الأفراد ولحسابهم، كما كان فى مصر القديمة وكريت المينوية وحتى موكيناى حوالى منتصف الألف الثانية ق.م. راجع/ مقالنا " العلاقات المصرية - اليونانية القديمة"، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، إعداد وتقديم/ د. رؤوف عباس، القاهرة ١٩٨٦

(٤٦) وهى (Ilion) باليونانية أو إليوم (Ilium)، باللاتينية، أو - كما تم الاشتقاق فى الإنجليزية - (Troia)، باللغة اليونانية القديمة كذلك، وهى المدينة ذات الشهرة العالمية، من حرب طروادة الهومرية التى خلدها شاعر الإلياذة، منذ القرن (٩) ق.م، والتى كانت فى مطلع القرن ١٢ ق.م، من أغنى مدن الساحل الغربى الآسيوى فى تجارتها، وطمع فى ثرواتها اليونان الآخيون ، فى أواخر مراحل وجود مملكتهم.

(٤٧) فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من البحر الإيجى، وهى قريبة، جغرافيًا، من موقع المدن السابقة الذكر، فى شبه جزيرة تراكيا (Thrace) .

(٤٨) ينتقل المؤلف، فجاة، وبدون مقدمات نهائية ونتائج بحثيه مستقرة، إلى سؤال عن شيء، لم ينته هو نفسه إلى حقيقة نهايته التاريخية: زلزال أن غزو ودمار؟!!! مما يترك انطباعاً بعدم الارتياح للمشاكل التى يثيرها فى بحثه، وللأهداف التى يسعى للحصول إليها من خلال مادة كثيرة التفاصيل، غير مؤكدة، وعليها جدل كبير بين علماء التخصص أنفسهم.

(٤٩) هى محاجر فى إقليم أتيكى، وتتبع إثينا، وكان فلاسفة اليونان ومؤرخوها يرجون لبضاعتهم هذه، مقابل بضائع أخرى كانت أثينا تحتاجها وعلى رأسها القمح. راجع للمزيد/ محمود السعدنى ، تاريخ وحضارة اليونان (دراسة تاريخية أثرية) ،القاهرة ٢٠٠٠ م ، ص ص ٢١٣ - ٢١٧

(٥٠) تعبير أو مصطلح مينوى (Minoan) نسبة إلى الملك مينوس (Minos) ، ملك كريت الأسطورى ، صاحب أكبر أسطول تجارى، فى الألف الثانية ق.م، والشخصية المحورية الرئيسية فى أسطورة المينوتور وثيسيوس (Theseus) ، البطل الأثينى، بن أيجايوس (؟!!). للمزيد راجع/ كتابنا: تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠ م ، ص ص ٦٠ - ٧٠

(٥١) هذه النتيجة الخطيرة، التى ألقى بها المؤلف - دون ادنى سند تاريخى أو أثرى من الجانب المصرى - ليس لها أية مقدمات، حتى يمكنه التوصل إليها بهذا الشكل.. فجاءت مباغتة، وكأنها هى شغله الشاغل الذى يريد أن يقوله، فألقى بها فى وجه القارئ هكذا فجأة، وبين سطور لا تمت لهذه الجزئية بأى علاقة.. ولاسيما صياغته لجملته ويقينه حولها وكأنه أمر مؤكد جداً لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه.. هذا نموذج للأسلوب والمنهج غير العلمى والبحثى، الذى زج به المؤلف بين سطوره المغرقة فى التفاصيل البعيدة الخارجة.

(٥٢) هنا المؤلف يسوق أشياء ومحاذير، نسمع عنها لأول مرة، ويصيغها بطريقة خطيره للغاية، وكأنها خلاصة (كما وضع هو لها هذا العنوان) ومن ثم فلا يعقل أبداً أن تكون كذلك، دونما أدنى مقدمات لها، ولهذا وجب التنويه، حيث يشير إلى الخلق (Creation) . مثلاً - كما جاء فى التوراة والإنجيل - ويجعل منه حدثاً دينياً يعارض التاريخ المصرى، وهو الحدث الذى لا نعرف له، ولا يعرف له أى عالم متخصص، بداية ونهاية ومكان؟!!! إنها المفاجأة البحثية، غير المنهجية التى يكشف عنها صاحبها بكتاب " المنفوخ على الفاضى"، ويؤكد زيف نواياه العلمية الخالصة، ليضع السم فى العسل، وقتما يشاء وبأية طريقة يشاء؟!!!.

(٥٣) الغريب أن هذه الخلاصة، التى أسماها برنال هكذا، هى ليست كذلك. وواضح أن الهدف النهائى من كل هذا الكتاب، هو هذا الذى حشره حشراً، هنا، بالدعوة إلى " صدق أكثر" (More Trust) فى النموذج القديم، فى مواجهة النموذج الآرى العنصرى. ولكن، لماذا؟!!! هل لإقرار فضل الشرق على الغرب - كما قالت بذلك المادة الأدبية بأقلام المؤرخين اليونان القدماء؟ أم ماذا؟.

الحق أن الهدف الأخير لمثل هذه الدراسة الضخمة ، سيتضح ، وفقط، مع أخر فصل فيها، لعلنا ندركه سوياً!!!

ثم هو هنا يقلب المنهج العلمى رأساً على عقب فبعد أن استقر لدى علماء التاريخ والآثار القديمين، حيث تكون الوثيقة الأثرية - من أى نوع - (أى الدليل الوثائقى: Documentary Source) هو الحكم الفيصل والمرجعية الوحيدة لقياس مدى مصداقية الأسطورة الشعبية ، نجد برنال هنا يحاول جعل الأساطير - بنص كلامه - هى الحل الحقيقى للروايات التاريخية وشهادات القدماء؟!!! بالطبع تمهيداً لإقرار الروايات الأسطورية التوراتية؟!!! وهكذا يتضح الهدف النهائى للكتاب كله!!!!.

الفصل السادس

سيزوستريس الثانى(*)

على ضوء الشواهد العقائدية والأسطورية

ترجمة : إسحـــق عبيــد

فى هذا الفصل سوف نتقصى بعض العقائد والأساطير والمتواترات فى عدد من الحضارات تشمل مصر، وبعض بلدان الشرق الأدنى الأخرى، والأناضول، وتراقيا، وكولخيس على الشاطئ الشرقى للبحر الأسود، ثم أخيرًا فى بلاد اليونان. ولعلنا بهذا نتحسس ما قد يوحى بفتوحات حقيقية اضطلع بها الفرعون سيزوستريس.

وفى اعتقادنا أنه توجد دلائل كثيرة تعضد هذا القول، ومن ثم فإن افتراض تاريخية حملات هذا الفاتح المصرى يعزز العديد من الملامح والمعتقدات المتواترة ويزيح عنها الكثير من الغموض والضباب. هذا إلى جانب ما ورد فى الوثائق والآثار - التى سبق مناقشتها فى الفصل السابق - مما يقرب صورة سيزوستريس من الصورة التى قدمها لنا كل من هيرودوت ومانيتون وديودوروس.

ولما كانت الصورة التى قدمها هؤلاء الكتاب لسيزوستريس ضاربة فى الخيال الجامح، فإن محاولة تأصيل بعض ما ورد عنها تاريخيًا يعل لفتوحات الأسرة الثانية عشرة مصداقية تاريخية وإجازة لكتابات المؤرخين اليونان والمصريين على حد سواء.

(*) من الأسرة الثانية عشرة (حوالى ١٨٩٧ - ١٨٧٨ ق.م). (المترجم)

الروايــات المصريــة

سواءً قبلنا الصورة التى يقدمها هيرودوت وديودوروس ومانيتون عن سيزوستريس أم لم نقبل، فإنه ليس لمقدور أحد أن يتهم هؤلاء الكتاب بأنهم قد اخترعوا هذه الأخبار عن هذه الشخصية من محض خيالهم. وكما سبق أن نوهنا من قبل، فإن هؤلاء الكُتَّاب يخلطون بين الروايات المتعلقة بعدد من الفراعين: سنوسرت الأول ؛ سنوسرت الثالث؛ ورمسيس الثانى، وينسجون من هذه الروايات مختلطة نسيجًا شرقى المذاق فى شىء من الغلو. ولعالم المصريات الألمانى فلهلم شبيجلبرج (Wilhelm Spiegelberg) محاضرة ترجع إلى عام ١٩٢٥م يدافع فيها عن هيرودوت، وهى محاضرة مشبعة بروح القرنين التاسع عشر والعشرين بما فيها من حنو واستحسان للعالم القديم (Besserwissen) ، قال فيها ما يلى:

" من بين روايات هيرودوت هنالك العديد الذى استقاه هيرودوت من أصول مصرية خالصة، من ذلك على سبيل المثال حكايته الشهيرة عن خزائن رامبسنيتوس (Rampsinitus) (راجع الفصل الأول ؛ ١)؛ وكذا حكاياته الأسطورية عن فاتح العالم سيزوستريس (راجع الفصل الثانى؛ ١ وما بعده) الذى نسبت إليه أعمال العديدين من الملوك المصريين. وهذه المعلومات تنطق عن أصول مصرية خالصة، أغلب الظن أنها قد وردت فى بردية مصرية، كان العالم ماسبيرو قد أدرجها ضمن فصوله الممتعة عن القصص الشعبى المصرى القديم" (١).

وعلى هذا لابد لنا من التسليم بوجود روايات مصرية عن فتوحات سيزوستريس الضخمة فى الألف الثانية قبل الميلاد، وبحقيقة أن سيزوستريس (سنوسرت الأول) كان يعبد فى عصر الدولة الحديثة؛ الأمر الذى يعزز القول بأن ما ذكر من صفات مزيدة عن هذا الفرعون كان أقدم تاريخيًا من عصر الدولة الحديثه(٢). ويرى العالم بوزيهيه (Posener) أن ما ذكر عن سيزوستريس من صفات له ما يؤيده من الناحية التاريخية، وبأن الجانب الاسطورى فى هذه الخواص يرجع إلى عصر الدولة الوسطى(٣). ورغم الكم الهائل الترميمات التى تمت فى المعمار على يد الفراعين اللاحقين لسيزوستريس، ومن خاصة على يد رمسيس الثانى، فإن العديد من النقوش من قبيل نقش ميت

رهينه وغيره كانت متاحة هى والعديد من والحوليات التى سجلت على أوراق البردى لتحكى عن شخص سيزوستريس.

ويبدو أن هيروبوت ومن أتى بعده من كُتَّاب عندما سجلوا رواياتهم قد اعتمدوا على مصادر متواترة وحية فى أذهان الناس عن شخص سيزوستريس لردح طويل من الوقت.

ومن المؤكد أن ديوبوروس وهؤلاء الذين أمدوه ببعض المعلومات قد أدخلوا بعض الزخرف على ورواياتهم كى تواكب ما شاع وقتها من حكايات خيالية عن شخص الإسكندر الأكبر. وفى هذا ما يبرر اعتقاد الكتاب المحدثين بأن الروايات القديمة قد ضخمت عن عمد آنذاك مساهمة فى إشعال المشاعر ضد الفرس (العدو المشترك للمصريين واليونان على حد سواء) [٤]. ومهما قيل فإن جوهر تلك الروايات، وإن كانت قد خضعت لبعض التعديل والتهويل، يرجع إلى عهود قديمة ، وأن جلها قد جاء من مصادر معاصرة للفتوحات المصرية.

من هذا يمكن القول إن أى مؤرخ نابه من أهل القرن الخامس قبل الميلاد قدر له أن يتصدى لتسجيل سيرة تاريخيه عن الفرعون سيزوستريس، كان متاحًا أمامه سبل عديدة للقيام بذلك. ولعل هنالك من يتساءل: هل كانت لدى هيرودوت الرغبة الحقيقية وفسحة من الوقت للإقدام على تلك المهمة؟ وفى تقديرنا، على ضوء ما توافر لدينا من كتابات هيروبوت عن شعوب أخرى فى العالم، أن الرجل كان صادق النية وأنه كان يملك من الوقت ما يسمح له بذلك. أما بالنسبة لروايات مانيتون وديودوروس، فعلى الرغم مما يكتنفها من غموض، وعلى الرغم من الجو المشحون بالمشاعر القومية المتزايدة عند المصريين فى العصر الهللينستى، فليس هنالك ثمة ما يبرر استبعاد هذه الروايات دون مضاهاتها بروايات أخرى إما أن تناقضها فتستبعد وإما أن تعززها فتؤكد مصداقيتها.

هنالك صدى لما ورد عن فتوحات سيزوستريس وتوسعاته فيما حفظه التراث المصرى القديم عن مغامرات أوزوريس التى قيل أنها شملت الأرض كلها، وطبقًا لديوبوروس، فإن المصريين كانوا يعتقدون أن أوزوريس بعد أن أوكل إلى عدد من

الآلهة مهمة الحكم فى مصر، خرج على رأس جيش يضم الموسيقيين والراقصين، وعبر بلاد الأحباش والهند وانشغل بصيد الأفيال، وكان فى (الاثيوبين) والهند كل بقعة يحل فيها يقيم أعمدة ينقش عليها أخبار معاركه. ولقد طاف أوزوريس كل بلدان آسيا ثم ولج إلى أوروبا عبر البسفور والدردنيل. وفى إقليم تراقيا قام بقتل ليكورجوس.... وخلاصة القول أن أوزويس قد طاف بأرجاء الأرض جميعًا، وأخذ بيد شعوبها على طريق النماء والرخاء، فعلمهم كيف يزرعون الكروم فى يسر.. أما البلدان التى لم تكن تعرف زراعة الكرم فقد عرفهم بصنع الشراب من الشعير .. وعند عودته إلى مصر حمل أوزوريس معه الهدايا من مختلف شعوب الأرض... ونظرًا لمآثره العديدة كتب لأوزوريس الخلود وذلك بدعاء الشعوب له، كما ناله الشرف الأعظم الذى اختصت به الآلهة فى السموات(٥).

بعد ذلك بقرن واحد، أى فى سنة ١٠٠ م تقريبًا كتب بلوتارخ شيئًا مشابهًا فى قوله:

" لعل أهم عمل أقدم عليه أوزيريس أثناء حكمه هو أنه غيَّر أسلوب المصريين من حياة الفقر والعنف، بأن كشف لهم عن سر الزراعة وفضلها العميم، كما أنه سن لهم القوانين، وعلمهم كيف يتعبدون للأرباب. وبعدها طاف الأرض من أقصاها إلى أقصاها ينشر فى ربوعها أساليب التحضر، وقد فعل ذلك كله دون أن يلجأ إلى قوة السلاح، وإنما تم ذلك كله بفعل شخصيته الساحرة ومنطق حديثه المقنع، مع عروض رجاله من غناء وأفانين الرقص والموسيقى. ولهذا كله فإن الإغريق قد شبهوا أوزيريس بمعبودهم ديونيسيوس "(٦).

إن المشكلة الأولى حول هذه الروايات هى قدمها، ومثلما طالعنا عند ديودوروس عن فتوحات سيزوستريس، فإن الإشارات إلى الهند وركوب الأفيال تكشف عن أنَّ الروايات حول شخص أوزوريس قد تأثرت بالحكاية الرائجة آنذاك عن مغامرات الإسكندر الأكبر. ومن ناحية أخرى، كما لاحظنا فى الجزء الأول، فإن الروايات حول فتوحات ديونيسيوس الكبرى(وديونسيوس هو صنو أوزوريس)، تسبق تاريخيًا عصر الإسكندر، فى حين أن ما تواتر من روايات عن فتوحات أوزيريس يرجع فى أقل تقدير

إلى الأسرة الثامنة عشرة[٧]. ويستدل من هذا أن الروايات اليونانية قد استقت مادتها من الينابيع المصرية.

ومن الجلى أن هذه الروايات مليئة بالأساطير والغيبيات والخيالات عن كيفية قيام الزراعة ونماء الحضارة الباكرة، وعن طقوس العبادة والخصوبة بما فيها جميعًا من فجاجة وغلو، وبالنسبة لقضية الفتوحات، فإن التشابه فى بنية شخصية سيزوستريس مع ما جاء عن اوزيريس/ديونيسيوس فى كتابات ديودوروس كان له ما يبرره عندما قام بتسجيل حوليته.

وهذا يقودنا إلى الخوض فى إشكالية رفع الأبطال من البشر إلى مصاف الآلهة. وكنا فى الجزء الأول قد استخدمنا هذا المصطلح (رفع الأبطال إلى مصاف الآلهة euhemerism) ، والذى يمكن أن يعنى أيضًا نزول الآلهة وبعض الأرواح إلى درك البشر الهالكين[٨]. والحق أننا عند هذا المنعطف من السياق نمضى إلى أبعد مما قال به يوهيميروس (قرن ٣ ق.م) بأن الآلهة كانوا فى الأصل أبطالاً من البشر[٩]. والحق أن هنالك ما يبرر إضفاء مصداقية تاريخية لبعض الشخصيات الأسطورية من قديم الأزمان. ومن المهم أن نلاحظ أن الروايات عن أوزيريس وبعض الآلهة الآخرين كملوك لمصر، أمر تؤيده القوانين المضمنة فى بردية تورين (Tarin Canon) التى ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة[١٠]. ومن ناحية أخرى، نحن نعلم أن عددًا من الفراعين فى عصور متأخرة قد ألهوا أسلافهم أو أنفسهم، وهذا ما نحاجى به فى الفصل الثانى عن تأثير فراعنة الدولة الوسطى على أبطال الإغريق. وهكذا فإن البشر فى أحايين كثيرة رفعوا إلى مصاف الآلهة، كما قال بوهيميروس[١١].

ولو أننا سلمنا بأن فتوحات سيزوستريس (سنوسرت) هى النموذج الأصلى للأساطير المتواترة عن أوزيريس/ ديونسيوس فإن هذا يوفر لنا مثالاً جيدًا عن تأليه الأبطال البشر بالمعنى الذى يعنيه التأليه. وليس هنالك ما يحول دون تعايش الروايتين جنبًا إلى جنب دون أن تكون الواحدة قد أخذت عن الأخرى، ومن ثم فليس هنالك من حرج فى التسليم بصحة الروايات عن رفع البشر إلى مصاف الآلهة والعكس صحيح. والواقع أن هذه الدورات التاريخية والأسطورية تكشف لنا عن مساق ذى شقين:

فالحكم الميمون لسيزوستريس (سنوسرت) المؤلة تختلط أخباره بما تواتر عن أوزوريس/ ديونسيوس. كذلك فإن أخبار فتوحات أوزيريس وطوافه الأسطورى بالأرض ونشره أساليب الحضارة، كانت مصدر إلهام للإسكندر الأكبر الذى جاءت فتوحاته الحقيقية بدورها لتضنيف زخرفًا أدخل على الأساطير حول سيزوستريس وأوزوريس/ ديونسيوس، وهذا بدوره كان ايذانًا بمولد دورة جديدة من المعتقدات والأساطير والحكايات الخيالية[١٢]. نخلص من هذا أنه كانت توجد فى مصر روايتان تتصلان بفتوحات سيزوستريس، الواحدة تاريخية، والأخرى أسطورية تربط بين هذا الفرعون وبين أوزوريس. ولقد كان للروايات حول أوزوريس/ ديونسيوس تأثير مباشر على ما جاء فى سيرة الإسكندر نفسه من أساطير، ولدينا قرائن قوية تكشف عن هذا التأثير المباشر نطالعة فى " رومانسيات الإسكندر"، ويرجع أقدم هذه المغامرات إلى كتابات تمت فى أرض مصر نفسها، بعيد وفاة البطل المقدونى سنة ٣٢٣ ق.م[١٣].

وفى هذه الروايات نطالع أن الإسكندر الأكبر قد رأى فى منامه فى أحد الكهوف الأثيوبية الفاتح المصرى العظيم سنسونخوسس (Sensonchosis) ، وهو سيس أول فراعين الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٣٠ ق.م) ، والذى يدعى أيضًا شيشنق، وشيخونسيس، وسسونخوسيس (عند الإغريق)، وهو الذى يرد فى العهد القديم باسم شيشاق (Shishak) ، الذى شن حملات عسكرية ضد فلسطين وسوريا. وفى جميع الأحوال فليس من شك فى أن الاسم والصفات التى اتسم بها هذا الفرعون قد اختلطت مع الصفات التى كانت متواترة عن الفرعون سيزوستريس؛ فعلى سبيل المثال نجد المؤرخ المصرى القديم مانيتون يستخدم هذه الأسماء جميعًا فى شيء من الترادف والتناوب[١٤].

وفى سياق آخر نجد الإسكندر يتلقب علانية باسم " سسونخوسيس الجديد"، وبعد أنْ نقل جثمان الإسكندر إلى منف استقبل فيها على أنه هذا الفرعون الشبيه بالآلهة وسيد العالم أيضًا[١٥]. ولا يوجد ما يمنع قبول هذه الألقاب والنعوت جميعًا ؛ إذ إن هنالك أوجه شبه كثيرة بين ما ورد فى مغامرات الإسكندر، وبين ما قيل عن

"مغامرات" سسونخوسيس وتوسعاته العملاقه، والحق أن هاتين الروايتين قد لقيتا قبولاً شعبيًا عريضًا فى مصر فى العصرين البطلمى والرومانى، ومنها شاعتا إلى خارج البلاد[١٦].

مأثورات من بلدان الشرق الأدنى والأناضول

مع أنه لا توجد فى بلدان الشرق الأدنى الأخرى أو الأناضول نصوص صريحة عن فتوحات الفرعون سيزوستريس أو أى فتوحات مصرية أخرى، إلا أن هنالك بعض الإشارات التى تنم عن دلالة خاصة، من ذلك ما نجده فى القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م من صور لإله مسلح بمطرقة أو بلطة، مرتديًا على رأسه التاج الأبيض المميز لصعيد مصر (حسدت hdt) أو مرتديـًا التاج المزدوج للوجهين القبلى والبحرى (شمتى Shmty)، وفى أحيان أخرى نجد هذا الإله بقرون رمزية تعود إلى زمن بعيد فى موروثات بلاد ما بين النهرين[١٧]. وفى حين أن هذه الصور تنطق عن أصول مصرية، إلا أن أصحابها يرتبطون بالآلهة المحلية لهذه البلاد مثل آلهة الرعد بعل، وتسوب (Tessub) وطرخون. وتتماثل هذه الآلهة مع الإله الكنعانى ريشف (Reshef) إله الرعد والمرض. وهذا الإله قد وفد فيما وفد إلى أرض مصر، وأدخل فى معيته الآلهة المصرية فى الأسرة الثامنة عشرة، وأن كان هذا الإله قد عرف من قبل فى الدولة الوسطى.

واسم ريشيف يصعب تفسيره باللسان السامى الغربى، ولربما أنه مشتق من الاسم المصرى " حرى إس إف" (Hry s.f.) والذى يقابله عند اليونان اسم "أرسافيس" (Arsaphes) ومعناه " المتربع على بحيرته"، والذى ارتبط اسمه بشخص هرقل، كما أوضحنا فى الفصل الثانى، والذى اختلط اسمه ايضًا مع اسم " حرى إس إف " فى معبد كُرًس للإله المصرى فى مدينة ببلوس[١٨].

ومن الطريف أن نلحظ أنه بعد ائتناس ريشيف إلى معية الآلهة المصرية، صار يربط بالإله مونت (Mont) الذى ارتبط اسمه بتوسعات فى مناطق الشمال، والذى صار

صنواً–إن صح رأينا– للحاكم الكريتي رادامانثيس (Radamanthys) زوج والدة هرقل[١٩].

ونطالع من نقش حجرى لرمسيس الثانى الفقرة التالية:

" لقد عبر جلالته نهر العاصى شمالى سوريا فوق مياه عاصفة ولكأنه ريشيف نفسه[٢٠]". ومن هذا يتبين دون شك أنه فى نظر المصريين فى أقل الأحوال، كان ريشيف يرتبط بالفتوحات الملكية فى أراضى الشمال بطريق مباشر فى شخص الفرعون والإله مونت، وبطريق غير مباشر من خلال وصله بشخص "حرى إس إف" وهرقل. كذلك نلمس صلة لاهوتيته بينه فى التماثيل والصور، حيث تذكرنا الآلهة المنقضة بسلاحها " برسوم المملكة الوسطى التى تمثل الفرعون وهو ينقض بضربته على رأس الأجانب[٢١]".

وتعترف الأستاذة إيدث بورادا (Edith Porada) الخبيرة فى دراسة الأختام، بوجود شبه بين صور سيزوستريس الأول وهو يرقص فى عيد يوبيله الفضى (حب سد Heb Sed) وبين صورة إله سورى فلسطينى للطقس، وجد تمثاله فى تل الضبعة وينتمى إلى قرن أو قرنين لاحقين ، إلا أنها تنبه إلى بعض الفروق فى أن " كعب القدم الخلفية للفرعون ترتفع عن الأرض، فى حين أن قدمى إله الطقس منبسطة فوق قمم الجبال التى يتربع فوقها. كذلك يبدو جذع الملك المصرى ساكنًا وهو يخطى خطى واسعة، فى حين أن جذع الإله السورى الفلسطينى ينحنى قليلاً إلى الأمام"[٢٢]. وفيما عدا ذلك الإختلاف، فإن أوجه التشابه قائمة لا شك بين الاثنين.

إن هذه القرائن من بلدان الشرق الادنى لا يمكن القول بوجودها منذ الألف الثالثة ق.م، ومن ثم لا يمكن أن نرجعها لتأثيرات مصرية من الدولة القديمة، وفى نفس الوقت نجد هذه الأشكال والتماثيل والصور قبل عصر فتوحات الدولة الحديثة فى سوريا فى القرن الخامس عشر ق.م، وعلى الرغم من أن فتوحات تحتمس الثالث فى القرن الخامس عشر ورمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر قد أتت لتعزز من صورة الفرعون القوى الكاسح المنقض شبيه الآلهة، إلا أن هذا فى حد ذاته لم يكن المبرر الوحيد لتصوير الفرعون على هذه الشاكلة. هذا ومن المحتمل أن شكل القبعة الطويلة

المدببة عند الحيثيين قد تأثر بشكل التاجين القبلى والبحرى عند المصريين، حتى مع وجود فوارق بين الإثنين.

وحتى فى غياب هذه الصلة، فإن ظهور صورة إله منقض على العدو فى ملامح فرعونية فى هذا التوقيت بالذات، يمكن أن يفسر فى يسر إن نحن سلمنا بأن الملك المصرى سيزوستريس قد قام بالفعل بمعارك حربية فى تلك المناطق.

وفى هذا السياق، يحسن بنا أن نورد فقرة أخرى من رواية هيرودوت التى سبق الإشارة إليها:

" لقد اختفت معظم الأعمدة التذكارية التى كان الملك سيزوستريس قد قام بنصبها فى البلاد التى فتحها، على أننى قد شاهدت بعضا منها بنفسى فى فلسطين، وقد نقش عليها ما سبق أن رويته مع رسم لأعضاء تناسلية للأنثى. وفى أيونيا أيضًا توجد صورتان لسيزوستريس منحوتتان فى الصخر، واحدة على الطريق من إفيسوس إلى فوكيا، والأخرى بين سارديس وسمرنا (أزمير)، وفى الحالتين فإن الشكل المنحوت يبلغ سبعة أقدام تقريبًا فى الطول، ويمثل رجلاً ممسكًا بحربة فى يده اليمنى ويقوس فى يده اليسرى، مع بعض الأسلحة الأخرى المشابهة، منها ما هو مصرى ومنها ما هو أثيوبى وفى عرض التمثال على الصدر من الكتف إلى الكتف يوجد نقش بالخط الهيروغليفى (المصرى المقدس) يقول: بقوة كتفى تملكت هذه الأرض. ولكن النقش يخلو من اسم الفاتح وموطنه"(٢٣).

إن الأرض التى يشير إليها نص هيرودوت تقع جنوبى حزام خرائب ميلارت (Mellart)، غير أن خرائب أخرى قد تم الكشف عنها فى منطقة أفروديسياس بعد تسجيل هيرودوت لروايته، وهى تنتمى إلى نفس الحقبة التاريخية فى جوف المنطقة ما وراء مدينة ميليتوس عند منتصف الطريق الساحلى الغربى للأناضول(٢٤). وعلى هذا فإننا لو افترضنا أن سيزوستريس قد قام بفتوحات فى الأناضول، فمن المحتمل أنه ترك فيها بعض الآثار. ومع ذلك ينبغى ملاحظة أن النقوش البارزة التى عثر عليها هناك ليست مصرية وإنما حيثية، ومن بينها النقش الذى تم الكشف عن هويته بدقة

على الطريق بين افيسوس وفوكايا. إلا أن التأثيرات المصرية تبقى واضحة فى صورة الملك الذى يرتدى القبعة الحيثية الطويلة، التى ربما قد اقتبست من التاج المصرى، كما أن الملك يمسك فى يده بمدراس الحنطة وهو رمز مصرى صميم للجلالة الملكية الفرعونية[٢٥].

وكما هى الحال مع الروايات المصرية عن سيزوستريس، فإننا نعتقد أن هيرودوت لم يخترع من عنده ما أورده عن الصلات القائمة بين النقوش التى شاهدها وبين التأثيرات المصرية. وأغلب الظن أن هيرودوت كان ينقل عما قد تواتر من مأثورات فى مناطق غربى الأناضول وأيونيا اليونانية[٢٦].

وتمدنا أسماء الأماكن أيضًا بقرائن تعزز من القول بالتأثيرات المصرية فى الأناضول. فلقد خلط الإغريق بين مدينة سينوبى على الساحل الشمالى للبحر الأسود وبين مدينة " سست إن حابى" (موضع إله النيل حابى) بجوار مدينة منف. ولقد استنتج الدارسون للعصر البطلمى فى مصر أن الإله سيرابيس قد جلبه البطالمة من بلدة سينوبى فى منقطة بونتوس بالأناضول. وهنا أيضًا يبدو التحوير والتلاعب اللفظى فى اسماء الأماكن بين " سست إن حب" حيث معبد العجل المقدس أبيس فى منف وبين بلدة سينوبى. وهذا التحوير والخلط قد لاحظناه من قبل فى الجزء الأول عند عرضنا للخلط بين الإسمين " حب" و " حابى" عند الكلام عن جماعة داناوس (Danaos) والضارعين" (Suppliants) ومن هذا يتبين أن الاسم الاناضولى سينوبى نو أصول مصرية. ونجد مثالاً صارخًا على ذلك فى اسم مدينة أبيدوس عند مداخل البسفور والدردنيل، التى رأى فيها الأغارقة القدامى مثيلاً للمدينة المصرية " أبدو" ، والتى حورها الإغريق إلى أبيدوس فى كتاباتهم؛ وهى المركز الدينى الشهير حيث توجد مقبرة أوزوريس.

أما اسم بيزنطة على الجانب الأوربى للبسفور فهو مكتنف بالغموض، وإن كان نونوس العالم المصرى المتأغرق فى القرن الخامس ق.م قد جادل بأن اسم بيزاس مؤسس المدينة شبيه باسم كادموس وإخوته: كيلكس (ومنه اشتق اسم كيليكيا جنوب

شرقى الأناضول)، وثاسوس (ومنه اشتق اسم بلدة ثاسوس شمالى بحر إيجه)، وكان الإثنان قد استقرا فى هاتين البقعتين بعد أن أصابهما اليأس بحثًا عن أختهما المختطفة يوربا. يذكر أيضًا أن شخصًا آخر كان يطوف فى نفس المنطقة بحثًا عن موطئ قدم، وهو فتى من النسل الإلهى ولد لعلاقة كبير الآلهة زيوس مع الصَبية إيو (Io) فى هيئة نبته برعم سقطت من زيوس وهبطت من السماء، وكان اسمه بيزاس أيضا. وقيل إن بيزاس هذا كان قد ابتلع مياه أفرع دلتا النيل السبعة، ثم استقر على جانب البسفور حيث تتدفق المياه التى كانت الصبية إيو ابنه إيناخوس قد خاضتها فى هيئة عجلة صغيرة. ولقد اشع بيزاس الوليد بنوره على أهل تلك البقعة، عندما إستدار يطوق عنق ذاك العجل المجبون التى لا تلين"[٢٧].

وإن هذه الفقرة (للشاعر نونوس) كغيرها من الشعر القديم، مفعمة بالإشارة والمعانى الملغزة: فالضوء الذى يشار إليه هنا يقصد به فى أغلب الظن مدينة لامبساخوس (Lampsakhos) عند رأس مضيق البسفور والدردنيل. وأما العلاقات المعقدة بين الصبية إيو والأبقار ونهر النيل وإيناخوس، فقد قمنا بمناقشتها جميعًا فى الجزء الأول[٢٨]. وفى هذا السياق ينبغى أن نضيف أنه كان ينظر إلى البسفور على أنه الموضع الذى خاضه " العجل المحمل " زيوس وعلى ظهره الفتاة يوروبا التى كان قد اختطفها وهو يتنكر فى هيئة العجل، وفر بها قباله الغرب، وهذا العجل " المخبون " الوارد فى النص هو زيوس دون شك. ويمكن القول أيضًا أن إشارة نونوس ربما تفيد الإشارة إلى الفرعون سيزوستريس كتجسيد للإله الحارس لحملته على تلك البلاد فى الشمال، وهو الإله العجل مونت بمعنى الحافى أو الراعى.

أما بيزاس على ما يبدو فهو اسم موازٍ لشخصية أسطورية أخرى هو بينيوس وهو ابن آجينور وشقيق كادموس، وكان قد استقر فى نفس البقعة التى استقر فيها بيزاس عند بقعة ثينيا (Thynia) التى تفصل بحر مرمرة عن البحر الأسود. وكنا قد ناقشنا فى الفصل الثالث احتمال اشتقاق اسم فينيوس أو بينيوس من الكلمة المصرية بانوى ((P3nw(y)) وهى اللفظ المذكر لماء النيل أو فيضانه[٢٩]. وفى هذه الحال فإن

المضاهاة بين فينيوس وثينيا تقودنا إلى القول بأن ثينيا مشتقة من الكلمة المصرية "تانوت" (T3nwt) (وهى المؤنث لسريان ماء النيل)، وهى من أسماء الأماكن المألوفة فى مصر[٣٠]. وهذه الأسماء جميعًا تبدو متسقة مع الأسماء التى خلقت على المضيق الذى كان المبحر من البحر المتوسط يعبره للولوج فى مياه البحر الأسود.

إن القرائن التى نستخلصها من دلالات أسماء المواقع الجغرافية ليست يقينيه، لأنه حتى لو سلمنا أن هذه الأسماء ترجع إلى أصول مصرية، فإنه يصعب علينا أن نحدد الفترة الزمنية التى تم فيها ذلك، وعلى يد من على وجه التحديد؛ فلربما أن هذا قد وقع وقت حملات سيزوستريس، ولربما أيضًا على الأرجح أن يعود هذا إلى أوقات تواصل مباشر فى فترات لاحقة أو عن طريق الفينيقيين أو الأغارقة الذين كانوا على إدراك واع للقواعد المصرية فى إطلاق المسميات على الأماكن. وفى العصر الكلاسيكى، كانت المؤثرات المصرية على طول السواحل واضحة وجلية، فالمدائن الممتدة من ملطية ولسبوس حتى لامبساخوس وكيزيكوس على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة كانت جميعًا تصدر عملات مزدانة برأس الإله المصرى آمون[٣١]. وهنالك اسم هام ووحيد يشير إلى المؤثرات المصرية فى الفترة الزمنية التى نحن بصددها، وهو مقبرة البطل ممنون على سواحل بحر مرمرة. وهذا ما نناقشه فيما يلى من فقرات.

إن نفس القدر من الغموض يضادفنا عند محاولة تحديد الفترات التاريخية التى وقع فيها تماثل عقائدى بين مناطق شمال غربى الأناضول وبين العقائد المصرية، خاصة فيما يتصل بآلهة الخصوبة، والموتى فمثله فى اوزوريس المصرى، وأدونيس السامى، وأتيس (Attis) الفريجى فى شمالى الأناضول. وهذا ما سوف نعرض له فى الجزء الثالث[٣٢]. ويحدثنا هيرودوت عن حكاية الطفلين اللذين أتى بهما قبل أن يسمعا أى كلام منطوق (بناء على أمر الفرعون بسماتيك)، وكيف أن أول ما نطقا به كان كلمة " بيكوس" (bekos)، وهى كلمة فريجية تعنى " الخبز"، وقد أخذ هيرودوت من هذه القصة دليلاً على أن اللغة الفريجية هى أقدم اللغات فى العالم، بل إنها أقدم من اللغة

المصرية نفسها[٣٣] ولكن علماء اللغويات المحدثين يصنفون اللغة الفريجية ضمن أسرة اللغات الهندو- أوروبية ، فى المعنى الضيق للكلمة. وهى بذلك تكون أقرب كثيراً زمنياً من اللغة المصرية القديمة. وعلى كل حال، فمن الطريف أن نلحظ أن الأقدمين كانوا قد وجدوا فى فريجيا منافساً يضعونه فى مواجهة مصر العريقة. والواقع أنه كانت هنالك أوجه شبه بين العقيدتين الفريجية والمصرية القديمة، ولابد لنا من التساؤل عن الوقت الذى وصلت فيه المؤثرات المصرية إلى أراضى فريجيا. ولا يمكن بحال أن نرجع هذه التأثيرات إلى وقت الحملات المحدودة التى شنها الملك سيزوستريس على أراضى فريجيا. وخلافاً للحال مع أسماء البلدان التى لا يمكن رصد تتابع زمنى دقيق لنشأتها، فإنه يمكن القول أن العبادات الفريجية ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد. وخلاصة القول أن التواصل الحضارى بين مصر وفريجيا كان متاحًا فى القرن العشرين قبل الميلاد.

تراقيا وسكيزيا

بالنسبة لأخبار الفتوحات المصرية فى القرن العشرين ق.م فى مناطق شمال غربى الأناضول، وكذا أخبار الغزوات الإغريقية لنفس المنطقة، فإن هذا سوف تتم مناقشته لاحقًا فى هذا الفصل. أما فى هذا الجزء فإنا نركز على المؤثرات المصرية على الجانب الآخر للبسفور أى فى منطقة تراقيا.

لقد كتب هيرودوت وكتاب آخرون لاحقون عن عبادة التراقيين للإله ديونسيوس فى أوساط جماعات قبلية على الأطراف عرفت باسم ساتراى (Satrai) ، وبيسوى (Bessoi)[٣٤] وسوف نحاجى فى الفصل السابع بأن الاسم " ساتراى" ومثيله "ساتروى" مشتقان من أصول لغوية مصرية وبالتحديد من كلمة " سن ترو" (Sntrw) وفعلها (Sntr) سنتر بمعنى يكرس أو يدشن.

وبالمثل فإن الاسم " بيسوى" مشتق من الكلمة المصرية " بسو" (Bsw) بمعنى

"المريدين" من الفعل " بس" (bs) الذى يعنى أيضًا القيام بتدشين. وعندها سوف نطرح أيضًا وجهة نظرنا فى أن أسماء أخرى للآلهة التراقية من قبيل: بنديس (Bendis)، وسيبازيوس (Sebazios) ذات أصول مصرية. كذلك سوف نلفت الإنتباه إلى التماثل فى الطقوس الأورفية(*) بين المصريين والفريجيين.

على أننى أود التنبيه هنا إلى أننى لست أول من لفت الأنظار إلى هذا التماثل فى العقائد بين الحضارتين الفريجية والمصرية، فلقد أشار عدد من الدارسين إلى وجود بنية تحتيه من أصول " ليبية" وتراقية تساهم فى تفهم أوجه الشبه بين العقائد التراقية - الفريجية من جانب وبين العقائد الإفريقية. ولكنا نقول بوجود تأثيرات مصرية على العقائد التراقية - الفريجية تحديدًا(٣٥).

وكما هى الحال مع فويجا فإنه يصعب علينا وضع تواريخ بعينها للتأثيرات المصرية فى تراقيا. لقد كانت عبادة أوزوريس منتعشة رائجة فى الأسرة الثانية عشرة، ويبدو أن عبادة ديونسيوس قد اشتقت من هذه العبادة الأوزيرية، وبالمثل كان آمون الذى يصور الكبش المصدر الذى اشتقت منه عبادة الكباش المتصلة بكبير الآلهة

(*) الأورفية : نسبة إلى أورفيوس ابن كاليوبى إحدى الربات التسع للحكمة والفن والموسيقى من بنات زيوس. ولقد برع الفتى أورفيوس فى العزف على قيثارته حتى أن الحيوانات الضارية كانت تنصت إلى أنغامه فى أنسة مذهلة. وقد تزوج أورفيوس من الجميلة يوريديكى، ولكن أحد الأشرار ويدعى ارستايوس راح يطاردها أملاً فى مطارحتها الغرام، ولكن الفتاة فرت من وجهه، وفى أثناء فرارها داست على حية فلدغتها الرقطاء وأودت بحياتها. هرع أورفيسوس هابطًا إلى العالم السفلى (هاديس) أملاً فى استرجاع زوجته إلى عالم الأحياء، وبعد لأى نجح بفعل نغم قيثارته فى استمالة برسيفونى حارسة العالم السفلى، فسمحت له باصطحاب زوجته، شريطة أن يمضى إلى عالم الأحياء دون أن يلتفت إلى الوراء للنظر فى وجه زوجته التى كانت ستتبع خطاه. وعندما اقترب الإثنان من مشارف عالم الدنيا صعودًا من العالم السفلى، نسى أورفيوس نصيحة برسيفونى ونظر إلى خلفه. وعلى الفور اختفت يوريديكى من الوجود.

بعد هذه الصدمة المأساوية راح أورفيوس يهيم على وجهه حتى أمسك به التراقيون ومزقوه إربًا. وقيل أن أورفيوس صار يعلن فى كل البقاع عن كرهه لجنس النساء بعد فقدانه للحبيبة يوريديسى. وقد حدث أن طفت رأس أورفيوس المقطوعة حتى وصلت جزيرة لسبوس حيث تم دفنها. ولقد نشأت حول أورفيوس عبادات متعددة لها طقوس خاصة تتصل بثنائية الخير والشر فى الطبيعة البشرية، إلى جانب الاعتقاد فى تناسخ الأرواح. والأورفيون شديدو الحرص على الزهد والطهارة وكبح حجاج الجسد، وقد جعلوا من "هيديسى" موضعًا للجحيم؛ حيث يعاقب الأشرار على آثامهم. ولقد راجت الأورفية فى بلاد اليونان فى القرن السادس ق.م، وورثها عنهم الرومان فيما تلا من تاريخ. (المترجم).

اليونانية زيوس. وربما أن هذه العبادات المصرية قد وصلت إلى تراقيا زمن الفتوحات المصرية لهذه المناطق. وقد وفدت من مصر أيضًا بعد تلك الحقبة عبادات أخرى كثيرة، منها عبادة " بس " (Bes) رب الاستهلال، وجب/ أورفيوس. ولقد وصلتنا عملات من تراقيا تحمل رأس آمون مما يؤكد وجود تأثيرات مصرية بالفعل هناك[٣٦]. ويمكن التدليل على وجود هذه التأثيرات المصرية فى أوائل الألف الأولى قبل الميلاد من واقع تواجد الفينيقيين فى مناطق شمالى إيجه فى تلك الفترة، وذلك على ضوء المادة التاريخية والأثرية وأسماء الأماكن، وأيضًا على ضوء المقارنة بين العقائد هنا وهناك. والمعروف أن الفينيقيين آنذاك وقبلها بكثير كانوا قد استوعبوا الكثير من مفردات الحضارة المصرية ونقلوها معهم فى اسفارهم وترحالهم[٣٧]. ورغم وجود قرائن قوية عن التأثيرات المصرية الحضارية فى تراقيا، فإنه لا يكن ردها إلى بدايات الألف الثانية وقت حملات الفرعون سيزوستريس.

أما بالنسبة سكيثيا (shy thia) ، فعلى قدر ما أتيح لنا من علم فلسنا نظن بأن سيزوسترس أو أى مؤثرات مصرية أخرى قد وصلت إلى بلاد سكيثيا جنوبى روسيا. وحتى مع التسليم بأخبار مرور جيش إفريقى عبر تلك المناطق، فليس محتملاً أن الذاكرة الشعبية لشعوب تلك المنطقة قد وعت تلك الأخبار أو حفظتها، ويرجع ذلك إلى الفوضى السياسية التى كانت تعتمل دون هوادة فى مناطق الاستبس بشكل عام، هذا بالإضافة إلى غياب أى سجلات مكتوبة لألفين تلت من السنين. أما بالنسبة للجانب الشرقى للبحر الأسود فالأمر مختلف تمامًا.

هل كانت كولخيس مستعمرة مصرية ؟

تمثل كولخيس منطقة ذات تاريخ عريق حضاريًا ولغويًا. ويوجد فى هذه المنطقة نمطان من اللغات القوقازية: الكرتفالية (Kartvelian) ومن أبرز فروعها اللغة الجورجية، والأبخازية (Abkhaz) وهى واحدة من لغات شمال غربى القوقاز. وهاتان اللغتان هما

لسان أهل تلك البقاع من قديم الأزمان، والتفسير الوحيد الذى طرأ كان وقت الفتوحات العربية للمناطق الداخلية لتلك البلاد ما بين سلسلة جبال ايبيريا - جورجيا حتى الساحل، وذلك فى القرن التاسع للميلاد. والحق أن سكان مناطق غربى كرتفيا الأصليون على السواحل الجنوبية المدارية لكولخيس شمالاً وجنوبًا قد بقوا على لسانهم الأصلى، ثم اختلطوا بالإفخاذ (٣٨).

وفى الأزمنة التى تلت ذلك، دخلت مجموعات لغوية أحدث إلى تلك البلاد وهى الأرمينية والإيرانية والتركية تباعًا ، إلا أن سمة الاستمرارية، والهجرات المارة عبر القوقاز، وعزلة موقع البلاد الجبلية قد عملت على خلق تنوع ملحوظ فى لغات المنطقة. ولقد لاحظ سترابون فى القرن الأول للميلاد أنه شاهد أناسًا من سبعين قبيلة يختلطون معا فى أسواق ديوسكرياس (Dioskyrias)، وهى مدينة سوخومى (Sukhumi) الحديثة(٣٩). وتتضح على الساحل خلطة إثنيه (عرقية) قد رأى فى هذا التنوع نتاج اختلاط للأجناس لألوف من السنين(٤٠).

على ضوء هذه الخلفية يمكننا أن نعاود مطالعة ما كتبه هيرودوت فى وصفه لحملات الفرعون سيزوستريس:

" فى رحلة عودته وصل سيزوستريس إلى نهر فاسيس (Phasis) وأغلب الظن أنه ترك بعضًا من رجال جيشه للاستقرار فى تلك المنطقة، وربما أن نفرًا من رجاله كانوا قد ملوا الحرب فتسربوا من جيشه. ولست فى وضع يمكننى من ترجيح أى من الإحتمالين، ولكن الذى لا شك فيه هو أن أهل كولخيس من أصول مصرية. ولقد لاحظت هذا بنفسى دون أن اسمع ذلك من أحد. وعندما طرحت بعض الأسئلة فى كل من كولخيس ومصر، وجدت أن أهل كولخيس يتذكرون المصريين بشكل أوضح من تذكر المصريين لهم، وإن كان المصريون قد قالوا أيضًا أن أهل كولخيس من بقايا رجال جيش سيزوستريس"(٤١).

ياسون والفروة الذهبية

كدليل على وجود شعب أسود البشرة فى كولخيس

من أهم المأثورات فى منطقة البحر الأسود ما تواتر عن مغامرات جيسون بحثًا عن الفروة الذهبية". ولقد سجل لنا هذا الأمر بوضوح الكاتب أبوللونيوس الرودى فى عمله بعنوان " أرجوناوتيكا " (Argonautica) (*) أثناء إقامته فى مدينة الإسكندرية فى القرن الثالث ق.م. والأرجوناوتيكا أسطورة تبدأ بحكاية الملك آثاماس من أورخومينوس فى منطقة بوؤتيا، الذى كان مترددًا فى تقديم ولديه فركسوس وهيللى قربانا إلى كبير الأرباب زيوس على قمة أحد الجبال. وأمام هذا التردد، أرسل زيوس كبشًا فداءً للصبيين. وحمل الكبش الأخوين على ظهره وخاض مضيق البسفور والدردنيل، وأثناء العبور سقط الصبى هيللى(**) من على ظهر الكبش فى الماء. وواصل الكبش رحلته عبر البحر الاسود قبالة كولخيس. وفى كولخيس تم نحر الكبش أضحيةً، وبقيت فروته الذهبية إلى أن سرقها المغامر جيسون . (Jason) .

لقد لاحظ مايكل آشتور شبهًا واضحًا بين هذه القصة وبين أضحية إبراهيم بابنه إسحاق، ويعتقد آشتور أن أسطورة آثاماس هى من نتاج تأثيرات سامية على بلاد اليونان[٤٢]. ومع هذا فإن الأستاذ ر.أ. يارازبوى (R.A. Jarrazbhoy) يؤكد على أهمية موضوع الكباش وفرائها فى العقائد المصرية، ويدلل على ذلك بفقرة وردت عند هيرودوت يشرح فيها الأسباب وراء إحجام أهل طيبة على نحر الكباش؛ ذلك أن الإلهم آمون كان فى هيئة الكبش، ويضيف هيرودوت على ذلك قائلاً:

" ومع ذلك فإنه وقت الاحتفال بعيد آمون / زيوس الذى يقام مرة واحدة كل عام، فإن الناس يكسرون هذه القاعدة ويقومون بنحر أحد الكباش، ويقطعونه قطعًا ثم

(*) أرجوناوتيكا: مغامرة بحرية على ظهر سفينة اسمها Argo (آرجو) للحصول على الفروة الذهبية ، قام بها البطل ياسون ، كأحد شروط عمه لاسترداد عرش والده المسلوب الفها أبو للونيوس تقليدا للأوديسيا الهوميرية ، وتحديا لقول كاليما خوس الشهير بأن الكتاب الكبير شر وبيل "
(Mega Biblion Mega kakon) (المحرر)

(**) ومن هنا جاءت تسمية " هيلليسبونت " Hellespont . (المترجم)

يسلخونه، ويضعون فروته على تمثال آمون (زيوس) تماماً مثلما كانت تغطيه قبل النحر[٤٣]".

وفى تعليقه على هذه الفقرة خلص الاستاذ لويد (Lloyd) إلى أن وصف هيرودوت لهذا الطقس يبدو صحيحاً تماماً[٤٤]. وسوف نقوم نحن من جانبنا بمناقشة العلاقات الحميمة المتشابكة بين آمون وزيوس والكباش فى الجزء الرابع. ولكننا نود هنا إبراز نقطة هامة هى أن أهل طيبة فى عصر الدولة الحديثة نقلاً عن طقوس الدولة الوسطى كانوا يصورون آمون فى هيئة الكبش إلى جانب كونه مصدراً للوحى[٤٥]. وهذا يعود بنا إلى كولخيس ومقولة سترابون بأن أهلها كانوا لا يضحون أبداً بالكباش فى بيت الوحى الذى كان قد أقامه فركسوس[٤٦]".

إن أوجه الشبه بين ما توارد عن فروة الكبش الذهبية فى كولخيس وبين عبادة آمون فى مصر تبدو واضحة جلية. ويلفت الأستاذ يارازبوى الأنظار إلى فقرة وردت فى الأرجوناوتيكا ؛ حيث نجد الفروة الذهبية فى حراسة إحدى الحيات. ويعزو الكاتب نفسه هذه الصورة إلى صور الإله آمون – رع برأس كبش ملكى لآمون يعلوه قرص الشمس رع برأس الحية. وإن صح هذا القول، فإنه ينطبق بشكل أدق على تأثيرات متأخرة تاريخياً، لأن تصوير رع على هذه الشاكلة لم يحدث إلا فى الأسرة الثامنة عشرة، كما أن المثال الذى يسوقه يارازبوى يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة[٤٧]. وعلى العموم، فمثلما هى الحال مع العقائد الأناضولية، ليس لدينا قرائن عن زمن وصول هذه المؤثرات المصرية المفترض وصولها.

يعتقد أن رحلة ياسون البحرية قد وقعت فى القرن الثالث عشر[٤٨] ق.م، ولسنا ندرى إن كان لهذه الأسطورة ما يؤيدها تأريخياً، فهى من بين حلقة الملاحم الباكرة، ويشير الشاعر هزيود إلى كل من فركسوس والفروة الذهبية[٤٩]، وعليه يمكن إرجاع هذه الأخبار إلى زمن هزيود نفسه أى إلى القرن العاشر ق.م وذلك فى أقل التقديرات[*].

(*) لا يؤرخ لزمن هيسيود ، الان ، الا بالقرن ٨–٧ ق.م ، أى الثامن ، وليس قبل ذلك .براجع / محمود السعدنى ، تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص ١٦٥–١٧١ (المحرر) .

ومع أنه يصعب الحكم على مدى دقة أبوللونيوس فى روايته عن كولخيس، إلا أن الأستاذ لانج (Lang) قد كتب يقول:

" مـن الملفت فى الأرجوناوتيكا وجدت مـا يؤيدها فيما عثر عليه علماء الآثار، وفيما ورد فى مصادر حيثية وآشورية وأوراتية (Urartian) متفرقة. ويقدم لانج نقاطًا محددة عن الشعوب التى صادفها أبطال رحلة أرجوناوتيكا فى طريقهم إلى كولخيس. ويعزز لانج من أقواله بما أسفرت عنه حفائر العلماء السوفيت من دلائل تؤيد رواية أبوللونيوس(٥٠). من ذلك يتأكد لنا أن أوصاف أبوللونيوس عن مناطق شرقى البحر الأسود تبدو موثوقًا فيها ليس فقط فيما يتصل بعصره، وإنما أيضًا للتسليم بكل ما كتبه عن كولخيس قبل ذلك بألف وستمائه عام، وإن كان ليس ثمة ما يدعونا لأن نرفض الفقرة التالية عن تاريخ كولخيس أو آييا Aea : " تخيل معى يوم أن لم تكن مجرات الكون قد أخذت بعد فى الدوران فى الفضاء – يوم إن كان البحث عن جنس الدانيين المقدس عبثًا وخواء – يوم إن لم يكن هنالك من خلق سوى بنو أبيدان (Apidaneas) من الأركاد؛ الذين قيل أنهم قد عاشوا قبل مولد القمر، وإقتاتوا على شوك شجر البلوط فوق قمم الحجر-.. تلكم كانت الأيام الخوالى قبل أن يحكم نبلاء ديوكاليون (Deukalion) على أرض البيلاجيين – يوم أن كانت مصر عند فجر التاريخ، أمًا لجنس عريق، ومنبعًا للحنطة، ويوم أن كان النيل الذى يروى أرضها يسمى " تريتون"، ذاك النهر الكريم الذى يسرى فى أرض جرداء، وبفيضه يبعث الخضرة والنماء. وها نحن أولاء نعلم أنه من هذا البلد العريق خرج ملك على رأس رجاله الأشداء، يشق طريقه عبر بلدان أوروبا وآسيا، يؤسس المدائن فى كل صقع يتوقف عنده، وبعض هذه المدن لا يزال باقيًا حتى اليوم، والبعض الآخر قد تهدم من ثقل السنين ، إلا أن مدينة آييا بأهلها تقف صامدة حتى اليوم، وهؤلاء القوم هم من أصلاب جند هذا الملك المصرى، الذين استقروا فى تلك البقاع"(٥١).

إن هذه الفقرة جديرة بالاهتمام، فالحديث عن غياب المجرات السماوية أو توقفها عن الدوران يشير إلى زمن الاعتدالين الربيعى والخريفى الذى كانا نذيرًا " للسنة

العظمى" التى انقشعت معها مسافة ست وعشرين ألف سنة شمسية(٥٢). وهذه الإشارات عند ابوللونيوس، كمثيلتها عند أفلاطون فى حديثه عن قارة أطلنطى، تبدو متسعة فلكيًا مع ما تواتر من رموز رياضية وشعرية عن الأوقات التى سبقت مولد الحضارة اليونانية. أما اختيار اسم " تريتون لنهر النيل " فسوف نتناوله تفصيلاً فيما بعد، أما كلمة " أبيدان" (كدلى - إن) فيبدو أنها تشير إلى شبه جزيرة البلوبونيز فى واحد من الأسماء نادرة الاستخدام لشبه الجزيرة، والتى كنا قد ناقشنا نظرية أصولها المصرية فى الجزء الأول(٥٣).

وتأتى الإشارة إلى الملك المصرى الذى شق طريقه فى ربوع أوروبا وآسيا أغلب الظن إلى الفرعون سيزوستريس(٥٤). والمهم هنا أن نتبين إذا ما كان أبوللونيوس قد نقل عما جاء عند هيرودوت فيما يتصل بفتح المصريين لبلاد كولخيس بما فى ذلك من حكاوى مصرية معاصرة لهيرودوت؛ أم أن أبوللونيوس اعتمد على معرفة مباشرة ليست من هيرودوت فى شىء.

وكما ذكرنا سلفًا فإن أبوللونيوس قد أمضى معظم سنى حياته فى مدينة الإسكندرية، والأهم من ذلك أنه كان من مشاهير علماء عصره حتى أنه قد عُيِنَ أميناً لمكتبة الإسكندرية. هذا وتنطق دقة معلوماته عن البحر الأسود عن إلمام واسع بتاريخ المنطقة، فى استقلالية عن روايات هيرودوت. ولا شك فى أن الكاتبين - هيرودوت وأبوللونيوس- كانا يسجلان معلومات حقيقية كانت متداولة بين أهل كولخيس عن فتح مصرى لبلادهم. أما إذا كان أهل كولخيس قد اخترعوا ما قالوه لربط أنفسهم بحضارة مرموقة عريقة هى الحضارة المصرية، فهذا أمر لا يمكن فصل الحكم فيه!.

وعند هيرودوت دليل آخر لما يذهب إليه فى قوله " إن ما أذهب إليه من أقوال يستند إلى واقع آخر هو سواد بشرة أهل كولخيس وشعرهم الملبد كالصوف (وإن لم يكن هذا وقفًا عليهم)؛ والأهم من ذلك أنَّ أهل كولخيس مثل المصريين والأثيوبيين هم الوحيدون الذين يمارسون عادة الختان من قديم الزمان. ويعترف الفينيقيون والسوريون والفلسطينيون أنهم نقلوا هذه العادة عن مصر؛ فى حين أن السوريين

الذين يعيشون بجوار نهرى ثيرمودون (Thermodon) وبارثينيوس (Parthenius) وكذا جيرانهم المكرونيين (Macronians) فإنهم يقولون بأنهم قد تعلموا هذه العادة من فترة قريبة من أهل كولخيس... وهنالك أيضًا أمر آخر يؤكد الشبه بين أهل كولخيس والمصريين: فالشعبان يتبعان أسلوبًا واحدًا فى نسج الكتان بطريقة تختلف عن بقية الشعوب، هذا بالإضافة إلى الشبه فى أسلوب معيشتهم ولغتهم، والمعروف أن الكتان الذى يصنع فى بلاد اليونان يعرف باسم " السردونى" أما ذاك الذى يأتى من مصر فهو "المصرى"(٥٥).

ومن الجدير بالملاحظة فى الحديث عن الكتان أن تصنيعه كان من الأنشطة المميزة لسكان مناطق سواحل كوبائيس (Kopais)، وهناك دلائل قوية عن تأثيرات مصرية فى هذه المناطق كما بينا فى الفصلين الثانى والثالث(٥٦). على أننا لا يمكننا تحديد الوقت الذى انتشرت فيه هذه الصناعة إلى بوؤتيا وكولخيس عن طريق التواصل. ومن الصعب أيضًا التحقق من مقولة هيرودوت عن انتشار صناعة الكتان وعادة الختان على وجه التحديد زمنيًا، رغم أنها قرينتان من أقوى القرائن.

ولدينا دليل آخر عن لون البشرة الأسود، فلم يكن هيرودوت الوحيد من الكُتَّاب القدامى الذى ذكر ذلك ؛ فالشاعر بندار المعاصر لهيرودوت والأكبر منه سنًا، قد أشار إلى حملة ياسون ضد أهل كولخيس، " سود البشرة" على حد تعبيره. كما أشار بعض الكتاب اللاحقين إلى هذا الأمر نفسه، ولعلهم فى هذا قد تأثروا بما ورد عند هيرودوت فى هذا الخصوص(٥٧).

أما إذا إستعنا بالانثروبولوجيا الطبيعية فإنها أيضًا لن تف لحسم الأمر، فسكان الجبال من الأيبيريين والجورجيين يتسمون ببنية جسمية تشير إلى استمرارية بعيدة التاريخ فى الشبه، فهم – كما يتضح فى قوام الجورجيين الحاليين- يتميزون بالرأس القصيرة، وهذه سمة قوقازية أصيلة. وعلى النقيض من ذلك، نجد فى سواحل كولخيس خليطًا من أصحاب الجماجم الطويلة، ويرجح أنهم من أصول أفريقية(٥٨). ويحاج الأستاذ ديمترى جوليا (Gulia) - عالم اللغات والاجناس الأبخازى- أن أهل كولخيس

من أصول حبشية – مصرية، وبأنه قد وجد تأثيرات مصرية فى الأسماء الجغرافية فى أفجازيا وفى أسماء آلهتها، بل وفى أسماء الناس العاديين[٥٩] والحق أنه يوجد فى أفجازيا سكان سود البشرة كالأفارقة حول مدينة سوخومى حتى يومنا هذا، أى فى شمالى كولخيس القديمة. ويظن أن بعض هؤلاء الأفارقة قد جلبوا كعبيد من أفريقيا عندما كانت أفجازيا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. ورغم محاولات الاتحاد السوفيتى تفتيت أواصر هذه الجماعة السوداء تارة بالتفريق وأخرى بالتزاوج من أعراق أخرى، فإن هـذه الجماعة قد ظلت لا تتكلم إلا بلغتها الأبخازية[٦٠].

ولا يزال الجدل محتدمًا منذ قرن من الزمان فى روسيا وجورجيا عما إذا كان هؤلاء السود من أحفاد الجماعة التى شاهدها هيرودوت بنفسه أم لا. ومنذ وقت قريب خرج العالم الأمريكى باتريك إنجلش (English) بمقالة تؤيد صلة هؤلاء السود بأفريقيا (وإن كانت المقالة قابلة للنقد). ويحاج باتريك أن وجود جماعة سوداء فى كولخيس قد ظل متواترًا لردح طويل من الزمن، حتى إننا نجد إشارات لذلك فى كتابات القديس جيروم وسوفرونيوس أيضًا فى القرن الرابع للميلاد، أى بعد مضى ثمانمائة عامًا على عصر هيرودوت[٦١]. وهذا القول – إن صح – يضيق الفجوة بين الكُتَّاب القُدامى والمحدثين إلى حوالى ألف ومائتين من السنين. ولا شك فى أن وجود جماعات عرقية أصغر حجمًا فى المنطقة حتى اليوم يعزز من فكرة استمرارية هذه الجماعات العرقية لردح طويل من الوقت، يُضَاف إلى ذلك أن الأحوال المناخية دون المدارية فى كولخيس قد جعلها منطقة جذب للأفارقة منذ تاريخ قديم.

الجغرافيا الروحية

قد يبدو هذا المصطلح " الجغرافيا الروحية " غريبًا على الأذن ومعقدًا للغاية، ولكننا من خلاله سوف نتقصى التماثل فى هذه الجغرافية بين مصر وكولخيس. وهذا يستوجب منا العودة إلى الفقرة التى سقناها سلفًا من أبوللونيوس:

" ..... تلكم كانت الأيام الخوالى قبل أن يحكم نبلاء ديوكاليون على أرض البيلاجيين.... يوم أن كانت مصر عند فجر التاريخ أمًا لجنس عريق، ومنبتًا للحنطة، ويوم أن كان النيل الذى يروى أرضها يسمى " تريتون"؛ ذاك النهر الكريم الذى يسرى فى أرض جرداء وبفيضه يبعث الخضرة والنماء"[٦٢].

وكما لاحظنا فى الفصل الثانى، فإن كلمة " تريتون" ذات صلة بالكلمة المصرية "تريت" (Tryt) بمعنى " الاحترام أو الوقار" وهو الاسم الذى كان يطلق على العديد من الأنهار فى ليبيا. وتريتون فى الميتولوجيا اليونانية هو ابن الإله بوسيدون[٦٣]. ويتابع أبوللونيوس الأمر فيضيف الآتى:

"..... وإلى يومنا هذا بقيت آيا بأهلها الذين تحدروا من أصلاب الرجال الذين كان الفرعون المصرى قد وطّنهم فيها. وزيادة على ذلك، فإن هؤلاء المستوطنين قد حفظوا لنا لوحات من الحجر كان أسلافهم قد حفروا عليها خرائط توضح حدود برها وبحرها ومسالك الجهات الأربع الأصلية. وعلى هذه الخرائط يوجد ذراع لنهر يمثل أبعد وسعٍ لمجرى المحيط، وهو نهر عريض وعميق يسمح بملاحة السفن التجارية فيه. وقد أحلوا موقع هذا النهر على مسافة شاسعة من آيا، وأطلقوا عليه نهر " إستر" (Ister) (وهو الذى تعارف الدارسون على أنه نهر الدانوب). وتتدفق مياه هذا النهر من منطقة ما وراء الريح الشمالية من جبال ريبايان (Rhipaean) . وبعدها ينساب هذا النهر وسط سهول شاسعة فى مجرى واحد. ولكنه عندما يصل حدود تراقيا وسكيثيا ينقسم إلى فرعين، فرع قبالة البحر الأيونى (الأسود)، وآخر (الرون) نحو الجنوب، حيث يصبح خليجًا عميقًا يمتد إلى البحر الصقلى، وهو بحر يلاطم سواحلكم إن صح اعتقادى بأن نهر أخيلوس (Achelous) المنساب من بلاد اليونان يصب فيه أيضًا[٦٤].

عند هذا المنعطف من ملحمة " الأرجوناوتيكا" نجد تحولاً فى مساقها من مغامرة محدودة متزنة على شواطئ البحر الأسود إلى اندفاعه محمومة تجتاح أوربا والبحر المتوسط. وبذا تغلب السمات الكونية على الحدود الجغرافية فى القصيدة الكبيرة.

على أن الإشارة إلى نهرى النيل والدانوب تكتسب دلالة خاصة، ولسوف نوضح فى الفصل التالى أن الإسم المصرى " إترو" (Itrw) كان يستخدم لوصف النيل أو المياه

الغزيرة أو المحيط حول العالم، وهذا ما نجده أيضًا عند اليونان فى استخدامهم لجذر كلمة " أتلا" (Atla) التى منها اشتقت كلمة " الأطلنطى" ، ومنها أيضًا اشتق اسم نهر الدانوب. ولكن أبوللونيوس فى هذه القصيدة يتكلم عن مضمون جغرافى شمولى جامع يجمع بين ما هو أرضى وسماوى، روحانى وجهنمى، كى يبين فى نهاية المطاف مسار رحلة أرواح الموتى فى العالم الآخر.

وانا لنجد هذا النمط من الجغرافيا فى محاورة أفلاطون بعنوان " فيديون"، حيث يتحدث أفلاطون عند آخر مقولات سقراط عن لحظة موته المرتقبة وعن الخلود:

" يقينى أن الأرض جد كبيرة، وبأننا نحن الذين نقطن ما بين أعمدة هرقل ونهر فاسيس (Phasis) نحتل رقعة ضئيلة حول البحر، كالنمل أو الضفدع حول إحدى البرك - ولكن هنالك العديدين من البشر الآخرين يقطنون فى بقاع أخرى شبيهة ببقعتنا[٦٥]".

وإن هذا التصور الكونى الجغرافى تصور ونغلق على ذاته: فهو يتخذ من البحر المتوسط والبحر الأسود مركزًا تصب فيه أنهر أربعة أو أكثر من محيط سماوى أو أرضى من حول الأرض. ولقد جاء تفسير عملية البخر بفعل حرارة الشمس لمياه البحر المتوسط على أنها " إنسياب إلى الهاوية تحت الأرض، كما صورها هيرودوت نقلاً عن هومر[٦٦]. أما مجارى المياه الأربعة فهى: نهر النيل من الجنوب، والماء المتدفق من الأطلنطى عبر أعمدة هرقل من الغرب؛ ونهر الدانوب (والريون والبو) من الشمال، ثم نهر فاسيس من الشرق.

هل " كاش " وكولخيس من اشتقاق مصرى؟

مع افتراض أن الأرض التى ينبع منها نهر النيل، والأرض الخصيبة لنهر فاسيس فى بلاد كولخيس تمثلان نقطتى قطبى الأرض، وبأن أهل هاتين الرقعتين كانوا سود

البشرة ؛ فهل كان للرقعتين اسم واحد هو " كاش" أو كولخيس؟ وقبل أن نخوض فى هذا الأمر، نود ان نتفحص بعض الأمثلة التى قد توحى بإمكانية خلع أسماء جغرافية على البحر الأسود. ولقد عالجنا من قبل اسمى " سينوبى" و "أبيدوس"، ولكن هنالك أيضًا مثالاً آخر أكثر أهمية نجده فى كلمة بونتوس (Pontos) . هذه الكلمة هى التى أطلقها الكتاب فى العصور الكلاسيكية على البحر الأسود، وكذلك على الساحل الشمالى للأناضول، والساحل الجنوبى لروسيا. والكلمة واحدة من مجموعة كلمات يونانية كثيرة بمعنى " البحر".

ويرجح أنها من جذر هندو - أوروبى (بنت Pent بمعنى : يمشى أو يسار)، ومنها جاءت الكلمة اللاتينية (Pons, Pontis) بمعنى القنطرة أو الممر". وكما يتضح من العرض التالى، فإنه رغم أن سكان المناطق الساحلية ينظرون إلى البحر كعائق أو حد، إلا أنه لا يوجد فى الأصول الهندو- أوروبية للكلمة ما يوحى بهذا المعنى. ومن ثم ليس هناك ما يحول دون النظر إلى البحر لا كعائق وإنما كممر أو منطقة عبور. ويتفق هذا المعنى مع الاستخدام الشائع للهلسبونت (البسفور والدردنيل) فهى نقطة وصل بين بحر ايجه والبحر الاسود، وإن كان إطلاق هذا الاسم (هليسبونت) على الأرض على جانبى بونتوس (البحر الأسود) يمثل مشكلة أخرى، وفى هذا المجال تجدر الإشارة إلى كلمة مناظرة فى الاسماء الجغرافية عند المصريين القدماء وهى كلمة " بونت" أيضا، وهى البلاد التى كان المصريون يبحرون إليها حول البحر الأحمر والمحيط الهندى للوصول لجلب منتجات المناطق المدارية (من صمغ ولبان وبخور وعطور). ومع أننا لا نجد فى السجلات استخداما لهذا الاسم عند المصريين ليشير إلى أراضى مناطق الشمال، إلا أن العادة قد جرت عند قدماء المصريين بإطلاق الاسم الجغرافى نفسه على مكانين فى آن واحد. ويرد هذا التناظر عند الكتاب اليونان والرومان بين الشرق والمغرب[٦٧]. كما سنلاحظ ذلك عند الحديث عن مكانين يحملان اسم أثيوبيا. أما فى مصر، واتساقا مع سريان النيل من الجنوب إلى الشمال، فإن نقطتى التناظر هما بالضرورة الجنوب والشمال؛ مع ملاحظة أن جل مدن مصر السفلى لها أسماء تناظرها فى مصر العليا، وينطبق نفس الشىء على أسماء الأماكن الأجنبية؛ مثلما أوضحنا فى موضع سابق عن " ستِ" (St) الشمالية والجنوبية، ونجد نفس الشئ فى الاسم " تانتر"

(T3 ntr) بمعنى " الأرض المقدسة"، والتى قصد بها الأرض الممتدة من الأناضول إلى شرق أفريقيا أى نطاقين جغرافيين ، أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب.

وبهذا يمكن القول بإمكانية تواجد بلاد فى أقصى مناطق الجنوب باسم " كاش" (K3s) أو بونت، وأخرى فى أقصى الشمال بنفس الاسم، وإن كانت ليس لدينا قرائن تؤيد هذا المذهب.

هذا ولا نكاد نعرف جذوراً لغوية لاسم كولخيس، ولربما أن الاسم قد اشتق من الجذر "خالك" (Chalk) الذى نجده فى أسماء أماكن أخرى مثل خالكيس أو خالكديكى. "وخالك" هذه تعنى " البرونز" أو المعدن بصفة عامة، وهى مشتقة - فى تقديرنا - من الجذر السامى " آخلك" (hlq) بمعنى " الليونة" أو "طرق" المعادن وتصنيعها. والواقع أن هذه المنطقة قد اشتهرت بمواردها المعدنية الغنية، ومن ثم فإن اسم كولخيس قد اشتق إما من جذور سامية أو يونانية، أو من غيرهما من اللغات الأخرى العديدة التى كانت منتشرة فى غربى منطقة القوقاز(٦٨).

وهناك أيضاً احتمال ثالث: فالقديس جيروم وكذلك سوفرونيوس من أهل القرن الرابع للميلاد يشيران إلى كولخيس قد اشتق من كلمة " كاش" (k3s) وهى الاسم المصرى القديم لمناطق فهو " كوس" (Kus) وإن كان قد ورد فى الترجمة السبعينية للتوراة باسم " خوس " (Xous) ، وهى تشير أيضاً إلى أثيوبيا. وكنا قد بينا فيما سبق دلالات استخدام حروف (أ - د - ل) كحروف ساكنة، والمعروف أن اللغة المصرية القديمة تسمح بإبدال حرف الشين بحرف الحاء، كما أن الإعلال (القلب إلى حرف العلة) من الامور الشائعة فى اللغة العبرية. كل هذا يشى بوجود حرف متحرك (واو أو ياء) يوائم صوتياً بين " كوس" وكولخيس.

وإذا ما قبلنا بالاشتقاق اللغوى المصرى، فإن صيغة كولخيس توحى بنطق الكلمة فى عصر الدولة الوسطى: " كاس " حيث يكون الحرف الأوسط ساكناً، خلافاً لما صار إليه الحال فى عصر الدولة الحديثة التى حفظت لنا النطق العبرى للكلمة " كوس" وهذا يقودنا إلى الأسرة الثانية عشرة، فهى الأسرة الوحيدة قبل الدولة الحديثة التى وصلت

فيها المؤثرات المصرية الثقافية إلى هذه المناطق الشمالية النائية، ومن الناحية السيمانطيقية (دلالات الألفاظ) فإن كلمة " النوبة" مثل كلمة كولخيس تحملان معنى الثروة المعدنية من الذهب، كما أن الأحوال المناخية فى المنطقتين متشابهة، ذلك أنَّ كوس كانت تنعم بخضرة مزدهرة فيما وراء الجزء الصحراوى السفلى، وهى حتى أيامنا هذه تنعم بقدر من الأمطار.

زنوج كولخيس وعيلام

يعترض أمر التوفيق بين كوس وكولخيس كثنائى متماثل جنوبًا وشمالاً ما ينادى به الكثيرون من العلماء اليوم بأن كلمة كوس الواردة فى التوراة تشير إلى النوبة أو الحبشة. والكلمة فى نفس الوقت تشير إلى منطقتين أخريين هما أهل مَدْين(*) (Midiantes) قرب الجزيرة العربية، وأهل كاشو (كاسو) أو الكاسيين شرقى بلاد الرافدين الذين سيطروا على بلاد ما بين النهرين لردح من الزمن فى الألف الثانية قبل الميلاد[٦٩]. ويبدو أنه كان لكل من هاتين المنطقتين اسم خاص بكل منهما وأن كان الاسم متشابها. وفى الحالين فإن هذا الاسم كان يطلق على سكان سمر أو سود البشرة. وبهذا فإن كوس باتت تستخدم أيضًا للدلالة العرقية لهؤلاء القوم، ثم ما لبثت أن انسحبت على جماعات سمراء البشرة فى " مدين" جنوب شرقى كنعان، وهم حتى يومنا هذا، مثل أهل أقاصى جنوب الجزيرة العربية، يشبهون فى لون بشرتهم أهل الصومال ومناطق شمال شرقى أفريقيا.

والكاسيون الذين توطنوا أصلاً على أطراف بلاد الرافدين يتلون لغزًا محيرًا؛ ولكى نقتفى أصولهم ينبغى أن نُلقِّى نظرة على حضارة العيلاميين الذين عاشوا فى منطقة سوسيانا (Susiana) وهى خوزستان الإيرانية الآن أى المنطقة السهلية شرقى نهر الدجلة وبعض الأجزاء من المرتفعات الإيرانية.

(*) هى منطقة شمال غرب الجزيرة العربية الآن ، وحيث مدائن صالح الصخرية الجليلة من القرون الميلادية الأولى . (المحرر)

وكان ذلك قبل حلول الجماعات الناطقة بالبيرانية فى الألف الثانية قبل الميلاد[٧٠]. ولقد بات مؤكداً اليوم أن العيلاميين ينتمون إلى شجرة العائلة الكبرى للغة الدرافيدية[٧١]. ومن المحتمل أيضًا أن بعضًا من الناطقين بهذه اللغة من أصول هندية جنوبية، وهم أكثر سمرة من سكان المناطق الغربية. ويظن أيضًا أن جماعات زنجية كانت موجودة أيضًا فى منطقة عيلام[٧٢].

ولقد علق الأستاذ هنز (Hinz) عمدة الدراسات العيلامية على نقوش وجدت على قرميد مزجج تصف فرقة الحراسة الخاصة بالملك الفارسى دارا، حول سنة ٥٠٠ ق.م، قائلاً:

" إن بعض الحراس بيض البشرة وهم من أصل فارسى وإن كانوا يرتدون الزى العيلامى، و البعض الآخر أصحاب بشرة قمحية اللون، وفريق ثالث منهم أصحاب بشرة داكنة أقرب إلى السواد. وهؤلاء الأخيرون من العيلاميين من دواخل البلاد. وحتى يومنا هذا تجد رجالاً داكنى البشرة، وإن لم يكونوا زنوجًا فى منطقة خوزستان"[٧٣].

وأما هيرودوت الذى كتب عن جيش دارا نفسه، بعد زمن هذه النقوش بعشرين عامًا، فإنه يشير إلى العيلاميين فى مناطق الشمال بقوله:

" يوجد فى جيش (دارا) فصلان من الأثيوبيين: الشرقيون الذين كانوا فى الخدمة مع الهنود وهم يشبهون الأثيوبيين من المناطق الجنوبية الشرقية اللهم إلا فى اللغة وشعور رأسهم غير المجعدة، فى حين أن شعور الأثيوبيين فى ليبيا مجعد ومتموج بشكل ليس له مثيل آخر فى العالم"[٧٤].

يفهم من هذا النص لهيرودوت أنه يميز بين شكل شعر الرأس عند الآثيوبيين الشرقيين وبين شكله المتجعد الذى يميز أهل كولخيس، وبهذا فإن الحديث ليس مُنْصَبًا فى الأصل على أهل كولخيس كما قد يفهم البعض.

على أن الحديث عن إثيوبيين ليس بالأمر الجديد، فهو متواتر عند الكُتَّاب قبل عصر هيرودوت: ففى الأوديسا مثلاً يرد وصف الأثيوبيين على أنهم " منقسمون إلى

فرعين متباعدين جغرافيا، قسم يعيشون حيث تغرب الشمس، والآخر حيث تشرق الشمس"[٧٥].

والحق أن الكلمة "أثيوبيا" تعنى حرفيًا " أصحاب الوجوه المحروقة" أو المحترقة من لهيب الشمس، وكانوا ينتشرون ما بين غربى ليبيا (أفريقيا) حتى شرقى بلاد ما بين النهرين.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: هل يحق لنا أن نضع ثنائية أثيوبيا فى خط متواز مع ثنائية كوس؟ لقد حاول بعض الكتاب الربط بين اسم " الخز" أو "الكز"، كما هى الحال فى اسم خوزستان (عيلام)، باسم كوس. والواقع انه توجد روابط تجمع بين عيلام وكوس، كما نطالع عند هيرودوت عن أرستاجوراس من ميليتوس الذى صاح وهو يتفحص خريطة الولايات الفارسية قائلاً: "ها نحن أولاء .. إلى الشرق بعيداً تقع كيسايا، ويمكنك أن ترى نهر خواسبيس (Choaspes) وعلى شطه مدينة سوسه"[٧٦]. كما أن سترابون قد أشار أيضًا إلى نفس المنطقة. هذا وتوجد إشارة حديثة إلى نفس الإسم فى مسمى نهر كشغان (Kashghan) فى خوزستان (عيلام). ويعزو الأستاذ "هنز" هذه التسمية إلى مؤثرات كيسانية[٧٧].

ولنعد الآن إلى الكيسانيين الذين كانوا يسمون فى العصر الأكادى باسم "كاشو" أو "كوشو". وأما الإغريق فكانوا يطلقون عليهم اسم "كوسايوى" (Kossaioi) ، وهو اسم – فى نظر العالِم المتخصص فى الدراسات التوارتية ى.أ. سبايزر (E.A.Speiser) - متضمن فى منطوق حرف العلة فى لفظة كوس، وأن هؤلاء القوم قد أطلقوا على أنفسهم كلمة " جالزو" أو " جالدو" أو " جالشو"، ومن الأخيرة جاءت لفظة " كاشو" الأكادية[٧٨].

إن الموطن الأصلى للكيسانيين أمر صعب التحديد، وكل ما نعرفه حتى الآن أنهم قد وفدوا من أطراف الجبال المتاخمة لبلاد ما بين النهرين[٧٩]. وفيما بعد تركزت معاقلهم فى جبال زاجوراس شرقى بلاد الرافدين، ومن ثم فإنهم أصبحوا على صلة مباشرة بالعيلاميين وحضارتهم. وفيما تلا من تاريخ ظهر كيسانيوس فى عيلام نفسها، ويعكف العلماء المختصون على تعقب المؤثرات العيلامية فى اللغة الكيسانية[٨٠]. ومن

ناحية أخرى، فإن لون البشرة الأسود لبعض العيلاميين يسمح لنا بالقول بأن النظرة العامة لأهل كيسان كانت على أنهم " سود البشرة " ، وإن كان هذا الأمر موضع نقاش حاد.

من جهة أخرى ينبغى أن نضع شخصية نمرود الجبار الذى ورد ذكره فى التوراة كفاتح من بلاد ما بين النهرين ضمن هذا الإطار من البحث. فلقد وصف نمرود على أنه " ابن كوش "[٨١]. ولكن الأستاذ سبايزر – وهو الحُجة فى هذا الحقل من الدراسات – يرفض أن يكون نمرود من أصول مصرية. فلقد جادل الأستاذ سيث بأن اسم نمرود مشتق من كلمة " نبمورايا" (Nibmuaria) التى يرى فيها تحريفًا بالخط المسامرى للكلمة المصرية " نب" (Nb M3't) وهو الاسم الذى أطلق على الفرعون أمنوفيس الثالث الذى عرف بفتوحاته الواسعة ونفوذه العريضة فى بلاد ما بين النهرين[٨٢].

ومع تسليمنا بوجود كوس شرقية، فإننا نتفق مع العلماء الذين لا يرفضون بشكل قاطع وجود صلات بين كوس الشرقية وبين أصول أفريقية. فإننا أميل إلى الاعتقاد بأن اللقب " نبر دت" (Nbr-dt) بمعنى " سيد الكون" الذى خلع على الفرعون سنوسرت الأول هو الذى اشتق منه اسم نمرود. وهذا اللقب لقب مرموق اختص به عدد قليل من الآلهة، ومن ثم فإنه يتفق مع ما ورد فى التوراة عن صفات نمرود من تجبر وكبرياء وتطلع إلى تألية ذاته[٨٣].

ويبدو الاسم " نبر جر – نب إر جر"(*) من الناحية الصوتية أكثر معقولية من شطحة الأستاذ سبايزر الذى يرجع اسم نمرود إلى اسم " تغلاط نينورتا" (Tikulti Ninurta) [٨٤] . فبغض النظر عن الإشكالية الصوتية للإسم الذى وقع عليه اختيار سبايزر، هنالك أيضًا إشكالات فى الدلالة: فالاسم ليس كيسانيا بالمرة وإنما هو اسم لزعيم أشورى قام بطرد الكيسانيين من بابل. كذلك فإن هذا الزعيم قد حكم فى القرن الثالث عشر ق.م، وهو التاريخ التقريبى لوقت تسجيل سفر التكوين التوراتى. كما أن وصف نمرود فى سفر التكوين والكتابات التلمودية على أنه " أول" الفاتحين

(*) يستخدم المؤلف " نب إر جت" مرة ثم يستخدم " نب إر= جر" مرة أخرى! (المترجم)

يوحى بأنه ينتمى إلى عصر أكثر قدمًا من تواريخ تغلاط وأمنوفيس الثالث وكاشو وملوك كيسان أو كاشو أنفسهم(٨٥).

ونرجو ألا يفهم من كلامنا أننا نحاول التوفيق بين شخص نمرود وبين الصورة التى وردت فى النصوص العبرية عن الفرعون سيزوستريس؛ ذلك لأن الأوصاف التى جاءت عن هذا الصياد الفذ الذى قام بغزو البلاد ما بين جنوبى بلاد النهرين حتى أقاصى الشمال تتسق مع مسيرة الملك سرجون الأكادى أو حفيده نارام سن أكثر من انطباقها على أى من الفراعين. ونخلص من هذا كله إلى أن نمرود يمثل شخصية مركبة جمعت سِمات الغزاة الكبار جميعًا: سرجون، نارام سن، وسيزوستريس. وحيث أن الأكاديين لم يكونوا على صلة بعيلام أو الكيسانيين، فليس أمامنا إلا أن نفترض أن نمرود ينحدر وشجرته العائلية من شخص الفرعون سيزوستريس.

موجز للنظريات حول استعمار مصر لبلاد كولخيس

أغلب الظن أنه كانت توجد جماعتان من سود البشرة فى منطقة جنوب غربى آسيا فى الألف الثانية والألف الأولى ق.م: جماعة لها ملامح وأصول أفريقية ربما أنها اكتسبت اسمها من لفظة كوس المصرية (بمعنى أثيوبيا) ولم يُطلَق الكُتَّاب الإغريق على هؤلاء اسم " الأثيوبيين"، وإنما جاءت التسمية من كتاب تاريخ الكنيسة فى عصور لاحقة، والجماعة الثانية من أصول آسيوية توطنوا فى عيلام، وأطلق عليهم أيضًا اسم "الأثيوبيين"، ولقد استخدمت أسماء عديدة لوصفهم من بينها لفظة " الكوس" ، وأغلب الظن أنَّ هؤلاء قد وَفدوا من منطقة كيسان المجاورة، وهم الذين خلفوا على أنفسهم التسمية بالأثيوبيين.

ومهما كان الأمر، فمن المؤكد أن كلاً من هيرودوت، وأبوللونيوس، وديودور كانوا على إقتناع بأن كولخيس تعمر بسكان سود البشرة من بقايا حملة الفرعون سيزوستريس. ويزعم هيرودوت أنه قد حصل على معلوماته من أهل كولخيس أنفسهم

وليس من المصريين، بل إنه يقول أن المصريين أنفسهم لم يكونوا على دراية بأمر "مستعمرتهم" فى كولخيس، ومن المحتمل أن ديودور قد بنى روايته على معلومات استقاها من مصر. أما مصادر أبوللونيوس فهى غير معروفة، والأرجح أنه قد استقاها من هيرودوت ومن الكهنة المصريين ومن كتابات أخرى مبكرة زمنيًا. ومن ناحية أخرى، فإن الكثير مما ورد فى ملحمة أبوللونيوس يكشف عن معرفة دقيقة بأحوال السواحل الجنوبية الشرقية للبحر الأسود، ولذا فإن الأرجح أن أبوللونيوس قد استقى معلوماته من واقع أرض كولخيس نفسها، مثلما هى الحال مع روايات هيرودوت.

نخلص من كل ذلك أنه فى النصف الثانى للألف الأولى ق.م كان الاعتقاد عند أهل كولخيس أن بلادهم قد تأسست على يد فرعون مصرى، هو سيزوستريس فى أقوى الاحتمالات. ولربما أن هذا الاعتقاد كان على غير أساس تاريخى، وإنما قد تولد عن رغبة لدى أهل البلاد لربط أنفسهم بأسلاف متحضرين، وأيضًا لتفسير الشبه بينهم وبين المصريين، ولشرح دلالة لون البشرة الأسود لبعض سكان كولخيس. ومهما كان الأمر، فإن أهل كولخيس يبقى مشكلة مطروحة فى حاجة إلى إجابة شافية. لقد حاول الأستاذ بيرتون (Burton) الاجتهاد فى ذلك عندما تعرض لدراسة زنوج أفجازيا فى القرن العشرين الحالى، فقال الآتى:

" إن زنوج أفجازيا هم الجماعة الزنجية الوحيدة التى نلقاها فى العالم القديم خارج القارة الإفريقية وسواحل المحيط الهندى. ومن الواضح أنهم ليسوا من نسل بقايا جيش الفرعون سيزوستريس ؛ لأننا لا نعلم أن أيًا من فراعين الأسرة الثانية عشرة قد توغل فى فتوحاته بعيداً إلى جوف هذه المناطق. ومن ثم فإن أصول هذه الجماعة الزنجية فى أفجازيا تبقى لغزًا غامضاً"[٨٦].

وخلاصة القول أنه فى غياب دليل دامغ على أن كولخيس كانت من نتاج حملة الفرعون سيزوستريس، فلا حيلة لنا أن نسلم أيضًا بوصول جيش أفريقى بالفعل إلى مناطق شرقى البحر الأسود فى القرن العشرين قبل الميلاد.

بلاد الرافدين وإيران

لم يدَّع هيرودوت أن الفرعون سيزوستريس قام بغزو بلاد ما بين النهرين أو إيران. أما ديودور فيقول بأن سيزوستريس قد قام بغزو هذين البلدين بالفعل. وفيما يبدو أن ديودوروس قد استقى هذه الأخبار مما كان المصريون يذيعونه وقت فتوحات الإسكندر الأكبر وذلك للرفع من هيبة مصر فى نظر ذى القرنين. وبطبيعة الحال فإن هذا التجاه الدعائى لم يكن موجوداً أيام هيرودوت لسبب بسيط هو أن هيرودوت قد عاش قبل مولد الإسكندر بقرن كامل من الزمان. أيضًا عندما كان ديودور يسجل تاريخه كان مصطلح " آسيا" قد اتسع كثيراً إلى أبعد مما كان يظنه الأقدمون بأن منطقة الأناضول هى آسيا كلها.

على أن بعض الروايات حول شخص البطل الأسطورى ممنون، (وهى أقدم تاريخيا)، تشير إلى جيش إثيوبى كان قد قام بغزوات فى مناطق نينوى وسوسه، وإن كان يمكن تفسير هذه الإشارات على أنها تخص، الأثيوبيين من سكان عيلام . غير أنه لا توجد فى السجلات المعاصرة أو اللاحقة أية إشارة إلى غزاة مصريين وفدوا على بلاد الرافدين.

ولكن هذا لا يعنى أنه لم تكن هنالك مؤثرات حضارية مصرية على بلاد الرافدين، خاصة بعد التدهور الذى أصاب مملكة آشور فى القرن التاسع عشر ق.م، مما أدى إلى إنهيار نشاط آشور التجارى فى شرقى الأناضول وجنوبى القوقاز.

على أن احتمال قيام حملات مصرية على إيران مروراً ببلاد الرافدين أمر وارد أيضًا، وإن كنا نفتقر إلى دلائل من السجلات المحلية العيلامية أو من بلاد الرافدين. وعليه، فإنه من باب إيثار السلامة فى القول، يحسن أن نظر إلى أختام حجر اللازورد والأختام الإيرانية التى تم العثور عليها فى منطقة الطود (Tod) على أنها وصلت إلى هناك مع التجار الآشوريين القادمين من الأناضول (أنظر الفصل الخامس).

الأساطير اليونانية حول ممنون وفتوحاته فى الأناضول

لقد اعتمد كل من هيرودوت وأبوللونيوس وديودور على مصادر مصرية وكولخيسية فى رواياتهم عن فتوحات سيزوستريس المصرى. وبالمثل فإن ما تواتر من أخبار فى "رومانسية سيسخونيس" يعود أيضًا إلى منابع مصرية(٨٧). وليس هذا الاعتماد على المنابع المصرية بالأمر الغريب، نظرًا لما يعتور التاريخ اليونانى من فجوات خاصة من الفترة ما بين عامى ١١٥٠ ، ٨٠٠ ق.م، والمعروفة باسم "عصر الظلمات" هذا بالإضافة إلى ان فتوحات سيزوستريس لم تمس بلاد اليونان (كما يقول هيرودوت)، أو أنها مست فقط نقاط الأطراف كما يقول ديودور فى حديثه عن إخضاع الفرعون لجزر الكيكلاذيس(*) لسلطانه.

ورغم ذلك فهناك روايات عند الإغريق تشير إلى هذه الفتوحات المصرية، وإن كانت تتركز حول أيونيا على الشاطئ الغربى للأناضول. والمفترض أن هذه المنطقة كانت قد خضعت لتوسعات الجيوش المصرية. ولكن الأساطير الأيونية تخلو من أية إشارة لاسم الفرعون سيزوستريس، وبدلاً منه نجد اسم البطل ممنون(٨٨).

ويتضح التضارب بين الروايات المصرية والأناضولية الغربية فيما نجده عند هيرودوت فى وصفه " لصورة محفورة لشخص من مصر أو أثيوبيا" فى غربى الأناضول، والتى قال بعض من شاهدوها أنها للبطل ممنون، وإن كافة ذلك بعيدًا عن الصواب، فهى أقرب إلى شخص سيزوستريس"(٨٩).

أما نحن (المؤلف) فسوف نحاج بأن ممنون الذى يشار إليه هنا هو أمنمحات الثانى ابن الفرعون سيزوستريس. وقبل أن نخوض فى هذا الجدل، يحسن بنا أن نتفحص ما كان فى خواطر الإغريق عن شخص البطل ممنون: إن أول إشارة إلى

(*) الكيكلاذيس مجموعه جزر جنوبى بحر إيجه، وقد سميت هكذا لأنها تنظم فى شكل دوائر (Kuklos)، وكان أهلها يتحدثون اللهجة الأيونية . وتشمل جزر: ديلوس، خيوس، ناكسوس، باروس، اندروس، ثينوس. (المترجم). وكذلك راجع / محمود السعدانى ، تاريخ وحضارة اليونان القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ٥٠-٥٨ ، خاصة جزيرة ثيرا (Thera) أو - كما تسمى اليوم - ساندوريني . (المحرر)

الشخص ممنون قد جاءت فى كتابات هزيود عن " مولد الآلهة"؛ حيث يقول أن إيوس ولدت لرجلها تيثونوس صبياً نحاسيَّ العُرف هو ممنون الذى صار ملكا للأثيوبيين(٩٠).
وفى روايات أسبق لشهادة هزيود، نجد صورة لممنون فى عدة حربية مهيبة وهو يهب لنجدة أهل طروادة ضد الإغريق، ثم يقوم بقتل أنتيلوخوس ابن نستور، حتى يتمكن البطل الاغريقى آخيل آخر الأمر من قتل البطل ممنون. لقد وردت هذه الأخبار فى مختصر للحمة بعنوان " الإثيوبى" للكاتب أركتينوس من مليتوس(٩١). والمفترض أن أركتينوس قد عاش فى بدايات القرن الثامن ق.م، ومن المعلوم به أن كلاً من هزيود وهومر(*) كانا على علم بهذه الرواية. وبذلك يمكن إرجاع هذه الرواية إلى القرن العاشر ق.م، عندما كان هزيود يسجل مؤلفة عن الآلهة أو ربما قبل ذلك ببعض الوقت.

ولقد كشف الأستاذان كلارك، وكولسون- وهما من عمد الدراسات الكلاسيكية فى القرن العشرين - عن التطابق المذهل بين وقائع وفاة البطل ممنون والشخصية الاسطورية باسم ساربدون. وساربدون هذا هو المسمى الذى اتخذه شقيق لمينوس. ورادامانتيس، وهو الذى قام بتأسيس مملكة ليكيا جنوبى الأناضول، كما أنه هو الذى قاد فرقة الليكيين وحلفائهم الذين هُرِعْوا لنجده الطرواديين ضد الإغريق، إلى أن قتل (ساربدون) على يد باتروكلوس الرفيق الحميم للبطل آخيل. ويحاج الاستاذان كلارك وكولسون بأن " شاعر الإلياذة لابد فإنه كان على دراية بالأحداث التى وقعت لكل من أنتيلوخوس وممنون فيما ورد فى نص رواية "الأثيوبى"، وان كان هومر لم يذكر هذين البطلين فى ملحمته، وإنما اكتفى بقصة ساربدون بدلاً من ذكر شخص ممنون"(٩٢). على أن أستاذ الكلاسيكيات جويجورى ناجى (Nagy) يستنكر ربط المصير الذى لقيه ساربدون بالمصير الذى آل إليه ممنون، ويعلل وجه الشبه فى المصيرين على أنه نتيجة لرواية واحدة عن بطل واحد، ثم أنه يؤيد أسطورة ممنون أكثر من الأخذ برواية ساربدون(٩٣).

(*) يقدم المؤلف الشاعر هيسيود على هوميروس وهو خطأ تأريخى واضح إذ يفصل بينهما على الأقل قرن من الزمان ، فجاء هيسيود بعد هوميروس واستفاد من ملاحمه الأسبق . (المحرر)
ولمزيد من المعلومات الأربعة حول اركتينوس راجع the Oxford
Classical Dictionary , 2nd ed .1970 (Rep.1972),pp.388-389 s.v Epic Cycle

ومن الصعب للغاية أن نحدد أى المعلومات التى وردت لاحقًا مُستقاة من القصة الأصلية، وأيها قد أُدخِلَ على الأصل. ومع ذلك فإن بعض الأفكار تتأيد مصداقيتها من واقع بعض القرائن التى نجدها فى رسومات القرن السادس ق.م وفى كتابات القرن الخامس ق.م: ففيها يرد شخص ممنون دائمًا على أنه ابن لإيوس وتيثونوس؛ وفيها أيضًا نجد قصة التنافس بين ايوس ووالده آخيل وهما تتوسلان إلى زيوس كى يبقى على حياة ولدها، وأيضًا ما جاء عن وزن روح كل من البطلين فى كفة الميزان. إن كل هذه الروايات تعود إلى تاريخ قديم(٩٤). ولما كان عنوان الملحمة الضائعة هو " الأثيوبى" بكل تفاصيلها، فإن " إثيوبية" ممنون ولون بشرته الأسود تصبحان فكرة محورية فى الأسطورة(٩٥).

ومن ناحية أخرى هناك شك فى تحديد أى من الإثيوبتين جاء منها ممنون(٩٦). وما من شك فى أنه قد قدم إلى طروادة من ناحية الشرق، خاصة وأن هيرودوت يصف بلده سوسة فى عيلام على أنها " مدنية ممنون"(٩٧). وبعد زمن هيرودوت ببضع عقود نجد الملك الفارسى أتاكركسيس الثانى يتلقب باسم " ممنون"؛ ربما ليضفى على شخصه شيئًا من الشرعية والقبول لدى رعاياه من العيلاميين بعد أن اتخذ من مدينة سوسة عاصمة شتوية له. كل هذا يشير إلى أن ممنون فى ذلك التاريخ كان يمثل البطل القومى لأرض عيلام. كذلك يشير أستاذ الكلاسيكيات البلجيكى جوسينر إلى ما ورد عند سترابون نقلاً عن مسرحية الشاعر ايسخولوس المفقودة بعنوان " ممنون " أن والدة ممنون كانت من أهالى سوسة. ومع أن حقيقة ما قاله سترابون على وجه الدقة أنها من أصول كسيانية (دون تحديد لمدينة سوسة). وبغض النظر عما كان يضمره سترابون، إلا أن ما صرح به يجعل والدة ممنون " كوشيه" أو سوداء البشرة(٩٨). ويحاج الاستاذ جوسينز أن حكاية الأصول " السوسية" لوالدة ممنون هى الأقدم والأصل، وأما الروايات التى تجعلها من أصول جنوبية فقد جاءت متأخرة زمنيا، ويتفق الأستاذ سنودن (Snowden) مع حجج جوسنز فى هذا الأمر(٩٩). وفى مقابل هذا الرأى، نجد الصورة المتواترة عن البطل ممنون " أسود اللون صاحب الشعر المجعد" مع خلط بين شخصية وشخص الفرعون سيزوستريس، كما ورد عند هيرودوت(١٠٠).

المهم فى هذا الجدل أن نوضح أن أثيوبيا عند الإغريق كانت تعنى لهم اثيوبية إفريقيا الوسطى، وتكشف التصاوير الشخصية التى عثر عليها فى جزر بحر إيجه والتى ترجع إلى القرن السابع عشر ق.م، فى أقل تقدير، عن وجود زنوج أفارقة فى جزر بحر إيجه نفسها.

ومهما قيل، فإن الجدل حول أى الاثيوبتين الشرقية أم الجنوبية كانت الموطن الأصلى للبطل ممنون جدل قديم، كما وأن الدلائل على مصداقية هذه النظرية أو تلك دلائل هزيلة حقًا[١٠١].

ولقد حاول بعض الكُتَّاب التوفيق بين النظريتين، من ذلك ما كتبه كتزياس من كنيدوس الذى كان طبيبًا خاصًا فى بلاط الملك الفارسى ارتاكزركسيس حوالى سنه ٤٠٠ ق.م، حيث يقول:

" عندما كان تيوتاموس سيدًا على آسيا - شن الإغريق حملة على طروادة بقيادة أجاممنون.... وأما بريام ملك طروادة الذى كان تابعًا (فصلاً) لملك الآشوريين فقد أرسل سفارة إلى الملك يطلب منه العون. - فأرسل إليه الملك تيوتاموس عشرة آلاف جنديًا أثيوبيا ومثلهم من أبناء سوسة إلى جانب مائتين عربة حربية.... وعين قائدًا لهذه الحملة هو ممنون ابن تيثونوس." [١٠٢].

نسب ممنون

استخدم الكُتَّاب اللاحقون الروايتين السابقتين المختلفتين فى تتبع نسب البطل ممنون، وإن كانت نسبته الإفريقية - الأثيوبية - المصرية أكثر وجاهة وقبولاً. وقبل أن نناقش هذا كله، نود أن نُعَرِجَ على الجوانب الأسطورية فى الحكاية كلها، بدءًا بنسب هذا البطل الذى كثر الجدل من حوله: إن اسم والدة ممنون هو " إيوس" (Eos) ، وهذه الكلمة هى صيغة المؤنث لتجسيد "الفجر" (طلوع الشمس)؟ والفجر هو المشرق الذى منه تبزغ الشمس كل صباح، ومن ثم فإن الاسم يحمل دلالة "الشرق"[١٠٣]. أما أبوه

تيثونوس فهو شخصية أكثر تعقيداً، فطبقًا للشاعر هومر، كان تيوثونوس شقيقًا للملك بريام سيد طروادة، كما أن الكاتب كتزياس يجعله على صلة بملك اشور، كما سبق أن بينا[١٠٤]. وبالنسبة لهومر، فإن تيوثونوس يرتبط بالمشرق، فشاعرنا يردد العبارة التالية مرتين في ملحمته:

" وها هى سيدة الفجر تصحو من

خدرها

تتثاقل من جوار مليكها

المهيب تيوثونوس "

إن المشكلة تصبح أكثر تعقيداً إذا نحن تمعنا فى الأصول اللغوية الأفرو- أسيوية لاسم ممنون، وهذا ما سوف نتصدى لمناقشته فى الجزء الرابع. وبصفة عامة يمكن لنا القول بأن أصول هذا الاسم قد جاءت من منبعين:

الأول من جذر سامى هو " طيت" (Tit) بمعنى " الطين" يلاحقة تخفيف للنطق هى حرف النون، لتؤدى الكلمة معنى " المطمورين فى الطين" أو " الموتى الراقدين فى جهة الغرب". ومن نفس هذا الجذر السامى أيضاً إشتق الأغارقة اسم " الوحوش آكلة لحوم الاطفال" (تيتياس) (Titias) أو تيتيوس أو التيتأن[١٠٥].

أما الأصل السفلى للكلمة فهو قريب من الاصل الأول وهو " ددن" / دتن/ تدن" (Ton/Dtn/Ddn) الذى يعنى جهة من الجهات الأربع الأصلية الجغرافية، مشيراً إلى شعب متبربر كانوا يعيشون غربى بلاد النهرين وجنوبى سوريا وفلسطين. وهذه الأسماء السامية - السومرية تتصل باسم المعبود " ددون" (Down) الذى كان معروفاً فى بلاد النوبة فى الجنوب، وفى ليبيا غربى مصر[١٠٦].

وكانت عبادة " ددون" وثيقة الصلة بعبادة أمنى/ آمون الذى له جذور نوبية وأثيوبية ومصرية بطبيعة الحال.

والمعروف أيضًا أنه كانت لكبير أرباب اليونان زيوس صلات قديمة مع الأثيوبيين[١٠٧].

وبسبب هذا الغموض حول أصول تيثونوس (أو تدن) من شرقية وغربية وجنوبية فيما عدا الشمالية، فلقد اتفق على أنه كان يعيش على شواطئ المحيط الذى كان يغلف العالم، وتلكم هى الصورة الإغريقية فى وصف موطن الآثوبيين. أما عن صلاته مع زيوس/ آمون/ أمنى، فمن المهم أن نوضح أن كلمة " إمنى"(Imn) فى المصرية تعنى أيضًا "جهة الغرب"، ويقابلها فى السامية كلمة "يمنى" (Ymn) بمعنى " اليد اليمنى"، والتى تضئ أيضًا جهة الجنوب[١٠٨].

وأغلب الظن أن تشخيص تيوثونوس على أنه " مشرقى" الأصل أو آشورى الأصل على وجه التحديد، قد جاء من عند شعب " تدن" (Tidn) وهم شعب متبربر كانوا يعيشون فى الصحراء غربى بلاد النهرين. ومن الأرجح، كما هى الحال مع قضية الأثيوبتين، أن تيوثونوس كان من أهل أطراف العلم، أى من أقاصى الجنوب الشرقى، مثل ابنه ممنون فيما بعد، والآن فلنتتبع العناصر الأسطورية فى سيرة ممنون ابن تيوثونوس[١٠٩].

ممنون وأوزيريس

لقد نجح العالم روبرتسون سميث رائد دراسات الديانات المقارنة فى القرن التاسع عشر فى رصد ملمح مهم للبطل الأسطورى ممنون فيما وقع من خلط بينه وبين البطل الكنعانى " نعمان" (Naaman) الذى يعنى اسمه " الغالى" أو" العزيز"، وهى الصفة نفسها التى خلعها الإغريق على أدونيس أحد أربابهم الذى اخترم فى ريعان شبابه. ولقد أُشتُق اسم أدونيس من الكلمة الكنعانية "أدونى" (Adoni) بمعنى "سيدى" ، كما أن الزهرة اليونانية" أنيمونى" (Anemone) تبدو هى أيضًا مشتقة من لفظة "نعمان"

الكنعانية. وسواء كانت هنالك صلة لجمع بين هذه الاسماء أو لا، فإن لدينا ما يسمح بالقول بوجود صلة شبه بين غزوات البطل ممنون وما تواتر عن كل من أوزوريس وديونسيوس فى فتوحاتهما، مع ملاحظة أن أوزوريس وديونسيوس يناظران أدونيس(١١٠). يذكر أيضًا أن مناطق شمالى وغربى الأناضول كانت تقدس إلهًا للزرع اخترم هو أيضًا فى صور شبابه واسمه " آتيس" (Atis) ، وكانت طُقُوس عبادته شبيهة بتلك الخاصة بكل من أوزوريس وأدونيس(١١١).

هذا ولقد كانت للبطل ممنون مقبرة فى منطقة طروادة شمال غربى الأناضول وأخرى فى بلدة بالتوس فى سوريا، وأسماء هذه المقابر يقترن بأسماء الطيور السوداء (الغربان؟) المعروفة باسم " ممنوديز". ويقال أن هذه الطيور كانت فى الأصل صبايا فى رفقة البطل ممنون، وعندما مات البطل بلغ حزنهن عليه هؤلاء بعيداً، حتى إن الآلهة أشفقت عليهن فحولتهن إلى تلك الأطيار المتشحة بالسواد(١١٢). ويمكن لنا أن نجد تفسيراً لهذه الحكاية من منظور التاريخ الطبيعى، ذلك أن تجمع هذه الطيور حول القبر فى طروادة ما هو إلا الهجرة السنوية للطير من أواسط أفريقيا، وهذه ظاهرة كان الإغريق على دراية بها منذ عصر هومر(١١٣)

أما على الصعيد الأسطورى، فإن ما قيل عن هذه الطيور يبدو مستلهما من قصة تحول إيزيس ونفتيس إلى شكل الطير من فرط الحزن والبكاء على موت أوزوريس(١١٤).

ويمكن تفسير لون بشرة ممنون السوداء من واقع تشبهه بأوزوريس الذى كان يصور ببشرة سوداء(١١٥). ومن المفيد هنا أن نلاحظ أن أهم مقبرة لأوزيريس وأهم مركز لإقامة طقوس عبادته كانا فى بلدة اسمها أبيدوس، وليس من باب الصدفة أن تكون مقبرة ممنون فى أعمال طروادة على مسافة خمسين ميلاً من مدينة تحمل نفس الاسم المصرى " أبيدوس".

أما ما قيل عن وجود مقبرة لممنون فى بلدة بالتروس فى سوريا، فيعيدنا إلى حكاية " نعمان " الكنعانى أو أدونيس والصورة المتواترة عن جماله الفتان عند اليونان. وهذا يطابق وصف هومر لممنون بأنه " أكثر الخلق وسامةً فى طرواده"(١١٦). كذلك

فإن ممنون كغيره من أبطال الإغريق الآخرين، يشبه أوزوريس فى أنه يلقى الموت ثم يبعث للخلود من جديد.

ونرجو ألا يسوقنا كل هذا التشابه بين سيرة ممنون وأوزوريس إلى غير حدود؛ ذلك أنه فى الأسطورة الأوزيرية يبعث أوزوريس بالجسد؛ فى حين أن أساطير ممنون تخبرنا بأن جسده قد أحرق، وبأن الطيور السود قد انبثقت من الدخان المتصاعد من رماد الجسد المحترق. وهذا أمر شبيه بما نسمعه عن طائر العنقاء (Phoenix) التى قيل أنها ولدت من داخل الرماد. وبهذا البعد تنبنى الصلة بين ممنون وعبادة الشمس فى هليوبوليس (أون) المصرية، والتى سوف نناقشها فى المجلد الرابع. وجدير بالملاحظة أن ما يجمع بين دخان الرماد والطيور التى تحوم حول مقبرة ممنون هو سواد اللون[١١٧].

إن كل هذه الأوصاف تنطبق على بطل " اثيوبى" وان كان اللون الأسود هو الرمز القومى للمصريين القدامى، فكلمة "كمت" أى الأرض " السوداء" تعنى أرض مصر، كما أن كلمة " كمت " مع أداة التعريق تعنى المصريين.

وأخيراً ينبغى القول بأنه لم يكن أوزوريس وحده الذى صُوِّر ببشرة سوداء اللون، فلقد كان آمون كذلك. وهذا ما سنعرض له فى الأجزاء التالية.

أبطال فى كفة الميزان

يوجد بعد أسطورى آخر فى حكاية ممنون يتصل بميزان الأرواح (Psychostasia, Kerostasia). ولدينا وصف لأرواح الأبطال وهى توزن لتحديد أيها سوف يفوز فى معركة دنيوية فيما جاء فى وصف المعركة بين هكتور (الطروادى) وآخيل:

" وعندما رفع الأب الأكبر (زيوس) ميزانه الذهبى عاليًا، ووضع فى كفتيه قدر (Kere) كل من المتصارعين حتى الموت، قم أمسك بالميزان من مركزه ورفعه إلى أعلى، إذ بقدر هكتور المحتوم يتثامل نزولاً كمَن يهرول إلى العالم السفلى (هاديس)" [١١٨].

وهـذه الفكرة عن وزن الأرواح كانت معروفة فى أماكن أخرى سواء عند الإغريق أو الطرواديين، ولكن إشارة هومر إليها تمثل أهمية خاصة. ولقد لاحظ العالم الألمانى ديتريش بأن ورود مسألة وزن الأرواح هكذا باختصار شديد عند هومر يوحى بأن هذا المفهوم كان راسخًا ومألوفًا فى أذهان كل من هومر وقراءه[١١٩]. ويقول الأستاذ ج.أ. لونج (G.E.Lung) استاذ الكلاسيكيات الألمانى فى هذا الخصوص - مع شىء من التحفظ - أنه قد عثر على كفتى ميزان من الذهب فى أحد المقابر فى بلدة موكيناى (Mycenae)[١٢٠].

من الواضح أن الأساطير اليونانية تقول بطقس وزن روحى ممنون وآخيل، كما أن هناك إشارة إلى "الميزان" (Talanta) أيضًا عند وفاة البطل ساربدون، والتى رأى فيها كل من كلارك وكولزون شبها بقصة ممنون[١٢١]. وتأتى تصاوير العصر لتعزز من مسألة وزن الأرواح لكل من ممنون وآخيل، هذا إلى جانب تصوير لوالدة آخيل (ثيتيس) وإيوس والدة ممنون وهما تتوسلان إلى زيوس، كل من أجل ولدها[١٢٢]. ولقد وفق العالم لونج فى التحقيق من سبعة رسوم على أوان تمثل وزن روحى ممنون وبه آخيل، ثم أضاف العالمان كلارك وكولزون ثلاثة رسومات أخرى إليها[١٢٣].

وهذا التطابق بين وزن الأرواح عند اليونان وبين وزن أرواح الموتى لتقرير الصالح منها من الطالح عند قدماء المصريين، تطابق مذهل فطن إليه الجميع منذ وقت مبكر فى القرن العشرين الميلادى ولقد أقام الأستاذ أوتو جروب (Gruppe) مقارنة بين الحالين، فوضح أن اليونان يجعلون من هرميس صاحب دور بارز فى يوم الميزان، مثلما يتولى نظيره المصرى تحوتى (توت) تسجيل ما تسفر عنه الأوزان، كما يتضح من النقوش المصرية العديدة[١٢٤]. ولكن الأستاذ لونج يعيب على جروب بأنه " لا يمكن أن نستنتج من هذا الشبه وجود مؤثرات مصرية على اعتقاد اليونان فى وزن الأرواح، والأحرى أن نقول أن ما يقوم به هرميس يتوافق مع ما يؤديه تحوتى"[١٢٥].

يقدم لنا هذا الجدل بين المتخصصين مثالاً جيداً على ما قد يتورط فيه العلماء عندما يعثرون على " نموذج " أو مثال لا يحتوى على المفردات الكافية لتأييد وجهة النظر هذه أو تلك بشكل حاسم. وهذا ما نتبينه فى النموذج الآرى.

وحقيقة الأمر أن هناك فرقًا بين الحالين المصرى واليونانى: فعند المصريين ليس ثمة مقارنة بين روحين من الأرواح وإنما ميزان لروح واحدة على كفة مقابل ريشة (Swt) فى الكفة الأخرى للميزان. وإن كان من شئ يبرر نظرية جروب فهو ملاحظة أن هرميس ليس نظيرًا لتحوتى فقط وإنما أيضًا لأنوبيس الذى يرد فى " كتاب البعث وقت النهار" ضمن الآلهة فى المحكمة ووقت الميزان. وفى تقديرنا أن الامتزاج بين العقيدتين المصرية واليونانية فى عصور لاحقة قد أوجد هذا التقارب والشبه فى مسألة الميزان(١٢٦). وفى حالة وزن روح ممنون، نجد هرميس أحيانًا فى دور أنوبيس المصرى وهو يرشد خطى الروح من حياة الدنيا عبر بوابات الموت إلى دار الخلود(١٢٧).

الأرواح اليونانية والمصرية

اعتقد علماء مدرسة الإسكندرية وشُرَّاح النصوص اليونانية القديمة أنه يوجد تعارض بين " وزن الأرواح " (Kerostasia) عند هومر وبين وزنها عند الشاعر اسخيلوس الذى يستخدم لفظة (Psychostasia) .ولكن العلماء الألمان فى القرن التاسع عشر رأوا فى هذا مجرد حذلقة هلينستيه، وأن لفظة " كير" (Ker) هى الصيغة الأقدم للفظة " بسيخى" (Pysche) ، وأن الإثنتين تمثلان شيئًا واحدًا(١٢٨). وإذا نحن نظرنا إلى الأمر من المنظور اليونانى، فإنه من الصعب حقًا أن نجد فرقًا بين الكلمتين؛ ولكن المدرسين فى الإسكندرية كانوا يكتبون وهم فى بيئة مصرية، وكان من الطبيعى أن تؤثر المفاهيم المصرية على كتاباتهم فى هذا الشأن الميتافيزيقى، وهذا يستوجب منا التوقف قليلاً عند الاشتقاق المصرى لهاتين الكلمتين:

إن كلمة " كير" (Ker) وأحيانًا " كار" (Kar) فى اللهجات الدورية والأيولية مصطلح ثرى فى دلالته الدينية. وما من شك فى أنَّ المعنى الأصلى للكلمة هو "القدر" أو المصير أو الموت العنيف. إلا أن هومر كان يستخدم نفس الكلمة بمعنى آخر هو "مصير" الإنسان الفرد أو " روحه" أيضًا، بل ومصير هذه الروح " المقدر" لها من لحظة مولده عندما يأتى الموت(١٢٩).

وقد كان هذا المعنى الهومرى قائمًا من قديم فى الصيغة التى كانت تستخدم فى احتفالات الآثينيين المعروفة باحتفالات " أنثيزيريا" (Antheseria) ، وهى المناسبة التى تقوم فيها أرواح الموتى بزيارة للأحياء، والتى كانت تنتهى بالعبارة التالية: " أيتها الأرواح (Keres) آن لك أن تنصرفى الآن، فلقد انتهت الأنثيزيريا"(١٣٠). ومن هذا يتضح أن كلمة " كير " كانت تعنى فى الأصل " روح" الفرد، وليس للكلمة أصول هندو-أوروبية.

ومفهوم الكا (Ka) عند المصريين القدماء مفهوم محورى فى اللاهوت المصرى، وهو يتضمن دلالات لغوية أكثر خصبًا من المفهوم اليونانى، ولما كان اللفظ الهيروغليفى للكا يُخَطْ بحيث يمثل ذراعين مفتوحين أو متعانقين، فإن المعنى الأصلى للكلمة يتضمن الصلات بين الكائنات وبين إله وإله، وإله وبشر، وبشر وبشر. كذلك للكلمة المصرية دلالات عن صلة الأب بالإبن، وهذا قد اكسب الكلمة خاصية الديمومة الشخصية والخلود، خاصة فى السياق المستخدم بواسطة الملوك الفراعين. ومن هذا السياق الأخير اكتسبت " ألكا" معنى "الروح" أو " الشبح " . وفى عصر الدولة القديمة كانت الكلمة تستخدم بمعنى " رفيق الروح" أو " القرين "، الذى يلقاه الإنسان لحظة موته. ومن هنا ارتبطت الكلمة بمفهوم " القدر "(١٣١).

إن هذا التطابق الدلالى بين " كا " و " كير " يبدو أكثر وضوحًا من الاتفاق الصوتى بين الكلمتين. وفى اللغة الأكادية نجد لفظة "الكا" تتحول إلى " كو " (Ku) فى حين أن اليونانية فى عصرها المتأخر وكذا اللغة القبطية تحول الكلمة إلى: "كى" (Ke) ، أو "كاى" (Ki) ، أو " كوى " (Choi)(١٣٢) .

وكل هذا يشى بوجود أصل للكلمة فى شكل " كو - ار" (K w er) ، وهى أساس معقول لاشتقاق لفظة "كير" منها، أما لفظة "كار" فلربما أنها من نتاج لتدهور الحروف الحلقية فى اللسان اليونانى. ومع ذلك فإن صمت حرف (٣) يوحى باحلال حرف آخر بدلاً منه.

ورغم هذه الخلافات حول النطق، فإن التشابه الصوتى المتضمن فى هذه الكلمات يكفى لتعزيز التماثل فى الدلالة والمعنى.

أما الاشتقاق اللغـوى لكلمـة "نفسـى" أو " روح" عند المصـريين (Psyche) فإنه لا ينطوى على كل هذا القدر من التدقيق. ولعله من المفارقات أن نجد بعض الكلمات تستخدم تارة لتؤدى معنى "الشمس" وأخرى لتعنى "الظل"، ذلك أنَّ كلاً من المعنيين متضمن فى الجذر الهندو-أوروبى "سكى" (Ski) و "سكاى" (Skai) ، الذى منه أخذ الإغريق كلمة "سكيا" (Skia) بمعنى "الظل" أو "الخيال" وكذا مرادفه "سكوتوس" (Skotos) بنفس المعنى[١٣٣]. ولربما قد تحدر هذا اللفظ الأخير من جذر هندو- أوروبى بسكون لسانى نجده واضحًا فى اللفظة الإنجليزية " شيد " (Shade) على سبيل المثال. ويمكن القول أيضًا بأن نفس اللفظ قد اشتق من الكلمة المصرية " سويت" (Sw(y)t) بنفس المعنى، مع ضرورة ملاحظة أن لفظة " سو" (Sw) المصرية تعنى "الشمس وضوءها"، وتعنى فى نفس الوقت أيضًا " الشيء الجاف".

هذا وإذا ترنت نفس الفظة بدالة صورية تحجب أشعة الشمس فإنها تعنى "المظلة" أو "المأوى"؛ أما إن هى قُرنت بدالة صورية تشير إلى الخلو فإنها "الفراغ". ويهمنا فى هذا المقام دلالة "شويت" و "شوت" بمعنى "الظل" أو "الخيال"، ذلك أن "الخيال" يشير إلى أقنوم من أقانيم شخصية الإنسان الفرد أو "الروح".

وأغلب الظن أن الكلمة المصرية "شو" مسبوقة بأداة التذكير "با" هى الأصل للكلمة اليونانية "بسيخى" (Psyche) بمعنى " الروح " أو " النفس" . وهذا التطابق بين "بسيكى" و "باشو(ت)" ((P3 S(wt) أمر يستحق التأكيد عليه. وواضح أن الخلافات فى نطق الكلمتين سطحية وطفيفة فى حقيقة الأمر، خاصة وانه فى أخريات الألف الثانية ق.م، كان هناك نزوع متزايد نحو إحلال اداة التذكير "با" بدلاً من أداة التأنيث "تا"، ومن ذلك مثلاً ما نجده فى الدولة الوسطى عندما تحولت الكلمة المجردة (التى لا هى بالمذكر ولا بالمؤنث) " دوت " (dwt) بمعنى "الشر" إلى المذكر[١٣٤]. فلو أن حرف (S) فى كلمة " باسوت" المصرية احتفظ بخاصيته الحنكية، فإن المنطق الحاصل للكلمة يصبح قريبًا من لفظة " بسيخى" اليونانية. وبذلك يتبرر ما وقع للكلمة المصرية من إبدال وقلب فى الحروف لتصبح " بسيخى" عند اليونان.

ويتعزز هذا التفسير على ضوء العديد من الكلمات اليونانية الأخرى التى جاءت من هذا الأصل المصرى، من قبيل : بسيخروس، وبسيخوس، وبسيخو، وهى جميعًا تحمل نفس الدلالات بمعنى: " ظليل- بارد - لا حياة فيه - فارغ"، تمامًا مثلما نجد هذه المعانى فى الجذر المصرى "سو" أو " شو". وتوجد استخدامات أخرى فى وقت لاحق لكلمة " بسيخو" بمعنى " صعود نسمة الهواء" أو " لَفَظَ النفس الأخير" أو "الموت" مشيرًا بهذا إلى المعانى المتضمنة فى المصطلح المصرى(١٣٥).

لئن صحت هذه التأصيلات اللغوية، فإن لفظة " كير" ولفظة " بسيخى" ترادفان المقصود عند المصريين بلفظة " كا" ولفظة " سوت" تباعًا لمعنى "الأرواح" أو جوانب من الشخصية الفردية. وقد قال بعض علماء المصريات من أمثال جاردنر أن المصريين كانوا على خطأ فى نظرتهم إلى الأرواح، إذ أنهم - فى زعمه - أدركوا معناها بطريقة تجسيدية بخلاف نظرتنا نحن " ، كما وأنهم من جانب آخر رأوا فى " الكا" شيئًا غير محدد ويختلف من سياق إلى آخر". والحق أن العقلية الأوروبية - كعادتها - تقع فى الخطأ فى الاتجاهين، وما ينبغى أن ننبه إليه تعقيبًا على رأى جاردنر هو أن ما يظنه البعض خلطًا فى المفاهيم يمثل عند الآخر ميتافيزيقا ذكية ولاهوتا أيضًا. وواقع الأمر أن الكهنة المصريين كانوا يميزون بين الدلالتين تمييزًا واضحًا (بين ما هو تجسيدى وما هو تجريدى) (*)، وإن كان هذا التمييز أمرًا دَوَّنه بسطاء الناس والأغراب من شاكلة الإغريق الذين كانوا يقومون بزيارة مصر.

إن التسليم باقتباس اليونان لفظة بعض الكلمات عن المصريين يعزز ما ذهب إليه العالم لونج فى حجته، ويمثل هذا التسليم، إلى جانب قبول القول بأن "كير" هى الصيغة الأكثر قدمًا (كما كنا قد لاحظنا سلفًا)، اعترافًا باختفاء خاصية حرف (٣) الصامتة فى وقت مبكر من عصر الدولة الحديثة. وبذلك فإنه على الرغم من بقاء ظلال من النطق القديم، فإنه من المحتمل أن اقتباس اليونان (نطقًا) عن المصريين قد وقع قبل حلول سنة ١٥٠٠ ق.م.

(*) كما فى آثار حفائر جزيرة كريت ، فى قصر كنوسوس ، وخاصة لوحات (frescos) الجدارية ، وكذلك من جزيرة ثيرا (المحرر)

وإذا كان وزن الأرواح قد عرف لدى اليونان فى منتصف الألف الثانية ق.م، كما يدل على ذلك العثور على ميزان فى نصوص إحدى المقابر اليونانية، فإن مصطلح "كيروستازيا" يكون قد ترسخ فى أذهان اليونان آنذاك. ولقد بينا فى الجزء الأول أن الشاعر اسخيلوس كان يملك بين يديه مصادر مصرية قريبة العهد بزمانه وأخرى مُوغِلَةٌ فى القِدَم أيضًا. وهذا ما يفسر لنا استخدامه لكلمة " بسيخوستازيا" بدلاً من كلمة " كيروستازيا" التى استخدمها هومر. ويتضح من كل ذلك أن استخدام المصريين لكلمة " بسيكو" كان يقوم على مفهوم العقيدة فى وزن روح الميت فى كفة مقابل الريشة فى الكفة الأخرى للميزان.

هذا النهج (الجغرافى وأسماء الأعلام) فى الدراسات التى أجريت حول الأبطال الخياليين فى ملحمة " مابنوجيون" (Mabinogion) فى منطقة ويلز بالمملكة المتحدة، وفى ملحمة " نبلونجنليد" (Niblungenlied) عند الشعوب الجرمانية، حيث وجد أن أبطال هاتين الملحمتين يحملون أسماء تاريخية حقيقية.

لقد ناقشنا ما قيل عن الأصول الأثيوبية للبطل ممنون مناقشة مستفيضة، وهنا نود أن نؤكد على صلة ممنون بشمال غربى الأناضول، وتحديداً بمنطقة طرواده، وكنا قد ذكرنا سلفًا عن بعض الروابط بين ممنون وطروادة، وتحدثنا عن "قبره" على مبعدة سبعين ميلاً شرقى البلاد. وهناك فقرة هامة عن أسلحة العالم القديم فيما كتبه باوزانياس حيث يقول: " إن سيف ممنون فى معبد إسكلبيوس فى نيكوميديا (على بُعْد ٨٠ ميلا من مقبرة ممنون) بنصله ورأس حربته ومجمله مصنوع من البرونز " . وهذه المعلومات رغم أنها تقدم لنا إشارات عن فترة موغلة فى القدم، فإنه نظراً لما يحوم حول المتروكات من الأسلحة القديمة من لغط حول مصداقيتها، فإننا لا نعتقد أن هذه الأسلحة كانت تخص البطل ممنون الأصلى. ولو قيل أن هذه الأسلحة من بقايا حملة الفرعون سيزوستريس (كما ستبين فيما يلى) فإننا نصطدم بحقيقة أخرى وهى أنه فى القرن العشرين قبل الميلاد لم تكن السيوف قد عرفت بعد أو أنها كانت نادرة الاستخدام.

وفقرة أخرى يذكر باوزانياس أن الفريجيين " لا يزالون حتى اليوم يشيرون إلى الطريق الذى سلكه ممنون من بلده سوسة، عبر مسالك ومغازات مختصرة، ما بين وقفة وأخرى على نفس الطريق". وهذا الوصف لباوزانياس يتفق مع ما سجله هيرودوت عن أهالى ليديا شمال غربى الأناضول وجنوب شرقى منطقة طروادة، فى أنهم يعتقدون أن التماثيل التى أقامها الفرعون سيزوستريس فى زحفه ليست لسيزوستريس وإنما هى من فعل البطل ممنون. من هذا كله نخلص إلى أن روابط قوية كانت تجمع بين شخص ممنون ومنطقة شمال غربى الأناضول.

ممنون المصرى

ممنون هو الاسم الذى أطلقه اليونان على التمثال الضخم للفرعون " إم إن حتب" الثالث والموجود على الشط الغربى لنهر النيل فى مدينة طيبة (الأقصر)، وهو التمثال الذى يطلق عليه العلماء المحدثون اسم امحوتب، والذى كان المؤرخ المصرى مانيتون قد أطلق عليه اسم أمنوفيس. ولقد اكتسب هذا التمثال شهرة واسعة فى العصر الرومانى، وقيل أنه كان يصدر أصواتًا غريبة وقت طلوع الشمس. وليس هذا بالأمر الغريب عن ابن إيوس سيدة طلوع الفجر.

ولسنا ندرى متى تم رصد أول صيحة لهذا التمثال، والمرجح أن ما قيل عن هذا الصياح كان مبررًا لاختيار أم من الشرق لممنون. ولقد سبق لنا أن بينا أنه حتى ولو سلمنا بالأصول المصرية لممنون، فكيف الحال مع أبيه تيثونوس. هذا ومن بين النقوش اليونانية العديدة على جسم هذا التمثال الضخم نقش يقول:" ممنون أين تيثونوس أو أمينوث (Amenoth) .

وهذا التردد فى تحديد والد ممنون بدقة نجده فى نقش آخر على التمثال نفسه يقول: " ممنون ابن فامينوث" (Phamenoth) .

وهذه البدائل لاسم كل من الابن والأب هى الأساس فى الخلط الذى وقع فيه الكتاب فيما بعد. ولا شك فى أن العديدين من الرحالة اليونان الذين زاروا مصر كانوا يعرفون جيداً لمنْ يقوم هذا التمثال، ولابد من ملاحظة أن أسماء: آمينوث ؛ وفامينوث؛ وفامينوف تبدو جميعها مشتقة من اسم :" با - إحم - إن - حتب". وهو الفرعون أمنوفيس. أما الصيغ الأخرى للاسم من قبيل: فامينوس فإنها اختصار مبتسر للاسم أو اكتفاء بجزء من الاسم " با - إم - إن " بمعنى " الـ-آمون". ولقد لخص الكاتب باوزانياس الآراء المختلفة حول هذا الاسم كما يلى:

" فى طيبة المصرية بعد عبور نهر النيل إلى منطقة عراجين النخيل، شاهدت تمثالاً ضخماً متربعاً رابضاً على الأرض يُصْدر صياحاً. ويطلق عليه معظم الناس اسم " ممنون"، الذى قيل إنه زحف على مصر ثم واصل زحفه حتى وصل مدينة سوسة، وهو فى الأصل من أثيوبيا. وفى ناحية أخرى يقول أهل طيبة إنّ هذا التمثال ليس لشخص ممنون وإنما لشخص يُدْعَى فامينون الذى كان يعيش فى منطقتهم تلك ، كما أننى سمعت من يقول إن هذا التمثال لشخص سيزوستريس".

إن صورة الملك الأثيوبى الذى قيل إنه زحف على مصر ومنها إلى سوسة يبدو أنها قد نشأت على ضوء الغزوات التى شنها الأثيوبيون على مصر بقيادة شباكا (٧١٦ - ٦٩٥ ق.م) ثم على يد طهارقه (٦٨٩ - ٦٦٤ ق.م). ولقد حصلت هذه الغزوات الأثيوبية بعد أوقات كل من هزيود وهومر وأركتينوس، ومن ثم فلا مجال للقول بأن هؤلاء الكُتَّاب قد استلهموا شخص ممنون من هذين الملكين الأثيوبيين. ولكن السؤال يبقى مطروحاً، إذ كيف لنا أن نفسر إطلاق اسم ممنون على هذا التمثال الضخم فى طيبة؟

لقد أجريت دراستان مهمتان حول هذا الموضوع، وخرج العالمان اللذان اضطلعا بهاتين الدراستين بالقول بأن اسم أحد الأبطال اليونان قد اختلط عند الكتاب بأسماء أشخاص محليين ليسوا من اليونان فى شيء. ولما كانت اهتمامات هذين العالمين فى البحث عن " الأنموذج الآرى" فإنهما قد استبعدا أن يكون اسم ممنون من أصول مصرية.

ويجادل الأستاذ جوسنز بأن اسم ممنون قد اختلط باسم عيلامى يُدْعَى " همبان" (Humban) أو " أومان " (Umman) أو " عمان " .(Amman) أما جاردنر فيعتقد أنَّ اسم التمثال مشتق من مصطلح "ممنونيان" الذى استخدمه الجغرافى اليونانى سترابون فى القرن الأول للميلاد فى وصف المعبد الجنائزى الذى يربض أمامه تمثالان ضخمان، أحدهما هو تمثال ممنون. وطبقًا لرأى الأستاذ جاردنر، فإن الخلط قد وقع من واقع الاسم الأصلى للفرعون أمنوفيس الثالث، وهو " لب- ماعت - رع"، الذى ذكرناه سابقًا عند الحديث عن نمرود، والذى نسخ فى العصر البرونزى المتأخر إلى صيغة "نيبوموراريا" أو " نيموريا ". أما اسم "ممنونيون" فى طيبة فقد جاء نقلاً عن اسم مجمع للمعابد فى أبيدوس الذى اطلق عليه اليونان نفس الاسم. وهذا المجمع لم يكن من تشييد الفرعون امنوفيس، وإنما شيده الفرعون سيتى الأول من الأسرة التاسعة عشرة. ويلاحظ أن الاسم الأصلى لسيتى فى المصرية القديمة وهو " من - معات - رع" كان يوضع فى الصيغة التالية أيضًا " تا - حوت - من - معات - رع - إب - حر - إم - أبدو"، ومعناها: " قصر" من - معات - رع" (صاحب) القلب القنوع فى أبيدوس " . وعلى هذا ، فإن القول بخلط وقع بين اسم ممنون وساحة ممنونيون فى طيبة من ناحية وبين اسم "نيموريا" من ناحية أخرى يبدو غير مقبول تمامًا، وذلك استنادًا على الدلالة الصوتية لهذه الأسماء. كذلك نستبعد أن يكون خلط آخر قد وقع بين اسم ممنون واسم " من - معات - رع " والرأى عندنا أن ما قاله سترابون الجغرافى لا يصلح مفتاحًا لفهم الاسم المصرى امنحوتب الذى خلط اليونان بينه وبين البطل ممنون ، ولكن لا أحد ينكر على سترابون فضله فى محاولة تقصى أصول اسم ممنون.

ولقد كتب سترابون أيضًا أن قصراللابيرنث (التيه) فى مدينة اللاهون فى الفيوم ، والذى بناه أمنمحات الثالث (والذى ناقشناه فى الفصل الرابع) ربما يكون " ساحة معابد ممنونية؛ لأن المصريين يعتقدون أن إسماندیس هو ممنون، وأن اسما نيدس مدفون فى قصر اللابيرنث. من هذا يتضح أنه فى حين كان بعض المصريين يعترضون على اطلاق اسم ممنون على تمثال امنوفيس، فإن البعض الآخر منهم رأوا فى ممنون شخص الفرعون أمنمحات.

ويبدو لنا أن اسم أمنمحات/ أمنمحى/ أمنميس أكثر مقبولاً وأقرب كأصل لاسم ممنون عن اسم امنحتب/ أمنحوتب/ أمنوفيس، غير أن التقارب فى النطق الصوتى لاسم امنمحات وممنون يبدو أكثر معقولية وقبولاً عن قبولنا اسم سيزوستريس/ سيزوريس نقلاً عن اسم سنوسرت!.

ويبدو أنَّ المؤرخ المصرى مانيتون نفسه قد صادف صعوبة فى التمييز بين أكثر من فرعون باسم امنمحات (راجع الفصل الخامس)، فكان بالأحرى أنَّ يكون اليونانيون قد وقعوا وهم يسجلون رواياتهم فى خلط أكثر مما وقع فيه مانيتون وهو مصرى، وذلك عند إشارة هؤلاء الكُتَّاب الفراعين باسم أمنمحات/ أمنميس وأوقات حكمهم.

وفى تقديرنا أن الاسم الأكثر معقولية لممنون البطل اليونانى هو أمنمحات/ أمنمحى الثانى وهو ابن الفرعون سيزوستريس وخليفته وشريكه فى الحكم وفى قيادة الحملات العسكرية أيضاً.

وعلى الرغم من مزالق الاتهامات بأننا نطوع (نلوى) الأمور لخدمة ما نذهب إليه من آراء، إلا أننا نعتقد ان ما وصلنا إليه من نتائج بأن أمنمحات هو الأصل لاسم البطل ممنون يكفى لأن يكون أساساً نبنى عليه تتابع الأحداث التى تراكمت وصارت فيما بعد منهلاً لنشوء الأساطير حول شخص ممنون.

وإذا كانت الروايات تفيدنا بأنه حوالى سنه ١٩٠٠ ق.م تحرك جيش مصرى أكثر جنده سود البشرة ويقودهم أمير أسود البشرة أيضاً. (يلاحظ أن فراعنة الأسرة الثانية عشرة قد جاءوا من أعماق الصعيد)، وأن هذا الجيش قد اجتاح بلاد الأناضول من شرقها إلى غربها، فكيف إذن قُدِرَ لهذه الأحداث أن تبقى ماثلة فى ذاكرة الناس؟

لا شك فى أن حجم هذا الجيش وخطورة عتاده وبأس رجاله قد بقيت عالقة فى الأذهان لردح طويل من الزمن، كذلك ينبغى ملاحظة أن قائد هذا الجيش - كما تقول الروايات - ابن لإيوس (الشرقية الأصول)، وهذا يعنى أن الحملة قد زحفت من جهة

المشرق. وأن هذا مع التأكيد على لون البشرة الأسود يفسر صلة الحملة بسوسة (العيلامية أو الأثيوبية). وينطبق الشيء نفسه على تيثونوس (والد ممنون كما قيل)، الذى كان هو أيضًا من أصول شرقية جنوبية، وأما المقابل الأوزيرى لممنون فقد نشأ من حقيقة أن أوزوريس كان أسمر البشرة أيضًا. هذا إلى جانب عبادة الإله آتيس Attis التى كانت منتشرة فى الأناضول كما سبق أن بينا. والحق أن الأساطير عن أوزوريس/ ديونسيوس وحكايات غزواته للعالم قد ازدادت رواجًا بتأثير الحملات العسكرية التى شنها فراعين الأسرة الثانية عشرة على بلاد الأناضول. أما ما تواتر عن صراع بين ممنون وآخيل فهذا من قبيل نسج مضاهاة ومقارعة بين مشاهير الأبطال، وهذا أمر معروف فى مختلف الأساطير على مر العصور، ونلحظه بوجه خاص فى الأساطير اليونانية من قبيل ما قيل فى رحلة ياسون على ظهر سفينته " آرجو" هو وشلة الأبطال اليونان الذين قيل أنهم شاركوا فى حصار طروادة، ومن قبيل ساربدون الذى سبق ذكر حكايته.

ولقد أوضحنا أن الروابط التى نسجت بين خاتحى العالم سيزوستريس وسيزونخوسس ومادار حولهما من أقاصيص، كانت ذات أثر بالغ فى حبك " مغامرات الإسكندر الأكبر" فيما بعد. ولقد ذاعت الحكايات عن الإسكندر الأكبر وفتوحاته الخيالية فى ربوع أوروبا وآسيا لأكثر من ألفين من السنين بعد وفاة الإسكندر نفسه سنة ٣٢٣ ق.م.

وفى هذا ما يُدَلل على أن منجزات أى فاتح مرموق فى التاريخ الحقيقى تتداولها الأجيال المتعاقبة ثم تولد منها صنوفًا شتى من الحكايات الخيالية. وواقع الأمر أن ما شهدته الألفان الأخيرتان قبل الميلاد من تواصل واستمرارية حضارية تباعًا، وذلك مقارنة بالألف الأولى بعد الميلاد، يجعل من المحتمل أن الروايات المتصلة بكل من سيزوستريس وممنون ظلت متداولة منذ بدايات العصر البرونزى الأوسط فى القرن العشرين ق.م وصولاً إلى القرن الرابع عشر ق.م، وعندها تلفقتها الكتابات اليونانية على مختلف مشاربها. (*)

(*) فى القرن الرابع عشر ق.م ، لم تكن هناك كتابات أدبية يونانية ، بل مجرد سجلات أرشيفية داخل القصور للحسابات (ونخص بالذكر linear B) فى كل القصورر الميكينية !!! (المحرر)

نخلص من هذا كله أنه لا يجوز لنا أن نفترض قيام حملة عسكرية مصرية على شمال غربى الأناضول استناداً فقط إلى الأخبار المتناثرة حول شخصية ممنون الأسطورية. والواجب أن ننظر إلى المعلومات الخاصة بنشاط فراعين الأسرة الثانية عشرة من الناحية العسكرية لإعطاء مصداقية لما نُسِبَ لشخص ممنون من فتوحات فى الأناضول. وباختصار فإن ما دار حول شخص ممنون من أساطير يمثل سنداً واحداً، ولكن هذا السند لا يُغنى بمفرده لإقامة الحُجَة الثابتة، ولكنه قد يساهم فى تدعيم هيكل لبنيان أكبر حجماً وشمولاً من الناحية التاريخية.

احتمال غزو مصرى حوالى سنه ١٩٠٠ ق.م

تؤكد الموروثات اليونانية على أن البطل ممنون رغم ما أوتى به من قوة وبأس قد قتل فى طروادة على يد آخيل بطل الإغريق. وسوف نبحث هنا فى إحتمال أن يكون المصريون قد قاموا بغزو طروادة نفسها. وطروادة القديمة بأعمالها كانت تعرف باسم "صاحبة المدائن الخمس"، ثم بعد أن ولى عهدها وتهدمت حلت محلها باسم " طروادة صاحبة المدائن الست". والواقع أن ما قيل عن الدمار الذى حل بطروادة القديمة لم يكن بفعل النيران فقط كما قيل. ويعتقد العالم ملبارات (Melbarat) أن التغيير الأساسى الذى طرأ على حضارة طروادة فأصابها بالدمار وثيق الصلة بما كان قد أصاب المنطقة كلها من كوارث حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م، وذلك بسبب غزوات كاسحة زحفت من الشرق.

وهناك نقش فى بلدة ميت رهينة يبين أن سيزوستريس وأمنمحات قاما بتدمير (با – B3) والتى لا تعنى بالضرورة إضرام النار) مدينة اسمها) إى واى – iw2i) وهذا الاسم ربما يكون الاسم الأقدم لمدينة " وا – ايو – ورى" التى يعرفها الدارسون بمدينة (و) إيليوس وهى مدينة طروادة.

ويمكن لنا أن نضيف إلى هذه الأدلة القوية ثلاثة قرائن أخرى تعززها:

أولاً: هناك روايات فى مصر عن وجود أسرى طرواديين، كما يؤكد ذلك العالمان زيته وجاردنر، رغم أن الإشارة هنا قد كون إلى مدينة طره المصرية (T3 R-3wy) على بعد ١٠ كم جنوبى القاهرة، وليس إلى مدينة طروادة. وفى كل الأحوال لا يمكننا استبعاد وجود عبيد من شمال غربى الأناضول فى مصر.

ثانيًا: هناك اعتقاد سائد، نجده عند هومر والكتاب اللاحقين - أن هرقل كان قد قام بغزو مدينة طروادة قبل حصارها وتدميرها على يد الإغريق فيما بعد. وقد أشار الأستاذ روبرت جريفز بأنه إن صح هذا تاريخيًا فلابد أنه يشير إلى سقوط طروادة ذات المدائن الخمس (الأقدم). وهرقل الذى يرسم لنا هومر صورته يبدو يونانيًا لحمًا ودمًا. وقد قدم لحملته على طروادة من البحر. ومع ذلك، فكما سبق أن لاحظنا فى الفصل الثانى، فإن اسم هرقل اليونانى اسم مختلط ومركب من أصول متفرقة. ومع أن هرقل فى زحفه كان يتبع مسار الشمس من المشرق إلى المغرب بخلاف مسيرة أوزوريس/ديونسيوس من الغرب إلى الشرق، إلا أن هنالك وجوه شبه تربط بين الأثنين، وينطبق هذا أيضًا على سيزوستريس وممنون، وكنا قد أشرنا سلفًا فى الفصل الثانى أن المصريين كانوا يرون فى هرقل بطلاً مصريًا من مدينة طيبة. ولقد كان هيرودوت يؤمن بهذا، ويصف هرقل على أنه " واحد من الألهة الأثنى عشر فى مصر". كما كتب ديودور فى نفس الاتجاه يقول:

" إن هرقل العريق فى القدم، طبقًا للأساطير، قد ولد فى مصر، وأخضع بسلاحه بقاعًا شاسعة من العالم، ثم نصب العمود القائم فى ليبيا".

وهناك أيضًا من يقول إن هرقل كان أسود البَشْرة. هذا بالإضافة إلى الرابطة القائمة بين اسم " حرى - إس - إف" (هرقل) وبين صورة "الإله الذى يضرب بيده" على العدو، وبين الفرعون سيزوستريس، كما بينا سابقًا. كل هذا يمدنا بقرائن قوية عن احتمال أن الفراعنة الناتجين فى المملكة الوسطى قد لعبوا دورًا مهمًا فى خلق الأرضية التى تشكلت عليها الصورة الأسطورية لهرقل.

أما الفرضية الثالثة عن غزو مصر لطروادة فهى مسألة بالغة الأهمية، وهى تأتينا من كتابات أبوللونيوس عن كولخيس حيث يقول:

" لقد نمى إلى علمنا أن ملكًا قد خرج من هذه البلاد، على رأس قوة ضاربة، وشق طريقه فى طول أوربا وعرضها، وفى آسيا أيضًا، وأخذ يقيم المدن أينما حل برجاله. وبعض هذه المدن لا يزال قائمًا فى حين أن البعض الآخر قد تآكل بفعل السنين. على أنه حتى يومنا هذا تبقى مدينة آييا (Aea) بأهلها ممن تحدروا من أصلاب الرجال الذين وطنهم هذا الملك هنالك".

لو أننا أخذنا هذه الشهادة لأبوللونيوس مأخذًا جديًا له دلالة تاريخية، فهناك إمكانية أن تكون طروادة (ذات المدائن الست) التى استمرت أكثر من خمسمائة عامًا (من ١٩٠٠ - ١٤٠٠ ق.م) من بين المدن التى قام هذا الفرعون بفتحها. وبطبيعة الحال فإن هذه المتفرقات من المعلومات لا تمثل قيمه علمية فى عزله عن السياق العام الأشمل عن نشاط فراعين الأسرة الثانية عشرة فى منطقة الأناضول.

فتوحات سيزوستريس/ سنوسرت وأمنمحات (مجمل القرائن)

نود فى هذا المجمل أن نُلم بأطراف القرائن التى استعرضناها فى هذا الفصل وسابقه عن قيمة المادة العلمية الجديدة من مختلف المصادر اليونانية والمصرية عن الفتوحات الشمالية للفرعون سيزوستريس:

إن اكتشاف نقش ميت رهينة، الذى يصف حملات الفرعونين سيزوستريس وأمنمحات الثانى فيما وراء سوريا، يمدنا بما يسد الفجوة فى روايات هيرودوت والكُتّاب اللاحقين عن غزو آسيا بواسطة سيزوستريس الذى هو سنوسرت الأول. وتُفصح المكتشفات الأثرية فى النوبة من تعزيزات وتحصينات عسكرية وخطط حربية

عن أن جيوش الأسرة الثانية عشرة كانت تملك من العتاد الحربى ما يُمَكِّنْ فراعنيها من القيام بعمليات عسكرية كبرى فى مناطق الشمال. كما تمدنا أخبار موجات الدمار التى حلت بالأناضول، وكذا العثور على مقتنيات مصرية هناك على ما يؤيد نظرية الفتح المصرى للأناضول فى تلك الفترة الذات.

كذلك تم العثور فى بلدة " طود" (Tod) فى صعيد مصر على مقتنيات أناضولية الأصل قدمت كقرابين للإله "مونت" رب الفتوحات، والذى تربطه وشائج كثيرة بقارة آسيا.

وهناك أيضًا دلائل تصويرية تؤيد قيام حملات عسكرية على سوريا والأناضول يقودها " إله يضرب بيد قوية " شبيه بأحد الفراعين. وتوجد فى الأناضول نفسها وفى اليونان روايات عن البطل ممنون كأمير أسود البشرة، يقود جيشًا جرارًا فى زحفه على غربى الاناضول.

كل ها يمثل ذكريات شعبية عالقة فى أذهان الناس عن أمنمحات الثانى ابن سنوسرت الذى يتحدث عنه نقش ميت رهينة بأنه قام بدور هام فى الحملات العسكرية خارج البلاد. وهكذا، لو أننا فسرنا كلمة " آسيا " بأنها تعنى " الأناضول" – كما هو واضح من مفهوم هيرودوت لكلمة آسيا – فلدينا إذن ما يقوى من الاعتقاد بصحة ما سجله الكُتَّاب اليونانيون بأن سيزوستريس قد زحف بجيشه على "آسيا" هذه، أى الأناضول.

غير أنه ليس هنالك من قرائن قوية تؤيد فكرة قيام حملات مصرية على أوربا، وأن كانت الروايات عن غزو مصرى لإقليم تراقيا تبدو معقولة على ضوء ما حل بالمنطقة من دمار شامل آنذاك فى النصف الثانى من القرن العشرين ق.م، وهى الفترة التى شهدت حملات سنوسرت العسكرية.

وليس هناك – من الناحية الأثرية أو الأسطورية – ما يؤيد ادعاءات الروايات المصرية واليونانية عن زحف الجيش المصرى على منطقة سكيثيا جنوبى روسيا الآن،

وإن كانت المنطقة قد تعرضت للدمار، الأمر الذى يجعل من العسير استمرارية ذكريات من الأيام الغابرة زمانًا.

أما بالنسبة لكولخيس - فى جورجيا السوفيتيه - فهناك إشارات عند الكتاب اليونان عن قيام الفرعون سيزوستريس بإقامة دويلات فى تلك المنطقة. ويظل الاحتمال قويًا بأن سكان تلك المنطقة أصحاب البشرة السوداء من أصلاب أبناء هذا الجيش المصرى.

وأغلب الظن أن مناطق أخرى من القوقاز قد أحلها الدمار فى نفس الفترة المفترض فيها أن سنوسرت قد قام بشن حملاته العسكرية. وهناك أدلة أخرى تؤيد قيام هذه الحملات من واقع ما أصاب مناجم التعدين القديمة هناك، وما أعقب ذلك من هجرة عمال هذه المناجم إلى أماكن أخرى تقع تحت السيطرة المصرية فى بلاد الشرق الأدنى. وكل هذا ينسجم مع ما ورد فى نقش ميت رهينة، وبعض النصوص المصرية الأخرى، ومع ما تواتر فى الكتابات اليونانية بأن سنوسرت الأول، الذى - حسبما يوحى إسمه من دلالات " إس - إن - دسرت "- قد جلب معه كميات لا تحصى من الغنائم، خاصة من المعادن والعبيد.

وهذا الاستنتاج يفسر لنا قضية الحملات العسكرية المصرية ليس فقط على القوقاز وإنما أيضًا على غربى الأناضول وتراقيا. والمعروف أن هذه المناطق جميعًا كانت غنية بخام المعادن، وأن أهلها كانوا حاذقين فى تصنيع المعادن. وهذا يعنى أن سنوسرت وإمنمحات قد استخدما القاعدة الاقتصادية الصلبة للدولة المصرية وصاحبة القوة العسكرية القوية للسيطرة على مناطق التعدين وتقنيتها فى مجتمعات كانت أقل شأنا فى حجمها السياسى. وقد نجح هذان الملكان المصريان فى ذلك نجاحا كاملاً. وما من شك فى أنه فى القرون التى تلت ذلك، عندما تدهورت الأحوال فى الأناضول، انتعشت أحوال صناعة المعادن فى مناطق أخرى فى بلدان الشرق الأدنى ومن بينها مصر. والمعروف أن صناعة المجوهرات، على سبيل المثال، قد تأثرت كثيرًا بمؤثرات شرقية آنذاك. ولقد كتب الأستاذ سيرل ألْدرد مؤرخ الفنون فى ذلك يقول:

" من الصواب أن نقول بأن العلاقات الوثيقة التى نشأت بين مصر وآسيا فى الأسرة الثانية عشرة قد ساعدت على إدخال تقنيات جديدة إلى مصر عن طريق المهاجرين من آسيا إلى مصر والتى استفاد منها صناع الذهب من المصريين".

ويمكن القول بأنه فى تلك الفترة بالذات انتقلت الحضارة المصرية من العصر الحجرى إلى عصر استخدام المعادن. ومن المهم أيضًا أن نلحظ أنه فى تلك الفترة نفسها انتهى عصر سيطرة آشور واحتكارها للتجارة فى أواسط الأناضول، فظهرت على المسرح أنشطة تجارية بديلة بين الأناضول وسوريا التى كانت تحت السيطرة المصرية. وقد تكون هذه النتائج قد حدثت عن قصد من فراعين مصر أو عن غير قصد كنتيجة لحملاتهم العسكرية فى مناطق الشمال.

أما العلاقات مع البلقان فيمكن تفسيرها بالمثل على ضوء سعى المصريين وراء المعادن الثمينة والأحجار الكريمة التى سبقت الاشارة إليها. أما الحديث عن حملة مصرية على جنوبى روسيا فهو أمر صعب التدليل عليه، ومن المحتمل أن المصريين كانوا يطمحون فى مزيد من الغنائم فحسب. وليس مستبعداً أن تكون هذه الحملات المصرية قد جاوزت ما كان قد خطط لها أصحابها سياسيًا وعسكريًا، مثلما كانت الحال مع توسعات الإسكندر الأكبر فيما بعد فى آسيا، وأن النجاح الذى صادفته تلك الحملات المصرية قد ولد شعوراً يمكن أن نصفه " بوهم التوسع" (وهو تعبير شائع عند المصريين واليونانيين) للمزيد من الكشف والطواف حول البحر الأسود، وصولاً إلى خيرات القوقاز. وليس هناك ثمة ما يدعونا إلى التشكيك فى روايات هيرودوت وديودور عن الحملات المصرية التى استغرقت تسع سنين فى هذه المناطق الشمالية.

وبعد، إذا كان مؤرخ مرموق مثل جيبون قد عبر عن عزوفه عن الخوض فى حملات سيزوستريس لأنه – على حد قوله – " لا يزعم لنفسه المقدرة على التواصل مع الآثار اليونانية واليهودية والمصرية التى تبخرت فى السحاب " . إلا أننا نقول إن هذا

السحاب قد أخذ يتبدد نسبيًا بفضل الأبحاث اللغوية والمكتشفات الأثرية بدءًا من سبعينات القرن الثامن عشر. ومع ذلك فإن تحفظ جيبون الذى لا يزال بعضه فى ضمائر بعض الكُتّاب اللاحقين يشى بخبيئة خوافٍ أيديولوجى لا يتقبل فكرة أفريقيا السوداء المتحضرة وهى تزحف منتصرة ليس فقط علَى جنوب غربى آسيا، وإنما أيضًا إلى قلب مناطق أخرى فى أوروبا " المتبربرة" آنذاك. وهذه الفكرة لم تكن لتخطر على بال أحد من جهابذة أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولكننا نقول: لقد آن الأوان لإعادة النظر فى الأمر برُمّته من جديد!.

٧

هوامش الفصل السادس

Chapter VI
Sesôstris: the Cultic, Mythical and Legendary Evidence

1. Spiegelberg (1927, p. 20). While Spiegelberg was very much a scholar of his time, his attitude was – to my mind – far more open than that of Diels (1887, p. 423) or of Sayce (1885) or, for that matter, of Armayor (1985).
2. Simpson (1984a, col. 891).
3. Posener (1956, pp. 141–4).
4. See ch. V, n. 45.
5. Diodoros, I.20, trans. Oldfather, pp. 63–5.
6. *De Iside*..., 356A, trans. V, p. 35.
7. Volume 1, pp. 115, 461, n. 193.
8. Volume 1, pp. 142–5.
9. Dörrie (1979).
10. Gardiner (1961a, pp. 47–8).
11. For discussions of this, see Posener (1960, p. 43); Bell (1985a, p. 274; 1985b); Springborg (1990, pp. 209–14). For pharaohs and heroes, see ch. II, nn. 208–10.
12. See Volume 1, pp. 115–16, and n. 16 below.
13. For the date of the first fragments of the *Alexander Romance*, see Rattenbury (1933, pp. 220–1).
14. For the 22nd Dynasty, see Gardiner (1961, pp. 326–34). For Manetho's uncertainty on the names, see Frs 34 and 35, trans. Waddell (1940, pp. 66–9).
15. *Alexander Romance*, Pseudo Kallisthenes, I.34.2, I.34.4 and III.24.
16. For parallels between the two traditions, see Rattenbury (1933, pp. 219–23), Braun (1938, pp. 13–18, 41–2) and West (1977, pp. 47–8). The Sesonchôsis and Alexander 'Romances' were not the only ones of this type. There were many others, notably that of King Ninos and Queen Semiramis, embroideries on the deeds of Assyrian monarchs of the 9th century. See Rattenbury (1933, pp. 221–6), Braun (1938, pp. 6–18) and, most recently, Pettinnato (1985).
17. Simpson (1953, p. 86). For examples of these 2nd-millennium figures from Byblos and Ugarit, see Amiet (1977, plates 73–7). For the horns, see the war helmet worn by Naram Sin in the famous stela now in the Louvre, Amiet (plate 49). This, however, is clearly a helmet rather than a crown: its peak is much lower than that of the White Crown of Upper Egypt.
18. See ch. II, n. 187

19. Simpson (1960, p. 64).
20. Simpson (1960, p. 65); Grdseloff (1942).
21. For an Egyptian example, see Wildung (1984, p. 40, plate 33). For Levantine ones, see Amiet (1977, pp. 390–3). For Hittite and Neo-Hittite ones, see Amiet (1977, p. 399). There is a discussion of these figures in the Aegean in ch. XI, nn. 217–24.
22. Porada (1984, p. 486).
23. Herodotos, II.106.
24. Kadish (1971, p. 123).
25. See the models and relief in the Cairo Museum in Wildung (1984, pp. 175–6, plates 150–1).
26. Amiet (1977, p. 395, plate 518); Spiegelberg (1927, p. 24). See also Volume 1, pp. 92–5. For S-t n Ḥp, see Gauthier (1925–31, V, p. 83). The identification of Sinope with Se n Hʿpy was first proposed by Guignant (1828) but, like Griffiths (1970, pp. 396–7), I have been unable to see this.
27. Nonnos, III.1s.365–71, trans. Rouse (1940, I, p. 127).
28. See Volume, 1, pp. 94–5.
29. See ch. II, n. 123, ch. III, nn. 86–92 and Apollonius, II.11.178–533.
30. Gauthier (1925–31, III, p. 75).
31. Parke (1967, p. 220).
32. Frazer (1914).
33. Herodotos, II.1–2.
34. Herodotos, VII.107–109, trans. de Selincourt (1954, pp. 478–9). Strabo, *Geography*, VIII.319 and frg. VII. Pliny, *Natural History*, IV.18, 11, 40. Paulinus cited in Harrison (1903, p. 371).
35. Cook (1914–40, I, pp. 400–1); Parke (1967, p. 159).
36. Cook (1914–40, I, p. 371); Parke (1967, p. 220).
37. See Volume 3. This is not to deny that some of this influence may well have entered the region in the second half of the 2nd millennium.
38. Lang (1966, pp. 20–2). Just as the Albanians of the Caucasus have nothing to do with the Albanians in the Balkans, the Georgian Iberians have nothing to do with the Iberians of Spain. The local explanation for the name Iberian comes from an Armenian and Persian name Virkʿ given to the Georgians (Lang, 1966, p. 18). However, I find it more plausible that both Iberians and the Hebrews derive their name from the name ʿp/bri, common in the Levant in the 2nd millennium. Although Moshe Greenberg, in his meticulous study of the name, does not mention it and demonstrates that many ʿp/bri were settled in or near cities (1955, pp. 86–7), I find the traditional derivation of the name from the verb *'ābar'* (to cross over) and *'ēber'* (region across), and the general association of ʿp/bri with outlaws, persuasive. It is interesting to note that in both Spain and the Caucasus, Iberians were the unassimilated inland people in contradistinction to the 'civilized' coastal population living in the maritime economy. The basis of the etymology of these place names had been established by Bochart in the 17th cen-

tury. The name Albanian, like Albany, the old name for Scotland, and Albion from the white cliffs of Dover, and Lebanon, simply comes from the root common to Semitic and Indo-European √(a)lbn (white) and hence limestone or snow-covered mountains.

39. Strabo, XI.2.16.
40. Lang (1966, p. 18).
41. Herodotos, II.104–5, trans. de Selincourt (1954, pp. 167–8).
42. Lloyd (1967, pp. 164–5, 282–3).
43. Herodotos, II.41, trans. de Selincourt (1954, p. 146); Jairazbhoy (1985, p. 60).
44. Lloyd (1976, pp. 192–5).
45. See Volume 3 and Borghouts (1980, pp. 33–46).
46. Strabo, XI.2.17–18.
47. *Argonautika*, II.402; Jairazbhoy (1985, pp. 59–60).
48. According to Eratosthenes, 1225 BC and 1263–1257 BC according to Eusebius: Bacon (1925, p. 143).
49. Hesiod (Merkelbach and West, 1983, frgs 68 and 255) from the *Catalogue of Women* and the *Great Eoiai*, Loeb, p. 177.
50. Lang (1966, pp. 65–9).
51. Apollonios, IV.260–80.
52. See Santillana and von Derchend (1969, pp. 58–9). For the precession of the equinoxes, see Volume 1, p. 126.
53. Volume 1, pp. 92–3.
54. See Riew intro. to Apollonios, pp. 27–8.
55. Herodotos, II.104–5.
56. See ch. II, n. 1.
57. Pindar, *Pythian Odes*, 4.11. See Vradii (1914, pp. 116–17). Prokopios, *Wars*, VIII.3.10–12.
58. Lang (1966, pp. 19–20); English (1959, pp. 49–50).
59. Tynes (1973); Blakely (1986, pp. 10–11).
60. Blakely (1986, pp. 5–12, 75–80).
61. English (1959, p. 53). The references are cited by Bochart (1646, IV.XXXI, p. 286).
62. See n. 51 above.
63. See ch. II, n. 53.
64. Apollonios, IV.270–93, trans. Rieu, p. 154.
65. *Phaedo*, 109B, trans. Fowler, p. 375.
66. *Iliad*, 8.14; *Phaedo*, 112.A. For a fascinating and exciting, though ultimately not very illuminating discussion of these issues, see Santillana and von Derchend (1977, pp. 179–212).
67. See Nagy (1979, pp. 206–7).
68. Chantraine has no explanation for the root. Pokorny sees an Indo-European root **ghelĝh* borrowed from a foreign culture. The stem *ēlek[t]* **ālek[t]* (brilliant), the origin of which Chantraine calls 'obscure' would also seem to come from √ḥlq in one of two ways. The first is that the root was common to Semitic and Proto–Indo-European and that

**ālek[t]* came as a result of the loss of the laryngal *ḫ*. The second that it was a loan from the Canaanite *√ḥlq* after the merger of *ḫ* with *ḥ* in that language.

69. Sasson (1980, p. 212, n. 3); Speiser (1967, pp. 25–6).
70. See Hinz (1973); Carter and Stolper (1984).
71. McAlpin (1974, pp. 89–101; 1975, pp. 105–15).
72. See Rashidi (1985, p. 20).
73. Hinz (1973, pp. 21–2). The 8th-century Elamite version of the Gilgamesh legend found recently in Urartu, the present Armenia, indicates that Elamites shared the general culture of Southwest Asia, including the 'theatrical' convention of actor and chorus. See Diakonoff and Jankowska (1990, pp. 109–10).
74. Herodotos, VII.71, trans. de Selincourt (1954, p. 468). He does not seem to have been referring to Susian Elamites here, as he refers elsewhere to a Kissian contingent. It is strange, however, that while Hinz points out that the Elamites in Darius' army were dressed in Elamite costume, Herodotos describes the Kissians in Xerxes' army as being dressed like Persians, except that they wore turbans (VII.62). Still, uniforms and national costumes can and do change suddenly.
75. *Odyssey*, I.22–5.
76. Herodotos, V.50, trans. de Selincourt (1954, p. 358).
77. Strabo, XV.3.2; Hinz (1973, p. 99).
78. For possible connections between Kassite and Elamite see Speiser (1930, pp. 122–3). For the vocalization of Kassite/Kossaioi see Speiser (1967, p. 25). For Galzu, etc., see Balkan (1954, pp. 131–2). Galšu is uncomfortably close to Kȝš in that they could all belong to the same cluster, while the Akkadian rendering of the *-ld-* of Galdu as -šš- looks disturbingly like the later barbarian conquerors of Mesopotamia, the Chaldaeans, Kaśdîm in Hebrew, but Kaldu in Assyrian and Kalday in Aramaic. Steiner (1977, pp. 137–43) plausibly posits a fricative lateral *ł* or South Semitic *s*² for the original sound. In languages that lacked this consonant, this sound was sometimes rendered as *ś* and sometimes as *l*. Were both Kassites and Chaldaeans originally called kał/śu? The coincidence is remarkable. However, unlike the Kassites, the Chaldaeans seem to have come from the south and were originally Semitic-speaking.
79. Gadd (1973, pp. 224–5).
80. Delitzsch (1884, pp. 39–47).
81. Genesis X.8–9. Nimrod played a prominent if villainous role in Jewish folklore and Rabbinical writings. In these, he is credited, among other things, with having built the Tower of Babel. Ginzberg, in his *Legends of the Jews* (1968), lists 195 citations to Nimrod in his index.
82. Speiser (1967, pp. 41–2). For other Mesopotamian etymologies, see Gesenius (1953, p. 650).
83. Gardiner (1957, p. 79, 100.1). It is interesting to note that the name is transcribed *Nebrōd* in the Septuagint and *Nebrōdēs* in Josephus. Burton

(1972, p. 167) sees a survival of nb-r-ḏr in Diodoros' phrase *pros tēn tōn holōn dynasteian* (acquire empire over the whole world).

84. Speiser (1967, pp. 47–52).
85. Ginzberg (1968, V, pp. 199–201).
86. Burton (1972, p. 170). Blakely (1986, p. 11) points out there were small Negro communities in Yugoslavia and Iran.
87. See Lloyd (1982, pp. 37–40).
88. Diodoros, I.55.6.
89. Herodotos, II.106, trans. de Selincourt, 1954, p. 168.
90. Hesiod, 1.984, trans. Evelyn-White (1914, p. 153).
91. From Proklos, *Krestomanthia*, II, in Kinkel (1877, pp. 32–4).
92. Clark and Coulson (1978, p. 73).
93. Nagy (1979, p. 205, 42 n. 3). I believe that the two traditions are even closer than Clark and Coulson and Nagy imagine because, as I shall argue in Volume 4, I see Apollo as deriving his name and some of his nature from the Egyptian Ḫprr, the god of dawn, and thus strictly parallel to Eos, Memnōn's mother. This would tend to strengthen Clark and Coulson's case.
94. See Lung (1912, pp. 13–27).
95. Lung (1912, pp. 10–12) admits that Memnōn was Ethiopian and that he is always represented as being accompanied by Blacks. However, he claims that some early vases show the prince himself as a Greek though many others portray him as a Negro. I do not think that too much significance should be put on this point as another 'barbarian' hero, Orpheus, known as a Thracian, was portrayed as a Greek while surrounded by Thracians. See Guthrie (1966, pp. 45–6, plates 4, 6).
96. Lung (1912, p. 10).
97. Herodotos, V.54; VII.151.
98. Strabo, XV.3.2; Goossens (1939, p. 337).
99. Goossens (1939, pp. 377–8); Snowden (1970, pp. 151–5).
100. Lung (1912, pp. 10–13); Snowden (1970, pp. 45–9, plates 15, 16, 18 and 19).
101. See ch. IX, n. 139.
102. Cited in Diodoros, II.22.1–3.
103. For an excellent bibliography of these, see Snowden (1970, pp. 151–3).
104. *Iliad*, XX.239; Diodoros, II.XXII.3.
105. *Iliad*, XI.1; *Odyssey*, V.1.
106. For this tangle and the derivation of the name and cult of Dōdōna from Ddwn and his cult at the oracle of Siwa in the Libyan desert, see Volume 3.
107. *Iliad*, I.423. The adjective used for the Ethiopians, *amymonas* (blameless), would seem to be a paranomasia for Amun, with whom, as mentioned in Volume 1, p. 114 and as will be given in more detail in Volume 3, he was generally identified. This, of course, would strengthen the case that Homer was thinking principally of the African Ethiopia.

The root *-mym-* (blame) in *amymonas* would appear to come from the West Semitic *mûm* (blemish, disfigurement). The derivation is complicated by the Middle English 'maim' which has exactly the same meaning. However, 'maim' has no known etymology and the whole problem remains unresolved.

108. See Rendsburg (1981, p. 198). He claims that the West Semites oriented themselves to the source of the sun in the east while the Egyptians looked to the source of the Nile to the south. Thus √*ymn*, the right hand, was the south and west respectively.
109. Robertson-Smith (1894, p. 507). For the association of these gods with spring flowers, see the passages on Hyakinthos in Volume 3.
110. For an outline of this see, Volume 1, pp. 115–16. For more detail, see Volume 3.
111. For details on this, see Frazer (1914).
112. Strabo, XII.I.2; XV.II.2; Aelian, *Nat. Anim.*, V.I; Servius on *Aeneid*, I.751. For a general survey, see Frazer (1898, V, p. 387).
113. Homer described 'the clamour of cranes ariseth before the face of heaven, when they flee from wintry storms and measureless rain, and with clamour fly toward the streams of Ocean, bearing slaughter and death to Pygmy men.' *Iliad*, III.3–7.

The Greek word for 'dwarf', *nanos*, has no Indo-European cognates and probably comes from the Egyptian *nm(w)* (dwarf). There is no doubt that Egyptians had a considerable knowledge about Central Africa. Not only are there the Deir el Bahri reliefs, but there is the fact that 12th-Dynasty eye paints have been shown to come from Busumbi in Uganda. See Dayton (1982a, p. 164). *Pygmē* (pygmy or boxer) has been derived from *pyx* (fist), the origin of which is itself completely obscure. The possible illustration of African boxers in the Thera murals and the certain later associations between Africans and the sport, together with the undoubted ancient location of the pygmies in Ethiopia, would make it likely that the Greek word came from Egyptian or a language from further south. It could be related to the name [hieroglyphs], usually read *gnb(tw)* (a Negro people from Pwnt [Africa reached by sea] with tight curly hair). This could be either by assuming a transposition **bgn(tw)* or with the definite article pꜣ *gnb(tw)*. In any event, the legend of the cranes slaughtering the pygmy men is likely to be related to a pun in *(pꜣ)gm* [hieroglyph], not actually a crane but a black ibis. The paranomasia involved in the legend would seem to be increased with *gmi* [hieroglyphs] (find, control, destroy) and *gmgm* [hieroglyphs] (smash, tear up, etc.).

114. See Griffiths (1980a, pp. 49–50).
115. Plutarch, *De Iside*, 359E. Griffiths (1982a, col. 628) stresses the greenish tinge of the blackness in some of the portraits.
116. *Odyssey*, XI.522.
117. Ovid, *Metamorphoses*, XIII; Aelian, *Nat. Anima*, V.1.
118. *Iliad*, XXII.208–13. Murray trans., 1925, II, pp. 469–71. The root aisa in *aisimos*, which is present in Mycenaean and means 'part accorded'

and by extension 'destiny', is supposed to have an Indo-European cognate in the Oscan *aetis* (portion). The Greek root would seem equally or more likely to come from the Egyptian Isw, Coptic 'asou' and 'esou' (reward, compensate). The Greek dialect forms *wiswos* or *hisos* would seem to indicate uncertainty but do not provide substantial objections to the derivation of *isos* or *eisē* (equal in share, number or right) from Isw. The English learned prefix '*iso-*' comes from this. The Indo-European etymologies proposed for *isos* in Chantraine are hopelessly obscure and cumbersome.

119. See also *Iliad,* VIII.60–70, and Dietrich (1964, p. 108) cited in Clark and Coulson (1978, p. 67).
120. Lung (1912, pp. 20–1) Tomb 3 (Schliemann, 1878, pp. 196–8).
121. *Iliad,* XVI.658; Clark and Coulson (1978). While *talant-* has a clear cut Indo-European etymology, Mḫ3t, the standard Egyptian word for a balance and the beam across it, appears in the Greek *mochlos* (lever or beam), which occurs in Homer.
122. Plutarch, *De audiendis poetis,* 2, and schol. on *Iliad,* VIII.70.
123. Lung (1912, pp. 13–19); Clark and Coulson (1978, pp. 70–1).
124. Gruppe (1906, II, p. 681, n. 7).
125. Lung (1912, p. 20).
126. For this fusion, see Volume 1, p. 141.
127. Clark and Coulson (1978, p. 71).
128. See Lung (1912, p. 14).
129. *Iliad,* XXIII.78. This sense of *kēr* is emphasized by Malten (1924, col. 885). Pârvulescu (1968) demonstrates clearly that *kēr* cannot simply mean 'doom' or 'death', but he is less convincing when he argues that it means 'suffering'.
130. For the Anthesteria, see Parke (1977, pp. 116–17). See ch. IV, n. 123, for the Egyptian origin of the stem *anth-* in Anthesteria.
131. For a survey of this immensely dense semantic field, which was further contaminated by the word k3 (bull strength), see Kaplony (1980, cols 275–82). He provides a substantial bibliography in his notes. For a discussion of the political function of k3 in Egypt and later European political thought, see Springborg (1990, pp. 89–117).
132. See Erman and Grapow (1925–31, V, p. 86).
133. Pokorny (1959–60, I, pp. 917, 957). He transcribes them as *skāi, skəi* and *ski.*
134. Gardiner (1957, p. 417, 511.4).
135. Chantraine (1968–75, pp. 1295–6) admits this group has no known Indo-European origin, but the resourceful Pokorny (1959–60, I, p. 146) invented a root, **bhes* (breath, blow) upon it. It is of course possible that some or all of these etymologies came simply from *šw,* without the article, as it seems clear that the letter Ψ was used to represent several indistinct sibilants and that the initial *p-* was added as a hypercorrection to words that sounded Egyptian. See Bernal (1990, pp. 118–19).
   Coptic contains the word *šoou* (incense, perfume). Černy (1976, p. 257)

Glossary(*)

فهرس المصطلحات

(أسماء الأعلام والأماكن)

ترجمة وتعليق وتحرير

محمود إبراهيم السعدنى

(*) لم نكتف ، هنا ، عند ترجمتنا لهذا الكتاب ، بما ورد فى قائمة مصطلحاته التى تعكس اهتمامات المؤلف، من وجهة نظره هو تحقيقاً لغرضه من مؤلفه ، بل أضفنا إليها كذلك من عندنا (أيضًا مما ورد فى الكتاب)، ولكن استشعاراً لحاجة القارئ العربى إلى المزيد من التوضيح حول بعض المصطلحات الأخرى التى تبدو غريبة عليه أو لم يسبق أن اطلع عليها يومًا ما. وكذلك فالهوامش هنا خاصة بنا لمزيد من الفائدة.

ملحوظة مهمة : سيتم الإبقاء على الترتيب الأبجدى الأجنبى للمصطلحات حتى لا يحدث تغيير جذرى فى شكل المادة المرجعية للكتاب الأصلى.

الأفخاذية (Abkhaz)

هى لغة تخص أهل الإقليم الشمالى الغربى من القوقاز ، وتنتمى لعائلة لغوية ، وجماعة بشرية تقطن ساحل البحر الأسود وحتى غرب جورجيا ، فى جنوب روسيا الحالية.

الأفروآسيوية : (Afroasiatic)

وتعرف أحياناً باسم الفرع السامى- الحامى ، وهى أصل لغوى عظيم ، تتكون من عدد من اللغات الأمة، بما فيها البربرية، والتشادية ، والمصرية ، والسامية ، وتمتد على الأرض (فى أفريقيا) شرقًا وجنوبًا وحتى كوش الوسطى.

الأكادية : (Akkadian)

هى اللغة (السامية) للعراق القديم (بلاد النهرين: مسوبوتاميا) ، وكانت قد تأثرت كثيراً - كما أثرت فى - اللغة السومرية. وفى منتصف الألف الأولى ق.م. ، حلت محلها اللغة الآرامية.

أناتوليا : (Anatolia)

هى إقليم جغرافى قديم ، يتوافق قليلاً أو كثيراً مع تركيا الحديثة ، وربما يقتصر أمره على ما يُعْرف باسم إقليم الأناضول فى الامتداد الطبيعى لهضاب تركيا ، وخاصة صوب الشرق والجنوب منها.

الآرامية[١] : (Aramic)

لغة سامية غربية ، كان يُتَكلم بها ، فى الأصل ، فى بعض أجزاء ما يسمى الآن بسوريا، وهى التى غدت لغة أجنبية للإمبراطورية الآشورية ، وكذلك البابلية / الحديثة ، وفى معظم أنحاء الإمبراطورية الفارسية. وقد حلت محل اللهجات الكنعانية للفينيقيين والعبرانيين ، فى شرق حوض البحر المتوسط ، وذلك فى منتصف الألف الأولى ق.م.ن ثم جاءت اللغة اليونانية ، وكذلك العربية من بعد ذلك ، وحلت محلها على ألسنة أهل المنطقة ، وبخاصة من بعد الغزو المقدونى لها ، على يد الإسكندر الأكبر عام ٣٣٣ق.م.، وقيام ممالك خلفائه من بعده فى سوريا ومصر وآسيا الصغرى.

اليونان (فى العصر الأرخايكى) : (Archaic Greece)

هى حقبة فى التاريخ اليونانى القديم، بدايةً من الألعاب الأولمبية الأولى ٧٧٦ ق.م. [٢]، وحتى بداية العصر الكلاسيكى ، حوالى عام ٥٠٠ ق.م.

الأرمينية : (Armenian)

لغة أوربية - هندية لشعب قديم فى شرق أناتوليا (الأناضول) وتعود أقدم نصوص ، تم العثور عليها لها ، إلى القرن الرابع الميلادى فقط. ويلاحظ وجود بعض المتشابهات بينها وبين اليونانية القديمة كنتيجة للتأثير الحضارى اليونانى على الإقليم ، وكذلك للاتصالات المتكررة مع العناصر السامية.

الآرية : (Aryan)

وهو مصطلح يستخدم لوصف المتحدثين بها من الفرع الإيرانى - الهندى للغة الأوربية-الهندية وأسرتها الأشمل ويبدو أن أولئك كانوا قد غزوا إيران والهند ، فى النصف الأول من الألف الثانية ق.م. ولكنه فى نهاية القرن ١٩ الميلادى أصبحت الإشارة إليها واستخدامها للدلالة على العنصر الأوروبى/ الهندى ككل.

آشور[٣] : **(Assyria)**

مملكة قديمة ، فى شمال العراق القديم ، يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثالثة ق.م.[٤] ويؤرخ لأعظم مراحل حضارتها بنهاية الألف الثانية ق.م. وحتى الفترة الواقعة بين عامى ٩٠٠ و ٦٠٠ ق.م. وكانت لغتها ، فى الأصل ، عبارة عن لهجة من اللغة الأكادية.

أوتوخثونوس : **(Autochonous)**

وهى لفظة يونانية قديمة ، مركبة ، تعنى " نشأ من تلقاء نفسه "، ومن باطن الأرض ، أى بمعنى أنه محلى وأصيل. وكان يتم وصف الآلهة الأقدم بها ، أو الأبطال القدامى غير المعروفى الأصل والهوية ، فغدوا أساطير فى نظر شعوبهم[٥].

العصر المحورى : **(Axial Age)**

وهو مصطلح حديث ، نسبيًا ، ويؤرخ له بالفترة فيما بين ٧٠٠ و ٥٠٠ ق.م ، حيث يعتقد البعض أن اليونان والإسرائيليين[٦] ، والإيرانيين ، والهنود ، والصينيين ، قاموا بعمل إنجاز عظيم فى مجال الشئون الدينية ، والفلسفية ، وكذلك العلمية ، وهى التى قادت إلى العصر الحديث.

بابيلون (بابل)[٧] : **(Babylon)**

هى مدينة قديمة ، فى الطرف الجنوبى من وسط العراق القديم ، وكانت مقرًا للعديد من الممالك المهمة ، وبخاصة آخرها ، وهى الإمبراطورية البابلية الحديثة ، فيما بين ٦٠٠ و ٥٣٨ق.م. وآثار تلك المدينة – حاليًا – تقع على مسافة ١١٣ ك.م تقريبًا جنوبى بغداد الآن. وتعتبر الإنشاءات المعمارية الضخمة ، والاستحكامات الدفاعية ، والمعابد الدينية ، وبخاصة فى عهد نبوخذ نصر الثانى (٦٠٤–٥٦١ق.م.) من أحد عجائب الدنيا السبع القديمة. ويصف لنا هيرودوت ، فى القرن ٥ ق.م. أبراجها وأسوارها وصفًا دقيقًا.

والاسم نفسه ، هـو للقلعة المصرية ، عنـد رأس الدلتا ، التى حاصـرها عمـرو بن العاص فى عام ٦٤١م وقد سقطت فى شهر أبريل من العام نفسه ، وغادر الجيش الإمبراطورى البيزنطى ميناء الإسكندرية ، وفق معاهدة الصلح والسلام مع المقوقس ، يوم ١٧ سبتمبر ٦٤٢م[٨].

البربر: (Berber)

هى مجموعة لغات يتحدث بها السكان الأصليون لشمال غرب أفريقيا. ولا تزال يتحدث بها فى الصحراء الغربية المصرية وكل الصحراء الكبرى الأفريقية حتى المغرب.

المعرفة الأفضل: (Besser wissen)

مصطلح ألمانى وتعنى " المعرفة الأفضل " – كما تمت ترجمته – ويعكس اقتراباً أفضل ، بشكل علمى ، على أساس أن العلم والأسلوب التاريخى لمؤرخى القرنين (١٩) و (٢٠) قد حققا نتائج بشكل محدد ، وأفضل من الكتاب القدامى.

البحيرية: (Bohairic)

وهى لهجة قبطية ، يتحدث بها أصلاً فى غرب الدلتا، ولكنها أصبحت ، فيما بعد ، لهجة ذات مستوى ثابت فى مصر بعد انتشار المسيحية.

كتاب الموتى: (Book of the Deatd)

وهو كتاب بردى ، بالهيروغليفية ، يضم عدداً كبيراً من الصلوات والأدعية والتعاويذ، والتعاليم بقصد إرشاد روح المتوفى ، خلال رحلته فى انتقاله إلى العالم الآخر ، عالم الخلود والبعث والنشور. إنه أحد أهم وأبرز الخصائص المميزة للديانة المصرية القديمة ، بل التفرد الكامل ، عن كل حضارات العالم القديم ، لخصوصية

الإيمان المصرى القديم ، والذى لا يزال حتى اليوم ، أحد أهم أركان الشخصية المصرية المعاصرة (المحرر). وتؤرخ أقدم كتابات له منذ أيام الدولة الحديثة فى الأسرة ١٨ ، وكان الاعتقاد فيها بأنها تتيح لصاحبها ، أيضاً ، الحماية من ظلمات القبر وأهواله وتبعث فيهم المقدرة لرؤية النور والشمس. كانت هذه اللفافات توضع مع المومياء ، أو تسجل على التابوت(٩).

ببيلوس : (Byblos)

هى مدينة ميناء قديم ، ويوجد موقعها الأثرى ، الآن ، فى جنوب لبنان. وكانت على صلة وثيقة بمصر ، منذ الألف الرابعة ق.م. وتعتبر أهم مدينة فى منطقة الليڤانت القديم ، حتى انزوى دورها ، وحلت مدينة صيدا (Sidon) محلها ، مع نهاية الألف الثانية ق.م.

وهى مدينة جبيل – الحالية – على مسافة ٣٢ ك.م تقريباً ، شمالى بيروت. وكان (بيير مونتيه) العالم الأثرى الفرنسى صاحب الحفائر الشهيرة له فى مصر ، فى شرق الدلتا وبخاصة فى موقع تانيس (Tanis) قد عثر فيها – فيما بين عامى ١٩٢١–١٩٢٤م – على استيطان بدائى بها يرجع إلى العصر النيوليثى (الحجرى الحديث). ولكن معظم آثارها تعود إلى الفترة الكنعانية ، وفيها معبد للربة المعبودة بها ، " بعليت " ، سيدة ببيلوس ، فى وسط المدينة(١٠).

اللغة الكنعانية : (Canaanite)

وهى لغة من أصل سامى ، تأثرت تأثراً كبيراً باللغة المصرية القديمة ، وكان يتحدث بها فى جنوب الساحل السورى – الفلسطينى القديم فيما بين ١٥٠٠ و ٥٠٠ق.م. ، حينما حلت محلها اللغة الآرامية. وتعتبر اللغتان الفينيقية والعبرية أشهر اللهجات الكنعانية المتأخرة. وكذلك فإن مصطلح " كنعانى " يستخدم ليصف التراث الثقافى المادى لجنوب الساحل السورى – الفلسطينى القديم ، فى أواخر عصر البرونز ، فيما بين ١٥٠٠ و ١١٠٠ ق.م.

وهناك رأيان حول أصلهم ومصدر هجرتهم الأولى ، فجماعة ترى أنهم هاجروا ، من الجزيرة العربية ، إلى شمالها فى إقليم النقب ، ثم تابعوا رحلتهم - منذ أوائل الألف الثالثة ق.م - إلى داخل السهل الساحلى السورى / الفلسطينى. وكانت أهم مدنهم الأحاشى ، ومجدو، وبيبلوس ، وأوغاريت ، وأهم أنشطتهم التجارة. ولكن جماعة أخرى من الباحثين يؤجلون وصولهم إلى المنطقة إلى حوالى منتصف الألف الثانية ق.م.، مع غزو الهكسوس ، أى أنهم ينتمون إلى عناصر آسيوية ، وليس عربية (!!!!)[١١].

كاريا: (Caria)

هل إقليم فى جنوب غرب أناتوليا (الأناضول). ومن المحتمل أنها كانت لغة من أصل أناتولى، وليست لها علاقة بالجذور الحيثية - الهندية. وهناك نقوش بكتابات كارية تؤرخ بالقرن (٦) ق.م.

وجدير بالذكر أن أحد أهم أماكن كشف تلك الكتابات والمخربشات (Grafiti) المبكرة لهؤلاء هو صعيد مصر - فى أبى سمبل - حيث كانت وحدة مرتزقة من الجنود الكاريين ، فى خدمة الفرعون المصرى أبريز (Apries) ، منذ أيام دعوتهم لأول مرة فى عصر أبسماتيك الأول عام ٦٦٤ ق.م، وهو ما أكده لنا المؤرخ اليونانى الكبير هيرودوت[١٢]. (المحرر)

حضارة خالديا: (Chaldaean)

وهو اسم يطلق على شعب جنوب العراق القديم ، منذ القرن الثامن (٨) ق.م. ، ثم استخدم للدلالة على العراق كلها. كانت لغته هى الآرامية منذ الفترة الواقعة فيما بين ٥٠٠ ق.م. وحتى ٥٠٠ ميلادية.

وهم الذين تعرفهم ، نحن ، فى مراجعنا العربية باسم حضارة العصر الكلدانى أو العصر البابلى الأخير ، فيما بين ٦٢٩ و ٥٣٩ ق.م. ، كمرحلة أولى لانتشار اللغة الآرامية على استحياء بين موظفى ومثقفى بابل القديمة[١٣]. وكان أشهر قبائل كالدو ، الآرامية الأصل، فى جنوب العراق ، " بيت داكورى " ، " وبيت ياكين " (المحرر).

اليونان الكلاسيكية : (Classical Greece)

ونقصد بها تأريخ الحضارة لليونان القديم فى القرنين الخامس والرابع ق.م.، وهى الفترة التى ينظر لها ، عموماً ، على أنها أعظم وأنقى نتاج للعبقرية اليونانية.

وإن أردنا الدقة التأريخية ، للإنتاج اليونانى الحقيقى والعبقرى ، بحق ، على المستوى الحضارى العالمى ، يمكن أن نقول أنها كانت فيما ٤٨٠ و ٣٣٤ ق.م. ، أى لمدة ما يقرب من قرن ونصف فقط ، أذهل اليونانيون العالم أجمع فى مجالات عديدة : فى السياسة ، والفن، والعلوم(١٤). (المحرر).

كولخيس : (Colchis)

وهى مدينة قديمة ، على الطرف الشرقى للبحر الأسود ، وتقع آثارها ، الآن ، فى إقليم جورجيا وأفخاذيا.

وجدير بالذكر أن أقدم إشارة لها جاءتنا عند هوميروس فى الإلياذة ، ثم التفصيل الكبير عند أبوللونيوس الرودى (من القرن ٣ق.م) فى عمله الأدبى الخالد الكبير "أرجوناوتيكا" (Argonautika) ، حول الفروة الذهبية وياسون البطل المأساوى لهذه الأسطورة الجميلة، وهو من أشهر الأعمال الأدبية فى الإسكندرية القديمة (المحرر).

العصر المشترك : (Common Era)

وهو مصطلح يستخدمه ، بوجه عام ، غير المسيحيين ، وبخاصة اليهود ، وذلك تفادياً للمصطلح الكنسى (.A.D) ، منذ ميلاد السيد المسيح (Anno Domini)).

اللغة القبطية : (Coptic)

وهى لغة وثقافة مصر منذ دخول المسيحية إليها ، وظهور تلك اللغة كلسان خاص بمسيحى مصر ، وظل يتحدث بها حتى القرن (١٥) أو (١٦) الميلادى ، وهى الآن ، لا تزال لغة الطقوس الدينية والصلوات فى الكنيسة المصرية. إنها تكتب بحروف يونانية مع بعض الإضافات لحروف مصرية مشتقة من الخط الديموطيقى ، وكانت آخر شكل من أشكال كتابة اللغة المصرية القديمة.

وفى رأينا إنها تمثل قمة الذكاء المصرى وحصاد الفكر الكهنوتى الراقى ، السياسى الهدف فى زمن الاحتلال الأجنبى ، وضياع السيادة الوطنية ، فكان اختراع لغة خاصة بالمصريين ، بالحروف ذاتها من اللغة الرسمية، اليونانية ، المفروضة عليهم ، ولكن دون أن يفقه فيها اليونانيون شيئًا !!!! (المحرر).

والمصطلح جاء نسبة إلى مدينة قفط (Coptus) ، كوبتوس ، فى اللاتينية ، ومنذ انتشار المسيحية وقيام تلك المدينة بدور كبير فى ذلك أصبحت الإشارة ، كبدل البعض عن الكل للدلالة عن كل المسيحيين. ويمكن إرجاع اللغة القبطية إلى الفترة فيما بين ٢٥٠ و ٣٥٠م ، وأهم لهجاتها البحيرية والصعيدية[١٥].

الكتابة المسمارية : (Cuneiform)

هى أسلوب للكتابة ، ونظام مستقر لرسم حروف ، طورها العراقيون القدماء ، وسميت بذلك نظرًا لشكل تلك الحروف التى تشبه المسامير ، والتى يتم الضغط على قوالب لها فى ألواح الطين الطرى ، فيحصل الكاتب على كتابات غائرة.

وتجدر الإشارة إلى أنه كانت مراحل عديدة لإعداد الطين والألواح وتجهيزها قبل الكتابة عليها[١٦]. وكذلك كان أهل العراق ، وسومر تحديدًا ، أول من اخترعوا الملفات الطينية (الكلاسير) حفاظًا على كتابات الألواح (المحرر).

العصور المظلمة (المسيحية) : (Dark Ages: Christian)

مصطلح أعطاه العلماء ، بطريقة تقليدية حسبما اتفق فيما بينهم ، على الفترة من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية فى القرن (٥) الميلادى ، وحتى فيما قبل العصور الوسطى، والتى ينظر إليها منذ بداية القرن (٩) أو (١٠).

العصور المظلمة (اليونانية) : (Dark Ages: Greek)

وهو مصطلح عادة ما يصف به علماء التاريخ القصور الميكينية على الفترة الواقعة من بعد انهيار القصور الميكينية ودمار المراكز الحضارية لها ، في القرن (١٢) ق.م.، وتستمر حتى بداية العصر الأرخايكي في القرن (٨) ق.م.

والغريب أن اليونان ، آنذاك ولمدة ما لا يقل عن ثلاثة قرون كاملة ، لم تخلف آثاراً ذات بال خلاف بعض الآنية الفخارية البسيطة ذات الزخارف الجيومترية ، مما يعني ويفسر حجم الغزو الهمجي الذي تعرضت له الحضارة الميكينية السابقة على ذلك (١٦٠٠-١٢٠٠ق.م)، ويعكس روح العنف الشديد للغزاة والسادة الجدد ، ألا وهم الدوريون (Dorieis) ، ذوي الأصول الأوربية ، الذين دخلوا اليونان ، لسبب ما ، وأصبحوا ملاكاً وحكاماً ، وفرضوا رموزهم وأساطيرهم ، واتخذوا من هيراكليس (Herakles) إلهًا وجداً أسطورياً خالداً لجحافلهم. وعاشت اليونان قروناً من الترقب والحذر حتى تم الامتزاج التام ، وبدأت تنتج حضارة جديدة تماماً ، بفضل الدم الجديد ، والروح الجديدة (المحرر)[١٧] .

الديموطيقي : (Demotic)

هو الخط المصري القديم الثالث للغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) ، وقد تم اشتقاقه منها ، وكذلك من الخط الثاني، الهيراطيقي، واستخدم ، في مصر ، منذ القرن (٧) ق.م.

وتجب الإشارة إلى أن هذا المصطلح يوناني الأصل ، ويعني الخط (أو/اللغة) الشعبية، اشتقاقاً من لفظة ديموس (Demos) ، التي تعني " شعب ". وكان اليونانيون هم الذين أطلقوا تلك المسميات على مراحل تطور اللغة المصرية القديمة (المحرر).

التأريخ بحلقات الشجر (Dendrochronology)

وهى طريقة لتقدير عمر الخشب وتأريخ حياة الأشجار ، وذلك بإحصاء حلقات جسم الساق وحساب ما انصرم من أعمارها الماضية.

المخصص : (Determinative)

وهو العلامة أو الشكل المرسوم بالهيروغليفية الذى يوضح معنى كلمة ما ، قياساً على صوتها، وجرس لفظها.

(نظرية) الشيوع والانتشار: (Diffusionism)

وتفيد الاعتقاد بأن الخصائص الثقافية ، والملامح الحضارية التراثية يمكن أن تنتقل من حضارة لأخرى .

ديودوروس الصقلى : (Diodorus Sikeliotes)

مؤرخ يونانى من جزيرة صقلية. عاش فى الفترة من ٨٠ إلى ٢٠ ق.م ، وعرف بعمله التاريخى: " المكتبة التاريخية ".

وكذلك ، يهمنا نحن كعرب وكمصريين ، أنه كان قد زار بلدنا ، وسجل بعض ملاحظاته الهامة حول التاريخ البطلمى ، بوجه خاص ، وزار - كذلك - المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية (عند خليجى البحر الأحمر: خليج السويس وخليج العقبة) وقدم لنا وصفاً دقيقاً للغاية لتضاريس المنطقة وقبائلها وخيراتها[١٨]. (المحرر).

الدوريون : (Dorians)

هم قبائل غازية ، من خارج اليونان[١٩]، كانوا قد دخلوا إلى شماله الغربى ، واستمروا على موجات متلاحقة وبأعداد كبيرة ، فى غزوهم لبقية أنحاء اليونان ، حتى

حاصروا أثينا وقلعتها الحصينة فوق الأكروبوليس ، ولم يفلحوا فى هزيمتها ، ومن ثم تابعوا سيرهم صوب الجنوب حتى وصلوا إلى إقليم لاكونيا ، حيث اتخذوا لنفسهم عاصمة جديدة لدولتهم وجنسهم ، وهى مدينة إسبرطة (Sparta) ، التى عرفت بنظام حكمها المناقض تماماً للنظام الأثينى. (المحرر).

(المرحلة) الهيللادية المبكرة: (Early Helladic)

هى فترة تاريخية أولية هامة من عصر البرونز اليونانى ، ومرحلته المبكرة ، داخل اليونان القارية ، أى البلد الأم (Mainland) ، ويؤرخ لها – استناداً إلى نوع فخارها – بالفترة من ٣٣٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق.م.، ولكن فى رأينا تاريخ مبكر جداً عما اتفق عليه عند معظم مؤرخى حضارة اليونان القديمة[٢٠]. (المحرر).

(المرحلة) المينوية المبكرة: (Early Minoan)

وهى مرحلة تأريخية باكرة فى مشوار حضارة جزيرة كريت – فى وسط حوض البحر المتوسط الشرقى – وتعتمد أيضاً على الفخار والآنية بوجه عام ، وتوازى عصر البرونز المبكر فى تلك الجزيرة ، أى منذ حوالى ٢٦٠٠ وحتى ٢٠٠٠ ق.م[٢١].

والجدير بالذكر أن أحد أهم أدوات تأريخ تلك الفترة فى كريت هى الآنية الحجرية المصرية الأصلية (Stone Vases) المستوردة من مصر منذ أيام الدولة القديمة[٢٢].

إبلا: (Ebla)

مدينة سورية قديمة ، تم الكشف عنها ، لأول مرة فى أوائل السبعينات ، أى منذ عام ١٩٧٠م. ولقد لوحظ أنها كانت تتمتع بشبكة تجارية مكثفة ، وحققت لنفسها إمبراطورية شملت كل الساحل السورى – الفلسطينى حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م.

اللغة المصرية : (Egyptian)

غالباً ما نقصد بها - ليست اللهجة العربية التى يتحدث بها المصريون فى أيامنا هذه - لغة مصر القديمة ، والتى كانت عبارة عن لغة أفروآسيوية مستقلة. تم تقسيمها إلى مراحل فرعية: المصرية القديمة (العتيقة) ، وكان يتحدث بها إبان الدولة القديمة ، حوالى فيما بين ٣٤٠٠ و٢٤٠٠ ق.م ، والمصرية الوسيطة ، وكان يتحدث بها فى الدولة الوسطى ، فيما بين ٢٢٠٠ و ١٧٥٠ ق.م.، والتى ظلت لغة البلاد الرسمية طيلة خمسة عشر قرناً من الزمان بعد ذلك. وسيظل هذا المصطلح - فى كتابنا وبدون صفات أخرى - هو المقصود كما ذكرنا آنفاً.

أما اللغة المصرية المتأخرة ، فقد كان يتحدث بها فى القرن (١٦) ، ولم تكن عادةً هى لغة الكتابة حتى نهاية الألف الأولى. وإنى أعتقد أن المصرية المتأخرة كان لها تأثير أعظم على اليونانية ، وحول المراحل الأخرى بأشكال الخطوط اللاحقة ، انظر مصطلحات " ديموطيقى"، وقبطى.

عيلام : (Elam)

حضارة قديمة فى شرق العراق القديم ، وتحديداً على أرض بلاد فارس ، واستمرت حضارتها-على مراحل مختلفة - من الألف الرابعة وحتى ٣٠٠ ق.م.

إبيكليسيس : (Epiclesis)

لفظة (ومصطلح) تعنى " لقب " أو اسمًا إضافيًا.

وهى كلمة يونانية الأصل ، ومركبة من جزأين الأول (epi) ، بمعنى " زيادةً على "، وتأكيداً على ، والثانى (Klesis) ، بمعنى " النهاية " ، أو الختام ، من الفعل (Kleio) ، أنهى، أو أختم (المحرر).

إراتوستينيس : (Eratosthenés)

عاش فى الفترة من ٢٧٥ إلى ١٩٥ ق.م. وهو عالم يونانى وأمين مكتبة الإسكندرية العظيمة.

وتجب الإشارة إلى أنه هو أول يونانى يتوصل إلى حساب محيط الكرة الأرضية.

كان يونانياً من قورينى (Kyréne) ، فى ليبيا ، وقضى عدة سنوات فى أثينا ، ودعاه بطلميوس الثالث (يوإرجيتيس) إلى الإسكندرية. ومن أشهر أعماله أكثر من (١٢) كتاباً حول الكوميديا القديمة. وقدم لنا واحدة من أقدم محاولات التأريخ العلمى للتاريخ السياسى والأدبى[٢٣] (المحرر).

(Ethiopia):

هو اسم أطلقه اليونانيون القدماء على مكانين يسكنهما شعوب سمراء (سوداء) ، أحدهما كان منطقة عيلام (Elam) ، فى إيران (بلاد فارس القديمة) ، والآخر كان أكثر شهرة ويعرفه غالبية الشعوب المجاورة ، وهو الإقليم الإفريقى الواقع جنوب مصر.

الحضارة الإتروسكية : (Etruscan)

هى مرحلة حضارة قصيرة فى مشوار الحضارة الإيطالية القديمة. والرأى الأرجح والسائد هو أن الإتروسكين قدموا ، إلى إيطاليا ، من ليديا (Lydia) فى آسيا الصغرى ، وتحديداً شمال غرب أناتوليا. وجدير بالذكر أن لغة قريبة من اللغة الإتروسكية تم الكشف عنها على هيئة نقش جزيرة لمنوس اليونانية. ويبدو أن الإتروسكيين قد تأثروا بشدة بالحضارة الفينيقية منذ القرن (٩) وحتى الـ (٦) ق.م. ولقد كانت فى حد ذاتها - أى حضارة الإتروسكيين ذات تأثير مركزى فى تشكيل الثقافة اللاتينية.

لم يتوقف التأثير الشرقى على حضارة الإتروسكيين عند الفينيقيين ، بل أيضًا كان للحضارة المصرية بصمات قوية على تلك الحضارة ، ولكنها ليست تأثيرات مباشرة ، مصرية خالصة، بل عن طريق الوسيط التجارى العالمى " الفينيقيين ". ومن نماذج تلك التأثيرات المصرية (أ) بناء المقابر تحت الأرض و (ب) استخدام الرسوم الجدارية لتزيين هذه المقابر ، مما يوحى بالإيمان فيما بعد الموت (!!!) ، ولكن لا نصوص تؤكد ذلك (المحرر).

يودوكسوس : (Eudoxus)

فلكى يونانى ، وعالم رياضيات من جزيرة كنيدوس (Knidos) بالقرب من ساحل أناتوليا . كان قد أتم دراسته فى مصر. ولد حوالى عام ٤٠٠ وتوفى حوالى عام ٣٥٠ ق.م.

يوهيميروس : (Euhemeros)

فيلسوف ، يونانى ، ذاع صيته عام ٣٠٠ ق.م .

وهذا لقب يبشر بالخير من معنى لفظه ، باليونانية ، ويعنى " مسعد " أو " أبو الخير " (المحرر).

(Genetic):

إن العلاقة " الجذرية " أو " ذات النوع: بين اللغات ، تعنى أنها تفترض وجود جد أعلى واحد لها. مثال/توجد علاقة "جذرية " (Genetic) بين اللغة الفرنسية ولغة رومانيا ، بالرغم من وجود اختلافات بينهما. وذلك لأنهما قد جاءتا من اللغة اللاتينية الشعبية (الدارجة)، والتى كان يتحدث بها الجيش الرومانى (الإيطالى) القديم.

أهل جورجيا : (Georgian)

هم الشعب الذى يقطن إقليم القوقاز الأوسط ، منذ أقدم العصور. كما أن اللغة الجورجية تنمى إلى أسرة اللغة الكارتفيلية (kartvelia) .

هان : (Han)

هى أسرة ملكية صينية، كانت قد لحقت بأسرة كن (Qin) ، حوالى عام ٢٠٦ ق.م ، واستمرت حتى عام ٢٢٠م.

هارابا : (Harappa)

إن أسماء هذا الموقع أو ذاك ، مثل (Mohenjo) ، دارو (Daro) تستخدم للحضارة القديمة التى ازدهرت فى الشمال الغربى من الهند ، فيما بين حوالى ٢٥٠٠ إلى ١٧٠٠ق.م ، حينما انهارت وتدمرت ، وذلك بسبب ، على الأرجح ، غزو آرى من الشمال. كما أن كتابة هذه الحضارة لم يتم فك رموزها بعد.

ولكن من المحتمل أن تكون هذه اللغة وكتابتها تنتمى إلى أسرة اللغة الدرافيدية (Dravidian) والسائدة الآن فى جنوب الهند ، ولا يزال يتحدث بها فى بعض المناطق فى غرب باكستان.

حاتى : (Hatti)

هو اسم قديم لإقليم فى وسط أناتوليا وكان هو الموطن الأصلى لعنصر الحيثيين (المؤلف). وهم الذين حاربوا رمسيس الثانى ولم يحققوا نصراً عسكرياً عليه ، وتم توقيع أقدم معاهدة صلح وسلام بينهما (المحرر).

عبرى : (Hebrew)

هى الدياليكت (اللهجة) الكنعانى الذى تتحدث به ممالك إسرائيل القديمة ، فى يهودا (Judaia) وكذلك مؤاب (Moab) ، فيما بين حوالى ١٥٠٠-٥٠٠ق.م[٢٤] ولأسباب دينية ، فإنه غالباً ما ينظر إلى اللغة العبرية (Hevrew) على أنها لغة مستقلة بذاتها (متفردة).

هيلادى : (Helladic)

هو اسم يطلق على ثلاث مراحل متعاقبة لفخار بلاد اليونان الأم (Mainland) ، وذلك فى محاولة تقريبية ، بدرجة ما ، مع مراحل الفخار المينوى فى كريت .

هيللينى : (Hellenic)

يونانى أو يونانى اللغة ، ولكنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بشمال اليونان ، وتحديداً فى شساليا. ومنذ نهايات القرن (١٨) الميلادى ، فإن الكلمة قد حققت اتساعاً أكبر وشملت معانى عراقة الأصل (النبيل) والدم الآرى الشمالى.

هيللينستى : (Hellenistic)

هو اسم أطلق على الثقافة اليونانية فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وذلك منذ غزوات الإسكندر الأكبر ، فى الثلث الأخير من القرن (٤) ق.م.، حتى حدوث وإتمام الهيمنة الرومانية على المنطقة فى القرن الأول ق.م[٢٥].

هيلليسبونت : (Hellespont)

مضيق مستقيم يوصل البحر المتوسط بالبحر الأسود ، ويفصل آسيا عن أوروبا.

هيرودوتوس : (Herodotos)

أقدم مؤرخ يونانى ، من بلدة هاليكارناسوس ، فى آسيا الصغرى ، وقد ولد حوالى عام ٤٨٥ق.م.، وتوفى حوالى عام ٤٢٥ ق.م.

وهيرودوت – كما نعرفه فى مراجعنا العربية – هو الذى خلد الحضارة المصرية وحدد مظاهر تميزها وخصوصيتها الشديدة ، خلافًا للعالمين فى كتابه الثانى من تواريخه ، راجع/وهيب كامل: هيرودوت يتحدث عن مصر ، القاهرة (المحرر).

هيسيود : (Hesiod)

يؤرخ له بالقرن (١٠) ق.م.، وترجع شهرته فى معظمها ، لعمله الشعرى: ثيوجونيا (أنساب الآلهة). ولكن شهرته ، كما يؤرخ لها عند غالبية الباحثين المتخصصين فى الدراسات الكلاسيكية ، منذ القرن (٨) ق.م ، ترجع إلى منهجه الاصطلاحى التعليمى لزيادة الإيمان فى القلوب من ناحية ، ولاحترام العمل كوسيلة حلال للكسب المشروع من ناحية أخرى. راجع كتابنا/ تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص ١٦٥-, ١٧١ (المحرر) .

هيراطيقى : (Hieratic)

هى كتابة مصرية ، كانت قد تطورت ، بالتدريج عن الهيروغليفية ، حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م. لقد غيرت العلامات التصويرية الهيروغليفية الرسمية إلى خط مائل ، والذى ظل معتمداً على المبادئ اللغوية نفسها.

هيروغليفى : (Hieroglyphic)

هى كتابة مصرية ، كان أول ظهور لها فى نهايات الألف الرابعة ق.م.، وتتكون من علامات صوتية للحروف ، وحروف مزدوجة ، وثلاثية ، ومخصص ، وهو الذى يشير إلى مجموعة معانى الكلمة. (المؤلف).

وكان الفضل فى فك رموزها يرجع إلى النص اليونانى ، وتحديداً الخرطوشات الملكية لـ (بطليموس ، وكليوباترا) فى نص حجر رشيد ، المؤرخ ببدايات القرن الثانى ق.م. ، وذلك بعد محاولات كثيرة تكللت على أيدى فرانسوا شامبليون (المحرر).

حيثى : (Hittite)

هى مملكة الحيثيين ، كإمبراطورية فى وسط آسيا الصغرى أو تحديداً فى أناتوليا الوسطى، خلال الألف الثانية ق.م.، كانت لغتها شرقية (أناتولية) وجاءت كتابتها الأولى فى شكل حروف مسمارية ، ولكن مرحلتها المتأخرة كان لها نظامها التصويرى (الهيروغليفى) الخاص بها.

الحوريون : (Hurrian)

هو اسم أطلق على شعب عاش فى سوريا وشرق أناتوليا فى الألف الثالثة والثانية ق.م.

الهكسوس : (Hyksos)

كانوا غزاة (رعاة) من المنطقة الشمالية الشرقية للعراق ، واحتلوا مصر فيما بين ١٧٢٥ وحتى ١٥٧٥ ق.م. كان معظم هؤلاء يتحدثون لغة سامية غربية ، ولكنهم - فيما يبدو- كانوا يضمون عناصر حورية (من سوريا) ، وأخرى آرية - هندية.

أسرة اللغات : الهندو/ أوروبية (Indo-European)

(أو) الأوروبية/ الهندية (كما فعلنا نحن فى الفصل الخامس من هذا الكتاب) (المحرر)

هى أسرة لغوية كبيرة تشمل كل اللغات الأوربية ، ماعدا الباسك ، وفنلندا ، والمجر ، كما تضم أيضاً ، اللغة الإيرانية ، والهندية الشمالية. وبالرغم من أن اللغة الفريجية والأرمينية توجد فى إقليم أناتوليا (شرق آسيا الصغرى) ، إلا أنها لغات هندو/أوروبية ، وليست أناضولية.

أسرة اللغات : الهندو/ حيثية : (Indo-Hittite)

وهى أسرة لغات ضخمة تشمل كل اللغات الأناضولية ، وكذلك مجموعة اللغات الهندو/أوروبية.

الأيونيون : (Ionians)

هم العناصر اليونانية فى وسط وجنوب اليونان ، وهم الذين أحيوا الغزو الدورى. وقد هاجر بعضهم إلى الساحل الغربى من أناتوليا (الأناضول / آسيا الصغرى) - (المؤلف) - كما أعجب بهم كثيراً أرسطو وحسدهم على ثروات بلدهم فى آسيا واعتدال مزاجهم ، ومنهم عمالقة الفكر اليونانى ، أمثال هوميروس وهيرودوت (المحرر).

الكارتفيلية : (Kartvelian)

هى أسرة لغوية قوقازية ، وأشهر لغاتها اللغة الجورجية.

الكاشيون : (Kassites)

هم شعب جبلى ، من المرتفعات الواقعة إلى الشرق من مسوبوتاميا (العراق). كانوا قد هزموا كل الإقليم ، فى نهايات القرن (١٨) ق.م.، وسيطروا عليه حتى النصف الثانى من القرن (١٣) ق.م.

العصر الهيللادى المتأخر : (Late Helladicor) (Mycenaean) أو (الميكينى)[٢٦]

هى فترة زمنية لحضارة اليونان (على أرض البلد الأم (Mainland) ، وليس الجزر ، وتعتمد فى تاريخها على الفخار وأشكاله وزخارفه. وهى فيما بين ١٦٧٥ و ١١٠٠ ق.م.

العصر المينوى المتأخر: (Late Minoan)

هى فترة زمنية خاصة بحضارة كريت (المينوية) ، ويؤرخ لها فيما ١٦٧٥-١٤٥٠ ق.م.، على أساس الفخار.

وهناك تأريخ آخر - قدمه الأثرى اليونانى بلاتون (Platon) - على أساس وجود القصور الكريتية وتطورها (المحرر).

تحليل الرصاص: (Lead isotope analysis)

وهو قياس المعيار النشط للكربون ، بدرجات متساوية ، فى الرصاص ، والتى - عن طريقه - يمكن تقرير العمر الجيولوجى لترسيب الرصاص ، وبالتالى معرفة أصل الأشياء المصنوعة منه.

لمينوس: (Lemnos)

هى جزيرة فى شمال شرق البحر الإيجى ، حيث لا أثر لأية لغة هندو/أوروبية.

الكتابة الخطية الأولى: (Linear A)

هى كتابة مقطعية ، ظهرت فى كريت ، ومناطق أخرى ، وذلك قبل نزوح العنصر اليونانى إليها والاستقرار فيها.

الكتابة الخطية الثانية: (Linear B)

هى كتابة مقطعية ، أيضًا ، مشتقة من الأولى. ظهرت فى القرن (١٤) ق.م. ، وربما كانت تستخدم قبل ذلك بكثير.

التبديل : (Metathesis)

وهو اصطلاح لغوى ، يقصد به نقل وتغيير أو تبديل حرف من الحروف الصامتة أو المتحركة من مكان لآخر ، فى اللغة الواحدة .

وهى كلمة يونانية مركبة من لفظين: الأول : (Meta) بمعنى أحول إلى ؛ بعد. ثم الثاني، وهو : (Thwsis) ، بمعنى "مكان "، وهكذا يصبح المعنى الإجمالي: تبديل المكان من/إلى......(المحرر).

الانتشار التوفيقى : (Modified Diffusionism)

وهو الاعتقاد بأن الثقافات يمكن أن تتغير أو تتحول بسبب عوامل خارجية ، ولكن ذلك يحدث فى حالات تتم فيها عملية التحول عقب اتصال هام وتداخل مع ثقافة محلية أخرى.

الفردية (الذاتية) : (Monism)

وتستخدم فى هذا الكتاب بمعنى أن كل الأشياء لها مسببات أساسية واحدة (المؤلف) وهى، فى الأصل ، كلمة يونانية (Mono) ، تعنى: فرد ، أحد ، فقط ، لا غير (المحرر).

النشوء الأوحد : (Monogenesis)

وهو الاعتقاد فى الجذور ذات الأصل الواحد ، وقد خصصنا فى كتابنا هذا حول الإنسانيات واللغة ، وهى على عكس : (Polygenesis) النشوء المتعدد.

موكيناى[٢٧] : (Mycenae)

مدينة بالقرب من أرجوس ، فى الجزء الشمالى الشرقى من البلوبونيز. ذاعت شهرتها على أنها المدينة الرائدة فى نهايات عصر البرونز (المؤلف).

وهى أيضاً العاصمة المركزية للحضارة الميكينية (١٦٠٠-١١٠٠ ق.م) وتم كشف آثارها على يد شليمان ، وفيها أكبر وأفخم المقابر الملكية القبابية (Tholoi) .. (المحرر) .

الألعاب الأولمبية : (Olympic Games)

هى احتفالية دينية وألعاب كانت تتم فى مدينة أولمبيا ، فى الشمال الغربى من البلوبونيز ، كل أربع سنوات ، منذ عام ٧٧٦ ق.م، حتى تم إيقافها بقرار من الإمبراطور ثيودوسيوس ، مع نهاية القرن (٤) الميلادى. وتم بعثها - من جديد - بفضل الروح القومية الأوربية ، والإحساس بالتفرد (Elitism) ، التى خرج منها النموذج الآرى ، مع نهايات القرن (١٩) الميلادى.

الأورفية : (Orphics)

مذهب دينى ، يؤمن متعبدوه بأورفيوس المقدس. وهو يشبه البيثاغورية إلى حد كبير، حيث روّج الأورفيون للمعتقدات المصرية الدينية ، والتى كانت تهتم - فى المقام الأول - بالخلود الشخصى.

باوسانياس : (Pausanias)

رحّالة جغرافى يونانى ، كتب عملاً ضخمًا: " رحلات حول اليونان " ، وعاش فى القرن (٢) الميلادى.

البلاسجيون : (Pelasgians)

هم أقدم سكان لليونان ، وفق روايات المصادر الكلاسيكية.

الإمبراطورية الفارسية : (Persian Empire)

أقامها قورش العظيم ، فى منتصف القرن (٦) ق.م.، وكانت قد سيطرت على الشرق القديم وآسيا الصغرى ، والبحر الإيجى ، حتى تم إلحاق الهزيمة بهم على أيدى اليونان. دمر الإسكندر الأكبر آخر بقاياها فى النصف الثانى من القرن (٤) ق.م.

الفيليستين : (Philistines)

كانوا غزاة للسواحل المصرية ، والليفانت. جاءوا من البحر الإيجى وأناتوليا ، فى نهايات القرن (١٣) ومطلع القرن (١٢) ق.م.

فينيقيا : (Phoenicia)

هى مجموعة مدن ساحلية بطول السهل الساحلى الممتد ، حاليًا ، من لبنان حتى شمال إسرائيل. وكان من أشهر هذه المدن بيبلوس ، وصور ، وصيدا . ويطلق على هذا الإقليم اسم "فينيقيا " ، طيلة العصور القديمة. وتؤرخ أزهى عصورها لهذه المدن ، فيما بين ١١٠٠ و ٧٥٠ ق.م. وكانت اللغة الفينيقية ، مثل العبرية ، لهجة كنعانية. وكانت أبجديتهم يشار إليها غالبًا على أنها اختراع فينيقى. وربما كان أصلها فى الإقليم نفسه ، ولكنها كانت قد تطورت زمنًا طويلاً قبل الفترة الفينيقية.

فريجيا : (Phrygia)

إقليم فى شمال أناتوليا . وكانت فريجيا دولة قوية فى النصف الأول من الألف الأولى ق.م. ولغتها كانت ألفبائية من جذور هندو/أوربية وعلى اتصال وثيق باليونانية القديمة.

بطلمى : (Ptolemaic)

هو اسم أطلق على الثقافة المصرية تحت حكم الملوك البطالمة (المؤلف).

وكذلك فهو مصطلح تاريخي وفنى لتراث المقدونيين واليونانيين على أرض مصر فى الفترة من ٣٢٣ وحتى ٣٠ ق.م. وكان أشهر ملوكهم بطليموس الأول (Soter) ، والثانى فيلادلفوس، صاحب نهضة الإسكندرية الشاملة[٢٨] .

فيثاغورس : (Phythagoras)

فيلسوف يونانى وعالم رياضيات ، فيما بين ٥٨٢ و ٥٠٠ ق.م. كان قد أتم دراسته فى مصر، وعاد إلى بلده ومعه مبادئ رياضية مصرية ، وكذلك دينية ، ومن ثم أنشأ "جماعة فيثاغورس".

كن (تشن) : (Qin [Chin])

أسرة صينية ، حكمت فيما بين ٢٥٦ و ٢٠٧ ق.م ، ومنها ، اشتق اسم "الصين"، فى الغالب. ولكونها أسرة قومية فقد تم تأسيسها على يد موحد الصين ، ولكنها لم تستمر ، إلا عدة سنوات قليلة ، بعد وفاته. كما خلفتها أسرة " هان " (Han) .

السيليوكيون : (Seleucid)
أو (آل سيليوكوس)

هو اسم الأسرة الملكية المقدونية التى تأسست فى سوريا ومسوبوتاميا بواسطة سيليوكوس أحد جنرالات الإسكندر الأكبر عقب وفاته (المؤلف).

ويبدأ تاريخ هذه المملكة ، فى إنطاكيا (أنتيوخيا) العاصمة ، منذ عام ٣١٦ ق.م بمساعدة الملك بطلميوس بن لاجوس فى مصر (المحرر).

شانج : (Shang)

أسرة صينية ، حكمت فيما بين ١٦٠٠–١١٠٠ ق.م، وكان أميرها تانج (Tang) هو أول إمبراطور لهذه الأسرة.

صيدا : (Sidon)

هى ميناء فينيقى قديم ، يقدس إله البحر " سد " (Sid) بدأ نجمه فى الظهور منذ أوائل عصر الحديد ، ولذلك يشار إليهم ، أى أهل صيدا ، على أنهم الفينيقيون جميعاً ، وذلك فى المصادر التاريخية القديمة ، مثل التوراة ، وكذلك هوميروس. وكانت صور قد حلت محلها وأخذت مكانتها منذ القرن (٩) ق.م.

ستيلى (لوحة حجرية أو معدنية) : (Stele)

هى لوحة تذكارية ، مستقيمة ، عليها نقش أو نحت (المؤلف) وهذا اللوح – مهما كان طوله أو ارتفاعه – غالبًا ما يكون من الحجر (على اختلاف أنواعه وحجمه) ويوضع على القبر كشاهد قبر أو لوحة تأسيس لمعبد أو منزل ، أو فى – فى الغالب – كأثر كتابى عليه نقش نصى يخلد مناسبة ما ، كلوحة انتصار أو قرار. ومن أشهر هذه اللوحات ، ، لوحة الكرنك فى مصر ، وكذلك لوح حجر رشيد ، ولوحة قوانين جورتينا فى كريت ، باليونان ، ولوحة أعمال أغسطس المؤله (Res Gestae Divi Augusti) عند الرومان (المحرر).

سترابون[٢٩] : (Strabo)

جغرافى يونانى من القرن (١) ق.م. وحتى القرن (١) الميلادى (المؤلف) له موسوعة جغرافية كبيرة ، وصلنا منها (١٧) كتاباً ، وجاء الكتاب الأخير عن مصر. أصله يونانى

من آسيا الصغرى ، واتصل بالرومان فى شبابه وأقام فى روما ، وزار مصر ضيفًا على صديقه الوالى الرومانى لها (حوالى ٢٥/١٩ ق.م (المحرر) .

ثيرا : (Thera)

هى جزيرة بركانية يونانية ، تبعد حوالى (٧٠) ميلاً شمال كريت. كانت قد تعرضت لبركان ضخم فى منتصف الألف الثانية ق.م.، والذى يؤرخ - الآن - بعام ١٦٢٨ق.م. (المؤلف).

لقد غطى البركان نصف الجزيرة تقريبًا ، وغاص فى البحر ، وتسمى الآن "بالمحروقة " أو ساندوريني[٣٠] . وفى زيارة ميدانية لى عام ١٩٧٦م ، تأكد لى كثير من مظاهر البركان. مثل التراب البركانى الكثيف ، والحجر المنصهر كالبازلت حول فوهة البركان وتعود أهمية الجزيرة ، أثريًا ، إلى لوحاتها الجدارية الرائعة ، مثل الغلامين المتلاكمين ، وصياد السمك، وهما معروضان فى المتحف القومى بأثينا (المحرر).

ثيوكيديديس : (Thucydides)

مؤرخ يونانى ، اشتهر بعمله حول الحرب البلوبونيزية ، ولد عام ٤٦٠ ق.م وتوفى ٤٠٠ق.م. (المؤلف).

عرف عنه الموضوعية الشديدة وعدم التحيز لأثينا ، بالرغم من كونه قائدًا عسكريًا فى تلك الحرب (٤٢٧-٤٠٤ ق.م.) فضلاً عن التحليل والتعليل لوقوع الأحداث ، وبذلك فهو يتفوق على أبى التاريخ/ هيرودوت/ فى منجهة التاريخى (المحرر).

أوغاريت : (Ugarit)

ميناء كبير على الساحل السورى ، كان قد ازدهر فى النصف الثانى من الألف الثانية ق.م.

أورارتو: (Urartu)

مملكة فى جنوب القوقاز. ازدهرت فى النصف الأول من الألف الأولى ق.م.، كانت لغتها ذات صلة مع اللغة الحورية ، وكذلك مع اللغات القوقازية الحالية فى الشمال الشرقى.

خيا (هسيا) : (Xia/Hsia)

أسرة صينية ، حوالى ١٩٠٠ - ١٦٠٠ ق.م. ، كان قد انتهى حكمها على يد أسرة شانج.

زو (تشو) : (Zhou / Chou)

أسرة صينية ، خلفت أسرة شانج فى الحكم ، حوالى عام ١١٠٠ ق.م.

زوروآستر: (Zoroaster)

مصلح دينى إيرانى ، كان قد عاش فى الألف الثانية ق.م.

الزوروآستريانية : (Zoroasterianism)

هى ديانة قديمة أسسها زوروآستر ، وقد أصبحت ديانة رسمية للإمبراطورية الفارسية.

كانت تدعو إلى أن العالم هو مسرح لأحداث وصراع دائم ومتصل ، ولكنه متوازن بشكل كبير، بين الخير والشر. وتم الإجهاز على هذه الديانة فى إيران - بدرجة كبيرة - عقب الفتح الإسلامى لهذا البلد. ومع ذلك فإنها لا تزال مزدهرة فى أماكن أخرى من العالم.

هوامش المصطلحات

(١) لمزيد من المعلومات حول تاريخ وحضارة الآراميين راجع/ معجم المصطلحات الأثرية (انجليزى/عربى)، إعداد أ./ محمد كمال صدقى ، الرياض ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٤٣.

(٢) هذه بداية غير دقيقة لأنها ، هكذا ، تدخل فى عصر "الاستشراق" (Orientali Zing Period) ولكن، أثريًا، يتضمن الفقرتين (٧) ، (٦) فقط .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٤) وهو تاريخ متقدم كثيرًا ، إذ لا يؤرخ لها عادة – كما فى مراجعنا المعروفة – إلا بحوالى ٢٠٠٠/٨٠٠ق.م. على أحسن الفروض !!! ، بل بعد ذلك على الأرجح. راجع/ عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدنى القديم (العراق) ، القاهرة (المحرر).

(٥) راجع أحدث دراسة لنا عن الإلهة أثينا وعلاقتها بمعبد الصخرة المقدسة على الأكروبوليس ، وكذلك الآلهة الأقدم فى الموقع ، " البارثينون "، المؤرخ العربى ، مارس ٢٠٠٠م (المحرر).

(٦) لازلت أعجب أشد العجب على الإصرار على حشر اليهود ، بلفظة إحدى أقدم ممالكهم فى شمال فلسطين القديمة (فى الضفة الغربية) كأحد أهم حضارات المنطقة آنذاك ، واستبعاد دور الحضارة المصرية فى بعثها الجديد مع الأسرة الـ٢٦ ، بالرغم من أنهم لم يكونوا شيئاً مذكورا ، بل سقطوا أسرى فى أيدى نبوخذ نصر البابلى (المحرر).

(٧) راجع: معجم المصطلحات الأثرية ، ص ص ٥٥ – ٥٦

(٨) المرجع نفسه ، ص ٥٥

(٩) المرجع نفسه، ص ٦٥

(١٠) المرجع نفسه، ص ٧١

(١١) المرجع نفسه .

(١٢) راجع بحثنا " العلاقات المصرية – اليونانية القديمة "، فى ندوة (مصر وعالم البحر المتوسط)، بقسم التاريخ ، بآداب القاهرة ١٩٨٦ ، بإشراف أ.د./ رؤوف عباس ، القاهرة ١٩٨٨ عن دار النشر عالم الفكر.

(١٣) راجع/ عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول (العراق)، ط/٤ ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ص ٦٢٣ – ٦٤٠

(١٤) راجع/ كتابنا (فى طبعة الرياض ١٩٩٧م) بعنوان: تاريخ الحضارة الهيللينية أو فى طبعة القاهرة ٢٠٠٠م، بعنوان: تاريخ وحضارة اليونان.

(١٥) معجم المصطلحات الأثرية ، ص ١٠٢.

(١٦) المرجع نفسه ، ص١١٠ ، وكذلك راجع/ عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ص ٤٥١ – ٤٥٤

(١٧) راجع كتابنا ، تاريخ وحضارة اليونان (دراسة تاريخية أثرية) ، القاهرة ٢٠٠٠م حول الغزو الدورى ونتائجه : «بداية ونهاية» .

(١٨) راجع مقالنا الهام " العرب عند ديودوروس " ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن ، مارس ، ٢٠٠٠

(١٩) خلافاً لما أقره المؤلف بأنهم قبيلة يونانية (A Greek tribe) ، وكأنهم أولاد عمومة مع بقية أنحاء اليونان ، وهذا أكبر مغالطة تاريخية وحضارية يقع فيها مؤلفنا ، وربما نجد له العذر باعتباره غير متخصص، ولكننا نميل إلى ترجيح رأى آخر ، وأنه خطأ مقصود (!!!!). راجع/ كتابنا فى هامش (١٧).

(٢٠) راجع مثلاً ، أحد أشهر علماء التاريخ اليونانى القديم، وهو: N.G.H. Hammond, A History of Greece, 2nd edition, Oxford (Clarendon Press) 1977, pp.36-38 حيث يؤرخ للعصر الهيللادى المبكر الأول (الأول = I) استناداً إلى اختبارات الكربون ١٤– بالفترة من ٢٨٠٠ إلى ٢٥٠٠ ق.م. وبالتالى لا ندرى من أين أتى برنال بهذا التأريخ الجديد تماماً للبدايات الأولى لحضارة البرونز على أرض البلد الأم ؟!!!!

(٢١) وهنا أيضاً يأتى المؤلف بتاريخ غريب لبداية حضارة كريت ويضيف إليه ٥٠٠ عاماً على الأقل زيادة على عمره ، مخالفاً بذلك إجماع علماء الآثار والتاريخ. ويكفى أن نرجع إلى أى كتاب مرجعى فى حضارة كريت لنتعرف على هذا الخطأ الكبير ، فمثلاً يمكننا أن نعود إلى العلامة/ هامون ، – فى المرجع الإنجليزى السابق الذكر (وهامش ٢٠) ص ص ٢٤ – ٢٥

(٢٢) راجع/ مقالنا السابق الذكر ، العلاقات المصرية – اليونانية القديمة " ندوة " مصر وعالم البحر المتوسط، بقسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦.

(٢٣) راجع:

The Oxford Classical Dictionary, 2nd edition, Oxford (at the Clarendon Press), 1970, rep. - 1972, p. 405.

(٢٤) إن المادة الأثرية الحديثة ، التى تم الكشف عنها فى هذه الممالك القديمة – منذ عهد سليمان – لا يمكن أن تؤرخ بأقدم من القرن (١٠) ق.م ، أى فقط منذ حوالى ١٠٠٠ ق.م.، وليس ١٥٠٠ ق.م.، (كما يدعى المؤلف زوراً وبهتاناً (!!!) (المحرر) ، راجع دورية: The Biblic Archaeology المتخصصة فى الآثار التوراتية!؟!

(٢٥) حول معانى مصطلح " هيللينستى " (Hellenistic) والهيللينية ، راجع كتابنا: مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، الأنجلو المصرية ٢٠٠٠م، ص ص ٤–١٠ (المحرر).

(٢٦) راجع كتابنا : تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠م ص ص، ٩٤ – ١٢٥ (المحرر) .

(٢٧) راجع كتابنا : تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص ٩٤ – ١٢٥

(٢٨) راجع كتابنا : تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، الأنجلو المصرية ٢٠٠٠م ، ص ص ٦٠ – ٨٥ (المحرر) .

(٢٩) راجع بحثنا "سترابون والبحر الأحمر" ، اتحاد المؤرخين العرب / القاهرة / ندوة نوفمبر ٢٠٠٣م . (المحرر) .

(٣٠) راجع كتابنا : تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص ٥٠ – ٥٨

المؤلف فى سطور :

مارتن برنال

هو أحد المتمرسين وخبراء التاريخ الصينى ، كما اعترف بذلك فى مقدمة الجزء الأول من كتابه ، ومحاولته هذه هى اجتراء على موضوعات تبعد كثيراً عن مجال تخصصه الأصلى .

يروِّج للدعوة إلى النموذج القديم المعدَّل وتقديم التأثير الشرقى (المصرى والفينيقى ، ويختصر الأخير فى الأصل العبرى (!!!) اليهودى) على حضارة اليونان منذ الألف الثانية ق.م.

حضر برنال إلى مصر فى الفترة من ١٧ إلى ١٩ ديسمبر ١٩٩٥م لعرض آرائه فى الأدب المقارن .

المترجمون فى سطور :

أ.د./ محمود إبراهيم السعدنى

الدرجة العلمية الحالية :

أستاذ تاريخ الحضارة اليونانية – الرومانية ، ووكيل الكلية لشئون البيئة وخدمة المجتمع .

الجامعة والكلية :

كلية الآداب ، جامعة حلوان .

الإنتاج العلمى :

له العديد من الأبحاث فى التخصص الدقيق ، وبعض الكتب المنشورة ، ومنها :

١ – تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

٢ – تاريخ وحضارة الرومان ، القاهرة ٢٠٠٠م .

٣ – تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة ، ٢٠٠١م .

٤ – الإسكندر الأكبر (سيرته وقبره) ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .

٥ – تاريخ الفن القديم (موضوعات مختارة) ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

النشاط العلمى :

شارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات المحلية والعالمية ، فى الداخل والخارج .

النشاط الاجتماعى :

عضو فى كثير من الجمعيات الأهلية ، وخاصة :

(أ) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة .

(ب) إتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة .

(جـ) إتحاد الآثاريين العرب ، القاهرة .

(د) لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة ، وزارة الثقافة .

(هـ) لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ، وزارة الثقافة .

أ.د./ إسحق عبيد

الدرجة العلمية الحالية :

أستاذ متفرغ لتاريخ العصور الوسطى الأوربية .

الجامعة والكلية :

كلية الآداب / جامعة عين شمس .

الإنتاج العلمى :

له العديد من الدراسات والأبحاث فى مجال التخصص الدقيق ، وكذلك كثير من الترجمات ، عن الإنجليزية ، المنشورة ضمن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

النشاط الاجتماعى :

عضو فى العديد من الجمعيات الأهلية ، ومنها : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، واتحاد المؤرخين العرب ، بالقاهرة ، وكذلك الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ، ولجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة .

أ.د./ محمد حمدى إبراهيم

الدرجة العلمية الحالية :

أستاذ متفرغ للأدب الهيللينستى واللغة اليونانية القديمة والحديثة ، ومستشار رئيس جامعة القاهرة للتعليم المفتوح ، وكان قد شغل منصب عميد كلية الآداب ، ونائب رئيس جامعة القاهرة وحصل على جائزة الدولة التشجيعية ، وجائزة كفافيس الدولية ، وعضو فى حوالى (٢٣) مؤسسة ثقافية .

الجامعة والكلية :

كلية الآداب ، جامعة حلوان .

الإنتاج العلمى :

لسيادته العديد من الدراسات والأبحاث ، وصل عددها إلى أكثر من (٤٠) بحثًا . والكتب فى التخصص الدقيق ، وكذلك ترجمات عديدة عن الأدب اليونانى الحديث ، وأهمها :

١ – الأدب السكندرى ، القاهرة .

٢ – الدراما الإغريقية ، القاهرة .

٣ – مقدمة لحياة المؤرخ يوسينوس ، القاهرة .

٤ – مختارات من «الشعر اليونانى الحديث» ، القاهرة .

٥ – غالاناكى : شوكة فى الفؤاد : (رواية يونانية حديثة)

(حياة الفريق إسماعيل باشا ، القاهرة (صادرة عن مركز الأهرام للترجمة والنشر) .

النشاط الاجتماعى :

عضو فى كثير من الجمعيات الأهلية ، ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ، والجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ، ورئيس الجمعية العلمية المصرية ، بالقاهرة .

أ.د./ أبو اليسر فرج

الدرجة العلمية الحالية :

أستاذ مساعد التاريخ اليونانى – الرومانى .

الجامعة والكلية :

كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

الإنتاج العلمى :

له العديد من الأبحاث والدراسات فى التخصص الدقيق ، وأهمها :

١ - النيل فى المصادرة الإغريقية ، دار عين ، القاهرة .

٢ - الدولة والفرد (دراسة لظاهرة هروب الفلاحين فى العصر الرومانى) ، دار عين ، القاهرة (Ph. D.).

النشاط العلمى :

شارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية .

النشاط الاجتماعى :

عضو فى كثير من الجمعيات الأهلية، وخاصة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وإتحاد المؤرخين العرب ، بالقاهرة وكذلك لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

أ.د./ هانم محمد فوزى سليمان

المؤهلات العلمية :

ليسانس الآداب ، قسم الدراسات اليونانية واللاتينية ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، دور مايو ١٩٧٢ .

الدكتوراه فى الأدب اللاتينى فى كلية الفلسفة ، جامعة أثينا باليونان ، مايو ١٩٨٤ .

النشاط العلمى :

معيد بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية اعتباراً من ١٩٧٢/١١/١٦ .

مدرس بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية - كلية الآداب - جامعة القاهرة ، اعتباراً من ١٩٨٤/١٠/٢٤ ، (أول مدرس من السيدات) .

أستاذ مساعد اعتباراً من ١٩٩١/٣/٢٧ ، (أول أستاذ مساعد من السيدات) .

أستاذ بنفس القسم اعتباراً من ١٩٩٩/٦/٣٠، (أول أستاذ من السيدات) .

رئيس مجلس قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، كلية الآداب - جامعة القاهرة ، اعتباراً من ٢٠٠٠/١١/١٤ ، وحتى الآن ، (أول رئيس قسم من السيدات) .

المؤلفات العلمية :

١ – «يوفيناليس شاعر الإنسانية» ، دار حراء ، ١٩٨٩ .

٢ – «الريف والمدينة عند هواتيوس ويوفيناليس» ، دار حراء ، ١٩٨٩ .

٣ – «الساتوراء وعلاقاتها بالدراما» ، دار حراء ١٩٩٠ .

٤ – «يوفيناليس والمصريون» فى مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، العدد التاسع والأربعون ، ١٩٩٠ .

٥ – «المرأة عند لوكيليوس وهورتيوس» ، مجلة جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٦ – «يوفيناليس عالمًا تربويًا» ، حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس ، المجلد السادس والعشرون ، ١٩٩٨ .

٧ – الأدب الساخر عند الرومان ، تقديم أ.د. مصطفى العبادى ، المشروع القومى للترجمة المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٢ .

الجوائز :

جائزة أينياس من المركز الثقافى الإيطالى بالقاهرة ، عام ٢٠٠٠ (عن أحسن بحث فى الأدب اللاتينى) .

٢ – تم إدراج سيرتها الذاتية للنشر فى قاموس السيرة الذاتية الدولية ، مركز السيرة الذاتية العالمى (IBC) كامبريدج – إنجلترا ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠١ .

٣ – فازت بلقب الأستاذة المثالية لعام ٢٠٠٤ وحصلت على ميدالية وشهادة تقدير من نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة .

أثينة السوداء



أثينة السوداء، إلهة العقل والحكمة عند الإغريق، أفريقية سوداء، ولها أصول سامية أيضا. هذا كل ما يريد أن يقوله المؤلف مارتن برنال، ويقع مشروعه فى أربعة أجزاء، وبين أيدينا ترجمة الجزء الثانى، المجلد الأول. إنه حقا مشروع ضخم: لأنّ المؤلف يتصدى لمهمة إعادة تأريخ الحضارات القديمة، ومن ثم إعادة تشكيل العقلية الحديثة، فالمركزية الأوروبية جعلت من أوروبا منبعا لكل إبداع فكرى وفنى. ومع أن الحكمة الإغريقية تقول "لا شىء يخلق من العدم، فإن الفكرة الشائعة لدى الغرب عن المعجزة الإغريقية تعنى أن الإغريق هم صانعو كل شىء من لا شىء، أى لم يسبقهم أحد إلى ما توصلوا هم إليه. هم مبدعو الفنون والآداب والعلوم، وتفوقوا على أسلافهم من أصحاب الحضارات الأقدم فى كل تلك المجالات.

المجلس الأعلى للثقافة

تصميم الغلاف: عماد حليم